

إصدار خاص بمناسبة عيد ميلاد فريق (متميزون) للكتب النصية

روائع الغد

أحمد خالد توفيق

المجموعات القصصية



فريق
متميزون



E-BOOK



ابجد خالد لومين



قوس قزح

قوس قزح

د. أحمد خالد توفيق
د. تامر إبراهيم

قوس قزح

لكيان لكورب للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلي

الكتاب:

قوس قزح

المؤلف:

د. أحمد خالد توفيق

د. تامر إبراهيم

رقم الإيداع:

2256 / 2005

الغلاف:

أحمد فهمي

الإخراج الفني:

حسام سليمان

التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

المهندسين- 23 شارع السودان- تقاطع مصدق- الدور الرابع- مكتب 11

هاتف: 33370042 (02) (002)

23885295 (012) (002)

البريد الإلكتروني: mail@darlila.com

الموقع الرسمي: www.darlila.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو تقليد

أو إعادة طبع - دون موافقة كتابية - يعرض
صاحبه للمساءلة القانونية.

لحيان لكورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلي

د. أحمد خالد توفيق
د. تامر إبراهيم

قوس قزح



قوس قزح

أحمر.. برتقالي.. أصفر.. أخضر.. أزرق.. نيلي.. بنفسجي.

إنه قوس قزح..

لا حقائق ولا مسلمات.. إنما هو الضوء يمارس خدعته
السرمدية في شبكيات عيوننا..

الأبيض لا وجود له؛ بل هو سبعة الألوان وقد جاءت معًا..
الأسود لا وجود له؛ إنما هو سبعة الألوان وقد غابت معًا..

تدنو من الشيء أو الشخص أو الحقيقة؛ فتدرك أنه ليس
واحدًا.. وأن التجانس المزعوم وهم.. هناك حقيقتان.. ثلاث
حقائق.. ربما سبع.. ربما لا حقيقة على الإطلاق!..

أحمر.. برتقالي.. أصفر.. أخضر.. أزرق.. نيلي.. بنفسجي.

إنه قوس قزح..

الهواء مبتل قشيب اغتسل بالأمطار لتوه، وعند طرف قوس
قزح تجد قدر الذهب الذي دفنه القزم.. كذا قالوا في
الأساطير.. تجد السعادة.. تجد الحقيقة..

أحمر.. برتقالي.. أصفر.. أخضر.. أزرق.. نيلي.. بنفسجي.

اليوم نحكي لك كيف أن قوس القزح قد يكون مخيفًا..

كيف تصوير الألوان مرعبة أو -على أقل تقدير- ليست كما وجدت في خيالات طفولتنا..

أحمر.. برتقالي.. أصفر.. أخضر.. أزرق.. نيلى.. بنفسجي..

قوس قزح ..

وسبع قصص تحكي عن الألوان..

سبع حكايات عن قوس قزح..

كانت الفكرة والمقدمة للدكتور (أحمد خالد توفيق).. وبعد هذا اختار أحد المؤلفين أن يكتب عن ثلاثة ألوان واختار الآخر أربعة.

فمن اختار ماذا؟..

سنترك السؤال معلقًا.. فهل تجيب عنه أنت؟..

* * *

د. أحمد خالد توفيق

د. تامر إبراهيم

أحمر

يقول السيد (منير) وهو يلفظ الدخان من غليونه:

"اللون الأحمر يا بني هو أهم ألوان الطيف وأكثرها عمقًا وتأثيرًا.. إنه لون الدم.. لون الحب.. لون الزهور.. لون الفجر والغروب.. والأهم من هذا كله أنه لونهم!!"

* * *

وكان المقطم هو المكان الأمثل، لما انتوينا فعله..

دائمًا ما تصلح فيلات المقطم في تنفيذ أي مخطط.. وهذه قاعدة مطلقة..

لا بد أن يستنسخوا البشر ويصنعوا المخدرات ويأكلوا الموتى ويشربوا الدماء في هذه الفيلات..

على كل حال أنا ذاهب لما هو أسوأ!!..

السيد(منير) هو من أيقظني ليخبرني أنها الليلة الموعودة، فلم أكد أصدق نفسي وأنا أفقز في سيارتي لأنطلق إلى هنا.. إنها الليلة الموعودة، ولكم طال الانتظار..

أوقفت سيارتي أمام تلك الفيلا التي تبدو مهجورة لمن يراها من الخارج، وجلست لحظة لأملأ جسدي بدفع السيارة، قبل أن أخرج إلى حيث تضربني الرياح بلا هودة، بأسهم من الثلج..

ومن حقيبة السيارة أخرجت تلك الحقيبة الجلدية الضخمة، لأحملها بنوع من المشقة متجهًا إلى مدخل الفيلا..

إنني أتذكر.. ثلاث طُرقات ثم طُرقتين متباعدتين، ثم هأنذا أنتظر حتى يفتح الباب، ليستقبلني السيد (منير) بدخان غليونه..

أنا لم أر هذا الرجل إلا وهو يدخن الغليون، وإنني لأتساءل عن الكيفية التي يبقى معها غليونه مشتعلًا طيلة الوقت.. أحيانًا أشعر أنه ينفث لهبًا من فمه في هذا الغليون!

كان عملياً كدأبي به، فاستقبلني قائلاً:

- "هل أحضرت المطلوب؟!"

دققت على حقيبتي الجلدية، وأنا أومئ برأسي إيجاباً، فأفسح لي الطريق، لأعود إلى دفع الأماكن المغلقة.. وفي الداخل كان الباقون في انتظاري..

السيد (علاء) بقامته الضئيلة وجسده المكتنز، والسيد (رضا) بنظراته العصبية المتوترة، والسيد (فهمي) بملامحه الأرستقراطية الجامدة..

حيّوني بهزّ الرأس، فاتخذت مكاني جوارهم، حتى أتى السيد (منير) وهو يمرر أصابعه في خصلات شعره الأشيب، ليقول بذات العملية والغليون مدلى من فمه:

- "سنبدأ حالاً؛ لذا على من يريد التراجع أن يُعلمنا من الآن.."

لم يتلق رداً، فنفت المزيد من الدخان واتجه إلى باب إحدى الغرف، قائلاً بحيادية:

- "اتبعوني رجاءً.."

وهكذا تبعناه صاغرين إلى الغرفة التي لم نكد نراها؛ حتى بدت الدهشة في ملامحنا، وإن لم يجرؤ أحدنا على النطق بحرف..

على الأرض رُسمت النجمة الخماسية الشهيرة، وقد استقرت خمسة مقاعد عند أطراف النجمة، بينما استقر ذلك الشيء عند مركز الدائرة، لنشعر أنه يجثم على صدورنا بلا رحمة..

أقول هذا الشيء لأننا لم نعرف له اسماً وإن كنا قد اتفقنا فيما بيننا على تسميته (لوح الحقيقة)..
كان يبدو كلوح حجري مصمت، استقرت في طرفه بلورة زجاجية شديدة الشفافية، وعلى اللوح نفسه حُفر فُراغ لا يحتاج المرء لأن يكون خبيراً، ليعرف أنه مصمم بحيث يستلقي جسد في هذا التجويف.. جسد آدمي!..

كان يبدو كلوح حجري مصمت، استقرت في طرفه بلورة زجاجية شديدة الشفافية، وعلى اللوح نفسه حُفر فُراغ لا يحتاج المرء لأن يكون خبيراً، ليعرف أنه مصمم بحيث يستلقي جسد في هذا التجويف.. جسد آدمي!..

استقر (فهمي) و (رضا) و (علاء) في مقاعدهم ولامحهم تنضح بالانفعال، بينما ظللت أنا واقفاً حاملاً حقيبتي الضخمة، منتظراً إشارة السيد (منير) الذي أومأ لي برأسه موافقاً، فوضعت الحقيبة على الأرض بحرص، ونزلت على ركبتي لأفتحها..

واستقبلني ثلاث شهقات من السادة الجالسين، وأنا أخرج من الحقيبة جسد ذلك الطفل، الذي بدا واضحاً من شحوب جسده، وتلك الدماء الجافة على رأسه؛ أنه مات منذ زمن، وأن جثته كانت محفوظة لفترة طويلة، مما حال أن تبدأ في التحلل..

وحده السيد (منير) الذي ظلت ملامحه جامدة وأنا أسجي الجسد الضئيل في التجويف، قبل أن أتخذ مقعدي عند أحد أطراف النجمة الخماسية، تلاحتني نظرات السادة الجالسين غير المصدقة..

وبتودة جلس السيد (منير)، وظل صامتاً لدقيقة كاملة، كأنما يمنحنا الفرصة لنستعد، قبل أن يبدأ في نفث الدخان والكلام في وجوهنا:

- "أنتم تعرفون ما نحن مقدمون عليه أيها السادة، لكن دعوني أنعش ذاكرتكم.. نحن هنا لنستخدم لوح الحقيقة، الذي ظل لغزاً لكل الباحثين والمؤرخين على مرّ الزمان.."

كنت أعرف ما سيقوله بالضبط، لذا غبت في حالة الشرود، وعينا معلقتان على جثة الطفل الساكنة، والتي لولا الدماء الجافة التي غطت وجهه، لظننت أنه نائم وسيستيقظ في أية لحظة.. لكنه لن يستيقظ..

أنا أعرف هذا وأثق فيه بحكم كوني طبيباً.. حادث سيارة أدى إلى شرخ في الجمجمة وتهتك في خلايا المخ.. موت سريع لكنه غير نظيف، مع كل الدماء التي فقدتها الطفل، والداه المذعوران يحملانه إلى المستشفى، علماً نحن الأطباء نأتي بمعجزة ما، تعيد الحياة إلى جسده الضئيل..

لكن الحقيقة كانت جليلة أمام أعيننا ومنذ اللحظة الأولى.. هذه حالة منتهية، وكل ما علينا فعله هو تهدئة والديه الموشكين على الجنون هلعاً..

- "لوح الحقيقة صنعه السحرة في العصور الغابرة، والغرض منه استدعاء كيان ما غير محدد الهوية، هذا الكيان يحتل الجثة التي توضع في تجويف اللوح.."

حين كنت طالباً في كلية الطب، أخبرنا أحد الأساتذة، أن أقسى لحظة سنمر بها، حين نخبر أهل المريض بوفاته.. ستتعرض إلى عاصفة من الهلع والاستنكار وعدم التصديق، لكنك مع الوقت ستعتاد هذه المهمة الشاقة، وستؤديها بصفة روتينية..

أنا اعتدت هذه المهمة الشاقة، بل ووصلت إلى الدرجة التي انتظرت فيها خروج والدي الطفل وهما في حالة انهيار تام، لأحمل جثة طفلهما في حقيبة مليئة بالثلج، لنقلها إلى ثلاجة معدة خصيصاً لهذا الغرض في داري، انتظاراً لليلة الموعودة..

"حين يحتلّ هذا الكيان الجسد الراقض على اللوح، يحركه وينطق عن طريقه.. الميت لا يعود للحياة، لكن هذا الكيان يستحوذ على جسده ويسخره له.. ونحن نسخره لنا ليخبرنا بالحقيقة.."

بالطبع لم يمرّ اختفاء جثة الطفل من المستشفى مرّ الكرام.. كان هناك صراخ والديه، وتحقيقات واتهامات وأخبار في الصحف وفي نهاية الأمر.. لا شيء!

تم اعتبار أن الطفل دفن بهوية مختلفة عن طريق الخطأ، وتلقى والداه تعويضاً محترماً سيساعدهما على إنجاب طفلٍ آخر، وظلّت أنا بمنأى عن أي شك..

ما الذي سيدفع طبيباً محترماً مثلي إلى سرقة جثة طفل؟!!!

- "الحقيقة هي ما سنحصل عليه الليلة.. حقيقة الماضي وحقيقة المستقبل.. سؤال واحد لكل منا قد يفتح له أبواب المجد والثراء وقد ينفذ حياته لو كانت ساعته قد أوشكت.. لذا اختاروا أسئلتكم بحرص شديد"

كانت هذه هي اللحظة التي تبادلنا فيها النظرات..

سؤال واحد لكل منا.. ترى أي سؤال ستختاره لو كنت مكاني؟!!

فكر جيدًا.. فإجابة سؤالك، وكما قال السيد (منير) قد تفتح لك أبواب الثراء، وقد تنقذ حياتك لو كانت ساعتك أوشكت..

أنا أعرف عن ماذا سأسأل، وسؤالي أيها السادة سيُدرّ عليّ الملايين.. ملايين زوجتي الراحلة!

تلك اللعينة أخفت عني ثروتها قبل أن تموت، بعد أن أدركت أن هذا سبب زواجي منها في المقام الأول..

تلك الحمقاء!!.. لماذا تظن أنني تزوجتها إذن؟!..

أي شاب يتزوج امرأة يتجاوز عمرها ضعف عمره، هدفه واضح وصريح وإن أنكر الجميع هذا..

لا مكان للعواطف أو لعقدة (أوديب) هنا.. إنني (إنديانا جونز) الباحث عن الثروة، وتلك الحمقاء تملك الكثير..

بل الكثير جدًا..

قطع السيد (علاء) حبل أفكارنا، بسؤالٍ ساذج:

- "سؤال واحد؟!.. فقط؟!.."

أوما السيد (منير) برأسه إيجابًا، ثم واصل بث الشرح ونفث الدخان:

- "ثمة شيء آخر يجب أن تحذروا منه.. هذا اللوح يفتح الباب بين عالمنا وبين عالم آخر لا يعلم إلا الله ما الذي يوجد فيه.. لذا فهذه البلورة الزجاجية ستكون بمثابة جهاز الإنذار لنا.. حين تتألق البلورة باللون الأخضر سيعني هذا أن الاتصال بيننا وبين العالم الآخر قد نجح.. وحين تتألق باللون الأزرق سيعني هذا أن الكيان الذي سيجيب على أسئلتنا قد حضر.."

ثم ابتلع ريقه، ليضيف:

- "المشكلة ستكون حين تتألق البلورة باللون الأحمر، ففي هذه الحالة يعني هذا أنهم حضروا.. اللون الأحمر هو لونهم.."

جاء دور (رضا) ليهتف بعصبية:

- "من هم بالضبط؟!.. لست أفهم شيئًا من هذا الكلام المُلغز.."

أخذ السيد (منير) يعبث في غليونته، وهو يجيب:

- "كما قلت آنفًا، لا يعلم إلا الله ما يحويه هذا العالم الآخر.. لكن اللون الأحمر يعني حضور أسوأ ما في هذا العالم وأشدّه خطورة.. لو تألقت هذه البلورة باللون الأحمر فسيُعني هذا أن فرصتنا في النجاة من هذه التجربة ضئيلة، لذا أكرر.. من يرد الانسحاب فليفضل مشكورًا من الآن، فلا مجال للتراجع إذا بدأنا.."

أجم الصمت الذي حلّ على المكان السنة الجميع، فعدت إلى خواطري المضطربة..

زوجتي بدأت تفهم الحقيقة منذ عام واحد تقريباً.. كانت مسنة لكنها امرأة، لذا كانت تفهم معنى تأخري الدائم عن المنزل ومعنى تلك الاتصالات الغامضة، التي يغلق أصحابها الخط في وجهها إن ردت هي...

هناك أخرى.. وربما أكثر من واحدة.. وهذه هي الحقيقة!!

وحين واجهتني، كنت قد سأمت بقاءها على الحياة حتى هذا الوقت؛ لذا صارحتها بالحقيقة ببرود وقسوة، علّ الصدمة تحقق لي هدفي في ميراث سريع ومضمون..

لكنها -اللعيبة- تلقت الصدمة بالهستريا والدموع وبإخفاء ثروتها عني حتى لفظت أنفاسها في أحد الليالي وهي تنعني بأقذع الألفاظ..

ما لم تعرفه هي حتى النهاية، أن وفاتها لم تكن طبيعية.. لم تكن كذلك قط!!

- "هل سنبدأ أم ماذا؟!"

قالها السيد (منير) هذه المرة، ليجيبه صمتنا بالإيجاب، فقال:

- "ليخرج الكل الأوراق التي وزعتها عليكم.."

أخرجت تلك الورقة المطوية من جيب معطفي، وفضضتها لتجري عيناى على تلك الأسطر اللاتينية التي كتبها السيد (منير) بخطه الأنيق المنمق..

لست أفهم حرفاً مما أمامي الآن.. لقد شرح لنا السيد (منير) المعنى من قبل، لكنني نسيت.. على كل حال إنها ليست قصيدة شعر، ولا ينبغي عليّ أن أقرأ من القلب!!

عبث السيد (منير) بأحد الأزرار في الحائط وراءه، فانخفضت الإضاءة في الغرفة للحد الذي أصبحنا فيه نرّ بعضنا البعض بالكاد، ثم وضع غليونه - أخيراً - جانباً، لنبدأ في ترديد التعويذة..

"ما نياس.. ركاكس.. تينوس.. ما ساسيس"

كلمات كتبها السحرة في العصور الغابرة، ترددها حناجرنا المرتجفة، وأعيننا معلقة على جثة الطفل وعلى البلورة الزجاجية..

"ما نياس.. ركاكس.. تينوس.. ما ساسيس"

تتألق البلورة باللون الأخضر لنعرف أننا على الطريق الصحيح، فأثبتت عيني على وجه الطفل الملطخ بالدماء الجافة منتظراً لحظة الحقيقة..

"ما نياس.. ركاكس.. تينوس.. ما ساسيس"

اللون الأخضر يزداد تألقاً ثم يتحول إلى الأزرق الشاحب البارد، ليضفي على جلستنا الرهيبة هذه مذاقاً خاصاً..

"ما نياس.. ركاكس.. تينوس.. ما ساسيس"

الآن تحدث المعجزة، ونرى بأعيننا المتسعة ذهولاً ووجلاً، تلك الرجفة التي تمر على جفني

الطفل، ثم نراه يفتح عينيه ببطء؛ لتحقق الجثة بعينين لا تريان في سقف الغرفة..
كان (علاء) يرتجف هلعًا.. و(رضا) يرتجف انفعالاً.. و(فهمي) يجاهد للحفاظ على تماسكه،
بينما تبتدئ اللفظة في عيني السيد (منير)، وهو يرى الاتصال يتم بنجاح..

" ما نياس.. ركاكس.. تينوس.. ما ساسيس "

الآن تتحول البلورة إلى اللون الأزرق.. والآن أتذكر كيف قررت ذات يوم أن أنهى حياة
زوجتي التسعة بيدي، ما دامت تصرّ على البقاء حية..

خبرتي كطبيب كانت تعني أن التنفيذ سيكون سهلاً، لكن الصعوبة تكمن في اتخاذ القرار
ذاته..

صحيح أنني كنت أكره تلك العجوز الشمطاء من أعماق قلبي، لكن أن أراها تموت كل
يوم بتأثير ذلك السم البطيء الذي كنت أدسه بانتظام في دوائها، كان تعذيباً حقيقياً لأعصابي..

كنت أراها.. تضعف.. تنهار.. تذوي.. تتلاشى..

ولقد كانت هي تشعر أنني السبب في هذا كله!!

- من سيبدأ؟!!!

قالها (علاء) بصوت مرتجف، فأجابه السيد (منير) على الفور:

- "لا فارق.. ابدأ أنت.."

احتشدت قطرات العرق في جبهة السيد (علاء)، ونطق بصوت مختنق انتزعه من حلقة
انتزاعاً:

- "سؤالي هو... هو... هل توجد طريقة كي لا أموت؟!!!"

ها هو ذا أول سؤال للوح الحقيقة يبحث عن سر الخلود..

وكأنما يدفع السيد (علاء) هذا الاتهام عن نفسه، قال دون أن ينظر لأحدنا:

- "إنني أموت.. تليف في الكبد..."

بالطبع كان هذا كافياً لي لأفهم.. تليف الكبد الناتج من الإسراف في شرب الكحوليات.. لا
علاج له..!!

تعلقت أعين الجميع على وجه الطفل الذي ظل ساكناً كأى جثة، ثم وببطء شديد فتح الطفل
فمّة ليزوم..

يزوم بصوت ثابت عميق لا يمكن أن يصدر عن طفل بأي حال من الأحوال..

وبتوتر هتف السيد (رضا):

- ما هذا؟!!!

لكن السيد (منير) أخرسه بإشارة من يديه، لتظل الكرة في ملعب جثة الطفل..

الطفل الذي أخذ يزوم بصوت غير بشري..

صوت قادم من العالم الآخر!!

كنت خائفاً وهذا ما لا يمكنني إنكاره.. ما يحدث الآن يفوق قدرتي على الاستيعاب، والسبب واضح وصريح..

هذا الطفل ميت.. جثة هادمة لا حياة فيها من أي نوع، فأني كيان هذا الذي يستخدمها ليزوم؟!!

استمر هذا الصوت الرهيب المنبعث من الطفل طويلاً، فاقترح السيد (فهمي):

- "هل.. هل نجرب سؤالاً آخر؟!"

- "لم لا؟!"

- "إذن، فسؤالي هو... هل... هل..."

و لسبب ما بدأت ملامحه الأرسقراطية الجامدة ترتجف، ورأيتة - لأول مرة منذ عرفته - يتلعثم وهو يمسح قطرات عرق وهمية عن جبينه، بمنديل حريري فاخر، ليخرج سؤاله:

- "هل.. تخونني زوجتي حقاً؟!"

تبدت الصدمة في ملامح الجميع، إلا أنني شعرت بحلق بالغ وأنا أتساءل في أعماقي إن كان هؤلاء الحمقى يفهمون الغرض من هذه التجربة حقاً..

الأول يسأل عن علاج لمرضه والآخر يسأل إن كانت زوجته تخونه.. لهذا جننا بلوح الحقيقة والجنة وقمنا بالمخاطرة في هذه التجربة المخيفة؟.. من أجل الهراء ذاته!

على كل حال استمر الزوم المخيف المنبعث من جثة الطفل دون أن يجيب على هذا السؤال أيضاً، فتعلقت نظراتنا الحائرة على وجه السيد (منير) الذي أشار لنا بيده إشارة أنه لا يفهم ما الذي يحدث بالضبط..

و دون أن أستاذن، ألقيت بسؤالي علّه يجذب اهتمام الكيان الذي يسطر على جثة الطفل:

- "أين أخفت زوجتي ثروتها؟!"

الطفل يزوم بلا انقطاع كأنه يسخر منا!..

و لم تحتمل أعصاب (رضا) كل هذا الاستفزاز، فهب من على مقعده صائحاً:

- "ما هذا العبث؟!.. هل سيجيب هذا الوغد عن أسئلتنا أم ماذا؟!"

أثار تصرفه المفاجئ زعر السيد (منير) الذي أخذ يردد شيئاً ما باللاتينية، ليتوقف الطفل عن إصدار تلك الضوضاء السخيفة، ولتنطفئ البلورة الزجاجية دفعة واحدة..

و بغضب هائل صاح السيد (منير):

- "أيها الأحمق.. أتريد أن تقضي علينا جميعًا بتصرفك هذا؟!!"

- "إن كنت أنا أحمقًا، فلماذا لا تفسر لنا أيها العبقرى ما الذي يحدث بالضبط؟؟"

- "لا بد أن هناك شيئًا ما لم نفعله.. هذا هو كل شيء.. سأراجع أوراقى وسنكرر التجربة في وقت لاحق.."

- "كررها بمفردك إذن، فلن أشارك في هذا السخف ثانية.."

و دون أن ينتظر ردًا، اندفع مغادرًا المكان بثورة، ليتركنا نتبادل النظرات الحائرة..

كان السيد (علاء) شاردًا يفكر في كبده المتليف وموته القادم لا محالة، بينما بدا السيد (فهمي) مثيرًا للشفقة بحق، وهو يحاول إخفاء وجهه بكفيه، وقد أفشى سره أمامنا على هذا النحو، بينما اكتفى السيد (منير) بأن أخذ يشعل غليونيه وقد أعاد الإضاءة إلى الدرجة الطبيعية، قبل أن يقول:

- "لا داعي للقلق.. سنكرر التجربة مرة أخرى لاحقًا بعد أن أعرف ما الخطأ بالضبط.."

كانت رسالته التي تطلب منا الرحيل واضحة، فهزّ (علاء) رأسه بشروء، وغادر المكان دون أن ينطق بحرف، بينما وقف السيد (فهمي) وأخذ يبحث في ذهنه عن شيء لائق ليقوله، فلم يجد سوى:

- "ليلة طيبة.."

و غادر المكان ليتركني أشير إلى الجثة قائلاً:

- "وماذا عن هذا؟!!"

- "اتركه لي قليلاً.. ربما احتجت له لأفهم ما الخطأ الذي حدث.."

لم أكن متحمسًا للاحتفاظ بالجثة، كما أن الإحباط الذي أصابنا جميعًا، كان يدفعني للإسراع بالمغادرة، فقلت:

- "كما تشاء.."

و غادرت الغرفة.. فالفيلا.. لأنطلق بسيارتي في الشوارع المظلمة بين بيوت المقطم الكنيية..

ليلة أخرى من عمري تضيع دون أن أعرف أين أخفت زوجتي ثروتها..

ليلة أخرى من عمري لن تعود مجددًا..

* * *

لكن الليلة لم تنته عند هذا الحد، ولا بد أنك توقعت هذا بصورة أو بأخرى..

كنت قد أوشكت على الوصول إلى منزلي حين دق جرس هاتفى المحمول، فرددت على الفور ليأتيني صوت السيد (منير) يهتف بانفعال لم أعده فيه قط:

- "(أنور).. تعال فوراً.."

قالها ثم أغلق الخط على الفور دون أن يمنحني فرصة للرد، ودون أن يجيب عليّ إذ أخذت أحاول الاتصال به لأفهم ما الذي حدث..

ثم - وقد تغلب فضولي على حنقي - استدرت بالسيارة لأعود إلى المقطم، وأنا أضرب أخماساً في أسداس.. ترى هل فعلها؟؟

هل نجح؟!

كانت الطرق شبه خالية في هذا الوقت، لذا لم ألق مشقة في العودة إلى تلك الفيلا في المقطم، لأجد أن سيارة السيد (علاء) تقف في الخارج، فضاغف هذا من فضولي، لأخرج من السيارة متجهاً إلى بوابة الفيلا، التي لم أندش كثيراً حين وجدت مفتوحة..

ثمة شيء ما حدث ها هنا، وأنا أشم رائحة هذا الشيء لكني لا أدري كنهه.. تجاوزت الردهة وأنا أنادي بأعلى صوتي:

- "سيد (منير).. (علاااا).."

لم يجبني أحد فأتجهت على الفور إلى الغرفة التي أجرينا فيها التجربة، وفتحت بابها و...

و كما توقعت أيضاً، وجدت الهول ذاته في انتظاري..

كان السيد (علاء) يقف قرب الباب، وجسده ينتفض بهلع وعيناه جاحظتان بشدة، بينما أخذ السيد (منير) يزحف على الأرض تجاهه وهو يمدّ يده أمامه وقد شحب وجهه بصورة مخيفة وتساقطت خصلات شعره على وجهه، ليبدو كالموتى الأحياء في أفلام الرعب القديمة، وقد اكتسى المشهد كله أمامي باللون الأحمر الساطع، القادم من البلورة..

"لكن اللون الأحمر يعني حضور أسوأ ما في هذا العالم وأشدّه خطورة.. لو تألقت هذه البلورة باللون الأحمر فسيعني هذا أن فرصتنا في النجاة من هذه التجربة ضئيلة.."

هذا ما قاله لنا السيد (منير).. وهذا يعني أن هناك كارثة رهيبة موشكة على الحدوث، إن لم تكن حدثت فعلاً..

انترعت الصرخة من حلقي:

- "سيد (منير).. ما الذي حدث؟!"

بالطبع لم يجبني أحد، بل واصل السيد (منير) زحفه المخيف هذا تجاه (علاء) الذي شلّه الهلع تماماً، ثم توقف السيد (منير) أخيراً وإن ظلّ يشير بيده الممدودة على (علاء)، لتخرج الكلمات من فمه، بصوت لا يمت له بصلة:

- "أنت.. أنت ستقيء دمًا حتى تموت.."

قالها ثم تهاوى جسده دفعة واحدة!!

هنا بدأ السيد (علاء) في إطلاق الصرخات الهستيرية، ففقدت أنا أعصابي نهائياً، وحملت أول مقعد أمامي، لأهوي به على البلورة الزجاجية، لتتهشم بدوي أشبه بالقنبلة..

ساد الظلام الغرفة، ليرتفع صوت صرخات السيد (علاء) الهستيرية أكثر وأكثر، بينما انحنيت أنا على السيد (منير) لأفحصه..

لكنه كان قد مات.. حالة منتهية كما اعتدنا أن نسمي كل من غادروا عالمنا البغيض هذا!!

ما الذي حدث هنا؟!

و أين اختفت جثة الطفل؟!!

انتبهت إلى هذه الحقيقة الجديدة، في اللحظة التي دخل فيها السيد (رضا) الغرفة ليضيئها، ولينظر إلى المشهد الرهيب أمامه، قبل أن يهتف بعصبيته المعتادة:

- "ما الذي حدث؟!.. ما الذي..؟"

لكنه بتر سؤاله ليهوي على وجه السيد (علاء) بصفعة هائلة أخرسته على الفور، قبل أن يكرر هو هتافه:

- "ما الذي حدث هنا؟!!"

أجبتّه محاولاً التماسك:

- "لا أعرف.. لقد وصلت لأجد أن السيد (منير) يموت وهو يشير إلى السيد (علاء)، والأسوأ من هذا أن جثة الطفل اختفت.."

- "ماذا تقول؟!.. (منير) مات!!.. الطفل اختفى!!"

ثم وبعملية يحسد عليها أسرع مغادراً المكان كله، تاركاً المأساة كلها على رأسي..!

لم أجد أمامي سوى (علاء) الذي انهار يبكي في ركن الغرفة، فانحنيت عليه لأسأله:

- "أخبرني ما الذي رأيته.."

لكن حالته أجابتنني بأن الحصول على رد منه، سيكون ضرباً من الخيال، فتركته لأبدأ في البحث عن جثة الطفل التي اختفت.. لا بد أنها هنا في مكان ما.. لا بد لأنها جثة رغم كل شيء..

لكن نتيجة بحثي الذي لم يسفر عن شيء، جعلتني أقف في ردهة الفيلا أرتجف.. الجثة اختفت.. السيد (منير) مات.. والسيد (رضا) هرب، ولا بد أن (فهمني) في الطريق إلى هنا، بينما يبدو أن (علاء) قد فقد عقله إلى الأبد..

ما الذي تفعله لو وجدت نفسك في مثل هذا الموقف؟!

موت (منير) سيعني أن هناك تحقيقات وشرطة واتهامات وسيتم ذكر موضوع سرقة جثة الطفل من المستشفى والغرض من هذه التجربة وكل ما يكفي لتتدمر حياتك إلى الأبد..

ما الذي ستفعله لو وجدت نفسك في مثل هذا الموقف؟!

ببطء قدرتي أغمغم:

- "هذا المكان يحتاج إلى تطهير.."

و أبدأ في تطهيره..

* * *

الآن أقود سيارتي مبتعدًا عن المكان، وقد ارتفعت أسنة الذهب من الفيلا لتمحوها من الوجود..

لا بد أن أحدهم استيقظ وأنه أبلغ الشرطة والمطافئ، لكن حين يصل هؤلاء سيكون الأمر قد انتهى، فلقد حرصت على إلقاء البنزين في كل ركن في هذه الفيلا الملعونة..

السيد (علاء).. حسن.. لقد حاولت إخراجها، لكنه كان قد فقد عقله تمامًا، ولم أكن لأخاطر بخسارة كل شيء أملكه من أجل مجنون مصاب بتليف الكبد!..

لست أعرف أين السيد (فهمي) ولا السيد (رضا) الآن، لكنني واثق من أنهما لن يتحدثا في هذا الموضوع مع أحد.. ستمحي هذه الليلة من تاريخنا ببساطة وإلى الأبد..

الآن أقود سيارتي وأنا لم أخسر إلا فرصتي في معرفة مكان ثروة زوجتي الراحلة، لكنني سأواصل البحث..

حتمًا سأجد الـ...

"زوجتك حولت ثروتها إلى ماس، وأخفته في صندوق، دفنته في القبو"

ارتفع الصوت من المقعد الخلفي فانتفضت بذعر، لأنظر إلى الشيء الذي جعلني أصاب بالهلع لأصرخ بذعر هائل، ولأفقد التحكم في السيارة..

إلى الطفل الذي جلس في ظلام المقعد الخلفي، وإن مرّ ضوء مصابيح الإنارة في الشارع على وجهه لحظة، لأرى أنه يبتسم ابتسامة شيطانية مخيفة..

لحظة واحدة رأيت فيها وجهه الملطخ بالدماء الجافة، وتلك الابتسامة التي صاحبت جميع كوابيسي بعد هذه الليلة.. ثم سمعت بوق تلك السيارة ورأيت مصباحين عملاقين يتجهان تجاهي بسرعة خرافية.. ثم... ثم...

ثم انتهى كل شيء بغتة..

* * *

فيما بعد عرفت أن السيد (فهمني) قتل زوجته في ذات الليلة وسلّم نفسه للشرطة..

و عرفت أيضاً أن السيد (رضا) غادر البلاد بلا رجعة، بينما أغلقت قضية فيلا السيد (منير) المحترقة بعد أن عثروا على جثته وجثة السيد (علاء)، دون أن يجدوا دليلاً واحداً يصلح لاتهام أحد به..

أما أنا.. فلقد نجوت من الحادث حقاً، لكنني الآن مصاب بالشلل الكلي، ولن يمكنك أن تتخيل كيف أن قدرتي على تحريك سبابتي اليسرى -آخر ما يمكنني تحريكه بإرادتي في جسدي- هي الشيء الوحيد الذي جعلك تقرأ هذه القصة..

ثروة زوجتي في صندوق مدفون في قبو منزلي بالمناسبة لو أردت المغامرة والحصول عليه، لكن يجب أن أحذرك أيضاً أنهم لم يعثروا على جثة الطفل في حادث السيارة..

في الواقع لم يعثروا عليها حتى الآن!!

لا أعرف -وربما لن أعرف- أين هو الآن.. لكنني أتخيله دوماً يجوب ظلال الطرقات بوجهه الملطخ بالدماء الجافة وابتسامته الشيطانية المخيفة..

وحده يعرف حقيقة ما حدث..

وحده يعرف ما هو الثمن الذي يدفعه البؤساء الذين تألق في وجوههم اللون..

الأحمر..

* * *

برتقالي

"كنت أعرف أن تعلق ابنتي بهذه الدمية غير طبيعي.. كنت أعرف هذا لكني تجاهلته.. لهذا أنا أستحق"

* * *

من الصعب دائماً تحديد النقطة التي تبدأ من عندها الأحداث.. حين تقول (بدأ كل شيء منذ...) فأنت لا تحدد البداية بدقة، إنما تحدد الوقت الذي انتبهت أنت فيه لما يحدث طيلة الوقت من حولك، وحتى هذا يخضع لقوة ذاكرتك، ولا يوجد مثال أفضل مما قاله الكاتب العظيم (ماركيز)، حين وصف كتب التاريخ قائلًا:

- "التاريخ ليس ما حدث حقًا.. بل ما نتذكره وكيف نحكيه"..

من الصعب إذن أن أحدد لكم متى بدأت ابنتي في التغير، لكنني سأقول أن كل شيء بدأ حين قرر زوجي السفر فجأة إلى الخليج بحثًا عن المال الذي لم يجده هنا..

أي زوجة تعرف تلك اللحظة التي يتحول فيها الزوج من الحبيب ذي الصدر الدافئ، إلى مصدر تمويل المنزل، بل وتطالبه بها إن لم يفعلها هو بمفرده.. أنا أحبك نعم.. لكن هناك فواتير الماء والطعام والكهرباء والتليفون ومدرسة الطفل والملابس والمناسبات، ولن يغنيني دفع صدرك عن هذا كله..

لهذا سافر زوجي.. لأنه أدرك أن دوره في المنزل تقلص إلى ماكينة صرف نقود، عليها ألا تضنّ علينا بالأوراق المالية المحببة التي تشتري السعادة الحقّة!

من الصعب دائماً تحديد بداية الأحداث، لكنني سأعود بذاكرتي إلى اليوم الذي اصطحبت فيه طفلي (رنا) إلى السوق لتشتري بعض الألعاب، وفي هذا حل أكيد لبقائها الدائم على اختفاء أبيها من المنزل.. هذا هو أجمل شيء في الأطفال؛ قدرتهم على النسيان..

(رنا) تبلغ من العمر تسع سنوات، وهو العمر الذي تعرفه أي أم وتمقته.. إنه الوقت الذي يتعلم فيه الطفل كيف يكون مزعجًا ومؤذيًا في الآن ذاته، وهو العمر الذي تعتاد فيه الأم على ضرب طفلها في محاولة يائسة لتهذيبه، تستمر حتى يكبر هذا الطفل ويترك المنزل بلا رجعة،

لكنني في هذا اليوم كنت أجزّ معي طفلة بائسة، لا تفهم سر اختفاء والدها من المنزل رغم تعلقه الشديد بها.. من المستحيل على من في عمرها أن يفهم أهمية المال، وهذه نقطة أخرى في صالح الأطفال..

السخيف في الأمر أن حزن ابنتي كان صادقاً وقويّاً إلى الدرجة الذي جعل كل اللعب والهدايا في نظرها، أشياءً حمقاءً سخيّة لا يمكن أن تخفف عليها، والأسوأ من هذا أنني - ومع يؤسها المستمر - بدأت أدرك حقيقة أنني أصبحت امرأةً وحيدة.. امرأةً بلا رجل ومسئولة عن طفل!

صحيح أنني من شجّع فكرة السفر، لكن هذا لا يمنع من أنني أفقد وجوده.. أفقد صوته الرجولي وهالة الأمان التي يحيط بها المنزل.. كل هذا لم يعد موجوداً لأننا نحتاج للمال اللعين!!

و هكذا بدأ الأمر يتحول من أم تحاول الترفيه عن طفلتها إلى ثنائي بائس يجوب طرقات المدينة بلا هدف، حتى أنني قررت العودة إلى المنزل حيث يمكنني ممارسة حقي في البكاء بلا حرج، حين توقفت ابنتي فجأة أمام متجر للألعاب، وقد تعلقت عيناها على دمية محددة..

دمية دب مكتنز، في حجمها تقريباً، ويحمل وجهه ابتسامة واسعة مرحبة، بينما تحديق عيناها البرتقاليّتان بإصرار في وجه الجميع.. دمية عادية لا تحمل أي ابتكار، لكنها جذبت اهتمام (رنا) فأنحيت عليها لأقول بحنان:

- هل تريدينها؟!

هزّت رأسها الضئيل أن (نعم) فلم تمض عشر دقائق حتى كانت تحملها بين ذراعيها لنتجه إلى المنزل، وقد علت وجهها الملائكي - أخيراً - ابتسامة رضا وحبور..

ألم أقل لكم أنها طفلة، وأنها ستنسى؟!.. لكن..

من يأتي لي بدب بني مكتنز يساعدي على النسيان؟!!

* * *

لم ألاحظ ما يحدث في بدايته لأنني كنت مشغولة..

إنني الآن ألعب دور الأم والأب، وفي هذا مشقة أي مشقة.. لم أعرف حقاً كم العبء الذي كان يزيحه زوجي عن صدري إلا في هذه الفترة، ورغم كوني ربة منزل لا تعمل إلا أنني كنت أعاني الأمرين كل يوم من اللحظة التي تترك فيها (رنا) فراشها وحتى تعود إليه..

في نهاية اليوم أجلس وحدي على الفراش أسجل وبدقة مصاريف اليوم وما تبقى من نقود وما يجب عليّ إداره - زوجي لن يسافر إلى الأبد- وما يمكن اقتطاعه لحسابي الشخصي، وبعد أن أنتهي من هذا، أظل بقية الليل أرمق الفراغ الكائن جوارى على الفراش، والذي كان يحتله جسد زوجي منذ أسابيع قليلة..

مهما حاولت المرأة ستظل أهمية وجود الرجل في حياتها حقيقة لا فرار منها!

كان كل شيء يسير على ما يرام، لكنني لم أعرف أن ابنتي لم تكن تنام هي الأخرى على

فراشها..

ما عرفته بعد ذلك أنها كانت تقضي ليلتها كلها تتحدث..

تتحدث بصوت خافت مرتجف إلى دميّتها.. الدب المكتنز ذو العينان البرتقاليتان..

متى عرفت هذه الحقيقة الجديدة؟!

حسنًا إنني أتذكر هذا اليوم جيدًا...

* * *

كان يوم اثنين، وكنت قد استيقظت منذ السادسة صباحًا كعادتي لأعد طعام الإفطار لـ (رنا) قبل أن أوقظها لتذهب إلى المدرسة، لكنني حين ذهبت إليها في غرفتها وجدتُها جالسة على فراشها وقد بدا جليًا من عينيها المحتقنتين والإرهاق البادي على وجهها الملانكي، أنها لم تنم إطلاقًا..

سألته بقلق:

- رنا.. هل أنت مريضة؟!

هزّت رأسها أن (لا)، فسألتُ:

- ألم تنامي جيدًا ليلة أمس؟!

هزّت رأسها أن (لا) مرة أخرى، فسألتُ:

- لماذا؟!

هنا ظلت (رنا) صامتة قليلًا كأنما تستجمع طاقتها لتجيب، ثم مدت يدها ببطء لتشير إلى دبها المكتنز دون أن تنطق بحرف، ففهمت أنا الموقف - كنتُ حمقاء ولم أفهم شيئًا لكنني لم اعرف هذا في حينه - وهتفتُ فيها:

- أخذتِ تلعبين طيلة الليل ولم تنامي.. أليس كذلك؟!

لم تجبني (رنا) هذه المرة، وبدأ وكأنما قد استنفذت طاقتها كلها، فقررت أن أتركها هذا اليوم دون أن تذهب إلى المدرسة، وقلت بغیظ:

- إذن ارتاحي اليوم.. لا مدرسة..

لكنني قبل أن أخرج أخذتُ الدب المكتنز معي وأنا أردف:

- ولا لعب كذلك.. هيا.. نامي.

و هكذا أغلقتُ عليها الباب وعدتُ إلى غرفتي لأظفر بالنوم، وقد بدا أنني قد أحظي بساعات نومٍ إضافية هذا اليوم، دون أن يؤدي هذا إلى كارثة..

ألقيت بالدب على أحد الأرائك في ردهة المنزل، ثم ذهبت إلى غرفتي لأنام، على أن أستيقظ بعد عدة ساعات لأعد طعام الغداء ولأواصل طقوس اليوم المعتادة..

كان يومًا عاديًا لم يستجد فيه شيء.. (رنا) استيقظت عصرًا وقد بدا عليها الانتعاش، وقضت يومها في مذاكرة دروسها تحت إشرافي، وفي نهاية اليوم سمحت لها بالجلوس أمام التلفاز قليلاً حتى أتت الساعة التاسعة مساءً؛ فحملتها حملاً إلى فراشها وأنا أقول:

- نامي جيداً.. ستذهبين إلى المدرسة غداً.

و بعد أن أوت إلى فراشها، عدتُ أنا إلى غرفتي لأواصل تسجيل مصاريف اليوم الجديد، وهي عادة غير مفيدة إطلاقاً في حالة الادخار، لكنها تقتل الوقت قتلاً وهذا ما أحتاج إليه حقاً..

أتذكر يومها أنني - وحين تسلل النعاس إلى جفوني - قررت أن أمرّ على غرفة (رنا) أولاً، لأتأكد من أنها (تأكل أرزاً مع الملائكة كما يقولون) لكنني لم أكد أصل إلى باب غرفتها حتى سمعتها تتحدث..

تتحدث بصوت خافت مرتجف، لم أميز معه ما تقوله بالضبط، لذا دخلت على الفور لأرى ما الذي يحدث بالضبط، فوجدتها تجلس على الفراش، وقد وضعت ديبها المكتنز - الذي التمتعت عيناه البرتقاليّتان على ضوء القمر - أمامها تتحدث إليه بخوف شديد استحال إلى فرع حين رأنتي..

كنت حمقاء أيها السادة، لذا فلم أفعل سوى أنني صرخت فيها وجذبت الدب من أمامها وأنا أهتف بصرامة:

- نامي فوراً.

و على عكس ما تخيلته، لم تقاوم، بل وبدا الأمر وكأنها كانت تنتظر من يأخذ الدب من أمامها، فحملته معي خارجة من الغرفة لألقيه في الصالة مجدداً..
لم أكن أعرف.. لم أكن أفهم.. ولهذا استمر الأمر أكثر من هذا..

* * *

هكذا اعتدتُ أن أحمل الدب من أمامها كل ليلة، لأتأكد من أنها ستنام..

اعتدتُ أن ألقى الدب على أحد الأرائك في الصالة، ثم أنام ويمر اليوم، وفي المساء أحمل الدب مجدداً من أمام (رنا) في غرفتها..

ما دامت ابنتي تخشاه إلى هذا الحد، فلماذا كانت تحمله إلى غرفتها كل ليلة إذن؟!..

سؤال بديهي لكنني لم أفكر فيه قط، حتى جاء اليوم الذي دفعني للبدء في التفكير في هذا الموضوع..

كنت أمرّ بطقوس اليوم المعتادة، وكنت قد بلغت ذروة إرهاقي مع حلول الليل، حتى أنني قررت أنه لا داعي لتسجيل مصاريف اليوم، لكنني قررت أن أمرّ على غرفة (رنا) للاطمئنان

عليها قبل النوم، وحين دخلت عليها كانت هناك مفاجأة عجيبة بانتظاري.. في تلك الليلة بدأت القلق.. في تلك الليلة بدأت الخوف..

كانت (رنا) قد فصلت رأس دميته عن جسدها الذي ألقتة في ركن الغرفة، بينما وضعت الرأس المقيت في حجرها، تنظر إلى العينين البرتقاليتين بوجل، وتهمس محدثة رأس الدب بخوف..

أي طفلة التي تلعب بهذه الصورة؟!!

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أنتزع الرأس من يدها، لأصرخ فيها بعنف لم أعتده في نفسي، بينما ظلت هي صامتة على الفراش، تسيل دموعها قطرات على وجنتيها، وسهام من نار في قلبي.. لماذا يا (رنا)؟!.. لماذا؟!!

بالطبع أصابتنى دموعها بالهستريا، وبعد كثير من الصخب كنت أحتويها في صدري ونبكي سويًا..

- لماذا قطعت الرأس يا (رنا)؟!!

- هو أخبرني.. قال أن الجسد غير مهم..

- من هو؟!!

- الذي يعيش في العينين البرتقالييتين..

* * *

الأطفال يصابون بالاضطرابات حين يفقدون أحد والديهم.. قرأت هذا من قبل وأذكره الآن..

(رنا) تفتقد والدها بشدة، وهذا هو كل شيء.. لا داع للإصابة بالجنون.. لا داع للانتحار!

(رنا) مضطربة نفسيًا.. لكن.. ما الذي عليّ أن أفعله أكثر من هذا؟!!

بالطبع لم أكن قد وصلت بعد إلى المرحلة التي تمكنني من ربط كل ما يحدث بالدمية..

أنت تنظر الآن إلى الموضوع من أعلى؛ مما يُمكنك من رؤية الصورة كاملة، أما أنا فكنتُ تفصيلاً صغيرة في الصورة الكاملة، لا يمكنها سوى أن تنظر إلى التفاصيل الصغيرة من حولها..

ذهبتُ إلى طبيببة نفسية بحثًا عن المشورة.. وإلى دجالة معروفة بحثًا عن الأمل.. ولم أترك بابًا إلا وتوسلت أمامه عني أفهم ما الذي أصاب ابنتي بالضبط..

إنها لا تتحدث إطلاقًا.. لا تنام أبدًا.. لا تفعل شيئًا سوى التحديق المستمر في عيني رأس الدب البرتقالية كأنما تجد في هذا الشيء راحتها الوحيدة.. حاولت التخلص من رأس الدمية، لكن دموعها الصامتة كانت تجعلني أراجع كل مرة..

إنها طفلة بانسة تتعذب، فلماذا أحرمتها من الشيء الوحيد الذي تريده؟!!

بالطبع لم آخذ كلامها بخصوص الشيء الذي يعيش في العينين البرتقالتين بجدية، بل اكتفيت بالاعتقاد أن ابنتي أصيبت بالخبال لشدة الحزن، وأنه عليّ أن أساعدها بأي وسيلة..

كنت أعرف أن تعلّق ابنتي بهذه الدمية غير طبيعي... كنت أعرف هذا لكنني تجاهلته..

لهذا أنا أستحق ما حدث بعد ذلك..

أستحقه تمامًا..

* * *

في أحد الأيام وأثناء تجولي في السوق لأشتري ضروريات المنزل، شعرت بذلك الهاجس الخفي الذي تشعر به أي أم، والذي يخبرها أن طفلها في خطر.. هذا هو الهاجس الذي يوقظنا في منتصف الليل لنجد طفلنا الرضيع يكاد يسقط من على فراشه.. لا معجزات في الأمر.. لكنه شعور داخلي عميق..

كنت قد تركتُ (رنا) في المنزل - فهي لم تعد تذهب إلى مدرستها منذ زمن - لذا أخذت في طريق عودتي إلى المنزل أبني تصورات سوداوية عما يمكن أن يكون قد حدث..

لقد أشعلت النار في الشقة وهي الآن تخرق حتى الموت... لقد دسّت إصبعها في قابس الكهرباء... لقد ألقت بنفسها من الشرفة.. شيء ما حدث!

لكنى حين وصلت إلى المنزل، وجدت ما هو أسوأ من هذا كله...

كانت ابنتي (رنا) تجلس على أرض الصلاة، ورأس الدب ذو العينين البرتقاليتين أمامها يحدق فيها بثبات، وهي كانت تبكي بهستيريا مخيفة كأنها رأت مذبحة مخيفة منذ لحظات..

ألقيت بكل ما في يدي، لأرفعها من على الأرض ولأدفنها في حضني وأنا أردد بجزع:

- (رنا) حبیبتی.. ما الذي حدث؟!!

- بابااااااااااااااااااا

- أعرف يا حبيبتي.. أعرف.. إنك تفتقدينه، لكن... لا بأس سأصل به وأطلب منه أن يعود

و...

[illegible]

!!!!!!!!!!!! -

- أريد بابااااااااااا

أصابتنى كلماتها بالجنون، فلم أشعر بنفسى إلا وأنا أرجها بعنف، صارخة:

- من قال هذا؟!!!

ببطء أشارت بيدها إلى رأس الدب ذي العينين البرتقالييتين..
في هذه اللحظة شعرت.. في هذه اللحظة فهمت... في هذه اللحظة أدركت الحقيقة كاملة بلا
رتوش..

وهنا ارتكبت أكبر خطأ في حياتي كلها!..
تركت طففتي وأسرعت أعدو إلى السنترال المجاور للمنزل، لأحاول الاتصال بزوجي.. يجب
أن أسمع صوته الآن، ويجب أن يعود إلى المنزل اليوم!!..
وصلت إلى السنترال وطلبت الرقم بأصابع مرتجفة..
و مع مرة كان يجيبني فيها الرنين المستمر كنت أفقد أعصابي أكثر وأكثر.. أين أنت أيها
الوغد؟!..

وارتفع ذلك الصوت المقيت في أعماقي يردد: لقد مات.. لقد مات.. لقد مات.. لقد مات.. لقد مات..
مات.. لقد مات.. لقد مات.. لقد مات.. لقد مات..
و بعد محاولات استمرت لساعة كاملة، أصبح عندي يقين أنني تحولت إلى أرملة..
أرملة مسئولة عن طفلة مخبولة..
(رنا).. لقد تركتها بمفردها.. يا إلهي!!..

و هكذا عدت أسرع الخطى إلى المنزل وأعصابي تحترق في رأسي، وحين وصلت إلى
المنزل كنت أتمنى شيئاً واحداً..

أن أعثر على ابنتي حية!!
و الواقع أنني عثرت عليها حية.. الواقع أنني أذكر هذا المشهد بالذات جيداً فأنا أراه في كل
لحظة من حياتي وحتى الآن.. الواقع أن أحداً لن يصدق ما رأيته أنا في تلك اللحظة..
كانت ابنتي تقف في صالة المنزل وعلى وجهها تعبيرٌ جاف مخيف، بينما صوتها الخافت
ينادي:

- أمي.. أمي..

لم تكن شفاها تتحرك، لكنني كنت أسمع صوتها واضحاً، وحين انتبهت إلى مصدر الصوت
الحقيقي، تجمدتُ الدماء في عروقي..

ومأخوذة تجاوزت ابنتي التي تحولت إلى تمثال صامت لم ينطق إلى يومنا هذا، وحملت رأس
دمية الدب ذي العينين البرتقالييتين.. الرأس الذي ارتفع منه صوت ابنتي الخافت يقول:

- أمي.. أنا هنا!!..

أصفر

سوف أخبرك بالقصة كلها لكن من فضلك لا ترفع صوتك..

إن أعصابي مرهقة بما يكفي ولا أتحمل أي نوع من الحماس يتطوع به الآخرون..

في مراجع الطب يطلقون عليها اسم (زانثوبسيا).. قليلة هي حالات (الزانثوبسيا).. قليل هم الأطباء الذين سمعوا عن (الزانثوبسيا)..

تقول مراجع الطب إن مرضى الصفراء - حالات محدودة جدًا من مرضى الصفراء - يرون العالم أصفر.. هناك عقاقير معينة تسبب الحالة ذاتها..

من المخيف أن ترَ العالم وقد صار مصابًا بفقر الدم.. لو رأيت هذا على شاشة جهاز التلفزيون لأصابك الهلع وجريت إلى أقرب خبير إلكترونيات ليعالج هذا الخلل، أما أن تراه بعينيك وأنت تعرف أن هذا هو ما تراه فعلاً، فإن هلعك لا يوصف بكلمات.. أما الأكثر إثارة للتوجس فهو أن هذه ليست حالة (زانثوبسيا).. لا يوجد سبب يفسر ما تراه الآن.. فهل هو الجنون؟

* * *

اسمي (محمد صبري).. لابد أنك خمنت ذلك.. لماذا؟..

لأنه لا يوجد واحد آخر في العالم يراه أصفر سوى (محمد صبري)..

بدأ كل شيء كما تعلم عندما صحوت من النوم ذلك الصباح لأجد أن كل شيء في الكون أصفر.. فركت عيني مرارًا واتجهت إلى الحمام وغسلت وجهي وعيني.. غسلتهما حتى احترقتا تقريبًا ثم نظرت للكون من حولي: أصفر..

ماذا دهاني؟.. ماذا حدث؟..

فتحت النافذة ونظرت إلى السماء.. ما زالت فيها زرقة اختلطت باللون الأصفر فصار المزيج أقرب للخضرة.. من قال إن الأخضر جميل؟.. أنا لم أر في حياتي أقبح من هذه السماء الخضراء..

عدت للداخل وحاولت أن أتماسك.. ثمة شيء ما خطأ..

كانت أُمِّي قد صحت من النوم.. متثابة خرجت من غرفة النوم وهي تحك شعرها.. ويبدو أن وجهي أثار قلقها لأنها سألتني:

.. "ماذا بك؟"

قلت وأنا أوسع عيني عن آخرهما:

.. "أصفر.. كل شيء أصفر!"

.. "بسم الله الرحمن الرحيم!"

سألتها وأنا أرتجف في جنون:

.. "هل ترين العالم أصفر من حولك؟"

قالت وقد زالت عنها إمارات النوم في لحظة:

.. "لا.. كل شيء على ما يرام.. لا بد أنك مرهق.. إن عادة السهر مع أصدقائك هذه.."

قلت في عصبية وأنا أبتعد عنها:

.. "لو كنا نقضي أمسياتنا في احتساء الخمور وتدخين الحشيش وقتل الأطفال فهذا غير كاف لتبرير ما أراه الآن.."

عندما انتصف اليوم صرت واثقاً من أن ما أراه لا يراه أحد سواي..

ومر الوقت كالكاپوس حتى دنا عقرب الساعة من الثانية.. في هذا الوقت يتشاءب الكهنة ويتجهون – حاملين أسرارهم – إلى عياداتهم الخاصة ليبيعوها مقابل المال.. الكثير منه... وأنا بحاجة إلى كاهن... سأمنحه ما يطلب مقابل أن يمنحني قبساً من علمه..

الكاهن الذي قصده هو د. (سمير عبد العليم).. دكتوراه في طب العيون وزميل عدد من الكليات الغربية.. أجلس في عيادته أرقب العالم الأصفر.. ماذا لو كتب علي أن أراه بهذا الشكل ما بقي لي من عمر؟.. لا.. لا.. مستحيل.. ما أراه علامة مرضية لا ريب فيها.. وهذه العلامة المرضية سوف تعلن للكاهن الأكبر عن مرض أكبر وأخطر.. ربما يفتك بي.. لكن ما المشكلة؟.. من يريد أن يرى العالم أصفر ما تبقى له من عمر؟

لهذا حين جلست أمامه في المحراب، كان آخر شيء أرجوه هو أن يقول لي:

.. "أنت سليم تماماً!.."

ما تخشاه قد حدث.. إنها لعنة وأنت أول ضحاياها..

قلت له في عصبية:

.. "لكني أرى العالم أصفر!"

قال في حكمة:

"عيناك سليمتان تمامًا.. رؤية العالم أصفر تحدث في حالات محدودة جدًا وبالتأكيد أنت لست حالة منها.."

"والعمل؟"

أشار إلى عينه وقال:

"لا مشكلة هنا.. (وأشار إلى رأسه بحركة ذات معنى وقال) المشكلة هنا.."

"تعني أنني مجنون؟"

"الجنون كلمة ابتذلناها من فرط الاستعمال.. هناك كلمة أخرى اسمها العُصاب.. هناك أمراض في المخ تسبب استقبال الحواس بشكل خطأ.. لا أعرف.. فقط أملك أن أتحدث عن مملكتي.. ومملكتي لا يوجد فيها مبررٌ لرؤية الأصفر.."

هكذا فارقتَه أجر أذيال الخيبة.. وبحركات كالمنوم مغناطيسيًا اتجهت إلى شقة أخرى في البناية التي تعج بالكهنة.. هذا كاهن مخ؛ لابد أنه يملك الجواب..

لم يأت رد كاهن المخ سريعًا بل أرسلني إلى كهنة آخرين قاموا بفحص رأسي بالأشعة.. وكهنة قاموا بتوصيل أقطاب بمخي وقرءوا النتائج على الورق..

وفي النهاية قال لي الكاهن الأكبر ما كنت أخشاه:

"أنت سليم تمامًا!"

"لكن ما أراه ليس سليمًا!.."

قال باسمًا:

"إنه إرهاب لا شك فيه.. ستتناول بعض المقويات وأعتقد أنك ستشفى خلال أيام.."

أي انه قال بعد كل هذا الجهد ما قالتَه أُمِّي التي لا تقرأ ولا تكتب بعد ثانية واحدة.. ماذا يتعلمون في تلك الكليات إذن؟

أصفر..

العالم كله أصفر.. السماء والسيارات وشفاه الفتيات والأزهار وحقائب الطلبة والكلاب الضالة وعربات الإطفاء وإشارات المرور..

أصفر.. أوراقِي وثيابي الداخلية وشاشة التلفزيون ووجوه أصحابي..

أنا الوحيد الذي يعاني مشكلة كهذه وأنا الوحيد القادر على حلها..

سوف أسترجع ما كان في حياتي الشهر الماضي...

* * *

ليلة الخميس عند صديقي (شريف).. عندما استبد بنا الملل ليلاً وقلت له إنني أعرف لعبة
مسلية حقاً..

هات رقعة من الورق المقوى واكتب عليها الحروف الأبجدية كلها.. هات كوباً مقلوباً..
اجلسوا يا شباب حول هذه المنضدة وليضع كل منا إصبعاً على قاعدة الكوب ولنظلم المكان..
سنجرب تحضير روح..

(شريف) كان قلقاً لأن هذه التجارب تتم في داره لكننا سخرنا منه..

وهكذا جلسنا.. وهكذا مضى الوقت ونحن ننتظر أن يحدث شيء.. أحياناً كان أحدها يطلق
مواءً مفاجئاً فنثب في الهواء مترين.. عندها كان يضحك بينما ننظر له في قسوة..

"لا يُستحب المزاح في أمور كهذه.."

ننتظر.. أتبادل النظر مع (عصام) و(جمال).. أتمنى ان أزرع الكوب بنفسي لأداعبهما..
لكن لا.. دعاية قاسية هي..

ويمر الوقت.. وهنا يرتفع صوت (شريف):

"كفى.. واضح أن هذه خزعب..."

هنا بدأ الكوب يتحرك.. لا خداع في الأمر.. لا أحد منا يحركه بنفسه.. أنا متأكد من هذا..
يتجه الكوب إلى حرف (الكاف).. ثم حرف (الفاء).. ثم (الياء)..

ك - ف - ي

ك - ف - ي

يهتف (شريف) في حماس ممزوج بالهلع:

"كفى.. يقول لكم كفى!"

الكوب يواصل الحركة:

أ - ن - ت - م / ت - ل - ع - ب - و - ن / ب - ا - ل - ن - ا - ر

س - ت - ح - ل / ب - ك - م / ل - ع - ن - ا - ل - ش - ي - ا - ط - ي - ن

هنا فقط لم تتحمل أعصاب (شريف) أكثر..

صرخ وأضاء النور ثم هتف بنا:

"انتهى!.. لا أريد هذه الأمور في بيتي.. بالذات لا أريدها في غرفة نومي!"

ثم حمل الكوب وأطاح به من النافذة..

قال (جمال) بصوت مبحوح من فرط التوتر:

.. "ما رأيكم؟"

قلت بصوت مبحوح أكثر:

.. "كان هناك شيء يقيناً.. وقد لبي نداءنا!"

قال (عصام) وقد بدت عليه الجدية:

.. "المشكلة هي.. هل أنصرف؟"

نظرت له ونظرت للرقعة ولم أستطع الرد..

كان هناك شيء.. وقد أئذرنا بأن لعنة الشياطين ستحل بنا.. لكننا لم نعرف بعد هل أنصرف أم لا.. الآن حينما أفكر في الأمر يبدو لي هذا سيناريو لعنة..

هل هي لعنة الشياطين حلت بعيني؟.. وماذا عن باقي المتورطين ملوثي الأيدي؟..

* * *

أسترجع ما كان في حياتي الشهر الماضي..

في مكتب الدكتور (داود) أستاذ الكيمياء في كليتي..

لقد استدعاني - ليوبخني طبعاً - في ذلك الثلاثاء الحار.. دخلت المكتب فلم أجده لكنني قدرت أنه عائد حالاً.. هناك كوب ماء على مكتبه وقدر قهوة ساخن..

هكذا سمحت لنفسني بالجلوس..

رحت أتأمل صور أسرته على الجدار.. من الغريب أن لهذا الرجل أسرة مثلاً.. يلبس المنامة ويجلس أمام التلفزيون ويعبث في أصابع قدميه.. لم يولد من بطن أمه بالمعطف الأبيض حاملاً تحت إبطه مظروف أوراق الامتحانات..

الطقس حار فعلاً.. هكذا مددت يدي إلى كوب الماء وجرعت جرعة لا بأس بها.. منذ طفولتي أعاني تلك المشكلة.. أنا أشرب أولاً ثم أتذوق بعد هذا..

وهكذا أدركت أن هذا الذي شربته ليس ماء.. إنه سائل كريه له مذاق الزئبق لو كان للزئبق مذاق.. بصقت في منديلي ثم نسيت الأمر لأن الرجل دخل المكتب لحظتها فهبت واقفاً..

قال لي وهو يخرج أشياء من جيبه:

.. آه.. هانتذا أتيت يا أبا جهل.. إن درجاتك في امتحان أعمال السنة..

ثم تصلب ونظر إلى الكوب الفارغ وهتف:

.. "من فعل هذا؟"

كنت أعرف أنني سألام على شيء ما، فهزرت رأسي في غباء بما معناه أنني لا أعرف.. قال وهو يعيد تفحص الكوب:

"غريب هذا.. كان خطأ فادحاً أن أضع المحلول في كوب ماء لكنني لم أتوقع أن يدخل أحدهم مكتبي.. هذا ما تفعله الأمهات الجاهلات حينما يضعن صودا الغسيل في أكواب ماء لتبدو كاللبن، ويشربها الأطفال.. كل حالات احتراق المريء في مصر تعود لهذا السبب الغبي.."

وحك رأسه في ضيق وغمغم:

.. "وأنا فعلت الشيء ذاته.."

سألته في حذر وأنا أتسبب بطني:

.. "هل ما كان في الكوب صودا غسيل يا سيدي؟"

.. "ليته كان كذلك.. إنها تجربة أقوم بها حالياً ونتائجها هي.."

ثم بدا عليه نفاد الصبر وقال وهو يجلس خلف مكتبه:

.. "أنا متعكر المزاج الآن.. عد إليّ في وقتٍ آخر.."

متعكر المزاج؟.. ومنذ متى لم يكن كذلك؟

الآن أتذكر هذا الحادث وأسأل نفسي: هل للسائل الذي كان في الكوب علاقة بما حدث؟

* * *

أسترجع ما كان في حياتي الشهر الماضي..

و(سلوى) الفتاة التي صارت كل شيء في حياتي تسند رأسها إلى الشجرة..

لم أر حتى هذه اللحظة إنساناً أو جماداً أو مكاناً أو حلاً أجمل ولا أرق منها.. لقد ذهبت بصوابي تماماً..

أدنو منها وأهمس في أذنها كم أحبها..

تنظر في شرود إلى الأفق وتهمس:

.. "لا أعرف.. لو أنك عرفت حقيقتي.. لو عرفت من أنا حقاً.. فلربما بدلت هذا الرأي.."

هذا مشهد من فيلم عربي.. هل ستصارحني بأن أمها راقصة أو أن أباهما هو (خط) الصعيد؟

تقول وهي تتنهد:

.. "أنا من عالم آخر.. أر الأشياء ليس كما ترونها أنتم.. أسمع الأصوات ليس كما تسمعونها

أنتم.. أنا مختلفة.. هل تفهم هذا؟"

فعلاً هي مختلفة.. منذ جاءت إلى الكلية منذ ثلاثة أشهر وكل واحد منا يدرك أنها مختلفة..

لقد جاءت من عالم آخر فعلاً..

قلت لها:

"أتمنى أن أكون معك في هذا العالم.."

تقول وهي تنظر لي في شفقة:

"لن تحب هذا يا مسكين.. ربما تصحو يوماً فتجد السماء خضراء والعشب أحمر.. ربما تسمع رائحة الياسمين وتشم النجوم".

"ما دمت معك فلا أبالي لو شممت نهيق الحمير وسمعت الطين"

ضحكت كثيراً ثم قالت لي في ثبات:

"هل أنت متأكد؟.."

"متأكد.."

مدت لي إصبعها وهمست:

"هلم.. اجرح إصبعي وسأجرح إصبعك.. سوف نتبادل الدماء.. وبهذا تصير من عالمي وأصير من عالمك.."

لم يبد لي الأمر صحيحاً.. إن التهاب الكبد الوبائي ينتقل بطريقة مماثلة على ما أذكر.. لكن الرومانسية جعلت كل شيء ممكناً وفعلت كما طلبت وامتزج دمانا..

قلت لنفسي وقتها إنها رومانسية.. كل الرومانسيات يقلن الكلام ذاته..

لكن – الآن يتصلب شعر رأسي – ماذا لو لم تكن تمزح؟.. ترى الأشياء لا كما نراها نحن.. السماء خضراء؟!..

ثرى أين كانت (سلوى) قبل أن تظهر في كليتنا؟.. لا أحد يعرف عنوانها أو رقم هاتفها ولم يرها أحد تأكل أو تشرب من قبل..

وأنا خلطت دمي بدمها!

* * *

أسترجع ما كان في حياتي الشهر الماضي...

صديقي (علاء) هو الذي أحضر اللقافة...

قال لي ضاحكاً:

"لم يجرؤ أحد على فتحها قط.."

ضحكت بدوري في تهكم وتحسستها.. كان ملمسها مخيفاً فعلاً..

قلت له في قلق:

"هذه تهمة خطيرة.. سرقة آثار لا يمكن إنكارها.."

قال وهو يضع اللقافة في يدي:

"من سرق ماذا؟.. قلت لك إنني وجدتتها في الأقصر.. ولو لم أَدسها في جيبِي لفعل أحدهم نفس الشيء.."

قلت له في شغف:

"هل تعرف شيئاً عنها؟.. إلى أية أسرة تنتمي؟.."

مط شفته السفلى بمعنى انه لا يعرف ثم أضاف ساخراً:

"تتظاهر بالعبقريّة.. ولو قلت لك إنها من الأسرة السادسة مثلاً لما فهمت شيئاً، ولما استفدت من هذه المعلومة.."

ثم أردف وهو ينظر حوله في حذر:

"هذه الأشياء تكون ملعونة.. رأيي الخاص ألا نجازف بفتحها.."

قلت في ضيق:

"وهل تريد أن نبقّيها للأبد كحِرز؟"

"لا أعرف.."

"الفضول قتل القط، وأنا قطّ كبير.."

ومددت يدي أعالج أربطة الكتان المحيطة بها.. كانت هناك لوحة على صدر الشيء.. لوحة دقيقة أنيقة تمثل عين (رع) وقد خرجت منها إشعاعات صفراء.. كأنها شمس أخرى..

"جميلة.. تحفة فنية.."

"لكن ما معناها؟"

"غالباً تعد بأن (رع) سيخرب بيت من يفتح هذه اللقافة.."

وواصلت الفتح.. أخيراً بدا لنا الجعران العملاق بحجم كف يدك.. كان مثيراً للاشمئزاز، لكنه جعل أنفاسنا تخفق في انبهار..

قلت لـ (علاء):

"كما ترى.. لم يحدث لنا شيء.. لا أعتقد أن الفراعنة كان عندهم وقت كاف لحماية مومياء جعران.."

اليوم أفكر في الأمر ملياً.. لماذا عين (رع)؟.. ولماذا اللون الأصفر؟

* * *

أسترجع ما كان في حياتي الشهر الماضي..

هل هي لعنة الشياطين حلت بشباب عابث يلعب بالنار؟ أم هي وصفة كيميائية شريرة ذات آثار جانبية مخيفة؟.. أم أنني فعلاً عبرت لعالم (سلوى) وصرت منه.. عالم الذين يرون كل شيء بلون مختلف؟.. أم أن لعنة كهنة (رع) أصابتني؟.. أم أنه لا تفسير هنالك؟ كل شيء من حولي أصفر..

الكتب.. الأبواب.. رجال الشرطة.. القطط.. السماء.. السيارات.. شفاه الفتيات.. الأزهار.. حقائب الطلبة.. وجهي في المرآة.. الكلاب الضالة.. عربات الإطفاء.. أوراق.. ثيابي الداخلية.. شاشة التلفزيون.. وجوه أصحابي.. ساعة الحائط.. أوراق العملة.. الحديقة.. ثوب أمي.. شعر أبي.. الهاتف.. متاجر وسط البلد.. الشاي.. القهوة.. السجائر.. الجعران.. معطف الدكتور (داود)..

أصفر..

وأنا جالس في غرفتي وحيداً أسترجع خيط الأحداث وأفكر.. ما الشيء الذي جعلني أرى العالم أصفر؟!..

أنا لا أعرف.. فهل عرفت أنت؟

* * *

أخضر

"الواقع أنني أكره عملي هاهنا.. الواقع أنني لا أجد جدوى لحياتي ذاتها.. الواقع أن الشيء الوحيد الذي يدفعني للاستمرار هو... الدكتوراة (منال)."

* * *

السبت 15 مايو..

الفائدة الوحيدة للملل هي أنك تجد الوقت الكافي لكتابة مذكراتك.. صحيح أنه لا يوجد شيء ذو قيمة في هذه المذكرات، لكنها مذكراتي أنا ولا تعني أحداً سواي.. لا أحتاج لأن أكون رائد فضاء لأحظى بشرف كتابة مذكراتي!

أنا عامل نظافة بالمناسبة، وهذا قد يدفعك لترك القصة والانتقال إلى القصة التالية، لكن من سيتجاوزون امتعاضهم من عملي هذا، وسيواصلون القراءة؛ قد يكتشفون أن حتى عمال النظافة قد يوجد لديهم ما يقولونه في بعض الأحيان..

هذا هو ثاني أيام عملي في مؤسسة (اسم لاتيني معقد لا يمكنني نطقه أو حتى كتابته!) التي تدبر سلسلة من الأبحاث العلمية عن أشياء لا يعرف إلا الله الغرض منها بالضبط.. أحدهم يقضي حياته أمام فأر أبيض في قفص، وآخر يحقن الفواكه بعقاقير عجيبة، وهناك من ينظر طيلة اليوم إلى شريحة ضئيلة عبر الميكروسكوب، ليدون ملاحظاته كل نصف ساعة..

و هناك الدكتوراة (منال)..

حين عرض عليّ قريبي - وهو عامل نظافة هو الآخر - العمل هنا، لم أكن متحمساً على الإطلاق، لكنني كنت في حاجة إلى المال.. أي مال بأي طريقة.. ولأنني لا أجيد السرقة أو النصب ومصاب بمرض نادر في العضلات يمنعني من العمل كبائع متجول، بدا أن العمل كعامل نظافة هو الحل الأمثل لي..

أنقل القمامة من سلة المهملات إلى العربة التي أجرها أمامي طيلة اليوم، ثم أفرغ العربة في أنبوب خاص في قبو المبنى.. هذا هو كل شيء، والأمر لا يحتاج لمواهب خاصة كما لاحظت.. المشكلة هي أنني متعلم - حصلت على الإعدادية - وعيبُ التعلم الوحيد هو أن نفسك قد تعف

عن ممارسة الأعمال التي يؤديها الجهلة بنفسٍ راضية مطمئنة..

لكن هناك الدكتوراة (منال)..

أعشق القراءة منذ صغري، لكنني من أسرة لا تسمح إمكانياتها المادية بابتلاع الكتب إلا المستعمل منها وإن نقصت صفحاته، وها هي المشكلة ذي تتكرر.. أنا هنا أقضي طيلة اليوم، في لا شيء تقريباً، ولا يوجد أمامي ما يصلح للقراءة سوى تلك المراجع الضخمة، ذات الأغلفة المصقولة، والكلمات اللاتينية التي تحتاج إلى أكثر من شهادتي الإعدادية لفك طلاسمها..

الحل إذن.. أن أكتب مذكراتي..

وسيلة لا بأس بها لقتل الوقت، وإن كان عليّ تحمل نظرات السخرية من زملائي والعاملين هنا..

عامل نظافة يكتب مذكراته.. ياللهول!!

لكن هناك الدكتوراة (منال)..

إنها.. إنها.. زهرة هذا المكان.. النسمة الوحيدة التي تمر عبر الممرات الكنيبة لهذه المؤسسة.. الوحيدة التي أقنعتني بأن العمل هنا لا بأس به، إن كنت سأصيب ابتسامة منها كل يوم.. وأنت لم تر ابتسامة الدكتوراة (منال)!

صدقني.. إنها تستحق..

لكن ما الذي تفعله الدكتوراة (منال) بالضبط؟!

الواقع أن هذا يستحق بعض الاهتمام..

* * *

الأحد 16 مايو..

أمتع ما يمكن لإنسان فعله هو أن يراقب الدكتوراة (منال) وهي تعمل..

ترتدي المعطف الطبي الأبيض.. تدخل إلى تلك المحمية الطبيعية التي صممها المؤسسة خصيصاً لها لتمارس تجاربها على النباتات.. وموسيقى هادئة تنبعث من جهاز التسجيل.. بالنسبة لهم - من يديرون المؤسسة - لكل نبات داخل المحمية اسم علمي منمق، وملف بالتجارب التي تمت على هذا النبات، والدكتوراة (منال) ذاتها تمثل ملفاً هي الأخرى، يسجل فيه كم ما حققته للمؤسسة حتى الآن من نتائج.. هذا بالنسبة لهم..

بالنسبة لي كانت الدكتوراة (منال) تبدو كسندريلا وسط الزهور وأوراق النباتات، كأنما تصنع معهم لوحة طبيعية متحركة، هي بطلتها الوحيدة..

كانت الدكتوراة (منال) دائماً ما ترحب بي داخل محميتها، وكثيراً ما تركتني أراقبها وهي تحمل أصيص زرع، لتضعه على جهازٍ عجيب، يُخرج شرائط ورقٍ عليها خطوط متموجة..

أي أحمق لن يفهم معنى هذه الخطوط، لكن الدكتور (منال) شرحت لي.. إنها تعبر عن إحساس النبات، فهي تناسب بنعومة حين تتوفر للنباتات البيئة المثلي، بينما تتلوى بجنون؛ إذا قطعت أحد أوراق النبات وهو على الجهاز..

"النبات يشعر ويتألم.. وربما يُحب!"

هكذا قالت لي الدكتورة (منال) ..

* * *

الاثنين.. 17 مايو..

اليوم أخبرتني الدكتورة (منال) أنهم عثروا على فصيلة نادرة من النباتات.. على بذور هذه الفصيلة بالتحديد.. سبع بذور لمزيد من الدقة..

أخبرتني الدكتورة (منال) أن البذرة الواحدة تساوي ثروة، لكنها إن نجحت في زرع أحد هذه البذور في البيئة المناسبة، وقامت بإجراء تجاربها على النبات ذاته، فقد تحقق السبق العلمي الذي طالما سعت إليه..

ساعدتها بنفسها على إعداد أصيص الزرع، ودفنا البذرة الأولى في السماد الصناعي الذي يحتوي على كل ما يشتهيه النبات من مواد وأملاح.. لم يكن الأمر شاقاً بالطبع ولو كان، فالدكتورة (منال) تستحق..

أخبرتني الدكتورة (منال) أن الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً، وهذا معتاد.. وأنا أثق في كل ما تقوله الدكتورة (منال) ..

كل ما عليّ فعله هو أن أدعو الله أن ينبت هذا النبات سريعاً من أجل الدكتورة (منال) .. وهذا ما سأفعله!

* * *

الثلاثاء.. 18 مايو..

لكم هي متفانية.. لكم هي رائعة..

أراها كل يوم - الدكتورة (منال) ولا أحد سواها! - تعني بأصيص النبات الجديد، كأنه طفلها الرضيع.. أحياناً أشعر أن هذه البذور داخل الأصيص هي أول رابط حقيقي بيننا.. كأنها ابننا الذي لن يولد!

نجلس يومياً نراقب الأصيص لساعات طويلة، منتظرين تلك اللحظة الجهنمية، التي سيخرج فيها البرعم الأخضر إلى السماء، ليعلن عن وجوده.. لكن الانتظار سيطول ونحن نعرف هذا..

رأيتها وقد استبد بها الفضول، تضع أصيص النبات في الجهاز الذي يسجل الموجات التي

يصدرها النبات، وقالت:

- على الأقل سنعرف إن كانت البذرة حية..

لكن شرائط الورق التي خرجت من الجهاز، كانت تحمل خطأ مستقيماً طويلاً، كالذي يصدره جهاز رسم القلب حين تحين لحظة النهاية.. لقد رأيت جهاز رسم القلب حين كان متصلاً بوالدتي - يرحمها الله - وأعرف معنى هذا الخط السخيف جيداً..

بدا الإحباط على الدكتورة (منال)، وقالت:

- سأتركه للغد، ثم سأجرب مع بذرة أخرى..

حاولت مواساتها، لكنني وكما قلت من قبل، لا أملك لها سوى الدعاء..

وهذا ما سأفعله مجدداً..

* * *

الأربعاء.. 19 مايو..

لا زلنا ننتظر..

* * *

الخميس.. 20 مايو..

قررت الدكتورة (منال) الإبقاء على الأصبص الأول، لكنها وضعت البذرة الثانية، في أصيص جديد، ولا زلنا ننتظر..

* * *

الجمعة.. 21 مايو..

متى يأتي الغد؟!!!

* * *

السبت.. 22 مايو..

مزيد من الإحباط!

* * *

الأحد.. 23 مايو..

لم أتوقع أنا أو الدكتورة (منال) تلك المفاجأة المذهلة!..

كنا أول من وصل إلى المؤسسة كعادتنا منذ فترة، لنسرع سويًا إلى المحمية الطبيعية على أمل مستمر في جديد.. أي جديد..

لكننا هذه المرة حين وصلنا كان المشهد أمامنا أشبه بمعجزة..

كان أصيص الزرع أمامنا وقد نما ذلك النبات النادر بصورة جهنمية، في صورة مجموعة ضخمة من السيقان الخضراء الملتفة حول نفسها بتشكيل عجيب معقد، وبارتفاع لا يمكن حدوثه في ليلة واحدة..

ليس هذا فحسب، فأحد الأصيلين كان على جهاز تسجيل الموجات، الذي أخذ يقذف في وجوهنا شرائط ورق تحمل تموجات عنيفة، لم أر مثلها من قبل..

لا يمكنني أن أصف لك كيف كانت حالة الدكتورة (منال)، لكنني سأجاوز ذهولها من هذا الذي حدث، وسأنقل لك اللحظة التي أمسكت فيها شرائط الورق، لتفحص التموجات باهتمام علمي يليق بها تمامًا..

استغرقت وقتًا طويلاً، قبل أن تقول:

- لست أفهم..

تجرات أنا لأسأل:

- هل يتألم هذا النبات؟ أعني ربما لا تناسبه البيئة هنا..

لكنها هزت رأسها لتقول:

- لا... هذه التموجات طبيعية، لكنها مضخمة، كأن غابة كاملة التي تصدرها..

وعادت لتفحص الأوراق، مكررة:

- لست أفهم..

لذت بالصمت لأسمح لها بالتركيز، وحين طال صمتها قررت أن أتركها لأواصل عملي - إنني لست المسئول عن مراقبتها هنا - لكنني قبل أن أترك المكان، التفتت إليّ الدكتورة (منال) لتسأل:

- لحظة... أنا لم أضع هذا الأصيل في الجهاز أمس.. كيف انتقل إذن؟!..

* * *

الاثنين 24 مايو..

الدكتورة (منال) تغيرت..

لم تعد تلاحظ وجودي، بل أصبحت لا تلاحظ أي شيء يحدث حولها، وقد انصب اهتمامها كله على نباتها النادر، الذي بدأت أمقته دون سبب مفهوم..

إنه.. إنه ينافسني على الدكتوراة (منال)!

اليوم مررت عليها لمتابعة آخر التطورات، حين حدث ذلك الشيء العجيب الذي أثار هلعي.. كانت الدكتوراة (منال) تمسك بأحد أوراق النبات تفحصها بعدسة مبرة، وكنت أنا عند الباب في هذه اللحظة، أناديها قانلا:

- أي خدمة يا دكتوراة (منال)؟

ويبدو أنها كانت مستغرقة تمامًا فيما تفعله، إذا انتفضت على صوتي، والتفتت لي بحدة وهي لا تزال تمسك بورقة النبات، لتقطعها دون قصد.. دون قصد لكن النبات لم يقدر هذا..

فجأة تلوت فروع النبات كله بحركة افعوانية عجيبة، وأخذ ينفث ذلك البخار الأخضر في سماء الغرفة..

أخضر.. أخضر.. أخضر.. لثوانٍ استحال لون المكان كله إلى الأخضر..

صوت الهسيس الصادر عن النبات امتزج بصرخة الدكتوراة (منال) المذعورة، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أفقر في اللون الأخضر أمامي، لأنقذها من أي شيء قد يجروء على التعرض لها..

كانت الرؤية منعومة أمامي، لكن العجيب أن هذا البخار كان بلا رائحة على الإطلاق كأنه مجرد صبغه للهواء، لكنني تجاهلت هذه الحقيقة حينها وأخذت أتحمس طريقي حتى اصطدمت بذراع الدكتوراة (منال) لأقبض عليها بقوة، هاتفا:

- لا تقلقي.. سأخرجك من هذا..

لكن يدًا حديدية قبضت على عنقي بغتة لتخرسني، ولتبدأ في اعتصاره بقوة لا ترحم!!

وكرر فعل طبيعي ازدادت قوة قبضتي التي تقبض على ذراع الدكتوراة (منال) فارتفع صوت صراخها أكثر، وقد أصابنا هذا اللون الأخضر - اللعين - بالعمى تمامًا..

كنت أختنق وبدا وكأن حنجرتي ستتشم في أية لحظة، فتركت ذراع الدكتوراة (منال)، لأحاول إبعاد تلك اليد المخيفة عن عنقي لكن دون جدوى..

أختنقُ ببط واللون الأخضر البهيج يغمرني من كل صوب!..

يتحول اللون الأخضر إلى أسود وقد غاب الهواء من جسدي، وتتراخي ذراعي جوازي باستسلام وصراخ الدكتوراة (منال) يتردد في أذني... و... و...

وما حدث بعد ذلك رواه لي قريبي الذي أحضرني إلى هنا..

صراخ الدكتوراة (منال) اجتذب الجميع إلى المحمية، حيث تعاونوا على إخراجنا حيئين - لحسن الحظ - لكن هذا ليس كل شيء..

شيئان أخبرني بهما قريبي أثارا ذعري، وإلى أقصى حد..
أولاً.. أنه لم يكن هناك دخان أخضر حين دخلوا المحمية... لم ير أحد هذا الدخان!!
ثانياً.. أن اليد التي كانت تقبض على عنقي، والتي كادت تقتلني، كانت يد، الدكتورة (منال) ذاتها!!

* * *

الثلاثاء.. 25 مايو..
لم أستطع الذهاب إلى العمل، إذ لازلت تحت تأثير صدمة أمس..
ترى أين هي الدكتورة (منال) الآن؟!!

* * *

الأربعاء.. 26 مايو..
الدكتورة (منال) لم تأت إلى العمل اليوم..

* * *

الخميس.. 27 مايو..
لقد بدأت أقلق على الدكتورة (منال).. إنها لم تأت اليوم أيضاً..

* * *

الثلاثاء.. 2 يونيو..
لقد اختفت الدكتورة (منال)!..
قضيت الأيام الماضية في انتظارها ثم بدأت أبحث عنها، حتى إنني تمكنت - بوسيلة ما -
من الحصول على عنوان منزلها، وذهبت إلى هناك لأطمئن عليها - وإن كان هذا ليس من
حقي في الواقع - لكني لم أجدها هناك كذلك..
أين ذهبت الدكتورة (منال)؟؟!!

* * *

الجمعة .. 6 يوليو ..

لم أعد منتظمًا في كتابة مذكراتي لكن ما حدث اليوم يستحق التسجيل حقا..

في السابعة مساءً كنت أتابع ذلك البرنامج التلفزيوني الشهير، حين سمعتُ طرقات على باب منزلي، فنهضتُ متلملاً لأفتح الباب، وأنا أدعو الله ألا يكون الحماس قد استبد برفاقي، ودفعهم للمجيء إلى هنا، لكنني حين فتحت الباب أطلتُ عليّ الدكتورة (منال) بابتسامتها الهادئة، لتصيبني بحالة من الذهول عجزت معها عن النطق..

كانت هي من نطقت لتقول:

- مرحبا..

- أين كنتِ؟!.. بحثتُ عنكِ في كل مكان.. أعني.. لقد قلت و...

- ارتد ملابسك وهيا بنا..

- إلى أين؟!..!!

- إلى هناك.. إلى المحمية..

سأتجاوز كل التفاصيل التي لا داع لها وسأقفز إلى اللحظة التي دخلنا فيها إلى المحمية لنجد نباتنا النادر وقد استطال حتى كاد يلامس السقف..

لست أفهم شيئاً في النباتات، لكن نمو هذا النبات غير طبيعي وأنا أثق في هذا..

"هذا النبات غير طبيعي.."

قالتها الدكتورة (منال) وكنت أعرف هذا مسبقاً، ثم واصلتُ:

- الدخان الأخضر الذي تنفسناه.. لقد كان ذا تأثير غير طبيعي.. لقد قضيتُ الأيام الماضية في دراسة تأثير هذا الدخان علينا..

سألتها بحذر:

- وهل توصلتِ إلى شيء محدد؟!..

- تحسس نبض يدك رجاء..

- لماذا؟!..!

- لأنك لن تشعر بشيء!..

- ماذا؟!..!!!

وتحسست يدي بدهشة بحثاً عن أي نبض، فتحولت دهشتي إلى ذعر حقيقي حين شعرت بيدي الباردة ميتة تماماً، لا نبض فيها ولا حياة..

ألقت إليّ الدكتورة (منال) بسماعة طبية قائلة بذات الشرود:

- خذ هذه لو أردت التأكد، لكنني سأخبرك بالنتيجة مسبقاً.. لا نبض... قلبك توقف عن الخفقان.. مثل قلبي بالضبط..

شعرتُ بالسخف مما أسمع، لكن يدي الباردة ظلت صامتة، لا تنقل إلى أناملي أي نبض، فجربت أن أضع السماعة الطبية على صدري، وبعد إصغاء استمر لبضع دقائق.. تأكدت لي حقيقة أن قلبي متوقف عن العمل تماماً!!

خط طويل سخيف... هذا هو ما سيسجله جهاز رسم القلب لو وصلوه إلى صدري الآن.. سألت والأفكار تتور في رأسي:

- وما الذي يعنيه هذا؟!.. هل.. هل متنا؟!!

لكن إجابتها جاءت أكثر غرابة:

- لا... لم نمت... بل نتحول..

* * *

السبت.. 7 يوليو..

من الآن عليّ الانتظام في تسجيل مذاكرتي لتسجيل أي تغيرات تطرأ على جسدي كما طلبتُ مني الدكتورة (منال)..

عادتُ الدكتورة (منال) إلى العمل، لتواصل دراستها على ذلك النبات الشيطاني، المستمر في النمو، حتى كاد يحتل المحمية الطبيعية كلها، بسيقاته الملتوية، وأوراقه التي تُصدر ذلك الغاز الأخضر إذ قُطعت..

يجب أن نفهم ما حدث لنا.. يجب.

حين عدتُ إلى المنزل، فحصتُ جسدي أمام المرأة بحثاً عن أي تغيرات، فلم أجد شيئاً غير طبيعي..

لازلتُ نحيفاً كئيب الملامح، ولا زالت عظامي البارزة تؤكد على فقري المدقع..

فقط لا قلب ينبض رغم استحالة هذا طبيياً أو علمياً كما أكدت لي الدكتورة (منال)..

لكننا قررنا الاحتفاظ بهذا كله سرّاً، حتى تستطيع الدكتورة (منال) كشف طبيعة ما أصابنا..

ترى هل ستستطيع الدكتورة (منال) فعل هذا حقاً؟!!

* * *

الأحد.. 8 يوليو..

على الأقل أصبح هناك رابط حقيقي بيني وبين الدكتورة (منال)..
حالتنا العجيبة أزلت حواجز كثيرة بيننا، وأصبحت أقضي جمّ وقتي معها في المحمية الطبيعية، حتى بعد انتهاء الدوام الرسمي...
لا حظنا أننا فقدنا شهيتنا للطعام، كأنما أصبح جسدنا الميت يأبى أي طعام... كذلك تقلصت ساعات نومنا إلي ساعتين فقط ويبدو أننا في طريقنا للإصابة بالأرق الدائم...
الدكتورة (منال) تحولت إلى آلة رصد، ترقب كل ما يفعله النبات، وتدرس تلك التموجات المتضخمة التي يصدرها، على أمل أن تحمل لنا أي تفسير..
على كل حال لم يحمل لنا اليوم أي جديد..
فقط لاحظت أنني حين جُرّحتُ يدي بطريق الخطأ، لم أنزف أي دم..
سؤال آخر ننتظر أن يجيبنا عليه هذا النبات النادر..
فهل يفعل؟!!!!

* * *

الاثنين ... 9 يوليو ..

لم نعد ننام وأصبح الإرهاق هو السمة الغالبة علي وعلى الدكتورة (منال)..
المسؤولون عن المؤسسة لا حظوا وضعنا ولم يبدوا أي اعتراض، ولا بد أنهم أعدوا ملفاً جديداً عني يسجلون فيه ملاحظات مبهرة..
لكن ملف النبات ذاته ظل يحمل علامات استفهام لا إجابات لها، حتى قررت الدكتورة (منال) إجراء تجربة عجيبة لم أفهمها بالضبط، لكنني سأقول لك ما قالت لي حرفياً:
سنحاول تحويل هذه الموجات التي يصدرها النبات إلى صورة أخرى من صور الطاقة، علّنا نفهم ما الذي تعنيه..
وعملاً بهذه القاعدة أحضرتُ الدكتورة (منال) مجموعة عجيبة من الأجهزة، أخذت توصلها بالجهاز الذي يُسجّل موجات النبات..
وأخذتُ أنا أراقب هذا كله منتظراً أي نتيجة..
على كل حال مرّ اليوم سريعاً دون أن نظفر بهذه النتيجة المرجوة..
و ما زلنا ننتظر..

* * *

الثلاثاء.. 10 يوليو..

يجب أن أسجل كل ما حدث بسرعة فلا وقت أملكه..

اليوم تمكنتُ الدكتورة (منال) من حل لغز هذه التموجات، فلقد استخدمت.. ال... لا وقت.. بسرعة.. الكمبيوتر فعلها وبرامج الترجمة حولتُ لنا ما يقوله النبات إلى... لا وقت.. لا وقت.. الدكتورة (منال) أوصلت الأجهزة الجديدة بالكمبيوتر الذي قرأت على شاشته هذه الكلمات الرهيبة:

(حان وقت عودتنا... هناك أجساد بشرية تصلح لعملية الانتقال..)

هذه الكلمات كان يصدرها النبات في صورة الموجات المتضخمة، وهذا يفسر كل شيء.. أجسادنا ميتة لأنها لم تعد ملكنا، بل ملكهم..

من هم!!

لا أعرف ولن أجد الوقت لأفعل، الدكتورة (منال) وجدت حلاً جذرياً للمشكلة كلها..

إنها تشعل النار الآن في المحمية بعد أن حبستنا فيها.. حاولتُ منعها لكن...

رباااه..

النبات.... إنه....

.....

* * *

الملف (1019) قسم الأبحاث العلمية

إلى هنا تنتهي المذكرات التي عثرنا عليها بعد أن احترقت المحمية الطبيعية، ولولاها لما فهمنا شيئاً مما حدث..

الدكتورة (منال) وعامل النظافة المسكين – الذي لا أفهم كيف كان يكتب مذكراته هذه – كانا الضحيتين الوحيدتين للحريق..

يبدو أن الدكتورة (منال) كانت تحاول التخلص من النبات، لكنها فشلت!

النبات لم يحترق كأن النار لا تؤثر فيه بالمرّة وهكذا تمكنا من دراسته لنفهم ما حدث.. وما سيحدث..

النبات كان يصدر غازاً خاصاً يؤثر على الأعصاب، ويصيب من يتعرض له بالجنون، وهذا

يعني أننا نجحنا...

هذا هو السلاح البيولوجي الكامل كما أردنا، ولولا أننا قررنا التضحية بالدكتورة (منال) لما تأكدنا من فاعليته..

يمكننا الآن إغلاق الملف..

وإعلان أن التجربة نجحت..

د. عادل فهمي

أزرق

يطلقون عليها الزرققة الرمية..

الاسم نفسه مثير للتوجس.. لكنها علامة مهمة جدًا في الطب الشرعي.. لأنها تحدد الموضع الذي كانت عليه الجثة في الساعات القليلة التالية للوفاة، ولكم من منتحرو وجدوا الزرققة الرمية على ظهره، مما جعلهم يدركون أنه قتل قتلاً على الأرض، ثم علقه قاتله على المشنقة ليخدع رجال الشرطة.. إن القصص المشابهة كثيرة جداً..

يطلقون عليها الزرققة الرمية..

وأنا أحب اللون الأزرق، وأكره أن يرتبط بشيء رهيب مثل الموت.. لكن - للأسف - يظل لون الجثث الباردة والأطراف المرشحة للبتر أزرق.. أردنا هذا أو لم نرد..

* * *

كنت طالباً فقيراً في تلك المدينة الصاخبة العجوز.. لا تسأل عن الظروف ولا الضغوط التي جعلتني أعمل في المشرحة.. نحن لا نختار الوظائف التي تُعرض علينا وقد كنت في حاجة ماسة للمال..

كان صاحب المشرحة ومديرها ورئيس مجلس إدارتها هو عم (عثمان).. وهو رجل نوبي ظريف له جلد يشبه الباذنجان الأسود، وكان من أسرة اعتادت العمل هنا منذ دهور. في كل عام تطرح المستشفى مناقصة لمن يتولى أمور المشرحة لأعلى إيجار، فكان هو يفوز بها في كل مرة، ومن يمنعه من ذلك يكن هو الجثة التالية الراقدة في هذه المشرحة..

والسبب؟.. من قال إن عمل المشرحة ليس مربحاً؟.. إنه حانوتي يكسب الكثير، ودخول المتوفين في المستشفى إجباري إلى مشرحته هو.. لا أحد يهرب.. عندها يعامل أهل المتوفى كما ينبغي.. أسعار سياحية لا تسمع عنها إلا في أفخم فنادق البحر الأحمر.. والناس مضطرة إلى الدفع لأنهم يريدون إنهاء عذابهم سريعاً..

كنت أساعده في عمله وبالطبع أنال جزءاً من الغنيمة.. لم أكن أتلقى راتباً، لكن النسب التي كان يمنحني إياها كانت تكفيني لأسدد مصروفاتي وأرسل مائتين أو ثلاثة إلى أسرتي في

القرية..

طبعاً لم يكن أحد في بلدتي يعرف طبيعة عملي.. كنت أزعّم لهم أنني أنسخ المستندات في مكتب ما.. لو عرفت أمي بمصدر المال الذي أرسله لتشاءمت وأبت أن تمسسه.. وهو تفكير قاصر طبعاً لأن العمل هو العمل.. لا بد من بئس ما يغطس في المجاري لتسليكها، ولا بد من بئس ما يصطاد الكلاب المصابة بالسعار والجرب، ولا بد من بئس ما يقوم بربط فكوك الموتى بالشاش.. هذه أشياء كصلاة الجنازة: إن قام بها واحد سقطت عن الجميع، وإن لم يقم بها أحد أثم الجميع..

على أن لهذه المهنة نفعاً لا شك فيه. إنها تعلمك التواضع.. تجعلك متديناً بحق ما لم تكن لصاً أصيلاً مثل عم (عثمان).. أنت هنا تعيش في المنطقة الفاصلة بين الموت والحياة، وكل زبائنك كانوا يمزحون ويدخنون ويدبرون المكائد منذ أربع أو خمس ساعات.. الآن هم أشياء رهيبة ترقد بانتظار من يريحها الراحة الأخيرة.. إنها لعبة كراسٍ موسيقية.. اليوم أنت واقف هنا وهم رقود. غداً أنت راقد على هذه المنضدة وهناك من يقف..

لهذا كنتُ أكثر من قراءة القرآن.. وأحافظ على ميقات الصلاة بدقة..

سوف أعترف بأن هذه الفترة هي أخصب فترات حياتي من الناحية الدينية..

أعتقد أن الأمر يتعلق بدرجة معينة من الشفافية.. ثمة حاسة سابعة أو ثامنة قد استيقظت في أعماقي مع هذه التجربة الغريبة.. التدين.. معايشة الموت.. العزلة.. الجهد الصادق.. وفي الأيام الأخيرة تكررت معي تلك الحوادث الغامضة التي تمر بنا من حين لآخر.. تفكر في صديق فتجده أمامك.. تشعر بانقباض فتحدث كارثة.. الخ.. لكنني لم أحاول أن أتوقف كثيراً مع هذه الأحداث..

بدأ كل شيء أمس..

في التاسعة مساءً دخلتُ المحفة إلى المكان.. حينما تمارس أية مهنة لها علاقة بالطب أو الموت، لا بد أن تُميز أذنك صوت المحفة وهي بعد في الممر الخارجي.. وكنت وحدي تلك الليلة..

كان الراقد على المحفة رجلاً في الخمسين من العمر.. يبدو أنه ليس معدماً..

وقال لي أحد الرجلين اللذين جاءا به، وهما رجلان لم أرهما قط هنا:

"وجدوه ميتاً في الزقاق المجاور.. لا يبدو أن هناك جريمة في الأمر.. لا أوراق.. إنه ناقص الأهلية.."

وقال آخر وهو يجفف عرقه:

"ربما كانت أسرته تفتش عنه الآن.. وربما لم تكن له أسرة.. لا نعرف.."

رفعت الملاءة وتأملت وجهه ثم سألت في حيرة:

"ما سر هذا اللون الأزرق الذي تلون به جلده بالكامل؟"

قال أحدهما بلا مبالاة:

-"وما الفارق؟... لو كان لونه أحمر لسألت السؤال ذاته.."

وقال الآخر بلا مبالاة هو أيضاً:

-"ربما كان يشغل في الأزرق"

قالها دون أن يضحك، وكذا لم يضحك أحد.. هناك دعايات تقال لكنها لا تطالب بجمهور أو حق أداء علني.. تقال لمجرد إخراج الملل أو الضغط العصبي.. على كل حال لابد أن عيني ليستا على ما يرام.. فأنا اشعر أن المسعفين أيضاً لونهما أزرق.. معنى هذا أنني أخرف..

وهكذا تسلمت هديتهما الرهيبة، ففتحت درج الثلاجة الكبير ووضعت فيها ذلك البانس..

لم يكن الطب دراستي لكنني قرأت كل ما وقع في يدي من مواضيع طبية كتبت بالعربية.. هناك حالات معينة من الموت بالغازات تسبب هذا اللون الأزرق.. أول أكسيد الكربون يجعل لون القتيل أحمر لذا يسمونه (الموت الأحمر).. لن أعرف الإجابة لكن دعنيؤكد لك أن زرقة هذا المتوفى كانت تختلف عن زرقة الموتى التي أعرفها.. كأن هناك من ألقاه في دلو به طلاء أزرق بمجرد وفاته..

بعد ما خلا المكان عدت إلى جلستي السابقة.. كوب الشاي ولفافة التبغ.. أعترف أنني كنت أدخن من حين لآخر.. وهي خطيئة بالنسبة لمن هو مثلي في حاجة لكل مليم، لكنني كنت أسمح لنفسني بها من وقت لآخر لأعتقد أنني (أمرح).. جوار لفاقة التبغ الكتاب الذي كنت أدرس فيه.. أنا طالب في كلية الآداب برغم كل شيء..

حاولت أن أركز فيما أقرأ لبعض الوقت، لكن شعوراً غريباً من التوتر استبد بي.. أعرف هذا التوتر غير القابل للتفسير والذي يحدث أحياناً ويمضي أحياناً.. خوف؟.. لا.. لقد كفت هذه المهنة عن أن تثير في أي شيء سوى الملل..

خيل إلي أنني أسمع صوتاً ما من داخل الثلاجة.. هذا أيضاً شيء معتاد في المهنة.. لابد حينما تكون وحيداً ليلاً أن تسمع جلبة من حيث يرقد الموتى.. ظاهرة ينتصب لها شعر رأسك في البداية.. ثم تتعلم مرة بعد مرة أن المصدر الوحيد للصوت هو عقلك المكدود..

لكنني قررت برغم كل شيء أن أنهض متثاقلاً.. اتجهت إلى الثلاجة وفتحت درجها العملاق.. كان المتوفى حيث هو لم يتحرك.. أزحت الملاعة وأعدت النظر إلى وجهه.. بالفعل تتزايد الزرقة أكثر فأكثر.. لابد من تفسير لهذه الظاهرة.. إنه رجل أشيب الشعر له ملامح نبيلة.. أنفه معقوف كمنقار النسر وله شفتان رفيفتان حازمتان.. واضح أنه لم يتعذب كثيراً أثناء احتضاره..

قرأت الشهادتين وأعدت غلق الدرج وعدت إلى منضدة الدراسة..

بعد قليل سمعت صخباً.. أعرف هذا النوع من الضوضاء..

كان القادم هو (مدير أعمال).. عم (عثمان) جاء ليمضي بعض الوقت هنا ويتفقد الأحوال..

لم يكن وحده.. كان معه رجلان.. وقد حياني بطريقته النوبية الظريفة ثم اقتادهما إلى

الحجرة الجانبية الصغيرة التي كانت حمامًا ثم جعلها مكتبًا له، وهو أغرب مكتب يمكن تخيله.. مكتب له دوش يتدلى من السقف وماسورة تنحدر على السيراميك.. ثم ينتهي كل هذا فجأة.. وكان في المكان مكتب عتيق صدئ من طراز (إيديال) وثلاثة مقاعد خشبية من طراز مقاعد المقاهي.. لهذا كان يطلق على المكان ببساطة اسم (الدورة)..

دخلت إلى حيث جلس مع الرجلين وانتشر الدخان في هواء الغرفة الضيقة، فنقلت له خبر القادم الغريب.. هز رأسه بمعنى أنه مطمئن لكل شيء ما دُمت موجودًا..

كان يتكلم بينما أنا أنظر إلى الرجلين..

هذا الوجه..

الرجل الذي يلبس قميصًا أبيض.. هذه الملامح الوقور.. هذا الأنف المعقوف الشبيه بمنقار النسر.. هذا الشعر الأشيب..

أين رأيت هذه الملامح من قبل؟

* * *

بعد قليل خرج عم (عثمان) من الغرفة ليرى ما لدي..

كنت أجلس في تلك القاعة رديئة التهوية والإضاءة أطلع كتبي عندما دخل علي، فسألته عن هذين القادمين معه.. قال وهو يصلح عمامته:

-"صديقان.."

ثم اتجه إلى الثلاجة ففتحها.. وسمعته يشهق..

نظرت إلى حيث وقف وأنا أتوقع منه تعليقًا عن اللون الأزرق، لكنه قال في حيرة:

-"أين وضعته؟"

دنوت منه أكثر فوجدت أن الدرج خال.. نعم.. خال تمامًا!

صحت في هلع وغباء:

-"كان موجودًا.. أقسم بالله أنه موجود.. أنا لا أفهم.."

نظر لي بعينه التي يكتسي بياضهما باللون الأصفر كطبيعة السود ولم يعلق.. فقط قال لي:

-"يبدو أنك مرهق.. هل غادر (المرحوم) الثلاجة؟.. لا أظن.."

قلت في جنون:

-"طبعًا لا.. أنا لم أفارق المكان.. لم يسرقه أحد.. أنا لا أفهم.. أنا لا أفهم..!"

ثم صحت وقد تذكرت:

.. "رجلا سيارة الإسعاف أحضراه.. سوف يؤكدان لك الأمر.."

قال وهو يغلق الدرج:

.. "إما أن الجثة سرقت منك وأنت جالس هنا كأنك (مقطف) وإما أنك تكذب أو تتخيل.."

.. "لا هذا ولا ذاك ولا ذاك.."

في هذه اللحظة ناداه أحد الرجلين فنظر لي بسرعة ثم عاد إلى الغرفة التي كانت حمامًا فصارت مكتبًا..

كنت أنا أفكر بلا انقطاع... الرعب الحقيقي هو أن حواسي تخدعني.. أفضل أن يكون الميت قد نهض وفر، لكن لا تقل لي من فضلك إن حواسي تخدعني..

هكذا ظللت أحك فروة رأسي كالمجانين محاولاً أن أفيق.. أفيق من ماذا؟.. أفيق من حالة اللاوعي التي تمر بي..

لا أعرف متى رحل الثلاثة.. لابد أن عم (عثمان) لم يرد أن يضايقتني ثانية.. غداً سيناقش هذه الأمور معي بشكل أوضح...

وأضيت الوقت أنظر في الكتاب غير عالم كيف يجب أن أفكر..

هل أصارك بشيء؟.. كانت هذه أسوأ ليلة في حياتي.. لقد مر الوقت ثقيلًا واستعدت كل المخاوف القديمة من الموت..

على أنني في الثانية بعد منتصف الليل تذكرت أين رأيت تلك الملامح التي رأيتها على الجثة.. رجل أشيب الشعر له ملامح نبيلة.. أنفه معقوف كمنقار النسر وله شفتان رفيعتان حازمتان.. إن هذا بالذات هو الرجل ذو القميص الأبيض الذي كان يجلس مع عم (عثمان)!! نعم.. لاشك في هذا..

لابد من تفسير لهذا.. هل فر الميت من الثلاجة ليجلس مع صديقيه؟.. هل هو أخو المتوفي التوأم مثلاً؟

المشكلة إنني لو صارحت عم (عثمان) بهذا الرأي لأضفت نقطة أخرى إلى سجل خبالي..

* * *

في الرابعة صباحًا سمعت صوت المحفة.. هذه المرة رأيت مسعفين يدخلان المشرحة وهما يحملان محفة عليها وجه مكسو بملاءة..

كنت أعرف هذين الرجلين جيدًا، وقد حيانى أحدهما وقال:

.. "وجدوه ميتًا في الزقاق المجاور.. لا يبدو أن هناك جريمة في الأمر.. لا أوراق.. إنه ناقص الأهلية.."

وقال آخر وهو يجفف عرقه:

-ربما كانت أسرته تفتش عنه الآن.. وربما لم تكن له أسرة.. لا نعرف.."

هذه المحاورة تبدو مألوفة.. دنوت من الجثة وكشفت الوجه.. وارتجفت.. للحظة كف قلبي عن الخفقان.. هذه المرة بلا لون أزرق ولا شيء.. مجرد جثة يبدو السلام على وجهها.. إنه الرجل ذو القميص الأبيض.. الرجل أشيب الشعر بلامحه النبيلة وأنفه النسري وشفتيه الرفيعتين..

لقد مات.. إنه صديق عم (عثمان).. لا شك في هذا..

وحينما انصرف المسعفان رحت أفكر في معنى هذا كله.. جثة زرقاء تصل في الساعة التاسعة مساء.. بعد هذا تختفي الجثة.. ثم تصل من جديد غير زرقاء في الرابعة صباحًا..

صاحب الجثة بلا شك هو ذلك الرجل الذي كان جالسًا في (الدورة).. ما معنى هذا؟

يقولون إن الميت يكون ميتًا بالفعل أربعين يومًا قبل موعد وفاته الحقيقي.. في هذه اللحظات يجلس مع الناس ويتكلم وهو لا يعلم وهم لا يعلمون أنه ميت في وقت مقترض.. حكيت هذه القصة ذات مرة لعم (عثمان) فضحك ساخرًا، وقال إن هذه خرافات..

عندهم في النوبة يعتقدون أن هذه الفترة نصف يوم..

ثم ماذا؟.. لا أذكر كل ما قاله لي..

الآن لنفترض أن حالة الشفافية التي مررت بها منحنتي هذه الموهبة العجيبة.. لقد رأيت الرجل ميتًا قبل أن يموت فعلاً بسبع ساعات أو أقل.. وكانت العلامة التي مُنحتُها هي أنني رأيته مصبوغًا باللون الأزرق.. بعد هذا فارق الرجلُ الحيُّ رفيقَه وأمضى أمسية مع رفاق آخرين.. أمسية أرهق فيها صحته طبعًا أو دخن جرعة أكثر من اللازم من المخدرات.. كل أصدقاء عم (عثمان) مدمنو مخدرات بالمناسبة.. هكذا أصابته تلك النوبة القلبية في الزقاق المجاور للمستشفى ووجده أحدهم وابلغ الإسعاف..

هل هذا السيناريو ممكن؟

كنت غارقًا في هذه الخواطر في الخامسة والنصف صباحًا عندما تردد الصوت الرهيب من جديد.. هذه من الليالي الصاخبة إذن..

على أنني تصلبتُ عندما رأيت المسعفين اللذين كانا يدفعان المحفة..

إنهما المسعفان اللذان رايتهما أول مرة.. اللذان احضرا الجثة الزرقاء.. حقًا إنني أحرق.. لماذا لم أهتم كثيرًا بلونهما الأزرق الذي لا شك فيه؟.. هل هما شبهان؟.. هل هما ميتان؟..

حاولت ألا أظهر جزعي بينما هما يقفان أمامي بحملهما الرهيب..

قال أحدهما:

-شاب دهمة سيارة مسرعة.. إنها ميتة شنيعة"

لم أعلق..

فقط دنوت من المحفة ورفعت طرف الملاعة لأرى صاحب هذه الجثة..
بالفعل كان اللون الأزرق يغمر كل شيء.. والآن فقط تذكرت باقي ما قاله عم (عثمان) لي..
قال لي إن هؤلاء الذين يكونون مبتين فعلاً وهم لا يعلمون، يكسبون شفافية خاصة.. إنهم
يرون ما لا يراه غيرهم.. يرون أولئك الذين سيموتون مثلهم في الساعات القادمة!..
الآن أتذكر هذه الكلمات وأفهم لماذا اكتسبت هذه الشفافية..
إن الوجه الأزرق الراقد على المحفة كان وجهي أنا!

* * *

نيلي

الأزرق النيلي.. بداية العالم ونهايته.. هو قبل الأشياء وهو بعد الأشياء..

يقول (سليمان) وهو يشمر كميّ القميص إلى منتصف ذراعيه المفتولتين:

.. "أنا لا أتكلم عن الغروب والشروق.. تلك الأوقات التي يحلو للشعراء أن يتغزلوا في النيل فيها.. أغلب هؤلاء (أفندية) لا يفارقون مقاهيهم في وسط القاهرة.. هؤلاء لا يعرفون أنهم يتكلمون عن اللون الذهبي أو القرمزي.. أنا أتحدث عن لحظة بعينها من النهار.. اللحظة التي يصير فيها النيل أزرق نيلياً فعلاً كما في الكتب.. كما خلقه الله.. تحدث أنت عن النيل في الليل.. عندها أنت تتكلم عن الأسود.. تحدث عنه عند الغروب.. عندها تتحدث عن الأرجواني.. لكنني أتحدث عن النيل حينما يكتسب هذا اللون الأزرق النيلي الهادئ النادر.. تشعر لحظتها أن هذا هو النيل حقاً وقد نزع عنه أقنعة التكلف والادعاء.."

كنت أفهم ما يقول إلى حد ما.. الرسام التأثيري الباريسي الذي لم يكن يرسم محطة (سان لازار) إلا في ساعة معينة من اليوم.. لا قبلها ولا بعدها، لأنه يبحث عن نوع معين من الإضاءة.. وبعد أن تتلاشى الإضاءة التي يريدها كان يحمل فرشاته ولوحة الرسم ويعود لغرفته في (مونبارناس).. هل كان (مونييه) أم (مانيه)؟.. ما زلت أخلط بين الاسمين..

كنت أفهم هذا وأفهم سر تعلق المرء باللون الأزرق النيلي الهادئ.. حتى في سحر (الكابالا) اليهودي يرمز هذا اللون للطبقة الرابعة (شسيد = الرحمة).. أي أنه يرمز إلى الأب.. إلى الحنان.. إلى العدل والخير والاتزان الكوني.

كان (سليمان) يدرس في المدينة، لكنه كان يصبر على أن يعود إلى (كفر الزيات) كل يوم.. وفي الساعة المختارة كان يتوجه إلى النيل.. يمشي بضع دقائق على ضفته أو يستقل قارباً يجذب به مطارداً الأزرق النيلي الجميل.. لهذا – ولأن هذه العادة ترافقه منذ الصبا – صارت له كتفان عريضتان تذكرانك بأكتاف المصارعين، وكان حجم ذراعه جديراً بالتأمل.. لن تكسب أية مشاجرة معه أبداً.

* * *

إنها الثالثة عصرًا في هذا الوقت من السنة..

هو يعرف الوقت بالضبط.. ويعرف أن الموعد يختلف في الشتاء..

كان هذا وقتًا مميًا خاملًا.. في الصيف تكون الشمس عمودية تمامًا تجعل الجميع ينفرون من المشي.. في الشتاء يكون الطلبة والموظفون قد عادوا لديارهم..

لا أحد على الكورنيش إلا بعض العشاق من القرى المجاورة.. طلبة غالبًا.. ينظرون حولهم في رعب.. هنا يختلف العشاق عن عشاق القاهرة الذين ينظرون لك بوقاحة وتحد.. إنهم هنا خائفون مذعورون مستعدون للتفرق في أية لحظة.. ولن يزيد الأمر على بضع جمل تقال بصوت خفيض وسرعة ثم يعود كل منهما لداره يحمد الله على نجاته هذه المرة.

يمشي (سليمان) في ثقة متجهًا إلى السور.. تلك الفتحة التي اجتازها مئات المرات من قبل.. يعبر إلى الضفة الترابية المنحدرة.. يمشي قليلًا إلى أن يقابل (محمد عصر).. المراكبي العجوز الجالس جوار الشط لا يفيق من الحشيش.. العينان الحمران المنهكتان الضيقتان.. السحنة المربدة التي تشي بكيف صاحبها.. برغم هذا كان الرجل لطيف المعشر، وهي تلك الصفة التي نلاحظها في الحشاشين المسنين حيث يجعلهم الحشيش أهدأ طبعًا وأقرب للتأمل.

على مسافة مترين يجلس (يوسف).. رجل في الثلاثين من العمر لا يعرف عنه (سليمان) إلا أنه يصطاد.. يصطاد دائمًا.. يصطاد للأبد.. القبعة القماشية الممزقة على رأسه و(الغلق) الذي يحوي شيئًا ما، والصنارة الطويلة المتدلية في الماء أبدًا.. لم يره قط يستخرج سمكة من الماء.. لكنه صار من ضروريات النيل..

يسأل (محمد عصر) عن الأحوال فيقول هذا إنها (زفت) كالعادة.. ويضحك حتى يشخخ صدره من فرط ما فيه من بلغم..

وبحركات الواثق الذي فعلها مئات المرات من قبل ينزع (سليمان) حذاءيه ويلقيهما في القارب الخشبي، ثم يدفعه ليبعد مسافة عن الضفة ثم يثب فيه.. يفعلها من دون أن يطلب الإذن من صاحبه.. لقد قضت العادة على الفضول أو التساؤلات، وقد اتفق هؤلاء القوم ضمناً على أن يفعل كل منهم ما يريد دون أن يسأله الآخرون أو يسألهم هو..

يبعد القارب ليتوغل في النهر الواسع.. جزر ورد النيل تحيط به فيخترقها.. هذه اللحظة بالذات أثيرة إلى نفسه.. يحرك المجداف بألفة وثقة قاصداً تلك البقعة التي يعرفها جيداً.. البقعة التي يرى فيها اللون الأزرق النيلي.

يجب أن نتوقف هنا لنؤكد بعض الحقائق.. لم يكن (سليمان) شاعرًا.. ولم يكن يتمتع بثقافة خاصة.. فقط كان النداء يدعوه كل يوم ليرى هذا الأزرق العظيم.. لم يكن يهتم بتحليل مشاعره، ولا يهتم بفهم ما يدور بخلده؛ فقط كان يريد أن يُترك وشأنه وأن يسبح في هذه الزرقة إلى أن يتبدل اللون.. بالنسبة لي ولك لم يكن يتبدل، لكن عيني (سليمان) الحساستين كانتا تلحظان الفارق.. عندها لا يعود النيل نيلاً، إنما هو نيل الآخرين المتظاهرين بالشاعرية.. نيل (الأفندية) كما كان يحلو له أن يدعوه..

وعندها فقط كان يعود..

أحيانًا كان يتوقف بالقارب عند الضفة الأخرى.. ويُخرج من الكيس البلاستيكي كتابًا من كتب

الجامعة، ويحاول أن يقرأ شيئاً.. كان يدرس الحقوق.. وكان يكره الحقوق.. لكنه كان يحاول بضمير مخلص أن يفعل ما يفترض منه أن يفعله.. والنتيجة: لا شيء.. حروف زائغة ومعان لا تستقيم.. سرعان ما تنزلق عيناه فوق الأوراق لتستقرَّ على الماء.. ولا يدري متى ولا كيف ينغلق الكتاب ليعود إلى الكيس..

هل كان واقعاً في الحب؟.. أنا لا أعرف.. لا أحد يعرف.. أراهن على أنه هو نفسه لا يعرف.. إن تلك النظرات الخاوية الزائغة أبعد ما تكون عن نظرات إنسان يعرف نفسه..

إذن فيم كان يفكر وهو ينظر للماء؟..

متى بدأت القصة؟.. أنا لا أعرف.. هو لا يعرف.. لا أحد يعرف..

* * *

الأزرق النيلي.. بداية العالم ونهايته.. هو قبل الأشياء وهو بعد الأشياء..

تقول (عواطف) وهي تحكم ربط الإيشارب النيلي حول عنقها:

"قليلات يفهمن ما أتكلم عنه.. أنا أتحدث عن لحظة بعينها من النهار.. اللحظة التي يصير فيها النيل أزرق نيلياً فعلاً كما في الكتب.. كما خلقه الله.. تشعر لحظتها أن هذا هو النيل حقاً وقد نزع عنه أقنعة التكلف والادعاء.."

لا تعرف سر هذا النداء الغامض الذي كان يدعوها إلى النيل في هذه الساعة من كل يوم.. إنها تعيش في (كفر الزيات)، ولم تكن تعاني كثيراً في البحث عن مأمورية ما تدفعها للخروج في هذه الساعة.. إن الوقت حول العصر على كل حال.

كانت طالبة في الثانوية التجارية، ولم تكن رائعة الجمال لكنها كانت ممشوقة القوام.. ولو رأيتها وهي تمشي بسمرتها فاردة ظهرها جوار النهر لخليل إليك إنها (إيزيس) ذاتها، وكأنها تفتش عن أشلاء (أوزيريس) المتناثرة هنا وهناك.. هل ترى ثيابها الرخيصة؟.. إنها تهيم حباً بهذه الدرجة من الزرقة بالذات..

كانت ترى ذلك المراكبي العجوز الجالس يدخن والذي لا يفيق أبداً، وذلك الصياد الذي لا يصطاد شيئاً أبداً.. ترى بائعة اللب وذلك الصبي الذي يقف بكيزان ذرة لا يبيعها أبداً..

كلها معالم تحفظها جيداً، وهي تمشي جوار النهر العظيم ذائبة في الأزرق النيلي..

هناك من يعاكسها من هؤلاء الفتية الذين تأخروا في العودة من مدارسهم.. تعرفهم من ثيابهم الموحدة والكتب التي يحملونها.. إنهم لا يفهمون لمشي فتاة وحيدة مثلها إلا معنى واحداً.. وكل واحد منهم يتمنى أو يريد أن يبدأ قصة ما، لكنها لا تبالي بهذه السخافات؛ هذا الذباب الذي يمنعها من النظر إلى النيل بلا انقطاع.

تمشي على النيل وهي تنظر للضفة الأخرى بحنين.. لو استطاعت أن ترمي بنفسها فيه.. لو كانت لها حرية أن تركب قارباً من هذه القوارب كما يفعل ذلك الفتى مفتول العضلات هناك.. لكن مجتمعاً كمجتمعها قاس جداً على المرأة ولن يفهمها أحد..

فقط الرجل يحق له أن يخرج متى شاء، ويعود متى شاء.. ويستأجر قاربًا يجوب به الماء متى أراد.. ولو قرر في لحظة أن ينزع ثيابه ليثب في النيل لما أتهمه أحد بالوقاحة..

الوقاحة الحقيقية هي أن ترى شيئًا غريبًا في هذا..

كانت تنتهد.. ثم تكمل جولتها وتعود..

حقًا هي لا تعرف سر وَلَعِها باللون الأزرق النيلي..

* * *

الأزرق النيلي.. بداية العالم ونهايته.. هو قبل الأشياء وهو بعد الأشياء..

يقول (يوسف) وهو يضع في الشص دودة أخرى:

"أنا لا أتكلم عن ذلك النيل الذي تراه في (السيما)؛ نيل (أحمد) و(منى) وهذا الهراء.. النيل الذي يدعوني إليه هو النيل عندما يبدو نيلًا.. أزرق.. نيليًا.. جميلًا صافيًا.."

كان يعرف أنه صيادٌ خائب.. أسوأ صياد عرفه في حياته..

لكن ما أن يأتي الوقت حتى يجد نفسه يحمل ديدانه وصنارته ويضع القبعة القماشية على رأسه ويهرع إلى النيل.. يمر جوار عم (محمد عوف) العجوز الذي لا يفيق من الحشيش والذي يتظاهر بأنه مراكبي محترف.. اسمه (محمد عوف)..

لقد أخبره بهذا وأخبره أن الحمقى يحسبون اسمه (محمد عصر).. لا يهم.. عندما تصير في سني لا يهم.. إن القبر لا يبالي باسم العظام الراقدة فيه.

يقول عم (محمد):

"لا يمكنك أن تصطاد (بسارياية) واحدة في هذا المكان وفي هذا الوقت.. السمك لا يأكل الآن يا بني.. يجب أن تنتظر الغروب.. واذهب هناك.."

ويشير بيده الراجفة إلى بقعة ما يحفها ورد النيل، ويمر بها في هذه اللحظة قارب الفتى مفتول العضلات الذي يراه كل يوم..

كم مرة قالها له العجوز؟.. وكم مرة لم يصغ له..؟

إن الصيد آخر شيء يريده.. كل ما يريده – منذ نعومة أظفاره – هو أن يملأ عينيه بالأزرق النيلي.. والصيد مجرد مبرر واه..

تلك الفتاة التي تأتي كل يوم تمر به.. معقولة.. ليست جميلة لكن جسمها لا بأس به أبدًا... الغريب أنه لم يشعر لحظة في حياته بأنه بحاجة إلى امرأة.. هل هو طبيعي؟.. لا يعرف..

* * *

أنقل هنا كلمات عم (محمد عوف) أو عم (محمد عصر):

"كان ذلك اليوم يختلف.. لم يعد واحد منهم وقد بدأ الليل يدنو..

لم أفهم ما يحدث.. إن عيني مريضتان سقيمتان، لكن كان بوسعي أن أرى ذلك الفتى (سليمان) الذي صار زبوني الوحيد يجوب النهر بإصرار... يدور بالقرب وسط جزر ورد النيل.. ثم يعود بلا نية للهبوط على الضفة..

في اللحظة ذاتها رأيت أن (يوسف) الصيد لم يجمع حاجياته ويرحل.. لقد كومها جواره وراح يرمق النهر في إصرار غريب.. بعد قليل اقتربت تلك الفتاة التي تأتي هنا كل يوم.. وقفت تنظر للماء..

لقد غربت الشمس الآن ولونت الماء بلون أرجواني غريب..

لكن الفتاة لم تغير وقفها.. وبائعة اللب لم ترحل.. الكل يقف على ضفة النهر يرمق الماء بإصرار لم أفهمه..

ثم رأيت القارب يدنو أخيرًا من الضفة فيترجل منه ذلك الفتى..

صحت مناديًا:

"تأخرت اليوم.. إن لنا حسابًا خاصًا.."

لكنه لم يقل شيئًا.. فقط وقف مع الواقفين ينظر للماء..

ثم رأيتهم يمسكون بأيدي بعضهم البعض.. لم أفهم معنى هذا.. إنهم لا يعرفون بعضهم البعض إلى هذا الحد.. رأيتهم يخطون بخطى ثابتة نحو الماء..

لا تقاطعني!.. أعرف أن كل ما أقوله يحوم حوله الشك.. ستقولون إن الحشيش أطار صوابي.. نعم.. هذا جائز.. لكنني أقسم بقبر ابني الأكبر أنني رأيتهم يمشون نحو الماء.. بلا تردد ولا خوف ولا أي شيء.. هل تريد أكثر؟.. أقسم لك أنني رأيتهم يمشون فوق الماء!.. يمشون.. يمشون.. وسط ورد النيل العائم..

ونظرت حولي فلم أر أحدًا أشهده على هذا المنظر الرهيب.. لو كان أحد قريبًا..

رأيتهم الآن قد وصلوا إلى منتصف النهر ثم بلا أية مقاومة ولا كلمة واحدة رأيتهم يغوصون في الماء.. يغوصون.. لا شيء سوى الفقاقيع.. لا شيء سوى دوامات الماء..

لقد اكتمل الظلام..

ولم أعد أتبين شيئًا إلا هذه البقعة السوداء في وسط النيل.. والتي أقسم لك إنهم كانوا يقفون عليها منذ ثانيتين..

تقول إنني أخرف.. لا ألومك كثيرًا.. أنا نفسي أشك في عقلي الآن..

لا عليك.. انس ما قلت.. انسه..

* * *

لكني لم أنس ما قال..

لم أنسه قط وما زلتُ أعتقد أنها لحظة عابرة من صفاء الوعي جعلته يرى ما رآه.. هؤلاء الفتية كانوا يتلقون نداء النهر منذ أعوام.. فما معنى هذا؟.. ثم جاءت اللحظة وسرعان ما اتجهوا إلى الماء ليغوصوا فيه بلا اتفاق مسبق ولا ترتيب.. التحول..

هذه هي الكلمة الصحيحة.. لقد تم إعدادهم لشيء كهذا طويلة حياتهم.. كان هذا النداء الذي لا يعرفون كنهه ورافقهم عدة أعوام.. ثم تم التحول وهكذا انتقلوا إلى طور آخر من حياتهم.. طور لا نعرف ما به..

دودة القز تلتهم أوراق التوت ولا تعرف السبب.. وفي لحظة بعينها تبصق خيوط الحرير لتدخل في طور الشرنقة..

ما اليد الخفية التي اختارت هؤلاء ولأية أغراض؟..

عشرة أعوام أو أكثر من الإعداد.. لماذا؟.. هل ليموتوا غرقاً أم ليكونوا أبناء النهر؟ إلام صاروا؟.. ولماذا لم يجد أحد جثثهم قط؟

* * *

عم (محمد عوف) أو عم (محمد عصر) يجلس عند منتصف الليل جوار النهر..

إن الجو بارد لذا أعد لنفسه هذا (الخصوص) الذي يقيه شر البرد، وهو هناك جالس يشرب الشاي ويدخن الجوزة.. ويسعل..

بالنسبة له لا شيء يهم.. رأى هذه الظاهرة أم لم يرها لا شيء يهم..

القبر لا يبالي إن كانت العظام الراقدة فيه قد رأت عجباً أم لا، كما لا يبالي إن كان اسم صاحب العظام (محمد عوف) أو (محمد عصر)..

والحشيش.. صديقه الدائم.. لقد دخنه قبل أن يرى ما رآه فلم يستوثق منه.. اليوم يدخنه بعد ما رآه فنسى أكثره.. لكنه سيعرف الكثير بعد دقيقتين.. بعد دقيقة واحدة.. بعد ثوان..

إن الماء يتحرك بجوار الضفة..

يخيل إليه أن شيئاً يرتفع من هناك..

الآن يرى بوضوح على ضوء النيران ذلك الشخص الخارج من الماء، والذي ابتل شعره واختلط بالأعشاب، وانتفخت ملامحه كالغرقى..

لكنه الوجه ذاته.. لن ينساه أبدًا..

(سليمان) يقف هناك ويمد يده له.. وبصوت مبجوح خافت لم يستعمله منذ زمن يقول:

-"تعال يا عم (محمد).. لا تخف.. سأريك شيئًا لم تره من قبل.."

إن الماء لا يبالي بأسماء الجثث الغارقة فيه، إن كانت (محمد عوف) أو (محمد عصر).. كما أن الحشيش جعل جسدك واهنًا متراخيًا عاجزًا عن الفرار أو الصراخ أو حتى إلقاء الأسئلة..

لا تخف أيها العجوز..

لا تخف..

بنفسجي

لون عيني أختها (ميادة) بنفسجي..

لا يمكن أن تتصور مدى تباين الآراء حول هاتين العينين.. كأننا نناقش قضية الشرق الأوسط.. إن أباهما يؤكد أنهما زرقاوان.. (مراد) حبيبها يقول إنهما كحليتان.. أستاذ (فكري) قال إنهما سوداوان..

(مها) فقط تؤمن يقيناً أن عيني أختها بنفسجيتان..

الكل يضحك.. الكل يتهمها بالسخف.. الكل يتهمها بالهذيان.. لكنها واثقة مما تقول.

فيما بعد قرأت أن عيني (تشيكوف) الكاتب الروسي العظيم كانتا علامتي استفهام بالنسبة لكل من تعامل معهما.. لم يتفق أحد قط على لونهما.. هذا يعني أن الأمر وارد.. ثمة أعين لا يعرف أحد لونها يقيناً...

* * *

لا تذكر متى لاحظت هذه الحقيقة..

ربما لاحظتها يوم جاء (مراد) لدارها أول مرة.. جلس في الصالون متظاهراً بالأدب يصغي لكلام الأب الذي لا ينتهي عن مستقبل المنطقة.. من الغريب أن العبقري الذي يفهم كل طلاس السياسة والدين والاقتصاد والقانون والطب ليس بعيداً.. إنك تقابله في كل مكان تقريباً.. إنه جارك.. إنه صديقك.. إنه أبوك.. إنه أول واحد تلقاه في الشارع لو خرجت الآن.. إذن أين الحمقى في عالمنا؟.. إنهم المكلفون رسمياً بهذه الأمور..

كان (مراد) يتظاهر بالإصغاء ويعتصر كأس العصير.. كم تحب هذه البسمة نصف المهدبة نصف الساخرة على شفتيه والتي تراها كثيراً أثناء عمله في الإدارة صباحاً..

لكن الابتسامة تلاشت عندما دخلت (ميادة).. صافحته وجلست جوار أبيها، وتلك الرائحة الفواحة تتصاعد منها.. كان وجودها ذاته ملموساً كأنها طيف.. طيف غريب ساحر.. وقد تساءلت (مها) في دهشة عن السبب الذي يجعل أختها تتألق بهذا الشكل – الذي لم تره قط – لأن عريساً جاء لأختها..

تلاشت الابتسامة وتظاهر (مراد) بعض الوقت بأنه منهمك لا يلاحظ، ثم فجأة بدأت عيناه تنزلقان نحو (ميادة).. هذه النظرة!.. تعرفها جيداً!.. لن نتخدع فيها!..

الآن صار يتكلم ببطء ويضغط على كل حرف.. أحياناً ينسى ما كان يريد قوله.. وقد خرجت (مها) لشأن ما، ثم عادت لتضبطه ينظر إلى (ميادة) بثبات وإفراط بينما الأب يثرثر بلا انقطاع.. نعم.. هو ينظر لها وإن كان يعطي انطباعاً أولياً بأنه ينظر نحو الأب.. تذكرت الشاعر الأحول (أبو العيناء) الذي كتب عن موقف مماثل:

"حمدت الله إذ بلاني بحبها * على حول يغني عن النظر الشذر

نظرت إليها والرقيب يظنني * نظرت إليه فاسترحت من العذر!"

هكذا جلست (مها) متعكرة المزاج، فلو كانت هذه قصة مصورة لخرج الدخان الأسود من رأسها كناية عن الغيظ.. هذه الأفعى قد قررت أن تفسد أجمل ليلة في حياتها حتى هذه اللحظة..

كانت (ميادة) جالسة وقد أشرق وجهها كالشمس، وكانت تتابع كل حرف يقوله (مراد) وهي توشك على الانفجار ضحكاً أو تؤمّن على كلامه كالإماء.. بينما هي - (مها) - جالسة كالضيف الزائد.. لا دور لها على الإطلاق في أي شيء، ولو جاء زائر من المريخ لقال لك إن (ميادة) و(مراد) حبيبان يجلسان في وجود عاذلٍ يثقل الظل..

عندها أدركت أن عيني (ميادة) بنفسجيتان..

* * *

كان هذا الشيء يتوهج على الأرض بلا انقطاع..

وانحنى تلتقطه وتتفحصه..

ربما كان ورقة.. لكنها أقرب إلى رقاقة إلكترونية كالتي نراها في الدوائر المتكاملة.. دوائر كهربية رُسمت رسماً على دعامة من المعدن.. وكان لها بريق غريب..

قالت لأختها:

"ربما كان من الحكمة أن نتخلص منها.. سمعت أن هذه الأشياء تنفجر"

قالت لها وهي تدس الرقاقة في حقيبتها:

"لا أعرف.. ربما كانت مهمة.. أنا لم أعود التخلص من شيء لا أعرفه"

* * *

في الصباح قابلت (مراد) في الإدارة حيث كان عاكفاً يصلح ثغرة في برنامج الكمبيوتر الذي صممه..

قالت له في فتور:

-"علام اتفقتما؟"

قال وهو يواصل قرع المفاتيح:

-"لم نتفق.. كان هذا هو التعارف.. الخطوة الأولى.. الخطوة الثانية هي طلب يدك رسميًا في وجود أهلي.."

ثم حك رأسه في دهشة وسألها:

-"غريب.. حسبت أنك تابعت المحادثة كلها.."

قالت في شيء من السخرية المريرة:

-"(ميادة) تابعت كل شيء.."

هل يتعمد أن يغيظها أم هو فعلاً أبله إلى هذا الحد؟.. لقد قال في افتتاح وقد توقف عن الكتابة:

-"أختك هذه ظريفة فعلاً.. والأغرب أن عينيها كحليتان!.. لم أر في حياتي شخصاً له عيان بهذا اللون!"

كانت تعرف ولع الرجال الوحشي بإثارة غيرة النساء اللاتي يحبونهم.. لهذا قررت ألا تحقق له أي انتصار وقالت في برود:

-"أنت دقيق الملاحظة.. لم أنظر في عيناها قط في حياتي.. لكنك رأيت هذا وبرغم المسافة بينكما.. عبقرى فعلاً!"

هز رأسه وواصل الطرق على المفاتيح..

لكنها قالت في نفسها إنه أحمق.. إن لون عيني (ميادة) بنفسجي..

يكفي هذا.. هذه لن تكون المرة الأولى التي تظفر فيها (ميادة) بكل شيء.. بتقدير المدرسين وحب الأبوين وهيام المعجبين وتصديق المتشككين.. كل شيء..

هناك قصة لـ (مارك توين) تحكي عن أخوين أحدهما مهذب متواضع قانع، والآخر وغد صاخب مزعج.. لهذا كانوا يعطون الأول أقل القليل من كل شيء (لأنه ملاك)، بينما الآخر كان يظفر بأفخر الثياب وأعلى الألعاب (لأنه وقح يصعب إرضاءه).. الحقيقة أن هذا كان سيناريو حياتها مع (ميادة) تقريباً..

الأب كان يدلل (ميادة) كثيراً لأنها الأصغر ولأنها تشبه المرحومة أمها.. حتى في لون العينين الأزرق.. وحتى سن العشرين كان يذهب لكليتها ليصحبها في العودة، بينما (مها) قديرة لا يخشى عليها المرء، لذا كانت تواجه حتفها على درجات الحافلة كل يوم وتتلقى ألف كوع في وجهها..

أما حينما تمشي الشقيقتان معاً، فقد كانت (مها) تعرف أين ينظر الجميع ولماذا.. فلولا

التهذيب لطلب منها الناس أن تتنحى قليلاً كي لا تحجب جمال أختها..
في تلك اللحظات كانت تدرك أن عيني (ميادة) لونهما بنفسجي..

* * *

متى قررت أن (ميادة) لم تعد كما كانت؟

هذا أيضاً من الأمور التي يصعب إعطاء رأي دقيق فيها.. أنت تفاجأ بأن ابنك الطفل البريء رفيع الصوت صار مراهقاً خشن الصوت والوجه، فلا تستطيع أن تعطي تاريخاً محدداً حدث فيه هذا.. التغيرات التدريجية تجعل تحديد التاريخ مستحيلاً..

الملاحظة الأولى هي أن عيني (ميادة) ليستا بنفسجيتين دائماً.. لا شك في هذا.. من السهل أن تقول إنها كانت واهمة من البداية.. لكن لا.. هي واثقة من حواسها جيداً.. لون عيني (ميادة) صار بنفسجياً ثم لم يعد كذلك، ولا مجال هنا للكلام عن عدسات ملتصقة..

أحياناً أخرى تنظر لـ (ميادة) فتجد أنها كانت حمقاء.. عينا الفتاة بنفسجيتان بقوة.. وفي كل مرة تكلم نفسها عن ألعيب الضوء.. العين البنية الفاتحة تخضر أحياناً أو تبدو ذهبية في أحيان أخرى..

لماذا صارت (ميادة) تأكل أقل فأقل؟.. هي لم تكن شرهة لكنها لم تكن فراشة قط..

ثم عادة الكلام أثناء النوم.. إن الفتاتين تنامان معاً في غرفة صغيرة حميمة هي نموذج لأية غرفة فتيات في مصر.. كانت (ميادة) تنام كالقبر فيما سبق.. بلا أي صوت.. لا شخير.. لا صليل من الأنف.. لا شيء..

في الفترة الأخيرة هي تتكلم.. أولاً تبدأ في الضغط على أسنانها محدثة صريراً.. الصوت الذي يحطم أعصاب (مها) فعلاً.. ثم يبدأ الكلام.. لغة لا يمكن فهمها.. تقول أشياء.. أصواتاً غليظة.. أصواتاً خشنّة.. أصواتاً خفيضة.. ضحكات خافتة.. ضحكات مائعة..

ثم...

هل حدثتك عن موضوع الضوء البنفسجي الذي يغمر الحجرة؟.. نعم.. أحياناً تنهض (مها) من نومها مذعورة لتجد أن الغرفة تسبح في ضوء بنفسجي رهيب.. شيء يذكرك بالغروب.. وقبل أن تصرخ أو تحاول الفهم يزول هذا التأثير وتستعيد الحجرة الظلام المحبب السابق.. لقد فسرت الأمر أكثر من مرة بألعاب الضوء.. أثر الظلام على عين كانت نائمة ثم فتحت فجأة.. مثلما تنظر للشمس برهة من ثم تطاردك في كل ركن مظلم من دارك..

هذا بالطبع لو تغاضينا عن جلسات (ميادة) وحدها في الظلام تقرأ!

نعم.. هذا صحيح.. لقد صحت (مها) أكثر من مرة ليلاً لتجد أن (ميادة) تجلس في الظلام الدامس وعلى حجرها كتاب.. وذات مرة سألتها عما تفعله بالضبط فقالت (ميادة) في ارتباك:

"لا شيء.. أردت مراجعة نقطة في دروس غد ولم أشأ أن أزعجك!"

متى اتخذت قرارها؟

هذا أيضاً من الأشياء التي لا يمكن أن نحدد لها تاريخاً..

لقد صحت ذات يوم وقررت أن (ميادة) ليست هي (ميادة)..

هذا هو التفسير الوحيد والمقبول..

* * *

لعل هذا حدث بعد اليوم الذي جرحته فيه (ميادة) نفسها وهي تقطع برتقالة في المطبخ..
وهرعت (مها) مذعورة تحاول أن تساعدنا، لكن هذه ركضت إلى الحوض مرتبكة وراحت
تغسل يدها من الدم.. دم؟.. لربع ثانية استطاعت (مها) أن ترى السائل المتدفق، وعرفت في
قرارة نفسها انه ليس دمًا على الإطلاق.. إن لونه بنفسجي..

لم تستطع أن تصارح أحدًا بخواطرها.. إن الإجابة جاهزة: أنت هستيرية يا عزيزتي.. أما
الإجابة الأسوأ فهي: أنت تحقدين على (ميادة) لأنها تفوز بكل شيء وأنت لا..

هكذا قررت أن تبتلع خواطرها وتصمت..

لكنها قررت أن تفتش حاجيات (ميادة) جيداً..

ذهبت (ميادة) إلى كليتها في الصباح، وكان على (مها) أن تهرع إلى الإدارة لكنها قررت أن
تأخذ ساعة تأخير لهذا اليوم..

وحدها في الغرفة هرعت إلى خزانة ثياب فألقت عليها نظرة خبيثة.. كانت تعرف كل ثوب
وكل شيء هنا.. ثم راحت تفتش في صناديق الأوراق التي تخفي فيها (ميادة) (كنوزها) منذ
الصبا.. قوقعة غريبة الشكل، وردة مجففة، بطاقة معايدة عليها قطة جميل.. الخ..

لا شيء..

ثم هرعت إلى المكتب ففتحته وراحت تنقب..

لحظة.. هذا هو الكتاب الذي وجدته أكثر من ليلة بين يدي (ميادة).. لا يوجد كتاب آخر بهذا
الحجم وهذا القطع.. مدت يدها تفتش بين أوراقه فلم تر إلا كتاباً دراسياً مملأً يشرح هندسة
الاتصالات..

لكنها في نهايته وجدت شيئاً.. تلك الرقاقة التي وجدناها في قريتهما..

* * *

_"ما هذا الضوء الذي توهج للحظة واحدة خلف الشجرة؟"

_"لا أعرف يا (مها).."

"إذن تعالي نقرب.."

"يخيل إلي أنه شيء هبط من السماء.. هل تعرفين كيف تهبط تلك القنابل وتتفجر في السينما؟.. أخشى أن نكتشف أنه لغم.."

"كلام فارغ.. هل ترين شيئاً؟"

"لا.. لكن لحظة.. هذه الرقاقة البراقة.. لا أعرف سبب وجودها في قرية كهذه.. وسط روث الماشية.. هذه هي الشيء الذي هبط من السماء.."

* * *

إن الرقاقة الآن في راحتها..

لا يوجد ما ينفي أن تكون هي الشيء الذي تسهر (ميادة) تتأمله ليلاً..

تسربت حرارة جسدها إلى الرقاقة فراحت تسخن.. وتسخن.. ببطء لكن بشكل مؤكد.. إنها تتوهج بذلك الضوء البنفسجي الغريب الذي كانت تراه في الغرفة ليلاً..

انتابها الهلع فقذفت بالرقاقة لتسقط على الفراش، ثم ابتلعت ريقها وراحت تلهث..

هذه الرقاقة لعنة.. لا شك في هذا وهذه اللعنة قد مست (ميادة) فجعلتها تتغير.. لكن.. لعنة؟..

لعنة؟

غريبة هي تلك اللغات التكنولوجية التي تشبه الدوائر المتكاملة..

ثم خطر لها شيء آخر..

(ميادة) هي التي أسرعت أولاً لترى ما سقط خلف الشجرة.. هي رأت أفلاماً كثيرة للخيال العلمي، ورأت عشرات القصص التي يتم فيها الاستبدال في لحظة.. فجأة لم تعد (ميادة) هناك.. إما أنها صارت قشرة تضم ذلك الشيء الذي جاء من أجواز الفضاء، وإما أنها تلاشت وهو حل مكانها.. ثم خرج من وراء الشجرة ليقول: "لا.. لكن لحظة.. هذه الرقاقة البراقة.. لا أع..". الخ...

وفي هذه الحالة لابد أن الرقاقة كانت هي سفينة فضاء ذلك الكائن، أو لعلها جهاز اتصال خاص به قادر على نقل كيانه إلى التعس الذي يمسك بها..

هل هذا معقول؟

غير معقول.. لكن ما يحدث لـ (ميادة) غير معقول كذلك.. أنت تحتاج لأكثر التفسيرات سخفاً كي تفسر أكثر الظواهر غرابة..

ماذا تفعل؟.. لا تستطيع أن تقتل (ميادة) ببساطة لأن (كائنًا فضائيًا يسكن فيها).. لكن هناك حلاً أقرب إلى المنطق ولسوف تنفذه هذه الليلة..

* * *

كنت أنا الطبيب النفسي الذي تولى علاج (مها) ..

قلت للأب والأخت (ميادة) وأنا أخط آخر ملاحظاتي في دفترتي:

"القصة بسيطة جدًا ونسمعها مئات المرات.. إن شعورها بالظلم وبأنها لا تنال ما تستحق أدى بعقلها الهش إلى جنون اضطهاد كامل.. هكذا ولدت هذه القصة عن أختها التي ليست أختها.. ثم هذا المشهد الدرامي الأخير.."

قال الأب وهو يرتجف:

"هل تسمح لي بالتدخين؟"

هزئت رأسي في ضيق أن نعم، فأشعل لفافة تبغ بيد راجفة وقال:

"لا أتصور ما حدث.. أصحو في الرابعة صباحًا لأصلي الفجر؛ فأجد (مها) واقفة في المطبخ تحاول حرق تلك الدائرة التي تحتفظ بها أختها لأسباب دراسية.. وحينما حاولت منعها راحت تصرخ في هستيريا.. تقول إن (ميادة) ليست (ميادة) وإنما قشرة يتخفى فيها كائن فضائي.. لقد جاء الجيران واحتجنا إلى تقييدها لنحملها إلى المستشفى.. لكنها لم تكف عن الصراخ لحظة.."

قلت وأنا أكتم أنفاسي تفاديًا لكل هذا الدخان:

"كل هذا يحدث كثيرًا جدًا.. فقط كل إنسان يعتبر حالته فريدة.."

سألني في لهفة:

"هل أنا السبب؟.. هل تعتقد أنني فرقت في المعاملة بينهما حقًا؟"

قلت في برود:

"يصعب علي أن أحكم ما دمت لم أر.. لكن الإحصاءات تؤكد أن هذا هو الحال لدى 80% من الآباء.. لسبب ما يظفر أحد الأخوة بكل شيء.. وهذا يوقع الآخرين في مصيدة الاحتياج للحب وانعدام الثقة بالنفس أبدًا.. أنا أوّمن أن كل مرض نفسي جاء من خطأ تربوي أو خلل وراثي.. لكن أرجو ألا يكون أوان العلاج قد فات.."

تأهب للنهوض فقلت له:

"سوف تبقى هي في المصحة كما اتفقتا وإن كنت أفضل أن تبقى أختها معها.. هذا مهم للعلاج.."

هز رأسه موافقًا.. كان بوسعه الآن أن يوافق على أي شيء.. إن الإحساس بالذنب هذا..

مرت دقائق بعد انصرافه، و(ميادة) تجلس أمامي صامتة تعبت ببقايا لفافة التبغ التي كان أبوها يدخنها.. بعد قليل نهضت فأغلقت الباب وأضأت النور البنفسجي المريح للعين لأنه يذكرنا

بوطننا..

قالت لي:

"سوهاك.. إياهاواه سييلا تنمو كوانهار شيفن كاه.."

فقلت لها في حزم:

"سوف نتكلم العربية.. كفاك ما اقترفت من أخطاء حتى هذه اللحظة.."

ثم سمحتُ للون البنفسجي أن يتألق في عيني وقلتُ لها:

"كنت سريعة الخاطر عندما اقترحت اسمي لأعالج (مها).. إنها الآن في قبضتنا ولن تفر ومهما تكلمت لن يصدقها أحد.. لكنك كنت بلهاء عندما سمحت لعينيك بأن تتألقا باللون البنفسجي.. حمقاء عندما رحت تخاطبينني عبر الشريحة في الظلام.. لقد كشفت عن أشياء كثيرة جدًا.."

بدا عليها الحرج في الضوء البنفسجي المريح للعينين، فقلت لها:

"لقد تم تحولنا منذ شهرين.. هناك خمسة منا الآن في (مصر) وعشرون في (الولايات المتحدة) وخمسة في (فرنسا) وأربعة في (اليابان).. يجب أن نظل في دائرة الظل إلى أن يزداد عددا أكثر فأكثر وعندها نضرب ضربتنا.. ليس قبل ذلك.. صدقيني"

قوس قزح

احمر.. برتقالي.. اصفر.. اخضر.. ازرق.. نيلي.. بنفسجي.
اليوم نحكي لك كيف ان قوس القزح قد يكون مخيفاً..
كيف تصير الألوان مرعبة او -على اقل تقدير- ليست كما
وجدت في خيالات طفولتنا..
احمر.. برتقالي.. اصفر.. اخضر.. ازرق.. نيلي.. بنفسجي.
قوس قزح..
وسبع قصص تحكي عن الألوان..
سبع حكايات عن قوس قزح..



دكتور
أحمد خالد توفيق

قوس قزح

احمر.. برتقالي.. اصفر.. اخضر.. ازرق.. نيلي.. بنفسجي.
اليوم نحكي لك كيف ان قوس القزح قد يكون مخيفاً..
كيف تصير الألوان مرعبة او -على اقل تقدير- ليست كما
وجدت في خيالات طفولتنا..
احمر.. برتقالي.. اصفر.. اخضر.. ازرق.. نيلي.. بنفسجي.
قوس قزح ..
وسبع قصص تحكي عن الألوان..
سبع حكايات عن قوس قزح..



دكتور
أحمد خالد توفيق

Table of Contents

أح-مر
برتقالي
أصفر
أخضر
أزرق
نيلي
بنفسجي

د. أحمد خالد توفيق

الآن نفتح الصندوق



المجموعة الكاملة

دكتور
أحمد خالد توفيق



الآن
نفتح
الصندوق 1

دار ليل كيان كورب
دار ليل كيان كورب

د. أحمد خالد توفيق

الآن نفتح الصندوق (1)

كيمان كورب
للنشر والتوزيع
دار ليلي

د. أحمد خالد توفيق

الآن نفتح الصندوق (1)

دار ليلي
كيمان كورب
للنشر والتوزيع

قبل أن نفتح الصندوق



"الحياة صندوق من الشيكولاته.. لا تعرف أبدًا ما قد تظفر به" .. هذه هي العبارة المحورية الساخرة في فيلم (فورست جامب)، والتي تلخص أهم مخاوف طفولتي.. الصندوق المغلق.. كم هو ساحر!.. كم هو غامض!.. كم هو مخيف!... ماذا ينتظرنا لو فتحنا الصندوق؟.. تتكرر هذه التيمة كثيرًا في قصص ألف ليلة وليلة وفي الأدب عامة.. حتى شكسبير نفسه لم يفلت من سحر الصندوق المغلق في مسرحيته (تاجر البندقية)...

كل شيء قد يوجد في الصندوق المغلق أو لا يوجد.. كنز من الياقوت والعقيق.. أسرار القنبلة الذرية.. جثة متحللة.. يد مومياء.. قلادة (فلاد).. صور مصفرة حال لونها.. وثائق وعقود لم تعد لها قيمة.. صرصور.. عنكبوت.. لا شيء..

لهذا – عندما كتبت هذه المجموعة من القصص القصيرة – اخترت لها صيغة الصندوق المغلق.. لقد توفي الدكتور (محفوظ) أستاذ الأدب الإنجليزي الحكيم واسع التجارب، فلم يترك – كما هي عادة هؤلاء المحترمين في كل مكان وزمان – أي مال لأهله.. فقط ترك مجموعة من الأوراق البالية تحكي خبراته المرعبة مع عالم الميتافيزيقا.. الحكماء واسعو الخيال سوف يجدون ميراثًا مهمًا في الصندوق.. الأشخاص الطبيعيون سوف يتخلصون من هذه الأوراق في أقرب صندوق قمامة وهم يسبون ويلعنون الفقر والغباء معًا.

ماذا يوجد في الصندوق؟.. أردت في البداية ألا يوجد في الصندوق إلا مجموعة من القصص المثيرة أو المحركة للخيال، لكن وسواس المعلم الذي يغلبني أحيانًا قهرني، وجعلني أفضل أن أقدم مزيجًا من القصة والمقال التحقيقي القصير، وبهذا لا أشعر أنني أضعت وقت القارئ في مجرد خيالات ابتدعتها.. في كل مرة هناك كلام عن ظاهرة غريبة، ثم تأخذ الأحداث مجرى قصة. إن مقاييس القصة القصيرة لا تنطبق بدقة على هذه المجموعة، لكنها نوع خاص من الفن ربما أطلق عليه اسم (مقرواية) أو (حقال) أو أي اسم يجمع بين القصة والمقال معًا...

ماذا نعرف عن عالم ما وراء الطبيعة؟.. لا شيء في الواقع.. كل هذا قد يكون حقيقيًا وكل هذا قد يكون وهمًا من عقول هستيرية.. سنموت دون أن نعرف الإجابة، وتلك هي المأساة الحقيقية.. وقد حرصت في كل هذه القصص على أن تبقى علامة الاستفهام تحوم حولنا في النهاية.. ربما نعم.. ربما لا...

لقد مات د. (محفوظ) دون أن يعرف إلا أنه جابه أشياء غريبة حقًا.. نحن كذلك سنموت دون أن نعرف، ولسوف نشعر بهذا الشعور مضخمًا قبل الأوان بعد قراءة هذه المجموعة من الأوراق.. عندها سوف تغلق عينيك وتجيب عن السؤال المهم: هل استمتعت بالقراءة؟.. هل حركت هذه القصص خيالك؟.. هل أخذتك من يدك إلى دهاليز مظلمة لم تجترها من قبل؟....

لو كانت الإجابة (نعم) فأنا قد نجحت، وهذا هو ما يهم في الوقت الحالي...

الآن تعالوا نشعل شمعة تبدد ظلام القبو..

تعالوا نفتح الصندوق معًا...

أسرة لطيفة

الورقة الثانية التي خرجت من الصندوق تقول:

لأسباب يطول شرحها انعقدت صداقة بيني وبين آل (هالبروك)...

أنتم تعرفون أنني أدرس الأدب الإنجليزي، وكان المستر (إدوارد هالبروك) رب الأسرة يعمل مع إحدى الجامعات الخاصة المصرية للغرض ذاته.. أي أننا التقينا لنفس الأسباب التي يلتقي لها النجارون والسباكون وفنيو التبريد في كل مكان: المهنة الواحدة..

إذن يمكننا أن ندرك أن إقامتهم كانت دائمة في مصر، وكان لهم بيت لطيف في (المعادي) زمرته مرة أو مرتين من قبل.. زوجته تدعى (مارثا) وهي امرأة في الثلاثين مهيبة بشوش، ولهم ابن في العاشرة من العمر له مزايا وعيوب أي صبي إنجليزي آخر..

أسرة لطيفة هي.. لكن لماذا أرتجف أحياناً حينما أتعامل معهم؟

* * *

تلقيت دعوة العشاء في يوم عيد ميلادي بالضبط.. أعني أنني تلقيتها عشية عيد ميلادي لأنني من مواليد الأول من نوفمبر.. ولما كنت لم أنجب وزوجتي مسافرة لزيارة والدتها المريضة، فقد خطر لي أنه من اللطيف أن ألبى هذه الدعوة.. من الجميل أن تجد من حولك بشراً في اليوم الذي ولدت فيه.. أما أن تجلس وحيداً في الدار تشاهد التلفزيون، فقد بدا لي هذا آخر شيء ممكن..

أقف أمام مدخل البيت في التاسعة مساءً، حيث تلك الحديقة المهندمة التي تفوح منها روائح نباتات غريبة.. إنه الخريف بكل ما يحمله من شجن.. ليل الخريف الذي يحمل رائحة ما لا أعرف ما هي، لكنها كانت تثير الرعب في نفسي أيام المدرسة.. مع الخريف تنتهي سلطة النهار الطويل لتبدأ سلطة الليل.. تنتهي سلطة اللهو لتبدأ سلطة المدرسة.. دعك من رائحة الجواقة التي تتبعث من كل شيء!! لكم أمقتها!

قلت للمستر (هالبروك) وهو يفتح لي الباب:

"تصور أن عيد ميلادي غداً؟"

"أعرف.. ليس غداً بل بعد ثلاث ساعات!"

ويتنحي لي لأدخل، وأنا أتساءل عن المناسبة التي ذكرت له عيد ميلادي فيها.. متى؟.. بصراحة لا أذكر.. لكنني بالتأكيد أخبرته لأنني لست من المشاهير ولا أعتقد أن تاريخ ميلادي مذكور في دوائر المعارف..

أمشي وسط الحديقة...

على باب الدار أرى تلك القرعة التي تم إحداث تجويف في موضع العينين والفم فيها، مع إشعال شمعة داخلها.. هذا المنظر المألوف.. (جاك في المصباح) كما يطلقون عليها.. لها مشهد موجس شيطاني كأنها عفريت يكشر عن أنيابه، مع تلك الضحكة الوقحة الشريرة الشبيهة بضحكات الجماجم..

نظرت له ضاحكاً فقال:

"لا تنس أن هذه الليلة بالذات هي (الهالوين).. إننا في الحادي والثلاثين من أكتوبر"

نسيت هذا طبعاً.. إن احتفالات الهالوين لا تمثل أي جزء من تراثنا طبعاً.. لكنهم يحتفلون بها، ومن عاداتهم أن يضعوا القرع العسلي - اليقطين - على أبواب البيوت..

قال لي ضاحكاً:

"كنا معشر الأوروبيين نستعمل اللفت قديماً، لكن بعضنا نزح إلى الولايات المتحدة حيث لم يجد لفتاً ذا حجم مناسب.. لهذا اضطروا لاستعمال اليقطين.. إن هذه العادة إحياء لقصة قديمة عن شاب يدعى (جاك) منحه الشيطان مصباحاً في ثمرة لفت مفرغة.."

هزرت رأسي موافقاً... على الأقل أنا أعرف عادات الغربيين في هذا الصدد... الأطفال يجولون حول البيت لابسين أقنعة مرعبة ويطرقون بابك قائلين: حلوى أم حيلة؟... بمعنى أن عليك أن تعطيهم كيساً مليئاً بالحلوى وإلا أزعجوك، وأطاروا النوم من عينك....

على الباب رحبت بي الزوجة مسر (هالبروك)، وكانت متأنقة بحق.. واقتادتني إلى داخل الشقة المريحة..

أسرة لطيفة هي.. لكن لماذا لا أشعر براحة وأنا بينهم؟

* * *

العاشرة مساء..

لقد انتهى العشاء أو كاد ونحن نثرثر.. كانوا قد قضوا في مصر عاماً أو أقل ورأيهم هو الرأي المعتاد: الناس ودودون ظرفاء.. الطقس جميل.. لكنكم تضيعون الكثير من الوقت..

تعود الزوجة من المطبخ حاملة صحيفة عليها بعض حلوى التفاح والبندق.. وتقول ضاحكة:

"طقوس الهالوينين تقضي بالتهام البندق وحلوى التفاح.. إنها اللمسات التي أضافها الرومان إلى هذا العيد"

ضحكت بدوري وملأت كفي بالبندق، وبحثت عن كسارة في مكان ما.. هنا رأيت للمرة الأولى ذلك الوجه المثل علي حيث علق على الجدار.. إنه قناع أثري غريب الشكل..

رأى الزوج نظراتي فقال مفسراً:

"إنه يدعى (ساوين)... أحد أصنام قبائل الكلت..إله الشمس عندهم إذا شئت الدقة.. أنت تعرف أننا قادمون من (ويلز)، وقد كان (ساوين) يُعبد هناك.. هذا القناع أصلي وأراه جميلاً.."
هزرت رأسي في سخرية فقال:

"ما زلت متصلب الرأي.. ما زلت لا تصدق تلك القصص.. أنت تعتبرها خزعبلات، وأنا أرى أن منطقك هذا هش جداً.. نتحدث بثقة عن أشياء لا تفقه فيها حرفاً.."

"كلنا ذلك الرجل..فأنت أيضاً لا تعرف الكثير عن هذه الأشياء"

كلاش ش!.. هذا طبعاً هو صوت تهشم البندقة..

قال لي (هالبروك) وأنا أملاً فمي بالبندق:

"إن الهالوين في الأصل عيد كانت تحتفل به قبائل الكلت.. لفظة هالوين هي اختصار لعبارة **All Hallows even**.. أي (الليلة التي تسبق يوم كل القديسين).. وهي ليلة الحادي والثلاثين من أكتوبر.. لقد كانت عيداً كلتياً ثم قرر البابا (جريجوري الرابع) عام 834 ميلادية – بلمسة ذكية لا شك فيها - احتواء هذا العيد ليضمه إلى المسيحية.. وبهذا لم يظل عيداً وثنياً.. وصار مناسبة لتذكر القديسين.."

بعد دقائق سمعت من يزوم فنظرت للوراء مجفلاً..

كان هذا الشبح الذي يلبس ملاءة سوداء ويضع على رأسه قناعاً يشبه الجمجمة، يدنو مني فardاً كفه ليقول بصوت طفولي المفترض أنه مخيف:

"حلوى أم حيلة!"

مددت يدي إلى حلوى التفاح فقبضت على بعضها ودسستها في كف الصغير.. عندها أطلق زئيراً واتجه نحو الباب..

من جديد واصل (هالبروك) محاضرتي:

"هذه عادة أوروبية أخرى اسمها (الترويح) .. كانوا يمرون على القرى المجاورة يتسولون (كعكة الأرواح).. فإذا كنت سخياً معهم وعدوك بأن يصلوا أكثر كي يرحم الله أقاربك الموتى، وإذا لم تعطهم لعنوك.. مورست هذه العادة لفترة طويلة، لكن جملة (حلوى أم حيلة) لم تظهر على الساحة إلا عام 1950 في قصيدة نشرتها جريدة امريكية.."

قلت له باسماء:

"أي أنه نوع من التسول المقنع.. غير أنني أرى أن المتسول الذي يلعن من لا يعطيه طريفاً حقاً.."

وضحكت وضحكوا..

أسرة لطيفة هي.. لكن لماذا أشعر بهذه الغصة في حلقي؟

* * *

منتصف الليل...

نظرت لساعتي وتحننت معلناً رغبتى في الانصراف.. بكل المقاييس لم تكن سهرة سيئة.. لكن (هالبروك) هز رأسه ونظر لساعته بدوره، ثم قال في إلحاح:

-"ليس قبل أن نحتفل بعيد ميلادك.. إن هذا سيضايق السيدة جداً"

ونظرت بجانب عيني فوجدت زوجته قادماً ترتدي ما يشبه عباءة طويلة سوداء، وتحمل كيساً من البلاستيك، وقد بدا عليها الاستعجال.. كدت أقول شيئاً مازحاً بصدد العباءة، لكنني خفت أن تكون هذه موضحة العام.. أنا لا أفهم شيئاً في ثياب النساء..

قالت له:

-"منتصف الليل.. هيا!"

هنا نظرت إلى باب الردهة لأرى الصبي قادماً وهو يلبس عباءة مماثلة، وكان ذهولي شديداً عندما رأيت (هالبروك) يأخذ من الكيس الذي تحمله زوجته عباءة أخرى، فيضعها على كتفيه..

قلت لهم في تهكم:

-"هل هذا حفل تنكري؟"

قال بلهجة لا مزاح فيها:

-"كلا.. تفسير هذا يستغرق وقتاً.."

ثم أخرج من سترته مظروفاً مغلقاً وقال وهو يناولني إياه:

-"اقرأ هذا بعد انصرافنا.. سوف نعود سريعاً مع المفاجأة.. صدقني إن هذا مرتبط بعيد

ميلادك.."

وسرعان ما أشار لزوجته وابنه فانتلقوا مغادرين البيت.. وجلست وحدي كالأبله في البيت الخالي.. فجأة انقطع التيار الكهربى فوجدت نفسي في الظلام.. لم أرتبك كثيراً لأنى وجدت شمعة على منضدة الطعام فأشعلتها بقداحتي.. وجلست أمامها..

أخذت نفساً عميقاً وفتحت الرسالة فوجدتها مكتوبة بخط نصيد انيق:

-"عزيزي د. حجازي:

"أعرف أنك ستغضب منى لهذا التصرف الغريب، لكن الأمر مهم فعلاً بالنسبة لنا.. لن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تدرك أنك وحيد تماماً في المنزل وأنه لا سبيل لمغادرته لأن النوافذ مدعمة بالحديد والأبواب موصدة.. دعك من أنك لا تستعمل الهاتف المحمول وخطوط الهاتف مقطوعة هنا..

" لم أحدثك عن عقيدتي الخاصة.. إننا ننتمي إلى العقيدة (الدرويدية Druidic) التي ينسب

لها البريطانيون كل عادة غير مفهومة لديهم.. بالتالي نحن نمارس الهالوين بذات الطريقة التي كان أجدادنا الكلت يمارسونه بها..يقال إن (ساوين) كان يستدعي أرواح الموتى جميعاً في هذا اليوم ليتولي تنسيقها. كان الكلت يهابون هذه الليلة ويستعدون لها بالنيران في الخلاء والأقنعة وربما بعض الأضحيات البشرية.. إنها بالنسبة لهم لا تمثل عيد (ساوين) فحسب، بل نهاية الصيف الجميل وقدم الشتاء الرهيب الكئيب.. يقال أيضاً إن أرواح الذين ماتوا في العام الماضي تخرج بحثاً عن أجساد حية تسكنها.. في هذه الليلة بالذات تتلاشى الحواجز بين العالمين، ويصير الموتى قادرين على اقتحام البيوت."

وابتلعت ريقى ونظرت حولي إلى الشقة المظلمة ثم واصلت القراءة:

_"كان الكلت يطفنون النيران في ديارهم ، ليجعلوا بيوتهم باردة غير مريحة للأرواح، ويلبسون أكثر الأقنعة إفزاعاً.. الأقنعة التي يمكن أن تخيف الأشباح ذاتها.. الآن أنت تفهم ما فعلناه ولماذا غادرنا الدار بهذه اللفة.. على أننا تركنا للموتى هدية هي قربان بشري.. أنت قربان فريد لأنك مولود في الأول من نوفمبر.. وهذا يجعل (ساوين) راضياً عنا.. وهذا ما قمنا به في كل بلد ارتحلنا إليه من قبل، لكنها المرة الأولى التي نفعلها في بلدكم الجميل.. سامحني وأعرف أنك لن تحقد علي.."

بإخلاص:

إدوارد هالبروك"

ما إن فرغت من قراءة هذه الكلمات حتى هرعت أتأكد مما قال.. بالفعل لا توجد طريقة لمغادرة هذا البيت.. جربت كل الأبواب على ضوء الشمعة.. هزرت النوافذ.. استعملت الهاتف لأسمع لا شيء.. صوت البلاستيك إن كان له صوت..

هذا الرجل يمزح.. هذه دعابة قاسية سمجة.. لا شك في هذا..

قال: "سامحني.. لن تحقد علي" .. يا له من أحق!.. لو قابلته لهشمت رأسه..

هنا سمعت الصوت..

هناك من يعبث في الباب الخلفي.. هناك باب خلفي للمطبخ في هذه الدار..

جريت على ضوء الشمعة إلى المطبخ.. وقفت خلف الباب فسمعت الصوت.. صوت أنين.. صوت عواء مكتوم.. بينما هناك من يداعب القفل بيده.. يدخل فيه أشياء..

كانت هناك شراعة صغيرة فجذبت مقعداً ووقفت عليه واختلست نظرة إلى الخارج.. إلى الحديقة الخلفية للدار.. كان الظلام دامساً بالفعل.. لكني رأيت ثلاثة.. أربعة أشخاص مدثرين بالأبيض يقفون وراء الباب ويحاولون فتحه في لفة.. أبيض؟... أكفان؟

ترجلت وركضت نحو الباب الأمامي.. الشمعة انطفأت.. لابد من لحظة كي أشعلها... هناك من يعبث به.. هذا أكيد.. هناك من يدخل جسماً معدنياً فيه.....

"في هذه الليلة بالذات تتلاشى الحواجز بين العالمين، ويصير الموتى قادرين على اقتحام البيوت"

* * *

الطابق العلوي!

نسيت أن هذه الدار ذات طابقين..

أنظر لأعلى إلى مصدر الصوت فأسمع ذات الصوت.. هناك من هو آت من الطابق العلوي وهو ينن بلا انقطاع.. ثمة شعلة تتوهج... أراها تتحرك ببطء قادمة من أعلى...

أركض إلى الباب الأمامي واقف وراءه أصغي لمحاولات الاقتحام..

ثمة نافذة مظلة على الحديقة تنفتح ببطء.. أرى يداً تدخل منها.. لن تستطيع الدخول لأنها مدعمة بالحديد..

لكن.....

أركض نحو المائدة التي كنا نأكل عليها.. أبحث عن سلاح ما.. في النهاية أقرر أن أزحف تحتها مختبئاً.. كم سيطول الوقت حتى يجدوني؟؟؟.. لن يطول.. هذا نوع من فرار الفأر من القط في غرفة مغلقة..

هنا سمعت صوت الانفجار إذ انفتح الباب الأمامي للدار....

انفتح مرة واحدة...

أخرجت رأسي من تحت المائدة ونظرت..

هنا رأيتهم يقفون في فرجة الباب.. كانوا مسرلين بالملاءات لكنهم لم يكونوا موتى.. كانوا أصدقائي في العمل.. حوالي عشرة منهم.. وكانوا يضحكون.. أحدهم يحمل تورتة عليها شموع وآخر يلتقط لي صورة بالفلش حيث تواريت تحت المائدة..

وسمعت الإنشاد:

-"هابي بيرث داي تو يو!"

و(هالبروك) يقول وهو يوشك على فقدان وعيه من فرط الضحك:

-"دعابة قاسية.. أنا آسف!... لكنك أقنعتني بشجاعتك.. أنت بالفعل عقلاني لا تؤمن بالخرافات على الإطلاق!"

وخرجت من تحت المائدة وأنا ألهث.. كانت دعابة محكمة فعلاً ولا أنكر هذا...

تسألني عن أسرة (هالبروك)؟

أسرة لطيفة هي.. لكنني لسبب ما قطعت كل علاقة لي بها منذ تلك الليلة.

الشمعة والقناع

لهب الشمعة يتراقص.. ومع رقصته ترسم تلك الظلال الغريبة العملاقة لنا على جدران غرفة المكتب.. لهب الشمعة يرقص.. ومع رقصته ألمح شمعتين ذهبيتين في عيني (سراج).. وذلك البريق المجنون الذي لم أره من قبل.. إما أنه مجنون فعلاً - وهذا ما أتمناه - وإما أنه شيء آخر.....

* * *

لهب الشمعة يتراقص...

ورائحة الشمع الذائب المحترق تدغدغ أنفي.. كنت أحب هذه الرائحة حينما كان لي أنف نهم جائع إلى اكتشاف الجديد..

ونحن جالسان في الظلام إلى تلك المنضدة الصغيرة أمام المكتب.. يداه مكبلتان بالصفد الحديدي... ومن وسط السلسلة يخرج قيد آخر يثبتته إلى قائمة المنضدة.. لهذا يضع مرفقيه إلى المنضدة ولا يكف عن فرك كفيه معاً.. أما أنا فأجلس أمامه ممسكاً بذلك المسدس الثقيل الذي أصر على أن أحمله.. أنا أخشى الأسلحة النارية وأؤمن منذ طفولتي بمقولة أمي "السلح يطول".. معربة بذلك عن تصورهما لماسورة البندقية تتلوى كالثعبان إلى الوراء لتطلق الرصاصة على رأس حامل البندقية نفسه، وقبل أن يلمس الزناد..

لكن (سراج) أصر على أن يكون المسدس في يدي، وأن تكون الفوهة مصوبة إلى رأسه.

ينظر لساعته ثم إلى الخارج.. إلى الستار الرقيق الذي يغطي النافذة.. ويهمس من بين أسنانه:

"حان الوقت!"

قلت لنفسي إنها ليلة سوداء.. لكنني أعرف أنني لن أطلق الرصاص وأعرف أن هذا كله هراء.. بعد ربع ساعة سأنهض وأحييه وأفك الصفد بالمفتاح الذي في جيبتي، ثم أعود لداري لأحلم بالكوابيس.. نشاط حافل للأمسية كما ترى..

قلت له وأنا أتأمل الشمعة:

"هل لابد من هذه التأثيرات المسرحية؟"

قال لاهتأ:

"لابد.. قلت لك إن الشيء لا يحدث إلا في ضوء غير مباشر.."

هكذا لم أعرف ما أقول.. ورحلت أقلب المسدس في يدي.. كتلة الموت المجمدة الباردة..

رحلت أرمق الشمعة..ومن جديد تذكرت كيف بدأ كل شيء..

* * *

كان (سراج) صديقاً قديماً (رأى العالم) كما يقولون في القصص.. لقد ارتحل إلى كل مكان تقريباً..

كان مهندساً عزباً في الأربعين لا غبار عليه، لولا ذلك الولع السوداوي المجنون لديه بالموت والمقابر.. لا أعتقد أنها جريمة ما.. هناك أناس مولعون بهذه الأمور فعلاً.. لقد وصف (مارك توين) فتاة مراهقة لا ترسم إلا شواهد القبور ولا تكتب إلا أشعار رثاء حزينة، إلى أن ماتت هي بدورها!.. وكنت ألاحظ ولع (سراج) الشديد بحضور الجنائز واهتمامه بأن يتدخل في كل شيء.. هو لا يكف عن إسداء النصيح لأهل المتوفى ولا بد من أن يحضر طقوس الغسل والتكفين الخ.. وكنت أرى في هذا شيئاً مرضياً يختلف نوعاً عن الرغبة في الاتعاض بالموت.. أعتقد أنه سافر حول العالم ليحضر جناز من مختلف الثقافات بدءاً بالدفن العادي وانتهاء بالحرق وإلقاء الرماد في نهر (الجانج)... لكن هذه الأشياء لم تجعله شخصاً كريهاً بالنسبة لي...

إلى أن رأيته هذا الصيف... فشعرت أنه تقدم في العمر بضعة أعوام..

كان مرتبكاً متوتراً... ثم طلب أن يزورني.. وفي هذا اللقاء العجيب قال لي إنه لم يعد على ما يرام.. لقد تغيرت أشياء كثيرة في حياته.. هناك ليال كاملة لا يعرف ماذا دهاه فيها ولا أين أمضى ليلته.. فقط يصحو من النوم مليئاً بالكدمات منهكاً....

نصحته النصيحة الوحيدة الممكنة:

"تزوج.. لن تجهد بعد هذا في تذكر أين أمضيت ليلتك لأن زوجتك ستعرف.. لن تتسائل عن سبب تعاستك لأن زوجتك ستعرف.. الخلاصة أن كل مشاكلك المعنوية البلهاء ستتحول إلى كوارث مادية محترمة.. تذكر كيف كانوا قديماً يعالجون مرضى الفصام بحقنهم بجراثيم الملاريا!"

قال في عصبية:

"الآن صار من المستحيل أن أتزوج..!"

ثم أردف وهو يدفن وجهه بين كفيه:

"بعد ما تكررت تلك الليالي الغامضة قمت بشيء بسيط.. أخفيت كاميرا الفيديو في موضع يراقب غرفة نومي ودخلت الفراش في مواعي المعتاد، وقدرت إنه لو كان هناك سر ما فلسوف أعرفه قبل أن ينتهي الشريط.. وقد جربت هذه التجربة ليلة واحدة وفي الصباح رأيت الفيلم.. أكثر الفيلم يصور باباً موارباً ولا شيء يحدث.. لكن قبل أن تنتهي الساعة الأولى رأيت هذا المشهد!.. هل عندك جهاز فيديو؟"

كان يحمل في جيبه شريط فيديو، فقمنا بتوصيل الجهاز وجلسنا نشاهد ما التقطته الكاميرا.. كان قد ضبط الشريط على اللحظة المهمة بالذات.. وأمام عيني الحائرتين رأيت باب غرفة النوم الموارب ينفتح، ثم في الضوء الخافت رأينا (سراج) يغادر غرفة النوم.. ينظر حوله للحظة كأنه قد لمح الكاميرا ثم يخرج من الكادر.. لا يوجد شيء غريب.. لا يوجد شيء غريب باستثناء أن رأسه كان رأس ذئب!.. ذئب تتوهج عيناه في الضوء الخافت وقد انتفش الشعر المحيط برأسه كالنيران...

أعدنا اللقطة عدة مرات فكانت النتيجة أكيدة.. ولم أكن على استعداد لقبول حرف من هذا السخف أما هو فكان واثقاً مما رآه وما رأيته..

"اسمع.. لو أردت لعب هذه الألعاب الصبيانية فليكن هذا بعيداً عني.."

قال متوسلاً:

"أنت أملّي الأخير ويجب أن تصدقني.. يجب أن أذكر هنا أن تلك الليالي التي لا أعرف عنها شيئاً كانت ليالي قمرية...!! يقولون في أساطير الغرب إن الإنسان يتحول إلى مسخ ذئب لو ولد في ليلة مقمرة.. أو نام خارج الدار ليلة جمعة مقمرة.. دعك من أن يتعرض لعضة أو خدش ذئب.. الحقيقة أنني مررت بكل هذه الخبرات معاً.. هل يوجد أي تفسير لما تراه إلا أن أكون قد تحولت إلى مسخ ذئب؟.. مذبذب.. تذكر ولعي غير العادي بالموت والمقابر... هل هذه نفسية سوية؟.. ألا يشير هذا إلى شيء على غير ما يرام في تكويني؟"

لم أكن على استعداد لمناقشة هذا الهراء، لكنه كان مصمماً على أن أصغي له..

هل هي أسطورة حقاً؟.. بالنسبة للقدماء كان الأمر مفروغاً منه لا يستأهل مجرد التساؤل.. سوف تجد في المخطوطات اليهودية كلاماً عن (نبوخذ نصر) ملك بابل الذي تحول إلى مذبذب أربعة أعوام كاملة.. وفي كتابات (هيرودوت) تجد كلاماً عن شعب (النيوري) الذين يتحولون لذئب مرة كل عام.. و لو قرأت ملحمة (جلجاميش) البابلية لوجدت أن (إنكي دو) صاحبه أقرب إلى مذبذب..

أما الشاعر (فيرجيل) فيصف رجلاً قادراً على تحويل نفسه إلى ذئب.. وقد زعم الشاعر أنه تعلم منه أسرار إعادة الموتى للحياة.. إن كتابات الطبيب الأركادي (مارسيلوس السايدي) عن داء (لايكانثروبي) - حالة التصور الذئبي - ترسم لنا صورة طبية رصينة عن مرض يتصور فيه المريض أنه ذئب حين يكتمل القمر.. يعوي ويأكل اللحم النيئ.. هذا ما قاله.. ولكن ما رأيك في أن أطباء عرباً عظماً ليسوا أقل من (ابن سينا) و(الزهراوي) ذكروا هذا المرض في كتبهم؟.. الاسم العربي الذي اختاره هو محاولة لتقريب لفظة (لايكانثروبي) إلى اللسان العربي، لذا صار اسمه (القطرب) بضم القاف.. وفيما بعد اتهم العلماء داء البورفيريا وهو من أمراض الدم الشهيرة، التي لا يستطيع أحد أبداً تذكر أسماء الإنزيمات المعقدة التي تسببها.. في أحد أنواعه يجعل المريض حساس الجلد للشمس مليناً بالقروح.. وذا شعر طويل رمادي وحواجب كثة.. الأظفار تنمو بفضاعة.. الأسنان مدببة.. ثمة ميل غير حميد لمذاق الدم.. جنون عام.. هذا هو ما يفسر ميلاد الكثيرين من (الرجال الذئب) في التاريخ.. ومراجع الطب تطلق على المرض أحياناً اسم (متلازمة الرجل الذئب)..

لكني بعد هذا كله لا أصدق حرفاً...

هنا كان طلبه العجيب إكراماً لصداقتنا (أخشى دائماً طلبات إكرام الصداقة هذه لأنها عسيرة كريمة على الأرجح).. طلب أن أمضي معه ليلة مقمرة كاملة في بيته.. لن يجازف بشيء.. سيربط نفسه بالأصفاذ بحيث لا يستطيع إيذاي.. أما أنا فعلي أن أمسك بالمسدس.. هذا المسدس ليس عادياً.. إن به طلقة واحدة صنعها هو بنفسه.. طلقة من فضة.. المفترض حسب هذه الكتب الرهيبة أن المذعوب لا يموت إلا برصاصة فضية.. من الطرق الأخرى أن تجرحه لينزف ثلاث قطرات من الدم.. طبعاً هي طريقة غير محببة وغير مضمونة..

لو مرت الليلة على خير فعلي أن أفك قيده وأضحك وأخبره كم هو سخي، ثم أعود لداري؛ أما إن حدث المحذور فهي الطلقة.. الطلقة التي أعرف أنني لن أطلقها أبداً.. لأن هذا كله تخريف.. وفيلم الفيديو؟.. إما أنه دعاية منه أو دعاية عليه.. إن أقنعة الذئاب تباع في كل مكتبة اليوم ويمكن لكل من امتلك عشرة جنيهات أن يصير مذعوباً..

لن أطلق هذه الرصاصة أبداً.. إذاً لماذا لا أريحه؟

* * *

ولهب الشمعة يتراقص...

ظله المخيف يرقص على الجدار خلفه وهو ينظر للهب في شرود كأنه منوم مغناطيسياً.. سوف تنتهي هذه الشمعة خلال ربع ساعة على الأكثر لهذا أعددت واحدة أخرى.. لكني قدرت أنني لن أشعلها لأن شمعة واحدة تكفي لإعلان انه أحرق..

نظرت لساعتي واتجهت إلى الستار وأزحته..

الآن فقط أرى البدر مكتملاً فاخراً يطل علينا من فوق الأبنية المحيطة بنا..

نظرت له وضحكت في تشف.. وضعت المسدس على المنضدة، وبخطوات ثابتة تركته متجهاً إلى الصالة.. سمعته يصيح في دهشة:

..إلى أين؟"

لم أردد.. صوت احتجاجاته يخفت وأنا أتركه حيث هو عاجزاً عن اللحاق بي، وأتوغل في شقته. فتحت أكثر من باب إلى أن وجدت غرفة نومه.. أضأت النور الكهربائي وانتظرت حتى زال الألم عن عيني بعد طول جلستي في الظلام، ثم رحت أفتش الحجرة بفضافة وقسوة كأنني ضابط جشأبو يفتش حاجيات رجل من المقاومة الفرنسية.. بحثت في خزانة الثياب وتحت الفراش.. وفي النهاية وجدت كاميرا الفيديو إياها.. وتحت حشية الفراش وجدت ما كنت أبحث عنه.. قناع ذئب رخيص من النوع الذي قلت لك إنه يباع في كل مكتبة، ويمكن لكل من امتلك عشرة جنيهات أن يقتنيه.. قطعة بلهاء من الجلد لها تجويفان عند العينين وعند الأنف..

أنت مخبول يا صاحبي.. فعلاً مخبول.. كل هذا الجهد من أجل تمثيلية سخيفة.. وما ذنبي أنا لتضعني وسط كل هذا التوتر؟

هكذا عدت إلى مكتبه لأخبره برأيي فيه..

هنا وجدت أن الظلام قد صار دامساً.. لقد لفظت الشمعة أنفاسها الأخيرة.. اتجهت إلى النور فأضأته وهنا فوجئت بأن (سراج) لم يعد موجوداً...!! لا أريد أن أكون هستيرياً لكن السلسلة التي كانت تثبته إلى قائمة المنضدة مفتوحة.. لقد فتحت بقوة لا يمكن أن أتصورها.. أين ذهب؟ هنا لمس شيء كتفي فأجفلت.. نظرت للوراء فوجدت أنه الستار يطير في هواء الغرفة.. إن النافذة مفتوحة ... والبدر ينظر لي في وقاحة متشفياً...

ثم أين المسدس؟

أسئلة كثيرة حملتها معي وأنا أهبط في الدرج.. وأنا أبحث عن سيارة أجرة تقلني إلى داري...

ليلة طويلة تفعمها الكوابيس ولا تتربى عليّ... مجنون.. لكن كيف يفر مجنون من صفد حديدي مزدوج؟ وكيف يفر مجنون من النافذة المفتوحة؟

في السابعة صباحاً دق جرس الهاتف فهرعت كالشملة أرد عليه.. عرفت صوت (سراج) المبحوح المرهق يتكلم:

"أشكرك على أنك تركتني وحدي أثناء التحول.. لقد أفادني وجودك في أنه جعلني أتخذ أهم قرار في حياتي.. فكرت في الأمر ملياً ووجدت أن البقاء حياً أفضل.. لهذا أخذت المسدس معي.. الأهم من هذا أنني صرت أتذكر جيداً ما كان يحدث لي في الليالي المقمرة.. أنا الآن في صورتي البشرية بعد ليلة صاحبة!"

قلت في غيظ:

"كف عن ألعاب الأطفال.. لقد وجدت القناع في غرفة نومك!"

عاد صوته المبحوح يقول:

"آه القناع!.. اللعبة التي اشتريتها لأولاد أختي؟... قطعة المطاط الملساء؟.. لو تذكرت الفيلم الذي رأيته يا صاح لتذكرت أن المذعوب كان منتفش الشعر وكانت عيناه تتوهجان كجمرتين.. لم أعرف أن ذلك القناع الرخيص مقنع إلى هذا الحد!"

ثم أضاف وقد كدت أقاطعه:

"أنت الآن تعرف عني أكثر من اللازم.. لن ألحق بك إكراماً لصداقتنا.. لكنك لن تراني بعد اليوم أبداً... اسم جديد.. عنوان جديد.. بلدة جديدة.. ومستقبل مفعم بالاحتمالات"

ووضع السماعة قبل أن أخرج كل الأسئلة التي احتشدت في حلقي في وقت واحد.

لو وجدت في المحلات قناع ذنب له شعر منتفش حول العنق وعينان تضيئان كجمرتين، فإنني أرجو أن تخبرني.. فقط لأتمكن من النوم بسلام في الليالي المقمرة!

دقات

توك.. توك.. توك!

دقات.. لكنها تختلف عن أية دقات أخرى.. ولهذا قصة أحكيها لكم الآن..

* * *

قد تختلف معي في الأمر، لكن لا تنكر أن الفترة التي قضيتها في جمعية البحوث الروحانية البريطانية هي فترة من أمتع فترات حياتي.. ربما كان الأمر كله هراء لكنه هراء مسل ومثير.. أعترف أن التفاوت بين البشر موجود في كل شيء.. أنا لا أستطيع تحريك أذني لكني أعرف أكثر من عشرة أشخاص يقدرّون على ذلك.. بطل العالم في التنس ليس سوى رجل مثلي ومثلك لكننا نعتقد أنه خارق.. وهذا يشمل الحواس ذاتها.. زرقاء اليمامة رأت الجيوش المعادية بينما قومها لم يروا شيئاً وحسبوها تخرف. د. (إيمانويل ليبمان) كان يسمع صوت اللغظ على قلب طفلة قبل أن يسمعه زملاؤه الأطباء بأسبوع كامل، وكان من السهل عليه لو أراد أن يدعي امتلاكه لقدرة الاستبصار.. أعتقد أن المتمتعين بالقدرات الخارقة للحواس يملكون قدرًا أكبر من الإدراك.. إنهم (يحركون آذانهم) على نطاق أوسع..

ثم ذلك الرجل الذي دعاني للجمعية.. د. (جيمس ماتيسون).. ألا تراه طريفًا بقامته القصيرة وعصبيته وعينييه النافذتين؟.. وماذا عن البناية العتيقة التي تعود لعام 1882؟.. تذكر أن هذا الباب الذي تجتازه اجتازه من قبل علماء كبار مثل الفيزيائي (كروكس) وأدباء أكبر مثل (كونان دويل) مؤلف (شيرلوك هولمز) وخبراء روحانيات محترمون مثل (دوجلاس هيوم)... لا تنس كذلك أن تعبير الإدراك الفائق للحواس Extrasensory perception هو من ابتكار هذه الجمعية، وهو ما صرنا نختصره بحرف إي إس بي ESP.. ربما قابلت هذه المواضيع تحت مسمى الباراسيكولوجي الذي يختصره كتاب الخيال العلمي إلى Psi أو psionics..

ألا ترى معي أن هذا كله مثير؟

* * *

لن أدخل في تفاصيل.. أنت تعرف موضوع زيارتي لبريطانيا وكيف تعرفت د. (جيمس ماتيسون).. إنه - كما تعرف - طبيب نفساني لكنه من أعضاء الجمعية البارزين.. وكان هو نفسه يملك بعض الحيل الطريفة التي تعلمها من اليوجيين.. لكنه كان يندھش من انبهارك بها، ويقول في تواضع إنها مزيج من السيطرة المطلقة على العقل وقليل جدًا من خفة اليد..

قلت له:

"كيف وأنت رجل علم تؤمن بهذه الترهات؟"

قال بطريقته العصبية التي تفتضب الكلمات اقتضابًا:

"أنا لا أؤمن بها لكنني أجرب.. أنا متعادل منذ البداية.. لهذا لا أطلق عليها ترهات ما لم أتأكد بطريقة علمية صحيحة من أنها ترهات.."

ثم استطرد قائلاً:

"هنا ندرس الإدراك الفائق للحواس وندرس التحريك عن بعد.. هناك أنواع عدة من الإدراك الفائق للحواس؛ منها التخاطر أو قراءة الأفكار أو قراءة العواطف، وهناك تحريك المادة عن بعد.. والاستبصار وهو رؤية المستقبل.. ورؤية أشياء ليست أمامك وسماع أشياء بعيدة.. أما السايكومتري فهو قدرة الإحساس بمن لمس الشيء.. هناك كذلك موهبة التواجد في مكانين في الوقت ذاته.. ثم القدرة على إشعال الحرائق ذهنيًا.. والقدرة على إحضار الماديات إليك.."

"وتعتقد أن هذا كله ممكن؟"

"أنا لا أعتقد.. أنا أدرس وهذا هو ما لا تريد فهمه"

ثم اقتادني إلى مختبر (جانتسفلد) الذي تم إدخاله عام 1974، والمعزول عن أية مؤثرات بصرية أو صوتية، حيث يجلس من يدعون أو يتساءلون عن قدرتهم على الإدراك الفائق للحواس.. هناك يكفون عن اعتبارهم بشرًا ويعتبرونهم (مواضيع).. كان (الموضوع) يجلس معصوب العينين أمام عالم يمتحنه.. ترى العالم يمد يده إلى مجموعة من البطاقات عددها خمس وعشرون بطاقة.. ثم يرفع إحداها في الهواء ويطلب من (الموضوع) أن يخمن محتواها.. هذه البطاقات تدعى بطاقات (زينر) وعليها رسوم مختلفة مثل الصليب والدائرة والموجة والنجم.. الخ..

إذا استطاع الموضوع تخمين ست إلى عشر منها فهو يملك تلك القدرة.. إنه مشروع بسيط أو على الأقل يملك الحاسة السادسة..

"لماذا هذا الرقم بالذات؟"

"هذا نتيجة دراسات إحصائية مرهقة وضعها العالم الأمريكي (جوزيف باتكس راين).. وهي طريقة لاستبعاد عامل الصدفة.. إن النتائج مبهرة لكنها غير قابلة للتكرار.. (الموضوع) الذي ينجح عشر مرات في تجربة قد ينجح خمس مرات فقط في التجربة التالية.. بينما صفات الظاهرة العلمية الصحيحة يجب أن تتضمن قابليتها للتكرار.."

هنا جاء أحد العلماء يخبر (ماتيسون) أنهم مستعدون للتحرك.. جميل.. لقد حان الوقت.. لكن تحرك إلى أين؟..

كان الليل قد بدأ يجتاح المدينة.. وفي السيارة المتجهة إلى ذلك البيت الريفى خارج (لندن) أخبرني (ماتيسون) أنهم في الطريق لتطبيق عملي لخبرات الإدراك الخارق للحواس.. من حسن حظي أن أكون موجودًا أثناء التحري.. هذا يعطيني فكرة أفضل عما يقومون به هنا..

القصة هي البساطة ذاتها.. وهي التكرار بعينه..

في هذا البيت تعيش أختان عانسان.. (إميلي) و(جين).. كل العوانس الإنجليزيات اسمهن

(إميلي) ويبدو أن هذه عادة استنتتها (إميلي بروننتي).. ولم يعكر صفو الأختين شيء طيلة حياتهما التعسة السعيدة حتى انتقلتا إلى هذا البيت منذ عام.. وهنا بدأت أشياء غريبة تحدث..

الأخت الكبرى مخيفة في حد ذاتها.. يصعب أن تصدق أن شيئاً يمكن أن يخيف هذه المرأة.. وهي تلبس ثياباً لا تمت لهذا العصر.. دعك من حذائها الذي يذكر بك بحداء (الطنبوري) في تراثنا.. لكنها تتحدث في رعب عن كليهما.. إنه في أسوأ حالاته النفسية منذ جاء هنا، وهو يرفض بشم أن يدخل قطاعات بعينها من البيت.. الردهة محرمة عليه.. مواضع بعينها في الحديقة.. الكرار.. إنه يقف هناك متصلباً ويصدر صوتاً يثير الشفقة.. أما لو حاولت أن تدخله برغمه فإن شعر عنقه يتصلب ويزوم بتلك الطريقة المنذرة بالويل، والتي تسبق تمزيق حنجرتك..

الأخت الصغرى مثيرة للتوجس.. إنها تحكي عن صوت الدقات التي تدوي في أرجاء البيت ليلاً.. دقات لا يمكن معرفة مصدرها.. إنها قادمة من كل مكان ولا مكان.. وهذه الدقات لا تحدث إلا وهما موجودتان.. أي أنها لم تحدث قط لشخص منفرد في المنزل.. فيما عدا هذا هناك شهود محترمون..

إلام تفضي هذه الدقات؟..

قال د. (ماتيسون):

"هذه هي القصة المعتادة.. حسب كلام المؤمنين بهذه الأشياء غالباً ما تشير الدقات بعناد إلى مكان في الجدار.. هذا المكان نجد فيه جثة مدفونة منذ عقود.. طبعاً روح صاحب الجثة هي التي كانت تدق.."

سألته في تهكم مهذب:

"وكلام غير المؤمنين بهذه الأشياء؟"

"يطلقون على هذه الدقات اسم **Rappings**.. إنها نوع من قدرات التحريك عن بعد لكنه لا إرادي.. أي أن الشخص الذي يعاني هذه الظاهرة يقضي أسود ليالي حياته غير عالم – الأحمق – أنه هو من يحرك الأشياء بعقله لتصدر هذا الصوت.. هناك جزء من نفسيته يتصرف بشكل مستقل عنه.. ونحن نرى هذه الظاهرة بكثرة في سن المراهقة لأنها سن ظهور هذه القدرات.. قديماً قيل إن المراهقة هي سن المس الشيطاني لكننا اليوم نقول إنها سن التحريك عن بعد دون علم الموضوع.."

هكذا بدأت السهرة.. لا أزعم أنني أفهم كل ما قاموا به.. لكنهم بحثوا عن مكبرات صوت خفية.. وقاموا بالتقاط عدة صور عادية وبالأشعة تحت الحمراء، ثم قاموا بتوصيل كاميرات وأجهزة تسجيل.. هناك أجهزة لا أعرف ما تقوم به لكنها جعلت الأمر أقرب إلى حرب الفضاء.. الخلاصة إنني أيقنت أن الشبح البانس سيصاب بهلع لو فكر في دخول البيت الآن.. لا أحب أن أكون مكانه..

على منضدة جلس (ماتيسون) يلعب الورق مع أحد رفاقه، أما الأختان الشمطاوان فقد راحتا تتسليان بالحياسة على مقعديهما المفضلين.. هناك عالم نام وآخر موشك على النوم، والكلب

يقعي جوار الأختين، وأنا المصري أجلس أراقب كل هذا..
هل كان هذا منتصف الليل؟.. أعتقد ذلك..

* * *

توك.. توك.. توك!

* * *

بدأت الدقات.. ومعها وثب الجميع.. يجب أن أقول إن الرعب شلني ففقدت التحكم في قدمي
تماماً.. لم أعد قادراً على الوقوف.. هذا الصوت يأتي من كل مكان ولا مكان.. إنه الكل الذي
نحن فيه.. صوت غريب لم أسمع مثله من قبل.. أما عن حال الكلب البائس فحدث ولا حرج..

تدور أجهزة التسجيل.. ويصيح (ماتيسون):

-"صوروا الأختين!.. أريد أن أرى كل جزء منهما في المختبر.. تأكدوا من أنه لا توجد حبال
أو حيل ما.. لا دقات خفية تحت المنضدة!.."

لكن الأمر كان واضحاً.. إنهما جالستان في الوضع ذاته.. لم يتغير شيء إلا ابتسامة من
طراز (ألم - نقل - لكم -؟).. الدقات عالية مستمرة موحشة... كأنه الموت ذاته قادماً على
عكاز وقدم خشبية.

ومن أعلى جاء صوت احد العلماء:

-"سلبي.. لا يوجد شيء في العلبة.. لا يوجد أشخاص مختبئون"

قال د. (ماتيسون) في حيرة:

-"وهذا ليس تحريكاً عن بعد.. إذ لا شيء يتحرك.."

ثم نظر لي في حماس وهتف:

-"هل من تعليق ما؟.. ليس من رأى كمن سمع!"

لكني كنت قد بدأت استعيد قدراتي العقلية.. هكذا نهضت ونظرت حولي.. ثم أشرت إلى
الأخت الكبرى (إميلي) وقلت لها أمراً غريباً لم تفهمه لذا طلبت من (ماتيسون) أن يكرر الأمر:

-"إنزعي حذاءك!"

بدا عليها الغيظ المصحوب بالذهول.. هذه إهانة.. لكني كررت الطلب..

هكذا انحنى وانتزعت حذاء (الطنبوري) الشهير.. ودعني أؤكد لك أن قدميها لم تكونا
ساحرتين.. قدم لم يرأف بها النقرس والتهاب العظام المفصلي، دعك من نظافتها الشخصية..

لكننا الآن نرى قدميها عاريتين.. وندرك للمرة الأولى الحقيقة: لقد توقفت الدقات!!

ظلت تنظر لنا وننظر لها في تحد.. توطئة لأن يسألني (ماتيسون) كأني أكبر مغفل عرفه:

"هل لك أن تفسر لي ما يحدث؟"

قلت وأنا أنهض لأزيل عني كل هذا التوتر:

"الأمر سهل.. كنت قد قرأت عن قصة الأخوات (فوكس) الشهيرات في أمريكا في أوائل القرن العشرين.. إنها تشبه هذه القصة جدًا.. ثلاث شقيقات هن.. كن يتخاطبن مع الأرواح في بيتهن، وذلك عن طريق إحداث خبطات معينة، فكانت الأرواح ترد بشفرة مماثلة.. وعن طريق هذه الرسائل المتبادلة عرفن أن هناك قتيلاً دفن في جدران منزلهن.. عمت شهرة الأخوات الثلاث ربوع البلاد، ومن هنا ظهرت فكرة التخاطب مع الأرواح وتكونت جمعيات في كل مكان من العالم تجرب الشيء ذاته. لكن حب الشهرة يحرك المرء دومًا.. وأحيانًا يعترف المجرم بجريمته ليفتخر بعبقريته مفضلًا السجن على الكتمان.. هكذا اعترفت إحداهن – وتدعى (مارجريت فوكس) – بأن الصوت الرهيب الذي كانت تحدثه الأشباح أحدثته هي بمفاصل قدمها!.. وقد أحدثت صوت (الدقات الشبحية) أمام 2000 متفرج مذهول في مسرح كبير. وقد قالت بعد هذا الاعتراف: كل موضوع الوساطة الروحية هذا نصب في نصب.. لكنه نصب على أعلى طراز ويحتاج إلى تدريب شاق!"

كانت هذه ضربة قوية جدًا لعلم الوساطة الروحانية.. وقد رفض كثيرون من علماء البارسيكولوجي الاعتراف بهذه الهزيمة..

ثم أشرت إلى الأخت الكبرى وقلت:

"نحن نرى أنه لم يتحرك شيء فيها.. لكن لماذا ترتدي هذا الحذاء العتيق؟.. ببساطة لأنه يخفي حركة اصابع قدميها، وهي اصابع أضناها النقرس.. من ثم صارت تحدث هذا الصوت الصاخب المخيف القادم من لا مكان.. ومن الطبيعي أن خلع حذاءها جعل الأمر مفضوحًا.. إن هذه الأنسة ليست إلا باحثة عن الشهرة والاهتمام"

نظر (ماتيسون) إلى المرأة التي راحت تلبس حذاءها، فقالت في ضيق:

"أنتم مخرفون ضيقو العلم.. وإنني لأطالبكم بمغادرة داري حالاً.."

نظر (ماتيسون) إلى الرجال وقال:

"هذا ما سنفعله حالاً يا آنسة.. اجمعوا حاجياتكم يا شباب.."

ثم نظر لي باسمًا وقال:

"كما قلت لك.. مقياسنا هو التجريب.. لن تكون هذه الأمسية الأولى ولا الأخيرة التي تذهب هباء"

* * *

مرت أعوام كثيرة، وتطايرت أوراق التقويم في الهواء كما يحدث في أفلام (توجو مزراحي) القديمة..

لقد اتصل بي د. (ماتيسون) منذ أسبوع، ورحنا نتذكر تلك الأيام التي لن تعود.. ضحكنا كثيراً جداً.. وحكى لي عن تجاربه مع الفقير الهندي الذي سجنوه تحت الأرض أسبوعين.. ذكرته في تشف بقصة الأختين.. لقد استطاعا خداع أساطين علم القدرات الفائقة، لكنهما لم تخدعاني.. ربما لأنني احتفظت بهامش واسع من الشك أكثر منهم.. قال لي إن كبراهما ماتت منذ عام أما الأخرى فقد غادرت البيت ولا يعرف أحد مكانها.. أما المنزل فقد هدم..

وقال وهو ينهي المكالمة:

-"على فكرة.. كانت هناك جثة امرأة مدفونة في جدار الردهة.. لابد أنها موجودة هناك منذ مائة عام على الأقل.. لكني معجب بعقلك العلمي المرتب.. معجب به جداً..!"

قد تختلف معي في الأمر، لكن لا تنكر أن الفترة التي قضيتها في جمعية البحوث الروحانية البريطانية هي فترة من أمتع فترات حياتي.. أم أن لك رأياً آخر؟

إنها تأتي ليلاً

وحيداً في عربة القطار..

لم أعتد أن أركب هذا القطار بالذات في ذلك الموعد المتأخر، لكنني لظروف خاصة وجدت أن علي أن أمضي ليلتي في الإسكندرية.. وهكذا وجدت نفسي ألحق به قبل قيامه بدقيقة..

وحيداً في عربة القطار..

كنا في يوم ميت من أيام الأسبوع، وفي ساعة يلفظ فيها اليوم أنفاسه.. لا إجازات دانية ولا هو موعد عودة موظفين أو طلاب.. لهذا لم أندesh كثيراً حينما وجدت أنني الشخص الوحيد الموجود في هذه العربة..

مر بي المحصل، وهو رجل بدين وقور يدلي عويناته على قصبة أنفه ليتمكن من النظر فوقهما كأنه صقر يترصد فريسته، وقد تفحص تذكرتي دون أن ينظر لي نظرة واحدة ثم واصل مهمته الغامضة.. ترى هل العربات الأخرى بالحالة ذاتها..؟.. لا أعرف.. ثم إنني مولع بالوحدة، وهي هبة يصعب أن تجدها في بلدي.. أحياناً يخطر لي أنه من المستحيل أن تجد نفسك وحيداً في أي مكان.. (الجحيم هو الآخرون).. قالها (سارتر) يوماً ويبدو أنني بدأت أميل إلى هذا الرأي مؤخراً.. أنا الآن وحدي.. وحدي..

فتحت الكتاب الذي أحمله معي كلما سافرت، والذي أتوق إلى أن أطلع حرفاً واحداً فيه بعد صفحة 34 التي قرأتها منذ أربعة أشهر.. وبدأت بحماس غزو الصفحة رقم 35.. لكنني نسيت عدواً آخر غير الآخرين.. هذا العدو الذي أغرته بالقدوم العربة الدافئة وإرهاق اليوم الطويل وصوت ارتطام العربات المنتظم الرتيب: الناس..

بدأ جفناي يثقلان حتى صار وزن الواحد طناً.. وبدأت بعض الأحلام السخيفة تتداخل مع سطور الكتاب.. فقط يدوي صوت ما من آن لآخر لأصحو من النوم مذعوراً وأنا أتساءل عما يريده (أدولف هتلر) من زوج خالتي.. ثم أدرك من أنا وأين أنا فأعود إلى صفحات الكتاب.. ظهرت هي للمرة الأولى بعد ربع ساعة..

لم أشعر بها في البداية لأنني كنت مغمض العينين، لكنني رأيت فيما يرى النائم كياناً أسود بارداً يمر بجواري.. فتحت عيني مذعوراً فرأيتها تجلس على مقعد يتقدمني بصفين.. المقعد المجاور للردهة على الجانب الآخر.. لهذا صرت أراها بوضوح..

إنها فتاة – لا بد أنك خمنت هذا – في العشرينات من العمر.. أعتقد أنها على شيء من الجمال إذا حكمت من جانب وجهها الأيسر.. وهي ترتدي ثوباً أسود يوحي بالحداد..

عدت لقراءة كتابي.. وبمجاح تام انتقلت إلى صفحة 36..

* * *

بعد قليل بدأت المشاكل..

رأيتها تبحث في حقيبتها ثم تخرج هاتفاً محمولاً.. كنا في منتصف التسعينات ولما يصير هذا الاختراع (في يد الجميع).. بدا لي إنها معجزة حقيقية أن تجري مكالمة وأنت في قطار، ورحلت أنظر لها بفضول تام شبه وقح..

كانت تضع الهاتف على أذنها، وتتكلم بشيء من العصبية، وبصوت عال لا يمكن أن تتجاهله:

"لا يا (عادل).. أسلوبك هذا لا يريحني وإنني لأطالبك باتخاذ قرار سريع.."

بدا لي أن الأمر مسل، فأغلقت الكتاب المنكوب بعد ما تبيت صفحة 38.. أعرف ولع الفتيات بمناقشة مشاكلهن العاطفية بصوت عال في أماكن عامة.. إن هذا يمنحهن نوعاً من الرضا عن النفس.. إن لهن (مواضيع) وخلافات عاطفية.. الخ.. لسن منبذات ولا منسيات.. لكن الويل لك لو ظهر ما يدل على أنك تتنصت..

"أعرف أنك تتعذب.. أعرف أنك تعاني.. لكن لا تتوقع لحظة أن أقبل هذا كعذر نهائي.. نعم؟.. ماذا؟.. أفهم هذا.. أنا قد جربته فلن تضيف لمعلوماتي شيئاً.."

الفتى متردد جبان يختلق الأعذار وهي تقنعه بشيء ما.. ربما يتعلق الأمر بمصارحة أهله أو الاعتراف لزوجته لا يحبها طالباً الطلاق أو... المهم أن هذا الفيلم العربي الذي أسمعه بالقوة سوف يسليني في هذه الرحلة، ما دمت غير قادر على التركيز فيما أقرأ..

ظلت تصغي قليلاً ثم قالت:

"الأمر سهل.. علبة أقراص منومة كاملة.. دعك من أساليب الأطفال.. لا تبتلع قرصين ثم تقول إنك حاولت وفشلت.. لا.. لا.. ليس اللبن!!.. إنه يعوق الامتصاص!.. سوف يبدو الأمر كأنه النعاس.. صدقني.. تذكر ما مررت أنا به.. تذكر أنني لم اختر هذه الطريقة الناعمة الجبابة.."

هنا سقط الكتاب من يدي.. عم تتكلم هذه الفتاة بالضبط؟!

كانت تواصل الكلام:

"يقولون إن المرأة تفضل أن تقتل نفسها بالسم.. أما الرجل فيستعمل طرقاً أعنف.. من المضحك أن تنقلب الآية، وأن تكون المرأة هي البادئة ثم يجبن الرجل بعد رحيلها!"

ثم راحت تضحك بطريقة هستيرية شبه تمثيلية، مطوحة برأسها إلى الوراء...

"هاها...! لكني سأعرف كيف أقنعك!.. أنت تعرف (ميادة) عندما تزمع شيئاً!!!"

الآن بدأت أفقد روعي.. جلست على حافة المقعد حتى أوشكت أن أجلس على الأرض.. ثمة شيء ما خطأ هنا.. شيء ما خطأ بلا شك..

قالت الفتاة بعد دقيقة صمت:

"لم يكن الأمر ممتعاً... الوحدة.. الظلام.. الرطوبة... صوت بنات آوى يتردد في أرجاء المكان المقفر فوق رأسك بالذات.. ثم تخرج تلك الشياطين من تحت الأرض لتعتصرك.. دعك من الجسد الممزق الذي تعرف أنه جسدك... هذا هو العذاب بعينه.. لكنك اتخذت قراراً ولا بد من تنفيذه.. أعطيتني عهداً وقد حان وقت الوفاء به.. وأنت تعرف أن (ميادة) لا يمكن خداعها... سوف تجدني وراءك في كل مكان أيها الصبي.. صدقني.. سوف تتمنى الموت للفرار مما أنت فيه.. لكن الموت هو ما أريده بالذات لك.. عندها نكون معاً.. إلى الأبد..."

* * *

عند هذا الحد قررت أن الوقت قد حان للنهوض...

كلام هذه الفتاة لا يوحى براحة نفسية... أعرف أنني اخطأت الفهم.. أعرف أن استراق السمع إلى محادثة يعطيك فكرة غير دقيقة عن محتواها.. لكن هناك بعض العبارات التي لا أجد لها تفسيراً، والتي تشعرني بأن عربة القطار هذه باردة فعلاً.. واسعة فعلاً... مقفرة فعلاً.. أعتقد أن الوقوف ما بين العربتين سيكون أفضل.. ولم أجرو على اتهام نفسي بالجبن، لذا قررت أنني بحاجة إلى لفافة تبغ..

هكذا مشيت مترنحاً عبر الممر متجهاً لطرفه الذي لا يضطرني إلى المرور جوارها.. هناك بين العربتين وقفت.. أغلقت الباب ورحت أنظر لطرف كتفها من النافذة التي تتوسط الباب.. أنا لست خائفاً.. لقد جئت هنا كي أشعل لفافة تبغ.. ثم تذكرت ان هذا العذر واه لأنني لا أدخن... !

ونظرت لساعتي.. نصف ساعة أو أكثر قليلاً حتى (سيدي جابر).. لن أنتظر الوصول إلى (محطة مصر).. سأترجل وأجد أية مواصلة..

"(ميادة) هنا؟!"

سمعت الصوت من خلفي فأجفلت واستدرت.. كان هذا أحد محصلي القطار.. رجل فارح الطول أشيب الشعر له عين اليمنى تظللها سحابة.. وكان ينظر إلى العربة الخالية من النافذة إياها ويتمتم بالبسملة..

نظر لي فرأى توتري.. قال وهو يشعل لفافة تبغ:

"لا تخف.. هي لا تؤذي أحداً.. لكنها تظهر عندما تكون العربة خالية.. فقط لا تستفزها وتظاهر بأنك لم ترها.. طبعاً لا مانع من تلاوة أية آيات قرآنية تحفظها.."

لم أفهم مغزى ما يتكلم عنه فقلت همساً:

"هذه الفتاة مخبولة تماماً!.. إنها....."

وحركت أناملي جوار صدغي في حركة مألوفة، لكنه قال في جدية مقلقة:

"لا.. منذ أشهر كانت وحدها في هذه العربة بالذات.. ثم لسبب لا نعرفه اتجهت إلى الباب فأزاحت المزلاج ووثبت من القطار المسرع!"

أطلقت شهقة فأردف هامساً:

"أنت تعرف هذه المشاكل النفسية والعاطفية التي تملأ عقول المخابيل... منذ ذلك الحين لم تكف عن الظهور في عربة القطار هذه كلما كانت خالية.. ليس منا من لم يرها.. إنها تسبب ذعر من يتصادف أن يقابلها لكنها لم تؤذ أحداً قط.. وسرعان ما تختفي.."

رأى النظرة على وجهي فابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

"طبعاً لا أطلبك بالعودة إلى هذه العربة.. يمكنك أن تذهب إلى أية عربة أخرى بقية الرحلة.."

كان هذا لا يحتمل المناقشة.. ثمة احتمال أن يكون الرجل يتلاعب بي، لكن ما سمعته من المحادثة مريب حقاً... الفتاة انتحرت وتوقعت أن يلحق بها حبيبها على طريقة (روميو وجولييت) الشهيرة، لكنه لم يفعل.. وهي تطلبه من عالمها مستعملة الهاتف المحمول.. شبح عصري جداً كما ترى..

هكذا استدرت لأقصد العربة المجاورة.. فجأة شعرت بتيار هوائي بارد.. إن الباب خلفي مفتوح..

وفي اللحظة التالية شعرت بيد قاسية باردة كالثلج تمسك ببدي..

استدرت مذعوراً فوجدتها هي.. هي ذاتها... عيناها متسعتان وهي تنظر لي في توحش وتقول من بين أسنانها:

"إلى أين أنت راحل؟... لقد سمعت المحادثة!.. هل تعتبرني مجنونة؟!"

تعثرت الكلمات على شفتي ونظرت للوراء لأستغيث بالمحصل، فرأيته يبتعد مسرعاً إلى العربة التالية دون أن ينظر للوراء.. إنه الفرار إذن.. سوف ينساني بعد دقيقتين..

قالت لي وهي تضغط على يدي:

"تعال واجلس في العربة.. لا تذهب لأي مكان..!"

مشيت معها وأنا أرتجف.. فجلست في مقعدي السابق وعادت هي إلى مقعدها.. ومن جديد عادت تتكلم عن أهوال الموت... تتنازعني عاطفتان.. عاطفة تصديق ما قاله لي المحصل لأن الموقف كله يبدو كابوساً خاصة مع نظراتها وكلماتها.. وعاطفة عدم التصديق.. لكن ما معنى ما تقوله إذن؟

ونظرت للوراء إلى الباب بين العربتين، فرأيت وجه المحصل الذي حذرنى يختلس نظرة ليرى ما يجري.. تلاقت عينانا فهز رأسه بحركة متعاطفة وضم أنامله على شكل قمع وحركها بما معناه: اصبر وتحمل.. فهي لن تؤذيك..

لن تؤذياني؟.. وهل الرعب ليس ضرباً من الإيذاء؟

والفتاة تواصل مكالمتها الطويلة:

"في اللحظات الأخيرة لم تعزني إلا فكرة أنك ستكون معي.. الآن تتردد.. طيلة حياتك تتردد.. لكن ما قبلته منك في السابق لم يعد مطروحاً.. إما أن تفعل ذلك بإرادتك أو آتي لأفعله بنفسى!.. هه؟.. لا تصدق؟!.. أنت لا تعرف ما بوسعي عمله.. لا تملك أية فكرة على الإطلاق عن قوانين هذا العالم الذي أعيش فيه.. ولو عرفت لما انتظرت لحظة.."

أخيراً بدأ القطار يقترب من الجنة الموعودة.. معذرة.. أعني محطة (سيدي جابر).. نظرت للفتاة فاستدارت ورمتني بنظرة حارقة ثم نهضت بلا كلمة واحدة ووقفت في وسط الممر وظهرها لي..

اتجهت إلى الطرف الآخر لاهتأ وأنا أدعو الله ألا تلحق بي من جديد..

من جديد وقفت بين العربتين حيث استجمعت أنفاسي..

في هذه اللحظة وجدت أنني أقف جوار المحصل الأول الذي رأى تذكرتي.. الرجل البدين الذي يدلي عويناته على قصبة انفه..

رأني ورأى الفتاة من نافذة الباب، فقال دون أن ينظر لي:

"(ميادة) هنا؟.. هي ليلة سوداء إذن!"

هزرت رأسي موافقاً بحماس فأردف:

"لا حول ولا قوة إلا بالله.. تخيل أن هذه كانت طالبة متفوقة.. ثم صارت مخبولة تماماً.. إنها تركب معنا كثيراً جداً ولا أحد يجروء على طلب تذكرة منها.. تضع هذا الهاتف اللعبة على أذنها وتجري مكالمة طويلة لا تفهم منها شيئاً"

قلت وأنا ابتلع ريقى بينما أضواء المحطة تتوهج من النافذة:

"لكن زميلك فارح الطول قال إنها وثبتت من عربة القطار منذ أشهر.. وإن هذا شبحها.."

نظر لي للحظة كأنما يتأكد من انني لا أمزح ثم قال:

"أولاً ليس لي زميل فارح الطول في هذه الورديّة... ثانياً..."

قلت في إصرار وعصبية:

"فارح الطول أشيب له عين اليمنى تظللها سحابة.."

فتح الباب وبدا كأنما هو يتذكر ثم هتف في تأثر:

"آه.. هذا ينطبق على زميلنا (مسعد) رحمه الله... لقد توفي منذ شهرين... سقط من هذا الباب بالذات بينما القطار مسرع.. لا بد أنك رأيته في رحلة ماضية فاختلف عليك الأمر.. هذه (سيدي جابر).. حمداً لله على السلامة.. لكن.. لماذا ترتجف هكذا يا أستاذ؟.. ليس الجو بارداً بالخارج إلى هذا الحد.. ليس بارداً على الإطلاق!!"

سأبكي كثيراً

عندما تنتظر (غيداء) نحو قرص الشمس تشعر بأن عينيها ذهبيتان..

عندما تقف (غيداء) في الشمس تشعر بأن جلدها مشدود يوشك على التمزق.. وأن روحها من تحته تشرنب بحثاً عن حررتها.. هل ترى؟.. هذا ويريد.. ويريد آخر.. إنهما يلتقيان هنا.. ويريد ثالث.. عندها تضحك وتقول لك: بشرتي من النوع الواهن.. إنها لا تتحمل أي شيء..

عندما تحزن (غيداء) تنظر للأرض، وتنسدل أهدابها على الخدين.. إنها تكره هذه الأهداب الساجية لأنها تتقصف دوماً داخل عينيها...

عندما يأتي الليل ترتجف (غيداء).. وتشعر بأن روحها تتجمد...

* * *

أنا كنت أحب.. لكنني لم أخبر أحداً بهذا الحب.. لم أخبر به (غيداء) وأعتقد أنني لم أخبر به نفسي صراحة، على أنني في الليالي المقمرة كنت أزيح الستار وأنظر إلى القمر وأفكر: (غيداء) تنتمي بشكل ما لهذا القرص المستدير.. إنه خال أو عم أو قريب بعيد لها..

لم أكن متزوجاً وقتها إن كان هذا قد خطر لك ببال، لكنني ما زلت أشعر بالذنب.. أشعر بأنني اقترفت نوعاً من الخيانة الزوجية، لأنني يوماً ما منحت أجمل ما في نفسي لفتاة، فلما جاءت زوجتي لم تجد شيئاً إلا هذه الروح الخاوية كخزينة مصرف أفلس...

كانت (غيداء) هي البداية وهي النهاية.. وقد قرأت (عن عبودية الإنسان) لـ (سومرست موم) فيما بعد، فلم أندesh للتعلق المذهل الذي كان يشعر به نحو ساقية الحانة (ملدريد) (كلما فكر في أذنيها الصغيرتين)... (ملدريد) خانت وأساءت له كثيراً لكنه ظل مكبلاً بالأصفاد لها غير راغب في التحرر.. نعم.. أنا أفهم هذا لأنني عشته وتنفسته وابتلغته وشربته..

نعم كنت أحب (غيداء)، لكن (غيداء) لم تحبني... هناك طعنة أولى نتلقاها في حياتنا وتظل ندبته باقية للأبد، وأنا قد تلقيت طعنتي في ذلك الوقت، وحرصت باقي حياتي على أن أداريها وأداويها على رأي الخواجة (أدلر) تلميذ (فرويد) المشاغب...

(غيداء) تختلف.. ألا ترى هذا معي؟.. هل تذكر محاضرة (الأدب اليوناني) إياها حينما كانت جالسة جوارى، وكانت تدون كلمات في مفكرتها؟.. كنا في الثانية بعد الظهر في يوم قانظ، وكان الحر والإرهاق يغمرانني.. مع ذلك الشعور الموجه بالحاجة إلى (حب شيء ما) الذي نشعر به في مارس وإبريل ويؤدي لرسوبنا في يونيو..

كان المحاضر يخط على لوح الكتابة مصطلحات.. تلك المصطلحات التي ابتكرها (أرسطو) يوماً ما وهو يضحك ضحكة شيطانية، راغباً في أن يحيل حياة الأجيال القادمة جحيماً..

ثم شممنا رائحة الشياطين جميعاً..

أول من شمه كانت فتاة هستيرية.. فراح أنفها يرقص كالأرنب، ثم بدأنا نشعر بشيء ما خطأ... بعدها رأينا أن قميص المحاضر يشتعل عند الكتف...

في اللحظة التالية أطلق الرجل صرخة، ووثب شابان كانا في الصف الأول وأخمدا النار بكفيهما.. وبعد ما زالت الهستيريا راح السؤال يتردد: كيف حدث هذا..؟

- طالب وقح ألقى لفافة تبغ لتمس كتف المحاضر.. هذه لم تعد كلية.. إنه ناد ليلى..

- إنه الحر.. ربما...

- الاشتعال الذاتي.. هذه واقعة تاريخية مدونة وحدثت لعدد كبير من البؤساء.. فجأة يحترقون فلا يبقى منهم إلا رماد...

- احتكاك الألياف الصناعية في القميص.. هذه الأشياء تحدث.. إن هذه الكهرباء الاستاتيكية....

لكن أيًا من هذه التفسيرات لم يكن ليصمد... ولو ألقى أحدهم لفافة تبغ لشممنا ورأينا.. الاشتعال الذاتي يستمر حتى النهاية الأليمة، ولم نسمع عن احتراق قميص من الحر.. إذن تظل نظرية الكهرباء الاستاتيكية هي الأفضل فيما عدا أن:

"هذا القميص من القطن الطبيعي!"

هكذا انتهت محاضرة هذا اليوم.. نهاية غير سعيدة لكنها فعالة..

* * *

وكنا جالسين في الكافتيريا أنا وهي.. لا بد أننا كنا في السبعينات لأن قميصي كان مشجرًا لو لبسه طفل اليوم لاتهمته بالابتذال، وكان سروالي من طراز شارلستون، وسوالفي تحيط بجانبي فمي، وأنا أسألها...

عندما تتحاشى (غيداء) عينيك يصير لون عينيها بنيًا.. وعندها تقول:

"(محفوظ)... (محفوظ).. ربما أنت معجب بي.. هذا يدعوني للفخر والرضا.. لكنني لن أتزوج شابًا لمجرد أنه معجب بي.. ضع نفسك مكاني.. أنا لن أكون لك ولا أي واحد آخر.."

لكنني كنت أعرف أنها كاذبة.. كلهن يقلن هذا ثم يتزوجن أول عريس ثري يطرق الباب.. أنا لا أروق لها وهذا كل شيء.. ربما أنا أقبح من اللازم أو أغبي من اللازم أو أسمع من اللازم أو أفقر من اللازم.. ربما أنا كل هذا معًا.. سأعرف هذا فيما بعد في غرفتي امام المرأة...

كانت في يدي لفافة.. وشممت رائحة التبغ المحترق تتصاعد لأنفاسي.. نظرت للفاقة في دهشة.. متى أشعلتها؟.. لا أذكر.. ثم بحثت في جيبتي فلم أجد أعواد الثقاب...

قلت لها في غباء:

"اللفافة اشتعلت و....."

لكنها حسبتني أداري خيبتني.....

هل كان هذا قبل أن تشب النيران في بيتها؟.. نعم.. بالتأكيد... لأنني أنقذت حياتها في ذلك اليوم...

كنت في غرفتي أحاول دراسة شيء ما.. عندما سمعت تلك الصرخة تشق السماء، فهرعت إلى الشرفة لأرى اللهب يتصاعد من غرفة (غيداء).. (غيداء) بالذات!.. نعم.. هي جارتني في الحي الذي أسكنه.. ألم أخبرك بهذا من قبل؟... هكذا هرعت إلى باب شقتنا حافي القدمين بالقاتلة الداخلية و سروال المنامة.. و هتفت أمي حينما رأته:

"بسم الله الرحمن الرحيم!... هل جننت يا (محفوظ) يا بني؟"

لكني كنت في الشارع فعلاً قبل أن تكمل جملتها، ورحت أثب درجات سلم دارهم.. وركلت بابهم بقوة لأندفع إلى الداخل.. لم أكن ذلك الفتى قوي البنيان عريض المنكبين، لكن الادريينالين الذي تدفق في دمي جعلني كذلك للحظات.. لقد انفتح الباب واندفعت إلى غرفة الأسرار.. قدس الأقداس... حيث كانت الكاهنة العظمى تصرخ وقد اشتعل الفراش الذي يقع بينها والباب.. لا اعرف كيف استطعت ان أجر الفراش الثقيل المشتعل إلى جانب الغرفة وأسمح لها بالخروج، ثم أهرع إلى الحمام – لا أعرف مكانه لكن حواسي صارت مرفهة كحواس السباع - لأملأ دلوًا بالماء وأعود لأسكبه على الفراش.... في هذه اللحظة عاد أبوها من الخارج ليرى المشهد المفزع.. لقد كانت وحدها في الدار...

وسرعان ما تكأأ الجيران وتعاون الجميع على إخماد الحريق.. لكني ظفرت منه بهذه الندبة في حاجبي.. هل رأيته؟.. نعم.. إن إطار النظارة يخفيها لأنني انتقيته بعناية.. عمر هذه الندبة إذن عشرون عامًا.. هناك ندبة في روعي وندبة في وجهي.. كلاهما من أجل الفتاة ذاتها..

الكل يشكرني.. الجميع يربت على كتفي الذي ألهبته النيران.. لكني أنظر لجهة واحدة وأتوقع شكرًا من فم واحد...

* * *

عندما تبدي (غيداء) امتنانها لك يحمر وجهها فيوشك على أن يشع...

حتى ونحن في مكتب الدكتور (مصطفى) أستاذ علم النفس بكليتنا لم تستطع أن تخفي هذه النظرة.. قلت لنفسي: أتراها متأهبة كي تغير رأيها؟.. ثم شعرت بوضاعة.. أنا لم أنقذها كي تحبني.. لقد أنقذتها لأنني أحبها.. ثمة فارق مهم هنا..

يقول د. (مصطفى) وهو ينظر لها في شرود:

".. لا اعرف إن كانت استشارتي قد تفيدكما، لكني لست خبيرًا في هذه الأمور.. هذا ليس علم نفس"

قلت له في إصرار:

"سيدي.. أنت مثقف موسوعي قبل أن تكون أستاذًا لعلم النفس.. وأنا بحاجة للاثنتين معًا لهذا أرغمتها على المجيء معي.."

قال وهو يتصفح أحد المراجع:

"(بايروكينيزيس).. من اليونانية (بور) بمعنى (نار) و(كينيزيس) بمعنى (تحريك)... إنها القدرة على إشعال الحرائق ذهنيًا أو تحريك النيران.. هناك من يمارسونها بشكل إرادي، وهناك من يمارسونها بشكل عفوي.."

ثم نظر في وجه (غيداء) وقال:

"وهناك من لا يعرفون أنها عندهم.. وهنا تكمن المشكلة.."

قالت (غيداء) في حماس:

"أنا أنتمي للنوع الثاني.. لقد بدأت ألاحظ هذا منذ عامين.. كلما توترت أو تضايقت تشتعل الحرائق في موضع قريب مني.. برغم هذا لا أستطيع إشعال النار إراديًا ولا أستطيع التحكم فيها.."

قال وهو يغلق الكتاب:

"لو صح هذا فانت ظاهرة علمية جديرة بالدراسة.."

قلت في حرج:

"لنأمل ألا يحدث هذا يا سيدي.. لكننا نأمل في البحث عن علاج.."

مط شفته السفلى وقال وهو يحشو غليونه الأنيق الذي يحبه لأنه يعطيه سمت العلماء:

"علاج؟... هل هذا مرض؟.. في الحقيقة لا أملك ما أقدمه لك، لكنني أرحب بأن تأتي لمكتبي في أي وقت.. أعتقد أن تمارين (التلقيح الرجعي) سوف... "

"تمارين ماذا؟"

"التلقيح الرجعي.. شيء كالذي يمارسه لاعبو اليوجا.. سوف تساعدك حتمًا على التحكم في هذه الموهبة.."

في هذه اللحظة راح الدخان ينبعث من الغليون..

نظر لها مندهشًا، فهزت رأسها في حرج وقالت:

"لم أحاول شيئًا.. كنت متضايقة لأنه لا علاج لدائي.. لا أكثر.."

* * *

عندما تفارقك (غيداء) يظلم وجهها كأنه انعكاس للنور الذي يظلم في صدرك.. إنها ترنو إلى الأفق حتى لا ترى الدمعة في عينيها وتقول:

"الآن انت تفهم لماذا لن أكون لك ولا لأي واحد آخر.."

"لا تقولي هذا.. سوف اجتاز مدخل داركم مرة أخرى، لكنني لن أكون حافي القدمين.. سوف أكون متأنفًا.. وسوف أقنع أباك.."

ضحكت بمرارة وقالت:

"لا تكن طفلاً.. المشكلة هي أنني لا أعرف متى ولا أين يشب الحريق القادم.. عندما ينام زوجي أم في غرفة نوم أطفالي..؟.. سوف أكون خطرًا داهمًا على من حولي في كل وقت.. لن يعرفوا أبدًا متى يحترقون.."

"إذن؟"

"إذن.. أنت تعرف انه لا عيب فيك. العيب في موهبتي المرعبة.. ربما أتعلم السيطرة عليها وربما لا.. أنا مستمرة في دروس التلقيح الرجعي مع د. (مصطفى) وأعتقد أنني أحرز نتائج جيدة.."

"إذن هناك أمل.."

قالت وهي تتحاشى النظر لي:

"لا تكن طفلاً مرة أخرى.. إن هذه المقامرة لا تعني أن تفقد بعض المال، بل تعني تحولك إلى رماد متفحم..!! أرجو ان تنساني للأبد... هذا كل ما استطيع قوله.."

* * *

لم تحدث حرائق كبرى في الفترة الباقية من الدراسة..

هل تتحدث عن ذلك الحريق في مختبر الصوتيات؟.. ربما كان هذا ماسًا كهربيًا يا أخي.. النار التي اشتعلت في مؤخرة الحافلة؟.. هل رأيت من قبل حافلة تحترق نفسها لم تشتعل يومًا؟.. دعك بالطبع من اشتعال الشجرة التي تقع تحت دارها.. ما المشكلة؟.. كل الحمقى يلقون أعقاب السجائر من الشرفات، وهذه تحدث كوارث لو سقطت على أوراق جافة...

(بايروكينيزيس)؟... إشعال الحرائق بالعقل؟... كلم عن هذا واحدًا غيري...

انتهى العام الدراسي وانتهت الكلية.. وانقطعت أخبار (غيداء) لفترة لأنها ليست من معتادات الوقوف في الشرفة كما يحدث في أفلام (شادية) القديمة، وأمي لم تكن صديقة أمها...

ثم جاء يوم الخميس الموعد حينما صحت من نوم القيلولة لأسمع صوت الصراخ وأشم رائحة الدخان.. من جديد رحت أثب الدرجات نحو بيتها.. ما كل هذه الأضواء؟... لا وقت للتساؤل.. كان باب الشقة مفتوحًا.. هذه المرة كان هناك كثير من الناس.. كثير من الأضواء.. صخب.. امرأة بدينة تتظاهر بأنها راقصة.. وفي وسط الزحام كانت فتاة لا أعرفها تبكي وقد ابتل شعرها بالماء، وراحت مجموعة من النسوة يهدئن من خاطرها..

"لا شيء.. لقد تمسك لهب الشمعة بشعرها.. لا تخافوا.. سليمة والحمد لله!"

أدرت عيني في المكان.. هناك (كوشة).. هذه (غيداء) بثوب الزفاف.. تتأبط يد.. دكتور (مصطفى) طبعاً وهما يبتسمان لي في بشاشة ورقة..

قالت لي وهي ترى النظرة البلهاء على وجهي:

"لست أنا.. الشمعة هي السبب.. انا اليوم في قمة سعادتي!"

وفي غرفتي نظرت لوجهي الأحمر في المرأة.. هذا هو مبدأ التحويل **transference** الذي تكلم عنه (فرويد) كثيراً... لقد تعلقت عواطفها بمحللها النفسي فكان ما كان.. وقلت لنفسي إن هناك احتمالين: إما أن التلقيم الرجعي نجح فعلاً وهي تعرف أنه نجح، وإما أن الدكتور (مصطفى) يعرف أنه لن يضايقها للأبد...

اليوم - بعد عشرين عاماً - أعتقد أنه لم يضايقها قط.. لكنه سيرتكب الخطأ يوماً ما كأني زوج يحترم نفسه وعندها.....

سأبكي كثيراً وأنا أرمق كومة الرماد المتبقية منهما!

المكحلة

عندما وجدت - أنا الدكتور (محفوظ) - هذه الأوراق في حوذتي شعرت بما يشعر به طفل عندما يجد صندوقاً من الحلوى.. إنه سعيد لكنها سعادة أكبر مما يتحملها قلبه الصغير.. إنه لا يعرف من أين يبدأ.. ثم يشعر في لحظة بعينها بأنه ليس سعيداً على الإطلاق..

إن الأوراق في كيس بلاستيكي تم ربطه برباط مطاطي، وللكيس ذات المظهر الكنيب الذي يذكر بأوراق تحاليل المرضى المزمنين التي يحملونها بالطريقة ذاتها.. وعلى كل طبيب أن يفك هذه الألغاز ويحاول ترتيب الأحداث بشكل منطقي..

أما كيف وصلت هذه الأوراق لي فقصه أرجو أن تعطيني من سردها..

لم تكن زوجتي في الدار وقتها. لابد أنها تبحث عن سيارة أجرة غير عارفة أنه (انتظار جودو الذي لن يجيء) ... لهذا سيكون عندي وقت لا بأس به لقراءة كل هذا...

جلست في غرفة مكتبي.. أوقدت الأباخورة.. وعلى الدخان المتصاعد من كوب الشاي الساخن رحت أفتح الربطة.. وعلى الفور انتشرت الأوراق التي ظلت حبيسة كل هذه الأعوام.. بعضها اصفر عتيق يوشك على التحلل وبعضها أبيض حديث.. وكلها كانت تنتهد طرباً للخلاص.. إلا أنه بين الأوراق كان جسم معدني واحد يبدو كمكحلة جدتك إن كنت تذكر منظرها.. وأنا فضولي لكني لم أبلغ درجة حمق تجعلني أبتلع الدواء قبل قراءة النشرة المرفقة..

لذا قررت أن أبدأ بالأوراق الحديثة وأحاول أن أصل لترتيب منطقي....

أول ورقة أمسكت بها كانت بخط أنيق وبأسلوب معاصر يقول:

* * *

اسمي (محمود عبد العزيز جابر).

منذ زمن سحيق وهذا الكيس في حوزتي.. لم أكن أعرف عنه الكثير سوى أنه مغلق وأن الأيدي تناقلته جيلاً بعد جيل، وأنه من الأفضل لي أن أبتعد عنه.. اليوم أنا رجل كبير ناضج وقد قررت أن أعرف ما في هذه الأوراق. كنت وحدي في تلك الأمسية وقد خرج الجميع. زوجتي تزور أمها والأطفال يلعبون عند صديق لهم في ذات البناية. لقد انتهى حفل (أم كلثوم) الشهري في المذياع منذ دقائق وعاد للبيت صمته الكنيب. وضعت الكيس على مكتبي ورحت أتفحصه.

بداخله مجموعة من الأوراق وجسم معدني يذكرني بمكحلة أمي رحمها الله..

إنها أثر عتيق لا شك في هذا... صنعت من معدن مطلي باللون الذهبي، فتحتها فوجدت أنها

فعلًا مكحلة وإلا فما سر هذا المسحوق الأسود الناعم الذي انتثر على المنضدة أمامي؟.. هذه مشكلة الأجسام المغلفة جيدًا والتي تفتح فجأة.. على كل حال جمعت الرماد وأعدته لوعائه ثم أمسكت بأول ورقة...

غريب هذا الصداق الذي يحتويني الآن.. إن رأسي يرتج كبذرة المانجو.. هل الطقس حار؟ دعنا من هذا ولنطالع المکتوب...

كانت رسالة.. رسالة على ورقة صفراء تقول:

* * *

"أنا (جابر شفيق) الموظف بالحقانية. هذا الكيس القماشي في داري منذ سنين عديدة. لا أحد يعرف محتواه لهذا قررت أن أشبع فضولي وأفتحه لأعرف ما فيه. انتظرت حتى خلا البيت من أسرتي، لأن (نعمات) هانم مع الأولاد في زيارة لأبيها (حسين أفندي عبد العليم)، وقد تركتهم هناك وعدت للدار ثم وضعت على الجراموفون أسطوانة لمحمد عبد الوهاب.. وعلى صوت أهاته وضعت الكيس على مكثبي.. وقررت أن أكتب رسالة لمن يأتي بعدي ليعرف محتواه. لكنني وجدت بداخله مكحلة حسنة المظهر بها مسحوق أسود انسكب على المكتب، فجمعته كيفما اتفق وأعدته إلى المكحلة.

لا أكنم القارئ سرًا أنني شعرت توقعًا مفاجئًا ونظرت إلى ظهر يدي فبدأ لي كظهر يد المجدور. لكنني قدرت أنها خيالات من تأثير قلة النوم لأنني لم أظفر بشيء من الطعام بعد ولم أحظ بقلولتي اليومية.

وجدت مع المكحلة رسالة على ورق أصفر متآكل بخط جميل منمق وبيان حسن تقول:

* * *

"نحن (شفيق بك إبراهيم مراد) نكتب هذا لمن يأتي بعدنا، ويقفوا خطانا. قد وجدنا هذا الكيس الخيشي في قبو دارنا المصونة، فعجبنا أشد العجب، ودهشنا أيما دهشة، وأزمننا أن نفتحه لننتعرف ما به من أسرار عظيمة والغاز بهيمة. على أننا حينما عقدنا على ذلك العزم المتقشّب ألفينا فيه مكحلة حسن شكلها ودق صنعها، وكأني بصانعها من خيرة أسطوانات الأستانة وصناعها. بيد أن بعض محتواها انسكب على القمطر عندما أزمننا فتحها فأعدناه إليها كيفما اتفق، وقد وجدنا في الكيس قرطاسًا خط على ورق بال متآكل. على أننا استشعرنا سقمًا بالغًا وحمى عالية، فهرعنا نسكب من الماء البارد على رأسنا ما يكفي لإبراء هذه الحمى وتخفيف هذا السقم. وسكبنا في خيشومنا بعض قطرات من الدواء.

ثم أننا فتحنا ذلك القرطاس الذي وجدناه.

وكان كاتبه طيب الله ثراه يقول ما يلي:

* * *

"كاتبه (مراد بك السلحدار) من أعيان القاهرة المحروسة ورجال الأمير (كتخدا خوندا طولباي) حفظه الله. أنه بحمد الله تعالى والصلاة على رسوله الكريم في عامنا هذا عقدنا العزم على فتح الشكومية التي وجدها خدمنا في الدار، وقد وجدنا قرطاساً بخط لا تتبينه العين، فاشتد عجبنا لهذا وازداد عزمنا تقشياً على استجلاء كنه هذه الشكومية.

ولقد ألفينا مع القرطاس أداة من التي يصطنعها الصانع لتكحل بها النسوة عيونهن، ألا رحم الله جريراً إذ قال:

إن العيون التي في طرفها حور
قتلننا ثم لم يحييـن قتلـلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا

والذي هو أشعر ما قال العرب في الغزل. على أن بعض ذلك المسحوق الأسود تبعثر فوق عباءتنا فنفضناه وأعدناه إلى حيث كان ولات حين مناص. فقد شعرنا بأن السقم استبد بنا استبداداً لكن هذا لم يفت من عزمنا المتقشب على قراءة ما خطه الخطاط على ورق القرطاس برسم قل مثيله ونذر شبيهه.

بيد أننا لم نستطع فك رموز تلك الكتابة الغريبة أشد الغرابة، التي هي إلى رسوم الصبية في كتاباتهم أقرب، وإلى تلك الشخايط التي يرسمها العامة على جدران بيوتهم أدنى. وهي كتابة رسمت رسماً على ضرب من تلك النباتات التي يقال لها (بردي)، والتي كان الفراعنة يصطنعون الكتابة عليها اصطناعاً. لذا عقدنا العزم على أن ننسخها نسخاً حتى يعلم من ابتغى العلم فحوى ما وجدناه فيه.."

* * *

بعد هذا وجدت أوراق بردي عليها رسوم هيروغليفية ما.. عند هذا الحد توقفت رحلتي إلى الماضي وعدت إلى الحاضر الذي يعج بالأسئلة..

لقد كانت هذه هي الرسالة الأولى. الرسالة التي بعدها تحكي الأحداث ذاتها في فترة زمنية أبعد.. وهكذا دواليك.. حتى آخر رسالة بالعربية ثم تبدأ المخطوطات الهيروغليفية.

معنى هذا أن كثيرين حاولوا فتح الكيس قبلي، منذ كان في شكومية ثم صار كيساً خشبياً حتى جاء عصر اللدائن وصار الكيس بلاستيكيًا. لكن الأغرب أن أياً منهم لم يستكمل الرسالة ليخبرنا بما وجده. هذا داع قوي كي أجرب بنفسي وليس من رأى كمن سمع.

ولكن هناك أسئلة عديدة.

لماذا لم يكمل أحدهم رسالته؟

من وضع الرسالة في الكيس في كل مرة؟

ما محتوى تلك البردية التي يبدو أنها باللغة الهيروغليفية؟

لماذا شعر كل واحد من هؤلاء بأنه ليس على ما يرام بعد ما انسكب المسحوق الأسود؟

قررت أن أفتح المكحلة.. سألقي نظرة سريعة على محتواها وربما أرسله لمن يحلله، وبعد هذا سأكتب ما رأيت كي يعرف الآخرون.. إنها جامدة.. لا أعتقد أنها ستنتفتح.. هوب!.. لقد انفتحت!.. يا للكارثة!.. لقد تناثر هذا المسحوق الأسود غريب الرائحة على مكتبي.. لكن لا مشكلة.. سأقوم بجمعه وإعادته إلى المكحلة...

هل حرارة الجو تتزايد؟.. لا أظن.. لكن ما سر هذا العرق وهذه الرجفة في يدي؟..

لا داعي للهستيريا.. إنه الانفعال لا أكثر.. سأفحص الآن هذه المكحلة بدقة أكثر..

تعالوا نلق نظرة معاً....

أوتوستوب

أوائل السبعينات.. الهيبيز ووشم الوردية و(مانسون) وأغنية (هاري كريشنا هاري راما).. والبيتلز الذين عادوا من التبت وقد اعتنقوا البوذية وأدمنوا المخدرات. ثورة الشباب وحرب فيتنام.. لاحظ أن الهيبيز هم أصلاً شباب فروا من بيوتهم لأنهم يرفضون الحرب.. (البيض الذين انتزعوا الأرض من الحمر يرسلون السود بعيداً لقتال الصفر).. وفي مصر هناك حالة الإحباط قبل حرب أكتوبر وأغنية (الطشت قاللي)، بينما على الجبهة يقبع الرجال حقاً في خنادقهم يخططون للعبور..

مع هذه الحمى العالمية التي ما زال علماء الاجتماع يحاولون فهمها انتشرت في مصر عادة غريبة عجيبة هي الأوتوستوب.. نعم هي عجيبة.. فقط في الخارج يمكنك أن تتخيل فتاة طويلة الشعر تربط شريطاً حول جبهتها وتلبس الأسمال وتحمل على ظهرها جيتاراً.. تشير لسيارتك لتركب معك.. إلى أين؟.. لا يهم.. في اللحظة التي تريدها سوف تبدأ حياة جديدة في مكان جديد مع شخص جديد.. هذا غريب عنا ولا مذاق له.. يذكرك بعادة أكل (الملوخية) بالشوكة التي يمارسها البعض..

لكن - كي أختصر - يجب أن احكي لك قصتي... هذا أنا في السيارة (الداتسون) التي يملكها (علاء) صديقي.. طبعاً لم تكن سيارتي لأنني لم أكن ثرياً قط.. كنا طالبين في الجامعة وكان المستقبل ممتداً أمامنا.. ممتداً كذلك الطريق الخالي من السيارات الذي راحت سيارة (علاء) تنهيه نهباً... كان مجنوناً لكنني كنت أكثر جنوناً منه.. لهذا مضينا في هذا الطريق بلا وجهة معينة.. ولو أفقتا لنجد أننا في ليبيا لما اندهشنا كثيراً..

كنا نتكلم عن (غيداء).. أنت تعرف (غيداء) الآن.. وكنت أرسم على وجهي تعبيراً يقول: هي مجرد فتاة.. أنا لا أهتم بها حباً.. وكان يتكلم عن.. عن (صفاء)؟.. لا أذكر الاسم الآن.. وصوت (جون لينون) يدوي من كاسيت السيارة هامساً: "تخيل لو كان العالم واحداً.. تخيل لو لم تكن هناك حروب.. ربما تتهمني بأنني حالم لكنني أمل في أن تنضم إلينا.."

* * *

يتحدثون كثيراً عن هذه الظاهرة حتى يقال إنها الأكثر شعبية في العالم.. ظاهرة شبّح راكب الأتوستوب **antom hitchhiker**.. يقال إن هذه الظاهرة مقصورة على جنوب أفريقيا وأستراليا لكن الدراسة المدققة توضح أن كل مكان في العالم شهد ظاهرة مماثلة...

القصة تتحدث دائماً عن ضحية هلك في هذا الموضع بالذات... حادث من نوع ما... بعد هذا بأعوام يمر في النقطة ذاتها عابر سبيل وحيد في سيارته فيفاجأ بمن يستوقفه طالباً الركوب (أوتوستوب).. طبعاً يتضح متأخراً جداً أن هذا شبّح الضحية..

على كل حال يقول العارفون بهذه الأمور إن هناك ثلاثة سيناريوهات محتملة:

السيناريو الأول: الشبح يشير للسيارة لتتوقف.. ثم يركب.. لأسباب واضحة يكون هذا الشبح من الجنس الآخر.. وإلا ماذا سيدفع السائق للتوقف؟

السيناريو الثاني: فجأة تصدم السيارة شخصاً.. وينزل السائق المذعور بحثاً عن ضحيته فلا يجد جثة... ربما يكتفي الشبح بالظهور أمام السائق (ليفزع الجحيم من أحشائه) كما يقول الغربيون..

السيناريو الثالث: نوع مفيد من الأشباح.. يقوم بإيقاف السائق في موضع الخطر من الطريق.. أي إنه بهذا يحمي الأحياء من الحادث الذي قضى عليه هو نفسه....

في استراليا هناك شبح معروف باسم (ماري العائدة للحياة Resurrection Mary) وهي فتاة ألقاها صديقها من السيارة المسرعة بعد مشاجرة.. هي طريقة عبقرية لإنهاء النقاش مع الأنثى لكن النتيجة هي أن الأخت (ماري) عادت تظهر على الطريق بعد خمس سنوات طالبة من العابرين أن يوصلوها إلى المرقص.. بعد قليل تختفي من السيارة.. بعض القرى في جنوب أفريقيا تعلق على الطريق لافتة (احترسوا من الأشباح!) بنفس المنطق الذي نعلق به لافتات (عبور مدارس) أو (عبور ماشية) في بلادنا..

ثمة نقطة أخرى مهمة بصدد الأشباح التي تمارس (الأوتوستوب) هذه.. كل من يحكون هذه القصص تجمع بينهم صفة واحدة: هم أشخاص لا يمكن أن تثق بكلامهم أبداً!

* * *

ولم اكن أنا و(علاء) ندرك شيئاً من هذا ونحن نقطع الطريق بسرعة جنونية... جزء من هذا الجنون يعكس توترنا وقلقنا بصدد الغد...

على ضوء كشاف السيارة استطعت أن أرى ذلك الشبح الواقف على يمين الطريق.. في هذه الساعة...؟ إنني أحسد الشخص الذي امتلك من الجرأة ما يجعله يمضي راجلاً في هذه الفلاة في ساعة كهذه.. لكن ماذا عن كون هذا البطل فتاة؟! كانت تقف هناك وتشير بإبهامها على طريقة الأوتوستوب الشهيرة.. وكانت تحمل حقيبة على ظهرها كأنها من السياح.. شيء واحد كنت متأكداً منه.. لن نتوقف هنا لأي سبب..

قلت لـ (علاء) ونحن نقترّب من الشخص:

"لا تتوقف.. استمر!"

"إنها فتاة.. لابد أنها بحاجة لعون.."

"يا أحمق.. هذه المواقف تكون كمائن دائماً.. سوف تقرأ اسمينا في صفحة الحوادث غداً

وربما صفحة الوفي-..... آي!"

كانت الصرخة بسبب ارتطام رأسي بحاجز التابلوه لأن الأحمق – فعلاً – داس الفرملة ليقف بالضبط أمام تلك الفتاة..

أغمضت عيني متوقعًا طلقات الرشاش التي سيفرغها فينا أولئك المطاريد المتوارون خلف الأشجار.. هذه هي اللحظة المناسبة.. لكن لم يحدث شيء..

فتحت عيني لأسمع المحادثة.. كانت الفتاة تقول:

"نفس طريقك هذا.. سأنزل عندما نصل إلى العمران"

أشار لها إلى المقعد الخلفي لتركب.. الآن بدأ الأحرق يتوتر ولم يعد على طبيعته كأى رجل يتعامل مع فتاة جميلة.. لم تستطع فتح الباب لأنه لا يمكن فتح أى باب في سيارة (علاء)، لذا ترجلت لأفتح لها.. كانت جميلة فعلاً وإن أدركت على الفور من ثيابها غير المهندمة وشعرها الطويل الذي يكسو خصرها أنها ممن تسربت لهم ثقافة (الهيبيز)..

انطلقت السيارة من جديد.. ورحت في ذهني أفكر في أن هذا غير عادل.. لو كان من يشير لنا رجلاً بئساً في مأزق فعلاً لما توقف (علاء).. لكن أسلحة الأنثى ماضية كما تعلم..

سوف تخرج المسدس الآن وتدسه في رأسي طالبة أن نعطيها ما معنا من مال ونترجل، ثم تأخذ السيارة وتتركنا نجرب الأتوستوب بدورنا.. هذه هي اللحظة المناسبة..

سألها (علاء) السؤال المنطقي وهو ينظر إلى معالم الطريق:

"ماذا أتى بك هنا في ساعة كهذه؟"

قالت وهي تنظر من النافذة:

"هي قصة طويلة.."

"هل لنا أن نتشرف بالاسم؟"

"هذا لا يهمك في شيء.."

وضحكت في وحشية في سري... إن الصفحات غير المرئية تتوالى على خدي صاحبي.. لكنه يتمتع بكل صفات فاتن النساء وأهمها أنه عديم الإحساس بالمهانة.. (ما عندوش دم) باختصار شديد..

قال لي وهو ينظر من فوق كتفه للخلف:

"ناولها بعض الشطائر.. لا بد أنها جوعى.. لقد تناولنا العشاء في السيارة لكن هناك شطائر و.."

قالت بطريقتها الباردة:

"انا لا أكل... أبداً.."

هكذا واصلنا السير في خرس تام.. غريب أمر هذا الطريق.. إنه بالفعل أكثر الطرق عزلة في مصر كلها ومنذ ساعة لم أر سيارة واحدة.. إن وجود هذه الفتاة يجعل المرء عصبياً ولا أنكر هذا.. دعك من أنها تتأمل قفاي باهتمام غير عادي.. كيف عرفت؟.. ألم تشعر قط بتلك النظرات التي تحرق قفاك عندما ينظر لك أحدهم في حدة؟...

بعد قليل بدأ (علاء) يتململ.. ثم أوقف السيارة إلى جانب الطريق وطلب منا أن نسمح له
بثانية واحدة.. لماذا يا أخ (علاء)؟.. لم يرد.. لماذا يا أخ (علاء)؟.. في النهاية نفذ صبره
فصاح في غضب:

"أوشك على الانفجار يا أحق!... لقد شربنا الكثير من المياه الغازية!"

هكذا فهمت.. وهكذا ترك أضواء السيارة مضاءة وانطلق إلى جانب الطريق ليتوارى خلف
مجموعة من الأشجار ... جلست أرمق سقف العربة وأنا اشعر بأن الصمت ثقيل إلى درجة لا
تصدق..

"إنني أذكر هذا المكان جيدًا.."

سمعت الصوت من خلفي فنظرت لها.. كانت قد مالت بذقنها إلى مسند المقعد حتى صار
رأسها قريبًا جدًا مني.. وكان ضوء غامض ينعكس في عينيها فبدأت لا تنتميان لعالمنا هذا..
نظرت لها طالبًا تفسيرًا فقالت:

"منذ أعوام كانت هنا فتاة وحيدة.. طالبة في كلية العلوم.. قتلت ودفنت تحت شجرة جميز
ولم يعرف أحد مكانها أو يسمع عنها بعد ذلك.. شجرة جميز غليظة لا تخطئها العين.. وصورة
الفتاة ما زالت تتصدر نشرات (خرج ولم يعد).."

نظرت لها وسألته السؤال الوحيد البديهي:

"وكيف عرفت هذا؟"

قالت في غموض:

"أعرفه.."

ثم نظرت لي بعينيها الغريبتين وهمست:

"أنت متوتر.. أليس كذلك؟... هذا لأنكما شابان مهذبان.. لو كنتما شابين آخرين لكان
التوتر من نصيبي أنا.. ألم يقل لك أحد إنه من الخطأ أن تتوقف لطالبي الركوب أوتوستوب؟..
أنت تعتقد أنه مادم أنتى وأنت ذكر فهناك اتجاه واحد للخطر.. الحقيقة أن التهديد لعبة
يلعبها اثنان.. الخطر يسري في الاتجاهين كذلك الأسهم التي كنا نرسمها للمعادلات الكيميائية.."

ثم ضحكت ضحكة طويلة كريهة.. رباه!.. لماذا لا يأتي (علاء)؟.. لا يتعلق الأمر بإفراغ
بحيرة السد العالي على ما أعتقد ...

قالت وهي لا تتزحزح عن جلستها:

"أنت قلق بشأن صاحبك؟.... لا تقلق.. إنه الآن مستريح تمامًا!"

ثم انفجرت تضحك ضحكة مستهترة قاسية..

في هذه اللحظة كان تحملي قد بلغ أقصاه.. وسرعان ما فتحت الباب المجاور لي.. إنه لا
ينفتح.. لا يوجد باب يفتح في سيارة (علاء)..
أخيرًا... وسمعتها تقول:

"إهدأ قليلاً...! أنا لن أكلك!"

لكنني غادرت السيارة.. وسرعان ما رحلت أجد السير نحو صف الأشجار الذي توارى خلفه (علاء)... ربما هي تعبت بي لكنني أفضل أن أعرف الحقيقة وأنا مع (علاء)..

مشيت وسط الأعشاب الطرية والظلام أتعثر وأصيح منادياً الفتى..

هل ابتعد إلى هذا الحد؟.. مستحيل.. (علاء).. (علاء)... فجأة شعرت بيد غليظة تمسك بيدي فصرخت..

"ماذا دهاك يا أحمر؟"

قالها وهو يحكم إغلاق سرواله.. فقلت له وأنا أرتجف:

"تلك الفتاة.. إنها مجنونة.."

"لكنها جميلة.. أفضلهن على شيء من الجنون.."

"لم استطع البقاء معها.. إنها تقول كلاماً غريباً.."

راح يطلق السباب لاعتنا الزمن الذي يرتجف فيه الرجال خوفاً من الفتيات الوحيدات.. وخرجنا من وراء حاجز الأشجار إلى حيث السيارة.. فلم نجد لها!

راح يصرخ في جنون.. ويتهمني بالعتة والحمق.. لقد ترك مفاتيح السيارة بداخلها.. هذه أذكى عملية نصب في التاريخ.. الفتاة أثارت رعبي حتى تركت لها السيارة وفرت بها!.. والآن علينا ان ننظر مرور سيارة يتعطف صاحبها ويقبل ركوبنا معه!..

لم اصدق براعة الفتاة.. لقد لعبتها بشكل متقن فعلاً..

هكذا مشينا على الطريق المظلم.. لم أتلق قط كل هذا القدر من السباب والإهانات في حياتي.. لكنني لم أرد لأنني استحققت كل حرف..

لابد أننا مشينا نصف ساعة وفجأة لمحنا ضوءاً على جانب الطريق.. هتف وهو يركض ركضاً:

"السيارة!!!"

بالفعل كانت هناك.. متوقفة.. مضاعة.. الأبواب مفتوحة.. المفاتيح موجودة.. ولا أثر للفتاة.. إذن هي ليست لصة.. إنها داعبتنا مداعبة ثقيلة لا أكثر..

ركب السيارة وأدار المحرك فاطمأن إلى أنها ما زالت صالحة للسير.. لم تتركها الفتاة لأنها تعطلت بها إذن..

هنا نظرت إلى المكان من حولنا ... هناك شبح عملاق يطل علينا ككابوس من خلف حاجز الأشجار. قلت له همساً:

"تعال معي.."

انتزع المفاتيح ودسها في جيبه هذه المرة ثم ترجل وعيناه تتساءلان.. مشيت وسط الأشجار إلى أن وصلت إلى شجرة الجميز العملاقة.. أشعلت عود ثقاب ونظرت أسفلها.. هذه الكومة العالية لا تريحني.. برغم كل شيء يبدو لي أنها صنعت بيد بشرية..

.. "عم تبحث؟"

لم أرد.. أشعلت غصن شجر جافاً ليدوم الضوء أكثر، ومددت يدي أنبش الطين الجاف.. ولم استغرق وقتاً كثيراً حتى أخرجت كيساً بلاستيكيًا صغيراً متسخاً.. فتحتة فوجدت به كراس محاضرات لم يتلف لأن الكيس حماه.. وعلى ضوء اللهب المتراقص وعلى الغلاف الداخلي قرأت: (مي محمد وهبي.. علوم كيمياء) ... وبعد صفحتين وجدت سهماً من (تلك الأسهم التي تسري في اتجاهين) ..

نظرت له ونظر لي.. وساد الصمت برهة.. ثم سألتني:

.. "ما رأيك؟.. هل نواصل الحفر أكثر أم نفر من هنا؟"

لم أكن أملك إجابة ...

بالفعل لم أكن أملك إجابة.

هدية الأرواح

لم أثق قط في أية تجربة تحضير أرواح حضرته في حياتي.. لقد رأيت الكثير لكن فكرة الخدعة لم تتخل عني قط، مهما كان الوسيط بارعاً.. لقد كان (كونان دويل) مؤلف (شيرلوك هولمز) يؤمن بتحضير الأرواح ودعا المشعوذ الأشهر (هوديني) إلى تجربة لاستحضار روح أم الأخير.. تمت التجربة وتكلمت الأم.. لكن (هوديني) لم يبتلع التجربة.. أولاً لم تكن أمه تجيد حرفاً من الإنجليزية.. ثانياً كان اليوم عيد ميلادها فلماذا لم تلمح إلى ذلك أثناء الجلسة؟.. هذه قصة غريبة ترينا كيف أن المشعوذ لم يصدق تجربة تحضير الأرواح، بينما صدقها المؤلف الوقور العبقرى..

إلا أن هذه الجلسات بلا شك تجربة نفسية رهيبة، قادرة على أن ترحزح بعض الحجب التي تغطي أجزاء من أرواحنا.. (يانج) العالم النفسي الشهير وجد أن خبرة تحضير الأرواح مهمة لأنها تكشف عن جزء كبير من خبراتنا المدفونة..

* * *

تلك الشقة في العجوزة.. يذكرك منظر الناس الجالسين والمنضدة والإضاءة الخافتة بـ (بريتية) القمار في الأفلام العربية القديمة.. حتى تتوقع أن يظهر (ستيفان روستي) في أية لحظة ليقول: "برافو يا إكسلنس".. لكن الأمر ليس كذلك.. ما كنت لأجلس في أي مجلس فيه قمار.. لكنني بالفعل كنت شغوفاً أشد الشغف بمعرفة ما يجري في جلسات تحضير الأرواح تلك.

مدام (فريدة).. امرأة أرستقراطية مسنة من الطراز الذي يتم إنتاجه عبر خط تجميع.. كلهن نحيلات عصبيات شعرهن أبيض كالقطن، وعلى أكتافهن شال أسود.. أما الباقون فهم الأستاذ (محيي) والدكتور (فهمي) وأنسة (ميادة).. هناك أستاذ أدب إنجليزي هو خادكم المتواضع..

تقول مدام (فريدة) بصوتها الرفيع المتهدج:

"الآن نبدأ.. لو كان هناك من يرغب في التهريج فليخرج الآن.. إن النفوس الخبيثة تجذب أرواحاً خبيثة."

ثم تأمر الخادم البلهاء فتضع أصيص أزهار قريباً منا.. وتتجه إلى الجراموفون وتضع عليه أسطوانة.. يقال إن الأرواح تحب موسيقا (موتسارت) بشكل خاص.. هذا هو تأثير (موتسارت) الشهير..

تقول مدام (فريدة) وهي تنظر لي بعينيها الحادتين:

"لو كان هناك من لا يصدق فلا أطلبه بشيء إلا الاحترام!"

قلت لها وأنا أشعر برهبة مبررة:

"صدقيني.. أنا لا أصدق لكني أرتجف خوفاً.. يصعب على الخائف أن يسخر"

إنها هيبة الرمز... أنا لا أؤمن بحرف من الديانة الهندوسية لكني كنت أرتجف هيبة عندما دخلت أول معبد هندوسي في حياتي.. هنا يؤمن أناس ويبتكون ويرتجفون ويدعون.. يمكنني ألا أصدق، لكني سأحترم المكان بكل تأكيد لأنه ملوث بإشعاعات التهييب التي تركها من سبقوني...

مدام (فريدة) في السبعين من عمرها.. كانت مجرد امرأة أرسقراطية إلى أن توفي زوجها.. راحت تقرأ في علم الروحانيات وسافرت كثيراً وقابلت كل من يزعم قدرته على الاتصال بالأرواح، إلى أن استطاعت أن تتصل بزوجها وحدها.. وقد خفف هذا من جزعها.. تقول إنها تشعر براحة تامة عندما تعرف أنه معها.. لن أفهم النساء أبداً.. كيف أستريح لحظة واحدة وأنا أؤمن بوجود شبح معي في كل لحظة؟

بدأت المدام تهدي خبراتها للآخرين.. أعترف بأنها لم تطلب مليماً ، لكن كل واحد ممن يتعاملون معها قرر أن يجلب هدية صغيرة.. وصار هذا عرفاً.. خمس هدايا ثلاثة أيام أسبوعياً معناها ستون هدية في الشهر!...

الأستاذ (محيي) هو بطل هذه الجلسة لأنه قد فقد ابنته الشابة منذ شهر.. حادث مروع من الطراز الذي يجيد انتقاء ضحاياه وقد انهار المسكين تماماً برغم أنه من ذوي الأعصاب القوية ، لكن معرفة أخبار تجارب مدام (فريدة) جعلته يجد هدفاً لحياته..

الدكتور هو معالج الفقيدة.. الأنسة صديقتها الوحيدة.. أنا صديق الطبيب.. هذا كل شيء.. ساد صمت رهيب ما عدا موسيقا الأخ (موتسارت)... ودعتنا السيدة إلى أن نتأمل مغلفي الأعين.. ثم نظرت نحو الأب المتلفه وقالت:

"أنت أبوها.. لهذا على الأرجح سوف تترك لك Apport"

قالتها بالإنجليزية فلم نفهم.. هذه الكلمة لا وجود لها في القاموس على حد علمي.. وإن كانت قريبة من فعل فرنسي يعني (الإحضار)...

قالت مفسرة:

"ال- Apport هي هدية الروح.. إنها تجلبها لمن تثق فيهم من الجلوس.. قد تكون شيئاً صغيراً تافهاً أو شيئاً ثميناً.. بعض الناس يطلبون مالاً وهذا يترك أثراً بالغ السوء لدى الروح.. أنت أبوها لذا يمكنك أن تطلب منها هدية.. لكن لتحفظ بها في شرك.."

كان هذا خطأ جسيماً كما ستعرف فيما بعد...

"هل أنت معنا يا (هالة)؟"

نعم.. هذا الشعور المفاجئ بالبرد ليس وليد الصدفة.. بعض الأرواح تحدث برداً شديداً عندما تصل.. بعضها يسبب الحر..

ثم أن السيدة بدأت تتلو حروف الأبجدية بصوت رتيب وكأنها تملي رسالة شفرة:

"أ.. ب.. ت.. ث.. ج.. ح....."

فما أن وصلت إلى حرف النون حتى سمعنا دقة جعلتنا جميعاً نشب مترين في الهواء.. لكن السيدة (فريدة) لم تتحرك. فقط مدت يدها في ثبات ودونت في ورقة حرف (النون).. ثم واصلت القراءة....

"أ.. ب.. ت.. ث.. ج.. ح....."

هنا سمعنا الدقة عند حرف العين.. يبدو كأن الصوت صدر من منضدة صغيرة جوار الباب.. يا للكارثة!.. هذه أقدم طريقة لتحضير الأرواح في التاريخ.. ال- **typtology** كما أسماها عالم الروحانيات (ألن كاردك).. وفيها يتلو الوسيط الأبجدية كلها إلى أن تصدر الروح دقة ما، عندها يكون اختيارها هو حرف الأبجدية الأخير..

يتم تدوين الحروف لمعرفة ما تريد الروح قوله.. طريقة معقدة أقرب إلى شفرة مورس، ويمكنك الآن تخيل كم من الوقت سوف تستغرق هذه المحادثة الأبوية.. لا بد أننا سنعود لبيوتنا بعد ثلاثة أيام..!

قالت مدام (فريدة) وقد خمنت ما أفكر فيه:

"لا وجود للزمن في عالم الأرواح.. إن لديها كل الوقت.. كل الأبدية.."

لكننا لا نملك الأبدية.. لو لم أعد للدار قبل الحادية عشرة لجعلتني زوجتي الشبح التالي..

استغرقنا دقيقتين حتى قالت الروح (نعم.. أنا هالة)... ثم نصف ساعة حتى سألت أباها عن حاله.. وهكذا دارت محادثة الدقات هذه... فلا بد أن مدام (فريدة) تلت الأبجدية خمسين مرة..

أنت تذكر قصة الأخوات (سكوت) حين كانت الأخت الكبرى (تطرق) أصابعها في حذاءها الضخم من ثم تحدث صوت الدقات هذه.. لكني أرى أصابع قدمي المدام (فريدة) في صندلها.. لا بد من تفسير ما.. أين الخادم بالمناسبة؟؟....

لكن الأب المتحمس يرتجف تأثراً ويقول:

"نادتني (موحا).. لا أحد يعرف هذا اللقب سواها وأما...!!.. ثم إنها ذكرت (مختار) الفتى الذي كان سيخطبها.. هذا سر بيني وبينها...!!!"

غطت (ميادة) وجهها وأعلنت أنها لا تستطيع البقاء أكثر.. لذا نهضت قبل أن تسمح لها المدام بذلك.. يبدو أن هذا خطأ فادح لأنها رمتها بنظرة نارية ولم تتكلم..

بعد نصف ساعة طلبت المدام من الروح الانصراف.. وانتظرنا متوترين لدقائق.. استمر الصمت فتنهدنا الصعداء...

نظر د. (فهمي) إلى المدام متسانلاً ثم أشعل لفافة تبغ... فطلبت منه واحدة لنفسها.. نفتت الدخان كثيفاً ونظرت لي قائلة:

"ما رأيك يا دكتور؟"

هزرت رأسي ولم أعد أدري ما أقول.. لقد كان هناك شيء.. لا شك في هذا.. لكن من قال إن هذه روح...؟

قال الأب في تأثر وهو يمسك بيد السيدة:

"لا أعرف كيف أعبر لك عن امتناني.. كل ما أرجوه هو أن تسمح لي بتكرار التجربة.."

قالت في وقار:

"طبعًا يا أستاذ (محيي).. هذا هو ما أحاول إثباته.. الروح معنا.. أحبائنا قريبون جدًا.."

هنا سمعنا دقة..

وثبنا جميعًا للوراء.. بينما تساءل د. (فهمي) في توتر:

"هل الروح ما زالت هنا؟"

اتسعت عينا المرأة بمعنى أنها لا تعرف.. ثم دوت دقة أخرى.. هذه المرة عرفنا مصدرها..
إنها من خارج الغرفة.. من الشرفة ذاتها..

هناك من يدق باب الشرفة المغلق...

هتف الأب في حنان:

"(هالة)!"

نظرت له السيدة في جزع وقالت:

"عم تتكلم؟"

"عن هدية الأرواح...! لقد جلبتها لي!"

اتسعت عيناها أكثر وهتفت:

"ويحك..! ما الذي طلبته؟"

"طلبت أن تعود لي ابنتي.. هذه هي الهدية الوحيدة التي أريدها!"

وثبنا جميعًا بينما صاحبت السيدة (فريدة) في جنون:

"هل جننت؟.. أتطلب طلبًا كهذا؟.. قلت لك أن تطلب شيئًا رمزيًا.."

ومن وراء باب الشرفة سمعنا الصوت العميق القادم من لا مكان:

"بابا!!!!!!!!!!!!!!!!!!!"

جرى الرجل نحو الباب ليفتحه.. هنا صرخت المدام في هلع:

"يا لك من مخبول!... هل تتخيل أن تراها وقد عادت لك؟.. بعد الحادث الذي مزقها تدخل لك

الآن؟... وبعد شهر ونيف من وفاتها؟.. لا تفتح هذا الباب!"

لكنه صاح وهو يعالج المزلاج:

"ابنتي هي ابنتي حتى لو كانت أشلاء!"

"باباااااااااااااااااااا!"

هتفت المرأة في وهن:

"امنعاه!.. إن ساقى لا تتحملان أن....."

ثم هوى رأسها على المنضدة.. لقد فقدت وعيها.. وهرع د. (فهمي) إليها يتحسس نبضها على حين وقفت أنا عاجزاً أرقب الأب الذي يفتح الباب الآن..

أخيراً باب الشرفة ينفتح...

أنظر ما خلفه وقلبي يتواثب في صدري..

هنا أرى (ميادة) تدخل وهي تضحك في وحشية..

وفوجئت بالأب كذلك يضحك.. لم أره يضحك منذ زمن..

قال لنا:

"أقدم لكما ابنتي العائدة!.. بالأحرى صديقتها (ميادة) ... إن الشرفة مشتركة بين هذه الغرفة والغرفة المجاورة لها.. عرفت هذا من زيارتي السابقة.."

قالت (ميادة):

"عندما اتفق الأستاذ (محيي) على جلسة تحضير الأرواح هذه، فوجئت بأخت مدام (فريدة) تتصل بكل صديقات (هالة) تسألهن عن أدق تفاصيل الفقيدة.. عاداتها.. الخ.. وجاء دوري في تلقي الأسئلة، لذا أدركت أن القصة كلها تتعلق بالنصب.. مدام (فريدة) تجمع كل التفاصيل عن الفقيدة لتستعملها خلال الجلسة.."

قال الأب:

"لهذا قامت (ميادة) بتسريب أخبار لا صحة لها.. لا يوجد من يدعى (مختار).. هل تتصور أن يدللوني أنا الرجل المحترم باسم (موحا)؟.. ابتلعت (فريدة) الطعام واستعملت هذه المعلومات المغلوطة على لسان الروح.."

قالت (ميادة) ضاحكة:

"اتفقنا - لو تأكدنا من أن المرأة نصابة - على أن أغادر الغرفة ثم ألعب هذه اللعبة المرعبة.. كانت قد أعدت كراساً قديماً من كراريس (هالة) وأخفته في الحجرة ليكون هدية الأب.. لكنها لم تتوقع أن يتمنى شيئاً مخيفاً كهذا.. هي وحدها كانت تعرف أنها نصابة، لذا أصابها الهلع عندما سمعت صوتي خلف باب الشرفة"

جلست على مقعد ألتقط أنفاسي وسألت:

"وصوت الدقات؟"

"سيناريو مرتب بعناية مع الخادم.. إنها في غرفة مجاورة تسمع الأحرف ثم تدق. والجدار خادع يوحي بأن الصوت من داخل الغرفة... لقد وجدت الأرملة العجوز طريقة لا بأس بها لكسب الرزق.. كل من يزورها يجلب هدية معه وهكذا تحصل على نحو أربعين هدية كل شهر.. ليس هذا أجراً ضئيلاً.."

قال الأب في صرامة:

"برغم أنني تمنيت أن تكون روح ابنتي قريبة، فإنني أكره أن يسخر مني أحد أو يتلاعب بمشاعري كأب.. لهذا أعددت هذا الانتقام وأنا واثق من أن (هالة) راضية عما قمت به.. هذه المرأة لن تخدع أحداً ثانية.."

هنا قال د. (فهيم) في أسى حيث وقف جوار العجوز المنكفئة على المنضدة:

"لن تخدع أحداً أبداً!!!"

ونظرنا له في رعب.. فكانت الإجابة واضحة.. القلب العجوز لم يتحمل هذه الدعابة الثقيلة.. أما عن هذا الصوت فهو خشب الأرضية... لا تقل لي من فضلك أنها دقائق جديدة.. لا تقل لي إن مدام (فريدة) ترسل لنا الآن رسالتها الأخيرة.

العشاء

دعوتي إلى العشاء هذه جاءت على غير موعد كما تعرف يا (شريف).. لم أتوقع ان أقابلك في هذا الحفل.. انت تعرف أننا لم نلتق منذ عشرين عامًا على الأقل.. ثم رأيتك أمامي فجأة ، ومعك تلك الأمريكية النحيلة القبيحة..

هناك نوع من النضج تبلغه التفاحة كلما تقدم بها الزمن.. في لحظة بعينها تصير التفاحة تفاحة كما أراد لها الله، وكما تراها في كتب الأطفال، وكما سقطت يومًا على رأس الخواجة (نيوتن). هذه هي لحظة الاكتمال التي قضيت حياتك تحاول بلوغها يا (شريف).. لا أذكرك إلا شخصًا عاديًا باهتًا، لكن لشد ما دب فيك التغير.. يمكنني القول إن ذروة نضج التفاحة هذه هي بداية النهاية.. أنت على قمة الهرم الآن ولسوف تنزل غداً.. غداً تتغضن وتهرم..

أخبرتني إنك سافرت إلى الولايات المتحدة وتزوجت (ماري دونر) عالمة الأنثروبولوجي الأمريكية.. وأنها اصطحبتك معها حول العالم.. كنت طبيبًا لكنك لم تعد تذكر شيئًا عن الطب لأنك اندمجت بالكامل في هذا العالم المبهر: (الأنثروبولوجي).. صرت مصورًا ومحررًا لما تقوم به زوجتك..

"هناك فيلمان عن جزر (فيجي) اشترتهما منا (ناشونال جيوغرافيكس) بسعر خيالي"

كان هذا مثيرًا.. لم ألق كثيرين من أصدقاء الطفولة ممن صاروا يعملون في الأنثروبولوجي.. أكثرهم صاروا مراقبين ماليين وإداريين.. والمحظوظون منهم صاروا مديري عموم أو مفتشي ضرائب..

أذكر كيف أنك أصررت على دعوتي لدارك يا (شريف) ومعى زوجتي والأولاد.. أنت لم تنجب بعد لهذا تدعو الكثير من الأصدقاء..

أذكر كيف أنني أعددت الأولاد لهذه الزيارة وضربت هذا وركلت ذاك، ووعدت بأنني سأحطم رأس أول من يكسر طبقًا أو يدخل الملعقة في أنفه عند مضيئنا.. هذه هي مدرسة (جحا) التربوية الشهيرة: العقاب قبل الخطأ لا بعده، فهذا يجعلهم أكثر حذرًا.. خاصة أنك لن تستفيد شيئًا لو عاقبت بعد حدوث الخطأ..

وصلنا في الموعد إلى تلك الشقة التي استأجرتها في (الدقي)، ففتحت لنا الباب يا (شريف) ورحبت بالأسرة كلها.. لا تؤاخذي.. لكن زوجتي اندهشت جدًا من مرأى زوجتك.. فإذا كان المرء سيتزوج ساحرة عجفاء فلماذا يجب أن تكون أمريكية؟... إن زوجتك بالتأكيد تختلف عن صورة الحسناء الشقراء زرقاء العينين المرتبطة في أذهاننا بلفظة (أجنبية)، لكني أفهمت زوجتي أنها لا تعرف شيئًا على الإطلاق.. زوجتك فازت بك بعقلها لا بحسنها.. قالت زوجتي:

"إذن لماذا لم يتزوج (أينشتاين) ويريحنا؟"

زغرت لها كي تصمت قليلاً.. بينما جاءت زوجتك تدعونا إلى المائدة... وجلسنا نتبادل أطراف الحديث.. أحكي لها كيف كنت زميلي في المدرسة وكيف اعتدت أن ألوث كراسك بالحبر، وكيف إنك كنت تختلف عنا بذلك الطموح المستعر لتجربة كل ما هو غريب . كان الحديث يتلون بين الإنجليزية والعربية إذا تعلق الأمر بزوجتي والطفلين.. ثم صار بالإنجليزية تمامًا كي تشترك زوجتك فيه...

هناك لحم.. لحم متبل بالصلصة البنية.. تذوقته وبدا لي لذيذًا فابتسمت لزوجتك.. ثم إنها جاءت بسلطانية حساء وراحت تغرف لنا منه.. عصرة ليمون هنا وهناك.. لذيذ لكنه كثير التوابل.. لم أعرف هذا عن المطبخ الأمريكي لو كان عندهم مطبخ..

هنا بدأت أنت تحكي خبراتك التي عرفتتها عن علم الأنثروبولوجي خلال هذه الأعوام.. قلت لي:

"إن ما أثار دهشتي هو ما عرفتته عن أكل لحوم البشر أو (الكانيباليزم)... من الغريب أننا جميعًا نمت بصلة قربي لأجداد كانوا يمارسون هذا الطقس.. هل تتصور هذا؟... بعض الجينات التي وجدها العلم في خلايانا لا تفسير لوجودها إلا حمايتنا من تبعات هذا النشاط المرعب.. لقد وجد الأثريون عظامًا بشرية في أوعية طهي عمرها نصف مليون عام في الصين.."

تذكر أنني نظرت لك في حيرة.. ما الذي جعلك تتذكر هذه السيرة (المهيبة) ونحن نتناول الطعام؟.. قالت زوجتك لا فض فوها: "كلمة Cannibalism أي (أكل لحم الجنس ذاته) مشتقة من لفظة (كاريب) الأسبانية التي تصف قبائل (الانتيل).. لقد مورس أكل لحم البشر عبر التاريخ في خمس حالات لا غير:

1- أثناء المجاعات..

2- في المدن المحاصرة..

3- بسبب التعود.. إن بعض البدائيين كانوا يحبون مذاق هذا اللحم بالذات..

4- كنوع من المبالغة في إيذاء العدو.. لا تنكر أن هناك سادية لا بأس بها في هذا الفعل..

5- وأحيانًا مورس كنوع من العلاج.. إن التهام عدوك ينقل لك قدراته كما يعتقدون"

كنت منزعًا أما زوجتي فلم تكن تتابع الحديث، ولم تبد مهتمة إلا بمعرفة من أين اشتريتم هذه الأطباق الخزفية الجميلة.. أما عن الطفلين فلو فهما لراق لهما هذا الموضوع بالذات.. لا شيء يعجب الأطفال مثل مواضيع أكل لحوم البشر والعاريت وهذه الأمور الرقيقة..

قلت وأنت تشرب الحساء برقي واضح: "على كل حال يبدو أن أكثر قصص أكل لحوم البشر في التاريخ مختلفة.. هناك إشاعات قيلت عن السوفييت أثناء حصار (ليننجراد) في الحرب العالمية الثانية... وهناك إشاعات قيلت عن الصينيين أثناء المجاعة والثورة الثقافية. تلاحظ هنا أن الإشاعات تدور حول شيوعيين.. طبعًا يمكن أن نخمن مصدرها.."

سألتك في حيرة:

"هل.. هل هناك من أكل لحم البشر في العصر الحديث؟"

قلت ضاحكاً يا (شريف):

"كثيرون.. هناك واحد مشهور في الولايات المتحدة اسمه (إد جين)، هو المادة الخام التي ألهمت الرواة والسينمائيين بحشد من الأفلام منها (صمت الحملان) و(سايكو) و(مذبحة منشار الشريط في تكساس).. هناك كذلك الطالب الياباني (ساجاوا) الذي اتهم صديقه الهولندية وهما يدرسان في (السوربون).. واستطاع أبوه الثري أن ينفذه لأنه أثبت أنه مخبول.. اليوم هذا الطالب مؤلف شهير له مراجع مهمة عن هذا الموضوع.."

رحت أقطع قطعة أخرى من اللحم.. أعتقد أنه غريب المذاق فعلاً.. لكني أعرف أكثر من غيري ما يفعله الوهم في النفوس... رباه.. ليتك تغير هذا الموضوع.. قلت لك:

"هل أحببت الحياة في جزر (فيجي)؟"

قلت لي باقتضاب (نعم) ثم واصلت الكلام:

"في عام 1972 سقطت طائرة تقل فريقاً رياضياً من (أوروغواي) في جبال الأنديز.. واضطر الناجون لالتهام من ماتوا.. وقد تم إنقاذهم بعد شهرين.. هذه قصة شهيرة جداً كتبت عنها عدة كتب.. وهناك قصة جماعة (دونر) الشهيرة عام 1846.. كانوا مجموعة تتكون من 87 من المهاجرين الأمريكيين سافروا للغرب نحو (كاليفورنيا)، لكن الجليد احتجزهم في (أوتاها) مات أربعة وهكذا وجد الباقيون أن عليهم التهام اللحم البشري.. في البداية أجروا قرعة لكنهم لم يجدوا الشجاعة لتنفيذ ما أملتة هذه.. فكروا في أكل الأدلة الهنود (هذا نموذج واضح لرقعة المشاعر الغربية) لكن هؤلاء فضلوا الفرار وسط الثلوج.. هكذا اضطر البؤساء لأكل من ماتوا منهم.. بعضهم فضل الانتحار وبعضهم جن.. ولم ينج إلا نصفهم في يناير 1847.."

هنا بدأت أغضب منك يا (شريف).. فعلاً.. وقلت في عصبية:

"ما السبب في إصرارك على هذا الموضوع أثناء العشاء؟"

ابتسمت أنت في غموض وتبادلت نظرة مع زوجتك.. وواصلت الكلام:

"من الأسماء المهمة كذلك في تاريخ هذا الطقس قبائل (أناسازي) في أمريكا الشمالية، والأزتك وجزر (فيجي).."

هنا قلت باهتمام:

"(فيجي).. هل رأيت شيئاً كهذا في (فيجي)؟"

"لا.. لم يعد هذا الطقس يُمارس هناك لكن هناك الكثير من الحكايات عنه.."

هنا صاحبت زوجتك في حماس بالعربية المهشمة:

"هل من يرغب في المزيد من اللحم؟"

تصايح الأطفال أن نعم.. هذا طبيعي.. أنا من الطبقة المتوسطة وما زال أكل اللحم والمانجو يحدثان في نفس أسرتي نوعاً من الشعور بالذنب.. فكرتي عن الثراء هي التهام اللحم والمانجو بلا حساب.. لكني زغرت لهم كي يتأدبوا قليلاً...

قالت زوجتك:

"يزعم علماء التاريخ أن الكانيبالزم مورس كذلك على نطاق واسع في الصين القديمة.."

قلت لها وأنا أضع الشوكة جانبًا:

"معذرة.. لكن هل هذه فكرتك عن تسليّة الضيوف أثناء العشاء؟؟.. أنا لا أفهم.."

قلت يا (شريف):

"الحقيقة أن هذا الطقس القديم ساحر.. إن الكلام عنه مثير فعلاً.. إنه نوع من مداعبة أكبر مخاوفنا النفسية الكامنة في مؤخرة وعينا: أن نوكل.. تصور ان مفكرًا مكسيكيًا اسمه (ريفييرا) كتب يقول: حينما تصل الحضارة إلى مستوى معين وتتححرر من كل التابوهات والخرافات الحالية، فسوف يسمح بالكانيبالزم بشكل قانوني..!"

"إنه رجل مريض.."

ورحت أنظر إلى اللحم.. أنا كذلك مريض.. أدرك هذا جيدًا..

هنا قلت لي يا (شريف):

"لماذا لا تأكل؟؟.. أنا مصر أن على المرء أن يجرب كل شيء.. كل شيء!.. أنا أيضًا تمنعت في البداية ثم بدأت أجرب.. زوجتي علمتني أن أجرب.. حينما ترى أطعمة قبائل (البوشمان) أو بعض المأكولات الهايتية، توشك على فقدان وعيك.. ثم تبدأ تتساعل عن جدوى الحياة التي تأتيها وتفارقها من دون أن تجرب كل شيء.. لقد تعلمنا من (فيجي) أشياء كثيرة، وهذا اللحم جننا به معنا من الولايات المتحدة.. لم تفتش حقائبنا.."

هنا وضعت السيدة المزيد من اللحم في طبقي وقالت:

"لاحظ أن أكل لحوم البشر لا يعتبر جريمة في الولايات المتحدة.. إن خيال المشرع لم يصل لهذه الدرجة.. المرات التي حوكم فيها أكلة لحوم بشر، أعدموا بتهمة القتل لا أكل لحوم البشر..!"

كنت أنظر للطفلين وهما يأكلان في نهم، وزوجتي تتأمل الشوك والملاعق محاولة معرفة سعرها.. وكان عقلي يسترجع هذه الكلمات.. ماذا كان اسم زوجتك؟؟.. ما اسم تلك الجماعة التي احتجرت في الجليد في يوتاه؟؟.. (دونر)؟؟.. البعض ظلوا أحياء.. البعض نقلوا ما تعلموه لأجيال أخرى.. هل من يرغب في المزيد من اللحم؟؟.. أنا مصر أن على المرء أن يجرب كل شيء.. كل شيء!

ورفعت عيني نحوك لأجذك ترمقني في ثبات يا (شريف) وتقول لي:

"أردت وزوجتي أن نجري تجربة مهمة.. هل يمكن للرجل العصري أن يتحمل هذه التجربة ويستمتع بها؟؟.. يجب أن تقول لنا انطباعاتك بدقة...!!!"

لم أرد..

فقط نهضت في حدة وانتزعت الطفلين من مكانهما، وجررت زوجتي جراً نحو الباب وهي تحتج:

"لكن.. لم نتناول الفاكهة بعد!!... أترك لنا فرصة نغسل فيها أيدينا!.. هل جننت؟"
فعلاً كنت قد جننت..

ولم أقل لك كلمة واحدة.. لقد اتجهت إلى الباب وأقفلته ورائي بقوة هزت البناية هزاً.. وفي البيت حرصت على ألا تبقى ذرة من هذا العشاء اللعين في معدة أحدنا..

* * *

اليوم – بعد شهرين من تلك الحادثة – تلقيت ذلك الخطاب منك.. لم أرد على أية مكالمة منك وتحاشيتك كالطاعون.. لو كنت متأكداً مما أقول لأبلغت الشرطة.. لكنني فتحت رسالتك من باب الفضول فوجدت نسخة من مقال نشرته زوجتك في مجلة علمية مختصة بـ (الأنثروبولوجي).. وكان عنوان المقال هو: "مدى الاستجابة للإيحاءات عسيرة التصديق لدى عينات منتقاة من الأسر المتوسطة في منطقة الشرق الأوسط". كان العنوان معقداً لكنه واضح.. ربما كنت تتسلى علي يا (شريف).. ربما كنت توحى لي بشيء غير حقيقي لتدرس رد فعلي كما يقول المقال.. لكنني أفضل أن أحتفظ باشمئزازي السابق.. كيف أعاودك واسم أسرة زوجتك هو (دونر) فعلاً كما كتب في المقال؟.. كيف أعاودك وأنا لم أرتح قط لمذاق هذا اللحم؟.. كيف أعاودك وأنا أعرف غرابة أطوارك وولعك بكل ما هو غريب؟.. ربما في مجلة ما يوجد مقال آخر عنوانه: "مدى الاستجابة لمذاق اللحم البشري لدى عينات منتقاة من الأسر المتوسطة في منطقة الشرق الأوسط".

لكنني لن أرى هذا المقال أبداً..

أعرف أنني لن أراه أبداً.

حكايات الظلال

قال لي (مصطفى الحمزاوي) وهو يقلب السكر في كوب الشاي:

"كلها جرائم بشعة، وكلها جرائم منفذة بعناية.. هذان نقيضان لا يجتمعان إلا نادرًا.. من الصعب أن يخطط القاتل المتوحش لجريمة دقيقة.. ومن الصعب أن يرتكب عبقرى جريمة بشعة.. هذا هو اهم ما يلفت نظرك في هذه الجرائم"

هل قابلت العقيد (مصطفى) من قبل؟.. إنه ابن خالي.. رجل شرطة بالمعنى الحرفي للكلمة.. إنه يكره المجرمين فعلاً وينحاز للضعفاء بالكامل.. أنت تعرف أنني موضوعي ولن اجعل منه ملاكًا لمجرد أنه ابن خالي.. فقط أقول إنه رائع لسبب واحد هو أنه رائع..

كنا صديقي طفولة، وكان يحب شقيقتي منذ سن المراهقة وإن لم يعترف بهذا إلا عندما صار في سن الزواج.. وهكذا صار زوج أختي.. صحيح أن داء السكر متفش في الأسرة وزواج الأقارب سوف.. لكن هذا ليس موضوعنا على كل حال.. لقد دخل هو كلية الشرطة بينما اهتممت أنا بالأدب الإنجليزي.. وقد اعتاد أن يحكي لي عن القضايا الغامضة التي تحيره ليعرف كيف أفكر.. أحيانًا يكون رأيي عبقرىً وأحيانًا هو الغباء ذاته..

عاد (مصطفى) يقول:

"مثلًا هناك ذلك المحاسب الذي اختنق في مكتبه.. من الواضح أن المحاسب قد خدر، ثم شغل أحدهم المدفأة في شهر أغسطس وأغلق الغرفة بإحكام.. ثم غادر المكتب وبطريقة ما أحكم غلق الأبواب من الداخل.. ميتة بشعة لكنها متقنة كذلك.. خذ عندك أيضًا الموظف الذي تم تعديل جرعات الإنسولين التي يحقن بها نفسه لعلاج السكر.. كان يعيش وحيدًا وقد تسلل أحدهم إلى شقته واستعمل نوعًا من الإنسولين به مائة وحدة بدلاً من الأربعين التي كان يستعملها.."

قلت في كياسة:

"هذا خطأ شائع لدى المرضى.."

"ليس مع من يُعالج من السكر منذ ثلاثين عامًا بالله عليك"

وعاد (مصطفى) يعد على أنامله:

"هناك امرأة قام أحدهم بتعرية سلك غسالتها الكهربائية، وترك الطرف العاري عائمًا في المياه التي تبلل بلاط الحمام.. المشكلة هنا أنها كانت وحيدة في البيت ولم يكن بوسع أحد اتهام زوجها لأنه مسافر منذ أسبوع.. لكن من فعلها؟... التقارير الفنية تؤكد أنه من المستحيل ان يحدث هذا قضاء وقدرًا.."

قلت في نفاد صبر:

"يا أخي من السهل أن يفعل الزوج ذلك ثم يسافر.."

قال بذات لهجتي:

"مستحيل لأن أختها زارتها قبل الحادث بساعات.. وكانت الزوجة تغسل الثياب في ذات الظروف من حفاء القدمين والبلاط المبتل والغسالة لكن شيئاً لم يحدث.. هذا السلك تدلى ليلمس الأرض في وقت ما بعد رحيل الأخت.."

هكذا راح يعدد لي حوادث موت.. لا أعرف إن كان بوسعي أن اعتبرها جرائم قتل.. لكن من الممكن أن تكون هذه نماذج فريدة على اجتماع الإهمال بالغباء البشري المعتاد مع بعض الحظ السيئ..

قلت له رأيي فقال وهو يحك رأسه:

"كان هذا رأيي وحياتك حتى أسبوع مضى.."

ثم مد يده في كيس ورقي يحمله، وأخرج كومة من روايات صغيرة لها ذات حجم صفحة الفلوسكاب لو تثبتها على نفسها مرتين.. وقال لي:

"(سعيد وهبي).. هل سمعت هذا الاسم من قبل؟"

هزرت رأسي أن لا.. وأمسكت بروايتين تحملان عنوان (حكايات الظلال).. هذه سلسلة إذن... قصص بوليسية على ظهر كل منها صورة لمؤلفها الذي له وجه فأر مذعور وشارب يذكرك بالأخ (هتلر).. كان هذا النوع من الأدب منتشرًا بين الشباب، لكنه لأسباب يطول شرحها غير محبوب لدى أصحاب السنين من امثالي، ربما لأننا لم نعتد إلا الأدب الواقعي أو الرومانسي أو السياسي..

قلت له:

"لا أعرفه.. على كل حال لا أعتقد أن سوق الروايات البوليسية رائج في مصر.."

"وهو كذلك.. لكنني وجدت هذه الروايات عند ابني فقررت أن أسلي وقتي بها.. إنها ليست تحفة أبدية وبالتأكيد ليس هذا الرجل أخوا (أجاثا كريستي)... لكن أنظر إلى قصة (شبح الوحدة) صفحة 154.. تجد أن القاتل قام بتعرية سلك الكهرباء في الغسالة ككمين لزوجته.. والآن افتح قصة (أشباح الماضي) صفحة 88 تجد أن القاتل العبقري استبدل نوع الإنسولين الذي يستعمله خصمه المبتز... قصة (الابتزاز) بدورها تحكي عن عملية خنق بالمدفأة.. ثم.."

قلت في لا مبالاة:

"إنه يستلهم صفحات الحوادث في الصحف كأديب آخر.. هذا أسلوب معروف"

"هذه الحوادث لم يكتب عنها حرف في الصحف.. وهل تريد معرفة ما هو أكثر؟"

ثم فتح الصفحة الأخيرة لرواية من هذه الروايات وقال:

"رقم الإيداع يدل على أن القصص كتبت منذ ثلاثة أعوام.. أي قبل أن تحدث أول جريمة

بعامين..!"

* * *

هكذا وجد (مصطفى) نفسه على بداية الخيط..

سوف يجد هذا المؤلف نفسه في مأزق عويص.. عليه إثبات أنه ملهم إلى حد لا يصدق.. هناك فيلم أجنبي شهير كان المؤلف يكتب فيه قصص جرائم ثم تقع حرفياً، وقد قدمته السينما المصرية تحت اسم (بطل من ورق)، لكن التفسير كان سهلاً هو أن هناك مجرماً حقيقياً يستلهم جرائم المؤلف.. سيكون على المؤلف إثبات هذا كذلك..

فيما بعد حكى لي (مصطفى) الموقف كاملاً..

كان الرجل في الأربعين من عمره، وكان بالفعل أقرب لفأر مذعور.. لقد كانت الصورة صادقة.. أصابه الهلع حينما عرف أن الشرطة تهتم بقصصه، وأثار هلهة أن يعرف أن علامات استفهام تحيط به.. كان - كما بدا ل- (مصطفى) - مجرد رجل بائس لا يملك الكثير من الموهبة أو الخيال، وهو بالقطع عاجز عن قتل دجاجة، وكان يكتب ليظفر بالأربعمئة جنيه التي يدفعها له الناشر عن كل كتاب.. لا أكثر ولا أقل..

(مصطفى) يميل إلى أن الرجل بريء.. لكن ما تفسير هذه المصادفة العجيبة؟

قال له (مصطفى) إنه لا يشك فيه، لكنهم يريدون أن يساعدهم بمخيلته.. من عساه يستطيع أن ينفذ جرائم القتل تلك مستوحياً القصص؟.. لا إجابة.. إذن ما هي جريمة القتل التالية؟.. لا إجابة..

كانت حلقات الاتهام تحيط ب- (سعيد وهبي) لكن أحداً لم يجد أدلة كافية، وكان هذا عندما وقعت جريمة القتل التالية.. جرى (مصطفى) يتصفح كل النسخ التي لديه ثم توقف عند صفحة بعينها وهتف بانتصار:

"ها هي ذي.. معالجة المصعد كي يتوقف بين طابقين.. فتح الباب وإخراج رأس الأستاذ (محمود) منه، ثم تشغيل المصعد ليطير الرأس.. بعدها يفر القاتل من فوق سطح البناية.. لا تقل إن هذه مصادفة من فضلك.. فقد كبرت على هذا"

لم أجد ما أقول.. فعلاً لا يوجد تفسير.. ومن جديد نعود لفكرة (بطل من ورق)..

بعد أيام اتصل (سعيد وهبي) ب- (مصطفى) يخبره بأن جريمة القتل التالية سوف تحدث خلال يوم أو يومين.. القتل محام شهير سوف يجدونه مدفوناً في الصحراء حتى العنق.. هكذا سيترك عشرة أيام كاملة حتى يقتله الجوع والظمأ والخوف وحرارة الشمس...

الآن بدأ الاتصال.. هكذا سأله مصطفى في حماس عن مصدر معلوماته.. فقال (سعيد):

"قصصي.. هذه جريمة قتل ابتكرتها أنا.. لقد آمنت بأن قصصي مصدر إلهام لقاتل مخبول"

"ولماذا اخترت هذه الطريقة بالذات الآن؟.. قصصك مليئة بالقتلة والقتلى والله الحمد.."

"لا أستطيع تفسير ذلك لكن يجب أن تصدقني.."

لكن كيف يمكن حماية كل محام في مصر ومنعه من أن يدفن في الصحراء؟... استعمل (مصطفى) الطريقة السهلة الوحيدة بأن يراقب (سعيد وهبي) جيدًا.. عشرات الرجال ضخم الجثة غليظي الشوارب شوهدوا يقرءون الصحف في الشارع الذي يقيم فيه ولمدة يومين، لكن الجريمة تمت بدقة.. وبعد أسبوعين وجد أحد البدو تلك الجثة..

جن جنون (مصطفى).. وكان السؤال المنطقي الأول الذي وجهه للمؤلف البائس هو:

"ما الذي يربط بين هؤلاء القتلى؟"

"لا أستطيع التفسير.."

هكذا كان صبر (مصطفى) قد نفذ.. قرر أن يكشف عن انيابه لهذا المدعي.. جره جرًا إلى قسم الشرطة وأبقاه هناك ربما للأبد.. فقط كان يستدعيه ثلاث مرات يوميًا ليسمع القصة ذاتها.. في النهاية انهار الرجل وقدم اعترافًا كاملاً..

"إنهم قتلة قصصي.. لقد تحرروا!..."

يمكنك الآن فهم رد فعل (مصطفى)... لقد أمسك بالمؤلف من تلايبه وعاد يستعيده القول..

"قتلة قصصي تحرروا وهم يقتلون الناس بذات الترتيب والطرق التي قمت بتأليفها.. إنهم لم يعودوا مجرد شخصيات على ورق.. إنهم الآن حقيقيون!"

عرضه على الطبيب النفسي... فكان رأيه الذي قدمه لـ (مصطفى) ولي لأنني كنت هناك بالصدفة هو:

"أحيانًا تكون الكتابة عملية إعلاء نفسي.. هذا المؤلف يعاني عدة عقد نفسية ومحبط بشكل واضح، لهذا راح يمارس على الورق ما كان يمكن أن يمارسه في الواقع.. يقتل ويسرق وينال أجمل النساء.. كل قتلته نموذج للشخص الذي كان يتمنى أن يكونه بنفس المنطق الذي يجعل الناس يحبون قصص (آرسين لوبين) التي تحكي عن لص لا يشق له غبار.."

قلت له بلهجة الأدب:

"هذا إذن هو التطهير الأرسطوطالي"

"بالضبط.. ما كان يكتبه على الورق حماه من أن يصير وحشًا.. لكن هذا الإعلاء لم يعد يكفي.. هكذا خرج إلى العالم ينفذ بالفعل ما ارتكبه قتلته على الورق.. هذا هو الفصام"

قال (مصطفى):

"نظرية جميلة لكن الرجل لا يملك هذه القدرات الخارقة.. يتسلل إلى الشقق المغلقة وبفلت من رقابة مخبرينا.. الخ.."

"إنه ذكي.. لا أحد ينكر هذا.. وأعتقد أنه قادر على إيجاد السبل.."

عندما جلسنا مع (سعيد وهبي) بدا مصرًا على نظريته.. وقال لي:

"هناك من القتلة الذين ابتكروهم (راغب) الذي يجيد القتل باستخدام طرق طبية.. إنه طبيب فاشل شطبت النقابة اسمه لأنه كان يمارس الإجهاض.. وهناك (مختار) الذي يقتل بالكهرباء.. كل جرائمهم لها طابع كهربائي.. كل هؤلاء خرجوا من قصصي... كنت انام ليلاً فأسمعهم يتكلمون في الصالة.. كنت اخرج فلا أجدهم لكني أعرف يقيناً أنهم كانوا هنالك.. (راغب) يهوى رسم الأسهم على قطع الأثاث بمديته.. (منصور) الذي يحب قطع رءوس ضحاياه بالمصعد يسعل ويبصق كثيراً.. في الصباح كنت اجد آثاره في الصالة، كما كنت أجد أعقاب السجائر تشي بأن هناك نحو خمسة رجال كانوا في داري ليلاً"

قال الطبيب النفسي:

"بضعة ايام في المصحة مع الملاحظة.."

هكذا أودعوه غرفة انفرادية في مصحة عقلية.. وأغلقت القضية...

بعد أيام اتصل بي (مصطفى) قائلاً:

"أريدك معي"

كان يريد أن يصحبني إلى المصحة... هناك أدخلونا إلى غرفة يقف على بابها حارس مذهول، وعلى الفراش كان (سعيد وهبي) بمنامته الخالية من الخيوط والأزرار ينظر في ذهول إلى السقف.. لقد مات.. وعلى الأرض جثة كوبرا مصرية قتلها الحراس بالأحذية بعد ما لدغت (سعيد)..

"أنا لم أفارق مكاني ومن المستحيل أن يدخل أحد هذا الثعبان من النافذة الموصدة.. لقد سمعت صوتاً من داخل الغرفة، كأن عدداً من الرجال يتناقشون.. هناك من يسعل ويبصق وهناك من يضحك.. ثم سمعت من يقول: حان الوقت لننهي علاقتنا بك.. قلت لنفسي إنني أحلم لأنه لا يمكن أن يدخل إنسان هذه الغرفة، ثم سمعت صرخة فهرعت أقتحم المكان لأجد الرجل ميتاً والثعبان يتلوى حول ساقه.."

كانت هناك أعقاب سجائر في كل صوب على الأرض ومعها بقع من البصاق.. واتجهت إلى إطار النافذة فوجدت تلك الخطوط التي رسمها أحدهم بمديته.. إنها أسهم.. لا شك في هذا... وجدت (مصطفى) يمسك برواية صغيرة في يده ويقلب صفحاتها حتى بلغ موضعاً.. وقال لي:

"أحضرتها معي لأنها الرواية الوحيدة التي يقتل فيها نزيل في مصحة"

ثم راح يقرأ بصوت عال:

"وبمجرد ما استطاع (درويش) أن يتسلل إلى جوار الفراش، أخرج هديته الخطرة من الكيس الذي يحمله غير مبال بفحيحها الغاضب.. وألقاها على جسد النائم لتتلوى فوقه قبل أن تغرس نابيها في لحمه.. هنا تنهد (درويش) وبید ثابتة أشعل لفافة تبغ وأحرق غطاء الفراش على شكل حرف D"

نظرنا معًا إلى الملاءة تحت جسد (سعيد) الخامد، فرأينا حرف D واضحًا هناك..

هل نحن واقفان أمام لغز آخر من ألغاز الكون؟، أم يتعلق الأمر بكاتب واسع الحيلة استطاع أن يهرب ثعبانًا إلى داخل المصحة لينتحر بطريقة تثير العجب؟.. كلا الاحتمالين عسير التصديق.. فقط نعرف أن الظلام يدنو وأن سرًا آخر سينضم إلى حكايات الظلال.

تأثير الفراشة

يطلق عليه العلماء اسم (تأثير الفراشة) نسبة لقصة (راي برادبوري) الشهيرة عن الرجل الذي عاد إلى الماضي ليقتل الديناصورات.. لقد تم ترتيب كل شيء والديناصورات التي سيقتلها هي فقط تلك التي تم وضع علامة مضيئة عليها لأن هذه ساعة موتها على كل حال؛ أي أن قتلها لن يحدث أي تغيير في مجرى الزمن.. هكذا عاد الرجل وراح يتسلى بإطلاق الليزر على تلك الوحوش، لكن حدث خطأ ما جعله يطأ فراشة وسط الأوحال، وبدا هذا تافهًا.. حينما يعود لزمنا يكتشف أن كل شيء تغير وحتى شكل المباني ولون السماء.. إن الفراشة التي سحقها ربما كانت ستتطور إلى شيء أكبر.. وتراكت التغييرات على مدى ملايين السنين لتصير هائلة..

يطلقون عليه اسم (تأثير الفراشة) وهناك فيلم سينمائي شهير بذات الاسم، فلا تعتقدوا أنني سرقت قصته من فضلكم.. إن مصطلح (تأثير الفراشة) لم يحتكره أحد..

يطلقون عليه اسم (تأثير الفراشة) لكنه يتمشى مع تعبيرنا العربي الخالد (ومعظم النار من مستصغر الشرر)..

* * *

كنت منطلقًا بسيارتي على الطريق السريع.. تعرفون أنني أسوأ سائق في العالم ربما بسبب ضعف البصر أو لأنني تعلمت القيادة في سن يفضل الناس أن يموتوا فيها.. إنه الليل وصوت أم كلثوم ينبعث من قناة إذاعية مجهولة.. هذا يجعل وزن جفنيك طنًا... هكذا نمت.. ليس بوسعك أن تقسم أنني نمت لكني أعرف أن هذا حدث لجزء من الثانية ثم فتحت عيني على الجحيم..

فتحت عيني لأجد أن الطريق زلق.. زلق أكثر من اللازم.. وضغطت الفرملة فقط لأكتشف أن هذا مستحيل.. السيارة تواصل طريقها بحماس مشبوب... رحت أضغط وأرفع قدمي.. ذلك العمل الذي يصفه الميكانيكية بأنه (المكاركة).. لكن (المكاركة) كالعادة تغلج معهم ولا تغلج معي..

وداعًا د. (محفوظ).. كانت معرفتك لطيفة وكان وجهك في مرآتي يطمئنني على أن الكون بخير..

السيارة تنقلب مرة.. ثم مرة.. ثم وجدت أنها ملقاة على جانبها الأيمن، وأني أتحسس الباب وأنا أشعر أن هناك من يدق مخي بيد (الهاون)..

هناك شخص متحمس ما فتح الباب وشدني للخارج.. وفي النهاية وجدت انني ملقى تحت جذع شجرة وأن حوالي خمسة أشخاص يسكبون على وجهي الماء.. ربما يبصقون أيضًا..

قال لي أحدهم:

.. "حصل خير والحمدلله.. لقد كان الطريق مبتلاً.. سيارات المطافئ أغرقت كل شيء

والمشكلة هي ان حرائق البنزين صعبة.."

رحت أحاول استجماع ما حدث.. مطافئ وحرائق بنزين؟....لم أر شيئاً من هذا.. ثم نهضت..
إنني سليم لم يتحطم شيء.. فقط هي الصدمة العصبية لا أكثر.. أعتقد أن أنفي نزف بغزارة لكن
هذه الأشياء لا تستمر.. ونظرت لبعيد..بالفعل هناك محطة بنزين عند الأفق.. ومن الضوء
الراقص أقدر أن هناك حريقاً.. سيارات إطفاء.. فوضى عارمة.. صراخ..أنظر للوراء فأرى
كافتيريا وصيدلية عند ذلك الجسر الذي يستخدمه من يعبرون الطريق السريع راجلين..

مشيت مترنحاً إلى حيث كان الزحام في محطة البنزين..

القصة واضحة... توجد سيارة لوري عملاقة تقف وسط المحطة والدخان ينبعث منها لغان
السماء.. واضح ان جهود السيطرة بدأت تفلح ، لكن النتيجة كانت فوضى عارمة.. الطريق كله
زلق مبتل والدخان يجعل من الصعب أن ترى يدك.. وهناك عدد من المارة المتطوعين ورجال
الشرطة يقفون حاملين الكشافات ليجعلوا السيارات القادمة على الطريق السريع تهدئ
سرعتها.. طبعاً هذه الأساليب تنجح مع الجميع ما عداي..

دنوت أكثر وبرغم الفوضى العامة وضعت يدي على كتف أحد عمال محطة البنزين وسألته
عما حدث..

كان شاباً أسمر مذعوراً قال وهو يجفف عرقه ويسعل من فرط الدخان:

"السيارة اللوري كانت مشتعلة.. كانت محملة بأجولة القطن.. وقد وثب سائقها منها
هارباً.. عندها واصلت طريقها لتقتحم المحطة.. لولا رحمة الله لتحولنا إلى بخار.."

ثم اشار إلى رجل يقف وسط الزحام وقال:

"هو ذلك الأحق.. لن يتركوه"

وعلى بعد خطوات وجدت السائق الباكي ممزق الثياب متورم الوجه من كثرة الضرب، يقول
لضابط متشكك متحمس:

"أقسم بالله يا باشا.. لم اعرف كيف حدث هذا.. فقط نظرت في المرأة فوجدت ان حمولتي
كلها تحترق.. هكذا وثبت من السيارة ولم أعرف أنها ستدخل المحطة.. لم أفكر وقتها إلا في
النجاة.."

هنا تدخل رجل قصير القامة يضع عوينات سمكة ليقول:

"الحق ما قال يا حضرة الضابط.. لقد مرت سيارته تحت الجسر هناك.. أنا كنت في سيارتي
وراءه ورأيت المشهد.. رأيت رجلاً يقف فوق الجسر يلقي بلفافة تبغ مشتعلة ... ثم اشتعلت
النيران في القطن بسرعة وساعد الهواء على ذلك.. حتى لما بلغ هذا الموضع كانت حمولته
كلها تحترق.. لقد أصيب المسكين بالذعر ووثب من السيارة غير مقدر خطورة الأمر.."

قال الضابط في غيظ:

"ومن المخبول الذي يلقي لفاقة تبغ على أجولة قطن؟"

"ومن الذي لا يفعل ذلك؟... إن الاستهتار هو الموضة هذه الأيام.."

بالفعل من العسير اليوم أن تجد ذلك الرجل التقى الحكيم الذي يرى سيارة لوري محملة بالقطن فلا يلقي لفافة تبغ على حمولتها.. لو قابلت هذا الرجل يا ابنتي العزيزة فلا تتركه للأبد.. إن القصة قد انتهت وهي موجعة أليمة، وهذه الأجسام المتفحمة الواقفة وسط الدخان هي نصب تذكارية للاستهتار.. لكن لنحمد الله على أنه لا توجد جثث..

نهضت مفكرًا في سيارتي البائسة.. لا بد من إعادتها إلى وضعها الطبيعي فهل تتحرك عندئذ؟.. ما مدى ما أصابها من دمار؟.. تمكنت مع بعض المتطوعين من تقويمها وأدرت المحرك فسرني أنه ما زال يعمل.. حتى ام كلثوم لم تنه أغنيتها بعد.. هناك أشياء طيبة في هذا العالم برغم كل شيء.. هكذا انطلقت بسرعة السلحفاة أبتعد عن المشهد..

مشيت بسيارتي بضعة أمتار حتى بلغت الجسر العرضي الذي يصعد له من أراد عبور الطريق السريع.. وهنا شعرت بأنني بحاجة إلى قدح قهوة قبل ان اواصل رحلتي الرهيبة.. لا مزيد من النوم خلف عجلة القيادة.. هكذا دخلت الكافتيريا شبه الخالية الغافية تحت أقدام الجسر، وطلبت من النادل قهوة سوداء مركزة.. رأى حالي فأحضر لي منشفة متسخة مبتلة أزيل بها الدم عن صدر قميصي، وسألني عما إذا كنت قد أصبت في حادث الحريق فقلت له إنني أصبت لكن بشكل غير مباشر.. أصبت بسبب الماء لا النار.. فقال:

"يقولون إن هناك رجلاً ألقى لفافة تبغ على اللوري.."

"هذا ما يقال.."

قال النادل وهو ينظر حوله:

"هذا صحيح على الأرجح.. بيني وبينك يا سيدي.. أنا رأيت ذلك الرجل.."

"رأيتة؟"

"نعم.. كانت هناك فتاة حسناء تجلس هنا... في كافتيريا كهذه وساعة كهذه لا بد أنها تنتظر رجلاً.. ظلت تنتظر طويلاً... ربما ساعة أو أكثر.. قلت لنفسى من الأحق الذي يعطي موعداً لهذه الفتاة ثم لا يأتي قبلها بشهر؟.. ثم ظهر رجل طويل له شارب كث وجلس معها.. يبدو انهما كانا يتشاجران.. واضح أنه تأخر كثيراً على مواعدها وهي لم تقبل أية أعذار.. وفي النهاية نهضت في عصبية وألقت بورقة مالية على المنضدة وغادرت المكان أما هو فظل جالساً بعض الوقت.. بعدها اشعل لفافة تبغ في عصبية.. انصرف فلم اعترض لأن الفتاة دفعت.. رأيتة يصعد درجات الجسر ومن الواضح أنه وقف فوقه يرمق الطريق شاردًا بعض الوقت.."

"هل تعني أنه؟"

"ضع نفسك مكانه.. متضايق حزين.. ينهي لفافة التبغ ثم يتخلص منها غير عالم ان ما يمر تحته هو سيارة لوري محملة بالقطن.."

كانت القهوة سيئة.. كما احبها بالضبط.. هكذا نقدت الفتى ماله ودست قرصين من الأسبيرين في فمي كي أقضي على هذا الصداغ، ثم شكرته واتجهت إلى الباب، وفجأة سمعته

يصيح:

.. "هذا هو يا أستاذ!"

هذا رجل طويل القامة صاحب الوجه له شارب كث.. لا يوجد كثيرون بهذه الأوصاف.. لقد دخل إلى الكافتيريا فهرع النادل نحوه وصاح وهو يمسك بتلابيبه:

.. "هل تعرف ما سببته؟"

بدا الرجل محاصرًا.. من الواضح أننا لن نتركه.. ولم يبذل أي جهد لينكر أو يكذب.. إنه يعرف بالضبط حدود الضرر الذي سببه عن غير عمد وهو يحترق ندمًا.. هكذا طلب أن نسمح له بالجلوس ثم بدأ يتكلم.. قال:

.. "لنقل إن المودة كانت تربط بيني وبين تلك الأنسة التي...."

قال النادل في نفاذ صبر:

.. "كنت تحبها.. وكان هذا موعدًا بينكما.. دعك من الحذقة فلسنا طفلي الأمس.."

نظر له الرجل وابتلع ريقه وقال لنا إنه كان ينتظر هذا الموعد منذ دهر، لكنه تأخر عنه.. وهكذا رحلت حبيبته.. لقد كان متجهًا إلى موعدا قبله بنصف ساعة، لكن تعطلت سيارته.. والسبب هو أن بنزينها نفذ.. هكذا اضطر إلى المشي حتى يلحق بالموعد وقد بلغه متأخرًا ساعة كاملة.. الأمر الذي لن تغفره أية فتاة في العالم..

.. "لقد ظلت جالسة كل هذا الوقت كي تنفث غضبها في وتهينني وترحل.."

قلت له متمهلاً:

.. "ما دام الأمر مهمًا بالنسبة لك لهذا الحد فلماذا لم تستقل سيارة أجرة؟.. لا يبدو لي وقتًا مناسبًا لتتحلى بفضيلة الاقتصاد.."

قال في خجل:

.. "لأنني لم أكن أملك أجر التاكسي.. وبالطبع لم أكن أملك ما يكفي ثمن البنزين"

قلت مغتاظًا:

.. "إذن ماذا كنت تنوي عمله في موعدك؟.. تطلب كوبيين من الماء؟.. من حسن حظك أنها غضبت وألقت بثمان ما شربته وإلا لقضيت ليلتك في المطبخ"

.. "لم يكن هذا ضمن خطتي.. كان معي ما يكفي من مال.. وخرجت من داري مفعماً بالأمل، ثم شممت رائحة الشواء تنبعث من مطعم.. كان عندي متسع من الوقت وأنا لم أكل شيئاً طيلة اليوم من فرط الترقب واللهفة.. هكذا قررت أن أتناول وجبة سريعة.. لكنني حينما دخلت المطعم لم أستطع التحكم في شهيتي وأكلت كثيرًا جدًا.. وفوجئت بأن ما معي من مال يكفي فاتورة الحساب بالضبط ويبقى جنيهان ربما يكفيان لنفقاتها.. هكذا دفعت وخرجت وأنا أمل أن يكون في السيارة ما يكفي من بنزين.. طبعًا اتضح ان أُملي كاذب.. لقد تعطلت السيارة في أسوأ

وقت.. هكذا قررت أن أمشي.. ويبدو لي أنني مشيت قروناً.."

رحت أفكر في الأمر.. يا للعاشق الشره المفلس!.. فيما مضى كنت احسب أن الحب يملأ المعدة حتى بدأت أحسب المعدة والقلب يشتركان في تجويف واحد، لكن هذه القاعدة لا تنطبق هنا في مصر.. الحب يفتح الشهية، وقديماً تكلم الساخر العظيم (أحمد رجب) عن (الغدة الأكلوغرامية) التي تفرز هرمون (الطفاسين) وقت اللقاء العاطفي..

تأثير الفراشة.. هذا هو ما يمكن ان نسمي به هذا التفاعل المتسلسل من الأحداث.. هو جاع فأكل كالمحرومين فنغد ماله.. هكذا نفد البنزين وتأخر عن مواعده.. من ثم فقد حبيبته.. في غل ألقى بلفافة تبغّه من فوق الجسر.. اشتعلت السيارة.. اقتحمت محطة البنزين.. انزلت سيارتي على الأسفلت المبتل..

كل هذه السلسلة الجهنمية كان يمكن قطعها بتغيير واحد.. لو لم يأكل الكباب.. لو بقي بعض البنزين في السيارة.. لو لم تسقط اللفافة على اللوري.. لو لم يختر اللوري وجهته بدقة.. لو لم أنم أنا...

قلت له في شيء من سخرية لم يفهمها:

-"لو لم تغلبك رائحة الكباب لما تهشم أنفي أنا.. هل تتصور هذا؟"

لكنه نظر لي في غباء ولم يستوعب حرفاً.. أعتقد أنه لم يسمع قط عن تأثير الفراشة.

كتاب ديزان

(ك) كنت طالب دراسات عليا في ذلك الوقت، عندما سمعت للمرة الأولى عن ذلك الكتاب، وكان هذا عن طريق أستاذي الدكتور (مختار). لقد لاحظت اهتمامي البالغ بتاريخ السحر القديم ومحاولات البشر الوصول إلى أسرار الكون.. كنت أدرس بعض النصوص الإنجليزية العتيقة التي تعود لزمان كان السحر فيه ديناً.. وكانت المسيحية تكافح لتبقى وسط الشمال الأوروبي العاصف برياحه وأمواجه وقبائله الجرمانية المتوحشة.. لما رأى أنني مهتم فعلاً، دعاني إلى بيته وكان يحمل لي قنبلة ما..

(ت) تأملت وجه الدكتور (مختار) وهو يصب لي الشاي.. كان شيخاً قصير القامة أصلع فيه كل ما ينفر الحسان ويجذب طالبي العلم، وكنت اعرف أنه لم يتزوج قط، وأنه يعيش وحده حياة كنيبة لا يشعر بأنها كذلك لأنه راهب علم حقيقي.. وكنت من الطراز التقليدي الذي لا يصدق أنه يمكن أن يرى معلمه في الشارع أو البيت، لذا ظللت منبهراً متهيّباً لا اصدق أنني هنا في بيته.. قال لي وهو يفتش بين رفوف المكتبة:

"أنت تعرف أنني لم أتزوج.. وبالتالي لم أنجب.. لكن العمر يدنو من نهايته وعلى المرء أن يرتب أموره.."

أردت أن أقول له ما معناه إن عمره مديد إن شاء الله لكنني وجدت أن في هذا لونا صريحا من الزيف والنفاق.. فعلاً هذا الرجل قد بقى حياً حتى اللحظة بمعجزة ما.. هو نموذج حي لمقولة: الأعمار بيد الله..

قال الأستاذ:

"هل سمعت عن قارة (ليموريا)؟"

هزئت رأسي في غباء فقال:

"إنها القارة التي قيل إن أهل (أطلنطس) جاءوا منها، ولا تقل لي من فضلك إنك لم تسمع عن (أطلنطس)..."

ثم أردف:

"الليمور هو حيوان يعيش في أفريقيا وماليزيا.. كيف يتواجد في هذين المكانين المتباعدين فقط؟ من هنا افترض العلماء أن هناك قارة كانت تربط أفريقيا بماليزيا قديماً وقد أطلقوا عليها اسم هذا الحيوان.. (ليموريا).. غاصت هذه القارة في البحر يوماً ما.. كان الإغريق يسمونها (حقول الفردوس) والفراعنة يسمونها (حقول العشب) أو (حقول الأسلاف).. ثم غرقت فأطلقوا عليها (أرض الموتى) حيث لا يجسر بحار على الاقتراب"

(١) ابتسمت في حيرة لأنني لا اعرف مناسبة هذا الكلام.. هل عبثت فئران الشيخوخة بالأسلاك الدقيقة داخل هذا العقل الجبار؟... فهم سبب حيرتي فواصل الكلام:

-"هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي)... اسم شهير في عالم الغرب.. هل سمعت عنها من قبل؟"

هزرت رأسي كالعادة أن لا، فقال:

-"توقعت هذا.. إنها عرافة شهيرة روسية الأصل تزوجت في شبابها ثم فرت من زوجها وارتحلت إلى بلاد الشرق، حيث عاشت في التبت وقابلت الرهبان البوذيين وعرفت منهم الكثير من الأسرار.. بعد هذا ذهبت إلى الولايات المتحدة عام 1873، حيث اشتهرت كوسيلة روحانية وقارئة أفكار... وقد كتبت كتباً شهيرة أهمها (الكشف عن لغز إيزيس) و(العقيدة السرية).. إن كتبها قد انقرضت تقريباً ويعتبر العثور على أحدها نصراً مهماً.. هناك فصول كاملة لدى بعض المشتغلين بهذه الأمور، ولكن يصعب أن يتبجح أحد قائلاً إن لديه كتاباً كاملاً من كتبها.."

(هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي)... امرأة وضعت أناملها على سر الكون.. ودونت ما عرفته لكنه ضاع..

(ب) بدت على الحيرة.. ما دخل هذا بقارة (ليموريا)؟.. وما دخل الدكتور (مختار) بهذا؟

قال وهو يفتح باباً سرياً في المكتبة:

-"زعمت (بلافاتسكي) أنها وجدت خبر قارة (ليموريا) لدى رهبان التبت في كتاب شهير عندهم يدعى (كتاب ديزان).. وقد اعتمدت على هذا الكتاب بشدة في كتابها (العقيدة السرية).. إن الكتاب يحكي قصة الكون منذ البدء.. والقصة تصطدم مع الأديان في أكثر من نقطة، لذا كان من الأسهل أمناً أن تحتفظ بطن من المفرقات وطنين من المخدرات من أن تحتفظ بهذا الكتاب.."

وفي اللحظة التالية وجدت كتاباً غليظاً قديماً في يده.. وقبل أن أسأل قال:

-"هو ذا كتاب (العقيدة السرية)... لقد قضيت عمري كله أبحث عنه حتى وجدته وحققته.. إنني الآن اضع يدي على سر أسرار الكون.. لكن لم يبق من عمري شيء تقريباً.. لذا صممت على أن يرثه ابن لي.. لا ابن لي لكني احبك ولطالما اعتبرتك ابني الروحي.. لهذا أريد أن تحتفظ به.."

شعرت بالهلع.. بعد كل ما قاله لي صار الكتاب ملتهباً كالديناميت.. ليست لدي أية نية للاحتفاظ بهذا الشيء.. لكن كيف ترفض هذا بعد ما عرفت كل ما عرفت؟

قال لي د. (مختار) وهو يلف الكتاب في كيس ورقي:

-"إن الكتاب من مائة فصل.. معقد جداً لا يصبر عليه إلا قليلون.. معاني الأسماء.. الف باء السحر.. كتاب (إينوخ)... القبالة.. سحر الأعداد.. الأسلحة الخفية.. سر الشمس.. تاريخ المسيحية.. الجزويت.. سحر الفراعنة.. الماسونية.. عبدة النجوم.. بعزبول.. كل شيء.."

ثم التمتعت عيناه وقال في حماس:

"هذا كتاب كالبارود.. لا يجب أبدًا ان يقع في أيد غير مسئولة.. والآن يا (محفوظ) أنا أنتظر القسم.."

"أي قسم؟"

"أن يظل هذا الكتاب معك سرًا.. وأن يبقى في حرز مكين حتى تورثه!!"

واتسعت عيناه أكثر وهتف:

"أقسم!!"

(د) دموع كثيرة سالت من عيني وأنا اقف مع الحانوتي الذي قام بتغسيل جثة الدكتور (مختار) الذي لم يكن له اقارب، لذا حضرت غسله باعتباري ابنه الروحي.. وسط رائحة البخور والعطر واللبال العام، تساءلت في سري: ترى هل آمن بتلك العقيدة السرية؟.. هل كان مسلمًا حقًا أم أن الشيطان دفعه لتلك المتهات الكابوسية؟.. ليس هذا شأني وإنما هو شأن أرحم الراحمين.. فقط كنت أعرف أنني لن افتح هذا الكتاب أبدًا.. مهمتي محددة هي أن اوصله لجيل آخر..

كنت اقف جوار الحانوتي في غرفة النوم وكانت هناك أوراق على الكومود.. مددت يدي لا شعوريًا ألقبها فوجدت مذكرة بخط اليد كتب فيها: "كان هذا خطأ... (محفوظ) كان الشخص الخطأ.. سامحوني.. لا تفتكوا بي!"

هنا انتصب شعر رأسي.. لا توجد طريقة أخرى لفهم الكلمات المكتوبة.. لقد وصل لي الكتاب الرهيب بطريق الخطأ.. فهل يجب أن اتخلى عنه؟.. هل وفاة د. (مختار) طبيعية؟.. من العبث والسخف أن تبحث عن سبب آخر لوفاة من كان في سنه وسوء صحته.. لكن هل هذا هو الجواب فعلاً؟... نوبة قلبية.. لكن النوبات القلبية قد لا تأتي من تلقاء نفسها.. ماذا رآه وسمعه قبل وفاته؟..

نظرت لوجهه المتقلص في قناع الموت، وتذكرت كيف بذلوا جهدًا أي جهد كي يغمضوا عينيه الشاخصتين الخائفتين.. هل هذا دعر الاحتضار أم.....؟

(ي) يوم زواجي حرصت على ان أخفي الكتاب الرهيب خلف خزانة الثياب.. الخزانة ثقيلة لن تتحرك إلا يوم أن نعيد طلاء البيت - وهو ما لن يحدث - أو نفارقه.. وهذا جعلني انسى الكثير عنه.. فقط ذات مرة قامت زوجتي بتحريك خزانة الثياب بمساعدة البواب وكانت تريد أن تفعل شيئًا ما وراءها.. شيئًا مما تصر النساء على عمله ولا يفهمه الرجال أبدًا.. كأن البيت لن يصير نظيفًا ما لم ننظف ما وراء خزانة الثياب.. ودخلت الغرفة لأجدها ممسكة بالمكنسة تحت إبطها وهي تحاول فتح الكيس الورقي.. فجريت وانتزعت الكيس منها غاضبًا.. نظرت لي في حيرة فقلت إنها اسرار يهمني ألا تعرفها.. هكذا تركتها تعتقد ان هذا الكيس يحوي.. إحم.. ربما مجلات مشينة أو ما هو ألعن.. لا بأس.. أستطيع التعامل مع هذا.. المهم ألا تفتح كتاب الأخت (بلافاتسكي)..

لقد عشت حياة كاملة أخفي هذا السر عن الجميع.. أخفيت الكتاب في كل موضع من البيت تقريبًا، وظل السؤال الأبدي يورقني: إلى من أعهد بالكتاب بعد وفاتي؟... إلى اولادي؟..

مستحيل.. لن أحمل أحدهم بسر كهذا.. وإذا اخترت تلميذاً من تلاميذي فهل هو الاختيار الأصوب؟... أعتقد ان الدكتور (مختار) دفع حياته ثمناً لسوء اختياره فكيف احسن الاختيار أنا؟

(ز) زميل شاب متحمس استلقت نظري لفترة لا بأس بها، وفطنت إلى أنني أمارس معه ذات ما مارسه د. مختار معي.. أراقبه في صمت.. إنه مدرس أدب إنجليزي لكن لديه ولعاً شديداً بالمخطوطات.. شاب في الثلاثينات مرح مولع بالحياة يصعب علي أن أحمله بهذا السر الثقيل.. لكن هل لدي خيار آخر؟.. وماذا لو تركت السر ينتهي معي؟.. ثمة احتمال أن تلحق اللعنة بذريتي.. وثمة احتمال ان يجد الكتاب من لا يستحق..

في هذه الفترة وجدت صورة الأخت (هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي)... إنها تناسب بالفعل انطباعي عن الوسيطات.. قصيرة قبيحة لها نظرة خمول شريرة.. صورة قديمة تعود لعهد كانت الصور تسمى فيه (فوتوغرافيا).. ذات الطابع الكابوسي الذي تراه في صور (كراولي) و(هوديني) وسواهم.. هؤلاء قوم اقتربوا من الشيطان.. اقتربوا أكثر من اللازم..

(ا) العمر يقترب من نهايته.. اعرف هذا وأفهمه.. كنت اسخر ممن يعتقدون أن الحجاب منكشف عنهم وأنهم يتمتعون بشفافية خاصة.. الحقيقة انني أمر بهذه الشفافية الآن وأدرك أن الفترة التي تفصلني عن القبر لا تتجاوز بضعة أشهر.. ربما عاماً على الأكثر..

هذا لا يضايقني.. لكني أحمل هم هذا الكتاب الرهيب الذي صاحبني أربعين عاماً.. من سيجده؟.. إلى من اعطيه؟... مسئولية ثقيلة ألقاها د. (مختار) على عاتقي وعلي أن أقيها على عاتق أحدهم، لذا قمت بدعوة زميلي المتحمس الشاب إلى بيتي.. اسمه (محمود) وقد سرنى هذا التوالي المستمر لحرف الميم.. لا بد أن لهذا معنى ما.. مختار.. محفوظ.. محمود..

قلت له كلاماً فارغاً كثيراً عن المسئولية وعن حاجة بعض الأسرار إلى أن تظل مبهمة، ثم قلت إن لدي امانة يجب ان يحملها معه ويحافظ عليها.. لكن ليأخذ الحذر لأنها تختلف عن جريدة الصباح.. إنه كتاب يستحق أن يموت الملايين بسببه..

كان ينظر لي في رعب عندما نهضت لأحضر الكتاب من آخر مخبأ له.. أي من تحت منضدة الصالون الرخامية حيث قمت بتثبيته أسفلها بشريط لاصق..

مددت يدي تحت المنضدة فلم أجده!... لقد غادر مكانه أو اخذه أحدهم!!.. كتاب (العقيدة السرية) الذي جاء من كتاب (ديزان) سر أسرار رهبان التبت لم يعد لدي!!.. ورحت أفتش عنه كالمسوع في كل ركن من البيت.. وفي النهاية سألني ابني المراهق عما ابحت عنه فقلت إنه كتاب.. قال ضاحكاً:

- "ذلك الكتاب السخيف!!.. العقيدة السرية؟"

- "هل.. هل قرأته؟"

وضع يده على رأسه وقال:

- "ليس لدي بال رائق لهذا الكلام الفارغ.. إن إنجليزيتة ألعن إنجليزية يمكن تخيلها.. ثم إن عندي طبعة كاملة أنيقة منه.. لا حاجة بي لقراءة هذه النسخة البالية!"

(ن) نوبة صرع كادت تصيبني وهو يمد يده في درج مكتبه ويخرج لي كتابًا سميًا براقًا على غلافه عنوان (العقيدة السرية) بقلم (هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي).. وعلى الغلاف الأخير صورة تلك العجوز الشمطاء.. نظرت له في غباء فقال:

-اشتراه صديق لي عبر شبكة الإنترنت.. إنه كلام فارغ لكنه مسل.. لقد قرأه وحسب انه سيروق لي.. والآن لماذا تخفيه في غرفة الصالون يا بابا؟"

كان عقلي يدور.. إذن الكتاب معروف وموجود ومتداول!.. كل هذا التكتم والسر الذي اضناني كل هذه الأعوام يباع الآن على شبكة الإنترنت.. ذات شعور عابد الأصنام الذي يفاجأ بأن الصنم الذي كان يعبد يباع على قارعة الطريق: اشتر ثلاثة وخذ الرابع مجانًا ... احتفظ بالكوبون لكي تدخل السحب وتكسب (بلاي ستیشن)!!

(هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي) لم تكن سوى نصاب أجاد عمله، والنتيجة كتاب يتبادلته المراهقون على سبيل الدعابة، بينما أنا قضيت حياتي مذعورًا أحسب أنني أعرف سر الأسرار..

وانفجرت أضحك.. أمام عيني ابني وعيني د. (محمود) أضحك.. وما زلت أضحك حتى اليوم.

الموتى لا ينهضون

نعم.. الموتى لا ينهضون.. تحدث عن أي شيء من فضلك، لكن لا تقص علي تلك القصص السخيفة عن الموتى الذين يفتحون عيونهم في ظلام القبر.. يتحسسون الغبار من الداخل، ثم ينشبون مخالبتهم في التربة الهشة إلى أن يخرجوا للسطح.. من ثم يمشون مترنحين في ضوء القمر.

إن الفكرة غير مقبولة دينيًا.. دعك من أنها سخيفة.. ألا ترى هذا معي؟

ولكن لماذا أقول هذا الكلام الآن؟...

لأنني تذكرت تلك القصة الرهيبة التي مررت بها يومًا عندما كنت أقضي الصيف في قريتي بعد انتهاء امتحان الصف الثاني الإعدادي.. أمسية طالت مع أصدقائي امتلأت بالمزاح والدعابات وبعض لفائف التبغ.. كنا مراقبين فلم نر في الحياة إلا ضحكة عالية مدوية، وإن قطع علي نشوتي أنني تأخرت.. إن عصا أبي ليست أداة للزينة لو كنت تفهم قصدي، وكان رحمه الله يضرب أولاً ثم يسمع الأعداء لأنه يؤمن أن المراقبين أو غاد يجب سلخهم أحياء..

هكذا فارقت الرفاق على موعد للقاء الغد.. ومضيت أجد السير عبر طرقات القرية المظلمة التي أحفظها كظهر يدي.. لو رأيته لما عرفتني بذلك الجلباب الأبيض والخفين وتلك المشية الرشيقة الأقرب إلى الهرولة..

هناك طريقة مختصرة للعودة هي أن اجتاز المقابر ... نعم.. ما الغرابة في هذا؟... القمر ليس بدرًا لكنه يجعل الرؤية ممكنة.. ثمة قصة قصيرة لإبراهيم المازني يحكي فيها كيف اضطر في مراقبته للسير وسط المقابر بعد سهرة مع أصدقائه، فلم ير في ذلك بأسًا، بل أنه لعب دور الشبح مع أحد عابري السبيل.. وكان رأيته هو ذات رأيي: ليس من شيء كالمقابر أبعد عن اهتمام مراقبي سكران تفعمه الحياة.. لم أكن سكران مثله لكن الحياة كانت تفعمني بالفعل، وكانت عصا أبي أكثر واقعية وتخويفًا من هذه الأجساد المتحللة الراقدة تحت الصخور..

هكذا رحت أثب بين الشواهد وبدأت اغني لأخفف من توتري، ثم قررت أن اخرس لأن صوت الغناء كان غريبًا مقلقًا.. ثمة كلب برز لي ونبح لكنني ألقيته حجرًا.. كل كلاب القرية كانت تكرهني وتخافني.. الحق إنني كنت شيطانًا..

توقفت جوار شجرة غليظة ألتقط أنفاسي.. وفجأة رأيت ما جعل الشعر ينتصب في مؤخرة عنقي..

لقد كان حوش (أبو عيسى) يفتح.. الباب الحديدي يفتح ببطء - وكل باب حديدي له صرير - ثم أرى ذلك الشيء الملفوف في القماش يخرج منه.. يمشي متعثراً وهو يمد يديه أمامه على طريقة الخواجة (كارلوف) في فيلم المومياء ... من بعدها صار كل الموتى العائدين يمشون بالطريقة ذاتها وكأنهم رأوا الفيلم..

رأيت هذا الشيء يبتعد.. وفجأة شعرت بشيء يتحرك عند قدمي.. نظرت إلى مصدر الصوت فرأيت يدين تشقان الغبار في قبر منخفض المستوى عن سطح الأرض.. ورأيت شيئاً يخرج في الظلام متحاملًا ثم ينهض بصعوبة على قدميه..

نظرت ورأيت فرأيت مدفن (الفطاطري) ينفث.. ورأيت شيئاً مشابهاً يخرج.. لو لم تخدعني عيناى فلا بد أن هناك نصف دسته من هذه الأشياء تجول من حولي الآن..

كنت قد وصلت لحالة من الهلع تكفي لقتلي لو كان قلبي أوهن من هذا، لكن الآلة الفتية العفية آنذاك ظلت تضخ الدم في صدري بلا توقف.. وسيطرت علي فكرة واحدة: يجب أن أفر من هنا.. كانت مدافن قريتنا ترتفع قليلاً عن سطح الأرض مظلة على حقل محروث فوثبت وثبة واحدة ألفت بي وسط الأوحال.. وبوثبة أخرى رحت أركض وأنزلق.. أركض وأقف.. أركض وألهث.. حتى ابتعدت ميلاً عن هذا المكان المفزع..

وفي الدار تلقيت التوبيخ الضروري لكن العصا لم تؤد عملها، وكان شحوبي مقلقاً لهم لكني لم أتكلم.. لسبب ما شعرت بأن هذه المسوخ أخذت علي عهد الصمت، فلو تكلمت لجاءت لي..

وقضيت الليل كله أتوقع أن أفتح عيني لأجدها تحيط بي في غرفتي الضيقة ذات السقف المدعم بألواح الخشب.. أنت تكلمت.. ستدفع الثمن.. لم أتكلم.. والله العظيم لم أتكلم..

بدا لي كل هذا وهماً في الصباح، ورحت أمارس حياتي العادية. على أنني بعد أسبوع سمعت أقاويل عن (بسم الله الرحمن الرحيم).. وهذا هو معادل (الذي لا اسم له) في قصص لافكرافت.. أي انهم يتحدثون عن عفاريث.. هناك أشياء ما تمشي في القرية.. البعض رآهم عند الجسر.. البعض رآهم عند المطحن ... يبدو أنهم أقرب إلى أشخاص يمشون وقد النفوا بالأكفان.. هناك من رآهم من بعيد في ضوء القمر يلتفون حول الكتاب.. لا احد يجسر على الاقتراب منهم مهما بلغ من شجاعة.. حتى الخفير ببندقيته الثقيلة وشاربيه الصالحين مرتعاً للصقور لم يستطع إلا أن يفر ليتوارى بين ذراعي زوجته البدينة.. الكلام يكثر ويكثر.. النسوة يخرجن من ديارهن عند ميلاد الليل ويضعن رغيفاً من الخبز وبعض الملح على عتبة الدار ...

هناك نوع من التوتر العام مع سؤال لا يجسر أحد على التفوه به: ماذا لو كانت هذه الأشياء هي الموتى أنفسهم؟... مستحيل.. لكن هات تفسيراً أفضل.. ماذا لو ...؟

..النتيجة جاءت من البندر.."

وهكذا انتهت إجازتي عند هذا الحد لأنني رسبت في مادتين.. لعله انتقام الأشباح مني لأنني عرفت أكثر من اللازم.. وعدت للمدينة مشياً باللغات، ونسيت كل شيء عن هذه القصة وسط متاعبي الخاصة.. متاعب شهر سبتمبر الذي عرفت لماذا يطلقون عليه (أيلول الأسود)..

كبرت.. وتعلمت أن أتعامل مع الأمور بعقلية نقدية.. وفي ضوء هذه العقلية أدركت أنني كنت أخرف.. القرية كلها تخرف.. ربما خرفت القرية فتسلل الخرف إلى ذكرياتي.. أي أنني كونت ذكريات لم تكن.. ورغم كل شيء يصعب أن تتيقن من حدث وقع منذ أربعين عاماً..

قرأت عن الزومبي في جزر الهند الغربية، فبدا لي الأمر مألوفاً.. لفظة (زومبي) في حد ذاتها مشتقة من (نزامبي) وهي كائن يشبه الأفعى من آلهة غرب افريقية الوثنية، على أن لفظة

زومبي دخلت عدة لغات غريبة للدلالة على الشخص فاقد الإرادة والشخصية الذي ياتمر بأمر شخص آخر. حسب المعتقد التاهيتي يكون الزومبي أناساً فقدوا وعيهم وذاكرتهم نتيجة لأن ساحراً سرق هذه الأشياء.. أحياناً يحول الساحر فتاة أرادها وامتنعت عنه إلى زومبي لتكون تحت أمره للأبد. يقال أيضاً أنه يجعلها تبتلع مسحوقاً به سم عصبي مستخرج من نوع من السمك. وهذا يخدر الضحية لتصير في حالة أقرب إلى الموت، ويتم دفنها في المقابر.. من ثم يسرق الساحر الجسد ويعيد تحريكه... يقال كذلك إن الساحر يسرق أرواح من ماتوا لأسباب طبيعية.. ذلك بأن يخطف الروح فور مغادرتها الجسد فيظل الجسد خالياً.. ما يفعله الساحر الشرير هو إنه يركب حصانه بالمقلوب ويتجه إلى بيت الضحية المحتضرة فيمص روحها عبر ثقب الباب، ويضعها في زجاجة ويسدها، ثم يذهب للقبر بعد الدفن ويجعل الجثة تشم الزجاجة فتفريق.. هكذا صارت ملكاً له تاتمر بأمره للأبد وتمشي وراءه.. هنا لابد أن يمر أمام بيتها ليتأكد من أنها لم تعد تذكره... أهل هايتي يسمعون الزومبي عندما يمشون ليلاً ويضعون امام بيوتهم أرغفة الخبز والملح على سبيل التقيّة كي لا يتعرضوا للأذى..

(وليام سبروك) في كتابه (جزيرة السحر) عام 1936 وصف عيون الزومبي الجامدة ووجوههم الحجرية المفزعة.. حكي كذلك عن خطأ جعل الزومبيين يأكلون بسكويتاً مملحاً فأفاقوا من عبوديتهم وعادوا للقبر ليتحولوا إلى عظام نخرة... إن هذه هي الحرية الحقيقية بالنسبة لميت.. تحدث عنهم كذلك (فرانسيس هكسلي) عام 1959.. قال إنهم كانوا يفيقون بعد شرب الماء والملح..

كانت هناك دراسات علمية رصينة على ثلاثة من هؤلاء الزومبي.. وجدوا أن أحدهم يعاني السكيزوفرنيا.. نوع خاص منها يجعل المرء يتصرف كآلة.. أحدهم كان مصاباً بخلل في دورة المخ.. أما الثالث فقد أودى الكحول الذي تعاطته أمه أثناء الحمل بعقله.. عندما يجول شخص بهذه الحالة يسهل عليك أن تتصور أنه زومبي.. بالنسبة لعلماء النفس والمجتمع يعتبر الزومبي موجوداً فعلاً.. لكن هؤلاء العلماء يتحدثون عن الخواء الداخلي للشخص.. هذا شخص يتلقى المؤثرات الحسية جيداً لكنه غير قادر على استيعابها.. فالسلوك قد يوجد بلا وعي والوعي قد يوجد بلا سلوك..

بدأت لي القصة مألوفة.. لماذا كانت نساء قرיתי يضعن الخبز والملح خارج ديارهن؟.. أتراهن تلقين الرسالة بالسليقة؟..

ثم ماذا؟.. هل أصدق هذا الهراء عن الساحر الذي يركب حصانه بالمقلوب؟.. ولو صدقته فهل أصدق أن يحدث هذا في الريف المصري؟.. مستحيل..

عدت لقرיתי بعد أعوام وقد صرت كهلاً أشيب الشعر والروح.. أمضيت عدة أيام هناك استرجع ذكريات الصبا وبحث عن رفاقي الذين ظلوا هناك.. وخطر لي على سبيل الدعابة أن أسأل كبار السن عن تلك القصة الرهيبة التي كانت حديث المجالس في ذلك الوقت، لكنني - لشدة العجب - لم أجد من يتذكرها.

هكذا عدلت عن السؤال حتى لا يظنوا بعقلي الظنون.. وهذا من حقهم لأنني بدأت أشك بدوري في قدراتي العقلية.. يبدو أنني كنت مخبولاً فلا أندش لكوني رسبت في مادتين في ذلك العام..

اخترت ساعة الغروب لأزور المقابر بعيداً عن عيون الفضوليين، فرأيت بعيني ان حوش (أبو عيسى) ومدفن (القطاطري) لهما بابان حديديان أغلقا بإحكام بالجنزير والقفل.. لو صدقنا وجود زومبي فكيف نصدق أنه يستطيع فتح القفل من دون مفتاح؟

وقفت أتلو الفاتحة لموتانا.. وتهيات للانصراف لولا أن رأيت ما أنعش ذاكرتي..

هناك تلك الغرفة الصغيرة جوار باب المقابر.. دنوت منها فوجدت ذلك العجوز الطيب الذي حسبته مات من زمن.. عم (بسيوني) الحانوتي الذي يعيش في المقابر والذي كان يطاردنا بغصن شجرة كلما حاولنا ان نلعب الكرة هنا..

دنوت منه.. وركعت على ركبتي أمامه.. كان يعد الشاي وقد هرم جداً.. حاجبان كثان أشيبان يغطيان عينيه بالكامل ويوشكان على لقاء شاربته الكث.. (متوشالح).. هذا هو الاسم الذي تذكرته في هذه اللحظة.. يملأ كفه بالشاي ويسكبه في البراد الأزرق القذر، ثم يضع السكر بصعوبة في كوب صغير.. استغرق بضع دقائق حتى يدرك وجودي لكنه لم يرني على الأرجح..

-"السلام عليكم يا حاج"

-"وعليكم السلام.. من أنت؟"

هذا الرجل يصعب ان يتذكرك ما لم تذكر له موتاك.. بالنسبة له كل الناس موتى مع وقف التنفيذ.. بدأت أثرثر معه ثم سألته عن تلك القصة القديمة التي تثير رعبي منذ أربعين عاماً..

لم يذكر شيئاً من ذلك.. الموتى يغادرون القبور؟.. مستحيل يا دكتور.. لو كان المتكلم مجنوناً فليكن المستمع عاقلاً..

وناولني كوب الشاي فرددته في رفق لأسباب واضحة، ثم أخرجت بعض المال ودسسته في يده..

الآن أنا اعرف يقيناً انني كنت مخرفاً على أكبر نطاق.. معلومة جديدة عن نفسي أضيفها للأشياء التي ما زلت أكتشفها بعد هذه الأعوام..

بعد يومين.. كنت على وشك الرحيل عندما توفي أحدهم.. يبدو أنه زوج ابنة ابن عم خال والدتي أو شيء من هذا القبيل.. المهم إنهم أمروني بالذهاب وإلا فالويل لي.. وهكذا خرجت في تلك الجنازة البطيئة المزدحمة وسط الحقول الترايبية في طقس شديد الحرارة..

وهناك عند المقابر وقفت أجفف عرقي المعجون بالغبار، وأرقب ذلك الشاب مفتول العضلات يضع الجثة في القبر، ثم يهيل عليها التراب، ويبلل الأسمنت ويسد الفتحة التي صنعها..

سالت أحد الواقفين:

-"هو ابن الحاج بسيوني على ما أظن؟"

-"بسيوني من؟"

-"الحانوتي.. إن صحته لا تسمح له بأي شيء.."

نظر لواحد جواره وتبادلا بضع كلمات ثم قال لي وهو يسعل من فعل الغبار:
"-كان هناك حانوتي اسمه بسيوني.. لكنه مات منذ عشرين عامًا.. إنه مدفون هنا.. هذا الفتى
يدعى (جابر).."

ابتلعت ريقى وآثرت الصمت...

الموتى لا ينهضون.. تحدث عن أي شيء من فضلك، لكن لا تقص علي تلك القصص
السخيفة عن الموتى الذين يفتحون عيونهم في ظلام القبر.. إن الفكرة سخيفة.. ألا ترى هذا
معي؟

إن هذه المقبرة شريرة.. إنها تخدعك وتملأ عالمك بالرؤى.. لقد خدعت القرية كلها منذ
أربعين عامًا وهاهي ذي تخدعني أمس.. ربما كانت تملأ عالمك بالهلاوس.. ربما تملؤه
بالأشباح... بالشياطين..

لكن الموتى لا ينهضون يا صديقي.. أعرف هذا يقيناً كما تعرفه أنت.. الموتى لا ينهضون..

جاثوم

سألني محدثي في البار الصغير:

"هل تؤمن بالجاثوم؟"

قلت إنني لا أؤمن به.. لكنني لم أعط نفسي الفرصة كي أقرر.. لربما لو فكرت في الأمر ملياً لبدا لي منطقياً..

* * *

في البداية أجد نفسي مضطراً لأن أشرح لك كيف حدث هذا كله.. لا علاقة لي بأي بار إلا في الأفلام العربية، لكن هذه القصة حدثت عندما كنت أدرس في عاصمة الضباب، وخطر لي ذات ليلة أن أرتاد منطقة (إيست إند).. تلك المنطقة البائسة التي تقع شمال نهر (التيمنز) حيث تسكن الطبقة العاملة المطحونة.. ذات الطبقة البائسة التي وصفها (ديكنز) في قصصه.. نفس المباني الفكتورية التي تهاوى أكثرها في غارات النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية..

هنا الناس الذين ينطقون Today هكذا: (توضاي) وينطقون Sir (صاير).. ولا ينطقون حرف الهاء أبداً.. ذات اللهجة المضحكة التي سخر منها (شو) في مسرحية (سيدتي الجميلة)..

أقول إنني رحت أجوب هذه الشوارع، ثم قررت العودة.. هنا فطنت لحقيقة مريعة هي أنني ضللت الطريق.. ضللت الطريق في المساء تحت الأمطار حيث تكفلت العواصف والسيول بطرد كل كائن حي يمكن أن تهدي به.. لا توجد سيارات أجرة.. وكل الشوارع تشابه بشكل مزعج.

أمضيت بعض الوقت أتلقي السيول وأحاول إقناع نفسي بأن الأمور ليست بهذا السوء، حتى بدأ الذعر والخوف والجوع يدبون في روحي، وقدرت أنهم سيجدونني جثة متجمدة في الصباح على الأرجح..

هنا لمحت تلك الحانة التي تحمل شعاراً متفائلاً (حانة السادة) فأسرعت نحوها.. دفعت الباب الخفاشي لأجد نفسي وسط قاعة دافئة تنثر فيها أربعة أو خمسة أشخاص على المناضد.. يبدو أنهم دخلوا حالة السكر التي تجعل كلاً منهم لا يعي أنه هنا.. لتكن حانة أو باراً.. المهم انها مكان ذو أربعة جدران وفيه بشر..

مشيت إلى حيث البارمان البريطاني الملول، وطلبت قهوة مركزة.. هز رأسه ثم أشار لي إلى منضدة لأجلس عليها..

جلست وأنا أرتجف كديك كمبتل.. نزعت معطفي ورحت أحاول تجفيف عويناتي.. أخيراً جاءت القهوة فرحت أرشفها في نهم بيد ترتجف، وسألت الساقى عن طريقة الخروج من هذه المتاهة فراح يصف لي الاتجاه بتلك اللهجة التي لم أفهم منها حرفاً..

هزرت رأسي موافقًا وجلست أنتظر.. فلا أعرف متى جاء ذلك الرجل وجلس إلى مائدتي حاملاً كأسه وزجاجته.. لست مستجداً هنا كي لا أعرف طباع السكارى.. إنهم يفرغون كل ما بداخلهم على العالم الخارجي.. يفرغون ما في بطونهم من طعام وما في قلوبهم من أسرار، وقد قدرت أن هذا الرجل جاء ليفرغ روحه على ثيابي وقد أفنعت الخمر أنني أخوه الروحي..

لم يكذب ظني.. إذ سألتني أولاً عما إذا كنت باكستانياً فقلت إنني مصري..

"بلد جميل.. لا بد أنك تزور (تاج محل) كل يوم.."

هزرت رأسي أن نعم.. (تاج محل) ليس في مصر ولا باكستان.. لكن لو صححت المعلومة فلن تبقى في ذهنه ثانية أخرى.. كان رث الثياب يعاني الفاقة بشكل واضح.. وكان في الأربعين من عمره نصف أصلع نصف ملتصق نصف بدين.. قال لي:

"هل تعتقد أن زوجتي تخونني؟"

فقلت إنني لا اعتقد هذا نظراً لأخلاق السيدة المتينة.. قال:

"أنا كذلك لا أعتقد هذا.. أنا أدعى (جون برادفورد) وأقيم في الشارع الخلفي لهذا البار قرب المقبرة.. أنا أعمل في ورديات ليلية.. لي طفلان وزوجة لطيفة.. (ليز) زوجة طيبة لطيفة.. لكنها تخرف.. دعنيؤكد لك أنها تخرف.."

ثم بدأ يحكي لي القصة التي لا أريد أن أسمعها.. منذ حوالي الشهر يعود للبيت صباحاً فتسأله زوجته عن سبب قضائه الليل في الدار بدلاً من العمل.. ليلة وليلتان ثم بدأ يقلق.. لقد أقسم لها أنه لم يغادر العمل الليلي لكنها كانت مصرة على أنه جاء في الليل ونام في فراشه بشكل معتاد، على أنها حينما تصحو نهاراً لا تجده جوارها..

"الملاحظ أنها كانت تصحو على كابوس في كل مرة أبيت فيها جوارها"

أصابه القلق.. لربما كان هناك لص اعتاد التسلل للدار عندما لا يوجد رجلها فيها.. وقرر صاحبي أن يعدل موعد عمله الليلي.. هكذا بات ليلة كاملة في البيت.. في الثالثة صباحاً شعر بحاجة لدخول الحمام فغادر الفراش.. لا يعرف كيف ولا متى غلبه النعاس في الحمام فنام جالساً على المرحاض.. على أنه عندما صحا وعاد للفراش وجد دافئاً برغم أنه تركه منذ ساعة.. سألته زوجته بصوت مرهق عن سبب استبدال منامته.. لقد كان نائماً هنا بجوارها من دقيقة واحدة لكن بمنامة أخرى غير التي دخل بها الفراش.. وأضافت أنها صحت على كابوس مريع...

جن جنونه وفتش كل مكان في البيت فلم يجد شيئاً.. الزوجة لم تكن قلقة لأنها تعرف زوجها ولن تخطئ التعرف عليه.. لقد كان هو الذي نام جوارها.. لا شك في هذا..

أصابه الهلع.. ذهب لطبيب شركته يسأله عما إذا كان من الممكن أن يجول ليلاً.. هل يذهب إلى عمله الليلي ثم يجول في شوارع المدينة حتى يعود لفراشه وينام فيه؟.. هل نام في تلك الليلة في الحمام.. ثم غادره دون أن يدرك ذلك، وأغفى في فراشه قليلاً ثم نهض وعاد للحمام ثانية؟

"قال لي الطبيب الذي لم يفهم حرفاً من نظرياتي إن مرض الجوال الليلي ليس بهذا التعقيد.. قال لي إنني على الأرجح واهم أو زوجتي واهمة.. وربما كان عليها أن تخضع لفحص نفسي.."

لكن القصة تكررت.. في كل ليلة يدخل صاحبنا الحمام ليغلبه النعاس بالداخل.. ذات مرة دخل غرفة الطفلين ليطمئن على نومهما فغلبه النعاس هناك ونام.. وعندما عاد للفراش أخبرته زوجته أنه كان معها طيلة الوقت..

أصابه الجنون.. كان متأكداً من أنها تعابته بشكل ما..

"في هذا الوقت بدأت الصحف تكتب عن المخبول الذي يسرق المقبرة الموجودة خلف دارنا.. قيل إنه غول لأنه يسرق بعض قطع اللحم من الجثث.. لحم الوجه واليدين ثم يترك الجثة في حالها.. هذا غريب.. ما أعرفه أن هناك طريقتين للتعامل مع الجثث: سرقتها كاملة أو تركها كاملة.. لكن الصحف وجدت أن الخبر مثير يرفع التوزيع، وخاصة نظرية الغول هذه.. إن الكلام عن أكلة لحم البشر ممتع دائماً ويجذب القراء "

وجرع جرعة كبيرة من الزجاجة مباشرة وتجشأ...

لم يربط الرجل بين قصته وتلك القصة الرهيبة.. لكنه قابل قس الحي وحكى له كل شيء.. الأب (جونز) كان رجلاً مثقفاً واسع الخيال لذا بدأ يفكر في الأمر بشكل مختلف.. سأل عما إذا كان قد سمع عن الجاثوم **Incubus**... يقولون إن الجاثوم تعني لغوياً الكابوس أو الشخص الثقيل كالكابوس.. كلمة 'incubus' اشتقاق لاتيني من معنى (الثقل).. ولها ارتباط شديد بإحساس الثقل على الصدر الملازم للكوابيس.. يقول التراث الكنسي الغربي إن الجاثوم كان ملائكاً طرد من الفردوس بسبب شهوانيته. وبما أن الجاثوم كائن غير مادي فإن الأسطورة تفترض أنه يحيي جثة آدمية أو يغطي نفسه بلحم بشري يسرقه من مقبرة قريبة ويزور النساء النائمات ليمنحنهن الكوابيس.. أي أنه يتدثر باللحم البشري كما تتدثر أنت بعباءة في ليلة برد.. أحياناً يتخذ شكل رجل معروف للمرأة.. ربما زوجها.. كانوا ينصحون المرأة بأن العلامة التي تفرق الجاثوم عن الشخص الحقيقي الذي تعرفه هي غرق كل سكان البيت في نعاس عميق لحظة ظهور الجاثوم.

أضاف الرجل وهو يجرع المزيد:

"هكذا تجد أن القصة صارت أكثر تعقيداً.. لكنها تفسر نفسها.. هذا الجاثوم يتسلل إلى المقبرة في كل ليلة فيسرق من اللحم البشري ما يكفي ليغطي نفسه، فيصير نسخة مني ثم يتسلل إلى داري.. لهذا أغفو كلما جاء ولهذا لم يستطع شيء أن يوقظ أطفالي.. إنها العلامة التي تعرف بها المرأة أن الذي أمامها جاثوم.. ولهذا تصحو (ليز) غارقة في العرق بسبب كابوس زارها، لكن القصة غريبة جداً لهذا لا تشك في شيء.. تكتفي بالشك في قواي العقلية لا أكثر.."

أما ما أضافه القس فهو أن طقوس طرد الأرواح لا تعمل مع الجاثوم كما ينبغي.. باختصار لا توجد طريقة للخلاص منه..

ثم نظر لي (برادفورد) بعينه الحمراء وقال:

.. "ما رأيك؟"

فكرت قليلاً في هذه القصة الرهيبة، وقررت أنها تحتاج لليقين على جبهتين: الرجل وزوجته.. ربما هو يخرف بفعل الخمر وربما زوجته تكذب عليه وربما الاحتمالان قائمان... لكن في جميع الحالات التفسير قريب وسهل..

قلت له:

.. "أولاً سهل أن تعرف من أين جاءت قصة الجاثوم هذه.. بعد وجبة ثقيلة يتقلب النائم على ظهره، فيرتفع الحجاب الحاجز وهكذا يجد عسرًا في التنفس.. كأن هناك من يجثم على صدره، وفي الوقت ذاته يقل الدم الذاهب للمخ فتزوره الكوابيس.."

ثم أفرغت ما بقي من قهوتي في جوفي وقلت:

.. "أيضاً هناك تفسير الكبت.. إن الكبت يتخذ صوراً غريبة.. مثلاً في وطني.."

.. "تعني باكستان؟"

.. "أعني أي بلد يروق لك.. في وطني تحلم فتيات كثيرات بأن عفريتاً من الجن متزوج منهن.. ونفس الشيء يحدث مع الرجال الذين يزعمون أنهم متزوجون من ابنة ملك الجان.. إن تفسير هذا بالكبت سهل وقريب للأذهان.."

سألني وهو يضع الزجاجاة على المنضدة:

.. "ليكن الجاثوم أو الكبت.. بم تنصحي؟"

.. "الطبيب النفسي.. أنت وزوجتك.. وأرجو أن تكون متمتعاً بالتأمين الصحي.."

هرش رأسه قليلاً كأنما لم يعجبه هذا التفسير، ثم نهض بلا كلمة وداع متجهاً لباب الحانة.. وتوارى وسط الظلام المطير بالخارج..

ليس هذا أغرب ما رأيت من هؤلاء السكارى.. لكن قصته لا بأس بها ويمكن أن اكتبها يوماً ما.. إن فيها شيئاً وحشياً ساحراً.. له رائحة محاكم التفتيش ومطرقة الساحرات وقداس الشيطان..

لكن أين الساقى؟..

نظرت حولي فلم أر إلا الرجال الجالسين على مناضدهم وقد ناموا جميعاً.. إنها الواحدة صباحاً فلا ألومهم كثيراً.. أنا نفسي أحلم بفراشي كأنه أرض الميعاد.. نهضت قاصداً البار لأنادي الساقى كي يأخذ حسابيه.. دهشت عندما دنوت لأراه راقداً على الأرض وقد توسد ذراعه.. حسبته قد مات أو فقد الوعي.. ثم ناديته بصوت أعلى فنهض مذعوراً..

.. "كم الساعة الآن؟"

قلت له إنها الواحدة صباحاً فخرج إلى النيام يهزهم هزاً غير رقيق، وهو يتسائل عما دهاهم كي يناموا جميعاً في الوقت ذاته.. من الواضح أنني كنت الشخص الوحيد الذي احتفظ بوعيه

في الحانة كلها.. لابد أن يرحلوا كي يغلق المكان.. لا يعرف سر هذا الإرهاق الذي يشعر به،
فلربما أفادته العودة لداره حالاً..

أخرجت ورقة وقلماً وانتظرته حتى يفرغ من إيقاظهم كي يرسم لي طريقاً كروكياً للخروج
من (إيست إند)..

سمعته يناديهم واحداً واحداً إلى أن سمعته يوقظ احدهم صائحاً:

-"هلم يا (برادفورد).. لقد تأخر الوقت.. إن (ليز) ستوبخك بشدة.."

نظرت بسرعة إلى (برادفورد) هذا فوجدت رجلاً يفتح عينيه من سبات عميق.. لقد كان
يجلس على هذه المنضدة في ركن القاعة منذ جئت أنا لكني لم ألحظ وجهه إلا الآن.. كان رث
الثياب يعاني الفاقة بشكل واضح.. في الأربعين من عمره نصف أصلع نصف ملتج نصف بدين.

استبصار

إسكندرية.. وليلة رأس السنة...

الليل والشتاء البارد وذلك الشعور العام بالشجن.. لقد رحل المصطافون منذ ثلاثة أشهر تاركين لها ذلك الشعور الممض الرقيق بالوحشة.. إسكندرية تشعر به وأنا أشعر به.. ونحن نحاول أن نخفف عن بعضنا تلك اللحظات..

كنت جالسًا في ذلك الكازينو مع صديق لي.. هكذا اعتدنا أن نمضي أكثر وقتنا هنا، وجاء الساقى الودود فتبادل بعض عبارات المزاح معنا. كنت أرقب الكورنيش البادي من بعيد وأسمع الموسيقى التي تعزف على أوتار روح أو نياط قلب.. رغبة عارمة في البكاء تستبد بك ولا تعرف لها سببًا.. الألم الشخصي العبقري الذي تكفي لمسة كي تجعله ينفجر، وانفجاره يبيلل المناديل دائمًا..

كان الكازينو يقدم بعض الفقرات الرديئة التي ضاعف في بؤسها عدم وجود جمهور.. لهذا لم يكن أي الطرفين متحمسًا. لا الفنان ولا المتلقي.. لكن الفقرة التالية كانت جديدة:

"الآن مع قارئ الأفكار العجيب.. الدكتور (موروو)..."

كان كل هذا موحياً بالشفقة.. الموسيقى السوقية التي تصاحب العبارة، وصوت المذيع نفسه القادم من مولد (أبو طاقية)، دعك من اسم (مورو) نفسه.. لم يجد الرجل اسمًا سوى هذا الاسم المسروق من رواية (هـ. ج. ويلز) الشهيرة.. طبعًا هو لم يقرأ الرواية لكن رأى الفيلم..

أما عن الدكتور (مورو) هذا الذي يقف وسط الأضواء الراقصة فرجل أسمر اللون يلبس سترة لامعة من الطراز الذي كان (ثلاثي أضواء المسرح) يقدمون به استكتشاتهم.. وعلى رأسه منشقة حمام عالية المفترض أنها عمامة..

فقط لاحظت أن عينيه شيطانيتان بكل ما في الكلمة من معان..

يمشي الدكتور وسط الناس.. ليس هناك الكثير منهم.. لكنه يقترب من سيدة متأنقة تجلس مع زوجها.. يقف أمامهما وبعينه الناريتين يقول لها:

"هل معك أي شيء يمكن أن ألمسه؟... منديل أو قلم أو أي شيء؟"

كانت المرأة مذعورة، لذا نفذت طلبه بسرعة كي تتخلص منه.. ناولته منديلًا حرييرًا فأمسك به ثم أغض عينيه وقال:

"مدام (شيرين السمان).. ربة بيت.. (ستانلي).. طفلان.. هل هذا صحيح؟"

ضحكت المرأة في مزيج من الذهول والانبساط... وصفت فتعالى التصفيق..

مال علي صاحبي يهمس:

"متفقان.. أليس كذلك؟. اعني أنها كومبارس.."

قلت في عدم يقين:

"ربما.. لكن حاسة القياس النفسي **Psychometry** حاسة معترف بها.. إنها الحاسة التي تتيح لك أن تلمس الشيء فتعرف معلومات عنه وعن صاحبه.. قد يكون هذا الرجل موهوباً او نصاباً.."

دنا الرجل من مجلسي وصاحبي، ووقف أمامنا.. قال لصاحبي:

"هل لديك شيء من متعلقاتك؟"

قبل أن يمد صاحبي يده أخرجت أنا حافظتي وناولتها للرجل.. لكنه أعادها لي في اشمئزاز كأنها ملوثة وكرر طلبه لصاحبي:

"شيء من متعلقاتك.."

قلت في عصبية:

"ظننت أنه لا فارق عندك بين واحد وآخر.."

لم يرد وتناول عوينات صاحبي التي أخرجها من جيبه وأغمض عينيه وقال:

"(مروان محمد).. من الجيزة.. أربعون عاماً.. و..."

أصابنا الذهول.. معلومات دقيقة فعلاً ومن العسير أن نجد مفراً من هذه الحقيقة.. نحن فأران في مصيدة الآن.. لقد صار التشكك مستحيلاً..

ثم اغمض عينيه أكثر... مضت دقيقة على ذلك، ثم فتحهما ونظر لصاحبي تلك النظرة النارية وقال وهو يمسك بيده:

"خذ الحذر!... أنت في خطر داهم!"

حبسنا أنفسنا في توتر.. ما معنى الجزء الأخير من كلامه؟..

لم يفسر.. فقط انطلق يقرأ طالع واحد آخر.. ومرت الأمسية..

اليوم – بعد خمسة أشهر- لا اعرف لماذا قرر صاحبي أن عليه أن يرجع إلى الجيزة الليلة بالذات.. نصحته بأن يقضي الليل معي لكنه كان مصرّاً.. قال إن غداً الجمعة وهو لا يتخيل أن يصحو يوم جمعة في غير فراشه.. يخلق ويستحم ثم يفطر ويذهب لصلاة الجمعة.. هذه طقوس لا يستطيع تغييرها..

الليل والظلام والقيادة بذهن أرهقه السهر.. كنت قلقاً عليه بحق.. كان بوسعي أن أجبره على البقاء.. لكنني تكاسلت عن ذلك..

خمسة أشهر مرت وذلك السؤال يعذبني ويرهقني.. خمسة أشهر وأنا أتساءل عما حدث في

تلك الليلة.. لماذا لم اصدق ما سمعته؟

واليوم أعود إلى الاسكندرية... أدخل ذات الكازينو.. أنا بطبعي لا أثق في موضوع العرافين هذا.. العراف الحقيقي لن يؤدي فقرات أمام الجمهور ليكسب مالا.. العراف الحقيقي يمكنه أن يكون أقوى شخص في العالم لو أراد..

سألت الساقى المستجد عمن يدعى د. (مورو) فلم يعرفه، ثم طلب رأي من هو أقدم منه الذي قدمني إلى الكابتن (خميس)، وكابتن هذه رتبة من رتب السقاة تختلف عن معناها الرياضي المعروف.. كان الكابتن (خميس) رجلاً نوبياً أشيب الشعر معتداً بنفسه.. قال لي إن د. (مورو) يعمل في مكان آخر.. ووصفه لي..

هكذا ذهبت إلى هناك ورأيت.. رأيت فقرته ذاتها وإن كان يقوم هذه المرة بقراءة أفكار الشخص إذا أمسك بيده.. قرأ أفكار سيدة تجلس وحدها إلى منضدة فصاحت انبهاراً..

بعد العرض نظدت أحد السقاة مالا وطلبت منه أن يقودني إلى ذلك الدكتور (مورو).. اقتادني عبر مرات ضيقة كريهة الرائحة إلى غرفة ضيقة في أفقر حال.. لم تكن تشبه في شيء تلك الكواليس التي نراها في السينما.. الدكتور (مورو) نفسه كان خارجاً من الغرفة وهو يعرج بشكل ملحوظ، وقد نزع ثيابه فبدأ أقرب إلى عامل فقير بثيابه الرثة وشعره الأشيب.. فقط ظلت عيناه ناريتين ثاقبتين.. كان يحمل حقيبة من القماش فيها أدواته وثيابه وفي اليد الأخرى منديلاً عملاقاً يبدو أنه يلف بقايا طعام.. واضح انه نال أجره من بقايا (المزات) والأطعمة وكان يتأهب للانصراف عندما رأي..

قال إنه متعجل لأنه يريد الانصراف.. فطلبت منه في إلحاح أن يكلمني لنصف ساعة.. لا أريد إلا نصف ساعة.. سوف أدعوه إلى العشاء.. هناك كبابجي قريب لا بأس به..

لمعت عيناه وابتلع ريقه.. العراف العظيم جائع وقد تداعت كبرياؤه عندما تكلمت عن الكباب..

وهكذا نحن نجلس في ذلك المطعم.. أمامي طبق به بعض قطع اللحم لكنني فقدت شهيتي، بينما هو يفتك بطبقه فتكاً.. هكذا قربت منه طبقي ليجهز عليه وسألته:

"منذ أشهر قرأت طالع صاحب لي وقلت إنه في خطر داهم.... هل لديك تفسير؟"

قال وهو يلوك الطعام:

"لا أذكر الواقعة لكن هذا يحدث كثيراً جداً.. لا أحد يصدق كلامي إلا بعد فوات الأوان.."

"ما الذي تراه بالضبط ويقتنعك بوجود خطر؟"

قال في شروود وعيناه الناريتان ترمقاني:

"صدقني انا لا أعرف.. كنت موظفاً في بداية حياتي ثم شعرت بأن ذلك الشيء أقوى مني وأنني أريد أن تخرج هذه الموهبة للعالم.. إن لدي حزمة كاملة من المواهب التي لم أسمع أنها اجتمعت عند شخص.. التقمص العاطفي empathy أي أنني أستطيع أن أشعر بما تشعر به.. الحدس precognition أي رؤية ما سيحدث في المستقبل.. الاستبصار clairvoyance

أي رؤية أشياء غير موجودة أمامي.. دعك من القدرة على قراءة الأفكار والتخاطر
telepathy.. في البداية أصابني الذعر وحسبت انني موشك على الجنون، ثم قرأت قصة سيد
الخطاب) عندما كان يخطب على المنبر فرأى بعين الخيال قائده في نهاوند (سارية بن زنيم)
يوشك على الوقوع في فخ نصبه الكفار.. هكذا صاح وسط الخطبة: يا سارية.. الجبل!!.. سمعه
(سارية) في العراق وفهم أن عليه أن يحتمي بالجبل كي يتجنب الهجوم.. هذه القصة تحكي عن
تخاطر واستبصار معاً وهي قصة موثقة لم يشك فيها أي مؤرخ.."

قلت في دهشة:

"لا تؤاخذني.. اعتقادي أن هذه المواهب تجلب الثراء لصاحبها.. لكن حالك.. لا تؤاخذني.."

قال ببساطة:

"هذه المواهب لا تطيعني دومًا.. أحيانًا تتخلى عني.. لهذا أعمل في مكان إلى أن يتكرر
فشلي فأطرد وأبحث عن مكان آخر.. الآن ليس بوسعي معرفة ما تفكر فيه.. ربما أستطيع هذا
بعد يوم أو يومين.. إن الموهبة التي لا تأتي حسب الطلب لا تخدم صاحبها.."

ثم أبرز ساقه من تحت المنضدة وقال:

"هذا دليل على كلامي.. حادث سيارة مروع منذ أشهر.. فلو كانت موهبتي تطيعني دائمًا لما
ركبت تلك السيارة اللعينة.. لقد كدت أموت في المستشفى.."

كلام منطقي ولا شك.. لا يمكن أن يثري عازف الكمان الذي لا يعرف في أية ليلة جيد
العزف وفي أية ليلة يفشل.. سألته:

"في تلك الليلة رفضت بشدة أن تقرأ أفكاري.. فلماذا؟"

"لا أذكر.. لكن لا بد أنني شعرت وقتها بأنك متشكك.. المتشككون أسوأ من يمكن قراءة
أفكارهم لأن موجات أدمغتهم تضر عملي.."

ثم راح ينتزع آخر بقايا اللحم من الريشة التي أمامه.. لا بد أنه يتمنى لو كان لسانه خشنًا
كالقطط لينزع المزيد....

فجأة مد يده إلى الملعقة التي أمسك بها.. لمسها ونظر لي بعينيه الحادتين وهمس:

"الآن أذكر كل شيء.. أذكر صديقك... أنت أيضًا في خطر داهم هذا الشهر.. خذ الحذر.."

ثم التمتعت عيناه أكثر.. ونهض وغادر المكان...

وقفت خارج المطعم أرمقه وهو يبتعد، فدنا مني (مروان) وربت على كتفي وسألني:

"ظلمت أنتظرك طويلاً.. ماذا توصلت إليه؟"

قلت في شرود:

"لا أدري.. في تلك الليلة عندما قرأ طالعك شعرنا بدهشة.. ثم تذكرنا الساقى الثرثار الذي
يمزح معنا كل ليلة.. لقد كان يعرف كل شيء عنك.. بالطبع اشار لنا من وراء الكواليس وأخبر

(مورو) باسمك وعنوانك وسنك.. ولنفس السبب لم يقرأ طالعي لأنني لم أخبر الساقى بأي شيء عني.. لكني ما زلت لا أفهم السبب الذي جعله يحذرك من خطر داهم.."

قال (مروان) ضاحكًا:

"لابد أنه ينصح الجميع بالشيء ذاته.. هل ترى ما أراه؟"

وهناك عند المنعطف البعيد رأينا (مورو) يمشي مترنحًا مع امرأة.. امرأة رأيتها مرتين من قبل.. مرة كانت متأنقة تجلس مع زوجها واسمها مدام (شيرين السمان).. ومرة هذه الليلة بالذات.. وطبعًا هي زوجته وقد نزعت ثياب الشغل وعادت لثيابها الرثة..

القصة واضحة الآن ولا تحتاج إلى تساؤلات.. لكن السؤال ظل يؤرقني: عندما استعاد (مروان) عويناته ولمس يد الرجل شعر برؤيا تسيطر عليه.. كان يرى الدكتور (مورو) ينزف بعد حادث مروع.. سيارة مقلوبة وشجرة ساقطة.. قال لي (مروان) هذا بعد العرض فسخرت منه.. اقترح أن نحذر الرجل كما حذرنا لكني انفجرت في الضحك.. كيف يسمح النصاب لنا أن ننصب عليه؟.. لكن (مروان) كان واثقًا مما رآه.. صحيح أنه عاد للجيزة في الليلة ذاتها لكنه ظل راغبًا في معرفة الحقيقة.. هل هو يملك موهبة الاستبصار؟

اليوم جاءتنا الفرصة إذ عدنا لنعرف ما حدث.. وإنني لأتساءل: ماذا سيقوله (مروان) لو لمس يدي الآن؟!

لماذا فعل ذلك؟

قالت (هدى):

أنا رأيت الدكتور (عدنان) وهو يفعلها.. كنت واقفة في شرفة دارنا في تلك الساعة المتأخرة من الليل أرمق الشارع الهادئ المظلم، وأحلم بألف شيء وشيء.. عندما رأيت ظلاً يقف في الشرفة المقابلة.. تلك الشقة الخالية التي يؤجرها أصحابها.. استطعت دون جهد أن أخمن أن هذا هو د. (عدنان) بالذات.. لماذا؟.. لأنه لا يوجد أحد معه في الشقة..

أعرف أنه متزوج وأن له أطفالاً، لكنه استأجر هذه الشقة منذ شهر مبعثراً علامات الاستفهام في الحي كله.. صاحب العقار افترض أنه يريد أن يفتح عيادة هنا خلصة، وهذا ببساطة لأنه افترض كالعامة أن (دكتور) معناها (طبيب).. بالطبع هو لا يعرف أن د. (عدنان) حاصل على دكتوراه في علم النفس من جامعة بريطانية ما.. لكنه ليس طبيباً نفسياً..

أبي افترض أن الرجل يريد أن يحيل الشقة وكراً للملذات.. هذا هو السبب الوحيد الذي يجعل رجلاً يستأجر شقة مفروشة يقيم فيها وحده في رأي أبي.. وقد راح أبي يحذرني من الوقوف في الشرفة أو إلقاء أية نظرة على تلك الشقة، على أساس أن الفجور معد.. ولو أغمض عينيه لحظة لضعت من يديه وبدأت التدخين ومعاقرة الخمر..

طبعاً كانت تكفيه نظرة واحدة على وجه د. (عدنان) الكئيب الرزين الحزين ليعرف أنه مخطئ.. مستحيل أن يفكر هذا الرجل الموشك على الوفاة في شيء مشين.. وبالطبع مر الشهر دون أن نسمع أو نرى أو نشم شيئاً يريب من هذا الرجل..

ثم جاءت تلك الليلة التي رأيت فيها ذلك الظل يخرج إلى الشرفة.. وفي ثبات وبحركات كأنما تم التدريب عليها من قبل، رأيت يرفعه ركبته على السور ثم يثب إلى الشارع..

لقد احتبس الكلام في حلقي فلم أستطع أن استغيث أو أقول شيئاً.. أعتقد أنني سقطت مغشياً علي.. وعندما أفقت كان أول سؤال سألته للآخرين ونفسي هو: لماذا فعل ذلك؟

قال (عبد الغفار):

لا أعرف لماذا فعلها د. (عدنان) لكنني كنت أشعر منذ البداية أن هذا الرجل يداري لغزاً.. أنا بواب هذه البناية، وقد رأيت في المرة الأولى يبحث عن شقة مفروشة في المنطقة.. كان يحمل حقيبة كبيرة وقد بدا عليه الارتباك والتوتر.. أعتقد أنه جفف عرقه عشر مرات وهو يكلمني..

لكن لم يكن من شأني أن أحقق في امره.. لقد قابلنا الحاج (جوده) صاحب البناية، وكانت أوراق الدكتور تقول إنه رجل محترم، ونقوده جاهزة.. هكذا حصل على الشقة بالطابق الخامس...

الحقيقة إنني لم أر منه ما يريب، وهذا في حد ذاته مريب.. أين أهله؟.. عرفت أنه متزوج

وله أطفال فهل هو (طفشان) من زوجته؟.. لم استطع أن أتبادل معه أكثر من عشر جمل منذ سكن هنا ولم يكن يطلب أي شيء.. ولم يزره أي شخص باستثناء رجل يشبهه نوعاً وقد مكث عنده نصف ساعة في اليوم السابق للوفاة..

حادثة واحدة تستحق الذكر هي تلك التي انقطع فيها التيار الكهربائي في شقته، وطلب مني أن أحضر له كهربائياً.. هكذا دخلت مع الحرفي إلى الشقة.. وجدت أنه لم يغير فيها شعرة.. أعتقد أنه احتفظ بالغبار الذي كان فيها..

وقفت أراقب الرجل وهو يعمل في لوحة توزيع الكهرباء.. ثم حانت مني نظرة إلى غرفة داخلية تضيئها شمعة فوجدت أن بها كتباً وجهاز حاسب آلي.. لكن ما أثار دهشتي هو أن هناك جماجم بشرية.. نعم.. جماجم بشرية عددها نحو ثلاث موضوعة على المكتب حول الشمعة..

أنا أعرف أن الدكتور ليس طبيباً.. السبب هو أنني طلبت منه فحصي فاعتذر.. إذن ماذا يفعله بهذه الجماجم؟.. الحقيقة أن هذا المشهد جعلني أتقرز منه.. لماذا يحتفظ المرء غير الطبيب بجماجم بشرية في داره إن لم يكن ملعوناً أو ساحراً؟

الكهربائي قال إن هناك تياراً عالياً جداً تم استخدامه فسبب احتراق المنصهر.. وسأل الدكتور عن الأجهزة التي لديه فأنكر هذا الأخير وجود شيء من هذا..

عندما شكر الكهربائي ونقده أجره أراد أن يعطيني بعض المال، لكنني رفضت في إباء.. لن آخذ هذا المال الدنس...

هكذا كونت نظريتي الخاصة عن الرجل ولماذا يعيش وحده وماذا يفعله بالضبط.. توقعت على كل حال أن نهايته ستكون مريعة.. لكني ما زلت أتساءل: لماذا فعل ذلك؟

قالت مدام (عصمت):

لا أعرف السبب.. لكن الرجل كان مريباً بحق.. كان يمضي في شقته أياماً كاملة دون أن يخرج.. ولما كانت ظروف إقامته لا تسمح إلا بأن يكون مجرد زوج (طفشان) أو ماجناً رقيقاً أو مجنوناً، فإني رحمت أراقب كل صغيرة وكبيرة تحدث عنده.. إن شقتي تقع امام شقته ويمكنني مراقبة المدخل من عدسة الباب.. زوجي في العمل لساعات طويلة والأولاد في المدرسة لذا صار هذا الرجل تسلّيتي الوحيدة.. لم لا؟.. تأمل نهم الناس لمشاهدة المسلسلات التلفزيونية.. ليس هذا ولعاً بالدراما كما تعتقد، بل هو ولع بما تتيحه المسلسلات من تلصص محكم على بيوت الآخرين!

لا توجد دلائل على أنه ماجن رقيق.. هم لا يبدوون هكذا.. ولا يبدو زوجاً هجر بيته.. هؤلاء يكونون قلقين لا يبقون في بيوتهم لحظة.. إذن هو مجنون..

كنت في بعض الليالي أسمع هديرًا غريبًا من الشقة وكان تيار الكهرباء يضعف.. لا أعرف السبب.. لم يحدث هذا معي إلا عندما كانت غسّالتي (القول اوتوماتيك) تالفة، لكنني أعرف أنه لم ينقل أية أجهزة للشقة.. لم أر أي شخص يزوره باستثناء رجل يشبهه نوعاً ولم يبق عنده إلا نصف ساعة قبل الوفاة بيوم..

ذات مرة وضع كيس قمامته على الباب فانتهزت الفرصة اثناء تظاهري بكنس الدرج،

واختلست نظرة إلى الكيس.. كان يحوي ورقاً ممزقاً كتب عليه بالإنجليزية.. لا أعرف كيف أقرأ هذه اللغة لكن هناك رسوماً كثيرة تمثل رأس الإنسان.. كأنه رأس مفتوح عليه علامات..

في ليلة الحادث قلت لزوجي أكثر من مرة إنني أسمع صوت بكاء ، لكنه أعتقد أنني مجنونة.. ثم سمعت الضوضاء في الشارع فخرجت إلى الشرفة.. وجدت زحاما يلتف حول جسد راقد على الأسفلت.. ناديت البواب فأخبرني أن الرجل وثب من شرفته..

كنت أتوقع نهاية غريبة لهذا الموقف، لكني ما زلت أتساءل: لماذا فعل ذلك؟

قال د. (محفوظ):

عندما عاد د. (عدنان) صديقي القديم من الخارج، كانت قد استحوذت عليه فكرة قراءة الجماجم Phrenology الذي كف الغربيون عن اعتباره علماً منذ زمن طويل.. ذلك الفن الذي ابتكره العالم الألماني (فرانتس جال) حوالي عام 1800.. يفترض هذا العلم أن كل صفاتنا وراثية ومصدرها المخ .. وبما أن المخ موجود في الجمجمة فإن شكل الجمجمة قادر على كشف أدق أسرارنا النفسية..

لقد استخدمت هذه الفكرة بإفراط لدى كل نظام فاشي أو عنصري.. شكل الجمجمة يحدد مسارك الأخلاقي منذ لحظة ولادتك وربما يحدد تفوقك العرقي كذلك.. هذا بالطبع ينافي أبسط قواعد الإنسانية، فلست مسئولاً عن شكل رأسي كي أحاسب على هذا الأساس.. ثم إنني كائن حر أختار وأحاسب على اختياراتي.. لو صرت مجرماً غداً فلأنني اخترت ذلك وليس لأن شكل جمجمتي أرغمني على هذا..

انتقلت الفكرة بسرعة إلى الولايات المتحدة، وسرعان ما أنشأ الأمريكي (أورسون فاوولر) شركة ودار نشر للتعامل مع قراءة الجماجم.. وفي القرن العشرين عادت الفكرة تلح بقوة مع نظرية (سيزار لامبروزو) عالم الإجرام الذي زعم أن ملامح المجرمين يسهل تمييزها..

لو كان شيء قد بقي من هذا العلم، فهو حقيقة أن كل جزء من المخ البشري مسئول عن نوع من المشاعر أو الأفكار.. وهذا ما درسه علماء وظائف الأعضاء بدقة وبراعة..

هناك فن آخر اسمه الميتوبوسكوبي Metoposcopy يقوم على قراءة تجاعيد الجبهة.. وهو علم تعصب له أرسطو وأبقراط وما زال يمارس في آسيا..

عندما عاد (عدنان) من الخارج متحمساً قلت له:

"أنت كمن يعيد اكتشاف الحديد.. هذا الفن قديم جداً.. دعك من أن كل هذه الفنون تلعب حول فكرة القيافة التي يعرفها العرب منذ دهور.. لقد اشتهر أفراد قبيلة (بني سليم) بقيافة الأثر وهي تتبع أثار الأقدام والحوافر ، وقيافة البشر وهي معرفة النسب عن طريق هيئة الشخص الخارجية.. دعك من فن الفراسة الذي بلغوا فيه شأناً عظيماً.. كانوا قادرين على معرفة طباعك من شكل وجهك.."

قال (عدنان):

"إنني أعيد زيارة هذا الفن من جديد، وأطبق عليه أساليب علمية حديثة.. مثلاً صرت

أستعمل الأجهزة للقياس.. وقد ربطت النتائج بالكمبيوتر.."

قضى الكثير من وقته يقيس الرعوس فلم يترك جمجمة لم يجر قياسها، وكان يأخذ 37 قياساً، وفي الوقت ذاته كان يجمع معلومات عن صاحب الرأس.. شخصيته.. عقده.. وفي سبوع ابنة إحدى قريباته ضبطته الأم يقوم بقياس رأس ولیدتها.. بالطبع كان موقفه بالغ السوء..

وفي النهاية قام بمقارنة ما عرفه مع ما تعلمه في مدارس غامضة بالخارج.. مدارس ما زالت تعتبر (جال) و(مسمر) عالمين.. يبدو أنه كون خبراته الخاصة عن الموضوع وصار واثقاً من نفسه تماماً.. كنت أنا من أوائل الرعوس التي قام بقياسها لكنه لم يخبرني برأيه في سلوكي الإجرامي.. فقط قال لي: "أنت تتمتع بغباء أصيل تداريه بالتظاهر بالوقار والإفراط في استعمال المصطلحات..!"

-"شكراً"

لم أعرف أنه ترك بيته وأسرته إلا عندما اتصلت بي زوجته تسألني إن كنت أعرف مكانه.. قالت إنه قام بقياس رأسها ورأس أولاده الأربعة ثم أصيب باكتئاب شديد.. عندما عادت من عملها وجدت أنه جمع حاجياته وأجهزته وكتبه وترك البيت...

قلت لها إنني أعتقد أنه يريد الانفراد بأبحاثه لفترة.. سوف يعود.. كل الأزواج الفارين يعودون.. استطعت بكثير من الجهد البوليسي معرفة عنوانه الجديد وقمت بزيارته..

كان يعيش في شبه رهينة منعزلاً عن العالم.. طعامه المعلبات ونومه ساعات معدودات.. وكانت هناك بالإضافة لكتبه بعض الأجهزة المعقدة تذكرك بالمصباح الشقي - بكسر الشين - الذي يستعمله أطباء العيون.. سألته عن السبب الذي هجر البيت من أجله فقال:

-"إنهم مجموعة من الأوغاد.. كلهم مشاريع مجرمين وسوف يفتكون بي يوماً ما.."

-"تحدث عن الأولاد والمدام؟"

-"طبعاً.. أنا صرت قادراً على معرفة المجرم من مجرد نظرة وبضعة قياسات.. دعك من أن اثنين من الأطفال لا يمتان لي بصلة!.."

هنا انفجرت فيه:

-"هل تعرف أن القيافة ليست دليلاً لنفي البتوة؟.. نحن في عصر الحمض النووي يا صاحبي فكف عن هذه الخزعبلات.. بصفتك عالماً نفسياً كنت أرغب في أن تشرح لي معنى البارانونيا، وهذا لا علاقة له بمحادثتنا"

-"البارانونيا هي أي شيء غير الذي أقوله لك الآن!"

ابتلعت غيظي، ثم سألته:

-"هل جربت قياساتك العبقرية هذه على نفسك؟"

-"لا لم أفعل.. أردت أن أكون متجرداً علمياً.. لكنني سوف أفعل ذلك غداً.. والآن لو

سمحت.."

وهكذا وجدت نفسي أحمل حملاً إلى الباب، ثم أطرط طرطاً.. لقد كانت نهاية معرفتي به عنيفة بعض الشيء..

وبعد يومين قرأت خبر وفاته في الصحف.. يمكنني إذن أن أتصور ما حدث في اليوم السابق لوفاته.. الرجل الذي يشك في نسب ابنين ويعتقد أن زوجته والأطفال مجموعة من الأشرار الذين يتربصون به.. الرجل الذي قضى شهراً وحده في شقة مظلمة قذرة مع فكرة واحدة.. الرجل الذي قرر أن يجري قياسات جمجمته ليعرف من هو حقاً.. هذا الرجل قد فتح الشرفة في ساعة متأخرة ووثب إلى الشارع من الطابق الخامس.. فما الذي عرفه عن نفسه؟.. هل عرف أنه سينتحر؟

تبدو القصة منطقية، لكن لا تنس أنني (أتمتع بغباء أصيل إداريه بالوقار والإفراط في استعمال المصطلحات) لهذا ما زلت أتساءل: لماذا فعل ذلك؟

فتيش

عندما جنت (إلهام) لم يجد أبواها أحق آخر سواي ليعنى بها.

لماذا؟.. لأنني دكتور في الأدب الإنجليزي.. هذا يفسر لك الأمر.. ما علاقة الأدب الإنجليزي بالطب النفسي؟.. هي علاقة واضحة جدًا بالنسبة لأبويها.. على الأقل هناك لقب (دكتور) قبل اسمي فلا بد أنني أفهم في هذه الأمور..

كانت (إلهام) في العشرين من عمرها وفي السنة الأخيرة من كلية العلوم، وكانت جارتني.. فجأة أصابها ذلك المرض المعروف.. الصمت.. الامتناع عن الأكل والمذاكرة.. البكاء بلا انقطاع.. وقد طلب الأب رأيي فأخبرته أن عليه أن يطلب رأي طبيب نفسي.. هذه سن يلعب فيها الكبت دورًا لا بأس به.. أحيانًا أعتبر (فرويد) حمارًا لكنني أثق به ثقة تامة عندما يؤمن أن الاضطرابات الجنسية لها دور هائل في العصاب.. وفي مجتمعنا أعتقد أن كل اضطراب نفسي لدى شاب له جذور فرويدية ما..

قلت هذا للأب المدير العام في الرقابة الإدارية فقال إنني حمار.. قلت له إن فرويد هو الذي قال هذا فقال إن فرويد حمار كذلك..

"ابنتي مهذبة حسنة التربية ولا يمكن أن تفكر في هذه الأشياء.."

طبعًا من المستحيل أن تشرح له أن هذا لا علاقة له بقلّة الأدب بل الهرمونات التي تمرح في دم الشاب قبل أن يستعد عقله ونضجه لها.. وكما يقول العظيم (صلاح جاهين): الواد يادوب دخل ثانوي.. ليه خده ينظر شوك بدا المنظر؟

هكذا ذهب إلى أطباء نفسيين لا بأس بعددهم وكالعادة اصطحبني معه في كل مكان.. الطريف أنه لم يعط علاج أي منهم الفرصة كي يوتي ثماره.. يبدأ بكبسولة أو قرص ثم يعلن أن هذا الطبيب أحق وأذهب لآخر.. هذا بالطبع من منطق أن الطبيب البارع سيعطي الفتاة كبسولة واحدة فتطير فرحًا وتبدأ في الرقص تعبيرًا عن سعادتها..

في النهاية جاء دور الشيخ (عزام) الذي جلبته الأم.. لابد أن مدام (نازلي) أخبرتها بروعته وبراعته..

لم أعرف بهذا إلا عندما صعدت الدرج فشمنت رائحة البخور تهيج صدري.. وجدت باب جاري مفتوحًا وهذا الشيخ (عزام) يقف هناك.. لم يكن يلبس كالمشعوذين وإلى درجة ما شعرت بأنه محترم إلى أن عرفت كم تقاضى من أجل هذه الزيارة المنزلية..

نزل الشيخ ونحن معه إلى مدخل البناية فرأيتة ينقب هناك.. لم يكن البلاط يغطي عتبة البيت كلها، بل كانت هناك بقعة ترابية انتزع بلاطها منذ زمن..

رأيتة يقف هناك ويتشمم الهواء، ثم انحنى وراح يحفر بأظفاره.

..جرب هذا.."

قالها الأب وهو يناوله مطواة صغيرة فأمسك بها وواصل الحفر بينما وقف البواب وجار أو جاران ينظران للمشهد في دهشة.. في النهاية أخرج الشيخ كيساً من الخيش أقرب إلى لفافة..

نظر لنا في انتصار نظرة معناها (تم) ثم قال في رضا:

..هذا العمل وضع هنا بحيث تضطر إلى أن تخطو فوقه عندما تدخل أو تخرج.. والحمد لله أننا وجدناه ولسوف نبطله"

سألته في فضول وأنا أتحسس هذه اللفافة:

..ماذا فيها؟"

أبعدها عني بحذر حتى لا تؤذيني هذه الأمور التي لا أفهمها، ومد يده داخلها وأخرج قطعة صغيرة من عظم.. شظية مغطاة بالغبار وقال:

..طبعاً لا بد من تراب مقابر وجزء من عظم ميت.. هناك شعر كذلك لا بد أنه شعر الفتاة.. من صنع هذا العمل حصل عليه بشكل ما.. في الغالب يتفق مع خادمة أو كوافير أو شيء من هذا القبيل"

ثم أخرج ورقة صغيرة لم أتبين فيها إلا عبارة (إلهام بنت فوقية).. أما الباقي فكان كتابة أقرب إلى نبش الدجاج.. كتابة عفاريتي جداً.. صحت بلا حذر:

..فوقية؟.. من فوقية؟"

صاح أبو (إلهام) في تحفظ حائق:

..هذا اسم المدام!... لا تكرره من فضلك!"

هكذا انصرف الرجل مشكوراً منتفخ الجيب مع تعليمات صارمة للأب أن يتخلص من هذه اللفافة في الماء الجاري.. ربما يلقيها في النيل إذا لم يكن حريصاً على البيئة..

ظللت أنظر له وهو يبتعد ثم سألت الأب:

..كيف عرف اسم فوق-..... أعني المدام؟"

قال في ضيق:

..من عمل هذا العمل لابنتي ودفنه هنا يعرف.."

..لكنك تعرف كما أعرف أنه هو من دفن هذا العمل هنا.. هكذا يفعلون دوماً.. وهكذا يفعل الرفاعية الذين يجدون الثعبان بسهولة لأنهم هم من وضعوه.."

ثم أضفت في حماس:

..وما الهدف من هذا العمل؟.. لماذا يريد أي شخص شيئاً من ابنتك؟"

..الانتقام!"

قالها في عمق وحنكة كأنه عرف الجواب اليقين، ثم اتجه إلى مدخل البناية حاملاً غنيمته..
لم يدعني للدخول فقررت أن أنصرف..

* * *

قال د.(مصطفى) أستاذ علم النفس وهو يتحسس صلغته اللامعة الأنيقة:

..سوف تجد هذه القصة تتكرر دائماً.. إنها في النهاية ليست سوى ذلك الزواج السعيد بين
أسلوبين للسحر وصفهما (فريزر) في كتابه (الغصن الذهبي): السحر بالاقتران والسحر
بالمحاكاة.."

ثم أشعل غليونه. كان يكره دخان الغليون لكنه مضطر لذلك كي يبدو مثل فرويد.. وأردف:

..السحر بالاقتران يرمز فيه الجزء إلى الكل.. الشعر أو الأظفار أو قطعة من الثياب ترمز
للشخص كاملاً.. الرجل البدائي يعتقد أن ما يحل بشعره يحل به هو.. ولهذا تجد الطبقات
الشعبية تحرص على التخلص من بقايا الحلاقة أو قص الأظفار في الحمام.. السحر بالمحاكاة
يستعين بدمية (فتيش) تشبه الشخص موضوع السحر.. غرس إبرة في بطن هذه الدمية يعني
أن يصاب صاحب الدمية بألم في بطنه.. الخ.. طبعاً من الواضح أن السحر المصري يستعمل
النوعين معاً.. كان الفراعنة يعتقدون أن التمساح (إيببي) يمنع (رع) من الظهور باعتباره
قرص الشمس.. لذا كانوا يصنعون دمية للتمساح ثم يغلفونها بورق البردي، ويطعن الكاهن
هذه الدمية ويدوسها ثم يلقي بها في النار.. كان في بلاط فرنسا منجم مشهور اسمه (روجيري)
كان مختصاً بصنع هذه الدمى الشمعية.. قيل إنه صنع دمية للملك شارل التاسع وجه لها
ضربات في الرأس.. وقد مات الملك بعدها وهو يعاني ألماً في الرأس.. هناك محاكمات لا حصر
لها لسحرة مارسوا هذا الضرب من السحر الأسود وكلها انتهت بالإعدام طبعاً.. أما في انجلترا
فقد حدثت حالة دعر عندما وجدوا تمثالاً شمعيًا للملكة إليزابيث وفي صدرها دبوس كبير..
الخلاصة أن هذا النوع من السحر قديم جداً.. ما حدث في حالة فتاتك هذه هو أن هناك من صنع
لها محاكاة تتمثل في عظام ميت وتراب مقابر مع اسمها.. ثم أضاف شعرات المفترض أنها
منها للاقتران.. بهذا صار ما يحدث لهذه اللقافة يحدث للفتاة.."

قلت في غيظ:

..لكننا نعرف أن ذلك المشعوذ لم يجد اللقافة.. لقد دفنها هناك بنفسه"

..هذا مؤكد.. لكن لو كان هناك طرف ثالث أراد أن يؤدي الفتاة لما فعل غير هذا.. لاحظ أن
الأطفال والطبقات الشعبية يتصرفون ويفكرون مثل الرجل البدائي.."

قلت له في استمتاع:

..لابد أن تقرضني كتاب الغصن الذهبي هذا.."

اتجه إلى أرفف المكتبة فانتقى مجلداً ضخماً بالإنجليزية ناوله لي، ثم أخرج شيئاً صغيراً من
على الرف تأملته فوجدت أنه دمية خشبية قبيحة المنظر.. دمية بدائية لا تشبه (باربي)

بالتأكيد..

"هذه من إندونيسيا.. هناك جزر كاملة تعتنق الوثنية فليس كل الإندونيسيين مسلمين لو كنت تعتقد هذا.. وهذا الفتيش اشتريته من هناك.."

أمسكت بالدمية في تقزز.. قبيحة فعلاً..

قال وهو ينفض الغليون:

"يمكن أن تضع فيها شعر أو أظفار الشخص الذي تريد أن تؤذيه.. ما يحدث للدمية يحدث للشخص أو هذا ما يؤمنون به.. قل لي.. هل تجرب؟"

نظرت ليدته فوجدت ذلك المقص الصغير.. قلت مراوغة:

"بالطبع لن أفعل.."

"لمه؟.. أنت رجل علم تؤمن أن هذا هراء.."

"لكن هذا أقوى مني.. أنت تكلمت عن الوجدان الجمعي.. هناك جزء في عقلي يرفض هذا بقوة.. ما زلت أعطي قدمي أثناء النوم كي لا يمسك بها ذلك الشيء تحت الفراش.. أنا أو من أنه لا وجود له لكني أو من كذلك أن علي أن أعطي قدمي كي أحميها منه!"

ابتسم في ثقة، ثم اتجه إلى الحمام فعاد بفرشاة شعر.. انتزع منها بضع شعيرات ثم فك جزءاً من الثوب الخشبي البدائي المحيط بالدمية ودس الشعرات تحته ثم أعاد تثبيته بقطعة خيط..

قال ضاحكاً:

"الآن ما يحدث لهذه الدمية سيحدث لي.."

ومد يده بحثاً على مكتبته حتى وجد فتاحة ورق.. أعطاني إياها وقال:

"هلم.. أرني براعتك!"

"متأكد؟"

ومددت النصل بحذر ليوخز قلب الدمية.. رفعت رأسي نحوه فوجدته يبتسم في ثقة.. هكذا غرست النصل أكثر.. ورحت آتي هذه المرة بحركات لا حصر لها تدل على سادية واضحة كأنني أبرهن له على أنني لا أخاف.. لكنه كان واقفاً يبتسم وأسنانه على الغليون ويداه في جيبي الروب.. لم يعو من الألم ولم يمت..

"هل ترى؟.. منطق العلم لا يهزم.. حتى لو كانت قرون من الخرافات تنعس في أعماق وجداننا الجمعي"

ابتسمت ثم رددت له الدمية.. ونصحته أن يحافظ عليها جيداً.. وجلسنا نثرثر ربع ساعة..

كنت على باب شقته عندما دق الهاتف فأشار لي أن أنتظر ثم رفع السماعة وسمعته يقول في قلق:

"ماذا؟.. أثناء المحاضرة؟... كيف؟.. لا يعرفون؟.. مستشفى (عياد)؟.. الدور الرابع؟...
سأتي حالاً.."

ثم نزع الروب في ثانية فوجدته أمامي بالثياب الداخلية التي تتنافى مع وقاره خاصة أن
الغليون ظل بين أسنانه.. جرى لغرفة النوم وعاد وهو يزرر السروال ويرتدي السترة في الوقت
ذاته وقال لاهتاً:

"زوجتي.. دكتورة (غادة).. كانت تلقي محاضرة عندما أصيبت بألم حاد في الصدر
والبطن.. لا أحد يعرف ما دهاها.. يقول الأطباء إنها أغرب نوبة قلبية رأوها.. أين هذا الجورب
اللعين؟.. هل معك سيارة؟"

كان يركض على الدرج وهو يواصل ارتداء ثيابه، بينما أنا ألحق به.. نظرت إلى رأسه
الأصلع وتساءلت عن حاجة رأس كهذا لفرشاة شعر؟... الشعيرات التي انتزعها من فرشاة
الشعر لم تكن تخصه... كانت تخص شخصاً آخر له شعر طويل يصففه عدة مرات كل يوم!

رباه!... وأنا الذي رحت أغرس النصل بإخلاص كأنه آخر عمل مفيد أقوم به في حياتي!

هل لهذا معنى ما؟.. هل هي المصادفة؟.. هل تعتمد استعمال شعرات زوجته؟.. هل فعل ذلك
ليؤذيها أم لأنه لم يجسر على التجربة بنفسه؟

أسئلة كثيرة لا وقت لها.. فقط لنسرع إلى المستشفى ولنندع الله أن تتحسن الأمور..

صرخات في الظلام

عندما أطفأ (عوني) نور غرفته دوت الصرخة شنيعة طويلة..

كان فيها شيء مريع غير آدمي ولا أرضي، لكنه لم يبال بهذا قدر مبالاته بحقيقة أن الصرخة تأتي من حجرته ذاتها.. إنها معه هنا والآن.. وقد أضاء النور ووقف فوق الفراش مذعورًا ينظر ذات اليمين وذات اليسار.. لا يوجد شيء..

جثا على ركبتيه تحت الفراش - حيث تتبعث رائحة الأثاث العتيق الكريهة - ليلقي نظرة، لكنه كان يعرف يقينًا أنه لن يجد شيئًا.. فهذا السيناريو تكرر أربع مرات من قبل على مدى ثلاثة أشهر.. لو أن (علاء) ذلك الأحمق لم يقرر أن الإقامة في شقة مفروشة لا تناسبه لكانت الحياة أهون.. رحل (علاء) ومعه رحل نصف الأمن..

قام بجولة في الغرفة فلم يجد شيئًا ذا بال..

خرج إلى الصالة المظلمة وجلس يلتقط أنفاسه.. أشعل لفافة تبغ.. هذا ما قاله لي فيما بعد ولم يحكه لأهله طبعًا لأنهم لن يبتلعوا أبدًا فكرة أن يرتكب ابنهم هذه الجريمة الشنعاء..

عندما انتهت لفافة التبغ كان قد وصل إلى قراره النهائي: لن يبقى في هذه الشقة أبدًا.. لو تمسك أهله بها فلنفسوف يفارق كلية الهندسة ذاتها..

وهكذا نزل إلى الشارع البارد المظلم.. على الأقل كان أكثر دفئًا وأمانًا من تلك الشقة التي لم يعد يطيقها.. أخرج البطاقة البلاستيكية ودسها في جهاز هاتف عمومي وطلب رقم (040) الذي يعني أنه يطلب الغربية، وانتظر حتى جاء صوت الأب المتسائل المذعور يسأله عما هنالك.. إن مكالمة نداء مباشر في الثالثة صباحًا لا تعني إلا شيئًا واحدًا..

"أنا لن أبقى في هذه الشقة ليلة أخرى.. سوف أعود لكم صباحًا.."

"هل تمزح؟.. إن الامتحانات على الأبواب.. لا وقت لهذا الهراء، ولن تجد أبدًا شقة شاغرة الآن.."

"قلت لك يا والدي إن هذه الشقة ليست على ما يرام.. إنها مسكونة.. أفضل أن أسافر من وإلى طنطا يوميًا.."

"مستحيل!.."

قالها الأب في إصرار ثم قدم عرضه: لن يقدم الفتى على شيء مجنون، لكن الأب قادم في الصباح لمعرفة ما هنالك..

هكذا لم يجد (عوني) مناصًا من أن يمضي ليلته في الشقة، لكنه أمضاها بطريقة متوترة بعض الشيء.. الأنوار كلها مضاءة وهو جالس على أريكة الصالة العتيقة مفتوح العينين وفي

يده المصحف.. لم تكن هناك صرخات لكنك تستطيع أن تدرك بسهولة أن خشب الأثاث كائن حي.. الحشرات صاحبة فعلاً.. حتى صوت أنفاسك أعلى مما يجب..

في الصباح جاء الأب ومعه صديق حميم.. طبعاً ما كان ليستطيع الوصول إلى هذا العنوان من دون صديق قاهري، وكان هذا المسكين هو أنا طبعاً.. المهندس (جودة) المدير العام على المعاش هبط على داري ليصحبني معه إلى تلك الشقة المفروشة التي يقيم فيها ابنه..

كان (عوني) شاباً مهذباً تمت تربيته جيداً.. الطراز الذي تتركه في شقة مفروشة وحده في القاهرة متأكداً من أنه لن يملأها بالغانيات وزجاجات الخمر وسجائر البانجو، وكان له صديق يدعى (علاء) من ذات المدينة يدرس الطب ويقيم معه في ذات الشقة، لكنه فضل أن يسافر يومياً لأنه لم يعتد الحياة بعيداً عن (ماما).. هذا يدلك على أخلاق (علاء) هذا.. إنه خجول أقرب للفتيات ذوات الخفر، ولا شك أن الأب تضايق لدى رحيل هذا الشاب الذي كان بلا شك صمام أمان بالنسبة لابنه.. الحقيقة أنه كان سيجن لو عرف أن ابنه يدخن وقد تعلم هذه العادة من (علاء)..

في العاشرة صباحاً كنا في الشقة المفروشة، وقد راح الفتى يحكي لنا قصته.. الصرخات التي تدوي في بعض الليالي من غرفته بالذات.. يقوم بالبحث في كل ركن لكن لا شيء.. صرخات مريضة يمكن أن تجمد الدم في عروقك بلا أية مبالغة، لكنها ككل تلك الظواهر (الفورية) لا تحدث أبداً عندما تنتظرها..

كان الأب واضحاً.. نحن في نهاية العام الدراسي ولا وقت لهذا الهراء.. لو أن كل عفاريت العالم السفلي يقيمون في هذه الشقة، ولو أن القبور تفتح ليلاً لتقذف سكانها في غرفة نوم الفتى، فلا وقت للفرار.. لابد للفتى أن ينجح أولاً.. لا توجد شقق مفروشة في هذه الآونة، والفتى لن يستطيع أن يعتاد السفر في هذا الوقت القصير قبل نهاية العام.. إذن ضاع العام وضاع مستقبل (عوني) وضعت أنت يا (جودة) ولا حول ولا قوة إلا بالله..

"عندما كنت في الجيش كنا نمشي قبل الفجر ثلاث ساعات في الصحراء، وكنا نسمع أطفالاً يصرخون على جانبي الطريق فلا نبالي بهذا السخف.. أنتم شباب مدلل.."

"وأنتم كنتم تفتقرون للخيال.."

قلت وأنا أحاول أن أكون واسطة خير:

"اعتقد أنه بوسعنا فهم ما يحدث.. لكن لابد من أن نمضي ليلة معك.."

"قلت لك إن هذه الظواهر لا تأتي أبداً عندما تريدها.."

لكنني صممت على أن نجرب.. هكذا جاء المساء ونحن في الشقة المفروشة نلتهم بعض شطائر الجبن الرومي والمخلل من (سعد) البقال الذي يقع متجره تحت الشرفة - وهو عشاء الفتى الدائم - ونشرب الشاي الثقيل الذي أعده لنا.. ثم جلسنا في حجرته.. أبوه على الفراش وأنا والفتى على مقعدين خشبيين.. طبعاً مر الليل بطيئاً سمجاً ثقيل الظل.. الأب تمدد على الفراش، وأنا أرحت رأسي على حافته وأنا جالس على مقعدي، بينما (عوني) راح يطالع كتاباً ثقيلاً أتحدى أن يكون قد وعى حرفاً مما فيه.. وقد غادر الغرفة مرتين.. فيما بعد عرفت أن هذا

كان ليدخن على عجلة وخلصه لفافة تبغ في الشرفة بعيداً عن عيني الأب....

عند الثالثة صباحاً دوت الصرخات وياله من حظ!..

تجمد الدم في عروقتنا، ونهض الأب وهو يردد: بسم الله الرحمن الرحيم.. بينما ظل (عوني) صامتاً وهو يرمقنا وعلى وجهه شبح ابتسامة من طراز (ألم أقل لكم؟)..
صرخات عالية جداً.. مستحيل أن يكون هذا مزاحاً أو تكون هناك لعبة.. لولا أن توصيل الصوت سيئ جداً في هذه الشقة لوجدت كل الشارع يقف على بابنا متسائلاً عن يذبح من..

وثبت مسرعاً بحثاً عن مصدر الصوت الذي تلاشى على كل حال.. لا يوجد.. اتجهت إلى خزانة الثياب العتيقة وفتحتها فلم أر بها إلا كيساً بلاستيكيّاً ضخماً مع مجموعة من الأحذية العتيقة..
أكاد أقسم أن الصراخ يأتي من هنا.. لكن كيف؟

مددت يدي إلى الكيس وعبثت بمحتواه ثم قلبته على الأرض.. لم يكن فيه إلا أدوات تشريح صئنة وجمجمة آدمية صغيرة الحجم وبعض كتب التشريح البالية..
قال (عوني):

"أنا جربت هذا قبلك.. لا يوجد جهاز راديو منسي ولا لعبة أطفال ولا فأر جريح. هذه الأشياء من بقايا (علاء) عندما ترك الشقة ولم يأت لاستردادها قط.."

"لماذا ترك الجمجمة؟"

"لأنه لم يعد يحتاج إليها في دراسته.. هذه الأشياء تظل في حوزة طالب الطب إلى أن يقرضها لطالب آخر.."

عدت إلى الجلوس ونظرت إلى الأب والفتى، ثم قلت وأنا أنظر إلى الجمجمة:

"يبدو كلامي غريباً لكن اعتقد أنني عرفت التفسير.. إن ظواهر الجماجم الصارخة معروفة في العالم الغربي لكننا لا نعرف عنها الكثير.. لقد وصفت في أكثر أجزاء إنجلترا، والقصة دائماً هي قصة جمجمة تصدر صرخات مريعة ليلاً لأن هناك من حاول نقلها من موضعها، أو لأنها أبعدت عن أجسادها.. هناك قصة عن سيد إنجليزي عاد من الإنديز بعد رقيق.. وقد أوصى هذا العبد لدى موته بأن يدفن رأسه في وطنه في إحدى جزر الكاريبي.. لكن بالطبع لم يقم أحد بتنفيذ هذا الوعد.. النتيجة أن صرخات مريعة كانت تنطلق من القبر الذي دفن فيه العبد.. ثم نقل أحدهم الجمجمة إلى داره.. عندها بدأت الصرخات تتبعث من هذه الجمجمة.. هناك كذلك قصة أخرى مريعة من القرن السادس عشر عن جمجمة الأب (أمبروز بارلو) التي يجدها الناس تنظر لهم من أعلى الدرج وتصرخ.. وقصة عن (ويليام كوردر) البريطاني الذي قتل عشيقته فشقق.. حصل أحد الأطباء من هواة جمع الجماجم على هذه الجمجمة واحتفظ بها بعد ما قام بصقلها.. خلال أيام صارت الصرخات تدوي في بيته حتى اضطر للتخلص من الجمجمة.. المالك الجديد لها أصابه الهلع من الصرخات حتى أنه قام بدفن هذه البقايا.. هناك اعتراضات كثيرة على هذه النظرية لكن لا اعتراض على مغزاها الأخلاقي: من حق المرء أن يموت وهو

يعرف أن أحدًا لن يعثب بعظامه"

نظر لي الأب بوجهه الممتنع وقال:

"هل تريد أن أصدق هذا؟"

"لا أريد أي شيء.. فقط أنا أرجح أن (علاء) حصل على هذه الجمجمة عن طريق أحد اللحادين.. طبعًا ما يفعله كثير من هؤلاء هو سرقة المقابر.. هناك قصص مريعة في إنجلترا عن لحادين قتلوا ستة عشر شخصًا فقط ليوفروا عظامًا طيبة لطلاب الطب.. ما حدث هو أن اللحاد سرق جمجمة ما كان ينبغي لها أن تسرق.. جمجمة تكره الانفصال عن جسدها.."

قال الأب وهو يقف حافي القدمين ينظر للبلاط المتسخ:

"بيني وبينك.. لا أصدق حرقًا.. لكني متفق على أن عظام الميت يجب أن تكرم.. هذه الجمجمة يجب أن تحظى بدفن لائق.."

نظرت إلى (عوني) مبتسمًا وقلت:

"هكذا سوف تحل مشكلتك.. سوف نأخذ هذه الجمجمة ونعيدها إلى (علاء) كي يدفنها.."

"ولماذا لا ندفنها نحن؟"

"أعتقد أنها يجب أن تعود لقبرها الأصلي.. هذا هو تصوري للموقف.."

قال (عوني) وهو يرتجف:

"وهل تعتقد أن خلاصي من هذه الجمجمة يحل المشكلة؟.. بعد هذا أنام في شقة أعرف أنه كانت فيها جمجمة صارخة؟"

قال الأب وقد احتقن وجهه:

"ستفعل ذلك أيها المدلل وتنجح وتحصل على تقدير عال.. عندما كنت في الجيش كنا نمشي قبل الفجر ثلاث ساعات في الصحراء، وكنا نسمع أطفالاً يصرخون على جانبي الطريق فلا نبالي بهذا السخف.. أنتم شباب رقيق.."

ينوي أن يحكي القصة للمرة الألف..

في النهاية أعطيت الفتى وعدًا بأن أجد له من يقيم معه في هذه الشقة.. وانصرفنا راضين عما عرفناه..

عندما عاد الأب أخبر (علاء) صديق ابنه بالقصة كلها، ولكن طالب الطب الشاب لم يكن يعرف مصدر الجمجمة لأنه ورثها من طالب طب آخر كالعادة.. ربما لو تتبعنا السلسلة لقابلت عشرة أسماء.. هكذا خرج الأب و(علاء) إلى المقابر ونفحوا لحادًا بعض المال كي يدفن لهما هذه الجمجمة دفنًا لائقًا.. المفاجأة الأكثر إثارة هي أن السفر المتكرر أرهق (علاء) لذا قرر أن يعود للإقامة في تلك الشقة في الأشهر الباقية على امتحان آخر العام.. هكذا حلت المشكلة مرتين..

نسيت كل شيء عن القصة إلى أن دق الهاتف عندي ذات ليلة فرفعت السماعة لأجد (عوني) يقول لي:

"عمو (محفوظ).. قد عادت الصرخات!"

فركت عيني في ذهول.. ثم عدت أسأله:

"هل عرفت مصدرها؟"

"نعم.. لقد فتح (علاء) الخزانة ليجد الجمجمة ذاتها هناك!.. إنه مصاب بانهايار عصبي الآن."

فكرت حيناً ثم قلت وقد تذكرت:

"في بعض القصص - ومنها قصة جمجمة (كوردر) هذه - قيل إن الجماجم غادرت التربة وعادت.. حتى أنهم اضطروا في بعض الأحيان إلى سحق الجمجمة للخلاص منها."

جاء صوته المغتاز في الهاتف:

"ولماذا لم تخبرني بهذا؟"

"لأنني نسيت بعض التفاصيل.. إن عقلي ليس دفتراً لو كان هذا قد خطر لك.. اسمع يا بني.. لا أرى داعياً لكل هذا الصراخ.. حاول أن تجد طريقة لسحق هذه الجمجمة وبعدها سوف يعم السلام الأرض وينعم الجميع بحياتهم.. والآن أرجو أن تتركني أنام.. من فضلك!"

ماذا يحدث في شقتنا؟

عندما عاد مهندس الإلكترونيات (أحمد الشرشابي) إلى شقة (العجمي) لم يستطع أن يصدق ما يراه..

وقف مذهولاً ومن خلفه زوجته (همت) وولده المراهقان، فلو أن (رودان) رآهم لنحت أربعة تماثيل رائعة وعرضها متحف اللوفر تحت اسم (الذهول)..

هم أولاء مرهقون من السفر والحقائب في أيديهم، لكنهم ينظرون في لهفة ودهشة إلى الفوضى العامة التي جعلت الشقة الجميلة ساحة معركة.. المقاعد مقلوبة.. البساط مطوي.. الستائر ممزقة.. هناك أثر دام على الأرض يذكرك بأسد جر فريسته الممزقة عبر طريق من غبار ودم.. علامات على الجدران، لكنها ليست علامات عشوائية، بل هي رسوم تم رسمها بدقة بقلم من فحم..

الغريب في الأمر أن الشقة مغلقة جيداً. لم تقتحم شرفتها ولم يقتحم الباب.. هناك من فتحها بعناية وأحدث كل هذه الآثار ثم غادرها وأغلق الباب..

قالت الزوجة وهي تشمر عن ساقها وساعديها:

"يجب أن أنظف هذا كله.. تنحوا جانباً.."

لكنه منعها من ذلك.. لابد أن يرى رجال الشرطة المشهد..

فتش عن كل شيء ثمين أو قابل للسرقة فوجده. اللص الذي لا يسرق جهاز الكاسيت الثمين ولا التلفزيون خفيف الحمل هو لص أمين أكثر من اللازم أو أحمق.. صحيح أن شاشة التلفزيون كانت ملطخة بالسواد لكن هذا كل شيء..

جاء رجال الشرطة والتقطوا صوراً وسألوه إن كان يتهم أحداً.. قاموا بفحص كل شيء.. لا توجد سرقة.. نعتقد أن متسكعاً تسلل للشقة وأمضى فيها عدة أيام.. هذه الأشياء تحدث مع شقق المصايف التي لا يستعملها سكانها إلا بضعة أيام كل عام..

لكن كيف دخل من دون عنف؟

"فكر جيداً.. هناك من حصل على المفتاح واستخرج نسخة منه.."

هذا سهل قوله.. لكن (أحمد الشرشابي) لم يكن ممن يفقدون المفاتيح.. هناك مفتاحان معلقان في مكتبه بشقته في القاهرة، وهما لا يغادران المكتب إلا إلى جيبه.. الولدان أصغر سناً من مغامرة كهذه.. لكن رجال الشرطة لا يصدقون هذه الأمور.. شعارهم هو (لا يمكن أن تكون حذراً أكثر مما يجب) كما يقول الغربيون.. كل إنسان يعتقد أنه واع متيقظ جداً لكن العكس صحيح.. هناك عشرات القصص المماثلة، وهناك دائماً أخ عابث يسرق المفاتيح منك لتكون له

شفتة الخاصة في العجمي من دون علمك..

"ليس لي أخ على كل حال"

هكذا وقف في الشرفة يدخن ويرمق أمواج البحر، بينما (همت) في الخلفية تنظف الشقة بمعاونة الولدين.. ماذا حدث؟.. ومتى؟.. هل هناك جريمة قتل دارت هنا؟.. من جديد يبرز السؤال عن كيفية دخول القاتل؟

هكذا مد يده إلى جهاز الهاتف يطلب رأيي..

كان جوابي بعد سماع القصة عملياً جداً: أنت لن تعرف أبداً.. لن تتفوق على رجال الشرطة.. لم يسرق شيء ولم يتأذ أحد، لذا أنصحك بأن تنسى الموضوع وتبدل قفل الباب وتؤمن الشرفة وتستمتع بإجازتك..

"أستمع؟.. هل تعتقد أنه بقي لي استمتاع؟"

هكذا مرت الإجازة.. لكنه كان قلقاً وبالفعل لم يستمتع لحظة.. إنه الافتقار إلى الأمن.. الشعور بأنك عار تماماً مكشوف تماماً، وأن البيت ليس حصناً والمفاتيح لا تضمن شيئاً..

عادت الأسرة إلى القاهرة.. وعادت تمارس حياتها العادية، لكن (أحمد الشرشابي) أمضى أسبوعاً يفكر، ثم انطلق إلى العجمي في (كبسة) مفاجئة.. لا يعرف السبب ولا ما دفعه لذلك، لكنه أحسن صنعا.. لقد كانت الشقة في ذات الحالة التي وجدها فيها من قبل!.. نفس الفوضى المريعة فيما عدا أن آثار الجر على الأرض كانت أعنف.. مرآة الحمام عليها ثلاث قطرات دم..

عندما اتصل بي كان في أسوأ حال، وقال في هستريا:

"هذه الشقة مسكونة.. لا يوجد تفسير آخر.."

قلت في هدوء من ليست يده في النار:

"هناك تفسير عقلاني ونحن واجدوه من دون شك.. إن هذا الذي يحدث يذكرني بكابوس قديم في طفولتي.. ترى ماذا يحدث في شقتنا بعد تركها لفترة؟.. لو وضعنا كاميرا هناك لتصور فماذا ستري؟.. ما الذي يحدث في الشقة الخالية المظلمة في هذا الوقت؟"

كانت فكرة مرعبة وأعتقد أنها أثرت فيه.. لقد صمت قليلاً فلم أسمع إلا أنفاسه ثم قال:

"دائرة تلفزيونية مغلقة تسجل كل شيء.. هذا هو الحل.. أنا مهندس الكترونيات ويجب أن أعرف كيف أفعل ذلك.."

"هل تمزح؟.. أي شريط يتسع لعام من التسجيل أو بضعة أيام؟"

"بل بضعة أيام.. ثانياً سوف أضع خلايا كهروضوئية متناثرة.. إذا قطعها شيء بدأ التسجيل لمدة ربع ساعة.. هناك جهاز صغير يجعل هاتفك المحمول يرن إذا عبث شخص ما بهذه الخلايا.. أي أنني سألقى إشارة على جهاز المحمول تبلغني أن هناك من يتحرك في الشقة.. هكذا أسافر إلى الاسكندرية فوراً، وأرى ما سجله الشريط.."

"ما زلت أرى أن بيع الشقة أسهل.."

"ليس قبل أن أفهم ما يحدث.."

ووضع السماعه.. كان بارعًا لذا عرفت أنه سيؤدي العمل بإتقان.. (شغل المعلم لنفسه) كما يقولون.. وعرفت أنه عاد إلى القاهرة وعاد يمارس عمله.. أعتقد أن القصة انتهت عند هذا الحد..

لا لم تنته.. لقد اتصلت بي زوجته ذات صباح كنيب تخبرني بأنه سافر إلى الاسكندرية ليلة أمس، لكنه لم يعد ولا يرد على الهاتف.. قالت إنه تلقى إشارة من هاتفه المحمول تبلغه أن هناك من تسلل للشقة.. وقد وعدا بأن يحضر معه البواب ورجال الشرطة قبل أن يقتحم الشقة، فهو لا يبغي لعب دور (رامبو).. أخذت منها عنوان الشقة بدقة ووعدتها بأن أتصرف.. طبعًا لا نية لي في أن اذهب إلى العجمي من أجل هاتف معطل..

اتصلت بصديقي الاسكندراني (حلمي) وأخبرته بالقصة - الجزء الأخير منها - ووصفت له عنوان الشقة.. أنت تقيم في (الدخيلة)، فهل بوسعك أيها الصديق العزيز المخلص أن تذهب إلى هناك وتسال البواب عنه وتدق جرس الباب حتى يفتح لك؟... تذكر أن هناك زوجة قلقة..

"سأفعل.. لكن اتصل بي أنت لأن رصيد الموبايل..."

"مفهوم. مفهوم.. فقط تحرك.."

بعد ساعة اتصلت بـ (حلمي) فرد على الفور..

"أنا الآن أقرع بابه.. يبدو أنه لا أحد بالشقة.. لقد مررت على البواب فقال لي إن المهندس (أحمد) دخل شقته معه ورجل شرطة ليلة أمس.. لم يكن هناك شيء لكن الشقة كانت في حالة فوضى مروعة.. قال إن المهندس كان متعجلًا للتخلص منه ومن رجل الشرطة.. كان يريد التواجد وحده لسبب ما.. هكذا تركاه بعد ما أكد لهما أنه بخير.. لكنه لم يغادر الشقة حتى اللحظة.. انتظر.. إن الباب موارب في الواقع وليس مغلقًا.. أعتقد أنني سأدخل.."

"إذن كن حذرًا من فضلك.."

على الفور دوى صوت يشبه جرس الإنذار.. وتساءل (حلمي) في زعر عن مصدر الصوت فقلت:

"جهاز المحمول الخاص به.. إنه يطلق إشارة إنذار لو تسلل احدهم للشقة مثلك.. أنت تجتاز دائرة كهروضوئية.. المهم هل ترى شيئًا؟.. معنى وجود المحمول أنه هنا"

قال وهو يلهث رعبًا:

"إنه هنا بالفعل.. على الأريكة والذعر في عينه.. إنه متصلب وأعتقد أنه ميت.."

ابتلعت ريقى.. ثم سألته:

"آثار عنف؟"

"لا. آثار رعب.. هناك جهاز تلفزيون أمامه. يخيل إلي إنه كان يشاهد فيلم فيديو عندما أصابته نوبة قلبية.."

"اسمع.. قد يبدو كلامي غريبًا لكني أريد أن تعيد شريط الفيديو قليلاً إلى الوراء وتصف لي ما تراه.."

"فعلاً هذا أغرب مطلب سمعته.. رجل متوف وتطلب مني أن... لحظة.. هاهوذا.. هذه لقطات ثابتة من أعلى تظهر هذه الصالة في ضوء خافت.. لا يوجد شيء.. سأتحرك للأمام بالشريط قليلاً.. لكن... رباه!... ارحمني يا رب!!!!"

ودوت الصرخة.. ثم سمعت شيئاً يرتطم بالأرض وبعدها انقطعت المكالمات.. حاولت الطلب من جديد وقلبي يثب بين ضلوعي، فلم أسمع إلا الفتاة تقول بطريقتها المبهمة الودود (هذا الهاتف قد يكون مغلقاً)..

هرعت إلى غرفة نومي فارتديت ثيابي، وسرعان ما كنت أنطلق بسيارتي- التي ملأتها بالبنزين - إلى الاسكندرية..

(حلمي) من أعز أصدقائي ولن أسامح نفسي لو حدث له شيء.. كنت غارقاً في الأفكار.. ماذا حدث؟.. هل هاجمه أحد؟..

وصلت إلى العجمي مرهقاً منهكاً..

اتجهت إلى العنوان الذي صرت أحفظه عن ظهر قلب..

لم يكن البواب هناك فصعدت الدرج مسرعاً.. أخيراً وجدت الشقة.. كان الباب موارباً بالفعل.. وبالطبع لم أبال بطرقه فدخلت.. كانت الرائحة منفرة بحق.. رائحة الدم المسفوح التي أعرفها من قفص النمر في حديقة الحيوان..

ثمة شيء تحرك.. ثمة شيء تحرك بسرعة خارجاً من مجال بصري.. ثم سمعت صوت الإنذار الغريب الذي سمعته على الهاتف.. بحثت بعيني فرأيت تلك الخلايا الكهروضوئية في كل مكان.. خلف المزهرية.. جوار الباب.. وراء لوحة على الجدار.. نظرت لأعلى فرأيت عدسة الكاميرا الصغيرة المتلصقة التي تذكرك بعدسات السوبر ماركت التي تتذكرك لو زين لك الشيطان شيئاً..

على كل حال دلفت إلى الصالة، لتقابلني ألين فوضى رأيتها في حياتي.. كأن خرايت كانت تتسابق هنا.. ورأيت مشهداً عجباً.. على الأريكة كان (أحمد) راقداً مفتوح العينين متسعهما صورة للرب الميت في اصدق صورها.. جواره على الأريكة جهاز الهاتف يصدر تلك الضوضاء الغريبة التي جعلته يأتي من القاهرة في تلك الليلة..

ونظرت إلى المنضدة المقابلة فرأيت جهاز التلفزيون مغلقاً... طبعاً يغلق ذاتياً عند انقطاع الإشارة لفترة.. نفس الشيء مع الفيديو.. لكن هناك علامات سوداء واضحة على شاشة التلفزيون.. علامات لا يمكن مشاهدة الصورة في وجودها ومعنى هذا انها وضعت بعد مكالمات (حلمي) الأخيرة..

أين (حلمي) نفسه؟؟ هوذا على الأرض وجواره هاتفه المحمول الذي سقط فتشهم إلى ألف قطعة.. عيناه متسعتان والرعب على كل قسمة من وجهه.. نفس العلامات..

لا أعرف ما الذي قتلها لكنه مريع بما يكفي..

دق جرس هاتفي فأجفت.. جاء صوت (همت) المذعورة تسألني:

"هيه.. د. (محفوظ).. هل نجحت في الاتصال به؟"

لم أكن أريد المزيد من الضغط العصبي، لذا قلت في كياسة:

"أنا في الطريق.. سوف أبلغك بكل شيء.. سلام"

مهما كان الأمر فهذا الشريط يحمل السر.. السر الذي رآه (أحمد الشرشابي) ورآه (حلمي).. يجب أن أعرف.. مهما اتسع خيالي فلا أتصور أن يكون الأمر رهيبًا إلى هذا الحد.

نظفت الشاشة بمنديل ورقي، واتجهت إلى جهاز الريموت وأدرت شريط الفيديو للخلف ثم شغلته..

كانت هناك لقطة وحيدة من أعلى للصالة.. لا شيء يتحرك.. هذا مؤكد.. إضاءة خافتة رهيبة لكن لا شيء يتحرك..

لكن إذ أدقق أرى شيئًا ما.. الآن تتضح الحقيقة أكثر فأكثر.. ودقات قلبي تتسارع..

رباه!... أنا لا أصدق هذا الذي أراه.. لا أصدقه!!

الرقص بين الأحجار

تنظر إلى السماء المكفهرة التي اكتسبت لون الرخام.. ترفع يديها.. ترجع رأسها للخلف..
تغمض عينيها.. تمشي في تودة كأنها راقصة باليه.. بضع خطوات.. ثم تبدأ الرقص.. رقصاً لم
أره من قبل ولا يمت لعالمنا بصلة.. كأنها تصغي للحن خفي آت من وراء الآباد والأبعاد..
ترقص.. تنتشي.. تضحك.. ثم تتوقف وتنتظر لي في ثبات..

* * *

من جديد أستعيد ذكرياتي مع جمعية البحوث الروحانية البريطانية، ومع د. (جيمس
ماتيسون) بقامته القصيرة وعصبيته وعينه النافذتين.. كان هذا عندما كنت أدرس في إنجلترا.
لم انضم للجمعية قط كما تعرف لكني عرفت مجموعة لا بأس بها من الأصدقاء الرائعين حقاً..

كان هناك (هاري كليف).. وكانت هناك (الستري)، وهي شابة بريطانية جداً تدرس علم
النفوس، وقيل إن لديها طاقات نفسية خارقة.. وقد اعتقدت لفترة إنني أهيّم بها حباً ثم قدرت أن
هذا يعود للشفقة لا أكثر.. معظم المجموعة كانوا من أساتذة الجامعة أو الدارسين.. بعضهم كان
مقتنعاً بما يفعل، والبعض الآخر كان يجرب بعقلية متعادلة..

حكيت لك قصتي مع الأخنتين اللتين كانتا تحدثان صوت دقات.. لكني اليوم أحكي عن زيارتي
لجنوب البلاد.. بالتحديد في (ولنتشاير) على بعد 18 كيلومتراً شمالي (سالزبوري)...

كنا هناك في السهل تحت السماء الرمادية.. منذ طفولتي تجعل هذه السماء الرمادية أمعاني
تتقلص.. البرد.. صوت الريح.. ثم ذلك الشكل الحجري العجيب..

لم يكن المكان منعزلاً.. في الواقع كان أقرب إلى السيرك بكل هؤلاء السياح.. وحيث تجد
السياح تجد تلك الخيام وسيارات الفان و(الأكشاك) التي تبيع التذكارات والماء والمرطبات..
لهذا صدر عام 1978 قانون يمنع العامة من الدخول إلى مركز الموقع الأثري، لأن هذا الأثر
العظيم موشك على التحول إلى فتات.. يبدو أن هواية الكتابة على الآثار أو سرقة قطع منها
ليست مصرية فحسب.. لكننا بالطبع كنا مستثنين من هذا المنع لأن بيننا علماء..

أنا قادم من بلاد الأهرام.. من بلاد أبي الهول.. أعتقد أن كل حجر يخفي تحته أثراً عظيماً
عمره أربعة آلاف عام، لهذا لم أكن مستعداً لأن أتحمس لهذه التشكيلة العجيبة من الصخور..
وقد بدا لي حماس هؤلاء القوم سخيلاً..

قال لي (ماتيسون) وهو يشير إلى الكاميرا المعلقة من عنقي:

"هل حقاً لم تحرك الـستونهنج Stonehenge شهيتك لالتقاط بعض الصور؟"

"حاضر.."

وأخرجت الكاميرا التي ليس فيها فيلم ورحلت ألتقط عشرات الصور لهذه الصخور.. عليك.. عليك..

ثم أن (ماتيسون) نظر إلى (الستري) وسألها:

"أنت لم تأتي هنا قط.. أليس كذلك؟"

"نعم.. هذه أول مرة أرى فيها هذه الأحجار رأي العين.. إن انتقالي عسير كما تعرف"

هذه الصخور يمتد عمرها إلى العام 2000 قبل الميلاد.. من حولها ترى ذلك الخندق الدائري الذي يفصلها عن باقي معالم الوادي.. أشكال حجرية غريبة شيدتها الإنسان في هذه العصور الغابرة.. لأقربها لذهنك تصور أنها حرف U اللاتيني مقلوباً.. في البدء كان الخندق وبه 56 حفرة للدفن.. اكتشفها عالم يدعى (أوبري)، لذا أطلقوا عليها اسم (حفر أوبري).. ثم ظهرت تلك الصخور المتراسة في دائرة مزدوجة.. ثم ظهرت تلك الصخور العرضية التي تربط التكوينات..

إن ال- Stonehenge لغز آخر من ألغاز الكون.. فصل محبب في أي كتاب يحكي عن الأسرار الغامضة.. الأهرام.. أهرام الأزت.. الستونهنج.. كهوف تسيلي.. رجل الثلوج المخيف.. الخ..

عندما دنا الظلام قال (ماتيسون) للفتاة أن تتقدم إلى وسط الدائرة.. طلب منها أن تركز وان تتخيل ماذا كان يحدث هنا في عصور غابرة..

كانت هذه هي التجربة... لقد كانت (الستري) تتمتع بقدرات نفسية غامضة، وكانت تستطيع أن تعرف أشياء كثيرة عن الجسم الذي تلمسه..

أغمضت (الستري) عينيها ولمست بأناملها أحد الأحجار.. ثم همست:

"أراهم جميعاً هنا.. إنه الليل والقمر يتوسط السماء.. أرى الرجال يتقدمون إلى هنا.. أراهم يقتادون عذراء جميلة إلى الصخرة العرضية.. إنها ترقد فوقها... الكاهن يحمل سكيناً.. يتعالى الإنشاد.. يهوي على عنقها.... الدم يسيل.. يلوث الصخر.."

كان أداؤها يتعالى وصدرها يعلو ويهبط شأن من هو موشك على حالة هستيرية..

"بعد هذا جاءوا بالأطفال.. إنهم يكررون ما قاموا به.. لا.. ليس الأطفال.. لا!"

ودفنت وجهها بين يديها وراحت تبكي.. نظرت إلى البروفسور فوجدته يفكر في عمق، ثم أعلن ان علينا أن ننهي التجربة.. قال احد العلماء في حماس:

"لقد نجحنا!... لقد عرفت (الستري) بحاستها لغز هذه الأحجار.. كانت الأضحيان تقدم هنا في العصور الغابرة.. كان الدرويدون يمارسون ديانتهم هنا"

والدرويدون هم سكان إنجلترا القدامى من قبائل (الكلت).. لم يتكلم (ماتيسون) بل بدا عليه نوع من الهم..

وفي لوبي الخان الذي نبئت فيه، قال لي:

"تجربة فاشلة.."

"ولم؟.. الفتاة حكّت قصة غاية في الاكتمال.."

"هذه هي المشكلة.. قصة متكاملة أكثر من اللازم.. لم تقل شيئاً إلا ما قاله عالم آثار من القرن السابع عشر اسمه (ستوكلي).. لقد درس هذه الصخور ثم قال إنها كانت مكان أهوال لا توصف كانت تحدث في منتصف الليل في عصر الدرويديين.. طبعاً هذا كلام فارغ لأن الدرويديين لم يظهروا في إنجلترا إلا قبل ميلاد المسيح بمائتي عام.."

"وهذا يعني..."

"يعني إنها لم تر شيئاً.. إن عقلها الباطن يعج بقصص من هذا النوع.. وهي قد رأت ما في عقلها الباطن لا أكثر.."

ثم أضاف وهو يصب لنفسه بعض الشراب:

"ما زال هذا الستونهنج لغزاً.. لماذا شيدوه؟.. من فعل هذا؟.. بأية معجزة تمكنوا من رفع هذه الأحجار الضخمة؟.. نفس ما يقال عن الهرم الأكبر مع فارق الحجم طبعاً.. المشكلة أن من يدرسون هذا الأثر فريقان.. فريق من علماء الآثار الذين يجهلون كل شيء عن علم الفلك، وفريق من علماء الفلك الذين يجهلون كل شيء عن علم الآثار.. علماء الفلك - وعلى رأسهم (جيرالد هوكنج) - يؤمنون أن هذه الأحجار أجهزة رصد غاية في التعقيد.. وقد أطلقوا عليها اسم (الكمبيوتر الحجري).. هذا الكمبيوتر له وظائف دينية وسياسية مهمة لدى الأقدمين.. لكن هذه النظرية يدحضها علماء الآثار.. لو كان ستونهنج مرصداً لكان من الواجب ألا تحيط به أية أشجار، بينما برهنت الحفريات على أن المنطقة كانت غابة كثيفة في الماضي البعيد.."

نمت في غرفتي نومًا عميقًا بلا أحلام، لكن الهاتف أيقظني عند منتصف الليل.. كان هذا (ماتيسون) يقول لي:

"(الستري) ليست في غرفتها.."

"كيف؟.. إن هذا مستحيل"

"الأدهى أنه لا يوجد مكان تذهب إليه هنا.. قال لي موظف الاستقبال إنها غادرت الفندق في ثياب غريبة يقتادها شاب أشقر طويل الشعر.. هل تعرف فيم أفكر؟.. أفكر في الستونهنج.."

كانت هذه الكلمات كافية كي أرتدي ثيابي وألحق به في اللوبي..

وفي الليل البارد مشينا نلهث.. لقد بدأ المطر ينهمر لكنه ليس كثيفاً لحسن الحظ..

من بعيد نرى الستونهنج.. الوحوش الصخرية الغامضة التي تجثم هناك منذ أربعين قرناً.. تعرف كل شيء ولا تتكلم أبداً.. لكن هناك شيئاً غير معتاد في المكان.. لا أعرف ما هو لكنه موجود..

فجأة تصلب (ماتيسون)..

كانت هناك تقف بين الأحجار العملاقة كأنها دمية بين الغيلان.. بالفعل كانت تلبس ثياباً

غريبة.. أقرب إلى جلاباب أسود طويل.. وكانت ترقص.. ترقص بلا لحن نسمعه، لكنه رقص موقع جداً حتى انك توشك على سماع اللحن الذي تسمعه هي..

قلت هامساً:

"لقد جنت.. التجربة قد زعزعت استقرارها النفسي.. ثم كيف يمكنها أن...؟"

"ش ش ش ش!"

فجأة عرفنا أننا لسنا وحدنا.. كان هؤلاء القوم يخرجون من الظلمات.. كلهم يلبس ذات الثياب العتيقة.. لم تكن هناك مشاعل لأن القمر كان مكتملاً وإن جعلت الأمطار الرؤية عسيرة فعلاً.. لكن اعتقد أنهم كانوا حوالي أربعين..

كانت ترقص.. بينما التفوا من حولها.. ثم أنها رقدت على صخرة جاعلة وجهها للسماء.. همست في رعب:

"ماذا يحدث؟.. إنها تكرر ذات المشهد الذي رأيته!"

لكن (ماتيسون) ضغط على ذراعي في قوة ليسكنتي.. كدت أثب من مكاني لأمنع المشهد الذي أتوقع أنه سيحدث.. نائمة وعنقها مكشوف.. فماذا يعني هذا؟

إنهم يتكلمون لكني لا أفهم حرفاً.. يهمس (ماتيسون) وهو يرتجف:

"إنها لغة الكلت القديمة!.. يقولون إنها كاهنتهم العظمى التي عادت لهم.. يقولون إنهم سعداء بعودتها وإنهم ينتظرون الوقت المناسب لتقديم الأضحية!.."

الأمطار تنهمر أكثر.. وهي تنهض من جديد لترقص حول الستونهنج.. لو رأى السياح هذا المشهد لجنوا طرباً.. لكن لا يراه سواي أنا و(ماتيسون)..

كانت (الستري) ترقص.. ترقص.. ترفع يديها.. ترجع رأسها للخلف.. تغمض عينيها.. تمشي في تودة كأنها راقصة باليه.. بضع خطوات.. ثم تعاود الرقص... تنتشي.. تضحك..

إنها تشير نحونا حيث توارينا بين الأطلال.. تشير لنا لا شك في هذا..

قلت:

"لقد رأونا!.. أعتقد أنني أعرف من هو القربان الأول لهم!"

ونهمزت لأفر.. هنا سمعت (ماتيسون) يقول بصوت عال:

"كان من الواجب أن تأتي هنا ليلاً.. تأتي بكامل ارادتك.. هذه هي التقاليد.."

"عم تتكلم؟"

"لقد كان (ستوكلي) على حق، وكذلك (هوكنج)... الحقيقة أن طقوساً مربعة كانت تحدث هنا، لكنها أعقد مما تتصور.. وهي تمت لعهد يسبق الدرويديين بآلاف السنين.. لقد عادت هذه الطقوس للحياة على أيدينا.. ألم تفهم بعد يا أحمق أي مأزق وقعت فيه؟!!!!"

وفي اللحظة التالية كان يتشبث بساقي وهو يصرخ منادياً هؤلاء القوم، ومن بعيد دوى صياح (الستري):

"عليكم به!"

ركلت وجهه في جنون.. فهو ضئيل الحجم يسهل أن تتخلص منه، ثم أطلقت ساقي للريح بينما هؤلاء القوم يزومون ويصخبون وهم يقطعون المسافة التي تفصلهم عني.. أركض تحت هذه النصب الحجرية المخيفة وقلبي يتواثب بين الضلوع..

أركض.. أركض.. وفي النهاية بلغت الخان وقلبي يوشك على أن يكف عن العمل نهائياً.. استطعت أن أغلق باب حجرتي علي ثم أدت الطبيعة عملها وفقدت وعيي.. وفقدان الوعي صار نعاساً حتى الصباح..

عندما فتحت باب حجرتي وجدت (ماتيسون) واقفاً إلى جوار (الستري) وهما غارقان في الضحك.. وقال في خبث:

"لقد كان منظر ك مسلماً أمس.. مجموعة ممثلين وجو موج.. هذا كان كفيلاً بجعلك تركض كالأرانب.. لقد كانت دعاية عملية قاسية لا أكثر.."

"كنتما مقتنعين أكثر من اللازم.."

"لو لم نكن مقتنعين لما كانت الدعاية بهذه البراعة.."

هنأتهما على هذه التمثيلية، ثم طلبت ان يمهلاني بعض الوقت حتى أغسل وجهي وأستعد للإفطار.. على أنني فور انصرافهما أعددت حقيبتني على عجل ، وغادرت الخان من دون كلمة واحدة، ومن دون أن أعرج على قاعة الطعام..

كانا يمزحان.. انا مستعد لفهم هذا.. فقط لو فسر لي أحدكم شيئين: أولاً متى نبتت هذه الغابة الكثيفة من الأشجار التي رأيتها ليلة أمس حول الأحجار؟.. أقسم أنها لم تكن موجودة صباح أمس عندما كنا هناك، وهي التي منحنتني ذلك الإحساس الغريب بأن هناك شيئاً مختلفاً..

الشيء الثاني هو رقص (الستري) البارع.. كيف ترقص (الستري) وهي مشلولة لا تنتقل إلا على مقعد متحرك؟

ساحر الماء

قريتي تعرف جيداً الشيخ (عبد الرازق)..

منذ طفولتي كان الشيخ (عبد الرازق) موجوداً ، ومن الواضح أنه سيظل هناك أبداً حتى بعد ما نموت نحن.. هذا الطراز من المسنين لا يموتون بسهولة.. إنهم قد عقدوا مع الموت صداقة وحلفاً منذ عقود..

هناك كنت تراه.. جوار جدار الكتاب المتداعي، يجلس منهمكاً في خياطة شيء ما.. يضم حبات مسبحة ما.. جواره ذلك الكيس الخيشي الذي لا يعرف أحد أبداً ما يحتويه، لكنك على الأقل ترى علبة المعسل الذي يلوكه طوال الوقت.. وجواره العصا المشقوقة الشهيرة التي تشبه حرف Y اللاتيني..

باختصار كان الشيخ (عبد الرازق) يحمل كل المواصفات التي يعتبرها الريفيون (بركة).. لم يكن أحد يعرف متى يظهر ولا متى يختفي.. فقط تراه جوارك يردد:

"قيوووووم!"

بصوت ممطوط طويل غنائي.. ثم يروح يردد:

"الله.. الله"

مالئاً بها فمه متلذذاً بحرف اللام المفخمة..

في المقابر كنت تراه.. في المآذب كنت تراه.. عندما تهرع القابلة لتغيث أم عباس التي جاءها المخاض كانت تراه على الباب..

حتى في هذه السن الصغيرة كنت أشعر بانه شخصية أدبية ساحرة.. هات (يحيى حقي) و(يوسف إدريس) و(مارك توين) و(ماكسيم جوركي) وامش بهم في قريتنا.. سوف يتوقفون جميعاً أمام الشيخ (عبد الرازق) لأن عينهم الحساسة لن تتركه..

إلا ان أهمية الشيخ (عبد الرازق) كانت تتضح بشكل خاص عندما يرغب أحدهم في البحث عن شيء ضاع منه. عندها كانوا يجلبونه ويقفون في احترام بينما يتقدم هو نحو المنطقة التي عليه أن يفحصها.. يفرد قامته ويردد بعض الأدعية الغامضة ثم يرفع عصاه ممسكاً بفرعها، تاركاً طرفها الآخر يتدلى قريباً من الأرض.. يمشي بضع خطوات مترددة.. قدماه المشققتان تضربان الغبار ضرباً.. شفتاه ترتجفان كأنما التيار الكهربائي يسري فيهما..

فجأة تهتز العصا..

فجأة يتوقف حيث هو ويراقب الاهتزاز ليتأكد إن كان أصيلاً أم لا.. يتدلى الطرف الحر نحو الأرض.. يتوقف ويقول في وقار:

.. "هنا!"

ثم ينقض على الغبار يحفره بأظفاره التي توشك أن تكون مخالب.. وسرعان ما تتبدى لأعيننا لفافة ما.. أو الشيء الذي فقدته صاحبه..

كان الفلاحون يهللون ويجزلون له العطاء، وسرعان ما يركض صبي إلى البقال (عزت) ليبتاع بعض علب المعسل وكيلوجرامين من السكر وبعض الشاي..

من حين لآخر كانت القرى المجاورة ترسل في استدعاء هذا (الخبير الفني) للبحث عن شيء ما.. وكان ينجح دومًا.. على أنه كان يقوم من حين لآخر بالبحث عن أماكن المياه إذا أراد أحدهم دق (ظلمبة) في هذا المكان بالذات..

كانت عصاه لا تخطئ.. وكان مصدر فخر دائم وتهيب في قريتنا..

كان هذا في الماضي.. غير إنني لم أعد ابن القرية كما تعرف.. تركتها وتعلمت في العالم الواسع، لكنني لم أزل أذكر الرجل وأندesh بشدة لقدراته تلك..

في العالم الغربي رأيت فيما بعد ذات المشهد كثيرًا... الرجل الذي يحمل عصا مشقوقة لسان ثعبان يفتش بها عن بئر ماء.. عرفت أن هذا نوع من السحر معروف ومشهور جدًا عندهم.. لكنني قدرت على كل حال أن الصدفة تلعب دورًا لا بأس به في هذا كله..

في تلك الأمسية كنت في دار د. (مصطفى) أستاذ علم النفس.. هلم!... أنت تذكره بالتأكيد.. لقد كانت لي معه قصة أو قصتان في هذا الباب بالذات..

كنا نتكلم عن القدرات الخارقة، فحكيت له عن هذا العجوز.. ظل يصغي لي في اهتمام وعيناه تتسعان في كل ثانية.. فلما فرغت سألتني:

.. "هل هو ما زال حيًا؟"

.. "على قدر علمي نعم.."

كان د. (مصطفى) واسع الثقافة.. وله اهتمام بالغ بعلم الأنثروبولوجي، كما كان مهتمًا بالحضارات القديمة باعتبارها تمثل نوعًا من العقل الباطن عندنا.. إن دراساته عن (فرويد) و(يانج) وميلاد العصاب جعلته مهتمًا بهذه الأمور بشدة..

نهض إلى مكتبته العامرة فالتقى كتابًا سميًا تصفحه ثم قال:

.. "أنت تتحدث عن سحر الماء أو الـ dowsing.. في هذه الطريقة السحرية يستعمل أحدهم عصا أو قضيبًا للبحث عن الماء تحت الأرض أو المعادن النفيسة.. هنا يستعمل ممارس هذا السحر أساليب خفية للوصول إلى أجسام مادية.. هناك طريقة أخرى هي استخدام الخرائط.. هؤلاء تضع أمامهم خارطة وهم يحركون البندول فوقها حتى يبدأ الاهتزاز.. تكون هذه علامة على وجود ما يبحثون عنه هناك.."

ابتسمت في سري وقد تخيلت الشيخ (عبد الرزاق) يرفع بندولاً فوق خارطة.. سوف يعتبرك مجنونًا أو رقيقًا لو طلبت منه شيئًا كهذا..

أردف د. (مصطفى):

"من يؤمنون بهذه الظاهرة يتحدثون عن القوى الكهرومغناطيسية التي تحدثها المياه تحت الأرض.. هذه القوى تتسرب لعضلاتهم فتجعل العصا تهبط.. هذا قد يفسر البحث عن الماء لكنه لا يفسر البحث عن الكنوز أو البحث على الخرائط.. أما من لا يؤمنون بهذه الظاهرة فيقولون إنها حركة عضلية.. أو فكر - حركية ideomotor action تتم بوساطة عقل الساحر.. أي إنه مقتنع بما يفعله ولا يعتمد خداعك، لكن عضلاته تفعل ذلك..."

قلت في شك:

"لكن هذا لا يمنع من أنهم يجدون أشياء فعلاً"

"ليس تمامًا.. عام 1949 أجريت في أمريكا تجربة شاملة على عدد من هؤلاء السحرة.. حوالي 27 منهم.. وقد فشلوا فشلاً ذريعاً في العثور على الماء في حقل.. بينما استطاع عالم جيولوجيا أن يجد الماء في 16 موضعاً في الحقل ذاته.. هذا يلخص مقولة: كذب المنجمون ولو صدقوا.. لكن هناك تجربة أخرى هي تجربة (شوينن) التي تمت في ألمانيا عام 1987.. أجريت على 500 ساحر ماء.. اسم التجربة (شوينن) ومعناها (الجرن) والسبب أنها تمت في جرن قرب ميونيخ.. وقد بينت أن هناك جانباً من الصدق في القصة.. أنت تقدم لي الآن ساحر ماء مصرياً ومن قريتك.. (محفوظ).. يجب أن أرى هذا الرجل.."

قلت في غيظ:

"أنت لا تتوقع مني أن آخذك لقريتي في هذا الوقت بالذات.. أنا مشغول.. ولست متأكداً من أن الرجل حي..ثم...."

"الآن أنت تعرف ما أريده منك!.. لقد وفرت علي عناء السؤال!"

هكذا وجدت أنني منطلق بالسيارة إلى قريتي في ظروف غريبة جوار عالم أصلع متحمس.. عند العصر وجدنا الشيخ (عبد الرازق) كما هو جوار جدار الكتاب المتداعي الرطب.. يمضغ التبغ ويردد بصوت ممطوط طويل غنائي:

"قيوووووم!... الله.. الله"

مالئاً بها فمه متلذذاً بحرف اللام المفخمة..

لم يكن قد تقدم في السن.. كيف يتقدم في السن من يبدو منذ مراهقته كأنه في التسعين؟..

كان (مصطفى) قد أعد الاختبار من قبل كما يلي: نحن نملك قيراطين قرب الساقية القديمة.. تجول هناك قليلاً وعد الخطوات معتمداً على ناطور غرسناه هناك.. ثم نزرع ساعته الذهبية وحفر لها حفرة، ثم دفنها فيها بعد ما لفها في كيس بلاستيكي..

صحت محتجاً أن هذه مخاطرة.. الساعة ثمينة بالفعل.. لكن (مصطفى) قال لي في ثقة:

"إما أن يجدها فتعود لي.. وإما لا يجدها فتظل حيث هي لأستخرجها أنا.. لاحظ أنه لا أحد يعرف مكانها سوانا"

عندما فتح الشيخ عينيه الرماديتين، وحينما بدا أنه يتذكر أبي، دسست في يده علبتين من المعسل وهي اللغة الوحيدة الي يجيدها وقلت له إننا بحاجة له.. هذا صديقي من القاهرة.. د. مصطفى..

سأله بصوت واهن:

"دكتور؟.. هل معك علاجات للمفاصل؟"

قلت ضاحكًا:

"ليس دكتورًا بالمعنى الذي فهمته.. فقط نحن في حاجة إليك لتساعدنا في العثور على ساعته الذهبية التي فقدتها في أرضنا.. إنها باهظة الثمن فعلاً"

هكذا نهض معنا الشيخ حاملاً عصاه الثمينة.. وسألني عن اسم أبي ألف مرة.. فكننت أجيب وأؤكد له إنه مات.. سرعان ما ينسى هذا بعد ثلاث دقائق..

أخيرًا وقفنا في أرضنا.. قلت له إن هذا هو المكان وإن له الحلوان لو وجد الساعة..

راح يردد أدعيته الغامضة ثم رفع عصاه بتلك الطريقة التي رأيتها ألف مرة وراح يدور في الحقل منتظرًا الإشارة.. أو ربما منتظرًا أن يتولى عقله الباطن الموضوع..

مرت عشر دقائق وهو يروح ويجيء.. لم يقترب قط من موضع الساعة..

نظر لي (مصطفى) نظرة ذات معنى.. واضح انه سيفشل..

أخيرًا دار الشيخ حول جدار متداع في ركن الأرض.. بقايا غرفة كان خفير يقيم فيها يومًا ما، ووقف هناك.. لقد هبط طرف العصا في هذا الموضع.. كان هذا واضحًا..

صاح بصوته الواهن:

"هنا يا ابن... قلت لي ما اسم أبيك؟"

لم أرد.. فقط مشيت إلى حيث كان يقف وحيث كانت العصا تشير، وقلت في هدوء:

"لا أعتقد أن عصاك صدقت هذه المرة يا عم الشيخ.."

"عصاي لا تكذب!"

قالها في لوعة وحرارة.. فجثوت على ركبتي وأزحت بعض الغبار.. طبعًا ليس هذا هو المكان ولا يمت له بصلة.. فقط أردت التأكد من انه لا يوجد شيء ثمين آخر هنا..

كان الرجل مصرًا في عناد على أن هذا هو المكان، بينما أصررت أنا علنانه لا يوجد شيء.. دنا مني (مصطفى) وقال همسًا:

"الأمر واضح.. لقد فشل مثل سحرة (مين)... لكنني أريد أن نجربه في شيء آخر غدًا.."

قلت للشيخ إننا سنرحل، لكنه راح يؤكد أنه لن ينصرف قبل أن يجد الشيء وينال الحلوان.. قلت لمصطفى همسًا:

"يبدو أنه لا جدوى من استرداد الساعة الآن.. هي في أمان على كل حال.."

وابتعدنا تاركين الرجل يواصل التنقيب في الأرض..

كانت ليلة هادئة بات فيها (مصطفى) في دارنا وأكل كثيرًا جدًا، مما يدل على أن العلم لم يأخذ كل شيء منه..

في الصباح الباكر قال لي إنه راغب في استرداد الساعة.. واضح أنه سيرحل وقد اكتفى من البحث العلمي بكل ما أكله من بط وفطير مشلتت..

هكذا ذهبنا إلى الأرض.. وعددنا الخطوات إلى أن وجدنا مكان الساعة.. استخرجها من كيسها ولبسها، ثم سألتني عن موعد تناول الإفطار.. فهو لا ينوي العودة إلى القاهرة (على لحم بطنه)..

قلت له:

"ما زلت لا أفهم سبب فشل الشيخ (عبد الرازق)، ولا لماذا أشارت عصاه إلى ذلك الجدار القديم"

قال ضاحكًا:

"ربما وجدت كنزًا تحت الجدار.."

مشيت نحو الجدار المتداعي ووقفت أرقبه قليلًا.. ثم تصلبت.. لقد رأيت القدمين المشققتين من ورائه.. درت حوله لأجد الشيخ (عبد الرازق) نائمًا على ظهره.. لا لم يكن نائمًا.. كانت عيناه تشخصان إلى السماء.. ولم يكن يتنفس..

هاهو ذا الكيس الخيشي إياه جواره.. الكيس الذي كانوا يقولون إنه مليء بالكنوز..

عندما لحق بي (مصطفى) شهق في رعب وتساءل هل هو..؟.. فقلت له نعم..

ثم أضفت وأنا أغمض عيني الرجل:

"لم تكذب العصا كثيرًا.. عندما أشار طرفها إلى هذا الموضع بالذات كان يقول إن هذا هو الموضع الأخير.. نهاية رحلة الشيخ.. لقد مات وحده في هذه الحقل وهو يفتش عن ساعتك.."

قال د. مصطفى في ضيق:

"رحمه الله.. لكن العصا لم تتنبأ بشيء.. لقد وافته المنية لأن أجله حان.."

قلت وأنا أنهض:

"هل تنبأت العصا بموضع موته، أم أن الموت جاءه في الموضع الذي أشارت له العصا..؟.. هذا سؤال سفسطائي ملتبس حول نفسه ولن نعرف إجابته أبدًا.. فقط أعرف أنني لا أحب سحر الماء هذا.. وأتمنى لو لم أصغ إليك... هل استرددت ساعتك؟.. إذن تعال نخبر أهل القرية بوفاة الشيخ (عبد الرازق).. ساحر الماء الذي فشل في مهمته الأخيرة"

غير المدعو

"لا يا دكتور (مسعود).. صدقني لن أطيل عليك..

أعرف أنك مشغول.. أعرف أن وقتك لا يسمح.. انت من هؤلاء القوم الذين يتلذذون بأن يشعروا الآخرين بأنهم غير مهمين.. أذكر ما كتبته د. (عادل صادق) أستاذ الطب النفسي الشهير عن أن الناس يمارسون لعبة (أنا بخير – أنت لست بخير) طيلة الوقت.. ومن ضمن أساليب هذه الطريقة أن يتظاهر المرء بالانشغال طيلة الوقت كأن الآخرين تافهون يملكون كل الوقت..

لكني أرجوك أن تصغي لي بعض الوقت، فأنا مذعور وقلق ومتشكك..

متى بدأت القصة؟.. ربما منذ شهر أو شهرين..

أنت تعرف أنني كنت بحاجة إلى تلك الجراحة التي تأخرت طويلاً... كنت أوجل ذلك اليوم على أمل أن أجد نفسي شفيت تلقائياً، ثم صار الأمر لا يُطاق.. هكذا دخلت المستشفى الخاص الذي تملكه وبدأت أستعد لذلك اليوم..

أنت تعرف أن فصيلة دمي غريبة وغير شائعة، لذا طلبوا مني أن أستعد ب لتر دم من ذات الفصيلة، وقد استطعت تدبيره على كل حال..

أحضرت اللتر الثمين وتأكدوا من أنه خال من داء الإيدز والتهاب الكبد (سي)، وفي ليلة الجراحة جلست وزوجتي مهمومين ننتظر.. أخبرتها بما تفعله غداً إن لم أعد للحياة بعد الجراحة، وهو احتمال وارد جداً..

في الصباح ذهبت لحجرة الجراحة حيث الكل يركض ذات اليمين واليسار، ولا أحد يعبا بي.. فقط رائحة الكبريت هذه تضايقتني.. كنت هناك تلبس ثياب الجراحة وقد وضعت ذلك المنظار الأنفي الذي يغنيك عن وضع العينات، وبدوت وقتها كأحد سادة الجراحة في كتب الطب.. قلت لي بتلك الطريقة العجول:

"مستعد؟... جميل.. جميل.."

وأشرت إلى مساعدك د. (عصمت) كي يعد كل شيء، ثم دخلت إلى غرفة الانتظار.. د. (عصمت) طبيب شاب ممتقع الوجه دوماً نحيل بطريقة غريبة، له رقعة شعر قبيحة المنظر في عنقه.. ومنذ عرفته لم أشعر براحة لمراه.. هنا جاءت ممرضة مذعورة تقول:

"الدم الذي أحضره ليس في الثلاجة!"

"ماذا؟.. هل أخذه أحد؟"

"هذا واضح!.. لقد سرق من الثلاجة ولا أحد يجد تفسيراً.."

ساد صمت رهيب، ثم نظر لي د. (عصمت) وقال في شيء من الخجل:
"-معذرة.. لا نقدر على إجراء هذه الجراحة الكبرى من دون دم احتياطي.. على الأقل حاول
تدبير نصف لتر لموعد مقبل"

ثم انصرف.. نظرت له وهو يبتعد وقلت للممرضة:

"-مهذب هو د. (عصمت).."

نظرت حولها ثم قالت في شيء من الحرج والرعب:

"-لا أدري.. لا أستريح له.. إنه لا يحضر إلا الجراحات الليلية.. لونه غريب جدًا.. له رائحة
كريهة.."

لم ألاحظ شيئاً غريباً، ولكن.. صبراً.. من أين تأتي رائحة الكبريت هذه؟.. شعرت الممرضة
أنها تكلمت أكثر من اللازم ففرت... شعرت بأنها أرادت التخلص من ضغط عصبي بأي شكل
ومع أي واحد..

هكذا بدا شكلي شديد البلاهة وأنا أغادر غرفة الجراحة إلى حيث تنتظر زوجتي القلقة.. قالت
في لهفة:

"-ما شاء الله.. لم أعرف أنه بارع لهذا الحد!"

قلت في غيظ:

"-لو كان من أجرى لي الجراحة فريق مكون من (الزهرابي) و(هالستد) و (الستر) و(مجدي
يعقوب)، لما انتهوا بهذه السرعة.. لقد سرق أحدهم الدم.."

هكذا غادرت المستشفى وخضت مغامرة أخرى للحصول على دم من أحد المتطوعين في
العباسية.. كان فتى تبدو عليه علامات الإدمان كلها، ويتكلم بطريقة (النبّي) في الأفلام.. غير
أن (النبّي) كان يبغى إضحاكك.. هذا الفتى كان جاداً.. اسمه (بي سالب) وقد أكد لي الجميع
إنهم لا يعرفون له اسماً آخر.. تمكنت من جعله يتبرع بنصف لتر، لكنني أوصيت المختبر بالتأكد
من أن دمه نظيف.. مع هؤلاء المدمنين يصير كل شيء ممكناً..

من جديد تحدد يوم الجراحة.. ومن جديد استعددت، ومن جديد قابلت د. (عصمت) أمام
غرفة الجراحة.. ضحك لي مشجعاً لكنني لم احب نظرته قط..

فجأة شعرت بجو عام من الارتباك.. سمعتك تصرخ يا دكتور (مسعود):

"-أنتم تمزحون!! لو كانت التسلية هدفكم فاعلموا أن وقتي لا يسمح بهذا!!"

وسمعت من يقول:

"-هناك أكياس كثيرة سرقت من الثلجة.. لا نعرف كيف ولا متى.. هذه مسئولية المختبر..
على كل حال الدم الذي جلبه هذا المريض سرق قبل أن يفحص..."

ومن جديد عاد د. (عصمت) يقول لي مواسياً:

"فعلاً لا نعرف سبب هذا الحظ السيئ.. على كل حال (كل تأخيرة ولها خيرة)..."

لكني كنت على وشك الانفجار من فرط هذا التلاعب بوقتي وأعصابي ومالي.. هكذا تشاجرت ولعنت الجميع، ثم جمعت حاجياتي وغادرت المستشفى مع زوجتي.. لا أعتقد أنك تلومني يا د. (مسعود).. أنت نفسك كنت في حالة ثورة غير عادية..

على الباب اعتذر لي موظف الاستقبال وقال:

"في المختبر أصابهم الذعر.. الفنيون والمرضات يتحدثن عن رؤية وطواط في المختبر قبل حدوث كل حادثة سرقة من هذا النوع.. هذا هراء طبعاً.. لقد مسحنا المستشفى بعناية فلم نجد شيئاً.. هذه بناية استثمارية حديثة لا يمكن أن ترى فيها شيئاً كهذا.."

نسيت كل شيء عن هذا الموضوع وغادرت المستشفى إلى غير رجعة.. وصمتت على أن أجري الجراحة في مكان آخر مع طبيب آخر.. أنا آسف طبعاً..

على أنني بالصدفة قابلت تلك المريضة التي كلمتني عن د. عصمت.. قابلتها بعد أسبوع في سوبر ماركت، ويبدو أنها تذكرتني.. أنا المريض النحس الذي يسرق دمه في كل مرة.. قالت لي عندما سألتها عنك وعن د. (عصمت):

"د. (عصمت) مريض جداً... لا أحد يعرف ما أصابه، لكنه في المستشفى منذ غادرتها أنت.. شاحب تماماً.. ويعاني حالة فقر دم متقدمة.."

كانت تبدو مسرورة لهذا.. ولم ألمها بالتأكيد..

على أنني بدأت رحلة البحث عن دم من أجل الجراحة القادمة.. ذهبت لذلك المقهى في العباسية وسألت عن (بي سالب) فقال لي القهوجي:

"إنه مريض يا بك.. يبدو أنه الإيدز والعياذ بالله!.. إنه في مستشفى الحميات الآن..!"

ارتجفت هلعاً.. هذا هو الدم الذي كنت سألتقاه في الجراحة.. لحسن الحظ أنه سُرق ورب ضارة نافعة.. صحيح أن الفحوص كانت ستثبت ذلك قبل الجراحة على كل حال، لكن الفكرة ذاتها مروعة.. تذكرت هؤلاء البؤساء الذين كان ينقل لهم الدم قبل أن يعرف الطب مرض الإيدز، وفي الوقت ذاته كان المرض موجوداً.. هؤلاء كان نقل الدم لهم حكماً بالإعدام..

هنا خطرت لي فكرة مرعبة.. هناك طبيب غريب الأطوار لا يعمل إلا ليلاً يدعى (عصمت).. هذا الطبيب شاحب جداً.. طبيب تصدر عنه رائحة كريهة كرائحة الكبريت، وله رقعة شعر غريبة في عنقه.. هذا الطبيب تتكرر سرقات الدم من ثلاجة المستشفى فقط عندما يكون موجوداً.. وطواط في المختبر قبل سرقة الدم.. سرقت عينات الدم الخاصة بـ (بي سالب) هذا، وبعدها مرض د. (عصمت) مرضاً لا يعرف أحد كنهه.. لم يعرف أحد أن (بي سالب) مصاب بالإيدز إلا متأخراً جداً.. فما معنى هذا؟

ماذا لو شرب مصاص الدماء دماء رجل مصاب بالإيدز.. فرضية ثورية حقاً.. كان مصاصو الدماء سعداء الحظ قبل ظهور الإيدز أما اليوم فهم في مشكلة.. من المنطقي أن يمرض.. ويبدو أن المرض لا يتصرف مثل الوباء العادي الذي يدمر الجسد ببطء على مدى عدة أعوام.. يبدو

أن الاستجابة سريعة جدًا هذه المرة..

هل تتابعني يا دكتور (مسعود)؟.. أعرف أنني أهذي.. أعرف أنني أخرف.. لكنني طلبت منك منذ البداية أن تتحملني..

لقد قرأت الكثير عن مصاصي الدماء بعد هذا.. عرفت أن أساطيرهم تبدأ منذ عصر الفراعنة مع (سحمت) المخيفة التي لها رأس لبوءة.. بعد هذا نجد مصاصي الدماء بقوة في الأدبيات البابلية والأشورية.. لاميا.. لاماستو.. ليليث العبرية.. الأخوات إمبوسي.. الهامة عند العرب.. كلهن الشيء ذاته... في كل الثقافات السامية سوف تجد ذلك النموذج.. إنها موجودة في الأساطير البابلية.. الأشورية.. العربية.. العبرية..

لفظة Vampire ذات أصل سلافي.. إن أهم أساطير مص الدم موجودة عند السلافيين.. تذكر دراكيولا روماني.. هناك انقسام كنسي مهم حدث عام 1054 عندما اعتنق الصرب والروس والبلغاريون العقيدة الأرثوذكسية، بينما اعتنق التشيك والبولنديون الكاثوليكية. كانت هناك مشكلة الجثث التي لا تتعفن في التربة.. هذه الجثث اعتبرها الكاثوليك جثث قديسين بينما لأسباب واضحة اعتبرها الأرثوذكس جثث مصاصي دماء.. لكن لفظة Vampire دخلت إنجلترا وفرنسا عندما اشتهرت قصتان مخيفتان عن (بلوجيوفيتز) و(أرنولد باول)... باحث فرنسي محترم هو (أوجستين كالميه) كتب عن مصاصي الدماء عام 1746 وأقر أنهم موجودون.. هكذا صارت كلمة (مصاص دماء) على كل لسان.. عام 1816 قدم (جون بوليدوري) قصة (مصاص الدماء) التي كرست فكرة مصاص الدماء الأرستقراطي في الأذهان. وقد استوحى الشخصية من الشاعر البريطاني لورد (بيرون).

الجانجريل GANGREL نوع من مصاصي الدماء يفضلون الأماكن المقفرة، ولهم قدرة فائقة على تغيير الشكل إلى ذئب أو وطواط.. إنهم يحبون معايشة الحيوانات الضارية لأن هذا يناسب طبيعتهم أكثر. مع الوقت ينمو لهم شيء حيواني مثل عين القطة أو الفراء أو أذن الوطواط.. هل يذكرك هذا بشيء؟

قالوا في الغرب أنه سهل عليك معرفة مصاص الدماء لأنه يكون الطفل السابع لأخوة من نفس الجنس.. عندما يموت وتفتح قبره تجد قدمه موضوعة في ركن التابوت..

في الهند يؤمنون أن البطيخ الذي يترك في البيت حتى يفسد يبدأ في الحركة ويتحول لكائن يمتص الدم.. قرأت عن الأساسابونسام في غانا.. الداشنافار في أرمينيا الذي يمتص الدماء من أقدام المسافرين ليلاً.. في البانيا (اللوجات).. في استراليا (يارا ما يها هو).. في بلغاريا (أوبور).... في الصين (شيانج شيه).. يخرج من جثة منتحر ويبدو بشرياً لكنك تعرفه عندما لا يتمكن من عبور الماء.. الفرايكولاكاس في اليونان الذي يأتي لدارك ويناديك بالاسم طالباً الدخول..

هل كل هذه أساطير؟..

لهذا اتصلت بك يا د. (مسعود) طالباً هذا اللقاء.. من الغريب أنك لم تطلب مني أن آتي لك.. قلت إنك ستأتي لي في داري مساء اليوم.. هذا شرف عظيم ولا يتسق مع انشغالك الدائم.. طلبت كذلك أن أكون وحدي في الدار لأن ما سنتكلم عنه سيقلق زوجتي.. هكذا رتبت أن تذهب

زوجتي والأولاد إلى بيت حماتي...

من الغريب كذلك أنك وقفت على بابي وسألتني في اهتمام:

"هل تدعوني إلى الدخول؟"

"طبعًا.. طبعًا.."

"متأكد؟"

سرني هذا التهذيب المبالغ فيه وسمحت لك.. الآن احكي لك هذه القصة وأقول بكل وضوح:
أنا أشك في مساعدك د. (عصمت).. كل شيء في هذا الفتى يوحي بأنه سارق الدم.. ومن
المؤسف أنه لا يسرقه ليبيعه بل لأغراض أخرى.. ما رأيك؟"

نظر لي د. (مسعود) وابتسم في غموض وقال:

"قد يكون (عصمت) مجرد ضحية بائسة!.. فكر في هذا مرتين!"

"لا أفهم.."

"أنت قرأت الكثير عن مصاصي الدماء.. لكن ألم تقرأ قط عن أنهم لا يدخلون دارك إلا إذا
دعوتهم؟.. فقط أردت أن أقول: لا توجد قواعد في موضوع الخوارق هذه.. لا يجب أن يحمل
(الجانجريل) رقعة فراء أو عين قط!"

ثم راح يضحك.. يضحك.. وصدره يهتز.. هنا رحت أتذكر القصة من جديد.. لماذا أصر على
أن أدعوه لداري؟.. أمر غريب بالنسبة لرجل مهم كهذا مشغول كهذا..

في لحظة كنت على الباب.. وفي اللحظة التالية كنت في الشارع برغم أننا نسكن في الطابق
الرابع.. ورحت أجري وأجري.. ويبدو أنني سأظل أجري ما تبقى لي من عمر.

حكايات لا يربطها شيء

- 1 -

(سلوى) و(عمرو)..

هي في السابعة عشرة.. طالبة جيولوجيا.. سمراء رقيقة تحب أغاني (كاظم الساهر)، وتخرج أحياناً في رحلات كليتها.. تلبس حذاء رياضياً وسروالاً من نوع (الجينز) وتغطي شعرها.. هو في العشرين من عمره.. تخرج في كلية الألسن.. له مظهر رياضي برغم أنه يؤكد أنه لم يلعب أية لعبة في حياته..

هو يحبها كثيراً.. هكذا قال لأصدقائه.. هكذا قال لي.. والسبب في هذا الاعتراف أنه يمت لي بصلة قرابة..

قلت له في حكمة كنيبة:

"الحب ينتهي دوماً بالفراق أو الزواج.. ثقب أن هذه اللحظات لن تدوم لذا حاول أن تنعم بها.."

قال لي في تفاؤل:

"لا تؤاخذني يا د. (محفوظ).. أنتم من جيل فشل في الحصول على ما تمناه.. ظللتكم تراقبون الكون في اشتهاً وشغف وخوف حتى رحل عنكم.. أما نحن فنعرف أن الحياة قصيرة.."

تمنيت أن يكون على حق، لكن الحقيقة المفزعة التي لم أخبره بها هو أننا جميعاً قلنا ذات الكلمات لمن سبقونا..

حبيبتي السمراء الرقيقة كانت تحب (عبد الحليم حافظ)، وكانت تلبس مثلما تلبس (فاتن حمامة) في أفلام الخمسينات.. تلك التنورة التي تشعر بك بأنك ترى مظلة لا فتاة.. حبيبتي كانت تقرأ أشعار شاعر شاب موهوب اسمه (صلاح جاهين) وكانت تحب (عبد الناصر)..

حبيبتي تزن الآن قنطاراً، ولديها خمسة أولاد.. وجهها تعس مليء بالإحباط والقرف.. فلا شيء يبعث البسمة في وجهها إلا انخفاض سعر الطماطم ولا شيء يجعلها تبكي إلا البصل.. زوجها مدير عام في الرقابة الإدارية.. زوجتي أنا لا تختلف كثيراً..

هذه هي الحياة.. ما إن نتذوقها حتى نجدها قد ذابت في فمنا..

(سلوى) و(عمرو) متفائلان.. أما أنا فحكيم بعيد النظر..

ثم بدأ (عمرو) يتبدل.. صار صموتاً أقرب إلى الاكتئاب.. وذبل كثيراً..

أهله فكروا في أشياء كثيرة تبدأ بالمرض وتنتهي بالإدمان.. لكنهم لم يستطيعوا أن يبرهنوا عن شيء من هذا...

قالوا إنه الفشل في الحب، لكنهم وجدوا أن (سلوى) قلقة وملهوفة مثلهم.. لقد تغير (عمرو) كثيرًا جدًا فلماذا تغير؟

إلى أن جاء اليوم الذي تأخر فيه كثيرًا جدًا في غرفته.. لم يصح من النوم حتى الواحدة ظهرًا.. قرر أهله أن يقتحموا الباب المغلق..

هناك خلف الباب وجدوه.. كأنه كان يحاول فتح الباب عندما سقط أرضًا.. عنقه ملتو بطريقة غير مألوفة وقد تصلبت قسماات وجهه.. يبدو أن موته لم يكن سهلاً أو هينًا.. الطبيب لم يستطع فهم سبب الوفاة.. فقط لاحظ نزفًا بسيطًا من إبهام قدمه اليمنى وبدا له كأن أحدهم حاول انتزاع الظفر من مكانه...

(عمرو) محظوظ.. على الأقل لم يعيش ليرى اللحظة التي تنتهي فيها قصص الحب العظيمة..

- 2 -

نظر د. (هوفمايشتر) إلى الشاب الراقد على السرير وتنهَّد.. لو كان يتقاضى ماركًا عن كل مرة يرى فيها مخبولًا لصار اليوم مليونيرًا..

كان الشاب نحيلًا له وجه طويل مع سالفين ضخمين منفوشين، حتى يذكرك بوجوه المذعوبين في أفلام الرعب. وكانت له عينان زرقاوان مخيفتان.. وكلما أخذ شهيقًا عميقًا ابيضت عيناه أكثر..

سأله د. (هوفمايشتر):

"مصر على هذا الموضوع؟"

قال الفتى:

"نعم.. أنا أتلاشى يا دكتور.. لم يعد لدي وجود مادي.. أنا أتحوّل إلى طيف.. لم يعد لي ثقل مادي ولا ظل.."

كان الطبيب يعرف هذا العرض وقد سمع هذه الشكوى مرارًا.. لكن العلاج موضوع آخر..

"ومصر على ان هذا حدث لك منذ زيارتك لمصر؟"

"نعم.. نعم.. كنت هناك مع صديقين لي في نوع من سياحة الفقراء.. لم يكن معنا مال كاف، ولكننا تمكننا من رؤية الكثير هناك.. ثم تعرفت هذا الشاب المصري المذهّب الذي يجيد الألمانية.. وقد قبل أن يكون دليلنا.."

"ثم مات.."

"نعم.. نعم.. عرفنا أنه مات بلا تفسير.. أصابنا هذا باكتئاب شديد.. لم يكن هناك الكثير مما يمكن عمله.. عدنا إلى الوطن، وعدنا نمارس حياتنا العادية.. ثم بدأت ألاحظ هذا التغير في شخصيتي"

ضغط الطبيب على زر جهاز التسجيل ليغلقه، ثم قال في صبر:

"المشكلة في المرض النفسي أن كل واحد يفترض أن حالته فريدة من نوعها.. أنا سمعت شكواك ألف مرة من قبل، ورأيي الخاص أنها حالة عارضة تلت رؤيتك لشاب مليء بالحياة يموت.. سوف أحاول علاجك ويعلم الله أن هذا لن يكون سهلاً، لكنه ممكن.. المهم أن توقن أنه ممكن.."

نهض الفتى في تثاقل.. وقف أمام المرأة الكبيرة التي يضعها الطبيب في مكتبه.. كان ظهره لها فلم ير انعكاس وجه الطبيب ولا عينيه المتسعيتين..

كان الطبيب يقول لنفسه:

"يقول إنه فقد وجوده المادي.. الآن أنا أرى في المرأة وجهي بوضوح تام.. لكني لا أرى انعكاسه برغم أنه يقف في مجالها بالضبط..!! يبدو أن هناك مجنوناً واحداً في هذه القصة.. هو أنا!"

- 3 -

ترقص (أكيجي) كما لم ترقص من قبل.. عندما تحتسي الساكي تتحرر من كل القيود.. وقد كان (جوشيدا) يراقبها كالمذهول وهي تتلوى في الضوء الأحمر القادم من لا مكان.. الأرض تهتز بالنغمات فتسري في جسدها ليهتز بدوره..

قالت له وهي تلتصق رأسها بجبينه:

"أنا أحبك.."

لشد ما تغيرت بعد تلك السياحة التي قامت بها إلى ألمانيا.. كان يتوقع أن يفقدها للأبد، لكنها عادت أشد حرارة.. خفيفة كانه لا وزن لها..

ثم ذلك الوشم الذي تضعه على كتفها.. عندما دقق النظر فيه شعر بأنه وضع هناك بالذات ليداري شيئاً آخر.. شيئاً أقرب إلى حرق كهربائي.. سألها عنه لكنه وضعت إصبعها على شفثيه بحركة ذات دلالة معناها أن يخرس..

عندما ترقص (أكيجي) يتلون ليل (طوكيو) بلون الخمر..

عينها تلمعان في الظلام.. عندما سألها عن ذلك قالت له إنها تلك العدسات الملتصقة الفوسفورية.. عدسات فوسفورية؟.. إن الموضة لن تنتهي ابداً..

(أكيجي) ترقص وتأكّل في نهم.. (أكيجي) تنام طيلة النهار وتصحو ليلاً.. (أكيجي) تهيم بك

حبًا.. (أكيجي) تريد أن تختلي بك هذه الليلة فهل ترفض؟
(أكيجي) تغيرت كثيرًا، لكن أباك كان يقول: من يضيع وقته في الأسئلة عندما تتفتح أزهار
الفرص هو شخص أحمق..
وأنت لست أحمق.. ولن تكون...

- 4 -

يقول (فيودوروف) لرفاقه:
"-في طوكيو يستحيل أن يجد المرء نفسه وحيدًا.."
في (كليف) عندما تنهمر الثلوج وعندما يتجمد بخار الماء على ياقة معطف الفراء، تشعر
بأنك وحيد حقًا.. لكن في طوكيو يستحيل أن تكون وحيدًا..
تسأله (ناتاليا) في مرح:
"-هل تشعر بندم لأنك عدت؟"
ينظر لها باسمًا ويقول:
"-مستحيل.. في النهاية هناك (ناتاليا كوبرين) واحدة.."
عندما وضع يده على كتفها بدت لها خفيفة جدًا كأنه لا وزن لها.. لشد ما هزل.. تعرف أن
الطعام الياباني مثير للاشمئزاز لكن ليس إلى هذا الحد..
تسأله:
"-ألم تهتز لوفاة ذلك الفتى الذي كان صديقك؟"
يهز رأسه كأنما يطرد الذكرى عنه:
"-بلى.. فلتأخذني مصيبة إن كنت أكذب... شاب مفعم بالحيوية يجدونه ميتًا خلف باب غرفته
بلا أدنى سبب.. فقط هناك دم غزير ينزف من إصبع قدمه الكبير.."
قال (الكسييف):
"-هذا شيء شيطاني.. في تراث الكنيسة أن الشيطان يغادر الجسد من هذا الموضع.. طبعًا
بعد ما يتلو القس صلاة طرد الأرواح الشريرة.."
قال (فيودوروف) في خبث:
"-الفتى ياباني يا عزيزي.. هناك يعبدون بوذا وأشياء من هذا القبيل.. أعتقد أنه لم ير قسًا
ولا كنيسة في حياته"

"قلت لي ما اسمه؟"

"(جوشىما).. ولا تسألني عن الاسم الكامل لأنني لا أملك ذاكرة من حديد"

- 5 -

يتمتع د. (مازورسكي) بحاجبين كثيرين يعطيانه منظرًا قوطيًا عتيقًا يتناقض مع كونه من ألمع علماء (ناسا)..

إنه جالس في قاعة المحاضرات وخلفه شاشة عملاقة عليها صورة لكوكب الأرض كما تظهره الأقمار الصناعية.. الكوكب المشاغب النزق الذي يبدو مسالمًا وديعًا عندما تراه من بعيد.. هناك عدد من علماء (ناسا) لا يقل عن عشرين يتابعون محاضراته باهتمام بالغ..

يسأله أحد العلماء:

"تونجوسكا من جديد؟"

يقول:

"لم أزع هذا.. لا أزع أن حادثة نيزك تونجوسكا تكررت.. عندنا سقط النيزك العملاق من الفضاء ليلمس الأرض في سيبيريا ثم لم يعد له وجود ولم يجد أحد أثرًا له.. لا. القصة هنا تختلف نوعًا.. هذا نيزك صغير رصدناه يقترب من ساحل البحر المتوسط منذ شهر.."

وأشار إلى جنوب أوروبا وقال:

"ربما هنا.."

وأشار إلى شمال أفريقيا وأردف:

"أو هنا.."

قال أحد العلماء:

"لقد صار بوسعنا أن نرصد النيازك بدقة بالغة.. فلا تقل لي إن احداثياتكم تقريبية.."

قال (مازورسكي):

"للأسف هذا صحيح.. هناك شهود يزعمون سقوطه هنا.."

وأشار إلى بقعة في مصر على ساحل البحر الأحمر وقال:

"لقد ذهبوا إلى هناك في الظلام بحثًا عنه.. يزعمون أنهم وجدوه مفرغًا.. كأن شيئًا كان بداخله ثم غادره.. وعندما اشرفت شمس الصباح عادوا لنفس الموضع فلم يجدوا أي شيء.. طبعًا نحن لا نصدق هذا الهراء، فقد اعتدنا هذيان الشهود والقصص المتناقضة.. ولهذا لا أقبل قصة البحر الأحمر بشكل مطلق.."

ثم أشار إلى دائرة كبيرة تحيط بشرق البحر المتوسط وقال:
"- يجب أن نراجع الإحداثيات ونعرف أين ذهب حقًا.. هذا هو عملكم وسبب طلبي اجتماعكم هنا"

سأله أحدهم:

"وماذا لو كان كلام الشهود صحيحًا؟.. ماذا لو كان النيزك يحوي شيئًا غادره وفر؟"
نظر له (مازورسكي) في غموض ثم قال:
"- عندها تكون أفضع مشكلة نقابلها هنا في ناسا"

- 6 -

تقول لي (سلوى) وهي تمتص ما بقى في كوبها من عصير ليمون:
"- هذا هو سبب بقائي ساهرة ليلتها.. كنا في ذلك الفندق في (القصير) كما رتبت لنا الكلية.. أنت تعرف أننا نخرج في رحلات كثيرة إلى البحر الأحمر.. نامت الفتيات جميعًا ووقفت في الشرفة وحدي أنظر لليل.. فجأة رأيت ذلك الشيء يهوي من السماء.. لا أدري أية شجاعة جعلتني أبقي متصلبة كما أنا بينما تلك الأشياء الغريبة تحدث.."

نظرت لها في ثبات وبعبسية سألتها:

"- أية أشياء؟"

امتصت الليمون وزاغت عيناها وبعد تفكير طويل قالت:

"- لا أدري!"

"- أنت مفيدة حقًا.."

"- صدقتي لا أعرف ما رأيت.. فقط كان غريبًا جدًا.. وعندما أفقت بعد قليل كنت في فراشي أنظر إلى السقف.. أشعر بأنني خفيفة جدًا.. كأنني تحررت من أي ارتباط مادي لي.."

ثم أشارت إلى كتفها وقالت:

"- هناك حرق غريب الشكل هنا.. لا أعرف مصدره.. فقط أخبرت (عمرو) - رحمه الله - بهذا وكان رأيه كرايك: أنا مجرد حمقاء هستيرية.. لا أعرف لماذا قال هذا.."

"- ربما لأنك مجرد حمقاء هستيرية"

مدت يدها تحت المنضدة وراحت تعبت هنا وهناك وفي النهاية فوجئت بقدمها العارية تضرب ساقي.. لقد نزعت حذاءها الرياضي لتريني شيئًا ما..

قالت وهي تضحك:

"لا أعرف إن كان لهذا أهمية ما أم هو ضرب آخر من ضروب حماقتي.. إن أصبع قدمي الكبير صار متورماً دامياً.. كأن به كائناً حبيساً يحاول التحرر.. أحياناً أشعر بأن الظفر يحاول أن يفتح كبوابة مغلقة ليخرج منها شيء ما.. ما رأيك؟"

نظرت لقدمها الكبيرة وقلت لنفسي إنها سمراء رقيقة، لكن قدمها لم تظفر بشيء من هذا الجمال.. إصبع به شيء يحاول التحرر؟.. إن السخف البشري لن يتوقف عند حد...

مسمرة!

قابلت في حياتي - كما تعرفون - عددًا لا بأس به من غريبي الأطوار.. جزء من هذا يعود لأنني فضولي جدًا مولع بمعرفة كل شيء أجهله، أو بعبارة أخرى مولع بأن أضع إصبع قدمي في أي ماء لأعرف إن كان ساخنًا أم باردًا.. الجزء الثاني يعود لأنني أنا نفسي غريب الأطوار.. الطيور على أشكالها تقع في كل مكان وزمان..

(ممدوح الفار) كان غريب الأطوار بالتأكيد.. لا أعني أنه كان يمشي عاريًا بكسرولة على رأسه (وليتنه فعل) لكنه كان معجبًا بأمور غريبة.. علم قراءة الأبراج.. الجان.. تحضير الأرواح.. الويجا..

أما عن ملامحه فلا تهكم في شيء.. لنقل إنه من طراز (أصلع - نحيل - فارع الطول - مذعور على الدوام - يصدق كل شيء).. وهو متزوج لكنه منفصل عن زوجته.. يحب أن يصف هذا بـ (الطلاق النفسي).. كان أستاذًا للفلسفة في الكلية التي أعمل بها ولن اعطي تفاصيل أكثر حتى لا تخمن من هو..

كلما تذكرت هذه القصة تذكرت تلك الآلام في ظهري والتي لم يستطع الأطباء أن يجدوا لها حلًا.. سبب تذكرتي لها ستعرفه حالاً...

كانت هناك دومًا جلسة تحضير أرواح يحضرها يوم الخميس.. وقد طلب مني أكثر من مرة أن أنضم له هناك فكنيت أعتذر.. بصراحة كانت تجربتي مع تحضير الأرواح محبطة، وفي كل مرة كنت أجدها مجرد أكذوبة معقدة.. لم يعد بوسعي أن اضيع وقتي أكثر من هذا..

على أنه ألح علي في هذه المرة بالذات.. والسبب؟

-"سنحضر روحًا فريدة من نوعها تستحق أن تشهد زيارتها.. تذكر أن صديقنا المشترك (عزمي) سيكون هناك"

قلت في برود:

-"لا تقل إنك ستحضر روح (هتلر) أو (نيرون).."

-"لا هذا ولا ذاك.. لكني لن أعطيك أي تلميح ما لم تأت.."

-"إذن لن أعرف أبدًا.. هل تعرف السبب؟"

-"لا.."

-"لأنني لن آتي مهما حاولت.."

كنت باترًا قاطعًا مما جعله يتعامل بنوع من الفتور المغناط معي..

مر يوم الخميس إياه، ولم ألقه إلا بعد ثلاثة أيام فسألته عن الجلسة فقال إنها كانت ناجحة.. لا مشكلة هنا لأن الجلسات لا تفشل أبدًا في رأيه..

مرت الأيام واتصل بي يطلبني لتجربة معينة، فذهبت له في داره.. لأن ما يقدمه كلام فارغ غالبًا لكنه مسل دائمًا.. الدار خالية تعمها الفوضى كما هي العادة لكن لديه مكتبة تثير حسد مكتبة الكونجرس ذاتها.. حياة عزاب كنيبة فعلاً من الطراز الذي تجد فيه الملاحه في الحمام والمنشفة فوق التلفزيون.. مضرب التنس القديم يستعمل كمصفاة للمكرونة كما يفعلون جميعاً..

قال لي وهو يجلس أمامي:

"ما زالت تلك الآلام في ظهرك طبعاً؟"

"أوشك أن أعتبرها ضرورة للحياة.."

جلب مقعدًا وجلس أمامي حتى تلامست الركبتان، ثم مد يده والتقط اصبعين من كفي.. مشهد عاطفي مؤثر حتى توقعت أن أسمع موسيقا (دعاء الكروان).. لذا أجفلت وجذبت كفي لكنه قال بلهجة هادئة:

"ثق بي.. وانظر في عيني"

رحت أنظر في عينيه المذعورتين المتسعيتين.. بينما راح يمرر أنامله في رفق من ذراعي إلى كتفي مرارًا وتكرارًا.. وضع يده تحت حافة ضلوعي وساد صمت طويل..

قلت له في تملل مرتاب:

"ماذا بك؟"

قال أمرًا:

"ش ش ش ش!.. اخرس من فضلك"

فخرست..

في النهاية قال لي:

"هل تشعر بها؟"

"ما هي؟"

"تلك التشنجات الخفيفة.. في ظهرك"

الحق أنني بدأت فعلاً أشعر بشيء كهذا.. لكن ما معناه؟

قال في هدوء:

"لقد زال ألم ظهرك!"

رحت أتحسس ظهري.. هذا صحيح.. لا أشعر ألمًا.. لكن ما أقوى الإيحاء!.. إن المعالجين

الروحيين يفعلون هذا وأكثر.

قال لي:

"الأمر ليس سحرًا.. فقط أنا أحاول ان أعطيك بعضًا من مغناطيسيتي الحيوية الذاتية..
الصحة هي تدفق حر للحياة عبر القنوات في أجسادنا، وعندما تنسد هذه القنوات يحدث
المرض... هنا نحتاج إلى الدنو من جسم حيواني مغناطيسي.."

بدا لي هذا الكلام مألوفًا.. هناك كلام شبيه بهذا يقال عن الإبر الصينية.. لكن الإبر الصينية
علم تمت دراسته جيدًا أما هذا الكلام فأقرب إلى الفلسفة..

قلت له:

"من علمك هذا الكلام؟"

"لا أدري.. لكنه مهم إلى درجة لا توصف"

فارقته وأنا أعرف ما سيحدث حتمًا.. سوف تعود الآلام كما كانت.. وهو ما يحدث لكل من
يتعامل مع المعالجين الروحيين سواء كانوا الخبراء الفليبيين (ماكمارا) أو الشيخ (عطوة) في
قرينك.. في البداية يغمرك الذهول والانبهار وتعتقد أنك شفيت.. بعد أسبوع تدرك أنك خدعت..

عدت أمارس حياتي إلى أن اتصلت بي زوجته بعد أسبوعين.. كان لديها رقم هاتفي طبعًا..
سألتني عنه وعن حالته العقلية، فقلت إنه ليس أكثر خبالاً من المعتاد..

قالت لي بصوت خائف:

"إنه يأكل كميات هائلة من الطعام وقد ازداد بدانة.. وقد أنزل خصلة شعر على جبينه كأنها
(قُصة).."

كنت أعرف أنهما منفصلان تقريبًا، فلماذا لا تتركه في حاله؟.. إن هي إلا حالة مراهقة
متأخرة.. ثم أنه نحيل جدًا وسوف تفيد بعض البدانة..

قالت لي في توتر:

"زارني الأسبوع الماضي وهو يحمل بعض البقالة متلطفًا، وأصر على أن آكل وجبة كبيرة
من رقائق القمح باللبن.. أنا لا أحبها.. وهو لم يأكل معي.. فقط شعرت بنعاس عميق.. عندما
صحوت من نومي فجأة.. هل تعرف ما كان يفعله؟.. كان يثبت على جسدي عددًا من قطع
المغناطيس الصغيرة.. قطع في حجم الظفر.. وقد أصابني الهلع من هذا الجنون فصرخت فيه
وطردته."

"كان عليك الانتظار حتى يفسر الأمر.."

"لم يفسر.. لكنني أشك في رقائق القمح هذه.."

قلت لها في شيء من الخبث:

"لأن رقائق القمح من المصادر الثرية جدًا لبرادة الحديد.. إنها سامة فعلاً لكن الآباء

المخابيل يصرون على شرائها لأطفالهم، ومعنى هذا أن زوجك أطعمك في تلك الليلة كمية وافرة من برادة الحديد، ثم راح يثبت مغناطيس على جسدك!"

"ولماذا يفعل هذا؟.."

"وكيف لي أن أعرف؟.. إن للناس هوايات غريبة.. ربما كان تثبيت المغناطيس على جسد امرأة ابتلعت حديدًا أمر مسل.."

ثمة شيء مألوف في هذا كله..

في مكان ما في زمن ما قرأت عن تجربة مماثلة لهذه.. لكن أين ومتى؟

وعندنا انفردت بنفسي في مكتبي، رحت أقلب الموسوعات.. ثم بحثت عن عنوان (المغناطيسية الحيوانية).. هذا هو..

على الفور يطفو على السطح اسم (مسمر).. الألماني (فرانتس مسمر) الذي ولد عام 1734، والذي اعتبره البعض عبقرًا واعتبره البعض نصابًا.. لكن لفظة (مسمر) smerism دخلت كل اللغات الغربية بمعنى (الغائب عن الوعي شبه المنوم مغناطيسيًا).. ولا غرابة في هذا لأن أبحاثه هي التي قادت إلى التنويم المغناطيسي كعلم بعد ذلك..

كان (مسمر) يجرب نقل طاقته المغناطيسية للناس.. وبعد محاولاته على أفراد قام بعمل جهاز عملاق يذكرك بأجهزة الحاسب الآلي العملاقة Mainframe يمكن لعدد كبير من الناس أن يجلسوا حوله، وأن يلمسوه بأيديهم لتصلهم طاقة (مسمر)..

جرب (مسمر) عمل نوع من المد الصناعي على امرأة بأن أطعمها الحديد ثم ثبت المغناطيس على جسدها، وقد شعرت المرأة بتحسّن حالتها النفسية بعد ذلك.. هل تتذكر شيئًا مشابهًا؟

هل تعرف كيف يبدو (مسمر)؟.. إنه بدين له خصلة شعر تتحدر على جبينه..

شعرت بقشعريرة في ظهري وأنا أقرأ هذه البيانات. في النهاية هرعت إلى الهاتف وطلبت (عزمي) الذي أعرف أنه كان في تلك الجلسة التي لم أحضرها..

"(عزمي).. ماذا تم في تلك الجلسة التي دعيت لها منذ أسبوعين؟"

فكر حينًا ثم قال:

"لا أذكر التفاصيل.. كان د. (ممدوح) هناك وقد استدعى روح نصاب ألماني اسمه (مسمر).. لا.. (مستر).."

"(مسمر)؟"

"نعم.. نعم.. أنت بارع في تذكر الأسماء.. كان (ممدوح) قد قرأ عنه وأراد أن يجرب استدعائه.. لا أعرف أكثر ما حدث لأن المحادثة كانت بالألمانية التي يجيدها (ممدوح).. لقد أثار هذا (المسمر) هلغنا لأننا اتهمناه بأنه نصاب.. قال إنه لن يفارقنا وسوف يلازمنا للأبد.. قال إنه سيرينا إن كان نصابًا بحق.. طلبنا من الروح الانصراف فلم تعط أية علامة!"

الآن بدأت علامات الاستفهام تتكاثر.. القصة توشك على أن تكتمل فصولها وتصير مفهومة..

مفهومة لكني لا ابتلعها على الإطلاق!..

هكذا قررت أن أزور (ممدوح) في اليوم التالي..

فتح لي الباب وبالفعل كان شكله قد تغير جدًا.. جلست شاعرًا بالخرج ولم أنس أن ألاحظ تلك الصورة الكبيرة المعلقة في الصالة.. صورة وجه رأيت في مقال المغناطيسية الحيوانية...

سألني عن ظهري فقلت إنه بخير.. ثم قررت أن أبدأ:

-"من أين جاءت أفكار المغناطيسية هذه؟"

-"قلت لك إنني لا أدري.."

-"هل يذكرك هذا بأبحاث (مسمر)؟"

نظر لي للحظة.. ثم بدأ يضحك.. يضحك.. يهتز وتتسع عيناه أكثر..

هنا قررت أن أهجم:

-"كان (مسمر) مخبولاً.. وقد قيل إنه سرق رسالة الماجستير التي قدمها عن علاقة حركة الأفلاك بنفسية الإنسان.."

نظر لي نظرة نارية.. ثم هتف بالألمانية وبصوت خفيض:

-"أنا هو (مسمر) ولسوف تدفع ثمن إهانتك!"

روح (مسمر) في جسد صديقي وأنا معه وحدثنا في شقته.. كم أن هذا يثير البهجة!... لا أعرف كيف نهضت.. ولا كيف جريت إلى الباب.. ولا كيف رحت أثب درجات السلم إلى أسفل.. لقد بلغت الأمور درجة لا تصدق....

عندما سمع د. (مصطفى) الطبيب النفسي قصتي ضحك كثيرًا جدًا.. وقال لي:

-"كل هذا هو الإيحاء.. إن تجربة تحضير الأرواح تحدث هزة نفسية كما قال (يانج)، وهذه الهزة كشفت عن العصاب الكامن في داخله.."

-"هل يضايقك أن تتكلم العربية؟.."

-"أنا أفعل ذلك"

-"بل تتكلم الفرويدية.."

قال في صبر:

-"ليكن.. هذا الضغط العصبي أدى إلى أن يعتقد أن روح (مسمر) حلت به فعلاً.. ولا تنس أن المصابين بالعصاب يملكون طاقة نفسية هائلة مما يسمح لهم بالتأثير في الآخرين.. أغلب

المشعوذين الذين يخدعون الناس فيهم شيء من الخبال.. هكذا يعتقد كل إنسان لمسسه (ممدوح)
أنه شفي.."

..والحل؟"

..هاته لي - لو استطعت - ولسوف أحاول علاجه.."

قلت وأنا أنهض وأتمطى:

..على الأقل كان الإيحاء ذا نفع في حالتي.. لقد شفي ظهري تمامًا.. قل ما تريد عن
المغناطيسية الحيوانية، لكنني أؤكد لك أنني...أووووووو.."

..ما بك؟"

قلت وأنا ارتمي على المقعد:

..أنا أسحب كل ما قلته.. فقط ابحث لي في صيدليتك عن مسكن قوي وعن دهان لآلام
الظهر.. بسرعة وحياة والدك!"

ت. د. م

عندما كنت في لندن، في تلك الفترة الثرية التي قضيتها مع د. (جيمس ماتيسون) ومع جمعية البحوث الروحانية البريطانية، مررت بتجارب عديدة هي التي دفعتني إلى أن أكتب هذه الأوراق.. لو لم تدون ما رأيت وسمعت وعرفت لما شعر بك أحد، ولما عرف أحد أنك كنت هنا.. ما قيمة سقراط لو لم يدون أفلاطون محادثاته؟.. هل كنا سنعرف أن هذا الرجل مشى يوماً على تراب أثينا؟..

أنا لست سقراط.. لكني أكره ألا يعرف أحد أنني كنت هنا وأنني عشت ربحاً من الزمن، ولا أنني عرفت الكثير من الأمور المثيرة..

كان لقائي الأول مع أحد العائدين من الموت في المستشفى الملكي المجاني في (إدنبره).. اصطحبني د. (جيمس ماتيسون) إلى هناك بسيارته الصغيرة التي تتحرك بمعجزة، ومشينا في ممر طويل إلى أن بلغنا الغرفة رقم (207)..

غرفة جميلة هي يغمرها ضوء الشمس وهناك مزهرية بها أزهار طازجة على منضدة.. فوق الفراش صليب كبير عند رأس المريضة..

في الفراش نفسه تجلس مسز (الين مكالستر).. امرأة في الأربعين من عمرها على قدر من الجمال والوقار، حتى وإن كانت مريضة.. كانت تكلمنا وهي تلتهم إفطارها وأسلاك الأقطاب تبرز من تحت قميص نومها.. والشاشة جوار الفراش لا تكف عن تسجيل نبضات ذلك القلب الذي قرر أن يكف عن العمل منذ يومين..

وضع د. (ماتيسون) ما جلبه من أزهار جوار الفراش، وأخرج مفكرة وقلمًا، ثم نظر لها ورفع حاجبيه بما معناه (تكلمي)..

قالت بلكنتها الأسكتلندية المضحكة نوعاً:

"طلبت أن أقابلك.. عرفت أنك الوحيد الذي يفهم ما أحكيه بينما سيسخر الآخرون مني.."

ابتسم ولم يتكلم فأردفت وهي تدس ملعقة (الجيلي) في فمها:

"كانت هناك تلك الاضطرابات في النبض تأتي وتروح.. اعتدت هذا.. إنني مدخنة، أشرب جالونات من القهوة وعلمي لا يخلو من توتر.. إنني سكرتيرة تحرير في صحيفة، وهذه المهنة هي التوتر ذاته.. أكثرنا يموت بنوبات قلبية على كل حال..

"كنت أقف في المطبخ أعد لنفسني بعض القهوة، وزوجي في قاعة الجلوس.. لا أدري ما حدث، لكنني قلت لنفسني إنني أفرطت في التدخين.. إن ضربات قلبي غير منتظمة.. غير منتظمة على الإطلاق... ثم لم استكمل الخاطرة لأنني سقطت في عالم الظلام....

"فيما بعد عرفت أن زوجي سمع صوت الارتطام فهرع إلى المطبخ ليجدني على الأرض وقد غطت الرغوة شفتي.. اتصل بالإسعاف كالمسوع.. وسرعان ما جاء هؤلاء ليجدوا أن قلبي قد توقف.. اضطروا لإجراء عملية إنعاش قلبي تنفسي على أرض المطبخ... ثم حملوني حملاً إلى السيارة..

"في المستشفى توقف قلبي من جديد فاضطروا إلى توجيه صدمات كهربية له.. لم أدر بشيء من هذا.. لكنني شعرت بشيء غريب..

"كنت أرتفع.. أرتفع في سماء الغرفة... أسمع أزيزاً في أذني وأشعر براحة نفسية غير مسبقة.. أنا أرى جسدي.. أراني راقدة على محفة والأطباء محتشدين حولي وهم يضعون تلك الأقطاب على صدري.. بوم!... أنتفض ويرتفع رأسي ثم يهوى من جديد.. من الغريب أن هذا بدا باعثاً على التسلية لي..

"كان هناك ظلام.. ثم رأيت ذلك النفق الطويل كأنفاق القطارات.. في نهايته كان نور ساطع يناديني.. شعرت أنني أسبح فيه.. أرى وجوهاً لم أرها منذ دهر.. ثمة رجال ينظرون لي باسمين..

"فجأة شعرت أنني أعود إلى جسدي.. فجأة شعرت بأن ذلك الشعور اللذيذ يزول، وهأنذا على المحفة من جديد لكنني أفتح عيني وأسعل.. أسعل..."

"قال أحدهم: لقد عادت..! وسرعان ما كانوا يضخون محلولاً ما في عروقي وينقلونني إلى العناية المركزة.."

ثم قالت في اعتزاز وهي ترتجف:

"لقد ذهبت إلى هناك وعدت.. أنا محظوظة.. منذ هذه اللحظة لن أخاف الموت.. سوف أنتظر العودة إلى ذلك النفق الطويل الجميل..."

ربت الرجل على كتفها وقال كلاماً كثيراً عن أنه يرى هذه تجربة مثيرة، ولكم يود لو مارسها.. لكنه أكد لها أصالة ما عاشته..

خرج من المستشفى بخطواته العجول، فرحت أركض لاهثاً لألحق به.. وسألته:

"ما كان معنى هذا بالله عليك؟"

قال وهو مستمر في السير الحثيث:

"إنها تحكي نموذجاً كلاسيكياً لحالة NDE.. أي (تجربة الدنو من الموت)... هذا هو ما يقوله الجميع وإن لم يكن بهذا الوضوح.. هناك لمسة من تجربة أخرى هي (تجربة الخروج من الجسد)..."

على منضدة الإفطار في مطعم اسكتلندي صغير راح يشرح لي:

"في 12% من المرضى الذين يمرون بحالة توقف للقلب ، تكون هناك هذه الذكري المبهمة عن الخروج من الجسد.."

ثم راح يعد على أصابعه:

"هناك صوت الأزيز... هناك ذلك الشعور العام بالسرور والسلام.. هناك النفق.. دائماً النفق الذي يوجد الضوء في آخره.. ضوء ساطع يعمي العيون.. التحليق... ثم يعود المريض للحياة فيمر بنزعة صوفية.. يشعر بحقيقة العالم الآخر والاقتراب من خالقه.. على أنه بعد فترة يمر بحالات اكتئاب قد تنتهي بالانتحار.."

"إذن فتجربة الموت بهيجة حقاً لو كان وصفهم دقيقاً.."

"ليس تماماً.. هناك من حكوا عن ظلام وعمليات تعذيب على أيدي شياطين أو أقزام.. يرى المتدينون إن هذا هو الدليل على وجود جنة ونار... أهم عالم درس هذه الظواهر اسمه (ريمون مودي) وهو يرى أن هذه التجارب قد حلت السؤال الأبدي الذي عذب البشر: ماذا يوجد هناك؟"
قلت له في حذر:

"أنا أو من بالجنة والنار طبعاً، لكن هل هذه الخبرات دليل على وجودهما فعلاً؟.."

قال باسمًا:

"هذا هو بيت القصيد.. لو كان هؤلاء واهمين فهذا لا يمس الدين في شيء.. فقط يمس مفهوم ال- NDE"

"هل تؤمن أنت بهذا ال- NDE؟"

"أنا متعادل كما قلت لك ألف مرة.. أنا أجمع الأدلة وأفندها.. هناك علماء كثيرون لا يعتقدون بصحة هذه الظاهرة.. لقد وصف كثيرون ذات الرؤى أثناء جراحات المخ والأعصاب لدى تنبيه الفص الصدغي.. ووصفوها عندما ينقص الدم الواصل إلى الدماغ.. هناك عقارات تسبب ذات الرؤى وأهمها (الكيثامين) كما يقول د. (يانسن) في أبحاثه.. كل جندي أمريكي تم تخديره بمادة (كيثامين) أثناء حرب فيتنام مر بتجربة مماثلة.. هناك عالم اسمه (بلاك مور) قال إن سبب هذا الشعور العارم بالراحة والسلام هو إفراز مادة (الاندورفين) في المخ.. هذه المادة مخدرة وتسبب حالة عامة من الانبساط.. والمخ البشري يحتفظ بها للحظات النهاية الأليمة كي يوفر على صاحبه عذاباً لا نفع منه.. كثيرون اتهموا مادة DMT التي يفرزها الجسم الصنوبري في المخ بأنها مسنولة عن هذه الرؤى.."

ثم أضاف وهو يفتح باب سيارته:

"إن نسبة 12% ليست نسبة عالية إذا خيل لك هذا... لو كان هؤلاء فعلاً يقتربون من العالم الآخر، فلماذا لا يمر الجميع بذات الظروف؟... وإذا كانت هذه مجرد ظاهرة كيميائية فلماذا لم يرها كل من عانى توقف القلب للحظات؟"

ثم أدار المحرك وقال في شيء من الخبث:

"على أن في قصة هذه السيدة شيئاً مريباً.. إنها رأت كل ما رآه من مروا بالتجربة بالجملة.. لا يحكي كل الناس ذات التفاصيل مجتمعة، لكنها رأت كل شيء.. هذا يعطي انطباعاً بأنها لا تحكي ما رآته لكنها تحكي عشرات الخبرات السابقة التي قرأت عنها.."

..هل تعني أنها تكذب؟"

قال باسمًا:

..المخ البشري معقد أكثر مما تتصور يا صديقي.. هناك ما يدعى (الذاكرة الزائفة).. ربما هي لم تر شيئًا لكنها الآن تعتقد صادقة إنها رأت كل هذا.. لقد تكفل عقلها بتلفيق ملف كامل لخبرات لا وجود لها وهي تثق أن هذا الملف حقيقي.. ثم لا تنس حقيقة أخرى.."

وأردف:

..لم يستخدم الأطباء أية أقطاب كهربية على قلبها كما رأت أثناء خروجها من الجسد!... لقد استعادت وعيها قبل أن يفعلوا هذا!"

كنت أنا غارقًا في أفكاري الخاصة.. NDE لو ترجمت لصارت ت. د. م (تجربة الدنو من الموت).. كانت لي جدة لاقت ربها منذ أعوام، وكنت أنا أقف جوار فراشها لحظة الاحتضار.. سمعتها تقول: "أغلقوا النوافذ.. إن هذا النور يعميني..." ثم بدأت تلقي تحياتها على سيدنا الخضر وعلى زوجها المتوفى منذ أعوام.. بالنسبة لنساء الأسرة كان هذا دليلًا لا يدحض على ان الجدة في طريقها إلى الجنة.. ماذا لو سمعن عن رأي د. (بلاكفور) في الأمر؟.. هذه ليست سوى (ت. د. م) سببها نقص وصول الأكسجين إلى مخ الجدة؟..

كنا الآن ننهب الأرض نهبًا وسط أراض ريفية، وكان د. (ماتيسون) لا يكف عن التثرثرة....

فجأة سمعته يهتف:

..لكنها لا تعمل!"

ما هي التي لا تعمل؟

نظرت أول ما نظرت إلى اليمين حيث جلس خلف المقود.. اليمين؟.. نعم.. لا تنس أننا في بريطانيا.. كان يدوس بقدمه على الفرملة في جنون ممارسًا ما يسميه الميكانيكية عندنا (مكاركة)... رفعت عيني إلى الطريق لأرى تلك الشاحنة المرعبة قادمة نحونا كالموت وجهًا لوجه وسائقها لا يكف عن إطلاق سرينته..

بالطبع لم يكن الوقت كافيًا لشيء..

أدار جاري المقود بسرعة فأنحدرت السيارة إلى جانب الطريق وراحت تتدحرج وسط الأشجار.. راح يلف المقود بسرعة جنونية وهذا زاد الأمر سوءًا..

هنا تأتي اللحظة التي ترى فيها أن السماء صارت تحتك وأنتك بلا وزن تقريبًا... دورة.. دورتان.. ثم الارتطام الأخير بالأرض.. رائحة البنزين وانت تتدلى من حزام الأمان ورأسك فوق سقف العربة.. لقد انقلبت السيارة الصغيرة كدمية لعب بها طفل عابث..

أما الشاحنة فلا أثر لها.. كأنها كانت في كابوس....

فككت الحزام لأسقط على رأسي، ثم عالجت الباب لأخرج منه وزحفت على ركبتني بضعة أمتار.. أنا سليم.. كل شيء يؤلمني لكنني سليم..

درت حول السيارة لأعالج الباب الآخر حتى أخرجت د.(ماتيسون).. لا تخافوا.. لم يمت ولن يموت لكني لم أعرف هذا في تلك اللحظات..

كان مغمض العينين والدم يغطي وجهه.. وتلمست نبضه الواهن فأدركت أن الأمر خطر فعلاً... ثمة رجل ضخم يقف على بعد أمتار منا وقد بدت عليه الحيرة.. صحت فيه، وأنا أريح رأس الدكتور على الكلا:

"أطلب الإسعاف فوراً!..!"

هرع ليجلب النجدة بينما رحت أنظف وجه الدكتور (ماتيسون) بمنديلي.. لا بد أنني سليم ما دمت أفعل هذا كله..

هنا فتح عينه وبصوت واهن قال:

"لا أراك!.. كل هذا النور الساطع!... هل هناك كشاف مسلط على وجهي؟.."

ثم بلل شفته بلسانه وهمس:

"النفق.. إنني أطفو متجهاً لنهاية النفق!"

ومن جديد غاب عن الوجود.. قلت في سري: ما هي الحقيقة؟.. هل أنت بالفعل يا دكتور على أعتاب الأبدية، تمارس حرفياً ال- (ت.د.م) وتقول ما قاله الآخرون؟

أم أنت ببساطة تعاني حالة من نقص الدم الواصل إلى الدماغ؟.. تعاني أعراض تنبيه الفص الصدغي، مع الكثير من مادة الإندورفين التي تعطيك هذا الشعور الزائف بالسلام؟.. ربما أنت تتخيل.. ربما ترددت كلمات المرأة التي سمعتها منذ نصف ساعة في ذاكرتك.. ربما هي خبراتك تخرج للسطح الآن.. لكن هل تسامحني لو لم أصدقك؟.. أنت من بذر بذور الشك في نفسي تجاه تلك القصص.. هل نسيت هذا؟... أنت اعطيتني النصل الذي سيدميك كثيراً فيما بعد..

لا أعرف الإجابة.. المهم أن أحافظ عليك.. أن أبقىك حياً إلى أن تصل سيارة الإسعاف..

من بعيد اسمع السرينة المميزة، وأقول لنفسي إنه سيعيش... سيعيش..

يوماً ما سأواجه انا تجربتي الخاصة مع (ت.د.م) ، ولسوف أعرف وقتها الحقيقة.. لكن ما يضايقني هو أنني لن أعرف أنني عرفت، ولن أعود إلى عالم الأحياء لأقص عليهم ما رأيته بنفسي.. حتى لو عدت فلن يصدقوني...

المهم الآن أن ننقذك يا دكتور.. ولنترك الأسئلة الميتافيزيقية إلى وقتها المناسب.

* * *

الكاتب الأكثر مبيعاً



دكتور

أحمد خالد توفيق



الآن نفتح الصندوق

لم يترك لنا الدكتور (محفوظ) إلا
هذا الصندوق في قبو داره.. الصندوق
يحتوي مذكرات وملاحظات عن تلك
القصص الغريبة التي مرت به في
حياته..

تعالوا نفتح الصندوق الآن..
تعالوا نشعل شمعة تبديد ظلام القبو
ونطالع واحدة من تلك القصص..

الكاتب الأكثر مبيعاً



دكتور

أحمد خالد توفيق



الآن نفتح الصندوق

لم يترك لنا الدكتور (محفوظ) إلا
هذا الصندوق في قبو داره.. الصندوق
يحتوي مذكرات وملاحظات عن تلك
القصص الغريبة التي مرت به في
حياته..

تعالوا نفتح الصندوق الآن..
تعالوا نشعل شمعة تبديد ظلام القبو
ونطالع واحدة من تلك القصص..

1. قبل أن نفتح الصندوق
2. أسرة لطيفة
3. الشمعة والقناع
4. دقات
5. إنها تأتي ليلاً
6. سأبكي كثيراً
7. المكحلة
8. أوتوستوب
9. هدية الأرواح
10. العشاء
11. حكايات الظلال
12. تأثير الفراشة
13. كتاب ديزان
14. الموتى لا ينهضون
15. جاثوم
16. استبصار
17. لماذا فعل ذلك؟
18. فتيش
19. صرخات في الظلام
20. ماذا يحدث في شفتنا؟
21. الرقص بين الأحجار
22. ساحر الماء
23. غير المدعو
24. حكايات لا يربطها شيء
25. مسمرة!
26. ت. د. م

Table of Contents

قبل أن نفتح الصندوق	
أسرة لطيفة	
الشمعة والقناع	
دقات	
إنها تأتي ليلاً	
سأبكي كثيراً	
المكحلة	
أوتوستوب	
هدية الأرواح	
العشاء	
حكايات الظلال	
تأثير الفراشة	
كتاب ديزان	
الموتى لا ينهضون	
جاثوم	
استبصار	
لماذا فعل ذلك؟	
فتيش	
صرخات في الظلام	
ماذا يحدث في شقتنا؟	
الرقص بين الأحجار	
ساحر الماء	
غير المدعو	
حكايات لا يربطها شيء	
مسمرة!	
ت. د. م	

د. أحمد خالد توفيق

الآن نفتح الصندوق

“الجزء الثاني”



الآن نفتح الصندوق-2

الآن نفتح الصندوق-2

تأليف :

د.أحمد خالد توفيق

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

رقم الإيداع: 2017/9072

الترقيم الدولي: 978-977-820-030-0

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع

22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة – الهرم

هاتف أرضي: 0235688678 - 0235611772

هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميع الحقوق محفوظة، وأيُّ اقتباسٍ أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الآن نفتح الصندوق-٢

د.أحمد خالد توفيق

المحتويات

[قبل أن نفتح الصندوق...](#)

[كنت هناك](#)

[الباكية](#)

[زائر الليل](#)

[اسمي ليس \(محمود\)](#)

[الحفل](#)

[ستريس](#)

[أعرف جيداً](#)

[بيضة ودجاجة](#)

[أنا والكلب](#)

[يوم الأحد الكئيب](#)

[نظرة الفتاة الأخيرة](#)

[مسيكينة](#)

[بين روبنسون](#)

[أحلام أحلام](#)

[المقبرة رقم 34](#)

[همس الموتى](#)

[القط الذي انحرف](#)

[عاشق اللوحات](#)

[سيء تفاهم](#)

[لأنها رقيقة](#)

[ليست على ما يرام](#)

[مقهى بن الأشجار](#)

قبل أن نفتح الصندوق...

لم تنته الأوراق التى امتلأ بها صندوق الدكتور محفوظ، فالرجل كما هو واضح لم يجمع مالا وإنما جمع ذكريات، ولو وقع هذا الصندوق فى يد واحد لا يعشق الخيال فلسوف يكون مصيره سلة المهملات لكننا بالطبع نختلف..

الصندوق المغلق له سحر خاص فى كل الثقافات، قد تزداد ثراء او قوة أو خبرة.. قد تزداد رعباً أو توجساً.. غفلة الأطفال الذين يلعبون جوار الخرائب غير عالمين بما يتحرك هناك..

ربما نحصل على هذا كله، وربما لا نحصل على شيء سوى لذة الترقب..

كل شيء قد يوجد فى الصندوق المغلق أو لا يوجد.. كنز من الياقوت والعقيق.. أسرار القنبلة الذرية.. جثة متحللة.. يد مومياء.. قلادة (فلاد).. صورة مصغرة حال لونها.. وثائق وعقود لم تعد لها قيمة.. صرصور.. عنكبوت.. لاشيء..

لقد أحب القراء الكتاب الأول، لهذا نقدم لهم الكتاب الثانى وكلنا امل فى أن يظفر بذات الإعجاب أو يزيد عليه قليلاً..

من جديد سوف نجد الكثير من الأسئلة ومعظمها بلا إجابة، لكن التساؤل نفسه هو المتعة التى نجنيها من قصص كهذه.. أو كما يقولون: الرحلة هى الهدف..

تعال نشعل شمعة.. انظر خلفك لتتأكد من أنك وحيد فى هذا القبو.. لا أحد يحب أن يقرأ هذه الأمور بينما كيان مجهول متسربل بالظلام يقف خلفه.. لا شك فى أنك توافقنى على ذلك.. ابحث عن صندوق آخر لتجلس إليه.. مد يدك.. تأكد من أن تمسك به أناملك ورقة وليس شيئاً آخر.. انتزع الورقة الأولى واقراً ما فيها..

إنها تقول التالي....

كنت هناك

نحيل البنيان، أسمر اللون، له شعر أشعث شاب معظمه، وإن غطى أكثره بقلنسوة صوفية متسخة... يلبس سترة جلدية حال لونها يدس يديه في جيبها، وعلى وجهه نظرة حائرة غائبة عن الوعي....

قدرت انه في الستين من العمر، وأن حاله في منتهى السوء من النواحي الصحية والعائلية والمادية.. هذه سن يجب أن يستريح فيها المرء، لا أن يجد نفسه تائهاً تتقاذفه الطرقات والأزقة..

كانت هذه زيارتي الثالثة للولايات المتحدة.. هذه المرة زوجتي معي في تلك الكافتيريا الصغيرة النظيفة المطلة على الطريق السريع في (بنسلفانيا).. لم يكن هناك كثيرون في المكان، لذا قدرت أن هذا القادم سوف يتبادل معي عبارة ما...

رأيتَه بالفعل يتجه إلى المنضدة التي أجلس عليها..

هتفت زوجتي في ذعر:

- «أبعده يا (محفوظ)!!».

لكني لم أر داعيًا لذلك.. قد يكون مزعجًا.. قد يكون قذرًا.. لكنه بالتأكيد ليس خطرًا أكثر من فأر صغير يعبث جوار قدميك.. يمكنك أن تركله في أية لحظة، لكن من قال إن النساء لا يخفن الفئران؟

- «(محفوظ)... أرجوك ابعده عنا!!».

فتح الرجل فمه المملئ بأسنان نخرة، وكور شفثيه وأطلق الكلمة ممدودة طويلة كأنه ذئب يعوي:

- «بووووووووووذ!!».

لم تكن زوجتي تعرف حرفًا من الانجليزية، لهذا افترضت أن الرجل يقول شيئًا قريبًا من (عاووو) أو شيئًا من هذا القبيل.. لكنني شرحت لها بالعربية أن هذا الرجل هو الذي يلقيه المرء لو دخل أي بار في العالم.. السكير الذي يتسول كأسًا من الخمر booze..

ضحك الرجل ذو العوينات الجالس قربنا ضحكة من يعرف هذا الموقف...

جاءت الفتاة النادلة الضخمة قوية العضلات، وصاحت في غيظ:

- «قلت لك الا تضايق الزبائن!!».

كان اسمها على صدر اليونيفورم، فقلت لها في تهذيب:

- «دعيه يا (لندا).. أرجو أن تحضري له ما يريد على حسابي..».

- «هل أحضر له بيرة؟».

- «أي شيء...».

قيدت ما طلبته في المفكرة ودستها في جيب التنورة، ثم هزت اصبعها منذرة في وجه الرجل وابتعدت.. يبدو أن هذه كانت غلطة عمري لأنه جذب مقعدًا

وجلس إلى مائدتي!

صاحت زوجتي في رعب:

- «أرأيت؟.. كان عليك أن تكون فظًا معه..».

هنا مال الرجل على المنضدة ليصير وجهه غير الحليق قريبًا من وجهي..
وهمس:

- «الحكومة الأمريكية لا تريد من يتكلم.. يحسبون أنهم يعرفون ما يفعلون
لكنهم مجموعة من الحمقى..».

قلت في ذهول:

- «حقًا؟».

قال وعيناه الثملتان تتسعان:

- «حاولوا أن يخرسوني.. لكن هيهات.. أنا كنت هناك.. أؤكد لك ذلك... لقد
حكى (فنسنت جاديس) القصة في كتابه الذي نسيت اسمه.. لقد صدر عام
1965.. لن أنسى هذا التاريخ لأنه تاريخ طلاقى من (كلارا)..».

هنا جاءت الساقية بزجاجة جعة صغيرة وضعتها أمامه، ثم قالت لي:

- «سوف يحكي لك القصة ذاتها كالعادة.. لو أردت التخلص منه فلتعتمد
علي..».

هنا قال السكير وهو يصب السائل الأصفر الرغوي بيد ترتجف:

- «د. (فرانكلين رينو) كان هناك.. أنا رأيته ولم أكلمه.. كنت مجرد بحار صغير
قليل الشأن.. قالوا لي إنه عبقرى وإنه يفهم نظريات (أينشتاين).. لم أفهم..
فقط قال لنا القبطان إن ما سيحدث سوف يغير التاريخ..».

ثم نظر خارج النافذة متأملًا وقال:

- «كان هذا أكتوبر.. أكتوبر عام 1943.. الطقس بارد لأنه شتاء مبكر.. والحرب
مستعرة في كل مكان.. لكن (هتلر) العجوز كان على وشك الانتهاء.. نحن
عرفنا هذا.. كان معي (كارلوس ألدس) و(ديك بريدجز) و.. نسيت أسماء
الباقيين..».

ثم جرع جرعة كبيرة وتجشأ وقال:

- «لقد مررنا بشيء مشابه في الصيف.. لكننا لم نشعر إلا بغثيان بسيط.. لكن
الحكومة لم ترض عن نتائج تلك التجربة.. لقد تحولت المدمرة إلى ضباب
أخضر، ولك أن تتصور ما حدث لي.. لقد أفرغت كل معدتي وظللت مريضًا
شهرين.. لم أعرف أنهم ينوون إعادة التجربة في ظروف أقوى.. على أننا في
ذلك الصباح البارد خرجنا بالمدمرة (ألدريج) الشابة الحسنة التي دشنت في
أول الصيف.. كنا عائدين من مهمة في البهاما.. ثم قالوا لنا إن علينا التواجد
في فيلادلفيا... وفي اليوم السابق جاء (الونش) ليرفع مولدات هائلة الحجم
إلى ظهر المدمرة..».

كنت أنا أعمل مع (المكنجية) في القاع.. لم أكن أعرف شيئًا.. لكن (ديك) نزل
لنا وقال إن المشهد مثير فوق ويجب أن نراه..

«خرجت إلى السطح لأجد أن ضباباً أزرق يحيط بالسفينة.. ضباباً مخيفاً يزداد كثافة من لحظة لأخرى..».

هنا صاحت زوجتي:

- «ماذا تقولون؟».

أشرت لها أن تلزم الصمت.. بينما تجشأ الرجل وصب لنفسه المزيد وقال:
- «لم تعد صحتي تتحمل الكثير من البيرة.. البروستاتا والمثانة.. لا أستطيع التخلص من كل كميات البول هذه.. ما علينا.. أين توقفت؟».

- «الضباب على السطح..».

- «نعم.. نعم... الضباب.. يتزايد.. يتزايد.. وفجأة فطنت إلى أننا لا نقف على ظهر السفينة.. لم أعد أرى أي شيء من السفينة.. تحتي ماء.. أمامي ماء.. لكنني لا ألمسه.. وشعرت بغثيان مرعب.. غثيان يوشك على أن يمزق أحشائي فأفرغت كل شيء..».

هنا ظهر (ديك) وكان يقول لي وهو يمسك برأسه: أنا أشعر بأنني.. أنني.. سأنفجر يا (ويلي).. ثم سقط على الأرض... الأرض التي لا أراها.. كانت هناك عارضة في هذا المكان تتصل بها حبال المرساة، ورأيت يسقط في ذلك الموضع بالضبط..

رفعت عيني فرأيت الرجال يتساقطون الواحد تلو الآخر.. كلهم يصرخ.. ثم سمعت القبطان يصيح: أوقفوا المولدات!.. أوقفوها.. هنا بدأت أرى السفينة.. أرى الجدران وأرى المرساة وأرى الحواجز المعدنية المحيطة بوحدة المدفعية.. لقد كان (ديك) ملتحمًا بالمعدن التحامًا كاملاً بحيث صاراً عجينة واحدة.. فقط كان رأسه حرًا وما زالت الصرخة على وجهه.. ورأيت بحارًا يخرج نصفه العلوي بينما ذاب نصفه السفلي في الأرضية تمامًا.. هذه الموجات اللعينة كانت تذيبك وتدمجك بأي معدن تكون ملاصقاً له... هذا آخر شيء أذكره لأنني غبت عن الوعي..».

وصب لنفسه بعض الشراب ويده ترتجف..

رفعت عيني لأرى ذلك الرجل القصير ذا العوينات يبتسم ابتسامته المزعجة الفاهمة..

واصل السكير سرد قصته:

- «في المستشفى جاءتنا لجنة من العسكريين.. قالوا لنا إننا لم نر ما حسبنا أننا رأيناه.. قالوا لنا إننا كنا نخرف.. قالوا لنا إن أي كلام عن الموضوع سوف يقابل بعقاب شديد.. وهكذا وجدت نفسي وقد سرحت من الجيش.. وكانت الحرب قريبة من نهايتها على كل حال..».

وكما يحدث مع السكارى غالباً بدا يبكي ويولول:

- «انتهى (ديك)... أما (كارلوس) فقد استطاع أن يصل للصحافة ويحكي القصة.. هذه القصة كتبها (فنسنت جاديس) في كتاب شهير.. صدر عام 1965.. وأكد لك هذا لأنه تاريخ طلاق..».

ثم واصل البكاء :

- «الحكومة الأمريكية تنفي أن أي شيء من هذا حدث.. تقول إننا كنا نخرف.. وأنا أقول: لماذا لم يطلبوا رأينا قبل التجربة؟.. كان مكتوبًا علينا أن نذوب ونتلاشى... نجوت بمعجزة ما، لكنني أتساءل اليوم إن لم يكن الأفضل لي أن أذوب مع من ذابوا..».

ثم ألقى برأسه على المنضدة وراح في سبات عميق...

كانت يده على بعد نصف متر من زوجتي، فحملتها من الكم في اشمئزاز كأنها تمسك بفأر، ووضعتها بعيدًا عنها..

هنا تدخل الرجل ذو العوينات الجالس خلفي وقال:

- «لا تندهش.. هؤلاء المجانين كثيرون هنا.. إنه يحكي المعتقد الشعبي الشائع عن تجربة (فيلادلفيا).. التجربة التي يزعمون أن الحكومة الأمريكية أجرتها وجعلت بها مدمرة كاملة غير مرئية..».

قلت في دهشة:

- «هل هناك شيء كهذا؟».

قال ضاحكًا:

- «العالم الذي ذكر اسمه هو د. (فرانكلين رينو).. الذي طبق نظريات أينشتاين الخاصة بالحقل الموحد، وطبقًا لهذه النظريات فإنه باستعمال جهاز خاص يتعامل مع الجاذبية الأرضية والموجات الكهرومغناطيسية فإن الضوء يمكن أن يتقوس حول جسم بحيث يجعله غير مرئي.. هذه النظرية حقيقية وقد سال لها لعاب الحكومة الأمريكية.. تخيل جيشًا غير مرئي يدمر وينسف وأنت لا تراه!».

قلت له:

- «ولماذا تكذبها إذن؟».

قال في ثقة:

- «الحقيقة أنك تحتاج إلى مولد بحجم الشمس كي تتمكن من تقويس الضوء حول جسم بحيث يصير غير مرئي.. الحقيقة أن المولدات سخنت الماء فتصاعد البخار وحدثت ظاهرة السراب.. إن السراب يمكن أن يخدع أي واحد، لهذا خيل لمن يقفون على الشاطئ أن المدمرة اختفت فعلاً.. عندما ندقق في القصة نجد أنه لم يحكها سوى شخص واحد من طاقم المدمرة يدعى (كارلوس أليندس) في كل المصادر.. كل المصادر التالية هي إعادة سرد لما قاله...

لم يطور أينشتاين قط نظرية (الحقل الموحد) حتى وفاته عام 1955.. ويرى العلماء أن منطقه كان خطأ أصلاً.. وحتى اليوم لا يعرف العلم طريقة ينحني بها حقل كهربائي أو مغناطيسي حول جسم ما بحيث يصير خفيًا..».

ثم أشعل لفافة تبغ وقال:

- «الحقيقة أن تجربة فيلادلفيا ممتعة بالنسبة لهواة الأشياء الغامضة وهواة

نظرية المؤامرة، لكنها عارية من الحقيقة.. لقد صنع البعض ثروات هائلة من وراء الكتابة عنها، لكنها لا تصمد للتدقيق..».

جاءت الساقية ونظرت باشمئزاز للرجل النائم، فناولتها حسابها مع البقشيش..

سألته:

- «هل أنتم عربيان؟»0

هزرت رأسي.. وتأبطت ذراع زوجتي خارجين من هذه الكافتيريا..

فقط على الباب سألتني زوجتي:

- «لم أفقه حرفاً مما يقال.. يجب أن تعلمني هذه اللغة اللعينة..».

- «حاضر..».

- «ويد هذا الرجل السكير.. ماذا دهاها؟.. هل هو الجذام؟».

نظرت لها في غير فهم فقالت:

- «ألم تلحظ أن أصابعه كلها ملتحمة ببعضها كقطعة من العجين؟.. ألم تلحظ أن سوار الساعة المعدني يختلط باللحم كأنهما شيء واحد؟.. لهذا أبعدت يده في اشمئزاز عندما أدناها مني..».

نظرت إلى الكافتيريا والرجل النائم.. وهزرت رأسي..

قلت لها ونحن نبتعد:

- «مجرد أسطورة يحبها هواة نظرية المؤامرة. أسطورة لا تصمد أمام التدقيق..».

الباقية

في الثقافة الغربية نجد أن الحوريات كائنات جميلة دقيقة مجنحة تملأ قصص الأطفال.. هناك حورية الأسنان التي تأخذ سنك وتترك لك مالاً بدلاً منها (عندنا واحدة منها في مصر)، وهناك الحورية الأم التي تعنى بك طيلة الوقت عندما تبكي وحدك في المطبخ لأنك لم تستطع حضور حفل الأمير.. هنا تنهضين يا أنستي العزيزة لتكتشفي انك تحولت إلى سندريلا..

لكن الموضوع ليس بهذه السهولة، فلا بد من التفرقة بين الحوريات والأقزام.. هذه الأخيرة كائنات مشوهة تعيش تحت الأرض.. هناك الجنيات الطائشة Pixie التي اشتهرت بالمرح والخرق.. هناك (الإلف Elf) وهو أقرب لجنية لعب، وأكثرها يعمل في خدمة السحرة.. إنك تجد كثيراً من هذه (الإلفات) في فيلم (سيد الخواتم)...

لم يكن شيء من هذا في ذهني وأنا في تلك البقعة من شمال إيرلندا عام 1977... إن شمال إيرلندا مقسم رسمياً إلى 26 إقليمًا، لكنه بالنسبة للعامة مقسم إلى ستة فقط هي أنتريم وأرماج وداون وفيرماناج ولندنديري وتايرن... كنت أنا في (أنتريم).. سيارة معطلة على الطريق في الواحدة صباحًا في بلد غريب.. انت تعرف هذا الطراز من المآزق.. لماذا لا يخبرونك ان عليك ان تضع جنازير حول عجلات السيارة عندما يغطي الثلج الطرقات..؟.. لماذا خضت المغامرة أصلاً؟.. لأنني كنت شابًا متهورًا أعتقد أن الموت هو آخر شيء يمكن أن يحدث لي في حياتي!

هكذا مشيت في الظلام والبرد.. إنه لمآزق نادر.. سوف تتجمد بالتأكيد لو ظللت في السيارة، وسوف تتجمد حتمًا لو مشيت.. لكنك تلمح أضواء القرية من بعيد، فتعرف أنك ستنجو هذه المرة.. إن الإيرلنديين حادو الطباع لكنهم أكثر شهامة من البريطانيين أو هذا ما أعرفه.. ربما هناك هاتف أو على أقل تقدير يمكنك قضاء الليلة وفي الصباح سوف يصفو تفكيرك...

نسيت ان اقول لك إن الجليد كان ينهمر.. الأرض مكسوة بالثلج.. وضع ممتاز لأن يجدوا جثتي المتجمدة في الصباح، ولولا أن هذه القرية هنا لضعت.. بيوت القرية كلها من الطراز العتيق الجدير بالقصص.. النوافذ كلها مضاءة بضوء يتفرق دليلاً على أن هناك نارًا بالداخل..

دققت اول باب في رفق..

ثم قررت أن أدق في حزم.. وجدت جرسًا فقرعته.. لا أحد يفتح، وبرغم هذا يتكلمون وراء الباب بتلك اللهجة الأيرلندية التي تشعر بانها لا تمت للإنجليزية بصلة.. إنهم هنا جميعًا...

على الأرجح يجلس في الداخل (باتريك) و(أوليفر) و(رايان) أحفاد (أوكونور) أو (أوبرايان) أو (أوجرادي).. لا يوجد إيرلندي يحترم نفسه يخلو اسمه من حرف O و mac..

لماذا لا تفتح يا اخ (أوليفر)؟..

إن الأمر يزداد خطورة.. بالفعل أنا لا أشعر بقدمي.. لو لم أمت فمن الوارد أن امضي حياتي بلا ساقين.. تذكروا أيها البلهاء أنني أت من بلاد الشمس، حيث ينهمر المطر عشر دقائق فتغرق الشوارع، ويتدثر الناس بالعباءات ويلبسون السراويل الصوفية ويتكلمون عن (البرد)..

أعرف هذا الطراز من القصص... الفلاحون حول النار لا يفتحون أبوابهم في هذه الليلة بالذات لأن الشياطين تغادر معاقلها أو الموتى يخرجون من قبورهم.. ربما المذئوب يجول حرًا.. أي شيء..

لا أعرف بالضبط.. المهم أنهم لن يفتحوا.. وهذه أسوأ ليلة ممكنة كي أكون هنا.. لا أخاف المسوخ.. أخاف التجمد.. ما ذنبي إذا كان حظي النحس أوقعني هنا في ليلة كهذه؟

ولماذا تكون الليالي المخيفة باردة دائمًا؟ ...

لكن لحظة.. هل تسمع هذا الصوت؟

هل الرياح تعوي؟.. لو لم تكن الرياح فهل هي الذئاب؟

لا.. هذا العويل الطويييييل لا يمكن إلا أن يصدر من بشر.. وهذا هو ما يخيف فيه..

رحت امسح الأشجار بعيني بحثًا عن مصدر الصوت.. هذا ليس صعبًا لأن الضوء ينعكس من النوافذ..

هناك جوار هذه الأشجار التي يكسوها الثلج كانت تلك الفتاة منكمشة على نفسها تطلق هذا العواء.. من هي؟.. هل قررت أن تنتحر أم هي مجنونة؟ إنها جميلة بحق.. رقيقة من الطراز القابل للكسر إياه.. شعر طويل أشقر ينسدل على كتفيها.. ثيابها خفيفة نوعًا مما يدل على أنها لن تعيش ساعة أخرى.. حتى وهي حية أرى أن شفتيها زرقاوان ولونها كلون الورقة..

مشيت لأقف أمامها وأنا أعرف ان هذه بالضبط هي غلطتي الكبرى.. في ليال كهذه لا يذهب المرء ليكلم فتاة وحيدة تقف وحدها في الثلج.. هذه طبعًا هي الجنية التي حبسوا أنفسهم في البيوت خوفًا منها، وأنا الأحق الوحيد الموجود في الخارج معها.. هذه هي تقاليد القصص المرعبة.. لكن ملامحها بددت الخوف من نفسي.. كانت هشة فعلاً خائفة فعلاً... لو لم تكن هذه كائنًا بشريًا فمن أكون أنا؟..

- «لماذا تبكين؟».

قالت بلهجة إيرلندية تصلح للتدريس:

- «أنا (ماري أودونيل).. يعتقدون أنني ملعونة.. لهذا لا يسمحون لي بالدخول وتركوني أتجمد.. أنا أتجمد فعلاً..».

- «ولماذا اعتقدوا أنك ملعونة؟».

- «لأنني.. لأنني... لأنني جميلة وشباب القرية يأبون الزواج لأن كلاً منهم يحلم بي!».

فهتت.. جمالها جعل الناس تتشاءم منها.. لا بد أنها ساحرة.. طبعًا بدأت هذه

الإشاعة مجموعة من الفتيات الحاققات..
نظرت لي وسالت دمعة من عينها تجمدت قبل أن تبلغ الخد..
ثم أطلقت ذلك العويل الطويل الذي يمزق روحك..
هنا استبد بي مزيج من الغضب والشفقة والرعب.. هؤلاء الحمقى يتركون
الخرافة تقتل هذه الفتاة الرقيقة.. سوف يتركونها حتى تتجمد وهي تعوي
ألمًا، وفي الصباح سيقولون إنها نالت جزاءها..
الفتاة تعاود الصراخ..

هكذا مشيت في حزم أجر قدمي وسط الثلوج حتى بلغت ذلك الكوخ..
دققت الباب مرارًا وصحت :
- «أنتم أيها البلهاء!.. الفتاة ستموت من البرد!.. لو لم تفتحوا لأبلغت
الشرطة!..».

طالت المحاولة والصراخ بلا جدوى..
فجأة سمعت من يتكلم بالإيرلندية من الداخل.. ثم انفتح الباب بصعوبة.. رأيت
وجه امرأة عجوز ووجه شاب من الطراز الإيرلندي العصبي إياه.. لا بد أنه
(باتريك) أو (بريان) فعلاً....

قال الشاب لأمه:
- «إنه رجل يا أماه..».
إنه عبقرى كذلك....

هنا تنحت المرأة عن الباب لتسمح لي بالدخول.. هناك كانت المدفأة
مشتعلة حولها يجلس ستة أفراد ينظرون لي في شك.. جو كاثوليكي موح
من الأيقونات والصلبان والصور الدينية..

راح الثلج يذوب عن كتفي وحاجبي.. نار.. نار!
لم أدر متى وضعت العجوز قدحًا من الشاي الساخن في يدي.. فرحت
أعتصره في نهم قبل أن أشربه ، وسرعان ما وجدت سلطانية مليئة بحساء
ساخن كذلك فرحت أشربه دون أن أسأل عن محتواه.. لو كان حساء أحذية فلا
مشكلة عندي...

قالت المرأة:
- «معذرة.. إن زوجي مريض لهذا لا نفتح للغرباء..».

تذكرت على الفور سبب مجيئي. يا لي من غبي!.. لذا قلت في لهفة:
-«ماري أودونيل) البائسة تبكي بالخارج!... يجب أن تدعوها تدخل..».

هنا تبادلنا المرأة نظرة مع الشاب.. اتجهت إلى النافذة وأزاحت الستار.. كان
الثلج يكسوها من الخارج والرؤية مستحيلة، لذا أحضر الفتى شمعة ألصقها
بالزجاج.. بعد قليل بدأت دائرة تتكون وسط الثلج.. وأمكننا أن نرى ما يدور
بالخارج..

لم يكن ما رأيناه محببًا..

كانت الفتاة (ماري) تلصق وجهها بالنافذة وترنو إلينا في ثبات دون أن ترمش عيناها.. على شفيتها ابتسامة قاسية جمدت الدم في عروقي.. المتجمدون لا يبتسمون بهذه القسوة..

همست العجوز وهي ترسم علامة الصليب:

- «إنها هي!».

ثم أعادت الستار وهتفت في الفتى:

- «اذهب لترى أباك..».

جرى الفتى وجريت معه.. لا أعرف السبب لكنني توقعت ما سوف أراه.. غرفة نوم ضيقة.. فراش.. عليه رجل عجوز مدثر بالأغطية.. لكن عينيه شاخصتان إلى المجهول.. لم احتج إلى أن أتسس نبض عنقه.. إنه ميت جدًا..

نظرت للفتى ونظر لي...

وعلى باب الغرفة رأيت المرأة.. كانت تنظر لنا نظرة معناها (هل كان ما توقعناه صحيحًا؟) ... قال الفتى بصوت مختنق :

- «لقد توفي يا أماه.. لا بد أن هذا حدث الآن..».

فقدت المرأة قدرتها على الوقوف وتهاوت قدماها..

قال الفتى وهو يساعدها على النهوض:

- «لقد سمعت البانشي Banshee تعول في الخلاء أمس ولم أرد أن أصدق.. لكننا الآن رأيناها تطل من نافذتنا...!».

هنا فقط تذكرت...

(البانشي) تلك الجنية التي تجدها في أساطير الإيرلنديين منذ القرن الثامن الميلادي حتى اليوم.. التي تعوي خارج البيت فيعرف سكانه أن واحدًا من أفراد الأسرة سيموت...

(البانشي) لفظة من مقطعين (بان أي امرأة، وسيدهي أي جنية)... هناك واحدة مثلها في أسكتلندا تدعى (بين نيحي).. (البانشي) تبدو كفتاة ذات شعر طويل، تمشطه بمشط فضي لهذا لا ينصحونك في أيرلندا بأن تلتقط أي مشط تجده على الأرض.. قد يكون مشطها..

قد يكون عواؤها رقيقًا حزينًا إذا كانت تحب أفراد الأسرة، وقد يكون مريعًا مخيفًا إذا كانت تكرههم..

هناك أسر بعينها ارتبطت بالبانشي مثل أسرة (أودونيل) التي تجلس البانشي الخاصة بها على صخرة تطل على البحر في (أنتريم).. وعندما يتهدد الموت أحد أفراد أسرة (أونيل) يتردد عواء البانشي عبر غابات (كويل أولتاه) وفي أرجاء قلعتهم القديمة..

ما حدث لي ببساطة هو أنني جلست مع البانشي وتبادلنا الحديث.. وحاولت أن أسمح لها بالدخول..

لم تكن تعوي من البرد..
كانت تنذرهم بموت رب الأسرة...

زائر الليل

بعد صلاة العشاء يتجه الأستاذ (رفاعي) إلى ذلك المكتب بالطابق الثاني من تلك البناية المتداعية..

يولج المفتاح في القفل، فتهب رائحة العطن ممتزجة برائحة حبر الآلة الكاتبة والورق وحبر (الرنيو).. لورق (الاستنسل) رائحة خلافة برغم أن الجميع ينكرون أنهم يشمونها..

هناك ترقد آلات الطباعة كديناصورات غافية.. ذات يوم كان المكان يعج بالصخب.. فتيات دبلوم التجارة الفاتنات يجلسن وقد وضعن المناشف الصفر لتخفي المفاتيح عن عيونهن، كما في الامتحان، ورحن يطرقعن اللادن ويطرقعن المفاتيح.. كليك.. كلاك.. كليك.. كلاك..

ضوضاء اعتبرها شبيهة بالضوضاء الكونية التي يتحدث عنها علماء الفلك.. كليك.. كلاك.. كليك.. غمزات.. ضحكات.. كلام عن ذلك الشاب الوسيم الذي تقدم لـ (عواطف).. وتضع (عواطف) يديها في خصرتها وتصيح في فخر وتحد: - «ليه إن شاء الله؟... أنا حارمرم؟».

هؤلاء يتدربن كي يصرن سكرتيرات. لكنه يعرف ما سيحدث.. سوف يصرن زوجات وتزداد كل واحدة منهن عشرين كيلوجرامًا ولسوف تأتي ابنتها ذات يوم لتتلقى الدروس عنده..

يتجه إلى المطبخ جوار دورة المياه المسدودة منذ قرون.. يشعل السبرتاية ويعد لنفسه كوبًا من الشاي.. يفتح جهاز التلفزيون (نصر) العتيق لتظهر العن صورة ممكنة بالأبيض والأسود.. إن عمر هذا التلفزيون لا يقل عن ثلاثين عامًا.. يجلس جوار زجاجة الحبر الشيني وأقلام البسط.. إن الأستاذ رفاعي خطاط ممتاز كذلك، ولسوف ترى أمامه لفظ الجلالة وقد كتبه على خشب المكتب بعدة طرق رائعة الجمال.. كان هو الذي يكتب عناوين الرسائل والأبحاث. وبعد أن يكتب يضع علامات غريبة تشبه حرف (الدال) حول الكتابة.. يقول لمن يسأله إنها (تملاً الفراغات)..

يومًا ما كان هذا المكان يعج بالحركة والحياة.. كانت هناك سكرتيرة هي واحدة من تلك الفتيات المتدربات.. وكان هناك ناس متجهمون من الذين يؤمنون بأهمية الكلمة يجلسون وعيونهم على الأوراق.. يراقبون أية غلطة ترتكبها البنات.. أساتذة جامعة.. أدباء.. شعراء.. كل واحد جالس يراقب الحروف التي تتراص على الصفحة كأنه صقر، وقد شعر بأن تغيير حرف واحد سوف يغير الكون.. ربما يخرج زحل من مساره ليصطدم بالمشتري.. ربما تغمر الفيضانات الأرض..

من بين أساتذة الجامعة (أعرف أن الصواب هو أساتيد لكنه الخطأ الذي صارت له قوة القانون) كنت أنا.. هناك في هذا المكتب القابع في زقاق مظلم طبعت رسالة الماجستير، وطبعت مذكرات الطلبة، وطبعت أبحاثي كلها.. حتى المجلة الطلابية التي أشرفت عليها طبعت هنا.. أرسلت تلاميذي له

مع توصية خاصة، وهناك وقف الفتية مبهورين بينما آلة (الرنيو) تدور مبعثرة مسحوق الحبر على الورق..
الرائحة...!!.. ما أجملها!

ككل شيء دافئ جميل من الماضي بدأت هذه المهنة تندثر.. هناك ذلك الاختراع الجديد المزعج المدعو (كمبيوتر).. هناك منسق الكلمات... تصور أن يكتب الكمبيوتر خطأ عربيًا جميلًا...!!.. رفاعي رأى هذا الخط وبدأ له صناعيًا رقيقًا إلى حد لا يوصف..

الكل يكتب رسائله بالكمبيوتر اليوم.. لا أحد يريد الآلة الكاتبة الجميلة وقطرات (الكوركتور)... جرب أن يبتاع كمبيوتر مستعملًا وقضى أسود ساعات حياته معه لكنه عجز تمامًا عن فهم كيفية عمل هذا الشيء الشيطاني.. حتى أوضاع الحروف مختلفة على المفاتيح.. لا يمكن تطبيق قواعد اليد اليمنى واليسرى التي كان يدرسها لطالبات الدبلوم..

نصحه البعض بأن يأتي بشباب (ممن يفهمون هذه الأمور)، لكن الموضوع أكبر منه والعمر لم يعد يكفي لهذه التجديدات الثورية.. ديكور جديد وبياض وطابعة ليزر و.. و.. ربما يبتاع تلفزيونًا ملونًا بالريموت كونترول كذلك!
إنه يرتجف كلما فكر في هذه الأمور.. كلا. لم يعد في العمر ما يكفي لهذا السخف..

جاء اليوم الذي ذهبت فيه إلى مكتبه – إن كان لي أن أقول هذا - والحجة الظاهرة هي أن أطبع بحثًا يشترط أن يكون بالآلة الكاتبة، والسبب الحقيقي هو ان استعيد بعض عبق الماضي..

كان قد شاخ حقًا وشعره صار أشيب بالكامل.. كل شيء هنا محزن يذكرك بالماضي عندما كان العمل والضحكات لا تنقطع....

سألني وهو يصب لي الشاي عن أحوالي وأولادي.. كان راضيًا بحياته راضيًا عن رزقه.. هذا ما توقعته على كل حال..

ثم سألني في حذر وهو يقلب صفحات بلوك نوت على مكتبه:
- «أنت تقرأ الإنجليزية.. أليس كذلك؟».

نظرت له في حيرة باسمه.. قضيت معك عمرًا أطبع عندك رسائل كاملة بالإنجليزية... قلت لك ألف مرة إنني أدرس الأدب الإنجليزي، وبرغم هذا ما زلت تشك في معرفتي الإنجليزية..

- «أعرف بعضها.. نعم...».

ناولني مجموعة من الأوراق العتيقة المصفرة مكتوبة بخط اليد وقال:
- «ما المكتوب هنا؟».

بدلت بعويناتي عوينات القراءة وتفحصت المكتوب.. هذه لغة لا أعرفها.. بالتأكيد ليست الإنجليزية.. ليست الإيطالية ولا الفرنسية.. إنها لاتينية.. لا شك في هذا..

قال الرجل وقد سمع وجهة نظري:

- «خمنت هذا.. أنا انسخ كالألة ولا أعرف حقًا ما أنسخه لكني أقابل كلمة هنا وهناك أعرف منها اللغة التي أنسخ بها.. لم أعرف هذه اللغة قط..».

قلت له في فضول وأنا أنزع العوينات:

- «من الذي يأتيك بهذا المخطوط؟.. لا أعرف أحدًا يكتب باللاتينية إلا تخصصات نادرة جدًا...».

- «إنه يأتي في الحادية عشرة ليلاً.. رجل فارغ القامة نحيل بشكل غريب.. يضع عوينات سوداء مع أنه الليل.. جاء منذ أسبوع وطلب مني أن انسخ بضع صفحات ففعلت.. ثم جاء بعد يومين لأنسخ المزيد.. إنه يدفع بسخاء ولا يتكلم كثيرًا.. لكني لم أفهم بعد..».

ثم راح يعبث بين الأوراق حتى اخرج ورقة منسوخة بآلة تصوير مستندات. وقال:

- «كانت الأوراق الأولى بهذا الشكل، وقد قلت له إنني أستطيع محاكاتها بالآلة الكاتبة، لكن هذا يكلف الكثير..».

كانت على الورقة دائرة غير منتظمة مقسمة إلى خانات.. الأبجدية تراصت على الإطار الخارجي.. هناك أسهم ورموز.. كأنه تقويم من نوع ما.. لا أعرف معنى هذا لكنه بالتأكيد اتعب رفاعي كثيرًا....

- «قمت بنسخها لأنني شككت في الأمر..».

نظرت للأوراق.. وفي كل لحظة أشعر بدهشة اكبر.. ما الذي يدفع المرء إلى نسخ هذه النصوص؟.. ولماذا يفعل هذا بآلة كاتبة وليس بالكمبيوتر؟

قلت له:

- «هل يمكن أن تعطيني نسخة من هذه الأوراق؟.. أريد أن أعرف كنهها..».

نهض في تناقل ليرفع غطاء قماشياً متسخاً عن آلة تصوير عتيقة في ركن المكان.. ضغط زرًا فبدأت تسخن كأنها ديناصور غاف منذ قرون قرر أن ينهض.. ثم وضع الورقة الأولى فراحت الآلة تهدر.. خرجت ورقة في أسوأ حال فناولها لي ودس الورقة الثانية.. فالثالثة....و...

هنا سمعنا صوت خطوات على الدرج..

اتسعت عيناه وهتف في رعب:

- «الحادية عشرة!... إنه مواعده!.. يجب ان ترحل وإلا فهم ما يدور هنا!....».

لا وقت لأن الخطوات تقترب على الدرج.. خطوات ثابتة على الدرج الرطب المتآكل...

لسبب ما شعرت بالذعر.. ذعر شل تفكيري المنطقي.. دخلت الحمام المجاور لي وأغلقتة على نفسي في الظلام.. رائحة كريهة جدًا لكني لم اعرف موضعًا آخر أتوارى فيه..

سمعت صوتًا عميقًا يسأل:

- «هل انتهيت يا أستاذ رفاعي؟».

صوت رفاعي يحاول أن يبدو هادئًا.. يقول:

- «ليس بعد. ليس بعد...».

ثم صوت الرجل يقول فجأة:

- «ماذا تفعله بالضبط؟.. قلت لك ألا تحاول نسخ أي شيء!..».

من المرعب أن الغضب لم يتبد في صوته قط... كان يتكلم بطريقة تقريرية مريضة.. وجاء صوت رفاعي يصيح:

- «خفت على الأصل.. لا أكثر..».

في هذه اللحظة كان صوتهما يدل على أنهما يقفان جوار آلة التصوير.. لو غادرت الآن فلن يراني الضيف ولأعفيت رفاعي من حرج كبير.. هكذا فتحت باب الحمام.. وبخفة اندفعت إلى الباب الخارجي الموارب، وسرعان ما كنت امشي في الحارة المظلمة وسط نباح الكلاب وعواء القطط..

في الصباح اتجهت إلى د. (ميخائيل حنا) أستاذ اللغة اللاتينية.. الشخص الوحيد الذي أعرفه ويجيد هذه اللغة الشنيعة..

رحب بي في حرارة وتبادلنا المزاح، ثم جاءت القهوة ومعها وقت الأسئلة.. أخرجت الورقتين اللتين ظفرت بهما ووضعتهما تحت أنفه.. فتراجع مجفلاً وقال:

- «ما هذا؟».

- «حسبت أنك المخول بإعطائي هذه الإجابة..».

تفحص الورقة الأولى جيداً ثم قال:

- «ألم تجد آلة تصوير مستندات ألعن من هذه؟».

- «إنها آلة عتيقة لم تخضع لصيانة منذ عشرة أعوام.. لكن هل بوسعك قراءة شيء؟».

راح يتفحص الورقتين ويراجع قواميسه ثم قال:

- «هذه لغة لاتينية عتيقة جداً.. لا أفهم أكثر الموجود لكنها تتعلق بسر قديم.. أعتقد انه سر كان السحرة يتداولونه، وأنت تعرف أن السحرة كانوا يفضلون اللاتينية... هناك طرق للتخاطب مع مخلوقات العالم السفلي.. لكن أهم من هذا أن هناك تحذيراً واضحاً..».

- «وما هو؟».

- «لا تنسخ أو تنقل ما كتب هنا وإلا لاقيت الهول الأعظم..».

ثم ناولني الأوراق وقال:

- «هذا منطقي.. المفترض أن هذه أسرار غاية في الخطورة.. هذا تحذير كي يمنع تداولها.. من أين جئت بهذا الكلام الفارغ؟».

شكرته ولم أحب، وانصرفت غارقاً في التفكير..

الزائر الذي يزور رفاعي في الحادية عشرة مساءً مهتم بهذه الأمور.. يريد أن يستنقذ الأوراق المصفرة البالية لكنه لا يجد الشجاعة كي يصورها أو ينسخها

بنفسه.. لهذا وجد لنفسه كبش فداء في شخص رفاعي البائس.. رفاعي سوف ينسخ الأوراق غير عالم بمحتواها.. وإن كان هناك شخص سيلقى الهول الأعظم فهو رفاعي ذاته..

لهذا يجزل له العطاء..

لا شك أنه اختار رفاعي لأنه يعمل وحده في مكان منعزل قفر.. مكاتب الكمبيوتر بشبابها الصاخبين لا تناسبه.. هناك يسألون أسئلة كثيرة.. هناك يمزحون.. هناك يحتفظون بنسخ من الملفات على القرص الصلب..

الساعة الآن الثانية بعد الظهر..

سوف يسخر مني رفاعي لكنني بالفعل بحاجة إلى أن أحذره.. الأمر كله مشئوم مقبض وعليه ان يعرف ان زائر الليل ليس مجرد زبون سخي..

اتجهت إلى الحارة الضيقة التي امتلأت الآن بالصخب وعربة فول التف حولها الطاعمون.. لكن الحارة كانت مسدودة عند طرفها الآخر..

عربة الإسعاف الواقفة كانت هي السبب..

وسرعان ما رأيت المحفة، والمسعفين يرفعانها إلى مستوى العربة.. لم يكن هناك أحد يهتم. فقط بعض الصبية الفضوليين الذين يكرهون أن يقابلوا جثة ولا يلقوا نظرة...

دنوت أكثر وأزحت الملاءة عن وجهه برغم احتجاج أحد المسعفين فرأيت وجه العجوز الطيب.. رأيت وجه العجوز الطيب وقد تقلص ذعرًا وهلعًا (كأنه لاقى الهول الأعظم)...

رفعت عينًا متسائلة إلى احد المسعفين فقال:

- «نوبة قلبية على الأرجح.. لم يعرف أحد حتى لاحظت إحدى الجارات أن الشقة مفتوحة بينما هو لا يفتحها إلا ليلاً...».

تركته واسرعت أرقى الدرج المهشم الرطب..

الشقة الفارغة مفتوحة.. كل شيء كما هو.. كما تركته أمس...

هناك رجلا شرطة ينظران لي في دهشة.. كانت عيناى على المكتب المعدني الصغير.. المكتب الذي نسيت عليه عوينات القراءة أمس عندما فررت من الشقة..

لم تكن هناك.....

فقط كان البلوك نوت موضوعًا على المكتب وقد انتزعت منه ورقة.. برغم هذا كانت بقايا العبارة التي كتبت في تلك الورقة محفورة بعنف وقسوة على الصفحة التالية الفارغة..

تأملت الكتابة المحفورة.. العبارة التي دونها الغريب كي لا ينسى.. العبارة التي حملها ومعها عويناتي.....

الدكتور (محفوظ حجازي)... أستاذ الأدب الإنجليزي بكلية(؟؟؟؟؟؟)..
..

اسمي ليس (محمود)

هناك ذكريات معينة تمتاز بشيء مهم هو أنك لم تعيشها قط!
من ينكر هذا؟..

لكم من لحن سمعته وشعرت بأنك سمعته من قبل في مكان ما في زمن ما.. هاتان العينان العميقتان اللتان تخترقان أعماقك.. ألم تعيشهما في زمن ما في مكان ما؟.. ألم تمنحاك شيئاً رائعاً أجمل ما فيه أنك لا تذكر حرقاً عنه؟... وتلك الرائحة؟.. شممتها في بستان ما في زمن ما وأنت تمشي مع شخص ما.. والأجمل هو أنك لا تعرف أي شيء عن هذا الشخص ولا الزمن..
ثمة كيمياء غامضة تلهو بنا طيلة الوقت..

البعض قال إن هذا دليل على أننا وجدنا في شخصيات أخرى في زمن آخر.. ربما كنت أنت بالأمس راهباً يحرق البخور في معبد من معابد (الماهايانا) على قمم التبت، أو كنت هندياً أحمر يرقص حول النار في صحراء كولورادو.. هذا هو صلب عقيدة تناسخ الأرواح التي تصطدم مع الدين في أكثر من نقطة..
علماء النفس يعطون تفسيراً أكثر تعقيداً.. إنه الوجدان الجمعي.. إنها خبرات تراكمت عبر الأجيال وتنتقل من السلف إلى الخلف.. لكن هل تتضمن هذه الذكريات الروائح؟

علماء الفسيولوجيا يتحدثون عن ظاهرة Déjà vu التي تقنع نصف عقلك بأن ما يراه النصف الآخر هو ذكريات عشتها في زمن ما.. هكذا هم يدفنون الخيال في بئر عميقة، ويرجعون هذه الحيرة الكونية المحببة إلى خلل في تدفق الدم..

ترى أية إجابة هي الصحيحة؟.. ترى من يعلم؟.. ويوم نعلم هل سنعلم أننا علمنا؟..

في العاشرة من مساء الجمعة تشاجرت مع أم العيال..
أنت تعرفني جيداً فلا يجب ان تشير هذه الأمور قلقك.. قالوا إن هذه الأمور هي الملح الذي يعطي للزواج نكهة وأنا أوأمن بهذا.. فقط لا أعرف سبب كون زواجي مالحاً لهذه الدرجة التي تجعل رأسي على وشك الانفجار من فرط ارتفاع ضغط الدم..

دخلت غرفة مكثبي وأغلقتها على نفسي.. أشعلت لفافة تبغ وبدأت أضغ المشاريع المتحمسة التي أعرف - قبل أي واحد آخر - أنها خيالية طفولية.. في العاشرة والربع قررت أن أقتل زوجتي.. سأحضر السكين من المطبخ وأطعنها عدة طعنات، وككل القتلة أضعها في طشت تحت الفراش - لا أعرف لماذا يفعلون ذلك لكنه شيء إجباري - واجلس على المقهى بانتظار قدوم الرائد (فلان) والعقيد (علان)... ولسوف أظهر على صفحة الحوادث في الأهرام زائغ العينين أقول للصحفي: اصل الشيطان ورنني يابيه..

في العاشرة والنصف فكرت في الطلاق وبدأت أحسب النفقة ومؤخر الصداق، والعقد النفسية التي ستصيب العيال.. فتحت المفكرة لأحسب فوجدتها مليئة بالحسابات السابقة من ألف مشاجرة..

في الحادية عشرة إلا الثلث استقر رأيي على أن أغادر البيت على سبيل الاحتجاج.. بضع ساعات ثم أعود.. هذا هو القرار الأصوب..

هكذا غادرت البيت من دون سلام ولا كلام.. وتعمدت أن أغلق الباب بعنف، لكنني سمعت صوت (سعاد حسني) الرخيم قادمًا من التلفزيون يغني كلمات (صلاح جاهين) اللاذعة: بابا زمانه راجع.. يعني حيروح فين؟

مصادفة غريبة فعلاً!

الليلة سوف أثور.. سوف أرتاد المواخير وأرافق أبناء الليل وأعاقر الخمر.. سوف تعرفني شوارع المدينة المنهكة، وسوف يجفر اسمي في ذاكرة كل امرأة قابلتها في تلك الليلة.. سوف ينصح الآباء أطفالهم ألا يكبروا ليصيروا مثلي.. الكلاب المسعورة التي تنبح في الأزقة سوف تتوارى رعبًا عندما ترى ظلي.. سوف..

وبالطبع لم أفعل شيئًا من هذا، لأنني لا أعرف مكان ماخور واحد، ولم أذق قطرة خمر في حياتي..

هكذا حملتني قدماي إلى المكان الوحيد الذي يصلح كمغامرة لي: محطة السكة الحديد.. سوف أقضي الليل على مقعد هنا وألعن نفسي على أنني لم أذبح القط لزوجتي ليلة الزفاف..

جلست على المحطة وسط أشباح القطارات التي نامت أخيرًا بعد عناء يوم طويل من الركض بين القاهرة والإسكندرية والمنصورة و... كان الطقس باردًا بحق وبدت لي فكرة قضاء الليل هنا عسيرة فعلاً.. لكنني كنت أواجه آخر تحد مع نفسي الناعسة الخاملة.. أقصى انتقام استطعت تنفيذه هو أن أجلس على محطة القطار بضع ساعات، فإن لم أفعل هذا فأني نفع لي؟ في الواحدة صباحًا رأيتها..

كانت تمشي في تودة على رصيف القطار.. ترتدي معطفًا جلدًا طويلًا سابغًا وتضع يديها في جيبها، كأنها تقلد مصاصي الدماء (البانك) في أفلام الرعب الحديثة.. تمشي مطرقة.. لا صوت سوى صوت كعبي حذائها.. الحق إن شيئًا في مظهرها ومشيتها كان خلابًا بشكل لا يصدق، لكنه في الآن ذاته رهيب يبعث نوعًا من التوجس.. فتاة وحيدة على محطة القطار بعد منتصف الليل لا تبعث الراحة في النفس.. لو لم تخرج لفافة تبغ وتعرض علي ليلة مقابل مائتي جنيه (يا ادلعدى)، فإنها ستكشر عن أنيابها ويبرز لها جناحا وطواط، وأكتشف أن عينيها مشقوقتان بالطول أو أن لها حافر ماعز..

فجأة دنت مني فتوترت.. كنت على وشك الصراخ..

رأيتها تحملق في وجهي بعض الوقت.. توترت كثيرًا. لكنها قالت في حماس:

- «(محمود)!!...».

نظرت لها في عدم فهم، فقالت:
- «ألا تذكرني؟.. مستحيل أن يكون الزمن قد غيرك إلى هذا الحد.. أنا (داليا)».
هزرت رأسي في غباء، فقالت:
- «تذكر.. المنيل.. منذ عشر سنوات.. (وليد الخضري).. إنه أخي..».
ثم جلست في بساطة جواري.. أنيقة جدًا فاخرة جدًا.. لا يمكن أن تكون لصًا
أو ما هو أسوأ.. لكن يجب ألا ننسى الحقيقة: أنا لم أرها من قبل قط..
- «معذرة.. أنا لا أذكر فعلاً.. ثم إن اسمي ليس...».
- «فكر.. فكر قليلاً».

ثم تذكرت السؤال المهم الذي يفسر كل شيء:
- «ماذا تفعلين هنا؟.. لا توجد قطارات.. أنا موجود هنا لأنني مجنون فماذا
عنك؟».

قالت باسمه:
- «الأمر شبيه بهذا.. لا توجد قطارات، لكنني كذلك لا أنوي أن أجازف بركوب
(ميكروباص) أو سيارة (بيجو) في هذه الساعة.. اعتقد أنني سأبقى هنا في
المحطة حتى موعد أول قطار».
لم تطلب نقودًا للعودة لبلدتها على الأقل.. هذه نقطة مهمة.. ثم أردفت وهي
تري غباثي:

- «قلت لي يومها إنك تجرب للمرة الأولى أن تتجراً.. قلت إنه لا وقت للألعاب
السخيفة والتظاهر بعدم الاهتمام لأن هذه آخر فرصة لك للسعادة.. عرضت
علي أن أخرج معك في نزهة نيلية.. هل نسيت هذا كله؟».
هزرت رأسي.. مستحيل أن تخرج هذه الكلمات من شخص متحفظ مثلي..
الأمر مؤكد.. إما إنها مخبولة أو هي قاعدة (يخلق من الشبه أربعين).. ثم إن
اسمي ليس (محمود)..
قالت كالحالمة:

- «هناك والنيل يهز القارب لمست يدي وبحث لي بسرك.. سرك الذي سأظل
أذكره للأبد.. هل ما زلت لا تذكر؟.. الهرم ونزلة السمان.. حديقة الأورمان
عندما كانت آدمية.. ثم الاسكندرية و...».
كنت أشعر بحيرة لا مثيل لها، وهزرت رأسي من جديد وهمست في ضعف:
- «إن اسمي ليس (مح-...».

قالت وعيناها تلمعان في حماس:
- «صه.. لا تفسد اللحظة.. هل تفهم معنى هذا؟.. مكان ناء كهذا وفي ساعات
الفجر الأولى يلتقي حبيبان بعد كل هذه الأعوام.. هل يمكنك تفسير هذا
بقوانين الصدفة؟.. لقد أراد الله أن تعود قصتنا.. أراد الله أن يجمعنا بعد كل هذه
السنين.. وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا..».
ثم صمتت وراح صدرها يعلو ويهبط..

كنت أنقب في سجلات ذكرياتي ومخازنها...
بالفعل أذكر أنه في زمن ما في مكان ما كانت لي قصة مع فتاة كهذه.. بل
هي نفسها.. هاتان العينان الثابتتان الصريحتان الدافئتان.. تلك الأنامل
الطويلة التي تشي بحساسية غير مسبقة..

لم يكن اسمها (داليا) بل (ليلى).. أعتقد هذا.. لعل الذاكرة خانتني فعلاً...
فقط لو يذوب كل هذا الثلج من على تضاريس ذاكرتي.. لو يسقط هذا الصدا..
يا لها من ليلة تلك التي تبدأ بالشجار مع زوجتي، وتنتهي في محطة القطار
مع فتاة تذكرك بشخص ما.. !!

(ليلى).. هناك ذكرى عن محطة مترو الأنفاق.. يبدو ان المترو تعطل بين
محطتين.. كانت هناك وسط الزحام تنظر لي بلا انقطاع.. لماذا أنا بالذات؟..
منذ عشر سنوات لم أكن شاباً أو جميلاً.. بعد سن الثلاثين لا يعود هناك فارق
واضح بين الأربعين والخمسين والستين.. رجل في منتصف العمر أو آخره.. لا
يهم...

تنظر لي بلا انقطاع.. ترفع رأسها كأنها تختنق.. بجعة تخرج رأسها من بركة
العرق التي تسبح فيها.. لا أعرف كيف دنوت منها.. كيف ظللت أنظر لعينيها
عشر دقائق كاملة، ثم همست لها إنني أشعر بأنني أعرفها منذ زمن.. فقط
لو تمنحني لحظات أتكلم فيها بلا مقاطعة.. كيف واثنتي هذه الجراءة؟.. لا
أعرف..

نعم.. أنا أتذكر (ليلى).. جولاتنا في شوارع العاصمة الخالية...شوارع حلوان
قبل الغروب.. لماذا حلوان؟.. لأنه لا يوجد بعدها شيء لراكب المترو.. إنها ما
بعد البعد.. لو ابتعدنا قليلاً لسقطنا من على حافة العالم كما خشي بحارة
كولومبوس يوماً ما..

نعم.. ليلى.. اسمها (ليلى) وليس (داليا).. أعتقد هذا.. لا بأس بالخطأ الذي
تحدثه الأيام.. هي كذلك دعنتني بـ (محمود)... أنا (محفوظ) ولست (محمود)..
هكذا رفعت رأسي للفتاة الجالسة جوارى..

كانت شاردة الذهن تضع يدها على جبهتها كأنما هي مصابة بالصداع..
قلت لها:

- «الآن أتذكر كل شيء.. أتذكر مترو الأنفاق عندما تعطل.. أتذكر ضواحي
حلوان وجولاتنا هناك لمجرد أنها مكان ناء بعيد عن عالمنا.. أتذكر السينما
وحفلات الثالثة مساءً لأنك يجب أن تكوني في بيتك في السابعة.. أتذكر..
وإنني لأعتذر بشدة..».

كانت صامئة تتحسس جبهتها بلا انقطاع فهتفت في قلق:

- «(ليلى).. هل هناك شيء؟».

قالت وهي تنظر لي نظرة غريبة جداً:

- «اسمي (داليا)... وأنت.. قلت إن اسمك..».

- «(محفوظ).. أنت تصرين على أنه (محمود)... لا مشكلة.. مهما تغير الاسم

فأنا الشخص ذاته..».

فجأة نهضت وجذبت حقيبتها وقالت:

- «ثمة خطأ.. خطأ مريع..».

- «ما هو؟».

قالت وهي تتراجع بظهرها:

- «الآن أتذكر بوضوح.. لا.. لست أنت.. أنا آسفة.. أنا أتحدث عن (محمود) فعلاً.. اسمه كذلك.. من المستحيل أن أنساه.. يبدو مثلك لكنه مختلف.. أنت تفهم..».

وتراجعت أكثر ثم هتفت:

- «أرجو أن تسامحني. أنا حمقاء..».

وسرعان ما كانت تركز على رصيف المحطة لتغيب عن بقعة النور الواهنة التي يبعثها عمود نور..

وجلست أنا أنظر على القطارات الغافية في حيرة..

لم أكن أنا لكني متأكد من أنها هي!..

كيف يكون ذلك؟

وشعرت برجفة.. إذن نحن لم نلتق قط.. من يدري؟.. لربما التقى اثنان آخران هما (محمود) و(ليلي).. لو كنت أنا قد قابلت (ليلي) وهي قابلت (محمود) فكيف عرفتني وكيف عرفتها؟

في زمن ما التقى اثنان يشبهاننا.. وافترقا.. فلماذا عرفت أنا و(داليا) بعضنا؟ أسئلة لا تنتهي.. وأنا أرمق مملكة الظل الرابض كوحش خارج دائرة الأضواء الخافتة..

ونظرت في ساعتني..

وتنهدت.. لم اعد قادراً على أن أظل غاضباً على زوجتي أكثر من هذا..

لقد حان وقت العودة إلى البيت والنوم.. ربما أرى (داليا) في الحلم.. ربما....

الحفل

لم أكن راغبًا في ممارسة الاجتماعيات في هذا البلد، فقد كان انطباعي أن هذا يدخل في نطاق اللهو، وأنا لم أدفع مليماً في رحلتي هذه.. لقد تحملت الدولة نفقات سفري وعلي أن أكون أميناً مع كل مليم وكل ثانية.. أعرف أن هذا تفكير مثالي جداً وأن الناس كفت عن التفكير بهذه الطريقة منذ عام 2500 قبل الميلاد، لكنني من الطراز العتيق ولا أستطيع أن أتغير..

لم يكن هذا حفل تعارف.. بل هو عيد ميلاد يقام في الرابع والعشرين من إبريل..

تلقيت البطاقة الرقيقة الأنيقة من الدكتورة (كرامب) فكان علي أن أجد عذراً للتملص، إلا أن من كانوا من مصر معي قالوا لي إن هذه قلة ذوق وإن علي أن أكون لطيفاً مهذباً.. الدكتورة (كرامب) أستاذة الأدب فائقة الشهرة، وتعتبر هي سبب قدومي لهذا البلد..

أولاً لم تكن عندي أية ثياب تصلح.. كل ثيابي تبدو كأنني كنت في السوق منذ عشر دقائق قبل أن يجلبوني هنا.. وأنا أعرف أن الدكتورة (كرامب) أرستقراطية ولعلها من سلالة هذا الأمير أو هذا الملك من ملوك النمسا.. يكفي أن ترى خصلة الشعر الأبيض في مقدمة رأسها لترتجف..

تطوع أحد الأخوة المصريين بأن يستأجر لي بذلة سهرة أنيقة.. لا أعرف ما هو الفراك لكنه غالباً هو هذا الشيء.. من المحتوم في القمص أن يرتدي الرجال الفراك وأن تكشف النسوة عن نحورهن في الحفلات..

ثانياً: ماذا عن الهدية؟.. لن أذهب لحفل عيد الميلاد لأقدم لهذه الدكتورة الأرستقراطية علبة من الجاتوه، لكن المصريين قالوا إن علي أن أقدم لها هدية رمزية ذات طابع فرعوني.. هذا سوف يسعدها أكثر من قلادة ماسية.. أعطاني أحدهم مفتاح حياة برونزيًا اشتراه يوماً ما من (خان الخليلي) وهو يفي بالغرض وأكثر.. هكذا دعوت للفراغنة الذين يعطوننا هبة في أي مكان في العالم..

توجهت إلى الحفل كما قيل لي في تلك الليلة الليلية..

سوف أريحك من تفاصيل الحفل ذاته.. حفل فاخر يقام في حديقة مع إضاءة ليلية.. كشافات.. حمام سباحة.. رقص.. منضدة طوييلية عليها أصناف الطعام والكوكتيل.. تذكر حفل الزفاف هذا أو ذاك الذي حضرته لقريبك الثري، وأشعرك بالتضاؤل.. يمكنك الآن أن تتصور الحفل الذي كنت فيه، مع ملاحظة أن قريبك الثري ليس ثرياً ولا أرستقراطياً على الإطلاق إذا قورن بهذا الجو..

موسيقا شتراوس تسمعها للمرة الأولى في الجو الذي كتبت من أجله خصيصاً.... لا أعرف شكل شتراوس لكنني لن أندesh لو كان هو الذي يقود الفرقة الآن..

أما عن د. كرامب نفسها، فكانت تمضي هنا وهناك تحيي هذا وذاك.. هزت

رأسها لي وألقت على رأسي الكثير من حروف الشين والحاء.. هنأتها على (الرايخشتاج).. لا.. بل على (الجيبورتستاج).. أخلط بين الكلمتين والفرق بينهما مروع!.. وقدمت لها مفتاح الحياة فهشت وبشت، ثم تركتني لتواصل المجاملات..

هكذا شعرت بما يشعر به الموظف المصري عندما يوقع في دفتر الحضور والانصراف، ويصير على استعداد تام للتزويغ..

كان هذا عندما وجدت تلك العجوز.. امرأة عجوز جدًا لم أر أسن منها في حياتي، وقد اندهشت لأنها هنا ولم تنم بعد.. كانت ترتدي ثوب سهرة أحمر أنيقًا جديرًا بملكة جمال، وتقف جوار مائدة الكوكتيل تحاول بعينين لا تريان أن تقتنص شيئًا..

دنوت منها وعرضت عليها بألمانيتي العرجاء أن أساعدها.. شكرتني وطلبت أن أناولها زجاجة الروم!.. الزجاجة التي استقرت وسط عشرات الزجاجات الأخرى في بار هائل يتوسط المائدة.. وقالت الحيزبون:

- «أفضل الروم لأن محتواه من الكحول عال.. الشمبانيا للأطفال!»..

أصابني الذهول.. ناولتها ما تريد وتراجعت بينما هي تصوب الزجاجة بيد ترتجف إلى كأس تحملها.. ما زالت هذه المرأة ترغب في بعض الانحراف برغم أنها جثة تتحرك بالزنبرك.. ما أغرب الإنسان!..

قالت وهي تحاول التصويب:

- «لقد انتهى كيدي تمامًا.. يقول الأطباء إنه صار كتلة من الليف.. لهذا لم يعد المزيد من الروم قابلاً لإيذائي!..».

رأيتني أحرق فيها فأردفت:

- «أنت تفعل مثل ابني.. جئت معه هنا وأعطيته ألف وعد ألا أمس الخمر، لكنه الآن منهمك في الرقص مع فتاة إلزاسية حسناء.. لن يعرف أبدًا ما لم تخبره أنت».

وانفجرت في الضحك كاشفة عن أسنان جديدة بالساحرات.. أعني فجوات أسنان طبعًا..

هكذا وقفت أراقبها بعض الوقت، ثم تركتها حيث هي واتجهت إلي ذلك الممر الذي يقود إلى الخارج.. سوف أسترده معطفي وأعود للبيت الذي أقيم فيه مع صديق مصري، لأنعم بنوم هادئ حتى الصباح.. لقد قمت كما قلت لك بالتوقيع في كشف الحضور!

مشيت في الممر، هنا وقعت عيني على ثوب سهرة أحمر يبدو مميزًا.. من الغريب أن يوجد ثوبان من ذات النوع في حفل واحد.. لكن لربما كان الجميع يستأجر ثيابه من ذات المتعهد..

كان ظهر صاحبة الثوب لي.. ربما كانت أجمل من صاحبتنا هذه...

بالفعل استدارت و.. لا.. إنها هي!.. هي ذات العجوز التي كانت تقف جوار المائدة تشرب الروم!.. تنظر لي بعينين لا تريان تقريبًا ثم ترفع كأسًا إلى

شفتيها بيد ترتجف وترشفها..

كيف استطاعت هذه العجوز بطيئة الحركة أن تسبقني إلى هنا؟.. أنا مسن لكن ليس مثلها.. ثم إن الممر ضيق.. لن يمر اثنان فيه من دون أن يريا بعضهما..

لابد أن هناك طريقة أسرع للوصول إلى هنا من الطريق الذي اتخذته.. على كل حال ليس من شأني أن أعرف كيف جاء كل واحد إلى المكان الذي هو فيه.. هكذا تهيأت للاتجاه إلى الوصيفة التي تحتفظ بالمعاطف، لكن استوقفني منظر مسل.. هناك رجل مسن يقف في وضع رشيق فاردًا ذراعه وبالذراع الأخرى يبدو كأنه يطوق خصر امرأة هوائية لا وجود لها.. على صوت الموسيقى القادمة من بعيد يرقص.. يرقص برشاقة وجمال لا شك فيهما.. لو كان أصغر سنًا لكان أحد فناني البانتومايم المعدودين في أوروبا كلها..

وقفت أراقبه، ولاحظت أن عددًا من الواقفين التفوا حوله وهم يصاحبون حركاته بالتصفيق والضحك.. كان يرقص ويرقص.. ثم توقف لاهثًا.. بحث بين الوجوه فالتقت عيناه بي..

قال لي وهو يتأبط ذراعي:

- «هل أنت عربي؟.. أعرف هذا النمط من الوجوه.. عربي أو باكستاني.. لكن لا.. شعرك خشن.. لا يوجد باكستاني شعره خشن أبدًا.. أنت عربي.. ما اسمك؟».

- «محموظ.. أنا مصري..».

- «أنا كنت عندكم في العلمين مع (روميل) منذ.. منذ أكثر من نصف قرن.. هل (مونجمرى) العجوز ما زال حيًا؟».

- «أنت أدري مني بهذا.. لكنه مات على كل حال..».

- «الكل يموت.. لقد اختلطت الأمور.. لم أعد أعرف من الحي و من الذي مات..».

عرفت أنه في مرحلة خرف الشيخوخة حيث لم يعد يذكر أي شيء على الإطلاق.. لكنه اقتادني عائداً إلى الحفل، ثم توارى بين الراقصين.. استدردت للناحية الأخرى فوجدته!..

ما هذا؟.. كيف عاد؟... ومتى؟...

كان يمشي وحده وهو يأتي بحركات راقصة ويحك عنقه الذي امتلأ بالنمش والبقع.. رأيت يقترب من تلك العجوز السكرية ذات الثوب الأحمر، فوقف معها يثرثران..

وقفت أراقب المشهد في حيرة بضع دقائق..

ثم استدردت لأراقب الراقصين، فرأيت العجوز السكرية ترقص مع هذا الجندي السابق!.. ما الذي يجري هنا؟... أنا لا أشرب الخمر لكن هل أبخرتها يمكن أن تؤثر في عقلي لهذا الحد؟.. لم أسمع عن هذا من قبل..

- «لا تظهر أنك لاحظت!.. هذا أفضل!».

استدريت من جديد لأجد دكتورة (كرامب) تقف خلفي وهي تضع إصبعًا على شفتيها..

قلت لها:

- «أنا فقط مندهش من أن...».

قالت في فهم:

- «نعم.. رأيتهما مرتين.. هذا مفهوم.. سوف تقابل هذه التجربة عدة مرات الليلة..».

ثم أضافت وهي ترفع خصلة الشعر الأشيب عن جبينها:

- «اعتدنا هذا لأن عيد ميلادي في الرابع والعشرين من إبريل.. ليلة صيام القديس مارك حسب كل المعتقدات الشعبية.. منتصف الليل هو الوقت الأمثل.. حدث هذا في عامين متتاليين ثم صار قاعدة.. بعدها وجدنا أن إنسانًا كثيرين يحضرون عيد ميلادي لهذا الغرض بالذات.. إنها تجربة مخيفة مثيرة.. لكن الفضول البشري لا نهاية له..».

قلت وأنا أهز رأسي في عدم فهم:

- «لا أفهم حرفًا..».

قالت:

- «لأنك لا تعرف ما هو Doppelganger أو القرين.. وهي لفظة ألمانية معناها (السائر المزدوج)... المعتقد الشعبي يقول إن القرين يظهر في هذه الليلة بالذات، أما لماذا في حفل عيد ميلادي فأمر لا يعرفه إلا الله.. في هذه الليلة يأتي الناس الحفل ويرقصون ويسكرون، وهم ينتظرون ما سيرونه عند منتصف الليل.. من ير نفسه في هذا الحفل، يعرف أنه رأى القرين الخاص به، ومعنى هذا أنه سيموت هذا العام!...».

- «هذا.. هذا شنيع!».

- «نعم.. لكنه مثير كذلك.. كل الناس تأتي لعيد ميلادي آملة ألا تقابل نفسها، والأروع أنك تعرف يقينًا من الذي سيموت!... أنت تعرف دعابة القائد الذي يقول لجنوده المائة أتوقع أن يموت منكم 99 جنديًا في هذه العملية.. عندها ينظر كل جندي لرفاقه ويقول لنفسه: يحزنني فقد الزملاء!.. هذا هو ما يحدث هنا!».

- «لكن هذا يعني أن العجوزين...».

- «كلنا لاحظ هذا.. ليس الأمر قدرة سحرية على التواجد في مكانين.. الأمر يتعلق بأن القرين الخاص بكل منهما موجود في ذات الحفل.. ومن رحمة السماء بهما أنهما ضعيفا البصر.. كل الموجودين رأوا وعرفوا لكنهما لا يعرفان.. هذان البائسان سيموتان هذا العام.. لن يكونا هنا في عيد ميلادي القادم!».

كانت فكرة مروعة.. لا أستطيع تصديق هذا.. لكنني بالفعل رأيت العجوزين مرتين، ومن المستحيل أن يكون من رأته هو الشخص ذاته.. لكن... هذا لا يدل على شيء... منذ ميلاد البشرية وهناك توائم في كل مكان، وهناك أربعون شخصًا يشبهك كما قال أجدادنا..

قلت لها ضاحكًا:

- «لا اصدق حرفًا من هذا كله يا دكتورة.. أنت تعرفين أن العلم...». لكنها لم تكن تصغي.. كانت تنظر في ذهول ودهشة إلى شيء خلف ظهري..

استدرت لأرى ما هنالك فرأيت ذلك الرجل الذي يلبس الفراك ويمشي بين الموائد وقد بدت عليه الحيرة وعدم الارتياح... رجلًا ذا ملامح عربية أو باكستانية.. لا.. هو خشن الشعر.. إنه عربي. لا شك في هذا.. هو لا يشبهني..

إنه أنا!

ملحوظة ناشر الأوراق: بما أننا نعرف أن د. محفوظ قد توفي بعد هذه الواقعة بأربعة أشهر، فإننا لا نملك تكذيب هذه القصة بقلب مستريح.. صحيح أننا لا نملك تصديقها كذلك، لكنها كالعادة لغز آخر من ألغاز ذلك الصندوق العجيب الذي تركه لنا د. (محفوظ)... الألغاز التي لن نعرف حلها أبدًا...

ستريپس

لأسباب تتعلق بهواية الكتب القديمة، أحفظ موضع واسم كل واحد من باعة الكتب القديمة الذين تقابلهم على الرصيف في شارع النبي دانيال بالاسكندرية..

الكتب والمجلات القديمة!.. احتفظ أنت بمجلاتك المصقولة فاخرة الطباعة زاهية الألوان، واطرك لي الكتب المصفرة التي صارت أغلفتها مثنية كأذان الكلاب، واصفرت أوراقها، وفاحت منها رائحة غريبة هي مزيج من رائحة الورق القديم والبخور ورائحة لا تعرف ما هي.. رائحة الذكريات.. المجلات المطبوعة باللون الأخضر الزيتوني وإعلانات صابون (نايلسي فاروق) و.. و.. الكتب التي كتب على هوامشها بقلم رصاص مع توقيع صاحبها يحمل تاريخ 1930 أو 194.. صور بطلات السينما الهوليووديات بشفاهن القرمزية المصبوغة والطابع المفتعل المصطلح عليه للجمال.. كل هذا عالم ساحر بالتأكيد..

أحفظ كل ركن في هذا الشارع، وقد اتهم الكثير من مالي بلا شك.. كنت أمشي فيه منذ شهر عندما توقفت أمام ذلك العجوز..

مسن هو مكتنز قليلاً، يلبس قميصاً غير مهندم انتفخ جيبه لأنه يضع فيه نظارتين معاً.. وكان يجلس على مقعد ويضع قدميه على مقعد مواجه شأن من هم مصابون بالدوالي في الساقين، وقد اتخذ مجلسه تحت مظلة وراح يطالع مجلة قديمة..

لم أره من قبل، وهذا كشف مثير في حد ذاته، لذا توقفت جواره ورحت أتصفح المجلات التي نثرها على الرصيف وأثقلها بقوالب من الطوب.. معظمها كانت مجلات مصورة غربية قديمة.. لو كنت تعرف الطابع المميز لمجلات (حكايات من السرداب) و(العرض الزاحف) التي كانت منتشرة في الولايات المتحدة في الخمسينات، ثم تم وقفها، فأنت تستطيع تخيل هذه المجلات..

كان اسم المجلات التي يعرضها هو (الرجفات) وهو اسم مثير كما ترى، كما يدل على أنها مجلات مخصصة للربح..

قلت له في تودد:

- «أنا لم أرك هنا من قبل.. ولم أر هذه المجلات..».

نظر لي فأدركت أن له عيناً تظللها سحابة رمادية فلا ترى، وقال بصوت وقور ينم عن اصل طيب:

- «كلانا موجود منذ القدم، لكن العين لا ترى إلا ما تريد أن تراه.. اسمي (سليمان)».

رد معقول.. على كل حال انتقيت عشر مجلات متتالية من تلك، وسألته عن ثمنها فطلب ثلاثة جنيهات.. هذا سعر لا يمكن تصديقه.. سعر أسطوري.. عدت أكرر السؤال فكرر الجواب..

هكذا أخذت غنيمتي وهرعت كي ألحق بالقطار الذي يقلني إلى القاهرة..

عندما رأت زوجتي المجلات هزت كتفها.. بينما ضحك ابني طويلاً وقال:
- «لم أعرف أنك تقرأ هذا الكلام يا بابا.. مجلة ميكي في هذه السن».

عند الناس تعتبر أية قصة ستريپس مجلة ميكي مهما كانت ومهما تعقدت أحداثها.. لا يعرفون أن هذا فن مستقل متميز، قد يبلغ درجة عالية جداً من التعقيد والبراعة.. هناك ستريپس لا يصلح إلا للبالغين.. ثم من قال إن حكايات ميكي ماوس تافهة في حد ذاتها؟..

كانت زوجتي تعد لي العشاء، ويبدو أنها مالت على الموقد أكثر من اللازم.. هنا سمعت صراخاً من المطبخ.. هرعت إلى هناك لأجدها تركض وقد أمسكت النار في صدر قميص نومها.. كان المشهد مروّعاً وقد فهمت لماذا وقف ابني يراقبه كأنه يراه على شاشة التلفزيون.. جريت إلى الحوض حيث كانت قد ملأت إناء بالماء، وسكبته مرة واحدة على صدر ثوبها.. أخيراً!.. وقفت تبكي وترتجف بينما هي غارقة في الماء ومعظم موضع الحريق في الثوب قد تفحم، لكن لم تتأذ والحمد لله..

- «أنت غير حذرة ككل النساء.. كلهن يعتقدن أن الحوادث لا تقع أبداً!..»
قالت شيئاً عن تضحياتها في هذا البيت وكيف إنها كادت تحترق كي أتناول العشاء وبرغم هذا - فلتأخذني مصيبة - لا أشعر بها.. هكذا تحول العشاء إلى دخولها الفراش لتنام وبيضة قليتها لنفسي على الموقد مع كوب شاي..
فتحت جهاز التلفزيون فوجدته لا يعمل.. هذا يوم نحس تقليدي.. (واحد من تلك الأيام) كما يقول الغربيون..

هكذا رحت التهم البيضة وأنا أتصفح تلك المجلة.. بالفعل كان تصميمها شبيهاً جداً بمجلات (حكايات من السرداب).. ذات القصص المربعة الفجة وشديدة الإمتاع برغم هذا.. لا يدهشني أن كاتب الرعب الأمريكي (ستيفن كنج) قال إنه كتب الرعب بسبب قراءاته وهو طفل لتلك المجلة..

ثمة قصة لا تبدو مربعة لهذا الحد.. رجل في منتصف العمر.. يبدو أنه يعيش مع زوجته وأولاده.. في الكادر الأول يتشاجر مع زوجته.. في الكادر الثاني الزوجة في المطبخ.. ثمة صورة لها وهي تصرخ وقد تمسكت النار بثوبها.. الزوج يطفئ النار ويلومها.. هناك مشجرة.. يبدو أن ابنه قد أطفأ التلفزيون وأخفى ذلك.. في الكادر التالي الرجل يحاول فتح الجهاز لكنه معطل.. البقية في العدد القادم..

من الممتع رؤية كم تتطابق حياتك مع الفن أحياناً..
هذا فنان من الخمسينات عاش في الولايات المتحدة، لكنه رسم مشاهد شبيهة جداً بما حدث الليلة.. فلأر مجلة أخرى..

مجموعة قصص مخيفة عن أشباح في القبو.. صندوق فيه جثة.. قصة ذلك الرجل الممل الذي لا أفهم سبب جعله بطلاً.. يبدو أنه جرح نفسه أثناء الحلاقة أمام المرأة صباحاً.. يعبر الشارع فتضربه سيارة مسرعة، يطير في الهواء لكنه لا يموت.. إنه ما زال سليماً..

لا أفهم هذه القصص فعلاً.. هي ليست مرعبة ولا مسلية.. لعل الأسوأ قادم في الأعداد القادمة.. على كل حال كان وقت نومي قد حان فدخلت فراشي وغفوت..

تذكرت في الصباح الباكر أنني سأذهب إلى الاسكندرية من جديد اليوم.. هناك تلك المحاضرات التي ألقيتها هناك، وهذا يعني يومًا مرهقًا آخر.. حلقت ذقني في الحمام بسرعة.. يا للتعاسة!.. منذ صارت لي لحية لم أكف عن عادة جرح نفسي وأنا متعجل.. هكذا رحت أبلل الجرح باللوسيون الحارق، وجففت وجهي عدة مرات حتى تلطخت المنشفة بالدم.. ارتديت ثيابي وهرعت إلى الشارع..

لا أعرف متى ولا كيف سمعت تلك الفرملة.. فقط كنت راقداً على الأرض وكل عظمة في جسمي تؤلمني، وهناك حشد من الناس يجمعون بين الفضول والشفقة.. وهناك فتاة مذعورة تجثو جوارى وهي تردد:

- «أنت سليم.. هه؟.. أنت سليم!».

حركت أطرافي فكانت سليمة.. قلت في شك:

- «أعتقد هذا..».

هتفت الفتاة في جمع الواقفين حولي بلهجة درامية:

- «الحمد لله!.. أنتم سمعتم!».

قال أحد الواقفين متحرشاً:

- «إنه جريح في ذقنه!».

قلت مرهقاً:

- «لا.. هذا جرح من الحلاقة.. لم يحدث شيء.. أنا كنت متعجلاً شارداً الذهن لا أكثر».

ساعدتني على النهوض وأركبني السيارة.. إلى أين أنت ذاهب؟.. المحطة. أنا سأوصلك.. أنت بخير.. هه؟.. أليس كذلك؟

وسرعان ما وجدت نفسي في القطار. لابد أنها كانت سعيدة جداً بالخلاص مني..

كان يومي حافلاً وقد اضطررت إلى شراء مسكن من صيدلية كي أسكن آلام جسدي، على أنني عندما اقترب موعد الرحيل فكرت في أن أجتاز شارع النبي دانيال من جديد عساي أجد شيئاً جديداً عند بائع أمس.. مشيت في الشارع في تودة.. اين هو؟.. أنا متأكد من أنه كان هنا..

دنوت من أحد الباعة الذين أعرفهم وسألته عن العجوز الذي قابلته أمس.. إنه (سليمان) موجود منذ القدم وله عين تالفة..

- «لا يوجد أي بائع هنا اسمه (سليمان) يا دكتور.. ثم إنك تعرفنا جميعاً».

هذا غريب.. ربما تكون هلوسة لكن ليس إلى هذا الحد.. على كل حال أنا أعرف ألاعيب الباعة.. ربما (سليمان) قد وضع مجلاته هنا من دون إذن (ريس

الباعة) أو البلطجي الذي يسيطر على المكان، لذا قرر الباعة عدم الاعتراف بوجوده أصلاً.. شيء يشبه مؤامرة الصمت (أومرتا) المعروفة لدى عصابات المافيا..

لحقت بالقطار وعدت إلى داري.. رحت أتناول الغداء في لهفة بسبب جوعي الشديد.. هنا دخل ابني الحجرة وقال لي في شيء من الحياء والشعور بالذنب:

- «أريد أن أعترف لك لأن ضميري يؤنبني».

- «ماذا هنالك؟.. ربنا يستر..».

- «لقد تلف التلفزيون بسببي.. وضعت كوب الماء فوقه فانسكب.. بعدها أصدر الجهاز فرقة وهمد تمامًا..».

وبخته بشدة على هذه الحماقة وإن حمدت الله على أن انفجارًا عاتيًا لم يحدث.. غدًا سوف آخذ الجهاز إلى من يصلحه وليكون خرابي بيتي قريبًا.. ربما نحتاج لشراء جهاز آخر..

بعد قليل جاءت زوجتي تخبرني أنها ستخرج مع الأولاد قليلًا.. سوف تشتري لهم بعض اللوازم ولسوف تعود في ساعة متأخرة.. لا بأس..

هكذا من دون تلفزيون رحت أقلب أعداد المجلة إياها..

لنر بعض الأعداد الجديدة.. أي التي لم أقرأها أمس..

رأيت بطل القصة - ذلك الكهل الممل - جالسًا.. إن زوجته تخبره أنها خارجة بالسيارة مع الأولاد للتسوق على الطريقة الأمريكية.. إنه وحيد في داره.. يكتشف أن حوض الماء ممتلئ والماء يغرق أرضية المطبخ فيزجر ويغلق الصنبور.. هناك كادر يظهر البيت من الخارج وقد بدأ الظلام يحل.. البيت يكبر كأن هناك من يقترب منه على طريقة لقطة (وجهة النظر) السينمائية.. يد ذات مخالب تضغط على الجرس.. البطل يفتح الباب وقد بدا عليه الذعر.. يتساءل: أهذا أنت؟.. هنا نرى وجه القادم.. إنه مسخ مخيف يقول وهو يضحك ليكشف عن أنياب كالمدى: نعم يا (جورج).. أنا هو الشيطان ذاته!.. لقد جئت لأخذ روحك!

الكهل يحاول الفرار لكن الشيطان يقبض عليه بيد مخرقة.. يضربه بسكين عملاقة فيطير له أذنًا ثم يضربه من جديد فيمزق أنفه.. الكهل يتوسل لكن الشيطان يولج مخالبه في عنقه.. الكهل يموت..

أزحت المجلة جانبًا.. ما هذا السخف؟.. هل هذا الهراء هو ما يقدمونه للأطفال هناك؟.. ثم يتساءلون عن سبب كثرة السفاحين في بلادهم!.. كل هذا الدم في صفحة واحدة وبريشة رسام بارع..

حقًا.. هناك الكثير من التسلية هنا لكنها مجلة لا تناسب الأطفال البتة..

هذا الصوت!

نهضت إلى المطبخ وأثار غيظي أن زوجتي نسيت الصنبور مفتوحًا.. كان تدفق الماء أسرع من تصريفه من ثم سال ليغرق أرض المطبخ.. هذا موضوع

مشاجرتنا القادمة إذن.. لن أجف شيئاً.. سوف اكتفي بقفل الصنبور لأن
التجفيف مشكلتها هي..
سوف اعود إلى الأريكة وأقرأ مجلة رهيبة أخرى من مجلة (الرجفات) هذه..
جرس الباب يدق.. ليكن.. سوف أرى من هذا السخيف الذي يأتي من دون
موعد، ثم أعود لأطالع باقي المجلات..
إن أمسية شائقة تنتظرنني بعد التخلص من هذا القادم.. أعرف هذا.. اشعر
به.

أعرف جيدًا

أعرف جيدًا أنه أشعل لفافة تبغ وراح ينظر لليل الصامت خارج الشرفة.. أعرف أن ملايين الخواطر تزاومت في ذهنه وهو يتأمل لفافة التبغ.. الطرف الذي يتوهج ثم يخبو.. يتوهج ثم يخبو.. هذا تأثير قريب من التنويم المغناطيسي..

على الأرجح عاد إلى الغرفة هنا.. أعرف أنه جلس إلى مكتبه وفتح الدرج.. بحث في مجموعة الأوراق حتى وجد واحدة لم يخط عليها.. أعرف أنه بحث بين الأقلام عن واحد يصلح.. هذا جف حبره.. هذا تقياً حبره.. هذا مكسور.. أخيراً وجد واحدًا وخط على الورقة أول خط..

لا بد أنه توقف هنا.. لا بد أنه نظر للشرفة.. وجد أنه من السخف أن يكتب كل شيء، والرسالة المعتادة بدت له سخيفة مبتذلة..

لهذا كوم الورقة وألقاها على الأرض..

أعرف أنه أخرج ألبوم الصور وراح يقلب الصفحات.. صورته وهو طفل سعيد غافل، كل مشكلته في الحياة أن أباه لم يبتع له (الآيس كريم) الذي كان يتوق له. صورته في سن المراهقة مع أصدقائه جوار سور المدرسة.. صورته وهو شاب في الجامعة.. صورته مع (هالة).. صورته معي وهو يناقش رسالة الماجستير عن إرهاصات الواقعية في المدرسة الرومانسية..

أعرف أنه أشعل لفافة تبغ أخرى.. لا يوجد وقت كاف للإصابة بسرطان الرئة.. لا بد أنه راح يتأمل حلقات الدخان المتصاعدة.. لا بد أنه تذكر أنه لم يستطع قط إخراج حلقات دخان من فمه مهما حاول.. لا بد أنه ابتسم للفكرة..

أعرف أنه أنهى اللفافة فدفنها في قدح القهوة.. ما تبقى منها..

أعرف أنه فتح الدرج من جديد وأخرج المسدس، وتحسسه بأنامله. منظر الرجل الجالس إلى المكتب ومسدس في يده يذكره بصورة مدير المصرف الذي أفلس بسبب الاختلاس أو المقامر الذي خسر كل شيء، كما نراهما في القصص الغربية.. لا بد أنه ابتسم للفكرة مرة أخرى..

أعرف يقينًا أنه ألصق الفوهة بصدغه وأنه شعر بالمعدن البارد القاسي هناك يضغط على شريانه.. أعرف أنه تحسس الزناد.. أنه أغمض عينه.. أنه ضغط الزناد القاسي..

أعرف أنه لا يعرف أي شيء عما حدث بعدها..

أعرف أن الجزء المجهول من رحلته قد بدأ.. هو ليس رحالة من الرواد يبحر إلى بلاد التوابل، بل هو يبحر إلى الأرض التي رحل لها كل بشري من قبل، لكن أحدًا لم يعد ليحكى، وفي هذه اللحظة تفوق علينا في أنه عرف.. فقط لم يعد من حقه أن يعود بمعرفته تلك لعالمنا..

أعرف أنهم اتصلوا بزوجته (هالة) التي اتصلت بي.. كانت تولول في الهاتف فانتزعت منها الكلمات بكثير من العسر.. قالت إن (فوزي) مات.. من المهين

لكبرياء الزوجة أن ينتحر زوجها.. لابد من أن يظل حيًا إلى أن تقتله هي بالضغط..

كان أول سؤال قلته هو : (لماذا؟)، لكنها كانت قد وضعت السماعه.. هو سؤال سخيف على كل حال..

هكذا وجدت نفسي هناك في مكتبه أنظر إلى الفوضى التي سببها.. انظر إلى قدح القهوة ولغافة التبغ الأخيرة واليوم الصور.. لابد أن الكل يتساءل عن السبب.. بالفعل لم يترك أي شيء.. لا خطابات ولا تسجيلات صوتية.. ليست زوجته من الطراز الذي يدفع أزواجه للانتحار..

(فوزي) تلميذي وهو أديب لا بأس به ورجل قوي الشخصية.. وليس من الطراز الذي يفر أو هذا ما كنت احسبه عنه..

هناك في المشرحة كانت الجثة ممددة على مائدة من رخام. وكان الفم مفتوحًا وفي العين نظرة خاوية.. الصدغ قد نسف بالكامل. أنا رأيت موتى كثيرين لكني لم أعود المشهد بعد وخاصة لو كنت أعرف القتل جيدًا.

أسأل الطبيب الذي وقف هناك ينظر لي:

- «هل مات في الحال؟».

- «ماذا تظن؟».

- «ولماذا انتحر؟.. هل يعرف أحد؟».

نظر لي في عدم فهم وقال:

- «تقصد لماذا قتل؟.. هذا ما تريد قوله.. هذه جريمة قتل.. من تحدث عن انتحار هنا؟».

ثم شرح لي السبب.. لم يكن الرجل قابضًا على مسدس.. لم يكن المسدس موجودًا.. لقد تسلل القاتل إلى مكتبه وأرغمه علي أن يفتح له الأدراج بحثًا عن شيء ما ثم ثبت فوهة المسدس إلى صدغه وأطلق الرصاص..المنتحرون لا يتخلصون من المسدس بعد انتحارهم.

كنت أنا أنظر إلى الجثة في غباء.. تذكرت أن أحدًا لم يقل حرفًا عن الانتحار.

لكني أعرف جيدًا ما حدث..

كأنني كنت هناك.. لقد رأيت كل شيء كاملاً وأنا جالس في منزلي، ولا أملك تفسيرًا سوى العلاقة الروحية القوية بيني وبين (فوزي). ربما هو التخاطر.. ربما هو نوع من إحساس الروح بروح مماثلة. لا أعرف بالضبط..

أعرف جيدًا حالة الاكتئاب التي دهمته مؤخرًا.. أعرف خلافه مع زوجته.. أعرف أن شيئًا لم يعد يثير اهتمامه ولو أنه وجد مليون جنيه لما كلف نفسه بأن يأخذها.. أعرف أنه كف عن القراءة ولم يعد يكتب حرفًا.. لم يعد يمارس عمله وأخذ إجازة لمدة شهرين..

أعرف أنه لم يعد يأكل تقريبًا، ، وأن شقته خالية من الطعام باستثناء كيس بلاستيكي فيه بقايا فول ونصف رغيف بال على الموقد..

أعرف أنه يتعاطى علاج الاكتئاب سرًا بلا جدوى تقريبًا.. أعرف أن التلفزيون

تألف منذ أشهر فلم يكلف خاطره بإصلاحه..
أعرف أن لديه مسدسًا مرخصًا يملكه منذ الفترة التي تلقى فيها تهديدات بالقتل بسبب خلاف عائلي.. أعرف أن فكرة الموت تروق له بشدة..
أعرف أنه أعطاني مفتاح بيته كي أعمل له اللازم لو حدث له شيء، وأنا سخرت منه وقلت له أن يكف عن هذا السخف..
لكنني كنت جالسًا في داري وسط صخب العيال وأمهم، عندما شعرت بذلك الخاطر يتردد في ذهني: «تخلص من المسدس.. لا أريد أن تتلوث سمعتي»..
هكذا يتردد بلا انقطاع.. دخلت إلى غرفتي وأغلقت الباب لكن الصوت ظل يتردد: «تخلص من المسدس. أرجوك»..
ومع الخاطر كانت مشاهد مما يسميه السينمائيون (فوتومونتاج).. أراه يجلس إلى المكتب.. يحاول كتابة شيء.. يشعل لفافة تبغ...
هكذا عرفت ما حدث..

كانت الحادية عشرة مساءً لكنني غادرت البيت مسرعًا، وانطلقت بسيارتي إلى بيته.. فتحت الشقة بالمفتاح الذي معي ودخلت متوجسًا.. كان المشهد الذي رأيته فظيعة.. الدم يلوث كل شيء. من المدهش أن رأسنا يحوي كل هذا الدم.. فرغت من الرجفة والهستيريا وصار علي أن أكون عمليًا..
«تخلص من المسدس.. لا أريد أن تتلوث سمعتي».. هذه هي الرسالة التي تلقيتها. أنا أعرف أنها منه فلا تقنعني بالعكس من فضلك..
هو لا يريد أن يعرف الناس أنه انتحر. هناك غياب في هذا على كل حال، فلو أراد لابتلع بعض أقراص الدواء تاركًا هامشًا من الشك في حدوث خطأ في الجرعة، أو سقط من الشرفة.. كل الساقطين من الشرفات يتركون علامات استفهام تتراوح بين الحادث والانتحار والقتل..
على كل حال انتزعت المسدس من يده ودسسته في جيبي.. فتحت كل الأدراج في مكتبه بعد ما لففت يدي في منديل.. لا أعتقد أنني لمست أشياء كثيرة، لكن من المتوقع أن تكون بصماتي هنا على كل حال.. أنا الوحيد الذي يزوره...

هل يجرون اختبار (المولاج) هنا في مصر؟.. هذا الاختبار يمكنه أن يعرف إن كان هو الذي أطلق الرصاص أم لا، من أثر النترات على أصابعه.. لو فعلوا لكان ما أقوم به بلا جدوى، لكن لا يوجد حل آخر..
غادرت الشقة مستريح النفس نوعًا. الانتحار يلقي أسئلة كثيرة ويلوث سمعة الشخص ومن حوله، وهو لم يرد ذلك. بينما القتل يجعلك ضحية يتعاطف معها الجميع..
ما فعلته سوف يحير الشرطة بعض الوقت، ورجالها يبحثون عن القاتل الذي تسلل إلى شقة الأديب الوحيد ليقتله ويفر، لكن هل كان بوسعي أن أرفض آخر طلب من (فوزي)؟

ابتعدت بضعة كيلومترات بسيارتي، ثم غادرتها وتخلصت من المسدس في

مقلب قمامة..

هكذا صرت في داري عندما جاءت مكالمة (هالة) الباكية..
أعرف جيدًا أن (فوزي) راض عني... أنا قمت بتبرئته من جريمة قتل.. قتل النفس.. لا أعتقد أنه من المفيد أن يعرف الناس أنه انتحرو..

«شكرًا».. العبارة تتردد في ذهني طيلة الوقت.. من الذي يشكرني سواه؟
عندما دق جرس الباب بعد يومين فتحته لأجد النقيب (فلان) والرائد (فلان) يقفان واجمي الوجه.. نريدك بعض الوقت عندنا يا دكتور (محفوظ)..

ماذا هنالك؟.. هل من شيء جديد؟
هناك في مديرية الأمن يخرج لي أحد رجال الشرطة مسدسًا في كيس بلاستيكي ويقول لي:
- «هل تعرف هذا؟»..

ويقول آخر:

- «أحد جيران (فوزي) رآك تدخل البناية في وقت يتناسب تمامًا مع وقت الجريمة.. كان هو في بئر السلم في الظلام فلم تراه.. المدام تقول إنك خرجت في ذلك الوقت تقريبًا ولا تعرف إلى أين.. بعد هذا رأى أحد المخبرين أثناء عودته لداره سيارة فيات بيضاء تتوقف قرب مقلب قمامة وسائقها يتخلص من شيء ما.. الحقيقة أن سيارتك فيات بيضاء.. لقد تأكدنا من هذا.. دعك من أن وصفه لراكب السيارة ينطبق عليك بدقة.. الشيء الذي تخلص منه راكب السيارة هو هذا المسدس..».

ويقول ثالث:

- «أنت الوحيد الذي يملك مفتاح شقة (فوزي) وكان بوسعك الدخول والخروج متى شئت.. سوف نفحص البصمات على هذا المسدس وإن كنت أعتقد أنها بصماتك..».

ويقول رابع:

- «فقط نريد أن نعرف لماذا فعلت ذلك يا دكتور؟.. كان الفقيد يحبك ويعتبرك أباه!».

أعرف جيدًا..

أعرف أن الموقف عسير.. سوف أحتاج إلى وقت طويل لأقنع هؤلاء السادة أنني قمت بتحويل الانتحار إلى جريمة قتل من أجل ذكرى تلميذي. سوف أحتاج إلى وقت طويل حتى أقنعهم بموضوع التخاطر والعبارات التي تتردد في الذهن.

أعرف جيدًا أنني في أمس الحاجة إلى اختبار المولاج الآن.. هو الاختبار الوحيد الذي يمكنه أن يثبت أن (فوزي) هو الذي أطلق النار لا أنا.. وحياة والدك.. هل تعرف إن كان هذا الاختبار يجري في مصر أم لا؟

بيضة ودجاجة

آخر الليل.. وذلك الشعور بالشجن في ذلك المقهى الذي تناثرت في أرجائه علب السمن الفارغة التي زرعوا فيها الياسمين كأنها أصص.. ساحة واسعة مسقوفة، ومن السقف تتدلى نباتات الظل، هناك زئر ماء يقف على حامل ثلاثي، مع الإضاءة الخافتة الجميلة..

يأتيك (خميس) بصينية عليها كوب الشاي ذو اللون الياقوتي الجميل، وعلى طبق صغير بضعة أوراق من النعناع.. تشعر بأنك تستعيد روحك مع رشقات الشاي بالنعناع. تقرر الشيشة في مكان ما، فتتصاعد رائحتها المسكرة إلى أنفك.. أنا لا أدخن الشيشة إلا لمأماً لكنني أحب رائحتها وجو الدفء الذي تبعثه من حولها..

في مكان كهذا يصعب أن ترى شباباً.. إنه أكثر هدوءاً ووقاراً وشعبية مما يناسبهم.. في مكان كهذا يستحيل أن ترى جهاز تلفزيون يعرض الفيديو كليب.. يستحيل أن ترى فتاة تشرب الشيشة كتلك العادة اللعينة التي لا أصدقها حتى اللحظة.. يستحيل أن تدخن المرأة الشيشة بمزاجها ما لم تكن معلمة في المذبح.. أعتقد أنها تدخنها لأن لها زوجاً أو خطيباً أحمق يعتقد أنها بهذا تصوير مغرية..

ثم يأتي الأستاذ (محروس)..

تعرفه من ثيابه الرثة التي توحى بعز مضي، وتعرفه من العود الذي يحمله ومن نظارته السمكية التي توشك أن تجعله يبدو كالمكفوفين، برغم أنه كان مبصراً.. تلك اللمسة والبسمة الواثقة الخافتة المميزة للموسيقار العبقري الكفيف.. سيد مكاي.. الشيخ إمام.. ستيغي واندر.. عمار الشريعي..

يجلس الأستاذ (محروس) ويحيينا بكفه المفتوحة ثم يمسح بها على صدره، ويطلب الينسون.. لا.. ليست (الحلبة الحصى) كما يفعل الآخرون.. يشرب في استمتاع وتلذذ، ولا ينسى أن يلقي علينا نظرة من حين لآخر مكرراً ذات التحية:

- «د. محفوظ.. كيف الحال؟.. ربنا يكرمك».

- «عم (عطية).. كيف حالك؟.. نحمد الله».

ثم تأتي اللحظة التي انحبست لها الأنفاس.. تبدأ أنامله تجري على الأوتار وتتصاعد أنغام تسلب لبك.. أنغام قادمة من ذلك المنجم السحري الذي كان موتسارت وسيد درويش وعبد الوهاب وبيتهوفن وباخ يعرفون مكانه ويعملون فيه.. يبدأ بأغان معروفة لأمر كلثوم، ثم يعرج على الحان لم نسمعها من قبل وأغان تثير ذهولنا.. هذا أروع شيء في العالم.. كأنني واحد من ملوك ألف ليلة وليلة الذين يشقون ثيابهم طرباً ويغشى عليهم كلما سمعوا أبياتاً معينة تتغنى بها جارية..

هذه اللحظات تدوم حتى الساعات الأولى من صباح الجمعة، فنعود لديارنا غير مصدقين.. بالطبع لم أكن أنام لأن صلاة الجمعة بعد ثلاث ساعات أو أربع،

لذا كنت أنتظر حتى أصليها وأتناول الغداء ثم أنام.. والنوم كان بلا أحلام سوى صوت غناء الأستاذ (محروس)..

كانت له أغنية شهيرة قام فيها بتلحين قصيدة:

«أضحى التنائي بديلاً عن تلاقينا.. وناب عن طيب لقيانا تجافينا».

التي كتبها (ابن زيدون) في فاتنته القاسية (ولادة بنت المستكفي)، وكان صوت الأستاذ (محروس) ولحنه يسموان بها إلى مرتبة تفوق السيمفونيات.. دائماً كنا نسأله:

- «ما كل هذه الروعة؟.. ولماذا لا تقدم الإذاعة هذه المجوهرات للناس؟».

كان يقول وهو يرشف الينسون إجابة واحدة لا تتغير:

- «ما فيش نصيب..».

هكذا أمضيت أعواماً ساحرة من حياتي، وإن كانت ظروفني لم تسمح لي بالانتظام في حضور (حفلاته) ليلة الجمعة تلك.. لكنني عرفت يقيناً أن نشوة كهذه لن تبقى للأبد. سوف يموت طبعاً وسوف يشتري أحدهم المقهى الجميل ليحوّله إلى محل للملابس الجاهزة.. ربما يبنون برجاً تجارياً مكانه.. طبيعة الحياة أن شيئاً بهذه الروعة لا بد أن يزول..

وقد كان هذا اليوم أقرب مما تصورت..

لقد اتصل بي صديق مشترك ليخبرني أن الأستاذ محروس يلفظ أنفاسه الأخيرة في المستشفى، وأن علي أن أزوره لأنه راغب في رؤيتي..

هكذا هرعت إلى المستشفى الحكومي حيث العناية المركزة، ووجدت فراشه بصعوبة وسط الأطفال الصارخين ومواقد الكيوسين وسلال الأطعمة والقطط المسعورة.. كان على الفراش وحده وقد ثبتت إبرة وريدية في ساعده، وكان نائماً.. فلما لمست ساعده في رفق فتح عينه ونظر لي.. تهلل وجهه برغم أنه لا يلبس نظارته السمكية تلك.. حاول النهوض فأرغمته على أن يبقى حيث هو.. قال لي:

- «لقد تلف الكبد تماماً.. لا تخف.. لا يوجد شيء معد في الموضوع، وإنما هي الخمر قاتلها الله.. كنت أشرب بلا توقف في شبابي.. إنما أردت أن أراك لأودعك، وكى استودعك سري الذي أخفيته كل تلك الأعوام..».

إنه خرف الكبد طبعاً.. سوف يخبرني أنه أمي أو خالتي أو شيء من هذا القبيل..

قال لي:

- «في شبابي كنت معجباً بالأستاذ (محروس الشناوي) المطرب الكبير. كنت ألاحقه في كل مكان وأحفظ كل أغنية غناها.. كان الرجل بلبلاً يغرد على المسارح وفي الإذاعة.. وكان يلحن لنفسه على طريقة (عبد الوهاب) و(محمد فوزي)»..

قلت له في دهشة:

- «(محروس الشناوي).. هذا هو اسمك!».

- «لا.. اسمي الحقيقي هو (محمد غانم).. من (جنزور)».
- «لكنني لم أسمع عن (محروس الشناوي) الآخر هذا قط.. تقول إنه كان شهيرًا».

- «كان يشبهني في كل شيء.. لكن مصيره تغير.. أنا غيرته.. هذه قصة طويلة قد تصدقها أو لا تصدقها..».

ثم بلل بلسانه شفته السفلى الجافة وراح يحكي:

- كنت في ذلك الوقت - لعلها الخمسينات - قد قرأت الكثير من كتب السحر.. وتعلمت الطريقة التي أرتحل بها إلى الماضي.. هذه أمور شديدة التعقيد وتحتاج إلى من كرس حياته بالكامل لها، لكنني كنت شبه مجنون بفكرة واحدة هي أن أرتحل لأرى بدايات الأستاذ (محروس الشناوي).. هكذا تمكنت بطريقة ما أن أدخل في غيبوبة، فتحت عيني منها لأجد أنني قد عدت للماضي.. إلى بداية القرن العشرين، وكنت البس ثيابًا بلدية لا تدل على زمني كما إنني كنت أحمل قطعة ذهبية لأبيعها إذا احتجت إلى مال. ورحت أنقب عن (محروس).. كنت أعرف يقينًا أنه يتواجد بكثرة في مقاهي باب الشعريّة. هكذا وجدته أخيرًا.. كان شابًا يشبهني إلى حد كبير وإن بدا عليه الخرق وعلامات الحيرة.. كان يصغي لكل المطربين، لكنه لا يعرف كيف يبدأ ولا ماذا يصنع.. كل ما كان يقدر عليه هو أن يقلد السكندري العبقري (سيد درويش)...

أصابتني خيبة أمل وأنا أرى مثلي الأعلى عاجزًا عن أن يقدم لي أي شيء.. إلا إنني تعرفت عليه ومع الوقت صرنا صديقين خاصة أن سننا متقاربة. كان قد جاء من قرية قرب (بنها) إلا أنه وجد نفسه ضائعًا في القاهرة.. وقد دعاني لأن اقيم معه في ذلك البيت المتواضع على السطح.

لا أعرف كيف بدأ كل شيء، لكنني مع الوقت صرت أكلمه عن الموسيقى والتلحين.. اقترحت عليه أن يلحن قصيدة (ابن زيدون) الشهيرة (اضحى التناهي.....).. وقد اقترحت عليه اللحن الذي احفظه عن ظهر قلب، فجره، وكان أن انشده في المقهى أمام أحد أساتذة الطرب فجن جنون هذا الأخير.. رحّ من وقت لآخر أقدم له لحنًا من ألحانه التي سيكتبها في المستقبل.. أدندن له اللحن وأعزفه على العود.. عن طريقي عرف لحن (يا غادة) ولحن (يا بو شامة على جبين القمر).. في الحقيقة كان منبهراً لا يصدق.. شعر بأنني أرسلت له من السماء، ولم ير غضاضة في أن ينسب (ألحاني) هذه لنفسه..!.. هكذا بدأت شهرته تتنامى وتتنامى.. سجلت له اسطوانات وذهب إلى الإذاعة..

كانت مهمتي عجيبة.. أنا ألهمه بألحانه التي سيؤلفها فيما بعد.. على أن هذه الشهرة لعبت برأسه وجعلته يسرف في إتلاف صحته، بدأ يدخن الحشيش ويعاقر الخمر.. لقد فقد صوابه تمامًا.. حتى جاءت الليلة التي وجدته ميتًا فيها بعد جرعة زائدة من الأفيون..

بكيت على جثته بكاء شديدًا، وقد شعرت بأن التاريخ تغير تمامًا بسببي.. لن يكون هناك (محروس الشناوي) أستاذ الأجيال العظيم، ولن يقدم ألحانه

الباهرة التي كنت أسمعها في شبابي قبل عودتي لزمه.. ثم خطرت لي فكرة شيطانية.. لماذا لا أكون أنا (محروس الشناوي)؟.. إن التشابه بيننا قوي كما تعلم.. لو لبست مثله ووضعت نظارة سوداء فلن يلاحظ أحد شيئاً خاصة أن علاقته مقطوعة بأقاربه، وهكذا قمت بدفن جثته سرّاً بمعونة صديق لي، ثم خرجت إلى المجتمع وأنا أغني تراث الرجل.. من حين لآخر أقدم أغنية جديدة مما كنت أحفظه.. بعضها أغنيات كان سيقدمها في الخمسينات قبل رحيلي مباشرة..

لكن حظي كان يختلف عن حظه.. يبدو أنني افتقر إلى وهج النجاح، أو لعل إدمان الخمر قضى على فرصتي في الترقى.. هكذا رحت أهوي باستمرار برغم أن ألحاني كانت رائعة، وقد بعث بعض الأغاني بخمسة جنيهات، برغم أنها صنعت مجد (محروس الشناوي) الحقيقي..

صرت أغني في المقاهي مقابل أجر بخس أو مقابل المشاريب.. وهي ذي حياتي قد انتهت من جديد، دون أن أترك شيئاً سوى بضعة ألحان ليست لي، ودون أن أترك أسرة أو ولداً...».

ثم أوشك على البكاء، فرحت أهدئه وأنا أنظر إلى اللون الأصفر المتزايد في عينيه..

عندما انصرفت قلت لنفسني إنها هلوسة لكنها هلوسة ممتعة.. كانت لي خالة تعاني فشل الكبد وكانت تحكي قصصاً مضطربة عجيبة، لكن قصة الرجل مترابطة.. خيالية نعم لكنها مترابطة..

بعد يومين كنت استعد للذهاب له في المستشفى، عندما عرفت أنه توفي أمس..

في الفترة التالية أجريت بعض التحريات عن طريق قريب لي في جنزور.. عرفت أن هناك فتى اسمه (محمد غانم) من جنزور اختفى بلا سابق إنذار ولا تفسير في خمسينات القرن العشرين.. هل يعني هذا شيئاً؟.. بالطبع لا..

لكن لو صحت القصة جداً لكانت قضية فلسفية محيرة.. من هو صاحب الألحان؟... (محمد غانم) سمع الألحان فعاد للماضي ليلقنها لـ (محروس الشناوي) صاحبها الأصلي!.. (محروس الشناوي) الشاب لم يتعب في تأليف الألحان وإنما وجد من يلقنها على مسمعه تلقيناً.. فهل هو سارق؟.. سرق ماذا؟ سرق ألحانه الخاصة التي سيكتبها بعد عشرة أعوام!

تذكرت قصة الشيخ الذي ذهب إلى أهل الشاعر (أحمد شوقي) يوم مولده ليحذرهم من كارثة: «ابنكم سوف يكبر ويكتب قصيدة تسيء للإسلام تبدأ بالبيت: رمضان ولى هاتها يا ساق.. مشتاقة تسعى إلى مشتاق!». يكبر أحمد شوقي ويصير شاعراً كبيراً، هنا يخبره أهل البيت مازحين بنبوءة هذا الشيخ. يروق بيت الشعر لشوقي فيكملة بقصيدته الشهيرة.. السؤال هنا هو: هل الشيخ هو سبب كتابة شوقي لهذه القصيدة إذن؟.. أم أنها كانت نبوءة صادقة؟

متى تبدأ هذه الدائرة ومتى تنتهي؟.. من الذي تعب في صياغة الألحان؟..

(محروس الشناوي) الأصلي؟... لكنه لا وجود له.. كلا الرجلين أخذ الألمان على الجاهز..

معضلة البيضة والدجاجة تتكرر من جديد بالحاح شديد، فلا حل لها سوى أن يكون الأستاذ محروس كان يهلوس فعلاً بسبب الغيبوبة الكبدية. هذا هو الحل الوحيد الذي يريحني ويمنع رأسي من الانفجار!

أنا والكلب

عزیزتی هالة:

أعرف أنني لم أكتب لك منذ فترة طويلة، لكن الأفكار تصطرع في ذهني إلى درجة أنه لا بد من أن أجلس وأكتب. هناك لحظة ما في حياة المرء يراجع فيها كل مسلماته ويعرف أنه لا يعرف أي شيء على الإطلاق. أنت تعرفين أن بيتي قريب من الكلية، وأنا في هذا من المحظوظات القليلات في العالم اللاتي لا يضطررن إلى البحث عن وسيلة مواصلات. لا أعرف معنى كلمة (زحام) ولم أجربها، ويقال على سبيل السخرية إنني سأبقى في الكلية للأبد، لأن التخرج معناه فقدان هذا الحظ الحسن.

كانت محاضراتي متصلة في ذلك اليوم واضطرت إلى البقاء حتى بدأت الشمس تنحدر نحو الغرب. لا أخفي عليك أنني منذ الطفولة أشعر بتقلص في معدتي عندما تغيب الشمس وأنا ما زلت في الدراسة. خاصة عندما يغلقون النوافذ ويضيئون النور الكهربائي في قاعات الدرس، فهذا يشعرني بأنني موشكة على الإغماء.. كأنني تأخرت جدًا ولن أعود إلى داري أبدًا.

طبعًا تغلبت على هذه المشاعر الطفولية وبدأت المشي في الشارع عائدة إلى داري. لا بد لي من عبور تلك الساحة الخالية التي تبيت فيها سيارات المنطقة، وهي ساحة مأمونة باستثناء تلك الكلاب الشرسة التي يأتي بها خفير الجراح من وقت لآخر. لكنهم علموني أن أنظر للأرض وأمشي في هدوء حتى لو شعرت بأنفاس الكلب الحارقة على ساقي.

في هذه المرة كان ذلك الكلب يقف أمامي وينظر لي في ثبات. لم أر من قبل هذا الكلب فهو وجه جديد فعلاً. كلب رمادي يبدو أنه متقدم في السن، في عينيه نظرة حكيمة غريبة عارفة بكل شيء.. يقف هناك في وضع مألوف لدى الكلاب ويتابعني بعينه.. ثم بدأ يمشي خلفي.. يمشي في تؤدة وبلا عصبية أو حماس.

لا أعرف السبب لكن ملاحظته لي جعلتني عصبية. وقد وجدت نفسي أجد السير حتى أوشك على أن أقع في المحذور وأجري. وبلغت بيتي أخيرًا فقط لأجد أن الكلب يقف أمام باب البناية وهو ينظر لي تلك النظرة الغامضة!

لم أستطع فهم الطريقة التي سبقني بها.. لكنني على كل حال مررت جواره في حذر، وسرعان ما رحت أركض على الدرج خائفة من أن يلحق بي قبل أن يفتحوا الباب. لا لم يحدث شيء كهذا..

في الأيام التالية كنت أراه باستمرار.. تقريبًا لم يمر يوم دون أن أراه وتصدمني عيناه الغريبتان.. أغرب عيني كلب رأيتهما في حياتي. فيهما شيء بشري لا شك فيه.

اليوم فقط أفكر في موضوع تناسخ الأرواح الذي قرأت عنه كثيرًا. أعرف أنه مرفوض وغير وارد لكنه يلاحقني فعلاً. حسب مفهوم تناسخ الأرواح فإن أرواحنا تخرج من أجسادنا لتولد في جسد آخر قد يكون بشريًا وقد لا يكون..

دورات حياة لا تنتهي..

للمرة الأولى أفكر في أن هذه القصة قد لا تكون خيالية تمامًا. هذا الكلب يحمل شيئًا بشريًا فلماذا لا يكون كذلك؟

لماذا لا يكون هذا الكلب ذو العينين الناطقتين تناسخ روح إنسان مشى على هذه الأرض يومًا؟.. هذا هو التفسير الوحيد بالنسبة لي لنظراته المعبرة الغريبة.

نعم يا صديقتي الحبيبة.. الأمر بهذا السوء وألعن. صديقتك تمضي الوقت في بيتها تفكر في كلب! إن غرائب الحياة لا تنتهي عند حد.

غادة

عزيزتي هالة:

تذكرين الكلب الذي حكيت لك عنه في خطابي السابق. نعم.. لا تندهشي فالموضوع يهمني فعلاً. كنت أعبر تلك الساحة ووجدته كما يحدث في كل يوم، لكنه كان يعرج قليلاً.. دقت النظر فكتشفت أنه ينزف من قدمه.. المسكين قد داس شيء على قدمه الخلفية، ولعلها سيارة يركبها غبي ما حاول أن يركنهما في الجراج، غير مبال بوجود كلب نائم خلف الإطار. انفطر قلبي للمنظر ومشيت لبيتي فوجدته يتبعني كالعادة وهو يعرج.. هذه المرة صعد معي إلى الشقة، ولما لم يكن هناك أحد في البيت فقد أدخلته.. كانت هناك دجاجة في الثلاجة فاقتطعت ربعها ووضعتها على جريدة أمامه. رحت أراقبه للمرة الأولى في حياتي عن كثب وهو يأكل في نهم. من الواضح أن حياة كلاب الجراج ليست سعيدة جداً.. ما أغرب منظره، وما أعجب تعبيرات وجهه ونظراته لي!.. على كل حال أحضرت بعض المطهرات والبلاستر والشاش وقمت بتضميد قدمه كما اتفق، ثم أخرجته على باب الشقة وطلبت منه أن ينصرف لكنه ظل واقفاً.. هكذا عدت إلى الجراج معه وهو يركض خلفي.. هناك لوحته له مودعة وطلبت منه أن يعنى بنفسه وألا يجلس في الشمس كثيراً.. هذه المرة يبدو أنه فهم لأنه أقعى على الأرض وراح ينظر لي في ثبات..

هذه النظرة تثير جنوني!... أحياناً أعتقد أنني في قصة حب.. مع.. مع كلب؟! لو كانت نظريات التناسخ هذه صحيحة فعلي أن أقبل أنه كان رجلاً في السابق. هذا خير من أن أقبل أنني كنت كلبة!

سامحيني على هذا الهذيان. لا بد من شخص يمكن للمرء أن يهذي معه وهو آمن، بينما يهذي المرء مع خطيبه فيفسخ الخطبة. يهذي مع أبويه فيأخذانه للطبيب النفسي.. يهذي مع أستاذه فيفصله من المدرسة.. لهذا تحمليني قليلاً!

غادة

عزيزي فوزي:

سامحني على ما سأقوله في هذا الخطاب.. لا بد للمرء من أن يجد حرية الهذيان من وقت لآخر وإلا انهيار. عندما كنت في لندن عرفت حديقة هايد بارك التي يقف فيها الخطباء. هناك من يرى أنه أجدر بعرش بريطانيا ومن يرى ضرورة خنق الأطفال الرضع.. كل هؤلاء يهذون في حراسة رجال الشرطة، وهو تصرف حكيم من حكومة تعرف أنه ما لم يسمح للمرء بالهذيان العلني فإنه ينفجر.

أكتب لك لأشكو تلك الكوابيس الغريبة التي تحتاج عالمي من وقت لآخر في الآونة الأخيرة. أولاً أنا أحب.. لا تخف.. هذا الحب لن يتبعه أي شيء من طلاق وزواج وكل هذا السخف، لأن الفتاة التي أحبها في عمر بناتي. لكنني متعلق بها بشدة فعلاً.. ثمة شيء في عينيها يذكرني بشيء آخر حميم عزيز. هذه الفتاة طالبة في كلية ما وهي تمر أمامي كثيراً جداً وتنظر لي نظرة تقول بوضوح: أنا أعرفك كما تعرفني.. لكن متى؟

كل هذا جميل ومفهوم، لكن تلك الأحلام لا تفارقني.. في كل مرة أتخيل أنني كلب تعس الحال.. كلب ضال يمشي بلا صاحب في ساحة خالية ثم تمر هي أمامي فأتبعها..

أتبعها في شارعها..

أتبعها على درجات سلم دارها..

هذا الكابوس يتكرر مراراً..

أحياناً أراه ليلاً وأحياناً في نوم القيلولة. مؤخراً حلمت بأن سيارة شاب عابث داست على قدمي فرحت أنزف، وأنيح ذلك النباح الممزق للأفئدة المميز للكلاب الجريحة، ثم جاءت هي كأنها الملاك ونظرت لي في شفقة ثم اصطحبتني إلى دارها حيث قدمت لي دجاجاً على جريدة وربت على رأسي، بعدها ضمدت قدمي بيدها الرقيقة وأنا أنظر لوجهها غير قادر على إبعاد عيني. كانت تقول لي كلاماً رقيقاً مثل (يا لك من بائس!).. لماذا لا تهتم بنفسك أكثر؟.. اصمد يا صغيري).. ثم إنها اصطحبتني إلى تلك الساحة وهي تطلب مني أن أعنى بنفسني وألا اجلس طويلاً في الشمس.. الخ.. ثم صحت من نومي.

لن أحكي لك عن الباقي ولا عن الجرح الذي وجدته في ساقي عندما كنت أتوضأ للصلاة.. من أين جاء؟.. من ضمده لي؟.. رأيت هذا الجرح من قبل في الساق الخلفية للكلب.. وقد ضمده يد رقيقة طويلة الأنامل.

أنا موشك على الجنون. أين عرفت هذه الفتاة ومتى؟.. لماذا أرى هذه الكوابيس الغريبة؟.. لو كانت نظريات التناسخ حقيقية فأنا قد عرفت في مكان ما في موضع ما من قبل.. لكن أين؟.. هل على ضفاف النيل بينما جند تحتمس الثالث ينقلون أسراهم؟.. أم في قرية صينية ما في عهد المنج؟.. أم كانت من قبيلة الشيين وعرفت في عندما ذهبت لأبتاع بعض الفراء منهم؟.. أم كانت ترقص البولكا في زفاف صديقي في تلك القرية الأوكرانية ودعوتها إلى

شرب الفودكا معي؟

لا أعرف.. لكن الإجابة عن تلك الأسئلة موجودة في ذات الكهف الذي تجد فيه سر الحياة وسر الخلود وسر هجرة أسماك التونة وانتحار الحيتان في أغسطس..

م

عزيزي فوزي:

حدث شيء غريب اليوم. كنت عائداً إلى داري عندما خطر لي أن أجتاز تلك الساحة الخالية التي يوجد فيها ذلك الجراج. كثيراً ما أرى تلك الفتاة التي أجهل اسمها هناك. كنت أمر تحت شرفة بيت، عندما رفعت رأسي فجأة لأجد ربة بيت فظة بدينة تحمل دلوًا من الماء وتسكبه فوق رأسي. لم يكن الوقت كافياً إلا لأرفع يدي في شبه استغاثة ثم هوى الماء البارد القذر فوقي.

هل تعرف ما حدث؟

وجدت نفسي من جديد في كابوس الكلب.. كلب مبتل يركض مذعوراً مبتعداً.. يركض في الساحة وسط السيارات الواقفة. رأيت الفتاة الرقيقة تنظر لي في اهتمام. على قدر علمي هذه أول مرة أدخل فيها ذلك الكابوس من دون نوم.

وفي هذه المرة طال الحلم كثيراً جداً.. طال.. قضيت يوماً كاملاً ككلب وصارعت الكلاب الغريبة، وحككت الكثير من البراغيث عن جلدي، وعرقت عظاماً ملقاة أمام متجر قصاب..

فقط عندما جاء الليل نمت.. هكذا أفقت من ذلك الكابوس لأجد نفسي في فراشي، من ثم قمت لأكتب لك هذا الخطاب.

هل تعرف الفكرة المربعة التي تلح علي؟.. أعتقد أنني لم أحلم بنفسي وأنا كلب.. الكلب هو الذي يحلم بنفسه ككائن بشري!.. د. محفوظ وحياته وأسرته وتجاربه ليسوا سوى أحلام كلب نائم في الظل!.. لقد كنت أحلم عندما مشيت في تلك الساحة وجاء دلو الماء البارد ليوقظني من الحلم، فرحت أركض مذعوراً كأني كلب سكبوا عليه دلو ماء بارد وهو نائم.

هي فكرة مخيفة: كل مغامراتي وحتى هذا الخطاب الذي أكتبه.. كل هذا وهم.. الكلب جرح في ساقه واعتنت به فتاة رقيقة. هكذا حلم بنفسه في صورة محفوظ الذي يكتشف جرحاً في ساقه. لماذا بدأت فترات الواقع الكلبية تطول هذه الأيام، وبدأت أجد نفسي كلباً أكثر من السابق؟.. في الماضي كانت حياتي كلها حلمًا طويلاً لا أكاد أفيق منه.. ربما لأن النهاية اقتربت وربما لأن تلك الفتاة ظهرت في حياة الكلب.. الكلب وقع في الحب وبدأ يفيق على الحقيقة..

حتى لو رددت على خطابي يا فوزي فهذا لا يدل على شيء. ربما أنت مجرد حلم آخر ابتكرته خلايا مخ الكلب. واستجابة الحلم ليست من الواقع في شيء..

هل تعرف ما سأفعله؟.. سوف أذهب إلى د. مصطفى مساء اليوم – الثلاثاء – وأقنعه بأن أمضي بضعة أيام في مصحته النفسية. ربما كان الضغط العصبي قد ازداد علي في الفترة الأخيرة. أحمد الله على أنني مثقف لدرجة تجعلني لا أخجل من قرار كهذا.

محفوظ

عزيزتي هالة:

لا أعرف أين ذهب.. الكلب الذي تزييني نظراته والذي حكيت لك عنه اختفى تمامًا منذ يوم الثلاثاء. أرجو ألا تكون سيارة قد دهمته في مكان ما. أعرف أنني أقول هذيانيًا لكنني بالفعل أفقده. أفقده بشدة...!

غادذ

يوم الأحد الكئيب

حزين هو يوم الأحد.. أمضيه مع الظلال..
قلبي وأنا قد قررنا أن ننهي كل شيء..
قريبًا سوف تكون هناك شموع وصلوات حزينة.. أعرف هذا..
قل لهم ألا يبكوا.. قل لهم إنني سعيدة للرحيل..
الموت ليس حلمًا لأنني في الموت المسك..
وبآخر نفس في روعي أباركك..
يوم الأحد الكئيب..
كنت أحلم، وصحوت لأجدك نائمًا في أعماق قلبي..
سوف يخبرك قلبي كم أفقدك»

كانت كلمات الأغنية الإنجليزية جميلة، وقد استمعت لها عدة مرات في سيارتي. اللحن كذلك وصوت المطرب الذي لا أعرف اسمه كانا مؤثرين. أعرف أن كل ما يمت لـ (رانية) رقيق شفاف حزين، ولكن يجب ألا أخلط بين الأمور. من الممكن أن يكون المرء شفافًا رقيقًا – لا مانع – ويكون كذلك لصًا غيبًا..

(رانية) دخلت مكثبي أمس.. كانت دامعة العينين. جلست تنظر إلى الأرض بعض الوقت لا تجد ما تقول فطلبت لها مشروبًا غازيًا، وأنا أعرف ما ستقول.. قالت لي إنها آسفة.. قالت إنها نادمة على ما حدث.. قالت إنها ستكون أفضل..

لست قاسيًا بطبعي لكني أكره أن يعتبرني أحدهم أحرق. هذه الدموع الرقيقة ما كانت لتسيل لو كان لديها ضمير يؤدي عمله جيدًا. من قال إن اللصوص لا يكون عند ضبطهم؟.. اللصوص سيكون وكذلك القتل والمتهمات في قضايا الآداب.. كلهم سيكون بكاء حارًا عندما ينكشف أمرهم.. فهل هذا يدل على وجود ضمير؟؟.. يدل على صحة الضمير لكنه لا يدل على وجوده إن فهمت ما أعنيه..

قلت لها إنني آسف كذلك. أنا لست مسئولاً عن هذه الرسالة لحظة واحدة بعد ذلك. فلتفعل ما تريد. فلترسل طوب الأرض ينصحنني بالتراجع. فلتتصل بزوجتي كعادتها. فلتكلم د. صلاح صديق عمري. أنا متصلب الرأي عنيد ولن يتغير موقفي.

نظرت للأرض فاستطالت أهدابها أكثر. فتشت في حقيبتها عن شيء ثم ناولتني شريطًا.. شريط كاسيت ملفوفًا في ورقة، وقالت:
- «سوف أرحل فلن ترى وجهي ثانية، لكن يرضيني أن تتذكرني من وقت لآخر، لذا أرجوك أن تسمع هذا الشريط وأنت وحدك».

نظرت للشريط في حيرة. ليس لدي الوقت لسماع شريط اعتذار أو اعتراف

بحبها العميق لي. لا أحد يصغي لاعتراف بالحب من فتاة تمر بظروف هذه لأنها لن تقول سوى الكذب.. فهمت نظراتي فقالت:

- «هي مجرد أغنية.. أنت تعرف أنني كنت في الخارج منذ شهرين، وقد راقبت لي هذه الأغنية وأنا أرجو أن تسمعها».

هكذا انصرفت.. فتاة حساسة رقيقة وأنا اعتدت أن هذه الشخصيات الحساسة تؤذي الآخرين وتؤلمهم طيلة الوقت، وقديمًا قال أوسكار وايلد إن الشخص الحساس هو شخص يدوس على أقدام الناس جميعًا لأن قدمه هو تؤلمه..

استمعت إلى الشريط في السيارة على سبيل الفضول فلم أجد سوى تلك الأغنية (يوم الأحد الكئيب) وهي أغنية جميلة فعلاً كلها شجن كأنها وردة ذابلة، لكن هل تتوقع مني رانية أن أسمعها فأبكي وأهرع لها لأقول إنني آسف؟..

(رانية) غير متزوجة.. (رانية) حسناء ثرية أنيقة جدًا.. (رانية) تحضر لدرجة الماجستير وأنا المشرف على رسالتها. (رانية) تسافر كثيرًا للخارج، وفي وسعها أن تحضر معها ما تريد من مراجع. عندما قدمت لي تلك الملزمة الأنيقة الفاخرة عدت لداري متوقعًا أن أجد عملاً راقياً جديرًا بوجهها الجميل. بالواقع بدا لي الأمر محكمًا أكثر من اللازم. بعد نصف ساعة بدأت أفهم.. هذه الرسالة مسروقة بالكامل من إحدى رسائل جامعة الرقازيق، ومن حظها العاثر أن لدي نسخة منها.

رفعت سماعة الهاتف وطلبتها وقلت لها رأيي.. أنت لصة يا (رانية).. هذه سرقة علمية لا شك فيها، وأنا آسف لأنني وثقت بك. منذ هذه اللحظة أنا أرفض الإشراف على رسالتك..

- «د. محفوظ.. أنا آسفة».

- «وأنا كذلك آسف».

رانية ترسل لي الكثيرين من أصدقائي يطلبون أن أنسى الأمر.. أن أعطيها فرصة أخرى. أشخاص مهمون يتصلون بي. زوجتي تسألني عن سبب ضيقي من رانية بينما كانت لهجتي لا تخفي إعجابي بها. لا أطيق أن يسخر أحدهم من ذكائي.. إسخروا من شكلي.. من ثيابي.. من سيارتي.. من أنفي.. لكن لا تسخروا من عقلي من فضلكم فهذه إهانة بالغة.

في البيت قمت بتشغيل الشريط وجلست في غرفة مكتبي أدون بعض المسودات. كلمات حزينة فعلاً.. اللحن نفسه يوحى بالنهاية..

عند منتصف الليل نام الجميع وظللت وحدي في المكتب أنظر لضوء الأباحورة والظلال المرتسمة على الجدران. في ظروف كهذه جلس صديقي وتلميذي (فوزي) وحيدًا قبل أن يفجر رأسه بطلقة مسدس. يومًا بعد يوم يرحل رفاقي وغدًا يرحل أولادي وغدًا أصير وحدي تمامًا.. هل حققت في حياتي شيئًا حقًا؟.. لا أعرف.. كلام في كلام.. هواء في هواء..

من أنا؟.. وهل حقًا ما زلت ذات الشخص الذي كنته منذ عام؟.. منذ شهر؟..

منذ ثلاث دقائق؟

أتأمل وجهي في المرآة فأرى ملامح عابسة متجهمّة لا تبعث الطمأنينة في النفس. الواقع أنني أستطيع أن أفهم كيف يبلغ بالمرء مقت النفس حتى ليفجر رأسه.. هذا شيء مفهوم.

هكذا ظللت في اكتئاب يعتصر قلبي وقنوط لا أرى له مبررًا حتى الصباح.. من الصدفة أنه صباح الاحد.. سيكون أحدًا كئيبًا جديرًا بالأغنية.

ذهبت إلى العمل.. هناك قابلت د. (صلاح) صديقي العزيز، الذي قال لي وهو يرمق وجهي:

- «تبدو لي ميتًا..».

- «هذا حق.. أنا ميت فعلاً..».

وأطرقت ورحت أرشف قدح القهوة الذي طلبته بينما أددن لحناً يتردد في ذهني. قال لي في دهشة كأنه تذكر شيئاً:

- «ما هذا اللحن الغريب؟».

- «لا أدري.. ربما أغنية سمعتها أمس.. لا أذكر.. نعم.. هو كذلك.. أغنية سمعتها أمس».

قال في دهشة:

- «سمعة هذه الأغنية سيئة في الولايات المتحدة.. أنت تعرف أنني قضيت فترة طويلة هناك. يطلقون عليها اسم (أغنية الانتحار المجرية).. يدهشني أنك تعرفها».

- «لا أفهم.. هل أصلها مجري؟».

هز رأسه أن نعم ووعدني بأن يحاول تذكر القصة لأنه لا يذكر التفاصيل، ونصحني بأن أعود للبيت مبكراً لأنني مرهق.

اتصل بي قبيل المغرب وكان متوتراً جداً. قال لي:

- «لقد استرجعت كل البيانات بصدد أغنيته هذه.. لقد كتبها شاعر مجري اسمه (لازلو يافور). دخلت الولايات المتحدة عام 1936 وراقت لبعض المطربين الذين جعلوا شعراء منهم (سام لويس) و(دزموند كارتر) يترجمون كلماتها إلى الإنجليزية.. من هنا نشأت سمعتها السيئة».

- «آية سمعة سيئة؟».

- «أنها تغري من يسمعها بالانتحار!.. هذه أسطورة حضرية لكنها قوية جداً. ما زاد الطين بلة هو أن مؤلفها المجري انتحر عام 1968.. وثب من النافذة. تكرر انتحار الكثيرين بعد سماعها حتى أنها حرمت في بلدان كثيرة.. علماء النفس ينفون هذا الموضوع ويقولون إن سلوك الانتحار معد بطبيعته. مثلاً في قصة جوته الشاعر الألماني العظيم (آلام فتر) أطلق البطل الرصاص على رأسه، وبعد نشرها بدأ عدد كبير من الشباب الفاشل في الحب ينتحر بذات الطريقة. وقد أطلقوا على هذا اسم (تأثير فتر)..».

ثم صمت قليلاً قبل أن يضيف:

- «لكن هذه كلها خرافات طبعًا..».

» حزين هو يوم الأحد.. أمضيه مع الظلال..

قلبي وأنا قد قررنا أن ننهي كل شيء..

قريبًا سوف تكون هناك شموع وصلوات حزينة.. أعرف هذا..

قل لهم ألا يبكوا.. قل لهم إنني سعيدة للرحيل..».

كانت الأغنية تتردد في رأسي ومعها عيش دبابير. لماذا قضيت ليلة أمس أمقت نفسي إلى درجة الجنون؟ لماذا بدت لي فكرة الانتحار مقبولة إلى هذا الحد؟.. هل هي تلك الأغنية اللعينة بجوها المقبض؟

(رانية) ليست ساذجة.. لماذا اختارت لي هذه الأغنية بالذات كهدية؟.. أغنية عن الانتحار تقدمها للرجل الذي يملك خراب بيتها، وأراهن أنها لم تحاول أن تسمعها..

سواء كانت هذه الأغنية خرافة حضرية أم حقيقة فمن الواجب أن أتخلص من هذا الشريط المشئوم. لا يجب أن يسمعها واحد يعرف الإنجليزية.

دخلت إلى مكتبي وفتحت جهاز الكاسيت فوجدته فارغًا. من أخذ الشريط؟.. خرجت إلى الصالة وناديت زوجتي فجاءت من المطبخ وهي تمسح يدها من أثر الطهي. سألتها عن الشريط فقالت:

- «(محمود) كان يبحث عن شريط جديد يسمعه.. دخل غرفة المكتب.. ربما كان هو؟».

محمود هو ابني المراهق طبعًا، وهو يجيد الإنجليزية لأنه في مدارس لغات منذ صغره.

- «وأيّن محمود؟».

- «لا أعرف».

انفجرت صارخًا فيها واصفًا إياها بالبلاهة وعدم المسؤولية.. هي لا تفهم حرفًا من الإنجليزية ولو سمعت عشرة شرائط فلن تفهم شيئًا. رحت أفتش عن الفتى في كل غرفة وسألت أخوته عنه. فقط وجدت الشريط في جهاز الكاسيت في غرفته. قالت لي زوجتي مهدئة:

- «هذا هو الشريط.. لا تقلق.. أنت تعرف أنه يحافظ على كل شيء..».

ثم تذكرتُ فقالت في غيظ:

- «هل لأنه من (رانية) هانم تحدث كل هذا الصخب؟».

كان قد سمع الأغنية. عرفت هذا عندما قمت بتشغيل الشريط. هكذا خرجت من الشقة مسرعًا وقلبي يتواثب في فمي. أين يمكن أن أجده وكيف؟.. هنا رأيت نورًا غامضًا يتسرب من تلك الفرجة عند السطح.. نور دنو الغروب المميز الأرجواني.. هناك شخص قد فتح السطح وخرج..

وثبت الدرجات أربعًا أربعًا وقلبي يسبقني في الوثب. صبرًا يا محفوظ.. لا تكن أحمق.. كل هذه أسطورة حضرية لا أساس لها من الصحة.. الفتاة أرادت

إيذاءك بلا شك لكن هل حاولتها تلك ذات قيمة؟
دلفت عبر باب السطح لأجد آخر منظر توقعته في حياتي..
كان ابني (محمود) يقف هناك على السور ساهمًا ينظر للشارع تحته وقد
انحنى رأسه على صدره.. كان يبكي..
- «محمود!».

وهرعت نحوه بحذر وشعرت براحة عندما أمسكت بمنامته.. قبضت عليها
كفي بقوة وشددته للخلف فلم يقاوم.. سقط على ركبتيه وهو مستمر في
البكاء:

- «لا أعرف ما دهاني!.. فجأة شعرت أنني مجرد مراقب فاشل في الدراسة
والحب وكل شيء!»

- «وهل كنت تنوي أن...؟... قل لي إنك كنت تراقب الشارع لا أكثر..».

نظر لي وابتسم في مرارة وقال:

- «بالفعل.. لم انتو أي شيء.. صدقني.. فقط كنت أسأل نفسي عن شعور
الذين يقفزون من مكان مرتفع.. كنت أحسبني لن أفهمهم أبدًا لكني.. لسبب
ما أشعر بأنني أفهمهم».

احتضنته ومشيت به نحو باب السطح. سمعته يهمس بشيء ما هناك حيث
كان فمه قرب صدري، فسألته عما يقول.. قال:

- «لا شيء.. مقطع من أغنية إنجليزية يقول: قلبي وأنا قد قررنا أن ننهي كل
شيء.. لا أذكر أين سمعت هذه الكلمات».

- «لم اسمعها قط.. حاول أن تنسى..».

وكانت الشمس تنحدر نحو الغرب معلنة نهاية يوم الأحد الكئيب...

نظرية الفتاة الأخيرة

«أنا الفتاة الأخيرة لهذا سأنجو..

أنا فتاة.. هذه نقطة..

أنا بريئة طاهرة.. هذه نقطة أخرى.. لم يمسنني بشر حتى هذه اللحظة، ولم تلمس شفتاي لفافة تبغ ولم أتعاط أي شيء من تلك الأشياء اللعينة.. (نجلاء) كانت تدخن. أعرف هذا يقينًا.. (مها) كانت لا تمانع في شرب البيرة وتزعم أن البيرة ليست حرامًا.. قلت لها إنها تهذي.. البيرة حرام وتحتوي على كحول، فإن أرادت أن تشربها بعد هذا الإنذار فهي مشكلتها..

(عبير) تعرف الكثير من الفتية.. هي لا تريد سوى أن تترك حلمًا لا يتحقق في نفس كل شاب.. تترك جوعًا لا يشبع.. تترك ظمًا لا يرتوي.. هي تتسلى ولهذا هي تستحق ما يحدث..

لا تنس كذلك أن اسمي (عصمت).. اسم غير شائع لكنه يقع بالضبط بين الجنسين.. هذا عامل قوي آخر.

أخرج إلى الحديقة المظلمة.. أمشي فوق العشب الرطب. هناك صمت شديد ولا توجد موسيقا تصويرية متوجسة. لكن هذا لا يبعث الطمأنينة في النفس كما تعرف لأنه من الممكن في أية لحظة أن...

تدوي الصرخة!.. صرختي أنا طبعًا في هذه الحالة، والسبب أن قدمي تعثرت بجثة طرية مبتلة. نعم مبتلة.. إنه كل هذا الدم. الرأس مهشم بشيء ثقيل أما الملامح فملايح فتاة.. إنها (عبير) بالذات.. كنت أعرف هذا.. صمت الموسيقى يدل على وجود مفاجأة قذرة..

إنه في البيت.. في مكان ما هنا..

أهرع نحو باب الحديقة لكنني أرى ذلك الظل هناك. يدخن.. برغم أن هذا يجعل بقعة الضوء مرئية بوضوح ويجعلني أعرف أنه ينتظرني هناك، لكن لا بد من التدخين ليضفي عليه ثبات أعصاب..

لا يمكن الخروج من هنا.. سوف أراجع..

أجري إلى الباب الخلفي الذي يقود للمطبخ. هذا البيت غربي الطابع لذا هناك باب للمطبخ. أفتح الباب لكنني أتعثر في شيء طري آخر.. هذا (عادل)!... (عادل) مقتول على باب المطبخ.. هناك من قطع حلقومه. أرى هذا في الضوء الخافت..

(عادل) أيضًا لم يكن نقيًا جدًّا.. أعتقد أنه بشكل ما استحق ما حدث له.

أنا الآن في المطبخ المظلم. لا يمكن أن أضيء النور.. سوف أبحث في هذه الخزانة عن سكين.. فقط السكين العملاقة اللامعة سوف تمنحني بعض الطمأنينة. أفتح الخزانة ولكن.. هناك شيء ضخم يندفع نحوي.. يثب في وجهي.. صرخت ووثبت للخلف..

وعندما نظرت إلى الأرض أدركت أنه قط.. قط ضخم يتمسح في ساقي ويبدو

أن المسكين مذعور أكثر مني.. لكني أعرف قواعد هذه الأفلام: الخضة الأولى تأتي من القط، لكن ظهور القط ينذر بالهجمة الحقيقية دائماً.. فقط تأتي هذه الهجمة عندما يسترخي البطل ويهدأ..

فرصتي في النجاة عالية جداً على كل حال.. أنا أول اسم في تترات الفيلم، وأنا الفتاة الأخيرة واسمي (عصمت).. سوف أنجو..

رحت أردد بيني وبين نفسي (كانت فكرة سوداء.. كانت فكرة سوداء).. عندما اقترحت (هدى) أن تدعو صديقاتها وأصدقاءها في الكلية إلى عيد ميلادها هنا، في بيت أسرتها المنعزل في المقطم. بدت لي فكرة سخيفة غريبة الطابع. ولكن الأمسية كانت ممتعة مع (مها) و(عبير) و(نجلاء) و(مي) وبعض الأولاد المهرجين مثل (شريف) و(عادل). أهل (هدى) لم يكونوا موجودين.. بدت لي الحبكة غريبة جداً وتأكدت من صواب رأيي عندما نزلت (هدى) إلى البدروم لتحضر بعض زجاجات المياه الغازية لتضعها في الثلاجة بدلاً من تلك التي شربناها، هنا دوت صرختها المرعبة.. هرعنا لنرى ما هنالك فوجدناها معلقة من خطاف في البدروم.. خطاف يخترق عنقها. كان الكلب ينبح بقوة في الحديقة فخرج (ماهر) ليرى ما به.. سمعنا صرخته.. هنا فقط أدركت أننا في فيلم مثل (الصرخة) أو (هالوين) أو (أعرف ما فعلت الصيف الماضي) أو (مذبحة منشار الشريط في تكساس)، وأدركت أن هناك سفاخاً بيننا.. من قواعد أفلام الرعب أن من يذهب ليعرف سبب نباح الكلب لا يعود أبداً..

تأكد ظني عندما حاولنا طلب الشرطة.. شبكة المحمول معطلة والهاتف العادي مقطوع. فلنفر من البيت يا شباب.. لنركض حتى أقرب بيت للجيران..

لكن الباب موصد (ألم يكن مفتوحاً منذ دقائق؟).. النوافذ موصدة.. هكذا تصرفنا بالحماسة المعهودة في الأفلام وتفرقنا وكل واحد منا يبحث عن طريقة للفرار.. لا أعرف ما فعله الآخرون لكنني أعرف أن (عادل) و(عبير) هلكا.. لقد وجدت سلماً صغيراً في القبو استطعت عن طريقه الخروج إلى الحديقة. لكن من الواضح أنني لم أفر بعد.. لقد عدت للبيت..

يجب أن أخرج من المطبخ قبل أن تأتي الخضة الثانية.. خضة ما بعد ظهور القط...

خرجت من المطبخ فوجدت جثة علي الأرض!.. لقد صار هذا مملاً.. من هو؟... يمكن بشيء من الخيال أن أفترض أنه (شريف)، لكن لن أمر فوق جثته.. لا تمر أبداً فوق جثة في الأفلام لأنها تصحو فجأة وتمسك بكاحلك. لو حدث هذا لكان (شريف) هو القاتل وهو الآن يتظاهر بأنه ميت..

هكذا وثبت من فوقه.. ونظرت للخلف فأدركت أنه لا يمثل.. لا أحد يمثل وعنقه بهذا الشكل..

درجات السلم تقود لأعلى.. إلى غرف النوم.. لكن أولاً لابد من عمل شيء يقطع الطريق على القاتل، وإلا فإن اقتفاء أثري إلى الطابق الثاني عمل شديد السهولة. هرعت إلى الحمام الموجود في أعلى الدرج.. فتحتته وبحثت كالمجنونة عن زجاجة الصابون السائل.. خرجت متقطعة الأنفاس إلى أعلى

الدرج وأفرغت الزجاجاة على الدرجات الرخامية، ثم عدت وملأت دلوًا من الماء سكبته، في الإضاءة الخافتة سوف يصعد السفاح السلم دون روية ولسوف يفاجأ بأن قدميه تطيران في الهواء. لا أعتقد أنه سيموت لأن الحياة ليست بهذه السهولة، لكنه قد يصاب إصابة بالغة...

هرعت إلى غرفة النوم.. فتحت الباب.. هنا سقطت جثة كانت مستندة إليه.. هاتان العينان.. إنها (نجلاء).. أطلقت صرخة مكتومة ووثبت فوقها إلى داخل الحجر.. ماذا أتى بنجلاء إلى غرفة نوم (عبير)؟.. لا شك أنها كانت تحسبها مخبئًا آمنًا.. يبدو إنني أكرر ذات الخطأ..

الهاتف المحمول هنا على الفراش.. فلأجرب مرة أخرى. مصادفة سخيصة أن تتعطل كل هواتفنا المحمولة لكن المشاهد قد يقبل ثغرات كهذه.. إن الهاتف المحمول قد جاء ليفسد نصف سيناريوهات الرعب على الأقل.. سوف يكون مصير نصف أفلام الرعب القديمة هو سلة المهملات، لأن مفتاح الرعب رقم واحد هو العزلة..

الهاتف معطل فعلاً... هذا يشير إلى أن القاتل له صفة خوارقية ما.. ربما هو الشيطان أو شبح سفاح عاد من القبر. فقط أمثال هذين يقدرّون على تعطيل شبكات المحمول كلها..

هنا ورقة وقلم.. سأغلق الباب وأجلس وأدون هذه الأحداث لأرتب أفكارى بسرعة...

أنا الفتاة الأخيرة.. الآن صرت واثقة من ذلك.. الفتاة التي تبقى حية بعد هلاك الجميع والتي تواجه القاتل.. هناك ناقدة سينما أمريكية ابتكرت هذا المصطلح بعد ما شاهدت حشدًا من أفلام الرعب، وكتبت كتابًا اسمه (رجال ونساء ومناشير). لاحظت الناقدة أن من ينجو في آخر أفلام الرعب بعد هلاك الجميع هو فتاة.. فتاة طاهرة لم تتلوث.. واسمها يصلح أن يكون لذكر أو أنثى (مثل عفت وعصمت عندنا). في البدء يشاهد الناس الفيلم بعيني القاتل، وفي مطلع سادي لأن يظفر القاتل بالفتاة، لكنهم في نهاية الفيلم يتوحدون مع الفتاة ويتمنون أن تنجو.. هذا غريب لكنه حقيقي.. أي أن المشاهد يغير جنسه أثناء مشاهدة الفيلم. بطلة الفيلم كذلك عندما تواجه السفاح فإنها تغير جنسها لأنها تتزود بسلاح وهو رمز ذكري.. سوف تقتل القاتل بسكين أو فأس أو مطرقة...

أنا سأنجو لأنني بلا خطايا ولأن اسمي (عصمت) ولأنني أنثى..

ماسورة الصرف المجاورة للنافذة والقادمة من الحمام. سوف يصعد لي القاتل وعندها سوف أثب وأنزل على هذه الماسورة إلى الحديقة وأثب فوق السور.. سوف أركض في الشارع ولسوف أجد سيارة أجرة أو سيارة دورية شرطة حتمًا..

عندما يأتي رجال الشرطة سيشرحون لنا لماذا فعل القاتل ذلك...؟.. من هو؟؟

أسمع صوت الارتطام القوي على السلم.. لقد حاول الغبي الصعود، هنا وجد

أن الأرض تنزلق تحت قدميه. طار في الهواء فإن كنت سعيدة الحظ لحطم رأسه. لكنني أعرف هذا النوع من القتلة. لن يموت بسهولة أبدًا.. سوف أجده أمامي خلال دقائق برأس دامية وجنون أكبر..

نعم.. الآن وقت النزول على الماسورة. لو دخل الغرفة فلن يمنحني الوقت الكافي للفرار. هيا بنا...»

فرغ النقيب (عمر) من قراءة الرسالة فوضعها جانبًا وجرع جرعة من كوب الشاي، ثم أشعل لفافة تبغ ونظر لي قائلاً:

- «ما رأيك يا د. (محفوظ)؟.. دكتورة (عصمت) كما قيل لنا كانت تلميذتك».

قلت له وأنا أسترجع فقرات الخطاب:

- «يقول أوسكار وايلد إن الطبيعة تقلد الفنان.. يبدو أن أفلام الرعب جعلت السفاحين يتصرفون على طريقتها لا على طريقتهم. رأيت أمس عاشقين يقفان في ملل على الشاطئ يرقبان الغروب.. واضح تمامًا أن كليهما لا يرغب في ذلك، لكنهما مجبران لأن السينما علمتهما أنه لا حب دون مشاهدة الغروب..».

قال وهو يضع الخطاب في ملف:

- «على كل حال خابت نظرية الفتاة الأخيرة.. لقد انفصلت ماسورة الصرف وهوت هي من حالق لتهمش رأسها.. ليرحمها الله.. ما رأيك في د. (عصمت)؟».

- «هي عبقرية.. عبقرية حقيقية، ويبدو أن النقد الفني صار طبيعة ثانية لديها.. أحيانًا يعبر العبقرى الخط الفاصل فيصير شيئًا آخر..».

قال وهو يدفن لفافة التبغ في المطفأة:

- «نعم.. نعم.. كل هذا العالم والحفل والأصدقاء والسفاح لا وجود لهم.. لقد عاشت هذا كله وخلقته وهي وحدها في غرفتها في المصححة النفسية. لم يخطر ببال هؤلاء الأغبياء أن يضعوا قضبانًا لنافذة الغرفة.. ولكن هل تؤمن حقًا بنظرية الفتاة الأخيرة هذه؟».

لذت بالصمت.. ترى متى ينتهي الكابوس ويبدأ الواقع؟.. أليست قصتها الحقيقية هذه نواة ممتازة لفيلم مخيف؟.. فيلم أكثر واقعية وإرغابًا من أفلام (الصرخة) و(كابوس في شارع إلم) و(هالوين)؟.. ربما نحن أبطال في فيلم مرعب طويل جدًا ولا نعرف ذلك... المشكلة اننا لا نعرف ذلك وبالطبع لا نتقاضى عن تمثيلنا أجرًا...

مسكينة

عندما جاءت (سلمى) إلى دار عمها الحاج (صلاح البنهاوي) للمرة الأولى شعر بأنها هشة جدًا..

كانت في السابعة من عمرها.. لها شعر قصير ناعم كأنه سطح مصقول وعينان عسليتان تتغيران في ضوء الشمس لتصيرا بلون الذهب.. عينان تحتلان ثلثي وجهها بلا مبالغة بينما احتشدت باقي ملامح الوجه في الثلث الباقي.. هناك أنف وفم وخدان كل هذا في رقعة صغيرة جدًا. ترتدي ثوبًا أزرق بسيطًا، وفي يدها دمية من القماش تحتضنها في عصبية. فما إن رآها حتى تذكر أخاه (مصطفى) رحمه الله وانفجر في البكاء..

احتضنها وراح ينهنه وهو يدفن أنفه في شعرها، فقالت له في رفق:

- «عمو.. أنفك ملوث بالمخاط وأنت تمسحه في شعري!».

تنبه فأبعد أنفه عنها، وقال لزوجته بلهجة أمرة:

- «أعطيها حمامًا ثم أعدي لها لقمة يا فوزية.. لا بد أن المسكينة على لحم بطنها..».

كانت (فوزية) قريته الريفية، وكانت امرأة باسلة فعلاً تعمل كل شيء في البيت، وقد تصرفت بطريقة عملية فلم تظهر تأثرًا وأخذت الفتاة إلى الحمام.. جلس هو إلى مكتبه وحاول أن يتماسك..

يجب أن يبعد عن خياله صورة السيارة المسرعة التي تنقلب بركابها في التربة بعد منتصف الليل. يوم كامل مر والجميع يبحث عن (مصطفى) وزوجته ولم يخطر ببال أحد أن السيارة استقرت هناك في قاع التربة ولم يتمكن أحد من فتح الزجاج.. فقط نزل الماء بعض الصبية ففوجئوا بالسيارة.. وعندما انتشلها الرجال لم يكن هناك داع للبحث عن أحياء، لكنهم فوجئوا بالطفلة تسعل وتتنفس..

- «الأعمار بيد الله..».

قالها لنفسه وأشعل لفافة تبغ..

مر ابنه (عصام) أمام الباب فناده.. (عصام) في التاسعة من العمر لكنه (ناصح) ونبهه ولسانه طلق جدير بأن يكون ابن تاجر، ويحضر جلسات المساومة مع أبيه ويجلس مع كل أصدقائه..

جاء (عصام) فقال له الحاج:

- «اسمع.. (سلمى) ابنة أخي ستقيم معنا على طول.. أريد أن تكون رجلًا.. يجب أن تريحها وتشاركها اللعب ولا تضايقها أبدًا.. أعرف أنك شيطان رحيم لكنني أطالبك بأن تتخلى عن عاداتك بعض الوقت».

عندما جاء المساء أخذ الطفلة معه إلى طبيب أطفال.. طبيب الأطفال فحصها بعناية ثم أرسلهما إلى طبيب أمراض قلب صديق له، وهذا فحصها جيدًا وبدا

عليه القلق..

طلب من الطفلة أن تخرج من الغرفة، ثم نظر للحاج في توتر وقال:
- «هناك أكثر من عيب خلقي في القلب.. لا أعرف كيف ظلت حية كل هذا الوقت، بل ولا أعرف كيف تحملت موضوع غرق السيارة الذي تحكي عنه، لكن ما أعرفه هو أن عمرها محدود.. لن تعيش كثيرًا..».

شعر الحاج بقلبه يتمزق.. هل هناك جراحة تصلح الأمر يا دكتور؟
كنا في السبعينات، وكانت جراحات القلب بدائية..

- «لا شيء يمكن عمله.. فقط حاول أن تحافظ عليها من الجهد الزائد..».
عاد الحاج للدار مهمومًا وأخبر زوجته همسًا.. هذه الفتاة مريضة جدًّا.. مسكينة... لن تعيش طويلًا...

سالت دمعة من عين السيدة قوية الشخصية، وأقسمت أن تعنى بالطفلة حتى آخر لحظة من حياتها..

في الوقت ذاته كان (عصام) يلعب معها في الصالة.. اختطف منها لعبتها القماشية فأطلقت صرخة عجيبة. صرخة حيوانية حادة طويلة، وراحت تجري وراءه وهو يتملص منها..

خرج الحاج (عصام) من غرفة المكتب مذعورًا فأمسك بابنه وهوى على وجهه بصفعة قوية:

- «لا تتعبها أيها الحيوان!...».

ثم انتزع الدمية من يده وناولها لها..

فيما بعد اختلى بابنه الباكي في غرفة المكتب وقال له همسًا:

- «الفتاة مريضة جدًّا.. مسكينة... لن تعيش طويلًا.. يجب أن تتحملها».

في المدرسة عرفت المعلمات سرًّا أن (سلمى) مريضة جدًّا لهذا رحن يدللنها، ورحن يضربن بعنف كل من يضايقها.. وأرغمن واحدة من الفتيات على القيام بالواجبات الصعبة التي تكلف بها..

توفي الحاج (صلاح) بعد أسبوعين، والسبب نوبة قلبية.. لقد سمع زوجته (فوزية) تعنف الفتاة لأنها لم تجذب السيوف بعد ما خرجت من الحمام، والفتاة تصرخ صرختها المميزة الطويلة الشبيهة بصفارة الإنذار..

خرج من مكتبه غاضبًا وسب (فوزية) وسب أهلها وكاد يصفعها.. احتقن وجهه وراح يسعل، ثم قال إنه يشعر بإنهاك شديد وإنه يرغب في كوب ماء...

عندما جلبت له كوب الماء كان يلفظ أنفاسه الأخيرة.. هؤلاء المحتضرون لا يشربون أبدًا كوب الماء الذي طلبوه.. لكنه وجد لديه من القوة ما يسمح بأن يقول:

- «اعتني بـ (سلمى) إنها ابنتك.. لا تقسي عليها أبدًا فهي مريضة جدًّا..».

ثم أغمض عينيه مع صوت الصرخة التي انطلقت من زوجته..

هكذا نشأت (سلمى) في البيت الذي فقد عائلته.. وكانت الأم تنظر لها

وتفكر: «هذه البائسة فقدت أباه وعمها.. بالإضافة لهذا هي مريضة جدًا.. يا لها من تعسة!».

كبر (عصام) وتولى شئون تجارة أبيه، بينما واصلت (سلمى) الدراسة حتى تخرجت في كلية التجارة..

جاء اليوم الذي اختلت به أمه في غرفة مغلقة وقالت له همسًا:
- «هل فكرت في الزواج بعد؟».

- «لا..».

- «إذن لماذا لا تفكر في ابنة عمك (سلمى)؟.. إنها فتاة رقيقة مهذبة ونحن نعرفها.. أنت تعرف بنات هذه الأيام اللاتي يرقصن في الديسكو ويشربن المخدرات طيلة اليوم.. كلهن يرقصن في الديسكو.. صدقني.. أنا أعرف هذا.. (سلمى) مريضة جدًا لكن لو أعطاها الله عمرًا لصارت زوجة صالحة، ولو توفاه الله فأنت قد قدمت لها معروفًا وسترتها..»

كان يشعر بأن (سلمى) بمثابة أخته لكن كلمات أمه جعلته يدرك أنها فتاة رقيقة جميلة فعلاً وأنها امرأة..

هكذا تزوجا.. ولم يلمسها إلا مرات قليلة جدًا وبحذر شديد لأنه كان يتوقع أن تلفظ أنفاسها الأخيرة في أية لحظة.. حرص كذلك على ألا تحمل لأنه لا يتصور هذا الكائن الهش على منضدة الولادة..

توفي (عصام) بعد الزواج بستة أشهر، والسبب هو مشادة مع بعض التجار حول سعر شحنة فاكهة جلبوها له وقد رفض أن يأخذها، من ثم احتدمت النفوس وتهور مجنون منهم ليهشم رأسه بسنجة ثقلها عشرون كيلوجرامًا..

وسط النساء المعزيات جلست (سلمى) نبيلة شامخة رقيقة كالحلم. إن الأسود يناسبها جدًا.. وقالت أكثر من امرأة إنها فتاة مسكينة.. مريضة جدًا ولن تعيش طويلًا.. فقدت الزوج والأب والعم.. من لها يا ولداه؟

كان هذا عندما شعر د.(ماهر) بامتلاء مثانته وهو جالس في سرادق العزاء بين الرجال.. أشار له أخو (فوزية) إلى مكان الحمام فنهض ليدخل البيت ويمر وسط صف النساء الجالسات في الردهة.. لحظة واحدة وقعت فيها عيناه على عيني (سلمى) الواسعتين اللتين لا تتركان موضعًا لقدم وسط وجهها..

عاد وهو يغمغم لنفسه: «مسكينة...»

د. (ماهر) زميل لي في ذات الكلية وهو إنسان محترم بالمعنى الحرفي للكلمة. بينه وأخي (فوزية) صداقة قديمة.. إنه لم يتزوج بعد برغم أنه في الأربعين من العمر..

هكذا بعد شهر واحد كان جالسًا في الصالون مع (فوزية) وأخيها.. كانت فوزية صامته موشكة على البكاء في أية لحظة. عسير على المرأة أن تزوج أرملة ابنها، لكن أخاها كان ريفيًا عملي التفكير،

وقد قال أكثر من مرة:

- «الحي أبقى من الميت.. ونحن في النهاية لن نطالبها بآلا تتزوج للأبد احترامًا لذكرى المرحوم ابنك.. هذا حرام.. ثم إن زوجك أوصاك بأن تعتبرها ابنتك.. ما كنت لتتركي ابنتك من دون زواج».

تم الزواج بعد انتهاء العام.. وقد أوصت (فوزية) العريس بأن يرفق بالفتاة فهي «مريضة جدًا.. مسكينة.. لن تعيش طويلًا».

كان هو متفانيًا كالفرسان.. وقد دعاني لحفل الزفاف الذي كان متواضعًا حييًّا لأسباب لا تخفى على أحد.. بدت لي (سلمى) رقيقة جدًا مرهفة كأنها شبح.. ورق قلبي عندما عرفت أنها مريضة جدًا.. ومسكينة لن تعيش طويلًا.. قال ماهر:

- «سوف أكون خادمًا لها مدى الحياة.. لو اختارها الله جواره فلسوف تذهب بعد ما تكون عرفت مذاق السعادة».

توفي (ماهر) بعد ثلاثة أشهر في حادث سيارة مروع..وقد جاء الناس للعزاء وهم يعرفون قصة (سلمى) كاملة.. الملاك الصغير الذي حرم الأب والعم والزوج الأول والثاني.. أضف لهذا أنها مسكينة ولن تعيش طويلًا..

كنت غارقًا في ذكريات هذه المأساة عندما فوجئت بزيارة منها في مكتبي.. رقيقة شاحبة هشة في ثوب أسود أنيق.. قالت لي وعيناها تغسلان روحي: - «المرحوم (ماهر) قال إنه يثق بك وإنه لو كان له أخ فهو أنت..».

- «هذا صحيح.. ولكن...؟».

- «كان يقول إنه لو حدث له شيء فأنت قادر على إنهاء إجراءاته في الجامعة.. المستحقات المالية.. أنا لا أفهم هذه الأمور».

قلت في حماس:

- «طبعًا.. طبعًا.. سوف يأتيك كل ملهم إلى بيتك».

وانطلقت أنهي الإجراءات بسرعة البرق وتشاجرت مع كل الموظفين تقريبًا..إنها مريضة جدًا.. مسكينة.. لن تعيش طويلًا..

بالمناسبة.. كيف يكون شعور الرجل إذا تزوج اثنتين؟.. هذا حلال شرعًا لكننا نحرمه على أنفسنا بحكم العرف.. حرام والله..

كنت أعد المال الذي سأسلمه لها، عندما دق باب مكتبي فرفعت رأسي.. وجدت أخا (فوزية) يقف على الباب.. إنني أعرفه.. اسمه (فوزي) وهو موظف في الري، وبرغم السنين في القاهرة لم يتخلص من طابعه الريفى مع روح دعابة قوية، لكنه لم يبد على استعداد للمزاح الآن..

قال لي وهو يجفف عرقه:

- «عرفت أن (سلمى) جاءتك تطلب مساعدتها في الإجراءات.. هناك شيء معين لا يريحني بصدد (سلمى) هذه..».

قلت في حنان:

- «هي مخلوقة تعسة الحظ.. مريضة جدًا.. مسكينة.. لن تعيش طويلًا...».

- «هذا ما نقوله منذ عشرين سنة.. أنا أجريت بعض البحث، وعرفت شيئاً غريباً.. هل تعرف أنها ليست ابنة (مصطفى البنهاوي) رحمه الله؟.. حتى أخيه الحاج (صلاح) زوج أختي لم يعرف هذا..».

- «ماذا تعني؟».

- «إنها لقيطة وجدها (مصطفى) رضيعة وقرر أن يتبناها من دون أية أوراق رسمية.. قام بتزوير شهادة ميلاد، وكان يعمل في السويس فكتب لأهله في القاهرة يخبرهم أن زوجته أنجبت.. أراد أن تعيش حياة طبيعية فلا يعايرها أحد بأنها لقيطة أبداً.. ورباها حتى صارت في السابعة عندما مات في ذلك الحادث.. لا يعرف هذا السر سوى خادمة عجوز كانت عندهم..».

- «ومعنى هذا؟».

اتسعت عيناه وقال:

- «معناه أن أحداً لا يعرف عنها أي شيء.. لا أحد يعرف من أين جاءت ولا من أبواها الحقيقيان.. والآن ألا تجد أن شيئاً غريباً يحيط بهذه الفتاة؟.. كل من رآها شعر بأنه مكلف برعايتها... وكل من تعامل معها مات.. بينما هي.. هي...».

وصمت وارتجف..

ارتجفت بدوري وأنا أفكر...

طفلة في سيارة تحت الماء لمدة يومين كاملين ولا يحدث لها شيء، برغم أنها كانت مع جثتين..

كل من تعامل معها قد مات..

وبرغم هذا يرق لها الجميع لأنها مريضة جداً.. مسكينة... لن تعيش طويلاً... يقولون هذا ويموتون....

إن (سلمى) لغز حقيقي... إنها قريبة جداً من سر الموت..

ربما هي الموت ذاته في صورة إنسان..

ما أعرفه يقيناً هو أنني لا أريد أن أراها ثانية..!

سن روبنسون

يطلقون على هذه السن مصطلح (سن روبنسون) وأعتقد أنهم على حق..
عرفت (ميدو) الصغير جيداً.. كل البناية عندنا تعرف (ميدو) الصغير، وقد بدأ
الكابوس منذ تعلم المشي..

لا توجد شقة في العمارة لم يدق ميدو بابها..

العريس الشاب (ممدوح) الذي يتمنى أن يجد نفسه وحيداً مع عروسه
الجميلة (لمياء) يفاجأ بدقة على الباب.. يفتحه ليجد (ميدو).. هو صبي في
السابعة ينسكب شعره الأسود الفاحم على نصف وجهه، وفي عينيه نظرة
شقية لطيفة.

- «أنا ميدو».

فيتسّم العريس الشاب ويهم بغلق الباب، لولا أن (لمياء) تهرع لتحتضن
الصغير وتقبله وتقدم له الحلوى، ثم تقتاده إلى الصالة ليجلس ويشاهد
(سبيس تونز) معها.

- «هل تسكن في هذا الطابق؟».

- «لا.. أسكن في الطابق الخامس»..

(ممدوح) يغلي من الداخل ويجوب الشقة كنمر حبيس منتظراً رحيل الوغد
الصغير، لكن (ميدو) يستلقي على الأريكة ويروح في سبات عميق..
كاد (ممدوح) يحمله من ساقيه ليلقي به خارج الشقة، لكنها صاحت في
جزع:

- «سوف توقظه!!».

وحملت الشيطان الصغير إلى فراش الزوجية ونزعت حذائه ثم غطته
بشرشف خفيف. وتركته لينام براحته..

كلما حاول (ممدوح) أن يقنعها بالتخلص من الوغد الصغير أو إلقائه من
الشرفة، نظرت له محذرة وقالت:

- «كنت رقيقاً حساساً أيام الخطبة.. فماذا دهاك؟».

ثلاث ساعات والوغد الصغير نائم، مما يدل على أنه بلا أهل، أو أن أهله
سعداء للتخلص منه. في النهاية استيقظ من النوم فجلس في الصالة يشاهد
(سبيس تونز) بينما هرعت (لمياء) تعد له بعض عصير الفاكهة. في النهاية وقد
انتهى ممدوح تماماً وصار يفتح عينيه بمعجزة، أعلن ميدو أنه سيعود حتى لا
تقلق عليه ماما.. ووعدهما بأن يزورهما كثيراً جداً..

- «أنتما لطيفان.. لستما مثل الرجل الذي يسكن في الطابق السادس».

يتكلم عني طبعاً..

في الصباح التالي يفتح العريس الشاب الباب على قادم مبكر، فيفاجأ بميدو
يسأل عن طانط (لمياء) ثم يدخل الشقة دون وجل، ويتجه في ثبات لغرفة
النوم ليوقط العروس.. لكنها لم تندهش.. نهضت من على الوسادة وتثاءبت

وقبلته وسألته بصوت ناعس:

- «ماذا أحضرت لي اليوم؟».

فيعبث في جيبه ويخرج قطعة لزجة مقرزة من البونبون يضعها على الوسادة حيث ينام (ممدوح).

- «الله!.. شكرًا!..».

وتنهال عليه تقبيلًا، ثم تنهض وتأخذه من يده إلى المطبخ..

في موعد الغداء يدق جرس الباب ويدخل ميدو وفي يده إصبعان من الكفتة وفي اليد الأخرى عود خشبي غرست فيه قطع من (الشيش طاووق). سأل عما يأكلان فأصرت لمياء على أن تدس في يده بعض دبابيس الدجاج. وهكذا غادر الشقة راضيًا وقد نسف غداء العروسين تمامًا فلم يبق لديهما ما يأكلانه إلا السلاطة. وفوجئ (ممدوح) به يصعد الدرج قاصدًا شقة أخرى!.. إذن هذا الشيطان الصغير يمر على شقق البناية ليجمع اللحم من كل شقة!.. هو لا يضع وقته في جمع الفاكهة أو الأرز بل هدفه محدد وواضح.. النتيجة أن البناية كلها صارت تعج بالجوع!

بعد ساعتين عاد الصبي لينام على الأريكة ثلاث ساعات كاملة.

عندما بدأ يصرخ طالبًا لعبة أصرت لمياء على أن يأخذه (ممدوح) إلى السوبر ماركت أسفل البناية لبيتاع ما يريد لأنه ملاك صغير. هكذا نزل معه وهو يسب ويلعن في سره، وهناك شعر بأن الصبي لا يختار لعبة وإنما هو يقوم بتعبئة جوال بطاطس في حقل.. إنه ينتقي ألعابًا لا يريدتها ولا تهمة في شيء فقط لتكون عنده، ولربما كي يحرم صاحب السوبر ماركت منها!

عندما قابلت (ممدوح) على السلم حييته وهنأته على الزواج. كان من الريف لهذا كان أول شيء فعله عندما سكن في بنايتنا هو أن خرج بالروب وراح يوزع الكعك على شقق البناية شقة شقة، وهو شيء لم نره منذ عام 1867، وهكذا كسب قلب كل السكان...

لهذا وقفت أثرثر معه كأننا متعارفان منذ عشرات السنين..

كان مرهقًا منتفخ العينين، وقد سألته عن السبب متوقعًا أن زوجته هي السبب لأنها شيطان رجيم مثلاً، لكنه قال لي:

- «ميدو هذا!..».

إذن فميدو قد زاره!.. قلت له باسمًا:

- «يجب أن تكون لطيفًا معه. كلنا كذلك حتى لو لم نتحمله».

- «لقد صار في كل مكان.. في كل ركن.. لا أستطيع الخلاص منه.. إنني على شفا الانهيار العصبي».

قلت له ضاحكًا:

- «ميدو في السابعة.. هذه هي السن التي يطلقون عليها في الغرب اسم (سن روبنسون).. أي إنه يعاني حالة ظمأ شديد للاستكشاف ومعرفة كل شيء جديد.. كأنه (روبنسن كروزو)، لكنه سوف يمل بيتك سريعًا ويكف عن

ملاحقتك.. أنت بالنسبة له مجرد لعبة جديدة..».

حك رأسه وشعره المنكوش المبعثر وقال:

- «فليملم أو يكبر بسرعة أو يموت .. أعصابي لم تعد تتحمل!».

ثم تذكر شيئاً فسألني:

- «من أهله؟».

- «مهندس (السيد عوض).. الأم معلمة تدعى إلهام.. يبدو أنك لم تقابلهما

منذ جئت البناية.. هما يقيمان في الطابق الخامس».

قال مفكراً:

- «فعلاً لم أرهما.. لم أصد للطاقب الخامس أثناء توزيع الكعك.. هل ترى أن

أخبرهما؟.. ربما يتذكran أن في عروقهما دمًا ويربيان ابنهما جيداً».

- «لا أنصحك بهذا.. هما ليسا ودودين على الإطلاق وأعتقد أنهما موشكان

على الإطلاق..».

فكر (ممدوح) في الأمر.. يا للمسكين!.. لهذا يحب ميدو أن يجوب شقق

البناية ولا يعود لشقته أبداً.. عندما يتشاجر الأبوان يشعر الطفل بأن أساس

وجوده ذاته مهدد، ويبدأ الشعور بالقلق.. هل يتركانه؟.. هل ينفصلان ليجد

نفسه جائعاً في الشارع؟

لهذا عندما عاد إلى الدار ووجد ميدو في غرفة النوم – بالحذاء – يلعب على

الفراش مع طانط (لمياء) لم يحتد غضباً، بل إنه جرؤ على دعوة الصغير للغداء،

ف قالت (لمياء):

- «واضح أنك رائق البال اليوم.. ما هذا الكرم؟».

قال في غموض :

- «سن روبنسون..! هذا كل شيء..».

على مائدة الغداء راح يسأل الصغير عن أهله محاولاً انتزاع أية معلومات، لكن

الغلام لم يكن يجيب عن أسئلة من هذا النوع على الإطلاق كأنه لا يسمعها..

لم يكمل ميدو الطعام ونهض ليشغل جهاز التلفزيون، وراح يقلب القنوات

بسرعة شديدة حتى صاح به (ممدوح) أن يتمهل قليلاً قبل أن... قبل أن يتلف

التلفزيون كما حدث فعلاً.. فجأة صارت الشاشة مظلمة فيما عدا خطاً أزرق

يتراقص.. نهض ممدوح في عصبية صارخاً فأجفل ميدو وترك جهاز (الريموت)

يسقط على الأرض فيتهشم..

كاد يحطم رأس الغلام لولا أن صاحت لمياء في حزم وهي تدفعه بيدها:

- «ماذا هنالك؟.. لم يحدث شيء.. سوف نصلحه لكن لا تفزع الصغير.. أنت

قلت إنه سن روبسن».

- «سن روبنسون.. لم أقل هذا لكن قاله جارنا (محفوظ)..».

هنا أعلن ميدو أنه سيذهب لينام...

وتمنى (ممدوح) أن يكون قد أصاب الغلام بالذعر لدرجة ألا يعود.. فليحل

مشاكله النفسية في مكان آخر لكن وجوده لم يعد مرغوبًا فيه أبدًا..
قابلني على الدرج وهو يحمل جهاز التلفزيون ويلهث، وبالطبع لم تكن سني
تسمح لي بمساعدته. سألته عما حدث فقال إنه ميدو..
قلت له باسمًا:

- «حدث هذا عندي منذ عامين.. إن بين هذا الصبي وأجهزة التلفزيون علاقة
عداء مريبة، ولو كنت متنبهًا لأنذرتك».

حمل التلفزيون مرهقًا إلى من يصلح هذه الأشياء، وعرف أن عليه أن يدفع
مبلغًا فلكيًا لإصلاحه.. هكذا لم يعد على استعداد للترحيب بهذا الصبي ثانية.
وقد وجد ذات مرة قطعًا من الحلوى في الصالة فأدرك أن ميدو كان هنا، من ثم
انفجر في زوجته صارخًا.. لقد صار يتعامل مع ميدو ابن سبعة الأعوام كأنه
عشيق يتسلل لداره كلما خرج..

على أنه استطاع أخيرًا أن يقابل مهندس (السيد عوض) هذا.. كان يقف مع
البواب يثرثر عندما مر به رجل في الخمسين يلبس نظارة سوداء مطرق
الرأس، وحياهما بسرعة فقال البواب: «تفضل يا باشمهندس..» ثم أردف هذا
مناديًا الرجل:

- «باشمهندس (سيد).. لم أتقاض حساب نور السلم بعد».
هكذا صارت القصة واضحة.. مهندس لم يره ممدوح من قبل واسمه (سيد)..
لا توجد احتمالات عديدة.. ركض خلفه مصافحًا وقال:
- «هل أنت والد ميدو؟».

نظر له المهندس سريعًا وهز رأسه أن نعم ثم بادر بالانصراف.. تذكر (ممدوح)
ما قلته أنا عن أن الرجل ليس ودودًا على الإطلاق. لو شكاً له الشيطان
الصغير فلسوف يتشاجر معه بالتأكيد فهو يقطر سماجة وخشونة.
لقد كف ميدو عن زيارة العريسين على كل حال.. لم يعد يستلبيهما لحم
الغداء، ولم يعد ينام على الأريكة. لقد انتهى عصر الرعب..
كان هذا هو وقت زيارتي الأول أنا وزوجتي للعريسين، وقد رأيت أن أؤجلها نحو
أسبوعين أو أكثر إلى أن يعتادا البناية. هكذا جلسنا في صالون دارهما
والعروس تعد لنا بعض العصير ومعها زوجتي، بينما رحت انهر أولادي الذين
ينوون تخريب البيت..

قال لي ممدوح ضاحكًا:

- «لقد كف ميدو عن زيارتنا..».

قلت في جدية:

- «لقد تنبأت بهذا.. لقد زار جارنا (عوني) منذ أربعة أعوام فكاد يصيبه بالجنون
من كثرة الزيارات، ثم كف عن ذلك ولم يره الرجل منذ ذلك الحين».

قال (ممدوح) في غباء:

- «لحظة.. أنت تكلمت عن جهاز التلفزيون الذي أتلغه منذ عامين، وزيارة
(عوني) التي تمت منذ أربعة أعوام.. كيف ظل الغلام في سن (روبنسون) منذ

ذلك الحين؟».

نظرت له وفهمت.. إنه لا يعرف أي شيء على الإطلاق.. هذه غلطتي وقد كنت أعتبره يعرف القصة كلها..

- «ميدو في السابعة للأبد يا (ممدوح)!».

- «ماذا تعني؟».

ابتلعت ريقى ونظرت للبواب كي أتأكد من أن زوجته لا تسمع وقلت:

- «كما تعرف فإن سن روبنسون هذه تدفع الأطفال لتجربة الجديد والمخاطرة بحياتهم.. في يوم منذ ستة أعوام قرر (ميدو) أن يجرب الهبوط لأسفل.. فقط لم يفعل هذا بوساطة الدرج بل عن طريق ماسورة المياه في المسقط!.. غادر نافذة الحمام وجرب.. لكن يده انزلت وهوى ليتحطم في المسقط.. كان في سن السابعة».

شقق ممدوح غير مصدق.. فقلت :

- «نعم.. لكن الأسوأ هو أن الأم والأب ظلا يعتقدان أنه عائد... عرفنا أنهما على حق عندما بدأ ميدو يرتاد شقق البناية.. يظهر في شقة أو أخرى ليثير هلع سكانها لكنه يلعب قليلاً ويرحل.. بعد فترة يكف عن زيارتها. عرف السكان هذا وقرروا أن يصمتوا وألا يصابوا بالذعر.. عندما يأتي سكان جدد للبناية لا نخبرهم بالقصة لأننا نعرف أنه سيتركهم بعد قليل فلا داعي لتدمير حياتهم... إن ميدو سيظل في سن روبنسون للأبد..».

- «و.. والطعام الذي يجمعه من البيوت؟».

- «لا يفعل به شيئاً... لو صعدت للسطح لوجدته ملقى هناك».

ظل ينظر لي بغم مفتوح.. لا يعرف إن كان يصدق أم لا. فقلت له:

- «يمكنك أن تسأل الجيران أو البواب غداً.. حتى تلك اللحظة أنت محق في الشك في كلامي».

في هذه اللحظة رفع (ممدوح) عينيه ببطء..

كان ميدو يقف على باب الصالون ويده في يد (لمياء) وعلى وجهه ضحكة طفولية..

كان ينظر له بعينين حلوتين ويقول:

- «جئت كي ألعب مع طانط لمياء قليلاً.. هل توافق يا عمو (ممدوح)؟».

أحلام أحلام

(أحلام) الآن تحلم..

لا توقظوها من فضلكم..

من المصادفة العجيبة أن ينطبق اسم على صاحبه بهذه الدقة، لكنك يا (أحلام) كنت بالفعل تحلمين طيلة حياتك، ولئن كان العلماء يقولون إن المرء يقضي ستة أعوام من حياته في الحلم (بمعدل ساعتين كل ليلة)، فإن عمرك يتلخص في سلسلة من الأحلام تتخللها لحظات تفتحين فيها عينيك..

لسوف تغمضين عينيك، ولسوف لا تعانين أي أرق.. لست من الطراز الذي يتقلب في الفراش عدة ساعات، وبالتأكيد لا تعني كلمات (سهاد) و(مقروح الجفن) أي شيء في قاموسك.. بالنسبة لك كان النوم دومًا هو أن تضغطي على ذلك الزر في وعيك فتغيبين عن الوجود..

زوجك كان يقول إنك متبلدة الحس.. بالنسبة له يقترن ذكاء الروح بشيء من العذاب الداخلي.. يقترن بالأرق.. لكنك في الحقيقة كنت تشعرين أنك أذكى في العالم الآخر..

سوف تغيبين عن الوعي..

وفي هذه اللحظة تستكملين الحلم الذي بدأ منذ أيام.. ها هي ذي الحديقة.. البوابة الصدئة التي تصدر صريرًا مرعبًا.. في كل ليلة تضطرين إلي اجتيازها وسماع الصوت ذاته.. ثم ذلك الممر بين الأشجار.. حذار!.. لقد مرت أفعى على قدمك منذ يومين، فمن الخطأ أن يتكرر هذا ثانية..

غصون أشجار تتدلى وتخمش وجهك.. حاولي ألا تجرحك.. أعرف أن هذا حلم، لكن من قال إن بكتريا التيتانوس لا تتسلل للأحلام؟.. ربما كانت الأحلام معقمة وربما لا..

هنا يأتي الجزء الخاص بالقط.. القط الأسود الذي يقف معترضًا الممر.. إنه ضخم شرس كما كان في كل ليلة سابقة.. أذناه منتفشتان ويطلق ذات الصوت الأقرب للفحيح.. مخيف هذا الصوت وينذر بالويل.. لكنك سوف تعبرين.. تعرفين أنك سوف تعبرين..

تبحثين حولك عن حجر.. شيء يصلح لقذفه على هذا الشيء، ويبدو أنه يألف هذه الحركة جيدًا لأنه يفر على الفور.. هذا غريب لكنه يحدث كل ليلة.. سوف توصلين رحلتك في هذا الممر الضيق..

هنا تجدين تلك الفتحة التي تغلقها نافذة عند مستوى الأرض.. نافذة متسخة زجاجها مهشم، تغلفه خيوط العنكبوت..

سوف تنحنين – وأنت لا تفهمين لماذا تفعلين ذلك – لتواربي النافذة... آخر شيء تريدينه هو أن تدفعي جسدك إلى الداخل.. لكنك تفعلين..

الآن صار جسدك في الفراش متوترًا.. إن جفنيك يختلجان، وأصوات غريبة تخرج منك.. إنها مرحلة (حركة العين السريعة REM) التي يتم فيها الحلم..

سألت عنها د. مصطفى الطبيب النفساني فقال لي إن العلم لم يعرفها قبل عام 1952.. اكتشفها العالمان (كلايتمان) و(أرسينسكي)، وزعما أنها مهمة لنمو المخ ولتدعيم ذكريات اليوم.. هنا يرتفع ضغط دمك وتزداد سرعة ضربات القلب.. هذا نوم لا علاقة له بالراحة.. إنه (النوم المتناقض).. وفترته تزداد طولاً كلما كان الكائن أضعف، لذا يكون أغلب نوم الأطفال REM.. من المعتاد أن تفقد العضلات قوتها في هذه المرحلة، وإلا كرر النائم ذات ما يفعله أثناء الحلم..

لهذا تأتين بحركات كأنك تقذفين حجراً على القط.. كأنك تحشرين جسدك في الكوة الضيقة.. هذه هي اللحظات التي تثير ذعر زوجك... في هذه اللحظات يشعر أنك كائن شيطاني وأنتك موشكة على قضم حنجرته...

د. (مصطفى) قال لي إن أدوية الاكتئاب تلغي فترة الـ REM هذه، وهذا يساعد في شفاء الاكتئاب.. لكنك تتعاطين هذه الأدوية وبرغم هذا لم تتخلصي من تلك الفترة الصاخبة.. قال لي د. (مصطفى) كلاماً مهماً عن مادة DMT التي يفرزها مخك الآن مسببة الحلم... إنها في ذروتها أثناء الحلم وقبل الموت مباشرة.. فهل الموت ضرب آخر من الحلم إذن؟..

أنت تنزلقين إلى الداخل.. إلى المكان الذي تهابينه والذي تعرفين تفاصيله من كل الليالي السابقة..

ضوء المصباح سوف يقودك.. ضوء المصباح الخافت ورائحة الكيوسين المتصاعدة منه.. والشموع الذابلة المحترقة..

سوف ترينهم هناك.. تلك المنضدة الطويلة العتيقة.. عليها المصباح وعليها الشموع.. وهم هناك ينظرون لك منتظرين قدومك..

- «تعالى يا أحلام.. لماذا تأخرت؟»..

طبقك هناك على المنضدة.. ملعقتك.. كوبك..

سوف تعرفين وجوههم جميعاً.. جدتك.. صحيح أن عينيها لم تعودا هناك.. صارتا مجرد فجوتين، لكنك تعرفينها.. أبوك يجلس جوارها وقد تساقط أنفه ولم يتخلص من الأكفان بعد.. سوف تلقين تعليقاً مهذباً عن أن المرء لا يجلس على مائدة الطعام وهو ملفوف بالأكفان.. البواب العجوز الذي تساقط نصف وجهه هنا..

كلهم هناك وينتظرونك..

كلما حكيت هذا لأحد ارتجف ذعراً.. معنى الحلم أنهم ينتظرونك لالتهام طعام الأبدية معهم.. هذا الحلم لا ينتظر تفسيرات..

لكن - الغريب - أنت تسحبين مقعداً وتجلسين وفي نهم تملئين طبقك.. يأكلون البازلاء.. لكنها بازلاء عديمة المذاق... هل لهذا معنى ما؟

في الهند قال أساتذة اليوجا إننا نحلم لسبعة أسباب.. الأحلام هي: ما رأيناه.. ما سمعناه.. ما خبرناه.. ما نتمنى أن نجربه.. ما نحن مرغمون على أن نجربه... ما تخيلناه.. ما هو طبيعة في جسمنا..

السبب الثامن في رأيي هو: أن نحلم بلا سبب يفسر ذلك..
تلتهمين البارلاء.. وزوجك خائف.. لأنك تصدرين في نومك ذات الأصوات التي
يصدرها المرء إذا أكل البارلاء..

بعد الأكل ترفعين رأسك عارفة أن اللحظة المرهوبة قد جاءت.. أنت أكلت أكل
الموتى فلا غرابة إن صرت منهم..

ترقدين على المنضدة كما في الليالي السابقة.. ترقدين على بقايا الطعام..
لا تريدين أن يحدث هذا.. ولا تعرفين ما الذي سيحدث.. فقط لا تريدين، لكنك
عاجزة عن الاعتراض أو قول أي شيء..

في لحظة كهذه كنت تفري من عالم الكابوس.. كنت تصحين في الليالي
السابقة.. تصحين صارخة في الفراش والعرق يغمرك، فيجلب لك زوجك كوب
ماء ... لكنك لا تصحين هذه الليلة.. إلى متى سيدوم الكابوس؟... لا تريدين
الانتظار حتى تعرفي ما ينتظرك ...

إنهم يرفعون السكين.. دقائق قلبك تتعالى وضغط دمك يرتفع.. هذه هي
اللحظة التي يموت فيها مرضى القلب أثناء نومهم لأنهم عاشوا في الحلم ما
عاشه سواهم في الحقيقة.. في الصباح يجدونهم موتى ويطلقون عليهم
Dead in bed.. عبارة مسجوعة جميلة لكنها لن تغيدك في شيء..
أحلام (أحلام) ليست ممتعة دومًا..

هذه هي اللحظة التي أقتحم فيها المكان حاملاً ذلك المشعل العملاق..
ينظرون لي بعيونهم الجوفاء أو المتأكلة في بلاهة.. لكني أهوي بالمشعل
على الوجوه وعلى الأكفان..

من أين جئت أنا؟.. لا أعرف.. فقط أعرف أنني ظللت وقتًا طويلًا في فراشي
أحاول النوم.. لست مثلك يا أحلام.. لا بد من أن أتعاطى بعض (هيدرات
الكلورال) كي يزورني النعاس.. لا بد من كوب لبن.. لا بد من موسيقا هادئة..
لا بد من كتاب ممل.. وعندما أغلق النور لا بد من أن أفكر في شيء رتيب لكنه
بهيج.. وبرغم هذا يظل الوسواس يطاردني: انتظار قدوم النوم.. هذه هي
الطريقة المثلى لطرد النوم.. لا بد من إفراغ مثانتي بعض مرات.. لا بد من
أدعية.. لا بد من سعال.. في النهاية لا أعرف كيف صرت هناك ولا كيف حملت
المشعل..

المهم إنني فعلت هذا ورحت أحرق هؤلاء المحتشدين حولك.. أمس لم
أتمكن من إنقاذك لكني لن أفشل اليوم..

زوجتي كذلك تكره هذا الجزء، لأن عيني تبدأان الحركة السريعة.. تعرفها من
اهتزاز جفني ومن كلامي أثناء النوم.. ومن الحركات التي أطيح بها بالمشعل
في وجوه الموتى..

سوف أنقذك يا أحلام..

سوف أجرك من يدك بينما ينزوي هؤلاء وهم يحترقون والدخان والدهن
السائل يسيل منهم.. سوف أجرك إلى ممر جانبي مليء بنسيج العناكب..

سوف تفر الفئران فوق أقدامنا.. من فضلك!.. ليس الوقت وقت الخوف
الهستيري الأنثوي المعتاد من الفئران.. وطايط؟.. لا مشكلة.. لن تضرب
وجهك أبدًا صدقيني.. إنها تملك أجهزة رادار متقنة..

سوف نفر من هنا..

لماذا أكلت طعام الموتى يا بلهاء؟.. لقد صرت لهم.. لو أخذوك مني فلن أتمكن
من الاعتراض..

ما هذا؟.. لماذا لا تجربين؟.. لم يعد لك قدما؟.. نعم.. أرى هذا بوضوح.. لقد
صرت أقصر قامة وصار ثوبك يجر على الأرض المغبرة.. كلا. قدماك موجودتان
لكنهما التحمتا لتتحولا لقطعة من العجين.. هذا يحدث كثيرًا في الحلم.. سوف
أحملك.. لا مشكلة.. في الحلم أنت لست ثقيلة على الإطلاق.. إننا نعيش
حلمًا لكننا نعرف أنه حلم.. هذه هي الأحلام المتجلية Lucid dreams التي
هي أسهل أنواع الحلم على المفسرين...

لماذا يسيل الممر علينا؟.. إنه ليس ممرًا.. إنه كائن حي لزج.. ونحن الآن في
بلعومه.. قدماي تغوصان في المادة اللزجة بينما تسيل علينا من أعلى لتبلل
قميصي.. تبلل وجهك..

في نهاية الممر أرى الوجوه.. هذا وجه أبي.. هل ترينه؟.. وجه عمتي.. إنهم
يعدون لي مأدبة أخرى لكنني لن ألتهم منها شيئًا حتى لو كنت أحب البازلاء..
أعرف أن الممر ينهار وأنا لن نبلغ نهايته..

أعرف أن الأرض تذوب تحت قدمي..

لكن كل شيء لم ينته بعد.. لا تصرخي.. سنكون هنا غدًا ولسوف نجد مخرجًا
من هذه الورطة.. هل تريدان رأيي؟.. ربما ما كان علينا الفرار عبر هذا الممر..
لم يكن هناك مخرج سواه، لكنني الآن أسمع صوت الجرس الطويل يمزق
اعصابي وأعرف أنه كان هناك ممر آخر واسع يبدو أكثر أمنًا.. لماذا لم نره؟..
لأننا نحلم يا حمقاء..

نحلم..

ترررررررر!

وأنا الآن في الفراش أرتجف وأبحث عن زر المنبه اللعين.. فليخرس.. فليخرس..
لكن الرنين لم يصمت.. هذا إذن منبهك الخاص.. فلتخرسيه لأنه يزعجني..
فلتنهضي وتعدي الطعام لزوجك.. موعد مدرسة الأطفال. صفري شعر (مي)
(مها) وابحثي عن حذاء (عمرو)...

لا تنسي أنكم ستزوروننا الليلة..

سوف تأتين لدارنا أنت وزوجك والأطفال.. وسوف أراك للمرة الأولى في
حياتي.. سوف نجلس في الصالون نشر ونشعر بنوع من الحميمية، لكن
نظراتك المذهولة لي لا تفارق وجهك.. كلما انشغلت عنك فوجئت بك تنظرين
لي.. سوف يحكي الزوج عن الأحلام الغريبة التي تهاجم المدام.. ولسوف
نضحك جميعًا..

سوف تدخلين المطبخ مع زوجتي تثرثران، بينما زوجك يسألني عن طبيب نفسي بارع لزوجته.. طبيب يصغي للمريض ولا يكتفي بكتابة (البروزاك)... فأعده بسؤال د. مصطفى..

سوف أنهض للحمام، وبينما أغادره أقابلك خارجة من المطبخ فترتبكين.. سوف أسألك يا أحلام بصوت هامس:

- «هل أنت جزء من حلمي أم أنا جزء من حلمك؟...و كيف يدخل حلمي إلى حلمك في كل ليلة؟.. ماذا سوف نفعله الليلة عندما ينهار الممر تحت أقدامنا؟».

سوف يحمر وجهك، وتقولين في كبرياء:

- «د. (محفوظ)... أنا امرأة متزوجة ومحترمة.. من فضلك لا تدخل أحلامي أبدًا بعد اليوم.. هذا ليس من حقك حتى إن كنت تنقذ حياتي.. لو رأيتك هذه الليلة في حلمي فلسوف يتصرف زوجي معك..».

المقبرة رقم 34

هناك على الضفة الغربية لنهر النيل في الأقصر - نحو ستة كيلومترات للغرب - يمكنك أن ترى وادي الملوك..

صحراء مترامية وشمس حارقة وهضاب على الجانبين تنضج ببطء في لهب شمس الظهيرة، بينما يتفرق السياح هنا وهناك يلتقطون الصور في نهم.. ولد وادي الملوك مع الأسرة الثامنة عشرة، وظل الملوك يدفنون فيه حتى الأسرة العشرين..

لا تتساءل كثيراً عن الحال منذ أربعة آلاف سنة عندما لم تكن هناك وسائل مواصلات ولا حافلات مكيفة، وكان العمال يأتون إلى هذا المكان حفاة عراة على أقدامهم من معسكراتهم في منطقة (دير المدينة) حاملين مومياؤهم هذا الملك أو ذاك، ثم يغيبون في أعماق الجبل لينجزوا تلك النقوش الرائعة.. الحر والعرق والافتقار للأكسجين وبرغم ذلك يصنعون هذا السحر. هل كان هؤلاء القوم يتحملون أكثر منا بكثير أم هم كانوا سحرة فعلاً؟

يقال إن هذا الوادي قد اختير بسبب سهولة الوصول من النيل له، كما تسهل حراسته حيث تحيط به التلال العالية، بالإضافة إلى جودة الحجر الجيري الذي تتكون منه جباله.. لا تنس أن الفراعنة كانوا ذواقة صخور حقيقيين، وعلى الأرجح كانوا شعباً من علماء الجيولوجيا.. وكذلك بسبب وجود الجبل الذي يرتفع جهة الجنوب على شكل القرن والذي يمثل هرما طبيعياً.. وادي الملوك!..

يا له من مكان يثير الخيال!.. اللورد البريطاني (كارنافون) بقبعته العالية وعصاه وتحذلقه، والمغامر الأمريكي (كارتر) بقميصه مفتوح الكمين يبحثان في الصخور ليجدا قبر (توت عنخ آمون). القبر الذي بدأ كل هذا الكلام عن لعنة الفراعنة التي فشل الجميع في البرهنة عليها، لكن - وهذا رأيي - لم ينجح أحد في نفيها بالكامل.. دعك من اللغز الغامض المخيف الذي يحيط بالمقبرة رقم 55 والتي سوف نتحدث عنها في قصة أخرى..

أنا قد زرت وادي الملوك مراراً.. لا أحد يزور الأقصر من دون أن يزور وادي الملوك، ويمكن القول إنني أعرف عم (هريدي) جيداً ومن الغريب أنه يعرفني.. لا يوجد شيء خاص يميزه.. إنه خفير صعيدي أسمر اللون كأنه جاء لتوه من طمي النيل، له سنة ذهبية جميلة، وهو يحمل بندقية حكومية كتب عليها رقمها بالطلاء الأبيض، ويضع تليفعة سميكة ولا يكف عن التدخين..

شخصية جاءت من أعماق الأدب العالمي، فلو رآها نجيب محفوظ أو ماركيز أو جوركي لما تركوها، ومن المؤسف أنني لا أفهم أكثر كلامه لأنه يتحدث بلهجة صعيدية قحة، أما تلك اللهجة المضحكة التي يستعملونها في المسلسلات التلفزيونية على طريقة (مليح جوي يا بوي) و(ماخابرش) فهي لهجة لا وجود لها اصطنعها الممثلون اصطناعاً..

يراني عم (هريدي) فيصافحني.. بعد أعوام صارت المصافحة عناقاً.. لا أعرف

كيف يتذكرني وسط كل من يراهم يوميًا... (الطفطف) يصل ليفرغ حمولته من كل الجنسيات.. ترى يابانيين صفرًا ضيقًا الأعين، وأوروبيين لهم لون الكابوريا المسلوقة، وطلبة جامعات مصريين، لكنه يتذكرني أنا بالذات..
- «لك وحشة يا أستاذ..».

ثم يجلس على تلك الدكة الخشبية بجوار مدخل مقبرة أحد (الرمسيات) الذين يعج بهم وادي الملوك، وينفث دخان لفافة التبغ حالمًا..
هكذا أتركه وأدخل المقبرة الأولى أو الثانية..
كيف لي أن أعرف أن لعم (هريدي) سرًا لا يبوح به؟.. وكيف لي أن أعرف أنه سيصارحني به يومًا ما؟

عندما يقترب اليوم من نهايته يعلنون عن قرب غلق وادي الملوك أمام الزيارات. يبدأ السياح يركبون (الطفطف) متجهين إلى الخارج. الشمس الحارقة على الدوام تتأب وتعلن أنها مرهقة.. تتأب..
الموجودات تتلون باللون الأزرق.. كل شيء يبرد..
من بعيد وراء الجبال تتلون السماء بلون أرجواني، ويبدأ البرد.. برد الصحراء الذي يخترق العظام..

إنه الآن وحيد تمامًا... هناك زملاء له في عدة مواضع لكنهم متفرقون، وعمله هو أن يمضي ليلته هنا.. ليس كل ليلة..

تجربة كهذه تميت القلب تمامًا، لهذا كف عم (هريدي) عن أن يشعر بالذعر منذ دهور.. لم يعد يقلقه شيء، وعندما يزداد الظلام كثافة ويصير الأزرق أسود، فإنه يشعل النار ويخرج عدة الشاي.. عشرات الأكواب حتى الصباح وهو جالس هنا قرب المقبرة رقم 34...

الآن صار الظلام دامسًا فلا شيء يؤنسه سوى النار المتراقصة وصوت مذياع صغير أعطاه إياه سائح ياباني منذ أعوام. الجبل.. مقابر الفراعنة..

من بعيد يسمع صوت ابن آوى يضحك.. يسمع صوت كلب يعوي. ربما هو ذئب لأن الصوت موحش عميق، لكن من هو الصعيدي الذي يخاف صوت ذئب؟..
يرفع صوت المذياع ويشعل لفافة تبغ أخرى..

ينظر لساعته.. إنها الحادية عشرة مساء..

ليس اسم المقبرة 34 كذلك بالطبع.. هذا هو رقمها بالنسبة لوزارة الثقافة، فمقبرة توت عنخ آمون مثلاً هي المقبرة رقم 62. لكن المقبرة 34 تخص (تحتمس الثالث). ليست سهلة قريبة مثل باقي المقابر لكنها تحتاج إلى مشقة تسلق الجبل وارتقاء درجات ونزول درجات.. مغامرة لم تعد سنه تسمح له بالمرور بها..

هو لا يعرف شيئًا عن (تحتمس الثالث).. ما يعرفه من المرشدين الذين يمشون مع وفود عربية هو أنه كان قائدًا كبيرًا وكان يمت بصلة قرابة لـ (حتشبسوت).

الآن منتصف الليل..

يراه من بعيد وسط الظلام يهبط فوق الصخور بتؤدة.. لقد رآه عشرات المرات من قبل..

القائمة الفارعة والصمت.. يقترب في ببطء.. في ببطء.. حتى يصير في ضوء النار. يمكنك أن ترى ملامحه القسيمة السمراء ووجهه الصلب كأنما قد من صخر.. منذ أعوام كان هذا المشهد يجمد الدم في عروقه، وفي المرة الأولى صرخ وراح يستعيز بالله من الشيطان الرجيم. من أنت وكيف دخلت هنا؟.. الجبانة كلها مغلقة.. لا أحد يستطيع الدخول..

لكن الغريب الذي جاء من بين التلال جلس... قال له بصوت عميق:
- «لا تسأل أسئلة كثيرة..».

ثم مد يده يمسك بكوب الشاي الفارغ، فراح الخفير يصب له بيد ترتجف.. يجلس الغريب صامتًا ينظر للجبل المظلم.. يسأل الخفير عن قريته.. عن أبنائه..

هكذا تمضي الساعات وهما جالسان حول النار.. ثم يقترب الفجر فينهض الغريب بلا كلمة ويتجه إلى الجبل، ويرقى الصخور من دون كلمة واحدة... يبتعد حتى يختفي..

ويظل الخفير جالسًا وحده مفعمًا بالحيرة والأسئلة..

لماذا لم يسأل أكثر؟.. لماذا لم يصب بندقيته على رأس هذا الغريب؟.. بكل المقاييس هو متسلل إلى الجبانة ويجب أن يقتاده إلى الشرطة أو يطلق عليه الرصاص..

لكنه كان يعرف أكثر.. لماذا لم يصف أي واحد من زملائه الخفراء تجربة مماثلة؟.. من هذا الغريب الذي يظهر في الجبل فجأة؟.. لماذا لا يتكلم؟.. لماذا لا يظهر بانتظام بل ليلة واحدة أو ليلتين في الشهر؟

أدرك عم (هريدي) بلا أسئلة أن هذا الغريب ينتمي بشكل ما إلى... إلى... هو لا يحرو على أن يقولها..

كل هذا غريب، والأغرب أنه بدأ مع مرور الأعوام يأنس إلى هذا الغريب القادم من المقبرة رقم 34. هو يمضي الليل وحيدًا في عزلة مخيفة، لهذا لم ير بأسًا في أن يجد بعض الصحبة الآدمية.. من قال إنها آدمية؟

صحبة وخلاص.. المهم أن هناك من يجلس معه جوار النار ويشرب الشاي معه، والأهم أنه يبعد عنه الكلاب المسعورة.. لقد رأى كلبًا يدنو من النار ذات ليلة، وكان يزأر بشكل مخيف.. صوب هريدي بندقيته نحوه مستعدًا لقتله لو تمادى، لكن الكلب تصلب إذ نظر له الغريب.. تراجع وهو يزوم بشكل مثير للشفقة ثم فر مبتعدًا..

مع الغريب أنت في مأمن من الكلاب والذئاب والثعابين...

عرفت هذه القصة من عم (هريدي) لما توطدت صداقتنا أكثر، وقد اعتبرتها هلاوس من عجوز قضى حياته كلها ساهرًا في جبل مظلم وسط مقابر.. لكن حماسه للقصة جعلني أزداد فضولاً..

إن لي صلات مع أناس مهمين جدًا، وقد رتبوا لي أن أقوم بجولة في وادي الملوك ليلاً مع أحدهم.. اسمه (صبري) وهو رجل نحيل عصبي ملول يريد الانتهاء سريعاً من هذا السخف..

هكذا مشينا في الظلام وسط الجبل متجهين إلى الموضع الذي اعتاد عم (هريدي) أن يسهر فيه، ودعوت الله أن تكون هذه من الليالي التي يرى فيها ذلك الغريب..

عواء ابن آوى يتردد...الحق أن المكان مخيف فعلاً.. لو إنني قضيت ليلة هنا لرأيت أمون وست وحورس أنفسهم يمضون الليل معي. مشينا في طريق طويل ترابي نلثت وكان القمر ساطعاً فلم نحتج لإضاءة وهذا من حسن حظي، وأخيراً قال لي (صبري):

- «لو اقتربنا أكثر لرآنا الخفير.. يجب أن نتواري في مكان قريب..». كانت هناك مقبرة لها مدخل غائص في الجبل، هكذا تسللنا إلى هناك لنبتعد عن العيون، ومن هذا الموضع استطعنا أن نرى على بعد خمسين متراً (راكية) النار والخفير جالساً أمامها.. هنا تصلبت..

كان يكلم شخصاً غير مرئي أمامه.. يصب الشاي له ثم يناوله الكوب... يتكلم بلا انقطاع..

نظرت لصبري ونظر لي ثم ابتسم وقال:

- «كما توقعت أنا بالضبط.. الرجل قد جن واخترع رفيقاً وهمياً يمضي معه الليل..».

هزرت رأسي.. القصة أبسط وأسخف مما توقعت ولم تكن تستحق هذا المشوار الليلي.. تمنيت أن تكون كذلك وقد كان..

قلت لصبري إنني سأدور حول الخفير من الخلف لألقي نظرة أخيرة.. نظرة واحدة بعدها نرحل بالسيارة التي تنتظرنا خارج الجبابة.

هز رأسه في ملل، فانطلقت أركض منخفض الرأس خلف اللافتات التي تشرح تخطيط كل مقبرة.. تسلقت بعض الصخور لأتمكن من رؤية المشهد بشكل أفضل.. بالفعل كان الخفير العجوز جالساً يكلم الهواء بلا انقطاع.. يشرح أشياء.. يشير نحو الجبل.. مشهد مخيف لكنه غير خارق للطبيعة.. الخوف من الجنون يختلف عن الخوف الذي يسببه شخص غامض يخرج من مقبرة (تحتمس الثالث) ليلاً...

كان عواء ابن آوى يتردد من بعيد.. طبعاً.. هذه مقابر...

زحفت أكثر.. وهنا شعرت بشعور غريب بأن هناك من يقف قربي.. التفتت في توتر فرأيت في الظلام الدامس مشهداً غريباً بعض الشيء.. لو أطلقت لخيالي العنان لقلت إنه إنسان عملاق له رأس ابن آوى.. كان يقف هناك بين الصخور وظهره لي ناظراً نحو القمر، وكان يصدر خواراً مكتوماً.. ربما بعد لحظات يطلق عواء عالياً آخر...

(أنوبيس)... سيد المقابر.. المشرف على التحنيط..
لقد رسموه إنسانًا له رأس ابن آوى لأنهم رأوا بنات آوى تملأ المقابر... صوت
العواء الذي كان الخفير يسمعه كل ليلة لم يكن من حنجرة ابن آوى لو أردنا
الدقة....

لا أعرف كيف ولا متى انطلقت ساقاي تحلقان فوق الرمال والصخور، ولا أعرف
كيف اصطدمت بصبري في الظلام فهتف في حنق:
- «ماذا دهالك؟».

قلت وأنا أجره من يده:

- «هذه المقابر مسكونة فعلاً.. مسكونة بالخوف.. مسكونة بالرؤى والظلال..
إما إنني رأيت ما رأيته فعلاً وإما أن هذا الخفير كان على حق عندما اخترع
لنفسه رفيقاً.. من المستحيل أن تمضي هنا بضعة ليال من دون أن تجن.. فقط
علينا أن نرحل.. الآن..».

لم يفهم شيئاً وأنا لم أفهم..

فقط اذكر أننا كنا نركض نحو السيارة بينما عواء ابن آوى يتردد من جديد وسط
الجبال..

وكان عم (هريدي) يحكي لضيغه الغريب قصة أخرى على وهج النيران.

همس الموتى

لم أكن أعرف أن البروفسور (جيمس ماتيسون) من المهتمين بهذه الأمور. أنت تذكر الرجل.. هلم من فضلك!.. لا تشعرني بأنني كنت أكلم نفسي في كل هذه الأوراق!.. أنعش ذاكرتك قليلاً.. جمعية البحوث الروحانية البريطانية وتلك الفترة الخصبة من حياتي.. إن البعض يعتبر هذا المكان تجمعاً للنصابين أو - في أفضل الأحوال - تجمعاً للحمقى، لكني برغم كل شيء وجدت في هذا المكان الكثير من الخبرات المسلية أو الجديرة بالتأمل. لا شيء مثل البحث عن حقيقة ميتافيزيقية يساعدك في فهم نفسك... (كارل يونج) تلميذ فرويد الشهير لم يقتنع لحظة بجلسات تحضير الأرواح، لكنه اقتنع بأهميتها!.. إن كم المعلومات والأسرار الخبيثة في ذواتنا التي يوفرها جلوس عدد من الأشخاص المتوترين في الظلام كنز حقيقي للعالم النفسي.. عندما يتحرك الكوب فلربما تعتقد أنها الروح التي تحركه، لكن (يونيغ) يرى أن لا وعينا هو الذي يفعل هذا كاشفاً عن كنوز حقيقية تتوارى داخلنا منذ عصور سحيقة... الخلاصة: سواء كنت تؤمن بالظواهر الميتافيزيقية أو لا تؤمن فهذا عالم جدير بأن تعرف عنه كل شيء..

د. (جيمس ماتيسون) بقامته القصيرة وعصبيته وعينه النافذتين.. ثمة انطباع طفولي عام تأخذه عن مظهره، دعك من الضحكة التي يكشر فيها عن أنيابه وتوشك أن تكون معسولة أحياناً، لكنها مجرد تعبير عصبي على وجهه. لقد نجا من ذلك الحادث الذي كاد يؤدي بحياته والذي جعله يمر بتجربة (دنو من الموت) كاملة.. من المهم أن نلاحظ أن الرجل لا يؤمن بهذا الكلام لكنه يجربه.. لا يكف عن تجربته...

مع (ماتيسون) اجتزت ذلك الباب في البناية العتيقة التي تعود لعام 1882.. الباب الذي اجتازه من قبل علماء كبار مثل الفيزيائي (كروكس) وأدباء أكبر مثل (كونان دويل) مؤلف (شيرلوك هولمز) وخبراء روحانيات محترمون مثل (دوجلاس هيوم)... لست أنا المخدوع الوحيد هنا..

هل تذكرت الأمر الآن؟...

في العام الثاني لإقامتي في لندن توفيت زوجة د. (جيمس ماتيسون) الرقيقة (إليزاباط). لا تسألني من فضلك عن سبب كونها (إليزاباط) وليست (إليزابيث) فالمرحومة أمي لم تكن بريطانية..

كان اكتئاب الرجل حقيقياً، ولفترة حسبت أننا فقدناه فعلاً.. لقد فقد روحه المرحلة واهتمامه بأي شيء تقريباً..

مررت عليه أكثر من مرة في النادي البريطاني الذي نلتقي فيه. ناد استعماري جداً من الطراز الذي يجلس فيه بناء الإمبراطورية القدامى ينعون ضياع مجد الماضي، ويشربون الشاي ويدخنون وينتقدون الشباب الرقيق طويل الشعر..

قال لي كبير السقاة:

- «أخشى أن أقول إن سيدي لم يعد يأتي هنا، لكن بوسع سيدي أن يترك رسالة لسيدي لو كان لي أن أقول هذا، وأمل أنني لم أتجاوز حدود اللياقة إن كان سيدي يرى ذلك..».

لو حولنا هذا الكلام للغة مفهومة لقلنا إن الرجل لم يعد يأتي..
عرفت فيما بعد أن الرجل يتردد على تلك المقبرة قرب (وستمنستر)، وبدا لي هذا مخيفًا.. زوجته دفنت هناك ومعنى هذا أن حالته النفسية ليست على ما يرام..

ذهبت هناك صباحًا وبحثت عنه كثيرًا حتى عرفت مكانه من لحاد ثمل، فمشيت بين شواهد القبور حتى وجدته.. كان يقف هناك وهو يحمل حقيبة كحفية ساعي البريد على كتفه لم أفهم ما فيها، وكان مطرق الرأس في تركيز شديد..

- «د. (ماتيسون).. هل أنت بخير؟».

تنبه لوجودي فرفع حاجبيه وقال بلهجة عملية:

- «بخير يا صاحبي الطيب.. بخير.. لماذا لا ينبغي أن أكون كذلك؟».

- «تغير عاداتك.. أليس هذا غريبًا؟».

ونظرت إلى ياقته في دهشة.. إنه يثبت فيها (ميكروفون) صغيرًا يخرج منه سلك ينزلق تحت معطفه ويتصل بالحقيبة كما هو واضح.. إذن هذا الذي في الحقيبة جهاز تسجيل... ماذا يفعله بالضبط؟.. يتجسس؟.. لكن على من؟
لمح نظراتي وعرف ما أفكر فيه، فقال وهو يدس الميكروفون في الحقيبة:

- «أنا مدين لك بتفسير.. هل تناولت إفطارك بعد؟».

لا.. هناك في ذلك المطعم الصغير القريب جلسنا أمام طبقين من البيض المقلي والقهوة وشرائح (التوست). قال لي وهو يأكل بنهم حقيقي:

- «هل سمعت عن الـ EVP؟؟».

نظرت له في غباء فقال:

- «ظواهر الصوت الإلكترونية.. عبارة أخرى هواية تسجيل الأصوات القادمة من العالم الآخر.. هذه الأصوات تكون أوضح ما يكون في المقابر أو حيث وصف الشهود رؤية أشباح من قبل..».

لم أكن أعرف شيئًا عن هذا الموضوع، وإن كنت أنت تعرفه بالتأكيد لأن فيلم (الضوء الأبيض) قد جعله موضوعًا يعرفه رجل الشارع، لكننا كنا قبل عرض الفيلم بثلاثين عامًا..

شعر الرجل بأنه مدين لي بالمزيد من التفسير، فقال:

- «بدأت القصة بالعالم الشهير إديسون الذي قال إننا يمكن أن نصغي للأصوات القادمة من العالم غير المادي.. كان هذا في عشرينات القرن العشرين، وبعدها بدأ الناس يهتمون فعلاً بالأمر، وظهرت أجهزة التسجيل فراحوا يسجلون الصمت.. أي أنهم يسجلون أصوات الغرفة التي لا توجد فيها أصوات.. إنهم يستعملون أي جهاز تسجيل.. المهم أن يكون الجهاز سليمًا

عالي القدرة، وأن يستخدموا الميكروفون، وأن يكون شريط التسجيل بكرة لأن الشرائط المستعملة تحدث أصوات صخب غير مريحة.. بعد هذا تسمع التسجيل مع رفع الصوت بشدة، ومع وضع سماعتين على الأذنين.. يضع الكثير من الوقت، لكنك في النهاية قد تظفر بجملة.. جملة واحدة يقولها الموتى.. هناك طريقة أخرى تقضي بأن تفتح جهاز الراديو على لا محطة على الإطلاق..».

لم أرد أن أبدو متشككًا لكن الموضوع بدا لي أقرب لكلام فارغ – وأنت توافقني – لذا قلت متمالكًا نفسي:

- «هل هناك علماء يمارسون هذا النشاط؟».

قال بغم لوثة البيض:

- «(فردريك يورجنسون) درس الموضوع بدقة، وفي أوائل الستينات كتب كتابًا مهمًا اسمه (أصوات من الفضاء).. هناك كذلك د. (كونستانتين روديف) السويدي.. هناك رئيس الرابطة الحالي وهو امرأة ثرثرة تدعى (ساره استيب) يمجتها العلماء كثيرًا..».

كتمت خواطري بالطبع حتى ذهبنا إلى شقته فطلب مني الجلوس.. كنا في منتصف النهار والشمس البخيلة تتسلل لتغمر غرفة مكتبه في شقته الأنيقة. أعد لنفسه شربًا ثم أدار شريطًا على جهاز التسجيل وناولني سماعتي أذن وطلب أن أثبتهما..

- «ما تسمع هو ملخص ساعات طويلة من الإصغاء والتسجيل.. بالطبع حولت كل هذا إلى عشر دقائق..».

في رهبة وضعت السماعة على أذني..

يا للضوضاء الاستاتيكية التي تذكرك بصوت الدوامات التي تسمعها عندما تضع قوقعة على أذنك.. هناك عالم كامل من الأصوات المبهمة والدوامات الصوتية.. ربما لو أغمضت عينك لسمعت أرواحًا معذبة تن في سقر.. ربما سمعت ضحكات.. ولكن..

هناك بالفعل صوت.. بالتحديد صوت امرأة..

إنها تقول شيئًا.. لحظة.. لنركز أكثر..

«.. سافات.. كامو.. مي.. مي.. كامو.. مي... آ آ.. سي يو... جم.. مي..».

هكذا ذرات الرمل الصوتي المتناثرة في العاصفة يمكن أن تحتشد لترسم شكلًا ما، لكن الريح تذررها في ثوان فيغيب الشكل تمامًا.. تسمع كذلك ذلك الصوت يخفت ويعلو كأنه مضخة بعيدة..

(«جي.. مي»)

الشمس تغمر المكان لكنني برغم هذا اشعر بأنها ليست كافية.. الشعر ينتصب على ظهر ساعدي.. أية خبرة مرعبة هذه!!

قال لي باسمًا:

- «.....؟».

نزعنا السماعه عن أذني ونظرت في دهشة فكر السؤال «ماذا سمعت؟».

قلت:

- «صوت امرأة.. هذا كل شيء..».

- «امرأة.. هذا ببساطة صوت (الاصابات).. العبارة التي تتردد هي (تعال لي

(Come to me).. ثم (أفتقدك Miss you).. ثم تنادينني باسمي.. جيمي..».

قلت في عصبية:

- «هذا ليس واضحًا..».

- «لا تكن طفلًا.. صوت زوجتي وقد سجلته وأنا أحوم بجهاز التسجيل حول

قبرها.. ألا يعني هذا شيئًا لك؟».

قلت له بصراحة إنني لا أفهم وليس لدي تفسير، لكن الأمر يبدو لي عسير

التصديق.. كان قاطعًا ولم يسمح لي بمناقشة أي شيء..

هكذا عندما فارقه بعد ساعات كان رأسي يموج بالأفكار والهواجس، وقد

قصت عالمًا آخر أعرفه وهو كذلك طبيب باطني مرموق... د. (لانسبيرى) له

عيادة صغيرة أنيقة في شارع (هارلي) المكان الوحيد الذي يمكن أن تجد فيه

عيادات في لندن..

استقبلني الرجل ضئيل البنية عميق الصوت، وجلس يصغي في اهتمام لما

أقول.. ابتسامته تتسع شيئًا فشيئًا كلما تكلمت.. في النهاية قال لي:

- «هذا هو التفكير التواق.. التفكير الذي يوحد بين مصدقي الخرافات في

العالم كله. د. (ماتيسون) عالم مدقق ممتاز، لكن فقدان زوجته هز يقينه

العلمي، وهو في مرحلة يمكنه أن يصدق فيها أي شيء.. لقد منحه هذا

الصوت الأمل لكنه في الحقيقة يسمع ما يريد به.. ما يتمنى أن يسمعه.. أن

يعرف أن زوجته قريبة وتكلمه.. لكن ما يسجله الجهاز في الحقيقة هو خليط

من الكهرباء الاستاتيكية مع صوت محرك جهاز التسجيل نفسه.. دعك من

التقاط بعض الموجات من محطات الراديو المحلية. في النهاية يصلنا هذا

الخليط... هنا يمارس العقل لعبة اسمها (أبوفينيا Apophenia).. لا يفهم خليط

الأصوات هذا فيحاول أن يجعله كلامًا ذا معنى.. يلتقط كلمة من هنا وكلمة من

هناك ويلفق معنى لا وجود له..».

- «مستحيل أن تقنعه بذلك..».

أشعل سيجارًا غليظًا وقال:

- «فليصدق.. لو كان هذا يريحه فليفعل.. فقط أريد أن أتأكد من أنه لن يطلق

الرصاص على رأسه ليلحق بها ما دام الصوت يقول له (تعال لي).. هذه الأمور

تحدث..».

- «حقًا لم أفكر في هذا.. احتمال مقلق..».

ثم مددت يدي في جيبتي وأخرجت الكنز الذي أخفيته طيلة هذا الوقت..

لقد سرقت الشريط من د. (ماتيسون) عندما خرج ليعد لنا بعض العصير.. ليس

هذا سهلًا مع تلك الشرائط العملاقة ذات البكر، لكنني كنت فعلاً بحاجة إلى

رأي ثانٍ..

قال (لانسبيرى) باسمًا:

- «أي.. أي!.. أنت سرقت الثعلب العجوز!... لن يمر هذا على خير...».

- «أمل أن أعيد الشريط قبل أن يلاحظ اختفائه.. أردت أن تسمعه...».

لف الشريط في موضعه ثم رفع الصوت إلى نهايته، فنبهته في تهذيب إلى أنه لابد من استعمال سماعة الأذن.. هكذا ثبت سماعتين لأذنيه وراح يصغي... رأيته يقطب ويبدو عليه الاهتمام.. أعاد الشريط عدة مرات..

ومن جديد ارتسم القلق على وجهه..

نزع السماعتين فقلت له:

- «هل سمعت؟.. الأمر واضح...».

سألني في صرامة:

- «أين كان يضع الميكروفون؟».

- «يثبته إلى ياقة معطفه.. وضع غريب جدًا.. كان يريد ألا يلفت منظره الناس لهذا دارى كل شيء قدر وسعه».

قال في خطوة:

- «يجب أن نجده.. إن الثعلب العجوز في خطر داهم...».

- «هل تعني أنه سيقتل نفسه فعلاً؟.. نداء زوجته سوف...».

كان قد وضع معطفه على كتفيه واتجه للباب، فالتفت لي في دهشة ثم قال:

- «من تحدث عن تلك الأصوات السخيفة هنا؟.. قلت لك إن (الأبوفينيا) تفسر كل شيء.. أنا أتحدث عن ذلك الصوت اللعين في الخلفية كأنه مضخة تمتلئ وتفرغ.. هذا الرجل مصاب بتوسع متكيس في الشريان السباتي.. لقد وضع الميكروفون هناك فالتقط الصوت.. يجب أن ننقله للمستشفى ولربما احتاج إلى جراحة أوعية عاجلة».

- «هل تعني؟».

- «أعني إنه مهدد بالموت في أية لحظة لو انفجر التكيس أو تكونت فيه جلطة!!.. إن الـ EVP لم تساعد في الاتصال بالموتى، لكنها على الأقل قد تساعد ألا يصير منهم!... هيا بنا!».

القط الذي انحرف

تقول لي (نرمين) وهي ترتجف:

- «أنت تعرف تلك اللحظة عندما يعتبرك الكل مجنونًا، بينما أنت على يقين بأنك لم تفقد ذلك الخيط بين الواقع والخيال بعد...».

تقول لي (نرمين) وهي تعتصر عينيها لتفلت القطرات المالحة الأولى:

- «لا أعتقد أن هناك شخصًا آخر يمكن أن يصغي لي سواك يا د. (محفوظ)...».

تقول لي (نرمين) وهي تجفف أهدابها بمنديل ورقي:

- «أبي لن يصدق حرقًا.. هذه هي المشكلة.. الآباء لا يفهمون أبدًا...».

كنت أصغي لكلامها وأنا أفكر.. إن (نرمين) جارتني كما تعرف.. طالبة جامعية هادئة الطباع مهذبة وليست من الطراز الهستيري.. عندما تقول شيئًا فهي على الأرجح تعنيه..

قلت بلهجة قاطعة لا تسمح لها بالتراجع:

- «سوف نزور د. (خليفة)، وسوف نأخذ رأيه... أعتقد أن رأيه سينهي القصة».

هكذا تجدني أركب السيارة وجواري (نرمين) متوترة دامعة، وعلى حجرها القفص الصغير الذي يقبع فيه (ميشو).. كان متوترًا مندهشًا من هذه الرحلة بالسيارة، لكنها كانت تربت على القفص وعلى ذيله الذي يبرز من حين لآخر، وتقول له كلمات مطمئنة..

هناك كان د. (خليفة) الطبيب البيطري صديقي بانتظارنا في مكتبه، وقد تبادل معي حديثًا مرحًا وتعرف على (نرمين) التي زعمت أنها قريبتني.. كان رجلًا في الخمسين له شارب عظيم يوحى بالثقة. الحق أنني أحترم الأطباء البيطريين بشدة أكثر من سواهم.. العبقرى الذي يستطيع فهم آلام مريض لا يتكلم ولا يكتب... ليس الغريب أنهم يخطئون التشخيص أحيانًا بل المذهل أنهم ينجحون في أغلب الأحوال..

لقد راح يتفحص القط الأشعث القابع في القفص، والقط كذلك راح يبادل نظرات متشككة.. هذه القطط الفارسية مملة لدرجة لا تصدق.. تذكرني بمليونير بدين جشع ثقيل الظل والحركة ولا يجيد سوى التهام الطعام.. أفضل القطط البلدية الرشيقة خفيفة الظل متقلبة المزاج إياها..

راح يتفحص القط ثم فتح القفص ومد يده يعابته...

في كسل راح القط يتظاهر بأنه مهتم.. راح يعاثر تلك اليد بلا حماس باعتبار هذا واجبًا لا مفر منه..

في النهاية أغلق د. (خليفة) القفص وقال لـ (نرمين):

- «إنه في صحة ممتازة.. لا يمكن أن يكون مصابًا بالسعار بأي حال، برغم أن الطريقة المثلى هي أخذ عينة من المخ وفحصها مجهريًا، لكن للسعار علامات لا تخطئها العين.. دعك من أنه يأكل ويشرب ولا يتساقط اللعاب من شذقيه، ولم يتعرض لهجوم من حيوان مسعور».

قالت له في توتر:
- «إذن لي أن أطمئن؟».
- «اطمئني تمامًا.. يمكنني أن آخذ هذا القط ليلعب مع أطفالتي».
ثم اضاف في سخرية:
- «لكن الأمر ليس مصيريًا لهذا الحد.. يمكنك التخلص منه في أية لحظة..
يمكنك اقتناء قط تطمئنين له أكثر.. لو أردت لأخذناه ووضعناه تحت المراقبة».
قالت في حزم:
- «لا.. أنت لا تفهم.. هذا القط صديق عمري منذ عشر سنوات.. إن التخلي
عنه يشبه التخلي عن ابني».
ابتسم من جديد وقال:
- «إذن لا داعي للتخلي عنه.. عودي للبيت واطعميه وجبة دسمة..».
وهكذا انطلقت معها عائدين للسيارة.. كنت اشعر بأنني سخي، لكن هذا
كان أفضل حل وجدته لمشكلتها. لا أحد يتكلم بعد الطبيب البيطري..
قلت لها ونحن في السيارة:
- «هو هادئ الطباع تمامًا.. بل هو شبه ممل.. أين تلك الشراسة التي تكلمت
عنها؟».
- «هي موجودة لكنها لا تظهر عندما تبحث عنها..».
- «أعتقد أن المشكلة انتهت على كل حال.. إن القطة حساسة ولا يمكن
فهم مزاجها.. ربما تتوتر لأسباب لا نفهمها.. قديمًا اعتقد الناس أنها ترى اشياء
لا نراها نحن.. هذه فكرة مرعبة لو فكرت فيها..».
كنا قد وصلنا للبيت فقالت لي وهي تترجل:
- «شكرًا يا دكتور (محفوظ).. كنت اعرف أن بوسعي أن أثق بك».
ثم ابتعدت والقفص يتعلق في يدها.. والقط ينظر لي نظرتة الثقيلة السمجة..
ومرت الأيام..
تقول لي (نرمين) وهي تشهق بعنف:
- «الأمر تجاوز الحد».
تقول لي (نرمين) وهي تخفي وجهها:
- «إنه غريب الأطوار..».
تقول لي (نرمين) وهي تبكي من جديد:
- «أعتقد أن (محمود سراج) يعرف السبب..».
هذه المرة تماكنت أعصابي بصعوبة، وقلت لها وأنا أعد من واحد لعشرة:
- «ألا ترين أنك تبالغين فعلاً؟.. كل هذا التغير في حياتك بسبب قط؟.. مهما
كان ثمينًا أو نفيسًا فالتخلص منه أحد الخيارات الواردة.. إن الحياة أعقد وأكثر
كآبة من أن يفسدها قط».

قالت في غضب:

- «هل رأيت؟.. أنت كالجميع.. كالأخرين.. لا تفهم لماذا أبكي وأقلق من أجل صديق قضيت معه عشر سنوات سعيدة.. ثم إن الأمر لم يعد يتعلق به بل بفهم ما حدث.. إن (محمود سراج) يعرف.. أنا واثقة من هذا..».

كانت تتكلم وهي ترفع كمها عن ساعدها.. هنا رأيت ألحن جرح طولي يمكن وصفه.. لقد تهتكت الأنسجة تمامًا..

صحت في رعب:

- «لابد من أن يرى طبيب هذا الجرح..».

- «ربما أفعل ذلك، لكنني لا أريد أن يشعر أبي بشيء.. سوف يتخلص من القط كخطوة أولى..».

تقول لي (نرمين) :

- (محمود سراج) جارنا في البناية، وهو رجل في الخمسين يعيش وحده.. لا أعرف عنه إلا أنه مهندس وأنه مهذب. من الطراز الذي يكره أن يترك أثر أقدامه بأي شكل على غبار ممشي الحياة. تقابله على الدرج فينظر للأرض ويواصل الصعود، لكن أبي كان يتبادل معه بعض الكلمات، ويؤمن أبي أن هذا الطراز من الناس هو العريس الأمثل لأية فتاة.. فقط لو كان الأحمق أصغر سنًا نوعًا.. كلما كان الرجل أحمق صموتًا انطوائيًا ثقيل الظل بدا لأبي مناسبًا أكثر..

(محمود سراج) يخرج ليلاً في جولات طويلة. أعرف هذا لأنني - بصفتي من زبائن الأرق - أقف في شرفة غرفتي أحيانًا فأراه يخرج في أوقات غريبة جدًا، وهو ما يثير الرجة عندما تراه بمعطفه الطويل الأسود يمشي وحده في الشارع الخالي بعد الثالثة صباحًا.. يشق طريقه وسط الضباب الذي بدأ يتكون وصوت نباح الكلاب الضالة من بعيد.. لا أعرف متى يعود لكنه لا يعود أبدًا وأنا متيقظة..

كان هذا كل شيء أعرفه عنه، حتى حجز لنا أبي أسبوعين في مصيف (رأس البر) وأصدر قراره بأن نذهب جميعًا.. كان هذا أول عام لا تعمل فيه عندنا خادمة تعنى بالبيت أثناء سفرنا، وبالطبع لا توجد في مصر مهنة من يعنى بالحيوانات الأليفة كما في الخارج. لهذا صار من المحتم أن نأخذ (ميشو) معنا إلى المصيف، لكن أبي كان قاطعًا.. لن يتحمل اصطحاب قط معه مع كل ما يسببه هذا من مشاكل.. إن اصطحاب قط قد يكون أكثر صعوبة من اصطحاب ثلاثة أطفال..

إذن ماذا أفعل؟.. بالطبع هذه الأمور سهلة على الكبار جميعًا: تخلصي منه.. لكنني كنت واضحة: لو أرادوا ترك القط فعليهم أن يتركوني كذلك، وبالطبع أطلق أبي سيلاً من الغضب على رأسي ثم جاءته الفكرة..

زار المهندس الوحيد في شقته وتفاوض معه، ومن الغريب أن الرجل قبل العرض بسهولة وبشاشة، ثم جاء أبي يصحني وأنا أحمل علبة من الورق المقوى فيها القط.. وأعطيته للمهندس مع تعليمات العناية به، وخاصة اتيكيت قضاء الحاجة الذي سيكون مشكلة على الأرجح. هناك كيس مليء بالسّمك

المجمد وكل ما عليه هو أن يسلق سمكة للقط يوميًا.. ليس هذا سهلاً أو ساراً، لكن القطط كائنات حية وعليك أن تقبل هذه الحقيقة.. ليست مجرد صور لطيفة على بطاقات..

هكذا سافرنا.. لا أنكر أنني نسيت القط العزيز، لكنني تجرأت ذات مرة واتصلت بالمهندس لكنني لم أجده في الدار.. أصابني هذا بالغضب لأنني اتوقع أن يظل جوار القط طيلة الأسبوعين..

أنا أكره المصايف.. شعور غريب ينتابني بأن الناس هناك تؤدي واجباً، وإلا فبم تصف هذه الوجوه التعيسة المليئة بالملل التي تجلس في الشمس الحارقة، مغطاة بالرمال تتمنى أن ينتهي هذا كله؟

لهذا مرت أيام المصيف ثقيلة مملة، حتى عدنا إلى القاهرة وقد صرنا زנוجاً من قبائل الماساي.. أخيراً ذهبت مع أبي إلى شقة المهندس وكان هناك لحسن الحظ.. رحب بنا ثم غاب دقيقة وعاد حاملاً الأخ (ميشو) في صندوقه الورقي.. وقال:

- «بصراحة لقد أحببته.. لكن الأمانة يجب أن ترد».

- «هل ضايقتك؟».

- «إنه مسالم كالملائكة.. (ميشو) لن يضايق بابا أبداً».

عدت إلى البيت ممتنة وقال أبي إن المهندس شخصية ممتازة. ظلت أعتقد هذا حتى جاء الليل.. لا أعرف كيف ولا لماذا صحت من نومي لكنه ذلك التأثير الغريب الذي تبعته فيك عينان تحملقان فيك وأنت نائم. كان (ميشو) يقف على الوسادة يتأملني في عمق وثبات.. بصراحة نظرة مفزعة فعلاً..

وفجأة رأيته يغرس أنيابه في ساعدي الذي كان على الوسادة.. أنت تعرف مداعبات القطط وبعضها قد يكون ثقيلاً، لكن هذا الوغد كان مصراً واثقاً مما يفعله.. كان يريد انتزاع قطعة لحم.. وللمرة الأولى اضطرت إلى أن اضربه بالوسادة على رأسه ليرك ساعدي..

في اليوم التالي ركض ورائي في الصالة وقد أرجع أذنيه للخلف بتلك الطريقة الشيطانية التي تجيدها القطط.. كان يمشي على أطفاره وقد قوس ظهره وصارت حركاته (بالورب).. هذا تأثير تمارسه القطط كثيراً لكنه يزول فوراً لأنه نوع من الدعابة، لكن هذا القط بدا لي كشيطان ذي فراء يطاردني في الصالة.. بالفعل لم يتركني قبل أن ينشب أنيابه في كاحلي..

الأسوأ أنه لم يعد يأكل السمك على الإطلاق، وقد قام بعد يومين بعض أمني عضه قوية جداً.. كانت هذه هي الفترة التي بدأ كابوس السعار يطاردني فيها.. ماذا لو كان المرض اللعين أصابه؟.. ربما فر من الدار وعضه حيوان آخر؟

صديقك البيطري نفى هذا الاحتمال تماماً.. هنا يبقى احتمال آخر هو أنه تعلم شيئاً ما عند (محمود سراج).. ما هو؟.. كيف يمكن أن تفسد طباع قط مهذب؟ رحت أفكر في الأمر ملياً.. ثم قلت لها إن الحل الوحيد هو أن نسأل (محمود سراج) نفسه.. قد يكون لاحظ شيئاً غريباً على القط عندما كان عنده.

هكذا اتجهت معها إلى تلك الشقة في البناية.. الشقة التي يعيش فيها ذلك المهندس الوحيد منذ زمن. دققت الباب مرارًا فلم يرد أحد. كدت أنصرف لولا أن لاحظت تلك الرائحة الكريهة الخارجة من وراء الباب.. لا أحب أن أستعجل الشر لكن هذه القصة تبدو مألوفة..

كلام مع البواب.. قرعات متوالية على الباب.. محاولات مع الهاتف... في النهاية الاتصال بقسم الشرطة، ومساعد الشرطة الملول المتعجل الذي لا يرى داعيًا لكل هذا الهوس.. قال لي:

- «لا يمكن أن نقتحم البيت من دون إذن قانوني.. لكن يمكنك أن تفعل على مسئوليتك».

هكذا طلبت من (نرمين) أن تتعد ورحت والبواب يضرب الباب بكتفيننا، ثم أحضر أحدهم عتلة اغتصبنا بها القفل.. أمرت (نرمين) أن تتعد على حين دخل مساعد الشرطة ومعه شرطيان إلى الشقة كريهة الرائحة....

هناك اسمنت.. هناك إناء يقوم أحدهم بخلط المونة فيه.. هناك (محارة) وكوز ماء جف ما فيه.. هناك جثة مهندس في الخمسين واقعة على الأرض وقد بدا من الرائحة أنه توفي منذ يومين أو ثلاثة. مهندس أصيب بنوبة قلبية من فرط الجهد وهو يعيد سد تلك الفجوة في الجدار... لا بد أن ممارسة هذا العمل العضلي كانت عسيرة جدًا على رجل اعتاد الجلوس طيلة حياته.

الفجوة التي رأينا ما بها... لا بد أن القط هو الذي بدأ النيش والتنقيب هنا لمدة أسبوعين، وهو الذي وجد ما وجد، وتعلم أن يأكل أشياء غريبة جدًا غيرت من طباعه للأبد..

لقد حسبنا المهندس (محمود) أعزب.. الحقيقة التي عرفناها وعرفها القط قبلنا أنه أرمل!

عاشق اللوحات

في العام 1993 عرفت المستر (كارازيان) ..

منذ اللحظة الأولى ميزت أذني هذه (اليان) التي تدل على إنه أرمني.. الأرمن كثيرون في مصر، وبعضهم صاروا مصريين كالمصريين أنفسهم، ويبدو أن في لغتهم شيئاً يجعلهم يتعلمون العربية بسهولة وبلا أية لكمة غريبة.. عرفته عن طريق د. (عدنان) صديقي الذي كان من الإسكندرية، وقد حدثني عن القصر الصغير الذي يسكن فيه ذلك الرجل الفريد..

ذهبنا لزيارته في يوم ممطر من شهر ديسمبر، وقد أثار القصر إعجابي منذ البداية بسبب ذوقه الفريد. فتحت لنا الباب فتاة لم أر جمالاً كجمالها قط، وكان يتدلى قرط جميل من أذنها كأنه اللؤلؤ. دعتنا بإشارة للدخول، وفي البهو رأيت (بيانو) من طراز أثري جميل تعزف عليه فتاة أخرى ذات جمال نبيل شديد الرقي والأرستقراطية.. رأينا فابتسمت في حياء وغادرت المكان مسرعة، فقلت لنفسي إن أفضل مجاملة تقدمها لنا هي أن تظل جالسة حيث هي.. أما المستر (كارازيان) نفسه فقد جلسنا ننتظره في غرفة انتظار فاخرة مزدانة بتماثيل رائعة بالحجم الطبيعي للإنسان..

ظهر من أعلى الدرج وهو يرتدي - كما توقعت بالضبط - ذلك الروب القصير اللامع، ومن تحته قميص وربطة عنق وفي يده سيجار غليظ.. لا ينقصه إلا دلو به زجاجات شمبانيا وبعض التفاح وفتاة بريئة يغرر بها كي يصير أحد أشرار الأفلام العربية القديمة..

تأمل هذا الشارب الرفيع والنظرة الناعسة في عينيه.. هذا رجل عاش شبابه مع النساء وقد خدع منهن الكثيرات بلا شك.. الفتيات اللاتي رأيناهن لم يتم اختيارهن بالصدفة إذن.. هن مختارات (على الفرازة) كما يقولون.. صافحني في تحفظ بينما ارتمى حرفياً في أحضان عدنان صديقه الحميم، وكان يتحدث عربية ممتازة كما قلت لك..

- «مصر بلد جميل.. لا اذهب إلى أوروبا إلا وأفتقد كل شيء هنا.. خاصة هذا الوغد».

قالها وهو يلکم عدنان بين لوحى كتفيه مداعباً فأطلق عدنان أنة مرحة وقال لي:

- «مستر (كارازيان) مولع جداً بالتحف واللوحات».

- «هذا واضح».

قلتها وأنا اتذكر الفتاة التي تعزف على البيانو.. هذه تحفة جديدة بالافتناء فعلاً...

أخذنا مستر (كارازيان) إلى باب في ركن الغرفة وفتحه.. ثم مشى يتقدمنا وسط رواق طويل على جانبيه لوحات لا أعرف كيف أصفها لك.. لقد رأيت اللوفر فشعرت بشعور مماثل، لكن اللوفر ملك الحكومة الفرنسية وليس ملك

شخص واحد مهما كان ثريًا..

هناك لوحات أصلية ترى عليها ضربات فرشاة الرسام.. عرفت أسلوب (ديلاكروا) المميز، ورأيت وجوه (الجريكو) المعذبة المتطلعة إلى السماء، ورأيت ضربات فرشاة (رينوار) الطامئة إلى النور، والضوء الذهبي القادم من اليسار المميز لرمبرانت.. (ساسكيا) زوجة الفنان.. الأجساد المكتنزة البدينة الرخوة المميزة لعالم (روبنز)..

توقفت ونظرت للثري الفخور في ذهول:

- «هل هذه؟».

ابتسم وقد توقع ما سأقول :

- «نعم.. أصلية..».

- «مستحيل.. وإلا فأنت أغنى من قارون.. هذه اللوحات لا تقدر بثمن..».

قال ضاحكًا:

- «يسرنى أن أجد في مصر من يفهم هذه الأمور.. عهدي بالمصريين أنهم لا يهتمون بالفن التشكيلي على الإطلاق.. لكم من ضيف مر بهذه الصالة فلم يهتم.. فقط يقول لي مجاملًا: لوحات جميلة.. ثم ينسى الأمر نهائيًا..».

كنت قد كونت وجهة نظر معقولة.. هذا الرجل يتعامل مع مافيا لوحات عالمية.. إنه لص آثار، وقد اختار أن يكون في مصر حيث يظل بعيدًا عن عيون الشرطة لأن تواجده في أوروبا يعني افتضاح أمره سريعًا..

الاحتمال الثاني هو أن هذه لوحات مزورة.. قام بتزويرها فنانون على قدر عال من الحرفية. يحتاج الأمر إلى ناقد فني أو أستاذ فنون جميلة، وربما احتاج إلى فحص بالكربون لمعرفة عمر هذه اللوحات الحقيقي..

كانت هناك لوحة تمثل مقعدًا مزخرفًا شامخًا وسط ستائر حمراء. لوحة جميلة جدًا لكن ثمة شيء ينقصها... كذلك كانت هناك لوحة لأريكة شرقية طويلة كان من الأجمل لو جلست عليها حسناء ما، لكن الفنان فضل أن يتركها كما هي..

هناك لوحة عبارة عن مساحة سوداء لا شيء فيها.. لوحة غريبة جدًا...

توقفت أمام هذه اللوحة وسألت مستر (كارازيان) عنها فقال:

- «هذه لوحة لفيرمير.. كان يبدأ بسطح أسود تمامًا، لكنه لم يرسم أي شيء عليها حتى مات.. برغم هذا تظل قطعة فنية مهمة.. هل تعرف تمثال (العبد) لمايكل أنجلو الذي لم يستكمله قط؟.. برغم هذا يعتبر قطعة فنية مهمة».

عندما غادرت وعدنان المكان كنت في حالة من الذهول..

سألني عن رأيي فقلت:

- «صاحبك لا يريحني البتة إلا كما يريحك التعامل مع أي لص.. لكن اللوحات تهمني وقد حركت شيئًا في روحي، وأعتقد أنني سأعود..».

بالفعل اعتدت كلما نزلت إلى الإسكندرية أن أتصل بالمستر (كارازيان) طالبًا

أن يسمح لي بزيارة، ويبدو أن هذا كان يسره...
صرت أعرف لوحاته جيدًا وأحفظ موضع كل لوحة منها تقريبًا.. صحيح ان مواضعها تتغير وبعض اللوحات تختفي لتظهر لوحات أخرى، لكنني كنت أعرف بالتقريب أهم القطع.. هذا الركن فيه لوحات (هنري روسو) وهنا بعض الانطباعيين.. (بوشيه) هنا و(ألما تاديما) هناك..
فقط كانت الحسان اللاتي يقابلنني بالصدفة عند (كارازيان) يتغيرن، ولم يتكلم عنهن قط كما لم أجسر على فتح الموضوع.. ربما أتكلم عن تلك الحسنة أو تلك فيتضح أنها ابنته أو زوجته..
استمرت صداقتي مع الرجل عامين، وكان أن قابلت د. (عدنان) في القاهرة ذات مرة، فرحنا نتحدث عن الإسكندرية..
سألته عن مستر (كارازيان) وكيف قابله لأول مرة فقال:
- «قابله كما قابله أنت.. صديق مشترك أخذني هناك وعرفني بالرجل..».
- «لابد أنه في مصر منذ زمن بعيد ما دام يجيد العربية بهذا الشكل..».
قال ضاحكًا:
- «لا.. قد جاء منذ ثلاثة أعوام وابتاع هذا القصر.. ليست صداقتنا قديمة إلى هذا الحد..».
كنت أفكر في كلامه بعمق...
عندما زرت قصر (كارازيان) في المرة التالية، فتحت لي الباب تلك الخادمة الحسنة ذات القرب الشبيه باللؤلؤ.. ضحكت كعادتها وأشارت إلى الداخل..
هي لا تتكلم أبدًا... قلت لها:
- «إن ملامحك غير مصرية.. هل أنت قريبة مستر (كارازيان)؟».
نظرت لي واتسعت ضحكتها أكثر ولم تقل شيئًا.. لا تنوي أن تتكلم.. دخلت القصر وفي البهو الفسيح كانت هناك فتاة رشيقة بارعة الجمال تؤدي بعض الحركات التي تذكرك برقصة الباليه أو تدريبات الجمباز الإيقاعي..
رأيتني فكفت عما تفعله، فدنوت منها وسألتها بجرأة :
- «هل أنت قريبة مستر (كارازيان)؟».
ابتسمت بدورها وقالت كلمة ما بالفرنسية وهرعت تبتعد...
كان الباب الذي يقود إلى متحف اللوحات مفتوحًا فدخلت.. قدرت أن الرجل لن يتضايق من هذا التحرر الزائد من ناحيتي ما دمت دخلت هنا عشرات المرات..
كانت هناك لوحة جديدة تظهر مشهدًا صامتًا : هناك مسرح عليه مشاعل مثبتة على خشبته وهي تعكس ضوءًا رهيبًا، لكن المسرح خال تمامًا.. لا أذكر أن هناك لوحة عالمية بهذا الشكل...
كانت هناك لوحة شهيرة جدًا تمثل مدام (ريكاميه) الرقيقة في وضع بين الرقاد والجلوس على أريكة شرقية.. هذه لوحة جديدة على قدر علمي.. هل هي بريشة (ديفيد) أم (كونستابل)؟.. بصراحة لا أذكر..

وفجأة تصلبت..

تلك الفتاة الرقيقة التي تعزف البيانو والتي قابلتها في البهو أكثر من مرة من قبل.. ألا تحمل بالضبط ملامح مدام ريكاميه؟...

هنا شعرت به يقف خلفي فأجفلت واستدرت بسرعة. كان يقف هناك بذات الروب اللامع الذي لم أره إلا به، وكان ينظر للوحة في إعجاب غير مبال بي، ثم قال:

- «نعم.. هن رائعات.. الحلم الذي ظل يؤرقني هو أنني كنت أتمنى أن أجدهن حولي بشحمهن ولحمهن.. كما رآهن الرسام.. لم يرهن حقًا سوى الرسام وقد نقل لنا تلك الرؤية..».

- «إلى هذا الحد؟».

القصة واضحة.. هذا الثري المجنون بالفن يبحث في كل الأرض عن جميلات يذكرنه بتلك اللوحات، فلا يختار للعمل عنده أو معه إلا من تشبه ملامحها صاحبة اللوحة بقوة.. لن يتعب كثيرًا على كل حال حتى يجد من تشبه الموناليزا، لأن ملامحها تذكرني بما قاله الكاتب الساخر أحمد رجب (ستي الحاجة بالطرحة وسبرتاية القهوة)...

قضيت معه بعض الوقت ثم انصرفت وأنا مندهش من هذا المزاج الفني المبالغ فيه..

جاءت الفرصة عندما قابلت أحد أصدقائي القدامى الذين بلغوا مرتبة عالية في أحد الأجهزة الأمنية. كان برتبة لواء، وقد كنا نتحدث عن جرائم سرقة الأعمال الفنية فخطر لي أن أسأله عن مستر (كارازيان).. اسمه بالكامل (ميخائيل كارازيان).. لا شك في أنه أرمني، وقد جاء إلى مصر منذ خمسة أعوام تقريبًا..

أخذ البيانات باهتمام وواعد بأن يتحقق من هذا الرجل جيدًا.. وكنت أعرف أنه سيفعل..

بعد أيام اتصل بي وقال ضاحكًا:

- «معلوماتك خاطئة على طول الخط.. لم يدخل مصر رجل يدعى (ميخائيل كارازيان).. القصر الذي نتحدث عنه بلا ساكن منذ عشرة أعوام!».

- «بلا ساكن؟.. لقد زرته وزاره د. عدنان فلا تقل إننا كنا نخرف...».

- «لا تقل كذلك إننا نحن من يخرف...».

وضعت السماعة في توتر، وسرعان ما كنت أتصل بـ (كارازيان).. جاء صوته الهادئ المعتاد عبر الهاتف فقلت له إنني في أمس الحاجة لزيارة معرض لوحاته مرة أخرى... اليوم لو أمكن..

- «كما تريد.. هل الساعة الخامسة عصرًا تناسبك؟».

- «بالتأكيد...».

وسرعان ما كنت أستقل القطار إلى الإسكندرية.. يجب أن أعرف وإلا قضيت نحبي من فرط الغيظ والحيرة. وعند الخامسة كنت على باب القصر أدق

الجرس الأثري المعتاد. ينفتح الباب لكنني لم أجد الخادمة ذات القرط الشبيه باللؤلؤ.

الباب انفتح من دون شخص يقف وراءه.. دخلت في توتر إلى اللوبي ثم البهو.. القصر خال تمامًا.. ثمة جو عام يوحي بالقدم وبأن أحدًا لم يعن به منذ فترة.. نسيج عنكبوت وغبار.. في نهاية الممر ذلك الباب الذي يقود لعالم اللوحات. لا توجد إضاءة هنا..

وجدت شمعة مثبتة في طبق صغير فأشعلتها بعود ثقاب ومشيت أنظر للوحات التي اعتدت رؤيتها.. ما زالت موجودة حيث هي.. وتوقفت أمام لوحة مألوفة.. راقصة الباليه لديجا التي تمثلها وهي ترقص على المسرح.. أنا أعرف هذه الفتاة.. كانت تتدرب على الجمباز في البهو ذات مرة. لكنني رأيت اللوحة خالية من دونها من قبل ولم افطن للعلاقة!... إذن لم تكن هناك فتاة تشبهها.. كانت هي.. لقد غادرت اللوحة لترقص أمام عيني!...

الأريكة الشرقية التي شعرت لدى رؤيتها بأن شيئًا ينقصها.. لقد تذكر عقلي الباطن أن هذه لوحة تمثل مدام (ريكاميه)، لكن مدام (ريكاميه) لم تكن في اللوحة.. كانت جالسة تعزف البيانو!!

أما اللوحة التي كانت سوداء كلها فقد صارت مسكونة الآن.. الفتاة ذات القرطين المصنوعين من لؤلؤ.. لوحة (فيرمير) الشهيرة.. هذه الفتاة كانت تفتح لي الباب في كل مرة!! ثم توقفت أمام لوحة لم أنسها قط..

«كانت هناك لوحة تمثل مقعدًا مزخرفًا شامخًا وسط ستائر حمراء».

الآن أرى هذه اللوحة كاملة وأعرف لماذا بدت لي خالية. إن مستر (كارازيان) لم يأت لمصر ولم يغادرها وعلى الأرجح لم يوجد قط إلا في خيالنا...

اللوحة لفنان مجهول لي. تظهر رجلًا ذا ملامح مألوفة يجلس على مقعد شامخ كأنه العرش.. رجلًا اعتاد أن يخرج ليقابل ضيوفه ويقدم نفسه باعتباره ثريًا يهوى الفن.. لكن النظرة في عينيه واضحة وتخبرك لمن رسمت هذه اللوحة بالضبط.. إنه الشيطان ذاته!

سوء تفاهم

يقع الشاليه المذكور في العجمي.. لا لن أعطي أية تفاصيل أخرى، لكن يمكنك أن تعرف لماذا هو مهجور، ولماذا لا يتحدث عنه السماسرة، ولماذا لا يقيم فيه أحد على الإطلاق ويتحاشون المرور جواره ليلاً..

الحق إنني كنت أرى في كلامهم المليء بالهذيان شيئاً من المنطق، عندما تمر بقربه في الليل وترى الرمال المظلمة بلون الفحم، وترى موج البحر يرتفع لعنان السماء كجبال سود أو عمالقة غضبي.. تسمع الصوت الرهيب لغضبة الطبيعة، وتبصر الشاطئ المظلم الخالي.. ثم الشاليه الكئيب يقف وحده هناك منبوءاً ملعوناً. عندها يمكنك أن تصدق أن هناك شيئاً ما..

كانت الإجازة قد بدأت، وأنا من الناس الذين يمقتون الاصطياف بشدة.. أشعر بأنه عادة بشرية سخيفة يمارسها الناس لأن الناس يمارسونها.. أنظر لعيون الناس الواقفين في الشرفات ساعة العصر خاوية حائرة مليئة بالملل، فأدرك أنهم يتوقون للعودة إلى بيوتهم وأنهم يشتهون ساعة الخلاص، لكن هذا مستحيل.. هناك قوة عظمى كاسحة اسمها الاصطياف.. أقوى منا جميعاً وهي لا ترحم ولا تبالي بما نريد..

هم ينزلون إلى البحر ليسبحوا سباحة الكلاب إياها حيث لا تترك أقدامهم القاع لحظة.. أجساد مترهلة خالية من الجمال والقوة والرشاقة، ثم يصعدون إلى الشط ليتمرغوا كالحمير الوحشية في الرمال، ثم يجلسون شاعرين بالملل ويتشاجرون، قبل أن يخرجوا في الليل ليمشوا في أعنى مناطق الأرض ازدحاماً وكأنهم يشاركون في مظاهرة في الصين لو كانت هناك مظاهرات في الصين.. كل هذا وهم مقتنعون أنهم يستمتعون، بينما هم جميعاً جاءوا مثلي مضطرين..

أنا كنت مضطراً وقد جئت إلى العجمي مع زوجتي وأولادي ومجموعة من أوغاد الأسرة الصغار، وشرعنا نمارس الطقوس الصيفية المعتادة الكريهة..

عندما جاء المساء كلمتني (نشوى) المراهقة ابنة أخي عن ذلك الشاليه، وكيف حكى لها أحد حراس الشاطئ عن العروسين اللذين وجدا مقتولين في الصباح.. منذ ذلك الحين لم يسكن أحد ذلك الشاليه، ولم يطلب أحد ذلك.. هناك أشياء غريبة تحدث..

الشابان (مراد) و(مصطفى) اللذان يقيمان مع أبويهما في الشاليه المجاور حكيا لي ذات القصة تقريباً.. إنهما شابان صغيран مهذبان من الطراز الذي يقول (عمو) وأعتقد أنني أرتاح لهما..

عندما جاء مساء اليوم التالي أدركت أن الأمور ليست على ما يرام لأن (نشوى) راحت ترتجف كورقة وأصرت ألا ترى ذلك الشاليه المخيف بأي ثمن، وفي الصباح قالت لي زوجتي إنها لم تنم وإنها نقلت العدوى لأطفال الأسرة كلهم لهذا لم ينم أحد..

قلت لهم في غيظ:

- «الخرافة مهمة في حياتنا وممتعة.. الخرافة تسلينا وتشحذ خيالنا، لكن لا يجب أن تتضخم حتى تحيل حياتنا جحيمًا.. أنتم تعرفون أن هذا كلام فارغ.. لا يوجد مكان في العالم مات فيه شخص ما إلا وراحت هذه الإشاعات تلاحقه، وأنتم تعرفون أنه - بعد ملايين السنين التي مرت بالكون - لا يوجد مكان في الأرض لم يمت فيه شخص ما.. إذن لابد أن يوجد شبح في كل مكان نمشي فيه».

لكن كلامي لم يصف لهم اطمئنانًا، ولم يبد أن (نشوى) سمعني أصلاً..
جاء المساء ومن جديد بدأت هستيريا الخوف والتوتر.. هكذا اتخذت قرارًا جريئًا
ثوريًا.. لقد بحثت في حقيقتي عن الكشف وطلبت من (نشوى) أن تلحق بي..

حافية القدمين على الرمال الندية راحت تركض ورائي وهي تسأل في قلق:
- «ماذا هنالك يا عمو (محفوظ)؟».

قلت في حزم:

- «أسوأ أنواع الخوف هو الخوف الذي لا نعرف سببه ولا مصدره.. لهذا سأدخل الشالية الذي يفزعك.. لم أقل إنني سأدخل بل سندخل معًا!.. سوف تدركين أنك مخرفة..».

قالت وهي موشكة على الفرار:

- «لابد أنك تمزح.. لن أفعل هذا أبدًا...».

قبضت على معصمها بقوة وقلت:

- «بل ندخل الآن... إن إصرارك على عدم مواجهة هذا الرعب سوف يفسد إجازتك وإجازتنا.. ستجدين أن هذا مجرد شالية مهجور.. لا أكثر ولا أقل».

كنا تقريبًا نقف على الباب الآن.. رأيت القفل في مكانه كما توقعت، لكنني لم أنس النافذة.. مصراع النافذة رأيتَه يتراقص مع الريح منذ يومين، وخطر لي أن الحمقى نسوا النافذة مفتوحة.. هذا مدخل لا بأس به لأن الشالية من طابق واحد..

قلت لها محذرًا:

- «هذه النافذة مفتوحة.. هذا يعني أننا يمكن أن نقابل فأرًا أو قطًا أو كلبًا ضالًا أو متسكعًا.. امسكي أعصابك ولا تملئي الدنيا صراخًا، ثم تحكين في كل مكان عن الشبح الذي وجدناه..».

وبشيء من الصعوبة تسلقت على قطع القرميد البارزة، وحشرت جسدي من الفتحة، ثم نظرت لها اطلب منها أن تتسلق ومددت لها يدي.. كانت خفيفة الوزن طبعًا..

كنا الآن نقف في مكان أعتقد أنه غرفة من غرف الشالية.. خالية تمامًا فلم يتركوا فيها شيئًا من الأثاث، والرائحة كريهة مما يدل على أن نظرية الكلب الضال لا بأس بها..

كانت تقف جوارى متلاحقة الأنفاس، ثم هتفت وهي تشهق:

- «هناك من يتحرك بالخارج!.. صوت ضحك مكتوم!..».

هذا صحيح.. سددت بكفي الكشاف بحيث صار الضوء يتألق بين أناملي كجوهرة حمراء، ورحنا نزحف ببطء خارجين من الغرفة.. اصطدمت في الظلام بمنضدة خشبية تحركت فشعرت أن العالم كله قد انهار...

وهناك وقفنا في الظلام نلهث.. لا صوت.. يبدو أننا كنا واهمين.. ثم أشارت إلى نافذة أخرى تتراقص لتظهر الشاطئ الخالي بالخارج.. هذا هو مصدر الصوت على الأرجح..

فجأة شعرت بها تعصر ذراعي من جديد.. هذه المرة رأيت بوضوح بقعة نور واهنة شبه فوسفورية كأنها عين قط تتحرك في الغرفة المجاورة.. لا شك في هذا..

فجأة دوى صوت ارتطام قوي لا أعرف مصدره وسمعت صوت خشب يتهشم وصرخة مكتومة..

هذه المرة لم أعد أستطيع مواصلة المنطق البارد.. تعالي نغادر هذا المكان المخيف....

الأرض مبتلة هنا ولا أعرف السبب.. لهذا انزلت قدمي فأصدرت صوت أنين، ثم نهضت وهرعت أجذبها من ساعدها نحو النافذة التي دخلنا منها...

ساعدتها على التسلق للخروج وهي تشهق لكن الذعر أنساها أن تبكي أو تصرخ وسرعان ما سمعتها تسقط في الخارج على الرمال.. تسلفت الحافة بدوري ووثبت..

وسرعان ما كنت أجري خلفها نحو الشاليه الآمن المزدحم الخاص بنا.. لقد كانت ليلة الاثنين ليلة سوداء فعلاً، ويبدو أنني سأبحث عن تفسير لما رأيناه زمنًا طويلاً..

لم ينم أحد.. حتى إن زوجتي بدأت تتكلم عن ضرورة قطع الإجازة والعودة.. قلت لها إنها جنت كالجميع. يجب أن ننسى الأمر ونمارس حياة طبيعية.. أتوق للعودة فعلاً لكن ليس بسبب أصوات في شاليه مهجور..

مع الصباح اتجهت إلى البحر لابسًا المايوه الخاص بي، وهو يذكرك بمايوهات إسماعيل يس في الأفلام القديمة. هناك بدأت أبلل قدمي توطئة للتوغل بضعة أمتار كالعادة، هنا سمعت الشابين (مراد) و(مصطفى) يناديانني.. كانا قد لبسا المايوه بدورهما وتأهبا لسباحة صباحية قصيرة..

سألني (مراد) وهو يتوغل في الماء أكثر:

- «تبدو مرهقًا يا عمو...».

- «لا أحد ينام جيدًا في المصيف يا بني لو أردت رأيي».

ووثبت مع موجة عالية أولى توشك على أن تغلو حتى تبلغ صدري.

قال (مراد) في شيء من الفخر والخبت الطفولي:

- «إن فكرة هذا الشاليه لم تفارقنا، ولقد قمت مع أخي بمغامرة صغيرة في الظلام... اتجهنا هناك وبحثنا عن مدخل فوجدنا نافذة نسوا أن يغلقوها.. هكذا

تسلقنا إلى الداخل...».

هنا تصلبت.. هذا الكلام مهم جدًا.. وماذا حدث؟

أردف الفتى وهو يثب فوق موجة جديدة:

- «دخلنا في الظلام وكان معي كشاف فوسفوري صغير.. كشاف من الطراز الذي يثبت في القداحات.. الصين تصنع هذه الأشياء كثيرًا.. كان أخي يحمل زجاجة ماء سقطت منه على الأرض وفرغت.. أفزعنا هذا كثيرًا لأن الأصوات تبدو مجسمة في الظلام. لكننا رأينا في هذه اللحظة شيئًا مرعبًا.. رأينا ضوءًا احمر كجمرة مشتعلة يتحرك في الظلام...!».

بدأت ابتسامة تغزو قسمات وجهي، لكنني سألته في اهتمام:

- «وماذا بعد؟».

- «كانت هناك منضدة خشبية سمعنا من يرتطم بها.. هنا داس أخي على لوح سرير خشبي موضوع على الأرض فأن وصرخ لأنه كاد بهشم ساقه.. بعد قليل سمعنا من يقلدنا - على ما يبدو - ويصرخ ألمًا.. كأن هناك من انزلق على الأرض...».

- «وماذا بعد؟».

- «لا شيء.. لم نتحمل أكثر فبادرنا بالفرار.. هذا الشاليه مسكون ولا شك في ذلك...».

كنت أضحك بلا توقف وهما ينظران لي في دهشة..

لقد لعب كل منا دور الشبح بالنسبة للآخر.. كنت أنا و(نشوى) شبجهما المخيف، وكانا هما شبحنا المرعب.. الماء الذي انسكب على الأرض هما صاحباه.. المنضدة التي تحركت كنت أنا محركها..

الحق أن كلاً منا أثار هلع الآخر لأقصى حد، ولسوف تضحك نشوى كثيرًا عندما أخبرها بهذه الق-... بلوب بلوب بلوب!... لقد نسيت الموج فجاءت موجة عاتية ألقت بي إلى القاع.. احتجت إلى ربع دقيقة حتى أتمكن من الوقوف على قدمي والتنفس ثانية..

رحت ابصق الماء المالح من فمي وأنفي وقلت لهما:

- «الحقيقة هي أنني دخلت الشاليه في ذات اللحظات.. كنت مع نشوى ابنة أخي، ولم نعرف أنكما موجودان.. كل فريق كان يسمع الضوضاء التي يحدثها الفريق الآخر ويرتجف!.. ليلة أمس الاثنين كانت نموذجًا عبقرًا لكوميديا الموقف.. كوميديا سوء التفاهم المولييرية الأصيلة!..».

هنا تبادل الشبان النظرات ثم قال (مصطفى) في تهذيب:

- «عمو.. نحن لم نقل قط إن هذا حدث ليلة أمس الاثنين.. ما نحكي لك عنه حدث منذ ثلاثة أيام!.. خذ الحذر!.. إن الموج يوشك على أن يقذف بك ثانية!... ماذا دهالك؟».

لأنها رقيقة

دكتور ناجي صديق عزيز.. صحيح أنه شاب يصغرني بعشرين عامًا، لكنك بهذا تريد ألا أتعامل إلا مع المسنين ذوي العصي الذين يجتمعون في قهوة (الأصيل) ليلعبوا الدومينو ويشربوا الينسون، ويتحدثوا عن مشاكل الضغط والسكر والمفاصل.. أنا بحاجة للاتصال بالشباب من حين لآخر.. أعتقد أنهم يجددون دمي فعلاً، يمكنني أن أفهم منطق الشيخ الذي يتزوج فتاة في العشرين ليحدد دمه.. فقط أنا لا أتزوجهم لكنني أسمع آراءهم!

د. ناجي يصغرني بعشرين عامًا، لكنني أعتقد أن الناس تكف عن النمو بعد الأربعين.. كلهم يتشابهون ويصيرون في سن واحدة، فلا يوجد شيء غريب في أن تجد شلة أصدقاء بعضهم في الأربعين وبعضهم في الخمسين وبعضهم في الستين.. هذه سن واحدة بشكل ما..

لهذا حكى لي د. ناجي قصته عندما تأخر عن عمله في ذلك اليوم. لا وقت لأخذ السيارة لأن سائس السيارات سيقضي دهرًا في مسح الغبار عنها، دعك من ضرورة تسخين المحرك لبعض الوقت، لذا وثب د. ناجي إلى أول سيارة أجرة وجدها وطلب من سائقها التوجه للمستشفى... هنا رآها..

هل قلت لك إنه غير متزوج؟.. نعم.. لقد تأخر نوعًا لكنه ما زال شابًا كما قلت لك، وعندما رأى (عايدة) تستوقف سيارة الأجرة بدت له أروع شيء رآه في حياته. نظر بسرعة إلى يدها اليمنى فاليسرى فلم ير ذلك القيد الذهبي.. قال لنفسه إن هذا طبيعي جدًا لأنه لو ظفر رجل بهذا السحر لمات من الفرحة.. معنى هذا أنها ستصير أرملة لو قررت أن ترتبط..

لم يعرف وجهتها ولا أي شيء.. لم يسمع أو سمع ولم يميز.. فقط جلست هي في المقعد الخلفي وراءه، وبالطبع كان مرغماً على أن ينظر أمامه. انطباع عام كونه عنها: رائعة.. لا يعرف أية تفاصيل.. لا يمكن أن يستخرج صورتها من بين ثلاث صور.. لا يعرف كيف تلبس.. لا يعرف أي شيء سوى وهج أعمى عينيه للحظة وجعله يجثو على ركبتيه صريعًا..

السائق يشق شوارع القاهرة وهو يلعن الزحام، ثم يشعل لفافة تبغ.. ما هذا الأنين؟.. التفت ناجي إلى الخلف ليتأكد فوجد أن الفتاة تنن بقوة.. تغطي وجهها والعرق يغمر جبينها وهي تجاهد كي تتنفس.. قال السائق في ذعر وهو يكلم الفتاة في مرآة الرؤية الخلفية:

- «يا أختي.. هل أنت بخير؟».

هزت رأسها أنها بخير، لكن كل شيء كان يقول إنها في أسوأ حال ممكن..

- «هل ترغبين في الذهاب للمستشفى؟.. أنا طبيب وذاهب إلى هناك».

هزت رأسها من جديد بمعنى أنها بخير، وكان ناجي الآن يمر بحالة مزدوجة من الفضول العلمي والاهتمام المهني مع اهتمامه بالفتاة ذاتها.. هكذا مد

يده في جيبه وأخرج بطاقة ناولها لها..

- «أرجو أن تتصلي بي لو أردت شيئاً..».

كان قد بلغ وجهته الآن فترجل ونقد السائق ماله، والسائق ينظر له نظرة مستغيثة لابد أن معناها (ابق معي حتى أتخلص من هذه المصيبة.. ترى من النحس الذي رأيت وجهه في الصباح؟).

فتاة رقيقة - قال ناجي لنفسه - ولأنها رقيقة فهي تفقد وعيها كل ثلاث دقائق. هذا هو التوصيف الفكتوري للأمور.. تشحب ثم تصرخ وتسقط على الأرض كزهرة ذابلة.. إن عصبهن الحائر يعمل بكفاءة أكثر من اللازم، دعك من تأثير الحر الخانق ولغافة تبغ السائق.. نعم.. هذا هو كل شيء.. سوف تتحسن من دون تدخل من أحد..

لقد نسى (ناجي) هذا الموقف لكن وجه الفتاة لم يفارقه، وضبط نفسه يحلم بها في إحدى الليالي، وقد كان الحلم حقيقياً - كما قال - لدرجة أن أنامله كانت تحمل رائحة شعرها..

سألته في شك:

- «أنت شممت رائحة شعرها في عالم الواقع؟».

- «بالطبع لا.. لكن لابد لفتاة مثلها أن تفوح من شعرها رائحة أزهار السوسن».

- «وما رائحة أزهار السوسن؟».

- «يا أخي أنت تسأل أسئلة غريبة.. إنها رائحة شعرها طبعاً!».

على كل حال لا تنتهي القصص بهذه البساطة. لقد تلقى مكالمة هاتفية منها ذات ليلة، وهي المكالمة التي عرف منها أن اسمها (عايدة)... اسم جميل يقترن بالرقى في ذهنه سواء كانت (عايدة) الأرستقراطية اللعوب بعيدة المنال في ثلاثية (نجيب محفوظ) أو (عايدة) أميرة أوبرا فيردي الشهيرة...

كانت مهندسة كمبيوتر تعمل في إحدى الشركات التي يحتم القانون - على ما يبدو - أن يكون اسمها (ماتركس).. في الماضي يبدو أن القانون كان يحتم أن يكون اسم شركة الكمبيوتر تباديل وتوافيق للحروف (أي سي إس تي) - دولي وكمبيوتر ونظم وتقنية - أما اليوم فلا بد أن يكون الاسم (ماتركس)..

(عايدة) بخير.. لم تعاودها هذه النوبة ومن المهم أن نذكر أنها لم تحدث لها من قبل. المهم.. كي لا أطيل عليك، تم الاتفاق على لقاء.. إن قصة الحب تولد ببطء...

في ذلك المركب النيلي جلسا، وأشعل ناجي لغافة تبغ ونظر إلى النيل الساكن جوارهما وبحث عن شيء يقوله، لكن الفتاة أمسكت برأسها وبدأت تن...

ثم أنها سقطت على الأرض والعرق يسيل من كل مسامها.. كانت ترتجف بقوة، وخطر له أنها مصابة بغيوبة نقص سكر، لذا اجتهد كي يسقيها بعض

العصير على حين احتشد الناس بين الفضول والرغبة في المساعدة.. هذه المرة كان لابد أن يحملها حملاً ويطلب من قبطان المركب أن يرسل لهما لنشاً يعيدهما للشط.. وخلال نصف ساعة كان في المستشفى يدفع المحفة مع عاملين وممرضة..

هذه الفتاة مصابة بمرض عضال.. لا شك في هذا.. تم إجراء بعض الفحوص عليها، وراح هو يطالع نتائج التحاليل فلم ير شيئاً غريباً.. لا تعاني فقر دم ولا نقص سكر.. ضغط دمها على ما يرام وليست ككل الفتيات اللاتي يعتقدن أن واجبهن أن يكون ضغطهن منخفضاً.. في النهاية أفاقت وأصرت على أنها بخير.. لابد أن أعود لبيتي لأن أُمي لا تعرف أين أنا..

- «عديني أن تجري أشعة مقطعية على المخ غدًا.. لا.. لتكن أشعة رنين مغناطيسي.. اتفقنا؟».

وحاول أن يوصلها لدارها لكنها أصرت على أن تستقل سيارة أجرة.. هكذا وافق مرغمًا.. ووعداها بأن يتصل بها غدًا.. في الغد عرف أنها على ما يرام.. قال لها: - «أعتقد أن لدخان السجائر تأثيرًا خطيرًا عليك..».

التقيا بعد أسبوع وكان رأيها أن حالتها تسوء.. قالت إنها أجرت الأشعة المطلوبة لكن المركز احتفظ بها. عرف أنها تكذب طبعًا لأن مراكز الأشعة لا تحتفظ بأشعاتك التي دفعت ثمنها..

- «أعطيني اسم المركز.. سوف أتصل بهم لألقنهم درسًا أو حتى أعرف محتوى التقرير».

قالت في ارتباك:

- «لم أعد أذكر الاسم.. إنه مركز كبير.. هناك في شارع.. في شارع.. مركز كبير هو..».

الاحتمال الأول هو أنها لم تجر الأشعة بخلاً أو كسلاً أو خوفًا.. الاحتمال الثاني مخيف وهو أنها لا تريده أن يعرف النتيجة.. نتيجة ماذا؟؟؟

المشكلة أن حالتها تسوء فعلاً، حتى جاء اليوم الذي جاء أبواها بها في المستشفى وطلبوا منه أن يدخلها ويعنى بها..

هناك في فراش المستشفى صارت قريبة جدًا من عالمه، فلا غرابة أنه لم تعد له حياة خارج المستشفى تقريبًا.. وكان أول ما فعله هو أن طلب رأي العديد من الأساتذة.. مشكلة الفتاة هي نوبات تصيبها فتتلوى وتئن، ثم يغمرها العرق وتدخل في رجفات قوية تذكر بمرضى الملاريا.. حرارتها ترتفع وتوشك على الاختناق.. هذه النوبات ليست ثابتة.. أحيانًا تتحسن الفتاة جدًا..

هناك من قال إنها نوبات هستيرية.. هناك من مط شفته السفلى في حيرة وقال: إنها مريضة بشيء ما..

كانت الأمور تسوء.. وجاء اليوم الذي جلس فيه جوار فراشها وأمسك بيدها

فارتجفت، وراحت تشهق بلا انقطاع وقالت:
- «أنا أموت.. أعرف هذا يقينًا.. يجب أن تتحرر من وجهي ومن ذكراي..».
قال في وله:
- «تقولين هذا الهراء في اللحظة التي أعرض عليك فيها الزواج؟».
ضحكت في قسوة وقالت وهي تسعل:
- «هل ترى أمامك عروسًا صالحة؟.. أنا مجرد جثة تتكلم».
وكانت هذه هي المشكلة.. كان يعيش مع أمه، وكان رأي العجوز قاسيًا لكنه عملي جدًا.. الفتاة مصابة بداء عضال لا أحد يعرف اسمه.. لا يمكن أن تبدأ حياتك على أرضية مهتزة كهذه..
هو نفسه لم يكن متأكدًا.. هل مرضها معد؟.. هل يؤدي نفسه بهذا؟.. ربما كان من الأفضل أن يبتعد عنها، لكن كيف؟.. هو يهيم بها فعلاً..
ولسبب لا يعرفه قرر أن يختبر عواطفه بضعة أيام..
هكذا تركها في المستشفى وسافر إلى قريته ثلاثة أيام يحاول خلالها أن ينظر للصورة من بعيد. للأسف ازداد تعلقًا بها لدرجة أنه قطع الإجازة وعاد ملهوقًا..
قابلته ممرضة على باب القسم فهتفت:
- «هل رأيت مريضتك يا دكتور؟».
سقط قلبه في قدميه:
- «هل.. هل ماتت؟».
- «بل تحسنت بشدة!... هذه معجزة!».
هكذا هرع إلى غرفتها ووجدتها جالسة جوار الفراش تنسق بعض الأزهار في مزهرية، فلما رآته هتفت في فرح.. بصعوبة منعا نفسيهما من العناق.. يقول ناجي:
- «للأسف عادت حالتها تتدهور من جديد.. هذه هي المشكلة التي دفعتني لطلب رأيك.. هل أقدم على الزواج مع ما في ذلك من مشاكل هائلة؟.. المشاكل تظهر بعد الزواج، لكنني في وضع فريد إذ أبدأ بالمشاكل قبل أي شيء.. هل سوف تشفى؟.. هل هذه هستيريا فعلاً؟».
قلت له مفكرًا:
- «في الحقيقة أتجاسر فأقول إن هذه الفتاة ليست لك.. ليست لك على الإطلاق..».
- «لماذا؟.. هل تعتقد أن مرضها خطر علي؟».
- «بل أنت الخطر عليها!.. لو لاحظت لوجدت أنها تتدهور كلما اقتربت منها أو كلمتها!.. يذكرني الأمر بقصة قديمة للدكتور سعيد عبده اسمها (وداد).. ووداد فتاة قابلها في القطار وولد الحب بينهما وافترقا، ثم كان في المستشفى يعاين حالات الجدري حين وجد مريضة تشوه وجهها تمامًا وامتلأ بالبثور

المتقيحة تنز الصديد.. اكتشف أن هذه المريضة المحتضرة هي وداد. واكتشف أنه هو من نقل لها الداء الويل لأنه كان كطبيب يحمل العدوى ولم يصب بها.. المسكينة هي التي أصابها الجدري. باختصار: أنت سبب مرض عايدة!». قال في غباء:

- «ماذا تعني؟.. أنا سليم تمامًا..».

- «لكنها ليست سليمة.. إنها مصابة بحساسية شديدة لوجودك.. هذه الأعراض التي تصفها أعراض (فرط تحسس) واضحة.. منذ قابلتها في سيارة الأجرة بدأت النوبات.. ثم السفينة.. ثم المستشفى حيث تكفل وجودك بجعل حالتها تسوء.. ثم أنها تحسنت عندما سافرت لقريتك. تفسيري الخاص هو أن لكل إنسان منا هالة خاصة تحيط به Aura.. هناك هالات سلبية تؤدي من حولك.. هذه الفتاة مصابة بحساسية خاصة لهالك هذه، وقد وصف (ليدبيتر) هذا المرض بالتفصيل في القرن التاسع عشر، لكن بالطبع هناك من يعتقدون أنه نصاب أو مخرف.. عليك أن تبعد عن الفتاة فترة طويلة وتجرب.. أعتقد أنها ستتحسن بالتأكيد!».

نظر لي طويلاً ثم قال من بين أسنانه:

- «لو صح هذا الكلام الفارغ الذي تقوله فأنا أعظم نحس عرفته البشرية.. الفتاة الوحيدة التي خلبت لبي تموت لو ظللت بقربها!».

وبما أن الأيام أثبتت أنني على حق، فإنني بالفعل أرشحه للقب أكبر منحوس في التاريخ. لكن من يدري؟.. سوف تظل الفتاة حية خالدة رائعة الجمال في ذهنه للأبد (تفوح رائحة السوسن من شعرها)، ولسوف تبقى ذكراها ناراً يستدفئ بها في شيخوخته، بينما لو تزوجا فأنت تعرف ما كان سيحدث.. إن الذكرى لا تظل جميلة عندما تفوح منها رائحة البصل وصابون الغسيل الرخيص وبول الأطفال والشياطين. مع طن من الهموم اليومية. أعتقد أن ناجي ليس منحوساً إلى هذا الحد!

ليست على ما يرام

لا تلوميني من فضلك..

أنا لست ساحراً ولا عراقاً ولم يتهمني أحد بالعقرية من قبل. أنا رجل مسن رأى الكثير من الأمور الغريبة، لكنه لم يتعلم قط كيف يتنبأ بما هو آت.. هل هذه أقراص مهدئة؟.. إذن أعطيني قرصاً.. لا.. فليكن قرصين.. إن يدي ترتجف.. أعرف هذا لكني لست من الطراز الهستيري الذي تتبدل حياته بالكامل من أجل حادث مروع كهذا.. أنا أعرف نفسي.. سوف أستعيد السيطرة بعد أيام.. لا لن أعاقِر الخمر وأتعاطي المخدرات لو كنت تخشين هذا، فأنا لم أجرب هذه الأشياء طيلة حياتي ولن أجربها وأنا أعبت بمفتاح باب مقبرتي.. ربما أنا لست أحمق لهذا الحد.. على الأقل أنا اقترحت عليه العكس. كنت أتكلم بالطبع من الناحية الاجتماعية.. من ناحية العرف.. لكن لا تنكري أنني نصحت..

هل نام الأولاد؟.. جميل.. جميل.. أعرف أنني أضيف لأعبائك عبئاً جديداً بالعناية برجل مسن يرتجف ذعراً.. نحن لا نطبق الشيوخ المذعورين، ونفترض أنهم بلغوا من الحكمة مبلغاً يمنعهم من الرعب.. نتوقع أن يعطونا الاطمئنان ولا يأخذوه.. ليكن هذا.. أنا لست مذعوراً.. لنقل إنني منهار عصبياً لا أكثر.. أنت زوجتي وسري ورفيقة دربي فاقبلي مني هذا الضعف.. القصة كلها بدأت كما تعرفين بـ (هشام الديب) صديقي القديم.. هو محام مشغول دوماً ومن الطراز الذي اعتاد على أن العمل

يرحمه من مشاكل البيت.. هذا نوع من الهروب معروف.. طيلة اليوم هو في مكتبه بينما الفتاتان تتولى أمرهما زوجته الحازمة النشطة الذكية التي تعرف كل شيء.. لا أعتقد أنه يعرف في أية سنة دراسية هما، ولا يعرف الطقوس الغامضة التي يبتاع بها المرء كيلو من الطماطم..

توفيت الزوجة أخيراً لتضعه أمام مسئولياته.. هذا مأزق عسير.. الفتاتان في سن المراهقة ولا يمكن أن يتركهما للعناية بنفسيهما. البيت كبير فعلاً عبارة عن فيلا ذات طابقين يحسده عليها كثيرون، لكنه اليوم لا يشعر بأي فخر بها.. يشعر أنها ورطة ذات طابقين..

هنا جاء أولاد الحلال باقتراح.. (عواطف) سيدة بيت محترمة في الخامسة والأربعين من عمرها لم تتزوج قط، ولسوف يكون دورها مناسباً.. الفتاتان تجتاجان إلى أم فقط، أما هو فآلة ضخ أموال.. يمكن الاستغناء عنه بسهولة لو كانت آلات طبع العملة متاحة للبيع..

كان رأيي الخاص أن لا.. زوجة الأب هي زوجة الأب.. يا أخي لماذا لا تتحمل؟.. يمكن أن تأتي لهما بمربية أو مديرة بيت..

لكن الرجل لم يجد حلاً آخر.. وسرعان ما تزوج..

هل الغرفة مغلقة؟.. إذن لماذا أشعر بتيار هواء؟.. ربما كان السبب هو توتر

أعصابي.. لا عليك..

كانت (عواطف) طيبة فعلاً... ليست جميلة على الإطلاق وليس فيها أي شيء يحرك مشاعر رجل، لكنها بالفعل من أسرة محترمة، وخطر لي أنها يمكن بالفعل أن تلعب دور الأم.. لا زوجة الأم..

كانت نشطة.. صحيح أنها تفتقر إلى حزم الأم الأصلية لكن لا

بأس.. وقد قدرت أن حياة صديقي (هشام) استقرت نوعاً.. يمكنه العودة للهرب من مشاكل البيت متظاهراً بأنه منهمك إلى هذا الحد..

نعم.. بالفعل أشعر بتحسن.. هل القرص المهدئ بدأ يؤدي عمله؟... ربما أنا أقرب للنعاس..

ماذا كنت أقول؟..

آه.. بدأت المشكلة مع الزينوجلوسيا.. نحن نعرف هذه الظاهرة لكننا لا نعرف أنها زينوجلوسيا..

في البدء كانت الفتاة الكبرى (مروة) تقف مع زوجة أبيها في المطبخ.. (مروة) في السنة الثالثة الإعدادية وجميلة كالحوريات في الصور. كانت السيدة تعلمها كيف تطهو حساء الخضر.. كانت تشرح لها:

- «عندما ينفصل السمن عن الصلصة فهذا معناه (التسبيك).. عندها فقط يمكنك أن تضيفي الخ.. رادتسك كولين ها.. راسكونا شفا...».

على الأقل هذا ما نقلته (مروة) لأبيها.. تقول إن زوجته ظلت لخمس دقائق تقول كلمات لا معنى لها على الإطلاق... والغريب أنها كانت تومئ بيدها وتكلم الفتاة وتشير للطعام كأن الفتاة يجب أن تفهم هذا. وعندما انتهت عادت تتكلم بالعربية..

- «لم كنت تتكلمين هكذا يا طانط (عواطف)؟».

قالت السيدة:

- «أولاً طلبت منك ألا تناديني إلا بلقب (ماما).. ثانياً من قال إنني قلت أي شيء غريب؟.. كنت أشرح لك أننا سنضيف الخضر الآن..».

مر الحادث بلا تعليق. لكنه تكرر بعد يومين عندما كانت المرأة جالسة مع زوجها تحكي له عن مشاكل مع خالتها.. هنا بدأت تتكلم لعشر دقائق بتلك اللغة الغريبة. الزوج ظل يرمقها في دهشة ثم راح يهزها كي تتوقف لكنها ظلت تتكلم كأنها تشرح له أشياء..

أنت تعرفين ما حدث بعدها.. الدائرة التقليدية من الأطباء النفسيين والمشعوذين والمعالجين الروحانيين.. لا تفسير لهذا سوى المس الشيطاني.. لا بد أن جنياً أجنبياً مسها وجعلها تتكلم بلغته..

لا بد أن الرجل قضى أسود ساعات حياته وهو يعالجها، ولا بد أنه سأل نفسه مراراً عما جعله يأتي بهذه المصيبة لبيته وهو الذي لم يكن يطيق اصطحاب زوجته الأولى لطبيب الأسنان..

لكن المرأة لم تشف..

ازدادت الحالة تعقيدًا، والغريب أن نوبات الكلام بتلك اللغة الغريبة كانت تقترن بشيء من العنف والشراسة بدا واضحًا في أكثر من مرة، حتى أنها لطمت ابنته على خدها مرة.. كانت تنمر وتبدو كأنها ملكة تصدر أوامرها للعبيد.. أنت سمعت هذا وضحكت وقلت لي:

- «لابد أن عفريت كليوباترا قد تقمصها!».

على أن صديقي الطبيب النفسي د. (مصطفى) لم يضحك.. قال إنها حالة هستيريا واضحة وهي ذات الحالات التي يتهمون مس الجان بها. على أنه زارها عدة مرات وأصغى لكلامها فكان رأيه أنها تتكلم لغة واضحة متماسكة التركيب والكلمات.. لكن كيف؟؟.. المرأة لم تترك بيت أهلها قط.. لم تسافر ولم تتعلم جيدًا،

وهي لا تعرف من الإنجليزية سوى عشر كلمات..
قال د. مصطفى:

- «الأمر غريب.. هناك حالات موثقة في التاريخ وتشبه هذه الحالة.. لم يتم توثيقها علميًا إلا بمعرفة البروفسور (أيان ستيفنسون) العالم النفسي لكن تم هذا بمعرفة مؤرخين.. الحالة اسمها (زينوجلوسيا) وفيها يتكلم الشخص بلغة أجنبية لم يتعلم حرفًا منها من قبل.. فجأة تفاجأ بابتكك يتكلم الألمانية أو البرتغالية بطلاقة.. هناك أمثلة دينية لهذا والغربون يطلقون عليها اسم (الكلام بالألسنة)».

قلت في دهشة:

- «لكن هذا بالضبط ما يقوله المشعوذون عن مس الجان».

- «وما يقوله الهندوس عن التناسخ.. يقولون إن هذا دليل على أنك كنت برتغاليًا مثلًا في حياة أخرى وما زلت تذكر اللغة».

- «لكن التناسخ كلام فارغ».

- «طبعًا.. لكن ما أقل ما نعرفه عن العقل البشري.. رأيي أن زوجة صديقك هذه تمر بحالة زينوجلوسيا واضحة.. والمطلوب أن تحضر لي أي شريط يحوي تسجيلًا من كلامها».

وعدته بأن أحضر له هذا الشريط، وكان الأمر سهلًا لأن الفتاتين بنتي (هشام) قامتتا بتسجيل إحدى هذه النوبات على شريط فيديو. عدت بهذا الشريط لد. (مصطفى) فقام بتحويل الفيلم إلى صيغة مناسبة للكمبيوتر. لا أفهم هذه الأمور لكنه يتعامل مع الكمبيوتر ببراعة تامة.. لقد وضع هذا الفيلم على شبكة الإنترنت ثم أرسل سيلاً من الخطابات لعشرات الدول يطلب فيها

من يعرف هذه اللغة.. في الماضي كنت تحتاجين لأن تزوري هيئة الأمم المتحدة أو برج بابل لتعرفي الإجابة.

هل هناك من يتحرك؟؟.. لا.. إنه الباب ينغلق.. لا مشكلة...

في هذا الوقت قرر (هشام) السفر لاسكندرية وحده لمدة أسبوع فطلب مني أن أعنى البنيتين.. قال لي بصراحة إنه يفكر في الطلاق جدًّا لأن زوجته تزداد سوءًا.. عصبية.. لا تكف عن وضع المساحيق والكريم على وجهها لأن هاجس التقدم في السن يطاردها.. أحيانًا تضرب البنات.. لقد شاء الحظ أن يختار لبنتيه زوجة أب مجنونة وعليه أن يصحح الخطأ..

قال إن علي أن أتصل بالبنيتين وأمر على البيت يوميًا وسوف ينهي كل شيء لدى العودة..

هكذا رحت أتردد على الفيلا فأدق الجرس.. تفتح لي الخادمة الشابة وتنادي البنيتين لأطمئن عليهما من على الباب ثم أنصرف.. أحيانًا أبتاع لهما بعض الحلوى أو المجلات.. مسكيتان.. ليس أسوأ من زوجة الأب القاسية سوى زوجة الأب المجنونة..

كنت في داري في ذلك الصباح عندما اتصل بي د. مصطفى.. قال إنه يرغب في أن يأتي لي بعض الوقت..

عندما جاء كان يفكر بعمق.. جلس وأخرج مفكرة من جيبه وقال وهو يقلب صفحاتها:

- «جاءني الرد من صديق أوروبي.. هذه اللغة رومانية.. لا شك في هذا.. لغة رومانية من وسط البلاد (منطقة الكاربات) لا غبار عليها.. طبعًا هذا يؤكد كلامي عن الزينوجلوسيا..».

- «جميل.. وماذا تقول؟».

- «تتكلم عن أنها من أسرة عريقة وأنها ولدت عام 1560.. جدها كان يحارب الأتراك!».

- «يبدو أننا دخلنا في خانة تقمص الأرواح فعلاً..».

- «لا أعرف لماذا تختار الأرواح الرومانية زوجة مصرية هدفًا لكن السؤال كان يتكرر في كل حالة زينوجلوسيا.. تذكر المرأة كذلك اسمي (نادسادي) و(دوركا) بلا سبب..».

- «ومعنى هذا؟».

- «الروماني الذي رد علي لا يذكر ... أما أنا فأجريت بحثًا مدققًا عبر شبكة الإنترنت عن هذين الاسمين.. وجدتهما فأضفت للبحث ألفاظ (كاربات) و(1560) و(حرب الأتراك).. فوجدت اسم (باتوري) يتكرر بكثرة..».

- «ومن هو؟».

راح يتصفح الأوراق ثم قال:

- «هي لا هو.. الكونتيسة الرومانية (اليزابث باتوري).. فتاة من أسرة عريقة حارب جدها الأتراك مع (فلاد الوالاشي).. ولدت عام 1560 وتزوجت من الكونت (نادسادي) وأقامت في قلعة بالكاربات. زوجها كان يسافر كثيرًا جدًا لذا قررت هي أن تتسلى بتعلم السحر من خادمة عجوز اسمها (دوركا). كانت سادية مريضة نفسيًا تهوى تعذيب الخادמות وجلدهن، وزادت قسوتها بعد وفاة

زوجها.. وكانت فكرة الشيوخوخة تؤرقها لأن جمالها كان صارخًا.. ثم وجدت الحل عندما صفت خادمة شابة لديها فسال الدم ليغرق يدها هي.. بدا لها أن بشرتها استعادت شبابها بفعل دم الخادمة، وهكذا قامت مع الخادمة العجوز بتعليق الخادمة الشابة وقطع وريد عنقها، ثم استصفت دمها واستحمت فيه.. منذ ذلك الحين صارت تعلق الخادما من أقدامهن وتستصفي دمهن لتكرر الشيء ذاته، وكان فرسانها يخطفون الريفيات من القرى المجاورة، ثم بدأت تفعل الشيء ذاته مع النبيلات.. سرعان ما بلغت سمعتها مسمع ملك رومانيا الذي أرسل جيشًا لاقتحام القلعة وتفتيشها.. حسن.. كان ما رأوه هو مشهد من فيلم رعب شنيع.. لقد ثبت أنها قتلت نحو 560 فتاة. حوكت لكنها لم تعدم لنبل أسرتها وسجنت لعدة أعوام ثم ماتت في الخامسة والأربعين تقريبًا ميتة طبيعية.. إنها مصدر معظم قصص مصاصي الدماء التي نعرفها، ربما أكثر من (فلاد الوالاشي) نفسه الذي اشتهر باسم (دراكيولا)..».

قلت له مشمئزًا:

- «قصة فظيعة.. لكن ماذا تحاول قوله؟».

قال وهو ينهض :

- «لا شيء.. فقط أعرض بعض الحقائق.. زوجة صديقك تجيد الرومانية فجأة وتتكلم كملكة وتقلق على بشرتها وتردد كلمات غريبة.. فقط كن حذرًا..».

بالفعل قررت أن أكون حذرًا..

عندما ذهبت إلى فيلا هشام في مواعيدي اليومي كنت حذرًا.. عندما لم تفتح لي الخادمة الباب كنت حذرًا.. عندما اتصلت بالهاتف عدة مرات كنت حذرًا.. حتى عندما عدت مع رجال الشرطة كنت حذرًا.. لكننا أدركنا أن الفيلا خالية.. أخيرًا نزلنا إلى القبو.. (عواطف) كانت جالسة على الأرض ذاهلة.. لا تعرف كيف حدث هذا ولا من فعله وكانت تتكلم بالرومانية بلا توقف.. رأينا الخطاطيف المعلقة في السقف.. ورأينا ذلك البانيو القديم الذي تم وضعه هناك ليتم ملؤه.. وعندما رأينا ما يتدلى من الخطاطيف عرفت لماذا لم أر الخادمة ولا الفتاتين في ذلك اليوم، وعرفت أن د. مصطفى عبقرى..

ناوليني قرصًا مهدئًا آخر. أعرف أن ثلاثة أقراص جرعة عالية لمن كان في سني، لكن من يبالي بجرعات الأدوية اليوم؟!

مقهى بين الأشجار

أكره السفر ليلاً بشدة..

عندما يتسلل النعاس إلى عيني وأسند رأسي على المقعد الذي أمامي.. رأسي الذي صار يزن طنين.. رأسي المسكين الذي يدق كجرس من أجراس المعابد البوذية.. أغمض عيني.. عندها فقط أتذكر انني عاجز تمامًا عن النوم في أية وسيلة مواصلات. نعم يمكنني النوم بصعوبة في القطار والطائرة، لكن من المستحيل أن يجد النوم سبيله لبابي في سيارة.. كلما دنا من الباب ومد يده ليفتحه سقطت السيارة في مطب أو دوت الفرملة، وهكذا يتراجع النوم مذعورًا وينتظر على بعد مترين من الباب بانتظار فرصة أخرى.. فرصة لا تأتي أبدًا..

الأضواء تلتمع على الوجوه من حين لآخر.. مبهرة تؤذي العينين وتجعلك تحكهما. الدمع يحتشد في عينيك مع لعنة قصر البصر الشهيرة: الشعور بأن هذا كله حلم.. غير حقيقي..

الأسوأ أن تجلس خلفك في السيارة تلك المرأة حسنة الصوت التي تحكي لجارها همسًا قصة ما.. صوت منوم يجعلك تشعر بدوار..

تراقب الطريق على سبيل التسلية لكنك تشعر بالذعر، وتخاف أكثر لأنه ما من أحد يلاحظ ما تلاحظه، ويخاف مما تخافه...

ربما كان الأفضل أن تنام.. هنا تتذكر أن لست ممن يقدرّون على النوم في وسائل المواصلات!

وهكذا...

كنت مضطرًا لذلك لأن موعد آخر قطار قد فاتني منذ زمن.. وكان ذلك السائق يقف في الميدان مناديًا الناس أن ينتهزوا الفرصة الأخيرة. لهذا وثبت مع الناس وأنا أدرك أن ساعتين من العذاب تنتظرانني في شغف..

تطلق السيارة.. الفاتحة للنبي يا اخواننا نوصل بالسلامة.. رجل ملتج يقول إن دعاء السفر هو الأصح..

جو عام من التوتر والترقب.. السائق يقود بسرعة جنونية فعلاً..

تتلاعب الذكريات في ذهنك.. تتذكر أشياء وتنسى أشياء.. شريط اليوم بكامله يدور في خيالك.. المصرف وذلك الخطأ في الشيك.. المدرس الخصوصي لابنك ومشادة مع أخي زوجتك.. عداد الكهرباء وفاتورة الهاتف..

لا تعرف كيف نمت.. إنها لمعجزة.. لقد نمت..

فتحت عيني بعد نوم لا أعرف كم طال..

كنت في حال غريبة بين الإفاقة والنعاس. وبطرف عيني رأيت السيارة التي كنا نركبها واقفة إلى جانب الطريق..

أما المكان الذي أنا فيه فمقهى.. مقهى أقرب إلى تعريف (الغرفة)، من تلك

المقاهي التي يعج بها الطريق السريع حيث يدخن السائقون المعسل وربما أشياء أخرى..

مقاعد من الخيزران متناثرة خارج المقهى الضيق، وهناك نصة يقف خلفها شاب نحيل منهمك في صنع القهوة.. وهناك ثلاجة عتيقة بها مياه غازية.. هناك بعض نباتات ظل مزروعة في صفائح صدئة..

جواري مائدة صغيرة عليها كوب من شاي ثقيل.. كوب متسخ ببصمات الأصابع وبقايا الشاي لكنني كنت في حاجة إليه. أريد أن أفيق قليلاً..

الإضاءة خافتة اللهم إلا من كlob معلق خارج المقهى يلتف حوله الذباب، ويصدر صوت (تش ش ش) المميز.. وهناك مصباح واهن داخل المقهى..

حولنا أشجار كثيفة. فقط ترى السيارة بين فرجة منها.. ولو نظرت لأعلى لرأيت سماء سوداء كالمخمل..

كان ركاب السيارة كلهم من حولي.. متناثرين على الموائد يشربون الشاي أو القهوة أو الحلبة، وبعضهم يدخن الشيشة.. أعني البوري أو الجوزة طبعاً..

جاء الفتى القهوجي الذي يعلق مريولة على خصره ويحمل صينية متسخة مبتلة. فمسح المائدة جواري وسألني بلا اكتراث:

- «هل من شيء آخر يا أستاذ؟».

ملت عليه سائلاً:

- «ماذا يحدث هنا؟ متى جئنا؟».

كان سؤالاً غريباً بالطبع، وقد نظر لي في حيرة واتهام صامت بالخبال، ثم قال:

- «مشكلة بسيطة في السيارة.. أرسلوا في طلب ميكانيكي.. لا تقلق.. يبدو أنك نمت طويلاً».

إذن أنا كنت في حالة نوم غريبة لم أعدها من قبل.. كنت نائماً عندما تعطلت السيارة وعندما نزلوا منها، وعندما مشوا لهذا المقهى، وعندما جلست وطلبت شايًا..

- «وآين نحن بالضبط؟».

كنت قد نمت ونحن قرب بنها.. لكنه قال لي:

- «نحن في أرض الله الواسعة.. لا تقلق.. هل تنوي الدفع الآن أم ستسحب المزيد؟».

نظرت لكوب الشاي الممتلئ وقلت في غضب:

- «أنا لم أشرب أول طلب بعد».

- «كما تحب.. لكن أذكر الله في كل وقت بدلاً من جلستك الصامتة هذه..».

وانصرف.. بينما ظللت أرمق من حولي.. جاء مجموعة من الناس وألقوا السلام.. واضح أنهم من الريف وأنهم تجار. جلسوا وطلبوا شايًا وشيشة فيما

قال أحدهم وهو يرفع الجلباب عن ساقه:

- «لم يكن الأمر صعباً.. الرحلة سهلة ممتعة. وهناك مقهى كذلك..».

قال آخر:

- «بصراحة كنت أخشى ما سنراه..».

راح الأول يتفحص ساقه المشعرة، ولاحظت أنها مجروحة بعنف.. لكنها لم تكن تنزف.. رفعت عيني فوجدت زميله بجرح بالغ في رأسه.. غريب هذا.. إن تحمل هؤلاء التجار لعال حقًا..

لاحظ أحدهم أنني أطيل النظر فقال بصوت غليظ:

- «لا تقلق يا أستاذ.. لكن هل جرحت أنت؟».

هل يجب أن أكون جريحًا؟.. قلت:

- «لا..».

- «أفضل شيء أن تكون قطعة واحدة.. صحيح أن هذا لا يحدث فارقًا لكن الإنسان يكره أن يرى لحمه ممزقًا أو جريحًا..».

قال آخر:

- «نحمد الله أنه لا يوجد نزف..».

قلت وأنا أبحث عن الهاتف المحمول:

- «ربما كان من الأجدر أن أطلب لكم الإسعاف..».

هنا تدخل الفتى القهوجي الذي جلب الشيشة ومعها صينية محملة بأكواب الشاي:

- «لا تتعب نفسك يا أستاذ.. كله مكتوب.. هم الآن في أمان حقيقي..».

هنا رأيت سائق السيارة التي كنا نركبها يمر أمامي.. صحت أناديه فنظر لي وابتسم ثم واصل مشيه بين الموائد. قلت في عدم فهم:

- «لعله يبحث عن مكان يقضي فيه حاجته..».

قال القهوجي:

- «لا داعي لذلك.. لكنه دفع الحساب وصار حرًا.. سوف يواصل الرحلة..».

- «يرحل؟.. هل أصلح السيارة؟.. وأين الباكون؟».

- «سيرحل.. لكن ليس بالسيارة يا أستاذ.. أمثاله لا يحتاجون إلى عجلات.. وأنت.. هل تدفع الآن؟».

- «كم؟».

راح يجمع ويطرح كأنني التهمت عشاءً كاملاً، ثم قال في النهاية إن حسابه جنيه واحد.. مددت يدي في جيبى أبحث عن الجنيه وبعض البقشيش.. لم أجد شيئاً.. هناك ورقة بمائة جنيه..

- «ليس معي سوى ورقة بمائة..».

ضحك في خبث وهو يرفع الكوب الفارغ من أمامي:

- «يا بك.. لو كان معي مائة جنيه لاسترحت من هذه المهنة.. لكن يمكنك الانتظار بعض الوقت فلربما وجدت فكة.. هل اخضر لك بعض الحلبة بالحليب؟».

- «ليكن».

وبحثت بعيني في المقهى الذي جلس زبائنه في الضوء الخافت.. ربما كان مع أحدهم فكة.. هذا الرجل كان يجلس جوارى في السيارة وكان نائمًا منذ البداية. نهضت نحوه وسألته عن....

كان نائمًا.. لكنني رأيت عنقه.. كان مثنياً بطريقة لا يمكن وصفها ولا يمكن أن تراها على إنسان حي.. لكنه كان حيًا.. شفتاه تتحركان..

بدأت أراجع للخلف فاصطدمت بالقهوجي الذي كان يقف يراقب المشهد في استمتاع.. قال لي:

- «أنت قلق وحائر يا أستاذ.. لا أدري لماذا لا تقبل الأمر مثل الآخرين؟.. سوف تجلس هنا بعض الوقت وتتبادل الكلام مع الآخرين ثم تدفع الحساب وترحل.. هكذا يفعل الجميع.. كله مكتوب.. صدقني».

نظرت حولي وسألته من جديد:

- «أين السائق؟».

- «قلت لك إنه رحل.. لقد كان أول من رحل..».

- «لم يأخذ السيارة..».

- «لم يعد هناك داع للسيارة!».

هذه المرة تملكني الهلع فأطحت بالصينية التي يحملها وهرعت أجري خارجًا من ذلك المقهى الغامض.. أسمع صوته يصيح (الحساب يا أستاذ.. الحساب!).. أجتاز حزام الأشجار المحيط بي لأرى الحقول المظلمة وفوقها حزام النجوم البكر.. صوت صرصار الحقل ونقيق الضفادع.. السيارة تقف كالشبح في الظلام..

ما معنى هذا؟.. هناك معنى لكنني أخشى أن أقوله..

تعثرت وسقطت.. وفقدت الوعي..

هذا أنا.. أفتح عيني.. هناك من يركع جوارى.. هذا القرص الملون يبعث أضواءً مجنونة في كل مكان.. ما هذا الزحام؟.. ما هذا الصوت المولول بلا توقف؟.. سرينة؟.. هناك من يمسح شيئًا دافئًا عن وجهي..

صوت نقالة تفرد.. رجلان يحملانني ليضعاني فوقها..

أنظر حولي.. هذه جثث.. جثث دامية متناثرة على جانب الطريق، وهناك بقع دم.. هذا هو السائق.. لن يقود سيارة بعد اليوم..

إنهم يضعونني في سيارة الإسعاف.. رجل بشارب كث ينحني علي ويقول:

- «حمدًا لله على السلامة.. كله مكتوب.. لقد نجوت بمعجزة.. السيارة دارت حول نفسها ثلاث مرات ثم اصطدمت بشجرة..».

- «والمقهى؟.. المقهى الذي تحيط به الأشجار؟».

نظر لي في عدم فهم ثم قال:

- «حاول أن تستريح.. أي مقهى؟.. لقد وقع الحادث بين طوخ وبنها.. لا توجد

مقاه قريبة..».

نظرت لسقف عربة الإسعاف الذي تركض عليه الأضواء.. لحظات من الشرود
ثم سمعت الرجل ينظر من النافذة الخلفية ويقول:

- «ليلة سوداء هي..هذه عربة نصف نقل تنقل بعض تجار الخضر.. ماتوا
جميعًا.. زملائي أخبروني على الهاتف..».

كنت أفكر في هذا كله..

المقهى لا وجود له.. هلاوس زارتنى وأنا ملقى على الأسفلت بين الموت
والحياة.. لكنني أعرف ما هو أفضل.. أعرف يقينًا أنني كنت هناك فعلاً، وأن
الآخرين ذهبوا هناك أيضًا.. كله مكتوب.. كلهم شربوا جرعات أخيرة من
الشاي.. ثم دفعوا حسابهم ورحلوا..

لماذا أنا حي؟.. ربما لأنني لم أدفع حسابي.. لأن الورقة ذات المائة جنيهه
عطلت ذلك..» لكنه دفع الحساب وصار حرًا.. «سوف يواصل الرحلة»، «أمثاله لا
يحتاجون إلى عجلات»..

وما زلت حتى اليوم أرتجف هلعًا كلما دنت السيارة من بنها، وبعيني أفتش
عن ذلك المقهى بين الأشجار.. أعرف أنه موجود.. أعرف أنني سأزوره يومًا ما
وسوف أشرب الشاي..

لكنني في تلك المرة سوف أجد معي ما يكفي لدفع الحساب.. أعرف هذا
يقينًا.

في كيان للنشر والتوزيع، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائماً نرحب بالكتاب الشاب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب تراسلنا، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235688678 - 0235611772

هاتف محمول: 01001872290 / 01005248794 / 01000405450

ويمكنك التواصل معنا إلكترونياً على الروابط التالية، للاطلاع على كُتبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتابنا الثقافية:

kayan.publishing



kayan_publishing



kayanpublishing



kayanpublishing



kayanpublishing



kayanpublishing+



د. أحمد خالد توفيق

الآن نفتح الصندوق

“الجزء الثالث”



الآن نفتح الصندوق-3

الآن نفتح الصندوق-3

تأليف :
د.أحمد خالد توفيق

تصميم الغلاف:
أحمد مراد

رقم الإيداع: 2017/9073
الترقيم الدولي: 978-977-820-031-7

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع
22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة – الهرم
هاتف أرضي: 0235688678 - 0235611772
هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو
بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الآن نفتح الصندوق-٣

د.أحمد خالد توفيق

المحتويات

[اسمه ريدو](#)

[عدو الأجهزة](#)

[أنت تعرف هذه القصص](#)

[مراد يبحث عني](#)

[بقعة حبر](#)

[هولو كوست](#)

[الرأس](#)

[قولها يا \(عبير\)!](#)

[المقبض](#)

[النافذة الخلفية](#)

[المقابلة](#)

[كوخ في \(ليرج\)](#)

[بسبوسة وأشياء أخرى](#)

[أرق](#)

قبل أن نغلق الصندوق ..

يبدو ان الدكتور «محفوظ» يرحمه الله كان ثرثارًا، فقد فتحنا الصندوق للمرة الثانية وأخرجنا حشدًا من الأوراق من داخله، وكلها قصاصات تحكي عن تجاربه الغريبة مع عالم الرعب أو عالم الماورائيات.

برغم هذا ظلت قصاصات عدة في مكانها هنا وهناك ..

أظرف مغلقة .. أوراق مطوية.. قصص كاملة كتبت بخط دقيق جدًا على ظهر أوراق تقويم.. كراس لولبي ممزق.. إلخ

إن الصندوق لم يفرغ بعد، وما فيه يستحق كتابًا أخيرًا يحمل العنوان ذاته (الآن نفتح الصندوق -3).

إن الخوف من الصندوق المغلق أو الحيرة بصدد محتواه قديمان جدًا في وجدان البشر، ولسوف تجده في ألف ليلة وليلة وشكسبير وقصص الأطفال وكل شيء.. إنه الغيب مجردًا .. نحن محظوظون لأننا نعرف يقينًا أن الصندوق يحوي قصاصات ورقية.. لن نجد جثة كما في ألف ليلة وليلة، ولن نجد عقربًا أو ثعبانًا أو سبيكة مشعة أو غازًا سامًا أو لعنة قديمة..

بعض القصص قد يكون ممتعًا، وبعضها مخيف، وبعضها طريف، وبعضها ممل كالجحيم.. الاحتمال الأخير خطر علينا وعلى د.مخفوظ طبعًا، لكن ما أكثر الملل في هذا العالم على كل حال!..

هناك نافذة خلفية ذات صفات غريبة.. هناك كلب يؤدي النداء بأسمه إلى كارثة.. هناك مقابلة عمل غريبة جدًا، هناك حالة متقدمة من الأرق.. هناك بقع حبر ورأس من رءوس التسانتسا المصغرة.. هناك أغنية أطفال شريرة ..

أعتقد أنك ستحب هذه المجموعة من القصص .. أقرأها وادعُ بالرحمة للدكتور محفوظ الذي عاش حياة صاخبة حقًا، ومات فقيرًا فلم يترك لورثته سوى قصص..

الآن وقد عرفنا قواعد اللعبة، هاتوا شمعة ولننزل للقبو ونفتح الصندوق .. هذه هي الورقة الأولى..

هل ترى الحروف؟ .. ماذا تقول؟ ..

اسمه ريدو

تسألني لماذا أكره الكلاب إلى هذه الدرجة..

رأيت أن الكلاب كائنات لطيفة شديدة الحساسية.. ليس في هذا أي تناقض.. (تشيكوف) الكاتب الروسي العبقرى يقول: «أناس رائعون هؤلاء الكلاب».. وأنا كنت أحب الكلاب كثيرًا. النظرة الذكية المعبرة فعلاً والإخلاص الذي لا يتزعزع والصدق. صحيح أن القط أكثر ذكاءً، لكن شخصيته المستقلة وتمردته يعطيان انطباعاً مختلفاً.. الموظف محدود الذكاء الذي يطيع رئيسه طاعة عمياء يعتبره الرئيس عبقرىً، بينما نفس الرئيس دائم الشكوى من الموظف (الغبى) المتمرد النازع للاستقلالية..

لأسباب دينية لم أقم بتربية كلاب على مدى حياتي، إلى أن امتلكت وأسررتي بيتاً ريفياً صغيراً في قرية مجاورة.. هذا البيت له حديقة، ويسمح بأن يلهو كلب كما يريد كما أن غرض الاحتفاظ به للحراسة واضح تماماً..

من أحد أقاربي الذي أنجبت كلبته عددًا من الجراء الصغيرة، حصلت على ذلك الجرو الصغير من نوع (الراعى الألماني). وقد شرح لي طريقة رعايته والحفاظ على صحته، فهذه كائنات حساسة لا يجب التعامل معها بخفة..

أقام الأولاد مهرجاناً كاملاً حول الكلب الصغير، حتى خطر لي أنه ما من لعبة في العالم مهما غلا ثمنها يمكن أن تجلب لهم كل هذه السعادة.. وقد كان شبه رضيع لذا بدت سنه مناسبة لسنهم والتفاهم كاملاً، والولع باللعب واحداً..

هكذا راحوا ينتظرون يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع ليذهبوا لبيتنا الريفي، حيث يلعبون مع الكلب الصغير طيلة اليوم تقريباً..

نسيت أن أقول إن هناك خفيراً اسمه (عبد الباري) يعنى بالبيت والكلب طبعاً طيلة غيابنا..

- «ماذا نطلق عليه؟».

تحدث عن الكلب لا الخفير طبعاً.. بعد تفكير جديد قررت أن أطلق عليه اسم (ريدو)، وهو اسم كلب سمعته قديماً في فيلم أمريكي لا أذكر اسمه.. ولعلها لفظة (روديو) التي أخطأت في سماعها..

الأولاد وجدوا الاسم سخيلاً ثقيلًا على اللسان، وأصروا على أن يظل اسم الكلب بالنسبة لهم (لاكى).. أثار هذا غيظي.. أنا من يدفع ثمن طعامه ومن حقي الكامل أن اختار الاسم، وقد قررت على كل حال أن استمر في استعمال الاسم الذي اخترته أنا، رغم أن إطلاق اسمين على كلب لا بد أن يسبب له حيرة لا بأس بها..

بدأ كل شيء في أحد أيام الخميس قرب امتحانات منتصف العام..

الأولاد في البيت بالمدينة لأن الامتحانات على الأبواب طبعاً.. لا وقت للنزهة..

كانت هناك بعض المشاكل المملة، لذا اتجهت وحدي إلى البيت الريفي لأمضي فيه الليلة.. في الصباح أنهى بعض الأمور واصلني الجمعة ثم أعود..

كان الخفير (عبد الباري) يعيش وحده لأن أسرته هناك في المنيا. تناولت معه لقمة من طعام جلبته من المدينة معي.. ثم أعد لنا شايًا ثقيلًا أسود يصلح لرصف الطرقات كالعادة فشربته ومعدتي تتقلص..

ذهب لقضاء بعض شأنه، فرحت أعبت مع الكلب الذي صار أقرب إلى فتى مراهق وسيم قوي البنية.. كان الليل قد اقترب، ومعه البرد، لكن الأشياء كانت مرئية. رحت أمشي معه في أرجاء الأرض الزراعية المحيطة بنا، وهو في حالة عظيمة من المرح كدأب الكلاب..

وجدت تحت جذع شجرة كرة الأولاد المطاطية الصغيرة التي ضاعت منهم، فالتقطتها ورحت أرميها بعيدًا وأصيح في الكلب: (ريديو).. من ثم يركض وهو يبصص بذيله ليجلبها لي.. وكعادة الأطفال السخيفة هو لا يمل التكرار أبدًا..

هذه المرة قذفت الكرة نحو بقعة خالية قرب الساقية العجوز التي لا تعمل منذ عصر (أحمس).. وصحت به:

- «(ريديو)!!».

من الغريب أنه تصلب بعض الوقت.. ظل يرمق المكان في شيء من التوجس بينما عيناه تنطقان بتلك اللغة الصامتة للكلاب..

- «هلم يا جبان!».

لكنه لم يبال بأن أشتمه.. ظل ينظر للمكان ثم لي، وسرعان ما كان يبتعد وذيله بين فخذه..

رحت أناديه بصوت عال:

- «(ريديو)!!.. (ريديو)!!.. (لاكي)!!».

غريب هذا.. الكلاب ليست مزاجية مثل القطط، وغالبًا ما تتصرف على أساس منطقي واضح..

هكذا عدت وأنا أسب وألعن.. أحتاج إلى غسل السروال والحذاء، والمشكلة هي أنني لم أحمل معي سوى منامة لقضاء الليل باعتباري لن أبدل هذه الثياب غدًا..

دخلت البيت فوجدت أن الضوء الكهربائي لا يعمل لسبب لا أفهمه.. لكن الكهرباء موجودة والثلاجة تهدر كما تركتها.. أعتقد أن هناك خطأ تالفًا.. خرجت طالبًا (عبد الباري) فظهر من مكان ما بين أشجار النخيل.. قلت له إن الضوء معطل ولا أعرف السبب..

- «يجب أن ننتظر حتى الصباح يا دكتور.. هناك كهربائي في القرية المجاورة لكن من المستحيل أن يأتي الليلة..».

- «والحل؟».

الحل كان مصباح الكيروسين الذي جاء به للبيت.. رائحة الوقود الزكية والضوء المخيف وذكريات لا تنتهي عن طفولتي.. قمت بتعليق المصباح في مكان يكشف لي الصالة في البيت، وخطر لي أن أبدل ثيابي، ثم تذكرت الكلب (ريديو).. أين هو؟.. هناك صوت صراخ رفيع كصراخ الكلاب.. فهل هو؟..

خرجت أبحث عنه حاملاً كشافي الصغير، ولم يكن (عبد الباري) قريباً.. إنه يختفي دائماً لكنك تجده عندما تريده.. قررت أن أعود لموضع الساقية حيث الكرة.. صوت جاموس يخور في حظيرة ما من بعيد.. البرد قارس فعلاً.. هناك رحل أنادي (ريديو).. (ريديو).. بلا جدوى..

ثم دنوت من المكان الذي توارت فيه الكرة.. ما هذا؟.. الطين مبعثر في كل مكان.. فجوة لا بأس بها أبداً في الأرض.. لو تركت لخيالي العنان لقلت إن شيئاً ما كان هنا، وحاول الخروج..

وقد أفلح في ذلك...

هناك آثار شيء يزحف على الوحل.. هناك ما يشبه خطوات الأقدام.. ما معنى هذا؟

نظرت إلى الشرق حيث كانت حقول الذرة الخاصة بجارنا.. هنا رأيت (عبد الباري) يمشي هناك وهو يترنح.. صحت أناديه لكنه توارى وسط أعواد الذرة ولم ينظر للخلف..

شعرت بقشعريرة.. هناك أشياء غريبة جداً تحدث هذه الليلة.. ركضت لاهثاً قاصداً البيت.. ووقفت أمامه أنادي من جديد: - «عبد الباري!».

هنا فوجئت به جالساً على عتبة الباب يدخن (البوري) في استمتاع وهو يشرب الشاي الأسود، وكان يلتف بتلك التلغية الصوفية العملاقة التي يلفها حول رأسه مائة مرة حتى كأنه في سيبيريا.. - «خير يا دكتور؟».

- «لماذا لم ترد علي عندما دخلت حقل الذرة؟.. وكيف عدت هنا وأشعلت الفحم وأعددت الدخان بهذه السرعة؟».

- «أنا لم أتحرك منذ ربع ساعة يا دكتور!».

إذن هناك من يعبث في الجوار.. لكن من هو؟.. ما هو؟.. ثمة شيء في مظهره جعلني لا أريد أن أراه ثانية..

دخلت البيت. لقد تركت الباب موارباً على ما يبدو.. اتجهت لغرفة النوم وبدأت أبدل ثيابي في إضاءة ضعيفة للغاية، وهنا وثبت متراً في الهواء.. كان هناك شيء يلمس ساقي العارية.

جثوت على ركبتني وفتشت بيدي فوجدت أنني أتحسس عنق الكلب

ورأسه.. كان يمسح وجهه بي بتلك الطريقة الودود لدى الكلاب.. وهذا قد جعلني أهدأ فعلاً... لو كان هذا كلباً فعلاً ككل الكلاب فهو يعرف كيف يحميني.. ثم خرجت إلى الصالة وهو معي، حيث ازدادت الإضاءة قوة..

نظرت له من جديد هنا أصابني الذعر.. لقد كان عنقه ممزقاً تماماً.. شيء أنشب أنيابه في عنقه وأوشك على أن يفصله، ومن الغريب أنه ما زال حياً.. قمت بربط سريع في ذهني: حفرة الطين.. شيء خرج منها.. الكلب كان خائفاً.. الكلب عنقه ممزق... قصة واضحة جداً، لكن ما هو الوحش الذي يعيش تحت الأرض ويخرج ليمزق عنق كلب؟

لحسن الحظ كانت هناك أربطة وما يلزم لتعقيم الجرح، وهي مهمة صعبة قاسية، لكن ما بقي كان أعظم.. علي أن أتأكد من أنه لم يصب بالكلب - بفتح الكاف واللام - أي داء السعار ولم يصب بالكزاز (التيتانوس).. هذا يعني أن علي أن أخذه في سيارتي غداً ليراه طبيب بيطري..

والأغرب أن هذه الجروح بليغة إلى حد لا يوصف.. لا أعرف كيف عاش كل هذا الوقت لكنه ما زال حياً.. إنه أصلب مما توقعت فعلاً..

قررت أن أتركه ينام في البيت هذه الليلة.. الجو بارد بالخارج فعلاً فليس الوقت وقت الحرص على نظافة البيت. اندسست في فراشي في البرد والظلام وراحت أسناني تصطك.. أحتاج لساعة حتى تعمل النظرية الميكانيكية الحرارية ويسري الدفء في الفراش...

في الصباح قررت أن أرحل فوراً إلى المدينة وأتصل بطبيب بيطري بلا انتظار، فالمسكين قد لا يعيش كل هذا الوقت..

حمل (عبد الباري) الكلب ووضعه في مقعد السيارة الخلفي، وقال لي ناصحاً:

- «فلنغرقه في التربة يا دكتور.. هذا أفضل من الإنفاق عليه، فهو شبه ميت»..

- «أرجو أن تصمت.. أولاً هو كائن حي.. ثانياً لن يغفر لي أولادي أي ضرر يحل به»..

- «إذن خذ الحذر.. ربما عضته (سلعوة) وبالتالي سيصير مسعوراً»..

انطلقت بسيارتي على الطريق المفرد الوعر الذي يقود إلى طريق أسرع يقود للمدينة..

بعد خمس دقائق سمعت صوتاً غريباً من خلفي..

نظرت في مرآة السيارة لأرى المقعد الخلفي فرأيت الهول نفسه.. هذا ليس كلباً.. إنه الشيطان ذاته ينهض هناك.. أنا متأكد من ان عيني لا تخدعاني.. لقد صارت عيناه بلون الدم واستطالت أنيابه.. أزال ضمادة عنقه فبدا لي مروعاً ممزقاً لدرجة لا تصدق..

هذا الشيطان في المقعد الخلفي وهو ينهض ناظرًا لعنقي..

ماذا دهاك؟... ماذا دهاك يا (ريديو)؟.. هنا بدأ الجزء اللاتيني في عقلي يعمل.. لماذا اخترت هذا الاسم بالذات؟.. (ريديو) معناها باللاتينية (انهض).. أنا وقفت كثيرًا أمام تلك المنطقة الغامض قرب الساقية ورددت مرارًا بصوت عال (ريديو).. (انهض).. فهل استجاب شيء ما لندائي المتكرر وخرج من الوحل؟.. هل كان هو الشيء الذي غاب وسط عيدان الذرة؟.. هل كان هو الشيء الذي عض الكلب وجعله شيطانًا؟

هذا المسخ ينهض الآن ويقترب من عنقي.. لو أوقفت السيارة لوثب.. لو ضغطت الفرملة لطار ليضربني في ظهري..

كنت أنظر في المرأة متوترًا عندما سمعت صوت البوق عاليًا..

نظرت للأمام لأجد ذلك اللوري قادمًا يعوي نحوي مباشرة وسائقه لا يكف عن إنذاري بالكارثة.. أدت المقود بسرعة ودست الفرملة، وهوب.. سرعان ما دارت السيارة حول نفسها عدة مرات وانقلبت...

لا أعرف كم مر من الوقت قبل أن يخرجوني من السيارة المقلوبة، ولا كيف تعاون خمسة من الفلاحين الذين أمسك كل منهم بذيل جلبابه بين أسنانه ليعيدوها على عجلاتها..

- «هل أنت سليم؟».

نعم.. سليم.. هذا مؤكد... يبدو أن السيارة كذلك صالحة للسير.. لقد نجوت بمعجزة.. لكن أين الكلب؟.. أين (ريديو)؟

كان الباب الخلفي مفتوحًا لكن لا يوجد شيء.. لا يوجد كلب..

شكرت الرجال وركبت سيارتي وأدرتها فدارت.. انطلقت لا ألوي على شيء نحو المدينة..

لا أعرف ما حدث فعلاً، ولا أعرف إن كنت محقًا أم لا.. كل ما أعرفه هو أنني سأبيع هذا البيت الريفي المنحوس مهما احتجت زوجتي.. ولن أربي أي كلب ثانية طيلة حياتي.. فإذا ما اضطررت لذلك سيكون علي أن أراجع قاموس اللاتينية لأعرف معنى اسمه بالضبط!!

عدو الأجهزة

عائدًا مع صديقي (مكرم) إلى داره بعد سهرة طويلة، أخبرني بالتفاصيل الغربية لمشكلته.

لم ألحظ هذا من قبل ولكن هذا لا يدل على شيء إذا تذكرنا أنني لم أر (مكرم) منذ أربعين عامًا.. كان في نفس الصف معي في المدرسة وكان لامعًا شديد الذكاء.. لم ألق عباقرة كثيرين في حياتي لكنني أعرف يقينًا أن (مكرم) يجب أن يكون منهم..

في تلك الليلة قابلته وقد عاد لمصر بعد حياة طويلة من العمل مهندسًا في كندا.. وقد حكى لي كل تفاصيل حياته في السنين الماضية وحكى له كل شيء، وتناولنا عشاء دسمًا في (الحسين) ودخن الشيشة وشرب الشاي الثقيل وعصير القصب.. كان يحتفل بمصريته بشدة.. قال لي:

- «لقد كادت الطائرة تسقط بنا لدى عودتي.. وقد توقعت هذا على كل حال..».

قلت ساخرًا:

- «من حسن الحظ أنها لم تفعل.. لماذا توقعت ذلك؟؟ هل أنت نحس لهذا الحد؟».

- «لست نحسًا.. الأمر لا يوصف بكلمات».

كنا نمشي في الشارع المظلم الذي لا تضيئه إلا بعض أعمدة النور الفوسفوري الكئيب. سمعته يقطع بلسانه من حين لآخر كأنه يستنكر.. ثم قال:

- «مرة أخرى!».

قلت لنفسي إنه غريب الأطوار بعض الشيء.. هذا متوقع مع عبقرى مثله. بعد قليل كرر الكلام ذاته.. ورأيت ينظر بدهشة إلي شيء ما..

نظرت لما ينظر له فوجدت عامود نور غير مضاء.. شيء طبيعي جدًا في مصر.. لما مررنا بالعامود بدأ ضوء خافت يتراقص ثم عاد يشع بكفاءة..

هنا كنا نمر بقرب العامود الثاني.. رأيت ضوء العامود يخفت ببطء ثم يتلاشى تمامًا..

نظرت له في عدم فهم، فقال لي باسمًا:

- «نعم.. الأمر كما تراه بالضبط.. وجودي يطفئ أعمدة النور في الشوارع!».

قلت محتجًا:

- «لكن هذا مستحيل..».

- «أنت رأيت بعينك وتذكر أنه حدث فعلاً..».

- «هي مجرد مصادفة.. كل هذه المصاييح قد انتهت عمرها الافتراضي.. إنها تتوهج وتنطفئ وتعود لتضيء... هذا شيء يعرفه كل طفل..».

كنا الآن نمر جوار عامود آخر فرأيت ضوءه يتراقص ثم يخبو.. ورأيت ابتسامة منتصرة على وجه (مكرم) كأنه يقول لي: رأيت؟..

أخيراً بلغنا بيته وأنا عاجز عن الفهم، فأخرجت جهاز الهاتف المحمول لأرى إن كانت رسائل قد وصلتني.. هنا فوجئت بأن شاشته مطفأة.. مستحيل أن يكون الشحن قد انتهى لأنني شحنته بنفسني منذ ساعتين.. إن هذه ليلة من تلك الليالي إذن..

قال لي وقد رأى نظرتي:

- «أنا لا أستعمل الهواتف المحمولة لأنها تتلف دائماً معي.. سبب لي هذا مشاكل جمّة في كندا.. المشكلة لم تكن بهذا الوضوح فيما سبق، ثم ازدادت تعقيداً حتى صار عملي هناك مستحيلاً... هكذا عدت إلى مصر..».

قلت في حيرة وأنا أحك رأسي:

- «لحظة.. هل تقول إنك تطفئ أنوار الشارع وتتلّف الهواتف المحمولة؟.. هل أنت قادم من المريخ؟».

- «الأمر أسوأ من هذا.. تعال معي..».

الشقة المفروشة التي استأجرها في حي المهندسين كانت في الطابق الرابع.. عالية جداً بالنسبة لسني، لكن المصعد كان معطلاً.. عرفنا هذا عندما دخلناه وضغطنا على الأزرار فلم تستجب.. صعدنا الدرج بصعوبة جمّة، وأخيراً فتح لنا الشقة فارتيمت على أول مقعد وجدته لاهثاً..

هنا بدأت أكتشف جوانب المشكلة..

التلفزيون تالف.. الثلاجة تصدر أصواتاً غريبة.. المصاييح تعمل لكنها ليست فوسفورية طبعاً.. نظرت له متسائلاً محاولاً الفهم فقال:

- «الأجهزة كلها تتلف في وجودي.. هذه حقيقة.. شاشات الكمبيوتر تظلم.. الهواتف تتعطل.. أجهزة القياس في المختبر تنفجر... لقد صار عملي مستحيلاً.. أعتقد أنني انتهيت..».

قلت له مغتاضاً:

- «كل هذه مصادفات.. يجب أن تتعامل بمنطق علمي.. لا يوجد شيء اسمه النحس!».

- «ومن تكلم عن النحس؟.. أنا اتكلم عن ظاهرة عجيبة تجعلني معادياً لكل الأجهزة والأضواء.. أنت رأيت أبعاد المشكلة وشاهد معي على حجمها الحقيقي..».

فكرت بعض الوقت وحككت رأسي للمرة الألف كأنه عامر بالقمل:
- «هناك تفسير ولسوف أجده..».

هكذا انتظرت حتى جاء اليوم التالي، واصطحبته لصديقي د. مصطفى أستاذ علم النفس.. أنت تعرفه ولا شك..

من الغريب أن أية أجهزة لم ت تلف منذ دخلنا بيته.. هذه قاعدة مفروغ منها وتكرر دومًا.. لا شيء يحدث أمام الخبراء. لكن د. مصطفى رحب بصديقي الآخر وقدم لنا القهوة، ثم راح يصغي بانتباه لقصة (مكرم) مع الأجهزة ومع أضواء الشارع..

قال (مصطفى) وهو يرشف القهوة:

- «لا أنكر أن القصة مثيرة.. لكنني ألاحظ أن أيًا من الأجهزة الكهربائية هنا لم يتلف.. الثلاجة والمكيف والتلفزيون تعمل جيدًا.. هل لديك تفسير؟».

قال (مكرم):

- «لا تفسير سوى أن الطبيعة غير منتظمة ولا يمكن التنبؤ بها.. إن لها قوانينها الخفية التي لا ندركها.. ذات مرة - أثناء الحرب العالمية الثانية - سقطت قنبلة شديدة الانفجار وسط خمسة من جنود الحلفاء وهم جالسون يتناولون الطعام.. تصور هذا!.. بدلاً من الخبز هبطت قنبلة.. برغم هذا لم يחדش أحدهم!.. وقد فسروا الأمر بأن أجلهم لم يحن بعد.. نفس الشيء ينطبق على الظواهر الغريبة..».

قال د. مصطفى وهو يضع ساقًا على ساق ويشعل لفافة تبغ:

- «هذا كلام معقول، لكنه يخرق القواعد العلمية التي تقضي بأن تكون الظاهرة قابلة للتكرار والتفسير والقياس.. لكن دعني أقل لك إن هناك ظاهرة معروفة بهذا الشكل فعلاً ولها اسم..».

نظرت له في دهشة متسائلًا:

- «تلف الأجهزة له اسم غير النحس؟».

- «نعم.. اسمه (تأثير بولي).. هناك أشخاص يسببون تلف الأجهزة الكهربائية، وفي الخارج أطلقوا على الظاهرة هذا المصطلح نسبة لعالم نمساوي اسمه (بولي).. بلغت سمعته السيئة أن كثيرًا من العلماء كانوا يمنعونه من التواجد في المدينة عندما يجرون تجاربهم.. وقد زار جامعة برنستون عام 1950 فاحترق جهاز السيكلوترون باهظ الثمن هناك بلا تفسير.. الآن نعرف أن هناك كثيرين يسببون الشيء ذاته، وتفسيره غير واضح.. على الأرجح هو نموذج لما وراء علم النفس.. وأنت يا أستاذ (مكرم) لست استثناء.. فقط تتزايد هذه الظاهرة مع الوقت».

قال (مكرم) مفكرًا:

- «وأضواء الشارع التي تشحب؟».

- «لم نبتعد كثيرًا.. إعاقة مصابيح الشارع أو SLI هو جزء من ظاهرة بولي.. أشخاص كثيرون يسببون انطفاء أنوار الشارع عندما يمرون جوارها..».

قلت في سخرية:

- «يبدو لي هذا كلامًا فارغًا..».

- «كثيرون وأنا منهم يرونه كذلك ويرون أنها مصادفات لا أكثر.. بينما كثيرون يعتقدون أن للدماغ موجات خاصة تسبب هذا التأثير.. على كل حال أية محاولة لتكرار هذه التجارب في المختبر فشلت.. لا يستطيع هؤلاء القوم أن يعيدوا التجربة عند الطلب..».

ساد صمت عميق ورحنا نفكر في هذا الذي قاله..

تأثير بولي أو مصادفة.. الأمر سيان.. إما أن تقبل تفسير بولي أو تقبل فكرة النحس.. معضلة حقيقية..

فجأة سمعنا صوتًا مكتومًا كأن أحدهم يختنق.. ثم دوى صوت شيء يضرب الأرض.. نهضنا مذعورين وقد فقدنا وقارنا ونسينا أن هذا ليس بيتنا، لنركض خارج الغرفة.. هناك كانت زوجة د. مصطفى قد سقطت على الأرض وهي تحمل صحيفة عليها بعض الحلوى لنا. كانت ترتجف وصدرها يعلو ويهبط والزرقة تغزو شفثيها...

جرى مصطفى وتحسس نبضها ثم هتف:

- «قلبها متوقف!.. فليستدع أحدكم الإسعاف!.. بسرعة!».

ثم راح يجري لها الإفاقة القلبية الرئوية.. هنا نظر لها (مكرم) مفكرًا ثم تساءل:

- «هل هي تستعين بجهاز منظم لضربات القلب؟.. هل زرعت واحدًا؟».

كنت أعرف أن قلبها مريض.. لم أعرف أنها زرعت هذا الجهاز إلا عندما سمعت السؤال الذكي، فقال مصطفى وهو يواصل الضغط على عظمة القص في صدرها:

- «نعم.. نعم..».

عندها اندفع (عوني) خارجًا من البيت بسرعة البرق...

قبل أن أفهم ما يحدث، كان د. مصطفى يصيح وشبح ابتسامة على شفثيه:

- «إنها تعود!.. لقد عاد الجهاز يعمل!!!».

وتبادلنا النظرات!.. لم يتلف (عوني) سوى جهاز واحد.. وهذا الجهاز كان هو الأهم.. لقد كانت السيدة تعتمد عليه بالكامل للبقاء حية..

قال د. مصطفى والعرق يغمر جبينه وهو يحتضن زوجته:

- «لا يهم.. أنا أوّمن بالمصادفات لكن لا أوّمن بتأثير بولي هذا...».

لم أعرف الكثير عن (مكرم) بعد هذا.. لم يعد إلى كندا. لقد سافر إلى

اسبانيا ولا أعرف العمل الذي احترفه بعيدًا عن الأجهزة. لا شك أنه عمل لا علاقة له بالهندسة..

على إنني تلقيت منه مؤخرًا خطابًا يحوي قصاصة من صحيفة أسبانية. اجتجت طبعًا إلى معونة صديق يدرس الإسبانية في الألسن. الخبر يحكي عن كافيتيريا في العاصمة تلقى رجال الشرطة مكالمة بصدها.. هناك قنبلة زمنية في تلك الكافيتيريا معدة لتنفجر بعد دقائق. إن منظمة (إيتا) الانفصالية تقوم بأعمال كثيرة من هذا القبيل على كل حال. هرع رجال الشرطة إلى هناك لكن هذه كانت ساعة الذروة، وكان اختراق الطرق صعبًا.. دعك من أن فترة الإنذار كانت قصيرة جدًا لا تسمح بعمل شيء. إنه نوع من الإنذارات المستغزة التي تمارسها (إيتا) كنوع من الضغط على الأعصاب..

وصل رجال الشرطة متأخرين كالعادة، ولكن شيئًا لم يحدث لحسن الحظ.. لم تنفجر القنبلة.. من الواضح إذن أنها لعبة سخيفة من شخص عديم المسؤولية كالذين يتصلون بالإسعاف عندنا في مصر للتسلية. لكن البحث المدقق بوساطة الكلاب البوليسية كشف عن قنبلة زمنية في الحمام فعلاً.. قنبلة دقيقة الصنع متقنة جدًا.. وكانت ستنفجر في الوقت المحدد بالضبط، لكن سببًا مجهولاً جعلها تتلف وتتوقف ساعتها..

لا أحد يعرف السبب لكنهم يرجحون أن حظ الموجودين بالكافيتيريا كان نادرًا.. لو انفجرت القنبلة لما قل عدد القتلى عن خمسين. لماذا تتلف قنبلة صنعت بهذه الدقة والبراعة؟

في النهاية كتب (مكرم) بالعربية سؤالاً يقول:

- «هل خمنت من كان بين زبائن الكافيتيريا في ذلك اليوم؟».

غريب أمر (مكرم).. يفترض أنني عبقرى.. كيف لي أن أخمن شيئًا كهذا؟

أنت تعرف هذه القصة

السيارة التي أتكلم عنها كانت من طراز (أوبل) موديل عام 1997.. الإعلان الذي أتكلم عنه كان في جريدة إقليمية صغيرة من تلك الصحف التي لا يقرأها الناس إلا للإعلانات.. مع الإعلان رقم هاتف أرضي. السعر الذي أتكلم عنه كان ألفي جنيه.. ألفي جنيه لسيارة (أوبل) لم تشخ أكثر من عامين.. وفي ذلك الوقت كان السعر لا يقل عن أربعين ألفًا بحال. الصديق الذي أتكلم عنه هو (صلاح الخطيب).. مهندس لا يعمل بشهادته، وإنما وجد أن أكثر الأعمال ربحًا هو ابتياع السيارات القديمة وإصلاحها.. أو السمسرة بشكل أو بآخر.. اتصلت به وسردت عليه هذا العرض فقال لي في ثقة الخبراء إن الاحتمالات لا تزيد على:

- 1- خطأ مطبعي فادح في الإعلان.
 - 2- السيارة مسروقة أو (ليس لها ورق) بلغته.
 - 3- السيارة ضحية حادث مروع.. انقلبت أو انشطرت (الشاسيه) إلى نصفين ثم تم إصلاحها على عجل بانتظار الأحمق الذي يشتريها.
- ثم صمت للحظات مفكرًا وأشعل لفافة تبغ وقال في خبث:
- «هناك احتمال رابع.. لكنه هراء طبعًا...».
- سألته بفضول:
- «وما هو؟».
- ضيق عينيه في خبرة وحنكة ونفث سحابة دخان كثيفة وقال:
- «أنت تعرف هذه القصة.. هناك من مات ميتة شنيعة فيها وشبهه يطارده من يركب السيارة بعد هذا...».
- «هل تصدق هذه السخافات؟».

عنده قصة (من تلك القصص) على كل حال.. كانت هناك سيارة مرسيدس احترق راكبها وهو يحاول فتح الباب المغلق.. منذ ذلك الحين يشعر من يحاول أن يقود السيارة بحرارة لاهبة تحرق جانب جسده، حتى يضطر إلى الصراخ ومغادرتها.. النتيجة أنها بيعت عدة مرات حتى هبط سعرها إلى خمسة آلاف.. كنت أعرف أنه عملي جدًا، فلن يترك أي شبح يفسد عليه صفقة كهذه؛ لذا سألته عما فعله عندما بلغته السيارة.. فقال:

- «بعثها بسعر ممتاز.. مشكلة البلهاء الآخرين هي الأمانة.. يقولون للمشتري: تفضل.. هذه هي السيارة لكن علي أن أحذرك من أن فيها عفريتًا

يحرق كل مشتر جديد.. أنت تعرف هذه القصص.. تعال الآن ننه الأوراق!.. طبعًا يفر المشتري مذعورًا، ولو جرب قيادتها فلا بد أن يشعر تحت تأثير الإيحاء بأنه موشك على الاحتراق.. النتيجة هي أنني ابتعت السيارة بخمسة آلاف وبعثتها بخمسين.. تركت للمشتري الجديد أن يكتشف كل شيء بنفسه..».

بدا لي كلامه منطقيًا.. دعك من أنني أؤمن فعلاً بأنه لا توجد سيارة مسكونة.. هكذا قلت له في حماسة:

- «هل تأتي معك لنرى هذه السيارة؟.. أنا لا أفهم هذه الأمور..».

- «جميل.. وإن لم ترق لك وراقت لي فلسوف أشتريها..».

هكذا تمت مكالمة هاتفية وتحديد موعد في (المرج) للقاء صاحب تلك السيارة. توجهنا هناك في الموعد، وعلى مقهى شعبي صغير قابلنا صاحب السيارة.. هو شاب مهذب مريح لكنه ملول قليلاً ويبدو أنه يريد الانتهاء من هذا كله بسرعة.. فتح لنا المرآب الصغير تحت بيته لنرى تلك التحفة البراقة التي تنتظرني. وكان أول سؤال وجهته له هو عن سبب بيع السيارة بهذا الثمن المزري... قال وهو يحك رأسه مفكرًا:

- «إنها سيارة أبي، وقد ابتاعها وتوفي قبل أن يقودها.. أنت تعرف هذه القصص.. إنها طبيعة التشاؤم والتفاؤل الكامنة فينا.. فجأة لم أعد أطيعها.. لا أريد أن أضع قدمي فيها..».

- «ما زال بوسعك أن تبيعها بثمن مرض..».

هنا سمعت صديقي يقطع بلسانه.. يريد أن أقول لي ألا أفتح عيني الشاب على حماقته، وهذا شيء بشير غيظي فعلاً.. كأن الفتى لا يعرف أن السيارة رخيصة جدًا، فلو تكلمت أنا لأفاق وطلب مائة ألف جنيه فجأة!... لقد تجاوزنا مرحلة إخفاء الأفكار هذه.. يجب أن يعرف أنني أشك فيه..

كان صديقي قد فتح السيارة وراح يفحص المحرك ثم دار حولها وألقى نظرة على القوائم، وقبل أن أفهم ما يحدث كان قد وضع مساحة الأقدام تحت السيارة وغاص هناك.

نهض أخيرًا وقد غرق في العرق، وانتحى بي جانبًا ليهمس:

- «إنها ممتازة!... فعلاً لا أفهم.. أريد أن نرى الرخصة..».

كأنما سمع الشاب ما نقول، هتف وهو يناولني الرخصة :

- «هذه هي.. هناك كذلك شهادة بيانات صادرة عن إدارة المرور.. كل الورق سليم..».

كانت السيارة التي جئنا بها واقفة، فقال (صلاح) وهو يمد يده طالبًا المفاتيح:

- «هل تسمح لنا؟».

وبلا مناقشة كنا نركب السيارة الأوبل وننطلق في الشوارع.. (صلاح) لا يكف عن الدهشة.. لا يكف عن طقطقة لسانه.. كلما سألته عن المشكلة قال إن

السيارة تحفة.. إنه منزعج لأنه لا توجد مشكلة... لقد اعتاد أن يُخدع حتى صار يعتبر عكس هذا إهانة..

في النهاية أطلق سبة وقال لاهثًا :

- «السيارة ممتازة.. لا شك في هذا..».

- «والخدعة القذرة؟.. أين هي؟».

- «المفاجأة أنه لا توجد خدعة قذرة..».

- «وأنا لن أشتريها.. لقد غيرت رأيي!».

من الغريب أن ثقته هذه جعلتني زاهدًا كل الزهد في السيارة.. الحياة تتحرك بمنطق علمي ونفعي واضح، فلا يمكن أن تبني نظرياتك أو تعاملاتك على أساس أن الكون مليء بالأخيار الذين يبيعون سيارة ممتازة بأقل من عشر ثمنها..

قال لي في غيظ:

- «لهذا لا يجمع أمثالك ثروات أبدًا؛ لأنهم عندما تأتيهم الفرصة يضيعون الوقت في السؤال.. هل تسمح لي إذن بأن أشتريها أنا؟».

وافقت بلا تردد كبير.. تمت الصفقة بسرعة وتم الاتفاق على عمل توكيل يسمح لـ (صلاح) بالبيع، لكننا لاحظنا أن السيارة انتقلت بعدة توكيلات من يد ليد.. لم تبق السيارة مع أي مالك لها أكثر من شهر واحد.. لماذا؟

قال لنا الشاب وهو يعد رزمتي النقود أمامه:

- «هكذا يفعل الكثيرون.. يوفر عليك نفقات التسجيل.. مهندس (صلاح) يفهم هذه الأمور..».

وهكذا عدت لداري محتفظًا بمالي وترددي، على أن الفضول كان يغلبني لذا اتصلت بصديق لي في شرطة المرور.. رتبة عالية فعلاً يمكنها أن تحقق أشياء كثيرة.. سألته إن كان يعرف أية معلومات عن تلك السيارة، فوعد بأن يبحث عن بياناتها ويتحرى عنها..

بعد يومين اتصل بي (صلاح).. هذه المرة لم يكن صوته ينبض بتلك الفرحة المتفجرة المعتادة فيه.. أدركت أن هناك مصيبة ما.. سألته:

- «هل اكتشفت الخدعة؟».

قال بلا استعداد للمزاح:

- «المصائب تنهال علي منذ يومين.. توفي عمي.. أصيب ابني في حادث.. سرقت سيارة أخرى كنت أنوي بيعها.. حرارتي عالية جدًّا.. هذه السيارة غير طبيعية.. أقسم على هذا.. والأدهى أن صوتًا في ذهني يقول لي: بعها.. بعها.. جد لها مشترًا سواك!».

- «ألم تحاول إرجاعها لصاحبها؟».

- «صاحبها لا يرد على الهاتف مهما حاولت ومن عدة أرقام مختلفة..».

وضعت السماعة حائرًا.. أنت تعرف هذه القصص.. السيارة التي تغرق صاحبها بالكوارث، وهذا شيء لا أجد فيه إلا لعبًا عنيفًا على قانون المصادفة.. على كل حال اتصلت بصديقي رجل الأمن، فهلل كثيرًا إذ سمع صوتي.. استغرقت وقتًا حتى أعدته لعالم السيارة وتذكر ما كان ينوي قوله لي:

- «هناك سيارات نحس بطبيعتها.. كل من ابتاع هذه السيارة أصيب بمصائب لا نهاية لها، فلا يجد حلاً سوى أن يبيعها لأول أحرق يقابله بأي سعر.. أعتقد أن سمعتها صارت سيئة جدًا كسمعة فتاة الليل، ولا شك أن أحدًا ما كان يشتريها في (المرج) لذا اضطر صاحبها لنشر إعلان عنها..».

- «وهل تصدق هذه السخافات؟»0

- «أنت تعرف هذه القصص.. لا يمكنك أن تنفيها أو تثبتها بقلب مستريح أبدًا.. نصيحتي الوحيدة هي ألا تتاعها لو كانت معروضة عليك..».

هنا كان الدم يتصاعد إلى رأسي.. هذا كلام فارغ.. أنا أعرف يقينًا أنه كلام فارغ.. سيارة ممتازة كهذه سوف تتحول إلى كومة من الصدأ بسبب خرافات أغبياء..

سوف اشتريها!.. لم لا؟؟.. منطقي يقول إن شيئًا لن يحدث.. سوف أبرهن للجميع على أنهم حمقى.. رفعت سماعة الهاتف وطلبت (صلاح) وقلت له في ثبات إنني أريد شراء السيارة بذات السعر الذي دفعه.. إن لم يكن أنا فمن؟.. وإن لم يكن الآن فمتى؟.. قال لي في رعب:

- «لكنك تعرف ما حدث.. وما سيحدث».

- «لهذا أنا مصر على شرائها كما حدث منذ أيام.. اعتبر أن شيئًا لم يتغير.. هذا لن يعيد عمك للحياة لكنه سوف يريح بالك..».

واتفقنا على أن يجلب لي توكيلًا غدًا.. هذا توكيل آخر يضاف لكومة التوكيلات حتى صار الأمر يشبه دليل الهاتف.. وفي الغد التقينا.. كان شاحبًا زائغ العينين.. ناولني المفاتيح والتوكيل ثم تناول رزمة المال مني وراح يعدها في نهم، وهو يؤكد أنه يثق بي تمامًا فلا داعي للعد..

سألني وهو يدس المال في جيبه:

- «ولكن.. في رأيك ما سبب النحس اللاصق بتلك السيارة؟».

- «أنا لا أعتقد أن نحسًا يلتصق بهذه السيارة..».

وأوصلته بالسيارة لداره حيث تنتظر تحتها ثلاث سيارات تنتظر البيع.. تمنى لي بصوت مبحوح حظًا سعيدًا.. وتنهد الصعداء..

حسن.. أنت تعرف أنني فقدت ابن خالتي في حادث أليم.. وتعرف قصة النوبة القلبية التي أصابني وكادت تؤدي بي.. تعرف أن زوجتي أصيبت بداء السكري.. وتعرف أن هذا كله حدث خلال أسبوع..

أنا لا أؤمن بالنحس.. هذه مصادفات غريبة.. لكنني بالفعل لم أعد أطيق هذه السيارة..

نفسني تحدثني بأن آخذها للصحراء في بقعة نائية وأحرقها.. أو آخذها إلى وكر لصوص سيارات يمزقونها إربًا.. لكنني أشك في أن يؤدي هذا لشيء.. لابد من أن تباع..

لكن يجب أولاً أن أعرف من (صلاح) إن كان حظه قد تغير ببيع السيارة فعلاً.. ربما استمر النحس وبالتالي هي بريئة تمامًا..

اتصلت به عدة مرات فكان الرد دومًا إن هذا الرقم لا وجود له.. ماذا حدث؟

ذهب لبيتته فاكتشفت شيئًا مثيرًا.. لا يوجد هنا شخص اسمه (صلاح الخطيب) ولم يسمع أي من الجيران بهذا الاسم.. هناك أسرة لطيفة تقيم في العنوان المذكور منذ عشرة أعوام.. كلما سألت شخصًا عن (صلاح) صديقنا المشترك قال إنه لا يذكر من هو..

لقد اختفى صلاح من عالمي تمامًا... كأنه لم يوجد.. تم تنظيف آثاره من على سطح الأرض حتى لا أقدر على إعادة السيارة له..

وهنا تذكرت في رعب.. (صلاح) - عندما كان موجودًا - لم يستطع قط الاتصال بذلك الشاب.. طبعًا لو ذهبت إلى المرحل لما وجدت بناية أصلاً في ذلك المكان.. هكذا لا يصير أمامي من حل سوى أن أبيع السيارة لشخص جديد.. هذه السيارة تستمتع بأن تثير رعب الناس وتحرك أسوأ ما فيهم.. هكذا يتحول كل واحد إلى ذئب يريد خداع الآخرين بأية طريقة لينجو هو.. هذه السيارة هي الانتصار الأعظم للشيطان ولمبدأ (نفسني نفسي).. ولو بعت السيارة فلن يسمع عني أحد شيئًا كأنني لم أوجد قط..

ما هذا الكلام؟.. هل جنت؟

على كل حال لتكلم في أشياء عملية أكثر: هذا الإعلان سيثير اهتمامك.. سيارة أوبل موديل 1998 بحالة ممتازة.. بسعر ألف جنيه فقط.. لا تتسائل عن السبب ولا تصغ للسخف الذي يقال هنا وهناك.. أنت تعرف هذه القصة.. اتخذ قرارك بسرعة واجلب المال معك... فالفرصة لا تأتي مرتين.

مراد يبحث عني

عرفت (محمد سليم) الجراح البارع لفترة لا بأس بها، وما جذبني له أصلاً ليس أنه أجرى لي جراحة ناجحة مجانية لاستئصال الزائدة، بل لأنه كذلك كاتب قصصي موهوب.. هناك طابور لا ينتهي من الأطباء الأدباء، وهي ظاهرة عجيبة حقاً، على أن (محمد سليم) كان يكتب طرازاً خاصاً جداً من القصص البوليسية التي لها أساس طبي ما. في الغرب يطلقون على هذا النوع اسم Medical thriller أو (قصص طبية مثيرة).. وهذا الطراز من القصص لا يروق للنقاد طبعا، فهم لا يقرءونه أو يقرءونه ليهاجموه.. لهذا كان يحمل مرارة لا بأس بها ضد النقاد..

لن أحكي أكثر، بل أحيلك إلى هذا الخطاب الذي وصلني من د. (محمد سليم) والذي قررت أن أضعه في الصندوق:

لم أحب شخصاً - أعترف - كما أحببت (مراد الشربيني)..

إنه ذكي يتمتع بالكثير من روح الدعابة.. وهو خفيف الحركة وله عقل لا يهمل لحظة واحدة..

إنه وسيم.. لو أردت أن أقرب لك شكله فلتتخيل (جورج كلوني) مع لمسة بسيطة من (بيرس بروسنان).. هذا على النقيض التام من شكلي الذي هو خليط من (إسماعيل يس) و(على الكسار).. لكنني لم أحقد قط على (مراد) بينما الحسنات يمحواها بمرات كثيرة.. إنني أشعر نحوه بأنه ابني أو أخي.. كان صادقاً.. وكان من الطراز العملي الذي لا يضيع الوقت في التفاهات.. إنه جراح من أبرع جراح مصر.. لكنه لم يمارس الجراحة منذ دهور.. لماذا؟

السبب يشبه قصة (الهارب) الشهيرة التي تحولت إلى مسلسل أثار جنونا إعجاباً في ستينات القرن العشرين.. لقد وجدوا زوجته ميتة... مقتولة إذا أردت الدقة.. هناك من انتزع طحالها بدقة جراحية غير عادية وإن كان لم يخط الجرح ولم يربط شريان الطحال ولا وريده.. هكذا وجدوها..

أين (مراد)؟.. ليس موجوداً.. لقد اختفى..

كنت أنا طبيباً وأعرف بالضبط معنى أن يفتح الجرح بهذه النظافة وأن يتم شق كل طبقات البريتون هذه.. هذا رجل يعرف ما يفعله.. هذا جراح....

هكذا بدأت قصة (مراد) مع الهرب.. والمزيد من الهرب.. لم أكن أصدق ما يقولون عنه في البداية، إلا أنني رحت أتابع في ذهول جرائمه المستمرة.. كلها جرائم طبية.. حقن سموم.. القناة الوريدية التي غرسها في وريد صديقه فراح الدم يغادر جسده المقيد في بطن.. عمليات غرس الإبرة في مؤخرة العنق.. إدخال إبرة هواء بين الضلوع ليتمتلئ الغشاء البلوري بالهواء ويموت المريض مختنقاً.. كل هذا... فلم يعد لدي شك في شخصية قاتل الزوجة..

ولطالما رحت أتساءل عن السبب الذي جعل (مراد) الناجح يتبدل بهذا

الشكل.. ما الميول المرضية الكامنة التي انطلقت من عقالها؟.. لماذا انطلقت؟

أثبت لي البحث في تاريخ حياته أن زوجته لم تكن تحبه بينما أحبها بشدة.. لابد أن هذه كانت البداية.. لابد أن نفسيته كانت مضطربة أصلاً فلم تتحمل هذه الصدمة..

هكذا قرر أن يحارب المجتمع وكانت أداته طبية.. القاتل الطبي.. السفاح الذي يملك أنامل جراح..

يقولون عن (جاك السفاح) الذي روع (لندن) وفتك بعدد كبير من فتيات الليل فيها فلم يقبض عليه رجال الشرطة، يقولون إنه كان يملك دقة تشريحية شديدة.. ولهذا ربح البعض أنه كان طبيباً.. وفي فيلم (من الجحيم) تمارى الكاتب أكثر فجعله الطبيب الخاص لملكة إنجلترا (فكتوريا)..

كان هناك رجل شرطة هو العقيد (شوكت).. إنه رجل شرطة جدير بالقصص، من الطراز الذي لا يكف عن اقتفاء أثر المجرم ولا ييأس أبداً..

هكذا تكررت قصة حلقات (الهارب) تقريباً فيما عدا أن د. (كمبل) كان بريئاً ، أما هنا فأنا أعرف يقيناً أن (مراد) هو القاتل..

إن (مراد) يتنقل من بلدة لأخرى، ومن ورائه العقيد.. (مراد) لا يترك فرصة للفتك بضحية غافلة من دون أن يفوتها.. والعقيد يجمع الأدلة ويحاول استنتاج مكان (مراد) القادم..

من أين ينفق؟... إنه كان ثرياً فلا بد أنه سحب كل ماله من المصرف.. لابد أنه يظهر كل يوم في بلدة جديدة ويكون صداقات وعلاقات حتى يقع اختياره على الضحية التالية..

قال لي أستاذ (عزمي) وهو يشعل غليونه:

- «التغير في شخصية (مراد) غريب وغير مبرر.. لقد حدث فجأة ولم نستشعر الجذور التي يمكن أن تقود لهذا..».

قلت له:

- «لن أدعي الحكمة بأثر رجعي... ربما لو عدنا لطفولته وجدنا صدمة ما.. إن هذا يدعى بـ (شخصية ما قبل المرض).. ثم تأتي الصدمة فيأتي المرض..».

لكنه لم يبد مقتنعاً..

وقال لي أستاذ (رأفت):

- «المشكلة أن صاحبك جذاب.. جذاب أكثر من العقيد بمراحل.. هذه نقطة خطيرة..».

قلت له باسمًا:

- «هذه مشكلة دائمة.. شخصية الشرير تبدو أكثر حيوية وتدغدغ رغباتنا

الخفية، بينما الشخصية الخيرة تبدو مسطحة... ألم تر الأفلام الدينية القديمة؟... تبدو شخصيات (أبو لهب) وسواه أكثر إثارة من شخصيات المؤمنين الذين يختارون لهم ممثلين رديئين على الأرجح.. لهذا لا نصدقهم».

قال في شك:

- «لكن هذا يضع سابقة مقلقة..».

ولم أعترف بالحقيقة..

أنا لم أتوقف لحظة واحدة عن حب (مراد)... كنت معجبًا به بشكل ما، وبدا لي هذا الذي يفعله نوعًا من شقاوة الصبية... صبي يريد أن يمرح بقتل الناس فلتتركوه يمرح..

لكنه اليوم اتصل بي..

أخبرني أن ما بيننا انتهى، وأنه قادم..

قادم من أجلي أنا بالذات!!..

- «مراد.. لماذا تفعل ذلك؟».

- «لأنك متهم مثل سواك.. هذه الحياة لم تخلق لي ولم أخلق لها..».

- «وهل أنا من قتل زوجته؟».

- «وهل أنا من فعل هذا؟».

ثم وضع السماعة دون أن يسمح لي بكلمة أخرى..

لم أصدق ما سمعته على الهاتف...

جريت إلى حيث كانت زوجتي تشاهد التلفزيون، فأخبرتها برعب أن (مراد) اتصل بي.. لم تعلق... قلت لها إنه قادم من أجلي؛ فقالت وهي تقزقز حبات اللب بلا اكتراث:

- «حان الوقت كي ينتهي هذا الخبال..».

وعندما جاء المساء كنت متوترًا..

خرجت إلى شوارع المدينة المظلمة.. من الممكن ان اتصل بالعقيد (شوكت) ليكلف رجاله بحمايتي، لكن جزءًا من ذاتي ظل يرفض هذا.. (مراد) جزء من عالمي ولن اقبل أن أسلمه لأحد.. منظره بالأصفاد لن يفارق أحلامي للأبد..

ماذا أفعل؟... أفر إلى بلدة أخرى؟

ثم تعال هنا.. لماذا يريد أن يأتي لي بالذات؟؟.. لهجة التهديد واضحة.. هو يريد أن يفتك بي.. لكن لماذا؟.. أعتقد أنني أعرف السبب...

انطلقت إلى شقة الأستاذ (عزمي) وقرعت الباب ففتح لي بلا مودة.. وكان يدس الغليون في فمه وينفخ سحابًا كثيفًا خانقًا..

دخلت وجلست هناك.. أخبرته ان (مراد) قادم من اجلي وأني لا أعرف ما

أصنع..

هز رأسه مفكرًا ولم يعلق... نهذ إلى المطبخ ليعد لي شيئًا أشربه.. كلهم لا يعلقون كأن الأمر لا يعنيهم.. مشكلة عويصة فعلاً..

عندما تأخر في المطبخ نهضت إلى هناك فوجدت المشهد المخيف..
(عزمي) ملقى على الأرض أمام باب الثلاجة المفتوح.. هناك إبرة مغروسة في مؤخرة عنقه.. ومن الواضح أنها قطعت الحبل الشوكي..
طريقة القتل المفضلة لدى (مراد)..

لقد جاء (مراد) هنا.. إنه في الشقة الآن فهل يفتك بي؟
كاد قلبي يتوقف..

رحت أركض نازلاً في الدرج وأنا أمنع نفسي من الصراخ..
سوف أتوارى في داري.. سأحول الشقة إلى قلعة حصينة..
لماذا تفعل بي هذا يا (مراد)؟.. لماذا؟.. كنت معجباً بك منذ البداية...
في البيت كان المشهد المفزع ينتظرني...

زوجتي التي كانت جالسة تشاهد التلفزيون عندما خرجت، قد ثبت أحدهم إبرة في وريدها، وكانت هذه الإبرة تنزف بلا انقطاع.. لقد فارقت الحياة ومن الواضح انه خدرها قبل تثبيت الإبرة..

(مراد) كان هنا وهو يمارس ذات أساليب القتل التي اعتاد أن ينفذها.. إنه جاء لينتقم مني فلما لم يجدني قرر الانتقام من أقرب الناس لي..
سأطلب الشرطة..

لن أنتظر حتى أكون أنا الضحية التالية...

عندما يأتي رجال الشرطة سأخبرهم أنني (محمد سليم) الجراح والكاتب المعروف... سأخبرهم أن قصصي كانت تدور كلها حول (مراد) الجراح القاتل الذي يقتل ضحاياه بطريقة طبية، وكيف كان العقيد (شوكت) يطارده... سأخبرهم كيف اتصل بي (مراد) من عالم الخيال ليخبرني أنه يكرهني ويكره الحياة العسيرة التي اخترتها له على صفحات الكتب.. قال لي إنه لا يجد مبرراً واحداً في شخصيته يبرر تحوله إلى سفاح.. اتهمني بأنني كاتب رديء سطحي وأنني جنيت عليه للأبد هو الذي فعل كل ما يستطيع كي يكون محترماً..

سأخبرهم كيف أنه غادر قصصي إلى العالم الخارجي وصار له وجود ملموس...

سأخبرهم كيف انه بدأ بقتل النقاد الذين لم يعجبهم عملي.. مثل (عزمي) و(رأفت) الذي سيجدون جثته منزوعة الطحال في مكان ما... (عزمي) قال إن تحول الشخصية غير مبرر.. كلهم يقول هذا، و(رأفت) قال إنني أعطي قدوة

سيئة للصغار.. كان تهديده خطرًا لأنه قد يؤدي لتوقف كتاباتي أصلاً... هكذا قتلها (مراد) ثم قتل زوجتي لأنه يكره الزوجات جميعًا.. كل هؤلاء قتلهم بالأساليب الطبية التي اخترعتها أنا وعلمتها له...

سأخبرهم أن سلسلة قصصي البوليسية التي أحبها القراء قد انتهت.. انتهت لأن البطل قرر أن يخرج لعالم الواقع ليقتل المؤلف وزوجته والنقاد... لكن رجال الشرطة يصغون ولا يعلقون.

أسألهم عن العقيد (شوكت).. هو وحده من يقدر على تقدير الأمر حقًا.. يقول لي ذلك العميد الذي يدخن بشراهة:

- «ليس لدينا عقيد اسمه (شوكت).. أرجو أن تفيق قليلاً وتعود لعالم الواقع...».

يقولون إنني جننت.. يقولون إنني قاتل زوجتي والناقلين، لأن بصماتي على القناة الوريدية والإبرة.. يقولون إنني خلطت بين شخصيتي وشخصية بطل قصتي.. شخصيتي المعقدة المريضة قد وجدت لنفسها مخرجًا في هذه القصص، لكن مع الوقت صارت الحاجة ملحة للقتل بدلاً من الكتابة عنه.... يقولون وما أكثر ما يقولون....

إن (مراد) حر طليق بينهم... فلينتظروا قليلاً.. وسوف يعرفون من هو المجنون هنا..»

د. (محمد سليم)

بقعة حبر

يمكنك الآن أن تنظري يا (دينا)..

أرجو أن تكوني مستريحة في جلستك هذه، فالاسترخاء مهم جدًا عندنا.. أعرف أنك تترحين كثيرًا لوجود د. محفوظ صديق أبيك هنا.. إنه رجل ظريف فعلاً وصداقتي به قديمة جدًا.. لو عددت كم مرة قرأت اسم د. (مصطفى) الطبيب النفسي في مذكراته، لعرفت أن علاقتنا حميمة فعلاً...

لا تتضايقي من جهاز الكاسيت الذي يدور، فهذا النوع من الجلسات يحتاج لاسترجاع كل كلمة وكل مقطع قيل فيها..

الآن خذي نفسًا عميقًا..

أنت تتحدثين عن هواجس ... هناك تلك الوحوش الغريبة التي تلاحقك كلما أغمضت عينيك تأهبًا للنوم.. فجأة تصير أحلامك كلها مجموعة من الوحوش تريد الظفر بك.. هذا ليس معتادًا مع فتاة في سنك - الرابعة والعشرين - ومثقفة تخرجت في كلية الحقوق، وقد تكرر الأمر كثيرًا جدًا على عدة ليالٍ، لهذا فكر أبواك في أن يأخذا رأيي.. رأي د. محفوظ.. لا أعرف سبب هذا التفضيل وما هو دور د. محفوظ في هذه القصة.. لكنه فكر في الشيء الصحيح وطلب لقائي..

أنت تؤكدين أن حياتك هادئة ولا توجد مشاكل.. ربما هناك تلك القصة الفاشلة مع الفتى الذي كنت تميلين له - وهي أشياء لا يعرفها أبواك - لكن القصة انتهت، ولا يمكن في رأيي أن تسبب لك رؤية كل هذه الوحوش ...

الاختبار الذي سنقوم به يقوم على أن أريك بعض البطاقات، ثم أسألك عن انطباعك عن الصورة التي ترينها في كل منها..

سوف تمسكين بطاقة وتقولين لي ما ترين بالضبط.. لا أريد تفكيرًا طويلًا.. قللي أول ما يخطر ببالك.. ماذا؟.. تريدان أن أقلب البطاقة؟.. جميل.. جميل.. هذا يدل على أنك ذات خيال خلاق ويجعلني أعرف الكثير عن شخصيتك وأعطيك درجات أعلى..

لا تحسبي ترتيب البطاقات عشوائيًا.. إنه ترتيب مقدس صارم، لكننا نحتفظ بالأسرار لأنفسنا حتى لا يعرف المريض سر اللعبة.. أعذريني لأنني أجلس خلفك وأمسك بالساعة.. هذا شيء مفهوم لأنك لا يجب أن تري تعبيرات وجهي فقد تفودك للإجابة الصحيحة..

تقولين إن هذه صورة بقعة حبر؟.. أنت ظريفة فعلاً... هي بقعة حبر فعلاً لكن بم توحى لك؟.. هذا هو السؤال..

تبدو كوطواط؟.. لا بأس.. إجابة معقولة وشائعة..

هذه البطاقات - وعددها عشر في الأغلب - تشكل إحدى الموضات القديمة في التحليل النفسي.. اسمها (اختبار رورشاك).. إنها ترجع للطبيب

النفساني (هيرمان رورشاك) الذي ابتكرها عام 1921. وعلى العموم هي قد تطورت فيما بعد لتصير ما يطلقون عليه (نظام اكسنر). يرى المريض البطاقة التي عليها بقعة حبر معينة ويصف ما يتخيل أنه يراه..

هناك طريقة لوضع درجات ابتكرها (رورشاك) ذاته.. المهم هنا أن يراجع المريض نفسه ويذكر بالضبط ما الذي جعله يرى ما رآه في البطاقة..

بعض العلماء لا يؤمنون بهذه الطريقة ويعتبرونها علمًا زائفًا.. وهناك مشكلة التباين بين مفسر وآخر... أي أن هناك من سيعتبرك مريضة نفسيًا ومن سيعتبرك سليمة كالجرس.. لكن من الواضح طبعًا أنني أثق بهذه الطريقة وأميل لها ...

الآن شاهدي هذه البطاقة.. ماذا ترين؟

ترين راقصة باليه.. جميل.. جميل..

وهذه؟

وجهان متقابلان.. أو مزهرية.. لعل هذه أشهر بطاقة يعرفها الناس.. أنت ترين وجهين متقابلين، ولهذا دلالة مهمة عندنا.. لكن لن أشرح لك أسرارنا بالطبع وإلا لصار الاختبار بلا قيمة..

وهذه؟.. ماذا بك؟.. لماذا نهضت خائفة؟.. لماذا تبدو هذه النظرة في عينيك؟.. لماذا تقفين وظهرك للجدار؟.. أنا لم أر شيئًا غريبًا.. (دينا) يا صغيرتي.. حاولي أن تتماسكي..

تقولين إن هذا الوحش يظهر في كوابيسك؟.. لكني لا أرى وحشًا.. هذه بقعة حبر غريبة الشكل يراها البعض قريبة جدًا من السنجاب.. هلا هدأت من فضلك؟

قل لها شيئًا يا دكتور محفوظ... إنها تثق بك....

(دينا) يا صغيرتي.. هذا هو ما يسمونه Pareidolia.. أي أن عقلك الباطن يجد صورة غريبة، فيخترع تفسيرًا بصريًا لها.. أنت تبحثين عن شماعة لمخاوفك فلا تجدن سوى أن تعتقدي أنك ترين هذا الشيء..

أعتقد أنني غير قادر على استكمال الاختبار بهذه الطريقة. سوف نستكملة فيما بعد..

دينا يا صغيرتي..

لقد حاولت جاهدًا أن أجد تفسيرًا لهذا الفزع. أعرف أن بقع الحبر التي ابتكرها الخواجة (رورشاك) ليست مبهجة المنظر.. بالفعل هي تبدو كالعفاريت كما اعتدنا أن نتخيلها، لكنك إنسانة عاقلة ناضجة..

أنا د. (محفوظ) صديق أبيك المخلص، وقد أقنعت أباك بأن يتركنا معًا وحدنا..

تكلمي.. ما الذي يثير رعبك لهذا الحد؟.. ألاحظ أنك تضميرين يومًا بعد يوم وتزدادين شحوبًا.. لو شئنا الدقة لقلنا إنك أنت نفسك تتحولين إلى شبح.. ما سبب مخاوفك؟.. هل تخشين الغد؟.. كلنا ذلك الرجل.. هل كنت تحبين ذلك الفتى فعلاً؟.. الفتية لا أكثر منهم في السوق ولا أرخص.. لو أنني مددت يدي في الشارع إلى الإفريز لالتقطت خمسة عرسان أفضل منه وأجمل وأكثر ثراء ولطفًا..

تقولين إنك تخشين الظلام ولا تريدين أن أتركك وحدك.. سيكون هذا صعبًا بصراحة.. لدي بيتي وأعمالي..

هذه الأقراص أعطانيها د. مصطفى ... سوف تمنحك نومًا عميقًا.. هيا.. اشربي كوب الماء هذا.. منذ كنت طفلة وأنا أحب هذه الجبهة العريضة البارزة وهذا الأنف المدبب.. يشعرانني بأنك نبيلة راقية.. الآن تصبحين على خير ... ماذا؟.. لا تريدين ترك يدي؟

أنت تتحولين إلى طفلة تدريجيًا.. هذا لا يمكن.. يجب أن تكوني أعقل.. لكن.. (محيي).. ابنتك تريد أن اقضي الليلة هنا بجوارها في الغرفة.. تريد أن أكون جالسًا هنا لحمايتها.. لا أعرف كيف أتملص من هذا..

أعرف أنها بمثابة ابنتي.. ليست هذه هي المشكلة.. لكن لدي بيتًا وأعمالًا يجب أن أقوم بها ... تقول لي إن بوسعي البقاء؟.. بل يبدو أنك تطالبني بهذا فعلاً...

ليكن.. سأجلس على هذا المقعد وأقرأ هذا الكتاب، لكنني بحاجة إلى أن تكون أنت معي، كما أطالب بكثير من الشاي الثقيل لأظل ساهرًا.. لقد نامت المسكينة.. الأقراص بدأت تعمل بلا شك..

ممتعة هذه الجلسة فعلاً.. تذكرني بجلسة البارون (فان هلسنج) في غرفة الفتاة (لوسي) بانتظار قدوم مصاص الدماء من النافذة.. لقد وضع صليبيًا على صدرها وعلق الكثير من حزم الثوم.. لكن الفتاة صحت وهو نائم وانتزعت الصليب وتخلصت من الثوم.. هكذا استطاع دراكيولا أن ...

الواقع أن ... هل نمت أنت أيضًا؟.. يا لك من أب غريب!..

أشعر بعدم راحة.. ليس من الجميل تذكر قصة دراكيولا الآن..

لكن.. ما هذا الظل على الجدار فوقنا؟.. كأنها بقعة ماء تبلل السقف.. لكن لو دقت لخيل لك أنك ترى وطواطًا عملاقًا ... إنه يتحرك!.. أعرف أنني أهذي لكن البقعة تتحرك فعلاً...

ما هذا؟... هناك بقعة عملاقة على الجدار المقابل.. جوار خزانة الثياب.. تبدو لي كقنفذ عملاق.. هناك بقعة تبدو كوحش أسطوري ذي جناحين ...

إن هذه الأشياء تتحرك.. أنا متأكد من ذلك.. إنها ترقص رقصة مجنونة..

لو أردت رأيي لقلت إن هذه البقع تشبه بقع الحبر على بطاقات (رورشاك)

هذه.. استيقظ يا (محيي).. ويلك!... أريد من يؤكد لي أنني لست مخبولاً.. لا بد أن السهر أثر في.. لكن.. هذه الأشكال تتحرر من الجدار.. لم تعد بقعاً.. إنها تلف وتدور.. دوامة مربعة من حولي.. كانت عند أطفالي لعبة تشبه الأرجوحة الأفقية Carousel في الملاهي، وكانت تدور حول رؤوسهم في المهد فترسم ظلالاً عملاقة متحركة على الجدران.. هذا التأثير قريب من ذلك..

إذن ابنتك لم تكن ترى كوابيس.. هذا هو ما يحدث في غرفتها فعلاً!.. كل ليلة تصحو هذه الأشباح وترقص رقصة مجنونة حولها وفي النهاية تفيق المسكينة وتصرخ.. لهذا صدمت وأصابها الرعب عندما رأت بطاقات (رورشاك).. لقد رأت كوابيسها مرسومة على الورق... لكنها الليلة نائمة بعمق كما يبدو بسبب الأقراص المنومة..

(محيي)!.. ماذا دهاك؟.. لماذا لا تفيق؟

(محيي)!.. أنا خائف!... سوف أغادر الغرفة..

هه هه!... لقد التقطت أنفاسي... سأعود للغرفة وأطمئن...

ماذا؟.. (محيي).. استيقظ يا أحق!... أين (دينا)؟.. هي ليست في الفراش.. أين تلك الظلال الراقصة؟.. ابحث بعناية.. فتش في خزانة الثياب وابحث تحت الفراش.. أين (دينا)؟.. لا تنظر لي لأنني لا أعرف.. لقد خرجت لثوان من الغرفة.. مستحيل أن تكون قد فرت بهذه السرعة، دعك من أنني كنت أقف على الباب..

فتش.. سأطلب الشرطة..

يجب أن نجدها.. يجب...

صباح الخير يا دكتور (مصطفى).. أنت تعرف أن (دينا) اختفت في ظروف غامضة بينما كنت أنا وأبوها في غرفة نومها.. لقد عشت هلوسة بصرية فظيعة وأنا ساهر جوارها.. رأيت وحوشاً ومسوخاً ترقص رقصة مجنونة في سماء الغرفة..

هل تعتقد أن الهلوسة معدية؟.. كيف تفسر أن أهذي بذات ما هزت به الفتاة؟

فعلاً أنا عاجز عن الفهم.. لقد كانت تعيش هذا العالم لمدة سنة كاملة، لكنها لم تصح هذه المرة، فهل لهذا علاقة باختفائها؟

هل تعرف ما أفكر فيه؟.. لقد هزلت الفتاة وشحبت ورقّ جلدتها.. كنت كلما رأيتهما خطر لي أنها تحولت إلى شبح.. يبدو لي أن هذا حدث حقيقة لا مجازاً.. الفتاة صارت شبحاً وانضمت لتلك الظلال الراقصة في غرفتها.. لقد تم هذا بسهولة لأنها كانت معدومة الإرادة تحت تأثير أقراصك المنومة..

أنت لا تصدقني.. تعتقد أنني مخرف.. ليكن.. سأكون على حق إلى أن تظهر

الفتاة لتشرح لنا سبب هروبها..

كانت ترى تلك الأشباح الشبيهة جدًا بمجموعة أوراق (رورشاك) هذه.. نفس
بقع الحبر لكنها حية تتحرك وتطير في الهواء وتهجم عليك..
دعني أتفقد هذه البطاقات اللعينة.. هذا الوحش رأيته.. هذا المسخ كان
هناك... وهذا..

ولكن.. لم أر بقعة الحبر الغريبة هذه من قبل.. هل ترى هذه البطاقة؟.. يخيّل
لي كأن هذه الصورة تمثل فتاة ذات جبهة عريضة بارزة ولها أنف مدبب..
متى جاءت هذه البطاقة؟.. لم أرها قط من قبل..
أنت كذلك لا تعرف عنها شيئاً؟.. غريب...

ولكن.. د. (مصطفى).. لقد عددت إحدى عشرة بطاقة... ألم تقل إنها عشر
بطاقات لا أكثر؟... من أين جاءت هذه البطاقة الزائدة؟؟؟؟؟؟.

هولو كوست

لم أكن قط من منكري المحرقة، فأنا أثق أن النازيين قتلوا عددًا لا بأس به من اليهود في الحرب العالمية الثانية، لكنني كذلك لا أعتقد أبدًا أن القتل بلغ هذا الحجم الذي يتحدثون عنه، ومنطقي الرياضي البسيط هو أن عدد اليهود قبل الحرب العالمية كان 11 مليونًا وظل كذلك بعد الحرب، فمتى أعدم ستة ملايين يهودي في غرف الغاز إذن؟.. معظم من تجاسروا على قول الحقيقة قدروا عدد من قتلهم هتلر بنصف مليون يهودي، وهو عدد أقل بكثير جدًا ممن قتلهم من الروس والفجر والبيلاروس.

طبعًا أنا هنا أتكلم براحتي، لكن تذكر أن من يجرؤ على قول أشياء كهذه في الغرب إنسان مقضي عليه.. لا مستقبل له وغالبًا سوف يقضي بقية حياته في السجن، ما لم يتلق علاقة موت من المتعصبين اليهود.. عليك أن تؤمن بحدوث المحرقة، وعليك أن تؤمن بأنها وقعت حرفيًا بالطريقة التي يحكيها اليهود..

عرفت د. (ماكس فرايمان) من أبحاثه أولاً، فهو رجل مرموق في مجال الاستشراق.. ثم جرت بيننا عدة مراسلات، وفي النهاية اتفقنا على أن نلتقي في أحد المؤتمرات في بروكسل.. كان هذا في أواخر السبعينات من القرن الماضي..

لست ساذجًا بالطبع.. إن الاسم يهودي كشمعدان سباعي.. هذا عالم يهودي، لكن من قال إنني أرفض اليهود؟.. أنا أرفض الصهاينة فقط..

وعندما قابلته في أروقة المؤتمر، بدا لي رجلًا ضئيل الحجم سقيمًا في الستين من العمر، يلبس نظارة سوداء لا ينزعها تقريبًا..

لم أر عينيه إلا مرة واحدة عندما دخلت الحمام وكان هو بالداخل يغسل وجهه أمام المرأة.. لا أعرف الغريب في عينيه لكن فيهما شيئًا غريبًا وربما كان منفرًا كذلك، لكنني لم أفهم ما هو.. من الجلي أن الرجل يرى جيدًا وبوضوح، لهذا لم أهتم كثيرًا بالأمر.. أنا نفسي لا تبدو عيناى على ما يرام بسبب إصابة بالتراكوما وأنا طفل...

لكن يجب أن أقول إن الرجل لبس عويناته بسرعة وفي ارتباك كأنما أنا ضبطته في وضع مشين..

دارت بيننا محادثات كثيرة، ولا شك في أنه حجة في مجاله، لكننا بالطبع اصطدمننا - كالعادة - عندما تكلمنا عن إسرائيل ومدى تمثيلها لليهود العالم.. تشير أعصابي الطريقة التي نصبت بها تلك الدولة نفسها وكيلاً وحيداً عن اليهود و(ليست لنا فروع أخرى)..

كان يتكلم في حماسة، ثم نزع نظارته أثناء الكلام واتسعت عيناه..

هنا لاحظت السبب الذي جعل عينيه مختلفتين.. إن كل قزحية كان لها لون

مختلف عن الأخرى، دعك من أن اللون نفسه ليس متجانسًا في القرحة الواحدة.. بمعنى أن لون عينيه خليط من الأسود والأزرق والبني الغامق.. التأثير النهائي لم يكن محببًا على الإطلاق..

رآني أنظر له فقال بلكنته الأوروبية الشرقية الثقيلة:
- «أنت تنظر لعيني.. أليس كذلك؟.. شكلها غريب منفر..».
لم أر نفعًا من الإنكار ففضلت الصمت..
قال باسمًا:

- «هذه هي علامة الصداقة التي تركها البروفسور (منجيل) في عيني.. لي أخ توءم لم يظفر بهذا الحظ الحسن ومات..».
قلت له في رزاة:

- «للأسف أنا لا أعرف د. (منجيل) أصلًا..».

- «هل رأيت؟.. أنت لا تعرف سوى جزء بسيط من الصورة، لهذا لا تقدر على الحكم..».

(يوسف منجيل) - حسب ما قاله لي - هو د. (فرانكنشتاين) الحقيقي.. الطبيب المفضل لدى (أدولف هتلر) وخبير التعذيب النازي الأشهر. هذا الشيطان الوسيم ولد في بافاريا عام 1911 ودرس الفلسفة في ميونيخ والطب في فرانكفورت حيث أبدى ذكاء وبراعة. عام 1937 التحق الطبيب الطموح بالحزب النازي، ثم التحق بقوات الصاعقة SS الرهيبة عام 1938، وتطوع كي يعمل في معسكر (أوشفيتز) الذي كان اليهود يوضعون فيه، وهو مصدر كل حكايات المحرقة التي نسمعها اليوم. كان يتوق إلى أن يضع العلم في خدمة النازية.

لقد ألصقت قصص كثيرة بالرجل، لكن أسرى معسكر (أوشفيتز) كانوا يرونه يوميًا في الطابور وهو يقف والعصا في يده.. العصا التي تحدد مصيرهم.. يشير لهذه المجموعة كي تقف إلى اليمين وتلك كي تقف على اليسار.. معنى اليمين هو العمل في المعسكر، واليسار معناه عدم الصلاحية للعمل والموت الفوري. في هذا الوقت كان عمره 32 عامًا وكان يضع الكاسكيت المميز لقوات الصاعقة بعلامة الجمجمة التي تقول إنه مصرح له بالقتل.
قال (فرايمان):

- «أعرف هذا الطراز من البشر.. ثمة لمسة صيانية سخيفة لا شك فيها في سلوكه، عندما كان يقف هناك.. كنت طفلًا لكنني كنت أشعر بأنه فخور بمظهره الأنيق القاسي.. ما زلت أرى هذا المسلك في كل جنرال فخور بثيابه العسكرية.. اليس العسكريون مجرد صبية كبار؟».

كان (منجيل) متصلب الوجه بلا انفعال، لكن عينيه كانتا تلمعان حماسًا كلما رأى توءمين. كان يأخذ التوائم ويقدم لهم الشيكولاته ويلطفهم، حتى أطلقوا

عليه اسم (العم منجيل)، لكنه في اللحظة المناسبة كان يأخذهم إلى منصدة التشريح ويحقنهم - هكذا يقول اليهود - بالكورفورم في قلبهم ليقتلهم، ثم يبدأ التشريح.

على أن أهم ما كان يثير شغفه هو حقن عيون الأطفال بالأصباغ ليرى إمكانية تغيير لونها.. لا أعرف نفع هذه التجربة ولا أهميتها لكنه كان مولعًا بها.. عامة يقدر اليهود عدد الأطفال الذين ماتوا في أوشفيتز بـ 1.2 مليون طفل.. وكان لديه اهتمام خاص بالأقزام والمشوهين، لكنه كان يعمل من منطلق علمي ثابت هو ضعة وحقارة الأجناس غير الآرية.

يحب اليهود أن يؤكدوا أن النازيين قاموا بعمل تجارب عديدة عليهم باعتبارهم فئران تجارب بشرية، ومن ضمنها تجارب الحقن بالمalaria، والغمر في ماء مثلج لساعات طويلة - وهي تجارب تهم سلاح الطيران النازي - والتعريض لغاز الخردل السام، والتعرض للسلفا والتعقيم بالأشعة والحقن بالتيفوس وشرب كميات هائلة من مياه البحر..

طبعًا هناك قدر كبير من الدعاية اليهودية في هذا الكلام. تذكر قصة الصابون الذي قيل إن النازيين كانوا يذوبون اليهود ليصنعوه ثم تبين أن القصة هراء لا أكثر.. ترى كم من هذه القصص هراء بدوره؟

- «طبعًا هناك تجارب أكثر بشاعة لكن فقدنا الأوراق التي تتكلم عنها، لأن الرجل إذ شعر بقرب اندحار ألمانيا تخلص من معظم أوراقه ومن الشهود.. ثم إنه فر من ألمانيا كلها وما زال هاربًا.. هناك طبيب يهودي مجري يعتبر خبيرًا باثولوجيًا عمل معه كمساعد وعرف معظم ما قام به من تجارب».

ثم تقلص وجهه مقتًا وقال:

- «هذا ال... هذا ال... مصاص الدماء هذا أفسد حياتي وملاها بالعقد.. بسببه كدت أصاب بالعمى وفقدت أخي، ولم أجد الشجاعة قط كي أكون أسرة، لهذا جعلت مهمتي في الحياة هي البحث عنه والانتقام..».

قلت له في كياسة:

- «أعتقد ان الموت كان أسبق له.. ثم أين تتوقع أن تجده؟».

- «كل النازيين هربوا إلى أمريكا الجنوبية.. هذه قاعدة.. لقد قبض الموساد الإسرائيلي على نازي فظيع آخر هو (إيخمان) وهربه إلى إسرائيل حيث حوكم وأعدم.. أنا أعرف يقينًا أن (منجيل) موجود في الأرجنتين.. وسوف أجده..».

قلت له باختصار شديد، إنه لو كان (يوسف منجيل) فعل هذا كله حقًا، فإنني أتمنى لهم حظًا سعيدًا في القبض عليه ومحاكمته بعيدًا عن إسرائيل، لأنني لا أعتبرها المتحدث الرسمي عن يهود العالم.. أما إن كانت هذه دعاية صهيونية مثل موضوع الصابون فأنا.....

قال في غضب:

- «سوف ترى.. ستعرف أنها ليست دعاية..».

انتهى المؤتمر وافترقنا.. ونسيت هذه المحادثة تمامًا..

إلا إنني في ذات يوم - بعد أشهر عدة - تلقيت رسالة من الأرجنتين، وأنا لا أعرف أي واحد هناك.. ففتحتها في فضول.. لن اندهش لو اتضح أن لي عمًا كون ثروة هناك وأنا وريثه الوحيد كما يحدث في الأفلام العربية.. كانت الرسالة تقول بالإنجليزية:

- عزيزي بروفيسور (محفوظ):

«بالطبع أنت لا تعرف أي شيء عني، لكن البروفيسور (فرايمان) أعطانا العنوان وطلب أن نتصل بك.. أنا د. (بابلو ريكاردو) مدير مصلحة نفسية في بوينس آيرس. لقد جاء البروفيسور (فرايمان) إلى البلاد منذ فترة وقضى أيامًا يندمج بالحياة الاجتماعية ويحضر حفلات الجاليات الدبلوماسية، وفي الفترة الأخيرة تعرف بمجموعة من رجال الأعمال الألمان، وقام بزيارة لمزرعة مهاجر ألماني يدعى (فردريش مولر). على أن اللقاء تم في حفل كوكتيل حيث قام طرف ثالث بتقديمه للرجل.. ما حدث بعد هذا كان عجيبيًا لأن البروفيسور (فرايمان) أخرج من جيبه محققًا وانقض على عيني الرجل كأنه يريد أن يفتقهما.. تدخل الموجودون وفصلوا بينهما، لكن د. (فرايمان) راح يعوي بطريقة غريبة جدًا كأنه ذئب، وتكور على الأرض وبدأ يمتص إبهامه. لم يقدم (مولر) أي تفسير، بينما قام رجال الشرطة باصطحاب (فرايمان) إلى المخفر ثم تقرر أن يعالج عندي في المصلحة.. الرجل في حالة سيئة ويعاني فصامًا شديدًا، لكنه قد ذكر اسمك ذات مرة وكتب لنا عنوانك على ورقة، لذا أردت أن أسألك عما إذا كانت لديك أية معلومات عن الموضوع».

طويت الرسالة شاعرًا برجفة..

لقد وجدته إذن!!!

وكل هذه الأعوام لم تزل رعبه وخوفه منه.. لقد استعاد لحظات المعتقل عندما كان صبيًا خائفًا بينما الوحش النازي يفتش الصفوف حاملًا عصاه..

أعتقد أن (فرايمان) استعان بأحد صيادي النازيين المتخصصين، وهؤلاء كلاب صيد تتقاضى المال وتبحث عن من تريد..

لكن ما موقفهم في بيت (فرايمان) ببولندا؟.. ما رأيهم في هذا كله؟

أرسلت خطابًا إلى عنوان (فرايمان) الأصلي أسألهم فيه عما فعلوه أو ينوون عمله بصدد البروفيسور الذي جن أخيرًا.. بعد أيام جاءتني رسالة تقول:

- «أنا أنهى أعماله وسوف اسافر إلى الأرجنتين هذا الأسبوع.. أخي بحاجة إلي هناك!».

أخي؟... هرعنت إلى السنترال وطلبت الاتصال بالرقم الوحيد الذي أملكه للبروفيسور في بولندا. أخيرًا جاء صوت يتكلم بالإنجليزية..

- «أنا (سام فريمان).. أنا الشقيق التوأم للبروفسور!».

- «هل تعني أنك لم تمت في (أوشفيتز)؟».

قال ببرود:

- «يصعب أن يحدث هذا ومع ذلك أرد على مكالماتك..».

- «والتجارب؟.. قزحية أخيك التي تحمل عدة ألوان؟».

- «أه.. هذا عيب خلقي نادر يحدث مع تضخم في القولون.. لقد ولد أخي بهذا الداء.. ما هي المشكلة؟».

- «كان يقول إن (يوسف منجيل) فعل به هذا...».

ضحك في الهاتف طويلاً ثم قال:

- «على فكرة.. يوسف منجيل مات هذا العام!... كان في الأرجنتين باسم مستعار هو (فولفجانج جيرهارد)... مات بجلطة مخية وهو يمارس رياضة السباحة وقد دفن بذات الاسم. صيادو النازيين قد عثروا على قبره.. لاشك في هذا..»

وضعت السماعة ورأسي يدق كبؤرة مجانيين..

يوسف منجيل كان اسمه المستعار (فولفجانج جيرهارد) ولم يكن (هنريش مولر).. (فرايمان) حسب أنه وجد (منجيل) الحقيقي وكاد يفقأ عينه بالمحقن.. (منجيل) لم يجر أية تجارب على عين (فرايمان) ولم يحقنه بشيء إنما هذا اللون الغريب جزء من عيب خلقي معروف..

كان (فرايمان) مجنوناً لكني صدقته.. ترى هل ينطبق هذا على باقي قصص المحرقة، التي صنعها خليط من الخبال والكذب الصريح والرغبة في استدرار عطف العالم؟..

لن أعرف أبداً.. يحتاج الأمر إلى لجنة تدقق وتفحص بعيداً عن التأثير الصهيوني وسيف معاداة السامية..

كان (منجيل) سفاخاً، لكنه بريء تماماً من هذه التهمة على الأقل.

الرأس

حالته سيئة فعلاً.. لا أنكر هذا...

الجفنان المتقرحان، والكف المبللة بالعرق، والكتفان المنحدران.. مع تلك اللمسة التي لا أعرف كيف أصفها، لكنها موجودة دائماً وأشمها على الفور: رائحة من تتسلط عليه فكرة لا يستطيع الخلاص منها.. هذه الرائحة تفوح من المجانين والمنتحرين قبل أن يثبوا من النافذة..

تلك اللغافة اللعينة في يده لا تفارقها، ومن حين لآخر يفتحها ويلقي نظرة على محتوياتها ثم يضحك في إرهاب.. يضحك في حزن.. يضحك في تعاسة.. أنظر له بعناية أكثر.. هذا تكوين نفسي هش لا شك في هذا. ملامح وسيمة لكنها بلا عمق.. هذا فتى يعنى بسوالفه أكثر مما يعنى بعقله، وهو عاجز تماماً عن منطقة أي شيء..

عيناه عميقتان لكنهما لا تقولان أي شيء..

يجلس هناك وينظر لي لكنه لا يراني..

يمد يده في جيبه ويخرج علبة تبغ، ثم يتذكر أين هو فيعيدها لجيبه بسرعة..

- «الحقيقة يا دكتور إنني لا أنام.. فعلاً لا أنام..».

- «هذا واضح يا بني..».

- «آسف أن أقول هذا لكني أدخن بشراهة..».

- «هذا واضح كذلك.. فقط أرجو ألا تضيف المخدرات إلى مشاكلك..».

بدا عليه الجزع، وهز رأسه نافيًا.. أنا أب وأعرف متى يكون ابني صادقًا.. هذا الفتى صادق أو هو من عتاة الممثلين.. لو كان كاذبًا فكل فناني (ستوديو الممثل) هواة..

كنا جالسين في مكتبي في الكلية - قسم الأدب الإنجليزي لو كنت نسيت - وكان قد طلب تأجيل الامتحان.. جميل هذا لكنه ليس عملي.. هناك إجراءات يتخذها في الكلية، لكنه كان يريد رأيي كذلك..

اسمه (محمد الصباغ)... من أسرة متوسطة.. مستواه كذلك متوسط، لكنه وسيم بلا شك ويبدو كممثلي السينما، ولعل مشكلته تبدأ من هنا..

قال لي بصراحة لم أعهد لها:

- «أنا لست طالبًا مجددًا..».

- «هذا اعتراف شجاع يروق لي..».

- «أعمل أكثر مما أدرس في الكلية.. قد يبدو هذا نوعًا من الكفاح الباسل، لكن الحقيقة هي أنني أعمل فقط..».

ثم أخبرني بمهنته التي تعطله عن الدراسة.. المهنة - بلا فخر - هي (خرتي). يبدو أن هذا الفتى مولع بالخرتية بشدة لدرجة التضحية بمستقبله، بنفس المنطق الذي يضحى به من يهوى التمثيل أو الغناء بمستقبله.. الخرتي باختصار غير مخل هو الشاب الذي يجيد لغة أجنبية أو لغتين، ويقف في الأماكن السياحية يعرض خدماته كمرشد ودليل ومترجم على السياح مقابل مال طبعًا، وغالبًا يلقي الكثير من التأفف ما لم تقبض عليه شرطة السياحة..

طبعًا كانت مهنة سهلة بالنسبة لشباب يجيد الإنجليزية، لكن الفتى كان يقصر نشاطه على السائحات.. السائحات المسنات بالذات..

هنا بدأت أفهم، فقلت له في ضيق:

- «هناك اسم آخر لهذه المهنة.. هل سمعت عن لفظة (جيجولو)؟.. أي الشاب الذي يبيع شبابه ووسامته للنساء المسنات».

لم يعترض... فقط واصل الكلام مما أكد لي أن استنتاجي صحيح:

- «كان اسمها (ماريان)... فرنسية هي في الخمسين وأرملة، وأعتقد أنها هامت بي حبًا.. أنا أعرف كأني خرتي آخر كيف اكون ظريفًا جذابًا.. لعبت معها دور ابن النيل الظريف الأسمر فلم تعد تقدر على الاستغناء عني.. وعندما أزمعت الرحيل عن مصر طلبت مني مرارًا أن ألحق بها، لكنني رفضت.. تركت لي هدية وقالت إنها حصلت عليها عندما كانت تقوم بسياحة في أمريكا الجنوبية. قالت لي إنها سوف تجلب لي الحظ السعيد لكن علي أن أحتفظ بها معي دومًا.. وسافرت».

- «والهدية هي؟».

أشار للكيس الذي يحمله والذي يفتحه من حين لآخر ويتحسس ما به، فمددت يدي وفتحته..

إن أمزجة الناس تختلف فعلاً...

قال وشبح ابتسامة على شفته:

- «لا تنكر يا سيدي أنه غريب وظريف، وقد أثار شغف أصدقائي.. نطلق على هذا لفظ (روشنة) وهذا يجعل من يملك شيئًا كهذا قادرًا على لفت الأنظار دعك من صراخ الفتيات».

أعرف هذا الذي أخرجه من الكيس.. الشيء الذي يماثل حجم البرتقالة.. أعرفه بحكم قراءاتي في الأنثروبولوجي ولا أتوقع من الفتى أن يعرفه وهذا يدهشني. لو أنك كنت محاربًا من قبائل (خيفارو) في الماضي - في بيرو والأكوادور - لكان عليك كلما قتلت عدوًا أن تقطع رأسه في حذر ودقة، ثم تجري شقًا في مؤخرة العنق ليتم سلخ الجلد بما عليه من شعر، وتترك الجمجمة بما عليها من عضلات هدية لثعبان الأناكوندا.. الآن صار عندك جوب من الجلد يحمل ملامح الوجه وعليه الشعر، وهو قابل للحشو..

بعد هذا تتم خياطة العينين والشفيتين. الآن صار اسم الرأس (تسانتسا) ويتم حمله إلى أوعية الطهي حيث يعامل معاملة خاصة. عندما تنتهي العملية يكون الرأس في ثلث حجمه الأصلي ومجوفًا كقفاز خال.. يتم حشوه بالحجارة والرمال وتعليقه فوق النار لينكمش أكثر. ثم يتم تزيين الرأس.. وعمل أنشودة تسمح بتعليقه حول العنق.

كان هنود (خيفارو) في أمريكا الجنوبية متخصصين في هذا.. كانوا يعتقدون أن الرأس المصغر يحتوي أرواحًا مهمة لحماية المحارب. منها الواكاني التي لا تتأثر بموتنا لكنها تتحول لبخار، والأروتام التي تحفظنا أحياء، والمويساك التي تنتقم لصاحبها.. يجب تصغير الرأس وتعليقه حول عنقك كي لا تلاحقك المويساك وكي تدافع عنك الأروتام.. دعك من أن تعليق الرأس يضفي عليك جمالاً رجولياً ويدل على أنك مارست الحرب والقتل من قبل..

الآن يقول الفتى إن الفرنسية العجوز العاشقة المخبولة تركت له هذا الرأس هدية.. ما معنى هذا الكلام العجيب؟

- «هل تعرف معنى هذا الشيء؟».

- «تسانتسا.. هي قالت لي كل شيء عنه».

ثم قال وهو يراقب تعبيرات وجهي:

- «في البداية لم تكن هناك مشكلة، ثم بدأت (ماريان) تتصل بي من فرنسا.. تقول: عد لي.. عد لي.. تطالبي بأن أترك كل شيء لألحق بها. تقول إنها تعرف كل شيء عني لأن الرأس يخبرها بأسراري.. الرأس يعرف ما إذا كنت أحب امرأة أخرى أم لا.. لو ملت بقلبي هنا أو هنا لانتقم الرأس مني..».

- «وأنت صدقت هذا طبعًا؟».

- «لم أصدقه تمامًا.. لكنني تشاءمت وقررت التخلص من هذا الرأس.. ألقيته في القمامة وعدت لداري.. كانت المفاجأة هي أنه ينتظرنني على عتبة الباب!... أخذته إلى محرقة قمامة بعيدة وألقيته وسط اللهب، وعندما ارتدبت ثياب النوم في داري فوجئت بانتفاخ في الجيب.. لقد كان هو!.. قررت أن أجرب أكثر.. اتجهت إلى مرآب قريب به كلاب شرسة جدًا وألقيته لها لتمزقه.. كدت أصاب بانهييار عصبي عندما دخلت فراشي فوجدت ذات الرأس فوق الوسادة!... إنه ملعون.. إنه قوي جدًا!..».

- «جميل.. وهل كان يفعل شيئًا غير العودة؟».

حك رأسه المرهقة وقال:

- «أحيانًا كنت أسمع صوتًا يقول لي بالفرنسية: عد لي.. عد لي.. هذا الصوت كان يتردد عندما تظلم أنوار البيت.. ربما كنت أهذي.. لست واثقًا.. لكن دعنيؤكد لك إنني لا أطيق هذا الرأس وأتمنى الخلاص منه.. في الوقت ذاته انتهى مستقبلتي تمامًا.. أنا غير قادر على الاستمرار في الكلية.. غير قادر على دخول الامتحان.. أعتقد أن ما سأفعله هو سرقة مبلغ يسمح لي بالسفر

إلى فرنسا حيث أتزوج تلك الشمطاء وأعيش معها للأبد.. لم لا؟.. على الأقل سوف يخرس الرأس».

رحت أتأمل الرأس في حيرة.. يمكن أن تصدق أي شيء يتعلق برأس مقطوع، لكن قصة هذا الفتى تبدو عسيرة التصديق.. ثم خطرت لي فكرة مجنونة.. ماذا يحويه هذا الشيء الكريه؟

مددت يدي إلى الرأس في اشمئزاز، وتناولت ورقة وضعتها تحته، ثم أمسكت بسكين ففتح الأوراق.. صاح الفتى في رعب:

- «هل تنوي أن؟.. أنا لا أضمن النتائج!».

لكنني كنت قد قطعت الخيط الذي يربط الشفتين، وقلبت الرأس فتناثر المسحوق الأصفر على الورقة.. كان الرأس محشواً به.. غمست إصبعي في المسحوق وتأملتة..

قلت له:

- «سوف أجد أحد الباحثين ليعرف لي كنه هذا المسحوق».

ثم نظرت له بمعنى أن اللقاء انتهى، وطلبت منه أن يمر علي في نهاية الأسبوع.. على كل حال لو كان الرأس مسحوراً فلسوف يفر مني ليلاحق الفتى...

في الموعد جلست في مكتبي، ورفعت رأسي لأجد الفتى أمامي.. كما توقعت كان أفضل حالاً وقد عاد الدم يجري في سحنته. شفتاه لم تعودا زرقاوين..

ابتسمت وطلبت منه أن يجلس فسألني الفتى المذعور:

- «ماذا هنالك؟».

قلت في هدوء:

- «لقد قاموا بتحليل المسحوق في كلية الصيدلة.. لم يكن ما يطارذك رأساً مسحوراً.. بل كانت الهلاوس هي سبب هذا كله. سائحتك الفرنسية الشمطاء ملأت الرأس بخليط من الداتورا - وهي المادة الخام التي يصنع منها الأتروبين وتسبب هلاوس سمعية وبصرية مع اتساع في حدقة العينين وجفاف الريق - مع بعض الكوكايين طبعاً..».

قال في غباء:

- «لا أفهم».

- «كلما أمسكت بهذا الرأس كنت تعرق، وكانت المادة تتسرب إلى مسام جسمك بكميات ضئيلة مع العرق.. لا أعتقد أن الرأس عاد إليك.. أنت أنقذته في كل مرة لأنك صرت مدمناً يا صديقي.. عقلك الباطن فهم هذا وقرر ألا يتخلى عن الرأس أبداً حتى لو رغبت أنت.. ودعنيؤكد لك أنني عشت لحظات قاسية مع الكوابيس في الليلة التي أخذت فيها هذا الرأس.. ربما

بسبب الرهبة وربما بسبب التسمم.. لا ادري..».

ثم نظرت له وابتسمت وأردفت:

- «عد لي.. هكذا قالت لك مرارًا.. الحقيقة أنها أحبتك فعلاً.. ولما كانت تعرف أنها لن تستردك عن طريق الحب.. فلتستردك عن طريق الخوف.. عن طريق الإدمان.. هذا الرأس سوف يعيدك لها.. كما ترى القضية كلها مؤامرة خبيثة من عجوز. فيما مضى كانت الداتورا بما تحويه من مادة (البلاذونا) مفضلة لدى الساحرات وكن يدهنن بها أجسادهن.. يبدو أن عجوزك الفرنسية هذه تحمل بعض طباع الساحرات».

نظر لي في حيرة وضرب جبهته بكفه وقال:

- «يا للعينة!.. للمرة الأولى يخدع السائح الخرتي.. المعتاد أن يحدث العكس..».

ناولته الكيس وقلت:

- «أنصحك ألا تلمس هذا الرأس ثانية.. أنصحك كذلك ان تنسى الروشنة وتدفنه في التراب.. هل تريد نصيحة ثالثة؟..».

- «أعرفها.. اعرفها.. العودة للدراسة ودخول الامتحان..».

ثم أعاد لي الكيس وقال:

- «أكون شاكرًا لو سمحت لي بألا آخذه معي».

- «لن تكون نتيجة الامتحان جيدة على الإطلاق، فلا أتوقع ان تحقق أية نتيجة بعد كل ما ضاع.. لكن لا بد من بداية ما..».

هز رأسه شاكرًا وغادر المكان.. أما انا فرحت أرمق الكيس في شغف.. ربما ليس الاحتفاظ برأس تسانتسا سيئًا لهذا الحد. إنه شيء مثير وطريف، ولسوف ينبهر به الأصدقاء.. دعك من أنه رأس التسانتسا الوحيد في مصر.. بل في العالم العربي كله!

المهم ألا تكون له خواص سحرية أو شيطانية ما، وتكون الأخت (ماريان) ساحرة حقًا، وإلا فأنا أكبر أحمق عرفته في حياتي.. نظرت للرأس وقلت:
سوف نعرف الحقيقة أيها المحارب الشجاع.. سوف نعرف!

قولها يا (عبير)!

العمات اللاتي يتحولن إلى (جانجريل).. هذه هي مشكلة (عبير) التي طلبت لقائي من أجلها، وكان هذا هو اليوم الأخير في العام الدراسي، فلعلها انتهزت آخر فرصة للقاء..

(عبير) طالبة في كلية الآداب، وأعتقد أنها ذكية.. كالعادة أنت تريد أن تعرف هل هي جميلة أم لا.. لن أريحك ولن أذكر أي شيء عن خواصها المورفولوجية. لكنك ستعرف الكثير عن طريقة تفكيرها من قصتها التي أنقلها لك بأمانة.

في الآونة الأخيرة بدأت (عبير) تقلق بالفعل، فالأمر لم يعد يحتمل المزيد من الصمت، خصوصاً بعد الاختبار الذي أجرته والذي لم تتوقع نتيجته قط..

بطبيعتها لم تكن تشعر بميل للعمات. تبدو لها كلمة (خالة) أرق وأقرب للحنان، وبرغم أنها تعرف أنها لن تكون سوى عمّة لأن لها أخوين ذكرين ولا أخوات، فإنها كانت مصممة على أن ترغم أطفال أخويها على مناداتها بـ (خالتو). لفظة (عمتي) قاسية وفيها حرف (عين) مزعج. توحى بالقسوة والصرامة واللامبالاة..

كان زوج عمته قد توفي منذ فترة، والعمّة لم تنجب.. كانت العلاقات سيئة منذ البداية بين الأسرتين، ويبدو أن هناك خلافاً على إرث ما أو شيئاً من هذا القبيل، لكن وقد توفي زوج العمّة الذي كان يعمل في الخارج أكثر الوقت، فإن أبا (عبير) قال لها:

- «عمتك الآن وحيدة.. أرملة وحيدة مسنة وتحتاج إلى الرعاية. عليك وأخويك أن تزوروها من حين لآخر».

إن أباهما شبه مقعد بسبب الشيخوخة والدمار الذي أحدثه الروماتزم في مفاصله، وكذلك أمها..

بالطبع لم يهتم أخاها بالأمر كثيراً، فلهما عملهما واهتماماتهما الخاصة كما أنهما لم يحملًا غراماً مفقوداً للعمّة. إن تراث المقت الذي تربيا عليه نحو عشرين عاماً يصعب أن ينتهي فجأة..

لكن (عبير) كانت أكثر ميلاً إلى طاعة أبيها، وقد زارت عمته في بيتها بحي المنيل. شقة صغيرة أنيقة لكن لم يجر فيها أي تجديد منذ عشرين عاماً على الأقل، فهي عروس عجوز مثل الأنسة (هافيشام) في قصة ديكنز الشهيرة (آمال كيار). لم تكن (عبير) مستعدة لتقع في حب عمته، والعمّة لم تكن مستعدة لترتمي باكية في حضن (عبير). كان على العلاقات أن تتوطد وتتظم بضعة أيام حتى يولد نوع من الألفة بينهما..

(عبير) كانت تمقت اللحظات التي تبدأ فيها العمّة في لعب دور الشهيدة وتحكي عن أبي (عبير) العاق الوغد الذي لا يزور أخته، والذي خسرها بسبب

عقار قديم في شبرا..

لم تكن (عبير) مستعدة لسماع من يشتم أباه ويلصق به كل النقائص، لكنها كذلك لم تكن مستعدة لأن تشتم عمتها وتجري غضبي من البيت.. لهذا كانت تسمع في صبر مرددة من حين لآخر:

- «ربنا يهدي الجميع».

حتى تنتهي نوبة السباب عند عمتها. وقد خطر لـ (عبير) أن أباه طيب القلب فعلاً لأنه لا يطيق ترك أخته، حتى وهو بالتأكيد يعرف رأيها هذا فيه.

كانت كذلك تبتاع لعمتها بعض الأشياء التي تريدها من السوق، وهو جهد شاق خاصة إذا عرفنا أن العمة تقيم في الطابق السادس وليس هناك مصعد في البناية. ورغم هذا لم تكن عمتها تتصل بابنة أخيها على الإطلاق كما كانت لا ترد على الهاتف أبداً.

نعم.. عبير تمقت أن تكون عمة.. يجب أن تكون خالة وخالة فقط...

إلى هنا تظل المشكلة مشكلة علاقات أسرية متوترة وما أكثرها في عالم اليوم، لكن ما بدأت (عبير) تلاحظه جعلها أقرب إلى الذعر، والأسوأ أنها كانت تعرف أن أحداً لن يصدقها، فإن صدقوها فلن يساعدها..

قالت لي (عبير) بصوت مبجوح:

- «هنا بدأت المشكلة..».

- «تعنين أن ما سبق لم يكن مشكلة؟».

بدأت تحكي لي. في البدء كان صوتها خفيفاً محشوراً ثم بدأ يرتفع وأداؤها يعلو:

- «في البداية لم يكن هناك شيء غريب، فيما عدا أن عمتي لها شكل غير مريح.. شكل غير مريح وطبع غير مريح كذلك.. لقد قبلت هذا.. لكن هناك أسئلة أخرى.. مثلاً لماذا لا تخرج للنور أبداً؟.. إنها نحيلة جداً لها حواجب كثة، وأشعر كأن لها نابين طويلين.. (ذات الرداء الأحمر) والجدة التي كانت ذنباً.. هذه هي الصورة التي تلح على ذهني طيلة الوقت..».

- «لو أردت رأيي، فالشكل المرعب ليس جريمة».

- «نعم.. نعم.. لكن ماذا عن كميات اللحم المرعبة التي تطلبها مني؟.. نحن في بيتنا لا نلتهم أكثر من خمسة كيلوجرامات في الشهر لكنها تلتهم خمسة كيلوجرامات كل ثلاثة أيام تقريباً.. أبتاع لها هذه الكميات وهي ترحب بها بشدة، حتى إنها لتوشك على طردي كي تبدأ الأكل..».

- «لو أردت رأيي فالشراهة صفة ذميمة لكنها ليست جريمة.. لو كنا سنعدم كل إنسان قبيح شره، فلسوف تخلو الشوارع من المارة.. ربما ما كنت واجدة

من تعرضين عليه مشكلتك هذه لأنني أنا نفسي قبيح شره».

لم تبتسم.. اتسعت عيناها وقالت هي ترتجف:

- «متى تطهوها وكيف؟.. ليست لديها طاهية، وأنا متأكدة من أنها لا تستعمل أوعية الطهي.. كلها نظيفة في المطبخ وبعضها عليه خيط عنكبوت رقيق».

ثم ابتلعت ريقها ونظرت للباب وقالت:

- «هناك شعر كثيف أسفل عنقها وعلى معصمها.. لا أعني شعرًا.. أعني شيئًا كثيفًا يشبه الفراء.. أنا متأكدة من هذا.. لهذا تلبس ياقات عالية لكنها ترفع رأسها من حين لآخر وعندها أرى بوضوح..».

- «لو أردت رأيي فاضطراب الهرمونات يعطي نتائج غريبة لكنه ليس جريمة.. عمتك امرأة قبيحة شرهة ذات هرمونات مختلة، وهي تهم لا تدينها في أية محكمة».

ثم أضفت:

- «كم من سيدة محترمة كلمتني فأقسمت لنفسي أن شاربها أطول من شاربي.. لاحظي أن هرمونات الأنوثة تصير حلمًا غابرًا مع عجائز النساء».

قالت (عبير) في تصميم:

- «بدأت أقلق.. كل شيء كان يؤكد لي أنها غول.. عمتي غول يلتهم اللحم نيئًا ويعيش في الظلال. هكذا قررت أن أعقد لها اختبارًا صغيرًا.. اختبارًا يثير الاشمئزاز لكنه فعال. ابتعت نصف كيلوجرام من الكبد وقمت بخفقه في الخلط وأضفت له بعض السكر، ثم وضعته في زجاجة وقمت بتبريدها.. عندما زرتها قلت لها إنني قلقة على صحتها لذا أعددت لها بعض عصير الفراولة (الشليك)، وهرعت إلى المطبخ وصببت لها كوبًا مليئًا بالسائل الكريه. وعدت به لها.. هل تعرف ما حدث؟».

- «يمكنني أن أخمن».

- «شربته!.. شربته ولم تلاحظ أي شيء!.. ثم أعلنت أنه شهوي المذاق وإنني بارعة جدًا. هكذا صار الشك يقينًا في نفسي.. ما نوعية المرأة التي تشرب دمًا خالصًا ولا تلاحظ؟».

ثم أردفت:

- «الجديد أنها مصرة على أن أبيت معها ليلة.. تصر بشدة!.. أنا لن أفعل ذلك أبدًا. لو حكيت لأبي فلن يصدقني.. لا يوجد من يصغي لي سواك وأرجو أن تصدق.. معي الدليل».

ثم مدت يدها في حقيبتها ووضعت الدليل أمامي...

- «كما ترى.. هذه بضع شعيرات وجدتها في الحمام.. إنها تزيل شعر جسدها قدر الإمكان كما هو واضح. لهذا وجدت هذه الكتلة من الشعر. هل يبدو لك

هذا شعر جسد زائدًا نتيجة خلل هرمونات؟. يبدو لي كفراء حيوان!«.

تأملت الخصلة ثم قلت وأنا ألفها في منديل ورقي:

- «أنت فتاة طيبة رقيقة، لكنك ساذجة إلى حد لا يصدق.. عمثك ليست غولاً بل هي مريضة جدًّا.. ثمة مرض يعرفه الأطباء يدعى (البورفيريا)، وقد حدثني عنه طبيب صديق مولع بالطب والأدب معًا.. هذا المرض أطلقوا عليه قديمًا اسم (مرض الرجل الذئب). هنا يشحب وجه المريض ويتجنب ضوء الشمس لأنه يحرقه حرقًا.. ينمو شعر الوجه والجسد أكثر من اللازم وتستطيل الأنياب والأظفار. باختصار يشبه الذئب جدًّا في حالات المرض الشديدة. هناك نوبات من المغص والتشنج وربما علامات عصبية محيرة. السبب خلل في تمثيل الحديد وهو مرض كيميائي شديد التعقيد، لذا في حالات متطرفة من المرض قد يجد المريض في نفسه شهوة لتذوق الدم أو أكل اللحم النيئ.. هذا ليس غريبًا لو تذكرت أعراض الاشتهاء الغريبة التي تمر بها الحوامل مثل الحاجة لأكل الثلج أو أكل قطع من جير الحائط، مما يطلقون عليه اسم (العققة Pica).. من هنا نفهم كيف شربت ذلك العصير الكريه وراق لها».

ثم نظرت في عينيها الصافيتين وقلت:

- «عمثك ليست غولاً.. فقط هي مصابة بمرض لا علاج له..».

بدت في عينيها شفقة واضحة.. ومن جديد بدا تساؤل:

- «هل ترى أن أبيت معها إذن؟».

- «لا أرى ما يمنع سوى أن عليك أن تتحملي غرابة أطوارها.. قلت لك إنهم يتصرفون بطريقة غريبة».

- «سوف أتحمل هذا ما دام من أجل شخص مريض.. شكرًا لك..».

وغادرت المكان شاكرة..

لماذا لم أحتفظ برقم هاتفك يا (عبير)؟.. لماذا لم أعطك رقم هاتفني؟..

بهذا انقطع حبل الاتصال بيننا تمامًا، والآن أجد أنني كنت أحمق.. ربما كنت أحمق..

عندما حكيت القصة لدكتور مصطفى المولع بالأساطير، تأمل قطعة الفراء الرهيبة، وقال:

- «جانجريل!.. موجودون في الثقافة الغربية، لكن لا أرى ما يمنع أن يوجدوا هنا!».

- «هلا أوضحت أكثر؟».

قال في استمتاع:

- «الجانجريل نوع خاص من مصاصي الدماء له قدرة على التحول إلى حيوان، وتكون هناك رقعة من الفراء الحيواني في موضع ما من جسده.. لدينا الآن

دليل قوي على وجود جانجريل لأول مرة في مصر... أعتقد أن زوج هذه العجوز هو من جلب معه العدوى من الخارج وأصابها بها.. ربما لو فحصت المرأة جيدًا لوجدت لها أذني وطواط!!».

- «والفتاة؟».

- «هذه تجربة مثيرة.. تصور فتاة رقيقة كهذه تبث ليلة وحدها مع جانجريل!.. هذا جدير بالدراسة!..».

نظرت له في رعب.. فلما رأى نظرتي قال ضاحكًا:

- «وربما لا يكون الأمر كذلك.. إن البورفيريا تفسر لا بأس به.».

ثم هز رأسه وشرب باقي زجاجة الكولا وانصرف...

الآن يا (عبير) لا داعي للمزاح من فضلك.. لا داعي للاختفاء..

لو قرأت هذه الكلمات فإنني أتوسل إليك أن تتصلي بي وتخبريني أن كل شيء على ما يرام، وأن مصطفى قد قرأ أساطير أكثر مما ينبغي... لا يوجد جانجريل في مصر.. أليس كذلك؟.. هيا.. قولها!

المقبض

في الفترة التي اهتم فيها السوفييت بعلم الباراسايكولوجي، وبحثوا كثيرًا عن المحركين عن بعد وعن القادرين على التجسس بقراءة الأفكار، كانوا يعلمون جواسيسهم مفهوم الدهاليز الموجودة في العقل الباطن.. هناك ممرات طويلة وغرف خفية هنا وهناك.. عندما تدخل عقل ضحيتك وتبحث فيه سوف تجد بابًا موصدًا بقوة، وعليك أن تحاول اقتحامه بأية طريقة لأن الحقيقة كلها هناك.. الأكثر إثارة ورعبًا أنك لو عبثت أكثر من اللازم في تلك الغرفة لجن الشخص...

مع الوقت ماتت هذه الأبحاث ونسيت، أو لعلها ما زالت تمارس في مختبر خفي قرب موسكو، لكنني تذكرت هذا الجو بشدة عندما حكيت لي (مروة فهميم) قصتها..

عرفت (مروة) عندما كنت أزور د. (مصطفى) الطبيب النفسي وصديقي الحميم. كنت في عيادته أنتظر بالخارج وأتأمل اللوحات المعلقة التي تظهر فرويد وأدلر ويونج ومجموعة من السادة الذين لا أعرف من هم، لكنهم جميعًا بتياب بداية القرن العشرين..

هنا انفتح الباب وظهر د. مصطفى وطلب مني أن ألحق به بالداخل..

كانت هناك امرأة في الأربعين من عمرها تجلس أمام المكتب، وفي وجهها جمال خافت وقور من الطراز الذي تحب أن تستزيد منه. شعرت بحرج بالغ لأنها مريضة بالتأكد فلا يحق لي أن أكون هنا. التواجد مع مريض في عيادة الطبيب النفسي أكثر إحراجًا وتجاوزًا من تواجدك مع مريض نزع ملابسه في عيادة الطبيب الباطني. لدى الطبيب الباطني ينزع المريض ثيابه، أما هنا فهو ينزع كل أقنعتة الاجتماعية. يتحمل أي إنسان أن يرى نفسه عاريًا أمام المرأة وقد يحب ذلك، لكنه لا يطيق أبدًا أن يرى نفسه على حقيقتها..

لكن د. مصطفى قال لي:

- «المهندسة (مروة).. طلبت منها أن نستأنس برأيك وخبراتك الواسعة فلم ترفض..».

جلست في كثير من الحرج وبدأت أسمع القصة..

(مروة) مهندسة في الأربعين من العمر، وغير متزوجة، وهي حاليًا راضية بذلك سعيدة خالية البال.. هي تؤمن أن الزواج يضع قيودًا لا حصر لها على المتزوجين. لا يتعلق الأمر باللهو والتحرر، لكن يتعلق ببعض الحريات الصغيرة مثل الخروج والعودة متى أرادت، والاستيقاظ من النوم متى شاءت.. يمكنها أن تأكل ما تشاء وقتما تشاء أو لا تأكل أصلًا، ولا يطاردها زوج ضخم البطن يطالبها بأن تطهو له البامية أو تغسل جواربه. الحقيقة أنها بعد الرابعة والثلاثين بدأت تشعر بقلق شديد وتساءلت عن السبب الذي يجعل العرسان لا يرون بابها، ثم عرفت كيف تتأقلم على هذا وأقنعت نفسها أنها سعيدة..

اصطدمت كذلك بأن المجتمع لا يسمح بالحرية للمرأة غير المتزوجة، ويعاملها بقسوة أكثر من المتزوجة، ثم بدأ الشيب يغزو شعرها وملامح وجهها تتجعد.. تحولت إلى (طانط) وأحيانًا إلى (حاجّة).. هكذا بدأت تكتسب الحرية!.. لم يعد أحد يضايقها ولم يعد أحد يشك في أمرها.. لقد عبرت!!

هكذا هي في الأربعين متأقلمة جدًا وراضية جدًا.. فقط تدعو الله أن يطيل عمر أمها العجوز لأن معنى رحيلها هو الوحدة القاسية للأبد.. سوف تتحول لعجوز شبه مجنونة تربي عشر قطط..

تحكي مروة باقي القصة فتقول:

- «كنت نائمة في سلام في تلك الليلة، ثم شعرت بظمًا شديد.. ليس في البيت سوأي وأمي، وهي تنام في غرفة مجاورة.. نهضت من الفراش، هنا خيل لي كأنني أرى معالم باب ترتسم على الجدار.. بالفعل هناك نور غامض يتسرب كأنه إطار باب مرسوم على جدار غرفتي.. باب لم يكن هناك قط.. تحسست الإطار بأظفاري وأنا أعرف أنني أحلم غالبًا، لكن الباب انزاح.. بدأ ينفتح.. وسرعان ما وجدت أنني أقف أمام فتحة في جدار غرفتي تقود لقاعة مضأة بلون أزرق رهيب..».

ثم صاحت في عصبية:

- «أنا لست مريضة نفسيًا ولا أتعاطى أية عقاقير!».

كانت عبارة غريبة، خاصة وهي تقولها في عيادة طبيب نفسي، لكنني فهمت ما تريد قوله: هي لم تعبر قط الحد الفاصل بين العصاب والذهان.. أي أنها ما زالت تعرف الأوهام عندما تقابلها.. لذا سألتها في كياسة:

- «وهل هناك من زعم العكس؟».

- «أعرف أنك تقول إنني مجنونة.. لا أصدق أن هذا حدث، لكنه تكرر أكثر من مرة.. لقد خطوت لتلك القاعة الرهيبة.. هنا انغلق الباب خلفي.. شعرت ببرد وسلام نفسي غريب، وكنت أمشي فوق أرض مبهمة كأنها القطن.. من الغريب أنني رأيت في الخارج غرفتي كأنها من وراء زجاج شفاف.. كنت نائمة في فراشي!.. كنت أرى أمي نائمة في غرفتها.. كنت أرى كل شيء في الشقة، ثم ظهر ذلك الكائن الذي لا أعرف كيف أصفه.. كان يتحرك نحوي.. لم يكن مخيفًا بشكل خاص لكنني لم أستطع أن أنتظر لأواجهه، هكذا فررت خارجة من الباب ذاته فوجدت نفسي في غرفة نومي من جديد».

- «فهمت أن الباب انغلق خلفك فهل فتحت بأظفارك كما دخلت؟».

- «لا.. استعملت مقبضًا مثبتًا من الداخل لأفتحه.....».

- «ولم تكن هذه آخر مرة؟».

- «تكررت مرارًا.. لكن أخشى أنه لم تكن هناك قواعد.. كنت أرى هذا الباب مرة أو مرتين في الشهر.. أحيانًا لا أراه أبدًا.. وكنت أدخل أحيانًا فأدرك أنني لست وحدي.. هكذا أفضل الفرار قبل أن أقابل هذا الشيء المريع.. طبعًا كنت

أعتقد أنني مسوقة للخبال، لهذا صممت في آخر مرة على أن احتفظ بذلك المقبض كدليل على أنني كنت هناك..».

ومن حقيبتها أخرجت ذلك الشيء..

بالفعل كان مقبضًا كرويًا غريب الشكل كأنه يضيء من الداخل بلون أزرق فوسفوري غريب.. لا أعرف حجرًا كريمًا أزرق، لكن هذا أدق وصف له.. كنت أكنم أنفاسي بصعوبة..

لكن - لو أردت رأيي - ليس دليلًا كافيًا.. لو كان هناك باب يفصل بين عالمين، لكان مقبضه غريب الشكل لا يشبه أي شيء رأيته من قبل.

قلت في انبهار:

- «جميل فعلاً..».

- «إذن أنت تصدقني؟».

- «أصدقك لكن لا أصدق هذا الكلام عن العالم الموازي العجيب».

قال د. مصطفى وهو يشعل الغليون لأن هذا يجعله شبيهًا بفرويد:

- «رأيي الخاص هو أن لديك قدرًا من الكبت..».

قالت في غضب:

- «قلت لك إنني لا أبالي بالرجال ولا أريدهم في حياتي..».

ابتلع ريقه وقال وهو ينفث الدخان بكثافة:

- «ليكن. لكنك بهذا تخالفين الطبيعة التي اختارها لك الله، وهذا أدى إلى أن خلقت لنفسك عالمًا موازيًا تدخلينه متى أردت..»

- «كلام فارغ».

هنا تدخلت أنا وقد تذكرت ما عرفته في بريطانيا :

- «لو سمحت لي.. هناك ما يسمى بتجربة الخروج من الجسد.. وهناك ما يدعى (الإسقاط النجمي).. قد يبدو هذا غريبًا لكن هناك أشخاصًا يمكنهم أن يغادروا أجسادهم ليخلقوا في الغرفة، وعندها يرون أجسادهم من الخارج وهم نيام.. يرون الآخرين من فوق.. البعض يربط بينها وتجارب خروج الروح، لكن هذا غير صحيح.. كثيرون مروا بهذه الخبرة دون تعرض للوفاة.. هي مجرد موهبة».

قالت في حيرة:

- «إذن.. هذه الغرفة؟».

- «لا وجود لها.. ما يحدث أنك تنامين وتبدئين التحليق في الغرفة بوعيك لا جسدك.. تتخيلين أنك في عالم آخر ناء وأنك ترين كيانًا يلاحقك.. كل هذا غير صحيح..».

- «وهذا المقبض العجيب؟».

- «أعتقد أنك اشتريته من مكان ما ونسيت الأمر..».

ثم أضفت:

- «ألعاب العقل الباطن لا تنتهي.. لاحظي أن تجربة الخروج من الجسد هي نوع خاص من المشي أثناء النوم.. الماشي أثناء النوم قد يحصل على أشياء لا يعرف مصدرها.. وهكذا تجدين أن قصتك مثيرة لكن لا أساس لها من الصحة.. يمكنك ترك هذا المقبض لنا كي يساعدك على النسيان».

تنهدت للحظات ثم مدت يدها وأسقطت المقبض في كفي. فعلاً له ملمس غريب وخفيف أكثر من اللازم، لكن كيف انتزعته؟.. هل يدخل المرء عالم الحلم وهو يحمل معه مفكاً؟

أغلقت حقيبتها ونهضت، وسألتني من جديد:

- «د. محفوظ.. إذن أنت ترى أن ما حدث لي إسقاط ن.. ن...».

- «إسقاط نجمي... Astral projection..».

هزت رأسها في عدم اقتناع وانصرفت..

لما صرنا وحدنا قال د. (مصطفى):

- «الغريزة الجنسية قوية جداً، وتجاهلها أو كبتها يسبب شتى أنواع الهلاوس والاضطرابات.. لهذا تسمع حشداً من قصص الفتاة التي تزوجت ملك الجان والتي ينشق جدار غرفتها فجراً كل يوم.. الله زرع فينا الغريزة الجنسية كي نتزوج وننجب، وعندما نتجاهل هذه الغريزة فإن علينا أن ندفع الثمن من العصاب والهلاوس..».

قلت له:

- «تنسى حقيقة أنها لم تسع لهذا الوضع.. أحياناً يصاب الرجال بالعمى..».

- «لا أعتقد أن فتاة مليحة كهذه لم تصادف عرساً مناسبين.. فقط هي ظلت في دائرة: من أريده لا يريدني ومن يريدني لا أريده.. حتى فات القطار».

ونسينا الأمر ورحنا نتكلم في أمور أخرى..

بعد أسبوع قمت بجولة على بعض محلات لوازم الديكور، وعرضت المقبض على أكثر من بائع. منهم من هز رأسه في حيرة، ومنهم من قال إنه مستورد من اليابان ولا يوجد له شبيه، ومنهم من طلب مني المزيد منه لأنه رائع الجمال..

الخلاصة: لا يوجد مقبض كهذا في مصر كلها..

زرت د. مصطفى في عيادته لأخبره بالتطورات الأخيرة، فوجدته يجلس ساهماً..

قبل أن أسأله ناولني صفحة الحوادث من جريدة، فنظرت لها لأقرأ الخبر

التالي:

- «البحث يستمر عن المهندسة المختفية. المهندسة التي اختفت من غرفة نومها ليلاً لم تفتح أية أبواب، لأن الشقة والشرفات كانت مغلقة من الداخل. الأمر تؤكد أن ابنتها لم تكن لها عداوات ولكنها كانت في حالة نفسية سيئة في الفترة الأخيرة.» وكانت الصورة واضحة.. لا توجد مهندستان لهما الملامح ذاتها.

رفع مصطفى عينيه نحوي وتساءل:

- «ثم؟».

جلست على المقعد ومددت يدي في جيبتي وأخرجت المقبض. لو تركنا للخيال العنان، فقد ارتكبتُ حماقة غير عادية عندما اجتازت الباب آخر مرة، ودخلت ذلك العالم من باب الفضول، بينما المقبض ليس معها.. لقد كان معي! لو تركنا للخيال العنان لقلنا إنها حبست للأبد في ذلك العالم الغامض.. ترى الناس وتسمعهم لكنها لا تستطيع الخروج لهم..

لو تركنا للخيال العنان لقلنا إنها أليس التي عبرت عالم المرأة لكنها لم تستطع العودة.

لو قلنا إنها خلقت هذا العالم لتفر فيه؛ فهي أول إنسان يضع في خياله. فيلم الرسوم المتحركة القديم الذي يظهر رسامًا يرسم حفرة ثم يشب فيها ليغيب للأبد..

قلت لمصطفى وأنا أتهد:

- «اسمع.. لا بد أن نذهب هناك الآن.. يجب أن نجد ذلك الباب في الجدار.. يجب أن نفتحته.».

- «الباب لا وجود له إلا في عقلها الباطن.».

- «من يدري؟.. لربما وجدنا بابًا مماثلًا في عقلينا.. ولربما وجدنا بابًا حقيقيًا سرّيًا في غرفتها فرت منه.. لا أعرف ما أقول لكنني على يقين من شيء واحد: أنا وكنت كنا مخطئين.. كنا مخطئين على طول الخط!!».

النافذة الخلفية

في العام 1954 قدم ألفريد هتشكوك فيلم (النافذة الخلفية) ذا الحبكة التي يعرفها الجميع: جيمس ستيوارت المصور الصحفي كسر ساقه وأرغم على قضاء وقته يتلصص على الجيران عبر النافذة الخلفية. هنا يكتشف ما يبدو له كجريمة قتل ويحاول فك طلاسمها. التلصص الذي مارسه ومارسناه على الجيران في أول الفيلم سوف ندفع ثمنه غالياً من الرعب والتوتر.

تذكرت هذا الموقف جيداً عندما قررت زوجتي أن تبيض شفتنا، وفي هذه الأمور لا كلمة للرجل من أي نوع. سرعان ما تظهر دلاء الطلاء وعليه والسلم الخشبي إياه، والنقاش ومعاونه خبيث النظرات.. وتفوح رائحة المذييات العضوية ورابع كلوريد الكربون. وسرعان ما تتكوم حياتك في ركن أضيق فأضيق.

قلت لزوجتي إن وجودها مع الأولاد غير مناسب.. يمكنها أن تذهب لتقيم عند أمها طيلة فترة العمل.. طبعاً أنا لن أفعل ذلك لأنه لا بد من البقاء مع هؤلاء الأخوة..

هكذا صارت حياتي عسيرة جداً.. كومت كل لوازمي في غرفة الأولاد، وصرت أمارس ذات الحياة التي كنت سأمارسها في المعتقل لو كنت شيوعياً. عند الظهيرة يصل ابني حاملاً بعض علب الطعام فانتظر حتى يرحل العمال ثم أكل.. أنام وأقرأ وأكل وأدرس في مكان واحد.. ومن الطريف أن هؤلاء القوم لا يتصرفون كأي عمال في أي مكان بالعالم: يبدأون العمل فلا يتركونه حتى ينهوه، إنما هم يبدأون خمسة أعمال في أماكن عدة، وهكذا قد يمر أسبوع كامل دون أن يظهروا، والمهمة التي كان من الممكن أن تنتهي خلال أسبوع تتمدد لتأخذ أشهراً عدة.

كانت التسلية الوحيدة المتاحة لي هي أن أنظر عبر النافذة في غرفة الأولاد، وهي تطل على مشهد لم أعتده وربما لم أراه في حياتي..

الشارع عريض متسع وهناك بناية شامخة مواجهة لي تتناثر خارجها أجهزة التكيف. هناك شرفات بعضها مزود بستائر وبعضها فيه نباتات متسلقة جميلة. كان مجال الرؤية بعيداً فعلاً لهذا كان من الصعب أن ترى السكان بوضوح، وقد أراحني هذا.. على الأقل لا يرى أبنائي ما يحدث لدى الجيران.. إن ابنة الجيران التي تقف في النافذة على بعد متر من نافذتك صارت تاريخاً يمت لأفلام شادية..

صرت أجدب كرسيّاً وأجلس جوار النافذة أراقب الشارع، ومع الوقت صرت تقريباً أحفظ كل ما يحدث.. متى يمر هذا الرجل ذو العكاز، ومتى يمر الرجل الذي توحى مشيته بشلل نصفي قديم، ومتى تتأود تلك الفاتنة، ومتى تمر بائعة الصحف، ومتى يمر بائع الخص بعربته.. أعرف متى يفتح المطعم المواجه لنا أبوابه وتقريباً أعرف زبائنه بالترتيب..

صورة جيمس ستيوارت لم تفارق ذهني، وحمدت الله على أن بوسعي أن أخرج وأتنقل لأن ساقى سليمة.. لا شك أنه كان في عذاب حقيقي..

في المساء أجلس أحيانًا أمام تلك النافذة وأراقب الشارع.. عندما يسود الظلام تكبر النوافذ المحيطة بي وتصير أوسع. قاعدة يعرفها مخرجو مسارح العرائس جيدًا..

كنت ألتهم بعض الشطائر عندما رأيت تلك النافذة في البناية المواجهة.. البناية البعيدة إلى حد ما والتي تقع على نفس الارتفاع.. هذا يجعل الرؤية محدودة كما تفهم.. لو كانت تحت مستوى بصري لكان المشهد أفضل. هناك جهاز تكييف صغير - من نوع النافذة - جوار الإطار، وهناك ما يبدو كأنه غرفة لكنني لا أتبين محتوياتها ما عدا تلك الثريا البرونزية القبيحة.. لم يعد أحد يضع ثريات كهذه منذ كنا نبتاع الثريات من (درب البرابرة)...

فجأة دخل مجال الرؤية رجلان يبدو أنهما من الحرفيين أو العمال، وكانا يحملان شيئًا ثقيلًا.. بصعوبة وضعاه هناك. ثم وقفا يتكلمان..

فعلًا الرؤية أوضح بشكل لا يصدق في الليل. من المستحيل تقريبًا أن تميز شيئًا من هذا في ضوء النهار، لكن الأمر بدا لي كأنها خشبة مسرح.

هذا الذي كانا يحملانه هو مقعد على الأرجح.. مقعد عملاق قبيح فعلاً، له مسند رأس عال غريب الشكل كأنه من فيلم خيال علمي.. ومن الواضح أنهما وضعاه بحيث يستند ظهره إلى جدار النافذة. لابد أن هناك مكتبًا تحت النافذة بحيث يعطي الجالس ظهره لها.

هناك من يجلس وبالطبع يختفي بالكامل خلف المسند.. يدير المقعد ليختبره سعيدًا بنفسه. مبروك يا سيدي.. أحب هؤلاء الذين يفرحون بمقعد مكتب..

هل هي شركة؟.. ربما.. وربما هي شقة من الطراز الذي يصر رب الأسرة على أن يحتفظ فيها بمكتب.

رحت أتأمل النوافذ الأخرى. هنا رأيت ذلك الرجل يتشاجر مع زوجته في خلفية غرفة نوم تقع تحت مستوى بصري نوعًا.. لم أسمع حرقًا أو ربما كان هواء الليل يقذف لي بصوت لا أميزه جيدًا.. كانت مشادة قوية تطورت بسرعة إلى صفة على وجهها ويبدو أنها صرخت في هستيريا لأن الصرخة بلغتني...

طبعًا لا أستطيع مساعدتها لأن البيوت أسرار، وما يحدث بين الرجل وزوجته يجب أن يبقى بين الرجل وزوجته. هي لم تطلب عونًا فلن أعرض العون قائلًا إنني كنت أتلصص!

قررت أن أدخل الشقة.. أعددت لنفسني بعض الشاي مع الشطائر، ورقدت على الأرض على الملاءة التي صارت فراشي وتناولت عشائي...

أخيرًا أغلقت النور ونمت..

في الثالثة بعد منتصف الليل نهضت لأن كل عظمة في جسدي كانت تؤلمني. ذهبت للحمام ثم عدت وأنا أحمل هم الرقاد فوق أداة تعذيب محاكم

التفتيش هذه..

هنا حانت مني لمحة إلى النافذة في البناية المواجهة إياها..

كانت مضاءة.. الكادر كما هو والمسند يخفي معالم من يجلس، وظهره لي على كل حال. لكن لماذا يجلس إنسان إلى مكتبه في الثالثة بعد منتصف الليل ما لم يكن (نيوتن)؟

كنت في الظلام ولا يراني أحد لذا وقفت فترة أكثر من اللازم. إنه يكلم شخصًا ما.. هناك من يقف أمام المكتب لكنني لا أتبين ملامحه. الشخص الذي يتكلم بدور ليواجه النافذة ويخفي الجالس.. لا يراني وإن كان ينظر نحوي مباشرة.. أعتقد أنه امرأة..

فجأة رأيت الجسم المدبب في يده أو يدها.. يخرجها ويتأمله لبعض الوقت كأنه يحزم أمره، بينما ظهره لظهر الجالس على المقعد، ثم يستدير بسرعة ويغمد الجسم المدبب في الجالس. مسرح إيمائي ممتاز جدًا لا يختلف عن مسرح (النو) الياباني في شيء..

كان شعر رأسي قد انتصب متصلبًا. أغمضت عيني وفتحتها.. نحن لا نمزح هنا.. يبدو أن كلامي عن فيلم (النافذة الخلفية) كان أدق من اللازم..

يبدو أن القاتل أو القاتلة وجد جثة ممددة على الأرض الآن.. إنه يقف عند النافذة يستجمع أعصابه.. ينظر إن كان هناك فضوليون في الخارج. ينظر لي.. لكنني أعرف أن الظلام دامس عندي ومن المستحيل أن ترى شيئًا..

ظل يراقب الخارج للحظات، ثم حزم أمره وأغلق النافذة.. طبعًا ليتخلص من الجثة.

هل أبلغ الشرطة؟.. عن ماذا؟.. قد يكون كل ما رأيته رقصة ظلال. جربت التلصص ذات مرة في طفولتي ورأيت قصصًا بوليسية وجاسوسية كاملة ثم عرفت أن السبب هو رقص الظلال مع إرهاب نظري وتوقد خيالي..

هناك قصة للمنفلوطي يرى فيها شابًا سقيمًا من النافذة، ولكن المنفلوطي يرى كل شيء لدرجة أنه يقرأ الخطاب الذي يكتبه الفتى، وعندما يسقط الفتى يدخل المنفلوطي شقته لينقذه لا تعرف بأية معجزة. تلك القصة التي أشبعها العقاد والمازني سخرية وتهكمًا عندما راحا يطلقان مدافع (الديوان) على الأدب التقليدي. لكن من أنا والمنفلوطي؟.. أنا رجل ضعيف البصر يراقب أحداثًا تقع في الجهة الأخرى من الشارع..

في الصباح قصدت تلك البناية فسألت البواب عما إذا كانت هناك شقق خالية في البناية. أكد لي في ثقة أن هناك شقتين في الطابق الخامس.. الخامس هو الطابق الذي أتكلم عنه. سألته عن شقة تطل على الشارع الرئيس فأكد لي أن واحدة من الشقتين تحقق هذه المواصفات.

- «لكنني متأكد من أن هناك سكانًا.. أراهم أحيانًا».

نظر لي لوم وقال:

- «هل تتوقع يا بك أنني لا أحفظ كل ذبابة تدخل هذه البناية أو تخرج منها؟...
طبعًا الشقة خالية..».

شكرته كثيرًا وابتعدت..

ثمة احتمالان: الاحتمال الأول أنني مخرف كبير وهذا الذي رأيته ليلًا تلفيق
ناجم عن الخيال والنعاس ووهن البصر. الاحتمال الثاني أنه لا يعرف.. وقد
اعتدت أن من يتكلمون بثقة لا يعرفون شيئًا على الإطلاق..

على كل حال ليس في يدي ما أفعله سوى أن أواصل المراقبة.. لو أبلغت
الشرطة أمس لكان موقفني غاية في السوء.

لكن النافذة لم تفتح قط منذ ذلك الحين، وأعتقد أن سكان الشقة تركوها.. لو
كان ما رأيته صحيحًا فقد غادرت الشقة حقيبة كبيرة أو مجموعة من الأكياس
البلاستيكية. سوف يجد أحدهم في قمامة قريبة أجزاء من جسد بشري
مجهول ملطخة بالدم.

رحت أطالع الصحف على مدى أسبوع بحثًا عن شيء كهذا فلم أجد..

عدت أمارس حياتي، والخبر الجميل هو أن هؤلاء النصابين الذين ينهبون
مالي ووقتي قد أنهوا مهمتهم وخرجت من سجنني. صارت الشقة جميلة
فعلًا، وبدأت مراحل نقل الأثاث..

قالت لي زوجتي وهي تفكر في عمق:

- «سوف آخذ حجرة مكتبك لتصير غرفة الأولاد.. لا أعتقد أنه يضايقك أن تنقل
المكتب لغرفة الأولاد».

- «إنها قبلية.. سوف يقتلني الحر».

- «لا تنس أن هناك جهاز تكييف..».

هناك في غرفة الأولاد حيث اعتدت أن أقيم وأنام على الأرض أثناء عملية
الدهان، كان ذلك الكهربائي يقف على سلم خشبي مثبت بمعاونة صبيه ثريا
برونزية عملاقة..

قلت لزوجتي وأنا أرمق هذه الثريا:

- «قبيحة جدًّا.. من أين أتيت بها؟».

قالت في كبرياء:

- «بل هي تحفة فنية لكن الرجال حمقى.. كنت قد ابتعتها من (درب البرابرة)
قبل الزواج ولم نعلقها.. ظلت ملفوفة كل هذه الأعوام وأرى أنها ستكون
جميلة في مكتبك الجديد».

تنهدت.. الزوجات يعرفن جيدًا ما سيروق لك وما ستحبه ولا تستطيع
الاعتراض.

دخل حمالان مفتولا العضلات ينقلان أجزاء مكتبي إلى الغرفة، بينما راحت

زوجتي تحمل لفافات السجاد التي ستفرشها. بعد قليل عاد العاملان يحملان مقعدًا عملاقًا غريب الشكل..
- «ما هذا؟».

- «مقعد مكتب جديد بدلاً من ذلك المقعد الحقيق الذي تجلس عليه. يخيل لي أنه مقعد مسروق من غرزة شعبية..».
رحت أراقب المقعد.. لقد وضعوه بحيث صار ظهره للنافذة. المسند غريب الشكل عال جدًا يذكرك بمقعد قائد طبق طائر في فيلم خيال علمي.. نظرت للثريا.. للمقعد.. لجهاز التكييف....

كل هذا مألوف.. مألوف جدًا..
وفتحت النافذة ورحت أنظر إلى البناية المقابلة عبر الشارع. لم تكن نافذة إذن.. نحن نتكلم عن امرأة.. امرأة تريك ما سيحدث في الغد...
هناك شخص سيقتل وهو جالس على هذا المقعد وهذا المكتب.. سيتلقى طعنة في مؤخرة عنقه. لا أعرف من سيفعل هذا لكنه سيحدث.. لقد صار المسرح معدًا.. ولو تلصص أحد علينا من البناية المقابلة لرأى ما رأيته أنا في تلك الليلة..

إن لغزًا رهيبًا يحيط بتلك الشقة ولا شك في ذلك..
هنا سمعت صوت أحد الحمالين يسألني:
- «هل نبدأ تجميع المكتب يا أستاذ؟».
قلت في حزم وأنا أخرج من الغرفة:
- «لا.. لا أريد هذا المقعد القبيح.. سأعيده للبائع أو أحرقه.. لا أريد أن يكون مكتبي في هذه الغرفة.. لا أريد ذلك بأي ثمن..».
نظرت لي زوجتي في دهشة باعتباري قد جننت أخيرًا..
استدرت لها وقلت بلهجة آمرة:

- «وكذلك هذه الثريا.. لا أريدها. سأغادر البيت لمدة ساعة وعندما أعود أتوقع ألا أجد شيئًا من هذا كله..».
لست من الطراز الدكتاتور.. لكن المرء يحتاج لهذا أحيانًا عندما يتعلق الأمر بحياته ذاتها!

المقابلة

خطأ واحد يمكن أن يدمرني..

أنا بحاجة لهذه الوظيفة.. فعلاً أنا بحاجة لها..

كنت جالساً في هذه القاعة الواسعة التي توحى بالوحشة.. لا يوجد أثاث من أي نوع، وإنما هي مساحة خالية بيضاء نظيفة.. فقط هناك مقعدان.. أجلس على واحد منهما مسنداً رأسي إلى الجدار، وعلى بعد ثلاثة أمتار يجلس ذلك الرجل الضخم بادي الخشونة..

اثنا فقط هما المحظوظان اللذان بقيا من هذا السباق المحموم.. لحظة النجاح تقترب جداً لكن لحظة الفشل تقترب كذلك. لا تملك إلا أن تحسد المحظوظين الذين فشلوا منذ البداية.. هؤلاء استراحوا..

أما الذي سيفشل هنا بعد هذا كله فسوف تكون لوعته لا توصف.. قد لمست يده الشاطئي فعلاً ثم جاءت موجة عاتية أعادته لقلب المحيط.. لقد كان بعيداً عن النصر جداً ثم اقترب جداً.. هناك نسبة 50% أن يرحل أحداً تعساً ييكى حظه العاثر..

لقد أمضيت أسبوعاً في هذه الاختبارات وحن الوقت..

ينفتح الباب في نهاية الممر وتظهر تلك السكرتيرة الرشيقة التي توحى لكنيتها بأنها مصرية قضت حياتها مع الأجانب..

- «د. مازن مصطفى؟».

يقول الرجل الضخم إنه هو، فتطلب منه أن يمضي معها..

مشوار طويل جداً نحو نهاية القاعة وصوت كعبيها يصمان الأذن.. ثم يختفيان وأجلس أنا أدخن قلبي في توتر.. رباه!... ماذا لو كان بارعاً جداً؟ سوف تعود لتقول لي إنها شاكرة وتتمنى لي فرصة أخرى..

لابد أنني أمضيت نصف ساعة في هذه القاعة الباردة العارية، ثم سمعت صوت الحذاء من جديد وظهرت السكرتيرة من جديد لتقول:

- «د. محفوظ حجازي؟.. هلا تبعتني من فضلك؟».

هكذا نهضت ومشيت وراءها ومعدتي تتقلص..

في نهاية الممر كانت هناك غرفة صغيرة. في الغرفة مكتب عليه جهاز كمبيوتر ومقعدان.. هناك كذلك فراش يشبه أسرة الكشف (وهذا غريب فعلاً). قالت وهي تخرج وتغلق الباب:

- «مستر (مليجان) آت حالاً..».

جلست على المقعد أفكر في معنى هذا كله.. ألقيت نظرة على شاشة الكمبيوتر فرأيت صورة رقمية كبيرة لي. الصورة التي أخذوها يوم قدمت أوراقتي..

وقبل أن أقرأ المکتوب دخل رجل أمريكي أشيب الشعر متأنق يرفع نظارته على مقدمة رأسه، وكان يدخن بنهم مما جعل المكان خانقًا.. الطريقة الودود المميزة لمن يريد إسقاطك.. أعرفها.. أعرفها..

- «دكتور حجازي.. أرجو ألا أكون قد تأخرت..».

ثم جلس وراء شاشة الكمبيوتر وبدأ يدخل بعض البيانات وقال لي:

- «لقد اجتزت كل الاختبارات، لكننا ما زلنا بحاجة لاستيضاح بعض المعلومات في حياتك.. مثلاً قلت إنك متزوج لكنك غير مقيم مع زوجتك حالياً.. فما السبب؟».

كيف عرفوا هذا؟.. لم أذكر حرفاً عن المشاجرة مع زوجتي بصدد كعك العيد، عندما قلت لها إنني غير قادر على كل هذا التبذير.. فكان ما فعلته من دون كلمة واحدة هو أن جمعت ثيابها، وأخذت العيال معها وذهبت لتقيم عند أمها في المنصورة.. سوف أستعيدها طبعاً بمجرد الانتهاء من هذه الوظيفة..

طبعاً لا يمكن ذكر هذه التفاصيل، لذا قلت وأنا أبتلع ريقِي:

- «الخلافات تروح وتجيء في الحياة الزوجية».

هز رأسه كأنه يفهم.. تباً.. أعرف هذه العلامات.. لم ترق له الإجابة قطعاً.. كانت سيجارته قد انتهت فأطفأها في كوب قهوة ورقي أمامه وأخرج سيجارة أخرى طويلة أشعلها بقداحة ذهبية، فأدركت أنه لا يبالي بصحته لحظة..

قال لي وهو يراجع البيانات على الشاشة:

- «في العام 1981 حدثت مشادة مع زميلك في العمل.. (إيهاب آل كارساوي)».

- «(إيهاب الخرساوي)».

- «نعم.. نعم.. فقدت أعصابك ودفعته دفعاً من أعلى الدرج.. لولا حظه الحسن لسقط وتهشم رأسه..».

كيف عرفوا هذا أيضاً؟.. بالطبع لم أذكر هذه القصة في أية معلومات طلبوها مني. إنهم يعرفون تفاصيل كثيرة وهي علامة مطمئنة.. لربما يعني هذا البحث المدقق أنهم يهتمون بي..

- «كنت أمزح لا أكثر.. دعابة ثقيلة نوعاً..».

هز رأسه في عدم اقتناع وواصل إدخال البيانات.. ثم سألني:

- «كنت في إنجلترا أثناء تحضير رسالة الدكتوراه.. وزرت بعض الجمعيات الروحية.. هل هذا صحيح؟».

- «كان لي صديق مهتم بهذه الأمور وقد أخذني لبعضها.. بعض هذه الجمعيات محترم أو يحاول أن يكون كذلك..».

- «لكنك لم تنضم لأي منها..».

- «بالطبع لا..».

- «ولم تقم بالمشاركة في جلسات استحضار أرواح..».

- «بالطبع لا..».

هذه المرة كنت أكذب طبعًا.. لكنني لم أرد أن أبدو له مؤمنًا بالخرافات.. أشعر بعصبية وبأن الغرفة حارة جدًا... الأمور لا تسير على ما يرام.. قلت له فجأة:

- «ماذا عن الرجل الذي دخل قبلي؟.. هل نجح؟».

نظر لي مليًا وابتسم ومن الواضح أن هذا الفضول لم يرق له.. فضل عدم الكلام.. وعاد ينظر للشاشة ثم قال:

- «هل جربت أية مخدرات أيام الكلية؟».

- «نعم.. ولا..».

- «هل لي أن أفهم؟».

كنت أدخن السجائر العادية لفترة قصيرة ثم توقفت عنها. وفي تلك الليلة أراد بعض رفاقي أن يمزحوا معي فقدم لي أحدهم لفافة تبغ أشعلها. سحبت نفسيًا منها فبدا لي الدخان ذا رائحة كريهة غريبة.. نظرت للفاقة فرأيت أن طرفها المشتعل غريب الشكل كذلك. استغرقت ربع دقيقة لأفهم ثم أتخلص منها وأنا أسب وألعن وهم يضحكون حتى دمعت عيونهم.. لن أدخن شيئًا كهذا أبدًا فإن دخنت فليكن وأنا أعرف ما أفعله..

- «وهل أقلعت عن هذا؟».

- «أقلعت عن ماذا؟.. لم أبدأ أصلًا حتى ألقه..».

نظر لي بعينه الرماديتين العجيتين، ورأيت بوضوح الفكرة في رأسه (أنا كذاب). لكن كيف أثبت العكس؟.. شكه هذا جعلني مريبًا فعلاً..

عاد ينظر للبيانات أمامه ثم قال:

- «عقيدتك الدينية.. مسلم. أليس كذلك؟.. حسن.. أنا لست خبيرًا في شئون الإسلام لكنني أعرف أنكم تتوقفون عن الطعام والشراب شهرًا كاملاً كل عام.. رمضان.. أليس كذلك؟.. هناك من رآك تشرب كوبًا من العصير في نهار رمضان.. هل هذا صحيح؟».

لا بد أنه رمضان منذ عامين.. نوبة من نوبات نقص السكر حيث شعرت بأنني غير متزن والعرق البارد يغمرنني، مع تلك الرجفة في أناملتي.. عرفت على الفور أن مستوى السكر ناقص وطلبت من العامل أن يحضر لي عصيرًا.. لو لم أفعل هذا لدخلت في غيبوبة.. لم أفعلها سوى مرتين أو ثلاث مرات في حياتي..

هؤلاء القوم أجروا عني بحثًا مدققًا لا يمكن لجهة أمنية أن تجريه.. لهذا

استغرق الأمر كل هذا الوقت إذن.

كان ذلك الإعلان الخاص بهم في جريدة واسعة الانتشار؛ يقول إنهم شركة أمريكية تقدم فرص العمل والإقامة في الولايات المتحدة. يشترطون إجادة اللغة الإنجليزية ودرجة دكتوراه في أي تخصص. الراتب يسيل له اللعاب فعلاً، كما أن السن التي يطلبونها تناسبني.. ذهبت أولاً على سبيل التجربة والدعابة، ثم فوجئت بأنني أنجح بلا توقف وأصل للاختبار التالي.. في النهاية بدأت أصاب بالرعب.. وشعرت بأنني يجب أن أحصل على هذه الوظيفة.. لن أتحمل الحياة لو لم أحصل عليها.

أشعل لفافة تبغ أخرى فقدرت أنه سيموت بسرطان الرئة قبل أن ينهي الاختبار، وسألني:

- «في العام 1975 ارتبطت بقصة حب مع فتاة.. اسمها (غيداء المنياوي) وكانت تهيم بك حباً ثم تخلت عنها.. هل لديك تفسير؟».

قلت في برود للمرة الأولى:

- «سيدي.. ألا ترى أنكم تبالغون في التلصص على حياتي الشخصية؟.. أنت أمريكي وقدر علمي أن المسائل الشخصية لا دخل لها في العمل عندكم.. هذا السلوك كان يروق لي فيكم، لكن من الواضح أنني كنت واهماً..».

قال وعينه تتسعان:

- «طبيعة العمل يحتاج إلى أن نعرف خلفياتك العاطفية.. بوسعك طبعاً ألا تجيب عن هذا السؤال..».

- «وهذا ما سأفعله..».

ساد جو من التوتر فلا أسمع صوتاً سوى صوت دقاته على مفاتيح الكمبيوتر.. بعد قليل سألني:

- «سياسياً.. هل تكره الولايات المتحدة؟».

تمهلتي قليلاً لدى هذه النقطة.. يجب أن أكون حذراً.. ربما لو كذبت.. لكن عينيه قالتا لي إن كذبتني لن تخدعه.. قلت له:

- «أحبها كثقافة ناعمة.. السينما والثقافة الأمريكية.. أكرهها عندما نتكلم عن فيتنام وفلسطين والعراق..».

طبعاً لو كانوا يتابعون تاريخي بهذه الدقة فهم يعرفون مظاهرات أيام الكلية وحرق العلم الأمريكي مراراً، ومعنى هذا أنه لا يصدق حرفاً مما أقول..

بدأت أتململ فالجلسة لم تكن موفقة.. لقد فسد كل شيء كما هو واضح.. أو كما يقول الغربيون I blew it (لقد أفسدت كل شيء).. على كل حال كان الأمر أجمل من أن يكون حقيقياً أو أن أفوز به.. هناك محظوظون ينجحون في هذه الأمور، أما أنا فلو كان رزقي يعتمد على المقابلات الشخصية لهلكت جوعاً منذ زمن سحيق..

يبدو أنه انتهى هو الآخر.. ظل ينظر للشاشة بعض الوقت ثم قال:
- «إجاباتك غريبة جدًا.. مراوغة لا يمكن الإمساك بها.. ومن الواضح أنك لا تتورع عن الكذب إذا كان في هذا منفعة لك..»
لم أعلق.. فليقل ما يشاء.. لقد انتهى الأمر..
قال وهو يشعل لفافة تبغ جديدة:
- «علامات استفهام كثيرة وظلال تحيط ببقاء عديدة من حياتك.. هذا واضح.. وهذا هو ما يدفعني للاعتقاد أنك رجلنا!!»
رفعت عيني له في عدم فهم فقال:
- «لقد نجحت!.. أنت رجلنا الذي اخترناه بين 214 متسابقًا!»
نهضت للحظة غير مصدق، فقال باسمًا:
- «إن منظمتنا تعمل في الولايات المتحدة أصلاً، لكننا قررنا أن تكون لنا فروع في أرجاء العالم.. كل شيء يوحي بأنك رجلنا في مصر.. نحن نؤمن أن الشيطان عائد لا محالة ليملاً الأرض جوراً، لكن لابد من إعداد البيئة المناسبة له.. لهذا كنا بحاجة لرجل كذوب مثلك.. رجل تخلص عن حبيبته وزوجته ويدمن المخدرات ويتخلص عن الشعائر الدينية، وله علاقة بالشياطين وتحضير الأرواح.. رجل غضوب يوشك على قتل صديقه في لحظة ثورة، ومستعد كي يعمل في الدولة التي حرق علمها مراراً.. أهنتك!.. لقد حصلت على الوظيفة!»
- «هل تعني أنكم؟...»
- «نعم.. بالطبع.. نحن شيطانيون Satanic!»
لا أعرف ما حدث بعد هذا لأنني كنت أركض في الشارع ركضاً، بينما صوت الرجل يلاحقني من بعيد:
- «دكتور (حجازي)!.. لم نتكلم بصدد الراتب بعد!!».

كوخ في (ليرج)

الكوخ الذي أحكي عنه هنا كان في اسكتلندا..

أنت تعرف أنني قضيت هناك فترة لا بأس بها من حياتي، وبشكل ما أعتبر تلك البلاد الجميلة وطنًا ثانيًا. من الغريب أن كثيرًا من المبعوثين المصريين هناك أحبوا البلاد ووجدوا لطفًا كبيرًا من أهلها، في ذات الوقت الذي كانت علاقة مصر متوترة فيه مع إنجلترا بعد العدوان الثلاثي مباشرة، وهو درس آخر عن أن الشعوب لا تتصرف ولا تشعر بالضبط كما تريد لها الحكومات.. إن إنجلترا بلد استعماري لكن أهلها لم يكونوا بهذا السوء. نفس ما أشعر به اليوم كلما قابلت أمريكيين فوجدتهم أشخاصًا شديدي الظرف والحيوية، بينما حكومتهم تحدث المذابح في العراق وأفغانستان، بعد ما أحدثتها في فيتنام وكوريا..

كان لي صديق حميم اسمه (ويليام مكورميك).. ثثار جدًا ويهوى اللهو والمرح، وعن طريقه عرفت (جرينادين) الحسناء التي كانت تتحدث كثيرًا عن سحر الرجال الشرقيين. لم أكن وسيماً على الإطلاق لكني لم أكن وحشًا مرعبًا... يبدو أن فكرة الزواج توهجت في رأسها لفترة ثم عدلت عنها.

كنا في (ليرج). (ليرج) تقع في منطقة تروق للسياح كثيرًا في أسكتلندا، حتى أنهم يطلقون عليها اسم (اسكتلندا التي لم يرها أحد)، وهو تعبير متناقض فكيف يكون المكان مزارًا سياحيًا ولم يره أحد؟.

هناك على ضفاف نهر (شين) أو (لوخ شين) - كل نهر في اسكتلندا اسمه (لوخ) - كنا نمشي ساعات طويلة، وزرنا الكثير من القلاع مثل قلعة (ماكبث).. غطريف كودور.. كذلك بيت دوق سودرلاند (دونروبين) رائع الجمال، حيث يمكنك أن ترى النسر الذهبي لو كنت سعيد الحظ...

ثم بدأ الجليد يتساقط....

جميل أن يتساقط الجليد كما ترى، لكن المشكلة هي أنني كنت أمشي وحيدًا في ذلك اليوم. لقد غادرت كوخنا الذي أقيم فيه مع الأصدقاء في العاشرة صباحًا وقررت أن أمشي وحدي بعض الوقت قرب النهر.

كانت الشمس ساطعة والسماء صافية. بعد ساعة بدأت السماء تتلون باللون الرمادي فقلت لنفسني إنه لا مشكلة هنالك. لكن البرد يشتد..

ثم بدأ الجليد يسقط.. ليست عاصفة ثلجية لكني فعلاً لم أعد قادرًا على المشي دعك من أنني سأجمد بردًا.. ربما اعتبر البريطانيون هذا الجو منعشًا لكنني قادم من بلاد حارة قائظة لا تمزح في هذه الأمور. عندما تهبط الحرارة درجتين يلبس قومي التلغيعات والكلسونات الصوفية ويبطنون ثيابهم بالجرائد. نحن شعب لا يطيق البرد..

كنت في ورطة.. فلم أعد بالفعل قادرًا على تذكر طريق العودة خاصة وقد صارت الرؤية ضبابية.. كل شيء تملؤه بقع بيضاء تسقط من أعلى...

ثيابي خفيفة نوعًا ولا تسمح بأن يطول البحث، وحتى لو قرر (ويليام) البحث عني فلن يعرف إلى أي اتجاه مشيت..

هنا رأيت تلك الأكواخ.. أكواخ تحيط بها أشجار الشربين.. عددها خمسة أو ستة. يبدو لي أن هذا هو الحل الموفق الوحيد. الأجل أن يكون هناك ناس، لكنني قدرت أنني لن أجد أحدًا على الأرجح.. الجو كله يوحى بموضع مهجور.. سوف أنتظر الفرج.. عودة الشمس..

بصعوبة بلغت أول الأكواخ ودققت الباب فلم يفتح.. كان الباب يتأرجح مع العاصفة محدثًا صريرًا محببًا.. لا توجد دبة في اسكتلندا على قدر علمي، فلن أجد دبة ينتظرنني بالداخل مغضبًا..

من الغريب أن هناك آثار أقدام كثيرة خارج الكوخ على طبقة الجليد التي بدأت تتكون.. هذا المكان مطروق لكن من الواضح أنه لا يوجد أحد الآن.. وارتب الباب أكثر ودخلت..

كان الكوخ خاليًا كما توقعت، لكنني لم أحب ما رأيت كثيرًا.. كانت الأرض مليئة بزجاج مهشم.. دققت النظر أكثر فوجدت أنها زجاجة ويسكي مهشمة إلى ألف قطعة. لا مشكلة هنالك.. من حق مالك الكوخ أن يهشم زجاجة..

الزجاج الذي يغطي هذه النافذة مهشم يتسرب منه هواء بارد وندف ثلج. هناك لوح خشب على الأرض سوف أحاول تثبيته إلى هذه النافذة.. ثم تصلبت..

هناك الكثير جدًّا من بقع الدم.. دم أحمر لم يسود بعد يلطخ الأرض.. يلطخ النافذة من الداخل ...

مذبحة معينة قد دارت هنا منذ وقت ليس بالطويل. ونظرت لأرضية الكوخ الخشبية فرأيت ما يشبه الحدود الخارجية لإنسان رسم بالطلاء على الأرض.. جسد إنسان مفروود تناثرت أطرافه في جهات أربع. هذا مشهد مألوف.. كانت هنا جثة وكان هنا رجال شرطة، وهم يلتقطون الصور ثم يرسمون حدود الجسد بالطلاء ليعرفوا موضع سقوطه بالضبط قبل أن ينقلوه..

لقد حملني حظي الحسن إلى مسرح جريمة قتل تمت منذ فترة وجيزة ... شعرت بانقباض شديد.. لست جبانًا ولا يمكنك أن تلومني، لكن المكان المقفر الصامت والظلام الذي غمر الكون مع أننا وقت الظهر. كل هذا جعلني غير راغب في البقاء هنا لحظة واحدة.

غادرت الكوخ مسرعًا لأخرج إلى حيث العاصفة وقصدت كوخًا آخر.. لكن.. إنه مغلق بإحكام بقفل ثقيل وجنزير. اتجهت لكوخ آخر وجربت..

لا شك في أن كل هذه الأكواخ مغلقة بإحكام، فلا مفر لي سوى أن ألبأ لهذا الكوخ الكريه.

عدت له وأغلقت الباب، ثم بحثت عن لوح خشب رقيق تثبته إلى النافذة، ثم وجدت حبلاً فرحت أحاول أن أثبت به هذا اللوح..

لقد ساد الظلام الكوخ بعد ما انغلقت هذه النافذة. أريد ناراً.. لابد من نار. كانت هناك مدفأة بها بعض جذوع الخشب وسائل إشعال موقد فسكبتة على الخشب، ومن حسن الحظ أنه كانت في جيبي علبة ثقاب.. هكذا زرعت الزهرة الحمراء المبهجة ورحت أصطلي بدفئها... صحيح أن الظلال من حولي لم تبعث الكثير من المرح لكنني على الأقل أمنت شر البرد.. وعرفت أن الدفء سوف يتحول إلى نعاس سريعاً. لا بأس.. هذا ليس بيت الدببة وأنا لست طفلاً.. لا خطر علي من النوم هنا، وعندما أصحو سيكون الجو أفضل بالتأكيد.. أغمضت عيني..

بدأت أحلم.. وكانت كل أحلامي في مصر.. أقابل أصدقاء الطفولة وأمشي على ضفة النيل..

فتحت عيني للحظة فخيّل لي كأن هناك عددًا من الرجال يقفون في الكوخ معي.. يقفون هنا وهناك ويتكلمون بلكنة اسكتلندية مغرقة لم أفهمها جيداً..

فتحت عيني من جديد في رعب. وكما توقعت تلاشى كل شيء.. هلاوس.. ربما من الإرهاق.. ربما هي أحلام تسربت من خلف جدار النوم الذي تكلم عنه الخواجة لأفكرافت.. ربما البرد قد أثر على خلايا مخي، لكن.. كف عن الميوعة.. نحن لسنا في الأسكا.. من جديد ثقل جفناي...

عدت أحلم.. فتحت عيني للحظة فبدأ لي أن هناك شيئاً غريباً.. سمعت صوت سبة أسكتلندية بذيئة فنهضت.. وجدت ذلك الرجل الفظ المشعر كأنه من رجال الكهف.. أحمر العينين كأنه مسعور.. يلبس ثياباً رثة توحى بأنه حطاب أو فلاح.. أنف ملتهب يشي بأنه سكير أصيل..

كان ينظر لي في كراهية.. وفي يده رأيت بلطة.. نعم بلطة.. نهضت مذعوراً فمددت يدي أتقي شره.. لا ليس يدي فلسوف تطير بسهولة تامة.. هذه البلطة تبدو حادة.. قلت له وأنا أرتجف: - «لا تسئ الفهم يا سيدي.. لقد فاجأتني العاصفة وكان علي أن أجد ملجأ أو أموت.. سوف أغادر الكوخ حالاً!..».

يبدو أنه لا يفهم الإنجليزية، لأنه هوى بالبلطة علي فتفاديتها بمقدار سنتيمتر واحد..

- «أنت مجنون!... قلت لك إنني!...!».

هنا هوى بالبلطة من جديد فاصطدمت بالنافذة وهشمت زجاجها..
هنا وقعت يدي على سلاح.. زجاجة ويسكي ممتلئة سليمة لم أرها من قبل
فوق رف المدفأة.. أمسكتها من عنقها وهويت بها على الجدار فتحطمت.. صار
في يدي سلاح قاطع خطر لكنه لا يقارن بالبلطة، خاصة أن سلاحه يبقيه
بعيدًا عني....

هنا تسارعت ضربات قلبي وعمل الإرهاق دوره.. لا.. من فضلك.. لا تفقد
الوعي.. لو فقدته لن تصحو في عالمنا هذا.. أرجوك ألا..
لكن قلبي لم يصغ وسقطت في ظلام عميق..
فتحت عيني من جديد.. لا يبدو أنني في العالم الآخر.. أنا في الكوخ.. منك
تمامًا لكنني بالتأكيد حي وأطرافي سليمة.. لم يبتتر شيئًا..
الكوخ يبدو مختلفًا..

على رف المدفأة هناك زجاجة ويسكي مليئة.. أنا موقن أنها لم تكن
هناك.. أنا هشمتها.. نظرت للأرض فلم أر بقع الدم التي كانت هناك، وبالتأكيد
لم يكن تخطيط رجال الشرطة موجودًا..
ما معنى هذا؟.. هلوسة أخرى؟

لحظة من فضلك.. الرجل هشم الزجاج بالبلطة.. فهل معنى هذا أن الزجاج
كان سليمًا؟.. عندما دخلت الكوخ كان مهشمًا فمن أين جاء بزجاج يهشمه؟..
أين الزجاج المهشم الذي كان يملأ الأرضية؟
من هذا الرجل الذي هاجمني وماذا كان يريد؟
كنت قد بلغت النهاية، فأسرعت بالفرار من هذا الكوخ..
لن أنتظر لحظة أخرى وسط هذا الجحيم.

وفي الخارج كانت العاصفة قد هدأت وبدأت الشمس تغمر المكان خجولاً كما
يجب.. إنه العصر..

رحت أركض حتى وجدت بعض معالم الطريق التي أعرفها. من بعيد هذه
الظلال لا يمكن أن تكون سوى (دونروبين).

لم يصدق أحد قصتي.. وقد اصطحبت (ويليام) إلى هذا الكوخ بعد ذلك، فلم
نجد ما يريب. لم تكن هناك بقع دم ولا تخطيطات على الأرض ولا قطع زجاج
مكسور..

قال لي:

- «الهلاوس تحدث مع البرد أكثر مما تتصور.. هذه حقيقة».

ابتلعت ريقى ولزمت الصمت في خجل. هنا رأينا ذلك الخطاب الشاب يمر من

بعيد، فلما رأنا صاح :

- «ابتعدا أيها الشابان عن كوخ (جوناثان) المخبول.. قد يقتلكما بالفأس لو رآكما هنا..».

هرعت في لهفة أسأله عن هذا الذي يقوله فقال:

- «كل هؤلاء الخطابين رحلوا لكن (جوناثان) ظل يعيش هنا، وهو يتصرف كالحيوانات الضارية. لا علاقة لنا به سوى أنه يبتاع منا الطعام والخمر.. يقولون إن الكوخ ليس على ما يرام كذلك».

لما رحل قلت لـ (ويليام):

- «هل تعرف ما أفكر فيه؟.. هذا الكوخ يتصرف بطريقة غير عادية هو الآخر.. لقد جن الرجل بسبب الكوخ، أو جن الكوخ بسبب الرجل.. الزمن داخل الكوخ يتحرك بالعكس..!».

- «لا أفهم».

- «كنت سأنتظر في الكوخ فيدخل جوناثان ويحاول قتلي.. يحطم زجاج النافذة.. أضربه بزجاجة الويسكي لكنه يتمكن من قتلي.. بعد هذا يصل رجال سكوتلانديارد ليفحصوا الكوخ الذي تغطى بالدماء.. يرسمون تخطيطاً حول الموضوع الذي لقيت حتفي فيه.. ما حدث هو أنني رأيت هذه القصة بالمقلوب!.. أول ما رأيته هو الدم والتخطيط.. ثم رأيت رجال سكوتلانديارد يفحصون مسرح الجريمة.. ثم هاجمني جوناثان فضربته بالزجاجة.. ثم خرجت من الكوخ!».

قال لي:

- «قلت لك إن البرد أتلف خلايا مخك يا صديقي».

لكني لم أصغ.. كنت أرتجف.. ليس من البرد ولكن من تخيل الصورة.. صورة جسدي الممزق الدامي يرقد بالضبط وسط الخطوط التي رسمها رجال الشرطة على الأرض.. أنا رأيت المكان الذي سترقد فيه جثتي...

أما لماذا نجوت، فلأن كل شيء حدث بالعكس.. هكذا كان محتوماً أن أخرج من الكوخ سليماً في النهاية، لأن هذه هي البداية الأصلية!... هل فهمت شيئاً؟.. صدقني أنا مثلك!

بسبوسة وأشياء أخرى

لم يجدوا منها سوى كفين..

هذه هي الحقيقة المؤلمة التي لا يجب أن نخبر الأنسات هنا بها، فالمرء يحب ألا يموت.. فإذا قبل الموت فليكن هذا بجسد كامل الأعضاء. عرفت هذه القصة من الدكتور مصطفى.. الأغرب أنهم طلبوه هو بالذات كي يأخذوا رأيهم لأنهم شعروا بأن في القصة دورًا ما للطب النفسي. لم يكن لديه الكثير مما يقال. كفان صغيرتان مكتنزتان كأنهما كفا دمية وجدهما جامع القمامة في ذلك الحي وأصابه الهلع فأبلغ الشرطة..

دقت أجراس كثيرة، وعلى الفور تذكر رجال الشرطة (نهلة) طالبة التي اختفت منذ أيام، ولم يجدوا لها أثرًا..

(نهلة) كانت فتاة رقيقة مهذبة، دقيقة جدًا كأنها دمية يابانية، وكانت طالبة في واحدة من تلك الكليات التي تضطر الفتاة للعودة لدارها في الظلام. كان عليها أن تقطع مسافة لا بأس بها في منطقة مقفرة مجاورة لشريط السكة الحديدية.. لا لم يتر القطار يديها لأنه لا يفعل ذلك بهذه النظافة.. هذا البتر عمل واحد خبير. فقط هناك آثار عنف شديد على الكفين كأنما كانا يقرعان شيئًا بلا توقف، كما أن الأظفار قد انتزعت من مكانها، وهناك حروق واضحة في اللحم.

لم يطلب مختطفها مالاً ولم يهدد بشيء ولم يعد بإرسال إصبع قدمها في البريد كما يفعلون في الأفلام الأمريكية. فقط اختطفها لغرض بسيط هو قطع كفيها..

هل ما زالت حية؟.. ربما.. لكن رجال الشرطة رجحوا أن لا.. كان على قاتلها أن يتخلص منها بعد هذه الفترة الطويلة إما حية أو ميتة..

وكان رأي د. مصطفى ببساطة هو أن من اختطفها وغد سادي وسايكوباتي.. هذا رأي لا ينير الطريق كثيرًا فأنا أعرف مليون واحد يحمل هذه الأوصاف بمن فيهم أنا نفسي..

هنا اتصل بي د. مصطفى. عرفت من صوته الكسير المبحوح أنه راغب في الاستنارة بعقلي الراجح وحكمتي، وهكذا قابلته في مكنتي.. بدا لي كبنية آيلة للسقوط فعلاً..

حكى لي القصة وهو يرتجف، ودخن مئة سيجارة وشرب ألف قدح قهوة.. هذه علامات سيئة لأنني لم أره يدخن إلا مرة واحدة في حياته..

في النهاية سألته السؤال المنطقي الوحيد:

- «هل أنت من اختطف هذه الفتاة؟.. مظهرك يوحي بأن تأنيب الضمير يقتلك».

ابتسم في إرهاق وقال:

- «ليت هذا صحيح.. كنت سأسلم نفسي للشرطة وأنال الخلاص.. لكنني أخشى أن أكون قد ارتكبت خطأ جسيماً».

(صلاح أبو عياد).. هل تعرفه؟.. إنه مريض نفسي وسادي وسايكوبات.. تثبتت عنيف على الطفولة التي عومل فيها كمعتقلي النازية، وهو يكره كل الناس وكل الموجودات.. يعيش وحده بعد الطلاق لأنه سكب الملوخية الساخنة في قفا زوجته. لو كان هناك رجل في مصر كلها يمكن أن يقطع كفي فتاة رقيقة فهو (صلاح أبو عياد)..

كان صلاح نزيل المصحة النفسية وقد أشرف د. مصطفى على علاجه، وبعد عامين قرر أنه صالح للاختلاط بالمجتمع... لقد شفي.. وهكذا اجتمعت لجنة متسربة يحرك أمورها د. مصطفى، واقتنعت بسرعة بأن هذا المجنون يمكن أن يخرج ويجوب الشوارع..

قال د. مصطفى:

- «ظلمت أعتقد أنني على حق حتي حدثت هذه الجريمة.. الفتاة اختفت في مكان قريب جداً من مسكن صلاح.. أنا أعرف نفسيته كما أعرف كفي.. هذه الجريمة تحمل نفسيته وبصماته. هو لم يقترب مثلها من قبل لكنه قادر على عمل ذلك.. أخشى أنني ارتكبت خطأ مروعاً..».

ثم أشعل لفافة تبغ أخرى حتى صرت أوشك على أن أرى سرطان الرئة يتكون تحت ضلوعه، وقال:

- «منذ يومين اختفت فتاة أخرى اسمها (نجلاء).. طالبة ثانوي رقيقة صغيرة الحجم كانت ذاهبة لدرس خصوصي.. قرأت هذا في الصحف.. لا معلومات عنها.. يمكنني تخمين مكانها بلا جهد..».

- «ولم تبلغ الشرطة؟».

- «ماذا أقول لهم؟.. لا أعتقد أن الفتاة في داره.. وماذا لو لم يصدقوا؟..».

رحت أفكر بعض الوقت ثم قلت له:

- «أولاً أنت بحاجة لطبيب نفسي بارع!!.. أنا أمزح!!.. ثانياً لم لا نذهب لزيارة هذا الصلاح في داره؟.. أنت طبيب ممتاز تحب أن تطمئن على مرضاك».

نظر لي بعينين بزغ فيهما الأمل...

كان البيت مكوناً من طابق واحد يجاور فتحة ضخمة في الجدار الذي يفصله عن السكة الحديدية.. الكلاب ترعى بحرية تامة وهناك طيور تلتقط القمامة.. أكوام قمامة في كل مكان. أقرب بيت على بعد خمسين متراً.. علي كل حال عندما يمر قطار يمكن لأي واحد أن يحمل لداره فيلاً دون أن يلاحظ أحد. البيت نفسه مشروع بيت مكون من القرميد الأحمر، وهناك فناء علقت به بعض الثياب المتسخة المغسولة فرضاً. دققنا الباب مراراً فعوى كلب ثم سمعنا من

يسبب أمنا من الداخل، وبعد قليل ظهر لي وجهه.. هذا وجه مريض نفسي لا شك في هذا.. وجه سفاح مجنون.. لو كنت الحاكم لأعدمت هذا الرجل بلا مناقشة..

عرف د. مصطفى فرحب به بحرارة ودعانا إلى الداخل.. كان البيت حقيرًا كما توقعت. لكن لا توجد غرف داخلية أو أقبية.. أعد لنا بعض الشاي ثم ملأ بيده طبقًا من شيء مقزز ووضعه أمامنا وحلف أن نأكله.. ما هذا؟.. بسبوسة.. هذا المجنون صاحب مزاج إذن..

مثل د. مصطفى دوره جيدًا، فراح يسأله عن حاله بعد الظفر بالحرية، فأطلق سبة بذينة وقال إن الناس أولاد حرام يصرون على أنه مجنون.. لكنه يجد رزقه من حين لآخر والفضل لأولاد الحلال مثل د. مصطفى.. سأله د. مصطفى عن الأغاني فضحك ضحكة عابرة.

كنت قد التهمت قطعة بسبوسة فتذكرت ما قاله بيرم التونسي عن بسبوسة ممائلة (في صينية.. نحاس قديمة مصدبة.. واللي يطول منها وقية.. ييات مغطي يا مستمعين). فقلت لد. مصطفى أن الوقت قد حان للرحيل.. هكذا مد يده في جيبه ووضع ورقة مالية أمام الرجل..

لما غادرنا المكان سألني د. مصطفى عن رأيي فقلت وأنا أعتصر معدتي:
- «أي.. يبدو مريبًا جدًا.. لكن لا توجد آثار على أن هناك فتاة شابة مختطفة هنا.. أوع.. لم أفهم موضوع الأغاني هذا..».

- «إنه يعاني وسواسًا قهريًا يربطه بأغاني الطفولة.. هذا ناجم عن حرمانه من طفولته على ما أظن..».
هنا تصلبت وقد تذكرت شيئًا..

جدتي تضعني على حجرها وتمسك بكفي الصغيرة المكتنزة وتهزها:
- «سوسة سوسة.. سوسة كف عروسة.. سوسة واللي يصقف.. يستاهل مني بوسة».

قلت له وأنا أشعر بقشعريرة:
- «كفا الفتاة.. قلت إنهما يبدوان ككفي دمية.. كف عروسة.. مكتنزان صغيرتان..».
- «لا أفهم..».

- «يجب أن ندخل بيت هذا الرجل في غيابه.. قل لي.. أنت صديق رئيس المباحث هنا.. سوف ترتب لنا أن يستدعوه في قسم الشرطة لغرض ما..».
- «هل نقتحم بيتًا ليس لنا؟».

- «أعتقد أن الجميع سيشكروننا فيما بعد.. والآن رتب لنا هذا بسرعة».
عندما جاء المساء كنا هناك وسط الكلاب النابحة.. المنطقة مقفرة تمامًا

ومظلمة كذلك. الرجل الآن في قسم الشرطة وسوف يمضي الليل هناك دون أن يعرف السبب. كان الباب الخشبي مغلقًا بالمفتاح لكنني ركلته ركلة سريعة فانفتح.. مع كل هذا الفقر هو لا يخشى اللصوص..

الرائحة بالداخل عطنة تمامًا.. أضأت الكشاف أمسح الموجودات الحقيمة، وقلت بصوت مبوح:

- «هل فهمت؟.. هذا المخبول يتحرك بالضبط طبقًا لأغنية (سوسة كف عروسة).. قدم لنا البسبوسة.. (سوسة خبط خبط.. طبط يا بو كف مببط.. نفسي تكبرلي وأشوفك.. ماسك بيها الشموسة).. هذا يفسر كل علامات الارتطام والحروق في الكفين.. لقد أرغمها علي أن تمسك النار!.. طبقًا أمضت الفتاة وقتها تدق طالبة العون.. هذا يوحي بأنها في مكان مغلق له باب أو غطاء».

قال وهو يلهث في رعب:

- «وماذا عن انتزاع الأظفار؟».

قلت على الفور:

- «اسلملي كف محندق.. وضوافينه فسفوسة».

كنت أتكلم وأنا أفتش في الأرض.. هناك بالفعل وسط هذا الغبار كله نمط محدد.. هذه البقعة.. تبدو لي مختلفة عن الأرض.. هناك ماسورة صغيرة تبرز منها. هناك كذلك قطعة من السلك الغليظ ملتفة كأنها مقبض..

انحنيت وتفحصت هذا المشهد، ثم مررت يدي على الماسورة.. الفكرة التي خطرت ببالي هي منظار الغواصة. ربما هي الشفاط الذي يتنفس به الغواصون..

قال د. مصطفى وقد بدأ يعزف نفس اللحن:

- «نونو قوي انما محسوسة.. أليس كذلك؟».

بلى.. رفعت عيني له وقد بدا لي هذا منطقيًا فعلاً..

دققت على الأرض مرة ومرتين.. هنا لشدة ذهولي سمعت دقات مماثلة من أسفل.. ددق ددق بكفوفك.. بكفوفك ددش خوفك.. بكفوفك ددق ددق ددق.. عصفورة قلبي ترقزق..

مددت يدي وعلى ضوء الكشاف تمكنت من رفع المقبض..

ارتفع لوح ثقيل من الخشب.. وعلى ضوء الكشاف أمكنني أن أرى تلك الحجرة الصغيرة تحت الأرض.. في حجم كشك السجائر لو وضع بالعرض، واستطعت أن أرى تلك الفتاة الرقيقة صغيرة السن مقيدة اليدين مكمنة.. كانت يداها مقيدتين من الأمام مما جعلها قادرة على دق الباب الخشبي لكنها يئست كما هو واضح.. كانت تنظر للكشاف في ذعر باكية ترتجف، لا يصلها بالعالم الخارجي سوى ذلك الأنبوب الذي يمدّها بالأكسجين ...

كان من المستحيل أن نجدها بالفعل.. لا يمكنك أن تجدها ما لم تبحث عنها بعناية.. نونو قوي إنما محسوسة....

نزعت عنها الكمامة فشبهت باكية.. كان فمها ملوثاً بمادة لزجة عرفت على الفور أنها البسبوسة.. كان يدسها في فمها دساً لتبقى حية. وكانت هناك مجموعة ممتازة من المدي وشاطور جوار الفتاة.. إن الحفل لم يبدأ بعد ... راحت تبكي وتسمح البسبوسة والدموع والمخاط في كتف سترتي، ثم قالت وهي تشهق:

- «من أنت؟».

- «صديق.. ما اسمك يا بنيتي؟».

- «نجلاء.. نجلاء أبو عياد..».

لم يبد لي الاسم ذا دلالة ما، إلى أن قالت في رعب:

- «لو عاد أبي سيمزقكما!».

هنا فقط تذكرت الاسم ونظرت إلى د. مصطفى كأنني أستغيث فقال كمن فهم:

- «بابا هنا في أودتك ضعيفك.. ابقى هاتله بسبوسة.. المجنون التزم بالأغنية حرفياً حتى أنه اختطف ابنته من مطلقة... هذه هي طريقته في الانتقام... لو كنت أعرف اسمها الكامل لخممت أسرع..».

- «والفتاة الأولى؟».

- «لعلها كانت تدريباً على هذه الخطوة، أو لعل النشوة لم تكن كاملة.. لا أعرف.. المهم أن نفك وثاقها ونفر من هنا..».

هنا صرخت الفتاة:

- «الفتاة الأخرى.. اسمها (نهلة).. قال لي إنها مدفونة هنا.. جواري..».

لما خرجنا من البيت المظلم وأدركنا محرك السيارة، شعرنا بالأمان للمرة الأولى.. الفتاة كانت راقدة في المقعد الخلفي لا تكف عن ترديد:

- «سوسة.. سوسة.. كف عروسة».

قلت لدكتور مصطفى :

- «سوف نتجه لقسم الشرطة حالاً.. ولكن أحب أولاً أن أبدي رأيي في براعتك الطبية. الرجل مجنون كقملة وأنت قررت أنه جدير بالخروج للمجتمع والحياة وسط أسرتي وأسرتك».

لم يرد ومد يده ليفتح جهاز المذياع.. هنا – لحظنا السيئ - دوى صوت عفاف راضي الرخيم يغني:

- «صقلي وعلى تصقيفك.. تمشي الدنيا على كيفك.. سوسة كف

عروسة!«.

أرق

الرعب؟... تريد أن أكلمك عن الرعب؟.. هل تدرك حقًا أن هناك أنواعًا منه لا يستطيع القلم ولا اللسان التعبير عنها؟.. هل تدرك أن رعب المقابر والساحرات الشريرات واللعنات التي دفنت في جوف الموتى، ليس هو الرعب الأكثر تأثيرًا؟

إن أسوأ الرعب هو التغيرات التي تحدث لأجسادنا أو لعقولنا. التحلل البطيء الذي يذكرك بتعفن الموت. لهذا يحمل مرض الجذام تلك الذكرى السيئة في وجدان البشرية، ولهذا يهاب الناس الصرع برغم أنه مجرد زيادة في كهرباء المخ. هناك رعب لا يمكن وصفه، وفي رأيي أنه يفوق أي رعب آخر: إنه العجز عن النوم..

يبدو الأمر سهلًا في البداية.. لكنك تكتشف مع الوقت أنك دخلت دائرة جهنمية. النوم لا يُستدعى ولكن يأتي عندما يريد ذلك. عندما تشرب كوبًا من الحليب الساخن وتدخل الفراش الذي يبدو مريحًا، وعندما تغمض عينيك وتسمع زوجتك تغط بصوت عالٍ - ككل كائن نقي الضمير - وعندما ترتقب النوم، تكتشف الحقيقة المروعة: النوم لا يأتي أبدًا عندما تنتظره.. متابعة التفاصيل العصبية وتدفق موصلات النوم ومادة السيروتونين في المخ.. هذه المتابعة تجعل النوم يطير من عينيك...

تتقلب..

تحاول التفكير في أشياء كثيرة.. ذكريات اليوم. ذكريات الماضي.. ما ينتظرك غدًا... ثم تكتشف أنك ما زلت يقطًا وأن التنميل يغزو ذراعك اليمنى، فتنهض وتتقلب.. لا بأس.. هذا وضع مريح أكثر.. ربما تنام الآن.. المزيد من تدفق الذكريات وصوت الغطيط. أنت الآن في الماضي.. تقابل أشخاصًا رحلوا أو ماتوا وتبادل معهم كلمات، وتعتذر عن أفعال ارتكبتها منذ زمن.. تفيق للحظة فتدرك أن الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وأنت لم تتم بعد...

لقد صارت ذراعك اليسرى منملة.. تحاول النوم على ظهرك.. وتفتح عينيك لتنظر للظلام المسطح فهذا يساعد على النوم كما يقولون، لكنهم نسوا أن الظلام يصلح كلوح كتابة.. كما في المدرسة تكتب ذكرياتك بالطباشير على الخشب الأسود، وتمر ساعة ثم تفيق لتجد اللوح مليئًا بالكتابة، وتدرك أنك لم تنم بعد..

تذهب للحمام لإفراغ المثانة.. تعذبك فكرة أن الجميع نائم يستعيد توازن جهازه العصبي.. الكل يحلم ويخرج رغباته المكبوتة بشكل رمزي، بينما أنت تحتفظ بكل هذا السواد. الأرق نوع من الإمساك العصبي.. لا يمكن تفريغ أحشائك العصبية من ذكرياتها المؤذية مهما حاولت. يبدو أنني بدأت أخرف... الفراش - بعد كل هذه الحركة - لم يعد يرحب بأحد. الصورة المنظمة الموحية

بالاسترخاء ولت للأبد لتتحول إلى أرض حرب معادية.. مئة ثنية في الملاءة ومئة تجعيدة والوسادة لن تعود أبدًا لوضعها القديم. كأنك تحاول النوم في أرض تدريب مدرعات.

في الخامسة صباحًا يتسلل نور النهار البكر حديث الولادة إلى الغرفة، وتدرّك أن كل شيء صار حقيقيًا.. لقد غاب الظلام وغابت الظلال، ولم يعد الحلم ممكنًا..

من جديد تذهب للمطبخ وتشرب كوبًا من اللبن البارد، على أمل أن تظفر بساعة أخرى قبل موعد العمل.. العصافير تسخر من عجزك فوق كل أشجار الشارع.

من جديد تتقلب ألف مرة، وتدعو الله أن ينقذك من هذا الجحيم، فتأتي النجدة على صورة يد حازمة تهزك:

- «محفوظ.. محفوظ!.. حان الوقت!».

أنت الآن تواجه العالم من دون السلاح الوحيد الذي وهبه الله للإنسان، وأنقذه من براثن الفهد وأنياب الأسد وسم الأفعى.. السلاح الذي جعله يحكم كل الكائنات ويغزو الفضاء: العقل...

لم يعد لديك عقل. كل شيء زائغ ماسخ اللون.. كل شيء مزدوج.. كل قرار صعب حتى رفع كوب الشاي لشفتيك يبدو بحاجة لتفكير وتحميص...

الأرق رعب لا نهاية له.. ألا ترى هذا معي؟

يتكرر هذا السيناريو عدة أيام، فتطلب رأي د. مصطفى. لا يبدو أن لديه حلولاً معينة عميقة. فقط يخرج روصة طبية عليها توقيعك ويكتب لك بعض العقاقير. لا شاي ولا قهوة بعد الخامسة عصرًا.. جرب أن تعد غنمك.. جرب أن ترغم عينيك على أن تفتح في الظلام.. لا مجهودات عنيفة في المساء حتى لا يتزايد الأدرينالين..

تبتلع الأقراص وتدخل الفراش.. لكن الكارثة تحدث: من جديد أنت تنتظر النوم.. لا شيء يحدث..

نفس السيناريو الأليم كالعادة. لقد مر أسبوع كامل وأنت لا تنام حرفيًا. زوجتك تؤكد أنها تصحو أحيانًا في الليل فتجدك نائمًا بعمق، لكنك لا تصدق هذا.. هي لا تصحو أصلًا منذ تدخل الفراش في منتصف الليل حتى الساعة صباحًا، فمتى رأت أنك نمت؟ ولو كان هذا صحيحًا فكمية النوم غير كافية وغير مشبعة. يقولون إنه عليك أن تدخل مرحلة النوم المتناقض وأن تحلم حتى يصير النوم ذا جدوى.

في اليوم الثامن نهضت في الثانية بعد منتصف الليل. اتجهت للمطبخ لتشرب المزيد من اللبن، ثم فجأة خطرت لك الفكرة. اتجهت لتلبس ثيابك في صمت تام حتى لا توقظ أحدًا.. السويتر الأسود ذو ياقة الفراء يبدو مناسبًا لهذا البرد..

في صمت مماثل انغلق باب الشقة خلفك، وهأتنذا تمشي في الشارع الخالي البارد. لا صوت سوى نباح الكلاب من بعيد وصوت سيارة يركبها شاب مجنون متهور. تمشي وأنت تراقب ظلك الفارع الممتد أمامك على الأسفلت....

كنت تعرف أن هناك إنترنت كافيه يظل مفتوحًا طيلة الليل على بعد شارعين، وهكذا وقفت أمام المحل المغلق الذي يحيط به زجاج أسود معتم. أزحت الباب الزجاجي الثقيل ودخلت.

بالداخل كان المكان معتمًا ما عدا الضوء الأزرق من بعض الشاشات. لا يوجد الكثير من الأشخاص طبعًا.. من هو هنا مدمن إنترنت حقيقي أو ليس له مكان آخر يقصده.. هناك نحو ستة فتية في عمر ابني يجلسون أمام الشاشات، ويبدو أن منظري وتقدمي في السن أثارا دهشتهم..

جلست أمام شاشة فدنا مني رجل له شارب رفيع منسق بعناية، وقد بدا مرتبكًا لا يعرف كيف يتعامل مع ديناصور مثلي. لكنني لست جاهلاً لهذا الحد.. أعرف بعض المعلومات عن التعامل مع هذه الصناديق الذكية. - «هل تشرب شيئًا؟».

طلبت بعض النسكافيه.. فلم أعد أخشى السهر. الشاه لا يضرها سلخها بعد ذبحها. وهكذا رحت أرشف السائل الساخن وأنا أتفقد بريدي الإلكتروني.. ثم بدأت أبحث عما تقوله شبكة المعلومات عن الأرق..

هنا سمعت الباب ينفتح، ودخل رجل في الخمسين من عمره يلبس معطفًا ثقيلًا. كان أصلع الرأس له عيان بلون السماء المكفهرة. ازداد ارتباك صاحب الكافيه فهو لا يتوقع زيارة متقدمي السن مثلنا. الناس في هذه السن يجلبون المتاعب، أو هم من مباحث المصنفات....

جلس الرجل أمام شاشة كمبيوتر جوارى ونظر لي للحظة ثم ابتسم ومد يده مصافحًا:

- «حسين العدوي.. محاسب.. أعتقد أنني هنا لذات الأسباب التي أحضرتك.. الأرق. أليس كذلك؟.. أم لعله شجار منزلي؟».

قلت له إنه الأرق وتمنيت أن يصمت..

بعد دقائق دخل رجل في الخمسين له لحية قصيرة شائبة تلتف حول فمه بطريقة (دوجلاس) المعروفة، ويلبس بذلة كاملة. لكن من الواضح أن صاحب الكافيه يعرفه لأنه رحب به. كان يسميه أستاذ (مينا).

جلس الأستاذ (مينا) على الناحية الأخرى بحيث صرت أجلس بينه و(حسين). وتبادلنا النظرات.. يمكن بلا كلام كثير أن ندرك أننا جميعًا نمر بذات المأزق..

قال الأستاذ مينا:

- «هل لعب أحدكم لعبة (طريق الحرير)؟».

قلت ضاحكًا إنني لا أعرف أي شيء عن هذه الأمور، وإنما أتركها لابني. لكن الرجل ضحك واقترح أن أحاول تعلمها.. إنها مسلية جدًا وسوف تكون خير رفيق للملعونين العاجزين عن النوم مثلنا.

- «أنا ألعبها منذ شهر.. لكن مع أشخاص عبر العالم».

هكذا بدأ يشرح لنا اللعبة المعقدة، ولكن ما بعث النشوة في هو أن أرى كل هذه الأسماء.. هناك من يجلس أمام الكمبيوتر الآن ويلعب في اليابان.. في الأرجنتين.. في جنوب أفريقيا.. في كندا.. ترى كم من هؤلاء عاجز عن النوم مثلنا؟

بدأنا نلعب، وكل منا يجلس أمام شاشته.. وراح الوقت يرمح كالجباد. وكنت سعيدًا لأنني لست الوحيد.. لي رفاق في تعاستي هذه..

عندما تسلل ضوء النهار عبر فرجة الباب نهضنا وتثاءبنا، وأصر (حسين) على أن يدفع هو هذه المرة على أن أدفع أنا غدًا... سألته في جزع:

- «من أين تعرف أننا سنكون هنا غدًا؟».

ابتسم وقال دون أن ينظر في عيني:

- «لا أحد يشفى.. أليس كذلك؟».

كانت نبوءته صادقة تمامًا.. في اليوم التالي كنت هناك، ووجدت الرجلين هناك.. يا لها من لحظات أمام الشاشات وسط ظلام الكافيه!.. كأننا لم نعد نستطيع الحلم فصنعنا لأنفسنا عالمًا صناعيًا من الحلم..

فقدت القدرة على عد الأيام. لا أذكر كم يومًا ذهبت إلى هذا المكان، ولا كم من النقاط أحرزتها في تلك اللعبة، ولا كم من النقود أنفقت على شراء (السيلكات) كما يسميها الشباب. من الغريب فعلاً أن تستلب هذه الألعاب من في سني، لكن هذا حدث وبدأت أعرف أن ابني ليس أحرق جدًا.

إلى أن جاء يوم كنت أجلس فيه أمام التلفزيون مع الأسرة، وكنت أستعد لليلة أخرى سوداء.. كان الفيلم يظهر أسرة سجن في بيت يحترق، وهذا أثار قلق زوجتي، فقالت لي بشكل عابر:

- «موضوع بوابة البناية هذه.. لا يمكن أن نعتمد على إيقاظ البواب لو حدث مكروه. يجب أن تستنسخ لنا مفتاحًا أو اثنين».

لم أستوعب كلامها فعدت أطلب أن تكرر ما قالت:

- «أنت تعرف أن بوابة العقار الحديدية تم تغييرها ولم نحصل على المفتاح بعد. من يرد مغادرة البناية أو العودة لها ليلاً لابد أن يوقظ البواب ليفتح له، أما في النهار فالبوابة مفتوحة..».

هنا نظرت لها في ذهول:

- «هل تعنين أنه لا أحد يغادر البناية أو يعود لها ليلاً إلا بوساطة البواب؟»
- «ماذا حل بك؟... طبعاً أنت تعرف هذا...»
- «ومنذ متى؟»

- «منذ أسبوع.. أنت تكاسلت عن طلب نسخة من المفتاح.. كما تكاسلت عن استرداد السويتر الأسود ذي ياقة الفراء من المغسلة منذ أسبوعين!»
نهضت مذعوراً وارتديت ثيابي بينما هي لا تفهم ما دهاني، وغادرت البيت ورأسى يوشك على الانفجار. الساعة لم تتجاوز العاشرة مساءً لكن البوابة مغلقة فعلاً، وهكذا دقت باب البواب ليفتح لي.. قال لي وهو يبحث في جيبه:
- «لقد استخرجت لك نسخة من المفتاح يا دكتور».

لم أسأله أسئلة أكثر، وغادرت البناية ومشيت مسرعاً نحو النت كافيه. أزحت الباب الزجاجي لأدخل عالم الظلام المتألق بالداخل. ورأيت الشاب ذا الشارب الرفيع.. اطمأننت قليلاً لكنه باغتني بسؤال بسيط:
- «أية خدمة؟»

لا يعرفني.. لا يعرفني على الإطلاق.. وهكذا غادرت المكان ورأسى يطن كعش النحل. أنا لم أغادر البيت في أية ليلة.. لم ألبس السويتر ذا الياقة الفراء.. لم أذهب للنت كافيه.. الهلاوس الناجمة عن الأرق هي التي جعلتني أفعل هذا.. كنت في فراشي أرى نفسي ألعب (طريق الحرير)..
لكن لحظة... لماذا أعرف تفاصيل اللعبة وطريقة لعبها؟.. أين تعلمت هذا كله؟
لقد راجعت كل المعلومات مع ابني فوجدت أنني أعرف اللعبة فعلاً...

بعد شهر كنت في المترو عندما رأيت (حسين العدوي)!.. كان يقف هناك ينتظر المترو وقد بدا عليه الإرهاق. دنوت منه ونظرت له في لهفة فنظر لي.. هل تذكرني؟.. كنت زميلي في لعبة (طريق الحرير) لمدة أسبوعين كاملين..
هز رأسه وقال وهو يراقب المترو القادم بضجيجه المميز:

- «نعم أذكرك بشكل ضبابي.. لكن الحقيقة التي يجب أن تعرفها هي أنني لم أخرج من بيتي ليلاً قط.. لم يخرج أحدنا من بيته قط.. لو تمسكنا بشيء من الخيال، لقلنا إن المؤرقين المعذبين يتحرر جزء من وعيهم.. وكانت هذه الأجزاء تلتقي في النت كافيه لتمضي الأمسية، بينما هم لم يفارقوا فراشهم قط.. فكر في الأشمر كذلك أو لا تفكر فيه.. لا يهم.. تحرك بسرعة لأن أبواب المترو توشك على الانغلاق».

في **كيان للنشر والتوزيع** ، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائماً نرحب بالكتاب الشاب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الإبداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235688678 - 0235611772

هاتف محمول: 01001872290 / 01005248794 / 01000405450

ويمكنك التواصل معنا إلكترونياً على الروابط التالية، للاطلاع على كُتّابنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتّابنا الثقافية:



Kayan.publishing



kayan_publishing



Kayanpublishing



kayanpublishing



+KayanPublishing



KayanPublishing

د. أحمد خالد توفيق

عقل بلا جسد



[مكتبة فريق متميزون](#)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:



كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: عقل بلا جسد.. للكاتب أحمد خالد توفيق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصريه للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير هذا الإنتاج المشترك بين قناتي (متميزون) و (د. حازم مسعود) للكاتب النصية على توفير هذه الخدمة النوعية التي نطمح بأن تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

[انضم الى الجروب](#)

[انضم الى القناة](#)

قناة د. (حازم مسعود)

[إشترك بالقناة](#)

عقل بلا جسد

د. أحمد خالد توفيق

عقل بلا جسد..

«ذكاء الأرقام.. صفة أقدرها بشدة وأدرك أنني لم أحظ قط بقسط مناسب منها.. في المدرسة كانت رؤية أية أرقام تكفي لجعل عقلي يتوقف عن العمل مؤقتًا، تلك الحالة التي تذكرك بتوقف القلب.. وبرغم هذا لم اعتبر نفسي غبيًا قط... أعتقد أن عقلي كان دومًا أكثر تعلقًا بالحروف والكلمات.. هذه لغته وذلك غذاؤه الذي يقات به...»

هذا هو المقطع الأول من القصة الأولى من سلسلة رجل الأرقام، وهو يلخص كل شيء تقريبًا.. لا يوجد فيه شيء من الخيال..

لم أعرف (عصام فتحي) بالضبط، لكنني عرفت من هو قريب منه جدًا، ومن جديد لا دور للخيال في هذا المقطع: «(عصام فتحي) كان يختلف عني في كل شيء.. كانت له تلك الموهبة الرقمية غير العادية، فلم يكن ينسى أي رقم، وكان قادرًا على إجراء أية عملية رياضية بسهولة تامة.. حسدته لفترة وحاولت منافسته. استغرق الأمر عدة سنوات حتى بدأت أرى أن موهبته شيء كأنوفنا وشعورنا وطول قامتنا..»

نحن نولد بها وعلينا أن نقبل حقيقة امتلاكها أو افتقارنا إليها.. دعك من أنني كنت أتفوق عليه في نقاط أخرى.. لم يكن يتذوق الشعر أو يفهمه.. لم يستوقفه قط جمال فتاة.. لم يلعب لعبة رياضية في حياته.. الفن الوحيد الذي كان يفهمه نوعًا هو الموسيقى والسبب هو تلك العلاقة الرياضية التي وصفها (فيثاغورس) يومًا ما.. وكما كان يقول لي: (الموسيقى معادلات مسموعة)..»

كانت القدرات العقلية المبهرة للعقل البشري تثير شغفي دومًا، وعندما قرأت عن العالم البريطاني (ستيفن هوكنج Stephen Hawking) في الثمانينات، انبهرت بشدة بفكرة العقل العبقري الذي لا يستطيع التعامل مع العالم الخارجي إلا من فوق مقعد متحرك.. تقريبًا لا يحرك إلا أنامله وعينيه.. حتى الكلام يخرج من جهاز خاص، وبرغم هذا هو أستاذ رياضيات وهو قادر على تغيير نظريات أينشتاين عن منشأ الكون..

ليس هوكنج قدوتي، وإلا لكان على أن أحلم بالشلل.. لكنه نموذج مبهر يدير الرؤوس بحق، وأعتقد أن (عصام فتحي) جاء لا شعوريًا من عباءة (هوكنج)..

من جديد تبهرني فكرة الناصح Mentor الذي يملك الإجابة عن جميع الأسئلة، ويقصده البطل عندما يجد نفسه في ورطة.. في (رحلة البطل Monomyth) التي تحدث عنها العالم الأمريكي (كامبل)، هناك ناصح دائمًا.. إنه مدير المخابرات في قصص جيمس بوند، وهو جاندولف في سيد الخواتم، وهو (الحلق العميق) في أفلام المخابرات الأمريكية..

من الصعب أن تجد الناصح من حولك.. هكذا تضطر لصناعة واحد على الورق.. ومن جديد نجد أن عصام فتحي مزيج من البطل وناصح البطل..

أما البطل - الذي ليس بطلاً في الواقع - فشخصية ذات ذكاء عادي.. طيب القلب.. مخلص.. إنه هاستنجز صديق بوارو أو واتسون صديق هولمز.. مهمته أن يقع في المأزق، ثم يطلب العون،

ثم يصغي منبهراً.. وقد رأيت أن يكون ضابطاً بالطبع، ليس لأنني أعتبر الضباط أقل ذكاء من أساتذة الرياضيات، لكن لأنه بهذا الشكل أقدر على أن يجلب المتاعب معه وأن يواجهها في كل لحظة، كما أنه يملك القوة الجسدية التي تساعد أحياناً في حسم الأمور..

هكذا ولدت هذه القصص، وهي مزيج من القصة المسلية والمعلومة الرياضية، التي تقدم لنا درساً في كيفية استخدام تفكيرنا بدقة وفعالية، فإن لم تجن منها الفائدتين معاً جنيت واحدة منهما..

بقي أن أقول إن هذه القصص ما زالت تنشر سلسلة كل شهر في مجلة (شباب 20) الصادرة عن دار الصدى في دبي، وقد وافقت الدار على أن أقدم ما نشر منها في كتاب، لذا أوجه لها الشكر الحار..

هذا هو كل شيء، وאתرك للقارئ الكريم أن يحكم على هذه التجربة بنفسه، فلا قيمة لرأي الكاتب لأنه –في النهاية– يعتقد أن ما كتبه كان الأفضل وقتها، لذا أتمنى حظاً سعيداً للقارئ ولي..

د. احمد خالد توفيق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لغز أخير..

ذكاء الأرقام.. صفة أقدرها بشدة وأدرك أنني لم أحظ قط بقسط مناسب منها.. في المدرسة كانت رؤية أية أرقام تكفي لجعل عقلي يتوقف عن العمل مؤقتًا، تلك الحالة التي تذكرك بتوقف القلب.. وبرغم هذا لم اعتبر نفسي غبيًا قط... أعتقد أن عقلي كان دومًا أكثر تعلقًا بالحروف والكلمات.. هذه لغته وذلك غذاؤه الذي يقتات به..

(عصام فتحي) كان يختلف عني في كل شيء.. كانت له تلك الموهبة الرقمية غير العادية، فلم يكن ينسى أي رقم، وكان قادرًا على إجراء أية عملية رياضية بسهولة تامة..

حسدته لفترة وحاولت منافسته. استغرق الأمر عدة سنوات حتى بدأت أرى أن موهبته شيء كأثرفنا وشعورنا وطول قامتنا.. نحن نولد بها وعلينا أن نقبل حقيقة امتلاكها أو افتقارنا إليها.. دعك من أنني كنت أتفوق عليه في نقاط أخرى.. لم يكن يتذوق الشعر أو يفهمه.. لم يستوقفه قط جمال فتاة.. لم يلعب لعبة رياضية في حياته.. الفن الوحيد الذي كان يفهمه نوعًا هو الموسيقى والسبب هو تلك العلاقة الرياضية التي وصفها (فيثاغورس) يومًا ما.. وكما كان يقول لي: (الموسيقا معادلات مسموعة)..

كان مسارنا محددًا من البداية.. هو درس الرياضيات وبلغ فيها شأنًا عظيمًا، وأنا صرت.. صرت ضابط شرطة..! لا أعرف كيف ولا لماذا لكنني كنت مكتمل البنیان قويًا وبدا طريقي مرسومًا أمامي من قبل أن أفكر..

لكن علاقتنا لم تنقطع قط.. كان يكمل ثغرات عقلي وكنت أكمل ثغرات شخصيته..

في سن الخامسة والعشرين تزوجت (غادة) التي صارت أم أولادي الثلاثة، أما هو فظل يراقب الحياة من بعيد ولا يدخلها أبدًا.. وفي سن الثلاثين كان ذلك الحادث.. ألم تسمع عنه؟.. إن إطار سيارة ينفجر في لحظة بعينها على الطريق السريع يحدد تاريخ حياتك للأبد.. هناك انقلاب السيارة والارتطام بشجرة.. لا بد من شجرة دائمة.. لم يمت لكن ظهره قد تحطم وتمزق حبله الشوكي.. وهكذا كتب عليه أن يمضي باقي حياته على مقعد متحرك تعنى به والدته، وهي سيدة فاضلة من الطبقة المتوسطة لا تسمح صحتها بالكثير.. لهذا أحضرت له (عفاف) وهي فتاة باسلة من قريباتي قبلت أن تكون مزيجًا من الممرضة، والمربية، والقارئة، والأم..

بقي أن أقول إنه ما زال يمارس عمله في تدريس الرياضيات وتلاميذه يحبونه حقًا.. يقولون لي إنه عبقرى فأهز رأسي.. قولوا لي شيئًا لا أعرفه يا أولاد..

هكذا اتخذت حياتي وحياته هذا المسار الجديد الذي يتكرر مرتين أسبوعيًا..

هو يجلس على كرسيه المتحرك بجسده الواهن ورأسه الهزيل، بينما عيناه تشعان تلك القوة النفسية الكاسحة الثاقبة التي تميز المقعدين.. وأنا اجلس بجواره أحكي له عن مشاكلي، أو آخذه في نزهة هنا أو هناك نتحدث عن صبابنا الذي أمضيته معًا فلم نفترق يومًا واحدًا.. وكنت أسأل في قلق: ماذا لو اختفى من حياتي؟.. ماذا لو لم يكن فيها أصلاً؟.. ما كنت لأكون أنا..

مع الوقت بدأت أراه كما هو فعلاً: عقل عملاق بلا جسد.. يشبه قصص الخيال العلمي التي يحتفظون فيها بمخ عبقري يسبح في مادة حافظة في وعاء زجاجي.. فلو رأيت الأمر من هذا المنظور لخطر لك أن الحادث لم يكن مأساة.. كان طوراً انتقالياً حتمياً في حياته يقوده إلى الوصول للشكل الذي خلق من أجله: عقل مجرد لا يشغله شيء آخر..

لم أجسر طبعاً على مصارحته بهذا وإن كنت أتعمد أن تخلو علاقتي به من أي نوع من الرفق أو التخنث.. ربما كنت أعامله بشيء من الخشونة وكنت أعرف أن هذا يروق له، لأنه لا يمقت شيئاً في الحياة مثل الشفقة.. كان يرى في الشفقة نوعاً خاصاً جداً من التعالي والاحتقار فنحن لا نشفق إلا على من هم أضعف منا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحادث الذي حكيته له كان على سبيل تسلية لا أكثر.. فلم أكن مكلفاً بالتحقيق في هذه القضية..

قلت له: «(عدنان السمدوني) رجل في الخمسين من عمره.. له عدة شركات وعامة هو يمارس ذلك النشاط البشري الغامض الذي يطلق على صاحبه (رجل أعمال).

صفقات.. قروض.. عروض أسعار.. الخ.. لكن لا ينكر أحد أنه شديد الذكاء يتمتع بسرعة بديهية غير عادية..»

ظل (عصام) ينظر لي وهو يمسك بكوب الشاي الساخن الذي يتصاعد منه الدخان، فقلت له:
- «طبعاً أنت خمنت أنه قُتل..»

ضحك في مكر وقال:

- «بالعكس.. سأبهرك أكثر وأقول إنني لن أثب إلى أية استنتاجات قبل سماع القصة كاملة..»

سررت لهذا لأن جلستنا هذه ذكرتني بجو (شيرلوك هولمز) وصديقه محدود الذكاء (واطسن)، كما ذكرتني بـ (هيركيول بوارو) وصديقه الغبي (هاستنجز).. طبعاً لم أكن أعب دور (هولمز) ولا (بوارو) هنا، بل أعب دور صديقيهما.. وتوقعت أن يبادر بالاستنتاجات المستفزة كما يفعل (هولمز) في القصص لكنه لم يفعل..

عدت أقول:

- «في ذلك اليوم بقي (عدنان) في الشركة وحده حتى ساعة متأخرة من الليل.. وفي الصباح فتح العامل الباب ليجد (عدنان) جالساً إلى المكتب كما هي العادة.. المشكلة أن ثقب رصاصة كان في جبهته.. أنا أحاول أن أقدم لك لحم القضية بعد التخلص من العظام والجلد... سأريحك من تفاصيل البحث المملة وأخبرك أن رجال الشرطة رسموا المشهد كما يلي: هناك من قابل (عدنان) في تلك الليلة وجلس معه حيث لا أحد في الشركة.. لعل الأمر كان يتعلق بدين متأخر أو صفقة يريد الحصول عليها.. الله أعلم بذلك.. ثم تطور الأمر لمشاجرة تحتد شيئاً فشيئاً.. يشعر (عدنان) بقلق فيخطط معلومات عن ضيفه على ورقة وهو ما زال جالساً يتبادل النقاش الحاد معه وينظر في عينيه، وهنا أخرج القاتل مسدساً.. أطلق النار ثم فر من المكان.. يجب أن

أقول إن القاتل بالتأكيد تفحص الورقة التي كانت أمام (عدنان) ليتأكد من أنه لم يكتب اسمه عليها.. فلما اطمأن تركها ورحل.. هذا كل شيء...»

- «لا بصمات؟»

- «بالتأكيد.. لا بصمات.. لا شهود.. مئات الأعداء.. قلت إنني اختصر عليك الطريق»

قال (عصام) باسمًا وهو يرشف الشاي:

- «أنت لا تعطيني تفاصيل كثيرة.. لماذا؟»

قلت له وأنا أخرج ورقة من جيبي:

- «لأن مهمتك محددة.. هذه صورة من الورقة التي كانت أمامه عندما قتل.. لدينا كل ما يدعو للظن بأن (عدنان) كتب فيها معلومات عن القاتل...»

- «ولم لا يكون القاتل قد تركها ليضللكم عمدًا؟»

- «الحياة ليست بكل هذا التعقيد.. ثم إن الدماء تناثرت عليها بشكل يوحي بأن القاتل كان يكتب فيها ساعة القتل.. دعك من أننا لم نفهم ما فيها فكيف يضللنا شيء لم نفهمه؟»

أمسك (عصام) بالورقة وتفحصها..

كانت ورقة عادية من طراز A4 كتب عليها بخط كروكي رديء يوحي بالاستعجال:

(4 3 2 1)

و أ ث ؟ ؟

راح يفكر في عمق.. يمتص الشاي في عمق.. أعرف هذه العلامات المعتادة.. إن تروس عقله تعمل بأقصى طاقتها الآن.. انسكب بعض الشاي الساخن على سرواله فلم يلحظ.. لم تعد لديه أعصاب تحس بالألم لأن كل جهازه العصبي صار يعمل لهدف واحد الآن..

دخلت (عفاف) الغرفة وسألته عن شيء ما فلم يرد.. أشرت لها من طرف خفي أن تتركه الآن..

مرت خمس دقائق وهو يرمق الورقة، فقدرت أنه عجز.. لن ألومه على ذلك.. توقعت أن هذه الحروف نوع من العبث.. كما تكتب أنت كلمات وترسم صناديق ووثعابين عندما تصغي باهتمام لمكالمة هاتفية..

فجأة رفع عينه نحوي وقال:

- «هل لديك مشتبه فيهم؟»

- «المئات منهم.. كل رجل أعمال له خصوم كثيرون..»

- «هلا قرأت لي أسماء بعضهم؟»

أخرجت ورقة من جيبي ورحت أقرأ:

- «خذ عندك.. (عماد فريد) ... (سيد الدلجموني).. (مصطفى القصاص).. (نهلة فوزي) وهي زوجته بالمناسبة.. (أنور حبيب).. (خالد سليم).. (خليل الغرباوي) (محم....»

رفع يده مشيرًا لي كي أتوقف.. ثم سأل في شرود:

- «هل من اسم آخر يبدأ بالخاء؟»

نظرت للقائمة ثم هزرت رأسي أن لا.. فقال:

- «(خالد سليم).. لابد من أن تضيقوا عليه الخناق!.. إنه هو..!!»

صحت في غيظ:

- «لحظة.. أنت لا تمارس السحر هنا.. لا تحدثني عن حدسك والحاسة السابعة وكل هذا الهراء..»

هز رأسه ووضع كوب الشاي على المنضدة بجواره وقال:

- «لا هذا ولا ذاك.. الفقيد كان شديد الذكاء ثابت الجنان.. كان يريد أن يكتب اسم قاتله لكنه لو فعل ذلك صراحة لانتزع الأخير الورقة وأحرقها.. لذا تظاهر بأنه يخط حروفًا وأرقامًا لا معنى لها على سبيل شرود الذهن.. في البداية وضع أرقام (1 2 3 4).. معنى كلامه هذا أننا بصدد متوالية عديدة.. بعد هذا كتب: و - أ - ث - أ. فما معنى هذا؟»

قلت وأنا لم أتخلص من غيظي:

- «لنقل إنه مات بسر..»

- «بل هي متوالية عددية أخرى تعتمد على الحرف الأول من نطق العدد.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة... الحروف الأولى هي: و.. أ.. ث.. أ.. ثم ترك لنا علامتي استفهام تقولان بوضوح: ما الحرفان التاليان؟.. طبعًا الخاء فالسين.. خ.. س... خمسة.. ستة.. (خالد سليم)..»

صحت مندهشًا:

- «يا سلام؟ ... ولماذا لم يكتب خ.. س ببساطة؟»

- «إذن لرأى القاتل الحرفين ومزق الرسالة.. بينما الصورة الحالية توحى بالهذيان..»

قلت وأنا أنهض مستفردًا:

- «هل تتوقع أن رجلاً يرى مسدسًا مصوبًا إلى رأسه يمكنه ترك رسالة بهذا التعقيد؟»

- «لا أعتقد أنه ألفها وحي الخاطر.. لابد أنه كان يستخدم هذه الطريقة في أوراقه من قبل.. ربما هو نوع من الشفرة اعتاد استعمالها وتوقع أن الآخرين سيفهمونها»

- «وهو ما لم يحدث..»

قال باسمًا:

- «بل حدث الآن...!»

والذي لم أخبر به (عصام) هو أن كلامه صحيح تمامًا لأننا قبضنا على القاتل بعد دقائق من ارتكاب الجريمة.. (خالد سليم) هو القاتل الذي جاء يطالب (عدنان) بإعفائه من دين متأخر.. رفض (عدنان) وتشاغل عن ضيفه الغاضب بالشخبطة في ورقة أمامه.. هنا جن جنون (خالد) وأخرج مسدسه ليفرغه في رأس رجل الأعمال القاسي. لقد اعتقلنا القاتل لكن لسبب آخر.. إن من يطلق رصاصة في منتصف الليل أحرق بالتأكيد، وقد رآه الجيران المذعورون وهو يهبط في الدرج جريًا دون أن ينتظر المصعد.. وعلى باب البناية استوقفته دورية راكبة سمعت صوت الطلقة.. وبالطبع لم يكن على استعداد لإنكار أي شيء.. فقط ظلت هذه الورقة لغزًا حتى اللحظة وحتى حل (عصام) سرها في خمس دقائق..

(عصام) مصيب تمامًا.. وكالعادة يبرهن على أنه يلتقط تفاصيل لا يلاحظها سواه.. لكنني كذلك معجب بـ (عدنان) الذي رأى الموت قادمًا لا محالة، لكنه صمم على أن يترك لنا هذه الورقة... هذا اللغز الأخير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجل لا يستحق شيرين!

أحياناً أزور (عصام) مع (غادة) زوجتي لكنني أتحاشى أن أحضر الأطفال معي.. من المستحيل أن تسيطر على هذه الشياطين الصغيرة أو ترغمها على التزام الأدب، بينما (عصام) يحب الأطفال لكنه يحب النظام أكثر.. ولعه بالنظام يصيبني بالجنون.. لا بد من أن تكون الكتب موازية لحافة المنضدة.. لا بد من أن توضع الأقلام الرصاص في الكوب وسنّها لأعلى، بينما أقلام الحبر الجاف سنّها لأسفل.. الكتابة على ورق أنيق أبيض أما الخواطر فعلى ورق لاصق (ستيكر) يثبتته على شاشة جهاز الكمبيوتر توطئة لتفريغه في مفكرة.. طبعاً يستحيل أن تحافظ على شيء من هذا في وجود ثلاثة أطفال..

(عفاف) الشابة الباسلة التي تعنى به تعلمت هذا.. وقد صارت أكثر وسوسة منه.. لهذا تحرص على ألا يظل أي قذح خارج طبقه متى فرغنا منه، وهي تحمل مكنسة كهربية صغيرة من التي يستعملونها في السيارات كي تزيل أي غبار يسقط على أي شيء..

هذا الحرص على إرضائه كان سهل التفسير بالنسبة لزوجتي..

- «(عفاف) تهيم به حباً سراً..»

قلت لها إن هذه الفكرة حمقاء.. لا يمكن أن يتزوج (عصام) دحك من أنه لم يبق منه سوى رأس على مقعد متحرك.. فقالت زوجتي في خبث:

- «قل لها هذا ولا تقله لي.. أنتم الرجال لا تعرفون أي شيء عن المرأة العاشقة..»

- «وأنت لا تعرفين شيئاً عن (عصام)»

دخلت زوجتي المطبخ مع (عفاف) وسمعت صوت الثرثرة والضحكات.. أنت تعرف أن (عصام) بمثابة أخي لذا تتصرف زوجتي في بيته كأنها في بيتها.. دحك من أنه على مقعد متحرك ومحدود الحركة.. كنت أعرف أن هذه المحادثة الضاحكة ليس لها من غرض إلا استنزاف أسرار (عفاف) والبرهنة على ذلك الحب الذي تحاول زوجتي أن تؤكده..

ظل (عصام) يرمقني وهو جالس على مقعده المتحرك.. لقد ازداد هزلاً وفي كل مرة أشعر بأن الصورة المنطبعة في ذهني تزداد يقيناً: هذا عقل بلا جسد من عقول المستقبل..

ابتسم وقال لي:

- «هل أنت سعيد في زواجك؟»

قلت مفكراً:

- «لا أعرف.. ليس لدي وقت كاف لأفكر.. زواج ثم ثلاثة أطفال خلال خمسة أعوام.. من المستحيل أن أعرف إلا بعد ما يتزوج أصغرهم..»

- «لنقل السؤال بطريقة أخرى: هل يبعث فيك الزواج ذات المشاعر الملهبة التي كانت تبعثها

قصص الحب القديمة؟»

- «بالطبع لا.. الزواج هو داء هادئ منتظم، بينما القصص القديمة كانت نارا..»

ونظرت عبر فرجة الباب لأتأكد من أن المدام لا تقف هناك وقد تحولت إلى شيطان بعد سماع ما أقول..

ثم بدأت أتذكر.. وقفت ووجهي إلى النافذة المفتوحة التي تطل على ملعب كرة في مدرسة إعدادية.. هناك صبية يتصارعون حتى الموت على كرة بينما واحد منهم يلعب دور الحكم ويصفر بلا انقطاع.. هذا المشهد أزال ركام الأعوام عن ذاكرتي فصرت بينهم.. أحاورهم في اللعب وأطلب من (هاني) أن يمرر الكرة لي.. أرى نفسي في الخامسة عشرة مراهقاً قوي البنية لا يرحم جسده لحظة واحدة..

المدرسة المشتركة و(شيرين).. الحسنة المخملية الغامضة.. كنت أقتل نفسي في الألعاب الرياضية من أجلها، ثم أعود للبيت منهكاً فأقتل نفسي في الدراسة من أجلها.. فقط لو تنظر نحوي مرة واحدة.. مرة واحدة فقط بعدها أموت...

- «هل تذكر (شيرين)؟»

هز (عصام) رأسه باسماً.. لم يكن ممن يبالون بالفتيات قط.. دعك من أنه لم يشاركنا أية مباراة في ذلك الزمن عندما كانت قدماه تعملان.. لكنه كان يذكر كل شيء لذا غمغم:

- «كنت تحبها.. أذكر هذا.. وكانت شديدة الذكاء.. لم أر قط فتاة أذكى منها.. حتى أنا كنت أرتجف خوفاً من ذكائها الشديد»

كنت أفعل أي شيء كي أنال إعجابها لكنها ظلت تلك الملكة المتوجة التي لا يجسر أحد على الدنو منها، حتى جاء اليوم الذي يفقد فيه المرء إرادته وسيطرته على عواطفه.. هكذا كانت جالسة في الفناء في وقت الانصراف على ذلك المقعد الخشبي الذي تساقط عنه الطلاء، وجوارها كتبها وآلتها الحاسبة.. كانت تراجع درس اللوغاريتمات الذي أمقته بجنون.. عندما عرفت أن عالمنا (الخوارزمي) هو الذي ابتكر هذا العلم حزننت كثيراً.. كنت أعتقد أن مبتكر هذا العلم من أعداء العرب!

جلست بقربها فنظرت لي في دهشة ثم همست:

- «بالله عليك!... الكل يرانا!..»

قلت لها كل شيء.. حكيت لها عن الساعات التي أقضيها في البيت محاولاً الدراسة لكن وجهها يقتحم كل كتاب على فلا أعني شيئاً.. حكيت لها عن الكدمات التي تملأ جسدي من فرط التدريبات الرياضية.. أنا أفعل كل شيء كي أستحقها..

قالت دون أن تنظر لي:

- «أنت شاب ممتاز، لكنك لا تعني بعقلك العناية التي يلقاها جسدك.. إن احتمال أن أرى عنقاء تحلق فوق المدرسة أقوى من احتمال أن أراك تمسك كتاباً»

- «سأحاول أن أفعل العكس.. صدقيني.. فقط قولها.. قولي إنك ستحاولين أن تحبيني...»
قالت في دلال:

- «لا يمكن أن أقول شيئاً بينما الجميع يراقبني..»

ثم تناولت الآلة الحاسبة وراحت تدق على مفاتيحها.. أتذكر الآن أنها كانت تردد الأرقام وهي تضغط عليها.. أربعة من عشرة مقسومة على مائتين.. أربعة من عشرة مقسومة على مائتين..

نهضت محببًا وانصرفت.. إن هذه الفتاة تسخر مني.. لا يمكن أن تنهك بكتابة فروضها بينما شاب يصارحها بحبه.. شاب له طول، وعرض وارتفاع وكرامة.. وعدت لداري محنقًا ورسمت آلاف المشاريع الوهمية بدءًا بقتل نفسي وانتهاء بقتل الجميع.. عند المساء عدلت عن هذا وقررت أن أكون من قراصنة الكاريبي أو اذهب إلى جنوب أفريقيا لأعمل في المناجم حتى أموت..

لكي كنت واقفًا في قبضة ذلك الحب.. وكانت أغاني عبد الحليم حافظ تجعلني عبدًا لا يرغب في التحرر.. (بتلوموني ليه؟.. لو شفتهم عنيه.. حلوين قد إيه؟)

هكذا قدمت اقتراحي لها مرة أخرى بعد أسبوعين، فابتسمت من وراء عويناتها وقالت:

- «حسن.. سأجرب حبك وحسن تصرفك.. اليوم هو السبت.. سأطلب منك أن تأتيني بزهرة.. زهرة واحدة.. غدًا تأتيني بزهرتين..»

قلت في حماس:

- «هذا سهل.. إن حديقة المدرسة مليئة بالأزهار والبستاني لن يلاحظ شيئًا..»

- «بعد غد تأتيني بأربع زهرات... في اليوم الرابع تأتيني بثماني زهرات.. وهكذا.. لو استطعت أن تحافظ على هذا العهد أطول فترة ممكنة فإنني سأمنحك حبي..»

هنا قاطعني (عصام) فعدت إلى عالم الواقع.. سألني باستمئاع حقيقي:

- «طبعًا لم تف بهذا العهد..»

قلت في حيرة:

- «فوجئت بأنها تركت المدرسة ولم أعد أستطيع الاتصال بها.. عندما رحلت كنت قد وصلت إلى 32 زهرة.. تعبت في جمعها لكن (شيرين) كانت تستحق..»

- «أي أن هذا كان اليوم السادس...وكنت تنوي الاستمرار في تنفيذ هذا القسم للأبد؟»

- «طبعًا.. ليس الأمر عسيرًا..»

تحرك (عصام) بكرسيه المتحرك ليقف جوارحي حيث وقفت جوار النافذة وقال:

- «كانت تسخر منك يا صاحبي.. إنها تكرر معك قصة الحكيم الهندي الذي طلب من الملك أن يكافئه على اختراع رقعة الشطرنج.. طلب من الملك أن يضع له حبة قمح في المربع الأول وحبتين في الثاني وأربع حبات في الثالث.. وهكذا.. حتى يصل إلى المربع رقم 64... بالطبع قبل

الملك هذه الصفقة وإن تضايق من ضعة المكافأة التي طلبها ذلك الحكيم قليل الذوق.. وراح رجاله يعملون في حساب القمح المطلوب.. لقد نسى الملك قوة المتواليات العددية المربعة.. اتضح أن كمية القمح المطلوبة لتنفيذ هذا الوعد تفوق كمية القمح الموجودة على كوكب الأرض.. حتى لو تم تجفيف المحيطات وزرعها.. لأن الكمية هي..»

ومد يده يعبث بمفاتيح الكمبيوتر ثم قرأ الرقم الناتج:

- «هو ناتج ضرب رقم 2 في نفسه 64 مرة.. أي 18446744073709551615 حبة قمح!.. لو أنك وازبنت على وعدك حتى اليوم الرابع والستين لوجدت أن عليك قطف هذا العدد من الأزهار!»

- «وهذا معناه؟»

- «التعجيز طبعًا.. فقط أرادت أن ترى ما إذا كنت ستتبين الشرك أم لا.. وكانت تعرف أنها مغادرة المدرسة قريبًا فلن تتعبك أكثر من أسبوع!»

ثم أضاف وهو يمد يده إلى آلة حاسبة على مكتبه:

- «أما الاعتراف الأول بينكما فهي قد عقدت لك امتحانًا رسبت فيه بجدارة.. هذه طريقة معروفة للكتابة تعتمد على تشابه الأرقام العربية مع الحروف اللاتينية على شاشات الحاسبات.. لا تنس أن الأرقام 1, 2, 3 تدعى الأرقام العربية.. أما الأرقام التي تحسبها عربية فهي هندية.. الفتاة كانت تمسك بالآلة الحاسبة وتجري عليها هذه الحسبة البسيطة:

$$200 / 0.4$$

الناتج هو 0.002

لو أنك قلبت الآلة الحاسبة لقرأت بوضوح كلمة ZOO.. هناك بعض التشوه في الحروف طبعًا، لكنها مقروءة.. جرب هذا بنفسك.. مثلاً كم يساوي حاصل ضرب 3 في 257؟ ... الناتج هو 771.. اقلب النتيجة تجد كلمة ILL أي (مريض)...

«حتى من دون قلب الشاشة تظل التشابهات كثيرة جدًا.. التشابه شديد بين حرف O ورقم صفر.. حرف B يتشابه مع رقم 8.. حرف S يتشابه مع رقم 5.. حرف Z يتشابه مع رقم 2.. هذه مشكلة في برامج OCR التي تحول النص الإنجليزي الذي صورته الماسحات الضوئية.. والغريبون يطلقون على هذا الخلل اسم (خطأ B/8)»

قلت له في حيرة:

- «ماذا تعني بما كتبت له لي أول مرة؟»

- «أرادت أن تبلغك رسالة.. اللقاء في حديقة الحيوان Zoo. وتركت لك أن تفهم أو لا تفهم.. لو أنك فهمت لصرت جديرًا بها...!.. لكنك انصرف غاضبًا..!»

صحت في غيظ وقد وقفت في وسط الغرفة:

- «هل تعني أنها حددت لي مكانًا للقاء وأنا لم أفهم؟.. وبعد ثلاثين عامًا فهمت أنت؟»
قال في خبث:

- «الأمر تدل على ذلك..!»

صرخت وأنا أوشك على الموت غيظًا:

- «أي أن الحب كان يقرع بابي لكني لم أفهم؟.. كان بوسعي أن أحظى بحبيبتي (شيرين)؟!»
لاحظت انه متحفظ صموت واندهشت لهذا، ثم حانت منه نظرة حذرة إلى ما وراء ظهري
فاستدرت لأرى سبب الصمت الذي هبط عليه..
كانت (غادة) زوجتي تقف هناك مع (عفاف) حاملة صينية عليها أكواب عصير.. وكانت في
عينها نظرة شيطانية.. لم أر إنسانًا يشبه الكوابيس كما رأيته في هذه اللحظة..
وضعت الصينية ثم نظرت لي فلو أن النظرات تقتل لسقطت أرضًا، ثم غادرت الغرفة ومعها
(عفاف)..
قال لي (عصام) بوجه ممتنع، وصوت مبحوح من فعل الرعب:

- «بيني وبينك.. أنت لم تكن تستحق (شيرين)... الرجل الذي لا يعرف كيف يحسب المتواليات
العملقة.. الرجل الذي لا يعرف طريقة كتابة الحروف على الآلة الحاسبة.. الرجل الذي يصرخ
باسم

حبيبته الأولى بينما زوجته على بعد خطوات في المطبخ... هذا الرجل لا يستحق شيرين!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرعب يجتاح المدينة..

الحر يخنق الأفكار ويخنق الأحلام، ويخنق كل ما هو جميل أو لطيف أو محبوب.. في تلك الساعات الكريهة من ظهر أحد أيام أغسطس..

في الصيدلية التي تقع عند أول الشارع تجلس (سارة).. الفتاة المتوسطة في كل شيء.. في الجمال والمال والمؤهل العلمي.. لا يمكن أن تتهمها بالقبح أو الفقر أو الجهل، لكنك كذلك لا تقدر على أن تصفها بالحسنة الثرية المثقفة بقلب مستريح..

كانت جالسة في الصيدلية وحدها تتابع بنصف وعي مسلسلًا تلفزيونيًا أبله بدا كأن من صنعه هم الذين صنعوا هذا الحر القائنظ.. عندما رأت ذلك الشاب يدخل الصيدلية..

كان فارغ القامة يضع عوينات سودًا، وثمة جرح طويل قديم على خده الأيمن.. ثيابه لا بأس بها وتنم عن ذوق طيب.. وقف في الصيدلية يضع ثوان يتأمل الأرفف وهي علامة تعرفها جيدًا.. إنه يحاول تذكر ما كان يريد.. في النهاية ألقى عليها السلام ثم سألها عن عقار معين لفقدان الشهية وبالتالي الوزن (لن أذكر أسماء هنا).. تأملت ثيابه شبه الواسعة وتساءلت في سرها عن سبب طلبه لهذا العقار.. لكل زبون قصة.. هل هو يرى في نفسه بدانة لا وجود لها، أم هو يطلب العقار لزوجة بدأت تتحول إلى فيل؟.. قصة طويلة تكمن وراء هذا الطلب، وقد اعتادت أن تسلي مللها بأن تتخيل تكملة القصة..

اتجهت إلى الرف فانتقت علبة مليئة بالأقراص دسمة المنظر وقالت له وهي تخط عليها عبارات بقلم فلوماستر:

- «خمسة أقراص قبل الأكل بربع ساعة مع كوب ماء كبير.. ثلاث مرات»

أطلق صفييرًا مذهولًا من ضخامة الجرعة فقالت باسمه:

- «الفكرة أن هذه الأقراص تنتفش فتجعلك تبدأ الأكل وأنت فاقد الشهية..»

تفحص العلبة وتساءل في حيرة:

- «لا نشرة؟»

- «هكذا يفعلون.. لا تقلق.. هذه الأقراص عبارة عن ألياف نباتية مضغوطة.. لو أن طفلًا ابتلع العلبة كلها فلن يحدث شيء..»

أخرج ورقة عملة ذات فئة كبيرة فأخذتها وأعطته الباقي وابتسمت له في تعاسة، ثم عادت لمشاهدة البرنامج بينما غادر المكان..

قال لي صديقي العبقرى (عصام) وهو يلقي بالمنديل الرابع في سلة المهملات:

- «لا جدوى. من الواضح أن هذا مرض الموت..»

كان شديد التفاؤل كما أعرف عنه.. وعلى كل حال كان منظره يوحي بهذا وأكثر.. أنفه أحمر كالسكارى وعيناه ذابلتان واهنتان.. ألعن حالة انفلونزا رأيتها منذ زمن.. والغريب أنها تحدث في أغسطس..

كان يجلس هناك على كرسيه المتحرك عاجزًا عن الكلام أو التنفس.. وقد صبت (عفاف) الباسلة جالونات من عصير الليمون الساخن في جوفه لكنه كان يزداد سوءًا..

قلت له وأنا أبعد الفيروسات التي تطير حول وجهي:

- «أنت بحاجة إلى مضاد حيوي..»

قال في غيظ:

- «مضاد حيوي مع فيروسات؟.. يجب أن تجدد معلوماتك الطبية..»

ثم أشار إلى كومة من الأوراق في غيظ وقال:

- «على أن أجد التركيز والبال الرائق لأقرأ هذه الرسائل العلمية.. لكن في رأسي مصنعًا لا يكف عن الهدير والدق..»

قلت وأنا أتجه للباب:

- «سأحضر لك مسكنًا قويًا.. إن الصيدلية قريبة..»

أشعر بسعادة عندما يتيح لي أن أقدم له شيئًا.. فهو عظيم الكبرياء حريص على أن يبدو قويًا مستغنيًا..

هكذا نزلت إلى الشارع الذي يوشك على الاشتعال، واتجهت إلى الصيدلية القريبة.

لكني إذ دخلت وجدت أنها أقرب إلى مسرح عبثي.. دموع.. صراخ.. فوضى..

هناك رجلان قلقان وفتاة باكية.. الفتاة كما فهمت اسمها (سارة).. كانت تردد أنها غير مسئولة عما حدث، بينما أحد الرجلين يتهمها بالغباء..

- «قلت لك إنني سأحتفظ بأقراص علاج السكر في هذه العلبة.. وقلت لي إنك فهمت!»

هنا تدخلت لأسأل عما هنالك فقال لي أحد الرجلين في ضيق:

- «لا شيء.. باعت أقراص علاج السكر على أنها دواء لفقدان الشهية..»

- «وهل هذا خطير؟»

- «ليس خطيرًا إلى هذا الحد.. دواء السكر يُعطى منه قرص أو قرصان في اليوم.. بينما دواء فقدان الشهية جرعته خمسة أقراص قبل الأكل ثلاث مرات!»

- «وهل هذا خطير؟»

نظر لي في غيظ وقال:

- «هذا البائس سيبتلع خمسة أقراص جرعة واحدة قبل الأكل.. سوف يلفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يفهم أنه يموت!»

سألت في غباء:

- «لم لا تخبرونه بذلك؟»

- «هذا (زبون طياري) لا نعرفه ولم نره من قبل. وعلى الأرجح لن نراه ثانية أبدًا..»

هذا هو موقف (الدواء فيه سم قاتل) الشهير.. الفيلم الذي قدمه العبقري (كمال الشيخ) واستطاع أن يقترب في الإثارة والتشويق من منزلة (هتشكوك)..

سمعت باقي التفاصيل وأوصاف الرجل ثم قلت لهما وأنا أغادر الصيدلية:

- «أنا ضابط شرطة وسوف أتصرف..»

لكن كيف أتصرف؟.. في فيلم (كمال الشيخ) اتصل الصيدلي بحكمدار العاصمة وسرعان ما كانت الإذاعة تطلق النبأ الشهير.. كان هذا في زمن سهل يقول الناس فيه لبعضهم (سعيدة مبارك) وكان حكمدار العاصمة هو (يوسف بك وهبي).. لم تعد الأمور بهذه البساطة.. سوف أحتاج إلى نصف يوم كي أقنع أحدًا بإذاعة خبر كهذا، ثم أن أحدًا لم يعد يشاهد القنوات الأرضية أو يسمع المذياع.. الكل يتابع الفضائيات..

هرعت إلى بيت (عصام) وحكيت له القصة فبدا مهتمًا برغم حالته التعسة..

- «هل تعني أن هذا الرجل البائس يحمل علبة كاملة من دواء السكر على أنها أقراص تخسيس؟»

ثم هز رأسه في عدم تصديق:

- «ما أغبى الناس!.. يحتفظون بدواء في علبة دواء آخر دون بيانات.. في فترة من الفترات كانت الأمهات يضعن صودا الغسيل في كوب ماء ثم يملأن الدنيا صراخًا عندما يشربها أطفالهن لأن منظرها يبدو كاللبن.. النتيجة أن الطفل البائس يموت فورًا أو يفقد المريء ويستبدلونه بجزء من القولون!»

ثم نظر لي مفكرًا وقال:

- «هات الهاتف..»

تناول السماعة وطلب رقمًا ثم قال:

- «مرحبًا يا (محمود).. هناك رجل ابتاع أقراص تخسيس في علبة.. ماذا؟.. وما شأنك بهذا؟.. دعني أكمل... المشكلة ان العلبة تحوي دواء قاتلاً.. شاب يلبس ثيابًا أنيقة نوعًا وعلى خده جرح

ويضع عوينات سودًا.. الصيدلية تدعى (ابن سينا) وتقع في..... أريد أن تبلغ هذه الرسالة حرفيًا
لخمسة من معارفك.. من ير هذا الشاب عليه أن يحذره حالاً ويتصل برقم (وذكر رقم هاتفه)..
هذه أمانة سوف يسألك الله عنها..»

ثم طلب رقمًا آخر وكرر الرسالة:

- «مرحبًا يا (شريف).. هناك رجل ابتاع أقراص تخسيس في علبة.. المشكلة ان العلبة تحوي
دواء قاتلاً.. شاب يلبس ثيابًا... الخ.. الخ»

فعل هذا ثلاث مرات أخرى.. ثم نظر لي باسمًا..

قلت له في شك:

- «ألا ترى أنها طريقة غير فعالة؟؟»

- «بل هي أكثر كفاءة من الإذاعة ذاتها.. لقد ذكرتهم بأنها أمانة أمام الله حتى أقلق ضميرهم
الديني.. هكذا لن يجسر أحد على مخالفة أوامري لأننا شعب متدين بطبعه.. فلننتظر ولنر.. كم
الساعة الآن؟»

- «الواحدة والربع ظهرًا..»

هكذا ظللنا ننتظر..

عطست مرتين وبدأ أنفي يسيل.. واضح أنني أصبت بتلك العدوى منه.. وبدأت أدرك أن هذا
مرض الموت لا شك فيه.. طلبت من عفاف أن تحضر لي بعض الليمون الساخن بينما راح
(عصام) يحاول أن يركز في تلك الأوراق العلمية..

في الساعة الثالثة إلا الربع دق جرس الهاتف فوثب (عصام) يمسك بالسماعة.. بدأ يصغي ثم بدأ
الحبور يزحف إلى ملامحه:

_ «مهندس (داود)؟.. مرحبًا بك.. أنا أدعى (عصام فتحي).. شكرًا لك.. تقول إنه جارك وإنك
حذرتك؟.. لم يتناول قرصًا؟.. أشكرك جزيل الشكر.. في أي وقت..»

ثم وضع السماعة ونظر لي في انتصار وقال:

- «نجحنا يا صبي!»

قلت له في ذهول:

- «خلال ساعتين إلا الربع؟.. هل لك أن تفسر لي؟»

قال وهو يمسك بورقة وقلم:

- «الناس لا تصدق قوة المتواليات.. تعال نر ما يحدث عندما ننقل الخبر إلى خمسة أشخاص،
بفرض أن عملية الاتصال تستغرق ربع ساعة:

في الساعة الواحدة عرف الخبر شخص واحد..

في الساعة الواحدة والرّبع عرف الخبر خمسة أشخاص وأنا.. إذن هم ستة أشخاص..

في الساعة الواحدة والنصف عرف الخبر 6 + (5X5) .. إذن هم 31 شخصًا..

في الساعة الثانية إلا الرّبع عرف الخبر

31 + (25X5) .. إذن هم 156 شخصًا..

في الساعة الثانية عرف الخبر

156 + (125X5) .. إذن هم 781 شخصًا..

في الساعة الثانية والرّبع عرف الخبر

781 + (625X5) .. إذن هم 3906 شخص..

في الساعة الثانية والنصف عرف الخبر

3906 + (3125X5) .. إذن هم 19531 شخصًا..

في الساعة الثالثة إلا الرّبع عرف الخبر

19531 + (15625X5) .. إذن هم 97656 شخصًا..

إذن نحن قد عرفنا معلومات نحو مائة ألف شخص في أقل من ساعتين..»

قلت له في دهشة:

- «لاحظ أن تعداد القاهرة يبلغ الملايين..»

- «لكن حظنا الحسن جعل واحدًا من هؤلاء يعرف الرجل.. لا تستهن برقم مئة ألف أبدًا.. وعلى كل حال لو استمرت هذه المتوالية لوجدت أن كل واحد في القاهرة كان سيعرف الموضوع خلال أربع وعشرين ساعة..»

ثم أضاف وهو يلقي بمنديل آخر في القمامة:

- «الآن يمكن أن تذهب للصيدلية كي تبتاع لي هذا الدواء وتتخذ ما تراه من إجراءات.. ربما توجه لهم تهمة الإهمال أو شيء من هذا القبيل..»

قلت له وأنا أجلس لاهثًا:

- «أعتقد أن على أولاً أن أطلب من (عفاف) أن تذهب للصيدلية.. لقد صار هنا مريضان.. أنا سعيد لأن مجيئي هنا أنقذ حياة بريء.. لكن لا استبعد أن بريئًا آخر سيلقى حتفه اليوم..»

ونظرت له في إعجاب.. لن يكف عن إثارة انبهارى حتى وقد أوشك المرض على أن يطير صوابه.. أعتقد أن خلايا عقل هذا الرجل هي آخر شيء سيموت فيه.. إنه بحق يستحق اللقب الذي

أطلقته عليه في سري: رجل الأرقام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحلة منحوسة..

لم يكن صديقي العبقري (عصام فتحي) ممن يهتمون بالرياضة البدنية على الإطلاق حتى قبل أن يصاب في ذلك الحادث الذي أقعده، وكانت أسئلته تنم عن سذاجة لا شك فيها وهو يتابع مباراة عابرة على شاشة التلفزيون.. مثلاً لم أستطع قط أن أشرح له معنى (التسلل) أو (الأوف سايد)، وقد شعرت للحظة بأنه غبي فعلاً ثم ابتلعت هذا الاتهام.. آخر من يمكن أن نتهمه بالغباء هو (عصام)..

فقط كان يتابع المباراة فتخطر له أشياء غريبة لا تمت للموضوع بصلة.. ذات مرة قال لي وهو يتابع إحدى المباريات عندما قال المعلق إن هناك نحو مائة ألف متفرج في المدرجات:

- «هل تتصور أن هناك حوالي 270 شخصاً بين المشاهدين لهم ذات يوم عيد ميلادك؟»

نظرت له غير مصدق، فقال مصححاً:

- «نحن نتعامل بالمتوسطات.. قد يكون العدد أكبر أو أقل.. لكن لو تكلمنا عن عشر مباريات لكانت النتيجة أكثر دقة..»

قلت له:

- «وهل ينطبق هذا عليك أنت أيضاً؟.. أنت ولدت في التاسع والعشرين من فبراير.. وكنا نتندر على هذه النقطة أيام المدرسة..»

قال باسمًا:

- «أنا الاستثناء الوحيد للقاعدة.. هناك 68 مشاهدًا فقط يشاركوني عيد ميلادي..»

ثم عاد يتناول عشاءه بينما رحت أتابع المباراة في حماس لا يضايقي سوى صوت القضم والبلع.. دخلت (عفاف) جالبة الشاي وراحت تتهامس معه في أشياء لم أسمعها، والحقيقة أنني بدأت أشعر بأن زوجتي عبقريّة حقًا.. (عفاف) تحب (عصام) وهذا واضح من تلك الإيماءات الخافتة التي لا تقدمها إلا أنني ولا يفهمها إلا رجل، لكن ما مصير هذا الحب؟.. إنها لطيفة بأسلة نشيطة ولها وجه محب للنفس، ولو لم يكن قد مال إليها فهو أحرق أو ربما الأحمق الوحيد هو أنا..

لا أعرف السبب الذي يجعل الناس يقررون أن يضعوا أنفسهم وأطفالهم وحقائبهم في سيارة تتجه عبر الصحراء إلى مكان ما، لكن هذا ما حدث فعلاً.. لقد وجدنا أننا نضع أطفالنا في سيارتي قاصدين (مرسى مطروح).. إنها رحلة ليست هينة على الإطلاق عندما تقوم بها من القاهرة لكننا فعلنا ذلك.. يجب أن أذكر أننا كنا في مايو قبل موسم الاصطياف بفترة لا بأس بها طمعًا في أن نجد المدينة الحسنة خالية.. كنت أنا وزوجتي وثلاثة الأطفال.. لا أعرف كيف استطعنا أن نحشر (عصام) و(عفاف) معنا لكننا نجحنا في ذلك.. هو في المقعد الأمامي الأيمن وعلى ساقه

الغافية وضعنا طفلاً.. زوجتي وعفاف في المقعد الخلفي وعلى حجر كل منهما طفل يعوي ويبلل ثوبيهما..

يبدو ترتيباً سخيلاً، خاصة انه يعني تغييرات أكثر.. مثلاً سوف أقيم مع (عصام) وطفلي الأكبر في غرفة واحدة، بينما تقيم زوجتي مع الطفلين الآخرين وعفاف في غرفة أخرى.. لكن زوجتي كانت تعرف علاقتي بـ (عصام) وأني عاجز بالفعل عن الاستمتاع بأية إجازة من دون أن يكون معي.. دعك من أنني أدرك قبل غيري أن المسكين يختنق في عزلته.. لهذا تنازلت عن حقها وقبلت.. دعك من أنها كانت تحب (عفاف) فعلاً..

مضت الرحلة على خير و(عصام) يحكي للأطفال حكايات مسلية لا تنتهي، بينما كف عقلي عن التفكير.. صار الحاضر والمستقبل طريقاً لا ينتهي.. فقط احتفظت بقدر من الانعكاسات العصبية يسمح لي ألا أقتل حمولة اللحم البشري المحشورة في السيارة..

كنا الآن نشق طريقنا عبر الساحل الشمالي.. نمر بتلك القرى السياحية التي لا يقيم فيها سكانها إلا ثلاثة أيام كل عام وفيما عدا هذا تصوير مدن أشباح.. فجأة شعرت بأن السيارة ليست على ما يرام.. إنها تتنفض وتحاول جاهدة أن تبقى حية لكن أجّلها قد جاء..

في النهاية استطعت أن أميل بها إلى جانب الطريق.. وكان هذا في الوقت المناسب لأنها قررت أن هذا آخر ما تستطيع عمله...

أطلقت سبة ونهضت أفتح الغطاء وأنفحص المحرك.. بالطبع لم أستطع فهم أي شيء على الإطلاق.. هي حركة غريزية لكن لا معنى لها..

- «هل من أخبار سيئة؟»

قالتها زوجتي في قلق وهي تطل من المقعد الخلفي، فقلت لها في غيظ:

- «لا شيء سوى الأخبار السيئة..»

ثم نظرت إلى الأفق.. لا شيء.. والأدهى أن المرور في هذا الطريق نادر في هذا الوقت.. قلت لهم إن السبيل الوحيد هو أن أمشي بحثاً عن شخص يساعدنا.. ربما جهاز هاتف أو أي شيء.. سيكون عليهم أن يبقوا بالسيارة.. لا أريد مغامرات لا داعي لها..

هنا انفجر طفلان باكين يطلبان دخول الحمام، وأي حمام يطلبان؟.. أخذت كلاهما من يده إلى أحد الكشبان الرملية ودرنا خلفه وسمحت لهما بأن يلبيا نداء الطبيعة، ثم أعدتهما للسيارة وحييت (عصام) وانطلقت في تلك الرحلة الشاقة التي لا يعلم إلا الله متى تنتهي..

كان هذا وقت العصر وأدركت كم سيكون المشهد بهيجاً عندما يأتي الظلام.. الظلام والصحراء.. أتمنى أن أبكي وأرتجف، التصق بواحد من الكبار، لكن الحقيقة القاسية هي أنك الكبار!... أنت من يجب أن يمنح القوة والأمن للآخرين!..

أمشي.. أمشي...

لا أعرف كم مضى من وقت.. مشيت نحو ساعة تقريباً.. لكن معالم الطريق كانت متشابهة

بحيث لم أعد قادرًا على تمييز شيء...

فجأة لمحت وسط الرمال على جانب الطريق شيئًا ما.. إنه جسم مريب الشكل في جوال دفن نصفه في الرمل.. هكذا قررت أن اقترب لأرى.. ولكن.. حذار.. نحن قريبون من العلمين بلا شك وأعرف أن اجتياز الرمال على جانبي الطريق خطر داهم هنا.. ما زالت ألغام الأخ (روميل) والأخ (مونتجومري) تؤدي عملاً لا بأس به بعد ستين عامًا..

لمحت آثار أقدام على الرمال فتوكلت على الله وقررت أن اقترب أكثر.. سوف أغرس قدمي في مواضع الأقدام السابقة..

انحنيت وتفحصت الجوال وعلى الفور وثبت مترين للخلف.. إن الكف التي رأيتهما تطل منه ليست كف كلب بالتأكيد.. الآن أفهم محتوى هذا الجوال... هناك من دفنه في الرمال لكن يبدو أن الضواري قد حاولت أن تكشفه.. على كل حال لا شك في أن هذا العمل البشع لم يتم منذ فترة طويلة وإلا لأزالت الرياح آثار الأقدام..

حاولت أن اعرف بالضبط أين أنا.. يجب أن أحدد هذا المكان بدقة لأعود له فيما بعد... هناك سحابة فوقه فهل هذا كاف على طريقة (جحا)؟.. لا توجد شجرة مميزة.. لا يوجد شيء... هكذا بحثت عن غصن شجرة وغرسته على جانب الطريق.. بقي أن أحدد كم توغلت في الداخل حتى بلغته.. عشرين خطوة.. عشرين خطوة من جانب الطريق..

هكذا تركت هذا المشهد الرهيب وواصلت السير.. كان حظي حسنًا هذه المرة لأنني لم أمش أكثر من عشر دقائق حتى وجدت ورشة ميكانيكا عند مدخل واحدة من تلك القرى، وسرعان ما كنت أركب

وراء الميكانيكي دراجته البخارية عائدين إلى حيث كانت أسرتي...

تقاضى الرجل مبلغًا فلكيًا، لكنني لم أدفع مالا في حياتي بهذا القدر من الرضا.. لقد كلمني عن (الكتاوت) ودائرة (الديفرانس) فلم أع حرفًا مما يقول.. كل ما أعرفه هو أن السيارة دارت..

وحينما انطلقنا من جديد كانت المرأتين والأطفال قد ناموا.. هكذا صار بوسعي أن أتكلم همسًا مع (عصام).. قلت له إنني وجدت جثة مدفونة في الرمال.. إنها على بعد ساعة من المشي..

قال في حماس إننا يجب أن نجدها ونبلغ الشرطة.. دم هذا القتل لن يذهب هباء وقد أوشك على ذلك..

هكذا رحت أشق الطريق بسيارتي.. لا أدري كم من الوقت مر، لكنني في النهاية أدركت يقينًا أنني أضعت الطريق.. لن أستطيع أبدًا العودة إلى الموضع الذي كانت فيه الجثة..

قال في خيبة أمل:

- «لا تعرف الكيلو الذي وجدتها فيه؟»

- «لم أحمل مقياس المسافات للأسف..»

فكر حينًا ثم قال لي:

- « كم قطعنا منذ كانت السيارة معطلة ؟ .. »

- « حوالي ثلاثة كيلومترات .. »

قال في حزم:

- « ترجل .. »

- « ولكن .. »

ونفذت الأمر .. فرأيته يمسك بساعته ويأمرني بأن أمشي بخطوتي العادية .. ثم قال في انتصار:

- « الأمر سهل .. تعال واركب .. »

انطلقت بالسيارة وسألته عن نظريته فقال باسمًا:

- « أنت وجدت الجوال على بعد أربعة كيلومترات من موضع السيارة، لأنك تقطع في الساعة أربعة كيلومترات وقد وجدته بعد ساعة .. »

- « يا سلام ؟ ؟ .. من أدراك بسرعتي في المشي ؟ »

- « هناك قاعدة قديمة هي أن عدد خطواتك في ثلاث ثوان هو ذاته عدد الكيلومترات التي تقطعها في ساعة ! .. لهذا أجريت هذه التجربة الصغيرة معك فوجدت أنك تمشي أربع خطوات في ثلاث ثوان .. إذن أنت تمشي أربعة كيلومترات في الساعة ! »

- « لم أسمع هذه القاعدة من قبل .. »

- « لكنها صحيحة .. ويسهل التأكد منها .. نحن نقرب من الكيلومتر الرابع .. عليك أن تبطئ السرعة وتبحث عن العصا .. »

مرت الدقائق وفجأة هتف في انتصار:

- « هذا هو غصن الشجرة .. »

أوقفت السيارة وترجلت منها .. هنا رأيته يخرج رأسه من نافذة السيارة ويقول لي في خبث:

- « الجوال على بعد ستة عشر مترًا ونصف .. »

نظرت له في غيظ وقلت:

- « هو على بعد عشرين خطوة .. لا تقل إنك تعرف اتساع خطوتي .. قد تكون ضيقة أو واسعة جدًا »

- « بل اتساع خطواتك هو 0.83 متر. ثمة قاعدة قديمة أخرى تقول إن اتساع خطواتك هو منتصف المسافة بين عينيك وقدميك ! .. طولك كما أعرفه 175 سم .. نطرح عشرة سنتيمترات لقمة رأسك .. إذن نحن نتكلم عن 165 سم .. نصفها 0.83 متر بالتقريب .. إذن عشرون خطوة X 0.83 تساوي ستة عشر مترًا ونصف ! »

أغاظني هذا الجزء الأخير، فقد شعرت انه استعراض عضلات لا أكثر..

لكني على كل حال مشيت في حذر تلك العشرين خطوة، ووجدت الجوال حيث هو.. طبعًا ليس من الوارد أن نحمله أو نأخذه معنا.. كل ما أستطيع عمله هو أن ابليج رجال الشرطة بمكانه... عشر دقائق من المشي قبل بلوغ ذلك الميكانيكي.. إذن 666 مترًا لو أخذنا كلام (عصام) على محمل الجد..

تري من هو؟.. من قتله؟.. أسئلة لا أعرف إجابتها لكني أعتقد أن رجال الشرطة قادرون على معرفتها.. (هابياس كوربوس) قاعدة قديمة مهمة في القانون الروماني ومعناها (أظهر الجثة) ... متى ظهرت الجثة صار كل شيء ممكنًا وصارت هناك بداية خيط.. سوف يعرفون صاحب الجثة ويعرفون من اختفى بهذه الصفات من المناطق المجاورة.. ويعرفون أعداء هذا المختفي ولسوف تضيق الدائرة...

كالعادة يبرهن (عصام) على أنه رجل الأرقام وعلى أن هذا المستقر فوق كتفيه هو كمبيوتر آدمي.. كمبيوتر يملك الخيال وروح المبادأة...

عدت إلى السيارة وحاولت إدارة المحرك فلم يستجب.. كان من الخطأ أن أوقفه..

تبادلت نظرة ذات معنى مع (عصام)...

- «ماذا تنوي عمله؟»

قلت وأنا افتح باب السيارة:

- «وماذا تتوقع؟.. سأمشي في الظلام 666 مترًا أو عشر دقائق بخطوة يبلغ اتساعها 0.83 متر إلى أن أجد هذا الميكانيكي النصاب وأعود به..»

حقًا لا أعرف السبب الذي يجعل الناس يقررون أن يضعوا أنفسهم وأطفالهم وحقائبهم في سيارة تتجه عبر الصحراء إلى مكان ما، ويطلقون على هذا النشاط المرعب اسم (استمتاع).. لو كنت تعرف إجابة مقنعة فلتخبرني بها من فضلك!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سميرة والأقزام السبعة..

لا توجد طريقة لصنع نقود في هذا العالم..

هذه الحقيقة كانت (سميرة) تعرفها يقيئاً لكنها لم تشعر بها إلى هذا الحد إلا الآن.. إنها توشك على الاختناق فعلاً من فرط الحاجة العاصرة للمال، لكنها ليست من القادرين على صنع المال عندما يريدون ذلك..

قال الجراح إن حالة عيني أمها تتفاقم وإن اليزر هو الحل الوحيد.. قال مجلس المدينة إن البناية ستنتهار خلال أيام ويجب أن تجد شقة أخرى.. قال أخوها (عمر) إنه لا يفقه شيئاً في الاستاتيكا وإنه بحاجة لدرس خصوصي.. إذن هي ليست بحاجة إلى القليل من المال.. إنها تريد كمية وافرة لا تنضب.. لم تطلب أية علاوة من مدير الشركة لأنها تعرف أن الموضوع غير مطروح.. لو كان كريم النفس ملائكياً - وهو كذلك - لمنحها ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه.. قطرة في بحر..

طرق الحصول على مال سريع - وهي الوراثة والزواج والهجرة والسرقة - لا تناسبها جميعاً.. ليس لها قريب في البرازيل صار ملك البن ويوصي لها بكل ثروته، وهي لا تملك مؤهلات تتيح لها الزواج من مليونير، ولا تستطيع أن تجد عقد عمل لأن شهاداتها غير براقة..

وماذا عن السرقة؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما اتجهت لزيارة (عصام فتحي) صديقي عبقرى الأرقام، كنت أشعر بخجل لأنني لم أزره منذ أسبوعين، وهأنذا أزره من أجل مصلحة.. هناك مشكلة في عملي أتوقع أنه يملك جواباً عنها..

أدخلتني (عفاف) إلى غرفته فوجدته جالساً أمام رقعة الشطرنج، وهو غارق في التفكير.. الغريب أنه قد أضاف ملاحظتين صغيرتين لتكونا ضمن قطع الشطرنج.. أحياناً نفعل ذلك عندما نفقد قطعة من أحجار اللعب.. عندي في البيت أستعمل قداحة بدلاً من الحصان الأبيض لأن العيال قد تخلصوا من هذا الأخير من الشرفة.. لكنني لاحظت أن أحجار رقعته كاملة.. أي إنه يلعب بـ 34 قطعة..

قالت لي (عفاف):

- «هو كذلك منذ الصباح.. يبدو ان هناك معضلة تحيره..»

عندما تنبه لوجودي أشرق وجهه الشاحب وقال:

- «الجميل..!!.. فعلاً هذه اللعبة تحتاج إلى قطعة إضافية هي الجمل..»

ابتلعت ملحوظتي عن عدم رؤيته نور الشمس مما أورثه هذا اللون الشاحب الجدير بمصاصي الدماء أو طحالب الكهوف، وقلت:

- «هل جئت أنت بعد كل هذه السنين لتكتشف أن لعبة الشطرنج خطأ؟»

قال في هدوء:

- «لم أقل إنها خطأ لكن قلت إنها ناقصة.. ثانيًا لست أول من لاحظ ذلك.. العبقري (الخليل بن أحمد) مكتشف أوزان الشعر هو أول من فكر في هذا.. اليوم أجرب فكرته فأجدها موفقة جدًا..»

ثم أزاح الرقعة جانبًا وقال:

- «دعنا من هذا وقل لي القضية التي تحيرك.. لا تقل إنك جئت للتودد لي لأنني أعرف تعبير الحرج على وجهك واحمرار أذنك.. هاتان علامتان تدلان على أنك في حيرة..»

فكرت حينًا ثم بدأت أحكي قصتي بلا اعتذار لأننا تجاوزنا هذه المرحلة..

قلت لـ (عصام):

- «الشركة التي أتحدث عنها شركة كمبيوتر.. المدير يدعى (محمود أبو رية) وهو رجل عصامي ناجح لكنه شارد الذهن سريع النسيان.. هناك خزانة في مكتبه بها مبلغ لا بأس به.. بما أن الدار أمان كما يقولون وهو يعرف من يعملون معه، فهو لا يعنى بإغلاق مكتبه جيدًا.. لكنه بالتأكيد يغلق الخزانة بأرقام سرية، تتغير يوميًا ولا يعرفها سواه..»

قال (عصام):

- «فلنختصر.. لقد سرقت الخزانة طبعًا ومن دون أثر للعنف»

- «بالتأكيد.. هناك اثنان فقط يمكن أن يتسللا للمكتب.. الأول مهندس كمبيوتر شاب يدعى (فخري) وهو ذراع (محمود) اليمنى.. إن سيرته حسنة ولا تحوم حوله شبهات لكنه مقبل على الزواج.. الثاني سكرتيرة تدعى (سميرة).. مؤهل متوسط وفقيرة.. لا غبار عليها، لكنها في ضائقة مالية طاحنة.. وفي ذلك اليوم بقي (محمود) و(سميرة) و(فخري) إلى ساعة متأخرة.. ثم جاءت مكالمة عاجلة لـ (محمود) فاضطر إلى مغادرة المكتب وترك الاثنين.. هو يثق بهما ثم إنه يعرف أن الخزانة مغلقة بأرقام سرية.. بعد هذا غادر (فخري) الشركة لىبتاع شطائر وعندما عاد كانت (سميرة) تتأهب للرحيل.. رحلت أولاً ولم يرها.. ثم رحل هو بعد ساعة.. أعني أنه كان بوسعها ان تغادر الشركة وهي تحمل كيسًا صغيرًا ونفس الشيء ينطبق عليه.. طبعًا يزعم كل منهما أن الآخر كان مرتبًا وعلى غير طبيعته..

«في اليوم التالي يفتح (محمود) الخزانة ليكتشف اختفاء ستين ألفا من الجنيهات لم يوردها إلى المصرف.. لا توجد علامات عنف أو اقتحام.. أي أن اللص لم يأت من خارج الشركة.. بالنسبة لنا جئنا واستجوبنا الشابين.. وجدنا بصمات أصابعهما خارج وداخل الخزانة لكن (محمود) يرى أن هذا طبيعي لأنه يطلب منهما تنسيق محتويات الخزانة كثيرًا في وجوده.. طبعًا لم تظهر على واحد منهما علامات ثراء مفاجئ.. لكن أصابع الاتهام تشير بشكل شبه كامل إلى (سميرة).. إنها الأحوج»

قال (عصام) في شيء من السخرية:

- «والأفقر.. والأضعف.. لكن ماذا عن صديقك صاحب الشركة شارد الذهن؟.. ألا يكتب الرقم السري لفتح الخزانة على قصاصة ورق ينساها في أي مكان؟..»

- «تأكدنا من هذا.. إنه مصر على أنه لا يدون الرقم أبدًا...»

فكر قليلاً ثم قال:

- «هل معك صور؟.. من المفيد لي أن أتأمل المكان والوجوه.. إن الانطباعات الأولى لا تساوي شيئاً عندكم معشر رجال الشرطة، لكنها مهمة جداً بالنسبة لي..»

مددت يدي في جيبى وأخرجت حافظتي وناولته ثلاث صور:

- «الصورة الأولى التقطت للمدير منذ شهر.. من تقف جواره هي (سميرة).. الصورة الثانية له مع (فخري).. الصورة الثالثة للمكتب بعد السطو وقد التقطها رجالنا..»

راح يتأمل الصور في استمتاع وهو يبدي ملاحظاته التي لم أر لها لزوماً:

- «فتاة خجول وأعتقد أنها ربيت جيداً.. مدير طيب القلب لا يتعالى على مرءوسيه.. هذه التماثيل جميلة جداً لكنها فكرة غريبة..»

كانت هناك إلى يمين الجالس على المكتب مكتبة صغيرة عليها صف من التماثيل الخزفية الصغيرة التي تمثل أقزام (ديزني) السبعة.. لكن عددها لم يكن كاملاً..

انتهى من فحص الصور، ثم نظر لي باسمًا وقال:

- «قلت إن (سميرة) هذه حاصلة على مؤهل متوسط..»

- «خدمة عامة.. نعم..»

- «إذن ليس بوسعها معرفة ال.. أنا أتهم الفتى.. قلت ما اسمه؟.. (فخري).. أنا أتهمه وسوف يلين مع الضغط عليه..»

نظرت له في حيرة.. هل بدأ في التخمين؟.. هل يبرئ الفتاة لمجرد أنها الأضعف والأفقر؟.. الفقراء أيضًا يرتكبون الجرائم فليسوا جميعًا ملائكة مظلومين، ثم إن (فخري) هذا ليس (بيل جيتس) لو كنت تفهم قصدي..

قال (عصام) وهو يلتقط الصور التي وضعها على النضد:

- «هل عرفتم الأرقام السرية للخزانة في ذلك اليوم؟.. ليست الصور كاملة لكنها تبدأ ب. 183»

نظرت له في ذهول ثم أخرجت هاتفي المحمول وأجريت مكالمة سريعة بصوت هامس، ثم عدت له وأنا أحمل ألف سؤال..

قال (عصام) في هدوء:

- «التمائيل التي تمثل الأرقام السبعة هي طريقة بسيطة جدًا استعملها (محمود) ليتذكر الرقم السري للخبزينة، ولم يخبركم بها.. لو لاحظت لوجدت أن هناك تماثيل ناقصة.. تمثال.. تمثال.. تمثال.. لا تمثال.. الخ. لو أننا استبدلنا الرقم واحد بالتمثال الموجود والرقم صفر بالموضع الخالي لوجدنا الشكل التالي:

1 1 1 0 1 1 0 1

وهو رقم ثنائي ممتاز يمكن قراءته لمن يملك خبرة بسيطة بالحاسب الآلي، وهي خبرة لا أعتقد أن الفتاة تملكها.. (محمود) كان يملكها وكان في كل يوم يغير أوضاع التماثيل لترمز للرقم الجديد الخاص بالخبزينة ثم يغادر المكتب.. تماثيل بريئة لا يلاحظها أحد سوى مساعده (فخري) الذي أدرك أن وضع التماثيل يتبدل من يوم ليوم.. هكذا كون نظريته الصحيحة، وتمكن من فتح الخبزينة..»

قلت في صبر:

- «أنا لا أعرف أي شيء عن هذه الأرقام الثنائية..»

قال وهو يخط على ورقة ليوضح لي الأمر:

- «الحاسبات الآلية لا تملك عشرة أصابع مثلنا، بل إصبعًا واحدًا.. إما أن تكون هناك شحنة أو لا شحنة.. نعم أم لا.. نرسم للوضع الأول برقم (1) والوضع الثاني برقم (0).. كل رقم يدعى Bit والثمانية أرقام تدعى Byte.. تخبرنا قوانين الاحتمالات أن الأوضاع المحتملة هي 256 وضعًا تبدأ بالصفر وتنتهي بـ 255.. لكن الترقيم الثنائي معروف من القرن السابع عشر عندما وصفه العلامة (لينتز)، وتم استخدامه في الحاسبات الآلية عام 1937 على يد العلامة (شانون).. يمكن أن نقرأ الرقم الثنائي بأن تبدأ من اليمين وكلما قابلت الرقم 1 فهذا يعني (2) مرفوعة لأس الخانة التي أنت فيها بعد طرح واحد..

مثلاً لقراءة الرقم الثنائي 1001 نبدأ من اليمين.. نعرف أنه مجموع 2 أس صفر (وهذه معناها الرقم 1).. زائد صفر.. زائد صفر.. زائد 2 أس 3 (أي 8).. إذن المجموع 1 + 8 هو 9..

1 0 0 1

^ ^ ^

$$x 2^0 = 1 \times 1 = 11 < \_\_\_\_\_\_ | | |$$

$$x 2^1 = 0 \times 2 = 00 < \_\_\_\_\_\_ | |$$

$$x 2^2 = 0 \times 4 = 00 < \_\_\_\_\_\_ |$$

$$x 2^3 = 1 \times 8 = 81 < \_\_\_\_\_\_ |$$

الآن تعال نر وضع التماثيل الستة الذي تركه صاحبنا... ثلاثة تماثيل متجاورة من اليمين ثم لا شيء... ثم تماثلان.. ثم لا شيء... ثم تماثل.. أي أن الرقم الثنائي هو:

1 1 1 0 1 1 0 1

^ ^ ^ ^ ^ ^ ^ ^

$$x 2^0 = 1 \times 1 = 11 < \underline{\hspace{2cm}} | | | | | | |$$

$$x 2^1 = 1 \times 2 = 21 < \underline{\hspace{2cm}} | | | | | | |$$

$$x 2^2 = 1 \times 4 = 41 < \underline{\hspace{2cm}} | | | | | | |$$

$$x 2^3 = 0 \times 8 = 00 < \underline{\hspace{2cm}} | | | | | | |$$

$$x 2^4 = 1 \times 16 = 161 < \underline{\hspace{2cm}} | | | | | | |$$

$$x 2^5 = 1 \times 32 = 321 < \underline{\hspace{2cm}} | | | | | | |$$

$$x 2^6 = 0 \times 64 = 00 < \underline{\hspace{2cm}} | | | | | | |$$

$$x 2^7 = 1 \times 128 = 1281 < \underline{\hspace{2cm}} | | | | | | |$$

183

يقولون ساخرين عن النظام الثنائي: الناس عشرة أنواع.. نوع يفهم التقييم الثنائي ونوع لا يفهمه!.. وعلى كل حال برهن هذا النظام عن أهميته في الحاسبات الآلية وفي الشفرات.. لا أحد يخطر له أن شريطًا مزخرفًا عليه العلامات: 11111111 إنما يعني 255..»

«القصة واضحة.. (محمود) لم يكن يثق في ذاكرته، لذا اعتمد على هذه الطريقة العبقريّة ليحتفظ بأرقام فتح الخزانة، ولم يخطر بباله أن هناك عبقريًا آخر سوف يستنتج أن وضع التماثيل يتبدل كل يوم.. القصة كلها معقدة، أشك في أن تخطر ببال هذه الفتاة البريئة الساذجة مهما كانت ظروفها..»

لقد انتهت القضية!.... كنت أقف مذهولاً بينما أعاد رقعة الشطرنج ليضعها أمامه وقال وهو يحك رأسه:

- «لكني ما زلت مصرًا على أن هذه اللعبة تحتاج إلى جمل ما!.. ألا ترى هذا معي؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هرقل يعود..

لا توجد حدود للقدرات البشرية..

هذا هو ما قلته لنفسى في تلك الليلة.. في البداية آمنت أنه لا حدود للقدرات البشرية من ناحية الثراء والنفوذ، ثم اقتنعت بأنه لا حدود من ناحية القوى العضلية..

كنت في ذلك الحفل الذي أقامه أحد معارفى من الأثرياء رجال الأعمال.. حفل من الطراز الذي تحضره مرة واحدة في حياتك، ويظل فمك مفتوحًا عدة أشهر بعدها بينما تظل زوجتك ترمقك في نظرة صامتة.. معناها كما هو واضح هو: لماذا فقدت عقلي وقبلت الزواج من هذا المتسول؟

قلت لها في وضوح:

- «هذا الرجل لص.. ولهذا دعاني إلى الحفل لأنه حريص على أن يكسب مودة بعض رجال الشرطة متوهمًا أنهم سيساعدونه يومًا ما..»

- «هراء!.. هؤلاء هم عليه القوم بلا زيادة أو نقصان..»

حمام السباحة مغطى بأضواء كاشفة ملونة والبالونات الملونة تسبح فوق مائه، بينما ينتشر حول أقدامنا ذلك الضباب الغريب.. ثم يقطع شعاع الليزر كل هذا من حين لآخر.. هناك منحدر زلق شديد الميل يقود إلى المسرح (ولم أفهم الغرض منه وقتها) حيث تقف فرقة تعزف موسيقا راقية.. كان هناك غناء لكنها تلك المطربة الساحرة التي لا أذكر اسمها والتي تراها في الفضائيات كلها..

أما عن الطعام فحدث ولا حرج.. لحوم الكانجارو والنعام وأسماك القريدس والاستاكوزا والروبيان (الجمبري).. طبعًا لم أذوق أيًا من اللحوم العجيبة لكنى انبهرت بوجودها..

هناك الكثير من الرقص وهؤلاء القوم الذين يعتبرونهم زيد المجتمع، والذين يحمل كل منهم لقب (بيه).. وهناك ضحكات مفتعلة ومجاملات و.. و..

المهم أنني لم أكن سعيدًا على الإطلاق.. كنت أريد أن ينتهي كل هذا.. دعك من أن حياتي كضابط شرطة جعلتني لا أجد راحتي النفسية إلا في أوساط أكثر خطورة وأقل افتعاليًا.. يبدو أنني لا أكون على راحتي إلا مع لصوص الشقق والنشالين والقتلة.. الآن أجدهم ليسوا بهذا السوء..

عندما توقفت الموسيقى، ظهر صاحب الحفل من مكان ما وأعلن عن فقره سوف تدير رءوسنا.. إنه قد استطاع أخيرًا أن يقابل (هرقل).. (هرقل) لم يمت وإنما خليفته موجود هنا معنا، وبما أنه حريص على إمتاعنا وإبهارنا فقد دفع له كي يعرض قواه على السادة هنا..

ودوت الموسيقى على حين ظهر شاب له ارتفاع وحجم الغرفة التي تجلس أنت فيها الآن.. كان يلبس قميصًا حشر فيه صدره كيفما كان حتى أوشكت أزواره على الانفجار.. أسمر اللون له عنق صلب محتقن الأوردة، وقدرت أنه في العقد الثالث من عمره..

دون كلمة أخرى مد (هرقل) يده إلى كأس فارغة فبدأ يقضم الزجاج منها ويلوكة في استمتاع كأنه قطعة من الحلوى.. شهقت بعض السيدات غير مصدقات وضحك الرجال.. الأخ (هرقل) ينهي الكأس ثم يرفع لنا ما تبقي منه.. يصفق الجميع..

وأخيراً جاء الجزء الضخم من العرض.. لقد دخلت سيارة يابانية (نصف نقل) إلى المكان فابتعد الناس يفسحون لها الطريق منبهرين.. تراجعت السيارة بظهرها لتصعد المنحدر شديد الميل إلى منتصفه، على حين قال صاحب الدعوة:

- «كما ترون.. السيارة تعتمد على فراملها لتبقى حيث هي، لكنها مهددة في أية لحظة بأن تنحدر لأسفل.. (هرقل) سوف يبقى السيارة حيث هي بقواه المذهلة»

(هرقل) تقدم في ثقة فربط حبلًا إلى مقدم السيارة، ثم جذب الحبل وربطه إلى وتد يخرج من أرض المسرح ولفه ثلاث مرات ثم جذبه على كتفه.. وبدأ الشد..

- «الآن أعدوا أيديكم للتصفيق..»

خرج سائق السيارة منها ليرينا أنه لم يعد يضغط على الفرامل.. لكن السيارة ظلت حيث هي بمعجزة صغيرة.. إن عضلات (هرقل) هي الشيء الوحيد الذي أبقاها حيث هي.. كان يشد الحبل بقوة وعنف وقد ارتسمت الأوردة بوضوح على عضلاته.. وللحظة شعرت برهبة حقيقية وأنا أرى رجلاً يشد سيارة زنتها عدة أطنان باستعمال قواه الجسدية لا أكثر..

تعالى التصفيق.. لا أحد يصدق ما يراه.. وقالت زوجتي:

- «لو كان هذا العملاق هو (هرقل) فإن صاحب الحفل هو (قارون)!!..»

أخيراً اكتفوا من التصفيق فعاد سائق السيارة لها، وفك صاحبنا الحبل لتتهادى السيارة نازلة المنحدر..

أعترف اننا حينما عدنا لدارنا ظل هذا العرض الأخير في ذاكرتي فترة لا بأس بها.. لم أعتد أن أرى عروض الحواة هذه في الحفلات العامة، لكن صاحب الحفل كان مصرًا على أن تنقطع أنفاسنا انبهارًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مساء اليوم التالي ذهبت لزيارة صديق عمري (عصام) الذي أقعدته الإصابة فصار (رهين المحبسين) على طريقة (أبي العلاء المعري).. محبس المقعد المتحرك ومحبس ميله إلى العزلة.. لم يعد له من صديق ولا أمل إلا الرياضيات..

جلست في غرفته التي امتلأت بالمراجع الرياضية وقلت له في إحباط:

- «حفل من هذه الحفلات يشعروني بالتضاؤل.. هؤلاء لم يكونوا بشرًا عاديين.. إنهم يملكون الجمال والمال والنفوذ.. بينما أنا رجل شرطة لكني لا أستطيع أن أجد سببًا ليصلح حوض المطبخ..»

ابتسم ابتسامته الساخرة المنهكة وقال:

- «لأنك رجل شرطة شريف لا يستغل نفوذه.. يمكنك متى أردت أن تحقق الكثير من الأشياء.. على الأقل يمكنك أن تجد سبباً بالتأكد.. أنت لا تملك المال ولا الجمال ولا النفوذ لكنك فرد منتج في المجتمع، بينما هؤلاء يمارسون عملاً لا تدري ما هو.. وعلى الأرجح كونوا ثرواتهم من سلب ثروات الآخرين.»

سرتني هذه المجاملة.. على الأقل سأذكر هذه المعلومات لزوجتي..

أردفت قائلاً:

- «العرض الذي قدموه كان شديد الإبهار..»

قال (عصام):

- «يجب أن يكون كذلك، فالغرض الوحيد منه هو أن تنقطع أنفاسكم انبهاراً.. نبلاء الرومان كانوا يلقون السجناء للأسود لإبهار ضيوفهم.. صاحب الحفل هذا قرر أن يقدم لكم نوعاً من ألعاب الحواة،

وبما أن هؤلاء القوم لا ينزلون إلى الأزقة، فإن الحاوي يعتبر شيئاً مذهلاً بالنسبة لهم..»

- «لكنه شيء مذهل بالفعل..»

- «لست من أصحاب هذا الرأي.. هل تعرف أن عادة أكل الزجاج انتشرت بين طلاب جامعة (هارفارد) عام 1973 حتى أوقفت الإدارة ذلك بأوامر صارمة؟.. السبب أن طالباً يدعى (رزوفيتش) جرب أن يفعل ذلك ليبهـر رفاقه، فأكل كأساً من زجاج ومصباح كهربية. تلاحظ هنا أن عادة أكل الزجاج هذه نموذج لقدرة غير عادية لكن الأشخاص العاديين اكتسبوا لأنهم أرادوا ذلك.. وطبعاً لا أنصحك بتجربة ذلك لأنه خطر جداً..»

- «لو افترضنا هذا فما تفسيرك لموضوع جر العربة بالحبـل؟.. لا تقل لي إنه اكتسبها بالمران..»

مد (عصام) يده إلى مكتبه فتناول ورقة وقلم، وراح يجري بعض الحسابات ثم قال لي:

- «حتى لو بلغ وزن العربة 50 طنًا فإن (هرقل) صاحبك لم يكن بحاجة إلا لقوة تبلغ تسعة كيلوجرامات!.. ألم تشتـر شيئاً من السوق قط؟.. ألم تعد لبيتك حاملاً عشرة كيلوجرامات؟.. هذا هو بالضبط الجهد الذي احتاج إليه صاحبك»

قلت في غيظ:

- «هأنذا تعود لألعاب الحواة هذه..»

قال باسمًا:

- «لكنها ألعاب حواة تعتمد على العلم.. هذا الهرقل الخاص بك لا يملك قدرات خارقة.. لو قلت لي إنه جر العربة بشعره أو مباشرة كما نرى في التلفزيون لصدقت، لكني في هذه الحالة لا أرى إلا نصاباً يفهم علم الميكانيكا جيداً..»

كنت أعرف أنه سيقدم لي تفسيرًا مقنعًا كالعادة، لكنني حاولت عدة مرات أن استبق ما سيقول، وفي النهاية جلست كطفل اشرب الشاي الذي جلبته لي (عفاف) وأحاول أن أفهم..

قال (عصام) وهو يريني الورقة التي يمسك بها والتي امتلأت بالحسابات:

- «منذ بداية التاريخ عرف الناس أنه عندما تلف حبلًا حول وتد عدة مرات، فإن قوى الاحتكاك بين الوتد والحبل تصل لقيمة عظيمة.. عندما تزيد لفات الحبل بمتوالية عددية تتزايد قوة الاحتكاك بمتوالية هندسية.. هذه الصيغة اهتم بها عالم الرياضيات (أويلر) الذي عاش في القرن الثامن عشر، ووضع معادلة عرفت باسمه.. هي..»

قاطعته متوسلاً:

- «لا معادلات.. أرجوك..»

ابتسم وقال:

- «ليكن.. سألخص الأمر.. معادلة (أويلر) تستطيع بسهولة أن تحسب مقدار القوة التي يبذلها الرجل للتغلب على ثقل ما يحاول الهبوط لأسفل.. لو كان وزن العربة خمسين طنًا – وهذا مستحيل – وقام (هرقل) بلف الحبل حول الوتد ثلاث مرات فإنه يحتاج إلى قوة تساوي تسعة كيلوجرامات تقريبًا..»

- «هل تعني؟»

- «هذا ما أقول بالضبط.. (هرقل) هذا لم يكن (هرقل) على الإطلاق.. أما لو لففنا الحبل حول الوتد خمس أو ست مرات فإن أي طفل صغير كان بوسعه أن يجر هذه العربة..»

ثم أردف باسمًا:

- «هذا ينطبق على العقد كذلك.. كل بحار يعرف أنه كلما زادت العقد في الحبل ازداد متانة.. السبب هو أن العقدة تعمل عمل الوتد في هذه القصة، وبالتالي كلما زادت العقد كلما صار الحبل أقدر على تحمل أثقال أكبر..»

قلت في ذهول:

- «وهل هذا الهرقل يعرف هذا؟»

- «نحن نمارس الكثير من حقائق الفيزياء لا شعوريًا ودون أن نعرف التفسير العلمي لها.. نلبس ثيابًا داكنة ثقيلة في الشتاء دون أن نعرف التفسير الضوئي الحراري لهذا.. السيارة تبطئ في المنحنيات دون أن يعرف صاحبها قانون القصور الذاتي.. لكن ثقي أنك لو طلبت من هذا الرجل أن يجر السيارة مباشرة دون وتد يلف الحبل حوله، لما استطاع ولسقطت السيارة من فوق المنحدر وتهشمت..»

قلت مفكرًا:

- «إذن لم يخل الأمر من زيف..»

قال وهو يعيد الورقة إلى المكتب:

- «كانت ليلة من الزيف والادعاء.. كل ما لدى هؤلاء القوم زيف وادعاء.. فلماذا يكون هذا الحاوي استثناء؟..»

عبقري هو (عصام).. عرفت ذلك عندما قرأت أخبار القضية التي تورط فيها مضيبي بعد أشهر من هذا الحفل.. شيكات بدون رصيد وقرض مصرفي يقدر بعدة ملايين.. لقد كان نمراً من ورق.. حتى الحذاء الذي كان ينتعله لم يكن من ماله الخاص.. على الأقل أنا لست مديناً لأحد ولا أخدع ضيوبي بحواة يفهمون قوانين الاحتكاك!

للمرة الأولى أشعر بأنني أفضل حالاً، لكني ما زلت أبحث عن سباك بارع، فهل تعرف واحداً؟!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ألعاب صوتية..

عندما زرت (عصام) في ذلك اليوم لم أتوقع ما سأراه..

لقد فتحت لي (عفاف) الباب، فسألتها عن أحوالها.. قالت إنها بخير..

لا.. ليست بخير على الإطلاق.. عرفت هذا من أنفها المنتفخ وعينيها الحمراء.. وقد سمحت لي بالدخول ثم هرعت إلى الشرفة حيث يبدو أنها كانت واقفة..

بصراحة أصابني الرعب فهرعت ألحق بها هناك وسألتها:

- «هل حل مكروه ب. (عصام)؟»

نظرت لي وتظاهرت بالمرح وقالت:

- «لا.. لا.. كان من السهل أن تفتح غرفته لتراه..»

- «إذن ما هي الكارثة؟.. لابد أنه وجه لك عبارة مزاح ثقيلة من عبارات مزاحه التي تزن طناً..»

قالت على الفور:

- «لا.. لا.. إنه يأخذ حذره في كلامه معي ولعل هذه هي المشكلة..»

لم أرد أن أتدخل أكثر، لكني لا أطيق دموع الأنثى.. إنها غزيرة وافرة وهذا أدعى لأن تكون رخيصة.. لو صار الذهب متوفرًا كالحديد لما ساوى شيئًا، لكن دموع الأنثى هي الشيء الوحيد في العالم الذي تزداد قيمته كلما كثر.. إنها تشلنا معشر الرجال وتحيرنا وتربكنا..

تركتها حيث هي ولم أجسر على طلب كوب من الشاي..

في مكتبه كان (عصام) جالسًا أمام الكمبيوتر وهو يجري حسابات معقدة على برنامج SPSS الذي لا أعرف عنه سوى اسمه..

نحيلاً كبير الرأس واهن الجسد تلتمع الشاشة على عدسات نظارته فتوحي بأنه كائن فضائي غريب لا يمت لأرضنا بصلة.. كائن لا ينبض فيه إلا العقل..

قلت له وهو عاكف على الكتابة:

- «لا أريد التدخل في شئونك الخاصة لكن (عفاف) قريبتى.. كنت آمل أن تنال منك معاملة أفضل..»

نظر لي في دهشة ثم قال:

- «أنا؟.. لم أؤذها قط اليوم ولا في أي يوم آخر.. أنت تعرف هذا..»

- «إذن هي تبكي في الشرفة لأنها تحب هذا..»

نظر لي في ذهول هذه المرة وقال:

- «(عفاف) تبكي؟.. لماذا؟»

لكني كنت قد توصلت إلى استنتاجي.. إن زوجتي عبقرية مثل (عصام).. أنا الأحمق الوحيد الذي أعرفه هنا.. زوجتي قالت منذ زمن إن (عفاف) تحب (عصام) وتميل له، وأنا سخرت منها.. في كل مرة أتلقي شدة أذن تخبرني أنني أحمق..

قلت له وأنا أجلس إلى مقعد:

- «أعتقد أن (عفاف) تحبك.. وهذا الحب بلا أمل في الوقت الحالي..»

بدا كأنه أهين وهتف محتجًا:

- «لا تكن غبيًا.. (عفاف) فتاة شابة حسنة، بينما أنا بقايا رجل.. لم يبق مني شيء حي سوى عقلي.. فماذا يروق لأنثى في عقل على مقعد متحرك؟»

هذه هي المشكلة.. إنه يبدو لها حبًا بلا أمل لكنها لا تستطيع الخلاص منه.. طبعًا لا أجرؤ أن أقول هذا لـ (عصام)..

إن الوجد فتن.. هذه العبقرية التي تدير الرؤوس والتي لا يمكن أن تصدقها ما لم ترها.. لا أعتقد أن الفتاة تدرك بالضبط مدى عبقرية هذا الرجل، لكنها تدرك صورة مبهمة عن قدراته..

سألني (عصام) عن سبب زيارتي.. هناك ثلاثة أسباب بالنسبة له: التودد – أخذ رأيه في فكرة – الفرار من مشادة مع زوجتي..

قلت له:

- «الثلاثة أسباب معًا.. أنا هارب من زوجتي، فجئت أتودد لك وأعرض عليك أن تقوم برحلة معي في البحر الأحمر الأسبوع القادم..»

قال باسمًا:

- «يمكنني أن أمنحك شيئين لكنني أعتذر بشدة عن الرحلة فأنا مشغول كما تعلم.. طبعًا لن تصحب المدام في الرحلة بصفتك هاربًا..»

قلت:

- «ليس بالضبط.. سوف آخذ ابني الأكبر معي.. لا سبيل لتركه.. على كل حال تمن لي حظًا طيبًا..»

ثم أضفت وأنا أتجه للباب:

- «حاول أن تسترضي (عفاف).. لا أعرف كيف.. هذه مشكلتك أنت!!»

«أتصل بك يا (عصام) على الهاتف الجوال وأحمد الله على أنك رددت.. نعم أنا في وسط البحر الآن والساعة الرابعة صباحًا.. ظلام دامس.. لا أعرف لماذا أتصل بك لكني ملهوف وخائف.. أعتقد ان سماع صوتك قد يجعلني أفكر بشكل عقلائي...»

«نعم.. حاول أن تفيق وتركز معي.. لقد توجهت مع ابني (عمرو) إلى البحر الأحمر كما قلت لك وقضينا يومين لا بأس بهما.. ثم تعرفت هذه الفتاة الروسية الحسنة.. اسمها (أولجا) وأنت تعرف معنى أن أصف فتاة بأنها حسنة.. لو أنك رأيته وهي تركب الأمواج على زحافتها ممسكة بحبل يجرها إلى لنش مندفع لحسبتها من الأساطير الإغريقية.. لا لم يحدث شيء بيننا.. فقط أنت تعرف أن للجمال هيبة، وهذه الهيبة هي ما جعلني أوافق على عرضها.. لقد عرضت أن تصحب (عمرو) في رحلة باللنش إلى عرض البحر.. ومتى؟ في منتصف الليل..»

«لا أعرف أي شيطان أقنعني بهذا.. كان الولد متعلقًا بها وبدا لي الأمر غير ذي خطر.. إنها بارعة حقًا وبالتأكيد سيكون الولد في أمان معها أكثر مني.. لماذا لم أركب معهما؟.. لأن اللنش خفيف جدًا لا يتحمل ثلاثتنا..»

«هكذا وقفت على الشط في بلاهة أنتظر وأنتظر.. عقارب الساعة تغادر الثانية فالثالثة.. لقد تجاوز غيابهما أي تأخير مبرر وصرت أرى الكارثة أمام عيني.. جن جنوني بعد قليل وقدرت أن الأسوأ قد حدث.. إن (أولجا) و(عمرو) لم يعودا بعد وثمة احتمال لا بأس به أنهما لن يعودا أبدًا.. فتاة وطفل وحدهما في البحر المظلم الرهيب.. اتصلنا بخفر السواحل لكنه لم يلب النداء، من ثم عرض على رجل شهم أن نجوب البحر معًا باللنش الخاص به بحثًا عن لنش الروسية.. ها نحن ذان نلف وندور بلا جدوى.. (عصام).. إن قلبي يعتصر.. أتخيل ألف مصيبة وألف كارثة.. تخيل أن أعود لأمه لأقول لها إن ابنها البكر لن يعود!..»

«ولكن.. أنا أسمع صوته من بعيد.. يصيح (بابا).. أنا متأكد من هذا.. ليست هذه الرياح.. هذا (عمرو) يناديني.. ترى أين هو؟..»

هنا جاء صوت (عصام) من هاتفي يقول:

- «ناده!..»

كأنني لن أفعل هذا.. صحت على الفور:

- «عمرو..!.. أين أنت؟»

جاء صوته من بعيد:

- «أنا على صخرة.. لقد انقلب اللنش بنا لكننا سلیمان!..! ساعدني يا بابا!»

كأن هذا سهل.. البحر واسع مظلم ولا سبيل للتفتيش فيه إلا بطائرة مروحية.. لكن متى تأتي وكيف؟.. صخرة قد توجد شمالاً أو جنوباً أو شرقاً.. قد تكون على بعد كيلومتر أو عشرة.. إن انتقال الصوت بهذا الشكل الممتاز لا يعني أن مصدره قريب..

كدت أجن لولا أن سمعت (عصام) يتكلم بهدوء في الهاتف:

- «حاول أن تهدأ وتمالك أعصابك.. أنت بحاجة لها.. هل ما زالت ساعتك تعمل كساعة إيقاف (كرونومتر) إذا أردت؟»

- «نعم..»

- «إذن ناد (عمرو) وشغل ساعة الإيقاف بمجرد أن يخرج الصوت منك.. عندما يصلك صوته أوقف ساعة الإيقاف.. اتفقنا؟.. لا تكن غبيًا!»

نفذت ما قاله حرفيًا.. وعندما عاد لي صوت ولدي أوقفت الساعة وقرأت الرقم ثم صحت في الهاتف:

- «عشرون ثانية!»

قال (عصام) في الهاتف:

- «عشر ثوان حتى بلغه صوتك ثم عاد من عنده في عشر أخرى..!... الصوت يقطع ثلث كيلومتر في الثانية.. إذن هو على بعد ثلاثة كيلومترات تقريبًا!.. أريد أن تجوب البحر بقاربك وتواصل النداء.. حاول أن تتحرك في الاتجاه الذي يقترب فيه الصوت أكثر.. كرر نفس الأمر.. ناده ثم حدد الوقت بين نداءك وندائه.. اقسم هذا الوقت على اثنين.. ثم اضرب الناتج في ثلث كيلومتر.. هكذا تستطيع معرفة بعدك عنه.. تحرك في كل الاتجاهات إلى أن تجد الاتجاه الذي تقصر عنده المسافة.. هل تعرف ما تفعلونه في الشرطة لتتبع الإشارة المنبعثة من مصدر؟.. تخيل أنك في سيارة الشرطة الآن»

لم أفهم تمامًا ما يعنيه، لكنني طلبت من سائق اللنش الشهم أن يتحرك متوغلاً في البحر أكثر.. أريد منه أن يدور حول محيط دائرة نصف قطرها ثلاث كيلومترات.. ورحت أنادي وأتلقى الصوت فأعيد حساباتي في الظلام.. البحر مظلم رهيب لا ينيره إلا كشاف اللنش.. يجب أن نجد الطفل.. يجب...

- «لا.. أربعة كيلومترات!.. نحن نبتعد!..»

وأصبح:

- «عمرو!.. هل تسمعي؟»

- «أسمعك يا بابا!»

ثم أعيد الحسابات.. أقل من ثلاثة.. نحن نقرب..

- «كيلومتر واحد.. نحن قريبان جدًا!»

استغرقت العملية الأليمة ساعة ونصفًا.. لكن الصوت صار قريبًا جدًا في النهاية.. وهتف سائق اللنش في فرح:

- «الصخرة!!»

وعلى ضوء الكشاف رأيت في الأفق الصخرة الزلقة وقد وقف فوقها (عمرو) يتواثب ويهمل، بينما الروسية تلوح لنا بيدها.. سيكون من حسن حظها ألا أهشم عنقها بيدي..

صاحت وهي تصعد إلى اللنش:

- «سباسيبا!»

احتضنت (عمرو) في نهم ولم أقل شيئاً لها.. وسرعان ما كانا عائدين على ظهر اللنش معنا.. في اللحظة التي دق فيها هاتفي وسمعت (عصام) يصيح:

- «هيه!.. هل وصلت لشيء؟»

(عصام) الذي استطاع أن يعيد لي ابني من البحر المظلم، وهو جالس في غرفة نومه غير مسلح إلا بالهاتف وعقله.. لم أتكلم من فرط انفعال وناولت الهاتف لـ (عمرو) الذي قال في لهفة:

- «عمو (عصام).. أنت عبقري!»

تنهد (عصام) وقد أزيح عن كاهله عبء ثقیل، وقال:

- «لست عبقرياً.. (جول فيرن) هو العبقري.. لقد استخدم هذه الطريقة في قصة (رحلة إلى مركز الأرض) حيث يجد البطل عمه بهذه الطريقة.. حمداً لله على سلامتك.. فقط أريد أن تعدني بشيء واحد..»

- «قله يا عمو (عصام)..»

- «لا تقل لأملك شيئاً عن السائحة الروسية الحسنة التي أخذتك معها في جولة باللنش.. لو أردت أن يحتفظ أبوك برأسه أطول فترة ممكنة فلتحتفظ بهذا السر.. هه؟.. هل تعدني بذلك؟».

الشفرة..

أشعر كأنه أحد أفلام الأكشن الأمريكية..

أنا جالس في السيارة أتظاهر بأنني لست رجل شرطة، وأنني لا أراقب.. وجواري يجلس (عوني) زميلي منهمكًا في التهام شطيرة ابتاعها من ذلك المطعم جوارنا.. بالنسبة له هو لا يتظاهر بشيء..

السيارة تقف في شارع (...) في وسط القاهرة.. تقف في مكان ممنوع، لذا يدنو منا رجل مرور غاضب من حين لآخر ليطالبنا بالانصراف.. ثم يرى وجهينا وتلك النظرة في عين (عوني)، فيهز رأسه في فهم وابتعد..

قال (عوني) والمايونييز يتساقط من جانبي فمه:

- «يبدو منظرنا مريبًا جدًا.. لو كنت مكان هؤلاء الأوغاد لأوقفت العملية.. سوف يرسلون لبعضهم إشارة تقول إن رجال الشرطة ينتشرون في المكان..»

قلت له في غيظ:

- «لا يوجد مكان آخر يسمح لنا برؤية مدخل السينما.. وأكون شاكرًا لو كففت عن الكلام إلى أن تنتهي من التهام هذه الشطيرة.. لو كان هناك شيء أكرهه أكثر من الرجل الذي لا يطيق أن يبقى بلا أكل بضع ساعات، فهو الرجل الذي يتكلم وبفم ملئ بالطعام»

قال وهو يرشف كوب المياه الغازية:

- «هذا وقت الغداء.. لو كانت معدتك متقلصة فهذه مشكلتك لا مشكلتي..»

ونظرت في الساعة متوترًا، وتحسست كاميرا الفيديو الموضوعة على حجري.. يجب ألا تفلت منا لحظة واحدة..

كانت سيارتان أخريان تقفان على بعد أمتار.. وكلاهما مليئة برجالنا.. لا تعرف أبدًا ما قد يحدث..

أخيرًا رأيته قادمًا من بعيد.. يضع يدًا في جيبه وباليدي الأخرى يقضم قطعة من الأيس كريم.. يا له من رجل!... برغم خطورة ما يقوم به، يتظاهر بأنه مجرد سائح ينعم بوقته..

هو ذا يدنو من مدخل السينما حيث بدأ الزحام يتزايد بانتظار الحفل القادم.. إنه فيلم ل (ستيفن سبيلبرج) على ما أذكر، ومعنى هذا أن التذاكر ستنفد خلال دقائق.

يقف هناك وهو يقضم قطعة الأيس كريم.. ينظر حوله بعين صافية.. أقسم أن عينيه التقيتا بعيني لكنهما لم تتوقفا..

أقدم لك (والتر كاوفمان).. هذا هو اسمه الحالي.. المغامر الذي تعرفه شرطة عدة بلدان، والذي

نراقبه منذ جاء إلى مصر.. إنه حذر كثعلب.. لكنني إذ أراه الآن لا أرى فيه شيئًا خارقًا.. مجرد سائح ممن تصطدم بالعشرات منهم في شوارع القاهرة وتنسأهم على الفور..

في حذر أخرجت الكاميرا وشغلت عدسة التقريب، وبدأت أصوره.. إنه يجري مكالمة هاتفية.. يقف.. يبدو أنه يشعر ببعض القلق..

وسط الزحام أرى الشاب المصري الآخر.. إنه يقترب منه.. يتبادلان التحية، ثم يناوله الفتى الحقيبة.. حقيبة سفر رياضية الشكل بريئة المنظر لا تشبه حقائب النقود المربعة التي نراها في السينما... يناوله (والتر) وريقات صغيرة ويبتسم..

فجأة أظلم الكادر تمامًا فرفعت عيني عن الكاميرا، لأجد تلك السيارة (الفان) تقف بجواري حاجبة عني الرؤية تمامًا.. جرى شرطي المرور يتشاجر مع السائق يطلب منه الابتعاد، على حين ترجل رجالنا من السيارتين وركضوا نحو مدخل السينما.. لكن (والتر) لم يكن هناك..

فقط وقف الشاب المصري مرتبًا يحاول الفرار، لكن رجالنا أحاطوا به تمامًا.. مد يده بالورقة إلى فمه، فصرخ أحدهم وبصعوبة تمكنوا من أن يمسكوا بيده وينزعوا الورقة منها..

كان (والتر) قد ذاب تمامًا..

قلت لـ (عوني) وأنا أطلب رقمًا على جهازي الجوال:

- «لا تتركوا سائق الفان يرحل.. أراهن على أنه يعمل مع (والتر).. لقد تلقى مكالمة تطلب منه أن يحجب الرؤية عنا.. (والتر) ثعلب وقد شعر بنا بسهولة..»

- «قلت لك إنه لم يكن ينقصنا إلا تعليق لافتة (الشرطة في خدمة الشعب)»

- «سأفعل هذا المرة القادمة.. على الأقل لم يفر هذا الشاب.. سوف يتكلم.. أؤكد لك أنه سيتكلم»

لكن الفتى لم يتكلم..

بعد أيام مرهقة من التحقيق لم نخرج بشيء.. فقط اعترف الفتى بأنه كان مكلفًا بالاتصال بـ (كاوفمان) وإعطائه مبلغًا من الدولارات، مقابل أن يخبره هذا الأخير بالموضع الذي يخبئ فيه عدة كيلوجرامات من الهيرويين..

ما حدث - يقول الفتى - هو أننا تدخلنا.. هكذا أفلت (كاوفمان) بسهولة، ولم يستطع الفتى أن يعرف مكان الهيرويين.. إن من مصلحته أن نبقيه رهن الاعتقال لأن من يعمل معهم لن يصدقوا حرقًا مما يقول.. سوف يقطعون رقبتة على أقل تقدير..

والورقة التي أخذها من (كاوفمان)؟.. الفتى يؤكد أنه لا يعرف ما فيها.. حتى عندما أطلعناه على محتواها لم يفهم حرقًا.. قال إنها شفرة على الأرجح.. ومن يقدر على فكها هم الذين أرسلوه.. هو مجرد ساع لا أكثر..

- «وكيف كنت تضمن أنه لا يتلاعب بكم؟.. لربما أخذ المبلغ وفر من دون أن يقدم شيئاً؟»
قال الفتى في كبرياء:

- «من أعمل معهم أقوياء ولا يمكن خداعهم.. هذه نقطة.. النقطة الثانية هي أن الأمر يتعلق بالسمعة.. لن يتعامل أحد مع مهرب مخدرات سمعته سيئة!»
سمعة حسنة في تهريب المخدرات؟.. إن المرء لا يكف عن سماع العجائب طيلة حياته..
بدأت مع تكرار الأسئلة أؤمن أن الفتى يقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.. لكنه لا يقول كل الحقيقة..

هكذا فعلت ما كنت أنوي عمله منذ فترة..

اتجهت إلى بيت صديقي العبقري (عصام) الذي يعرفه القارئ باسم (رجل الأرقام).. هناك كان جالساً أمام جهاز الكمبيوتر يشرب الشاي ويحل معضلة عويصة في الجبر الحديث..

قلت له:

- «أكره أن أعطلك، لكني فعلاً في حيرة من أمري.. إن خبراءنا عاكفون على محاولة فك هذه الشفرة، لكني فكرت فيك..»

قال باسمًا وقد أشرقت قسمات وجهه الصلبة:

- «شفرة.. هذا جميل.. لكن تذكر أن هناك شفرات كثيرة جدًا تستعصي على الحل.. معظم الشفرات التي زعم رجال المخابرات في الحرب العالمية الثانية أنهم حلوها، تم حلها عن طريق عميل يقدم لهم المفتاح..»

ثم سجل ما يقوم به، وتراجع بالمقعد إلى جوار الأباجرة ليلقي نظرة على الورقة في يدي..

قلت مفسراً:

- «لن أدخل في تفاصيل.. هناك مهرب مخدرات.. هناك شحنة هيرويين مخبأة في مكان ما.. هذه الرسالة يجب أن تقود إلى العثور عليها..»

قرأ المكتوب بصوت عال:

«KY – UT – WII – EJSG – ZH – TXZGH – NX – LS - WOSH » -

ثم تناول الورقة الأخرى وقرأ ما كتب عليها:

- «4-10-1-3-5-1-4-10-7-3-5-3-5-1-2-4-5-1-3-5-2-1-5» -

قلت له:

- «لم أفهم من الورقة الأولى إلا أن للحرب العالمية الثانية WWII دورًا في الموضوع..»

- «طبعًا لا دور لها..»

ثم عاد يحك رأسه ويتأمل الورقة الأولى وقال:

- «من المعتاد أن تقوم بتشفير رسالتك عن طريق استبدال كل حرف برمز أو رقم ما.. مثلاً يمكن أن ترمز لحرف A برقم 5 وحرف B برقم 7.. يمكن أن ترمز لحرف A بوجه ضاحك أو علامة نجمة.. هذه هي أبسط صور الشفرة..»

- «هذا منطقي وسهل التطبيق هنا..»

حك رأسه وقال:

- «ليس الأمر بهذه البساطة وسأشرح لك السبب.. هل قرأت قصة (الحشرة الذهبية) ل. (إدجار آلان بو)؟..»

- «أنت تعرف أنني لا أقرأ..»

- «ليكن.. في هذه القصة وجد البطل شفرة مماثلة تقود لكنز القرصان.. كان يعرف أن أكثر الرموز استعمالاً في الإنجليزية هو E، بالتالي قرر أن أكثر رمز يتكرر في الرسالة سيكون هو ال. E مهما كان شكله.. عندما تتكرر ثلاثة حروف تنتهي ب. E فلاحتمال الأكبر هو أنك تعني لفظة The.. هكذا استطاع أن يصل إلى ثلاثة حروف، ومع جهد جهيد بدأ يكون الرسالة كاملة.. الطريقة التي استعملها هذا البطل هي التي عرفها علماء الشفرة فيما بعد باسم entropic attack. وهي لا تحتاج إلى عبقرية خاصة.. كل من يملك المثابرة قادر على أن يحل الشفرة التي تكون بهذا الشكل..»

ثم راح يتأمل الرسالة وقال:

- «هنا لا يوجد حرف واحد يتكرر بصورة موحية.. هذا يعني أن طريقة entropic attack لا تصلح وحدها.. هذا الرجل أذكى من ذلك..»

ثم قال في استمتاع:

- «اللعبة هي أن تستخدم أكثر من رمز في ذات الرسالة.. مثلاً لا تشير ال. Z في كل مرة إلى حرف A.. بل يمكن أن تشير ال. F مرة وال. L مرة.. هذا يجعل الرسالة مستحيلة الفهم على من تقع في يده»

- «وكذاك من يتلقاها أيضاً!»

- «هذا حق.. لهذا لا بد أن يكون لديه مفتاح يدلّه على تتابع الاحتمالات.. إنها ما يدعى (أجندة المرة الواحدة أو One time pad) ووقوعها في يد العدو معناه أن الشفرة تم حلها..»

ثم أمسك بالورقة الصغيرة المرفقة وقال:

- «هذه هي.. إن حرف A يرمز له برقم 1 في كل الشفرات.. B هو رقم 2.. وهكذا.. كل شخص يعرف هذا.. تطالبك المذكرة الصغيرة المرفقة بأن تطرح رقم 4 من الحرف الأول و10 من الرقم الثاني و1 من الرقم الثالث.. وهكذا.. ثم تجد الحروف التي تحمل هذا الترتيب الصحيح.. هكذا تعرف الحروف الأصلية للرسالة.. تعال نجرب معاً..»

وأمسك بورقة وقلم وراح يدون..

- «أول حرف في الرسالة هو K ورقمه هو 11 في الأبجدية.. اطرح منه 4 تحصل على 7.. الحرف السابع في الأبجدية هو G.. الآن الحرف التالي في الرسالة Y رقمه هو 25.. سوف نطرح منه 10 لنحصل على 15.. الحرف الخامس عشر في الأبجدية هو O»

هتفت وقد بدأت الإثارة تستبد بي:

- «Go.. أي إذهب!»

هكذا راح يواصل تصحيح الرسالة حسب الورقة الصغيرة، وفي النهاية قرأ ما توصل له:

- «Go to the cine WC Stuff in third»

ثم رفع عينيه نحوي وقال:

- «معنى الرسالة هو: اذهب إلى دورة مياه السينما.. البضاعة في الثالثة..»

- «أية ثلاثة؟..»

نظر لي في صبر وقال:

- «لابد أنهم لم يغيروا تصميم دورات المياه مؤخرًا.. هناك قمرات صغيرة متلاصقة.. أليس كذلك؟.. البضاعة في القمرة الثالثة..»

- «لماذا لم يستخدم أسلوبًا محكمًا؟»

- «هذه رسالة شفرة وهؤلاء مهربو مخدرات.. لسنا في امتحان اللغة الإنجليزية للثانوية العامة..»

اتجهت إلى الهاتف مسرعًا وطلبت (عوني):

- «يجب أن تقوموا بتفتيش دورة مياه السينما جيدًا.. بسرعة!.. طبعًا وضع (والتر) البضاعة فوق صندوق الطرد كما يحدث في السينما.. هذه أماكن لا يفتش فيها عمال النظافة أبدًا.. المهم أن تسرعوا.. قد ينجح رجال العصابة في الاتصال به ومعرفة مكان المخدرات شفهيًا..»

قال ضاحكًا:

- «لن يحدث هذا... إنهم اعتقلوا في المطار رجالاً يمكن أن يكون (والتر كاوفمان) هذا.. سوف نذهب حالاً لتقصي الأمر لكنني أعتقد أنه سقط في الشرك»

- «قبل أن تذهب للمطار يجب أن تفتشوا السينما جيدًا..»

ووضعت السماعة.. واتجهت للباب.. قبل أن أغادر المكان نظرت إلى (عصام) الذي نسي كل شيء عن الموضوع وعاد إلى معادلاته المعقدة على شاشة الكمبيوتر..

قلت له همسًا وبصوت لن يسمعه حتمًا:

- «شكرًا لك!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرقم الغامض..

كما قلت في لقائنا الأول: إن ذكاء الأرقام صفة أقدرها بشدة وأدرك أنني لم أحظ بقسط مناسب منها.. (عصام فتحي) كان يختلف عني في كل شيء.. كانت له تلك الموهبة الرقمية غير العادية، فلم يكن ينسى أي رقم، وكان قادرًا على إجراء أية عملية رياضية بسهولة تامة.. حسدته لفترة وحاولت منافسته. استغرق الأمر عدة سنوات حتى بدأت أرى أن موهبته شيء كأنوفنا وشعورنا وطول قامتنا.. نحن نولد بها وعلينا أن نقبل حقيقة امتلاكها أو افتقارنا إليها.. دعك من أنني كنت أنفوق عليه في نقاط أخرى.. لم يكن يتذوق الشعر أو يفهمه.. لم يستوقفه قط جمال فتاة.. لم يلعب لعبة رياضية في حياته.. لكن علاقتنا لم تنقطع قط.. كان يكمل ثغرات عقلي وكنت أكمل ثغرات شخصيته..

كنت أتردد على داره حيث تفتح لي الباب (عفاف) فتضحك في حرج، وسرعان ما تنقل لي تقريرًا سريعًا عن سيدها ومريضها وصديقها.. كانت تقول لي همسًا وبسرعة:

- «إنه مقل في الأكل هذه الأيام.. لا أعرف السبب.. أعددت له بعض حساء الخضر لكنه لم يلتهم إلا بضع ملاعق.. يكثر من القهوة.. أرجو أن تنصحه بأن هذا سوف يؤذيه.. هه؟.. أنا لم أقل لك شيئًا..»

وسرعان ما اقتادتنني إلى حجرته.. أنا الشخص الوحيد الذي يحق له أن يأتي في أي وقت وبلا موعد سابق..

على مقعده المتحرك هش وبش عندما رأي، فقلت له:

- «لا أعرف السبب في فقدان الشهية الذي أصبت به.. قرأت في مجلة طبية أن الإفراط في القهوة يسبب سرطان البنكرياس.. لا أريد أن أبدو كغراب البين لكن السرطان يسبب فقدان الشهية»

قال باسمًا:

- «لا أعرف من أين تأتي بهذه الأخبار.. لا بد أنها (عفاف).. إنها تتعامل كأنها أجي بالضبط... مهما أكلت تصر على أن شهيتي ليست على ما يرام..»

قلت في خبث:

- «كل رجل يحتاج إلى أم وممرضة وممثلة سينما حسناء.. طوبى للرجل الذي يجد زوجة تجمع هذه الصفات جميعًا..»

دفن وجهه في أحد المراجع الرياضية العملاقة المتراسة على المكتب وقال:

- «هراء.. على فكرة أنت تهذي.. هناك رجل يدعى (ثروت) يتصل بها كثيرًا هذه الأيام.. يحمر وجهها ويتحول صوتها إلى همس.. لو كنت أكثر حزمًا لطلبت منه ألا يتصل بي في بيتي»

ثم قال بلهجة درامية:

- «هي أنثى.. أنثى كاملة.. تحتاج إلى شاب كامل مثلها.. وليس من هو مثلي.. مجرد عقل على مقعد متحرك»

كانت الأخبار غريبة بالنسبة لي.. إذن أنا أحمق والأغرب أن زوجتي (غادة) حمقاء.. كنت أحسب النساء لا يرتكبن أخطاء في هذه الأمور..

قلت له:

- «ما علينا..»

- «لا يبدو عليك أنك أتيت اليوم تطلب رأيي في قضية ما..»

هزرت رأسي وحمدت الله على أن الحال ليس كذلك.. من الجميل أن يكون سبب مجيئي هو الصداقة لا أكثر.. أتمنى لو جربت هذا مرة واحدة على الأقل,,

هكذا جلسنا نلعب الشطرنج.. من المستحيل أن تهزمه لكنه يجيد برمجة عقله على مستويات أقل.. مثلما يقلل الأجانب سرعة كلامهم عندما يتكلمون معك كي تفهمهم..

ظللنا نلعب الشطرنج نصف ساعة، إلى أن طرقت (عفاف) الباب وقالت في تهذيب:

- «د. (عصام).. إن (ثروت) يريد الكلام معك!»

تصلبت وتصلب (عصام) ونحن ننظر إلى ما وراء كتفها، حيث وقف ذلك الرجل النحيل الأسمر.. هل بلغت الجرأة به هذا الحد؟.. هل ينوي أن يطلب يدها من (عصام)؟.. إذن لابد أنه مخبول..

قال (عصام) في حدة:

- «(عفاف).. قلت إنني لا أتلقى زيارات إلا بموعد مسبق..»

قالت في استعطاف:

- «أرجوك.. إنه قريب لي وهو في ورطة حقيقية»

(عفاف) قريبة لي من بعيد.. معنى هذا أن (ثروت) هذا قريبي بشكل ما..

هكذا هز (عصام) رأسه الضخم.. نزع عويناته ليمسحها بمنديل ورقي ثم أعادها إلى أنفه، على حين دخل (ثروت) الغرفة..

رجل نحيل أسمر كما قلت.. يلبس قميصًا أنيقًا غالي الثمن لكنه يحتاج للكي.. في عينيه نظرة ذابلة ذاهلة.. وبدا لي كئيبيًا إلى حد لا يصدق.. هذا الرجل لا يمكن أن يلعب دور فارس الأحلام أبدًا.. هناك شيء واحد يجمع هؤلاء الذين يجذبون النساء.. الحيوية.. قد يكون الرجل قبيحًا

كالأبالسة أو وسيماً كالملائكة، وقد يكون بديئاً كخنزير أو نحيلاً كثعبان المرجان، لكنه في جميع الأحوال يجب أن يتمتع بالحيوية كي تنظر له النساء أصلاً...

جلس (ثروت) على مقعد جوار الباب ومسح أنفه.. استطعت أن أرى في يده اليسرى ذلك الخاتم الذي يقول بوضوح إنه ليس فتى أحلام (عفاف)..

قالت (عفاف) في حماس:

- «سيحكي لكم قصته بنفسه.. إنه يحاول مقابلتك منذ أيام لكنني بصراحة حاولت التنصل من الأمر ثم وجدت أنك أكثر لطفاً من أن تتضايق لهذا...»

ساد الصمت بينما تكلم (ثروت) بصوت مبجوح جدير بأن يخرج منه:

- «أقدم لكم نفسي.. أنا (ثروت أبو مندور).. متزوج ولدي طفلان.. كنت أعمل مدرس رياضيات..»

ابتسم (عصام) في انتصار وقال:

- «نحن إذن زميلان بشكل ما..»

- «كنت.. لقد تغيرت حياتي منذ ثلاثة أشهر.. كنت أمشي شارد الذهن في وسط المدينة.. لأبد أن الإشارة كانت خضراء للسيارات لكنني لم ألحظ هذا.. في لحظة من اللحظات سمعت فرملة عالية، ووجدت نفسي على الأرض بين أقدام المتزاحمين. صداع هائل يغمر رأسي.. وكان هذا آخر ما استطعت أن استوعبه.. فقدت الوعي.. في المستشفى أفقت لأجد زوجتي وأطفالي حولي..»

نظرت ل. (عصام) نظرة ذات معنى فبادلني إياها.. واضح أنني وزوجتي عبقریان.. هذا ال. (ثروت) لا يشكل خطراً من أي نوع.. زوجة وأطفال... هذا كثير..

واصل (ثروت) كلامه:

- «عرفت أنني أصبت بارتجاج في المخ.. لأبد أنني كنت في خطر داهم ليوم كامل، لكنني في النهاية ثبت إلى رشدي وغادرت المستشفى وسط المهنئين.. فقط كنت أعرف يقيناً أن شيئاً في عقلي لم يعد كما كان..»

«كانت هذه بداية العام الدراسي، وهنا عرفت حجم المشكلة.. إنني أقف أمام لوح الكتابة في الصف فأكتب بداية المعادلة.. ثم أصل لآخرها فأنسى ما بدأته.. أبداً العبارة وأنسى ما كنت أريد قوله.. صار التدريس عذاباً، وقد قبل المدير أن يمنحني سنة إجازة بدون راتب..»

قال (عصام) شارد الذهن:

- «كلمني أنا عن الحوادث.. لكن (حادثي) لم يمس عقلي.. لقد قيدني إلى هذا المقعد بقية حياتي»

قال (ثروت) وقد احتشد الدمع في عينيه:

- «لا أدري إن كان لي أن أحسدك!.. من الفظيع أن تدرك أنك غير قادر على التركيز ولا استجماع أفكارك.. هذا عذاب يفوق عذاب أن تجد نفسك سجين مقعد متحرك.. هناك من الأطباء من يؤكد أن الأمور ستتحسن مع الوقت ومع التدريب الذهني، لكن ورطتي أكبر من هذا.. أنا أحتفظ بكل مالي في المصرف تحت رصيد ائتمان.. ولكي أتمكن من التعامل مع هذا الرصيد عبر الصراف الآلي لابد لي من أن أتذكر رقمًا سرّيًا من أربعة أرقام.. طبعًا نسيته تمامًا.. معنى هذا أنني مفلس فعلاً..»

قلت أنا وقد بدا لي هذا غريبًا:

- «يمكنك أن تطلب منهم في المصرف أن يعطوك رقمًا جديدًا»

قال (ثروت):

- «هذه مشكلة أخرى.. لا اذكر كيف كنت أوقع.. هناك طريق قانوني معقد لإثبات أنني هو أنا. لكني لا أستطيع الانتظار.. زوجتي لا تعمل وأنا فعليًا مفلس..»

قالت (عفاف) التي ابتلت عينها من فرط التعاطف:

- «لهذا جاءك يطلب رأيك..»

قال (عصام) في حيرة:

- «لا أدري كيف تطالبني بمعرفة رقم نسيته أنت..»

قالت (عفاف):

- «ربما لو جرب بعض التباديل والتوافيق..»

ضحك (عصام) حتى سالت عيناه وقال:

- «هل تعرفين عدد التباديل والتوافيق لعدد رباعي؟.. سوف يقف بقية حياته أمام الصراف الآلي يجرب.. 1111.. ثم 1112.. ثم 1113.. الخ.. أعتقد أنه من الأسهل أن يفتش بين أوراقه.. من الصعب ألا يكون قد دون الرقم السري في مكان ما.. الحماقة كل الحماقة أن يكتفي المرء بذاكرته في هذه الأمور..»

قال (ثروت):

- «للأسف.. يبدو أنني اعتمدت بالفعل على ذاكرتي..»

- «إذن أنت أحمق أو كنت كذلك..»

ثم فكر حينًا.. وقال:

- «من المعتاد ألا يحمل المرء البطاقة والرقم السري في مكان واحد.. هذه حماقة لأنها هدية للصوم.. لكني أرغب في أن أفتش حافظتك بعناية.. هل تسمح لي؟»

- «بالتأكيد...»

وبيد مرتجفة أخرج البائس حافظته وراح يرص محتوياتها على المنضدة.. صورة لزوجته وأطفاله.. إيصال.. تذكرة سينما.. بطاقة هوية.. آية قرآنية صغيرة.. ثم البطاقة اللعينة التي صارت بلا قيمة..

راح (عصام) يتفحص الأوراق.. ثم أمسك بتذكرة السينما وقال:

- «من الغريب أن يحمل المرء معه تذكرة سينما... إلا في حالة ما إذا كان دون عليها شيئاً مهماً... كان أحمد شوقي الشاعر يدون بدايات قصائده على علبة تبغ قبل أن ينسى...»

ثم قلب التذكرة وقرأ بصوت عال:

- «هناك كتابة بخط اليد تقول: MMMM CCCC LV III»

قلت له في ضيق:

- «واضح انه كان يجرب قلمًا جديدًا لا أكثر.. هذا لا معنى له..»

نظر (عصام) للرجل في ثبات وسأله:

- «هل تذكر هذه الكتابة بشيء؟»

قال في حيرة:

- «لا.. اعتقد أنها هراء كما يقول السيد...»

فكر (عصام) حينًا ثم قال:

- «هناك شعب واحد استخدم الحروف اللاتينية كأنها أرقام.. الرومان.. لقد رمزوا لرقم خمسة بالعلامة V.. ورمزوا لرقم خمسين بالعلامة L.. ورمزوا لرقم 500 بالعلامة D.. حرف M معناه ألف.. وحرف C معناه 100.. وموضع العلامة المجاورة يدل على وجوب الإضافة أو الطرح.. مثلاً العلامة V معناها خمسة.. عندما تأتي علامة الواحد قبلها كان هذا دليلاً على رقم 4.. ولو جاءت بعدها فنحن نتكلم عن رقم 6..»

«الرقم الروماني MMMM CCCC LV III معناه ببساطة هو 8 زائد 50 زائد 400 زائد 4000.. أي الرقم 4458..»

ثم نظر إلى (ثروت) المذهول وقال:

- «هل تذكرت الآن؟»

- «لا..»

- «أنت مدرس رياضيات وهذه الأمور بديهية بالنسبة لك أو كانت كذلك.. كنت ترغب في أن تدون الرقم السري وفي الوقت ذاته لا تريد أن يكون واضحًا بالنسبة لمن يسرق حاجياتك.. هكذا دونت الرقم بهذه الطريقة التي يصعب فهمها على اللص العادي.. إن الأرقام الرومانية عسيرة

الفهم وغير عملية على الإطلاق.. تخيل ناتج ضرب III CC V II في CCLXXV مثلاً؟»
ثم قال وهو يعيد الحافظة له:

- «أذهب الآن إلى المصرف وجرب هذا الرقم 4458.. أعتقد أنه سيحل مشكلتك»
احمر وجه (ثروت) ونهض ملهوقاً.. كان الوقت متأخراً لكن الصراف الآلي لا ينام..
نظرت (عفاف) لـ (عصام) في إعزاز وتقدير ثم غادرت المكان..
قلت له في خبث:

- «أرى الرضا على وجهك.. لقد أسعدك أن تعرف الحقيقة..»

- «حقيقة الرقم الروماني؟»

- «بل حقيقة أن (ثروت) هذا متزوج ويعول.. ومفلس أيضاً!»

ولم انتظر لمعرفة رد فعله لأنني بادرت بالفرار من الغرفة قبل أن يفتك بي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم الوحش..

عامّة لم أشعر بارتياح كبير لتلك الفتاة (ميليسا) التي عاد بها أخي من زيارته للولايات المتحدة.. إن أخي (مصطفى) من الطراز العاصفة إياه.. يفعل ويحب ويضرب ويقتل ثم يفكر.. كل كلامه صراخ ومشاعره بكاء وجدله عراك..

في الثامنة والعشرين هو.. مهندس اتصالات في شركة مرموقة، وأعتقد أنه وسيم.. أقول إنني أعتقد ذلك لأنني أراه بعين الأخ الأكبر الفخور بكل شيء.. وكما يقول المثل الشعبي: «من يشهد للعروس غير أهلها؟»

سافر (مصطفى) إلى الولايات المتحدة لمهمة تتعلق بالعمل.. طبعًا كانت هذه أول مرة يسافر فيها.. وكان غير متزوج مندفعًا لذا توقعت السيناريو الذي سيحدث.. سيعود بعد عامين وفي ذراعه (جين) أو (كاتي) أو.. أو.. وسوف يصارحنا بأنه يهيم بها حبًا وسيتزوجها، وسوف تطلق أمي الكثير من الصراخ بلا جدوى لأنه - ذلك الأحمق - ترك ابنة عمته التي يعرفها ويعرف أهلها وأخلاقها.. وهو نفسه لن يكون واثقًا من عواطفه.. هل يحبها فعلاً أم هو انبهار بالحضارة الغربية أم هو انبهار بالشعر الأشقر والبشرة البيضاء أم هي - في النهاية - مجرد وسيلة للحصول على الجنسية الأمريكية؟

هذه المرة لم يعد لنا (مصطفى) ب. (جين) أو (كاتي) - وليته فعل - بل عاد لنا ب. (ميليسا)..

عاد لنا بفتاة نحيلة تطلي أظفارها بلون أسود وتثبت حلية إلى أنفها، وتضع طلاء شفاه أسود.. مما أضفى عليها طابع سحلية الأجوانا.. هذه هي (ميليسا) التي يريد الزواج منها..

قلت له في دعر:

- «هذه الفتاة تبدو كمطربي الروك المجانين الذين تراهم في التلفزيون.. سوف تصاب أمك بنوبة قلبية لو رأتها..»

قال في مرج:

- «يجب أن تتعلم أي أن تقيم الإنسان بطريقة تفكيره لا طريقة ارتدائه للثياب..»

في الأيام التالية لاحظت أنه منبهر بها جدًا.. وأنها تسيطر عليه وأن أمي قد اعتكفت في حجرتها تقرأ القرآن ولا تعلق.. استسلام تام لفكرة أن تنضم هذه السحلية إلى بيتنا..

من يدري؟.. ربما كنت أنا عجوزًا متخلفًا كما يقول..

قال لي (مصطفى) ذات مرة:

- «عيد ميلاد (ميليسا) قادم.. إنه في السادس من يونيو.. تريد أن نذهب معًا إلى (المنيا) لنمضيه هناك..»

تمضية الصيف في المنيا؟.. ألا يبدو هذا غريبًا؟.. سوف يشويك الحر خاصة أن الفتاة ليست

من بيئة حارة أصلاً.. هذا يذكرني بالثري البخيل الذي يحاول بيع أجهزة تكييف في القطب الشمالي وأجهزة تدفئة عند خط الاستواء..

- «هل جننت؟»

- «تريد أن ترى بلدة اسمها (تونة الجبل) جوار المنيا.. حسب ما فهمت من كلامها كانت (تونة الجبل) في الماضي تحد مدينة (أخيتاتين) كما كانت أيضاً جبانة مدينة (هيرموبوليس) المجاورة.. إن (هيرموبوليس) تبعد خمسة كيلومترات شمالي (ملوي) و(تونة الجبل) ستة كيلومترات غرب (هيرموبوليس)... (هيرموبوليس) كانت مركز عبادة (تحت).. وهي تتحرق شوقاً لزيارة هذا المكان كهدية في عيد ميلادها..»

بصراحة لم أشعر براحة لهذه القصة.. عندما يأتي هذا الاهتمام من عالمة آثار او امرأة وقور في الستين فأنت تقبله، لكن من العسير أن تتصور أن هذه السحلية المصبوغة تهتم بالتاريخ الفرعوني.. هل تفهم قصدي؟.. التنميط مهم جداً في عملنا كرجال شرطة.. رجل وقور أشيب يهتم بأخر أغنية لـ (تامر حسني).. هل هذا معقول أو يمكن ابتلاعه؟.. نفس الشيء هنا..

كنا في أول يونيو.. وقد أبدت لأخي مدى تشككي من هذه الفكرة الغريبة..

عندما قابلته مع تلك الفتاة في ذلك اليوم رحت أتفحصها في دقة.. لقد وصفتها لك، لكني لا أفهم سر ذلك الولوج برقم 6 في كل شيء تلبسه.. السلسلة على صدرها تحمل رقم 616 من الذهب.. هناك وشم على معصمها برقم 616... وشم على أعلى كتفها بذات الرقم..

ثم ذلك التاريخ الغريب لعيد ميلادها القادم.. 6 يونيو 2006.. بعبارة أخرى هو 6..6.. 2006..

القصة كلها غريبة حقاً..

قالت لي وهي تميل برأسها على كتف أخي:

- «سوف نطلق إلى (ملوي) لنقضي أجمل عيد ميلاد.. ثم نعود لنتزوج ونرجع إلى الولايات..»

قال أخي في بلاهة:

- «هيء هيء..»

كانت زوجتي حاسمة حازمة في رأيها في (ميليسا) وأخي:

- «فتاة رقيقة تشبه الدودة وأخوك عبيط»

للمرة الأولى أوافقها بشدة على رأي.. يجب أن أفهم القصة أكثر..

هناك أرقام في الموضوع.. وهذا يعني أنني المحظوظ الوحيد الذي يملك حجة مطلقة في الأرقام.. الشخص الذي لم أزره قط إلا وخرجت من عنده بالجواب عن أسئلي..

كان (عصام) صديقي العبقري القعيد يلتهم عشاءه، وأصر على أن أشاركه.. طلب من (عفاف) أن تحضر طبقاً آخر من البيض والبسطرمة.. قلت له إنني لا أتمتع بأية شهية.. أنا قلق على أخي.. لقد نادته النداهة كما في الأساطير الريفية المصرية ولن يعود على الأرجح..

- «كنت أخشى أن يعود لنا ب. (جين) فعاد لنا بهذه ال. (ميليسا)»..

قال (عصام) وهو يدس شوكتة في مزيد من البسطرمة:

- «إنه التعصب.. أنت لا تتوقع أن يجد سعادته مع غريبة..»

نظرت من تحت لتحت ل. (عفاف) وقلت لنفسي إن هذه الفتاة كفيلة بأن تسعد أي رجل.. جميلة نظيفة بأسلة مخلص.. لا يتعلق الأمر بكونها عربية.. يتعلق الأمر بكونها أنثى فعلاً وليست سحلية مصبوغة..

شرحت له الأسئلة التي تدور بذهني.. فأبطأ نوعاً من سرعة المضغ وراح يصغي في اهتمام.. فلما فرغت جفف فمه وحمد الله على الوجبة الشهية وقال:

- «الرقم ستة ذو أهمية شديدة في الثقافة البشرية.. والشعوب تتعامل معه بطرق مختلفة.. مثلاً هناك قبيلة أفريقية تطلق على رقم ستة لفظ (إفا).. عندما يعجب الشاب بفتاة يقدم لها ست أصداف.. فترد عليه بثمان.. هل تعرف السبب؟.. لأن نطق رقم ستة عندهم هو نفسه نطق كلمة (ارتباط).. ونطق رقم ثمانية هو نفسه نطق كلمة (موافقة).. الرقم أربعة – على سبيل المثال – رقم مشئوم لدى الصينيين لذا يندر أن يستعملوه في أسماء الأماكن.. إن نطقه يشبه نطق كلمة (الموت).. بينما هم مولعون برقم 168.. لأن نطقه هو ياو ليو با... يشبه هذا النطق تعبير (السرط المستقيم).. تسعة رقم إمبراطوري لديهم، لذا كان من يستعمل رقم 9 على ثيابه يعاقب بالإعدام هو وأسرته!...»

قلت له وأنا أفرغ طبق في عصبية:

- «وحياة والدك لا أريد تفاصيل.. فقط أريد تفسيرك لشخصية هذه الفتاة المولعة برقم 6»

قال في خبث وشبح ابتسامة على شفثيه:

- «هذا يحتاج إلى أن ترجع إلى الكتاب المقدس.. 666 حسب الكتاب المقدس هي (سمة الوحش).. والثقافة الغربية تربط هذا الرقم بالشیطان.. قيل إن هذا الرقم يرمز لضد المسيح Antichrist وهو قريب من المسيح الدجال عندنا.. أو يرمز لخادمه الذي يحمل هذا الرقم على جلده أو على شكل وشم.. سوف تعرف الكثير عن هذا الكلام لو دخلت مواقع (شهود يهوه) على شبكة الإنترنت.. (كراولي) الساحر الشيطاني الشهير كان يدلل نفسه باسم 666..»

قلت له:

- «لكن الفتاة لا تحمل رقم 666، بل 616..»

- «أغلب دارسي الكتاب المقدس رأوا أن رقم 616 هو الأكثر دقة.. وهنا نأتي إلى يوم 6 الذي هو عيد ميلاد الفتاة كما تزعم.. إنه (يوم الوحش) كما يعتقد بعض المتنبئين.. يوم ظهور

(ضد المسيح)..»

كان رأسي يوشك على الانفجار.. فسألته:

- «وما معنى هذا؟»

- «ألا تفهم؟.. عندما تقابل فتاة تلبس بهذه الطريقة وتستعمل رقم 616 وتزعم أن عيد ميلادها هو يوم الوحش، فماذا تتوقع؟.. إنها من عبدة الشيطان.. أخوك الأحمق اختار عابدة شيطان لتكون أمًا لأطفاله!!»

كنت أتوقع شيئًا من هذا القبيل على كل حال..

- «وما دخل رحلتها إلى (ملوي) في الموضوع؟»

- «معبد (تحوت) القديم ومدينة (هرمبوليس).. كل الشيطانيين في العالم يعتقدون أن (تحوت) كتب (الهرميات) كتابه السحري الخاص وأخفاه هناك.. سوف ترى الكثير من تماثيل قردة البابون هناك، وهي الصورة التي تخيل بها المصريون إلههم (تحوت) والذي اعتقد الإغريق أنه إلههم (هرميز).. هذه الفتاة الشيطانية تريد زيارة معبد تحوت يوم الوحش مصطحبة أخاك الأحمق.. فلم؟»

لم؟.. لا أعرف.. لكني لن أبقى هنا بانتظار الإجابة..

هكذا وثبت من مكاني قبل أن أنهي الطعام..

انطلقت ركضًا إلى سيارتي، وقدمتها مسرعًا إلى الفندق الذي تقيم به تلك الفتاة.. بحثت عن اسمها في الدفتر، فوجدت أنها تقيم في غرفة رقم 616.. طبعًا!!.. قال لي موظف الاستقبال إنها أصرت على حجز هذه الغرفة بالذات هاتفياً قبل أن تأتي لمصر..

انطلقت إلى المصعد.. وسرعان ما كنت أقف أمام باب الغرفة أدق الباب..

سمعت صوتًا يقول بالإنجليزية إنه قادم.. ثم انفتح الباب لأجدها أمامي بذات ملامحها العظمية القبيحة التي زادها الطلاء قبحًا.. كانت تنظر لي في دهشة وارتباك..

لم أنتظر وخطوت إلى الداخل.. وفتحت فمي مدعورًا.. لقد رفعت السجادة، وعلى الأرض العارية كان أخي يرقد على ظهره فاقد الوعي على شكل الرجل الفيتروفي – إن كنت قرأت (شفرة دافنتشي) – وقد رسمت حول أطرافه شكل النجمة الخماسية.. كانت هناك شموع عند رؤوس النجمة.. الجو كله لعين كرية يثير الرعب ولا شك ان إدارة الفندق ستصاب بالهلع لو رأت ما يحدث هنا.. واضح أنها ستزيل أثر هذا كله فور الانتهاء... الانتهاء من ماذا؟

قالت لي في تحد:

- «سوف تدفع ثمن هذا ال..»

لكني ضربتها ضربة قوية بكوعي فتكومت على الأرض وهي تتن. وانحنيت أعين أخي على النهوض، ووضعت ذراعه على كتفي واقتدته وهو يترنح نحو الباب.. لا بأس.. هذا الفندق يقدم

الخمور ولسوف يحسب من يروننا أنه ثمل..

قال لي وهو مغمض العينين:

- «ماذا حدث؟»

- «لا أدري.. لكنه شيء مخيف.. وأعتقد أننا أفسدنا هذا الحفل..»

قال كالحالم:

- «آخر ما أذكره أنها أصرت على أن أشرب معها بعض العصير في غرفتها.. لم تكن هذه أول مرة»

- «إن عيد ميلادها بعد يومين.. وكانت تعدك لشيء ما مهم يتم في معبد (تحوت) في المنيا..»

سأظل مديئاً لـ (عصام) كالعادة.. هو الذي أخبرني أن الأمر يتجاوز ذوقاً شاذاً في اختيار الشباب إلى ما هو أخطر.. لا أريد التفكير فيما كان يمكن أن عمله (ميليسا) بأخي هناك في (هرميبوليس)

هذه..

لن أفعل شيئاً آخر فلن يصدق أحد قصتي.. فقط يسعدني أن السادس من يونيو قد مر ولم يحدث شيء.. فلتعد هذه الشيطانة لبلادها وحدها.. لقد فوتنا عليها فرصة أن يكون يوم الوحش أهم أيام حياتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذكريات رقمية!

قال لي وهو يرمق شمس الغروب:

- «الواقع أننا عشنا حياة لا بأس بها على الإطلاق..»

كنت جالسًا هناك معه في الشرفة، في لحظة من لحظات الإنهاك الإنساني تلك.. عندما تكف عن السعي وتتوقف لحظة لتتأمل لما فات وما هو آت...

لكن هذه النعمة جعلتني أشعر بغصة في قلبي.. هذه نعمة شيخين يجلسان في دار المسنين ينتظران النهاية.. بالنسبة لي أشعر أن حياتي ممتدة.. ربما لم تكن في بدايتها لكنها على ما أعتقد ليست قرب نهايتها.. على الأقل لو تكلمنا بلغة معدلات الوفيات..

رحت أتأمله.. الحق أن جزءًا كبيرًا من حياتي يتلخص في هذا ال. (عصام فتحي).. ولو لم يكن موجودًا فعلى الأرجح لن يكون بوسي أن أطلق لفظة صديقي على شخص آخر.. أنا رجل كثير المعارف قليل الأصدقاء. ربما بسبب طبيعة عملي...

أذكر مراهقتنا في المدرسة عندما كان (عصام) يتمتع باستخدام ساقيه، وكان أمامه نحو خمس عشر عامًا من هذه المتعة قبل أن يفقدها في حادث السيارة.. كنت أنا بارعًا في استخدام كل جزء من جسدي عدا العقل، وكان هو لا يستخدم أي جزء من جسده سوى العقل.. كنت أجيد كرة القدم والملاكمة والسباحة، وأحب بإفراط، وأصغي لكل الأغاني بدءًا ب. (عدوية) وانتهاء ب. (بيتهوفن)..

(شيرين) فاتنة الكلية.. أستاذ (عامر) بعصاه الغليظة.. (إسماعيل) فتوة الصف ضخم الجثة الذي اعتبر نفسه زعيمًا لنا لمجرد أنه يملك العضلات اللازمة لذلك..

ذلك اليوم الذي أغلق فيه (إسماعيل) الصف علينا وراح يدق بيديه على المنضدة محدثًا صوتًا كفيلاً بإيقاظ الموتى، مع غناء من عقيرة تذكرك بصوت الحمير المصابة بسرطان الحنجرة.. صخب.. جنون.. والسبب في أننا شاركناه الجنون هو تلك الطاقة الزائدة التي يتمتع بها المراهقون.. طاقة لا مخرج منها إلا الضوضاء والصخب وربما إيذاء الآخرين والنفس..

لا أعرف متى صعد فوق المنضدة وراح يرقص ونحن نشاركه التصفيق.. الباب يدق.. يتزحزح.. لكنه موصل من الداخل.. لا أحد يسمع..

في النهاية انفتح فجأة وتسمرنا.. لو إننا رأينا وجه الشيطان يطل وسط نيران الجحيم لكان منظرًا أقل ترويعًا، لكنه كان وجه الأستاذ (عامر) مدرس الرياضيات..

كان غاضبًا كما لك أن تتصور.. محمّرًا كما لك أن تتخيل... وبسرعة عاد من كان فوق المنضدة إلى الأرض، وأخفى من كان يصفق يديه.. قال لنا الرجل وهو يقاوم النوبة القلبية الوشيكة:

- «مجرد أوغاد.. مجموعة من الأوغاد... لا أدري في أية بيئة نشأتم ولا ماذا علمكم آبائكم!»

ثم أعلن أنه سينزل بنا عقابًا مروغًا.. عقابًا سوف تذكره مهنة التعليم للأبد...

- «أنتم كذلك مجموعة من الحمير... لا تفقهون شيئًا...»

بدأ يهدأ قليلاً ويتكلم كلامًا مفهومًا.. في النهاية وقف أمام لوح الكتابة وقال:

- «سأعرض عليكم مسألة صغيرة... مسألة ذكاء لا أكثر... ولسوف تجدون أن قلة الأدب لا تبقي للذكاء شيئًا.. أنتم مجرد أغبياء ناقصو التربية وهذا ما سوف تعرفونه حالًا..»

ثم قال بلهجة المنتصرين:

- «ما مجموع الأعداد من واحد إلى مائة؟.. أريد إجابة حالًا...»

$1 + 2 + 3 + 4 + \dots$ رياه!.. هذا يستغرق دهرًا... هناك على ما أذكر حل يتعلق باللوغاريتمات لكن لا أذكره..

هكذا بدا واضحًا أننا فشلنا قبل أن نبدأ.. الرجل معه حق...

في هذه اللحظة نهض (عصام) وقال في أدب وبصوت خفيض:

- «5050..»

اتسعت عينا الرجل المخيفتان وعاد يسأله:

- «كم؟»

- «5050..»

بدا على الرجل انه حائر.. هل هذه هي الإجابة الصحيحة فعلاً؟.. وجهه يقول إنها كذلك.. هنا عاد يسأل:

- «وما مجموع الأعداد من واحد إلى ألف؟»

بلا لحظة تفكير قال (عصام):

- «500500»

راح الرجل يرغي ويزبد، واتهم (عصام) بأنه مجرد غبي يحفظ الإجابة بلا تفكير حقيقي.. في هذه اللحظة دق الجرس فأنقذنا.. مما ذكرني بتعبير الملاكمة الغربي: أنقذه الجرس....

نسى الأستاذ (عامر) قصة الشغب ولم يبق إلا انبهاره بهذا الصبي النحيل العبقرى الذي هو – برغم كل شيء – قليل الأدب بالتأكيد... أما (عصام) فقد صار بطلنا لذلك الأسبوع..

عدت من أرض الذكريات إلى جلستنا في الشرفة في الزمن الحاضر فقلت لـ (عصام):

- «تصور أنني لم أعرف منك الإجابة قط..»

- «أية إجابة؟»

- «الطريقة التي حسبت بها مجموع الأعداد من واحد لمائة ومن واحد لألف.. أستاذ عامر..»

تذكر القصة كلها فبدا عليه كأنه يزيح جبلاً من الزمن عن ذكرى قديمة، وقال:

- «الأمر سهل.. عندما ترغب في معرفة مجموع الأعداد من واحد لعشرة اقسم عشرة على 2 ثم ضع الرقمين متجاورين.. أي 55... من واحد لمائة اقسم مائة على اثنين وضع الرقمين متجاورين.. 5050.. وهذا ينطبق على ألف وعشرة آلاف...! هذه أمور بديهية ويدهشني أن الناس لا يعرفونها..»

يا إلهي!... إن هذا صحيح!...

قلت له وقد تذكرت قصة أخرى:

- «برغم عبقريتك أخطأت في حساب العظام في ذلك اليوم.. عندما زرنا أختك في دارها بعد ما أنجبت»

ابتسم في غموض ولم يعلق..

كنت فردًا من أسرة (عصام) بحكم الصداقة، وكانت أخته (هالة) متزوجة من مدرس أحياء فيه شيء من السماجة.. يكثر من الدعابات الغليظة السخيفة..

جلسنا هناك نهئ الأم بوليدها الرقيق الهش.. وكنت قد جلبت لها علبة من الشيكولاتة كما هي العادة.. جلس الزوج بمنامته (الكستور) ذات الخطوط الخضراء التي تميز ثقيلي الظل، وراح يوجه لكلماته الثقيلة ذات اليمين وذات اليسار، ثم قال في فخر:

- «لقد أنفقت على هذا القرد الصغير مبلغًا لا بأس به بين السبوع ومصاريف المستشفى.. هل تعرفون كم؟ ... إنه عدد عظامنا جميعًا!»

ساد الصمت.. دعابة علمية أخرى من الخير عدم التعليق عليها، لكن (عصام) طالب المدرسة الثانوية قال في ثبات:

- «صرفت 1124 جنيهاً؟ ... أنت دقيق في الحساب..»

كان هذا مبلغًا فادحًا بمقاييس تلك الأيام على كل حال.. لكن الزوج قال في سخرية:

- «بل 1030 جنيهاً... حسبتك أذكى من هذا...»

ثم غمغم لزوجته في تهكم:

- «لا تعرفين أبدًا ما يعلمونه للصبية في المدارس هذه الأيام!»

لم افهم تلك العملية الحسابية التي قام بها كلاهما، والتي يختلفان عليها...

آثر (عصام) الصمت وظل صامتًا بعد كل هذه الأعوام، لكنه في هذه الليلة وقد أثرت القصة من جديد قال:

- «كنت دقيقًا كعادتي لكنه جاهل مغرور... عدد العظام في الجسم البشري 206 وكنا نحن

خمسة.. هو وأنا وأنت وأختي والرضيع.. أراد أن يبهرننا فضرب 206 5 X فكانت النتيجة 1030 وهو بالصدفة المبلغ الذي أنفقه فعلاً.. ما فاته هو أن عظام الرضيع تكون 300 عظمة ثم يلتحم بعضها فيما بعد.. إذن 206 4 X ثم أضف 300 ليكون الناتج 1124»

- «واستطعت أن تصبر فلا تصح له المعلومة؟»

- «أثار غيظي بكل هذه المباهاة والغرور، فقدرت أنه لا يستحق هدية المعرفة!»

كان الغروب قد ولى ليحل محله الليل الحزين الأزرق البارد...

سمعنا صوتاً يتحرك في الشرفة ثم ظهرت (عفاف) في الظلام، وكانت تحمل مجموعة من الأوراق في يدها.. قالت في شيء من الاعتذار:

- «معذرة للمقاطعة، لكن البواب يطلب 317 جنيهاً...»

- «هذه أخبار قاسية لبداية الأمسية.. والسبب؟.. هل هو مزاجه الخاص؟.. هل شعر فجأة بالشهوة لامتلاك 317 جنيهاً؟»

- «مبلغ 27 جنيهاً شهرياً رسوم تنظيف الدرج.. هذه فواتير أحد عشر شهراً..»

أكره تراكم الفواتير بشدة.. عندما تكتشف أن عليك أن تدفع مبلغاً يتجاوز الثلاثمائة بدلاً من 27 جنيهاً... لكنني فتشت في جيبى عن المال ورحت أعده كي لا أضطر (عصام) إلى مغادرة الشرفة، لكن (عصام) قال لي في ضيق:

- «ألا تتأكد أولاً من صحة الرقم الذي يطلبه؟»

قلت في ضيق:

- «لو كنت تتوقع أنني سأطلب قلمًا وورقة لأضرب 27 11 X في هذا الظلام فأنت مخطئ.. الرجل لن يسرقك»

- «الناس إما لصوص أو جهلة بالحساب... وكلاهما خطر على حافظتك.. إن حساب هذا الأحمق أو اللص 297 جنيه فقط...»

صدقته بلا تدقيق وعددت المبلغ ونقدته (عفاف).. فلما انصرفت سألتته في غيظ:

- «لا تقل لي إنك تحفظ جدول ضرب 27.. فلم تطلب ورقة وقلمًا»

قال باسمًا في الضوء الخافت:

- «الأمر هو البساطة ذاتها.. عندما تضرب أي عدد ثنائي في 11 اكتف بأ أن تضع الرقم الأيمن في خانة الآحاد والرقم الأيسر في خانة المئات.. ثم اجمع الرقمين في خانة العشرات... إذن 27 11 X معناها أن نضع 7 في خانة الآحاد و2 في خانة المئات.. ثم مجموعهما 9 في خانة العشرات... 297... جرب أن تضرب 35 في 11... استعمل نفس القاعدة تكن النتيجة 385...»

جربت هذا عدة مرات ولا بد أن الانبهار الأبله بدا على وجهي، فسمعتة يضحك ويقول:

- «أنا لم أجز أية عملية حسابية في هذا كله.. فقط أنا أستعمل قواعد محفوظة ثابتة وسهلة.. لم أعتبر نفسي عبقرًا قط.. أنا مجرد شخص يعرف كيف يستحضر المعلومة في الوقت المناسب...»

ثم تئأب ونظر إلى ساعته المضيفة وقال:

- «كفانا ذكريات لهذه الأمسية... أعتقد أن عندك مشكلة أخرى تريد أن تطلب رأيي فيها.. إذن تعال إلى الداخل ولتخبرني بكل شيء بهدوء ومن البداية..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجل دقيق..

قال لي (مدحت) في توتر:

«أعرف أنني أبدو جبانًا، لكن هذا لا يضايقي البتة.. بل أنا جبان بالفعل.. لكني أعرف كذلك أنني رجل دقيق لا يفوته شيء»

طلبت له كوبًا من الليمون عالمًا ان هذا سيزيد الأمور سوءًا.. ليمون الشرطة لا ينعش كأني ليمون في العالم، لكنه يعطي جواً من التوتر وتقلصًا في المعدة كأنه حمض نتريك.. أذكر هذا منذ أيام الماضي عندما كنت أمام المدفع لا خلفه، وكنت أتوتر لدى تعاملي مع الشرطة في موضوع بطاقة شخصية أو رخصة قيادة..

قلت له:

- «نحن معك.. هذا سبب كاف كي تطمئن»

قال متوترًا:

- «لكن الأخطاء تحدث.. لن تضعوا شرطياً معي في فراشي.. هناك لحظة ما سوف تغيبون فيها عني وعندئذ.....»

كانت مشكلته هي أن (مختار) خرج من السجن.. ونحن نراقب (مختار) طبعًا لكن لا يوجد شيء ضده... إنه يتصرف كأني مواطن آخر..

قلت لـ (مدحت) وأنا أناوله لفافة تبغ:

- «لا يمكن أن نسجن (مختار) لأنك تخافه..»

- «الرجل لا يمزح.. هذه هي المشكلة..»

ولوح بالتقرير الطبي في وجهي.. للمرة العاشرة أرى هذا التقرير اليوم.. يبدو أنه يحاول إصابتي بالخبال..

كان (مدحت) رجلاً في الخمسين من العمر.. ضئيلاً جاحظ العينين تبرز عروق صدغيه وتبرز أسنانه، مما يعطيه طابعًا خاصًا يذكرك بالقوارض.. اعتدت منذ زمن ألا أكون انطباعات عن شكل الناس، لكن شكله كان منفراً يدفعك لمقته على الفور، خاصة مع صوته الأخنف وذعره الدائم الممل.. (فأر آدمي).. هذه هي الفكرة التي جالت بذهني واستغفرت الله عليها كثيرًا.. لن اندهش لو دخل قط وابتلع الرجل في أية لحظة..

لكن (مدحت) كان مواطناً، وكانت عنده مشكلة حقيقية..

- «في العام 1979 كنت أسكن في تلك الشقة المفروشة، وكانت تسكن فوق شقتي أرملة عجوز ثرية.. وفي ذلك اليوم المشؤم، كنت أعد طعام العشاء وحدي في شقتي عندما سمعت صوت

دقات الهاون من الطابق العلوي.. اعتادت الأرملة أن تستدعيني بهذه الطريقة، وكانت لها طلبات عديدة أغلبها تافه.. تريد من يفتح لها أسطوانة الغاز.. تريد من يغلق لها المحبس.. تريد من يضبط لها التلفزيون.. كنت أقوم بهذه الأمور في رضا، لذا عندما سمعت هذه الجلبة هرعت لألبي نداءها..»

«لم أدر ماذا حدث ولا كيف حدث... فعلى الدرج اصطدمت بـ (مختار) نازلاً من شقتها.. كان ابن أخيها وكان قوي البنية شرساً، ولكني في هذه المرة لم أنظر لوجهه.. كنت أنظر لتلك المديّة في يده والتي تلوّث بالدم.. كأنه نومي مغناطيسيّاً للحظة، ثم صرخت مذعوراً: هل.. هل فعلتها؟»

«هنا أولج نصل المديّة في أسفل صدري.. إصابة سطحية جدّاً كما قال لي الطبيب فيما بعد.. وسرعان ما كان يثبّ الدرج نازلاً..»

«برغم كل شيء قلت لنفسي إنني سليم.. سليم.. الإصابة سطحية وهو لم يؤذ شيئاً.. وكان تفكيري سريعاً جدّاً... تحاملت على نفسي إلى أن دخلت شقتي واتصلت برجال الشرطة.. ونسيت كل شيء عن ذلك الجرح..»

«عندما جاءوا رأوا المشهد المعروف الذي لن أصفه لك.. لقد قتلت السيدة في الحمام وكانت تحمل يد الهاون في يدها ترسل لي استغاثة أخيرة... ليرحمها الله.. لقد قتلها ابن أخيها طمعاً في مالها، وبرغم هذا لم يجد عندها شيئاً....»

«بعد يوم قصدت طبيباً ليفحص ذلك الجرح فقال إن المديّة مزقت بعض الأنسجة في التجويف الثاني عشر بين الضلوع لكنها لم تمزق شرياناً أو وريداً أو عصباً، وكتب لي هذا التقرير.. وقد رأيت أنه لا داعي لذكر هذه الإصابة التافهة في مجرى التحقيق..»

«تم القبض على الفتى الذي أنكر كل شيء جملة وتفصيلاً.. كنت أنا الشاهد الوحيد على رؤيته.. فيما عدا هذا لم يجدوا سلاح الجريمة ولا أي شيء ضده.. هكذا يمكنك أن تتصور حقه علي.. لولاي لما اتهمه أحد بأي شيء..»

«برغم كل شيء حوكم وحُكم عليه بالسجن.. وعشت أنا حياة طبيعية أحاول أن أطرد هذه الذكرى الكئيبة من ذهني.. إلى أن جاء الشهر الحالي.....»

قلت له للمرة الألف:

- «عندما وجدت الرسالة..»

قال وهو يرتجف:

- «نعم.. رسالة وجدتها تحت باب بيتي الجديد الذي لا يعرفه أحد.. تقول الرسالة: لا تحسب أن الزمن يُنسي الأحقاد.. سوف تدفع ثمن الأعوام التي قضيتها في السجن بسبب كلب مثلك..»

- «عندها طار عقلك رعباً»

- «نعم.. نعم.. الرسالة مخيفة.. لكن اختفائها أكثر بشاعة.. أنا أعرف يقيناً أنني أخفيتُها في

مكتبتى.. بالذات في كتاب (وصف مصر).. بين صفحتي 187 و188.. أقول هذا لأؤكد لك أنني لم أنس شيئاً.. أنا رجل دقيق يا سيدي.. معنى أن أفتح الكتاب فلا أجد الرسالة أن هذا الرجل يملك الدخول إلى بيتي بسهولة تامة..»

قلت في غيظ:

- «بل هو ساحر كذلك.. أن يعرف أنك أخفيت الورقة في كتاب ويعرف ما هو الكتاب.. هل أنت متأكد من أن زوجتك لم تكن معك لحظة إخفاء الخطاب؟»

- «أنا غير متزوج.. قلت هذا عشر مرات..»

- «إذن هناك كاميرات مراقبة في غرفة مكتبك»

- «لا هذا ولا ذاك.. أقرب الاحتمالات أن الحظ خدمه لأن الكتاب في موضع واضح مميز من مكتبتى.. على الأرجح كان يتصفح بعض الكتب فوجد تلك الرسالة بضربة حظ..»

- «ثم جاء موضوع الحريق..»

ارتجف وشرب جرعة ليمون هائلة وقال:

- «نعم.. نعم... يبدو أنه فتح شراعة باب شقتي وسكب بعض الكيوسين، ثم ألقى عود ثقاب مشتعلًا.. صحوت من نومي لأجد الصالة تحترق.. جريت إلى باب الشقة ودفعته لأفتحه.. لكني لم أستطع.. إنه لا يفتح.. يبدو أنه وضع شيئاً ثقيلاً خلفه.. هكذا جريت إلى الحمام وملأت دلوًا من الماء عدة مرات، وسكبته على النار حتى أطفأتها بالجهود الذاتية..»

ثم لوح بالورقة وصاح في عصبية:

- «هذا الرجل يجب أن يُعتقل.. أن يُعدم.. إنه قادر على التواجد في كل مكان وكل وقت.. في المرة القادمة سوف يفوز برأسي ولنسوف تندمون يا حضرة الضابط.. ستندمون...!»

ثم انفجر في البكاء..

وسقط كوب الليمون على مكتبي..

قال لي (عصام فتحي) وهو يغلق التلفزيون بجهاز التحكم عن بعد:

- «ما زلت أرتجف رعبًا كلما رأيت فيلم (كيب فير).. اللص الذي خرج من السجن لينتقم من محاميه وأسرته.. وقد اكتسب خبرات مهولة من السجن مما جعله شبه خارق للطبيعة.. الطريف هنا أنه لم يرد الانتقام من الشرطي الذي اعتقله ولا القاضي الذي حكم عليه.. كل هؤلاء في رأيه أدوا عملهم على أفضل وجه.. الحمار الوحيد الذي لم يؤد عمله جيدًا هو المحامي..»

ثم انزلق بمقعده المتحرك إلى خلف مكتبه حيث جهاز الكمبيوتر يهدر بعمليات حسابية لا تنتهي.. لم أر قط جهاز كمبيوتر منهمكًا في الحسابات لكنها الحقيقة.. حسابات الأخ (عصام) من الطراز الذي يستغرق ساعة بجهاز الكمبيوتر، ولهذا يتركه يعمل وينصرف كأنه وضع كعكة

في الفرن حتى تنضج!

قال لي باسمًا:

- «هذا أفضل من الجيل الأول من الحاسبات الآلية. كان أول كمبيوتر يدعى (يونيفاك)، وكان التيار الكهربائي يضعف في نصف مدينة سان فرانسيسكو عندما يقوم بضرب 6 في 5!!»
فكرت للحظة في هذا.. لابد أنه كان يعمل بالجازولين..

قلت لـ (عصام):

- «من الغريب أنني أمر بقضية تذكرني بقصة فيلمك (كيب فير) هذا.. لا توجد ألغاز هنا. القصة واضحة كالشمس..»

ثم رحت أحكي له القصة على سبيل التسلية..

راح يصغي ووجهه يضيء وابتسامته تتسع شيئًا فشيئًا..

فلما انتهيت قلت له:

- «ماذا أفعله مع (مختار) هذا؟.. ليس بوسعي أن أرسل من يقتله على سبيل الاحتياط..»

قال وهو يلوك بعض حبات الفول السوداني:

- «لماذا لا تفعل العكس؟.. تسجن هذا الوغد (مدحت)؟»

- «أسجن الضحية؟.. أحيانًا يفعلون هذا في الخارج في قضايا المافيا.. قد يكون السجن أكثر الأماكن أمنًا و..»

قال في إصرار:

- «بل تسجنه لأنه كاذب مجرم.. لقد سمعت القصة، ولم أسمع في حياتي كل هذا القدر من الكذب في قصة واحدة.. ومعنى كل هذا الكذب شيء واحد: هذا الرجل (مدحت) هو قاتل العجوز وقد ألصق التهمة ببريء.. وبعد خروج (مختار) من السجن مصممًا على الإيقاع بالقاتل الحقيقي، أصيب الفأر (مدحت) بالذعر، وراح يحكي لكم سيلاً من الأكاذيب..»

«هناك سبعة ضلوع حقيقية تتصل بعظمة القص، وثلاثة زائفة تتصل بالضلع العلوي، ثم هناك ضلعان سائبان غير مكتملين.. أي أن لدينا اثني عشر ضلعًا بينها أحد عشر تجويفًا.. بعبارة أخرى لا يوجد شيء اسمه التجويف الثاني عشر.. هذا يشبه الكلام عن سمفونية بيتهوفن العاشرة.. التقرير الطبي ملفق وقصة الطعنة ملفقة، دعك من أنه من غير المنطقي أن يطعنك قاتل في ضلوعك وتنسى الأمر ولا تذكره للشرطة... فقط أراد أن يجسم خطورة (مختار) في عينيك.»

«صديقك الدقيق أخفى الرسالة في كتاب (وصف مصر).. بين صفحتي 187 و188.. جميل.. لكن الصفحتين 187 و188 هما وجهان لورقة واحدة في أي كتاب ولا يمكن إخفاء شيء بينهما.. كان عليه أن يزعم أنه أخفى الورقة بين صفحتي 188 و189.. هذه من ألغاز البوليسية..»

«ثم صحا في الليل ليجد أن حريقًا شب في الصالة.. يحاول دفع باب الشقة فلا يستطيع لأن الرجل وضع شيئًا خلفه.. هل رأيت في حياتك باب شقة يفتح للخارج؟.. كل أبواب الشقق تفتح للداخل..»

«أكاذيب لا نهاية لها..»

أصابني الدهشة ورحت أحاول جاهدًا تذكر كيف يفتح باب شقتي، فقال (عصام):

- «هذا لا علاقة له بالأرقام.. هي مسائل تتعلق بالملاحظة لا أكثر.. يحكي الأديب الكبير (أنيس منصور) عن المصري الذي قص عليه كيف أساءت السفارة المصرية في نيوزيلندا معاملته وكيف ضربه سفيرنا هناك بالحذاء.. استشاط (أنيس منصور) غضبًا وكتب مقالًا ساخنًا عن الحادث.. ثم تذكر قبل أن يرسل المقال للمطبعة أنه ليست لنا سفارة في (نيوزيلندا)!»

- «وهل حقًا ليست لنا سفارة هناك؟»

- «لا أدري!... فقط لم تكن هناك عندما مر (أنيس منصور) بتلك القصة..»

أصدر الكمبيوتر صوتًا عجيبيًا كأنه قرر أن يتحول إلى غسالة كهربائية، ثم تجمدت الشاشة..

صاح (عصام) في أسي:

- «انهار النظام!!... لم يتحمل كل هذه العمليات الحسابية المعقدة!.. سوف أبدأ من جديد!..»

وأغلق الجهاز في عصبية وقال لي:

- «أنا في حالة نفسية سيئة.. اتركني الآن.. فقط إعمل على أن تكشف لهذا ال. (مدحت) أنه كذاب في كل حرف قاله.. اضغط عليه وأنا متأكد من أنه يكذب لسبب واحد.. انه هو قاتل تلك العجوز عام 1979 وقد ألصق التهمة بقريب العجوز الوحيد الذي يعرفه.. الذعر لا يبرر كل هذا الحماس الذي يتصرف به.. فقط اتركني الآن وأخبرني بما يستجد».

الشهر العاشر..

فرغ عصام من التهام طعام الغداء..

كما هي العادة توشك الأنماط البشرية أن تكون واحدة.. نمط (عصام) مثلاً لابد أن تكون وجبته خفيفة وألا يمثل له الطعام تلك الأهمية التي نعلقها نحن.. لقد راقبته اليوم وهو يأكل، وأقسم لك أنه لم يأكل سوى نصف ثمرة طماطم ونصف شريحة لحم.. كوب ماء.. ثم انتهى كل شيء..

ورأيته يخرج على مقعده إلى الشرفة ليراقب البحر...

كنا في فصل الشتاء.. اغرب وقت ممكن للذهاب إلى الاسكندرية، لكن إجازتنا توافقتا معاً، وبدا لي أن سحر اسكندرية الشتاء سوف ينسينا هذا البرد... بالطبع كانت هذه الشقة المظلة على البحر رخيصة الثمن للغاية..

كنت مخطئاً.. فقد تجمدنا بالفعل.. وكان علينا أن نتدثر بعشرات البطاطين طيلة الليل.. كنا قد اخترنا غرفة للنساء: زوجتي و(عفاف).. وغرفة للأطفال.. أما أنا وهو فقد تقاسمنا غرفة واحدة تصطك فيها أسناننا بلا توقف..

قالت لي زوجتي عندما انفردت بها في الشرفة ذات يوم:

- «كانت فكرة حمقاء فعلاً...»

- «آسف.. أعرف هذا.. لكنها إجازة (عصام) التي توافقت مع....»

قالت في غيظ:

- «وهذه نقطة أخرى.. هل لابد أن تربط حياتنا ونشاطنا البشري بصديقك هذا؟.. هو رجل طيب ولا غبار عليه، لكنني أمقت أن يكون معنا في كل مكان كأنه من بقية الأسرة.. ثم لماذا لا يتزوج هذه الفتاة (عفاف)؟.. إنها تقوم له بكل ما تقوم به الزوجة عدا الإنجاب.. لماذا لا يصير الأمر رسمياً؟.. وما دام صار قدرنا فلماذا يجب أن تكون هي كذلك قدرنا؟»

كنت أتوقع هذه المواجهة وأخشاها منذ زمن، لذا قلت لها وأنا اضغط على أسناني:

- «(عصام) لا يستطيع عمل أي شيء بنفسه.. إنه مشلول.. مش.. ل... و...ل.. كم من مرة يجب أن أقول هذا؟ ... أنا لن أتخلي عنه.. لم أفعل هذا منذ سني المدرسة، فكيف أفعل اليوم؟.. أما عن موضوع (عفاف) فالفتاة مهيبة ومحترمة، لكن (عصام) لا يملك أن يتزوج وينجب.. أنت تعرفين هذا جيداً..»

- «أليس له أقارب؟»

- «هذه هي المشكلة.. له أقارب فرضتهم الظروف عليه.. القرابة لا تحل محل الحب أبداً.. والواجب لا يحل محل العاطفة.. إن الصداقة تأتي من تلقاء نفسها بلا إرغام، أما أقاربه فيفعلون الشيء وهم متضررون، ويتمنون لو لم يكونوا أقاربه.. أنا أقدم له الشيء فخوراً وأشعر أنني

قدمته لنفسى.. ألم تكن لك صديقة تشعرين بأنها أقرب لك من أختك؟...حتى الأخوة الذين يتمتعون بعلاقات قوية، تجدينهم أقرب إلى الأصدقاء..»

ضربت سور الشرفة بقبضتها وهتفت:

- «لكنى أتمنى لو تخلصت منه!.. لو تخلصت منهما!»

هنا شعرت بحركة خلف ظهري فاستدردت لأرى ذلك المقعد المتحرك يبتعد.. لقد سمع آخر كلامنا أو لعله سمعه كله!.. نظرت لها نظرة من طراز (منك لله يا شيخة).. وهرعت لألحق به..

وجدته أمام خزانة الثياب المفتوحة يضع ثيابه بعصبية في حقيبته المفتوحة على الفراش.. كانت هناك ثياب أعلى من قدرته على الوصول لها فصاح منادياً (عفاف)..

جاءت (عفاف) مذعورة فهتف بها والأوردة محتقنه على صدغيه وجذور عنقه:

- «أعدي حقيبتي بسرعة يا (عفاف).. نحن راحلان..»

سألته في غباء:

- «كيف تنوي أن تفعل ذلك؟.. إنني..»

- «سوف أتصرف.. ستجد (عفاف) سيارة أجرة تقلنا إلى القاهرة..»

طلبت من (عفاف) أن تتركنا بعض الوقت، ثم أغلقت الباب وقلت له:

- «أنت أنضج من أن تتصرف كالصبية.. كذا يفعل الأطفال الغاضبون.. لو كنت سمعت المحادثة جيداً لفهمت.. رحيلك الآن يعني أنني لن أسامح (غادة) أبداً.. ولن أسامح نفسي»

قال وهو يحدق في الجدار:

- «لا علاقة لك بالأمر.. فقط صاحبة البيت تجدني عبئاً وضيئاً ثقيلاً..»

- «وأنا صاحب البيت، وأقسم بالله العظيم أنك لن ترحل هكذا.. معنى رحيلك هو مشكلة تحل ببيتنا الصغير.. شرح أبدي ببني و(غادة)»

فكر في الأمر حيناً.. كان يعرف أنني صادق.. صداقتنا تجاوزت مرحلة الشرح بالكلمات..

جلس أمام خزانة الثياب المفتوحة يرمقها.. وراح يحرك المقعد أماماً وخلفاً شأن من يفكر في شأن مهم.. فكرت أن أنادي (غادة) لتعتذر له.. لكن (غادة) مثل النساء جميعاً لا ترتكب الأخطاء، وبالتالي لا تعتذر أبداً.. تمتاز نساؤنا بأنهن معصومات لا يخطئن أبداً.. يقال إن بعض النسوة في الغرب يخطئن أحياناً لكنى لا أصدق هذا..

قلت له لأمنعه من معاودة الكرة:

- «هناك مشكلة مهمة تحيرني.. صدقني.. كنت أنوي أن أطلب رأيك لكنك لم تعطني الفرصة.. أنت تتخلى عني في أسوأ وقت ممكن..»

نظر لي متسائلاً فقلت بارتباك:

- «الأمر يتعلق بقضية.. أنت تفهم هذه الأمور.. هناك دومًا مشاكل الأرقام التي أعجز عن حلها و..»

قال في نفاذ صبر:

- «مفهوم. مفهوم.. هات ما عندك»

قلت وأنا أراجع ورقة أخرجتها من جيبي:

- «سأعفيك من التفاصيل.. هناك عصابة.. وهذه العصابة خطيرة جدًّا.. أعني أنهم ليسوا من الحمقى الذين يسرقون الغسيل من على أسطح البيوت.. لدينا مرشد معهم، لكنهم بصراحة يشكون فيه ولا يتعاملون أمامه بوضوح.. لو تأكدوا من أنه مدسوس عليهم لتخلصوا منه فورًا... لقد وجد هذه الورقة في وكرهم وهي تحدد التاريخ الذي قرروه لعملية سطو كبرى.. سوف نقبض عليهم متلبسين فقط لو فهمنا ما تحتويه هذه الورقة...»

ثم قرأت بصوت عال ما كتب:

- «الشهر العاشر.. ليلة عيد الميلاد.. العاشرة مساء»

- «أي عيد ميلاد؟»

قلت في صبر:

- «عندما نتكلم عن عيد الميلاد بلا تعميم فنحن نتحدث عن ميلاد المسيح على الأرجح.. نحن في آخر نوفمبر لهذا من المحتمل أن السرقة قريبة.. لكن هنا يبرز سؤال عويص هو: ما هذا الشهر العاشر؟ ... ثم لو كنا نتكلم عن ميلاد المسيح فهل نعتبره في ديسمبر أم يناير؟.. إن الأمر مختلط علي؟..»

فكر حينًا ثم سألتني:

- «ما معنى كلمة ديسمبر؟»

- «لا أعرف»

- «معناها (العاشر).. هذا هو الشهر العاشر...»

- «يا سلام..؟.. ولماذا ليس الثاني عشر كما نعرف جميعًا؟»

- «كان الرومان – الذين وضعوا هذا التقويم - يعتبرون السنة تبدأ من مارس.. لهذا كان ديسمبر هو الشهر العاشر.. كانت السنة تبدأ بشهر مارس (على اسم إله الحرب) ثم إبريل (أي تفتح الأرض Aperire) ثم مايو (على اسم الآلهة Maia) ثم يونيو (أي الاتحاد) ثم كوينتيليوس (أي الخامس) ثم سكستس (السادس) ثم سبتمبر (أي السابع) ثم أكتوبر (الثامن) ثم نوفمبر (التاسع) ثم ديسمبر (العاشر)، ثم أضاف الملك (نوما بومبيليوس) شهري يناير (على اسم الإله Janus) وفبراير Februa (شهر التطهير) وبذلك أصبح طول السنة الرومانية 12 شهرًا (365

يوماً).»

ثم قال وقد عادت عيناه تلمعان:

- «هذه العصابة تتعامل بطريقة الشفرة، وهم يعرفون ما يفعلون فعلاً»

عدت أسأله:

- «وهل ولد المسيح في يناير أم ديسمبر؟ ... أقباط مصر يحتفلون في السابع من يناير بينما الغربيون يحتفلون في الخامس والعشرين من ديسمبر..»

- «كلاهما على حق... العبرة هي يوم 29 كيهك بالتقويم القبطي، الذي وافق 25 ديسمبر، وذلك في مجمع نيقية عام 325 م حيث يكون عيد ميلاد المسيح في أطول ليلة وأقصر نهار (فلكياً) ، وقد كان هناك خلل معين في هذا التاريخ جعله يتأخر عشرة أيام عن (أطول ليلة وأقصر نهار)، مما اضطر البابا (جريجوريوس) إلى حذف عشرة أيام من التقويم الميلادي.. أي أن يوم 5 أكتوبر صار 15 أكتوبر.. ووضع البابا غريغوريوس قاعدة تضمن وقوع عيد الميلاد (25 ديسمبر) في موقعه الفلكي (أطول ليلة وأقصر نهار) وذلك بحذف ثلاثة أيام كل 400 سنة، ولكن لم يعمل بهذا التعديل في مصر إلا بعد دخول الإنجليز إليها فأصبح 11 أغسطس هو 24 أغسطس»

قلت في دهشة:

- «هل تعني أن مصر شهدت يومًا تحول من 11 أغسطس إلى 24 أغسطس؟»

- «نعم.. في أوائل القرن العشرين.. وفي تلك السنة أصبح 29 كيهك (عيد الميلاد) يوافق يوم 7 يناير (بدلاً من 25 ديسمبر كما كان قبل دخول الإنجليز إلى مصر).. لهذا صار السابع من يناير هو يوم ميلاد المسيح»

ثم في النهاية قال لي باسمًا:

- «الخلاصة.. هؤلاء اللصوص سيسطون على هدفهم يوم 25 ديسمبر الساعة العاشرة مساءً»

قلت في حماس وأنا أدون أشياء في الورقة:

- «أنت رائع.. إن الحياة من دونك مستحيلة..»

نظر لي طويلاً ثم ابتسم وقال:

- «لاحظ أنك عرفت الموعد ولم تعرف هدفهم.. عرفت (متى) ولم تعرف (أين)؟.. ألا يبدو هذا غريباً؟»

قلت وأنا أعيد حاجياته إلى أرفف الخزانة:

- «لدينا مصدرنا.. هو من سيحدد لنا (أين) و(كيف)... المهم أنك جعلتني أعرف (متى)...»

وخرجت من الغرفة فاتجهت إلى المطبخ لأقف جوار زوجتي التي كانت تغسل الأطباق ساهمة واجمة، وعلى استعداد تام للشجار إذا فتحت فمي..

فتحت علبة القمامة وبدأت تمزيق الورقة التي في يدي، فسألتني:

- «ما هذه؟»

قلت وأنا ابتعد:

- «قائمة الأشياء التي طلبت مني شراءها.. لقد اشتريت كل شيء فلم تعد لها قيمة»

الحقيقة أن الورقة لم تكن تحوي فعلاً إلا قائمة مشتريات.. أما كل القصة التي حكيتها لـ (عصام) فلم تكن إلا ملفقة.. قمت بتأليفها وحي الخاطر، وكان كل همي أن أشغل عقله الجبار عن الغضب.. أن

أضع طوفان انفعاله في قناة غير ترك البيت..

يبدو أنني نجحت..

كنت قد قرأت صباح ذلك اليوم كتاباً لأحد الرهبان المصريين يحكي فيه قصة التقويم.. وهذا ما جعل السؤال يطفو إلى ذهني، ولا داعي أن أقول لك إن كل ما قاله (عصام) كان دقيقاً كأن الكتاب مفتوح أمامه..

بعد ثلاثة أيام كنت أمشي بـ (عصام) في منطقة مشمسة من المنتزه، عندما قال لي:

- «على فكرة.. أدركت على الفور أن قصة العصابة التي تنوي سرقة شيء ما في الشهر العاشر ملفقة..»

نظرت له في حيرة متظاهراً بالبراءة، فقال في خبث:

- «لو كانت المشكلة تؤرقك فعلاً، فلماذا لم تفتح الموضوع لمدة أسبوع كامل؟ ... لقد وجدت ذلك الكتاب على المنضدة.. الكتاب الذي يشرح ميلاد التقويم.. ثم وجدتك تطرح على هذه المشكلة فعرفت على الفور أنها ملفقة..»

- «ولماذا أجبت عن أسئلة ملفقة؟»

- «ولماذا سألت أنت؟ ... كلانا مولع بصديقه لا يقدر على الاستغناء عنه.. فقط أرجو ألا تخبر زوجتك بأنني قلت هذا..»

ثم ضم ياقته على صدره واصطكت أسنانه:

- «بيني وبينك.. كانت فكرة المجيء إلى الاسكندرية في نوفمبر غبية جداً... غبية جداً جداً..»

كنا نرتجف، لكننا نضحك من أعماق قلوبنا...

ضيف غير مرغوب فيه..

ذكرياتي مع (عصام) صديقي العبقرى توشك على أن تكون سلسلة من نجاحاته وسلسلة من دهشتي وذهولي..

لكنى برغم هذا أحتفظ ببعض الذكريات عن مرات فشل فيها، وهى ليست بالمرات القليلة.. إنه بشر بعد كل شيء.. لكن مرات فشله كانت مبررة دائماً وفي كل مرة كان هناك سبب ما..

مثلاً قصة (مولر) الألماني الذي جاء إلى مصر والذي كلفت بمراقبته كانت تحمل الفشل لـ (عصام)....

(مولر) لص متاحف محترف.. هذا ما يعرفه الجميع ويعرفه رجال الإنترنت، وقد أرسلوا لنا ملفاً مكتئزاً أتعبنا في قراءته.. لكنه عندما جاء إلى مصر لم يكن هناك شيء يمكن أن نتهمه به.. من الصعب أن تمنعه من دخول البلاد..

هكذا كلفت بمراقبته، والحق أنها كانت مهمة عسيرة لهذا رحى أدعو الله أن تأتى اللحظة المناسبة التي يترك فيها البلاد لينتهى هذا الكابوس.

في هذا الوقت استطعت أن أعرف عنه ما هو أكثر..

إنه شخصية فريدة خرجت فعلاً من عوالم قصص (جيمس بوند).. هؤلاء الأشرار الذين يفعمون تلك القصص بوسامتهم وهدوء أعصابهم..

في الأربعين هو.. ثرى جداً.. يقيم في واحد من أفخم فنادق القاهرة وأغلاها سعراً.. معه حسناء سينمائية يقول إنها (صديقتة).. وهو يصرف مبالغ فادحة في الفندق وفي الملاهي الليلية التي يرتادها.. أنيق جداً... بارد الأعصاب جداً..

لكننا راقبناه كأنه ميكروب تحت المجهر... كان من الصعب أن يتثأب أو يتكلم من دون أن أقرأ هذا في تقرير على مكيتي خلال ساعة..

التقارير تقول إنه زار متحف (محمد محمود خليل) عدة مرات.. لم يفعل أي شيء سوى الوقوف ساعات أمام اللوحات الثمينة التي رسمتها فرشاة (فان جوخ) و(ديجا) و(مانيه)... يبدو أنه منبهر جداً.. لكنه لم يفعل أي شيء على الإطلاق.. لو حسبت أنه سيخرج مطواة ويمزق لوحة ويلفها في جيبه فأنت مخطئ... لكنى أدركت أن هناك كتكوتاً ينقر البيضة في ذهنه.. إنه ينوي شيئاً ما.. هذا واضح... وهذا الشيء يتعلق بمتحف (محمد محمود خليل) بما فيه من تحف لا تقدر بمال...

على قدر علمي لا يمكنه أن يفعل أي شيء... لو فعل لأعلنت انبهارى بهذا...

على إنني قابلته في إحدى الحفلات في فندق في وسط القاهرة..

برغم أنني أعرف كل شيء عنه فقد شعرت بفضول غريب وأنا أراه عن كذب.. كان يتكلم

الألمانية مع بعض الألمان المحيطين به ويقرعون الكئوس، فتذكرت أنه كان يجب أن أجيد الألمانية لأكون هنا.. يقف بستره بيضاء و(بابيون) كأنه العميل (007) فعلاً، والحقيقة أن ملامحه قريبة من (روجر مور) إلى حد ما..

رأيت أحد الأجانب يقترب منه فيدس هو في يده قصاصة ورق، تأملها الرجل بعناية ثم دسها في جيبه.. ورأيت بعض القلق.. القليل منه جدًّا على تقاطيع وجه (مولر)، ثم استعاد حيويته وراح يمزح مع الشقراء الواقفة جواره...

كنت قد رتبت كل شيء.. صديقي (فهمي) تأبط ذراعي واتجه إلى الرجل ليقول له بضع كلمات بالألمانية.. هي كما اتفقنا:

- «هر (إيرليش).. هذا هو صديقي (محمود)... رجل الأعمال المصري.. إن لديه مجموعة لوحات نادرة يرغب في بيعها.. هو لا يفهم الألمانية بالمناسبة»

نظر لي (مولر) باهتمام وضاحت عيناه ثم قال بالإنجليزية:

- «حقًا؟»

قلت له بالإنجليزية:

- «قمت بجمع هذه اللوحات ثم وجدت أنني أفضل المال أكثر من الفن..»

وضحكت فابتسم مشجعًا.. وعاد يسألني:

- «هل هي لوحات معاصرة أم كلاسية؟»

- «شيء من هذا وذاك.. لا أفهم في الفن.. فقط قيل لي إنه استثمار ممتاز»

نظر لي في إمعان.. كنت ألعب دور رجل الأعمال الثري الجاهل ببراعة.. أعتقد أنه ابتلع الطعم بسهولة.. سوف يوطد علاقته بي..

قلت له:

- «سمعت أنك مهتم بالفنون..»

هز رأسه أن نعم.. ثم استدأ إلى الشقراء الواقفة جواره وقال وهو يشير لي:

- «أقدم لك ضيفنا المصري.. إنه يملك مجموعة ممتازة من اللوحات... لكنني بصراحة لم أر من يعرض لوحاته في الحفلات بهذه البساطة.. لو كان هذا حقيقياً فالحياة رائعة..»

قلت على الفور:

- «لكنني بالفعل لا أعرف مشتريًا سواك..»

قال باسمًا وهو يرفع كأسه في وجهي:

- «بالتأكيد لديكم في الوزارة من يفعل...!»

- «أية وزارة؟»

ابتسم ابتسامة ذات معنى وقال:

- «وزارة رجال الأعمال!.. لو كانت عندكم واحدة!»

ثم استدار ليواصل الكلام مع ضيوفه وأعطاني ظهره..

شعرت بأن وجهي يشتعل خجلاً.. لم أقل له إنني سأنسحب، لكنني استدرت مبتعداً.. طبعاً كان يتحدث عن وزارة الداخلية لأن الحيلة لم تنطل عليه قط... هو يعرف أنه مراقب وأن هناك رجال شرطة

في كل مكان، لكنني لم أتصور أن أنكشف بهذه البساطة..

اتجهت إلى الحمام وأغلقت الباب علي، ثم قلت لـ (فهمني) عبر جهاز الهاتف المحمول:

- «هل رأيت ذلك الرجل الذي أخذ قصاصة الورق من مولر؟.. أريد هذه القصاصة!... لا يهمني ما ستفعله يا (فهمني).. أرسل نشالاً خلفه.. أقبض عليه وفتشه.. افعل له حادثاً.. المهم أن أجد هذه القصاصة معي خلال ساعة!»

كنت غاضباً بالفعل ولا أشك في أنك تفهمني..

هكذا وجدت القصاصة معي بعد بضع ساعات من هذا..

ولم تكن مفيدة جداً....

جلس (عصام فتحي) صديقي العبقري وراء شاشة الكمبيوتر يتأمل تلك القصاصة الصغيرة.. قال لي ضاحكاً كاشفاً عن أسنانه الكبيرة:

- «شفرة أخرى؟ ... يبدو لي أنك تعمل في إدارة شفرات..»

قلت له في غيظ:

- «المسألة شخصية هذه المرة.. فالرجل جعلني أبدو أحمق... أريد فهم ما تحتويه هذه الورقة... لا يبدو أنهم سيجدون لها حلاً عندنا..»

نظر إلى الورقة في تفكير ثم قال:

- «تبدو صعبة فعلاً... من الممكن أن يكون المفتاح أي شيء...»

ثم راح يقرأ بصوت عال:

- «cxffd fflag dfgag ffacg caafa gcdag cacg f fgf df dfafa gcaga axgacg»

ثم حك رأسه وقال:

- «مجموعات من خمسة أحرف.. هناك تكرار واضح لحروف X c f G d a.. لا يبدو أنه يستعمل حروفاً أخرى..»

راح يكتب برنامجاً صغيراً بلغة Basic على الكمبيوتر.. وقال لي وهو يكتب السطور:

- «لغة Basic سهلة ومتاحة للجميع.. لهذا أطلق عليها مخترعوها (لغة المبتدئين الرمزية الصالحة لكل الأغراض Beginner's all-purpose symbolic instruction Code) الحروف الأولى تشكل لفظة BASIC»

وفجأة توقف عن الكتابة وهتف:

- «تذكرت!.. هناك شفرة مماثلة كان الألمان يستعملونها في الحرب العالمية الأولى.. اسمها شفرة (زيمرمان)... التي تطورت على يد (فريتز نيبيل) لتصير شفرة ADFGX.. تأمل هذا الجدول»

ورسم على رقعة من الورق جدولاً كالذي تراه أمامك:

	A	D	F	G	C
A	i	r	m	e	j
D	k	f	v	w	t
F	c	s	a	u	z
G	h	x	g	j	n
X	b	p	o	q	d

قال لي مفسراً:

- «الجدول لا يستعمل سوى ستة أحرف في المحور الرأسي والأفقي... لو نظرت إلى حرف A في الجدول لوجدته يقابل F على المحور الأفقي و F على المحور الرأسي.. لهذا فإن الشفرة ترمز لحرف A بالحرفين FF... مثلاً B تقابل حرفي A و X.. لهذا نرمز للحرف B ب AX.. وهكذا..»

«بعد هذا أدخلوا تطويراً يقضي بكتابة الحروف في مجموعات من خمسة حروف لتزداد العملية تعقيداً.. فقط الجاسوس يعرف متى تنتهي الكلمة ومتى تبدأ..»

قلت له:

- «يبدو الأمر سهلاً..»

- «هل تحسب ذلك؟.. لقد فشلت المخابرات البريطانية والفرنسية في فك هذه الشفرة.. لم يفهموا الأمر إلا بمراقبة القوات الألمانية والاتصالات والتموين.. الخ.. إن تاريخ الحرب العالمية الأولى يحوي نماذج عديدة للشفرات.. ربما أكثر من الحرب العالمية الثانية.. من الشفرات العجيبة التي استعملها الأمريكيان لخداع اليابانيين استعمال لغة هنود (النافاهو) الذين كانوا يطلقون عليهم (المتكلمون بالريح).. وقد عجز اليابانيون تماماً عن فهم هذه الشفرة..»

ثم إنه راح يلقم الكمبيوتر بطريقة قراءة الشفرة.. وضغط على بعض المفاتيح فظهرت عبارة تقول:

Dasmu seumn ichth inaus schie ben

نظر لي في حيرة.. ثم غمغم:

- «ما معنى هذا؟»

هزرت كتفي وقلت:

- «كنت آمل أن تخبرني أنت..»

راح يتأمل الشاشة.. ثم قال وهو يحك رأسه:

- «فعلاً.. لا أفهم.. يبدو أنها ليست الشفرة التي كنت أحسبها..»

هكذا شاعرًا بخيبة الأمل أعلنت أنني سأعود لداري.. فلم يعد من شيء أستطيع عمله الليلة..

أحيانًا يفشل (عصام)، لكن مشكلة فشله هي أنه يتركك عاجزًا تمامًا..

على أنني تلقيت مكالمة هاتفية منه في العاشرة صباحًا.. كان يضحك حتى أنه كان يتكلم بكثير من العسر:

- «أنت لم تخبرني أن لصك هذا ألماني؟»

قلت في حيرة:

- «نعم.. لم أقل هذا..»

- «كان عليك أن تخبرني.. لهذا استعمل هذه الشفرة الألمانية.. ولهذا كانت العبارة باللغة الألمانية..!.. لقد كانت الرسالة تقول: Das Museum nicht hinausschieben...»

- «ومعناها؟»

- «لقد سألت صديقًا لي يعرف الألمانية.. كان هذا صعبًا بسبب تقسيم الحروف إلى مجموعات خماسية لكنه استطاع فهم العبارة.. إنها تقول (المتحف ليس آمنًا) ... هذا ما أبلغه لصك لمعاونته في هذه القصاصة.. لم يرد أن يتكلم خشية أن تكونوا تسجلون كل شيء.. أعتقد أنكم لو بحثتم لوجدتم الكثير من التعليمات المكتوبة بالشفرة ذاتها.. سوف تقبضون على الرجل أو على الأقل تمنعونه من ارتكاب جريمة ما..»

شكرته بحرارة.. ثم وضعت السماعة وأخذت شهيقًا عميقًا... نحن نقرب أيها الهر (مولر)..
نقرب جدًا.....

بعد دقيقة طلبت رقمًا آخر...

خدمة لمدام إيفون..

يعيش (عصام) كما تعرفون جميعًا وحيدًا في تلك الشقة بحي (المنيل) بالقاهرة.. شقة ليست فاخرة جدًا ولا متواضعة.. إنها وسط في كل شيء لكنها -كما لك أن تتوقع- آية في النظام والنظافة.. لا بد من النظام المحكم مع شخص قعيد وإلا لاقى الأمرين في العثور على ما يريد.. لا يؤنس وحدته إنسان إلا (عفاف) التي هي خليط من المدبرة والطباخة والممرضة والصديق العزيز، لكن الليل يدنو فتجمع حاجياتها وتتأكد أنه لا يريد شيئًا وأن كل شيء موجود قريب من متناوله ثم ترحل..

هكذا يقضي ساعات الوحدة الثقيلة التالية في القراءة ومشاهدة التلفزيون والاتصال بأصدقائه، أو يجلس في مكتبه أمام شاشة الكمبيوتر يراجع بعض المعادلات والأرقام..

ينام في الثانية بعد منتصف الليل، ويصحو في السابعة - لا تسألني كيف - مع مجيء (عفاف) لتعد له الإفطار ويبدأ يوم جديد...

عندما يكون مرتبطًا بالكلية يصل (عباس) السائق في التاسعة ليحركه على مقعده إلى المصعد، فالسيارة فالكلية، ويلازمه طيلة اليوم حتى يعود به إلى داره...

أما عندما لا يكون مرتبطًا بعمل فإنه يخرج بالمقعد إلى الشرفة ويراقب سير الحياة الصاخب متأملًا...

يعيش (عصام) حياة خالية من البهجة، لكنه بذكائه الخارق استطاع أن يحول الأرقام إلى نوع راق من التسلية.. هو ليس وحده أبدًا.. إنه هنالك مع (فيثاغورس) و(نيوتن) و(الخوارزمي) و(جاوس) في جنة الأرقام حيث تتدلى أرقام السبعة والتسعة من الأشجار الوارفة..

كل ما يمت للأرقام بصلة قد جال بعقله يومًا ما، وقد خلق لنفسه أعقد المعضلات كي يتمكن من حلها.. لقد تصورت أنه لا يفقه شيئًا في الطب، لكني تبينت أنه يعرف جيدًا ذلك الجزء من الطب المرتبط بالأرقام، وكانت لهذا قصة غريبة..

جاءته (عفاف) في العاشرة صباح ذلك اليوم لتخبره أن هناك الكثير من الضوضاء في الشقة التي تقع أسفل شقته..

- «يبدو أن مدام (إيفون) قد توفيت..»

وترقرق الدمع في عينيها.. هي لا تعرف الكثير عن مدام (إيفون)، لكنها تشعر بان كل إنسان حي قريب لها..

(عصام) كان يعرف مدام (إيفون) الأرملة التي تسكن تحت شقته.. أرملة هي.. وحيدة بعد ما رحل الأبناء إلى الخارج.. مسنة إلى درجة لا تصدق.. لها ضحكة لطيفة وعينان ماكرتان كعيني الأطفال، فيما عدا هذا هي سقيمة على الدوام، وفي العام الأخير صارت قعيدة الفراش لأنها

أصيبت بالفالج..

لا أحد يبقيا حياة إلا امرأة في الخمسين تدعى (عايدة) هي كذلك مزيج من مربية وممرضة.. كان يهتم بشدة بهؤلاء العاجزين الذي يعنى بهم شخص ما، خاصة وأنه يرى نفسه في تلك الأرملة وإن لم يعترف لي بهذا، لهذا أدماه موتها بشدة، برغم أن كل إنسان يعرف انهم سيجدونها ميتة ذات يوم...

هل الإنسان يعيش إلى الأبد؟.. إن لم تمت هذه العجوز المريضة فمن يموت إذن؟

لكنه أصر على أن تقوده (عفاف) إلى المصعد وهبط الطابق الذي يفصله عن شقة العجوز..

هناك كان الباب مفتوحًا.. يقف اثنان من رجال الإسعاف وطبيب شاب مرتبك والبواب وجار أو جاران..

كان التجهم على الوجوه.. لا وقت للأسئلة، وعلى كل حال بدا أن كل إنسان في الشقة يريد انتهاء الأمر سريعًا حتى لا يقع على عاتقه وحده.. لا أقارب.. معنى هذا أن على الجيران القيام بكل شيء..

(عايدة) الممرضة البدينة تقف محمرة الأنف ممسكة بمنديل ورقي.. وهي تنهه بلا انقطاع، فاحتضنتها (عفاف) مهدئة..

قالت (عايدة) بين الدموع:

- «لقد قضيت معها الليل وكانت في خير حال.. في السادسة صباحًا قالت إنها تشعر بإرهاق.. جلبت لها الدواء والإفطار.. ثم دخلت المطبخ، فلما عدت وجدتها قد ماتت..»

نظر (عصام) لساعته ثم قال في شيء من جفاف:

- «أي أنها ماتت حوالي السابعة.. ألم تفعل شيئًا حتى العاشرة؟»

- «لقد كنت في حال غير طبيعية.. لم أدر ما أفعل...رحمها الله»

ثم انفجرت في البكاء..

همست (عفاف) في أذنه أن المرأة مرهقة خائفة، وعليه ألا يوجه أسئلة.. إنها تعيش مع العجوز بشكل مستمر وما حدث قد أفزعها بحق..

قالت (عايدة):

- «لم أتركها لحظة.. لا شك أنها راضية عني.. لقد فعلت كل ما يجب نحوها..»

لم يحب (عصام) نغمة الدفاع عن النفس المستمرة هذه.. لم يتهمك أحد بشيء.. هذه النغمة التي لا يكف المهملون عن ترديدها عندما يدركون أنهم مهملون..

دخل الطبيب الشاب إلى غرفة المتوفاة وتفحص الجثة بسرعة..

من خلفه دنا (عصام) بمقعده المتحرك ليقف على باب الغرفة..

فوق الفراش هناك صورة عملاقة للعدراء ووليدها.. هناك عدة أيقونات.. الفراش مرفوع عند الرأس ليأخذ شكل المقعد.. هناك مقعد متحرك من الطراز الذي يصلح لتثبيت مبولة.. فوضى عامة وأغطية ملقاة في كل مكان.. رزم من الخطابات من كندا غالبًا من أبنائها..

في هذا الوقت كان الطبيب يتفحص الجثة.. يثني العنق.. يفرده...

برغم ان هذا غير لائق فإن (عصام) مد رأسه من وراء ظهر الطبيب ليلقي نظرة فضولية على وجه المتوفاة العجوز.. مد الطبيب يده وأزاح الرداء عن بطنها، ليكشف عن جلد يشبه الرخام الأخضر فوق إربها الأيمن، فأشاح عصام بوجهه حياء وتراجع..

كانت الإجابة جاهزة على كل حال.. هناك ألف علبة دواء على الكومود وهناك مظروف سمين مفعم بوصفات الدواء السابقة.. تقارير أشعة.. تخطيط قلب.. لو قلت إن هذا الموت مفاجئ لكنت مبالغًا..

قال الطبيب للمسعفين:

- «يمكنكما أن تنقلها.. لا توجد مشاكل.. إنها مريضه جدًا وكان لابد لهذا أن يحدث..»

ثم أسدل الملاءة على وجه العجوز اللطيفة التي لن تضحك ثانية...

خرج (عصام) على مقعده المتحرك من الغرفة، وقاده إلى حيث وقف البواب فسأله:

- «هل كنت موجودًا صباح اليوم؟»

نظر له البواب في شك ثم قال:

- «لا.. أنت تعرف يا دكتور إنني آخذ الأولاد للمدرسة.. لا أكون هنا إلا في التاسعة..»

هنا دار (عصام) بمقعده ليواجه الطبيب والمسعفين.. وينظر إلى (عايدة) في حدة.. ثم قال ضاغظًا على كلماته:

- «أما أنت فإنني أتهمك بالإهمال الجسيم، وسوف أحرر محضرًا لك في النيابة..!!»

نظر الجميع له في دهشة، فقال:

- «أعتقد أن السيدة (عايدة) لم تكن هنا منذ ثلاثة أيام على الأقل.. تركت هذه العجوز البائسة وحدها.. من يدري؟.. ربما ماتت جوعًا أو ظمأ.. واليوم فقط جاءت (عايدة) هانم من الخارج.. لم يرها البواب لأنه لم يكن موجودًا.. فقط فتحت الشقة لتجد أن مريضتها ميتة.. ميتة منذ أيام.. هكذا أخرجت منديلها وملأت الدنيا صراخًا وبكاء وراحت تحكي كيف أنها باسلة ظلت جوار الفقيدة حتى اللحظة الأخيرة!»

قال الطبيب في ضيق:

- «عم تتكلم؟.. هذه السيدة توفيت اليوم..»

- «هذا ما تقوله الممرضة وأنت صدقته.. صدقته لأن المرء لا يتصور ان يموت المريض بسبب آخر غير المرض... كأنه من غير الوارد أن يموت مريض القلب برصاصة أو يموت مريض الكبد بالكهرباء.. صدقته لأنك ألقيت نظرة عاجلة روتينية على المتوفاة، وكل ما يهملك أن تملأ الأوراق وألا تقع عليك مسئولية قانونية، بينما أنا الذي لا يعرف شيئاً في الطب أمكنني أن أحدد ساعة الوفاة..»

ثم أخذ شهيقاً عميقاً وهتف:

- «الوفاة حدثت في وقت ما بين 24 ساعة و48 ساعة..!!»

قال الطبيب في غيظ:

- «هل الأستاذ طبيب شرعي؟.. ما كل هذه الدقة؟»

قال (عصام) وقد أرهقه كل هذا الجهد:

- «لا.. لكنني أعشق الأرقام واستخدمها بكفاءة.. لقد قرأت الكثير.. هناك ما يدعى بالتصلب الرمي.. تصلب الوجه والعنق يبدأ بعد ساعتين.. أنت ثنيت عنق المتوفاة فكان رخوًا لينًا.. معنى هذا أن 24 ساعة مرت على الوفاة حتى يتلاشى هذا التصلب الرمي وترتخي الأنسجة.. اخضرار الجانب يبدأ من المنطقة الأربية اليمنى ومعناه أن 24 ساعة مرت على الوفاة.. ثم يبدأ الجلد يتحول إلى ما يشبه الرخام متى مررت 48 ساعة.. طبعًا لو كانت الوفاة منذ 3 أيام لبدأت تغيرات التعفن المعروفة..»

قال الطبيب وقد بدأ يرتبك:

- «صحيح.. لماذا لا يوجد تعفن؟»

- «لأن الوقت لم يحن بعد.. ثم إن هذه التغيرات تتأخر مع المسنين أو من نزفوا كثيرًا من الدم أو من تسمموا بالزرنيخ!»

- «هل تريد القول إنها تسممت بالزرنيخ؟»

- «لا.. لكنني أعرف شيئًا واحدًا.. هذه السيدة توفيت منذ يوم إلى يومين ولم يكن معها أحد..»

ثم أشار إلى الممرضة وهتف:

- «هذه الدموع ليست دموع الحزن أو الشك.. هي دموع الخوف.. دموع المهمل الذي يخشى ان يفتضح أمره!»

وقبل ان يتكلم أي واحد من الواقفين اندفع إلى الباب بمقعده المتحرك تتبعه (عفاف).. ولم ينس على باب الشقة أن يستدير ويقول للطبيب:

- «اعمل على أن تخطر النيابة بالأمر ولا تستخرج تصريح دفن وإلا شكوتك...!»

كان يغلي غيظًا.. يغلي غضبًا.. والدموع التي احتشدت في عينيه كانت مزيجًا من حسرة وغيظ...

المسنون يجب ان يلاقوا أفضل عناية ممكنة وأن يعاملوا معاملة خاصة.. من أسوأ الجرائم طرًا
أن تهملهم يومين كاملين وأن يموتوا وحدهم.. والأسوأ أنه يخشى ان يتكرر هذا السيناريو معه
يومًا ما.. يجب أن ينسى هذا وأن يحمد الله على وجود (عفاف) الباسلة الأمانة معه....

لكنه على الأقل قد قدم خدمة أخيرة لمدام (إيفون)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شفرة أخرى..

فرغ صديقي (عصام) من محاضراته في الجامعة، وكنت أنا من بين الطلبة الجالسين في المدرج.. يبدو منظري غريبًا جدًا كأني شيخ وسط هؤلاء الشباب بنضارتهم، خاصة أنني أكبر أكبرهم سنًا بخمسة عشر عامًا على الأقل.

على المنصة يتحرك (عصام) بمقعده المتحرك أمام لوح الكتابة، ولكنه لا يكتفي بذلك، بل يستخدم جهاز الإسقاط الضوئي.. يدافع بحماس عن قضية لا أعرف عنها أي شيء.. لا أفهم حرفًا من الرياضيات المتقدمة التي يشرحها، لكنني أعرف يقينًا أن هذا جزء ضئيل جدًا من كل ما يعرفه.. لقد جاء من نفس الخامة التي خلق منها (الخوارزمي) و(أينشتاين) و(فيروني) و(علي مصطفى مشرفة) و(نيوتن).. هؤلاء قوم يفهمهم الناس بصعوبة جمة..

انتهت المحاضرة فجمع الطلبة أوراقهم وخرجوا لا يصدقون أنهم نفذوا بجلودهم..

أما أنا فقد اعتليت المنصة وهنأت (عصام):

- «محاضرة ممتازة.. الدليل أنني لم أفهم حرفًا»

قال ضاحكًا:

- «المهم أن يكونوا هم قد فهموا. فأنت حالة ميؤوس منها»

ثم تعاونت مع العامل على إنزال المقعد، وخرجت معه من المدرج قاصدين البناية التي يوجد فيها مكتبه.. لقد اتفقنا على أن أوصله للبيت اليوم بدلًا من ذلك الشاب الذي يرافقه دومًا..

لاحظت أن الطلبة يحبونه ويحترمونه بحق، وكنا نقابل عددًا منهم في ساحات الكلية فيحيونه بإعزاز بينما هو يمازحهم بطريقتهم.. ويستعمل ألفاظًا مثل (روشنة).. (طحن).. الخ.. ألفاظًا من عالمهم.. من العسير بحق أن تظفر بحب واحترام الشباب لكنك تعرف أنك لن تفقدهما أبدًا على الأرجح..

ركبنا المصعد إلى الطابق الثالث حيث مكتبه..

وهناك دفع المقعد إلى ما خلف المكتب، الأمر الذي قوى لدي تلك الفكرة السابقة: هذا رأس لا جسد له.. رأس عملاق يشع بالذكاء وجسد واهن ضعيف.. يذكرني كثيرًا ب. (هوكنج) أستاذ الفيزياء البريطاني العبقرى.. طلب لي قديمًا من القهوة، ثم راح يتأمل مظاريف الرسائل المكومة هناك.. ثم نظر لي نظرة خبيثة من وراء عويناته الضخمة وقال:

- «هيه؟»

- «هيه ماذا؟»

- «السبب الذي أتى بك هنا وجعلك مهتمًا لهذه الدرجة.. أنا أعرف أنك لا تفعل هذا كله لله أو

حبًا في سواد عيني..»

طبعًا لن أستطيع أن أخدعه أبدًا..

ناولته ورقة مطوية هي نسخة فوتوغرافية لرسالة.. وطلبت منه أن يقرأها بصوت عال، فقال:

- «أي، هـ، ي، تـ، معـه ض، غ»

قرأها ثم رفع عينه وقال:

- «هذه شفرة طبعًا..»

قلت له في سخرية:

- «أنت عبقرى كالعادة.. طبعًا هي شفرة وأطلب أن تحلها لي..»

قال في غيظ:

- «يبدو أنك لا تستوعب ما أقوله لك.. ذات مرة حكيت لك عن الشفرات، وكيف إنها تحتاج إلى ما يعرف بـ (مذكرة المرة الواحدة) لحلها.. هناك شفرات تعتمد على إحلال رقم أو حرف مكان رقم أو حرف آخر.. مثلاً يمكن أن نحول كل (ألف) في كلامنا إلى (باء) ونتفق على هذا... لكن هذه الطريقة يسهل حلها على الحاسب الآلي أو أي شخص لديه صبر لعد مرات تكرار الحروف..»

ثم تذكر شيئاً فأضاف:

- «ذات مرة جرب ملك الروم أن يختبر العبقرى (الخليل بن أحمد)، لذا أرسل له رسالة بحروف يونانية، وتحده أن يقرأها عالمًا أنه لا يعرف حرفًا من تلك اللغة... طلب الخليل مهلة للتفكير واعتكف في غرفته قليلاً ثم عاد بعد نصف ساعة حاملاً ورقة عليها كتابة بالعربية وناولها الضيف وقال: هل هذه رسالتك؟. فيما بعد فسر الخليل الطريقة التي اتبعها فقال: ملك الروم يعرف أنني أجهل معاني الكلمات اليونانية.. هكذا فهمت أنهم استخدموا الحروف اليونانية ليكتبوا لي بها نصًا عربيًا.. بما أن هذه الرسالة كتبت بالعربية فلا بد أنها بدئت بـ (بسم الله الرحمن الرحيم).. هكذا قارنت حروف أول سطر لأعرف كيف تكون الباء والسين والميم، والألف، واللام، والراء.. الخ في اليونانية.. ثم رحت أقرأ النص.. فإذا وجدت لفظة أعرف أكثر حروفها استنتجت الحروف الباقية.. عندما تجد لفظة (الرس... ل) فإنك تستنتج أنها (الرسول) وهكذا تعرف شكل حرف الواو لدى اليونانيين، من ثم كونت الأبجدية اليونانية كلها.. هذه هي الطريقة المعروفة باسم entropic attack»

صحت في انبهار:

- «عبقرى»

- «ومن نحن حتى نمتدح (الخليل بن أحمد)؟.. على أن أحدًا لا يجسر اليوم على استعمال هذه الطريقة لأن حلها متاح للحاسبات الآلية.. هكذا نجد أننا أمام طريقة (مذكرة المرة الواحدة) ... هناك مفتاح لهذه الشفرة لكن لا يعرفه سوى أصحابها.. هات المفتاح أحل لك الشفرة»

لما رأى خيبة الأمل على وجهي قال:

- «على كل حال لا بأس أن تحكي لي القصة.. يقول أطباء القلب إنه من المستحيل أن يجد الطبيب تخطيط قلب ملقى في الشارع فيشخص لك ما به.. لابد أن تكون عنده خلفية عن المريض.. لعل الأمر ينطبق على حالتنا..»

قلت له:

- «نحن منذ زمن نراقب (علي الشناوي).. لو أنك رأيته لأصابك الهلع، ولطلبت منا أن نقبض عليه بأية تهمة.. ما أن تراه حتى تدرك أنه مجرم.. لكنه حذر.. هذه نقطة، وشديد الذكاء جدًا، كما أنه تلقى قسطًا من التعليم الجامعي.. نحن نعرف أنه يؤجر قوته لمن يدفع أكثر.. يمكنك التخلص من أي شخص تريده لو دفعت المبلغ المتفق عليه..»

«في ليلة الحادث يأخذ الصراف (محمد بيومي) حقيبة مليئة بنقود شركة ما، ويسافر إلى الاسكندرية ليسلمها في المركز الرئيس لكنه لا يلحق بهم قبل موعد الإغلاق.. هكذا يختار فندقًا جوار محطة الرمل ليمضي فيه ليلته.. في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل يجد موظف الاستقبال رجلًا مريبًا يحاول مغادرة الفندق، فيقبض عليه ويطلب الشرطة.. طبعًا يتضح أن هذا الرجل هو (علي الشناوي)..»

«في ذات الوقت نجد الصراف (بيومي) في غرفته وقد ضربه أحدهم حتى فقد الوعي.. هناك مبلغ ثمانمائة ألف جنيه اختفى من الغرفة..»

«في المستشفى لا يعرف الصراف أي شيء عمن هاجمه.. لقد هوجم أثناء نومه..»

«لم نجد النقود مع (الشناوي) لكن كل شيء يؤكد لنا أنه ألقى بالحقيبة من النافذة لشريك ينتظره.. (الشناوي) يؤكد أنه جاء للفندق لبحث عن صديق له، ولا يعرف أي شيء عن الصراف.. ليس من حقنا اتهامه بشيء ما دما لم نجد معه المال أو نضبطه متلبسًا.. طبعًا لا توجد بصمات كما في أية عملية أخرى قام بها (الشناوي)..»

«ثمة نقطة أخرى مهمة.. لم يكن هناك من يعرف بالفندق ولا نية الصراف المبيت فيه إلا مساعدته في العمل، لأنه اتصل به ليخبره بما انتواه.. مساعد الصراف يدعى (هشام) وهو شخصية مريبة..»

«كما ترى هناك شخصيات مريبة كثيرة في القصة.. ولا يوجد دليل واحد.. الدليل الوحيد هو تلك الورقة التي وجدناها في جيب الشناوي، وهي كما ترى.. بالمناسبة هذا ليس خط الشناوي..»

«لو استطعنا البرهنة على أن الشناوي هو الفاعل، لاستطعنا كذلك البرهنة على أنه فعل هذا بتكليف من (هشام).. ولعله هو الذي تلقى الحقيبة من النافذة..»

سألني (عصام):

- «وماذا قال عن الألغاز الموجودة في تلك الورقة؟»

- «قال إن هذا ليس من شأننا.. كان يجرب قلمًا جديدًا.. هراء من هذا النوع..»

عاد (عصام) يتأمل الورقة في اهتمام وقال:

- «ما زال الأمر صعبًا.. و..... قلت لي كم كان المبلغ المسروق؟»

- «ثمانمائة ألف جنيه..»

أخرج ورقة وقلمًا ورأيته يرسم جدولاً على الورق ويجري بعض العمليات الحسابية.. ثم قال لي وعلى وجهه بسمة انتصار:

- «متى وقع الاعتداء؟»

- «في الحادي عشر من مايو.. لابد أنه كان في منتصف الليل»

قال (عصام) ضاحكًا كطفل:

- «كان المصباح - أعني الصراف - في الغرفة رقم 407؟»

نظرت له في ذهول.. لقد فعلها الوغد من جديد.. لكن كيف؟

قال (عصام) وهو يعرض على الجدول:

- «لست ساحرًا.. لقد استعمل الرجل نوعًا من حساب الجمل ليفهم المعلومات التي أبلغها (هشام) له.. حساب الجمل أسلوب يهودي عرفه العرب واستعملوه في كلامهم بكثرة، لأن الأبجدية العربية تتطابق مع العبرية تقريبًا.. في هذا الحساب يتم وضع رقم يعادل كل حرف من الأبجدية، كما يلي:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10
ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	
20	30	40	50	60	70	80	90	100	
ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ	
200	300	400	500	600	700	800	900	1000	

«وهناك دراسات عديدة في حساب الجمل في القرآن الكريم.. هناك أمثلة مذهلة حقًا.. لكن في حالتنا هذه لفت نظري رقم ثمانمائة ألف.. هذا هو المبلغ المسروق.. لو راجعت آخر حرفين في الورقة بعد كلمة (معه) لوجدت ض , غ.. ثمانمائة.. ألف..»

«الآن تعال معي نتذكر نص المذكرة: (أي , هـ , بي , تز , معه ض , غ).. هي تحوي الأرقام: 11 1) (10 + 5 , 12 (10 + 2) , 407 (400 + 7) , معه 800 , 1000..»

«أي يوم 11 من شهر خمسة.. الموعد المناسب هو 12 مساءً.. غرفة 407.. معه 800 ألف..»

«إن (هشام) وغد حذر شديد الذكاء.. لهذا دون ما يذكره بالتفاصيل في مذكرة لا يمكن فهم

محتواها لو وقعت في يد الشرطة، وهي التي سلمها للشناوي.. وبما أن الشناوي يذكر حساب الجمل جيداً كما هو واضح، فقد كان من السهل عليه أن يحول الحروف إلى أرقام في أية لحظة..»

قلت في حيرة:

- «هل تعني أن الشناوي علّم حساب الجمل لهشام؟»

- «هذا هو الاحتمال الأرجح.. لا بد أن (هشام) كان ينتظر فرصة سانحة منذ زمن، وقد أبقى الشناوي مستعداً.. فجأة جاءت الفرصة في مكالمة الصراف له من الاسكندرية.. يمكنه بسهولة أن يعرف رقم الغرفة أثناء المكالمة.. أنا أقمت في هذا الفندق من قبل.. هل غرفتك هي 211؟.. لا.. هي 407.. هكذا يدون المعلومات مشفرة للشناوي ويرسلها له.. ربما أخبره باسم الفندق شفويًا.. وعلى كل حال يمكنكم بسهولة إثبات أن هذا الخط خط (هشام)»

نظرت له في ذهول، ومددت يدي إلى سماعة الهاتف..

سوف يسهل التأكد مما إذا كان على حق أم لا.. لكنني عرفت الجواب منذ اللحظة الأولى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كتاب ثمين..

رحت أتأمل رف الكتب في غرفة مكتب (عصام)... كانت ثقافته موسوعية كما لك أن تتوقع من شخص هو عقل قبل أي شيء آخر.. وقد أبديت له هذه الملاحظة فقال ضاحكًا:

«أنت تقع في الخطأ الذي تقع فيه الفتيات.. عندما يتقدم لها شاب يشذب شاربه جيدًا ويدخن لفافة التبغ المستوردة بأناقة، ويقود سيارته ببراعة، فهي تفترض أنه إنسان ممتاز يصلح زوجًا لها!»

قلت في غباء:

- «لا أفهم..»

- «لا يعني وجود هذه الكتب عندي أنني مثقف.. ربما لم اقرأ عنوانًا واحدًا منها.. أنت تتعامل مع الناس كما يبدون لك لا كما هم فعلاً..»

- «لكني أعرف يقينًا أنك قرأت هذا كله فأنا أعرفك»

حك رأسه في تواضع وقال:

- «هذا موضوع آخر.. فعلاً قرأت أكثر هذه الكتب، وهذا يحملنا إلى السؤال التالي.. هل استوعبت ما قرأت أم أنني كنت كالحمار يحمل أسفارًا؟»

كانت المناقشة معه ترهقني أحيانًا لذا آثرت الصمت، ورحت أتصفح العناوين..

كانت هناك مراجع رياضية كثيرة بالإنجليزية.. وكانت هناك كتب أدبية، على أنني وجدت مجلدًا فارغًا.. مجرد غلاف سميك لا يحوي أي شيء.. وقد كتب على كعبه اسم (إنريكو فيرمي)..

قلت له ضاحكًا:

- «هل تخفي نقودك في غلاف مجلد فارغ كما يفعلون في السينما؟»

قال وهو يمسك بالغلاف في يده:

- «للأسف لا.. هذا الكتاب كتبه واحد من أعظم علماء الفيزياء في القرن العشرين.. (فيرمي) عالم الطبيعة النووية الذي فر إلى الولايات المتحدة ليكون مع (أينشتاين) و(بور) وآخرين في عصر طموح القنبلة الذرية.. على كل حال كانت فكرة القنبلة وليدة أفكار (زيلارد) وقد نفذها (أوبنهايمر)... لم يتسع الوقت لأقرأ هذا الكتاب قط.. اقترض أحد الأوغاد هذا الكتاب مني منذ عشرة أعوام ثم أعاده لي فارغًا وقال إن ابنه مزقه.. هو لا يعرف أين ذهب محتوياته.. اعتذر كثيرًا جدًا، لكن فقد هذا الكتاب يشعرني كأني فقدت يدي اليسرى..»

- «إلى هذا الحد؟»

- «لقد فشلت في العثور عليه ثانية.. جربت البحث في الإنترنت لكن من الواضح أن هذا الكتاب

قد انقرض..»

ثم ابتسم وأعاد الكتاب إلى الرف وقال:

- «دعنا من هذا.. هل ستتناول العشاء معي؟ ... لا؟ ... إن هذا مؤسف..»

- «أنا لم أقل لا..»

- «لمحت الرفض في عينيك وشعرت بحسرة!..»

كنت أنا شارّد الذهن أفكر.. أنا بحاجة لتقديم شيء ما لهذا الرجل الشجاع.. إن عيد ميلاده قريب.. ماذا لو فوجئ بأن صديقه لم ينس.. وأنه بحث عن الكتاب الثمين ووجده..؟..

قلت له في حذر:

- «هل تسمح لي بأن آخذ الغلاف معي؟..»

- «لن تنجح.. لو كان للكتاب أثر لوجدته أنا..»

- «جربني.. فقد تسبق العرجاء..»

هز رأسه باسمًا وناولني الكتاب الفارغ.. غير عالم أنه قدم لي طئًا من المتاعب في الأسبوع التالي..

الحاج بيومي قادني إلى عم خليل وعم خليل قادني إلى يوسف.. يوسف أخبرني عن أبي طالب وهذا الأخير دلني على أسامة.. هذه جولة وسط أباطرة الكتب في القاهرة.. ملوك سور الأزيكية الذين يملكون مفاتيح الكتب، ويعرفون مكان أي كتاب في مصر..

كان من الممكن أن تساعدني مهنة الضابط كثيرًا في هذا الصدد، لكنني فضلت ان احتفظ بأمرها سرًا لأن هؤلاء القوم حذرون متشككون بطبعهم.. ضابط يبحث عن كتاب أمر لا يعني سوى الكثير من المتاعب..

أسامة كان شابًا في الثلاثين له شارب كث وعينان حذرتان يقظتان.. وكان يجلس في المقهى حافي القدمين بينما يلمع عجوز أسمر نحيل حذاءه على بعد خطوات، وكان يشرب الشيشة ويجرع جرعات كبيرة من كوب شاي أسود ثقيل، وهو لا يفارقني بعينه.. لسبب ما أشعر أننا نتكلم عن مخدرات لا عن كتاب لعالم فيزيائي..

سألني:

- «هل قرأت ذلك الكتاب؟.. ما محتواه؟»

- «لم أقرأه ولم يقرأه صديقي.. لكنه كتاب باللغة الإنجليزية عن الطبيعة النووية..»

ثم وضعت الغلاف الفارغ أمامه فنظر له متفحصًا، وقال وهو ينفث سحابة دخان كثيفة:

- «سوف أجده.. إن لنا وسائلنا ما دام الزبون جادًا ويقبل الدفع.. لكن لا اضمن ألا يكلفك هذا

غاليًا..»

- «المال ليس مشكلة.. لكن هل لي أن اعرف كيف تنوي أن تجده؟»

- «هذه مهنتي.. حتى لو اضطررت إلى الاتصال بأحد معارفي في الخارج..»

ثم وضع ميسم الشيشة على المنضدة وصفق بيده طالبًا الحساب، فأقسمت أن أدفع أنا.. ناولني بطاقة صغيرة عليها رقم هاتفه المحمول وقال لي:

- «بعد أسبوع إن شاء الله تسمع خيرًا»

بعد أسبوع كان أكثر ظرفًا ولطفًا.. على نفس المقهى أخرج كتابًا من كيس ورقي وقال:

- «تفضل..»

في لهفة نظرت للغلاف فرأيت اسم (إنريكو فيرمي).. فررت الصفحات فوجدت كلامًا لا أفهمه عن مدارات الذرة، والنيوترونات، والبروتونات، والالكترونات.. رسوم لمدارات.. الخ.. نفس الغلاف الذي رأيته عند عصام..

- «وهذا هو غلافك الأصلي..»

ووضع الغلافين أمامي لأرى التشابه الكامل بينهما.. ثم قال في لطف:

- «خمسمائة!»

- «خمسمائة صفحة؟»

- «بل خمسمائة جنيه!»

وراح يحكي لي مدى المصاعب التي عاناها والإكراميات التي دفعها.. لولا المبالغة لقال إنه سافر إلى ورثة (فيرمي) ليأخذ الكتاب منهم.. بالفعل بدأت أشعر أننا نتكلم عن صنف من المخدرات لا عن كتاب.. يحاول إقناعي أنه لن يكسب سوى جنيهين أو ثلاثة من هذا المبلغ كله..

لكني وعدت.. لذا مددت يدي في حافظتي وأخرجت المبلغ المطلوب..

أرجو أن يسعد (عصام) بهذا الكتاب.. هذا هو التعويض الوحيد لي عن كل هذا المال الذي ضاع هباء.. لو ان زوجتي عرفت لنصبت لي المشانق..

وفي يوم عيد ميلاد عصام طلبت منه أن يغمض عينيه ثم وضعت الكتاب اللعين في حجره..

فتح عينه ونظر للكتاب في لهفة..

- «يا صديقي الطيب!.. أنت فعلتها!!»

سألته في حذر:

- «هل المحتويات واحدة؟»

- «لا أدري.. تعرف أنني لم أقرأ الكتاب الذي ضاع..»

وراح يتصفحه.. ثم قلب بطن الغلاف الأخير وتأمل شيئاً ما.. أخرج قلمًا صغيرًا وراح يجري حسابات معينة على الهامش..

بعد دقيقة قال لي:

- «لا أريد أن أضايقك.. لكن هذا الكتاب مزور..!»

صحت في صوت كالبكاء:

- «ماذا؟.. الغلاف هو الغلاف والمحتوى عن الطبيعة النووية..»

- «نعم.. نعم.. هو كتاب عن الطبيعة النووية لكننا لا نعرف مؤلفه.. هناك من قام بتزوير الغلاف ليشبه الكتاب القديم، وهي عملية شاقة متقنة، خاصة ان اسم الكتاب لا يوجد على هامش الصفحات.. يبدو أنك أبديت لهفة واضحة أغرت البائع بأن يقوم بهذا التزوير الشاق..»

قلت في حيرة وأنا أشعر بأنني دست سلًا كهربيًا:

- «لكنك تقول إنه متقن..»

- «متقن نعم.. هذا ليس مرادفًا للفظة (أصيل).. كم دفعت ثمنًا له؟»

قلت كاذبًا:

- «عشرين جنيهًا!»

صفر بشفتيه غير مصدق لفداحة المبلغ.. وقال في غضب:

- «يجب أن تعيده.. عشرون جنيهًا؟.. إن النصب لن يتوقف عند حد!!»

قلت له وأنا استجمع أنفاسي:

- «سأعيد الكتاب لكن أريد معرفة كيف عرفت..»

فتح الغلاف الأخير حيث باطن الكتاب.. هناك كانت العبارة الشهيرة:

ISBN 0-205-12669-7

قال لي:

«هل تعرف معنى ISBN؟»

- «يكتبونها في آخر الكتب.. أعتقد أنها رقم الإيداع أو شيء من هذا القبيل..»

- «بالفعل.. هي اختصار عبارة International Standard Book Number.. أي رقم الكتاب القياسي الدولي.. لو قرأت الرقم من اليسار لوجدت الصفر.. معنى هذا أن لغة الكتاب هي الإنجليزية.. 205 رقم يدل على الناشر.. 12669 يحدد الكتاب نفسه..»

الرقم الأخير على اليمين هو المهم، لأنه يحدد مدى دقة هذه الأرقام المجاورة.. لحساب هذا تضرب كل رقم من اليسار إلى اليمين حسب موضعه من عشرة إلى واحد.. أي تضرب الصفر في عشرة.. وتضرب الاثنين في تسعة.. وتضرب الصفر في ثمانية.. وهكذا حتى تبلغ اليمين.. ويتم جمع هذه الأرقام كالتالي:

$$X 10 + 2 X 9 + 0 X 8 + 5 X 7 + 1 X 6 + 2 X 5 + 6 X 4 + 6 X 3 + 9 X 2 0$$

يتم جمع هذه المصفوفة.. سوف تجد أن المجموع هنا 129..

الآن يختار من يضع الترتيب أن يكون الرقم على اليمين عددًا صحيحًا من واحد إلى عشرة.. هو أقل عدد يُضاف لمجموع المصفوفة لتقبل القسمة على 11.. في مثالنا هذا تجد أنك لو أضفت رقم 3 إلى 129 لصار المجموع 132 وهو رقم قابل للقسمة على 11.. هو أقل رقم ممكن لتحقيق هذا الشرط.. بعبارة أخرى الرقم على اليمين يدلنا على أن الحسبة صحيحة»

ثم قرب الكتاب مني وقال:

- «كما ترى الرقم هنا هو 0-205-12669-7.. لا يوجد رقم 3 على اليمين.. رقم الكتاب القياسي خطأ.. هذا كتاب لا وجود له ببساطة.. لقد تم تلفيق الغلاف جيدًا لكن من لفقه لم يكن يعرف هذه القاعدة.»

ثم قلب الصفحات وقال:

- «دعك من أني لو قرأت بتدقيق لوجدت ما يدل على مؤلف الكتاب الحقيقي.. ولكن إلى أين انت ذاهب؟»

قلت وأنا أغادر الغرفة:

- «سأبحث عن هذا النصاب الذي خدعني وسلبني الخمسم.... أ.. العشرين جنيهاً... سوف يعرف أنه حاول أن يعيث بضابط شرطة.. سأريه أنني أعرف كيف أكون شرسًا!»

اختبار نفسي..

قالت لي (شيرين):

- «لا تقلق.. أغمض عينيك واصغ لما أقول لك..»

أغمضت عيني برغم أن هذا غير مريح.. كنت اشعر أن المدرسة كلها تراقبني في عصر ذلك اليوم الحار.. جالسين في الفناء نشم هواء الربيع القادم (الحراق) إياه.. أخاف هذا الهواء كثيرًا.. الهواء الذي تشبع من الحقول المحروثة وحبوب اللقاح وأزهار البرتقال وأنفاس العشاق، فصار كاللهب يتسلل إلى كل مراكز الهرمونات ليشعلها.. أنت عاشق!.. ومتى؟.. قبل امتحانات نهاية العام مباشرة حيث لا وقت للأحلام والشعر ورسم القلوب على هوامش كتاب الجغرافيا..

كانت هذه هي الفترة القصيرة التي عرفت فيها (شيرين) الفاتنة، والتي ظلت مصرة على أن تداعبني مداعبات عقلية لا أول لها وآخر.. مداعبات تبرهن على غباي قبل كل شيء..

لهذا توجست خيفة من طلبها هذا..

أغمض عينيك وثق بي.. لا بد أن هناك مقلبًا ما..

لكني أغمضت عيني وفعلت كما طلبت.. فقط من وقت لآخر أفتح نصف عين لأتأكد من أن الفصل كله لا يقف حولي، أو أنها ثبتت لي ذيلًا، أو ألصقت على ظهري لافتة تقول: اضربوني..

قالت لي:

- «هذا اختبار نفسي بسيط.. يمارسونه في الخارج..»

- «فهمت.. ثلاثة أكواخ فيها ثلاث فتيات... الأولى اسمها هالة والثانية من فرنسا و...»

قالت في دلال:

- «يا لك من طفل!.. قلت لك إنه اختبار نفسي وليس اختبار ذكاء... والآن أصغ لما أقول...»

أغمضت عيني بإحكام وانتظرت...

قالت لي:

- «أنت تمشي في الغابة.. تخيل هذا.. هل رأيت غابة من قبل؟.. لا... إذن أنت تمشي في عزبة أو في الريف. أي شيء... من الذي يمشي معك الآن؟»

قلت على الفور:

- «يا له من سؤال سخيف!! أنت طبعًا..»

- «ليكن.. هذا مفهوم.. هناك حيوان يعبر الغابة أمامك.. هل تراه؟ ... هل عرفت ما هو؟»

- «أعتقد أنه.. إنه فيل.. فيل أفريقي كبير.. ينظر لي ويرفع خرطومه محيئاً..»

- «ماذا تفعل له؟»

فتحت عيني ونظرت لوجهها المليح القسيم وقلت:

- «أنا؟؟.. لا شيء طبعاً.. ماذا بوسع المرء أن يفعل مع فيل؟.. أتجاهله وأتظاهر بأنني لم أره..»

عادت (شيرين) تتكلم:

- «هم م م.. الآن أنت غادرت الغابة لتمشي وسط مساحة خالية من الأشجار.. هناك بيت.. بيت أحلامك الذي تصبو إليه طيلة حياتك.. هل هو كبير ام صغير؟»

قلت في تواضع:

- «صغير جداً... أنا مولع بالقليل من كل شيء، وأؤمن بأغنية فريد الأطرش: عش العصفورة يقضينا.. لو كنت معك فمن يحتاج إلى بيت كبير؟ البيت الصغير يتيح لي أن أكون بقربك طيلة الوقت»

ضحكت ضحكة من لا يريد المزيد من المزاح وواصلت الأسئلة:

- «هل حول البيت سور؟»

- «لست متأكداً...»

- «فكر جيداً... فكر بعمق..»

- «لم أر بيتاً في غابة من قبل، لذا أعتقد أنه محاط بسور مكهرب.. لابد من إبعاد الوحوش كما تعلمين...»

قالت لي بعد صمت:

- «حسن.. انت دخلت غرفة الطعام.. هناك منضدة.. هل لك أن تصف لي المشهد؟»

فكرت قليلاً ثم قلت:

- «لا يوجد شيء..»

- «متأكد؟.. لا يوجد ناس يطعمون؟.. لا طعام على المائدة؟»

- «لا شيء.. مجرد مائدة خشبية عتيقة فارغة..»

- «همم.. ليكن.. أنت غادرت البيت.. هل ترى هذا الكوب الملقى وسط العشب؟»

- «لا يوجد كوب وسط العشب..»

- «بل يوجد.. أنظر جيداً..»

- «لا يوجد.. من الذي يحلم؟.. أنا أم أنت؟.. ولكن.. ليكن.. هناك كوب فعلاً..»

- «مم صنع؟»

- «إنه كوب ورقي طبعًا.. ما داموا تخلصوا منه بين العشب فلا بد أنه ورقي.. للاستعمال مرة واحدة»

- «وماذا تفعل به؟»

- «أسحقه بقدمي.. أحب صوت تهشم هذه الأكواب الورقية..»

فكرت حينًا ثم قالت:

- «جميل.. جميل.. والآن انت تتجه خارج حدود المنطقة.. هناك سطح مائي ما.. هل هو بقعة ماء، أم بئر، أم بركة، أم نهر، أم بحيرة، أم محيط؟»

فكرت في الصورة المتجسدة في خيالي وقلت:

- «بركة ماء.. لا أراها إلا بهذا الشكل..»

- «كيف تنوي أن تعبرها؟»

إنها تحاول الإيقاع بي كما هو واضح.. اختبار ذكاء.. هكذا قلت في حماس:

- «لن أعبرها.. لو اضطررت للعبور لبحثت عن جذع شجرة استعمله كجسر.. هكذا لن أبتل أبدًا..»

قالت لي:

- «والآن افتح عينيك.. لقد انتهى الاختبار..»

فتحت عيني شاعرًا بذلك الشعور الغريب المعتاد بأن درجة الإضاءة تغيرت أو أن شكل الأشياء لم يكن هكذا عندما أغمضت عيني.. سألتها على الفور:

- «هيه؟.. ما النتيجة؟»

كانت تمسك بمفكرة صغيرة دونت فيها إجاباتي، وقالت وهي تجمع حاجياتها:

- «ليس الأمر بهذه البساطة.. سوف أرجع لكتبي أولاً..»

وسرعان ما كانت تتواثب مبتعدة.. ووقفت وحدي أنظر لها حالمًا...

كان (عصام فتحي) صديقي العبقري يقف هناك يراقب مباراة في كرة القدم بين الصفيين الثاني والثالث.. لا بد أنك لاحظت أننا في أيام الدراسة وكان (عصام) يمشي.. كانت له قدمان حيتان..

أما عن وقوفه يشاهد المباراة فأمر عجيب.. بالتأكيد هو لا يراقب اللعب، ولكنه يراقب ذاته

وأفكاره الخاصة. ربما يدرس احتمالات أن تلمس الكرة ذات اللاعب مرتين، أو احتمال أن تخرج من الملعب.. المهم إنه يشاهد كل شيء في الملعب عدا المباراة..

- «تأخرت..»

لوحث بالكيس الورقي في يدي وقلت:

- «كنت أشتري بعض الحلوى من المقصف.. ثم قابلت شيرين فأجرت لي امتحانًا سريعًا.. اختبارًا نفسيًا عجيبيًا..»

ورحت أحكي له تفاصيل أسئلة (شيرين) وهو يبتسم.. ابتسامته تزداد اتساعًا مع الوقت.. حتى انفجر يقهقه.. سألته في غيظ عما يضحك ها هنا..

قال لي:

- «إن الكتب والمجلات تعج بالاختبارات من هذا النوع.. لكن هذا الاختبار شهير جدًا ومن الغريب أنك لم تسمع عنه من قبل.. والأجمل هو أنك اخترت كل الإجابات الخاطئة..»

- «ماذا تعني؟»

قال في هدوء وصبر:

- «أنت في غابة وتمشي مع شخص ما.. من المفترض أن هذا ال. (شخص ما) هو أهم شخص في حياتك.. أنت اخترت (شيرين).. جميل جدًا.. بداية موفقة. هناك حيوان يعبر الغابة.. حجم هذا الحيوان يدل على حجم مشاكلك.. أنت اخترت الفيل وبالتالي دلت لها على أنك تواجه مشاكل عويصة في حياتك.. أما طريقة تعاملك مع الحيوان فتدل على طريقتك في مواجهة المشاكل.. طبعًا أنت عبقرى ولم تفعل أي شيء على الإطلاق.. معنى هذا أنك إنسان سلبي جدًا..»

- «ليكن.. لا أتوقع أن تكون كل إجاباتي موفقة..»

- «المنزل في الغابة يدل على حجم طموحاتك.. كنت أنت متواضعًا قنوعًا واخترت أصغر منزل ممكن.. يمكننا أن نعرف أنك لا تملك أي طموح على الإطلاق.. السور حول المنزل يدل على شخصية منغلقة تمقت الآخرين.. ثم إنك دخلت قاعة الطعام لتواجه منضدة خالية ليس عليها طعام ولا يوجد ناس.. معنى هذا أنك شخص غير سعيد على الإطلاق.. ثم خرجنا إلى الغابة لنجد الكوب الملقى وسط الأعشاب.. خامة الكوب تدل على متانة علاقتك مع الشخص الذي دخلت الغابة معه.. أنت اخترت كوبًا ورقيًا لأنك ذكي.. هذا يدل على متانة علاقتك بشيرين. والأدهى أنك هشمت الكوب بقدمك.. ما تفعله مع الكوب يدل على موقفك من الشخص الذي دخلت الغابة معه. واضح أنك تحترمها وتحبها فعلاً..»

كنت اشعر بأذني ملتهبتين كاللحم.. وصحت في ضيق:

- «وماذا عن البركة؟»

- «السطح المائي يدل على حجم حبك لذلك الشخص.. ألم تسمع فيروز تقول: شايف البحر شو كبير؟.. كبر البحر باحبك؟.. أنت قلت إنك تحب شيرين بحجم بركة صغيرة.. لكن الأمر لم

ينته بعد.. لو أنك ابتللت أثناء عبور البركة لكان هذا دليلاً على شدة حبك، لكنك لم تبتل وفضلت استعمال جسراً!»

ثم لخص الموقف بعبارة واحدة:

- «الآن تقرأ الفتاة معنى إجاباتك فتدرك أنك شخص محاط بالمشاكل وبرغم هذا هو سلبي جداً.. شخص بلا طموح ومنغلق يكره الناس وشديد التعاسة.. شخص يميل لها لكن هذا الميل غير قوي، وهو مستعد للتخلي عنها ببساطة..»

صحت في جنون وقد بدا لي هذا غير عادل:

- «هذه الألعاب السخيفة..! لا يمكن أن تحكم على إنسان لمجرد أنه يحب الأفيال!.. هذه الألعاب تكون ملفقة دائماً ولا علاقة لها بالطب النفسي»

قال عصام في برود:

- «أنا لا أحكم عليك.. هي التي ستحكم فقل لها هذا الكلام!»

- «كنت احسبها أذكى من هذا!»

- «وهي غالباً أذكى من هذا.. لا اصدق أن شيرين تعتمد على هذه الاختبارات على كل حال.. لكنني تذكرت الآن قصة (رابطة ذوي الشعر الأحمر) من قصص (شيرلوك هولمز).. في هذه القصة ظفر بطل القصة بوظيفة مربية مريحة هي أن يذهب كل يوم لمكتب في آخر لندن ليجلس على مكتب وينسخ الموسوعة البريطانية.. هذه الوظيفة بدت غريبة لشيرلوك هولمز وقد راح يحقق في القصة.. في النهاية عرف أن الغرض كان إبعاد الفتى عن مسكنه بشكل ثابت منتظم، لأن هناك عصابة تحفر نفقاً من هذا المسكن إلى المصرف الذي يقع تحته!..»

قلت في حيرة:

- «ما علاقة هذا بقصتنا؟»

لوح بكيس الحلوى الذي كنت أحمله وقال:

- «شيرين لم تهتم ذرة بهذا الاختبار.. فقط كانت تريد منك أن تجلس أمامها مغمض العينين لبعض الوقت.. هل تعرف السبب؟.. أعتقد أنك لن تجد شيئاً في كيس الحلوى الذي ابتعته هذا.. لقد نقلت كل محتوياته إلى حقيبتها بينما أنت غارق في الاختبار النفسي.. دعاية قاسية ذكية لا تصدر إلا عن شيرين.. وأعتقد إنني بدأت أميل لهذه الفتاة.. كنت أنت بعيد النظر عندما أحببتها.. بعيد النظر فعلاً!!»

مشاعر حارة!

جالسًا في الشرفة مع (عصام) في ذلك اليوم الحر القائن نشرب عصير الليمون، كنت أشعر أن روعي ذاتها لزجة ملتصقة بأحشائي..

كان هو مرهقًا من الحر عاجزًا عن الكلام، وقد نبت العرق على شفته العليا.. إن لديه جهاز تكييف لكنه معطل ولا أحد في الصيانة يكلف خاطره بزيارتنا..

قال في خبث وهو يجفف عرقه:

- «الحرارة لن تقل عن مائة فهرنهايت!»

نظرت له في حيرة، وطلبت منه أن يفسر أكثر، فقال:

- «أي 38 درجة مئوية.. الأمر سهل.. إطرح 32 ثم اضرب في 5/9.. كل طفل يعرف هذا..»

قلت في ضيق:

- «وكل طفل يعرف أن الحرارة لن تقل عن ستين مئوية.. أعتقد هذا.. أشعر به»

ضحك ورشف رشفة من الليمون وقال:

- «هذه مبالغات.. الحقيقة أن أقصى درجة حرارة سجلت على وجه الأرض كانت 57 درجة مئوية في الظل، وكان هذا في موضع من كاليفورنيا اسمه (وادي الموت)..»

قلت في انتصار:

- «في الظل!.. هل سمعت؟»

- «أنا قلت هذا.. فكرة تسجيل الحرارة في الظل هي محاولة منع حرارة الترمومتر من الارتفاع عن الهواء المحيط به.. هذا يعطي قياسات خاطئة تمامًا..»

ساد الصمت إلا من صوت أنفاسنا الثقيلة..

بدأت الشمس تنكسر قليلًا.. أعتقد أن هذه المحنة إلى زوال قريبًا.. لكنني وقد بدأ الكلام عن الحرارة والحر، تذكرت قصة مررت بها مؤخرًا وخطر لي أن أسأل (عصام) عنها..

رأى النظرة في عيني فقال:

- «هلم.. قل ما عندك..»

- «مجرد قصة سخيفة لكنها مسلية.. لا أعرف كيف يجتمع السخف مع التسلية.. ربما أردت القول إنها تافهة..»

ثم فكرت قليلًا وبدأت أحكي..

يبدو لي أن السبب الوحيد الذي يجعل صديقين يتشاجران ويختلفان هو الأنثى. الرجال ليسوا من النوع الذي يغار بسبب الأناقة أو بسبب ثوب جديد، ولا يغار واحد منهم لأن زوج أخت زوجته قام بتجديد غرفة الصالون أو ابتاع سيارة جديدة.. أعتقد أن الأنثى هي السبب الوحيد الذي يجعل الرجال يتشاجرون.. ولعلها من تقاليد القبيلة قديمًا، عندما كان الرجال يصطرون فتصير إناث القبيلة للأقوى أو الأفضل..

كان (مصطفى) و(رمزي) شابين يعملان في أحد الأفران العصرية الحديثة، حيث يتم خبز البيتر وتلك المعجنات التي عرفها مجتمعنا حديثًا.. كانا مسئولين مع رجل ثالث عن الفرن الذي يتم فيه خبز الحلوى، وهو أقرب إلى غرفة عملاقة لها نافذة من الزجاج الحراري مع (ثرموستات) يتحكم في درجة الحرارة..

(مصطفى) له خطيبة رقيقة تعمل في متجر ثياب قريب، وقد كانت تمر عليه في الصباح والمساء لتبتاع بعض الخبز، أي إنها كانت تأخذه هدية طبعًا.. وكان يوصلها لبيتها.. يوم الخميس كانا يخرجان للنزهة..

على أن القلوب مراوغة بطبعها، وقد بدأ نوع من التجاذب بين (مها) – اسم الفتاة – و(رمزي).. بدأ بنظرات إعجاب ثم كلمات.. ثم لقاء.. وفي النهاية عرف مصطفى أنه تقريبًا قد خسر خطيبته..

راح لرمزي في بيته، وقال له إن الرجل الذي يخسر صديق عمره من أجل فتاة ليس برجل، وإنه لا يتصور أن تأتي الخيانة من صديقه.. هذه هي القصة كما يحكيها (مصطفى).. في النهاية وعده (رمزي) بأن يقطع علاقته مع الفتاة.. أنا وأنت نعرف أنه لم يفعل ذلك..

وجاء أولاد الحلال يخبرون مصطفى الواقف جوار الفرن أن رمزي في الحديقة مع مها.. هكذا ترك من يأخذ مكانه وهرع إلى هناك ليجد عاشقين رومانسيين يحلقان في سماء الأحلام.. كانت هناك مشاجرة واتهامات متبادلة.. سوف اختصر على كل حال.. أنت تعرف هذا النوع من القصص..

نأتي الآن لليوم الموعود عندما جاء رمزي إلى عمله في الفرن.. كانت هذه بداية اليوم ولم يأت الزبائن ولا العاملون بعد ولم يأت شريكهما الثالث الذي أخبرهما أنه سيتأخر ساعتين..

لم يتبادل الصديقان اللودان أية كلمة وانهمكا في رص العجين.. فقط نظر مصطفى إلى النافذة الزجاجية وصرخ في رعب واشمئزاز أنه رأى فأرًا داخل الفرن!.. كانت هذه كارثة.. المخبز راق يعنى بالنظافة بشكل كبير..

دخل الصديقان إلى الفرن الخامد وراحا يفتشان، وكما قلت لك فالفرن متسع يسمح بدخول رجلين.. لم يكن هناك شيء..

قال رمزي إنه يعتقد أن مصطفى واهم، لكن هذا الأخير أصر على كلامه..

إلى هنا تختلف القصة.. رمزي قال إنه جثا على ركبتيه يبحث عن الفأر، لحظات ثم سمع

الباب يوصد.. الباب الذي لا يفتح إلا من الخارج!.. نهض مذعورًا ليرى ما هنالك فرأى عبر النافذة الزجاجية مصطفى يتجه إلى قرص الترموستات ويقوم بتشغيل الفرن!... رآه يرفع درجة الحرارة إلى 140 درجة مئوية دون أن ينظر له!.. فقط رفع عينه ليبادل له نظرة باردة صلبة قاسية، ثم انهمك في العمل..

يقول رمزي إنه راح يصرخ ويضرب الباب بقوة، لكن الحرارة كانت ترتفع فعلاً.. هل جن مصطفى؟.. لو احترق رمزي فلن يفلت مصطفى من العقاب.. إنه الإعدام!.. لكن، حتى لو مزقوه إلى أشلاء تلتهمها الكلاب فلن يفيد هذا رمزي في شيء، ولن يغير حقيقة أنه سيموت حرقاً في فرن!

أسوأ كوابيسه يتحقق، ولن يظهر كائن حي قبل نصف ساعة يكون هو قد تحول فيها إلى دجاجة مشوية..

راح يصرخ ويضرب الباب ويتوسل، وراح يخدش الباب من الداخل بمفاتيحه.. ثم ابتعد عن الباب والجدران وقد أدرك أنها تسخن بلا انقطاع. أمله الوحيد هو أن يأتي أحد في هذه اللحظات.. مصطفى قد جن.. هذا هو التفسير الوحيد.. لهذا لا يعبأ بتبعات هذه الجريمة ولا يهتم ما سيحدث له بعدها..

يقول رمزي إنه كان موشكاً على الجنون بدوره عندما انفتح الباب فجأة!

عندما خرج أدرك أن عشر دقائق مرت عليه بالداخل، ولم يجد مصطفى...

هذه هي قصة رمزي، أما مصطفى فيحكي بطبيعة الحال قصة مختلفة تماماً عن كراهية رمزي له وتلفيق التهم طيلة الوقت ليخلو له الجو مع (مها).. يؤكد أنه تأخر في ذلك اليوم عن الذهاب إلى الفرن.. كيف يضع رمزي في الفرن إذا لم يكن هناك أصلاً وقتها؟

هكذا تصادمت حكايتان بلا شاهد..

بالنسبة لنا في الشرطة لم نصدق حرقاً من حكاية رمزي.. كيف يبقى إنسان في فرن درجة حرارته 140 درجة مئوية عشر دقائق ويظل حياً؟.. بل لا يترك هذا أية حروق أو آثار على جلده؟..

رمزي كاذب وقد وجهنا له تهمة البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات..

قصة طريفة هي وقد تذكرتها بمناسبة هذا الجحيم الذي نحن فيه.. لا أطلب رأيك بالقضية منتهية.. فقط أحكيها لأنني تذكرتها.

قال (عصام) وهو يفكر:

- «عامّة لا أميل إلى الاعتقاد بأن العاشق الجديد ميال للعنف.. إنه ثمل من خمر الحب، ويكتفي بما أحرزه من نصر على منافسه فلا يرغب في مزيد من الإيذاء.. العاشق المهجور القديم هو الذي تملأ نفسه المرارة ويكون أقرب إلى الانتقام.. أنا أميل إلى تصديق قصة رمزي.. وأعتقد أن مصطفى لم يهدف إلى قتله، وإلا لما أوقف الفرن.. كان بوسعه ان يتركه فترة أطول بكثير..

كان يهدف إلى تعذيبه وإخافته وتلقيه درسا قاسيا..»

قلت محتجا:

- «وموضوع الصمود في الفرن هذا؟.. هذه قصة لا تنطلي على طفل..»

قال في غموض:

- «أنت لا تتصور قدرة الجسم البشري على تحمل الحرارة.. عندما يكون الهواء حولك جافا يمكن لجسدك أن يتحمل حرارة تبلغ 160 مئوية.. هناك عالمان فيزيائيان بريطانيان هما (بلاجدن) و(جنثري) جربا البقاء في فرن خبز وسجلا هذه الحرارة، بينما يقول العالم تندال: إن الإنسان يتحمل درجات حرارة صالحة لقلي اللحم وسيق البيض..»

- «وكيف؟»

- «الجسم يحاول التكيف مع هذه الحرارة عن طريق بخر العرق، وبهذا يحافظ على حرارته ثابتة.. لكن يجب أن يتحقق شرطان: ألا يلمس الجسم شيء، وأن يكون الهواء جافا لأن الهواء الرطب يقلل من تحمل الحرارة بدرجة غير معقولة. في قصتك هذه تحمل رمزي حرارة تقدر بـ 14 مئوية لعشر دقائق ولم يلمس الجدران.. العلم يقول إن هذا ممكن.. لو أنكم ذهبتم فوجدتم جثة متفحمة لما جرؤتم على اتهام رمزي بالكذب، لكن نجاته جعلته كاذبا في رأيكم!.. الناس تصدق الجثث أكثر من سواها!»

قلت له في حيرة:

- «لكن من المستحيل أن تثبت هل هو كذاب أم محظوظ..»

قال باسمًا:

- «لو وضعت الأمر في أذهانكم لوجدتم الدليل.. هناك شهود قد يكونوا رأوا مصطفى يدخل المطبخ في ساعة مبكرة، وهذا يدحض روايته.. شهود على ارتبائه وتوتره بعد خروج رمزي من الفرن.. آثار مفاتيح رمزي على باب الفرن من الداخل.. كل هذا يدعم قصة رمزي..»

كان الظلام قد حل تقريبًا وهبت أنسام رحيمة.. فتنفسنا ملء رئائنا..

قال (عصام) وهو يدفع مقعده المتحرك:

- «لو كنت أملك حرية الحركة لقضيت الليلة نائما على بلاط الشرفة، لكن هذا ليس ممكنا.. والأسوأ هو قصتك تلك عن الناس المحبوسين في أفران.. إنها أحداث ملتهبة أكثر مما يجب بالنسبة لي!»

رجل بارع..

لا أشعر بأية راحة عندما تمضي زوجتي بضع ساعات مع مدام (نازك) تلك..

ثم تعال هنا.. من هي مدام نازك هذه؟.. امرأة هي الافتعال بعينه. تعتقد أنها محجبة برغم كل الأصباغ التي تضعها على وجهها، وحجابها نفسه يذكرك بخوذات الجنود في الحروب البيزنطية أو أفلام الخيال العلمي.. ثم إنني أعتقد أن اسمها ليس مدام نازك أصلاً.. فقط هي تفضل هذا الاسم لأنه يبعث خواطر أرستقراطية في الذهن.. الخنافة المفتعلة خاصة عندما تقول (مارينا) من أعماق أنفها..

هذه السيدة تقيم في (الدقي) ويبدو أنها مطلقة، ولديها حشد من الصديقات المماثلات لها اللاتي يجتمعن عندها من حين لآخر، فيفرطن في النميمة ويشتمن أزواجهن، ثم تنظر هي إلى زوجتي وتنصحها بأن تطلب من زوجها كذا وكذا..

- «كيف لا تمضين الصيف في (مارينا)؟.. يجب أن يتصرف زوجك.. هذه مشكلته يا حبيبتي.. نحن نشقى ونتعب وعليهم أن يدفعوا الثمن...»

أو:

- «كيف لم تجددى عفش البيت منذ خمسة أعوام؟.. هذا خطأ..»

أو:

- «هناك مجوهرات ممتازة وسعرها معقول في محل (أنطوان) بوسط البلد.. يجب أن تأخذي زوجك هناك»

هكذا تعود لي زوجتي وقد أدركت أن حقوقها ضائعة وأنني وغد، وهكذا أصارحها بأننا لسنا أثرياء.. أنا ضابط لا يرتشي، وراتبي يكفيننا بصعوبة كي تخترق سفينتنا هذه المستنقعات الضيقة الوعرة التي نقابلها في الحياة اليومية.. لسنا من طبقة عاجزة عن التصيف لكننا لسنا كذلك من الطبقات التي تصيف في مارينا.. لا أقدر على شراء مجوهرات.. فلتفعل ذلك مدام نازك إذا كانت متحمسة..

الخلاصة انني لم أعد أطيق هذه المرأة لكنني كنت كذلك عاجزاً عن منع زوجتي من زيارتها فهي تسلية أساسية لها، وأنا بطبعي لست دكتاتوراً أو ممن يتلذذون بتعذيب الآخرين..

عندما عادت لي زوجتي في ذلك اليوم كانت متحمسة وأنفاسها تتقطع انفعالاً..

قالت لي:

- «أنت تعرف أن مدام نازك تحب أن تفاجئ صديقاتها بشيء جديد في كل مرة.. هذه المرة قدمت لنا ساحراً من غانا يدعى (ماكيبو)..»

إذن هناك ماكيبو... ابتسمت وقلت لها:

- «هل يحمل رمحًا ويلتف بجلد نمر؟»

قالت وهي لا تكاد تستجمع أنفاسها:

- «لا.. لو رأيته لوجدت رجلاً أفريقيًا ضخم الجثة يلبس عوينات سميكة وبذلة كاملة.. هذا كل شيء..»

- «هذا مخيب للآمال..»

- «قالت لنا إنه يمارس ديانة غريبة تعبد الأرواح اسمها (الودونية).. وإنه سوف يثير دهشتنا.. كانت شديدة الاحتفال به وقد أجلسته في مكان مميز على حين أحطنا به.. طبعًا كان هناك الكثير من البخور.. إنه غريب الأطوار لكنه ليس مرعبًا..»

- «نعم.. وطبعًا كل النسوة المتمردات إياهن كن معك..»

تجاهلت ملحوظتي وقالت في حماس:

- «طلب بالإنجليزية من واحدة منا أن تعطيه خمسين جنيهًا..»

- «هذا سحر خارق فعلاً.. ومن الحمقاء التي فعلت ذلك؟»

- «أنا تطوعت بذلك..»

هنا جن جنوني.. لماذا أنت بالذات؟.. لماذا ليس مدام نازك أو أية واحدة من تلك المدعيات؟..

- «في البداية طوح الورقة في الهواء فاخفت.. ثم طلب مني أن أجري بعض الحسابات ولا أخبره بالنتيجة. سألي عما إذا كنت أعرف الشارع جيدًا.. قال لي إنني سأجد المبلغ مضاعفًا في مدخل بناية معينة.. هكذا نزلت مع صديقاتي وهرعنا إلى البناية التي ذكرها، وعندما وقفت في المدخل نظر لي البواب في شك، ثم سألي إن كنت ابحت عن شيء ما.. أعطاني مطروفاً فتحتة فوجدت به مائة جنيه!»

ثم لوحت بالورقة ذات المائة جنيه في الهواء في حماس.. وراحت ترقص عبر الغرفة.. أروع شيء في العالم هو المال الذي لم تتعب في الحصول عليه كما يقول (مارك توين)..

قلت لها في شك:

- «الأمر واضح.. لقد رتب الأمر مسبقًا مع بواب البناية..»

- «مستحيل يا حبيبي.. هو لم يعرف النتيجة قط!!... هذه الورقة وُجدت في اللحظة التي أنهيت فيها الحسابات في سري...!»

- «وعدتن له؟»

- «نعم.. عدنا له فقال إنه لا شيء غريب في هذا.. السحر أقوى مما نظن... هو مستعد لأن يكرر التجربة مع أي مبلغ وفي أي وقت.. لكن ليس اليوم لأنه مرهق»

- «وطبعًا أنت تفكرين في التجربة من جديد؟»

- «لقد ضاعفت الخمسين، فماذا عن مضاعفة خمسة آلاف ونكون قد جمعنا المال اللازم لتجديد الشقة؟»

- «بصراحة لا أفهم.. هل الأرواح تطبع مالا؟.. وما الذي يستفيد منه هو؟.. حسب فهمي للأمور هو لم يستفد سوى أن خسر خمسين جنيهاً..»

- «طلب أجرًا رمزيًا.. دفعته مدام نازك.. إنها تحب أن ترانا منبهرات..»

كانت بثياب الخروج كما هي، لذا طلبت منها أن تستعد لأننا سنذهب إلى صديقي (عصام).. سوف يسمع القصة ويفسرنا لنا..

رحب بنا (عصام) ثم خرج بالمقعد المتحرك إلى الشرفة كعادته في الصيف، وطلب من (عفاف) أن تجلب لنا مقعدين.. طلبهما بتلك الطريقة المهدبة التي تطلب بها الشيء من زميلة عمل لا خادمة.. لا بأس ببعض المياه الغازية كذلك على سبيل المرح.

قال لزوجتي ضاحكًا:

- «القصة التي تحكيها ركن ثابت في صفحات الحوادث هذه الأيام.. يخيل لي أن القاهرة تم استبدال ملايين السحرة الأفارقة بسكانها.. فيما بعد لن يجدوا عملاً سوى أن يخدعوا بعضهم»

قالت له في تحفز:

- «أفهم أنه يخدعني.. لكن كيف؟.. أنا لم أفتح فمي قط.. كيف خمن رقم البناية؟»

قال لها (عصام) وهو ينظر إلى الشارع:

- «هلا حكيت لي ببساطة؟»

قالت زوجتي وهي تنظر لي نظرة نارية:

- «أولاً قال لي أن أحسب في سري آخر أربعة أرقام من رقم هاتفي.. لا تقل لي إنه يعرفه من فضلك لأن هذا الرقم جديد كما تعلم»

قال (عصام):

- «لم أقل أي شيء.. أرجو أن تواصلني»

- «طلب مني أن أعكس الرقم.. يعني بدلاً من 4356 أجعله 6534.. اطرح الرقمين من بعض ولا أخبره بالنتيجة..»

- «هذا سهل وإن كان بحاجة لآلة حاسبة..»

- «طلب أن أجمع الأرقام في العدد الناتج معاً.. وأكرر الجمع حتى لا يبقى سوى رقم واحد.. لا أصرح به.. مثلاً لو صار الناتج 19 جمعت الرقمين 1 + 9 لأحصل على 10.. هذه تُجمع لتصير

(واحد)..»

هنا اتسعت ابتسامة (عصام) أكثر..

قالت زوجتي:

- «هذا الرقم الأخير الذي لم أخبره به هو رقم البناية التي يوجد المال فيها..»

قال (عصام) وهو يوشك على الانفجار ضحكًا:

- «تعالى نجرب في رقم هاتفي أنا.. الأرقام الأربعة الأولى هي 2367.. نقلب الرقم ليصير 7632.. حاصل طرح هذا من ذاك هو 5265.. سوف نجمع $5 + 2 + 6 + 5$ الناتج هو 18.. لكن لا بد من تحويله إلى رقم واحد لذا نجمع $1 + 8$ الناتج هو 9...»

قالت زوجتي في دهشة:

- «تسعة!... نفس الرقم الذي نتج معي!.. يا له من حظ!!»

قال (عصام):

- «ألم تفهمي بعد؟ ... مهما فعلت سيكون ناتج هذه العملية هو تسعة!.. هذه من الألعاب الرياضية الشهيرة جدًا.. تُستخدم بكثرة في الحفلات.. كل ما كان على هذا الساحر هو أن يترك مطروفاً به مائة جنيهه مع حارس البناية رقم تسعة مع تعليمات بأن يعطي المظروف للمرأة التي تبحث عن شيء في المدخل!.. طبعًا دفع للحارس مالاً أو هما شريكان»

- «وماذا يستفيده من هذا؟»

- «يبدّر القليل ليجني الكثير.. سوف تجدين كل واحدة من تلك النسوة الجشعات تأتيه في المرة القادمة ومعها مائة ألف أو عشرة آلاف جنيهه وهي تطالبه بأن يضاعفها لها.. طبعًا سوف يحدد لها عنوانًا لا وجود له، وموعداً يكون بعد رحيل طائرته إلى غانا!»

قلت أنا في غيظ:

- «أنت نفسك كنت ستعطينه خمسة آلاف وأنت تعرفين كيف استطعنا أن ندخرها!»

قالت زوجتي في حرج:

- «هل تعني أنه يخدع مدام نازك؟»

- «يخدع الجميع.. ما لم يكن متفقا مع هذه المرأة على قسمة دخل النصب.. الحق إنني لا أستريح لها البتة»

نهضت زوجتي في عصبية وصاحت:

- «هكذا الرجال.. كلما قابلوا امرأة قوية الشخصية تعرف كيف تستغني عنهم!»

وغادرت الشرفة حانقة.. هنا نظر لي (عصام) في فهم وابتسم..

النساء!.. هكذا قالت نظرتة.. لكني في الحقيقة كنت أفكر: كم سيكون جميلاً لو كان هذا الأفريقي صادقاً.. كنت سأستبدل معاشي وأبيع سيارتي وشقتي من أجل مضاعفة المبلغ..

يبدو أن (عصام) رجل الأرقام سمع ما أقول في ذهني لأنه قال على الفور:

- «واضح أن الأرواح لا تجيد صنع المال, لكنها بالتأكيد تعرف الكثير عن الرياضيات..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عباد الشمس..

كان ذكيًا.. وكنا جميعًا نعرف هذا..

برغم كل محاولتنا للإيقاع به، فقد فشلنا تمامًا.. كان حذرًا كالشعالب ويفترض طيلة الوقت أن هناك من يراقبه..

الإخبارية التي وصلتنا هي أنه يبيع نوعًا جديدًا من المخدرات باهظة الثمن في واحدة من تلك الجامعات الخاصة. مشكلة هذه الجامعات الخاصة هي أنها تقتصر على الأثرياء المترفين، والذين لم يحقق أبناؤهم درجات كافية في الثانوية العامة.. هكذا يدخل الفتى الجامعة شاعرًا أن المال هو كل شيء، وأنه استطاع أن يقهر المتفوقين بمال أبيه. في وسط كهذا تنتشر عادات سيئة لا أول لها ولا آخر ومن بينها المخدرات. يقول الممثل الأمريكي (روين ويليامز) ساخراً: «المخدرات هي الطريقة التي تخبرك بها الحياة أنك تكسب أكثر من اللازم!»، وهي مقولة صحيحة فعلاً، والسبب هو ان (ويليامز) نفسه تعاطى المخدرات لفترة ثم أفلح عنها بعد ما رآها تطيح بحياة كثيرين من نجوم هوليوود.

لقد انتهى عصر عقار الهلوسة (ال اس دي) كما يبدو، وصار (الاكستازي) موضحة قديمة.. الآن يظهر هذا العقار الجديد الذي يشتريه الطلبة الأثرياء ببساطة برغم غلاء ثمنه.

قال لي ابن خالتي الشاب إن أغلب الطلبة يعرفون أن (رامي) هو الذي يبيع هذا العقار. (رامي) طالب هندسة يحضر للكلية في سيارة رياضية باهظة الثمن.. ثيابه كلها غريبة كأنه يمثل في فيلم أمريكي. فقط هو يصير على وضع ملصق زهرة (عباد الشمس) على زجاج سيارته وعلى دفاتره وعلى صدر سترته. حذر وصموت، فلا تجد من حوله إلا صديقته التي تشبهه في كل شيء..

- «وما دخل عباد الشمس في الموضوع؟»

- «ارتباط الأزهار بالهيبيز والمخدرات قوي.. تذكر أن الهيبيز كانوا يطلقون على أنفسهم اسم (أبناء الأزهار)»

اتصلت ببعض الزملاء في إدارة مكافحة المخدرات، فقالوا لي إنهم يشكون في أمر الفتى، لكنه حذر جدًا ولم يضبط متلبسًا قط..

- «نحن نلاقي الأمرين في إدانة من نضبط معهم مخدرات» - يقولها لي النقيب (مصطفى) من مكافحة المخدرات - «أن محاميهم يكونون بارعين يجيدون هدم القضية وإظهار خلل في الإجراءات.. فما بالك بالفتى الذي لم نجد معه مخدرات قط؟»

هكذا قمت بالعمل الوحيد الممكن..

أعطيت ابن خالتي بعض المال وطلبت منه أن يحاول شراء بعض المخدرات من (رامي) هذا. لو نجح فسوف اجعله يعاود الكرة طبعًا في وجود كاميرا تسجل كل شيء بإذن من النيابة..

لكن ابن خالتي عاد لي وقال:

- «لم تنطل عليه اللعبة..»

ثم حكى لي إنه ظل يحوم حول (رامي) قبل أن يتجه له، ويتكلم عن إدمانه السابق لعقار الهلوسة وكيف إنه في أمس الحاجة إلى مخدر جديد..

ظل (رامي) يصغي إليه صامتًا وهو ينظر له من خلف زجاج نظارته الوردية، ثم سأله في تهذيب:

- «وما شأني أنا؟»

قال ابن خالتي:

- «هل تعرف من يبيع هذه الأشياء في كليتنا؟»

قال (رامي) وهو يبتعد:

- «ومن قال لك إنني أفهم هذه الأشياء؟.. أنا لا أطيق مجرد رائحة السجائر.. ونصيحتي لك هي: اللعب غيرها!»

حكى لي ابن خالتي هذه القصة فهتفت في حماس:

- «لاحظ آخر ما قاله.. إنه يعرف أننا نعرف أنه يبيع المخدرات.. اللعب على المكشوف وهو فقط يتحدثنا أن نثبت عليه شيئًا..»

وهكذا اتخذت قرارًا.. يمكنني متى أردت أن أبدو شابًا، وهكذا غيرت تسريحة شعري، وارتديت بعض الثياب (الكاجوال) وحذاء رياضيًا ونظارة سوداء، واتجهت بسيارتي إلى تلك الكلية الخاصة.. طبعًا حسبتي زوجتي جننت ولحسن الحظ أن الأولاد لم يروني..

كان ابن خالتي ينتظرني هناك، وإن اتفقنا على ألا نمشي معًا لأن الفتى يعرفه الآن.. أشار بطرف إلى (رامي) هذا.. رأيته أول مرة وهو يجلس على سيارة في تحد وشيء من الوقاحة جوار فتاته، كان بالفعل غريبًا في كل شيء حتى بمقاييس جامعة عجيبة مثل هذه..

كان يحمل في يده ثلاثًا من أزهار عباد الشمس، يتأملها في اهتمام هو يكلم فتاته.. من الغريب أن يكون هذا الفتى رومانسيًا لهذا الحد.. على كل حال هناك حوض أزهار كامل خلفه ومن السهل أن يقطف منه ما يريد.

هنا رأيت فتاة تحمل بعض أزهار عباد الشمس بطريقة عارضة كأنها اقتطفتها من الحديقة.. نحو خمس منها.. رأيته تتجه نحو (رامي) هذا، فتبادل معه حديثًا ضاحكًا ثم تدس في يده شيئًا.. هذه نقود!.. لكن ماذا سيحدث بعد هذا؟

لا شيء.. وقفت تتكلم معه قليلًا ولم يعطها أي شيء.. ثم انصرفت..

مشيت وراءها فوجدتها تركب سيارتها وتغادر الكلية.. لو كانت ابتاعت منه مخدرات فمتى تحصل عليها؟.. هل سيقابلها خارج الكلية إذن؟.. هناك نقطة مهمة في هذه الحوادث هي أن عملية التسليم والتسلم تتم داخل الكلية لأنها مكان أبعد عن الشبهات.. سلطة الشرطة محدودة نوعًا هنا بينما يمكن لأي مخبر أن يستوقفه في الخارج ويفتشه.. معنى هذا أنه يجب أن يسلمها

(البضاعة) هنا، لكن كيف؟.. لقد رحلت فعلاً.. هل في يوم آخر؟.. متى وكيف؟

هذا الفتى بحاجة إلى فريق كامل من المخبرين يراقبون سكناته.. لن أقدر على هذا وحدي..
دعك من أن رجال مكافحة المخدرات جربوا كل شيء فعلاً...

على كل حال أنا أعرف يقيناً أن أزهار عباد الشمس هي علامة التعارف. هو يحمل الأزهار وزبائنه يحملونها. لن يثق في شخص يأتيه خالي الوفاض. طبعاً لم أجرب أنا هذه العملية وإنما كلفت بها واحدة من معارفي. لقد كان الفتى يقف جوار السيارة في كسل كعادته وهو يحمل زهرتين من عباد الشمس. اتجهت الفتاة نحوه وهي تحمل خمساً من تلك الأزهار وبدأت معه تلك المحادثة السخيفة عن دماغها الموشك على الانفجار وعن حاجتها لمخدر جيد. لكنه نظر لها في برود ولم يقل شيئاً.. في النهاية قال لها:

- «يجب أن تبحي عن طبيب يعالجك من الإدمان.. أنا طالب هندسة ولا أفهم في هذه الأمور»

كدت أجن غيظاً وأنا أراقب المشهد من بعيد وقد فهمت من إيماءاته أنه يرفض.. لا بد من طريقة سحرية تجعله يبيع. ربما كان لا يبيع إلا لزبائن معروفين، لكن لا بد من مرة أولى دائماً يقابل فيها زبوناً

جديداً.. هل يعتمد على أسلوب (فلان يعرف فلاناً)؟

بعد ما انصرفت الفتاة بقليل اتجه نحوه فتى يحمل ثلاث زهرات. سرعان ما كان يأخذ المال والفتى ينصرف كالعادة من دون أن يأخذ شيئاً. ما معنى هذا؟

حكيت لصديقي العبقري (عصام فتحي) الذي لا يفارق كرسيه المتحرك هذه القصة، وكان هذا في الكلية التي يدرس الرياضيات فيها. هذه المرة ظل يتابع قصتي في اهتمام وهو مقطب الوجه. ثم سألني:

- «قلت إنه كان يحمل ثلاث زهرات في أول مرة والفتاة تحمل خمساً؟.. وفي المرة الثانية كان يحمل زهرتين والفتى ثلاثاً؟»

- «ربما كانت صدفة..»

فكر حيناً ثم قال:

- «ممكناً أن تكون كذلك... لكن رمز عباد الشمس يثير فضولي..»

ثم تحرك بمقعده إلى مكتبته وأخرج كتاباً على غلافه صورة ملونة واضحة لزهرة عباد الشمس وقال لي:

- «زهرة عباد الشمس هي المثال الأشهر لمتوالية (فيبوناتشي).. السبب هو أن بتلاتها مرتبة بهذا الشكل المعجز، وقد قام علماء كثيرون بكتابة معادلات قائمة على ترتيب بتلات هذه الزهرة..»

- «معدرة.. ما هي متوالية (فوباتشي) هذه؟»

- «فيبوناتشي.. اسم العالم الإيطالي الذي وصف هذه المتوالية، لكنها تعود بالأصل إلى الطقوس الهندية القديمة وفي الأدب السنسكريتي كانت تدعى (جبل الإيقاع).. هي موضوع مهم جدًا في الرياضيات وبالغ التعقيد بحيث لا أقدر على تبسيطه لك من دون معادلات، لكنه يرتبط كذلك بالنسبة (تاو) والنسبة الذهبية.. أي النقطة التي تقسم الخط بحيث تكون نسبة القسم الأكبر إلى الخط نفسه كنسبة القسم الأصغر إلى القسم الأكبر..»

«بالنسبة لرجل الشارع يكفيه أن يعرف أن متوالية (فيبوناتشي) هي المتوالية التي يكون فيها الرقم مساويًا لمجموع العددين السابقين له.. لو بدأنا من صفر ثم واحد يكون الرقم الثالث هو واحد (صفر + 1).. الرقم الرابع هو (1 + 1 = 2).. الرقم الخامس هو (2 + 1 = 3).. الرقم السادس هو (3 + 2 = 5).. وهكذا.....»

قلت من جديد:

- «لا أفهم علاقة هذا....»

قال باسمًا:

- «هي طريقة شفرية لمعرفة زبائنه الذين يعرفون متوالية فيبوناتشي هذه. من يعرفها يمكنه الثقة به.. عندما يحمل زهرتين فعلى الزبون أن يحمل في يده ثلاثًا.. عندما يحمل ثلاثًا على الزبون أن يحمل خمسًا.. لو حمل ثماني زهرات فعلى الزبون أن يحمل ثلاث عشرة زهرة!... لو افترضنا جدلاً أنه يحمل 89 زهرة فعلى الزبون أن يحمل 144!!»

«ما فعلته قريبتك الحمقاء هو أنها حملت له خمس زهرات وهو يحمل اثنتين.. هكذا فضحت نفسها..»

- «وكيف يتم التسليم؟»

- «بعد ما يأخذ المال، يأتي العدد التالي من المتوالية.. هو حمل زهرتين والزبون حمل ثلاثًا.. إذن المخدرات في رقم خمسة.. الشجرة الخامسة.. أو تحت المقعد الخامس.. أو في خزانة الثياب الخامسة.. هذا شيء يهمس به للزبون لحظة التسليم. طبعًا ليس هو من يضع المخدرات في ذلك المكان.. هو لا يحمل إلا المال وهذه ليست جريمة.. وعلى الأرجح ليس الزبون هو من يحصل على المخدرات بنفسه، بل يكلف صديقًا له بذلك لأنه يفترض أنه مراقب»

قلت في حيرة وأنا امسك برأسي:

- «والحل؟.. كيف نوقع بهذا الشيطان خبير المتواليات؟»

- «سوف ترسلون مخبرًا شابًا من رجالكم يحمل أزهار عباد شمس يفي عددها بقوانين المتوالية كما يحددها رامي من يوم لآخر.. عندما يأخذ رامي المال سوف يقول له كلمة واحدة عن مكان المخدرات.. ولكن.. اسمع!.. هذا عملكم لا عملي.. انا حللت لك الجزء الرياضي من القصة، وعليك ان تتولى الجزء البوليسي منها..»

ثم قال ضاحكًا:

- «تذكر أن تلبس ثيابك الأصلية وتستعيد تسريحة شعرك وإلا قبضوا عليك بتهمة التشرد..»
لكني لم أعلق لأنني كنت أرسم في ذهني تفاصيل الخطة.. الخطة التي لم تعد تحتاج إلا إلى
بعض العمل البوليسي المثابر كما قال هو بالضبط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حَمَل أم خروف؟

كان (مصطفى داود) من هؤلاء القوم المفرطين في التفاؤل والتشاؤم. وكان يصدق كل حرف يرد في المجلات، ويقرأ الأبراج بعناية ويمكن أن يخنقك لو قلت له إن مؤلف هذه الأبراج هو سكرتيرة تحرير المجلة غالبًا.. عندما يرف جفنه الأيسر يتوقع كارثة، وعندما يشعر بتنميل في ساقه اليمنى يتوقع مصيبة.

عندما زرتة في داره كان أهم ما استرعى انتباهي هو أن هناك ميزانًا في كل شيء في حياته. يوجد ميزان عملاق في الصالة. هناك ميزان جوار مقعد الصالون. هناك صور لموازين على الجدران، وسورة الرحمن مكتوبة بلون الذهب في لوحة كبيرة. فيما عدا هذا لا يوجد سوى تمثال صغير لنمر هندي يتلوى ويزأر..

هناك بعض التماثيل والصور لحمل صغير يرعى العشب.. لكنها صور قليلة..

عامة كان كل شيء أخضر.. لون المقاعد ولون الجدران ولون الستائر.. درجات مختلفة من الأخضر تبعث راحة حقيقة في النفس.

كان (مصطفى) قريبي وقد كان أول ما سألته عنه بالطبع هو هذا التواجد غير الطبيعي للميزان في حياته، فقال باسمًا:

- «لا تنس أنني مولود في الأول من أكتوبر عام 1974.. ما معنى هذا؟»

فكرت قليلاً وقلت في ذكاء:

- «معناه أنك كالخريف.. تتساقط أوراقك ويذبل قلبك في بطاء!»

قال وقد اغتاض من حماقتي:

- «بل معناه أنني من مواليد برج الميزان يا فالح.. هذا البرج يسيطر على كل شيء في حياتي ومنه أستمد حظي وشخصيتي..»

أبدت رأيي في أنني لم أحب كثيرًا أن يستخدم آية قرآنية لارتباطها بالميزان. هذا لا يليق بالقرآن الكريم ويذكرني بطريقة محلات العصير في اختيار آيات بعينها من القرآن لتعلقها في المحل. بدا مهتمًا ووعد بأن يرفع هذه الآية.

نظرت إلى زوجته (مها) وسألتها عن عيد ميلادها فقالت:

- «الخامس من إبريل.. عام 1979.. برج الحمل لو كنت مهتمًا بهذه الأمور»

لو كان ما تقوله الأبراج صحيحًا فإن آخر برج يصلح لبرج الميزان هو برج الحمل هذا. لقد كانت (مها) زوجة قاسية متعالية باردة كالثلج وقد جعلت حياة (مصطفى) جحيمًا.. لا بد أن الأبراج خذلتة في اليوم الذي طلب يدها فيه. بالنسبة للناس هما زوجان شابان سعيدان وإن لم ينجبا بعد، لكنك لا تعرف كل ما يدور خلف الأبواب المغلقة، وقد صارحني مصطفى بأنه من أعس

الناس، لكنه من أسرة لا تجسر على الطلاق ولم تعتده.. الأسر التي لا تجسر على الطلاق لا تميل كذلك إلى تهشيم رأس الزوجة كما تعرف..

قصة مصطفى مؤسفة على كل حال، لأنه أصيب بنوع قاتل من سرطان الدم وتوفي بسرعة في سن صغيرة نسبيًا. زوجته لم تكن مبالية جدًا بالأمر، ولولا أنني أعرف جيدًا أنه سرطان الدم لاتهمتها بقتله، لأنه كان ثريًا..

أذكر أنني زرته في المستشفى وبدا لي مسرورًا إلى حد ما.. برغم شحوبه الشديد قال لي:

- «على كل حال سوف أترك ثروة لا بأس بها بالنسبة لـ (مها)، ولسوف تبدأ حياة سعيدة من دوني.. لكنني سوف أتعبها قليلًا إلى أن تجد بيانات ممتلكاتي وعقاراتي.. أنت تعرف مدى إيماني بالأبراج.. وسوف يكون عليها أن تحل لغزًا صغيرًا يتعلق بها. أعرف أنها ستجد الإجابة سريعًا لأنها تملك غريزة الثعالب..»

توفي مصطفى وكففت عن التردد المنتظم على بيته..

لكنني عرفت على الفور ما سيحدث. زوجته سوف تبدأ بالتفتيش خلف كل لوحة ميزان وكل تماثيل ميزان في شقته. وعندما زرتها بعد أيام لم أجد بالفعل في البيت أي تماثيل من تماثيل الموازين التي كانت تملأ كل مكان..

سألته:

- «ألم تجدي شيئًا بعد؟»

قالت في عصبية:

- «فليرحمه الله.. هي هوايته أن يعذبني.. أنا أعرف ولعه بهذا الهراء والكلام الفارغ عن الأبراج وال حظ.. هو من برج الميزان، وقد لعب هذا البرج دورًا مهمًا في كل اختياراته في حياته، لذا أتوقع أن الأوراق متعلقة بهذا البرج بشكل ما.. لقد قمت بتحطيم كل تماثيل ميزان وجدته. فككت كل ميزان لعبة.. انتزعت ظهر كل لوحة.. لا شيء..»

نظرت إلى تماثيل الحملان المتناثرة هنا وهناك وسألته:

- «أنت من برج الحمل.. ألم تفكري في تحطيم هذه التماثيل؟»

قالت وهي تفكر:

- «لا أعتقد... أجد في هذا نوعًا من الفأل السيئ.. لا تنس أنني اعتدت أن أعتبر هذه التماثيل معادلًا موضوعيًا لي..»

- «ربما كان الحل فيها..»

هزت رأسها ثم اتجهت إلى غرفة داخلية وعادت حاملة مطرقة كبيرة، وقبل أن أفهم ما يحدث كانت قد انهالت على تماثيل الحمل الموجود في الصالون فهشمته.. رقيقة جدًا هذه السيدة وتتصرف بأنوثة طاغية فعلاً..

ثم نهضت واتجهت إلى تمثال صغير آخر وهشمته..

لا شيء سوى كومة من الفتات والغبار تناثر في كل مكان، لكنها كانت قد نزعت حذاءها ووقفت فوق الأريكة وانتزعت لوحة تمثل حملاً في مرج ومدت مخالبتها تنزع ظهرها..

لا شيء..

كانت تزداد عصبية وجنوناً.. هكذا قررت أن أتركها. وخطر لي أن صور الحملان هذه غبية فعلاً.. هي أقرب إلى صور الخراف منها إلى الحملان..

عندما جلست مع صديق عمري عصام فتحي في مكتبه، كان عاكفاً على تصميم برنامج يرسم بعض الأشكال الهندسية شديدة التعقيد وإن كان لها تأثير زخرفي جميل. قال لي إن اسمها fractal وهي

نوع من الأنماط الهندسية غير التقليدية التي تحدث أشكالاً لا تقدر الهندسة التقليدية على رسمها.

لم أفهم. فقط جلست أراقبه في إعجاب بعض الوقت، ثم رحت أحكي له تلك القصة الغريبة.

راح يصغي كعادته دون أن ينظر لي، ثم راحت أنامله تدق شيئاً على مفاتيح الكمبيوتر.. سألتني:

- «قلت لي.. متى ولد قريبك هذا؟»

- «الأول من أكتوبر عام 1974»

عاد يسألني:

- «قلت إن كل شيء أخضر في داره؟»

- «تقريباً..»

- «كان يحب الياقوت من بين الأحجار الكريمة؟»

- «نعم.. قال هذا مراراً..»

قال وهو يضحك بطريقته الخبيثة التي أعرف بها أن اللغز قد حل:

- «هناك تمثال أو لوحة نمر في داره طبعاً..»

- «تمثال.. لكن كيف عرفت؟»

- «لأنني عبقرى.. كل الأوراق التي تريدها موجودة في هذا التمثال..!»

كنت أضرب كفّاً على كف.. وصحت فيه كما في كل مرة:

- «هل أنت ساحر؟.. هل تتصل بالشياطين؟»

- «لا هذا ولا ذاك.. فقط أنا أستعمل هذا العضو جيداً»

وأشار إلى رأسه ثم أردف:

- «صاحبك كان يؤمن بالأبراج.. لكنها الأبراج الصينية لا الغربية. حسب هذا البرنامج الذي استعملته هو من برج النمر. هذا البرج يحب اللون الأخضر والياقوت..»

قلت في عصبية:

- «الأبراج هراء.. كلنا يعرف هذا..»

- «نعم هي هراء، لكننا قد نتصرف على أساسها في حياتنا اليومية.. نحب اللون الأخضر لأننا من برج النمر وليس العكس..»

- «وما هذه الأبراج الصينية التي تتكلم عنها؟»

استرخى في جلسته وقال:

- «هذا يرجع إلى التقويم القمري الصيني.. إنه يتكون من دورات كل دورة 60 عامًا.. تنقسم الدورة إلى خمس دورات صغرى كل منها 12 عامًا.. نحن الآن في الدورة رقم 78 التي تنتهي عام 204.. تقول الأسطورة إن بوذا استدعى الحيوانات كلها فلم يلب النداء إلا 12 حيوانًا هي بترتيب الوصول الفأر.. ثم الثور.. ثم النمر.. ثم الأرنب.. ثم التين.. ثم الثعبان.. ثم الحصان.. ثم الخروف.. ثم القرد.. ثم الديك.. ثم الكلب.. ثم الخنزير البري.. كل حيوان منها يحكم عامًا من الاثني عشر عامًا.. وهذا هو الحيوان الذي يسيطر عليك ويتحكم في أفعالك. قريبك هذا ولد في الأول من أكتوبر عام 1974.. أي إنه نمر.. يؤمن الصينيون أن النمر قادر على طرد اللصوص والأشباح. مولود ليأمر وليس ليؤمر. إنه قيادي وشجاع ويدافع عن المبادئ التي يؤمن بها. باختصار هو شخصية جذابة لكنه متسلط وعدواني. طبعًا أنا لا أؤمن بكون الأبراج تحدد شخصية الإنسان.. لكن هذا لا يغير حقيقة أن قريبك كان يؤمن بها»

ثم أضاف:

- «يعتقد الكثيرون أن هذه الأبراج أكثر دقة من الأبراج الغربية المعروفة (الجوزاء - العذراء - السرطان).. الخ.. ولقد حرص قريبك على أن يوحي لزوجته بأنه ميزان بينما هو في الحقيقة كان نمرًا.. سوف تجد الأوراق التي تريدها في تمثال النمر.. أنا أراهن بسمعتي على ذلك..»

قلت له:

- «لكن زوجته حَمَل.. هذا مؤكد.. الخامس من إبريل.. عام 1979.. هذا يعتمد على الأبراج الغربية»

ضغط على المفاتيح وقال ضاحكًا:

- «بل هي خروف.. من المضحك أنك لم تلاحظ الفارق في الرسم بين الخروف والحمل.. الخروف في الأبراج الصينية شخصية متقلبة مرهفة موهوبة لكنها غير واقعية تفضل الحلم على الواقع، ومتقلبة المزاج بشدة.. لا يمكن لأي شخص أن يخبرها بما يجب عمله.. من الحقائق الغربية كذلك أن المرأة الخروف هي أسوأ شريك حياة ممكن للرجل النمر..! لا يمكن تخيل

تعايش مشترك بين الاثنين إلا لو استطاع النمر أن يعيش مع الخروف.. من حسن حظها أن قريبك لم يلتهمها!»

ثم سألتني:

- «هل ستخبرها الآن؟»

قلت في خبث:

- «لا أدري إن كان هذا يخرق وصية الفقيد أم لا.. لقد قال إنها ستجد الأوراق.. دعها تتعب قليلاً وتجرب قليلاً.. هي لم تكن زوجة فاضلة على الإطلاق وقد عذبتة بما يكفي. فلتتعذب قليلاً بدورها. قال لي قبل أن يموت إنها تملك ذكاء الثعالب.. أعتقد أنها ستحتاج إلى وقت أطول من اللازم في البحث بعد ما اتضح أنها أقرب إلى ذكاء الخراف!..»

(تم الكتاب بحمد الله)

هما صديقان.. أحدهما امتلك العضلات والقوة الجسدية. بينما لم يمتلك الآخر إلا العقل.. العقل العبقري القادر على أن يحل أعقد المشاكل في دقائق.. "عصام فتحي" أستاذ الرياضيات حبيب الكرسي المتحرك.. ومجموعة من الألغاز الرقمية المحيرة التي يحلها دومًا. مبرهنا على أنه جدير بلقب "رجل الأرقام". بعض هذه الألغاز يتعلق بجرائم مخيفة.

د. أحمد خالد توفيق



[Group Link - لينك الانضمام الى الحروب](#)

Link – لينك القناة

الفهرس:

[عقل بلا جسد..](#)

[لغز أخير..](#)

[رجل لا يستحق شرين!](#)

[الرعب يجتاح المدينة..](#)

[رحلة منحوسة..](#)

[سميرة والأقزام السبعة..](#)

[هرقل يعود..](#)

[ألعاب صوتية..](#)

[الشفرة..](#)

[الرقم الغامض..](#)

[يوم الوحش..](#)

[ذكريات رقمية!](#)

[رجل دقيق..](#)

[الشهر العاشر..](#)

[ضيف غير مرغوب فيه..](#)

[خدمة لمدام إيفون..](#)

[شفرة أخرى..](#)

[كتاب ثمين..](#)

[اختبار نفسي..](#)

[مشاعر حارة!](#)

[رجل يارع..](#)

[عبّاد الشمس..](#)

[حَمَل أم خروف؟](#)

دكتور
أحمد خالد توفيق



قصة تكملها أنت

دار ليلتي كورت
www.illat.com

د. أحمد خالد توفيق

قصة تكملها أنت

لكيان لكورب للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلي

الكتاب:

قصة تكملها أنت

المؤلف:

د. أحمد خالد توفيق

رقم الإيداع:

9570/ 2007

الغلاف:

محمد محمود

الإخراج الفني:

حسام سليمان

التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

المهندسين- 23 شارع السودان- تقاطع مصدق- الدور الرابع- مكتب 11

هاتف: 33370042 (02) (002)

23885295 (012) (002)

البريد الإلكتروني: mail@darlila.com

الموقع الرسمي: www.darlila.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو تقليد
أو إعادة طبع - دون موافقة كتابية - يعرض

صاحبه للمساءلة القانونية.

لحيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلي

د. أحمد خالد توفيق

قصة تكملها أنت



مقدمة

في أوائل السبعينات من القرن الماضي، قدم التلفزيون المصري عملاً درامياً فائق الإمتاع اسمه (قصة وعشرة مؤلفين). في البدء كان على عميد القصصيين (نجيب محفوظ) أن يصمم حبكة ما.. هكذا قدّم قصة عن المُدرس المحافظ (عماد حمدي) الذي قرر أن يتهور مرة واحدة في العمر لدى سفر زوجته والأولاد.. موضوع التهور —طبعًا— هو الراقصة (نادية الجندي) التي يصحبها إلى بيته الخالي ويمضي معها ليلة حمراء، وفي الصباح يحاول أن يوقظها ليكتشف أنها ماتت!..

إلى هنا ترك الأستاذ القصة لتسعة من أهم الروائيين المصريين على أن يعود لكتابة النهاية.. لا أذكر الأسماء كلها ولا الترتيب، لكن كل واحد كان يكتب حلقة تنتهي بمأزق يتركه خصبًا لمن يأتي بعده، وكان يُقدّم الحلقة ويشرح وجهة نظره للمشاهدين قبل بدء الدراما.. تشعبت القصة وجمحت وصارت هناك عصاباتٌ تهريبٍ وجواسيسٌ أجانِب، واتضح أن الراقصة لم تمت.. الخ.. ثم وقعت القصة في يد (يوسف السباعي) أو (يوسف إدريس) الذي أعلن صراحة أنه لم يحب ما بلغته القصة من (عك)، لذا قرر أن يعيد السفن إلى مراسيها!.. في نهاية الحلقة يكتشف المدرس أنه كان يحلم وأن هذا كله كان كابوسًا طويلًا.. في نشوة الخلاص يوقظ الراقصة

النائمة في سلام جواره فيكتشف أنها ماتت فعلاً!.. هكذا عادت الحلقة لـ(نجيب محفوظ) المُكَلَّف بكتابة الحلقة الأخيرة.. لم يُخَفِ (نجيب محفوظ) ذهوله لأن القصة عادت له كما تركها، والمأزق الذي تركه لغيره عاد له شخصياً!..

الخلاصة أن هذا المسلسل كان تجربة روائية متوسطة أدبياً، لكنها فائقة الإمتاع من ناحية دراسة طريقة تفكير كل أديب.. لعبة ممتعة نرى فيها كيف يتملص كلٌّ منهم من المأزق الذي تركه سلفه، وكيف يترك مأزقاً لخلّ فيه.. وطبعاً لا داعي لقول إن أحداً لا يعرف أين ذهب هذا العمل ولا مصيره.. على الأرجح سيظل علينا من إحدى الفضائيات يوماً ما، ضمن تراث التلفزيون المصري الذي بيع قطعة قطعة على شكل أقراص مدمجة يتم تهريبها تباعاً من ماسبيرو..

ظلت الفكرة محفورة في عقلي الباطن زمناً طويلاً، وقد قابلت مثيلاتها في الأدب الغربي لكني لم أرها في الأدب العربي حتى هذه اللحظة.. حتى في ألعابي كنت أجلس وصديقي العتيد د.(أيمن الجندي) نتسلى بأن يكتب كلٌ منا فقرة جديدة في قصة واحدة.. جربتُ محاولة مع د.(محمد سليمان) لم تُستكمل لأسباب يطول شرحها.. هناك قصة شبيهة وضعتها على موقع المؤسسة تقوم على أن يستكمل القراء القصة، وتُرسم بطريقة (السترييس) حلقة حلقة بريشة الفنان (باسم صلاح)، لكن الموقع متوقف منذ فترة..

ثم بدأتُ تقديم هذه الفكرة في موقع (روايتي)، وقد لاقت إقبالاً لا بأس به.. تدريجياً وُلدت القصة وصار لها رأسٌ وذيلٌ، وأعتقد أنها مسلية فعلاً، لكني أعتقد أنه لا غنى عن الكتاب المطبوع لأن ما يوجد على شبكة الإنترنت كثير جداً وسريع البخر وقراءته عسيرة، وهذا ما دفعني إلى التمسك بأن تُطبع

هذه المحاولة المثيرة.. ومن حسن الحظ أن (دار ليلي) رحبت بالفكرة..

هناك نقطتا ضعفٍ حتميتان في هذا النوع من القصص: النقطة الأولى هي أن بعض القراء قد يمتلك موهبة ذات لون مختلف، وقد تكون لهم أساليب مختلفة، وقد لا يهتمون بالرعب أصلاً، لكنهم مضطرون للتقيد بفكرتي وأسلوبتي لأنني أنا الذي بدأ القصة.. هذا يُرغمهم على حدٍ أدنى من التجانس والتقيد بتعبيراتي وطباع أبطالتي وإيقاع كلماتي.. أعني أن موهبتهم قد تكون أكبر من هذا وأعرض وأكثر جموحاً، لكن التجربة ترغمهم على أن يضعوا هذه الموهبة في وعاء ضيق اخترته أنا..

نقطة الضعف الثانية عرفتُها متأخراً، بصفتي أجهل كل شيء عن لعبة كرة القدم باستثناء أن (الخطيب) هو نجم فريق المقاتلين العرب: رأيتُ مباراة بين منتخب العالم وبطل كأس العالم -أعتقد أنه كان إيطاليا وقتها- فتوقعتُ أن يسحق منتخبُ العالم بطلَ الكأس.. تصور أن يجتمع أفضل اللاعبين في كل مركز ليصنعوا فريقاً واحداً.. قال لي خبراء اللعبة وهم يبتسمون بشفقة إن العكس هو الصحيح..

-والسبب؟-

قالوا وهم يبتسمون بحنكة هذه المرة:

- "السبب هو التجانس.. فريق إيطاليا متجانس يفهم لاعبيه بعضهم البعض، ويتحركون كوحدة واحدة، بينما منتخب العالم فريق مرقع من عدة مهارات يستحيل أن تتناغم.."

وقد كانوا على حق وكنت أحمق كالعادة..

التجانس عنصرٌ مهمٌ جدًا لجودة العمل.. لا أعتقد أنك ستحصل على تحفة فنية لو أنك جعلت (نجيب محفوظ) و(ديكنز) و(تولستوي) و(دستوفسكي) و(زولا) و(هيمنجواي) يجتمعون على رواية واحدة. كل واحد منهم له عالمه يصول ويجول فيه كما يشتهي، وخير ما تفعله هو أن تتركه يكتب رواية كاملة وحده.. هذا عسير التصور لكنها الحقيقة.. إن القصة متعددة الكتاب تعطيك تجربة ممتعة وجديرة بالاهتمام لكنها ليست الأفضل.. (قدمتُ هذه الفكرة فعلاً في قصة سترييس بريشة الفنان فواز نشرت في ملحق صبيان وبنات الصادر عن أخبار اليوم).

هذان عيبان لا مفر منهما إذا أردنا أن نقدم اللعبة كاملة كما هي.. ممتعة كما هي..

أنتظر أعمالاً أكبر وأفضل من الأصدقاء الفائزين ومن سواهم.. لقد عرفناهم في هذه المرة يستكملون فكرة ليست لهم، فماذا يكتبون إذا نالوا حريتهم كاملة؟

د. أحمد خالد

قصة تكملها أنت

د. أحمد خالد توفيق

(فلاشندي) . تامر الباجوري . مديحة محمد . ريهام إبراهيم

الفصل الأول

لم أستطع قط أن أحب (هيام) كما ينبغي لي أن أفعل..

يقولون إنها رائعة الجمال، لكنني لا أرى هذا، وهذا من الأسباب التي تجعلني أتساءل: هل لعيونهم تركيب غير تركيب عيني؟.. هل المرئيات نسبية فعلاً كما قال كتاب الخيال العلمي؟

يقولون إنها لطيفة المعشر، وأنا لم أرَ ذلك قط.. ثمة لحظات تصدر منها نظرة غادرة هنا أو هناك.. نظرة من الطراز الذي يصفونه بالعامية بأن (الشرر يطق من عينها) ثم تتذكر أين هي ومن هي، من ثم تعود إلى القناع الاجتماعي والتظاهر بالرقّة.. ترتدي بسمتها المشرقة حتى أنني إذا رأيتها شعرتُ بأن فكي يتقلص ألماً..

يقولون إنها ذكية.. ربما كان هذا صحيحاً، لكن من قال إن الذئب ليس ذكياً؟.. أنا أعتبر هذا نوعاً من الغريزة اليقظة لا الذكاء..

لم أستطع قط أن أحب (هيام) ولم يكن مطلوباً مني أن أفعل.. لكن عملي في شركة الكمبيوتر تلك اضطرني اضطراراً إلى التعامل معها سبع ساعات يومياً..

نحن نمارس عملاً هو نوعٌ من تصميم الجرافيكس.. هل تعرف تلك اللقطات الكريهة التي تفصل بين برنامج وآخر؟.. هذا هو عملنا بالضبط.. ونبيع هذه الأشياء لشبكات التلفزيون..

هذا العمل جماعي يتكاتف عليه نحو عشرين، لكنني و(هيام) نجلس متلاصقين ونقوم بذات الأشياء تقريباً..

هكذا تجد أن حياتك كلها تتوقف على التعامل مع (هيام) و(هيام) لا تُطاق.. لكنني أحمد الله على أن هذه مهنتي وأسوأ ما أتعرض عليه..

هناك أشخاص عملهم الغطس في المجاري وأشخاص عملهم ربط فكي الميت بالشاش، دعك من الذي يتلخص عمله في التخلص من جثث الكلاب الميتة.. من التزيد أن أزعم أنني أسوأ حالاً من هؤلاء..

* * *

بدأت القصة في يوم الثلاثاء..

كانت (هيام) قد طلبت الإذن للانصراف؛ فوافق مديرنا الشاب (عصام).. إنه من الطراز الذي يلبس قميصاً قصيراً الكمين مع ربطة عنق، ويعلق سماعة الهاتف الجوال في أذنه، ويعلق في حزامه أجهزة لا حصر لها مثل (البيجر) وعداد الخطوات وعداد السعرات، وكل هذا الهراء الذي يوحي بأنه مهم ناجح.. كل عينات هذا النمط يقتلدون المديرين التنفيذيين أو سماسرة (ول ستريت).. إنه ادعاءً غير أصيل لكنه يرضيه شخصياً.. طبعاً لا بد لأحمق من هذا الطراز أن يفتتن بـ (هيام) ويعتبرها (فينوس) شخصياً وقد قَبِلْتُ أن تعمل تحت إشرافه..

"هل يمكنني أن..؟"

"طبعاً.. طبعاً يا عزيزتي.. خذي راحتك.."

(هيام) تقيم في الهرم أي أنها تحتاج إلى نصف ساعة لتصل لبيتها.. على الأرجح لن تعود اليوم.. لكن المدير يغفر كل شيء..

قلت له إنني أشعرُ بصداغٍ وأرغبُ في..

"جأتك ستين نبيلة"

قالها وانصرف.. لا بد أن ما قاله يعني الرفض..

عدت ألح عليه فقال في إصرار:

- "(مدوح).. لا تجعلني أفقد أعصابي من فضلك"

هكذا جلستُ أداعب مفاتيح الجهاز شاعراً بالإحباط والتعصب الذي يلقاه جنسُ الرجال في هذا المجتمع المتخلف، ثم نهضتُ إلى الحاسب الخاص بـ (هيام).. كانت هناك نقطة أريد التأكد منها.. هل أتمت مسح الرسوم الأخيرة التي..؟

غريب.. لقد وضعتُ كلمة سر تحمي محتويات الجهاز.. لم أعتد منها هذا التصرف من قبل..

كنت وحدي في الغرفة.. الباقيون يتناولون الغداء أو في الحمام.. هناك لحظات معينة يجد فيها المرء أن الفضول يفوق حدوده الأخلاقية.. لم لا ألقى نظرة على ذاكرة كمبيوتر الفتاة التي أكرهها؟

يدللونها باسم (هيمي).. قطتها البشعة اسمها (روني).. أختها الصغرى تدعى (ريهام)..

هكذا جربت.. وجربت.. وجربت..

لا شيء..

واضح أنها أذكي مما توقعت..

نظرت تحت زجاج المكتب بحثاً عن شيء يقود تفكيري، فرأيت قصاصة صغيرة كتب عليها: (Beelzebub)

لا أعرف معنى هذه الكلمة لكنني سأجربها.. كتبت الحروف فانفتح الجهاز..

كان أول ما قمْتُ به هو أن فتحت القاموس وبحثت عن معنى الكلمة.. ارتجفت لما عرفت أنها تعني (بعزبول).. كبير الشياطين والعياذ بالله.. ذوق هذه الفتاة رديءٌ فعلاً..

رحت أستعرض الملفات.. ثم خطر لي أن أرى الصُّور التي تحتفظ بها.. ما هو ذوق هذه الفتاة الكريهة في الممثلين والمطربين؟.. هل هي من الطراز الذي يعشق (كاظم الساهر) أم (محمد منير) أم (شعبان عبد الرحيم)؟..

لكني لم أرَ صور مطربين..

كانت هناك صورٌ لها ترتدي ثوباً أحمر طويلاً.. وقد انتثر شعرها على كتفها.. أعترف أنها بدت جميلة بهذا الشكل.. الغريب أن الثوب كان يكشف أكثر مما يخفي ولم يكن هذا طابع ثيابها الأقرب إلى الاحتشام.. كانت تقف في مكان غريب أقرب لأجواء السينما.. هناك نارٌ مشتعلة وتمثالٌ عملاقٌ تشتعل النار في فمه..

إذن هي تمثل.. تمثل وتخفي ذلك عنا.. هذا واضح تماماً.. أعتقد أن هذه كواليس مسرحية ما.. وهي تلعب دورَ كاهنةٍ وثنية..

كانت تقف جوارَ مذبحٍ عليه جثة ممزقة غارقة بالدم -الصلصة طبعاً- وترقص..

قمت بتكبير الصورة لأرى الجثة الراقدة.. هذا الممثل الملوث بالدم.. هذه الملامح مألوقة لي.. لكن..

هذا أنا!.. نفس الوجه يتكرر في ثلاث أو أربع صور..

لا أعرف كيف لكنها تحتفظ بصور لي وأنا أرقد على مذبح ملوثاً بالدم، كأني قربانٌ في طقسٍ وثني ما..

أنا خبيرٌ في التصميم الجرافيكي ولن يخدعني أحد..

هذه الصُّور أصلية ولم يتم تلفيقها!..

لكن كيف؟

* * *

الفصل الثاني

ما معنى هذا؟.. ما تفسير هذه الصور؟.. دعك مما تفعله هي بنفسها في الصورة، السؤال هو ماذا أفعل أنا في هذه الصور؟، وما الذي ذهب بي إلى هناك؟، وما هو هذا الـ"هناك" أصلاً؟.

إن المكان الذي أراه في الصورة لا يمتد إلى حاضرتنا وعصرنا بصلة.. هذا إن لم يكن ديكوراً بالطبع.. ولكنه إن كان ديكوراً فهو متقن بالفعل ومُصممه لعبقري حقاً!..

يا إلهي ما تفسير ما أراه بأعينى الآن؟.. ما معنى هذا كله؟. يبدو أنه ليس لدي الوقت للتفكير الآن، سوف يعود باقي الزملاء في أي لحظة، فلأنسخ هذه الصور عندي وأفحصها على مهل على الكمبيوتر الخاص بي في المنزل.. من يعلم؟.. ربما تكون صوراً مركبة بمستوى احترافي كبير أعلى مما أتصور.. ربما هناك شخص آخر قام بتصميمها غير "هيام".. ربما.. ربما.. هناك الكثير من الاحتمالات المنطقية التي يجب التفكير فيها قبل أن آخذ في الاعتبار أية فكرة مجنونة!!..

* * *

في المنزل قمتُ بفحص الصور جيداً على جهاز الكمبيوتر وباستخدام أحدث البرامج المتخصصة.. ولكن لا فائدة.. لا أستطيع إقناع نفسي أن هذه صور مركبة.. فمهما بلغت درجة احتراف أحد المصممين فلن يستطع أن يجعل الصورة تبدو طبيعية إلى هذه الدرجة.. فما معنى هذا؟.. ولماذا أنا بالذات؟..

بحكم عملي ومجالي كمصمم جرافيك أشاهد الكثير من أفلام الخيال العلمي وأفلام الرعب بالطبع، أفعل هذا لأدهش نفسي بمستوى الجرافيك المستخدم في تلك الأفلام، ولأثبت لنفسي للمرة الألف أنني سأموت دون أن أشارك في عمل يمثل هذا المستوى، ولأزداد يقيناً على يقين بأننا متأخرون في كل شيء.. وبحكم خبرتي هذه فقد شاهدت الكثير من أفلام الرعب التي تتحدث عن السحر الأسود والطقوس الوثنية.. إن ما أراه في تلك الأفلام يشبه إلى حد كبير ما أراه في الصور.. ولكن هل يجعل هذا الأمر أقرب إلى الحقيقة أم إلى الخيال؟.. الشيء الوحيد الذي متأكد منه؛ هو أنني لم أذهب في يوم من الأيام مع هذه الفتاة لأمثل مسرحية سخيقة أقوم فيها بدور جثة ممزقة!!..

أتراه حلمًا لها؟.. ولكن إن كان كذلك فمن أين جاءت الصور؟؟.. مَنْ شاهد فيلم الجرافيك الرهيب (Final Fantasy) الجزء الثاني والذي تدور أحداثه في الفضاء، يعلم أن في ذلك العصر من المستقبل كان لديهم ذلك الجهاز القادر على تسجيل الأحلام في صورة مرئية يمكن استرجاعها بعد ذلك.. ولكن هذا في أفلام الخيال العلمي، أما نحن ففي الواقع الآن.. ترى هل تستطيع تسجيل أحلامها بنوع من أنواع السحر؟.. إن كثيرًا مما اعتبره الناس سحرًا قد حوّله العلم إلى حقيقة.. إليك مثلًا تلك البلورة المسحورة الشهيرة، التي من خلالها تستطيع تلك الساحرة الشمطاء أو ذلك الساحر العجوز جدًا -وهو دائما كذلك- أن يرى حدثًا ما يحدث في مكان ما في نفس الوقت؛ اعتبروا هذا سحرًا.. إن ما يفعله التلفزيون -التلفاز حتى لا يغضب محبو مجمع اللغة- يفوق مرارًا هذه البلورة.. فمن خلاله تستطيع مشاهدة أي حدث في أي مكان، بل وتسجيله أيضًا لمشاهدته في وقت لاحق وبصورة أوضح من البلورة بالطبع.. وإني لأتساءل هل هناك بلورة 14 بوصة وأخرى 24 بوصة؟.. لقد كفّ الناس عن الاندهاش بالبلورة كأداة سحرية، ولكنهم يقبلونها فقط كأحدى مستلزمات الديكور في الأفلام.. إنها التقاليد على كل حال، لا يوجد ساحرٌ يحترم نفسه لا يملك بلورة سحرية.. ما هذا؟.. عن ماذا أتحدث؟ لقد أصاب عقلي الخرف قبل التعب حتى أنني أفكر في أشياء ليس لها علاقة بما أنا فيه.. فلأخلد إلى النوم الآن لعلني أصل إلى شيء غداً..

* * *

في اليوم التالي ذهبتُ إلى العمل.. فوجدتُ (هيام) قد سبقتني إلى هناك.. لا أعلم لماذا أصابتنِي رجفة خفيفة بمجرد أن رأيته.. مع أنني أراها كل يوم ولم يكن هناك شيء.. تحاشيت النظر إليها ونظرت إلى الأرض ثم اتجهت إلى مكتبي.. ولكن نظرًا لأنني كنت أنظر إلى الأرض.. فقد اصطدمت بالعمود الذي يتوسط الغرفة..

مهلاً.. لم يكن هناك أي عمود يتوسط الغرفة!!!

آه.. إنه الباشمهندس "عصام" هل تذكره؟.. رأيته يقف في ثبات ناصبًا قامته وينظر لي نظرة من طراز (لماذا - تأخرت - إلى - الآن) فنظرت له نظرة من طراز (كنت - متيقظا - حتى - وقت متأخر - أفكر - في - أمر - أرهقني - أنت - تعرف - هذه - الأمور).. وكما لاحظت فقد كانت نظرتي إليه طويلة إلى حد ما.. ثم أستطرد فقال:

- لماذا لا تحاول أن تكون مثل الأنسة "هيام".. لقد أتت في ميعاد العمل تمامًا.. لا بل قبله بخمس دقائق إن لم يكن أكثر.

من الواضح أنه يحاول أن يجاملها ويجذب نظرها إليه على حسابي أنا.. فلو أن "هيام" وضعت أحد أصابعها في أنفها لأعجبه ذلك ووجد فيه من المزايا ما لا يعد ولا يحصى، ولسوف يعيب عليّ أنا بعد ذلك بأنني لا أضغ أحد أصابعي في أنفي مثل "هيام"..

ثم قال:

- وقبل كل ذلك حاول أن تأتي إلى هنا متيقظًا.. لا مثل الذي عنده داء السير أثناء النوم.

- لا وجود لمثل هذا الداء.. إنه من خيال صانعي الأفلام الكوميديّة الرخيصة.

- هل هذا هو ردك على سبب تأخرك وضعف بصرك؟.

- أنا آسف.

- اذهب إلى مكتبك الآن.

هكذا ذهبت إلى جهاز الكمبيوتر الخاص بي.. هل تنتظر "هيام" إليّ أم أنني أتخيل؟.. هل تضيق عينها في خبث أم أنه نفس التخيل؟.. لو كان هذا وهمًا فأنا في حالة متأخرة جدًا.. رباه.. إن نظراتها قوية حادة إلى درجة لا تصدق.. إنها المرة الأولى التي أرى فيها نظرة لها وجود مادي بهذا الشكل.. إنها نظرة ثلاثية الأبعاد.. يمكنني أن أشعر بنظراتها دون أن أنظر إليها.. كأنها إبرٌ صغيرة تخترق مسامَ جلدي.. لذلك حاولت أن أتظاهر بأنني لا ألاحظ؛ وكان معنى هذا أن زادت نظراتي إلى السقف وإلى الحائط المجاور بشكل يجعل السقف والحائط يتساءلان.. ماذا أصاب هذا الرجل؟!!

لماذا تنتظر إليّ هكذا؟.. هل علمت أنني اخترقتُ جهازَ الكمبيوتر الخاص بها ورأيتُ ما تخفيه؟.. لا أظن هذا.. لا يبدو أنها تملك هذه الكفاءة.. إن شخصًا يضع كلمة السر الخاصة بجهازه تحت زجاج المكتب لهُو شخصٌ لا يعلم شيئًا عن نظم الحماية على الإطلاق.. إنه العميل الأمثل لأنظمة مايكروسوفت التي تفتقد الحماية أصلاً!!!..

ولكن مهلاً.. هل يا ترى هي تعمّدت هذا؟.. هل تركت هذه الورقة متعددة ثم تغللت بأي سبب لكي تغادر وتتركني وحدي مع الكمبيوتر الخاص بها حتى أفعل ما فعلت؟.. رباه.. هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا..

و أثناء تفكيري في هذه الأمور وجدتها تقوم من على مكتبها وتتجه بخطوات ثابتة نحو أحد المكاتب.. إنه مكتبي للأسف.. إنها قادمة نحوي وتنتظر إليّ في ثبات عجيب.. هل ستتحول الآن إلي مسح ثم تلقي بي إلى النافذة؟.. أو إلى أمعائها فهذا أقرب؟!!..

- باشمهندس "ممدوح" ممكن دقيقتين من وقتك لو سمحت.

قالتها في دلال واضح.. لكنني أتوقع ما هو أسوأ..

- إت.. إت.. اتفضلي.

- بصراحة أنا كنت عازمة أكلّمك في موضوع، لكن المكان هنا مش مناسب.. ممكن نتقابل النهاردة.. الساعة 06:30 في كافيتيريا "النجوم".. لو كان ده يناسبك يعني..

- حسناً، سأكون هناك.

ابتسمت لي ثم انصرفت إلى مكتبها..

ربما تتعجب أنت وتسالني لماذا وافقت بهذه السرعة؟.. لم أوافق.. ولكن هذا هو الرد الوحيد الذي سيجعلها تتصرف عني.. وقد كنت أجلس على أعصابي وهي بجواري ولا أفكر إلا في أن أجعلها تتصرف عني وقد نجحت.. أو هذا ما كنت أظنه!!..

ماذا عن الموعد؟.. بالطبع لن أذهب وسأعطل بأي شيء.. غالبًا سأبدأ في البحث عن عملٍ

في مكانٍ آخر..

تسألني ولماذا لا أذهب؟.. لأنني لست غيبًا.. هكذا هي البداية دائمًا.. يدفعك الفضول لأن تعرف فتكون بذلك قد كتبت أول سطور نهايتك.. قلت لك إن لي خبرة كبيرة في مشاهدة أفلام الرعب.. هل قال لك أحدهم إنني أحد أبطال تلك القصص وهذه الأفلام؟.. أولئك الأبطال الأغبياء الذين يرفضون أن يقتلهم الفضول؛ فيسيرون إلى آخر الطريق حتى تقتلهم المسوخ.. إن كنت قد ظننت هذا؛ فأنت مخطئ ولا ريب.. أنا لست مثل هؤلاء السفهاء الذين يقومون بمفردهم بالنزول إلى القبو المظلم بحثًا عن مصدر الصوت الغريب.. ولا يختارون وقتًا يفعلون فيه هذا إلا ليلاً!!!..

أما أنا فأعرف كيف أنقذ نفسي من البداية وكيف أتحكم في فضولي.. لن أذهب لأعرف قصة الصُّور غير المنطقية.. لن أذهب أنا أعرف هذا ومتيقن منه.. لست سفيهاً.. لن أذهب.. لن أذهب.. لن أذهب.. لن أذهب..

* * *

وذهبت!!..

* * *

الفصل الثالث

لم أتأنيق ولم استخدم زجاجة العطر التي أهداني (ثروت) إياها عندما كان في باريس؛ الفتاة لا تستحق هذا.. أنا أمقتها، ولو شئنا الدقة لقلت إنني صرت أخشاها.. لماذا يتضخم المرء بالعطر وهو ذاهب للقاء سحلية؟

انتقيت أسوأ (بول أوفر) عندي وتعمدت ألا أمشط شعري، كما حرصت على ألا أحمل الكثير من المال.. سوف تدفعين حسابك أيتها الحسنة كأي شخص يحترم نفسه..

أولاً أنا متأكد من أنها لا تحمل نحوي أي ميل.. ثانياً أعرف يقيناً أنها سوف تحاول أن تقنعني بأنها تحمل نحوي كل ميل.. والسبب؟.. لا أعرف..

هكذا دخلت (الكافتيريا) التي حدّتها لي في السادسة مساءً.. أردت أن أكون هناك قبلها بوقت لا بأس به.. (الكافتيريا) ذات طابع راق مريح وقد اعتدنا أن نخرج عليها لنتناول الغداء لو كنا نملك مالا نريد التضحية به، وإلا فهي شطائر الطعمية من مطعم قريب.. لا.. لم نعتد اصطحاب فتيات هناك لأن المكان مطروق.. سوف تدخل مع الفتاة لتجد أنك تحمق في العينين الشريرتين الوقحتين لأحد زملائك أبادهم الله.. هذا أسوأ مكان يمكن أن تصطحب له حبيبتك أو فتاة تزعم لها أنها كذلك..

طلبت عصير ليمون، ورحت أتأمل المناضد التي تحمل طابع خشب (الأرو) الجميل الدافئ.. السادسة والرابع.. لن تلبث أن تظهر وكلي فضول كي أعرف ما في جعبتها..

هذه الفتاة قصيرة الشعر الجالسة وحدها على المنضدة المجاورة ترمقني بإصرار.. جميلة رقيقة، سوف أكون محظوظاً لو كانت ترمقني لأنني رائع لكن لا أعتقد هذا.. أنا في أقبح وأتعس حالاتي ولا يمكن أن أروق لأنثى (ظربان).. إذن هي ترمقني لهذا السبب.. لأنني في أقبح وأتعس حالاتي..

فجأة نهضت متجهة إلى المنضدة التي أجلس عليها وقالت في سرعة:

"اسمي (شذى).."

ابتسمت لها بمعنى أن ما تقوله بالغ الأهمية، فقالت في ذات السرعة:

"لا وقت للتعارف.. إن (هيام) قادمة حالاً.."

نظرت لها في ذهول.. إذن هي تعرف كل شيء..

"نصيحتي ألا تثق بـ (هيام).. سوف تقول لك كلامًا كثيرًا لكن لا تصدق حرفًا.. مهما عرفت (هيام) فلن تبُلِّغ مبلغ علمي.."

كنت أعرف هذه الطريقة لدى الفتيات.. فلانة تكره فلانة لأنها لم تتوقع أن تكون بهذا الشر وتصديق ما تقوله عنها فلانة الثالثة..

قالت وقد خمنت ما أفكر فيه:

"الأمر ليس خلافًا بين فتيات.. الأمر جد خطير ويتعلق بحياتك.."

سألتها في حذر:

"هل.. هل تعرفين شيئًا عن صور معينة ملفقة بالكمبيوتر و...؟"

اتسعت عيناها رائعتنا الجمال وقالت:

"ليست ملفقة.. سلام!"

ثم غادرت المنضدة بسرعة، وفي اللحظة التالية كانت قد ألقت بورقة عملة على منضدتها السابقة وغادرت (الكافتيريا)..

يا للخسارة!.. كنت أتمنى لو ظلّت أكثر.. هذا هو طراز الفتيات الذي أتمنى لو منحني فرصة.. تشبه ابنة خالتي نوعًا لكن ابنة خالتي كانت تكبرني بخمسة أعوام ولم تكف عن اعتباري طفلًا سخيًّا.. هي اليوم أمّ لثلاثة أطفال تراهم هم السخفاء..

هذه الفتاة تعرف الكثير.. أنا متأكد من هذا.. لكنها لم تضيف شيئًا لمعلوماتي.. جاءت وأنا أشك في (هيام) ورحلت وأنا أشك في (هيام)، فما جدوى هذه المناورة؟

آه!.. مرحبًا بك!..

جاءت الأنوار إذن.. هي ذي الأنسة (هيام) تتبخر داخلًا من باب (الكافتيريا).. أعتقد فعلاً أن هذه الفتاة جميلة لأن أكثر الشباب في (الكافتيريا) كفّوا عن الكلام ونظروا لها بعيون خرس.. حتى من كان مع حسناء تركها وراح يرمق (هيام).. هذه إذن تحفة لا تعنيني في شيء.. تخيل طبقًا شهياً من حساء سمك الحفش يقدم في مطعم روسي.. الكل يسيل لعابه بينما أنت لا تبالي بسمك الحفش ولم تذوقه في حياتك ولا يهتمك أن تذوقه..

سعيد الحظ الذي اتجهت نحوه هو أنا.. الكل يرمقني في حسد وأنا أوشك على قول (على إيه يا حسرة؟)..
ضحكت ضحكتها المبرمجة وجلست سائلة:

"هل تأخرت عليك؟"

"بل أنت دقيقة كالموت.. لم تتأخري ثانية واحدة.."

وقبل أن تعلق سألته عما تريد شربه فطلبت قهوة.. هذا جعل شكلي مضحكًا إذ أشرب مشروبًا رقيقًا كالليمون بينما تشرب هي مشروبًا رجوليًا قويًا كالقهوة..

قلت لها في نفاذ صبر:

"سأكون شاكراً لو أنهينا الموضوع سريعاً لأنني فعلاً مرتب.. أ.. سأمرض الليلة.."

أطلقت ضحكة رفيعة عابثة لم أسمعها من قبل وقالت:

"يبدو أنني أعض.. لم أعرف أنني مرعبة إلى هذا الحد من قبل.."

قلت بقلّة ذوق:

"(هيام).. أنت تعرفين أن ما بيننا علاقة عمل.. الأحق هو من لا يسعى لتعميقها.. لكن من مصادفات القدر أنني أحقق فعلاً.. لهذا أكون شاكراً لو قلت ما تريدن.."

لم يتغير موقفها وقالت:

"ما الثمن الذي تريده؟"

"أي ثمن؟"

"ثمن الصور التي نسختها من جهاز الكمبيوتر الخاص بي.. الصور الخاصة بي و(عصام)"

قلت في حيرة:

"لم أر أية صورة لك مع (عصام).."

قالت في نفاذ صبر:

"كف عن السخف.. هذه الصور يمكن أن تدمر مستقبلي.. وأنا أعرف أنك نسختها.. فلماذا فعلت؟.. أعتقد أن الابتزاز هو الكلمة الصحيحة"

تنهدت وقد قررت أن أضحي بمعلومة لأكسب أخرى:

"نعم أنا تسللت إلى جهازك.. أعترف بهذا.. مجرد حسن نية.."

"أعرف هذا.. هناك من قال لي إنك فتحت جهازي خلصة.. قالوا لي إنك نسخت شيئاً على قرص مرن.. بحثت في الملفات المستعملة أخيراً فوجدت هذه الصور.. من يكون قد فتحها سواك؟"

إذن للجدران عيون في هذه الشركة اللعينة.. كان علي أن أتوقع هذا.. وأنا الذي حسبت أنني وحدي..

قلت في إصرار:

"لم تكن هناك صورة واحدة لـ (عصام).. هناك صور لك في.. لنقل إنها بروفة لمسرحية ما.. أنت كاهنة وثنية تقومين بطقوس بينما أنا جثة ممزقة بين يديك.."

نظرت لي غير مصدقة..

وفجأة كان ردها فعلها من أغرب ما توقعت..

لقد بدأت تبكي كأنها صنبورٌ تالف.. تبكي.. تبكي وتلطم الخدين.. اخرسي يا حمقاء.. لا تحطمي أعصابي.. الكل ينظر لنا..

سمعتها تقول من بين عبراتها:

.. "لقد خاننا!.. أنا موصومة!"

ثم نهضت وبكل ثبات أمسكتُ بقدرح القهوة فطوحته في وجهي وعلى ثيابي ثم غادرت المكان!..

لك أن تتصور شعوري وذهولي!

* * *

عدتُ إلى البيت وفتحتُ جهازَ الكمبيوتر لأرى تلك الصُّور من جديد..

هذه المرة تدلى فكي الأسفل في ذهول حتى غطى مفاتيح الجهاز..

كانت الصُّور تظهر (هيام) مع (عصام) في نزهة خلوية، وكان من الواضح أن علاقتهما حميمة جدًا.. أكثر من اللازم لو شئت رأيي..

متى وكيف تبدلت هذه الصُّور؟..

هل أنا موشكٌ على الجنون؟

* * *

الفصل الرابع

ما هذا الخلط؟! الصُّور ليست ملفقة؛ بينما أنا حي أرزق.. لم "أمثل" مسرحية، ولا "مثّل" أحدهم بجثتي.. متى وكيف تبدلت الصُّور على جهازي الشخصي؟.. من أخبر (هيام) أنني اطلعت على محتويات قرصها الصلب؟.. ما دخل (عصام) في الموضوع؟.. ما معنى أن (هيام) قد صارت موصومة؟.. ومن هو الذي خانهم، ومن "هم"؟.. ثم من هي (شذى) أصلاً؟.. وكيف عرفتُ أنني سأبكر عن الموعد بنصف الساعة؟.. وماذا لو كانت قد قابلتُ (هيام)؟.. قالت إن الموضوع يتعلق بحياتي، فهل هي صادقة؟.. لا أحد يملك إجابات سواها ولكن أين أجدها؟ هذا هو السؤال الذي ستقودني إجابته إلى إجابة باقي الأسئلة.. طبعت صورة وجدتها لـ (هيام) على النسخة التي لدي من ملفاتها..

في اليوم التالي بكرت إلى العمل قاصداً (وائل) السكرتير؛ لأحصل منه على عنوان (هيام)، فلما سألتني عن السبب مضيقاً عينيه ليبدو خبيثاً، لمحتُ له في غموض "إنها مسألة نسب"! فانبسطت أساريه وأعطاني العنوان بأريحية بلهاء، ولم أنس أن أوصيه ألا يخبر أحداً "لأن المسألة لا تزال في طور السؤال"، فوعدني أن يكتم الأمر.. لا أريد أن أبدأ في تلقي التهاني من الغد!

تركْتُ العملَ على وعد من (وائل) "بأن يغطّي ظهري" بأية كذبة يراها مناسبة لدي (عصام)، وقدتُ سيارتي إلى الشارع الذي تسكن فيه (هيام)، وكان شارعاً صغيراً هادئاً في منطقة متوسطة من مناطق حي الهرم، زرعتُه جيئةً وذهاباً بالسيارة كي أعلم من أين أبدأ، ثم صفتُ السيارة بعيداً وعُدْتُ مترجلاً إلى الشارع.. اخترت كوّاءً هَرَمًا تبدو عليه الطيبة لأسأله:

- "سلام عليكم يا حاج"

- "وعليكم السلام أي خدمة يا بني؟"

- "أريد أن أسأل عن آنسة ساكنة في هذا البيت".. وأشرت له تجاه المنزل ذي الرقم الذي حصلت عليه من (وائل)..

قال في ريبة:

- "خير فيه حاجة؟"

- "آآ.. نسب.. مسألة نسب"

فانفرجت أساريره:

- "طيب ما تقول من الصبح!"

كأنني أعطله منذ يومين!، يبدو أن كلمة "نسب" هي كلمة السر!

- "هي اسمها (هيام).. مصممة جرافيكس"

قال في حيرة:

- "كرفس؟!!"

- "أقصد مهندسة كمبيوتر يا حاج"

- "قلت لي اسمها إيه؟"

- "(هيام)"

قال متعجبا:

- "لا.. (هيام) في البيت دا.. من أين جئت بالعنوان؟"

سألني مشيرا إلى بيت آخر.

- "من صديق مشترك.. هل أنت متأكد يا حاج؟"

قال بعناد كأنما أهينت كرامته:

- "طبعا متأكد، دا أنا ثلاثين سنة هنا! إلا متأكد"

- "طيب.. تعرف آنسة أخرى في الشارع بنفس الاسم؟"

- "مافيش بالاسم دا غير مدام (هيام).. في البيت دا".. وأشار إلى البيت ذاته.

- "تقصد آنسة (هيام)؟"

قال بإصرار:

- "مدام (هيام).. أرملة ولها بنت عمرها ست سنين"

- "هي دي يا حاج؟"

وقربت صورة الفتاة إلى عينيه.

أجاب بانتصار:

- "أبوة هي تمام!"

ثم تابع بمكر:

- "هم فهموك إنها آنسة ولا إيه؟"

قلت في شرود:

- "يمكن سوء تفاهم"

ثم خطر لي خاطر:

- "هل لها إخوة؟"

- "بنتين.. (ريهام) و... " دك رأسه محاولا التذكر، ثم استطرد فجأة:

- "(شذى)!"

اتسعت عيناى في انزعاج؛ لم تذكر (هيام) من قبل أي شيءٍ عن أختها (شذى) تلك.. لقد أخبرتنا عن (ريهام) من قبل.. بل وأرتنا صورهما مع قطتها البشعة (روني).. لم يكن هناك أي ذكرٍ لأي (شذى)، ولكن من تخفي حقيقة أنها أرملة ولها بنت في السادسة قادرة بالفعل على أن تخفي حقيقة وجود أختها تلك.

حصلت من الكواء على وصفٍ مطابقٍ لـ (شذى) التي قابلتني؛ فتوكلتُ على الله وصعدتُ إلى المنزل الذي أشار إليه.

يا الله! منزلٌ مقبضٌ حقًا.. قابلتني قطة سوداء منتفشة الشعر في المدخل الرطب، وفحّت في وجهي بتلك الطريقة المرعبة التي تجيدها القطط؛ فتعوذت في سري وصعدت إلى الطابق الذي وصفه لي الكواء.. دققت الجرس.. بعد دقيقة انفتح الباب عن الوجه الذي توقعت.. (شذى).. رفعت لي عينيها الجميلتين متسائلة:

- "من حضرتك؟"

قلت في ارتباك:

- "أنا (ممدوح).. لقد تقابلنا البارحة في الكافيتيريا و..."

قطعتُ عبارتي عندما لمحتُ الإنكار في عينيها..

- "أنا؟.. أنا قابلتك؟" قالتها في عصبية "هذه أول مرة أراك فيها"

- "هل أنت (شذى)؟"

فقلت بنفس العصبية:

- "نعم.. ولا أعرفك ولم أزر كافيتيريا النجوم تلك من قبل"

* * *

وصفقتُ الباب في عنف تاركة إياي ألمم أشلاء كرامتي المبعثرة.. ولكن مهلاً.. إنها لم تنكرني بالضبط.. لقد ذكرت اسم الكافيتيريا الذي لم أذكره.. وربما كان عنفها المبالغ فيه، رسالة لي كي أرحل عن المكان فوراً.. يبدو أنها تخشى الحديث هنا.

تركض المكان مسرعاً وقدت السيارة إلى (كافيتيريا النجوم) العتيدة.. طلبت شايًا واحتسيتها على مهل.. حتى وجدتها تعبر الباب الزجاجي.. كما توقعت تمامًا؛ ما دامت تخشى التحدث في البيت، وما دامت قد تعمدت ترك الرسالة لي في طي حديثها، فليس ثمة مكان آخر!.. أشرق وجهي لها وكِدْتُ أقوم من مقعدي؛ لكنني تجمدت عندما لاحظت أنها تجاوزتني وجلست في المائدة المجاورة.. لم يكن رواد الكافيتيريا في تلك الساعة الصباحية يتجاوزون أصابع اليد.. فلماذا إذن هذا الحذر الغريب؟ حافظت على اتجاه نظرتها بعيداً عني.. مما أتاح لي تأملها من الجانب.. إنها رقيقة كالفراشة، ولا تشبه (هيام) إطلاقاً، مع أنها أختها كما زعم الكوّاء.. احتست مشروباً ما ثم استدعت النادل ونقدته حسابه وصرفته، ثم عبثت قليلاً في حقيبة يدها، وذهبت مسرعة.. مددت بصري إلى المقعد الذي كانت تجلس عليه فوجدت ورقة مطوية فالتقطتها بخفة ودسستها في جيبِي، وتركض ورقة نقدية على مائدتي وخرجت إلى الشارع.. بحثت عن (شذى) ببصري لكنها كانت قد اختفت.

وفي السيارة فتحت الورقة فوجدت فيها السطور التالية مكتوبة بخط جميل متعجل:

"أستاذ (ممدوح) أسفة على الطريقة التي قابلتك بها.. الموضوع أعقد مما تتصور.. الرقابة عليّ لصيقة، لا أستطيع الإسهاب الآن؛ خوفاً من أن تعود "هي" للمنزل وتجدي خارجة.. لقد أثرت كثيراً من الرّيب في الآونة الأخيرة.. باختصار: خذ الحذر.. لا تتواجد وحيداً خاصة ليلاً.. أنت مستهدف، ولا أدري لماذا أنت بالذات، لابد أن السبب شيء فعلته أنت.. لا أستطيع التصريح بما هو أكثر.. لا تحاول الاتصال بي إلا إذا مرّت أيام ثلاثة ولم أتصل بك.. البريد الإلكتروني سيكون هو وسيلة الاتصال فتفقّد بريدك دائماً..

(شذى)"

* * *

الفصل الخامس

قال (حسن) وهو يقلّب الشاي:

"ما زلت لا أصدق هذا الذي تقوله.."

قال د. (مصطفى) وهو يرشف القليل من قدحه:

"ما دمت أؤكد لك أنها الحقيقة.."

قال (حسن) في استبشاعٍ واضح:

"تقول إن هناك أناسًا مولعين بالموت والموتى.."

قال د. (مصطفى) في استمتاع:

"نكروفيليا.. هذا الولع قد يبلغ درجة مريعة مثل ارتياد المقابر لمعاشرة الموتى، وأحيانًا يقتل المصاب بهذا الداء ضحاياه ليوفر لنفسه خامة للحب.. لكننا في حالة زوجتك نحمد الله على أن الأمر لم يبلغ هذه الدرجة.. إنها فقط تحب جو الموت والمقابر.."

نظر له (حسن) في رعبٍ وراح يسترجع الذكريات..

* * *

سوداوية جدًا يا (هالة).. لا ترين جنازة إلا وتتابعينها بنهم، ولا تطالعين خبرًا عن وفاة أو حادث إلا ودققت فيه بعناية.. كان هذا محتملاً حتى وجدت أنك تقصين هذه الأخبار وتحفظينها في ألبوم خاص.. عندما تتابعين فيلمًا غريبًا فهذا فقط من أجل مشاهد العنف.. تشاهدين نشرات الأخبار طمعًا في لقطة أو اثنتين تعرضان الجثث الممزقة هنا أو هناك، وهذا يعني أن حظك صار حسنًا في الأعوام الأخيرة..

سوداوية جدًا يا (هالة).. لكنك لم تكوني كذلك..

عندما زرنا عمّتك في القرية وقضينا الليل، عرفت أن المقابر قريبة جدًا.. لم أدر إلا الآن كم أثرت فيك هذه الرؤى وكم أن تصرفاتك لم تعد كما كانت..

بعد ذلك العشاء الممتع من الفطير المشلتت والجبن القديم وبعد احتساء الشاي، سمحوا لنا

بأن نقضي ليلتنا في (قاعة المسافرين).. وكنت مثقل الرأس أشعر أن مجتمتي محشوة بالسمن، لهذا لم أنتظر كثيراً حتى تبدلي ثيابك وانقلبت على ظهري لأغيب في نعاس عميق..

لا أعرف لم شعرت بالظما لهذه الدرجة؛ حتى أنني صحت من نومي بعد ساعة.. لم أجذك جوارى.. أصابني الرعب.. نهضت بحثاً عنك، ثم فتحت باب القاعة.. خرجت إلى الشرفة الواسعة التي ترين الحقول بقربها وشواهد القبور الجاثمة في الظلام..

كانت كلاب تعوي في مكان ما.. ولعل ذئباً أطلق عواءه الطويل المريع، وقد خطر لي إنه ليس بوسع أنثى ذات أعصاب سليمة أن تعبر هذه الحقول ليلاً.. أنا لا أجرو وأنا الرجل متين البنيان..

لكنك فعلت هذا..

رأيتك قادمة من بعيد تمشين في تودة كأنه لا يمكن لشيء أن يؤثر قلقك أو رعبك.. فارعة الطول وشعرك ينساب على كتفيك..

للحظة خطر لي أنك لست أنت.. ماذا عن النداهة ونصف دسنة من جنيات الفلاحين التي تبدو دوماً في صورة أنثى جميلة تدعو الرجال؟.. القصة دائماً هكذا..

لكنك كنت أنت..

حافية القدمين تلبسين قميص النوم الهفاهف الطويل وتمشين نحو المكان الذي أقف فيه.. أجفنت قليلاً عندما أدركت أنني أقف هناك في الظلام.. ثم ارتسمت ابتسامة ما على شفتيك ودنوت مني..

قدماك ملوثتان بالوحل.. الثوب نفسه في حال مزرية..

-"أين ذهبت يا هالة؟"

قلت في فتور:

-"شعرت بأرق.. أردت أن أمشي في الحقول قليلاً.."

ثم اتجهت إلى طلمبة الماء في الحقل، فرحت تضخين الماء فوق قدميك.. بدا لي هذا سخيلاً.. لذا حملت خفيك في يدي وناولتهما لك كي تضعي القدم المغسولة في خفيها مباشرة..

ما هذا الشيء على شفتيك يا صغيرة؟.. لو تركت لخيالي العنان؛ لقلت إنها ألياف لحم قاس..

غسلت فمك بسرعة ثم مسحت على وجهك وابتسمت لي ثانية..

-"هيا نخلد للنوم.."

وفي الفراش العريض غير المريح، امتدت ذراعك تعانقني.. لكني لم أستشعر عاطفة ما.. كنت أنظر للسقف المدعم بألواح الخشب وأفكر..

الحقول؟.. قلت إنك جئت من الحقول.. لكن فكرة مروعة خطرت لي.. أعتقد أن الاتجاه الذي

جئت منه هو المقابر.. فلماذا ترغب فتاة في أن تمشي وسط المقابر وحدها ليلاً؟

جسدك يلتصق بي، فأشعر نفوراً..

ثمة لغز ما.. لغز غريب يحيط بك..

كانت هذه هي اللحظة التي قررت فيها أن أستمير صديق طفولتي (مصطفى) الطبيب النفسي البارع.. هل هناك شيء مثل الولع بالموت؟

* * *

و(حسن) يواصل تقليب الشاي شارد الذهن..

قال د. (مصطفى) في غموض:

"على كل حال أنا لا أعرف التفاصيل، وأقترح أن تمر عليّ مع (هالة).. أولاً يجب أن أعرف سبب هذه العقدة.. ثانياً يجب أن أعرف متى بدأت.. إنها تتدرج تحت خاتمة الشذوذ العنيف جداً.. (فرويد) وضعها في سلة واحدة مع داء (الكوبروفيليا)!"

"كوبروفيليا؟"

"نعم.. عشق براز الآخرين!"

كان هذا كافياً كي يوشك (حسن) على إفراغ معدته.. الله يخرّب بيتك.. لا تضع كل شيء أمامي في وقت واحد.. لا شك أن الطب النفسي يحوي ما هو أغرب وأبشع لكن أرجوك لا تصارحني بكل شيء..

حاول أن ينسى هذه السيرة، فشرّد ذهنه من جديد محاولاً تذكر متى لم تعد (هالة) هي (هالة)..

* * *

كانت (هالة) نموذجاً للزوجة الطيبة.. ليست بظلة من بطلات السينما لكنها -على أقل تقدير- لا تجعل حياته جحيماً..

في البدء بدأت تتحدث عن الملل.. عن بقائها وحيدة في الدار حتى عودته، وهو مهندس بترول قد يغيب أياماً عن البيت، وهي لم تُتجب بعد برغم مرور عامين من الزواج، حتى بدأ الأقارب يتحدثون عن هذه المشكلة وعن وجوب البدء في استشارة الأطباء (الأمر الذي لم يفعله قط)..

قالت له إنها راغبة في البحث عن عمل.. لقد درست الكمبيوتر لذا هي تفكر في شركة تعمل فيها. من ناحية تبدد الملل، ومن ناحية تساهم في مصاريفها على الأقل..

شركة كمبيوتر تعمل فيها.. هناك شركة قريبة فيها صديق قديم له يدعى (مدوح).. لا بأس.

هكذا بدأت تندمج في عملها الجديد.. لكنها لا تتكلم إلا عن (هيام) مصممة الجرافيكس التي عرفتھا في الشركة.. فتاة بارعة الحسן مكتملة العقل..

جميل أن تسمع عن (هيام) مرة أو مرتين لكن لا يمكن أن تسمع عنها عشرين مرة في اليوم، خاصة وأنت لا تعرف عنها أي شيء ولا يهملك هذا..

(هالة) تخرج مع (هيام)، تذهب للعمل مع (هيام)، تتنزه مع (هيام)، تنتقي أثوابها مع (هيام)، تزور (هيام).. تزورها (هيام).

لقد رأى (هيام) مرة وبدت له حسناء فعلاً.. نوع الفتيات اللاتي كن سيدرن رأسه قبل الزواج ولربما لاحقها.. لكنه قد اكتفى بـ (هالة) وحمد الله على أنه وسط كل هذه التغيرات العاصفة في المجتمع، لم تزل هناك فتاة يمكن أن يعتبرها سكناً له..

قالت له (هيام) ضاحكة:

-(هالة) زهرة يانعة.. فلتأخذ بالك منها يا باشمهندس.. لولا أنني أنثى لخطفتها منك..-

كل هذا جميل.. هالة سعيدة وهذا هو المهم..

المشكلة الوحيدة هي أن هذه المعرفة تتزامن بالضبط مع تلك التغيرات التي أقلقته بصدد هالة..

ذات يوم على الغداء قالت (هالة):

-(إن (هيام) تريد ابتياع ثياب مدرسة جديدة لابنتها..-

توقف عن الأكل ونظر لها في صمت ثم قال:

-"قلت لي من قبل إنها غير متزوجة!"

قالت في عصبية:

-"أنت تخطط الأوراق.. هيام أرملة ولديها طفلة.. لقد توفي زوجها في حادث منذ عامين.."

-"لم تقولي هذا قط.. قلت إن الرجال يطمحون لها.."

-"هذا لا يمنع.. كم من أرملة حسناء تداعب أحلام الرجال.."

-"أنت قلت إنها غير متزوجة.."

-"والآن أقول إنك لا تركز فيما أقول.. هكذا الرجال جميعاً.. تتحدث نساؤهم فيهزون

رعوسهم متظاهرين بالمتابعة وهم لا يعون حرفاً.."

-"ربما.."

قالت وهي تبعثر طعامها كما تفعل القطط:

-(إن (شذى) ستمر علي لأرافقها إلى المتاجر.."

- "ومن (شذى) هذه؟"

- "أخت (هيام).. هل لديك اعتراض؟"

قال باسمًا وهو يضع الملعقة في طبقه:

- "ليس لدي اعتراض.. فقط عندما كلمتني عن (هيام) قلت إنها (مقطوعة من شجرة) وليس

لها أي أقارب!.."

ثم غادر المائدة قبل أن تشتعل حربٌ أخرى..

* * *

الفصل السادس

بعد ساعة واحدة من حديثهما السابق على مائدة الطعام -المليء بالأكاذيب من وجهة نظره- كانت واقفة أمامه في كامل زينتها ومتأهبة للخروج قالت:

- (حسن) سوف أخرج الآن.. لقد تأخرت علي ميعاد (شذى)..

رفع رأسه لينظر لها ولكنه شعر بهزة رهيبة في جميع أوصاله، هزه بدأت من ظفر قدمه حتى شعر بها توقف شعيرات رأسه وتساءل في أعماقه:

- هل ستكتشف رعيي الآن من مظهر شعر رأسي؟!

ولكن الرعب تسلل إلي قلبه كما لم يشعر منذ سنوات فهو بالكاد استطاع أخيراً أن يتناساه، من قال إن رعب الطفولة يمكن أن يُنسى بسهولة؟!، وبصعوبة شديدة استطاع أن ينطق وهو يشير بإصبعه المرتجف نحوها محاولاً ألا تظهر ارتجافته في صوته:

- ما هذا الذي ترتدين في عنقك؟

ارتجفت الكلمات علي شفتيها قبل أن ترد وهي تشير إلي القلادة في صدرها.

- هذه؟ أنها قلادة.

تمالك ذاته -قليلاً- ظاهرياً ومازال الهلع يملكه بشدة من الداخل وقال:

- أعرف جيداً أنها قلادة، ولكن من أين أتيت بها؟

- إنها... إنها... لقد استعرتها من (هيام).

- (هيام)؟!!!

قالها في تعجب وعيناه مازالتا تتركز على القلادة ليتأكد مما يدور داخلته، ولكنه تساءل بحذر:

- ومن أين أتت بها هيام؟

- ومن أين لي أنا أن أعرف؟.

وهمتّ وهى تلتف خارجة وقالت:

- أرجوك لقد أخرتني كثيرًا علي موعد (شذى).

خرجت.. وهمّ هو في سرعة كالكلب المسعور ليبحث في متعلقاتها عن أي شيء يبدد قلقه أو حتى يؤكد.

ولكنه لم يجد أي شيء مثير.

* * *

- أؤكد لك يا د. (مصطفى) أنها هي.. أجل عين.. عينٌ صناعية من الزجاج علي ما أعتقد، كانت لوالد صديقي (ممدوح)، وكان يضعها قبل وفاته بدلاً من عينه التي فقدتها في حادث وقد دُفِن بها، وكنت أخشاها بشدة وأنا طفلٌ صغيرٌ وأخشى النظر إليها، وكم مررت بأيام عصبية عندما قضيتُ معهم المصيف في أحد المرات وأنا طفل، عقليتي وقتها جعلتني أرسم كل قصص الرعب الممكنة حول هذه العين وقد عادت كل مخاوف الطفولة هذه؛ لحظة رأيتها في عنقها، وأقسم لك أنها هي فلا يمكنني نسيانها؛ فقد كان بها شرخٌ واضحٌ وكان هو ما يزيد من رعبها، وكل ما زاد عليها ذلك الإطار الذهبي الذي وُضعت فيه.. أخبرني يا (مصطفى)، هل العيون الصناعية المنزوعة من قبور الموتى، تدخل في نطاق هذه (النكروفيليا)؟؟!

* * *

- اعتقد هكذا قد انتهت الأيام الثلاثة ولم تتصل بي (شذى) ولا بد لي الآن أن أرسل لها بريداً الكترونياً لأعرف ما حدث؟

شيءٌ عجيب!.. لم أر ردًا علي رسالة أسرع من رد (شذى) علي رسالتي هذه.. نص الرد جاف سريع كُتب على عجل:

- أستاذ (ممدوح) أرجوك أدخل علي (الماسينجر) أريد إجراء (شات) معك فوراً، أنا في انتظارك.

هكذا دخلتُ هذا البرنامج اللعين المسمى (الماسينجر) لتبدأ المحادثة سريعاً..

- مساء الخير أنسه (شذى).

- مساء النور يا عزيزي.. ليس هناك وقت.. إنني مُراقبةٌ بشدة وهناك خطرٌ فادحٌ عليك كما قلت لك من قبل، أريد مقابلتك في مكان لا يثير الشبهات حولنا.. سوف أنتظرك في مقابر (باب الوزير).

- بالفعل يبدو كمكان عادي جداً وعام ولا يثير الشبهات.. هل جننت؟..

- أدخل من البوابة الخارجية ثم أبحث بين المقابر علي مقبرة عليها لافتة مكتوب عليها بخط ركيك عبارة (هذه نهايتنا جميعاً فلنتعظ).

- (شذى) لماذا هذا المكان بالذات؟ لِمَ كل هذا التعقيد.. المقابر؟!!!

- أرجوك أستاذ (ممدوح) نفذ ما أقول، إنه لصالحك وعليك لقائي هناك بعد ساعتين من الآن.. إلي اللقاء.

تم مغادرة (شذى) المحادثة

لدي إحساس رهيب بالرعب والغباء، لماذا أوافق على ما تقوله لي؟ لماذا أصدقها؟، ولكن لا بد لي من التنفيذ، شيء داخلي يقول لي إنه لا بد لي من أن أفعل ما تقوله، الساعة الآن الرابعة إلا ربع، باقي ربع ساعة علي الميعاد.. أعتقد أنها لا بد أن تكون دقيقة مثل الموت مثل أختها وإلا لما طلبت مني مقابلتها في هذا المكان.. ولكن...

لقد تخطت الساعة الرابعة والنصف والشمس أوشكت علي المغيب.. المكان موحش وهادئ بشدة ومثير للرعب بجنون.. هل تلعب بأعصابي مثل ما تفعل أختها الموصومة هذه كي يصيباني بالجنون، هل تؤدي دورًا كتبت لها هذه الهيام؟؟

الهي أكاد ارتعد وضربات قلبي تنتفض لولا خوفاً من أن يُسمع صوت هذه الضربات الخائفة ولكن.. ويحي!! ما هذه الصرخة المكتومة وهذا الظل الخارج ملطخ بالدماء كما لو كان شخص نهشه كلب في جسده؟، رباه وما هذا أيضاً الآتي من الجهة الأخرى؟..

حمداً لله أنها (شذى) ولكنها آتية مرتعبة بشدة - هل هي مرتعبة حقاً أم مُرعبه؟!، ترى هل رأيت ما رأيت؟- ولكنها قالت سريعاً بلهجة قِمة في الهلع أو قِمة في التمثيل:

- (ممدوح) أرجوك بسرعة.. بسرعة كي نخرج من هذا المكان الرهيب.

كنت أريد أن أسألها عن ماذا أتى بنا أصلاً لهذا المكان الرهيب طالما يجب أن نذهب سريعاً، ولكني لم أستطع أن انطق سوى ب:-

- ولكن ماذا حدث ومن هذا المُلطخ بالدماء؟

نظرت للجسد المبتعد بسرعة وردت بثقة عجيبة مع كل هذا الرعب المرتسم فوق وجهها:

- أرجوك اذهب بسرعة الآن، وخذ هذه احفظها معك حتى أتصل بك.

- ما هذه؟ قلادة!!.. لا لا.. أنها عينٌ مشوهة؟؟

ولكني رفعت رأسي فلم أجدها أمامي فقط ظلها وهي تبتعد، وخلفها قرصُ الشمس الذي ذهب في طريقة إلى الاختفاء.. بماذا تذكرني هذه القلادة؟ إنها تذكرني بشيءٍ ما أجهله؟!!

وفجأة التمعت الإجابة في عقلي..

أنها تلك العين الصناعية التي كان يضعها أبى بعد الحادث، أكاد ارتجف -بل إنني أرتجف بالفعل- ما الذي أوصل هذه القلادة إلي (شذى)؟!

* * *

القلق يكاد يقتلني وشيء ما يلح عليّ وأنا مازلتُ أعبتُ بهذه القلادة المربعة في يدي، يكاد ثقلها النفسي يجعلني لا أطيق لمسها، وكأنها أفعى سامة مجبر على الاحتفاظ بها بين كفي.. فتحت الكمبيوتر وأدخلت الأسطوانة وأخذت أراقب الصّور مرة أخرى..

ولكنها هذه المرة صور المذبح بدلاً من صورتها مع (عصام) ولكن ما هذا؟ هناك تغيّر في هذه الصورة حقاً، إنها تقف بردائها الأحمر كما كانت ولكن..

من هذا الذي يقف بجانبها؟.. إنه... إنه أنا، أقف بجانبها تماماً وعلى وجهي بسمه شيطانية أخافتني أنا ذاتي من ذاتي، وما هذا أيضاً؟ غريبة.. نفس القلادة التي أعطتها لي (شذى) معلقة في رقبة (هيام) بصورة واضحة.. ولكن مازال هناك ضحية ممزقة على المذبح ترى هل هي أنا أيضاً؟!

ورغم صعوبة ذلك إلا إنني ابتسمت ساخراً من تساعلي، ماذا يمنع أن أكون أنا أيضاً على المذبح وهل هناك منطق لهذه الصور؟ رباه.. إنها (هالة) زوجة صديقي (حسن)؟؟!

* * *

قال متنهّداً وهو ينتظر لباب الشقة الذي فُتِح:

- حمداً لله لقد أتت.

لقد كاد القلق يأكل (حسن) مع كل هذا التأخير الذي تأخّرتَه (هاله).. وتساعل هل سيدخل ضمن غرابة أطوارها الجديدة العودة متأخراً للمنزل، ولكنه قرر أن يتساعل بهدوء لا يدري أحرصاً عليها أم خوفاً منها:

- تأخرت كثيراً يا حبي...-

وصدم حسن وهو ينظر إليها ويسألها:

- رباه ما هذه الحالة التي أنت بها وما هذه الدماء والغبار؟ وماذا أصاب ثيابك كما لو كنت في زيارة إلي المقابر لا في زيارة للسوق.. ماذا حدث.. ثم.

واصل وهو يحاول ابتلاع ريقه بصعوبة:

- وأين ذهبت القلادة التي خرجت بها في عنقك؟!

ولكنه لم يلقَ أي رد..

* * *

الفصل السابع

كانت القصة تزداد تعقيداً بالنسبة لي..

هناك عدة أطراف في الموضوع.. (هيام).. (هالة) زوجة صديقنا (حسن).. (شذى).. هناك إنذارٌ مستمرٌ لي بوجود خطر ما.. من الجميل أن تعرف بأن خطراً يتهددك، لكن هذا الإنذار يفقد قيمته عندما يتكرر بإفراط؛ فتصير حياتك كلها خطراً دائماً.. قلادة فيها عين أبي الزجاجية جاءت بها (شذى).. كيف حصلت عليها؟.. من هيام؟.. هل نبشت قبر أبي؟.. أنا أكره (هيام)، لكنني لا أستطيع أن أراها تنبش قبراً كبنات (أوى)..

واعترضت ذهني محاولاً تذكر مَنْ تعاملَ مع جثمان أبي يوم وفاته؟.. الاحتمال الأكبر هو أن هناك مَنْ انتزع العين لأن تركها في الجثة خطأ.. هذا الشخص هو من حصلت منه (هيام) على العين الزجاجية.. لكن لو افترضنا هذا، فمن المخبول الذي يضع عيناً زجاجية في قلادة؟.. هذه الأشياء التي تمت للجسم البشري بصورة حميمة تثير التقزز في النفس.. ما زلت أرتجف من منظر طاقم أسنان يسبح في كوب ماء جوار فراش مسن.. وما زلت أكره المرور جوار مقلب قمامة المستشفى العام؛ لأن منظر قمصان الجبس أو ذراعٍ من الجبس ملقى هناك يثير هلعي..

ثم تلك الصور على جهاز الكمبيوتر؟..

إنها لغزٌ كبير.. في كل مرة تتخذ شكلاً آخر..

ثم بدأ الشعر يتصلب في مؤخرة عنقي.. ما أواجهه لا يتعلق بمضايقات العمل بل يتعلق بـ..
"بسم الله الرحمن الرحيم"..

الأمر يتجاوز التفسيرات المادية ليدخل في عالم مريب مخيف.. هذا واضح..

الحقيقة الواضحة منذ البداية وأنا أحاول تجاهلها والدوران من حولها، هي أن هذا كله لا يمت لعالمنا بصلة..

من هي (هيام) فعلاً؟.. كل الأسئلة تدور حول (هيام).. فمن هي؟.. ربما كان السؤال الأدق هو: ما هي؟

الإجابة جاءت في منتصف الليل..

كنت نائمًا في غرفتي، عندها صحت.. لماذا صحت؟.. حقًا لا أعرف.. وليتني ما فعلت..
كان ذلك الصوت يتحرك في غرفة مكتبي.. وكنت بين النعاس واليقظة عندما نهضت مترنحًا
حافي القدمين بسرّوال المنامة والفانلة الداخلية.. أهرع إلى مصدر الصوت وقلبي يخفق..
كان المكتب مضاءً بتلك الإضاءة الخافتة التي زوّدته بها.. إضاءة تسمح بالتركيز أمام شاشة
الكمبيوتر ولا تصيبك بالعمى..

إن الباب في موضع يسمح لمن يقف في الصلاة، أن يقف في الظلام يراقب الجالس على
المكتب لفترة، وكم من مرة كنت أعمل فيها في انهماك لربع ساعة قبل أن أدرك أن أمي -
رحمها الله- واقفة هناك تصلي الفجر، على بعد ثلاثة أمتار مني، وكان قلبي يثب في ضلوعي
في كل مرة..

"ألن تتعلمي إحداث ضوضاء يا حاجة؟.. مجرد حفيف أو سعة عابرة أو (سلامو عليكم)"

"أخاف أن أنتزعك من تركيزك"

"لكنك توشكين على انتزاعي من عالم الأحياء أصلاً.. لو كنت أكبر عشر سنوات لقضيت
بنوبة قلبية.."

فكانت تقول: إن شاء الله أنا.. وأشياء من هذا القبيل، لكنها لا تتعلم إحداث ضوضاء أبدًا..
من المستحيل أن يتعلم المرء أي شيء جديد بعد سن الخمسين..

المهم أنني وقفتُ حيث كانت أمي تقف، ورحتُ أنظر إلى داخل الحجرة..

تلك الفتاة الواقفة في غرفة المكتب منحنية على شاشة الكمبيوتر.. منهكة بشدة..

(هيام).. لا شك في ذلك.. لقد تجاوزت حدودها بحق.. لكن الأهم هو أنني أخشاه كثيرًا.. أنا
أول شاب قوي البنية يصيبه كل هذا الهلع من فتاة حسناء تتسلل وحدها لداره..

السكّين الكبيرة التي نقطع بها البطيخ على مائدة الطعام.. أعتصرها بيدي.. أتجه نحو الباب
وأطل أكثر..

تستدير (هيام) نحوي..

لم تعد (هيام) هي (هيام).. لقد انتهى كل شيء..

لم تعد لها عينان.. لم يعد لها وجه محترم.. المشهد كله أقرب إلى مؤثرات فيلم رعب شديد
الإتقان.. الوجه أقرب إلي قطعة صلصال تم تشويهها بسكّين، والعينان جمرتان.. بالضبط
جمرتان.. من الفم يسيل خيط لعابٍ سميكٍ أبيض..

ومن الثقب الذي كان فمها أسمع:

"ما كان يجب أن تتدخل في أموري لهذا الحد.."

يخرج الصوت ثلاثيًا رباعيًا خماسيًا كصوت الأشباح في الأفلام.. بشكل ما كنت أتوقع هذا..
في هذه المرة لم أنتظر.. لم أنتظر أن تبدأ هي، بل أطلقت صرخة أرعبتني أنا نفسي ووثبت
إلى داخل الغرفة.. وقبل أن تقول هي أي شيء أغمدت السيكين حتى المقبض في صدرها ثم
نزعتها.. ليس بهذه السهولة.. لابد أنها ستعيش طويلاً جداً..

أغمدت السيكين.. أخرجتها.. أغمدت السيكين.. أخرجتها.. أغمدت السيكين.. أخرجتها..
أغمدت السيكين.. أخرجتها..

الدم يتناثر على وجهي ويغرق شاشة الجهاز..
إنها تصرخ وصرختها كما توقعْتُ بالضبط.. صرخة شيطانٍ يحترق في جهنم..
رباه!.. لينته كل هذا!.. لينته!.. لماذا لا تموت؟..
إنها لا تموت فعلاً.. إنها تلغّ ذراعيها حولي.. قوتها جديرة بأن..
لا!!!!!!

* * *

صحوْتُ من النوم صارخاً لأجد أنني في فراشي..
كل شيء هادئ ورائق وصاف.. شمس الصباح تتسلل خافتة خجولاً من نافذتي..
لقد كان كابوساً..
أجمل ما في الكوابيس أن تصحو لتعرف أنها كذلك..
الكتاب جوار الفراش.. كوب الزبادي الفارغ.. هذه معطيات قديمة جداً.. بعبارة أدق هي
موجودة قبل أن يحدث أي شيء..
معنى هذا -ببساطة- أن المغامرة لا وجود لها!.. لا قلادة ولا (شذى) ولا هالة وصورٍ على
جهاز الكمبيوتر.. كان هذا كابوساً طويلاً كريهاً بالغ التعقيد!
انا أكره (هيام)، لكن ليس إلى هذا الحد..

نهضتُ من النوم منتعشاً.. واتجهتُ للحمام فغسلتُ وجهي.. سوف أذهب للعمل بعد نصف
ساعة.. هناك ألقى (هيام) الحقيقة.. (هيام) الكريهة لكنها غير المرعبة.. مَنْ يدري؟.. لربما
شعرتُ أنني أهيمُ بها حباً هذه المرة..
عدتُ إلى غرفة النوم فبدأتُ أبذل ثيابي.. هنا سقطتُ عيني على شيءٍ على (الشوفنيرة)..
شيء ألقيت فوقه منشفة حتى لا أراه..
قلادة مخيفة الشكل.. قلادة أكرهها وتمنيت لو لم أراها..

لكن.. معنى هذا أن...؟

هرعتُ إلى غرفة المكتب فوجدتُ ما كنت أخشاه.. الكمبيوتر والبساط والجدران ملوثة ببقع الدم..

لم يكن كابوساً إذن..

كل هذا كان حقيقياً.. و(هيام) كانت في غرفة مكتبي هذه الليلة بالذات وقد طعنوها!

* * *

الفصل الثامن

في الأيام التالية ظهرت (هيام / المسخ) في منزلي كثيرًا جدًا! وفي كل مرة كنت أقتلها بطريقة ما.. وكانت تترك آثارًا مادية.. أقتلها وأهرب.. أقتلها وأذهب للنوم لا أدري.. ولكني أستيقظ في كل مرة حاسبًا أن هذا كابوس.. ثم أتبين الدماء أو اللعاب أو السوائل الخضراء الجافة؛ نتيجة الصراع! وكان هذا عجيبيًا في الواقع.. بطريقة ما أدركت أن هذا المسخ أبله!.. لا أعرف كثيرًا عن المسوخ؛ لأن من قابلوهم لم يعيشوا بعد اللقاء ليحكوا! أما (مسخي) الخاص فقد قتلته أربع مرات حتى الآن، ولا بد أنه أمسى مادة للمزاح بين أصدقائه من المسوخ!

* * *

طبعًا انقطع عن العمل.. من الصعب أن أقتل المسوخ ليلاً ثم أعمل معها صباحًا، فهذا كثير.. ألا ترى هذا معي؟

كانت المشكلة هي الفجوة بين عملية القتل وبين استيقاظي شاعرًا أن هذا فقط كابوسٌ ثقيل.. وكان لدي خيطٌ وحيدٌ بعد الاختفاء المريب لـ (شذى) وهو (هالة) التي ظهرت مؤخرًا في صور حفلات الطقوس الوثنية.. هاتفْتُ (حسن) زوجها من هاتفِي الجوال وأبلغته أن يوافيني بالكافيتيريا العتيدة لأحدثه في أمر طارئ.. لحسن الحظ وجدته في عطلة الشهرية من عمله البترولِي! بدا راغبًا في المساعدة بشكل عجيب؛ فقد كنت أتوقع أن يتملص، إلا أنني عرفتُ السبب بعد أن لقيتُه.. هو وصديقه الدكتور (مصطفى) الطبيب النفساني. عرضتُ عليهما ما لديّ وعرضا عليّ ما لديهما.. وكانت استنتاجاتنا مثمرة حقًا:

1- (هيام) ساحرة / مسخ.. لا شك في ذلك.

2- (عصام) -مديري- متعاونٌ معها بشكلٍ ما.. وقد تسببتُ خيانتَه لها في إصابتها "بالوصم".. ربما أدى هذا إلى فصلها من نادي الساحرات الشريرات، أو أي شيءٍ هامٍ يناسب ردة فعلها الغريبة بالقاء القهوة في وجهي!.

3- أحدهما - (هيام) أو (عصام) - عبثٌ بجهازي الشخصي ليخفي الصُّور التي تظهر بها جثتي

4- (هيام) جندتُ (هالة) في "نادي الساحرات".. لا أدري بعد ما إذا كانت (هالة) ساحرةً هي الأخرى أم أنها فقط ضحيةٌ محتملة.

5- (هالة) تتسلل إلى المقابر ليلاً لتأكل اللحم النيئ! لا أجسر على القول إنها تأكل الجثث لأن هذا شنيع!

6- (شذى) تعرف الإجابات وتلعب دورَ (بافي) ذبّاحة مصاصي الدماء أو بالأحرى (بلايد) الذي كان يوماً من مصاصي الدماء ثم صار من ذبّاحيهم هو الآخر!.. لماذا لم "تتحول" (شذى) هي الأخرى؟ وما مدى قدرتها على إفساد خطط أختها؟.. لا أدري.

7- المعركة التي شهدتها في المقابر بين كل من (شذى) و(هالة) كانت تهدف إلى انتزاع القلادة وتسليمي إياها..

8- هناك شيء مهمّ عليّ أن أفعله بالقلادة.. لا أدري ما هو بالضبط.

قال الدكتور مصطفى في استمتاع وهو يرشف قهوته:

- "الحق أنها قصة مثيرة!"

قلت في سأم:

- "أنت تجدها مثيرة لأن أحداً لا يطالبك بقتل مسخ في كل ليلة!"

"لم أقصد!.. أردت القول إني مهتمّ ولكن دعك من هذا.. المهم هو أن نعرف بم برّرت (هالة) لزوجها الغبار والدماء وغياب القلادة.."

قالها ونظر مستفهماً إلى (حسن) الذي قلب شفتيه في حيرة:

- "لم تقل شيئاً!.. عندما رجعت من الخارج لم ترد على تساؤلاتي مطلقاً وفي اليوم التالي لم تذكر شيئاً مما حدث، واعتبرني معنوها"

قال د.(مصطفى):

- "لعلها لا تذكر شيئاً حقاً.. وهذا لا يترك لكما -في ظل اختفاء (شذى)- إلا أن تقوموا بزيارة استكشافية لمنزل (هيام)"

قال (حسن) وهو يقضم شفتيه:

- "وماذا يمكن أن نفعل هناك؟"

قلت في انفعال:

- "نكتشف ما المقصود من هذا كله.. ننتهي من الإنذارات.. نقتل المسوخ.. ننقذ (شذى) و(هالة) إن كانتا في خطر.. أو نقتلهما إن كانتا هما الخطر! المهم أن نفعل شيئاً إيجابياً.. لقد سمعتُ انتظار المسخ في كل ليلة كأني دجاجة تنتظر الذبح"

قال د.(مصطفى):

- "هذا جميل، ولكن يجب أولاً أن أفحص (هالة).. إن نتائج الفحص ستوفر بالتأكيد بعض المعلومات التي ربما نتمنى لو كنا عرفناها قبل اقتحام منزل الساحرات ذاك"

قال (حسن):

- "ومتى يكون ذلك؟"

- " الليلة.. ومن الأفضل ألا تعلم (هالة) بزيارتي لكما.."

* * *

في الصباح التالي اجتمعنا لنبحث الخطوات التالية.. تبين أن زيارة د.(مصطفى) ل- (حسن) وزوجته كانت سلبية تمامًا.. لم تُبدِ (هالة) أي معرفة بالقلادة أو ب- (هيام)!! لم تذكر كذلك واقعة المقابر مما جعل د.(مصطفى) يبدو كالمطفل.

قمنا - (حسن) وأنا- ببعض الاستعدادات لدخول البيت ثم توكلنا على الله واتجهنا إليه.

* * *

الفصل التاسع

رأيناهن يبتعدن..

كان هذا هو الوقت المناسب بالفعل وإلا فلا.. (هيام) و(هالة) و(شذى) يخرجن في واحدة من رحلاتهن المتكررة.. رأينا المشهد ونحن جالسان على ذلك المقهى الذي يقع على بعد خمسين متراً من بيت (هيام).. طبعاً كنا جالسين في الداخل كي لا يرانا أحد، خاصة الكواء الذي سوف يتذكر وجهي على الفور..

قلت لـ (حسن) وأنا أدفع الحساب:

"طبعاً من الوارد جداً أن نقابل (ريهام).. الأخت الأخرى التي لا أعرفها وإن رأيتها في الصور.."

قال وهو ينهض:

"من يدري؟.. ربما لا توجد (ريهام) أصلاً.. نحن لا نعرف (ريهام) إلا من قصص (هيام) .."

على كل حال كنا مقبلين على عملٍ بالغ الخطورة.. لو لم تكن (هيام) شيطانة أو ساحرة وكانت تنتظر هذه الخطوة الغبية منا، فإننا سنقوم بعمل يؤهلنا لبضع سنوات في الظل كما يقول الغربيون.. (ممدوح) مهندس الجرافيكس المحترم سوف يصير (هجاماً) في عُرف القانون، وسوف يصفعه الصول (بسيوني) على قفاه ويلقون به في التخشيبية..

هل أنا خائف من (هيام) أم خائف من القانون؟.. كلاهما مرعب.. لكني أخاف (هيام) أكثر.. توكلنا على الله وصعدنا الدرج المتداعي الرطب العتيق، إلى أن بلغنا الشقة التي زرتها من قبل..

جاء دورك يا (حسن).. إن زوجته تحتفظ معها بمفتاح شقة (هيام) كجزء من العلاقة الحميمة الزائدة عن الحد بين الأنثيين، فالصديق لا يحتفظ بمفاتيح بيت صديقه.. على كل حال أفادنا هذا لأننا قمنا باستخراج نسخة..

أولج (حسن) المفتاح في القفل وحبس نفسه .

كليك!..

الباب استجاب بلا مقاومة وسرعان ما وجدنا أننا داخل الشقة المظلمة..

أين مفتاح النور؟.. قلبي يكاد يثب من فمي.. إن اللصوصية لعبة صعبة يستحيل أن تبدأ تعلمها في هذه السن.. برغم كل شيء لا تنكر أن اللصوص لا يفتقرون إلى الجرأة..

أين مفتاح النور؟

هنا شعرت بذلك الشيء اللعين يزأر في جشع، ثم أدركت أن يدي ممزقة تنز دمًا..

صرخت فهتف (حسن) في الظلام:

.. "ماذا حدث؟"

لم أرد لأني كنت أبحث عن مفتاح النور..

في النهاية غمر الضوء المكان، ونظرت إلى مصدر هذه الإصابة الكريهة..

كان هناك جوار الباب تجويف في الجدار.. تجويف هو جزء من الديكور، لذا وضعت فيه مزهرية قبيحة الشكل وشمعدان من فضة.. وفي هذا الموضع كان القط الشرس يقعي عندما وجد يدي تمتد نحوه بحثًا عن مفتاح النور..

(روني)!.. تذكرت الآن إنه موجود.. القط المرعب الذي رأيته في الصور من قبل، وكل ما رأيته لم يكن يعبر عن مدى ضخامته وبشاعته..

أصدر فحيحًا مرعبًا فسببته سبة بذينة، ومن المدهش أنه تراجع للخلف في ذعر..

عدنا نواصل استكشاف المكان في صمت..

كانت هناك صالة ضيقة تفضي إلى حجرتين.. مددت يدي أفتح الحجرة الأولى في حذر.. أضأت النور وتقلص وجهي..

خرجت مسرعًا فهتف (حسن) في دهشة:

.. "ماذا هنالك؟"

قلت وأنا أجره من يده:

.. "لا تنظر.. أنصحك ألا تنظر.. بل أمرك بذلك.."

ثم أضفت وأنا أتجه نحو باب الغرفة التالية:

.. "إن (ريهام) موجودة.. حقيقية.. لكن يجب أن ننهي مهمتنا ونرحل سريعًا.. يجب أن تسافر مع زوجتك بعيدًا.. يجب أن نبلغ الشرطة لتفتيش هذا البيت.. سنقول إنه خلية إرهابية أو أي شيء يثير فضولهم.."

.. "ممدوح.. أنا لا أفهم.. يجب أن تكون أكثر وضوحًا.."

"لو صرت أكثر وضوحًا لتوقف قلبك حالاً.."

وفتحت باب الحجرة التالية متوقعًا مشهدًا أسوأ..

لكن الحجرة كانت خالية.. بها فراش مرتب وخزانة ثياب وتسريحة.. غرفة امرأة لا يميزها شيء.. امرأة من الطبقة الوسطى لا تملك الكثير من المال على كل حال..

هنا صرخ (حسن) ..

عندما سقط على الأرض فهمت..

نسينا (روني) .. ثم نسينا (ريهام) .. الآن نسينا.. نسينا ابنة (هيام) التي هي في السادسة من العمر..

كان (حسن) الآن على الأرض بينما طفلة صغيرة تجثم فوقه وهي تطلق عواء مريعًا.. طفلة تحاول الوصول لحنجرته.. لقد رأيت هذا المشهد في مكان ما من قبل، ولا أذكر أين.. لكنه مشهدٌ مَرُوعٌ بحق.. كأنه ذئبٌ يحاول افتراس ضحيته. فقط يبدو الذئب كطفلة في السادسة، ومن الواضح أن قوتها مرعبة..

صرخ (حسن) وهو يحاول انتزاع هذا الكابوس من على صدره:

"أنقذني!.. إنها مسعورة!"

مددت يدي وانتزعت الطفلة -لو كان لي أن أقول كذلك- عن صدر الرجل، وألقيتها بلا حذر لترتطم في الجدار، يجب أن نفر من هنا.. يجب..

ساعدتُ (حسن) على النهوض، وعينا لا تفارقان الصبية المخيفة..

كانت تنهض من جديد وقد سال الدم من رأسها.. لكنني أدركتُ على الفور أن النظرة على وجهها لا تمت للأطفال بصلة.. هذا كائن شيطاني بشع أقرب إلى قزم شرير..

رأيتها تتجه نحونا من جديد عازمة على الهجوم مرة أخرى.. تراجعْتُ إلى الوراء واستعددت..

هنا فتحت فمها.. وبصوت مخيف خشن قالت وهي تنظر لي:

"بابا!!!"

* * *

بابا!

كلمة (بابا) تدوي في ذهني.. تخترق طبقات وطبقات من النسيان..

الآن أعرف من أنا.. ما الهدف من وجودي..

أعرف كيف توفيت والدتي رحمها الله..

أعرف لماذا كانت (هيام) تلاحقني. أنا صنعتها ثم تخلصت منها.. صنعتهن جميعاً ثم تخلصت عنهن.. محوت ذاكرتي بنفسي..

الصُّور.. تلك الطقوس الدورية التي كنا نقوم بها في المقطم.. (شذى) لا تعرف من أنا حقاً.. (هالة) لا تعرف من أنا حقاً.. (هيام) تعرف كل شيء لكنها نسيت على الأرجح، والكل يفترض أن (هيام) هي الخطر.. أنا الخطر الحقيقي الوحيد!.. والأدهى أنني نسيت هذا..
بابا!...

كان (حسن) يتراجع إلى الخلف وهو لا يفهم ما يجري.. فقط قال:

"هذه الطفلة.. لماذا تناديك بلفظة ب.."

ثم لم يكمل عبارته لأنني وثبت عليه..

ياه!.. منذ متى لم أذق هذا الطعم؟؟؟

* * *

الفصل العاشر

الآن أعرف أنني عدت.. لكنني لا أعرف كيف نسيت كل هذا، أو بمعنى أصح تناسيت كل هذا..

كنت أود الهروب.. ربما لأنني لم أصدق هول ما فعلت..

لقد صنعت تلك المسوخ يوماً ما، لكن كل هذا لا يهم الآن..

إن ما فعلته مع صديق عزيز مثل (حسن) شيئاً صعباً، لكن الأصعب هو أن تظل جائعاً كل هذه الفترة.. ولا أستطيع أن أنكر أن (حسن) أنعش ذاكرتي أكثر.. أنا الآن أعرف من أنا وماذا يجب علي أن أفعل؛ لذا اتجهت بخطوات ثابتة نحو المكتب الذي أعرفه جيداً..

صاحت الصغيرة التي هي ابنتي:

- لقد تأخرت كثيراً يا بابا!

لم اكرث لها واستمررت بالمشي وأنا أعرف أنه لن يتبعني..

لا أحد من هذه الحيوانات المفترسة يجرو على إتباعي لمكتبي ولا حتى هذا الشيطان الصغير الذي سيصبح وريثي..

الآن أتذكر متى بدأت القصة..

لندن عام 2000 بشوارعها الباردة الضبابية.. أثناء إعدادي الماجستير..

عرفته هناك أثناء جولتي بأحد القصور المقامة منذ العصور الوسطى.. كان من أكثر الرجال ثقافة.. يعرف كل شيء عن تاريخ (أوروبا)؛ لذا لم أندش كثيراً عندما عرفت أنه مدرس تاريخ في العقد السادس.. لكنه في قمة الحيوية والنشاط .

نما بيننا نوع من الصداقة ودعاني لقصره الإنجليزي العتيدي.. عندما دخلت للبهو كان في استقبالني.. أخبرني أنه ورثه من أجداده ويحيا هنا هو وابنته الوحيدة.. بعد ذلك دعاني للاقامة معه في القصر الفسيح.. تعجبت من هذه الدعوة الكريمة ورفضتها في أدب، هنا خرجت هي لتجعلني أغير رأيي..

ابنته كانت أجمل فتاة يمكنك أن تراها في حياتك.. زهرة رقيقة جميلة.. بمجرد أن رأيت

عينها لم أملك إلا أن أوافق على كل ما تريد وكأنني مسحورٌ تمامًا..

"ألا تريد أن تبقى معنا؟"

هكذا قالت في دلال، فلم أملك سوى أن أفتح فمي كالأبله وأوافق دون قيد أو شرط..

و لم أكن أعرف أنني سأرى أسوأ كوابيسي في هذا القصر..

مرت الأيام بنا، وكان كل ما فعله (سارا) يروق لي.. كانت زهرة أنيقة تكره المنزل المقبض وتحرضني باستمرار على أن نهرب أنا وهي من هنا.. لم أكن أفهم معنى ذلك، حتى فهمت أنني هنا ليس بصفتي ضيفًا، وإنما أنا سجينٌ قاده حظه التعس ليقع تحت يد هذا الرجل الذي هو أبوها..

ليس من الرائع أن تقع بين مخالف رجلٍ يقضي أوقات فراغه في ممارسة السحر الأسود.

اعترفت لي (سارا) بسر أبيها الصغير، وأخذت تلح عليّ بالهرب قبل فوات الأوان.. لكن الألوان كان قد فات بالفعل عندما استيقظتُ أحد الأيام من النوم لأجده في حجرتي، وقلادة تتدلى بين أنامله معلقة بها عين أبي الزجاجة.. قربها مني وهو يهمس بتعويذة ما، جعلتني أتجمد في مكاني ثم ألبسني إياها وقال بثقة:

- أنت المختار! لقد اختاروك.. وأنا لا أخطئ أبدًا..

من لحظتها تغيرت كل أهدافي، لم أعد مجرد مهندس جرافيكس عادي.. لقد تغيرت الأمور كثيرًا.. لقد وقع علي الاختيار "منهم" وسأقوم بمهمتي على أكمل وجه..

أنا أعرف المطلوب مني الآن..

لقد وجدوني.. تلك مهمتي التي ولدت من أجلها ويجب عليّ التنفيذ..

كان هناك دومًا جزءٌ بداخلي يحرضني على الابتعاد والنسيان.. ولكن المقاومة كانت صعبة.. أبتعد وأبتعد وأعود مرة أخرى.. لم يكن هناك المزيد من الوقت لأضيعه.. مثلت البراءة على (سارا).. لقد أحببت تلك الفتاة حقًا ولكنني مضطر لكي أفعل هذا.. هربت منها ل-(مصر)، ثم جاء الشقّ التالي من المهمة..

وضعتُ يدي في جيبِي وأخرجت القلادة، هنا خُيل لي أنني أسمع (سارا) تقول: لا يا (مدوح) لا أرجوك، لا ترتدها.. إنها تورطك أكثر!

- ألم تفتقديني يا (سارا)؟

- أنا أفتقد (مدوح) الذي أحببته.. لست أنت.. يمكنك الخلاص من كل هذا.. "هم" لا يستطيعون إيذاءك..

سمعتُ ضوضاء بالخارج، كن قد رجعت.. (هيام)، (هالة)، (شذى).. خرجتُ من المكتب فتجمد ثلاثتهن.. نظرتُ (هالة) لي في غباء، أما (هيام) فقد تراجعت للخلف مذعورة..

-لا تبدين سعيدة بعودتي يا (هيام).. تتلاعبين أثناء غيابي.. هه؟

هزت رأسها في ذعر وهي تتراجع أكثر..

أخيرا وجدت الكلمات فقالت برعب: "وعدتني سيدي بأن تحررني" ..

صمت قليلاً ثم نظرت نحو هيام قائلاً:

- "سأحاسبك فيما بعد، أما الآن فاسمعني جيداً.. لقد جئت هنا أنا و(حسن)، و(حسن) لم ولن يعود.. وسيكتشف الدكتور (مصطفى) هذا ولن يفوت الأمر.. أنا أريد هذا الرجل هل تسمعني؟.. هذا الرجل ذكي وحذر وأنا لا أريد مشاكل.. وبعد بضعة أيام سيكتمل القمر وسنجتمع في المقطم لنقيم طقوسنا.. وأعدك يا (هيام) أن (بعزبول) لن يفوت الأمر أبداً" ..

كنت أعلم أنني سألقاه.. أنا اذكر الموعد جيداً ويجب ألا تحدث أية مشاكل.. يجب أن نتمكن من تنفيذ ما جاهدنا من أجله سنوات طويلة..

يجب أن يتمكن (السيد) من العبور لعالمنا..

يجب!

* * *

الفصل الحادي عشر

منذ قررت أن أتوارى وأن أبتعد عن الطريق الذي رُسم لي، لم يعد هناك سوى (هيام) في الصورة..

في البدء، كان هناك الإكسیر الذي يجعلها عبدة خاضعة لي.. وقد شربته..

تزوجتها..!!.. من الغريب الآن أن أدرك أنني تزوجت (هيام) التي أمقتها كل هذا المقت لكن هذا حدث.. لقد جربنا كل تلك الطقوس التي تعلمتها من الشيطان البريطاني الذي سحرني.. كم من مرة لعبت دور الكاهنة، ولعبت دور الضحية.. أعتقد أنني نمت على المذبح ألف مرة.. سجلنا الكثير من هذه اللحظات بعين الكاميرا.. كان معنا آخرون لكني لا أذكر من هم..

ثم جاء الوقت الذي قررت فيه أن علي أن أبتعد.. لم أجد في نفسي القدرة على القيام بالدور المطلوب مني.. لعل بذرة الخير في روعي كانت أقوى مما حسبت.. صحيح أن (هيام) صارت تحمل بذرة ابنتي في أحشائها، لكني قررت أن أتوارى.. لا أعرف حقاً هل الأقرب للخير أن تتخلى عن هذا الطقس المجنون الذي تورطت فيه وتترك (هيام) لمصيرها؟.. أم تظل بجانبها مهما كان ثمن هذا من خسران روحك؟.. إنه لموقف شديد التعقيد لكني كنت قد حزمت أمري..

إن محو الذاكرة سهل جداً بالنسبة لمن يعرف ما أعرفه.. وقد أعددت لـ(هيام) ذلك الإكسیر الذي يمحو الذكريات.. صببت لها بعضه في كوب القهوة الورقي الذي وضعت جوارها على منضدة الكمبيوتر.. وعندما زاغت عيناها همست في أذنها:

"أنت لا تعرفين عني سوى زمالتي لك.. لا دور لي في هذه القصة.. تذكرني هذا.."

"و... والعهد؟"

"تلك مشكلتك يا صغيرتي.. تفين به أو تحنثين.. لا شأن لي"

وتركتها واتجهت إلى المطبخ الصغير لأعد لنفسي بعض القهوة..

هكذا نسيت (هيام) كل شيء عني، وإن لم تنس أن عليها أن تجنّد المزيد من الأتباع.. استقرت في تلك الشقة مع أختيها (شذى) و(ريهام).. ووضعت مولودتها وزعمت أن أباهما توفي.. وسرعان ما ضمت (هالة) إليها ولعلها ضمت (عصام) كذلك..

الآن جاء دوري كي أعد لنفسي جرعة قوية من الإكسیر.. وفي مرآة الحمام خاطبت وجهي

الذاهل:

-"أنت لا تعرف أي شيء.. أنت (ممدوح) مصمم الجرافيكس البريء.."

بالفعل نسيت كل شيء.. لم أعد أذكر إلا أنني مصمم جرافيكس يمقت زميلته في العمل..

جدار سميك أحطت به نفسي.. لكنه ثُقب عدة مرات..

ثُقب عندما سمعت ابنتي تصرخ.. كيف عرفتني وهي لم ترني قط؟.. ليس من الغريب على مخلوق كهذا أن يشعر بأبيه بشكل غريزي.. ستة أعوام؟.. مستحيل أن تكون جاءت العالم منذ ستة أعوام.. أعتقد أن عمرها لا يجاوز عاماً، لكن عليك أن تنبذ كل خبراتك السابقة عندما تتعامل مع كائن كهذا..

ثُقب الجدار عندما فتشت كمبيوتر (هيام) ووجدت تلك الصور..

ثُقب عندما وجدت القلادة..

ثُقب عندما هاجمت (حسن) لأنه عرف أكثر مما يجب..

ثُقب عندما تذكرت (هيام) من أنا حقاً..

بالنسبة لـ (شذى) أخت (هيام) لست سوى ضحية بريئة تنسج أختها حبالها حولها..

يبدو أن صدمة معرفة حقيقة (هيام) لم تُرح الأختين.. (شذى) مصدومة و(ريهام) في وضع لا يسمح لها بإبداء الرأي كما رأيتها معي.. لهذا راحت (شذى) تحاول تحذيري من أختها..

من الغريب أن يمضي رجل المباحث عدة أشهر يطارد قاتلاً، ثم يكتشف أنه هو نفسه ذلك القاتل وقد نسي..!!.. هذا هو ما حدث معي..

كان التخلص من بقايا (حسن) سهلاً.. إن (ريهام) جوعى دوماً حيث سجنتها (هيام) في تلك الغرفة مقيدة بالأصفاد..

المشكلة الحقيقية هي (مصطفى).. إنه الصديق المشترك الذي يعرف أكثر مما يجب..

لقد عاد كل شيء كما كان منذ عدة أشهر..

لم يتغير شيء..

عدنا أسرة واحدة.. فقط صارت معنا (هالة)..

* * *

انتهيت من هذه السطور فضغطت أيقونة التسجيل قبل أن تتجمد الشاشة كما يحدث في كل مرة..

اشعر بأنفاس (شذى) الرطبية جوار أذني وهي تطالع آخر سطور..

قالت لي:

"لا بأس.. لكن الأمور لم تنته بعد.. مثلاً ما هو الغرض من هذه الجماعة السرية الغريبة؟.. ماذا سيحدث عند اكتمال القمر؟ هل خمنت أو لديك استنتاج ما؟"

قلت لها باسمًا:

"سوف يأتي (بغلزبول) إلى الأرض.. هذا واضح.. لابد من تهيئة الأمور لقدمه.."

"وماذا عن مصطفى؟.."

"سوف تذهبين أنت للقاءه ثم تفتكين به.. إن هذا الدور يناسبك!"

"شكرًا.."

هنا دوى بكاء ابنتنا الرضيعة من غرفة النوم.. دقائق غابتها (شذى) بالداخل ثم عادت وهي تهدد الطفلة.. وقالت:

"لو أن (هيام) أختي قرأت هذه القصة!.. لو عرفت رأيك السلبي فيها!"

"أنت تعرفين أنه ليس بيني و(هيام) حب مفقود.. كما إنني لا أطيق (هالة) صديقتكما المشتركة.. أحيانًا يكون الأدب نوعًا من التعبير عن رغبات دفينة.. فقط على الورق يمكن أن أنتقم فأجعل (هيام) كاهنة وثنية وأجعل (هالة) تأكل لحم الموتى.."

"إذن من رغباتك المكبوتة التي تحققت على الورق أن تتزوج (هيام)!"

"تزوجتها وتركتها لمصيرها!"

راحت تفكر قليلاً ثم قالت:

"لا أعرف.. ربما كنت أفضل أن أعرف ما سيحدث بعد هذا قبل أن أحكم على القصة ككل.. لكنها مثيرة وجوها متوجس كابوسي.. هذا الجو يناسبني فعلاً.. والآن أعتقد أن علينا أن نتكلم في ذلك الموضوع الذي طال تأجيله.."

أغلقت جهاز اللاب توب وقلت لها:

"هكذا أعيد لك جهازك.. لكن لا تمسحي ما عليه من ملفات إلى أن أنسخ القصة على قرص مدمج"

"يمكنك أن تعمل عليه بعض الوقت، فلن أحتاج له اليوم.."

ثم انصرفت إلى غرفة النوم لتضع الطفلة في مهدها..

حقًا أجد لذة في كتابة القصة.. هذه محاولتي الأولى لكنها ليست سيئة.. لقد استخدمت شخصيات حقيقية تحيط بي لأصنع هذه الدراما وهي النصيحة التي تجدها في كل كتب تعليم فن الرواية.. (شذى) زوجتي وأختها (هيام) وصديقتهما (هالة).. حتى (حسن) زوج (هالة) لم أتركه..

الحقيقة هي أن (شذى) هي التي أوحى لي بهذه القصة.. ذات ليلة مالت برأسها على رأسي

وقالت:

"تخيل لو أنني لست (شذى).. لو أنني كاهنة تعمل بشكل سري من أجل عودة (بعلزبول) إلى الأرض؟.. تخيل أن تكون (ريهام) و(هيام) و(هالة) كلهن متورطات في القصة؟.. ماذا تقول وماذا تفعل؟"

قلت ضاحكًا:

"أقول إنها قصة رعب ممتازة.."

"وماذا تفعله؟"

"أجرب أن أكتبها.."

هكذا رحت أعمل في هذه القصة على مدى شهرين، وكانت تتابع ما أكتبه ويروق لها دومًا وتضيف الكثير من الأفكار والعلاقات.. كانت هي صاحبة فكرة الصُّور وفكرة (هالة) التي تتناول العشاء في المقابر.. إلا أنه إذ اقتربت من نهاية القصة قالت لي في شروء:

"هناك أشياء يجب أن نتكلم فيها.. أشياء مهمة.."

قلت ضاحكًا:

"ليس الإقلاع عن التدخين من فضلك.. ليس هذا وقته.."

مواضيعها المهمة لا تتعدى نصحي بترك التدخين، أو الغيرة من زميلة عمل، أو لومي على معاملتي لخالتيها.. لهذا لم نفتح الموضوع قط..

يبدو أنها تنوي الليلة أن..

ما هذا الفهرس؟

فهرس يحوي ملفًا مضغوطًا.. وهو مشفر كذلك..

ما الذي تحتفظ به (شذى) سرًا وتخفيه عني؟.. لست فضوليًا بشكل خاص، لكن ربما ترضيني نظرة واحدة.. ما هي كلمة السر يا ترى؟..

هنا ابتسمت ابتسامة خفيفة.. الأمر واضح.. كنا نعيش في جو قصة فيها (بعلزبول).. إذن لا تحتاج لذكاء كثير كي تعرف كلمة السر.. إما هذا أو هو عيد ميلادها أو عيد ميلاد ابنتنا..

كتبت الحروف وأنا أتطلع إلى أن أكون عبقرية..

بالفعل.. انفتح الملف المضغوط.. يا للغباء!..

وسرعان ما رأيت أن هناك مجموعة من الصُّور.. صور ماذا؟.. متى التقطتها؟

كانت هناك صور لـ (شذى) ترتدي ثوبًا أحمر طويلًا.. وقد انتثر شعرها على كتفيها..

الغريب أن الثوب كان يكشف أكثر مما يخفي ولم يكن هذا طابع ثيابها الأقرب إلى الاحتشام.. كانت تقف في مكان غريب أقرب لأجواء السينما.. هناك نارٌ مشتعلة وتمثالٌ عملاقٌ تشتعل النارُ

في فمه..

أعتقد أن هذه كواليس مسرحية ما.. وهي تلعب دور كاهنة وثنية..

كانت تقف جوار مذبح عليه جثة ممزقة غارقة بالدم -الصلصة طبعًا- وترقص..

قمت بتكبير الصورة لأرى الجثة الراقدة.. هذا الممثل الملوث بالدم.. هذه الملامح مألوفة لي.. لكن..

إنه أنا..

أنا لم أشارك قط في صور كهذه.. هل لفقت صورًا لي في هذا الموقف على سبيل الدعابة؟.. إذن هي بارعة جدًا..

ليست الملامح فقط مألوفة لي لكن الموقف كله كذلك..

هناك موقف شبيه بهذا.. لكن متى قابلته أو سمعت عنه؟

لا أذكر..

إن الحياة معقدة.. معقدة لدرجة أنك لا تذكر أبدًا متى قابلت هذا الموقف أو ذاك..

(شذى) عائدة من غرفة النوم..

أعتقد أن علاقتنا تسمح لي بأن أتفقد ملفاتها وأن أسألها مباشرة عن هذا الذي رأيته.. إنها زوجتي الحبيبة بعد وقبل كل شيء..

تعالى يا (شذى) واطرحي لي من فضلك.. ما مصدر هذه الصور؟..

أرجو أن تسمحوا لي بالانفراد بها.. لربما كان الأمر مما لا ينبغي لكم سماعه.. لربما كان مما لا تحبون سماعه..

لربما كان..

* * *

قصة تكملها أنت

تلك الفتاة الواقفة في غرفة المكتب
منحنية على شاشة الكمبيوتر.. منهمكة
بشدة ...

(هيام).. لا شك في ذلك.. لقد تجاوزت
حدودها بحق.. لكن الأهم هو أنني أخشاها
كثيراً.. أنا أول شاب قوي البنية يصيبه
كل هذا الهلع من فتاة حسناء تتسلل
وحدها لداره ...

السكين الكبيرة التي نقطع بها البطيخ
على مائدة الطعام.. أعتصرها بيدي..
أتجه نحو الباب وأطل أكثر ..
تستدير (هيام) نحوي ..
لم تعد (هيام) هي (هيام).. لقد انتهت
كل شيء ..

دكتور

أحمد خالد توفيق





قصة تكملها أنت

تلك الفتاة الواقفة في غرفة المكتب
منحنية على شاشة الكمبيوتر.. منهمكة
بشدة ...

(هيام).. لا شك في ذلك.. لقد تجاوزت
حدودها بحق.. لكن الأهم هو أنني أخشاها
كثيراً.. أنا أول شاب قوي البنية يصيبه
كل هذا الهلع من فتاة حسناء تتسلل
وحدها لبارده ...

السكين الكبيرة التي نقطع بها البطيخ
على مائدة الطعام.. اعتصرها بيدي..
أتجه نحو الباب وأطل أكثر ..

تستدير (هيام) نحوي ..

لم تعد (هيام) هي (هيام).. لقد انتهى
كل شيء ..

دكتور

أحمد خالد توفيق



Table of Contents

الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع
الفصل العاشر
الفصل الحادي عشر

د. أحمد خالد توفيق



أكواريا

وقصص وأخرى

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب



كلمه مهمه:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصريه للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أكواریل.. وقصص أخرى
د. أحمد خالد توفیق..

هذه قصص متفرقة..

تحدث عن الخوف.. كل الخوف.. ولا شيء سوى الخوف. سوف نعرف كل شيء عن القصيدة التي تكمل نفسها، والرواية التي تكتبها أرواح الموتى، والطبيب الذي تزوره جثث ضحاياه في عيادته الخاصة. سنعرف سرّ المدينة الفضية عبر العصور، وقصة الحب بين شاب مكتمل الرجولة وجثة متعفنة. سنعرف قصة اللوحة التي تتغير كل.. دقيقة، وزيارات ناحيما الليلية.. سنعرف الكثير مما لا ينبغي أن نعرفه، وإذا عرفناه لا نتكلم عنه.

د. أحمد خالد توفيق..

☆ ☆ ☆

مقدمة..

من رحمة الله بنا عجز العقل البشري عن استيعاب كل محتويات الكون. نحن نعيش فوق جزيرة هادئة من الجهل وسط بحار سود من اللانهاية، ولم تخلق لنبحر بعيدا. لم تستطع العلوم أن تؤذينا إلا قليلا لكن يوما ما سوف تجتمع قطع المعرفة المتناثرة وتفتح آفاقا جديدة من الحقيقة.. عندها سوف نجنّ من هول الاكتشاف أو نفر من النور إلى حيث السلام والأمان في عصر مظلم جديد.

هـ. ب. لافكرافت

الناس تعتقد أنني شخص غريب الأطوار لأكتب هذه القصص المرعبة. الحقيقة أن لدي قلب طفل.. أحتفظ به في وعاء زجاجي على مكتبي!

ستيفن كينج

الخوف هو أقدم وأقوى عاطفة عرفها الإنسان، وأقوى وأقدم

☆ ☆ ☆

الرواية

اتجه للنافذة المطلة على البحر وراح يرمق الأمواج الغاضبة من وراء الزجاج، ثم قال بعد تفكير:

- في الحقيقة.. عملية الإلهام نفسها نوع من تلقي ما يملي عليك.. سلي عن هذا أي أديب موهوب. في لحظة من اللحظات يتحول إلى قلم تكتب به يد خفية. أنا قد بحثت عن أفكار في عالم الأبدية ووجدتها.. وضحت بالكثير من أجل ذلك. إذن أنا أستحق المجد..

☆ ☆ ☆

عندما جاء الظلام وعندما انتصر الأسود العظيم على سائر الألوان، وعندما أعلنت العاصفة عن مجدها القادم..

عندها أغلق جيروم ماكبرايد النوافذ.. طبعاً اخذ شهيقاً عميقاً قبل كل شيء، ثم أغلق النوافذ.. عاد إلى غرفة المكتب حيث كانت أماندا جالسة ملتفة بذلك الشال الصوفي ذي الشراشيب.

شعرها الأشيب وشفاتها المزمومتان النحيلتان الشبيهتان بكيس مصرور.. شفتان تشيان بربو طويل الأمد. نظرات كثيبة من عينين رماديتين غلفت سحابان قرنيتيهما. كل هذا يجعلها أقرب إلى ساحرة هندية عجوز تجلس أمام النار، منها زوجة المحاسب من أدنبره..

الحقيقة أنها كانت كذلك... ساحرة هندية عجوزا.. على الأقل نفسياً..

كان الجو يقعقع بالانتشاء.. الكهرباء الاستاتيكية المصاحبة للعواصف لها قدرة السحر.. يمكنك أن تسمع شعيرات عنقك وهي تنتصب أو ترى ذرات الأكسجين تصطدم بذرات النتروجين في الهواء الخارج من صدرك..

يشعل ماكبرايد المدفأة.. اللهب يتوهج...

إن الكريسماس قريب، وهذا المشهد يجلب لهم ذكرى عزيزة مرتبطة بالطفولة، لكنه كذلك مشهد موجس يشعرك بخوف غامض....

اللهب يتراقص...

يجلس أمامها في توتر ويراقب شفتيها النحيلتين..

كانت أماندا هي اخته وهي أرملة الآن بعد وفاة زوجها المحاسب.

كانت تعرف الكثير.. وهذا الكثير ليس مما يريحك أن تعرفه..

هذه نتيجة قراءات استمرت لعدة أعوام في كتب عتيقة صفراء لو وجدتتها محاكم التفتيش عندك لأحرقتك، ولو وجدها صائد الساحرات (مائر) لديك لشنقك... بعض هذه الكتب لم يسمع عنها مؤلفا كتاب مطرقة الساحرات قط..

أماندا كانت تعرف الكثير، وقد جاء الوقت الذي تمنح فيه هذا العلم لأخيها..

جلب لها قدا ساخنا يخرج منه بخار كثيف.. رائحة هذا المشروب غريبة.. في الحقيقة هي أعشاب عدة بينها الزنجبيل والقرفة وريها بعض الزعتر.. لست واثقا...

ترشف رشفة من السائل الأحمر وتسعل..

تنظر له في ثبات...

تسأله:

"- هل أنت متأهب؟"

يقول لها بصوت مبجوح أنه متأهب.. فتبتسم ابتسامة خافتة..

تواصل الشرب ثم تطرق برأسها في نوع من الاستسلام، وتقول:

"- هل عرفت كل الخطوات؟.. الموقف لا يتحمل الأخطاء.."

"- عرفت.. لكن لا أجرؤ"

ونفض ليقف وراءها وتمرر أنامله عبر خصلات شعرها الأشيب المجعد...

قالت وهي ترشف رشفة أخرى:

"- تذكر.. أنت تقف أمام باب عالم آخر.. ليس عليك سوى أن تمسك بالقبض.."

كان يعرف ذلك، ويدرك أنه اختار اختياره ولن يتراجع.. هكذا أمسك بالسكين الطويلة القاطعة.. وببدا كادت ترتجف مررها تحت ذقن العجوز من الخلف..

برغم كل شيء كانت تبتسم تلك الابتسامة الغامضة المخيفة..

☆ ☆ ☆

في تلك الليلة السوداء كانت العاصفة تهز الجدران ها، وراح البرد يرتطم بالنوافذ. كان من العسير ألا تصدق أن كل شياطين الجحيم قد هبطت على الأرض لتغزوها..

وكان هو مشغولا في إعداد الطقوس الأخيرة..

الدم. الدم.. النجمة الخماسية على الأرض.. ثم سبع الجماجم..

وضع الجماجم الضامرة المغبرة جنبا إلى جنب في صف طويل..

كان هناك نقش على قطعة قماش يمثل رأس كبش، وقد علقه على الجدار فوق الجماجم..

فتح النافذة ليراقب السنة البرق تشق عنان السماء.. إنها اللحظة..

لا شك أن أبواب الجحيم تنفتح. لا شك أن الرسالة الظامئة الملهوفة وصلت هناك...

لا بد أن بلفيجور أصيب بالدهشة.. هذه التعويذة بالذات لم تُستعمل قط، وقد حسب البشر أضعف من أن ينفذوها.. لا بد أنهم جميعا تصايحوا في دهشة: "هناك شيء غريب يدور في اسكتلنده.."

استدار يرقب الجماجم.. يعرف ذلك التأثير الناجم عن ضوء البرق، والذي يوحى بأن الأشياء تتحرك حركة متقطعة ويسمونها التأثير الستروبوسكوبي.. فعلا يشعر كأن الجماجم دبّت فيها الحياة، وأنها تغمز بعيونها...

القشعريرة تسري في عروقه..

بل الحقيقة أن الجماجم تغمز فعلا.. لا شك في هذا.. اتجه للشموع وأشعلها، وهكذا انتشر الضوء الكثيب الغامض في المكان..

وراح اللهب يتراقص من الهواء مما اضطره لأن يغلق النافذة..

جلس أمام الجماجم وقد اتسعت عيناه رعبا وذهولا.. يكفي أن ترى وجهه لترتجف فرقا.. على بعد خطوات يوجد الرأس موضوعا في إناء من خزف. لقد تخلص من الجسد لكن الرأس مهم للعملية.

البرق يضرب بقوة..

الآن هو يسمع يقينا الصوت يصدر من الجمجمة الأولى:

"- ماذا تريد أيها الغريب؟؟"

☆ ☆ ☆

سامانتا كانت قلقة..

لم تلق جيروم منذ فترة ولا تعرف ما يفكر فيه، لكنها كانت تهيم به حبّا.. كانت تجد في عينيه الواسعتين براءة غير معتادة، وكانت تحب دهشته من العالم التي يبديها في كل حين.

عندما جلست مع صاحببتها في المقهى، راحت تشفط اللبن المخفوق بالشفاطة، وقالت:

"- أنا أحبه يا ماري.. لا شك في هذا..

يطلّ رأس ماري الصغير من فوق ياقة البول أوفر، وترفع عويناتها على قصبة أنفها وتقول:

"- تعرفين أنه فاشل.."

"- لا أعرف ذلك"

قالت ماري محاولة أن تتكلم بعقلانية:

"- يكتب روايته منذ ثلاثة أعوام. يستطيع أي طفل أن يدرك أن لن يكملها أبدا.. ليس لديه ما يقال.. وفي كل مرة يكذب ويزعم أنه شارف الانتهاء. هذا لا يحدث أبدا.. لن تكون هناك رواية"

كانت سامانتا فتاة حمراء الشعر يملا النمش خديها.. وكانت مفعمة بالأحلام كذوات الشعر الأحمر. تعمل رسامة في معرض متخصص في تصميم الأزياء. رقيقة خجول.

قالت سامانتا:

"- وهل الرجل هو روايته؟"

"- أنت أحببته لأنه كاتب رواية ناجح... مستقبلكما معًا يتوقف على كونه كاتب رواية.. باختصار وجوده يتمحور حول شيء واحد فإذا فقدته لم يعد هو"
ثم أضافت:

"- اعتزل العالم منذ فترة ويعتكف في بيته المطل على الساحل في (مول أوف كنتاير).. اراهنك على أنه موشك على الجنون.. هل رأيت فيلم (سطوع) لستانلي كوبريك عن قصة ستيفن كنج؟.. الكاتب المنعزل بحثا عن إلهام بدأ يجن.. ولا نعرف أبدا إن كان قد جُنَّ أم أن هذا مسُّ شيطاني"

قالت سامانتا بطريقتها عندما كانت البنات يضايقنها وهي طفلة:
"- أنا لا أهتم بكلامك.. سوف اذهب لأزوره وسوف أجده عنده رواية ممتازة.."
قالت ماري ضاحكة لتغيظها:

"- عمل كثير بلا راحة. يجعل جاك صبيًا متبلدًا"
كانت من جديد تشير لرواية ستيفن كنج الرهيبة. لقد فتشت الزوجة أوراق زوجها لتعرف ما كتبه حتى هذه اللحظة فلم تجد سوى عبارة (عمل كثير بلا راحة. يجعل جاك صبيًا متبلدًا).
كانت سامانتا تنوي زيارة جيروم.. ولم تدر أنها اختارت أسوأ الأوقات طرا لذلك.

☆ ☆ ☆

كان جيروم غارقا في عمله مع الجمجمة الأولى، عندما دق جرس الباب.
صوت الأجراس اللعين هذا يتردد في أرجاء البيت ذي الطابقين.. وعندما أراح ستار النافذة لينظر لأسفل رأى الفتاة ذات المعطف الأبيض والحذاء ذي العنق واقفة هناك.. شعرها يتطاير مع الريح، بينما الموج يضرب الشاطئ فتحلق النوارس...
هذه سامانتا طبعًا..

نظر إلى الجمجمة.. نظر إلى الفوضى والنجمة الخماسية.. نظر إلى بقع الدم على الجدران. نظر إلى رأس أخته الموضوع في طبق، والذي يبدو كأنه لقطة من لوحة رافائيلية مخيفة. سيكون من الصعب جدا أن يسمح لها بالدخول هنا، ولو فعل فلسوف تشك كثيرًا.
الأسوأ ألا يسمح لها بالدخول وهذا سوف يزيد الأمور تعقيدا..
في النهاية نظر لنفسه في المرأة وتأكد من أنه لا يبدو مريبًا.. ثم نزل لها عبر الدرج وهو يردد:
"- أنا قادم.."

يعرف هذه المواقف.. سوف تكون هناك بقعة دم كبيرة على قذاله أو ربما يتدلى شيطان من أذنه.. سوف ترى ذلك ثم تذهب لتبلغ الشرطة..
كان مولعا بهذه الفتاة فعلا.. لو تزوج يوما فلسوف تكون فتاة حمراء الشعر مثل هذه.. والنمش!!!.. حدثني أنا عن النمش الرقيق على الخدين يعطيها طابعا صبيانيا لا فكاك منه.. إنك تقع على الفور في حبال هذه الفتاة حتى لو كنت عدو المرأة..

نعم كان مولعا بسامانتا لكنه كان غارقا في أعمال مهمة، وكان لديه الكثير مما يشغله عن موضوع الحب والأزهار والشعر وتكوين أسرة وكل هذا الكلام الفارغ.. عندما يفكر في هذا يشعر بأن له طابعا أنثويا لا يليق برجل..

وراء كل عظيم امرأة تخبره أنه ليس عظيما لهذا الحد.. هذا صحيح.. لكن الأخطر أن وراء كل عظيم امرأة تحاول ألا تجعله عظيما...

كان يفكر في هذا وهو يفتح الباب.. ومن الباب تسرب هواء البحر الكالح المبلل وتسريت هي.. قالت وهي تلثمه على خده:

"- جئت أقترح عزلة الناسك.. هل من أخبار؟"

أمسك بأناملها برفق وقال:

"- لا شيء.. عملية البحث عن إلهام قد تطول.. تطول.. هذا لا يقلقني على كل حال..

قالت في حذر:

"- ما هي اللحظة التي تبدأ في القلق فيها، ويخطر لك أنه لن يكون هناك كتاب آخر؟"

"- ما دمت حيا فاللحظة لا وجود لها.."

كان يكذب..

الحقيقة أن هذه اللحظة جاءت منذ عام ونصف، وقد حاول كثيرا.. كان يشد شعر رأسه بحثا عن فكرة، وضرب رأسه مرارا في الجدار.. ولما أدرك أنه لا جدوى هنالك، وأنه عقيم تماما علق لنفسه مشنقة في الحمام وتسلق وكاد يضرب المقعد..

ما حدث هو أنه سمع صوت أخته أماندا من الطابق السفلي..

كانت قد جاءت في هذه اللحظة بالذات، وعرف أنها ستنقذ حياته وأنه لن ينتحر.. ما هو أكثر أهمية هو أن أماندا كانت ترغب في الموت.. ترغب في الموت أكثر منه، وكانت ساحرة تمارس السحر وقرأت فيه الكثير... هكذا ولدت الفكرة ببطء..

أماندا الآن لم يبق منها سوى رأس في طبق بالطابق الثاني، وعليه أن يتخلص من سامانتا قبل أن...

"- ماذا تريد أيها الغريب؟؟؟"

جاء الصوت من الطابق الثاني عاليا رقيقا... ثم جاء صوت أنثوي مماثل يسأل نفس السؤال..

كان يعرف مصدر الصوت.. الجماجم طبعاً.. لكن سامانتا لا تعرف ولا يجب أن تعرف.

قالت في دهشة وهي تنظر لأعلى:

"- ما كان هذا؟"

"- لابد أنه المذيع.. بل هو المذيع طبعاً.. أنت تعرفين تلك التمثيليات السخيفة..

قالت في حيرة دون أن تبعد عينيها عن الطابق العلوي:

"- لم أسمع قط تمثيلية يتلخص حوارها في عبارة: ماذا تريد أيها الغريب؟"

كان يشعر بغیظ شديد.. لا يجب التذكي ولا التدخل في شئون الغير. لسبب ما بدت له الفتاة سمجة جدا وملحة.. لذا قال لها في برود:

"- ليس من عملي مراقبة التمثيليات الإذاعية التي يتلقاها مذياعي"

جلسا في غرفة الاستقبال وصب لها بعض الشراب، وهو يفكر في كيفية الخلاص منها.. في ظروف أخرى كان سيفكر في كيفية استبقائها، لكن اليوم يوم خاص..

"- ماذا تريد أيها الغريب؟"

تبا... هذه الجماجم ثرثرة جدا.. والمشكلة أن صوتها عالٍ ومسموع بوضوح.. الفتاة تراقب المشهد في فضول..

دق جرس الباب من جديد فارتجف وذهب ليفتحه..

كان هذا ساعي البريد المسن يسعل كعاداته، وقد جلب بعض الخطابات.. أخذها منه وشكره وراح يراقب الرجل يبدأ التحرك على دراجته العتيقة..

أغلق الباب وقال:

"- كل الخطابات التي تصلني هنا فواتير.. لا أحد يعبأ بأن..."

ثم نظر للخلف فأدرك أن الفتاة ليست هنا..

"- سامانتا !!!"

بالطبع ليست هنا.. وبالتأكيد هي في الطابق العلوي تروي فضولها الأنثوي. الفضول الذي عذب آدم منذ بدء الخليقة وجلب له الوبال. ركض مسرعا إلى الطابق الثاني وهو يرتجف..

قلبه يوشك على الوثب من فمه..

فتح غرفة المكتب.. هنا رأي سامانتا واقفة تنظر في هلع إلى الجماجم السبع.. كانت النافذة مفتوحة وشعرها يطير مع الهواء الثائر.. كانت تحاول الفهم.. لماذا فتحت النافذة يا تُرى؟

التفتت له في رعب وقالت شيئا.. ثم ابتعدت.. ابتعدت.. هنا اصطدمت بالمنضدة التي يضع عليها الصينية.. نظرت مدققة فأدركت أنها ترى رأس أماندا المقطوع وقد شخصت عيناها للسما كأنها تصلي..

أطلقت صرخة شنيعة وصرخة قواها تماما فلم ترى.. خارت قواها تماما فلم تستطع الفرار..

اللحظة التالية كانت على الأرض بينها جيروم يلصق شريطا لاصقا حول معصميه من الخلف.. ويقول لها:

"- صه. أنا لا أريد أن أؤذيك.. فعلا لا أريد أن أؤذيك.. لكنك تواجدت في المكان الخطأ والزمن الخطأ.."

قالت في رعب ممزوج بالدموع:

"- ماذا... ماذا تفعله؟"

قال لاهثا:

"- هذه تجربة.. تجربة معقدة تكلف الكثير من التضحيات، ولا انوي أن أفسدها بصرخة هستيرية منك.. لهذا يجب أن أسد فمك بالشريط اللاصق. أعرف أنك تعاني انسدادا في الأنف، ومعنى هذا ببساطة أنك سوف تختنقين.. لهذا لن أسد فمك.. أتوقع أن تردي لي هذه المجاملة" هل أنت مجنون؟.. سوف أصرخ وأصرخ حتى تأتي المملكة المتحدة كلها إلى هذا البيت..

قال جيروم وهو يقيد كاحليها معا بالشريط اللاصق:

"- لن يكون هناك صراخ.. أنت رأيت ما قمت أنا به وما ضحيت به.. معنى هذا أنني جاد جدا، وانني سوف أقطع لسانك لو صرخت.. أرجو أن تلتزمي الصمت وتراقبي التجربة في هدوء"

تجربة؟.. أي تجربة؟

ينير البرق السماء للحظات، ثم يرتسم ذلك الشرخ في الأفق ويتجه نحو الأرض.. وبعدها يدوي الهزيم الغاضب الخانق...

ينهمر المطر مدرارا.. بينما يعلن البحر أنه قد سئم محبسه ويحاول أن يتمرد عليه ويغادره. الموج يمتد للشط محاولا أن ينشب مخالفه فيه، فلو نجح لزحف البحر خارجا وارتمى على الصخور يلهث..

☆ ☆ ☆

(مول أوف كنتاير).. هناك أغنية شهيرة لفريق البيتلز تحمل اسم هذا المكان..

☆ ☆ ☆

وفي الطابق الثاني من بيت جيروم، كانت أماندا تراقب في هلع تفاصيل التجربة المخيفة التي جاءت من أعماق أعماق كتب السحر القديمة..

كانت التجربة قد بدأت تكتمل فعلا، عندما جاءت كالبلهاء تبحث عن الحب.. جاءت في لحظة غير مناسبة على الإطلاق، وهكذا رأت بالصدفة الجانب الآخر من جيروم...

"كانت تجد في عينيه الواسعتين براءة غير معتادة، وكانت تحب دهشته من العالم التي يبديها في كل حين".

"- ما نجد أنفسنا بلهاء بعد فترة عندما ندرك أننا كنا مخدوعين.

الأسوأ أنها لا تعرف مصيرها.. مقيدة اليدين وحدها مع سفاح قطع راس أخته ويمارس طقوس السحر الأسود بعد منتصف الليل. من قال إنها لا تعرف مصيرها؟.. بالعكس هي تعرفه جدا..

قالت له وهي تشهق وسط الدموع:

"- سوف تقتلني طبعاً عندما تنتهي؟"

قال وهو منهمك في طلاء الجمجمة السابعة بذلك الطلاء السري العتيق:

"- صه.. لا تقاطعيني"

كان قد ترك فمها حرا كما قلنا.. الصراخ ممنوع. ليس السبب هو منع الجيران من سماعها، فلا يوجد جيران والعاصفة تمنع أي واحد من سماع أي شيء. فقط هو يريد ألا تفسد صرخاتها الهستيرية جو التجربة..

في النهاية تربع على الأرض وواصل تلاوة كلمات غريبة.. غالبا هي كلية الطابع.

ثم إنه مد يده ليشعل الشموع التي كانت قد انطفأت. في كل جمجمة هناك شمعة قصيرة مضاءة في محجر كل عين.. لم تفهم سامانتا معنى هذا الإجراء إلا عندما بدأ الصوت ينبعث من أول جمجمة.. هذه الجماجم تعمل عندما تشتعل الشموع. كل جمجمة تعتمد على شمعتها. لا بد أن الشموع كانت مضاءة من قبل..

رائحة الدخان تتسرب للأنوف مع نوع من رائحة الزنخ. هذه الشموع ليست من الشمع بالضبط.. على الأرجح هي من دهن شيء ما.. لا تجرؤ على التخمين.

الآن تسمع الصوت الوقور الغليظ ينبعث من الجمجمة الأولى:

"- ماذا تريد أيها الغريب؟؟"

نفس السؤال الملح.. لقد كان قادما من هنا...

كان هذا هو الصوت الذي سمعته في الطابق السفلي..

قال جيروم:

"- أتاني أنك ستقدم لي العون يا سيد الأدباء.."

ساد الصمت للحظات، ثم عادت الجمجمة تسأل بلكنة أجنبية:

"- من يبدأ؟"

"- أنت يا سيد الأدباء..."

بدأت الجمجمة تتكلم.. راح جيروم كالملهوف يبحث عن شيء ما.. يقلب أوراقه.. ينهض باحا، ثم في النهاية هرع إلى سامانتا وبمطواة صغيرة حرر معصمها من الشريط اللاصق..

تحسست معصمها اللذين تأذيا كثيرا وقالت:

"- هل لي أن أرحل؟"

قال:

"بالطبع لا.."

كانت الجمجمة مستمرة في الكلام بلا توقف، كأنها تعمل بإرادة ميكانيكية.. قال لها جيروم وهو يفتح حقيبتها:

"- لا أجد جهاز التسجيل وسط هذه الفوضى، لذا سوف تمسكين بقلم وورقة وتكتبين كل حرف يُقال.."

"- أنت مجنون.. سوف أهرب"

لكنها كانت تعرف أنها لن تقدر على ذلك.. كانت أسيرة لقواه الجسدية قبل هذا، أما الآن فقد صارت هناك حبال من الخوف في كل مكان من حولها.. لو ركضت في أي اتجاه فسوف تتعثر.. لا تقدر على أن تتجه للباب وتفر فوق الصخور وسط هذه العاصفة. الأمر أكبر من جيروم.. الأمر يدخل في نطاق آخر مفرع وأقوى من أي تصور..

هكذا راح مزيج من الدموع والمخاط يسيل من عينيها وأنفها ويبلل كل شيء، لكنها راحت تحاول أن ترى الورقة التي تكتب عليها..
كان الصوت يقول بلكنة شبه أجنبية:

"- تهب الريح عبر السهوب، بينها الملازم جريجوري راسالييف يشق طريقه على جواده محاولا العثور على أرنب يصطاده وسط هذه الثلج. من بعيد هناك كوخ من أكواخ الحطابين.. وهناك كنيسة صغيرة تراكمت أمامها الثلوج، لكن لا بد أن الخوري ساهر حتى هذه اللحظة.. سوف يقرع الباب قبل أن تتجمد أطرافه وقبل أن تصيبه نوبة صرع تؤدي به"
ما هذا الكلام العجيب؟

هل هذه الجمجمة تحكي قصة؟.. ولماذا يتجشم المرء مشقة السحر الأسود وهذا الدم لتأتي جمجمة تحكي قصة؟ إن الرأس المقطوع يخص أخت جيروم، وهذا يعني أن التضحيات لم تكن هينة..

توقفت الجمجمة عن الكلام فقال جيروم:

"- فاتني جزء لا بأس به. لكني سأحاول تخمينه.. تكلم يا سيد الرواية. مستر ديكنز"

☆ ☆ ☆

هنا جاء صوت من الجمجمة التالية.. صوت عميق يتكلم بإنجليزية ممتازة:

"هكذا وسط هذه الثلوج وهذا القر، كان يفكر في كل الغلمان البؤساء الذين يتجمدون ويقتلهم الطوي في الأزقة الخلفية في هزيع الليل الأخير من الخشنكان، وحتى دون أن يجدوا كسرة في الميتم لم تك المعاملة أفضل حالا.. تذكر المستر جينسبورو مدير الميتم بسوالفه الكثة، وخديه الأحمرين والقبعة العالية التي لا ينزعها وزهرة البنفسج في سترته. هذا الرجل لم يكن من يمنحون الكرم ولا لطف المعشر إلا نثيًا"

توقفت الكلمة في حلقها فقال جيروم:

"نثيًا.. يعني (نادرا).. الخشنكان هو البسكويت. هذا الرجل لا يستعمل إنجليزية سهلة أبدا. "

"قلت إن اسمه.."

قال بلهجة من لا يجد أي شيء غريب في الأمر:

"تشارلز ديكنز.. من الذي لا يعرفه؟"

هل جن الجميع؟.. هي متأكدة من أن جيروم مجنون لكن هل جُنَّت هي الأخرى؟.. هنا انتقل الكلام للجمجمة الثالثة التي كانت تتكلم بصوت رفيع لأنني:

"أقترب من باب الكنيسة ودق الباب عدة مرات، بينما قلبه يتواثب طربا.. ما سبب هذا السرور الذي أضناه؟.. لم يعرف..

حاول أن يتذكر فلم يوفق. فقط انتابته حالة من الانتشاء لا قبل له بها.."

قال جيروم:

"شكرا با كاترين.. تذكرني أننا نتكلم عن ملازم خشن من جيش القيصر.. هذه هي البداية التي اختارها دستوفسكي"

قالت الجمجمة في ضيق:

"لن يظل في جيش القيصر.. أنت ستغير أشياء كثيرة فيما بعد.. والآن هل أكمل؟"

"أفضل الانتقال إلى لافكرافت..."

هنا بدأت الجمجمة التالية تتكلم بصوت كئيب عميق:

"كان يعرف.. يعرف كل شيء عن الأحاد القدامى الذين يتوارون تحت البحر، والذين ينتظرون اللحظة النهائية كي يخرجوا.. كتولو هناك وأزوث هناك... اليوم بدا للملازم أنه اقترب من الهول أكثر وأن نهاية العالم تقترب، لذا انعقد لسانه على رعب لا فكاك منه"

هنا توقفت سامانتا عن الكتابة..

نظرت له في هلع وقد تجمدت الدموع في عينيها وقالت:

"جيروم.. هل الأمر كما فهمته فعلا؟"

قال جيروم وهو يرتجف من فرط الانفعال:

"نعم.. بالضبط... إن روايتي العظمي تكتب الآن!"

☆ ☆ ☆

"الضباب يأتي من ناحية البحر..

أرغب دوما في أن أكون هنا.

سافرت كثيرا ورأيت الكثير..

رأيت جبالا سوداء وأودية خضراء.. ورأيت نيران الغروب على الصحاري.

لكني أعود دوما إلى مول أوف كنتاير (أغنية لبول مكارتي)..

☆ ☆ ☆

بعد ساعة بدأت سامانتا تدرك ترتيب الجماجم.

الجمجمة الأولى هي دستوفسكي.. تتكلم مثله وتفكر مثله..

الجمجمة الثانية هي تشارلز ديكنز..

الجمجمة الثالثة هي كاترين مانسفيلد الكاتبة الأمريكية الرقيقة المفعممة بالأحاسيس، ذات الجسد السقيم المريض..

الجمجمة الرابعة هي لافكرافت.. أديب الرعب الأمريكي العبقرى..

الجمجمة الخامسة تمثل فكتور هوجو.. عبقرى الرواية الفرنسى..

السادسة تمثل توماس مان.. الأديب الألماني العظيم..

السابعة تمثل كازنتزاكس الأديب اليوناني الرائع.

بينى وبينك أشعر بغىظ لأن المجموعة لا تضم أديبا عربيا، والسبب طبعا هو أن جيروم لا يعرف أدبنا. لكن لربما كان هذا أفضل.. لا أحب أن يستعمل أديب عربى فى هذا العبث بالسحر الأسود..

كانت سامانتا ترتجف وهى تواصل الكتابة.. لقد مرت ساعة أو ساعتان ويدها لا توقف. ومع لوقت بدأت القصة تزداد طولاً وصارت هناك شخصيات واضحة. ولم تدر منى ولا كيف وجدت جوارها صحفة عليها بعض الشطائر وقدر من القهوة الساخنة. لا.. شكرا.. آخر مكان يمكن أن تتناول فيه وجبة خفيفة هو المكان الذى يحملق فيها فيه رأس مقطوع لامرأة..

مكان يفوح برائحة الموت والدم. لكنها بعد تردد وجدت أنها بحاجة للقهوة فعلا... ذلك المشروب السماوى الذى بالتأكيد جاء من مجرة أخرى.

رشفت رشفة وتنهدت بقوة..

جلس جيروم ماكبرايد أمامها وراح يرمقها بعينين صامتين.

كانت تعرف الآن أنها صارت مشكلة حقيقية.. لابد أن يتخلص منها فى قد صارت تعرف أكثر من اللازم. ليتها لم تأت. ليت الفضول لم يغلبها. لكن لا بأس.. لربما كان هذا أفضل.. أن تعرف الحقائق الآن خير من أن تعرفها فيما بعد.. بعد الزواج مثلا.

قالت له بصوت خافت:

"- هل هذه هى جماجم هؤلاء الأدباء فعلا؟"

تأمل أظفار يده وقال:

"- بالطبع لا.. كيف أجد جمجمة دستوفسكى وفكتور هوجو؟..

هذه طريقة سحرية تحبس أفكار هؤلاء فى هذه الجماجم.. كان الشعراء الوثنيون فى شمال البلاد يستخدمون هذه الطريقة فى استجلاب الأفكار والإلهام"

"- وذلك مقابل؟"

نظر لرأس المرأة المقطوع وقال:

"- مقابل ثمن باهظ جدا.. لابد أولا من تقديم قربان وحشي لبلفاجور. لكن أماندا علمتني الطريقة، وطلبت مني أن أريحها من حياتها القاسية المملة.. كان هذا عم" يجمع بين الانتحار وتقديم خدمة لأخيها الصغير"

قالت وهي ترتجف للفكرة:

"- كل هذا من أجل رواية؟"

"- أعظم رواية في التاريخ.. رواية اشترك فيها سبعة من أعظم أدباء الأرض.. الأمر يستحق"

"- لكنك لم تكتب حرقا.. كتبت ما يُملئ عليك فحسب.. أنت مجرد سكرتيرة"

اتجه للنافذة المطلّة على البحر وراح يرمق الأمواج الغاضبة من وراء الزجاج، ثم قال بعد تفكير:

"- في الحقيقة.. عملية الإلهام نفسها نوع من تلقي ما يملئ عليك.. سلي عن هذا أي أديب موهوب. في لحظة من اللحظات يتحول إلى قلم تكتب به يد خفية. أنا قد بحثت عن أفكار في عالم الأبدية ووجدتها.. وضحت بالكثير من أجل ذلك. إذن أنا أستحق المجد"

"- والتجانس؟"

"- أي تجانس؟"

"- كل أديب يكتب أفكاره ويستخدم مفردات عالمه.. لا تتوقع أن تتجانس هذه الأفكار لتصنع رواية متكاملة مقنعة. لاحظ أن دستوفسكي يتكلم عن أكواخ الحطابين و الملازم جريجوري راسالييف، بيناديكنز يحكي عن أطفال الشوارع والميتم.. وكاترين مانسفيلد غارقة في عوالمها الأنثوية المرهفة.. ما زال لأفكرافت لا يتكلم إلا عن الكيانات القديمة تحت المحيط وكتولو.. لا شك أن فكتور هوجو يتكلم عن عوالم الثورة الفرنسية.."

ضحك ضحكة وحشية وقال وهو يشير لرأسه:

"- الآن كل هذا يدخل الخلاط هنا.. هنا.. من ثم أصنع منه مزيجا

متجانسا غير متناقض.. الملازم جريجوري راسالييف سوف يصير رجل شرطة اسكتلندا.. قرية كازنتراكيس اليونانية سوف تصير مول أوف كنتاير"

ثم استدار وأعلن أن وقت العودة للكتابة قد حان.

☆ ☆ ☆

كل شيء كان مخيفا وغريبا.. لكنه كذلك يستحق المشاهدة.

في ظروف أخرى كانت سامانتا ستقول إنها تجربة مثيرة، لكن السأم استبد بها وتحول ظهرها لقطعة حديد.. مع الوقت فقدت وقارها فنزعت حذائها وصارت تجلس كأنها لاعب كرة قدم بين الشوطين وليس كأنثى. المشكلة الأخرى هي أنها لم تكن تعرف مصيرها.. ليس بوسعك أن تؤدي أي عمل وأنت لا تعرف مصيرك بعد ساعة.. جثة ممزقة أم حي ترزق.

واصلت الكتابة بلا توقف..

في الساعات الأولى من الصباح بدا رأس جيروم يتأرجح ثم نام..

لاحظت أن النيران تتوهج في المدفأة وصارت هي المصدر الوحيد للضوء. وبدأت الشموع تقصر وتنطفئ.. لاحظت أن كل جمجمة تنطفئ الشموع في محجرتها تصمت..

مع الوقت بدأت تأمل..

سوف أغادر هذا البيت اللعين.. سوف أمشي بضعة أميال وأجد.. أجد فلاحين أو صيادين أو رجل شرطة على دراجة..

في خفة القطن نهضت.. اتجهت إلى الباب.. نظرت إلى الخلف فلم يحدث شيء ولم يتحرك جيروم.

فتحت الباب في خفة وخطت إلى الخارج.. عليها أن تهبط في الدرج بهدوء وعسى ألا يحدث الخشب صريحا.. لو حالفها الحظ فلسوف تصل لبر الأمان خلال نصف ساعة. أما إن اكتشف محاولتها!!!..

سوف تكون طريقته في إسكاتها قاسية جدا..

اللعة على جيروم وعلى الحب وعلى مول أوف كنتاير كله..

إنها فتاة بلهاء وثقت بالحب أكثر من اللازم. ويا ليتها وجدته غارقا في خيانتها!.. وجدته منهما في طقوس السحر الأسود!!

الآن هي في أسفل الدرج تتجه بخفة إلى الباب.. سوف تخرج بعد لحظات.. سوف..

فجأة دوت صرخات حادة من الطابق العلوي...

-الفتاة تهرب... الفتاة تهرب؟-

تبا.. هذه لكنة ألمانية واضحة.

توماس مان أيها اللعين.. ظلت شمعتك مشتعلة ولم ألحظ هذا!

☆ ☆ ☆

الضباب يأتي من ناحية البحر..

أرغب دوما في أن أكون هنا..

سافرت كثيرا ورأيت الكثير..

رأيت جبلا سوداء وأودية خضراء.. ورأيت نيران الغروب على الصحاري.

لكني أعود دوما إلى مول أوف كنتاير (أغنية لبول مكارتني)

☆ ☆ ☆

تجري فوق الصخور.. بثوبها الأبيض تبدو كأنها يمامة بيضاء تهشم جناحها..

تنزلق قدمها فوق الحواف الحادة ويتناثر الزبد أكثر..

لا تستطيع الركض بالحذاء ذي الرقبة فالأرض زلقة، لكن لو نزعت الحذاء لشطرت الصخور قدمها نصفين.. إن جو الفجر البارد الأزرق يغلف كل شيء، ومن بعيد ترى فانارا مضيئاً..

ذلك الطابع الرهيب الموجس لأنوار الليل عندما تظل مضاءة مع زحف نور الصباح.. يبدو المشهد كله كأنه كابوس سوف تصحو منه في لحظة ما..

تعثرت وسقطت على الصخور. استطاعت أن ترى خيط الدم يجري من ساقها ليبلل الصخرة المغطاة بالطحالب...

لا يهم.. لا تكوني بلهاء هستيرية.. يجب أن تهربي يا فتاة.. لا بد أنه صبحا من النوم.. لا بد أنه مسعور.. لا بد أنه يحمل السكين العملاقة ويبحث عنك...

توماس مان صار ثثاراً... شمعته ظلت حية وكان هذا خطأ جسيماً...

ترى إلى أي اتجاه تمضي؟.. فقط لو تشرق الشمس أخيراً بعد ما غابت عدة قرون. سوف يبدو نورها هذا الخوف، ولسبب ما كانت قد بدأت تعتقد أن جيروم لا يعمل أي شيء في الشمس..

إنه كائن طيفي أقرب لمصاصي الدماء.. غالباً هذه هي الحقيقة..

لا بد أنه لا يستطيع عمل أي شيء إلا ليلاً.

تعثرت من جديد...

هناك فجوة بين الصخور تغطيها شجيرة صغيرة.. حاولت أن تتماسك لكن قدمها انزلقت، وسرعان ما وجدت نفسها تتدحرج لأسفل. الأغصان تنهشم.. تحاول أن تمسك بأي شيء بلا جدوى...

القاع عميق فعلاً.. ها هي ذي ملقاة في القاع مهشمة العظام ممزقة الأوصال تلهث. وتحاول أن تعرف ما حل بجسدها، أقسمت لنفسها أنه مهما كان ما سيحدث فهو خير من البقاء في البيت ومساعدة جيروم في تلك الرواية الرهيبة. الرواية التي كتبتها الشياطين..

إن كاحلها ملتوّ.. لا بأس.. هذا أفزع شيء حدث.. لا مشكلة سوى أن عليها أن تظل هنا فترة طويلة فعلاً. ربما إلى أن يلقي صبي كشافة بنظرة إلى الفجوة..

الليل مظلم بشدة.. لكن عينيها سوف تعتادان هذا..

الموقف قاس جداً.. ويلقي بك في أماكن غريبة..

قالت ماري منذ يومين (أهما يومان حقاً؟):

"اعتزل العالم منذ فترة ويعتكف في بيته المطل على الساحل في (مول اوف كنتاير).. أراهنك على أنه موشك على الجنون.. هل رأيت فيلم (سطوع) لستانلي كوبريك عن قصة ستيفن كنج؟..

الكاتب المنعزل بحثاً عن إلهام بدا يجن.. ولا نعرف أبداً إن كان فليجن أم أن هذا مس شيطاني"
الآن تعرف الإجابة..

جيروم راح يبحث كالمخابيل..

راح يركض في المكان ويشب فوق الصخور.. ويركل كل شجيرة بقدمه. لو رأى نفسه أمام عينيهِ لذبحه ذبحاً.. كيف يسمح لنفسه بأن ينام في تجربة مهمة كهذه؟. والأسوأ أن الشموع انطفأت كلها.. لابد أن الإرهاق والتوتر العصبي غلباه في النهاية.

سامانتا فرّت.. وبالتأكيد هي في طريقها إلى الشرطة.. معنى هذا أن كل شيء قد انتهى.

لماذا وثق فيها وفكّ وثاقها؟ ... كان بوسعه أن يربطها.. يربط ساقها على الأقل..

الآن لو أنك رأيت جيروم لتجمد الدم في عروقك. هذه النظرة المجنونة والعين المحمرة والفم المفتوح.. لقد صار شيطاناً أو أقرب إلى شخصيات لافكرافت التي قضت حياتها في قراءة كتب السحر الأسود فجئت مع الوقت..

توقف فجأة إذ رأى شيئاً..

كان هناك منحدر وعمر يقود إلى البحر.. الموج الثائر ينتثر...

وهناك بين الصخور يرى ذلك الحذاء الأبيض.. الحذاء ذا العنق..

بدأ يشعر ببعض الراحة. لا يمكن لمخلوق أن يجتاز هذه الصخور عاري القدمين، ومعني وجود الحذاء هنا أن سامانتا لم تعد بيننا...

على الأرجح انزلقت قدمها وسقطت في البحر. لا يمكن لمخلوق أيضاً أن يسقط فوق هذه الصخور ويظل حياً. بالتأكيد فقدت وعيها ثم تكفل الموج بباقي المهمة. حاول أن يتذكرها رقيقة نضرة.. حاول أن يتذكر أنه كان يحبها.. لا يدري السبب لكن هذا الجزء من روحه تلاشي تماماً... لا يعرف سوى أنها فتاة كانت ستقضي عليه..

هناك أمل إذن...

بدأ يهدأ نوعاً واتجه إلى البيت وألقى نظرة أخيرة على المشهد.

ضوء النهار قد ملأ المكان لكن العاصفة لم تهدأ. سوف يعود لداره ويواصل كتابة القصة... لكنه مرهق فعلاً.. سوف ينام بقية اليوم ثم يواصل العمل ليلاً...

☆ ☆ ☆

سامانتا في ذلك الوقت كانت في أسوأ حالاتها..

جائعة. تشعر بالبرد ويعتصرها الألم. تحاول جاهدة أن تزحف للخارج لكن كاحلها يجعل أي حركة مستحيلة..

عندما استطاعت أن تسترخي قليلاً جلست متكورة جوار الجدار.. الجدار عبارة عن نوع من الطفلة أو صخر هش جداً لا تعرف اسمه..

راحت تدق بقبضتها فتساقط الكثير من الغبار. ثم بدأت تدرك أنها في الحقيقة تزيح الغطاء عن أشياء كانت موجودة في هذه الفجوة..

واصلت الدق.. لن أزعج أنها شجاعة إلى هذا الحد، لكنها كانت ترغب في أن تجد ممراً يخرجها

من هذه الفجوة..

كانت تفكر في الثعابين. يزعمون في إيرلندا أنه لا توجد ثعابين، لأن القديس باتريك طردها كلها من البلاد.. لكننا لسنا في أيرلندا. ماذا لو تحرر ثعبان من مكان ما؟

لكن ليس لديها الخيار.. يجب أن تواصل المحاولة..

أخيرا بدأ الغبار يسقط.. وبدأت تصنع فجوة أخرى في جدار الفجوة. كانت عيناها قد اعتادتت الظلام لذا رأت وجه المومياء الذي يحدق فيها.. وأدركت أن هناك جثثاً أخرى..

هذه مقبرة إذن.. مقبرة منسية لا يعرف أحد أنها هنا..

مرحبا بك يا سامانتا في مول أوف كنتاير حيث طريقة الاستمتاع بالوقت هي قضاء يوم مع الجثث المتحللة...

☆ ☆ ☆

كانت تفكر..

سوف يفتقدونها بعد قليل وتذكر ماري أن آخر مشاريع سامانتا كان زيارة جيروم في بيته. سوف يأتون وسوف يبحثون عنها..

هذا أكيد.. لكن هذا سوف يستغرق وقتا طويلا جدا.. ربما العمر كله.. لن تكون هنا كي تراهم يقتادونه إلى المصححة العقلية..

سوف تكون تحت الأرض..

كانت ترتجف.. الألم يعتصر كاحلها..

جائعة.. تشعر ببرد شديد.. خائفة.. في أسوأ حالاتها.

هناك على بعد خطوات منها تلك المومياءات التي يبدو من مظهرها أنها عتيقة جدا.. على الأرجح هي تنتمي لزمان لم تكن فيه إنجلترا أصلا..

لحسن الحظ أن الأمطار توقفت وأن هذه البقعة معزولة عن الماء.. كانت لتجد نفسها في ألحظ موقف ممكن، لو كانت غائصة في الوحل.

☆ ☆ ☆

رأيت جبالا سوداء وأودية خضراء.. ورأيت نيران الغروب على الصحاري.

لكني أعود دوما إلى مول أوف كنتاير

☆ ☆ ☆

كلما أزلت غبارا أكثر تساقطت أجزاء من جثث.. أجزاء عظمية أقرب للتراب، وهذا ساعدها على أن تظل متماسكة عصبيا. طلاب الطب يحكون عن زيارتهم الأولى لقاعة التشريح، عندما كانوا يجدون أن الجثث أقرب إلى تماثيل خشبية لها رائحة كيميائية حارقة للعينين لكنها غير مقززة.. هذا يساعدهم على الصمود.. لو كانوا يتعاملون مع جثث طازجة متعفنة لصارت حياتهم جحيما.

كانت تشعر أن هذا كله غير حقيقي وأن هذه تماثيل. وبرغم الإضاءة الواهنة فقد قدرت أن هذه ثياب عتيقة فعلا..

صحيح أن القماش بالٍ ذائب تماما لكن ما بقي منه يدلُّك على عصر قديم كان النسيج فيه يتم يدويا..

في مول أوف كنتاير عليك أن تظل صامدا لأنك لا تقدر على الحركة.

لكنها في النهاية استطاعت أن تنتزع غصن شجرة يبرز من طبقات الغبار.. شدته نحوها فاكشفت أنه مهشم.. هكذا مزقت جزءا من ثوبها وثبتت الغصن إلى كاحلها.. جبيرة مرتجلة لكنها فعّالة.

ثم مدت يدها تبحث عن غصن آخر. تمكنت من أن تنتزعه..

طويل ويصلح كعكاز..

هكذا بدأت تحاول أن تتسلق الحفرة.. ربما تنجح.. واهنة.. جائعة خائفة لكنها ستنجح.. لماذا؟.. لأنها واهنة جائعة خائفة.

الأسباب التي تحتم فشلها هي ذات أسباب نجاحها.. ليس لديها ما تفقده....

☆ ☆ ☆

عندما نهض جيروم من نومه تناول وجبة خفيفة..

عاد إلى الغرفة حيث الجماجم تنتظره وكان يحمل رزمة ورق وقلم.. يعرف أن عليه الانتهاء سريعا من القصة قبل أن يتعفن الرأس المقطوع. معنى هذا أنه سيكون عليه تقديم توضيح أخرى ليكتب روايته التالية..

غرس شموعا جديدة في المحاجر واشعلها، ثم جلس يراقب اللهب حتى استقرَّ.. هنا سمع صوت جمجمة فكتور هوجو تقول:

"- هبت الريح من جديد، بينما الماركيز الشاب يتحسس مقبض سيفه.. كان يعرف أن هناك حشدا من العياقة يحيط بالقصر، وكان يعرف أن معنى اعتقاله هو المقصلة بلا شك. لذا قرر أن يبيع حياته غاليا، لكن ما كان يؤرقه هو مصير حبيبته الرقيقة بياتريس..

هنا قال لافكرافت:

"- ككل سكان نيو إنجلند، كان يحمل ذلك الطابع الكثيب الجهمي كأنه جاء من خلف الظلال. بشرة لم تر النور قط وعقل أفناه في قراءة كتب السحر العتيقة، وكان يصحو من نومه راجفا والعرق يغمره. لكنه لم يحك لي قط قصة تلك الجثث التي وجدها في قبو داره والتي كانت تتحرك وتملا البيت في ليالي الشتاء...

قال دستوفسكي:

"- ولأنه يهوى القمار وشرب الخمر فقد طردوه من الفرقة.. وبرغم هذا أصرَّ على الذهاب لذلك الحفل الذي يؤمنه ضباط القيصر. وهي مخاطرة كبرى لأن هذا قد يعرضه للمحاكمة، لكنه لم

يعد يبالي.. ما دام سيلقى هناك أولانوفنا الحسناء وأباها الجنرال. ولكنه لم يذهب للحفل لأن نوبة من الصرع هاجمته قبل الذهاب هناك "

قال جيروم في ضيق:

"الصرع كالعادة. عندما أقرأ قصصك يا سيد الرواة أشعر كأن الصرع نوع من الزكام. لا أحد ليس مصاباً بالصرع"

ثم التفت نحو ديكنز طالبا استكمال القصة..

كان البيت كله مظلمًا.. ومن الخارج بدا كأنه شبخ يقف هناك مطلقاً على البحر. لكنك كنت ترى نافذة وحيدة تتوهج بضوء خافت..

ضوء شموع أربع عشرة، تراقص في أربعة عشر محجراً..

☆ ☆ ☆

وهناك بين الشجيرات ارتمت سامانتا ممزقة الثياب تلهث وتبكي.

لقد صار وجهها كأنها كانت في مستنقع.. تحتاج إلى عدة أشهر كي تسترد نضارتها القديمة ويعود النمش لوجهها..

أما الآن فهي قد غادرت الحفرة وأخيراً يمكنها أن تواصل الهرب..

لكن عليها أن تكون حذرة في هذا الظلام.. لها ساق مهیضة وتتوكأ على غصن شجرة..

نظرت إلى البيت والنافذة وارتجفت..

التجربة المخيفة مستمرة كما هو واضح..

وفجأة شعرت بالأرض تهتز..

ماذا يحدث؟..

توارت بين الشجيرات وهي لا تفهم ما يحدث. وللحظات خيل لها أنها تهذي. لقد كانت الأرض تنهار في عدة مواضع.. ومن كل انهيأ ترى يدًا عظمية تخرج باحثة عن شيء ما، واستطاعت أن ترى الحفرة التي خرجت منها منذ نصف ساعة..

كانت هناك أشياء تتحرك.. تتجه للخارج...

وفي الظلام الدامس استطاعت أن تميز أشياء عديدة تمشي في ضوء النجوم.. تملأ منطقة الشاطئ.. ماذا يحدث هنا؟ كادت تصرخ ثم قررت أن تعض على الغصن الذي تتوكأ عليه.. لا تريد أن يصدر منها أي صوت..

ترى هذه الأشباح تترنج.. تمشي.. تزحف.. كلها تتجه نحو البيت...

سمعت خشبا يتهشم.. ثم رأت هذه الأشياء تتسلل إلى الداخل..

عددها يفوق قدرتها على الحصر..

مرت لحظات ثقيلة ثم سمعت الصراخ. صراخ جيروم بالذات..

هذا صراخ مريع كأنه شخص يُذبح....

لقد مات.. لم تعرف ما حدث لكنها لا تملك أدنى شكوك أنه مات..

ومع الصراخ سمعت صوتا غير بشري.. كأنها مخلوقات جاءت من سقر تضحك متلذذة..

وكان هذا كافيا كي تجد السير مسرعة.. تثب وثبا فوق ساقها السليمة. قبلها يوشك على التوقف رعبا.

ولا تعرف كيف فقدت الوعي.. لكنها فقدته..

☆ ☆ ☆

قالت دكتورة كريستين التي قضت حياتها في دراسة الماورائيات، والتي طلبتها سامانتا في المستشفى:

"- لقد مزقوه تماما... تحول إلى سمكة متفسخة..

سألته سامانتا وهي تريح ساقها على مقعد في الحديقة:

"من هم؟.. أنا رأيتهم لكن لا أعرف من هم"

أشعلت د. كريستين لفافة تبغ طويلة بنية قوية الرائحة وقالت:

"- رجال الشرطة وجدوا المخطوطات وطلبوا رأيي.. ما رأيته هو أن جيروم استعمل ضروبا من السحر الذي كانت القبائل الكلتية تمارسه في شمال البلاد قديما.. هذه هي العقيدة الدرويدية Druidic.. وكان هؤلاء القوم يعبدون إلهاً يعتبرونه سيد الموتى.. اسمه (ساوين).. ما فعله جيروم هو أنه أعاد تقليدا من السحر الأسود كان يُمارس في الهالوين..

قالت سامنتا محتجة:

"- مالنا والهالوين؟.. الهالوين هو آخر يوم في أكتوبر.. "

"- جيروم خطيبك جعل اليوم يحدث في غير تاريخه.. التعويذة التي استعملها تتيح له استدعاء أرواح الموتى لتسكن تلك الجماجم.. لكن استعملها ثلاث مرات يعيد الأسطورة القديمة.

يقال إن ساوين كان يستدعي أرواح الموتى جميعا في هذا اليوم ليتولى تنسيقها.. كان الكلت يهابون هذه الليلة ويستعدون لها بالنيران في الخلاء والأقنعة وربها بعض الأضحيان البشرية..

يقال أيضا إن أرواح الذين ماتوا في العام الماضي تخرج بحثا عن أجساد حية تسكنها.. في هذه الليلة بالذات تتلاشى الحواجز بين العالمين، ويصير الموتى قادرين على اقتحام البيوت؟"

هتفت سامانتا في رعب:

"- هل تريدان القول إن.... ؟"

"- كانت الأسر الكلية في تلك الأيام تطفئ النيران في ديارها، لتصير البيوت باردة غير مريحة للأرواح. إذن نحن قادرون على تخيل ما حدث.. جيروم استدعى التعويذة ثم ظل في داره.. كان

عليه أن يلجا للخلاء ويمضي الليل هناك مثلك.. اقتحموا الدار عليه.. لهذا وجدوه.. لهذا مزقوه..

ثم أردفت الدكتوراة وهي ترشف قهوتها وتخرج شيئاً من حقيبتها:

"- لو صدّقنا هذه القصة وهو ما أميل له، فلنا أن نقول إن هذه الرواية غير المكتملة التي كُتِب نصفها بخطك ونصفها بخط جيروم، والتي بلل دمه صفحاتها الأخيرة.. يمكن القول إنها فرصة لن تتكرر في تاريخ الأدب ثانية، وإنني لأرجو أن تسمح لي بالاحتفاظ بها.. ربما يقرر أحدهم يوماً أن يعيد التجربة، لكن عليه وقتها أن يتأكد من أن الأرض التي يمشي فوقها لا تعجّ بجثث الأجداد، وأن سحر الدرويديين لا يعمل!؟"

(تمت)

الشيء في الصندوق

وهكذا قضت أيامها الأخيرة في محاولة الخلاص من هذا الصندوق.. جربت طرق التدمير كلها، وفي النهاية أدركت أن الصندوق والقصيدة أقوى من الجميع..

وعرفت أن عليها أن تدفن هذا الصندوق معها.. فقط في كفنها وتحت الأرض لن يجده احد.

☆ ☆ ☆

فريشت.. فريشت.. فريشت.

الصوت يحطم الأعصاب. يمكنك أن تجنّ بلا مبالغة. هناك تلك النغمة المكتومة، وهناك ذلك الإحساس القوي بالتربة الرطبة.. قليلة هي الأصوات التي تنقل لك رائحة العفونة، لكنها الحقيقة.

فريشت.. فريشت.. فريشت.

كلب ينبج من بعيد وهو مولع بأن يطيل نغمة النباح لتحول إلى عواء طويل موحش. أما عن ذلك الصوت فأنا لم أسمع صوت البومة إلا في السينما.. ربما كانت بومة.. لو لم تكن فهي كارثة..

على ضوء الكشاف يعمل اللحد في فتح القبر. لا تراه إلا بصعوبة، لكنك تعرف مهمته المشئومة.. بينما يقفان خارج القبر متوجسين يتلفتان في ذعر، هشام وصلاح.. أخوان.. يمكنك أن تدرك هذا من الملامح المتشابهة..

هذه ملامح أكلة لحوم بشر أو مصاصي دماء.. لا شك في هذا..

الوجه الأسمر والنظرات الزائغة والحدان الغائران.. الحقيقة أهما ليسا مصاصي دماء بالمعنى الحقيقي بل بالمعنى المجازي.

هشام يمسك بلفافة تبغ متوترا وينفث كميات دخان لا يمكن وصفها.. السبب هو انه يريد أن ينسي الرائحة الكريهة الخانقة.

صلاح لا يدخن، لذا لفّ أنفه بمنديل وحاول ألا ينظر..

فريشت.. فريشت.. فريشت.

الهواء يدخل إلى العمة التي توفيت منذ أسبوع.. طبقة الأسمنت ما زالت هشة بليلة من الداخل. الرائحة قاتلة.. وفكرة أن تفتح العمة عينيها القاسيتين لتقول لهما:

"- مش عيب كده يا ولد منك له؟"

لن يعيشا بعدها. سوف يسقطان ميتين.. هذا أكيد.

لكن اللحد بالداخل، وهو يعرف ما يفعله.. مع اللحد أنت مطمئن. الطمأنينة الرتيبة للاحتراف.. هذا أقوى من أي شبح أو مسخ.

هناك على الأرض بعد من لا يخافون الموتى.. من يؤمنون أن هذا القبر لا يحوي إلا بروتينا

متحللاً وكبريئاً وكربوئاً وهيدروجين..

سحابة دخان أخرى..

أخيراً تظهر الساقان النحيلتان للحاد وهو يخرج، بالطبع يمارس عمله بالكلسون الداخلي، وعندما يخرج تدرك أنه رجل نحيل ضامر..

"- سيجارة"

ناولته هشام سيجارة بيد راجفة وأشعلها له. جفف اللحاد عرقه وسحب نفساً عميقاً ثم قال:

"- هذه هي.."

في يده كان الصندوق الصغير.. الصندوق الذي يذكر بك بعلبة شاي مبطنة بالقطيفة. بالطبع صارت لهذا الصندوق أهمية سيكولوجية ثقيلة بعد ما ظل في كفن الفقيدة أسبوعاً كاملاً. لقد اتسخ بتأبو الموت لو كنت تفهم ما أعنيه..

كانا يعرفان أن الصندوق يحوي سرا مهماً.. ويعرفان أن العجوز ظلت تحتفظ به حتى آخر لحظة في حياتها، ويعرفان أنها طلبت أن يُدفن معها فلا يراه أحد سواها..

كان الصندوق مفعماً بالاحتمالات.. صندوق بهذا الحجم لا يمكن أن يضمّ مالا.. على الأرجح يضم حجراً نفيساً أو قطعة حلي لا تُقدّر بثمن. إن أسرة الفقيدة نفذت الوصية حرفياً.. العمة لديها أغبى مجموعة من الأولاد يمكنك أن تجدها في حظيرة.. لم يخطر ببال أحدهم أن يفتح الصندوق أو يلقي نظرة. نفذوا وصية أهمهم حرفياً وخاطوا الكفن على السر.

حسن.. هناك أشخاص لا يقبلون الأمور كمُسلّمات. هذه هي العجينة التي جاء منها المستكشفون القساة الذين ذبحوا شعوب أمريكا الجنوبية، ولم يكن هشام وصلاًحاً يحبان عمتها البتة، كما أنهما كانا من الطراز.. لن أقول الطراز المفلس... بل هما من الطراز الذي تتجاوز طموحاته وشهواته دخله. هكذا وجدا أنهما يرغبان فعلاً في معرفة محتويات ذلك الصندوق...

لن يؤذي هذا العمة العزيزة.. الشاه لن يضيرها سلخها بعد ذبحها، والقصة كلها رمزية على كل حال.. تغيير وصية ميت أمر ذو قيمة معنوية أخلاقية لا أكثر.

وعندما أخذوا الصندوق كانا يشعران باحتقار بالغ نحو اللحاد برغم كل شيء.. كل اللحادين لصوص قبور بطبعهم، وهم مستعدون لبيعك لمن يطحن عظامك ليجعلها سماداً أو لطلبية الطب أو لمن يطعمك للخنازير.. لكن يظل السؤال قائماً: هل فتح اللحاد الصندوق؟.. هل أخذ شيئاً ما؟

احتمال قائم خطر.. لكن كيف يثبتان العكس؟.. خطر لها على كل حال إن الوقت ضيق.. لم يجد اللحاد فرصة ليسرق ما في الصندوق.

وأخيراً نقدا اللحاد ماله، واتجه بالصندوق المريع نحو البيت..

☆☆☆

لدى الأخوين شقة مفروشة يقيمان فيها بعيداً عن باقي الأسرة، وبما أن مزاجهما واحد فقد كانا

يتبادلان ساعات استخدام الشقة.. الليلة هما بحاجة لأن يكونا معا..

عالج هشام الصندوق.. كان هناك مسمار محوي صغير يغلقه فرفعه، وألقي نظرة للداخل.
رائحة العمة العطرية الخفيفة تملأ داخل الصندوق فعلا.

أخرج ورقة صغيرة مطوية من داخل الصندوق.. ثم بدت على وجهه خيبة الأمل.. لا شيء.. لا شيء على الإطلاق.. فتح الصندوق بقوة، ثم استل سكيناً فراح يمزق أستار الصندوق.. بعد لحظات تحول الصندوق إلى نفايات.. لا يوجد شيء..

همس صلاح وهو يرتجف:

"- افتح الورقة"

بيد واحدة فتح هشام الورقة الصغيرة، وقرأ بصوت عال:

"هذا شعر.. بيتا شعر يقولان:

ولما توارى شعاع الأصيل وعدنا من الغاب نبغي الرحيلا

دعت لي بسلوى وصبر جميل إذا ما الوصال غدا مستحيلا

قال صلاح في خيبة أمل:

"- ما هذا الكلام الفارغ؟"

قال هشام محاولاً الفهم:

"- صبراً.. هذه قصيدة.. هناك شفرة كالعادة.. شفرة كلمات معينة تقود لمكان كنز.. أنا متأكد من هذا، لا أحد يصّر على دفن هذا الهراء معه في القبر ما لم يكن..."

ثم راح يحرك شفتيه محاولاً الفهم:

"- ربما هناك شارع اسمه الأصيل. ربما هناك غابة دفن فيها المال.. من هي سلوى؟"

نهض صلاح غاضباً:

"القصة بسيطة.. المرأة قد جُنّت.. هذا كل شيء.."

ثم تقلص وجهه وهتف في توحش:

"- أو اللحاد قد خدعنا.."

"- هذا وارد"

وتبادلا نظرة وحشية.. لم يكن عنده وقت كاف للسرقه..

أم كان عنده؟

الأمر ليس صعباً.. في ظلام القبر يجد الصندوق.. يزيح المسمار. يجد جوهرة أو حلية.. يدسها في جيبه. يخرج مغيباً لاهثاً إلى الأبلهين في الخارج..

ما يعرفه صلاح هو أنه تناول سكيناً بينها تناول هشام خنجراً، وانطلق الاثنان لا يلويان على شيء نحو المقبرة.

يجب أن يتكلم اللحد وإلا فالذنب ذنبه..

☆ ☆ ☆

عندما يخرج الجنون من القمقم، فلا شيء يقدر على إعادته..

لأسباب ما يخرج هذا الغاز من الأنبوب، ثم يتسرب في كل مكان. لا أحد يقدر على جمع الغاز أو حبسه.. هكذا كان اللحد جالسا في تلك الغرفة الصغيرة عند مدخل المقبرة.

كان جالسا أمام بابور الجاز - موقد البريموس حتى لا يتضايق اللغويون - وقد وضع فوقه إناء صغيراً به ماء ولحم.. وكان يرمق النار متلمظاً.. الليلة سيكون العشاء دسماً. صحيح أنها لقمة جاءت من نبش القبور.. أي أن ما يطبخه مجازياً هو لحم موتى، لكنه كان قد تجاوز مرحلة هذه الاعتبارات الأخلاقية.

سمع طرقات على الباب الخشبي المتداعي. فنهض ليفتح..

في اللحظة التالية كان الأخوان في الغرفة، وقد استطاع أن يرى الشيطان في عينيهما.. الشيطان.. هذا مشهد رآه من قبل ويعرفه..

"- خيراً؟.. لماذا عدتما؟"

قال هشام:

"- الصندوق خاؤ.. لا يوجد شيء.."

"- هذا شأنكما.. ليست مشكلتي"

هنا قال صلاح وهو يمسك بالرجل من فتحة الجلباب ويجذبه:

"- نحن نعتقد أن شيئاً كان في الصندوق وقد تمت سرقة.."

صاح الرجل إنه لم يفعل.. عندما تكون ضيق العينين خبيث النظرات نجي كفأراً، فإن إنكار التهمة هو بالضبط الأسلوب المناسب لجعلك تبدو كاذباً..

راح الرجل يقسم.. أنتما حصلتما على الصندوق.. أنا نلت الحلوان.. انتهى الأمر.. ماذا تريدان بعد هذا؟"

"- نريد الشيء الذي في الصندوق"

"- لم يكن هناك شيء في الصندوق"

كان الغضب قد بلغ الذروة.. وكل محاولة إنكار تؤكد أنه سرق شيئاً.. هكذا ازداد الضغط على ذراعه.. يمكنك سماع العظم الهش وهو يوشك على التحطم..

"- تكلم؟"

السباب ينهال على رأس الرجل، والصفعات.. شابان قويان غاضبان مع رجل هش وحيد. في

النهاية سقط على الحصيرة الموضوعة على الأرضية فراحا يوجهان الركلات لرأسه.. لم يعد هناك تعقل.. ركلة... ركلة.. ركلة... سوف يمر وقت طويل قبل أن يدركا أنها أحمقان وأن فرصة استجوابه انتهت.

توقفا ونظرا إلى المشهد..

"- لقد مات يا صلاح!"

كان المشهد مؤكدا ولا يحتاج إلى تخطيط مخ وتخطيط قلب للرجل الراقد على الأرض. وفي لهفة راح الشابان يفتشان في الغرفة. عن ماذا؟.. لا يعرفان.. عن الشيء الذي جعلهما يقتلان لأول مرة.

الآن برز احتمال معقول هو أن الرجل صادق.. لقد تسرعا جدا..

لم يتفقا على الخطوة التالية، لكنها وجداها بديهية.. كل شيء في هذه الغرفة يحمل بصماتها.. لذا أطفأ هشام البابور - موقد البريموس حتى لا يتضايق اللغويون - وفتح الصمام ثم راح ينثر السائل قوي الرائحة في كل مكان. للأسف لن يأكل أحد هذا اللحم.. لكن دعنا نتذكر أنه معنويا أقرب للحم الموتى. على باب الغرفة ألقى هشام بالثقاب المشتعل، وفرا بعيدا قبل أن يتعالى اللهب..

سوف يحترق كل شيء..

على الأرجح لن يتعب الطبيب الشرعي نفسه في البحث، ولن يجد آثار التهشيم في عظام الجمجمة.. لسنا في قصة لأجاثا كريستي هنا.. فلنفر..

☆ ☆ ☆

كانا يرتجفان... وشعر هشام بأن القتلة أشخاص فوق الواقع.

كيف تمارس حياتك بشكل طبيعي بعد الفتك بإنسان؟ ...

هناك في الشقة دخل كل منهما الحمام ليغتسل، ممارسا مشاعر ماكبث بعد قتل دونكان (لو اجتمعت بحار العالم جميعا على محو هذا الدم ما استطاعت). في النهاية جلس هشام يدخن وينظر إلى الصندوق المربع الصغير. مشئوم.. نحس.. مد يده وعالج المسار المحوي.. استطاع أن يفتحه ويخرج الوريقة الغامضة التي حيرته من قبل، فراح يتأملها:

ولما توارى شعاع الأصيل وعدنا من الغاب نبغي الرحيلا..

دعت لي بسلوى وصبر جميل إذا ما الوصال غدا مستحيلا..

وتسمع في الليل همس القبور وأنفاس من غاب عودا نحिला..

ما معنى هذه الأبيات السخيفة؟..

قرأها بصوت عال على مسمع صلاح، وكان الأخوان يمقتان الشعر طبعاً ولا يفهمانه لهذا لم يحصلوا إلا على فكرة عامة عن هذه الأبيات..

جلب صلاح زجاجتي خمر، وصب في كاسين كبيرين.. منذ زمن عرف الأخوان أنهما لا يتصنعان أي شيء أمام بعضها. لهذا فعلا كل الموبقات أمام بعضها دون خشية..

بعد الكأس الرابعة قال صلاح بلسان معوج:

"- أنا قد أكون وغدا منحلا.. لكني لست قاتلا.. هذا أقوى مني"

قل هشام بلسان أكثر اعوجاجا:

"- يجب أن تنسى هذه الجريمة.. تنساها وتنسى انك نسيته.. لم يبق منها سوى غرفة محترقة ورماد"

"- ربما احترقت لكنها ستظل حية في ذاكرتي.. سوف يطاردني المشهد ما حييت"

ثم نهض مترنحا نحو الباب وهو يستند إلى الجدار..

"- إلى أين العزم؟"

قال صلاح:

"- لا أستطيع قضاء الليل هنا.. لا أستطيع أن أراك أمامي.. سوف أبحث عن مكان آخر"

"- ليس من الحكمة أن تخرج وأنت ثمل.. من الوارد أن ينزلق لسانك"

قال صلاح وهو يعالج المزلاج بيد راجفة:

". هذا ما أنويه فعلا... سوف ينزلق لساني.."

"- هل تمزح؟"

"- ربما كان في هذا خلاصي"

وواصل معالجة المزلاج...

الخمر لها إرادة خاصة بها.. تدهشك دوما بما تفعله وأنت لا تعرف أنها فعلته. لا يعرف هشام كيف طارت الزجاجة من يده لتضرب أخاه من مؤخرة رأسه...

عندما سقط صلاح على الأرض تذكر هشام الألعاب الغليظة الخشنة التي كان يمارسها في طفولته مع أخيه.. كان يمزح.. هذه ألعاب أطفال خشنة نوعا لكنها ألعاب.. هو لم يقتله.. بالتأكيد لم يفعل.. فقط أراد منعه من التماذي..

صلاح يرقد الآن خلف الباب والدم ينزف من مؤخرة رأسه، والزجاج المهشم تناثر على الأرض..

إنه نائم.. بالتأكيد هو نائم.. لا توقظوه..

ضحك هشام كثيرا وهو يراقب أخاه النائم..

عاد للمقعد وأشعل لفافة تبغ أخرى.. الدخان يرسم اسم هشام واسم صلاح في فراغ الغرفة..

صندوق لعين قدر.. لقد جعل الأخوين يتشاجران.. صبّ لنفسه كأسا آخر..

مد يده إلى الصندوق وراح يعبث بأنامله.. لقد عبثت بها العمة اللعينة.. لم تترك شيئاً لكنها تركت لها دعابة قاسية فعلاً...

أخرج الوريقة المقيتة التي كتبت فيها الأبيات..

ولما توارى شعاع الأصيل وعدنا من الغاب نبغي الرحيل

دعت لي بسلوى وصبر جميل إذا ما الوصال فدا مستحيلاً

ونسلم في الليل همس القبور وأنفاس من غاب عوداً نحيلاً

وقابيل يلقي أخاه الحبيب فتجري الدماء وهوى قتيلاً

حكّ رأسه مرتين.. أغمض عينيه وراح يحاول أن يجعل بصره أقوى.. وربما بصيرته..

هذه الأبيات اللعينة.. كانا بيتين فقط.. هو متأكد من هذا.. لا شك في هذا..

هذه القصيدة تستطيل! إنها تزداد بيتاً كلما هلك إنسان آخر!

☆ ☆ ☆

هناك في تلك الكهوف المظلمة في صحراء تسيلي، يمكنك أن ترى أن الليل قد دنا، ومعه بدأت الشمس الحارقة تبدي شيئاً من الرحمة..

الذئب تعوي فيرتجف رجال "التبو" الجالسون حول النيران ليلاً، ويتبادلون النظرات من وراء الثمتهم.. بينها تطلق الجمال والإبل رغاءها وحنينها بالترتيب..

هناك في تلك الكهوف المظلمة وخلف منطقة الرمال المتحركة، حيث لا يجسر أحد على الدنو، يمكنك أن ترى ذلك الكهف الذي احتشدت الصخور على مدخله.. هل صخور حقا؟ بل هي جماجم بيضاء نظفتها العواصف والرمال الناعمة..

هناك عاصفة دانية بلا شك في الغد..

داخل الكهف يمكنك بصعوبة بالغة أن ترى ذلك المشعل الراهن، وجواره يجلس كيان فارح مفزع يخيل لك أنه هيك عظمي، يمسك بريشة هائلة الحجم ويضع أمامه لفافة.. عينان واهنتان تراقبان الورق وسط الضوء الخافت..

إنه "أوبار" الشاعر الملعون.. الشاعر الذي نشرت أشعاره الطاعون وسببت المذابح، وأدت إلى انتحار عشاق وموت أطفال وهم يصرخون..

هناك في هذا الكهف ينتظر "أوبار" عدة عقود.. عدة قرون.. من أجل قصيدة جديدة، قصيدة مكتملة الأبيات.

غير أن قصائده كانت ذات خاصية غريبة، هي أنها تكتب نفسها بنفسها؛ يبدأ أول بيت فقط، وأفعال البشر هي التي تكملها..

كل قصيدة صنعها الطمع والجشع والمقت والحسد والكفر والشهوات..

"أوبار" ينتظر، منذ قرون..

هناك قصائد بكل اللغات تتناثر من حوله.. قصائد باللاتينية، بالآرامية، بالسويدية، بالإنجليزية، بالمسارية، بالأترورية، قصائد اكتملت جميعا وعادت له، وعندما يحرق اللغافة فإنها تصل إلى سيده الدائم، سيده الذي لا يجرؤ على ذكر اسمه..

على اللغافة التي أمامه بدأ يقرأ الحروف التالية تكتب بالدم:

ولما تواری شعاع الأصيل فتجري الدماء ويهوى قتيلا

تحركت شفتاه فيما يشبه ابتسامة قاسية؛ سوف ينتظر.

☆ ☆ ☆

الصندوق الصغير ظل على الأرض فترة طويلة..

يمكن أن ألخص الموقف لك بأن رجال الإسعاف ألقوا بالجثة على المحفة في إهمال، ومن الواضح أنها كانت تقبض على الصندوق الصغير الذي لم يلحظه أحد، قبل دخول السيارة سقط الصندوق على الأرض وركلته الأقدام جوار جدار.

وضعوا في السيارة جثة هشام أولا ثم جثة صلاح..

صلاح قد هشمت زجاجة رأسه من الخلف، أما عن هشام فقد فتح النافذة ووثب إلى الشارع ليتهشم جسده على الإفريز، برغم هذا يبدو أنه ظل ممسكا بالصندوق فلم يتخل عنه إلا لحظة دخول السيارة كما قلنا..

انطلقت السيارة وعواؤها الكئيب يمزق الأعصاب قبل أن يمزق الصمت. ولحق بها عدد من الصبية يتصايحون مرحا..

يمكنك أن ترى الصبي عماد والصبي مصطفى.. إنها يسكنان بالمنطقة، وهما شيطانان صغيران، لها بالضبط نفس ملامح ونفسية قراصنة الكاريبي. عندما أسرع الإسعاف مبتعدة أدركا أن اللحاق بها مستحيل، برغم أنهما كانا يشتهيان رؤية الميت، تعثر عماد على الأرض فسقط جوار الصندوق الصغير، التقطه ودسه في جيبه ليفهم فيما بعد..

هناك يقف الصبية في ركن الشارع يتبادلون التحدي والسباب.

عاد يدخن لغافة تبغ إذ تأكد من أن أحدا من الكبار لا يراه، وهذا يعطيه سطوة لا شك فيها على باقي الصبية الذين لا يجسرون على تخيل مغامرة كهذه.

يقول لهم عماد:

- وعهد الله.. وعهد الله..

لسبب ما لا بد أن يقسم هؤلاء الصبية بعهد الله.. لا يستعملون طريقة قسم أخرى..

- وعهد الله أنا فعلت هذا..

قال مصطفى في تحد:

- إنت كذاب..

- وانت ابن "...

وانقض الصبيان بعضها على بعض يتبادلان الركلات واللكمات.. حاول عماد أن يفعل هذا كله ولفافة التبغ في فمه، لكن الأمر كان صعبا.. وقبل أن يفهم ما يحدث وجد أذنه في يد صارمة ترفعه عن الأرض.. وعندما نظر بحذر رأى أن هذه هالة اخته.. اخته في العشرين من عمرها، وليس لديها عمل في الحياة سوى أن تجعل أيامه قاسية..

- سجار وشجار! انتظر حتى أخبر أباك بذلك.

تراجع الصبية في دعر، بينما الأخت الغاضبة كآلهة الأوليمب تجرّ الصبي من أذنه نحو ساحة الإعدام، وهي لا تكف عن الشتائم وتوجيه الصفعات له.. كان يعرف أن أمره انتهى.. التدخين جريمة لا تُغتفر في بيته..

برغم هذا كان يكره أن يراه الصبية في وضع مخز، لذا صاح آمرا بينما هو يبتعد:

- الليلة سوف أريكم إن كنت كاذبا.

في البيت لم يكن الأب القاسي الغضوب موجودا، فتوعدته هالة بأن عقابه قريب فعلا. لاحظت الصندوق الصغير الذي في يده فسألته عن كنهه.. قال إنه وجده في الشارع ولا يعرف ما به..

مدت يدها في حذر وفتحت الصندوق.. ذات مرة ألقي أحدهم عملا سحريا على بابهم، وكان بداخله قطعة قطن التفت على أشياء عضوية مرعبة، مع لفافة ورقية كهذه.. شعرت بقشعريرة وخطر لها أن تتخلص من الصندوق، ثم مدت يدها تفتح اللفافة وقد غلبها الفضول..

ولما توارى شعاع الأصيل وعدنا من الغاب نبغي الرحىلا

وقابيل يلقي أخاه الحبيب فتجري الدماء وهو قتيلا

لقد حان حينك يا ابن الدياجي ألا تسمع الموت يأتي عجولا؟

مطت شفتها في عدم فهم؛ كانت تتوقع على كل حال أن تقرأ تعاويذ وكلمات سريانية غامضة، أو ترى رسوما غير مفهومة.

لكن هذا شعر.. مجرد شعر سخي، ليس فيه حب ولا غرام ولا سهاد.. هناك كلمة "عجولا" في نهاية القصيدة تبدو نابية للأذن، بالتأكيد ليست عجول الجزار، ولكنها تدل على التعجل..

توعدت أخاها المدخن بالويل، ثم اتجهت إلى الهاتف لتثرثر مع صاحبته..

لاحظ عماد بعد ساعتين أن جريمته لم تُذكر؛ لم تقل هي شيئا ولم يعرف أبوه القاسي بشيء، إنه في غرفته يلهو ويتظاهر بالاستذكار كالعادة، لكن لا شيء غير هذا..

الصبية ينتظرونه كما وعدهم. إن هالة اللعينة غافية الآن بعد ما شبت نميمة وتهريجا على الهاتف؛ لن يلاحظ أحد أنه خرج..

بعد لحظات اتخذ قراره، اتجه إلى باب الشقة بحذر وفتحها وفرّ إلى الخارج. هناك في الشارع عنصره الطبيعي، هناك يصير حرا.. يصير ملكا، يصير قائد الشلة الذي يبهر الأنفاس..

هناك كان الصبية يقفون في تحد بانتظاره، وكان أكثرهم تحديا هو...

مصطفى.. قال له في سخرية:

- هل علقك أبوك من السقف؟

لم يرد.. سرعان ما اجتاز الفرجة بين الجدارين وراح يركض عبر الخرابة. كان الليل قد بدأ يزحف فلم يعد هناك سوى لون أزرق بكل درجاته، وهناك كانت المساحة الواسعة ممتدة حيث قضبان القطارات تتلوى وتتعاقد في الأفق.. قطار الثامنة سوف يمر بعد قليل..

بلع الصبية ريقهم وهم يرتجفون من هول المشهد القادم، هو نفسه كان خائفا لكنه كان بحاجة إلى أن يعرفوا من هو؛ بعد هذا لن يفتح أي أحرق فيهم فمه..

جری بحذر إلى أن بلغ المسافة بين القضيبين، ورقد على وجهه وغطي رأسه بكفيه..

فلتمر اللحظات التالية بسرعة..

☆ ☆ ☆

أين عماد؟

كانت الساعة الآن الحادية عشرة ليلا، وقد أوشك الأب على غلق اقفال البيت.. ثم تنبه الجميع إلى أن الصبي عمادًا ليس هنا، وهذا شيء معتاد.. لكنه لا يطيل التأخر إلى هذا الحد لأنه عوقب كثيرا من قبل على تأخره خارج البيت.. الحقيقة أنه شبيهه بقط حبيس لا يقدر في البيت أبدا.

عماد.. عماد.. أين أنت أيها الوغد؟

هكذا بدأت عملية البحث. وتم سؤال الجيران، ثم ارتدى الأب ثيابه من جديد وخرج يبحث عن الصبي وهو يطلق السباب..

من الخير للفتى أن يكون قد مات فعلا.. هذا هو المبرر الوحيد الذي يسمح بالغفران له.. فيما عدا هذا ليس من مصلحته ان يظل حيا.. سوف يموت فورا!

جو التوتر العام ساد البيت وبدأت الأم تقرأ القرآن وتهرع من حين لآخر إلى الشرفة..

هالة شعرت بتأنيب ضمير.. ربما هو خائف جدا من موضوع السجارة.. ربما خائف لدرجة انه فرّ من البيت.. هي كانت قد ازمعت ان تكتفي بإرهابه.. لكن من اين له أن يعرف نيتها؟

يجب أن نقول كذلك أن الجو كان ملوثا بالموت.. حادثة الموت التي وقعت صباحا جعلت الجميع متوترين.

هكذا دخلت غرفتها وحاولت ان تفكر في شيء آخر، لكن صورة عماد كانت تبلبل ذهنها..

مدت يدها للصندوق لتعيد تفحص تلك اللقطة اللعينة..

وبشفتين تتحركان قرأت الأبيات:

ولما توارى شعاع الأصيل وعدنا من الغاب نبغي الرحيل

لقد حان حبنك يا ابن الدياجي ألا تسمع الموت يأتي عجولا؟

خرجت لتلهو قرب الردى ف جاء الردي غاضبا مستحيلا

هنا توقفت وراجعت آخر أبيات.

هناك جزء لم تقرأه من قبل.. هي متأكدة أن آخر بيت في القصيدة اللعينة كان البيت " لقد حان حينك يا ابن الدياجي.. ألا تسمع الموت يأتي عجولا؟" فإذا حدث بالضبط ومتى؟ ... هناك بيت قد أضيف.. لا شك في هذا.. نفس الخط ونفس الخبر..

كانت هالة قوية الشخصية تثق في حواسها جيدا. أي شخص سواها كان سيعتقد أن البيت الأخير قد فاته، لكنها كانت متيقنة.. القصيدة اللعينة قد استطالت بيتًا..

البيت يتكلم عن شخص أراد اللهو قرب الردى فات.. كان الردى أكثر براعة.

☆ ☆ ☆

في الصباح وجدوا البقايا وعرفوا القصة كاملة..

الصبية الذين كانوا مع عماد رأوا المشهد ففروا لبيوتهم وأصابهم ذعر حيواني يمكن فهمه، وقرروا أن يلوذوا بالصمت.. لكنهم تكلموا في النهاية..

عماد نام على قضيب القطار بين القضيبين إذا شئت الدقة ودفن رأسه بين ذراعيه بينها قطار الثامنة قادم، وكان ينوي الصبية بشجاعته. هؤلاء المراهقون يمكن أن يفعلوا أي شيء كي يبهروا أترابهم. ما حدث هو أن شيئًا يتدلى من القطار تمسك به.. تعلق بسرواله. وهكذا فوجئ الصبية بأن زعيمهم قد اختفي. لم تمر العجلات من حوله في سلام، ويبدو أن جسده تفتت في ثانية واحدة...

كانت ميتة شنيعة، وسوف أعفيك من وصف ما فعلته الأسرة والام رحمة بأعصابك.. لقد حلت حقة من اللون الأسود والكآبة على هذا البيت الذي كان آمنا..

ظلت هالة تشعر بعدم راحة نحو ذلك الصندوق اللعين، وتلك الأبيات الغريبة التي قرأتها والتي ازدادت بيا بلا تفسير واضح..

ذات ليلة جلست في فراشها ومدت يدها تفتح ذلك الصندوق من جديد.. تحسست أبيات القصيدة وقرأتها مرة واثنين..

وقررت أن تعرض هذه الأبيات على مدرس اللغة العربية الشاب جارهم، لعل الكلمات تخفي أكثر مما تفهمه هي. ثم غلبها النعاس والعلبة في يدها..

هي الآن نائمة على ظهرها. صدرها يعلو ويهبط كأنها تعاني عسرا في التنفس. العرق.. العرق يجعل شعرها عجينة واحدة لزجة..

كهف مظلم.. مشاعل.. هناك من ينتظر في الكهف... عينان شريتان.. رائحة عطن غريبة.. هذه رحلة لم يقم بها بشري.. إلى عالم لم يره أحد. أعماق الظلام.. المادة الخام للشر.. تشعر بهذا كله.. وتدرك انها مذعورة، لكنها كذلك عاجزة عن النهوض...

عاجزة عن الفرار.

وسمعت صوتا يأمرها:

"تخلصي من القصيدة !.. تخلصي من القصيدة إن شئتِ السلامة؟"

كانت تسمع الصوت بوضوح. تعرف أن هذا أوبار. لا شك في هذا برغم انها لا تعرف من هو أوبار ولم تسمع عنه من قبل كانت ترتجف خوفا.. عرفت أنها اخترقت وانها ترى ما لا يحق لها أن تراه..

كان البيت كله غافيا عندما اتجهت هالة إلى المطبخ.. صوت آذان الفجر يتردد من مسجد قريب. وضعت الصندوق على الموقد، تم اشعلت عود ثقاب.. سوف يحترق هذا الشيء القذر.. سواء كان خطرا حقيقيا أو وهما.. إنها تشعر بأنه ملوث بالدم.. لماذا ظهر بعد الحادث الأخير؟.. ولماذا التقطه المرحوم عماد بالذات؟

بدأت النار تتمسك بالصندوق وتنهدت هي الصعداء. لكنها بعد لحظة بدأت ترتجف... إن النار تلتف حوله لكنها لا تؤذيه.

هذا الشيء أقوى من النار..

جربت ان تحرقه عدة مرات وبللته بالكيروسين وجربت من جديد.. لا جدوى.. هذا الصندوق اللعين أقوى من أن يزول بسهولة..

فكرت في ان. تلقيه في القيامة، لكن الإجابة كانت قد وصلتها وشعرت بها في أعماقها بلا جدال. هذا ما يريده ذلك المسخ الذي رأيته في الحلم بالضبط.. هناك أحرق سيجد الصندوق في القيامة ويفتحه، وسوف ينتقل الصندوق ليد أخرى ويموت شخص آخر.. وسوف تزداد القصيدة طولا..

لو احتفظت بالصندوق فهي تجازف بميت آخر او جريمة قتل اخرى..

ربما يقتل أبوها أمها أو العكس.. او تفعل هي هذا كله..

حاملة هذه الهواجس عادت لغرفة نومها التي تسلل لها ضياء الفجر الخافت الواهن. جلست على الفراش كأنها بوذا يتأمل..

وقررت ان تنتظر حتى يصحو الجميع..

☆ ☆ ☆

من المهم أن نجد من يحبنا.. لسبب واحد هو اننا نحتاج أحيانا إلى من يصدقنا. وكان هاني يحبها فعلا.. مدرس اللغة العربية الشاب الذي يقطن قرب بابها يهيم بها حبا.. لقد تبادلا الحديث الصريح كثيرا وكانت تعرف انه ينتظر قليلا.. يستجمع شجاعته قبل ان يكلم أباه.

جلسا في ذلك المقهى الذي اعتادا الجلوس فيه، فرشفت بعض الشاي من الكوب.. ثم استجمعت شجاعته وحكت له تلك القصة الطويلة..

بالطبع لم يبد مصدقا، لكنه يحبها وعلى استعداد لسماع الكثير من هرائها.. ربما اعتبر هذا ترفاً..

لما انتهت من قصتها دفنت وجهها في الكوب حتى لا يسخر منها.

قال لها:

"- وأين هذا الصندوق؟"

نظرت حولها ثم وضعت على الشرفف أمامه. مد يده ليفتحه ولكنها اوقفت يده في صرامة:

"- لا أعرف.. ربما تصيب اللعنة من يفتح الصندوق أو يقرأ القصيدة"

"- أنا سأخذ الصندوق الآن..!"

قالت في جزع وقد اتسعت عيناها:

"- انت لا تفهم. هذا هو ما يريده بالضبط.. يريد ان يجد مسارا جديدا للحياة.."

"- لنقل إنني لن أمنحه هذه الفرصة.."

ثم مد يده يعبث واخرج القصيدة.. قرأها مرة ومرتين ثم قال باسمًا:

"- ليس شعرا جيدا جدا.. لو كان هذا الشعر يكتب نفسه فهي طريقة غير ناجحة لكتابة الشعر.. ثم أن بعض الأبيات مكسورة.."

ثم التمتعت عيناه وقال في حماسة:

"- أنا أكتب الشعر كما تعرفين.. سأكمل هذه القصيدة بنفسني!!"

☆ ☆ ☆

عندما جلس هاني وحيدا في غرفته، اندهش للتطور الذي يعترى عواطف المرء. عندما عاد للدار كان ساخرا ناقدا لا يكف عن التهكم على سخف الفتيات.. كانت الأمور تبدو له واضحة جدا..

كانت الأسرة كلها نائمة.. شخير أخيه الأصغر يتعالى في فراشه الصغير بركن الغرفة.. ذلك الفراش الذي صنعوه له من صندوق قديم وضعوا عليه حشية.. الأبوان نائمان، والفتاة نائمة في غرفتها... هذا جو من الوحدة يوحي بأي شيء.. يتضخم الخيال مع الوقت ويصير المستحيل ممكنا...

فلنر هذا الصندوق الصغير إذن...

ابخرة الشاي تتصاعد وهو يقلب الصندوق في يده، ثم فتحه بحذر واخرج اللفافة وراح يقرأ القصيدة..

ولما توارى شعاع الأصيل وعدنا من الغاب نبغي الرحيلا

دعت لي بسلوى وصبر جميل إذا ما الوصال غدا مستحيلا

وتسمع في الليل همس القبور وأنفاس من غاب عودا نحिला

وقابيل يلقي أخاه الحبيب فتجري الدماء ويهوى قتيلا

لقد حان حبنك يا ابن الدياجي ألا تسمع الموت يأتي عجولا؟

خرجت لتلهو قرب الردى فجاء الردى غاضبا مستحيلا

لا يمكن ان تتهم الشاعر بأنه عبقرى، وبالتأكيد لم يكتبها المتنبي لكن هناك جوا من الغموض المشئوم يحيط بهذه الأبيات.. شيء سام... لا شك في هذا.. ستة أبيات..

الخط خط رقعة جميل جدا وأنيق.. مد يده يبحث عن ريشة الكتابة التي كان يستعملها في مدرسة الخطوط وأخرج قنينة الحبر الشيني الصغيرة..

بحذر.. وبنفس الخط الجميل تقريبا كتب في نهاية القصيدة:

وعدت هنالك وقت الغروب فالفيتها في انتظاري طويلا

وعاد الوصال يزور القلوب وعاد الربيع بنير السهولا

تمت بحمد الله

ونظر في رضا إلى البيتين الأخيرين.. نهاية سعيدة إجبارية.. لقد انتهى هذا الكابوس إذن...
وهنا انقطع التيار الكهربائي..!..

☆ ☆ ☆

العمة كانت تعرف انضل في أيامها الأخيرة...

عندما تقدم بها العمر وأدركت ان الرحيل على الأبواب، قررت ان تفتح هذا الصندوق الذي وجدته في حاجيات أمها.. أمها كانت تقول كلاما غريبا عن عثورها عليه في المقابر يوما ما، كانت امها لا تقرأ ولا تكتب لذا لم تعرف قط ما في الصندوق حتى ماتت.. الآن وقد صار الحاجز الفاصل بين العالمين واهيا جدا او افتراضيا خطر لها ان تلقي نظرة...

طلبت من ابنتها وصال أن تجلبه لها، ثم جلست في الفراش تضيق عينها في ضوء المصباح الواهن.

فتحت الصندوق وبعينين واهنتين قرأت المكتوب في اللقافة..

ولم تفهم شيئا:

ولما توارى شعاع الأصيل وعدنا من الغاب نبغي الرحيل

ما معنى هذا ولماذا يدفنه أحد في صندوق؟.. لم تدر السبب...

لكنها طلبت من ابنتها أن تحتفظ به في خزانة الثياب في الرف العلوي.. حيث تحتفظ بالبطاطين...

راحت تتأمل عود وصال الرشيق وهي تشب على الفراش لتضع الشيء في خزانة الثياب، وخطر لها أن وصالا هي أروع شيء نفته في حياتها.. عروس فاتنة مكتملة وطالبة جامعية.. أفضل اولادها بلا جدال..

عندما نامت أخيرا لم تكن تعرف انها المرة الأخيرة...

يقول رجال الشرطة إن الفتاة ارتكبت خطأ فادحا. لقد عجزت عن النوم فشربت جرعة من دواء

الكورل المنوم.. لما عجزت عن النوم برغم هذا أخذت قرصا منومًا من أدوية الوالدة...
كلورال مع الكحول او المنوم.. كثيرون تلقوا درسهم الأول في علم الفارماكولوجيا وهم يدخلون القبر..

ماتت وصال بطريقة عبثية عجيبة.. مخزون هائل من الحزن صار لدى العمّة كي تقززه كاللب وحدها في كل ليلة... وطالت ايام الحزن وهي تدعو الله أن يرحمها وتموت..
ما حدث بعد هذا هو انها طلبت من أحد أولادها أن يجلب لها ذلك الصندوق اللعين.. عندما فتحته بيد واهنة ألفت نظرة على القصيدة.. فوجدت الأبيات تقول:

ولما توارى شعاع الأصيل وعدنا من الغاب نبغي الرحيل

دعت لي بسلى وصبر جميل إذا ما الوصال غدا مستحila

ارتجفت ذعرا... هذا البيت الأخير لم يكن موجودا بالقطع قبل ذلك...

وماذا يقول؟ ... يقول (إذا ما الوصال غدا مستحila).. بالفعل صار الوصال مستحila. لم تعد هناك وصال...

امتلات تشاؤما من هذه القصيدة، وتذكرت انها فقدت ابنتها الفاتنة يوم فتحت الصندوق. هذا الصندوق ملعون بلا شك..

هذا الصندوق مسحور..

وهكذا قضت أيامها الأخيرة في محاولة الخلاص من هذا الصندوق.. جربت طرق التدمير كلها، وفي النهاية ادركت أن الصندوق والقصيدة أقوى من الجميع.. وعرفت أن عليها أن تدفن هذا الصندوق معها.. فقط في كفنها وتحت الأرض لن يجده أحد.

هكذا أوصت.. ولم تدر أن هذه الوصية بالذات هي ما سيدفع وغدين من الأسرة هما هشام وصلاح إلى نبش قبرها بالذات...

لقد كان الإغراء اقوى منهما..

☆ ☆ ☆

بعد ساعتين عاد التيار الكهربى؛ فأطفأ هاني الشموع التي أشعلها في الصالة.. لم يشعر احد من النائمين بالانقطاع، أما هو فقد كاد يفرغ أحشاءه ذعرا. تذكر اسطورة لعنة الفراعنة وكيف انقطع التيار الكهربى عن القاهرة لحظة فتح تابوت توت عنخ آمون..

قرر أن يعود ليلقي نظرة على القصيدة التي كتبها منذ قليل..

هنا وجد الأبيات التالية في نهاية القصيدة:

تُراك ستصمد حتى الصباح؟ تُراك ستصبر صبيرا جميلا؟

هنا شعر بشعر رأسه ينتصب... هذا بيت لم يكتبه.. هذا بيت كتب نفسه في الظلام.. القصيدة مصرة على أن تستطيل.. لم تقنع بالبيتين الأخيرين..

وفي هذه اللحظة شعر بتلك الرغبة المجنونة.. هرع إلى المطبخ وانتقى أكبر سكين هناك.. عاد لغرفة النوم.. وقف يراقب أخاه النائم في نهم.. يرمق شريان عنقه النابض... الدم الدافئ ينتظر بالداخل.. دم احمر قان....

ثم فطن لنفسه فتراجع مدعورا....

هناك الابوان النائمان في غرفة النوم.. لن يشعرا بالرحيل.. سوف يكون موتاً رحيماً.. وماذا عن الكيوسين؟.. هناك موقد بريموس به كيوسين.. لو سكب منه في أرجاء الشقة وأشعل عود ثقاب فلسوف ينتهي كل شيء..

من جديد.. قرأ المعوذتين.. إنه واقع تحت تأثير نفسي كاسح..

يمكن أن ينهي هذا بان يثب من النافذة.. ان يقتل نفسه.. سيكون هذا أفضل الحلول الممكنة من دون أن يؤذي احدا سواه..

ثم عاد يتيقظ من جديد.. هذا هراء.. إنه يهذي..

الشيء في الصندوق وضعه في مأزق بفضل معه الانتحار على أن يذبح أحبابه.. ولماذا تختار بين الاثنين؟

تُراك ستصمد حتى الصباح؟

تُراك ستصبر صبراً جميلاً؟

لا.. لن يستطيع الصمود.. لو مرت ساعة أخرى سيكون قد ذبح كل احبائه.. أو قتل نفسه.

جلب زجاجة الحبر الشيني ووقف عند حوض المطبخ وسكب كل قطرة فيها على القصيدة، حتى تشوهت تماماً وصارت عسيرة القراءة.. وضعها في العلبة، ثم غادر البيت..

بالتأكيد سمعوا صوت الباب وهو ينغلق.. بالتأكيد أصابهم الذعر وتساءلوا أين هو.. لا يهم..

راح يركض في الشارع الخالي..

راح يركض عبر تلك الأرض الخالية المظلمة.. أرض لم يتم بناؤها بعد وإن كانت بعض الأساسات قد وضعت فيها..

وجد عموداً من خرسانة فركع جواره في الظلام، وراح ينبش وينبش...

فريشت.. فريشت... فريشت..

الصوت يحطم الأعصاب. يمكنك أن تجنّ بلا مبالغة. هناك تلك النغمة المكتومة، وهناك ذلك الإحساس القوي بالتربة الرطبة..

وضع الصندوق الصغير في الحفرة.. ثم راح يهبل فوقه التراب..

عندها رأى ذلك الشخص قادماً من بعيد.. الظلام دامس لكنه يراه في ضوء النجوم.. توقف قلبه للحظة من الذعر. ثم نهض وانطلق يجري بلا توقف..

انت تعرف انه سيجنّ ويقتل نفسه في الأيام القادمة.. لن يفهم احد سبب هذا الضغط العصبي الشنيع الذي آذاه كثيرا.. لكن هذا ليس موضوعنا طبعاً..

☆ ☆ ☆

انا وجدت القصيدة...

يمكنني الآن أن أقدم لك هذا الاعتراف الصغير. كنت عائداً من دار صديق لي وشعرت بنداء غريب يدفعني إلى عبور هذه الأرض الوعرة الخالية من المباني.. كنت أشعر بذعر لكني تماكنت نفسي.

رأيت هاني يدفن شيئاً ويفرّ كالمذعور.. مشيت إلى حيث دفن ما بيده.. واخرجت ذلك الصندوق الصغير..

وعندما فتحت الصندوق شعرت بأنني أعرف القصة كلها..

أعرف الفتى عماداً وهالة وهاني والوغدين صلاح وهشام...

القصيدة قد تلوّث بالحبر الشيني كلها لكني أعرف كل حرف فيها..

سوف تكتمل القصيدة.. ربما تبلغ ألف بيت..

ويوما ما سوف يكملها أحد رجال التبو في منطقة تسيلي – ممن يجيدون العربية - ويضيع في الصحراء وسط العواصف الرملية..

وسوف يموت لكن القصيدة سوف تصل كاملة إلى أوبار..

الآن أنا أملك الصندوق والشيء في الصندوق.. القصيدة..

وأملك أن أنقلها لك.. واعرف أنها ستكتمل. لهذا كتبت هذه القصيدة...

تسعة أبيات في هذه القصيدة. أحدها سوف يكتشف أنها عشرة أبيات.. والقصيدة تزداد طولاً وتنتقل من يد ليد..

أوبار.. قد قمت بواجبي.. فهل انت مسرور؟

(تمت)

رسائل المحبة

هناك مجموعة من الخطابات تتسرب بين الناس في مجتمعنا.. خطابات تدعوهم للفتك ببعضهم.. وأنا أعتقد أن هناك شيئاً ما في الخطابات ذاتها.. شيئاً يشلّ الإرادة.. والسؤال المنطقي هو: ما مصدر هذه الخطابات الغريبة؟..

تساءل أحد الجالسين في ذكاء..

- فعلاً.. ما مصدر هذه الخطابات الغريبة؟

وتساءل آخر في حكمة:

- حقاً.. ما مصدر هذه الخطابات الغريبة؟

☆ ☆ ☆

الاستاذ كمال يفرغ من المجموعة الثالثة..

من حسن حظّه أنه يعطي الدروس الخصوصية في بيته، وليس في مركز متخصص كما يفعل الآخرون، وهذا يتيح له أن يهرع إلى المطبخ من حين لآخر وبين مجموعة وأخرى.. هناك تركت زوجته إناء فيه أرز وإناء فيه خضر.. يدس ملعقة في فمه من هذا الإناء و ذاك.. يمضغ بسرعة ثم يهرع للصبيّة كي يعاود الحديث عن محمد الفاتح والأستانة.. الخ..

المشكلة هي أنه عندما يأتي وقت الطعام الحقيقي. الطعام الذي يجلسون له إلى المائدة، يكون قد شبع تماماً أو انتهى ما في الإناء..

كما أن هذه العادات الغذائية العجيبة جعلت لديه كرشاً لا بأس به، وقد صارت أكثر سراويله لا تنغلق عند الخصر.. غريب هذا!.. كان يعتقد أن عدم انتظام عادات الطعام يجعلك تفقد وزناً ولم يتصور أن هذا يزيدك سمناً..

هرع كمال إلى المطبخ وبعد لنفسه كوباً سورياً من الشاي، قبل قدوم أولى أفراد مجموعة البنات.. خجلي تتحسس أولى درجات عالم الأنوثة في حذر وتوتر. ثم يسمع الضحكات ويعرف أن العدد يتزايد.. يكون قد أنهى الكوب..

زوجته في الخارج عند أمها مع لمياء ابنته. سوف تعود عند منتصف الليل.. وقتها سيكون قد فرغ من التدريس وجلس شارد الذهن يتابع التلفزيون..

يعود لقاعة الدرس ويلقي دعاية أو دعابتين.. البنات يضحكن أكثر من اللازم، والسبب طبعاً هو أنه كهل وسيم جذاب..

يعرف هذا جيداً لكنه لا يحاول استغلاله في شيء أكثر من الفوز ببعض الاحترام...

صار كتاب التاريخ عادة لديه من كثرة ما قام بتدريسه، وهو يعرف كل سطر وكل تاريخ وكل ورطة خبيثة صنعها ممتحنو الوزارة.. ومع الوقت صار يشعر أن هذا كله قد مر به في حياة أخرى.. حتى دعايات التلاميذ وقلة أدبهم وملاحظاتهم.. لقد رأى هذا كله من قبل..

كان الخطاب هناك.. تحت باب غرفة النوم..

انحنى والتقطه.. كان مظروفاً أنيقاً سميكا يوحى بالاحترام.

غريب هذا.. من أين جاء؟.. لا أحد من الصبية يصل لهذا الجزء، لأن قاعة التدريس منعزلة تماماً عن باقي الشقة.. باب واحد يطل على الدرج. لا يوجد مخرج آخر لها سوى الباب الذي يجتازه هو كلما أراد الذهاب للمطبخ والحمام..

فتح المظروف في حذر ليجد ورقة لا تقل فخامة..

"الثلاثاء 18 ابريل.."

"استعد للموت في الثامنة مساءً.."

"مع فائق الاحترام"

ما هذا السخف ومن الذي كتب هذا الهراء؟

حمل الورقة والمظروف إلى غرفة الدرس، ولوح بها وهو يحرج الطلبة بعين نارية:

"من السخيف ابن السخيف الذي جلب هذا الخطاب؟"

كانت النتيجة هي مجموعة من الأبقار تخور.. خطاب ماذا؟..

عم تتكلم بالضبط؟. غباء في العيون لا شك فيه.. يمكن القول إن من فعل هذا ليس في هذه المجموعة بالذات، ولربما كان من مجموعة سابقة. لكن كيف تسلل إلى الشقة؟

صاح في غيظ ناري:

- "سوف أعرف من هو وسوف أذيقه الويل.. سأسلخه سلخ"

هنا تساءلت فتاة على قدر من الجرأة:

"- ماذا في الخطاب بالضبط؟"

"- هذا ليس من شأنك.. لكنه خطاب موجه لي وفيه كلمات وقحة"

وقحة؟.. التهديد بالموت قد يكون مخيفاً وقد يكون موجساً أو مقبضاً لكن لفظة (وقح) لا تنطبق عليه حتماً..

سخف.. لكنه برغم هذا شعر بشيء يعتصر قلبه.. تشاؤم..

انقباض.. سمه ما شئت. الغموض يضفي على الموقف رهبة لا شك فيها.. لو كانت هذه مزحة فهي مزحة سخيفة جداً..

☆ ☆ ☆

الدكتورة هند قامت بتركيب القسطرة، وتأكدت من أن المريضة أفرغت المثانة تماماً.. ثم راحت تنتظر في صبر وتوتر اللحظة الدرامية الكبرى.. لحظة ظهور المشيمة الملفوفة حول نفسها كقطيرة بيتزا..

من مكان ما يعوي الوليد بينها الطبيب المساعد يشفط المخاط من منخريه، واللحظة النهائية الجميلة.. الشعور بالراحة والاستسلام الفخور للأم المبللة بالعرق التي التصق شعرها ببعضه.. هذه الفوضى وكل هذا الدم والإفرازات سوف تنتهي فوراً ويعود كل شيء نظيفاً..

فرغت من العمل فألقت بقفازيها على الأرض في إهمال. تحب هذه اللحظة، خاصة عندما تتذكر قذح الكابوتشينو في غرفة الانتظار.. القذح الساخن الذي ينبعث منه البخار...

تخرج من غرفة الولادة وقد تخلصت كذلك من المريولة الواقية الثقيلة الغارقة في الدم، ومشيت بالشبشب البلاستيكي والبيجامة الزرقاء التي تجعلها كالمجانين. تتجه لغرفة الانتظار وهناك تلقي بنفسها على أريكة...

تنهض إلى خزانة الثياب وتفتحها بالمفتاح الصغير، ثم تبحث بين ثيابها عن علبة السجائر. هنا تجد هذا المظروف الغامض..

مظروف أنيق جداً كأنه قادم من فندق محترم عريق...

عبثت حتى أخرجت الورقة من داخل المظروف وقرات المكتوب:

"الثلاثاء 18 ابريل.."

"استعدي لقتل رجل في الثامنة مساء.."

"مع فائق الاحترام"

ما هذه الدعابة السخيفة؟؟؟ معنى هذا مقلق جداً، وهو أن هناك من يحتفظ بمفتاح لخزانة الثياب سواها، لأن هذا الخطاب لم يكن هنا قبل أن تبدأ عملية التوليد.. ولكن.. النقود... هل؟ غريب.. هناك مبلغ يقترب من ألفي جنيه، لكنه لم يمس بتاتا..

من فعل هذا متسلل وليس لصاً، وكان غرضه الوحيد توصيل الرسالة.. الرسالة التي لا معنى لها.. تلك الصيغة المهذبة المجاملة كأنها دعوة لمؤتمر علمي.. قتل رجل في الثامنة مساء.. دقة غير عادية.. ومن هو ذلك الرجل؟

يمكن أن يكون هذا تحذيراً من خطأ طبي قادم، لكن يجب أن نتذكر أنها لا تتعامل إلا مع النساء منذ سنين.. كيف تقتل رجلاً إذن إن لم يكن دهماً بسيارتها؟.. طبعا هذا احتمال قوي جداً لكن لا تنس أنها لا تجيد القيادة ولم تجلس خلف المقود قط..!

إذن كيف؟ وما معنى هذا الكلام؟

بالطبع قامت بترضية ضميرها واستجوبت بعض العمال والممرضات.. بعض زميلاتهن.. كما توقعت لم تظفر سوى بالبله المغولي وخرس الأسماك.. كلهم أبرياء.. لم يفعل هذا أحد..

فتحت التقويم الذي تضعه على مكتبها:

الثلاثاء الثامنة مساء هو موعدنا في جمعية نسائية طلبت استضافتها..

هل يجب أن تغير الموعد لتجعله موعداً للقتل إذن؟

فرغ مصطفى من تصوير آخر صفحة في المذكرة التي تركتها له طالبة كلية التجارة الحسنة. هذه الفتاة الرشيقة التي لا يعرف اسمها تأتي كل بضعة أيام لتصور بعض تلك المقررات الكئيبة، ولطالما تمنى أن يعرف اسمها.. قرأه ذات مرة على المذكرة (نجوى السيد).. وراح يتنهد مفكرا في نجوى وحلم كثيرا بنجوى، ثم فطن إلى أن هذا حمق.. بالتأكيد نجوى اسم صديقتها صاحبة المذكرة لا اسمها هي.. وبرغم هذا ارتاح للاسم وبالنسبة له ظلت الفتاة نجوى..

كان يصور الورق برفق وحنان وعناية، حتى أنه تذكر باسمًا إسماعيل يس عندما كان يصف لهند رستم الفطيرة التي يصنعها لها عندما كان اسمه (حسونة الفطاطري). نجوى لا تنتظر وإنما تترك له المذكرة وتنصرف باسمه.. ثم تعود بعد ساعات لتأخذ الأصل والصور..

اليوم جلبت له تلك المذكرة التي تحمل اسم (إدارة أعمال) وابتسمت وانصرفت كالعادة.. نسخة واحدة.. تغليف بلاستيك..

فكر في الأمر.. مستحيل أن يتمادى خطوة واحدة أو يفكر فيها هو أبعد. هو (وراق).. ليس سوى هذا ولا أمل في النمو أو التقدم.. لا يجسر على دخول بيت ليقول إنه (وراق).. ليس صاحب مكتبة ولا يملك آلة نسخ المستندات.. هو فقط يجيد التعامل معها وتنظيفها، وهذا معناه أن نجوى ليست له ولن تكون..

تنهد وواصل التصوير.

من المذكرة سقط مطروف أنيق.

هل يجروء على الاعتقاد أن....؟

بالطبع لا يجروء.. الأحلام لا تتحقق بهذه السهولة ولا هذه الروعة..

الخطاب يخصها لكن الفضول دفعه دفعا إلى أن يفتحه.. فيها بعد سوف يحاول أن يغفر لنفسه هذه الزلة الأخلاقية البسيطة. ما معنى هذا؟..

"الثلاثاء 18 ابريل.."

"استعد للموت في الثامنة مساء.."

"مع فائق الاحترام"

هذا كلام عجيب.. والأعجب أن الصيغة موجهة لذكر.. أي أن الخطاب لا يخصها بالذات، لكن لماذا تحمل فتاة خطابا فيه هذه الصيغة الغريبة؟..

ابتلع ريقه.. لن يسالها بالطبع.. لا يستطيع..

أعاد الخطاب لموضعه في المذكرة، لكن شعورا مريرا غمر مؤخرة حلقه.. كان يعتقد أنها أرادت أن يرى الخطاب. فتاة ذكية دقيقة مثلها لا تنسى خطابا في مذكرة إلا لو أرادت أن يراه، ولسبب لا يفهمه قام بعمل نسخة من الخطاب ليدرسها فيما بعد..

كان هذا في الوقت المناسب لأنه شم عطرها.

وعندما نظر للخلف رأى أنها تقف هناك وعلى شفيتها ابتسامة راضية غريبة..

☆ ☆ ☆

أما عن عماد فقد فرغ من تمرينات الإحماء في الإستاد.

كان الطقس باردا في الصباح، ولم تكن لياقته على ما يرام. المدرب يرمقه في كراهية ومقت.. المدرب لا يرى في الكون سواه هذه الأيام، ولو حدث زلزال في شيلى لأتهمه بأنه السبب..

لم يكن راضيا عن جسده.. جسده يخذله ويتخلى عنه، وقد بدأ الشحم بتجمع حول الخصر.. بعد الجري لعشر دقائق في المضمار بدا يشعر بأن صدره يضيق وأن عضلاته تؤله وسال عرق غزير على جبينه وبلل الفانلة..

ثم جاءت الطامة الكبرى عندما تقلصت عضلة ساقه.. شعور بسكين حادة تنغرس في السمانة، وهكذا راح يتواثب كاللقلق..

في النهاية جلس على الأرض وراح يعوي..

نظر له المدرب في غل ثم أمره بأن ينصرف..

"- لا اريدك هنا اليوم.. عد لأمك ونم"

شاعرا بالإهانة عرج عماد حتى بلغ غرفة استبدال الثياب بالنادي.

هو وحيد هنا.. الخائب الوحيد الذي لم يكمل التدريب.. فتح خزانة الثياب.. هنا فوجى بمظروف أنيق.. من اين جاء ومن وضعه هنا؟

كانت في المظروف رسالة تقول:

"الثلاثاء 18 ابريل.."

"استعد لقتل رجل في الثامنة مساء.."

"مع فائق الاحترام"

ما معنى هذا؟.. هل سيقتل أحدا؟.. من هو؟.. كيف؟.. من كتب هذا الكلام..

مقلب.. لكنه لم يستطع أن يقبله ببساطة. الأمر غير مريح ومقبض إلى حد ما.. لكن على الأقل لا توجد تفاصيل أخرى..

جفف عرقه وراح يرمق الخطاب في غباء..

احدهم يمزح مزاحا سخيفا ولسوف يدفع الثمن..

من يدري؟.. لربما كان صاحب هذه الدعابة هو الشخص الذي سيقتله لأنه سيفقد أعصابه بالتأكيد.....

نعم.. كان عماد قصير الفتيل يتشاجر بسهولة جدا.. وهذا يناسب صورته تماما: رياضي سيئ وخال من الروح الرياضية..

☆ ☆ ☆

في الاجتماع العاشر للجمعية الروحانية المصرية..

كان الاجتماع ناجحا وقد تم استعراض عدد من الأبحاث المهمة وتفنيده بعض الإشاعات التي اجتاحت المجتمع في الفترة الأخيرة.

بدأت الجلسة الخامسة.. لم يكن مؤتمرا كالمؤتمرات التي نعرفها، بل هو أقرب إلى جلسة أصدقاء استأجروا قاعة في نادٍ خاص..

الدكتور فكرون هو شيخ في الستين له لحية قصيرة مشدبه ونظارة سميكة ويضع بابيون كاروهات عملاقا.. قال وهو يقلب في أوراقه:

"قد يبدو كلامي سخيفا... قد يبدو غير متوقع.. لكنني أطلب من السادة الجالسين أن يصغوا لي بعناية.."

مقدمة جعلت الجميع يصغون له بعناية فعلا.. بينما أردف:

"هناك مجموعة من الخطابات تتسرب بين الناس في مجتمعنا.."

خطابات تدعوهم للفتك ببعضهم.. وأنا أعتقد أن هناك شيئا ما في الخطابات ذاتها.. شيئا يشل الإرادة.. والسؤال المنطقي هو: ما مصدر هذه الخطابات الغريبة؟.. "

تساءل أحد الجالسين في ذكاء:

"فعلا.. ما مصدر هذه الخطابات الغريبة؟"

وتساءل آخر في حكمة:

"حقا.. ما مصدر هذه الخطابات الغريبة؟"

ابتسم د. فكرون في مكر وقال:

"- نظريتي تقول إن من يرسل هذه الخطابات هو لوسيفر.. الشيطان ذاته؟"

تبادل الجميع النظرات..

الحق إن هذا قد يكون مسليا لكنه السخف ذاته.. والسخف لا يتعارض مع التسلية على كل حال..

قال أحدهم:

"سيدي.. إن لم تكن تمزح فأنت قد جننت!"

في عصبية شرب فكرون جرعة من الماء وقال:

"- من حقكم اتهامي بالجنون.. لكنني سوف أقدم لكم الدليل حالا"

☆ ☆ ☆

الثلاثاء 18 إبريل سوف يبقى طويلا في ذاكرة من رأوه..

كان هذا في النادي الرياضي الذي لم اذكر اسمه بالطبع.. ما حدث هو أن عددا زائدا من المتسللين ظهر فجأة.. أشخاصا ليسوا أعضاء بالنادي ظهروا وبدا كل منهم كان له هدفا واحدا محددا..

كان حراس البوابة أميل للتراخي خاصة في هذه الساعة من مساء الثلاثاء، حيث بدت الحياة ناعسة رخوة ولا يمكن أن تتوقع أن ينهار الكون لو أن بعض المتسللين دخلوا النادي. وهكذا دخل إلى النادي نحو عشرة أشخاص.. عشرين شخصا..

لو أنك رأيت الواحد لشعرت برجفة قشعريرة تزحف على عمود الفقري حتى لتكسوه بالثلج على طريقة أفلام توم وجيري. النظرة الجامدة والخطوات الثابتة.. ثم السلاح..

السلاح الذي كان مخفيا في كيس ورقي أو في الجيوب لحظة اجتياز البوابة، ثم ظهر للعيون. ماذا تفعل عندما ترى هذا التمثال الآدمي يمشي في خطوات ثابتة نحو ملعب كرة القدم المترامي، وفي يده مسدس لا يوحى بالثقة، أو سكين شريرة أو سيف خبيث؟.. سوف تخطر لك أفكار كثيرة لكن لن يكون من بينها الضحك أو الاسترخاء..

هناك كان الملعب يسبح في ضوء الكشافات الليلية الباردة..

الطقس بارد لكنك تسمع بعض الحشرات الليلية التي صممت على أن موعد الربيع حان منذ شهر.

فيما بعد قال الشهود إن القتل تم بترتيب غريب..

هناك ذلك الشاب الرياضي الذي قيل إنه لاعب كرة يدعى عماد..

لقد هوى ببلطة صغيرة على رجل مسن.. سقط الرجل أرضا والبلطة في رأسه، هنا انقضت الطيبة التي قيل إن اسمها هند على الشاب الرياضي لتغرس في مؤخرة عنقه مبضعا طويلا.. لم ينتظر أو يصرخ أو يبد أي انفعالات.. سقط كجوال مثقوب...

هنا أطلق أحدهم الرصاص على رأس الطيبة.. سقطت أرضا بدورها، وعرفوا فيها بعد أن القاتل مدرس يدعى الأستاذ كمال..

كان هذا عندما أفرغ الشاب المدعو مصطفى مسدسًا آخر في رأس المدرس..

وقبل أن يفهم الناس ما يحدث هوى رجل ضخم الجثة عرفوا فيما بعد أنه ميكانيكي.. هوى بعضا ثقيلة على راس الشاب..

سلسلة مريعة من القتل والطعن والتهشيم.. أعتقد أن الغربيين يطلقون على هذا المشهد مصطلح Melee....

لقد كانت لحظات قاسية بحق..

وفي النهاية كانت هناك امرأة ظلت حية بعد ما أطلقت آخر رصاصة على رأس رجل بدين.. وقفت للحظة تحت الكشافات كأنها تحلم أو تنتظر شيئا ما، ثم بلا تردد رفعت الفوهة نحو

رأسها واطلقت الرصاص..

فقط الذين امتلكوا أعصاباً قوية ثابتة تمكنوا من رؤية المشهد كاملاً لأن الغالبية هربوا أو رقدوا على العشب وأخفوا الرؤوس..

هؤلاء الذين تحملوا رؤية عشرين جثة تتكدس خلال عشر دقائق، هم الذين استطاعوا أن يصفوا للشرطة ما حدث بالضبط...

وقد وقف رجال المباحث غير مصدقين.. يلتقطون عشرات الصور ويضربون كفاً بكف..

واضح تماماً أن القتلى من عينات متباينة من البشر.. رجال ونساء.. طبقات اجتماعية مختلفة.. لا توجد قصة واحدة تربط هؤلاء.. ليسوا طلبة مدرسة مثلاً تشاجروا من أجل فتاة، وليسوا مهريين تشاجروا على البضاعة، وليسوا أبناء حي شعبي دخلوا في مشاجرة بسبب مياه قذرة ألقيت على غسيل إحداهن..

هذا تصرف غير مفهوم ويبدو مبرمجاً..

هل ترون هذا الضابط الوسيم الذي يبدو كمثلي السينما؟.. إنه الرائد حمدي الذي يتولى التحقيق في هذه القضية وسوف يلاقي الأمرين بالطبع.

يدخن بشراهة.. يدخل بلا توقف.. ليس الوقت مناسباً لتوجيه النصيح له على كل حال، لأن صحته هي آخر شيء يفكر فيه الآن..

إنه يركع جوار جثة ذلك الفتى الذي سيعرف بعد حين أنه عماد..

يتفحص الجثة ولا يجرؤ على انتزاع الموضع المغروس في مؤخرة عنقه طبعاً.. البصمات.. يمد يده ليعبث في جيبه.. يجد ورقة مطوية..

مد يده في جيبه ولفها بمنديل ثم عاد يعبث في الجيب..

أخرج ورقة مطوية.. كتب عليها بخط أنيق:

"الثلاثاء 18 ابريل..

"استعد لقتل رجل في الثامنة مساء ..

"مع فائق الاحترام"

نظر الضابط لساعته.. هذا غريب.. الثامنة مساء هي فعلاً الوقت الذي حدثت فيه هذه المجزرة.. هل هذا الرجل قاتل مأجور؟.. لو كان كذلك فلماذا قُتل؟ لماذا لم يفعل فعلته ويفر؟..

وهل سمع أحد عن اجتماع القتلة المأجورين في ملعب كرة قدم ليقتلوا بعضهم؟.. هل هو مهرجان؟

عاد يعبث في جيب قتيل آخر..

نفس الورقة ونفس الرسالة واللهجة المهذبة..

- اللهجة المهذبة المخيفة.. أحيانا يكون التهذيب مربعا أو يسبب التوتر أكثر من قلة الأدب بمراحل.. في بريطانيا أيام الإعدام القديمة كانوا يرسلون للسجين رسالة تقول: تقرر إعدامكم مع فائق الاحترام !.. لا يا سيدي.. اشميني واتركني حيا.. لا أريد تهذيبك هذا..

رفع حمدي رأسه وقال وهو يتنهد:

"الأمر محير.. كل هؤلاء تلقوا دعوة للحضور هنا.. بعضهم تلقى دعوة للقتل والبعض تلقى دعوة للموت.. ومن الواضح انهم جميعا قُتلوا وقُتلوا.."

ثم قال لرجل المختبر الجنائي:

"حافظوا على هذه الأوراق. إنها الدليل الوحيد معنا"

☆ ☆ ☆

قال د. فكرون:

"- يا سادة.. اطالبكم بالانتباه والصمت من فضلكم.. اطفئ النور من فضلك "

تم اشعل عود ثقاب وانتظر لحظة حتى يتوهج.. و أمسك بورقة من نوع فاخر..

لامس العود الورق.. وبدا هذا الأخير يشتعل ويتوهج..

ثم اطلق الجالسون شهقات الرعب.

الظلام شديد على المنصة لكنني أعتقد أن هناك امرأة فقدت وعيها من الذعر. هذا ما قيل لي على كل حال...

هل هذا الذي نراه حقيقي؟

☆ ☆ ☆

آه لو كنت معي في تلك اللحظات!

هناك مواقف في الحياة يغدو من السخف أن تحاول وضعها في كلمات. وإلا لكان من السهل أن تصف شعورك عندما همست هي بأنها تحبك، أو عندما رأيت أنا أبي يغمض عينيه لآخر مرة ويأبى أن يرد علي.. كل هذه أمور عاصية على الوصف، معجزة لقدرة اللغة على التعبير...

الأسهل أن ترى معي هذا المشهد الرهيب..

كان الخطاب يحترق في يد الدكتور فكرون، وعندما بدأ اللهب يتصاعد.. ثم الدخان..

أنت لا تحلم ولا تهذي.. أنت ترى ما نراه جميعا.. هذا وجه شيطاني له قرنان يضحك في سخرية، وقد صنعه اللهب والدخان كأنه رسم بألعاب نارية في كرنفال.. يرتفع إلى نحو ثلاثة أمتار فوق الرؤوس..

صرخات.. في الظلام بدا المشهد رهيبا فعلا..

قال د. فكرون وهو ما زال يمسك طرف الورقة برباطة جأش:

"- كما تلاحظون.. لا يوجد تفسير لهذه الظاهرة الشيطانية سوى أن هذا وجه الشيطان.. إنه توقيعه.. وهكذا يمكن أن نعرف من أرسل الخطابات.."

صاح أحد الجالسين:

"أنت تعبت بنا.. رأيت حيلة مماثلة في أحد ملاهي كوبنهاجن.."

قال د. فكرون دون أن يرفع عينه نحوه:

"- هذا جميل.. أرجو أن تعتلي المنصة وترينا كيف تفعل ذلك وإلا فلنصمت.."

كان الدخان يخبو والنار تفتني.. وبدأ الظلام يزحف من جديد على القاعة، وهنا أدركنا حقيقة مرعبة أخرى: رائحة الكبريت تخنقنا.. لم يحضر احد الكبريت هنا وليس هناك مختبر قريب. إنها رائحة الشيطان ذاته...

"- أرجو أن تعيدوا الإضاءة"

عندما عاد النور للقاعة كنا نشعر شعورا غريبا..

هذه هي تقريبا اللحظة التي أدرك فيها الجميع أن هناك دائرة حمراء على جيبيني. دائرة حمراء متقنة الرسم فاقع لونها. وكنت اسال فكرون:

"- من أوحى لك بأن تحرق الخطاب؟"

قال باسمًا:

"- ككل اختراع في التاريخ لعبت الصدفة دورا.. كنت أدخن السيجار وأنا أفحص الخطاب. هنا سقط الرماد المشتعل على الورقة واحترقت.. رأيت هذا الوهج الغريب.. كان لدي خطابان آخران.. أحرقت الأول للتأكد وهذا هو الثاني.."

لماذا ينظر لي في فضول؟.. لماذا؟

قال وهو يضع الرماد الباقي في إناء برونزي صغير:

"- الآن تعرفون أنني على حق.. هذه هي أول خطوة.. بالنسبة لك يا زميل، أرى أن الشيطان قد ألقى عليك بعلامة الموصومين، لذا أطلب منك أن تغادر القاعة لسلامة الجميع"

من؟

كان علي أن أضيع خمس دقائق من البلاهة والغباء وعدم الفهم، قبل أن أفهم ما حدث لوجهي فعلا.

☆ ☆ ☆

أوقات صعبة مرت برجال المختبر الجنائي وهم يفحصون ما وجدوه من خطابات المحبة. بالطبع لم يخطر لأي منهم أن يشعل النار في خطاب، فلا أحد يحرق الأدلة.. ولو فعلوا لأصابهم العجب..

الرائد حمدي كان موشكا على الجنون.. بالنسبة له هو يتوقع أن يمسك رجال المختبر الجنائي

بخطاب ثم يصبحون: الفاعل فلان المقيم في شارع فلان.. نوعية الورق تدل على أنه تم شراؤه من مصنع فلان، وهذا يقع جوار بيت فلان..

ما نفعهم إذن؟.. وماذا يصنعون بكل أجهزة المجهر هذه؟.. لا شيء.. كان رأيه طويلة حياته أن العلم لا نفع له ولا جدوى..

مجرد إضاعة وقت..

اشعل لفافة تبغ جديدة وراح يراقب ما يقومون به. مذبحه النادي كانت عملية مخيفة وقد تحدثت عنها الصحافة.. سوف تطير رءوس كثيرة لو لم يتم القبض على الفاعل أو تفسير ما حدث.

لكنه ليس قلقا على رأسه.. ما يشعر به هو نوع من الاستفزاز الصبياني لدى الشعور بالتحدي.. عندما كان يرى صبيين يلعبان لعبة صعبة كان يصرُّ على أن يجرب نفسه فيها.. لا يهتم بأن يكسب مالا أو يتجنب عقابا.. لا يريد سوى التحدي فقط....

قال د. نعمان وهو يصبّ لنفسه بعض القهوة:

- "لا ننكر أن هناك مادة كيميائية تشبع بها الورق..

اتسعت عيننا حمدي.. ما معنى هذا؟

قال د. نعمان:

- "مادة كيميائية.. أعتقد أنها تسبب نوعا من التخدير وربما تضعف الإرادة"

- "ما اسمها؟"

"تركيبها قريب جدا من مادة الهيسين.. تستعملها أجهزة المخابرات في الخارج أحيانا.. لكننا بحاجة إلى تحليل أدق باستخدام جهاز HLPC""

من جديد توتر الرائد الشاب وأشعل لفافة أخرى:

- "هل تعني أن من أرسل الخطابات شبع الورق بادة ترغم المتلقي على التنفيذ؟"

- "هذا احتمال وارد جدا"

خفية.. الأمر يتضح.. شعر بشعر رأسه ينتصب.. القصة كبيرة إذن..

- "متى نعرف الحقيقة؟"

- "لا أدري.. سوف نحاول طلب خبرات قسم الكيمياء بكلية العلوم. فإن لم نستطع لربما أرسلنا العينة للخارج."

للخارج؟.. سوف يستغرق هذا دهرًا كاملاً... سوف تموت شعوب وتولد شعوب وتنهار جبال وتحترق مجرات كاملة إلى أن يحدث هذا..

- "إذن ابدأ الآن وحالا.."

عقار يضعف إرادة الناس.. هذا يجعل الأمور مفهومة..

لكن ماذا عن المكان وأوامر القتل؟.. الخطاب يعدّك للموت فقط لكن لا يخبرك بالطريقة، فكيف عرفوا مكان اللقاء؟.. هل هناك خطاب آخر أو مكالمة هاتفية؟

لو ظل أحد هؤلاء الحمقى حيًّا لانتهت المشكلة.

غادر الرائد المختبر، فاتجه إلى سيارة الشرطة..

كان المجند السائق واقفا مستندا إلى السيارة يدخن، فلما رآه أجفل، القى بلفافة التبغ ثم هرع يدخل العربة ويدير المحرك.. لم يعلق حمدي.. كان مرهقا بالفعل برغم أنه مولع بإهانة الآخرين وتعنيفهم، وخير وقت لذلك هو عندما يشعر أن الأمور غير مفهومة..

جلس حمدي في مقعده وأشعل لفاقة تبغ..

هنا رأى ذلك المظروف الأنيق على التابلوه..

نظر للمجند في حيرة:

"- من جاء بهذا؟

بدا الغباء على الرجل.. لا يعرف ولم ير من جلبه..

مد يده وفتح المظروف في ضيق وقلبه يدق عاليا.. وقرأ المكتوب:

"الخميس 27 إبريل..

"استعد للموت في الرابعة عصرا.

"مع فائق الاحترام"

هكذا إذن؟.. لقد ظفروا بي..

لكن من هم؟

☆ ☆ ☆

عندما اجتمع الرائد حمدي مع رؤسائه كان الدخان ينعقد في سماء الغرفة، حتى لتشعر أن هطول المطر وشيك.. وكانت الوجوه مكفهرة بما يكفي.

"بصمات؟"

"بصماتي أنا فقط يا سيدي"

"المختبر الجنائي؟"

"لا شيء.. لكنها تلك المادة التي يرتابون فيها.."

طريقة وضع الخطاب في تابلوه السيارة.. هذه قدرات غير عادية ما لم يكن السائق متواطئا.. وهذا احتمال تم استبعاده. الأمر أقرب لشبح طار ووضع هذا الخطاب..

فكر اللواء جابر بعض الوقت، ورشف رشفة من القهوة التي امامه ثم قال:

"الخميس 27 إبريل.. هل لديك سبب يجعل هذا التاريخ ذا اهمية؟"

لا.. ولا الرابعة عصرا"

تساءل عميد جالس وهو يشعل لفافة تبغ أخرى:

"هل تعرف أين ستكون وقتها؟"

ابتسم حمدي وهز كتفيه.. نحن في مصر.. وفي مصر لا يوجد تخطيط مُحكم لهذا الحد. لا يعرف أين سيكون في ذلك اليوم طبعاً..

"هل تلقيت دعوة لمكان ما؟"

كانت المشكلة هي أن الخطابات تحدد الموعد لا المكان. هناك أحد الأبعاد غير مذكور كما في كل مرة، ومعنى هذا أن هناك خطاباً آخر في الطريق أو مكالمة هاتفية تحدد هذا المكان. مما سبق من أحداث يمكن القول إن هذه ليست دعاة وإن الخطر داهم والإنذار حقيقي فعلاً. رسائل المحبة تصل لرجال الشرطة أيضاً..

قال اللواء:

"برغم خطورة الموقف فإنني مسرور.. واحد من رجالنا متورط في المستنقع وسوف يحكي لنا كل شيء ونعرف منه التفاصيل أولاً بأول. ألا ترى هذا معي؟"

"بلى"

كان حمدي يجد نفسه فعلاً وسط رجال الشرطة وجو الداخلية. هذا الجو الحاسم العملي، بينما كان يشعر مع العلم والعلماء أنه ضائع وأنه لا يتجه لأي مكان من أي نوع.. جو الشرطة يناسب طبيعته الملول العصبية..

قال العميد:

"إن لدينا وقتاً كافياً كي نضع حولك رقابة محكمة.. وأنت تعرف أن عليك ألا تتهور أو تأتي بأعمال بطولية لا نعرفها.. كم بقي من الزمن؟.. ثلاثة أيام؟.. سوف نعرف كيف نحملك..

حمدي كان يعرف أنه قادر على حماية نفسه.. هو ليس أحق كالآخرين..

فقط عليه أن يعرف السر..

لم تختف العلامة من جبيني..

هذا غريب.. لقد حدث هذا من قبل لدي احتراق خطاب، لكنها زالت بسرعة.. من الواضح هذه المرة أنها ستبقى..

أنا لا أعرف ما دهاني ولا ما حل بي. فقط أعرف أنني ملعون وأحمل وصمة ما..

وقفت أمام المرأة أتأمل تلك الدائرة الحمراء. لقد تفحصها كل شخص صادفته اليوم تقريباً.. تأثير الفضول بشدة والغريب أنها منتظمة كاملة الاستدارة كأنها رسمت بالبرجل.

تناولت مرطبان كريم الأساس الذي جلبته وبدأت أضع طبقة على جبيني..

أنا أعرف جيدا أن لي علاقة بهذه القصة. لقد وجدت الخطابات قبل إرسالها في خزانة ثيابي.. لا أعرف من أين جاءت ولا ممن أخذتها، لكنها كانت هناك.. لا أعرف كيف قمت بتوزيعها لكن هذا حدث.. فجأة لم تعد عندي، ومن الواضح أنني لم ألمسها بيدي لأنه لا توجد بصمات..

أنا لا أفهم التفاصيل.. لكنني أعرف يقينا أنني شيطان أو ممسوس، وعليّ أن أتحرك على هذا الأساس..

بدأت أضع مسحوقا بلون البشرة..

لا بأس.. أعتقد أنها لم تعد بادية للعيون..

لن يعرف أحد إنني موصوم.. على الأقل اليوم..

كنت أفكر في دكتور فكرون. يجب أن أقابله وأخذ رأيه.. ولماذا د. فكرون؟.. لأنه الوحيد الذي يبدو على علم ولو واهن بالقصة. هو الوحيد الذي استنتج أن من يرسل هذه الخطابات هو الشيطان..

اتجهت للصالة..

هنا فوجئت بشيء غريب..

هناك مظروف تحت الباب. مظروف أنيق من ورق فاخر.. لقد دفعه أحدهم منذ قليل..

هل جاء دوري إذن في دائرة خطابات المحبة المشئومة تلك؟

انحنيت وتناولت الخطاب.. ربي جاف لذا حاولت أن أبلى شفتي بلساني.. كانت انامي ترتجف.. طريقة القتل هنا تجعل القاتل يموت قتيلا، وهكذا تموت كل الأسرار، ولربما يحدث هذا مع الخطابات أيضا.. أنا أرسل الخطابات ولكن هناك لحظة سوف ألقى فيها خطابي الخاص..

فتحت الخطاب وقرأت في رعب:

"مهندس محمد شاكر ومهندس عادل الشاذلي

يتشرفان بدعوتكم لحفل زفاف كريمة الأول إلى ابن الثاني، وذلك يوم..... الخ..

الحمد لله.. لم يات موعدي بعد!

هناك اناس رائقة البال يتزوج أبناؤها.. هذا شيء منعش..

☆ ☆ ☆

قلب د. فكرون صفحات الكتاب ثم قال لتلميذه:

السؤال هو: لماذا اجتمع هؤلاء في نادٍ رياضي؟"

كان رامز نحيلًا عصبيا تحت عينيه ظلال كثيفة، ويبدو أن قراءة علوم الغيبيات قد أورثته كآبة لا شك فيها.. ولم يكن يبدل اللون الأسود أبدا مما جعله يبدو كمصاص دماء في فيلم من أفلام

هامر.

قال رامز:

"هذا سهل.. النادي الرياضي يمنح مساحة لا بأس بها ليجتمع المتحاربون.. ساحة قتال تشبه الحلبة الرومانية.."

قال فكرون وهو يعتصر خده:

"كلا.. أريد إجابة أقوى من هذا.."

"مثل؟"

"لا أدري"

خطر لرامز أن أستاذه يتعمد الغموض للغموض.. نوع صبياني من إثارة الاهتمام.. يسأل ولا إجابة عنده.. هذا يثير الغيظ..

هنا دق جرس الباب فذهب ليفتحه.. وجد فتاة رقيقة تقف في تردد:

"أستاذ فكرون؟"

"هو هنا.. ومن أنت؟"

"لمياء صالح.. صحفية"

سمع فكرون من وراء ظهره يأمره بأن يسمح لها بالدخول..

تحركت هالة من العطر الساحر قبلها وبعدها مع صوت الكعب الأثوي الرقيق..

وفي النهاية كانت تجلس أمام فكرون..

"انا صحفية.. كنت أريد معلومات أكثر عما ذكرته عن تلك الخطابات. خطابات الشيطان"

"تتكلمين عن الاجتماع العاشر للجمعية الروحانية المصرية.."

"هو كذلك.. كنت هناك لكن لم أستطع جمع معلومات أكثر.."

تم أخرجت جهاز كاسيت صغيرا وعادت تسأل:

"هل تعتقد أن للأمر علاقة بانتهاء العالم في 2012؟"

"من قال إنه سينتهي في 2012؟"

"اساطير المايا.."

قال ضاحكا:

"العالم انتهى ألف مرة من قبل. شهود يهوه لا يكفون عن انتظار النهاية وفي كل مرة يحددون تاريخًا. قدوم الشيطان كذلك قتل بحثا من قبل. علامة الوحش 666 وغير ذلك.. يدهشني أن هؤلاء القوم لا ينتحرون بسبب الشعور بالحرَج.."

"لكنك تحدثت عن خطابات يرسلها الشيطان ويدعو الناس للموت أو القتل يوم 18 إبريل.."

ابتسم في غموض ثم قال:

"أنت تعرفين تلك التمثيليات البوليسية القديمة.. أنا لم أخنق زوجتي يا سيدي المفتش.. ومن قال إنها ماتت مخنوقة يا سيدي؟.. إذن أنت القاتل!.."

"لا افهم"

"أنا لم أذكر حرفاً عن 18 إبريل في محاضرتي. فكيف عرفت التاريخ؟"

☆ ☆ ☆

عندما دق جرس الباب من جديد قوطعت المحادثة للحظات.

أدرك نكرون من العينين الزائغتين للفتاة انها في مأزق.. مشكلة البحث عن رد سريع. يحب هو توجيه هذه الضربات الخاطفة..

عندما انفتح الباب كان هذا أنا..

كنت أقف هناك متردداً أجفف قطرات الماء.. النظارة السوداء، والشارب الذي حلقتة والثياب غير المعتادة.. الحقيقة أنني لم اعرف نفسي في المرأة. من أهم أساليب التنكر أن ترتدي ثياباً لم يعتد الناس أن يروها عليك.. هذا يختصر 80% من الجهد..

"- استاذ فكرون؟"

"- هو هنا.."

"- نصر الخولي.. صحفي"

ابتسم رامز ونظر للخلف ثم سمح لي بالدخول..

هنا وجدت د. فكرون يقف في وسط الغرفة عاقداً ذراعيه على صدره، وجواره تلك الفتاة الرقيقة التي لم أرها من قبل..

قال لي بتلك البسمة الساخرة نوعاً التي تبدو عليمة بكل شيء:

"- المطر غزير بالخارج؟.. لم تجد سيارة أجرة من الزمالك لهذا.. هه؟"

تحسست شعري في ذعري.. بالفعل. أنا مبتل تماماً.. كل خصلات شعري متلاصقة..

ولكن هذا معناه..

هرعت أنظر إلى المرأة المعلقة على الجدار فرأيت جبهتي وقد ذاب كريم الأساس، وبدت تلك البقعة الحمراء واضحة تماماً..

نظرت له نظرة ذنب فقال لي:

- "اغسل وجهك وتخلص من هذا الكريم والمساحيق، ثم تعال نواصل الكلام"

هكذا دخلت إلى حمام صغير نظيف.. هناك قطعة صابون عطرة الرائحة وماء ساخن.. رحت

بعناية أنظف وجهي وأنا أتأمله في المرأة. تبدو لي مهذبا وابن ناس يا صاحبي.. من الحرام أن تكون شيطانا أو خليفة شيطان... بالطبع مسحت وجهي في المنشفة فاتسخت بشدة.. لا يهم. لا أعتقد أن فكرون يلاحظ هذه الأمور..

لما عدت للغرفة كان الرجل جالسا وكانت رائحة القهوة الزكية تعبق الجو. هناك أقداح عدة منها واحد لي!.. واحد لي!..

جلست ورشفت رشفة بينما قال د. فكرون:

"كما يبدو لي فسبب مجيئك هنا هو نفس سبب مجيء الأنسة لمياء.. طبعا لمياء ونصر هما في الحقيقة أي شخصين آخرين.. كل الأسماء مستعارة هنا.. والآن يا لمياء هل بوسعي أن أطلب منك أن تمسحي جبهتك؟"

قالت الفتاة في عصبية:

"لا.. لا أريد أن يراها أحد"

هنا تساءلت أنا:

"- من أين تأتي هذه الوصمة؟.. أنت طردتني من المؤتمر لأنك رأيتها على جبهتي، وكنت آمل أن اخدعك اليوم.. لماذا لا تطردنا الآن؟"

رشف رشفة من القهوة وقال:

"لأن اللغز ما زال مبهمًا وانتما بحاجة لي. أنتما خادمان للشيطان..

بالتأكيد هناك سواكها ومن الواضح انكما اشتركتما في الإعداد لمذبحة 18 إبريل.. من أين تأتي الخطابات ومن يكتبها وكيف يتم تسليمها؟"

قالت لمياء وهي ترتجف:

"- أنا كنت أسلم خطاباتي بنفسي.."

"- جميل. من أين تصلك؟"

"- لا أدري.. أجدها تحت الوسادة.."

نظر لي:

"- وأنت؟"

"نفس الشيء.."

ثم فرك كفيه وقال:

"هل تريدان رأيي؟.. ارحلا الآن وتبادلا الحديث.. تناولا العشاء معا.. اجلسا في مكان وثرثرا.. سوف تتداعى الذكريات.. سوف تتذكران شيئا منسيا ولسوف تتضح الحقيقة. إن العصف الدماغي قوة لا يستهان بها، وهذا هو أساس جلسات استحضار الأرواح كما تعرفان.. عندما تصلان لشيء يمكنكما طلب رأيي"

ثم هز إصبعه في وجه الفتاة:

"لا تحاولي خداع د. فكرون ثانية.. منذ اللحظة الأولى عرفت أنك لستِ صحفية.. ثم لاحظت أن المساحيق كثيفة جدا على جبهتك.. بعد هذا لاحظت عبارة (18 إبريل) التي انزلق بها لسانك.. أنت أردت أن تشتري ولا تبيعي.. تعرفي ما أعرفه ولا تخبريني بشيء.. طبعاً واضح أن هذه صفقة فاشلة"

نظرت لها ونظرت لي..

مستقبل غريب فعلاً..

☆ ☆ ☆

في الساعة الثانية مساءً بدأ حمدي يتوتر..

كان هذا هو يوم 27 إبريل..

راح يجوب شفته في قلق.. وكان يعرف بالضبط إلى أين هو ذاهب وما سيقوم به. اتجه إلى الهاتف ورفع الساعة.. سيطلب اللواء ويخبره بكل شيء.. لا يعرف كيف ولا متى وجد السلك مقطوعاً يتدلى على الأرض.. لقد قطعه.. قطعه دون أن يشعر!

دسّ المسدس في جرابه المعلق تحت إبطه وارتدى السترة الأنيقة..

شعور غريب أن تدرك أنك لن تلبس السترة بعد اليوم.. لن تبقي في دارك أصلاً... سوف تكون تحت الأرض في مكان مظلم رطب..

ما هذا الجنون؟.. تتكلم كأن هذا تم فع؟.. يجب أن تتمالك أعصابك..

رفع الهاتف المحمول ليتكلم ثم أدرك أنه مكسور.. متى؟ ...

لابد أنه أخذه للمطبخ وهشمه بيد الهاون..

كان يعرف ما يحدث.. لقد مر على شقة جاره منذ نصف ساعة.

حكى له قصة معقدة عن العصابة التي تقتفي أثره.. لا يريد منه سوى أن يلبس هذه البذلة الرمادية ويغادر البناية. سوف يمشي خلفه عدد من الأشخاص.. لن يؤذوه.. فقط سوف يتبعونه إلى أن يجد أي سيارة أجرة يركبها ويعود بها.. علمه طريقة الخلاص من المتابعة و كيف يبدل سيارة الأجرة فجأة. الخ.. الجار شاب متحمس يعشق المخاطرة وقد وافق على الفور..

هكذا وقف حمدي يضحك في خبث وهو يختلس النظر من الشرفة ليرى المخبزين المكلفين بحمايته يقتفون اثر جاره لأنه يلبس نفس البذلة وله نفس القامة..

لماذا فعل هذا؟. لا يعرف.. يجب أن يفعل هذا.. ربما لأنه يريد حل اللغز..

وربما لا؟

عندما غادر البناية بعد دقائق واتجه لمرآب السيارات لم يدرك أن هناك سيارتي شرطة تقفان للمراقبة، وإذ تحرك بسيارته انطلقت سيارة تقفوا أثره..

تبا!.. لم يتخلص منهم بعد...

انطلق بسيارته بأقصى سرعة في الشارع المزدحم. هو بارع في القيادة فعلا ويعرف أنهم لن يلحقوا به.. فجأة انعطف يسارا بلا انوار ليدخل شارعا ذا اتجاه واحد..

"ايها الحمار؟"

كانت هذه صيحات السيارات التي وجدته أمامها فجأة..

و عند قمة الشارع وجد شرطيا على دراجة بخارية يشير له كي يتوقف.. يا للحظ!.. اخرج الكارنيه ولوح به تحت أنف الشرطي المذعور ثم انطلق بسيارته مسرعا.. لحسن الحظ نحن لسنا في دولة متقدمة وإلا لكانت هناك طائرة هليكوبتر ترصد تحركاته من أعلى، ثم تهبط أمامه..

"الخميس 27 إبريل..

"استعد للموت في الرابعة عصرا.

"مع فائق الاحترام"

هكذا قال الخطاب.. الجديد هنا أنه يعرف مكان اللقاء.. قرب الاستاد الرياضي.. فقط يجب أن يسرع وإلا فاته الموعد الرائع.

موعد حفل الدماء الذي سيقام في الرابعة عصرا.

☆ ☆ ☆

عند ذلك المحل الخالي الخاص بالاتصالات في شارع جانبي أوقف سيارته، واعترف لنفسه بأنه فقد الاتجاه تماما.. لا يعرف أين هو بتاتا.. كان المحرك يلهث من الإنهاك، وكذلك هو.. قلبه يتواثب بلا توقف.. الدخان يتصاعد من ماسورة العادم ومن رثتيه..

طلب الهاتف من البائع الذي ظل يرمقه في دهشة.. هناك أمر يتعلق بالحياة والموت.. ليس أقل..

طلب رقم اللواء جابر الذي يحفظه لحسن الحظ.. عندما جاء صوت الرجل المتقدم في السن، والذي يبدو أنه كان يوشك على النوم بعد الغداء، صاح حمدي في دعر:

".سيدي.. أنا لا أستطيع السيطرة على نفسي"

احتاج لبعض الوقت حتى يشرح سبب اتصاله من هاتف آخر..

هتف اللواء عبر الهاتف:

"اهدأ يا حمدي.. أين أنت؟. ولماذا قررت من المراقبة؟"

"لا أعرف السبب يا سيدي.. لهذا اتصلت.. أنا في ورطة..

كان.. كأن هناك جزءا من ذاتي يدفعني دفعا للموعد.

"أين أنت؟"

استعلم عن العنوان من البائع المذهول، وأملأه على اللواء.. هنا قال رجل الأمن المسن عبر الهاتف:

"ليكن.. سوف تبقى حيث أنت ولا تتحرك.. سوف تلحق بك سيارات الشرطة حالا.. بالمناسبة هل عرفت إلى أين أنت ذاهب أصلا.."

"الإستاد الرياضي.. الرابعة عصرا.."

"كيف عرفت ذلك؟"

"لم يبلغني أحد.. عرفت و حسب"

الحقيقة أنه تلقى مكالمة هاتفية منذ فترة تخبره بالمكان.. والمكالمة تضمنت إنذاره من البوح بحرف..

"هذا العنوان الذي تصفه.. إنه قريب من الإستاد فعلا.. معنى هذا أنك وصلت.."

"لا أدري.. الحقيقة أنني فقدت الاتجاه تماما.."

قال اللواء بلهجة من ينصح صبيا أحقق تجاوز الحد:

"اسمع... سوف تظل حيث أنت.. سوف تجلس ولا تتحرك إلى أن نصل لك.. أعتقد أنك تمر بشيء يشبه التنويم المغناطيسي.. ناول الهاتف لصاحب المحل.."

فعل حمدي كا طلب اللواء، وراح يراقب في بلاهة المحاورة به صاحب المحل المذعور والطرف الآخر.. نظرات البائع القلقة.. محاولة التصديق.. هل من يكلمه لواء شرطة حقا أم هو مقلب كبير "

في النهاية أغلق الهاتف، وقال لحمدي:

"معذرة.. أعتقد أن علي أن أنفذ كلامه.. يقول إن هذا لمصلحتك"

قال حمدي في استسلام وهو يحك رأسه:

"سأبقى هنا.. سأحاول أن أبقى هنا لكن لا أضمن النتائج.. قد أضربك أو أفتك بك في أي لحظة قبل أن يصل رجال الشرطة"

اتجه البائع إلى باب خلفي في المتجر الصغير..

"هذا مخزن صغير يتسع لشخص واحد.. أرجو أن تدخله.. هذا لمصلحتك"

سوف تغلقه على؟"

وتحركات في روحه مخاوف الكلوستروفوبيا القديمة، لكن لا بأس.. لن يطول الأمر قبل أن تدوي صافرات الشرطة..

مد البائع يده المفتوحة وهمس:

"أرجو يا سيادة الرائد أن تناولني الطبنجة.. هذه أوامر اللواء"

"هل تمزح؟"

"لا أمزح.. لكن طالما ظلت الطبنجة معك فبوسعك أن تقتلني وتفرّ في أي وقت"

وفي تردد أخرج حمدي المسدس ودسه في يد البائع. ستكون هذه اول مرة.

هكذا دخل المخزن الضيق وانتظر حتى انغلق الباب.. لحسن الحظ أن الوقت عصر والإضاءة ممتازة لأنها تتسرب من نافذة صغيرة على ارتفاع مترين عن الأرض.. إن هذا المخزن يطلّ على زقاق ضيق.. واستطاع أن يرى أن المطر عاد ينهمر من جديد...

سوف ينتظر.. لن يذهب لموعد الموت..

☆ ☆ ☆

أنا وأنت ضحيتان لقوى لا نفهمها..

أنا وأنت منبوذان خطران يجلبان الموت..

كنا نمشي في شوارع المدينة وقد تعانقت أناملنا.. وحد المصير بيننا فتعانق قلوبنا.. كنا غريبين منذ ساعات، والآن يخيل لي أننا معا منذ ولدت المحيطات...

"اسمك ليس لمياء طبعاً؟"

"واسمك ليس نصر طبعاً"

لم يجسر أحد على السؤال عن الاسم الحقيقي. لشد ما تدب الحياة في الأسماء بعد لحظات!.. كم أن هذا غريب.. لو أطلقت اسمًا على علبة ثقاب لصار منطبقا عليها.. بعد قليل سوف تشعر أن هذا هو الاسم الوحيد الصالح لها. هذه لمياء ولن أسمح لها بان تحمل أي اسم آخر.

لكننا سوف نعرف اسمينا الحقيقيين عما قريب. كنا نعرف الحقيقة.. سوف نتزوج على الأرجح.. سوف نمزج ألمنا معنا..

سوف نمزج حيرتنا معًا.. سوف نصير شيئًا واحدًا..

قلت لها والمطر يهطل من جديد:

"نحن موصومان.. نحن شيطانيان..

"نعم.. بلا ذنب"

كان المطر ينهمر وتحول شعرها إلى شيء يشبه شباك الصيادين عند إخراجها من البحر.. وسال شعري على عيني كأنه سائل أسود. كنت أرى الوصمة الحمراء على جبينها وجبيني.. لو أن اي واحد رآنا لأدرك السر ولولى ذعرا..

الشوارع خالية والبرد يتاح عظامنا..

قالت لي:

"هل عرفت من أين تأتي خطاباتك؟"

قلت لها في شرود:

"لا.. ثمة رؤى متداخلة مبهمة لا أعرف كنهها.. لا أقدر على الشرح.. فقط أجد الخطابات عندي تنتظر أن ترسل.. ثم اكتشف أنني أرسلها.. لا أعرف كيف ولا متى.."

"هذا يحدث معي حرفيا.. خطر لي أنني مجنونة وأفعل كل هذا وأنا غائبة عن الوعي.. ربما هو نوع من السير أثناء النوم.. لكن لو كان هذا صحيحا فلماذا يطيعني الناس؟"

قدمت لها اعترافا أسوأ:

"أنتِ وزعتِ خطابات تدعو للموت اليوم.. يوم 27 إبريل.. اليس كذلك؟"

- "بلى.."

كنت أعرف أنا أيضا أنني فعلت هذا.. هناك مذبحة ستحدث اليوم لا أعرف كيف ولا متى، لكني مسئول عنها..

كانت ترتجف بالدموع وصدرها يعلو ويهبط:

"أنا مجرمة"

"أنا قاتل.."

توقفنا أسفل بناية شامخة، وكان ميزابها يتدفق بلا توقف.. يوشك أن يبلل ثيابنا.. سمعت صوت الرعد في السماء.. غريب أنني لم أر البرق..

قلت لها وأنا أمسك بيدها:

"سوف نتزوج.. أنت تعرفين هذا؟"

قالت في غموض وهي ترمق السماء:

"بل سوف نموت.. أنت تعرف هذا.."

قلت بغباء حقيقي:

"كيف نموت ونحن من نميت؟"

"سوف نقضي على نفسينا.. عندي خطاب من خطابات المحبة يدعو للموت يوم 3 مايو.. أنا أعرف يقينا أن عندك خطاب مماثل...."

"وماذا في ذلك؟"

"سوف تعطيني خطابك وأعطيك خطابي.. هكذا سوف نفتك ببعضنا البعض؟"

"وهل هذا حل؟"

"هو حل ناجح جدا للبشرية.. نحن عقربان.. لا بد من الخلاص منها.."

"وماذا يضمن لك أننا سننفذ ذلك؟.."

"التجربة هي المحك.."

كانت تتكلم بقسوة وثبات.. وخطر لي أنها مخبولة، ثم تذكرت الدماء التي سوف تسيل عن طريقنا برغم إرادتنا.. ربما كان هذا أفضل شيء نفعله. أن نفتك ببعضنا..

☆ ☆ ☆

لقد تأخرت سيارات الشرطة.. ليته يستطيع أن يشعل لفافة تبغ، لكن المكان ضيق وهناك صحف وأوراق كثيرة على الأرض..

جلس حمدي على كومة من الصحف وراح يرمق حذاءه..

هنا وقعت عيناه على المظروف.. المظروف الأنيق الملقى وسط الأوراق في المخزن الخلفي الصغير.

عبث في المظروف حتى فتح الخطاب. وجد السطور التالية:

"الخميس 27 إبريل..

"استعد لقتل رجل في الرابعة عصرا.

"مع فائق الاحترام"

شعر بقشعريرة وانتصب شعر رأسه.. هذا الخطاب ليس له بل وصل لصاحب محل الهاتف..

هذه دعوة لمذبحة جديدة.. ومن قال إن الموعد في الاستاد الرياضي؟.. المكالمة قالت إن الموعد (قرب) الإستاد الرياضي...

وهذا هو ما يحدث الآن..

إذن وجوده هنا لم يكن صدفة.. وقد أعطى البائع مسدسه بكل غباء وجلس ينتظر في المخزن كأنه خروف ينتظر الجزار!...

☆ ☆ ☆

تشاك!... كليك!

سمع حمدي الصوت، وهو بالطبع رجل أمن محترف أطلق الرصاص مئات المرات في التدريب وسواه، ويعرف معنى ما سمعه..

جلب كومة الصحف.. ووضعها تحت النافذة، ثم تسلق عليها البصل إلى النافذة الضيقة.. لحسن الحظ أنها غير ذات قضبان..

فقط عليه أن هشم الزجاج ويحشر جسده من خلالها. بالفعل الف المنديل حول قبضته بعناية ولكم الزجاج بأعنف ما استطاع وهو يغمض عينيه ويضغط على أسنانه. شم رائحة المطر والبلل من الخارج.. وقدر أنه سيفلت.. فقط لو تأخر هذا القاتل ثلاث دقائق أخرى..

بدأ يحاول أن يحشر جسده عبر النافذة..

تبا!!.. ضيقة جدا.. لكنه سوف يفعل ذلك..

هذا هو الزقاق.. هه.. هه... ضيق جدا...

أرنب يحاول الفرار عبر شق ضيق في عشة الدجاج عند جدته.

هل نجح؟

لكن الوضع بالخارج كان مثيرا فعلا.. رسائل المحبة قد ذهبت في كل صوب.. إنه يرى بوضوح..

يرى تلك السيدة التي تقف في نهاية الزقاق وقد ابتلت بادة ما..

ربا الكيوسين.. تصرخ.. هناك شعلة تسقط فوقها من عل.. في اللحظة ذاتها هناك من يحمل (مخرطة ملوخية يطرحها في كل صوب ليطير الرقاب.. رقاب من؟.. هناك أربعة رجال التحموا في قتال عنيف.. وفي الآن ذاته تطلق سيدة طلقة نارية على رجل في طرف الزقاق الآخر.. كل شخص قد وجد سلاحا ما.. وكل شخص يستعمله..

رسائل المحبة!.. تبا!... الكل تلقى رسائل المحبة.. إنه الجحيم.. أبوكاليبس.. سفر الرؤية يتحقق.. مارس إله الحرب قد صحا من نعاس عميق وقرر أن يعمل قليلا. والأرنب لا يستطيع التملص..

هذا مأزق..

أين رجال الشرطة؟.. لقد أرسلهم اللواء جابر منذ فترة، فهل هم لم يقدرُوا على اجتياز الزقاق؟.. هل هم متورطون في تخليص المشاجرات أم أن يوم القيامة هذا امتد لهم؟.. ربها يفتك رجال الشرطة ببعضهم الآن...

في هذه اللحظة شعر بيد قوية تطبق على ساقه..

هذا موقف لعين بحق.. أن تجد نفسك محشورا في نافذة ضيقة، ونصفك الخلفي تحت رحمة مجنون يحمل مسدسًا.. هذا موقف غير محبب والأسوأ أنها ميتة غير أنيقة لأن الطلقة سوف تستقر في.....

طاخ!!

أدرك أنها استقرت هناك في اسفل ظهره.. سوف يقضي العمر مشلولا لو عاش، لكنه ابتسم، وسال ماء المطر على وجهه مدرارا.. لن يتوقف صاحب المحل عند هذا.. بالتأكيد سوف يطلق رصاصة فعالة أخرى تنهي كل شيء.. لن يدوم الشلل..

طاخ!!

هذه هي!

☆ ☆ ☆

عندما خرجنا من مكتب المأذون كانت اناملنا متعانقة..

شفتي كانت قريبة، وقد ابتعت بعض الشطائر من محل تيك أواي.. ثم صعدنا في الدرج.. لو رأنا أحد فلن يصدق أننا زوجان حديثان وأن هذا حفل زفافنا..

لقد توقفت الأمطار.

الآن أعرف اسمها وهي تعرف اسمي.. ما كنا لنتزوج من دون بطاقتي هوية.. لن أخبرك بالاسمين.. يكفيك أن تعرف اسمي لمياء ونصر.

لم أسألها عن أسرتها ولم تسأل عن أسرتي.. لا قيمة للماضي ولا الحاضر.

المستقبل هو الشيء الوحيد أمانا وهو مظلّم عطن كالقبور..

لماذا تزوجنا؟

لأننا شعرنا بالوحدة.. كل واحد فينا موصوم وحيد.. يحمل لعنة القرون. كان لابد أن نمزج خوفي وخوفها معا.. عندما نموت..

لن نموت ونحن نرتجف مذعورين وحيدين..

أنا وأنت ضحيتان لقوى لا نفهمها..

أنا وأنت منبوذان خطران يجلبان الموت..

كنا نلتهم الشطائر ومن حين لآخر أخرج قطعة دجاج من شطيرتي لأدسها بين شفتيها.. تمديدها في شطيرتها وتفعل ذات الشيء، وتنظر لي في ثبات.. ما أجمل عينيك!!..

أرى نفسي في عينيها.. أنا جميل.. برغم تلك الوصمة على جبيني.. هي رائعة الحسن..

انا مرهق..

هل توقفت الأمطار بالخارج؟.. لابد أنها كذلك..

وفي الصباح شربنا الشاي باللبن والتهمنا شطائر الفول والفلافل، ووقفت أمام المرأة تصلح من زينتها وتضع المساحيق على جبينها، كما وضعت المساحيق على جبيني..

مدت يدها تتناول الخطاب مني..

الأربعاء 3 مايو..

"استعدي لقتل رجل في الثامنة مساء.

"مع فائق الاحترام"

نظرت له وابتسمت، ثم مدت يدها في حقيبتها وأخرجت خطابا آخر.. الخطاب الذي يدعوني للموت. وأعطته لي..

تناولت الخطاب وابتسمت لها..

كنا نعرف الآن أننا سنقتل بعضنا. أين؟.. لا نعرف بعد.. لكن سيكون الأمر في ملعب رياضي أو ناد أو استاد كبير.. على الأرجح لأن هذا يجعل المشهد أقرب لمباريات الموت الرومانية..

في ال. Arena..

قالت وهي تحمل حقيبتها وتتجه للباب:

"سلام.. لا تقتلني ببشاعة من فضلك.. لا داعي للذبح والحرق.. استعمل الرصاص..

كان من الواضح أن السم غير وارد في القائمة.. لابد من أساليب عنيفة انفعالية.
قلت باسمًا:

"السلاح الناري أو المطرقة على الرأس أو الدهم بسيارة.. يجب أن نلتزم بهذه الأساليب. أعرف
أن النساء يقتلن بطرق أبشع من الرجال لكن عليك أن تغيري طبعك من أجلي"
ما أغربها محادثة.. لكن منذ متى يمر المرء بأشياء مألوفة؟
الأربعاء 3 مايو..

الثامنة مساء.

كنا نقف الآن أمام باب الدكتور فكرونا..
بوضوح لمحت حقيبتها مفتوحة.. وأدركت أنني أرى مقبض الشاطور يطلّ منها، بينما كانت
الطبنجة التي ابتعتها من ورشة الزقاق تثقل جيبي..
رات ما رأيته وفهمت نظراتي فقالت:
"هل سوف تقتلني الآن؟"

ساد الصمت.. تحسست المسدس للحظات ثم نظرت للأرض..
"لا تستطيع.. أليس كذلك؟"

"بلى.. وأنت. كل ما تحتاجين له هو أن تقبضي علي الشاطور و تهوي على راسي"
"مستحيل.."

"أعتقد أن الحب ولد بيننا.. ثمة علاقة روحية جعلت التنفيذ صعبا"
قلت لها وأنا أطوق كتفها بذراعي شاعرا أن هذه الفجوة موجودة هنالك منذ الأزل من أجلها..
نفس الحجم:

" لقد بحثت.. وعندي ألف سؤال.. الحقيقة هي أنني أشك في فكرونا نفسه..
اتسعت عيناها في رعب فقلت:

"هذا الرجل مستجد على الساحة وعلى الجمعيات الروحانية من فترة قريبة جدا.. لا أحد يعرف
من أين جاء ولا أين كان قبل ذلك الحقيقة هي أنني أعتقد أن هذا الرجل مصدر الخطابات..
"وما مصلحته؟"

"لا أعرف.."

"ما حدود قدراته؟.. كيف تصل الخطابات لمستحقيها؟.. وكيف تصل لنا؟.. هل هو قادر على
صنع تلك العلامة الحمراء؟"

قبل أن أرد سمعت الباب يفتح.. يبدو اننا تكلمنا بصوت عال نوعا. الدرس الأول لدى التعامل
مع الأمور الخارقة للطبيعة هي ألا تفصح عن خواطرك أمام باب، أحد الخبراء.. سوف يسمعك

حتمًا..

كان هذا وجه نكرون وقد سقطت الظلال عليه فبدا لا ينتمي لهذا العالم.. وجه طوطم قديم منسي حافل بالأسرار.. قال لنا وهو يفسح الطريق:

لم تستطيعا قتل بعضكما.. كان يجب أن أعرف هذا..

استنتاجاتك جيدة لكنها ناقصة جدا.."

عندما جلسنا بالداخل طلب من رامز أن يعد لنا بعض الشاي..

طبعًا لم تكن عندي أي نية لشرب شيء في هذا البيت بعد الآن..

لكن فكروا أشعل سيجارا ووضع ساقا على ساق وقال:

"انها تعتبر ان هذه الخطابات شيئًا مخيفًا بغضضا.. الحقيقة عكس ذلك.. منذ أعوام جاء إلى الأرض كيان.. لن أشرح ما هو لكنه غير خالص، وكانت مهمته هي أن يعاقب المجرمين الذين أفلتوا من القانون.. كانت لديه قائمة ممتازة.. المدرس الذي يتحرش بالمراهقات البريئات اللاتي يأتين لبيته لتلقي درس خصوصي..

طبيبة التوليد التي مارست الإجهاض وترقيع البكارة مرارا مقابل مال وفير.. لاعب كرة على علاقة بأخت زوجته.. ضابط مرتش يخفي الأدلة أو يزيّفها.. كل هؤلاء مجرمون.. وكلهم يخفون مخالبتهم ويبدون للمجتمع ملائكة.. لقد حاكمهم وأصدر عليهم الحكم بالإعدام.. وطريقة الإعدام لديه هي أن يحتشدوا في ساحة واسعة ويذبحوا بعضهم.. حركات تطهير مستمرة..

تساءلت في حيرة وأنا ازيح الشاي جانبا:

"وما دورنا نحن؟"

لم يكن هذا الكيان قادرا على تنفيذ المهمة وحده. لابد من موزعين يحملون رسائله وينقلونها بقوة نفسية إلى المحكوم عليهم.. هؤلاء الموزعون يجب أن يكونوا شديدي النقاء والطهر. هذه شهادة لكم بأنكما نقيان كالثلج. انتما تتلقيان الخطابات دون أن تعرفا ذلك وتوزعانهما دون أن تشعرا. ومع الوقت تظهر بقعة حمراء صغيرة على جبين كل واحد منكم"

هنا تساءلت لمياء وقد قررت الوقوف بسبب توترها:

"إذن أنت من يكتب الخطابات ويرسلها؟"

قال باسمًا بطريقة السمجة:

"أنتما لا تفهمان شيئًا.. أنا أريد أن تتوقف هذه الخطابات بأي ثمن؟"

رأى عدم الفهم على وجهينا فقال:

"كنت أريد أن أعرف من هم الموزعون الذين اختارهم الكيان.. لهذا قدمت هذا العرض الساحر وتكلمت عن الشيطان الذي يرسل رسائل.. وجعلت الورقة تحترق بهذا الشكل الصبياني.. كنت أعرف أن الموزعين سوف يعرفون ويأتون.. لن يقاوموا فضولهم لفهم ما يدور وما يحدث لهم.. وكنت آمل أن أقنعهم بقتل بعضهم.. لكن من الواضح أنني فشلت في ذلك"

نهض وسحب الدخان من السيجار ثم أطلق سحابة كثيفة وقال:

"ربما هو الحب.. لا أعرف بالضبط.."

و في اللحظة التالية تواري في غرفة داخلية..

كان رامز يقف هناك على باب الغرفة وقد بدا ككلب (بيت بول) يحاول حماية سيده. صحت فيه:

"انت تعرف هذا من البداية؟"

قال في عصبية:

"لا. ولا أفهم حرفًا ما تتكلمون عنه.. لكني أعرف شيئًا واحدًا.. انكما لن تضايقا د. فكرون؟"

حاولت أن أبعده فوجه لي لكمة أطارت الشرر من عيني. جاوبته بلكمة مثلها والتحطنا في صراع عنيف.. سقطنا على أريكة وضربت رأسه في الجدار مرارا.. أخيرا همدت حركته وبدأ أنه فقد الوعي أو مات.. لا وقت لفهم هذا..

قالت لمياء وهي تلهث:

"لكن من هو فكرون إذن؟"

قلت لها وأنا أسعل وألملم ثيابي وأنهض من فوق ضحيتي:

"شخص يهمله أن تنقطع خطابات المحبة.. شخص يهمله أن تتوقف عملية القصاص هذه.. شخص يقدر على أن يرسم علامات حمراء على جبيننا ويحرق ورقة نتخذ شكل رأس الشيطان.."

وتراجعت للخلف ثم وثبت لأضرب الباب بقوة بكتفي ... لم أجرب إن كان موصدا أم لا.. والحقيقة أنه لم يكن كذلك.. لقد انفتح على الفور..

وليتني لم أر ما رأيته..

في وسط الغرفة لم يكن هناك د. فكرون.. كانت هناك بقعة من الرماد يتصاعد منها دخان أحمر غريب الشكل.. ورحنا نسعل بسبب رائحة ثاني أكسيد الكبريت.. نسعل حتى بعد ما فتحنا النوافذ ليدخل الهواء النقي.

(تمت)

المريض التالي

فكرة غريبة وسخيفة لنا لم يؤمن بها إيماناً تاماً.. طبعاً هولا يعرف انه في قصة رعب والا لفكر في هذا الاحتمال جدّياً.

لكنه في عالم الواقع.. وفي عالم الواقع لا يعود الموتى لمطاردة الأطباء..

لابد من تفسير آخر.. تشابه الأسماء والملامح ليس دليلاً كافياً.. لكن ماذا عن طوفان مرضى بلا ضغط دم ولا نبض ولا تنفس؟

يحتاج إلى التركيز.. يحتاج إلى اتخاذ قرار صحيح..

☆ ☆ ☆

سوف أحكي لكم قصة مسلية نوعاً.. قصة عن الطبيب البارع د. هجرس الذي يملك عيادة فاخرة في حي المهندسين. يمكنك أن تراه وهو يوقف سيارته الفاخرة الفاخرة - الفارهة معناها السريعة وليس الفاخرة - أمام العيادة في ذلك الشارع الرئيس ثم ينزل من السيارة في تؤدة ويعيد غلق سترته، ويعيد ربطه العنق لموضعها الصحيح، ثم يتجه في ثقة إلى المدخل. يمكنك أن ترى المدخل الفاخر للعيادة وتسمع صوت الموسيقى ينبعث من الساعات المتناثرة هنا وهناك، بينها المرض ينظرون في لهفة إلى مندوب السماء الذي يدخل حاملاً الأمل والسحر لكل المرضى..

يهز رأسه محيياً الممرضة - وهي حاصلة على ماجستير في الآداب على فكرة - حيث وقفت خلف الكاونتر تداعب أزرار لوحة مفاتيح الكمبيوتر، ثم يبتسم بثقة سمجة للجالسين.. نعم أنا أعرف أسرار الحياة والموت وأملك التعاويذ السحرية التي تطرد عنكم تلك الأرواح الشريرة.. لقد جلبتم لي القرابين، أعني أنكم دفعتم ثمن الكشف الباهظ، وهذا معناه أنكم صرتم مؤهلين للسّر ولأن تحملوا الكلمة..

الكلمة..

كان د هجرس كذلك وسيم جداً، له شعر أبيض أنيق ووجه بالغ الجمال.. له ذلك التأثير الذي يصفه الغريبيون بتأثير الهالة Halo effect حيث يحيط الشعر الأبيض برأسه فلا تجرؤ على مناقشته.. إنه الكاهن الأعظم..

، غرفة الكشف الواسعة المكيفة التي يوجد فيها أنترهان انيقان وكتبة تمتد من جدار الآخر، وحيث توجد نافذة عريضة مثل جداراً كاملاً وتظهر منظراً بانورامياً الشارع البطل أحمد عبد العزيز، ينزع سترته ويضع المعطف الأبيض ويجلس خلف المكتب... ويدق الجرس..

عندما يدخل المريض الأول يضغط زراً لتغلق الستائر الفينيقية على النافذة.. هذا يسبب نوعاً من الانبهار لدى المريض.

"المريض يجب أن يكون خائفاً بشكل ما من الطبيب.. لو لم يخف فلن يُشفى"

كان د. هجرس يؤمن بهذه المقولة تماماً ويطبقها حرفياً...

يتصل بزوجته في البيت... يضع كلمات جافة. بالطبع هو يخونها وهي تعرف ذلك.. واجبه أن

يخونها.. هذا ما يفهمه.. كأنها لعبة الشطرنج حيث يتحرك الفيل بالورب ويتحرك الحصان على شكل حرف L.. لقد احتل موزا في المجتمع يحتم عليه أن يتسم بصفات معينة. هذا الموقع هو موقع الطبيب الناجح الوسيم الوغد الذي لا قلب له، والثري جدا والأنيق جدا.. هذا هو الموضوع وعليه أن ينفذ المطلوب منه حرفيا... يجب أن تكون زوجته مغرورة شرسة حمقاء باردة، وعليه أن يحب فتاة شابة مليئة بالحيوية.. الخ.. كل هذا الهراء...

يدق الجرس ليدخل أول مريض...

الاسم حسب شاشة الكمبيوتر هو (صبحي عبد الحميد) ...

يرفع رأسه بتلك النظرة الوقور المخترقة...

كان المريض ناحلا جدا شديد الشحوب. د. هجرس يمارس طب الكلى ولم يعد يندهش لدى رؤية مريض في هذه الحالة.. هؤلاء اتخذوا مواضعهم في لعبة الشطرنج كذلك.. على المريض أن يكون شاحبا واهنا فقيرا بائسا.. (صاحب عيا) بالمعنى الحرفي للكلمة..

"المهنة يا استاذ صبحي"

نظر له صبحي بعينين واهنتين نظرة طويلة.. نظرة جمدت الدم في عروقه. ما سر هاتين العينين؟.. هناك خلل ما فيها بلا شك..

قال صبحي

"- أنا مهندس"

"- السن؟"

"- ولدت عام 1951.. سني أربعون عاما"

هذا معناه أن سنه.. لا باس.. خطأ حسابي بسيط وأنت لا تتوقع ان يكون مريض بهذه الحالة في دقة نيوتن.

لم يكن لدى الرجل الكثير مما يقال.. بالواقع لم يكن عنده شيء على الإطلاق.. قليل هم المرضى الذين ساء حالهم لدرجة أنهم لا يدركون ما يشكون منه، لكن هذه هي الحقيقة..

نهض المريض ليرقد على الفراش.. عرى بطنه وصدره فراح د. هجرس يمرر أنامله على الجلد البارد.. كان الهزال واضحا..

بمكنه من خلال لمس البطن أن يتحسس فقرات الظهر..

وضع الساعة على صدر المريض فلم يسمع أي شيء.. لا صوت على الإطلاق.. لكنه كان يعرف أن هذا الموقف يحدث أحيانا وتفسيره عند الله وحده..

الآن يقيس ضغط الدم... من جديد ينزل عمود الزئبق فلا يسمع أي صوت لنبضات.. يعرف كل طبيب أن هذا يحدث كثيرا جدا... أحيانا يكون الضغط الانقباضي والانبساطي متقاربين جدا.. أحيانا يكون هناك خلل في الساعة أو أذنك.. المهم أن هذا حدث..

عندما نهض ليكتب العلاج للمريض لاحظ أنه ينظر له بثبات غريب..

نبتت قطرات من العرق على جبين الطبيب وتنفس بعمق.. هذا المريض يشعره بعصبية فعلا. طبعاً كتب بعض الفيتامينات مع قائمة هائلة من التحاليل...

واسترخي في المقعد كعادته بتلك الطريقة التي يعلن بها أن الجلسة انتهت، سأله صبحي وهو يمسك بالروشتة:

"مم أشكو بالضبط يا دكتور؟"

"التحاليل.. التحاليل سوف تقول كل شيء.."

غير أنه لم يكن راضياً.. التجربة كلها كانت مربكة غير مريحة. تذكر قصة قديمة لجي دي موباسان يحكي فيها عن خبير مبارزة تورط في تحدٍ لشاب غريب، وفي ليلة المبارزة انتابه قلق عصابي غريب جعله لم ينم لحظة واحدة.. برغم أن قتل الفتى أمر مفروغ منه..

إذا يرتبك وهو الطبيب العتيد المخضرم أمام مريض واهن كهذا؟

كان غارقاً في هذه الخواطر عندما دخلت المريضة التالية..

اسمها (رانيا فؤاد) ... في العشرين من عمرها..

نحيلة جداً شاحبة جداً.. غاصت عيناها في المحجرين فبدت كأنها جمجمة نتكلم..

عندما قاس لها ضغط الدم لم يسمع أي شيء.. عندما وضع الساعة على صدرها الضامر الذي يمكن عد ضلوعه بدقة أدرك أنه لا يسمع أي شيء..

هذه المرة بدأ يتوتر..

طلب الممرضة فجاءت بسرعة وهي تلوك قطعة اللادن المعتادة.. طلب منها أن تجري تخطيط قلب للمريضة.. ووقف يراقب المشهد بينما هي تربط الأقطاب...

عندما رفع عينيه نحو عينيها أدرك أن هناك مشكلة..

وعندما نظر لشريط تخطيط القلب كاد قلبه يتوقف شخصياً...

لم يكن على الورق سوى خط مستقيم طويل..

☆ ☆ ☆

طلب هجرس زجاجة من النبيذ الأبيض مع السمك كما هي العادة، فلما جاء الساقى صب لشاهدنه في كأسها ثم صب لنفسه.. يُحب عينيها مع هذه الشمعة المتراقصة. الموسيقى عذبة..

يحب هذا المكان بالتأكيد.. دعك من أنه مكان آمن..

نظر لساعته.. يعرف أن ثرياً لن تتصل به قبل ساعة. تعرف أنه لا يرد على المكالمات طيلة وجوده في العيادة، وتعرف أن هاتف العيادة مشغول دائماً.. مضت فترة طويلة منذ قامت بجولة تفتيشية. أما هو فيغادر العيادة مبكراً ويأتي إلى هذا المطعم على الطريق السريع، حيث تنتظره شاهنده أو غادة أو ريهام أو مي..

دائماً هناك واحدة.. لو كانت لديه مزية فهي أنه لا يمل ولا يكره ترديد ذات الكلمات..

ينظر حوله في عصبية.. المشكلة أنه مشهور وناجح. ظهر في التلفزيون عدة مرات. لابد من وغد يعرفه بشكل أو بآخر.. لكنه على كل حال كان يحرص على وضع النظارة السوداء وكان صارما بالنسبة للعدسات... يسمع غالق الكاميرا كأنه قط..

شاهنده فتاة جميلة فعلا وفاخرة. يعرفها منذ عام، والمشكلة كالعادة أنها تعتقد ان وقت الجد قد جاء.. هل ستتزوج أم لا؟..

هذا شيء يغيظه فعلا. كان يعتبر نفسه ثمينًا جدا، ولا يصدق أن تعتقد فتاة أن بوسعها الحصول عليه.. هذه إهانة لا شك فيها، مثلا تتضايق الفتاة عندما تكتشف أن مديرها يعتبرها (متاحة). تمنى مرارا لو يصفعها ويعاقبها على هذه الأفكار. النساء ممتعات فعلا.. لا يستطيع الحياة من دونهن، لكن يجب أن يمارس ببراعة ذلك الفن.. أن يستمتع بهن ثم ينسحب بنعومة، وفي الوقت نفسه لا يجعلهن غاضبات لدرجة الانتقام... لقد تلقت زوجته ثريا مكالمات من قبل ووصلتها رسائل.. لسوف تصدق الخطاب التالي بالتأكيد.. السيناريو الأسوأ ان يجدها فوق رأسه الآن..

ثريا حمقاء هستيرية ولن تتصرف بحكمة.. سوف تفضحه بالمعنى الحرفي للكلمة..
"تبدو شاردا.."

قالتها شاهنده وهي تجرع ما بقي في كأسها..

قال وهو يصلح ربطة عنقه:

"لا شيء.. كان يوما مرهقا في العيادة.. لم أحب الحالات التي رأيتها اليوم..
"صعبة؟"

فكر حينئذ قال:

"ليس موضوع الصعوبة.. المشكلة أن المرء يبحث عن أدواته أحيانا فلا يجدها جاهزة.. هل تفهمين؟"
"لا.."

"أنت تقودين سيارة.. ألم يأت يوم ركبت فيه السيارة فشعرت كأنك نسيت القيادة؟.. كأن مستواك انهار فجأة؟"

ثم التهم ما في طبقه بسرعة.. سوف ينهيان العشاء سريعا ثم يوصلها لسيارتها المتوقفة في مرآب عام ويعود لبيته.. اللقاءات الحميمة تتم عندما تعتقد ثريا أنه ذاهب لمؤتمر في الاسكندرية أو فايد.. الخ... ليس اليوم..

☆ ☆ ☆

في المرآب اتجهت إلى حيث تركت السيارة..

كانت الخمر تلعب برأسها قليلا، وشعرت أن خطواتها غير ثابتة.. لقد رحل هجرس منذ دقائق ليلحق بزوجه. أين كانت السيارة الفكترا البيضاء؟.. هي في مكان ما هنا...

معظم حوادث التحرش والاغتصاب في الولايات المتحدة تتم في المرآب..
لماذا تذكرت هذه المقولة الآن؟.. نحن لسنا في الولايات المتحدة والحمد لله.. الوضع هنا أسوأ
وقطع الطريق يتم ليلاً نهاراً على الطريق الدائري... ليّتها كانت في الولايات المتحدة إذن..
تذكرت هذا وهي ترى ذلك الشبح القادم من بعيد وسط الظلال والضوء الخافت من الكشافات
على الجدار..

ماذا يريد؟.. خطواته ثابتة و بطيئة جداً.. لا يمكن أن يكون هدفه البحث عن سيارته..
بدأت تتراجع للخلف، وهي تتمنى ألا تتعثّر.. هذا الشخص ليس طبيعياً.. يبدو أن معها الحق..
إنه خطر أو مريب أو مثير للتوتر أو..
ركضت إلى صف جانبي وراحت تجد السير وسط السيارات الواقفة..
بدأت تتراجع..

نظرت للخلف فرأت أن ذلك الشيء يصير على اقتفاء أثرها.
بدا قلبها يخفق بعنف.. هجرس.. هجرس يا أحمرق..
يا

رحلت؟.. كان يجب أن تنتظر حتى أركب السيارة أمامك..
هجرس كان وسيماً له عينان قاسيتان.. من الواضح أنه لا يملك أي حنان أو رقة وبالتأكيد لا
يؤثر الفتاة بحمايته، لكنه يصلح.. يصلح ليحميها بعض الوقت.. الرجال مفيدون لأنهم
يلتحمون مع المهاجم ويموتون، وبهذا يمنحون المرأة فرصة الفرار..
سمعت صوت المحرك..

سيارة تعود للخلف خارجة من موقفها..
اندفعت نحو السيارة وقرعت على الزجاج الجانبي، وقبل أن يكمل الزجاج الهبوط فتحت الباب
وألقت نفسها بالداخل..
"بسرعة!.. انطلق؟"

لم يفهم مشكلتها لكنه على كل حال فعل كما قالت..
وبعد لحظات كانت السيارة تغادر المرآب وتنطلق على الطريق..
"ما هي مشكلتك بالضبط؟"

كان ينظر للشارع أثناء القيادة، لكنه كان يختلس لحظات ندير فيها وجهه لها... وعندما التقت
العينان أدركت أنه شاب في الثلاثين، ناحلٌ جداً.. شاحبٌ جداً.. له عينان غاطستان توشكان على
الغياب في جمجمته.. لكنها شعرت أنه جميل..
قالت وهي تشهق:

"شعرت أن هناك من يلاحقني.. سيارتي بالداخل"
"كان بوسعك أن تقولي ذلك وكنا سنذهب ما لتركيبها"
نظرت لذراع الناحلة.. لو كان مطاردها ذبابة فهو على الأرجح لم يستطيع مقاومتها..
قالت له وهي تراقب الطريق المظلم:
"آسفة على طفلي.. لكن لو شئت استكمال جميلك فلتدر دورة ثم عد بي إلى المرآب.. يمكن أن تراقبني إلى أن أركب..
ثم لاحظت شيئاً آخر أثار توترها..
هي بالتأكيد تهذي.. الخمر تعبت برأسها.. ما تراه لا يمكن أن يكون حقيقياً..
الا ترى ذلك معي؟

☆ ☆ ☆

لم تتصل تلك الحمقاء بعد..
فكر د. هجرس في هذا وهو يراقب الشارع الصاخب الذي يطلّ عليه عبر النافذة التي تحتل جداراً.. يرشف رشفة من عصير البرتقال الذي أعدّته له الممرضة، ويفكر في شاهنده..
عاد إلى المكتب وداعب خصلات شعره الأبيض. يبدو أن وقت الفراق قد اقترب جداً.. هذا حظك السيء يا فتاة.. سوف تفقدين كنزك قريباً، ولكن لا ننكر أن معرفتك كانت ممتعة..
مشكلة الصديقة - وهو اسم مهذب للعشيقة - هي أنها تتحول إلى زوجة بسرعة.. تطالب بأشياء.. تمد أناملها تحاول أن تعتصر حياتك.. لكنك بالطبع سوف تختار البقاء مع الزوجة الشرعية، وعندها سوف ترحل هذه، لكن لا بد أن يكون الرحيل ناعماً.. لا جروح لا أحقاد.. وإلا كان بوسعها أن تحدث ضوضاء حولك..
..No grudges -
قالها لنفسه وابتسم..

جلس إلى المكتب وصاح منادياً المريض التالي..

☆ ☆ ☆

المريض التالي كان امرأة ريفية نوعاً في منتصف العمر.. عرف على الفور التشخيص والعلاج ومستقبل الحالة من النظرة الأولى. هذا الوجه الشاحب المصفر والبطن المنتفخة والهزال العام.. وعندما رفعت عينيها أدرك أن بياض العينين أصفر..
فشل كبدي.. تشمع.. استسقاء.. مرحلة متقدمة.. العلاج مدرات وداعمات للكبد وأشعة تلفزيونية.. غالباً سوف تجد ورماً سرطانياً.. قيء دموي.. منظار.. حقن.. نهاية أليمة في ليلة سوداء...

فهم هذا كله بينما المريضة تجلس وهي تحمل ذلك المظروف..

المظروف اللعين!.. المكس بالأوراق.. إخراجها يقتضي ساعة وإعادتها تقتضي ساعة مع الكثير من البكاء والقصص الطويلة:

"دكتور سيد الشماشجي كتب لي الأسيرين، لكن دكتور الششتاوي كتب لي البانادول.. ودكتور أبو قورة كتب لي الريفو..

ثم عدت للشماشجي فقال لي إنني أخطأت إذ تعاطيت البانادول لأن..."

اللعة!... يعرف كيف يقطع لسان المريض عند هذا الحد.. يجب أن يسكتها تماما فهي لن تضيف أي شيء جديد..

اسمها (عز الشباب عبد السميع) ... لماذا تأتي هذه الحالات المتقدمة وحيدة؟. المعتاد أن يدخل مع المريض عشرة من أقاربه كلها قلق وتوتر، وكلهم يشعلون السجائر الكيوباترا ويحيطون أعناقهم بالتلافيح، ويخربون بيتك لأن مأمور الضرائب يكون في العيادة في هذا الوقت بالذات.. فلماذا جاءت هذه السيدة وحدها؟..

عندما رقدت على الفراش وضع يده على ساعدها..

فهمت؟

هذه حالة أخرى من الحالات التي لا نبض لها أو التي لا تقدر على قياس ضغط دمها.. ماذا يحدث في هذه الأيام؟.. الأمر يتجاوز الصدفة..

ثم. هذا الاسم.. عز الشباب... اسم غريب لكنه مألوف...

☆ ☆ ☆

-ليس موضوع الصعوبة.. المشكلة هي أن المرء يبحث عن ادواته أحيانا فلا يجدها جاهزة.. هل تفهمين؟"

"لا"

☆ ☆ ☆

المستشفى العام الكبير..

الليل.. القطط تطلق عواءها من حين لآخر.. والممرضات يقلن إن هذا صوت الأرواح.. أرواح كل من ماتوا من قبل.. هذا ما قالته عواطف وهي تتنفس بحرارة جوار أذنه..

طبيب الامتياز الشاب الوسيم د. هجرس.. ما زال بلا خبرات، وما زال لم يكتسب بريقه الأبدي بعد، لكنه ما زال وسيما وما زالت له مغامرات ومغامرات..

وفي العنبر مريضة الاستسقاء (عز الشباب).. السيدة في منتصف العمر.. وحدها هذه الليلة فقد رحلت ابنتها إلى القرية.. كانت تتنفس بصعوبة، وقد طلب منه الطبيب المقيم أن يسحب من بطنها لترا واحدا فقط.. لترا واحدا يريح تنفسها.

"هي على حافة الفشل الكبدي الكلوي.. لا نريد أن ندفعها دفعا"

قام بثنيت إبرة البذل في بطنها.. لم يجد لاصقا فاستعمل قطعة لاصق قديمة كانت مثبتة على

الفراش.. وبدأ السائل الشفاف يتدفق في الزجاجاة..

قالت له بصوت مبحوح:

"اشفني يا دكتور .. سأحمل لك هذا الجميل ما حييت"

هز رأسه وقال إن الشافي هو الله، ثم انسحب إلى مكتبه..

عواطف.. مشاعر الشباب الحارة.. الليل.. الوحدة.. التهور.. الجموح...

القطط تعوي.. (تعوّص) بتشديد الواو كما قالت عواطف..

عواطف كانت الأولى.. لم تكن الأخيرة أبدا.. لماذا يدوي الرعد في السماء؟

عندما جاء الفجر فتح عينيه بصعوبة.. نهض متثاقلا نحو العنبر..

هناك رأي الجسد الراقد في الفراش،،

لم يحتج لينظر إلى الجسد، فقد رأى على الأرض تلك البركة من السائل.. ورأى أنه تحول إلى دم قرب النهاية.. لقد صار البطن مسطحا تماما.. تم تفريغ بطن المريضة حتى أن الإبرة أدمت بعض الأعضاء الداخلية، وحينما نظر لوجه المريضة رأى قناع الموت الشمعي.. العينين الشاخصتين..

تبادل النظرات مع عواطف التي وقفت جواره بشعر منكوش حافية القدمين.. وتلقائيا رفع الملاءة ليغطي وجه الجثة. نظرت حولها ونظر حوله.. كل الأسرة المجاورة كانت تسبح في الظلام وكان مرضاها أكثر مرضا من أن يلاحظوا أي شيء..

لقد مرت الجريمة بسلام..

في الصباح سوف يكتشف الطبيب المقيم أن مريضته ماتت، لكنه لن يسأل. لا احد يشك في وفاة مريضة بهذا التدهور..

وفيما بعد سوف ينسى القصة كلها.. من الأحقق الذي قال إن حادثة كهذه لا يمكن نسيانها؟ لكن الاسم ظل محفورا في داخله.. كتبه في شهادة الوفاة وظل يتردد في ذهنه مرارا طيلة الأعوام التالية، وحتى صار أستاذا ترتج الأرض هيئته..

اسمها عز الشباب عبد السميع..

☆ ☆ ☆

"اشفني يا دكتور.. سأحمل لك هذا الجميل ما حييت"

☆ ☆ ☆

كان يفحص المريضة وهو يفكر في هذا كله..

لما انتهى الفحص قال لها إنه يرغب في أن تدخل المستشفى بضعة أيام. الحقيقة أنه كان يريد أن تبقى بقربه.. وافقت فكتب لها خطاب دخول، ولسبب لم يفهمه طلب الممرضة وامرأها أن تعيد ثمن الكشف للمريضة..

لما غادرت المريضة الغرفة جلس إلى المكتب.. طلب من الممرضة ان تمنحه عشر دقائق.. عشر دقائق يدخل فيها السيجار، وكانت تعرف أنه يفعل ذلك في الشرفة حتى لا يصير جو غرفة الفحص خانقا.

وكانت كذلك تقول للمرضى بشكل روتيني إن الدكتور يصلي..

وقف في الشرفة يتأمل طرف السيجار المشتعل..

كان عمليا سريع التفكير لا يندهش أبدا... وهكذا كان قد كون في ثوان تقييمه للموقف..

واضح أن المرضى الذين قتلهم في الماضي يعودون للانتقام مني!

فكرة غريبة وسخيفة لذا لم يؤمن بها إيمانا تاما.. طبعاً هو لا يعرف أنه في قصة رعب وإلا لفكر في هذا الاحتمال جدا. لكنه في عالم الواقع.. وفي عالم الواقع لا يعود الموتى لمطاردة الأطباء..

لا بد من تفسير آخر.. تشابه الاسماء والملامح ليس دليلا كافيا..

لكن ماذا عن طوفان مرضى بلا ضغط دم ولا نبض ولا تنفس؟

يحتاج إلى التركيز.. يحتاج إلى اتخاذ قرار صحيح..

شاهنده أيتها الحمقاء.. أين أنتِ؟.. أنا بحاجة إليك!!

☆ ☆ ☆

هناك عند هذا المنحنى في الطريق، حيث اصطدمت عشرات السيارات بالحاجز الحديدي من قبل فالتوى وتشوه، كان السياج تالفاً.. وكان ذلك المنحدر الذي يقود إلى التربة..

هذا هو المكان الذي توقف عنده المهندس مينا.. كان واثقا من أنه رأى شيئا أسفل هذا المنحدر، لكنه لم يستطع أن يحكم ما هو..

فقط هو شيء لا يبعث الراحة في النفس. توقف بعيدا عن مسار العربات المندفعة وانحنى ليلقي نظرة أدق..

بالفعل.. هذا ثوب أو معطف ممزق.. جسد بشري يتعلق بغصون الأشجار البارزة من المنحدر. ومن الجلي أنها أنثى كذلك.. كان قلبه يتوالب بين الضلوع عندما مد يده لجيبه وطلب رقم الشرطة.

عندما جاءت سيارة الشرطة بعد وقت طويل، استطاع شرطيان أن يجرا الجثة إلى أعلى.. القصة واضحة. لقد قتلها احدهم ثم ألقى بها من فجوة السياج للهاوية، وتعلقت بالغصون. تأمل الضابط الوجه..

إنه قد تشوه بالرعب وآثار دماء، لكن يمكن بسهولة أن تدرك انها كانت جميلة يوما ما. كانت تلبس معطفا.. وجديده تمتد لتعذب في جيبيها ثم خرجت ببطاقة هوية صغيرة.. هي إذن من النساء اللاتي يحملن الهوية في الجيب وهذا يسهل الأمور..

قرب البطاقة من عينه وقرأ:

"شاهنده منصور محمد.. مهندسة اتصالات.."

ثم نظر إلى الوجه المذعور.. وغمغم:

"ترى من قتلك أيتها الحسناء؟.. والأهم.. كيف قتلك؟"

☆ ☆ ☆

عندما فتحت الخادمة الباب وجدت تلك السيدة النحيلة واقفة هناك.. ثمة قوة نفسية كاسحة لدى بعض الأشخاص الناحلين، حيث تتكفل العينان القويتان اللتان تضخمتا من فقدان الوزن، يجعل نظرتهم لا تقاوم..

"د. هجرس موجود؟"

ارادت الخادمة أن تغلق الباب فلم تستطع.. لم تجد في نفسها القوة. وعندما أفاقت كانت تقف داخل البهو جوار المزهريّة العملاقة، والسيدة النحيلة تقف أمامها...

قالت كلاما بصوت مبحوح لا تعرف ما هو.. وهنا سمعت صوت سيدتها (ثرثيا) تسأل عما هنالك..

قالت وهي تعرف أنها ستتلقى اللعنات:

"تسأل عن د. هجرس.."

قالت ثريا في عصبية وتوحش:

"مريضة؟... منذ متى يأتي المرضى للبيت؟"

ونظرت للسيدة النحيلة. كانت ترتدي ثيابا أنيقة.. أنيقة لو أننا في الستينيات.. نفس التأثير الغريب لو أنك رأيت رجلا يلبس طربوشا نظيفا مكويًا اليوم. قالت السيدة النحيلة وهي تنظر لها بذات الثبات:

".أريد كشفا منزليا.. إن ابنتي مريضة"

ونظرت ثريا للعينين الغائرتين والشحوب الشديد وشعرت بقشعريرة.. في عصبية قالت:

"الدكتور لا يقوم بكشوف منزلية.. اعطيها عنوان العيادة، واصرفيها يا زكية"

"أريد كشفا منزليا.. إن ابنتي مريضة"

المخيف أن السيدة تتصرف و نتكلم كأنها لا تسمع حرفًا مما يقال:

"سوف ترحلين والا طلبت الشرطة. لكنها أدركت أن الأمر يتجاوز طلب الشرطة.. هذه السيدة مخيفة فعلا وعلى الأرجح...

على الأرجح غير حقيقية..

بدأت ترتجف.. يدها تهتز بلا توقف... ولا تعرف متى ولا كيف ظهر الطباخ العملاق من المطبخ. هذه المرة قبض في صمت على ساعد السيدة وأصطحبها إلى الباب وأخرجها وأغلقه...

لا تعرف كيف كانت ستتصرف لو طال الأمر.. هناك قوة ساحقة غلبتها لكن ما هي؟

وفي عصبية تحسست الهاتف وطلبت رقم زوجها..

☆ ☆ ☆

نظر د. هجرس للهاتف الذي يتوهج بلا توقف.. اصممتي يا ثريا.. فلست بسعة نفسية لسماع هرائك الآن.. فيما بعد أرجوك..

كان جالسا في سيارته وقد قام بتشغيل المكيف.. يرقب المساحة الخالية امامه.. مساحة يلعب فيها الصبية وتنبج الكلاب على بعضها. لم ترد اللحظة وقد بدأ يقلق.. يقلق من أن تكون هي البادئة بالرحيل.. ليس هذا من حقها.. هو الذي سيرحل..

ثم هو بحاجة إليها.. لابد من امرأة في مكان ما كي تدفن حزنك العميق بين ذراعيها.. لابد من امرأة تبكي بين خصلات شعرها.. هذا غير عادل..

هناك تمتد المقابر الريفية.. بعضها ينم على ثراء وفخامة، وبعضها ينم على فقر وتواضع حال.. طين جاف. يصعب عليه أن يصدق..

حالة التساوي التي يتكلم عنها الزاهدون والشعراء.. لا يرى مساواة حتى في الموت. هناك من يموت ثريا وهناك من يموت فقيرا.. هناك من ينم في بيت من رخام ثمين، وهناك من يغطي بطين جاف..

نظر لساعته.. موعد العيادة يقترب والسائق (صبري) ما زال هناك في المقبرة. كان يتخلص من صبري في اللقاءات النسائية طبقا، لكنه يعترف بأنه مفيد. يساعده على التعامل مع الحثالة دائما.. دعك من أنه يشعر بحنين للأيام الشعبية الأولى.. من حين لآخر يحلم بطبق من الكشري أو لحمة الرأس أو السمين... هنا كان السائق يتصرف.. هذه المرة كان العنوان موجودا في سجلات المستشفى وكان واضحا. القرية.. المركز.

بعد دقائق عاد السائق وهو يلهث بسبب كرشه الضخم. جلس خلف المقود وهو يتنهد براحة بسبب الجو المكيف، وأدار المحرك.

سأله د. هجرس في برود:

"خيرا؟"

قال السائق وهو ينظر للخلف ليتراجع بالسيارة:

"بالفعل يا سيدي.. لقد نبش اللحد مقبرة (عز الشباب عبد السميع) ليلة أمس.. يجب أن أقول إنه طلب الكثير من المال... والنتيجة؟"

اندفع السائق نحو الطريق المرصوف وقال:

"فارغة طبعاً..! لا توجد جثة؟"

لا توجد جثة...

هناك من تحمل نفس الاسم في المستشفى الآن....

فرك د. هجرس يديه وقال في شرود:

.. "كنت أتوقع هذا.."

☆ ☆ ☆

"اشغني يا دكتور.. سأحمل لك هذا الجميل ما حييت"

☆ ☆ ☆

كان الهاتف ما زال يتوهج عندما اجتازت السيارة بوابة المستشفى..

لا بد أن الأطباء المقيمين أصيبوا بالشلل الذهولي أو العقم عندما فوجئوا بظهور د. هجرس في هذه الساعة.. إنه موعد عيادته ومن المستحيل أن يظهر في هذه الساعات. وهو على كل حال لم يكن ألطف أستاذ في المستشفى..

كان طلبه محددا وهو يفتح باب مكتبه:

"أريد أن تجلبوا لي المريضة التي تدعى (عز الشباب عبد السميع).. حالا!"

☆ ☆ ☆

نظر السائق متسائلا إلى د. هجرس فقال له في وقار:

"رغيفان من الحواوشي.. وليكثر من الشطة"

ابتعد السائق في الظلام على حين جلس د. هجرس يراقب الشارع.. حركة السيارات.. الكشافات.. المارة.. الهاتف لا يكف عن التوهج.. لا بد أن الممرضة تعيش ألحن حالاتها الآن في العيادة وهي تواجه طوفان غضب المرضى.. إنه لم يتصل ولم يعتذر.. لا يملك سعة نفسية لذلك..

فقط هو يشعر بالحاجة إلى أن يجوب الشوارع الليلية.. يريد أن يأكل (حاجة جرسية) كما يقولون، لذا طلب من السائق أن يذهب به لهذا الحي، حيث يكمن في الظلام ويفكر..

عندما عاد السائق بالرغيفين، وجد هجرس انها دسمان جدا..

سوف يستحم في بركة من السمن لو أكل في السيارة، لذا اقترح أن يذهب لمقهى قريب في الهواء الطلق..

هناك جلسا.. ناول السائق رغيفا ثم ملا فمه باللفت المخلل، وراح يلوك اللحم الدسم ويتذكر أيام النوبتجيات الأولى، عندما كان يذهب مع رفاقه من الأطباء الشباب إلى هذا المطعم في السيدة زينب أو ذاك.. كان يؤمن يقينا أنه سيتذكر تلك الأيام وهو ثري وهذا ما حدث فعلا.. الكثير من الأكل.. الكثير من التدخين..

الكثير من النساء (نوعية أقل رقيا بكثير).. هكذا كان شبابه..

في المستشفى لم تكن هناك مريضة في الفراش..

نعم..

هذا ما حدث عندما ذهب الأطباء المقيمون لينادوا (عز الشباب عبد السميع).. وقد قالت المريضات حولها إنها قد تكون في دورة المياه، لكن البحث المدقق عنها برهن على أنها ليست

في المستشفى أصلاً. أين هي يا سادة؟.. لا داعي للتفكير الكثير.
بالنسبة للأطباء الشباب هي قد هربت.. ربما عادت لبلدتها لأنها سئمت المستشفى ويئست من العلاج...

وبخهم ولامهم وهددهم بعقاب صارم...

لكنه يعرف ما هو أفضل..

لسبب ما يؤمن إيماناً شديداً أنها الآن في قبرها.. لن يرسل أحداً ليتحقق على كل حال.. إن الجزء العلمي من عقله يرفض القصة جملة وتفصيلاً، لكن الجزء البشري يقول: لم لا؟. في النهاية ينتصر الجزء العلمي... هناك تفسير منطقي سوف يتضح قريباً..

جاء الشاي الثقيل الذي يعتقد العامة أنه يذيب الدسم.. رشف رشفة قوية منه وهو غارق في همومه ومخاوفه الخاصة...

لن يذهب للعبادة باقي الليلة.. حالته النفسية مرهقة، والحقيقة أن هذا التوتر يمكن أن يؤدي مهنته فعلاً لو استمر..

أخرج منديله.. هنا لاحظ تلك اللطخة من أحمر الشفاه على طرفه. لطخة قديمة أبت وتمردت واصرت على ألا تزول بالغسيل.. تكرر هذا مراراً من قبل لكن من حسن حظه أن زوجته لا تغسل بنفسها، ولكن من السذاجة أن نتوقع أن الأمر لم يصل لعلمها.. لا بد أنها تشك في أمره كثيراً.. تكون ساذجة لو لم تفعل..

نظر لأرقام الهاتف.. شاهنده لم تتصل بعد...

☆ ☆ ☆

ثريا كانت تعرف الكثير عن زوجها..

الواقع أنها كانت تعرف أكثر من اللازم، وكانت قد راجعت أرقام الهاتف مراراً وهو نائم، ولديها شبكة تجسس صغيرة في العيادة، وقد استطاعت فتح (اللاب توب) الخاص به. إنه يستعمل كلمة هي اسم حبيبة مدونة على الهاتف. بعد فترة فقدت قدرتها على العدّ وأدركت أنها لن تستطيع متابعة كل مغامراته.. هكذا لم تعد تراقب..

هي أصلاً باردة وعلى شيء من القسوة، لذا لم يدمها هذا كما يجب أن يدمي سيدة أخرى. فقط شعرت بإهانة. وتمنت لو تنتقم..

لكنها أدركت أنها ستواصل الحياة معه.. لن ترحل.. لن تتخلى من مكانتها الاجتماعية وكل هذا الثراء. فقط تم نوع من الطلاق النفسي بينهما فلم يعودا يتكلان أكثر من 170 كلمة كل شهر.

مسافران معا ويذهبان للمؤتمرات ويؤديان العمرة على سبيل الوجاهة الاجتماعية.. لكنها لا يتكلمان ولا يتلامسان...

لقد تعلمت كذلك أن تمضي وقتها بألف طريقة ممكنة، وبعض هذه الطرق كان خطراً..

كانت تفكر في هذا وهي تقود سيارتها على الطريق الدائري عائدة للبيت..

ما أقلقه فعلا هو تأثير الخبر على سمعته. لا يريد أن يزعج باسمه في هذه القصة.. وهذا لن يحدث على كل حال لكن.. من يدري أن الحمقاء لا تحتفظ بمذكرات أو صور تفضح كل شيء؟..

هذا ما ضايقه فعلا.. أما ما ضايقه كذلك فهو السؤال: كيف حدث هذا؟

كل شيء يدل على أن هذا حدث في الليلة التي تناول فيها العشاء معها، عندما جلسا في المطعم وأوصلها للمرآب.. ماذا حدث بعد ذلك.. يحلو له أن يعتقد أنه حادث لكن أي حادث يلقي بفتاة من فوق سياج في منحدر وهي وحدها ولا تركب سيارة؟.. طبعا هناك من فعل هذا..

هو آخر من كان معها.. هذه حقيقة.. لكن هل هو آخر من شوهد معها؟.. هل رأها أحد؟.. لو حدث هذا فالأمر لا يتعلق بسمعته فقط بل بحريته وحياته أيضا.. من يشاهد آخر مرة مع قتيل هو الفاعل غالبًا..

من فعل هذا؟.. لماذا؟

حادث؟.. الأمر أعقد من هذا والصدف ليست بهذه الكثرة...

فتح الدرج وأخرج قنينة صغيرة من الشراب.. تلك التي ابتاعها من سويسرا ولم يرد أن يستعملها قط، لكن يبدو أنه بحاجة لجرعة الآن.. شرب جرعة ثم أغلقها، وضغط الجرس لتأتي الممرضة..

دخلت الغرفة فقال لها وهو يغلق الدرج:

"المريض التالي"

لم تكن على ما يرام.. كانت شاحبة ترتجف.. قالت وهي تغلق الباب بأحكام:

"دكتور.. المرضى ليسوا على ما يرام هذه الليلة"

نظر لها في حيرة.. لماذا لم يندهش جدا؟ ...

"ماذا تعنين؟"

تفلت في فتحة قميصها، ثم قالت وهي تدسّ القلم في جيبها:

"شاحبون.. ساهمون.. صامتون.. لهم قسمات كالحة.. العيادة مليئة بهم.. لا يوجد شخص واحد منظره طبيعي"

قال لها لائئما:

"دعك من هذا الهراء.. عندما أدق الجرس أدخلني المريض الأول"

خرجت من الغرفة، هنا أدار المقعد ليواجه الشاشة الصغيرة التي يضعها عن يساره في مستوى أقل من مستوى المكتب. الكاميرات الثلاث تمسح أرجاء العيادة من موضع مرتفع ويمكنه أن يلقي نظرة عاجلة هناك..

كانت النظرة الأولى كافية ليرتجف..

الممرضة لم تكن تملك قدرة على الوصف ولا فراسة برغم أنها حاصلة على درجة في الآداب..

لطالما ضايقه هذا.. تقول إنهم شاحبون ساهمون صامتون.. هذا تعبير ركيك هش.. هؤلاء موتى.. موتى أحياء بلا زيادة أو نقصان، والأسوأ أنه لا يجد أي تفسير.

بحث بالكاميرا عن الممرضة فلم يجدها.. لقد فُرت على الأرجح..

أخرج منديلا ورقيا وجفف العرق على جبينه.. يمكن باختصار القول إنه هنا في غرفة الكشف بينها تعج العيادة بالأشباح أو الموتى الأحياء. لا يفصله عنهم سوى هذا الباب..

لا يريد أن يخرج ويعرف ما هنالك.. لا يريد أن ينادي المريض الأول.. لا يريد تفسيرات.. يريد الخروج من هنا بأي ثمن..

خلع المعطف وارتيدي سترته الأنيقة، ثم نهض...

كان يعرف وجهته الآن. ما لا يعرفه هؤلاء هو أن لغرفة الكشف بابا آخر. بابا يقع على السلم وهو مغلق دائماً لأنه يفضل استعمال المصعد طبعاً.. لكن وقت التدريبات الرياضية قد حان..

في حذر فتح الباب ثم تسلل للخارج حيث كان السلم الرطب المتسخ.. لا أحد يستعمله بتاتا..

اغلق الباب وهبط في الدرج بسرعة وخفة..

و عندما وجد نفسه في الشارع تنفس الصعداء..

☆ ☆ ☆

ثريا كانت عند موكابوكو..

نفس المعالم التي عرفتھا عشرات المرات.. الشقة المستأجرة الواسعة في شارع البطل أحمد عبد العزيز.. جلود النمر على الجدران.. صوت الطبول ينبعث من مشغل أقراص حديث. البخور في كل مكان... كل هذا جعلها تؤمن أنه ألعن نصاب عرفته..

لكن صديقاتها جربنه مرارا وقلن إن سره باتع..

مصر تعج بهؤلاء السحرة الماليين والسنغاليين والغانيين على كل حال، ولهم تأثير قوي وسحر خاص.. تقول صديقتها نانسي إن هؤلاء هم مصدر سحر الفودوو والعقيدة الودونية التي حملوها معهم إلى أمريكا. صديقة عاد لها زوجها وصديقة عرفت أين سرق عقدها الماسي.. الخ..

إن موكابوكو البدين الأسود ذا اللحية الشائبة هو الأفضل..

اليوم تجلس أمام موكابوكو، وتقول له إن اللعبة أفلتت..

"لقد طلبت منك الانتقام وأن تملأ حياته بالذعر.. طلبت أن تطارده أشباح المرضى الذين تسبب في قتلهم بإهماله وقسوته..

لكن هذه الأشباح صارت في كل مكان.. صارت تطاردني أنا نفسي.. تأتي للبيت وتلاحق سيارتي.. أنا لم أطلب منك الانتقام مني أنا !!!"

قال ولكنها العربية الثقيلة التي تجاهد كي لا تخرج سواحلية:

"يعني أنت تريدين وقف اللعنة التي ألقيتها على زوجك؟"

"حان وقت ذلك"

فكر حيناً وألقى ببعض البخور في النار ليؤججها، ثم قال:

"عندما طلبتِ معونتي طلبت منك عدة أشياء من زوجك.. متعلقات منه.. ثم أعطيتك تلك اللفافة.. اللفافة فيها دمية قماشية صغيرة. لا أستطيع رفع اللعنة من دون أن تجلي لي هذه الدمية"

ثم اتسعت ضحكته والتمعت أسنانه:

"بالطبع سوف أحتاج إلى أجر لرفع اللعنة كما احتجت إلى أجر لجلبها"

"لك هذا"

وأخرجت دفتر الشيكات والقلم، وبید مرتجفة كتبت له المبلغ.

لكنه رفع كفه ليمنعها:

"هذه المرة. نقداً.."

نظرت له في غلٍّ.. ثم مدت يدها في حقيبتها وأخرجت بعض الدولارات..

"هذا مقدم.. لا أحمل مالا معي.. والآن؟"

"أريد الدمية.."

الدمية في حشية الفراش وقد خاطت المرتبة بعناية لتختفي وسط الحشو.. سيكون عليها أن تقوم بجراحة مشابهة...

"سوف أجلبها لك غداً مع بقية المبلغ.."

ثم تذكرت ما تمر به والهول الذي صار عند كل زاوية، فقالت:

"لا.. سأحضرها لك اليوم"

اتجهت إلى الخارج وضغطت على زر المصعد.. رائحة البخور الخانقة هذه...

أخيراً توقف المصعد.. لحظة وانفتح الباب..

وللحظة وجدت أنها تحديق في عيني هجرس زوجها...

☆ ☆ ☆

الفرقة تعزف لحن تانجو رقيقاً هو (لا كومبارسيता) ... والإضاءة تتغير. فجأة يغمر المكان لون أزرق غامض كأنه بريق أقمار (بلغوريا).. ما هي أقمار بلغوريا؟.. لا أعرف لكن لابد أنها ساحرة كهذا الضوء..

قال لها هجرس وهو يملأ كأسها:

"هل تريدين الرقص؟"

كانت تشعر بخوف لا شك فيه، مع حرج بالغ لأن ثيابها غير مناسبة للسهرة في مكان كهذا.. عندما يكون هجرس لطيفا معها فهو مرغّب. أفضل طريقة للتعامل معه هي عندما يكون غير مبال، كان رقيقا ويبدو رائع المزاج فعلا..

هزت ثريا رأسها أن لا..

قال بصوت ناعم:

"هل تذكرين أيام زواجنا الأولى؟.. كنا نقصد أماكن كهذه نمضي فيها ساعات وساعات"

مالت وهي ترشف من كأسها:

"كان هناك طبيب شاب اسمه هجرس.. وكان يحبني"

ابتسم تلك الابتسامة الفاتنة التي تنم عن وقار وتنم عن خبث و تنم عن فهم للكون وقال:

"كنت أتمنى أن أقول إنني ما زلت ذلك الطبيب، لكن أشياء كثيرة تغيرت.. ولنقل بصراحة إنني لا أحمل لك أي مودة.. لكن هذا لا يعني الحرب.. لا أتمنى أن يتهشم عنقك..

ثم حكى لها قصته..

لقد ظل اسم (موكابوكو) في ذهنه لفترة طويلة.. كان يعرف أنه ساحر تولع به البلهاءات من نساء الطبقة الأرستقراطية وهو حبيب الممثلات وموضة العصر.. نوع من الروشنة أن يكون لكل سيدة ساحر أفريقي..

اسم موكابوكو تكرر على الشيكات ولدى المصرف في حسابها

المشترك. لكن د. هجرس لم يهتم بالأمر.. فلتعبث كما تريد.

"من حق المرأة أن تتسلى كما تريد اذا كان زوجها يعاملها كديكور في البيت.."

لكن فجأة بدأت الأمور تتغير وبدأ يشعر بقلق بالغ.. هو متأكد من أن أشباح ضحاياه - أو ضحاياه أنفسهم - يلاحقونه. هناك دائرة تنغلق حوله ببطء... هناك شيء قد تغير..

في البيت تفحص ما تحتفظ به ثريا في غرفتها.. وجد صوراً له..

وجد شعراً أشيب لا يمكن إلا أن يكون منه.. وجد مناديل قديمة تخلص منها..

زوجته تمارس السحر.. لكن كيف!!

ثم ربط بين هذا واسم موكابوكو. ماذا يمارسه الساحر الإفريقي بالضبط؟

ذهب إلى موكابوكو مساء وقدم له نفسه، ثم قدم عرضه.

سيجزل له العطاء ويقدم له مبلغاً ضخماً، لو أخبره بما تقوم به ثريا.. لو لم يتكلم فلسوف يجد نفسه أسفا مضطراً للاتصال بمكافحة الدجل ووزارة الخارجية وسفارة غانا.. سوف يدمر الرجل تماماً..

هكذا تكلم موكابوكو.. تكلم كثيراً جداً.. وعندما قابلها منذ ساعتين على باب الساحر الإفريقي

كان هذا لأنه أخبره أنها ستأتي له اليوم..

ثريا هي التي بدأت هذه اللعنة وهي التي تستطيع أن تنهيها...

كان ينظر لها بعينين لائمتين فيها رقة وحنان، حتى أنها شعرت أنه مجنون..

أخرج بطاقة الائتمان ليدفع.. وقال لها وهو يزيح المقعد لها:

"الآن نعود للبيت"

قالت:

"يجب أن تثق بي.. مرة أخيرة على الأقل.. يجب أن أعود لموكابوكو"

"سوف نعود للبيت ثم نفكر"

وهكذا وجدت نفسها تجلس جواره في السيارة صامتة..

لقد آذاها كثيرا.. ولهذا خطر لها كم من الممتع أن تتركه يتعذب وسط ضحاياه.. كل من ماتوا

وتعذبوا بسببه... كان انتقاما جميلا قاسيا يناسب طبيعتها..

لكنها الآن لا تعرف ما تقول ولا ما تفعل...

السيارة تنهب الطريق نحو الدار نهبا...

توقف بالسيارة في بقعة تطل على النيل الذي يغفو في الظلام..

هبط من السيارة ومشى في تؤدة نحو حاجز الكوبري وأشعل سيجارة... ثم ناداها:

"تعال يا ثريا"

هبطت من السيارة مترددة.. كل هذا البرد والظلام والوحشة...

وقفت جواره تطل على النيل وتشم رائحة الدخان:

"أنت تعرفين بعد هذا الاكتشاف أن حياتنا صارت مستحيلة.. لكن الطلاق سوف يمتص دمي

امتصاصا.. ثم هو لن يتيح لي الانتقام. تصوري أنك رجل وأنتِ عرفتِ أن زوجتك تمارس السحر

الأسود ضدك"

قالت في تحد:

"تصور أنك زوجة وزوجك على علاقة بكل فتاة على وجه الأرض.."

ثم اضافت وهي ترتجف:

"هناك تلك الدمي.. التي.."

لم تكمل العبارة لأنه كان قد انحنى على الأرض وأمسك بعقبها معًا، ثم رفعها بقوة مذهلة

ليضعها على الحاجز.. لم تفهم..

غرست أظفارها في صدر قميصه وحاولت أن تتشبث بربطة العنق، لكنه كان قد وضعها على

الحاجز كأنه يجلس طفلا.. ثم دفعها بقوة عضلية مذهلة لتسقط في النيل.. لم تصرخ ولم تجد الوقت لتفهم...

اصلح من سترته وربطة عنقه.. الغريب ان لفافة التبغ كانت مازالت في فمه فسحب منها نفسا أخيرا ثم طوح بها بدورها..

وعاد للسيارة وقد أدرك أن أحدا لم يره.

☆ ☆ ☆

جلس في العيادة في اليوم التالي شارد الذهن..

سوف يمر بعض الوقت قبل أن يدرك الناس أن ثريا اختفت..

سوف تكون هناك أسئلة بالتأكيد، لكن عليه أن يتمالك أعصابه..

لا توجد جثة طبقا لقاعدة (هابيوس كوريوس) إذن لا جريمة..

موكابوكو النصاب لن يتكلم.. السحرة الأفارقة الذين يمارسون السحر الأسود وبيتزون النساء الثريات، لا يبلغون الشرطة عن اختفاء عميلة..

سوف تختفي ثريا وسوف يكون هناك لغز حقيقي.. لكن الجثة لن تظهر ولو ظهرت سيقال إنه انتحار.. زوجها كان يعاملها معاملة سيئة.. لا بأس..

استجمع أعصابه ودق الجرس..

على الباب ظهرت الممرضة المبهوتة كالعادة فقال لها:

"المريض التالي"

لم تتكلم.. تراجعت..

وبعد لحظات انفتح الباب..

رأى وجهين لم يميزهما أولا ثم عرف الحقيقة..

.

ثريا.. ثريا وشاهنده!

كانت ثريا منتفخة الوجه وقد بدت بالضبط كيدك لو أنك قمت بغسل الصحون في مطبخ دارك.. الجلد يوشك على أن يتسلخ..

الشعر منكوش ومتلاصق الخصلات. أما شاهنده فكانت مذعورة.. ورقبتها في وضع غير مريح بتاتا...

ماذا كانت ثريا تحاول قوله قبل أن تموت؟

قالت له:

"هناك تلك الدمي.. التي.."

تم قتلها..

يمكن القول إذن أن القصة تتعلق بدمية.. والدمية لم يتم التخلص منها وهو لا يعرف أين أخفتها ثريا. إذن اللعنة موجودة وقائمة..

اللعنة سوف يحاصره ضحاياه.. لقد كانت شاهنده من ضحاياه بالتأكيد والآن صارت ثريا مثلها. كان د. هجرس - كا قلنا - عمليا سريع التفكير لا يندهش ابدا... وهكذا كان قد كون في ثوان تقييمه للموقف..

وقف من مقعده.. تراجع للخلف... ثم أصلح من ربطة عنقه...

مع المعطف وألقاه على المشجب، وارتدي سترته..

كانت المريضتان تتقدمان نحوه في ثبات..

في ثبات مماثل اندفع نحو النافذة العريضة التي تحتل جدارا كاملا، وتظهر بانوراما لشارع البطل أحمد عبد العزيز، وهشمها بكتفه... كرااااش!

وبعد لحظة كان يهوي نحو الشارع العريض.

(تمت)

المدية الفضية

عندما استدعانا (بوريس) إلى قصره، قال لنا إن علينا حماية المدية الفضية..

جعلنا نقسم القسم الدامي، ونطلق على انفسنا فرسان المدية الفضية.

قام بتوزيع المسئوليات والمفاتيح..

إن الغرض من الاحتفاظ بها كان أكبر من أن يكون للعرض على السياح. كانت تمثل حقيقتنا وكل شيء ننتمي له..

☆ ☆ ☆

تمت السرقة في الثانية عشرة مساء..

لقد فقدنا المدية الفضية يا سادة وعلينا أن نقبل هذه الحقيقة..

حاولي أن تمسحي دموعك يا إيرين وأن تتماسكي قليلا.. لو كان البكاء يعيد المدي الضائعة لجلسنا جميعا نبكي...

ربي!.. منهارة تماما.. هلم يا كارل قدم لها بعض البراندي..

اجلسي..

ترى أن نبليغ الشرطة؟.. لا جدوى من هذا يا ألفونس.. الشرطة ليست مجموعة من السحرة. أنت تعرف كما أعرف أن من حطم هذه الواجهة الزجاجية كان يلبس قفازا.. الشرطة لن تجد بصمات.. هذا شيء محتم. سوف يبحثون عن شخص يحاول تهريبها خارج البلاد.. لا جدوى طبعاً لأن من سرق المدية أذكي من هذا.. سوف يبتاعها أحد الأثرياء داخل البلاد ويضعها في قبو داره إلى أن يموت.. نفس ما كنا سنفعله نحن على كل حال...

إيرين.. إنها فاقدة الوعي ولو توخيت الدقة لقلت إنها في صدمة عصبية..

هذا غريب.. الأمر يتجاوز فهمي للأمور.. يكفي بعض البكاء وينتهي الأمر لكنها في رأيي تبالغ نوعاً. ربما كان عليك أن تطلب الإسعاف يا كارل وأن نجلس لنتصور كيف تمت هذه الجريمة..

هل الزجاج محطم؟..

لا؟.. إذن هناك من استعمل المفتاح. لكن كيف يحدث هذا بينها انا و إيرين الوحيدان اللذان يملكان مفتاحاً لهذه الواجهة؟

إذن لابد من تفتيشي.. هلم!.. أنا مصرّ على ذلك.. تعال يا ألفونس إلى الغرفة المجاورة وقم بتفتيشي.. إيرين ليست متهمة طبعاً لكني أرى أن ننتظر قدوم إليزابيث لتفتشها بدورها..

إن المدية شيء صغير يسهل إخفاؤه..

تعال يا ألفونس.. لندخل هناك ولتعلن بعد التفتيش إنني شريف لم أسرق المدية الفضية..

☆ ☆ ☆

هناك في الخندق رقد (فاسيلي زاييسيف) على بطنه يراقب المتاريس..

متاريس بلهاء فعلا ولن تعوق أحدا لكنها تلعب دورا نفسيا مهماً..

تشعرك أنك لست معرضاً.. ومد يده يعتصر حفنة من الثلج....

أكتوبر 1942 والحرب في ذروتها.. يبدو أنه ما من أحد قادر على قهر هؤلاء النازيين..

أعاد حشو البندقية وأخذ شهيقا عميقا... احكم التصويب..

هناك ذلك الشاب الألماني الذي يتحدث مع رفيقه وكلاهما يحمل قدحا به شيء ساخن.. حساء أو قهوة.. صغير السن جدا يذكرك بالمراهقين. الحقيقة أن فاسيلي كف من زمن عن اعتبار النازيين بشرًا، كما أنه يمقت السخف الأدبي على غرار: هذا شخص مثلي ومثلك لديه أحلام وأهل و حبيبة... الخ....

لم يعد هناك مجال لهذا الترف الأدبي.. إنها الحرب يا رفيق...

إن زاييسيف أهم قناص في الجيش السوفييتي، وورقة اللعب الأهم لدى السوفييت أثناء معركة ستالينجراد.. فيما بعد سوف يمنحه ستالين وساما، وبعد نحو أربعين عاما سوف تقدم هوليوود فيلم (العدو على الأبواب) عن قصة حياته..

أما اليوم فليس في ذهنه سوى شيء واحد.. إنه يريد ذلك الفتى الألماني.. سوف يظفر به.. أحكم التصويب.. كتم أنفاسه....

سوف تضاف جثة أخرى للقتلى الألمان بعد ربع ثانية..

هنا شعر بمن يثب عليه من الخلف.. يا ابن الشيطان!...

على الفور رأى الوجه الألماني الذي يطلق السباب بالألمانية..

وأدرك من القبضة القوية أنه يأكل جيدا جدا ولا يعاني سوء التغذية مثل السوفييت. كان الألماني يجثم فوقه وهو يحاول أن يولج السونكي في صدره وهو يردد بلا توقف:

"شايسه!.. شايسه؟"

ما معنى هذا؟.. الأسوأ انه يبصق أيضا.. يحاول فاسيلي أن يشله بيده اليسرى..

راح فاسيلي يتحسس الثلج بيده اليمنى.. لست أنامله شيئا...

عندما تحسسه أدرك أنها مدية، على الأرجح سقطت من جيب هذا الألماني، لا وقت للتردد.. إن قواه تخور والالمانى قوي فعلا...

بيد راجفة حمل المدية ثم حشرها بين جسده وجسد الألماني و..

هوب.. انغrust حتى النصل في صدر الرجل.. انتزعها وهذه المرة غرسها في عنقه....

هوى الجسد الضخم من فوقه وقد فرغ من الحياة... نحن بالونات مليئة بالحياة يكفي ثقب رصاصة أو طعنة بمدية كي تخرج كل الحياة منها وتتداعى. فس س س!

جثة ترقد وسط الثلوج..

أخيرا اعتدل فاسيلي وبحث عن بندقيته.. يجب أن ينهي عملية القنص وبعدها يفهم كيف تسلسل هذا الوغد الألماني إلى الخندق لكنه عندما نظر في عدسة البندقية وجد أن الجنديين الألمانين قد اختفيا..

لقد خسر ألمانيًا وربح واحدا... لعبة قدرية غريبة.

انتزع المدية من عنق الرجل ملوثة بالدم، فمسحها بمنديل وراح يتأملها... فضية... لا شك في هذا.. على الأرجح غالية الثمن كذلك..

دسها في جيبه وقد أدرك أنه لن يبيعها.. سوف يبقياها تذكارا لهذه الحرب اللعينة، فقط لو ظل حيا.. وهو كان على يقين من أنه سيظل حيا..

ابتعد عدة خطوات ثم التفت للخلف ليرى المشهد مرة أخيرة..

لم يكن هناك أحد.. لا جثث على الجليد.. لا دماء.. فقط ثلج مبعثر في كل مكان..

تحسس جيبه فوجد المدية ما زالت هناك.....

☆ ☆ ☆

ايرين لا تتنفس..

لا اعرف ما حدث في هذا اليوم الأسود.. أرقدوها أرضا..

سوف أحاول أن أجري لها تنفسا صناعيا.. أين هذه الإسعاف اللعينة؟؟

تنفسي يا إيرين.. تنفسي ارجوك...

المناسبة لا يغادرن أحدكم المكان لأننا سنجرى تفتيشًا دقيقا على الجميع بعد أن نطمئن على إيرين..

تنفسي يا إيرين...

شهيق..

زفير.

شهيق..

زفييير.

☆ ☆ ☆

الأمر سهل.. هناك واجهة زجاجية في القبو، ثم هذا الصندوق الزجاجي بالداخل.. أي أن هناك واجهتين زجاجيتين تواجهانك قبل أن تصل للمدية الفضية. هناك واجهة محطمة وأخرى لا والمدية مختفية.. ألا يضيق هذا دائرة الاتهام قليلا؟

إن كارل وإليزابيث يملكان مفتاح الواجهة الخارجية وبرغم هذا هي محطمة.. من فعل هذا يريد

أن يجعلني وإيرين المتهمين الوحيدين..

عندما استدعانا (بوريس) إلى قصره، قال لنا إن علينا حماية المدينة الفضية.. جعلنا نقسم القسم الدامي، ونطلق على أنفسنا فرسان المدينة الفضية. قام بتوزيع المسئوليات والمفاتيح.. إن الغرض من الاحتفاظ بها كان أكبر من أن يكون للعرض على السياح. كانت تمثل حقيقتنا وكل شيء ننتمي له..

ماذا تقول يا ألفونس؟..

المدينة كانت مخصصة لقتل المذءوبين في فري يوغوسلافيا في القرن الرابع عشر؟.. بصراحة لا أصدق هذا الهراء.. هذه اساطير قروية لكنها خلابه.. بالتأكيد خلابه.. هلم.. إيرين تفتح عينيها أخيرا..

إيرين فوق الشبهات.. ربما كان هذا لأنها فوق الشبهات فعلا، أو لأنني أحبها كما تعرفون وكا لا أخفي عن احد.. المهم أنها بخير وأنني سأؤذي أي شخص يؤذيها.. جميل.. جميل..

هل انتهيت من تفتيشي يا ألفونس؟.. هل أنت مقتنع؟

تقول إنني نبيل ومن أسرة عريقة في أوروبا ولا يمكن أن أسرق المدينة الفضية.. لا يوجد شخص فوق هذه الجريمة.. كل إنسان يمكن أن يفعل ذلك.. هذا هو مبدئي.. يبدو للأسف أنني مضطر إلى أن نقسم جميعا قسم الدم من جديد.. من يفشل في القسم سوف يموت الليلة..

☆ ☆ ☆

أخيرا التحم البرج الخشبي بسور المدينة...

كانوا يطلقون السهام بلا توقف ويقذفون الحجارة، ثم تعاون عدد من الجنود وسكبوا وعاء مليئا بالزيت المغلي فوق البؤساء الذين تسلقوا السلم الخشبي العملاق.. تسمع صوت الصراخ واللحم يذوب بينها هؤلاء الذين كانوا بشرا يحلقون بأجنحة من نار إلى جهنم..

يا لهم من بؤساء..

لكن (أسجا آر) - وأرجو ألا يحذف المصحح اللغوي حرف الألف الزائد - يثب فوق السور.. عيناه متوحشتان تقدران على القتل وشعره منتفش، لقد صار وحشا بفعل أيام من الحرمان والجوع...

لهذا صار على أتم استعداد كي يمزق كل من يحاول منعه..

السيف في يده.. هو متعطش للدم والعنف والذهب...

والنساء!

نعم.. هناك الكثير من النساء في هذه البلدة الكلية التي حاصرها الفاكنج. نساء صارخات باكيات يتوسلن له ألا ينتهكهن.. هذه الصورة تجعل الدم يغلي في عروقه، وهو يعرف يقينا أنه سيذبح كل امرأة بعد ما ينالها..

أسجا آر الرهيب.. غازي الشمال القادم من حيث تتجمد الحلق من الصقيع...

أسجا آر المتوحش الذي يطير الرقاب بضرياته..

يشق طريقه وسط المدافعين عن المدينة، وهو يطير الأعناق يمينا ويسارا..

ثلاثة أشهر من الحصار تنتهي الآن. وأسبوع كامل قادم من السلب والنهب..

هذا الباب الخشبي يحاولون غلقه.. يركله بقدمه ليفتحه..

يقف على الباب ويعوي كالذئب..

يرى خطابا في منتصف العمر يحمل بلطة ويسد الطريق عليه..

في الخلف زوجة بارعة الحسب في الأربعين من عمرها تفرد يديها محاولةً أن تحجب طفلتين مراهقتين خلف ظهرها..

كوخ حقير هو.. لا يوجد فيه ما يسرق..

لكنه يمثل إغراء قويا له..

والخطاب الذي يحمل البلطة.. يا لك من أبله.. حتى والبلطة في يده يبدو واهنا وضحية جاهزة.. يحمل البلطة وهو يعرف انه سيهزم...

طار السيف في الهواء ليشطر ذراع البلطة الخشبي، ثم هوى فوق عنق الخطاب..

الزوجة تصرخ في هستيريا.. بينها أسجا آر الرهيب ابن أودين يتقدم فوق جثة الخطاب لينال ما يعتبره حقا له...

حاول الطفل أن يعضه في يده وركله لكنه تخلص منه فورا..

وهنا سقط شيء على الأرض..

شعرت به الزوجة وهي تقاوم.. ما هذا الشيء؟.. يبدو كمديّة فضية.. شيء ثمين كما يبدو لابد أن هذا الوحش الشمالي قد سرقه من أسرة أخرى..

وكان حلق الرجل على بعد سنتيمترات منها..

حركت المديّة بسرعة..

ولم تصدق أنها أحدثت هذا كله.. الوحش المفزع.. التنين يتهاوى.. الدم يتفجر كنافورة من عنقه.. يرتجف.. ينظر لها بعينيه الزرقاوين المفترستين غير مصدق..

هذا لا يحدث لي؟

لا تستطيع زوجة خطاب أن تقتل أسجا آر الرهيب ابن اودين..

ثم تهاوي بلا حراك...

للحظات ظلت الزوجة وسط الدماء تلهث، وبناتها تنشجان بلا توقف...

أخيرا تحسست المدية الغربية.. لا أعرف كيف أتيت في يدي..

لكنك منحتني الانتقام... والنجاة..

☆ ☆ ☆

تعالى يا إليزابيث..

هل انتهيت من تفتيش إيرين؟.. لم تجدي شيئا؟.. هذا لحسن حظي أنا لأنني ما كنت لأتحمل أن تموت أمامي..

لا أريد أي أعذار ولا أريد من يدافع عن نفسه..

كلنا منهم وكلنا سنحاول إثبات براءتنا الليلة..

انتم تعرفون طقوس قسم الدم.. لقد أديناه من قبل أمام بوريس العجوز.. كان هذا منذ أعوام وكان مخيفا كما تذكرون..

يومها قال لنا: من يحنث بهذا القسم سوف يموت فوراً..

سوف نكرر هذه التجربة الليلة.. تقدم يا كارل..

أنت تعرف الطقوس.. قف في وسط القاعة.. تقدم إلى الواجهة التي كانت فيها المدية الفضية..
إبدأ!!

☆ ☆ ☆

كارل كان مذعورا...

لا ألومه كثيرا لكن الأوان ليس أوان تعاطف.. سوف نمر كلنا بهذا الاختبار..

أنت تعرف قصة الملك الصقلي الذي أجلس خصمه ديموكليس Damocles تحت سيف ثقيل معلق بخيط ضعيف ضامر حتى الصباح... حتى دخل مصطلح (سيف ديموكليس) إلى الأدب الغربي. نحن نكرر هذه التجربة تقريبا..

هذا هو السيف علقناه بالسقف... إنه يتدلى بحبل بلاستيكي غليظ..

سوف نجلب المقعد إلى منتصف الغرفة.. إجلس تحت السيف بالضبط... ارفع ذقنك ليهري السيف على حلقومك لو سقط...

الآن سوف أجلب عود ثقاب وأمس الحبل...

إنه يشتعل؟

الشر والبلاستيك المحترق يتطاير في كل صوب.. بسرعة.. إن وقتك محدود جدا..

اقسم الآن أنك لم تسرق المدية الفضية.. هلم.. قلها ببطء... لو كنت كاذبا فلسوف يهوي

السيف عليك قبل أن تلفظ جملة كاملة..

"أنا لم أسرق المدية الفضية وليتمزق عنقي لو كنت كاذبا"

"كرر"

الشرر يتساقط والحبل تحول إلى خيط أسود رفيع كخيط عنكبوت..

"انا لم أسرق المدية الفضية وليتمزق عنقي لو كنت كاذبا"

جميل.. جميل.. هيا انهض بسرعة...

تشاك !.. لقد هوى السيف فوق المقعد.. انغرس حتى منتصف النصل في الخشب.. وسقط كارل على الأرض غير مصدق..

بالنجاة.. كل عضلة في جسده ترتجف كأنه مكهرب..

انت صادق.. لا شك في هذا... أهدأ..

طبعا عندما كنا نقسم لبوريس العجوز، كنا نقول:

"سوف أحمي المدية وأحفظ سرها.. وليتمزق عنقي لو كنت كاذبا"

هذا دوري.. سأجرب حظي إذن.. أعتقد أنني سأنجو.... لأنني بريء..

تعال يا ألفونس وأستعمل حبلا جديدا من فضلك.. أرجوك أن تكون حذرا.. لا أريد أن يسقط السيف فوق عنقي لأنك مهمل، وليس لأنني لص..

☆ ☆ ☆

أطلق (نواع - حتب) آخر سهم في جعبته.

لم يعد الآن يحمل سوى السيف..

نظر إلى النهر حيث كان الملك رمسيس ينطلق بعربته الحربية..

بدا أكبر من الواقع وهو يجندل هذا ويصرع ذاك من الحيثيين..

يندفع ليقلب عربة تلو أخرى في النهر ثم يقذف بنشابته ورمحه ويهشم الرؤوس.. لقد بدا كأنه جاء من العالم الآخر.. ربما هو أحد أبناء أوزيريس.. إنه هو الموت نفسه.

شعر (نواع) بقشعريرة.. ما يدعو للفخر أن يكون هذا هو ملكه..

قوي مفتول العضلات غاضب نبيل كإعصار.. لم يعد بشريا بل هو ينتمي إلى قوى الطبيعة ذاتها.. إن التاريخ سيذكر معركة قادش طويلا جدا.. سيذكر رمسيس العظيم..

لكنه لن يذكر (نواع - حتب) الذي يوشك على أن يلقي مصرعه.

تراجع ليلصق ظهره بشجرة ليمون وراح يلوح بالسيف..

كان يخشى هذا العملاق مجدول اللحية قوي العضلات الذي قطع رؤوس الرجال يمينا وشمالا..

كان يتقدم وهو يترك من خلفه طريقا من رءوس مقطوعة.. إنه من أبطال الحِيثِين وزملاءه يتبعون خطواته..

الويل.. الويل..

العملاق يتقدم منه...

يرى بشرته السمراء وعينيهِ الزرقاوين الغريبتين، بينما كان (نواع) صعيدًا لم ير في حياته إلا العيون السوداء.. لهذا بدا له الغريب وحشا..

بضربة واحدة أطار الغريب سيف نواع.. بمعنى أدق شطره إلى نصفين وطار نواع نفسه إلى الأرض الموحلة..

هنا وجد المدينة الفضية جوار بده..

برغم الجو المحموم وسرعة الأحداث، فقد أدرك أنه لم ير مثلها وهذه الصناعة الدقيقة الحديثة.. ثم من أين جاءت؟.. سقطت من أحد الجنود الحِيثِين على الأرجح..

قبض كفه عليها..

قذف بها في الهواء نحو العملاق عالمًا أنه على الأرجح سيثير غضبه فقط..

سقط

لكن المدينة استقرت في صدر العملاق.. ورآه يزار كأسد ثم سقط وسط الأوحال.. الأوحال التي اختلطت بالدم.

وعلى الفور التقط نواع السيف واندفع يلحق بملكه الذي كان يقلب العربة السابعة للحِيثِين في النهر..

قادش.. سوف تتناقل أخبارها الأمم..

أنتم ترون يا شباب أنني أدت قسم الدم والسيف لم يسقط فوق رأسي.. صحيح أنني مبلل بالعرق وأرتجف.. وصحيح أن السيف كاد يقطع حلقومي فعلا، لكني حي.. وبالتالي أنا بريء..

هل تريدون التجربة يا إليزابيث؟.. لا يوجد اختيار هنا.. كلنا مجبرون على ذلك، لكنني أسمح لك بحرية اختيار الترتيب لا أكثر..

من يرفض اجتياز هذا الاختبار يعترف بأنه هو السارق.. بوريس العجوز طلب منا أن نعدم من يرفض اجتياز الاختبار حتى لو كان هو نفسه..

تعال..

اجلسي..

تمنطق السيف يا كارل.. اشعل الحبل يا ألفونس..

والآن يا إليزابيث أريد أن تقسمي.. اقسمي انك لم تسرق المدينة الفضية..

هلم... خذي نفسا عميقا وتكلمي قبل أن يسقط السيف فوقك..

إليزابيث..

تكلمي..

انت متوترة وريقك جاف، لكن هذا لن يعفيك من اجتياز الاختبار..

إليزابيث.. لا!!!!!!!!!!!!!!

☆ ☆ ☆

كانت هناك تلك المواجهة في زقاق خلفي لنادي (شاطر) الليلي. إنها الثلاثينات من القرن العشرين
كما تعرف.. كما تعرف..

لقد كان (جيمي) الأخنف هناك، ومعه (رايلي) و(جيسون)..

رباه!.. كل الشلة كانت هناك، وفي الوقت نفسه كان هؤلاء الصبية يعرفون معنى أنهم أهانوا
ماريو وسوني وريكاردو...

هؤلاء ليسوا إيطاليين فلا تخدع نفسك.. هذه البشرة السمراء واللكنة الواضحة. إنهم من
صقلية.. كل طفل يعرف أنهم من صغار المافيا.. بعد أعوام سيرعب كل واحد من هؤلاء قطاعا
من شيكاغو..

كانت المواجهة، وتطاير الدم في كل مكان... هشم جيسون زجاجة بيرة وراح يطعن بها، بينها
وثب ريكاردو خلف جيمي الأخنف ومرر المطواة تحت عنقه..

وثبت قطعة مذعورة.. ومن مكان ما غنى رجل سكير..

أما (رايلي) فسقط على الأرض يرتجف.. كان يلفظ أنفاسه الأخيرة.. كل طفل يعرف أنه كان
يلفظ أنفاسه الأخيرة لكن لماذا؟.. هو نفسه لم يعرف..

وعلى الأرض التحم جيسون مع ماريو يتقاتلان وانقلبت أكثر من صفيحة قمامة..

وفي النهاية رفع ماريو الزجاجة المهشمة التي انتزعها من يد جيسون وهتف:

"مت!"

لكن المدية اخترقت قلبه جهة اليسار.. المدية التي وجدها ميسون في يده ولا يعرف من أين
جاءت.. هل كانت في جيب ماريو؟.. لا يعرف..

غاصت المدية حتى المقبض وهوى جسد ماريو تماما..

عندما نهض جيسون وجد الزقاق خاليا تماما إلا من جثتي صديقيه وجثة ماريو..

نامل المدية.. مدية فضية جميلة الشكل.. من اين جاء بها ماريو بفرض أنها كانت معه أصلا..؟

☆ ☆ ☆

لا تتحركوا...

سوف نزيل الدماء ونغسل المقعد جيدا..

لقد كذبت إليزابيث.. كانت هي التي سرقت المدية الفضية بلا شك...

لا تفقدي الوعي من فضلك يا إيرين.. أعرف أن المشهد شنيع لكننا نعرف أن القانون أكثر شناعة وسرقة المدية أشنع وأشنع..

لا تقلقوا بصدد رجال الشرطة.. سوف يسهل إخفاء الجثة وإخفاء أن إليزابيث جاءت هنا.. لكن مشكلتنا لم تنته بعد..

يجب أن تفتشي الجثة بعناية يا إيرين بحثا عن المدية الفضية.. لم يكن الانتقام هو هدفنا، ولكن استرداد المدية..

هل وجدت المدية؟.. لا... هذا غريب..

أين يمكن أن تكون أخفتها؟ ربها في مكان ما من هذه الغرفة أو القلعة.. لا نعرف حقا.. سيكون البحث عسيرا..

الآن سوف نتخلص من الجثة ونعد العدة لاستمرار اختبار الدم..

ألفونس مذهول ويقول إنه لا داعي لذلك الآن.. كلا.. لابد من استمرار التجربة فقد يكون هناك شريك لإليزابيث في هذا..

لو لم تقبل الاختبار يا ألفونس فإنني سأفترض أنك متعاون معها، وسوف نقتلك حالا هنا والآن..

هيا.. اجلس..

حاول أن تنسى أن إليزابيث كانت هنا منذ دقائق وكانت حية..

حاول أن تنسى الطريقة البشعة التي هوى بها النصل على حنجرتها..

ارفع رأسك... انظر للسيف المتدلي من السقف فسوف أشعل الحبل...

انت تحفظ كلمات القسم:

"أنا لم أسرق المدية الفضية وليتمزق عنقي لو كنت كاذبا"

تشاك...

☆ ☆ ☆

بوريس العجوز كان أول من بدا يفهم قيمة هذه المدية..

عندما وقف في متجر ذلك التاجر اليهودي ينظر حوله في شك، كان يعرف جيدا ما يريد.. المدية الفضية.. مدية (عشتار) كما يطلقون عليها، وهو يعرف جيدا ما تعنيه.

إن تاريخ هذه المدية يدل على أصلها ومنشئها..

كل الشواهد التاريخية تقول إنها كانت تنتقل من يد ليد.. تظهر بالذات في اللحظة التي يوشك

فيها شخص واهن أو بريء على أن يلقي حتفه، عندها تظهر المدينة لتنقذه.. وتنتقل ملكيتها له ثم اولاده أو أحفاده.. إلى أن يأتي اليوم الذي يفقدونها فيه وتنتقل لضحية أخرى..

قال اليهودي إنه حصل عليها آخر مرة من شاب يدعى (جيسون)..

كان في حاجة إلى أن يسدد ديون القهار.. كان الشاب من شيكاغو وقد قتلت العصابات بعد هذه الصفقة بقليل..

اليهودي كان يملك كتباً وكانت لديه رسوم لهذه المدينة..

رسوم قديمة جداً.. رسوم صنعها رسام بدائي من حضارة بين النهرين، ورسوم لها طابع فرعوني أكيد، ورسوم تذكر بمخطوطات تشيليني في عصر النهضة..

المؤكد هو أن المدينة هي المدينة والنقوش واضحة..

قال اليهودي وهو يفتح علبة القطيفة السوداء:

"ها هي ذي.."

وفي الضوء الشاحب توهجت المدينة الفضية رائعة الجمال..

كان بوريس العجوز يعرف كل شيء عنها.. يعرف أنها كانت في خزائن أسرته لأطول وقت ممكن في تاريخها، مع أنها تقلبت كثيراً بين عشرات الأيدي والجنسيات..

يعرف أنها خاصة بذلك الناسك الذي عاش في زمن عبادة عشتار.. هذه المدينة استخدمها الناسك ليقتل الشيطان.. ومنذ ذلك الحين تنتقل المدينة من يد ليد لتؤدي عملها عندما تمس الحاجة له...

قال بصوت مبجوح:

"هي.. لا شك في ذلك"

مال اليهودي وهو يغلق الصندوق:

"هي ليست للبيع.. هذه مجموعة خاصة.."

ولا.. لا يمكن أن نتحدث عن مجموعات خاصة.. هذه المدينة لي.. تخص أسرتي.. سوف أخبر ورشتي جميعاً وسوف نحرسها فلن تغادر أسرتنا أبداً..

"انت تمزح.. لكل شيء سعر"

"بعض الأشياء ليس لها سعر.. أنا ليس لي سعر وهذه المدينة ليس لها سعر"

أخرج دفتر الشيكات ليكتب رقاً، لكن اليهودي قال وهو يبتسم:

"لا تحاول.. قلت لك إنها ليست للبيع.."

واستدار ليضعها في الخزانة خلف اللوحة المعلقة..

هنا كان بوريس العجوز قد اتخذ قراره..

لم يره أحد يدخل هنا عندما جاء الليلة ولا يوجد شهود.. إنه وحده مع اليهودي، وقد نال هذه اللحظة بسبب ثرائه ومكانته الاجتماعية..

هكذا اخرج المسدس الصغير من جيبه وصوبه إلى مؤخرة رأس اليهودي.

أما لماذا قام بتثبيت كاتم الصوت قبل هذا، فلأنه لم يستبعد هذا السيناريو منذ البداية..

وهكذا عندما غادر بوريس المكان كانت المدينة الفضية قد عادت لأسرتها العريقة، ومعها قسم الدم.. كان يعرف أن المدينة أقوى وأكثر حكمة من أن تكون مدية عادية..

☆ ☆ ☆

قال بوريس لنا وقد أغلق أبواب القاعة بهذا الباب الخشبي الغليظ، والنار تتوهج في المدفأة فتجعلنا نرتجف:

"هذه المدينة تمثل الشيء الذي هزم الشيطان.. ولهذا نحفظ بها ونقاتل ونموت من أجلها.."

هنا دوي صوت الرعد فاهتز القصر، وتعالق دقات قلوبنا...

خيل لنا للحظات كان الشيطان يعلن غضبه من سقر..

هذه أشياء خطيرة جدا.. التعامل معها مخيف.. لكن الأخطر هو أن بوريس أخبرنا بالسر، وعرفنا أنه لم يعد بوسعنا التراجع.

☆ ☆ ☆

هناك في العراق قرب البصرة كان ذلك اللقاء..

هذه أيام قديمة جدا.. أيام يعرفها الناس من اسطورة جلجاميش وصديقه إنجيدو، عندما كان اسم المنطقة (بلاد ما بين النهرين)

وكانت هنا إمبراطورية آشورية وبابلية وسومرية..

الرجل الذي حكى عنه الأساطير كان ناسكاً اسمه (أوتنابشتيم)..

إنه الناجي من الفيضان، وهو ذلك الذي طلب الخلود فناله ووقع في الخطأ الشهير عندما لم يطلب ألا يشيخ.. النتيجة هي أنه ظل حيّاً لكنه تحول لمومياء. نفس الغلطة وقع فيها أبطال الأساطير الإغريقية من قبل، ووقع فيها معمر و قصص جليفر..

هناك يقف الشيطان والشر يتصاعد من مخالبه ومن منخريه.. السماء تصطبغ باللون الأحمر، والمواجهة الأخيرة بينه وبين الناسك..

كانت مواجهة محسومة فعلا... الدية الفضية في يد الناسك والشيطان يريد لها. استطال وتمدد حتى صار بحجم شجرة بلوط عملاقة. انقض على الناسك، لكن هذا الأخير طعنه مرتين بالمدينة فاضطر الشيطان لأن يطلق سراحه ويتراجع... الدم يخرج

من ثقب جسده على شكل دخان أزرق مخيف....

رفع الشيطان عقيرته للسماء وعوى كذئب..

الناسك ارتجف رعبا لكنه كان يعرف أنه لا سبيل للفرار أو التراجع.. يجب أن تصمد..

انقض الشيطان من جديد وتلقى عدة طعنات، لكنه استطاع أن يلف لسانه المشقوق الطويل حول عنق الناسك.. ثم اخترق هذا العنق الطري.. ومن أذن الناسك خرجت ممسات الشيطان الهدبية.. خرجت من أنفه وفجوتي عينيه....

وعندما انتهى الشيطان لم يبق من الناسك الذي مُنح الخلود إلا قشرة خالية هشة..

كانت الريح تهب محملة بالسموم وبنات آوى تعوي، عندما ألقى الشيطان بالقشرة.. وصرخ من فرط القوة.. ثم بحث عن المدية..

لم يجدها!

لقد ضاعت المدية وهي التي صارت له بحكم منطق القوة.. أين هي؟

من جديد راح يعوي كالذئب.. وتساقطت أشجار الصفصاف واحتترقت الأعشاب وهبت الريح.. أما الذئب ففرت من هذه المنطقة مذعورة..

وهكذا راح الشيطان ينقب عن هذه المدية عبر الزمان وعبر المكان..

بحث عنها في كل العصور.. كان يظهر دوما في الوقت المناسب ليكتشف أنها اختفت من جديد.. يجب أن نقول هنا إن المدية كانت لها شخصية وحياة خاصة بها، وكانت تجيد التواري..

تظهر للحظات لتحديث تغيرا في موازين القوى ثم تتواري..

ويفتش الشيطان فلا يعرف أين هي.. محارب أخذها وفر أو زوجة خبأتها في صدرها أو تاجر ابتاعها..

بحث مرهق طويل..

الحقيقة التي لم نعرفها ولم يعرفها بوريث هي أن هذه لم تكن مدية خيرة.. لقد كانت مدية الشيطان نفسه وهو يفتش عنها منذ قرون.. لو توقف للحظات ليفكر لأدرك أن المدية جلبت أنهارا من الدماء وتلا "من القتل عبر التاريخ.. فكيف تكون

رمزا للخير؟

☆ ☆ ☆

يسهل على المرء أن يتكلم ويتفلسف ما دامت حكمة بأثر رجعي..

لكن عندما بدأنا الاختبار لم أعرف هذا كله.. في البدء شككت في أن إليزابيث فعلت هذا.. ثم لحق بها ألفونس.. بدأت أشك في الأمر..

قررت أن ألتصص على حقيبة إيرين وجيب كارل. عندما تسللت إلى حقيبة إيرين وفتحتها وجدت المدية الفضية..

أنا أثق بك يا إيرين بشدة لأنني أحبك.. لكن الأمر لا يحتمل الجدل. المدية معك.. والأخطر أنك اجتزت الاختبار، والأخطر من هذا أن إليزابيث لم تجدها عندما فتشتك أول مرة... هل هذا

يشير لشيء؟

نعم.. انت سرقت المدينة ولديك قدرة على إخفائها في ذات المكان الذي يتم تفتيشه.
لقد أدت دورك جيدا وفقدت الوعي مرارا.. لكنك أنت من سرق المدينة.. هل لي أن أعرف
السبب؟

لا يا كارل.. لا تقتلها.. أريد أن أعرف منذ متى هي تتآمر على سرّ اسرتنا ولماذا؟
الشیطان قد تمكن أخيرا من تحديد مكان المدينة وعرف سرّ أسرتنا، وهذا يعني أن رحلته عبر
التاريخ قد بلغت نهايتها ونجحت...
لا تقترب منها يا كارل.. أنت ترى أنها تلهث بلا توقف وأن لسانها يخرج ويدخل بين شفتيها..
كارل.. إن حدقتيها بلون الدم.. إنها تتغير وهناك شرر يخرج من أطراف أناملها.. لشد ما تغير
جمالها الذي بهرني أعواما لا حصر لها..

كارل.. ابتعد يا أحمق.....!

لقد شققت قلبه بضربة واحدة من لسانك يا إيرين!... أنت لست كائنا بشريا.. هذه قشرة سكن
فيها الشيطان.. أنت قتلت إيرين ثم قتلت كارل الآن..

"هات المدينة.. إنها لي؟"

يا لصوتك!.. لقد صرت كيانا شنيعا فعلا...

لماذا تعتقدين أنها مديتك؟.. دعيني أسمع قصتك مع ذلك..

الناسك (أوتنابشتم).. فهمت.. ونحن كنا حمقى عندما حسبنا المدينة ترمز لانتصار الخير على
الشر.. بالعكس.. هي ترمز لانتصار الشر على الخير.

"هات المدينة.. إنها لي!"

لماذا لا تقتليني وتأخذينها؟.. سأسمح لنفسي بافتراض أن هناك سرّا هنا.. يبدو أنك تتصرفين
مثل مصاصي الدماء الذين لا بد من دعوتهم بكامل إرادتك.. هنا لا تقدرين على انتزاع المدينة مني
بالقوة.. لا بد أن أموت أو تسقط مني لتأخذوها.. أليس كذلك؟

هذا هو التفسير الوحيد لكونك لم تقتليني حتى الآن..

لكن بوريس العجوز لم يكن سهلا..

كان يخشى أن يستولي لص أرضي على المدينة، لذا احتاط للأمر..

كان لديه حل أخير هو (الخيار شمشون) في حالة العجز عن حماية المدينة.. يكون علي أن أزيح
هذا القضيب الحديدي جوار المدفأة..

نعم.. هذه جدران فولاذية تنغلق علينا من أعلى وتحبسنا في غرفه مساحتها متران في ثلاثة أمتار.
هذا شيء لا يضايق الشياطين طبعاً.. لا شيء يحميني سوى عجزك عن انتزاع المدينة مني..

الآن ترتفع حرارة الجو ببطء.. إنه فرن.. فرن قادر على إذابة الفضة..

الشياطين تحب هذا المناخ كذلك.. إنه بيئتها الطبيعية..

لماذا أفعل ذلك؟.. لأنني أقسمت للعجوز بوريس ولأن شرفي شيء أهم من حياتي.. أنت بوسعك الخروج والهرب متى اردت.. لكن سيكون عليك عمل ذلك من دون المديّة.

عندما تبلغ الحرارة أعلى درجة لها، سوف تنفتح الجدران من جديد.. غدا سيجد رجال الشرطة جثث الآخرين وجثتي متفحمة وفي يدها كتلة من فضة ذائبة.. وسيكون الشيطان قد فقد مدينة الفضة للأبد.

(تمت)

أنا أتذكر

سديم، سديم... سليم...

بدا لي الاسم غريبا.. لكنني عرفت أنني وقعت في حبها وحب اسمها..

فيما بعد قيل ان اسم هذا المرض (نكروفيليا).. ليس هذا دقيقا.. النكروفيل ينبش المقابر ليخرج جثة يعاشرها.. هذا يثير القشعريرة في نفسي... ليس هذا هو الوضع هنا واطنك توافقي..

الحب الأول وربما الأخير.. الرجفة الأولى وخفقان القلب الأول...

☆ ☆ ☆

1- سديم

صوت ألحان شتراوس العبقريّة ينبعث من هذه الساعة العملاقة..
هناك فتاة ترقص وقد سقط شعرها على وجهها بالكامل، ومعنى هذا أنها لا تدرك ما يدور حولها
ولا تبالي به.. إنها في غيبوبة كاملة.

ومعنى هذا أنها قد اتحدت باللحن ذاته لتحول إلى ظاهرة فيزيائية..
اقطع شريحة أخرى من اللحم، لكني لا أبتلعها.. في الواقع لا أتذكر ما يجب أن أفعله بها.. أعبت
بالشوكة طويلا وارفعت عيني لأجد ذات الفتاة ما زالت ترقص.. صارت أكبر من الواقع.. صارت
ظاهرة كونية كما قلت...

يقول لي عادل والسيجارة تتدلى من فمه:
"أنت شارد الذهن جدا.. هناك في عينيك كتاب كامل من الذكريات لا تقل صفحاته عن ألفي
صفحة.. كم حياة عشت؟"

بالفعل عشت أكثر من حياة.. ألف حياة..
ألتهم قطعة اللحم ومن جديد أنظر إلى المسرح حيث تلك الفتاة ترقص.. تهز شعرها.. لحن
شتراوس... هل هو الدانوب الأزرق؟..
لا.. نساء وندسور على الأرجح.. لا.. مارش رادتسكي...

☆ ☆ ☆

كان نفس اللحن بعزف في تلك الليلة..
في بيتنا كان اللحن يعزف من المذياع، وكان أبي غاضبا لكن أمي لم تخفض صوت المذياع..
كنت أنا غارقا في الحب.. كنت أتنفس بصعوبة تحت محيط من الحب عزلني عن العالم
الخارجي فلم أعد أرى أو أسمع أو أشم..

كان اسمها (سديم).. سديم اسم من أجمل الأسماء التي سمعتها، ولم أسمع به بعد ذلك سوى
مرة أو مرتين برغم أنني في الأربعين من عمري..
سديم.. الفتاة الشاحبة الرقيقة.. الفتاة التي كنت أقابلها في المقابر، وألعب معها ساعات
متواصلة...

سديم ذات الأطراف الباردة.. سديم ذات العينين الشفافتين..
منذ البداية كنت أعرف أنها ميتة وأن هذا لا يمكن أن يكون حقيقيا.. ولو كان حقيقيا فلا
مستقبل له.. كنت ناضجا وكنت أفهم كل شيء، لكن قلبي ظل أخرق غبيا يأبى أن يستجيب
لأوامري..

كنت عائدا للبيت بعد مباراة كرة مع الأصدقاء، وكنت أختصر الطريق بان أجتاز المقابر..
و ذلك اليوم كان البرد شديدا والغيوم كثيفة جدا.. لهذا توارى الجميع في بيوتهم يصطلون
ويشربون العدس أو يأكلون محشو الكرنب ويتخيلون العاصفة بالخارج..
كنا نحن المجانين الذين قررنا أن نلعب الكرة في طقس غائم فعلا، وسرعان ما عرفنا أنها فكرة
فاشلة عندما بدأ المطر ينهمر.. وازداد الأمر سوءا عندما شق السماء لسان برق.. اضاءت
وجوهنا وأظلمت وشعرنا بالقشعريرة قبل أن يقول مصطفى عامر:
"لا جدوى.. ألغيت المباراة.."

ألغيت المباراة إذن وتفرقنا.. كل واحد ركض في اتجاه.. بينما أنا أركض وسط الوحل وأغطي
وجهي.. كنت ألبس العوينات لأول أسبوع في حياتي، وبدا لي من المستحيل أن أركض وأنا ألبسها
لأنها تغطي بالماء في ثوان، لكني كذلك لم أستطع الركض من دونها..
كنت في مأزق.. خاصة أنني سأجتاز المقابر والله يعلم كم أن المشي فيها وعر وزلق...

☆ ☆ ☆

المطر ينهمر خارج القاعة..

ليلة شبيهة بتلك الليلة منذ ثلاثين عاما... لكن لا توجد هنا مقابر.. هناك حديقة ورجال امن
وتماثيل ساحرة وإضاءة ليلية وحسناوات غنوجات ورائحة عطرية غريبة في الجو. يقال إن هناك
طاووسا في الحديقة لكن من المستحيل أن يتركوه وسط هذه الأمطار...

بيت (جلال الشريف) هو قصر في الحقيقة، ولا نطلق عليه لفظة بيت إلا بحكم العادة.. السؤال
هو متى يجمع هؤلاء القوم كل هذا المال؟.. ادخرت كل ملهم حصلت عليه في حياتي، وبرغم
هذا لا أقدر على شراء تماثيل واحد من تماثيل الحديقة هذه.. هل معنى هذا أنني فشلت في
حياتي أم أن (جلال) نجح أكثر من اللازم؟

هناك برق في السماء كذلك..

معدني تتقلص.. البرق يجعلني عصبيا جدا ولا أعرف السبب..

ثم هذا الألم الغريب في فكي. أعرف هذا الألم الغريب في فكي..

☆ ☆ ☆

في تلك الليلة كان فمي يؤلمني كذلك..

تعلمت منذ ذلك الحين أن البرق أو العواصف يسببون لي ألام في الفك.. هناك من يشعرون بدنو
العاصفة من ألم الركبة..

أشعر بألم الفك وأنا أنزلق بين القبور مرارا.. بدأت أشعر بالذعر وأنا أدرك أنني تورطت وضللت
الطريق.. وحل وظلام.. كيف أعود للبيت إذن؟

ثم رأيته هناك واقفة خلف قبر عال عن الأرض.. كانت تلبس ثوبا طويلا وتنظر لي.. العينان
الواسعتان الشفافتان..

عرفت كذلك من اللحظة الأولى أنها ميتة.. هذا واضح ولا شك فيه، لكني لم أشعر برعب.. فقط شعرت بانجذاب هائل لها، ولم أتساءل عن كنهها ولا ما أتى بها هنا.. فقط أذكر أنها راحت تركض بين المقابر وأنا أركض خلفها عالما بشكل ما أنها طريقتي الوحيدة للخروج من هنا..

"ما اسمك؟؟"

صحت اناديها بصوت غمرته مياه المطر فقالت دون أن تنظر للخلف:

"سديم!.."

"ماذا؟"

"سديم!"

بدا لي الاسم غريبا.. لكني عرفت أنني وقعت في حبها وحب اسمها..

فيما بعد قيل إن اسم هذا المرض (نكروفيليا).. ليس هذا دقيقا.. النكروفيل ينبش المقابر ليخرج جثة يعاشرها.. هذا يثير القشعريرة في نفسي... ليس هذا هو الوضع هنا وأظنك توافقي..

سديم.. سديم.. سديم...

الحب الأول وربها الأخير.. الرجفة الأولى وخفقان القلب الأول...

وكانت متاعبي في البداية كما تعلم...

☆ ☆ ☆

2- شيرين

جاءت لتجلس معي على المائدة، ويبدو واثقة بلا رجفة صبت لنفسها بعض الماء في كأس وقالت لي وهي تبلل شفيتها:

"ماء فقط؟ .. لا تشرب؟"

قلت لها وأنا أرمق المدعويين:

"لا أشرب.."

"والسبب؟"

"الدين ليس ديناً فقط.. إنه طريقة حياة.. ينشأ المرء في بيت يتعلم معه أن يغسل يديه قبل الأكل وبعده، ولا يأكل السمك من دون سلطة، ولا يشرب الخمر أبداً!.. هي طريقة تربية كما قلت"

ضحكت كثيراً حتى غلبها السعال، ثم قالت:

"هل قابلت جلال الشريف؟"

"لا.."

"هل أنت من أصدقائه؟"

أصدقائه، وقد دعاني هنا كما يدعو الناس بعضهم للسيرك"

قالت بطريقة عابرة:

"اسمي شيرين."

"أعرف هذا.."

"جلال قريبي"

"أعرف هذا.."

كان الشعر يغطي عينيها فلا تراهما أنهما هناك!.

فقط تدرك انهما هناك خلف الستار وانها تنظران لك..

☆ ☆ ☆

عينا سديم كانتا كذلك.

غالبا ما تكونان خلف الشعر فإذا انزاح الستار أدركت انها شفافتان تماما.. كانت خجولا جدا خاصة عندما يحدث شيء كرهه مثل أن ينفصل إصبع من يدها أو يسقط جزء من الجلد. كانت

تداري هذا في خجل برغم أنني أخبرتها مرارا بأني لا أبالي..
كانت تقول لي:

"سوف أنتهي يوما.. انت تعرف هذا.."

"لا أرى هذا اليوم"

"التحلل حتمي"

"لكنه بطيء.. سوف الحق بك في القبر قبل أن يسقط لك ظفر آخر.."

وكانت تضحك ثم تدعوني للعب.. تركض بين شواهد القبور وأنا أركض خلفها..

لقد صارت سديم ضرورية جدا لعالمي. صرت أتأخر عن البيت كثيرا وصرت أشرد بلا توقف..
عندما أكل أعبث بالشوكة في طعامي ولا التهم شيئا. أمي قالت لأبي وأبي أخبر عمي، وفي النهاية
قال الجميع بخبت:

- "الحب ... تالله هو الحب؟"

أبي كان سعيدا لأنني نضجت وكبرت ولأن هرموناتي بدأت تعمل، لكنه نصحني بألا أضيع وقتا
كثيرا.. الحب قد يبني حياتك وقد يدمرها..

لم أكن أنوي إخفاء أي شيء... قلت له إنها سديم.. قلت إنني أقابلها في المقابر.. قلت إنها
تتحلل وجلدها يسقط.. ذات مره وضعت يدي على ظهرها فشعرت بالرئة تحت أناملي من
تحت الثوب. أصابها خجل شديد وطلبت مني ألا أفعل هذا ثانية.

قال أبي في ضيق إنني أخرف..

على أنني عدت له في اليوم التالي ومعني البيانات.. الاسم سديم فتحي الجواهرجي.. توفيت منذ
عام ونصف.. تتحدث كثيرا عن الغرق. لا اعرف التفاصيل.

سخر أبي مني كثيرا.. على أن زيارتي للمقابر استمرت فتره طويلة، وفي النهاية قرر أن يبحث في
المقبرة عن هذا الاسم الذي سمعه. دفع مالا للحاد الذي جعله يرى القبر.

قال لي أبي إن فريق البيتلز البريطاني وجد مقبرة قديمة عليها اسم (إليانور رجي)، فخطر لهم
كيف كانت هذه المرأة تعيش حياتها.

كتبوا عنها أغنية شهيرة جدا، وما زال قوم كثيرون يعتقدون أنها ما زالت حية، ومن صدقوا أنها
ماتت ما زالوا يزورون قبرها..

"الموتى قد يكونون أكثر حيوية من الأحياء.. وأنت قد منحت سديم هذه حياة خاصة بها"

على أن اللحاد أخبره أن الفتاة ماتت غرقا. كانوا أثرياء وكان هناك حمام سباحة في البيت.. القصة
الشهيرة عن الأهل الذين يهملون الطفل فيقع في حمام السباحة ليلا ويموت.

هذا أثار قلق أبي.. من أين عرفت أن الفتاة ماتت غرقا..؟؟

الطبيب حدثني عن الوسوس وحدثني عن الشخصية الأخرى الموجودة في ذهن كل طفل، والتي

يتبادل معها الكلام. لكني كنت غارقا في الحب ولم أشأ أن أفقدها..
كانت تلك هي الأعوام التي ظهرت فيها أغنية إيزاك هايز "لو كان حبك خطأ فلا أريد أن أكون
على صواب" وكانت تناسب الوجيعة بالضبط..

☆ ☆ ☆

والأغنية تتردد الآن..
هذه الليلة فريدة من نوعها.. برغم الفتيات الجميلات والصخب والزحام، ثمة رائحة ما أعرفها..
سوف يحدث شيء مهم..

الأغنية تتردد:

لو لم أراك عندما أريد.. فلسوف أراك عندما أستطيع..
لو كان حبك خطأ فلا أريد ان اكون على صواب..
أنا مخطئ لأنني جائع لرقعة لمسائك..
بينما هناك من ينتظرني في الدار..
ما الذي ذكرهم بهذه الأغنية؟
الفكرة هنا هي أن موقفنا الأخلاقي لم يكن بهذه الدرجة من السوء.. لكني كنت أخترق الحاجز
الفاصل بين الموت والحياة..

عرفت من يحب فتاة ليست من دينه وكان هذا حاجزا مهما..
هنا نجد حالة فريدة أن يحب المرء فتاة ليست من حالته البيولوجية؟
سديم يا جميلتي.. سديم...

وشيرين تنظر لي ثم تلقي بملعقة من السلطة بين شفثيها وتقول:
"أقسم بالله أنك تحب.. هذه نظرات عاشق..
غرست الشركة في السلطة وتذوقتها.. مالحة جدا.. مالحة جدا..

☆ ☆ ☆

شيء آخر كان مالحا بذات الدرجة..
ربما دموعي وأنا أشرح لأبي أنه ليس بوسعي الاستغناء عن سديم. لن أحكي موضوع الإصبع
المتأكل الذي وجدته أمي في جيبي طبعاً.. لم تكن قد سمعت عن بالنيكروفيليا لذا كان الجنون
هو الافتراض الوحيد لديها.. أنا جننت بلا شك..
تم الفراق في يناير من ذلك العام عندما قرر أبي أن ننتقل لبلدة أخرى. وقد راق له هذا لأنه
سيحل مشكلتي بشكل غير متعمد.

هكذا ابتعدت عن هذه المقبرة ولم أر فتاتي بعد هذا طويلاً، لكنني ظللت أحمل لها ذكرى لا

يمكن نسيانها..

وبعد أعوام صرت ناضجا وصممت على أن أعود إلى المقبرة لأبحث عنها. هذه الذكرى القوية المؤثرة. هل هي هلاوس طفولة فعلا؟.. يجب أن أعرف..

آه.. أرجو أن تمنحوني لحظة لابتلاع قرص من المهدى لأنسى...

☆ ☆ ☆

3- جلال

عندما ظهر جلال الشريف نفسه حرص على أن يبدو وغدا ثريا بكل ما في الكلمة من معان.. كان يلبس بزة بدت لي رثة مزرية، وهذا هو الدرس الذي تعلمته منذ زمن: كل بزة تبدو لي رثة مزرية هي في الحقيقة فاخرة جدا ولا أقدر على شراء زر من أزرارها.. لعل هذه هي أحدث موضة باريسية لهذا الأسبوع..

كان يحمل كأسا في يده اليمنى وقد دس يده اليسرى في جيب السروال. بالتالي صار من المستحيل أن أصفحه. دنا مني والتمعت عيناه فظهرت أسنانه النضيدة البيضاء.. يمكن أن يصنع ثروة لو عمل كموديل لمعاجين الأسنان..

"محمود بدران.. الكاتب الصحفي الجريء"

بدالي من الغريب أن يعرفني، وهذا يزيد الأمور حرجا.. أنا جئت كمتفرج من بعيد وآمل ألا يلاحظ أحد وجودي هنا...

لو كان هذا الرجل يقرأ فهو يعرف ما كتبه عنه.. الحق إنني بذلت ما بوسعي كي أهدمه هدمًا، ونشرت عشرات الوثائق التي تدينه.. وثائق حقيقية يفضل أصحابها أن يبقوا في الظل..

وبعد أشهر من النشر المتواصل توصلت إلى أن هؤلاء القوم من امثال جلال لا يسقطون أبدا.. إذا أردت أن تتخلص من أحدهم اذهب واقتن مسدسا لكن لا تكتب مقالا.. هذه الأشياء تسعدهم لو أنهم قرءوها أصلا...

هزرت رأسي باسا مجاملا، فقال:

"عادل أخبرني أنك هنا.. صدقني.. أنا أحب الصحافة جدا... إنها مرآة المجتمع الحقيقية"

من جديد هزرت رأسي.. فقال لشيرين:

"أرجو أن تخبري هذا السيد أن ما يكتبه لن يمر في سلام للأبد.. هناك لحظة اكيدة يفقد فيها المرء أعصابه"

راق لي التحدي.. أحب الأشخاص الذين ينزلق لسانهم و يهينونك لأنهم يمنحونك فرصة لعمل شيء.. بينها أسلوبه السابق لا يمكن التعامل معه..

قلت وأنا انظر في عينيه:

"أتمني أن أعرف ما يعنيه هذا الكلام؟"

ابتلع ما في كأسه بسرعة، و قال وهو يهز خديه كأنما الشراب حريف المذاق جدا:

"الحياة لعبة.. لعبة يجب أن تلعبها ببراعة، وعلى من لا يجيدون اللعب أن يبقوا في بيوتهم.."

وقبل أن أفهم هز رأسه من جديد محيياً وابتعد.. وعلى الفور تكونت حوله دوامة من المريدين والمعجبين والسكرتارية والحراس.. الخ...

كانت له رائحة عطر غريبة فعلا... رائحة رحلت معه عندما ابتعد... رائحة من تلك التي تشعر
أنها رائحة شخصيته ذاتها..

كانت رائحة الهواء قريبة من هذا في ذلك اليوم..

☆ ☆ ☆

هكذا كنت أتشمم الهواء وأنا اتجه نحو القبر الذي أذكره..

كنت في الكلية في ذلك الوقت.. شابا مفعما بالأحلام أقرب إلى الوسامة، وكنت اعتقد أنني
سأغير تاريخ الصحافة في مصر..

هيكل لا بأس به لكنه يستمد قوته من عبد الناصر، ومصطفى أمين اسهل مما يجب..... الخ..
غرور الشباب في صورته الكاملة..

الشمس سوف تنحدر للغرب بعد قليل... لكني تعلمت منذ طفولتي أن أشعر بالألفة مع المقابر
ولا أهابها. هكذا رحت ابحت.. أخيرا وجدت ذلك القبر الذي تناثرت جواره نباتات الصبار..
مقابر أسرة الجواهرجي.. المرحومة سديم فتحي.. توفيت يوم.. جلست جوار القبر..

كم جئت هنا في طفولتي وكم لعبت.. ترى هل اهذي؟.. هل كنت طفلا وحيدا خلق خياله رفيق
لعب كما يحدث كثيرا جدا؟..

لكني فعلا أحبها.. أشتاقها.. عزيزتي سديم.. أنا أحبك أكثر من أي شيء، ولسوف تكون قسوة
غير عادية أن أعرف أنك وهم، لكن للأسف....

هكذا غلبني البكاء.. جلست على صخرة ورحت أنشج.. أنشج من دون توقف.. وكلما أفقت قليلا
فطنت لحقيقة أنني أبكي..

من ثم أبكي أكثر.. بعبارة أخرى أنا أبكي لأنني أرثي لنفسي لأنني أبكي..

الشمس تنحدر للأفق.. المعجزة التي تحول كل الألوان التي عرفتھا إلى اللون الأرجواني. المعجزة
التي تحول كل شيء إلى كآبة..

هنا شعرت باليد على كتفي..

قاسية جافة عظمية.. كانت هناك..

استدرت للخلف لولا أن سمعت الصوت الحازم الذي أعرفه جيدا:

"لا تنظر؟"

قلت وأنا أرتجف انفعالا:

"سديم.. حبيبة قلبي.."

في لهجة عملية قالت:

"قلت لك ألا تنظر.."

"لماذا؟"

"لأنك لن تحب ما تراه.. لقد مر زمن طويل.. "

قلت وانا ابتلع دموعي:

"إذن أنت حقيقية.. لم تكوني وهما من أوهام الصبا.."

"الوهم شيء نسبي. وما يبدو للبعض وهما قد يكون الحقيقة عند آخرين.. لو أن أحدا رآنا لحسب أنك تكلم نفسك.. لكنك مدرك أنني موجودة.. تشم رائحتي.. يؤلمك كتفك من أناملتي العظمية. إذن انا بالنسبة لك الحقيقة ذاتها"

" هل يمكن أن أستدير؟"

"لا.. لأنك تفقدني للأبد إن فعلت"

و هكذا جلسنا ربع ساعة في هذا الوقت.. أنا أنظر أمامي أو ليدي وهي من خلفي تحدثني.. تحدثني عن ماذا؟. لا أذكر بالضبط لكني كنت سعيدا منتشيا.. سديم لم تكن وهما على الأقل بالنسبة لي..

ثم ظهر ذلك الكلب..

الكلب المسعور الشرس منتفش الشعر حول العنق، الذي يسيل اللعاب من شذقيه.. ولم يكن ينبح والنصيحة القديمة تخبرك أن الكلاب التي تنبح لا تعض..

كلب من كلاب المقابر يزحف في الظلمة الوليدة نحوي ويزوم...

هكذا انتفضت.. وثبت من حيث جلست برد فعل تلقائي واستدرت لأكلم الفتاة الواقفة خلفي. هنا رأيت كل شيء..

وليتني ما فعلت....

من الخير للجميع أن تكون سديم و هما.....

☆ ☆ ☆

كلب آخر نبج في مكان ما فأجفلت..

كنت جالسا مع شيرين في ركن شبه مظلم من الحفل، وبرغم أنني لم أشرب إلا عصيرا فإن راسي كان ثقيلًا بصورة لا توصف..

كنت أراها بصعوبة واسمعها بعسر.. ولو لم ينبح هذا الكلب لربما سقط رأسي على المنضدة..

كانت الإضاءة خافتة مدوخة، ومن بعيد تلك المصابيح المعلقة فوق أعمدة أو تماثيل..

هنا خطر لي خاطر مضحك لكنه وارد جدا:

"هل دسَّ لي هؤلاء القوم شيئًا فيما أشربه؟"

هل ينوي الرجل الخلاص مني ؟ ... لا أعتقد.. إنها مجرد مقالات لم تؤذه ولم تسبب له أذى.. إلا إذا كان يملك نفسية طفل لا يطيق اعتراضا واحدا. أستبعد هذا فهو بارد ثابت الجنان..

ثم أن التخلص مني سوف يجلب له متاعب لا حصر لها.. هناك من يعرفون أنني هنا..
ماذا يدور هنا؟

أين ذهب عادل؟.. هو جاء بي هنا فمتى وكيف رحل؟
الحقيقة أخطر من هذا.. لا أرى أحدا من مدعوي الحفل من حولي.. لقد رحل الجميع أو
ابتعدوا. كيف حدث هذا ومتى وكيف لم أشعر به؟

☆ ☆ ☆

4- شيرين

الأغنية تتردد:

لو لم أرك عندما أريد.. فلسوف أراك عندما استطيع..
لو كان حبك خطأ فلا أريد أن أكون على صواب..
من الغبي الذي ترك جهاز التسجيل يعمل بينها لم يعد هناك أي شخص في الحفل؟.. لم يعد هناك سواي..

☆ ☆ ☆

أشعر ببرد.. برد شديد.. أنهض مترنحا فأشعر أن الأرض تذوب تحت قدمي.. هناك الكثير من رغوة الصابون في كل مكان..
قدي تنفتح كلما حاولت أن أقيمها...
مددت يدي لشيرين وقلت بصوت كأنه من قاع بئر:
"ساعديني ي.."

نهضت وابتعدت بضع خطوات للخلف لتكون نائية عني وقالت:
"اسمع.. بالفعل أنت تحت تأثير مخدر.. أنا دسسته لك في العصير..
"والسبب؟"

نم فطنت إلى أنه سؤال أبله.. أنا أكره الأسئلة الغبية.. لماذا يدس لي عدوي اللدود مخدرا في شرابي ويتخلص من كل ضيوف الحفل؟.. فلتجب أنت.. لا شك أن ضيوف الحفل قد تلقوا اوامر صارمة بالرحيل أو نقلوهم لمرحلة أخرى من المرح بينما بقيت أنا...
أين الهاتف المحمول؟.. تجربته من قبل فوجدت أن الشبكة لا تعمل هنا.. ولا شك أنهم يعرفون هذا...

قالت شيرين:

"أنا أكره أن أراك تموت، لكن جلال الشريف قد أعدَّ لك نهاية دامية.. لا استطيع أن أساعدك فأنا أعمل عنده... هو يسمع كل ما أقوله لك الآن.. في الواقع هناك كاميرا تنقل له المشهد كاملا.. هو قال لك إن الحياة لعبة وكان يعني ما يقول.."

الحياة لعبة.. وطبعا يسهل أن تقول هذا لو كنت أنت الطرف الرابع..

لو كنت آمنا تراقب ما يحدث وفي يدك كأس من الشراب..

"هل سيطلق النار على رأسي ويدفني في الحديقة؟"

"لا.. لديه أفكار أفضل.. إنه يريد أن يراك مذعورا تجاهد من أجل حياتك.. لو استطعت النجاة

حتى الفجر فأنت حر، وإن كان يعرف أنك لن تبلغ عما حدث لك، وإن لم تستطع فهذا حظك السيئ..

كان عقلي ملبدا بالغيوم.. أمرر كل ما يقال ثلاث أو أربع مرات حتى أفهمه، كأنها تلك الشرائط المشفرة على السلع التي يمررونها على جهاز قراءة السعر.. أحيانا يفعلون ذلك ثلاث مرات.. كانت تقول:

سوف أختفي أنا.. بعدها سوف يبدأ حفل الصيد.."

"صيد؟"

"صيدك طبعًا؟"

☆ ☆ ☆

كنت أجري مذعورا في المقبرة شاعرا بالذعر.. عارفا أنني تجاوزت الخطوط الفاصلة بين العالمين، وإنني سأدفع الثمن من كوابيسي ما بقي لي من عمر.. ألم في كتفي حيث كانت تطبق يدها..

لقد تغيرت سديم.. تغيرت كثيرا...

كنت أسمع صوتها يتردد في ذهني

"أنا أحببتك.. ولم أحسب أنني سأفقدك بهذه البساطة.. محمود.. محمود"

كنت أردد: من الخير لسديم أن تكون وهما.. من الخير أن تكون وهما...

كنت الهث وابكي والدمع يجعل الرؤية مستحيلة.. اتعثر في الحجارة.. في شواهد القبور.. منذ متى يضعون 60 شاهدا على كل قبر؟.. ما كل هذا العدد؟ ...

كنت خائفا..

ثم توقفت..

شعرت بالخجل من نفسي.. أنا لست طفلا.. لن أتخلي عنها لمجرد هذا التغير البيولوجي في ملامحها. لقد أحببتها وأنا طفل، ولم تكن مثالا للفتنة وقتها.

منذ صباى كنت أعشق (سديم).. ماذا قد تغير؟.. أنا أتصرف كمن تصاب حبيبته بحرق في وجهها فيتخلي عنها بكل قسوة...

هكذا توقفت وفكرت في أن أرجع. لكني شعرت بشيء غريب أمامي..

كان هناك... لا أعرف ما هو بالضبط لكنه كان يسد طريقي..

تبينت أطراف العباء الرمادية الممزقة المليئة بالبقع.. الوجه الذي لا أريد أن أراه.. القامة العملاقة التي تتجاوز ثلاثة أمتار..

صوت التنفس العالي الشبيه بالخوار..

سمعت عنه كثيرا لكني لم أره من قبل. الآن وهو يسد الطريق أمامي أدركت أنني في مأزق حقيقي.. كان هو الرهبة لو صار لها وجه وصوت..

تراجعت للخلف في رعب..

وفجأة سمعت صوت سديم يقول لي في حزم:

" قف خلفي!"

تراجعت للخلف ووقفت أرتجف وأنا أرقب صراع الإرادات في الظلام وفي ضوء القمر بين الاثنين.. الكلاب تنبح من بعيد..

النجوم تهوي في السماء، وهي تتقدمني وأنا أمشي خلفها.. تمر جوار الشيء وكأنها تقول له إنني في حمايتها..

كنت أرتجف كطفل بينما هي تحميني.. وبرغم هذا كله لم أنظر لها قط.. خشيت أن ألقى نظرة ثانية..

لو كانت سديم و هما فخوفي حقيقي..

☆ ☆ ☆

كنت خائفا بذات الدرجة وأنا أركض..

برد.. برد.. برد.... بررر..

أين ذهبت شيرين؟.. لا أعرف.. كأن الأرض ابتلعتها..

لا يجسر جلال على قتلي.. لماذا يفعل ذلك أصلا وأنا مجرد كاتب؟.

لكني سمعت عن نزوات هؤلاء القوم.. قد يفجر أحدهم رأسك لأنك انتقدت ربطة عنقه.. بالنسبة لهم نحن صراصير..

كنت أجري بلا هدف.. لا أعرف مما أهرب.. ما هو الخطر؟..

أنا في حديقة قصر شاسعة.. ظلام.. مصابيح في كل مكان..

تماثيل... أعتقد أن هناك كاميرات في كل مكان. هناك الكثير من الحراس طبعا لكنه لا يريد أن يفسد متعته بسرعة..

الغريب أنني لا أعرف أين أجد سقفا.. الحديقة مترامية لكن لا بد من بناية أو شيء هنا أو هناك.. شيء أتوجه له..

لو كان تفكيري صافيا لوجدت حلا بسرعة، لكني تحت تأثير مخدر كا قلت، وهذا ضاعف تأثير أنني أحلم..

لماذا اهتممت بجلال هذا الحد؟.. حقا لا اعرف السبب..

كان الحقد الطبقي وربما هو الشرف المفرط.. المهم أن هذا الرجل كان يمثل كل ما أمقته في العالم.. وقد فعلت كل ما أستطيع كي أدمره..

الآن أنا تحت رحمته تماما..

توقفت تحت مصباح في الحديقة وقلت لنفسي:

"يجب أن تفيق.. مشكلتك أنك لا تصدق أنه يمكن أن يقتلك.. يجب أن تصدق هذا يا صاحبي.. إنه يملك النفوذ والمال.. يمكن أن يدفنك في الحديقة ويأتي بعشرات الشهود يقسمون أنه كان معهم ساعة الوفاة، وجيش من المحامين يجعلون أسرتك تدفع ثمن الشك في رجل أعمال شريف مثل جلال.. يجب أن تتماسك.. يجب أن تؤمن أنك في خطر داهم"

ظلام.. مصابيح في كل مكان.. تماثيل... نباح كلاب..

هنا تصلب شعر راسي..

الكلاب!... هذه هي وسيلة القتل!

☆ ☆ ☆

5- سديم

برد.. برد.. برد.

من القسوة أن يموت المرء بينها البرد يلتهم أطرافه.. كنت آمل في ميتة مشمسة دافئة نوعا...
نباح الكلاب من بعيد وأنا أركض مذعورا.

☆ ☆ ☆

الكلاب لم تكن تنبح في تلك الليلة منذ أعوام، بل كانت تزوم..
وكانت سديم تتقدم المشهد.. الأسماك التي تلتف بها تتطاير في ضوء القمر الشاحب.. كانت
تتقدمني بخطوات بطيئة. برغم كل شيء كانت فيها لمسة من فتاة صغيرة لعوب.. كأنها صورة
ساحرة تم تشويهها وحرقتها..

الكلاب كانت تحيط بنا في دوائر وهي تنبح.. ثم تتراجع للخلف دون أن تبعد عيونها وتنفث
الدائرة... سديم تصدر صوت هسيس غريبا.. أعرف هذا لأنها تتقدمني لكن لا أنظر لها أبدا..
أكتفي بالنظر إلى قدمي، لأني لو رفعت عيني لرأيت..

وكنيت أعرف أن الكلاب تراها جيدا.. أنا أراها جيدا.. الناس لا يرونها على الأرجح...
كانت تحكي لي عن أشياء....

عن الطفلة الساحرة سديم التي تلهو في حديقة الأسرة ليلا.
عن الأب طيب القلب الذي يجلب لها لعبة قطار ودمية تتكلم..
ماما.. بابا.. عن الأم الرقيقة التي تتظاهر بالحزم أحيانا...
عن الأخ الأصغر المزعج... عن الحياة الكاملة التي فرت من أناملها..
"أنا أحبك يا محمود"

ولأنها تحبني تحميني من كل كلاب المقابر ذات الشعر المنتصب حول العنق.. تحميني من
الزئير الغاضب الخفيض.

في ليلة أخرى هاجمني لص قرب المقبرة.. كانت هناك يد قوية امتدت لتحيط عنقي من الخلف،
وشعرت بالمعدن البارد تحت ذقني وسمعت صوتا لاهتا في أذني:

"نقودك بسرعة.."

سمعت صوت فحيح غريب أتى من مكان ما..

مددت يدي الراجفة في موضع الحافظة من سترتي، وحاولت أن أخرج الحافظة لولا أن تخلت
عني تلك القبضة.. ولما نظرت رأيت هذا الوغد مكومًا على الأرض.. لقد قتله الفحيح الغامض..

رأيت الخيال المميز لسديم في الظلام.. لا أعرف إن كان رآها أم لا لكنه بالتأكيد سمعها.. فهي صاحبة الفحيح... وكانت تقول:

"معذرة.. هذه من حيلنا المعروفة!

☆ ☆ ☆

أخيرا رأيت ثلاثة كلاب تركض نحوي في حديقة القصر الشاسعة.. كلاب جلال الشريف السوداء من طراز (روتوايلر) التي تبدو كالبلطجية الخارجين من السجن.. كتلة عضلات حية تركض نحوي.. لا بد أن جلال هذا مجنون.. لن يستطيع أي حارس أن يسيطر عليها في الوقت المناسب.. هذه عملية إعدام وليست تخويفا.. رفعت يدي محتجا كما كنا نفعل ونحن أطفال..

كأنني أقول: مش لالع يا كابتن.. دي مش طريقة..

لا بد من شجرة في مكان ما.. لكن لم أجد شجرة.. وجدت ثلاثة مقاعد تحت عمود إضاءة، فأمسكت بأحدها ورفعته.. إن القوة العضلية لهذه الوحوش تكفي لإطارة المقعد من يدي فورا.. يجب أن أتماسك..

كلب رابع آت من بعيد..

وثب كلب باتجاهي فتراجعت لأجد أن الآخر ينهي وثبة طاشت..

سقطت على الأرض وسقط المقعد من يدي، ولا أعرف كيف وجدت الإلهام...

الهسيس..

الهسيس الذي أطلقته سديم في تلك الليلة وجعل الكلاب تتراجع... إنني قادر على أن أفعله بحنجرتي..

وعندما نهضت على قدمي فوجئت بأن الكلاب تتراجع.. لا تبعد عيونها عني لكنها تقف صفا وتتراجع للخلف... هذه حيلة تعمل..

لم أنظر للخلف ورحت أركض.. لكني كنت أعرف أنها لا تقتفي أثري.. أصوات أقدامها ثقيلة جدا ولا يمكن ألا تسمعها فوق العشب الرطب..

توقفت ونزعت سترتي.. ألقيت بها بعيدا وكذا فعلت مع ربطة عنقي..

الحذاء.. سوف أخلص منه.. الجورب..

إن هناك أشياء كثيرة تحمل رائحتي في عدة مواضع.. وإن كنت فعلت هذا بسبب الحر وليس التضليل.. البرد الذي كان يقتلني..

تحول إلى حر يقتلني كذلك...

"توقف؟"

ورأيت من بعيد حارسين يركضان نحوي.. عرفت الرأس الصلعاء والأناقة المفرطة في الظلام... لم يكونا مسلحين.. لماذا

يحمل شخص بهذا الحجم سلاخا؟.. رحت أركض وأنا أعرف انها يركضان خلفي، وكنت سريع الحركة لذا عرفت أنني سأتعيبها قليلا.. من بعيد أرى حمام السباحة العملاق يسبح في الأضواء وتطفو فوق مياهه البالونات الملونة من بقايا الحفل...

"الفحيح يا محمود.. جرب الفحيح!!"

أي فحيح؟.. ثم تذكرت... اللص يلف ذراعه حول عنقي وسديم تطلق ذلك الصوت الغريب.. معذرة.. هذه من حيلنا المعروفة!...

أطلقت الفحيح.. وللحظة تصلب الرجلان وهما يراقبان ما أفعل... لا يفهان هذا الخبال الذي أصابني فجأة... ثم بلغت التردد الصحيح والنغمة الصحيحة.. عندها رأيت..

أرجلهم تتخاذل..

يسقطان.. لكنها ينهضان ثانية وقد أمسك كل منها برأسه..

ليست حيلة ناجحة جدا....

ومن بعيد أرى المزيد من الرجال قادمين.. معهم كلاب.. وقفت حيث أنا وقد أدركت أن المزاح انتهى على الأرجح. وسط الرجال كان أحدهم يتقدم في ثبات وهو يضع يديه في جيبه.

مثالا للسيطرة وقوة الشخصية..

كان هو جلال ذاته..

كانت عيناه تلمعان...

☆ ☆ ☆

هكذا كانت عيناه تلمعان بعد انتهاء الحفل.

سديم الصغيرة الجميلة تركض في حديقة دارها.. الكل بالداخل يمرحون، وعمو جلال الشاب يمشي وسط الأشجار.. هناك تعريفات كثيرة للنجاح لكن من بينها أن يكون عندك قصر مثل هذا.. ستعرف أنك قد بلغت القمة.. ستعرف أنك لا تملك أرزاق الناس لكن تملك حياتهم كذلك...

هنا يرى الغزال الرقيق الطفل يجري.. وحده..

ينظر لها بعض الوقت ثم يناديها.. سديم.

"عمو جلال.."

ثم رأت عينيه...

كانت عيناه تلمعان بذات البريق.. كان يريدتها..

سديم تصرخ وتركض في الحديقة خائفة.. سديم تنادي أباه..

جلال يحاول اللحاق بها.. يا لك من حمقاء.. سوف يجذب صراخك الجميع...

في النهاية تمكن منها.. وضع يده على فمها.. نظر حوله.. لن تخرس ابدا.. لن تخرس.. لماذا يا سديم؟.. ترين أنني ضحية.. حتى عندما ألقيت بك في حمام السباحة البارد ورحت اضغط رأسك تحت مستوى الماء كنت أنا ضحية.. أنت جعلتني أفعل ذلك..

لقد صرت جثة طافية يا سديم.. أنا آسف.. الغلطة غلطتك...

البقاء لله يا فتحي بيه.. كلنا سنلقي النهاية ذاتها... لو أردت أي شيء اتصل بي.. هل حقا تريد بيع هذا القصر؟.. سأجد لك زبونا مناسباً..

تماسك.. تماسك..

☆ ☆ ☆

"تماسك يا أستاذ محمود.. أنت رجل ناضج.. سوف نتفاهم"

ثم أخرج سيجارا وأشعله ليبدو وغدا.. نفث الدخان بكثافة بينما الرجال يحيطون بي.. تراجع بظهره قليلا ليصير بيني وبين حوض السباحة حيث تسبح البالونات. فجأة حدث كل شيء..

فجأة انشق الماء ليخرج هذا الشيء المبتل.. الشيء الملفوف في أكفان.. شيء أعرفه جيدا.. فجأة التففت الذراع حول جلال..

فجأة جرفته الذراع إلى حمام السباحة...

صرخ في هلع.. لكن الحقيقة أن كل شيء تم بسرعة إلى درجة أن الرجال لم يتحركوا.. ظلوا يراقبون المشهد في رعب.. حتى الكلاب تراجعت للخلف بلا صوت...

الماء انتشر... الماء يفور... جلال يصرخ كأن تمساحا يمسك به بين فكيه..

في النهاية ساد السكون.....

و عندما ساد السكون بدا الرجال كأنهم جنود مات قائدهم ولم يعودوا على استعداد للقتال لحظة واحدة أخرى... ومن بعيد جاءت الفتاة شيرين وكانت تبكي.. لقد انتهت المسرحية نهاية دامية حقا..

☆ ☆ ☆

أحبك يا سديم..

وأنت تحبينني حقا..

هناك أجزاء فهمتها وأجزاء لم أفهمها بعد. مثلا فهمت لماذا بدأت أهتم بجلال وأكتب عنه.. أنت أوحيت لي بذلك.. كان هذا هو الانتقام. لكن ما لم أفهمه بعد هو هل كان هذا القصر هو قصر أبويك فعلا؟.. لم أستطع التأكد من هذه النقطة، ولم أعرف إن كان هذا هو حمام السباحة الذي مت فيه أم لا.. لقد استطاع

جلال أن يخفي التاريخ القديم لهذا القصر. لكن لو كان هذا هو القصر ذاته فأعصاب الرجل قوية جدا، دعك من أنني لا أفهم لماذا تركته كل هذه الأعوام واخترت الليلة.. ما لم يكن خوفك

عليّ جعلك تفعلين ما لم تعتادي فعله، وتعبرين الحدود المحرمة بين العالمين..
لماذا لم تساعديني وأنا في الحديقة؟.. يبدو أن سبب هذا هو أنك مرتبطة بمياه حمام السباحة فقط، على أن ما تعلمته منك أفادني كثيرا..
الحراس لم يفهموا شيئاً ولم يروا ما حدث جيداً.. قالوا إن جلال بيه أصابه الهلع فجأة وسقط في حمام السباحة... قد أكون أنا محقاً وتكونين أنت من فعل هذا، وقد يكونون هم محقين وأنا مخرف كبير..
ما أعرفه يقينا هو أنك لي وأناني احبك..
يوما ما سيتم اللقاء النهائي بيننا وتتحطم كل الحواجز..
يومها هل ستعرفين وجهي؟.. هل ستذكرين اسمي؟ هل ستعنين بي في رحلتنا المرعبة عبر الظلمات، كما فعلت بياتريس مع دانتي في (الكوميديا المقدسة)؟
سوف نرى.. سوف نرى..

(تمت)

أكواريل

مع الوقت كان يدرك أكثر فأكثر أنه في مأزق.. هذه الشقة ليست على ما يرام..

والأسوأ من هذه الشقة هذه اللوحة المائية التي لا تكف عن التغير..

هل اللوحة تتغير فعلا ؟.. ربما يخيل له ذلك.. ربما كانت اللوحة تعبيراً عن حالته النفسية لا أكثر. هذا وارد..

هناك غرفة الصالون.. كل شيء يقول إن اللوحة تحذره من دخولها، وهذا سبب كافٍ كي يجرب حظه. سوف يتوكل على الله ويأخذ نفساً عميقاً ويتجه إلى هناك.

☆ ☆ ☆

عندما كان محمود بنظر للوحة رسمها فان جوخ بتلك الطريقة النقطية والخطوط الملتفة الدوامية، كان يشعر بأن جوخ رسمها وهو يمر بحالة صرع متقدمة. الجديد هو أن حالة الصرع هذه صارت قابلة للانتقال عبر الأجيال والأزمنة. صار محمود يشعر بأن الصرع يداهمه هو الآخر كلما أمعن النظر في هذه اللوحة، وفيما بعد رأى الجنرال النازي الذي يصاب بالصرع عندما يرى لوحات فان جوخ، في فيلم (ليلة الجنرالات).. فهم المشهد على الفور برغم أن أمه لم تفهمه وكانت تشاهد التلفزيون معه.

المرض النفسي ينتقل بالفيروسات والبكتيريا كأي مرض آخر.

حقيقة ليست علمية ولا يرضى عنها أي طبيب، لكنها عملية لو شئت الدقة. الجنون معد والعصاب مُعدٌ والهستيريا مُعدية.

ضع نفسك في ذلك المصعد الضيق المعطل جوار تلك السيدة الهستيرية التي لا تكف عن الصراخ موشكة على الاختناق..

بعد دقائق سوف تنقل لك فيروسات الهستيريا.. بعد دقيقة أنت هستيري مثلها ومُعد.. أنت تصرخ وتوشك على الاختناق..

يؤمن محمود إذن أن فيروسات الصرع انتقلت عبر الأزمان خلال خطوط فان جوخ لتصيب بالعدوى كل من يقف أمام هذه اللوحات الرائعة..

هذا ما عرفه محمود.. وهذا ما نسي أنه يعرفه..

☆ ☆ ☆

عندما ماتت خالة محمود، كان عليه أن يذهب لدارها لينتفي الأشياء التي سوف يتخلصون منها. عندما يموت المرء بلا ولد ولا زوج فإن ممتلكاته مشاع. ثمة جو من الانتهاك في هذا كله، مع لمسة مؤسفة.

أعطته أمه المفتاح الذي تحتفظ به، وطلبت منه أن يبحث جيداً ويقرأ الفاتحة لحالته. وراحت تنهه على سبيل أداء الواجب نحو ضميرها.

كان محمود محاسباً شاباً في الخامسة والثلاثين، لا يكاد يعمل ولا يكاد يكسب مالا. وكان يأمل

لو كانت خالته قد تركت له مالا..

أي مال.. لكن من الواضح أن ميراثه الوحيد هو تلك (الراكيب) في شقتها.. الكراكيب التي لا يريد لها أي واحد آخر..

قرأ الفاتحة في سره وهو يولج المفتاح في باب الشقة..

الظلام. رائحة الموت والهواء الحبيس الذي سره أن يجد شخصا يتبادل معه الكلام (أو الصمت). اتجه للنوافذ ففتحها.. ونظر حوله..

لقد تكاثف الغبار على منضدة الطعام.. على المقاعد. على الأطباق التي تركها آخر من كان في الشقة حيث هي. لقد كان يلعب في هذا الركن، وفي هذا الركن هشم كوبا وتلقى علة ممتازة.. هنا كانت خالته تلاحقه. شابة جميلة مليئة بالحيوية..

تنهد وقرر أن يقوم بمهمته الصعبة بسرعة..

اولا عليه أن يتخلص من هذا الخوف الطفولي.. هو وحده في شقة امرأة متوفاة.. امرأة متوفاة لم يعرف أحد سبب وفاتها قط، وقيل إن جثتها متخشبطة بطريقة غير معتادة.. امرأة عاشت معظم حياتها وحيدة إلا أنها كانت تربي ابن قريبة لها لأنها لا تنجب.. لما توفي الزوج كان عمر الصبي عشرة أعوام، وقد ظلت تربيته كأنه ابنها حتى؟....

حتى فرّ من البيت ولم يسمع عنه أحد شيئا بعد هذا..

عندما تمشي وحيدا في شقة امرأة متوفاة لها هذا التاريخ، فأنت غير ملوم.. غير ملوم لو توقعت أن تقابلها أو تخرج لك من غرفة النوم لتقول شيئا.. أو تطل برأسها من المطبخ وتنظر لك بحدة..

تبّا... هذه الخواطر لا تزيده شجاعة كما هو واضح..

قال لنفسه: خالتي تحبني. خالتي لن تؤذي حتى وهي في صورة شبّح..

هنا تحرك شيء في المطبخ فانتصب شعر رأسه وراح قلبه يخفق بلا توقف..

تماسك يا أحرق.. أنت في الخامسة والثلاثين لكن قلبك واهن، وانت تعرف هذا. يمكن أن يتخلى عنك بسهولة.. لن تموت بهذه البساطة لمجرد أنك جبان وأن فأرا تحرك في المطبخ..

هرع للمطبخ وأضاء النور الكهربائي. وجد مكنسة لم تمس منذ وفاة خالته.. أطبق عليها أنامله وراح ينظر حوله. هنا رأى ذلك الفارض اللعين يفر من فوق النملية العتيقة، فينحدر للأرض ويغادر المطبخ مسرعا..

لم يكن محمود يخشى الفئران.. لذا أراحه أن يرى هذا القارض الصغير.. شيء طبيعي على الأقل..

هنا رأى درجات السلم الخشبي.. السلم الذي يستند إلى الجدار ويستند أعلاه إلى صندرة مفتوحة أو (علية).. لابد أن هذا الأخ المغطى بالفراء جاء منها. نظر محمود حوله فرأى مصباحا صغيرا يعمل بالكحول أقرب إلى (وناسة) صغيرة على رف النملية..

أشعل عود ثقاب وحاول أن يوقد الفتيل فاستجاب..

توكل على الله وتسلق السلم وهو يحمل الوناسة في يد ويتمسك بيد..
لا تسقط فتحطم ساقك.. لا أحد يعرف أنك هنا.. حتى أمك لا تعرف أنك اخترت اليوم للقيام
بهذه المهمة..

على باب المندرة راح يتشمم رائحة الغبار والعطن.. ثم تمسك بحافة الباب ودلف إلى الداخل..
الظلام دامس لكن الوناسة تصنع بقعة ضوء لا بأس بها..

انحن.. انحن... خيوط العناكب تلتصق بشعرك.. كثيرة وسميكة حتى يبدو أن هناك عنكبوتا
عملاقا من أفلام الخيال العلمي في مكان ما..

يوجد هنا؟.. هنا فونوغراف قديم.. هنا حقائب مليئة ببذلات مغبرة عتيقة.. هنا مرايا مهشمة..
هنا ألبومات صور عتيقة امتلأت بصور بنية خشنة على طريقة (سفرماتو) وبالطبع تحتاج إلى
عمر آخر كي تراها جيئا.. لن ترى سوى كمية طرابيش هائلة على كل حال.. سبحان الله.. نفس
المكان دائها وفيه نفس الأشياء.. لا شيء يتغير..

لكن عينيه توقفتا على أشياء على الجدار..

دنا بالضوء من الجدار.. هناك الكثير من الغبار، لكنه يرى لوحة.. لوحة رسمت بألوان الماء
(أكواريل).. لا يميز ما فيها لكنه يحبها..

هل يوجد شيء آخر؟.. آنية.. صناديق فيها حلي... بالطبع ليس له أن يأمل أن يجد جوهرة
منسية تغير حياته للأبد.. الحلي زائفة طبعا لكنه سيجمعها في كيس.. ربما وجدت أمه في
بعضها ذكريات حميمة..

من جديد عاد ينظر للوحة..

يجب أن يرى ما فيها..

لكن لينزل من المندرة أولا ويرaha في ضوء مناسب..

هكذا تناول اللوحة من على الجدار وألقى على المندرة نظرة قبل أخيرة.. سوف يعود لكن بعد ما
يفرغ من البحث في الشقة..

☆ ☆ ☆

يا لخيوط العناكب!

كانت تلتصق بثيابه و شعره.. كان الغبار يغطي حاجبيه وأهدابه، و ما عرف هذا عندما رمش
بعينه فصارت الدنيا كلها بلون التراب راح يسعل.. وبصق عدة مرات غير مبال بأن الأرض
اتسخت.. البصقة مع كل هذا التراب تنظف مكانها!...

هكذا جلس في الصالة على الأريكة المتسخة وراح يحاول تأمل اللوحة في الضوء القادم من
الشارع..

كانت في إطار.. وكان الزجاج مهشمًا متسخًا.. حاول أن يمسحه بخرقه عدة مرات. في النهاية
أدرك أنه يرى رسمًا بألوان الماء (أكواريل) متوسط المستوى.. رسمًا من الطراز الذي يميز من لم

يؤتوا موهبة شامخة، لكنهم قادرون على استخدام أيديهم جيدا..

كان هناك واد يتلوى.. وكان هناك بيت من طوب.. وكانت هناك فتاة حسناء تطل من نافذة في برج في أعلى البيت.. صورة رأى مثلها كثيرا خاصة ما يمثل الحساء الألمانية طويلة الشعر (رابونزيل) ... أما شكل الوادي وشكل البيت فيدلان على أن من رسم الصورة لم ير أي واد من قبل.. هو يرسم ما انطبع بشكل طفولي في خياله.

نظر للتوقيع فرأى اسم (حسام).. حسام هو الصبي الذي كانت خالته تربيته..

لبس الرسم سيئا بالنسبة لصبي في الرابعة عشرة أو أقل.

لكن ما أثار دهشته هو أن الصورة شدته لها بقوة لا توصف..

الرسم ساذج أو هو - على الأقل - لا يوحي باحترافية من أي نوع، وبرغم هذا هو يشعر بلذة ما ذات طابع غريب آثم كلما نظر له.

هناك ذكريات معينة مبهمة يدغدغها فيه النظر لهذا الوادي.. النظر هذا البرج.. كأنه يذكر بأشياء عشتها في زمن ما في مكان ما..

جفف محمود العرق على جبينه..

شعر بأن يده ترتجف بلا توقف.. خطر له أن العرض الذي يعرفه قد انتقل له. الصبي لم يكن على ما يرام عقليا.. هذا واضح. وقد نقل فيروسات الاضطراب النفسي للرسم بلا شك.. الفيروسات أصابت صاحبنا..

وضع اللوحة على المنضدة وقرر أن يأخذها معه للبيت متى فرغ من مهمته..

الآن يجب أن يبدأ.. هناك أشياء عديدة صالحة للتخلص منها.

سوف يضعها جميعا في كومة في الصالة بانتظار العودة مع حمالين وسيارة نقل..

تسلق للصندرة عدة مرات وجلب الكثير من الأسطوانات العتيقة والحلي الزائفة والثياب المتسخة.. لم يعد التنفيذ يجدي مع حالة ثيابه وشعره، بل يجب أن ينزع ثيابه على باب الدار ويتخلص منها..

ثمة أشياء مسلية فعلا.. هناك لعبة تمثل كلبا خشبيا لو ضغطت على قاعدته ألقى على يديه وراح يحرك ذيله أو أذنيه. كانت عنده يوما ما وضاعت ولعلها ذات اللعبة...

لو كان هنا شاي أو إمكانية صنعه لكانت الساعات القادمة مسلية..

قرر أن ينزل بعد قليلا إلى المقهى المجاور ويشرب شاي وربما حجرا من الدخان.. لكن ليس الآن.. فيها بعد عندما يشعر بالإنجاز..

راح يدندن بصوت عال وهو يكمل البحث:

"هيلا هوب هيلا... صلح قلو عك يا ريس..."

مجلات ميكي القديمة.. بالتأكيد لا تخص خالته ولا تخص الصبي..

هو يذكر هذه المجالات ويذكر غلافها وربها القصص فيها.. كانت له.. نسيها هنا يوما ما بعد ما
فرغ من القراءة، ولم ترحمها الخالة..

امتدت يد آلة النسيان لها فألقته في المندرة..

ما اجملها وما أعذب الذكريات برغم كل هذا الغبار.. ربما بفضل كل هذا الغبار...

سوف يأخذ هذه المجالات معه في رحلة العودة للبيت..

وابتسم في سخرية... لم تترك له خالته سوى الذكريات العذبة، لكنها لم تترك له مليا.. هو قد
سئم الانتظار وسئم العواطف..

يريد أن يتحرك..

ريهام.. ريهام كانت هي المختارة وكانت هي الواعدة.. كانت تحمل الوسادة الأبدية الكونية التي
سيريح عليها رأسه المنهك..

لكنه كان مفلسا تقريبا ولم يستطع شراء الوسادة ولو بالأجل..

وهكذا توارت ريهام..

إنه قد تقدم في العمر.. للأسف ليست سيئا مناسبة للبدء.. كان عليه أن يبدأ قبل الثلاثين،
واليوم لم يعد من أمل سوى أن يجد تلك الزكية المليئة بالماس في درج خالته ويبيعها.. طبعا لا
توجد زكية كهذه وهذا معناه أنه لن يظفر هنا سوى ببعض الذكريات..

صداع... هل حان وقت الشاي؟

مر من أمام اللوحة من جديد.. وألقي نظرة أخرى...

هنا رأى شيئا لم يتبينه في اللحظة الأولى. كان شيء قادما في الأفق البعيد.. شيء لا تستطيع تبين
معالمه لكنه لا يبدو بشريا.. تذكر صورة مماثلة في كتاب أطفال قديم لزوجته ذي اللحية الزرقاء
وهي واقفة في البرج تستغيث.. السبب طبعا أن ذا اللحية الزرقاء ينتظر نزولها من البرج
ليذبها..

الفتاة في الصورة تلوح بذراعيها في رعب..

هل كان هذا كله موجودا؟.. بالتأكيد كان موجودا لكنه يشعر بأنه يراه لأول مرة.. غريب حقا ما
يحدث لقدرتنا على الملاحظة أحيانا، ولعل أغنية شادية الرائعة (دور عليه تلقاه.. يا اللي عنيك
شايفاه وبرضه بتدور) تلخص الموقف فعلا..

الباب يدق.. هل هو يتخيل أم أن هذا صحيح؟

خرج إلى الصالة وقلبه يتوالب في صدره.. قلبه واهن ولا يحب المفاجآت..

وقف خلف الباب واستمع جيدا ثم مد يده للمزلاج وأزاحه..

أدار المقبض وهو يتوقع أن يرى وجه البواب أو وجه الكراء أو

لا شيء من هذا..

السبب أن الباب لم يفتح. حاول عدة مرات بلا جدوى وأدرك أن الباب ملتصق أو محشور..
قال بصوت عال وهو يثق الباب:

"الباب مغلق.. ادفع من ناحيتك"

سمع صوتا مكتومًا... ربما هو أقرب لزئير أو سعال مكبوت..

وشعر أن هناك من يدفع بلا جدوى..

لا بد أن لسان كالون (اللاتش) تهشم بالداخل. معنى هذا أنه حبيس الشقة، لكن لا مشكلة..
بوسعه دائما أن يحطم الباب بكتفه أو ينادي البواب من النافذة ليفتح له. عليه الآن أن يواصل عمله.. لماذا لم يحضر الهاتف الجوال معه؟

متضايق هو لأن مهمة شرب الشاي والتدخين صارت صعبة فعلا..

عاد لداخل الشقة وهو يفكر: من كان القادم؟.. لماذا لم يتواصل معه؟

هذه الجالسة في الضوء الخافت قرب باب غرفة النوم. هي خالته طبعًا.. هذا واضح وكان يتوقع شيئًا كهذا منذ جاء هنا..

سيدة مسنة بقميص نوم رث ذات شعر أشيب مشتعل حول رأسها.. تجلس هناك على حافة أريكة وتنظر له...

خالتي.. كنت أعرف أنك قادمة لي..

هل تذكرين من أنا أم أن القبر جعلك تنسيني؟.. لو كنت نسيت فأنا في ورطة حقيقية..

مشي نحو الشبح الجالس و قلبه يتوالب في ضلوعه..

لكن شيئًا كان يخبره أن العجوز لن تؤذيه.. لن تفعل.. كانت تحبه فعلا، وعلى الأرجح لن تفعل سوى أن تشكو له، أو تصارحه بشيء يعذبها..

☆ ☆ ☆

وقف على بعد خطوات منها ونبضه يتسارع..

لا تفكر في الموقف الآن.. لا تحاول تبين أبعاد الواقعة الغريبة..

لو أدركت فجأة أنك تقف أمام شبح فسوف تجن، كما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة.. توم يمشي فوق الهاوية في ثقة ويسر، فإذا نظر لأسفل واكتشف فجأة أنه يمشي فوق الهاوية صرخ وسقط من عل..

أنت لا تخاطب شبحًا.. هذا الواقف أمامك ليس شبحًا... لا نعتقد هذا..

كانت تنظر له، وإن ظل وجهها في الظل.. هذا التأثير الشهير..

ربما هي تنظر للجهة الأخرى.. لن يتبين الفارق لأن (وضع ثلاثة أرباع الأمامي والخلفي يتساويان في الظل..

فجأة بدأت شجاعته تتخلى عنه.. بدأ يتراجع مبتعدا عن غرفة النوم.

وقف في وسط الصالة محاولا ألا يبعد عينه عن الشبح الجالس هناك..
محاولة إبعاد عينه في حد ذاتها جعلت عينه تذهب هنا وهناك..
هنا وقعت عينه على اللوحة..

لابد أن هناك شيئا غريبا أو قد تعاطى مخدرا ما.. لقد تغيرت الصورة أكثر.. الشيء القادم في الأفق صار الآن يملا اللوحة تقريبا وهو ينظر لأعلى نحو الفتاة الواقفة في البرج. كان شيئا مشعرا غامضا يشبه تلك الصور البلهاء التي يرسمها من يزعمون انهم رأوا الساسكواش في أمريكا الشمالية.. بالتأكيد هو مخيف.. لا شك في هذا....

كان باب البيت في اللوحة مفتوحا، وأدرك أن هناك جزءا من منضدة عليها شرشف أحمر يبرز من وراء الباب.. كل شيء في اللوحة يدل على أن الساسكواش سوف يدخل من هذا الباب بعد لحظات..

رفع محمود عينه..

هنا وجد أن السيدة الجالسة قرب غرفة النوم ليست هناك.. لقد رحلت كما هو واضح.. رحلت أين؟.. إلى مكان آخر في نفس المكان.. إلى موضع آخر في ذات الموضع..

أدرك أن باب غرفة النوم موارب.. الضوء الخافت يتسلل إلى هناك.. يرى منضدة عليها شرشف أحمر يبرز طرفها هناك.

منضدة في غرفة نوم؟.. غريب هذا..

اتجه للباب ووقف للحظة عنده يتشمم الهواء.. ثم أزاحه ببطء.

هناك مصباح.. أضواءه واستطاع أن يرى الغرفة بشكل أوضح..

هناك فراش تم رفع حاشيته.. حاشية مقلوبة بتلك الطريقة التي تميز أسرة المستشفيات عندما يموت المرضى.. وهناك منضدة احضرها أحدهم للغرفة ومن الواضح أنها لم تكن تنتمي المكان... هناك خزانة ثياب مفتوحة.. ثياب رثة ملقاة هنا.

وهناك، منها ثياب لا تخص خالته بالتأكيد.. هذه ثياب شاب مراهق بالتأكيد.. ثياب حسام...

يجب تفتيش خزانة الثياب بعناية.. تلك الأدراج الخفية التي تحوي ثروة من المجوهرات.. هي هناك دوما في الأفلام، فماذا عنها هنا؟

هكذا راح يعبث في الخزانة.. ثم انحنى وراح يفتش تحت الفراش..

نهض وجفف العرق على جبينه و..

شيء تحرك في الصالة.. لا شك في هذا..

ليس شيئا بالضبط.. بل هو (أحد).. له طول و عرض و ارتفاع (أحد).. هو ليس في الشقة وحده..

هناك عصا غليظة يبدو أنها كانت تخص خالته.. وجدها مستندة إلى الكومود فهرع يمسكها.. لا

بأس.. لها ثقل وطاقة وضع تغري بأن تتحول الطاقة حركة.. سلاح لا بأس به..
وقف يستجمع شجاعته خلف إطار الباب للحظة، ثم هرع خارجا من الغرفة..
لا أحد في الصالة.. هذه الشقة تعبت معه وعبثها مرهق للأعصاب فعلا..

هناك أشياء تتحرك وأشباح ولوحة.. ماذا عن تلك اللوحة اللعينة؟

ألقي نظرة على اللوحة من جديد فأثار ذهوله أنها تغيرت من جديد..

هذه المرة كانت الفتاة الحسنة تقف متصلبة خلف باب غرفة، وهي تحبس أنفاسها كما هو واضح وتحاول أن تلتصق بإطار الباب.. في يدها عصا عملاقة. في الخلفية هناك قاعة خافتة الإضاءة يمشي فيها ذلك الساسكواش.. واضح تماما أنه يفتش عنها وأنه لن يستغرق وقتا طويلا حتى يجدها.. سوف يرى هذا الباب ويدلف منه وعندها ...

فجأة قف الشعر على رأسه..

ما هذه اللوحة وما قصتها بالضبط؟

منذ قليل رأى أن الوحش يقف أمام غرفة فيها منضدة عليها شرشف أحمر.. نفس ما رآه في غرفة النوم، وفي الوقت ذاته مر شيء ما أمام الغرفة.. فهل كان الوحش؟

مشهد الفتاة التي تقف متصلبة وراء الباب والعصا في يدها.. ألم يكن في ذات الوضع منذ خمس دقائق؟

اللوحة اللعينة تعبت به.. هذا واضح..

نظر للوحة من جديد.. ليته يستطيع أن يلاحق التغيير، لكن هذا مستحيل.. لا بد أن يأتي التغيير في لحظة لا يراه فيها أو تبتعد عيناه.. هذه المرة يري الساسكواش غاضبا وغضبه مجنون.. إنه يمزق أشلاء الفتاة والدم يتناثر في كل مكان.. لا بد أنه دخل الغرفة ووجدها.. التنفيذ ساذج واللوحة نفسها بلهاء، لكنها برغم هذا دموية مخيفة توحى بجنون راسمها..

لن أنتظر لحظة أخرى في هذا البيت المجنون..

هرع إلى النافذة الموصدة وعالج الكالون لفتحها.. يرى الشارع الآن ويرى السيارات ويشم الهواء ويشعر أنه أفضل حالا..

"باسيونيه!!"

ينادي البواب بسيوني بأعلى صوته.. لكن لا رد..

"باسيونيه!!"

بنغمة أعلى.. لا جدوى. هناك ضوضاء في الشارع على كل حال.

وجد كوبا متربا على مائدة الطعام فالتقطه وقذفه من النافذة ليتهشم على الإفريز.. لو لم يسمع بسيوني هذا الصوت فهو أصم والمشكلة كبيرة..

ثم نظر للخلف فأدرك أن غرفة الصالون الداخلية مضاعة..

متى؟؟؟

هو لم يدخلها ولم يلمس مفتاح النور فيها.. خالتي.. لا تعبثي معي أرجوك.. أنا خائف وقلبي ضعيف.. تعلمين هذا جيدا...

عندما عبر الصالة ألقى نظرة أخرى على اللوحة فوجد أن ألوانها ذابت لتصنع مشهدا جديدا.. هذه المرة كانت الصورة معكوسة..

الساسكواش يقف وعلى وجهه ضحكة شيطانية والدم يسيل من ركن فيه، وهو يلتصق بإطار باب غرفة بها قطع أثاث مغطى.. ما بدا منه مكسو بالأويما.. في الصالة خافتة الإضاءة ترى الحسناء تمشي وهي لا تعرف ما ينتظرها وراء باب تلك الغرفة بالذات..

أويما؟ ... صالون؟

لو صدق محمود اللوحة الظالمة لقال إنها تنذره من دخول الصالون، الشيء ينتظر هناك يا أحمق..

ماذا يفعل؟.. سوف يظل هنا وينادي البواب حتى يشاء الله..

لكن.. كيف يثق بأن يعطي ظهره لهذه الصالة الملعومة ويصرخ باتجاه الشارع؟ ... لماذا ماتت خالته؟.. ما الذي رأيته بالضبط وجعلها تلفظ أنفاسها متخشبة؟

☆ ☆ ☆

"باسيوني!!"

هكذا راح يكرر النداء من النافذة.

مع الوقت كان يدرك أكثر فأكثر أنه في مأزق.. هذه الشقة ليست على ما يرام، والأسوأ من هذه الشقة هذه اللوحة المائية التي لا تكف عن التغير..

هل اللوحة تتغير فعلا؟.. ربما يخيل له ذلك.. ربما كانت اللوحة تعبيراً عن حالته النفسية لا أكثر.. هذا وارد..

هناك غرفة الصالون.. كل شيء يقول إن اللوحة تحذره من دخولها، وهذا سبب كاف كي يجرب حظها.. سوف يتوكل على الله ويأخذ نفساً عميقاً ويتجه إلى هناك.

لقد رأيت الحسناء تمشي في الصالة غافلة بينها الوحش ينتظرها في الصالون. ماذا لو كنت انت الفتاة؟.. ربها أنت الوحش؟

مد عنقه ليبقي نظرة داخل الغرفة المضاءة.. تبا لمصابيح الفلورسنت هذه.. الغرفة أمامه بالفعل ورائحتها هي رائحة الموت. رائحة الغبار.. دعك من الأثاث المغطى بالقماش بتلك الطريقة الكئيبة التي تذكرك بالأماكن المهجورة..

لا يوجد شيء.. هناك نافذة موصدة بعناية وعليها ستائر متسخة لا يمكن معرفة لونها القديم..

الغرفة التي وجدوها ميتة فيها. كالعادة هناك خادمه ما تأتي ثلاثة أيام في الأسبوع لتنظف الشقة وتبتاع الخضر وكالعادة تصل هذه الخادمة فلا يفتح لها أحد الباب، ثم بعد محاولات جهيدة

تجد نسخة من المفتاح لدى البواب.. تفتح الشقة.. في غرفة الصالون تجد الخالة على الأرض متخشبّة وقد فتحت فاها في صرخة صامتة.. الطبيب الشرعي قال إن الوفاة حدثت منذ زمن، وكان على التصلب الرمي أن يزول.. هذا لغز غير مفهوم....

ما الذي وجدته السيدة في غرفة الصالون أو ما الذي حدث لها فجعلها تصرخ؟.. لماذا تخشبت؟..

تبا!.. هذه الأفكار سوف تدفعك للجنون فعلا... قرأ ذات مرة قصة ل. ه. ج. ويلز عن الرجل الذي بات ليلة كاملة في الغرفة الحمراء، فكاد خياله يقتله.. وفي الصباح أدرك أن الغرفة مسكونة فعلا.. مسكونة بالخوف ذاته..

هذه الشقة مسكونة بالخوف هي الأخرى في كل ركن..

ما الذي وجدته السيدة؟

أزاح الغطاء قليلا عن قطع الأثاث. لم تكن كلها من طراز الصالون المزدان بالأويميا. هناك أريكة عريضة قبيحة الشكل لكنها عملية جدا. لدى محمود أريكة كهذه في بيته ويعرف أنها تستخدم كأريكة وكفراش.. وعندما تفتح فأنها تكون صندوق للخرز كذلك..

أشياء كهذه قد تفوت رجال الشرطة الذين لم يأتوا ليفتشوا الشقة أو يحققوا في جريمة قتل. لقد كان عملهم روتينيا وأتموه بسرعة.

فتح الأريكة بعناية وبالفعل وجد أنها صندوق مفعم بأشياء عديدة.. أشياء تحتاج لشهر كامل من الفحص. لو خرج من هنا فسوف يعود مع خمسة أو ستة رجال..

هناك كراسيات مغيرة متراصة، وهناك جهاز مذياع قديم وأعداد من مجلة (هو وهي) التي كانت منتشرة في زمن خالته.

الكراسيات. ماذا فيها؟

وهناك رسوم.. رسوم بالقلم الرصاص الملون أو الباستيل وهناك رسوم بالأكوارييل. ليست رائعة لكنها ليست سيئة كذلك، ويمكن القول إنها تخص ذلك الفتى حسام..

فتيات.. خيول.. مناظر طبيعية..

هناك مظروف مغلق عليه اسم.. دكتور (كمال عطية) - دكتوراه في الأمراض العصبية والنفسية.. زميل كلية (....) بباريس...

فتح الخطاب.. كانت بداخله ورقة بالإنجليزية وقد كتبت على عجل تقول:

"تحتاج حالة الشاب حسام عبد العزيز إلى رأي ثان وثالث. على قدر علمي سهل أن تصنفه كشخصية سايكوباثية، لكن الأمور أعقد من هذا. يعبر عن نفسه بالرسم كثيرا وهذه علامة صحية، وأعتقد أن رسومه جيدة جدا.. لكن قسوته على الحيوانات لا توصف.. كما أنه يتحرش بالفتيات، ولا يكف عن إهانة قرييته التي تقيم معه وترعاه كأم.. وأحيانا يضربها بقسوة. يتكلم كثيرا عن عبادة (بعل) وعن انه ابن بعل الأكبر، وأحيانا يزعم أنه شيطان. قرييته متأكدة من أنه جرب التهام الحشرات وجرب اللحم النيء.. تؤكد أن خزانته مليئة بقطط ميتة يقوم بتحنيطها.

لا أفهم جذور هذه الحالة ولا كيف بدأت، لكنني أحتاج إلى رأي آخر، وإنني لأقترح عرض الحالة على د. عزيز اسكندر لدى عودته من الولايات المتحدة في نوفمبر القادم. إن تشخيص الحالة كمسّ شيطاني سهل بالنسبة للعامة، لكن الطبيب النفسي يبحث عن أسباب ودوافع وتشخيص صحيح، وأعتقد أن د. عزيز يملك الإجابة عن أسئلة كثيرة؛ مثل منشأ هذه الشخصية السايكوباثية وجذورها"

كان محمود يحاول أن يفهم. لكنه على يقين من شيء واحد هو أن خالته لم تفهم حرفاً من هذه الرسالة، وهذا لأنها لا تجيد الإنجليزية، وإن أجادتها فلسوف يستحيل إقناعها أن الصبي ليس ممسوساً. لا يمكن أن تكون هذه الرسالة هي سبب موتها ذعراً.

هذا الفتى المريض نفسياً كان مولعاً بالرسم.. وتلك اللوحة اللعينة رسمها يوماً ما.. لا شك أنها تحمل الكثير من جذور المرض النفسي..

أين اللوحة بالمناسبة؟

خرج إلى الصالة وهو يشعر بإرهاق شديد.. اتجه إلى النافذة وأطلق صيحة

"باسيوني!!"

أخرى على سبيل أداء الواجب، ثم بحث عن الرسم.. لقد تغيرت اللوحة من جديد.. هذا حقيقي.. هذه المرة يرى رجلين يلتحمان وامرأة تصرخ.. رجل قوي ضخم اصلع الرأس له شارب كث، وفتى نحيل ضعيف، لكن الفتى يحمل خنجراً.. ما معنى هذا؟

هذا البيت عبارة عن أسئلة بلا أي أجوبة.. لا شك أنه سيدفعه للجنون..

هناك غرفة واحدة باقية.. لا يعرف ما يوجد فيها.. عليه أن يدخل ويفتش وبعد هذا يجد طريقة للفرار. هكذا اتجه ليفتح الباب الأخير. كان الظلام داماً بالداخل واصطدم بقطعة اثاث.. لما استطاع بلوغ مفتاح النور أدرك أنها أقرب لغرفة نوم أخرى..

هناك فراش مغطى. لم يكن يدخل هذه الغرفة لدى زيارته لخالته إلا نادراً جداً ومن المنطقي أن المدعو حسام كان ينام هنا..

أما ما اصطدم به فهو آلة خياطة مغطاة.. آلة عتيقة تُدار بدواسة قدمين.

لقد تحركت قليلاً من موضعها فأنكشف جزء من خشب الأرضية..

لسبب ما اتجه للصالة وبحث عن اللوحة ثم حملها في يده عائداً للغرفة.. لقد تغيرت الصورة فعلاً.. يمكنه أن يرى الرجل الضخم الأصلع يقف والصبي ميت على الأرض والسيدة تمسك برأسها صارخة. صورة بليغة جداً على الطراز الباروكي يمكن أن تضع عليها بالونات الحوار: لقد قتلت.. لم أقصد ذلك.. أنت قد جلبت علينا الخراب.. منك لله... الخ..

أدرك أن الرجل الضخم يقف في هذا المكان بالذات.. جوار الفراش...

نظر لخشب الأرضية.. المهشم..

رجل أصلع ضخم له شارب كث....

خاله

خاله الذي ذهب لأوروبا واختفى تماما... لا أحد يعرف عنه شيئا ولا أحد يذكره..

والفتي الميت على الأرض.. اليس هو حسام؟

اللوحة المائية تحكي قصة رهيبة إذن... الحالة التي أصابها الرعب من ربيبه الشيطاني.. تتصل بأخيها ليأتي ويساعدها.. مشادة عنيفة بين الفتى والأخ الغاضب.. تهديد بالسكين.. الخال القوي الغاضب يقتل الفتى.

يقتله.. هنا بالذات...

في هذه الغرفة!...

وقف محمود في الغرفة التي بدأت الظلال تزحف عليها..

كان يفكر في عمق..

القصة إذن واضحة جدا واللوحة تحاول أن تخبره بكل شيء..

الفتى لم يفرّ من البيت ولم يختف في ظروف غامضة.. الفتى قد قتل. قتله خال محمود في مشادة عنيفة، والسبب أن الفتى شيطاني غريب الأطوار.. كائن مخيف لا يمكن فهمه.. ربما هو شخصية سايكوباثية فعلا وربما هو ممسوس.. لقد فات أوان معرفة الحقيقة..

لقد مات الفتى.. وما فعلته خالة محمود هو أنها أخفت حاجياته والأوراق في تلك الأريكة وفي الصندرة.. لكن اللوحة تحمل طاقة غير عادية.. اللوحة تحاول أن تتكلم... اللوحة تحكي قصة..

ماذا يوجد تحت هذه الأرضية الخشبية؟

من الظريف أن تحاول التخمين..

كنز علي بابا؟.. حذاء سندريلا؟.. حذاء الطنبوري؟ ... طاقم اسنان هتلر؟.. مجوهرات لوكريشيا بورجيا؟

هناك في المطبخ سكين عملاقة. رآها عندما كان هناك.. أعتقد أنها تصلح..

هلم يا محمود.. إن الليل يتوغل ولم يعد هناك الكثير من الوقت لتعرف فيه الحقيقة.. إن القصة توشك على الاكتمال.. على الأرجح سوف يفتح الباب تلقائيا إذا وجدت الحل..

هكذا جلب السكين ثم عاد.. جثا على ركبته وراح يعالج الأرضية.. حاول جاهدا رفع قطعة الخشب.. صبرا.. في مثل هذه المواقف لابد أن تنكسر السكين ويطير النصل في عينك..

هذا حادث ينتظر أن يحدث..

يجب أن....

هنا وُضعت اليد على كتفه.. يد ثلجية جافة قاسية.. استطاعت برودتها أن تصل لجلده عبر الثياب.. للحظة دارت الدنيا من حوله وظهرت بقعة سوداء في منتصف الكادر، ثم راح يتنفس بعمق حتى استعاد تنفسه.. من الغريب أن قلبه ما زال صامدا..

نظر خلفه فلم ير أي شيء.. أسلوب الأشباح التي تتحرك خارج نطاق الرؤية.. أسلوب بريطاني شهير في قصص الرعب.. على كل حال هو يدرك الآن أن هذه الشقة تعجُّ بالأشباح، وأنها تتحرك فيها بحرية تامة.. صار من السخف أن تتكلم عن شيء آخر..

واصل انتزاع خشب الأرضية.. أخيرا بدأ يلين.. قطعة خشب مهشمة تتزحزح.. استطاع أخيرا ان يرى ثيابا.. ثيابا أتلّفها القَدَم وإن كان قد تم لفها في لفافة صغيرة.. كانت ملوثة بدمٍ جاف عتيق أسود.. مد يده جاهدا حتى أخرج اللفافة كلها..

فردّها في حذر عالّا أنه على الأرجح سيجد بدا مبتورة متعفنة..

لكنه في الضوء الخافت رأى أنها تحوي خنجرا.. خنجرا شرير الشكل ملوثا بالدم..

كان يلهث بلا توقف...

هذا سلاح الجريمة طبعاً.. بهذا السلاح قتل الفتى في تلك المشادة.. كان في يده وانتزعه الخال منه بسهولة. روح الفتى الشريرة ظلت تسكن البيت وتسكن اللوحة. ربما هي كذلك في مطاردة أبدية مع روح الخالة..

هذا هو السلاح.. لكن أين الجثة إذن؟ ...

يمكن تصور سيناريو ريا وسكينة.. حيث يتم تمزيق الجثة ودفنها تحت أرضية الغرفة ثم وضع الخشب من جديد. لكن هذه الفكرة لا تبدو معقولة لسبيين.. أولا هو لا يتخيل خالته متورطة في عمل إجرامي بهذا التعقيد وهذه البشاعة.. إنها مجرد خالة كخالة أي واحد آخر.. خالة ممن يشهقن عند وضع خلطة الملوخية ويُجِدن عمل محشو الكرنب.. خالة من هذا الطراز لا يمكن أن تقف لتراقب أخاها وهو يمزق شابا ويدفنه.. أين؟.. في بيتها بالذات!!

السبب الثاني هو أن هذه شقة سكنية.. سوف تسبب الرائحة فضيحة لا شك فيها.. حتى في زمن ريا وسكينة كانت الرائحة قاتلة واضطر القتلة لإشعال البخور طيلة اليوم..

أين الجثة؟

هناك احتمال آخر هو أنه تم تمزيقها ثم نقلت في أكياس على دفعات.. إلى كومة قامة في شارع بعيد أو تم التخلص منها في مصرف.. فضّل الخال أن يدفن سلاح الجريمة هنا لأن الجثث تظهر دائما في النهاية.. لا تتوقع أن الخنجر سيبلّ.. ثم فر إلى الخارج وترك أخته في الشقة المرعبة.

مزيد من الاستنتاج بدفعك للاعتقاد أن شبح القتل جعل حياة المرأة جحيما.. كان يطاردها في كل مكان. النتيجة أنها سقطت ميتة وعلى وجهها أمارات الهلع...

إذن لماذا تحدث أشياء غريبة هنا؟.. ما معنى الساسكواش الذي يتحرك في كل مكان؟.. لماذا تتكلم اللوحة طيلة الوقت؟.. لماذا هو حبيس؟

تُرى ماذا تقوله اللوحة الآن؟

عاد يتأملها شاعرا برهبة حقيقة.. منذ فترة جلس شاب مراهق أمام هذه اللوحة ورسمها، لكنه في الوقت نفسه زرع فيها جزءا من خواطره وروحه الشريرة.. النتيجة أن ألوان الماء تذوب في كل لحظة مثل (الكاليدوسكوب) لترسم شيئا جديدا..

هنا رأى مشهدا جديدا.. هناك جثة ملقاة في مكان فسيح.. لو أردنا الدقة لقلنا إنها ملقاة في صالة شقة..

ما هذه الجثة الجديدة وماذا تحاول اللوحة قوله؟

خرج إلى الصالة من جديد.. وقرر أن يواصل الصراخ في النافذة.. سوف يلقي بأشياء أثقل.. ربما مقعد كامل يسقط في الشارع ويجذب المارة.. بعضهم سيصعدون للشجار معه.. لكنهم بذلك ينقذونه..

الضوء خافت فعلا...

هنا رأى في ركن الصالة ذات السيدة.. السيدة التي لا يمكن تبيين وجهها.. السيدة التي يعتقد أنها خالته... مرعبة فعلا لكنه لا يجروء على الدنو أكثر أو محاولة التفاهم معها..

استدار للخلف فرأى للمرة الأولى في الضوء الخافت ذلك الفتى النحيل الذي يزحف في الظلال.. كأنه لا يراه ولا يعبا به..

يمكن القول بلا جهد إن هذا هو حسام..

الشقة مزدحمة بالأشباح فعلا كأى حافلة ساعة الذروة.. لابد من الصراخ.. لابد من طلب العون..

لكنه إذ توغل في الصالة أكثر رأى القدمين في ركن مظلم.. يسهل ألا تلاحظها في البداية رأى الجسد الممدد على الأرض..

رأى الوجه الذي بدا عليه الهلع... كل هذا كان في الصورة..

يميزه بسبب رداءة الرسم..

ثم أنه عجز عن تخيل ذلك...

هذه المرة لم يكن هناك مجال للشك أو الحيرة...

هذا محمود.. محمود بالذات دون سواه...

بعبارة أخرى هو يرى جثته على بلاط الصالة.. لقد مات..

وقف محمود يرتجف ويفكر.. بالفعل لم يعتد أن يصمد قلبه كل هذا الصمود.. قلبه واهن وبالتأكيد تخلى عنه في وقت مبكر. على الأرجح عندما رأى شبح خالته جالسا على باب غرفة النوم..

كان عليه أن يشك في هذا منذ البداية..

لماذا عجز عن فتح الباب؟.. لماذا لم يسمع أحد صراخه؟.. لقد فقد الكثير من وجوده المادي وإن ظل قادرا على انتزاع الأرضية وأشياء أخرى.. وعلى الأرجح سيفقد هذه القوة عما قريب..

ربها لهذا السبب بالذات كشفت اللوحة أسرارها له بالذات..

لأنه صار شفافا بشكل ما..

لقد صار قادرا على رؤية الشبحين بوضوح تام..

والآن هو يعرف ما سيحدث عندما تتصاعد رائحة العفن بعد يومين، ويجد رجال الشرطة جثة شاخصة البصر مذكورة في ذات الشقة اللعينة.. لن يفهم أحد أي شيء... غالبا لن تقدم لهم اللوحة المائية إجابات.. سوف يجدون الخنجر الدامي وربما يخمنون ما حدث..

سوف تنغلق الشقة على ما فيها ويخشاها المستأجرون بتاريخها الملوثة.. لكن هناك ثلاثة أشباح سوف تجول فيها للأبد...

شاب ممسوس أو سايكوباثي.. ورجل في منتصف العمر.. وسيدة مُسنّة قتلها الرعب.. وكومة من العاديات ولوحات الأكواريل..

إن المستقبل يبدو واعدًا بالفعل.

(تمت)

الثقوبة

لا يدري متى ولا كيف كفت نعيمة عن زيارته ليلاً.. افتقدتها بعض الوقت ثم نسي الأمر تماماً.. الموضوع لا يتردد في الدار.

فقط فهم شيئاً عن خادمة سيئة الأدب عملت في دارهم فترة.. خادمة من الطراز الذي لا يبالي بتلوين براءة مراهق في الثالثة عشرة من عمره..

جاءت ورحلات (في ستين داهية).. تساءل في سره عن حقيقة القصة.. إذا كانت في دارهم.. فلماذا لم يطردوها بدلاً من استشارة الطبيب والمشعوذ؟.. أم أنها كانت في البداية ورحلت ثم ظل طيفها يزوره ليلاً ليغتصبه؟



في مراهقته اعتاد زيارتها عندما تدنو عقارب الساعة من الثالثة بعد منتصف الليل.. الظلام والضوء الخافت القادم من المصباح الواهن في الصالة، والرجولة المترددة التي تتحسس خطواتها الأولى في درب مجهول.. والنساء كائنات غامضة ديناصورية تأتي وتذهب إلى عالم الأحلام. هناك يرقد في الظلام وصدره يعلو ويهبط.. ربما تغلبه سِنَّة يستفيق منها مذعورا فينظر إلى الساعة السابحة كسفينة فوسفورية في بحر السواد.. الثالثة..

ثم يسمع صرير الباب ويحتله السلويت الرشيق المميز لها.. تخطو خطوة وينغلق الباب ويشم عطرها المميز وعالم الأنوثة الغامض الساحر الذي ينبعث منها، حتى خطرت له فكرة راقته له: إنها الأنوثة ذاتها وقد تجسدت..

يأبى الرمز المقدس القادم من عوالم الحلم.. التحم بي. فليكن صمتك صراخا وليكن صراخك همما.. فلتفترسني أنفاسك الحارة.. إعزفي بي.. مزقيني.. القي بي كالشيء على أعتاب الأبدية.. تاتا تاتا ... يدك البضة تقود خطواتي المتعثرة عبر طرق الرجولة الوعرة..

"قلت لي ما اسمك؟"

"نعيمة.."

فكان يضحك ويهتز صدره حتى يسعل.. النطق الذي يستبدل بالعين حاء.. النطق الذي تسرب إلى حلقك ذاته فصرت ترى حرف العين مشينا مهيناً..

ثم تلثم عينه المغمضة وتهمس:

"يا حبة عيني.. يا عصفوري.."

ويأتي الصباح فيجد نفسه ملقى كالشيء فعلاً.. الفراش ميدان حرب والملاءة على الأرض وقدماه على الوسادة.. وينفتح الباب وتدخل أمه لتوقظه للمدرسة فيصيبها الهلع من منظر الغرفة..

وفي المدرسة يتذكر مذاق (نعيمة) فيبتسم خفية، ثم يسقط رأسه الثقيل المنهك على صدره ويشخر.. يشخر بينها المدرسون يصرخون غضباً.. يشخر بينما درجاته تتهاوى من حلق.. يشخر بينها أبوه يتساءل عما دهاه..

فقط في الليل تظهر هي على باب الحجرة وتبدأ دورة جديدة من الشهوة والنشوة والألم والإرهاق والندم..

الشيخ الذي فحصه كان خبيث الرائحة والنظرات والأفكار، وإن تظاهر بغير هذا.. كيف يخدعهم بينما نظراته تفضح كل شيء؟.. فقط تلمس جبينه وغمغم بما يبدو لمن يسمعه من بعيد.

آيات قرآنية، وقال:

"جنية اسمها (نعيمة).."

ثم يسأله:

"هل تقضي وقتا طويلا في الخلاء؟.. هل تطيل النظر لجسدك العاري في المرأة؟.. هل أهنت الخبز أو اللبن؟"

"لا.."

لكن الرجل لا يتقهقر.. إنه يتلمس جبينك ويكرر:

"جنية اسمها نعيمة"

وتبدأ محاولات العلاج القرآني.. هذا الرجل لا يحفظ سورة كاملة واحدة من القرآن لكنه يخدع الجميع.. إنه يكلمها.. بحركات تمثيلية يضرب على خصرتك حيث تستقر هي.. يحكي قصصا لا نهاية لها عن الجنية التي تشاجرت مع ملك الجان فقررت أن تتسلى على شاب غرير هو أنت بالذات.

لكن (نعيمة) أتت في الموعد... لم تتخلف عن مواعدها قط.. يا أغنية الأنوثة التي تتردد على شفتيك الجافتين فترويهما..

الطبيب النفسي الذي رآك حكي لأبيك عن الكبت وعن المراهقة.. عن براكين الرجولة التي تتفجر وكيف يعمي وميضها العيون فلا ترى إلا (نعيمة).. نعيمة لم توجد قط ولن توجد ا

إن هي إلا عاصفة جاءت ولسوف ترحل بعد ما تأخذ وقتها..

لا يدري متى ولا كيف كفت نعيمة عن زيارته ليلا.. افتقدها بعض الوقت ثم نسي الأمر تماما.. الموضوع لا يتردد في الدار..

فقط فهم شيئا عن خادمة سيئة الأدب عملت في دارهم فتره خادمة من الطراز الذي لا يبالي بتلوين براءة مراهق في الثالثة عشرة من عمره.. جاءت ورحلت (في ستين داهية).. تساءل في سره عن حقيقة القصة.. إذا كانت في دارهم فلماذا لم يطردوها بدلا من استشارة الطبيب والمشعوذ؟.. أم أنها كانت في البداية ورحلت ثم ظل طيفها يزوره ليلا ليغتصبه؟

لا يعرف..

فقط جرفته الحياة معها.. وجاء اليوم الذي وجد فيه أنه يدرس الكيمياء في بريطانيا. ما زال بالنسبة لنفسه ذلك المراهق التمس الذي يتحسس خطاه على درب الرجولة، لكنهم يعاملونه

كطالب علم ناضج فلا بد أنه كذلك..

كان وحيدا.. تعسًا.. قلقًا.. يرتجف بردا وقد تسرب الضباب عبر منخريه ليبيطنه من الداخل بلون العاصمة البريطانية الرمادي الكثيب.. لذا شعر بالرضا عندما عادت (نعيمة)..

انفتح باب غرفة نومه في تلك الشقة الرخيصة التي تدفع ثمنها إدارة البعثات، ومن جديد رأى (نعيمة) على الباب.. إنها هي..

لا يمكن أن يخطئ هذا القوام الفارع الجميل.. الأنوثة الخالصة التي قدت من مطلع الخليقة..

انها تدنو منه.. تهمس:

"أوحشتني.."

"وانت كذلك..؟"

تلثم عينه المغمضة وتهمس:

"يا حبة عيني.. يا عصفوري.."

فليتطير الضباب الرمادي خارجا من منخريك.. فليتسرب عطرها ليبطن كل شيء بداخلك.. هناك تحت الكبد.. هنا حول القلب..

هنا جوار طحالك بقعة فارغة.. يجب أن تملأها..

وفي الصباح ينهض من نومه ليجد أنها قد رحلت.. لم يرها في ضوء الشمس قط.. لكنه الموعد المقدس كما اعتاده في صباه.

تتكرر الليالي الصاخبة، والإرهاق بادٍ على وجهه يراه

او اسناده

البريطاني (همفري)، ومع الإرهاق شحوب واضح.. أنت على غير ما يرام يابني.. يجب ان يفحصك الأطباء.. أنا اعرف دائي.. إنها (نعيمة)..

تحكي له كل شيء على سبيل تسليته، فينظر لك في قلق بضع دقائق ثم يقول مفكرا:

" لا أعرف كيف تفسرون هذه القصص، لكن عندنا أسطورة مماثلة في عالمنا الغربي.. هناك فتيات يأتين للرجال ليلا ليضاجعنهم ويحملنهم معهن إلى الجحيم.. نطلق عليهن اسم الثقوبات Succubus.. يفسر علماء النفس هذا بالكبت الذي يجعل الرجل يتخيل أوهاما شبقية، لكن هذا المعتقد كان شائعا في العصور الوسطى.. هل تعرف اسم ملكة الثقوبات؟"

هز رأسه في غباء فأردف الرجل:

".اسمها (ناهيا Nahema)!.. هل تذكرك الاسم بشيء؟"

وضحك ضحكة قلقة ذات معنى (أو لعلها بلا معنى)..

الوجدان الجمعي للشعوب واحد وهو ما يشير إلى تقاربها وتلاحمها في فجر التاريخ.. هكذا قال

الخواجة (يانج) وهكذا خطر للفتى وهو يسترجع القصة.. في مصر عندنا الجنية التي تأتي ليلا لتزوجه، وفي اوروبا هناك الثقوبة التي تأتي ليلا لتستنزف قواك..

(ناهيها).. (نحيمة).. (نعيمة).. هل هي مصادفة؟

ثم توقف. جلس في فراشه وأضاء النور.. "يا حبة عيني.

"عصفوري..". كانت تناديه بهذا الاسم.. كان أغبى من اللازم فلم يسأل نفسه السؤال الوحيد المنطقي: لماذا لم تقل (حبة حيني.. حصفوري) ما دامت عاجزة عن نطق الحاء؟.. معنى هذا أن اسمها (نحيمة) فعلا..

أطفأ النور وراح يتأمل في الظلام.. النهم المجنون إلى ارتشاف لا نهاية له.. (أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تداني؟) المراهق الأخرق الصغير وحده في الفراش ينتظر.. إنه الكبت.. خادمة؟.. أم أنهم قالوا هذا؟.. أم أنه تخيل أنهم قالوا هذا؟..

ملكة الثقوبات تأتي إليك.. إنها تقود الرجال إلى الهلاك الأبدي.. أنت تذبل يا صديقي.. تذبل.. ابنة ملك الجان قررت أن تتسلى عليه.. إنه الكبت.. العطر الذي يبطنك من الداخل ويطرده ضباب لندن.... اليد الحانية التي قالت لك (تاتا تاتا) واقتادتك لتعبر عتبات المراهقة... ماذا يهم؟

إنها الثالثة.. مقبض الباب يدور وينفتح.. السلويت المميز يظهر على باب الغرفة..

أغمض عينيه وانتظر القبلة الدافئة على جفنيه..

(تمت)

حقيقة ما حدث

أنا أعرف حقيقة ما حدث..

المعتاد في هذه الأمور أن تضيق الحقيقة بين عدة أطراف، وكل طرف يؤمن أنه يحتكرها.. لكنني أرجوكم أن تعرف شيئاً واحداً: هناك حقيقة أنا من يملكها..

صحيح أن هناك نقاطاً بالغة الغموض في القصة، لكن هذا لن يدفعك لتركي وسماع الأطراف الأخرى.

☆ ☆ ☆

1- الضابط

أنا أعرف حقيقة ما حدث..

المعتاد في هذه الأمور أن تضيع الحقيقة بين عدة أطراف، و كل طرف يؤمن أنه يحتكرها.. لكني أرجو أن تعرف شيئاً واحداً هناك حقيقة وأنا من يملكها.. صحيح أن هناك نقاطاً بالغة الغموض في القصة، لكن هذا لن يدفعك لتري وساع الأطراف الأخرى. دعك من أنني أمثل القانون وسلطته ومن الطبيعي أن تصدقني أنا ولا تمنح أذنك هؤلاء المخابيل..

عندما اتصل بي الجيران، كان علي أن أسرع..

أنا (علاء السخاوي).. ملازم حديث التخرج صغير السن قليل التجارب، ومن يعرفونني يقولون إنني مندفع.. ثم يضحك رئيسي الضابط المحنك حتى تهتز بطنه الكبيرة ويسعل، ويقول:

"كلنا نبدأ بهذه الطريقة.. كلنا نتحمس أكثر من اللازم في البداية، ثم نتعلم كيف نهدأ.. لعلها السينما.. ربما"

ربما كان الأمر كذلك.. على كل حال آمن الجميع أنني سأرتكب غلطة قاتلة ويضيع مستقبلتي..

عندما أطلقت الرصاص على الرجل كنت أرى أنني أقوم بواجبي.. وكنت أعرف أنني لو لم أفعل سيمزقني تمزيقا.. من يدري؟.. ربما كنت مخطئاً..

ما أعرفه يقينا هو أن الجيران اتصلوا بي..

تكلّموا عن صراخ المرأة وربما صراخ طفل، وقد هرعت إلى العنوان المذكور في سيارة الدورية. كان العنوان يقع في منطقة منعزلة من المدن الجديدة. لن أذكر الاسم حتى لا أسبب حرجاً لأحد. إنها تلك المدن الجالية الفاشلة تماماً.. حيث تجد الشوارع مقفرة تجوبها كلاب ضالة، ويتكلم الناس عن (السلعوة) ولا يجرؤ طفل على النزول للشارع بعد الساعة مساءً..

الجيران قالوا لي إن الصوت يأتي من الطابق السفلي.. هناك شقة موصدة.. دققت الباب عدة مرات مع رجلي الشرطة اللذين كانا معي.. لم يرد أحد..

لكني سمعت صوتاً مكتوماً...

هكذا قررت أن أفعل كما يفعل رجال الشرطة في السينما..

اندفعت بكتفي لأهشم الباب وساعدني الشرطيان طبعاً..

كانت الرائحة شنيعة بالداخل.. أعمتنا للحظات حتى لم ندرك أين نحن، ثم بدأنا نفهم أننا في شقة واسعة جدرانها بلا طلاء.. لا يوجد بلاط أو سيراميك.. باختصار هي شقة في مرحلة ما قبل التشطيب...

الصوت كان قادماً من وراء ذلك الباب في طرف الصالة وكان مغلقاً..

نظرت للرجلين وبللت شفتي السفلى بلساني.. قلبي يتوائب كالطبل بين الضلوع. اتجهت إلى

الباب الموصل وعرفت بالفطرة أن عليّ ان اقتحمه مباشرة ولا أنتظر أن يفتحه أحد..

ركلت الباب بقوة.. هنا انفتح فجأة..

وأدركت أن هذا قبو.. درجات تقود لمكان متسع له سقف خفيض.. الجدران من الأسمنت والإضاءة كئيبة واهنة..

هناك فراش خال ليس عليه أحد وليست فوقه حشية..

ثم استطعت أن أرى أفضل فرأيت المرأة التي ترتدي قميصا ممزقا..

بالواقع لم تكن ترتدي غيره.. وقد زحفت جوار الجدار وراحت تبكي بلا توقف.. وضع جنيني يوجي بصدمة عصبية قوية..

ثم رفعت رأسي فرأيت الرجل.. ومن حسن الحظ أني فعلت ذلك هنا والآن..

كان يركض نحوي وهو يحمل مثقابا كبيرا.. مثقابا يتصل بسلك كهربى طويل.. المثقاب يدور.. وورورورورور! وورورورورور!

الرجل شعره ثائر ولا توجد شعرة واحدة جوار الأخرى..

قميصه ممزق دأ..

له هاتان العينان الشفافتان متسعنا الحدقتين اللتان تراهما لدى المجانين.. حافي القدمين... وأدركت أن ساقه جريحة وملتهبة بشكل شنيع، لكنه كان يستعملها بكفاءة على كل حال..،

ورورورور! وورورورورور!!

هرع رجل من رجالي يبحث عن القابس لينزع الكهرباء عن هذا السلاح القاتل، لكن الوقت لم يكن كافيا.. إن المثقاب يحلق في الهواء نحوي.. يريد أن يمزقني.. سوف يخترق لحمي ويصل إلى نخاع العظام، وسوف يستغرقون ساعة وهم يحاولون انتزاعه..

لم يكن الوقت كافيا لأي شيء سوى أن أنزع المسدس من جرابه.. أسدده نحو الرجل.. أطلق الرصاص..

باو! لقد طار للخلف مترين واصطدم بالجدار خلفه، ثم سقط على الأرض..

عندما دقت النظر فيه أدركت أن هناك ثقباً مربعاً في صدره..

سوف يموت على الأرجح..

كان هناك على الأرض ينظر لي في ثبات، لكنه كان يرتجف كورقة.

كان يدرك أن الحياة تتسرب منه بلا توقف...

كان يردد بلا توقف:

"مصطفى مات.. مصطفى مات؟"

من هو مصطفى؟.. على ما أذكر قال الجيران إن اسمه عباس..

وعلى كل حال لا أعتقد أنه يتكلم بصيغة الشخص الثالث كما يفعل طرزان في القصص (طرزان يشعر ببرد.. طرزان غاضب)..

بحثت من حولي.. لا يوجد خطر داهم آخر...

لكني ألقيت نظرة على الجدار فرأيت بقعا من دم.. هذا الدم لا يمتُّ بصلة للرجل.. يخيل لي أن هناك أجزاء من نسيج بشري ملتصقة بالبقع، وربما كنت واهما...

ثم رأيت الجثة.. وعرفت مصدر الدم.. بل وعرفت مصدر النسيج...

جثة طفل في الخامسة أو السادسة من العمر. هناك كانت ملقاة جوار الجدار بينه وبين الفراش.. الوضع الذي كانت عليه جعل رؤيتها عسيرة من دون تفتيش مدقق..

لا أريد وصف المشهد البشع، لكن يكفي أن أقول لك إن طريقة القتل كانت بدائية جدا.. على الأرجح تم الإمساك بقدمي الصبي وتطويحه ليضرب رأسه الجدار.. طريقة شنيعة، ويجب أن أذكرك أن مبتكرها كان موشي ديان في مذبحه دير ياسين..

حول الجثة كان هناك الكثير من الريش.. ريش أسود كبير يذكرك بريش النسور.. هل كان هناك نسر في هذه الغرفة، أم أنهم كانوا يطهون بطة سوداء؟.. لماذا لا يوجد موقد في القبو؟

ابتلعت ريقى وقلت لرجالي:

"الإسعاف قبل كل شيء.."

وزحفت حتى بلغت المرأة... كانت تداري وجهها بقوة في ثنية ذراعها، قد حاولت أن ألقى عليه نظرة فلم أر إلا أنها متوسطة الجمال، في الثلاثين من العمر... إن الخوف يشوه وجه الإنسان بقسوة، فلربما في ظروف أخرى وجدتها فاتنة..

سألتها عما جرى فلم ترد..

"من الذي قتل الطفل؟"

ولم أسأل بالطبع إن كان هذا ابنها أم لا. الإجابة واضحة..

لم ترد.. ظلت ترتجف...

هذا الشيء الذي تطبق عليه يدها الأخرى.. ما هو؟..

مددت يدي وبشيء من غلظة نجحت في أن أفتح قبضتها.. تخلت يدها عن التمثال الصغير المغطى بالدم.. تمثال يمثل أنوبيس إله التحنيط عند الفراعنة، وهو أقرب إلى رجل له رأس ابن آوى..

تمثال في حجم قبضة يدك.. القرى المحيطة بالأقصر تنتج هذه القطع بالجملة..

سمعت صوت سيارة الإسعاف وصوت المحفة..

نهضت وألقيت نظرة، فقال أحد المسعفين وهو يغطي جسد الرجل:

"ما زال حيا... يبدو أن الرصاصة لم تمس عضوا حيويا..."

"الحمد لله .."

المشكلة هي أنني أريد لساناً واحداً.. أريد شخصاً واحداً يمكنه أن يتكلم ويشرح لي ما يدور هنا..
عندما دنوت من الفراش رأيت مشهداً عجباً..

هناك حبال غليظة ممزقة.. حبال مربوطة في أركان الفراش الأربعة.. القصة تتضح إذن...

الزوج السادي المريض نفسياً يستمتع بتقييد زوجته للفراش.. ربما لمجرد التعذيب وربما لأن
هذا يجلب له لذة جنسية. عرفت و حشاً قيّد عروسه الجديدة للجدار وظل يجلدّها ليلاً نهاراً
لمدة ثلاثة أيام لمجرد أن هذا يثير شهوته، حتى اكتشف أنها أسلمت الروح...

الزوج قيّد زوجته في هذا القبو على هذا الفراش..

لا شك في هذا.. على الأرجح ظلت الزوجة في هذا الوضع أيام، ثم جاء ابنها الصغير وراح يعوي
مذعوراً.. لم يتحمل الرجل كل هذا الصراخ.. سوف يجلب الجيران كما أنه يحطم الأعصاب..

في النهاية أمسك الرجل بالصبي وهشم رأسه في الجدار..

ترى هل فكّ أصفاد الزوجة قبل هذا أم بعد هذا؟.. لا اعرف..

لكن الزوجة على كل حال قد توحشت عندما رأت ما حلّ بابنها.. أمسكت بهذا التمثال الصغير
وهوت به على رأس معذبها لكنه لم يفقد الوعي.. هذه هي اللحظة التي جئت فيها..

اللحظة التي جاء فيها بالمشقاب لينهي مأساتها.. لكن رصاصتي انا هي التي أنهت مأساته..

والريش الأسود؟.. على الأرجح كان يمزق طيوراً حية أمامها ليفزعها.. هذا هو الاحتمال الوحيد
عندي..

إنني فخور بما قمت به.. لقد جئت في الوقت المناسب وتصرفت بشكل ممتاز، وعندي شهود
على إنني لم اطلق الرصاص جزافاً. لكن ينقص الأمر أن أسمع اعتراف هذا الرجل الوغد وشهادة
الزوجة..

تقرير الطب الشرعي سوف يغير الكثير كذلك..

سوف أنتظر على أحزّ من الجمر.. أريد أن أعرف ما دار في القبو فعلاً في الأيام والساعات الأخيرة
الماضية.. ربما لو جئت أنت هنا غداً لسمعت ما سيقوله الزوج..

2- الزوج

أنا أعرف حقيقة ما حدث..

دعكم من كل هذا السخف الذي سمعتموه.. أنتم تعرفون أن رجال الشرطة يلفقون كل شيء، ويكتبون الاعترافات كأنهم يكتبون قصائد حب، ثم يرغمونك على التوقيع فإن لم تَوَقّع علقوا زوجتك عارية من مروحة السقف وهددوك باغتصابها. الكل يوقع في النهاية وتضيع الحقائق.. لكني أنا سوف أقدم لك الحقيقة.

انس ما سمعته أمس.. واستمع إلي أنا..

أنا عباس الزيني.. موظف صغير في إدارة الكهرباء وأزيد من دخلي عن طريق ممارسة النجارة في البيت.. لدي طاقم من المناشير والمبارد ولدي مثقاب وما يلزم من معدات.. صحيح أن هذا لم يجعلني ثريا لكنه على الأقل يترك بعض المال في جيبي دائما..

أنا أكره ذلك الشيء الذي يعيش هنا وأخافه كثيرا.. مصطفى كذلك يكرهه..

نحن نعيش في بقعة معزولة، ويمكن القول إن هذه المجتمعات الجديدة فاشلة تماما.. من السهل أن تقتل إنسانا وتمزقه وتشويهه وتأكله دون أن يشعر بك أحد، وعند الثامنة مساءً بصير الشارع مخاطرة حقيقية..

دائما هناك مساجين فروا من سجنهم.. دائما هناك سلعة.. دائما هناك أسطورة مخيفة ما..

عندما تعيش في مكان قفر كهذا فأنت تأمل أن تعيش مع شخص تحبه، لكنني في الواقع لا أملك أي حب نحو زوجتي تلك العجفاء الجاهلة السقيمة شديدة الغباء.. وجهها الكالح يجلب لي الغم... لقد انتهى حبي حتى أنني لا أفهم كيف أصابني الخبال منذ خمسة أعوام فنمت معها وظفرنا بهذا الطفل..

مصطفى صديقي.. مصطفى ينصحنني بكل شيء.. صحيح أنه أعور وصحيح أن نصف وجهه محترق.. وصحيح أنه لا يأتي في كل وقت.. وصحيح أن أحدا لا يراه معي لسبب لا أفهمه، لكنني أثق بمصطفى فعلا.. إنه أخ لم تلده أمي..

قرص آخر.. لا تلمني من فضلك.. سيجارة محشوة أخرى.. لا تنظر لي بهذا الشكل. المخدرات مؤذية لكنها تجعل الحياة محتملة..

في صباى كسرت ساقى وأعطوني دواء لأنام.. اكتشفت أنه مهما كان الألم قاسيا فالنوم ينهي كل شيء.. يختصر الألم.. الموت كذلك يحل مشاكل كثيرة، لكن لا عودة منه وهذا يخيفني.

أنا أتعاطى الكثير من المخدرات.. أعترف بهذا.. لكن تزوج زوجتي، وعش مثلي في هذا المكان الكئيب، وجرب فقري ثم أعطني درسا أخلاقيا..

لا أعرف متى بدأت اشك في الصبي.. ابني...

بالنسبة لمعظم الناس يبدو صبيا عاديا.. لا شيء يخيف فيه.. لا شيء يجعلك تستيقظ مفعما

بالرعب غارقا في العرق..

لكني أكثر حساسية من سواي.. هناك أو تلك النظرة الوقحة في العينين.. ينظر لك في ثبات طويلا ولا يرمش بعينه مما يدفعك إلى الجنون.. يوترك.. يربكك..

ثم يفتح فمه في شبه ضحكة وتتدلى شفته السفلى.. هذا يحطم أعصابي نهائيا..

مصطفى كان يقول وقتها:

"يا ابن ال....."

أحيانا كنت اصحو من النوم وهو راقد جوار أمه، أتكلم عن ابني وليس مصطفى طبقا.. فأرى أن عينيه مفتوحتان في جشع، وأنه يرمقني في ثبات! هذا الشيء لا ينام...

أحيانا عندما يكون وحده أسمعه يتكلم بصوت كصوت الرجال بالضبط... هناك ستة أشخاص في داخله... ربما سبعة..

لم أستطع قط أن أقنعها بذلك.. كل الأمهات لا يرين أي خلل في اطفالهن، وامرأتي كانت عديمة الخيال ضيقة الأفق..

من أين وكيف أصابه المسّ؟

سألت في ذلك أحد المشعوذين، فقال لي إن عملا شيطانياً مدفوناً في موضع ما.. وهذا العمل قد سهّل مسّ الشياطين للصبي..

دفعت للمشعوذ مبلغا من المال، فجاء وراح يفتش في البيت ومن حوله، ثم نصحني بأن ابحث عن العمل مدفونا قرب شجرة متحللة على أطراف المدينة.

ذهبت هناك وحفرت بعض الوقت، فكان ما خرج لي تمثالا من حجر اسود يمثل رجلا له رأس كلب.. كلب طويل الخطم منتصب الأذنين.. ربما هو ذئب..

أعتقد أن هذا التمثال فرعوني.. لقد رأيت شيئا كهذا من قبل..

قال المشعوذ إن هذا التمثال هو العمل ذاته، وطلب مني أن أحتفظ به.. مع وعد بأن الصبي سوف ينجو من المسّ...

قال لي (مصطفى) إن عليّ أن أدمّر التمثال نفسه.. لكن أني لي أن أدمره وهو من حجر ثقيل؟، ولو كان هذا مطلوبا لطلبه المشعوذ مني..

هكذا أخفيت التمثال في القبو وانتظرت أن تنفجر الغمة.

الصبي كان مخيفا فأصبح مريعا..

جاءت اللحظة الكبرى عندما كنت أمشي في الدار في الظلام، وهنا شعرت بتلك الأسنان تنقض على ساقي.. أسنان حادة قاسية..

الوغد زحف على الأرض وانقض علي.. كان ينشب أنيابه في ساقي كأنه ثعبان، وقد رحت أركل وأحاول التملص لكنه كان متمسكا بقوة.. هكذا اضطرت إلى أن أضرب ساقي بقوة في الجدار

فسقط هذا أرضاً..

ليلتها والليالي التالية لم أنم...

كانت حرارتي ترتفع.. اعرق بغزارة... لعابي يسيل من فمي... أتبول كثيراً جداً... حملني جارنا عبد الجواد على دراجته إلى المستشفى ولم أحك شيئاً عن عضه الصبي لي، لكنهم لم يصنعوا لي شيئاً.. أعطوني مضاداً حيوياً وحقنة تيتانوس وطلبوا مني الانصراف..

لم أنم.. التوتر يتزايد.. هناك وحش تحت سقف داري وامه لا تعترف بذلك.. ومن الجلي أن عضته سممت بدني تماماً...

وفي يوم غائم كئيب قال لي مصطفى إن عليّ أن أفعل شيئاً..

"وماذا أفعل يا أخي؟.. لن تصدق امه حرفاً.."

"لم أطلب أن تؤذيه.. أريدك فقط أن تمنعه من إيذائنا.."

"وكيف؟"

"أنت تعرف أنه سيتحول لشيطان ويخلق ليملاً الأرض جوراً.. يجب أن تمنعه"

"وكيف؟"

سأقيده للفراش بالحبال.. سأمنع عنه الطعام...

وهكذا انتهزت فرصة ذهاب زوجتي للسوق وجررت الوغد الصغير إلى القبو حيث أحكمت وثاقه إلى فراش بلا حشية نقلته هناك..

راح يعوي كالذئب لكني لم أرفق به.. لا أرفق بالشياطين...

رحت ألوح بالتمثال أمام وجهه لعله يفيق.. لكنه ظل ينظر لي بتلك النظرة الوقحة..

ثم أغمضت عيني وفتحتها لأجد أنه تحرر!

نعم.. تحرر.. الحبال ممزقة وهو يقف هناك في ركن المكان.. لذا

استطال وصار مريعاً كالغيلان.. كل ما فكرت فيه صحيح.. كل ما خشيته يتحقق..

مصطفى قال لي إن عليّ أن أقتله الآن قبل أن يهجم.. لكني لا أجرؤ..

هنا فرد الصبي جناحيه. كانا مغطيين بالريش الأسود كأنه غراب عملاق. لقد اكتمل تحوله وتهيأ ليخلق كما تَوَقَّع مصطفى..

يجب أن استجمع شجاعتي.. نجاة العالم تتوقف على تصرفي في اللحظات القادمة..

جثوت على ركبتي واعتصرت ساقيه..

حاول أن يركلني.. حاول أن يغرس مخالبه في جسدي، لكنني رفعتة بقوة لم أحسبها عندي وضربت رأسه في الجدار بقوة..

مرة.. مرتين.. ثلاث مرات..

الدم ينفجر..

الریش یتناثر فی کل صوب من حولی..

برافو يا عباس.. انت شجاع يا عباس.. أنت تجيد القتال يا عباس..

مصطفى يشجعني بلا توقف..

لكن النساء بلهاوات ولا يفهمن هذه الأمور.. لقد انقضّت عليّ صارخة تعوي كأنها تحترق في الجحيم:

"ماذا فعلت أيها المجنون؟؟؟..

تهوي على رأس مصطفى بشيء ثقيل لا أعرف ما هو.. التمثال...

لقد وجدته؟

الريش يطير في كل مكان.. يضايقني... يملأ منخري..

أضرّيها فترتطم بالجدار وتبكي! لم أرد أن أؤذيها لكنها تعطل عملي فعلا...

عرفت أن الشيطان قادم الآن لينتقم مني..

لقد دمرت خطته للسيطرة على العالم..

إنه يلبس ثياب ضابط شرطة.. ومعه خادمه يصيحان بي..

أين المثقاب..؟.. أقسم أنني سوف أثقب هذا الرأس حالا لتخرج منه الحمم والشرور..

وررررررررر! وررررررررر!

سوف أقتل الشيطان....

لكن الشيطان كان أسرع مني.. إنني أطيّر لأرتطم بالجدار..

هذا الشيء الساخن في صدري؟ لماذا يتفجر الدم منه؟

رباه!.. أنا أموت!.. الشيطان قد ثقب قلبي....!

لكني سوف أصمد.. سوف أعود للحياة، ولو مِتَ فلسوف يبقى مصطفى ليكمل ما بدأته أنا....

هذه هي الحقيقة كلها... وكما قلت لك لا تصدق أحدا غيري..

ربما كانت شهادة زوجتي مفيدة لك كذلك...

لو أنك جئت هنا غدا لسمعت مثلي القصة من شفتي زوجتي..

★ ★ ★

3- الزوجة

أنا أعرف حقيقة ما حدث..

كل ما فات كلام فارغ... الحقيقة هنا في صدري..

لا تصغ لشهادة ضابط فهم يكذبون بلا توقف.. لا تصغ لشهادة زوج فهم يهدون بلا توقف.

أنا راوية عبد السميع... 29 سنة.. لم أستكمل معهد الخدمة العامة قط..

ربما لم أكن متعلمة جدا أو مثقفة كما تفترضون من راوية قصة، لكن دعوني أؤكد لكم أنني أملك الغريزة.. الغريزة التي تملكها أي قطة وأي أنثى أرنب.. وبالتالي أعرف كيف أحمي اسرتي جيدا.. هذه أشياء لا يتعلمونها في الجامعة..

زوجي متوسط التعليم مثلي، لكنه يزيد من دخلنا عن طريق بعض أعمال النجارة الخفيفة، وقد ظفرنا بطفل جميل. أقصد كان جميلا...

بدأ كل شيء عندما كنت أنتظر عودة زوجي من عمله، وكنت قد طهوت بعض المحشو وغطيت الحلة وأعددت الخبز والمخللات، عندما سمعت صوت عواء ونباح..

خرجت لألقي نظرة على الشارع، فوجدت زوجي يتصارع صراعا عنيفا مع كلب..

كان الكلب يتمسك بساقه منشبا أنيابه..

زوجي يتلوى، والكلب منفوش شعر العنق شيطاني النظرات يزوم بلا انقطاع بتلك الطريقة المخيفة التي تجيدها الكلاب..

وكان يتمسك بقوة غير عادية ولعابه يسيل أنهارا...

زوجي يحاول أن ينفذه عنه بلا جدوى...

هرعت أنا وتناولت حجرا ضخما على الرصيف وجريت نحو الكلب وهويت به على رأسه.. لا لم يمت.. تخلى عن ساق زوجي ونبح مهددا في وجهي ثم بادر بالفرار.. لقد فهم أنه لن يكسب هذه المعركة..

على الرصيف رقد زوجي يتفحص ساقه التي تحولت إلى خرقة مهلهلة..

"مسعور.. هذا واضح"

قالها وهو يمسح اللعاب الكثيف المختلط بالدم..

"المستشفى.. نادي عبد الجواد.."

جريت أنادي عبد الجواد جارنا.. وساعدنا زوجي على أن يجلس في مقعد الدراجة الخلفي بعد ما ربطنا ساقه، وانطلق عبد الجواد بالدراجة قاصدا المستشفى الحكومي

القريب... أما أنا فقد احتضنت الصغير وهرعت ألحق بهما..

عندما عاد زوجي لم يكن شيء قد تغير..

قال له الطبيب في المستشفى ألا يخشى شيئاً... ليرقب الكلب ولير إن مات في الأيام القادمة.. لا داعي لأخذ اللقاح... فقط قاموا بخياطة الجرح، وهو ما عرفت فيما بعد أنه خطأ جسيم..

عضات الحيوانات لا تخطى وإنما تغسل بالصابون والماء فقط..

لكن الأطباء يعرفون.. يعرفون أفضل من سواهم. هذا مؤكد أو هكذا ظننا..

وقد عاد زوجي مضمد الساق ليأكل المحشو والمخلل وبنام..

فقط في تلك الليلة ارتفعت حرارته كثيراً.. لكن الأمور صارت أفضل في الأيام التالية، وبالطبع لم نر الكلب ثانية..

مرت أسابيع.. ربما أربعة أو خمسة..

ثم بدأت أعراض غريبة تظهر على زوجي..

ترى من هو مصطفى ولماذا يناديه بلا توقف؟

كان ينام كثيراً جداً.. أحيانا كان ينام وهو جالس إلى منضدة الأكل... يعرق كثيراً جداً جداً. ثم صار لعبه وفيرا.. أحيانا يسيل من دون علمه على جانبي فمه.. غزير كثيف كأنه التهم مجموعة من المناديل الورقية المبتلة..

لاحظت كذلك أنه يتألم بشكل واضح كلما شرب الماء، حتى أنه كان يقرب الكوب من فمه في حذر وهو يرتجف.. ويحاول أن يمتص منه الماء امتصاصاً، ثم حصل على شفاط من محل عصائر فراح يستخدمه في الشرب ولكن الألم لم يختفِ....

بدأ يصير محموماً. وكانت هذه الحمى تظهر ليلاً.. وعندها كان يبدأ في الهلوسة ويحكي عن أشياء لا وجود لها..

ثم لاحظت أن الجرح القديم الذي سببه، ذلك الكلب يزداد سوءاً.. جربت أن أغير عليه بنفسي وسكبت، عليه الكثير من ماء الأكسجين والسافلون.. لكنه كان يتدهور..

في تلك الليلة قال لي وهو يرتجف:

"لا جدوي با راوية... الكلب كان مسعورا وقد نقل لي الداء.."

لم أفهم فعاد يقول:

"السعار.. الكلب.. أطباء المستشفى كانوا جهلة ولم يعرفوا ما يفعلون.. لقد طمأنونا بشكل زائف بينما كان يجب أن آخذ اللقاح.."

قلت له وأنا موشكة على البكاء:

"سوف نذهب للمستشفى حالا.."

"لا جدوى من هذا.. هذا الداء لا علاج له.. معنى ظهور علامات هو الموت الأكيد.. لا أريد (بهذلة).. لا أريد مصاريف إضافية"

"سنذهب للمستشفى المجاني"

"لا يوجد علاج مجاني في مصر.. هذه أكذوبة صدقناها.. لن أكسب شيئاً سوى أنني سأصير فرجة لدى الجيران والأصحاب، وأنا لا أرغب في أن تكون هذه نهايتي.."

الطفل كذلك راح يعوي كأنها أصابه مس من جنون.. يعوي..

جو الخبال المخيم على المكان انتقل له..

ثم بدأ زوجي يقنعني بخطته التالية..

سيكون على أن أربطه للفراش بالحبال.. أطعمه واسقيه لكن لا أطيع أي رغبة أخرى له، ولا أصدق حرفاً من الأكاذيب التي سيمطرنى بها..

"المريض يتحول إلى كلب مسعور ويعضّ الآخرين ويجعلهم مثله.. ويفترس اللحم النيئ"

لهذا يجب أن أكون قاسية وأن أتركه يعاني فلا أشفق عليه لحظة..

لم يكن هذا الكلام دقيقاً، بل هو أقرب إلى خرافات العامة حول داء الكلب، وهذا ما عرفته فيما بعد، لكني صدقته في حينها لأن الظروف لم تكن تسمح بغير هذا...

قيدته بحبال غليظة في الفراش بحيث صار كالمصلوب.. لدينا حبل من ليف ممتاز يصلح لهذا الغرض...

ورحت أحاول أن أطعمه وأسقيه.. أبتعد عن مجال فمه حيث يمكن أن يوجه لي عضّة نكراء شرسة.. كما رحت أحاول أن أسليه بأن أجلس جواره واحكي عن أشياء.. عن صديقاتي.. عن أسرتي.. عن السوق وما تغير من أسعار.. عن تمثيلات التلفزيون... وكنت كذلك أرحمه فأذب عن وجهه الذباب أو أجفف عرقه أو أحكّ الموضع الذي يريد أن يحكه في جسده..

كان أصدقاؤه يسألون عنه، ورفاق العمل يأتون ليعرفوا أين هو، فكنت أقول لهم إنه في قريته بالمنوفية يحاول أن يحلّ مشاكل عويصة تتعلق بالقيراطين اللذين يملكها..

كنت على وشك الانهيار.. كان الضغط العصبي يفوق تحملي..

ولولا أنه أرغمني على ألا أتكلم أو اطلب عون أحد لوقفت في الشارع وشققت ثيابي..

لا اتحمل أكثر من هذا يا رب.

لكن الخلاص كان هو وفاته.. وأنا لا أتعجل اللحظة التي تجعلني أرملة وتجعل ابني يتيماً.. سوف أصبر.. سأصبر..

لقد مر أسبوع.. أسبوع كامل على هذا الكابوس.. أطعمه وأسقيه وأرعاه لكنه لا يظهر أي علامة على أنه سيتحسن...أو سيموت..

متى ينتهي هذا؟

يجب أن أقول هنا إنني منعت ابني من النزول للقبو منعاً تاماً، كما إنني قلت له إن أباه مسافر..

لكن الوضع لم يدم كما كان..

لقد ذهبت للسوق لأبتاع بعض لوازم الدار.. قلبي مثقل والدرب مظلم، لكن يجب أن أقوم بها يجب أن أقوم به.. لابد من قيادة سفينة الأسرة وسط هذه الصعاب.

لما عدت للبيت توجّهت إلى القبو مباشرة فوجدت زوجي راقدا على الفراش من دون حبال!.. الحبال ممزقة كلها وهو حرّ تماما.. لكنه كان نائماً و بدا أنه لا يرغب في أن يفعل ما هو أكثر... لقد تحرر ثم عاد للنوم..

إذن الحبال لا تحميني ولا تبقى في مكان واحد..

هناك شيء مرعب.. هل تراه؟

لديّ بطة سوداء.. أربيها في عشة صغيرة اصطنعتها لها في الشرفة، ومعها بعض الدجاج. من أين جاء هذا الريش الأسود إذن؟

الريش الذي يتناثر في كل مكان ويغطي الأرضية..

الجواب واضح تماما.. لقد مزق الحبال ثم انقض على البطة ومزقها.. لحم نيء.. هو قالها من قبل، لكنه اليوم ينفذها..

بقع دم على الجدران... ما مصدرها؟..

ربما كان السبب ذلك القربان الحي الذي ضحى به منذ قليل..

كان على إذن أن أعيد تقيد زوجي للفراش. لقد كان محقا عندما تحدث عن خطورة موقفه وطلب مني هذا الطلب. إنه خطر على نفسه وعلى الآخرين ويجب أن يبقى في مكان واحد إلى أن يموت..

جلبت المزيد من الحبال، ووقفت جواره وبدأت أعيد ربط معصمه الى قائمة الفراش الأولى.. للأسف يبدو أنه لم يكن نائماً جداً...

تلقيت ركلة هائلة في معدتي.. ركلة أطاحت بي إلى الجدار.. وما ان سقطت على الأرض استطعت أن أرى ساقين صغيرتين..

ارى معصماً صغيراً.. أرى رأساً ملوثاً بالدم.. كيف لم أر هذا في اول مرة؟

يبدو أن زوجي لم يكتف بتمزيق البطة..

صرخت وأنا أراه يهبط من على الفراش.. يتقدم نحوي واللعب يسيل من بين شذقيه. نظرة مجنونة مفترسة لم أرها من قبل إلا في عيون الكلاب المسعورة..

كانت نهايتي دانية.. لذا أغمضت عيني وعرفت ما سيحدث..

لكن...

من أين جاء هذا التمثال الفرعوني الصغير؟.. كان بجواري على الأرض.. صغير لكن له ثقلاً.. وأدركت أن بوسعي أن أضرب به.. سوف يؤخر نهايتي بضع ثوان.. هكذا أطبقت قبضتي عليه وصممت على أن أموت بثمرن باهظ...

هنا سمعت صوت اشخاص يتكلمون.. كان هناك ضابطًا ما ورجلا شرطة... زوجي يحمل المثقاب وينقض به على الرجال..

كان يعرف أنه سوف يستعمله يوما ويخترق به جسد لص أو جني يعتدي على دارنا، وها هو ذا يحقق حلمه اليوم.. الآن..

هناك طلبة رصاص.. جسد زوجي يطير في الهواء ليرتطم بالجدار..

لقد مات..

اللحظة التي كان يجب أن تأتي منذ أسابيع. لقد مات أخيرا حاملا معه ذلك الداء الوبيل.. بعد ما سلبني أثمن شيء أملكه في هذا العالم.. ابني..

لا لم يمت زوجي..

عرفت أنه لم يمت بأثر الطلقة التي مزقت صدره.. إنه سيعيش..

صدقوني... هذه هي حقيقة ما حدث.. وكما قلت لكم: لا تصغوا لشهادة ضابط فهم يكذبون بلا توقف.. لا تصغوا لشهادة زوج فهم يهدون بلا توقف.

(تمت)



لينك الانضمام الى الجروب – Group Link

Link – لينك القناة

الفهرس..

هذه قصص متفرقة..

مقدمة..

الرواية

الشيء في الصندوق

رسائل المحبة

المريض التالي

المدية الفضية

أنا أتذكر

1- سديم

2 - شيرين

3- جلال

4- شيرين

5- سديم

أكواريل

الثقوبة

حقيقة ما حدث

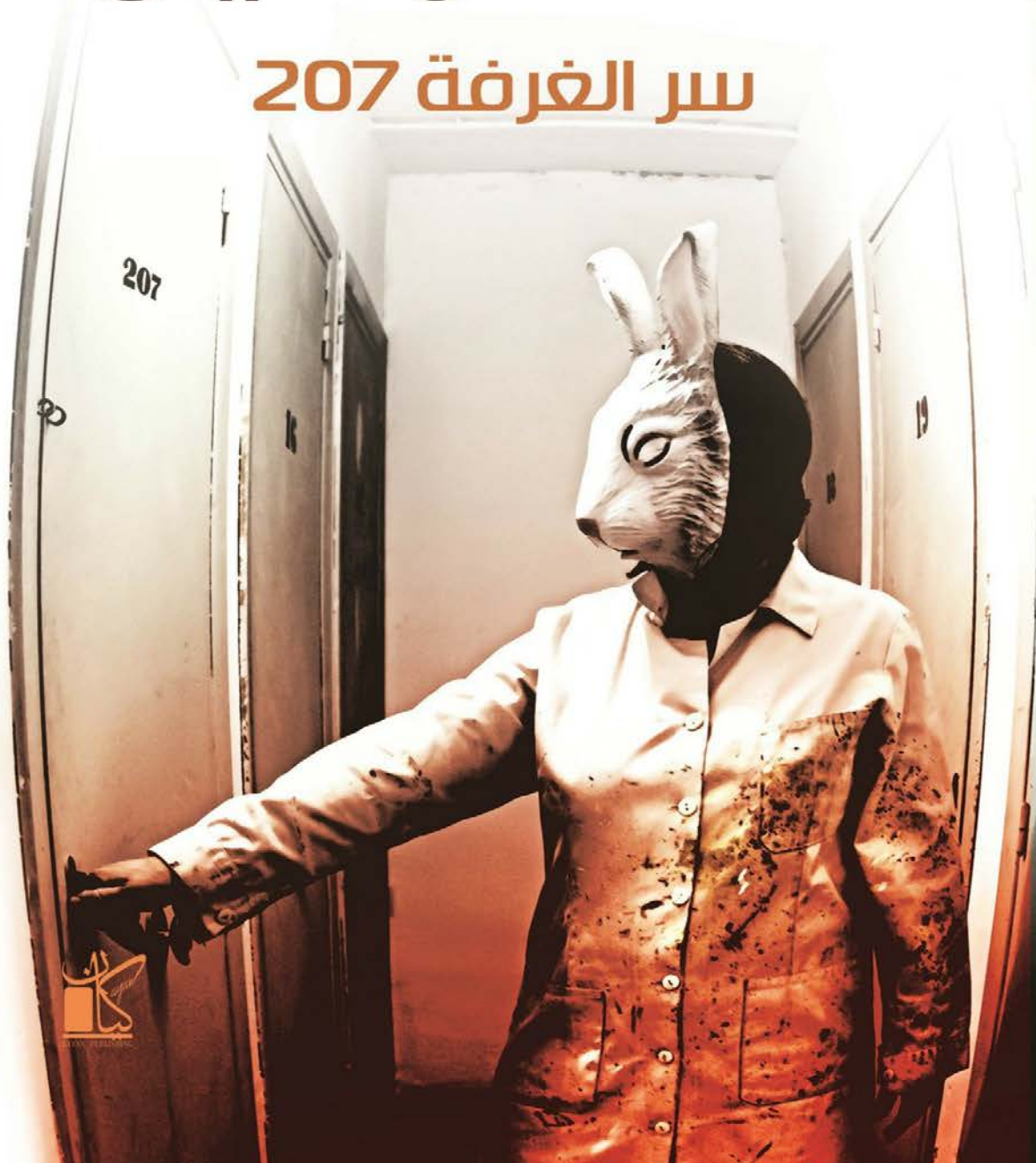
1- الضابط

2- الزوج

3- الزوجة

د. أحمد خالد توفيق

سر الغرفة 207



الغرفة 207

الغرفة 207

تأليف :
د.أحمد خالد توفيق

تصميم الغلاف:
أحمد مراد

رقم الإيداع: 2017/9069
الترقيم الدولي: 978-977-820-027-0

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع
22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم
هاتف أرضي: 0235688678 - 0235611772
هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290
بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com
الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو
إلكترونية أو بآلة وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه
للمساءلة القانونية.

الغرفة ٢٠٧

د.أحمد خالد توفيق

الفهرس

[مقدمة](#)

[فتاة وحدة](#)

[لعب عبال](#)

[فضول](#)

[زوجان](#)

[تلفزيون الواقع](#)

[أعدها لي](#)

[النمط رقم \(4\)](#)

[اللقاء](#)

[تحرية ليلية](#)

[شيء ما](#)

[قلادة وعطر وساعة حائط](#)

[ما رأيك يا عم جمال؟](#)

مقدمة

لك أن تصدق هذا أو لا تصدقه، لكني لم أقرأ قصة ستيفن كنج (1408) إلا بعد ما توقفت عن كتابة حلقات الغرفة 207 ونشرها، وقد قرأت 1408 مؤخرًا مترجمة ترجمة ممتازة قام بها الصديق (هشام فهمي) وصدرت عن دار ليلي. بالطبع لا يوجد تشابه بين العاملين إلا في كونهما يتكلمان عن غرفة فندق غريبة الأطوار، لكني أحببت عبارة وردت علي لسان ستيفن كنج في مقدمة كتابه يقول فيها: «بالإضافة إلى قصص دفن الأحياء، على كل كاتب رعب أن يقدم قصة واحدة على الأقل عن غرف الفنادق المسكونة، لأن غرف الفنادق أماكن مخيفة بطبيعتها. تخيل كم من الناس نام في الفراش قبلك؟ كم منهم كان مريضًا؟ كم منهم كان يفقد عقله؟ كم منهم كان يفكر في قراءة بضع آيات أخيرة من الكتاب المقدس الموضوع في درج الكومود بجوار الفراش قبل أن يشنق نفسه في خزانة الملابس بجوار التليفزيون؟».

هذه هي الفكرة التي تُوِرَقني في غرف الفنادق عامة. لقد شهدت هذه الغرفة ألف قصة وألف حياة، وأحسب أن كل من مر بها ترك جزءًا من هالته النفسية في هذه الغرفة. لا شك أن الوسادة تحمل رائحة أكثر من قاتل وأكثر من حسناء غريبة الأطوار وأكثر من طفل مختل شرير.

هكذا بدأت كتابة الغرفة 207 وقد جربت فيها تيمات عديدة، فلا أكتمك سرًا أن البحث عن تيمة غير مطروقة في كل مرة كان عذابًا أليمًا، حتى سألت نفسي إن لم يكن من الأفضل أن تكون رواية ذات تيمة وفكرة واحدة لأريح وأستريح؟. لكن التحدي راق لي، وعرفت أنني نجحت إلى حد ما عندما بدأ أعنف نقادي وأقساهم - أنا - يرتبط بالفندق وجمال المحاسب العجوز وعم مينا ومصطفى وكل المضيفات اللعوبات الرشيقات ورجال الأمن الخشنين طيبي القلب. حتى إنني صرت أقمص شخصية جمال أثناء الكتابة وأسأل نفسي: «ترى من هو نزيل اليوم؟»

قلت إنني قرأت 1408 للمرة الأولى بعد ما كتبت هذه القصص، ولا تفسير لذلك عندي إلا توارد الخواطر. هناك مثال أغرب هو إنني فوجئت بعد نشر ثلاث حلقات من هذه القصص بفيلم مصري في مرحلة ما بعد الانتاج اسمه (الغرفة 707)!!.. طبعًا لا يمكنك اتهامني بسرقة العنوان لأنني نشرت قصصي أولاً، ولا يمكن اتهام الفيلم المصري فلم يكن هناك وقت كاف لكتابة وتصوير وإنتاج فيلم في هذه الفترة القصيرة التي تلت بدء نشر قصصي، وقصة الفيلم على كل حال لا تمت بصلة لقصتنا هذه. لا شك أن هناك لغزًا يحيط بالغرفة 207 فعلاً!

والآن قف معي على الكاونتر.. افتح الدفتر.. ارفع عينيك إلى النزيل
الأول الذي يجتاز مدخل الفندق الآن.. ترى من هو؟.. ما حكايته؟..
ماذا تخبئ له تلك الغرفة؟
فلنر.....

فتاة وحيدة

هذه الغرفة ليست على ما يرام.. دعنيؤكد لك هذا برغم أنه لا قيمة له.. لقد تكلمنا كثيرًا عنها فيما سبق، وقلنا إنها حتمًا تمثل ذلك المعبر بين عالمنا وعالم آخر له مقاييس أخرى... كان هناك مصطفى عامل المصعد الذي قال إنها مسكونة وأنه لابد أن هناك من مات فيها ميتة شنيعة في زمن ما.. قلت له إن هذا مستحيل لأنني في الفندق منذ تم إنشاؤه.. لقد حدثت أول حادثة بشعة بلا تفسير في تلك الغرفة عام 1961، وهي كفيلة بحق أن تجلب الشؤم على ألف غرفة، لكن ما الذي سبب هذه الحادثة؟.. لابد أن شيئًا كان موجودًا قبلها..

عم مينا المحاسب العجوز كان يرى أن تلك الغرفة هي أحد أبواب الجحيم، وأنه يكفي أن يبيت فيها أحد حتى ينفتح ذلك الباب الموارب لتدخل منه الأرواح.. أنا كنت أرى أن الموضوع يتعلق بالجان أو الشياطين.. على كل حال لم نصل لشيء... كل ما استطعنا عمله هو أن تجنبنا تلك الغرفة كأنها باب الجحيم فعلاً... هناك عدد من الآيات القرآنية في الردهة وهناك صورة العذراء والصليب في الرواق المجاور كما علقهما عم مينا منذ ثلاثين عامًا.. يوم الجمعة نحرق البخور في الردهة.. لا نوصي بهذه الغرفة للنزلاء..

لكن المشكلة هي أننا تكلمنا أكثر من اللازم، وقد استدعانا الخواجة مايكل المدير إلى مكتبه، وكان يجيد العربية كأهلها كما تعلم، فوجه لنا الكثير من اللوم وعبارات السباب التي تشي بأنه درس العربية في أحياء بولاق.. كان له وجه بدين مترهل عملاق.. عملاق لدرجة لا تقدر على استيعابها لأول مرة.. ومما يضاعف التأثير أن جسده كان ضئيلاً، لذا كنت تشعر بأنه رأس مقطوع موضوع على المكتب.. تأثير هذا لم يكن محبباً على الإطلاق.. لقد ظل يرمقنا في صمت منذر بالويل.. ثم قال لنا في حزم وعينه الزرقاوان تشتعلان غضبًا:

- «هذا الكلام الفارغ يسيئ لسمعة الفندق.. لو سمعت أن أحدكم تكلم أو وجه تلميحًا للنزلاء فلسوف يكون هذا آخر عهده بالعمل هنا..»

وهكذا ابتلعنا ألسنتنا.. اعتبرناه نوعًا من القسم الذي كان علينا أن نبر به.. عندما يكون ثمن الحنث بقسمك هو الطرد فأنت تبر به حرفيًا..

لقد تغير كل شيء منذ ذلك الحين..

رحل كثيرون.. حتى الخواجة مايكل عاد إلى إيطاليا، وعم مينا توفاه الله، ومصطفى في قريته بالمنوفية.. ربما مات.. لا أعرف..

فقط بقيت أنا.. كالصخرة التي ترتطم عليها أمواج البحر.. تظل هي

باقية مهما حدث..

اسمي جمال الصواف.. أزحف في إصرار مريب نحو السبعين.. وحيد تمامًا.. قد طلقت امرأتي منذ أعوام طويلة.. لا تسألني عن السبب فأنا لم أعد أذكره.. لا أذكر وجهها ذاته.. لا بد أنها كانت امرأة بدينة طويلة اللسان لا تكف عن معايرتي وسب أمي.. لا بد أن هذا كان السبب فلا أعتقد أن الخيانة الزوجية واردة.. هذه أشياء تراها في السينما أو تقرأها في صفحة الحوادث..

اسمي جمال الصواف.. استطعت أن أحتفظ بصحتي قدر الإمكان ولعل هذه واحدة من مزايا الطلاق المبكر، فلا أعاني ارتفاع ضغط الدم ولا السكر، لكنني إذ قبضت أناملني على أجهزتي الحيوية كي لا تضيع، أفلتت عيني لتنزلق على الأرض.. هكذا لم أعد أبصر تقريبًا.. لو انحنيت لألتقط عيني لسقط كبدي أو قلبي، لذا أقول: فلتبق الأمور كما هي إذن..

اسمي جمال الصواف.. عجوز كأي عجوز آخر.. فقط ما زلت أحتفظ بشعر رأسي الذي صار أبيض تمامًا.. ما زلت نحيلًا غير مترهل.. وجهه مجعد رسم عليه كل يوم وكل هم أخذودًا ما.. عيناان رماديتان لكن هذا ليس لونهما بالطبع.. إنه ذلك الخليط العبقري من الكاتاراكت (السدة) والطفرة.. يمكنك بعد دقائق أن تدرك أن هذا الجالس أمامك لا يرى تقريبًا..

منذ أعوام لم أعرف لي بيتًا إلا هذا الفندق.. أبيت فيه وأكل فيه، ولم أذهب قط إلى دمنهور مدينتي الأصلية منذ دهر.. أنا موظف الاستقبال هنا أو هكذا يفترض بي أن أكون، لكنني أعرف أنه لا نفع مني على الإطلاق.. ما جدوى موظف استقبال لا يرى إلا خيالات أمام عينيه منذ خمسة أعوام؟.. كل مالك جديد للفندق لا يجرؤ على الخلاص مني.. يحتفظون بي على سبيل (البركة) ولأن راتبي لا يكلفهم شيئًا.. فقط هو طعامي.. هكذا يتركني المدير كما أنا ويفضل أن يترك مهمة الخلاص مني للموت أو للمدير القادم..

العمل الحقيقي يقوم به شاب نشط متحمس.. هم يذهبون ويأتون.. حاليًا هو شاب من إسكندرية اسمه رامي على ما أذكر.. هو الذي يقابل النزلاء ويأخذ المفاتيح ويعيدها لهم ويدون الأسماء في الدفتر، بينما أكتفي أنا بالجلوس في الركن والقلنسوة الصوفية على رأسي، وأتحدث عن البرد وعن أيام كان هذا الفندق مزارًا لعلية القوم.. أتأمل النزلاء بعينين لا تريان، وأضيف لذاكرتي قصصًا جديدة.. لكنني برغم هذا كله – يجب أن تصدقني – لم أتلفظ بحرف عن الغرفة 207.. ما زلت أحتفظ بوعدتي للخواجة مايكل..

على كل حال لا أحد يبالي بهذه الحكايات.. الحركة سريعة جدًا.. سرعان ما يظهر موظف الاستقبال الشاب هذا.. ثم تظهر تلك المضيغة الحسنة ذات المشية الراقصة والتنورة الضيقة.. عندها

أعرف ما سيحدث.. لقد رأيته ألف مرة من قبل.. سوف يلاحقها ويتودد لها وهي تتمنع.. بعد قليل تسمح له بأن يمسك يدها.. ثم جولة على الشاطئ.. ثم الخطبة.. ثم الزفاف.. ثم طلبه منها ألا تعمل في الفندق.. ثم تركه للعمل وقبلة على خدي أو - إذا كان عاطفياً - على يدي و..

- «ادع لنا يا عم جمال..».

هنا تتلاشى أخبارهما.. فقط ليظهر كاتب استقبال شاب حديد ومضيغة حسناء جديدة تلبس تنورة ضيقة.. سامي ومها.. أحمد وعفاف.. محمود وعادة.. رامي ومي.. رمزي وماريان.. عبد الله وعواطف...

كل الوجوه تتغير.. عامل المصعد.. عامل النظافة.. رجل الأمن.. لولا المبالغة لقلت إنهم يظهرون ويختفون أسرع من النزلاء أنفسهم.. لكنني باق كما أنا.. عم (جمال) العجوز البركة الذي لا يعرف أحد ما يفعله بالضبط، لكن الجميع يشعر بانعدام توازن لو لم يجدوه يوماً..

لن أخبرك بتفاصيل، لكن الفندق الذي أعمل فيه يوجد في مرسى مطروح.. يمكنك أن ترى البحر من شرفته، ويمكنك أن ترى الشارع الرئيس.. أنا لم أبح بأية أسرار ولم أعط تفاصيل مهمة، لأن هناك عدة فنادق تنطبق عليها هذه الصفات..

لا تعني الغرفة 207 أن هناك 206 غرفة قبلها، لكنه نوع من النصب الفندقية.. فقط يمكنك أن تستنتج أن الغرفة في الطابق الثاني.. أية غرفة رقمها يبدأ بـ (200) توجد في الطابق الثاني.. هناك ممر طويل وبعض لوحات على الجدران ثم الغرفة 207 التي تبدو بريئة جداً.. لو كانت هناك ملاحظة يجب أن يعرفها المرء عن تلك الغرف الشيطانية فهي أنها تبدو كأية غرفة أخرى..

في العام 1967 دخلت الغرفة 207.. لم تكن هذه آخر مرة..

عاملات التنظيف يدخلن الغرفة.. الكهربائي يدخلها.. هناك نزلاء كثيرون يدخلونها.. أحياناً ما تكون هي الغرفة الوحيدة الخالية أو يكون النزول ممن يتفاءلون برقم 207 لسبب لا يعلمه إلا الله.. إنها تطل على البحر والمنظر من هناك مهيب.. لا ينبغي أن تجد شيئاً مرعباً أو غريباً في كل مرة، لكنني دخلت تلك الغرفة في ظروف معينة وكان ما رأيته غريباً..

لهذا قصة أحكيها لك.. فقط اقترب قليلاً حتى لا أرفع صوتي....

في العام 1967 لم يكن اسمي عم جمال.. كنت جمال الصواف الشاب فارغ الطول أسمر اللون الذي يحمل بعض الوسامة ويقراً

كثيرًا جدًا.. لهذا كانت ثقافتى تفوق ما ينبغي لى أو ما يتوقعه الناس منى.. كنت أعمل فى الاستقبال كما تعرف.. فى الثامنة مساء جاءت تلك الحسناء الوحيدة تبحث عن غرفة.. اسمها كما وقعت فى الدفتر كان شيرين محمود.. مصممة ديكور.. وقعت ثم نظرت لى وابتسمت.. قالت كلامًا كثيرًا عن أنها وحدها هنا.. وحدها تمامًا وعن أنها تسهر كثيرًا و.. كنت أنا املا الأوراق بينما ذهني يحاول استنباط شيء من هذا كله.. لماذا تقوله؟.. النتيجة التى توصلت لها كانت رائعة.. وعندما رفعت عيني لعينها وجدتها تنظر لى بتلك النظرة الثابتة كأنها تقول: نعم.. هو ما فهمته يا أحمق!

ما الغرفة التى اختارتها؟

اختارت الغرفة 207 لأنها الغرفة الشاغرة فى هذا المساء.. عند منتصف الليل لم يكن فى ذهني شيء سوى تلك الحسناء الوحيدة التى قالت عيناها بوضوح إنها ترغب فى أن تعرفنى أكثر.. دعني أعترف لك بأننى لم أكن طاهر الذيل فى شبابى وكانت لى مغامرات عدة.. لهذا ظل الرقم 207 يتردد فى ذهني ألف مرة.. وأخيرًا قلت لمصطفى أن يتولى أمر الاستقبال لأبني راغب فى القيام بجولة.. كان مصطفى يتخذ مكانه جوارى فى الليل عندما تقل الحركة..

دخلت إلى المصعد وطلبت الطابق الثانى، ثم مشيت فى الردهة.. ليست فى ذهني أية تفاصيل عما يجب أن أفعله بعد ذلك.. من السهل أن أكون وأهمًا أو أحمق.. 203.. 205.... 207...

هذه هي!

وقفت خلف الباب غير عالم بما يجب أن أفعله بعد هذا.. هنا فوجئت بأن الباب موارب..

لا أعرف كيف ولا متى دفعته فانفتح، ولا كيف وجدت نفسي بالداخل.. كانت هذه هي المرة الأولى التى أجد نفسي فيها داخل هذه الغرفة.. لكنى أعرف التصميم العام لكل غرف الفندق...

كانت الشرفة مفتوحة ويمكنني أن أرى البحر.. كتلة من السواد الغاصب التأثير يتناثر منها الزبد كما يتناثر من فم رجل ثائر.. هذا هو الشيء الوحيد المألوف فى الغرفة..

فيما عدا هذا كانت هناك أشياء ووجوه.. أشعر أن الغرفة كانت بحجم ميدان.. هناك من يجلس ويتأمل.. هناك من يرقص فى صخب.. هناك من يتلوى على الأرض.. هناك نيران.. هناك أمطار.. هناك غابات وأشجار.. هناك شلالات..

رأيت أسد الجبال يثب فوق ظبي شارد.. رأيت الديناصورات تخرج رؤوسها من أعماق المستنقعات.. من مكان ما جاء أبى الذى توفاه الله منذ عشرة أعوام.. كان ملفوفًا بالكفان لكنه ما زال يحتفظ بذات

النظرة الصارمة.. قال لي بصوت مبجوح:

- «أنت لم تتغير.. جئت هنا من أجل فتاة!... عليك ان تفر ولا تعود أبدًا!».

لكني لم أستطع الفرار لأن المغول أغلقوا الطريق.. كانوا عاكفين على تمزيق رجل عجوز.. وتناثر الدم ليلطخ الجدران، بينما من مكان ما ظهر الشيطان.. نعم.. الشيطان كما يرسمونه في الرسوم البيزنطية.. هو تحويل لصورة بان إله المراعي الأغريقي.. رائحة الكبريت تفعم أنفي وهو يقول لي والدم يسيل من شذقيه:

- «أنت دخلت الغرفة 207.. فعلت ذلك بكامل إرادتك!...».

هنا تظهر شيرين للمرة الأولى.. أدرك انه لا بياض في عينيها.. لا يوجد سوى السواد.. لكنها هي.. تقول وهي ترفع كأسًا به سائل أحمر لزج قان:

- «إنه لي!... لن تأخذه مني.. لقد جاء هنا من أجلي!...».

في اللحظات التالية رأيت هتلر وموسوليني ونيرون وهولاكو ونابليون وكل سفاح عرفه التاريخ.. رأيت براكين تنفجر فلا تخرج منها الحمم لكن الصديد.. رأيت أدرعًا تخرج من تحت البساط تحاول الإمساك بكاحلي.. رأيت طفلة تبكي جوار الجدار وظهرها لي فلما دنوت منها التفتت.. لم يكن لها وجه على الإطلاق... رأيت راقصة حسناء ترفع تنورتها فإذا بها تمشي على قدمي تيس..

رأيت نفسي ممددًا على ظهري بينما يلتف حولي كهنة الأرتك لينزعوا قلبي النابض قربانًا لإلههم كويتزالكوتل.. أنا أعرف هذه الأشياء فقد قرأت الكثير.. كنت مقيدًا إلى عمود خشبي في مدينة أمريكية ما - لعلها سيلم - بينما النيران ترتفع من حولي والأهالي المتعصبون يلوحون بقبضاتهم.. كان رأسي على المقصلة والرعاع الباريسيون يتصايحون مطالبين بإعدام الكلب الأرستقراطي.. كنت أقف جوار زهران في دنشواي انتظر الأمر الذي يجعل المنصة تنزلق تحت قدمي لأتدلى من الحبل الغليظ...

رأيت ألف شيء ومث ألف مرة...

ولا أعرف كيف وجدت مقبض الباب ففتحته.. وسرعان ما وجدت نفسي في الردهة سليمًا..

كنت ألهث كنور ذبيح.. وكان العرق يغمرني.. لكني رأيت طفلًا طبيعيًا يركض في الردهة وهو يلعب بكرة فشعرت بأنني أستعيد روعي.. ليس تمامًا.. لقد تجاوزنا منتصف الليل فماذا يفعله طفل بكرة وحده في الردهة؟...

قررت أن ألقي نظرة أخرى على الغرفة دون أن أخطو داخلها..

دنوت من مقبض الباب.. أدركته.. كان الظلام دامسًا..

ثم اعتادت عيني الرؤية فرأيت غرفة عادية جدًا من غرف الفندق..
مثل أية غرفة أخرى.. على الفراش كانت فتاة تغط في نوم عميق..
شيرين.. عرفتُها من هيتها العامة..

كل شيء على ما يرام.. كل شيء في موضعه.. لا يوجد ما يدل
على أن الجدار انشق وأنني رأيت مستنقعات وبراكين وقبائل
ومشائق...

أغلقت الباب وتراجعت..

هذه الغرفة غير طبيعية على الإطلاق.. ربما كانت هذه كلها
هلوسة أو كانت نتيجة لعبث الشياطين.. النتيجة واحدة هي أنني
رأيت الجحيم بعيني..

وعدت إلى منضدة الاستقبال شاحب الوجه.. قال مصطفى في
ذكاء إنني شاحب الوجه.. لكم أمقت هذه الملاحظات الذكية..

كنت أحاول أن اثبت قدمي على أرض الواقع الزلقة.. أحاول أن
اعرف من أنا وما الذي رأيته في هذه الليلة السوداء..

كان هذا عندما عادت شيرين من الخارج وهي مرهقة، تحمل كيسًا
مليئًا.. عادت؟.. طبعًا.. هي لم تخرج لكنها عادت.. ما هو الطبيعي
والتقليدي في كل هذا الذي حكته؟

طلبت المفتاح مني.. إنه معلق هناك تحت رقم 207.. لا مشكلة
هنالك.. ثم إنها طلبت من مصطفى أن يشغل لها المصعد..

- «معذرة. الكيس ثقيل.. ثم إنني وحيدة هنا ولا أحد يساعدي..».

ونظرتُ لمصطفى نظرة ذات معنى.. نظرة أعرفها لأنني رايتها من
قبل..

سبب خيبت جدًا جعلني لا أتدخل ولا أحذره.. أردت أن يرى بعينه ما
رأيت ويحكيه لي من دون تعصب مسبق..

هكذا لمعت عيناه ونهض يتناول منها الكيس.. وسرعان ما كان قد
فتح المصعد الذي كان قد عطله , وسرعان ما كان يضيء الأنوار
ويدعوها للدخول..

قبل أن ينغلق الباب لحقت بابتسامة غامضة توجّها لي.. ثم انغلق
الباب وارتفع المصعد..

جلست نصف ساعة أحاول أن استجمع أعصابي.. صبت لنفسي
الكثير من القهوة وأشعلت لفافة تبغ وجلست أتأمل شاشة
التلفزيون الموضوع في الصالة بعينين لا تريان..

نصف ساعة كامل تأخره مصطفى حتى بدأت أفكر جدًّا في
الصعود للغرفة أو طلب من يعاونني..

في النهاية تركت المنضدة كما هي ودخلت المصعد متجّهاً إلى

الطابق الثاني..

أين الغرفة رقم 207 هذه؟... ما زالت حيث هي إذن...

وجدت مصطفى جالسًا على الأرض جوار باب الغرفة وقد غطي وجهه بعينيه، أقرب إلى طفل تركته أمه جوار باب المدرسة ولم تعد.. كان يرتجف ويبكي... صوته مرتفع جدًا....

لن تمر سوى دقائق حتى يخرج الجميع من غرفهم.. هكذا جثوت على ركبتي جواره ورحت أهدئ من روعه.. كان قد فقد التحكم تمامًا في عضلاته، وأدركت أنه فقد التحكم في جهازه البولي كذلك..

قال من بين عبراته وأناته:

- «لم يحدث شيء.. أقسم بالله انه لم يحدث شيء..».

- «ما الذي لم يحدث؟».

- «كيف أعرف؟.. قلت لك إنه لم يحدث..».

الفتاة دعتة إلى الغرفة.. طلبت منه أن ينتظر حتى تدخل الحمام.. وقف هو في منتصف الغرفة يقنع نفسه بأنه أكثر ملاحاة مما يعتقد.. لقد خلب لبها في دقائق..

تأخرت الفتاة أكثر من اللازم.. في الحقيقة تأخرت ما يقرب من نصف ساعة.. هكذا استجمع شجاعته ودق باب الحمام عدة مرات.. لا رد.. مد يده وفتح الباب.. وفي الضوء الخافت أدرك أنها تقف أمام المرأة وظهرها له..

لم يجد الوقت الكافي إلا ليناديها مرة واحدة.. يا أنسة..

عندها استدارت له.....

و....

في التاسعة صباحًا جاءت شيرين محمود إلى فندقنا تطلب غرفة.. جاءت من الخارج وهي تحمل حقيبة ثقيلة.. لم يكن هذا غريبًا.. لقد صارت عاداتها أن تأتي من دون ان تذهب.. تدخل من دون أن تخرج...

تبادلت النظرات مع مصطفى.. بدا لي أنه يوشك على الصراخ والفرار لكنه تمالك نفسه.. قلت للفتاة في صبر مستجمعًا كل ما أملك من أعصاب:

- «طبعًا أنت مهندسة ديكور وتشعرين بوحدة؟!».

وضحكت ضحكة خبيثة لكنها قالت في برود:

- «هذا ليس من شأنك..».

فتحت الدفتر بحثًا عن اسمها.. لم أجده!... لا توجد غرفة شاغرة إلا

الغرفة رقم 207.. لكننا نعرف ما يوجد في هذه الغرفة.. مصطفى رأى بوضوح ما يوجد فيها.. أوشك على الإصابة بصدمة عصبية.. ولقد ظللنا نصف ساعة جالسين على الأرض في الردهة نرتجف ونقسم أننا لن ندخل هذه الغرفة أبدًا بعد اليوم (وهو قسم حنتت به مرارًا بعد هذا!)..

مصطفى لامني كثيرًا على أنني لم أنذره.. قال إنني (مش جدع)، وإنني تركته يرى أشنع مشهد رآه في حياته.. مصطفى فكر في الاستقالة.. في طلب الشرطة.. في طلب المطافي.. في إخبار المدير.. لكنني ثنيته عن كل هذه المشاريع المجنونة. لن يصدقنا أحد وعلى الأرجح سنجد في الغرفة فتاة طبيعية باسمه هادئة لا تعرف أي شيء عن كل هذا..

رفعت سماعة الهاتف وطلبت خادمة الغرف وطلبت منها أن تفتح الغرفة 207 وتنظفها..

لو كانت شيرين هناك – مع إنها أمامي هنا - فلسوف نعرف ذلك حالاً..

ابتسمت للفتاة الواقعة أمامي وقلت:

- «أرجو ان تستريحى بعض الوقت حتى يتم إعداد الغرفة..».

نفخت من بين شفتيها في تملل واتجهت إلى أحد المقاعد الوثيرة وجلست عليه..

ممثلة بارعة.. كأنها ترانا للمرة الأولى..

بعد ربع ساعة رفعت سماعة الهاتف أطلب خادمة الغرف، فقالت إن الغرفة جاهزة.. سألتها عما إذا كان هناك شيء مريب فلم تفهم سؤالي أصلاً.. قالت إن كل شيء على ما يرام..

هكذا أشرت للفتاة كي تصعد.. بينما ظل مصطفى حيث هو يرمقها في رعب بعينين متسعيتين مجنونتين..

- «ألن يصحبني أحد إلى الغرفة؟.. أي نوع من الفنادق هذا؟».

قلت لها بلهجة ذات معنى:

- «حسبتك تعرفين المكان..».

قالت في ضيق:

- «ما الذي تلمح له؟... أنا لا أفهم معظم كلامك لكنه مستفز.. خذ الحذر في التعامل معي وإلا شكوتك للإدارة..».

هكذا نهض مصطفى إلى المصعد وقد بدا كأحد الذاهبين إلى المشنقة.. ولمحت في عينيه لحظة انغلاق الباب نظرة استغاثة..

هذه الفتاة مصممة على أن نجن.. المشكلة انه لن يصدق أحد على الإطلاق ما رأيناه ليلة أمس.. لا يمكن طلب العون أو النجدة أو

أي شيء..

علينا ان نتحمل وأن نقاوم أي إغراء لدخول تلك الغرفة..
عندما عاد لي مصطفى بعد عشر دقائق جلس منهكًا يلتقط أنفاسه وقال:

- «بنت الـ (...).. قمة في البراءة.. تتصرف كأنها لا تعرف أي شيء عنا ولا عن الفندق..»
- «لابد أنها تعد مقلبًا ما لنا..».

كانت نوبتجيتنا قد انتهت على كل حال، لذا صعدت إلى غرفتي والتهمت وجبة الإفطار التي تركوها لي على الباب ثم غبت في نوم عميق.. لم يكن عميقًا جدًّا لأنني رحت أتلقي زيارات من الشيطان ومن كل الغيلان التي رأيتها أمس.. كنت أرى أمي تقف أمام مرآة الحمام وظهرها لي ثم تلتفت وتقول: ابني حبيبي!.. فأكتشف أنها لا تمت لأمي بصلة.. كنت أنهض صارخًا ثم أرى نور الصباح يغمر الغرفة فأهدأ قليلًا...

فقط كانت كل كوابيسي تحمل رقم 207.. رقم 207 يتلاعب في كل صوب وفي كل اتجاه..

ولم أكن في ذلك الوقت أحمل شيئًا من التوحش نحو الغرفة.. كنت أخشى الفتاة كالموت لكني كنت أعتقد أن الغرفة بريئة..
كنت استجمع كلمات مصطفى عما رآه عندما رأى الفتاة أمام المرأة:

- «لم يكن هذا وجهًا بشريًا.. كان شعرها ملتفًا كأسلاك الكهرباء.. عيناها ليستا في المحجرين وهناك شرر يخرج منهما.. جلدها بلون الفحم.. لقد كان أشنع ما رأيت في حياتي»
بدا لي هذا خيالًا ساذجًا مريضًا لكني لم استطع السخرية منه.. أنا كنت في الغرفة ورأيت أشياء عجيبة بدوري..
قال مصطفى بعد أن أنهى قصته:

- «الفتاة جنية.. هذا مؤكد.. في قريتي يحكون أشياء مماثلة.. كل الجنيات يحاولن إغراء الشباب مثلي.. الشباب (اللي زي الورد).. فإذا خضع لهن الشاب كانت نهايته».

لم يكن رأيي أنه (شاب زي الورد) أولاً.. ثم إن معظم هذه القصص من تأليف الأمهات والخالات والعمات، وهي مناسبة لهن نفسيًا.. عندما تظهر فتاة حسنة تخطف رجل البيت الشاب ليصير العوبة بين أناملها.. هذه الفتاة بالنسبة للأمهات والعمات والخالات لا يمكن إلا أن تكون غولة أو جنية.. سل أية أم عن رأيها في زوجة ابنها ولسوف تؤكد أنها إلى الشياطين أقرب.. إنه رجل القبيلة وعليها ان تحميه من أن تخطفه أنثى من قبيلة أخرى..

حتى المساء لم تحدث أشياء غريبة.
عادت شيرين من جولة على الشاطئ وكانت فاترة جدًا معنا..
أخذت المفتاح بوجه جامد كالصخر، ثم سألتنا عن قابس الحمام
الذي لا يعمل..

- «هل يمكن أن ترسلوا من يصلحه؟».
قال مصطفى دون أن يرفع عينيه عن المنضدة:
- «نعم.. نعم.. وأنت ستكونين في الحمام أمام المرأة طبعًا!».
نظرت له وتقلص وجهها في قرف.. ثم نظرت لي وقالت:
- «أية مرآة وأي حمام؟.. أنتما مخبولان تقولان كلامًا لا افهم حرفًا
منه..».

ثم قالت في حزم:
- «لو لم يأت فني الصيانة أو الكهربائي ليصلح هذا الخل الليلة
فلسوف أشكوك أنت..».
ثم انصرفت..

تبادلت النظر مع مصطفى.. هذه هي قصة الليلة.. سوف نبعث
(الشبراوي) كهربائي الفندق لغرفتها ولسوف يعود شاحب الوجه
يحكي لنا قصة مرعبة أخرى..

على أنني بعد ساعتين خشيت من أن تسبب لنا هذه المخبولة
مشاكل أكثر لذا اتصلت بالفني طبعًا، وطلبت منه أن يصحب معه
مساعدًا.. المهم ألا يكون وحده.. فهذه الفتاة على قدر من الجنون..

لا داعي لأن احكي ما حدث بعد هذا.. كيف اتصل بي الكهربائي
مذعورًا.. كيف جريت إلى الطابق الثاني.. كيف دخلنا الحمام لنجد
الفتاة على الأرض المبللة.. كانت ترتدي الروب ويبدو أنها أخذت
حمامًا ثم قررت ان تجفف شعرها بالسيشوار.. كيف قامت بتثبيت
الفيشة كيفما اتفق في قابس تالف.. كيف تلقت صدمة كهربية
على قدمين حافيتين فوق بلاط مبتل... كيف سقطت على الأرض
وكيف بدا وجهها...

- «لم يكن هذا وجهًا بشريًا.. كان شعرها ملتغًا كأسلاك الكهرباء..
عينها ليستا في المحجرين وهناك شرر يخرج منهما.. جلدها بلون
الفحم.. لقد كان أشنع ما رأيت في حياتي».

هذا يفسر الشرر.. والوجه الذي يراه مصطفى الآن هو ذات الوجه
الذي رآه أمس..

وعندما انصرف رجال الشرطة وهدأت الضجة، جلست مع

مصطفى في الاستقبال – مكاننا المعتاد - ناقش ما حدث..

الغرفة رقم 207 لم تخف أسرارها.. لقد أخبرتنا بالضبط بما سيحدث عند منتصف ليل الغد.. ما رآه مصطفى كان رؤيا واضحة لما سيراه... كانت هناك فتاة اسمها شيرين.. فتاة ستقيم في الغرفة 207 وسوف تلقى نهايتها فيها.. الغرفة قدمت لنا ذات العرض قبله بأربع وعشرين ساعة.. بل إنها جعلت مصطفى يرى وجه الفتاة لحظة موتها..

الفتاة التي جاءت في التاسعة صباحًا كانت شيرين الحقيقية.. شيرين التي لا تعرف أي شيء عما رأيناه، وليست لديها أية فكرة عما ينتظرها.. كنا نتكلم في غموض وخبث لكنها بالفعل لم تملك أية فكرة عما نتكلم عنه... حسبنا وغدين يتظران..

لم يكن الخطأ في الفتاة..

الخطأ كان في الغرفة..

الغرفة التي قال مصطفى إن هناك من مات فيها ميتة شنيعة في زمن ما، وقال عم مينا المحاسب العجوز إنها أحد أبواب الجحيم، وأنه يكفي أن يبيت فيها أحد حتى يفتح ذلك الباب الموارب لتدخل منه الأرواح، ورأيت أنا أن الموضوع يتعلق بالجان أو الشياطين..

الغرفة 207.. التي كانت لي معها قصص عديدة ليست هذه بآخرها ولا أشنعها.. فقط انتظروا لقاءنا القادم لتعرفوا أكثر.

لعب عيال

ربما لم تكن هذه آخر قصصي مع الغرفة 207 ولا أولها..

ذكرياتي مع تلك الغرفة يوم طويل متصل لا أذكر شيئاً عن تلاحق أحداثه.. والأهم أن أحداً لا يبالي البتة بما أحكيه.. كلما حكيت هذه القصة لمضيعة جديدة أو شاب يقف معي في الاستقبال ابتسمت أو ابتسم في تهذيب.. هذه الابتسامة يعرفها الشيوخ المخرفون جيداً.. ابتسامة تعني: «أنا لا اصدق حرقاً مما تقول، لكنك في سن أبي وعلي ألا اظهر علامة على السخرية.. أنت في سن أبي وأنا قد تربيت جيداً.. أنت في سن أبي وإظهار تصديقي لك نوع من الزكاة.. احتياط حتى لا يفعل معي أبنائي نفس الشيء يوماً».

كنت أعرف أن الغرفة صامتة، لكنها سوف تعلن عن احد أسرارها قريباً جداً.. غرفة بهذه الطباع العجيبة لن تبقى صامتة للأبد... وقد كان...

الأسرة التي جاءت لتقيم في الفندق في ذلك اليوم - وكان يوم خميس - كانت تتكون من عدة أفراد.. زوج وزوجة.. ثلاثة أطفال.. ثم امرأة وحيدة..

الزوج من الطراز الذي يمكن تلخيصه بـ (بدين - أصلع - شارب - مرح)، وهو طراز ينتجونه بالجملة في مكان ما، لكن هذا الطراز كذلك يمكن أن يكتب ويكون اكتتابه قاسيًا.. هذه أمور تتعلمها من ملاحظة الناس، وتتعلمها من الكتب.. يبدو أنهم يطلقون على هذا الطراز (العصاب الاكتئابي الانبساطي) أو شيئًا من هذا القبيل.. الزوجة نحيلة جدًا عصبية شاحبة كأن الزوج يلتهم طعامها بلا انقطاع.. هذه سمة أخرى شبه دائمة لزوجات هذا النوع من البشر..

الأطفال لا يميزهم شيء.. أطفال صاخبون مزعجون وقحون، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والحادية عشرة.. أما السيدة النحيلة فهي سيدة نحيلة.. يمكن بشيء من الذكاء أن تدرك أنها أخت الزوجة.. نحيلة جدًا عصبية مثل أختها، لها وجنات بارزة وبشرة شاحبة تشي بالمرض.. مشكلة هؤلاء الذين يصابون بنحول شديد هو أن عيونهم تحتفظ ببريقها واتساعها.. عندما يهزل الوجه وتضمر الجفون تصير هاتان العينان جامحتين ناقبتين مخيفتين..

قال لي الزوج وهو يخرج بطاقته العائلية إن اسمه (رأفت عبد الباقي).. مهندس من القاهرة.. المدام.. وأخت المدام.. كانوا قد حجزوا هاتفياً غرفتين منذ زمن.. اختار هو وزوجته الغرفة رقم 205.. الغرفة 207 سوف تقيم فيها أخت المدام..

ثم أشار إلى طفلته التي في التاسعة من عمرها وقال:

- «(لبنى) ستقيم مع خالتها. إنها مولعة بها..».

ترتيب لا بأس به.. أي أنه وزوجته مع طفلين سوف يقيمون في غرفة، بينما تقيم الخالة وطفلة واحدة في غرفة أخرى.. قرعت الجرس كي يحمل (مصطفى) الحقائب إلى المصعد..

- «205 و207 يا مصطفى».

نظر لي نظرة ذات معنى وهو يحمل الحقائب.. لا أحد منا يجرؤ على التشكيك في الغرفة 207 لكننا ننزعج كلما سمعنا الرقم..

فقط تمهل الطفل الأكبر قليلاً ليتفحص أحد التماثيل في اللوبي.. ثم عبث بمزهريه فكاد يهشمها.. وجدت أن أبويه بعيدان، فغادرت الكاونتر ووقفت جواره وقلت همساً وعينا تشعان ناراً:

- «لو تحطم شيء هنا فلسوف أحطم رأسك..».

نظر لي في تحد وقال من بين أسنانه:

- «فلترني ذلك!!».

هنا عرفت أنني سأقاوم بشدة رغبتني في أن ألقى هذا الشيطان في بئر المصعد.. الأطفال مزعجون بما يكفي، ولكن ماذا عن الطفل المزعج الوقح؟..

هنا سمعت الأم تنادي بصوت رفيع مرتعش:

- «أكماااااا!!.. تعال هنا».

اسمه أكمل؟.. سوف أطلق عليه في سري اسم (أنقص)، وأمضي الليلة في تخيل عملية قتله والتخلص من جثته.. ليس قتله هو المطلوب فحسب بل يجب أن يعرف أنه سيموت!!

هكذا عدت إلى عملي المعتاد ونسيت كل شيء عن هذه الأسرة، وهم لم يغادروا الفندق في تلك الليلة على كل حال...

فقط في الحادية عشرة مساء اتصل بي أحد النزلاء في الطابق الثاني، وقال مغضبًا:

- «لماذا لا تفعلون شيئًا لهؤلاء الشياطين؟».

- «أي شياطين؟».

- «الذين يتسابقون في الردهة!!.. هناك ستة أطفال لا يكفون عن الركض والصراخ ولعب الكرة في الممرات..».

كان (بيومي) رجل الأمن المنوفي واقفًا على الباب يدخل لفافة تبغ في الهواء الطلق، فناديته وطلبت منه أن يصعد ليزجر هؤلاء الصبية بالطابق الثاني..

عاد بعد قليل وهو يسب ويلعن، معلنًا أن القيامة ستقوم هذا الشهر على الأرجح..

- «عيال في منتهى قلة الأدب..».

كنت مشغولاً في تدوين بيانات نزير جديد، فهزرت رأسي موافقًا.. أردف:

- «أطفال ثلاثة نزلاء قد احتشدوا معًا وكونوا عصاة حقيقية.. يلعبون الكرة.. يصرخون ويتصارعون ويدقون على كل الأبواب.. لقد حاولت السيطرة عليهم فلما فشلت طلبت من كل أسرة أن تربى ولدها جيدًا.. الغريب أن الآباء لا يهتمون، وقد غضبوا لأنني طلبت منهم التدخل.. إنها حماية الجاهلية : فليخطئ ابني كما يشاء وليس من حق أحد لومه أو نصحه..».

هزرت رأسي من جديد وغمغمت:

- «حماية الجاهلية.. نعم.. نعم..».

لكنني نسيت الأمر بعد دقائق.. ليست هذه أول مرة يحدث فيها شيء كهذا، فلا تنس أنني موظف استقبال مخضرم..

في الثانية بعد منتصف الليل حدث شيء غريب..
كنت نائمًا على المكتب، عندما سمعت صوت صخب وضوضاء..
رفعت رأسي فوجدت ذلك الصبي (أنقص) المزعج يركض وهو يبكي
ويولول نحو باب الفندق.. كان يعتزم الخروج..
نهضت وركضت وراءه واستوقفته عند الباب الزجاجي.. لكنه كان
في حال غير طبيعية.. المخاط يبلل وجهه مع الدموع.. وأوشك على
أن يعض يدي التي تمسك بمعصمه..
ثوان ثم ظهر الأب قادمًا من مكان ما..
سره أنني قبضت على الصبي. ولكنه كان راغبًا في ألا يشرح أي
شيء وأن ينتهي الموضوع سريعًا..
- «لا مؤاخذه.. سوف أتولى الأمر..».
سألته في غباء:
- «هل من مشكلة ما؟».
قال بسرعة وهو يجر الصبي كأنه يجر ثورًا بريًا:
- «لا مشكلة.. لعب عيال كما تعرف..».
لكن الصبي نظر لي نظرة أخيرة مستغيثة قبل أن يلحق بأبيه في
المصعد.. وانغلق الباب ومعه انغلق كتاب أسرار عائلية لا أعرفها ولا
يهمني أن أعرفها..
البيوت أسرار.. لكنني على كل حال كانت سعيدًا بأي شيء يثير
ذعر ويبكي هذا الصبي المشاغب..
ونظرت إلى موظف الأمن الذي كان غافًا فأيقظته الضجة.. قال لي
وهو يتأهب:
- «خليهم يتربوا!».
ثم عاد إلى النوم راضيًا عن مستقبل الطفولة في مصر..
عدت إلى الكاونتر وفتحت جهاز التلفزيون العتيق الذي لا يقدم إلا
القناة الأولى مهزوزة.. دعك من أننا كنا في عصر ما قبل التلفزيون
الملون، هنا وجدت أن الإرسال قد انتهى.. أطلقت زمجرة، وأغلقت
وعدت إلى المنضدة لأتوسد ذراعي من جديد..
كنت في عوالم أخرى.. ربما كنت في دمنهور مع أبي وأمي.. ربما
كنت في فرنسا مع (مارلين) الحسناء أيام سفر الطلبة إياها.. ربما
كنت في القبر. المهم إنني لم أكن هنا..
وكما يحدث لمن ينامون بعمق تسلفت تلك اليد الصغيرة إلى الحلم
لتكون من مكوناته.. كان هناك طفل في الحلم يهزني بلا انقطاع،
ويكرر : عمو.. استيقظ يا عمو.

ثم عدت لعالم الواقع لكن اليدين ظلتا معي.. حينما فتحت عيني
كان (أنقص) هناك جوار الكاونتر ينظر لي بعينين متسعيتين
مذعورتين..

كان مرتدياً منامته وحافي القدمين.. الأمر الذي جعلني أوقن أننا
بصدد ما هو أكبر من لعبة أطفال..
قال لي بنفس العينين المتسعيتين:
- «عمو.. انا خائف!».

القصة التي حكاها (أنقص) - الذي كان (أكمل) قبل أن يثير غضبي
- كانت كالتالي:

لقد لعب كثيراً في الردهة أمام الغرفة بينما كان أبوه وأمه
منهمكين في تفريغ الحقائب، وانتقاد الغرفة.. خالته كذلك كانت
منهمكة في غرفتها..

لعب مع أخته وأخيه الأصغر سنًا، وبحكم السن كان هو الأوسع
تجربة والأقوى شخصية كأنه يكبرهما بقرن... خرجت الكرة الصغيرة
من مكان ما. وبدأ الجري والصياح والصراخ في الممرات.. بعد قليل
انفتح باب الغرفة المجاورة وخرج صبي في التاسعة.. وقف يرمقهم
وفي عينيه شقاوة، ثم انضم للعب دون أن يطلب الإذن.. بعد قليل
خرجت فتاة من غرفة أخرى ففتاة أخرى..

سرعان ما صار هناك فريق كامل من المتحمسين يجرون
ويصيحون ويتبادلون قذف الكرات..

انفتحت أكثر من غرفة ليظهر وجه رجل غاضب محمر الخدين:
- «بس يا ولد..!».

أو امرأة غاضبة تلف شعرها بشبكة:

- «اتربى يا حمار!!».

وهي أساليب تربوية ليست ذات نفع كبير.. وقد سعد لهم موظف
الأمن لكنه قوبل بلا مبالاة، وعندما شكى للأهالي حدث ما يحدث مع
كل مصري.. ابني يفعل ما يشاء وقتما يشاء..

هكذا بقى الوضع على ما هو عليه، وإن بدأ الأهل يتعبون وأغلقوا
عليهم الحجرات.. حركة الأطفال قلت بدورها أكثر وإن ظل النعاس
بعيداً عن عيونهم. السبب؟.. لأنهم شياطين جديدة بالحرق..

خرجت الخالة النحيلة من الغرفة 207 وصاحت في الطفلة (لبنى):

- «بنت يا لبنى...! ألن تأتي للنوم؟».

توسلت لها (لبنى):

- «فقط أتركيني بعض الوقت يا خالتي.. لا أشعر بنعاس».
نظرت لها المرأة في حدة، ثم أغلقت الباب وهي تقول بلهجة غير رقيقة على الإطلاق:
- «ليكن.. لكن لو نمت ولم أشعر بك فعليك أن تنامي مع أمك».
ودوى صوت المزلاج وهو ينغلق خلف الباب..
لكن الأم والأب كانا يفتقران إلى الحزم.. ربما انهما في شيء آخر..
المهم أنهما تركا الأطفال على راحتهم..
كان الأطفال الآن محمري العيون يبحثون عن لعبة مثيرة جديدة..
نوم الكبار يشعرك بأن الدنيا انتهت وأنه لم يعد هناك سوى الملل..
كانوا الآن يلعبون في الردهة المجاورة... ابتعدوا عن الغرفتين كثيرًا
على كل حال فلم يعد أحد يراهم..
قال لهم (أنقص) هامسًا:
- «اسمعوا.. عندي فكرة...».
وارتسمت على وجهه ضحكة شيطانية..

كان (أنقص) قد دخل غرفة الخالة ظهر اليوم وفهم جغرافيتها جيدًا
كأي لص محترف..
هناك باب بالحجرة يطل على شرفة.. والشرفة طويلة تحتل جانب
الفندق بالكامل.. أقرب إلى الممر الذي يصل بين الغرف كلها.. فقط
هناك فاصل من الطوب بين نطاق كل غرفة وجارتها، فوقه شبكة
خشبية ترتفع مترًا عن الأرض.. هذا يشكل عقبة بالنسبة لإنسان
مهذب متحضر، لكنه لا يشكل أية عقبة بالنسبة للص أو طفل
شيطاني له طباع لص..
هناك مدخل للشرفة في البهو.. تدخل فتجد ذلك الحاجز الوهمي
عن يمينك وعن يسارك.. والبحر أمامك..
هكذا قال للأطفال:

- «سوف نلعب لعبة على خالتي.. إنها عصبية جدًا تؤمن بالعفاريت
والجان.. لديها قصص لا تنتهي عن هؤلاء الذين تقابلهم في دورة
المياه.. على السلم.. في المطبخ.. بالنسبة لها ليس هناك مكان من
دون عفريت..».

سألته طفلة في العاشرة:

- «وهل هناك عفاريت حقًا؟».

فكر حينًا ثم قال:

- «أبي يقول إن هناك عفاريت.. لكنه كذلك يمنعنا من أن نتكلم عن

الموضوع.. يضربنا إذا ذكرنا هذه الأشياء..».

- «وهل يضرب خالتك؟».

- «لا يقدر على ذلك لأنها كبيرة.. ثم إنها عصبية.. أعتقد أنها تستطيع ضربه..».

هنا سألته طفل آخر:

- «هل والدك يحب خالتك؟».

- «لا.. يقول لأمي إنها مصرة على أن تصحبها في كل مكان معنا.. هو متضايق من ذلك».

ثم نظر إلى ابني أخته محذرًا:

- «لو قلت كلمة من هذا لخالتي سأكسر دماغك!».

ثم نظر إلى الأطفال وقال في حسم:

- «هيا بنا!».

هكذا تسللوا إلى الشرفة العامة.. كان البحر يهدر من بعيد كوحش مجنون لا يهدأ ولا يريد أن يهدأ.. في الظلام يبدو البحر أكبر من الواقع.. أكبر من الحياة ذاتها..

كانوا قد بدءوا يرتجفون عندما تسلق (أنقص) ذلك الحاجز بين الشرفتين.. لا.. لم يكن هناك من خطر على حياته.. إن سقط لن يسقط من أعلى.. فقط هي عملية تحتاج إلى قدر من اللياقة والحذر حتى لا تمزق ثيابك..

أخيرًا وثب إلى شرفة الغرفة 207.. واستدار إلى رفاقه الذين يقفون في الجزء العام من الشرفة وطلب منهم أن يحدوا حذوه..

هكذا تواب الأطفال جميعًا وهم يحبسون أنفاسهم من الإثارة إلى الشرفة..

كان باب الشرفة مواربًا.. لم يكن مغلقًا..

من الداخل هناك إضاءة خافتة... شيء ما يتحرك...

دنا (أنقص) من الفتحة التي لم تكن تسمح إلا بواحد ينظر..

هنا انتفض كأن ثعبانًا لدغه..

التفت إلى الأطفال وصرخ بصوت هامس:

- «هيا!! فلنعد بسرعة!».

تراجع الغزاة الصغار من دون نظام وهم لا يفهمون ما هنالك.. من أراد أن يسأل تلقى أمرًا بأن يخرس ويجري..

وسرعان ما كان الجميع يتسلقون عائدين إلى الشرفة..
(أنقص) كان يرتجف ويبيكي بلا انقطاع..
وعندما التفوا من حوله يسألونه عما هنالك لم يرد.. فقط قال لهم:
- «إنه شيء مريع.. مريع!..»
ثم تركهم وجرى نازلاً إلى الاستقبال..
بعد قليل لحق به الأب عندما حاولت منع الصبي من الخروج إلى
الشارع..

قربت رأسي من الصبي المذعور ونظرت في عينيه الواسعتين
وسألته ضاعطاً على كلماتي:
- «وماذا رأيت؟»
- «هه؟»
- «ماذا كانت خالتك تفعله؟»
قال وهو ينظر إلى الفراغ:

- «كانت جاثية على ركبتيها.. يقف أمامها كائن عملاق.. كائن
ارتفاعه كهذا الباب.. له مخالب وجناح وطواط.. لم أر وجهه لكني
أعتقد انه يشبه الشيطان ذاته.. إضاءة الغرفة لم تكن طبيعية..
عينها كانتا متسعيتين مليئتين بالشر والتوحش.. كانت تركع أمامه..
تقدم له فروض الولاء.. في هذه اللحظة شعرت بأن هناك شيئاً ما..
رأيت عينها تستديران لي.. عينا حمراوان بلون الدم.. ثم كشرت
عن أنيابها.. لم أر أسناناً بيضاً بهذا الشكل من قبل.. كان منظرها
أقرب إلي ذئب غاضب.. ثم شعر الشيء باتجاه نظراتها فنظر إلى
الخلف.. أعتقد أنه رأي.. أعتقد أنه عرف من أنا..»

ثم انفجر الصبي المسكين في البكاء..

لو كان من يسمع القصة واحداً غيري لضحك واتهم الصبي
بالسخر، لكني أعرف أولاً أن هذه الدموع حقيقية.. حتى سير
لورانس أوليفيه نفسه لن يمثل بهذه البراعة.. لن يستدعي الدموع
بهذه السهولة.. كلا.. الصبي لا يلعب معي لعبة سخيفة.. هذا مؤكد..
ثانياً أنا أعرف الغرفة 207 اللعينة.. لو كانت لدى تلك المرأة أية علاقة
بالشياطين أو الجان فالغرفة 207 هي المكان الأنسب لظهور هذه
الموهبة.

لقد شعرتُ به.. كلنا شعرنا به.. ذلك الشيء الغامض الجاثم
كالكاوس على الغرفة 207..

كان من حظ الصبي العاثر أن اختار هذه اللحظة بالذات ليداعب

خالته الحبيبة..

قال لي بعينين دامعتين:

- «أنت لا تصدقني يا عمو».

داعبت شعره وقلت:

- «بل اصدقك يا بني.. أصدقك جدًّا!».

سألت الصبي:

- «هل أخبرت أباك بما حدث؟».

قال إنه لم يجسر.. كان يشعر بذعر جعله لا يثق بأحد.. فقط أراد أن يفر بلا تعقل وبدون أن يعرف إلى أين.. هو يعرف إجابة أبيه على كل حال: (عيب يا ولد)..

الكبار لا يصدقون هذه الأمور.. ربما لأنهم أغبياء.. ربما لأن خيالهم قد مات..

عدت أسأله:

- «كيف جئت هنا؟».

قال وهو يرتجف:

- «لقد أغلقوا الحجرة وأخلدوا للنوم.. لكنني ظللت في الظلام أتذكر ما رأيت.. ثم تذكرت شيئًا: لبني مع خالتي في ذات الغرفة المجاورة!... أصابني الهلع ولم أعرف ما أفعله.. تسلفت من الحجرة حافي القدمين وجئت هنا».

نعم.. لا بد من عمل ما لكن ما هو؟

قبل أن أفكر وجدت الأب قادمًا.. أصلع بديئًا يضع الروب على منامته وقد بدا عليه التوتر.. قال لي في حرج:

- «فعلًا أنا أسف على كل ما سببناه لكم.. لا بد أنكم لم تروا زبائن مثلنا..».

كان مهذبًا لكن نظرة جانبية للطفل قالت لي إنه ينتظر صابرًا حتى ينفرد به.. عندها يزيع قناع اللطف جانبًا ويكشف عن الأب العتيد..

ابتسمت وقلت متظاهرًا بالظرف:

- «بالعكس.. إن (أنق...) (أكمل) ولد ظريف شجاع..».

ثم كلمت الطفل على طريقة برامج الأطفال:

- «سوف يعود لغرفته وينام.. إن يومًا شاقًا ينتظره غدًا على الشط.. لعب وسباحة و.. و.. فقط عد لحجرتك إلى أن أنتهي من الكلام مع

بابا».

نظر لي الصبي نظرة مستغيثة ذكرتني بنظرته عندما ابتعد مع أبيه في المرة الأولى، وسرعان ما كان يصعد على الدرج إلى غرفته.. ضعيفاً واهناً حافي القدمين.. يصعب أن تشعر نحوه بحقد حقيقي.

توقف الأب قليلاً وهو يرمق ابنه يبتعد، ثم عبث في جيب الروب فأخرج علبة تبغ.. ناولني لفافة ودس في فمه أخرى.. ثم قال:

- «خيال الأطفال لا ينتهي عند حد.. ماذا قال لك؟».

نفث سحابة من التبغ وقلت:

- «حكى لي عن حالته.. عن ولعها بالعفاريت والجان، ثم يزعم أنه وجدها تسجد أمام شيطان أو جنى في الغرفة».

نفث دخان السيجارة بدوره وقال:

- «خيال الأطفال!.. هذه المرأة أفسدت دماغ العيال بقصصها التي لا تنتهي.. اسمع.. أنا لست طبيباً نفسياً لكني سمعت الكثيرين منهم.. عندما تتقدم السن بالفتاة بلا زواج فإنها ترى رؤى ذات طابع جنسي تلقي بها على كاهل التفسيرات الخوارقية.. هل تفهم ما أقول؟».

- «لا..».

قال منتقياً كلماته:

- «هذا يفسر لك كل قصص الفتيات اللاتي تزوجن من ملك الجان.. ملك الجان الذي يخرج من الحائط قبل الفجر.. هذه مجرد رؤى جنسية لإخراج الضغط المكبوت.. أخت زوجتي تعتقد أنها متزوجة من جنى وإنه يزورها من حين لآخر..».

قلت في عصبية:

- «كل هذا جميل.. المشكلة أن ابنك رأى ذلك فعلاً!!».

- «إنها تتكلم أمام الأطفال بلا حذر.. وقد زرعت هذه الصورة في وجدانهم.. دعني اقل شيئاً آخر هو أن الأشخاص المصابين بالعصاب يملكون قوة تأثير هائلة.. قوة (ليبدو).. هل تفهم ما أقول؟».

كالعادة هو يفترض أنني حمار لمجرد أنني موظف استقبال، غير عالم أنني قرأت كل كتاب وقع في يدي وثقافتني لا يستهان بها.. هناك قصة مهمة لـ (ناتانييل هوثورن) تحكي عن شيء كهذا.. الفتاة المحرومة من الزواج، وكيف استطاعت أن توقع الطبيب في حبالها عندما راحت تحديق في وجهه بعينيهما الثابتتين وتردد: «أنت تحبني. أليس كذلك؟.. هه؟.. أنت تحبني.. أليس كذلك؟».. هكذا وجد نفسه هائماً بها..

قلت له:

- «أفهم.. إن تأثيرها هائل على الآخرين كأنها ساحرة».
- «نعم.. لهذا يصدق الكل ما تقول.. والأطفال يصدقون افضل من سواهم».

ثم دفن لفافة التبغ في المطفأة وهز رأسه وابتعد..

في الصباح خرج الجميع إلى الشط..
منتعشين متفائلين.. حتى الصبي بدا لي مجرد طفل مزعج من جديد.. كائن شهواني لا يريد إلا أن يسبح في البحر للأبد..
عندما خرج الجميع من الباب الزجاجي، انهمكت في كتابة بعض الأوراق.. عندما شعرت بأن هناك من يقف أمامي.. رفعت رأسي في حذر فوجدت نفسي أحرق في العينين الواسعتين المتوحشتين للخالة النحيلة.. لقد عادت وحدها..
ارتجفت.. من المفاجأة ولأن التعبير على وجهها يوشك أن يكون شيطانيًا..

قالت بصوت كالفحيح:

- «اسمع.. لا أعرف ما قاله لك الصبي.. لكنني أنذرك.. لو خرج هذا الكلام عن صدرك فلسوف أمزقك بأسناني.. أمزقك!».
ارتجفت وسقطت الأوراق من يدي.. قبل أن اتكلم أو اطلب تفسيرًا كانت قد غادرت المكان..
هذه المرأة غير طبيعية فعلاً.. قوة تأثيرها كاسحة..
والأهم انها أعطتني إنذارًا لا شك فيه.. آخر شيء تريده في العالم هو أن يعرف أحد بما رآه الصبي..
لكن ما الذي رآه الصبي فعلاً؟.. هستيريا من خياله أم هو ملك الجان فعلاً؟

لا بد أن أرى بنفسي..

مخاطرة مروعة لكنني لن أستريح حتى أعرف..
كانت نوبتجيتي قد انتهت فعدت إلى غرفتي ونمت..
في المساء كانت الأسرة كلها في الخارج، لكنني وجدت أن مفتاح الغرفة 207 غير موجود..

لقد عادت الخالة وحدها.. فلماذا؟

كانت الفرصة ذهبية لإرواء فضولي.. طلبت من مصطفى عامل المصعد أن يأخذ مكاني خلف الكاونتر، وأخذت المصعد إلى الطابق الثاني..

كانت الغرف خالية والردهة كذلك.. هذه هي الساعة التي يجول فيها النزلاء على الكورنيش أو يقضون امسيتهم في مكان ما.. سيعودون قريبًا جدًا.. لكن هذه المرأة وحدها في غرفتها وأنا أريد أن أعرف...

لا أعتقد أنني سأجد ملك الجان.. لكن الخطر كل الخطر هو أن يراني أحدهم. معنى هذا هو الطرد بلا نقاش..

الطريق كان سهلاً لأن الصبي وصفه لي من قبل.. لم أكن أعرفه لكنني وجدت أنه سهل جدًا وأن إدارة الفندق حمقاء.. يمكن لسهولة سرقة أية غرفة في هذا الجانب المطل على الشرفة..

وثبت عابرًا الحاجز.. أنا الآن في شرفة الغرفة 207..

دنوت من الشيش الموارب.. اختلست نظرة حذرة.. هذه الأصوات تبدو مألوفة..

هنا وثبت إلى الخلف كما وثب الصبي ليلة أمس..

سرعان ما كنت أقفز فوق الحاجز عائداً إلى الاستقبال وقلبي يتواثب في صدري..

الأشخاص المصابون بالعصاب يملكون قوة تأثير هائلة.. قوة (ليبيدو).. هل تفهم ما أقول؟... قالها الأب لي ليلة أمس ولم يكن بعيداً عن الحقيقة.. والصبي؟.. هذا نوع مما يسمونه فقدان الذاكرة الهستيرى.. لقد رأى مشهداً لم يستطع تصديقه لذا قام عقله بتلفيق مشهد لا وجود له وصدقه.. حالته راکعة امام ملك الجان.. لم يكن يقدر على الاعتراف لنفسه بالمشهد الحقيقي..

لقد عادت الخالة.. ويبدو أن هذا كان الحل الوحيد.. هناك شخص آخر عاد بحجة فارغة.. وبعد قليل سيغادر الفندق ليلحق بأسرته التي تنتظره في مكان ما..

المشهد الذي رآه الصبي ورأيت أنه هو الخالة بين ذراعي الأب!

يمكنني أن أتخيل الأب وهو يتسلل عبر الشرفة ليلة أمس ليكون في الغرفة المغلقة مع اخت زوجته.. يمكنني أن أتخيلها تعود وحدها هذه الليلة لأنها مصابة بالصداع، ثم يعتذر هو لزوجته لأنه يجب أن يقوم بمهمة ما.. هكذا يعود إلى الفندق سريعاً.. هذه هي فرصته بعيداً عن (أنقص) الفضولي المشاغب..

برغم كل شيء أشعر أن لهذه الغرفة اللعينة دوراً في هذا كله.. وأشعر أن تلك المرأة مخيفة بحق وأنها ستعرف أنني تكلمت..

لهذا – أرجوكم – لا تحكوا هذه القصة لشخص آخر.. لربما عرفت.. ولربما عادت لي.. وعندئذ.....

فضول

(هدى) كانت فضولية.. لا أحد ينكر هذا..

بالنسبة لي كنت أعرف هذا، لكني كنت أقبله.. ثمة نقاط ضعف ونقاط قوة تحتشد معًا لتصنع ذلك الكائن الغامض المدعو (أنثى)، وبالنسبة لي كنت أقبل هذه العيوب كما أقبل المزايا.. لو أنك ازدريت الأنثى لأن عظامها هشة أو لأنها أقصر من الرجل، أو لأنه لا يوجد شريان خصية في تشريحها، فإن بوسعك أن تزدريها لأنها فضولية أكثر من اللازم.. بينما هذا الاختلاف قد يزيداها سحرًا في الواقع.. إنها ليست أنت ولا زميلك ولا ابن عمك.. هذا ساحر في حد ذاته..

(هدى) كانت فضولية وكان علي أن أقول هذا ما دمت أحكي هذه القصة، برغم أن هذا يكشف الكثير من أوراق اللعب كما ترى.. ثلاثة أرباع قصص الرعب أبطالها أشخاص فضوليون، وإلا فمن ذلك الأحمق الذي يفتح تابوت مصاص الدماء؟.. ومن البلهاء التي تمشي في الغابة المظلمة ليلاً؟.. ومن المعتوه الذي ينزل في البئر العميقة متدليًا بحبل؟.. إنهم الفضوليون.. الفضوليون الذين تعج المقابر بهم..

(هدى) كانت فضولية.. وكان عليها أن تدفع الثمن..

في العاشرة من صباح كل يوم ترى (هدى) واقفة في الممر الذي يصل بين الغرف.. تقف جوار تلك العربة التي عليها كل ما تحتاج له للتنظيف.. عدة أنواع من المكانس.. منظفات.. قطع قماش.. الخ. إنها حاصلة على شهادة جامعية، لكنها تنتمي لذلك الجيل الذي كفت فيه الدولة عن تعيين الخريجين.. لقد بدأ ذلك العصر السعيد بها.. هكذا قضت عامين أو ثلاثة في البيت ثم وجدت أنه لا بد من تجربة حظها.. لم تكن تنوي أن تقف في أحد المحلات أو تعمل سكرتيرة لدى مدير شركة خاصة وغد، وكانت تفتقر إلى الوساطة.. هكذا جاء الوقت الذي صارت فيه عاملة في فندقنا..

لكن هدى ليست عاملة بالمعنى الحرفي للكلمة.. لا تنس مستوى الفندق الراقى، ولا تنس كبرياءها وتعاملها (شديد الألاطة) مع النزلاء ومعنا.. في رسالة صامتة تقول طيلة الوقت (أنا مش خدامة ابوكم)...

لهذا لا يجرؤ أحد على اعتبارها عاملة.. تطلق على نفسها Chamber maid كما أن ملامح وجهها شديدة الكبرياء وبدانتها تعطيها طابعًا مهيبًا، كأنها ناظرة مدرسة حازمة لا يمكن المزاح معها أو الاستخفاف بها.. هذا النوع من الكبرياء والتعالي الزائدين مميز دومًا للأشخاص الذين يشعرون بأن مهنتهم أقل من مؤهلاتهم.. التبسط المرح لا يأتي إلا من شخص راض عن نفسه وعن موقعه في الحياة..

برغم هذا هي فضولية جدًا.. هي لا تسمع اثنين يتكلمان إلا

وتحاول أن تكون ثالثهما.. لا ترى كومة أوراق على منضدة إلا وتفحصتها.. لا تجد بابًا مغلقًا إلا وفتحته.. في اعتقادي أنها اختارت أفضل مهنة ممكنة لفتاة فضولية، لأن الغرف في الصباح تكون صناديق مليئة بحلوى الأسرار تنتظر من يفتحها..

إن (هدى) ثرثارة كذلك، لذا تأتي لي حيث وقفت على الكاونتر وتحكي لي.. تحكي لي عن العجوز التي تحتفظ بدواوين شعر (نزار قباني) كلها.. عن الأنسة غير المتزوجة التي تضع في غرفتها حبوب منع حمل.. الكثير منها.. عن الأمريكي الذي اشترى عدة عبوات من معسل (آخر مزاج)..

تحكي هذا كله وتضحك.. وتضرب كفًا بكف مندهشة من غرابة وسخف الناس..

فأقول لها:

- «من حق كل إنسان أن يكون غريبًا سخيًّا إذا اختلى بنفسه.. وإلا.. فمتى نتخلى عن وقارنا ونجن؟».

إن هذا غير عادل.. الأمر يشبه أن تلتصص على شخص في الحمام ثم تبدي اشمئزازك من الرائحة ومن المشهد المشين.. من طلب منك أن تفتح عالمه وخصوصياته؟ ومتى يدخل الإنسان الحمام إذن؟

لكن (هدى) لا تتراجع عن عادة الفضول وعادة الكبرياء.. فقط هي تدور كالنحلة المكتنزة في أرجاء الفندق، ثم تعود دومًا إلى بيتها أمام الكاونتر تلتقط أنفاسها وتحكي لي شيئًا جديدًا..

- «المرأة في الغرفة 304.. إنها تدخن الغليون!.. تصور هذا؟.. مجموعة كاملة من الغلايين في الدرج..».

- «الرجل الشاحب في الغرفة 171.. الذي جاء أمس مع زوجته.. لديه مجموعة غريبة من المقالات التي تهاجم الحكومة... أعتقد أنه ينتمي لتنظيم ما».

- «تلك المرأة في الغرفة 203.. أعتقد أنها تخون زوجها.. ما الدليل؟.. عيناها خائنتان.. هذه أمور تعرفها النساء ولا يفهمها الرجال لأنهم حمقى».

ثم تضرب كفًا بكف وتبتعد....

هل كانت (هدى) تميل لي؟.. لا أعتقد لو كنت تتكلم عن الميل الذي هو اسم تدليل للحب.. كانت تميل لي كما تميل أنت إلى بواب البناية العجوز.. شخص تتكلم معه ويشعرك بقدر من الدفء البشري.. لكنك لن تتزوج البواب العجوز ولن تكتب عنه قصائد الشعر.. هذا يجب عن سؤالك..

منذ يومين جاء إلى الفندق سائح بريطاني.. بريطاني جدًّا لو أردت

الدقة... صموت مهذب سمج قليلاً.. اختار غرفة أعتقد أنك صرت تعرفها إلى حد ما.. الغرفة 207..

لا أريد أن أكون طفلاً.. هناك كثيرون يختارون هذه الغرفة ولا يحدث لهم شيء، أو - إذا أردت الدقة - لا نعرف أنه حدث لهم شيء.. لكنني ما زلت أنقبض وأتوتر عندما أرى هذا الرقم مكتوباً في مكان ما..

هكذا أقام الرجل في تلك الغرفة، وكان يومه منتظماً.. يخرج في السادسة صباحاً إلى البحر.. يعود في موعد الغداء.. يختفي في غرفته حتى السابعة مساءً ثم يخرج من جديد ليعود في الواحدة صباحاً..

يبدو أنه لا يعرف من اللغة الإنجليزية سوى كلمتين هما :
- «مورننج.. إيفننج».

هكذا لم نعرف عنه الكثير، وهو لم يعرف عنا الكثير.. فقط يمكن أن تراه في المطعم يلتهم طعامه شارد الذهن وجواره كتاب عن علم المصريات يلقي من حين لآخر نظرة إليه..

فقط كان واقعاً ذات مرة عند الكاونتر عندما دنا منه شاب مصري متحمس وتبادل معه حديثاً شغوفاً.. كان الفتى منبهراً يرتجف انبهاراً بينما صديقنا البريطاني سمج كأفراس النهر يرد بتحفظ.. ثم أخرج قلماً ووقع للفتى المصري على كتاب قدمه له..

لما انصرف وحدثها فرصة لأعرف عنه شيئاً، فسألت الفتى المصري :

- «من هذا؟.. لا أعتقد أنه ملكة بريطانيا فهي لا تبدو كهذا...».

قال الفتى وهو يتأمل الكتاب بانبهار:

- «(آرثر ماكجريفن).. إنه كاتب بريطاني مهم.. يجب أن تفخروا بوجوده في الفندق...».

قلت في لا مبالاة:

- «يقال إن هذا الفندق استضاف (مونتجمري) يوماً ما عندما جاء يستعيد ذكريات العلمين.. لكن ما الفارق؟.. لقد جاء (ماكجريفن) هذا.. بقي.. (ماكجريفن) سيدفع الحساب ويذهب..»

ثم سألت الفتى:

- «كيف عرفته؟.. لا تقل لي إنها الصورة على غلاف كتبه».

- «أنا صحفي وحيث خصيصاً إلى مرسى مطروح لأقابله.. المفترض أن هذه الزيارة سرية».

- «لهذا بدا عليه أنه لا يرحب بك على الإطلاق...».

إذن ما زال هذا الفندق العجوز قادراً على جذب كاتب من وزن هذا

ال... هذا ال... نسيت الاسم للأسف.. المهم إن هذا الفندق أكثر أهمية مما ظننت..

أخبرت (هدى) بذلك عندما جاءت إلى الكاونتر لتثرت قليلاً.. وكان هذا خطأ جسيماً كما ستعرف...

(هدى) كانت فضولية..

لهذا يمكنك أن تتصور ما حدث..

العاشرة صباحاً والعربة ذات العجلات تزحف عبر الممر في الطابق الثاني.. الغرفة 211.. 209.. تدخل وتقوم بالتنظيف وترتب الفراش، وتلقي نظرة فضولية على كل شيء ثم تغادر الغرفة..
الغرفة 207..

تذكر ما قلته لها.. هناك كاتب بريطاني شهير يقيم هنا.. لم تكن من هواة القراءة، وكان الأدب البريطاني آخر شيء يشغل بالها، لكنها على كل حال قررت أن هذه الغرفة تختلف.. اليوم تراها بعين جديدة..
هكذا دخلت لترى المشهد المعتاد.. الفراش غير المرتب والمنامة ملقاة عليه.. منه جوار الفراش.. خزانة الثياب مفتوحة.. فقط هناك كومود مغلق بالمفتاح حرصاً على ما فيه من أشياء مهمة.. لا.. ليست مالاً وإلا كان الرجل أحرق.. أشياء كهذه تحفظ لدى إدارة الفندق..

الشرفة مفتوحة ومنها ترى البحر وقد بدأ يزدحم بالسباحين.. كانت قد ملت مهنتها لدرجة أنها بالفعل صارت تكره البحر وتشعر بأنه سخيف ممل متصنع إلى حد ما.. يتصور انه ما دام يقذف الأمواج فهو طريف..

ألقت نظرة على خزانة الثياب فلم تجد ما يهم.. ألقت نظرة على الحمام فلم تر إلا آلة حلاقة ملوثة بالصابون موضوعة في الحوض.. بعض أقراص الدواء في شريط.. لا شيء..

على المنضدة الموجودة جوار الفراش كانت مجموعة من الأوراق.. ومفتاح!

لم تجسر على الأمل.. مدت يدها بالمفتاح وعيثت في الدرج.. سمعت صوت (كليك) المفتاح بينما الآلة تستجيب.. لقد انفتح!

كان الدرج خالياً إلا من مجموعة أوراق.. هناك صورة ممزقة إلى أشلاء عليها وجه امرأة على ما بدا من قصاصات متناثرة.. امرأة شقراء غربية..

مفكرة... مدت يدها لتصفحها..

هناك ملاحظات بالإنجليزية بخط لا يقرأ.. هناك أشكال غير

مفهومة.. دنت أكثر وتفحصت الأوراق فوجدت لفظة إنجليزية لم تفهمها لكنها واضحة الكتابة :

Tetragrammaton

ما معناها؟...

كان الهاتف على الكومود، وهي تعرف أنني في الاستقبال.. تصادف أن هذه نوبتجيتي.. رفعت السماعة وقالت لي:
- «ما معنى تت... تترا.. تتراجراما.....تتراجراماتون؟».

قلت لها في برود:

- «هل قال لك أحد إن شكسبير يعمل موظفًا للاستقبال هنا؟.. طبعاً لا أعرف.. لكني أتمنى لو عرفت أين أنت وما كل هذا الحماس؟».

- «أنا في الغرفة 207.. نعم.. لقد فتحت الدرج فوجدت صورة امرأة شقراء ممزقة.. لا.. الصورة هي الممزقة وليست المرأة.. هناك مفكرة فيها هذه الكلمة ويبدو أنها مهمة..».

قلت لها لائماً:

- «فضولك معروف لكنه تجاوز الحد.. يوشك علي أن يتخذ طابعاً جنائياً.. أرجو أن تعيدي كل شيء لمكانه وتأتي حالاً..».

قالت بلا اقتناع:

- «معك حق..».

ووضعت السماعة..

كيف كان لي أن أعرف أن الدرج لم ينغلق؟.. يبدو أنها أغلقته بعصبية فانكسر المفتاح في القفل وبقي مفتوحاً للأبد!

في الواحدة بعد الظهر اتصل بي الخواجة (مايكل) المدير طالباً أن أصعد إلى مكتبه..

توجست خيفة لأن العجوز لا يطلبنا إلا لحدث جلل.. إذن هو الرفت أو الخصم حسب مزاجه.. اتجهت إلى مكتبه لأقابل رأسه العملاق المطل من فوق المكتب.. الجسد الضئيل الذي لا يظهر البتة والعينان الزرقاوان الباردتان..

نظر لي بتلك النظرة التي أخافها وسألني:

- «مزعلين (هدى) ليه يا (جمال)؟».

هنا لاحظت للمرة الأولى أن (هدى) تقف على بعد خطوات، وكانت دامعة العينين محمرة الأنف.. ماذا حدث؟

هنا صاحت (هدى) في هستيريا:

- «لم يضايقني أحد يا خواجه.. أقسم لك».

نظر لي وقال:

- «فجأة جاءت مكتبي تبكي وتولول.. إنها مصرة على الاستقالة الآن.. تطلب تسوية حسابها وإلا فهي لا تريده.. أنا لم أر هذا المشهد من قبل إلا ثلاث مرات، وفي كل مرة كان العاملون بالفندق أولاد الحرام هم السبب.. انتم تتحرشون بالفتاة المسكينة وتقرصونها في مؤخرتها.. لا تكذب!».

مؤخرتها؟.. مع كل هذه البدانة التي تتمتع بها (هدى) لا يستطيع أن يقرصها إلا بلدوزر.. ومع صرامة وجهها المتعالي يستحيل أن يتحرش بها إلا (راسبوتين) نفسه..

قبل أن أجيب عادت هي تدافع عني بحماس..

- «لا ذنب له.. لا ذنب لأحد.. فقط هناك أسباب قوية يا خواجه.. أرجوك أنا لا أستطيع شرحها.. فقط أرجو أن ننهي كل شيء الآن..».

عاد ينظر لي في عدم فهم.. ومن جديد قال:

- «لماذا وعدتها بالزواج وتخلت عنها أيها الخنزير؟.. أمثالك يجب أن يجلدوا بالسياط».

من جديد كدت أفتح فمي، لولا أن هبت (هدى) تؤكد أنه لم يتحرش بها أحد ولم يقرصها أحد ولم يعدها أحد بالزواج. فقط هي تريد أن ترحل..

نظر إلى عم (مينا) المحاسب العجوز الذي وقف على بعد خطوات يراقب المشهد، وأمره بأن يسوي حساب هذه البائسة.. ثم....

- «تفضل..».

قالها لي في اشمئزاز مشيرًا بكفه نحو الباب.. ثم أردف:

- «حسابك بعدين!».

هكذا خرجنا من المكتب نضرب كفاً بكف.. من ضايقك يا فتاة؟.. كنت في خير حال صباح اليوم.. ماذا جرى؟.. يمكننا أن نسوي الأمور..

لكنها كانت تقاطعنا صائحة في هستيريا:

- «لا أريد أي شيء سوى الرحيل..».

الغرفة 207!.. عندما تسألني عن تفسير أي سلوك غير منطقي فإنني أذكرك بتلك الغرفة اللعينة التي لا بد منها في كل قصة غامضة.. نحس الغرفة قد حل بالفتاة بلا شك..

طبعًا سوف أريحك من تفاصيل ما دار مع الفتاة ما دام لن يخرج عن محاولات إقناع فاشلة، وإصرار لا يتزعزع على الرحيل وعدم التفسير معًا..

في النهاية أخذت (هدى) حقائبها وسرعان ما كانت تخرج من الفندق ومن (مرسى مطروح) ومن حياتنا.. بلا رجعة.....

كنت حائراً.. عشت هذا الموقف ألف مرة، لكنني لم أره من قبل بهذه السرعة الدرامية وهذا الغموض، وقد قال لي عم مينا ونحن واقفان على الباب الزجاجي نراقب الطريق:

- «بينني وبينك.. أنا أيضاً أعتقد أنكم تحرشتم بها.. أنتم مجموعة من أولاد الحرام فعلاً، ولا يمكن أن تحتفظ فتاة بكرامتها بينكم..».

ثم نظر لي في اشمئزاز وبصق على الأرض وقال:

- «تقرص فتاة في مؤخرتها؟.. هل هذا تصرف يقدم عليه رجل عاقل ناضج؟».

وانصرف.. لقد صدق نظرية المدير حتى بدأت أشك في نفسي.. يبدو أنني سبب رحيلها فعلاً وأنني أقرص فعلاً... كأنه ليس هناك أي موظفين في هذا الفندق غيري.. أو ربما الجميع محترمون مهذبون لا يقرصون وأنا الوغد الوحيد..

لكنني كنت أعرف..

الغرفة 207..

هذا آخر مكان كانت فيه الفتاة... آخر ما رآته.. السبب الذي جعلها تقرر الرحيل..

هل عاد ذلك الكاتب البريطاني من الشاطئ؟.. بالتأكيد عاد وتناول الغداء.. فهل شعر بأن هناك من عبث في غرفته؟.. هل اتهمها بشيء؟.. هل رغبت في الرحيل قبل أن يتهمها؟

الاحتمال الأخير أقرب للصواب، لكنني يجب أن أطلق طلقة اختبار....

(هدى) كانت فضولية..

كذلك كنت أنا..

لا أعني أنني مولع بتفتيش حاجيات النزلاء، لكنني أرغب بالتأكيد في معرفة سبب رحيلها المفاجئ..

هكذا انتظرت حتى ظهر ذلك البريطاني الذي نسيت اسمه.. (آرثر شيء ما).. لا بد في كل مرة أن أفتح الدفتر لأتذكر.. كان متجهًا نحو الكاونتر مرتديًا قميصًا صيفيًا واسعًا وسروالاً مريحًا وصندلاً.. ناولني المفتاح فألقيت الطعام الأول:

- «هل الغرفة جيدة؟.. هل هي مأمونة؟».

نظر لي في حيرة فقلت على الفور:

- «كل شيء في موضعه؟...».

هز رأسه وهو يفكر في معنى كلامي.. ثم قال وقد تذكر:

- «المفتاح مكسور في درج الكومود.. أرجو أن ترسل من يصلحه..».

هكذا فهمت.. أعرف من فعل هذا وأعرف أنه افترض على الفور.. أول من يتجه له الشك هو خدم الغرف.. على كل حال هزرت رأسي وكتبت مذكرة بذلك مع وعد بأن أرسل له (الكوالينجي) أو النجار فوراً..

مددت يدي إلى ورقة على الكاونتر وضعتها أمامه وسألته في براءة:

- «هذه اللفظة.. Tetragrammaton.. قابلتني أثناء القراءة ولم أدر معناها.. هل يمكن أن تساعدني؟».

نظر لي في برود.. لو كنت قد فاجأته فهو ممثل بارع فعلاً.. تأملها بعض الوقت، ثم قال:

- «إنه شيء يخص الديانة اليهودية.. لا تشغل بالك بهذه التفاصيل.. أين قرأتها؟».

- «لم أعد أذكر..».

- «هذه تفاصيل دينية لا تهم إلا الحاخامات.. دعك من هذا.. المفتاح!».

وناولني المفتاح وابتعد....

ظلت أمارس عملي غارقاً في التفكير.. هنا سمعت من يصغر ماراً بي.. كان هذا هو الصحفي الشاب المصري الذي يتردد على فندقنا أكثر من اللازم..

توقف عند الكاونتر وسألني عن أخبار الكاتب البريطاني..

- «مما يثير جنوني أن آتي وأرحل من دون أن أجري حواراً معه.. كانت فرصة ذهبية.. لكنه غير ودود على الإطلاق.. سوف أحاول غداً أن أحاصره على الشاطئ..».

هنا سألته فجأة:

- «أعرف أنه يكتب.. لكن يكتب أي شيء؟.. شيكات؟».

- «إنه من المهتمين بالميثولوجيا.. الديانات القديمة.. الأساطير.. لكنه اكتسب بريقاً إعلامياً لا بأس به في الخارج».

- «ما هو الـتتراجراماتون Tetragrammaton؟».

قال ضاحكاً وهو يشعل لفافة تبغ:

- «الاسم السري للرب في الديانة اليهودية.. هذا هو مجال عمله فعلاً.. إنه اسم رباعي يؤمن اليهود أن من يعرفه يستطيع السيطرة على شياطين الكون وعلى العالم السفلي.. لهذا يستعملون أسماء

(إلوهيم) و(جيهوفاه) كي لا ينطقوا الاسم الأصلي..».

- «هل تعني أنه سر محرم؟».

- «إلى حد الموت أحياناً... نعم.. لكن الأمر كله يتعلق بالسحر الأسود.. كلام فارغ من هذا القبيل».

رحت أفكر في معنى هذا..

وفي هذه اللحظة شعرت بحركة غير طبيعية.. كانت فنتان من المضيفات تجريان في اللوبي وهما تبتكيان.. ظهرت واحدة أخرى تغطي فمها بيدها لتكتم صرخة، وعيناها متسعتان رعباً، بينما النزلاء ينهضون مذعورين غير فاهمين ما يحدث.. واحدة رابعة ارتمت على صدر الثالثة وانفجرت في البكاء..

واحدة سقطت مغشياً عليها فراحوا يرشون وجهها بالماء..

مشهد مسرحي بديع، وله طابع إغريقي محب للنفس.. فتيات يأتين من كل أرجاء المسرح باكيات ثم يرتمين على الأرض ويغطين وجوههن، بينما شعورهن تنتثر هنا وهناك.. لن أندesh لو ظهر أوديب الآن من مكان ما... لكن ما معنى هذا المشهد؟

هنا سمعت لفظة (هدى) تتردد.. مع عبارة (يا حبيتي) مراراً.. بقدمين عاجزتين عن حملي دنوت من (رعدة) المضيفة السكندرية وسألتهما عما حدث فقالت باكية:

- «المستشفى اتصل بنا.. حادث وقع لـ (هدى) لدى رحيلها.. انقلبت السيارة بها.. نقلوها للمستشفى لكنها لفظت أنفاسها الأخيرة منذ ساعة ولم يعرفوا منها إلا أنها تعمل هنا..».

- «تعين أنها...؟».

- «قلت لك إنها ماتت!.. يا لك من غبي!.. المسكينة كانت تتعجل الرحيل لا عن الفندق بل عن الحياة كلها.. لعلها أرادت أن ترى أهلها قبل.....».

ثم انفجرت من جديد في البكاء:

- «يا حبيتي يا هدى!».

كان عقلي يعج بالأسئلة..

ما الذي جعل (هدى) تقرر الفرار فجأة؟.. هل الحادث صدفة فعلاً؟.. التراجراماتون لغز محرم إلى حد الموت.. هكذا قال الصحفي، والصحفيون يعرفون ما يقولون أو هذا ما يفترضه الناس.. الأوراق التي وجدتتها في الدرج.. هل كانت تحوي السر؟.. هل عرفته؟.. أم أن هناك من افترض أنها عرفته؟.. هل كان سؤالي للبريطاني زلة غبية؟.. هل اعتبرني أعرف السر الآن؟.. فقط أنا أعرف يقيناً أن الأوراق معه ولم يتركها في الغرفة..

(هدى) تلقت إنذاراً خفياً بأنها ستموت.. لهذا كانت شبه مجنونة وهي تطلب الرحيل وتتوسل من أجله..

لقد رأت الأوراق وعرفت أن نهايتها قريبة.. لكن ما الذي رآته فعلاً؟ كانت هناك في الدرج صورة شقراء ممزقة.. الصورة وليست الشقراء.. فما دخلها في القصة؟

قبل أن أقرر ما أفعله كنت آخذ المفتاح وأركب المصعد إلى الطابق الثاني..

أركض في الممر نحو الغرفة التي صرت أمقت منظرها على بعد خمسين مترًا.. أنا أعرف أن ذلك البريطاني الذي نسيت اسمه لن يعود قبل ساعتين..

نظرت حولي ثم أولجت المفتاح في قفل الباب..

دلفت إلى الغرفة المظلمة الباردة.. لقد كانت الشرفة مفتوحة..

أضأت الأباحورة جوار الفراش ونظرت إلى الكومود.. بالفعل كان الدرج مفتوحاً لأن اللسان الذي يغلقه كان محشوراً.. إنه خال.. طبعاً. لو كانت الأوراق مهمة فإن هذا البريطاني سوف يأخذها معه..

مددت يدي أعبت هنا وهناك في الضوء الخافت..

تتراجراماتون.. الاسم السري الرباعي الذي يجعلك تسيطر على الكون والذي يساوي حياة فتاة شابة..

هنا وجدت قصاصات صورة ممزقة.. الصورة التي وصفتها لي هدى على الهاتف..

جمعت القطع.. كأنني أجمع لغزاً للأطفال.. هذا عسير وشبه مستحيل.. لكنني على الأقل وجدت العينين والفم وجزءاً من الشعر..

ليست هذه صورة فتاة شقراء.. إنها فتاة سمراء.. فتاة سمراء بدينة لها نظرة حازمة متعالية..

هذه الصورة التي استقرت في الدرج لم تكن سوى صورة (هدى)!

زوجان

(سارة) الخبيثة مضيعة الفندق لا تترك شيئاً من دون تعليق..
قالت لي وهي تستند على الكاونتر وتراقب ذلك الرجل القادم من الباب:

- «هذا الرجل يدمن الحشيش.. أعتقد أن خدم الغرف سيشفون رائحة غريبة وهم ينظفون الغرفة صباحاً..».

أنظر لها حيث تقف هناك، متكورة على نفسها كقطة صغيرة لعبوب، وأقول في غيظ مصطنع:

- «من الغبي الذي قال لك هذا؟».

- «عيناها قالتا.. لو كنت لا تعرف عيني مدمن الحشيش فأنت أحمق..».

أهز رأسي لأسفّه ما تقول، وأبتسم للنزول الجديد الذي جاء يسأل عن غرفة.. لا يفوتني أن ألاحظ ذلك الثقل في كلماته والنظرة الناعسة الغارقة في الخمول في عينيه.. لو لم يكن هذا مدمناً فأنا لا أفقه شيئاً.. هذه الفتاة تلاحظ جيداً فعلاً..

ثم ينصرف الرجل، فيظهر على الباب ذلك الشاب النحيل ذو العوينات، فتقول (سارة) دون أن تغير وضعها :

- «وهذا؟.. الشاب الخجول الشاعر الذي يهيم بي حباً لكنه لا يجسر على التصريح.. سوف يكلمك ثم يدير رأسه بحركة شبه عفوية ليختلس نظرة لي، لكنه سيفاجأ بأنني أرمقه كالصقر، من ثم يلمس إطار عويناته متظاهراً بأنها مصادفة، ويعود للكلام معك».

- «أعتقد أنه سينظر لك جلسة مندهشاً من مدى تدهور ذوق هذا الفندق في اختيار العاملات به..».

يتقلص وجهها في ضحكة استسخاف واستخفاف معاً وتقول:

- «هي هي هي.. طريف..».

يدنو الشاب منا - وهو نزول بالفندق منذ يومين على فكرة - ويسألني عن أشياء عدة، ثم يتظاهر بأنه يدور برأسه في حركة طبيعية.. يلقي نظرة على (سارة)، لكنها تقابل عينيه بنظرة ثابتة مقتحمة.. لقد كانت مستعدة.. هكذا يلمس إطار نظارته في حرج ويلتفت لي بسرعة ويعود للكلام..

لما انصرف استدرت إلى سارة في دهشة وسألتها:

- «كيف خمنت هذا كله؟».

قالت دون أن تغير وقفعتها:

- «لأنه قال لي أمس إنه يحبني! كتب قصيدة من أجلي!..».

- «يا لك من شيطانة!... قلت إنه لا يجرؤ على التصريح، وإنه نموذج العاشق الصامت..».

- «كنت أكذب.. أردت أن اثير غيظك لا أكثر.. على فكرة هو يلمس إطار عويناته دومًا كلما تعلق الأمر بالجنس الآخر!».

وفي اللحظة التالية تنطلق كالقطة لتمارس عملها قبل أن يراها مشرف العاملين أو يمر الخواجة ليخرب بيتها..

قلت لكم إنها شيطانة حقيقية..

تقول لي (سارة) وهي تنظر إلى مدخل الفندق:
- «العريسان الجديدان!».

فأنظر إلى المدخل لأرى اثنين من الجمالين منهمكين في وضع مجموعة حقائب على عربة يد، وهناك ذلك الشاب فارغ الطول ضخمة الجثة.. ربما يشبه ابن عمي نوعًا لكن مع فارق صحي هائل.. جواره تلك السيدة التي تضع على رأسها قبعة من الخوص، وتلبس نظارة سوداء وقفازين أبيضين طويلين لا مكان لهما في هذا الحر.. هناك نوع من الحيوية والحماس والتفاؤل في منظرهما يوحي لك بما قالته (سارة)..

من جديد همست الشيطانة في خبث:

- «إنه منبهر بها تمامًا.. واقع بالكامل تحت سيطرتها..».

قلت في غيظ:

- «هل عرفت هذا من مشيتهما؟».

- «لا.. لاحظ أن أغلب الحقائب تحمل طابعًا نسائيًا.. لاحظ الحقيقة المعدنية التي يحملها، والتي لا يمكن أن تحمل سوى أدوات ماكياجها.. المفترض أن تحملها هي.. هي فتاة مبهرجة أنانية مهتمة بنفسها، وهو حيوان واقع في مصيدة الافتتان بها..».

هنا أشرت لها كي تصمت لأن ذلك العملاق المنبهر قد وصل إلى الكاونتر ووقف يلهث.. كان وسيماً له ملامح قوية لكنه من النوع الذي يحمل طباع الثيران.. عيناان متسعتان فيهما رعب وجنون وغضب.. هذا الرجل يتشاجر مائة مرة في الساعة ولا بد أن يضرب بقبضته في نصف هذه المشاجرات..

الفتاة كانت أقرب إلى قط شرس مزعج.. كتلة من المتاعب تمشي على قدمين.. على وجهها تعبير دائم من القرف و(لم أتوقع أن يكون الأمر بهذا السوء).. أي أمر؟.. كل شيء... عندما نزعّت النظارة السوداء كانت عيناها الخضراوان تعطيانها طابع النمر فعلاً.. أعتقد أنها كانت جميلة وانها تملك ما يبرر هذا الاستعباد الجنسي للفتى،

وإن لاحظت أنها شاحبة بشكل لا يمكن وصفه.. إما أنها من أسرة ذات لون بشرة غريب وراثيًا، وإما إنها تعاني ألغن حالة فقر دم رأيتها في حياتي..

ابتسمتُ له ابتسامة مهنية وقلت:

- «عريسآن جديدان.. شهر غسل.. هه؟».

ابتسم ابتسامة بدت كأخدود يرتسم على وجهه القاسي، وقال:

- «نعم.. نعم.. لقد حجزنا منذ شهر هاتفياً.. لقد تزوجنا منذ ثلاثة أي...».

هنا قاطعته الفتاة في عصبية وبلهجة أمرة:

- «(محمد).. فلتنه الإجراءات. ليس من شأنه أن نحكي له قصة حياتنا!».

قال في حرج:

- «كان يسأل فقط.. ليس هذا...».

- «ليس عمله أن يسأل.. هلم انتة بسرعة..».

احمرت أذناه وراح يخرج هويته.. لا أتمتع بفراسة خاصة لكن توقعاتي كانت صادقة إلى حد لا يوصف.. حياة هذا الفتى ستكون سلسلة من الاستعباد، لكنه سينال من حين لآخر قبلة أو ابتسامة رضا فيكتشف أن الحياة رائعة، وأن هذا أفضل العوالم الممكنة.. إن هذه البنية العملاقة تحتاج إلى الجنس بوفرة. الكثير منه. لهذا يمكنه أن يغفر الكثير لـ (موضوعه الجنسي) على رأي الخواجة فرويد..

إلى أن يتسرب الملل لحياتهما طبعًا!

بدأت أملاً البيانات من بطاقته التي لم تصر عائلية بعد..

(محمد السماحي).. مدير شركة دعاية.. 29 سنة.. قاهري.. بطاقة السيدة تقول إنها (مها الغندوري).. من دمنهور.. 24 سنة.. هناك قسيمة زواج ألقيت عليها نظرة ثم أعدتها له..

لم أجد غرفة خالية سوى.. سوى الغرفة 207.. المشكلة في هذه الغرفة أنها تروق لمن يراها أول مرة دائماً.. لم يدخلها احد وطلب مني تغييرها.. إن منظور البحر من شرفتها مهيب حقًا.. لهذا عرفت انهما سيحبان هذه الغرفة.. هذه اللحظة فقط..

يجب أن اعترف أنني لم أحبهما قط.. مسحة التعالي هذه مع السماحة وثقل الظل.. إنهما ينتميان لطراز الأرواح الغبية التي تعرف أنك لن تفهمها ولن تفهمك أبدًا.. كل هذا جعلني اشعر بلذة خفية لأنهما قد يجربان شيئًا ما في الغرفة 207.. هذا ما يستحقان..

هكذا انصرفا نحو المصعد.. يحمل صندوق الماكياج كأنه حلاق يحمل عدة الصنعة..

التفتت إلى (سارة) التي لم ترفع عينها عنهما قط، وابتسمت لها في خبث فبادلتني الابتسامة..

قلت لها وأنا أغلق الدفتر:

- «كالعادة.. فراسة لا تفشل أبدًا.. لابد أن لك جدًا من قبيلة (بني سليم)».

- «قبيلة ماذا؟».

- «تلك القبيلة العربية القديمة التي اشتهرت بالقيافة والفراسة.. لا عليك.. ما رأيك في تلك المرأة القادمة إلى هنا؟».

التفتت (سارة) لتحقيق انتصارًا آخر بعد ما فتحت الدماء شهيتها للمزيد.. المرأة القادمة كان تميز طرازها سهلاً.. شعر أشيب.. أرستقراطية.. وقور..عصبية.. إنها من ذلك الطراز من البشر الذي.....

ينظر إلى الأرض ويصرخ!!

بالفعل سمعنا صراخها وهي تشير إلى الأرض وتهتف بلغة عربية ملوثة بالفرنسية:

- «من أين جاء هذا الدم؟.. مون ديو.. هل هناك من جرح هنا؟!!!».

قطرات الدم الحمراء التي تتناثر على سيراميك المدخل والبساط الفاخر في اللوبي.. كم إن منظرها مرجف يدعو للتوحس!!.. يمكنك أن ترى أنها تتجه في خيط شبه متصل نحو المصعد..

ناديت عامل النظافة وهو - وقتها - شاب من الزقازيق يدعى (شعبان).. طلبت منه أن يمسح هذه القطرات بسرعة.. ليس من شأن فندق محترم أن تتناثر قطرات دم في مدخله..

كانت القطرات متباعدة توحى بأن صاحبها لم يكن ينزف بغزارة، أو إنه كان يمشي بسرعة.. على كل حال لا أذكر أن هناك من كان ينزف، ومن الصعب أن تعرفه لأن العشرات دخلوا وخرجوا من هذا المصعد.. ما لم يطلب أحد عونًا أو يطلب الإسعاف فلن تعرفه أبدًا..

قالت (سارة):

- «على الأرجح هناك من جرح يده وهرع إلى غرفته ليعالجها، وهذا يدل على إن الإصابة طفيفة».

نعم.. أوافقك.. لكن لكم توترت!!.. غريب شأن هذا السائل الدم، ولكم من معان يبعثها وهو داخل العروق وخارجها.. إنه يرمز للحياة والصحة ما دمت لا تراه، فإذا رأيته فنحن نتحدث عن الموت والجراح والمستشفيات والأطراف المبتورة والصدمة و...و..

طلبت من (شعبان) أن ينظف المصعد لأنه على الأرجح سيجد تجمعاً من القطرات فيه، ثم عدت أوصل عملي..

في الثالثة عصرًا ساد الهدوء المكان.. لقد رحل من رحل وسكن غرفته من سكن.. الفترة الهادئة التي أنعم فيها بالسلام ما بين الـ Check in والـ Check out..

جلست أحل الكلمات المتقاطعة في الجريدة.. هنا دق جرس الهاتف..

كانت هذه هي الغرفة 207.. العريسان ثقيلًا الظل..
جاء صوت الرجل يسألني من دون تحيات ولا استئذان:
- «هل يوجد ثلج هنا؟».

سؤال غريب.. ما لم يكونا راغبين في شرب الشمبانيا على طريقة أفلام يوسف بك وهبي.. القفاز الأبيض والتفاح.. قلت له:
- «هناك ثلاجة في الغرفة.. ألا تعمل؟».
قال في ضيق:

- «تعمل.. لكننا بحاجة إلى كمية أكبر.. الطقس حار فعلاً..».
- «سيدي.. هناك جهاز تكييف في الحجرة.. لم نسمع قط عن نزيل يطلب ثلجًا من أجل.....».
قاطعني في حدة:

- «أنت لن تجري معي تحقيقًا.. هل هناك من يجلب لنا ثلجًا؟..
اشتره من أي مكان وأضف الثمن إلى الفاتورة».
كنت أعرف أنه قصير الفتيل، ولن يلبث أن ينزل ليفتك بي لذا قررت أن أطيعه..

وضعت السماعة شاعرًا بالحيرة والغیظ.. ليست هذه من مهام عملي، لكنني برغم هذا مكلف بأن أريح النزلاء.. هكذا ناديت الفتى (شعبان) وقلت له بلهجة رسمية سريعة إنني راغب في أن يتناح بعض الثلج ويحمله إلى الحجرة 207 حيث ينتظره عريسان جديان في لهفة..

- «لكننا لم نسمع قط عن.....».
قلت في عصبية:

- «اسمع.. كل هذه الحجج أعرفها وسمعتها ولا رد لي عليها..
فلتفعل ما أطلبه ولتأخذ بقشيشًا لا بأس به.. لا تستغزه لأنه من النوع فاقد التحكم نهائيًا في أعصابه».

هز رأسه في عدم اقتناع وغادر الفندق...
بعد عشر دقائق عاد وهو يحمل شيئًا ضخماً ميتلاً على كتفه لفة

في خيش وقماش.. طلبت منه طبعًا أن يستخدم السلم الخلفي لأن المنظر غريب بما يكفي..

هكذا صعد وغاب بضع دقائق، ثم عاد ليجلس جوارى في الاستقبال.. سألته عما حدث، فقال:

- «لم أدخل الحجرة.. فقط ظهر الرجل وأخذ مني ما حملته ودس بعض العملات في يدي.. كان يبدو ملهوفًا قلقًا..».

ثم مال يسألني في خبث وقد بدت على وجهه مخايل الأوغاد:
- «قل لي.. أنت رجل متزوج.. لماذا يحتاج عريسان جديان إلى ثلج؟».

نظرت له في غباء.. طبعًا لا أعرف.. لا تقدر أسوأ خواطري ولا أكثرها جموحًا أن تجد تفسيرًا.. لكنه كان مصرًا علي أن العلاقة قوية وإن كان لا يعرفها، وانني لا أفقه شيئًا في هذه الأمور برغم زواجي..

التفسير الجنسي للتاريخ.. تلك هي طريقة تفكير الناس جميعًا..
كأن العريس الجديد لا يصاب بالتهاب في اللوزتين ويحتاج إلى كمادات، أو يشتري سمك ثعبان يخشى أن يفسد بينما الثلاجة لا تتسع له.. أي شيء..

في الخامسة عصرًا اتصل بي نزيل الغرفة رقم 205 شاكيًا من أن رائحة الطابق كريهة..

- «إنها لا تُطاق.. كأن هناك جيفة.. لا بد أن هناك قطعة ميتة في مكان ما..».

قلت للفتى (شعبان) أن يصعد ويعرف مصدر تلك الرائحة.. لا بأس من أن يرش بعض الفينول..

- «ولماذا أنا بالذات؟».

- «لأنك هنا أمامي.. هيا».

بعد ربع ساعة اتصل بي نزيل الغرفة رقم 209 ليقول إن هناك رائحة تضايق أطفاله.. فوعده بأننا سنحل المشكلة حالًا...

بعد قليل عاد (شعبان) منهكًا فارتدى على مقعد جوارى، ولم يتكلم لفترة.. سألته عما هنالك، فقال:

- «لا شيء.. كانت هناك رائحة كريهة فعلاً لكني لم أعرف مصدرها، وقد اختفت فجأة بقدرة قادر.. لا توجد قطط ميتة. المشكلة انتهت على كل حال..».

كنت قد جربت هذه المشكلة من قبل، وكان سببها حيوانًا ميتًا استقر في إحدى فتحات التهوية.. لا بد لك أن تكون ذا خيال واسع في هذه المهنة.. لكن على قدر علمي لا تزول هذه الروائح من تلقاء نفسها.. سوف أبلغ فني التكييف غدًا...

هكذا انتهى هذا الموقف...

ما حدث بعد هذا ووجدته غريبًا جدًا هو أنني لم أر العريسين قط لمدة ثلاثة أيام.. هما دوماً في غرفتهما.. فقط يطلبان المزيد من الثلج.. الأكل يُحمل لهما في الغرفة.. الصينية توضع أمام الباب.. لافتة (لا تزعجني) على الباب طيلة الوقت، مع طرد كل عاملة نظافة تفرع الباب في فترة النهار..

وسألت (سارة) عن رأيها فابتسمت في خبث.. قالت كلامًا كثيرًا لئيمًا عن الناموسية الكحلية وما إلى ذلك.. هذان عريسان لذا لا يتوقعن أحد أن يغادرا الغرفة للأبد..

لكني لم استرح لهذا التفسير..

قمت بإرسال فني التكييف مرة والكهربائي مرة إلى الغرفة، لكن مصيرهما كان الطرد في كل مرة.. لا أحد يقدر على دخول تلك الغرفة..

جريت أن أتلصص عليهما من الشرفة المشتركة التي تحتاج إلى الوثب فوق ذلك الحاجز، لكن باب شرفتهما كان مغلقًا..

وقفت في الردهة أفكر.. ربما كان الأمر أبسط مما تصورت وكان هذان عريسين متحمسين لا أكثر، لكن شيئًا كهذا لم يمر بي في مهنتي من قبل.. لا بد من أن يخرج متشابكي اليدين ويمشيان على الكورنيش متظاهرين بالسعادة..

كنت مطرق الذهن أدير الاحتمالات في رأسي، عندما رأيت على الأرضية تلك البقع السوداء.. البقع السوداء التي كانت حمراء منذ أيام.. لا أحد يعني بغسل البساط في الردهة، وهذا يعني أن تلك البقع ظلت هنا منذ يوم مجيء هذين..

من الواضح تمامًا أن هذه البقع - قطرات الدم - خرجت من المصعد لتمشي في الردهة.. باهتة لا تلاحظها إلا عين تبحث عنها - لتغيب في الغرفة 207..

دائمًا الغرفة 207..

الشخص الذي كان ينزف دمًا كان واحدًا من هذين...

ما معنى هذا؟

عريسان صموتان.. قطرات دم نازفة.. باب لا يفتح أبدًا.. الكثير من الثلج.. الغرفة 207..

ورائحة عفنة!!

جالسًا إلى الكاونتر غارقًا في الأفكار السوداء، عدت أطلع بيانات

هذين العريسين.

(مها الغندوري).. من دمنهور.. أنا من دمنهور. الاسم يبدو لي مألوفًا بشكل غريب، لكن متى وأين؟...

لي صديق من دمنهور يدعى (عبد السلام الغندوري).. هذا اسم غير شائع فهناك احتمال لا بأس به أن تكون الفتاة قريبته.. أخرجت مفكرتي الصغيرة أبحث عن رقمه، ثم طلبته.. جاء صوته المنزعج يسأل عن المتكلم..

- «أنا (جمال).. (جمال الصواف).. لا تقل إنك نسيتني..».

دوى صوته يسألني عن حالي وكيف افتقدني.. الخ.. فقاطعته في نغاد صبر:

- «هناك نزيلة تدعى (مها الغندوري).. عندنا في الفندق منذ ثلاثة أو أربعة أيام.. هل هي قريبتك؟».

فكر قليلاً ثم قال:

- «لربما.. الأسرة كبيرة.. لو كان الأمر ملحقاً فلسوف أتقصي الأمر.. يمكنك أن تطلبني بعد ساعة».

- «إنه ملح فعلاً.. أرجو أن تولي الموضوع عنايتك. أ.. سلم لي على (مروة) و(هاني)».

قلتُها فقط لأتظاهر بأنني ودود ظريف.. فقال بلهجة عتاب:

- «إنهما ليسا (مروة) و(هاني).. إنهما (عفاف) و(ضحى)..».

و ما الفارق؟.. يريد أن اذكر اسم كل طفل لدى كل صديق لي.. المهم أنه عنده شخصاً ما وهذا الشخص له اسم..

- «ليكن.. ليكن.. تذكر يا (عبد السلام).. اسمها (مها الغندوري).. (مها).. هه؟».

كنت أتكلم وأنا منحن على الكاونتر.. عندما وضعت السماعة ورفعت رأسي وجدت أنني أحرق في العينين الحادثين المذعورتين لـ (محمد السماحي)!... العريس الغامض!

هل سمع المكالمة؟.. هل عرف أنني أسأل عن زوجته؟

لا أريد أن أكون موجوداً لو اتضح أن الإجابة نعم...

لكنه لم يبدأ بضربي.. فقط قال وتفاحة آدم تتواثب في عنقه:

- «صيدلية.. هل هناك واحدة قريبة؟».

- «هناك الكثير.. لكن.. هل هناك مشكلة ما؟».

فكر قليلاً ثم قال:

- «فورمالدهايد.. فورمالين.. هل أجده هناك؟».

- «يمكنك أن تسأل لكن.. لا أعتقد إنه يباع في الصيدليات.. ولكن لماذا؟».

قال في حدة وهو يكور قبضته:

- «هذا ليس من شأنك من فضلك...».

وسرعان ما غادر الفندق.. لا أعرف مشكلته لكنه في ورطة كما هو واضح من توتره..

هنا دق جرس الهاتف.. نزيل الغرفة رقم 205 من جديد يطلق الكثير من السباب.. في النهاية فُهمت مشكلته:

- «لو لم تجدوا حلاً لهذه الرائحة الكريهة فليسوف أغير فندقكم.. لكنني سأقدم بلاغاً لشرطة السياحة أولاً..».

الأمر تزداد سوءاً.. ناديت عاملي نظافة - (شعبان) لم يكن موجوداً - وطلبت منهما أن يصعدا للطابق الثاني ولا يتركا حجراً فوق حجر قبل معرفة مصدر الرائحة..

هكذا صعد الرجلان.. غابا بضع دقائق ثم دوى جرس الهاتف من جديد.. كان هذا صوت أحدهما يقول:

- «نعتقد أن الرائحة تأتي من الغرفة رقم 207 لكن النزيلة تأتي ان تفتح..».

- «سأتي حالاً..».

كنت أعتقد هذا على كل حال.. أنت تعرف أنني كنت أعتقد هذا.. ليس لأنني عبقرى، ولكن لأن أي شيء مريب يحدث في هذا الفندق يبدأ من الغرفة 207 او ينتهي فيها..

استقلت المصعد إلى الطابق الثاني ومشيت في الردهة حتى بلغت تلك الغرفة.. بالفعل كانت هناك رائحة عضوية قوية جداً مما دعم نظرية القط الميت في ذهني.. دققت الباب عدة مرات.. في النهاية سمعت صوتاً واهناً.. صوتاً غريباً متأكلاً من وراء الباب يقول:

- «لا تحاول فلن أفتح إلى أن يعود زوجي!».

قلت في كياسة:

- «سيدتي.. نحن نريد الاطمئنان على جهاز التكييف.. لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة».

قالت في حزم ولكن بذات الصوت الواهن:

- «لن أفتح.. لو حاولتم الدخول لأبلغت الشرطة..».

ثم انخرطت في سعال طويل حتى أوشكت أنا على الاختناق..

- «لا داعي لهذه التعقيدات.. سوف ننتظره..».

نظر لي أحد العاملين متسائلاً عما سنفعله فهزرت رأسي.. ليس

بوسعنا عمل شيء لأن ترك رائحة العفن أفضل بكثير من الفضيحة التي ستسببها لنا لو اقتحمنا الحجرة.. طلبت منهما رش بعض المبيدات والفينول إلى أن نتبين الأمر.

عدت إلى الاستقبال وأنا أتمنى أن ينتهي هذا اليوم..سوف اتصل بالخواجة (مايكل) طالبًا رأيه.. أعتقد أن الطرف الذي سيطلب الشرطة هو نحن..

نظرت إلى ساعتني ثم أعدت طلب (الغندوري).. هل توصل إلى شيء؟

قال في لا مبالاة:

- «أعتقد إنك مخطئ.. لا توجد في أسرتنا من تدعى بـ (مها الغندوري)»..

إذن أنا قد عدت لنقطة الصفر.. هنا واصل الكلام:

- «بعبارة أدق لم تعد هناك من تدعى كذلك».

- «لا أفهم»..

- «كانت هناك واحدة وقد ماتت.. بيني وبينك هذا كلام لا يُقال.. لكنها مأساة حقيقية.. فتاة مدللة في الرابعة والعشرين حاول أهلها أن يرغموها على الزواج من عريس لقطة من القاهرة يهيم بها حبًا.. مدير شركة دعاية.. تحدد موعد الزفاف.. بل إن العريس حجز فندق شهر العسل.. هنا قطعت الفتاة شرايينها وماتت.. انتحرت.. هل تريد معلومات أخرى؟».

كان رأسي يدور حتى شعرت بأنني سأفقد وعيي..

قلت له وأنا أتماسك :

- «لا شكرًا.. سلم على (عمرو) و(شريف)»..

قال بلهجة عتاب:

- «إنهما ليسا (عمرو) و(شريف).. إنهما (عفاف) و(ضحى).. من

الواضح إنك لن تكف عن عادة الغباء».

ناديت العاملين كي يلحقا بي.. وهرعت إلى الطابق الثاني. الغرفة 207 اللعينة.. بحثت عن (الماستر كي) ومددت يدي للباب.. وصحت: أنا المسئول الوحيد عن هذا العمل.. أنتما غير مسئولين..

صاح أحد العاملين:

- «لكن.. هذا سيجلب الكثير من المشاكل حتمًا»..

لكني لم أبال.. عالجت القفل واقتحمت الحجرة.. بالفعل لم أسمع صوت صراخ أو احتجاج... ما رأيناه سيظل في كوابيسي ما حيت.. فقط أذكر أن أحد العمال كان يفرغ معدته، وأن احدهما سقط على

الأرض وغطى وجهه، وأن الرائحة كانت كريهة إلى درجة أنني استطعت فتح عيني بصعوبة..

لقد تأخر الزوج عن إحضار الفورمالين.. تأخر أكثر من اللازم.. وفيما بعد عرفت إنه لم يعد به قط..

لو قلت إنني فهمت كل شيء، لكنت كاذبًا.. ما زال لغز هذه القصة يحيرني.. لكنني استجمعت أطرافًا عديدة.. أطرافًا عن العريس الذي انتحرت عروسه كي لا تكون له، لكنه صمم على أن تكون له برغم كل شيء، وعلى أن يتم شهر العسل في المكان والزمان المختارين.. شحوبها الشديد.. فغازان طويلان في عز الصيف.. قطرات دم عبر المدخل والمصعد وحتى الغرفة اللعينة.. محاولة إنقاذ الأنسجة بالثلج.. الرائحة الكريهة.. البحث المحموم عن الفورمالين.. لا أحد يغادر الغرفة حيث يقام الزفاف الشنيع الذي لم يخطر ببال الشيطان ذاته..

هناك انحراف جنسي شهير اسمه (النيكروفيليا) حيث يسرق المريض جثث الموتى ليعاشرها، وغالبًا ما يكون حارس مقبرة أو عاملاً في مشرحة، أو ربما يقتل ضحاياه بنفسه ليوفر المادة الخام.. كل أطباء النفس يعرفون (النيكروفيليا)، لكنهم لم يصطكوا بعد اسمًا لهذه التجربة التي شهدتها والتي ستفعم كوابيسي بالهول حتى الممات..

هدية أخرى رهيبة تقدمها لي الغرفة 207....

تلفزيون الواقع

- «التلفزيون تالف في الغرفة 207»..

يهرع الكهربائي (سليمان) إلى الاستقبال، ويقف جوارى على الكاونتر.. يدون بعض البيانات في دفتر صغير يحمله، ثم يخرج لفافة تبغ ويقدم لي واحدة أخرى.. يحكي لي دعاية بذيئة سمعها.. لا اذكر ما هي لكنني أضحك كثيراً..

أقول له أن ينتهي بسرعة لأن نزيل غرفة 207 لم يكف عن الشكوى..

ينظر لساعته ويطلق سبة.. من هذا المتحمس الذي يريد مشاهدة التلفزيون في الثامنة صباحاً؟.. كل خلق الله يتناولون الإفطار ويغادرون الفندق في هذا الوقت..

(سليمان) شاب نحيل صعيدي له لهجة محبة للنفس.. وهو يعرف أنها سر جاذبيته لذا لا يحاول تغييرها أبداً.. إنه قد اتخذ لنفسه خط دفاع ذكياً هو أن يكون صعيدياً جداً.. هذا يجذب الناس له على الفور..

قال لي وهو يستند على الكاونتر:

- «تلفزيون الغرفة 207؟.. هل تعني ما تقول حقاً؟».

- «بالتأكيد».

- «هل قمتم بوضع تلفزيون فيها؟».

هنا نظرت له في دهشة.. هذا حق.. منذ الحادث الأخير الذي سبب مأساً كهربياً في الغرفة منذ أسبوعين، لم نضع فيها جهاز تلفزيون، ولم يقم أحد فيها على كل حال.. (سليمان) لم يكن موجوداً وقتها لأنه كان عند أهله في قنا، لكنه عرف أن خللاً كهربياً مريعاً وقع فيها... لم أحك لك هذه القصة لكن ربما احكيها يوماً ما.. لو كان علي أن احكي كل حادث غريب وقع في الغرفة 207 لاحتجت إلى عدة مجلدات..

المشكلة فيما يتعلق بهذه الغرفة أن الناس تنسى، وأنه لا أحد يبقى هنا طويلاً... أمواج تعلو وتهبط.. تروح وتجيء.. لهذا لا يوجد تراكم خبرات.. الوحيد الذي يلعب دور الذاكرة وتتراكم عنده الخبرات هو العبد لله، وطبعاً عم (مينا) المحاسب و(مصطفى) عامل المصعد.. باختصار: الشيوخ الذين لا يصدقهم أحد..

من وضع جهاز تلفزيون في الغرفة؟.. ومتى؟.. لا أعرف.. لكنني لست العامل الوحيد في هذا الفندق.. لربما فعل ذلك آخرون..

قلت له أن يصعد ليرى التلفزيون وكيف عن الثثرة، وهكذا استقل المصعد.. بالطبع لا يحمل حقيبة على سبيل (الحرفنة).. فقط في

جيبه بكرة شريط لاصق، وهناك مفك اختبار في جيب قميصه..
الكهربائي الذي يحمل حقيبة أدوات يبدو بالنسبة له رقيقاً قليل
الخبرة.. لابد من أن يصعد ويكتشف أن المشكلة تحتاج إلى أدوات،
من ثم ينزل ليحضر أدواته ويعود.. لابد من ضوضاء و(أكشن) وذهاب
ومجيء.. هذه هي طريقته في الإحساس بالذات..

غاب بضع دقائق، ثم عاد ليجلس جوارى..

سألته عما هنالك فقال:

- «لا شيء.. التلفزيون يعمل جيداً.. إنه جديد.. فقط هما غيبان لا
يعرفان كيف يولغان القنوات..».

ثم تئأب ووقف قائلاً:

- «سأشتري بعض الفول والطعمية.. هل ترغب في أن أبتاع لك
بعضها معي؟».

- «للأسف لا.. موظف استقبال الفندق لن يقف على الكاونتر يأكل
الفول و(يدش) بصلة.. معنى هذا أن أطرده بعد عشر دقائق».

- «ولم لا؟... هل هؤلاء القوم لا يفطرون؟».

وغادر اللوبي خارجاً بينما واصلت أنا عملي..

بعد قليل دق جرس الهاتف.. سمعت صوتاً مبوحاً يسألني:

- «هل يمكن أن تغيروا التلفزيون في غرفة 207 أو تأخذه نهائياً؟..
إنه تالف..».

- «لكن الكهربائي قال إنه.. ليكن.. سوف أرسل من يبدله حالاً...».

ووضعت السماعة وبدأت الاتصال بخدم الغرف، حينما عاد الهاتف
يدق من جديد:

- «لقد غيرت رأيي.. أرجو أن تتركه..».

- «ليكن..».

هما إذن ليسا غبيين كما قال (سليمان).. هما مخبولان تماماً..

هكذا وضعت السماعة وتشاءبت.. لقد انتهت ورديتي، وأنا بانتظار
ذلك الشاب (وائل) والفتاة المبهرجة (عزة) كي يقعا مكاني..

هنا رأيت نزيل الغرفة 207 قادماً..

جاء أمس ... إنهما زوجان من القاهرة.. في الأربعين هما ومن
الواضح أنهما لم ينجبا بعد أو لم ينجبا قط.. الزوج مهندس يدعى
(محسن) وهو كما يوحى اسمه التقليدي فعلاً.. إنه من الطراز الذي
ينتجونه بالجملة بشاربه الكث ونظارته وبشرته السمراء، وهي
على قدر من الجمال وإن كانت غير سعيدة على الإطلاق. تسألني
كيف عرفت هذا.. بعد كل هذه السنين تصير هذه الأمور بديهية

بالنسبة لموظف الاستقبال.

هذان من القوم الذين يصطافون ليس لأنهم يريدون ذلك، بل للحفاظ على عادة.. على مظهر اجتماعي.. المهم إنهما يفعلان ذلك بينما لا يرغب أحدهما..

طلبا الغرفة 207 لأنها تواجه البحر، وقدرت أنه لن يحدث لهما شيء.. هما طبيعيان مملان فلا أتوقع أن تحب الغرفة اللعب معهما.. فقط يجب ألا يعرفا بأمر ذلك الحادث منذ أسبوعين.. هذا شيء طبيعي.. لكنني أعتقد أن المرء لو بحث جيداً لوجد منتحراً أو قتيلاً سبقه في كل غرفة فندق في كل مكان من العالم.. معنى التشاؤم والتطير في مهنتنا أن ينتهي بيزنس الفندق.. برغم هذا ما زلنا حريصين على ألا تأخذ غرفة رقم 13.. حريصين على ألا يعرف أي مخلوق ما نعرفه عن الغرفة 207 ...

جاء نزيل الغرفة 207 إلى مكاني، فhez رأسه محيياً واستند على الكاونتر وتثاءب وقال:
- «خزانة الثياب..».

آه ه!... لم أتوقع هذا!.. إنه يقترب كثيراً جداً من منطقة الخطر.. لذا سألتها مالها..

- «هناك خلل فيها. لماذا تنفتح تلقائياً كلما أوصدت الباب بإحكام؟».
قلت في براءة:

- «هذه مشاكل نجارة.. لا بأس.. سأرسل النجار لغرفتك..».

لكنني كنت أعرف يقيناً أن هذا ليس خلل نجارة.. خزانة الثياب بالذات لها علاقة قوية بما حدث منذ أسبوعين.. وعلى قدر علمي هي لم تنفتح تلقائياً..

لم يبد الرجل مهتماً بهذه النقطة بالذات، بل كان يريد الانتقال إلى الأهم:

- «والتلفزيون.. أنا متأكد من أنه يلتقط موجات الريموت القادمة من غرفة مجاورة.. لقد انفتح ثلاث مرات تلقائياً خلال الليل..».

وكيف لو عرف إنه - على الأرجح - لا يوجد تلفزيون في غرفته أصلاً؟.. لكنني فضلت الصمت.. الموظفون الذين لا يخرسون ويحبون التظاهر بالعلم ببواطن الأمور، يفقدون وظائفهم أكثر من سواهم.

- «يمكنني أن أغير الجهاز لك يا سيدي..».

- «لا!».

قالها في عصبية.. ثم أردف:

- «نوعية البرامج ذاتها غريبة.. من أين يأتي هذا الإرسال؟».

كانت هناك مشاكل مزمنة لأن الكابل الخاص بالفندق قد يلتقط إرسالاً لا نريده.. بعض القنوات اليونانية أو الإيطالية قد تتسرب، وما يتسرب يكون فيلمًا عاريًا دائمًا، فيفاجأ زوجان محترمان بأن ابنهما المراهق جالس يتابعه شاخص العينين ولعابه يسيل.. هكذا نتلقى الشكاوي كأننا نعملنا ذلك.. بالطبع لا يشكو الابن نفسه من مشكلة كهذه..

- «نعم. نعم.. أنت تعرف ألعاب البحر مع موجات الإرسال التلفزيوني.. هذه القنوات العارية قد...».

- «لا أتكلم عن قنوات عارية..».

ثم ابتلع ريقه وقال:

- «الإرسال الذي نراه على التلفزيون هو لقطات طويلة من حياتنا.. حياتي أنا وزوجتي!!».

أنت محظوظ يا سيدي..

لقد اخترت الشخص الوحيد المستعد لأن يصدق ما تقول.. الشخص الذي يصغي لك فلا يطالبك بالذهاب لطبيب نفسي أو وضع كسرولة على رأسك، وبالتأكيد لن ينادي موظفي الفندق لينفجروا في الضحك عليك..

أنا أعرف أنك صادق.. لكنني لن أصرحك بهذا، ولسوف اذهب معك إلى الغرفة لألقي نظرة، لكنني فعلاً مندهش من هذه الغرفة التي لا تنتهي ابتكاراتها عند حد..

فعلاً فتح المهندس (محسن) الباب، وصاح بصوت عال:

- «(نادية)!.. جئنا لنفحص التلفزيون!».

فجاء صوتها من الحمام تقول إنها قادمة..

دخلت الغرفة في تردد، وكما تعرف أنا صرت مقللاً جداً في دخولها منذ زمن.. كان الفراش غير مرتب، وعليه روب ومنشفة ومنامة.. هناك جريدة ملقاة على الأرض.. رائحة التبغ تملأ المكان.. جو عام يوحى بالاستيقاظ، والشرفة المطلّة على البحر مفتوحة يأتي منها هواء منعش..

اتجهت إلى التلفزيون ففتحته.. لحظات ثم ظهرت على الشاشة ماما (فلانة) أو ماما (علانة) يلتف حولها عدد من الأطفال فاغري الأفواه ظاهري البلاهة.. وهي تحكي لهم عن الثعلب الذي التهم البطة.. ربما لم يكونوا يلها قبل أن تبدأ هي.. نفس البرامج المعتادة المملة فما الذي تتكلم عنه يا سيدي؟

نظرت له فقال في حماس مجنون:

- «أؤكد لك.. لا يوجد سوى برنامج واحد.. وهذا البرنامج مخصص لسرد مشاهد من حياتي أنا وزوجتي!».»

كدت أصارحه برأيي في أن الهستيريا تصيب الرجال أحيانًا، لكنني ابتلعت لساني وقلت بطريقة الفندق المهدبة الحازمة (ولسبب ما توحى هذه الطريقة في تهذيبها بالجفاء):

- «التلفزيون ممتاز يا سيدي.. لو أردت تغييره فنحن تحت أمرك».

هنا شعرت بحركة.. رأيت الزوجة خارجة من الحمام تلبس روبًا وقد لغت شعرها في منشفة.. نظرت لي نظرة طويلة لم أفهم معناها.. ثم قالت:

- «إسمع.. نحن نشك في أن هناك من يراقبنا بدائرة تلفزيونية مغلقة، ويذيع هذا الذي يصوره على الشاشة ربما عمدًا أو عن طريق الخطأ..».

لسبب ما تعتقد هذه السيدة أن حياتها مثيرة لدرجة أن نحولها إلى برنامج لتسلية النزلاء.. لم نكن نعرف (تلفزيون الواقع) ولا (الأخ الأكبر) في هذا الزمن، لذا بدت لي الفكرة مضحكة سخيفة.. ما هو الخط الذي يفصل هذه الأفكار عن البارانونيا؟..

صحت في حماس:

- «لا شيء من هذا.. التلفزيون سليم.. ما نراه هو برامج الصباح السخيفة المعتادة».

- «ربما تنبهوا لهذا الخطأ..».

- «سيدتي.. نحن نتكلم عن تهمة التلصص على نزلاء.. هذا كلام خطير جدًا.. لابد من أن تثبت ما تقولين وأن تخبريني أين تلك الكاميرا..».

- «لا نعرف.. كاميرا التلصص يجب أن تكون غير مرئية..».

عدت أكرر وأنا أشعر بذعر ممزوج بالغضب نتيجة للهجة الحصار هذه:

- «هذا آخر ما عندي.. يمكن أن أغير لكما هذا الجهاز...يمكن أن أغير الغرفة».

قال الزوج وهو يعث في جهاز الريموت:

- «بالعكس.. يجب أن يبقى هنا إلى أن نفهم ما يدور..».

ثم هز إصبعه محذرًا في وجهي:

- «لو اتضح أن هناك من يتجسس علينا فلسوف أنسفك نسفًا.. سأنسف كل هذا الفندق..».

- «لو اتضح هذا..».

الحق إن ما يقول شديد الغرابة.. هلوسة.. لكن هل هناك هلوسة ثنائية؟... من الواضح أن الزوجة رأت ما رآه..

هكذا - وقد تأكدت من أنهما لا يريدان تغيير شيء - غادرت الغرفة، وقد صرت على أتم استعداد لتصديق سيناريو الجنون..

عدت إلى الاستقبال حيث كان (مصطفى) عامل المصعد يجلس مكاني إلى أن أعود، وكان الشاب (وائل) والفتاة المبهرجة (عزة) قد جاءا على كل حال، لهذا استعددت لإنهاء هذه الليلة السوداء..

هنا فوجئت بنزول الغرفة 207 يظهر من جديد.. من دون كلمة جرنبي من ذراعي بعيداً عن الكاونتر، ليتكلم على راحته، وقال:

- «اسمع.. ليس الأمر متعلقاً بالتلصص علينا هنا والآن.. هناك من كان يتلصص علينا منذ زمن في القاهرة.. المشاهد التي أراها على الشاشة تخص زوجتي.. أراها أيام الخطبة.. أراها في عملها. أراها مع أسرتها. هل عندك تفسير؟».

- «هل ترى هي ذات المشاهد يا سيدي؟».

- «لا.. عندما تقف أمام جهاز التلفزيون ينقطع هذا البث، لكن عندما أبتعد أنا ترى هي بدورها مشاهد من حياتي..! هذا ما تقوله...».

كان هناك تفسير واحد هو أنهما مخبولان لكن هذه ليست من التفسيرات التي يقولها العاملون في الفنادق للنزلاء.. هكذا ابتلعت لسانني وعدت أكرر في عناد:

- «لو أردت أن نغير الجهاز فنحن تحت أمر».

نظر لي والعرق يحتشد على جبينه، وقال:

- «هذا ليس حلاً.. ما أريده هو التفسير...».

ثم ابتعد بعينين زائغتين وقدمين أكثر زيقاً لو أمكن أن تقبل تعبيراً كهذا..

كنت متجهاً إلى حجرتي عندما وجدت السيدة أمامي!.. لن اصعد لأستريح في هذا اليوم على ما أعتقد.. كابت تلبس بلوزة غير مهندمة وسروالاً ضيقاً، فبدت كصبي مزعج في مدرسة إعدادية، وبدا لي أنها وضعت على جسدها أي شيء وجدته لتستطيع اللحاق بي والكلام معي..

قالت لي وعيناها واسعتان يقظتان:

- «الآن أطلب التفسير.. لا تقل لي إننا نخرف!».

- «لن أقول أي شيء يا سيدتي ولا أملك تفسيراً..».

قالت في صبر وهي تحاصرني بالمعنى الحرفي، حتى إن ظهري صار ملاصقاً للجدار:

- «اسمع.. جئنا هنا لنجد هذه الظاهرة الغريبة.. عندما أجد نفسي وحدي في الحجرة أجد التلفزيون يفتح تلقائيًا، وعلى شاشته مشاهد عدة من حياة زوجي.. بعض هذه المشاهد عشتها معه وبعضها لم أره على الإطلاق.. مثلاً موضوع شقة المعادي.. زوجي لديه شقة في المعادي؟.. مدام (كاميليا) الأرملة اللعوب التي يخرج معها دون علمي، وموضوع التوكيل الذي يسرقه من خزانة ثيابي ليسحب به مالي من المصرف.. هل تعرف ما يفعله بمالي؟.. بنفقه على المدام (كاميليا) طبعًا.. هناك من يراقب زوجي ويهمه أن أعرف هذا كله..».

إن الأمور تزداد تعقيدًا.. قلت لها:

- «لا أعرف شيئًا عن هذه الأمور، ولم أسمع عن مدام (داليا) هذه..».

- «(كاميليا).. اسمها (كاميليا).. هذه اللعبة مقصود بها الابتزاز.. تصوير الناس دون علمهم جريمة لا يمكن أن يكون هدفها إلا الابتزاز!».

ثم بللت شفتها السفلى بلسانها كأنها في نوبة ارتفاع سكر وقالت:

- «عندما يدخل الحجرة تتلاشى هذه المشاهد.. لا يعرف ما أراه.. لكنه يقول إنه يرى مشاهد خاصة بي أنا.. طبعًا هذه المشاهد لا أراها.. إنه الآن في الحجرة يشاهد التلفزيون ويحرق السجائر، وعيناه تزدادان احمرارًا...».

قلت متوسلاً:

- «سيدتي.. لا داعي للمزيد.. سوف نبدل التلفزيون لكما في ثانية.. إن الغرفة 211 سوف تخلو بعد ساعة، ويمكنكما أن...».

قالت في توحش وهي تضغط على أسنانها:

- «هل تعتقد أن التخلي عن هذه الفرصة سهل حقًا؟.. مستحيل أن نترك هذا التلفزيون.. إن دراما الواقع هي الأمتع دائماً..».

ودون كلمة أخرى ابتعدت تجر قدميها كأسد جريح..

سوف تحدث مصيبة هنا.. أنا أعرف ذلك.. أنا على يقين منه.

عرفت فيما بعد أنهما ظلا في الغرفة حتى الساعة مساء..

لم يتحركا خطوة ولم يخرجوا ولم يطلبوا خدم الغرف..

فقط عندما تسلمت ورديتي قال لي الشاب (وائل) والفتاة المبهرجة (عزة) إن خناقة مريضة نشبت بين الزوجين حتى إن النزلاء اتصلوا بهما.. قالوا إن نزيلي الغرفة 207 يصرخان كالمجانين.. صعد

رجل الأمن إلى الطابق الثاني ليجد زحاما حول الغرفة المفتوحة، وكان المهندس (محسن) يصيح بأعلى صوته أن زوجته أنانية وأنها تطبق على روحه كالكابوس.. بينما هي تريد منه أن يحل عنها بعض الوقت كي تشاهد التلفزيون على راحتها...

قالت الفتاة المبهرجة (عزة):

- «لا أفهم كل هذا الحماس لمشاهدة التلفزيون.. والغريب أن كل واحد يريد الانفراد به.. لا أرى في البرامج ما يستحق كل هذه الضوضاء...».

قلت لها في خبث:

- «إن الدراما تزداد واقعية، وقد فتنت الناس.. يشعرون بأنهم يرون حياتهم على الشاشة».

- «أنت تتكلم عن الدراما الفرنسية أو الأمريكية... لو دفعوا لي مالا لأرى هذا التخلف العقلي لرفضت...».

المهم أن النزلاء نجحوا في إقناع الزوجين بالهدوء.. وقد تطوع أحد الأشخاص الذين يعرفون ما ينبغي عمله بأن يصحب الزوج معه بعض الوقت خارج الفندق.. لم تنتظر الزوجة ولم تشكر أحدا أو تعتذر لأحد.. في ثانية واحدة كانت قد فتحت جهاز التلفزيون ووثبت لتجلس على الفراش، ثم تذكرت أن الباب مفتوح فنهضت لتغلقه في وجوه الفضوليين..

طبعًا كان التفسير واضحًا لي وإن لم أبتلعه.. ما دام تواجدهما معًا يفسد كل شيء، فمن الأفضل لكل منهما أن ينفرد بالشاشة.. كل واحد يريد معرفة أسرار الآخر بينما وجود الآخر يمنعه من هذا..

بعد نصف ساعة عاد الزوج محمر الوجه وألقى علي نظرة ثم اتجه إلى المصعد..

جلست أفكر في هذه القصة.. طبعًا هو عائد إلى الغرفة وسوف تتلاشى الصور.. ماذا دهاني؟.. إنني أفكر مثلهما وأقول ما يقولان..

لكن كيف أستطيع التفكير بطريقة أخرى؟

أشعلت لفافة تبغ ورحت أتأمل الدخان المتصاعد.. هنا دق جرس الهاتف.. نزيل الغرفة المقابلة للغرفة 207 يشكو.. النزيلان في 207 لا يكفان عن الشجار..

طلبت من رجل الأمن أن يصعد ويطلب منهما في تهذيب أن يخفضا الصوت قليلًا..

عاد لي بعد قليل وقد بدا عليه الاستمتاع بهذا كله.. قال لي وهو يجلس على مقعد وثير:

- «إنهما عصبيان جدًا.. يتهمها بأنها تخونه وهي تتهمه بأنه يريد

قتلها.. سمعت كل أسرارهما وأنا أقرع الباب.. في النهاية فتح لي الباب وكان وجهه أحمر كالطماطم.. قلت له أن يخفضا الصوت قليلاً، فقال لي في غلظة إن هذا ليس من شأني.. وأغلق الباب في وجهي بعنف.. ثم عاد يتهمها بكل شيء.. بالفاظ لا أعرف كيف أكررها مع إنني ذو لسان بذيء أصلاً..».

كنت أنا أفكر..

القصة واضحة.. الغرفة 207 تلعب لعبة مسلية مع هذين الزوجين اللطيفين.. كل زوجين في العالم يداريان أسراراً عن بعضهما.. لو قدر لكل منهما أن يعرف أسرار الآخر.. التافه منها والمهم.. عندها يفقد التحكم في شعوره..

دعك من الضغط العصبي الشديد المتمثل في رغبة كل منهما أن يتخلص من الآخر ليشاهد التلفزيون على راحته.. هذا عامل آخر..

أعتقد أن جريمة قتل ستحدث هذه الليلة.. القصة واضحة تماماً...

هذه هي لمسة الغرفة 207 المباركة..

هكذا طلبت سليمان الكهربائي الصعيدي الشاب.. جاءني وهو يردد موالاً صعيدياً لم أفهم حرفاً واحداً من كلماته، فقلت له:

- «سليمان.. لأسباب لا استطيع ذكرها أرغب في أن تقطع الكهرباء عن الغرفة 207..».

- «هل جنت يا ولد عمي؟..».

- «ليكن.. ربما جنت... لكن هل يمكنك أن تفصل الكهرباء عن التلفزيون وحده؟.. أريد ألا يعمل هذه الليلة.. لا أريد أن تقطع الإرسال عنه بل أريد أن يتحول لقطعة من البلاستيك.. أريد أن تفعل هذا من دون أن تدخل الغرفة..».

فكر قليلاً وراح يجري بعض الحسابات في ذهنه، ثم هز رأسه..

- «ممكّن.. أعرف من اين تأتي كهرباء الغرفة.. يمكن أن أقطع السلك الخارج من لوحة التوزيع.. سيكون هذا مؤقتاً طبعاً على أن أعيد لحامه في الصباح..».

- «افعل هذا الآن.. أرجوك..».

هكذا هز رأسه وهو غير فاهم واتجه إلى السلم قاصداً الطابق الثاني.. كالعادة لا يحمل إلا المفك والشريط اللاصق وطناً من الثقة بالنفس..

جلست أتأمل سيجارتي التي أوشكت على التفحم من دون أن أظفر منها إلا بنفسين..

وفجأة تصلبت.. هذا الموقف يبدو مألوفاً.. نفس ما حدث منذ أسبوعين مع اختلافات عديدة.. في تلك المرة كانت هناك شكوى

من ضوء الأباحورة الذي يتوهج طيلة الوقت.. كيف نسيت؟
هرعت إلى المصعد استقله إلى الطابق الثاني..
رحت أركض في الردهة كالمجنون.. الممرات خالية والغرف خالية..
في هذه الساعة يندر أن يتواجد أحد في غرفته..
أين لوحة التوزيع تلك؟.. أين ذهب ذلك التعس؟
هناك عند نهاية الممر قرب سلم الطوارئ وجدته واقفاً.. باب لوحة
توزيع الكهرباء مفتوح، وضوء الردهة ينبض كقلب رضيع.. بينما هو
يحتضن الباب في جنان غريب.. رأيت عينيه الجاحظتين وزاوية فمه
التي ترتجف.. ماذا أفعل؟
وجدت مكنسة ملقاة على الأرض فحملتها وسددت له ضربة قوية
ألقت به أرضاً.. سقط شاخص العينين وعلى وجهه الأسمر شبح
ابتسامة كأنما انتشى من العناق..
لا يتنفس.. ارتميت على صدره ورحت أضرب قلبه بكلوة يدي، ثم
ثبتت شفتي على شفته ونفخت.. يجب أن أحافظ على الإيقاع.. لا
وقت لطلب نجدة..
فقط رفعت عيني لأنظر إلى اللوحة المفتوحة.. لا أفهم في الكهرباء
لكن هناك فوضى عارمة.. الكثير من الأسلاك العارية.. من شبه
المستحيل أن تفتح هذا الصندوق من دون أن يصرك التيار الكهربائي
والأسوأ.. الأسوأ أن الأرض مبتلة تماماً.. هناك بركة ماء تحت اللوحة
وهو يلبس شبشباً في قدمه.. إذن.....
إنه يسعل.. صدره يعلو ويهبط.. هلم أيها الصعيدي خفيف الدم..
سوف تفعلها..
- «هلم يا (سليمان).. الصعايدة جدعان.. وأنا لم أر منك أية جدعة
حتى اللحظة.. هلم.. اسعل!.. ابصق!.. تنفس!..»
كنت أقولها له وأنا أوجه له المزيد من الضربات على صدره..
إنه يعود.. سيعيش..
في هذه اللحظة شعرت بمن يقف بجواري، وشممت عطراً
مسكراً.. رفعت رأسي لأجد الزوجين في كامل أناقتهما وقد تأبطت
الزوجة ذراع زوجها.. كانا يضحكان بصوت عال..
قال الزوج:
- «لعله بخير..»
وقالت الزوجة:
- «نحن راحلان غداً.. أرجو أن تعد لنا الحساب..»
قلت بصوت لاهث:

- «وماذا عن التلفزيون الذي يعرض مشاهد من الواقع؟».

تبادلا النظرات ثم قال الزوج في بساطة:

- «تلفزيون؟.. لا يوجد تلفزيون في غرفتنا!.. أنت تعرف هذا!..».

وابتعدا في الردهة وهما يضحكان، فارتميت على الأرض وألصقت ظهري بالجدار بجوار سليمان الذي بدأ يسعل ويسترد أنفاسه..

دعابة أخرى ثقيلة من الغرفة 207 كادت تكلف سليمان حياته.. لقد حاول قطع الكهرباء في الظلام وهو يقف في بركة ماء، فقط ليدس يده في وكر ثعابين.. كل هذه القصة عن التلفزيون الذي يفصح كلاً منهما مجرد أكذوبة متقنة.. أعرف يقيناً أنني لن أجد في غرفتهما جهاز تلفزيون.. وأنني عندما أبحث عن اسميهما في الدفتر لن أجدهما..

أعرف هذا يقيناً لأنني أعرف الغرفة 207 جيداً..

أعدها لي

يا فتاح يا عليم يا رزاق كريم..

مكالمة على الصبح من الخواجة الطلياني (مايكل) مدير الفندق شخصيًا.. معنى هذا أنه يريد أن يلتهم أحداً على الإفطار.. أعرف هذه المكالمات الصباحية وأعرف أنها تنتهي بالخصم أو الطرد أو ما هو أسوأ..

يريدني.. ليس لي قدم لي علاوة أو يزوجني ابنته طبعًا..

هكذا تركت الكاونتر واتجهت إلى مكتبه عارفاً أن مصيبة تنتظرنني.. تتحرك في أعماقي كل عقد كراهية الأجانب وتوقع الشر منهم.. أجداد هذا المدير كانوا يذبحون المصريين عندما رست سفنهم على ساحل الإسكندرية، ولابد أن جده كان يمشي متغطرسًا بالدروع الحديدية البراقة تحت لواء أوكتافوس.. ربما مشى في موضع هذا الفندق يومًا ما، ولم يعرف أن حفيده سيكون المدير وإنني سأكون موظف الاستقبال.. لابد أنهم كانوا يتعاملون بغطرسة وتوحش مع الفلاح المصري القادم من البحيرة الذي كان جدي طبعًا.. ربما ألقوه للأسود كذلك..

يجب أن ننتقم.. يجب أن يدفع هؤلاء ثمن سيطرتهم على البحر المتوسط.. لابد من (عمرو بن العاص) جديد يخرب بيوتهم ويحرق حصونهم و....

- «تعال هنا يا خبيبي!».

هنا فقط كفت عن الكفاح المسلح ومشيت لأقف أمام مكتبه مطرقًا..

الرأس العملاق بلا جسد الذي يخرج من المكتب ولا يكف عن اللوم.. هذا هو الخواجة (مايكل)..

قال لي وهو يقلب أوراقه:

- «الغرفة 207.. هل تعرفها؟».

يسألني أنا عن الغرفة 207؟.. وعلى الصبح؟.. هذا يوم نحس لا أول له ولا آخر.. سوف يدفني فيها بالتأكيد.. والأهم أنه نسي أنني أول من كلمه عنها، وكيف انتزع مني ذلك الوعد بألا أتكلم عن الغرفة أبدًا لأن هذا مؤذ للبيزنس.

- «أعرفها يا خواجة».

- «حسن.. هناك إشاعات كثيرة عن هذه الغرفة.. لا أعرف المصدر لكنني أعتقد أنه فندق منافس هنا في مرسى مطروح.. لقد قررت أن أجري بعض التجديدات على هذه الحجرة.. عملية كبيرة بحق.. أريد شخصًا أثق به يقوم بهذه المهمة.. لا أريد شخصًا غريبًا...».

ثم نظر لي بعينه الزرقاوين الفاحصتين الباردين السمجيتين:
- «هل تعتقد أن هذا بوسعك قبل أن يبدأ الموسم؟».

طبعاً لا أحد يقول لا للخواجة أبداً.. معنى هذا أن تنسف نفسك
نسفاً.. لهذا أعلنت أنني متحمس للمهمة وإنني خير من يقوم بها..
هكذا غادرت مكتبه وقد صرت مسئولاً عن تجديد هذه الغرفة
المشئومة التي لم تُجدد منذ جئت للعمل هنا..

أجريت بعض الاتصالات ورتبنا أن نجري إصلاحات في السبابة
والكهرباء.. لا بد من عامل محارة.. نريد من يلصق ورق الحائط.. بعض
الديكورات.. أثاث جديد..
هكذا تسير الأمور..

في اليوم التالي جاء السباك وصبيانه والكهربائي وصبيانه..
كما تعرف كنا في الشتاء لهذا كانت نسبة إشغال الغرف قريبة من
الصفر.. معنى هذا أن الضوضاء لن تضايق أحداً..

فتحت باب الحجرة وتلوت آية الكرسي كعادتي.. كانت غارقة في
الظلام والهدوء، ما عدا رائحة البخور المعلقة في الجو.. أنت تعرف
أننا نبخرها ونتلو الأدعية يوم الجمعة.. عم مينا يجلب من حين لآخر
بعض الماء المقدس من الكنيسة ويرشها.. كنا على اختلاف أدياننا
نؤمن بأنها تحوي لغزاً مخيفاً، فلا يقدر على مواجهته إلا ما نؤمن به..
لكن من الصعب أن يحدث شيء مروع مع كل هذا الزحام...

سألت الكهربائي عن الوقت المتوقع لإنهاء مهمته فدرس لفافة تبع
خلف أذنه وقال:

- «ثلاثة أيام.. سوف نغير أم شبكة الأسلاك كلها وندفن أم الشبكة
الجديدة في الجدار..».

ثم بدأ يشتم في أم الكهربائي السابق الحمار كالعادة.. دائماً أنت
تقف أمام أبرع حرفي خلقه الله، وقد نجوت بمعجزة من الحمقى
الآخرين...

وعندما انطلقت إشارة البدء تحولت الغرفة إلى ساحة معركة.. أولاً
أخرجنا ما فيها من أثاث، وفتحنا الشرفة ليدخل هواء البحر ويغير
رائحة القدم هذه.. ثم انطلق كل واحد بالدقماق في يده يحطم جزءاً
من الجدار.. الغبار يتطاير والفندق يرتج مع كل ضربة..

هكذا غادرت ساحة المعركة هذه وعدت إلى الاستقبال..

بعد ربع ساعة ناداني الكهربائي لأن هناك مشكلة.. شظية طارت
واستقرت في عين صبيه.. هكذا التفغنا حول الغلام الذي احمرت
عينه كالطماطم.. فمت بغسل عينه وأرغمته على أن يفتحها في دلو
به ماء.. هذه الطريقة كانت تنجح دائماً..

كنت اضغط على أسناني وأتماسك بصعوبة.. هذا عمل عنيف لابد أن تنجم عنه إصابات. هذا متوقع.. لا يجب أن تكون الغرفة مسئولة عن كل واحد يلوي إصبع قدمه..

بعد قليل عاد العمل لمساره الطبيعي.. بدأت فجوات تتكون في الجدار، بينما كان السباك في الحمام يمارس في شغف مهمة تخريب السيراميك.. الهدم ممتع دائماً أكثر من البناء بمراحل.. يبدو أن التزامن لم يكن دقيقاً بين الفتيتين اللذين يساعدان السباك، لأن أحدهما هوى بالدقماق على يد الآخر التي كانت تنتزع قطعة من سيراميك الجدار..

صاح الفتى في جنون، ومن الواضح أن عظام كفه تهشمت.. أخذوه إلى المستشفى ويبدو أن هذا استغرق وقتاً لا بأس به.. لكنهم عندما عادوا قالوا لي إن يده ستبقى في الجبس لفترة.. - «مهنتنا - ولا مؤاخذه - خطرة.. لكن الناس لا تقدر».

نعم.. هذا هو التفسير.. لا يوجد تفسير آخر..

الظهيرة.. وعملية الهدم مستمرة..

يبدو أن أحد صبيي الكهربائي انزلق من على السلم، وأوشك على أن يهشم رأسه.. لولا أن الستار موجود..

قلت للكهربائي في عصبية:

- «هل تنوي أن تقضي اليوم في الإصابات؟.. لماذا لا تحضر صبياناً محترفين؟».

حك رأسه في حيرة وأشعل لفافة تبغ وقال:

- «هم كذلك.. لكن هناك شيئاً نجساً في أم الجو اليوم..».

ثم راح يتأمل الفجوات التي صنعوها.. ودس لفافة التبغ بين شفثيه وأمسك بعلبة الثقاب وقال وهو يتأمل الجدران في خبرة:

- «الأسلاك بالية تماماً.. لا أعرف كيف ظل في هذه الغرفة كهرباء.. كيف لم تشتعل وتتحول إلى فحم..؟».

كان أحد الصبيين يواصل إحداث تجويف في الجدار.. ثم هتف:

- «انظر هنا يا أسطى..».

اتجه الأسطى معه إلى حيث يريد.. ألقى بنظرة على التجويف الذي صار أقرب إلى جيب يجب أن تدنو منه لترى ما وراءه.. ثم قال لي:

- «هل هناك كمرة وراء أم هذا الجدار؟».

صارحته بأنني لا أعرف أي شيء ولم أبن هذه الغرفة.. كمرة أو لا كمرة. الأمر لا يعنيني.. أريد أن ينتهي هذا كله قبل أن يرى الخواجة

المنظر..

جثا على ركبته واختلس النظر.. ثم مد ذراعه حتى المرفق داخل التجويف..

سمعته يتنحى متسائلاً عن كنه هذا الشيء ثم قرب وجهه أكثر ليرى.. أشعل عود ثقاب ليتمكن من النظر حتى تذكرت صورة شهيرة جداً لـ (كارتر) وهو يدخل شمعة في فجوة جدارية في قبر (توت عنخ آمون).. كان يريد التأكد من وجود أكسجين من عدمه.. يبدو أن هذا هو الحال هنا على كل حال..

- «بسم الله الرحمن الرحيم!.. ماذا يدور هنا؟».

بالفعل كانت عظمة..

لا شك في هذا..

صحيح إنني لا أملك ثقافة طبية، لكن كل إنسان يعرف عظمة الساعد عندما يراها.. عظمة ساعد حجمها لا بأس به وكل شيء يحدثني بأنها بشرية..

إنها لامعة غير مغطاة بالغبار أو المونة.. واضح أن من وضعها هنا لم يقصد أن يعجنها ضمن خامات البناء..

ساد الوجوم المكان.. لا صوت إلا صوت موج البحر القادم من الشرفة..

ثم قال الكهربائي وهو يضع العظمة على جريدة ممزقة:

- «نحن نجد أشياء غريبة في هذه المهنة.. تصور إنني هدمت جداراً ذات مرة فوجدت قطعة ميتة كاملة.. كانت متكلسة ومحتفظة بوقفتها حتى تحسبها حية..».

ثم لوح بالعظمة التي لفها في الجريدة وقال:

- «يجب أن تدفنها.. هه؟.. واضح أنها بشرية».

هنا سمعنا صوت السباك يصيح من الحمام فهرعت إلى هناك..

كان يجلس القرفصاء أمام فجوة في الجدار وسط السيراميك وقد أخرج منها شيئاً لم أفهم ما هو.. ثم أدركت أنه قطعة ميتة كاملة متكلسة!

قال الكهربائي وهو يلقي نظرة على ما وجده السباك:

- «هذا هو ما قلته لك!.. قطعة كاملة!.. أشياء غريبة جداً في أم هذه المهنة».

ثم تأمل الهدم الذي أحدثه السباك في الحمام وقال:

- «الله ينور عليك يا أسطى..».

- «وعليك».

كنت أنا موشكًا على الجنون. هؤلاء القوم لا يجدون شيئًا غريبًا في جدار به عظمة آدمية وقطة.. إنهم يتبادلون المجاملات وينعمون بوقتهم حقًا.. ما معنى هذا؟

قال الكهربائي وقد رأى حيرتي:

- «القطة تسللت هنا ولم تعرف كيف تخرج.. العظمة على الأرجح تؤكد أن اثنين تشاجرا هنا. أحدهما قتل الآخر بينما الجدار تحت التشييد وأخفاه هنا.. كانت هناك فجوة لذا دس الجثة فيها، ثم سدها بالمحارة.. أعتقد أنه عامل المحارة الذي كان يعمل في هذه الغرفة عند بناء الفندق.. لكنه بالتأكيد قد مات الآن.. لا بد أن هذا قد حدث منذ خمسين عامًا على الأقل.. فليرحم الله الجميع!».

إذن هناك جريمة قتل حدثت في الغرفة 207 أثناء تشييدها..

هذا قد يفسر الكثير. أعرف هذا النوع من القصص.. هذه العظام ترغب في أن تخرج من مكنها وأن يُصلى عليها وتُدفن دفنًا لائقًا.. الكتب تعج بهذا النوع من القصص.. الشيخ الصاحب.. الطواهر الغامضة..

أعتقد أن الغرفة 207 توشك على أن تكشف عن سرها الدفين.. سوف نعرف أكثر..

قلت للكهربائي:

- «يجب توسيع هذه الفتحة..».

قال وهو يشعل لفافة تبغ أخرى:

- «لا داعي.. لدينا تجويف يسمح بتثبيت أم خراطيم الأسلاك..»

ومد يده إلى الأرض ليلتقط خرطومًا بلاستيكيًا أحمر يلتف حول نفسه كالثعبان.. كان يريد الانتهاء من هذه العملية ولا وقت لديه يمنحه للجثث المدفونة في الجدران. لكنني استوقفته.. وكررت أمري بأن يهدموا الباقي.. لا بد من معرفة ما تحتويه هذه الخزانة المربعة.. نظر لصبيه فتنهد هذا في استسلام، وهوى بالدقماق على جدران الفتحة..

بدأت الفتحة تتسع لكن لا شيء.. لا توجد عظام.. لا يوجد شيء سوى كيس بلاستيكي قديم يلتف حوله خرقة ولا تعرف دوره في الموضوع، لكن الانطباع الذي أخذناه هو أن هذا الجدار أجوف في معظمه.. هناك طبقة أخرى خلفه يعلم الله وحده ما تخفي..

كان الضوء قد خفت وبدأت الشمس تتشاءب معلنة عن رغبتها في الانصراف.. نهار الشتاء القصير قد تعب وقام بما فيه الكفاية.

هكذا خرج السباك وصبيانه والكهربائي وفتيته.. والكثير من الله ينور يا أسطى.. تبادلًا لغافات التبغ واتفقا على اللقاء غدًا.. غدًا سيكون هناك الكثير من الرمل والأسمنت ومن يزيل هذا الطوب المهشم كله..

كنت انا غارقًا في أفكارى السوداء..
معنى هذا أن نظرية القتل والدفن في الجدار لا أساس لها من الصحة.. أن تجد عظمة واحدة في الجدار يعني أنه لا جثة هنالك..
يعني أن هناك من دفن عظمة واحدة فقط!
ولماذا فعل ذلك؟..

الأمر كله يوحى بتعويذة ما.. شيء قريب من موضوع الأعمال المدفونة، لكني بشكل ما أشعر بأنه أعقد من ذلك..
هكذا ظللت غارقًا في الأفكار المختلطة حتى انتهت ورديتي.. حملت الجريدة التي تحتوي العظمة، وصعدت إلى الغرفة البسيطة التي أقيم فيها، حيث كانت صينية العشاء تنتظرنى على الباب.. حين بيضة وخبز فينو صغير وكيس من اللبن..

اغتسلت جيدًا.. من الغريب إنني لم أساهم في عملية الهدم، لكن الغبار كان في كل ملليمتر من ثيابي، ورأيت أن شعري يوحى بأنني أصبت بشيب مبكر.. حتى أظفاري كانت تحتها طبقة كثيفة من الغبار.. غدًا سوف أجد طريقة لائقة للتخلص من تلك العظمة..

جلست ألتهم العشاء في صمت، وأنا أسترجع ذكريات اليوم، ثم قررت أن اخلد للنوم.. أندس تحت الأغطية الثقيلة.. لا تنس أن الجو زمهري..

هل هو كابوس؟.. لا أعرف متى بدأ ولا كيف.. أعتقد أنه بدأ مبكرًا جدًا قبل مرحلة (حركة العين السريعة) إياها.. نعم أنا أعرف مراحل النوم فلا تنس أنني مثقف.. كان هناك قط شرس المنظر له أنياب طويلة كالسيوف، وكان يموء بطريقة هي أقرب إلى العواء.. عيان فيروزيتان خضراوان تقتلان.. كل عيون القطط مخيفة مسحورة منذ عرفها الإنسان..

أقف في مكان خال ممتد لمرمى البصر، يذكرني بتعريف الفراغ في كتب الفيزياء، ومن الأرض يتصاعد ضباب أخضر ثقيل..

ثم يظهر ذلك الرجل الطويل الذي يلتف في الضباب فلا ترى وجهه.. فقط يلوح بذراعه.. وذراعه مبتورة.. يلوح بأصلها المجدوع في وجهي.. وأسمع صوته البارد يقول:

- «أعدها لي!!»-

هه؟.. أنا لا أفهم.. عم تتحدث بالضبط؟.. من أنت؟

- «أعدها لي!».

ويعوي القط في مكان ما.. العرق يتصبب من جبیني.. إنه عسر الهضم.. أعرف هذا.. ما كان يجب أن أفرط في... أفرط في ماذا؟.. ليس الجبن والبيض بالعشاء الذي يسبب الرؤى الكابوسية.. أعدها لي...

أنهض من النوم صارخًا.. لحسن الحظ أتحكم في نفسي قبل أن تدوي الصرخة.. لن يسمعها أحد لكنها ستثير رعبي أنا نفسي.. العرق يبلل الوسادة مع إن الطقس بارد..

أعدها لي!

الآن أتذكر الكابوس بوضوح.. أقرر على الفور أن هذا لم يكن كابوسًا.. ثمة شيء ما يريد شيئًا ما لهذا زارني في المنام.. أعدها لي!.. يتحدث عن عظمة الذراع طبعًا..

من يدري؟.. لربما كان هذا هو الحل..

لربما كانت عندي القدرة على إنهاء هذا الكابوس.. لكن لابد أولاً من أن أدخل الغرفة 207.. أدخلها هذه الليلة بالذات.. أدخلها وحدي لأقوم بمهمة مجنونة بعض الشيء!

على قدر علمي هذا الذي زارني في المنام هو صاحب العظمة الأصلية.. بالفعل نظرية الروح القلقة تتأكد شيئًا فشيئًا.. لابد من التخلص من بقايا الذراع وحثه القط المتكلس.. هكذا تصير الغرفة نظيفة من تلك اللعنة.. اللعنة التي زرعتها أحدهم في زمن ما واستمرت حتى اليوم..

لقد كلفني بهذا شخصيًا ولا أريد تخيل ما قد يحدث لو لم أفعل..

إنه منتصف الليل..

هذه أكثر المرات التي أزور فيها تلك الغرفة ضغطًا على الأعصاب.. لا يوجد نزل.. الفندق خال مظلم.. فقط صغیر الريح من هذا الشباك مهشم الزجاج أو ذاك.. وحدي تمامًا.. وحدي تمامًا وعلي أن أدخل الغرفة لأنفذ مهمة غامضة..

كان الباب مفتوحًا.. طبعًا.. كان هناك عمال هنا..

هواء البحر البارد يوشك على أن يطيرني من مكاني حيث وقفت على الباب.. لا توجد كهرباء طبعًا.. فقط هناك أكثر من جيل من الطوب المهشم يرتفع كأنه وحش اسود.. رائحة الغبار.. أسلاك تتدلى من السقف ومن الجدران..

أمشي فوق الأرض الترابية اللينة.. أضئ الكشاف الذي جئت به.. يلقي ظلالاً غامضة على كل شيء.. أتقدم نحو تلك الفجوة في الجدار والتي قام الفتى بتوسيعها قدر الإمكان.. أتفحصها في ضوء الكشاف..

أنا متأكد من وجود جثة كاملة مدفونة هنا.. جثة من دون ساعد.. هذا الساعد هو ما وجدناه، وقد سبب هذا مشكلة لصاحب الجثة الذي يرغب في أن يدفن قطعة واحدة.. سوف أجد الجثة وأعمل على أن تدفن بشكل لائق مع الساعد.. ربما مع القط أيضاً.. لن تكون هناك عظام بعد اليوم في الغرفة 207.. لا عظام ولا قصص مخيفة..

أين هذه الجثة؟

رحت أنقب في الفجوة التي تركها الفتى.. إن حوافها هشة لا تحتاج إلا إلى القليل من الجهد كي تستجيب.. هكذا وضعت الكشاف على الأرض ورحت أحاول توسيعها.. هناك عتلة نساها هؤلاء هنا وهي تناسبني فعلاً، فليس الوقت وقت استعمال الدقماق الذي سيوقظ الجميع..

واصلت العمل.. توسيع الفتحة أكثر فأكثر..

الآن أرى شيئاً أبيض.. عظمة على الأرجح..

هكذا رحلت أجاهد حتى أخرجتها.. غريبة هي.. ربما عظمة فخذ.. لكنها طويلة جداً جداً.. أعتقد أن طولها نحو متر ونصف.. من جديد مددت يدي ورحت أبحث.. هذه المرة وجدت عظام كف.. وضعتها على الأرض وتأملتتها في ضوء الكشاف..

واصلت البحث وقلبي يوشك على أن يثب من فمي.. وفي كل دقيقة أدرك الموقف أكثر..

لقد تناثرت العظام على الأرض من حولي.. والآن فقط أفهم أن هذه عظام لا تمت للبشر بصلة حتى لو كانت عظمة الساعد معقولة نوعاً.. ثمة شيء مجهول مدفون في الجدار.. شيء يذكرني بوصف الجن في حكايات أمي..

مددت يدي إلى الأرض فاصطدمت بشيء طري أجفلت لدى لمس..

ثم تذكرت الكيس البلاستيكي الذي أخرجناه.. لقد ألقيناه في إهمال لأنه بدا لنا بلا قيمة..

دسسته في جيبتي ونهضت.. ألقيت نظرة على هذه العظام الرهيبة الملقاة على الأرض.. ثم غادرت المكان مسرعاً.. ولسبب ما أغلقت الباب بإحكام من خلفي..

في حجرتي أعددت لنفسني كوباً من الشاي ثم جلست على الأرض وفتحت الكيس..

كان يحتوي كيسًا آخر.. وداخل الكيس الثاني كانت رسالة على ورق مهترئ مصفر، بخط متعرج شنيع.. لكنه واضح..
كانت تقول:

«لقد تمكنت من أن أسجنه في الجدار.. قمنا بحجبه وراء طبقة كثيفة من الملاط، لكنه ليس ميتًا.. أؤكد أنه ليس ميتًا.. عندما تجد هذه الرسالة فعليك أن تصدق ما فيها.. لا تحاول أن تحرره من الجدار.. لو أخرجت عظامه لاستعاد نشاطه كاملاً.. سوف يتحرر وسوف يخرج إلى العالم».

«كتبها صاحبها في مايو 1934»

سقطت الرسالة من يدي..
معنى هذا أن ما كان في الجدار ليس جثة أخفيت هنا. بل هو سجين.. سجين يهم صاحب الرسالة ألا يتحرر..
وأنا حرته!

ثمة شيء ما كان يجب الفندق عام 1934 وقد تمكن أحدهم من أن يستدرجه للغرفة ويحبسه في هذا الجدار..
لقد وضع صاحب الرسالة رسالته في موضع بارز بحيث يجدها من ينقب الجدار أولاً، لكننا لم نفعل.. بدأنا بالتنقيب ثم قرأنا.. كان هذا خطأ فادحاً.. كان خ...
هنا دوت الطرقات على الباب..

لم تكن طرقات واحد من رفاقي - لأنه لا يوجد منهم الكثير الليلة - ولا طرقات عابر سبيل.. هي طرقات عملاق يوشك على اقتلاع الباب من مفاصله.. طرقات من يعرف أن له الحق في الدخول مهما كان رأيك أنت..

صحت بصوت مبحوح:

- «من هذا؟».

هنا جاء الصوت المألوف:

- «أعدها لي!».

هكذا اندسست تحت الأغشية أرتجف وأنظر إلى الباب.. لم يعد هناك شك في شخصية الواقف على الجانب الآخر.. لا أعرف من هو لكنني أعرف ما هو..

الطرقات تتوالى في قوة.. المزلاج يوشك على أن يتحطم..

هنا جانت مني نظرة إلى البساط جوار الفراش.. تلك الجريدة الملفوفة حول شيء ما.. لقد نسيت.. كنت أنوي أن أتخلص منها غداً لكنني أعرف الآن ما علي عمله..

حملت الجريدة.. وقفت خلف الباب وأخذت نفسًا عميقًا.. ماذا لو كنت مخطئًا؟.. ماذا لو كنت حمارًا؟

عندها لن أعرف ذلك على الأرجح..

بسرعة البرق بين طريقة وأخرى أزحت المزلاج.. فتحت الباب وأنا وراءه وطوحت بالجريدة في الردهة.. ثم أغلقت الباب وأرجعت المزلاج..

كان قلبي يدق كالطبل الآن.. سقطت على ركبتني لأن ساقي لم تعد تتحمل..

انتظرت أن ترجع الطرقات لكنها توقفت.. توقفت فعلاً... ولم أتم في تلك الليلة..

عندما جاء العمال في الصباح الباكر كانوا مندهشين لأن باب الغرفة 207 منتزع من مكانه.. منتزع بقوة لا يعرفون مصدرها..

قال لي الكهربائي:

- «نحن تركنا الباب مفتوحًا فهل أغلقه أحد؟».

- «لا أدري!».

ولاحظت بلا دهشة كبيرة أن العظام التي أخرجتها لم يعد لها وجود.. لا يوجد شيء على الأرض كأنني لم أكن هنا أمس..

أصدرت تعليماتي لهم بأن يسدوا الفجوة إياها بالمونة بأسرع وقت ممكن.. لا نريد خراطيم ولا أسلاكًا هنا.. كانوا مندهشين لكنهم قاموا بما طلبته.. لا أعرف هل حبست هذا الشيء بالداخل أم حبسته بالخارج لكنني لن أجازف ثانية..

واصلوا الدق ثم سمعت احد الفتية العاملين مع السباك يصيح:

- «هناك قطعة عظم في الحمام تحت طبقة السيراميك!».

جريت إلى هناك وأمرته بأن يعيدها إلى الجدار.. من فضلك لا تخرج أي شيء من مكانه..

قال الكهربائي وهو يشعل لفافة تبغ جذبها من خلف أذنه:

- «أشياء غريبة في هذه المهنة.. أشياء غريبة بحق.. ذات مرة هدمت جدارًا فوجدت ثعبانًا حيًا.. لكننا لا نبالي بهذه الأمور يا أستاذ.. نحن صنايعية نشقى من أجل لقمة العيش..».

ثم حك رأسه وسألني:

- «لكن.. لماذا تهتمون بالتجديدات في هذه الغرفة بالذات؟.. لماذا أم الغرفة 207 دون سواها؟؟؟!».

النمط رقم (4)

الحياة لا تدلنا ولا تقف بانتظار أوامرنا وأوهى رغباتنا.. هذا يحدث في المطاعم الفاخرة، حيث يتم معاملتك كزبون، بينما الحياة لا تعتبرك زبوناً يجب إرضاءه في كل الأوقات.. إن لم يرق لك المطعم يمكنك أن ترحل ولسوف يأتي غيرك فوراً.. و(ما نعطلكش بأه)...

في الأيام الأخيرة كثرت المضايقات، ولن أصدع رأسك بها، لكن تدهور علاقتي مع يوليوس قيصر صار أمراً واضحاً مزعجاً للجميع، وقد قال لي الناصحون أكثر من مرة:

- «(يوليوس قيصر) ليس خصماً هيناً.. لا تحاول أن تتورط في كراهيته».

لكنني كنت فاقداً للإرادة كما تعلمون، والسبب هو عشقي للجمال.. ولكن دعني أقص عليك القصة من بدايتها ولتكن حكماً بيني وبين هذا الطاغية الإيطالي..

كنت أمارس العمل الوحيد الذي أعرف كيف أقوم به: الفندقية.. لربما كنت أداري تحت جلدي جراح أعصاب عظيمة أو عالماً نووياً لكني لن أعرف هذا أبداً.. منذ عرفت أن البشر يعملون وأنا أقف على هذا الكاونتر أتسلى في وقت الفراغ بالقراءة ومراقبة الناس.. هل توجد طريقة أخرى للحياة؟.. لا أعرف..

كانت (سارة) الخبيثة مضيعة الفندق التي لا تكف عن ملاحظة الناس تقف مستندة إلى الكاونتر، تلوك اللادن كعادتها وتعطي استنتاجات ذكية غالباً ما تصدق..

قالت لي:

- «هل لاحظت شيئاً في الغرفة 207؟.. النزيلين الحديدين؟».

من جديد اسمع الرقم الذي لم أعد أطيقه، والذي صار يسبب لي نوعاً من الغوياً.. ماذا حدث هذه المرة؟

قالت (سارة) وهي تقرض أطراف أظفارها وتبصق ما تقرضه فوق مكنتي:

- «النمط رقم 4».

- «هذا مسل.. لكن ما هو النمط رقم 4؟».

- «الفتاة الشابة اللعوب المسيطرة على زوجها المسن.. برغم هذا هو رجل مهيب عظيم النفوذ قوي الشخصية وسط الرجال، لكنه العوبة في يدها».

- «هل عرفت هذا كله في لحظات؟».

- «أنت تعرفني.. هل أخطأت مرة؟».

- «لا. لكنك لم تقولي لي رأيك في شخصي قط...».

- «لن تغفر لي هذا الرأي لو قلت...! إن علاقات العمل يجب ألا تفسد بأشياء كهذه.. هناك آراء يجدر بالمرء أن يتلعتها..».

هزرت رأسي باسمًا بينما كانت هي قد فرت كعادتها.. القاعدة الأولى في بروتوكول المواجهات: قل كلمتك المستغزة واهرب قبل أن تتلقى الرد.. القاعدة الثانية: لا تعد إلا عندما يكون الطرف الآخر قد نسي ما قلته..

كنا في وردية المساء والجو هادئ عامة.. صحيح أن هذا هو الصيف لكن هناك أيامًا أكثر هدوءًا من سواها..

هكذا فتحت جهاز التلفزيون الصغير ورحت أتابع فيلم السهرة، بينما جلس مصطفى يقربي يحكي لي قصة لا أول لها ولا آخر عن ميراث حاول عمه الاستيلاء عليه، لكن المحامي تلاعب بشيء ما مما أدى إلى تأجيل جلسة شيء ما..

دق جرس الهاتف فرفعت السماعة.. النزيلة في غرفة 207 تعاني مشكلة مع التكييف.. لماذا تطلبني مع إنني موظف الاستقبال؟.. لأن كل النزلاء يفعلون هذا.. كأنهم لا يقرءون رقم (خدمة الغرف) في الكتيب الأنيق الموضوع جوار الفراش..

أغلب الظن أنه لا مشكلة هناك.. الغرفة هادئة منذ فترة لا بأس بها والحمد لله.. حتى الأشباح تهمد وتحتاج إلى الراحة.. هذه نزيلة تعاني مشكلة مع التكييف فعلاً.. لا أكثر ولا أقل..

لكنني على كل حال قررت أن أصعد إلى الغرفة لأرى المشكلة..

رائحة عطرية غريبة شممته وأنا أدق الباب.. تذكرت ما قالته (سارة) عن الزوجة اللعوب المسيطرة على زوجها المسن.. رأيت هذه النزيلة مرات لكنها كانت دومًا تلبس نظارة سوداء وقبعة، ولم أتبين ملامحها بدقة.. لابد أن تكون فاتنة بحق إذا كانت (سارة) تفهم شيئًا..

دخلت الغرفة وسط العبيد السود العمالقة عراة الصدور الذين يقفون على ناحيتي الباب.. عيونهم واسعة بيضاء لامعة وسط الأبنوس الأسود، مما يوحى بقطع الرقاب في أية لحظة..

تعثرت في طاووس يمشي بلا مبالاة.. ثم رفعت رأسي فوجدت عازفة سمراء تلبس ثوبًا شفافًا وتقف جوار (هارب) كبير.. كانت تنظر لي في فضول لكن أناملها لا تتوقف عن العزف..

هناك نمر عملاق مربوط بسلسلة في عنقه يجثم تحت العرش ويتشاءب.. هذا إذن هو مصير من لا يصلحون جهاز التكييف جيدًا..

كانت جالسة على العرش فعلاً وقد بدا عليها الملل.. ربما يمكنك أن تكتب سطرًا أو سطرين عن الجمال. قد تؤلف لحنًا.. قد تكتب قصيدة

أو ترسم لوحة، لكنك في النهاية مجرد طفل يمسك بكوب بلاستيكي يحاول أن يسكب به المحيط فوق الرمال.. هذا ليس جمالاً.. إنه شيء لا يمكن وصفه أو التعبير عنه أو التفكير فيه..

جالسة ممسكة بمروحة من ريش النعام، وتحركها في عصبية جديرة بالملكات، برغم هذا هناك جارتان تمسكان بمروحتين عملاقتين حوارها..

قالت لي بصوت رقيق لا يخلو من الحزم:

- «أنا كليوباترا ملكة مصر.. اقترب أيها العبد..».

أنا عبد؟.. لا أطيق هذه الكلمة لكن جمالها وهيبه الموقف أخرساني فدنوت منها..

- «جهاز التكييف لا يعمل كما يجب.. إن أعصاب نموري متوترة.. دعك من أن يوليوس قيصر لم يستطع البقاء هنا..».

- «لو سمحت لي مولاتي».

واتجهت إلى لوحة التحكم في الجهاز.. كما توقعت.. هم رفعوا معدل التكييف إلى أقصى حد، لكن أحرق ما جعل الجهاز يعمل للتدفئة.. هكذا حركت المفتاح وخلال ثوان بدأ الهواء البارد يملأ الغرفة..

شاعت ابتسامة رضا على وجهها وهي تحرك المروحة المصنوعة من ريش النعام أمامه:

- «جميل.. جميل..».

وملأت رثتها بالهواء البارد وسألتني:

- «ما اسمك أيها العبد الوسيم؟».

- «جمال يا مولاتي.. جمال الصواف..».

- «هذا اسم غير معتاد.. هل تتاجر في أصواف الأغنام مع الشماليين أم تتاجر في الصبغات الحمراء مثل أهل فينيقيا؟».

- «لا يا مولاتي.. هو مجرد اسم..».

دعنتي للجلوس على الأرض بجوار العرش، وكنت اشعر بارتباك بسبب هذا النمر الوغد الجالس على الأرض تحت العرش.. بالفعل مد مخليه وراح يعث في طرف حذائي.. تظاهرت بالشجاعة لكني كنت على وشك الصراخ..

جارية سمراء جاءت بوعاء من ذهب وصبت لي كأساً له رائحة ومذاق رحيق الأزهار فشربت.. ينما سألتني كليوباترا:

- «هل أنت مشغول؟.. لماذا لا تبقى معي قليلاً؟».

- «لا مشكلة..».

تلا هذا أروع حفل ساهر يمكن وصفه.. لقد دخلت مجموعة من الراقصات الرشيقات ورحن يؤدين فقرات بهلوانية لا يمكن أن تصدقها ما لم ترها.. ثم ظهر سحرة من بلاد الشمال يأكلون النار.. وأفارقة يصارعون التماسيح.. وكل هذا في الغرفة التي لا أعرف كيف اتسعت لهذا كله..

قالت لهم كليوباترا بلهجة الملكة الملول :
- «والآن ارحلوا!!».

هكذا تفرق الجمع.. هناك من اتجه إلى الباب ومن قصد الشرفة ومن دخل الحمام.. لم يبق سوى وسواها والنمر..
ساد صمت ثقيل.. أنت تعرف كيف يشعر المرء مع الملكات. الملكات اللاتي تخطي جمالهن حدود المعقول أو المنطقي.. من الأحق الذي قال إن كليوباترا لم تكن جميلة؟..
قالت لي:

- «لا توجد تسلية هنا.. كل هذا ممل ومعتاد ولا أرى سواه.. أحياناً أذهب للاستحمام عند تلك الصخرة...».
- «حمام كليوباترا.. أعرفها..».
- «لكني في النهاية حبيسة هنا.. مع عجوز غيور متشكك..».
فجأة سمعنا قرعات قوية على الباب.. فهتفت في دعر:
- «لقد عاد قيصر!... لن يعتبر وجودك هنا بريئاً!!».

ودخل (يوليوس قيصر) العظيم إلى الغرفة..
كان مسناً بحق، لكنه مهيب بشكل لا يصدق، ووجهه ملئ بالتجاعيد بينما ينسدل شعره الشائب على جبينه لأنه يضع خوذته تحت إبطه.. دروعه تتألق في ضوء المشاعل وهو ينظر لي نظرة نارية، بينما يقف وراءه قواد رومانيون يبدون مثله..
قالت كليوباترا بلهجة دلال :

- «تعال يا قيصر العظيم واجلس معنا.. هذا الشاب المصري الوسيم أصلح جهاز التكيف...».
لم يبد سعيداً بهذا ونظر لي ولها ثم قال:
- «ليس من المعتاد لدى الملكات أن يتبسطن مع العامة...».
- «أنا لم أتبسط معه.. كنت أوجه له الشكر...».
نظر لي طويلاً ثم قال:

- «أنت أنهيت مهمتك.. يمكنك الانصراف».

بالطبع لم يكن لي مكان أصلاً، دعك من هيبة الرجل وتأثيره الكاسح.. الرجل الذي يسيطر على روما قادر على أن يخرجني من الغرفة بالتأكيد..

هكذا نهضت وهزرت رأسي وابتعدت..

هل تخيلت هذا أم إنني سمعتها بالفعل تتكلم معه في حدة قائلة:

- «أنت لن تتحكم في للأبد!!».

عندما انغلق الباب؟.. لا أجسر على الاعتقاد أن الملكة كليوباترا تتشاجر من أجلي..

هكذا عدت إلى الكاونتر حيث (مصطفى) يتابع التلفزيون وقررت أن أنسى هذه الحادثة الصغيرة..

بعد ساعتين اتصلت بي الملكة كليوباترا تطلب مني أن اصعد إلى الغرفة 207..

نظرت إلى مصطفى فوجدته غافياً.. اللوبي هادئ فيما عدا ثلاثة أو أربعة يتكلمون همساً.. كان الإغراء شديداً لكن....

- «وماذا عن يوليوس قيصر؟».

- «لقد انصرف.. إنه مشغول كما تعلم.. كل الغزاة كذلك».

متى انصرف وأنا لم أراه؟.. على كل حال طلبت من شعبان عامل النظافة أن يعنى بالاستقبال بينما صعدت إلى الغرفة..

فتحت لي الباب جارية ذات طابع قوقازي.. كانت الملكة جالسة على عرشها وإن بدلت ثيابها.. بالطبع.. لا يمكن أن تظل الملكة بذات الثياب أكثر من ساعة.. دعك من طبيعتها النارية المتقلبة التي تخرج عصبيتها عن طريق كثرة تغيير المظهر..

عندما جلست قالت لي:

- «لقد رحل.. الحقيقة أنه لم يكن مخطئاً جداً في غيرته.. هؤلاء الغزاة أذكاء وحساسون.. أنت تفهم بالطبع أن سبب تدليلي له هو أنها الطريقة الوحيدة التي أعرفها للدفاع عن مصر.. عندما صار هذا الرجل لي صارت روما كلها لمصر»..

الهزيمة بالحب.. أسلوب غريب للحرب لكن اقتران الحب بالحرب أمر عتيق في الوجدان البشري على كل حال...

قالت وهي تنظر لي بعينين قادرتين على إذابة الصخر:

- «من حين لآخر أحب أن أنسى السياسة وأفكر في نفسي.. أختار من أريد لا من تريده ظروف الكر والفر.. أنت تفهم كلامي طبعاً؟».

- «بصراحة.. لا»..

- «وهذا عنصر جاذبيتك!... هذه اللمسة من السذاجة تعطيك سحرًا لا شك فيه..».

ثم نظرت نظرة نارية إلى الجالسين حولها:

- «أريد أن أكون وحدي!».

في ثوان خلت الغرفة ممن فيها.. ونظر لي النمر نظرة طويلة مهادنة كأنه يقول: أنت صرت السيد.. لا أستطيع أن أؤذيك..

هذه كانت ليلة طويلة من ليالي الحلم.. حكى لي كليوباترا فيها كل شيء.. شربت الكثير من ذلك الرحيق في كئوس الذهب.. غنت لنا الجواري من وراء ستار..

وعندما عدت إلى الاستقبال كنت اشعر كمن دخن طناً من الحشيش أو شرب نهرًا من الخمر.. رأسي لا وزن له وأنا أحلق.. أحلق..

في الصباح الباكر جاءت (سارة) لتقف أمامي وتنظر لي في ثبات.. ثم قالت:

- «اسمع.. لا أحب التدخل في أمورك، لكن هناك أطرافًا من الكلام تتناثر هنا وهناك.. يوليوس قيصر ليس بالخصم الهين ولو عرف بما يحدث لنسفك نسفًا..».

- «ما هذا الذي يحدث؟».

قالت ما معناه (استعبط يا خويا.. استعبط).. ثم قالت بتلك الطريقة التقريرية الباردة التي تجيدها الفتيات:

- «هذا من شأنك.. لكن يوليوس قيصر يستطيع أن يؤذيك.. لا تنس النمط رقم 4».

- «ليس هذا عصر القوة بل هو عصر القانون..».

- «من دون قوة. لا تنس أنه إيطالي مثل الخواجة مايكل مدير الفندق.. وسوف تكون كلمته ضد كلمتك فمن يصدقه (مايكل)؟».

كلام معقول فعلاً.. لكنني كنت غارقًا في بحر الغرام لا أعني ما يحدث من حولي.. فقط لينته هذا اليوم بسرعة لأعود إلى الغرفة 207 حيث كليوباترا..

عندما جاء المساء طلبت من مصطفى أن يعنى بالاستقبال، ثم اتجهت إلى الغرفة 207.. بعد ليلة البارحة لم يعد من الضروري أن آتي مدعواً.. بوسعي أن أدعو نفسي..

لكنني بالفعل اخترت وقتًا غير مناسب..

لقد دققت الباب فانفتح.. هنا رأيت أن المكان أقرب إلى حفل صاحب..

عند العرش كانت كليوباترا تقف وتشوح بيدها في عصبية، بينما تقف أمامها امرأة بارعة الحسنة ناضجة قوية الشخصية.. لكنها تلبس بالضبط مثل.. مثل نساء العصر الفاطمي كما نراهن في تصميمات شادي عبد السلام يرحمه الله!

كليوباترا تصيح:

- «هذا عرشي يا (شجرة الدر).. كفي عن هذا السخف..».

شجرة الدر بدورها تصيح:

- «وأنا أقول إنه عرشي ولن أتركه لغانية يونانية لعوب..».

- «أنا مصرية يا حبيبتى.. ولن استخدم لغتك في الكلام عن الزوجة المحترمة التي قتلت زوجها بالقباقيب..».

كانت مباراة حقيقية في الردح حتى إنني وقفت عاجزاً عن الكلام، فقط لأسمع محاورة غريبة بعض الشيء تأتي من خلفي..

نظرت إلى الورا لأجد يوليوس قيصر يقف مع جنرال نازي وجنرال بريطاني.. كانوا يثرثرون وهم يمسكون بكؤوس الشراب.. يقول النازي:

- «كنتم معشر الإيطاليين سادة القتال، لكننا لا نعرف ما حل بكم.. لقد خيبتكم أمل الفوهرر في الحرب..».

يقول قيصر:

- «لست مسئولاً عن أحفادي وليس بينهم من يدافع عن نفسه هنا يا مارشال روميل.. لكن لا تنس أن البريطانيين كلغوك هزيمة ماحقة على هذه الأرض بالذات..».

يقول النازي الذي عرفت ان اسمه روميل:

- «مشكلة الوقود.. في عصركم كانت الحروب مريحة لا تقتضي إلا بعض الحساء واللحم للجندي، أما حروبنا فتعتمد على إمداد لا ينقطع من البترول.. كلما تقدمنا للأمام طالت خطوط إمدادنا وسهل قطعها.. أليس كذلك يا مونتني؟».

قال البريطاني:

- «بلى.. لقد فهمت ذلك مبكراً ولعبت عليه في العلمين..».

وارتفعت الأنخاب.. هنا التفت روميل نحوي وهتف:

- «من هذا؟».

نظر لي قيصر واحمر وجهه وقال:

- «هذا مصري يعمل في الفندق، وهو مصر على أن يلقي حتفه هذه الليلة بالذات..».

فجأة انقطع خيط المحادثة الخطرة إذ تعالت صيحات الحماس..

صغير.. تهليل..

وسمعت من يقول:

- «(سالومي) سوف ترقص!».

نظر الجميع إلى حيث جاء الصوت، فرأينا فتاة حسناء نحيلة تبرز للعيون وهي ترتدي ثوبًا غريبًا مكونًا من سبع قطع كل منها في مساحة منديل.. الطريف أنها تبدل أماكن القطع بلا توقف!.. ووقفت تتمايل أمام القوم ثم بدأت تدور في القاعة.. هناك صينية صغيرة مغطاة بمنشفة وضعت في مركز رقصها وقد راحت تدور حولها بلا انقطاع...

وبحركة رشيقة مدت يدها تنزع الغطاء.. هنا رأيت الرأس المقطوعة النازفة تستقر في الصينية.. رأس (يوحنا المعمدان).. هذا هو الثمن الذي دفعه لها (هيرود انتيباس) مقابل أن ترقص عارية..

أشحت برأسي في اشمئزاز ورعب واتجهت إلى الباب..

هنا سمعت كليوباترا تناديني..

قالت لي في شيء من الرفق:

- «معذرة.. أنت لم تخبرني بقدومك لهذا لم يكن الوقت مناسبًا.. سوف يصل هانيبال بعد قليل ويتحول المكان إلى جحيم مع كل هؤلاء القرطاجيين وأفيالهم.. أقترح أن ترحل على أن أتصل بك عندما تهدأ الأمور..».

هكذا هزرت رأسي وغادرت الغرفة شاعراً بالحر.

على الباب سمعت الصيحة الرومانية الشهيرة:

- «جئت ورأيت وانتصرت..!».

يبدو أنها تنطبق على حالي إلى حد ما..

في الصباح انتهيت من ورديتي وتأهبت للنوم فترة الصباح كعادتي..

قابلت مصطفى عامل المصعد وهو يشرب قدحًا ثقيلًا من القهوة ويتحسس رأسه..

عندما رأيته نظر لي بعينين حمراوين وقال :

- «بيني وبينك.. لن أدخن هذا النوع مرة أخرى!».

نظرت له في عدم فهم فقال:

- «هذا الحشيش.. يسبب الصداع ويسبب هلوسة غير طبيعية..

أنت رأيت الشيء ذاته.. أليس كذلك؟».

ثم أضاف في حكمة:

- «الحشيش الجيد يجعل مزاجك يصفو وإحساسك بالدعابة أعلى لكنك لا تحرف أبدًا.. هؤلاء التجار غشاشون..».

وفي خجل أشار إلى حجر سرواله فأصابني الرعب. كانت هناك دائرة من البلب هناك.. لقد بال على نفسه من دون أن يشعر.. هنا بدأت أتذكر.. أتذكر وأفهم..

السجائر الملوثة بالزيت.. الأنفاس السريعة في حمام العاملين عند بداية النوبتية.. مصطفى هو الذي احضر هذا الشيء.. لقد جربناه ليلتين.. الليلتين اللتين زرت فيهما كليوباترا.. لقد فهمت كل شيء.. فهمت....

هنا جاء من يخبرني إن الخواجة مايكل يريدني.. اتجهت إلى مكتبه وأنا اشعر بأن رأسي ثقيلة جدًا.. لم لا يرحي الكلام إلى ما بعد؟

قال لي الخواجة وهو يلتهم طعام الإفطار في مكتبه كعادته: - «اسمع.. أنا أثق بك واعتدت على أنك مهذب.. لكن هناك نزيلاً يشكو بشدة من مضايقتك لامرأته..».

- «أنا؟».

- «نعم.. نزيل الغرفة 207 يقول إنك تضايق زوجته الشابة وتتطرق وتقرع الباب عندما لا يكون موجودًا..».

- «هذا كلام فارغ.. إنني...».

فوجئت بيده مرفوعة في وجهي لأصمت وقال:

- «نعم.. نعم.. أعرف.. ليس هذا الكلام متوقعًا منك.. تقول المضيفات هنا إنه يغار على امرأته الشابة بشدة ويشك في الجميع.. إنه مسن وهي شابة في ريعان الصبا.. هذا مركب معناد جدًا..».

- «النمط رقم 4».

قلت لها همسًا فسألني عما أقول. قلت بصوت خافت إنه لا شيء.. قال:

- «سأجرب أن أثق بك.. سوف افترض أنه مجنون.. لكن ليكن واضحًا إنني لن أنتظر شكوى أخرى منه.. ابتعد عنه ولا تشتبك معه في أي نوع من الخلاف أو الجدل. لو أنك نفخت دخان السيجارة في وجهه لقال إنك تتحرش بامرأته، وعندها سأصدقك.. هل فهمت؟».

كان هذا موقفًا كريمًا نادرًا لذا شكرته ووعدته..

قال وأنا اخرج من مكتبه:

- «هؤلاء الغزاة.. لا يمكن فهمهم أبدًا!».

توقفت على الباب شاعرًا بحيرة لا حد لها..

ما معنى هذا الكلام؟.. بالذات العبارة الأخيرة؟.. لقد عرفت كل شيء وعرفت من أين جاء قيصر ورومل وشجرة الدر ومونتجمري. جاءوا من أبخرة القنب الهندي فما دخل الغزاة بالموضوع؟ أعتقد أنني أخطأت السمع..

على أن ورديتي ليلاً بدأت بمفاجأة غريبة بعض الشيء..

لقد جاءت سارة الخبيثة لتقف مستندة على الكاونتر كعادتها وقالت لي:

- «هيه؟.. ما أخبار العاشق؟.. هل ألقاك قيصر للتماسيح بعد؟».

نظرت لها في رعب فبادرت إلى الفرار كعادتها وهي تضحك في خبث..

أكره اللعبة التي تغير قواعدها طيلة الوقت.. أنا لم أدخن أي شيء ولم يدخل جوفي شيء.. أفترض أن هذه القصة انتهت.. لماذا يجددون ذات التعليقات والمزاح؟.. كنت في عالم الهلاوس وعدت منه فلماذا ظلوا هم فيه؟

هكذا غادرت الكاونتر واتجهت إلى الغرفة 207 وقرعت الباب عدة مرات..

بالطبع لا أحد..

هكذا تأهبت للانصراف.. لكن الباب انفتح..

دخلت في حذر لأفاجأ بالجارية القوقازية تهش في وجهي!.. وسمعت زئير النمر وسمعت العزف على الهارب!..

كليوباترا جالسة على عرشها.. إنها حق لا شك فيه.. لم يكن للحشيش ذنب.. الأثر المخدر لا يمتد ثلاثة أيام..

إنها كليوباترا فعلاً.. ترحب بي فعلاً.. يقدم لي الشراب فعلاً..

ثم تقول لي في مرح:

- «قيصر ليس هنا.. أرجو ألا تكون تضايقت مما حدث أمس..».

نظرت لها في ذهول وهمست:

- «هل تريدني قول إنني أرى ما أراه فعلاً؟».

- «بالتأكيد.. من قال العكس؟.. لا تنس أنك في الغرفة 207 حيث لا يوجد واقع ولا خيال... هناك شيء واحد.. سمه الواقيل.. سمه الخياقع.. المهم أنه موجود».

ثم مدت أناملها لتمسك بطرف ذقني كأنها ثمرة كمثرى وابتسمت..

هنا سمعت الباب يفتح بقوة ومنه دخل يوليوس قيصر حاملاً
خوذته..

- «الآن أنا متأكد مما أعتقد...!».

مد القواد الرومان أياديهم إلى السيوف، لكنه أوقفهم بإشارة من
يده وقال لي:

- «هذه المرة الأمر بيني وبينك.. سيفك أيها المستشار
(كلاوديوس)».

أخرج المستشار المذكور سيفه من الغمد وناول له لقائده، فناوله
هذا لي وقال:

- «مبارزة حتى الموت.. من أجل ملكة الملكات..».

- «لكني لا أعرف كيف...».

- «إما أن تموت كرجل أو تموت ككلب.. اختر!».

هكذا حملت السيف الثقيل ووقفنا متباعدين.. ثم انقض علي
بسيفه.

من الغريب أن الأمر لم يكن بهذه الصعوبة.. كنت أبارز كأني أعرف
هذا طيلة حياتي.. هويت على عنقه لكنه تحاشاها بسيفه.. هوت
ضربتي على عنق واحدة من الجواري البائسات فسقطت تنزف..
قال وهو يطوح بسيفه:

- «بارع أنت في قتل النساء الضعيفات».

تحاشيت ضربته وأغمدت سيفي فانغرس في حشية من حواشي
الغرفة.. ثم عدت اطعنه وأتقي طعناته.. صراع طويل مضم.. العرق
يغمرنني.. تمزق قميصي من طعناته لكنه لم يمس جسمي..

تراجع للخلف فداس على قدم النمر المتربص.. عوى هذا في ألم
وأنشب مخالبه وأنيابه في ساق قيصر.. كانت هذه فرصتي كي
انتهر الفرصة وهويت بسيفي على منبت عنقه..

رباه!.. لقد كانت مجزرة!.. الدم الذي تناثر وغطى كل شيء..

وهتف المستشار (كلاوديوس) في رجاله:

- «لقد قتل القيصر!.. اقتلوه».

انقض علي القادة الرومان بسيوفهم وعرفت أنني ضائع.. هكذا
رحت أضرب بسيفي يميناً ويساراً.. أضرب في جنون.. أضرب
كالعميان..

أضرب.. أضرب.. الأرض تذوب من تحت قدمي.. الظلام يزداد كثافة..
أنا أقرب إلى العمى..

أضرب.. أضرب..

وفي النهاية سقطت..
سقطت لكن يدًا كانت تحاول أن تعيدني لعالم الأحياء..
- «انهض يا جمال.. بسم الله الرحمن الرحيم..».
فتحت عيني فوجدت مصطفى يركع على الأرض جوارى.. إنها
الحجرة 207. لكن أين ذهب الجميع؟
قال لي وهو يصب شيئًا بين شفتي:
- «ما الذي دهاك؟.. أنظر لما حدث في الغرفة؟».
نظرت حولي فوجدت الفراش مبعثرًا.. الوسائد ممزقة ومتناثرة..
الكومود مقلوب.. الجدار تهشم في أكثر من موضع.. الأسلاك
منزوعة من الجدار.. قميصي ممزق..
قلت في حيرة:
- «أين؟.. أين الجميع؟».
- «لا يوجد أحد.. أنت تعرف أن الغرفة خالية منذ أمس.. كان فيها
رجل وزوجته وقد رحلا..».
أنا فعلت هذا كله؟.. كنت أقاتل الفراش والوسائد والأسلاك؟
لو كان هذا صحيحًا فلماذا كلمني الخواجة وما معنى الذي قالته
سارة؟..
قل ما تشاء لكنني أعرف أن كليوباترا وقيصر كانا هنا.. كان روميل
هنا , ومونتجمري كان هنا.. ربما كان هانيبال هنا كذلك..
أعرف أنني قتلت يوليوس قيصر وقتلني قواده.. أعرف أن كليوباترا
أحببني.. أعرف أنهما انتميا للنمط رقم 4..
وقبل كل شيء أعرف أن الغرفة 207 تراقب هذا كله، وتكتم
ضحكاتها الخبيثة!

اللقاء

العام 1992.. اليوم الثاني عشر من يوليو..

في الثامنة مساءً، جاء اللواء المتقاعد (مختار) وطلب غرفة.. كان طلبه المحدد أن تكون هي الغرفة 207..

والآن دعني أقرب لك صورة الرجل الذي دخل الفندق في هذا الوقت.. كان فارح القامة رياضي الجسد... أنت تعرف العسكريين على الفور من قاماتهم الرياضية.. هذا رجل لم يقض شبابه ساهراً يدخل، دعك من نظرة الحزم الأمر في العين.. كان شعره مزيجاً من الصلع والشيب، وله شارب عسكري لا تخطئه العين.. يلبس قميصاً صيفياً واسعاً يخرج من سراويله، لكنك تستطيع أن تدرك كم أن صدره عريض يوشك على تمزيق الأزرار.. هناك عكاز يتوكأ عليه فلا بد أنه شارك في حرب ما من حروبنا العديدة.. 56 أو 67 أو 73.. سنه تسمح بأية حرب منها..

نظرت له في عمق وقلت:

- «هناك غرف أفضل من هذه يا سيدي.. هناك أكثر من حجز تم إلغاؤه..».

قال بلهجته العسكرية القاطعة:

- «الغرفة 207 يا بني..».

هكذا لم أجد مناصاً من أن آخذ بياناته.. كان عسكرياً متقاعدًا بالفعل..

صعد إلى الغرفة فقلت لمصطفى عامل المصعد الذي جاء يقترض مني لفافة تبغ:

- «هذه قصة جديدة على ما أظن..».

قال وهو يبلل اللفافة بطرف لسانه كعادته:

- «لماذا لا ينسفون تلك الحجرة ويريحوننا؟..».

ليت هذا ممكن.. لكنه مستحيل بالطبع.. فقط لو كنت صاحب الفندق لقمتم بسد بابها بعد ما أكون ملأتها بالخرسانة.. هكذا تنتفي هذه الغرفة للأبد..

رحت أعمل وأتلقى المكالمات وأدون في دفترتي وأضحك تلك الضحكة المفتعلة، بينما جاءت مساعدي الجديدة (ياسنت) وهي فتاة شابة سوف ترحل سريعاً على كل حال.. إنها حسناء ومن الطراز سريع الزواج.. هذا النمط من الفتيات كدودة القز.. عملها مجرد فترة انتقالية سريعة قبل أن تنسج شرنقة الزواج حول نفسها وتصبح ست بيت.. أعرف هذا النمط لأنني قابلته ألف مرة من قبل..

رأيتها واقفة تتكلم مع رجل أجنبي متقدم في العمر، وكانت تهز يدها في إلحاح مصرة على كلامها..

هناك مشكلة لذا دنوت منها لأسمع.. إنها عديمة الخبرة بطبيعة الحال..

كان الرجل بريطانيًا كما هو واضح من لهجته.. بالطبع نحن نجيد الإنجليزية أو على الأقل نفهمها، ونستطيع أن نوصل ما نريد بها على طريقة تجار خان الخليلي، لذا سألتها عن المشكلة..

قال لي:

- «هذه الأنسة تصر على أن الغرفة 207 محجوزة.. هذا مستحيل..».

قلت له باسمًا:

- «لا أرى ما يمنع من ذلك.. نحن فندق محترم يثق فيه النزلاء، وعلى كل حال قد تم حجز الغرفة منذ نصف ساعة.. عندي لك غرف أفضل بكثير و...».

قال في حزم:

- «لكن هذه هي الغرفة التي أريدها..».

ما موضوع هذه الغرفة؟.. لم هذا الحماس العنيف؟..

- «ليست الغرفة 207 أفضل غرفة تطل على البحر.. إن الغرفة 219 مثلاً.....».

قال وهو يتحسس شاربه:

- «الموضوع أنني أقمت فيها منذ أعوام وكانت ممتازة.. هل يوجد أمل في أن يتركها نزيلها عما قريب؟.. ربما يقبل تسوية ما».

- «لا أعتقد.. قلت لك يا سيدي إنه حجزها منذ نصف ساعة.. لقد أفرغ حقائبه وبذل ثيابه.. من المستحيل أن تقنعه بغير هذا، دعك من أنه طلبها بالاسم!».

استند على الكاونتر وأخرج غليوًا وراح يحشوه ساهم النظرات متضايقًا.. ثم قال لي وهو يطلق سحابة كثيفة من الدخان قوي الرائحة:

- «لم لا تجرب أن تطلبه وتسأله؟».

- «لا أعتقد.. إنه...».

- «جرب من فضلك..».

هكذا رفعت السماعة شاعرًا بحرج شديد.. هذا موقف سخيف لكنه على الأقل يخلصني من إلحاح هذا المزعج..

- «آلو.. هنا الاستقبال.. كنت أسألك يا سيدي عما إذا كانت الغرفة مريحة؟».

طبعًا كان الرقم الذي طلبته هو رقم المغسلة، وقد جاءني صوت (الششماوي) الغليظ يسألني:

- «هل جنت يا جمال؟».

لم أبال وعدت أسأله:

- «هل ترغب في تغييرها؟. بصراحة هنا نزيل يريد غرفتك وقد خطر لي أن عندنا ما هو أفضل..».

- «لابد أن برجًا من عقلك طار.. غرفة إيه وزفت إيه؟».

- «آه.. إذن هذا مستحيل.. آسف جدًّا يا سيدي..».

ووضعت السماعة ونظرت باسمًا إلى النزيل الجديد.. كنت أتوقع أنه يفهم الكثير من العربية ويتظاهر بالعكس كعادة الأجانب في مصر، لذا عرفت أنه تابع المكالمة جيدًا..

بالفعل لم يسألني عن محتوى المكالمة.. فقط قال لي في استسلام:

- «إذن اختر لي غرفة مناسبة وقريبة منها..».

وهي الغرفة 219 كما قلت لك. هكذا أنهيت الإجراءات وسرعان ما كان (مصطفى) يقوده إلى المصعد في احترام..

سألتنني (باسنت) في غير اكتراث:

- «ماذا في تلك الغرفة 207؟.. هل هي رائعة كما فهمت؟».

- «إنها الروعة مجسدة!... قد تعيشين عمرك في عالم الفنادق ولا ترين ما يماثلها جمالاً..».

وانهمكت في بعض الأعمال.. سوف تنصرف هي بعد قليل وأظل ساهراً وحدي أتسلى مع (مصطفى)..

هنا رأيت ذلك الرجل فارع القامة يتقدم.. كان أشيب الشعر، في ملامحه وقار غريب.. تقدم من الكاونتر وهز رأسه محيياً.. له عيان زرقاوان من الطراز الثلجي البارد الذي يجمد روحك إياه.. لو كان هذا ضابطاً فهو بارع جدًّا في استجواب المتهمين.. لو كان طبيباً فلا مرض يخفى عليه.. لو كان...

- «أريد أن أحجز الغرفة 1207!».

قالها بعربية مهشمة.. إنه أجنبي إذن كما هو واضح..

- «آسف يا سيدي.. إنها محجوزة منذ ساعتين..».

- «لا شيء غير قابل للتغيير.. الغرفة 207 تناسبني أكثر من سواها.. ربما لو دفعت مبلغًا إضافيًا..».

- «تدفعه لنا أم لنزيل الغرفة؟.. للأسف كلا الحلين غير مجد..».

- «هل عندك غرفة أخرى تماثلها؟».

- «ربما الغرفة.. الغرفة» - وراجعت الأوراق - «الغرفة رقم 203.. تجاوزها تمامًا...».

هكذا أخرج أوراقه.. كان اسمه (كارل بايبر).. ألماني.. يبدو أنه جاء إلى مصر منذ ثلاثة أيام حسب جواز سفره..

فرغت من الإجراءات وأنا غارق في الحيرة.. لم تكن الغرفة 207 مغرية قط، ولم يذع عنها أنها تحوي كنزًا.. فقط هي تطل على البحر مثل عشرات الغرف في فندقنا.. فما سر هذا الحماس الغريب؟.. الإجابة طبعًا أنها الغرفة 207.. هناك سر مخيف يفسر هذا الحماس..

كانت الليلة في بدايتها بالنسبة لي، وكان علي أن أنسى هذا الموضوع كي أواصل عملي خاصة بعد انصراف (باسنت)..

لكنني عندما ظهر النزيل الرابع الذي يطلب الغرفة 207، بدأت أشعر بقلق جهنمي.. هذه الليلة لن تمر على خير.. أعرف هذا يقينًا وأؤمن به..

ما سر الجاذبية المفاجئة التي اكتسبتها هذه الغرفة؟

الضيف التالي كان غريبًا بدوره كما هو واضح.. كان له شارب كث بني اللون مضحك، وقد نظر لي في ثبات ثم تكلم بلكنة إنجليزية غريبة أراهن على أنها أسكتلندية لو كان ما أعرفه من السينما دقيقًا.. قال لي:

- «الغرفة 207 من فضلك...».

لقد صار الأمر مملًا.. هكذا مررت بالمراحل التقليدية من النكران والاعتذار والإغراء بغرفة أخرى، ثم مرر هو بالقبول الحذر فلاستسلام.. هكذا صار مكانه هو الغرفة 211..

اسمه (جيمس ماكديمروت).. لو لم تكن هذه الـ (ماك) تعني أنه اسكتلندي فأنا جاهل..

بعد ربع ساعة جاء الضيف التالي وهو ألماني قصير القامة مكتنز يدعى (دانييل ماير).. طبعًا يريد الغرفة 207.. لم يعد هذا يشير دهشتي..

الغرفة غير موجودة يا سيدي.. لدينا الغرفة رقم.. رقم.. لقد صار الأمر صعبًا.. لم يعد لدينا سوى الغرفة 312 في الطابق الثالث.. أنا أسف..

قبل على مضض وصعد...

أخيرًا هدأت الأمور وكان النعاس يغلبني.. جلست خلف الكاونتر وأرحت رأسي على ذراعي.. أعتقد أنني رحت في سنة طويلة

حلمت فيها بكل شيء تقريباً..

دق جرس الهاتف فرفعت السماعه..

كان هذا هو نزيل غرفة في الطابق الثاني يقول لي مغضباً:

- «هناك مجموعة من الخواجات السكارى في هذا الطابق، وهم لا يكفون عن الغناء.. لابد أن تفعلوا شيئاً ما».

هكذا وضعت السماعه وطلبت رجل الأمن.. أعتقد أنه كان (سالم) في هذا الوقت.. (سالم) شاب من البدو له كل ملامحهم ببشرته السمراء وشاربه ولهجته.. قليلون هم البدو الذين يعملون في فندقنا على كل حال.. قلت له:

- «هناك برج بابل في الطابق الثاني.. هل تعرف كيف تتفاهم معهم؟».

قال عبارة نجيب الريحاني الشهيرة:

- «أكل العيش يعلمك كيف تتفاهم مع البراغيث».

وركب سالم المصعد إلى أعلى..

فيما بعد حكى لي أنه سمع هذه الضوضاء.. فعلاً غناء عال كأنه غناء سكارى خارجين من حانة.. بحث عن مصدر الضجة فخمّن أنها قادمة من الغرفة 207.. دق الباب مراراً حتى فتح رجل غاضب أشيب الشعر قال له إن الضوضاء ليست من هنا، وإنه سيشكوه للإدارة في الصباح..

- «قال لي (جيت ذا هل أوت أوف هير)».

- «ماذا؟.. كلمك بالإنجليزية؟».

- «نعم.. إنه خواجه يا أخي.. خواجه قليل الأدب.. ماذا في ذلك؟».

هنا فتحت الدفتر وراجعت الأسماء. الغرفة 207 يقيم فيها ذلك الرجل العسكري المصري.. (مختار).. هل تبادلوا الأماكن إذن؟.. هل اقتنع؟

طلبت الغرفة عدة مرات فلم يرد أحد..

بعد ربع ساعة اتصل بي النزيل من جديد يشكو من مزيد من الضوضاء.. هكذا قررت أن أصعد بنفسي لأتحقق من الأمر..

ما إن وضعت قدمي على أرض الطابق الثاني حتى سمعت الضجة.. إنهم يتشاجرون في مكان ما.. مشيت أتتصت على الأبواب، فلم اسمع شيئاً إلا من ناحية الغرفة اللعينة 207..

وقفت خلف الباب بضغ ثوان.. انفتح باب غرفة مجاورة وظهر نزيل بادي الغضب يلبس فائلة داخلية وسروال منامة، وقد أدركت على الفور أنه ذلك الرجل العاجز عن النوم..

من الداخل اسمع كلمات حادة صاخبة.. هناك من يحتج.. من يصرخ،
لكن الكلام بلغة غير مفهومة.. ربما الألمانية؟

قرعت الباب مرتين.. هنا انفتح في حذر وبرز الضابط المصري
المتقاعد.. الرجل الصحيح في المكان الصحيح إذن..

قلت في تأدب:

- «هناك ضواء من غرفتك يا سيدي. هل أنت بخير؟».

نظر لي في صرامة وقال بطريقته العسكرية:

- «لن أظل بخير يا بني إن ظل أحدكم يوقظني كلما حاولت النوم..».

- «هل التلفزيون مفتوح؟».

- «أنا لا أشاهد التلفزيون يا بني.. أبدًا!!».

وأغلق الباب.. تبادلنا نظرة حيرى مع النزيل العاجز عن النوم ثم
مشيت إلى الغرفة 203 فقرعت بابها.. لا رد... مشيت نحو الغرفة
211.. قرعت الباب.. لا رد... الغرفة 219..

الأمر واضح.. لا أحد من هؤلاء السادة في غرفته..

إنهم في الغرفة 207 وصاحبها ينكر ذلك.. أنا متأكد..

قال لي النزيل :

- «والعمل؟.. لم لا تطلبون الشرطة؟».

لم أرد.. فقط اتجهت إلى الشرفة التي تمر بكل الغرف.. قلت له :

- «سأحاول عمل شيء لكن أرجو أن تدخل غرفتك وتنسى كل
شيء، لأن ما سأقوم به قد يكلفني وظيفتي».

يعرف القارئ أن الشرفة طويلة تحتل جانب الفندق بالكامل.. أقرب
إلى الممر الذي يصل بين الغرف كلها.. فقط هناك فاصل من الطوب
بين نطاق كل غرفة وجارتها، فوقه شبكة خشبية ترتفع مترًا عن
الأرض.. هناك مدخل للشرفة في البهو.. تدخل فتجد ذلك الحاجز
الوهمي عن يمينك وعن يسارك.. والبحر أمامك..

دخلت الشرفة.. رفعت قدمي لأتسلق ذلك الحاجز وهذا صرت
داخل شرفة الغرفة 207.. هذه طريقة أتبعها كثيرًا ليس لأنني
فضولي بخاص لا سمح الله، ولكن لأن مشاكل الغرفة كثيرة جدًا..

كان باب الشرفة مواربًا لكن بوسعي أن أرى ما بالداخل..

الإضاءة خافتة هادئة، لكنني أرى رجلًا يقف في وسط الغرفة
ويتكلم بحماس.. أعتقد أنه ذلك الألماني.. بينما يلتف حوله الآخرون
جالسين على الأرض.. يبدو كأنه يمثل مشهدًا في مسرحية ما..
يتلوى.. يمسك ب صدره.. يسقط على الأرض..

ثم ينهض ويواصل الكلام..

ما هذا؟.. هل هو ناد للتمثيل؟

ثم رأيت مشهدًا مروعًا.. إن أحد هؤلاء الرجال يتجه إلى الفراش حيث استقرت حقيبة مفتوحة.. أخرج أشياء معدنية وراح يشتها معًا.. بعد لحظة وجدت في يده بندقية آلية!

إرهابيون أو سفاحون تسللوا للفندق ونجحوا بهذه الطريقة في إدخال أسلحة..!

هل يفكرون في سطو مسلح؟.. لم أسمع قط أن فندقنا يشتهر بالثراء لهذا الحد.. ربما سيتخذونه نقطة ارتكاز لعملية في الخارج، لكن ما هو الهدف الثمين بهذا الشكل في مرسى مطروح؟

رأيت أحد هؤلاء يجري وسط الغرفة ثم يرتمي أرضًا ويقذف بشيء.. لا أعرف ما قذفه لكن هناك من انبطح أرضًا ليتفاداه..

مجانين.. هذا هو التفسير الوحيد..

هناك خمسة رجال في هذه الغرفة من جنسيات مختلفة، وكل شيء يؤكد أنهم مخابيل.. فماذا علي أن أفعل؟

في هذه اللحظة رفعت عيني لأجد ذلك الألماني الأشيب ينظر لي عبر باب الشرفة الموارب..! لقد رأيته..

ارتفعت يده تشير لي وقد اتخذت سبابته شكل المسدس.. وبصوت مجنون حازم صاح:

«هالت!!!»..

وثبت فوق حاجز الشرفة في حذر..

لو لم أحترس لكنت قد سقطت من أعلى، وهذا لن يقتلني لكنه على الأرجح سيؤدي لكسر ساقي إلى شطرين..

سرعان ما كنت أخرج من الشرفة في ذات اللحظة التي انفتح فيها باب الغرفة 207.. جريت إلى الدرج لأنه لا وقت لاستدعاء المصعد، ورحت أثب درجات السلم.. سمعت صوت خطوات من خلفي ومن يصيح، لكنني قدرت أنهم غالبًا متقدمون في السن فلن يستطيعوا اللحاق بي..

جريت إلى الكاونتر فأيقظت مصطفى النائم كالعادة، ثم رفعت سماعة الهاتف وطلبت شرطة النجدة.. هناك مجرمون في الفندق وهم حسنو التسليح..

لكن لماذا لم يلحق بي أحد؟

في هذه اللحظة بدأت فوضى عارمة.. لقد دوى صوت طلقات من

الطابق الثاني.. ثم صوت رشاش سريع.. بعدها صوت قنبلة تنفجر!
سرعان ما تحول الاستقبال واللوبي إلى مستشفى مجانيين.. نزلاء
من كل شكل ولون وجنس يقفون هناك بتياب النوم وهم مذعورون..
ماذا يحدث؟.. أطلبوا الشرطة!

فكنت أرد في حزم:

- «إنهم في الطريق!.. فقط أرجو أن تخرجوا من الفندق في هدوء
وبلا تدافع.. كل شيء على ما يرام».

صاحت امرأة عصبية :

- «أي شيء على ما يرام؟.. هذه طلقات بندقية آلية!!».

الطلقات مستمرة.. هناك معركة حقيقية في الطابق الثاني.. ماذا
يحدث بالضبط؟.. هل اختلغوا؟.. هل جنوا؟..

صرخات نساء.. اطفال.. رجال.. خروج غير منتظم إلى الشارع..

هنيئًا للإدارة بهذه الفوضى!.. سوف يسعدون حقًا حينما يعرفون
بما حدث.. في العام 1992 لم تكن موجة الإرهاب التي عرفتتها مصر
في منتصف التسعينات قد بدأت.. وإلا لحسبوا هؤلاء إرهابيين، لكن
الوضع كان غريبًا وغير مسبوق.. لا أحد يملك أي تفسير..

سرية عربات الشرطة.. رجال الشرطة يندفعون إلى الداخل وهم
يحملون أسلحتهم.. ضابط شاب عصبي يصرخ في رجاله.. بما أن
الوضع غير مسبوق فإن الارتباك هو سيد الموقف ولا توجد خطة
على الإطلاق.. عسى ألا يسقط أبرياء كثيرون..

توارى الجنود في الطابق الثاني وساد صمت رهيب..

بعد دقائق رأيناهم ينزلون وقد بدا عليهم الهدوء.. كانوا يحملون
أسلحة ملفوفة في أكياس..

قال لي الضابط العصبي وهو يمسك بكيس من البلاستيك لفه
حول بندقية آلية:

- «لا أحد في الطابق الثاني!..».

صحت في ذهول:

- «والغرفة 207؟».

- «الغرفة 207 خالية وبابها مفتوح.. كذلك أكثر غرف الطابق.. أنت
متأكد من أن أحدًا لم ينزل مع النزلاء المذعورين؟..».

- «لقد كانت الطلقات مستمرة بينما النزلاء هنا..».

وضع البندقية على الكاونتر وراح يتفحصها في حذر.. مددت يدي
فأوقفها على الفور وهتف:

- «البصمات!..».

ثم أعاد فحص البندقية وغمغم:

- «هذه البندقية عتيقة جدًا.. لا أصدق ان طلقة واحدة يمكن أن تخرج منها.. هذه تشبه أسلحة الحرب العالمية الثانية..».

حرب عالمية ثانية؟

صعدت إلى الطابق الثاني حيث انتشر جنود الشرطة.. رائحة البارود تعبق الجو.. دخان متجمد فيه.. لكن لا يوجد أثر لأي شيء آخر.. لا ترى أثرًا واحدًا لطلقة على جدار أو خدشًا..

دخلت الغرفة 207 التي كانت مفتوحة.. في الداخل كانت هناك فوضى كاملة.. هناك قبلة يدوية على الفراش.. قبلة لا يبدو أن بوسعها أن تنفجر أبدًا.. هناك جريدة مطوية لتظهر الربع السفلي الأيمن من صفحتها الأولى فقط..

دنوت من الجريدة فهتف بي جندي:

- «لا تمس شيئًا يا أستاذ حتى تصل النيابة ورجال المعمل..».

رفعت يدي بمعنى أنني لن أفعل.. واقتربت من الجريدة لأقرأ المكتوب.. عنوان صغير يدل على أنه خبر تافه يقول: «اليوم 1 يوليو.. خمسون عامًا على حرب العلمين الأولى»..

حرب العلمين الأولى التي وقعت بين قوات المحور والحلفاء، وكاد النازيون وقتها يصلون إلى الإسكندرية لولا أن تم دحرهم.. هذه الحرب استغرقت الفترة من 1 إلى 27 يوليو عام 1942!

اليوم نحن قد صرنا في الثالث عشر من يوليو.. ذروة الحرب منذ خمسين عامًا..

بريطانيون.. ألمان.. ضابط مصري.. لماذا يصرون على اللقاء في الغرفة 207؟.. من جاء أولاً ظفر بالغرفة، لكنهم برغم هذا احتشدوا فيها.. أسلحة عتيقة تعود للحرب العالمية الثانية. اختفوا فجأة.. أين اختفوا؟

ثمة إجابة لكني لا أجرؤ على التفوه بها..

في اليوم التالي وبعد انتهاء هذا الضجيج، قال لي (سالم) إن الأخبار تنتقل بسرعة هنا.. ابن عمه إذ استقل سيارته البيك أب، رأى في الصحراء خمسة رجال مسنين يمشون بصعوبة فوق الرمال.. في ضوء الفجر حيث تختلط الألوان ويختلط معنى النور بالظلام، كان المشهد غريبًا وغير معتاد.. قال إنه حاول أن يوصلهم إلى وجهتهم، ولاحظ أن بينهم مصريًا واحدًا بينما كان الباقون أجانب.. رفضوا أن يركبوا معه.. قال إنهم مشوا في الصحراء.. غالبًا كانوا متجهين نحو.. نحو المقابر..

لماذا لا اشعر بدهشة؟.. ولماذا لم يباغتني الخبر؟

جلست مع (سالم) وتكلمنا طويلاً وشربنا الكثير من أكواب الشاي.. حكيت له عن الجنود البريطانيين والألمان الذين لاقوا حتفهم في ليلة الثالث عشر من يوليو عام 1942.. لا بد أن ضابطاً مصرياً كان معهم.. إما أنه كان مع البريطانيين أو مع الألمان الذين يأمل في أن يهزموا البريطانيين.. لقد لاقوا حتفهم جميعاً في تلك الليلة لكن بعد ما أقسموا أن يلتقوا بعد خمسين عاماً ليتذكروا ليلة مصرعهم، وليكملوا المعركة.. بالطبع لو بحثوا في مصر كلها عن مكان خارج حدود الواقع.. مكان يقف بين عالمي الحياة والموت. بين عالمي المادة والكوابيس، لما وجدوا أنسب من الغرفة 207.. لكن للغرفة 207 مزية أخرى مهمة هي إنها قريبة جداً من مسرح المعركة..

معركة (علمين) رمزية دارت بين الحلفاء والمحور في الغرفة 207.. طقوس حماسية.. أغان وطنية يقولها كل بلغته.. ثم يبدأ القتال... لا أعرف من انتصر ولا من هزم.. فقط أعرف أن الليلة انتهت وانهم عادوا من حيث جاءوا..

قال لي (سالم) إنني بدأت أخرف وإن السهر قد أحدث خللاً في عقلي.. قلت له إنني لا استبعد هذا الاحتمال..

فقط أخشى أن يكون هناك آخرون قد أقسموا ذلك القسم في ليال أخرى.. معنى هذا أنني سأظل قلقاً حتى ينتهي اليوم السابع والعشرون من يوليو.. بعدها سوف أنسى هذه القصة وأنتظر الكابوس الجديد الذي تهديه لي الغرفة رقم 207.

تجربة ليلية

أنا (جمال الصواف)... الذي قضى عمره خلف الكاونتر في هذا الفندق... استطعت أن أحتفظ بصحتي قدر الإمكان، فلا أعاني ارتفاع ضغط الدم ولا السكر، لكنني إذ قبضت أناملي على أجهزتي الحيوية كي لا تضيع، أفلتت عيني لتنزلق على الأرض.. هكذا لم أعد أبصر تقريباً.. أنتم تعرفون هذا، وتعرفون تاريخ هذا الفندق، كما تعرفون حتماً تاريخ الغرفة 207.. لن أقول إنكم تعرفون سرها لأنه لا أحد يعرفه..

لا أزعم أن أحداً لم يبال بهذه الغرفة سوى وعم (مينا) ومصطفى. في العام 1966 ظهر الأستاذ (عبد الظاهر خليفة).. كان في الأربعين من عمره أقرب إلى البدانة، وله شعر أبيض بالكامل بلا خصلة شعر سوداء واحدة. انطباعي عن هؤلاء القوم الذين تخلو رءوسهم من الشعر الأسود في سن لا تبرر هذا أنهم أميل للقسوة. كان يرتدي بذلة كاملة ويلبس نظارة سميكة ذات إطار اسود. ربطة العنق الرفيعة.. الخ.. باختصار كان نموذجاً لمتقف الستينات أو الرجل المحترم في ذلك الوقت، عندما كان الموظف في قمة السلم الاجتماعي قبل أن ينقلب السلم فيصير الحرفي في أعلاه.

(عبد الظاهر) لم يكن موظفاً.. كان صحفياً.. وقد سمع عن هذه الغرفة من أحد نزلائها السابقين.. يبدو أن خزانة الثياب كانت تفتح ليلاً كلما أغلقها النزيل.. أنت تتوقع أن هذه صدفة مرة ومرتين.. لكنك في المرة الثالثة تجمع حاجياتك وتفر من الفندق..

(عبد الظاهر) قابل اثنين أو ثلاثة حكوا له عن مغامرات مماثلة في تلك الغرفة، وقد تحمس الرجل. كان محرراً مهماً في مجلة اسمها (العدسة)، وهي مجلة مليئة بأخبار من عينة (أسباب الطلاق بين الفنانة فتكات والمطرب سيد حليوه)، (اللاعب زكي فنطازية يعلن نية التقاعد قريباً)، (كيف تتعاملين بالاتيكت عندما يأتي لك ضيوف).. لو أضفنا لهذه العناوين عنواناً يقول: (الغرفة 207.. هل هي مسكونة؟). لو أضفنا هذا العنوان لما أحدث فارقاً كبيراً.

هكذا جاء (عبد الظاهر) إلى فندقنا وطلب أن يحجز بضعة أيام على حساب المجلة طبعاً، ثم كان صريحاً منذ البداية.. لقد مال على الكاونتر وسألني عن الغرفة 207:

- «هل تعتقد أنها مسكونة فعلاً؟».

قلت ببرود وبلهجة شبيهة بإنسان آلي يتكلم:

- «ما عفريت إلا بني آدم».

أشعل لفافة تبغ وقدم لي واحدة، ثم عاد يسأل:

- «هل تحدث فيها أشياء كثيرة؟».

- «لا يحدث شيء.. نزلاء يقيمون فيها ويرحلون».

- «وخزانة الثياب التي تفتح؟.. وشعور النزيل بأن هناك يدًا باردة تتحسسها في الظلام؟.. وصنبور الماء الذي يفتح تلقائيًا؟.. والوجه الشاحب الذي يطل من الشرفة ليلاً؟».

- «لا يحدث شيء.. نزلاء يقيمون فيها ويرحلون».

ونفتت الدخان في وجهه ليعرف أنني لا أعتبر لفافة التبغ تلك رشوة..

كان علي أن أحرص.. يكفي أن أفتح فمي لينتزع مني أي شيء يضعه في مجلته. سوف تظهر صورتني مع اسمي (جمال الصواف)، والتعليق يقول:

-«موظف استقبال الفندق يؤكد أن هناك ثلاثة من الجان يسيطرون على الغرفة».

والنتيجة هي أن المجلة سوف تقع في يد الخواجة، وسوف يناديني ليفرغ في كل الغضب الذي اختزنه منذ أعوام. أنت غير أمين على السر.. أنت لا تحافظ على سمعة الفندق.. أنت أقسمت بأن تصمت، لكنك فقدت القدرة أمام إغراء الإعلام.. أنت مفصول!

هكذا سوف يعود الصحفي لمجلته سعيدًا، ويأخذ قرشين، بينما أنا أعود إلى دمنهور حيث لم تعد لي حياة أصلاً.. ربما أقول (لأجلس حوار أمي) لكن لم تعد لي أم ولا أب ولا زوجة.. لا.. من الأسهل أن أظل صامتًا وأبدو غبيًا..

قال لي (عبد الطاهر):

- «أنت كتوم فعلاً..».

قلت له في برود:

- «اسمع يا سيدي.. انا لا أعطي إجابات.. هذا ليس عملي.. أنا أعطي النزلاء غرفًا شاغرة.. لو أردت أي شيء فعليك أن تقابل المدير..».

قال وهو يدفن لفافة التبغ في المطفأة:

- «بالتأكيد سأفعل.. هل يمكنني أن آخذ هذه الغرفة إذن؟.. يقولون إن موقعها جميل وهواءها عليل».

هنا لا أستطيع أن أتدخل.. من حقه أن يأخذ أية غرفة شاغرة ما دام لن يوجه اسئلة. هكذا أعطيته مفتاح الغرفة وتمنيت له إقامة سعيدة..

هكذا مضت الحياة هادئة، إلى أن جاء بعد يوم وكان معه ثلاثة من أصدقائه.. ثلاثة كلهم لهم ذات المظهر المميز.. فقط أحدهم كان يحمل كاميرا ذات فلاش.. صحفيون من دون شك..

قال لي:

- «يجب أن نقابل المدير هذه المرة..».

هزرت رأسي أن بوسعه أن يفعل.. توجه إلى مكتب المدير، وغاب بعض الوقت، ثم جاء من يخبرني أن المدير يريدني..

ماذا حدث؟.. ذهبت إلى هناك متوجسًا فوجدت أربعة الرجال جالسين وأمام كل منهم فنجان قهوة، وكان الخواجة (مايكل) مرحًا على خلاف العادة..

قال لي:

- «اسمع يا جمال. أنت تعرف هذا الهراء الذي يقال عن تلك الغرفة. قلت ما رقمها؟».

- «رقم 207 يا سيدي.. الطابق الثاني».

- «نعم. نعم.. هؤلاء السادة جاءوا للتحقيق في الأمر.. أريد أن تلمي لهم كل شيء يحتاجون له.. سوف يمضون الليلة في الغرفة..».

كدت أجن من الغيظ.. وماذا عن السرية وكل التكم الذي طالبتنا به؟.. لو اقترحت أنا شيئًا مماثلًا لفجرت رأسي..

لم استطع أن أظل صامتًا فسألته :

- «سيدي.. ألن يضر هذا بسمعة الفندق؟.. شوشرة لا شك فيها.. عندنا في الريف يقولون: العيار اللي ما يصيبش يدوش..».

قال في بساطة:

- «هذا كلام بلدكم.. لكن الحقيقة هي أن هذه الأشياء سوف تجلب لنا دعاية مجانية ممتازة.. الناس فضوليون يا جمال، ولا يمكن أن يقرءوا شيئًا كهذا من دون أن يجربوا..».

لم أكن أثق في هذه الافتراضات بالنسبة لمصر.. النفسية المصرية معقدة جدًا ولا يمكن التنبؤ بها، وما قد يجذب الناس في العالم كله قد ينفر المصريين، وما قد ينفر العالم قد يجذب المصريين.. هناك أطباء تنجح عياداتهم لأنهم فطون خشنون وقحون مع المرضى فهذا دليل على أنهم اساتذة كبار، وهناك أطباء تكسد عياداتهم لأنهم مهذبون مجاملون أكثر من اللازم.. حاول أن تتخذ هذه قاعدة ولسوف تفشل يومًا وينصرف المرضى عنك لأنك وقح خشن مع المرضى!.. متى ولماذا تغيرت وجهة النظر؟.. لا أحد يعرف.. مرحبًا بك في مصر يا صديقي..

أنت لن تفهم المصريين كما أفهمهم يا خواجة ومهما تظاهرت بأنك ابن بلد ودخت الشيشة..

قال لي الخواجة:

- «هؤلاء السادة سوف يجتمعون في الغرفة الليلة.. أريد أن تكون

معهم في حالة ما أرادوا شيئاً».

هذا غريب.. هل عملي يقضي بأن أبيت مع النزلاء لألبي حاجتهم لو أرادوا كوب ماء أثناء الليل؟

لكن الخواجة واصل الكلام مفسراً:

- «معهم جهاز تسجيل وكاميرا.. ولسوف يجرون تجربة تحضير أرواح.. سوف يحاولون معرفة الحقيقة. هل هناك شيء لا نعرفه فعلاً، أم أن القصة كلها هلاوس؟».

هكذا وجدت انني متورط مع هؤلاء السادة بأوامر من المدير شخصياً.. كنت أتوقع أن يطردهم شر طردة لكنهم كانوا مقنعين..

انتظرتهم خارج المكتب حتى لحقوا بي، وفي اللحظات التي صعدت معهم فيها إلى الغرفة اللعينة، عرفت من هم.. هناك (عبد الظاهر) وقد سبق لنا التعارف، وهناك اثنان يعملان بالمجلة أحدهما مصور طبعاً.. الرابع هو المهم لأنهم ينادونه (دكتور مذكور). وهو يتكلم كأنه من ذوي الخبرة.

ملت على (عبد الظاهر) أسأله عن هذا الدكتور.. فقال لي همساً:

- «صه.. إنه خبير روحاني».

بمعنى آخر هو نصاب على الأرجح.. لكنه يبدو وقوراً أميناً.. عل كل حال لا يمكن أن تقتنع بنصاب إلا إذا لم يبد كنصاب..

هكذا دخل إلى الغرفة.. فتحت لهم الشرفة ليتطايروا الستار داخلها مرفقاً.. خرج (عبد الظاهر) إلى الخارج وراح يملأ صدره بهواء البحر الذي بلا شك بلل نظارته بالرداذ..

في الوقت ذاته راح د. (مذكور) يجول هنا وهناك.. فتح الخزانة ونظر داخلها جيداً ودق على خشبها عدة مرات.. أنا أعرف كل ركن في هذه الغرفة وأتمنى لو لم أفعل.. هنا بالذات - عام 1965 - رأى ذلك النزيل وجه شيطان ينظر له في الظلام.. وهنا اشتعلت النار في هذا الستار بلا أي مصدر للهب، وفي الحمام انتحرت تلك الفتاة منذ أعوام.. المرأة التي ترى فيها ماضيك كله.. الفراش الذي يغوص بك تحت مستوى الأرض بمعدل سنتيمتر في الساعة لكنك تدرك هذا بعد فوات الأوان..

من هذه الشرفة دخل ذلك البخار الأزرق الذي كاد يخنق الزوجين عام 1963..

كل شيء هنا.. هذه الغرفة يمكن أن تزين أية مدينة ملاح في أي مكان بالعالم.. مع فارق مهم : كل شيء حقيقي ومريع.. لا يوجد كذب هنا..

كان د. (مدكور) يتفحص كل شيء، وتوقعت أن يغمغم في خطورة: «هناك نشاط خفي هنا.. أشعر به في كل ركن».

لكنه لم يفعل لحسن حظه.. لو فعل لقلت إنه يقلد كل فيلم أجنبي رأيته في حياتي..

فقط كان مهتمًا بحق، وقد قطب جبينه مفكرًا..

جلس وأخرج حقيبته وعكف أحد الرجال على إعداد جهاز التسجيل. أما الحقيبة نفسها فلم أتبن ما تحويه.. كانت هناك أسلاك على ما أعتقد.. وكان هناك مرطبان فارغ.. هذا هو ما استطعت رؤيته..

أخيرًا تكلم الرجل، وكان صوته جديرًا بخبر أرواح فعلاً.. قال لـ (عبد الظاهر):

- «تعال يا أستاذ (عبد) واغلق الباب..».

قال هذا الأخير:

- «ربما كنا بحاجة إلى هواء.. الجو خانيق هنا..».

- «وبعج بالاستاتيكية.. لا أريد لهذا التأثير أن ينقص. أغلق باب الشرفة».

انغلق الباب وإن ظل الشيش مفتوحًا.. كان الغروب قد جاء فاصطبغت السماء بلون أزرق كثيب يختلط بالأرجواني..

نهضت لأوقد التيار الكهربائي، فقال لي أمرًا:

- «لا.. لا بد من ظلام..».

جلس رجلان على مقعدين وثيرين جوار الفراش.. كان هناك أنثريه مريح في ركن الغرفة لذا اتخذت مجلسي على أريكة فيه، بينما جلس (عبد الظاهر) على الفراش ذاته.. ومرة الوقت ببطء شديد.. تدريجيًا تلون كل شيء بلون أزرق وبردت الموجودات.. - «فلنبدا!».

نبدأ ماذا؟.. على الأرجح هو يتكلم عن جلسة تحضير الأرواح المزمعة..

بدأ (مدكور) ترديد بعض العبارات التي لم أتبينها.. لا أستطيع أنؤكد إن كانت آيات قرآنية أم لا.. ثم قال بصوت جهوري:

- «أشعر بوجود هنا. لو كنت محققًا فلتجيبنا بنعم.. أعطنا علامة».

هنا على الفور انفتح باب خزانة الثياب محدثًا صريرًا، وشعرت بالشعر يتصلب على مؤخرة عنقي.. إذن هذا صحيح!... هناك شيء ما.. أعرف أن الغرفة غير طبيعية، لكني لم أعرف يقينًا أنها مسكونة..

واضح أن هذه الجلسة ستكون مفيدة.. مفيدة ومفزع..

- «هل أنت ذكر؟».

سمعت الصرير من جديد.. اعتقد أن هذه ستكون علامة (نعم).. لكن الأمر كان مخيباً للأمل برغم كل شيء.. توقعت شيئاً أكثر درامية.. ساد الصمت فلا تسمع سوى صوت الشريط يدور في الجهاز.. وصوت أنفاسنا..

هنا نهض أحد الرجلين، فحمل منديلاً عملاقاً وفرده ثم غطى به رأس الدكتور (مذكور).. كان التأثير مفرغاً كأنه شبح هو نفسه.. رجل بلا رأس يجلس على الفراش..

نهض (عبد الظاهر) ووقف جوار الدكتور وسأله بصوت مبحوح: «هل أنت وحدك هنا؟».

هذه المرة جاء الصوت من خلف المنديل وبنبرات (مذكور) نفسه: «نعم..».

لقد تغيرت السياسة إذن.. كنا نعتمد على طريقة الطرقات، ثم تطور الأمر إلى استعمال الوسيط.. إن الوسيط يستخدم هنا كجهاز ينقل لنا كلمات الروح، والمفترض أنه لا يعرف ما يقوله ولا ما يجري.. إنه في سِنَّة كاملة..

«لماذا احتلت هذه الغرفة؟.. ولماذا لا تتركها في سلام؟».

«لا أستطيع أن أجيب..».

هنا نظر (عبد الظاهر) في الظلام إلى المصور.. التمع ضوء الفلاش مرتين.. ودوى صوت (مذكور) من وراء المنديل: «من فضلك.. لا صور.. لا صور..».

من جديد نظر (عبد الظاهر) إلى زميله الثاني فسارع هذا إلى فتح المرطبان. ووضعه بيد ترتجف على المنضدة..

قال (عبد الظاهر):

«أرجو أن تترك لنا عينة هنا..».

كان المشهد لا يصدق، وأنا أرى هالة خضراء شبه فوسفورية تنبعث من المنديل، تتجمع كسحابة لأعلى ثم تتجه إلى المرطبان كأنها إصبع عملاقة تشير.. وشعرت كأن المرطبان يتلقى سائلاً يصب فيه.. سائلاً له شكل غازي خارجه.. وبدأت قطرات من هذا الشيء تسيل على الشرشف الذي يغطي المنضدة.

«كفى.. شكراً..».

فيما بعد عرفت أن هذا هو (الاكتوبلازم) الذي يزعم خبراء الأرواح أنها تتركه.. الجبلة الخارجية.. شكل هلامي يحاول اتخاذ شكل صاحب الروح.. محاولة لصب قالب يراه البشر.. آرثر

كونان دويل مؤلف شيرلوك هولمز كان يحتفظ في مكتبه بعشرات

القوالب من هذه..

لك أن تتخيل أنني كنت في أسوأ حال، وقد رحت أدعو الله أن تنتهي هذه التجربة بسرعة.. الظلام.. الصمت.. صوت (مدكور).. المادة الخضراء القذرة.. جو التوحس والاشمئزاز.. لو صدق ما أراه فنحن بالفعل قد (اخترقنا).. عبرنا الجدار المتين الفاصل بين الموتى والأحياء.. والأسئلة ما زالت تتردد، بينما تأتي الإجابة بصوت (مدكور):

- «هل هناك من قتلك يومًا ما في هذه الغرفة؟».

- «لا أستطيع أن أجيب».

- «هل قتلت نفسك؟».

- «لا أستطيع أن أجيب».

صحيح أنني مذعور، لكن ما الذي يثبت أن هذه ليست تمثيلية؟.. لا شيء.. فقط ذلك العرض الساحر للمادة الخضراء التي تحلق في الهواء، لكن أعتقد أن لدى الحواة الكثير من الحيل المماثلة..

- «لم لا تستطيع أن تجيب؟».

- «لأن أحدكم ملوث.. أحدكم ملعون»..

شعرت بذلك البلب يغمر قميصي.. مددت يدي اتحسس الباقة ثم رفعتها لأنظر لها.. كانت يدي غارقة في تلك المادة الخضراء المقززة.. وسمعت الصوت من وراء المنديل يهمس:

- «هذا هو!.. لقد عرف نفسه!».

أنا ملوث وملعون؟.. ما معنى هذا؟.. الأشباح تعرف أكثر على كل حال..

كنا جالسين في ظلام نصف تام الآن.. أنا على الأريكة و(مدكور) على الفراش، و(عبد الظاهر) بين هذا وذاك.. الرجلان على مقعديهما يتابعان كل شيء..

قال (عبد الظاهر) في صوت مرتجف موجهًا الكلام لي:

- «إنه أنت!.. المادة تغمرك أنت!.. هذه هي العلامة!».

ثم سأل الروح:

- «وماذا نفعل؟».

جاء صوت (مدكور) الغريب من وراء المنديل:

- «الملوث يُقتل.. لو لم تقتلوه فقد استحققتم انتقامي!».

- «لكن هذا لا يُصدق»..

- «من لم يصدق قد استحق انتقامي!».

صاح (عبد الظاهر) في الظلام:

- «أرجو أن تنصرفي.. لا.. بل آمرك بأن تنصرفي!».

من خلف المنديل دوت الضحكة الهستيرية:

- «فات الألوان أيها السذج!... إنني لم أكتسب لقب (روح شريرة) من دون سبب قوي.. من يله بالنار يحترق بها!..».

كان الأمر أقرب إلى الكابوس، عندما رأيت المصور يسقط على الأرض فتهشم الكاميرا، وراح يتحسس عنقه وهو يصدر صوت اختناق مريعاً.. كان يقاوم شخصاً غير مرئي يجثم على صدره.. كان يدور حول نفسه كعقرب الساعة وقد استلقى على ظهره وفتح ساقيه.. فقط كان يوجه ركلات محمومة إلى الأرض بكعبه..

صاح (عبد الظاهر):

- «أتركه!.. هو لم يؤذك!».

جاء الصوت يقول في ثبات:

- «إنه لا يصدق ولا يطيع.. ولسوف تلحقون به ما لم تصدقوا وتطيعوا.. الملوث يُقتل!».

هنا نهضت بدوري وصرخت:

- «كفوا عن هذه الهلاوس!.. هذا الرجل يتكلم بإرادته.. لا يوجد شيء ولا روح تنطق بلسانه..».

يا لهذا الظلام الذي يجعل الحركة صعبة!.. فقط هو يسمح لك بأن تدرك كل شيء، لكنك لا تعي التفاصيل..مددت يدي فانتزعت المنديل الذي غطى به (مدكور) رأسه فصرخ.. كأن عينيه احترقتا من سطوع الضوء. صرخت بدوري عندما أدركت أنه لا توجد له عينا.. هناك فجوتان..

صرخ (عبد الظاهر) من جديد:

- «أنت مخبول!... سوف تقتلنا جميعاً!».

ولم أدر كيف وثب عليّ هو والرجل الرابع..كيف جراني من ياقتي فسقطت على الأرض.. هنا جثما على صدري، وراحت أصابع (عبد الظاهر) القوية ترفع رأسي عن الأرض ثم تضربه بها. مرة ومرة بلا توقف..

الكلام يترجرج في صدري.. لا أقدر على.. أن... أتكلم...

- «أنت.. أنت.. توشك.. على.. على.. قتلي!».

- «ومن قال العكس!.. الروح أمرتنا بذلك!».

كنت في مأزق مخيف!.. إنهما يقتلانني حقيقة لا خرافة.. وهو ذا الدكتور (مندور) ينضم للحفل.. يجثم فوقي هو الآخر.. فجواته

السوداوان تحدقان في، وهو يضغط على عنقي بلا توقف..
إنني.. أمو.. أموت!
أمووووت...

عندما تتسلل لك الشمس من خلال زجاج النافذة، تشعر بأنها
عذراء باسممة تهزك في رفق : أما زلت نائمًا؟.. هلم انهض يا كسول!
ابتسمت لها وهزرت رأسي وغمغمت: شكرًا أيتها الحسنة.. كانت
ليلتي قاسية، هنا انفجر بركان من الألم الذي لا يمكن وصفه.. هناك
في رأسي حجر رحية، أو ذلك الجسم الذي كنا نهز بذرة المانجو
ونحن أطفال فنسمعه يرتج بالداخل..

أنا على أرض غرفة.. بالتحديد الغرفة 207.. أتذكر كل شيء.. هؤلاء
المخابيل كادوا يقتلونني لكن ماذا حدث بعدها؟.. ولماذا لم يواصلوا
المهمة؟..

نهضت إلى الحمام فأفرغت معدتي بسبب كل هذا الغثيان،
وغسلت وجهي.. كانت هناك مادة خضراء تشبه النشاء على ياقة
قميصي.. بالواقع كانت تلوث ملءات الحجرة وكل شيء فيها.. هناك
مرطبان امتلأ ببلورات خضراء كأنها الزمرد.. هذا هو ما بقي من تجربة
الليل.. الاكتبلازم..

مترنحًا نزلت إلى الاستقبال حيث كانت (هيام) الموظفة الجديدة
تملأ بعض الأوراق، فرأيتني وأبدت دهشتها:
- «ماذا بك؟.. أين كنت؟.. هل تتعاطى الخمر؟».

- «لماذا؟».

- «شكلك وهذا الشيء على ياقةك..».

حككت رأسي وطلبت بعض القهوة من الكافيتيريا، ثم سألتها عن
نزول الغرفة 207.. الأستاذ (عبد الطاهر) الصحفي.. هل رآته اليوم؟
قالت باسممة:

- «أنت تعرف أنه رحل أمس!».

رحل؟.. متى؟

- «لقد طلب من الخواجة ترتيب جلسة تحضير أرواح.. وافق الخواجة
أولاً ثم فكر في الأمر فأعلن أنه غير موافق.. تشاجر معه النزول،
وسرعان ما جمع حقايبه وانصرف!.. أنت مختف منذ البارحة، ولكن
هناك من يقول إنك كنت تمشي في الطابق الثاني وتكلم نفسك!».

كنت أحاول تجميع الخطوط. ربما كان هذا ممكنًا لولا الألم في
رأسي.. معنى هذا؟.. لم تكن هناك أية جلسة تحضير أرواح؟.. إذن
من الذين كانوا معي وحاولوا خنقي؟

هنا بدأت استوعب الأمر وارتجفت..

في اللحظة التي غادرت فيها مكتب الخواجة أمس لم يلحق بي الصحفي (عبد الظاهر) ومن معه.. كانوا في المكتب يتناقشون مع الخواجة تلك المناقشة التي انتهت بعدوله عن تجربة تحضير الأرواح، فالشجار معه ومغادرة الفندق..

أما أنا فلم ألحظ أي شيء.. مشيت كالأحمق مع أناس لا وجود لهم صنعهم خيالي.. تكلمت معهم.. دخلت معهم الغرفة.. أغلقتها.. ثم بدأت تجربة تحضير أرواح غريبة ووسيط ومنديل و.. و..

لم أكن مع (عبد الظاهر) و(مذكور) والمصور.. كنت في الحقيقة أمضي ليلتي في الظلام وفي غرفة مغلقة مع السر الشرير الذي يسيطر على هذه الغرفة!..

الروح التي تكلمت لم تكن هي تلك الروح التي تسكن الغرفة.. هؤلاء هم الذين يسكنونها!.. أنا اخترت أن أكون وحدي في غرفة مغلقة مع أشباح!

لقد كان الأمر كله لعبة مخصصة لإفزازي حتى الموت، وقد ظفرت الحجرة بالكثير من التسلية الشريرة على حسابي.. وانتهت اللعبة بمشهد بدا لي أنه نهايتي، لكن هذه الأشباح تركت لي تذكارة مهما.. مرطبانا به بلورات خضراء غامضة..

سوف أتخلص منه طبعاً.. لا أريد أي شيء يمت لهذه الليلة..

يمكنك التخلص من البلورات في الحمام.. لكن هناك بلورات أخرى في روحك لن تزول أبداً.. بلورات ذكريات تلك الليلة السوداء داخل الغرفة 207.

شيء ما

ذاك الأسبوع كان مزدحمًا بحق، ففي يوم الخميس جاءت (إيريني) ابنة عم (مينا) مع عريسها.. لقد كبرت الفتاة وتزوجت، وقد رتب لها أبوها أسبوع غسل في فندقنا. من الطريف أن ترى عم (مينا) المحاسب العجوز الذي تشعر بأنه لا يعرف في الدنيا سوى كشوف الحسابات والأرقام، حتى يذكر بك ذلك المحاسب الذي تراه في الأفلام العربية القديمة والذي يقوم بتلحين الميزانية، وفجأة تكتشف أن هذا الرجل أب.. وتكتشف أن لديه دموع تأثر، وأنه يمكن أن يقبل ابنته ويرتجف..

لقد كلمني عن حجز غرفة، وفي ذلك الوقت لم تكن عندي سوى الغرفة 207 فقد كان الموسم في ذروته. قلت له في ريبة:

- «لو كنت مكانك لنسيت الأمر.. هذه الغرفة خطر داهم ولا أنصح بها بتاتًا..».

فكر في الأمر وحفف عرقه، ثم قال:

- «يا أخي ليست الغرفة سيئة لهذا الحد.. كانت هناك أسرة كاملة فيها منذ أسبوع..».

قلت بلهجة العالمين ببواطن الأمور:

- «هذا صحيح.. الغرفة تتصرف بمزاجها، وقد تتجاهل عشرة نزلاء لتتسلى على الحادي عشر. دعك من أنك تعمل بالفندق وتشكل إغراء لا بأس به.. أعتقد أنه لو حدث شيء لحدث لابنتك دون سواها!».

قال في توتر:

- «إذن ماذا أفعل؟».

وجاء الحل والحمد لله عندما تم إلغاء حجز الغرفة 311.. هكذا أمكن تسوية كل شيء، وجاءت العروس مع عريسها. وقد أقمنا لهما احتفالاً صغيراً.. عندما تعمل في فندق تكون قادرًا على معاملة من تريد بأبسط الطرق. هناك دائمًا معاملة خاصة تدخرها لمن تريد وأنت تبقى هذه المعاملة بعيدة عن عامة النزلاء. هذا يذكرني بما أعرفه عن أن بائعة الهوى لا تسمح للزبائن بتقبيل شفيتها.. لماذا؟.. لأنها تدخرهما لمن تحبه حقًا.. لا بد من شيء ما يميزه عن الآخرين. صحيح أنه تشبيه صادم لكنه اقرب مثال يوضح لك الموقف.

جاءت (سارة) المضيغة واستندت إلى الكاونتر وهي تمضغ اللادن وترقب ما يحدث في خبث، ثم قالت:

- «عريسها يبدو رقيقًا..».

هزرت رأسي وقلت:

- «لن نتزوجه على كل حال.. هي فعلت.. حتى لو كان شيطانًا فهذا شأنها..».

قالت وهي تنظر في عيني:

- «بعض الرجال يكونون مناسبين أكثر من سواهم».

يجب أن أقول هنا إنني كنت قد بدأت أليّن في هذه الفترة بالذات.. كنت مطلقًا منذ فترة، وكنت هشًا نفسيًا بالفعل.. كأنني جدار يبدو قويًا لكن هناك نقطة متداعية من الداخل، ولو طرقت عليها طرقتين لانهار الجدار ويسقط.. (سارة) كانت تعرف المواضع الهشة في أي جدار.. وقد طرقت بعناية وبراعة، حتى إنني كنت على وشك أن أقولها في أية لحظة.. تسألني بعد هذا لماذا أفرط في التدخين وأكل اللادن كلما ظهرت سارة.. أحيانًا أتمنى لو كنت أحرص أو بلا لسان.. هناك قصة لا أذكر اسمها ولا أبطالها، لكنني أذكر فقط أن البطل كان يجلس جوار بئر يدس فيها رأسه تحت الماء كلما أوشك على أن يلفظ كلمة معينة.. هذا هو ما أفعله بلا توقف..

سوف تغلت منك الكلمة في لحظة تهور عاطفي، وبعدها لن تعود الحياة أبدًا كما كانت ولن تستطيع التملص.. (سارة) حسناء وخفيفة الظل وكل تلميحاتها تصب في اتجاه واحد، لكنني فشلت في زواجي مرة ولا أريد أن أفشل مرتين.. المرة الثانية هي التي تجعل عدم التوفيق مرة فشلًا.. المرة الثانية هي التي تحول من سرق مرة إلى صاحب سوابق.. هي التي تحول الفتاة التي زلت مرة إلى ساقطة.. تحول الموظف الذي خضع للإغراء مرة إلى مختلس محترف..

سألته سارة على سبيل التدخل فيما لا يعنيه:

- «من الذي يقيم في الغرفة 207 الآن؟».

- «لا أحد.. لماذا تسألين؟».

ونظرت في حذر لأرى إن كان أحد يسمعنا.. كان هناك شابان يقفان على بعد خطوات ويشعل أحدهما للآخر لفافة تبغ.. قالت لي:

- «أنا لست بلهاء.. كلنا يعرف أن هذه الغرفة ليست على ما يرام..».

- «صه!... الخواجة أدلى بتعليمات مشددة منذ زمن سحيق.. ربما قبل أن تولدي أنت، وهذه التعليمات تنص على عدم الكلام عن الغرفة..».

- «ماذا يوجد في الغرفة 207 هذه؟.. هل تعتقد أن هناك شخصًا مدفونًا في جدرانها؟».

قلت في غيظ:

- «كفي عن السخف!».

ولاحظت أن أحد الرجلين الواقفين يتابع ما أقول فجن جنوني. إنهما نزيلان في الغرفة 213، لكنهما سوف يثرثران كثيرًا.. لذا قلت لها أمرًا:

- «سارة. لا مزاح في هذه الأمور.. من السهل أن يعود كل منا إلي بيته هذه الليلة بالذات.. بالنسبة للخواجة ليس هناك شخص عزيز أو لا يمكن الاستغناء عنه..».

قالت (سارة):

- «ولماذا تصرّون على أن تظل الغرفة 207 مفتوحة؟.. لماذا لا تغلقونها تمامًا أو تحولونها إلى مكان مفتوح؟.. قاعة انتظار مثلاً.. امتداد للشرفة.. الخ...».

- «أنا لست مدير هذا الفندق.. هذه نقطة.. النقطة الثانية هي أنها تجلب مالاً...».

قالت وكأنها ترتجف:

- «لو كنت أنا الخواجة لصبت فيها الخرسانة حتى تتحول إلى شيء مصمت...».

- «لحسن الحظ أنك لست الخواجة...».

رفعت حاجبها في نوع من المداعبة الفضولية، ثم انصرفت بسرعتها المعتادة.. سرعة البرق.. كانت من المنصورة، وهذا يعطيك فكرة عن مدى جمالها.. لكني لن اضعف. لن أفشل ثانية.. لن...

كنت غارقاً في هذه الخواطر عندما ظهر (مايكل ثورنتون).. كنت أؤمن أنه لا يمكن أن تثق فيمن يكون اسمهم (مايكل ثورنتون) وكنت على حق..

سائح بريطاني في الخمسين من العمر.. هذا ما يمكن أن تستخلصه من أوراقه، أما ما لا تقوله الأوراق فهو أنه صموت جداً.. شاحب جداً.. حول عينيه هالات كثيفة من السواد.. يلبس قميصاً واسعاً يطل منه عنقه النحيل المليء بالتجاعيد.. عامة تشعر بأن جلده كان مشدوداً بشدة ثم تلاشى الشد فارتخى وتجدد.. الأوردة واضحة جديرة بأي أطلس تشریح..

حول عنقه قلادة غريبة الشكل وهناك وشم على صدره.. في أذنه قرط متدل. يجب أن أذكرك بأن هذه الأمور لم تكن موجودة على الإطلاق في ذلك الزمن.. كان الرجال الغربيون يبدوون مثلنا ويلبسون مثلنا. توصلت إلى الاستنتاج الوحيد المعقول في ذهني وأخفيته على الفور: هذا رجل شاذ جنسياً.. هذا من شأنه على كل حال ما لم يطلب موظف الاستقبال في الرابعة صباحاً لإصلاح تكييف الحجرة!.. وقتها لن أذهب!

قال لي:

- «أريد غرفة تطل على البحر..».

ثم فكر حينًا وقال:

- «كان هناك سياح بريطانيون هنا منذ شهر.. قيل لي إن الغرفة 207 مناسبة!».

فهمت!.. لم يقم سياح بريطانيون في تلك الغرفة منذ عامين على الأقل.. كلامه كذب لا شك فيه، وهو يعتقد أننا ننسى من يقيمون في تلك الغرفة..

على كل حال لم أجد ما أفعله سوى أن أنهي الإجراءات.. وكنت على يقين من أن قصة جديدة تبدأ في هذه اللحظات بالذات..

استقر الأخ (مايكل) في غرفته وبدأ أن الهدوء ساد المكان.. اتصلت بالعريسين في الغرفة 311 عارضًا أية خدمة، لكنهما لم يردا.. هكذا وضعت السماعة وجلست أترثر مع (مصطفى) ونشرب الشاي..

في ساعات الصباح المبكرة هذه يتلاشى القناع الرسمي المميز لموظفي الفندق، وتسود حالة من الانفلات المحبب.. إن السهر يضعف قدرتك على الوقار، وتزول تلك الخنافة التي تصطنعها في تعاملات النهار.

هنا دق جرس الهاتف..

نزىل الغرفة 207 يطلب من يصلح له جهاز التكييف!!.. توقعت هذا كما قلت لك، ولما كان من الصعب أن أتصل بالصيانة في هذه الساعة فقد قررت أن أصعد إلى الغرفة. عليّ أن أكون حذرًا لأنني لا أرتاح لهذا الرجل أكثر من ارتياحي لأي شاذ جنسيًا يطلبني في الرابعة صباحًا..

قرعت الباب فانفتح.. توقعت أن يكون مرتديًا رويًا زاهي الألوان ويدعوني إلى كأس.. هكذا تسير الأمور، لكنني كنت أعرف أنني لو رأيت هذا المشهد لفررت كما أفر من الأسد.. إلا أن الرجل فتح لي الباب ففوجئت بأنه بكامل ثيابه كما كان وهو يطلب الغرفة. رجل وفور جدًا باستثناء الوشم والقرط ويبدو أنني أسأت الظن فيه.

كانت الغرفة حارة فعلاً، وقد فهمت بلغتي الإنجليزية العرجاء أنه لم يشغل التكييف إلا من ربع ساعة (لأن الطعام سوف يفسد).. أي طعام؟

نزعت حذائي وصعدت على مقعد وفككت غطاء جهاز التكييف المركزي في السقف ونظرت.. لا توجد مشكلة.. هكذا نزلت وبدأت أعبث في الثرموستات..

قلت له:

- «من الغريب أنك لم تبدأ التشغيل إلا الآن..».

لقد كانت زجاج الشرفة مغلقاً وهذا يجعل الغرفة لا تطاق فعلاً.. لو فتح الزجاج لهب هواء البحر يملأ الغرفة ويطير كل شيء..

قال لي وهو يشهق :

- «اعتدت الحرارة العالية. قضيت أكثر حياتي في جزر الكاريبي لهذا لا ألاحظ الحر إلا في الظروف القصوى..».

- «هل أنت مستكشف؟».

- «لا.. أنا مصور..».

أخيراً بدأ جهاز التكيف يهدر.. نظرت له وابتسمت... فضحك للمرة الأولى.. هنا لاحظت أن أسنانه مشرشرة حادة بطريقة غريبة..

كان يواصل كلامه:

- «من الجميل أن تجوب العالم وأن ترى ثقافات جديدة.. لا تتصور العادات الغريبة التي اكتسبتها من تعاملتي مع سكان تلك الجزر..».

هزرت رأسي في تهذيب ثم سألته عن عشائه.. لقد جاء بعد ما انتهت الخدمة في المطعم، فقال :

- «سأتصرف.. لا تقلق..».

اتجهت للباب، عندما دست جوار الفراش والحقيبة المفتوحة على شيء صلب غريب.. انحنيت لأرفعه، ففوجئت بأنه عظمة.. عظمة قصبة رجل لا شك في ذلك.. حجمها يؤكد يقيناً أنها بشرية..

رفعت عيني وفيهما علامتا استفهام، فقال ضاحكاً:

- «قلت لك إنني قابلت ثقافات غريبة..».

- «فهمت.. الثقافات التي تحتفظ بعظام بشرية على سبيل الذكرى!».

قال وهو يضع العظمة في الحقيبة:

- «لا.. هم يقدسون أشياء غريبة، وقد جمعت الكثير من التذكارات.. حقائبي مليئة بالغرائب..».

- «لا أشك في هذا..».

وكنت متلهفاً على الانصراف بطبيعة الحال، لكنه فتح حقيبة أخرى وأخرج زجاجة يبدو أنها تحوي نوعاً من الخمر، وقال:

- «هذه بيرة محلية قوية جداً.. جزء آخر من ثقافتهم.. أنا مصمم على أن تجربها معي..».

بالطبع هذا آخر شيء أنوي عمله.. كنت أتوقع أن يدعوني للشراب وعرفت من أول لحظة أنني سأرفض بشدة..

- «شكرًا.. أنا منهمك في العمل الآن..».

قال بلهجة الترغيب:

- «يمزجونها بمادة نباتية اسمها أياخواسكا.. هذه المادة مصدر ممتاز لمادة DMT.. هذا يجعل شربها تجربة شبه صوفية.. سوف تهلوس وتستمتع..».

- «هذا يزيد من إصراري على الاعتذار..».

وحانت مني لفظة إلى الحقيقة التي أخرج منها الزجاجة.. لماذا يجب السياح البريطانيون المصورون أن يضعوا كل هذه المدي العملاقة في الحقيقة؟.. لم أر هذه المجموعة من المدي من قبل إلا في حزام الجزار الذي يدور على البيوت بعد صلاة عيد الأضحى.. فقط لا بد من فراء خروف دام وكيس به بعض الأمعاء كي تكتمل الصورة..

رأيت يرفع الزجاجة إلى فمه فيجرع منها جرعة هائلة.. لو كانت تحوي مادة تسبب الهلوسة فهو منيع بالنسبة لها..

هزرت رأسي محيياً وقررت من الغرفة..

سوف يتناول عشاءه حالاً ولكن أي عشاء؟

عدت إلى الاستقبال ولم أجلس خلف الكاونتر.. كان الأنترية المعد في اللوبي فارغاً لذا جلست هناك واسترخيت ونزعت حذائي وأشعلت لفافة تبغ..

هنا دق جرس الهاتف..

كان المتكلم أحد نزيلي الغرفة 213 الشابين.. قال لي:

- «كنت أمر في البهو منذ دقائق.. هناك أصوات غريبة من الغرفة 207.. أصوات مكتومة كأن هناك من يستغيث..».

قلت بلا مبالاة:

- «سيدي. أنا كنت هناك منذ عشر دقائق.. كل شيء هادئ..».

عاد يقول:

- «هل رأيت زميلي في الغرفة؟.. ذلك الشاب فارغ الطول.. (محمود).. لقد خرج منذ نصف ساعة بالمنامة.. لا أعرف ماذا سمعه أو سبب خروجه لكنه لم يعد».

قلت في نفاذ صبر:

- «سيدي.. لم يمر عليّ أي واحد بالمنامة ولو حدث لاحظت هذا حتماً.. ابحث عن زميلك في الشرفة أو في غرفة أخرى..».

- «لكنه لم يغادر الفندق.. من المستحيل أن يفعل وهو بالمنامة..».

- «ألا يجعلنا هذا نشعر بالراحة؟».

ووضعت سماعة الهاتف مغتاظًا.. أكره النزلاء الذين يتصرفون كالأطفال.. هؤلاء الذين يمكن أن يتصل بك أحدهم شاكيًا من أن ظهره يؤلمه أو أنه يحلم بكوابيس..

رحت أفكر بعض الوقت ثم بدأت أشعر بعدم راحة..

نعم.. إنها الفكرة التي تتكون كبذرة ثم تنمو ثم تورق ثم تثمر.. لن أخسر شيئًا لو رأيت بنفسي..

هكذا استقلت المصعد إلى الطابق الثاني، ومشيت حتى الغرفة 207.. كان هناك نور يتسرب من أسفل الباب.. دقت الباب مرتين في حذر عالمًا أن موقفي سخيـف وقد ينتهي بالتوبيخ في أفضل الحالات.. ولاحظت أن البريطاني وجد لافتة (لا تزعجني) الموضوعـة في الدرج وعلقها على مقبض الباب.. هذا يعني أن جريمتي مضاعفة.

انفتح الباب وظهر المدعو (مايكل) وهو مندهش.. قلت له في كياسة:

- «معذرة.. أعتقد أن هناك مشكلة في جهاز التكييف عندك.. يبدو أنني أخطأت في ضبطه.. هل لي أن ألقى نظرة؟».

قال في برود وهو يلوك شيئًا ما:

- «بالطبع لا.. أنا أتناول عشاءي الآن.. والتكييف يعمل جيدًا..».

- «المشكلة هنا أنه قد يعمل عندك جيدًا لكنه يؤثر في الغرف المجاورة.. ربما لو سمحت لي بأن.....».

- «لا..».

كان يسد الباب بجسده بحيث لم يعد أمامي سوى أن اشتبك معه جسديًا لو أردت أن ألقى نظرة.. للحظات وقفنا نتبادل النظرات.. كأنه صراع حيوانين على منطقة نفوذ..

في النهاية هزرت رأسي معـتذرًا وتراجعت..

وانغلق الباب في وجهي...

هناك شيء ما يجري بالداخل.. أعرف ما هو تقريبًا لكني لا أجـرؤ على التصريح به. هنا وثبت مترين في الهواء لأن هناك من لمس كتفي.. وسمعت من يقول لي:

- «هل قابلت زميلي؟.. إنه لم يعد بعد!».

والآن كف عن اتهامـي بالجنون ورتب أفكارك معي:

1- رجل غريب الأطوار يتحدث عن تجارب (خاصة) في الكاريبي.

2- الرجل اختار الغرفة 207 ألـعن غرفة في الفندق.

- 3- لم يتناول عشاءه بعد لكنه سيتصرف.
- 4- هناك عظمة آدمية تحت فراشه.
- 5- معه مجموعة غريبة من المدي التي لو حملها جزار لاتهمته بالمبالغة.
- 6- حاول أن يغريني بشرب تلك البيرة القوية الغريبة.
- 7- إنه يرفض أن يدخل احد غرفته الآن.
- 8- يتزامن هذا مع اختفاء نزيل شاب. نزيل اختفى بتياب النوم وهذا يعني أنه موجود في الفندق.
- 9- هناك أصوات صراخ تخرج من الغرفة.
- وهذه الملامح الغريبة والجلد المشدود.. أليست هذه سمات أكلة لحوم البشر كما علمونا في القصص؟
- والآن لو كنت مكاني فماذا تستنتج؟.. الحقيقة أنه لو كان هناك أكل لحوم بشر في العالم، وقرر أن يتخذ مسكنه في فندقنا، فلن يختار سوى تلك الغرفة.. 207.. هذا شيء معروف..
- علي أن أفكر بسرعة.. لو لم أكن مجنوناً لكان عامل الوقت مهماً جداً.. ربما لم يعد مهماً لكن علي أن أفترض أنه ما زال كذلك..
- قلت للرجل نزيل الغرفة 213 :
- «هل تعتقد أن صاحبك قصد الغرفة رقم 207؟».
- بدت عليه الحيرة فالتردد، ثم قال بعد قليل:
- «في الحقيقة.. كان ساكن تلك الغرفة يقف بزجاجة (مُنكر) على الباب يجرع منها وينظر لنا.. اعتقد زميلي أنه يدعوه إلى الشراب، وهو (صاحب مزاج).. كان يموت من الظمأ.. أقنعت به بأن يهمد قليلاً.. لكنه غادر الغرفة بينما أنا في الحمام.. لا أرى ما يمنع من أن يكون قد لحق بهذا الأجنبي في الغرفة.. لكن لا توجد وسيلة للتأكد».
- نعم. الآن أرى السيناريو واضحاً.. البحث عن شاب يقاسمه الشراب.. الشراب الذي يحتوي على مادة (أياخواسكا) تلك.. طبعاً شرب (محمود) جرعة وفقد وعيه.. هكذا يبدأ الحفل..
- قلت للفتى:
- «لدي كل ما يدفعني للاعتقاد بأن صاحبك في خطر.. لكن لا يمكن طلب الشرطة.. ليس من حقنا تفتيش الغرفة..».
- نظر لي في خطورة، ثم قال:
- «دعني أفكر.. كم واحداً منكم هنا في هذه الساعة؟».
- فكرت قليلاً هناك أنا.. و(مصطفى) وهناك رجل الأمن (مختار)، وهو نائم في مكان ما ومن المستحيل العثور عليه.. فيما عدا هذا لا يوجد

سوانا متيقظًا..

قال لي:

- «سوف أمنحكم فرصة لدخول الغرفة وتفتيشها.. لكن عليكم أن تبقوا فيها حتى تسمعوا صوت مواء القط.. هل تفهم؟.. مواء القط!.. لا يجب أن يراكم هذا الأجنبي تخرجون من غرفته بأي ثمن.. أنا سوف أعمل على إبعاده ولن أعطيكم الإشارة إلا عندما يكون الطريق خاليًا..».

هكذا تم تنفيذ المخطط بدقة..

وقفت ومصطفى - الذي عرف تفاصيل القصة - في ركن الردهة المظلم.. هنا ظهر الفتى المصري واندفع نحو باب الغرفة 207.. قرع الباب مرة ومرتين.. سمعنا صوتًا غاضبًا يتململ من الداخل، ثم انفتح الباب ليظهر البريطاني عاري الجذع.. من مكاني كان بوسعي أن أرى الشرر يخرج من عينيه وهو يتساءل عما هنالك..

هنا كان الفتى المصري يلعب دوره كأفضل ما يكون.. راح يصرخ ويتكلم ويلطم خديه.. طبعًا هو لا يجيد الإنجليزية لكنه أرسل رسالة استغاثة عالمية.. من حين لآخر يهتف بالعربية:

- «ساعدني يا خواجه!».

ويشير لنهاية الممر من الناحية الأخرى.. الرسالة معناها أن هناك كارثة ما.. يجب أن تأتي لتساعدني..

في النهاية لم يجد البريطاني بدءًا من إغلاق بابه واللاحق بالفتى..

ما إن تواريا حتى اندفعت و(مصطفى) وفتحنا باب الغرفة 207 وتسللنا إلى الداخل.. كان قلبانا يوشكان على التوقف من الانفعال..

كانت الغرفة في حالة من الفوضى.. التلفزيون مفتوح.. الحقائق تم إفراغها فيما عدا حقبة واحدة واضح أنها تلك التي تضم (التذكارات).. فتحتها وبحثت داخلها فوجدت تماثيل صغيرة يبدو أنها من تذكارات الكاريبي.. هناك قلادة غريبة الشكل، وقطع نسيج لها طابع وطني.. لا أعرف أي وطن بالضبط..

لم أجد سوى تلك العظمة التي تعثرت بها..

لم يكن هناك شيء في الغرفة ولا تحت الفراش.. قلت لمصطفى وأنا امسك معدتي :

- «الحمام!.. ألق نظرة في الحمام!.. لا أريد أن أرى!».

فتح الباب في حذر وأطل برأسه.. ساد صمت طويل.. صحت:

- «ماذا هنالك؟».

قال وهو يخرج رأسه:

- «لا شيء.. لقد أخذ (دوش)!».

إذن أين الفتى (محمود)؟.. أين بقاياه؟.. أين ذلك العشاء؟
كانت الإجابة تنتظرنا على الفراش.. حريدة مفتوحة بها بقايا شطائر
من الفول والطعمية.. هذا هو العشاء وهو عشاء بئس جدًّا..
بريطاني مفلس غلبان مثلنا إذن.. (الطعام سوف يفسد).. منك لله يا
شيخ.. كنت تتكلم كأنك ستأكل خروفًا مشويًا!

قال (مصطفى) في حيرة:

- «ما معنى هذا؟»

قلت باسمًا:

- «معناه أنني أحمق.. هذا مجرد رجل بريء غريب الأطوار.. إنه مولع
بثقافة الكاريبي لكنه ليس كما حسبت.. لقد كان الإنذار خاطئًا..».

- «والفتى المختفي؟».

- «سوف نجده في مكان آخر..».

اتجه (مصطفى) للباب ليفتحه، لكنني استوقفته في حزم.. لا بد من
مواء القط.. لو فتحنا الباب ووجدنا البريطاني أمامنا لكان هذا ألعن
موقف يمكن تصويره.. كلا.. لا يمكن أن نخرج الآن..

هكذا انتظرنا وانتظرنا.. لا بد أن نصف ساعة مر علينا ونحن نتبادل
النظرات القلقة.. في النهاية قلت لمصطفى إننا لن ننتظر للأبد..
فتحت الشرفة واستعملت ذلك المدخل السري بالعكس.. أي إننا
وثبنا فوق الحاجز لنخرج إلى الشرفة الرئيسية..

بعد دقائق كنا في الردهة..

هنا سمعت صوت الأنين.. هرعنا لأرى ما هنالك فوجدت البريطاني
راقداً جوار جدار وهو يتحسس رأسه. لقد ضربوه!

ساعدناه على العودة إلى غرفته وأرقدناه في الفراش بينما هو
يقول كلامًا مختلطًا يستحيل فهمه..

هرعنا إلى الغرفة 213 فوجدتها مفتوحة.. دخلت لأجد أنه لا يوجد
فيها تلفزيون والثلاجة الصغيرة قد اختفت!..

هرعنا إلى الاستقبال فشعرت كأن إصعًا مر هناك.. كل ما هو
جميل أو يبدو قيمًا قد تم أخذه.. أما الدرج الذي احتفظ فيه بالنقود
فقد تم تحطيمه وأخذوا ما فيه برغم أنه ليس مبلغًا كبيرًا..

لا أثر لنزيلي الغرفة 213..

عندما عاد (مصطفى) أخبرته بمعنى هذا كله.. عندما كنت أتكلم مع
(سارة) عن الغرفة 207 سمعنا نزيرًا الغرفة 213 وفكروا في طريقة
لاستغلال تلك الغرفة، خاصة بعد ما لاحظنا الدرج الذي أضع فيه

المال.. هنا ظهر النزير البريطاني غريب الأطوار.. فكرا في أنني سأصدق أي شيء يقال عن هذا النزير وعن تلك الغرفة..

بالطبع لم يعرفا أنني أفكر في موضوع أكلة لحوم البشر، لكنهما فكرا في أن يحتفي أحدهما وتحوم الشكوك حول البريطاني.. هكذا أقوم بحماقة بجمع كل من هو سهران في الفندق داخل تلك الغرفة لتفتيشها.. ننتظر مواء القط الذي لن يأتي أبداً كما لن يأتي (جودو).. في هذا الوقت يفرغان غرفتهما من كل ما هو ثمين، ويهرعان إلى الاستقبال الفارع المقفر فيسرقان ما يقدران عليه، ثم يفران إلى سيارة تنتظر بالخارج!..

هذه المرة لم يكن الخطر من الغرفة 207.. كان من الغرفة 213!

طبعاً هناك بيانات عنهما في دفتر الفندق، لكن من قال إنها لا يحملان هويتين مزورتين؟.. هناك شخص واحد أثق به وأعرف من هو يقيناً ألا وهو البريطاني غريب الأطوار.. كان رأيي دوماً أنه بوسعك أن تثق في البريطانيين الذين يحملون اسم (مايكل ثورنتون).. ألم أخبرك بهذا من قبل؟

قلادة وعطر وساعة حائط

قلت لعم (مينا) و(مصطفى) ونحن نتناول طعام العشاء:
- «هذه الغرفة ملعونة».

نظرا لي في غباء، ثم قال (مصطفى):

- «ما شاء الله.. بعد عشرين عامًا وعشرات القصص المخيفة تأتي أنت في ذكاء لتقول لنا ما نعرفه منذ دهر.. كان ابن عمي في بلدنا يطرق بابي ليقول لي في حماس: أنا متأكد أن إسرائيل تدبر شيئًا.. الطريف في الموضوع أنه كان يقول هذا بعد هزيمة 67 بعامين!».

قلت في غيظ:

- «لم أكمل كلامي بعد.. قلت إن هذه الغرفة ملعونة، وإن علينا أن ننهي هذه القصة بأي شكل.. يجب أن تُغلق للأبد».

كان العشاء أمامنا على ورقة جريدة، وكنا نأكله على عجل في ركن من الكافتيريا على منضدة صغيرة. (ممدوح) عامل الكافتيريا يعد لنا الشاي بسرعة والمكان مغلق علينا والإضاءة خافتة.. على الجريدة هناك عدة أرغفة وبعض مثلثات الجبن وبيض.. هناك طعمية ابتاعها مصطفى من الخارج.. هكذا كنا نتكلم بأفواه مليئة.

قال لي عم (مينا):

- «هل تعتقد أنك صاحب الفندق؟.. لا يمكنك أن تنقل مقعدًا من دون إذنه».

- «لهذا أفكر.. أفكر..».

ودسست لقمة عملاقة في فمي.. لقمة من الطراز الذي يصلح للتفكير..

انتهى العشاء فجلسنا نشرب الشاي وندخل على عجل.. إن (مراد) الشاب ينتظرني هناك على الكاونتر نافذ الصبر ليرحل. عندما كانت الصحة تسمح كنت أضيف للشاي شيئًا ما، على فرض أنه يساعد على السهر، لكنني أحمد الله على أنني ما زلت قادرًا على شرب الشاي على الأقل..

عدت إلى الكاونتر وشكرت (مراد) على الوقت الذي قضاه.. كان هو متورطاً في كتابة بيانات نزيل. بالنسبة لشاب عديم الخبرة تبدو هذه العملية أعقد من كتابة ملحمة إغريقية. هكذا وقفت أراقبه باسمًا وأنا أراه يفحص بطاقة النزيل ألف مرة، ثم يضعها وينسى أين وضعها.. ثم يكتشف أنها تحت الدفتر فيخرجها فقط ليكتشف أنه أضاع القلم.

قلت له مصححًا:

- «لا تكتب هذه البيانات هنا.. إن..».

هنا دق جرس الهاتف فرفعت السماعه..

نزيل الغرفة رقم 205 يقول إن هناك أصواتًا غير مريحة قادمة من الغرفة المجاورة.. هكذا يبدأ 90% من قصص الغرفة 207 اللعينة..

يا فتاح يا عليم.. أشعر تحت جلدي بذلك الشعور المريب.. هناك قصة ما توشك على أن تبدأ..

اتصلت بخدمة الغرف وطلبت من الفتى (إبراهيم) أن يفحص الغرفة 207.. لا يوجد نزل في حاليًا ومعنى هذا أن شيئًا يتحرك فيها.. طبعًا لم أقل له هذا وإلا لرقع بالصوت الحيواني، لكنني قلته لنفسه.. مع الوقت صارت التفسيرات الخوارقية تحل أي سؤال يعن لي بصدد الغرفة 207.. هذا أراحني كثيرًا.. كل شيء يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة في خط مستقيم بسرعة منتظمة على رأي الخواجة نيوتن، ما لم يتدخل عفريت.. هذه هي إضافتي..

بعد قليل اتصل بي - إبراهيم لا نيوتن - من الطابق الثاني.. من الغرفة نفسها.. قال لي إن كل شيء على ما يرام.. فقط ساعة الحائط كانت معطلة وكانت تدق بلا انقطاع.. هو أصلح كل شيء فلا داعي لأن أقلق..

شكرته بشدة.. إذن ساعة الحائط كانت هي سبب كل هذه الجلبة.. لا مشكلة من النوع الذي يثير رعبى. ثم توقفت للحظة.. من قال ومنذ متى كانت هناك ساعات حائط في فندقنا؟.. على قدر علمي لا توجد ساعة حائط في أية غرفة..

لكن هذه كذلك ليست مشكلة خطيرة. ربما جلبها أحدهم أو ربما هم عاملو النهار. أنا لا أتابع كل شيء يحدث في كل غرفة هنا.. رحت أمارس عملي المعتاد وهو ليس كثيرًا في هذه الساعة، ولعل هذه من مزايا نوبتجيات السهر..

هنا سمعنا صوت عربة الشرطة بالخارج.. السرينة الكئيبة المولولة إياها تعوي من نياط قلبها، ورقصة الأضواء الزرقاء والحمراء.. ماذا حدث؟

تركت الكاونتر وهرعت إلى الخارج حيث كان رجلا أمن من فندقنا يقفان يراقبان ما يحدث.. رأينا مجموعة من رجال الشرطة يتكأون على شيء ما.. تبينت أنه رجل يحاول المقاومة، ويصرخ كالمجانين، لكنهم أوسعوه ضربًا حتى يهدأ حماسه قليلًا..

كانت المسافة بعيدة فلم أميز شكل الرجل، لكنني سمعت صوت الكلابش وهو يغلق على معصميه، وتعاون رجال الشرطة على دفعه داخل السيارة..

قال أحد رجلى الأمن مستمتعًا بما يحدث:

- «حاول الجري لكن أحدهم باغته بـ (مقص حرامية)».
وقال آخر:

- «بينني وبينك رجال الشرطة هؤلاء غير بارعين.. لو كنت أنا مكانهم لوجهت ركلة في أعضائه الحساسة ثم سيف يد على مؤخرة عنقه.. هكذا لن يقاوم».

ثم رأى أنني أقف بقربهما فقال لي في حماس:

- «نعم.. ذات مرة كان هناك نزيل يحاول الفرار.. وجهت له ركلة في منطقة حساسة.. هوى كالثور المذبوح..».

سألته على سبيل التحقق:

- «ومم كان ذلك النزيل يفر؟».

- «لم أعرف!.. كان يفر وكفى..».

- «أنت ركلت نزيلا لا تعرف سبب فراره في..... احم؟».

- «نعم..».

ابتلعت تعليقاتي التي لن تروق له وسألته عن سبب فرار هذا الرجل الذي قبضت عليه الشرطة الآن..

- «لا أعرف.. ربما هو لص..».

عدت إلى الداخل وأنا أرتجف.. لا أحب مشاهدة العنف إلا على شاشة التلفزيون.. فيما عدا هذا تبدو الأمور قاسية جدًا واقعية جدًا.. عندما لا يكون الدم صلصة أو مربى فراولة تشعر بالقلق..

وقفت على الكاونتر أفكر.. هناك رائحة عطرية قوية جدًا.. رائحة عطر من الطراز الذي يستحضر امامك فتاة حسناء.. تشعر بأنه رائحتها هي وليس عطرًا.. في ذلك الوقت كان هناك إعلان تلفزيوني شهير عن مزيل لرائحة العرق، يمر فيه طيف شبحي يمثل الفتاة في الردهة قبل مرورها بغترة، وهذا كان يلفت نظر الجميع..

أتذكر هذا الاعلان الآن.. من أين جاء العطر؟.. لا توجد أية فتاة من حولي.. بالأحرى لا يوجد بشر..

كرراش!.. هنا اصطدمت قدمي بشيء على الأرض.. انحنيت لأرى ما هو فوجدت قلادة.. قلادة ذات دلالة رخيصة الثمن وقد تمزقت كأن هناك من انتزعها عن عنق صاحبها أو صاحبته.. أضف لهذا أنني لست خفيف الوزن وقد سحقته بقدمي دون أن أشعر.. رفعتها ووضعتها في سلة المهملات الصغيرة جوار الكاونتر وأنا أتساءل عن مصدرها.. إن النزلاء يفقدون أشياء طيلة الوقت وإلا ما كانوا نزلاء.. لكن على الأرجح لن يعود أحد للبحث عن هذه القلادة (الفالصة).

جاء مصطفى ليستلقي على الأريكة التي تتوسط اللوبي.. فما كاد يسترخي قليلاً حتى دوى صوت الطلقة..

طلقة رصاص ارتج لها المكان وقد جاءت من خارج الفندق. ومع
الطلقة صوت صرخة أنثوية!

جرى مصطفى إلى باب الفندق ليعرف مصدر هذه الطلقة، فهو
في هذا أحرق آخر من الذين تعج بهم صفحات الحوادث.. هناك
صوت طلقات.. إذن هناك طلقات!.. وبعض هذه الطلقات يطير في
الهواء نحوك كما تعرف.

قلت له وأنا أقف خلف الكاونتر:

- «ابتعد عن الباب يا أحرق.. هناك طلقات طائشة بالتأكيد».

لم يعلق كأنني أكلم نفسي.. وقف في الظلام بعض الوقت يتابع
ما يحدث، ثم غادر المكان.. مددت يدي إلى سماعة الهاتف وطلبت
الشرطة. هناك من يطلق الرصاص أمام فندقنا.. لا.. أنا متأكد من أنه
لا يوجد حفل زفاف أو شيء من هذا القبيل.. ليست صواريخ أطفال
والله العظيم. تعالوا لو رغبت في ذلك فقدومكم يسرنا.. لو لم تأتوا
فهذا حظنا السيئ..

عندما وضعت السماعة عاد لي مصطفى وتساءب وتمدد على
الأريكة.

- «ماذا حدث؟».

غمغم بشيء ما، وضم يديه على بعضهما وأغمض عينيه ليواصل
النوم. صحت في غيظ:

- «ماذا رأيت يا أحرق؟».

قال بلا مبالاة:

- «امرأة قتلت.. يبدو أن زوجها أطلق عليها الرصاص أو شيء من
هذا القبيل.. لا تهمني هذه الأمور..».

- «وهل قبضوا عليه؟».

- «هناك زحام في الخارج.. لا أعتقد أنهم قبضوا عليه.. على كل حال
الإسعاف قادمة..».

وقبل أن أسأل المزيد كان قد غرق في سبات عميق.

هكذا جلست وحدي أنتظر قدوم رجال الشرطة.. لماذا تأخروا إلى
هذا الحد؟.. لو أراد القاتل أن يتسلى على كل نزلاء الفندق لوجد
الوقت الكافي لذلك..

فجأة رأيت ذلك الرجل.. أعني رأيت انطباعاً عاماً عنه لأنني لم اشعر
به إلا عندما بدأ الركض.. رأيت يندفع من فتحة الدرج الملاصق
للمصعد.. رأيت يقف جوار باب المصعد وينظر له في ثبات.. يضغط

الزر مرة أو مرتين، ثم يندفع كالقذيفة نحو باب الفندق.. بنفس السرعة والشراسة اللتين يندفع بهما قط محاصر بين قدميك. لم أستطع تمييز أي شيء منه.

- «يا استاذ!.. لحظة!».

لكنه كان قد توارى في الظلام.. من هو؟.. لماذا يجري؟.. هل هو الذي أطلق الرصاص على المرأة؟.. مستحيل؟.. هو لم يدخل أمامي والجريمة تمت في الخارج..

على كل حال تبدو هذه الليلة (من تلك الليالي).. الأحداث عاصفة صاخبة تبدأ بساعة تصدر جلبة (برغم أن أحدًا لم يضعها) والقبض على لص في الشارع وطلقات رصاص ورجل يجري..

ومصطفى نائم كالثيران لو أن الثيران تنام.. رجلا الأمن كذلك نائمان في مكان آخر على الأرجح.. أين ذلك المتحمس ليصطاد ذلك النزيل الفار بركلة في منطقة حساسة كما قال؟.. إنه نائم طبعًا ولو سرقوا الفندق كله فلن يدرى..

أين الشرطة؟.. لا بد أنهم حسبوا مكالمتي دعابة.. لكن ألم يتصل بهم أي واحد ممن سمعوا الطلقة؟

هنا رأيت رجلاً لم أره من قبل يتقدم في ثبات نحو الكاونتر..

كان مبعثر الشعر أحمر العينين له كل سمات الوحش الجريح، وقد انفتح قميصه ليكشف عن غابة من شعر كثيف ساعد في إعطائه صورة الغوريلا فعلاً.. ثيابه نفسها مبعثرة تدل على أنه ارتداها على عجل..

تقدم نحوي وقال بصوت معوج مجنون:

- «أين هي؟».

- «من هي؟».

قلتها في كياسة، فاتسعت طاقنا أنفه كالغوريلا كما قلنا.. في كل لحظة يعطيني دليلاً آخر على طبيعته الحقيقية.. قال لي:

- «لا تكذب.. رائحة عطرها في كل مكان..».

في هذا هو محق.. لا أعرف من هي لكن عطرها واضح فاضح. إنها في كل مكان هنا..

قلت في تهذيب وتقية:

- «سيدي.. أنا نفسي لا أعرف مصدر هذا العطر..».

نظر لي بعينين محمرتين.. ثم تصلبت عيناه على شيء في أعلى صدري.. قبل أن أفهم كان قد انتزع قلادة معلقة في عنقي. أنا ألبس قلادة؟.. مستحيل.. لكن ما دام انتزع قلادة فقد كانت هناك قلادة لو أردت رأيي..

قال بذات الصوت المنذر:

- «وهذه؟».

وألقاها على الأرض في اشمئزاز كأنها ملوثة بالبول، ثم ضاقت عيناه أكثر وغمغم:

- «هي لعبة.. لعبة كبيرة، لكني لا أأدع.. سوف أدبرها ثم أعود إليك.. انتظر دورك أيها (خرنج)».

وتركني متجهاً إلى الدرج..

أنا (خرنج)؟.. كنت احسبهم كفوا عن استعمال هذه الكلمة منذ أفلام الستينات، وكانت مقصورة على رجال العصابات، وبصفة خاصة ذلك الدوبلير العملاق الأصلع الذي أعتقد أن اسمه كان (نصري)..
كنت في غاية الحيرة.. ما الذي أتى بهذه القلادة هنا؟.. أنا تخلصت منها.. لم تمس عنقي قط.. أعرف هذا يقيناً..

من هذا الرجل؟.. هو ليس نزيلاً... لماذا يهددني؟.. من هي؟ فقط أنا متأكد من شيء واحد: هذا الرجل سوف ينفذ تهديده حرفياً.. لديه كل الإمكانيات التي تسمح له بذلك..

رفعت سماعة الهاتف ورحت عبثاً أحاول العثور على أي رجل أمن هنا.. يجب أن اشكوهم في الصباح.. لو كانوا يتقاضون راتباً من أجل النوم فهذا بوسع أي واحد آخر..

على كل حال كل الذي يجري هنا سواء كان متعلقاً بالقتلة أو اللصوص أو المجانين لا علاقة له بالغرفة 207 ما دام لا يوجد أي نزيل بها.. هذا يطمئنني..

استندت على الكاونتر واغمضت عيني..

هنا.. صحيح ان رائحة العطر قوية جداً، لكنها هنا كانت أقوى وأقوى.. كانت تتزايد بلا توقف.. كانت تقترب.. عطر جديد يهزم العطر القديم مع أنهما من نفس الزجاجة.. الآن فقط أفهم سبب كراهية العطر لدى المتدينين.. هذا ليس عطراً.. هذا عالم كامل من الشهوات والإغراء يدفعك إلى أن تنزلق وتنزلق لأسفل إلى ما لا نهاية.. لا وقت للتوقف.. لا وقت للتعقل.. هذا سلاح ماض بتار من ترسانة أسلحة الرذيلة.. لا احد يقدر على مقاومته.. لا أحد.. يجب أن يُحرّم.. يجب أن يقطعوا رقبة بائعيه..

كانت هناك تنظر في عيني مباشرة.. عيانان بنيتان واسعتان صريحتان..

تقول لي:

- «ساعدني أرجوك.. انت تعرف أنه سيجدني في النهاية.. أرجوك..

أنت تعرف أنه مجنون وأنه سيفتك بي..».

قلت لها وأنا أحاول ألا أفقد الوعي:

- «سوف.. سوف أفعل ما تريد.. لكن قل لي ما هو..».

قالت وهي تنظر إلى الخلف في دعر:

- «هل عندك مخبأ مناسب؟.. مخبأ لا يخطر له ببال؟».

القصة واضحة.. هذه زوجة.. زوجها هو ذلك المجنون الذي هددني منذ قليل.. سوف يفتك بها بسبب الغيرة. الثيران لا تقتل إلا لهذا السبب.. لو كان ذكياً لبدأ بمنعها من استعمال هذا العطر المخدر..

فكرت في الغرفة 207.. لو توارت هناك فلن يجدها، لكنني قدرت أنني أذكى من هذا.. القصة مناسبة جداً كي يحدث لها شيء مخيف.. كارثة.. لا.. لن أجازف..

كان هناك مخرج جانبي للحريق.. معي مفتاحه لحسن الحظ..

اتجهت إلى المخرج الواقع في أقصى الركن الأيمن من اللوبي، وقلت لها:

- «يمكنك أن تتواري هنا.. لا تحاولي الخروج من هذا الطريق لأنه سيكون بالغ التعقيد.. سوف تتعثرين في خراطيم وفئران وصناديق ورقية.. فقط ابقِي هنا إلى أن أخرجك».

لم تكن في حال تسمح بالرفض أو الخوف من الفئران، هكذا أغلقت الباب عليها.. أغلقته بالمفتاح في الواقع.. أنا الآن أستحق الرصاصة التي ستفجر رأسي أو الطعنة التي ستمزق شرياني السباتي..

هنا دق جرس الهاتف.. هزعت إلى الكاونتر.. يا رب لتنته هذه الليلة.. لتنته بأي شكل!

إنها نزيلة الغرفة 207 تطلبني!..

الجميل في الموضوع هو أنه لا يوجد نزلاء في الغرفة 207!

الماء كان ينساب بالداخل.. يمكنك سماع صوته بسهولة..

قرعت الباب مرتين فسمعت من يقول:

- «أدخل..».

الباب مفتوح.. الماء كان يتساب تحت باب الحمام.. بركة صغيرة توشك على أن تغرق البساط وكل شيء.. لم يكن هناك أحد في الغرفة.. فقط تلك الرائحة القوية العطرية التي صرت أميزها على بعد أميال.. وسمعت تكتكة ساعة فرفعت رأسي.. كانت ساعة الحائط إياها على الجدار تنتظر..

وتحسست صدري لسبب ما.. وجدت القلادة معلقة هناك!.. القلادة اللعينة التي انتزعها ذلك الرجل مني وألقاها على الأرض!.. ما معنى هذا؟

سمعت من وراء باب الحمام صوت امرأة يقول لي:

ـ «تعال!».

تعال؟.. سيكون هذا أغرب طلب سمعته.. هكذا أرحت الباب وأنا أعرف ما ينتظرني.. لا يوجد أحد في الغرفة حسب اوراقى لكن فيها أحدًا حسب حواسي.. إذن ما سأجده وراء الباب هو هيكل عظمي أو جثة مقتولة في مغطس الحمام.. لن تقدم لي الغرفة 207 ما هو أفضل..

لكن الغرفة كانت بالفعل تحتفظ لي بمسرة بسيطة.. في المغطس بفقايع تغطيها على طريقة (هند رستم) كانت الزوجة.. الزوجة التي ساعدتها على الهرب من مخرج الحريق..

كانت تنظر لي في ثبات وهي تبسم..

مددت يدي في خفة وانتزعت سداة (الفايط) التي تمنع مياه المغطس من ان تغرق الأرض.. على الفور بدأ مستوى الماء في المغطس ينخفض وتوقف الشلال الذي يهدر على الأرض..

قالت في دلال:

ـ «أنت بارع جدًا.. سريع البديهة.. لكنك بهذا تجعلني مكشوفة يا (شقي)!.. الماء ينخفض.. هل ترى؟؟ إنه ينخفض!».

يا فتاح يا عليم!.. لو كنت أنوي أن أستسلم للإغراء فليس بهذه السهولة وليس هنا والآن.. ليس في الغرفة 207 ومع امرأة لا أعرف كيف دخلتها.. أخذت شهيقًا عميقًا وخرجت من الحمام، وعلى الجهة الأخرى من الباب أعطيتها ظهري وقلت لها:

ـ «أود سؤالك عن كيفية دخولك هذه الغرفة..».

لم ترد.. فعدت أكرر السؤال..

في اللحظة التالية وجدت شيئًا يوضع حول عنقي!.. نظرت له فوجدت أنها القلادة!.. القلادة توضع على عنقي برغم أنها كانت حوله فعلا!

كانت تقف ورائي وهي ترتدي روبًا خفيفًا، وقد فعلت هذا على سبيل الدعابة.. ثم اتجهت إلى الكومود فأخرجت زجاجة عطر وراحت تسكبه على نفسها ثم أهقرت بعض القطرات علي وهي تضحك..

هو ذات العطر الكاسح.. أعرفه جيدًا..

ـ «كيف دخلت هذه الغرفة ومتى؟».

قالت في لا مبالة:

- «أنت تطيل الأسئلة وتفقد جمال اللحظة...».

- «تركك في مخرج الحريق.. لا تقولي إنك غادرت..».

عادت تقول وهي تمشط شعرها أمام المرأة:

- «لا أفهم ما تقول.. دعك من هذا الهراء وقل لي: هل أعجبك؟».

- «كيف دخلت الغرفة؟».

- «أنت أعجبتني منذ اللحظة الأولى.. لم تكن هذه سوى وسيلة للانفراد بك».

قلت في عصبية:

- «سيدتي.. سوف يعود زوجك خلال دقائق.. ولم يبق سوى هذا الذي تفعلين كي يطير عنقانا.. لا أبالي بعنقك كثيراً لكن عنقي يهمني..».

ومددت يدي أحاول انتزاع القلادة، فصاحت في جزع:

- «لا تفعل.. أرجوك أن تتركها...».

ثم أضافت وهي تضع اصبعها على ثغري:

- «زوجي ليس هنا.. لقد خرج.. لكنه سيعود وعندها تنتهي روعة اللحظة.. هل تفهم هذا؟.. الغيرة الدائمة هي الطريقة المثلى لتجعل امرأتك خائنة.. عندما تشك فيها طيلة الوقت وتعذبها وتضربها، فإنها تقرر أن تكون معاناتها ذات سبب.. أن تستحق ما تظنه بها.. ألم تقرأ قصة الجنى والجارية في افتتاحية ألف ليلة وليلة؟.. هذه القصة التي جعلت شهرزاد يقرر ذبح النساء جميعاً..».

قلت وأنا أتجه للباب:

- «هناك عنق واحد يقلقني أمره الآن..».

ثم أضفت وأنا أفتح المقبض:

- «أمامك ثلاث دقائق لمغادرة هذه الغرفة. هي ليست من حقك.. أنت لست نزيلة عندنا..».

قالت بطريقة غير المبالية:

- «كف عن هذه الهلاوس..».

أغلقت الباب وعدت إلى الكاونتر..

ثم ملاحظة غريبة أرجو ألا تثير جنونك: القلادة لم تعد حول عنقي!.. رائحة العطر لم تعد موجودة!..

هنا فقط بدأت أفهم.. وجلست لأن قدمي لم تعد تحملني..

ساعة تصدر جلبة.. القبض على رجل في الشارع وطلقات رصاص ورجل يجري.. قلادة على الأرض ثم رجل يهددني وينزع القلادة.. ثم

زوجة خائفة تطلب أن أخفيها.. ثم زوجة وحيدة في غرفة 207 تحاول إغرائني وتعطيني القلادة وترشني بالعطر...

لو تصورنا أن الرجل الذي يظهر في كل هذه الأحداث هو الزوج الغوريلا.. لأمكن أن نفهم.. رتب الأحداث بالمقلوب تصر منطقية تمامًا : زوجة وحيدة في غرفة 207 تحاول إغرائني وتعطيني القلادة وترشني بالعطر.. ثم زوجة خائفة تطلب أن أخفيها لأن زوجها يطاردها.. الزوج يهددني لأنه وجد القلادة وينتزعها.. الزوج يجري.. أنا وجدت القلادة على الأرض.. من الواضح أن الزوجة غادرت الفندق عن طريق مخرج الحريق برغم نصائحي.. ثم تدوي طلقات رصاص لأن هذا الرجل قتل زوجته.. ثم القبض عليه في الشارع..

ما حدث الليلة هو أنني عشت قصة مقلوبة.. عشتها من نهايتها.. كنت أرتجف من فرط الانفعال.. لماذا حدث هذا؟.. كيف؟.. أعتقد أن الأمر يتعلق بالساعة المعلقة على جدار الغرفة 207.. يسهل أن تتوقع أنها تدور بالمقلوب، ومن ثم وقعت الأحداث بالعكس.. لكن كيف أثبت نظريتي؟

في هذه اللحظة شممت رائحة عطر الزوجة المميز.. رأيت أمامي الزوج الغوريلا وزوجته معه.. كانت تبسم وتراقبني في ثبات.. أما هو فكان فظًا كالعادة وقد قال لي في حزم:

- «سمعنا أن عندكم غرفة تطل على البحر.. أحد أصدقائي قال إنها ممتازة.. الغرفة 207... هل هي خالية؟».

تلك هي بداية كل شيء إذن.. نزيلان ظريهان سوف يقيمان في الغرفة 207.. ومن هنا يبدأ مسلسل الأحداث التي وقعت بالفعل.. الفارق هو أنهما يطلبان الغرفة بعد ما أقاما فيها!

الزوجة تهمس في أذن زوجها بصوت اسمعه أنا:

- «هل ستتمكن من تعليق ساعة الحائط التي معك؟».

قال في فظاظة:

- «طبعًا.. لا بد من مسمار على الجدار في مكان ما».

قالت همسًا:

- «فكرة غريبة أن تحمل معك هذه الساعة إلى كل مكان».

- «أنا أتفأل بها.. ما المشكلة؟».

ونظرت لي في ثبات.. تدرس كل شيء فيّ.. وتحسست عنقها..

طبعًا كانت القلادة هناك..

ابتعدا متجهين إلى المصعد بينما جلست أنا لأن ساقي ترتجف بلا انقطاع..

طبعًا لو صعدت الآن إلى الغرفة فلن أجدهما.. لن أجد ساعة على
الجدار.. لن أجد أي شيء.. نظرت إلى الدفتر فوجدت البيانات التي
كتبتها حالاً قد تلاشت..

أعتقد أن علي أن أحاول النوم.. أحاول أن أغمض عيني قليلاً قبل
أن ينفجر رأسي من الأعيب هذه الغرفة.

ما رأيك يا عم جمال؟

لقد انتهى الأمر..

لم يعد أحد مستعدًا للمزاح.

(رامي) و(صلاح) و(عزة) قالوا لي إنهم لن يتحملوا أكثر.. فما رأيك يا عم جمال؟

دعوني أتكلم يا شباب فلا تجرفني عصبيتكم ولا يقودني حماسكم إلى ارتكاب حماقات..

أعرف أن الأمر غريب ومروع، لكني لا أريد الوصول إلى استنتاجات خاصة وأن هذه الغرفة لم تظهر طبقاً كهذا من قبل. ما أشعر به أنها تتسلى لكنها لا تؤذي غالباً..

كلنا كان يحب (علي) وكان هو رمز التفاؤل في الفندق. هذا الفتى القادم من الصعيد كان طريقاً مفعماً بالحياة، وكانت كل كلماته دعابات قوية جداً، وكانت (عزة) خطيبته.. أعرف هذا.. أعرف أنه كان ساهراً في الاستقبال عندما اتصل به أحدهم يطلب مساعدته في الغرفة 207..

لقد نهض وبحث عمن يقوم بهذه المهمة فلم يجد.. كان وحيداً في الاستقبال تماماً، وهكذا قرر أن يصعد بنفسه..

عرفنا هذا لأنه قابل (الزيني) عامل النظافة عند مدخل المصعد، وقال له إنه ذاهب للغرفة 207، لأنه لا يتوقع أن يتمكن الزيني من حل المشكلة.

كانت هذه آخر مرة رأوه فيها حياً.

بعد ساعتين فتح الزيني دفتر النزلاء وراجع الأسماء، هنا فطن لحقيقة مروعة هي إنه لا يوجد نزلاء في الغرفة 207!.. من اتصل بالفتى؟.. واضح أنه تلقى المكالمات بشكل آلي دون أن يفكر..

هرع الزيني إلى الطابق الثاني وطرق باب الغرفة عدة مرات، فلم يرد أحد. أزاح الباب قليلاً ونظر في الظلام فلم يجد شيئاً..

أضاء النور وبحث عن الفتى الصعيدي المختفي. لا يوجد أحد..

لكنه رأى قطرات دم على الأرض..

شعر بالذعر وكاد يغادر الغرفة وليته فعل.. هو يتمنى لو كان فعل هذا.. لو أنه لم يرفع عينيه إلى أعلى ليرى الفتى (علي) معلقاً من مروحة السقف.. حبل يربطه إلى قطعة الحديد البارزة من السقف التي يطلقون عليها اسم (جنش).

كان علي ميتاً يتأرجح ككل الموتى.. شاخص العينين.

أما الأهم فهو أن بطنه كانت مجوفة.. لم تكن هناك أحشاء على الإطلاق..

أعرف أن الشرطة لم تصل لأي شيء.. كانت هناك شكوك حول الزيني نفسه، لكنها شكوك على سبيل الروتين ولم تؤخذ بجدية. فالفتى ليس بالقوة التي تسمح له بتعليق شاب ضخم مثل علي في السقف. دعك من أنه لا يوجد حافز على الإطلاق..

كانت الحيرة والذعر علي الوجوه، ولكنهم نظروا لي وأنا أجلس جلستي المعتادة المسنة والقلنسوة الصوفية على رأسي. قلت لهم إنني أعرف وأفهم.. هذه الغرفة 207 تفعل أشياء كهذه.. صحيح أنها لم تتطرف لهذا الحد من قبل، لكنه مفهوم.. هكذا انتهت علي الأسئلة..

هكذا قررت أن أحكي وقد شعرت أنني تحررت من عهدي القديم للخواجة (مايكل). حكيت لهم كل شيء وهذه المرة يبدو أنهم صدقوني..

بالطبع لم تسمع الإدارة بشيء من هذا. من سمعني هم شباب الفندق.. الأجيال الجديدة التي راحت تفتش في ذاكرتها عن ذكريات مماثلة. هناك من تذكر أنه تعثر أمام هذه الغرفة يومًا ما!.. هناك من تذكر أن إصبع قدمه التوى.. قصص كثيرة خرجت للسطح معظمها كلام فارغ طبعًا..

- «ولماذا تفعل الغرفة هذا؟».

- «أرجح الاحتمالات عندي أن شيئًا مدفونًا في جدرانها يحاول التحرر.. اقتربت كثيرًا من هذا الشيء عندما جرت عمليات تجديد لها..».

قالت لي (عزة) وهي تبكي:

- «يجب أن نفعل شيئًا.. هذه الغرفة لن تؤذي واحدًا آخر..».

قلت لها وأنا أحاول أن أتبين وجهها وسط كل هذه الغشاوة التي تغطي عدستي عيني:

- «نحن فكرنا في أشياء كثيرة عندما كنا نحن المسيطرين على المكان، ولم نفعل أي شيء..».

لكننا سنفعل..

قالها الشباب في حماس.. سوف ندمر هذه الغرفة، لكن ما رأيك أنت يا عم جمال؟

وعندما جاء منتصف الليل كانوا ساهرين.

النزلاء قد غابوا في غرفهم، وأطفئت معظم الأنوار.. في المساء يدوي صوت موسيقا حالمة قادمة من عدة سماعات متناثرة هنا وهناك لكنها زادت من توتر الجو..

أنا لم أنم وجلست مستندًا إلى عصاي أرمق ما يدور من حولي.. يهبط المصعد.. ويدخل فيه (رامي) و(صلاح).. لكنهما ليسا وحدهما.. معهما أنبوتان من غاز البوتان - غاز البوتاجاز - ثم ينغلق الباب عليهما ويرتفع المصعد..

لن تكون (عزة) معهما.. ستنتظر هنا..

قلت لهما إنهما مجنونان، لكن (صلاح) قال لي إنه رأى انفجار أنابيب البوتاجاز من قبل. سوف يدمر الانفجار الغرفة لكنه لن يأتي على أية غرفة مجاورة. سوف ينهار السقف وتتداعى الجدران لكن لن يبلغ الضرر درجة إيذاء الفندق.

الغرفة 207 ستتحول إلى كومة من الأنقاض، وعلى الأرجح لن يرممها أحد. سوف تغلق للأبد.

قلت بصوتي الواهن:

- «لكن هناك شرطة وتحقيقًا.. لن يمر الأمر بسهولة فنحن لا نعيش في الصحراء».

قال (رامي) في ثقة:

- «هذا صحيح لكنهم لن يعرفوا أبدًا من فعلها. لم يرنا أحد سواك ونحن نفعل ذلك ونحن لن نترك أي أثر.. لو لم تتكلم أنت لكان عليهم أن يسجنوا كل العاملين في الفندق.. فهل ستتكلم يا عم جمال؟».

قلت وأنا أشعل لفافة تبغ بيد ترتجف:

- «لن يطلب أحد شهادتي، فهم يعرفون إنني لا أرى تقريبًا».

والواقع إنني كنت معهم قلبًا وقالبًا.. لقد حان الوقت كي تذهب هذه الغرفة اللعينة إلى الجحيم. ربما لم أحسر أنا على عمل ذلك لكن هناك من يجسر..

إنها مكان شرير، والأماكن الشريرة يجب أن تزول إلى غير رجعة..

لهذا جلست مع (عزة) صامتين وانتظرنا.. سوف يعود الشابان حالًا فيغادر الجميع الفندق وأبقى أنا على الكاونتر بانتظار سماع صوت الانفجار من أعلى. سوف يصيبني الهلع وأطلب الشرطة والمطافئ.

ما سيفعله الشبان بسيط جدًّا.. سوف يشعلان شمعة طويلة ويقومان بغلق الشرفة جيدًا، ثم يفتحان صمامي الغاز ويتأكدان من

غلق الغرفة، قبل أن يقرأ.. إن هي إلا خمس دقائق أو عشر حتى يصل الغاز كرية الرائحة إلى اللهب وعندها يفتح الجحيم..

جرس الهاتف يدق..

رفعت السماعه فجاء صوت (رامي) يقول:

- «هلا أرسلت (عزة) هنا؟.. ثمة مشكلة..».

- «مشكلة في إيقاد شمعة؟».

- «لا.. لا وقت للشرح. فقط قل لها أن تأتي وابق حيث أنت».

قلت لـ (عزة) إنها يريدانها في الغرفة 207 فنظرت لي في قلق.. ثم إنها نهضت وهرعت إلى المصعد. لا أعرف نوع المشكلة التي تحتاج إلى أنثى ولا يقوم بها رجلان.. العناية بطفل أو تطريز مفرش أو طهي بعض الكوسة.. هذا هو ما أتخيله ولا علاقة له بتفجير غرفة على ما أعتقد..

انتظر..

أنتظر..

قطار ذكرياتي مع الغرفة. مع الفندق يتسارع في ذهني..

عندما كنت شابًا قويًا.. عندما كنت رجلاً مفعماً بالرجولة.. الخواجة مايكل ومصطفى وعم مينا.. عشرات الوجوه التي جاءت ورحلت في حياتي..

جرس الهاتف يدق من جديد..

- «آلو؟».

جاء صوت رجل منزعج:

- «أنا نزيل الغرفة 208.. هناك رائحة غاز قوية في الطابق كله. هلا أرسلت من يتأكد؟».

- «حسن..».

أين ذهب هؤلاء الحمقى؟.. واضح أنهم فتحوا الصمامين فلماذا لم يظهروا؟.. ماذا ينتظرون؟

هكذا نهضت متثاقلاً واستندت إلى عصاي وأنا أتجه إلى المصعد. ضغطت على زر الطابق الثاني.. انفتح الباب فخرجت إلى الرواق الرهيب الذي مشيت فيه مئات المرات في حياتي..

كان باب الغرفة موصداً.. حاولت فتحه عدة مرات فوجدته مغلقاً.. بالفعل كانت رائحة الغاز تنتشر من تحت الباب.. هم أنجزوا مهمتهم وفروا إذن..

لماذا لم أرهم وأنا في الاستقبال؟.. لأنني كنت نائماً بالطبع.. الشيوخ ينامون في مقاعدهم مائة مرة في الساعة ويقسمون أنهم

لم يغمضوا العيون لحظة. لكن لماذا لم يوقظوني ليقولوا إنهم قاموا بالمهمة؟

المشكلة أن الانفجار سيدوي في أية لحظة الآن وعلي أن أبتعد..
هنا انفتح باب الغرفة 208 وظهر رجل.. اقترب فعرفت أنه رجل يلبس منامة وبادي القلق، وقد قال لي:

_ «ألم تعرف مصدر الرائحة بعد؟».

قلت له في حزم وأنا أبتعد عن الباب:

_ «سأتصل بعمال الصيانة.. فقط ادخل حجرتك ولا تخرج منها..».

قال في عصبية:

_ «هذا ما قالته الفتاة وهي تدخل الحجرة منذ دقائق..».

_ «أنت رأيت الفتاة تدخل؟.. إذن كانت هناك رائحة غاز وقتها؟».

_ «نعم.. دخلت ولم تخرج ثانية.. قرعت الباب مرارًا فلم يرد أحد!».

معنى هذا أنهم بالداخل!

هكذا صحت في الرجل:

_ «تعال.. ليس المفتاح معي.. يجب أن نقتحم هذا الباب معًا!!».

نظر لي وأدرك أنه من المستحيل أن يكون لي دور، وهكذا هرع إلى حجرة مجاورة فعاد مع رجل مفتول العضلات وتعاون الرجلان على اقتحام الباب..

بسرعة!.. سوف يدوي الانفجار في أية لحظة!

بسرعة!

أخيرًا انفتح الباب.. ورأيت الغرفة من الداخل في الظلام.. رائحة الغاز تملأ كل شيء..

كاد أحرق ما يشغل النور الكهربائي، لكنني صحت:

_ «لا تفعل!.. قد تنبعث شرارة!».

لم تكن هناك شمعة.. لهذا تأخر الانفجار..

هرع أحدهم يفتح الشرفة ويغلق صمامي الغاز، ونظرت إلى الفراش لأجد عزة راقدة هناك وفي يدها شمعة. كانت غائبة عن الوعي.. على الأرض وجدت الشابين غائبين عن الوعي كذلك..

كان الهواء قد بدأ يملأ الغرفة فأضأت النور بحذر. تفحصت الشابين على الأرض فوجدت قطعة قرميد جوار رأس كل منهما.. الفتاة كذلك كانت هناك قطعة قرميد جوارها على الفراش.. نظرت للسقف وعرفت مصدر هذه الحجارة. لقد أعدت الغرفة انتقامًا مروعًا.. عندما فتح الشبان صمام أنبوب الغاز وأشعلا الشمعة هوى حجر على

رأس كل منهما ليغيبا عن الوعي، وتم استدعاء الفتاة ولا تسلم من استدعاها.. عندما دخلت الغرفة هوت قطعة حجر ثالثة على رأسها.. وانغلق الباب بإحكام.. هكذا صار محكومًا على الثلاثة بالإعدام، غير أن عزة استطاعت أن تجد من الوعي ما يسمح لها بأن تطفئ الشمعة قبل أن تغيب عن الوعي.. كانوا سيموتون اختناقًا لكنها مئة أبطأ من أن تتناثر أجزاؤهم في الانفجار..

طلبت من الرجلين أن يخرجوا ثلاثة الشبان.. أن يحاولوا إفاقتهم.. ألا يقلقوا علي..

وعندما جروا آخرهم إلى الخارج أغلقت الباب على نفسي بالمزلاج..

أغلقت النور ووقفت أنتظر..

في مكان ما هنا يكمن السر.. يجب أن أعرف..

أيتها الغرفة 207.. أنا هنا وحدي في الظلام.. وحدي.. عجوز واهن عاجز عن المقاومة..

فلتفعلي ما تريد..

ومن خلال المرأة أرى ذلك الشيء.. أراهم يتحركون.. يتبخرون ويتكاثفون ويتجمدون ثم يتبخرون ثانية..

نحن لا نريد أن نؤذيك...

هذه الغرفة بنيت في موضع فجوة.. فجوة تقود إلى عالم جحيمي شيطاني لا يمكن وصفه. وهذه الفجوة هي عبر زجاج المرأة.. لهذا لم يتغير شيء عندما تم تجديد الغرفة لأن المرأة عادت لها..

من هذه الفجوة يأتون لنا ويعبثون ثم يرحلون..

نحن لا نريد أن نؤذيك...

نعم.. فأنا معهم منذ دهر.. لكن من قال إن الرغبة متبادلة؟

التقطت من فوق الكومود رزمة الأوراق والقلم ورحت أخط هذه الكلمات التي تقرأها الآن. أكتب بصعوبة سبب وهن بصري لكنني أكتب.. ربما يهوي حجر على رأسي في أية لحظة لكنهم قالوا إنهم لا يريدون إيذاي.. ربما لا يفعلون...

أرفع رأسي فأراهم يبرزون من سطح المرأة ثم يتوارون فيه.. يتلصصون..

نحن لا نريد أن نؤذيك...

سوف أنتهي من الكتابة فأضع الورقة في مظروف سميك وأخرج للشرفة لألقيه في الشرفة المجاورة، ثم أغلق الشرفة بإحكام.

سوف أعود للغرفة.. أشعل الشمعة من جديد..

أتجه إلى أنبوتي الغاز فأفتحهما من جديد..
سوف أتناول الأباحورة لأهشم بها زجاج المرأة... وعندما يتناثر
الزجاج مع السر سوف يدوي الانفجار، ورهاني على أن الفجوة
سوف تغلق عندما يضحي إنسان بنفسه من أجل ذلك..
هناك سبب آخر قد يبدو مضحكاً سخيفاً.. أحياناً أعتقد أن الغرفة 207
وليدة عقلي أنا وإذا انتهى عقلي انتهت الغرفة معه..
لن يفتقد أحد عجوزاً بلا أسرة وشبه كفيف..
لكنني سأقدم خدمة لأجيال قادمة لن يحدث لها شيء في هذه
الغرفة..
جمال الصواف ينهي أسطورة الغرفة 207...
هذه نهاية تروق لي كثيراً جداً.

جمال

الصواف

في كيان للنشر والتوزيع، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائماً نرحب بالكتاب الشاب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الإبداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب تراسلنا، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235611772 - 0235688678

هاتف محمول: 01001872290 / 01005248794 / 01000405450

ويمكنك التواصل معنا إلكترونياً على الروابط التالية، للاطلاع على كُتبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتابنا الثقافية:

kayan.publish



kayan_publishing



kayanpublishing



kayanpublishing



kayanpublishing



kayanpublishing+



Table of Contents

نصف عنوان الكتاب
جميع الحقوق محفوظة
عنوان الكتاب
المحتويات
مقدمة
فتاة وحيدة
لعب عيال
فضول
زوجان
تلفزيون الواقع
أعدها لي
النمط رقم (4)
اللقاء
تجربة ليلية
شيء ما
قلادة وعطر وساعة حائط
ما رأيك يا عم جمال؟

د. أحمد خالد توفيق حظك اليوم



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:



كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: حظك اليوم.. للكاتب أحمد خالد توفيق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصريّة للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير هذا الإنتاج المشترك بين قناتي (متميزون) و (د. حازم مسعود) للكتب النصية على توفير هذه الخدمة النوعية التي نطمح بأن تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قناة د. (حازم مسعود)

[إشترك بالقناة](#)

حظك اليوم
د. أحمد خالد توفيق

مقدمة..

اثنا عشر برجًا..
اثنتا عشرة طريقة للموت..
ولعنة تطاردك في كل صوب..
تمر بالأطوار المعتادة: في البداية أنت لا تعرف.. بعد هذا أنت لا تلاحظ.. ثم تلاحظ فلا تصدق.. ثم تصدق فلا تعرف ما ينبغي عمله..
لا تعرف أن فلانًا مات.. ثم تعرف أن فلانة ماتت لكنك لا تلاحظ ظروف ميته الغريبة.. ثم تلاحظ الظروف لكنك لا تصدق.. لابد من تفسير علمي لهذا.. الآن أنت تصدق لكن ماذا بوسعك أن تفعل؟
أنا لا أؤمن بالأبراج ولا أعتقد أنها تتحكم في حياتنا، وقد قابلت ألف واحد من برج القوس فرأيت ألف شخصية وألف نمط نفسي، ولو كانت الأبراج صادقة لما كان البشر بهذا التعدد السخي، ولما وجدت إلا ١٢ نمطًا لمن حولك.. الحياة ليست بهذه البساطة. لكن هؤلاء المحررين الشباب اقتربوا جدًا من الحقيقة، وتسببوا بشكل ما في موت مشعوذ شرير هو (عدنان) الفلكي الذي تملأ إعلاناته الصحف ولا يتعامل إلا ببطاقات الائتمان.. إنه شخصية فمية من الطراز الذي لا يقبل الخسارة، ويعتبر من يعاقبونه على ذنبه مجرمين، وهكذا عرف الصحفيون الحقيقة القاسية: قد تكون الأبراج خرافة لكن لعنة المشعوذ حقيقية تمامًا..
الأسوأ من هذا أن اللعنة تملك ثقافة واسعة وتلعب بالمتراذفات والمجاز.. لا يجب أن يطارذك أسد هارب من حديقة الحيوان لو كنت من برج الأسد، وإلا لكانت الحياة رائعة الجمال.. هناك أسد ما في مكان ما سوف تكتشفه وأنت تطالع ما حدث لكل صحفي من هؤلاء..
يقول الغربيون إنك لا يمكن أن تكون حذرًا أكثر من اللازم، وهذه القصص تطبيق عملي صادق لصحة هذه المقولة..
هل من مفر؟
هل من نهاية لهذا الكابوس؟
هذا ما ستعرفه عندما تقرأ هذه المجموعة من القصص القصيرة التي يربطها خيط واحد..

من ٢١ مارس إلى ٢٠ إبريل

ليس من عادتي أن أعتذر عن عمل صائب قمت به، وللدقة لم أعتد أن أعتذر عن أي خطأ ارتكبته في حياتي. على الأقل على مستوى البشر، لم نعتذر ولم؟.. نحن في النهاية بشر نخطئ ونزل ونتكبر ونجهل ويُجهل علينا، وكلنا في النهاية بؤساء أرغمتهم ظروفهم على الزلل، فلمن أعتذر ولم؟

لو لم يكن هذا البرد وهذا الظلام لاستطعت أن أعبر عن أفكاري بشكل أفضل، لكن تفكيري مضطرب تمامًا..

لقد تعلمت أن أسامح وأنسى.. أسامح نفسي أولاً ثم أسامح الآخرين، لكني لا أطيق الشر وإيذاء الأبرياء.. لا أطيق من يعتبرني غيبًا أو يعتبر الآخرين أغبياء.. لهذا لن أعتذر.. آسف.

ما حدث لـ (عدنان) استحقه بالتأكيد، ولا أشعر بأية شفقة تجاهه. لقد جمع ما يكفيه من مال. سلب الأثرياء ولعب بعواطف الحسناوات، ويكفي أن ترى إعلانه عن نفسه لتصاب بالقشعريرة. الرجل يملك أكثر من رقم فاكس ويظهر في أكثر من قناة فضائية، ولديه عدة أرقام حساب في مصارف أوروبية. الرجل يقضي إجازته في الكوت دازير ولديه مزرعة خيول، ويبدو أنه ممن يصطادون الثعالب في بريطانيا ويتزلجون في سان موريتز.

(عدنان) الفلكي.. سوف تجد هذا الإعلان باهظ الثمن في مركز الصدارة من أية مجلة، ولسوف تجد كلامه المنشور يحاول محاولة ساذجة أن يتخذ طابعًا دينيًا. تارة يحاول تقليد الأسلوب القرآني وتارة يقلد الإنجيل على غرار (الحق أقول لكم).. الخ.. ثم صورته!

هذا المخلوق القميء بشع الخلقة الذي يطل عليك من الصورة بعينه الناريتين اللتين دربهما عدة ساعات أمام المرأة قبل أن يلتقط الصورة. كل ما عليك هو أن تخبره بتاريخ ميلادك وترسل ورقة بخطك وقطعة من ثيابك، وهو سيعطيك تاريخًا ومستقبلًا كاملين.. سوف يخبرك بمن تتزوج ومتى تموت وأين..

الغريب أن الناس كانت تصدق.. تصدق وتدفع. ما شأنكم أيها الحمقى؟.. الرجل يوشك على أن يعلق على صدره لافتة تقول: أنا نصاب، لكن الناس مولعة بأن تنخدع حقًا. كلما تضخمت الكذبة كان تصديقها أسهل.

وفي المجلة التي أعمل بها استدعانا رئيس التحرير، وقال لنا إنه راغب في تحقيق سبق صحفي. سوف نقوم بلعبة خبيثة نخدع بها ذلك النصاب، وسوف نفصح بالوثائق. كنا عشرة محررين وسكرتير التحرير ورئيسه. هذا يعني أننا كنا اثني عشر متآمرًا. وكانت الحيلة خبيثة لن احكيها لك بالتفصيل لأننا قد نلجأ لها ثانية. في الغرب هناك ساحر شهير اسمه (جيمس راندي) تخصص في فضح السحرة الآخرين.. هو يقبل ممارسة السحر كنوع من الفن الراقى الذي لا يزعم صاحبه أنه سحر.. لكنه لا يطبق النصابين الذين يزعمون أنهم سحرة حقًا. هؤلاء يعرقلون تقدم المجتمع ويمثلون عقول الناس بالخزعבלات، ويمتصون دم الأرامل والأيتام. هكذا قام راندي بفضح الكثيرين من هؤلاء المدعين، وكانت الضربة الكبرى في برنامج تلفزيوني شهير لمعالج روحاني أمريكي فائق الشهرة. لقد طلبت منه امرأة عجوز أن يشفيها من سرطان الرحم، فبدأ المعالج يلعب ألعايبه المعروفة أمام الكاميرا ثم أعلن أنها قد شفيت. هنا تنزع العجوز شعرها المستعار وثيابها فيتضح أنها رجل متنكر من أعوان راندي!.. كانت هذه ضربة قاصمة ولم

يسمع أحد بعدها عن ذلك المعالج الروحاني ثانية. هذه هي طريقة راندي، وقد استعملنا نحن أسلوبًا مشابهًا..

صدر عدد مجلتنا وعلى غلافه صورة النصاب مع مانشيت عملاق يقول (نحن نفصح عدنان الفلبي). وصور للمراسلات بيننا وبينه، مع الصور التي تبين حيلتنا. لقد ابتلع الرجل الطعم كأحمق وفصح نفسه بعنف. نحن كذلك لم نقصر ووجهنا له ضربات عنيفة جدًا لدرجة أنه صار موضوعنا المفضل لعدة أعداد. كان القراء مهتمين به لهذا وصلنا العديد من الخطابات ودار جدل ملتهب على شبكة الإنترنت. لأن الرجل كان قد أوشك على أن يكون ظاهرة في اختراق الحجب فجعلناه ظاهرة في النصب..

لقد كان عملاً جيداً وأنا فخور به. وبدا أن أعمال الرجل تراجعت جدًا، ثم وجدنا أن الشرطة الفرنسية تحقق معه بصدد بعض الفضائح الأخلاقية.. هذان توءمان لا يفترقان: النصب والفضائح الأخلاقية.. هناك مؤمنات به يائسات يقصدنه وهن مستعدات لأي شيء.. أي شيء من أجل الخلاص. هذا ما يحدث مع الدجالين في الريف عندنا..

دارت العجلة بسرعة.. الرجل لم يتحمل الفشل والفضيحة، من ثم قطع شرايين معصمه في السجن ولم يتمكنوا من إنقاذه. عندما تقرر أن تلعب بالنار فلا تملأ الدنيا صراخاً عندما تحترق. لم يكن جلده ثخيناً كما ينبغي لأي نصاب، ولم يتحمل أن يفقد كل شيء..

لست نادماً على شيء ولو عرفت أنه حي وعاد يمارس نشاطه فلسوف أفعل الشيء ذاته. مر أسبوع على سماعنا خبر وفاته ونشرنا هذا في حينه، على أنني تلقيت خطاباً باسمي من فرنسا. فتحته مندهشاً لأنني لا أعرف أحداً هناك. كان الخطاب بالعربية وبخط أنيق جداً يقول: «برجك سوف ينتقم لي!».

لم أفهم المقصود. لكنني عرفت أن الخطاب من (عدنان) طبعاً. برج وفرنسا.. إذن لا يوجد شخص آخر يمكن أن يكتب هذا الكلام الفارغ.

من الواضح أنه كتبه قبل الانتحار وأرسله لي من باريس. وصل الخطاب بعد رحيل صاحبه. بالطبع يعرف الرجل أسماء الذين اشتركوا في هدم أسطوره، ووضع حجر عملاق يسد مجرى المال المتدفق إلى جيبه.

كما توقعت فوجئت أن (ثريا) زميلتي تلقت خطاباً مماثلاً، ورئيس التحرير تلقى واحداً.. بالواقع تلقى كل واحد منا خطاباً.. لكن كيف ينتقم برجك منك؟

قالت لي (ثريا) مازحة:

- «خذ الحذر.. إن أرواح المنتحرين تكون قلقة وقادرة على إحداث أشياء مادية.. سوف يقتلك برج»

وقال لنا رئيس التحرير:

- «طبعاً هو تهديد شخص أدرك أن عالمه يفلت منه. لم يكن بوسعنا عمل شيء، لكن هذا يجعله أقرب إلى الضحية في ذهن القراء، وهذا قد يقلب الآية ونصير نحن الأشرار.. علينا أن نكون أكثر حذراً في مغامراتنا التالية»

صرف لكل منا مكافأة برغم كل شيء، وقد قررت أن ابتاع لزوجتي هدية لتذكرها بأنني لطيف مجامل إن كانت قد نسيت هذا.. الطريف أن اليوم ٢٤ مارس هو عيد ميلادي، لكنني لا أتوقع أن تتذكر زوجتي ذلك.. إذن فلأتذكرها أنا.

ذهبت إلى أحد الصائغين وسألت عن شيء رخص ثمنه وثقل وزنه. شيء يبدو مبهرًا للنساء لكنه ليس كذلك بالنسبة لصائغ. ضحك الرجل طويلاً وقد بدا أنه يسمع هذه الكلمات للمرة الأولى،

ومد يده يبحث في منضدته ثم أخرج لي (بروش) من الذهب.. لم أفهم الشكل المحفور عليه لكنه بدا متقناً ودقيقاً جداً. أعتقد أنه ذئب يأكل العشب. كان الثمن معقولاً لذا أخذته وأنا أطيّر فرحاً..

كانت (هالة) في المطبخ منهمكة في تقطيع البصل، عندما تسلفت وراءها وقمت برفع البروش أمام عينها. نظرت له ثم عادت تقطع البصل وهي تستنشق بقوة كي لا يسيل مخاطها. آه!.. إن ثريا معنا.. ثريا معنا بعنف..

هالة تغار من ثريا.. هالة تعتقد أن بيني وثرثيا شيئاً ما، والسبب أن علاقة العمل بيننا قوية، بينما هي لا تعمل إلا كست بيت. هالة ليست مخطئة تماماً.. أنا متعلق بثرثيا أكثر من اللازم لكن هذا لن يؤدي لشيء عملي.

- «هذه هدية لك.. نلت مكافأة عن موضوع (عدنان) النصاب إياه»

- «أرجو أن تسمح لي بألا أقبلها»

نظرت لقفها في غل.. إنها تجد متعة جنونية في أن تشعر بالظلم والغبن، وما تقوم به من تقطيع بصل هو نوع من الاستشهاد يشعرها بأنها أفضل بينما أنا مجرد خنزير.

اعتصرت البروش قبضتي فشعرت بشيء يخترق كفي. خرجت من المطبخ ودخلت الحمام. فتحت قبضتي فوجدتها تنزف دمًا.. إن الدبوس الخاص بالبروش انفتح واخترق لحم كفي.. لا بأس.. قمت بتطهير الجرح بالسافلون، ثم اتجهت لباب الشقة ففتحته وقلت بصوت عال:

- «سوف أتناول الغداء في الخارج»

ضربة قوية لها أن تعد الطعام عدة ساعات لتأكله وحدها. اتجهت إلى المقهى وطلبت فنان قهوة وجلست أفكر. فجأة اشعر بأن حرارتي ترتفع.. أريد أن أفرغ معدتي.. أشعر بدوار.. ماذا حدث لي؟.. دقات قلبي تبطئ جداً لكنها تزداد قوة فأسمعها تتردد في أذني.. ما الذي... ؟

كان العرق البارد يغمر جبيني وأنا أسمع القهوجي يسألني من وراء الأبديّة:

- «هل أنت بخير يا أستاذ عصام؟»

- «بخير.. بخير»

وكان هذا آخر شيء قلته، لأنني أفقت في المستشفى بكامل ثيابي ما عدا الحذاء.. هناك زجاجة محلول معلقة جواري.. أشعر بوهن وتوعك شديدين.. تنميل حاد يغمر نصف وجهي ونصف لساني ونصف جسدي كله. أرفع عيني فأرى (هالة) زوجتي جالسة تنظر لي في قلق.. تتظاهر بالقلق...

تقول لي:

- «لا تخف.. الأطباء يفتشون عن سبب التسمم»

- «أي تسمم؟»

- «تسمم الدم الذي حدث لك.. يقولون إنك حُقنت بشيء ما..»

حقنت؟.. ثم تذكرت فمددت يدي إلى جيب السترة وبحثت.. خرجت يدي بالبروش. هذا هو الشيء الوحيد الذي اخترق جلدي مؤخراً. ما الذي لوث الدبوس؟.. دققت النظر في البروش أكثر بينما الوهن يجعل الصورة مزدوجة، هذا ليس ذئباً.. الذئب لا تأكل العشب.. هذا النقش أقرب إلى حمل.. حمل صغير يمد فمه ويلتهم بعض الأعشاب. اليوم ٢٤ مارس عيد ميلادي وهذا يعني أنني من المحظوظين الذين ينتمون لبرج الحمل!

برجك سوف يقتلك.. هو قالها.. فهل لهذا معنى ما؟.. الصدفة لا تحدث بهذه البساطة. معنى هذا أن حملاً سوف يقتلني أو قتلي بالفعل.. ناولت البروش لزوجتي وطلبت منها أن تخبرني بما

تراه، فنظرت له للحظة وقالت: هذا حمل يرعى العشب!.. ثم أعادته لي في اشمئزاز.
لو إنني توفيت بسبب هذا الجرح فمن الواجب على الآخرين أن يعرفوا. ربما كان هذا وهمًا وربما
لم يكن، لكن لابد أن يأخذوا الحذر. قلت لزوجتي أن تناولني قلمًا وورقة..
- «هل تنوي أن تكتب خطابًا لثريا هانم؟»

- «أنتِ تتكلمين بلساني!..»
وجلس في الفراش أحاول ان استعيد وعيي وترابط أفكاري. خذوا الحذر يا رفاق.. يبدو أن
لتهديد النصاب نصيبًا من الصحة.. البروش كان يمثل حملاً.. وأنا حسبته ذئبًا في البداية..
رباه!.. إن وعيي يتسرب بسرعة كأنه الغاز من أنبوب مثقوب.. هل هو الموت؟.. لا.. لا أعتقد
هذا.. لكن.. لعابي يجف.. الظلام ينتشر.. يجب أن أكتب بسرعة.. يجب...



من ٢١ يونيو إلى ٢٠ يوليو

اسمي (ثرثيا).. لا شك أنك تعرفني جيدًا لو كنت من قراء مجلتنا.. لقد كتبت عددًا من التحقيقات الجريئة، وشاركت في أكثر من برنامج تلفزيوني كضيف وأحيانًا خلف الكاميرا كمعدة.

تسألني لماذا أنا حزينة؟.. هناك سببان وأنت تعرف السبب الأول.. لا أجرؤ على قول إنني فقدت حبيبًا لكنها الحقيقة. (عصام) كان يحبني ولم تعد جدوى من إنكار هذا. مشكلة المرأة أنها لا تقابل هؤلاء الرجال المناسبين إلا بعد ما يكونون قد تزوجوا من امرأة غير مناسبة. وهم لا يجدون المرأة المناسبة إلا بعد ما يكونون قد أنجبوا. هنا تبرز المشكلة.. زوجة ثانية أم عشيقة أم تنسى الأمر برمته؟.. أنا لا أقبل أن أكون زوجة ثانية ولا عشيقة.. وبالطبع علاقتنا الدائمة في العمل لا تسمح لي بأن أنسى الأمر برمته، لهذا ظللت ألعب على الحبال كلها.. لم أتخل عنه ولم أقترب منه أكثر..

لا شيء مثل الكفاح المشترك يقرب بين الذكر والأنثى، ولا شك أنه لم ينس ليلة من الليالي التي سهرنا فيها ندبج مقالًا أو نعيد صياغة خبر ما، أو ننتظر نتيجة انتخابات أو الحالة الصحية لمحتضر.. ثم نزل إلى الشارع المظلم البارد الذي ينهمر فيه المطر. نمشي في صمت ونحن نشعر بأننا نذوب ونتحد بالكون ذاته. لا بد من أن يوصلني لأن الشوارع خطيرة في هذه الساعة. وعندما نفترق يفتح فمه ليتكلم فأمد يدي لأضعها على فمه لأخرسه.. كل ما سيقوله سوف يزيد الأمور تعقيدًا..

نفرح معًا ونحزن معًا.. ننتشي معًا.. نقلق معًا.. ماذا ينقصنا كي نتزوج؟ لقد توفي (عصام).. توفي ولم تكن معه سوى زوجته. يقال إن السبب تسمم دم من جرح بدبوس صدى.. نهاية غريبة قاسية. لكن كل شيء يمت لعصام غريب وربما قاس.. كان هذا في الفترة التي تلت قضاءنا على أسطورة النصاب (عدنان).. أنت تعرف تلك القصة وقرأت عنها بالتأكيد. ثم ترك لنا عصام تلك الرسالة الغريبة التي كتبها في المستشفى.. كلام غريب جدًا عن الحمل والأبراج وانتقام (عدنان).. كلام أبسط ما يقال عنه أنه وليد عقل أتلفه تسمم الدم، ولقد أحزنني كثيرًا أن آخر كلمات قالها كانت هلوسة.. تذكرت أنني قلت له على سبيل المزاح:

- «خذ الحذر.. إن أرواح المنتحرين تكون قلقة وقادرة على إحداث أشياء مادية.. سوف يقتلك برج»

أنا لم أكن أعبأ بالأبراج طيلة حياتي، وإن كنت أعرف يقينًا أن برجتي لا يتوافق البتة مع برج عصام!.. هذا مثير للسخرية. برجتي هو ذات برج رينجو ستار والأميرة ديانا ونلسون مانديلا وقيصر ورمبرانت!.. هل يعني هذا ميلًا للفن في عروقي؟.. ربما يعني أنني سياسية محنكة.. بالطبع لا أتق لحظة بهذا الهراء، لكنني اندمجت فيه عندما كنا نتخلص من هذا العدنان. قمت بهذا مع عصام.. مع الآخرين طبعًا..

في المجلة أقاموا حفل تأبين بسيطًا له، وقالوا بعض كلمات الوداع له.. هناك أناس يجدون أنفسهم بشكل غريب في هذه الأحداث المؤسفة. كأنها أسعد لحظات حياتهم. أما أنا فكان علي أن أتماسك وألا أبدي لهفة أو انهيارًا أكثر مما يجب علي أن أبدي. فقط أتذكر أن امرأة أخرى هي التي أغمضت عينيه وهي التي رافقته إلى القبر.

فقط دخلت دورة المياه.. تأكدت من أن الباب مغلق ثم انفجرت في بكاء حار طال عدة دقائق، حتى أذبت كل ما على وجهي من مساحيق وصرت أشبه الأراجوز.. كان على أن أنتظر بعض دقائق حتى أعيد كل شيء لموضعه، وحتى أغلق ياقة الثوب جيدًا حتى لا يلاحظوا شيئًا.. الآن أجلس في بيتي أفكر وأكتب هذه الكلمات..

من الناحية الأسرية أنا مقيمة مع أمي بعد وفاة أبي. أمي مسنة مصابة - كالعادة - بتلك الصفقة التي لا تأتي إلا جملة: ارتفاع الضغط - البدانة - السكر - وهن القلب.. يقولون إنها مرشحة بقوة للرحيل، لكني لا أطيق أن أتصور ما قد يحدث بعدها. ليس لنا أقارب أو هم تخلوا عنا.. فقط أمي العجوز هي مركز حياتي وهي القلب الذي أخرج منه وأعود إليه.. لا تكف عن الكلام عن زواجي، وعن المهنة التي لن تجلب لي الخير أبدًا، لكن أليست الأمهات جميعًا يقلن الكلام ذاته؟. في الحقيقة بدأت أعتقد مؤخرًا أنها هي التي ستفتقدني أولاً.. طبعًا أمي لا تعرف أي شيء عن عصام ولو عرفت لجنت، كما أنها لا تعرف أنني أعتبر نفسي أرملة منذ عرفت الخبر..

رئيس التحرير جمعنا وقال لنا: «سوف يمضي كل شيء.. لن يشعر أي قارئ باختلاف حتى لو مت أنا شخصيًا.. ليس للواحد منا الحق سوى في حفل تأبين وبرواز في المجلة.. هذا هو كل شيء..»

قاسية هي هذه الحياة.. قاسية وغير عادلة.. والأسوأ هو ما وجدته منذ أسبوعين وأنا أستحم و..

أكتب هذه الكلمات وأنا أرى شيئًا يتحرك هنالك في الركن.. صرصور؟.. لا أظن.. إنه أكبر من ذلك.. فأر؟.. لا.. الأنثى التي لا تشعر بالفأر فتصرخ وتثب على مقعدها لا تستحق لقب أنثى. إذن هو؟ نهضت في حذر وزحفت على ركبتني إلى أن دنوت منه. كان يتوارى بسرعة تحت الأريكة لكنني تمكنت من رؤية الزبان المرفوع في الهواء، ثم اختفى في الظلام تمامًا.. عقرب!.. عقرب في غرفة نومي!

إن وجود العقارب هنا ليس مستحيلًا لأننا على حافة الصحراء، ولنا جارة مرت بموقف مماثل، لكن هذا لم يحدث قط معي أنا. لو أيقظت أمي لمألت الدنيا صراخًا وأصيببت بنوبة سكر.. إذن ليس من أحد أستعين به سواي للقضاء على هذه الكارثة.

بحثت عن خف صلب ورحت أفتش تحت المقعد. أزحته تمامًا لكنني لم أجد العقرب تحته. هذا يعقد الأمور لأنني لن أنام وهذا الشيء في غرفتي.

عدت إلى مكتبي ورفعت قدمي إلى المقعد بينما عينايا لا تفارقان أركان الغرفة. هو في موضع ما هنا.. على الأقل هو لن يخرج من الغرفة..

عقرب!.. لماذا عقرب؟.. لماذا الآن بالذات؟

حياة كثيفة قاسية تلك التي أحيها هنا مع أمي. لا أعرف كيف ولا متى نخرج منها، والسيناريو الوحيد الممكن هو أن أتزوج وآتي برجل ابن حلال يعيش معنا.. لكن هناك مشكلة عصام.. كنت أرى رجلًا واحدًا في الكون وهذا الرجل قد مات بتسمم دم. أشعر بأنه قد فر مني بشكل ما.. السيناريو الآخر هو أن أموت، وهي فكرة لم تعد مستبعدة..

ربما أنجح في عالم الصحافة. أعرف هذا يقينًا.. هناك اناس كثيرون يحفظون اسمي ويبحثون عن مقالاتي، لكن ما هو أعلى مدى يمكن أن أبلغه؟.. هناك سقف وهذا السقف بعيد جدًا عن السقف الأعلى الذي يكفل لي السعادة.. ما هذا؟.. هل تراه؟.. لقد تحرك شيء هناك..

جريت من جديد كالمسوعة إلى ركن الغرفة المجاور للشرفة لكي لم أر شيئاً. عندما تبحث عن عقرب فكل شيء في الغرفة يتحرك كعقرب.. هذه قاعدة..

أعرف أن اللدغة لن تكون مميتة، لكنها سوف تسبب لي ساعات تعسة لعدة أيام.. فقط الأطفال يموتون بلدغات العقارب أما فتاة ناضجة كبيرة مثلي فسوف..

عصام كان من برج الحمل، وقد أُنذره عدنان بأن برجه سينتقم له.. ما معنى هذا؟. زوجة عصام تكلمت عن بروش يشبه الحمل أو الذئب كان في يد عصام وقد حاول أن يهديه لها لكنها رفضته. هذا ما قالته لصديق مشترك.. عصام كان يحمل البروش معه في المستشفى.. ربما كان آخر شيء رآته عيناه..

يمكن بشيء من الخيال أن نتصور أن هذا الحمل هو من قتل عصام.. «قتله برجه».. المذكرة المرتبكة التي تركها لنا تقول هذا، لكن هذا هو السخف بعينه.. لا يجب أن أنجرف وراء هذه الأوهام. أنت فتاة عاقلة ولو كنت أقل عقلاً لقبلت أن تكوني زوجة ثانية.

أرى شيئاً يتحرك هناك في الركن قرب رجل الفراش. أنا متأكدة هذه المرة من أنه هو.. لكن لا يجب أن أمشي حافية القدمين في هذه الغرفة.. ربما أدوس ذلك الشيء وعندها.. إن حذائي قريب من المكتب على كل حال.

أمسكت بالمسطرة وانحنيت على مسند المقعد، وبصعوبة رحت أقرب الحذاء مني. أقربه.. سوف أدس قدمي فيه ثم أعاود حملة التفتيش..

حشرت القدم اليمنى، وأوشكت على حشر اليسرى عندما رأيت شيئاً يتحرك داخل الحذاء المظلم!.. إنه هو!.. هذا الخبيث تسلل إلى حذائي كعادة كل العقارب في الواقع، بانتظار قدمي العارية كي تتواجد معه في مكان ضيق واحد!.

وأنا كنت سألبس هذا الحذاء على سبيل الوقاية!..

ألقيت الحذاء على الأرض في هستيريا فرأيتته يهرع فاراً منه. كانت هذه هي اللحظة المناسبة فلا وقت للذعر الأنثوي. أمسكت بالفردة وهويت بها عليه.. و.. بلوتش ش!.. أكره هذا الصوت البشع!..

لحسن الحظ أنه لا يتلوى كالسحالي أو الأفاعي. لقد انتهى أمره في لحظة!..

في تقزز بحثت عن ورقة ألقيت بالجنّة فيها وخرجت إلى الشرفة لأطوح بهذا الشيء خارجها. لم يستحق الموت لكنني لم أستحقه كذلك، فكلانا كان نحساً على الآخر. فقط أنا لم أتسلل إلى حجرته ليلاً!.

عقرب في هذا الوقت؟.. لماذا؟. لكن الهدوء قد ساد على كل حال، ويمكنني أن أفكر فيما حل بجسدي.

تقهقرت إلى الغرفة ووقفت أمام المرأة.. ببطء فتحت أزرار منامتي وكشفت عن جذور عنقي، ورحت أتأمل ذلك الانتفاخ. الانتفاخ الذي وجدته منذ أسبوعين وقال لي الأطباء إنه عقد لمفاوية صلبة. قالوا لي إنها مريبة الشكل وإنها توجي بمرض خبيث، لكن لا بد من أخذ عينة وبسرعة..

سألتهم في حيرة: هل هو السرطان؟.. هزوا رءوسهم أولاً ثم قالوا: لا نعرف.. لن نعطي رأياً قبل أخذ العينة.. طبعاً لم أفعل ذلك حتى هذه اللحظة.

أنا أكره الأبراج وكل هذا الهراء، لكن لو تذكرنا أنني من برج السرطان، فهل يمكن أن يكون برجتي قد انتقم مني فعلاً، وتكون هذه العقد هي بداية نهايتي؟.. عندها يكون عدنان قد صدق مرتين..

وأنت؟.. هل حسبت أن العقرب سيقْتلني لأنني من برج العقرب؟.. لا تكن أحمق.. أنا مولودة
يوم ١٢ يوليو فما دخل العقرب في الموضوع؟ ...
أنا من برج السرطان.. برج رينجو ستار والأميرة ديانا ونلسون مانديلا وقيصر ورمبرانت.. لو
اتضح أن هذه العقد للمفاوية سرطانبة، ولو أنها قتلتني كما رأيت في عيون الأطباء، فإن بوسعك
القول أن عدنان أحرز هدفين أكيدين..
لكني - كما قلت لك - لا أصدق هذا الهراء.



من ٢٠ يناير إلى ١٨ فبراير

«عندما يصير القمر في المنزل السابعة.. وعندما يتوازى المشترى مع المريخ.. عندها سيهدي السلام الكواكب، ويبحر الحب بالنجوم..»
سألني (منير) عن سبب شرودي.. قالها على الطريقة الإنجليزية: «بنسان من أجل أفكارك»، فرددت ساهمة:

- «اتصلت بي (ثريا).. إنها مصابة بالسرطان فعلاً.. يبدو أن الوقت تأخر على إجراء جراحة..»
ونظرت إلى جهاز المحمول ساهمة..

يحب منير أن يكون بالفانلة الداخلية مع الشورت وهو على ظهر اليخت الخاص به. لا أذكر أنني رأيته بثيابه الكاملة إلا نادراً، فإن رأيته بثيابه الكاملة فهو حافي القدمين غالباً.. دعك من أنه يخفي عينيه خلف نظارة سوداء لا ينزعها إلا عندما يقرر استعمال عينيه.. وأنت تعرف متى يستعمل عينيه طبعاً..

عاد يسألني:

- «هذا محزن.. إنها صديقتك طبعاً؟»

- «زميلتي في الجريدة.. هي بين الصديقة والأخت..»

لم يدرك كم أنا صادقة في هذا.. هي حشرية تحملك أعباء لا نهاية لها كالصديقة، وهي مزعجة لا يمكن التخلص منها كالأخت. لم أكن أحب ثريا لكن ليس إلى حد أن أتمنى لها ان تموت بالسرطان طبعاً..

رحت أنظر إلى الماء الأزرق الذي يتطاير أمام مقدمة اليخت.. سكين لها شكل المكواة تشق الماء إلى نصفين.. ترتفع المقدمة لعنان السماء حتى أشعر بأنني أطيّر..

فرويد تكلم عن حلم الطيران، وقال إنه يرمز للاتصال الحميم.. هذا رجل عبقرى.. أنا أشعر بأنني بلا مقاومة على الإطلاق لكنني أتماسك..

من الصعب ألا تفقد الفتاة وعيها إذا كانت فقيرة مثلي، عندما يهيم بها شاب مثل (منير).. لا.. لن أقول (يهيم بها).. هناك تعديل بسيط يقلب الياء إلى تاء لتصير (يهتم بها)..

يهتم بي.. هو يتسلى على الأرجح، ولا أتوقع أن أجده يحملني باليخت إلى المأذون ليدخل عليه مبللاً حافي القدمين يطلب أن يزوجني له. لا.. لست بهذه السذاجة. هو يتسلى قليلاً وأنا كذلك أتسلى..

منير رجل أعمال مثل أبيه. عرفته عندما أجريت لقاء صحفياً مع أبيه وعرفت أنه يمارس عملاً لا أعرف ما هو بالضبط لكنه يجلب مليوناً بعدة مكالمات هاتفية.. هناك مضاربات وبيع أسهم وأراض يبتاعها فيرتفع ثمنها بعد دقائق.. ليس هذا كله مشروعاً.. الكسب المشروع كالحقيقة مخيب للآمال وبطيء جداً، بينما المال الحرام كالخيال.. يأتي بسرعة البرق ويأتي بسخاء..

منير يدخل الغرفة.. منير يحييني.. منير ينزع نظارته السوداء.. جزء عار من وجهه بين حاجبيه الكثين ولحيته الكثيفة.. هذه من المرات النادرة التي رأيته فيها بكامل ثيابه. منير يرميني بنظرة من تلك النظرات.. منير يصير على أن يوصلني بسيارته الرياضية التي لم احفظ اسمها برغم محاولاتي.. جرعة عالية جداً أودت بعقلي وجعلتني أترنح. هذا ليس عدلاً.. الأمر يشبه أن ترى بلطجياً ضخماً كالثور يتسلى بصفع وركل رجل ضئيل في حجم شارلي شابلن. لا فرصة لدى الرجل الضعيف أمام طوفان القوة هذا.. لو سقط على الأرض أو توسل من أجل حياته فلا لوم

عليه.. هكذا أدركت أن المباراة غير متكافئة وأنني خسرتها قبل أن تبدأ..
هكذا بدأ كل شيء..

لقد مررت بفترة عصيبة. أعتقد أنني كنت متعلقة بـ (عصام) بشدة.. أعتقد أنه يناسبني تمامًا، وعلى فكرة أنا مؤمنة بالأبراج تمامًا، وقد قرأت أن برجك هو أنسب برج لبرجي.. برج الذي هو برج تشارلز ديكنز وريجان وموتسارت ولنكولن.

لكن الأخت الفاضلة (ثرثيا) تدخل في حياتي وتأخذني.. السرطان لا ينسجم مع الحمل أبدًا مهما حاولت، لكنهما لا يؤمنان بالأبراج على كل حال..

عصام متزوج لكن من الواضح أنه متعلق بثرثيا.. لا شك في هذا..

هذا لا يمكن فهمه.. لو أنني كنت قبيحة كالشيطان أو غبية كالصخرة لفهمت، لكن لا يوجد منطق لهذا على الإطلاق. هكذا بدأت علاقات كثيرة على سبيل الانتقام..

ثم دارت الدورة وجرت مياه كثيرة تحت الجسور.. عصام مات بتسمم دموي لا يفهم أحد سببه، وثرثيا هانم مصابة بالسرطان.. يبدو أنني أكرر فيلم أمير الانتقام بشكل ما. كل من آذاني أو ضايقي يدفع الثمن.

سوف أتجاهل هذا كله وأنعم بهذه اللحظات مع الثري الأمثل حافي القدمين (منير). هو دعاني إلى هذه النزهة في اليخت الخاص به وقد قبلت.. ليست هذه المرة الأولى.. لقد قمنا بجولة مماثلة من قبل في البحر الأحمر.. يأتي بالطعام وعشرات من علب البيرة في ثلاجة صغيرة.. كل ما يلزم لصيد السمك.. يضع كل هذا في اليخت.. معه بحار شاب صغير لا يتكلم تقريبًا..

هنا يستعيد منير حيويته وعنصره الطبيعي. تشعر أنه كائن ينتمي للبحر وولد فيه، وهنا هو يولد من جديد إذ تنشق الأمواج لتستقبله..

البحر.. الأزرق اللانهائي.. الأمواج.. هل هذه نوارس؟

إنه يقف وراء عجلة القيادة، ويترنم بصوت رخيم عال بأغنية إنجليزية:

- «عندما يصير القمر في المنزل السابعة.. وعندما يتوازي المشتري مع المريخ.. عندها سيهدي السلام الكواكب، ويبحر الحب بالنجوم..»

سألته في استمتاع عن مصدر هذه الأغنية..

- «هي أغنية من مسرحية (هير).. قديمة جدًا لكن كل من كان في شبابه في السبعينات يعرفها.. عندما يتوازي المشتري مع المريخ يحجب ضوءه الأحمر.. المريخ هو كوكب الحرب (مارس)،

لذا فإن اختفاء وجهه يعني السلام..»

- «جميلة جدًا.. برغم أن عشر سنوات كانت تفصلني عن المجيء للعالم وقتها..»

يدور باليخت بين بعض الشعاب المرجانية ويضحك..

من جديد يدق الهاتف.. الشبكة سيئة جدًا لكنني قادرة على تلقي بضع كلمات:

- «(مي).. أين أنت؟»

هذا مدير تحريرنا الهمام.. أنا لست في القاهرة يا سيدي.. لكنني كذلك لست في البحر الأحمر أتسلى وأمتحن الأقدار مع شاب ثري وسيم. أنا في الزقازيق عند أسرتي.. هذا الصوت؟.. إن الشبكة سيئة هنا يا سيدي.. نعم.. تحت أمرك؟

- «قصة عدنان الذي فضحناه هذا.. وعد بالانتقام كما تعرفين قبل أن ينتحر.. هل وصلك خطاب منه؟»

قلت في ملل:

- «(برجك سوف ينتقم لي).. لقد أرسل هذه الصيغة للجميع.. كلام غير مفهوم..»

- «نعم.. نعم.. (ضجيج الكتروني.. لم أسمع) محض هراء وهو انتحر لأننا برهنا للناس على أنه كذاب.. لكن يجب ألا ننسى أن لدينا من مات بسبب حلية تشبه الحمل وهو من برج الحمل (لم أسمع).. هناك فتاة من برج السرطان توشك على الموت بالسرطان.. اثنان من فريقنا هلكا في ظروف مريبة بحق.. لقد طلبت من الجميع أن يكونوا حذرين.. هذا سخف بالطبع، لكنني قلق... والقلق يسمح لي بأن أكون سخيًا بعض الشيء...»

قلت في شيء من الخبث:

- «أنا مولودة في الرابع من فبراير.. لقد مر عيد ميلادي فعلاً منذ شهر أو أكثر.. هل تعرف معنى هذا؟»

منير يمد يده ليريحها على كتفي ثم يداعب بعض خصلات شعري.. أثني عنقي لأتخلص منه كي أتمكن من سماع المكالمات.. يقول المدير:

- «لا أعرف.. لا أذكر تواريخ هذه الأبراج..»

- «معناه إنني من برج الدلو.. كيف تتوقع لبرجي أن يقتلني؟.. هل سيسقط دلو فوق رأسي وأنا أمشي في الشارع؟... هل سيقوم لص بإغراق رأسي في دلو؟.. في الحقيقة لا أعتقد أن هذا الخطر ينطبق علي..»

هنا تلاشى صوته تمامًا وصار الاتصال مستحيلًا..

أغلقت الهاتف.. هنا وجدت أن منير ينظر لي في دهشة ثم هتف:

- «هل أنت من برج الدلو؟»

- «نعم.. وأكون سعيدة لو لم تقل دعاية سخيفة ما..»

لسبب ما يعتقد الناس أن الدلو شيء مضحك جدا.. عرفت من هم من برج الثور، وبرغم هذا لم يتلقوا هذا القدر من السخرية.. قال في جدية:

- «مصادفة غريبة.. لو كنت أعرف.. ربما زعمت أن هذا اليخت....»

هنا ارتجت الأرض وارتفع اليخت للسماء للحظة.. كان ارتطامًا قويًا بحق.. وسقطت على الأرض متدحرجة بينما سقط منير فوق.. لقد ضربنا إحدى هذه الصخور المكونة من الشعاب المرجانية.. ضربناها بقوة عاتية ومن الواضح أن ما حدث لليخت مروع.. الآن صار وضعنا مثيرًا للشفقة.. الطائر البحري الرشيق يسبح كالجثة فوق مياه البحر وهو موشك على الغوص.. أنفي ينزف وركبة منير ليست على ما يرام. البحار الشاب يبدو أنه كسر ساقه..

قال منير وهو يخرج جهاز الهاتف:

- «أعتقد أننا نغرق.. وهذا الشيء اللعين كالجثة الهامدة.. هلا جربت جهازك؟»

لكنني كنت أعرف النتيجة.. المحمول لا يعمل أبدًا عندما تتوقف حياتك عليه.

- «هل تعرفين السباحة؟»

- «لا..»

تعاون هو والبحار الشاب على نفخ قارب نجاة صغير وألقياه في الماء، ثم دعاني إلى النزول فيه معهما.. في الوقت ذاته كان اليخت ينحدر أكثر فلم يبق إلا ثلثه فوق سطح الموج..

سألته وأنا اجلس في القارب الصغير المتأرجح:

- «هل من خطط؟»

- «لا شيء.. أعتقد أنهم سيفتقدوننا وربما يخرجون للبحث عنا.. أبي سوف يتصرف..»

ثم أردف في شيء من السخرية:
- «الغريب أنني اعتقدت للحظة أن ركوبك فأل حسن، ما دمت كهذا اليخت من برج الدلو!»
- «وما العلاقة؟»
على اليخت الغارق كنت ألمح الشعار والاسم الأجنبي (أكواريوس).. فقال منير باسمًا:
- «أكواريوس هو برج الدلو... ألم تسمعي أغنية أغنية برج الدلو منذ دقائق؟.. أنا أتفاءل بها»
هنا شعرت برجفة.. أعتقد أن الغرق وارد أو مؤكد.. لو غرقت الآن وبسبب هذه الحادثة فمعنى
هذا أن من قتلني هو.. هو برج الدلو!.. ويكون كلام عدنان....
لا.. هذا هراء.. صحيح أن ثلاث ساعات قد مرت.. صحيح أن الظلام يقترب.. صحيح أن السماء
تتلون بالأزرق الداكن بسرعة مخيفة.. صحيح أن الموج يعلو. صحيح أننا محاطون بالشعاب
المرجانية.. صحيح أنني أرتجف.. لكن ما زال الغرق بعيدًا جدًا جدًا..
وفي الضوء الواهن سمعت (منير) يدندن محاولاً أن ينسى مخاوفه:
-«عندما يصير القمر في المنزلة السابعة.. وعندما يتوازي المشترى مع المريخ.. عندها سيهدي
السلام الكواكب، ويبحر الحب بالنجوم.. وسيكون هذا هو فجر برج الدلو.. برج الدلو!.. برج
الدلو!»



من ٢١ إبريل إلى ٢٠ مايو

نعم. نحن نفتقد (مي).. ربما بعد قليل نفتقد (ثريا) كذلك.. مدير التحرير نادانا إلى غرفته الضيقة الحارة.. صحيح أن الشتاء لم ينته لكن غرفته دائماً كالفرن.. قال لنا إن (مي) قد غرقت في البحر. كانت مع أحد رجال الأعمال الشباب. هو نجا طبعاً لأن رجال الأعمال لا يموتون أبداً.. لو سقطت علينا قنبلة هيدروجينية فسوف تنجو حويصلات بكتريا التيتانوس ورجال الأعمال.. أصابنا هذا بالذهول.. لم نعرف أن (مي) ذات مغامرات، كما لم نعرف أنها بارعة إلى هذا الحد.. رجل أعمال؟.. من أين جاءت به؟.. يخت في البحر الأحمر؟.. يا لها من شيطانة صغيرة!.. الأغرب هو أنها قبل وفاتها بساعات زعمت لمدير التحرير أنها تكلمه من الزقازيق.. هو أقسم أنه سمع صوت موج وطيور بحر، لكنه كذب أذنيه. الخلاصة أنه لمح إلى أنه مصدوم مندهش وأنها خدعت الجميع، لكنه برغم هذا يقول في آخر كلامه:

- «دع الخلق للخالق..»

ثم قال إن هذه الوفاة طبيعية.. يعني بأنها طبيعية أنها لا تثير أية أسئلة عن الأبراج فالفتاة كانت من برج الدلو، لكنها غرقت في البحر الأحمر لا في دلو ماء.. لا يمكن أن نربط بين قصتها وقصة عدنان بأي شكل.. من الطبيعي أن يموت بعض الناس أحياناً فلا يمكن أن ننسب للأبراج كل وفاة تحدث..

هنا قال أحد الشباب المشاغبين من المجموعة:

- «قلت ما اسم اليخت يا سيدي؟»

نظر مدير التحرير في الأوراق أمامه وقال:

- «اسمه (أكواربوس).. يبدو أن هناك قانوناً يحتم إطلاق هذا الاسم على كل سفينة أو يخت، مثلما تدعى كل كلبة (توسكا) وكل سيارة قديمة (عزيزة).. إن بادئة (أكوا) هذه لها إيحاء مائي واضح..»

قال الفتى في لهجة ذات معنى:

- «أكواربوس معناها (برج الدلو)!»

تبادلنا النظرات.. هذه صدفة بلا شك وإلا لكان معنى هذا أن برج الدلو قتل (مي). الأمر لا يتحمل لغزاً ثالثاً ومزيئاً من الحيرة... لكننا برغم كل شيء فتحنا القاموس لتؤكد من أن كلامه دقيق..

اسمي (صفوت).. أنا من الطراز الذي يمكن أن تطلق عليه (شاب مليء بالأحلام)، وثنائر صغير امتلاً رأسه بخليط من الأفكار اليسارية والبوهيمية والليبرالية. لكنهم يقولون إنني شديد الكفاءة وبارع حقاً.. من المؤسف أن ينتهي هذا كله فجأة..

حتى وقت قريب كنت أؤمن أنه لا وقت للحب أو الزواج لأنني في مرحلة تكوين الذات، وأعرف أنه لا شيء يمكن أن يبدد جهدي الآن مثل الإعجاب بفتاة لمجرد أن لها عينين حالمتين، أو أن أسافر إلى دمياط للبحث عن غرفة نوم مناسبة، وأن أبدد الملالييم التي أحصل عليها في سداد أقساط، بينما أنا أبدها فعلاً في أشياء ليست أكثر نفعا لكنها أكثر إمتاعاً..

قال المدير:

- «نحن نعرف قصة عدنان النصاب هذا.. ونعرف أنه أرسل خطاب تهديد لكل واحد منا.. ما

زلت أعتقد أنها كانت ركلة الجواد المحتضر الأخيرة، لكن الحقيقة التي يجب ألا ننساها هي أننا نفقد أفراد جيشنا بسرعة..»
قلت في عصبية:

- «وهل يعني كلامك هذا أن الأبراج حقيقة؟»
- «لا.. ما زلت موقفًا بمنطقي وهو لا يتزحزح.. نحن رأينا وعرفنا أن الرجل نصاب فعلاً.. لا شك في هذا.. لكنني ما زلت أفكر في احتمال أن تطارد روح المنتحر أولئك الذين جعلوه يفعل ذلك.. ثمة انتقام مروع آت من ما وراء عالمنا الذي نعرفه، وهذا الانتقام يصل إليك حيثما كنت.. لا تنس أن معظم هؤلاء يتصلون بالشياطين..»
هتفت (ياسمين) زميلتنا الشابة:
- «أرى أننا بدأنا نتكلم بلغته ومنطقه..»
- «الأحداث لا تترك لي منطقًا آخر..»

رحت أفكر في الأمر.. لو صحت هذه النبوءة فأنا سوف ألقى نهايتي على يد ثور.. أنا من برج الثور الذي ينتمي له فرويد ودافينشي وهتلر.. بعضهم عباقرة لكن لا تنكر أن فيهم لمسة من غرابة الأطوار وربما الخبال..

ألقى نهايتي على يدي ثور أو حافريه.. ثور هائج يطاردني ويمزقني. لكن ما هي فرصة أن يلقي المرء ثورًا في قلب القاهرة؟.. أنا لم أر في حياتي ثورًا إلا في التلفزيون. هناك تلك المهرجانات البرتغالية التي يركض فيها الثور حرًا في الشارع ويطأ الناس، لكن لو فعلوها في مصر لقتلت الميكروباصات الثيران بعد ثلاث دقائق. لا تنس أن المجازات تلعب دورًا هنا.. ربما سيارة عليها رسم كبير لثور؟.. أو رجل ضخم كالثور؟.. ربما قلادة عليها ثور.. لكن من رأى قلادة عليها ثور؟.. هناك بطل قصص مصورة اسمه (ثور) وهناك رحالة نرويجي اسمه (ثور هايردال) لكن الفرصة شبه معدومة أن يقرر النزول إلى مصر، وأقابله وأستفزه لدرجة أن يقتلني..
لا.. أنا لست من زبائن هذه القصة، ولن أموت بهذه الطريقة السخيفة.. سأموت بطريقة أخرى تمامًا..

قالت لي (ياسمين) باسمه:

- «خذ الحذر من أي ثور قابله»
قلت في مرارة:

- «وأنت خذي الحذر من أية عذراء!»

هي نفسها عذراء، ولا أدري كيف يمكنها أن تتفادى أية عذراء أخرى.. يحتاج هذا الذي يطاردنا إلى قدر هائل من الخيال كي يدبر لنا ميتات مناسبة..

الشقة التي اسكن فيها شقة مفروشة في (الزيتون). أتقاسمها مع ثلاثة آخرين ليسوا من اصدقائي ولا من عالمي، لكننا نتحمل بعضنا ومن حسن الحظ أنه لا يتواجد سوى واحد منّا على الأرجح في أي وقت.

هناك طالب وهناك موظف وهناك مهندس كمبيوتر.. كلنا من الأقاليم وعلاقاتنا سطحية جدًا لا تتجاوز تحية الصباح والمساء. أحيانًا يحضر أحدنا من البلد بعض المأكولات فيدعو الآخرين إلى الطعام معه. طبعًا هناك مكتبتان هائلتان إحداهما مليئة بالكتب الدينية التي كتب على غلافها بخط مذهب، وهي تخص الموظف، بينما مكتبتي أنا تضم مؤلفات ل. (ساراماخو) و(إبراهيم اصلان) و(أمل دنقل) و(صلاح جاهين) وبعض الكتب السياسية.. نتبادل الكتب لكن من الواضح أن كتبي لا تروق له كثيرًا.. إنه يقرؤها كي يُصدم ويكتشف أنه يقرأ الكتب

الصحيحة..

أنا وحدي في الشقة الآن.. فرصة ممتازة إذن...

جلست إلى منضدة وأشعلت لفافة تبغ وبدأت أكتب هذه الرسالة..

ما لا يعرفه الناس.. ما لا يعرفه الجميع هو أنني كنت أحب (مي) وكانت تزعم أنها تحبني. من أجلها غيرت كل خططي.. من أجلها فكرت في الزواج.. أن أقنع أبي ببيع قطعة الأرض الصغيرة التي نملكها كي أؤثث بيتًا صغيرًا..

من أجل مي تصالحت مع العالم، لكنها رحلت.. وليتها رحلت في ظروف تترك لي ذكرى حزينة رقيقة دامعة عنها، لكنها رحلت معلنة بوضوح أنها كانت تخدعني.. رحيلها نوع من صيحة (عليك واحد) التي كنا نقولها لبعض ونحن أطفال.. يوم رحيلها طلبتها عدة مرات حتى أفنيت رصيد الهاتف، وفي كل مرة تتكلم على أنها في بلدها مع أفراد أسرتها....

الآن فقط أرى حياتي فأدرك أنها صحراء قاحلة. هل حسبت يا أحمق أنك ستصير يومًا (هيكل) أو (مصطفى أمين) لمجرد أنك تريد ذلك؟. إن هي إلا تلك المقالات القصيرة التي لا تنال عليها أجرًا ذا قيمة، والتي لا تحدث أثرًا يذكر ولا يتذكرها أحد.. أمامك عشرات الأعوام بهذه الطريقة ثم تموت..

الشقة قدرة عطنة الرائحة.. هل تصورت أن تخرج من هذه الشقة إلى العالم الواسع؟... أن يكون لك قصر وحمّام سباحة كما نرى الصحفيين في السينما؟.. هل تصورت أن تذهب إلى موناكو لتغطي حفل تنصيب ولي العهد الجديد؟..

كنت مستعدًا للرحيل، لكنني سوف أرحل بطريقة يذكرها الجميع.. إن العدد الأخير من مجلتنا على غلافه صورة كبيرة لثور اسود يهاجم مصارع ثيران. أخرجت علبة الأقراص المنومة وسكبت ما فيها على الغلاف.. ثم بدأت أنتقي الأقراص مع جرعات قصيرة من الماء...

سوف تكون دعاية قاسية أخيرة. في المجلة سوف يعرفون أنني قتلت نفسي وأنني كنت أضع الأقراص على صورة ثور عملاقة!... سوف يجن جنونهم. هذا سيبدو لهم دليلًا لا شك فيه على أن نبوءة عدنان تتحقق للمرة الرابعة.. لقد قتله ثور!.. بينما أنا وضعت هذه الصورة عمدًا على سبيل لفت الأنظار لآخر مرة..

لن يعود من معي في الشقة قبل ساعتين.. أعتقد أن هذا الوقت سيكون كافيًا كي أرحل.. قرص عاشر.. قرص عشرون.. إن وعيي قد بدأ يتبدد.. أعتقد أن الامتنعاص بدأ.. في هذه الحالة العقلية المضطربة أقول لنفسي: ربما نبوءة عدنان صحيحة.. في النهاية هناك ثور فعلاً يصاحب موتي.. سواء تعمدت هذا أو فعلته عن غير قصد فالنتيجة واحدة. ربما هو من زين لي موضوع الثور هذا..

ثمة تفسير آخر للأمور: عندما أموت سيكون برج الثور هو الذي قتلتني فعلاً.. ألسنت أنا من برج الثور؟... ألسنت أنا قاتلي؟..

عندما أنتحر أريد أن يحدث هذا لأنني أردته، وليس لأن هناك من أوحى به لعقلي الباطن.. مصيدة حمقاء أنزلق لها بسرعة.. ربما أنا من أوقع نفسه فيها وربما هو عدنان.. لكنني فعلاً راغب في التراجع.. إن الطب قادر على إنقاذي.. كثيرون ينجون من ورطة كهذه خاصة أن الوقت ما زال مبكرًا جدًا..

بيد منملة لا تشعر بحث عن الهاتف في جيبي.. طلبت رقم صديق لي... تكفي كلمة واحدة تقول له إنني....

صوت أنثوي مهذب من الهاتف يردد: «نرجو إعادة تعبئة رصيدكم. رصيدكم لا يسمح بإجراء

هذه المكالمة!



من ٢٢ أغسطس إلى ٢٢ سبتمبر

اسمي (ياسمين).. لا بد أنك تعرفني..
لقد اجتمعنا في غرفة مدير التحرير، وقد ازددنا عصبية. وفاة (مي) و(صفوت) تخيم على جو الاجتماع وحقيقة أننا فقدنا أربعة من جيشنا المحدود تثير الهلع في النفوس.
للمرة الأولى أدركنا أننا كنا اثني عشر واحدًا ممن ساهموا في فضح ذلك المدعي (عدنان). هناك أربعة هلكوا في ظروف غريبة.. بقي ثمانية منّا..
قال أحد الفتية:
- «(مي) لا علاقة لوفاتها ببرج الدلو.. هي علاقة مفتعلة بعيدة. لربما قال أحدكم كذلك إنه كان هناك دلو على ظهر اليخت الغارق..»
قال مدير التحرير في صرامة وهو يشعل لفافة تبغ:
- «اليخت اسمه (أكواربوس) من بين الأسماء كلها»
- «أنت بنفسك قلت إن اسم كل يخت أو باخرة هو أكواربوس.. الاسم شائع جدًا»
- «والذي انتحر ووضع الأقراص على ورقة عليها صورة ثور..؟»
- «هذه ليست صورة ثور.. هذا غلاف مجلتنا.. لقد كان عنده واستعمله بالصدفة..»
قال مدير التحرير وهو ينفث سحابة دخان كثيفة:
- «نحن ننسى ثريا التي تحتضر في المستشفى الآن.. ننسى وفاة (عصام).. إن الأمر واضح جدًا وحتى العميان يمكنهم أن يروه..»
ثم تصفح بعض الأوراق أمامه وقال:
- «حتى القراء لاحظوه.. هذه خطابات عديدة تتساءل.. منذ أسبوعين والمجلة لا تخلو من أخبار قتلانا.. لو استمررنا بهذا المعدل لهلكنا خلال أسبوعين آخرين..»
قلت أنا ضاحكة:
- «بل ستة أسابيع بقي منها أربعة!... هذه معادلة رياضية بسيطة..!»
قال في غيظ:
- «أنت رائقة البال يا (ياسمين).. أنا لا أمتح.. لقد حكيت القصة لرجال الشرطة فضحكوا كثيرًا جدًا.. لم يصدق أحد حرفًا.. طبعًا لن يصدقوا - وسط كل هذه المشاكل على كاهلهم - قصة رعب لطيفة عن أبراج تقتل الناس..»
ثم جمع أوراقه وقال:
- «أنا من مواليد برج القوس.. لا أعتقد أن الفرصة متاحة لي كي أموت بقوس.. لكنني أطلبكم بالحدس.. يمكن بسهولة تخيل كيف يمكن أن يموت برج العقرب أو الأسد..»
قالت مروة في فخر:
- «أنا من برج الأسد...!»
- «طبعًا لا أنصحك بالذهاب إلى السيرك أو حديقة الحيوان إلى أن نفهم ما نحن فيه.. والآن تفرقوا..»
نهضنا جميعًا وخطرت لي فكرة لم نلاحظها من قبل.. من العجيب أن أبراجنا تختلف.. فعلاً نحن نمثل الأبراج جميعًا فلا يتكرر برجان.. هذا يعطي إمكانات ممتازة..
أنا من البرج الذي ينتمي له عالم الفسيولوجي الأشهر بافلوف والأديب تولستوي وصوفيا لورين..

والأسوأ أنه برج مايكل جاكسون..

أنا أنتمي لبرج العذراء..

لكن كيف يمكن لعذراء أن تقتلني؟

أنا من برج العذراء، وأنا كذلك عذراء.. ربما أنتحر كما فعل صفوت وبذلك أكون قد هلكت على يد عذراء، لكن لا نية لي في هذا العمل الأخرق، ربما على سبيل تحدي (عدنان) هذا لا أكثر. أنا عذراء.. هذا خبر طيب للمحافظين ودعاة الفضيلة، لكنه ليس خبرًا طيبًا لفتاة على حافة الثلاثين مثلي. لا أعرف السبب في أن أحدًا لم يطلب يدي بعد.. لا يجرؤ أحد على قول إنني قبيحة.. لا أجرؤ على قول ذلك، لكنها الحقيقة التي تطالعني في المرأة دومًا. لست مسخًا مثل ميدوسا لكني كذلك لست بالضبط نسخة من (حلا شيخة). لكن القبيحات يتزوجن على كل حال.. ليست هذه هي المشكلة.. ربما هو الفقر؟.. لا أدري.. إن الجورب الممزق يكفي لتطير أي عريس محتمل. لكن أُمي تؤكد أن السبب هو لساني السليط وحدة طبعي، وحرصني على عمل مشاكل حيثما ذهبت..

يقولون إن هذا التأخير طبيعي لأن سن الزواج للفتاة القاهرية صار خمسًا وثلاثين سنة.. جميل جدًا هذا الكلام بالمتوسطات، لكنه يذكرني بخبير الإحصاء الذي يضع قدمه في وعاء به ماء مثلج وقدمه الأخرى في وعاء به ماء مغل، ويقول إن متوسط الحرارة معتدل. لماذا يجب أن أكون أنا عند طرف منحني الجرس؟.. لماذا لا أرى من حولي واحدة تجاوزت السابعة والعشرين ولم تخطب أو تتزوج؟.. مهما عم البلاء تبقى حقيقة أنه يصيبك أنت هي الأكثر مرارة.. أنا أسكن في شبرا.. أصعد في درج بيتنا منهكة تعسة، هنا تستوقفني جارتنا المسيحية (إيريني). إنها من سني وهي تريد أن تريني شيئًا في الشقة.. لابد أنني أعرف ما هو لأنني صحفية والصحفيات يعرفن كل شيء كما تقول.. إنها مذعورة قلقة... أدخل شقتها المليئة بأيقونات العذراء وصور المسيح. تركع على ركبتها جوار خزانة زجاجية صغيرة لتفحص شيئًا على الأرض، وتطلب مني أن أفعل مثلها.. هنا أرفع رأسي لأعلى.. تمثال السيدة العذراء البرونزي موضوع فوق الخزانة.. فوق رأسي بالضبط.. يمكنني تخيل ما سيحدث... سوف أنحني عندها يسقط التمثال ليهشم رأسي.. طاخ!.. وسوف يجتمعون غدًا في المجلة لمناقشة هذا اللغز.. تمثال العذراء قتل (ياسمين) فهل هي مصادفة؟

- «لا يا إيريني.. لن أنحني.. قولي لي ما هنالك...»

تمد يدها وتضع تلك الشرنقة الصغيرة على راحتي..

- «هذه الشرنقة.. هناك عشرات منها تحت الخزانة.. ثمة دودة غامضة كونت هذه الشرائق وقد وجدتها اليوم فقط. هل عندك فكرة؟»

أتأمل الشرنقة وأنا واقفة.. إنها تهتز ويبدو أن كائنًا يحاول أن يثقبها ليخرج. فما هو؟... لحظة.. أنا أعرف أن اليرقة تنسج الشرنقة حول نفسها لتصير.. لتصير.. لتصير عذراء!.. كل طالب مدرسة يعرف هذا... هذا الذي تحتويه الشرنقة هو عذراء تلك الحشرة المجهولة التي قد تكون خطيرة.. بل هي خطيرة...

ألقي بالشرنقة على الأرض وأصيح:

- «لا أعرف ما هي يا إيريني.. صدقيني!.. ربما تكون مؤذية...»

- «خطر لي هذا لذا طلبت رأيك...»

- «نصيحة.. تخلصي من هذه الشرائق فورًا.. ربما كان عليك أن تحرقها!»

وقبل أن تكمل كلامها كنت قد غادرت الشقة.. أصعد درجات السلم ملهوفة. لقد نجوت من موت أكيد..

هنا ينفتح باب جارتنا (عزة)... إنها في الثلاثين وهي متزوجة لم تنجب بعد. تقول إنها تريد أن تكلمني في شيء.. فيما بعد يا عزة. أنا عائدة من العمل ومرهقة.. مشكلة هذه البناية أنك لا يمكن أن تصعد الدرج من دون أن يسمعك الجميع. لكن عزة متوترة.. تصر على أن أمنحها بضعة دقائق..

(عزة) تهوى الفنانين لذا تعلق صورًا عملاقة ذات إطار لعدد هائل منهم.. في كل مكان تجد صورًا لمحمد منير وعمرو دياب وسيلين ديون ومادونا وأنغام.. تقول إن هذه سلواها الوحيدة ما دامت حرمت من الأطفال..

تجلس أمام التلفزيون وتواصل تقشير الكوسة التي كانت منهمكة فيها عندما سمعت صوت خطواتي. يدها ترتجف على السكين.. يدها تتقلص.. تقول لي:

- «أنا مصممة على الطلاق..»

- «منذ عرفتك وأنت مصممة على الطلاق..»

يسيل الدمع من عينيها فيخيل لي للحظة أنها تقشر بعض البصل. ثم تقول:

- «السر الذي لا تعرفينه يا ياسمين هو أنني لم أنجب لسبب بسيط جدًا.. أنا ما زلت عذراء!»
أنظر لها في دهشة ورعب فتقول:

- «نعم.. أهلي لا يعرفون بهذا وكذلك لم أخبر به أحدًا.. أنا عذراء بعد خمس سنوات من الزواج.. ظل يؤكد لي أنه يتردد على الأطباء وأنه سيشفى ثم عرفت أنه لا أمل.. أنا لن أنتظر أكثر.. سوف اطلب الطلاق فإن أبي لطلبت رأي لجنة طبية. سوف أفضحه إذا لزم الأمر.. إنني شابة حسنة و..»

(ومن الحرام أن أظل مثلك).. هذا ما لم تقله طبعًا لكنني أكملت العبارة في ذهني..
المشكلة أن عزة تتوتر.. نظرة جنون في عينيها.. يدها تتقلص على السكين... إنها على حافة الانهيار التام. عزة عذراء إذن!.. أنا أنتظر الموت على يد عذراء.. فهل من موقف مناسب أكثر من هذا وحدي في شقتها وسكين في يدها وجنون في عينيها؟
نجوت من سقوط تمثال العذراء على راسي.. نجوت من تلك الحشرة التي في طور العذراء والتي لا أعرف ما هي.. هل أنجو من العذراء التي أمامي؟
أسألها وأنا أرتجف:

- «أين زوجك؟»

- «هذا الرجل الذي ليس رجلاً على الإطلاق؟»

هنا ينفتح الباب ويدخل زوجها.. لقد كان يسمع المحادثة من البداية.. لم أره من قبل أقرب إلى الثور الهائج منه الآن.. قميصه مفتوح ونظرة مجنونة في عينيه. اللعاب يسيل من فمه وهو يصيح:

- «إذن أنت لا تكفين عن فضحي في كل مكان أيتها القذرة!»

تقول هي في ثبات من يرغب في بلوغ الأمر آخر مدى له:

- «أنت لم تر الفضيحة بعد!» وتعتصر السكين أكثر.

- «أتركي السكين يا عزة!»

لكن النظرة المجنونة في عينيها لا تزول.. وهو أكثر جنونًا.. يبحث حوله عن شيء ثقيل فلا يجد إلا إحدى الصور ينزعها من على الجدار.. صورة ثقيلة ذات إطار محترم.. يرفع ذراعيه فوق رأسه

ويقذفها بها...
الصورة تطير نحونا.. (عزة) تنحني في الوقت المناسب لكن الصورة تواصل الطيران نحوي...
فقط لدي من الوقت ما يسمح بأن أدرك أنها صورة المطربة الأمريكية (مادونا)...
لدي كذلك وقت كاف كي أتذكر...
إن مادونا في الثقافة الغربية معناها (العذراء)....



من ٢٣ نوفمبر إلى ٢٠ ديسمبر

فيما يتعلق بي الأمر صعب فعلاً..

يجب على تلك الشياطين التي تحرك اللعنة أن تجد لي قوسًا.. أنا من برج القوس الذي ينتمي له بيتهوفن وديزني وسبيلبرج.. يبدو أنه برج العباقر، والأهم أنه برج صعب القتل جدًا.. أنا (رأفت) مدير تحرير هذه المجلة، ومن ماتوا هم رجالي.. لا أعرف إن كانت قضية عدنان هي السبب أم لا، لكن الارتباط بين الحدثين قوي جدًا والمصادفات لا تحدث بهذه السهولة. برج السرطان لا يموت في حادث سيارة لكن يموت بالسرطان.. برج الدلو يموت في يخت اسمه (برج الدلو)... الخ..

لقد غادرت المجلة بعد اجتماعي بهؤلاء الشباب وقد أنذرتهم، لكنني أعرف يقينًا أنني سأسمع خبر وفاة أحدهم خلال أيام.. أحدهم لكن ليس أنا.. والسبب هو أنني أكثر منهم حذرًا. خبراء المرور في الخارج يقولون إن الشباب أكثر براعة في القيادة وانعكاساتهم أسرع، لكنهم لا يقدرّون الخطر. بينما الكهول أبطأ في كل شيء لكنهم يستشعرون الخطر قبل حدوثه بفترة كافية.. لهذا تقع معهم الحوادث بدرجة أقل.

أنا كهل في الخامسة والأربعين، وأعرف الخطر جيدًا عندما أراه..

قوس؟.. من أين يأتون بقوس؟...

سيكون علي أن أتجنب أي مكان يمارسون فيه لعبة الرماية.. لا أنزل للشارع لو كان هناك قوس قزح.. برغم أن تلوث الجو جعل هذه الظاهرة مستحيلة الحدوث فلم أرها منذ كنت في سن التاسعة. لا يوجد قوس نصر أعبر تحته فينهار فوق.. لا أعرف أشخاصًا لديهم عيب خلقي في أقواس القدم. ولو قابلت أحدهم فلا أعرف كيف ستكون نهايتي معه..

لا تنس أن هناك ألعابًا لغوية مجازية لا بأس بها.. علي أن أتحاشى كل ما يحوي اسمه كلمة arc أو Arc..

ماذا يريد هذا المجنون (عدنان)؟.. هو يعرف أنه كذاب وأنا كنا على حق عندما فضحناه.. لا أطيق هؤلاء الأشخاص المدللين الذين يرفضون دفع فاتورة خطاياهم. أنا مجرم لكن الويل لمن يحاسبني على ذلك.. أنا أقبل الانتقام فقط عندما يأتي من أشخاص أبرياء ظلموا بشكل واضح.. أنا كهل في الخامسة والأربعين وأعرف الخطر..

لكني كذلك كهل يملك قلبًا ينبض، والحقيقة المروعة هي أن المرأة لم توجد في حياتي حتى شهرين مضيا..

اسمها (درية).. وهي في الأربعين.. أرملة جميلة بحق حتى إنني لا أفهم كيف مات ذلك الأحمق وتركها. وهي متعلقة بي.. عندها أنظر إلى المستقبل فأراه جافًا خاليًا من متعة البيت والأولاد.. المزيد من الأحداث والتحقيقات الصحفية.. انتصارات لن تظفر بجائزة بولتزر على كل حال.. وجوه تأتي وتذهب.. تروح وتجيء.. عندها أدرك أنني بحاجة إلى أنثى.. إلى زوجة..

(درية) ملتعبة العواطف، وتحمل جموح مراهقة في السادسة عشرة من العمر. تمطرني برسائل البريد الإلكتروني.. تمطرني بالشعر.. ترسل لي أزهارًا من مجهول..

تصور أنا الكهل البدين أتلقي أزهارًا!.. فلو تركت نفسي لنفسي لصنعت منها مربى لكن التهام الأزهار يبدو لي عملاً حيوانيًا..

نعم أنا كهل بدين.. والسبب شره في الطعام. لو كانت هناك صفة دقيقة في صفات برج

القوس التي يكتبونها فهي العناد والشره في الطعام..
عدت للبيت لأجد أن درية أرسلت لي هدية مغلفة، ومعها بطاقة رقيقة تقول أشياء أرق.. لم
استطع القراءة بوضوح بسبب المصباح اللعين الذي يتراقص ضوءه. مددت يدي وفتحت
الهدية فوجدت أن بداخلها شيئاً ملفوفاً أقرب إلى تمثال.

رحت أعالج الربطات نافذ الصبر..

هنا وجدت أنني أحملق في تمثال جميل جداً لكيوبيد إله الحب الطفل عند الإغريق. يقف على
قاعدة ويصوب قوسه برشاقة.. التمثال من البرونز والقوس والسهم صنعا من مادة براقه
جميلة..

(إيروس).. (كيوبيد) الذي يطلق سهماً ذهبياً فيسرك الحب، أو يطلق سهماً من رصاص
فيعميك المقت..

هدية جميلة فعلاً.. من الواضح أنها قررت أن موعد الزواج قد اقترب.. هن اللاتي يقررن ونحن
نتظاهر بأننا نملك إرادة.. لكني مع درية لا أرفض أن أكون تابعاً أبله.. و..
كيوبيد.. وقوس!!!

وثبت كالملسوع متراً في الهواء... لماذا الآن؟.. لماذا أنا بالذات؟.. الأمر واضح. هذه هي اللعبة
التالية. هذا السهم مسموم أو يحمل جراثيم خطيرة تسبب تلوث الدم كما حدث مع (عصام)..
من أدراني أن التمثال كله ليس ملغماً؟

أنا اثق بدرية لكن لا أثق في (عدنان)، واعتقادي أننا جميعاً قطع شطرنج تتحرك على رقعة اللعنة
النهائية.. فقط أعرف يقيناً أن هذا الشيء لن يبقى في بيتي...

كان ضوء المصباح يتراقص بلا انقطاع مما جعل التمثال يبدو حياً..

قمت بلف الشيء بحذر حتى لا ألمسه، ثم دسسته في علبته.. وغادرت البيت..

عبرت الشارع شارد الذهن فلم أفطن إلا وكشافات ساطعة تعمي عيني مع صوت فرملة عال
جداً.. وثبت إلى الرصيف على حين سمعت سباباً أستحقه من السائق..

كنت شارد الذهن فعلاً.. من السهل أن أموت بهذه الطريقة ولسوف يكون تمثال القوس هو
سبب وفاتي.. لن يتحدث أحد عن حماقتي..

يجب أن أكون حذراً..

أمشي في الشارع في الظلام في هذه الساعة المتأخرة. أتجه إلى كورنيش النيل.. أنظر حولي كي
أؤكد أنه لا أحد هنالك.. أرفع يدي وأطوح بالهدية اللعينة إلى أبعد مدى ممكن.. أنتظر لحظة
قبل سماع صوت (طش)..

لقد ذهبت الهدية ولن تعود..

التفتت لأبتعد عندما وجدت أنني أقف أمام رجلين لا يوحى منظرهما بالثقة.. متى جاء ومن
أين؟.. يلوح أحدهما في وجهي بشيء أدرك على الفور أنه مطواة قرن غزال..

- «النقود والمحمول.. بسرعة!»

الصوت الثقيل الغليظ الموحى بالبرشام.. لا شك في هذا..

هذا سطو مسلح.. (تثبيت) كما يسميه الشباب بلغة اليوم. طبعاً لابد من أن استسلم وأعطيهما
ما يريدان، لكن من قال لي إن هذا كل شيء؟..

المحمول عليه أرقام مهمة جداً.. لكن لا مفر..

أمد يدي في جيبي وأناولهما ما أرادا..

لكنهما لم يكتفيا كما هو واضح.. فجأة أمسك أحدهما بياقة ستري ورفع المطواة ليهوي بها..

سأمتوت هنا ولسوف يقول زملاء: على الأقل لم يمت هذا بسبب قوس.. هم لا يفهمون.. لقد
لاقيت حتفي بسبب الخلاص من قوس...
لكن الضربة لم تهو لأنني سمعت من يصيح:

- «توقفا!»

رفعت رأسي لأجد سيارة الدورية تقترب بأضوائها المميزة، وبابها ينفتح ليثب منه رجل شرطة
ويركض نحونا.. بالطبع لم ينتظر الرجلان أكثر وانطلقا يركضان بما سرقاه..
- «هل أنت بخير؟»

سألني الضابط الشاب الذي ترجل من السيارة فهزئت رأسي. يهزني الشعور بأن ربع ثانية كان
يفصلني عن الموت أو الرقاد في العناية المركزة للمستشفى..

- «أنت لا تبدو على ما يرام.. أين تسكن؟»

وساعدني على ركوب السيارة..

إن للحب ضرائب غريبة على كل حال. هدية السيدة (درية) كادت تكلفني حياتي مرتين..
في النهاية وصلت إلى أول شارعنا فشكرتهم بشدة.. أعتقد أنهم سيجدون الرجلين ولسوف يعود
لي المحمول. على الأقل قد تخلصت من التمثال اللعين..

كان الكهربائي الذي يقع محله عند أول شارعنا لم يغلق أبوابه بعد، فابتعت منه مصباحًا بدل
ذلك التالف في شقتي.. لقد ابتعت منه المصباح الأول وهو من نوع غريب غير معتاد، وبالتالي
ربطت نفسي به للأبد..

- «هل تريد من يبدله لك؟»

- «لا شكرًا.. لو لم نستطع القيام بتبديل مصباح لما استحققنا أن نكون رجالًا!»

في شقتي أحضرت السلم الصغير وتسقلت عليه.. مددت يدي وبدأت أفك المصباح القديم.
غريب هذا.. لا يبدو تالفًا لكن هناك أسلاكًا عارية كأن فأرًا قد قرضها.. يجب أن أكون حذرًا.. إن
المفتاح مضاء لكنني أكره أن أنزل السلم مرة أخرى.. سوف أبادل المصباح في حذر دون أن ألمس
شيئًا..

ها هو ذا المصباح الجديد.. هل هو مشروخ؟.. يخيل لي هذا.. هل جربه الكهربائي لي؟.. لا..
كلانا نسي ذلك.. لكن لا مشكلة.. لو كان تالفًا فلسوف أعيد له قبل أن يغلق أبوابه..

مشكلة أن تعيش وحدك أنك لا تجد شخصًا يناولك المصباح الجديد وأنت معلق على السلم!
هذا الطراز من المصابيح غريب فعلاً.. لقد شرح لي الكهربائي أنه نوع مستورد جديد شبيه بنوع
قديم من المصابيح كان يدعى (مصباح القوس الكهربائي). مصباح القوس الكهربائي كان يعطي
وهجًا هائلًا وكان يستعمل في آلات العرض السينمائي القديمة، ويعتمد على فارق الجهد بين
قطبين.

على الأقل أنا أعرف يقينًا أنه سريع التلف..

قوس كهربائي أو قوس غير كهربائي.. سوف أستبدله في جميع الأحوال..

فقط لأتماسك جيدًا وأدخل هذا الطرف في هذه الفت.....



من ٢١ مايو إلى ٢٠ يونيو

لا أثق في الأبراج وأرى أنه من السخف أن نفترض أننا متشابهون لهذه الدرجة.. أعرف ألف واحد من برج الميزان مثلاً، لكن أحدهم لا يشبه الآخر في شيء..

لكن هذه القاعدة – قاعدة أن الأبراج كلام فارغ - يتم خرقها بشدة مع برجى.. برج القلب والهوائية والأفكار المجنونة التي تصحو صباحاً لتجدها سخيفة.. برج الطموحات التي لا تنتهي وأمراض القلب وداء السكري والتوتر الدائم.. لا يمكن إلا أن تجدهم متشابهين..

(البرج الي انت في مواليدته، مواليدته خلاص عزلوا منه).. هذه الكلمات الطريفة كانت تقال في المقدمة الغنائية لمسلسل (برج الحظ) الذي اشتهر باسم (شرارة). نعم.. لو كان هذا بوسعي لطلبت أن أنقل نفسي لبرج آخر..

هذا هو برج كنيدي ومارلين مونرو.. كنا حبيبين كما يقال، ومن الواضح أن أتباع هذا البرج ينجذبون بشدة لبعضهم برغم كلام الفلكيين..

اسمي (لمياء).. أعتقد أنك شرفت بقاء ثريا وبي واسمين ورأفت وعصام وصفوت.. كلهم – باستثناء (رأفت) - من الصحفيين الشباب الذين كانوا يمثلون دينامو هذه المجلة، وإنها لخسارة فادحة..

لقد عرفنا بخبر وفاة (ياسمين) و(رأفت) في يوم واحد عندما كنا جالسين مساء يوم الثلاثاء نضع الخطط، نتساءل عن سبب تأخر مدير التحرير الهمام عن الظهور خاصة ورقم هاتفه لا يرد.. جاءت الأخبار في العاشرة مساء أن (ياسمين) توفيت في المستشفى.. مشادة مجنونة بين جارتها وزوجها الذي فقد صوابه فقذف زوجته بلوحة ثقيلة ارتطمت برأس ياسمين وهشمتها، وهو تطبيق حرفي لمقولة (ما ينوب المخلص...) أو (يا داخل بين البصلة وقشرتها...).. أما جار رأفت الذي يملك نسخة من مفتاح شقته فقد فتح الشقة ليجد رأفت ميتة.. لقد صرخته الصدمة الكهربائية وهو يحاول استبدال مصباح في السقف.. لا تنس أنه يعيش وحده.. قبل أن نستوعب الخبر هتف أحد الشباب معنا:

- «هل تفهمون معنى هذا؟.. لا علاقة لموتهما بالأبراج!.. ياسمين من برج العذراء لا برج اللوحة، ورأفت من برج القوس لا برج الكهرباء!»

دوت ضحكة عصبية، ثم تذكرنا أين نحن وماذا نفعله. هكذا انفجرنا في البكاء.. تهاوت الفتيات يبكين في هستيريا بينما وقف الشباب ساهمين.. نحاول تذكر رأفت وكيف كان يجمعنا ويصدر لنا التعليمات..

غداً سوف نحضر جنازتين.. سوف أوصل أكثرهم بسيارتي اللادا العتيقة فهم من الشباب معتادي الميكروباس كما تعلم..

وعندما استطعنا أن نرتب أفكارنا، بدا واضحاً لنا أن وفاة هذين لا يمكن أن تكون صدفة.. مستحيل.. لكنها كذلك وفاة لا ترتبط بأي برج كما حدث في أربع الوفيات السابقة.. هل معنى هذا أنه لا لعنة هنالك وأنا أحرار؟..

لكن أعطني تفسيراً من فضلك لكون ستة من جماعتنا يلفظون أنفاسهم في هذه الفترة القصيرة؟.. (ثريا) لم تمت لكن الأمل شبه معدوم كما يقولون..

هذا الشعور الغريب بأن عددنا يتناقص وأن دور أحداً قادم يشعرك بالذعر فعلاً، وقد طلب منا رئيس التحرير أن نجتمع عنده.. طلب هذا من فريق العمل الذي تلقى تهديدات من عدنان..

لقد بقي منا ستة.. معنى هذا أن نصفنا قد هلكوا..

في مكتبه الفاخر الذي يشعرك بأنك في مكتب وزير إعلام، وحيث تغوص قدماك مترين في البساط، تذكرت عبارة ساخرة قديمة عن أن المشكلة التي أنت فيها تتناسب طرديًا مع سمك السجادة في مكتب المسئول الذي استدعاك. مجلتنا تحقق الكثير من المال لكنه لا يصل للصغار كما هي العادة، لذا كانت مكاتبنا فقيرة جدًا.. من الصعب أن تصدق أن هذا المكتب موجود في ذات البناية. كان رئيس التحرير متحفظًا وهو يعزينا في زملائنا، حتى أنه كف عن تدخين السيجار دقيقة كاملة. قام بتعيين (محمود الشربيني) مدير تحرير بدلاً من (رأفت)، وقال لنا إنه يعرف القصة كاملة لكنه لا يصدق حرفًا..

- «لقد قمت بإبلاغ الشرطة وهم يعدون باتخاذ التدابير اللازمة»

وهو ما يعني ببساطة أن شيئًا لن يحدث. الشرطة ليست رائقة المزاج إلى هذا الحد.. هؤلاء ستة سوف يموتون بأبراجهم.. لا نعرف كيف ولا متى ولا أين.. فقط نرجو أن تحافظوا عليهم! ثم طلب منا اتخاذ واجب الحذر، وأخبرنا بأن هناك حفل تأبين سيقام لشهداء الصحافة.. الخ.. الخ..

عندما انتهى الاجتماع خرجنا.. إنها التاسعة مساءً، وأنا جائعة فعلاً..

كان داء السكري الصبوي جزءًا مهمًا في حياتي منذ السادسة.. تعلمت كيف أتحكم في شهيتي وكيف أنظم حياتي، وقد تقبلت المرض كطبيعة أخرى لي ربما تعطيني بعض التميز.. كنت أفكر في هذا وأنا أدير محرك سيارتي اللادا العتيقة.. أمامي رحلة نصف ساعة حتى أصل إلى داري حيث ينتظرنني العشاء...

يدخل (حسن) في حياتي.. قابلته بعد تخرجي من كلية الإعلام، وكان هو الشخص الذي اعتقدت أنني قادرة على استكمال حياتي معه.. من الصعب أن تتصور المرأة أن تمضي حياتها مع رجل ينام ببيجامة مخططة ويصحو منكوش الشعر نامي اللحية.. يتجشأ ويدخل الحمام ويلعب في أصابع قدميه ويلتهم الفول كالحمير ويكون عليها أن تتقبل سخافات الرجال الأخرى منه..

لا.. لابد من الحب كي تتحمل المرأة هذه التضحية، وأنا أحببت (حسن) وبدأ أنه يحبني بحق.. لم يكن أحدنا يعاني مشاكل مادية. نحن من القلائل المستريحين فعلاً، ولديه شقته وأنا أملك سيارة وأهلي أثرياء نسبيًا.. لهذا كان طريق الزواج مفتوحًا لم يغلقه إلا مجموعة من جزر (لانجرهانز) اللعينة. لقد حانت لحظة الحقيقة. أردت أن نبدأ بداية صحية. أخبرته بأنني مصابة بالسكري وأني أحتاج العلاج بشكل منتظم، وهناك ضوابط صارمة على حياتي.. حملي قد يكون مشكلة، وقد أنقل المرض لذريتي برغم أن طبيبي يقول إن هذا لن يكون..

أرملق معالم الطريق في الظلام وأنا أتذكر...

لقد تغير (حسن) عندما أخبرته.. امتقع وجهه وبدأ مرتبًا.. ثم بدأ يبتعد.. يبتعد.. يبتعد..

هكذا يبتعد الرجل بطريقة تقول بصوت خفيض (انتهى الأمر.. أنا لن أتحمّل وضعًا كهذا). كان علي أن أتوقع هذا وأقبله. لقد أخبرته على سبيل التخيير وكان من حقه أن يقول نعم أم لا.. لكنني لم أقبل هذه ال.. (لا). بدت قاسية جدًا..

ومنذ ذلك الحين هو زميلي في المجلة وأراه يوميًا، لكن علاقتنا التي كانت (نحن) صارت (هو وهي)...

عجلة القيادة عنيدة جدًا... هناك مشكلة ما..

لحسن الحظ هناك تلك الورشة المفتوحة. هناك إطارات معلقة ومنفاخ وكوريك.. توقفت هناك ونظرت خارج النافذة في ملل، فظهر ذلك الفتى النحيل الأسمر ذو العينين الخضراوين

والضحكة المربية الخبيثة، متسائلاً.. قلت:

- «هناك مشكلة في الإطارات..»

شكله لا يبعث الطمأنينة في النفس ولا أحب أبداً أن أتواجد معه منفردة. إن لم يكن ممن يغتصبون النساء - وأنا أستبعد ألا يكون كذلك - فهو يسرقهن..

دار حول السيارة ثم تفحص العجلة الأمامية اليمنى وركلها وقال إنه لابد من فكها لفحصها. ترجلت من السيارة ووقفت أراقب المارة بينما هو يجلب الكوريك ويرفع السيارة ثم يفك العجلة بسرعة احترافية.. يدرجها على الأرض إلى حيث ذلك الحوض ويغمرها فيه، ويراقب المشهد..

- «مثقوبة.. لابد من لحامها..»

أوف!.. ليس في هذه الليلة وأنا أموت جوعاً ومتأخرة أصلاً، لهذا وقفت في سأم أراقبه وهو يلحم الإطار.. ثم قلت له إنني ذاهبة لأبتاع شيئاً..

مشيت بضع خطوات حتى وجدت كشكاً مفتوحاً فابتعت علبة عصير وبعض البسكويت.. ووقفت التهم هذه الأشياء في جشع حتى أن صاحب الكشك ظل يرمقني في دهشة.. أخيراً أشعر أن هذه الكلبة التي تنبح في أحشائي قد شبعت..

أخيراً انتهيت فعدت لأجد العجلة في مكانها والفتى داخل الورشة.. وكان قد أنزل الكوريك وأبعد أدواته..

ركبت السيارة جالسة خلف عجلة القيادة. جاء الفتى ذو العينين الملونتين فناولته بعض الجنيئات في كبرياء تعرف الأنثى كيف تتعامل بها.. وسألته دون انتظار إجابة:

- «هل كل شيء على ما يرام؟»

فتح فمه ليتكلم لكنني أدت المحرك وانطلقت بينما هو يرمقني بغباء..

أدرت المقود لأدور حول المنحنى.. هناك في الشارع الخلفي شبه المقفر وجدت الفتى الذي قام بإصلاح العجلة يركض نحوي.. كان يرفع يده، فلم أفهم ما يريد لكنني اندهشت لكونه سبقني بهذه السرعة.. لقد تركته خلفي منذ دقيقة وها هو ذا ينتظرني عند المنحنى..

بصرحة شعرت بذعر.. عودته هذه مريبة وهو أكثر إثارة للريب.. لن أتوقف أبداً..

ضغطة على البنزين وتتركين كل الأخطار خلفك ببضعة كيلومترات في نصف دقيقة.. لهذا تحب الفتيات السيارات، ولهذا ابتاعها لي أبي..

لم أشعر براحة إلا عندما انطلقت السيارة على طريق المحور، وبسرعة عالية تريح أعصابي.. السيارة تتنفس أخيراً بعد ما أو شكت على الموت اختناقاً في زحام القاهرة..

(حسن) قد تخلى عني وأنا أحبه..

سوف أذكر هذا للأبد..

والأدهى أن أصدقائي الآخرين يموتون.. إن لدي رصيذاً هائلاً من الحزن يمكن أن أستمتع به وحدي في الفراش قبل النوم..

أشعر أن..

ما هذا الذي يطير ناحية اليمين؟

أراه في المرأة يتدحرج على الطريق خلفي.. ثم.. ماذا يحدث؟.. ماذا أصاب هذا المقود؟.. إن العربة لا وزن لها.. خفيفة جداً كأنها ريشة في مهب الريح..

أنا عاجزة عن التحكم.. هناك شيء ما خطأ.. شيء ما خطأ..

إنني أطيببيير..

أطيببيير...

ماذا يحدث؟



من ٢١ ديسمبر إلى ١٩ يناير

حادث عبثي فعلاً ذلك الذي أودى بحياة (لمياء).. حادث جدير بدراما اللامعقول.. الفتى (جابر) الذي قام بإصلاح عجلة السيارة كان أحقق وقد تكلم كثيرًا وملاً الدنيا صراخًا.. هكذا عرفنا القصة، ولو لم يتكلم لما عرفنا أي شيء.. الحكاية أنه قام بإصلاح الإطار ووضعه في مكانه ثم لم يحكم ربط المسامير أو - على حد تعبيره المهني - (يحرّق عليه).. هناك من ناداه لشيء ما، وهكذا ترك السيارة وذهب.. عادت هي لتجد أن أخاه التوأم (ماهر) يقف هناك فافترضت أنه هو وقد أنهى عمله!!.. دفعت له بعض الجنيهاات ثم انطلقت بالسيارة قبل أن يشرح لها. وحاول الفتى الأول (جابر) أن يستوقفها عند الناصية فلم تعباً به. الآن يمكننا تخيل المشهد ولمياء تنطلق بسرعة مائة كيلومتر على طريق المحور.. تنفصل العجلة الأمامية وتطير لتجد أنها تندفع على ثلاث عجلات.. لا مجال للفرامل ولا فرصة لشيء سوى أن تنقلب..

لم نفطن لشيء إلا عندما تذكرت أن (لمياء) من برج الجوزاء!

هنا فقط صحت:

- «برج الجوزاء.. (جابر) و(ماهر) توأمان!.. لقد لقيت مصرعها على يد توأمين.. على يد جوزاء»

تعالى الهمس وساد التوتر...

لا سبيل للفرار من هذه اللعنة.. سوف تظفر بكل واحد فينا.. إنها محكمة كالقدر.. وانفجرت مروة صارخة في هستيريا:

- «أنا من برج الأسد!.. سوف يلتهمني أسد!.. أعرف هذا..»

قلت لها في غيظ:

- «اللعنة لا تتصرف بهذه الطريقة الطفولية المباشرة وإلا لنجونا جميعًا.. إنها تتلاعب بنا وتعتمد على المجاز والاستعارات والألعاب اللفظية..»

الآن كانت أخبار ما يحدث قد تسريت إلى الصحف وبدأ الناس يتكلمون عن انتقام عدنان الرهيب. ليس هذا ما نريده.. نحن أثبتنا أن الرجل نصاب لكننا لم نقل إنه لا يمارس السحر الأسود.. هو ليس عراقًا لكنه يملك القدرة على الانتقام عبر الأبعاد.. جاءتنا بعض مكالمات هاتفية بعضها يعرض العون وبعضها يتشفى وبعضها يعزينا.. لكننا كنا في حالة لا تسمح لنا بالتعبير عن الامتنان..

اسمي (حسن أبو غصيبة).. صحفي شاب متحمس لو كنتم قد لاحظتم هذا.. ارتبطت بقصة حب طويلة مع لمياء، انتهت بأن صارحتني بأنها مصابة بداء السكري.. كانت تخبرني كي لا تخدعني في شيء.. بدا لي أنه من الحكمة ألا أبدأ حياتي بالارتباط بهذا المرض فأنا مسئول عن أطفال القادمين، خاصة أن أبوي مصابان بهذا الداء..

(لمياء) كانت تعطيني حرية اتخاذ القرار، وقد اخترت.. لكنها لم تغفر لي ذلك قط.. هذه طريقة غير عادلة مثل أن تخير شخصًا بين أكل البامية أم السبانخ. فإذا اختار السبانخ صحت في اشمئزاز: حمار!!

أعتقد أن الموضوع انتهى وأنها لم تعد تذكرني.. يجب أن افترض هذا كي أتمكن من النوم ليلاً.. أصعب شيء في العالم أن يموت شخص حائق عليك.. هذه هي الطريقة المثلى كي يعذبك

الشعور بالذنب وتصاب بشلل نصفي..
والآن كيف سأموت أنا؟

من الغريب أن يستسلم المرء بهذه البساطة لخرافة. هذا هو الجزء الأول من النهاية.. أعتقد أن العقل الباطن يتكفل بالباقي، وقد رأيت حلقة من برنامج قارئ الأفكار الشهير (ديرن براون) يطلب فيها من خبيري إعلانات أن يصمما حملة دعائية لمشروع خاص بالحيوانات الأليفة. وقد عكف الرجلان على تصميم ملصق جميل.. في النهاية يفاجئهما بأنه رسم الملصق قبل أن يضعها في ملصقهما خطأ واحدًا.. الفكرة هنا أنهما رسما بالضبط ما أراد أن يزرعه في ذهنيهما من معالم الطريق وهما ذاهبان لمقابلته. هذا هو ما يحدث هنا.. ربما اختارت لمياء لا شعوريًا فني إطارات يعمل لديه توءمان.. ربما أصيبت ثريا بالسرطان لأنها أرادت ذلك.. من يدري؟..

إنه تفسير صعب لكنه أسهل من القول إن لعنة ذلك المشعوذ تطاردنا..
أنا أنتمي لذات برج الرئيس الأمريكي نيكسون والمطرب إلفيس بريسلي والملاك محمد علي كلاي.. هل هذا يعني شيئًا ما؟.. لا أظن..

عدت إلي داري حيث أعيش مع أبي وأمي وأخوين أصغر.. استقبلتني أمي على الباب بوجهها المسن الطيب.. لو سارت الأمور كما نتوقع فمن الواضح أنها ستفقد ابنها خلال أيام..
لكني لا أصدق.. أعرف أن الجميع سيموتون باستثنائي أنا.. لا يمكن أن يكف وعيي عن التواجد، ولسوف أرى نهاية العالم وأرى المحيطات تغيض والبراكين تنفجر وأرى كل البشر يهلكون باستثنائي أنا..
تقول لي أمي:

- «تعال لترى ما أرسله خالك.. إنه على سطح البناية»

خالي؟.. يرسل شيئًا؟.. على السطح؟.. هدايا قليلة جدًا تلك التي توضع على السطح من بينها الديش ولكن لدينا واحدًا.. صعدت درجات سلم البناية التي نملكها وقلبي يتواثب، فلم أدن من باب السطح الخشبي حتى كنت قد خمنت ما هنالك، وجاء الصوت الذي يقول (ماء) ليؤكد لي إنني عبقرى.

(ماء) كما يسمعها العرب، و(بااء) كما يسمعها الغربيون. المهم أن هذا الشيء يقف هناك على السطح مربوطًا بحبل من ليف إلى السور، وهو ينظر لي نظرة شبه ساخرة..
نسيت أن عيد الأضحى اقترب وأن خالي يرسل لنا الخراف والجديان قبل العيد بفترة كافية، لأن جزاري القاهرة غشاشون.. هو يفضل أن يرسل جديًا لأنه بلا فراء كثيف، وبالتالي فلهمة شبه خالص، على أن يذبحه جزار خبير حتى لا يتلوث لحمه بالشعيرات الدقيقة.. خالي من الطراز المولع بهذه التفاصيل التي تثير غيظي، كأنها سر الحياة ذاته..

المهم أن هذا الجدي يقف هناك جوار السور.. جدي حقيقي ضخمة الجثة له لحية، وهو يمضغ تلك الأشياء الغامضة التي لا تكف المواشي عن التهامها.. نظرة شيطانية على وجهه فلا عجب أن المسيحية الأوروبية ربطت التيس بالشيطان، وقيل إن هذا كي يتخلى الناس عن عبادة (بان) إله المراعي الوثني.. هذا شيطان حقيقي.. اقتناء جدي أو ماعز في القرون الوسطى كان يكفي لإحراق صاحبه، لأنهم كانوا يفترضون أنها ساحرة تعاشر الشيطان، ولا أرى في هذا قسوة..
طبعًا أنت خمنت أنني من برج الجدي.. لهذا أصابتني نوبة من الهستيريا :

- «هذا الشيء لن يبقى هنا لحظة واحدة!»

- «هل جننت؟»

- «لا أستطيع الشرح.. لكن لا بد من التخلص منه»

سوف يقتلني.. لا أعرف متى ولا كيف لكنه سيفعلها.. جدي في هذا الوقت بالذات ليس له سوى معنى واحد.

تشاجرت ولعبت دوري بنجاح تام: أن أقنعهم أنني مجنون تمامًا.. وفي النهاية قال أي في حزم: لا طريقة للتخلص منه.. لو كنت جبانًا إلى هذا الحد فعليك أن تبني عند أصدقائك.. قضيت الليل بلا نوم تقريبًا لأن غرفتي تقع تحت موضع السطح السعيد الذي يقف فيه ذلك المخلوق. طيلة الليل أسمع صوت حوافره تضرب الأرض وأسمع ذلك الثغاء الكريه. أتصوره وقد مشي على قدميه الخلفيتين كما نرى في صور الشيطان، فقط صارت عيناه حمراوين وهو ينزل الدرج قاصدًا غرفتي.. حوافره صارت مخالب حادة طويلة كالسكين.. إنه هناك.. ينتظرنني..

في الصباح غادرت البيت مبكرًا.. ونظرت لأعلى في حذر.. كل الخراف المربوطة على السطح تقطع حبالها وتنتحر قبل يوم العيد.. هذا خبر ثابت في الصحف كل عام.. سوف يقطع حباله ثم يثب من أعلى ليسقط فوق ليهشمني.. هذا هو السيناريو الأرجح.. ماااا.. ماااا.. كذا ناداني من أعلى.. فصاح صبي يمشي في الشارع: «مفيش برسيم اسكت يا بهيم». ياه!.. لم أقلها منذ كنت في التاسعة من عمري.. شعور غريب ينتابني وأنا أتذكر طفولتي بينما العمر يدنو من نهايته كما هو واضح..

عدت من العمل في ساعة متأخرة من الليل.. لم أخبر أحد الزملاء بهواجسي حتى لا يسخروا مني. عدت للمنزل فصعدت في الدرج.. هنا سمعت ضوضاء أعلى من اللازم قادمة من أعلى.. رفعت رأسي وأنا أتوقع أن ينقض هذا الجدي علي ليمزقني..

كان ذلك الرجل ضخمة الجثة مخيف المنظر يركض على السلم قادمًا من أعلى.. إنه مبلى بالعرق يلهث، وقد وضع على كتفه شيئًا ثقيلًا في جوال.. ومن خلفه يركض رجل يماثله في الحجم يحمل باقي الجوال على كتفه.. أحدهما كان يحمل سكينًا ضخمة من سكاكين الجزائريين.. تم اللقاء بيني وبينهم في منتصف طريقي إلى شقتنا، وفي الظلام شبه الدامس..

هذان لصان سرق الجدي ومن الواضح أنهما ذبحاه لأنه لا يصدر صخبًا ولأن ثيابهما ملوثة بالدم.. توتر الرجلان وأخرج أحدهما السكين الضخمة يلوح بها في وجهي موشغًا على الضرب، لكنني تراجعته لألصق ظهري بالجدار وصحت:

- «لا تفعل شيئًا أحمق.. خذه وارحل!.. صدقني أنا أرغب في الخلاص منه!»

هذان المجنونان لا يعرفان أنهما فعلا أفضل شيء ممكن. لقد تسللا من باب البناية عندما حل الظلام ولم يجدا عسرًا في فتح باب السطح.. المهم أن يرحلا في سلام ولهما تحياتي وشكري.. نظرا لي في عدم تصديق ثم هرعنا ينزلان في الدرج.. توقعا أن أصرخ لكنني لم أفعل طبعًا.. وسمعت صوت سيارة تتحرك.. طبعًا هناك سيارة كانت تنتظرهما..

واصلت الصعود إلى السطح لأرى ما حل به.. لقد أغلقا الباب خلفهما كما هو واضح..

هنا كان أول شيء طالعني هو الجدي اللعين!

كان يقف هناك في ضوء القمر ينظر لي وقد قطع الحبل الذي يربطه.. وتراجعته في ذعر وأنا لا اصدق، هنا انقض علي بلا تردد...

جريت كما لم يجر أحد من قبل.. كان في حالة هياج غير عادية.. وبصعوبة استطعت أن أثب إلى باب السطح وأغلقه خلفي بينما ارتطم القرنان به بقوة..

ووقفت وظهرني للباب ألث..

إذن لم يأت الرجلان من السطح.. جاء من شقتنا!.. وما كانا يحملانه على ظهرهما هو جسد

بشري وليس الجدي.. جسد بشري هو جسد أبي أو امي أو أخي... وأنا تركتهما يفران!
رباه!.. كانا ملوثين بالدم!
كان قلبي يتوالب في صدري بلا توقف وأنا أنزل الدرج بقدمين من عجين.. ترى ماذا ينتظرنني في
الشقة وأي مشهد سأراه؟
ربما لم يقتلني الجدي لكنه سبب أعظم حماقة ارتكبتها في حياتي..
لكن لنضع التفكير جانباً ولنر ما حدث في الشقة أولاً..



من ٢١ يوليو إلى ٢٠ أغسطس

كنت واقفة في غرفة النوم أبذل ثيابي عندما دق جرس الهاتف المحمول. وقفت بقميصي الداخلي وقميص النوم في يدي ورحت أصغي لما يقوله الطرف الآخر.. دنوت من المرأة وتأملت وجهي.. لكني لم أكن أرى شيئاً لأنني كنت هناك مع (حسن ابو غصيبة).. (حسن) الذي اخبروني أنه تعرض لحادث..

هناك مجهولان تسللا للبناية وقتلا اثنين من أفراد أسرته. الغريب أنهم اصطدما به على الدرج وهدداه بالسكين وهربا وهو لم يبذل جهداً في مطاردتهما..

يقولون إنه انتقام بسبب شيك بدون رصيد كتبه أبوه. أبوه ثري لكنه – ككل الأثرياء - يعيب أحياناً حيث لا يجب أن يعيب، وقد اصطدم بخصم قوي صمم على الانتقام. هناك من قالوا إن الخلاف كان على قطعة أرض استولى عليها الأب.. لا أحد يعرف وحسن غير قادر على إعطاء صفات الرجلين بدقة لأنه في حالة انهيار عصبي.. لقد وجد مذبحاً في الشقة عندما دخلها.. فقط هو في المستشفى يردد بلا انقطاع:

- «الجدي حي!.. الجدي حي!»

كان الذي أخبرني بهذا كله هو زميلنا حاتم..

- «وهل هناك جدي في القصة؟»

- «للأسف نعم!.. هناك جدي أرسله خاله لهم وقد أصيب (حسن) بذعر جهنمي عندما رآه..»

- «على الأقل لم يسبب الجدي هذه الكارثة..»

- «نعتقد هذا.. والأهم أن (حسن) لم يمت.. أقاربه هم الذين ماتوا.. يبدو أن اللعنة ليست دقيقة تماماً..»

لكن هذا أسوأ.. نظرت إلى الخلف حيث جلست أختي (نتيلة) على الفراش.. من قال إنني أفضل موتها على موتي؟؟ يبدو أن (حسن) كان أسوأنا حظاً.

أغلقت الهاتف ويدي ترتجف.. ونظرت إلى الخلف فوجدت أن (نتيلة) تنظر لظهري في ثبات.. سألتها عما هنالك.. نهضت وأشارت إلى بقعة ما بين لحي الكتف وقالت:

- «ما هذه؟»

لم أفهم.. لذا أتيت بمرآة أخرى واستعملت المرآتين لأتفحص ظهري.. لا يوجد شيء سوى بقعة باهتة اللون بين لحي الكتف.. بقعة بحجم كف طفل.. هذا لا شيء.. أنا محجبة ولن يرى أحد ظهري أبداً. حتى لو تزوجت فالزوج الشرقي لا يرى جسد امرأته على الأرجح. أنا لست رائقة المزاج لهذه التفاصيل..

قلت في غيظ:

- «فعلاً مشكلة.. لن ألبس ثوب السهرة (السواريه) عاري الظهر.. خسارة!»

ثم ارتديت ثيابي وغادرت الغرفة..

الآن أنا في مشكلة حقيقية.. اللعنة تطاردنا ولم يبق أمامها سوى أربعة.. كانت فرصة أن تكون أنت القادم هي واحد على اثني عشر.. الآن هي الثلث..

أنا مذعورة.. نسيت أن أخبرك أنني من الطراز الهستيري العصابي الذي يخاف من شيء.

كيف يمكن أن أموت؟.. تذكرت ما قاله لي مدير التحرير الأستاذ رأفت: «طبعاً لا أنصحك بالذهاب إلى السيرك أو حديقة الحيوان إلى أن نفهم ما نحن فيه». الغريبيون يقولون: لا يمكنك

أن تكون حذرًا أكثر من اللازم.. وهذا ينطبق على ذلك البائس لأنه مات بصدمة كهربية وهو يبدل مصباحًا في شقته. أنذرتني لكنه لم يكن حذرًا لهذا الحد..

اسمي (مروة).. لابد أنك تعرفني الآن.. أكتب بعض المقالات القصيرة التي لا خطر منها مثل (أفضل طريقة لتقشير البصل بلا دموع) أو (ماكياجك في المساء), وأحيانًا أكتب حلولاً لمشاكل القراء الذين لا يعرفون أن (مدام سوزي) التي ترد عليهم ليست سوى فتاة في الرابعة والعشرين نحيلة مذعورة لا تعرف أي شيء عن الحياة..

أنا من برج الأسد.. برج بونابرت وبرنارد شو وعمر الخيام.. مؤخرًا عرفت أنه برج (أرنولد شوارزنجر) الذي كان نجم أفلام الأكشن فصار عمدة كاليفورنيا.

لكني لم أرث أيًا من طباع الأسد، فأنا مترددة خائفة هشة.. أخاف كل شيء ولا أقدر على اتخاذ قرار، وثقتي بنفسي معدومة.. ربما لأن أبي كان قاسيًا ولأن أخوتي ذكور أقسى منه.

اتصل بي (مدحت) خطيبي يعرض علي أن نخرج قليلًا..

أنا أخشى الخروج فعلاً، لكن الحقيقة التي لا تنكر هي أن أكثر من ماتوا ماتوا في بيوتهم.. هكذا قررت أن أفعلها وأنشجع. أخبرت أمي أنني خارجة مع مدحت.. لا أعرف البرنامج على الإطلاق..

كانت الخامسة عندما ظهر مدحت. إنه معلم شاب حديث التخرج، ولم يبدأ بعد ذلك النشاط المعروف بالدروس الخصوصية. هو غير معروف بعد، وهو على العموم يؤمن بأنه على درجة من النحس بحيث سيكون المعلم الوحيد الذي يفشل في الكسب من الدروس الخصوصية.

- «لو صرت تاجر مخدرات لأقلع الناس عن التعاطي.. ولو أدت بيت دعاة لأعلن الناس العفة وتزاحموا في دور العبادة!»

كنت أقول ضاحكة:

- «إذن أنصحك بافتتاح بيت دعاة.. نحن بحاجة إلى أن يستقيم هذا المجتمع»

هكذا ظهر.. أعرف يقينًا أن هذه النزهة سوف تكلفه مالا طائلًا. ربما اقترض شيئًا من أمه.. لا أعرف السبب في أن الشباب الجديرين بالحب لا يصلحون للزواج، والعكس.. معظم العرسان الجاهزين القادمين من الخليج لا يتمتعون بشيء من مواصفات فتية الأحلام.

قال لي مدحت:

- «كنت أفكر في حديقة الحيوان لكن الوقت تأخر..!»

- «الحمد لله أنك لم تفكر.. طبعًا لن أذهب هناك بأي ثمن..»

هو لا يعرف القصة.. لهذا افترض أنني مللت هذه التسلية المكررة خاصة وأن حديقة الحيوان لم تعد تناسب سوى المرضى النفسانيين الذين يهوون مشاهدة أقفاص خالية قذرة..

عاد يفكر:

- «ربما هو السيرك.. هناك فرقة جدي.....»

- «لا!»

ثم أضفت في عصبية:

- «أي مكان فيه أسود مرفوض!... يصعب شرح الأمر لكنه نوع من الذعر.. فهمت؟»

- «وماذا عن السينما؟.. هناك فيلم جديد في سينما مترو.. إنه.....»

عدت أفكر.. ثم قلت في حذر:

- «سينما مترو.. أليست هي التي تعرض أفلام شركة (مترو جولدوين ماير)؟.. حيث يظهر أسد

يزأر في البداية؟»

- «بلى.. هذا هو شعارهم»

- «إذن.. لا تحاول..»

فرصة أن يقتلني الفيلم واهية أو معدومة، لكني سمعت قصص موت الآخرين.. فتاة تموت في يخت اسمه (برج الدلو).. واحد يموت لأن على سطح البيت جدًّا.. إن المجازات وافرة جدًّا هنا، وأكون ساذجة لو افترضت أن هلاكي سيكون بين أسنان أسد حقيقي يهاجمنا الآن في ميدان التحرير.

كلا.. لا بد من الخيال.

كنا الآن نعبر مكانًا مألوفًا فرفعت رأسي لأرى ما لم يخطر لي ببال.. لماذا نسيت أسدي قصر النيل؟.. هذه لحظة مناسبة كي ينهار أحد الأسدين ويسقط فوقي. قلت له في عصبية:

- «لن أعبر من هنا..»

- «أنت تزدادين عصبية..»

وراح ينظر لي في دهشة.. بالفعل أتصرف كالمخابيل ولا يوجد أي منطق لأفعالي وتصرفاتي. راح يفكر قليلًا ثم قال لي:

- «دعينا لا نذهب لأي مكان. لنقف هنا على الكورنيش ونتكلم..»

وهكذا استندت إلى السور الحديدي أرمق النيل.. رائحة الذرة المنعشة الطازجة تتسرب لأنفي من بائع يقف خلفي. قلت له إنني أريد أن آكل بعض الذرة. تنفس الصعداء لأن هذا يعني أن الجولة لن تكلفه إلا ملاليم. لو دخلنا السينما لكان عليه أن يدفع التذكريتين والمشروبات ثم يدعوني للعشاء في (كنتاكي) بعدها..

هكذا اتجه إلى البائع الصعيدي العجوز وابتاع كوزين ساخنين ووقف جوارى.. راح يلتهم الحبيبات وهو يكلمني عن الغد. الغد الذي يخشاه كالموت لأنه لا يرى أية ثغرة يتحرك فيها. كنت أنا أخشى الغد لأسباب تختلف.. أخشى ألا يكون هناك غد أصلاً!

أخيرًا عدنا في المساء.. لاحظت ملاحظة عابرة هي أن من يسبقني في المشي يلتفت لينظر لي في فضول. شيء غريب لأن خلفيتي ليست مغرية لهذا الحد..

عندما افترقنا أخيرًا شكرته على الأمسية الجميلة وطلبت منه أن يتحملني.. انا غريبة الأطوار هذه الأيام.. هز رأسه وابتسم برفق..

دخلت البيت وكانت (نتيلة) جالسة في الصالة تشاهد التلفزيون عندما مررت أمامها. هنا صاحت:

- «ما هذا؟.. ماذا أصابك؟»

ونهضت مسرعة.. ووضعت يدها على ظهرى :

- «أنت حرقت ظهر القميص مع جزء من الإيشارب..»

ونزعت القميص ونظرت.. بالفعل هناك فجوة بحجم قبضة اليد في أعلى ظهر القميص مع احتراق طرف الإيشارب.. لقد تمسكت نار بائع الذرة المتطايرة من الفحم بشيبي، ولم أشعر أنا ولا شعر مدحت، ولحسن الحظ أنها انطفأت تلقائيًا.. ولهذا كان من يراني من الخلف يلتفت لينظر لي في فضول..

قالت لي في دهشة:

- «إلى هذا الحد أطار الحب صوابك؟.. لم تشعري أنك تحترقين؟»

بالفعل لا أفهم.. من الطبيعي أن أصرخ كالمجانين وأجري وأولول..

البقعة البيضاء بين لوجي الكتف!.. هذه هي البقعة التي لمستها النيران فلم تشعر.. ما معنى

هذا؟.. يجب أن أذهب للطبيب غدًا..
فرغ د. (مازن) استشاري الأمراض الجلدية من الفحص وبدأ عليه القلق.. لمس البقعة عدة مرات بأشياء لم أثبتنها وفي كل مرة أقول له إنني لم أشعر بشيء..
قال وهو يحك شعره:
- «سوف نجري المزيد من الأبحاث.. لكننا نقلق بشدة عندما نرى هذه البقعة فاقدة الحس.. إنها تعيد لأذهاننا مرضًا مقلقًا هو مرض (هانسن)»
- «ما هو؟»
- «يحدث هذا في حالات معينة من أمراض الجهاز العصبي، لكن في العادة تكون هذه مؤشرات مبكرة على مرض ال... لا عليك.. إنه قابل للعلاج.. الجذام صار قابلاً للعلاج وقد كان مرضًا مخيفًا في الماضي!»
جذام!!!.. أعرف هذا الاسم ورأيت صورًا مروعة من أفريقيا لمرضى به.. أعرف تلك المتسولة التي مرت بنا ونظرت لي بعينين حمراوين لا تريان ثم مدت يداً بلا أصابع تطلب مني صدقة..
جذام!... قلت في جزع:
- «إنهم يتشوهون!»
قال د. (مازن):
- «ليست هذه هي القاعدة.. دعك من أننا سنبدأ العلاج بمجرد أن يكتمل التشخيص.. الريفامبيسين.. الدابزون.. الخ.. أما التشوه فيحدث في حالات متقدمة جدًا، بحيث يصير وجه المريض مليئًا بالعقد ويزول شعر حاجبيه كما تلتهب عيناه.. لهذا كان العرب يطلقون على المرض اسم (داء الأسد)!»
نظرت له طويلاً ثم نهضت واقفة..
الأسد!... كان يجب أن أعرف هذا منذ البداية..
غادرت العيادة.. أنا أعرف ما سأفعله وأعرف متى سأفعله..
الليلة.. النيل.. لن أنتظر حتى أتشوه وأشبه تلك المتسولة.. أعرف جيدًا أن هذا نصيبي من اللعنة وأنا لن أشفى..
الليلة.. النيل.. الظلام والماء البارد...
لقد ظفر بي الأسد.. لكني لن أنتظر حتى يلتهمني بالكامل..
سوف أخدعه وأفر إلى أعماق النيل الباردة التي لا يمكن أن يؤذيني شيء فيها.....



من ٢٣ سبتمبر إلى ٢٢ أكتوبر

قال لي د. (أبو داود):

- «إذن أنت متأكدون من أنكم لم تقابلوه..»

قلت في إصرار:

- «لم يحدث»

عاد يحك رأسه..

د. (أبو داود) نصاب يزعم أنه يفهم في هذه الأمور. دكتوراه من المجر في شيء ما، وعلى قدر علمي يمكن لكل إنسان أن يتواري عن الأعين عامين ثم يعود ويزعم أنه حصل على دكتوراه من المجر، وهو يلبس نظارة رفيعة ذهبية الإطار ذات سلسلة تتدلى على قصبه أنفه، وله لحية قصيرة مهذبة، ونظرة مجنونة في عينيه.. باختصار هو مناسب جدًا لهذه الأمور.

قال لي:

- «من ناحية الأبراج أنا لا أثق بها، وأعتقد أنه سخر الشياطين للظفر بكم لتنفيذ انتقامه.. لكن هذا مستحيل من دون أن يكون عنده شيء من آثاركم.. شعرة.. قطعة من منديل.. الخ»

قلت في إصرار:

- «هو لم يلتق بنا قط..»

- «إذن الموضوع يتجاوز فهمي»

كنا جالسين في مكتبه الصغير الواقع في الطابق الثاني بأحد شوارع وسط البلد. واضح أنه يمارس تحضير الأرواح والتنويم المغناطيسي كذلك، وكنت قد أجريت معه حديثًا صحفيًا للمجلة منذ عام..

قال لي:

- «على الأقل الوضع سهل بالنسبة لك.. يسهل عليك أن تبتعد عن أي ميزان..»

- «كل من هلكوا حسبوا الأمر سهلاً..»

وفتحت خطاب (مروة) الأخير الذي كتبته قبل أن تغيب في النيل.. لقد تم إعداد المصيدة لها بعناية وحرص.. لو لم تنتحر لربما شفيت، لكن الفخ النفسي كان محكمًا. شعرت بأنها لن تنجو وأن القصة منتهية بالنسبة لها. دعك من أنها كانت عصابية تخاف كل شيء. فليرحمها الله.. أعتقد أنني آخر من تكلمت معه في المجلة كلها عندما حكيت لها قصة (حسن)..

قلت وقد تذكرت شيئًا:

- «تذكر أن (حسن) لم يمت.. الأذى حل بأهله لكنه لم يمت...»

لمعت عيناه وقال في ذكاء:

- «نقطة مهمة هي..»

ثم أظلم وجهه وقال:

- «وقد لا تكون!»

نظرت لساعتي فسألني إن كنت على موعد.. قلت له إنني مرتبط بعمل صحفي مهم... تمنى لي حظًا سعيدًا نصحني بأن أبتعد عن أي ميزان ممكن..

عندما غادرت مكتبه لم أكن قد ظفرت بأي شيء.. يبدو أن علي أن أحمي نفسي بنفسي.. هكذا عدت لداري.. أغلقت الغرفة علي وجلست إلى المكتب الصغير وبدأت أكتب الاحتمالات:

- ١- لا تقف فوق أي ميزان..
 - ٢- لا تستعمل ميزان الحرارة.. قد يتهشم في فمك وتبتلع الزئبق.
 - ٣- لا تتشاجر مع بائع في السوق فيقذفك بالميزان!.. هذه حدثت مع عم لي..
 - ٤- ابتعد عن الورشة التي تجد فيها ميزان عجلات.
- ابتعد عن المحاكم.. الميزان الذي يحمله تمثال العدالة معصوب العينين قد يسقط فوقك أنت بالذات..

الآن نضب خيالي.. هذه اللعنات تحتاج إلى خيال خصب. هناك كاتبة أمريكية اسمها (جين كير) أوصت طفلها بكل شيء ممكن: (لا تغسلا التلفزيون بالصابون.. لا تضع القط في الغسالة.. لا يدهنن أحدكما وجه الآخر بالطلاء... الخ).. وتركت البيت.. ثم عادت لتجد أنهما فعلا الشيء الوحيد الذي لم توص به، وهو أكل أزهار الأقحوان في الحديقة!.. لهذا كتبت كتابًا شهيرًا ساخرًا عن تربية الأطفال اسمه (من فضلكما.. لا تأكلا أزهار الأقحوان!)..

يجب أن أجد أزهار الأقحوان الخاصة بي قبل أن يجدها عدنان..

يجب أن أذكر أن مجلتنا بدأت تعاني حالة نقص أيد عاملة مخيفة.. لقد هلك تسعة محررين في فترة وجيزة، والمشكلة أنهم كانوا من الشباب الذي هم وقود المجلة وتروسيها.. الكل يتساءل وهناك جو عام من الاضطراب والذعر.. لهذا لم يعد أحد يسألني متى جئت ومتى انصرفت.. بالنسبة للآخرين نحن الثلاثة محكوم عليهم بالإعدام.. رجال موتي يمشون.. نظرات الشفقة تثير غيظي.. ونظرات الذعر.. أحيانًا يعاملوننا كالمرضى باعتبار أن اللعنة التي تلاحقنا قد تمتد إلى اثنين..

لماذا فضحناك يا عدنان؟.. لماذا لم نتركك وشأنك كأني نصاب آخر؟... كم من نصاب ينعم بحياة مستقرة وثراء فاحش من دون أن يلاحقه أمثالنا، والمشكلة أننا لاحقنا نصابًا يجيد السحر الأسود..

لا يمكن أن أظل هنا أنتظر الموت.. لابد أن أعيش الحياة وأمارسها..

أنا صحفي.. جورنالجي.. وسوف أعيش وأموت كجورنالجي..

هكذا بدلت ثيابي وتأهبت للخروج..

اتصلت بي (نجوى) تقول إنها بانتظاري...

نسيت أن أقول لك إن اسمي (حاتم).. برجني هو الميزان.. هو برج غاندي وبريجيت باردو وأيزنهاور.. أحرر الأخبار السياسية في المجلة، وأنا ممن يمكنك تسميتهم (مثقفو وسط البلد).. شعر طويل ثائر على كتفي، ونظارة.. أحمل حقيبة أعلقها على كتفي كسعاة البريد، فيها كاميرا رقمية وجهاز تسجيل.. طبعًا لابد من الولع الشديد بجيفارا وبوب مارلي ومحمد منير والكثير من أشعار أحمد مطر وأحمد فؤاد نجم... هذه (شروة) واحدة إما أن تأخذها كلها أو تتركها كلها. طبعًا تكتمل الصورة لو عرفت أنني أعشق المدونات، ولي مدونة اسمها (الغاضبون).. مع الكثير من الجلوس على مقاهي وسط البلد في دائرة التحرير إياها..

(نجوى) من طرازي بشعرها الثائر ونظارتها الرقيقة الشفافة وسروالها الجينز واستعدادها التام لحضور أية ندوة في أي مكان، والجلوس على الرصيف عشر ساعات كاملة.. أهلها لا يقلقون عليها على كل حال، دعك من أننا مخطوبان تقريبًا.. فقط ينقصنا الكثير جدًا من المال..

الليلة كانت هناك ندوة خارقة للعادة..

هناك تجمع شبابي اسمه (رابطة الشباب المصري الليبرالي) يعقدون ندوة جماهيرية أولى لهم في أحد المقار خلف ميدان التحرير.. لن أعطي تفاصيل أكثر..

هكذا قابلت (نجوى).. سألتني لماذا أبدو متوترًا فقلت لها إن صحتي ليست على ما يرام.. ليس من المستحب أن أقول لها إنني خائف من ميزان..

كان السرداق مقامًا هناك في شارع ضيق مسدود.. وقد احتشد عدد من الشباب.. نحو مائتين منهم، يصخبون ويصفرون.. ورأيت ثلاثة أو أربعة من الصحفيين الأجانب البوهيميين الذين وجهت لهم الدعوة. بينما صعد على المنصة شاعر سليط اللسان، وبدأ يلقي قصيدة مرعبة تهاجم الحكومة والنظام وكل شيء ممكن.. تصاعد الأدرينالين في دمي وعرفت أن الأمور ستزداد سخونة..

أخرجت جهاز الكاسيت وبدأت أسجل.. ثم بحثت عن الكاميرا الرقمية لألتقط بعض الصور.. هذا الموضوع لن يظفر بالنشر في مجلتنا.. مستحيل طبعًا.. لكني سأعرف كيف أنشره في جريدة معارضة ما..

في مقدمة السرداق خلف المتحدثين كانت هناك لافتة قماشية تحمل شعار (رابطة الشباب المصري الليبرالي).. مع تاريخ الاجتماع. بينما تتدلى من أعلى لافتة خشبية مربوطة بالحبال كتب عليها الاسم بالعربية والإنجليزية: League of Liberal Egyptian Youth وخطر لي أن من كتب اللافتة أحمق لأن لفظة Liberal ينقصها حرف E. فهي تكتب هكذا Liberal.

لكن هذه الأخطاء شائعة على كل حال.. مثلما يكتب الجميع Welcome مصرًا على كتابة حرف L مرتين....

انتهت القصيدة فعلا التصفيق، ثم صعد إلى المنصة شاب غزير العرق ملتهب الأعصاب، وبدأ يخطب.. إنهم لا يبالون بنا، لكننا سنثبت لهم أننا موجودون وقادرون على الفعل والكلام والغضب.

شعرت بمن يجذب كمي فنظرت لأرى (نجوى) تشير إلى خارج السرداق. رأيت سيارات الأمن بلونها المميز وهي تفرغ حمولتها من الجنود ذوي الثياب السوداء... إنهم ينوون أمرًا.. استمر الخطيب في الكلام غير مبال.. ظهر ضابط غاضب محتقن الوجه وأمر بعض الجنود بإخلاء السرداق. لا يوجد تصريح بهذا الاجتماع كما قال..

بدأ الأمر هادئًا ثم اشتعل.. حدثت مصادمات وتراشق ألفاظ.. تبادل لكلمات، وفي النهاية انفتح باب الجحيم وأعطى الجنود الحرية الكاملة في عمل ما يروق لهم.. هكذا انطلقوا يقلبون المقاعد ويركلون ويضربون بالهراوات.. لم تأت فرق الكاراتيه لحسن الحظ.. هتفت نجوى:

- «فلنخرج من هنا»

قلت لها:

- «لحظة»

كنت ألتقط صورًا ممتازة بالفعل.. صورًا ممتازة إلى أن طارت الكاميرا من يدي فقد ضربها أحد الجنود بهراوته. نهضت ثائر الأعصاب أحتج لكني فوجئت بمن يهوي بكفه على مؤخرة عنقي.. الجنود يمزقون السرداق.. صرخات.. الأوتاد الخشبية تسقط.. فوضى تامة... نظرت لأعلى فوجدت أن تلك اللافتة الخشبية المعلقة قد تحطمت.. إنها تهوي.. تهوي فوقى أنا بالذات...

ألمح المكتوب على ما تبقى منها..

Libra

جزء واحد من كلمة (ليبرالي) قد بقي..
الآن أفهم لماذا لم يوضع حرف E.. أفهم لماذا تحطمت اللافتة بهذا الشكل الغريب....
الآن فقط أتذكر أنني نسيت الاحتمال الوحيد.. زهرة الأقحوان التي وجدها عدنان..
إن Libra معناها (برج الميزان)!!
واللافتة تقترب.. تقترب.. تقترب...



من ٢٣ أكتوبر إلى ٢٢ نوفمبر

ومن ١٩ فبراير إلى ٢٠ مارس

- ١ -

اثنان بقيا!

قالت لي صفاء وهي ترتجف:

- «أنت تدرك جيداً يا كمال أننا لن نفلت.. كل واحد من الآخرين حسب نفسه قادراً على الإفلات، طبقاً لقاعدة (يحدث للآخرين فقط)، أو طبقاً لأن أضعف يقين عند الإنسان هو الموت.. لكنهم جميعاً ماتوا..»

مروة كانت من برج الأسد، وقد شك الطبيب في أنها مصابة بداء الأسد، فقتلت نفسها لأنها لم تتحمل الانتظار حتى تعرف..

حسن كان من برج الجدي وقد فقد أهله بيدي قتلة تركهم يفرون، لأنه حسبهم قتلوا الجدي الذي كان على سطح دارهم..

حاتم هلك بلافتة سقطت فوقه في مؤتمر شبابي معارض.. بصراحة لا أعرف دور الميزان في هذه القصة، لكن اللعنة محكمة بحيث أعرف يقيناً أن هناك ميزاناً في القصة..

لمياء من برج الجوزاء وقد لقيت حتفها بسبب غلطة ارتكبتها توءمان..

ياسمين أيضاً من برج العذراء ولا أعرف سبب موتها بصراحة.. هي نفسها كانت عذراء.

رأفت مدير تحريرنا كان من برج القوس.. مات وهو يستبدل مصباحاً في شقته.. بصراحة لا أفهم العلاقة لكنها بالتأكيد موجودة..

ثريا من برج السرطان وهي تلفظ أنفاسها في المستشفى الآن بسبب سرطان متقدم..

مي برج الدلو وقد غرقت في يخت اسمه (برج الدلو)..

صفوت قتل نفسه وهو يتأمل صورة عملاقة لثور..

عصام تسمم دمه من وخزة بسبب دبوس في حلية على شكل حمل..

إذن عشرة قد لاقوا حتفهم.. عشرة من دسته محررين بدءوا هذه القصة..

الآن يبقى برجان.. برجان..

هل ينجوان؟.. كأنها قصيدة من الشعر الحديث!.. جميلة جداً...

هل ينجوان.. البرجان؟.. لكن أين الأمان؟.. من قبضة الجان.. ووعيد الشيطان.. عدنان؟

هذا أقرب إلى المقامات منه إلى الشعر كما ترى.

قالت لي (صفاء):

- «إنها النهاية.. كل شيء يقول ذلك»

- «ربما لم تكن كذلك..»

وفي المجلة قال لنا مدير التحرير الجديد إنه يعطينا إجازة مفتوحة.. هذا طبيعي.. يريد أن نموت دون أن نلوث المجلة بالدم. لو سقط حوت على البناية الآن ليقتل (صفاء) فلسوف

يقتل خمسة أو ستة آخرين.. من الوارد أن نأخذ معنا البعض ونحن نموت..
دعك من أن المجلة استعوضت خسائرها بعدد من شباب العاملين, إنها تبدأ عهد ما بعدنا
وتريد أن نرحل بسرعة..

اسمي كمال... عيد ميلادي هو ١٠ نوفمبر.. لو كنت تذكر الأرقام فأنا من برج العقرب..
بيكاسو.. فولتير.. كولومبوس... لو أردت أن تصفني فلك أن تتخيل شابًا نحيلًا جدًا أسمر جدًا
صعيديًا جدًا.. كل أسرتي في (جنا) طبعًا وأنا هنا أحاول أن أحقق شيئًا. الصعيدي لا يفشل في
القاهرة أو هكذا اعتقدت..

صفاء مولودة في ٢٣ فبراير.. هي حوت طبعًا.. مثلها مثل أينشتاين، لكن هذا لا يدل على شيء..
أنا لست فنانًا موهوبًا وهي ليست عبقرية.. الأبراج كلها بناء متداع من الأوهام، لو نفخ فيه طفل
صغير لتهاوى، وأعتقد أننا استمتعنا بوقتنا فعلاً ونحن نهدم عدنان، لأن أكثرنا لا يطيق هذا
السخف.. الناس تحب أن تُخدع. هذا من حقها.. لكنها كذلك لا تطيق أن تعترف بأنها
خُدعت.. تكره من يكشف لها ذلك أكثر مما تكره من خدعها..

صفاء فتاة تلبس الحجاب المودرن المبهرج إياه.. وتلبس أشياء غريبة جدًا مثل السروال الواسع
جداً والبول أوفر الأسود، تحت قميص نوم شفاف، مع محمول لا تتركه لحظة وحذاء كوتشي.
لا بأس بملامحها وإن كانت ليست من طرازي.. ربما تمنيت أن تكون نهايتي مع مي أو لمياء..
لا أعرف متى ولا كيف وجدت أننا نمشي معًا في الشارع وقد تعانقت أناملنا..
قالت لي دون أن تنظر:

- «سوف يلدغك عقرب..»

- «وأنت سيلتهمك حوت!»

بالنسبة للعقرب هو وارد جدًا.. لست مدللًا وقد لدغني عقارب كثيرة من قبل في قريتي. التهاب
في موضع اللدغة وقيء وحمى لمدة يومين.. أنت تكون في ألين حال لكنك لا تموت.. لن يلدغي
عقرب حقيقي بل عقرب مجازي.. ربما عقرب ساعة مسموم أو حفل صاحب لفرقة
(سكوريونز).. أو.. أو..

أما هي فمن العسير أن يقابل المرء حوتًا في وسط البلد. ربما تضطر إلى السفر إلى جنوب أفريقيا
وتركب سفينة صيد حيتان، ثم يقرر البحارة عقابها فيلقون بها في الماء. هذا هو الاحتمال
الوحيد.. هناك متاجر اسمها (الحوت) في كل مكان.. قد تدخل محلًا منها فيحترق وهي فيه.
هذه التعويذة لا تفتقر إلى الخيال..

تقول لي:

- «فلنجلس في كافيتريا..»

نجلس.. أتأمل وجهها وتتأمل وجهي.. موجة واحدة تسري بيننا.. تبتسم.. تمد يدها لي.. أرفعها
وألثم أناملها.. الآن اشعر أنها جميلة جدًا.. لم يرق لي منظرها المبهرج من قبل لكنني الآن هش
جداً.. جدًا...

اثنان حكم عليهما بالموت... لماذا لا نتزوج يا صغيرة.. لماذا لا نرى العالم معًا مرة أخيرة؟

تنظر لي انظر لها.. تبتسم.. ابتسم..

ننهض وأدفع الحساب.. أعد ما معي من جنيهات....

شارع مسقوف ابتلت أرضه بالمياه وتناثرت المقاهي الشعبية على جانبيه. هذا المأذون يظل
ساهرًا لفترة.. لا.. لا أريد زواجًا عرفيًا فلم يعد لدي ما أخشاه.. تعال يا حاج.. وأنت.. تعال أنت
أيضًا.. معك بطاقة؟.. نريد شهودًا على عقد زواج.. لك الحلاوة.. ستوفقان رأسين في الحلال..

نصعد درجات السلم المحطمة. المأذون ينظر لنا في دهشة.. منذ زمن سحيق لم يعد الشباب يتزوجون رسميًا عنده بل يتزوجون زواجًا عرفيًا أو يزنون... هذا التصرف لا يمكن فهمه. تقول لي صفاء:

- «سوف تندم يا كمال... أنت صعيدي والزواج بهذه الطريقة مقرون بالعار. لن يسامحك أهلك..»

- «لا أبالي.. وماذا عن أهلك أنت؟»

تنظر لي بعينين عسليتين وتقول:

- «أنا ميتة.. لم أعد أهتم برأيهم..»

تذكرت الزيجات السريعة التي كانت تتم بين الجنود السوفييت والقرويات ليلة رحيل الجنود للجهة.. نفس الشيء تقريبًا. عندما سادت في أوروبا إشاعة أن نهاية العالم سنة ١٠٠٠، تزوج الناس في كل مكان بسرعة، وكان يكفي أن تجد فتاة تقبل الزواج بك لتكون زوجتك خلال خمس دقائق. طبعًا حدثت مشاكل اجتماعية كبرى عندما مرت الساعات الخطيرة ولم ينته العالم.. عندها فطن كل واحد للمصيبة.. كيف فقدت عقلي وتزوجت امرأة بهذا القبح - بهذه السماجة - بهذا الغباء؟ الخ..

هل هو حب؟.. لا.. ليس حبًا بالتأكيد.. لكن الهشاشة النفسية تجعلك تتشبث بأي إنسان وتشعر بأنك تهيم به حبًا... كلانا يفهم هذا لكننا سنتناساه...

بعض الأوراق المالية لهذا وذاك.. أجر المأذون.. سيجارة لكل شاهد.. زجاجة مياه غازية. ثم ننهض.. إن هذا الفندق لا يسأل عن أي شيء.. لو اصطحبت معك الجيش الأثيوبي كله فلن يعترض أحد.. صحيح أننا زوجان شرعيان لكن ليست معنا أوراق تثبت هذا بعد.. فندق رخيص.. غرفة قذرة متوسطة النظافة لكنها تصلح.. لا عقارب.. لا حيتان..

الظلام جميل.. الظلام يشعرك بأنك قد تكون في قصر المنزه أو قصر فرساي.. لا داعي لأن ترى.. في الظلام تقول لها:

- «تأخرت عن بيتك.. لابد أنهم قلبوا الدنيا عليك»

- «ألا تفهم؟.. أنا لم أعد أنتمي لهذا العالم ولا أشعر بأن قواعده تنطبق علي.. لم يلم أحد من قبل فتاة ميتة على أنها تبني خارج البيت تحت الأرض.. أنا ميتة.. لقد وثقت بأن عدنان هذا لم يترك ثغرات»

صباح اليوم كانت زميلتي في العمل ولم يخطر ببال أحدها شيء من هذا.. الآن هي زوجتي وأم عيالي لو عشنا!

سألتها همسًا:

- «هل تعرفين أنه مولود في ١ يناير؟.. لقد راجعت معلوماتنا عنه»

- «تاريخ طريف لكن ما معناه؟»

- «معناه أنه من مواليد برج الجدي.. هل فهمت؟.. هناك سبب لكون (حسن أبو غصيبة) لم يمت لكن قُتل أهله. أعتقد أن عدنان استثنى برجه من تلك اللعنة، وإن أرسل انتقامه في شكل آخر..»

- «وهل لديك فكرة عن سبب بقائنا للنهية؟»

- «لا أعرف.. لكن لابد أن يبقى أحدهم في نهاية القائمة..»

- «إلى أي حد تعتقد أن ما حدث مصادفات؟»

- «كفي عن السخف.. الأمر يشبه ما قاله العلماء الملحدون: لو تركت قرطًا يجرب حظه على

الآلة الكاتبة لملايين السنين، فلسوف تجدين ذات يوم على الورقة قصيدة لشكسبير!.. هذا ببساطة سخف.... أرفض أن اصدق أن تحدث عشر مصادفات متتالية لعشرة أشخاص...»
- «وماذا عن وجود قاتل يتابع الجميع ويرتب كل شيء؟»
- «قاتل يصيب البعض بالسرطان والبعض بالجذام ويفك عجالات البعض ويغرق البعض.. الخ؟.. دائماً هو في المكان الصحيح والوقت الصحيح.. هذا قاتل كوني وله تحياتي فعلاً»
كل هذه المناقشات جرت من قبل ولم نتوصل لشيء..
عدنان القمى بشع الخلقة.. أراه أمامي الآن بوضوح تام.. الدم ينزف من معصمه المقطوع في زنارته الفرنسية..
عيناه الناريتان..
أغمضت عيني ببطء.. لا تنم الآن يا كمال.. أريد أن اذهب إلى الحمام من أجل.. من أجل.....

صفاء.. صفاء.. استيقظي يا فتاة..
أنت غائبة في النوم لكن يجب أن تنهضي.. حرري قدميك من نهر النوم اللزج الشبيه بالعسل..
ضوء خافت واهن يأتي عبر خصاص النافذة.. إنه الفجر.. (صباحية مباركة يا عروسة)... لم
تتصورني قط أن يبدأ شهر عسلك في غرفة قذرة كهذه.. دون أن يعرف أحد..
لا توجد ألوان.. درجات من الرمادي والأزرق الشاحب في الغرفة كلها، وكمال راقد جوارك بفانلته
الداخلية، تتسع طاقتا أنفه الأسمر وتضيقان.. إنه نائم جدًا..
زوجك... زوجك لساعات محدودة إلى أن تلفظي أنفاسك الأخيرة!.. تناولت أنامله ولثمتها..
تنهضين.. حقيبته جوارك على الكومود العتيق الذي يستند على ثلاثة أرجل.. ما هذه الرائحة في
الحجرة؟.. رائحة محببة لكنها غامضة..
تفتحين الحقيبة وأنت في الفراش وتبحين فيها.. من حقك الآن أن تعرفي المزيد عن زوجك..
هناك أوراق.. أوراق تتحدث عن عدنان بالتفصيل.. كل المعلومات عنه فلا يوجد شيء جديد..
لكن الرجل مولود في ٩ نوفمبر!.. من قال إنه مولود في ١ يناير؟.. أخطأ كمال عندما قال هذا..
ولكن.. معنى هذا أن (عدنان) و(كمال) من برج العقرب كليهما.. عدنان لا يمت لبرج الجدي
بصلة..
هناك صور.. صور من أرشيف الجريدة.. ١١ صورة لـ ١١ محررًا ممن تورطوا في قصة عدنان
هذه.. هذا شيء متوقع ولا غرابة فيه.
لكن هذه الرائحة؟
نهضت في حذر فارتديت ثيابي لأنني كنت بثيابي الداخلية (لم احضر قمصان نوم ولا شيء على
الإطلاق). وفتحت الباب.. دورات المياه في هذا الفندق مشتركة، وقد تسلفت إلى الحمام وبدأت
أغسل وجهي. لا شك في أن الرائحة تتزايد.. رائحة تذكرك بالشمع المحترق... اتجهت إلى دورة
مغلقة وفتحت بابها حيث خيل لي أن الرائحة تأتي منها..
هنا وجدت أمامي مشهّدًا مريعًا..
لقد استقرت على الأرض المبتلة الزلقة شمعة سوداء تشتعل في بطء وقد قارب نصفها النفاد...
وعلى الجدار كانت هناك صورة.. صورة لي أنا تم تثبيتها بشريط لاصق.. هذه الصورة أخذها من
الأرشيف طبعًا..
لقد رقد في الفراش ينتظر على أمل أن يزيل آثار هذا كله عندما تحترق الشمعة بالكامل، وبالتالي
يخفي كل آثار الجريمة، لكن النوم غلبه من إرهاق اليوم..
شمعة سوداء تحت صورة هي من وسائل السحر الأسود القديمة جدًا.. عندما تنتهي الشمعة
سوف تخرج الشياطين للظفر بي. عدنان كان بحاجة إلى من يكون بقربنا.. لهذا اختار واحدًا من
برجه.. اختار (كمال). وكان على كمال أن يشعل في كل مرة شمعة سوداء تحت صورة الشخص
الذي جاء دوره.. يشعلها حتى تنتهي عندها يكون قرار الإعدام قد صدر فلم يبق إلا التنفيذ...
السحر بالاقتران؟.. هذا وارد.. إن شعيرات عديدة تلتصق بالشمعة وتلتف حولها ولا شك أنها
شعيرات من رأسي. الوسادة مليئة بها. كمال كان قادرًا على الحصول على شيء يخص كل واحد
منا.. منديل ورقي ألقتة فتاة.. شعرة من فتي.. الخ..
عندما قال إن عدنان من برج الجدي كان يكذب ليضللني...
هل هو متآمر؟.. لا أعتقد.. لقد بدا لي صادقًا.. ربما هو لا يعرف ما قام به.. على الأرجح هو لا

يعرف.. إن روحًا شريرة تستحوذ عليه..
في رعب مددت يدي وأطفأت الشمعة بين إصبعين.. ثم رحت أزيل ما التف حولها من شعر
بحذر. كانت أمي توصيني بالتخلص من الشعر في دورة المياه، وكان معها كل الحق..
لو كان هذا صحيحًا ف. (كمال) هو تجسد لعدنان.. يفعل ما أراد عدنان أن يفعله.. كمال هو
المسئول عن موت عشرة أبرياء لم يقترفوا ذنبًا..
عدت للحجرة..
كان نائمًا نومًا عميقًا كنوم العرسان جميعًا. جواره على الكومود كان غطاء معدني صغير دفن
فيه بقايا سجائره.. تناولت أحد تلك الأعقاب التي بللها لعابه. فتحت حقيبته وبحثت عن
صورته.. أخذت علبة الثقاب معي..
عدت إلى الحمام.. قمت بتثبيت عقب السيجارة على الشمعة السوداء. انتزعت صورتي.. مزقتها
وتخلصت منها في المرحاض، ثم قمت بتثبيت صورته هو وأشعلت الشمعة من جديد..
الشمعة تتوهج.. الضوء يتراقص على الصورة والعينين..
وقفت أراقب الشمعة وهي تذوب ببطء... ببطء..
الصورة تتجعد من الحرارة..
لابد أن عشر دقائق كاملة مرت علي وأنا واقفة هناك أرقى هذا المشهد. في النهاية انتهت
الشمعة فتخلصت منها والصورة في دورة المياه....
كان ما زال نائمًا عندما عدت للغرفة. انحنيت فلثمت خده.. لو لم أكن حمقاء فهي القبلية
الأخيرة. ربما أنا أرملة فعلاً منذ ثلاث دقائق. أخذت حقيبتي وتسلفت خارجة....
كانت الردهة خالية والكايب نائمًا على منضدته في مدخل البناية. أمر أمام الجدران التي ألصقت
عليها المرايا وأنظر لعشرات النسخ من وجهي الشاحب المرهق الحزين..
أخرج إلى الشارع الذي بدأ يكتسب لون النهار.. أرى حشدًا من الأطفال في ثياب المدرسة
يثرثرون.. عندها شعرت بأنني أثوب لرشدي..

صفاء.. صفاء.. أنت حامل يا فتاة..

لا أحد يعرف ولا أحد يتصور....

القصة المعقدة التي حكيتها عندما عدت للبيت صباحًا. كل الكلام الفارغ عن العاطلين الذين اختطفاك إلى شقة مفروشة واستطعت الهرب منهما.. البلاغ في القسم وعرض صور المشتبه فيهم عليك..

المهم أن أهلك ابتلعوا القصة.. كيف لو عرفوا أن ابنتهم متزوجة؟.. لو عرفوا أنها أرملة؟... لو عرفوا أنها حامل وأن ابنها يتيم من قبل أن يولد؟ أنت في مأزق..

على الأرجح ستحاولين التخلص من هذا الجنين.. ليس فقط لأن اهلك لا يتوقعونه، ولكن لأنه يحمل شيئًا من كمال، وبالتالي هو يحمل شيئًا من عدنان..

كائن كهذا يجب ألا يسمح له بالمجيء للكون..

كمال قد مات.. وجدوه ميتًا بعد تلك الليلة بيومين في أحد المقاهي بالقاهرة. لم يجدوا علاقة بين موته وأي عقرب، لكنني أعتقد أننا لو بحثنا لوجدنا علاقة قوية.. من المؤكد أن عقربًا لم يلدغه لكن يمكنك أن تتخيل أكثر من طريقة مات بها.. عقرب ساعة.. شريط لفرقة السكوربيونز.. منتج اسمه (سكوريو)... لا أعرف حقًا..

إن هذه اللعنة واسعة الخيال..

لقد تحررت، وسوف أعيش حياة طبيعية قدر الإمكان. لكن السؤال الوحيد الذي سيؤرقني ولن أجد له إجابة هو: كيف كان عدنان ينوي أن يقتلني بحوت؟

☆ ☆ ☆

(تم الكتاب بحمد الله)

اثنا عشر برجا..
اثنتا عشرة طريقة للموت..
ولعنة تطاردك في كل صوب..
تمر بالأطوار المعتادة: في البداية انت لا تعرف ... بعد هذا انت لا تلاحظ ... ثم تلاحظ فلا
تصدق ... ثم تصدق..
فلا تعرف ما ينبغي عمله..
يقول الغربيون إنك لا يمكن أن تكون حذرا أكثر من اللازم, وهذه القصص تطبيق عملي صادق
لصحة هذه المقولة..

د. أحمد خالد توفيق



[لينك الانضمام الى الجروب - Group Link](#)

Link – لينك القناة

مقدمة..

من ٢١ مارس إلى ٢٠ إبريل

من ٢١ يونيو إلى ٢٠ يوليو

من ٢٠ يناير إلى ١٨ فبراير

من ٢١ إبريل إلى ٢٠ مايو

من ٢٢ أغسطس إلى ٢٢ سبتمبر

من ٢٣ نوفمبر إلى ٢٠ ديسمبر

من ٢١ مايو إلى ٢٠ يونيو

من ٢١ ديسمبر إلى ١٩ يناير

من ٢١ يوليو إلى ٢٠ أغسطس

من ٢٣ سبتمبر إلى ٢٢ أكتوبر

من ٢٣ أكتوبر إلى ٢٢ نوفمبر

ومن ١٩ فبراير إلى ٢٠ مارس

-١-

-٢-

-٣-

دكتور
أحمد خالد توفيق



الآن أفهم



دار ليلس كيان كورب
الطبعة الأولى: ٢٠١٠

د. أحمد خالد توفيق

مكتبة الكندل العربية

www.arabic-kindle.com

الآن أفهم

لكيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلي

الكتاب:

الآن أفهم

المؤلف:

د. أحمد خالد توفيق

رقم الإيداع:

7248/ 2010

الترقيم الدولي:

978-977-6836-04-4

الغلاف:

محمد محمود

التنفيذ الفني:

حسام سليمان

مدير التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

المهندسين- 23 شارع السودان- تقاطع مصدق- الدور الرابع- مكتب 11

هاتف: 33370042 (02) (002)

23885295 (012) (002)

البريد الإلكتروني: mail@darlila.com

الموقع الرسمي: www.darlila.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو تقليد
أو إعادة طبع - دون موافقة كتابية - يعرض
صاحبه للمساءلة القانونية.

كـيـان كـورب
للنشر والتوزيع
دار ليلى

د. أحمد خالد توفيق

الآن أفهم



الدور الثالث.. شقة 8

مايو 2008 :

الكل يلومني.. الكل يعتبرني مزعجاً أعطل العمل وأضايق الجميع.. بابا يقول لي:

.. "العب في الشرفة يا (علاء)"

ماما تراني فلا تتكلم.. فقط تتسع عيناها متوعدتين بالويل لي.. لماذا؟.. ماذا فعلت؟.. لا أعرف.. هي لا تعرف لكنها موقنة أنني سأفعل شيئاً يستأهل هذه النظرة ..

عندما تكون طفلاً في الثامنة فإن عالم الكبار يبدو لك سخيلاً جداً، وفي الوقت نفسه لا يرحب بك بتاتاً.. لكن علي أن أكون حذراً.. في هذا الجو تتحطم أشياء كثيرة.. وسوف يبحثون عن الطفل ليوبخوه أو يضربوه. عندما يكسر الطفل شيئاً فلأنه أحمق.. وعندما يكسر الكبار شيئاً فلأن الطفل أحمق.. وضع الشيء في موضع سهل الكسر.. لكني أسمع ما يقولان همساً على باب الغرفة:

.. "أنت ترين كم الإنفاق.. هذا البيت يلتهم المال كبالوعة.. كل ما جمعته من مال السعودية قد تبخر. وماذا تفعلين براتبك؟.. لا شيء على الإطلاق.. كلام فارغ.."

.. "والمواصلات؟.. هل تدفع فيها مليماً؟"

.. "إن استقيلي وأبقي في البيت.. هذا يوفر ثمن الماكياج وما تبلين من ثياب.. ويوفر على النظرات النهممة التي تأكلك أكلاً"

.. "الرجال عندها نظر أما أنت فلا.. فقط تنفق مالك على هذه البلايغ الزرقاء التي لا تجدي في شيء.. الموتى لا يعودون للحياة"

.. "لا أعرف سبباً يدفعك للتضحية ما دام المعجبون يلقون بأنفسهم عند قدميك لهذا الحد.. فقط لو كنت امرأة حقيقية لوجدت رجلاً حقيقياً .."

.. "رجل حقيقي؟.. هاؤ!.. تشرفنا.. أين كان الرجل الحقيقي بينما مبيض المحارة يوجه لك السباب فلا تجد رداً .."

.. "ولماذا لم تتزوجي مبيض محارة منذ البداية وتريحيني؟.."

هنا تكتشف ماما أنني على بعد مترين منهما، فترفع سبابتها على شفتيها محذرة أبي من الاستمرار في الكلام.. أقود دراجتي إلى الشرفة العريضة التي تغمرها الشمس وأنظر إلى

الشارع.. هناك زحام سيارات وطلبة مدارس يعاكسون البنات ويشتمون. امرأة عجوز تتسول، وصبية في سني يخدشون طلاء سيارة جديدة، وهناك بائع فاكهة يفقد عربته.. محلات أحذية وثياب في كل ركن..

كيف أترك هذا السيرك بداخل الشقة؟.. بالنسبة لي هذا أجمل مشهد في العالم.. عمال بناء وكومة من الرمال وكومة أخرى من الأسمنت.. هناك سقالة يقف عليها رجل ضخم أسمر.. هناك خراطيم وهناك فنوس..

انتقلنا لهذه الشقة منذ شهر، لكن بابا يقوم بتجديدها ونحن فيها.. يقول إنها كانت في حالة سيئة حقًا.. نقيم في غرفة صغيرة وضع بها أبي فراشًا ومنضدة صغيرة وثلاجة وتلفزيونًا.. وهو ينوي أن نبقي فيها إلى أن ينتهي العمال من باقي الشقة، ثم ننتقل لغرفة أخرى ونبدأ في نقل أثاثنا من عند جدتي..

باختصار: هذه أجمل أيام حياتي.. فوضى وضوضاء وزحام وقذارة.. كل شيء جميل ساحر.. جبل الرمال يجعلني أتصور أنني في الصحراء، وأنني أطارد العمال على دراجتي.. معظمهم ظرفاء يبتسمون لي لكنهم مشغولون جدًا.. وقد قال لي بابا إن علي ألا أنفرد بواحد منهم لأي سبب ولا أعرف لماذا..

بابا عاد من السعودية واشترى هذه الشقة.. عاد للشغل لكنه أخذ إجازة ليراقب العمال، بينما أُمي تمضي معظم الوقت عند خالتي. العمال يصلون في العاشرة صباحًا لأنهم (بهوات) كما يقول بابا.. يعملون حتى السادسة مساء ثم يرحلون.. أحيانًا لا يأتون عدة أيام فيكرر بابا إنهم (بهوات) ويتشاجر على الهاتف مع شخص ما اسمه المهندس (عوني)..

الشقة جميلة.. لكن فيها أشياء غريبة.. مثلاً هناك ذلك المسمار الغليظ البارز من إطار باب الحمام.. هناك بقعة سوداء كبيرة على جدار الصالة وبقع أخرى سوداء في الحمام على الجدار الذي يعلو القيشاني.. هناك شرخ كبير جوار باب الشقة..

أمس قام العمال بهدم الصندرة الخشبية القديمة وأنزلوا الكثير من الصناديق.. يقول بابا إن هذه الصندرة لم تكن موجودة أصلاً لكن أحد السكان قام ببنائها ليضع فيها الكراكيب..

أشياء جميلة ومغرية جدًا.. هناك خرق ثياب وسكين ضخمة صدئة.. هناك حبل.. هناك رزمة خطابات قديمة عليها طابع بريدي يمثل فلاحًا.. هناك صندوق خشبي فارغ صغير الحجم، فتحوه فلم يجدوا فيه شيئاً سوى قصاصة ورق كتب عليها شيء ما..

ألقي أحد العمال بكومة من الكتب القديمة المتربة.. كدت ألمسها لولا أن قفزت حشرة غريبة مرعبة تبدو كسحلية وجرت على قدمي هاربة.. صرخت ..

جاءت ماما من مكان ما وقالت وهي تضرب الأرض بشبشبها:

"لا تخف.. هذه كتب قديمة مليئة بالعث والحشرات.. ابتعد وإلا اتسخت ثيابك"

كانت مشمزة جدًا.. ما إن صرت وحدي حتى فعلت ما يفعله أي طفل آخر: عكس ما تريد بالضبط.. التقطت قصاصة الورق التي كانت في الصندوق..

ذهبت للمطبخ حيث كانت ماما تعد الشاي للعمال.. انتظرت حتى صبت الشاي في كل الأكواب لأنها تلومني دائماً لو قاطعتها وهي تفعل ذلك.. ثم عرضت عليها القصاصة.. نظرت لها في شروود ثم قالت:

"مكتوب: إنه الجنون.. دعك من هذا الكلام الفارغ وناد أباك ليحمل الشاي للعمال"
كل ما نهتم به سخف في رأي الكبار.. كل ما نقول تافه.. لكن هذه الأوراق تثير اهتمامي فعلاً.. سوف أرسم فيها رسوماً جميلة..

فبراير 1965:

(صفاء) تخونني.. أعرف هذا بالتأكيد..

الأسطوانة تدور على البيك أب وصوت الست يخرج منها حارقاً لاسعاً يلهب أعصابك.. "رجعوني عنك لأيامي اللي راحوا". أتذكر (صفاء) الرقيقة الناحلة بثوبها عاري الذراعين ذي التنورة المنتفشة وهي تتعلق بذراعي في وسط البلد وتقسم أنها سوف تحبني للأبد..

هذه الخطابات التي وجدتها في ذلك الصندوق الخالي في الصندرة تقول بوضوح إنها لم تنفذ الوعد. هناك كذلك قصاصة لا أعرف معناها تقول (إنه الجنون).. الخط ليس خطها ولا خطي، فمن جاء بهذا هنا؟.. أغلقت الصندوق وأخفيت حيث كان.. لا أعرف ما أفعله ولا ما أقوله.. لا أجرو على أن أعترف بهذا لنفسي فكيف أعترف به لشخص آخر؟

تطلب مني شراء تلفزيون.. تقول إن صديقتها ابتاعت واحداً.. لا أعرف فائدة هذا الشيء، وأنا على كل حال أصحبها للسينما مرتين كل أسبوع.. تحب الأفلام الرومانسية لكن حبها لها بدأ يتزايد مؤخراً.. فلماذا؟.. شعور مرعب أن تدرك أن دموع زوجتك وشرودها وأنيبها ليلاً ليسوا لك.. بل له.. من هو؟.. اسمه (مصطفى).. هذا كل ما أعرفه عنه..

هذه الشقة كانت شؤماً علي..

أعترف أنها رحبة واسعة.. تطل على شارع نظيف تحيط به الأشجار. أمس رأيت هدهداً على الأرض جوار شجرة منها، وهو منظر نادر فعلاً. هناك كافيتيريا هادئة صاحبها رجل مسن وقور.. لكن الجمال لا يعني السعادة دائماً..

الشقة نفسها في حال متوسطة.. عيوب الطلاء.. المرحاض المهشم.. المسمار الغليظ البارز من إطار الحمام الذي فشلت في انتزاعه.. البقعة السوداء الكبيرة على الجدار.. ثم تلك الصندرة الخشبية العتيقة التي أكرهها.. لكن ميزانيتي لا تسمح بتجديد الشقة..

أنا مدرس.. هي لا تعمل.. أعتقد أن هذا لا يجعلنا ثريين، لكنه يترك لنا نصف اليوم كاملاً لنكون معاً بعد عودتي من المدرسة وتناول الغداء والقبلولة، فمتى عرفت رجلاً آخر؟.. أعتقد أن هذا يعود للأسبوعين اللذين ذهبت فيهما عند أختها عندما تشاجرنا تلك المشاجرة الأخيرة.. لا بد أن ذلك ال- (مصطفى) ظهر وقتها وكانت هي هشة نفسياً.. ثم..

تخرج الطعام من النملية وتقول لي:

"نحن بحاجة إلى ثلاجة .."

قلت لها في صبر:

"أمي وأم أمي وأم أمي كن يعرفن كيف يدبرن أمورهن بلا ثلاجة.. أنا أشتري لك كل شيء طازجاً أولاً بأول.. ثم أن الصيف لم يأت بعد.. الطقس بارد"

(ليلي) الصغيرة تبكي.. تبكي بلا توقف . بكاؤها يحكم أعصابي.. انتقلت العدوى إلى (إيهاب).. الأطفال يشعرون بتوتر علاقة الوالدين على الفور..

وأم كلثوم ما زالت تترنم..

عندما انفردنا في غرفة النوم في تلك الليلة كانت تلبس قميص النوم الكستور السميك، ثم تربعت على الفراش وفتحت مجلة المصور التي على غلافها صورة كبيرة لجمال عبد الناصر.. راحت تتصفح شاردة الذهن.. سوف تفتح مجلة حواء بعد ذلك كعادتها.. سألتها دون أن أنظر لها:

"صفاء.. من هو مصطفى؟"

.....

انتهى كل شيء في لحظات.. من المثير أن ترى كيف أن حياة المرء تنقلب 180 درجة بهذه السهولة.. وقد أدركت أنني ما دمت بلغت هذا الحد فمن الحق أن أتوقف.. يجب أن اشفي غليلي حتى النهاية.. طعنات.. طعنات.. طعنات.. السكين العملاقة التي جنت بها من المطبخ ونظرة الذهول في عينيها عندما رأتها:

"ماذا ستفعل يا (عماد)؟"

لم تخفف نظرة الاحتقار بالكامل من عينيها بعد.. حتى وأنا أظعن وأظعن.. أخيراً أقف أمام فراش غارق بالدم الساخن وأنا أدرك أن الأمر انتهى.. لا بد من أتصرف بسرعة قبل أن أدرك بالضبط حجم ما خسرت.. الآن فقط أدرك أهمية المسمار المعلق على باب الحمام.. أين ذهب هذا الحبل؟.. سوف أعقده على شكل أنشودة تتدلى من المسمار، ثم أقف فوق كرسي الحمام.. ثم أركله..

قمت بربط الحبل وتهيات لتنفيذ الخطة.. غارقاً في الدم لم أجد الوقت الكافي للبكاء بعد.. هنا سمعت صوت (ليلي) يقول وقد صحت من نومها:

"بابا.. أين ماما؟"

يا للصغيرة المسكينة!.. يا للصغيرين المسكينين!.. (ليلي) و(إيهاب).. كنت سأبدأ الرحلة وحدي وأتركهما وحيدين بلا سند.. لا يمكن تركهما في هذا العالم.. لا يمكن..

سوف أوجل موتي بضع دقائق..

أغسطس 1941:

الحرب مستعرة، والإنجليز في مأزق . بعون الله سوف يسحقهم الهر (هتلر) ورجاله الشجعان. خرجت إلى الشرفة أستنشق بعض الهواء الطلق وأنعم بالمناظر الخلابة، فرأيت الشارع خالياً اللهم إلا من رجل يصلح من وضع طربوشه على رأسه ويجد السير قاصداً مقهى (ستافروس). (ستافروس) اليوناني لطيف المعشر طيب الشمانل الذي صار إلى طباع المصريين أقرب.

تعد لي زوجتي (فاطمة) طعام الغداء وتقف في أدب بانتظار أن أدعوها للجلوس. أنظر لها نظرة تعرفها فتهرع لتحضر لي قلة الماء التي تركتها تبرد في الشرفة. أدعوها للجلوس والأكل. أكلها عن الحرب ومسارها وعن تقدم جيوش المحور في كل الاتجاهات. سبحان من سلط على الإنجليز من يرببهم ويلقنهم درساً قاسياً، حتى فروا كالجرذان لا يلوون على شيء. وكما قال الشاعر فصدق: "أسد علي وفي الحروب نعمة" ..

أحب هذه الشقة الجديدة، فهي رحبة لا تخلو من اللطافة، تدخلها الشمس طيلة اليوم بلا انقطاع. إيجارها باهظ قليلاً وقد أخبرت بهذا صاحب الملك (مرقص أفندي أسكندر) لكنه قال لي إن الغلاء صار فاحشاً بسبب الحرب وهو لا يقدر على خفض الإيجار. (مرقص أفندي) من أعيان البحيرة، بينما أنا كاتب في ديوان الحقانية لا أملك سوى الماهية.

لكني ادخرت مبلغاً صغيراً من المال، وقد أخفيته في تلك (الشكجية) التي وجدت في العلية ويبدو أن ساكن البيت الأسبق تركها هناك.. شكجية خالية إلا من قصاصة ورق كتبت عليها لفظة استغلق علي معناها هي (إنه الجنون). فلعنها رطانة مما يرطن به الأجانب.

أخبرتني (فاطمة) بعد الغداء أن ابني الغض (عبد الرحيم) كان يتلصص عبر خصاص النافذة على شرفة جيراننا. استبد بي الغضب استبداداً شديداً وبلغ مني الضيق مبلغاً، فهرعت إلى باب الحمام ودققت مسماراً غليظاً أدليت منه حبلاً، ثم جئت بالفتى الغرير فعمدت إلى ساقيه فربطتهما وعلقته من قدميه كالذبيحة في الهواء، وهرعت إلى العصا الأبنوس التي ورثتها عن أبي فأوسعت بها جسده ضرباً وهو يستغيث ويطلب الصفح. لكن حسن سمعتي وكرامة بيتي وصيتي فوق أي اعتبار. راحت فاطمة تلثم يدي طالبة الصفح فلا يزيدني هذا إلا عنفاً بالفتى . وإذا بها تقول لي:

"حرام عليك.. أنت لا قلب لك"

هنا استبد بي الغضب من وقاحتها، فتركت الفتى المعلق وانهلث عليها بالعصا بدوري. استغاثت ونبست بلفظة لا تليق بأن تصدر عن امرأتي، وهرعت إلى الحمام فلحقت بها وهويت عليها بضربة أسقطتها فوق الكنيف فتهشم من ثقلها.

أوسعت الفتى المعلق ضرباً حتى سال الدم من رأسه ولوث جدار الحمام. هنا سمعت من يقرع الباب في لجاجة لا أحدها، فأسرعت أفتحه لأجد الخادمة قد عادت من السوق وهي تحمل حقيبة ملاء بالخضر. أدخلتها وقبل أن تدرك ما يدور من حولها هشمت رأسها في الجدار جوار الباب، حتى أنها أسقطت جزءاً من الملاط.

لقد فقدت صوابي وأنا الحليم، وقتلت نفسًا بل نفوسًا بغير حق، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

مايو 2008:

بابا يخرج من الحمام.. يجدني أخط رسومًا فوق مجموعة من الأوراق القديمة الصفراء..
يهرع كالعادة ليأخذ الأوراق مني.. سوف يقول إنها مهمة ويلومني ويضربني حتى لو كانت
الأوراق بلا قيمة من أي نوع.

ركع جوارى وراح يطالع الأوراق ثم قال:

"علاء.. من أين جئت بها؟"

"من الصندرة.. هذه الورقة كانت في الصندوق الفارغ"

سمعتة يتكلم مع أمي همسًا من جديد.. يقول لها:

"ما هذا الصندوق الغريب؟.. هناك ورقة واحدة به تقول: إنه الجنون.. من جاء به هنا؟..
وكيف؟"

"أنا لست مسئولة عن كل الكراكيب التي جاء بها السكان القدامى.. سوف نتخلص من كل
شيء.."

أسمعه يقول لها:

"هل من المعتاد أن يكتب شخص عبارة كهذه ويضعها في صندوق؟.. لو سمحت لنفسى
بالتخيل لتصورت أن هناك من حبس الجنون في صندوق يومًا ما!.. هل سمعت عن صندوق
بندورا؟"

"لا أعرف.. أنت الخبير في النساء لا أنا"

"صندوق بندورا يا جاهلة.. الذي حبس فيه كل الشر في العالم وعندما انفتح عم الجحيم..
ألا يذكرك بهذا الصندوق؟.. نحن لم نكف عن الشجار منذ جئنا هذه الشقة.. هذه الشقة ملعونة
تحوي في جدرانها الغضب وضيق الخلق وربما الجنون.."

"أنت صرت مخرفًا.. كنت في أفضل حالاتك عندما كنت في السعودية.."

"لأنني كنت في حكم المختفي.. فقط أرسل لك مالا.. هذا وضع زواج مريح جدًا.."

تركتهما وواصلت ركوب دراجتي عبر غرف الشقة ووسط أكوام الرمال التي صارت جبلاً
في الصحراء.. دخلت الشرفة ورحت أراقب الشارع قليلاً.. ثم تنبّهت إلى أن الليل قد اقترب،
وأنتني أسمع ضوضاء وأصواتًا عالية من خلفي.. لماذا يتشاجر أبي مع العمال؟.. أين ذهبوا
جميعًا؟.. أشياء تقع.. صراخ..

نظرت من الشرفة حيث أنا فخيل لي أنني أرى أمي بالداخل تجري وهي تمد ذراعيها أمامها

، ثم ظهر عم (صالح) مبيض المحارة من خلفها وجرها من شعرها بعيدًا عن رؤيتي..

هناك حركة غير معتادة داخل الشقة..

هل هناك من يسن نصل سكين؟

سوف أدخل لأرى ما يدور هناك..

فالـوذج

منذ طفولتي أعشق كلمة (فالوذج) بما لها من رنين عربي أصيل، خاصة عندما تقرأها في قصص أشعب الطفيلي، وما توحى به من شيء شهى لا أعرف كنهه.. فيما بعد عرفت أن فالوذج نوع من الحلوى العربية اللذيذة. لهذا شعرت بنشوة حقيقية عندما رأيت اللافتة المضاءة في ظلام المدينة.. نقوش شرقية لا شك فيها مع عبارة (مطعم فالوذج) بخط فارسي جميل.

قال (ديمتري) وهو يغلق ياقة معطفه المبطن بالفراء، فلا تنس أن حرارة الجو تقترب من الصفر:

"مطعم تركي.. أعتقد أنك ستحل مشكلتك هنا"

قلت في انبهار وكلماتي تستحيل بخارًا أبيض كثيفًا:

"الاسم وحده وجبة كاملة"

"لا أعرف معناه.. لكن يُقال إن المطعم جيد.."

منذ جئت إلى هذا البلد وعندي مشكلة مزمنة فيما آكله. كل شيء لحم خنزير أو طهي مع لحم الخنزير أو مغلف بدهن الخنزير.. لن أندش لو كان هنا عصير خنزير كما يقول (عادل أمام).. كنت وحيدًا مترددًا متباطئًا في العلاقات الاجتماعية، وربما لم أعرف شخصًا سوى (ديمتري).. فيما عدا هذا لم أكن أفارق النزل الذي أقيم فيه أبدًا..

عامّة يطلق مصطلح (تركي) على كل شخص عربي أو مسلم في هذه البلاد، حتى لو لم يكن تركيًا على الإطلاق، لكنني عندما دخلت المطعم ورأيت صاحبه جالسًا يدخن النارجيلة، وسمعت الموسيقى التي تبدو كأنها أسطوانة لأم كلثوم تدور بالمقلوب، وعندما رأيت النادل بشاربه الكث وقامته الفارعة وصوته الغليظ، عرفت أنهم أتراك فعلاً..

هكذا جلست مع (ديمتري) إلى مائدة وضع عليها شرشف أبيض نظيف، مع مزهرية بها ورود وأداة لصب الماء تشبه الدلة الخليجية. جاءنا النادل يقدم لنا القائمة، وكانت مليئة بمصطلحات تركية لا أعرفها. خمن أنني عربي لكن ظلت مشكلة التفاهم قائمة، لذا خاطبته بالإنجليزية وسررت لأنه فهمها..

قال (ديمتري) في دهشة:

"عندما أرى عربيين مثلكما يستعملان الإنجليزية أندش.."

"هو ليس عربياً.. العرب والأتراك يختلطون في أذهانكم لكنهم مختلفون تماماً.."

جاء طبقان من الحساء.. شممت رائحته فخممت أنه يحوي لحم الضأن غالباً، ثم جاء بعدها طبق مليء باللحم المشوي.. نكهة ممتازة فعلاً.. غير معتادة لكنها تروق لي بشدة.. يبدو أن مشكلتي انتهت.. انتهت إلى أن أعرف قيمة الفاتورة طبعاً، فلربما كانت غلطة عمري هي الدخول هنا..

بعد قليل جاء طبق يشبه حساء الخضر.. أكلنا في حماسة.. وراح (ديمتري) يقول وقد بدأ جبينه يتعرق:

"توابل كثيرة جداً.. لكن هذا يجعل الأمر رائعاً.."

ملأت فمي بالطعام ثم نظرت حولي في المطعم. كانت هناك ثلاث فتيات جميلات يأكلن ويضحكن بصوت عال، وأدركت أنهن من نفس بلد (ديمتري).. هناك واحدة في الوسط بدت لي جميلة بشكل خاص.. طابع الأنامل الطويلة والأنف الطويل والعنق الطويل الذي يميز رسوم الفنان المصري (بيكار). نظرت لي وأشرق وجهها للحظة ثم عادت تحدث صديقتها...

قلت لـ (ديمتري):

"يبدو أن هذا المطعم راق فعلاً.."

لكنه لم يرد لأنه كان قد تناول قطعة من العظم من الطبق وراح يتأملها ثم رفعها أمامي وقال:

"طويلة جداً.. من أي جزء جاءت هذه العظمة؟"

بحثت عن لفظة (رَيْش) بالروسية في ذاكرتي فلم أجد.. هكذا أشرت إلى ضلوعي وابتسمت.. قال وهو يتأملها في اهتمام:

"المفترض أن هذا لحم ضأن.. هل رأيت في حياتك خروفاً بهذا الحجم؟"

"هل هناك مشكلة مع السيد؟"

كانت هذه من الساقى الذي وقف خلفي وكان ينظر لديمتري وقطعة العظم. التفتت له.. أقسم أن نظرتة كانت تطلق نازاً.. سوف يمزقنا إرباً لو لم يرق لنا الطعام. سمعت كثيراً عن مزاج الطباخين الأتراك والإيطاليين الناري، لدرجة قتل الزبون الذي ينتقد طهيهم..

كرر (ديمتري) السؤال فقال الساقى وهو يرفع بعض الأطباق الفارغة:

"إنه.... نوع من الماعز الجبلي.. يشبه الوعل كثيراً ويعيش في الأناضول"

فهمت.. فهمت...

ومن جديد رفعت عيني فوجدت تلك الحساء تنظر لي في ثبات...

* * *

منذ طفولتي أعشق كلمة (فالودج) بما لها من رنين عربي أصيل، خاصة وأنت جالس في مطعم بهذا الاسم، ترى تلك الحساء ترنو لك في إعجاب.. نحن الرجال نرنو بإعجاب فتتذمر النساء ويتجاهلننا.. غريب أن تنقلب الآية، لكني لم أتذمر على كل حال..

قال لي (ديمتري) باسمًا وقد لاحظ نظرتي:

-"اسمها (رادا)... إنها تدرس الهندسة معي في ذات المعهد.. لو أردت أن أقدمك لها فلسوف أفعل.."

-"أرجو أن تفعل.."

وهكذا نهضنا لنجلس مع (رادا) وصديقتها.. وعندما خرجنا كانت تتأبط ذراعي في مودة بينما صار الآخرون يمشون خلفنا. كان المبلغ الذي دفعناه للعشاء معقولاً جداً.. يبدو أن الأتراك قنوعون..

بعد يومين خرجت مع (رادا).. لقد صارت تعرف عني كل شيء تقريباً، وكان أن اقترحت علي أن نتناول العشاء في مطعم (فالودج).. تنطقها بلغتها الكسيحة فتبدو ساحرة.. مضحكة لكنها ساحرة..

تسألني:

-"كيف تتحمل الوحدة؟ يقولون إنك لا تخرج أبداً تقريباً"

-"أقرأ كثيراً.. إنني لذنب وحيد ولا أنكر هذا، لكن طباعي بدأت تتغير منذ.. منذ يومين!"

الثلج والبخار يتجمد على ياقة معطفي.. ويد (رادا) النحيلة في معطفها الجلدي تخرج من الفجوة التي صنعها ذراعي. في الداخل تنزع (رادا) المعطف... الثلج يذوب من على أكتافنا ليصنع بركتين صغيرتين عند أقدامنا.. تنورة أنيقة (كاروهات) وحذاء طويل العنق..

نجلس.. الصنف الذي نختاره اليوم لا أعرف كنهه لكنه نوع من اليخنة.. لحم مطبوخ بالكثير من البصل والبهارات.. نأكل في نهم.. أحب مذاق هذا الطعام كثيراً.. هي كذلك تحبه..

أقسم أنها نظرت نظرة جانبية للنادل وهو يمر بنا.. كأنها تقول له: كما اتفقنا. سألتها وأنا أملأ فمي باللحم:

-"هل يعرفونك جيداً؟"

ترتبك:

-"لا.. لا.. إنه لم ينسني من المرة السابقة.. أنت تقول إنني جمال نادر يصعب نسيانه.. هل سحبت كلامك؟"

الطعام جميل.. لكن.. أنا أمقت الشعر كأني واحد آخر.. شعرة طويلة سوداء التفت حول

الملعقة. لماذا لا يلاحظون هذه الأمور؟.. هل اخبر الساقى؟... لا.. لا داعي..

كل شيء هنا غريب.. الرائحة.. التوابل الكثيرة جداً.. لماذا يفرطون في التوابل لهذا الحد؟.. أنا جربت الأكل التركي من قبل.. ليس كثير التوابل كالأكل الهندي مثلاً... ومن جديد هذه العظام الطويلة الغريبة.

كان ذلك الرجل البدين يجلس إلى منضدة قريبة يلتهم أطناناً من اللحم المشوي وأصابع المحشو.. يأكل في لهفة ولوعة لا مبرر لهما.. يسيل العرق على جبهته.. يفك ساعته ليتمكن من مد ساعده أكثر.. يرفع كأساً من الفودكا ويجرع ما فيه مرة واحدة.. خاتم مرصع بأحجار كريمة لكنها تبدو قبيحة جداً عليه.. كأن إصبعه ملئ بالتآليل الملونة.. هذا الرجل مؤهل جداً للموت بنوبة قلبية خلال أيام.. سيموت سعيداً على الأقل... الساقى يدنو منه ويخبره بشيء ما فيلقي بالفوطة التي علقها في صدره وينهض معه إلى خارج القاعة..

قلت لـ (رادا):

"نمط هذا الرجل لابد أن يعلق الفوطة في صدره كأنه رضيع.. بينما الفوطة يجب أن توضع تحت الطبق لتغطي البنطال.."

"لقد انتهى الزمن الذي يراقب فيه الناس بعضهم.. كل ما تريد كما تريد ما دمت ستدفع الحساب"

هذا الشعور المقلق.. هذا الشعور الغريب.. أشعر بالشعيرات تتوتر في مؤخرة عنقي.. أحب الطعام في هذا المكان لكن هناك شيئاً ما لا يريحني..

طبقان من الخضر باللحم.. أملاً ملعقتي بالخضر وأرفعها لفمي.. هنا رأيت شيئاً في الملعقة.. دققت النظر أكثر..

"هل هناك مشكلة ما؟"

تسألني (رادا) فأقول وأنا أتفحص هذا الشيء:

"لا شيء.. لا شيء.."

ثم ألقى بالمنشفة في الطبق.. يجب أن ندفع الحساب ونرحل.. الآن.. ولا تسأليني عن السبب...

* * *

منذ طفولتي أعشق كلمة (فالودج) بما لها من رنين عربي أصيل، لكنني بدأت أتوتر كلما سمعت هذه الكلمة. هكذا فكرت وأنا في غرفتي أتفحص هذه الجوهرة الصغيرة التي وجدتتها في طبق الخضر.. جوهرة بحجم الحمصة لكنني رأيت مثلها من قبل..

كان هناك خاتم قبيح في يد رجل بدين.. هذه الجوهرة الصغيرة منه.. كيف سقطت منه؟.. ربما دخل المطبخ وعبث بطبق ما.. هي مصادفة غريبة جداً..

اتصلت بي (رادا) الحسناء عند الظهيرة واقترحت علي اقتراحًا جديدًا من نوعه:

"لماذا لا نتناول العشاء في مطعم (فالودج)؟"

تفكير ثوري جدًا.. قلت لها إنني سعيد لحماسها، لكن ألا تلاحظ أننا نأكل هناك للمرة الثالثة خلال أربعة أيام؟.. قالت لي إن المكان يروق لها.. فيه دفء شرقي محبب والطعام جيد.. لا تنكر هذا..

وضعت سماعة الهاتف . هنا دق من جديد.. هذه المرة كان صوت (ديمتري).. كان متحمسًا وقلقًا. قال لي:

"هل تعرف أنني سرقت عظمة من عظام ذلك الماعز الجبلي الذي أكلناه منذ أيام في مطعم (فالودج)؟"

ارتجفت واحتبس صوتي للحظة ثم سألته بقلق:

"أنت سرقت عظمة من....."

"نعم.. دسستها في جيب المعطف خلصة.. كنت أريد أن يراها خبير.. طبيب بيطري أو من يشرح الحيوانات.. لقد قال إنها غريبة جدًا، ووعد بأن يجري عليها اختبار الترسيب المناعي لمعرفة نوعها . هناك حل أفضل هو الحمض النووي لكنه باهظ الثمن ويستغرق وقتًا.. سوف يخبرني بالنتيجة الليلة"

قلت في توتر وأنا أشعر بغثيان:

"ماذا؟"

"سوف أخبرك بكل شيء الليلة.. على الأرجح سوف أطلب من رجال الشرطة مداومة هذا المطعم. هناك أسئلة كثيرة في ذهني.. على فكرة.. هناك أشخاص أكلوا في هذا المطعم مرة أو مرتين ثم اختفوا. القومسيير (يوسفافي) صديقي وقد عرفت منه أشياء كثيرة، ويبدو أنه مقتنع بوجهة نظري.."

"التي تقول...؟"

"لن أشرح الآن.. فقط لا تأكل في هذا المطعم حتى أخبرك بما عرفته.. صدقني.. الأمر خطير"

وضعت سماعة الهاتف من جديد ووقفت شاردًا ومعدتي تتقلص..

كل شيء يؤكد ما كنت أفكر فيه ولا أجرو على تصويره..

و(رادا)؟.. النظرة التي تبادلتها مع النادل لا تفارق ذهني. هل هي تحب المطعم فعلاً أم تحب استدراج الناس له؟.. أنظر لوجهي في المرأة.. وجه عكر قبيح يثير الكآبة في النفس ويوحى بالسقم، وهي نضرة كالزهرة.. كأرنب صغير رشيق.. قل لي ما هي المعجزة التي تجعل فتاة كهذه تعجب بي بمجرد النظر؟..

إننا نصير أغبياء أمام الجمال.. هذه حقيقة..

هكذا قضيت ساعات قلقة حتى المساء.. لم أذهب للمطعم طبعًا. خرجت لقضاء بعض الأعمال، وعندما عدت استحمت بالماء الساخن وجلست جوار الهاتف..

طبعًا لم يتصل بي (ديمتري). اتصلت بي صديقتة (ماشا) تسأل عنه.. لقد خرج ولم يعد.. اتصلت به في كل مكان ممكن فلم تجده.. لم أقل لها إن (ديمتري) لعب دور من يعرف أكثر من اللازم في أفلام العصابات أو (الفيلم نوار)..

قلت لها:

"اسألي عن القومسيير (يوسفافي).. لابد أنه يعرف مكانه"

وجلست جوار الهاتف..

عندما اقتربت الساعة من الثانية صباحًا أدركت أنني لن أستطيع البقاء ساكنًا للأبد.. سأجن.. يجب أن أعرف.. سوف أقتحم مطعم (فالودج) وأعرف الحقيقة بنفسني..

* * *

منذ طفولتي أعشق كلمة (فالودج) بما لها من رنين عربي أصيل، وحتى هذه الليلة أشعر بحنين لهذه الكلمة وأنا أرى اللافتة المطفأة في آخر الشارع. أشعلت لفافة تبغ بصعوبة بالغة لأن يدي تجمدتا فعلاً بسبب الصقيع والثلوج والرياح الباردة..

مشيت حتى بلغت باب المطعم ثم بدأت أدور حوله بحثًا عن طريقة للدخول.

بالطبع لابد من باب آخر.. باب يخرج العمال منه ويدخلون، وتدخل المون ويخرجون القمامة. القمامة التي لو فحصتها جيدًا لفهمت كل شيء. هكذا واصلت المشي. فجأة تصلبت وقد رأيت بابًا مفتوحًا.. أرى رجلاً لعله عامل بالمطعم يخرج صندوق قمامة كبيرًا ثقيلًا مبتعدًا.. طبعًا لا وقت لفحص هذه القمامة لأن الباب مفتوح والفرصة سانحة.. تسللت إلى الداخل بسرعة قبل أن يعود، لأجد نفسي في كواليس مطعم (فالودج) لو اعتبرنا أن خشبة المسرح هي قاعة الطعام..

بالفعل كان هناك مطبخ كبير مظلم. أخرجت الكشاف الصغير الذي أحمله ورحت أتفحص عشرات الأنية وأدوات الطعام وصفوفًا متراسة من السكاكين.. لا بأس من أن أنتقي أكبرها على سبيل الاحتياط..

ثم الثلاثة!.. الثلاثة العملاقة الجديرة بمطعم والتي يمكن أن يسجن فيها إنسان. اتجهت وفتحت المقبض.. كانت أكياس اللحم معلقة على خطاطيف.. فتقدمت ومزقت أول كيس وفحصته على ضوء الكشاف.. لا شيء.. هذا لحم بقري ولا شك في هذا.. أنا لا أخطئ في هذه الأمور.. الكيس الثاني.. هناك رأس وعنق حيوان يشبه الوعل.. هل هذا هو الماعز الجبلي غريب المذاق؟

ربما لو فحصت الأرضية.. لن يعلق أحد أشياء كهذه لتبدو واضحة للعيان.. لا شيء..

كنت منحنياً أتفحص الأرض عندما شعرت بالمسدس يلتصق برأسي من الخلف، ومن يقول بروسية ثقيلة:

"انهض بلا حركات عصبية"

نهضت وقد أدركت أنني أسأت الحكم على مدى ثقل صندوق القمامة. لقد تخلص منه بسرعة جداً. استدرت ببطء لأجد الوجه التركي الفظ والعينين المحتقتتين.. إنه نفس الرجل..

"ماذا تريد منا؟"

قلت بثبات وأنا أنظر في عينيه:

"الرجل البدين الذي كان يلبس خاتماً مليئاً بالمجوهرات.. أين هو؟"

دهش من السؤال.. ثم قال وهو يتراجع للخلف:

"صاحب المطعم؟.. ماذا تريد منه؟.. هو لا يقيم هنا.. يأتي للأكل وتفقد الأمور.. لكن ما شأنك أنت؟"

كنت أشعر بخيبة أمل.. إنه صادق.. لا شك في هذا.. مطعم يقدم لحم الماعز الجبلي المليء بالتوابل لا أكثر.. مطعم صاحبه بدين يفقد مجوهرات خاتمه في أطباق الطعام.. مطعم ينسى بعض الشعر في الأطباق.. (رادا) كانت بريئة إذن.. هي أحببت المطعم ولم تكن تستدرجني له..

خيبة أمل شديدة.. لم يدرك الرجل كم أنا سريع الحركة ولا أنا شرس خطر إلا عندما ركلت المسدس الذي يحمله، ثم أغمدت السكين في عنقه.. فظل ينظر لي في شيء من الدهشة واللوم قبل أن يسقط على الأرض..

لشد ما أنا حزين.. حسبت أن هذا المطعم قد حل مشكلتي وأنتي سوف أجد فيه نوع اللحم الذي أريده والذي اعتدت أكله، والذي هربت من مصر كلها لأبحث عنه في مكان لا يعرفني... لكنه مجرد مطعم بريء آخر..

لقد دفع (ديمتري) صديقي الوحيد حياته ، لأنني لم أرد أن يبلغ الشرطة ويفسد علي هذا الاكتشاف الجميل.. والآن أكتشف أنني قتلتها بلا داع.. يا للعار!

لكني لن أخرج خالي الوفاض.. النادل التركي يرقد على الأرض والمطبخ تحت أمري حتى الصباح. لدي ما يلزم كي أشبع حاجتي وكي أقاوم نفسي لفترة أخرى.. أيام.. أسابيع.. و(رادا)؟.. على الأرجح ستكون الضحية القادمة ما لم تقطع علاقتها بي لسبب أو لآخر..

منذ طفولتي أعشق كلمة (فالوذج) بما لها من رنين عربي أصيل، لكن كلمة (فالوذج) سوف تكتسب مذاقاً خاصاً هذه الليلة بالذات.

في انتظار التترات

سأعترف لك بشيء: أنا أمقت أكلة لحوم البشر.. إنهم سمجون يفتكرون لروح الدعابة، ولهم عادات غذائية مقززة نوعاً..

مصاصو الدماء كذلك لا يوحون بالثقة.. إنهم يكذبون كثيراً جداً.. موضوع أن تسمح لهم بالدخول بكامل إرادتك الحرة يجعلهم لا يكفون عن الكذب.. أما المذءوبون فهم لطيفو المعشر.. لا أملك تحفظات ضدهم، لكن عليك أن تتذكر التقويم القمري جيداً.. لو جلست مع رجل مهذب، ولاحظت فجأة مع قدوم الليل أنه متوتر قلق وأن عينيه تحمران وأنه يريد أن يترك وشأنه.. ولو دفن وجهه بين ذراعيه ثم رفعه لتجد أنك تحرق في وجه ذنب، فهي مشكلتك أنت..

الزومبي كذلك لا يروقون لي بسبب رائحتهم الكريهة.. هم بطيئو الحركة ويمكن أن نفر منهم، لكنك تنسى عامل (الدهولة) أو التورط، حيث ترتبك وتتعثّر وتسقط على الأرض، وحينما تنهض على قدميك تكتشف أنك محاط بعشرين منهم.. إنهم يتحركون ببطء لكن بثقة..

بصراحة.. لو كان عليك الاختيار ولو كان عليك أن تجد عريساً لابنتك، فعليك بالمذءوبين.. فقط تأكد من أن تبتعد يوم الاكتمال القمري..

أقدم لك نفسي.. (ديفيد كالاواي).. بطل أفلام رعب.. لا أعني أنني ممثل بل أعني أنني أعيش في فيلم رعب فعلاً.. أنت مندهش.. أليس كذلك؟.. أنت تعتقد أنه لا وجود لحياة بطل الفيلم داخل الفيلم.. إنه مجرد سيناريو مكتوب وممثلون.. حسن.. دعني أؤكد لك أن لنا حياتنا الخاصة بالداخل.. أنا كائن حي لي إرادة مستقلة داخل الشاشة..

لماذا أنا (ديفيد)؟.. هل رأيت فيلمًا أمريكيًا بطله ليس (ديفيد) أو (سام) من قبل؟.. إن سيطرة اليهود على هوليوود أمر صار مملاً..

هناك قواعد عامة جمعها محبو أفلام الرعب ليعرف بها البطل كيف يظل حيًا حتى تترات النهاية.. أنا جربت هذه النصائح ووجدتها مفيدة كلها.. والسبب هو أن كتاب أفلام الرعب ينقلون من بعضهم نقلًا حتى صارت هناك قواعد ثابتة نعرفها..

في البداية أنا أراقب التترات لأعرف أين اسمي بالضبط.. لو كان اسمي هو الأول ضمن الممثلين فأنا سأعيش حتى النهاية.. طبعًا هناك أفلام إيطالية شنيعة اسمها (الجياللو) يموت فيها الجميع حتى البطل والمخرج والمصور، لكن سنفترض أن هذا الفيلم أمريكي..

هناك طريق سريع في مكان ما من الغرب الأمريكي.. أنا أقود سيارتي الفارهة جوار فتاتي وأصغي لموسيقا الروك. اسمها (سارة) – تأثير يهودي آخر – وترتدي ثيابًا خليعة.. هي كذلك

مدمنة مخدرات.. هكذا أعرف يقيناً أنها ستكون الضحية الأولى.. الفتيات الخليعات يمتن في نصف الفيلم الأول..

يمكنني الآن أن أصنف الفيلم الذي نحن فيه بسهولة.. هذا من أفلام الطرق السريعة.. هناك مليون فيلم بهذه الطريقة.. رحلة في طريق سريع مقفر.. ربما تطاردنا شاحنة مجنونة أو يستوقفنا شرطي سير أو تتعطل السيارة.. بعد هذا نجد نفسينا في بلدة ليست على الخرائط، ويعيش فيها أكلة لحوم بشر أو عبدة شيطان أو مسوخ تشوهت بالانفجار النووي.. طبعاً الشرطي جزء من هذه المؤامرة.. و.. فعلاً.. السيارة تصدر أصواتاً غير مريحة على الإطلاق.. إنها موشكة على أن تتعطل..

ماذا ينتظرنا.. هل لاحظ أحد اسم الفيلم؟.. هذا غريب.. أنا لم ألاحظه وكان يمكن أن يساعدني.. لو كان اسم الفيلم (الغيلان) أو (عندما يكتمل القمر) مثلاً لأمكننا أن نتوقع ما سنراه..

قالت (سارة) وهي تقذف في فمها بقطعة لادن:

-"اسم المخرج (خافير لوبيز)"

آه!!.. ذلك الوغد المكسيكي السادي!!.. أعرفه.. سوف يكون فيلماً دامياً فعلاً، فهو على شيء من المرض النفسي.. غالباً لن يكون هناك شيء خوارقي.. مجرد مجموعة من السفاحين.. سوف نرى.. سوف نرى...

* * *

السيارة تالفة فعلاً.. لا أعرف ما المشكلة، لكنني انظر إلى الأفق عالماً أنني سأرى البلدة.. لا شك في هذا.. لو لم توجد بلدة فلا فيلم هنالك.. سارة تنتظر لي عبر زجاج السيارة وتلوك اللادن.. لو تركتها هنا سأعود لأجد عنقها قد طار طبعاً.. ربما كان من الأفضل ان تأتي معي..

طلبت منها أن تلحق بي، ولم أنس أن أدس في جيبتي مسدساً وخنجرًا.. معي صليب صغير لكنني لن أستعمله، فأنا متأكد من أن هذا ليس فيلم مصاصي دماء.. مصاصو الدماء تقابلهم في الأفلام ذات الجو الفكتوري.. حيث الشمعدانات والكونتيسات والقلاع المهجورة، أو تقابلهم في صورتهم العصرية بمعاطف الجلد الطويلة وموضات (البانك) فوق أسطح نيويورك..

مشينا في الصحراء بعض الوقت.. أعرف أن الظروف مناسبة جداً كي تخرج دودة عملاقة من الرمال تبتلع سارة وتغوص ثانية.. لكن هذا لم يحدث..

هذه هي البلدة.. خالية تماماً والرياح تعوي في شوارعها، وهذا الباب يفتح ويغلق بلا انقطاع.. هناك كنيسة صغيرة أو ما يبدو كذلك.. بالطبع لا تكون الكنيسة كنيسة في هذه البلدان المهجورة أبداً.. أنت تدخل لتجد مذبحاً تمارس فيه عقيدة غامضة.. ربما تجد فتاة مقيدة يستنزفون دمه..

هناك حانة صغيرة.. ندخلها.. وأتجه إلى الكاونتر وأقرع الجرس..

لحظة!.. هل تلاحظ أن صوت الموسيقى قد توقف؟.. كانت هناك موسيقى تصويرية وتوقفت.. ثمة شيء موشك على الحدوث!...

سارة تفتح خزانة جدارية صغيرة فيعوي قط واثبًا منها.. تطلق سارة صرخات الهلع وتثب للخلف.. ثم تهدأ قليلاً وقد أدركت أن هذا قط..

لكني أعرف أفضل منها.. القط في أفلام الرعب لا يمر بسلام أبداً.. إنه خضة مزيفة تجعلك تطمئن قبل أن يأتي الرعب الحقيقي بثوان..

قلت لها وأنا انظر حولي:

"سوف يثب شيء علينا الآن.. توقف الموسيقى التصويرية لا يريحني"

هنا حدث ما توقعت.. انفجرت الموسيقى التصويرية، وثب ذلك الرجل من خلف الكاونتر.. رجل ذو وجه مشوه تمزق أكثره.. وثب علينا ثم سقط وقد اصطدم بالكاونتر نفسه.. ارتطم رأسه بالرخام وتكوم هناك خلفه..

جريت لأعرف ما حل به فأدركت أنني كنت محققاً بصدد نوعية الرعب في هذا الفيلم.. هذا رجل تعرض لخطر مرعب.. خطر يلتهم أكثر جسدك.. هل هو صاحب الحانة؟.. لا أعرف.. إنه ميت..

سمعت سارة تصرخ من جديد فنظرت للخلف..

كان ذلك المسخ الشبيه بالإنسان يزحف على أربع خارجاً من باب جانبي.. إنه يحمل شكلاً بشرياً لكنه يعوي كالذئب والدم يسيل من شذقيه.. لا داعي للبحث عن قتل الساقى أو صاحب الحانة.. إنه أمامي الآن..

أخرجت المسدس وأطلقت ثلاث رصاصات على ذلك الشيء فعوى بجنون ثم تكوم على الأرض في بركة دم..

سألت سارة وهي ترتجف:

"ما.. ما هذا؟"

ركلت الجثة بطرف حذائي وقلت:

"نتيجة تجربة نووية يقوم بها الجيش الأمريكي في هذه الصحراء.. هذا احتمال. ربما التوعم السيامي المشوه لصاحب الحانة.. ربما هناك عالم مجنون قريب من هنا يعبث بالجينات.."

"لكن هذا مرعب.."

"ومن قال يا عزيزتي أننا في فيلم كوميدي أو عاطفي؟.. هذا فيلم رعب فلا أقل من أن يتم إرعابنا.."

فقط أدعو الله ألا يكون فيلماً كل مهمته أن يعرض لنا براعة الماكير.. إن هذه الأفلام كثيرة

جداً.

سمعت سارة تصدر صوتاً غريباً فنظرت لها.. كانت تعوي كالوحوش، ثم أنها سقطت على يديها وركبتيها وبدأ الزبد يسيل من شديقتها!

يا لك من مخبولة!.. هل جرحك المسخ فنقل لك العدوى؟.. لقد تحولت بسرعة جداً.. كنت أعرف أنك ستموتين لكن ليس بهذه السرعة!!

* * *

ضغطت على أعصابي وصوبت المسدس نحوها وأطلقت رصاصتين.. ما زالت معي عشر طلقات في جيبي، ومع رصاصة فضية لو قابلت مذعوباً لكن لا أعتقد أنني سأحتاج لها في هذا الفيلم.. المخرجون المكسيكيون لا يحبون المذعوبين.. ليسوا جزءاً من ثقافتهم..

ونظرت في حسرة إلى الجثة.. جميلة جداً للأسف ولم أقبلها ولا مرة، لكن سيكون علي أن أحرق جثتها وجثة صاحب الحانة لأن هذه المسوخ تنهض دائماً في الوقت غير المناسب..

هكذا أحضرت عدداً من زجاجات الخمر وسكبتها على الجثتين وتأهبت لأن أشعل عود ثقاب، عندما سمعت من يقول بصوت واهن:

-"المقبرة.. كل شيء بدأ من المقبرة"

مشيت بحذر نحو مصدر الصوت فوجدت ذلك المزارع العجوز يجلس على الأرض في ركن القاعة محملاً في الفراغ وهو يردد:

-"المقبرة.. اذهب هناك لتعرف بنفسك"

عندما دقت النظر أدركت أنه كيف.. القاعدة الأولى في أفلام الرعب هي أن العجوز أو الأبله الذي يردد: (المقبرة أو البحيرة) صادق دائماً ويعرف الكثير، لكنه كذلك يموت مبكراً جداً. القاعدة الثانية المهمة هي: لا تذهب هناك أبداً.. (هناك) هذه قد تكون أي مكان.. فقط لا تذهب إليه..

تركته حيث هو وقد نسيت موضوع الحرق هذا.. في الخارج كان العصر يغمر البنايات بشمس غير الرحيمة، وكانت الريح الساخنة تهب من مكان ما مع الرمال..

رأيت من خلف البناية سيارة شرطة تقترب.. إنه المأمور.. يترجل منها وهو يحمل بندقية من الطراز الذي يشدون فوهته للتلقيم فتحدث صوت (كليك كلاك كليك).. لا أعرف اسمها لكنها موجودة دائماً في هذه الأفلام..

صبراً.. لقد سمع صوت الطلقات وجاء يتبين الأمر.. مأمور الريف بالكروش والسرول المتدلى والقبعة والنجمة على صدره وكل (الألطة) اللازمة.. لكن هذا المأمور يملك شيئاً آخر هو اللسان المشقوق الذي يخرج ويدخل بلا توقف.. إنه منهم لو كان لي أن أقول هذا..

كان ظهره لي ولم يكن أمامي الكثير من الوقت لأتردد.. أحكمت التصويب ثم أطلقت رصاصة

دقيقة على رأسه.. استدار ونظر لي ثم سقط أرضاً.. المؤثرات الخاصة بإطلاق الرصاص غير متقنة في هذا الفيلم.. كان ينبغي أن تقذفه الطلقة للأمام وأن نرى الثقب بوضوح والدخان يتصاعد منه، فلا بد أن هذا فيلم قليل التكاليف صنعه مستقلون عن نظام هوليوود Indies..

على كل حال اتجهت لجثته وانتزعت البندقية من يده..

سوف تكون مفيدة عندما نصل لذروة الفيلم..

اتجهت إلى سيارة الشرطة واتخذت موضعي خلف المقود.. كان صوت جهاز اللاسلكي عاليًا فسمعت من يقول:

-(روي).. نحن متأكدون من وجود شاب وفتاة في الحانة.. سنعد النار ومعدات الشواء إلى أن تعود بهما!"

فهمت.. هذه القصة مكررة أكثر من اللازم.. حسب أفلام الرعب الأمريكية، فمن النادر جدًا أن تقابل بلدة في ضاحية يأكل أهلها الدجاج واللحم البقري.. كلهم يأكلون البشر..

بدأت الجثتان في الحانة تتحركان.. تمشيان.. ثم رأيتهما على الباب.. سارة وصاحب الحانة يتقدمان نحوي.. طبعًا تمسك سارة بذراع العجوز الكفيف وتقضم منها قطعًا.. لقد صار هذا مملاً خاصة أن الذراع غير متقنة الصنع..

أدركت المحرك وأنا أعرف أنه لن يدور.. مهما كانت السيارة جديدة فالمحرك لن يدور ما دمت أستخدمها للهرب.. هيا.. كرو كرو.. كرو كرو.. كرو كرو..

أخرجت فوهة البندقية من النافذة وفجرت رأسي الاثنين مرة أخرى.. ثم عدت أحاول.. أخيرًا.. دارت السيارة وانطلقت تنهب الطرقات..

صحت في فرحة ونظرت لمرآة الرؤية الخلفية فرأيت ذلك الشيء الذي كان يتوارى في المقعد الخلفي!.. لقد نسيت أنك لا تنجح أبدًا في الفرار بالسيارة في أفلام الرعب!

الأسوأ هو ذلك الصف من الموتى الأحياء الذي يقف ليسد الطريق علي.. لا يهم.. سوف أصدم هذا الجمع فأمرق عشرة على الأقل!

* * *

اندفعت السيارة وسط صفوف الموتى الأحياء.. إن ذوي الأعناق الحمراء Rednecks لا يطاقون أصلاً، فكيف لو تحولوا إلى زومبي؟

يمدون أيديهم عبر الزجاج.. أحدهم وثب على الزجاج واصطدم به وتهشم وجهه فسال.. يحب المخرجون الجدد هذه المؤثرات المقرفة جدًا.. لكن أعتقد أن هذا المسخ الذي ضرب الزجاج صُنع بالكمبيوتر CGI لأنه لا وزن له تقريبًا، ويظهر بتلك الطريقة غير المقنعة المميزة للتحريك الرديء..

استدركت وأنا مستمر في القيادة وأطلقت طلقة واحدة على رأس ذلك الشيء الذي كان في

المقعد الخلفي..

دخان ورائحة البارود ومخ ذلك الشيء.. سينجح هذا الفيلم لأن الأمريكيان يحبون هذه الأشياء..

أوقفت السيارة أمام تلك البناية الخشبية وجريت لأدخلها.. ومن بعيد سمعت صوت من تبقى حياً من هؤلاء قادمين نحوي ببطء لكن بثقة.. هناك مخزن بالداخل وهناك برميل وقود ركلته ليغرق الأرض، ثم وثبت من نافذة صغيرة هناك إلى الخارج وواربتها خلفي.. بسرعة درت حول البناية ورأيت آخر هؤلاء الموتى الأحياء يترنح ليدخل البناية.. بسرعة أغلقت الباب من خلفه ووضعت صخرة خلفه..

جريت للنافذة الصغيرة وأشعلت عود ثقاب ثم فتحتها وأنا أطلق سبة بذينة.. يحب الأمريكيان الشتائم التي تبدأ بحرف F أو S على كل حال.. ألقيت بعود الثقاب وأغلقت النافذة وابتعدت.. هذه لحظة رائعة.. سوف يجد المخرج ضالته وهو يظهر احتراق هؤلاء القوم وهم يترنحون، أو وهم يدقون على الباب محاولين الخروج..

البناية كلها تشتعل.. الدخان الأسود يتصاعد لعنان السماء وأنا ألهث.. لكن التترات لم تبدأ بعد.. ما السبب؟.. إذن هو من نوع الأفلام السخيفة التي تعد للمشاهد خضة أخيرة بعد ما يحسب البطل أنه قتل المسوخ.. غالباً ستخرج يد مشتعلة من وسط النيران لتمسك بي.. أو.. لكن اليد جاءت من الخلف..

لا أعرف كيف ألقوني على الأرض ولا كيف وضعوا الأصفاذ في يدي.. إنهم رجال شرطة.. هذا واضح.. ترى هل تحولوا بعد؟

هناك رجل شرطة ينظر لي في دهشة حيث رقدت وسط الرمال.. تفحص البندقية وتشممها ثم نظر إلى البناية الخشبية التي صارت رماداً، وأمسك بجهاز لاسلكي وسمعه يقول:

"نعم.. فات الوقت لإنقاذ أي واحد منهم.. مجنون جاء إلى البلدة مع فتاته.. فجر رأس صاحب الحانة وقتل صديقه والمأمور.. ثم دهم مجموعة من المزارعين بسيارة مسرعة.. وفي النهاية حبس مجموعة أخرى في مخزن وأشعل فيه النار..!"

ثم ركلني بطرف حذائه حيث رقدت على الرمال وقال:

"لا بد أنك قتلت عشرين واحداً أيها المجنون!"

انفجرت في الضحك وصحت:

"كل هذا فيلم سينمائي.. ألم تفهم بعد؟.. أنا وأنت وهم في فيلم سينمائي مرعب.. سوف تبدأ تترات النهاية حالاً!"

أنا في المصحة الآن.. مقيد في الفراش ولا أفيق تقريباً من كثرة ما يصبون في دمي من عقاقير مهدنة..

لا أعرف.. إنهم يعتبرونني مجنوناً خطراً بينما أنا لم أفعل شيئاً سوى أن حاولت إنقاذ

نفسى.. هذا ليس هو الواقع بل هو مجرد فيلم يراه الناس في قاعة مظلمة.. ألا ترى هذا معي؟.. أنت اقتنعت بوجهة نظري وصدقت أن هذا فيلم ، فلو كنت أنا مجنوناً فأنت مجنون مثلي..

سوف تكتب كلمة النهاية وتتصاعد التترات.. أعرف هذا يقيناً وأنتظره.. لا أعرف لماذا تأخرت التترات لكنها آتية حتماً!

التآكل

سوف يستغرق الأمر وقتًا طويلاً جدًا قبل أن يعرف الناس من أين جاء التآكل..

خمسون يومًا لا أكثر، لكن لشد ما تبدل العالم وتغير كل شيء.. وأنا أجلس هنا في هذا الوكر الضيق أنتظر النهاية ولا أعرف إن كانت ستأتي حقًا، ومن أية جهة؟ ، وبأية طريقة؟

أعتقد أن كل شيء بدأ في يوم جمعة هادئ عندما كان الناس عاندين لبيوتهم لتناول الغداء، وقد انتهت صلاة الجمعة منذ ساعة.. لا بد أن أول الضحايا كان ذلك البقال العجوز . كان الزبائن يتزاحمون عنده ويكلمونه وفجأة بدأ وجهه يتآكل.. وبدأت عظامه تبرز للعيان.. ثم هوى على الأرض وثمة شيء كأنه بخار أخضر ينبعث منه، وفي اللحظة التالية أدرك الزبائن المذعورون أنهم ينظرون إلى هيكل عظمي تكسوه الثياب..

لم يصدق أحد ما حدث حتى تهافت الضحية الثانية خلال ثلث ساعة.. ثم الضحية الرابعة..

هرع الناس إلى أجهزة المذياع والتلفزيون يبحثون عن أنباء.. يبدو أن هناك حوادث مماثلة في أكثر من مكان بالقاهرة.. ثمة شيء غير مفهوم..

يبدو أن فريقًا من منظمة الصحة العالمية جاء إلى مصر على وجه السرعة. بعد يوم وجد العلماء أن هناك حمضًا نوويًا وجزئ بروتين يملأ الأنسجة الباقية من الضحايا، وقد استطاعوا نقل العدوى لحيوانات التجارب بحقنها بهذا الجسم المبهم.. وخلال ساعات كان العالم قد عرف أن هناك فيروسًا مجهولاً جاء من مكان ما.. فيروسًا يقضي على ضحاياه خلال دقائق، وهذا عن طريق إذابة الأنسجة العضوية كلها..

ما كان يحتاج إلى أعوام في الماضي صار يحتاج إلى دقائق في عصر أجهزة الكمبيوتر الجديدة وكل ما صرنا نعرفه عن الهندسة الجينية.. لقد وجدوا الفيروس واستطاعوا تتبع تركيبه الجيني الذي يحوي قواعد لم يعرفها العلم من قبل.. قواعد غير أرضية.. وتذكر الجميع ما تنبأ به العلماء منذ دهر أن اللقاء الأول مع الكائنات الفضائية لن يكون لقاء مع كائن أخضر له هوائي على رأسه، بل هو على الأرجح سيكون مع كائنات وحيدة الخلية كالبكتيريا أو لا خلايا على الإطلاق كالفيروسات.. وسرعان ما صار اسم الفيروس الجديد هو Erosion أي (فيروس التآكل)..

من أين جاء؟.. كيف هبط على كوكب الأرض؟.. لا أحد يدري..

فقط عرف الناس أنه سريع جدًا.. ينتقل بسرعة جهنمية محدثًا نتائج وخيمة. يبدو أنه ينتقل بكل السبل المعروفة.. بالفم.. باللمس.. بالاستنشاق.. بالنشاط الجنسي.. بالحقن.. بلوغ

الحشرات.. حتى قال أحدهم مازحًا إنه ينتقل بالنكات البذيئة. قال هذا طبعًا قبل أن يسقط ميتًا ويذوب..

التآكل في كل مكان.. إنه يزحف قادمًا من قلب المدينة.. يجتاح أحياء بأكملها.. هناك شقق كاملة صارت مغلقة بلا أحياء بعد ما ذاب قاطنوها.. حافلات توقفت في وسط المدينة لأن السائقين لاقوا نهايتهم.. مدارس لم يعد فيها أحياء.. لقد ضرب الفيروس بسرعة شديدة جدًا قبل أن تضع أية جهة سياسة لمقاومته..

أنا حي.. لا أعرف السبب ولا لماذا لم أمت، لكن يصعب أن أقول إنني سعيد الحظ، عندما أنظر من الشرفة فأرى كل هذه الهياكل العظمية المغطاة بالثياب ملقاة في كل مكان.. عندما أتذكر أن زوجتي لم تعد من العمل.. لم تعد بعد ثلاثة أيام.. وعندما ذهبت إلى هناك لم أر إلا هياكل عظمية ترتمي على المكاتب..

ازداد الأمر سوءًا عندما انقطع إرسال المذياع والتلفزيون فالتفت.. صرت معزولاً بالكامل، وعرفت أن ذات السيناريو يحدث في أرجاء القاهرة.. من يدري؟.. ربما أنا الشخص الوحيد الحي، لكن تصور هذا صعب طبعًا.. لسنا في فيلم سينمائي هنا، وبالتأكيد هناك أحياء في أماكن أخرى لكن كيف أجدهم؟

إن من ماتوا سعداء الحظ بالتأكيد.. لم يعرفوا أنهم يموتون، بينما أنا أرتقب وأرتجف ذعرًا وأنتظر الموت دقيقة بدقيقة.. والسؤال الأهم الذي يساوي الملايين هو: لماذا ظللت حيًا حتى الآن؟.. شيء ما حماني طيلة هذا الوقت، وعلي أن أحافظ عليه..

* * *

أنا هنا في تلك الشقة الضيقة التي وجدت بابها مواربًا.. لماذا لم أظل في بيتي؟.. لأن زوجتي وأولادي أصيبوا بالعدوى على الأرجح، ولا أضمن ألا يكون السبب هو أن هناك مصدرًا للعدوى في شقتي..

هذه الشقة في بناية مجاورة لبيتي.. لا توجد فيها أجهزة تكييف، والنوافذ مغلقة، كما أن الحمام لم يستعمل منذ دهور.. شقة معقمة جدًا خالية من البشر تمامًا منذ زمن.. يمكن أن تكون هذه نقطة بداية صحيحة.. هناك صراصير حية وأنا أعتقد أن الصراصير بدأت تهلك في الخارج نتيجة الوباء. هذه علامة صحية أخرى.. أذكر العصافير حببسة الأقفاص التي يحملها الناس قرب مواقع التسرب النووي باعتبارها عدادات (جايجر) بيولوجية فائقة الحساسية.. لو انقلب العصفور ومات فانت في خطر..

فلأبق عيني على الصراصير.. فلألاحظها جيدًا..

لدي مخزون من الطعام المحفوظ ولا أظن هذا خطرًا.. قمت بمغامرة نزلت فيها إلى سوبر ماركت في قمة الشارع وتحسست طريقي وسط الهياكل العظمية المتناثرة وأنا اكنم أنفي بمنديل، وحصلت على خزين من المعلبات مع زجاجات ماء معدني كثيرة.. أعتقد أنها قد عبئت قبل أن يبدأ الوباء.. لا شك أن مياه الصنبور خطيرة فعلاً..

الآن يمكنني أن أحاول فهم سبب نجاتي..

تعلمت منذ زمن أن أبدأ يومي بملعقة من العسل الأبيض وابتلاع فصيص ثوم.. هذه العادة قد تكون مسئولة عن نجاتي.. ربما كان الحل في العسل الأبيض أو الثوم؟.. لكن لا.. تصور هذا صعب، لأن هناك الكثيرين يمارسون ذات العادة..

أنا مصاب بزيادة في حموضة المعدة.. أذكر قصة ذلك الطبيب الذي تحدى روبرت كوخ عندما زعم الأخير أنه وجد البكتريا الواوية المسببة للكوليرا.. تحداه لدرجة أنه شرب مزرعة كاملة من البكتريا فلم يصب سوى بعسر هضم بسيط!.. هكذا وجد كوخ نفسه في موقف كريبه فعلاً.. فيما بعد قال المفسرون إن الطبيب الذي شرب المزرعة كان يعاني من زيادة في حموضة المعدة وهذه قتلت بكتريا الكوليرا على الفور.. ربما تحميني حموضتي من الموت؟.. لا أدري.. هناك ألعاب مناعية لا يمكن فهمها.. لماذا يسعل مريض الدرن في وجه رجلين فيصاب الأول بالدرن وينجو الثاني؟.. لا أعرف..

على كل حال يمكنني أن أواظب على العسل الأبيض، فلا سبيل للحصول على الثوم الآن.. كم سألني هنا؟.. لا أعرف..

كنت أجلس في الظلام خالي الذهن كعادتي مؤخراً.. أتعامل مع العالم بشيء من الغباء سببه عدم وجود منبهات حسية من أي نوع.. هنا شعرت بذلك الفم الدافئ يلحق قدمي.. صرخت ووثبت في الهواء متراً، ثم أدركت أن هذا القادم قط صغير.. قط أضناه البحث عن طعام أو بشر.. من دون ناس يصعب أن يجد فضلات يأكل منها..

تعاملت معه بحذر وخوف في البداية لأنني خشيت أن ينقل لي العدوى، ثم تذكرت أن المرض قاتل سريع الفتك.. على الأرجح كل من هو حي مأمون كذلك.. سوف يعيدني هذا القط العزيز إلى عالم الأحياء وسوف أكلمه طيلة اليوم..

هكذا تركته في الشقة وركضت ركضاً حتى ذلك السوبر ماركت والكمامة على أنفي.. من الصعب أن أجد لبناً صالحاً بعد خمسين يوماً، لكن القط لا تبالي بهذه الأمور.. هكذا جلبت له عدة أكياس من اللبن وعلباً من اللحم المحفوظ..

عدت إلى البيت ركضاً لكنه لم يكن هناك.. لقد تركت الباب موارباً ومن الواضح أنه فر.. بحثت بدقة أكثر فوجدته على بعد ثلاثة أمتار من فتحة الباب.. كان ميتاً.. الفيروس قد قضى عليه فصار هيكلاً عظيماً..

وجدت مكنسة بالشقة فأخذتها ودفعته دفعاً حتى تدحرج من فوق الدرج.. لقد صار خطراً الآن وصار من الوارد أن يقضي علي في أية لحظة..

كتب علي أن أعود إلى الوحدة، لكن (نرمين) كانت قادمة.. ومع (نرمين) تغير كل شيء..

* * *

كانت لحظة مرعبة لنا معاً.. لقد رأيت ذلك الشبح المثلث يقف في بئر السلم، ورأيتني

فصرخت.. شبح ملثم له صوت أنثوي؟.. هذا غريب..

للحظات سادت كوميديا الموقف المكان.. بين دعر وصراخ وأنا أكرر أنني سليم وعليها ألا تقلق.. تدنو مني فأتراجع خوفاً خشية أن تكون مصابة.. تصرخ مؤكدة أنها سليمة.. وهكذا..

في النهاية دخلت الشقة وراحت تلهث.. كانت في الثلاثين من عمرها، لها وجه جذاب وإن كان غير جميل، ولها عيناان ذكيتان حساستان..

كانت تقول:

"حسبت أنني آخر الأحياء.. حمداً لله!.. لقد قضيت عشرين يوماً مذعورة كالفأر.. نسيت الكلام منذ انقطع الإرسال.. لا أعرف ما يحدث بالخارج.. خارج القاهرة.. هل تجد قيادة السيارات؟.. لا؟.. أنا لا أجيد.. هناك ألف سيارة ملقاة في الشوارع لكن لا أنا وأنت نستطيع القيادة.. لا وسائل مواصلات.. علينا أن نبقي هنا.."

كانت تتكلم بلا توقف فدسست في يدها قطعة من البسكويت كي تأكل وتخرس قليلاً..

ملأت فمها بالبسكويت.. لم تكن جائعة طبعاً لأن الطعام في كل مكان، لكنها جائعة للصحبة البشرية.. الطعام الذي تأكله وأنت البشري الوحيد يكون طعامه كالسم.. رحت أحكي لها قصتي.. أحكي لها عن زوجتي.. عن القط.. عن أولادي.. كل شيء ما عدا اسمي...

لما انتهت من الطعام سألتها عن عملها واسمها فقالت وهي تجلس على الأرض:

"(نرمين محمود).. طبيبة مختصة بعلم الميكروبات.. أعمل في مركز بحوث (.....).. وأنت؟"

"(أسامة الشرقاوي).. معلم.. إذن أنت تعرفين بعض الشيء عن هذا الفيروس اللعين.. هل جاء من الفضاء فعلاً؟"

قالت وهي تنهض :

"لا أعرف إلا أعراضه.. مهمتنا أن نبقي أحياء.. هذا هو الشيء الرئيس"

ثم وقفت في وسط الصالة الضيقة تنتظر للأرض وقالت:

"هو يفتك بالصراصير أيضاً.."

نهضت مسرعاً وقد أصابني الذعر.. نظرت لأجد خمسة صراصير مقلوبة على ظهورها جوار جدار وقد أشعلت عود ثقاب ودنوت منها، فوجدت أنها متأكلة فعلاً.. لا شك في هذا..

قلت في رعب:

"كانت حية.. كانت حية حتى وقت قريب جداً.. إن هذا الكابوس يزحف بلا توقف.. لقد حسبت أنني سأنجو ما دامت الصراصير حية ترزق"

قالت وهي تدفن وجهها بين كفيها:

"كانت هناك فئران في القبو الذي تواريت فيه، وكنت أشعر بذعر شديد.. لكن ظلت أتمنى أن تبقى حية حتى النهاية فلا أجد جثثها المتآكلة.. هذا ما حدث لحسن الحظ"

الموت الأحمر يدنو منا.. فقط لن نتواري منه في قصر حجراته ملونة كما فعل أبطال (إدجار آلان بو).. نحن هنا في هذه الشقة المظلمة مذعورين خائفين..

كنت أفكر في قلق.. هناك وقائع كثيرة يكون فيها الشخص حاملاً للعدوى ولا يصاب بها.. هذا وارد جداً.. لماذا هلكت الصراصير الآن فقط؟.. بعد ما دخلت هي الشقة؟... شيء جديد قد طرأ وهو ظهور (نرمين) هذه.. هل أنا في خطر؟

بعد قليل قالت لي دون أن ترفع وجهها:

"هل خطر ببالك أن مهمة إعادة الحياة تقع على عاتقنا؟... رجل وامرأة.. يبدو أننا سنزوج لا محالة!"

نظرت لها في دهشة.. هذا آخر شيء فكرت فيه.. لكن من قال إننا البشريان الوحيدان الناجيان؟.. قد نكون آخر بشريين في القاهرة لكن بالتأكيد يعج العالم بالبشر في الخارج.. لا شك أن هناك منات المتوارين في أرجاء القاهرة مثلنا كذلك.. ما تفكر هي فيه أكثر درامية مما تتحمله الأمور..

قلت لها ضاحكاً:

"لا أقصد أن أهينك.. لكن أعتقد أن الأمور ليست بهذا السوء بعد.."

ثم سألتها لأغير مجرى الكلام:

"هل لديك نظرية تفسر بقاءك سليمة حتى اللحظة؟"

"عندما اشتد الوباء تعاطيت وزوجي جرعات من عقار الأمانتادين وحقن الإنترفيرون على سبيل الوقاية لا العلاج.. خطر لي أننا لن نخسر شيئاً.."

"وهل نجح هذا الابتكار؟"

"مات زوجي بالوباء بعد ساعات.. كان يهذي بلا توقف لأن الفيروس قد يسبب هلاوس وحالة من الجنون الوقتي قرب النهاية، بينما نجوت أنا.. لا أملك تفسيراً أفضل من أن هذه التجربة الخرقاء أفلحت معي.. وماذا عنك؟"

لم أرد لأنني كنت انظر إلى وجنتها.. هل أنا أهذي أم أن هناك رقعة عارية يبرز العظم منها؟

* * *

قلت لها بصوت مبجوح:

"أنت.. لست منيعة تماماً.."

"عم تتكلم بالضبط؟"

قلت وأنا أترجع للخلف:

"الوباء.. التآكل.. يبدو أن دورك قد حان!"

مدت يدها لتتحسس جبهتها هنا فوجئت بأنها ترى سلاميات أصابعها العظمية.. شهقت ونهضت.. حقًا كان كل شيء يدور بسرعة جهنمية.. البخار الأخضر اللعين الناجم عن عمليات التحلل العضوية يتصاعد..

لكنها ظلت قادرة على الكلام.. ويبدو أن العلاج الذي جربته وزوجها لم يقدم لها أكثر من هذا.. قالت وهي تستند على الجدار:

"لكن كيف؟.. لقد مررت بكل شيء.. هلك كثيرون أمامي ولم يحدث لي شيء.."

ثم لم تقدر على أن تقف على قدميها أكثر فسقطت على الأرض، ولكنها رفعت نحوي وجهها المشوه وقالت بصوت كالفحيح:

"الآن فهمت.. فهمت... الوباء هو أ.. أ....."

ثم نفذت الحياة من جسدها.. لم أجروا على النظر إلى ما صارت إليه.. لقد رأيت هذا المشهد مرارًا.. لا أتحمل أكثر.. لن أتحمل أكثر..

سقطت على الأرض والعرق يغمرني لكنني كنت أتأرجح بين الوعي واللاوعي.. أرى بعين الخيال البقال العجوز يكلمني بعد صلاة الجمعة ويضحك.. أرى نفسي وسط المصلين.. أرى نفسي في مترو الأنفاق.. في الحافلة.. أرى نفسي جالسًا في مطعم.. أمزح مع زوجتي..

هناك من هلكوا بسرعة وهناك من تأخروا كثيرًا لأسباب غير مفهومة.. لكن النهاية واحدة..

أرى بعين الخيال نفسي راقدًا على ظهري في مكان مظلم من الصحراء.. أنظر للسماء حيث تنتشر النجوم عاجزًا عن الحركة.. أرى كائنين غريبين قرييين بالبشر لكن لا وجه لهما يجثمان فوق صدري.. أداة غريبة تغرس إبرة في ذراعي.. أعرف أن الشيء يسري في دمي.. أعرف من أفكارهما أنني لن أموت.. لن أموت..

لكني سأكون الموت!

لماذا أنا في الصحراء؟.. لا أذكر.. لكن هذا كان منذ خمسين يومًا. أعرف يقينًا أنه كان منذ خمسين يومًا.. لن أموت.. لن أموت..

نهضت من غيبوبتي فجلست على أرض الشقة في الظلام.. أنظر إلى الهيكل العظمي الذي سقط بقربي.. لقد كان كابوسًا مفرعًا لكنه لم يكن كابوسًا بالضبط.. ربما هو ذكرى نسيت كل شيء عنها وعادت.. لا أعرف..

"الآن فهمت.. فهمت... الوباء هو أ.. أ....."

قالتها (نرمين) قبل أن تموت.. كانت قد اقتربت من الشفافية وعرفت كل شيء.. أرادت أن تقول: "الوباء هو أنت!"

لماذا هلك القط بمجرد أن داعبته قليلاً؟.. لماذا هلك الفتاة؟... الصراصير تتحمل أكثر من سواها لذا عاشت معي طويلاً لكنها ماتت في النهاية... ولماذا لم أمرض أنا؟

حامل العدوى قد لا يصاب بها، ولهذا هو خطر داهم لأنه لا يبدو مريضاً ولا أحد يتجنبه. لقد ذهبت لكل مكان وتعاملت مع الجميع وأكلت في كل المطاعم.. لو أردت أن أنشر هذا الوباء الغريب فما كنت لأفعل أكثر من هذا..

هل هي تجربة ما؟.. هل نلعب دور فئران المختبر في تجربة كونية لا نفهمها؟.. هل هو سلاح بيولوجي ابتكره سكان عالم آخر وأرادوا معرفة تأثيره على سكان مدينة؟.. لا أدري.. لكنني أعرف شيئاً واحداً.. أنا السبب في كل ما حدث من فظائع..

أصعد في الدرج ثلاثة طوابق إلى سطح البناية وأقف لاهثاً هناك على حافة السور.. انظر إلى الشارع البعيد من تحتي حيث تناثرت الهياكل العظمية بكامل ثيابها، وتبعثرت السيارات.. آخذ شهيقاً عميقاً..

هناك طريقة مؤكدة للقضاء على وباء التآكل وأنا أعرفها.. يجب إبادة مصدر العدوى بأيّة طريقة كانت.. النار تبدو حلاً أكثر منطقية لكني لا أجروء على أن أفعل ذلك..

وداعاً.. أرجو أن يتأخروا في العثور على جثتي فترة كافية لتجف وتفنّى العدوى..

أغمضت عيني ووثبت..

لم تعد هناك أرض تحت قدمي..

هنا سمعت في ذاكرتي صوت (نرمين) يقول:

- "الفيروس يسبب هلاوس وحالة من الجنون الوقتي قرب النهاية!"

ماذا لو كانت نظرية الوباء الحي هذه هذياناً؟.. ماذا لو كان كلامها صادقاً؟.. ربما تسرعت أكثر من الـ.....

هذا الجدار

عزيزي عصام:

كيف حالك وكيف الحياة في (ولنجتون) عاصمة نيوزيلندا؟.. أعتقد أنك نسيت كل شيء عن مصر منذ فترة.. لا ألوئك كثيراً فقد عانيت كثيراً في الأعوام الأخيرة حتى إنك صرت تشتهي الفرار اشتهاً.. لكن الوطن لفظة معقدة كثيفة، تشتمل على الأرض ورائحة الجو والبشر والسماء و.. و.. لكل وطن نجوم خاصة به.. لكل وطن رائحة ليل خاصة به.. لا تقل إنك تعبت من كل شيء في مصر.. لا تقل إنك تعبت مني مثلاً..

يعزينا عن فراقك أنا نقيم في شقتك بالعجوزة.. على الأقل هي تحمل رائحتك ولمساتك في كل شيء.. إنها الشقة التي عشت فيها أعواماً طويلة وحدك، وهي الشقة التي أثارت خيال الكثيرين، حتى راحوا يتهمونك بأشياء كثيرة ناسين أنك مجرد أستاذ جامعي غريب الأطوار.. لست سفاحاً ولا ماجناً ولا غارقاً في الفساد.. مجرد علامة استفهام آدمية أخرى، والبشر يفتنون علامات الاستفهام.. تذكر عندما رأينا تلك الحشرة الغريبة في شرفة دارك.. لم نتردد ونزع كل منا حذاءه واندفعنا نسحقها.. نحيلها غباراً تناثر في الريح..

هل كانت تلك الحشرة ضارة؟.. هل كانت سامة؟.. بالطبع لم نعرف وعلى الأرجح كانت حشرة بريئة، لكنها غامضة.. كانت علامة استفهام لذا كرهناها.. ولذا سحقناها..

هكذا أنت.. شخص غريب الأطوار لابد أن يعتبره الناس عدواً مخيفاً..

في النهاية سئمت أنت كل شيء وقررت الفرار.. حصلت على تأشيرة للهجرة إلى ذلك البلد البعيد النائي (نيوزلندا).. لا أحد يعرف عنه إلا أن فيلم (سيد الخواتم) وحلقات (زينا) صوروا هناك.. من الواضح أنك لن تعود أبداً..

على كل حال أنا وزوجتي أحببنا شقتك فعلاً.. إنها جميلة بحق وتنم عن ذوق راق. مكتبتك ما زالت هنا وكذا معظم قطع الأثاث.. أنت لم تتزوج لهذا توقعنا أن نجد شقتك مقلب قمامة أو ساحة حرب لكنك منظم تهوى النظافة بشكل مرضي..

لم نحدث أية تغييرات كما تعلم لكن ذلك الجدار.. ذلك الجدار الذي بنيته أنت والذي يقسم غرفة الصالون إلى نصفين.. هذا الجدار بصراحة يضيق علينا الغرفة كثيراً.. كان طول الغرفة أربعة أمتار، فجعلها الجدار متراً ونصفاً.. كما أنك جعلت الجزء المعزول من الغرفة بلا أبواب ولا طريقة للدخول له. باختصار أنت جعلت الجدار مزدوجاً..

هذا بيتك وأنت حر، لكن من حقي بعد أن صرت أعيش هنا وبعد ما صارت الشقة لي بعقد

تمليك أن أفهم لماذا تصر على هذا الجدار. عندما سألتك عنه قلت لي إنك جمعت وراءه كل ما تملك من مهملات لا تريد أن تراها ولا تجرؤ على التخلص منها.. مثلاً مهدك وأنت طفل رضيع.. هذا شيء لا تريده ولن تستعمله أبداً لكنك كذلك لا تطيق أن تلقي به في مقلب قمامة، أو تبيعه لبائع روبابكيا وغد يستعمله كمبصقة..

مثلاً مجموعة صورك طيلة مشوار حياتك.. نحو خمسة صناديق مليئة بالصور.. هذه لا تريدها لكنك كذلك لا تطيق أن تحرقها. هكذا قررت أن تضع كل هذه الأشياء في هذا المخزن، وبُنيت ذلك الجدار.. كانت شروطك واضحة هي أنك ستعطيني الشقة بسعر لا يصدق.. شقة فاخرة كهذه في حي راق كهذا بهذا السعر؟.. فقط هناك هذا التعهد الشرفي بعدم إجراء أية تغييرات.

طبعاً هذا يتضمن عدم هدم الجدار.. لكن لم هذا الإصرار الغريب؟
المخلص محمود

* * *

عزيزي عصام:

كما قلت كان من الواضح أنك راغب في عدم هدم الجدار.. أفهم هذا والله العظيم لكن زوجتي لا تفهمه.. بعد أيام من الحياة في الشقة قالت لي:

"كيف نستغني عن ثلثي حجرة الصالون بهذه البساطة؟"

"لأننا أخذنا الشقة بهذا الشرط.. هناك من يلعبون الشطرنج فإذا خسروا اكتشفوا أن اللعبة سخيصة ومملة ومضيعة للوقت.. نحن لن نكون كهؤلاء.."

هكذا صمتت.. بعد أيام عادت تطلب مرة أخرى..

أنت تعرف قصة (ذو اللحية الزرقاء).. إنها تعبر بدقة عن فضول الأنثى.. زوجة ذي اللحية الزرقاء منحها زوجها قصرًا به 99 غرفة، لكنه اشترط ألا تفتح الغرفة المائة.. النتيجة هي أنها لم تعد تطيق الحياة، ولم تعد ترى في الكون كله إلا تلك الغرفة المائة.. ثم فتحت تلك الغرفة.. حسن.. أنت تعرف باقي القصة، وإن القلم ليسقط من يدي رعباً.. لا داعي لهذه الخواطر، لكن قل هذا لزوجتي بالله عليك..

مشكلة الزواج بالنسبة لشخصية كشخصيتي هي أن طلاقاتك لا تصل لهدفها أبداً.. هناك من يلوي معصمك في آخر لحظة، أو يضع حاجزاً أمامك أو يغطي عينك.. وأنا اعتدت أن أريد الشيء فيحدث..

منذ أسبوع جاءت زوجتي مكتئبة وقالت لي:

"هناك روائح غريبة آتية من خلف هذا الجدار.. فلتقطع ذراعي إن لم يكن صاحبك نسي قطعة ميتة هناك!"

"لا أدري لم تخاطرين بذراعك يا عزيزتي.. إن بتر ذراعك لن يجعلك أجمل، فأنت - عدم المواخذه - لا تشبهين فينوس ميلو في شيء.. إن ما تقولين مستحيل.."

السبب أن الجدار مبني بالقرميد وهناك طبقة ملاط سميكة، مع طبقة دهان.. حتى لو كان الجيش الإسرائيلي كله ميتاً بالداخل فلن تتسرب رائحته. ثم أننا نتحدث عن عدة أشهر.. هذه هي الفترة التي تنتهي فيها البكتريا من مهمتها المقرزة التي تقوم بها ببسالة وبلا اشمئزاز: إعادة النتروجين للتربة من جديد. أي أن أية جثة تتحول بعد هذه الفترة إلى عظام صقيلة نظيفة رائحة الجمال عديمة الرائحة..

قالت لي زوجتي في إلحاح:

"لم لا نجلب أحد العمال ليحدث فجوة في هذا الجدار لنرى؟"

قلت في حزم:

"لأننا وعدنا صديقي المسافر أولاً، ولأنني أعرف ما سيحدث.. سوف تصنعين الفجوة وتطلبين توسيعها.. ثم ترين أنه لا داعي لسدها من جديد.. تعال نوسعها أكثر.. وفي النهاية نجد أنك أزلت الجدار فعلاً برغم إرادتي، وأنتي للمرة الألف لعبت دور الطفل الأبله.. لا.. أنا أرفض بعنف"

على كل حال رحت أشمم رائحة الجدار بعناية.. للنسوة حواس أكثر حدة من حواس الرجال هذا أكيد.. لكن لا رائحة لشيء ميت.. لو شئت الدقة لقلت إنها رائحة حساء الفاصوليا.. هذا لا يثير القلق..

أنت تعرف النساء يا صديقي.. زوجتي تنهض في منتصف الليل صارخة غارقة في العرق.. زوجتي تخشى الاقتراب من الجدار ليلاً..

لقد جعل هذا الجدار حياتي جحيمًا بالفعل..

أمس قالت لي في قلق:

"فلتقطع ذراعي إن لم يكن هناك شيء حبيس بالداخل.. هناك صوت خدوش على الجدار من الداخل.. أنا متيقنة من ذلك.. ثمة شيء يحاول الخروج..!!"

المخلص محمود

* * *

عزيزي عصام:

كيف يظل شيء حيًا كل هذه الأشهر؟.. لا يوجد مدخل لهذه الغرفة المغلقة.. إن جدار البناية نفسه يحدها من الخلف، لكن من الوارد أن يلعب الصوت بعض الألعاب الغامضة.. أحياناً في منتصف الليل كان الجيران يخرجون لنا من بالوعة المطبخ، وكنت أسمع مدام (عواطف) تتشاجر مع أستاذ (مصطفى) لأنه لا يبدل جواربه إلا كل أسبوع.. ربما هم يخدشون جدران

غرفتهم الآن..

قالت زوجتي في إصرار:

"فلنهدم الجدار.."

"لا.."

تلح بشدة حتى تذكرت تلك الأسطورة التركية الشعبية عندما يردد الناس "حطم الصخرة يا فرهاد.. حطم الصخرة يا فرهاد" والبطل يقول: "سأحطمها.. من أجلكم سأحطمها".. زوجتي كانت تردد: "اهدم الجدار يا محمود.. اهدم الجدار يا محمود".. وأنا على وشك أن أقول: "سأطلقها.. من أجلكم سأطلقها"

سوف أعترف لك بشيء..

أنا نفسي أخاف هذا الجدار.. لقد كنت أقف جواره ذات يوم، فسمعت حفيفاً.. كأن هناك ثوباً يحتك به من الجانب الآخر.. قف شعراً رأسي رعباً ورحلت أنتصت..

يخيل لي أنني سمعت طرفاً من محادثة، لكن بصراحة لم أتبين أي مقطع سوى كلمة (لا يُطابق).. من جديد ألقى باللوم على ألعاب الصوت..

قمت بالطرق عدة مرات على الجدار فلا صوت سوى: تونك.. تونك.. تونك.. ما وراء الجدار أجوف فعلاً... لكن كيف تتحمل أن توجد في شفتك الخاصة غرفة لم تدخلها قط؟.. أحياناً أشعر أن هذا الشرط اختبار منك لفضولنا.. هذا اختبار يفوق الطبيعة البشرية، وفي النهاية سوف تعود من مخبئك الخفي وتمنحنا زكبية من الدنانير مكافأة لنا على أمانتنا..

صباح اليوم حدث شيء غريب..

لقد وجدت زوجتي جاثية هناك جوار الجدار فلما رأنتي ارتجفت وبدأت تشهق وتصرخ، واكتشفت أنها تحمل مثقاباً تريد أن تصنع به ثغرة في الجدار.. تريد أن ترى.. وكيف ترى من دون ضوء؟.. هل تنوي إدخال منظار ليفي ضوئي من الفتحة كما يفعلون مع مقابر الفراعنة؟.. لكنها أشارت في ثقة إلى مفتاح ضوئي صغير على الجدار الأيمن. قالت إن هذا المفتاح كان يضيء مصباحاً ما بهذا النصف من الغرفة قبل أن ينفصل. ربما ما زال المصباح سليماً ويمكن أن يضيء لنا هذا القبر المغلق.. أضاعت المصباح فخيّل لي أنني سمعت صرخة!...

هناك كائن بالداخل لا يطيق النور!.. أم أنني أهلوس؟.. أمرتها أن تطفئ النور حالاً فقد تكون هناك أسلاك كهربية عارية.. شرارة وكومة من الورق.. ربما لا يوجد أكسجين يسمح بالاحتراق بالداخل لكنني لن أجازف..

الحق إنني أزداد عصبية وتوترًا بسبب هذا الجدار الكريه.. لا أعرف إن كانت عصبيتي الخاصة أم هي عدوى من زوجتي، لكن المصاب بالدرن لا يتساءل كثيراً عن مصدر العدوى وإنما يطلب العلاج.. وعلاجي عندك بلا شك..

ما الذي يوجد في تلك الغرفة يا (عصام)؟

لا أتكلم عن الصور والمهد وذكريات الطفولة.. أتكلم عما هو موجود حقًا..

أرجوك أن ترد.. أشعر أنني أكلم نفسي.. هل ما زلت حيًا أم أن قبائل الماوري قامت بطهيك تحت التربة والتهمتك في احتفالها السنوي؟

لو حدث هذا فهو شيء مؤسف، لكن أتمنى أن أعرفه لو حدث لأن هذا يحررني من قسمي.. يومها سوف أزيل هذا الجدار وأعرف الحقيقة.. سوف يتسرب نور الشمس والهواء إلى هذه الظلمة الملغزة الرطبة، وسوف نشفى من تساؤلنا عما ينتظرنا خلف الجدار.

أرجوك أن ترد يا عصام...

المخلص محمود

* * *

عزيزي أستاذ عصام:

للمرة الأولى أكتب لك.. أنا مدام (ثريا القماش) التي بعت لها تلك الشقة بالعجوزة..

أعذر إن كنت اسبب لك أي إزعاج، لكن بصراحة لم أعد أطيق ترك ذلك الجدار الذي بنيته أنت في غرفة الصالون.. لقد كان طول الغرفة أربعة أمتار، فجعلها الجدار مترين ونصفًا.. أعرف أنني قبلت هذا الشرط منك، بل إننا ذهبنا للمحامي لتوقيع عقد الشقة، وبعد التوقيع جعلني المحامي أوقع على تعهد بعدم عمل أية تعديلات في الشقة..

لكن الأمر لا يطاق فعلاً... أهم غرفة في شقتي التي هي ملكي ضيقة جدًا. ثم إنني بالفعل لا أعرف ما تضعه خلف هذا الجدار باستثناء ذكرياتك المزعومة.

هناك رائحة عفن دائمة تتسرب من تحته.. أذكر أنني دعوت ضيوفي ذات مرة للغداء وقد أعددت حساء فاصوليا ممتازًا له رائحة رائعة، لكنهم عزفوا عن الأكل لأن رائحة العفن تلك تزايدت فجأة فصدت نفوسهم..

وماذا عن الأصوات؟.. أصوات واضحة تتكلم بالداخل.. أحيانًا أخذش الجدار بظفري متوقعة أن يسمعني احد بالداخل...

ذات مرة تعالت الأصوات فعلاً، فأصابتنى نوبة هستيرية ورحت أصرخ في وجه زوجي: "هذا الجدار يثير جنوني.. إن هذا لا يطاق!.. لا يطاق!!"

الأدهى أن هناك من يدق على الجدار كثيرًا كأنه شخص يستوثق من وجود فراغ خلفه. وذات مرة فوجئت بنجفة الصالون تضاء من دون أن يضغط أحدهم المفتاح، وسمعت صوتًا كأنه صوت مثقاب يدار في الجهة الأخرى من الجدار، فصرخت بقوة.. عندها انطفأ النور ثانية..

عزيزي أستاذ عصام.. أكره أن أقول هذا لكنني أخطرُك أنني سأهدم الجدار ومهما كانت المسنوليات القانونية. فقط أردت أن تعرف لأنني شخصية واضحة تتحرك في النور.

مع الشكر.

ثرى القماش

* * *

بص وطل - الحوادث:

بناء على بلاغ من محمد القماش (تاجر) للعقيد (هاني الحفناوي)، انتقل رجال الشرطة إلى شقة صاحب البلاغ بالعجوزة، حيث تبين أن مالك الشقة السابق (عصام محمد فتحي) - في نيوزيلندا حالياً - قد قام ببناء جدار في غرفة في الشقة وأصر على ألا يهدمه المالك الجديد، لكن السيدة (ثرى) زوجة المالك الجديد للشقة أصرت على أنها تشم رائحة كريهة عبر الجدار، وقامت بجلب عمال لهدمه. بعد الهدم فوجئت بوجود جثتين لرجل وامرأة في حالة تحلل تام ويبدو أن صاحب الشقة السابق قد قام بقتلهما ودفنهما في هذا الجزء ثم بنى جداراً بنفسه . أثبت فحص الأوراق الخاصة بالقتيلين أن الجثة ل- (محمود الشيمي) وزوجته، ويبدو أن القاتل دعاهما لشقته بحجة اقتراب سفره ثم دس لهما مخدراً في الشراب، وقام بجرهما إلى هذا الجزء من الغرفة، واستكمل بناء الجدار الذي كان قد بدأه فعلاً قبل ذلك. وفي الأيام التالية استدعى عمال المحارة والنقاشة ليتأكد من أن القبر مموه بالكامل. يعتقد أن سبب القتل هو خلافات مالية بينه وبين القتيل. أمرت النيابة باستكمال التحقيقات.

* * *

عزيزي عصام:

أعتقد أن خطاباتي لم تصل لك.. ربما لأنني لم أرسلها قط.. ربما لأنني لم أكتبها قط. على كل حال فهمت أشياء وأشياء، وقد بدأت أخيراً أستوعب الحقيقة الشنيعة التي لم أستوعبها قط بسبب سذاجتي، وإنني لأتذكر بجلاء كل ما حدث يوم دعوتنا لدارك لتصفية ديونك لي.. زوجتي تتحدث عن أننا يجب أن نلحق بك في نيوزيلندا لاستعادة الود القديم.. وأعتقد أنني أوافقها على ذلك، فما رأيك أنت؟

المخلص محمود

الصفحة

الرجل كان يدعى (أبو هيبه) .. اسم موح فعلاً..

قال له (مصطفى) إنه سيجده جالساً هناك في ذلك المقهى في الحادية عشرة ليلاً، وهو يفضل مقعداً هناك في الخلاء بين أغصان الأشجار.. يلتهم طبقاً من الحساء ولحم الرأس والفت.. في كل ليلة يأكل ذات الوجبة مؤكداً أنه (يشقى).. يقولها في نوع من الرثاء للنفس..

بعد هذا سيشرب الشاي الكثري ثم تأتي التعميرة.. هذا هو الوقت المناسب للكلام..

كان (ممدوح) من الطراز العصبي الواهن المتوتر للأبد، لذا لم يستطع بدء المحادثة فوراً.. كانت ساقه ترتجف بلا توقف، وجف ريقه، كما أن قلبه لم يعد يدق ثلاث ضربات متماثلة.. هكذا اضطر إلى أن يجلس إلى أقرب مقعد مصنوع من الخوص المجدول.. وقبل أن يفهم كان القهوجي غير المبالي قد وضع أمامه كوباً من الماء اتسخ بالشحوم ووقف ينتظر طلبه دون أن ينظر له..

..هل.. هل لديكم عصير ليمون؟"

لم يقل القهوجي نعم أو لا بل انصرف على الفور، وظل (ممدوح) ينظر في ثبات إلى ظهر يده التي ترتجف.. كأنه لو رفع عينيه لعرف الجميع ما يريد...

ببطء شديد راح يتلمس طريقاً لنظراته.. أخيراً سقطت عيناه على (أبو هيبه) .. كان يلتهم طعامه في استمتاع وثبات.. رجل يعرف حقوقه كاملة ويحصل على أكثر منها بكثير.. تأمل كيف يلقي بأصابع الممبار في فمه غليظ الشفتين، وكيف يمضغ بثبات وتؤدة.. الرجل الذي يتناول كل ليلة عشاء من لحم الرأس ليس رجلاً سهلاً..

يرفع بين أنامله قطعة من اللحم ويلقيها للقطط التعسة المتراخمة حوله، لكن لا يظهر على وجهه أي تعبير.. من السهل أن تصدق أن هذا الرجل قتل عشرين ولم يقبض عليه.. عشرين كائنًا حيًا لهم أحلام وآمال وماض وشهوات وأسرار... أزالهم من على وجه الأرض، وبرغم هذا هو قادر على أن يستمتع بعشائه ويطعم القطط..

كلما نظر له شعر بأنه أمام لغز حقيقي.. ربما قوة تتجاوز فهم البشر..

جاء الليمون الرديء جدًا فشربه مرة واحدة كأنه يشرب دواء مليئًا ثم نهض مترنحًا نحو مائدة (أبو هيبه) .. غمغم :

..سلامو عليكم"

ولم ينتظر دعوة بل جلس دون أن يرفع عينيه عن الأرض..

(أبو هيبة) يمسك بماسورة ويدقها دقًا على حافة الطبق ليسيل منها النخاع. يا لأعصابه!..
يمضغ بلا توقف وهو يدرس جلسه بعينين حادتين..

لم يكن (أبو هيبة) يبدو كرجل العصابات أو مطاريد الصعيد لو خطر لك هذا.. كان مجرد رجل قوي البنيان يلبس بذلة صيفية ذات كمين غامقة اللون، كالتى دأب المسئولون عندنا على ارتدائها منذ عقدين مضيا.. رجل خشن لكن لا يوحى بأنه قاتل. فقط يضع على رأسه طاقية بيضاء صغيرة وله شارب رفيع على حافة شفته العليا.. الغريب أنه كان حليق الذقن بدقة شديدة..

قال (ممدوح) وقد شعر بأن غموضه طال:

-"جئت من طرف (إبراهيم الأبيض).. يقول لك إن دور الطاولة بينكما لم ينته بعد"

بدا نوع من الفهم في العينين، ثم واصل الرجل عملية المضغ. هذا الرجل لن يتكلم.. سوف يصغي بلا توقف.. لقد اعتاد هذا.. لو لم يرق له الكلام فلسوف يطرده شر طردة أو يضربه لو أصر على موقفه.

قطعة لحم أخرى لكلب ضال أجرب ببصيص بذيله، ثم تجشأ الرجل وأزاح الطبق جانبًا.. وكأنما يرى بقفاه أو يتحرك بعصا ساحر؛ جاء القهوجي ليضع أمامه طستًا نحاسيًا صغيرًا به ماء وقطعة صابون.. ثم وضع كوبًا من الشاي الكشري على المنضدة المجاورة وبدأ في رفع الأطباق.. وببدا وثقة مسح المنضدة ووضع عليها كوب الشاي... في ثوان لم يعد هناك أي أثر لعملية الافتراس السابقة. وخلال ثوان كان مبسم الشيشة بين شفتي (أبو هيبة) الغليظتين..

بدا الرضا على (أبو هيبة).. كأنه أنجز عملاً ستتقدم به البشرية، ونفت سحابة كثيفة من الدخان وراح يرمق (ممدوح) في حدة متسائلًا..

قال (ممدوح):

-"قال لي (إبراهيم) إنك يمكن أن تقدم لي هذه الخدمة.. قال إنك بمثابة أخيه.. لكنه طلب مني أن أعطيك قائمة بالأماكن التي يتواجد فيها الزبون.. تريد صورته كذلك..."

ومد يده وأخرج ورقة مطوية وناولها للرجل الذي فتحها بيد واحدة وراح يقرأ بعينه فقط :

-"شركة (الصفاء) للتجارة.. باب اللوق.. من 9 إلى 2 بعد الظهر.. المنزل في..... من السادسة مساء يقصد شركة ال-..... عنوانه هو.."

قال (ممدوح) :

-"لم نتفق على السعر.."

للمرة الأولى تكلم (أبو هيبة)، وكان صوته هادئًا ككل شيء فيه كأنه كان يتدرب عليه منذ أعوام:

-"خمس.."

"خمسـة آلاف؟.. لكن (إبراهيم الأبيض) قال لي...."

"خمسـة..... وما اسمه؟.. أين صورته؟"

قال (ممدوح) وهو يبتلع ريقه:

"اسمه (ممدوح أحمد)... لا داعي لأن أجلب لك صورته.. فأنا هو!"

* * *

في نصف الساعة التالي حكى (ممدوح) للرجل الرهيب قصته.. طبعًا استنشق الكثير جدًّا من دخان الشيشة وسعل مرارًا وهو يحكي.. لكن (أبو هيبـة) ظل يصغي وهو لا يبعد عينيه تقريبًا ولم يتكلم إلا بضع جمل مقتضبة..

القصة معروفة على كل حال.. (ممدوح أحمد) يملك شركة أعمال صغيرة جدًّا، وله أسرة جميلة صغيرة مكونة من زوجة محبة وطفلة.. الحياة هادئة منتظمة والريح قليل لكنه ثابت، وهنا جاءه من يحدثه عن البورصة.. الحلم الواعد الوحشي.. هناك كثيرون نجحوا.. هناك من حققوا الملايين في أسابيع.. هكذا ابتاع حافظة وعرف طريق شركات السمسرة، وبالطبع باع كل ما يملك وسحب كل مدخراته.. في النهاية هوت الأسهم إلى الحضيض.. إن من لم تؤذـه البورصة في مصر مؤخرًا محظوظ بشكل غير عادي أو هو (تايفون Tycoon) متوحش الثراء...

البورصة لم تؤذ (أبو هيبـة) لأنه لا يثق بهذه الأمور.. لا يثق بالمصارف أصلًا.. لهذا لم يفهم معظم ما قيل.. فقط فهم أن (ممدوح) لم يعد يملك من العالم سوى خمسـة آلاف جنيه..

قال (ممدوح) دامع العينين:

"هكذا رحت أرمق أسرتي الهانئة الغافلة وأنا أرتجف رعبًا على مستقبلهم.."

نفث (أبو هيبـة) سحابة دخان وقال:

"هناك من قتلوا أسرتهم بسبب البورصة.. ألا تقرأ الحوادث؟"

قال (ممدوح) وهو يتحسس شعره الناحل:

"أنا سأفعل العكس.. سأقتل نفسي.."

"تنتحر؟"

"ليس بالضبط.."

القصة كما لا بد أنك استنتجت هي أن (ممدوح) قام بعمل وثيقة تأمين لنفسه. في حالة وفاته ستنتال زوجته مبلغًا ممتازًا يحميها من الغد.. طبعًا لو قتل هو نفسه فلن تنال مليمًا.. هناك الانتحار الذي يبدو كأنه حادث، مثل سقوطه في النيل أو من فوق بناية، لكن شركات التأمين تشم هذه الألاعيب من بعيد.. لن يصعب على الشركة أن تعرف أنه كان يمر بضائقة مالية وأنه

ابتاع بوليصة التأمين وهو مفلس تمامًا.. هكذا يموت هو وتضيع أسرته..

الآن بدأ (أبو هيبه) يفهم..

"تريد أن أقتلك ويبدو الأمر كأننا لم نتفق على ذلك.."

ابتسم (ممدوح) وجفف العرق على جبهته وقال:

"مهمة سهلة كما ترى.. سوف تعرف كل أماكن وجودي.. سوف أتيح لك أسهل الظروف الممكنة.. سأمشي وحدي في حي مقفر مهجور.. سأتركك تجرب مرة ومرتين. فقط يجب أن يبدو الأمر كسطو مسلح.. يجب أن يفتنع رجال الشرطة بهذا.."

نظر (أبو هيبه) حوله في حذر، ثم طلب من (ممدوح) أن يرافقه خلف الأشجار..

هتف (ممدوح) في دعر:

"هل ستفعل هذا الآن؟.. لست مستعداً بعد"

"أفعل ماذا يا أستاذ؟.. عم تتكلم؟.. تعال معي.."

وهكذا غادر الرجلان المقهى إلى منطقة خالية وراءه تناثرت بها الأشجار، وهناك طلب (أبو هيبه) من (ممدوح) أن ينزع ثيابه كلها فيقف بالثياب الداخلية فقط.. أطاعه (ممدوح) المذعور، بينما (أبو هيبه) يفتش الثياب بدقة غريبة، ثم تفقد حذاء (ممدوح) ورفع الفانلة الداخلية ليتفحص بطنه..

هنا أدرك (ممدوح) الأمر.. الرجل حذر ويخشى أن يكون هذا العرض المريب كميناً.. ربما تنقل المحادثة بالكامل عبر جهاز تنصت إلى الشرطة.. سوف يسجلون قبوله للصفقة، ثم يصورونه قبل التنفيذ ويعتقلونه في اللحظة المناسبة..

أشار لـ (ممدوح) كي يرتدي ثيابه من جديد، وأمره أن يمشي معه بين الأشجار. هذه هي الطريقة المثلى للتأكد من عدم وجود أجهزة تنصت.. تكلم وأنت تمشي..

أشار لـ (ممدوح) كي يواصل الكلام، فقال هذا:

"يمكنك البدء بعد ثلاثة أيام.. الآن سوف أعطيك نصف المبلغ.."

"وماذا يجبرني على تنفيذ الباقي؟.. قد يكفيني هذا.."

"أنت الخسران.. متى قتلتنني سوف تجد في جيب القميص باقي المبلغ ومعه جزييل الشكر"

ثم عاد (ممدوح) يشرح شروط الصفقة:

"أرجو ألا تجعلني أعرف ما أنت موشك على عمله.. حاول أن تكون ضربتك مفاجئة.. لا عنف من فضلك.."

ابتسامة ساخرة تلاعبت على شفتي (أبو هيبه) وقال:

"هل بعد القتل عنف؟"

"نعم.. أنت تعرف هذا خيرًا مني.. قطع الحلقوم وبقر البطن مثلاً.. لا توسعني ضرباً حتى الموت.. لا تعذيب من فضلك.. الأسلحة النارية مفضلة دائماً.. وطبعاً لا أريد أن تتركني كفيفاً أو مصاباً بشلل رباعي.."

"تريد قتلاً خمسة نجوم.."

"بالضبط.. هذا ما أريد.. موعدنا بعد ثلاثة أيام .. سوف أعود من عملي ليلاً في ساعة متأخرة وسوف أضطر للمشي في منطقة مهجورة.. لنقل العاشرة مساء الثلاثاء.. هذا مناسب جداً"

وقبل أن يفهم السفاح ما حدث ، كان (مدوح) قد دس حفنة من الأوراق المالية في يده وتوارى مبتعداً بين الأشجار...

* * *

عاد (مدوح) إلى داره في ساعة متأخرة من الليل راضياً عن نفسه..
ها هي ذي (هناء) غافية في غرفة النوم وقد دست الصغيرة (مي) يدها الرطبية في كفها، وفي يدها الأخرى دبوبها الصغير..

فلتناما في سلام.. هما لم ترتكبا أية حماقة ولا خطأ.. هما لم تجازفا بمال الأسرة في البورصة ولا تعرفان أي شيء عن الخطر المحيط بهما..

هو يعرف.. وهو سوف يسدد فاتورة أخطائه بالكامل.. هكذا نزع ثيابه وارتدى المنامة وجلس في الصالة يفكر في لقائه الرهيب بذلك الرجل الصموت الغامض (أبو هيبه)..

من أين يأتي هؤلاء؟.. متى ولدوا؟.. ما الظروف التي جعلتهم يتحولون إلى قتلة؟ هل لأبي هيبه هذا أسرة؟.. هل له أطفال؟.. هل كان هو نفسه طفلاً يغفو في حضن أمه؟... مستحيل.. بالتأكيد يأتي هؤلاء من أعماق بركان أو من غياهب كهف.. وهم لا ينامون أبداً ويقتاتون بالدماء..

"هل عدت يا (مدوح)؟"

صوت زوجته الناعس اللطيف.. تنهض وتفرك شعرها ثم تضع الملاعة على كتفي الصغيرة.. ملاعة هفافة رقيقة تغريك بالنوم..

"لقد أعددت لك العشاء.. صبراً.. سوف أسخنه لك.."

حاول إقناعها بمواصلة النوم لكنها مصرة.. تنهض وتعد له المائدة.. طعام بسيط لذيق.. علبة من السردين مع رغيفين من الخبز قامت بتدفنتهما في الموقد.. كوب من الشاي بالنعناع..
تقول له:

"كف عن الشقاء والتعب.. كف عن تعذيب نفسك.. كما ترى نحن نلعم بحياة طيبة.. لقد تناولنا على الغداء بعض الكشري وكان شهياً بحق.. الحياة لا تستحق كل هذا التعقيد.."

التهم الطعام شاعرًا بأنه قطعة من الحجر..

كفي عن أن تكوني لطيفة من فضلك.. كفي عن الرقة فأنت تجعلين الأمر أصعب.. الليلة أنهيت إجراءات تحويلك من زوجة راضية إلى أرملة ثرية فلا تخذليني. أرجوك لا تفعلي..

ثم ماذا تعرفين أنت عن الحياة؟.. عن الفقر؟.. لا تعرفين أي شيء على الإطلاق.. مجرد طفلة ساذجة اعتادت أن تجد ما تريد أمامها فلم تعد ترى للمال نفعًا.. أنا اخترت القرار الصحيح.. أعرف أنه القرار الصحيح..

لكن الأمور تزداد تعقيدًا.. الطفلة قد استيقظت.. إنها تضحك في الفراش وحدها.. تنهض الزوجة وتدعوه كي يغسل يده ويلحق بها ليداعبا الصغيرة قليلًا..

قال لنفسه:

"لقد اتخذت القرار الصحيح.. نعم.. لن تنجح هذه الحيل التافهة في تغيير قراري"

وأغض عينيه ونام راضيًا..

في الصباح جاء النبأ عبر الهاتف.. جاء ليعلن مصيبة حقيقية..

السمسار يبشره أن الأسهم بدأت ترتفع في البورصة.. لو استمر الحال على هذا المنوال فلسوف تستعيد قيمتها خلال أيام:

"لقد نصحتك ألا تباع والأسهم في الحضيض.. هذا هو الوقت المناسب للانتظار.. لقد تبين أنني على حق"

وضع (ممدوح) السماعة غير مصدق.. هذا ضد كل التوقعات التي قالت إن تلك الأسهم لن تقوم لها قائمة..

جاءت الطفلة ترحف واحتضنت قدمه في رفق، فمد يده يحملها ووضعها على ركبته.. من سمح له بأن يحرمها من أبيها؟ ثم استدرك وعاد إلى صوابه.. ما حدث أمس هو القرار الوحيد السليم..

هنا حدث شيء غريب.. لقد نهضت الطفلة على قدمين واهنتين متخاذلتين ومشت بضعة خطوات قبل أن تسقط..

(مي) قد مشت اليوم.. اليوم بالذات!

إلا أن الأقدار واصلت سخريتها منه..

عند العصر جاءه هاتف من شريكه السابق، يخبره أن المستورد الروسي يطلب شحنة أخرى من البصل الممتاز الذي قاما بتصديره. هذا يعني.... قام بعمل بضعة حسابات على الآلة الحاسبة وأدرك أن الأمور تتحسن فعلاً...

هكذا مضى الحال في اليوم التالي.. من حسن إلى أحسن.. منذ عشر سنوات لم يظفر بفترة من الحظ الحسن كهذه....

الأسهم ترتفع.. الصفقات تكثر.. زوجته تزداد لطفًا ورقة.. الطفلة تتشبث به.. وتمشي..
هكذا عندما جاء المساء كان قد اتخذ قراره: لقد ارتكبت خطأ جسيمًا..
نزل من سيارته عند ذلك المقهى النائي، ومشى بضع خطوات بحثًا عن المائدة التي قابل
عندها (أبو هيبه) أمس..

كانت خالية.. لا توجد كومة من لحم الرأس ولا قطط...

نظر بعينين متسانلتين إلى القهوجي وتساءل:

-"أين (أبو هيبه)؟"

لم ينظر له الرجل ولم يحاول أن يعرف من هو.. مر بجواره وقال كأنه يكلم الهواء:

-"لم يأت منذ يومين.."

-"وأين أجده؟"

-"لا أحد يعرف أين يوجد (أبو هيبه) عندما يختفي.. هو سوف يجده.. تأكد من هذا.."

نعم.. هو سوف يجده.. (مدوح) ليس بحاجة لمن يخبره بهذا!!

* * *

(إبراهيم الأبيض) نقاش وصاحب سوابق وهجوم سابق يزعم أنه نائب.. عرفه (مدوح)
عندما كان الأول يقوم ببياض الشركة.. بشكل ما نجح في استدراجه إلى أن ينصحه باسم قاتل
أجير يخلصه من عدو استولى على قطعة ارض تخصه. وكان اسم (أبو هيبه) أول اسم ذكره..
يرفع (مدوح) عقيرته صائحًا ليسمعه (إبراهيم) عبر سماعة الهاتف المحمول الرديء...
طبعًا هو هاتف مسروق كذلك :

-"أنا أبحث عن (أبو هيبه).. إنه مختف تمامًا.."

-"هل كلفته بال.. بالمأمورية إياها؟"

-"نعم.."

قال (إبراهيم) في ثقة:

-"إذن لا تقلق..!!.. سوف ينفذها.. هذا الرجل يعتمد على سمعته الحسنة.. سمعة كالذهب..
وهو لن يجازف بفقدانها.. اعتبر المهمة أنجزت"

-"لكني أريد أن ألغي ما اتفقت عليه.."

-"للأسف ما دمت لم تجده فهو سينفذ.. هو لا يلعب بل هو رجل مسنول.. رجل محترف.. كان
عليك أن تتريث قبل أن يغادر السهم القوس.. سأحاول أن أجده وأقتعه.. لكن أشك في أن أجده"

صاح ممدوح في لهفة:

"اسمع...!! قل له أن يحتفظ بالمال.. فقط يترك.. يترك الرجل في حاله!"

ووضع السماعة شاعرًا بتقلص في معدته..

لا يمكن أن يتصل بالشرطة ويخبرهم بكل ما دار بينه والرجل.. مستحيل..

طلقة في الظلام.. غالبًا من الخلف.. هذا هو السيناريو الذي اتفقا عليه.. من الممكن ألا يمشي في تلك البقعة المظلمة، لكن (أبو هيبه) يعرف عنه كل شيء.. كل شيء.. عنوان الشركة.. عنوان الشركة الأخرى.. عنوان البيت.. يمكن أن يفعلها في أي وقت..

اتصل بسكرتيرة شركته الأصلية وقال لها إنه سيتغيب أسبوعًا..

"لكن صفقة البصل تلك.. نحن نحت.."

"قلت لك إن أسبوعًا واحدًا لن يخرّبنا.."

ووضع السماعة.. سوف يزعم أنه بالخارج، لكنه سيسافر مع زوجته إلى قريتها... بضعة أيام هناك لن تؤذي أحدًا.. سوف تصل الرسالة لـ (أبو هيبه) أن الضحية تراجع عن الصفقة.. لا شك أنه سيميل البحث... هذا رجل مشغول ولن يضيع وقته من أجل صفقة واحدة..

في الثامنة مساءً اتجه إلى الشركة التي يدير أعمال المحاسبة فيها، وقال لهم إنه سيتغيب أسبوعًا.. حرص على أن يذهب بسيارته حتى لا يضطر للسير، وهو يعرف أن (أبو هيبه) لم يرها قط.. كان لابد أن يذهب بنفسه لينهي بعض الأوراق..

هكذا يمكن القول إنه فعل كل شيء ممكن.. بعد ساعة عاد بالسيارة قرب تلك البقعة التي وصفها لـ (أبو هيبه).. البقعة المهجورة المظلمة.. راح يرمي ببصره في كل صوب.. في مكان ما ينتظر الرجل.. باردًا مصممًا كالموت.. ثابت اليد كجراح أعصاب.. ينتظر أن ينهي حياته.. كانت الفكرة فاتنة مخيفة، وخاصة أنه يعرف أن (أبو هيبه) لن يبحث عن راكب سيارة بل سيبحث عن رجل راجل... إذن أنت في أمان....

هنا حدث أسوأ كوابيسه..

الدخان يتصاعد من محرك السيارة!! الرادياتور فارغ!! لقد نسي أن يملأه..

أغلق المحرك وهو يسب ويلعن، ثم.. لابد من أن يترجل.. لابد من أن يفتح غطاء المحرك ويديره ليصب بعض الماء.. كم الساعة الآن؟.. نحو العاشرة.. مساء الثلاثاء!! إنها اللحظة...

نظر حوله فلم ير أحدًا.. كان يرتجف كورقة..

"لا توسعني ضربًا حتى الموت.. لا تعذيب من فضلك.. الأسلحة النارية مفضلة دائمًا.. وطبعًا لا أريد أن تتركني كفيفًا أو مصابًا بشلل رباعي.."

هل قال هذا حقًا؟.. لقد كان مجنونًا.. ابنته ترحف ثم تمشي.. زوجته تضحك.. الملاءة هفافة تغري بالنوم.. الأسهم تتحسن.. بصل.. بصل.. محرك ساخن.. بخار أبيض يتصاعد

كسحابة كثيفة.. كشري.. شاي بالنعناع.. بصل..

سوف يزيد الماء بسرعة ويرحل . كان مجنوناً عندما قرر أن يعيث قليلاً حول حدود الموت الذي ينتظره... الآن يوشك على السقوط فيه..

طاخ!.. طاخ!

لقد وجدته!.

صرخ وأغمض عينيه.. (أبو هيبة) لا يخطئ التصويب... لا بد أن الطلقتين أصابته..

ارتدى على الأرض على ركبتيه أمام كشافي السيارة المضائين وصرخ:

..لقد ألغيت الصفقة!.. ألغيت الصفقة يا (أبو هيبة)!!"

سائق التاكسي العجوز عم (جابر) راح يرمق المشهد في ذهول.. استدار للزبون الجالس جواره وقال:

..في هذه المهنة ترى أشكالاً وألواناً من الناس.. لكني لم أر قط من يحدث هذه الضوضاء لأنه سمع انفجار شاكمان سيارتي.. أعرف أنه مثقوب وأنه لا بد من إصلاحه، لكن صوته ليس مرعباً لهذه الدرجة!"

قال الزبون في استمتاع:

..الغلاء قد أطار عقول الناس.."

فرغ (أبو هيبة) من رص حجارة الطاولة وسحب نفساً عميقاً من الشيشة، بينما كان (إبراهيم الأبيض) يعد نصيبه من المبلغ.. ثم سأل (أبو هيبة) وهو يدس المال في جيبه:

..ألن تنفذ ما طلبه؟.. هذا هو الموعد.."

قال (أبو هيبة) بهدونه المخيف المعتاد:

..دعه وشأنه.. هذا رجل طيب.. رجل غلبان.. رجل مدني.. أنا لا أقتل أمثال هؤلاء"

..لقد دفع لك مقدماً كبيراً"

..هذا هو العلاج المفضل له عندي.. عندما تقابل بلهاء مثله اجعلهم يدفعون الكثير من المال.. فقط خسارة المال تجعلهم ينسون بلاهتهم.. لقد استحق هذا العقاب. عليه أن يتحمل الحياة مثلنا.. وعليه أن يلوم نفسه ألف مرة لأنه غبي أضاع ماله.."

..لا بد أنه سيموت ذعراً.."

قال أبو هيبة وهو يلقي بالنرد:

..طبعاً.. لن يمشي في الشارع مطمئناً قبل شهرين على الأقل.. والآن كفانا كلاماً عن هذا

الغبي... العب!"

إنهم يأتون ليلاً

كلا.. لست مجنوناً.. أؤكد لك هذا..

أعرف أن تفسير الجنون سهل دائماً، ويريح جميع الأطراف.. دعك من أنه ما من مجنون يعتقد ذلك في نفسه، لكن لنفترض للحظة وجود رجل راجح العقل يعرف مصيباً أنه راجح العقل..

إنها مسألة منطقية ذكرها فيلسوف ألماني اسمه (بوبر) . كل ما لا يمكن نفيه لا يمكن إثباته.. عندما أقول إنني غير مجنون فأنت تقول لي إن كل مجنون يزعم ذلك. إذن أين الحقيقة العلمية؟.. ما الذي يمكن أن يقوله العاقل إذن؟ ماذا لو لم أكن مجنوناً؟

لكن دعنا من هذه التعقيدات ولنتكلم عنهم..

أعرف أن (هم) هذه تزيد الأمور تعقيداً والطين بلة.. هذه نعمة البارانونيا بلا زيادة أو نقصان. لكن لا سبيل للكلام عنهم من دون استعمال ضمير (هم)..

أنت تشك في عقلي أكثر مع كل دقيقة.. أعرف هذا.. أراه في عينيك.. هذه مشكلة حقيقية عندما نحاول إثبات أننا على ما يرام، فنرتبك ونقول كلاماً غير مترابط...

أعيش وحدي.. هذا يجعل شكوكك ترقى إلى مرتبة اليقين..

الحقيقة أنني لا أحب الوحدة.. لكن عندما تتجاوز سن الخامسة والثلاثين وأنت غير متزوج، فإن فكرة الزواج تزداد رهبة وإفراغاً.. أن تقنطع نصف عالمك لتمنحه لامرأة غريبة.. هذا شيء مريع.. شيء مرعب..

يمر يوم تلو الآخر.. وفي النهاية تجد أنك في الأربعين وأن فرصك قد قلت جداً جداً.. دعك من أنك اكتسبت عادات الذنب الوحيد، فلم تعد أية امرأة تتحمل أن تعيش في مكان واحد معك.

الوحدة قاسية فعلاً.. تأكل وحدك.. تلعب الشطرنج مع نفسك.. تبدي ملاحظات وتسخر منها.. وفي لحظة بعينها تدرك أنك كنت تكلم نفسك طيلة ربع الساعة الماضي.. هناك أيام تتشاجر فيها مع نفسك أو تسيء فهمها.. لكني برغم هذا أؤكد:

لست مجنوناً..

عندما تدخل الفراش ليلاً وتتنظر إلى غرفة الجلوس الخالية، التي تركت فيها بعض المجلات الفنية ملقاة على البساط، وهناك جهاز كاسيت به شريط لأغاني (محمد منير). تدخل الفراش وترفع الغطاء حتى العنق وتراقب شاشة التلفزيون بعينين لا تريان تقريباً.. ثم تنام تاركاً جهاز

التوقيت يغلق التلفزيون بعد ساعة..

عندما يحدث هذا، وعندما تنهض في الرابعة صباحًا بمثانة ممثلة.. وعندما تتجه للحمام مارًا بغرفة الجلوس، وعندما تجد أن المجلات التي كانت متناثرة على البساط مجموعة في كومة واحدة، وأن الشريط لم يعد في جهاز الكاسيت، وأن هناك أعقاب سجائر في أكواب الشاي.. لاحظ أنك لا تدخن ولا تشرب الشاي.. وعندما تجد أن الغرفة تعبق بالتبغ..

عندما يحدث هذا فأنا لا ألومك.. أنا نفسي فكرت في ذلك.. قلت لنفسي إنني أمشي أثناء النوم.. هذه وليمة لأي طبيب نفسي يحدثك عن شخصيتي الأخرى المكبوتة التي تتحرر أثناء النوم.. هذا شيء محتم..

لكن أي تحرر؟.. ما الذي يفعله هذا الآخر سوى شرب الشاي والتدخين؟.. هذا تحرر لا يحتاج لكل هذه الضوضاء..

على كل حال قد جربت أن أراقب نفسي.. لقد وضعت مقاعد كثيرة ودلاء مليئة بالماء حول الفراش.. هكذا افيق لو ارتطمت بمقعد أو سكبت دلوًا.. والنتيجة؟

نعم قلبت دلوًا وارتطمت بمقعد خلف كدمة في ساقبي، لكن هذا حدث وأنا متجه للحمام.. وكانت غرفة الجلوس تحتفظ بذات الفوضى.. لقد حدث ما حدث قبل أن اصحو وليس بعده..

هل فهمت المشكلة؟

أضيف لهذا أن نفس الظاهرة تكررت عدة مرات.. ربما ثلاث مرات في الأسبوع.. أصابني الذعر طبعًا لكن ليس لدرجة أن ابيت في مكان آخر أو أبقى ساهرًا طيلة الليل.. هناك تفسير بسيط وسوف أعرفه..

الآن يمكن القول بكل شجاعة إن هناك من يسهر في غرفة الجلوس في داري يدخن ويشرب الشاي، وهو لا يحب (محمد منير)، فإذا أضفنا لهذا أنني غير مجنون فماذا نستنتج؟

حان وقت التجربة الإجبارية.. نسيت أن أخبرك أنني مدرس فيزياء وأن عقلي مرتب منظم ومنطقي سليم.. لهذا وضعت عدة خطوات..

الاستيقاظ في وقت غير مناسب.

تصوير ما يحدث جلسة..

سوف اضبط المنبه على الساعة الثانية صباحًا.. سوف أنهض وأفاجئ هؤلاء المتسللين وأعرف من هم ومن أين جاءوا...

* * *

دززززززززززز!

للمنبه صوت كهربائي غريب خافت لكنه يهز النخاع في العظام. هذه مزية مهمة، فهو يوقظك لكن أحداً سواك لا يسمعه..

هكذا نهضت بعقل مخدر مبليبل، وتناولت من على الكومود تلك المطرقة الثقيلة التي وضعتها جوارى. الحقيقة أنني أضعتها هناك منذ فترة.. ثم إنني نهضت ماشياً على أطراف أصابعي نحو غرفة الجلوس. وقفت خلف الباب لحظة ثم... لحظة.. إن قلبي يوشك على التوقف.. هوب!..

لا يوجد أحد هنا.. الغرفة خالية. لكن النور مضاء والدخان في الجو.. هناك مطفأة وهناك لفافة تبغ لم تمت بعد.. ما زالت ساخنة.. لقد كانوا هنا.. هرعت أبحث عنهم.. الشرفة مغلقة من الداخل.. لم يرحلوا منها.. رحت أفتش الشقة وأنا في قمة التوتر.. لا شيء..

شيء ركض على قدمي، فهويت عليه بالمطرقة دون تفكير.. تعرف حالة الذعر هذه حينما يستعيد المرء انعكاسات الوحوش التي فقدها.. كنت سريعاً جداً وقد فوجئت عندما وجدت أنني صرعت فاراً.. فأراً تسلل للشقة في ظروف غامضة وكان تعس الحظ فعلاً. في لحظاتي العادية لا يمكن أن أتمكن من اقتناص فأر.. دعك من أنني سأصرخ وأثب على مقعد، لكني الآن شخص آخر ولو برز لي إنسان لهشمت وجهه بنفس البساطة..

أخيراً دخلت إلى الحمام فغسلت يدي وساقى.. أنا وحدي في الشقة ولا شك في هذا. هؤلاء سمعوا صوت المنبه ففروا، ولكن كيف ما دام كل شيء مغلقاً من الداخل؟ يعلم الله كيف نمت..

وفي الصباح اتخذت قرارى: أنا مجنون أو على أقل تقدير لا يعمل عقلي كما يجب. كل شيء يقول إنني من يفعل هذا ليلاً..

هناك تفسير آخر لا يروق لي هو أن هؤلاء جان أو شياطين أو عفاريت.. أي شيء من الكائنات الخارقة للطبيعة، لكن ما الذي تفيده من الإقامة في بيتي؟.. الأطباء النفسيون سيقولون إن الوحدة تجعلني أرى ضلالات.. المشعوذون سيقولون إن الوحدة تجلب الشياطين، خاصة لو كنت تأمل نفسي في المرأة كثيراً وأمضي وقتاً أطول من اللازم في الحمام..

لا توجد حلول سوى أن أستجلب صديقاً أو زوجة ليعيش معي هنا.. أو أن أبيع الشقة وأنقل لمكان آخر..

على كل حال لم يبق سوى التصوير...

هكذا قمت بتوصيل دائرة ممتازة.. هناك كاميرا فيديو موضوعة في الغرفة، وقد توارت تحت منشفة وثياب قديمة فلا تظهر منها سوى العدسة. في الواحدة صباحاً سوف أبدأ تشغيل كاميرا الفيديو وأنا في غرفتي.. الكاميرا تتصل بكابل AV طويل جداً يبلغ غرفتي. هذا التلفزيون الصغير سيجعلني اتابع ما يحدث هناك.. ثم أغلق الكاميرا متى شئت..

هكذا تناولت عشاء خفيفاً يعلم الله كيف تقبلته معدتي، ثم دخلت إلى الفراش في منتصف

الليل.. رحت أطلع كتابًا صغيرًا وأنا لا أكف عن شرب القهوة.. هؤلاء استفادوا كثيرًا من ثقل جفوني وسهولة تسرب النعاس لوعيي. يجب أن أسهر...

الواحدة صباحًا.. جالسًا في الفراش قمت بتشغيل الكاميرا ونظرت إلى شاشة التلفزيون الصغير على الكومود. ممتاز.. أرى الغرفة بشكل لا بأس به، وإن كانت بعض قطع الثياب تغطي الكادر من أعلى لكنها رؤية كافية..

الغرفة خالية.. كل شيء كما تركته..

جرس الهاتف يدق.. الهاتف في الصالة. اخرس يا أحمرق.. لا أريد أن أجازف بالخروج وإفساد كل شيء.. الليلة أعرف إن كنت ضحية أم مجنونًا أم ممسوسًا.. اخرس..

فجأة تجمد الدم في عروقي..

هناك من رفع سماعة الهاتف ليرد...!

إن هناك شخصًا بالصالة الآن.. لا أعرف ما يقول بالضبط لكنه يتكلم..

ونظرت لشاشة التلفزيون..

كلا.. رحماك يا رب!... لا أصدق ما أراه!.. لا أريد أن أصدق ما أراه!

* * *

كليك.. كليك..

فرغ رجل المختبر الجنائي من التقاط عدد من الصور.. بينما وقف المقدم (هاني) ينظر للجنة الممدة على الفراش.. برغمه لم يستطع أن ينظر للوجه..

اتجه نحوه صديقه (مصطفى) وناولته لفافة تبغ وأشعل واحدة لنفسه، ثم سأله:

"هل تشك في شيء؟"

قال (هاني) وهو ينفث سحابة الدخان الكثيفة:

"لا يوجد ما يحمل على الشك في شيء.. الشقة مغلقة تمامًا من الداخل، لكن ذلك التعبير على وجهه.. هذا الرعب الذي لا يوصف.. هذا الهلع.. ماذا رآه هذا الرجل؟"

"رأى الموت.. هذا مخيف كما ترى"

"أنا لست طفلًا.. لقد رأيت الكثيرين ممن رأوا الموت لكن هذا الرعب لم يكن على وجه أحدهم.. رأيي أنه رأى شيئًا أثار هلعًا وهكذا أصيب بنوبة قلبية ومات.. إن الطبيب الشرعي سيؤكد هذا على كل حال أو ينفيه.."

قال (مصطفى) في سخرية:

"التلفزيون كان مفتوحًا.. هل تعتقد أنم يذيعون أفلامًا مرعبة لهذا الحد؟"

قال (هاني) وهو يجلس على طرف الفراش:

"هناك كاميرا فيديو في غرفة الجلوس تتصل بهذه الشاشة.. لماذا فعل ذلك؟.. الفيلم المرعب الذي كان يراه كان في قاعة الجلوس.. وهو فيلم حقيقي لكننا لا نعرف ما فيه"

ثم طوح بباقي اللقافة وأردف:

"هناك احتمال آخر.. هناك سلك عار في هذا الجهاز وقد لمس.. نفس ما يحدث للحمقى الذين يستعملون (السيشوار) في الحمام.."

"الجثة غير مكهربة.. لقد لمسناها.."

"إذن كيف مات؟"

"أنت تضيع وقتك.. النوبات القلبية تحدث للجميع وفي أية سن.. سمعت من طبيب أن النوبات القلبية تتزايد في ساعات الصباح الأولى.. هذا الرجل كان ساهراً يشاهد التلفزيون وفجأة.. الألم يتزايد.. إنه مذعور.. يحاول الصراخ.. ينهض.. ثم يسقط على الفراش ميتاً وعلى وجهه أعتى علامات الرعب.. هكذا نريخ ونستريح"

"هناك مشكلة أخرى.. الآثار في غرفة الجلوس تدل على وجود عدة أشخاص.. هناك من كانوا معه ولعلمهم رحلوا وتركوه وحده قبل أن يموت.. أغلق الباب خلفهم وعاد لفراشه.. لكن من هم؟.. ولماذا يراقب غرفة خلت من قاطنيها؟"

ابتسم (مصطفى) وألقى بلفافة تبغيه بدوره، ثم تأكد من أن رجال المختبر أنهوا عملهم.. هنا دخل رجال الإسعاف بالمحفة..

"من المحزن أن ترى شخصاً بلا أقارب على الإطلاق.. ليست هناك زوجة باكية أو أم دامعة أو أخ ثائر أو.. أو.. لابد أن الناس تتزوج هروباً من لحظة كهذه بالذات.."
قالها هاني وألقى نظرة أخيرة على الشقة قبل أن يرحل..

* * *

الجيران في البناية المقابلة هم الذين أخبروا البواب..

إنها الثالثة صباحاً والطقس بارد.. لهذا لف البطانية حول عنقه ورأسه، واستغفر الله ثم خرج إلى الإفريز خارج البناية، لينظر لأعلى نحو الشقة.. كان الظلام دامساً لذا لم يكن من الصعب أن يعرف أن كلامهم صحيح. بالفعل الشقة مضاعة..

لا توجد أخطاء.. هو لم ينس إغلاق الأضواء.. الشقة مغلقة تماماً.. ليس لهذا كله سوى معنى واحد..

لكنه برغم ذلك أحضر العصا الثقيلة (الشومة) وصعد في الدرج إلى الطابق الثالث. كان المفتاح معه منذ خلت الشقة، لذا أوجّه في القفل ودخل..

بالفعل كانت مضاعة تمامًا.. تنحنح ودخل إلى الصالة وهو يزن ثقل الشومة في يده ليتأكد من صلاحيتها للقتل..

دخان السجائر يتصاعد من غرفة الجلوس.. اتجه هناك ونظر بالداخل.. لا يوجد شيء سوى قطع الأثاث التي لم يمسه أحد منذ شهرين.. كل شيء في الغرفة يوحي بأن أحدهم كان هنا منذ قليل.. لكنه لم يعد..

قرأ المعوذتين، ثم اتجه ليغلق سكين الكهرباء ليقطع الكهرباء عن الشقة.. وعندما غادرها لم يستطع إلا أن يفعل ذلك ووجهه نحوها، فلم يعطها ظهره قط..
لا جدوى من البحث عن تفسير.. لقد صار موقناً من أن هذه الشقة تخفي سرًا لا يجب الكلام عنه..

* * *

نظر محمود شاكر إلى الشقة المتسعة والتي تكومت فيها قطع أثاث قديمة لم يعن أحد بنقلها، وسأل البواب:

"هل أنت متأكد من السعر؟.. إنها رخيصة فعلاً.. لا يجب أن أقول هذا لكن (الحاج) صاحب البيت ليس هنا على كل حال"

قال البواب وهو يتحاشى عيني محمود:

"هذه مسألة أرزاق.. وأنت رجل سمح كريم، لهذا تجد هذه الفرص.."

"وماذا عن هذا الأثاث؟.. من صاحبه؟.. الشقة ليست مفروشة حسب العقد"

قال البواب وهو يعد الأوراق المالية:

"المالك القديم لم ينقل حاجياته كلها.. هذه الأشياء لك تأخذها أو تتركها أو تتخلص منها"

ثم تذكر شيئاً فعاد يسأل:

"قلت إنك لست متزوجاً يا بك؟"

"نعم.. أنا مقطوع من شجرة لو راق لك هذا التعبير.. لماذا تسأل؟"

"صدفة غريبة.. هذه الشقة تجذب العزاب لسبب لا أدريه.. منذ أسبوع عاينها زوج وزوجة لديهما ثلاثة أطفال.. لكن يبدو أنها لم تعجبه.."

"الأعزب لا يطلب سوى مساحات ضيقة كما تعلم.. سوف احضر حاجياتي اليوم أو غداً.."

* * *

لم أكف لحظة عن اعتبار نفسي حياً أرزق مثلك ومثله.. هذه شقتي.. هذا بيتي.. صحيح أن

بعض المضايقات تحدث؛ مثل ذلك الصخب الذي أحدثه رجال الشرطة – وهو مشهد لم أراه من قبل إلا في السينما – والمرات التي اقتحم فيها البواب المكان ليفتش.. فيما عدا هذا كل شيء على ما يرام..

الآن لا أشكو الوحدة..

إنهم يأتون ليلاً.. كلنا نأتي ليلاً لنجلس ونتكلم.. بعضهم يشرب الشاي ويدخن لكني لم أسألهم قط من أين يأتون بهذه الأشياء.. كيف يمكنك شراء السجائر وأنت بهذه الحالة؟.. كيف يمكنك تشغيل جهاز كاسيت؟

المشكلة الوحيدة هي أنهم جميعاً يبدون كما كانوا لحظة الرعب الأعظم.. يمكن أن يتوقف قلبك ذعراً لو رأيت نظرة الهلع هذه.. لكني أقول لنفسي إنني بالتأكيد أبدو مثلهم.. من حسن الحظ أن المرايا لا تعكس صورنا.. أحياناً يمكنك أن ترانا وأحياناً لا، لكننا نظهر غالباً في الكاميرا، وأعتقد أن لهذا علاقة بطول الموجات التي نعكسها..

إنهم يأتون ليلاً.. ولكننا نتفرق قبل الفجر..

كل واحد منهم وحيد كذئب.. قضى أياماً من الحيرة والقلق متسانلاً عن يأتون ليلاً.. ثم اكتشف الحقيقة في قلب الظلام وهو وحده، ثم صار يأتي ليلاً مثلهم.. لقد صار منهم..

كم عددنا؟.. لا أعرف.. هناك وجوه لم أرها سوى مرة.. وهناك وجوه تأتي كل ليلة.. هناك وجوه لن تعود أبداً.. وهناك وجوه سوف تأتي..

القادم الجديد شاب وحيد اسمه (محمود شاكر).. أعتقد أنه شاب ظريف مهذب.. لكني للأسف لا أستطيع نيل صداقته.. الآن..

لقد أحضر أثاثه وحاجياته وبدأت حياة جديدة تدب في الشقة.. يحاول ان يكون سعيداً لكنه لن يقدر على ذلك..

سوف يصحو ذات يوم في الثالثة صباحاً.. سوف يقف على باب غرفة الجلوس وينظر لنا ويرمش بعينه اللتين يغشاهما النعاس.. سوف ينظر لنا فلا يرانا لكنه يرى الفوضى المادية التي سببناها.. سيشم رائحة التبغ ويرى كوباً مقلوباً..

إنه متوتر.. إنه لا يفهم.. يشك في سلامة قواه العقلية..

سوف يكرر هذا عدة ليالٍ..

سوف يفكر في حلول ثورية.. ربما تقع عيناه علينا عن طريق الصدفة.. ربما يلتقط صورة فوتوغرافية للغرفة الخالية فيرانا على الفيلم..

لن يطول الأمر.. وسرعان ما يجد أنه صار واحداً منا ويعتاد أن يأتي ليلاً..

لم أعد خائفاً.. لقد صرت مخيفاً!

النظرة الثاقبة

قد نختلف في الرأي حول هذا الموضوع، لكني مصر على أن هذه الجريدة هي أفضل الصحف الموجودة في السوق حالياً.. إن جريدة (النظرة الثاقبة) تملك صحفيين بارعين ومحللين يجيدون عملهم.. أقولها حتى وإن اعتبرت هذه دعاية مجانية لها.. لو كانت هناك جريدة تناسب الأستاذ (عبد اللطيف المليجي) أستاذ الفيزياء فهي هذه..

الجريدة محدودة التوزيع.. لها ذات منظر الصحف الصفراء المعتاد مع ذلك التبويب الهستيري الذي يوحى بأن من قام به سائق ميكروباص.. لكنها لا تحمل على غلافها صوراً عارية تجذب المراهقين، ولا تضع عناوين مثل (الفنانة في خلوة مع رجل الدين وانكشف المستور.. الخ).. الخلاصة أنها تبدو أكثر وضاعة من الصحف المحترمة وأكثر احتراماً من الصحف الرخيصة، لهذا لا تجذب القراء وهذا يناسبني لأنني أحب أن يكون مصدر معلوماتي وآرائي متفرداً..

مثلاً في عدد 8 مارس الماضي كانت هي الجريدة الوحيدة التي تكلمت عن خطورة ذلك المنحنى القريب من (كفر الشيخ) وكيف أنه يمكن أن يؤدي لحادث فظيع.. بعد يومين قرأنا في الصحف اليومية عن حادث فظيع في ذات المكان الذي تنبأت به الجريدة..

تحدثت الجريدة عن مشكلة الجراد التي تتهدد مصر، وبعدها بشهر صارت أخبار الجراد في كل مكان.. في الكاريكاتور اليومي.. في عناوين الصحف وجرائد التلفزيون..

وغير هذا كثير.. أمس كانت زوجتي تتخلص من الصحف القديمة المصفرة التي تكومت في الصندرة ولم تعد صالحة لتشرب زيت البطاطس المقلية، هنا وجدت عددًا من جريدة (النظرة الثاقبة) يحمل تاريخ 10 سبتمبر 2001 وكان الموضوع في الصفحة الأولى يقول: "هل يمكن أن يضرب الإرهاب نيويورك؟".. ثم هناك مقال كامل عن (بيرل هاربر) وكيف أنها الضربة الكبرى الوحيدة التي عرفتها الولايات المتحدة في تاريخها، ثم يتساءل المقال في براءة عن تبعات ضربة أخرى..

هناك مقال يتساءل عن إمكانية القبض على صدام حسين.. تاريخ المقال يسبق القبض عليه بيوم واحد.. مقال عن عدم جدوى محاولة استضافة المونديال.. هذا في صباح ظهور النتيجة المحبطة..

الخلاصة أنهم بارعون.. بارعون إلى حد لا يصدق..

إنهم لا يخطئون.. لو ظهر فيلم جديد فلتفتح الجريدة لتعرف مصيره في شباك التذاكر لأن عندهم نقادًا ثاقبي النظرة.. المباريات الدولية التي يتكلم قبلها مدرب الفريق القومي عن

(الخبرة المصرية التي ستسحق هؤلاء الصبية) يمكنك أن تعرف نتيجتها إذا قرأت تحليل الصحيفة للأمور..

هناك نجم سينمائي اعتلت صحته، وكان محبوبًا بحق لذا راح الناس يلوكون الأمل في شفائه كأنه المخدر، لكن الصحيفة خصصت خمس صفحات فيما يمكن أن نعتبره وداعًا حارًا لهذا النجم، حتى أن خطابات من طراز (فال الله ولا فالكم) انهالت على المحرر قليل الذوق... لكن هذا النجم توفي بعد هذا بأشهر إثر معاناة طويلة.. وكالعادة أثبتت الجريدة أنها لا تخطئ..

اقرأ أنت صحفك التي تصيب وتخيب والتي تتكلم بحكمة رجعية عما حدث.. إذا وقع البلاء تخبرك لماذا وقع، وإذا لم يقع تخبرك بسبب عدم وقوعه.. اقرأ أنت هذه الأخبار ودع لي (النظرة الثاقبة) من فضلك..

في المدرسة التي أعمل - أو لا أعمل - بها، أبدأ يومي بمطالعة أخبار هذه الصحيفة مع كوب من الشاي الثقيل وشطائر الطعمية التي يحضرها عم (عبد الخالق)... وبهذا أصير بارعًا ثاقب البصيرة عليمًا ببواطن الأمور، ونادرًا ما يخيب توقعي..

هكذا كنت جالسًا أطلع الجريدة في ذلك اليوم عندما توقفت عند نعي.. الصحيفة لا تنشر الكثير من هذه الأمور التي يتفاخر بها الناس على الآخرين.. عندما أقرأ أي نعي أشعر بأن أصحاب المتوفى يموتون تيهًا وغرورًا وأن هذه أسعد لحظات حياتهم.. لسان حالهم يقول: "نحن أكثر منكم مالاً وأعز نفراً أيها الفقراء عديمو الأهمية".. كان النعي يتحدث عن فقيد يدعى (عبد اللطيف المليجي) يبكيه تلاميذه وأسرته المدرسة.. مع صورة لشخص في ملامحه غباء غريب وإن بدا لي مألوفًا..

لشد ما يبدو غريبًا أن نرى اسمنا مطبوعًا!!! الأمر يشبه أن ترى صورتك في فيلم للمرة الأولى فلا تعرف كينونتك.. سقط قلبي في قدمي.. الأمر فال سيئ لا شك في هذا.. لكن لا تفسير له كذلك..

هذا أنا.. الاسم هو الاسم والصورة هي الصورة..

لا أعرف كيف ولا متى كومت الصحيفة ودسستها تحت إبطي، وهرعت أأغار المدرسة وأثب في أول حافلة.. بعد دقائق فطنت إلى أنني لا أعرف مقر الصحيفة.. أنا فقط ذاهب إلى لا مكان لأقابل لا أحد..

قرأت العنوان من الترويسة، واستبدلت المواصلات وأخيرًا وصلت إلى مقر الجريدة أشعث أغبر.. بناية عتيقة هي في وسط البلد بها مصعد متداع ودرج متآكل.. هذه البنايات التي كانت فاخرة منذ ثمانين عامًا...

كانت هناك سكرتيرة شاحبة تلتهم إفطارها، فطلبت منها أن تقودني إلى من يمكن أن أتكلم معه.. وفي مكتب مغلق كتب عليه سكرتير التحرير قابلني ذلك الرجل الأشيب الذي جلس بالشبشب والقميص المفتوح يدخن وقد رص أمامه كومة هائلة من الكتب...

قلت له وأنا أرتجف:

"سيدي.. لو كنت في ظروف أخرى لصرخت انبهارًا ببراعة كتابكم، لكن ليس الحين حين

مجاملات.. هناك شيء أثار هلعي في جريدتكم وأريد معرفة مصدر هذا الخبر.."

نظر في برود إلى ما كتب.. ثم نظر لي.. ثم عاد يقرأ الخبر..

"هل تعني أنك (عبد اللطيف المليجي)؟.."

"أنظر إلى الصورة.."

للمرة الأولى بدا عليه الاهتمام.. ثم قال بلهجة رسمية:

"مجرد خطأ نعتذر عنه.. ثق أن المسئول سيحاسب.."

"أعرف أنه خطأ وأنكم تعتذرون عنه.. وكلي ثقة في عقاب المسئول.. لكنني أريد معرفة كيف حدث؟.. من أين لكم بصورتي ومن أين بمعرفة أنني اعمل في مدرسة؟"

نهض واتجه إلى النافذة الوحيدة في المكتب وأعطاني ظهره وبدأ كأنما يفكر بعمق ثم قال:

"هناك أسرار من الخير ألا تسأل عنها.. نحن فعلاً آسفون لهذا أتكلم معك بنوع من الصراحة لم يحظ بها الكثيرون.. إن الزمن نهر متصل لا ينقطع.. ويمكنك أن تفترض أن هناك أشخاصاً يعيشون في الغد ويمكنهم أن يظهروا اليوم.. بالنسبة لهؤلاء كل الأخبار بئنة لا جديد فيها.. إن ما تعتقد أنه تحليل عبقرى ليس بالنسبة لهم إلا ذكريات.. هذه ليست جريدة وإنما كتاب تاريخ.. هل تفهم شيئاً؟"

"البتة.."

أشعل لفافة تبغ وقال:

"توقعت هذا.. لا أحد يفهم هذا لذا لا نقوله.. دعك من اننا تعلمنا أن ما كان لابد أن يكون.. الماضي لا يتغير.. كانت محاولتنا طموحاً في البداية ثم أدركنا بلاهتنا.."

قلت له في غيظ:

"ولماذا تخبرني بهذا؟"

"لأنك قارئنا المخضرم.. هذه واحدة.. ولأننا مدينون لك بالاعتذار بسبب خطأ مخيف وقع فيه المحرر.. ما كان يجب أن ينشر هذا النعي.. الآن.. النقطة الأهم هي أن إخبارك لن يؤذينا في شيء..."

صحت في عصبية وأنا أضرب المكتب بقبضتي:

"لا أفهم حرفاً من هذا الهراء.. انتم مجموعة من المخابيل.. لكنني أطالب بنشر اعتذار في العدد القادم وإلا اتخذت إجراء قانونياً.."

هز رأسه موافقاً.. فغادرت المكتب في عصبية وخيل لي أنه قال كلمة لم أتبينها.. هل قال (وداعاً)؟.. لست متأكداً بالضبط..

والآن أغادر مكتب الجريدة فأستقل المصعد.. مجموعة مخابيل هم.. كلام غريب عن تيار

الزمن المتصل والخطأ .. هذه دعاية قاسية دبرها لي أحدهم .. نعم .. خصمي اللدود الأستاذ (فرج) .. هذا هو الطابع الغليظ لمقاله .. لا شك في هذا .. سوف أعود لسكرتير التحرير وأعرف منه من الذي قدم لهم هذا النعي .. وكيف قبلوه من دون شهادة وفاة؟

ولكن .. صوت الصرير هذا .. هل تسمعه؟ .. هذا المصعد يهتز بشكل غير طبيعي .. لا أحب الهستيريا لكن يبدو لي كأن هذا المصعد العتيق ..

يسقط؟!!!!!!

الآن أفهم

تعرفين يا (سلمى) أننا تصرفنا بحماقة وخرق..

يجب علينا كشخصين ناضجين أن نقبل هذه الحقيقة.. يجب أن نعتزف بأننا تجاوزنا ذلك الحد الواهي بين العقل والجنون.. والسبب هو تلك (الحاجة الملحة لعمل شيء ما) الوليد الشرعي للملل، والآن صار علينا أن ندفع الثمن الباهظ..

فقط حاولي أن تلتصقي بي وحاولي أن تحركي ساقيك قليلاً طلباً للدفع..

صحيح أنك أصغر مني سنًا وصحيح أنك في العشرين، تلك السن التي لا نتوقع منها ذروة الحكمة، وصحيح أنني في الثلاثين ومن المنتظر أن أقودك إلى الصواب، لكن الكبار يتصرفون بحمق أحياناً.. بل غالباً.. ألم يقم أبوك قط بعمل تعرفين يقيناً أنه خطأ؟.. ألم تحاولي نصحه ثم عدلت عن هذا لأنه الأكبر والأحكم..؟..

كان عليك أن تسدي لي النصح.. لكنك لم تفعلي.. والسبب أكبر من موضوع هيبة السن.. أنت ترين في حكمة لا أملكها، وتعتقدين أنني لطيف.. ربما تحبينني كذلك لكن هذه أمور لا تقولها النساء أبداً.. فقط يحاول الرجل أن يستنتجها.. أحياناً يحسن الاستنتاج وأحياناً يخطئه فيكون جزاؤه من طراز (يا سم!) أو من طراز (أنت أسأت فهمي.. أنا أعتبرك أختاً)..

لكنك لم تقولي قط أنك تعتبرينني أختاً لك.. لا شيء يوحى بهذا..

عندما كنت آتي لداركم لأزور (فريد) - فنحن جاران - كنت تختلقين الأعذار كي تفتحي الباب بنفسك، وكانت تلك الصينية التي تحمل الشاي في يدك دوماً، تدخلين بها مجلسنا كعذر شرعي لرؤيتي.. لم تكن في يد أحد سواك قط.. عندما كنت أقول دعابة سخيفة من طراز (كنت واقف في التاكسي) لم يكن أحد يضحك.. الكل ينظر لي بتعاسة فيما عدا ضحكة عالية صاخبة تأتي منك أنت.. لا تكذبي يا (سلمى) فالرجل يعرف أن المرأة تحبه عندما تضحك على دعاباته وتسأله أسئلة يعرف إجاباتها..

تشعرين بالبرد؟.. التصقي أكثر وتذكري أن الخطأ يمكن أن يلام عليه اثنان..

ثم تقابلنا أكثر من مرة وبدأ ذلك الشيء الصغير يولد بيننا.. لم أقل قط إنني احبك ولم تقوليها قط، لكن هذا أجمل ما في الأمر.. بعض الكلمات تنتهي صلاحيته من كثرة الاستعمال مثل (الوطن).. أكثر الناس تشدقاً بكلمة الوطن هم الذين يدمرونه بلا توقف.. لكنك كنت تقولين دوماً: "أنا أثق بك.. سأتابعك إلى آخر العالم"..

كنت تقولين إنني غريب الأطوار.. (فريد) قال لك هذا.. لا بد أنه حكى عن ولعي الغريب

بالمقابر.. أعرف انه حكى لك هذا أيضًا..

حكى لك عن جولاتي الليلية هناك.. إن المقبرة التي تقع قرب داري قد تركت لدي هذا الوله غير المفهوم.. اعتدت أن العب هناك في طفولتي، وعندما كبرت بدا لي أن هذا هو المكان الوحيد الذي يمكن أن تجد فيه السلام.. طبعًا لا أتحدث عن الأعياد والمواسم عندما يتحول المشهد إلى طابور جمعية.. وتجلس النسوة الثرثارات البدينات كالخراتيت يتشاجرن وكل واحدة تحرس الحلة التي تحوي فطير الرحمة كأنها تحمي باب الجنة.. على حين يتناثر المقرئون الذين لا يحفظ أي واحد فيهم أكثر من آيتين من القرآن وبرغم هذا هما مصدر دخله الوحيد، ومن آن لآخر يبول الأطفال ويغوطون في كل مكان.. لا.. لا أتكلم عن هذا الجو المقزز.. أتكلم عن جو المقابر الحزين وقت العصر عندما يهمس النسيم بأسراره فتتطاير تلك الورقة الجافة أو تلك.. أتكلم عن الليل الذي يبدو مفزعًا للبعض لكنه بالنسبة لي معزوفة السلام. إن المقابر تعج بالبشر هذه الأيام لكني كنت أختار تلك البقعة الهادئة قرب تربة (أبو عزام)، حيث هناك أعمال حفر منذ عام أو أكثر.. هناك لن تقابلي أبدًا إلا بصعوبة بالغة..

كانت تلك هي الفترة التي قررت فيها أن أسجل الأصوات ليلاً.. نعم.. أعرف أنه مزاج عجيب.. لكن من قال لك إنني لست غريب الأطوار؟..

أنت ترتجفين يا صغيرتي.. أنا آسف.. فعلاً.. آسف.. اقتربي مني أكثر.. سوف نجد حلاً..

كنت أخرج للمقابر ليلاً.. وأقوم بتشغيل جهاز الكاسيت ليعمل وحده.. ثم أعود لداري وأنام.. في الصباح كنت أعود إلى تلك المقبرة وأسترد الجهاز، وفي بيتي أشغل الشريط وأصغي لتلك الأصوات التي تراكمت على مدى ساعة.. لو كنت ثرياً لاقتنيت كاميرا تسجيل فيديو تسمح لي بالتصوير ليلاً.. لكن هذا ما كان بوسعي على كل حال..

ما أغرب الأصوات التي بدأت تتجمع لدي!.. بعضها كان مألوفاً كصوت بنات آوى أو الكلاب تتبادل السباب أو حشرات الليل.. لكن هناك صوتاً آخر.. أنا متأكد من هذا.. صوتاً لا يمت لعالمنا بصلة.. يصعب أن أصف الأمر لكنه كفيلاً بأن يصيب المرء بذهول مطبق.. كأن هناك كائنات تتبادل مناقشة حامية بلغة غير مفهومة وأصوات لا وجود لها..

لا بد أن (فريد) أخبرك بأنني جربت أن أتلصص بنفسي.. أمضيت أكثر من ليلة هناك أحاول أن أعرف مصدر هذه الأصوات بلا جدوى.. مريض الهستيريا يصير على ما يرام عندما يدرك أنه غير مراقب ويتصرف على راحته، ويبدو أن هذه الظاهرة تندرج تحت هذا التعريف.. ظاهرة لا تعبر عن نفسها إلا عندما تتأكد من أنه لا يوجد فضوليون ..

لقد تراكمت عندي الشرائط يا (سلمى) وكلها تحكي الشيء ذاته.. (فريد) قال إنني مجنون لكنك قلت كالعادة "أنا أتق بك.. وسأتبعك إلى آخر العالم"..

كنت أحكي لك بانبهار عن هذه الظاهرة.. حتى كنت عائداً الليلة لدارنا.. كنت أمشي قرب المقابر عندما قابلتك عائدة من الدرس الخصوصي.. مشيت معك وتكلمنا عن أشياء كثيرة.. سألتك إن كنت تثقين بي فقلت إنني أعرف الإجابة.. طلبت منك أن تتبعيني لتري ذلك العالم المسحور الذي أحب أن أرتاده.. لن يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق ..

كان هذا جنوناً.. ما كان عليك أن تقبلي.. أنا لست وغداً وما كنت لأغرر بك، لكن هبي أنني

فعلت؟.. كان عليك أن تكوني أكثر حذرًا.. لا شيء يضايقني مثل الثقة العمياء.. فلو كنت أنا واحدًا آخر لكانت النهاية وبيلة.. دعك من أن أحدًا لن يصدق أبدًا أن الفتى اصطحب الفتاة للمقابر ليلاً لأنه يريد أن ترى عالمه الساحر!.. هل تذكرين دعابة النجار الذي اختبأ في خزانة الثياب ليعرف سبب انفتاح الأبواب كلما مر الأتوبيس؟.. كان هذا هو الرجل الوحيد الصادق في العالم لكن من يصدق؟

لقد وافقت يا صغيرتي.. ومشيت معي بين الأطلال.. بين الشواهد.. لا ترين شيئاً تقريباً لكنك تثقين بي.. نهبط من هنا ونصعد من هنا.. تمسكين يدي بيد راجفة خائفة.. تلهئين انبهاراً ونشوة.. تقولين إنك تثقين بي..

ليتك لم تفعل.. ليتك أنذرتني.. لقد اجتزت بك موضعاً لم اجتزه من قبل، ولعل رغبتني في إبهارك أو أن أبدو بارعاً غلبت حاسة الحذر لدي.. ولم أدر كيف ولا متى فقدنا توازننا.. وأفقتنا لنجد أننا في قاع حفرة.. إنها أعمال الحفر التي لا تنتهي في تلك المقبرة بجوار تربة (أبو عزام).. يبدو أنهم يحاولون تجفيف المياه الجوفية أو شيء من هذا القبيل..

النتيجة هي أنني تلقيت السقطة المروعة بينما سقطت أنت فوقي.. وعندما أفقتنا أدركنا أننا في مأزق.. لن نستطيع الخروج لأن الحفرة عميقة فعلاً.. سيكون علينا أن نمضي الليل هنا حتى نجدنا أحد في الصباح.. لكن أي مأزق هذا؟.. من يصدق أن النجار ينتظر الأتوبيس فعلاً؟.. في الصباح ستكون الفضيحة ولربما دفنونا حينئذ.. يقولون إن هذين الآثمين تلقيا جزاء السماء العادل..

الظلام دامس لكننا اعتدناه.. يمكنك أن تريني بوضوح الآن ويمكنني أن أراك..

أنت تبكين يا (سلمى).. خائفة أنت يا (سلمى).. هذا خطأ مشترك.. ما كان يجب أن تقبلي اقتراحات مجنون مثلي.. التصقي بي أكثر لأن الليلة باردة..

هذه المقبرة عجيبة فعلاً.. هنا بالذات كنت أضع جهاز الكاسيت ليلاً لأسمع تلك الأصوات.. على هذا الشاهد.. نعم..

بالإضافة لكونك حمقاء أنت لا تلاحظين أشياء كثيرة.. هأنتذي قريبة مني.. أنفاسك تلفح وجهي.. فكيف لم تلحظي أنني وقعت على تلك الصخرة وأن مؤخرة رأسي متهتكة بالكامل؟.. كيف لم تلحظي أن ذراعي تهشمت وأنها تتدلى بلا حراك إلى جانبي وبرغم هذا لم أتألم ولم أنن؟.. كيف لم تلحظي أنني بارد جداً؟.. كما قلت لك هذه المقبرة ذات خصائص عجيبة.. ويبدو أنني أتعلم بالطريقة الصعبة.. لقد بدأت أفهم..

الآن يدك تمتد إلى مؤخرة رأسي يا (سلمى).. ثم تجذبينها وتنظرين لها في رعب.. الآن قد بدأت تفهمين.. لكن بعد ماذا؟.. لم تعد هناك جدوى من صراخك.. لا جدوى على الإطلاق..

حدث في الخامس من مايو

لماذا أفعل ذلك؟

أنت تسأل أسئلة غريبة اليوم.. من الأوفق أن تسأل: لماذا لا أفعل ذلك؟

لقد قرأت الكثير من كتابات الفوضويين، وآمنت أن التدمير أروع بمراحل من أية متعة يحظى بها المرء في حياته.. لحظة انفجار قنبلة أو انطلاق رصاصة هي الاكتمال بعينه.. هذه أشياء لن تفهمها..

يلذ لي أن أرى وجوه رجال الشرطة عندما يأتون للتحقيق.. منذ فترة صارت عندهم صورة محددة لأسباب هذه العمليات، ولن يخرج تفكيرهم عن هذا النطاق.. لن يفهموا أبدًا أن هناك من قرأ كتابات الفوضويين وآمن بمبادئهم.. دعك من أنه يكره المكان فعلاً..

الخوف؟

أعترف بهذا..

وأنا أرتدي ثيابي صباح اليوم شعرت بجفاف في حلقي.. ألف الحزام حول جسدي العاري وأتأكد من أن السلكين بارزان.. العبوة التي قضيت أيامًا أركبها بالاستعانة بتعليمات الإنترنت.. لماذا يتركون هذه المواقع تعمل إذا كانوا يريدون الأمان حقًا؟.. لا أصدق أن الحكومة الأمريكية عاجزة عن منعها أو إغلاقها..

شعور غريب أن يلتف الحزام حولك.. نوع من القلق.. التردد.. يمكنك في أية لحظة أن تتراجع، لكنني اتخذت قراري منذ زمن ولن يغيره شيء..

البنوك!.. أنا أكره عمل البنوك.. أكره وجوه العملاء وأكره زملائي وأكره مكتبي.. الجشع في أعتى صورته.. تأمل القلق والتوتر في وجه هذا العميل أو ذاك وهو يعد ماله.. جميل جدًا أن يدوي انفجار مروع هنا وتتناثر الجثث مع الدماء.. صحيح أن رأسي سيكون بينها لكن من قال إنني أهتم برأسي؟

لقد فقدت الحب ولم أعد أبالي بيوم آخر في الحياة.. المزيد من الحياة في المستقبل لا تعني سوى المزيد من العطن..

اليوم يبدو مناسبًا.. أحب أن افجر نفسي يوم الخامس من مايو.. هذه عادة لم استطع التخلي عنها قط.. إن الخامس من مايو يوم لطيف..

في مثل هذا اليوم - حسب مواقع الإنترنت التي تهتم بهذه الأمور - توفي المناضل الإيرلندي

(بوبي ساندز) عام 1981 بعد إضرابه شهرين عن الطعام في السجن.. عام 1961 ترسل أمريكا أول رائد فضاء لها بعد ما سبقها السوفييت.. الزعيم الهندي (الثور الجالس) يفر إلى كندا عام 1877.. عام 1821 يموت بونابرت في منفاه بسانت هيلانة.. عام 1494 يصل كرسنوفر كولمبس لجامايكا.. وعام 1260 يصير قوبلاي خان إمبراطور المغول..

وأموت أنا!!

* * *

كان (جمال) قلقًا وهو يسرع إلى مكتبه في المصرف.. لقد تأخر فعلاً اليوم، ومدير القسم ليس مولعًا بالتسامح.. أستاذ (محمود) ليس من الطراز اللطيف الذي يتجاهل التأخير.. إنه من طراز الموظفين المتحذلقين الذين يشعرون بأنهم خبرة إدارية عظمى.. يتأنق ويتحدث بالألطة شديدة، وقد علق النظارة بسلسلة فضية لتتدلى على صدره، ويقف طيلة الوقت ليعرض كرشه الممتاز البارز من صدرية البذلة على الموظفين..

(جمال) لم يكن نموذجًا رائعًا كذلك، فهو شاب حديث التخرج من الطراز الذي لا يقدر على ترك السهر مع رفاقه.. يقولون إن سهراته ليست بريئة جدًا، لكن لا يجروا أحد على إعلان ذلك.. غير أن أستاذ (محمود) يمكنه أن يوبخه في أي وقت يريد..

..أستاذ جمال.. أنت متأخر نصف ساعة.."

في حرج قال جمال وهو يسرع بنزع سترته والجلوس بالقميص وربطة العنق خلف شاشة الكمبيوتر:

..المواصلات يا سيدي.. أنا آسف.."

من تحت أسنانها غمغت (ليلي) دون أن تنتظر لأحدهما:

..والإنترنت طبعًا.. معنا عبقرى هنا.."

نظر لها (جمال) في غيظ وابتلع تعليقاته الحادة...

* * *

راح (شريف) يداعب مفاتيح الكمبيوتر قليلاً، ثم تأمل أحد دفاتر بطاقات الائتمان.. راح يعبث في الدرج حتى أخرج علبة أقراص البنادول.. ابتلع ثلاثة أقراص مرة واحدة ببقايا كوب الماء، ثم طلب قُدْحًا من القهوة..

لاحظت (فاتن) المتدربة الشابة الجالسة جواره ذلك، فقالت في قلق:

..ثالث مرة تشرب فيها القهوة والوقت لم يتجاوز العاشرة صباحًا"

هذا صحيح.. والأسوأ هو أنه لا يعرف أن سبب الصداع ارتفاع في ضغط الدم، وأنه بالقهوة

يحفر قبره ببطء.. الصداع الناجم عن ارتفاع الضغط لا يعالج بالقهوة..

لكنه لا يبالي حقاً.. فعلاً لا يبالي بشيء.. ثمة شيء في الطريقة التي يشرب بها القهوة يذكر (مجدي) بسكير في حانة يشرب كأسه العاشرة..

كانت (فاتن) معجبة بـ (شريف) جداً... لكنه لا يبالي.. لم يعد شيء في العالم قادراً على تحريك عواطفه منذ.. منذ ماذا؟.. لا أحد يعرف بالضبط.. لكن الأمر يوحي بقصة حب فاشلة لن تمحى أبداً..

(مجدي) المحاسب الآخر يحب (فاتن) منذ جاءت للمصرف منذ ثلاثة أشهر.. العملية معقدة جداً كما ترى.. أ يحب ب، و ج يحب أ.. هذه العلاقات الشهيرة حينما تجمع مجموعة من الشباب المليء بالحيوية في مكان عمل واحد..

* * *

كنت أراقب زملائي في العمل.. غافلين هانئين... أمسك بدفتر الانتمان وأقلب صفحاته في شروء..

من المسلي أن تعرف أنك تمسك في يدك بمفتاح حياتهم وموتهم.. هم لا يعرفون ذلك.. تذكرت عندما كنت أقف في الحمام أراقب ذلك الصرصور الصغير يزحف على البلاط (القيشاني).. لم يكن السيراميك معروفاً وقتها.. الأمر كله في يدي.. سوف يهوي الشبشب عليه فتنتهي حياته أو لا أفعل فينعم بها.. في 90% من الحالات كنت أهوي بالشبشب وكثيراً ما كانت الأقدار تتحداني فينجو الصرصور بشكل ما..

لكن الآن لن ينجو أي من هذه الصراصير..

رجال الشرطة سوف يعرفون الحقيقة.. سوف يبحثون بين الجثث ويستدعون خبير المفرقات ولسوف يعرفون من الذي فجر نفسه.. سوف يهرعون لداري ويفتشون كل شيء.. سامحيني يا أمي.. لن يضايقوك كثيراً على كل حال..

سوف يفتشون جهاز الكمبيوتر ولسوف يجدون ملفاً كاملاً عن المفرقات.. ولسوف تخرج الصحف كلها تتساعل عن سبب انتشار العنف بين الشباب، وسوف يتكلم أكثر من خبير نفسي وخبير علم جريمة..

الحقيقة أنني أقدم للمحررين هدية عظيمة، فلسوف يكتبون ويكتبون ويسودون الصفحات لمدة شهر كامل. لو أنصفوا لدفعوا لأمي مكافأة..

لكنهم لن يفهموا السبب أبداً.. أنا نفسي لو طلب مني أن أكتب مقالاً أشرح فيه القصة لما وجدت كلمات.. هذا هو الموقف العبثي الحق كما تكلم عنه (البير كامو) في (الغريب).. كانت لدى بطل القصة فرصة ممتازة ليقول الأعرابي أو يتركه.. كان الحر خائفاً والذباب كثيراً والعرق يحرق عينيه، لذا قتل الأعرابي.. فيما بعد قال لرجال الشرطة إنه قتل الأعرابي لأن الحر كان شديداً..

لم يفهموا.. كلهم لا يفهمون..

عندما أفكر في هذه الأمور أشعر بالدم يتصاعد لرأسي.. إنه الصداع.. الصداع اللعين.. يجب أن أقضي عليه بأية طريقة.. يجب...

* * *

مجدي يقلب صفحات دفتر الائتمان وهو يختلس النظر لـ (فاتن).. لقد بدأ يمسك برأسه.. يبدو أن الصداع موضة هذا اليوم..

نهضت (ليلي) معلنة بصوت هامس أنها سوف تذهب للحمام.. لم تكن تفعل هذا عادة.. لم يرد أحد لأنهم كانوا مشغولين مع هجمة من العملاء..

هذا الرجل البدين يصرخ بكبرياء و(الأطاة) مهدداً بأن يسبب مشاكل للجميع.. ابن خالة زوج عمته مزيح كبير ولسوف يفضحكم في برنامجه.. عيب كده..

يظهر أستاذ (محمود) الخبير الإداري وحلال المشاكل من مكان ما وهو يمسك نظارته في يده (يحب هذه الطريقة لأنها توحى بالانهماك) ويسأل العميل عن المشكلة فيرد بصوت يزلزل المصرف:

"ليست معي هويتي.. معي رخصة القيادة، وهذا الأستاذ.. الأستاذ المتعلم يقول إنني لن أستطيع السحب.. صبراً.. سترون.. لو أن كلمة من هذا الكلام بلغت ابن خالة زوج عمتي فلن يبقى واحد منكم في مكتبه"

من الغريب أن هذا الطراز من الجعجعة ينجح كثيراً، وقد اقتاد الأستاذ (محمود) عميله إلى مكتبه ليسوي المشكلة.. لكن الرجل لم ينس أن يصرخ في (جمال):

"أقسم بالله أن من علمك قد ظلمك!"

لم يستطع (جمال) الرد لأن المدير أشار له من طرف خفي أن يخرس، لكن لو ترك الأمر له لوثب وأنشب مخالفه في عنق هذا الخنزير المتغطرس.. (جمال) من الطراز العصبي الذي توشك روحه على الخروج من أنفه دعك من أنه لم ينم بعد..

* * *

أنا في الحمام..

لا أحب الحمامات العامة وأشعر بالبارانونيا في هذه الأماكن، لكن لابد من لحظات أتأكد فيها أن كل شيء على ما يرام.. أدخل دورة المياه وأرفع ثيابي لأتأكد من أن القنبلة في مكانها.. طرفا السلك بارزان ينتظران أن ألمسهما حيث يخرجان من تلك الفتحة في جيبي.. كنت أخشى أن يحدث الأمر صدفة، لذا قمت بعزل احد الطرفين..

صوت الصراخ يتعالى من الخارج.. العملاء يعتقدون أننا عبيد أغبياء وأن عليهم أن

يصرخوا أولاً قبل طلب أي شيء.. والمشكلة هي أن عليك أن تصمت لأن العميل دائماً على حق، مدير المصرف بالمرصاد لكل من يعلو صوته بيننا..

هل مظهري طبيعي؟.. هل تبدو أية أسلاك؟

لحسن الحظ أن لدي كرشاً لا بأس به.. لا يكفي لوصفي بالقبح لكنه يخفي هذه الكارثة المعلقة على صدري..

جميل.. جميل..

أنظر لساعتي..

في الثانية عشرة ظهر يوم 5 مايو سوف ينتهي كل شيء.. تنتهي قصة حياتي وعلى الأرجح قصص حياة عدد لا بأس به من الشباب في هذا القسم. نحن نعمل بالطريقة القديمة وليس بطريقة ال- Cubicles الغربية حيث تكون هناك حواجز بين كل مكتب وآخر.. كلنا في مكان واحد ضيق وهذا.. وهذا.. سوف.. يجعل.. الضرر..

الصداع من جديد..

كم أحسد (شريف).. برغم معاناته فإن الصداع الذي يصيبه يزول بأقراص (البانادول) أما أنا فصداعي لا يزول.. والأدهى أن طبيعة وضعي تحتم أن أضحك وأبتسم..

الصراخ يتعالى في الخارج.. لابد من أن أخرج لأتولى أمر هذا الرجل الذي يحسبنا خدماً عنده..

الحادية عشرة والنصف.. الموعد يقترب.. ليت بوسعي أن أطلب منهم أن يستغفروا ربهم.. لكن هذا سيقضي على المفاجأة.. هل سيكونون في عداد الشهداء؟.. أرجو ذلك.. لو كان هذا صحيحاً فإنني أقدم لهم خدمة عظيمة!

* * *

يبدو أن لكلمات الأستاذ (محمود) مفعول السحر.. لقد خرج البدين من مكتبه راضياً.. اصطدم بليلى وهي خارجة من الحمام وقد أصابها الصراخ بالذعر..

فقط نظر بكراهية لجمال ووجهه يحمل سبة بذينة لم يقلها ثم ابتعد. هنا فقط تعالت الضحكات سخرية منه ومن كل شيء..

طلبت ليلى كوباً من الماء من العامل.. إنه رابع كوب تشربه منذ الصباح..

* * *

ريقي جاف تماماً.. أشعر بأن ممحاة تثبتت في مكان لساني..

هذا طبيعي.. إن الأدرينالين يتعالى في دمي . ومعنى هذا أن يجف ريقي ويتسارع نبضي

وتتسع حدقتاي.. أنا الآن كالنمر المتأهب للوثب..

أريد لفافة تبغ.. يدي ترتجف فعلاً..

* * *

أشعل جمال لفافة تبغ ونفث سحابة كثيفة أحاطت بعبارة (ممنوع التدخين). ابتسم البعض في تسامح.. لو جاء رئيس القسم لنفسه نسفاً، لكن (جمال) يتصرف منذ البداية باعتباره يضيع وقته هنا بدلاً من الجلوس في الكافتيريا.. سوف يمضي أياماً هنا ثم يتشاجر ويرحل.. هذا شيء مكتوب ومحدد..

(مجدي) ينظر لساعته بلا توقف.. يهزها ويصغي.. إنه قلق لسبب غير مفهوم..

* * *

لكم حسدت (جمال) على أنه يملك شجاعة التدخين علناً.. أنا لا أملك هذه الشجاعة ولا حتى في دورة المياه.. متى بدأت هذه العادة الذميمة؟.. ربما منذ عام مع قصة الحب الفاشلة تلك..

كم الساعة الآن؟.. اقترب الوقت جداً.. إنهم جميعاً هنا.. فقط سوف ألمس السلكين وهما في جيب السترة وينتهي كل شيء.. لن أعرف أنني انفجرت ولا أن رأسي طار ليستقر في ركن الغرفة..

يجب أن أجرد طرف السلك..

* * *

نظر (جمال) إلى (شريف) في دهشة ثم سأله:

"هل زال الصداق؟"

"نعم.. الحمد لله"

"إذن عم تفش في جيوبك؟.. عن المزيد من البانادول؟"

ابتسم (شريف) وأخرج علبة من اللادن وألقاها على المكتب وقال:

"ألا تحب اللادن؟.. هذا له مذاق الموز"

"أنت رائق البال"

* * *

السلك الذي عزلته يأبى أن ينسلخ من غطاءه.. تبًا!.. يجب أن أحاول أكثر.. (شريف) يقدم لي بعض اللادن بلا مودة فأرفض مع الشكر. ليلى تميل علي لتقول:

"كفي قليلاً عن التغزل في شريف يا حمقاء!.. نظراتك تفضحك.. على الفتاة أن تحب من تجد إن لم تجد من تحب.. (مجدي) يهيم بك حبًا.."

يا لك من حمقاء!.. كل شيء سينتهي خلال ثوان وهي ما زالت تتكلم عن هذا السخف! السلك.. ظفري يحاول أن يجرده..

تقول ليلى:

"هل دخلت الحمام لتدخين سيجارة عندما كان ذلك الخنزير يتشاجر؟.. لقد اختفيت بسلاسة تامة.. أنا أعرف أنك تدخنين.. أليس كذلك؟"

في هذه اللحظة لم أعرف ما يحدث.. فقط سمعت اسمي (فاتن) يدوي بصوت عال، ثم وجدت نفسي على الأرض بينما رجلان يبدو أنهما من رجال الشرطة يثبتان معصمي بكفاءة غريبة.. صحت من بين أسناني:

"لا تلمسوني يا أوغاد.. سأتهمكم بالتحرش!.. أريد سيدة لتفتشني!"

بالفعل سرعان ما كانوا يقتادونني إلى الحمام، بينما ظهرت سيدة من مكان ما.. سيدة حازمة خالية من الأنوثة تنزع القبلة عن جسدي.. وتناولها للرجلين..

من الخارج أسمع (عزة).. (عزة) صديقة عمري تشرح لهم:

"إن الفتيات يعشقن الثرثرة.. لم تستطع (فاتن) أن تنفذ مخططها من دون أن تشرح كل شيء في خطاب لي، وطلبت ألا أفتحه إلا مساء اليوم.. نسيت أن أقول إن الفتيات فضوليات كذلك.. لهذا فتحت الخطاب قبل الموعد ووجدت هذا الكلام المخيف!.. (فاتن) ستفجر نفسها عند الظهر.. هذا مستحيل.. كلام فارغ.. قولوا لي ذلك!.."

وصوت رجل صارم يقول لها:

"للأسف كل ما قالته دقيق.. لقد نجا هؤلاء بمعجزة.. إنني لأسائل نفسي عما يمكن أن تصل له الأمور بعد ذلك!"

الخامس من مايو.. في مثله توفي المناضل الإيرلندي (بوبي ساندز) وأرسلت أمريكا أول رائد فضاء لها، ومات بونايرت في منفاه بسانت هيلانة ووصل كرسنوفر كولمبس لجامايكا، وصار قوبلاي خان إمبراطور المغول..

وهو اليوم الذي انتهت حرיתי فيه.

وطفق ينتظر

حقًا لا يعرف السبب ولا ما ألقى به هنا.. يشبه الأمر قصص الخيال العلمي حينما تنفتح ثغرة في الأبعاد تلقى بمن يجتازها في زمن آخر ومكان آخر.. إنه (الزمكان) كما يحلو لهم أن يقولوا.. هو ذا جالس في عيادة الطبيب ينتظر دوره، حيث التسلية الوحيدة المتاحة هي العبث بإصبعك في أنفك، أو تأمل وجوه الجالسين المصفرة، أو قراءة الأشعار الركيكة التي كتبها من شفاهم الطبيب من قبل.. دائمًا ينظمها مدير عام بالضرائب أو مفتش ري، وقد اعتنى بكلماته تلك فكتبها بلون الذهب واختار لها إطارًا غالي الثمن.. يسمع اسمه تصيح به الممرضة فينهض قائلاً لنفسه: لا بأس.. هذه ليست حياتي.. إنه كابوس..

الكاهن الأكبر يجلس إلى مكتبه راضيًا عن حصيلة اليوم.. يقول له في عجلة إن ما يعانيه هو الفيروس (سي) الذي قرر أن يتخذ كبده بيتًا بوضع اليد.. يمكن أن نعطيك حقن الانترفيرون لكن لابد من أن تجد طريقة للحصول عليه لأنه علاج باهظ التكلفة.. لا يوجد حل آخر.. لا تتعاط الحبة الصفراء ولا كل هذا الهراء.. إياك أن تجرب الحمام ولا الأوزون ولا الأشعة فوق البنفسجية، فكل من ابتكروا هذه الأشياء جمعوا المليارات من أمل البؤساء مثلك..

وماذا لو لم تتعاط العلاج؟

لا تفرع.. سوف يعبث الفيروس في كبذك ليحوله إلى كتلة من الليف.. سوف تصفر عيناك وتضمر قواك.. لا تدع هذه الفكرة المخيفة تؤرقك.. سوف تفرغ دمك عن طريق الفم، فإن لم يحدث هذا تذكرت تلك الخلية الشقية في كبذك أن عليها أن تنقسم بجنون وبلا توقف.. ورم سرطاني جميل الشكل سوف يتكون هناك، وسوف يحتفظ كل طبيب أشعة بصورة منه ليعرضها في المؤتمر الثامن عشر للأشعة التشخيصية.. لا أقول هذا لأثير رعبك..

تغادر العيادة وأنت تهمس لنفسك ألا تقلق.. هذا كابوس.. هذه ليست حياتك..

ذات مرة رأى في الكابوس أنه متهم في قضية أمن دولة وقد قبض عليه.. تعرض للتعذيب فعلاً وكهربوا جسده فعلاً.. شعر بهذا كله.. وعندما أوشكوا على دس عصا المكينة في جسده نهض من نومه، ولشد ما شعر بالنشوة وهو يدرك أنه في فراشه المبلل بالعرق..

ليست لديه سيارة في هذا الكابوس.. هذا غريب.. إن عنده في عالم الواقع سيارة (فور باي فور) ثمنها مليون ونصف.. لا بأس.. فليتعامل مع الكابوس بقواعده..

يقف على محطة الميكروباص وسط الوجوه المرهقة التي أفعمت حزناً وكآبة.. تصل السيارة التي يتدلى (التباع) منها بقوة فيزيائية لا يعرف كنهها إلا الله.. تتركب.. سائق الميكروباص لا يكف عن الكلام عن لجان المرور وسحب الرخص والأقساط التي يجب أن يدفعها.. ثم يلقونك

في مكان ما من العاصمة المرهقة المتربة..

سحابة التراب تغزو رنتيك وتزرع علمها هناك.. يختلف الأمر كثيرًا في الساحل الشمالي حيث تقيم أكثر العام.. لكن لا بأس.. هذه ليست حياتك.. فلتتحمل..

يجتاز مدخل الشارع الضيق متجهًا لبيتها الآيل للسقوط.. يجتاز بركة الماء القذر التي سكبتها (باتعة) على الباب ممزوجة بعمل سحري ما تكيد به لزوجته.. يصعد في الدرج..

هل هذه هي زوجته؟.. تلك المرأة البدينة المترهلة الضخمة التي تجلس القرفصاء على كرسي المطبخ، وقد ثنت عنق إوزة من تحت فخذها كأنها (هرقل) وقد استطاع أن يجندل (أطلس).. تدس بين منقاريها تلك الحبوب المبتلة بالماء.. هل حقًا انتهى هذا الجسد في لحظة ما؟.. مستحيل.. وحمد الله على (لمياء) الرقيقة زوجته في عالم الواقع التي ما زالت تدير الرعوس برغم أنها تجاوزت الأربعين..

تخبره أن الواد (يوسف) قد نال صفرًا في امتحان الرياضيات ولا بد من درس خصوصي.. تخبره أن البت شيماء مزقت حذاءها للمرة الثالثة.. تخبره أن لوزتي أكرم التهبنا ويبدو أنه لا بد من الجراحة وإلا هبطت الحمى الروماتزمية على قلبه.. تخبره أن فاتورة النور جاءت لكنها لم تدفعها لأنها مرتفعة جدًا ولا يوجد قرش أحمر في البيت.. تخبره أن بالوعة المطبخ مسدودة.. تخبره أن سليمان جارهم وقف في نافذة المنور واختلس لها عدة نظرات وهي في الحمام.. يجب أن يتشاجر معه..

لا بأس... الكابوس شنيع لهذا تكون لحظة الاستيقاظ عذبة..

سوف يتحمل..

في التلفزيون هناك عبارة غرقت بمن فيها، وقد زعم الزاعمون أن صاحب الشركة تعمد ذلك للحصول على التأمين.. هناك سفاح في الصعيد يمزق أعضاء ضحاياه... هناك إنفلونزا طيور.. من المؤكد أن أسعار اللحم والسمك سوف ترتفع ارتفاعًا قياسيًا لأن هذه هي اللحظة المناسبة التي ينتظرها مصاصو الدماء.. الضباع لا تأكل الضباع لكن هؤلاء يفعلون..

-"ألن تتشاجر مع (سليمان)؟"

هز رأسه بما يفيد بلى أو نعم.. إنها من طراز النساء اللاتي يردن أن يتشاجر زوجهن طيلة الوقت، فإذا ما فتح (سليمان) رأسه - وهذا أكيد - ملأت الدنيا صراخًا على سبوعها وجملها..

هؤلاء الأطفال الأوغاد الذين يشبهون قراصنة الكاريبي.. لا يمكن أن يكون شخص بهذه الخسة والوقاحة إلا إذا كان طفلًا.. في عالم الواقع هو بلا أطفال ولعل هذه مزية إن كان الأطفال يشبهون هؤلاء..

هذا ليس واقعك.. هذه ليست حياتك.. اصبر قليلًا..

يدخل الفراش القذر والغرفة كريهة الرائحة التي تناثرت الخرق والثياب المكومة في كل ركن منها.. يأمل في أن يظفر بساعات من النوم.. سوف ينهض ليجد نفسه في فيلا الساحل الشمالي و(لمياء) تحضر له كوب عصير البرتقال وتدغدغ أنفه بأنفها..

هنا تدخل زوجته الغرفة.. إنها تنزع ثوبها القذر لترتدي أبشع قميص نوم رآه في حياته . ثم تندس جواره فيئن الفراش البائس ويتأوه ويعوي.. إنها ما زالت تتكلم.. تتكلم عن ارتفاع سعر الخضار وعن جارتها الوقحة (باتعة) وعن آلام الظهر وعن حاجتها لغسالة (فول أوتوماتيك).. يقول لها وهو ينظر للسقف حيث يمشي برص صغير:

"كنت عند الطبيب.. أنا مصاب بفيروس (سي).. والحالة متقدمة"

"هذا هو ما تجيده.. المرض.. منذ عرفتك وأنت مريض بشكل ما.."

وتنهال على رأسه بالسباب والإهانات والشتائم.. هؤلاء لم يعودوا رجالاً.. هؤلاء مسوخ صنعتها هرمونات الفراخ البيضاء ولن تندesh لو نما له مبيضان ورحم، وهي البائسة التي تغسل وتمسح وتطبخ.. فلو كانت خادمة لوجد في عروقه بعض القوة.. الفارق هو أن الخادمة تتقاضى مالاً أم هي فتضرب بالحداء، والله يرحمك يا أمه..

ينام وهو يدعو الله أن يفيق أو يموت..

إنه الصباح.. شعور عام بالقلق يغزوه وهو يرى ذات معالم الحجرة وذات الفيل البشري الذي يسيل لعبه على الوسادة.. هذا هو أول كابوس ينام فيه ويفيق ليرى نور الصباح..

هذه الجدران تخنقه.. هاآآه!.. اخذ شهيقاً عميقاً.. يتمنى الخروج من جدران هذا الكابوس.. هناك فتحة ما لكن أين هي؟

لم يجد الفتحة.. لم يجدها وهو يراقب زوجته تعد الإفطار للأطفال.. تلبسهم ثيابهم وهي تصفع هذا وتلك هذه.. لم يجدها وهي تضع حذاء البنت في وجهه ليصدق أنه ممزق.. ثم نزل الأوغاد إلى مدارسهم وعرف أن عليه أن يلبس ثيابه ليذهب للعمل..

لو كنت في كابوس فعليك أن تلعب بقواعده..

إنه يجلس الآن في تلك المصلحة التي أكل الدهر على جدرانها وشرب.. حاولوا أن يداروا ثقب الجدار بأفرخ الجراد المدرسي فزاد الأمر قبحاً.. هناك من كتب بعض الأحاديث القدسية بخط قبيح، وأخطأ عدة مرات في نص الأحاديث نفسها..

هل هؤلاء زملاء العمل؟.. هذه الوجوه المرتشبة الجشعة التي لا تتكلم إلا عن الجنس والدين.. وجوه لا تفكر إلا في طريقة لتأخير القذف وأرخص مكان يمكن شراء البانجو منه..

تذكر عالم الواقع حيث يعمل في شركة استثمارية نصف من فيها أجانب.. جو نظيف.. وجوه جميلة.. أناقة في كل شيء.. عمل مرهق، لكن من قال إن العمل ليس سلوى؟.. مشكلة هذا المكان إنه لا يوجد عمل تقريباً.. وبالتالي لا أجر تقريباً...

يرى كومة صحف أمامه فيطالع العناوين.. هذا الكابوس محكم متقن الصنع، فلا بد أن معدته كانت مليئة بالسمن عندما دخل فراشه.. لا بد أن عقله الباطن كان منقوعاً في مياه المجاري عدة أيام قبل أن يخرج منه هذا الحلم اللعين.. في هذا الكابوس لا دور لمصر في العالم تقريباً إلا أن تقنع كل الأطراف على طريقة بائع الجبن.. لا شيء يتغير فيها مهما كتبت الصحافة وزارت المعارضة.. يفر اللصوص بما سرقوه معززين مكرمين، والشرفاء يُخطفون إلى الصحراء حيث

يجردون من ثيابهم ويضربون علقة ساخنة، والصحفيات الشابات تمزق ثيابهن في الشارع بأيدي عصابة من البلطجية بينما الشرطة تراقب هذا.. الغلاء يطحن كل شيء وكل جنينه في جيب الناس تحول إلى ثلاثين قرشًا، والشركات الكبرى تباع بتراب المال...

حمد الله على أن مصر في عالم الواقع بلد ديمقراطي محترم يعتبر في طبيعة دول العالم الثالث، وقد حققت معدلات نمو مذهلة فافتت معدلات ماليزيا التي كانت تزدهر بها..

إنه كابوس.. هذه ليست حياتك.. هذا ليس بيتك.. هذا ليس بلدك..

حمدًا لله!.. سوف تفتيق بعد قليل لتجد نفسك في فراشك الوثير المبلل بالعرق، من ثم تنهض للحمام لتفرغ مثانتك وتشرب كوبًا من الماء المثلج وتعود للنوم..

لا يدري متى بدأ يشعر بالرعب.. ربما عندما عاد للدار عصرًا فوجد كل شيء كما هو.. عندها بدأ احتمال واه يتضخم.. ماذا لو لم يكن هذا كابوسًا؟.. ماذا لو كانت هذه حياتك فعلاً؟ ماذا لو كانت هذه زوجتك فعلاً؟.. ماذا لو كان هذا بلدك فعلاً؟.. إن رعب هذه الفكرة ليفوق أي رعب مر بك في حياتك..

مستحيل.. إنه كابوس.. والكابوس حالة عابرة سرعان ما تزول.. فقط انتظر قليلاً ولسوف ينتهي هذا كله.. هاآآآه!.. أريد أن أخرج من هذا.. أريد أن أرى السماء..

وطفق ينتظر لحظة الاستيقاظ.. ويقال إنه ما زال ينتظر حتى لحظة كتابة هذه السطور.

في عزبة الفول-ي

أنتم تعرفون من أنا لهذا لن أتوقف طويلاً عند هذه النقطة.. سائق سيارة الأجرة الشاب - ربما الأخرق - الذي لا يملك مليماً ولا مواهب سوى إجادته القيادة.. السيارة تخص الحاج (بيومي) لهذا يمكنكم أن تدركوا أنني أعيش على الكفاف..

أمضي في شوارع المدينة العجوز المنهكة.. أتخذ وضع سائق التاكسي الصميم.. أسترخي باستهتار في مقعدي ولا أمسك بعجلة القيادة كما يفعل سائقو الملاكي الأثرياء التافهون، لكن أضع عليها كفي اليمنى كأنني أمسحها.. وعامة لا أستعمل يدي اليسرى أبداً كأنه فرض ديني.. تعلمت ألا أضيء كشافاتي على سبيل (الحرفنة)، وتعلمت أن أدور حول الكرة الأرضية وأجتري المعجزات فقط لمجرد ألا ينزل الزبون في المكان الذي يريده.. لا بد من أن يمشي قليلاً..

في ذلك اليوم قال لي الحاج (بيومي) عندما ذهبت أخذ التاكسي صباحاً:

"اليوم لن تعمل وسط البلد.. هناك أشخاص سوف توصلهم إلى عزبة جوار (قليوب).. سوف توصلهم وتنتظر عودتهم معك.. لا تطلب منهم مليماً لأن الحساب كله عندي.."

ثم حك بطنه وقال:

"اسمها (عزبة الفولي).. لا يعرفها الجميع، لهذا ستعتمد على تعليماتهم"

كان هذا مسلياً.. هو نوع من التغيير عن زحام القاهرة الرتيب الممل.. سأرى اللون الأخضر على الأقل.. ستتطلق السيارة على السرعة الرابعة بعد ما خنقتها سرعتان الأولى والثانية..

وهكذا اتجهت إلى العنوان الذي حدده لي وضغطت على آلة التنبيه مرتين.. في النهاية رأيتهم ينزلون.. أعني أنني رأيتهم ينزلون.. ثلاث نساء هن.. لم أطل النظر لكنني اعتقد أنهن في منتصف العمر..

هكذا انطلقت بالسيارة.. لا أعرف لماذا أكره تلك النظرات العابرة التي يختلسها لي الجالس بجواري.. إنها تجعلني عصبياً.. كان للمرأة الجالسة بجواري وجه قاتم مربد مشدود الجلد.. وكانت هناك تجاعيد قاسية على جانبي العينين والفم.. كأنها ملامح البدو الذين يعيشون حياتهم كلها تحت لهيب الشمس..

أخيراً وصلت حسب تعليماتهن إلى العزبة.. تباً!.. أية ممرات وعرة هذه؟.. لمدة نصف ساعة تمشي فوق طريق متعرج غير ممهد يوشك حصاه على أن ينتزع كل مسمار في العربة.. يوشك على أن يقتلع روحك ذاتها، ومن حين لآخر يركض كلب مشعث شرس وراء السيارة، ويحاول أن يقضم ذراعك البارزة من النافذة، بينما يدوي صوت الجالسة جوارك:

"يمينًا من هنا.. ثم يمينًا.. خذ هذا اليسار.. ثم اليمين.."

أخيرًا نصل إلى بيت له طابع ريفي بسيط، وأقف وسط الغبار المتصاعد من الأرض، ثم أنهض لأفتح غطاء السيارة.. لقد سخن الموتور.. لا شك في هذا..

تترجل النسوة ويدخلن البيت.. وأعود أنا إلى السيارة لأسكت محركها وأفتح المذياع.. لا أعرف متى يعدن لهذا سأحاول أن أنام.. مرت ساعة بلا صوت إلا الذباب الثقيل.. صوت الأنفاس مع الحر.. وحلقي احترق من الغبار..

بعد قليل ظهرت تلك المرأة التي كانت تجلس جوارى.. كانت الآن تلبس ثيابًا أخف نوعًا وقد شممت عن ساعديها، مما أظهر لي حقيقتها.. إنها خالية من الأنوثة تمامًا.. ربما مفعمة بالرجولة كذلك..

قالت لي في مودة مفاجئة:

"هلم.. لا بد أن تأكل لقمة بالداخل في الظل.. من تحسبنا؟.. لسنا يهودًا.."

كنت زاهدًا كل الزهد في كرم ضيافتهن.. كل ما أريده أن تنتهي هذه المأمورية بسرعة، لذا اعتذرت بشدة، لكنها عادت تلح..

هكذا غادرت السيارة لتقودني إلى مدخل البيت الرطب.. ثم إلى غرفة جانبية تفتersh أرضها حصيرة، وثمة طبلية وهناك حمام بدائي جانبي ملحق بالغرفة أتاح لي أن أغسل يدي ووجهي.. صحيح أن الماء يسقط من الحوض على حذائي لكن لا مشكلة..

عادت بعد قليل حاملة صحيفة عليها طبق من الأرز وطبق آخر عليه قطعة كبيرة من اللحم، فتحركت عصاره معدتي وبدأت أكل في نهم.. ولما فرغت أشعلت لفافة تبغ.. فجأة شعرت بأن أحشائي تتقلص.. ظهر الألم على وجهي، فقالت المرأة وهي تبتسم:

"لا بأس.. هذا يحدث أول مرة دومًا!"

ما الذي يحدث؟.. أول مرة لماذا؟..

أثار هذا حيرتي.. لكنني كتمت الأسئلة وصممت على أن يمر هذا اليوم بأي شكل..

لا بد أننا عدنا نحو السابعة مساءً.. نعم.. فقد عادت معي اثنتان، وأعتقد أن الفتاة حسنة المظهر قد بقيت هنالك..

لم تكن هناك أية كلمات شكر أو وداع..

وسرعان ما كنت أطوي الطريق عائداً إلى داري، وغداً يوم آخر..

* * *

تكرر السيناريو ذاته عدة مرات..

في كل مرة تأتي المرأتان مع فتاة ثم تعودان من دونها، وفي كل مرة تكون الفتاة مختلفة

عن المرات السابقة.. ثم:

"هلم.. لابد أن تأكل لقمة بالداخل في الظل.. من تحسبنا؟.. لسنا يهودًا.."

ماذا يحدث هنا؟ ثمة لغز ما يحيط بعزبة (الفولي) هذه

اتجهت إلى الحاج (بيومي) لأصارحه بأفكاري السود، فسعل من الضحك عدة مرات (لاحظ أنه كان يشرب المعسل) وبصق على الأرض ثم قال:

"اسمع.. كف عن أفكار الأطفال هذه.. لو طلب منك الزبون أن تأخذه إلى بلاد (واق الواق) فلتفعل ما دام يدفع.. لن تصلح الكون.. بالمناسبة.. هناك مشوار آخر يوم الثلاثاء.."

المزيد من الغبار والكلاب و(لسنا يهودًا)...

فعلت كما طلب.. لكنني في هذه المرة كنت متيقظًا متحفزًا.. كان توتري واضحًا وقد كدت أدهم طفلين وأصطدم بميكروباص.. وتمنيت بالفعل أن تصطدم السيارة وتحترق بنا جميعًا.. سوف أتخلص منهما وأتخلص من ذاتي التي سئمتها..

وقفت أمام البيت المعتاد ارمقه في شك.. لو كانت حساباتي دقيقة فإن هذا البيت يعج بالنساء الآن.. لا أذكر كم فتاة أو امرأة أوصلتها هنا وعدت من دونها.. ربما كن يعدن في يوم آخر مع سائق آخر.. لكن لماذا؟.. وما هو التفسير الذي يمسك بهذه الخيوط معًا؟

بعد ساعتين جاءت المرأة إيهاا تحمل لي صحيفة عليها سلطانية وحساء وبعض اللحم والأرز وقالت... لكنني قاطعتها:

"أعرف.. أعرف.. لستن يهوديات.. شكرًا.."

كنت جائعًا لذا وضعت الصحيفة على المقعد المجاور لي، وبدأت أكل.. ثمة شيء غريب في هذا اللحم.. إنه لحم بقري على الأرجح وأليافه طرية ناعمة أكثر من اللازم، لكن له مذاق لحم الدجاج.. لا يمت مذاقه لطعم اللحم البقري بصلّة..

ثمة شيء يسبح في الحساء.. شيء معدني.. مددت المعلقة حتى تمكنت من اقتناصه.. إنه خاتم ذهبي..

أكثر شيء يضايقني فيما أطعمه أن تطفو فيه أشياء.. لكن هذه ليست مشكلة على كل حال.. قمت بتجفيف الخاتم في المنشفة ورفعته في الضوء لأرى ما كتب بداخله: (منى - هشام).. (منى)؟

بعد قليل سمعت صوت زئير خفيض فنظرت عبر نافذة السيارة المفتوحة.. كان هذا كلبًا من تلك الكلاب الضالة التي تملأ العزبة.. وكان يطبق على عظمة ويركض بها مبتعدًا ليدور حول البيت.. غريبة هذه العظمة.. لم أجد الوقت الكافي لرؤيتها لكن انطباعًا انتابني بأنها غريبة المنظر..

هكذا فتحت الباب وترجلت.. حملت الكوريك في يدي واقتفيت أثر هذا الكلب..

تناولت حجرًا وقذفته به وأطلقت سبة مناسبة.. لكنه كان متمسكًا.. ثمة سبب غامض يجعله

أكثر ثباتًا وشراسة من أي كلب عرفته.. لكنه في النهاية ترك ما كان يعرقه وركض مبتعدًا..
هكذا دنوت من العظمة وتفحصتها.. كانت عظمة فخذ.. لكن المشكلة هي أنها أصغر من أن
تخص بقرة وأكبر من أن تخص حملاً أو خروفاً..

ما معنى هذا؟

أعرف أن الريفيين يذبحون خارج السلخانة كثيرًا، لكن من يذبح لهما؟. أنا لم أر رجالاً هنا..
هكذا عدت إلى السيارة.. وجلست أحاول أن أقرأ شيئاً في تلك الجريدة.. ويبدو أن الحر
والمثل بدءا يعبثان بي لولا أن صحوت على عنوان في صفحة الجريدة.. صفحة الحوادث وإن
كانت هذه الصحف الصفراء كلها صفحات حوادث في الواقع:

"(هشام) وقرية (...) كلها تبحث عن (منى).."

أما الصورة.. الصورة الباهتة التي تم تكبيرها من صورة زفاف فلوجه مألوف.. هذه المرأة
ركبت معنا منذ أسبوع وأنا واثق من هذا.. ركبت معنا ولم تعد معنا..

خاتم في الحساء عليه اسم (منى).. لحم له مذاق الدجاج.. "هذا يحدث أول مرة دومًا"..
عظمة أكبر من أن تكون لخروف وأصغر من أن تكون لبقرة.. كلب لم يعد يخاف البشر.. لسنا
يهودًا..

إن أمعاني تتقلص.. رباه.. إن أمعاني تتقلص.. ما أفكر فيه مستحيل لكنه يفسر الكثير..

لو حكيت هذه القصة لطفل لاستنتج أن هناك طقسًا مخيفًا يجري هنا في عزبة الفولي.. إن
المرأتين تأتيان هنا كي تأكلا طعامهما الخاص جدًّا.. وقد كرهتا ألا أشاركهما هذه المتعة..

المحرك يهدر . وأنا عاجز عن الوصول إلى الحقيقة..

سوف أعود إلى المدينة وألقي بالمفاتيح في وجه الحاج (بيومي) ورزقي على الله.. ضغطة
على دواسة البنزين وأترك ورائي كل هذه القصة..

لكن للأبد؟.. هل أظل أتساءل إلى الأبد؟

الباب موارب ومن خلفه تتصاعد الضوضاء.. أيًا ما كان ما يجري بالداخل فهو في ذروته
الآن.. والفضول يقتلني..

سأبقى المحرك دائرًا.. يجب أن تكون السيارة متأهبة للفرار..

أترجل وأدنو من الباب وفي يدي الكوريك..

أمد يدي إلى المقبض..

بعد ثانيتين أعرف كل شيء..

بعد ثانيتين أرى الحقيقة أو طرفًا منها..

هذا هو ما يعينني في اللحظة الحالية.

بعد الثانية صباحًا

ليكن يا أستاذ (مراد)..

صدقني أنا مصغ جيداً لما تقول، لكنني كذلك أتابع ما نراه على الشاشة.. أنا من النوع الذي يركز أفضل إذا لم ينظر لعيني محدثه أثناء الكلام، وهذا لا يعني أنني أستخف بك. فقط أرجو أن تعيد الشريط لبدايته..

كنت أتساءل منذ البداية عن سبب اهتمامك برأيي كمصمم للخدع الجرافيكية للأفلام. نحن نحقق نتائج لا بأس بها في مصر، لكن هذه الأمور تكلف مالا وتحتاج إلى سخاء في الإنتاج.. الإعلانات هي مصدر دخلي الأول كما تعلم..

عندما دخلت عليّ السكرتيرة (شاهنده) وقدمت لي بطاقتك حسبت أنك تنوي عمل سلسلة من الإعلانات عن المول الخاص بك.. (شاهنده) حسناء؟.. أرى هذا من نظراتك وعينيك الموشكتين على الجحوظ، لكن لا تنس أنها واجهة إعلانية أخرى ولا بد أن تكون براقة أكثر منها صادقة أو بارعة.. تفضل.. اسمي (كمال جوده).. أرجو أن تشرب القهوة وأن تحكي لي سبب هذه الزيارة الكريمة..

كان ما قلته لي ببساطة شديدة هو:

"افتتحنا المول منذ شهر.. أشياء غريبة تحدث"

هذه معلومة غير معتادة.. في العادة نتظاهر بأن كل الأشياء تحدث بالكيفية التي رسمناها لها وأننا لا نتلقى مفاجآت. هذه طبيعية تجارية مهمة. لكنك تكلمني عن المول الخاص بك وتحكي قصة عجيبة بعض الشيء:

"العاملات يقلن هذا في الصباح وأنا لا أصدق.. العمال يؤكدون هذا وأنا أتهمهم بأنهم يبتلعون مخدرًا ما.. إنهم يلاحظون أن أوضاع المانيكانات تتغير في الصباح عن الوضع الذي تركوه أمس.. هذه أشياء تلاحظها النساء أفضل لأن الرجال....."

"نعم.. نعم.. الرجال حمقى لا يلاحظون أي شيء على الإطلاق.. هذا معروف"

"بالضبط.. هناك ذراع موديل ترتفع وأخرى تنخفض.. هناك ساق تحركت.. هناك مانيكان كامل تغير موضعه فصار بقرب الدرج الداخلي.. أنا لا أصدق أن لصًا يتسلل للمول ليلاً - برغم الحراسة الممتازة - فلا يسرق أي شيء وإنما ينقل بعض التماثيل من مكانها.."

"كل هذا جميل لكن - وسامحني على غبائي - لا أرى علاقة قوية بين هذا والخدع

الجغرافية

هزرت يدك مضمومة الأصابع على شكل قمع بمعنى أن أنتظر قليلاً وقلت:

"بالطبع كان أول ما فعلته هو أن جعلت أحد رجال الأمن يمضي النوبتجية داخل المول، وبصرف النظر عن كونه فعل ذلك أم نام كلوح الخشب حتى الصباح، فهو يؤكد أنه لم ير شيئاً، والمانيكانات لم تغير موضعها.. لو كانت تغير مكانها فعلاً فهي خجول جداً لا تفعل ذلك أمام العيون.."

لكنك تقول إن هذا الحارس كف عن مراقبة التماثيل ليلتين، وعندها تكرر الشيء ذاته وعدت تسمع القصص عن المانيكان الفلاني الذي أدار رأسه وذلك الذي رفع ذراعه . قمت أنت بتكوين شبكة من الوشاة كالتى يصنعها طغاة العالم الثالث.. الكل يراقب الكل . وكل عاملة مكلفة بأن تعرف آخر ما قامت به زميلتها قبل أن ترحل.. هل هناك من يبقى في المول وحده بعد انصراف الآخرين؟.. لا شيء..

أنا أفهم هذا.. وأكون شاكرًا لو كففت عن النظر إلى سكرتيرتي كلما دخلت الغرفة.. لا يعني هذا إنني أغار عليها، لكنه يشعرني بأنك تتجاهلني، دعك من أنه يعطيني فكرة سيئة جداً عن أخلاقك، وهي الفكرة التي تزداد قوة كلما رأيت عينيك المحققتين وشاربك الرفيع وذلك الفم المفتوح الذي يتصاعد منه دخان السجائر كما يتصاعد غاز الميثان من مستنقع..

هنا فقط خطر لك أن تشغل الدائرة التلفزيونية المغلقة لتسجل ما يحدث ليلاً..

بيني وبينك هي فكرة مرعبة.. كابوس يطاردني طيلة حياتي هو أن أرى ما يحدث في شقتي المظلمة الخالية المغلقة أثناء سفري.. ماذا يدور فيها بالضبط؟

أنت قمت بتشغيل عدة كاميرات من التي تراقب العملاء، وكلفت رجل الأمن السهران أمام الشاشات بتسجيل أي شيء غريب يراه دون تدخل.. إن الإضاءة الليلية في تلك القاعات خافتة مرعبة تجمد الدم في العروق، لكنها تسمح برؤية صورة معقولة..

هذا هو الشريط إذن.. هذا ما صورته الكاميرات أمس..

فلنر معاً..

* * *

اقترب يا أستاذ مراد..

التوقيت على الشاشة يدل على الثانية والنصف وخمس دقائق صباحاً. ماذا نراه هنا؟..

هناك فتاة.. فتاة لا أرى وجهها ولا ملامحها لكنها تتقدم بحركات متصلبة بطيئة لتعبر الكادر.. انتظر.. سوف أثبت الكادر وأكبر ملامحها.. هل ترى؟.. سأزيل الضوضاء البصرية قليلاً.. هل تعرف هذا الوجه؟.. لا..؟.. بيني وبينك أعتقد أن هذا ليس وجهاً بشرياً على الإطلاق.. أقرب لوجه دمىة من الدمى التي تضعون عليها الثياب في المحلات ..

إنها تدور.. تواجهنا.. لحظة.. أرى شخصاً آخر يتحرك.. إنه ذلك الموديل الذي كان في ركن المكان.. يتحرك بنفس الحركة المتخفية..

هذه المانيكاتات حية إذن.. بصراحة لا أعتقد أن هذه خدعة جرافيكية ما.. أليس هذا ما تريد معرفته؟.. أمن أجل هذا جئت تطلب رأيي؟

لا توجد حيلة.. ليس هذا تحريكاً بإيقاف الكادر **Stop motion**.. في بدايات السينما العالمية عرض الفرنسيون على العالم فيلماً اسمه (بيت الأشباح) يظهر أكواباً وأطباقاً تتحرك تلقائياً، وقد حير هذا الأمريكيين الذين راحوا يبحثون عن خيوط خفية.. في النهاية عرفوا مبدأ التحريك بإيقاف الكادر.. حرك الكوب قليلاً ثم التقط صورة.. حركه قليلاً ثم التقط صورة.. وهكذا.. عند عرض الفيلم يبدو الكوب حياً.. لكن هذا ليس الحال هنا..

تفسيرى؟.. تفسيرى الوحيد هو أن هؤلاء أناس متذكرون كالدمى.. هناك قصة قرأتها قديماً عن لصوص تنكروا كدمى وظلوا ثابتين حتى أغلق المتجر أبوابه. أرى أنه لابد من أن تفحص هذه التماثيل في الصباح. تقول إن شيئاً لم يسرق من المول ليبرر هذه الخدعة؟

لا أعرف.. كل ما أستطيع قوله هو أن هذه الصور أصلية تماماً.. هل هذا كل شيء؟..

لا؟.. تقول أن أنتظر حتى الدقيقة 2:46؟.. ماذا فيها؟

إن عددهم يتزايد وهم يتحركون في كل اتجاه.. في الواقع يبدو أن المول واقع تحت غزو هذه الدمى.. مشهد كابوسي مريع.. لا أحب أبداً أن أجد نفسي بينهم..

ولكن.. هناك جوار قاعدة الدرج أرى هذه البقعة الضوئية.. ماذا يحدث؟.. إنها تزداد وضوحاً.. أرى الشكل الخارجي يظهر.. إنها فتاة.. سلويت فتاة رقراق شفاف.. برغم كل شيء يمكن أن أرى موضع العينين والفم.. إنها تستطيل وتفرد ذراعيها.. هذا تجسد..

لا.. لا أعتقد أن هناك أي عبث بهذه الصورة. لا تعتقد أنك ضحية خدعة ما.. ما تراه هو الصورة ذاتها.

ما هذا؟.. لا أعرف.. يذكرني بتجسد الإكتوبلازم في تجارب تحضير الأرواح. إن شبكة الإنترنت تعج بصور كهذه لكنها جميعاً زائفة، أما هنا فأنا فعلاً لا أعرف ما أعتقد.. لو سمحت لنفسى بالتعبير فأنا أعتقد أن هذا شبح.. لا أجد تفسيراً آخر..

هذه ظاهرة غريبة.. لكن دعني أقل شيئاً: أنا لست طفلاً يا أستاذ (مراد) وإنني لأرى في نظرات عينيك أنك تعرف أكثر بكثير مما تقول.. لنقل إنك لست مذعوراً بما يكفي.. لست مصدوماً بما يكفي.. إن للمشهد خلفية عندك..

أراك تريد الكلام.. هلم.. تعالي يا (شاهنده) وقدمي لضيفنا بعض المياه الغازية الباردة.. هيا.. حاول أن تكون صريحاً معي كما يجب على كل إنسان أن يكون صريحاً مع مصمم الجرافيك الخاص به.. ماذا تقول؟

"أقول إنني أعرف مصدر هذا كله.. هناك من مات في هذا المول.. لم نجد الجثة قط، لكن الكل يجمع على أن حالة وفاة مرعبة حدثت هنا.. نحن لا نحكي هذه القصة علناً، فهي مضرّة

بسمعة المول، لكن ما يحدث ليس له تفسير آخر.. أنا طلبت رأي من يفهم هذه الأشياء وقال لي إن حالات الوفاة التي يصحبها عنف تترك الكثير من الطاقة النفسية في مكان الوفاة.. هذه الطاقة تتردد كما الصدى بلا توقف.. طاقة تحرك وتحدث جلبة وتتجسد أحياناً.. فقط كنت أمل أن تؤكد لي أن الشريط ملفق وأن هناك من يريد العبث بي"

اطمنن من هذه الناحية!.. لا أحد يعبث بك على الإطلاق.. سوف تحكي لي هذه القصة بالتفصيل، وفي الوقت ذاته أريد أن ترتب لي السهر ليلة في هذا المول.. وحدي!.. نعم.. أنت لم تخطئ سماع ما أريد!

* * *

نعم يا أستاذ مراد ..

أنا أتصل بك من المول..

الساعة الآن الثانية والنصف وأنا متوار هنا في غرفة المراقبة. واضح أن هذه الظاهرة خجول ولا تتم أبداً أمام عيون المشاهدين.. أمل أن أرى شيئاً يؤكد ما رأيناه أمس.. لهذا السبب طلبت منك أن تصرف رجل الأمن الليلة..

أنا متحمس فعلاً.. هذا ليس عملي ولا مجال اهتمامي، لكنني أكره أن أرى ظاهرة بلا تفسير.. دعك من أنني أريد التأكد من عدم وجود ألعيب لا أعرفها. الشريط سليم ولم يمس لكن هذا لا يستبعد قيام شخص ما بألعاب ضوئية أمام العدسة.. لا أعرف كنهها لكن لو كانت موجودة فمن الضروري أن أرى وأن أفهم ..

الفتاة اسمها (عزة) إذن؟.. فتاة فقيرة حاصلة على شهادة متوسطة، وكانت تعمل بائعة في المول وقت افتتاحه.. لقد اختفت ولم يستطع رجال الشرطة العثور عليها، لكن زميلاتها يقلن همساً إنها ماتت هنا..

أنت تعتقد أن شبحتها يحوم في المول ليلاً.. لكن ما الذي تجنيه من تحريك المانيكانات؟.. الأشباح تظهر لتخيف لكنها لا تتسلى، دعك من أنها لا تخفي آثار عبثها.. ما قيمة التخويف الذي لا يراه إلا أقوياء الملاحظة؟

ما هذا؟.. هناك من يفتح الباب!.. النجدة!

صبراً.. إن..

لا عليك.. هف ف!.. الحمد لله.. إن هناك قطاً حبيساً هنا والباب كان موارباً.. لقد نظر لي للحظة ثم توارى.. مخيفة هذه القطط فعلاً.. عيونها تنطق بالكثير..

أنت تعرف أنني أمقت جلستي هذه، وبالتأكيد أفضل أن أذهب لأمضي الليلة في داري. لكن ما قيمة هذه السهرة إذن إن لم أر ما يحدث؟

أنا أراقب الشاشات.. لو رأيت شيئاً غريباً سأتصل بك.. سأسجل ما يحدث طبعاً.. في هذا الضوء الخافت الواهن أرى قاعات العرض وأرى المانيكانات.. مفزعة حقاً ولو أطلت النظر

لشعرت بأنها تتحرك لكن هذا وهم طبعاً ..

ما هذا؟.. فعلاً هذا المانيكان يتحرك.. الضوء خافت واهن والصورة تهتز قليلاً لكنه يتحرك..
الآن أرى هذا الضوء يتجسد.. بقعة تتجسد ببطء على شكل فتاة ترفع يديها صارخة..

أنا لا أهذي صدقني.. كل شيء على الشاشات أمامي..

سوف أتركك الآن.. يجب أن أرى بنفسى.. لم أعد أريد أن أصدق.. سوف أجد الوقت الكافي
لأرى كل شيء رأي العين قبل أن تكف الأجسام عن الحركة ..

رحمتك يا رب!... لقد دببت الحياة في كل شيء.. ما أراه هو رقصة بطيئة بلا هدف محدود
تدور في الضوء الخافت حول مركز تتجسد فيه بقعة الضوء هذه.. إن التماثيل تتراجع ثم
تتقدم.. وداعاً.. سوف أخرج لألقي نظرة وأعود إليك..

.....

.....

.....

نعم يا أستاذ مراد..

لقد عدت.. هذا أنا..

لقد فهمت كل شيء الآن وعرفت سبب هذه الظاهرة.. اسمع.. هل يمكنك أن تلحق بي هنا؟..
نصف ساعة من الآن؟.. سوف أشرح لك كل شيء.. فقط احضر معك رفشاً واستعد للمفاجأة..
لا تضيع الوقت فلا يمكن الشرح على الهاتف.. تعال حالاً..

* * *

مرحباً يا أستاذ مراد..

جئت سريعاً كما أرى.. إنها الثالثة والنصف صباحاً.. جميل أنك أحضرت معك الرفش..

لا يوجد شيء يتحرك الآن لكنك تلاحظ أن كل التماثيل غيرت مكانها. بالطبع لا تعتقد أنني
نقلت كل تمثال من مكانه، دعك من أن الشريط موجود.. لقد سجلت المشهد كاملاً..

أنت محق بصدد الطاقة النفسية ومحق بصدد التماثيل.. هذه الطاقة النفسية الكاسحة حركت
كل شيء هنا، وكان مصدرها تلك البقعة الضوئية أسفل الدرج..

هل تعرف ما يوجد هناك؟..

هات الرفش.. سوف أحفر هنا.. عملية شاقة طبعاً لكني سأفعلها بسرعة.. سوف أبدأ بتحطيم
طبقة السيراميك هذه ثم أنتزع الملاط من تحتها.. أرجوك أن تتركني أفعل هذا.. لو اتضح أنني
مخطئ فلسوف أصلح كل شيء على نفقتي الخاصة..

تلك الفتاة البائسة لقيت حتفها بطريقة شنيعة.. لقد هوى قاتلها على رأسها بجسم ثقيل عدة مرات، فلما سقطت أرضاً وجد نفسه في مأزق.. كانت عملية استكمال الدرج جارية، وكانت هناك حفرة مليئة بالرمال لذا ألقى بجثتها هناك وواراها بالرمال.. كانت هناك أجولة بها أسمنت.. هكذا قرر أن ينتهز الفرصة ولعله استعان بمعونة واحد آخر، وهكذا دفن الجثة وفوقها طبقة من الرمال ثم صب فوقها طبقة من الأسمنت فالمزيد من الرمال.. وفي الصباح أشرف بنفسه على تركيب السيراميك في الموضع ذاته لتدفن الجثة إلى الأبد..

لهذا يبدأ ذلك الضوء الغامض عند أسفل الدرج.. هذا هو المكان.. الفتاة تعلن عن موضع قبرها..

كيف حدث هذا؟.. من الفاعل؟.. القصة هي البساطة ذاتها.. صاحب العمل الذي يفترض أن أية فتاة تعمل عنده هي جارية ملك يمينه، خاصة إذا ما كان مثلك لا يترك امرأة في حالها.. الفتاة كانت جميلة فقيرة شريفة، وفي ذلك اليوم طلبت منها أن تبقى بعد انصراف الجميع لتساعدك.. إن الافتتاح قريب ولا بد من العمل الشاق..

هنا كشفت عن وجهك القبيح.. لكن الفتاة كانت باسلة وقاومتك بعنف وأطلقت صرخات كفيلة بإيقاظ الموتى.. هكذا بحثت حولك عن شيء يخرسها.. وجدت ذلك الفأس الذي تركه العمال قبل انصرافهم فهويت به على رأسها.. مرة.. مرة.. ومرة.. ومرة..

نعم يا سيدي.. أنت القاتل.. وهذه هي الجثة.. إنني أزيل الملاط فأرى معالم جسد متحلل اختلط بالرمال والأسمنت لكنه لم يصر هيكلًا عظميًا بعد..

لا بد أنك أبديت دهشة صادقة أمام رجال الشرطة وتساءلت عن سبب اختفائها.. حسبت أنك نجوت بفعلتك لولا أن العمال لفتوا نظرك إلى هذه الظاهرة..

ها هي ذي الجمجمة.. ما زالت بعض معالم الوجه البشري موجودة.. تلك حقيبتها ولا شك.. كان عليك أن تدفنها معها طبعًا..

أنت تنكر يا أستاذ مراد.. هذا حق.. ليس هناك ما يثبت أنك أنت القاتل سوى كلامي.. يمكنك أن تنجو بفعلتك..

لكنك تنسى أشياء مهمة.. عندما جئت أنا لهذه الغرفة كنت (كمال جودة) مصمم الجرافيكس.. لكنني خرجت لأرى ما يحدث بالخارج وتركتك على سماعة الهاتف.. الآن صرت أعرف كل شيء وأذكر تفاصيل المشهد.. والسبب؟

إن الطاقة الروحية تفعل أشياء كثيرة، لكنها تحتاج أحيانًا إلى جسد ينفذ لها ما تريد.. الإضاءة ضعيفة وأنت مرتبك تركز عينيك على هذا القبر الذي يتسع، فلا تلاحظ هذا الجرح البالغ الذي ظهر فجأة في رأسي.. لا تلاحظ عظام جمجمتي المهشمة.. لا تلاحظ التغير الذي طرأ على ملامح وجهي حتى لم تعد تمت للبشر بصلة.. لو أردت الدقة لقلت إنني أبدو كفتاة متحللة تحطمت جمجمتها..

نعم.. الآن ترى كل شيء في الضوء الخافت.. لا تنس أننا وحيدان فلا جدوى من صراخك يا أستاذ مراد.. لا جدوى من صراخك أبدًا..



الآن أفهم

لقد وافقت يا صغيرتي..
ومشيت معي بين الأطلال ..بين
الشواهد.. لا ترين شيئاً تقريباً
لكنك تثقين بي.. نهبط من هنا
ونصعد من هنا.. تمسكين يدي
بيد راحفة خائفة.. تلهئين
انبهازاً ونشوة.. تقولين إنك
تثقين بي..
ليتك لم تفعلني.. ليتك
أنذرتني..



دكتور
أحمد خالد توفيق



الآن أفهم

لقد وافقت يا صغيرتي..
ومشيت معي بين الأطلال.. بين
الشواهد.. لا ترين شيئاً تقريباً
لكنك تثقين بي.. تهبط من هنا
وتصعد من هنا.. تمسكين يدي
بيد راحفة خائفة.. تلهئين
انبهازا ونشوة.. تقولين إنك
تثقين بي..
ليتك لم تفعلني.. ليتك
أندرتني..

دكتور

أحمد خالد توفيق



1. الدور الثالث.. شقة 8
2. فالـودج
3. في انتظار التترات
4. التأكـل
5. هذا الجدار
6. الصفقـة
7. إنهم يأتون ليلاً
8. النظرة الثاقبة
9. الآن أفهم
10. حدث في الخامس من مايو
11. وطفق ينتظر
12. في عزبة الفولـي
13. بعد الثانية صباحاً

Table of Contents

الدور الثالث.. شقة 8	
فال-ودج	
في انتظار التترات	
التأكل	
هذا الجدار	
الصفحة	
إنهم يأتون ليلاً	
النظرة الثاقبة	
الآن أفهم	
حدث في الخامس من مايو	
وطفق ينتظر	
في عزبة الفول-ي	
بعد الثانية صباحاً	



1111

1111

1111

1111

1111

1111

1111

1111

1111

1111

E.S.P

E.S.P

تأليف :
د.أحمد خالد توفيق

تصميم الغلاف:
أحمد مراد

رقم الإيداع: 2017/9067
الترقيم الدولي: 978-977-820-025-6

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع
22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة – الهرم
هاتف أرضي: 0235688678 - 0235611772
هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290
بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com -
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأيُّ اقتباسٍ أو إعادة طبع أو نشر في أي صورةٍ كانت ورقيةً أو إلكترونيةً أو بآية وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

E.S.P

د.أحمد خالد توفيق

خمني يا هند

لا أدري حقًا متى عرفت أنني أختلف عن الأخريات.. ربما كان هذا وأنا في سن السابعة عندما كنا نلعب تلك اللعبة التي نخفي فيها الكرة في مكان ما، ثم يكون على واحدة منا أن تبحث عنها وهي تردد: «رحت فين يا كرة؟.. رحت فين يا كرة؟».

كانت صديقاتي في المدرسة يعانين صعوبات جمّة في العثور على الكرة، لكن ما أعرفه عن نفسي هو أنني كنت أراها في خيالي بوضوح تام خلف تلك الشجرة أو وراء هذا السور. هكذا كنت أجدها فكانت البنات يشهقن في دهشة.. بالنسبة لي لم أشعر قط بأنني أملك أية موهبة على الإطلاق.. لقد رأيت الكرة فأحضرتها.. ما الموهبة هنا؟.. صحيح أن الكرة كانت في تلك الحفرة أو خلف ذلك السور لكنني وجدتتها.. ما المشكلة؟.

في سن المراهقة بدأت ألاحظ بالفعل أن هناك شيئًا غريبًا يتعلق بي.. يمكنني بسهولة أن أجد الأشياء المخفية.. لو أمسكت بشيء فمن الوارد جدًا أن أخمن من الذي كان يمسك به وما كان يشعر به وقتها..

هناك ما هو أغرب.. مثلاً ذلك الأستاذ المسن الوقور في مدرستي.. لقد صافحني ذات مرة مهنيًا على تفوقي، وفي اللحظة التي لمست يده فيها عرفت أنه يهيم بي حبًا ويكتم هذا.. يسهل أن تقول إنني كنت أتوهم لأنه من المستحيل أن يهيم أستاذ في الخمسين من عمره بمراهقة في الثالثة عشرة.. يمكنك أن تعتقد هذا لكنني أؤكد لك أنني على حق..

الغريب أنني في البداية لم أجد غرابة في هذا كله وبشكل ما كنت أعتقد أن كل الفتيات مثلي.. ثم بدأت أفهم. مثلاً أقول في توجس إن هناك حريقًا في أحد فصول المدرسة فتسخر مني الفتيات، ثم نسمع الصراخ ونرى الدخان بعد هذا بنصف ساعة.. عندها تنظر لي الفتيات في دهشة بينما أدرك أنا أنني أختلف.. بالتأكيد أختلف..

يجب أن أعترف أن هذه الموهبة ساعدتني على التفوق في دراستي، لأنني كنت أخمن ثلاثة أرباع أسئلة الامتحان قبل دخوله. هناك ربع يظل مبهمًا والسبب كما عرفت هو أن هذه الموهبة غير خاضعة لإرادتي على الإطلاق.. بالواقع هي غير خاضعة لأي قانون.. أحيانًا تتخلي عني تمامًا وأحيانًا تلاحقني بإصرار.. أحيانًا تمنحني كل شيء وأحيانًا تكون شحيحة..

أنا اليوم في العشرين، وقد كونت نظرية لا بأس بها عن نفسي.. هل تريد سماعها؟.

اسمي (هند الشافعي).. لو كنت ممن يحبون الجمال الفكتوري الرقيق الشفاف الذي يوحى لك بأن صاحبه ستموت بالسل بعد دقائق.. لو كنت تحب القامة الفارعة والأطراف البلورية القابلة للكسر، والبشرة شبه الزجاجية، والعينين الحالمتين المتطلعتين للسماء كعيون القديسات في الصور.. لو كنت تحب هذا فأنت سوف تجدني فاتنة!... أما لو كنت ممن يحبون الجمال الحي الوثاب اليقظ المفعم بالأنوثة فلسوف تراني أقرب إلى السحلية السقيمة التي تبعث فيك مزيجًا من التقرز والرعب..

أبي مهندس بترول رقيق الحاشية ودود، لكنني لا أراه تقريبًا.. طبيعة عمله تجعله يمضي معنا أسبوعًا واحدًا كل شهرين. أمي معلمة اكتسبت الكثير من الحزم والصرامة، وهي تعتقد أن حنان الأمومة نوع من الضعف لا ينبغي إظهاره.. فقط عندما أمرض أو يتهددني خطر ما أدرك أنها حنون فعلاً.. لي أخ اصغر سنًا وأخت أكبر سنًا..

حاليًا أنا طالبة في كلية التجارة.. لقد تخلت عني موهبتي في الثانوية العامة فلم أحقق مجموعًا طيبًا، لكن الموهبة عادت لي في سني الدراسة لهذا أنا أيقونة دفعتي ورمز تفوقها، ولا شك أنني سأكون من أعضاء هيئة التدريس عندما أنهى دراستي لو لم تتحل موهبتي عني..

كان هذا هو الوقت الذي عرفت فيه الدكتور (محمود الألفي).. كان قريبًا لإحدى صديقاتي، وقد قالت لي إنه طبيب نفسي لكنه كذلك مهتم جدًا بما يدعى بعلم (الباراسيكولوجي).. طلبت منها أن أقابله، وقد كان أن رتبت لي لقاء معه في حفل خطبة إحدى قريباتها. هكذا وقفنا في الشرفة بينما صخب الحفل من خلفنا.. لم يكن أصلع الرأس ملتحيًا تطل نظرة مخبولة من عينيه وراء العيونات كما توقعت.. كان كهلاً وسيماً في الأربعين من عمره، وقد استمع لما أقوله في اهتمام...

حكيت له عن تلك الموهبة الغريبة التي لا يعرف سرها إلا قليلون.. كان رد فعله غريبًا جدًا فقد مد يده في جيبه وأخرج مجموعة من البطاقات. بطاقات لم أر ما هو مرسوم عليها لكنها بدت لي كبطاقات اللعب.. غريب هو الرجل الذي يحضر حفل خطبة وبطاقات لعب في جيب سترته. لوح بالبطاقة الأولى بحيث كان ظهرها لي وقال:

«هذه البطاقات تدعى بطاقات (زnr).. حاولي أن تخمني محتوى هذه البطاقة التي في يدي..».

فكرت للحظة.. خيل لي إنني أرى موجة بحر.. قلت في تردد شاعرة بسخفي:

«ربما.. ربما.. موجة بحر؟».

مد يده ولوح ببطاقة أخرى.. نجمة؟... وهكذا راح يعرض علي البطاقات التي لا أعرف ما رسم عليها وفي كل مرة يطلب مني أن أخمن. في النهاية قال لي:

«أنت نجحت في تخمين خمس عشرة بطاقة من مجموع خمس وعشرين.. لا شك في أنك تملكين قدرة الإدراك الفائق للحواس أو ESP.. أي إنك من البشر الذين لا يحتاجون إلى الحواس الخمس المعروفة كي يدركوا العالم من حولهم. ويقال إن هذه الحواس غير المعروفة كانت لدينا جميعاً ثم انقرضت.. هناك أنواع عدة من الإدراك الفائق للحواس؛ منها التخاطر أو قراءة الأفكار telepathy أو قراءة العواطف telempathy وهناك psychokinesis أي تحريك المادة عن بعد.. والاستبصار Precognition وهو رؤية المستقبل.. ورؤية أشياء ليست أمامك Clairvoyance.. وسماع أشياء بعيدة Clairaudience. أما الـ Psych.. فهو قدرة الإحساس بمن لمس الشيء.. Bilocation هو موهبة التواجد في مكانين في الوقت ذاته.. Pyrokinesis هي القدرة على إشعال الحرائق ذهنياً.. Apportation هي القدرة على إحضار الماديات إليك..».

«يبدو لي معظم هذا كلاماً فارغاً..».

«هو كذلك في معظمه.. لكن لا تنكري أن بعض ما قلته لك موجود عندك.. إن الأمريكي (جوزيف بانكس راين) هو أول من حاول دراسة هذه الظواهر بشكل إحصائي. في البداية درس علم النفس ثم مزجه بالظواهر الروحية لينشأ علم جديد اسمه (باراسيكولوجي). المشكلة هي أن هذه التجارب لا يمكن تكرارها.. بينما من أهم شروط الظاهرة العلمية قابليتها للتكرار، وهذا يعني أن هذه الظواهر خارج قانون الموضوعية العلمية».

«وبم تنصحيني؟».

«لا شيء.. أنت تملكين موهبة فاحتفظي بها ولا تضيعي سرها فيشك الناس في سلامة عقلك. فقط حاولي أن تستعمليها لمنفعة الناس ومنفعتك».

هكذا تركته وقد فهمت.. أنا لست مريضة لكني مختلفة بشدة.. وكما حدث في قصة (بلد العميان)، وجد المبصر الوحيد في بلد العميان أن البصر لا يفيد كثيراً، بل يجعل تعايشه مع الآخرين صعباً.. وهكذا فكر جدياً في أن يسمح لهم باستئصال عينيه..

عدت أمارس حياتي المعتادة إلى أن جاء يوم كنت فيه في الكلية عندما دق الهاتف المحمول..

جاء صوت صديقتي الباكي عبر الهاتف:

«هند.. إنها عمتي.. عمتي.. لقد ماتت.. د. (محمود الألفي) هنا في

بيتها وهو مصر على أن تأتي.. لا أعرف السبب».

طلبت منها أن تهدأ.. انتظرت ثانية حتى تذكرت أن هذا هو اسم الطبيب النفسي الذي قابلته من قبل.. ما دوري في الموضوع؟.. على كل حال لم يكن هناك مفر من أن أستقل سيارة أجرة وأسرع إلى العنوان الذي ذكرته لي..

هناك كان الزحام شنيعاً.. الغريب أن هناك الكثير من رجال الشرطة ورجال البحث الجنائي، وقد دخلت الشقة بصعوبة.. استطعت أن أرى أن غرفة النوم مفتوحة وأن هناك جثة على الفراش مغطاة بملاءة.. وكان هناك رجل يبكي في حرارة..

فجأة شعرت بتلك اليد الحازمة تمسك بيدي.. نظرت له في دهشة فوجدت د. (محمود) هذا يتسم مهدئاً ويقول وهو يقتادني إلى جانب:

«لا تنسي أن الفقيدة قريبتى.. الفكرة هنا أنها انتحرت.. نعم.. ابتلعت زجاجة كاملة من الحبوب المنومة ثم رقدت على فراشها بينما زوجها وأولادها في العمل والمدارس.. عندما عاد وجدها ميتة، وجوارها ورقة كتب عليها (سامحوني).. يقول زوجها إنها كانت مصابة باكتئاب مزمن».

«مسكينة».

«ليس الأمر كذلك... أنا أعرف الشخصيات التي يمكن أن تقدم على الانتحار.. الفقيدة ليست منها.. كانت متدينة متفائلة، لهذا لا أبتلع هذه القصة.. أريد أن تقومي بجولة في الشقة وتفكري بعمق.. أعتقد أن موهبتك قادرة على التقاط شيء.. خمني يا هند.. خمني».

ثم تبادل كلمات مع أحد الضباط الواقفين فهز رأسه.. هكذا سمحوا لي بدخول غرفة النوم.. كانت قدمي ترتجفان لكني برغم هذا لمست الفراش ولمست الملاءة الموضوعة فوق الجثة.. هناك كوب فارغ جوارها وعلبة دواء.. كدت ألمسهما لكن أحد الرجال صاح في عصبية أن اللمس ممنوع من أجل البصمات.. تشممت الجو.. كدت ألمس الورقة جوار الفراش التي كتب عليها (سامحوني).

الحزن.. اليأس.. لا يوجد.. لا يوجد.. فقط أشم الخديعة.. الخيانة..

خرجت من الغرفة وسط الزحام واتجهت إلى الزوج الباكي.. مدت يدي إليه وهمست ببعض كلمات العزاء فنظر لعيني وارتجف..

عدت للدكتور (محمود) وقلت له وأنا أرتجف:

«نعم.. نعم.. شعرت به عندما لمست.. الزوجة تصحو من النوم شاعرة بصداع عنيف.. تبعث أولادها للمدرسة ثم تعود للفراش.. يتجه الزوج إلى المطبخ ويتخذ قراره بسرعة البرق.. يعد لها كوباً من عصير البرتقال ويفرغ فيه علبة كاملة من المهدئ.. يعود لها ويلطفها

ويقدم لها العصير.. تشرب.. بعد دقائق تروح في غيبوبة. يضع جوارها علبة الدواء الفارغة ويحرص على أن يطبق كفها عليها لتغطي بصماتها، ويضع جوارها المذكرة. ثم يغادر الشقة ذاهباً للعمل.. يعود ظهراً ليملاً الدنيا صراخاً.. إنه يمثل جيداً..».

قال باسمًا:

«هو يقوم بتحويل عاطفة إلى أخرى.. عاطفة الخوف يحولها إلى عاطفة الحزن واللوعة.. كل ممثل بارع يعرف هذه الطريقة.. أنا واثق مما رأيته أنت تمامًا.. أعرف أن هذا ما حدث فعلاً».

«هل ستخبر الشرطة به؟».

«الشرطة لا تقبل أدلة قائمة على الحدس كهذه.. نحن نعرف الحقيقة لكننا لا نقدر على إثباتها..».

اتجهت في تودة إلى سلة المهملات الموجودة في الصالة.. عثت فيها ثم أخرجت ورقة مطوية وفردتها ببطء، وقلت له:

«هل ترى؟».

كان المكتوب على الورقة الممزقة هو (لم أتمكن من طهي الغداء لأنني ذاهبة لأختي...).. طبعاً يسهل أن نعرف الكلمة التي كتبت بخط كبير أسفل الصفحة والتي مزقها الزوج لتكون رسالة بخط زوجته.. (سامحوني)... طبعاً واضح أن آثار التمزق تتطابق في الورقتين... الزوجة كتبت العبارة منذ أيام لأفراد أسرتها كنوع من المزاح غير عالمية أنها ستكون رسالة انتحارها..

لكن هل هذا دليل كاف؟..

وفجأة صحت وقد خطرت لي فكرة لا بأس بها:

«من يتعاطى المهدئ؟».

«يقول زوجها أنه يتعاطاه..».

«حسن.. هذا دواء الزوج إذن.. سوف يفحص رجال الشرطة البصمات على العلبة ولن يجدوا بصمات الزوجة إلا خارجها.. بمعنى أنهم لن يجدوها على شريط الدواء الفارغ بالداخل. السبب أن الزوج جعل كف زوجته تطبق على العلبة المغلقة لكنه لم يجعلها تلمس الشريط.. فكيف يمكن لها أن تفرغ الأقراص من دون أن تلمس الشريط الذي يحتويها؟.. أعتقد أن هذا دليل كاف..».

نظر لي للحظة وشاعت على قسماته علامات امتنان.. ثم قال:

«وبالطبع بصمات الزوج ستكون على كل شيء...».

ثم رأيته يتجه إلى أحد الضباط الواقفين، فيقول له:

«لو تسمح لي بكلمة.. هذا ليس انتحاراً.. ويمكنني أن أبرهن على

ما أقول...».

لم أسمع باقي المحادثة لكن بوسعي تخيل ما قيل.

عنوان الحقيقة

علاء رقيق ومهذب. له عيان صبوران صامتان تقدران حاجتك أو ضيقك وتفهمان.

إنه شفاف صموت وقد أحاطني برعايته منذ دخلت الكلية، لكنني لم أسمح لمشاعري بأن تنمو تجاهه.. لست واثقة من أنه يحبني فعلاً..

لكنك تعرف موهبتي التي اختصني الله بها، والتي لو امتلكتها فتيات كثيرات لانتهدت مشاكلهن.. فقط هي لا تأتي في كل وقت.. لا تأتي عندما أريدها.. ليتني أعرف ذلك المفتاح السحري في روعي الذي أضغط عليه فأمتلك الاستبصار والتخاطر.

حدث هذا بطريق الصدفة والسبب أنه أحرق.. أنا متحفظة بطبعي لهذا لم أسمح له بأن يلمسني قط.. كل علاقتنا كانت هي الوقوف والكلام بصوت خفيض مع تلامس النظرات من حين لآخر، لكننا في ذلك اليوم جلسنا على السور المجاور لحوض الأزهار وقد وضع كل منا كشكول محاضراته جواره، وكان الوقت عصراً ولم يكن هناك أحد..

في حركة أرادها أن تبدو عفوية مد أنامله وأمسك بأناملي واعتصرها بقوة. التأثير كان قوياً لأنني أجفلت، وفي اللحظة ذاتها رأيت نفسي بعين الخيال في صورة مزرية مشينة..

انتزعت يدي مجفلة وقد فهمت... ما رأيته هو ما يدور في ذهنه الآن!... إنها موهبة قراءة العواطف telempathy تفصح عن نفسها..

يقول الغربيون إن الجنتللمان هو مجرد ذئب صبور.. يبدو أن هذا التعريف ينطبق على علاء أكثر من أي شخص آخر. لقد كان يفكر.. لا يفكر في المستقبل ولا الرومانسية ولا الزهرة الجافة بين صفحات كتاب.. كان يفكر في شيء واحد..

هكذا نهضت غاضبة وابتعدت..

نهض لاحقاً بي وقد ظن أنني غضبي لأنه أمسك بيدي.. الواقع أن هذا صحيح، لكن الأسباب أقوى مما يظن..

هل من المريح أن تملك القدرة على رؤية الناس عراة؟... هذا يشعرك بأنه ما من مكان آمن وما من شخص نقي.. من الأفضل أحياناً ألا ترى كل شيء.. أن الضوء الساطع يؤلم العينين حقاً وبعض العمى قد يكون صحيحاً..

في الأيام التالية اتصل بي علاء كثيراً، وفي الكلية كان يحاول أن يكلمني لكنني تمسكت بالبقاء وسط صديقاتي، وهذا ما لم يفهمه..

لم يفهم أحد سبب انهيار علاقتنا السريع، ولكن هذه أشياء لا تُحكى..

هكذا مرت الأيام وعدت إلى الدراسة كما أردت لنفسى..
لا يعرف أبى وأمى شيئاً عن موهبتى تلك.. ربما لاحظت أمى أشياء معينة، لكنها دوماً تفترض أننى ذكية أو أريية لا أكثر..
كنت عائدة لبيتي في ذلك اليوم، فاستعددت لتناول الغداء عندما دق جرس الهاتف..

هذه (نجلاء) صديقتى الحميمة.. تتحدث في لهجة مقلقة توحى بأنها لا تعرف كيف تبدأ.. ثم قالت في النهاية:
«هل وصلتك رسائل معينة على شبكة الإنترنت؟.. رسائل تخصك؟».

قلت لها ضاحكة إننى لا أفهم بالضبط..
«إذن سأرسل لك عينة من هذه الخطابات.. أرجو أن تهدي لنفكر فيما يجب عمله».

لم أفهم.. وفتحت جهاز الكمبيوتر متوحسة وانتظرت بعض الوقت حتى ظهرت الأيقونة التي تخبرني بوصول خطاب جديد.
فتحت الخطاب فسقطت على مقعدي بعد ما تخلت قدماي عني..
هذه أنا.. هذه الصورة لي.. هذا التعبير على الوجه كان في حفل للكلية، وهذه الصورة لدى عدد كبير من أصدقائي وصديقاتي لأننا كنا نحو عشرة في الكادر..

فقط قام وغد ما.. خنزير ما.. قام بقص الوجه ولصقه بطريقة (الفوتومونتاج) على صور مشينة أخذها من أحقر مواقع البورنو على الشبكة. رفعت عيني بسرعة لأرى اسم المرسل الأصلي للخطاب فوجدته يحمل اسم (عنوان الحقيقة)... هذا الوغد..

هناك نحو عشر صور.. واضح أن من لفقها أحرق، لأن هذه الأجساد لموديلات محترفات كاملات الأنوثة بينما أنا نحيلة بشكل لا يصدق.. لن يصدق أحد أن هذه الصور لي.. هذا أكيد.. لكن هذا لا يمنع من كونه تشهيراً علنياً يثير الرعب..

قائمة الذين أرسلت لهم هذه الصور لا تقل عن العشرين معظمهم من صديقاتي وزملاء الكلية..

من فعل هذا جعل حياتي مستحيلة.. لا شيء يتلاشى على شبكة الإنترنت ولا يمكن ملاحقة شيء.. سوف تظل هذه الصور تبرز من مكان ما وتخرج من العدم إلى الأبد..
لقد قتلني..

انفجرت باكية...

وفي لحظة الانفعال هذه وسط الدموع ورجفة الغيظ والعار خمنت بوضوح من فعل هذا.. (علاء) طبعاً.. (علاء) الرقيق الحالم.. فعل ما يفعله الرجال مرهفو الحس: ترفضه الفتاة فيعاملها كما ينبغي للجنّتلان. يشهر بها ويدمر شرفها...

لم يكن اتهامي لـ (علاء) بسبب ذكائي الشديد، ولكن لأنني تخيلته لربع ثانية جالساً أمام شاشة الكمبيوتر في مقهى إنترنت منعزل، وهو يدس قرصاً مدمجاً حمله معه في الجهاز.. ينظر حوله ثم يبدأ في إرسال هذه الفضيحة إلى مجموعة عناوين..

لا تنهاري يا فتاة.. يجب أن تنتقمي.. يجب أن يعرف الناس من فعل هذا...

هكذا نسخت الصور بيد ترتجف على قرص صلب، ثم ناديت أمي.. كانت لحظات قاسية وأنا أحكي لها كل شيء وهي تضرب صدرها بيدها.. لا تصدق.. لم ترد أن ترى صورة واحدة، لكنها ارتدت ثيابها حالاً وسرعان ما كنا نتوجه إلى شرطة الآداب..

الضابط الذي أصغى لكلامنا قال إن القصة شهيرة جداً وتحدث مرات لا حصر لها..

قال لنا:

«الامر سهل جداً.. لو كان مرسل الخطابات يرسلها من داره ومن حسابه البريدي فقد انتهى أمره.. لو كان يستعمل مقهى إنترنت فالأمر صعب نوعاً.. نحتاج إلى وقت..».

بالطبع سوف يكتشفون في الأيام القادمة أنه افتتح حساباً بريدياً جديداً، وأنه يرسل كل شيء من مقهى إنترنت.. هم قادرون على تحديد مقهى الإنترنت، لكنهم سوف يكتشفون أن المقهى لا يحتفظ بسجل دقيق لأسماء مرتاديه ولا عناوينهم.. لو كان الرجل يرسل الخطابات بانتظام بحيث يمكن مراقبة المقهى لكان الأمر سهلاً، لكن مرسل الخطابات فعلها مرة واكتفى.. أطلق قذيفته وتركها تنفجر ولم يعد يتردد على المقهى..

هناك حيلة أخرى تنجح دوماً هي أن أرد عليه وأطلب لقاءه.. معظم هؤلاء يعميهم الإغراء عن واجب الحذر، وهناك في مكان اللقاء ينقض عليه رجال الشرطة.. لكنني جربت هذه الحيلة ولم تجد شيئاً.. لم يرد...

يمكن أن أعطيهم اسم (علاء) وأتركهم يفتشون جهاز الكمبيوتر الخاص به، لكن ماذا لو كنت مخطئة؟.. سوف تلتصق به التهمة حتى لو كان بريئاً منها.. أنت تعرف كيف تولد الإشاعات في مجتمعنا. قل لصاحبك إن (سمير) لم يتحرش بزميلته في العمل.. سوف يسألك

في دهشة: هل هناك من قال شيئًا كهذا؟ هنا ترد في حكمة: أنا أنفي عنه التهمة ولا أثبتها. بعد قليل يردد الناس القصة، فلا تبقى في ذاكرتهم سوى بقايا مبهمة عن أن (سمير) تحرش بزميلته في العمل لكنه ينكر هذا. دعك من التظاهر بالغموض ومعرفة بواطن الأمور.. نحن نعرف أكثر لكننا نفضل عدم أكل لحم أخينا ميتًا..

نعم. ما لم أجد الدليل فلسوف أصمت..

أخذت إجازة من الكلية لعدة أيام.. لا أتصور أن أعود للكلية فيتخيل كل من يراني تلك الصور..

ولا أعرف كيف ولا متى حملتني قدماي إلى عيادة د. (محمود الألفي) الطبيب النفسي الذي كان أول من أخبرني بموهبتي. هناك في عيادته بكيت كثيرًا جدًا وهو لا يفهم ما حدث.. ثم ناولته قرصًا مدمجًا عليه تلك الصور اللعينة.. الغريب إنني أحجل منها كأنها صوري فعلاً لكنني كنت أشعر أن هذا الرجل جزء من ذاتي، ويمكن أن يعرف كل شيء.. دعك من أنه طبيب طبعًا..

راح يفحص الصور على شاشة الكمبيوتر، وسرني أن أي تعبير لم يبد على وجهه كأنه يقرأ عناوين صحف اليوم، ثم قال:

«تلفيق ساذج يدل على موهبة ضحلة.. هذا شاب في سنك غالبًا من نوع منطو ذكي وحذر، وهو كذلك من الطراز السايكوباتي الذي لا يبالي بعواقب ما يفعل.. ابحثي عن الشخص الذي لديه صورة تظهر وجهك في هذا الوضع..».

«للأسف هناك كثيرون.. كان هذا حفلًا للكلية ومن الممكن أن تكون هذه الصورة عند عشرين شخصًا على الأقل..».

قال في خبث:

«لكنك كونت فكرة عن الفاعل طبعًا.. أنت لم تفقدي حاستك بعد».

قلت في استسلام:

«اسمه (علاء).. كان يحبني ثم شعرت بأنه لا يحمل نحوي مشاعر نظيفة لذا ابتعدت عنه.. كل شيء يقول لي إنه الفاعل لكن لا براهين..».

«هذه هي المشكلة.. ولا تريد أن تبلغي الشرطة عنه خشية أن تكوني مخطئة.. مع أنه على الأرجح يحتفظ بأصول هذه الصور على جهازه لأنه قطعًا قام بتلفيق الصور وحده في بيته».

«أنت لخصت الأمر..».

جلسنا نضع الخطة الوحيدة الممكنة..

بما أنه - علاء - يحمل هذا القدر من الرغبة في، فالدكتور (محمود)

يرى أن علي أن أراسل (عنوان الحقيقة) هذا.. لقد فشلت مرة، لكن لا بد من أجرب ثانية.. كتب لي العبارات التي يعتقد أن ملفق الصور سوف يضعف أمامها.. فهمه لشخصيته كطبيب نفسي جعله ينتقي عبارات معينة.. لن يقاوم.. سوف تحددن له مكان وساعة اللقاء وتبلغن الشرطة..

«ومن أدراك أنه سيفتح بريده الإلكتروني من جديد؟.. ربما أنشأه لغرض واحد وقد فرغ منه؟».

«سيعود.. طبيعة هؤلاء النفسية تحتم أن يعود لبريده الإلكتروني ليرى ردود فعل من وصلتهم هذه الصور.. لن تكتمل لذته المحرمة إلا بهذه الخطوة..».

هكذا جلست وكتبت ردًا على (عنوان الحقيقة).. قلت إنني قد صدمت عندما رأيت هذه الصور، لكني بعد قليل وجدت أنها تثير خيالي وأرغب في أن أقابل هذا العبقرى الذي جعلني أرى نفسي في عالم لم أتصوره من قبل.. كتبت الرد على جهاز د.(محمود) وأرسلته..

قال لي د. (محمود):

«لو كنت محققًا سوف يصلك الرد خلال أيام، وعليك أن تطلبي منه اللقاء في مكان وزمان معينين.. لو وافق تطبعين الخطابات وتسلمينها لشرطة الآداب أو مباحث الإنترنت..».

هكذا ظلت أنتظر.. أنتظر.. أنتظر...

ما جاءني بعد يومين لم تكن رسالة، ولكن كان اتصالاً هاتفيًا من شرطة الآداب.. قالوا لي إنهم قبضوا على مرسل الخطابات.. لقد قرر أن يجرب حظه ويرسل خطابًا من بيته هذه المرة، ولم يدر الأحقق أن هذا جعل اقتفاء الرسائل سهلاً.. لقد سلم أحد أصدقائي الذين تلقوا الخطاب نسخة للشرطة، وهكذا وجدوا مزود الإنترنت، وتبعوا أرقام الهاتف عنده حتى وجدوا المرسل....

«ليست لدينا شكوك.. لا يقيم في هذا العنوان سوى شخصين واحدة منهما أم عجوز لم تسمع عن الكمبيوتر أصلاً».

وفي فخر فتح الضابط الباب الجانبي لمكتبه ليكشف لي عن الفاعل.. هنا رأيت (نجلاء) صديقتي!.

كانت جالسة تعتصر منديلها دامعة العينين، فلما رأني قالت في توحش:

«كنت أمقتك طيلة حياتي.. أمقت تفوقك الدراسي وتظاهرك بالاحترام والوقار والأصل الطيب!.. وفي النهاية تطلبين من (عنوان الحقيقة) اللقاء لأن الصور أثارت خيالك.. كنت أعرف أنك مخادعة كبيرة!..».

الأرض تغوص من تحت قدمي.. أعتقد أنني فقدت الوعي فعلاً..
وعندما أفقت عرفت أن موهبتي خدعتني هذه المرة..
كما قلت لك: ليتني أعرف ذلك المفتاح السحري في روعي الذي
أضغط عليه فأمتلك الاستبصار والتخاطر.. موهبتي حصان متمرّد
ومن الخطر أن أثق فيه أكثر من اللازم..

إِضْرَبْ.. وَفَرِّ

فيما بعد أمكنني أن أرسم الصورة العامة لما حدث...
الليل والبرد وبداية أمطار.. هذا مناخ فريد من نوعه لأننا لسنا في
سبيريا، لكن هذه هي الليلة التي اختارها (شاكر) كي يقصد قريته..
بدأ المطر ينهمر على زجاج السيارة، فراحت المساحات تعمل..
وكان قد أغلق الزجاج فتحولت العربة إلى مهد دافئ مريح يدوي فيه
صوت أم كلثوم العذب، وهي تغني (هذه ليلتي).. لا بد أن هذا الأمر
يذكره بدفء الرحم لأنه يشعر بأمان غريب..

السيارة دافئة، لكن شيئًا من القلق ينتابك لأنك تخشى أن يحدث
شيء.. شيء يرغمك على الترحل والنزول للبرد والظلام بالخارج..
من الممكن أن يبطئ أكثر، لكن هذا يطيل لحظات التوتر والملل،
بينما الإسراع ينهي الأمر بسرعة.. سوف يرى القرية وسوف يوقف
السيارة أمام بيت أسرته ويترجل، وفي الداخل سوف تعانقه أمه
وتسأل عن أحواله وتقول إنه فقد الكثير من الوزن لأنه يعيش حياة
مبعثرة في القاهرة.. سوف تعد له عشاء دسمًا ولكنها لن تتركه ينام
في سلام حتى الفجر..

الطريق ضيقة متعرجة.. أشجار على الجانبين وتلك التربة اللعينة
التي تتدلى فيها غصون الشجر.. من السهل أن تنزلق فيها لو لم
تكن تحفظ الطريق عن ظهر قلب..

كشاف السيارة يبدو كأنه يخلق طريقًا جديدًا في كل لحظة.. كلما
شعرت بأن الطريق انتهت عند هذا الحد، فتحت لك الكشافات آفاقًا
أخرى...

أم كلثوم والدفء وصوت المحرك..
وفجأة...

لم تتبين من أين جاءت ولا متى عبرت الطريق لكنك رأيته أمامك
في لحظة واحدة.. لم تكن تنظر للطريق بل كانت تعبته في إصرار،
ولم يكن هناك وقت لأي شيء لأنك لو دسست الكوابح لانقلبت
السيارة..

هكذا تم الاصطدام.. قوياً كان.. صوت المعدن وهو يسحق العظام
ثم تلاشت المرأة تحت السيارة..

واستمررت أنت بتأثير القصور الذاتي.. نحو خمسين مترًا حتى
تمكنت أخيرًا من أن توقف كتلة الموت المندفعة، وكانت كل عضلة
في جسدك تنتفض...

لا بد أنك ظللت خلف المقود عشر دقائق كاملة ترتجف.. تستعيد

المشهد المروع القاسي.. لا بد أنك ظلت تحملق في زجاج السيارة الذي تمسحه المساحتان في بلاهة. لا بد أنك بعد قليل بدأت تدرك أبعاد الموقف..

أنت ضربت امرأة.. غالبًا فلاحه أرسلها حطها التعس في هذه اللحظة بالذات.. الاحتمال الأكبر أنها ماتت على الفور.. لا يمكن أن تكون حية..

كنت تعرف ما سوف يجلبه هذا على رأسك.. إنها ليست من القرية بل من عزبة قريبة على حدودها، لكن أهل هذه المنطقة يتصرفون كالصعايدة ويؤمنون بالتأثر.. لو أنك أبلغت الشرطة لوقعت في مشاكل لا حصر لها وكذا أهلك، ولو دخلت القرية في هذه الساعة فلسوف تتناثر حولك علامات الاستفهام.. ربما سيارتك هي السيارة الوحيدة التي مشت على هذا الطريق منذ الظهيرة.. لن تكون هناك شكوك كثيرة..

إذن.. الحل الوحيد هو أن تعود أدراجك للمدينة.. لن تكون هناك قرية اليوم..

درت بصعوبة في مكانك.. وبدأت الرحلة الصعبة عائداً.. سوف تتصل بأهلك وتخبرهم أنك عدلت عن المجئ بسبب سوء الأحوال الجوية..

تمر بالبقعة التي شهدت الحادث.. لا ترى شيئاً سوى كومة سوداء على جانب الطريق... تحاول ألا تنظر وتزيد سرعة السيارة أكثر..

سوف تكون الفترة القادمة فترة كوابيس لا شك فيها، لكنك على الأقل لن تكون في السجن..

ما حدث بعد هذا هو أن د. (محمود الألفي) الطبيب النفسي الشهير قد تلقى مع استيقاظه مكالمة من أقاربه في قريته، تخبره أن قرية له تدعى (زكية) قد توفيت في حادث مروع..

«من فعل ذلك؟».

«سيارة دهمتها على الطريق ليلاً والسائق قد فر.. تعال حالاً..».

سوف تكون هناك مشاكل مع النيابة والفلاحون لا يعنيههم القبض على الفاعل قدر ما يعنيههم أن يدفنوا الجثة سريعاً.. هذه أمور مهمة جداً عندهم.. هم بحاجة إلى د. (محمود) بما له من علاقات..

وضع السماعة وفكر طويلاً حتى أشرقت الشمس تماماً، ثم رفع السماعة من جديد وطلب رقماً صار يحفظه جيداً.. رقم بيتي..

«هند.. أنا بحاجة إليك.. هل يمكنك أن تأتي معي إلى قريتي صباح اليوم؟».

فكرت قليلاً.. سيكون من العسير أن اقنع أمي بأن أتغيب عن

الكلية وأن أذهب مع رجل غريب إلى قريته، ثم خطر لي أن صديقتي التي هي قريبة د. محمود يمكن أن ترافقني في كل خطوة..
هكذا لم يمر وقت طويل إلا وكنت معه في سيارته متجهين إلى القرية..

كانت سيارة إسعاف هناك وقد وضعوا فيها الجثة، وكان هناك رجال شرطة ومحقق من النيابة.. ثم هناك زحام من الأهالي الذين وجدوا الجثة. قدم لهم نفسه ثم طلب مني أن أمشي معه إلى عربة الإسعاف حيث كانت الجثة مغطاة بملاءة ملوثة بالدم.. قال لي في رفق:

«أعرف أن هذا قاس.. لكن عليك أن تلمسي الجثة.. أريد معرفة ما يخطر لك..».

ثم مصمص بشفتيه وقال:

«زكية كانت أرملة رائعة الجمال.. كثيرون كانوا يخطبون ودها ومن القسوة أن تنتهي بهذا الشكل».

مددت يداً مترددة ولمست يد المتوفاة، ثم استرددتها بسرعة في جزع.. فقال لي:

«حاولي أن تمشي في المكان وأن تطلقي موهبتك من عقالها..».

كان هناك فلاح غليظ الشفتين يلبس جلباباً أزرق ويدعونه (مأمون) يذلي بأقواله لوكيل النيابة:

«لم أرها إلا مع الفجر يا سيدي.. خرجت للصلاة فخیل لي أنني أرى شيئاً على الأسفلت.. لم أدر أنها زكية إلا عندما دنوت أكثر..».

دنوت من د. (محمود) وقلت همساً:

«أمطار... أم كلثوم... سيارة زرقاء.. أرى أنها سيارة زرقاء...».

بدا عليه الاهتمام وهمس بدوره:

«لا ترفعي صوتك وإلا حسبونا مخابيل.. ماذا تقولين؟».

«سيارة زرقاء من هذا الاتجاه.. السائق توقف ثم دار من جديد عائداً..».

بدا عليه الاهتمام.. وقال:

«كان ذاهباً للقرية ثم حدث الحادث.. هكذا عاد أدراجه.. هذا مهم.. وما هو موديل السيارة؟».

قلت في غباء:

«لا أعرف.. لا أعرف موديلات السيارات!..».

..«والأرقام؟».

..«لم أراها.. ولا أراها».

بدت عليه خيبة الأمل، وقال في غيظ دفين:

..«هذا لن يقود لشيء.. هناك في مصر ملايين السيارات الزرقاء».

قلت في حدية:

..«سيارة زرقاء كانت متجهة للقرية ليلاً.. هذا واحد من أبنائها إذن..
يسهل أن نجده.. دعك من أن هناك أثر ارتطام لا شك فيه على
مقدمة السيارة».

فكر قليلاً ثم قال:

..«هذا منطقي.. المهم أن أقنع رجال الشرطة بهذه النظرية».

هنا اقترب منا الفلاح الذي يحمل اسم (مأمون) ليصافح الدكتور
فهو يعرفه.. ولثمه على خده معزياً.. هنا شعرت بتقزز غريب..كدت
اصرخ رعباً..

دنوت من الدكتور لما صار وحده وهمست في أذنه:

..«مأمون هذا.. أنا أخشاه وأكرهه.. إنه الفاعل!».

نظر لي غير مصدق ثم قال:

..«هنا نخرج من دائرة الاستبصار إلى دائرة الهلاوس.. أنت تعرفين
جيداً أن هذا حادث سيارة.. مأمون هذا لم ير سيارة في حياته.. هل
توقعين أنه كان يقود السيارة؟».

..«لا أدري.. أنا أخشاه كثيراً.. يجب أن يعتقلوه!».

راح يفكر قليلاً ثم بدا عليه شيء من الاقتناع وقال:

..«في الواقع لا أجد فكرتك سخيفة إلى هذا الحد».

ثم نظر إلى مأمون وقال بصوت عال:

..«هل رأيت زكية ليلة أمس يا مأمون؟».

نظر له مأمون في دهشة وهز رأسه نافياً.. فعاد الدكتور يقول:

..«المرأة عبرت الطريق غير مبالية.. لم تلق نظرة قبل أن تعبر.. كان
همها أن تفر.. فما السبب؟.. ما الذي كان يخيفها إلى هذا الحد؟».

هتف مأمون في استنكار:

..«وكيف لي أن أعرف؟».

..«هذه الأرملة الحسنة كانت تتعرض لتحرشات كثيرة.. من الممكن
أن نتصور أن أحدهم طاردها وكانت مذعورة إلى درجة أنها لم تنظر

قبل أن تعبر الطريق..».

هنا صاح أحد الفلاحين الواقفين:

«هذا صحيح...! أنت كنت متجهًا لدارها أمس يا مأمون.. وعندما رأيتني تظاهرت بأنك تقصد جهة أخرى!».

نظر رجال الشرطة إلى مأمون.. لم يعترف بشيء لكن وجهه كان يقول كل شيء.. هذا الرجل سوف ينهار سريعًا جدًا ، وتبادل د. (محمود) حديثًا هامسًا مع وكيل النيابة ثم دعاني وصديقتي إلى ركوب السيارة..

«شكرًا يا هند.. سوف يكون هناك وقت كاف لتلحقي بالكلية لو أردت.. سأوصلكما ثم أعود لأن على كاهلي طنًا من الأعمال». وهكذا عدنا..

فقط في السابعة مساء اتصل بي.. كان صوته يفيض بالامتنان والشكر وقال لي:

«لقد ضيقت الدائرة كثيرًا.. سيارة زرقاء يملكها أحد أبناء القرية.. أخيرًا تذكروا (شاكر أبو مندور).. مهندس من القاهرة لديه سيارة فيات زرقاء، وكان هذا مواعده الأسبوعي لزيارة أهله.. لكنه لم يقم بالزيارة تلك الليلة. وحده رجال الشرطة في القاهرة ووجدوا سيارته وقد تحطم الرفرف الأمامي تمامًا مع تهشم كشافين.. لقد أوقعنا بالقاتل ومن أدى إلى القتل... إنني أكرر شكري لك.. لكنني أطلب منك خدمة واحدة».

«ما هي؟».

«أن تحاولي معرفة أنواع السيارات!.. نحن لا نعرف متى نحتاج لهذه المعرفة في القضية القادمة!».

رائحة ما

عندما اتصل بي د. (محمود الألفي) في ذلك اليوم في الثامنة صباحاً، شعرت بغيط شديد. لن أظل طوال حياتي ألعب دور الكلب البوليسي، كما إن هذا يشعرنني بأنني مخلوق شاذ Freak..

السبب الأهم لغيطي كان أن أهلي لا يعرفون سبب هذه الاتصالات المتكررة.. إنه يحرجنني بحق، ولو قلت لهم إنه يريد أن أشم رائحة لص من أجل رجال الشرطة لاندھشوا جدّاً.. من قال إن أنفي حساس لهذا الحد؟.

لقد سئمت هذا.. أريد أن أعيش حياتي كفتاة طبيعية.. فتاة تمتلك بعض الذكاء وبعض الغباء، تمتلك بعض الحكمة وبعض التفاهة، بعض الجمال وبعض القبح.. لا أريد أن أعيش حياتي كمخبر خارق القدرات.

على كل حال رفعت السماعه متضايقه من هذه المكالمه المبكره. نحن في الصيف ومن حقي أن أنام حتى العاشرة أو ما هو أسوأ...

قال لي بصوت حار:

«كيف حالك يا هند؟».

قلت في فتور:

«هم م م..».

قال بلهجة ملحة لا تقبل الاعتذار:

«سوف يتصل بك ضابط شرطة يدعى النقيب (سمير البنا).. قلت له إنني لا بد أن أتصل بك أولاً كي لا يصيبك الذعر لدى تلقي مكالمته..».

هنا قلت في غيظ:

«دكتور.. كنت متضايقه بما يكفي لأنك تعرف سري، والآن صار رجال الشرطة يعرفون الموضوع بشكل رسمي كذلك.. هذا معناه أن تصير حياتي جحيماً.. لن يتأخر الوقت حتى أظهر في القنوات الفضائية حيث يطلبون مني تخمين عدد قطع العملة في جيب المطربة الفلانية..».

صمت قليلاً كأنه أدرك الخطأ الذي ارتكبه، ثم قال:

«هند.. تعرفين إن موهبتك حقيقية وإننا استطعنا ضبط حالات بالغة الأهمية بفضلك. هذا يعني أنك قادرة فعلاً على تقديم نفع للمجتمع، وأنت تبخلين به لمجرد أنك سئمت..».

هكذا وضعت السماعه شاعره ببعض الخجل من نفسي.. وجلست

جوار الهاتف.

دق الجرس فرفعت السماعرة بسرعة لأجد من يخبرني إنه النقيب (سمير البنا) وإنه يعرفني جيداً من صديقه د. (محمود الألفي)..

«لا أعرف مدى صحة ما أقوم به، لكن لو ألقيت لنا شعاع ضوء على القضية فلربما.. أنت تعرفين أن المرء قد يجرب كل شيء والغريق يتعلق بالقشة..»

كان صريحاً وقد راق لي هذا.. هو يعترف منذ البداية بأنه يشعر ببعض السخف في هذا الذي يقوم به، لكنه مضطراً..

بدأ يحكي لي المشكلة هاتفياً:

«(محمد بسيوني) صراف لدى إحدى الشركات الحكومية، وهو في الثلاثين من عمره ويمر بأزمة مالية طاحنة. دعك من أنه مستجد في هذا العمل.»

هنا أوقفته عن الكلام وقلت:

«إذن أنت أصدرت الحكم قبل أن نبدأ.. صراف في أزمة طاحنة.. انتهت القصة!»

قال في ضيق:

«لا بد أن تعرفي كل شيء.. ليس من الأمانة أن أغفل هذه النقطة.. ما علينا.. في اليوم الثلاثين من مايو دخل إلى المصرف في العاشرة صباحاً، وقام بسحب مبلغ يقترب من نصف مليون جنيه وهو رواتب الموظفين لهذا الشهر. ثم غادر المصرف حاملاً حقيبة عملاقة...»

«من دون حراسة؟»

«أنت تعرفين أن الأمور غالباً تتم بهذه الطريقة في مصر.. وغالباً لا يحدث شيء.. الشركات الخاصة تتفق مع شركة حراسة لكننا نتكلم عن شركة حكومية هنا.»

«المهم أن الرجل استوقف سيارة أجرة.. من عادته عندما يغادر المصرف أن يوقف ثاني أو ثالث سيارة على سبيل الحذر، وبالطبع لا يركب أية سيارة يبدى صاحبها حماساً بل يختار سيارات الأجرة التي لا تبدو مهتمة بالبحث عن زبائن.. يفضل أن يكون السائق عجوزاً بادي المرض. هذا كل شيء..»

«ماذا تعني بـ (كل شيء)؟»

«لا يذكر ما حدث.. يقول إنه إذ ابتعد عن المصرف شم رائحة غريبة، ثم غاب عن الوعي.. عندما أفاق كان هذا بعد عشر ساعات في مخزن مهجور في سوق خضر مجاورة للمصرف، وكان مقيداً

بالحيال ومكتملاً.. لم تكن الحقيبة موجودة وقد استطاع الزحف حتى غادر المكان ليجده بعض الصبية العاملين مع التجار. فكوا قيوده وأبلغوا الشرطة...».

«القصة واضحة فما المشكلة؟».

«كل هذا!... لا نستطيع البرهنة على أنه كاذب، لكن القصة مليئة بالثغرات كقطعة جبن.. هل قابل بالصدفة سائق سيارة أجرة يحمل معه مادة منومة، وقرر هذا السائق أن يجرب حظه؟.. لا توجد مادة منومة تعمل بالشم بهذه القوة.. هذه خرافة شائعة، وماذا عن الفتية الذين أنقذوه الذين قالوا إن قيوده كانت رخوة تمامًا وكان بوسعه فكها؟.. كيف تستطيع حمل رجل فاقد الوعي وسط سوق الخضار المزدهم صباحًا لتلقي به في مخزن؟.. لماذا لم يجد الطب الشرعي أية آثار لمخدر في دمه؟».

«هل هذا دليل كاف على أنه لم يخدر؟».

«لا.. بعض المخدرات تكون قصيرة الأجل في الدم.. هناك عشر ساعات كاملة على كل حال..».

«وما هو المطلوب مني؟».

«أن تقابلي هذا الرجل وتعطينا أفكارًا.. سوف تصلك سيارة شرطة خلال نصف ساعة كي...».

صحت في دعر:

«لا.. من فضلك.. لا سيارات شرطة وإلا ماتت أمي دعرًا.. سوف آتي أنا لكم خلال ساعة.. لا تقلق».

هكذا سرعان ما وجدت نفسي أستمع سيارة أجرة - وأنا اكتب أنفاسي كي لا يخدرني أحد - قاصدة العنوان الذي اعطاه لي..

كان المقدم (سمير البنا) شابًا مهمومًا متعكر المزاج أمامه عدة أقذاح من القهوة، ومن الواضح أنه مدخن ثقيل.. رأني فنظر لي في فضول وقال:

«أنت أصغر سنًا مما توقعت..».

قلت في شيء من التوتر:

«طالبة في كلية التجارة لا يمكن أن تكون في الخمسين من العمر».

ابتسم في إرهاب، وطلب من أحد رجال الشرطة ان يأتي بالصراف (محمد بسيوني)..

مرت لحظات طويلة وأنا أرشف الليمون الذي جلبوه لي، ثم ظهر رجل في الثلاثين من عمره.. رجل نحيل يبدو أنه يقضي أسوأ

أوقاته.. ثمة صلع مبكر مع بعض الشيب.. أعتقد أنه شيء وراثي فلا يمكن أن يكون قد شاب في هذه الفترة القصيرة..

طلب منه الضابط أن يجلس أمامي، فمدت له يدي مصافحة فصافحها بارتباك..

بريء!...

بريء!.. هذا ما شعرت به منذ اللمسة الأولى.. لم يعد لدي شك في هذا، لكن كيف أبرهن على ذلك؟؟.. الأمر لا يتجاوز ذلك الشعور الأنثوي علي غرار: والله العظيم بريء!.. وهذا شيء لن تقبل به أية محكمة طبعاً..

ما سبب هذا الشعور الغريب الذي يتأبني؟.. كتفه اليسرى من الخلف؟.. لماذا أفكر في كتفه اليسرى من الخلف؟...

كان الضابط يراقب ملامحي دون أن يرفع عينه، ثم بدأ محادثة عابرة مع الصراف.. بالطبع لم يوجه له أي اتهام، لكنه كان يعرف أن موقفه بالغ الحرج. لما انتهى من المحادثة سمح له بأن ينتظر بعض الوقت، ثم استدار نحوي سائلاً:

«ما رأيك؟».

«أشعر أنه بريء...».

قال في عدم رضا:

«توقع أن تقولي العكس، وأردت أن تخبريني بتفاصيل أكثر.. مثل: أين ذهب المال؟.. لا بد أن هناك شريكاً قام بتقييده بهذا الشكل الصوري فمن هو؟.. أعتقد أن الطريقة الوحيدة التي يمكن بها دخول مخزن سوق الخضر هو أن تدخله على قدميك. رجلان يمشيان معاً يدخلان ثم يخرج واحد بعد أن قيد زميله. لا أتصور أن يدخله رجال يحملون رجلاً مقيداً مكماً..».

قلت في إصرار:

«أنت طلبت انطباعي...».

«وانطباعك هذا وليد موهبتك أم هو انطباع أنثوي عام وليد الرقة؟...».

«أعتقد أن موهبتي هي التي تكلمت...».

نهض معي إلى حيث مجموعة من الملفات التي تحوي صوراً ووجوهاً لذوي السوابق، وطلب مني أن أتفقدتها بحثاً عن شيء يثير اهتمامي.. هكذا رحت أقلب الصور.. وجوه مرعبة تحمل قدراً هائلاً من الشر.. لا شك في هذا.. كنت أشعر به وأرتجف..

ثم توقفت أمام وجه.. رجل أسمر له وجه صلب وشارب شرس..

قرأت الاسم المكتوب: (صلاح أبو هريرة) وشهرته (كولونيا).. هذا الوجه له أهمية خاصة.. أنا متأكدة من هذا يقينًا.. هذا الرجل مهم..

نظرت في تساؤل إلى النقيب، فأمسك بالملف مهتمًا وقال:

«(صلاح أبو هريرة).. (كولونيا).. مسجل خطر وقد قام بأكثر من سطو مسلح، وسبب اسم الشهرة هو أنه مولع بالعطور الرخيصة ويفرق نفسه بها.. طبعًا يستعمل أرخص وألعب الأنواع مما يجعل له رائحة عطرية مقززة..هو نموذج ممتاز لكن هذا ليس كافيًا للاشتباه به.. لم يذكر احد حرفًا عنه».

قلت في حماس:

«هل له علاقة بسيارة أجرة؟.. هل له علاقة بسوق الخضار؟.. هل ظهر عليه ثراء مفاجئ؟».

نظر لي للحظات، وبدأ مهتمًا، هنا قلت:

«هل يمكن أن تستدعي هذا الصراف مرة أخرى؟».

طلب من رجل الشرطة أن يسمح للصراف بالدخول، فهمست له :

«دعه ينزع سترته ويكشف عن كتفه اليسرى».

نظر لي في عدم فهم، ثم قال للصراف أن ينزع سترته..

في تردد وحرص نزع الرجل سترته وهو يشعر بالكثير من الحرج، خاصة أن فائلته الداخلية كانت مهلهلة تمامًا.. رجل في غاية الفقر يتحایل ليخفي حقيقته.

دنوت من كتف الرجل من خلف في حذر، وأشارت إلي ثقب صغير أحمر في حجم النقطة التي في نهاية هذا السطر.. وسألت:

«ما هذا الثقب الصغير؟».

قال الصراف في غباء:

«ثقب؟.. أي ثقب؟».

نظر النقيب إلى الثقب بدوره وقال في عدم فهم:

«ماذا؟.. ربما بعوضة أو شيء مماثل؟».

قلت في حماس:

«هذا موضع دخول الإبرة التي حقنته بالمخدر بمجرد أن جلس في سيارة الأجرة.. هناك من توارى في المقعد الخلفي ثم برز ليغرس الإبرة في كتفه. نعم لا يوجد مخدر يُشم ويسمح باختطاف شخص، لكن المخدرات التي تحقن تسمح بهذا وأكثر.. لقد تم الأمر بسرعة حتى أنه غاب عن الوعي قبل أن يعرف أنه حُقن، لكنه شم تلك الرائحة الغريبة لحظة فقدان الرشد.. لم تكن سوى رائحة من

اعتدى عليه.. (أبو هرقة) أو (كولونيا)...».

قال النقيب في دهشة:

«ولماذا ربطوه بقيود سهلة الفك؟».

«لأنه كان مخدرًا ولم يبد ذا خطر.. أما عن دخوله إلى مخزن سوق الخضار فالأمر سهل.. لقد وضعوه في صندوق خشبي وحملوه أمام العيون..».

قال النقيب وهو يرفع سماعة الهاتف:

«سوف نحضر كولونيا.. ولو كانت في كلامك ذرة من الحقيقة فلسوف نعرف سريعًا.. أما الآن فإنني أشكرك وسوف أعهد بسيارة تعيدك لدارك.. أعني تعيدك لأقرب مكان من دارك».

هكذا عدت لداري..

انتظرت كثيرًا جدًا تلك المكالمات، وفي الثامنة مساء جاءت..

كان النقيب في غاية السرور.. قال لي:

«منذ اقتراب كولونيا من مكثبي حتى أجفل الصراف وقد تذكر الرائحة القوية.. هذه الرائحة التي شمها عند ركوب سيارة الأجرة. حاول كولونيا أن ينكر ثم انهار عندما تذكر بعض العاملين في سوق الخضار وجهه ورائحته. كان له قريب في المصرف أخبره برحلة الصراف الشهرية، وأخبره بعادات الصراف الحذرة.. هكذا اتفق مع سائق أجرة مسن قريب له أن يقوم معه بهذه العملية.. ويتأكد من أنه لا توجد بيانات عن سيارة الأجرة يراها الراكب. عندما يظهر الصراف على باب المصرف مع حقيبته، تدنو منه سيارة الأجرة وينزل منها زبون.. هذا يقنع الصراف أن توقف السيارة عارض، دعك من وجه السائق المسن الطيب.. هكذا يركب.. وعلى الفور يبرز (كولونيا) من الخلف ليدس المحقن في كتفه، ويقوم الرجلان بنقله إلى مكان قريب حيث يقومان بتقييده ووضعه في صندوق خشبي.. كولونيا ذكي جدًا لذا حرص على أن تكون القيود رخوة لا تقنع أحدًا. ثم يحمل كولونيا والرجل الثالث الصندوق على سيارة نصف نقل إلى مخزن الخضار القريب ويتخلصان منه هناك.. طبعًا اكتملت القصة بعلامات ثراء واضحة لاحظها الجميع على (كولونيا) مؤخرًا».

قلت في فرحة:

«الصراف بريء كما قلت.. هذا البائس لا يستحق تهمة السرقة لتضاف لتعاسته».

«أشكرك على حل القضية.. توقعي مني مكالمات أخرى كثيرة.. يجب أن اذكرك كذلك بأنك محظوظة لأنك لا تشمين رائحة عطر كولونيا المخيمة على مكثبي.. سوف نحتاج إلى شهر للتخلص منها،

لكننا مدينون لها بالكثير!«.

أنا قلقة

أنا قلقة..

تقول لي أُمِّي إنني غير طبيعية وإنني لن أتغير أبدًا..

أنهض.. أدخل الشرفة وأقف هناك أنظر إلى الليل الذي بدأ يرخي سدوله.. العباءة الزرقاء التي تصير سوداء بعد قليل، وأشعر بذلك التقلص في أحشائي.. يخبرني بكل وضوح :

إنني قلقة..

أدخل المطبخ.. أخرج علبة الجبن من الثلاجة، وأفتح رغيفًا بالسكين وأعد لنفسِي شطيرة أزخرفها ببعض شرائح الخيار.. أرفع الشطيرة لفمي لكن شفتي تأبى أن تنفتح.. لو انفتحت لما انزلق الطعام لبلعومي... يمكنني أن أتخيل كل تفاصيل عملية البلع الفسيولوجية، وأعرف أنها مستحيلة لأنني قلقة..

هكذا تجد الشطيرة طريقها لتوضع علي رف الثلاجة في طبق.. سوف تلتهمها أختي على كل حال.. هي تأكل أي شيء تجده أمامها في أية لحظة في أي مكان..

لقد خرج أخي الصغير منذ ساعة ليزور أحد أصدقائه. عمليًا هو لم يتأخر، لكنني قلقة.. أشعر بذلك التوتر الغريب يحتاج أعصابي..

في النهاية رفعت سماعة الهاتف وطلبت صديقه.. هل (رامي) عندكم؟

يقول صديقه في دهشة:

«لم يأت بعد..».

أضع سماعة الهاتف.. كنت أعرف أن هذا سيحدث.. ثمة شيء ما خطأ..

تقول أُمِّي:

«ساعة واحدة.. الأمر لا يدعو لهذا القلق.. الصبية هم آخر من يعرف معنى المواعيد أو يفهم قلق الكبار.. ليست هذه المرة الأولى..».

أوشك أن أقول لها: لكنها المرة الأولى التي أشعر فيها بهذا التوتر بصدده..

أنا قلقة..

أخرج للشرفة حيث صار الليل ليلاً مكتمل الأركان، وأرقب مصابيح الشارع والمارة.. كلما رأيت صبيًا في الشارع وثب قلبي في فمي... لو كنت أملك حدسًا خاصًا فأنا لا أملك بصر زرقاء اليمامة ولا أستطيع

معرفة القادم من على هذا البعد...

عدت لغرفته واتجهت إلى المنامة التي نزعها وألقاها إلقاء على الفراش.. مددت يدي وتحسستها وأغمضت عيني..

خطر داهم!.. (رامي) في خطر داهم!.. حاستي تعمل بقوة.. لكن ما هو نوع الخطر؟.

أعود لغرفة الجلوس حيث تجلس أمي وأختي غير مهتمتين بتابعان التلفزيون.. هما غير قلقتين على الإطلاق.. سوف يعود (رامي) بعد ساعة أو ساعتين ويتلقى الكثير من التوبيخ.. يا ليتني أملك بساطتهما وسذاجتتهما!.. يا ليتني فتاة عادية..

جلست إلى جهاز الهاتف واتصلت بعدة أرقام من أرقام أصدقائه.. لا.. لم يره أحد هذه الليلة.. طلبت عدة مستشفيات في حين.. هل وصلهم صبي جريح منذ ساعة؟.. هل وصلهم صبي ميت؟..

قال الجميع: لا..

أين أنت يا رامي؟.. ماذا تفعل؟..

رفعت سماعة الهاتف من جديد وطلبت النقيب (سمير البنا) الذي صار صديقي منذ زمن، وقد علمته التجارب أن يرد على مكالماتي في أي وقت. قال لي في دهشة:

-«(هند).. لم أعتد أن تبادري أنت بطلبي.. نحن نقع في كارثة ونطلب رأيك وليس العكس..».

قلت بصوت مخنوق بالبكاء:

-«(رامي) أخي.. إنه في ورطة.. أعرف هذا.. خرج ولم يعد..».

-«منذ متى؟».

-«منذ ساعتين؟».

ساد صمت طويل.. ثم قال في ارتباك:

-«ساعتين؟.. هل تتصورين أن أية جهة في العالم يمكن أن تبحث عن شخص تغيب منذ ساعتين؟.. ليس بوسعك طلب رأينا قبل مرور أربع وعشرين ساعة..».

قلت في عصبية:

-«ليس وأنا أشعر بهذا الشعور اليقيني بأنه في خطر..».

من جديد قال في ارتباك:

-«سوف أريحك.. يمكنني الاتصال بالمستشفيات بشكل غير رسمي و...».

«أنا فعلت ذلك.. الخطر الذي يتعرض له لا علاقة له بالحوادث ولا الموت..».

ساد الصمت ثم قال لي:

«بصراحة لا أعرف كيف أساعدك في وقت مبكر كهذا.. على كل حال سأرد على مكالمتك في أي وقت فلا تترددي في طلب العون..».

وضعت السماعة مدركة يقينًا أن المشكلة مشكلتي.. لو أراد أن أنتظر الفترة القانونية فمن الوارد أن يجد نفسه أمام جثة صبي..

هكذا هرعنت إلى غرفة رامي، ومن جديد رحت أتجسس ثيابه الملقاة هنا وهناك، ثم بحثت عن صورته.. وضعتها أمامي ورحت أحرق فيها.. هلم يا حاستي!.. لو لم تظهرني الآن فلا نفع لك.. لربما فكرت في التخلص منك جدًّا كما يفعل الغربيون بمرضى الوسواس.. الجراحة النفسية..

فجأة بدأت أرى وجهًا.. هذا رجل أسمر البشرة له ملامح شرسة وعين تالفة.. توارى الوجه وسط الضباب.. أسمع خرير ماء.. هناك ظلام.. هناك فأر يجري.. أشعر بالذعر والتوتر.. أنا خائفة.. إذن رامي خائف جدًّا.. رامي لا يستطيع تحريك يديه... هناك حبل...

تجسست رأسي...

يجب أن أركز أكثر.. هناك لافتة تقول (صالة الأبرياء)... نعم.. أراها.. تتلاشى ثم تعود..

رفعت سماعة الهاتف من جديد وطلبت النقيب (سمير).. جاءني صوته متململاً لأنه من الواضح أنني مجنونة وسوف أحيل حياته جحيماً.. قلت له في لهفة:

«رامي مخطوف.. إنه سجين في قبو مغمور بالمياه.. مقيد بالحبال وهو مذعور جدًّا...».

«أه!».

قالها في عدم تصديق طبعاً فعدت أقول:

«هو جوار مكان يدعى (صالة الأبرياء)..أنا متأكدة».

قال على الفور:

«لا يمكن أن يوجد مكان في العالم يدعى (صالة الأبرياء)... حتى في المحكمة.. هذه هلوسة...».

بالفعل.. هذا اسم سخييف جدًّا.. لكنني قرأته..

هنا قال:

«أعتقد أنك ترين هذه الأشياء مضطربة.. لحظة.. هل كان ما قرأته هو (صالون الأمراء)؟... ربما كان الأمر كذلك لكن الإرسال الروحي كان مشوشًا».

قلت في لهفة:

«نعم.. يمكن أن يكون كذلك..».

«سوف أجري بعض الاتصالات وأعود لك».

جلست جوار الهاتف ألتهم أطفاري.. الآن بدأت أمي وأختي تتساءلان عن سبب تأخر (رامي)، الأمر الذي لم يحسن الأمر كثيرًا.. صار للقلق طول وعرض وارتفاع.. صار ماديًا..

جاء الهاتف من جديد لأثب مترًا في الهواء وأرفع السماعة:

«هند.. هناك حلاق بهذا الاسم فعلاً في الشارع المجاور لك.. هناك أمين شرطة يقف أمام بنايتكم الآن. يمكنك الذهاب معه هناك..».

شكرته في لهفة، وارتديت ثيابي ثم هرعت أثب الدرجات إلى الشارع، لأجد ذلك الشرطي الأسمر قوي البنية طيب الملامح يقف هناك وهو يحمل جهاز اللاسلكي بانتظاري. مشيت معه إلى الشارع المجاور حيث رأيت اللافتة (صالون الأمراء)..

وماذا بعد؟.. هل يكون هذا مجرد تداع من عقلي الباطن؟.. من الوارد أنني رأيت اللافتة مئات المرات من قبل ولم ألحظها لكنها خرجت لوعيي الآن..

أمين الشرطة كذلك راح ينظر لي متسائلاً عن خطوتي التالية..

جاء الجواب بصورة غير متوقعة..

من الزقاق المجاور للبقالة رأيت ذلك الرجل يخرج جاريًا والرعب على وجهه.. هذا رجل أسمر البشرة له ملامح شرسة وعين تالفة..

صرخت في أمين الشرطة:

«هذا هو!... اقبض عليه!».

لم ينتظر الرجل ليفهم بل انطلق يركض في الشارع ومن خلفه انطلق أمين الشرطة.. خرج الناس من محلاتهم يراقبون غير فاهمين..

صاح أمين الشرطة أن اقبضوا عليه، بينما الرجل يثب فوق صندوق موضوع أمام أحد المحلات، هنا اصطدمت قدمه بالصندوق وطار في الهواء ليسقط أرضًا...

هرع نحوه أمين الشرطة ووجه لوجهه ركلة ليطفئ حماسه، هنا تصايح أصحاب المحلات في غضب:

«دعه!.. إنه أبله لا يدرك ما يفعله!».

عندما دنوت من الرجل فهمت.. إنه بالفعل متخلف عقليًا.. زائف العينين واللعب يسيل من فمه.. فقط راح يردد وهو يمسح الدم عن شفتيه:

«حبل.. حبل..».

حبل؟.. أنا شعرت بحبل في الرؤيا التي رأيتها.. ماذا يوجد في ذلك الزقاق الذي خرج منه؟.

هرعت ومعني الأمين إلى هناك، وكان الظلام دامسًا.. صاح أحدهم أن يجلبوا ضوءًا ومن عند بائع فاكهة برز (كلوب) مشتعل حملة أحدهم إلى الزقاق..

هناك عند أقدامنا كانت تلك البئر.. يبدو أن بعضهم كان يجري بعض الإصلاحات في بناية هنا وترك هذه البئر مفتوحة.. ومن داخل البئر سمعت صوت الأنين المميز.. صاح أحدهم أن ارفعوا (الكلوب) أكثر.. رقعة الضوء تتسع ونرى ما بداخل البئر.. إنه (رامي).. على عمق ثلاثة أمتار ينظر لنا بعينين دامعتين.. المكان ضيق جدًا فلا يقدر على تحريك ذراعيه إلا بصعوبة...

وجواره على الأرض ذلك الحبل...

تعاون الرجال على إخراجه فتعلق بعنقي يقبلني وقال وهو يرتجف:

«سامحيني.. طاردت تلك القطعة الصغيرة لكنها دخلت هنا، ولم أدر إلا وقدمي تنزلق لأسقط في حفرة مليئة بالماء والفئران!.. صرخت كثيرًا حتى سمعني رجل له عين تالفة.. لقد رمى لي حبلًا..».

هكذا فهمت..

محتضنة رامي حتى لا يضيع ثانية خرجت إلى ذلك البائس الذي جلس على الرصيف يتحسس شفته الدامية.. لقد حاول أن يساعد أخي لكن تفكيره المحدود لم يتح له سوى أن يلقي بحبل داخل الحفرة ولم يثبت به شيء.. ويبدو أنه خرج من الزقاق ليطلب العون عندما وجد رجل شرطة يطارده فأصابه الذعر وجرى..

كان شكله مخيفًا وتعاونت فكرة الحب المظلم مع الحبل في تثبيت فكرة الخطف في ذهني.. أحيانًا تكون المعطيات صحيحة لكنها تقود لاستنتاجات خاطئة تمامًا..

ومددت يدي للبائس أساعده على النهوض، وفي يده دسست حفنة من المال.. ما وجدته معي.. صحيح أنه لم ينقذ أخي بشكل مباشر لكنه اقترب من ذلك كثيرًا..

وأنا لم أعد قلقة..

لقد شفيت

عرفت (عمر) في إحدى حفلات زفاف صديقاتي..

عامّة أنا لا أطيق هذه الحفلات لأنني أشعر أنها مهرجان عام للادعاء. الفتيان يتظاهرون بالوسامة والظرف والفتيات يتظاهرن بالفتنة، وهدف الجنسيتين هو اقتناص عروس أو عريس.. لسبب ما يشعر الناس في الأفراح بالذعر لأن دورهم لم يأت بعد، ولهذا يتصرفون بجنون للفت الأنظار.. هناك فتيان يرقصان معاً للفت نظر البنات، وهناك فتاة تنهض متظاهرة بالخلج لترقص أمام العروسين مع أن أحداً لم يجبرها على شيء..

هكذا أشعر بالعربة والانزعاج، وأبتعد.. أبتعد.. أبتعد.. لأجلس في ركن القاعة على مقعد مستند للحائط. الغربيون يسمون هذا النمط الذي يشعر بالوحدة في الحفلات باسم (زهرة الحائط). صحيح أن هناك من ستأتي لي حاملة طبقاً من (الجاتوه) أو مشروباً غازياً وتصيح غير مصدقة:

«هند!.. لماذا أنت هنا وحدك؟.. تعالي معنا!».

أو ذلك الفتى الذي يعتقد أنه رائع، سوف يهرع نحوي حاملاً طبقاً عليه شطيرة ويصيح:

«أنسة هند.. يجب أن تذوقي شيئاً».

هذه المنغصات لا مفر منها، لكنهم في النهاية يقررون أنني مملة فعلاً وأن الجلوس معي معناه تضييع هذا الحفل الصاخب، من ثم يفر كل واحد منهم ليلحق بدوامة الصخب..

أريد الفرار لكن كيف ومتى؟.. لا بد أن أجد باقي صديقاتي وسط هذا الزحام، لأن (مي) هي من ستوصلنا لبيوتنا في سيارتها والساعة قد تأخرت جداً.. لا بد أن أهني العروسين بنفسي.. معني هذا أنني سحينة هنا حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً..

أختي (نرمين) تمر من أمامي فتضحك، ثم تغيب في الدوامة.. لا وقت عندها لهؤلاء المخابيل الذين يعتقدون أنهم حساسون، لكنني رأيتها في تلك اللحظة فاتنة بحق.. إنها جميلة فعلاً ولا أعرف كيف لم يخطر هذا ببالي من قبل؟.

هنا وقعت عيني على (عمر) للمرة الأولى. كان جالساً بدوره جوار الجدار وفي يده لفافة تبغ توشك على أن تنتهي.. وكان يرمق ما يدور في نوع من السخرية الصامتة الطريفة التي أعترف أنها رافت لي..

هنا شعرت بما يشعر به.. أنت تعرف أنني أملك هذه الموهبة، وإن كنت لا أستطيع التحكم فيها ولا تطيعني في كل وقت.. أعتقد أن

اسمها Telempathy ولا تخلط بينها وبين الـ Telepathy من فضلك..
حرف m الزائد ليس غلطة مطبعية..

كان معجبًا بي.. شعرت بهذا بوضوح وإن لم أقدر على قراءة أفكاره. قراءة العواطف تختلف عن قراءة الأفكار.. قراءة الأفكار تجعلك تسمع في رأسك ما يفكر فيه الشخص، لكن قراءة العواطف تجعلك تشعر بما يشعر به.. حر.. برد.. ضيق.. ملل.. إعجاب..

كان معجبًا بي.. هذا واضح..

ثم بدأت أرى أفكاره، فرأيت نفسي هناك جالسة حوار الجدار كقط صغير. جميلة جدًا رقيقة جدًا.. لم اعرف من قبل أنني بهذه الروعة.. أعرف أنني رقيقة شغافة إلى حد الموت أحيانًا، لكن لم أرني فاتنة من قبل.. هنا فارق مهم.. أنا لست فاتنة لكنه يراني كذلك وأنا أرى ما يراه.. ليس بالضرورة دقيقًا أو صحيحًا..

فجأة سمعت صوته يتردد في ذهني:

«تسمعين أفكاري.. أليس كذلك؟».

نظرت له في ذعر.. إذن هو الآخر.....؟.

عاد صوته يتردد من جديد:

«خمنت ذلك.. أنا وأنت نملك هذه القدرة.. كلانا يرى أفكار الآخر.. أليس كذلك؟».

وضحك فضحكت..

هكذا نهض متجهًا نحوي وجلس جوارى على مقعد قريب، وقال وهو يعقد ذراعيه على صدره:

«معذرة.. لم أمر بهذا الموقف سوى مرة واحدة في حياتي.. حسبت أنني لن أقابل أبدًا شخصًا يملك الإدراك الفائق للحواس.. إن هذا الطراز من البشر يميل للخصوصية وعدم الاستعراضية، برغم أن كل إنسان في العالم تقريبًا يعتقد أنه شفاف ولديه قدرات خارقة.. كل امرأة عرفت في حياتي تعتقد أنها تملك الحاسة السادسة، وكل رجل يقول (ليس بيني وبين السماء حجاب).. لكن الحقيقة هي أن أحدًا لا يملك أي شيء على الإطلاق... يسرني أن ألقى أول واحدة من هذا الطراز».

ثم استدرك فقال معترفًا:

«اسمي (عمر).. من المفترض أن أخمن اسمك لكنني عاجز عن ذلك..».

«هند.. لم أخمن اسمك أنا أيضًا.. لكنني خمنت أنك تمارس عملاً له علاقة بالدم..».

«أنا طبيب فعلاً.. لست مصاص دماء.. وأنت لك علاقة قوية بالأرقام.. ربما الجداول؟».

«أنا طالبة في كلية تجارة.. كيف اكتسبت خبراتك؟».

«حادث.. بقيت في سيارة تحت الماء لمدة ساعتين، وغبت عن الوعي.. مات أبي الذي كان يقود السيارة.. لما أخرجوني أدركت أن نقص الأكسجين به خلايا نائمة في ذهني.. فجأة صرت أمتلك الإدراك الفائق للحواس.. وأنت؟».

«لا شيء.. ولدت بهذه الصورة، وأهلي لا يعرفون.. لو عرفوا فلن يصدقوا..».

كنت أفكر في جنون.. معنى هذا اننا نملك ذات القدرة.. نحن طائران لنا ذات الشكل.. هل يعني هذا شيئاً أو يعني أننا لبعضنا؟.. الحب شعور غريب معقد، لكنه لا يولد لمجرد أن هناك تماثلاً يراه العقل ولا يراه القلب. لو وجدت واحداً يشبهني فأنا لن اضغط على زر لأحبه... الحب يأتي من دون دعوة ويرحل من دون أن يطرده أحد..

كان معجباً بي بشدة، وقد حكى لي الكثير عن حاسة الـ Tele هذه.. كان مثقفاً وقد قال لي إن هذه الحاسة تكون مفيدة أحياناً عندما نكون في خطر.. بعض من تم تهديده بمسدس أو سلاح نقلوا لمن يهددهم مشاعر الخوف والتوحش التي يشعرون بها، لدرجة أنه خفض السلاح وتركهم في سلام..

بعض الناس من مالكي هذه الحاسة يستطيعون أن يجعلوا الآخرين يشعرون بالاشمئزاز أو التعب أو الاكتئاب.. معنى هذا أنها سلاح خطر..

انتهى الحفل فافترقنا، لكننا تبادلنا رقمي الهاتف.. أعرف أن قدراته ليست مطلقة مثلي.. لا يوجد شخص قدراته مطلقة وإلا لصار أقوى رجل في العالم.. لهذا لا يستطيع أحداً تخمين هاتف الآخر..

في اليوم التالي كنت قد تناولت طعام الغداء.. وجبة دسمة ثقيلة، لكنني بعد نصف ساعة شعرت بجوع شديد.. لا أعرف السبب لأنني لم أكن نهمة من قبل هكذا..

أعددت لنفسني وجبة خفيفة أمام نظرات أمي المذهولة.. قالت لي:

«حذار وإلا صرت عاجزة عن اجتياز باب الشقة..».

ضحكت والتهمت الأرز في ثوان.. أشعر بأنني ممثلة بشدة لكنني جائعة..

أختي تمر من أمامي.. هذه الفتاة تزداد جمالاً برغم أنها يجب أن

تكون مرهقة بعد حفل أمس. قلت لها في خبث:
«الهانم تزداد جمالاً.. يبدو أن الحفلات تجعلك رائعة..».

قالت في خبث أكبر:

«وأنت تجعلك الحفلات كالمصيبة!.. يكفي أن تحضري حفلي
زفاف حتى تلفظي أنفاسك الأخيرة!..».

هنا دق جرس الهاتف.. على الفور رأيته وشعرت به قبل أن أرفع
السماعة.. غريب هذا!.. كل ما يمكن أن نصف به الحب موجود لكنه
ليس حباً.. إنه Telempathy يا سادة..

رفعت السماعة فجاء صوته الودود:

«كيف حالك؟.. كيف حال شقيقتك؟».

«كلنا بخير.. فقط أشعر بنعاس غريب..».

«هذا مسل.. أنا أشعر بذات النعاس.. لقد انتهيت من تناول الغداء
في عيادتي لكن لا أحد في نفسي رغبة في استكمال العمل».

تبادلنا بضع كلمات ووضعت السماعة..

نعاس.. غداء.. هنا فطنت إلى فكرة رهيبة: منذ قابلت هذا الرجل
وعواطفني ليست هي عواطفني.. أنا مرأة لما يشعر هو به!... هو
كان جائعاً فشعرت بالجوع برغم أنني كنت قد غادرت المائدة حالاً..
أشعر بنعاس ولم أكن كذلك.. ترى هل كان الملل الذي شعرت به
أمس شعوري أنا أم شعوره هو؟.

منذ هذه اللحظة صارت حياتي جحيماً.. أشعر بمغص فلا أدري إن
كان هذا شعوري أنا أم أنا أشعر بما يشعر به (عمر)؟.. أشعر بظماً
فلا أعرف إن كنت ظمآن أم عمر هو الظمآن؟..

سؤال أهم: لو كنت أنا مرأة لمشاعره، فكيف أعرف أنه معجب بي
حقاً؟.. ربما كان هو كذلك مرأة لمشاعري، وكنت أنا معجبة بنفسي
لا أكثر!.

أخبرته بهذه التفاصيل في مكالمة هاتفية، فقال لي صاحكاً:

«لا تكوني حمقاء.. هل ولد هذا الاتصال الروحي فجأة؟.. كنت أنا
في العالم وكنت أنت في العالم، فلماذا صرنا على اتصال فجأة؟».

«لا أدري.. لكنني متأكدة مما أقول..».

ساد الصمت ثم قال لي بعد فترة:

«على كل حال أعتقد أن الوقت قد حان لأتكلم بصراحة وكي
أطلب ما أردت أن أطلبه في تلك الليلة، لولا أن اكتشفت أنني لست
الوحيد الذي يملك تلك الحاسة».

توترت قلقًا وابتلعت ريقِي.. سوف يقولها إذن..
قال بلهجة تقريرية:

«أنا كما تعرفين طبيب من أسرة طيبة.. والدي متوف.. لا أكسب الكثير لكن وضعي في تحسن مستمر.. فقط ينقصني أن يكون لكفاحي هدف وقد وجدته..».

ازداد توتري.. أشعر به متوترًا بدوره.. يجب أن أتخذ قرارًا مصيريًا
كهذا..
قال:

«أسعدني أن ظفرت برقم الهاتف.. كل من يعرفك قال إنك حكيمة ذكية وإن علي أن اعتمد عليك، وأن أكلمك أنت قبل أن أكلم والدتك برغم سنك الصغيرة.. أضيف لهذا موهبتك التي لا شك فيها..».

قلت وأنا انظر للسقف:

«ماذا تريد قوله؟».

قال وهو يضغط على كلماته:

«شقيقتك الأنسة نرمين!.. إنها أكبر سنًا منك، لكنني شعرت بأن بوسعي الكلام معك عنها..».

«ماذا عنها؟».

«ألم تفهمي بعد؟.. أنا أطلب يد شقيقتك الكبرى (نرمين)!».

شعرت بأنني على وشك السقوط أرضًا وتحملت ليخرج صوتي طبيعياً :

«أنت تطلب يد (نرمين) مني أنا؟».

«عندما جئت لحفل الزفاف كان هدفي أن أراها عن بعد.. أكون حكمي بصدها، ثم عرفت أنك أختها الصغرى وجمعت بيننا حكاية التخاطر تلك، لذا قررت أن أعتمد عليك لأنك أقرب لي وتفهميني أكثر من أي واحد آخر!».

هكذا أفهم!

لماذا كنت أرى نرمين جميلة بهذا الشكل في الفترة الأخيرة؟.. لأنني أرى ما يراه هو!.. أما ما شعرت به من عاطفة نحو نفسي فالسبب بسيط.. لأنني فعلاً أحب نفسي!.

يا لك من أحمق!.. يا لك من أحمق!.. لم أحبك لحظة، لكنني أشعر في هذا شيئاً من الإهانة.. كنت أعتقد أنني لا أبالي بك، بينما كنت أنت الذي لا يبالي بي!.

قلت له في برود:

«من الغريب أن تطلب رأي أختها الصغرى التي ما زالت طالبة..
يمكنك أن تطلب موعدًا مع والدتي.. هذا يبدو أقرب للمنطق.. شكرًا
لاتصالك..».

ووضعت السماعة....

وفي هذه المرة لم أشعر بخيبة أمل أو حرج أو أي شيء..
الأيام القادمة سوف تثبت لي أنني تحررت من تأثيره الروحاني
وأن عواطفى هي عواطفى فعلاً.. لا بد أنني كنت متعلقة به بشكل
ما حتى صرت مرآة لأحاسيسه.. اما الآن فقد شفيت..

نعم.. لقد شفيت!.

ما رأيك أنت؟

موسم الامتحانات..

في رأيي أن هذه العبارة ليست مضافاً ومضافاً إليه بل هي مبتدأ وخبر!.. جملة مفيدة كاملة قائمة بذاتها ولا تحتاج إلى إضافات.. لا تنس أنني طالبة في كلية التجارة..

موسم الامتحانات..

معنى هذا قدوم الربيع... معنى هذا تغير حرارة الجو.. معنى هذا ظهور التوت ودودة القز ورائحة الحقول المحروثة وحبوب اللقاح في الجو.. معنى هذا التوتر والقلق والمغص المتكرر.. معنى هذا الاستذكار حتى الفجر، ثم النوم حتى الظهر والاستيقاظ مع شعور قاتل بالذنب..

عندما أسمع أغنية شادية (الشمس بانت من بعيد) وأغنية أم كلثوم (الورد جميل) تتقلص أمعائي لأن هذه أغاني الامتحانات كما أعرفها. غريب أن الامتحانات والربيع شيان متلازمان..

كما تعرفون فإن موهبتي تتدخل أحياناً، لكن هذا بلا موعد ولا نسق محدد.. ولهذا السبب لم أشعر قط بالذنب باعتباري أعرف أسئلة الامتحان قبل أن يبدأ.. هذا ليس بيدي على الإطلاق..

فجأة أقلب صفحات الكتاب، وفجأة يستقر ذلك اليقين في أحشائي أن هذه الصفحات مهمة وخطرة.. أحياناً أرى ورقة الامتحان والأسئلة عليها.. من حين لآخر يتضح أنني كنت أخدع نفسي وأنه لا توجد علامة فارقة بين ما أراه بفضل الاستبصار وما ألقه بخيالي دون أن أعرف ذلك..

الخلاصة: أنا أستذكر كل شيء بجد.. فإن أرادت موهبتي أن تعمل فيها ورحبت، ومعنى هذا أنني سأدرس كل شيء لكنني سأولى عناية خاصة للصفحات التي أشك فيها بالذات..

في يوم الامتحان يمكنك أن تعرف ما ينتظرنا..

الأولاد يكونون غير حليقي اللحي مبعثري الثياب عيونهم كلها إرهاب وتعب.. الفتيات شاحبات مرهقات، وإن كن ممن يضعن المساحيق بكثرة فلا وقت لهذا اليوم.. لهذا تجدهن قبيحات أكثر من اللازم كما يحدث لصورة التلفزيون الملون عندما تصير أبيض وأسود..

الثياب غير مكوية.. لا وقت للكعوب العالية.. الأحذية كلها رياضية وعلى الأرض...

هأنذا أقف على باب اللجنة ، وأعيد مراجعة المذكرة التي أحملها ثم أضعها على الكومة وسط كتب أخرى كثيرة تمزقت وبدأ الإفراط

في استعمالها واضحًا..

أجلس في مقعدي قبل البدء بنصف ساعة وأتلو المعوذتين وسورة الفيل. ثم...

فجأة أراه بوضوح تام.. السؤال الأول.. السؤال الثاني...

هذه هي الأسئلة.. لا داعي لأن أنهض لأراجعها لأنني أحفظها عن ظهر قلب. فقط ليت حاستي تصدق..!

تقترب مني (نرمين) صديقتي، وتقف بجواري باسمه، ثم تميل علي لتهمس:

«السؤال الأول سيكون كذا.. السؤال الثاني سيكون عن كذا.. السؤال الثالث سيكون كذا...».

نظرت لها في دهشة.. هذا هو ما أفكر فيه بالضبط..

سألتها :

«كيف عرفت؟».

قالت وهي تنظر حولها:

«تسربت الأسئلة وهي مع غالبية الطلبة. فلا تضيعي الوقت.. لو كنت غير ملمة بهذه الأسئلة فلتسرعي.. إن في الوقت متسعًا..».

وسرعان ما ابتعدت وهي تراجع وريقة في يدها..

جلست ساهمة بعض الوقت..

من الواضح طبعًا أنها تعرف الأسئلة فعلاً.. ما دمت أنا أعرفها بموهبتي فأنا أعرف أنها تعرف!.. في حالتي يتعلق الأمر باستبصار لا يعرف أحد أنني أملكه، لكن في حالتها الأمر يتعلق بتسرب أسئلة واضح..

ماذا أفعل؟.. السياسة الأحكم أن أظل صامتة.. سوف أجلب الصواعق على الجميع لو فعلت شيئًا، لكنني في الوقت ذاته لن أقبل هذا القرار من نفسي بسهولة..

مالك أنت يا فتاة وهذا؟.. أنت عرفت الأسئلة تلقائيًا فلم تريدين أن تحرمي الآخرين من الفرصة ذاتها؟.. الجواب بسيط هو أنني لم أسع لشيء ولم أبحث عن الغش، وإنما حاستي الغامضة هي من فعل هذا.. لم أخالف القانون بينما هم يخالفونه.. وأنا أعرف أكثر من أي واحد من هؤلاء أن الأسئلة صحيحة وأنها تسربت فعلاً..

مشكلة ضمير!..

ظللت أفكر بضع دقائق أخرى، ثم نهضت شاردة. لو تكلمت فأنا الواشية الخائنة. لو كنا في أحد أفلام السجون لدبر المساجين لي

حادثاً مؤسفًا.. من الغريب أن قوانين الجماعة تصير لها الكلمة العليا ويصير المجرم هو من يخالفها.. عندما يرتب المساجين الهرب من السجن، فإن من يفشي السر خائن يستحق العقاب برغم أنه ينفذ القانون وواجهه كمواطن..

لا أعرف كيف وجدت نفسي أمام باب عملاق عليه لافتة تقول (العميد)..

دخلت في حذر.. فنظر لي السكرتير في ريبة:
-«أفندم؟».

قلت له بصوت مرتبك إنني أريد مقابلة العميد.. الأمر جلي وعاجل.. لم تبق سوى دقائق يتم خلالها توزيع الأوراق وعندها لن أقدر على إثبات شيء..

كنت في حال سيئة، وهذا جعله يهرع إلى الداخل.. بعد دقيقة عاد لي، وسمح لي بالدخول..

كان العميد جالسًا على مكتبه ضخماً مهيباً كعهدي به. فقط كان يتسم في رفق فشجعني هذا كثيراً.. طلب مني الجلوس فجلست.. كان يعرفني لأنني من طالباته المتفوقات..

-«أليس هذا موعد امتحانك يا هند؟».

أخرجت ورقة وبید مرتجفة كتبت عليها بعض النقاط وناولتها له، وقلت:

-«سيدي.. هذه هي أسئلة المادة التي ستوزع أوراق امتحانها بعد دقائق!».

تبدل وجهه تمامًا ونهض في توتر وانتزع الورقة من يدي وقرأ الأسئلة، ثم نظر لي في حزم وقال:

-«من قال هذا الكلام الفارغ؟».

-«كل الطلبة معهم هذه الأسئلة.. لو كنت تشك في كلامي يا سيدي فلك أن تتحقق»..

اتجه إلى الخزانة المجاورة لمكتبه وفتحها، وأخرج مطروفاً مغلقاً.. كان أستاذ المادة يترك عينة من الامتحان في مكتب العميد قبل الامتحان في تلك الأيام.

قرأ الأسئلة ثم قارنها بما في الورقة وبدأ عليه التوتر.. كنت أعرف هذا.. لو كنت مخطئة لكان موقفني في غاية السوء..

إلى الهاتف هرع فطلب ألا يتم توزيع الأسئلة ثم طلب أستاذ المادة في مكتبه، وكان على وجهه ما يدل على خطورة الموقف... ثم طلب بالهاتف رقمًا آخر.. طلب أستاذًا آخر للمادة..

عندما جاء الأستاذ الأخير طلب منه العميد أن يعد امتحانًا سريعًا للطلبة ويكتبه هنا أمامه، ثم يقوم بتصويره وتوزيعه على اللجنة..

جاء أستاذ المادة الأول مسرعًا وكان ما سمعه صادمًا.. لقد تسربت الأسئلة أي إنه المتهم الأول بهذا..

«من قال هذا؟».

أشار العميد لي وقال:

«هنا عرفت هذا وكان من مصلحتها أن تظل صامتة لكن ضميرها انتصر لحسن حظنا.. ما ذكرته هي متطابق تمامًا مع أسئلتك، وعليك أن تفسر لي هذا».

كان الأمر قد انتهى بالنسبة لي منذ اللحظة الأولى.. هذا الأستاذ بريء.. لا يعرف أي شيء عن الموضوع.. لقد كتب الأسئلة وصورها وهو يحملها معه الآن عندما فوجئ بهذه الكارثة..

قال العميد:

«أين قمت بنسخ أوراق الامتحان؟».

كان الأستاذ يجفف عرقه، وبدأ موشكًا علي فقدان الوعي.. نهض من دون أن يرد واتصل بالمطبعة طالبًا أن يحضروا من يدعي (محمود)... العميد يريده..

بعد دقائق جاء (محمود) هذا ممتقع الوجه شاحبًا.. كان رجلًا في الخمسين شديد البدانة محتقن الوجه، يمكنك أن تخمن أنه سيموت بنوبة قلبية أو نزف مخ في أية لحظة..

قال العميد للرجل:

«أسئلة الامتحان تسربت.. ليس لدينا من نشك فيه سواكما.. أستاذ المادة أو من قام بنسخ الامتحان.. أحكما فعل هذا وباع الأسئلة بثمن باهظ.. لكن كان على من اشتروا الأسئلة أن يظلوا صامتين... للأسف هم تكلموا بداعي التفاخر أو عونا لأصدقائهم...».

كنت أنا أراقب (محمود) في هذا الوقت.. وعرفت من جديد أنه بريء.. إنه مذعور تمامًا لكنه شريف.. كلاهما شريف.. فمن فعل ذلك؟

هتف (محمود) موشكًا على البكاء:

«عملية التصوير استغرقت نصف ساعة يا سيدي، ولم أترك الأوراق لحظة.. عداد الآلة يمكن أن...».

«أنت تعرف أن هناك نسخًا إضافية يتم تصويرها للاحتياط.. العدد لا يدل على شيء...».

هنا جاء دوري في الورطة، فقد قال لي العميد:

-«من الذي أعطاك الأسئلة يا هند؟».

-«صديقة لي في نفس الدفعة..».

-«من هي؟».

احمر وجهي.. أما هذا فلا.. لم يخطر ببالي أن أورط (نرمين) في هذه القصة وهي التي كانت تتعامل بحسن نية. لكن العميد عاد يكرر:

-«من؟.. لابد من أن أعرف مصدرها..».

-«ربما من صديقة أخرى..».

-«سوف نسأل تلك الأخرى.. وأخرى وأخرى.. سوف ينتهي البحث عند طرف الخيط الآخر.. لو لم تتكلمي لاعتبرتك متورطة في هذه القصة!!».

كنت موشكة على البكاء، واحمر وجهي... يبدو أنني أخطأت فعلاً عندما أقدمت على هذه الخطوة مدفوعة بشجاعة ملحمة.. الأهم أن جميع الطلبة سيعرفون أنني تكلمت.. قانون السجون غير المكتوب.. المافيا يطلقون علي هذا اسم (أومرتا) أي (مؤامرة الصمت).. الويل لأول من يفشي أسرارنا..

فجأة راح المنظر يتوالى في ذهني مرارًا كأنني موشكة على الإصابة بنوبة صرعية..

ورقة أسئلة فوق آلة مستندات.. ورقة أسئلة فوق آلة مستندات..

اسم يتردد بلا انقطاع (مصطفى بيومي).. (مصطفى بيومي)...

فجأة هتفت بلا سيطرة على صوتي:

-«مصطفى بيومي..».

نظر لي العميد في دهشة وقال:

-«أخذت الأسئلة من مصطفى بيومي؟».

كدت أقول إنني لا أعرف لكنني خشيت أن يظن بعقلي الطنون أو يحسبني أدعي البلاهة، هكذا لذت بالصمت.. لكن (محمود) الذي قام بالتصوير صاح :

-«مصطفى!... غريب.. لكن بالفعل.. هذا ممكن!».

-«أي شيء ممكن؟».

اعترف (محمود) أنه كان يقوم بالتصوير وفجأة أصابه دوار غريب مع تسارع في ضربات القلب.. غادر الحجرة لبعض دقائق ليشم بعض الهواء النقي في الخارج. مصطفى بيومي كان يجلس علي باب الغرفة وقتها.. إنه العامل الذي يحرس المكان بما فيه من أوراق

مهمة.. بالفعل كان بوسعه أن يهرع للداخل ويسرق واحدة من النسخ الموجودة على آلة نسخ المستندات ثم يجلس في براءة بينما يعود محمود..

رفع العميد السماعه ليطلب أن يستدعوا له مصطفى بيومي هذا.. جاء بعد دقيقة بالضبط، ولم يحتج إلى أسئلة أو أي شيء لأنه انهار تمامًا عندما وجد الجميع ينظر له في حزم.. انفجر الدمع من عينيه والمخاط من أنفه وهو يقول:

«سأعترف.. نعم.. سرقت نسخة من الأسئلة وبعثتها بمائة جنيه لطالب اسمه (رامي عبد المنعم).... هذا هو كل ما فعلته.. أقسم بالله!».

كان قدومه نجدة لي لأن العميد نسي سؤالي عن صديقتي.. لقد وجد الخيط الذي يبحث عنه.. نظر لي وللمرة الأولى منذ ربع ساعة شاعت ابتسامة على وجهه الصارم وقال:

«شكرًا يا هند.. لقد انتهت مهمتك هنا..».

ونظر إلى ساعته وهتف:

«ربع ساعة من موعد الامتحان!.. سوف أعطيهم وقتًا إضافيًا.. ولكن عليك العودة للجنة الآن لأنهم سيوزعون الأسئلة حالاً..».

عدت إلى اللجنة شاعرة بخليط من الرضا عن النفس والارتباك و.. بعض الندم...

عندما تسلمت ورقة الأسئلة الجديدة التي تم إعدادها على عجل، كدت أصرخ.. أسئلة عسيرة حقًا لم تساعدني موهبتي على تخمين شيء منها..

ربما لو ظللت صامتة لكان الوضع أفضل، لكنني كنت سألوم نفسي للأبد.. ما رأيك أنت؟

احترسوا من تلك السيارة

احترسوا من تلك السيارة..

سيارة حديثة هي زرقاء اللون من طراز (تويوتا).. على الزجاج ملصق خاص بأحد الأندية القاهرية الشهيرة.. هناك خدش عرضي طويل على الجانب الأيسر..

لو رأيت تلك السيارة فاحترس منها..

السائق يخفي عينيه خلف نظارة سوداء عملاقة ويلبس الأسود، مما يعطيه مظهرًا مفرغًا كأنه في فيلم سينمائي أمريكي.. يدخل بغضاعة.. لو رأيت هذا السائق فاحترس منه..

سوف يميل عليك وأنت تمشين على قدميك ويعرض أن يوصلك.. لو كنت فتاة محترمة رباها أهلها جيدًا فسوف تتذمرين وتجدين السير، أو تتظاهرين بأنك لا تسمعين، أو تدخلين أول محل تقابليه، أو تطلبين عون أحد المارة أو رجل شرطة تجدينه بالمصادفة..

لكنك لو كنت فتاة مغامرة تقتنص الفرص فسوف تركبين، وعندما تصيرين جواره سوف يطري جمالك وسوف يقول لك إن الوقت ما زال يسمح بجلسة في مكان هادئ مع كوبين من عصير الليمون..

لو كنت فتاة مغامرة تقتنص الفرص فسوف تقبلين..

وعندها....؟.

للأسف لا أعرف.. تلك الرؤيا التي تلاحقني تنتهي دومًا عند هذا الجزء، كأنها نهاية حلقة بوليسية مثيرة.. علي أن أنتظر الحلقة القادمة لأعرف.. فقط هذه الحلقة التالية لا تُعرض أبدًا..

لكنني أرى الرؤيا وأشعر بالخطر طيلة الوقت.. أعرف أن شيئًا مروعًا سيحدث. النهاية معروفة وإن كنت لا أعرف ما هي..

احترسوا من تلك السيارة.

احترسوا من سائقها..

في تلك الأيام كانت تلك الرؤيا تطاردني بإصرار غريب، ولهذا نتيجة منطقية واحدة عندي: إنها حقيقية. أقلب صفحات الجريدة فأقرأ عن تلك الفتاة أو تلك التي (خرجت ولم تعد) مع رقم هاتف ووعده بمكافأة سخية.. أتحسس الصورة.. أغمص عيني محاولة أن أرى شيئًا لكنني لا أرى سوى السيارة الزرقاء..

عندما تتكرر الرؤيا فهي على الأرجح حقيقية لأن عقلي الباطن لن يخدعني هذا العدد من المرات. وهكذا أوصي أختي بأن تأخذ حذرًا ولا تتوقف عندما تبطئ أية سيارة جوارها.. أوصي أخي وإن كنت لا أعتقد أن خطرًا ما يتهدده..

أمضي حياتي من البيت إلى الكلية ومن الكلية إلى البيت.. أصغي للمحاضرات وأحاول أن أكون طالبة مجدة..

عندما أخرج من الكلية مع صديقاتي أنظر لنهاية الشارع.. هذه السيارة زرقاء.. أليس كذلك؟؟.. هل ترينها يا (يمنى)؟.. وأنت يا (مها)؟..

..«ما هو طرازها؟».

تقول (نشوى) باسمه:

..«فورد.. ألن تعرفي موديلات السيارات أبدًا؟».

نقترب من السيارة فأرى السيدة في منتصف العمر خلف المقود وأهدأ قليلاً..

هذا المساء يختلف. أمي تقول لي إنه يختلف.. هناك ضيف قادم لنا.. أمي تقول إنه لا يريد الانتظار حتى يعود أبي من عمله في خليج السويس، لكن لابد أن ينتظر.. لن نعطيه كلمة.. سيكون خالك معنا، ولسوف نطلب مقابلة أخرى. لكن هذا لا يمنع من أن تتأنقي وتلبسي أفضل ما لديك..

أكره هذه اللقاءات التي تذكرني بشراء الماشية من السوق.. لقد كبر حمارهم وهم يريدون أن يزوجه من حمارة مناسبة هي أنا.. هو رأيي في الكلية كما يقول ورفت له جداً.. محاسب هو لكنه في أعلى السلم في مصرف شهير.. إنه في الثلاثين وهذا يعني أن سنه مناسبة..

لا أريد.. لا أريد.. لكن خالي المهندس الشاب آت خصيصاً لذلك.. هكذا أسلم نفسي لأمي تعد ثيابي وتمشط شعري، وتؤكد من أن المساحيق بالكمية الكافية.. ليست كثيفة فأتهم بالتبرج وليست قليلة فأبدو شاحبة موشكة على الاحتضار كما أنا فعلاً..

الصالون على ما يرام.. أخي ابتاع العصائر وهذا يعني أننا سنقدم ثلاثة أنواع من المشروبات: شاي.. عصير مانجو.. مياه غازية.. وفي وسط اللقاء هناك الجاتوه..

في الثامنة مساء يدق الباب وأسمع الترحيب وخالي يفتاده ووالدته إلى الصالون. ثم اسمع أمي ترحب بهما.. ثم أجد أنني أحمل الصينية التي وضعت عليها أكواب العصير الثقيلة، وأنا أتقدم مطرقة للأرض كي أرحب بالضييفين، بينما دخان التبغ من سجائر خالي تجعل الرؤية ضبابية وتحرق العيون..

..«هذه هي هند»..

أجلس بينما أمه تكرر (ما شاء الله).. أرفع عيني لأراه للمرة الأولى.. هذا الوجه يبدو مألوفاً..

يقول كلامًا فارغًا.. الكل يقول كلامًا فارغًا ولن يدلي أحد برأي قبل أن يعود أبي، لكن العريس متعجل لأنه سيسافر قريبًا ويريد ردًا مقنعًا.. يعني قراءة فاتحة وموافقة مبدئية، ولسوف يعود للخطبة عما قريب... لكننا لا يمكن أن نقرأ الفاتحة وأبي مسافر..

تنتهي الجلسة المليئة بالود وينصرف الضيفان.. مهذبان رقيقان ويبدو أنهما من أسرة طيبة فعلاً..

تناديني أختي كدأب الأخوات كي نختلس النظر إلى الفتى وأمه من الشرفة.. نفث هناك متواريتين في الظلام خلف قطع الغسيل المعلقة، وتبادل همسات أنثوية مرحة..

يأتي خالي ليقف معنا.. نرى العريس وأمه يتقدمان نحو سيارة تقف أمام بيتنا ويفتح لها الباب الأيمن، ثم يدور ليجلس خلف عجلة القيادة.. سيارة زرقاء اللون..

يقول خالي وهو يضع ذراعًا على كتف كل واحدة منا :

«(تويوتا) حديثة.. تشبه التي كانت عندي وبعثتها..».

هنا تصلبت تحت ذراعه.. تويوتا زرقاء؟.. أنت مجنونة يا فتاة.. لا داعي للهستيريا.. إن حاستي تعمل لكن بطريقة غامضة.. لربما كانت هذه الرؤى تعني أن عريسًا بهذه المواصفات سيتقدم لي..

يقول خالي:

«بصراحة.. عريس ممتاز.. أنا سأتصل بأبيك وأخبره بأن يقدم موعد إجازته.. أكره أن نضيع هذه الفرصة..».

كل شيء جميل فيما عدا أن أحدًا لم يسألني عن رأيي.. كلهم قرروا ووافقوا وأعدوا بينما أنا التي ستعيش باقي حياتها مع هذا الرجل لم يسألوها عن رأيها.. لن أندesh لو قالوا لي غدًا إنني صرت زوجته.. المشكلة أن خالي متحمس له جدًّا...

عند الظهيرة أغادر الكلية.. أمشي في الشارع الطويل المنحدر وحدي، وهنا أشعر بسيارة تمشي بقربي.. سيارة تويوتا زرقاء..

أنظر لراكبها فأجده (عريس الغفلة) هذا، لكن منظره تغير عن أمس.. نظارة سوداء تخفي أكثر وجهه.. إنه هو!.. لا شك في هذا ولهذا بدا لي مألوفًا أمس..

«آنسة هند.. لو سمحت لي ببعض الكلام..».

قلت دون أن أنظر له:

«كل شيء قيل أمس على ما أعتقد..».

«لا.. ليس كل شيء.. أنت تعرفيني وأنا لست غريبًا اليوم.. أرجو أن تركبي..».

قلت في غموض:

«الوقت يسمح بجلسة في مكان هادئ مع كويين من عصير الليمون.. أليس كذلك؟».

قال في غباء:

«بلى.. طبعًا.. لكن لم أعرف أنك تحبين الليمون!».

كان يكمل عبارته عندما مرت سيارة الأجرة تلك أمامي فاستوقفتها وسرعان ما وثبت إلى الداخل.. وابتعدت بينما العريس ما زال يكمل كلامه على الأرجح.. كنت غير مرتاحة له لأنه عريس صالونات ثم غدت أكثر ريبة لأن سيارته تويوتا زرقاء.. الآن أنا مرتابة بالكامل لأنه يضع عوينات سوداء ولأنه يدعو الفتيات للركوب.

في اليوم التالي في الكلية تدنو مني صديقتي (يمنى).. تجذبني من ذراعي لتتكلّم معي على انفراد.. (يمنى) فتاة بارعة الحسّن يمكنها أن تلوي أعناق الرجال في كل مكان وتشعرهم بعدم الراحة.. أمامها ومعها يتحولون إلى أطفال.. لكن مشكلتها هي أنها تعرف كم هي حسنة، ولهذا تكره أن تفوت فرصة.. تجرب كل شيء.. تخاطر.. تتهور.. أملها أنها ستجد ما هو أفضل من زميلاتها جميعًا..

تقول لي (يمنى):

«بصراحة.. رأيك أمس تكلمين رجلاً في سيارة تويوتا زرقاء.. سررت لما رأيك تركته وفررت.. لم تركبي معه..».

«وهل سمعت من قبل أنني أركب سيارة رجل ليس زوجي ولا أبي ولا أخي ولا خالي؟».

«لا.. لكني ركبت هذه السيارة من قبل.. كان شابًا وسيماً وقد خطر لي أن ألهو قليلاً، لكنه كان وقحًا.. ما إن ركبت معه السيارة حتى تمادى من ثم فتحت الباب وجرّيت.. أعتقد أنه الشاب ذاته ومن الحكمة أن تتبعتني عنه نهائياً».

كان هذا التحذير كافياً.. إذن هو لا يذبح الفتيات ويتخلص من جثثهن، لكنه (يتمادى).. وهذا أسوأ في رأيي.. لا أذكر كم مرة أنقذتني حاستي تلك من ملائكة يخفون ذئاباً تحت جلودهم، لكنني مدينة لها بقوة..

شكرت (يمنى) كثيراً وواصلت متابعة دروس اليوم.. أعرف أنني سأتصل بخالي وأخبره أن ينسى الموضوع تمامًا.. لو أصر فلسوف أخبره بالحقيقة..

عند الظهيرة خرجت مع (يمنى) من الكلية.. كنا نمشي في ذلك الشارع الضيق عندما سمعت صوتاً مألوفاً يناديني.. لم تتوقف يمنى وواصلت السير..

نظرت لأجد خالي يجلس في تلك السيارة اللعينة التي يقودها (عريس الغفلة) وهو يطل من النافذة..

«لقد جئنا كي نوصلك يا (هند).. هي فرصة كي نرحمك من المواصلات.. أستاذ (كمال) تطوع مشكوراً، وهي فرصة ممتازة لتبادل الحديث.. هاتي صديقتك معك..».

إن هذا كثير جداً.. فعلاً هو كثير.. قلت في كبرياء وجفاء:

«لن أركب هذه السيارة أبداً..».

وواصلت المشي فأوقف (كمال) هذا السيارة وترجل خالي ليلحق بي.. ماذا هنالك؟.. قلت في عصبية إنني سأشرح له كل شيء على الهاتف عندما أعود للبيت لكني لن أركب هذه السيارة أبداً..

وتركته في شيء من الوقاحة ولحقت بـ (يمنى) فلا بد أن الرجلين ظلا يضربان كفاً بكف..

«أحسننت صنعاً..».

قالتها (يمنى) في حزم.. ثم أضافت:

«إنه هو!.. وقح منحط مغرور.. لن أنساه أبداً.. كان يلبس نظارة سوداء وثياباً سوداء.. كأنه في فيلم عصابات أمريكي..».

«وهذا شأنه اليوم..».

«لا.. لكني لن أنسى ملامحه.. كما لا أعرف لماذا لا يقود السيارة بنفسه؟».

توقفت متصلة وسألتها:

«عمن تتكلمين بالضبط؟».

قالت في ملل:

«عن ذلك الوغد الذي ترجل من السيارة وراح يحاول إقناعك بشيء!.. لو أصر لاستدعيت الشرطة أو استغثت بالمارة!..».

يمنى. هذا الرجل كان خالي!.. لم يكن (عريس الغفلة) هو المتهم إذن..

ثم بدأت أتذكر.. لماذا لا أرى ذلك الملتصق على الزجاج ولا ذلك الخدش على الجانب الأيسر؟.. هذه ليست السيارة التي أراها في كوابيسي.. عندما عدت للبيت اتصلت بخالي وقبل أن يبدأ في لومي على الإحراج الذي سببته له سألته:

«هل السيارة التويوتا التي بعثها كانت مخدوشة من جانبها الأيسر؟.. وهل كنت عضواً في ناد رياضي شهير ووضعت الملتصق على الزجاج؟».

بدت الدهشة في صوته وقال:

«سؤال غريب.. لكن هذا صحيح..».

«ولماذا بعت السيارة؟».

«ربما.. هو حادث مروع كاد يقضي علي.. لقد تورطت وارتكبت أخطاء كثيرة مع هذه السيارة، لذا شعرت بأنها دنسة وأن هذا الحادث إنذار سماوي لي.. لذا بعتها بثمان بخس!».

لم يشرح أكثر لكنني فهمت الباقي..

خالي الشاب كان يعث وكان يعرض على الفتيات توصيلهن، وكان يتمادي كثيرًا كما حدث مع (يمنى)، فلما وقع له ذلك الحادث شعر بأن السيارة مشئومة ومدنسة.. باعها وقرر أن يعود لجادة الصواب..

حاستي مزجت بين عريس الغفلة الذي أحشاه كثيرًا وبين سيارة خالي لتخلق من هذا صورة مربة. سيارة خالي يقودها رجل له ملامح كمال..

احترسوا من تلك السيارة..

إن من يقودها عريس لا أحبه ولا أشعر بأي ميل له، برغم أنه بريء كما هو واضح.. من الغريب أن خالي ليس ملاكًا كما كنت أتصور..

لن أتزوج زواج صالونات أبدًا..

الليلة سوف أقول (لا) واضحة صريحة مدوية، شاء من شاء وأبى من أبى.

جريمة ربع كاملة

(سليمان) يعاني مشاكل مادية جمة..

كلنا هذا الرجل على كل حال.. الحياة تزداد تعقيدًا والمصاريف مرهقة والغلاء فاحش.. لكن بالتأكيد لم يبلغ بنا الحال هذه الدرجة من السوء... لقد بلغ (سليمان) المرحلة التي يدخلون فيها غرفة المكتب ليكتبوا مذكرة وداع ثم يخرجوا المسدس ليفجروا رؤوسهم.. المشكلة هنا ان (سليمان) ليست لديه غرفة مكتب ولا يقدر على شراء مسدس..

بالفعل هو قد دخل البورصة، ولأنه يعرف حظه جيدًا كان يعرف منذ اللحظة الأولى أنه سيخسر.. إذن لماذا دخل؟.. لأن المرء يعتقد أن السيناريو قد لا يتكرر في كل مرة..

هكذا وجد أنه معدم بالمعنى الحرفي للكلمة.. معدم ومن الوارد أن يجوع كذلك..

كان (سليمان) يعيش وحده من الناحية الزوجية، فهو سيئ الخلق عصبي لا تستطيع زوجة أن تعاشره طويلًا.. لهذا طلق زوجته قبل أن ينجب منها..

لكن لم يكن وحده.. هناك في الغرفة الكئيبة ذات الأثاث القديم التي تفوح في هوائها رائحة (مرهم النمر) المعتادة لتخفيف الآلام الروماتزمية.. هناك في الضوء الخافت الكئيب.. هناك في الحر الخانق.. هناك في الفراش غير المرتب الذي يمكن أن يجلب الأرق للموتى.. هناك جوار الكومود الذي يتوسطه الكوب الذي تسبح فيه الأسنان الصناعية..

هناك في ذلك الفراش يرقد عمه..

من الغريب أن يكون أنيسه الوحيد في العالم هو عمه، لكن أباه أوصاه به كثيرًا قبل الموت لأن العجوز يعيش بلا سند ولا ولد.. صحيح أن أباه مات قبل العم لكن وصيته ظلت حية..

هناك شيء آخر مهم هو أن العجوز ثري جدًا، وهذا يعني أن حسن معاملته قد يجعله يوصي بكل ماله لسليمان.. هذا ما حدث فعلاً..

العجوز هو الذي ينفق على البيت كذلك.. في بداية كل شهر يذهب مع (سليمان) إلى المصرف ليسحب بعض المال ويعطيه إياه.. معظم هذا المال ينفق على الدواء طبعًا..

لكن هذا يدل على شيء مهم آخر هو أن العم العجوز بصحة ممتازة.. أمراض الشيخوخة كلها عنده لكن بشكل عام لا يعني أن حياته مهددة بأي شكل.. تسعون عامًا وهو ما زال قادرًا على الخروج

وحده أو دخول الحمام أو قراءة الجريدة..

التسلية الوحيدة التي اعتادها سليمان هي صوت السعال والبصاق القادم من غرفة النوم، أو ضحكة عابرة على مشهد في مسلسل تلفزيوني...

بالطبع لم يجسر قط على إبداء أي تذمر.. بعد عشرة أعوام صار العجوز جزءاً من أثاث البيت كالجدران.. لكنه لم ينس قط أن العجوز عصبي سريع الغضب، وهو بصحة جيدة تسمح له بأن يطلب المحامي ليغير وصيته..

لم تنضج الفكرة في ذهن (سليمان) إلا بعد خسارته في البورصة.. قرأ (الجريمة والعقاب) لـدستويفسكي فأثارت اهتمامه شخصية العجوز التي لا نفع منها على الإطلاق.. العجوز التي لن يفتقدها أحد لو ماتت، وهي تشكل العقبة الرئيسة أمام البطل كي يشق طريقه في الحياة..

ماذا فعل البطل؟.. قتلها..

يجب أن يموت عمه.. حان الوقت لذلك.. لكن كيف؟..

هناك الموت الذي يبدو حادثاً.. والموت الذي يبدو انتحاراً.. والموت الذي يبدو شيخوخة.. والموت الذي يبدو قتلاً..

الموت الذي يبدو انتحاراً لن يقنع أحداً ولسوف ينتهي به الأمر إلى المشنقة.. أنت تحتاج إلى أدوية هضم كثيرة كي تهضم فكرة أن عجوزاً في التسعين ينتحر.. الموت الذي يبدو شيخوخة مفر، لكن العجوز لا يتعاطى أي دواء بشكل منتظم بحيث تخفي الزحاجة أو تلقي الأقراص في البالوعة.. سليمان لا يملك أية خبرة طبية ولا يعرف كيف يموت العجوز وعليه علامات النوبات القلبية.. الموت الذي يبدو قتلاً ممتاز، لكنه يعني أن تستأجر قاتلاً محترفاً وتقنعه بأن يترك أثراً توحي بالسرقة مع العنف.. هذا القاتل نقطة ضعفك لأن هؤلاء الحمقى يقعون في قبضة الشرطة دائماً ويتكلمون.. لو لم يقعوا في قبضة الشرطة فهم يحاولون ابتزازك...

إذن هو الموت الذي يبدو حادثاً..

دخل على عمه فوجده يلوك طعام العشاء في الفراش أمام التلفزيون.. نظر له وقد شعر بوجوده وقال وهو يشير للتلفزيون:

«(ليلي) لا تعرف أنه تزوج أخرى وأنه يعيش معها في الاسكندرية».

نظر له (سليمان) في غيظ.. رائق البال إلى هذا الحد؟؟... من يهتم بهذه المسلسلات السخيفة؟.. كان الجبن يحتشد على جانبي فم العجوز وهو يتكلم فشعر (سليمان) باشمئزاز.. ربما كان القتل خدمة للبشرية كذلك..

كان يفكر بسرعة..

يعرف أن العجوز يدخل الحمام مرة واحدة عند صلاة الفجر.. يتوضأ ثم يعود لغرفته.. هذه رحلة تستغرق طبعًا مع رشاقة الرجل ومرونته نصف الساعة..

هكذا عندما صارت الساعة الواحدة صباحًا، هرع إلى الصالة.. أولاً عالج المنصهر ليقطع الكهرباء عن الحمام فقط.. عاد للحمام.. هناك ذلك القابس القريب من الأرضية وهو قابس قديم متآكل.. مد يده واستعمل المفك ليخرج سلكًا انتقاه بعناية وجعله يلمس الأرض... حرص على أن يوحى المنظر بالإهمال كأن القابس كان تالفًا منذ زمن بعيد..

ثم اتجه إلى الحوض فملأ الدلو مرتين من المغطس وسكب محتواه على البلاط الزلق.. صار الحمام الآن غارقًا في بركة صغيرة سوف يتسرب بعضها في البالوعة لكنه سيظل مبللًا..

خارج الحمام يوجد ذلك الخف المطاطي الذي يستعمله عمه عند دخول الحمام، كي لا يتل خفه الآخر.. مد يده وعالج الخف كي يترك في قاعه الملامس للأرض فتحة صغيرة..

هكذا وقد انتهى كل شيء عاد إلى لوحة المنصهرات فأعاد الكهرباء إلى الحمام.. عليه ألا ينسى ما فعله وإلا ذاق ذات السم الذي يسهر في إعدادة..

كان التوتر شديدًا لذا ابتلع قرصين منومين وغطى رأسه بالوسادة في حجرته وانتظر.. يعرف ما سيحدث.. سينهض العجوز ساعة صلاة الفجر.. سيضع الخف في قدميه ويدخل الحمام.. طبعًا ستغلق المياه على الأرض الدائرة وتسري الكهرباء في جسده، ولسوف يسقط أرضًا ميتًا بالطبع.. حادث آخر ناجم عن الإهمال.. أيام من الحزن ثم الميراث.. الميراث الهائل له وحده...

يغطي رأسه بالوسادة ويحاول أن ينام..

في السابعة صباحًا نهض من الفراش ناسيًا كل شيء، واتجه للحمام..

هنا فقط رأى جثة العجوز المتصلبة على الأرض وتذكر كل شيء فعله قبل النوم. غريب هذا!.. لا يصدق أنه فعلها.. ربما لو فكر في الأمر مرتين أو انتظر حتى الصباح لعدل عن هذه الفكرة، لكن العجلة قد دارت والرصاصة انطلقت ولم يعد من مناص من الاستمرار..

اتجه للمنصهر وانتزعه ليفصل الكهرباء عن الحمام..

كانت السابعة والنصف عندما طلب الإسعاف والشرطة..

وفي التاسعة اتصل بي النقيب (سمير البنا) الذي يطلب رأيي

في كل شيء، والذي عرفته عن طريق الطبيب النفسي د. (محمود).. حكى القصة وقال لي إنه راغب في أخذ رأيي.. قال:

«القصة تبدو واضحة يا هند.. حادث آخر ناجم عن الإهمال كما يحدث كثيرًا في مصر..».

«هذا مؤسف لكن لا دور لي إذن».

«أشعر بأن الأمر غريب.. صدفة جعلت السلوك يتبدل وصدفة جعلت الخف مثقوبًا وصدفة أغرقت الحمام بالماء.. ألا يبدو هذا مريبًا؟».

فكرت في الأمر وبدأ لي على شيء من الصواب..

هكذا تجدونني أقف في الشقة التي كانت مسرح الحادثة.. طبعًا حثة الفقيد مغطاة.. لم أعد أطيق رؤية المزيد من الموتى..

(سليمان) يجلس وهو يغطي وجهه بكفيه باكيا أو مصدومًا..

يرفع رأسه ليقول للنقيب:

«لن أسامح نفسي ما حييت على أنني تركت هذا السلوك المتدلي.. أنا اطلب رسميًا توجيه تهمة الإهمال لي..».

قال النقيب متلطفًا وهو غير مقتنع بهذا الاستشهاد المسرحي:

«لا أعتقد أن قاضيًا يمكن أن يدينك».

كنت أنا أجوب الشقة وأتشمم الجو بحذر، ثم أمسكت بالخف المثقوب وتفحصت مكان الثقب.. بعد ثوان عدت للنقيب وقلت:

«الأمر واضح تمامًا.. كل شيء يشي بأنه فعلها عمدًا.. كل شيء... أشعر بالشر في كل مكان.. ثم إن هذا الثقب في الخف.. لا يمكن أن ينجم عن بلى أو قدم.. الخف كله سليم وهناك ثقب واضح سميك في القاع.. لقد تم عمله عمدًا..».

قال لي همسًا:

«نعم.. أشعر بهذا.. لكن لا يوجد إثبات برغم هذا.. ربما العم العجوز هو الذي ثقب الخف بنفسه لسبب ما.. على كل حال كنت أرغب فيمن يؤكد لي ظنوني أما البرهنة عليها فأمر يخصني..».

عدت أسأل:

«وكل هذا البلل في الحمام.. تذكر أنه موجود قبل أن يتوضأ الشيخ.. فمن أين جاء؟».

قال النقيب:

«فكرنا في هذا.. (سليمان) يزعم أنه أخذ حمامًا في الثالثة صباحًا وهو ليس بارعًا في تجفيف الماء بعد الاستحمام..».

«ولماذا لم يتعرض للصعق بالكهرباء بدوره؟.. لقد كان يستحم كما يقول وبالطبع كان حافي القدمين».

«ربما لأن الحمام لم يكن مبللاً بما يكفي. أو ربما هناك فأر شد السلك أكثر بحيث لامس الأرض».

«هناك آثار عبث في القابس.. ألم تلاحظ هذا؟».

«يقول (سليمان) إنه حاول إصلاح القابس قبل هذا بيومين.. وفشل».

رحت أجوب المكان وأفكر.. بالفعل كل شيء مريب، لكن لا يمكن إثباته لأن المحاكم تتعامل مع الحقائق لا الظنون..

هل يمكن القول إن هذا الرجل قد ارتكب الجريمة الكاملة، وإنه فعلاً سينعم بثروة عمه القليل؟.. مستحيل.. وإلا فلا نفع لموهبتي هذه على الإطلاق...

دخلت الحمام ونظرت إلى المغطس..

كان مليئاً بالماء إلى نصفه..

عدت إلى الصالة وهمست في اذن النقيب طالبة منه أن يوجه السؤال فلا صفة لي هنا.. هكذا سأل الرجل:

«لماذا ملأت المغطس بعد ما استحمت؟».

قال مصطفى في شيء من الارتباك:

«لا يمكنك أن تضمن انقطاع الماء هنا.. لابد من تخزين ماء احتياطي كل ليلة».

هنا نسيت نفسي فصحت في فرج:

«وجدتها!..».

وجريت إلى الشقة المجاورة حيث كان الجيران المذعورون يقفون على الباب، فسألتهم في مرح آثار دهشتهم:

«هل كانت المياه على ما يرام البارحة؟».

قالت امرأة بدينة تربط شعرها بمنديل أحمر لامع:

«لم تكن هناك نقطة طيلة الليل يا حبيبتى..».

عدت إلى الداخل وصحت في النقيب:

«لم تكن هناك نقطة ماء طيلة الليل!.. الشيخ كان ينوي أن يتوضأ من الماء في المغطس يصبه على نفسه صَبًّا.. من أين أتى الماء الذي أغرق الأرضية؟.. هناك من سكبهُ وهو ليس العجوز قطعاً فهو لم يجد الوقت الكافي لذلك.. سليمان لم يستحم وهذه أول كذبة..

لديك ماء صبه (سليمان) على الأرض، ولديك سلك في وضع غير طبيعي، ولديك ثقب في خف لا يمكن أن يكون قد نجم عن فرط الاستعمال، ولديك دافع قوي للقتل.. باختصار: لديك جريمة مكتملة الأركان..».

نظر لي في حماس والتمعت عيناه..

ونظرنا معاً نحو (سليمان) الذي لم يسمع هذه المحادثة.. كان جالساً على الأريكة متظاهراً بالتأثر، يتصفح بعينين لا تريان صفحات نسخة مهترئة من رواية (الجريمة والعقاب)..

لماذا هذه الرواية بالذات؟.

يمكنني بسهولة

يمكنني بسهولة أن أرى المشهد..

هناك قرب مدينة (.....) مدخل قرية على اليمين.. هناك طريق ترابي غير ممهد، وهو يمر أولاً بقنطرة صغيرة ثم طريق وعبر للغاية.. هناك طاحونة قديمة مهجورة يقعي جوارها كلب أجرب مريض.. ثم ذلك المدخل الضيق بين بيتين من الطين الجاف..

هناك يمكنك أن ترى الجنة وقد تمت تغطيتها بالقش، لكن الريح سوف تذروه قريباً جداً.. لن يطول الأمر قبل أن تنكشف للعيون وحتى لو لم يحدث هذا فلسوف تجدها الذئب أو الكلاب الضالة..

يمكنني بسهولة أن أرى هذا كله..

ها هي ذي مدام (عفاف) تنظر لي منتظرة ما سأقول.. ها هو ذا أخوها الأستاذ (مصطفى) ينتظر ما سأراه.. إنهما متوتران يشربان الشاي لكنني أعرف أنهما يتعذبان في ابتلاعه كأنه حمض الهيدروكلوريك المركز.. لهذا يضعان الكوبين جانباً فلا يرفعانها إلا كلما ألحت أُمي..

لقد كان يوماً عادياً وفي المساء اتصل بي النقيب (سمير البنا).. إذن هم بحاجة إلى حاستي في مهمة جديدة.. قال لي إنهما قادمان..

قلت في عصبية:

«أنا أحب مساعدة الناس.. لكنني أكره أن أعامل كعرافة أو واحدة من المشعوذين الذين نراهم في السينما.. هناك كنز مدفون تحت المقبرة ونريد عونك كي نجده، ولك 10% من قيمته.. الخ..».

قال في لهجة أقرب للتوسل:

«أعتقد أن هذا العرض يكون رائعاً.. لكن للأسف أنا لا أعد بشيء سوى الثواب وامتعة أن تكوني مفيدة.. فعلاً نحن بحاجة لهذا اللقاء.. أرجوك..».

هكذا يتوتر كل شيء في البيت.. تسرع أُمي بتنظيف الصالون والمدخل وترسل أخي لشراء بعض المياه الغازية والجاتوه. لا أحد يزورنا تقريباً أثناء سفر أبي، لذا تغدو هذه الزيارات مزعجة فعلاً..

لكننا شعرنا بالراحة والهدوء عندما ظهر الضيفان.. السيدة محجة وقور يبدو القلق على وجهها بشكل يدفع للشفقة، والرجل يشبهها تماماً.. مستحيل أن يكون زوجها بل هو غالباً أخوها..

صافحتها وقبلتها على خدها من دون سابق معرفة، لكنني شعرت فعلاً بحنان عارم يغمرنني نحوها...

لحظة تقبيلها رأيت المشهد بوضوح تام:

جثة مهشمة الرأس ملقاة في مكان مترب وفوقها كومة من القش.. لا أعرف جثة من ولا سبب رؤيتي لها، لكن الأمر اتضح من اللحظة الأولى.. هذه الجثة هي ما تريد المرأة السؤال عنه..

لكن هذا لا يدل على شيء.. إن موهبتي غامضة تتصرف بطرق عجيبة.. مثلاً قد تريد المرأة السؤال عن شخص ما فتكون هذه الصورة الشنيعة هي الإجابة.. قد تكون هذه المرأة تحمل الصورة البشعة في عقلها الباطن كأحد مخاوفها.. قد تكون المرأة رأت هذا المشهد فعلاً.. أي إن موهبتي العجيبة هذه تتراوح بين قراءة الأفكار والاستبصار والحدس.. فإذا أضفنا لهذا قدرًا لا بأس به من التلغيق من خيالي الخاص، لأمكنك فهم الحيرة التي أنا فيها.. لو كانت الأمور واضحة بمعنى أن أقرر قراءة أفكار السيدة فأقرؤها، لكنت الحياة سهلة جدًّا، ولأمكنني أن احكم العالم!.

قالت لي وهي تجلس وتخرج منديلًا في حال سيئة واضح أنها مسحت به أنفها ألف مرة:

-«زوجي.. (أحمد المهندس).. شركة استثمارية.. يقوم بهذا كثيرًا جدًّا.. حقيبة مليئة بالمال يسافر بها.. لكنه لم يعد هذه المرة.. يوم.. يومان.. الشرطة تبحث.. لا أثر له ولا لسيارته..».

يتدخل الأخ:

-«الكل يتوقع ما حدث.. لكن لا أحد يجرؤ على قوله..».

تنظر لي الزوجة وتقول في رفق:

-«خلال أسبوع جربنا كل طريقة يعرفها العلم..».

-«ثم خطر لنا أن نجرب طرقًا أخرى..».

أنا إذن طريقة أخرى لا يقرها العلم!.. لا أختلف كثيرًا عن الشيخ (عطوة) نصاب القرية الذي يحرق البخور وينادي (شمهورش) طيلة الوقت.. هذا يثير غيظي.. على قدر علمي أنا ظاهرة علمية جدًّا لكنها لم تدرس بشكل كاف.. لا يوجد مجال هنا للسحرة والمشعوذين..

تمسك الزوجة بيدي في ضراعة..

أمي قد بدأت تعتاد هذه الأمور وتفهمها.. هي لا تصدق حرفًا من ذلك، لكنها تعرف أن رجل شرطة يأتيني من وقت لآخر طالبًا النصح.. صار هذا نمطًا معتادًا في حياتي..

أنظر للزوجة طويلًا..

يمكنني بسهولة أن أرى الدم. أرى خيط الدم الطويل الذي سال

أثناء نقل الجثة.. يمكنني سماع صوت الذباب.. فقط لا أستطيع معرفة اسم البلدة التي تمت المأساة جوارها.. لا أعرف أين.. رأيت الجثة ومكان التخلص منها، لكنني لا أعرف أين يحدث هذا..

سيدتي.. أنا تلقيت الإجابة التي تريدين.. أعرفها تمامًا.. لكنني لن أخبرك بحرف منها..

تقول لي الزوجة دامعة:

-«أرجوك. ركزي تفكيرك.. ماذا حدث لزوجي؟... قالوا لنا إنك تستطيعين لو لمست شيئاً من أشيائه أو أطبقت يدك على يدي.. أرجوك».

يقول أخوها وهو يدس يده في جيبه:

-«هذه ساعته وهذا هاتف محمول يستعمله أحياناً.. لربما لو لمست هذه الأشياء لاستطعت أن...».

ألمس الهاتف والساعة.. أبتلع ريقى..

يمكنني بسهولة أن أرى جثة مهشمة الرأس.. في هذه اللحظة بالذات هناك كلب أجرب جائع شرس المنظر يقترب.. ينبش وسط القش...

يمكنني بسهولة أن أرى السيارة.. سيارة زرقاء اللون تقف بين الأشجار الكثيفة في عزبة ما.. الأبواب مفتوحة وقد غطاها التراب تماماً.. هناك جزار يتحرك من بعيد.. أسمع هدير محركاته..

لكنني لن أقول... لن أتكلم..

تسألني الزوجة في إلحاح:

-«هيه؟.. آنسة هند.. هل رأيت شيئاً؟».

أقول في حذر:

-«هذه الأمور لا تتضح بهذه السهولة.. أرجو أن تعطيني فترة كافية للتأمل.. لا يتعلق الأمر بزر أضغط عليه فأرى..».

لكن يمكنني بسهولة أن أرى الكلب يزبح القش عن الوجه.. أرى الوجه المشوه جاحظ العينين.. هذا رجل في الخمسين من العمر.. له شارب كث.. الكلب يقترب.. يفتح شذقيه..

إنه....

كيف لو عرفت الزوجة ما يدور في هذه اللحظة بالذات؟.. سوف اصمت.. نعم.. لن يفيدنا أن تعرف أية رؤى مريضة تتلاعب في خيالي الآن..

يمكنني بسهولة أن أرى مدخل الطريق الترابي.. لا يمكن أن

يهتدي له رجال الشرطة، لأن هناك مثله مئات في كل قرية بمصر..
لا توجد علامات مميزة..

أركز تفكيري أكثر.. السيارة الواقفة مفتوحة الباب.. لماذا لا يراها
صاحب الجرار؟.. ألم تثر فضوله؟.. إلا لو كان يعرف.. يعرف سبب
وجودها هنا..

هناك اسم يتردد في ذهني بلا توقف..(الوحدة المحلية بكفر
الدنانير). هذا هو المكان..

هذه المرة فتحت فمي.. قلت:

«كفر الدنانير.. سيارته هناك!»..

هنا نظرت لي الزوجة في ذهول ثم تبادلنا النظر مع أخيها.. احمر
وجهاها وقالت:

«كفر الدنانير؟.. هذه قريته قرب الزقازيق.. عزبة أسرته هناك..
لماذا يعتدي عليه شخص ويأخذ سيارته ليخفيها في قريته
بالذات؟..».

نظر لي أخوها في دهشة.. هل أنا أخرف؟.. لكن من أين لي
بمعرفة اسم القرية؟.. بالفعل أنا متأكدة.. لقد سأل رجال الشرطة
عنه هناك لكنهم بالطبع لم يجرؤوا بحثًا مدققًا.. لو حدث شيء للزوج
فأخر مكان يخفي فيه المعتدون سيارته هو قريته.. هذا شيء
غريب لكنه حقيقي..

هنا خطرت لي فكرة.. قلت للزوجة:

«هل معك صورة لزوجك؟»..

«طبعًا..».

ووضعت كوب الشاي المسموم لتبحث في حقيبتها، ثم تناولني
صورة صغيرة.. تأملتها فرأيت رجلًا وسيماً حليق الوجه.. لا علاقة له
بالوجه الذي يمكنني بسهولة أن أراه تحت القش...

أمسك بالصورة وأحاول التركيز.. أكثر فأكثر..

يمكنني بسهولة أن أرى مكانًا واسعًا يجلس فيه ناس.. كلهم
قلقون.. يمكنني بسهولة أن أسمع صوتًا أنثويًا أنيقًا يتكلم
بالإنجليزية.. أسمع صوت محركات.. هذا مطار.. لا شك في هذا..

أنهض كالملسوعة.. أجري بسرعة لأرفع سماعة الهاتف بينما
الضيغان ينظران لي بدهشة..

أطلب رقم النقيب (سمير البنا).. يسألني في مرح عما إذا كنت
أقضي أسوأ ساعات حياتي، لكنني لا أبادله المرح.. أقول له في
عصبية أن يتصل بالمطار حالاً:

-«الزوج المختفي.. (أحمد المهندس) في المطار الآن.. سوف يغادر البلاد.. يجب أن تمنعوه!».
-«هل تعنين أنه حي؟».

-«حي وقاتل!.. لقد قرر أن يختفي ويسرق المال الذي كان في الحقيبة، وقد تم هذا بمساعدة شريك.. شريكٍ اختلف معه غالبًا، فهشم جمجمته وأخفى جثته في مكان قريب جدًا من قريته (كفر الدنانير).. يمكنني أن آخذك هناك.. أعرف المدخل الذي يقودنا للجثة والتي أوشكت الكلاب على تدمير معالمها.. أما السيارة فتركها بين الأشجار في العزبة حيث يصعب أن يجدها أحد. بالطبع نقد الخولي مالا كى يتناسى وجودها!».

ثم صحت في عصبية:

-«لكن لماذا أضيع الوقت بالشرح؟؟. اتصل بالمطار حالاً قبل فوات الأوان.. أرسل أحدهم بصورته لأنه قد يحمل جواز سفر باسم مستعار.. فقط أعرف يقيناً أن حقيبتة محشوة بالمال...».
-«حاضر.. حاضر!».

ووضعت السماعة واستدردت للزوجة وأخيها.. لقد تجمدا مذهولين عاجزين عن الكلام، لكنهما سمعا كل شيء..

يمكنني بسهولة أن أعرف أنني محقة.. يمكنني بسهولة أن أقود الشرطة لموضع الجثة، لكنني لا أقدر بأية وسيلة على إزالة هذه الصدمة القاسية التي تلقتها الزوجة المخلصة.. زوجها لص.. وقاتل.. وخائن.. ونذل.. ولو لم تأت لي الليلة بالذات لهرب للخارج لينعم بحياة جديدة تاركًا زوجته ترثي نبلة وشجاعته ورقته، وتحمل لقب (أرملة).

إن الحقيقة قاسية.. لكنها أكثر رحمة من الحياة مع الخداع والأوهام. يمكنني بسهولة أن أفهم هذا، لكن الزوجة لن تفهمه إلا بمرور الزمن.

أحدهم كان هنا

أحب اللحظات التي أعود فيها لحياتي الطبيعية.. (هند) الفتاة الشابة المرحّة نوعاً، المتفوقة في دراستها ولها كل اهتمامات الفتيات الأخرى..

كثيرون يعتقدون أن امتلاك موهبة خارقة للحواس شيء خارق، لكنني دعنيؤكد لك أن هذا يجعلك تشعر بالاختلاف، والاختلاف هو بوابة الوحدة..

تتعلم أن تتكلم، وتتعلم ألا تثق بالآخرين.. في الوقت نفسه أنت تعرف عنهم أكثر من اللازم.. تعرف أفكارهم وهواجسهم.. لهذا تتعلم ألا تثق بهم أبداً..

هناك دائماً رسالة غامضة تتلقاها من كل شيء ومن كل جهة.. تحاول الفهم فتعجز أحياناً..

الخلاصة.. تشعر بأنك شخص فلتة Freak كما يقولون.. السؤال هنا: كيف يمكن أن تتزوج؟؟.. كيف يمكن أن تثق برجل تعرف أفكاره جيداً؟..

إن الكتمان لنعمة.. القناع الاجتماعي نعمة.. لو وجد إنسان قادر على رؤية الناس من غير ثياب، فلا بد أنه سيموت من الاشمئزاز.. الثياب ضرورية جداً وكذا بعض الخصوصية.. أنا أرى الناس أغلب الوقت من دون ثياب نفسية..

أقول إنني أمر بفترة يبدو فيها أن موهبتي تراجعت كثيراً.. لم تعد تعلن عن نفسها على الإطلاق، حتى إنني دخلت امتحان منتصف العام، فلم أر في ذهني تلك الأسئلة التي تتردد بلا انقطاع..

أخرج مع أختي.. أشاهد التلفزيون.. أثرثر عبر برامج المحادثة.. أتفرج على واجهات المحلات ولا أشتري أي شيء كالعادة، ممارسة تلك الهواية الأنثوية القوية: تصييع وقت البائع واستفرازه..

ثم أعود للدار فأنعم بنوم هادئ بلا أحلام..

أبي سيعود الأسبوع القادم.. هذا يعني أن يعود الدفء للدار.. يقولون إن الرجال مهمون جداً.. لا أدري.. لكن أبي مهم جداً بصرف النظر عن كونه رجلاً أم لا.. سوف يصحبنا في النزهة ويمزح معنا، ولسوف يجلس بالمنامة في الصالة يشاهد التلفزيون بينما أعد له القهوة..

كل شيء على ما يرام..

أو أعتقد هذا..

بدأ كل شيء عندما عدت من الخارج ظهراً ودخلت غرفتي.. إنها

غرفة فتاة بلا زيادة أو نقصان.. عدة صور لراغب علامة وكاظم الساهر.. هناك مجموعة من الأدبية (تيدي) أو (الباديب) على الفراش، وهناك ملصق كبير لـ (ميني ماوس) على الجدار.. بدأت أرتب فراشي الذي لم أرتبه صباحًا.. هنا بدأت أتوتر.. هناك شيء غريب..

ذلك الشعور الممض يعصف بي.. أشعر برجل!... توترت وتلفتت حولي.. لا يوجد شيء.. لكن هناك رجلًا.. أنا متأكدة.. هناك رجل كان هنا.. إن رائحته النفسية قوية فعلاً..

ما معنى هذا؟

خرجت في عصبية إلى أمي لأسأل:

«هل كان هناك رجل هنا؟.. كهربائي أو نجار أو أي حرفي؟».

قالت في برود:

«تعرفين أنه ما من حرفي يدخل البيت في غياب أبك».

«هل كان خالي هنا؟».

«بالطبع لا.. ما هذه الأسئلة العجيبة؟.. هل من شيء في غرفتك؟».

هزرت رأسي.. بالطبع لا أستطيع أن أقول شيئًا.. هي لا تصدق حرفًا عن قواي النفسية.. فقط تضحك ولا تعلق كلما جاءت سيرة الموضوع.. يبدو الأمر عجيبيًا مسليًا مستحيل الفهم عندما تسمع عنه.

عدت للحجرة وفتشت بعناية.. فعلاً لم يضع أي شيء.. هناك بعض الحللي وهناك ألف جنيه أدخرها موضوعة في مكان ظاهر.. من المؤكد أنها لم تمس..

(هند) يا ملاكي.. أنت تهذين بلا شك..

جاء الليل وخرجت مع أختي لشراء بعض الأشياء، ثم عدنا..

دخلت حجرتي فأجفلت.. هذا الشعور قوي جدًّا.. هناك رجل كان هنا.. رجل في غرفتي دون علمي هو بلا مناقشة لص..

ركعت تحت الفراش باحثة، ثم فتحت خزانة الثياب.. لا شيء..

لكنه موجود.. موجود بقوة.. أوشك أن أراه لكن وجهه يضيع.. ماذا كان يفعل وماذا يريد؟

رحت ابحت في الشقة بعناية، وفتحت الشرفة.. ثم بحثت تحت كل الأسرة حاملة كشافًا صغيرًا.. لا شيء.. سألتني أختي في دهشة:

«هل جننت أخيرًا؟».

أمرتها بأن تخرس.. ثم تأكدت من أن شرفة غرفتي مغلقة وبابها مغلق وأطفأت النور.. من المستحيل أن أنام مع هذا الوجود القوي هنا.. فعلاً ظلت ساهرة حتى تسرب نور النهار عبر الستار..

هنا فقط نمت كجثة هامدة..

نمت حتى الظهر.. صحت من النوم على أمي تفتح الشرفة وتلومني بلا توقف على أنني صرت كسولاً كالخنزير. ثم أخبرني أن خالي وصديقه جاءا..

نهضت وارتديت روباً ثم خرجت من غرفتي.. رأيت خالي يقف هناك في الردهة، فلما رأني أشرق وجهه وقبلني على خدي.. ثم أعلن أن رائحة النوم تفوح مني بقوة. كنت أفكر بلا انقطاع وأركز كل تفكيري.. هل هو؟.. لا.. لا يعطي ذات الانطباع الذي شعرت به..

خرجت للصالة فرأيت صديقه.. شاب هادئ خجول صافحني في ارتباك ثم سحب يده سريعاً لكنني نجحت في التركيز لثوان.. لا شك في أنه ليس الرجل المقصود.. الرجل المقصود الذي تكفيني لمسة واحدة ليده مع التركيز لأعرف أنه هو..

كانت أمي قد أعدت مائدة الغداء فجلسنا جميعاً نأكل..

عدت لغرفتي.. هنا انتفضت.. لقد تجدد هذا الشعور بقوة من جديد.. لقد دخل هذا الشيء بينما أنا أتناول غدائي!... ولكن كيف؟.. هل يجروء؟

بأية طريقة أشعر به؟.. هل هذا تخاطر أم استبصار؟.. هل هو الإحساس بمن لمس الشيء Psychometry أم هي رؤية المستقبل؟..

هذا سؤال مهم لأنه يعني إما أن الرجل دخل الغرفة فعلاً، أو إنه سيدخلها في المستقبل، أو إنني أخرف ببساطة..

الاحتمال الأخير مريح لكنه غير مقنع.. لم يحدث من قبل أن شعرت بهذا الشعور الكاسح..

لا أستطيع أن أتصل بالشرطة لأقول إن لدي شعوراً قوياً بوجود لص.. فقط أقوم بفتح الأدراج كلها.. لقد فتح هذا الدرج وذاك.. لم يفتح هذا..

أعتقد ذلك.. ربما فتح الخزانة.. لا.. لم ينم في الفراش..

أوشك على أن أجن..

أخيراً قررت أن أفعل شيئاً.. يجب أن أبرهن على أنني حمقاء..

خرجت إلى بيت جارتي (منى)، وكانت موشكة على نوم القيلولة فطلبت منها كاميرا الويب الخاصة بها.. كاميرا لاسلكية هي، ابتاعها

أخوها عندما كان في أمريكا.. أداة صغيرة مستديرة تشبه كرة العين، ويتم إخفاؤها في مكان ما، ثم يتلقى جهاز الكمبيوتر الصورة منها عبر مدى معين..

أداة خطيرة فعلاً.. ممتازة للتجسس..

قالت لي في شك:

«هل أنت متأكدة من أنك تريدين أخذها؟».

«نعم.. ولن أكسرها.. أؤكد لك..».

«لو حدث لها شيء لكسر أخي رأسينا معاً.. سنتمنى لو لم نولد.. أذكرك كذلك بالقرآن الكريم : (ولا تجسسوا)».

قلت لها مؤكدة:

«سوف أتجسس على غرفتي الخاصة.. صدقيني..».

أفهمتنني أن الكاميرا ستؤدي عملها طالما كانت في مجال الإرسال.. لحسن الحظ إن غرفتي متلاصقتان عبر الجدار. سوف تستقبل الصور على جهازها وتسجلها لي لأراها فيما بعد.

هكذا عدت لغرفتي التي توحى بشدة بوجود رجل.. تسلقت على الفراش لأبلغ قمة خزانة الثياب ثم دسست تلك الكاميرا هناك بحيث تطل عينها على الغرفة من مسقط علوي كاشف. وضعت حولها بعض الصحف والمجلات بحيث تخفيها عن الأعين ولا تحجب الرؤية، ثم نظرت لأعلى للعدسة وطلبت (منى) على جهاز الهاتف المحمول:

«هل ترينني؟».

«أراك بوضوح تام.. وأرى الفراش وباب الغرفة في ركن الصورة».

«جميل.. سوف أخرج الآن.. أرجو أن تداومي على التسجيل لمدة ساعتين».

وهكذا غادرت البيت.. رحت أمشي في الطرقات أشاهد واجهات المحلات، وابتعت الكثير من الشيكولاته وكل ما يلزم للتسلية.. دخلت كل محل قابله.. توقفت أمام كل واجهة.. أضعت ساعتين بصعوبة بالغة لأنك إذا أردت تبديد الوقت ثقلي كالسلحفاة..

أخيراً مرت ساعتان فعدت لداري....

كنت ملهوفة على معرفة ما تم.. لكن يجب أن أرى الفيلم بنفسني ولا تصفه هي لي.. ثم إنني أعرف أنها لن تظل تراقب الشاشة كل هذا الوقت.. لابد أنها نهضت لتشرب في اللحظة الحاسمة..

كانت حجرتي توحى بشدة بأن ذلك الرجل الغامض دخلها.. لمساته في كل شيء..

بعد ربع ساعة قرعت باب (منى) وأنا مهمومة قلقة، فحيتني ثم قالت في مرح:

«انقطع الإرسال بعد ساعة.. لا أعرف السبب لكن هذه الأشياء تحدث.. تعالي لتري الفيلم».

وفي غرفتها قامت بتشغيل الكمبيوتر.. لا شيء سوى الغرفة الخالية في إضاءة خافتة تعمدت تركها هناك.. طلبت منها أن تسرع الصورة قليلاً ففعلت..

بعد نحو ساعة من الفيلم أو أقل انفتح باب الحجرة الظاهر في الركن.

يدخل الرجل الذي اثار رعبي كل هذا الوقت.. يتلفت حوله في قلق ثم يبدأ التفتيش.. يقلب المرتبة على الفراش ويعيدها.. يفتح درجا ويغلقه.. يبحث تحت الوسادة..

إنه (رامي).. أخي الصغير!.

تساءلت (منى) وهي تراقب الشاشة:

«رأيتَه ولم أفهم ما يريد..».

كنت أنا أعرف.. منذ ثلاثة أيام عاقبته على أنه ضرب رأسي بالكرة، فأخذت حصالته.. العلبة الصغيرة التي يدخر المال فيها، وأخفيتُها عنه.. واضح أنه يتحين أية فرصة لا أكون فيها في حجرتي كي يفتش بعناية بحثاً عن تلك العلبة.. إنه لا يقنط ويعيد البحث في ذات الموضع مراراً.. الآن أتذكر أنه غادر المائدة للحظات عندما كنت مع خالي.. لا يعرف أنني أخفيت العلبة في غرفته بالذات تحت الفراش..

رجل!... نعم.. لم أفطن من قبل لهذا، لكن علامات المراهقة ظهرت عليه.. صوته خشن وله شارب زغبي صغير.. لقد أخبرني حدسي بأن هناك رجلاً في غرفتي لكنه لم يخبرني من هو، وأنا لم أفكر في رامي قط ولم أحاول أن ألمس يده وأنا أركز ذهني لأعرف..

حاستي تقدم لي معلومات دقيقة لكنها غير كاملة.. تقدم لي الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة لكنها ليست كل الحقيقة..

أما لماذا لم أشعر بهذه الهالة الذكورية إلا في غرفتي، فلأنها غرفتي التي أعرف كل ركن فيها والتي تضوع بالأنوثة ولم يدخلها رجل قط باستثناء أبي.. عالمي الخاص جداً.. لهذا بدا وجوده واضحاً فيها كفيل يمشي في القطب الشمالي..

الآن أرى على الشاشة رامي يجذب مقعداً ليتسلق عليه.. يريد أن يفتش فوق خزانة الثياب.. يقرب وجهه من العدسة جداً ويمد يده.. يتشوه وجهه كعادة العدسات.. ثم..

ثم أظلمت الصورة فلم تعد هناك إلا خطوط عرضية..

قالت (منى):

«هل عرفت الإجابة عن سؤالك؟».

«نعم...».

«إذن أرجو أن تعيدي لي الكاميرا قبل أن يكتشف أخي اختفاءها...».

لكنني بالطبع كنت أعرف بقية القصة.. رامي يمد يده فوق خزانة الثياب.. جسم كالكرة يتدحرج على الأرض ويتهشم.. رامي يصاب بالذعر ويفر..

وجدت الكاميرا المهشمة في غرفة النوم على الأرض قبل أن آتي لمنى.. الآن أعرف أنه رامي وأعرف أنني كنت قلقة بلا داع..

فقط علي أن أخبر (منى) بما حدث لكاميرا أخيها.. علي أن أعتذر لها وأمنعها من الصراخ الهستيري.. ربما أتعلم الشراء من الإنترنت لأبتاع لها واحدة أخرى من موقع (أمازون).. يعلم الله كم يبلغ سعرها ومتى تصل..

أمامي مشاكل كثيرة.. فليساعدني الله على اجتيازها في سلام!!

جلسة مخيفة

هذه إجازة منتصف العام.. سوف يأتي أبي بعد يومين، لهذا يسود البيت جو من الترقب المرح.. أجمل شيء في الآباء الذين يمضون أكثر الوقت في عمل بعيد عن أبنائهم أنهم يتصرفون كالضيوف بالضبط... يدللون أولادهم ويلبون رغباتهم، بينما يفضلون عدم تضييع الوقت في التوبيخ والعقاب... لهذا تكون زيارة أبي حلمًا...

هذه إجازة منتصف العام لهذا تضايقت جدًّا عندما أيقظتني أمي في التاسعة صباحًا كي أرد على مكالمة من د. (محمود الألفي).. إنه صديق عزيز وله الحق في أن يزعجني ويقلق راحتي، لكن من حقي أن أشعر بالغيظ..

حافية القدمين أثناء ب رفعت السماعة فجاءني صوته المذعور.. هذه المرة الأولى التي أسمع فيها صوته مذعورًا.. كان يقول:

«هند.. أنا بحاجة لك..».

أخيرًا اعترف بحبه لي على ما يبدو.. ثم أفقت مدركة أن النعاس يجعلني أهذي..

«خيرًا؟».

«إن خالتي في مأزق حقيقي..».

خالته في مأزق.. هذا مبرر كاف لإيقاظي في ساعة كهذه إذن... ما هي التفاصيل؟.

قال بنفس الذعر:

«زوج خالتي قد توفي منذ عام.. ترك لها بيتًا في المعادي تقيم فيه.. خالتي تصر على أن تبيع هذا البيت بثمن بخس وتقيم في أي مكان آخر..».

«هذا من حقها..».

«لا.. كبار السن يتصرفون بسذاجة أحيانًا.. هناك ما يعرف بالحجر قانونًا بالنسبة للمسنين الذين يرفضون معرفة مصالحتهم، ولكن ابنها الوحيد لن يرفع على أمه قضية حجر.. معنى هذا أن خالتي ستبيع فيلا رائعة الجمال بحديقة غناء، مقابل ملاليم.. وسوف تقيم بقية حياتها في شقة بغرفة وصالة في حي قدر.. هل فهمت المشكلة؟».

تساءلت من جديد وعدت أسأل:

«لا بد أن البيت يذكرها بفقد زوجها أو له ذكريات أليمة..».

«الامر كذلك نوعًا.. المشكلة أن زوجها أمرها بذلك..».

فركت عيني من جديد.. لقد تجاوز التخريف مداه بالنسبة لي..
زوجها أمرها؟.. قلت إنه مات..
قال في ملل:

«إنها تؤمن باستحضار الأرواح.. قابلتُ من يدعى د. (مهران) وهو نصاب يزعم أنه يستحضر الأرواح.. وقد قام بعدة جلسات في بيتها.. زوجها يتكلم في هذه الجلسات ويأمرها بأن تبيع الفيلا لمن يدعى (شوقي حمدان).. خالتي مقتنعة جدًا بأن هذه رغبة زوجها وسوف تفعل ذلك.. لقد اتصلت خالتي بالمحامي وطلبت منه ترتيب كل شيء.. المحامي أصابه الذعر واتصل بي طالبًا رأيي فهو كان يرعى مصالح زوجها لفترة طويلة ومصالحها المالية تهمه.. قلت له إنني سأحاول التصرف..».

«أنت طبيب نفسي.. يمكنك بالفعل أن تقنعها..».

«مستحيل.. إنها متصلة الرأي بشكل لا يصدق ولا تقبل أي منطق..».

«والمطلوب مني؟».

شهق وقال:

«هناك جلسة تحضير أرواح في التاسعة مساء اليوم.. أريد أن تحضري الجلسة وتحاولي أن تلتقطي شيئًا.. هناك خدعة ما لكني لا أعرف كنهها..».

«ولكن....».

عاد يقول متوسلاً:

«سوف أوصلك إلى هناك وأعود بك للدار.. دعيني أكلم والدتك لتوافق.. على الأقل يمكن للطب النفسي أن ينجح معها..».

الآن أنت تعرف كيف بدأ كل شيء..

أنا في سيارة د. (محمود) وهو يتجه إلى حي المعادي الراقي الجميل. وعندما رأيت الفيلا شهقت غير مصدقة.. هذا أجمل بيت رأيته في حياتي.. يذكرك بالبيوت التي كنت تراها في أفلام الستينات.. ربما ترى (شادية) أو (فاتن حمامة) في أية لحظة.. سوف ترى صبيًا على دراجة تتبعه الخادمة التي هي (وداد حمدي) طبعًا..

يمكن إذن فهم القصة.. النصاب الذي يستحضر الأرواح على علاقة بـ (شوقي حمدان).. هكذا يقوم بإقناع السيدة المسنة.. وفي النهاية تباع الفيلا بثمن ربع كيلوجرام من الفول السوداني..

شعرت بالدم يتصاعد لرأسي غيظًا.. خداع الضعفاء والجهلة وحسني النية أمر يحطم أعصابي.. تذكرت قصة (حذار من الشفقة)

لـ (ستيفن زفايج) عندما نجح النصاب اليهودي في خداع فتاة بريئة ساذجة باعته كل ما تملك وصارت معدمة تمامًا، وبرغم هذا شكرته على عنايته بها.. عندئذ فقد التحكم في أعصابه وأدرك كم هو وعد شيطاني.. لكنه لم يجسر على الاعتراف بذنبه.. هكذا تزوج هذه الفتاة البريئة ليرعاها بمالها!!

موقف إنساني غريب وطريف، لكن لا أتوقع أن يملك شوقي حمدان ربع هذا الضمير..

ندخل الفيلا.. هناك في قاعة فسيحة خافتة الإضاءة مائدة مستديرة واضح طبعًا أنها معدة لهذه الأغراض.. هناك سيدة عجوز ورجل وقور ونصاب.. أنت تعرف كيف يبدو النصابون.. وهناك شاب مذعور واضح أنه ابن السيدة العجوز.. طبعًا السيدة العجوز نبيلة الملامح هي حالة د. محمود..

كاذبًا قدمني د. محمود الألفي لهم:

«هند.. صحيفة مهتمة باستحضار الأرواح».

نظروا لي في شك وحيرة ونظر لي النصاب بعدائية واضحة..

قال د. محمود وهو يقدمهم لي:

«خالتي مدام (عصمت).. ابنها (شريف).. د. (مرزوق) ابن خالتي الثانية وهو أستاذ فلسفة بالجامعة.. د. (مهران) خبير استحضار الأرواح..».

عرفت أن د. مهران على شيء من الخيال.. هذا مفهوم.. لا بد للنصاب المقنع أن يكون مقتنعًا بما يفعله نوعًا وإلا لما أحدث تأثيرًا نفسيًا.. لكنني عرفت بحاستي كذلك ما كنت أعرف أنني سأعرفه: هذا نصاب وهناك خدعة كبرى هنا.. لكن ما هي؟

نظر لي بعينين ناريتين وقال:

«ليكن.. اجلسا ولا تحدثا صخبًا.. هذه الأمور حساسة جدًا».

قلت له في ثبات:

«د. مهران.. أنت رجل ذكي كما هو واضح ومن المؤكد أنك تدرك أنني أشك في الأمر كله».

«عرفت هذا من عينيك.. سوف ترين حالاً».

ثم أمرنا بالصمت..

ساد هدوء جذر وهو يستدعي روح الفقيد.. ثم تناول منشفة زرقاء وضعها على رأسه وراح يدمدم بكلمات معينة من خلفها.. الحق أن منظره كان مرعبًا وشعرت بقشعريرة..

فجأة تغير صوته...

سمعت صوتًا أخف عميقًا من أصوات هؤلاء الذين يقلبون حرف
(الراء) إلى (ياء).. الصوت يأتي من كل مكان ولا مكان.... واضح أن هذا
صوت الزوج المتوفى...

الغريب أنه لم يكن يحرك شفثيه.. لم أر اختلاجًا على المنشفة...
«عصمت.. أنت لم تطيعي أوامري.. لم تبيعي الفيلا..».

هتفت العجوز في رعب:

«لم يأت الوقت بعد يا شوكت.. إن المحامي...».

دوى صوت الزوج غاضبًا:

«ما شأنني بالمحامين؟... إن البيع هو الشيء الوحيد الذي
سينقذك مما هو قادم.. أنت لا تفهمين عالم الأرواح... نحن نعرف كل
شيء.. صدقيني.. الخطر كل الخطر أن تركبي رأسك.. هناك مشتر لا
بأس به.. عليك بالبيع فورًا..».

«سأفعل.. سأفعل..».

كان الأمر مستفزًا.. هناك خدعة لكن لا أعرف ما هي...

هنا صحت في عصبية:

«أرجو منك يا أستاذ شوكت أن تخبرنا برقم بطاقة زوجتك وتاريخ
ميلادها ويوم زواجكما.. في أي يوم انجبتما ابنكما وفي أية
مستشفى..».

ساد الصمت ثم عاد الصوت يقول في عصبية:

«من هذه؟.. كيف تجرؤين؟».

«ما دامت الأرواح تعرف كل شيء فهذه الأمور تافهة بالنسبة لك».

عاد الصوت يقول:

«في عالم الأرواح لا نعبأ بتفاهات كهذه... ولا نقبل الامتحان..».

قالت السيدة العجوز لي في نوع من اللوم:

«أرجو أن تصمتي.. هل تعتقدين أن الأرواح تحفظ أرقام البطاقات
الشخصية وأعياد الميلاد؟.. هذه ليست جهة حكومية يا صغيرتي..».

تدخل د. مرزوق وهو الرجل الوقور الذي عرفت أنه ابن أختها وقال:

«من حقها بعض الشك يا خالتي..».

قلت في حماسة:

«كل هذه التجربة ملفقة.. هناك جهاز إرسال واستقبال في مكان

ما وهناك من يجيب عن الأسئلة..».

قال د. (محمود) في هدوء:

«هذا صوت زوج خالتي فعلاً.. لا يمكن أن نخطئ فيه».

«إن صوته وطريقة كلامه سهلا التقليد جداً.. أي شخص أخنف يخلط بين الراء والباء سوف يعطي ذات الانطباع.. بالإضافة إلى تشوش الصوت.. أعتقد أن هذا الأستاذ (مهران) يخفي جهاز استقبال ومكبر صوت في ثيابه».

قال د. محمود باسمًا:

«قمنا بتفتيشه.. وهو قد قبل ذلك.. لا يوجد شيء من هذا».

قلت في عناد:

«سوف نشغل جهاز الراديو ونفتح صنبور الماء... هذا يعطل أجهزة التنصت.. أراهنكم على أن الصوت سوف ينقطع!».

قال د. مرزوق باسمًا بطريقة من يخاطب طفلًا:

«بالفعل سوف ينقطع.. من قال غير هذا؟.. لكن لأسباب مختلفة.. إن تجارب الاستحضار حساسة جدًا لأية ضوضاء وسوف ترحل الروح».

هنا شعرت بشعور غريب.. هناك من يتكلم في رأسي.. هناك من يأخذ بيدي..

أنا أعرف أنك في صفى.. أعرف أنك صادقة.. أعرف أنك قادرة على التقاط ما يعجز البشر عن التقاطه.. لهذا أستطيع الاتصال بك... وهنا فهمت.. إن (شوكت) الزوج يكلمني!

شعرت بمن يجذب يدي.. كأني أطيّر.. أطيّر.. هناك غرفة ضيقة في مكان ما من الحي، يجلس فيها رجل أصلع أمامه شطيرة وكوب من الشاي.. هناك سماعتان على أذنيه.. يتكلم في مكبر صوت.. يغير صوته ليصير أخنف فيه عيب في النطق.. إنه مصدر الصوت الذي نسمعه.. لا شك في هذا..

أعود محلقة.. هناك قوى خفية تجذبني جذبًا.. أدور حول المنصدة برغم أنني ما زلت جالسة حيث أنا.. أخيرًا أقف خلف د. مرزوق!.. ابن أخت السيدة..

إنه هو!

أنت قد عرفت كل شيء.. ساعديني.. لا تتركي (عصمت) تقع في الشرك وتضيع كل شيء..

أعود لوعيي حيث ما زالت التجربة مستمرة...

أقف في حدة وأقول:

«د. محمود.. أرجو أن تأخذ د. (مرزوق) خارج البيت.. الآن!».

نظر لي الكل في دهشة.. وكاد مرزوق يحتد لكن د. محمود جذبته من يده مهدئاً.. هذه فتاة مجنونة فلنطعها.. هكذا خرج الرجل وهو ينظر إلى الخلف غير مصدق...

بعد دقيقة ساد الصمت..

قلت بلهجة منتصرة لد. مهران الذي أخفى وجهه خلف المنشفة:

«لقد توقف الاتصال!».

قال بصوت مكبوت:

«لقد أثرت غضب الأرواح!... لا يمكن إجراء تجارب حساسة كهذه مع كل الصخب الذي تحدثينه».

هنا دخل د. محمود الغرفة وهو يمسك بيد ابن خالته.. وصاح بطريقة مسرحية وهو يلوح بشيء في يده:

«انتهى الأمر يا خالتي.. مرزوق كان يحمل جهاز تنصت وسماعة صوت في جيبه.. لم نشك فيه لأنه فوق مستوى الشبهات، لكنه كان صاحب الفكرة منذ البداية وهو من أقنع شوقي حمدان بهذه اللعبة.. دعك من أنه يعرف كل شيء عن زوجك ويمكن أن يكون كلامه مقنعاً.. هكذا تم ترتيب كل شيء.. كل ما يدور هنا ينقل عبر الجهاز لغرفة يجلس فيها رجل يستطيع تقليد صوت الفقيد، وتأتي الردود فتخرج من سماعة مثبتة في ياقة قميصه من الداخل...».

نظرة واحدة على وجه الدكتور مرزوق قالت بوضوح إنه الفاعل وكل هذا صحيح..

وشهقت مدام (عصمت):

«هل كنت تخدع خالتك كل هذا الوقت؟».

قال د. محمود:

«إن ثمن هذه الفيلا بأسعار اليوم مفر جداً، حتى بعد خصم أتعاب الخبير الروحاني والسعر الذي كنت ستتقاضينه فعلاً وعمولة د. مرزوق عن هذه الخدعة».

ثم صاح بصوت آمر:

«لو سمحت لي يا خالتي.. سأطرد هذين النصابين...».

ثم نظر لي وقال:

«كنت أعرف أن حاستك ستتصرف...».

قلت في حياء:

«تلقيت مساعدة خارجية.. لكنك لن تصدقني على كل حال!«.

هل قتلها؟

أمسية هادئة هي أمام جهاز التلفزيون.. أقبع كقطة هائلة جوار أبي الذي يقضي معنا إجازته القصيرة، بينما أحتي تقبع في الجهة الأخرى.. في هذه الفترات لا يصير أبي من حق أمنا على الإطلاق.. لا تستطيع الاقتراب منه إلا لو دفعتُ ثمن التذكرة.. لا تطفر به إلا عندما نخرج للكليات أو العمل أو ننام.. فيما عدا هذا هو ملكنا..

أبي رقيق حنون ومهذب.. أبي أجمل رجل في العالم، وإنني أتساءل لماذا لا أقابل أبدًا رجلًا مثله.. لماذا لا يحمل باقي الرجال طباعه وملامحه؟.

صديقتي (صفاء) تقول إن السبب هو أنه بعيد وبالتالي عزيز جدًا.. يشبه الضيف الذي يزور غبًا فنفتقده طيلة الوقت..

تذكرت (صفاء) ويبدو أن السبب يعود لحاستي العبقريّة إياها.. لقد دق جرس الهاتف طويلًا، فرفعت أُمي السماعَة وسمعتها تقول في قلق:

«ماذا؟... تماسكي يا ملاكي قليلًا... أرجو أن تهدئي!».

نظرنا بفضول لنعرف ما المشكلة، لكنها لم تقل شيئًا.. فقط قالت:

«هند.. هذه صفاء..».

ونظرت في عيني وناولتني السماعَة دون كلمة أخرى كأنها تفضل أن أسمع بنفسي...

تناولت السماعَة بقلب واجف، فجاء صوت صفاء الباكِية:

«هند.. أُمي ماتت في حادث!».

ثم انفجرت في البكاء.. حتى إنني انفجرت بدوري..

هرعت لغرفتي ألبس ثيابي.. وأصر أبي على أن يرافقني لأن الليل قد جاء.. ارتدى ثيابه بسرعة البرق، وسرعان ما كنا ننطلق في سيارة أجرة إلى بيت صفاء صديقتي..

كان الوضع هناك في غاية السوء كما لك أن تتخيل..

أم صفاء مطلقة.. انفصلت عن أبي صفاء منذ أعوام، وتقيم صفاء عند أبيها الذي لم يتزوج ثانية.. لا أعتقد أن أحد الطرفين مخطئ أو آثم.. إنه سوء تفاهم معتاد بين الناس الطيبين لأسباب مجهولة.. أمها من الطراز شديد الحساسية والتوتر.. كتلة أعصاب تمشي على قدمين..

لقد تزوجت بعد الطلاق من ذلك الوغد المغرور (هشام).. يزعم أنه محاسب ويزعم أنه مدير دعاية ويزعم أنه رجل أعمال.. الخلاصة أنك

لا تعرف عمله بالضبط.. على الأرجح هو أفاق..

إنه مطلق بدوره، لكن بوسعك أن تدرك بسهولة أنه لا يناسبها على الإطلاق.. أنا لا أعرفه جيدًا لكن (صفاء) تقول إنه مبذر وكسول يهوى إنفاق ثروة أمها.. أمها ثرية جدًا ومن أسرة ذات أملاك واسعة. إذن الأمر لا يتعلق بحب مرهف يحمله الرجل لها، لكنه ببساطة قرر أن ينسج شباكه حول المطلقة الثرية ليأخذ كل مليم معها.. وهو ما لم يحدث لأنها كانت ذكية وعرفت كيف تعطيه المال بالقطارة.. برغم هذا كانت تحبه فعلاً...

أقلت صفاء برأسها على صدري وراحت تبكي، بينما جلس أبي في حرج بعض الوقت مع الرجال ثم قال لي همسًا:

«لا يبدو الوقت مناسبًا لرحيلك.. هل تحبين قضاء الليل معها؟».

«بالتأكيد...».

«حسن.. سأنصرف ولنكن على اتصال..».

وهكذا ضمنت صفاء ومشينا وسط غابة اللون الأسود إلى غرفتها..

جلست على الفراش، وقالت لي في حرارة:

«كنت تقود السيارة على طريق المحور بسرعة جنونية ثم انقلبت.. هذا شيء غير متوقع من أمي.. إنها سائقة بارعة.. يقولون إنها تصير رجلًا عندما تقود...».

«وماذا تريدین قوله؟».

«هذا الوغد.. زوجها.. هناك لعبة ما.. أنا أعرف أنه قرر التخلص منها.. لم يكن لديه حل أكثر رقة.. لا شك أنه اتلف الغرامل أو وضع لها مخدرًا ما...».

قلت في أسي:

«يا عزيزتي لسنا في فيلم بوليسي هنا...».

«كل شيء يشير لذلك.. لقد أراد قتلها والظفر بالميراث وقد فعل...».

رحت أفكر قليلًا ثم سألتها :

«متى وقع الحادث؟».

«في الثامنة مساء.. كانت متجهة للمعادي».

هكذا مرت الليلة لكنني قررت أن أقابل (هشام) هذا في الصباح.. يجب أن أراه ولسوف أعرف..

كان النهار قاسيًا على الجميع، وعند الظهيرة تحرك رتل من

السيارات إلى المستشفى لتسلم الجثة.. ما تبقى منها..
وكانت صفاء تبكي بلا انقطاع، عندما ظهر رجل من مكان ما وناولها
جهاز محمول صغيراً أنيقاً وقال:

«هذا هو المحمول الخاص بها.. لقد نجا من الحادث ووجده رجال
الإسعاف..».

ناولته لي صفاء قائلة:

«أرجو أن تبقى معك.. ليست لدي أعصاب تسمح بأن...».

ومن مكان ما ظهر رجل وقور وسيم لكن عينيه مخادعتان.. هذا
واضح تماماً.. إنه (هشام) لا شك في هذا.. تقدم نحو (صفاء)
وصافحها:

«صفاء.. تماسكي يا عزيزتي.. كلنا سوف نلقى المصير ذاته..».

أنصت له وهي لا تصدق حرفاً مما يقول.. ثم استدار نحوي
ليصافحني وهو ينظر في عيني..

هذا الرجل غير صادق.. أعرف هذا جيداً الآن.. أعرف كذلك أنه
يكذب.. ولكن كيف؟.

رحت أرقب المشاهد القاسية مفكرة.. يجب ان أعرف الحقيقة..
هل لو طلبت من الشرطة فحص السيارة بعناية للتأكد من حدوث
تلف متعمد؟.. ربما تحليل دم الفقيدة قد يظهر وجود مخدر ما؟.. كانت
تقود السيارة بينما وعيها يتسرب وتركيزها يقل.. بعض الأدوية ذات
الآثار الجانبية المخدرة تزيد من خطر الحوادث بشكل غير مسبوق..
ربما..

لكن وقت الحصول على عينة من دمها قد فات.. إن الموكب يتجه
إلى المقابر..

كنت أدس يدي في حقيبتني عندما وجدت جهاز المحمول.. هناك
شيء ما يتعلق بهذا الجهاز.. طاقة نفسية غريبة تحيط به.. أشعر
بها.. أرى الطريق الدائري.. أرى وإبلاً من السيارات.. أرى.. الطريق
ينحرف وأنا احلق في الهواء.. لقد فقدت التحكم في نفسي..

هذه هي المشاهد التي عاشها المحمول المسكين لحظة
النهاية..

تفحصت أرقام الهاتف.. لقد كان آخر رقم طلبها هو (هشام)...
(هشام).. الاسم يتكرر ست مرات.. لقد طلبها كثيراً جداً حتى أجابت..
من طلبته هي؟.. (هشام) أيضاً.. متى؟.. الثامنة إلا دقيقتين.. قبل
الحادث مباشرة..

لقد كان الاتصال به آخر شيء فعلته في حياتها.. لكن لماذا؟..

استعمال المحمول أثناء القيادة خطر فعلاً.. هي كانت تعرف هذا..
لهذا تجاهلت خمس مكالمات منه ثم اضطرت للرد على السادسة..
ولكن.. يا إلهي.. بدأت أفهم..

أضع سماعة المحمول على أذني.. أوشك على سماع ما قيل..
إنه يعرف أنها على الطريق تقود سيارتها بسرعة 120 كيلومتراً في
الساعة وسط زحام السيارات وفي طريق خطر فعلاً.. يطلبها مراراً
بالحاج غريب.. في المرة السادسة ترفع السماعة في حذر وعيناها
على الطريق الخطرة. تسمع الصوت المتألم المبحوح:

-«هالة.. أنا.. أنا.. جريح».

تسأله في دعر:

-«هشام.. ماذا حدث؟».

-«حادث.. أنا موشك على الموت وأنزف من كل...».

ثم ينغلق الخط.. ترتجف وقلبها يتواثب.. تضغط لا شعورياً على
دواسة البنزين أكثر.. تطلب رقمه فيرد:

-«أنا أموت.. وداعاً.. سامحيني...».

تصيح في جنون والدموع تغرق وجهها:

-«هشام... أين أنت؟».

-«أنا في.. أنا في...».

في هذه اللحظة كانت قد فقدت التحكم في عجلة القيادة.. سيارة
تمر بجوارها بسرعة البرق فتميل لتضربها ثم تميل للجهة الأخرى
لتصدم سيارة نقل وتطير العجلات فوق الأرض....

دورة.. ودورة... ثم الظلام النهائي..

أعرف هذا كله وأراه..

يتصاعد الدم لرأسي وأتجه لهشام الذي يقف بالنظارة السوداء
راسماً الحزن على وجهه فأقول:

-«أنت نذل».

-«هل جنت؟.. من أنت لتكلميني بهذه الطريقة؟».

-«نذل وقاتل.. لقد تلاعبت بأعصاب هذه البائسة في وقت حرج..
جعلتها تجن وهي مندفعة بسرعة 140 كيلومتراً على طريق خطيرة...
الدموع جعلتها لا ترى وكادت تفقد الوعي بينما انت تمثل تمثيليتك
القدرة وتتظاهر بأنك جرحت في حادث!».

نظر لي في ذهول ثم فضل أن يسمعني حتى النهاية فقلت:

-«لو لم يحدث لها شيء، كنت سترغم إنك كنت تمزح مزحة سخيفة.. لو حدث لها شيء فأنت قد ربحت.. إنها الجريمة الكاملة فعلاً ولا أحد يستطيع اتهامك بشيء..».

قال لي ببرود:

-«حسن.. لتكن جريمة كاملة.. ما المطلوب مني؟؟... أنت قلت إنه ما من أحد يستطيع اتهامي بشيء».

لقد وجد أن الإنكار متعب.. من الواضح تمامًا أنني أعرف ويعلم الله وحده كيف حدث ذلك، لكنه على الأقل مطمئن أنه لا جدوى من معلوماتي..

قلت له ضاغطة على كلماتي:

-«لقد كنت بارعًا.. لكن دعنيؤكد لك إن الجريمة الكاملة لا وجود لها.. سوف تلقى عقابك.. لا أعرف كيف ولا متى.. لكنني أعرف أنك ستلقى عقابك».

وفضلت أن أترك الجميع فلا أحضر الجنازة..

سوف أعود لداري وأبكي طويلاً على شر البشر ونذالتهم...

علي أن صفاء اتصلت بي بعد ثلاثة أيام.. كان صوتها مبحوحاً منفعلًا..

قالت لي وهي تشهق:

-«هل تصدقين أن (هشام) لاقى المصير ذاته؟».

-«أي مصير؟».

-«لقد كان يقود سيارته بسرعة جنونية ليلاً فانقلبت.. تخيلي هذا؟.. ثلاثة أيام بعد مصرع أمي؟؟.. ما رأيك؟.. هل أحبها لدرجة أنه لحق بها بسرعة؟.. أم أن القدر أراد أن ينتقم لي لأنه قتلها فعلاً؟».

تنهدت طويلاً ثم قلت:

-«لا أعرف.. فقط أعرف أن الله تعالى عادل.. لا أعتقد أنك مسرورة برغم هذا».

-«موته لن يعيد لي أمي.. لكنه يريحني نوعاً لا أنكر هذا..».

ووضعت السماعة مفكرة..

لو كنت خبيرة نفسية لقلت إن الرجل أراد أن يُعاقب.. ضميره عاقبه ففقد سيارته شارد الذهن.. ولقى نفس نهاية زوجته.

لكن هناك احتمالاً آخر لا أعرف مدى صدقه.. قوتي النفسية تدخلت وجعلت عجلة القيادة تختل في يده، أو تدخلت وملأت ذهنه بالاضطراب في لحظة خطيرة كهذه..

لا أعرف حقًا..

لقد تلقى عقابه.. قليل من الناس يعرفون أنه تلقى عقابه، وأن وفاته ليست مصادفة مأساوية بل هي حكم بالإعدام استحقه عن جدارة..

فليرحم الله أم صفاء... لقد نالت انتقامها.. وعرف (هشام) أن الجريمة الكاملة لا وجود لها.

النذير

قال لي الدكتور (محمود الألفي) الطبيب النفسي الكبير:
« بالطبع موضوع الأريكة وجهاز التسجيل هذا يبدو جميلاً في
السينما، لكننا لا نعمل به.. طريقة التحليل النفسي نفسها قد
تطورت جداً..».

تنهدت ونظرت للسقف في عيادته وقلت:
«خسارة.. كنت أحب هذا المشهد جداً في أفلام (فاتن حمامة)
(عماد حمدي) القديمة.. الظلال والجو الغامض والشعور بأنك ترتاد
أدغال النفس المظلمة».

ابتسم في شيء من السخرية، وعاد يقول:

«لنكمل كلامنا.. قلت إنك جئت لي لأنك...؟».

«لأنني خائفة لدرجة الموت...».

عبث بالقلم الذي في يده في قاعدة المصباح البرونزي الموضوع
على المكتب، وقال في شرود:

«كل هذا من رؤيا طائفة...».

«طائفة تسقط... تخترق السحب وتسقط بسرعة هائلة ولا أحد
يقدر على أن ينقذها...».

«أنا شخصياً حلمت أمس بمنطاد محترق يهوي...».

قلت في غيظ:

«د. (محمود).. أنت تعرفني الآن بما يكفي، وتعرف أن تلك الرؤى
الغامضة التي تطاردني لها أساس من الصحة.. لست مجرد فتاة
هستيرية تهذي.. أنت تعرف موهبتي الغضة تلك.. هناك بالفعل
طائفة سوف تهوي...».

ابتسم ثم أشعل لفافة تبغ، برغم أن المكان ضيق وخنق، وبرغم
أن على الطبيب النفسي ألا يضايق مرضاه بالتدخين.. آخر من فعل
هذا كان (فرويد) نفسه على ما أظن...

قال لي وهو ينفث سحابة كثيفة:

«أرى أنك تتجاوزين الحدود التي نعرفها.. لا أحد يملك القدرة على
التنبؤ.. لا أحد يمكنه أن يرى الغد.. إن موهبة الاستبصار لا وجود لها..
المنطق البسيط يقول هذا وإلا لكان صاحب موهبة الاستبصار أغنى
وأقوى رجل في العالم. هناك قصة قديمة لمارك توين عن فتى
أمريكي استطاع أن يعرف أن الحرب نشبت في أوروبا، وكان هذا
قبل عصر اللاسلكي والمذيع الفضائيات والإنترنت.. ذهب لتاجر

أصواف وأخبره بالخبر، فاشتري التاجر كل الصوف في السوق عالمًا أن سعره سيرتفع جدًا عندما يعرف الجميع بقصة الحرب.. هكذا صار الفتى والتاجر مليونيرين. لم يملك الفتى قدرات خارقة.. فقط شق بطن سمكة قرش وجدها على الساحل فوجد داخلها جريدة بريطانية تعلن نبأ الحرب.. هكذا عرف الخبر قبل أن تعرفه أمريكا بشهر كامل.. هل تفهمين ما أريد قوله؟.. من ير الغد يمكنه بسهولة أن يكون الأغنى والأقوى.. لاستكثر من الخير ولما مسه الضرر أبدًا..

قلت مقتنعة بكلماته:

«نعم.. موافقة تمامًا.. لكن ماذا عن رؤيا الطائرة التي لا تصغي لما تقوله ولا تقتنع بمنطقك؟.. المشهد يطاردني في كل ركن.. عندما أصحو من النوم وعندما أدخل الفراش.. وأنا أكل وأنا أدرس..».

سألني وهو يدون ما قلت في كراس:

«لماذا لا تتجاهلين الأمر؟».

تنهدت وقلت:

«ليس عندما يتعلق الأمر بأسرتي.. أختي مع صديقاتها في شرم الشيخ.. الخطر الحقيقي يتمثل في أبي وأمي.. إنهما ذاهبان للعمرة غدًا، ولهذا أرسلاني وأخي عند خالي.. إنهما سيركبان الطائرة غدًا.. هل تفهم؟».

قال من دون أن ينظر لي:

«لو كنت مكانك لقلت لنفسي إنني لا أفقه شيئًا.. لا أحد يستطيع التنبؤ.. لا يمكنك أن تفسدي على أبويك هذه الرحلة الروحية الممتعة بسبب هواجس.. أرى أن تنسي الأمر.. وخلال عشرة أيام سيكونان هنا معك ويمكنك أن تقصّي عليهما هذه القصة..».

نهضت شاكرة له.. لم يقل سوى ما انتويت أن أفعله، لكنني كنت أريد تأكيدًا آخر..

لا أستطيع أن أبدأ في الصراخ والهستيريا وأتوسل لأبوي أن يلغيا الرحلة. لن يفهما سبب جنوني.. أمي تنتظر هذه الرحلة منذ ثلاثة أعوام.. لنقل إنني حمقاء.. هذا هو التفسير الوحيد..

على إنني ظلمت أدعو الله أن يحدث ما يعطل الرحلة... دعوت الله وأنا أحزم حقائبهما.. دعوت الله وأنا أركب معهما السيارة.. دعوت الله وأنا في المطار.. انتظرت أن يعلن مكبر الصوت إلغاء الرحلة بسبب سوء الأحوال الجوية، لكن الطقس كان في أروع حالاته..

قبلتهما دامعة.. لو كانت هذه آخر مرة فلسوف أموت.. نعم.. لا شك في هذا..

كان الوقت عصرًا وأنا عائدة من المطار في سيارة خالي.. ظلمت

ساهمة شاردة.. لو اتضح أنني عبقرية وجاءتني المكالمة التي أحشاها فلسوف.....

خالي لم يفهم طبعًا.. حسب أنني حزينة بسبب الفراق الذي لن بطول. طبعًا لا أحد يخبر الآخر بهواجس كهذه، ومزية د. (محمود) هي أنه ليس من الأسرّة. لهذا يحكي السكاري في الغرب قصة حياتهم كاملة لأي غريب يجلس جوارهم في البار، بينما زوجاتهم لا يعرفن عنهم أي شيء.

في بيت خالي بدأت أخرج حاجياتي وحاجيات أخي من الحقيبة، فلسوف أقيم وأخي في ذات الغرفة.. سوف يتصل بي أبي لدى الوصول وحتى ذلك الحين سأجن قلقًا.. وسيكون علي أن أجن مرة أخرى لدى قرب عودتهما..

هنا دق جرس الهاتف الجوال.. دقة طويلة منذرة..

وضعت الهاتف على أذني، فسمعت (غيداء) صديقة أختي.. صوتها متقطع من الرعب..

«إنها.. في المستشفى.. اشتباه التهاب بالزائدة الدودية.. لا أعرف ما.....».

هنا بدأت أفهم. أختي في رحلة مع الكلية في شرم الشيخ كما قلت.. وهناك أصيبت بوعكة صحية. سوف يدخلونها غرفة الجراحة بعد ساعة لاستئصال الزائدة الدودية.. يا للهول!! المصائب لا تأتي فرادى!!

ولكن.. شرم الشيخ تعني عشر ساعات تقريبًا بالحافلة. هذا وقت أطول من اللازم. خالي سمع صياحي في الهاتف فركض ليفهم.. لم يحتج إلى شرح كثير لأن كلماتي كانت تنطلق مفسرة كل شيء..

انتهت المكالمة فأغلقت الهاتف.. لا بد أن لوني كان بلون الورق.. لا بد أن دموعي كانت تبلل كل شيء.. لا يمكن أن تظل أختي وحدها..

كان خالي مرتب التفكير.. رفع السماعة واتصل بشركة طيران..

ثم راح يشرح لي باسمًا بينما هو ينتظر رد موظفة الشركة:

«طائرة.. سوف نكون في شرم الشيخ خلال نصف ساعة.. سوف نلحق بها قبل أن يدخلوها غرفة الجراحة.. لا تقلقي..».

وسرعان ما كنت أهرع بشيبي التي لم أستبدلها إلى المطار.. ولا أعرف متى ولا كيف وجدت نفسي في الطائرة التي راحت تنهب أرض المطار محاولة أن تختلس لحظة ترتفع فيها..

لم ألحظ حتى هذه اللحظة أنني لم أركب طائرة قبل اليوم.. كنت أفكر في أن هذا كله كثير.. كثير جدًّا.. لا يوجد جهاز عصبي يتحمل

كل هذا القلق..

نصف ساعة أعرف بعدها مصير أختي، ثم أطمئن على أبي وأمي.. فجأة أشعر بأنني وحيدة جداً.. حفظك الله لي يا خالي.. فلولاك لجنت..

مرت عشر دقائق..

فجأة شعرت بالطائرة تهتز بقوة غير عادية.. صوت الطيار يقول في مكبر الصوت:

-«نرجو ربط الأحزمة وعدم مغادرة المقعد».

وأغلقت أنوار الطائرة ما عدا صوت الرنين المتقطع (بيب بيب) الذي يوحى بكارثة. المضيئة تمشي بين المقاعد مكررة:

-«كل شيء على ما يرام.. لا تقلقوا»..

لكن صوتها مرتجف قليلاً والخوف في عينيها.. لا تنظر لنا مباشرة.. لاحظت كذلك أن خطوتها غير ثابتة.. الاهتزازات أقوى منها برغم أنها معتادة هذه الأمور. إذن الوضع فريد من نوعه..

نظر لي خالي وتنهد وغمغم:

-«ربنا يستر»..

ثم أحد الجالسين خلفي يقول:

-«محرك معطل.. صدقيني.. أنا طيار سابق... أنا متأكد»..

-«ش ش ش!»..

هنا بدأت أرتجف.. إذن الرؤيا لم تكن تخص أبي وأمي بل كانت تخصني أنا!.. أنا من يستهوي الطائرة بها إذن!... برغم كل شيء أشعر براحة.. فلأذهب أنا حيث ألتق ما دام أبواي بخير.. فقط أريد أن أطمئن على أختي... ولكن.. ما ذنب خالي المسكين؟.. هل سيدفع ثمن شهامته؟.. وهل كنت أفضل أن تكون الطائرة التي تسقط طائرة أبي وأمي؟.

لحظات عسيرة مرت علينا في ظلام دامس وتوتر وصمت لا يقطعه سوى صوت بكاء ومن يتلو الشهادتين...

وفجأة عادت الإضاءة، وعاد صوت الطيار يقول في مرج:

-«كان هناك خلل بسيط وقد تم إصلاحه.. لكن نرجو الاستمرار في ربط الأحزمة.. نحن على وشك الهبوط في مطار شرم الشيخ».

تنهد الجميع في راحة.. وتعالى الضحكات.. وسرعان ما كانوا يغادرون الطائرة في لهفة كأنهم يخشون أن تغير رأيها وتقلع ثانية..

استوقف خالي سيارة تاكسي وسرعان ما كنا ننطلق

للمستشفى حيث كانت صديقات أختي ينتظرننا.. ذهبن لأننا وصلنا بهذه السرعة، ثم التفغنا حول البائسة المتألّمة نطمئنّها..

هنا دخل أحد الأطباء الغرفة وأعلن في حماسة:

«لا توجد زيادة في كرات الدم البيضاء...».

«وهذا يعني؟».

«يعني أن الزائدة غير ملتهبة.. هذا التهاب في المبيض سوف يزول ببعض الحقن المضادة للالتهاب مع المضادات الحيوية.. لا داعي للجراحة إذن».

هكذا انزاح عن كاهلي ثقل رهيب...

وقفت ألّهت.. هناك تفاصيل كثيرة في ذهني لكنني نسيتها.. نسيت علام أقلق بالضبط.. لهذا جلست على أقرب مقعد ورحت أبكي.. أبكي بكاء من تمزقت حبال أعصابه.. دمىة الماريونيت التي قطعت خيوطها..

الهاتف يرن من جديد.. أستر يا رب.. هذا أبي يقول لي بصوته البعيد:

«نحن قد وصلنا والحمد لله.. لا أحد يرد في بيت خالك.. لقد قلقنا عليك جدّا».

طبعًا لا استطيع أن أخبره أنني في شرم الشيخ.. مهما فعلت فلن يصدق أن أختي بخير. هكذا قلت له إننا كنا نائمين.. كل شيء بخير.. كل شيء بخير...

قال لي خالي إن بوسعنا أن نتنزه قليلاً في هذا البلد الساحر إلى أن يجد طائرة نعود بها إلى القاهرة. لكنني رفضت أن أترك المستشفى إلا مع أختي..

وجلست في الاستراحة جوار غرفة أختي أفكر.. واضح طبعًا أنني لا أملك حاسة الاستبصار إن كان لها وجود. لا يمكن التنبؤ بالمستقبل أبدًا مهما كانت موهبة المرء..

لكنني لم أعتد هذه الدرجة من الخداع من نفسي.. إما أن أقبل هذه الحقيقة أو أنتظر في قلق رحلة عودة أبي وأمي.. أفضل بالطبع أن أفترض أنني هستيرية مخبولة..

لم أعرف الحقيقة إلا عندما عدت إلى القاهرة في الغد..

عندما أخرجت حاجياتي من الحقيبة وجدت رزمة من إحدى المجلات السينمائية كنت قد جلبتها لأقرأها في بيت خالي.. هذه المجلات كانت جوار فراشي في البيت وكنت أراها طيلة اليوم. هناك إعلان ثابت على الغلاف الأخير لأكثر هذه المجلات عن فيلم

كوارث أمريكي يباع في أقراص (دي في دي). تلك الأفلام التي تسقط فيها الطائرات بلا توقف.. هناك في الإعلان صورة طائرة مشتعلة تهوي نحو المحيط..

كنت أرى هذه الصورة طيلة اليوم ولا أستوعب كنهها.. هنا لعب عقلي الباطن لعبة خبيثة معتادة.. استغل قلقي من سفر أبي وأمي ومزج هذا القلق برؤيا الطائرة الساقطة. أي شخص آخر كان سيتجاهل الرؤيا أما بالنسبة لي فقد كانت تحمل نذيرًا مرعبًا..

لقد مر كل شيء بخير، وعلى أن أقبل هذا التفسير.. أما لو لم أقبله فلسوف يكون علي أن أنتظر في رعب عودة أبي وأمي بالطائرة...

أنا أنتظر تلك اللحظة في قلق.. أوأمن أنه لا أحد يقدر على رؤية الغد، لكنني برغم هذا أنتظر في قلق.. وأدعو الله أن يكون تفسير العقل الباطن هذا هو الصحيح.

الـبـيـت

القصة دائماً هكذا..

يقول لك السمسار وهو ينظر لجهة أخرى كي لا تتلاقى العينان:
«الفيلا ممتازة.. موقع رائع وسعر يدير الرءوس.. بصراحة لا تصدق هؤلاء الحمقى الذين يتكلمون عن... صدقني أنا...».

ويقول لك البواب النوبي الذي يحرس الفيلا المجاورة:
«أنا لم أر شيئاً.. لكن القصص كثيرة.. نسمع أصواتاً في الليل لكن هذا لا يدل على شيء...».

بينما يقول لك بائع السجائر على قارعة الطريق:
«لا دخان من دون نار.. عندما تكثر الشائعات فهناك بصيص ما من الحقيقة».

تسمع كل هذا وتفكر مرة ومرتين..

كان هذا هو الوضع بالضبط عندما عاد ابن عمي من الخارج. ابن عمي (شريف) في الأربعين من عمره، وقد قضى عشرين عاماً يجمع المال بانتظار أن ينفقه في العشرين سنة الباقية له لو عاش. تزوج مؤخراً ويحب زوجته فعلاً، لكنها لم تعد مستريحة للإقامة مع أهل زوجها، كما أنها سئمت الفنادق التي ينتقلان فيها؛ لهذا طلبت مسكناً منفصلاً.. تريده في المعادي.

أبي قال له إن زوجته مجنونة.. أسعار ضاحية المعادي الراقية فلكية فعلاً.. لم يعد أحد يتكلم عن الحياة هناك، فلم يعد يقيم بها سوى الذين امتلكوا بيوتاً في العصور الغابرة الرخيصة..

لكن ابن عمي بحث وبحث.. ثم وجد هذه الفيلا..

سعرها لا يصدق.. يقترب كثيراً جداً من سعر شقة في وسط القاهرة.. بالطبع طار فرحاً وراح يقابل هذا السمسار وذاك غير مصدق..

كنت أعرف أن هناك شركاً ما.. بالتأكيد هناك واحد..

صارحته برأيي عندما زارنا ذلك اليوم، فقال لي:

«هكذا أمثالك ممن تفرع الفرصة بابهم فيشتكون من الضجيج.. هل تعرفين لماذا لم يظفر أحد بهذه الجوهرة؟.. لأنهم يقولون لبعضهم: هناك سر ما.. ويحجمون.. ثم تبدأ الحلقة المفرغة الجهنمية: لا أحد يشتري هذه الفيلا.. إذن هناك سر ما.. هكذا لا يشتري أحد هذه الفيلا. الحلقة المفرغة لا بد من تحطيمها في نقطة ما.. وأنا هذه النقطة..».

كان من الممكن أن أتركه وشأنه... لولا أن صديقتي (ميادة) وهي من سكان المعادي زارتني في ذات اليوم..

كنا جالسين في حجرتي نثرثر... طبعاً تكلمني عن خطابها وعن حيرتها بين (عادل) و(حمدي) وعن وعن... عندما قالت لي:

«تلك الفيلا المسكونة في آخر شارعنا.. الفيلا التي لا يشتريها أحد».

صدفة غريبة فعلاً.. هكذا تربعت ودنوت منها أسألها عن تفاصيل أكثر، فقالت:

«يبدو أن هذا حدث في الستينات.. كان يعيش فيها مهندس وزوجته وأولاده.. لا نعرف كيف ولا لماذا جن الرجل أو فقد صوابه.. يقال إنه قتل أسرته كلها ثم تخلص من الجثث.. لا أحد يعرف أين ولا كيف، لكننا نعرف أنه قتل نفسه بطلقة في رأسه.. يبدو أنه قرر أن يرتكب جريمة كاملة ونفذها فعلاً.. ظل أسبوعاً يزعم أن أسرته سافرت وأنه سيلحق بها بعد أيام.. لكن ضميره لم يرحمه لحظة وهكذا قتل نفسه.. من هنا أدرك الجميع أن هناك جثثاً في الفيلا على الأرجح وبدأت عمليات الحفر والتنقيب بلا جدوى.. في النهاية أغلقت القضية ونسى الناس الأمر. فقط لبيتنا أحدهم الفيلا بعد أعوام».

«وماذا حدث؟.. يمكنني أن أتخيل».

«أنت تعرفين فعلاً.. الأصوات في الردهة.. الطرقات على الزجاج.. الأطفال الذين يصرخون في القبو.. الوجه المشوه الذي يلتصق بزجاج النافذة وينظر لك.. كل هذا وأكثر حتى أضطر الساكن الجديد إلى حمل متاعه وأطفاله والفرار.. وهكذا بدأ رعب الفيلا».

سألتها في خبث:

«وهل تصدقين هذا السخف؟».

مطت شفرتها السفلى وقالت:

«كيف لي أن أعرف؟.. هذا ما يقال وقد صارت له قوة الحقيقة».

عندما انصرفت (ميادة) جلست أفكر في كلامها طويلاً.. لو صحت القصة فأرواح هؤلاء القتلى الأبرياء ما زالت موجودة هناك وهذا معناه أنهم مدفونون في الفيلا فعلاً.. أما لو صرنا أكثر علمية قليلاً لقلنا إن الطاقة النفسية الناجمة عن العنف ظلت في ذلك المكان تتردد للأبد.. لو صرنا أكثر علمية من هذا لقلنا إنها خرافة حضرية شائعة..

اتصلت بابن عمي وقلت له ما سمعت..

عاد يقول في ثقة:

..«هذا سخف».

هنا خطر لي خاطر جريء.. ماذا لو ذهبت معه إلى الفيلا لأراها على الطبيعة؟.. لو كانت هناك قوى نفسية فعلاً فمن أجدر الناس بالإحساس بها؟.. أعرف فتاة نحيلة في كلية التجارة تملك قوى نفسية عجيبة.. مشكلة هذه القوى أنها لا تأتي حسب الطلب لكن حسب مزاجها الخاص..

في اليوم التالي كنت في سيارة ابن عمي أركب في المقعد الخلفي، وزوجته تركب جواره، منطلقين إلى المعادي..

كان السمسار هناك أمام باب الفيلا، وقد وقف يثرثر مع أحد البوابين، فلما رأنا فتح البوابة واقتادنا إلى حديقة مهملّة متشابكة الأشجار طويلة الأعشاب امتلأت بالمهملات..

..«لاحظوا أن الحديقة لم تمس منذ أعوام طوال.. هذه ليست مشكلة لأن أي بستاني يمكنه أن يجعلها جنة خلال أسبوعين»..

أسرة من القطط شعرت بنا ففرت.. سحلية وثبت فوق قدمي وتوارت.. ونحن نمشي عبر ممر طوبي مغطى بالتراب.. هناك كانت البناية ذاتها تنتظرنا..

مد السمسار يده وفتح لنا الباب..

الرائحة التي شممنّاها لم تكن تمت لهذا العالم. ليست رائحة عفن أو عطن بل رائحة قديمة.. لابد أن (كارتر) شمها وهو يفتح مقبرة توت عنخ آمون..

دخلت من الباب ومنذ اللحظة الأولى عرفت أن القصة صحيحة..

لا شك في هذا.. انتهى الأمر بالنسبة لي.. لم ألق في حياتي مكاناً يعطي كل هذا الحشد من الصور والرؤى والأصوات.. كأنني في مدينة الملاهي.. أشياء كثيرة جدّاً حدثت هنا..

رحت أدور حول الجدران بينما (شريف) يثرثر مع السمسار.. يسأله عن مهندس جيد يتولى أمر تجديد هذا المكان..

أسمع الصوت يتردد في ذهني:

..«ساعديني... ساعديني.. أنا أعرف أنك تسمعين.. ساعديني»..

شعرت برجفة.. الصوت يخاطبني فعلاً عبر الأبعاد والأزمان.. هناك شيء ما..

..«في العلية... في العلية»..

وضعت يدي على جبهتي لأن الصداع كاد يقتلني..

استدرت لأسأل السمسار:

«هل هناك عليّة هنا؟».

بدا عليه الغباء.. قال في حيرة:

«لا أعرف.. لماذا تسألين؟.. اهتمام غريب حقًا..».

«أريد أن أرى..».

ومشيت إلى ركن القاعة نحو ممر جانبي ضيق فدخلته.. هناك في نهاية الممر سلم حديدي شبه رأسي يتجه لأعلى. إذن هذا يقود للعليّة.. لكن الظلام دامس فكيف أرى؟.

مددت يدي لحقيبتني فأخرجت الهاتف الجوال وفتحته فبعث ضوءًا شاحبًا.. لن يطول الأمر على كل حال.. تسلقت الدرجات الحديدية العمودية بصعوبة إلى أن بلغت قمة السلم.. هناك كوة مغلقة أزرحتها بيدي فأنفتحت. رفعت الجوال بينما الصوت يدوي بلا انقطاع:

«ساعديني.. ساعديني...».

هنا سمعت صرخة.. تصلبت للحظة ثم سمعت زوجة ابن عمي تقول بصوتها الرفيع المزعج:

«هناك شيء.. رأيت من يعبر هذه الردهة!!».

«أنت واهمة بالتأكيد..».

لكني كنت أعرف أنها على الأرجح ليست واهمة.. حشرت جسدي داخل الكوة فوجدت أنني في عليّة ضيقة ترغمك على الانحناء.. نسيج عنكبوت وغبار ورائحة خانقة لكن لا فئران.. شعرت بحاستي أنه لا فئران.. هناك نافذة عليها ستار كثيف في ركن المكان.. اتجهت نحوها ومزقت الستار فتسرب بعض من ضوء النهار الشحيح واستطعت أن أرى..

هناك صناديق.. صناديق.. صناديق..

رحت أمشي بينها متسائلة... لو صح حدسي فبقايا الأسرة التعسة موجودة هنا.. هذا هو المكان الذي تم إخفاؤهم فيه.. وهم يريدون من يساعدهم ويدفّنهم.. لكن كيف يفلت شيء كهذا من كل من فتشوا الفيلا من قبل؟.. كيف لم تتصاعد رائحة؟.. منطلق غريب..

يمكنني أن أراه.. لا أعرف من هو ولا ملامحه لكنه شبّح ضبابي يقف وسط المكان.. من الغريب أنني لا أشعر دعرًا.. ربما لفظة (ساعديني) جعلته يفقد رهبته بالنسبة لي.. إنه يقف جوار صندوق من الصناديق.. بالتأكيد يشير له...

اتجهت إلى الصندوق فشعرت بذلك الشيء يتلاشى كأنه دخان.. مددت يدي وعالجت القفل ثم فتحت الصندوق بصعوبة. أغمضت عيني متوقعة أن أرى مجموعة من العظام المتحللة النخرة، لكني

لم أجد شيئاً.. مجرد أوراق..

هناك خطاب مصفر على قمة الأوراق.. مددت يدي وأمسكت به.
ثم اتجهت إلى جوار النافذة ففتحته ورحت أطلع المكتوب:

«كامل.. أنت تعرف أن حياتنا صارت مستحيلة. لقد قررت أن آخذ الأولاد معي.. لا تحاول البحث عنا ولا تذهب لبلدي لتسأل عني، فمن الأرجح أنني لن أكون في مصر أصلاً. سوف أبدأ حياتي هناك من جديد وسوف أخبر الأولاد أن أباهم قد مات. أسفة جداً لكنك لم تترك لي الخيار..

سلوى».

رفعت رأسي لأجد ذلك الكائن الضبابي يقف هناك في ركن العلية وقد اخترقه الضوء الخافت المتسرب من النافذة.. بالفعل يتصرف كسحابة دخان لكنها تتخذ شكل إنسان..

قلت في ذهني:

«إذن أنت كامل..».

«أنا كامل».

«أنت لم تقتل أسرتك.. لقد فرت زوجتك والأطفال وأنت لم تبلغ الشرطة لأنك خشيت الفضيحة.. ثم صارت الحياة مستحيلة فأطلقت الرصاص على رأسك.. لكن روحك لم تنعم بالراحة قط.. لقد ظلمت تحاول دفع التهمة عن نفسك.. الكل يحسب أسرتك مدفونة في هذه الفيلا، وأنت تحاول أن تجد من يعرف الحقيقة.. تريد أن تثبت أنك ضحية وليست جلاًداً.. لكنهم أغبياء.. ما من أحد فكر أن يفحص هذه الصناديق ويقرأ الخطابات..».

«نعم».

«أنا سأفعل.. سوف أخبر الجميع أنك لم تقتل سوى شخص واحد هو نفسك، وكنت مغيب الوعي شبه مجنون عندما فعلت ذلك..».

واتجهت إلى باب العلية ونزلت في الدرج..

عندما عدت إلى قاعة الجلوس كانت زوجة ابن عمي في حالة يرثى لها من الهستيريا وكان ابن عمي متوتراً والسهمسار قلقاً..

سألني (شريف) عندما رأيته:

«كلك مغطاة بالتراب والعنكبوت.. ماذا حدث؟».

«كنت في العلية.. لا عليك.. ماذا حدث؟».

«كل شيء.. ستائر تفتح من تلقاء نفسها.. وجه دام ينظر عبر الزجاج.. خطوات على الأرضية.. كل هذا خلال عشر دقائق.. أنا لن ابتاع هذا البيت ولو كان بملايين».

قلت له في جدية:

«بل يمكنك أن تبتاعه.. لن تتكرر هذه الحوادث ثانية.. مالك الفيلا القديم اتهم بقتل أسرته لكنه لم يفعل.. هذا الخطاب يؤيد ذلك.. إنه يحاول الدفاع عن نفسه».

لم يكلف نفسه عناء النظر للخطاب وقال وهو يجذب زوجته من ذراعها:

«لا تتعبني نفسك.. لقد انتهى الأمر.. سيان عندي أقتل أسرته أو قتل أفريقيا كلها.. لن أقيم هنا...».

وقالت لي زوجته وهي تخرج بعض المناديل الورقية من حقيبتها:

«تعالى أنظف لك ثيابك وشعرك.. تبدين مثل المجانين».

وقبل أن أفهم كان ابن عمي يتجه للباب ومعه السمسار الذي لم يعد لديه ما يقال.. ولحقت بهما الزوجة..

هرعت إلى الباب واستدرت أكلم الظلام ومن فيه:

«لا تقلق... سوف أخبر كل من أعرفه بالحقيقة.. سوف أرسل الخطاب للصحف كلها.. أعدك بهذا.. ولربما يومًا ما أصير ثرية وأتمكن من شراء هذه الفيلا.. هي رخيصة الثمن لكني لا أملك عشر ثمنها حاليا.. أعدك بهذا.. فقط حاول أن تخلد للراحة التي تستحقها...».

كنت أشعر بأنه راض عما أقول...

«أعدك بهذا.. أعدك بهذا...».

من خلفي سمعت زوجة ابن عمي تقول:

«من تكلمين يا هند؟».

قلت وأنا ألحق بها وأغلق الباب:

«لا عليك.. لقد جنت.. ألم تقولي أنت نفسك إنني أبدو كالمجانين؟».

الضيف الغامض

عمتي في حالة خطرة..

كنت أقف في المستشفى مع أمي وأختي، نشرب جالونات من القهوة، ونلتهم أطفالنا ونراقب الممرضات اللاتي يدخلن الغرفة ويخرجن منها.. ماذا يبدو على وجوههن؟ هل هن يتحاشين النظر لنا؟

الطبيب كذلك دخل الغرفة واستغرق بعض الوقت، ثم خرج.. كنا جالسات في الاستراحة فهرعت ألحق به وسألته عنها..

لم يكن يملك وعودًا.. لم يكن يملك أكاذيب..

قال بلهجة محايدة إن الحالة خطيرة لكن لن نفقد الأمل.. طبعًا بالنسبة لي كان معنى هذا الكلام هو أن أفقد كل أمل.. لا أمل..

لم أتكلم وعدت لأجلس في الاستراحة مستعيدة شريط ذكريات لا نهاية له.. يومًا ما سيقف أقاربنا خارج الغرفة التي نحتضر فيها، ويستعيدون ذكرياتهم معنا.. لا مفر من هذا..

أين ذهبت موهبتي؟.. كما قلت هي كطفل شقي، لا يأتي لك إلا عندما يريد هو ذلك.. لا توجد قواعد ولا توجد طريقة لإرغامه على عمل شيء..

هكذا نامت أمي وأختي.. ونهضت أنا بعد قليل لأقف خارج غرفة عمتي..

كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.. في العادة تكون هناك ممرضة في الخارج تمنعنا من الدخول قائلة:

«لو سمحت يا آنسة.. لدي تعليمات صارمة بمنع الزيارة..».

نظرت إلى الكاونتر لأجدها هناك بالفعل، لكنها نائمة تمامًا كطفل.. رأسها بين الأوراق والقلم في يدها كأنها لم تستكمل كتابة ما كانت تدونه...

هكذا أطلت برأسي داخل غرفة عمتي حيث كانت راقدة هناك في الفراش، وذلك الخرطوم يدخل قصبتها الهوائية وعشرات الأقطاب تخرج منها كأنها أخطبوط بشري..

هنا رأيت ذلك الرجل..

كان يقف هناك عند رأس الفراش.. من هو؟.. كيف سمحوا له بالدخول؟

كان فارغ القامة يلبس بذلة سوداء أنيقة.. وكان يضع يديه في جيبه ويرمق النائمة في شيء من الأسى. رأني فرفع نحوي

عينه.. كانتا خاليتين من التعبير..

قلت له بصوت مشروخ:

«هل أنت طبيب؟».

بدا الرعب في صوتي وضايقني هذا كثيرًا.. لكنه لم يرد.. فقط ابتسم ابتسامة عابرة خفيفة واتجه للباب دون أن ينظر خلفه.. متسلل!.. لكن ماذا يريد من عجز تحتضر غائبة عن الوعي؟.. لا يمكن أن يكون طبيبًا.. ليس من أقاربنا.. فمن هو؟.

خرجت من الغرفة واتجهت للممرضة النائمة فهزرتها، ولم أر أثرًا لهذا الغريب في الرواق.. رفعت نحوي عينًا ناعسة فقلت لها في دعر:

«هناك رجل في غرفة عمتي!».

قالت في ثقة:

«مستحيل».

ثم نهضت معي إلى الغرفة.. وقفت تنظر من حولها، ثم قالت في مزيج من الثقة:

«لا شيء كما تري...».

ثم سقطت عيناها على المرقاب جوار الفراش.. رأيتها تتوتر ثم هرعت إلى جهاز الهاتف تطلب طبيبًا.. نظرت للشاشة فرأيت خيطًا صامتًا غيبًا.. لا أفهم في الطب لكن هذه الرسالة بليغة جدًا..

وعندما جاء الطبيب عرفت أن عمتي قد لبث نداء الخالق.. سوف أعفيك من التفاصيل الأليمة لما حدث لكن السؤال ظل يطاردني: هل فعل هذا المتسلل شيئًا عجل بموت المريضة؟.. هل يكون قد انتزع خرطومًا ما أو عطل جهازًا ما؟.

سألت الطبيب الذي غرق في العرق عما إذا كان هناك شيء ما خطأ.. تفقد الخراطيم وجهاز التنفس وقال:

«كل شيء في موضعه.. هذه النتيجة متوقعة على كل حال.. لكن دعك من الخيالات.. لم يتسلل أحد للغرفة.. لا شك أنك نمت وحلمت..».

لكني كنت أعرف حواسي جيدًا.. لا لم أنم.. كنت واعية تمامًا عندما رأيت هذا المشهد...

هكذا مرت الأيام السخيفة الكثيبة المعتادة.. وبدأت الحياة تعود لمجراها..

ابن جارتنا (حمدي) في الخامسة والعشرين من عمره، وهو شاب مهذب لطيف.. أقبله من حين لآخر على الدرج فينظر للأرض ويهز

رأسه في لطف ثم يتعد.. هذا كل ما أعرفه عنه. مهندس شاب يملك سيارة صغيرة.. لقد تعلم القيادة مؤخرًا.. لا شيء يمكن قوله عنه..

هو ذا يفتح باب سيارته.. يراني فيهرز رأسه باسمًا..

أمر بجواره وأبتسم ابتسامة عابرة توحى بالمودعة المتحفظة، ثم أرفع عيني فأجد بجواره رجلًا فارغ الطول يلبس بذلة سوداء... رجلًا يقف جوار باب السيارة كأنه ينتظر.. ومن الغريب أن (حمدي) لم يظهر أية علامة على أنه رأى الرجل برغم أنه يقف جواره..

استدرت في ذعر أرمق الرجل.. وجهه مألوف جدًا.. أعرف هاتين العينين بلا شك.. إنه هو!.. كنت أنظر للخلف فاصطدمت بعامود النور الموجود أمام البيت..

..«انتبهى!»..

قالها ابن جارتنا وقد أصابه الذعر من قوة الارتطام..

كانت هذه آخر كلمة سمعتها منه.. آخر كلمة سمعتها منه على الإطلاق، لأنه فقد حياته في حادث مروع على الطريق عندما انفجر إطار سيارته لتطير في الهواء وعندما خلصوا جسده من الحطام لم يبق الكثير منه..

يقول السينمائيون إنه لا بد من التكرار ثلاث مرات حتي يفتن المشاهد للعلاقة الغامضة بين الأحداث، وقد كان علي أن أنتظر الحادثة الثالثة لأفهم...

كان زوج صديقة لي مريضًا بمرض خطير - أعتقد أنه السرطان - في المستشفى، وقد ذهبت مع صديقتي لزيارتها والشد من إزرها..

وقفنا خارج حجرة المريض نتكلم وهي تبكي بلا توقف.. هنا نظرت فوق كتفها فرأيت ذلك الرجل الفارع الذي يلبس بذلة سوداء ينصرف من الغرفة وهو ينظر للأرض كأنه أسف..

صحت في صديقتي:

..«من هذا؟»..

نظرت للخلف وسط دموعها وسألت:

..«عمن تتكلمين؟»..

..«هذا الذي يمشي مبتعدًا في نهاية الردهة»..

هزت رأسها أنها لا تدري عما أتحدث وعادت تحكي عن معاناتها مع زوجها و... لكنني لم أنتظر لأسمع بل رحت أركض في الردهة محاولة اللحاق بهذا الزائر الغامض.. للأسف كان هناك باب جانبي وعندما

اقتربت منه كان قد اختفى.. لم استطع اللحاق به عبر ذلك الباب لأنه كان يفتح على سلم مزدحم بالناس..

ومن يدري؟.. لعله لم يجتز الباب أصلاً..

أنت تعرف أن زوج صديقتي توفي في تلك الليلة. الأطباء قالوا إن هذا حتمي ومعروف منذ البداية.. لكني لم أستطع نسيان ذلك الرجل فارغ القامة الذي يمشي قرب من ينتظرون الموت..

لم أستطع النوم لعدة أيام وأنا أفكر في معنى هذا..

اتصلت بدكتور (محمود الالفي) صديقي المخلص، وحكيت له القصة، وأنهيته كلامي قائلة:

«بشيء من الخيال يمكن تصور أن هذا الزائر هو الموت.. أنا أراه وهو يزور من اختار أن يلفهم بعباءته الكئيبة».

قال مفكرًا:

«لا أحد يقدر على رؤية الموت..».

«وهل أنا كالناس؟».

«دعك من أننا نتحدث عن ملك الموت ذاته.. الفكرة عجيبة وتصطدم بالدين بشدة.. لا أصدق هذا..».

ثم فكر من جديد هنيهة وقال:

«هناك أسطورة مجرية عن صبي رباه الموت ذاته، وبالتالي صار قادرًا دون سواه على رؤيته.. وعندما كبر الصبي صار طبيبًا عظيمًا.. علمه الموت أن يراقب سرير المريض فإن رأى الموت يدنو من رأس المريض عرف أن المريض سيموت ولا جدوى من المحاولة، أما إن رآه يدنو من قدم السرير فمعنى هذا أن المريض سينجو ومن الممكن أن يبذل جهده لإنقاذه.. النتيجة هي أن الطبيب صار الأشهر والأنجح.. كل من يعالجه سينجو وكل من يرفض علاجه مات لا محالة..».

«هذه القصة تبدو لي مألوفة.. يبدو هذا حلاً مريحًا..».

«ليس بالضبط.. لقد طلب الطبيب ليفحص ابنة الملك.. كانت رائعة الحسن وأحبها على الفور.. هنا رأى الموت يتجه ليقف عند رأس الفراش.. على الفور أمر الخدم بتدوير الفراش.. حاول الموت ثانية فدور الخدم الفراش من جديد.. هكذا ظل الموت يحاول بلا جدوى وفي النهاية انصرف غاضبًا وعاشت الفتاة..».

«هل تقترح أن أقوم بتدوير أسرة الناس؟».

«لا أقترح أي شيء.. هذه أساطير لا حظ لها من الحقيقة.. لا أحد يمكنه رؤية الموت ولا أحد يقدر على خداعه.. أعتقد أنك تخرفين يا

(هند) لا أكثر..».

«أتمنى هذا من صميم قلبي..».

«ثمة شيء آخر.. لو كانت موهبتك تتيح لك رؤية الموت المتربص بالناس، فلماذا حدث هذا الآن؟.. لماذا ظهرت هذه القدرة فجأة؟.. أين كانت في الأعوام الماضية؟».

ووضعت السماعة حائرة... يجب أن أنسى هذا..

لكنني لم أنس وظل هذا الوجه يطاردني..

مساء الجمعة كنت في غرفتي، عندما سمعت ذلك الأنين.. هزعت لأبحث عن مصدره فوجدت أمي في فراشها تن وتتلوى..

«ماذا حدث؟».

قالت وهي تضع يدها على ضلوعها من الناحية اليمنى:

«المرارة.. لابد أنها المرارة.. اطلبي الطبيب حالاً..».

هزعت إلى الهاتف وطلبت طبيباً شاباً اعتاد أن يعالجها.. صحت أختي وأخي وجلسا قلقين ينتظران.. لو كان أبي هنا لكان الأمر أسهل..

دق جرس الباب بعد قليل، فنظرت من العين السحرية التي تظهر القادم.. رأيت الطبيب الشاب واقفاً هنالك ولكن رأيت خلف ظهره.. رأيت ذلك الغريب فارغ الطول..!

صرخت في جزع.. وصحت:

«لن أسمح له بالدخول.. لا!».

جاء صوت الطبيب الحائر عبر الباب:

«تسمحين لمن؟.. أنت طلبتني بنفسك».

«لن أسمح لهذا القادم معك».

نظر للخلف ثم قال:

«عم تتحدثين؟.. هل أنت على ما يرام؟».

فتحت الباب في حذر ليسمح بمرور شخص واحد فقط، فدخل الطبيب وهو ينظر لي في عدم فهم.. لكنني لم أعط تفسيرات.. فقط أغلقت الباب خلفه واسترقت النظر عبر العدسة.. ما زال الغريب واقفاً..

دخل الطبيب وتفحص أمي وأعلن أنها حالة التهاب مرارة حادة بالفعل واقترح أن نذهب للمستشفى.. لكنني أصرت على ألا نفعل..

هكذا ملأ محقنه وبدأ يتهأ لإعطائها بعض المسكنات.. رفعت

عيني فوجدت ذلك الغريب يقف عند رأس الفراش.. القامة الفارعة والنظرة الخاوية والبذلة السوداء..

صرخت في جنون:

«لن أسمح لك!!».

وانتزعت السكين المخصصة لتقطيع الفاكهة التي كانت في الصالة وهرعت إلى الغريب وهويت عليه بالسكين.. كنت أصرخ وأرغي وأزبد كالثيران.. تملص برشاقة وتنحى جانباً دون أن يبدو على وجهه أي تعبير..

«أخرج من هنا!!».

وهويت عليه في اتجاه آخر.. لكنه تملص من جديد.. وشعرت بأختي والطبيب يمسكان بمعصمي وأنا أصرخ وهما يرددان عبارات التهذية لي.. ثم فقدت الوعي..

كان أول وجه رأيته أمامي عندما فتحت عيني هو وجه د. (محمود الألفي) العزيز.. كنت في فراشي..

كان يتسم.. وقال لي وهو ينزع المحقن من ذراعي:

«أنت بخير يا هند».

مشوشة التفكير والشعر شبه نائمة، سألته بصوت مغلق متحشرج:

«أين ذهب؟».

«هو لم يأت أصلاً.. ألم تفهمي بعد أن هذا الشخص وليد خيالك؟.. لقد كان العبء النفسي ثقيلاً عليك وأنت قد عشت لحظات وفاة عمك بثقلها ومرارتها.. هكذا ولد هذا الشخص الغريب الذي لا يراه سواك.. يجب أن تصدقي هذا..».

ثم مد يده إلى كتاب جوار فراشي كتب عليه (أساطير من شرق أوروبا) وقال:

«أنت قرأت الأسطورة التي حكيتها لك ونسي أنك قرأتها.. لكنها ظلت هناك في عقلك الباطن تنتظر الخروج..».

قلت في تعب:

«كلامك منطقي لكنه غير مقنع...».

«وأنت تخرفين.. لقد حقنتك بشيء يهدئك ويريحك.. حاولي أن تنامي قليلاً».

كان الظلام يتزايد من حولي.. ورفعت عيني لوجه د. (محمود)

فخيل لي أنه مألوف.. ليس وجهه.. منذ متى صار فارغ القامة بهذا الشكل؟.. لماذا يلبس هذه البذلة الغامقة؟.. إنه هو..

سوف أنام الآن.. أنزلق لهاوية مظلمة.. لو لم أعد لعالمنا هذا فأنا محقة وقد رأيت الموت فعلاً.. أما إذا صحوت من النوم فقد كنت واهمة...

هذا هو الاختبار الأخير لي.. فقط لأنم الآن ولسوف أعرف الحقيقة عن قريب.. سأعرف كل شيء..

أخطاء لغوية

الساعة الأخيرة في عمل المصرف..

يوم حار ثقيل لزج، والصراف (ياسر) يتنهد... إن جهاز المكيف لا يعمل على ما يرام، وقد أبلغ الصيانة لكن أحدهم لم يأت.. لهذا كان العرق يغمر ياقة قميصه وبالتأكيد كان بوسعه أن يعتصر ربطة عنقه..

لم يبق في المصرف سوى أربعة أشخاص يجلسون على المقاعد ينتظر كل منهم سماع رقمه. ضغط على الزر طالباً الرقم الجديد.. هنا نهض نحوه ذلك الشاب ذو الشارب الكث والنظارة السوداء واستند على زجاج الخزنة، ووضع حقيبة صغيرة سوداء على الكاونتر ثم قال في تهذيب:

«هذه الورقة لو سمحت..».

تناول الصراف الورقة.. كانت مكتوبة بخط رديء استغرق بعض الوقت ليقراه.. ثم بدأ يستوعب فيفهم.. كانت الرسالة بما فيها من أخطاء لغوية تقول:

«أنا أحمل في جيبى مسدس محشو.. وهو مصوب إلى رأسك.. تذكر.. هناك اثنان معي هنا وسوف يطلقون الرصاص على كل شيء يتحرك في المصرف، لو أنك استغثت أو أحدثت صخب. قم بملأ الحقيبة السوداء بالأوراق المالية من فئة المائة دولار..».

رفع الصراف عينيه ليقابل الوجه الصلب القاسي للفتى.. لا ترى عينيه لكن هذا يزيد وجهه فسوة..

ابتلع ريقه بصوت عال، ثم من دون أن يلتفت صاح:

«أستاذ (إبراهيم)..».

من مكان ما جاء الأستاذ إبراهيم رئيس القسم.. ونظر في عدم فهم لمرءوسه والعميل، ثم ألقي نظرة على قطعة الورق، ومن جديد ابتلع ريقه..

هذه المرة وضع الفتى المسدس على الكاونتر ليعرف أنه يقول الحقيقة.. مسدس كبير الحجم مخيف الشكل. هكذا أصدر أستاذ إبراهيم أمراً فهرع الموظف وواحد آخر يملئان الحقيبة بالدولارات..

لم يكن يريد مشاكل.. قال لنفسه إن هناك احتمالاً لا بأس به أن يكون المسدس مسدس صوت لا أكثر، لكن حتى لو كان خطأ هذا الاحتمال خمسة بالمائة فإنه مقلق بما يكفي..

هكذا امتلأت الحقيبة، وعلى الفور أغلق الشاب السحاب ثم دس المسدس في جيبه واستدار.. وقال قبل أن ينصرف:

«بعد ربع ساعة يمكنك طلب الشرطة أو الصراخ أو أي شيء.. قبل هذا لا تجازف..».

وسرعان ما كان يغادر المصرف أمام عيني رجل الحراسة العجوز الجالس في الظل يشرب الشاي.. فلم يلحظ أي شيء غريب..

فيما بعد قال رجل الحراسة إن الشاب استقل سيارة زرقاء فيها راكب ينتظره.. وقد انطلقت السيارة بسرعة جنونية لتختفي في شارع جانبي.. لم يعرف طرازها ولا رقمها لأنه لم يشك في شيء..

وعندما جاء رجال الشرطة بعد ربع ساعة، أيقن المحاسب (ياسر) إن ما قاله الفتى عن وجود زملاء له في المصرف لا صحة له، لكنه عجز عن أن يجازف على كل حال.. كما أدرك الجميع أن عملية سطو بسيطة جدًا وساذجة جدًا تمت لهم، وكانت النتيجة الحصول على مائة ألف.. عشر مليون دولار بضربة واحدة، والأدهى أنه ما من خيط على الإطلاق..

سأله ضابط الشرطة:

«هل لديك أرقام الدولارات؟».

قال الصراف في حيرة:

«لا نحتفظ بكشوف كهذه..».

على كل حال عممت صفات السيارة، وبعد ساعات وجدوها في شارع جانبي.. قاموا بفحصها فوجدوا إنها سيارة حمراء مسروقة قام اللصوص بدهانها بلون أزرق.. لوحة الأرقام مزيفة.. فحص البصمات لم يجد أية بصمات لأصحاب سوابق.. عرض صور أصحاب السوابق على الصراف لم يجد.. على كل حال كان من المؤكد أن الشارب والنظارة السوداء مستعاران..

إنها الجريمة الكاملة برغم سذاجتها.. ماذا يمكن عمله؟.. الانتظار حتى يقرر السارق إيداع الدولارات أو تبديلها؟.. ماذا لو لم يفعل قط؟.

هذا هو الوقت الذي قرر فيه النقيب (سمير البنا) أن يتصل بي في البيت..

بعد ما سألني عن دراستي وأخباري وكل هذه الأسئلة السخيفة المعتادة، قال لي القصة كلها.. ثم سألني عن كيفية مساعدتهم..

قلت في مرارة:

«لو كنت تعتقد أنني سألعب دور الكلب البوليسي، فأشم مكان الجريمة ثم أجري بين الأزقة حتى أجد السارق وأنشب أنيابي في ذراعه، فأنت غالبًا مخطئ..».

ضحك في الهاتف طويلاً حتى غلبه السعال، ثم قال:
«بينني وبينك.. تمنيت لو أمكن عمل هذا.. سيكون كل شيء رائعاً
وقتها.. ولكن أرجو أن تفكري قليلاً وتخبريني...»
هكذا رحت أفكر في شيء يمكن عمله..

اقترحت عليه هاتفياً أن يرتب لي رؤية السيارة المستعملة في
الجريمة، وأن أقابل المحاسب.. فوعدني بأن يرتب لي هذا..

في اليوم التالي جاءت سيارة مدنية عادية إلى شارعنا، ورأيت
وجه النقيب يطل منها.. هو يعرف كراهيتي الشديدة لوقوف سيارة
الشرطة تحت بيتنا ونزولي لأركبها وسط تساؤلات الجيران عما
يحدث..

أخيراً وصلنا إلى ساحة السيارات التي يتم التحفظ عليها.. لم
يسلموها لصاحبها بعد.. كانت سيارة حمراء من طراز (لادا) بحالة رثة،
وقد بدا واضحاً أن عليها طلاء أزرق في عدة مواضع قاموا بمحوه قدر
الإمكان..

جلست خلف المقود ورتبت ذهني.. أغمضت عيني..

سلبي.. لا أرى أي شيء.. لا توجد خواطر...

فقط أشعر بالشر.. الشر له وجود معنوي محسوس وقد اعتدت أن
أشعر به لكن لا أعرف كيف أصفه. هناك أماكن تفوح به.. هذا مكان
شرير...

سألني النقيب عما أشعر به فهزرت رأسي.. لا شيء..

مد يده في جيبه وأخرج تلك الورقة التي كان اللص يحملها وناولها
لي.. أمسكت بالورق.. هناك الكثير من القلق والتوتر، ويمكنني أن
أشعر باليد التي كتبت هذه الكلمات ذات الخط الرديء.. لكن لا شيء
سوى هذا...

هذه المرة ركبنا متجهين إلى المصرف.. وهناك في مكتب المدير
طلب النقيب لقاء الصراف (ياسر)، وهكذا ظهر بعد دقائق.. شاب
نحيل وسيم نوعاً له شعر ناعم طويل يغطي أذنيه.. في ملامحه
شيء يوحي بطفل مذعور..

قال النقيب:

«الآنسة صحافية يهمني أمرها وهي ترغب في أن تحكي لها
قصة السطو من جديد».

صافحني الفتى وجلس... يده ملوثة بالعرق وترتجف نوعاً..

كان الفتى متوتراً لكنه عاد يحكي القصة منذ البداية.. أما أنا فلم
أسمع ما يقول.. الورقة واليد.. اليد والورقة.. هذه هي اليد التي

لامست الورقة.. أعرف هذا يقينًا.. لم تلمسها لتقرأ ما فيها بل لتكتبه
لو كنت تفهم ما أعنيه!!

قاطعته فجأة وقلت وأنا أفتح حقيبتني وأخرج قلمًا ومفكرة:
«هل يضايقك لو كتبت ما أمليه عليك؟».

نظر لي في دهشة، فمال النقيب ليهمس في أذني:
«فيم تفكرين؟.. ليس الخط خطه.. هو خط ردئ جدًّا».
«أرجو أن تتركني أفعل..».

صاح المحاسب محتجًا لكن النقيب أعاد الطلب بشيء من الحزم،
قائلًا:

«أرجوك.. هذا سوف يفيد التحقيق..».

هكذا رحت أمني على الفتى الجملة التالية:

«الشيء الغريب الذي حدث هو أنني سمعت صوت ملء الكوب..
وسمعت صوتًا آخر لن يفارق ذاكرتي ولو بعد مئة عام».
انتهى من الكتابة فمددت يدي أتناول الورقة وأنظر فيها.. رأيته قد
كتب:

«الشيء الغريب الذي حدث هو أنني سمعت صوت ملأ الكوب..
وسمعت صوت آخر لن يفارق ذاكرتي ولو بعد مئة عام».
انتحيت جانبًا بالنقيب.. وقلت له همسًا وأنا أريه الورقة :

«هل ترى؟.. نفس الأخطاء اللغوية التي رأيناها في المذكرة
الأولى.. (شيء) يكتبها (شيء).. (ملء) يكتبها (ملأ).. (ذاكرة) بالزاي لا
الذال.. (مئة) يكتبها (مائه) وبالطبع لا ينصب المفعول به أبدًا بل
يسكنه..».

ابتسم في مرارة وقال:

«الخط يا (هند).. الخط.. ليس هو ذات الخط».

«لأنه كتب مذكرة اللص باليد اليسرى.. وأكد لك أن ذات اليد كتبت
الرسالتين.. بعد هذا تلقى الرسالة وقراها وأظهر الذعر والحيرة..».
قال ضاحكًا:

«الأخطاء اللغوية لا تدل على شيء.. كل الناس ترتكب ذات
الأغلاط حتى أنا.. لا يمكن أن أقدم رجلًا للمحكمة لأنه لا ينصب
المفعول به.. ثم لماذا يكتب هو المذكرة بنفسه؟.. كان بوسعه أن
يطلب ذلك من أي واحد في العصاة».
«البصمات.. ماذا عنها؟».

«بصماته على الورقة طبعًا.. ماذا تتوقعين؟.. لقد أمسك بها مرارًا ليقراً ما فيها».

قلت في إصرار:

«كيف عرف اللص أن المصرف يحتفظ بهذه الكمية من الدولارات؟.. كانت ساعة متأخرة ومن الوارد أن يقال له: تم توريد الإيراد للخبزينة الرئيسة أو شيء من هذا القبيل.. لا بد من واحد من داخل المصرف يعرف عمل المصرف ويعرف أن هذا المبلغ سيكون موجودًا».

نظر لي في اهتمام.. ثم قال:

«هذا احتمال مهم ولم يدر بذهننا من قبل.. لكنه كذلك لا يعني أن المحاسب متورط».

رحت أفكر في عمق.. المشكلة في حاستي هذه هي الحدس.. الحدس ليس دليلاً في أية محكمة ولا يؤخذ بجدية أبداً.. لا بد من دليل مادي أو اعتراف..

عدت أكرر بصوت أعلى قليلاً:

«الصراف متورط.. لا شك في هذا.. أعرف أنه رتب الأمر مع صديقين له.. كل شيء.. الموعد.. السيارة اللادا.. الحقيبة.. المذكرة..».

سمعت الفتى هذه المرة فنهض متجهًا نحوي..

عيناه الواسعتان الخائفتان تنظران لي.. عينا الطفل..

قال بصوت مبجوح:

«لا أعرف من أنت يا آنسة حقًا.. لا يهمني أن أعرف.. فقط أنت تدمرين سمعتي ومستقبلي وتلقيين علي ظلال الشك للأبد لمجرد أنك تعتقدين.. لا أعرف إن كنت تصدقين أم لا، لكن لا علاقة لي بهذه القصة. أنا ضحية مذعورة كادت تفقد حياتها واليوم توشك على فقدان سمعتها.. لا علاقة لي بالسطو ولا المذكرة ولا السيارة اللادا الحمراء ولا المسدس ولا أي شيء...».

شعرت بقلبي يتمزق.. هل أنا متحاملة؟.. من الخطأ أن أعتمد على حاستي فلقد خدعتني مرارًا.. فعلاً لا يستحق هذا الفتى الطيب ذلك.. أنا فعلاً آسفة..

نظر لنا الفتى للحظات ثم سأل النقيب:

«هل من شيء آخر؟».

«مؤقتًا لا.. عد لعملك..».

عندما غادر الصراف الغرفة قلت للنقيب:

«لا أدري.. يبدو صادقاً.. حاستي تتهمه لكن عينيه صادقتان فعلاً..
أخشى أن أكون قد تماديت..».

قال وهو ينظر إلى الصراف الذي جلس إلى مكتبه:

«بالعكس.. لقد بدأت أثق بك أكثر.. لقد ذكر أن السيارة اللادا حمراء.. لا أحد يعرف ذلك سوى رجال الشرطة والمجرمين، لأن ما يعرفه رجال المصرف وما نشر في الصحف أنها زرقاء... فكيف عرف ذلك ما لم يكن موهوباً مثلك؟».

الغول

نظرت لأهدابه الطويلة التي تغطي عينيه، وخديه الشاحبين..
دنوت منه فأجفل قليلاً، ثم عاد يحدق في يديه.. يديه
المسترخيتين في حجره كأنهما طائران نائمان بلا حيلة.. صدره
الصغير يعلو ويهبط ببطء...
مددت يدي ولمست خده الناعم فلم يبد أية علامة على أنه لاحظ
شيئاً..

قلت لهالة وأنا أمسد الخد الصغير:
-«في رأيي أنه مصاب بالـ autism... التوحد.. هذا هو التفسير
الوحيد».

قالت (هالة) وهي تصب الشاي في قدحين:
-«هذا ما ظننته حتى قال الطبيب النفسي إن التوحد يظهر في
أول عامين من العمر.. وله أساس وراثي قوي. هذا ليس توحدًا
على الإطلاق.. هذا تأثير ما بعد الصدمة أو شيء من هذا القبيل..»
كان (أكمل) يجلس أمامنا ينظر ليديه، ولا يبدو على الإطلاق أنه
سمع ما نقول.. صعب أن تتصور طفلاً في السادسة من العمر يمر
بهذه الحالة، خاصة وقد كان من أفضل تلاميذ صفه التمهيدي
وأبرعهم..

هذه القصة ترتبط دائماً بحدوث حمى مخية، أو التهاب فيروسي
في المخ، لكن الأطباء بالتأكيد فحصوا هذا الاحتمال عدة مرات
وأجروا رسم دماغ.. لن ألعب دور الطبيب أنا التي لا أعرف الفارق
بين الحصبة والكوليرا..
ونظرت إلى (هالة) في أسى..

(هالة) ابنة خالي الحسناء المدللة. كانت تصغرني بعام، ثم ظهر
لها ذلك العريس المتحمس الجاهز الذي أقنع أهلها بأن تتزوج وأن
تترك دراستها في الكلية وتسافر معه إلى كندا. بالنسبة لأسرتنا
كانت تعتبر محظوظة جداً.. لكنني بالفعل غير قادرة على أن أتعامل
بجدية مع شخص لم يستكمل تعليمه. هناك شيء ما ناقص.. صحيح
أن الأمومة علم في حد ذاته وأهم من أية رسالة دكتوراه، لكنني
أشعر بأنني لم أأكمل بعد.. أنا مثل الرغيف الذي لم ينضج في
المخبز، ويصعب أن يخرج ليؤكل لأنه سيكون عجيباً يثير الغثيان.. أنا
بحاجة إلى سنوات من النضج قبل أن أكون مسئولة عن بيت
وأطفال، وهذا النضج يحتاج إلى تعليم وخبرات..

بعد أعوام عادت (هالة) محبطة حزينة، ومعها صغيرها الجميل

الذي تحول إلى نبات بهذا الشكل.. تقريبًا لا يتكلم.. لا يبذل أي جهد في الأكل أو الشراب، ولو لم يدس أحدهم الطعام في فمه لما أكل للأبد.. الأطفال يلعبون ويصخبون لكنه جالس هكذا ينظر ليديه.. لو عرضت أمامه كل أفلام ميكي ماوس وباربي وسلاحف النينجا لما كلف خاطره بأن يرفع عينه ليرى ما هنالك..

جدير بالذكر أن الأطباء الكنديين فشلوا تمامًا في فهم ما اصاب الطفل، وعادت (هالة) إلى مصر لأنها لم تعد تطيق كندا.. زوجها لم يستطع ترك عمله هناك، لهذا سمح لها بأن ترحل لمصر..

ما حدث للزوجة بعد ذلك هو السيناريو المعهود.. أطباء نفسيون.. مشايخ.. الشيخ الفلاني يمكنه شفاء الأطفال عن طريق شرب عصير النمل.. هناك جني كافر يتسلط على ابنك.. يقولون إن لدغات النحل قادرة على..... مزيج من العسل وحبّة البركة صباحًا قد.....

في النهاية قالت (هالة):

«الحمد لله على أنه حي وسليم الجسد... سوف أعنى به وأمنحه كل شيء، وأعتقد أنه سوف يجتاز هذه العقبة..».

وعادت تمارس حياتها بشكل طبيعي، وإن لم تجد الشجاعة بعد كي تعود إلى كندا.. هناك الإمكانيات الطبية أوفر، لكن هنا يبدو الناس أكثر ألفة والأمور أسهل..

زرت (هالة) أنا وأمي وأختي، وهو شيء اعتدنا عمله كل أسبوع.. كانت محاولات اتصالي بالطفل فاشلة دومًا.. إنه يتعامل معي كأنني ذبابة.. فقط ينظر لي النظرة الأولى ثم ينهمك في تأمل يديه..

سألت (هالة) وأنا اجلس القرفصاء أمام الصغير:

«هل بدأ كل شيء فجأة؟.. أعني.. هل صحت يومًا فوجدت الأمر كذلك؟».

يصعب على المرء أن يتكلم براحة في هذا الموضوع.. لكنها كانت قد تأقلمت فعلاً، لذا قالت في بساطة وهي تقدم لي الشاي:

«لا شيء.. نام ليلته في غرفته الصغيرة وكان سعيدًا راضيًا.. في الصباح وجدناه بهذا الحال..».

«لم يحدث شيء ليلًا؟».

«لا شيء.. هل تحسبن أن الأطباء لم يسألونا ذات السؤال ألف مرة؟».

دنوت من الطفل أكثر ولمست يده.. إنني أرى جدارًا عظيمًا يحيط به.. جدارًا يمنعني من الوصول له، وهو الذي بنى هذا الجدار

لنفسه..

فجأة تم الاختراق... لقد انفتحت فجوة صغيرة في الجدار، فارتجفت ووثبت للخلف.. كان ما رأيته مربعاً فعلاً.. رأيت غرفة هادئة لونها أزرق.. كل شيء فيها أزرق.. ستائر زرقاء.. ملاءات زرقاء.. سقف لبني يوحى بالسمااء.. خزانة ثياب زرقاء.. دمي.. ألعاب..

الإضاءة خافتة هادئة.. ثم.. هناك شيء يخرج من الجدار.. شيء عملاق مخيف لا أعرف ما هو، لكنني لا أريد أن أراه بوضوح..

رباه!... إنني أشعر بذات الذعر الذي شعر به الصغير... أشعر به.. كل ذرة في جسدي تنتفض.. كل عصب ينبض بجنون..

لا أعرف ما حدث، لكنني كنت على الأرض بينما (هالة) تصيح في دهشة:

«ماذا دهالك؟.. لماذا تبكين يا حمقاء؟.. ولماذا سكبت الشاي؟».

لم أرد فقالت في عصبية:

«أتوقع من الناس أن يساعدوني، لا أن يأتوا ليظهروا حسرتهم وأسفهم.. هذا لن يفيدني في شيء فأنا اعرف حجم مصيبتني».

قلت لها وأنا أسعل:

«لا.. ليس هذا تأثيراً أقسم لك.. فقط شعرت للحظة أن رأسي خفيف جداً وأن وعيي يتسرب..».

ورحت أحاول تنظيف البساط بمنديل ورقي مما أسقطته عليه من شاي..

كنت انظر إلى (أكمل).. هذا الصغير رأى شيئاً مخيفاً.. شيئاً فاق قدرته على التحمل لذا انسحب إلى عالمه الداخلي...

عندما عدت لداري أغلقت الغرفة علي، ورحت أنظر في الظلام مفكرة..

الآن أعرف أن موهبتي تحركت، وقد استطاعت أن تلتقط شيئاً مما رآه الصبي.. الأمر واضح.. لكن ما الذي رآه فعلاً؟.

لص؟... لو دخل لص الغرفة لترك فجوة وآثاراً واضحين..

عفريت؟.. كل العفاريت تشق الجدار.. لكن بالطبع لست على استعداد لتصديق هذا الهراء، حتى لو كان هناك ألف خير مستعد لتصديق هذا...

ولكن لم لا؟... خبراتي تؤكد أننا لسنا وحيدين في هذا العالم.. يبدو لي أن هذه الغرفة مزدحمة فعلاً بالكائنات التي لا نراها.. هل رأى الصبي شيئاً من هذا وأصابه الذعر؟.. لماذا هو بالذات؟.

نهضت إلى الهاتف واتصلت بـ (هالة) مع إن الوقت متأخر:
ـ«هالة.. هل صرخ (أكمل) أو استغاث في تلك الليلة؟»
ـ«ليلة ماذا؟»

ـ«هل جنت؟.. لا توجد ليال كثيرة كما تعرفين».
قالت وهي تنهد:

ـ«في تلك الليلة لم أكن في البيت.. كنت في المستشفى..
جراحة نسائية بسيطة، لكن الأطباء طلبوا أن امضي الليل في
المستشفى.. أبوه هو من حكى لي في الصباح أنه كان سعيدًا
راضيًا عندما دخل الفراش.. في الصباح وجدته صامتًا غريب الأطوار،
فتركه وجاء بي من المستشفى.. وعندما وصلت بدوري أدركت أن
الأمر أخطر من غرابة أطوار..»

في الصباح قصدت دار (هالة).. كانت مندهشة من اهتمامي
المفاجئ.. لكني لم أقل الكثير.. اتجهت لغرفة (أكمل) ونزعت حذائي
لأجلس القرفصاء على فراشه، ووضعت يديه الصغيرتين في يدي..
ـ«ماذا تفعلين؟.. هل تلعبين (اليوجا)؟»

ـ«أكون شاكرة لو خرسست قليلًا».

وأطبقت على يد الغلام وأنا انظر في عينيه.. عينيه اللتين لم
يرفعهما نحوي قط..

نعم.. المشهد يتكرر.. الجدار ينشق ويظهر ذلك الوحش العملاق..
ليس غولاً ذا حافرين وأنياب ومخالب لكنه مخيف فعلاً.. الكابوس
ينتهي بخروجه فلا أعرف ما حدث بعد ذلك قط.. فقط أشعر بذات
الخوف والرعب...

له وجه مخيف.. نعم.. شعر شبيه بلبدة الأسد ثائر منتصب.. أنف
غليظ.. عينان ذهبيتان مشعتان.. أراه بوضوح تام...

سألت (هالة) وأنا استجمع أعصابي كي لا أفقد وعيي ثانية:
ـ«هل غرفة (أكمل) زرقاء اللون؟»

نظرت لي في دهشة ثم قالت:

ـ«هل تتصلين بالجن؟.. نعم هي زرقاء جميلة جدًا وقد أعددتها
بنفسي.. كيف عرفت؟»

ـ«خمنت.. هل عندك صور لها؟»

هزت رأسها ثم اتجهت إلى جهاز كمبيوتر في ركن الغرفة،
فتحتة.. وفتحت البوما من الصور الرقمية، وشرعت تعرض علي
مجموعة من الصور الجميلة لأكمل يلعب في غرفته.. يلاكم أباه..

يأكل.. يشاهد مجلات مصورة.. الخ...

ثم بدأت مجموعة صور لحفل عيد ميلاد.. هناك مجموعة من الكبار وأطفال مزعجون لا يكفون عن الصياح والتواثب.. صور مملّة كالعادة ومتشابهة..

ولكن.. أوقفني العرض..

هذه الشقراء...

«من هي؟».

«اسمها (كاري ديفيرو).. جارتنا... امرأة لطيفة نوعاً.. غير متزوجة.. لماذا تسألين؟».

كنت أنظر إلى الشعر الثائر الشبيه بشعر الأسد.. العينين الذهبيتين.. الأنف الغليظ.. هذه امرأة غير هينة.. امرأة مزعجة تجلب المتاعب حيثما كانت، والأخطر أنها تشبه ذلك الغول جداً.. ما معنى هذا؟

هل يمكن أن اجعل (أكمل) يلقي نظرة عليها؟.. لا.. هي مخاطرة كبرى وأنا لست طبيبة نفسية لأتخذ قراراً كهذا..

«هل أنت سعيدة في زواجك يا هالة؟».

كنت أشعر بالإجابة قبل أن ترد، لكنها ابتلعت ريقها وصمتت قليلاً ثم قالت:

«لا.. بصراحة.. (يوسف) عاش طويلاً في كندا وصارت له طباع تختلف عن طباعنا، وقد حسبت أنني سأعود لكن الأمر يشبه أن تتوقعي أن تنشأ علاقة طيبة بين دجاجة وأرنب.. كلاهما من طراز مختلف تماماً.. لا جدوى من التأقلم..».

وساد صمت ثقيل...

كنت أفكر.. لقد هبط علي الجواب فجأة كأنه الإلهام..

(كاري ديفيرو) الكندية اللعوب والجارة.. الزوجة (هالة) في المستشفى تجري جراحة.. الزوج والطفل وحدهما في البيت.. الطفل نائم.. هكذا وقع شيء ما، والمشكلة هي أن الصبي استيقظ في لحظة غير مناسبة فماذا رأى؟.. عقله البريء لم يستوعب شيئاً.. فقط استقر في ذهنه منظر (كاري) وقد تحولت إلى غول مخيف يخرج من الجدار ليلتهمه.. يلتهم سلامه الأسري واستقرار بيته..

في الصباح كانت الصدمة عنيفة جداً فلم يعد يتكلم، وبني هذا الجدار الشامخ حول نفسه..

قلت لهالة وأنا أغلق جهاز الكمبيوتر:

«لست مطمئنة لبقاء زوجك وحده في كندا.. هناك من سوف تحسن التلاعب به.. مثلاً تلك المرأة (كاري).. لا تطمئني لها كثيراً..».

نظرت لي في شك وقالت:

«هل صرت عالمة بالغيب فجأة؟.. أنت غريبة الأطوار اليوم».

«فلنقل إنه حدس أنثوي..».

ولم أقل أكثر وانصرفت بسرعة قبل الوقوع في أسئلة محرجة..

بعد يومين عرفت أنني كنت على حق على طول الخط. جاء صوت (هالة) عبر الهاتف يشي بأنها بكت كثيراً جداً.. كانت تقول:

«نعم.. لم أقل هذا الكلام لأحد حتى أمي.. زوجي يحب تلك المرأة ويميل لها، وصديقة من هناك تخبرني أن علاقتهما صارت حميمة بعد عودتي لمصر.. أعتقد أننا متجهان إلى الطلاق لا محالة.. قلت لك إن الدجاجة والأرنب لن ينسجما أبداً..».

قلت لنفسي: المشكلة أن يكون الأرنب خائناً كذلك..

ثم قلت لها بنبرات واضحة:

«اسمعي.. أنا أعرف يقيناً أن زوجك على علاقة بهذه الـ (كاري).. ابنك شعر بشيء من هذا وهذا سبب اضطرابه.. عليك أن تعرضيه على طبيب نفسي وتخبريه بأنه تعرض لهزة نفسية قوية تتعلق بإخلاص أبيه لأمه..».

ثم أردفت بلهجة غامضة:

«أما عن علاقتك بزواجك فهذا شأنك.. كل ما يعينني أن يشفى ابنك».

كادت تلقي المزيد من الأسئلة الفضولية لكنني أنهيت المكالمة في عصبية.. فقط قلت لها مفسرة:

«شعرت بأن هذه المرأة غير مريحة على الإطلاق.. كأنها.. كأنها غول!!».

أنا فاتنة

عرفت منذ اللحظة الأولى ما سيقوله د. (محمود الألفي) وامتلت قلقاً..

لا أعتقد أن لموهبتي دوراً في هذا، بل هي الغريزة الأنثوية أو الحاسة السادسة أو ما شئت من أسماء.. الأنثى التي لا تتوقع شيئاً كهذا ليست جديرة بلقب أنثى...

كنا جالسين في مكتبه وكان يتكلم عن (الباراسيكولوجي) كالعادة، ويحكى لي عن خبراته في هذا المجال، ثم تغيرت نظرة عينه واختفى ذلك الصفاء منها، وأدركت أنه يفكر في شيء آخر.. هذا التغير ترجمته على الفور إلى أنه يعتزم قول.....

قلت على الفور:

«د. (محمود).. من فضلك لا تقلها..».

نظر لي في دهشة ثم في فهم.. وبعد لحظة مراوغة استسلم وقال:

«لم لا؟».

«لو قلتها فلن يبقى شيء كما كان، ولسوف تصير الحياة بالغة التعقيد..».

«وهل يوجد مانع عندك؟».

«لهذا أرجو ألا تقولها.. لا أريد أن أطالب بالتفسير».

كنت أعرف يقيناً الخطبة التي سيلقيها حالاً.. أنا أحبك يا (هند) وقد صارت الحياة عسيرة من دونك.. أعرف أن فارق السن هائل لكن هناك تجارب كثيرة مماثلة ونجحت.. إن النضج أهم شيء في الموضوع وأنا ناضج.. الخ..

طبعاً هناك ألف سبب للرفض، لكن السن ليست السبب الأول.. صحيح أنه في الأربعينات من العمر وأنا في العشرينات، لكنه يبدو شاباً وسيماً ولا مشكلة هنالك.. السبب الأهم هو أن العلاقة بين متحابين ليست بالبساطة والتلقائية التي تميز علاقة صديقين. لن أتصل به بهذه البساطة أطلب رأيه.. لن آتي لمكتبه بهذه التلقائية.. لن أكلم أمي عنه ببراءة.. كل شيء سوف يتغير. الخطبة ومشاداتها التي لا تتوقف.. إنه في نفسي أروع من هذا وأهم.. الزواج والخلافات والزوج الغاضب الذي يقف بالمنامة غير حليق الذقن حافي القدمين على باب الحمام ينتظر دوره.. لا. هو أسمى من هذا..

إنني احترمك كثيراً لهذا اخترت لك دوراً أفضل.. دع هذه الأدوار السخيفة لشباب أصغر سنًا وأقل مهابة منك أرجوك..

نظرت في ساعتني ثم أعلنت أنني سأنصرف..
قال لي:

«هل عرفت حقًا ما أريد قوله؟.. كنت سأطلب منك أن تراجعني
كتابًا جديدًا لي..».

ابتسمت.. طبعًا هذه أكذوبة، فقط هو يحاول أن يثبت لي أنني
مخطئة، بينما أنا متأكدة مما شعرت به.. لا مجال للخطأ سواء لهند
ذات القدرات الخفية أو المرأة التي تشعر بكل شيء..
قلت له في خبث:

«طبعًا.. هذا هو ما خمنت.. لهذا طلبت ألا تقولها لأنني لا أجد في
نفسي القدرة على القيام بهذا..».
تنهد في ارتياح وقال:

«كما تشائين.. سوف أراجعته بنفسني»..
هكذا نزلت في الدرج حائرة.. لم أحب أن أمر بهذا الموقف ولا أريد
أن أؤذيه، فهو ناصحي.. أو my mentor كما يقول الغربيون. ما كنت
لأجتاز غابة القدرات الخارقة المخيفة هذه من دون عون. وبفضله
صرت عضوًا مفيدًا في المجتمع ولم أعد أرتجف خوفًا من نفسي..
عدت لداري شاردة صموتًا، وسألتنني أمي عما بي فقلت لها:
الحر.. لم تقتنع لكنها عرفت على الأقل أنني غير راعية في أن
أتكلم..

تناولت الغداء وتأهبت للنوم، عندما دق جرس الهاتف..
كان هذا هو النقيب (سمير البنا) ضابط الشرطة الذي يطلب رأيي
في القضايا المستعصية.. قال لي بصوت مبجوح:
«هند.. اعرف أن الوقت مزعج، لكننا بالفعل نرغب في حضورك..».
تنهدت في تعب وقلت:

«سيارة مدنية؟».

«بالتأكيد..».

سوف تأتي سيارة مدنية لتقلني، لأنني لن أجد سيارة أجرة في
هذا الوقت، ولأنني لم أعد أتحمل قدوم سيارة الشرطة لأستقلها
وسط نظرات الجيران المتسائلة، وهمساتهم «لقد خدعنا فيها..
واضح إنها فتاة من إياهم وقد لاقت جزاءها!!».

عدت أسأله:

«ماذا حدث؟».

«فتاة مخطوفة.. لن تبحثي عنها لأنها عادت فعلاً.. المطلوب منك.....».

قلت له في نغاد صبر:

«أعرف.. أعرف.. التأكد من أن قصتها حقيقية صادقة».

«هو كذلك..».

وفي الطريق في السيارة التي جاء يوصلني بها، حكى لي القصة..

(مها فوزي).. طالبة في كلية الآداب. خرجت منذ يومين لزيارة صديقة لها واستقلت سيارة أجرة الساعة الثالثة بعد الظهر، لكن السائق لم يوصلها حيث أرادت.. انطلق كالمجنون في الشوارع وفي شارع جانبي اقتحم السيارة رجلان قاموا بوضع منديل مبتل على أنفها فغابت عن الوعي.. عندما أفاقت كانت في بناية مهجورة خارج المدينة. كانت وحدها فتمكنت من الفرار وعرفت أنها في الجيزة.. هكذا تمكنت من العودة لدارها..

«وما الذي لا يريحك في القصة؟».

قال وهو يحك رأسه:

«كل شيء.. الفتاة لم تُمس.. لم يُمس مالها ولا عرضها فلماذا خطفوها؟.. لم يطلب أحد فدية.. موضوع المنديل المبتل هذا يحدث في السينما لكنه غير ممكن في الواقع.. القصة كلها غير مريحة..».

دخلنا مكتبه في قسم الشرطة، وهناك كان ثلاثة من الضباط يجلسون وأمامهم فتاة دامعة في سن الكليات ومعها أبوها المذهول الغاضب.. كان يردد بلا توقف:

«لم يعد هناك موضع آمن في البلد.. لا أعرف ما تقومون به أصلاً.. ما دوركم؟».

قال النقيب وهو يجلس خلف المكتب ويجرع جرعة من الماء من زجاجة:

«سوف نجد هؤلاء القوم يا سيدي.. ثق في هذا..».

ثم أشار لي كي أكلم الفتاة.. نهضت وجلست جوارها فأجفلت، لكنني أحطت كتفها بذراعي بطريقة فتاة تريد أن تطمئن أختها، ونظرت في عينيها..

كاذبة.. كاذبة.. لا شك في هذا..

هناك (علاء).. هناك شاب وسيم لا يقبل أهلها به.. (علاء) وزواج عرفي.. (علاء) يطالبها بالفرار معه ليتزوجا بشكل رسمي.. الفرار.. الندم.. الحيرة.. بعيداً عن البيت لمدة يومين.. لا بد من العودة... لكن

لابد كذلك من تفسير.. والتفسير هو قصة شائعة عن سائق الأجرة الذي اختطفها.. لن يعرف أحد شيئاً..

قلت لها وأنا ابتسم:

«هل تمكن (علاء) من بيع جهاز المحمول بسعر معقول؟».

نظرت لي في دهول وتوحش وهتفت:

«عم تتكلمين؟».

«بالطبع اضطررت لإعطاء المحمول لعلاء كي يتخلص منه.. ما كان يمكن أن تعودى به وتستقيم قصتك..».

رأيت الأب يتصلب وتتسع عيناه.. هو يعرف الاسم ولديه شكوكه الخاصة إذن..

هنا استدرت إلى النقيب وقلت بلهجة من يلقي حقيقة لا شك فيها:

«اسمه (علاء).. لم يختطفها لكنه سيعترف لكم بكل شيء.. بعد يومين من فرارها قررا أن الخطة مستحيلة التنفيذ..».

نهض الأب وانقض علي وقد تحول إلى ثور آدمي غاضب:

«من أنت؟... أمرك ان تحرسي!!».

وقبل أن يبلغني استدار وهوى بصفعة مدوية على خد الفتاة.. قبل أن ينقض عليه الضباط لمنعه من التماذي.. وجروا الاثنين خارج الغرفة..

نظر لي النقيب (سمير) باسمًا وقال:

«لقد حلت لي المشكلة.. كنت أشك في شيء كهذا لكن إثباته كان صعبًا، والآن من الواضح أن الأب والابنة سيتكلمان كثيرًا ولسوف تتضح الحقيقة.. خطوة كهذه أعفتنا من أشهر من البحث عن سائق سيارة الأجرة المزعوم..».

ساد الصمت، فقلت له:

«هل بوسعي العودة لداري؟».

«بالطبع.. سأوصلك..».

وهنا لاحظت أن نظراته غريبة.. لقد شرد قليلاً ثم سافر ذهنه إلى أراض غريبة.. يمكنني أن أخمن ما يفكر فيه الآن.. سوف يقولها..

قلت في توتر:

«بالله عليك.. لا تقل ما تنوي قوله..».

نظر لي للحظة ثم تنهد وقال:

..«ماذا أنوي قوله؟».

..«لا تقله والسلام.. أكره أن أضايقك..».

ساد الصمت من جديد وبدا عليه نوع من الضيق. كانت سنه مناسبة وهو وسيم فعلاً لكنني لا أريد.. لا أعرف السبب لكنني لا أريد.. ماذا حدث لي؟.. لماذا تحولت إلى فاتنة رجال بهذه السرعة؟.. كلهم يقع في غرامي وأنا لا أعرف السبب ولا أريد هذا الجو العاطفي المتوتر.. دعك من أنهم يعرفونني منذ زمن فماذا تغير؟.. هكذا ظلت صامته طيلة رحلة السيارة، وعندما نزلت قال لي:

..«فكري في الأمر..».

قلت في خبث:

..«أفكر في ماذا؟.. أنت لم تقل شيئاً».

وفرت بسرعة قبل أن يقول أي شيء..

في غرفتي رحت أتأمل صورتي في المرآة.. نفس الوجه ونفس الملامح.. ربما أكثر أناقة في هذا الثوب، لكن هذا لا يعني شيئاً.. هل أنا أظرف؟.. أذكى؟..

ثم خطرت لي فكرة.. زجاجة العطر التي أرسلتها لي صديقتي المقيمة في فرنسا. هذا العطر اسمه (أنوثة) وتزعم العبارات على الزجاجة أنه لا يقاوم وأن الرجال سيلاحقونك. عبارة دعائية سخيفة لكن الحقيقة هي أنني لم أستعمل هذا العطر إلا اليوم.. هل هذا العطر يعمل فعلاً؟.. هل له خاصية لا يعرفها من صنعوه؟. هل يؤدي عمل الغريمونات التي تنبعث من الحشرات؟.

دخلت אחتي الغرفة لتجلب شيئاً ما، ثم توقفت ونظرت لي.. قالت صاحكة:

..«لشد ما أنت فاتنة اليوم!.. ليتني كنت رجلاً لأطلب يدك..إن الرجال محظوظون فهم يفوزون بالجمال في النهاية، بينما نفوز نحن بزواج قبيح يعبث في أصابع قدميه طيلة الوقت!».

ثم نظرت لي في دهشة وأنا أنجه إلى الحمام وسألتني:

..«ماذا تفعلين؟».

قلت وأنا أفتح الغطاء الزجاجي:

..«أسكب هذا العطر في البالوعة.. أنا أمقته ويبدو أنه سوف يسبب لي مشاكل كثيرة، ولن أعطيك إياه لأنه سيسبب لك مشاكل أكثر. أنت تعرفين أنني أملك حاسة سادسة لا تخطئ... صدقيني في هذا..».

الكلب يعرف أكثر

لم تكن تجاربي مع الكلاب رائعة قط..

معظم هذه التجارب يتلخص في مشهد واحد: أنا واقفة وظهري للجدار أصرخ، بينما كلب عال شامخ غاضب يزوم بلا انقطاع من بين أسنانه وشعر عنقه منتفش، يقطع علي الطريق.. هناك درجات لعواء الكلب، لكن أسوأها ذلك الزوام الخافت المنذر بالويل..

هنا يظهر أحدهم ملوحًا بعصا ويطرد ذلك الكلب المتمرد وأتنفس الصعداء. هذه هي علاقتي بالكلاب وهي علاقة ليست جميلة جدًا كما ترى..

ماذا عن الاتصال النفسي؟.. لم يحدث قط، وهو لغز غريب.. خيل لي دومًا أنه من السهل الاتصال بالحيوانات العجماء لأن قواها النفسية قوية، ولأنها أرواح فقط لا يخفي حقيقتها تفكير عاقل، لكنني دائمًا مخطئة في هذا...

فشلت في الاتصال بالقطط أو الكلاب أو الأرانب أو الخيول. خيل لي ذات مرة أن بوسعي الاتصال بدجاجة مدعورة ثم عرفت أن هذا مستحيل..

إلى أن جاءت القصة التالية..

كنت عند خالتي.. إن لديها خمسة أطفال هم أقرب إلى الشياطين، وقد قضينا وقتًا مزيجًا من الممتع والعصيب.. المجاملة كذلك تجعل لحظات حياتك أصعب، عندما يقذف أحدهم بالكرة في عينك، فأنت لا تجرؤ على صفعه أو إلقائه في الشارع من النافذة، وإنما تبسم لأن خالتي ستتضايق لو فعلت ذلك، وعندما تتضايق خالتي تتضايق أُمي..

كان أخي يلعب معهم.. وكانت أُمي تثرثر مع أختها، عندما انفتح الباب ودلف ذلك الشيء المرعب..

كلب!.. لقد اقتنوا كلبًا أخيرًا، وهو شيء غير مفهوم خاصة مع مساحة شقتهم شديدة الضيق.. هذا الكلب يحتاج إلى مزارع واسعة ممتدة يرمح فيها ليصطاد البشر..

أحاط الأطفال بالكلب وراحوا يشرحون لي كيف أنه مسالم ودود.. فقط علي ألا أبدي ذعرًا أكثر من اللازم فهذا يوتره وقد يقضم ذراعي كلها..

«ما اسم هذا الشيء المفزع؟».

«اسمه (ميلو)».

كان صموتًا بالفعل، وقد قررت أن أتجاهله قدر الإمكان.. لكنه من

الطراز كثير التدخل الذي يمقت أن يكون وحيداً، لذا كنت أجلس إلى المائدة لأشعر بشيء يلحق ساقبي أو يشم قدمي فأجفل.. عندها يقول لي الأطفال:

«حاولي ألا تشيري أعصابه بهذا التوتر.. الكلاب حساسة جداً».
كأنني لا أملك أي نوع من الحساسية، وكأنني يجب أن أظل صامتة بينما هذا الغول يلتهم ساقبي..

في نهاية اليوم أعلنت خالتي خبراً طريفاً.. إن زوجها قد ابتاع أرضاً صحراوية في منطقة (وادي النطرون)، وهو يلح عليها أن تذهب معه والأولاد لقضاء يوم هناك..

«سوف تأتين معنا.. سوف نستأجر سيارة (فان) تتسع لهذا العدد».
قالتها لأمي في مرح، فوافقت على الفور.. كنا في الإجازة الصيفية ولم يكن هناك ما يشغلها أو يشغل أختي أو أخي..
صاح الأطفال في مرح:

«سوف نأخذ معنا الكلب»..

كانت خالتي مترددة طبعاً، لكن الفكرة لم تبد سيئة.. الكلب البائس بحاجة إلى مساحات يركض فيها، ومن العسير تركه وحده في الشقة يوماً كاملاً لأنه سيدمر كل شيء...

الرفض الحقيقي كان من جهتي أنا.. لن اقضي يوماً كاملاً مع هذا الشيء، لكن أمي أقنعتني أنه سيكون في عهدة الأطفال ولن يضايقني في شيء.. إن بشرتي شاحبة وبحاجة إلى بعض الشمس.. الخ..

حسن.. هكذا تبدأ الكوارث..

لو رغبت في قضاء يوم ممتع في الصيف، فلا تذهب لوادي النطرون من فضلك.. سوف تحرق الشمس كل خلية في جسدك، ولن تعرق أبداً لأن الشمس ستحرق كل خلية عرق في جلدك.. سوف ينسف الصداع مخك نسفاً، وسوف يدخل الهواء الساخن إلى رئتيك فيحرقهما.. دعك من الذباب.. الذباب الصحراوي المرعب الذي يحاول أن يقضم قطعة من لحمك..

كنت مرهقة جداً ومتعبة في السيارة الفان.. وقد لحقت بنا سيارة نصف نقل يركب فيها زوج خالتي مع سائق، لأنه ينوي نقل بعض الأشياء من هذا المكان. بلغنا بيت الميعاد في الصحراء، ولا أعرف سبب الحماسة التي تدعو إنساناً لشراء أرض وسط هذا القفر..

كان البيت قد بيع مع الأرض، ويخص ملاك الأرض السابقين الذين – طبعاً – أخذوها بوضع اليد. مجرد بيت صغير من طابق واحد بني من قرميد أحمر، وله باب خشبي مغلق وعدة نوافذ يبدو كأنها لم

تفتح منذ دهور..

كنت أتوق للدخول.. مكان ظليل واحد في هذا العالم. العربة ظليلة لكنها جمعت كل حرارة الكون داخلها وهي غير مكيفة. عالج زوج خالتي الباب الخشبي فانفتح، ومن الداخل تصاعدت رائحة عطن ورائحة أثاث قديم.. قال لي باسمًا:

«لا تدخل على الفور.. تمهلي..».

قلت له لاهثة:

«لست ممن يخافون الفئران..».

قال وهو يدق الباب بقدمه:

«من تكلم عن الفئران؟.. أتكلم عن الثعابين والعقارب طبعًا!».

دخلنا البيت بحذر، وكان الزوج قد زاره عدة مرات، فلم نتوقع مفاجآت بشعة.. هناك في المدخل (أنترية) عتيق يبدو كأنه يمت لأربعينات القرن الماضي.. لا توجد سجاجيد ولا مفروشات طبعًا، لكن هناك الكثير من الخشب بحالة معقولة.. وقد فتشنا المكان بعناية بحثًا عن مفاجآت غير سارة فلم نجد شيئًا..

خرجت من البيت للحظة، وتركتهم بالداخل.. هنا وجدت مشاهدًا مقلقًا...

الطفل الأصغر يجذب الكلب من طوقه ليرغمه على دخول البيت، والكلب متحفز يحفر الأرض بمخالبه كي لا يدخل.. كان شعر عنقه متصلبًا وشعر ذيله منتفشًا وثمره حالة من التوتر العارم.. بالطبع هو أقوى من الصبي وأثقل لذا لن يستطيع تحريكه..

لماذا يرفض الدخول بهذا الإصرار؟.

دنوت منه في حذر، ونظرت في عينيه المعبرتين.. كل عيون الكلاب معبرة جدًا.. حاولت أن أفهم ما هنالك لكنه لم يحبني قط.. كاد يقضم يدي وأطلق زمجرة مخيفة، فقال لي الطفل:

«ابتعدي يا (هند) عنه.. هو لن يعضني لكنه لا يثق بك..».

هنا ظهر زوج خالتي فسألته عن سبب توتر الكلب، فقال بلا مبالاة:

«لقد دربناه على عدم دخول أي منزل غريب.. يجب أن يكون بريًا..».

ثم نادى سائق السيارة نصف النقل وبدأ ينتخب بعض قطع الأثاث لتحميلها على السيارة.. سألته عن السبب فقال إن بعض قطع الأثاث ثمينة يمكن أن تكون أنتيكات حقيقية، فقط تحتاج إلى نجار بارع وحرفي دهان خشب أكثر براعة..

..«سوف ترين قطع الأثاث هذه بعد تجديدها.. تحف فنية».

تم نقل كل شيء وتناولنا وجبة سريعة، ثم لعب الأطفال لعدة ساعات مع الكلب الذي بدأ يهدأ قليلاً.. وعند الغروب تحركت السيارتان عائدتين إلى المدينة..

عند بيت خالتي ترجل سائق العربة نصف النقل، وتعاون مع زوج خالتي على نقل قطع الأثاث إلى الشقة الخالية التي تملكها الأسرة في الطابق الأول.. بينما يسكنون في الطابق الرابع...
أخيراً عدنا إلى بيتنا منهكين، فأخذنا حماماً وتناولنا وجبة عشاء، وقلت لأمي:

..«هذه آخر نزهة من هذا الطراز أقوم بها في حياتي.. في المرة القادمة سيكون افضل ما تقومين به هو تركي وشأني..».
..«أنت غدوت صعبة الإرضاء فعلاً..».

دخلت فراشي فأغلقت النور وساد ظلام مريح.. أشعر بأن كل عضلة من جسدي في اتجاه وأني ما زلت أركب السيارة الكريهة..
الشمس.. الشمس... الفجر يقترب فهل نمت حقاً؟.

نباح الكلب.. ماذا أتى به هنا في أحلامي؟.. لماذا يركض خائفاً؟..
في هذه اللحظة أدركت الحقيقة: إنني على اتصال به.. هذه هي المرة الأولى التي أدرك فيها أن روحي على موجة واحدة مع موجة حيوان... أرى كل شيء من عينيه.. رؤية منبعجة ومن أسفل.. أشعر بالخطر.. أشعر به.. ولكن.. من أين يأتي الخطر؟.. هذه الأريكة العتيقة لا شك في هذا... لا أريد ان أقرب منها.. أحشاها كثيراً... كل ذرة في جسدي ترفضها..

صحوت خائفة أرتجف.. نظرت للمنبه.. التاسعة صباحاً..
لا أعرف كيف نهضت فغسلت وجهي وارتديت ثيابي، ثم خرجت والجميع نيام.. ركبت سيارة اجرة قاصدة بيت خالتي..
الشقة في الطابق الأول كانت مفتوحة.. عرفت هذا..
اقتحمت الشقة لأجد زوج خالتي واقفاً يثرثر ويضحك، ورآني فبدت عليه معالم الدهشة.

كان الأنثريه مكديساً هناك حيث تركناه أمس.. ما زال يحمل رمال الصحراء وغبار الطريق، ويبدو أن خالتي وزوجها استيقظا مبكراً فقررنا النزول لمعاينة ما عادا به من الصحراء..

خالتي كانت جالسة على الأريكة في وضع تمثيلي، كأنها تقلد واحدة من الأميرات أو ممثلات الماضي الغاتيات.. تتكلم من أنفها وقد وضعت ساقاً على ساق..

كانت حاسة الخطر قد بلغت ذروتها عندي، فجريت وجذبتها من ذراعها صارخة:

«انهضي!!».

«هل جنت يا هند؟».

لكني كنت قد أبعدتها فعلاً... ووقف الزوجان لي في ذهول كأنما يتساءلان عما إذا كان وقت استدعاء عمال مستشفى المجانين قد جاء أم لا. درت حول الأريكة في حذر.. نعم.. يمكنني سماع الصوت الغاضب..

كانت هناك عصا مكنسة على الجدار فمدت يدي وأمسكت بها، وبحذر انتزعت قطعة من تنجيد الأريكة.. كانت ممزقة في هذا الجزء بالذات.. على الفور تعالى الفحيح الغاضب.. ودنوت ودنا زوج خالتي لننظر في رعب إلى الحيوان الأسطواني الضخم المغطى بالحراشف الذي اتخذ مسكنه في حشو الأريكة، والذي أخرج رأسه وراح يطلق فحيحاً..

هتف بصوت مبحوح:

«الحية المقرنة.. الطريشة!!.. أخطر ثعبان في مصر.. عرفتُها عندما كنت في الجيش، وسمها يقتل خلال نصف ساعة!!».

الحية التي لم تجد مكاناً مريحاً من قيظ الصحراء سوى هذه الأريكة، ونحن الذين لم نجد سوى هذه الأريكة لنأخذها معنا إلى ديارنا.. لقد كانت خالتي تجلس فوق الحية حرفياً..

قال زوج خالتي وهو لا يبعد نظره عن الأريكة:

«ابتعدا.. إن هذا النوع الصحراوي يقفز قفزاً ولمسافات واسعة.. يمكن أن تجديها في صدرك في أية لحظة.. اطلبي شرطة النجدة فلا أعرف حلاً آخر!».

وبينما دارت الأحداث كما ينبغي أن تدور، رحت أتذكر الكلب.. الكلب الذي لا تخطئ حاسته.. والذي استطعت بفضل موهبتي أن أعرف لمحة مما يفكر فيه، ومن المؤسف أنه لم يدخل هذه الشقة وإلا لأثار رعبه ريبتنا..

بيني وبينك.. اعتقد أنني يمكن أن أحب الكلاب لو منحت نفسي الفرصة والوقت اللازمين لذلك.. إنها كائنات شديدة الحساسية والذكاء، ومن الصعب ألا يقع المرء في حب أي كائن ذكي حساس.

أضواء

يجب علي أن أقبل هذه الحقيقة.. إنها محاولة للاتصال..

كانت تلك الفيلا الصغيرة ذات الطابق الواحد في نهاية شارعنا، وكنا نعرف أن أحداً لا يقيم فيها منذ زمن لأن سكانها بالخارج معظم العام.. في النهاية تلخص هؤلاء السكان في السيدة (عواطف). لم أرها قط لكنني عرفت ممن حولي أنها عجوز مسنة غريبة الأطوار، وكانت بدورها زائرة غير منتظمة.. تدب الحياة في الفيلا وتفتح النوافذ فنعرف أنها هناك..

من كنت أعرفه فعلاً هو قريبها (عادل)، وهو شاب ظريف مهذب كان يزور أبي كثيراً من وقت لآخر.. كان ضابطاً بحرياً يعمل في الإسكندرية، ويتردد على قريبته العجوز من حين لآخر ليمضي يوماً أو يومين، ثم يزورنا ليودع أبي..

لم يكن يتكلم عنها كثيراً، لكنه كان يعطي إيماءات ساخرة خافتة توحى بأنها مجنونة فعلاً... برغم هذا كان يجلب لها الكثير من الهدايا، كما كان يحمل لها الأسماك البحرية التي يصعب أن تجدها هنا..

بالطبع لم يكن أبي موجوداً في الفترة الأخيرة، لذا لم نر (عادل) لأنه كما قلت مهذب جداً، ولا يمكن أن يزورنا في غياب صاحب البيت..

في مراهقتي كنت أتخيل السيدة عواطف كما يظهرون هذا الطراز من النساء في السينما: عجوزاً متشككة تربى الكثير من القطط، وتدخر مال قارون في علب طعام محفوظة.. ربما هي تمارس السحر الأسود كذلك أو تأكل الخفافيش.. الحق إنني كنت أخافها كثيراً، وساعد على ذلك أنني لم أرها قط.. الخيال يضخم الأشياء ويجعلها غريبة..

بالطبع لا بد أن تكتمل قصة هاته النسوة بأن يموت مقتولات أو يموتن مينة شنيعة، ولم تخب السيدة (عواطف) ظنوني..

هناك فتاة تعسة مصابة بفقر الدم اسمها (هاله) تتردد على بيت العجوز لتنظيفه، وقد دخلت البيت في ذلك اليوم وغابت بضع دقائق في الداخل، ثم خرجت وصراخها يهز الشارع هزاً..

خرج الجميع ليرى ما هنالك، ووقفت مع أمي وأختي في الشرفة لنعرف مصدر الصراخ..

كانت الفتاة تولول.. وفهمنا من الكلام أن السيدة عواطف ماتت.. عندما جاءت سيارة الإسعاف وسيارة الشرطة، كان ما رأيناه بشعاً برغم أننا رأيناه من مسافة..

كانت المحفة التي حملها رجلا الإسعاف مغطاة، لكن الغطاء تحرك فأدركنا أن هناك جثة متفحمة تمامًا.. لقد احترقت العجوز..

كانت هالة تصرخ وتولول، وعندما استعادت صوابها دعته أمي إلى بيتنا لتعرف منها ما حدث..

قالت هالة راجفة:

«لابد أن المدام كانت تسخن شيئًا على الموقد عندما تمسكت النار بثوبها المصنوع من قماش صناعي.. لابد أنها عرفت أنها تحترق وهرعت إلي الحمام محاولة أن تغمر جسدها في المغطس.. لكن النار كانت أسرع وسقطت على الأرض وماتت.. لهذا السبب لم تشتعل الفيلا كلها لأن النار حوصرت في الحمام.. مسكينة..».

وراحت ترتجف.. ثم اضافت كأنها تخشى أن تتهم بالرقعة:

«مجنونة – فليرحمها الله - ومخبولة تمامًا لكن من الحرام أن تلقى ميتة كهذه..».

سألته في حذر:

«هل تعتقدين أنها أشعلت النار في نفسها؟».

قالت في صلابة:

«مستحيل.. كانت تعشق الحياة عشقًا والموت هو الشيء الوحيد الذي يثير ذعرها..».

بدا لي هذا مقنعًا.. ويبدو أن الشرطة اقتنعت كذلك..

كان هذا منذ عام، وقد ظلت الفيلا مغلقة من حينها، لكنها صارت ذات ثقل خاص في شارعنا.. هذا مكان ملوث بالموت.. مكان شهد أحداثًا درامية عنيفة.. منذ عام كانت هنا امرأة حية تصرخ وهي تحترق..

منذ أسبوع كنت أقف وحدي في الشرفة، أنظر لظلام الليل مفكرة في عشرات الأشياء التي تفكر فيها الأنثى عندما تنظر لظلام الليل..

دخلت أمي الشرفة لتجمع الغسيل، وكانت تمارس هذه العملية ليلاً لأنها تكره أن يراها الجيران. رحت أنظر للأفق وأنا أترثر معها ثم سألتها:

«هل عاد (عادل) لفيلا قريبته؟».

قالت وهي تفرد قطعة من الغسيل على يدها:

«كيف لي أن أعرف؟.. ولماذا تسألين؟».

أشرت إلى الفيلا.. إلى تلك الأضواء المتقطعة الصادرة منها. في الواقع بدا لنا أن هناك من يضيء النور ثم يطفئه بلا توقف..

نظرت أمي في دهشة، وغمغمت:

«لا أعرف مصدر هذه الأضواء بصراحة.. لكن من المؤكد أن أحدًا بالداخل..».

ظللت أرقب المشهد للحظات، واعترفت لنفسي بأن فيه شيئًا رهيبًا لا أعرف كنهه.

في اليوم التالي جاءت (هالة) - الفتاة التعسة - لتساعد أمي في شغل البيت كعادتها، فسألتها أمي عما إذا كان أحدهم قد جاء لفيلا السيدة (عواطف).. هل عاد (عادل) قريبها؟.

قالت (هالة) في رعب:

«لا يا سيدتي.. لكن أكثر من واحد من سكان شارعكم رأى هذه الأضواء.. يعتقد البعض أن هذا لص.. لكن الفيلا خالية كما تعلمين.. البعض يعتقد أن.... بسم الله الرحمن الرحيم».

طبعًا عرفنا ما تقصده بهذه البسمة، فاتهمتها أمي بالجنون وطلبت منها أن تسكت..

بدأت أشك بالأمر فعلاً عندما رأيت الأضواء ذاتها في الليلة التالية.. كان الضوء يتوهج لفترات ثم يتوقف.. يضيء فترات طويلة.. ثم قصيرة.. باستمرار مريب.. حاولت أن أغمض عيني واستجمع موهبتي لفهم ما يحدث لكني لم أر شيئًا..

هنا دخلت أختي الشرفة وراحت تراقب الأضواء بدورها.. والدهشة تعقد لسانها.. ثم هتفت:

«لولا خشيتي أن تتهميني بالجنون لقلت إنها إشارات ضوئية..».

«إشارات؟.. تشير لماذا؟».

راحت تشير :

«هذه إضاءة تدوم لفترة قصيرة.. ثم إضاءة طويلة.. نقطة.. شرطة.. شرطة.. نقطة.. شرطة.. شرطة.. نقطة...».

سألتها في حدة:

«هل تعنين إنها إشارات موركس؟.. ومن يرسلها؟».

«لا أدري.. لكن يخيل لي أن لها معنى..».

وراحت تدون على ورقة صغيرة ما تراه مستعينة بكتيب صغير:

«نقطة.. شرطة، ثم.. شرطة.. نقطة.. شرطة.. شرطة.. نقطة..، ثم نقطة،

ثم نقطة شرطة.. نقطتان.. ADEL.. الإشارات تقول ADEL».

نظرت لها في ذهول.. ما تقوله غريب لكنه منطقي..

السيدة (عواطف) ترسل لنا رسالتها الأخيرة.. وهذه الرسالة تحمل اسم (عادل).. لماذا؟.. الغرض هو أن نخبرنا باسم قاتلها!.. لا أرى الموضوع في أي ضوء آخر..

العجوز الثرية التي قتلها قريبها. خبر معتاد في صفحات الحوادث.. ضربها ففقدت الوعي ثم جرها للحمام وأشعل فيها النار، وغادر الفيلا قبل أن يراه أحد.. لكنه نسي أن أرواح القتلى تنتقم.. الروح قلقة تريد أن نظفر بالقاتل..

رحت أراقب الأضواء في رعب..

ولكن من قال إن الأرواح تجيد شجرة مورس؟.. لا مشكلة. لا بد أنها تجيد أشياء كثيرة.. هذا مخيف لكنه منطقي..

في الصباح جاءت (هالة) فسألتها إن كانت تملك مفتاح الفيلا؟. ترددت قليلاً ثم اعترفت بأنه معها.. كانت العجوز قد أعطتها نسخة منه، وقد ماتت العجوز فلم يعد هناك من تسلمه المفتاح.. قلت لها:

«أريده!.. لا تسألي عن شيء. سوف أعيده لك غداً»..

وناولتها بعض الأوراق المالية لأشتري سكوتها، وبعد ساعتين كنت في الشارع أمام الفيلا، أنظر حولي.. الشارع مزدحم وليس من يلاحظ أي شيء. ببساطة فتحت البوابة الحديدية واجتازت الحديقة نحو البيت..

من يتصرف بطريقة طبيعية لا يجذب انتباه أحد، وأنا موقنة من أن مشاكل الناس تعوقهم عن ملاحظة فتاة نحيلة تدخل فيلا قديمة عند الظهر.

أولجت المفتاح في القفل ودخلت..

المكان مظلم رطب.. بالطبع لم ير الشمس منذ ذلك اليوم الرهيب، فلولا أننا في الظهيرة لمت رعباً. لكنني لست خائفة.. لقد جئت لأساعدك يا سيدة (عواطف).. أنت تعرفين هذا.. سوف أدخل الحمام وأحاول أن أحس بما حدث بالضبط.. ربما وجدت دليلاً أقدمه للشرطة. أنا مثلك أكره أن يعيش قاتل طليقاً ينعم بمالك بعد ما فعله بك.. فقط لا تشيري هلعي أرجوك..

لحسن الحظ كانت النوافذ غير محكمة الغلق وكانت الشمس تتسرب لتغمر كل شيء.. ضوء الشارع عالية.. هذا جعلني أكثر شجاعة.. إن معي كشاقاً على كل حال..

أنا الآن في الغرفة التي كان يأتي منها الضوء.. غرفة خالية إلا من فراش وكومود يبدو أنهما مستعملان ورائحة العطن تملؤها.. هناك فئران على ما أعتقد مما يجعل من الواجب أن أنتهي من هذه

المهمة. اتجهت إلى مفتاح النور وتفحصته فوجدته في وضع الإضاءة.. هذا غريب. لا يوجد ضوء هنا.. إذن الضوء مفصول عن الفيلا كلها ربما منذ الحادث (أو الجريمة، وهذا يؤكد من جديد نظرية الشبح الذي يبعث رسالة...

خرجت من الغرفة وبحثت عن الحمام..

بالفعل كان الحمام في مواجهة المطبخ. دخلته حيث كانت الشمس تغمره متسللة من نافذة ذات قضبان، ووقفت للحظات أنتظر الشعور بشيء.. لا بد أن يتم الاتصال الآن.. لو لم يتم فمتى؟... أنا في دارك يا سيدتي.. أنا أعرف ما تريدن....

لكن لا شيء...

تجربة فاشلة تمامًا.. من الواضح أن علي أن أرحل..

وقفت من جديد في الصالة الواسعة أصغي السمع..

هل هذا صوت أنين...؟.. بالفعل هو كذلك...

مشيت نحو مصدر الصوت وقلبي يرتجف.. نظرة واحدة.. لو وجدت ما يريب سافر كالغتران وأجلب معي رجل شرطة أو بعض الجيران..

الصوت آت من وراء هذا الباب. ماذا وراءه؟.

فتحت الباب في حذر فرأيت ظلامًا دامسًا وشممت رائحة كريهة جدًا.. بعد ما اعتادت عيناى الظلام أدركت أن هذا قبو.. قبو يقع تحت الفيلا، نهبط له عن طريق درجات..

هل أهبط؟.

فتحت الكشاف وصوبت حزمة من الضوء على الجدران، ثم جعلتها تنحدر لتكشف ما يحدث هنا.

كان المشهد الذي رأيته غريبًا حقًا ولعله آخر شيء توقعته..

كان هناك ذلك الجسد الملقى على الأرض تحت لوحة توزيع الكهرباء، وفي يده عصا مكنسة طويلة يتمسك بها.. رفع رأسه الواهنة ونظر لي فرأيت وجهًا كوجوه المجانين، وعينين لامعتين، ولحية كثة.. لكنني عرفت كذلك أنه (عادل)...

قال بصوت مبحوح واهن:

«سا.. ساعديني!».

وأدركت على الفور أن قدمه مكسورة بشكل مروع..

لم أنتظر أكثر ورحت أثب الدرجات مندفعة إلى خارج الفيلا لأصرخ... لأطلب الشرطة والإسعاف..

وكنت قد بدأت أفهم ما حدث، وفيما بعد عرفت أن هذه هي

الحقيقة بعينها..

بعد وفاة العجوز - التي لا ذنب له فيها - عاد (عادل) منذ أسبوع إلى الفيلا، فلم يعرف أحد أنه هنا، وقد قضى ليلته في تلك الغرفة المظلمة على الشارع، وفي الصباح أراد أن يبحث عن شيء في القبو.. نزل هناك في الظلام فانزلقت قدمه من أعلى الدرج وتهشمت تمامًا. هكذا وجد نفسه في مأزق حقيقي.. هو وحده يرقد على قاع القبو حيث لا أحد يسمعه أو يعرف أنه هنا. لم يكن معه جهاز الجوال ولو كان معه لما وجد شبكة الاتصال عاملة في هذا المكان..

لعل المسكين صرخ يومين آملًا أن يسمعه أحد في الشارع الصاخب، لكن لا جدوى. هنا تذكر أن هناك غرفة واحدة مضاءة في الفيلا كلها هي التي كان يقيم فيها. خطر له أن الضوء المتقطع يلفت الأنظار. هكذا زحف بجسده الواهن والتقط عصا مكنسة قديمة، وراح يعبث في لوحة توزيع الكهرباء ليقطع الكهرباء في تلك الغرفة ويعيدها، وقرر أن يمارس هذا النشاط ليلاً ليلفت الأنظار..

كان يعمل في البحرية، لذا قرر أن يرسل حروف اسمه بطريقة موزع عن طريق الضوء المتقطع. كما كان يحاول أحيانًا إرسال إشارة الاستغاثة الشهيرة SOS (ثلاث نقاط.. ثلاث شرط.. ثلاث نقاط)..

قال لي:

«كنت قد ئنست تمامًا.. وصرت أفعل هذا بشكل تلقائي، لكني كنت متأهبًا للموت».

هكذا عرفت أنه لم يقتل العجوز.. وإنني لأحمد الله بشدة على أن غبائي لم يطل يومًا آخر، وإلا لوجدنا جثة أخرى في القبو، فما كان هذا المسكين ليتحمل يومًا آخر بلا طعام ولا شراب.

حفل صاحب

من وقت لآخر أتلقي دعوة لحضور حفل زفاف أو خطبة واحدة من صديقاتي..

لا تنس أننا في سن التخرج، وأن الفتيات كبرن. بعضهن لم ينتظرن يوم التخرج ليرتبطن. هذه لحظات مليئة بالشحن تعرفها كل فتاة، دعك من القلق الداخلي بصدد قدوم دور الواحدة منا. متى؟... هل تكون فرصة جيدة؟.. ماذا لو تأخر الأمر أكثر من اللازم؟.

يجب أن تمتلك الفتاة حاسة شديدة التعقيد كي تنتظر حتى ترى أفضل الفرص، وفي الوقت ذاته لا تفوت فرصة ممتازة.. الأمر يشبه المضارب في البورصة.. لا يجب أن يتعجل ويبيع فوراً، لكن عليه كذلك أن يشعر بحاسته بأفضل فرصة للبيع. طبعاً لا ينطبق هذا الكلام على قصص الحب وإنما ينطبق على الزواج التقليدي العادي.. زواج الصالونات كما نسميه.

متى يأتي دوري؟.. مع من؟.

من الغريب أنني أملك هذه الحاسة العجيبة، لكن الغد مستغلق أمامي تماماً.. فقط أمني نفسي بأنني لحظتها سأعرف إن كان صالحاً أم لا..

هأنذا في حفل خطبة (شاهنده) صديقة الدراسة الثانوية، والتي صارت طالبة في كلية علوم الآن، وهي فتاة طريفة، لكنها أقرب لعجوز طيب قصير القامة يضع عوينات غليظة، له أسنان أرنب لطيفة مما جعلها تظفر بين صديقاتها باسم (أرنوب)، ولا يعني هذا شيئاً فيما يتعلق بحبي لها..

الليلة أراها فأرى حورية من حوريات الأساطير.. لقد تخلصت من العوينات بعدسات ملتصقة ملونة، وبدت أطول قامة، كما اعتنى بتجميلها خبير من خبراء التجميل، ويبدو أنها قومت أسنانها العام الماضي. فلم يبق إلا أن تكون هي سندريلا وتفر من الحفل عند منتصف الليل..

لقد شهقت دهشة ثم تماكنت نفسي، وشققت طريقي حتى بلغتها ولثمت خديها مهنئة. قلت لها صادقة إنها تبدو فاتنة.

ثم تراجعت لأراقب كل شيء من بعيد..

مشكلة هذه المناسبات أنك تقابل كل من لم تره منذ خمسين سنة.. لا أشك لحظة في أن القابلة التي أشرفت على ولادتي موجودة هنا..

قبلات.. دهشة.. قبلات.. مصافحات.. قبلات.. أحضان..

كل فتاة عرفتھا في حياتي هنا..

لكن جوهرة الحفل بلا أية مبالغة كانت صديقتي (ناردين) طالبة الآداب بارعة الحس، والتي كانت متأنقة جدًا.. حول عنقها عقد باهظ الثمن.. لا أفهم في هذه الأشياء لكن من المؤكد أنه من الماس. (ناردين) من أسرة ثرية وقد خطبت مؤخرًا لرجل أعمال فائق الثراء.. كان معها، وكان مثلها في الأناقة أو أكثر.. وكان يضع دبوسًا ماسيًا آخر في ربطة عنقه. لم يكن وسيماً لكنه كان متأنقاً..

تهددت في حسرة.. (ناردين) تبدو وتتصرف كالحلم.. وهذا من حقها، لكن عليها أن تبتعد عن العروس قليلاً..

كانت هناك شلة من الأهل منهم السعداء ومنهم المتظاهرون بالرفي، وطبعًا حشد من العمات الشمطاوات والخالات الأريبات والأمهات المتشككات.. هناك كذلك الشباب من زملائنا وأقاربنا وهم مجموعة ظريفة مفعمة بالأحلام، لكن ليس هناك منهم من يصلح كعريس من غير قصة حب.. كلهم أو أكثرهم مفلسون..

اصطدمت بناردين وخطيبها، فهلت في مرج:

..«هند!!».

واحتضنتني وقدمتني لخطيبها:

..«مراد.. للأسف أنت لم تحضري حفل الخطبة..».

صافحت هذا الفتى.. فجأة شعرت بشعور غريب من النفور. هذا الفتى غير صادق على الإطلاق وليس كما يبدو.

قلما شعرت بشيء كهذا في حياتي.. إنه كذوب.. مدع..

كان لي رأي غير مريح في رجال الأعمال، لكن لا أعتقد أنه لعب دورًا في هذا الانطباع.

دارت محادثة سريعة مليئة بالتكلف، ثم هزرت رأسي محيبة وابتعدت. بدأت موسيقا صاخبة جدًا من مكان ما فراحت القاعة تهتز، وكما هي العادة قررت بعض الفتيات أن يفرضن أنفسهن على الجالسين، باعتبارهن راقصات عظيمات جدًا.. الفكرة هنا أن هذه طريقة استعراض لا يعترض عليها القانون ويتجاوز عنها المجتمع، بينما لو وقفت فتاة في وسط الشارع وراحت تروح وتجيء مستعرضة نفسها لوجدت أنها في مستشفى الأمراض العقلية بعد عشر دقائق. العروس القادمة شاهنده تتكلم مع أخيها، بينما خطيبها يبعثر الضحكات هنا وهناك.. (ناردين) تقف هناك جوار الشرفة وحدها.. (مي) أين هي؟.. إنها ترقص..

كان الصخب مستمرًا وأنا موشكة على أن أفقد وعيي.. عندما..

عندما انقطع النور وساد الظلام..

دوت صرخات مذعورة.. صرخات مبهورة.. صرخة أعلى من سواها..
بعد دقيقة من الذهول تناثرت أضواء خافتة زرقاء حيث خرجت
أجهزة الجوال، وصاح أحدهم :
«لا تقلقوا.. القاعة مزودة بمولد..».

لكن هناك المزيد من الصراخ.. فتاة بعينها تصرخ في جزع. لا تفسر
أي شيء لكن تصرخ فحسب.. بعد دقيقة عاد الضوء ليعمي العيون
وهلل الجميع...

إلا أن النظرات كلها كانت متصلة على (ناردين) التي وقفت ويدها
على عنقها.. عرفنا على الفور أنها مصدر الصراخ.. كانت في حالة
هستيرية:

«العقد!!.. بمجرد أن انطفأت الأضواء انتزع أحدهم العقد!!».
سادت الفوضى، وسرعان ما جاء خطيبها (مراد) وقد اكفهر وجهه
وصاح أمراً:
«لا يغادرن أحد القاعة!... هناك لص هنا!».

ومن مكان آخر جاء أحدهم ممسكاً بذراع أحد عمال القاعة:
«هذا الرجل الطيب يؤكد أن أحدهم قد فصل الكهرباء.. لوحة
التحكم وراء هذا الباب وهناك رافعة يمكن لأي طفل أن يجذبها
لأسفل..».
«أطلبوا الشرطة».

كان العامل مذعوراً فهو المتهم الأول، لكن أحداً لم يشك فيه
بالطبع.. كان عليه أن يعبر القاعة كلها وسط الأجساد والظلام لينزع
العقد من عنق (ناردين).. لا أحد يمكنه عمل هذا ما لم يكن قطعاً..
من مكان ما عادت الموسيقى خافتة تعزف لكن مزاج الكل قد تعكر
طبعاً وسرت الهمسات..

ربع ساعة ثم ظهر رجال الشرطة.. ضابط شاب برتبة نقيب ومعه
شرطيان..

كان مرتبكاً. فالموقف أكبر منه.. عدد المشتبه فيهم كبير فعلاً. لكنه
كان منظم التفكير، لذا كان أول سؤال يوجهه هو:
«هل غادر أحد القاعة؟».

قال خطيب ناردين:

«فقط لو كان الذي سرق العقد قد جرى بسرعة البرق ليغادر
المكان، لكن أعتقد أن أحداً لم يرحل.. السارق هنا والعقد كذلك..».
قال الضابط وهو يجفف العرق:

..«أغلقوا القاعة»..

ثم قال للواقفين :

..«أعتقد أننا مضطرون لتفتيش الحاضرين.. الرجال سوف يدخلون القاعة الجانبية، وسوف تأتي ضابطة شرطة لتفتيش السيدات»..
وأمر رجال الشرطة القادمين معه بالبحث في كل ركن بالمكان..
من السهل أن يضع احدهم العقد في مزهرية أو في دورق عصير أو
وسط باقة أزهار..

برغم الاحتجاج تم كل شيء كما طلب..

كنت أعرف جيدًا أن النتيجة سلبية.. ما من لص أبله ليسرق العقد
ويدسه في جيبه. العقد متوار في موضع ما بالقاعة.. لكنني كنت
نظرية لا بأس بها.

انتحيت بالضابط وقلت له همسًا:

..«عندما انقطع التيار الكهربائي كانت (ناردين) تقف وحدها، ولم يكن
خطيبها رجل الأعمال في القاعة أصلاً»..

نظر لي ضاحكًا وقال كأنه يكلم مجنونة:

..«العقد ملكه!... هل يسرق المرء ما يملكه؟»..

إنه لا يقرأ قصصًا بوليسية.. يسرق المرء ما يملكه عندما يكون
مؤمنًا عليه، ويسرق عندما يكون في ضائقة مالية ويحتاج إلى ثمن
العقد دون أن يتشاجر مع خطيبته. لقد لمست يده وعرفت أنه
مخادع غير صادق.. ربما كان في ورطة مالية حقيقية.. هؤلاء القوم لا
يبدو عليهم الفقر أبدًا حتى لو كانوا في وضع مالي شديد السوء.
المظهر جزء من تجارتهم.

قلت له وأنا أبتعد:

..«أرجو أن تفكر في هذه النقطة جيدًا»..

ثمة نقطة ضعف واحدة في نظريتي هي أن الرجل يجب أن يملك
سرعة البرق ويجيد التحرك في الظلام. يفصل التيار الكهربائي ثم
يركض كالبرق نحو خطيبته لينزع العقد ويخفيه، ثم يتعد قبل أن
يخرج أحدهم جهاز المحمول المضيء..

الضابط بالفعل اهتم بالأمر واتجه نحو (مراد) ليتبادل معه الحديث.

نظرت لساعتي.. الحادية عشرة مساءً وسوف يصل خالي
بسيارته بعد قليل ليقلني للبيت. هكذا اتجهت إلى العروس لأقبلها
وألتقط صورة معها. من المؤسف أن هذه الليلة توترت بسبب هذا
الموقف لكنها ستنسى بسرعة.

لثمتها على خدها وهنا ظهر مصور من مكان ما ليلتقط لنا صورة..

هنا بدأت أشعر بتلك الأعراض الغامضة.. حاستي تتحرك... لا شك في هذا..

نظرت لشاهنده في رعب فنظرت لي بعينيها الملونتين الصناعيتين في عدم فهم. مددت يدي إلى المروحة التي تمسك بها فأبعدتها بحركة تلقائية..

قلت لها همسًا وأنا اضحك للكاميرا:

«لم يجسر أحد طبعًا على تفتيش العروس وحتى لو فعلوا ما كانوا ليهتموا بالمروحة.. لكني أنصحك بأن تطوحي بها بقوة ويدك حوار المقعد، هكذا سيسقط العقد على بعد خطوات ويجده أحدهم أثناء التنظيف.. لو لم تفعلني لكان لي تصرف آخر!».

شحب وجهها وبدأ أنها موشكة على أن تفقد وعيها، وهمست بصوت مبحوح:

«كيف عرفت؟».

قلت كاذبة:

«رأيت أخاك عندما رشا العامل ليفصل التيار الكهربائي.. انقطع التيار، وكانت ناردين على بعد مترين منك فوثب أخوك وانتزع العقد معتمدًا على ما يذكره من موضعها قبل الظلام.. ثم عاد ليدس العقد في يدك ويتعد، وأنت دسسته في المروحة..».

بدأ وجهها يتبدل والدموع قادمة لعينيها فقلت:

«لا تتلفي الماكياج.. ستبدين كالقردة.. هل تم هذا التخطيط الآن؟».

قالت وهي تتكلف ابتسامة أمام العدسات:

«نعم.. أنت تعرفين الضائقة التي نمر بها أنا وخطيبي.. عمليًا كل ما مع أبي أنفقه في حفل الخطبة هذا، ثم ظهرت ناردين.. ثرية مدللة. لا تشعر بأهمية العقد ولا تعرف ما يمثله لنا.. هكذا رسمت خطتي بسرعة وهمست بها لأخي.. وقد قام بما يجب، خاصة أن ناردين كانت قريبة منا جدًّا..».

قلت لها وأنا أبتعد:

«سأعرف في الصباح أنهم وجدوا العقد.. وإلا..».

برغم كل شيء، هي خطة ذكية، فما كان أحد ليشتبه في العروس مهما حدث. والأغرب أن أخاها اقتنع بهذه السرعة بأن ينفذ معها هذه الجريمة..

لم أفسد شيئًا.. هي تلقت درسًا لا بأس به، ولم أفسد أجمل ليلة في عمرها.. والشرطة لن تتهم رجل الأعمال السمج بشيء.. فقط

الدرس الذي تعلمته أنا هو أن المرء قد يكون سمجًا غير مريح، لكنه شريف!.

الفهرس

خمني يا هند

عنوان الحقيقة

أضرب.. وفرّ

رائحة ما

أنا قلقة

لقد شفيت

ما رأيك أنت؟

احترسوا من تلك السيارة

جريمة ربع كاملة

يمكنني بسهولة

أحدهم كان هنا

جلسة مخيفة

هل قتلها؟

النديـر

الـبـيـت

الضيف الغامض

أخطاء لغوية

الغـول

أنا فاتنة

الكلب يعرف أكثر

أضواء

حفل صاحب

في كيان للنشر والتوزيع، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائماً نرحب بالكتاب الشاب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب تراسلنا، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما ترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235688678 - 0235611772

هاتف محمول: 01001872290 / 01005248794 / 01000405450

ويمكنك التواصل معنا إلكترونياً على الروابط التالية، للاطلاع على كُتّابنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتّابنا الثقافية:



Kayan.publishing



kayan_publishing



Kayanpublishing



kayanpublishing



+KayanPublishing



KayanPublishing

د. أحمد خالد توفيق

لست وحدك



مكتبة فريق متميزون

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:



كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: لست وحدك.. للكاتب أحمد خالد توفيق الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصريّة للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير هذا الإنتاج المشترك بين قناتي (متميزون) و (د. حازم مسعود) للكتب النصية على توفير هذه الخدمة النوعية التي نطمح بأن تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قناة د. (حازم مسعود)

[إشترك بالقناة](#)

لست وحدك

(قصص قصيرة)
د. أحمد خالد توفيق

تيك توك!

هناك علامات دقيقة تتفوق على حواسنا ولا نراها ولا نسمعها.. علامات على الموت تسبق توقف القلب وتوقف التنفس.. هو أوتي القدرة على التقاط هذه العلامات قبل سواه.. فيما بعد قرأ عن العلامة (ماكس ليبمان) الذي كان يفحص قلب فتاة فقال للأطباء الذين حوله إنهم سيسمعون صوت لغط من قلبها خلال يومين!. هنا ضربوا كفاً بكف وقالوا ساخرين إن الطب ليس علم تنجيم. قال لهم: بل اللغط موجود الآن وأنا أسمعه.. لكن آذانكم لا تقدر على ذلك بعد.. سوف تسمعوناه عندما يزداد قوة بعد يومين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في سن الخامسة عشرة أدرك إيهاب المليجي أنه مختلف.. هل ظهرت تلك الموهبة فجأة؟.. لا يذكر قط أنها كانت عنده وهو طفل. يعرف أن هناك أمورًا خارقة للطبيعة تعلن عن نفسها في سن المراهقة، ولربما كانت هذه الموهبة موجودة لكنها لم تظهر إلا في السن المناسبة..

كان في الصف.. وكان مرهقًا يتابع المعلم بنصف وعي ونصف عين، وقد بدا له موعد قرع الجرس موعدًا نورانيًا يصعد به إلى سموات الخلاص.. هنا رأى هذه الأشياء.. كانت في كل مكان، وكان المشهد لا يصدق ولا يمكن التعبير عنه بكلمات. كان عاجزًا تمامًا عن فهم ما يراه، لكنه أدرك أن هذه الأشياء حية.. كانت تتحرك بقصد وإرادة ذكية لا شك فيها..

أطلق صرخة قصيرة، وهنا فطن إلى أن كل الصف ينظر له.. المعلم نظر له بعينه المتهمتين – وكل معلمي الرياضيات لهم عيون متهمّة - وسأله بطريقة عابرة فيها نوع من السخرية: - «هل من مشكلة ما؟»

كان على قدر من الذكاء يسمح له بأن ينفي أنه يرى شيئًا غريبًا.. قال كلمات مرتبكة معناها العام (لا شيء).. ثم أطرق وراح ينظر لكفيه..

قال لنفسه إن هذا كله وهم.. نعم.. هو مرهق.. الهلاوس البصرية تحدث مع الإرهاق.. وانتهت الحصّة، فمشى ناظرًا للأرض.. عندما صفعه رامي كما هي العادة لم يرد ولم يقل شيئًا.. في العادة كان يلاحقه إلى أن يرد له الصفعة..

عاد لبيته مطرقًا... هناك كان أبوه يعد مائدة الغداء كما هي العادة... رفع عينه في حذر، فأدرك في ذعر أن هذه الأشياء تملأ المكان هنا أيضًا.. لا بد أن هناك ستة منها في هذه القاعة الضيقة، وقد اندهش بشدة لأن أباه يجد حيزًا يتحرك فيه.. أبوه لا يرى شيئًا.. أبوه لا يرى ما يراه.. هذه نقطة مهمة..

بدل ثيابه واغتسل وصلى الظهر داعيًا الله أن ينام ويصحو فلا يرى هذه الأشياء.. كان أبوه قد فرغ من إعداد المائدة.. عمته تأتي يوم الجمعة فتعد طعامًا يكفي لأسبوع.. تغلف كل وجبة في رقائق الألومنيوم وتضعها في فريزر الثلاجة، هكذا يكون طعام كل يوم محددًا سلفًا. الاثنين هو يوم البازلاء واللحم والأرز.. الثلاثاء يوم السمك والأرز الأحمر.. الأربعاء يوم الفول بالصلصة..

منذ الحادث صار أبوه يلعب دور الأب والأم معًا، وهي مهمة عسيرة.. لم يتزوج برغم أن الكثيرين

نصحوه بذلك، لكن الرجل كان قد فقد رغبته في النساء، وبدا له غير إنساني أن يتزوج امرأة لتكون مجرد خادمة له وولابنه... إن أخته تعنى بموضوع الطعام، وهناك عجوز تعنى بموضوع الغسيل ونظافة البيت.. لا بأس.. هكذا يمكن أن تستمر الحياة..

كان الأب يعرف ان هناك لغزًا ما يحيط بابنه منذ جاء العالم. بعض الأطباء قالوا إنه داء التوحد Autism لكن طبيبًا نفسيًا بارعًا أقنعه أن هذا كلام فارغ.. إذن ماذا يعانيه الصبي؟.. لا أحد يعرف..

فيما بعد وقع الحادث وسقطت السيارة في التربة وفيها الأم و(إيهاب)... الأب استطاع بمعجزة ما أن ينزل الزجاج وهكذا استطاع أن يفتح الباب ويطفو للسطح. بعد دقيقة جاء فلاحون كثيرون وتعاونوا على إخراج الضحيتين.. الأم لم تتحمل... إيهاب ظل حيًا... ترى هل كان لهذا الحادث يد فيما جرى؟

هل لهذا الحادث دور في الأشياء التي يراها؟

ربما.. فيما بعد كبر إيهاب وقرأ أن نقص الأكسجين يوقظ مراكز معينة في المخ، لكن إثبات هذا صعب جدًا.. هناك اختبار باهظ الثمن اسمه (الأشعة المقطعية باستعمال انبثاق البوزيترون PET) لكن أين وكيف يقدر على إجراء أشعة كهذه؟.. دعك من أنه يعرف نتيجة التقرير: هناك نشاط زائد في البقعة الفلانية.. هل تحب أن نزليها جراحياً؟.. هنا سوف يرفض لأنه - لسبب ما - ليس ممن يحبون أن يقطع الموضع جزءًا من أمخاخهم.. قلت لك إنه غريب الأطوار..

في ذلك اليوم جلس يلتهم البازلاء والأرز، وهو يرفع عينه من حين لآخر لأبيه فيرى تلك الأشياء تحوم حوله.. كانت أشياء بشرية إلى حد ما، لكنها كذلك غير بشرية على الإطلاق... لم يندهش أبوه فقد اعتاد أن ابنه ليس أفضل محدث في العالم.. أحيانًا تمر ثلاثة أيام دون ان يتبادلا كلمة..

بعد الغداء أخلد إيهاب للنوم وهو يرتجف... عندما صبحا بعد ساعتين، كان أول ما رآه أن هذه الأطياف تملأ الغرفة من حوله... فقط اكتسبت بريقًا ملونًا فوسفوريًا في ظلام الحجرة..

سوف أختصر هذه التجربة القاسية إذن..

لقد تعلم إيهاب أن هذه الأطياف ضيوف سمجون لا يمكن الخلاص منهم.. سوف يكونون معه بقية حياته..

على الأرجح هو ليس مجنونًا.. ليست هذه رؤى مما يراها المخابيل. ما مال لاعتقاده هو أنه يملك شفافية خاصة.. الكلاب تسمع موجات خاصة من الصفارات، لا يسمعا كائن آخر.. ترددات أعلى من اللازم، وعلى الأرجح يحدث هذا مع البصر كذلك. إذن هو يستطيع رؤية ما لا يراه الآخرون.. هذه الأطياف حولنا في كل لحظة.. فقط لا يراها الناس...

وبرغم حداثة سنه فقد قرر أن هذا سره.. سره الخطير الذي يجب ألا يعرفه أحد. هو يجد صعوبة في تصديق أنه ليس مجنونًا فكيف يتوقع أن يعامله الناس؟.. إن مستشفيات الأمراض العقلية تعج بأمثاله.. أمس قابل في الشارع متسولاً يرفع يده بالسلام ويكلم الهواء، وقال له إن سيدنا الخضر كان مارًا أمامه!.. لماذا لم يصدقه؟.. لماذا اعتبره مجنونًا؟.. قد يكون هذا المتسول يملك موهبة أخرى من هذا الطراز، لكن إفساح المجال للتسامح في هذه الأمور يؤدي لفوضى شاملة.. في النهاية لا يمكن أن نقبل إلا ما يُرى ويُسمع ويُشم ويُلمس ويُعقل..

إذن عليه أن يصمت...

عليه ان يحتفظ بهذا السر للأبد....

ما أصعب أن يحتفظ المرء وهو في سن السادسة عشرة بسر..! كانت هذه المشكلة أعقد مما يخطر ببالك لأول وهلة. بالواقع كانت معقدة جدًا.. خاصة وأنت ترى هذا الزحام في الغرفة من حولك.. تكلم صاحبك وانت ترى اجسامًا تضربه من الخلف ومن الأمام وتهوي فوق رأسه.. تمشي وأنت تشق طريقك وسط هذا الزحام غير المادي.. لا تصطدم بشيء ولا تشعر بشيء لكن الأمر مربك بلا شك.. وهكذا اشتهر إيهاب بأنه يمشي مشية غريبة فيها قدر هائل من الحذر والبطء.. لم يفهم أحد السبب بالطبع..

مع الوقت تعلم أن يتكيف مع هذا العالم المزدحم المحيط به.. تعلم ألا يبدي أي علامات على أنه يرى أشياء.. وتعلم كذلك أن يتجاهل هذه الأشكال قدر الإمكان... لكنه بدأ يرسم..

الطريقة التي اختارها ليبوح بهذه الأسرار هو أن يرسمها، وهكذا ابتاع ألوانًا ولوح رسم.. وراح يجرب أن ينثر على لوح الرسم تلك المناظر الغامضة التي يراها.. جاء أبوه وألقى نظرة على هذه الرسوم.. لم يفهم مصدرها ولا ما تحاول قوله، وإن فهم أن ابنه على الأرجح مضطرب جدًا.. ابتسم وقال:
- «هذا الأسلوب سريالي تمامًا..»

رائحة الشقة ملوخية ودجاج.. إذن هو يوم السبت....
لم يكن يعرف معنى (سريالية) بالضبط.. وكان يقرأ الكلمة كثيرًا لكنه لا يعرف معناها بالضبط.. لهذا سأل أباه عن معناها الدقيق فقال:
- «هي محاولة لكسر مفهوم ال... مفهوم ال....»

لاحظ أن أباه مرتبك فرفع عينه في دهشة.. لاحظ قطرات العرق التي احتشدت على جبين الرجل والشحوب. ثم تحسس الرجل جبهته.. وفي مشهد لا يمكن نسيانه بسهولة سقط رأس أبيه على كتفه وكف عن الكلام...

استغرق الأمر عشر دقائق حتى عادت الأمور لمجراها وحتى بدأ الأب يفيق.. ولم يفهم إيهاب قط ما حدث.. حتى بعد ما ذهب مع أبيه إلى طبيب الأمراض العصبية وأجرى عدة تحاليل منها تحليل السكري. لقد كان الرجل في صحة ممتازة...

كما قلنا كان إيهاب شديد الذكاء، لذا قرر إجراء تجربة أخرى.. لقد دعا للبيت صديقًا له وقرر أن يعرض عليه لوحاته.. وبعد كلام المراهقين المعتاد عن آخر أغنية وآخر فيلم وأجمل فتاة في الشارع، أخرج ذات اللوحة وقدمها له..

على الفور بدأت علامات الذهول على الوجه، وتحدر العرق البارد على الجبين... أخفى اللوحة بسرعة ورش قطرات الماء على وجه صديقه.. ثم قال له إن الحر هو السبب.. نعم.. نعم.. الحر.. نحب عندما نفقد وعينا أن يكون هناك تفسير جاهز مريح..

لم يكن (إيهاب) غبيًا بحيث يكرر التجربة. لقد اكتفى بما رأى.. واضح طبعًا أن ما يظهر في اللوحة ينقل لمحة من عالم لا يتحملة الناس غالبًا.. عالم لا يتحملة الناس لهذا لا يرونه. هناك طفرة معينة أدت إلى أن يصير شخص بعينه قادرًا على رؤية هذا العالم، لكن ليس من حقه أن يطلع أحدًا عليه... ومن الواضح أنه رسمه بدقة...

رائحة السمك المشوي.. إنه الجمعة على الأرجح...
تميز يوم الجمعة مشكلة لأن الروائح تكون كثيرة جدًا.. تذكر أن عمته تطهو طعام الأسبوع

كله، وهي تقوم بشي السمك في المطبخ على الموقد..
بارعة جدًا.. يرقب شعرها الأبيض المجعد من تحت الإيشارب في حنان. يقف هناك في المطبخ
يرقب الكائنات السابحة في الجو ويؤكد لنفسه أنه ليس مخبولاً..
تيك توك!
تيك توك!

ما معنى هذا؟.. ما سر هذه الدقات المتواصلة؟.. شيء غريب فعلاً..
ليس صوت ساعة.. شبيه بصوت ساعة لكنه يختلف بشدة. وكان يتعالى في عدة أماكن من
المطبخ.. ليس المصدر واحدًا كما هو واضح.... هتف في دهشة:
- «ما هذا؟»

لكن عمته لم تبد على الخط ولم تبد مهتمة بدهشته.. كانت لديها مشاكل أكثر بكثير من صوت
الدقات وهذا الهراء، وإن نظرت له نظرة عابرة وخطر لها أنه غريب الأطوار فعلاً.. لماذا يميل
برأسه الكبير بهذه الطريقة كأنه يصغي باهتمام؟..
أدرك أنها لا تسمع شيئاً فضغط على نفسه بقوة وغادر المطبخ... هل بدأت الهلاوس السمعية
كذلك؟؟؟.. يا لها من أخبار رائعة.. لقد اقترب موعد الكسرولة على الرأس جدًا..
في المدرسة في ذات الأسبوع حدث الشيء ذاته..
تيك توك.. تيك توك!

لاحظ أن الصوت بدا واضحًا جدًا عندما دخل مدرس التاريخ الفصل.. وعندما بدأ المعلم
يتحرك ويشرح، لاحظ أن الأجسام المحيطة به لها لون أزرق غامض.. ربما يتحول إلى فيروزي
شبه مشع في لحظات بعينها، وبدا الضوء كأنه يشع من المعلم نفسه ليسقط على هذه الأجسام
المحيطة به.. هل كانت هذه الظاهرة تحدث مع خالته؟.. لا يدري..
على كل حال بدأ يدرك أهمية هذه الظاهرة بعد يومين..

طابور المدرسة وجو التوتر العام والهمسات والصمت والشحوب على وجوه المعلمات، ثم
مدير المدرسة ينعي للطلاب أستاذًا عظيمًا هو (نبراس) علم استحق التبجيلا لأنه كاد أن يكون
رسولاً.. لقد توفي مدرس التاريخ..
الخبر يهوي على رأسه كأنه جزء انفصل من السماء.. بصعوبة يتنفس ويحاول التماسك..
يلهث..

يا لها من مصادفة غريبة..
نعم مصادفة.. لا تقل شيئًا آخر من فضلك.. هي مصادفة بالتأكيد..
لكن وجه الرجل الطيب الربي ظل يلاحقه لساعات طويلة.. كل شيء كان على ما يرام ما عدا
صوت التيك توك هذا.. ما عدا هذا الوهج الأزرق الغامض....
أتراه كان النذير؟

لا يوجد ما يوحي بهذا، لأنه كلام فارغ أولاً.. ولأن عمته مرت بذات الظاهرة وهي بصحة جيدة
فعلاً...

الخلاصة أن كل شيء في حياة إيهاب كان يدفعه إلى أن ينطوي أكثر. حياته معقدة فعلاً ومفعمة
بالأسرار... لديه عشرات الأشياء التي يمكن أن تفتضح بسهولة..
رائحة البازلاء واللحم.. لا بد أن اليوم هو الاثنين..
يقول له أبوه إن زوجة جارهما قد توفيت.. نعم.. زوجة أستاذ (أبو الفتح) لم تصح من نومها
اليوم.. علينا أن نكون في الجنازة ونؤدي واجب العزاء...

(أبو الفتح) هو صاحب الشقة المجاورة.. بعبارة أخرى مطبخهم مجاور لمطبخ (إيهاب).. لابد أن زوجته كانت في المطبخ في ذلك الوقت من يوم الجمعة... أبوه قال مرارًا إن الأصوات تنتقل بوضوح عبر جدار المطبخين وعبر البالوعة... تيك توك...

لربما لم يكن هذا الصوت قادمًا من عمته على الإطلاق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد مر أسبوع وقد استطاع إيهاب أن يكون نظرية معقولة عما يحدث.. بالطبع هو لا يتنبأ بالموت.. لا أحد يستطيع أن يتنبأ بالموت. فقط هناك علامات دقيقة تتفوق على حواسنا ولا نراها ولا نسمعها.. علامات على الموت تسبق توقف القلب وتوقف التنفس.. هو أوتي القدرة على التقاط هذه العلامات قبل سواه.. فيما بعد قرأ عن العلامة (ماكس ليبمان) الذي كان يفحص قلب فتاة فقال للأطباء الذين حوله إنهم سيسمعون صوت لغط من قلبها خلال يومين!. هنا ضربوا كفاً بكف وقالوا ساخرين إن الطب ليس علم تنجيم. قال لهم: بل اللغط موجود الآن وأنا أسمعه.. لكن آذانكم لا تقدر على ذلك بعد.. سوف تسمعون عندما يزداد قوة بعد يومين!

الحقيقة أنه - إيهاب - كان قادرًا على سماع اللغط مبكرًا جدًا.... طبعًا لا يعرف السبب في صوت تيك توك هذا، لكن لا يمكن نفي أنه كان موجودًا منذ البداية.. إذن هو سمع الصوت ورأى الألوان لدى معلم التاريخ.. أما مع عمته فلم يكن يسمع صوتها هي، بل صوت الجارة.. كانت قريبة جدًا في المطبخ المجاور وكان الصوت واضحًا.. بعد عام قام بتجربة مثيرة لم يكن ليجرؤ على القيام بها لولا الظروف التي وضعته فيها.. كان الأب قد احتاج لجراحة بسيطة (فتق) في المستشفى، وهكذا وجد أن رعاية الأب تقع بالكامل على عاتقه هو وعمته... وكان يمضي معظم الوقت جوار فراشه. ما أن دخل المستشفى حتى أصابه الهلع من الزحام.. زحام الأشكال الذي يتحرك في كل مكان.. ألوان صاخبة.. لم ير هذا المشهد من قبل..

بعض الأطياف كان يبدو أقرب لأنابيب أو ثعابين عملاقة... بعضها كان أقرب إلى تصويره لشكل الغيلان.. البعض كان يتوهج ككرة مشتعلة.. ثمة عالم من خيوط لزجة يتدلى من السقف.. وأحيانًا كان شيء مبهم أقرب إلى قرد قمئ صغير الحجم يسقط.. لكنه لا يبلغ الأرض أبدًا، بل يتلاشى..

أخذ إيهاب شهيقًا عميقًا وراح يحاول ألا يصرخ رعبًا أو يغشى عليه. الأمر عسير فعلاً.. كأنك تركب حافلة مزدحمة بالناس وعليك أن تتظاهر بأنه لا أحد فيها.. عندما كان يجتاز العنابر كان يرى بعض المرضى في حالة مرعبة.. الجفاف على شفاههم وأناملهم ترتجف وعكارة النهاية في عيونهم. هنا كان يسمع غالبًا صوت (تيك توك) يتعالى.. ويرى الضوء الأزرق أو الفيروزي العجيب يشع على الأجسام المحيطة في الفراغ.. وقد تعلم فعلاً أن ما يراه دقيق جدًا.. بعد ساعة أو أكثر قليلًا يمر بالعنبر ليجد الجسد المغطى بالملاءة، وكان يرى حول الجسد بقعة من الظلام بلا ألوان ولا أجسام... هذا شخص قد صار وحده أخيرًا..

تذكر تلك الأسطورة المجرية القديمة عن الرجل الذي رياه الموت منذ كان طفلًا، فلما فارقه صار الفتى طبيبًا نابهاً واحتفظ بقدرته على رؤية الموت دون سواه من الناس.. تعلم أن الموت يدور حول فراش المريض فإذا بلغ رأسه عرف أن المريض ميت لا محالة. هكذا يخبر أقاربه

ويوفر عليهم المزيد من المعاناة.. أما إذا لم يبلغ الموت الرأس فلسوف ينجو المريض وعليك أن تبذل أقصى جهد معه. هذا هو ما يحدث هنا تقريبًا...

لهذا عندما جاء ذلك الشاب الأسمر في الفراش المجاور لأبيه، كان قد أجرى جراحة بسيطة في قدمه.. كان مرحًا ظريفًا مليئًا بالحيوية، لكن المشكلة الوحيدة كانت أن ذلك الصوت (تيك توك) ينبعث منه.. دعك من ذلك الوهج الفيروزي. جلس الفتى يتكلم عن صيد السمك في بلدهم وعن هواية شي الذرة في الحقل.. الخ.. ثرثار فعلاً خاصة عندما يكون قد أفاق من البنج منذ ساعتين، لكن (إيهاب) لم يكن يسمع حرفًا... كان عقله يدور ويغرق ويتلوى في مستنقعات أفكاره السوداء.. كان يصطاد أسماك القلق...

خرج في حذر إلى الممر واستوقف ممرضة مارة.. نظرت له في شك فقال لها همسًا:

- «الشاب الذي يجاور فراشه فراش أبي.. إن حالته خطيرة..»

كانت متشككة وافترضت على الفور أنه يعاكسها، وهذا شيء طبيعي لأنها تعتبر نفسها فاتنة بما يكفي وإن كان الرجال (معندهمش نظر)، لكنها دخلت الغرفة لتلقي نظرة، ثم خرجت ومطت شفيتها بما معناه (ظريف جدًا.. لكن أرجوك كف عن التظرف بعض الوقت).

استوقف طبيبًا شابًا يمر بالغرفة، وقال له وهو يرتجف:

- «الشاب في الغرفة.. أؤكد لك أنه في حالة خطيرة..»

لم يكلف الطبيب نفسه بالتدقيق.. هز رأسه في غيظ وقال ما معناه (حاضر) ثم انصرف..

عاد إيهاب إلى العنبر وجلس ينتظر الأسوأ..

بالفعل حدث هذا كما توقع.. حدث في المساء. فيما بعد قال الأطباء أن جلطة انفصلت من ساق الشاب الأسمر وانحشرت هناك في شريان الرئة مسببة ما يدعى بالسدة الرئوية.. وسرعان ما ساد الظلام هذا القطاع من الغرفة...

لقد تعلم (إيهاب) أن حاسته لا تخطئ غالبًا، وهي كما قلنا ليست نوعًا من الحدس.. بل هي الشعور بما لم يشعر به الآخرون بعد..

كان هذا خطرًا.. ومخيفًا كذلك..

سوف يأتي يوم بلا شك يسمع فيه صوت التيك توك قادمًا من أبيه فماذا يفعل وقتها؟.. وأي كلمات سيقولها للأطباء؟.. لن يصدقوا حرفًا....

هل هذا الصوت واللون الفيروزي حكم نهائي لا رجعة فيه؟.. بمعنى هل هي علامة على قرب الموت أم هي جزء منه؟

أما السؤال الأخطر فهو ما سيشعر به عند اقتراب موته الخاص؟.. ماذا يفعل وماذا يقول عندما يدرك أن صوت تيك توك ينبعث منه هو؟؟؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رائحة اللوبيا فلابد أنه يوم الخميس.....

يقول المحاضر للطلاب:

- «سوف نستكمل الموضوع في المحاضرة القادمة..»

وينهض الطلاب متفرقين.. يمكنك أن تميز هذا الوجه المألوف. نعم.. لم تخنك عيناك. إنه إيهاب.. لقد كبر فعلاً، والأهم أنه صار طالب طب.. لقد قاتل كثيرًا ليكون طالب طب برغم أنه لم يكن من هواة الاستذكار. الشخص المنطوي المتفرد - أو حتى المصاب بداء التوحد - يمكن أن يكون طالبًا عبقرًا لأنه يمضي وقته في الاستذكار، ويمكن أن يكون طالبًا فاشلاً لأنه يمضي وقته في الشرود وملاحقة الخيالات.. كان إيهاب من الطراز الأخير، وأنت تعرف بالطبع أن

مبرراته قوية جدًا...

لهذا انتزع نفسه بقوة من عالم الخيالات ليصير من الطراز الأول، وليتمكن من الالتحاق بهذه الكلية، وهناك كان يتابع الدروس بنهم علمي غريب..

سبب ذلك هو أنه يعرف ما سيحدث.. سوف يجلس يومًا مع أبيه ويسمع صوت (تيك توك) ينبعث منه.. سوف يجن وهو يحكي للأطباء معنى ذلك.. سوف يقول لهم إنه يملك موهبة تستبق معرفة الآخرين.. الخ.. بالطبع لن يصدق واحد منهم حرفًا، ولسوف يموت أبوه بينما يموت هو حسرة..

الحل الوحيد الذي تبقى له هو أن يصير هو نفسه طبيبًا، وأن يجيد عمله.. وبالطبع سوف يتخصص في فرع يتيح له أن ينقذ الحياة، فلن يفيد أباه كثيرًا لو صار طبيب عيون أو أنف وأذن وحنجرة!

كان يعتقد أنه تصرف بحكمة.. فقط راح يدعو الله أن يصير طبيبًا حقًا قبل أن تأتي اللحظة الحتمية..

وفي سنة الامتياز بعد التخرج، كان إيهاب قلقًا من السؤال الذي ينغصه منذ البداية.. هل هذا الصوت واللون الفيروزي حكم نهائي لا رجعة فيه؟.. بمعنى هل هي علامة على قرب الموت أم هي جزء منه؟

عرف الإجابة الكاملة عندما كان في قسم الطوارئ..

جاء ذلك الشاب الرياضي الذي يلبس سترة التدريب.. لقد شعر بألم عابر في صدره وهو يركض كعاداته اليومية. بالطبع لم يهتم أي طبيب شاب بشكوى هذا الفتى.. عندما يشكو الشاب تحت العشرين من قلبه فالسبب غالبًا معدته أو عضلاته، وعندما يشكو الكهل من معدته فالسبب غالبًا قلبه.. هذه هي القاعدة التي ينقصها الحذر، لكنها غالبًا ما تنجح..

- «يمكنك أن تطمئن.. إن بعض الدفء سوف يريحك»

كل هذا جميل، لكن (إيهاب) سمع بوضوح صوت (تيك توك) ورأى اللون المشع الغريب يشع من الفتى.. ثمة شيء خطأ هنا..

وأصر على أن يتم عمل تخطيط لقلب الشاب..

النتيجة: بالطبع كان هناك احتشاء في مقدمة القلب. جزء من عضلة القلب قد مات ولسوف يلحق به الفتى غالبًا. وهكذا نقل الفتى للعناية المركزة وتم عمل اللازم..

لم يهتم إيهاب بإطراء زملاء على كونه يملك حاسة لا تخطئ، وعلى كونه أنقذ حياة الشاب. ما اهتم به هو أن الفتى بدأ يتعافى..

توقف صوت (تيك توك) وعادت الألوان المحيطة بالفتى كما كانت...

لقد فعلها!..

صوت تيك توك ليس علامة على الموت لكنه إنذار.. كأنه جرس مما يتصل بفراش المريض، وهذا يعني أن الفرصة ما زالت قائمة والوقت لم يضع.....

عندما تسمع الصوت وترى الألوان، فلتفعل كل ما بوسعك كي تنقذ الضحية.. لربما استطعت أن تفعل..

رائحة شياط.. إذن اليوم هو الأربعاء..

على كل حال صار الشياط موجودًا في كل يوم، لأن صحة عمته لم تعد تسمح لها بالطهو يوم الجمعة، وبالتالي وقعت المهمة على عاتقه وعاتق أبيه. والنتيجة هي أنهما يأكلان رماذًا طيلة الأسبوع..

النشاط الثاني الذي انهمك به (إيهاب) كان هو محاولة رسم هذا العالم الغريب الذي يراه بدقة أكثر.. ولهذا ابتاع ألوانًا مائية شفافة وقضى ساعات في غرفته يرسم تلك الرؤى الغريبة، وقد حرص هذه المرة على ألا يراها أحد.....

تجمع لديه حشد هائل من اللوحات، ولولا تأثيرها المريع لأقام معرضًا مذهلاً.. تذكر قصة الرعب الشهيرة عن الفنان الذي يرى الأهوال رأي العين فيرسمها ويعتبره الناس عبقرًا.. هو يرى هذه العوالم بوضوح.. كل ما يفعله هو أن يرسمها بدقة..

كان يعرف أن أباه لا يدخل غرفته تقريبًا. لا يدخلها أبدًا في الواقع، وعلى الأرجح يتعلق هذا بذكرى أمه أو شيء من هذا القبيل. لهذا علق معظم هذه الصور على جدران غرفته، وحرص على أن يغلق الباب بإحكام عندما يغادر البيت..

لكن هذا التصرف كان أحرق على كل حال..

في تلك الليلة غادر البيت وذهب ليمضي ساعات طويلة لدى صديق له، وفي الثانية صباحًا عاد للدار.. ما إن دنا من باب الحجرة حتى سمع (تيك توك تيك توك!)..

ما معنى هذا؟

فتح الباب بحذر.. فوجد أن الزحام الطيفي بالداخل قد اصطبغ كله بذلك اللون الفيروزي.. الشرفة مفتوحة.. وعلى بابها فوق البساط الذي يتوسط الغرفة كان ذلك اللص راقدًا على ظهره... كان يلهث في لحظات الاحتضار الأخيرة....

كيف عرفت أنه لص من دون الفانلة المخططة الشهيرة وأساور المعدن؟.. لأن الأبرياء لا يتسللون إلى الغرف عبر شرفاتها...

هناك ماسورة مياه جوار الشرفة.. ويبدو أن هذا اللص الأحرق جرب التسلق عليها ليقترحم البيت. النتيجة أنه وجد نفسه في غرفة مغلقة مليئة بتلك اللوحات.. تلك اللوحة من العالم المخيف الذي لا نراه.. لم يكن هناك من ينقذه أو يخفي اللوحات، كما أنه لم يعد قادرًا على الفرار من الشرفة ثانية..

سقط على الأرض، ولا بد أنه مر بلحظات شنيعة...

لابد أنه استغاث فلم يسمعه أحد...

هيا معي... ربما استطعنا أن.. نجره خارج الغرفة، والمعلومة التي لم يكن إيهاب يعرفها هي أن اللصوص وزنههم ثقيل جدًا..

ألقاه في الصالة وراح يحاول أن يعيد له الحياة، لكن صوت (تيك توك) استمر حتى توقف فجأة، وانطفأ الكشاف الفيروزي الغامض.....

لقد مات الرجل..

عرف إيهاب أن عليه أولاً أن يزيل كل تلك الرسوم من الجدار قبل أن يطلب الشرطة ويوقظ أباه. أما عن تفسير موت اللص فليجدوه هم.. ليس عليه تفسير سبب موت كل لص يقتحم شقته.. هذه لعبة خطيرة جدًا.. قالها لنفسه، ولم يعرف أنها البداية فقط!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جميلة جدًا هي مي.. خاصة عندما تطرق للأرض مفكرة..

في سن السابعة والعشرين يكون الوقت قد حان كي يجد البحار المرفأ، كي تتوقف سفينته اللاهثة بعض الوقت، وكان إيهاب قد بلغ السابعة والعشرين...

يوم اخترتك كي ترثيني..

أهديتك مفتاح كياني..

إذ ترحل سفني عن كون

لا يعبأ برحيل سفيني..

جميلة جدًا هي مي.. خاصة عندما تشفى من الحمى وتجلس في الفراش تأكل الجيلي وتضحك. تقول له إنه أنقذ حياتها، فيقول لها إن الكلورامفينيكول هو الذي فعل.

جميلة جدًا هي مي معلمة الابتدائي الشابة، وقد رآها بصعوبة وسط تلك الأطياف المحيطة بها.. كل الأطياف والبالونات والمسوخ والأضواء المتوهجة. لا تعرف مي أن هناك ملايين الأشياء الحية في غرفتها معها.. لو عرفت لماتت دعرًا..

هناك لكل واحد واحدة.. وقد أدرك إيهاب أنه وجد واحدته أخيرًا..

لا نستطيع أن نسرد كل التفاصيل التي تلت ذلك، والتي جعلته مدللًا بهواها.. لكن زيارته لها تكررت كثيرًا جدًا بأسباب ملفقة زاعمًا أنه يطمئن عليها أولًا، ثم عرفت أنه يهيم بها حبًا.. حتى جاء اليوم الذي أقنع فيه أباه المسن بأن يصحبه لزيارة أهلها.. أسرة لطيفة متماسكة هي وقد كان إيهاب بحاجة ماسة إلى أسرة تحتضنه وسطها..

لقد صار للحياة مذاق مختلف..

إنه يحب مثل الآخرين، وليس مجرد تلك العين الكئيبة التي ترى الأهوال..

رائحة الشقة شياط.. إذن هو يوم السبت....

تيك توك.. تيك توك..!

هل تسمع؟..

لا جدال في ذلك.. إن الأمر حقيقي تمامًا..

إنهما جالسان في صالون بيتها وبالطبع يجثم أخوها الصغير على رجليهما كعادة أسر الطبقة الوسطى، لكن لا جدال في مصدر الصوت.. هو ليس قادمًا من إيهاب وليس قادمًا من أخيها.. لقد تعلم إيهاب الدرس من قبل، ورأى اللون الأزرق الغامض يتسرب منها ليضيء كل شيء..

ابتلع ريقه الذي صار كالقش.. شرب كوبًا من الماء البارد ثم أعاد الإنصات..

تيك توك... تيك توك..

لا شك في هذا.. الصوت يخرج من مي وهي لا تحمل ساعة أو قنبلة موقوتة.. كان ارتبأكه كاملاً، وراح يردد في ذهنه: لماذا أنا؟.. لماذا أنا؟ ... السيناريو الذي كان يخشاه يحدث فعلاً..

- «هل أنت على ما يرام؟»

اتسعت عيناها دهشة وأكدت أنها بخير.. لكن قلقه كان بالغًا وخطر لها أنه يلعب لعبة العاشق المفعم بالقلق على حبيبته: أنت تسعين؟.. لا.. أنا لا اسعل.. إذن أنا قلق لأنك لا تسعين..

- «هل من ألم في الصدر أو ضيق في التنفس؟»

تيك توك... تيك توك..

لا شك في هذا.. والصوت يتعالى..

لا تعرف كيف ولا متى جذبها من يدها وغادرا البيت.. حتى قبل أن يخبر أهلها أو يصحب أباها، وانطلق بالسيارة العتيقة التي ابتاعها إلى المستشفى.. قالت محتجة:

- «أنا بخير..»

- «فقط ثقي بي..»

قالها وهي تتمدد على منضدة الأشعة... قالها وهي تجري فحصًا لقاع العين.. قالها وهي تجري تخطيطًا للقلب.. قالها والمرضة تسحب منها عينات الدم لحشد من التحاليل.. قالها ومختص القلب يفحصها.. قالها ومختص الأمراض العصبية يفحصها..

تيك.. توك.

سوف يجن..

تيك توك..

هذا لا يطاق..

الكل ضحك.. الكل هز رأسه.. الكل قال دعابة سخيفة عن العشق الذي يجعل الطبيب ينسى الطب.. هيء هيء..

كان يعرف يقيناً أنها ستموت.. لا مجال للمزاح هنا.. حاسته لم تخنه قط من قبل، وهو متأكد مما سيحدث...

كان يعرف يقيناً أن موهبته لا تتنبأ.. هذا يعني أن الموت بالحوادث غير وارد في قائمة التحذير. من الممكن أن تدهمها سيارة أو يهوي فوقها سقف البيت ولن يصدر عنها ذلك الصوت، وبرغم هذا كان قلقاً..

عندما غادرا المستشفى قالت له في ضيق:

- «هل لي أن أفهم؟. ظللت صامته وأنت تلهو معي كفأر تجارب..»
قال في ضيق مماثل:

- «لكن جهلت مقالتي فعذلتني.. وعرفت أنك جاهل فعذرتك!»

لم تفهم سوى أنه يلومها.. على الأقل كلمة (جاهل) معروفة للجميع. قالت وقد بدأت تتنمر:

- «لا بأس وشكراً على تهذيبك.. لكن أظن أن من حقي أن أفهم..»

تيك توك..

تيك توك..

الصوت يتعالى من جديد..

جذبها من يدها لتصعد على الإفريز، فهو لا يضمن ألا تدهمها سيارة مسرعة الآن.. صحيح أن هذا يخالف منطق موهبته لكنه خائف...

فتح لها باب السيارة لتجلس جواره.. ثم أدار المحرك وهو غير متأكد من موقفه.. فجأة توقف وطلب منها أن تجلس خلفه بالضبط.. حسب دراسته فإن أكثر الأماكن خطراً هو المجاور للسائق وأكثرها أمناً ما كان خلفه..

- «هل جننت؟.. أنت لا تقود سيارة أجرة!»

- «يشرفني أن أفعل.. هل نسيت أن أقول لك إنني أهيم بعشق الفتاة التي تطيع أوامري بلا مناقشة؟»

ماذا لو كان سيتسبب في حادث مروع يقتلها؟.. هذا منطقي جداً.. يجب أن يكون حذراً في القيادة.. ما أصعب القيادة وأنت تبالغ في الحذر!.. سوف تشعر كأنك تتعلم..

قال لها وهو يراقب الطريق ويرتجف:

- «لم لا تذهبين لزيارة أقاربك بعض أيام؟.. ربما أسبوع أو أكثر.. لا أحب أن تعودني لهذه الدار العتيقة»

دار عتيقة سوف تتصدع الليلة وتهوي لتقتل من فيها.. غالباً هذا هو ما يحدث...

تيك توك.. تيك توك.. الصوت أعلى... معنى هذا أن الموت يقترب.. أليس هذا منطقياً؟

قالت له وهي تحاول أن تبدو طبيعية:

- «هلا توقفنا لتناول بعض المرطبات؟.. حلقي جاف من كل الفحوص التي أجريت علي..»

- «بالطبع لن نتوقف!....»

سوف يكون العصير مسمومًا أو فاسدًا على الأرجح..
الآن كان قد فعل كل ما من شأنه أن يقنعها بأنه مجنون تمامًا.. لم يقصر في شيء.. هي تشك فيه بقوة الآن لكن ماذا يعمل؟
قال لها:

- «هل ستغيرين مسكنك؟»

نظرت له طويلًا ولم ترد.. هذه نصيحة مهمة: عندما يجن خطيبك فلا تدخل معه في جدل طويل.. فقط غادري السيارة وعودي لبيتك راجلة..
أما هو فقد كان يصغي بلا توقف إلى صوت تيك توك..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رائحة السمك المقلي المحترق ما زالت ملتصقة بالشقة؟.. إذن هو الثلاثاء..
طيلة الليل ظل يتصل بها.. كلما مر نصف ساعة يعيد الاتصال فيأتي صوتها المذهول غير المصدق تؤكد أنها بخير..

في النهاية قال لها اعترافًا بسيطًا:

- «حلمت أنك والعياذ بالله قد توفيت!»

ليست الحقيقة كلها لكنها أمينة بما يكفي.. نصف حقيقة لو شئنا الدقة، وقد راق لها هذا الاعتراف كثيرًا، وأراحها مؤقتًا.. إذن أنت قلق على لهذا الحد؟.. بدت له بطة فخورًا..
على كل حال لم تدم مكالماته لأن الإرهاق غلبه.. نام في الثالثة صباحًا بعد يوم مفعم بالانفعالات..

في النوم رآها تموت مرارًا بطرق شنيعة صعبة.. دعك من الديناصور الذي عاد للحياة وقضم رأسها، أو الطبق الطائر الذي تعطل فهوى فوقها بالذات..
وعندما صبحا من النوم واتصل بها كان الشعور المسيطر عليه هو أنها درة.. درة حقيقية.. الفتاة التي تقبل من خطيبها كل هذا الخبال ولا تغضب أو تتخلى عنه، هي درة نادرة..
ذهب لدارها في ساعة مبكرة عالمًا أن الوقت لن يطول قبل أن يلقي به أخوها أو أبوها في الشارع باعتباره مجنونًا.. العاشرة صباحًا ليس وقت زيارة الخطيبة..
كان كل شيء هادئًا والعالم الطيفي ليس أكثر ازدحامًا من المعتاد.. جلس في شقتها متظاهرًا بأنه لا يدرك كم هو ضيف غريب الأطوار سمج..
كانت بخير حال ولم تكن الدقات مسموعة.. وفجأة سمع الصوت..
تيك توك..

وبدأ الضوء الأخضر يتوهج منها..

- «هل أنت بخير؟»

هذه المرة قالت وهي تضع يدها على جبهتها وترتجف:

- «ليس تمامًا.. أشعر بدوار كأن رأسي خفيف.. يبدو أنك بعيد النظر..»

ثم بدأت حالتها تزداد سوءًا.. جاءت أمها تبسمل وحملتها للفراش، أما هو فجلس مرتبًا لا يعرف ما يقول.. لقد قام بكل فحص ممكن أمس فلن يكرر هذا اليوم..
غادر البيت وقرر أن يتصل بها بعد ساعة.. جلس على أحد المقاهي يعد الدقائق ثم أعاد الاتصال.. جاء صوت مي الضاحك يعتذر:

- «فعلًا أنا بلهاء.. آسفة جدًا.. لقد استرددت عافيتي على الفور..»

في الأيام التالية زارها عدة مرات.. الغريب أنها كانت تتدهور عندما يلتقيان.. فعلًا ذبلت صحتها

وبدت تحت عينيها هالات سوداء غريبة.. صوت تيك توك لم يكن ينقطع...
أما العبارة التي اعتاد سماعها فهي أنها تحسنت نوعًا بعد انصرافه، ومن الغريب أن هذا صار ملحوظًا لدرجة أن حماته قالت ضاحكة:

- «يبدو أن الغرام يسقمها فعلاً عندما تأتي أنت!»

هنا بدأ يفهم الحقيقة ببطء شديد.

جرب أن ينقطع عن زيارتها ثلاثة أيام ففوجئ بأنها صارت في أفضل حال. ازداد وزنها وتورد لونها. وعندما عاد انهارت حتى أنها ظلت في الفراش يومين..

الآن يفهم الحقيقة بوضوح.. مي مريضة جدًا ومهددة بالموت، وسبب مرضها هو إيهاب نفسه! كان الأمر مذهلاً ولا يصدق، لكنه كان قد قرأ الكثير في هذه الأمور.. ليس الأمر طبياً لكنه حدث فعلاً من قبل وثمة شواهد تاريخية عليه. لكل إنسان منا حالة خاصة تحيط به Aura.. هناك هالات سلبية تؤدي من حولك.. مي مصابة كما هو واضح بحساسية شديدة تجاه هالته هو، بنفس المنطق الذي يجعل أشخاصاً لا يطيقون رائح عطر معين أو أكل المانجو. العالم (ليدبيتر) وصف هذا المرض بالتفصيل في القرن التاسع عشر، لكن بالطبع هناك من يعتقدون أنه نصاب أو مخرف.. ربما يفسر هذا ما نشعر به أحياناً من نفور شديد تجاه شخص بعينه بلا تفسير واضح.. الحقيقة أن هالته تؤذينا بشدة... بالنسبة لإيهاب كانت الهالات شيئاً مادياً حقيقياً...

أما لماذا تأخر الأمر كل هذا الوقت حتى يعلن عن نفسه فهذه من قواعد فرط التحسس. الفتاة تضع قرطاً ذهبياً يظل في أذنها أعواماً طويلة ثم تظهر الحساسية فتقول لك: مستحيل. لكن الحقيقة هي أن الحساسية كانت تبني نفسها وتتراكم في دمها. كانت مي تموت ببطء بسببه وقد بدأ جسدها يعلن عن هذا.. تيك توك..

تيك توك..

لقد كان واثقاً من تشخيصه.. وعندما اتصلت به مي عند الظهيرة لم يرد عليها..

اتصلت به يوم الأربعاء.. مساء الخميس.. لم يرد قط...

كانت حائرة لا تفهم ما يحدث، وفاتها أن تدرك أن صحتها تتحسن بلا شك في ذلك.. أما هو فقد أجاد لعبة الاختفاء. عرف كيف يختفي وقتاً كافياً حتى تحولت دهشتهم وحيرتهم إلى غضب وكبرياء جريحين، وهكذا كفوا عن البحث عنه.. إنه وغد آخر...

هكذا يمكننا أن نفهم الأسباب التي جعلت (إيهاب) يستقل سيارته.. كالمجنون يطوي الطرقات طياً وقد فتح الكاسيت إلى أعلى درجة له.. كان يرغب في أن يحدث له شيء.. كان يشتهي أن يحدث له شيء.. لا يدري متى ولا كيف اتجه إلى الريف..

يبدو أن الحظ قد ابتسم له، فقد انفجر إطار السيارة وتدحرجت لتسقط في التربة..

تيك توك..

هذا الصوت ينبعث منه..

لا شك في هذا..

يشبه نبضات القلب العالية مع انسداد الأذن..

تيك توك. والضوء الأخضر يشع....

«الأب استطاع بمعجزة ما أن ينزل الزجاج وهكذا استطاع أن يفتح الباب ويطفو للسطح»

هذه المرة ستكون الأخيرة...

بعد دقيقة جاء فلاحون كثيرون وتعاونوا على إخراج الضحيتين.. لا.. الضحية..

لم يمت وإنما اقترب من ذلك كثيرًا..

وعندما أفاق وهو يرقد على العشب جوار التربة، وعندما نهض وراح يهز رأسه المبلل ويسعل..

عندها فقط أدرك أنه لا يرى أية اطياف.. لا ألوان.. لا أنابيب عملاقة ولا قردة تهبط من أعلى..

لقد صار إنسانًا عاديًا...

فيما بعد عندما عاد لداره من المستشفى، قال لنفسه إن نقص الأكسجين عن الدماغ في المرة

الأولى سبب تغيرًا فسيولوجيًا معينًا، وقد زال هذا التغير مع نقص الأكسجين للمرة الثانية. برغم

كل شيء هو سعيد لهذا التحول.. كان يصبو إلى أن يعود إنسانًا عاديًا وأن يشعر أنه وحده وليس

في حافلة مزدحمة (برغم أن هذا غير صحيح).. يريد ألا يشعر بقرب موت الآخرين.. لو كان قد

فقد هذه الموهبة مبكرًا لكان قد استمر في علاقته بمي.. ولربما هلكت.. لكنه يرجح أن هذه

الموهبة كانت هي سبب الهالة الغريبة المحيطة به والتي لم تتحملها الفتاة..

«نعم.. أنا سعيد.. لقد صرت شخصًا عاديًا ولست حاويًا في السيرك...»

ثم خطرت له فكرة: ماذا عن الرسوم التي كان يرسمها؟.. هل ما زال منيعًا ضدها أم هي قادرة

الآن على إيذائه؟.. لن يعرف الجواب أبدًا إلا لو اطلع على تلك الرسوم من جديد..

للمرة الأولى منذ وفاة ذلك اللص، يبحث إيهاب عن الرسوم التي خبأها في خزانة ثيابه.. يلقي بها

على الفراش.. يفرك عينيه ويتأهب لإلقاء نظرة.. نظرة قد تفتك به لكنها ضرورية..

تشجع.. هيا.. واحد.. اثنان.. ثلاثة..

افتح عينيك!

كراهية

كنت أنا أفكر.. طريقة الموت هذه تبدو مألوفة...
ثم لحظة.. لماذا كانوا ينظرون لي بهذه الكراهية وهذا المقت في الآونة الأخيرة؟.. لماذا قال لي
أكثر من واحد أن أكف عن هذا أو لا أفعله؟.. أفعل ماذا؟
الإجابة عسيرة التصديق لكنها الإجابة الوحيدة الممكنة للأسف: لأنهم رأوني في أحلامهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في كليتي لا أحد يحبني..
أعرف أنك تقول إن هذه مشكلتي لا مشكلتك، وهذا حقيقي، لكن المرء يتوقع دومًا أن يجد
واحدًا أو اثنين يستلطفانه أو يحبان وجوده. مهما كنت سمجًا أو قبيحًا أو منفّرًا فلا بد أن يحبك
أحد.. لا بد أن يشرق وجه أحدهم عندما يقابلك في الصباح. هتلى كان له أصدقاء وكانت له
حبيبة صممت على أن تموت معه..
ما عداي أنا..

يجب أن أقول هنا إنني لا أملك أية ملكات اجتماعية وليست لدي المواهب التي تجذب الناس.
لكم من واحد جلست معه فإذا بي صامت كالقبر. ينتظر أن أقول شيئًا فلا أقول، وأجيب عن
كلامه بأسخف الأجوبة طرًا.. إن (مممم) و(هههه) ليستا إجابتين يعترف بهما الناس كما تعلم.
أما مع الفتيات فالأمر يزداد سوءًا لأنني - ككل الحساسين المتوحدين - أحمل تقديسًا زائدًا
للأنثى، من ثم أتصرف معها كأنني وثنى يقف أمام صنم. تهيب.. وصمت..
أعترف هنا أنني وسيم، ولكم من فتاة تقربت مني وراحت تحاول أن تحصل مني على أية
استجابة أو كلمة ما، لكنني أظل صامتًا كالصخرة.. أنظر لها في رعب ثم أنظر للأرض وأفر..
لقد اعتدت أن أجد عالمي الحقيقي في الكتب وفي أحلام اليقظة. فقط في أحلام اليقظة خاطبت
الجماهير بلسان فصيح، وتقربت لأجمل بنات الأرض قائلاً شعراً لا يقدر (إمرؤ القيس) على
نظمه. كنت فاكهة الحفلات، وعندما حاصرني قطاع الطريق مع فتاتي امتشقت سيفي
وجندلتهم..
مع الوقت اكتسبت شيئًا من الكبرياء، فلم أعد أريد شيئًا من عالمهم الواقعي وصرت أراه تافهًا
سخيفًا. كل هذا معقول ومفهوم.. ولكن القصة بدأت تكتسب أبعادًا جديدة مؤخرًا..
سأقول لك كيف...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنا طالب في كلية العلوم كما تعرف.
كان هذا هو يوم الأربعاء الذي نتأخر فيه كثيرًا بسبب المجموعات الدراسية الصغيرة التي نطلق
عليها (السكاشن). كنا في مختبر النبات وقد تلفت عيوننا من فرط الحملة عبر عدسة المجهر
إلى المقطع العرضي في ساق نباتية قمنا بتقطيعها. لا تنس أننا لم نتعلم بعد إغلاق العين التي لا
تنظر عبر العدسة. رفعت عيني وقد أصبت بالحوال لأجد أنني أهدق في عيني المعيد الشاب
المسئول عنا. توقعت أنه سيصدر لي تعليمات معينة، لكنه ظل ينظر لي نظرة لم أر مثلها من
قبل.. نظرة كراهية ومقت توشك أن تقتلني..
سألته في حيرة:

- «هل من مشكلة يا سيدي؟»

لم يرد وواصل النظر لي، ثم استعاد صوابه، فألقى نظرة عبر العدسة وامتعض وجهه وقال:
- «مقطع سميك جدًا. جرب مرة أخرى..»

وابتعد وعيناه لا تفارقاني..

اسمه (ممدوح).. لا أعتقد أن هناك مشكلة ما بيننا، ولكن ما أكثر المشاكل التي وقعت فيها بلا سبب في حياتي. هناك تقلص معين في زاوية فمي تلقيت عليه الكثير من اللوم والضرب منذ كنت في المدرسة الابتدائية، لأن كل معلم كان يفترض أنني أسخر منه بشكل خفي.. استدرت إلى اليمين فوجدت (لمياء) زميلتي في الصف...

لم تكن تنظر في العدسة.. كانت تنظر لي.. تقلصت زاوية فمها بدورها لكن في كراهية شديدة. لقد ضغطت بأسنانها أكثر من اللازم حتى تكورت شفرتها إلى جنب.. لم أر في حياتي هذا المقت من قبل.... من المدهش أنني لم أمت وأن شفرتها لم تتمزق.. قلت لها في ارتباك:

- «صباح الخير»

فلم ترد.. كان صدرها يعلو ويهبط غلاً...

نهضت لأغسل يدي عند الحوض، فأجفل الفتى الذي كان يغسل يده.. كان فتى نحيلاً يدعى (محمود).. رأيت ينظر لي وتتسع عيناه ثم يتراجع.. يتراجع لدرجة أنه كاد يوقع واحدًا يقف خلفه..

ماذا يحدث هنا؟

نظرت لانعكاس وجهي في زجاج النافذة.. كان الظلام قد بدأ يهبط وأناروا الضوء الكهربائي في المختبر، ذلك التأثير الذي يشعرني دومًا بتقلص في معدتي، لذا تحول الزجاج لمرآة ممتازة... هل صار لووني أخضر؟.. هل صرت الشيطان وأنا لا أعرف؟

لا شيء.. ذات الوجه الوسيم يطالعني عبر الزجاج..

لكن من خلفي رأيت تلك الفتاة - وتدعى (جاكلين) - تنظر لي نظرة نارية.. نظرة من لا يتحمل فكرة وجودي في العالم...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أحب كثيرًا هذا العالم من نظرات الكراهية. مهما بلغ استغناؤنا عن الآخرين فنحن أطفال نحتاج للقبول الاجتماعي، وأن تطلب المعلمة من الفصل أن يصفق لنا..

لكني كنت مستعدًا لقبول ذلك لو فهمت سببه. على كل حال قدرت أن هناك أيامًا نكون فيها ثقيلي الظل على الآخرين.. هناك أيام تلقي فيها التحية فلا يرد عليك أحد. هذا شيء مفروغ منه. عدت لداري فتناولت طعام الغداء الذي هو العشاء كذلك، وتبادلت بعض كلمات مع أبي وأمي المسنين قليلي الحركة. في الحمام أعدت تأمل وجهي في المرآة عدة مرات.. لا يوجد شيء غريب. ثم دخلت فراشي المريح.. أجمل مكان في العالم في رأيي.. هناك رحت أقرأ لمدة ساعتين.. ساعة إعدادًا لدروس الغد وساعة في أدب كويليو ثم أخذت للنوم.

أنا مكروه.. أنا مكروه.. الناس لا تحبني... أنا.....

خ خ خ خ خ خ!

في الصباح هرعت أثب في المواصلات إلى الكلية كعادتي. على باب الكلية كان رجل الأمن (بسيوني) يقف ويدخن لفافة تبغ. مددت يدي لأخرج الكارنيه ورفعته في وجهه لكنني فوجئت بنظراته المتصلبة. كانت عيناه شاخصتين إلى وجهي وقد بدا عليه مزيج فريد من الذعر والكراهية.. لو أنه رأى ثعبانًا في فراشه لما بدت في عينيه هذه النظرة..

وقبل أن أسأله عن شيء قال وهو يشير للداخل:

- «يا لله.. مع السلامة..»

هل هو يوم آخر من أيام الكراهية؟...

في درس الحيوان الذي بدأنا به اليوم، تلقيت المزيد من نظريات الكراهية من (لمياء).. من (جاكسين).. من (محمود).. هناك فتى مدعور اسمه (صلاح) ظل يحملق في للحظات، ثم طلب أن يتكلم معي.. جميل.. ماذا تريد؟

قال وهو يحاول ألا تلتقي عينانا:

- «أنت.. تعرف.. أن.. هذه الأمور.....لا أعرف كيف أشرح....»

ثم ابتلع ريقه وقال:

- «أرجو أن تكف عن هذا..»

- «أكف عن ماذا؟»

عاد يكرر وهو يلوح بإصبعه محذراً:

- «كف عنه.. لن أشرح أكثر.. أنت تفهم!»

فجأة صارت الحياة ذات طابع (كافكاوي) لا شك فيه. لن أندesh لو جاء اثنان مكلفان بإعدامي وهما لا يعرفان السبب ولا أنا. فقط يأخذاني إلى الفناء الخلفي ويذبحاني.

استمر هذا الوضع الغريب أسبوعاً، ثم دخلت الكلية ذات صباح لأجد جواً عامّاً من الوجوم في مجموعتي الدراسية.. الورقة المعلقة هناك تقول:

- «توفي الزميل (صلاح شوقي) اليوم، والجنائز بعد صلاة الظهر في.....»

أصابني الذهول فاستدردت لزميل واقف هناك وسألته عما حدث، فقال دافع العينين:

- «لم يصح من نومه.. ليرحمه الله.. ليتنا نتعظ بأن الموت يأتي فجأة وبلا إنذار»

وتعالت بعض نهنات البكاء، وبدأت بعض الفتيات وقد سال الكحل من عيونهن واحمرت الأنوف، كأنهن مهرجو السيرك. إنه محظوظ.. أنا أضمن أن أحداً لن يبكي علي.. مع كل هذه الكراهية سوف يفجرون الصواريخ ومفرقات العيد يوم تعلق ورقتي الخاصة..

صحيح أن الموت يأتي فجأة، لكن هذا التفسير لا يرضي أي وكيل نيابة أو رجل شرطة.. لابد من أسباب منطقية واضحة لوفاة طالب ما زالت أجهزة جسده كلها براقية جديدة نشطة..

عادت الحياة إلى طابعها المعتاد ببطء شديد، وهو الطابع العام للوفاة على كل حال.. في أول يوم أهل المتوفي مصدومون هدتهم اللوعة.. في ثاني يوم هناك جو من الهدوء الراضي بالنصيب مع ابتسامات حذرة حزينة. في ثالث يوم هم يتشاجرون على الميراث وقد نسوا كل شيء عن

الفقيد العزيز!

كنت جالساً في الحديقة المزدحمة ألتهم شطيرة وأعيد نسخ بعض المحاضرات، عندما ظهرت تلك الفتاة (جاكسين). إنها جميلة لكنها من الطراز العصبي المتشكك وعيناها تتوقعان مصيبة طيلة الوقت. جاءت لتقف جوارى.. وظلت صامتة للحظات وإن بدا أنها تريد أن تقول شيئاً..

ثم استجمعت شجاعتها وجاءت لي لتقول:

- «أرجوك ألا تفعل!!»

رفعت عيني نحوها وفي مليء بالطعام وتساءلت:

- «لا أفعل ماذا؟»

قالت في عناد:

- «هذا الذي تفعله..!.. إن لي أخاً ضابطاً وسوف.. سوف.. سوف يلقنك درساً..»

ثم انطلقت تركض مبتعدة.. وأنا في أغبي حالاتي..

ماذا يحدث هنا؟

بما أنك تعرف أن (جاكلين) ماتت في فراشها صبيحة اليوم التالي، فأنت تدرك مدى دهشتي وذهولي.. وعلى كل حال كانت هذه هي البداية...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت هذه الأحداث أكثر من أن تكون مصادفات، لكن كيف يمكنك تفسيرها إلا أنها مصادفات؟..

في تلك الليلة أفرطت كثيرًا في شرب الماء قبل النوم، ثم شربت بعض ماء الشعير بالصودا ودخلت الفراش.. بالطبع كانت هذه هي الطريقة المثلى كي أصحو من نومي عدة مرات لأفرغ مثانتي، ثم أعود للفراش بين النوم واليقظة فأندس فيه لبعض الوقت.

عامّة أنا لا أتذكر أحلامي.. يبدو أنني أفيق في المرحلة الخطأ من النوم حيث تتبخر الأحلام، ولهذا أندesh من الناس الذين يقصون عليك حلمًا مدته ساعة أو ساعتان بكل التفاصيل، واعتقد أنهم يحكون ما تخيلوا أنهم رأوه.. كل الناس تحب أن تعتقد أنها شفافة وأنها (ترى رؤى كاملة). لكنني في تلك الليلة بالذات نهضت كثيرًا جدًا وفي لحظات استراتيجية، وهكذا كنت أدخل الحمام شاعرًا أنني ما زلت في عالم الحلم..

كنت أرى نفسي قويًا جدًا غاضبًا جدًا.. هأنذا أركض بين طرقات ضيقة في قرية أو مدينة ما.. هناك كلاب تنبح في وجهي ثم تتراجع ذعرًا.. إنني أريده.. لن يفر.

هناك رأيته يركض في حقل مفتوح. ذلك المعيد الشاب (ممدوح) الذي يدرس لنا علم النبات.. كان ينظر للخلف ويتعثر.. يتوسل لي.. أنا أركض كالمجنون.. لسبب ما ألحق به برغم أن المسافة طويلة جدًا، لكن في عالم الأحلام لا يوجد قانون فيزيائي محترم... - «كف عن هذا.. أنا لم أفعل لك شيئًا!!»

ثم ينفجر في البكاء....

يتكرر الحلم من جديد لكن تفاصيل جديدة تولد. إنه يلوح بفأس في وجهي ويهوي به. فجأة يدي تمسك بمعصمه كأنها كلاب حديدي.. اسمع العظام تتهشم..

أصحو من نومي شاعرًا بالحاح المثانة المليئة.. أدخل الحمام ويدي ما زالت متقلصة من اعتصار معصمه.. صوت العظام المهشمة في أذني..

أعود للفراش.. هذه المرة هو قد سقط تحتي. أنا أعتصر عنقه ثم أضرب رأسه في الأرض الرخامية عدة مرات.. من أين جاءت الأرض الرخامية في الحقل؟.. لا تسأل فخواص التربة علم آخر لا يُحترم في الأحلام..

هذه المرة فتحت عيني لأرى ضوء الفجر يتسلل.. ثم غبت في النوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يؤسفنا يا شباب أن د. (ممدوح) قد توفي.. نعم.. هذه الكلية قد شهدت الكثير من الأحداث المؤسفة مؤخرًا ويبدو أننا نمر بدائرة نحس لا شك فيها. واحد آخر لم يصح من النوم.. سوف تجهز الكلية حافلة صغيرة لمن يريدون الذهاب للجنائز.. نسأل الله أن يجعلها آخر الأحزان.. تصاعدت الشهقات.. مستحيل هذا.. ليس هذا الكم.. وفتاة بكت وقد تذكرت (جاكلين) صديقتها العزيزة. واحد فقط لم يبك هو أنا..

لو كنت كعامّة الناس لقلت إنني شفاف أملك قدرة على رؤية الغد. لكنني لا أملك أي نوع من الشفافية.. أنا مادي جدًا ولا أعتقد أنني رزقت القدرة على التنبؤ بمن هم موشكون على الموت.

لكن الحقيقة المؤكدة هي أن المعيد الشاب مات في حلمي في ذات الوقت الذي مات فيه في فراشه تقريبًا.

هناك كانوا واقفين حول واحد منهم.. عندما دنوت عرفت من هو.. (مروان) أخو الفقيد.. إنه طالب في ذات الكلية. كان يحكي لهم ما شهدته من مصرع أخيه:

- «كان يلهث ويتكلم أثناء النوم.. وفجأة بدأ يضرب رأسه في الوسادة عدة مرات – وكان نائمًا على ظهره – ثم همد تمامًا.. وعندما تحسست عنقه أدركت أنه.. أنه لبي نداء ربه»
قال أحدهم:

- «لعله آذى رأسه من فرط ضربها»

- «لا أحد يموت لأنه ضرب رأسه بالوسادة»

كنت أنا أفكر.. طريقة الموت هذه تبدو مألوفة...

ثم لحظة.. لماذا كانوا ينظرون لي بهذه الكراهية وهذا المقت في الآونة الأخيرة؟.. لماذا قال لي أكثر من واحد أن أكف عن هذا أو لا أفعله؟.. أفعل ماذا؟

الإجابة عسيرة التصديق لكنها الإجابة الوحيدة الممكنة للأسف: لأنهم رأوني في أحلامهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان على أن أعرف..

عند المساء فعلت ما اقترحه صديقي طالب الطب، وهو أن آخذ قرصًا من (الفروسيمايد) المدر قبل النوم. هذا سيجعل نومي جحيماً متقطعاً. أخشى أن أجرب ضبط المنبه لأن صوته سيتدخل في الحلم..

في الفراش رقدت أفكر.. ما معنى هذا كله؟..

لا أعرف متى نمت، لكني رأيتني في المنام بوضوح شديد.. كانت شقة.. شقة (لمياء) زميلتي.. عرفت هذا دون كلام. وكانت تتراجع بظهرها في دعر نحو الجدار وهي تلوح بسكين عملاقة، وتصرخ بي:

- «إياك أن تتقدم.. سوف أمزقك!»

لكني كنت في الحلم واثقاً جداً على درجة من السخرية، وكنت أتقدم نحوها في ببطء كما يفعل سفاحو الأفلام، وكنت أعرف أنني أحمل سيقاً مما يسمونه (سنجة)..

هنا شعرت أن مثانتي موشكة على الانفجار، فهرعت للحمام ولهذا لم يتبخر الحلم.

عدت للنوم.. هذه المرة كانت هي تقف على إفريز بناية عالية تطل على الشارع، وقد ألصقت ظهرها بالجدار وهي تصرخ بلا انقطاع.. شعرها يطير مع الريح... السيارات في الشارع مجرد حشرات مضيئة لا تهمد. أنا أنظر لها من النافذة، ثم أتخذ قراري وأرفع ركبتي لأخطو خارج النافذة وأمشي على الإفريز بدوري..

- «اسمع! ... سوف أثب.. أقسم بالله أنني سأثب!!»

هنا صحوت من جديد..

وقفت في ظلام الردهة بعض الوقت أفكر..

لسبب ما قررت ألا أواصل النوم هذه الليلة.. لم أرد أن أعرف ما سيحدث بعد هذا. فتحت الشرفة في غرفتي وأعددت كوباً من الشاي الثقيل، وجلست أقرأ في مادة وظائف الأعضاء. إن الفجر قريب. وسوف يصحو أي من النوم، وهكذا يمكن أن أظل متيقظاً حتى موعد الكلية..

لسبب ما لا أريد أن أنام ثانية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

محمر العينين انتهيت من سماع المحاضرة فغادرت القاعة ووقفت بالخارج.
(لمياء) كانت خارجة من المدرج مع صديقتها وكانت تضحك فلما رأني تقلص وجهها وبدأ لي
أنها ترى ضبعًا متعفنًا مات وهو يأكل خنزيرًا. مرت جوارى مسرعة فناديتها.. نظرت لي بكراهية
فقلت:

- «لابد من كلمتين معك..»

انفصلت عن صديقتها، ووقفت أمامي وعقدت ذراعيها على صدرها في تحد:

- «أفندم!»

- «لابد أن أفهم سبب هذه الكراهية التي تنظرين بها لي..»

قالت في تحد:

- «وهل كنت مدلهة في هواك من قبل؟»

- «لا.. لكن هناك وضعًا وسيطًا.. لنقل إنك كنت تتعاملين معي بعدم اكتراث، فماذا قد جد؟»

صمتت.. بالطبع لا يمكن أن تقول.. سألتها على سبيل الاختبار:

- «الأمر يتعلق بالأحلام؟»

هنا كان رد فعلها معقدًا وغير متوقع.. لقد تقلص وجهها وقالت بصوت كالضحك:

- «أنت هناك دومًا.. تطاردني.. تلاحقني.. تتلصص على من النافذة وتلتقط لي الصور.. تطاردني

عبر الهاتف.. نفسك مليئة بالأغراض القذرة التي أنا بطلتها. لما تمنعت عنك صرت تلاحقني

لتقتلني.. في كل ليلة أنت هناك تلاحقني.. في الشوارع.. في الكلية.. في حجرات منزلي..»

- «وهل حقًا تلوميني على أشياء أفعلها في أحلامك؟»

قالت العبارة التي كنت أخشاها وأعرف أنها ستقولها:

- «أنا كائن نقي شفاف، وأعرف أن رؤيتك تتصرف هكذا في أحلامي معناها أن هذه هي حقيقتك

القذرة.. أنت تتصنع التهذيب والانطواء لكن أحلامي كشفت حقيقتك، وأنا أنذرك.. ابتعد عني..

ابتعد عني فأنا لست هينة..»

كدت أجن.. عندما يعتقد الناس أنهم شفافون يصير من المستحيل أن تستخدم المنطق معهم.

لو أنني حلمت بابن خالتي - الذي لم أره منذ عشرة أعوام - يركلني، فعلى من يقع اللوم؟.. علي أم

على ابن خالتي؟.. الشفافون يعتقدون أن اللوم على ابن خالتي.

قلت لها في تعب:

- «أخشى أننا في ورطة.. أنا لست مسئولاً عن أي شيء ترينه في أحلامك، لكنني أعتقد أن

المشكلة أعقد من هذا.. هل تتعلق أحلامك مؤخرًا بمطاردة على إفريز بناية جوار نافذة؟»

نظرت لي في ذهول وقالت:

- «كيف عرفت؟.. إذن أنت كنت هناك!»

الحقيقة أن في كلامها منطقًا لا بأس به.. فعلاً أنا كنت هناك..

لم يكن أنا بالضبط لكنه ذلك الكيان الغامض الشبيه بي، الذي يرحل في أحلامي ليدخل أحلام

الآخرين. ولماذا يفعل ذلك؟.. على الأرجح ليحقق رغبات مكبوتة لا أعرف أنها عندي.. لهذا أنا

في الحلم أكثر قوة وشرًا وأكثر ثقة.. هذه أشياء لا أملكها في عالم الواقع، والحلم كما تعرفون أهم

جلسة علاج نفسي مجاني في تاريخ علم النفس.

أنا لست مجنونًا.. (لمياء) دليل حي على أنني لست مجنونًا.. لكن هذا يعني أنني أعاني ما هو

أسوأ من الجنون.. أنا سفاح لكن هذا يتم برغم إرادتي!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت لي لمياء ضاغطة على أسنانها:

- «اسمع.. أنا أعرف بالضبط ما سيحدث.. أنت تحاول دفعي دفعًا لأسقط من فوق ذلك الإفريز. في الصباح سوف يعلقون ورقة في الكلية تنعي الزميلة الفاضلة (لمياء البهي) التي ماتت أثناء نومها. أنا لا أنوي ذلك.. يجب أن تتصرف..»

قلت لها في صدق:

- «ما أريد قوله وبقلب سليم، هو إنني لا أريد ذلك مطلقًا.. إن كان هناك كيان قد تحرر مني أثناء الحلم فأنا لا أعرف شيئًا عنه»

- «لن تعزيني هذه التفسيرات.. منذ شهر وأنت كابوس حي ماثل أمامي ولا أعرف كيف أتخلص منه»

ثم ابتعدت غاضبة..

هكذا عدت إلى البيت.. كنت أعرف أنني على الأرجح سأفعلها هذه الليلة. أنت تعرف ذروة الفيلم عندما تقترب وتدرّك أن النهاية قريبة.. (لمياء) ستموت الليلة لو حلمت. وضع غريب هو أن يعرف طرفان أن أحدهما سيقتل الآخر الليلة، وكلاهما لا يعرف ما يمكن عمله.

جلست في البيت ورحت أشرب جالونات من القهوة.. لن أنام.. لن أنام.. جلبت كتب الكلية وقررت أن أمر على جميع المقررات. سوف أنام صباحًا عندما لا تكون هي نائمة.. أعتقد أن هذا أفضل الحلول الممكنة..

في الثالثة بعد منتصف الليل لم تستطع القهوة أن تفعل أكثر، وسقط رأسي على الكتاب وشعرت بنشوة عظيمة..

كانت هناك على الإفريز وهي تمشي خطوة جانبية تلو أخرى.. تقول لي وهي تصرخ لأن الريح تبدد صوتها:

- «كف عن هذا!.. قلت لك كف عن هذا..!!»

لكني أواصل التقدم ومن الغريب أنني أمشي بسلاسة عجيبة، ولا يوجد أي خطر من فقدان التوازن ولا خوف من المرتفعات.

ما هذا؟.. إنني أفك حزامي وأطوح به نحوها.. حزام غريب جدًا يستطيل ليبلغها فلا يمكن أن يقل طوله عن خمسة أمتار.. تصرخ ويلسع الحزام وجهها لكنها تتماسك...

هنا صحت لأجد رأسي على الكتاب وقد بللته باللعب.. حدث ما كنت أخشاه وحلمت!

هكذا ارتديت ثيابي وتسليت خلسة إلى خارج البيت، وقررت أن أمضي الليل في الشوارع. حي الحسين لا ينام ولسوف يكون بوسعي أن أنتقل من مقهى لآخر.

عندما بدأ الصباح يتثاءب كنت في طريقي للبيت وقد قدرت أنها على الأرجح ذهبت للكلية الآن.. وعلي كذلك أن أجيب عن أسئلة أبي المذعور الذي لا يفهم أين ذهبت في ساعة كهذه. لن تكون هناك كلية لي اليوم ولا في أي يوم آخر غالبًا.

ما هو الحل؟.. متى ينتهي هذا الكابوس؟.. هناك حل سهل هو أن أعلق أنشطتي في الحمام وأندلي منها، لكنني لن أفر من الكوابيس لألجأ للانتحار. ليس أنا. ثم من أدراني أن ذلك الكيان لن يتحرر بعد موتي ويدخل عالمها؟

على كل حال سوف أظفر الآن بساعات طويلة من النوم، ولسوف يكون بوسعي قضاء ليلة أخرى متيقظًا..

سأنااااام...

الجزء التالي من مذكرات (لمياء البهي):
لم أنم ليلة أمس.. قضيت الليل كله أجمع القهوة مصممة على ألا أنام فأقابل هذا الفتى ثانية، وهكذا - في الثامنة صباحًا - تناولت وجبة إفطار دسمة، ثم دخلت إلى الفراش. كان أول شيء رأيته هو إنه ينتظرنى على إفريز النافذة!

كنت أشعر بحقد شديد نحوه.. إذن هو ينام في ذات الوقت وفكر في ذات الفكرة؟
في اللحظة التالية كنت أركض وسط الثلوج.. متاهة حقيقية تذكرني بالتي رأيته في فيلم (تألق) لستانلي كوبريك.. لا يمكنك الخروج ما لم تر المشهد من منظور (عين الطائر). لا أعرف كيف انتقلت هناك. لكنه كان يركض خلفي والبخار يخرج من فمه ولا يكف عن اللهاث.. يحمل منشأً ترددًا مثل أبطال أفلام الرعب الذين أعرفهم. سوف يشطرنى إلى نصفين...

لن يفتك بي هذا المجنون.. لن ألحق بمن هلكوا من قبل..
ركضت كثيرًا ثم تواريت وراء جدار ثلجي. خطر ببالي أن أضلله. انتظرت قليلًا فوجدت أنه لم يلحق بي.. هكذا اتبعت التقنية التي رأيته في فيلم (تألق).. مشيت على خطوات أقدامي المحفورة في الثلج بالعكس.. ثم وثبت بين جدارين وتواريت..
سمعت أنفاسه اللاهثة وهو يركض.. ثم يغير اتجاهه.. لقد التقط الطعم.
إن للنساء حاسة اتجاه ممتازة.. هكذا استطعت أن أجد طريقي إلى خارج المتاهة ووقفت ألّهت وأنا أرمق الجدران الثلجية، والبخار المتصاعد من فمي ليتكاثف على أطراف شعري..
يبدو أنه ضل طريقه...

نمت حتى المساء ولم أراه في أحلامي ثانية..
في اليوم التالي ذهبت للكلية، فلم أراه..
كانت هناك حركة أكثر من اللازم ووجوه واجمة. سألت عما حدث فعرفت أن زميلنا (أشرف) ذلك الشاب الخجول المنطوي في حالة غيبوبة.. لم يمت لكنه في غيبوبة لا يمكن أن يفيق منها. إنه في المستشفى والأطباء في حالة حيرة. ثمة إشاعة عن أن هناك وباء التهاب مخي في كليتنا.. هذا هو التفسير الوحيد لكل هذا الذي يدور مؤخرًا.. ثمة لجنة من وزارة الصحة قادمة.
- «أنت لست قلقة؟»

وكيف أكون قلقة وأنا أعرف التفسير الوحيد لما حدث. لقد ضاع (أشرف) في أحلامي.. ضاع للأبد ولن يعود ثانية.. إنه في تلك المتاهة يصرخ ويحاول الخروج بلا جدوى.
لا أعرف أن كنت قد ظلمته أم لا.. لكني لا أنكر أنني سعيدة بالخلاص منه.. لا أنكر أنه كان خطرًا على الآخرين. وللمرة الأولى منذ شهر سأنام غير خائفة. فقط أخشى ذلك الاحتمال الضعيف أن يتحرر.. وعندئذ..... لكن لا أعتقد أنه سيفعل ذلك.
تصبحون على خير.

شخص مهم

لم يصدق حرفاً لكن.. ربما كان هذا هو التفسير الوحيد لظهورهم في غرفته والباب مغلق. لو كان كلامهم صحيحاً فمعنى هذا أنه محق بصدد نفسه.. إنه شخص مهم جداً.. مهم لدرجة أن يعكف خمسة أفراد على التقاط الصور له وجمع أقلامه ومناديله.. مهم لدرجة أن يتسللوا لغرفته ليصوروه وهو نائم ليلاً..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكي نفهم ما حدث، لا بد أن نحكي القصة من بدايتها.. لا يمكن أن نبدأ باللقاء الأخير بين (ثروت) و(دافني) أو ما سمعه من (أدونيس). هذه أشياء سوف يأتي وقتها لكن لا يمكن أن نبدأ بها.. ألا ترى أننا نضيع الوقت في الجدل بينما هو قصير أصلاً؟.. لو كنت تريد أن أحكي القصة بالأسلوب الذي يروق لك، فإنه لمما يسرني أن تجلس أنت وتحكي بينما أصغي أنا.. من فضلك دع لي هامشاً من الحرية في السرد، وأنا أعدك بأن تفهم كيف تطورت الأمور.. أنت تعرف (ثروت البربري) ... عينا ملونتان لهما لون البرسيم، وشعر بني مجعد، وقامة نحيلة. الطبيب الشاب المفعم بالأحلام والذي يعرف يقيناً أنه سيكون رائعاً وسوف يبهر العالم.. ربما يحكمه كذلك..

هنا يجب أن نقول إن نمط (ثروت) شائع نوعاً بين الأطباء، فهو من أصل ريفي.. ومنذ دخل كلية الطب نال احتراماً ووضعاً مرموقاً جداً في قريته. إنه يفحص المرضى بقلب جريء ويكتب العلاج لهم منذ أول يوم له في الكلية، وبالطبع يرتكب أخطاء قاتلة، ثم مع الوقت بدأ يتكلم.. يتكلم في السياسة والدين والأدب والفلسفة، وكان يتكلم بلا أية خلفية ثقافية أو قراءات يستند إليها. لكنه تعلم أن الناس يصغون له باهتمام واحترام.. إن (الدكتور) يتكلم فانصتوا.. إنه الخلط المعتاد في مجتمعنا حينما يفترض أن المتفوق في دراسته مثقف حاد البصيرة كذلك. وهكذا كانت آراؤه تتخذ صبغة شبه مقدسة، ولكم من مرة جلس رجال واسعوا الخبرة شابت شعورهم وشواربهم يتناقشون في قضية ما، ثم يلتفتون نحوه قائلين:

- «فلنسمع رأي الدكتور في هذا..»

كان يتنحرج ويتكلم في وقار.. يقول أي شيء، فكانوا يوافقون على كلامه في احترام.. مع الوقت ازداد جهلاً وضيق أفق.. وازداد غروراً كذلك.. وبدأ يظهر تمللاً كلما سمع مناقشة تدور أمامه في أي موضوع، كأن لسان حاله يقول:

- «لم لا تصمتون وتصغون لصوت الحجا؟»

يجب أن يستنوا القوانين التي تجعله هو المتكلم الوحيد..

كنت أنا طالباً في كلية التجارة، وقد عرفته عن طريق مسكن للطلاب المغتربين، فأثار دهشتي أنه لا يعرف أي شيء على الإطلاق. ذات مرة عرض التلفزيون فيلماً أمريكياً عميقاً شديد الأهمية والتعقيد، فجلسنا نتكلم عنه.. هنا تدخل ليبيدي رأيه.. كتمت ضحكتي بصعوبة وأنا اسمع آراءه الساذجة في الفن، ورؤيته (العميقة) للفيلم.

لكن أثار دهشتي أن رفاقي يصغون له باحترام، ويؤمنون على كلامه.

مهما قيل فإن المصري يحمل احتراماً عميقاً تاريخياً للطبيب والضابط والقاضي.. مع ترجيح كفة العقل بالنسبة للطبيب لأنه لا يمكن أن ينال شخص كل هذه الدرجات في امتحان الثانوية العامة ما لم يكن حكيماً.. وهو خلط واضح بين ملكة الحفظ وسعة الإطلاع والثقافة والذكاء..

هكذا عرفت (ثروت).. وهكذا كانت بيننا صداقة سطحية لأنني بصراحة لا أطيق الأغبياء.. قد أقبل الجهلة إذا كانوا أذكاء، وهذا نمط لقيته كثيرًا.. مثل بواب البناية التي أقيم بها، ومثل تلك البائعة في السوق التي تشع عيناها ذكاء والمعية.

تخرجنا وتفرقت السبل، فلم أعرف هذه التفاصيل إلا متأخرًا جدًا، ومن فمه شخصيًا. كانت البداية هي أنه عندما ينام يشعر بأنه ليس وحيدًا. كان طبيبًا مقيمًا للتحاليل الطبية (الباثولوجيا الإكلينيكية) في مستشفى تعليمي بالقاهرة، وكانت الظروف تضطره أحيانًا أن ينام وحده في الطابق كله.

يقول إنه كان يشعر بأن هناك من يقفون حول فراشه. نهض أكثر من مرة مذعورًا وبسمل وحوقل ونظر حوله فلم ير أحدًا. في بعض المرات سمع من يتكلمون.. والأغرب أنه سمع مرارًا صوت:

كليك.. كليك.. كليك..

أما عن اختفاء الأشياء فهذا موضوع آخر. السماع الطبية التي سرقت منه على سبيل المثال، سرقت من جوار فراشه وهو نائم. لم يسرق منه شيء من قبل، وهو يعرف يقينًا أن الغرفة كانت مغلقة من الداخل، ولكنه صحا من النوم فلم يجدها. هذا لغز بلا حل..

هناك كذلك فقدان المناديل والأقلام.. تقريبًا لم يعد يوم يمر من دون أن يكتشف نقصًا في مناديله أو أقلامه. الأقلام لا تعيش في أية مستشفى ومن المستحيل أن تمضي اليوم بذات القلم، لكن الأمر كان يتجاوز الحدود المعروفة. هكذا بدأ يشعر بقلق عظيم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أعتقد أن (ثروت) كان سيلاحظ ما هو أكثر لو كان أقل غباء وضيق أفق. على أنه في المستشفى لاحظ أن هناك مجموعة غريبة من الأطباء لم يرههم من قبل.. كان هناك رجلان وثلاث نساء على درجة عالية من الجمال.. أعني كلهم طبعًا وليست النساء فقط.. كان لهم طابع غريب.. ليسوا عربًا لكنهم كذلك ليسوا أجانب.. التناقض الذي فسره البعض بأنهم أتراك..

همسات عديدة ترددت في المستشفى عن سر هؤلاء.. خاصة أنهم دخلوا مكتب المدير وقضوا وقتًا طويلاً هناك، وفي النهاية خرجت سكرتيرة المدير تبحث عن (ثروت)...

سقط قلبه في قدميه. المدير لا يحتاج له أبدًا ولا يطلبه ولا يكلمه أصلاً، فماذا استجد؟ دخل المكتب ليجد مجموعة الأطباء الغريبة جالسة هناك، وكانوا يرمقونه في فضول..

قال له المدير وهو يلوح بخطاب رسمي كئيب الشكل:

- «د. ثروت.. وكيل وزارة الصحة يوصينا خيرًا بهذه المجموعة من الأطباء الأجانب التي ستمضي أسبوعًا معنا.. إنهم أتراك، وهم راغبون في أن يتابعوا عملك في المختبر.. لا تقلق من ناحية اللغة فهم يجيدون العربية»

لماذا أنا بالذات؟.. هناك مختصون أقدم مني وأكثر خبرة. ولماذا هذا المستشفى فقير الإمكانيات بالذات؟.. لم يسمع أحد من قبل أنه مركز يأتيه الأجانب ليتعلموا. لكن (ثروت) كان مغرورًا كما قلنا لذا عرف السبب على الفور: إنه الأبرع والأرجح عقلاً..

هكذا خرج مع مجموعة الأطباء شاعرًا بفخر جهني وهو يمشي بهم في طرقات المستشفى، ونظرات الفضول – ربما الحسد – تلاحقه. وكلما حاول أحد أن يتصل بهذه المجموعة كان يتولى هو الرد، كأنه زوج غيور لا يطيق أن يكلم أحد زوجته..

وفي المختبر راح في خطورة يشرح لهم مدى عظمة ما يقوم به..
أمسك أنبوب اختبار مليئًا بالمصل، وناولوه أجمل طبيبة في المجموعة.. وتظاهر بأنه يسند يدها
كي لا تهتز فأمسك بمعصمها، وسره أنها لم تحتج.. سألها:

- «ما اسمك؟»

كان لها أنف أفنى جميل، ونظرة يمكن أن تذيب شمعة.. قالت له:

- «دافني..»

- «عاشت الأسامي»

غبي كما قلنا لهذا لم يلحظ أن للاسم طابعًا إغريقيًا.. مستحيل أن يكون هذا اسمًا تركيًا. على كل
حال عرف أن المجموعة تضم (أياد) و(أدونيس) - اسم إغريقي آخر - و(ميريام) و(نيتوكريس)..
وكانوا يتكلمون العربية بطلاقة مذهلة.. لا يوجد أدنى ظل من اللكنات الأجنبية..
لاحظ أنهم يتابعونه في نوع من الإعجاب والوله، ويلاحظون كل شيء يقوم به. المدعوة (ميريام)
التقطت له صورًا كثيرة فحرص على أن يبدو خطيرًا حاذقًا..

جاءت ممرضة تحمل مجموعة من العينات، وسألت (نيتوكريس) بفضول شعبي محبب:

- «أين تقيمون؟»

هنا تدخل (ثروت) في عصبية صائحًا:

- «هذا ليس عملك!.. أية أسئلة توجه لي أنا فأنا المسئول عنهم..»

سألته الممرضة من جديد:

- «أين يقيمون؟»

- «لا أعرف!..!..»

هنا قال المدعو (أياد):

- «فندق (.....) ... إنه جميل جدًا»

لم يكن (ثروت) قد رأى فندقًا في حياته، لكنه تظاهر بأنه يعرف الفندق جيدًا وأنه سيقبله على
مضض باعتباره ليس الأفضل.

عند نهاية اليوم كانوا سعداء جدًا، وقد دنت منه (دافني) وطلبت في تهذيب أن يوقع لها على
الأوتوجراف. نظر لها في دهشة فقالت:

- «يشرفني أن يكون معي توقيع شخص مهم جدًا مثلك»

كان يوشك على البكاء.. سوف يتزوجها.. بالتأكيد سيتزوجها ويعود بها لقريته ليراها (البسيوني)
و(الششماوي) ويحسدانه. سوف تقول النساء العجائز لبعضهن (هذه زوجة الدكتور). هكذا
وقع لها.. من جديد طلبت منه الاحتفاظ بقلمه للذكرى.

- «إلى الغد..»

- «إلى الغد..»

عندما نام في تلك الليلة كان الفراش يعلو به ويهبط فخراً.. قال لنفسه إن السحر المصري لا
يقهر، فلا توجد أنثى غربية يمكنها مقاومة ذكر مصري وسيم وذكي مثله...
سوف أتزوجها. سوف أتزوجها.. حاول أن يتذكر اسمها فلم يستطع.. هكذا قال لنفسه إنه
سيتزوج (دافية) هذه..

وفي الثالثة صباحًا شعر بشيء غريب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالفعل سمع صوت الكلام وأن هناك من يتحرك في الغرفة، وأن هناك من يقف جوار الفراش.

هذه المرة لم ينهض، بل فتح جفنيه ملليمتراً واحداً..
في الضوء الخافت القادم من الممر رأهم.. كانوا هم.. نفس مجموعة الصباح التركية، وكانوا
يقفون في الغرفة.. فجأة رأى واحدة تدنو منه مصوبة الكاميرا وتلتقط له عدة صور، فحاول
جاهداً ألا يفتح عينه..

ما معنى هذا؟.. كيف دخلوا هنا؟
لو تحرك لفتكوا به على الأرجح لأنهم أكثر منه عدداً.. لا سبيل للنجاة سوى ان يتظاهر بالنوم..
سمع صوت (أدونيس) يقول:
- «دافني.. هذا كاف..»

قالت وهي تفتح خزانة الثياب:
- «لا أصدق أن هذه ثيابه.. هذا حذاءه.. هذه جواربه.. شيء مذهل فعلاً..»
كان (ثروت) ضيق الأفق كما قلنا فلم يعلق أهمية على كونهم يتكلمون العربية فيما بينهم، كما
يحدث في الأفلام عندما يتكلم القادة النازيون الإنجليزية حتى في اجتماعاتهم المغلقة.. كان
التفسير سهلاً عنده.. يتكلمون العربية لأنها أسهل في الفهم!!!
قالت (نيتوكريس):

- «هل أنتم واثقون من أنه لا خطأ هنا؟»
قال (أياد) بصوته الغليظ المميز:
- «طبيب يدعى (ثروت البربري) في مستشفى (.....) التعليمي، وفي العام ٢٠١٠.. هل هناك
احتمال خطأ؟»
قالت نيتوكريس:

- «لا يبدو لي شخصاً مهماً..»
قال (أدونيس) بلهجة قاطعة:
- «كل الأشخاص المهمين في التاريخ لم يبدووا كذلك في البداية.. لم يكن أحدهم يطير أو يخرج
ناراً من فمه.. (أنور السادات) كان مجرد سائق لوري يضع على رأسه طاقيّة صوفية.. (بنيامين
فرانكلين) كان رث الثياب مضحكاً فسخرت منه فتاة في الشارع، والغريب أنها تزوجته بعد
ذلك!.. هيا بنا!»

وسرعان ما ساد الصمت، وفتح (ثروت) المذهول عينيه ليجد أنهم رحلوا..
ما معنى هذا الكلام؟

هل هم مجانيين؟.. هل هم لصوص؟ ...
تذكر طريقتهم في الاستماع له والتقاط الصور في كل لحظة، وبدأ يشعر بتوتر.. يتصرفون لا
كطلبة يبعون العلم، بل كسياح في موقع أثري!.. نعم.. هذا هو الشيء الذي لم يعرف كيف
يعبر عنه من قبل... لكن لماذا؟

هو عظيم.. يعرف هذا جيداً، لكن من قال لهم؟.. لم يجد الوقت ليفعل شيئاً يكشف هذه
العظمة. فما سر هؤلاء؟.. كيف دخلوا الغرفة وكيف خرجوا منها؟
في الصباح كان متوتراً محمر العينين، وظهر هذا في طريقة تعامله معهم. كان عصبياً لدرجة أنه
هشم أنبوب اختبار به مصل واخترق الزجاج يده.. إنه عاجز اليوم عن القيام بعمله بشكل
صحيح. برغم هذا التقطوا ليده عدة صور كأنهم يصورون إحدى البرديات.

في النهاية لف يده بالشاش وانفرد ب. (دافني) في ركن المختبر جوار جهاز (إليزا)، فقال لها:
- «الآن أريد تفسيراً..»

نظرت له في دهشة، فقال ضاغظًا على كلماته:

- «لن تخدعيني.. أنتم تتسللون لغرفتي ليلاً..!»

- «من الذي...؟»

- «أنا أقول.. لو لم تفسري فسوف أحكي كل شيء للمدير وأطلب إعفائي من تعليمكم»

هتفت في جزع:

- «أرجوك.. لا!»

ثم ساد صمت ثقيل.. ظلت تنظر للأرض ثم رفعت عينها وقالت:

- «يصعب أن أشرح كل شيء.. أنت لا تفهم معنى السياحة التاريخية. لو أنك منحت الفرصة

للعودة إلى زمن كليوباترا والحديث معها والتقاط الصور فهل تفعل؟»

- «لا..»

اندهشت من الرد الأحق، فعدت تقول:

- «ليكن.. بعض الناس يرغبون في ذلك.. فلنقل إنني ومن معي لسنا من هذا الزمن أصلاً.. جئنا

لهذه الفترة كي نلتقي بك ونصور كل شيء.. حياتك.. طريقة تفكيرك.. عملك.. ألم تلحظ اختفاء

أقلامك ومناديلك وسماعتك الطبية؟.. إننا نجمع هذه الأشياء.. سوف تساوي ثقلها ذهباً في

عالم الغد.. العالم الذي جئنا منه»

لم يفهم شيئاً على الإطلاق سوى أنهم لصوص.. عاد يسأل:

- «والورقة التي كلفنا بها السيد وكيل الوزارة؟»

- «مزورة..»

- «ولماذا؟.. لماذا أنا بالذات؟»

اتسعت عيناها وقالت:

- «لأنك. لأنك مهم جداً.. سوف يتغير تاريخ العالم بسببك!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راق الكلام لـ (ثروت) برغم أنه لم يفهم معظمه، وعاد يسألها:

- «تاريخ العالم؟.. هل تعنين أنك تتوقعين أن أصير رئيس الجمهورية؟.. أنال جائزة نوبل؟..

أشتري أرض (الششماوي)؟»

قالت وهي تكور انفها الأفتى الجميل:

- «لا أستطيع التفسير.. نحن ممنوعون من التفسير وإلا تصرفت بطريقة تغير التاريخ. لاحظ

أنك بالنسبة لنا ماض يحرم علينا تغييره.. فقط اكتفي بقول إن كل طفل في الرابعة في عالمنا

يحفظ اسمك جيداً وربما لديه صورتك»

لم يصدق حرفاً لكن.. ربما كان هذا هو التفسير الوحيد لظهورهم في غرفته والباب مغلق. لو

كان كلامهم صحيحاً فمعنى هذا أنه محق بصدد نفسه.. إنه شخص مهم جداً.. مهم لدرجة أن

يعكف خمسة أفراد على التقاط الصور له وجمع أقلامه ومناديله.. مهم لدرجة أن يتسللوا

لغرفته ليصوروه وهو نائم ليلاً..

لقد كان على حق..

لكن.. لن يندفع للجنون بتصديق هذا الكلام الفارغ. إنهم يعبثون به.

سألها:

- «أنتم مصريون طبعاً؟»

ابتلعت ريقها وهزت رأسها أن نعم..

- «وهذه الأسماء الغريبة؟»
- «هكذا ستكون أسماؤنا في الغد.. إن الأسماء تتغير مع الزمن..»
أمسك بيدها بشيء من العنف، لكنها لم تجفل وقال:
- «اسمعي يا كتكوتة.. أنا لا أصدق حرفاً من هذا السخف.. هذه (اشتغالة) لا أبتلعها.. سوف تأتين معي لمكتب المدير وهناك تحكين هذه القصة من جديد..»
- «لا أستطيع..»
هنا وجد أن الباقيين يقفون حولهما.. يبدو أن وقت العراك قد جاء.. لكنه سوف يصرخ.. سوف يأتي عمال المستشفى ليمزقوهم..
فتح فمه ليتكلم..
لكن.....

هل هذه اللطخة الكبيرة من الدم جاءت منه هو؟...
المعطف ملوث بالدم.. الدم يتساقط من منخريه بلا توقف.. ماذا حدث؟
رفع عينيه نحوهم في جزع فوجدهم يلتقطون الصور.. وقال أدونيس وهو يبعد الآخرين:
- «هذا هو.. البداية.. لقد انتقل له الوباء من أنبوب الاختبار الذي تحطم.. لا تخافوا يا شباب فنحن جميعاً تلقينا اللقاح لكن لا تلمسوا شيئاً منذ هذه اللحظة»
- «لا.. لا.. أفهم..»

قالت (دافني) وهي تنهض:
- «نحن طلبة طب جئنا من المستقبل كما قلت لك.. مهمتنا أن نقابلك ونعرف كيف بدأ كل شيء، وأن نلتقط الكثير من الصور.. أنت أول حالة من الوباء الذي أباد ثلاثة أرباع البشر والذي بدأ اليوم حسب كتب التاريخ.. الوباء الذي أطلق عليه العلماء اسم (بريريا) نسبة لأول من مات به، لهذا قلت لك إنك مهم جداً في تاريخ البشرية، وقد احتجنا لأعوام طويلة كي نعيد الحضارة ونبدأ من جديد.. اليوم نحن نرى مولد الوباء»
قال (أدونيس):

- «الغريب أن صاحب الدم الأصلي لم يصب بالوباء..»
صاح (ثروت) وهو يحاول النهوض:
- «أنتم مجانيين.. مجا....»
ثم سقط على ركبتيه فقال (أدونيس) وهو يلتقط المزيد من الصور:
- «فعلاً.. الأعراض هي نزف من كل فتحات الجسد ويبدأ فور العدوى.. هل ترون هذا الدم المتدفق من العينين يا شباب؟.. إنها علامة (ثروت) الشهيرة التي تميز هذا الوباء عن سواه من الحميات النزفية..»
- «أنتم تمزحون!»

قالت (دافني) في برود علمي:
- «لا فارق.. صدقت أم لم تصدق، لكنني أشكرك على الساعات التي قضيناها معك.. بالفعل أنت أهم شخص في تاريخ البشرية على مدى ثلاثمائة سنة.. كل طفل في عالمنا يعرف اسم (ثروت البريري).. أول من مات بالوباء الرهيب..»
قالت نيتوكريس:

- «أعتقد أن علينا الرحيل يا شباب..!»
صاح (ثروت) والدم يسيل بلا توقف من أذنيه هذه المرة:

- «انتظروا.. متى ينتهي هذا؟»
- «خلال يومين.. لا أحد يعيش أكثر من يومين!...والآن سوف نعود لعالمنا!»
وسرعان ما كانوا يغادرون المختبر في مزيج من الرعب والحماسة والفوضى.. لابد أنهم
يمزحون.. لابد أن هذا مقلب...
لم يكن (ثروت) يعرف أنني سأزوره غدًا في المستشفى، وأني سأنال نصيبي من العدوى مع كل
من تعامل معه. هذا قد يغفر لي بقع الدم المتناثرة على هذه الأوراق...
فتح فمه ليصرخ فشرق بالدم.. لكنه استطاع أن يخرج الصيحة:
- «دافني!.. هل تتزوجيني؟؟؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت)

قصة هيام

قال لي (عباس) في ضيق:
«التيمة المعروفة.. زوجي غريب الأطوار.. أنا أشك في أنه ليس كما يبدو.. ألا تنوي أن تغير هذه الأحداث النمطية؟»
قلت له وقد بدأ الدم يتصاعد لرأسي:
«يا أخي لا تكن مزعجاً.. اصبر.. اصبر..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سوف أكتب عن هيام.. هيام التي تأبى أن تتزوج لسبب يمكنني فهمه..
زجاجة المياه الغازية تظل باردة جذابة إلى أن تُشرب.. بعدها تصير مجرد زجاجة خاوية مهملة يركلها الأطفال ويغطيها الغبار، وتحملها (سعدية) الخادمة إلى (عبده) البقال في إهمال فيتشاجر معها مؤكّداً أنها أخذت خمس زجاجات لا زجاجة واحدة..
من المهين أن تعتبر نفسها زجاجة مياه غازية.. هذا يوحي بالالتهام وبأنها مجرد سلعة، لهذا كانت تختار تشبيهها أقل صدمة: ديوان شعر لم يُقرأ بعد.. زهرة لم تُقطف بعد..
الزواج يفقد المرأة كل أسرارها وكل غموضها، وهو ذات ما فطن له رجال الساموراي في الماضي عندما اعتبروا أن الزواج يفقد الفارس قدراته. هيام تؤمن بهذا، ويسرها جداً أن تسمع العروض تنهال عليها.. لو تزوجت فلا عروض.. أما اليوم فسوف يقترب منها زميل العمل هذا أو ذاك مرتباً.. يعطي تلميحاً خفيفة باهتة.. يتكلم عن الكفاح المشترك والحاجة لأن يمضي المرء حياته مع شخص يفهمه، ثم يتجرأ ويلقي بالعرض:
- «هل لي أن أقابل بابا؟»

سوف تنظر له كأنه أكبر غبي رآته في حياتها، وسوف تنظر للسقف بما معناه (يا ربي).. ثم تخبره أن أباه توفي وأن عليه مقابلة خالها وأُمها. يسرها جداً أن ترى الأمل في عينيه.. اللورد البريطاني المتأنق يعطي الثعلب فرصة للفرار وأملًا، ثم يشعل سيجاره وينظر لرفاقه وكلابه ويصيح:
واصلوا المطاردة!!

هذا شاب مجيد رباه أهله جيداً وحرص على أن ينال حظاً من العلم والخلق والدين وربما الوسامة... شاب ناجح بكل المقاييس..... وهي سترفضه!!... ستهز ثقته بنفسه، وبالتأكيد لن يشعر بالراحة أبداً بعد اليوم وهو يرمق صورته في المرآة.. ربما أنا أسخف أو أفقر أو أقبح أو أغبي مما ظننت بنفسي؟؟ أمه سوف تقول له إنه طن من الذهب يمشي على قدمين، لكنه لن يصدق.. لا بد لأي أن تقول هذا...

هذه الانفعالات تعطي (هيام) لذة لا يمكن وصفها.. لذة تفوق الزواج والأسرة بكثير..
سوف يأتي الشاب ليلاً مع أبيه وأخيه وأمه، ولسوف يحاول الجميع أن يكونوا في غاية الظرف.. أما هي فلسوف تراقب الفتى تبحث عن خطأ ما شاعرة بأنها قاض على وشك إصدار حكم الإعدام.. الفتى يهز ركبته كثيراً.. إنه غير واثق من نفسه إذن.. يحك أنفه أي أنه كذوب.. مجلة (حواء) قالت إن الدم يحتشد في أنف الكذابين فيشعرون بحكاك قوي.. يا لك من وغد كذوب ضعيف الشخصية إذن..!

في النهاية تخبر خالها في حزن مصطنع أنه: مفيش نصيب..
تحاول أمها إقناعها.. الأمهات لا يفهمن هذه الأشياء، ربما لأنهن أكثر حكمة.. سوف تمر هذه

(الزهوة) -بلغة الأمهات- وتقل الفرص.. لابد من أن تكون الفتاة ذكية تعرف أفضل الفرص وتغتنيها.. لكن (هيام) لا تريد الزواج فعلاً.. سوف تعرف الوقت المناسب والعريس المناسب يومًا ما لكن ليس الآن.. مستحيل أن تتخلى عن لعبة الصيد الممتعة هذه.. يصعب معرفة اللحظة التي قررت فيها (هيام) أن اللحظة قد حانت.. يبدو أن تعب المعادن يحدث للبشر أحيانًا.. وقد جاء يوم قررت فيه أن تلين وتنهار. لعل الأمر يتعلق بالتعب فعلاً أو يتعلق بشخص (رامي).. يقول نقاد القصة إن رأي المؤلف لا قيمة له.. المهم ما يراه بطل القصة وليس المؤلف. هذا صحيح إلى حد ما، لكني مضطر لأن أخبرك برأيي في رامي وإلا متُّ كمدًا.. بصراحة أنا لا أرتاح له كثيرًا.. منمق أكثر من اللازم.. أنيق إلى حد الأنوثة.. كل حركاته تمثيلية كأنه جربها مرارًا أمام المرأة قبل ذلك. كيف يمكن أن تقود سيارتك بيد واحدة وكف مفتوح وأنت مضطجع في مقعدك بزاوية ١٥٠ درجة؟.. يد واحدة على المقود كأنك تمسحه من الغبار ولا تقود به، مع لفافة تبغ سوداء غريبة أنيقة في اليد اليسرى تحملها بأناقة كممثلات المسرح الغربيات.. ثم تلك الحركة التي يضم فيها يديه على صدره كأنه يتحدث من القلب... بصراحة هو رجل يثير اشمئزازي، لكن من الواضح أنه راق لصديقاتها ومن المؤكد أنه راق لها جدًا..

وكانت (هيام) من الطراز الذي يمكن أن يتزوج شابًا -برغم كل مبادئها تلك- لمجرد أن تغيظ صاحباتها... صديقتها (ليلي) باهتة الشخصية من الطراز الذي خلق ليقاد، وكانت (هيام) تحبها بجنون لأنها تلعب معها لعبة المعلمة والتلميذة.. تتحكم فيها كدمية مسالمة ضعيفة أقل منها في كل شيء، وكانت تتشاجر لها مع الجميع.. مع سائق التاكسي.. مع الشاب الوقح الذي دفعها في الزحام.. مع البائع الذي يغالي في السعر.. الخ.. كأنها رجل يدافع عن امرأته... (ليلي) كانت معها في المكتب عندما دخل (رامي) يسأل عن تكلفة شحن مجموعة طرود لألمانيا.. نظرت له (ليلي) طويلًا ثم قالت همسًا وهي تنهد:

- «لا خواتم»

- «عم تتكلمين؟»

- «غير متزوج..»

نظرت هيام إلى يده، وللحظة بدت لها كبحر يعج بالفرص.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت (ليلي) بصوت مبحوح:

- «إلى أين تذهب تلك الفرص الدسمة؟.. من يظفر بها يا ربي؟»

في سرها قالت (هيام):

- «تذهب لي يا بلهاء.. أنا التي تظفر بها!!»

على كل حال كانت قد قررت أنه يكفيها شيء واحد.. أن يتقدم لها هذا الفتى الساحر وتعطيه موعدًا ثم تأتي يوم سبت لتعلن في المكتب:

- «هذا الفتى الوسيم الثري.. لقد تقدم لي الخميس الماضي لكنني رفضته.. لا أحب الرجال الذين يستعملون المنديل كثيرًا..»

وسوف تجن الأخريات غيظًا.

على كل حال كانت توقعاتها دقيقة جدًا.. لقد بدأ (رامي) يتردد على المكتب كثيرًا.. أكثر مما يتحمله الموقف في الواقع فمن الصعب أن يتحمس أحد لشحن الطرود بهذا الشكل. ثم بدأ

يتعمد الكلام معها، والكلام كان كله عن الطرود - وهو موضوع شائق كما ترى - ثم بدأ يتطور.. إنه أهلاوي ومباراة الأهلي الأخيرة حديث الساعة.. ماذا؟.. هل تحبين كاظم الساهر مثلي؟.. غريب هذا..

الآن يمكننا أن ننسى كل ما عرفناه عن هيام.. لقد صارت تسأل نفسها في كل ليلة:
- «متى يتقدم هذا المعتوه؟..؟ هل يحسبني سأنتظر للأبد؟»
لكنها لم تكن متأكدة من رد فعلها لو تقدم.. هل ترفضه؟.. الآن لم تعد واثقة..
عرفت أنه وريث ثري جدًا وأنه رجل أعمال، وأنه وحيد.. رأت سيارته ورأت كيف يدخن.. لم يكن يهز رجله أو يحك أنفه كثيرًا..
من الواضح أنه عريس ممتاز..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لي (عباس) وهو يراجع ما كتبت:
- «لا بأس.. الحلقة الأولى جيدة.. أشعر أن شيئًا سيحدث..»
قلت له في غيظ:
- «طبعًا سيحدث شيء.. لو لم يحدث فلماذا أكتب أصلاً؟»
- «لكن حاول ألا تفسدها..»
- «سأحاول...»
(عباس) لا يكف عن إهداء النصائح القيمة لي.. لولاه لتحولت إلى غبار كوني منذ أعوام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما غادر (رامي) الدار، سألتها أمها في لهفة:
- «هيه؟.. ما رأيك؟»
لاذت بالصمت ولم تقل شيئًا.. وأدهشها هذا الضعف من نفسها.. هذه الرقة الأنثوية تعتبرها هي شيئًا مخجلًا.. ثم أنها لم تفرح ولم تتسل عليه بما يكفي..
قال خالها وهو يحشو فمه بطعام العشاء:
- «سمعتة طيبة في عالم الأعمال، لكن لا أحد يعرف شيئًا عن أهله.. لا شيء على الإطلاق.. جاء من الخارج ليقيم في مصر ويحكي قصة طويلة عن أهله الذين فروا من التأميم وبقوا في الخارج..»

قالت أمها رأيها الدائم في أن العريس الممتاز هو العريس الذي يكون (حالق رأسه وعادم ناسه).. أي أنه بلا أهل، أما عن سبب جاذبية حلاقة الرأس فليس لأن الأم من المعجبين بموضة Skin head ولكن لأنه لابد من قافية تتناسب مع (ناسه)..
هكذا تم الزواج.. وهكذا سقط الطائر المراوغ الحرون في شباك الصياد الوسيم بعد سنوات من التحليق.. أما التساؤل عن الأكثر حظًا (رامي) أم (هيام) فأمر يتوقف على نوعك؛ لو كنت من العرسان الحالمين الذين عبث بهم فأنت تجد (رامي) محظوظًا فعلاً، أما لو كنت مثل (ليلي) لحسدت (هيام)...

على كل حال لاحظت (هيام) أشياء غريبة لم ترحها في (رامي)، لكنها لم تعلق عليها..
لماذا ينام على ظهره دائمًا وعيناه شبه مفتوحتين؟ ... لماذا تصحو في منتصف الليل فلا تجده جوارها؟ ... أين يذهب؟.. يقول إنه يحب الهواء الطلق.. لكن أين يشمه بالضبط؟ في ذلك الفندق الذي أقاما فيه في شهر العسل، كان من المستحيل أن تخرج ليلاً ولا يوجد شاطئ تمشي عليه بالمعنى الحرفي للكلمة...

عندما عادا كانا يسكنان في منطقة منعزلة في أحد التجمعات السكانية.. هناك أصوات غريبة ليلاً.. ذئاب وربما سلعوة.. ليس أفضل مكان يمشي فيه المرء وحده ليلاً... لكنها لم تستطع قط أن تتصيد اللحظة التي يخرج فيها ليلاً.. دائماً تكون نائمة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال لي (عباس) في ضيق:

- «التيمة المعروفة.. زوجي غريب الأطوار.. أنا أشك في أنه ليس كما يبدو.. ألا تنوي أن تغير هذه الأحداث النمطية؟»

قلت له وقد بدأ الدم يتصاعد لرأسي:

- «يا أخي لا تكن مزعجاً.. اصبر.. اصبر..»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليلة غريبة هي تلك التي قضتها مع أقاربه في الفيوم... لم يكن قد حكي لها عنهم قط، وهي تعرف يقيناً أنه بلا أقارب.. لكن الصورة تتغير، وهو يحدثها عن أقارب قدامى له.. مجموعة غريبة الأطوار من البشر، وأنا أعني ما أقول.. عندما لا تتكلم طانط (علياء) أبداً وتظل ترمقك في ثبات، وطانط (ميرا) التي تضع الإيشارب ليحجب معظم وجهها لأنها لا تتحمل الشمس، فلا ترين سوى عينيها.. ثم ذلك الرجل الغريب المدعو (عزمي) الذي لا يكف عن شرب أشياء من زجاجات صغيرة، ويؤكد أنها دواء....

عندما وضعت (نانسي) قرييته يدها على يد (هيام) شعرت بأنها باردة كالثلج.. قاسية.. صلبة.. يمكنها ان تنتزع قلب أسد من ضلوعه بلا جهد يذكر...

الجو لم يكن ودوداً برغم أن (رامي) بالغ كثيراً جداً في التظرف والتمثيل.. كان يطوح رأسه للخلف ضاحكاً، ويثب في الهواء متظاهراً بالحيوية...

في نهاية اليوم قالت طانط (علياء) بصوتها الخشن الأنفي الذي يذكرك برجل عجوز يرتجف:

- «شد حيلك يا (رامي).. نحن نريد الذرية.. أنت تعرف هذا جيداً..»

لم تكن دعوة طيبة.. كان هذا أمراً صارماً لا راد له، وتقسم (هيام) على أن (رامي) وقف في مكانه بشيء من الرهبة، واحمرت أذناه قليلاً...

- «طبعاً يا طانط...»

كانت مندهشة من تأثير أقاربه عليه ولماذا لم يظهروا في الصورة إلا بعد الزواج، عندما جاء المساء فأعد لها (رامي) الطعام.. جلب الكثير من عصير البرتقال وجلس معها على ضوء الشموع.. كانت تفكر: إن هذا ليس عدلاً.. الفتاة تقبل المخاطرة وتزوج رجلاً لا تعرف عنه إلا أقل القليل.. ثم يكون عليها أن تواجه هذا كله وحدها وأن تدفع ثمن قرارها هذا. ماذا تعرفه عن (رامي)؟.. لا شيء سوى اهتمامه بالطرود المرسلّة لألمانيا وأنه وسيم منمق...

بالتأكيد كانت في وضع أفضل عندما كانت عذباء تملي شروطها، كقائد يستعرض صفوف الجنود من الخطاب...

فجأة بدأ النعاس يلعب بعينيها.. تثاءبت ولم تعد تشعر إلا ب. (رامي) يقتادها للفراش وهي لا تكف عن التثاؤب.. الأرض عالية جداً ولينة.. من قرر فرش الشقة بالمراتب الهوائية؟ لابد أنه

مجن.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا نهض (عباس) محنقاً وألقى بالورق على الأريكة وقال:

- «ها نحن أولاء قد انتقلنا لقصة (طفل روزماري) مع أننا بدأنا بقصتك الخاصة.. الزوج يعمل

مع عبدة الشيطان بغرض المجيء للكون بابن للشيطان من امرأة بشرية.. زوجها متواطئ يا أستاذ.. متواطئ..!!.. هذا واضح وكذلك هو يدس لها المنوم في عصير البرتقال.. بل من الممكن أن تسوء الأمور أكثر ويكون زوجها هو الشيطان نفسه!! «
نهضت وبدأت اجمع أوراقى أمام عينيه المندهشتين، فسألني في غباء عما هنالك.. قلت له:
- «أرى أن تقوم أنت بالتأليف.. فلديك موهبة ممتازة في هذا الصدد...»
جذبني من ذراعي وقال ملخًا:
- «أنت لا تقبل النقد...»
- «وأنت لا تقبل الفن»
- «فقط عندما يكون جيدًا...»
- «أنا لا أؤمن بموضوع تذوق البيضة لمعرفة إن كانت فاسدة أم لا.. لابد من التهامها كاملة أولاً.. إن تسممت كانت فاسدة وإلا فهي جيدة.. فقط اخرس قليلاً ودعني أكمل»
هكذا جلس مغتاظًا وبحث عن الصفحة التي كان يطالعها...
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(هيام) الآن حامل..
إنها مندھشة من كل هذه المهانة التي تلاقيها أنوثتها، فهي عاجزة عن اعتبار الأنوثة مجداً.. ليس لها سوى بطن منتفخة وقدمان متورمتان وأنفاس قصيرة متلاحقة وحجاب حاجز يوشك على أن يخرج من فمها.. الركلات... الركلات من الداخل لا من الخارج..
الطبيب الذي فحص بطنها بالسونار اتسعت عيناه رعباً..
- «هل هناك مشكلة ما؟»
تجمعت قطرات العرق على جبينه، برغم تكييف الغرفة القوي، وقال:
- «أشياء غريبة في الصورة.. أعتقد أن هذا ناجم عن التزيغ.. أجسام في السائل الأمنيوسي تعطي صوراً غريبة.. ربما الغازات.. ربما.... فقط يجب أن نعيد هذا الفحص بعد شهر»
لكن (رامي) جن غيظاً عندما عرف أنها خضعت للفحص بالسونار، وقال لها:
- «أشياء كهذه لا تتم دون علمي.. لربما عرض السونار الجنين للخطر»
- «لكن السونار لا يؤذي.. إنه آمن تماماً»
- «هكذا يقول الأطباء اليوم، وعما قريب سوف يعرفون أنه خطر داهم.. في طفولتي كانوا يفحصون الأجنة بالأشعة السينية ويحسبون لا خطر هنالك»
هكذا اضطرت لأن تصمت وتقبل ألا يفحصها طبيب طيلة فترة الحمل....
والجواب عن مخاوفها كان قريباً جداً.. جداً...
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولد (أحمد) في ليلة من شهر ديسمبر.. ليلة باردة انهمر المطر فيها مدراراً، وكان طفلاً جميلاً بلا تشوهات... لكنها لم تكن سعيدة به. ثمة شيء خطأ... (رامي) كذلك لم يكن سعيداً به برغم أنه أطلق عليه هذا الاسم ليكون (أحمد رامي) على اسم الشاعر الكبير. كان (رامي) يتصرف بنوع من اللهفة والقلق كأنه كان ينتظر لحظة بعينها وقد جاءت...
لاحظت (هيام) أن ابنها صموت.. لا يبكي مثل الصبية ولا يعوي.. بل إنه يكون أكثر راحة في الظلام... هذا أثار رعبها بشكل خاص...
لم يكن يلعب مع رفاقه.. بالواقع لم يكن له رفاق أصلاً..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال (عباس) ضاحكًا:

- «لقد انتهت عقدة روز ماري وبدأت عقدة (النذير).. داميان.. الطفل الشيطاني.. ربما مسحة من (لعنة المذءوب) كذلك حيث يلمس الرضيع ماء العِماد فيغلي، لأنه يحمل بذور داء الاستذئاب.. فقط أنت جعلت الجو عربيًا..»

قلت له في وقار وهدوء:

- «لن يحدث هذا.. صدقني...»

هنا اتسعت عيناه رعبًا.. وطوى الورق كأنه عصا غليظة ونهض صائحًا:

- «لحظة!.. الرعب الموجه لوجهة خطأ! ... هذا هو!... أنت حاولت أن تجعلني أشك في (رامي) والطفل منذ بداية القصة.. هل تعرف ما أفكر فيه؟ ... هناك كائن شيطاني واحد هو (هيام)!.. سوف ندرك هذا في النهاية وينقلب كل شيء!»

قلت في برود وأنا أضع ساقًا على ساق:

- «لو فعلت هذا لقلت إنني أكرر نفسي..»

- «إذن ما الذي سيحدث؟ ... ماذا؟»

- «أكمل القصة!!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن (أحمد) الصغير في العاشرة..

تجلس (هيام) في الشرفة ترمقه وهو يلعب في حديقة الفيلا. للمرة الأولى تنظر لنفسها من الخارج وتدرك أنها سعيدة.. لا تعرف الظروف السحرية التي جعلتها تغير خطة حياتها وتتزوج بدلاً من التسلية على الخطاب.. لا تعرف كيف وثقت بشخص لا تعرف عنه شيئًا، لكنها اليوم تعرف عنه الكثير..

ظلت طيلة هذه الفترة تتوقع الشر، لكن لم يحدث شيء.. تنتظر في كل يوم مصيبتة القادمة، لكن لا مصائب.. اليوم تدرك أنها أضاعت عشر سنوات ثمينة من حياتها بانتظار انهيار كل شيء، وانكشاف السر الرهيب الذي يخفيه زوجها.. لكن لا سر هناك..

الحياة لم تكن بهذا السوء.. سوف يكبر الصغير وتشيوخ هي، وسوف تذهب معه لرؤية فتاة أخرى تتسلى برفض الخطاب.. وستقول له معزية وهما ينزلان في الدرج:

- «انسها.. صدقني.. الموضوع لا يستحق...»

لكنه لن ينسى بسهولة.. هكذا دورة الحياة الأبدية..

وابتسمت ورشفت رشفة أخرى من عصير البرتقال الذي أعده لها زوجها..

تمت

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هتف (عباس) في بلاهة:

- «ماذا؟ ... تمت؟ ... لم يحدث شيء!!»

قلت وأنا اضع الأوراق في ملف:

- «ألم تفهم؟ ... بلى لم يحدث شيء.. هذه قصة عن فتاة اسمها (هيام) تزوجت وأنجبت طفلًا

وعاشت حياة سعيدة... هذا كل شيء..»

احمر وجهه كالطماطم وقال:

- «رامي ليس شيطانًا ولا عابد شيطان؟.. ابنها ليس ابن الشيطان.. البرتقال لم يحو منومًا..

الجولات الليلية لا سر وراءها؟.. الأسرة ليست أسرة شيطانية؟...»

قلت في ثقة:

- «لا تنكر أنني خيبت كل توقعاتك ولم يحدث شيء مما خمنت.. هذا هو سر قوة هذه القصة.. أول مؤلف يكتب قصة لا يحدث فيها شيء على الإطلاق، وبالطبع لن يزعم أحد أنه قرأ القصة من قبل أو خمن ما سيحدث فيها.. وإنني لأشكرك على الشيك الدسم الذي كتبتك كأجر لي»

راح يفكر بعض الوقت، ثم نهض ليقتراني إلى باب الخروج... هناك صافحني وهو يبتلع ريقه، وقال في ارتباك:

- «سامحني.. إن الصدمة كانت قوية.. والنهاية غير متوقعة فعلاً.. آخر نهاية يمكن لإنسان أن يخمنها مهما حاول.. أعتقد أنني سأنشرها.. إن القصص التي لا يحدث فيها شيء على الإطلاق ليست بدعة.. يسمونها (اللا رواية) Antiroman وهناك نماذج قوية لدى فوكنر وفورستر، لكن البداية كانت توجي بشيء مثير كما تعلم وحسبت أننا.. احم.. إنني مرتبك ولا أعرف ما أقول....»
وفتح فمه ليعبر أو يقول أكثر، لكنني ابتسمت لأريحه..
واستدرت منصرفاً وهو ما زال ينظر لي في بلاهة باحثاً عن شيء يقال...

(تمت)

مصحة الدكتور أنطوان

كنت أؤمن مثلها أن هناك شيئاً مريباً.. لكني بصراحة لم أملك الشجاعة اللازمة لهذه المغامرة الليلية. كل شيء يوحى بأننا في مكان مريب.. هناك لغز يجب أن نحله، وعلى كل حال تنجح الأنثى الشجاعة دومًا في أن تجعل الرجل شجاعًا.. هكذا في الظلام وعندما صارت الساعة الثانية بعد منتصف الليل غادرت غرفتي ومشيت إلى الحديقة حيث كانت تنتظرني.. هل هناك كلاب يطلقونها في الحديقة ليلاً؟.. لا أعتقد وإلا لمزق نباها الصمت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نعم.. هي تقع في منطقة جميلة جدًا خارج القاهرة، والطريق إليها يوحى بأنك في بلد غربي ما. الخضرة في كل مكان والورود مع الهواء النقي.. كل شيء معقم.. كل شيء نظيف.. هناك من بحث بمجهر عن أي شيء يوتر النفس أو يرهق الأعصاب، وقام بنزعه بعناية.. المشكلة أن هذا بالضبط هو ما يجعل المكان لا يطاق!...

لا أحد يشعر بالراحة في غرفة الجراحة.. إنها المكان الأنظف والأكثر تعقيمًا بلا شك، لكن هذا بالذات يشعر بالتوتر والاختناق.. لا بد من درجة ما من الفوضى والصخب والتلوث حتى تشعر بأنك حي وسط أحياء.. تذكر أنهم يتلعون البكتريا ابتلاعًا في العالم المتقدم حتى يقللوا من سرطان الجهاز الهضمي.. لقد اكتشفوا أن قنواتهم الهضمية معقمة أكثر من اللازم، وهذا - ويا للعجب - أخل بتوازن الخلايا وجعلها مستعدة للإصابة بالسرطان.. لا بد من بعض التلوث الصحي... هذه هي الحقيقة..

نعم.. المصحة جميلة جدًا ونظيفة جدًا..

هذا المدخل قد اجتازته سيارة أكثر من مليونير وأكثر من ممثلة سينما أرهقتها الأضواء، وأكثر من مسئول جاء سرًا ليتلقى علاجًا ضد الإدمان..

اللافتة الكبيرة تقول (مصحة الدكتور أنطوان).. اسم هو نار على علم بالتأكيد. الدكتور أنطوان نفسه من أصل لبناني لكنه يعيش في مصر منذ دهور، واعتقد أنه مسن جدًا..

على البوابة الحديدية يقف رجل الأمن ينظر لنا في شك..

أخرجت (ناديه) الكارنيه الصحفي والخطاب، ففتح الرجل البوابة وقرأ الاثنين، ثم فتح الباب دون كلمة..

انطلقت السيارة وسط ممر أكثر جمالاً.. الزهور معتنى بها فعلاً وهناك نافورة أنيقة على شكل سمكة عملاقة تفرغ الماء من فمها..

قالت ناديه وهي تنظر في فضول:

- «لا يوجد مجانيين.. ألم تلاحظ هذا؟»

قلت في ضيق:

- «لسنا في فيلم لاسماعيل يس هنا.. لا يجب أن تري جنرال نابليون محاطًا بجنوده..»

ألم أحدثك عن ناديه؟.. يصعب أن تتصور أن أوجد مع ناديه في مكان واحد، إلا لو تصورت أن يتواجد النمس والثعبان في مكان واحد.. القط والفأر.. لو كانت هناك كيمياء بين الأرواح فعلاً، فنحن لا نملك ذرة منها..

ناديه في الخامسة والثلاثين.. غير متزوجة.. على قدر من الجمال، لكنها تؤمن أن الرجال مجموعة من الخنازير ضيقة الأفق.. الذكي بين الرجال صار وغداً، أما باقي الرجال فلا خير يرجى

منهم ومن الأفضل تجاهلهم أو إشعارهم بعدم الراحة..
أنا أصغر سنًا منها لهذا يحلو لها أن تعاملني كطفل أخرق.. وهكذا تعطي نفسها حرية أن تعلق
على تصرفاتي وتنصحني وتنتقدي أمام الناس.. لذا أرد ردودًا سمجة.. الخلاصة أن رئيس التحرير
عندما جعلنا نقوم بهذه المهمة معًا كان يعذبنا.. بصراحة أفضل أن أكون مع حية ذات أجراس
على أن أكون مع ناديه لمدة أسبوع..

على الباب كانت هناك تلك السكرتيرة.. ليست حسناء لكنها موحية بالثقة كأنها معلمة واسعة
الخبرة.. كيف عرفت بقدومنا؟.. بالتأكيد رجل الأمن على البوابة..
هزت رأسها محيية وقالت بلهجة عملية:

- «الأستاذة (نادية شاكر) والأستاذ (عصام عبد اللطيف) ... جريدة (الحدث)... أنتظركما..
الدكتور أنطوان يعرف بقدومكما كذلك.. مرحبًا»

غرفة د. أنطوان تقع في نهاية ممر رطب معقم بدوره يزدان بالتماثيل على الجانبين.. هناك جهاز
تلفزيون في الردهة، والعلامة الوحيدة على طبيعة المصحة هي أن التلفزيون موضوع على رف
عال..

فتحت الباب وأعلنت عن قدومنا فجاء صوت من الداخل يرحب بنا..
والآن أقدم لك د. أنطوان.. أشهر اسم في عالم المصحات النفسية في مصر حاليًا..
إنه مسن جدًا بالفعل.. هناك درجة من الشيخوخة تجعل كل شيء في الرجل أزرق.. لون عينيه..
الأوردة الكثيرة على ظهر يديه. أظفاره.. يداه بالذات كانتا غريبتين بجلدهما شبه المدبوغ
المشدود على العظام.. هناك مرض روماتزمي يعطي هذا المنظر لكن لا أذكر اسمه للأسف..
حتى بذلته كانت زرقاء وربطة عنقه مثلها، مما أعطاه طابعًا أزرق شاملاً....
بصوت مرتجف واهن، ولكنة أجنبية واضحة رحب بنا..

- «عرفت أنكما ستمضيان أسبوعًا هنا، لجمع القصص الغريبة. إن (زيدان) صديق قديم لهذا لم
أستطع رفض طلبه هذا.. لكن أصارحكما أنني لا أقبل أي طلب مماثل من أي واحد آخر»
زيدان؟.. آه.. رئيس التحرير (محمود زيدان).. نحن لا نناديه بهذه الطريقة لهذا لم استوعب
أولاً...

قلت في كياسة وأنا أمد يدي لعلبة التبغ:
- «نحن نشكرك كثيرًا على هذا الكرم.. من المعروف أن اسم المصحة سيرد في التحقيق مرارًا،
وبهذا نمناها نوعًا من الدعاية»
تؤ.. تؤ..

لمحت الاستنكار على وجهه فنظرت له في غير فهم.. رفع إصبعًا مرتجفًا وقال:
- «هذه مصحة نفسية.. التدخين ممنوع منعًا باتًا..»
أعدت العلبة لجيبي في ضيق.. سوف يكون تحمل هذا صعبًا لأسبوع كامل. لكنني سأدخن في
غرفتي كثيرًا جدًا.. أعرف هذا يقينًا..
عاد يقول:

- «نحن لا نريد هذه الدعاية لأن اسمنا براق بما يكفي.. لكنني أرغب فعلاً في قراءة ما ستكتبان..
أريد عيّنًا أخرى...»

ثم دق الجرس الذي أمامه وقال:
- «سوف تذهبان الآن إلى غرفتيكما.. ثم يقوم د. (سمير) بإخباركما بخطة العمل العامة..»
ثم اتسعت عيناه الزرقاوان وقال بصوت كالفحيح:

- «ثمة أمور خطيرة سوف تعرفان عنها في وقتها.. لكن تذكر أن هذا المكان ليس آمنًا جدًا.. خذا الحذر.. هذا ما أستطيع قوله في الوقت الحالي!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اسمه (مصطفى الصاوي) ..

في الأربعين من عمره، وقد بدأ الشعر يتراجع عن مقدمة رأسه.. له عينان جاحظتان اعتدت أن أربطهما بالجنون. هناك يجلس في تلك الغرفة الشبيهة بالزنزانة.. ليست مبطنة كما توقعت، لكنه مقيد بسلسلة إلى الجدار، ويتربع على الفراش كقرد. هزني منظره.. فيه شيء غير إنساني يبعث القشعريرة في النفس، وأنا لم أر إنسانًا مقيدًا بسلسلة من قبل.

قال د. (مراد) الطبيب الشاب ذو الشعر الثائر:

- «(مصطفى الصاوي) .. اضطراب ثنائي القطبية مصحوب بميول عدوانية شديدة.. لقد هشم رأس زوجته، ثم اتبع ذلك بأطفاله.. في العادة لا يرسلون لنا حالات بهذه الخطورة، لكنه من أسرة ثرية ذات نفوذ.. وقد أحضره هنا.. نحن نتعامل معه بحذر شديد»
ثم أضاف بلهجة حازمة:

- «طبعًا أنت مسئول مسئولية كاملة عن أسرار المرضى.. لا أسماء من أي نوع، ولا حروف أولى يمكن تخمينها.. لو وصفت حالته فلتقل (أحد المرضى)»
ثم أشار لي محذرًا وقال:

- «لا صور طبعًا..»

هنا تدخلت نادية في حدة كعادتها:

- «لحظة.. ما تأثير الكلام عن المريض بهذه العبارات الواضحة أمامه؟.. أليس هذا حمقًا؟»
قال الطبيب في مقت واضح:

- «لا تحسبي أننا لم نفكر في هذا، ومعلوماتنا أنه لا يفهم ما نقول..»

نظرت لي عينا مصطفى الجاحظتان وفتح فمه وارتجفت شفته السفلى.. ثم أدار ظهره لنا.. في خطوات ثابتة غادر الطبيب الزنزانة.. ومشى في الردهة قاصدًا زنزانة أخرى.. كان هناك ممرض ضخم الجثة أدار المفتاح في الباب.. لا توجد كوة ترى منها المريض كالتي نراها في السينما..

الغرفة كانت مظلمة. هناك فراش وهناك مكتب صغير تجلس إليه امرأة.. امرأة في الثلاثين من عمرها نكشت شعرها تمامًا.. يستحيل أن تعرف أن كانت جميلة أم قبيحة. يكفيك فخراً أن تعرف أنها امرأة.. وكانت تكتب في ورقة بلا توقف.. ثمة قط صغير يغفو على الفراش.. نظرتُ إلى الورقة المقلوبة فرأيت كتابة بخط لا يقرأ:

- «ساعدوني ساعدوني ساعدوني ساعدوني ساعدوني»

كتابة صغيرة متراسة توحى لك بأنها نقش أو زخرفة. قال الطبيب الشاب بلهجة لا مبالية:

- «مدام (عفاف) .. حالة بارانويا متقدمة.. تؤمن أن كل الناس يريدون قتلها وأن رئيس الولايات المتحدة أرسل من يدس لها السم.. السبب أنها وصلت لسر القنبلة السينية.. القنبلة التي يمكن أن تمحو قارة من الوجود..»

ثم مال على المريضة وسألها:

- «مدام عفاف.. هل تركيب القنبلة معك هنا؟»

نظرت له في رعب ولم تقل شيئًا..

قال وهو يشير إلى القط النائم:

- «لا نحتفظ بحيوانات هنا، لكننا مرغمون على ذلك لأنها لا تأكل إلا بعد أن يأكل القط.. تطعمه شيئاً من الطعام ثم تنتظر.. في كل مرة تتوقع أن يموت لكن هذا لم يحدث»
وغادر الزنزانة فخرجنا معه. قالت ناديه وقد بدا أن مرض الأنثى هزها بقوة.. هي ترحب دائماً بجنون الرجل لأنها تعتبر الرجال مجانين أصلاً:
- «على قدر ما أرى هي ليست خطيرة..»

قال الطبيب بلا مبالاة:

- «لقد خنقت شقيقتها التي كانت تقيم معها أثناء نومها.. هل هذا خطير بما يكفي؟.. يمكن في أية لحظة أن تعتبر عميلاً للمخابرات المركزية..»
ثم مشى في الردهة، فنظرت في توتر إلى ناديه لأرى إن كانت تشاركني مشاعر التوتر.. بالطبع لم تنظر لي ولم تلتق عينانا قط.. تلاقي العينين يتطلب حدًا أدنى من التفاهم بين الروحانيين.
اتجه الطبيب إلى غرفة ثالثة.. ثم غير رأيه فتجاوزها.. بعد غرفتين أخريين أشار إلى الممرض المخيف فأدار المفتاح في القفل.. فانبعثت رائحة لا تطاق كأنه قفص الأسود.
بالداخل كان المنظر مروّعاً لأن هناك فتاة تقف في ركن القاعة وقد قيدت بسلسلة إلى قطعة حديد بارزة، وقد تمزقت ثيابها واستندت إلى الجدار.. تلهث كالوحوش بلا توقف.. حولها غابة من الفضلات البشرية.. إنها وحش بلا زيادة ولا نقصان.. عينان مجنونتان مسعورتان.. عصبية بالغة.. لعاب يسيل من الفم..

ورأيت الممرض يتقدمنا وهو يخرج من جيبه جهازاً صغيراً.. قدرت أنه صاعق كهربائي أو Taser مما يستعمل للدفاع عن النفس.. هذا الثور يريد الدفاع عن نفسه بأداة فلا بد أن الأمر خطير..
قال الطبيب الشاب وهو لا يبعد عينيه عن الفتاة:

- «هنا الجنون الرسمي.. سكينزوفرنيا متقدمة، أدت إلى أن اعتبرت الفتاة نفسها نمرًا.. يمكن أن تنقض على أي واحد لتمزق عنقه..»

هنا صاحت ناديه في عصبية:

- «هذه طريقة غير بشرية.. على الأقل يمكنكم تنظيف فضلاتها..»

قال الطبيب في هدوء:

- «نحن نفعل ذلك كلما سنحت الفرصة، لكنه يستدعي تخديرها بطلقة منومة على شكل Dart أولاً... لقد هاجمت عاملة نظافة عندنا منذ عام، ولم يكن المنظر جميلاً..»
كنت أنا قد قرأت عن حالات التصور الذبني (لايكا أنثروبي) عندما يعتقد المريض أنه ذئب، لكن لم أسمع موضوع النمر هذا.. المشهد ملأني رجفة..
الغرفة التالية كان فيها سامي..

رجل نحيل أصلع ضئيل الجسد يذكرك بوودي ألين كثيرًا.. يجلس أمام رقعة الشطرنج للأبد ويلعب مباراة أبدية مع نفسه..

- «محاسب في الخمسين من عمره اكتشف أن زوجته تخونه مع أقرب صديق له... من حينها يلعب الشطرنج بلا توقف..»

قالت ناديه:

- «لا يبدو مبررًا لوضعه هنا كما أتصور»

- «عندما يجد نفسه في وضع (كش ملك)، يغمد سكينًا في عنق أي شخص يراه!.. ثم يبدأ مباراة جديدة»

نظرت للرقعة وحمدت الله على أن ملكه يبدو آمناً...

قلت للطبيب الشاب:

- «هل المصحة لا تضم إلا هذه الحالات المخيفة؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال د. مراد وهو يخرج بنا من هذا القبو الرهيب:

- «أردت أن أبدأ بالحالات الخطرة لأشد انتباهكما.. لكنكما ستقابلان الكثير من الحالات

البسيطة كالعصاب والذهان غير الخطر..»

قالت نادية:

- «بدوت لي للحظة كأنك طفل يستمع بأن يخيف الفتيات بسحلية اصطادها!»

نظر لها في غيظ.. هذه هي الحقيقة فعلاً لكنها لا تُقال.. كل هؤلاء المحترفين لديهم نقطة

ضعف صببانية (فلتروا كم نحن خطرون!). هذه موهبة نادية الدائمة في عدم إشعار الآخرين

بالراحة.

قال في برود وهو يمشي وسط الممرات:

- «فلنترك السحالي جانباً.. غرفتاكما في نهاية الممر.. هناك جهاز هاتف.. أي شيء تريدان

يمكنكما طلب رقم (٥).. ليس هذا فندقاً لكن د. (أنطوان) أعطى تعليمات صريحة بأن تشعرا

بالراحة. يمكن لكل منكما طلب غرفة الآخر عن طريق رقمي ١٠ و ١١»

ونظر في ساعته:

- «الإفطار في السابعة صباحاً حتى التاسعة.. الغداء في الثانية بعد الظهر حتى الرابعة. العشاء

التاسعة مساءً..»

نظرت في ساعتي.. لقد فات وقت الغداء إذن.. تبّاً لكم!.. فقال باسمًا:

- «استبقينا لكما وجبتين»

كان لغرفتي ذات الطابع العملي الكثيب المميز لاستراحات الشركات.. كل شيء موجود.. كل شيء

نظيف.. كل شيء قبيح خال من الروح. هناك مرآة كبيرة في ركن المكان، وعلى طريقة الفنادق

كان هناك مصحف وإنجيل جوار الفراش..

اتجهت للمرآة وبدأت أفك ربطة عنقي.. لا أعرف سبب هذا الشعور الغريب بأنني مراقب.. لكن

أين؟.. المكان لا يسمح بوجود كاميرات مراقبة ولا توجد ثقب مفاتيح...

مددت إصبعي إلى المرآة ولمست الزجاج، فلمس إصبع رجل المرأة طرف إصبعي، كأنها لوحة

مايكل أنجلو الشهيرة أو ملصق فيلم (إي تي).. لا مسافات بين الإصبعين. شكرًا لقصص

الجاسوسية التي قرأتها في صباي.. هكذا اتجهت للهاتف وطلبت رقم ١٠..

جاء صوت نادية المتشكك المتذمر، فقلت لها:

- «هل تشعرين بأنك مراقبة؟»

قالت في ضيق:

- «كنت أتوقع أن تتأخر إصابتك بالبارانويا بعض الوقت.. كل الناس يعتقدون أنهم شفافون

ويشعرون بأنهم مراقبون»

- «أنا لا أمزح.. المرأة في غرفتي واضح أنها ذات وجهين.. بمعنى آخر هناك من يقف خلفها

ويراقبني كأنه ينظر عبر لوح زجاج..»

- «وهذا يعني؟»

- «يعني أن هناك من يراقبنا.. ويعني أن عليك ألا تخلعي ثيابك أمام المرأة، إذا لم ترحبي بوجود

طاقم المستشفى كله خلف المرأة، يقفز القلب ويشرب الكولا ويتسلى برؤيتك عارية..»
- «تأخرت كثيرًا.. لقد بدلت ثيابي فعلاً لكنني سأضع غطاء على كل المرايا، وآمل ألا يؤدي هذا إلى أن نقضي باقي عمرنا هنا بتهمة البارانونيا.. بالمناسبة هذا الكلام لا يقال عبر الهاتف..»
- «بل أريد أن يعرفوا أننا لسنا حمقى»
وضعت السماعة ورحت أفكر في معنى هذا.. لا نملك أسرارًا خطيرة ولسنا مهمين، فلماذا يهتم أحد بمراقبتنا؟
بعد الغداء المتأخر جاءت ممرضة أخرى، وطلبت منا أن نصاحبها في جولة أخرى بالمستشفى..
إن دكتور (منصور) ينتظرنا..
د. (منصور) كان رجلاً ضخماً الجثة كباب المخزن له لحية قصيرة مدببة كلحية التيس. اصطحبنا عبر حديقة أنيقة مهندمة، إلى بناية صغيرة ذات بوابة حديدية يحتشد خلفها ثلاثة من رجال الأمن الذين تبدو عليهم الخطورة. قال لنا وهو يصعد في الدرج:
- «لدينا طرق قد تعتبرها غريبة أو ثورية أكثر من اللازم، لكنها برهنت عن نجاح شديد..»
القاعة الأولى كانت مغلقة بباب حديدي، فدق الجرس مرتين وسرعان ما وجدنا أننا في غرفة كبيرة تشبه عنابر المستشفى.. على الفراش كانت امرأة لا أعرفها. كانت مقيدة في وضع مصلوب بحيث صارت معدومة الحيلة تمامًا.. جوارها كانت ممرضة تفرغ محقناً كبيراً في وريد الساعد..
قال منصور وهو يبتسم:
- «هذه هي جرثومة الملاريا!»
نظرت له ناديه في ذهول كأنما هي تستوثق من أنها لم تخطئ السماع، ثم سألته من جديد:
- «ملاريا؟؟؟؟؟»
- «نصيب المريض بالحمى.. هذه من طرق العلاج بالصدمة القديمة جداً.. لاحظ الأقدمون أن المريض يتحسن بشكل ملحوظ بعد العدوى وارتفاع الحرارة، وبعد ذلك نعالجه من الملاريا..»
الغرفة الثانية كانت ألعن.. هذه المرة هناك مريض مربوط بالكامل إلى سقالة مهينة بحيث تنزلق لتغمره في الماء لبضع دقائق.. ثم ترتفع بعد ما تطول الفترة وتتمزق أعصابنا.. يشهق المريض في جشع ليعب الهواء بسرعة، قبل أن تنحدر السقالة من جديد..
هذا لا يشبه المستشفى جداً.. هذا أقرب إلى معتقل السجن الحربي، أو غرفة في معتقل (داخاو) النازي.. المشكلة هنا أن المريض لن ينقذ نفسه بالاعتراف.. فبأي شيء يعترف؟
قال الطبيب باسمًا وهو يراقب وجهينا:
- «مندهبان من أساليبنا.. أليس كذلك؟»
الغرفة الثالثة كان يتوسطها قفص عملاق من السلك الضيق الشبيه بالشبكة.. في الداخل يقف المريض عاريًا تقريبًا ثم ينفتح صندوق ماء، فتهاجم عليه أسراب من البعوض والذباب... العدد مهول لدرجة أنها غطته بالكامل وهو يصرخ ويحاول حماية وجهه وعينه..
قالت ناديه في برود ساخر:
- «العلاج بالحشرات.. لا بد أنه علاج قديم محترم»
قال الطبيب:
- «لا.. هذا من اختراعنا.. إن صدمة أن يجد المرء نفسه مغطى بالحشرات لتفوق التحمل. هذه الصدمة كفيلة بزعزعة كل توازنه العقلي.. عندما يكون العقل مزعزعًا فمن الوارد أن يعود لطبيعته»
- «مثلما تهز الساعة المعطلة لتعمل.. كان فرانكنشتاين يتبنى هذه النظرية»

لم يرد الطبيب، بل صاح في الممرض الشبيه بفتوات السلخانة:

- «يكفي هذا يا (سملاوي).. هلم»

ففتح السملاوي ثغرة صغيرة في القفص ثم صوب خرطومًا كاسحًا من الماء يشبه خراطيم المطافي، ليكتسح كل ما غطى المريض من حشرات. دعني أؤكد لك أن اندفاع الماء كان نوعًا آخر من التعذيب..

قالت نادية هامسة لي في ضيق:

- «لا أعرف رأيك.. لكن رأيي أن هذه المصححة ليست على ما يرام..!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليست على ما يرام....؟.. وماذا نعرفه نحن عن الطب النفسي؟ ... لربما كانت هذه الأساليب حديثة فعلاً.. أحيانًا يتصرف الأطباء بطريقة تبدو لك قاسية جدًا..

أما الغرفة التالية فقد كانت أغرب من هذا كله.. هناك كلبان شديدا الهياج والضخامة مربوطان بحبلين واهيين متآكلين إلى الجدار، وهما يحاولان جاهدين الوصول إلى مريض عرفته على الفور.. إنه المدعو (سامي) المحاسب لاعب الشطرنج إياه... كان عاريًا تمامًا إلا مما يستر العورة، يلتصق بالجدار ويصرخ.. محاولاً أن يبتعد قدر الإمكان عن أنياب ومخالب الكلبين.. لو استطاع الدخول في الجدار لفعل.. الحق أن صراخه ونباح الكلبين جعل المكان جديرًا بجحيم (دانتي).. قال الطبيب بلهجة تقريرية:

- «العري يشعر المرء بهشاشة غير عادية.. هذا مهم للتخويف..»

المفزع هنا أن الكلبين يحاولان من حين لآخر قضم الحبلين.. معنى هذا أن أحدهما قد يتحرر في أية لحظة.. لن يستغرق أكثر من ثانية حتى يمزق حنجرة الرجل.. قال الطبيب وقد لاحظ قلقنا:

- «هناك ممرضان ينتظران أن يفلت كلب ليطلقا عليه طلقة منومة.. إنهما يراقبان الغرفة جيدًا من مكان خفي..»

لكن هناك وقتًا بين الفعل ورد الفعل.. أليس كذلك؟.. هذا الوقت نجحت الحيوانات في اختصاره.. بمعنى أن الكلب قد يمزق الرجل قبل أن يستوعب الممرض ما يحدث.. لما غادرنا الغرفة نحو غرفة أخرى كنا قد بلغنا قمة الغثيان.. لم نعد نريد أن نرى أكثر، وهتفت نادية في جنون:

- «أنتم تعذبون المرضى لا أكثر.. هذه سادية لا شك فيها..»

قال ببرود:

- «هل لي أن أعرف خبراتك العتيدة في الطب النفسي؟»

- «لا أعرف شيئًا عن الطب النفسي، لكنني أعرف الكثير عن السادية والوحشية والقسوة.. أتمنى أن يجد مديركم نفسه في غرفة واحدة مع هذين الكلبين.. ثق أنني سأكتب عن طرقكم هذه ولسوف أطلب أن تحقق لجنة من وزارة الصحة في هذا المكان المشبوه»

كنت أكره طريققتها هذه التي تخلو من تقدير الخطر.. نحن هنا في ضيافتهم وتحت رحمتهم، ومن الوارد أن يغيروا كل شيء.. في مثل هذه الأمور عليك أن تنتظر حتى تعود لجريدتك ثم تكتب ما تريد..

قال الطبيب في برود:

- «لست مؤهلًا للإجابة عن سؤال كهذا.. أرجو أن تأخذي رأي د. أنطوان»

ثم أعلن في اشمئزاز:

- «لقد انتهت الجولة.. يمكنكما العودة لغرفتيكما أو التجوال بحرية.. شكرًا»
هكذا وجدنا نفسينا وحيدين مطرودين تقريبًا.. وكان الليل قد اقترب، فمشينا في الحديقة..
هناك كان مرضى آخرون يبدو أن حالتهم أفضل.. بعضهم كان يلعب الكرة وبعضهم يجلس على
(دكك) خشبية يتبادل الحديث، والبعض كان يلعب كرة السلة.. هنا ملعب سلة ضيق ليست
فيه سوى شبكة واحدة.. من يسدد فيها يحرز نقطة في الفريق الآخر..
هنا فقط استطعت أن أمد يدي للحقيبة الصغيرة وألتقط بعض الصور. يجب أن نداري العيون
فيما بعد حتى لا يقاضينا أحد. رحت أدور حول الحديقة الأنيقة وأغير من زوايا اللقطات، على
حين جلست ناديه - بطريقتها المسيطرة التي تذكرك بمدرب فريق كرة القدم - على دكة في
نهاية الحديقة، تجاور غابة أشجار صغيرة، وراحت تسجل بعض الملاحظات، ثم هتفت تناديني
بلهجة أمرة:

- «عصام.. تعال هنا..»
كدت أرفض التلبية لتتعلم نبرات صوتها، ثم وجدت نفسي أمشي نحوها متسائلًا، فقالت
وهي تشير إلى حوض الزرع خلفها حيث زرعت بعض الأزهار:
- «ما رأيك؟.. هذه الأبصال نامية في مواضع كثيرة وضامرة تمامًا في مواضع أخرى.. أنت تعرف
أنني تخرجت في كلية الزراعة قبل أن أصير صحفية.. معنى هذا أن هناك من يرتكب خطأ فادحًا
بأن يقلب التربة باستمرار فلا يمنحها فرصة النمو..»
- «ومعنى هذا؟»

- «لا أدري.. تعال نواصل جولتنا..»
نهضنا ورحنا نمشي.. كانت هناك بناية صغيرة لا يوجد رجال أمن خارجها، وكانت هناك لافتة
تقول (التمريض). مشينا في هدوء في رواق فارغ ولم أنس أن ألتقط بعض الصور..
قالت همسًا وهي تتقدمني:

- «غريب..»
- «ما الغريب؟»
- «أنت لا تفكر بشكل منطقي.. لو كانوا فضوليين لدرجة أن يراقبونا في غرفتنا، فكيف
يسمحون لنا بكل حرية التحرك هذه؟»
- «نحن في مصر.. لابد من واحد اسمه (رجب) أو (عوض) صدرت له التعليمات بمراقبتنا لكنه
تكاسل ونسي الأمر وجلس يدخل المعسل.. لا شيء يتم بدقة الساعة في مصر ولسنا في أحد
سجون ميونيخ..»

رفعت إصبعها إلى شفثيها لتمنعي من الكلام ودنت من نافذة صغيرة تعلو بابًا مغلقًا، وألقت
نظرة.. دنوت منها وحاولنا ألا يظهر من وجهينا شيء أسفل العينين..
بالفعل هناك أربع من الممرضات يجلسن حول منضدة، وكن منهمكات جدًا فلم تر إحداهن
هذين الجاسوسين وراء النافذة.. كان هناك مسدس في منتصف المائدة وهو من الطراز الذي
يعمل بالساقية.. الممرضة الأولى تتناول المسدس وتدير الساقية عدة مرات ثم تغض عينيها
وبيد راجفة تلصق الفوهة بصدغها.. تتلقى رصاصة وهمية ثم تفتح عينيها وتضحك.. تناوله
لزميلتها لتدير الساقية..

هذه المرة كان الذعر أقوى مما نتصور فتبادلت نظرة هلع مع ناديه..
هذه لعبة الروليت الروسي.. لا شك في هذا.. ساقية المسدس فيها طلقة واحدة والمسدس
يدور إلى أن تتلقى تعسة الطلقة في رأسها.. الممرضات في هذه المصحة يلعبن ألعابًا

غريبة، وقد كنت أحسبهن يلعبن (الشايب) و(الكومي) في وقت السهر الطويل الممل. دعك من
أنهن مثقفات جدًا..
هنا أدركنا عينينا فوجدنا أربع الممرضات ينظرن للنافذة الصغيرة التي نطل منها..
ينظرن نحونا!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كاللصوص رحنا نركض في الرواق فارين.. ثم خرجنا إلى الحديقة.. لم يتبعنا، لكنهن رأيننا.. لا
شك في ذلك.. لا شك في ذلك..
قالت نادية هي تلهث:

- «الأمر واضح. لا يردن شوشرة.. كن يقمن بهذا سرًا..»

قلت لها وأنا موشك على الإصابة بنوبة قلبية:

- «أعتقد أن علينا أن نذهب لغرفتينا ونفتح عيوننا جيدًا..»

كان الظلام قد هبط على الحديقة، وأضيئت الأضواء معطية ذلك الجو الكثيب للحدائق التي
تنار بضوء خافت. قالت لي نادية ونحن نتحرك نحو غرفتي:

- «أريد التنقيب في هذا المكان جيدًا.. هذه المصحة غامضة كالموت.. سوف نتحرك في الثانية

صباحًا.. لا تتر أي شيء في غرفتك وغادرها خلسة ومعك الكاميرا.. سوف نلتقي في الحديقة..»

كنت أوّمن مثلها أن هناك شيئًا مريبًا.. لكنني بصراحة لم أملك الشجاعة اللازمة لهذه المغامرة

الليلية. كل شيء يوجي بأننا في مكان مريب.. هناك لغز يجب أن نحله، وعلى كل حال تنجح

الأنثى الشجاعة دومًا في أن تجعل الرجل شجاعًا.. هكذا في الظلام وعندما صارت الساعة الثانية

بعد منتصف الليل غادرت غرفتي ومشيت إلى الحديقة حيث كانت تنتظرني.. هل هناك كلاب

يطلقونها في الحديقة ليلاً؟.. لا أعتقد وإلا لمزق نباحها الصمت..

كانت تحمل في يدها ميدالية صغيرة تطلق ضوءًا خافتًا رفيغًا.. بخطوات ثابتة مشت (ناديه) في

الحديقة وهي تنظر حولها بحذر. كانت تتجه إلى البناية الإدارية حيث مكتب المدير. هناك شيء

غريب.. لا أحد يقابلنا على الإطلاق.. لا رجال أمن.. ما معنى هذا؟.. إما أن التراخي هنا شديد، أو

هم - كما يقول الغربيون - يعطوننا حبلًا طويلًا نشنق أنفسنا به..

كانت تذكر المكان.. الرواق الأنيق بين التماثيل التي تبدو حية.. لكن المكتب كان موصدًا بعناية.

هناك غرفة جانبية كتب عليها (المعرض). أزاحت الباب بحذر ودخلنا.

هناك على الجدران وعلى ضوء الكشاف الخافت، كانت مجموعة من الصور بعضها بالأبيض

والأسود يعود للمستينات من القرن الماضي، وبعضها حديث ملون.. استقرت عينانا على وجه

الطبيب الذي يظهر في كل الصور والذي يبدو أن مكانته عالية الشأن.. إنه المدير بلا شك..

يقف وسط مجموعة ممرضات ويصافح وزير صحة سابقًا.. لابد أنه مدير المصحة نفسه.. لابد

أنه د. أنطوان..

الآن أنا مذعور فعلاً.. هذا الوجه لا يمت بصلة لدكتور أنطوان الذي قابلنا!

إن من قابلنا لم يكن هو مدير المصحة.. دعك من أنني لا أميز أي وجه قابلناه هنا.. كل الأطباء

في الصور لهم ملامح مختلفة وكذلك الممرضات..

لم تتكلم نادية.. غادرت الغرفة في صمت فالبناية وأنا خلفها أحاول أن أفهم..

في صمت اتجهت إلى صوبة صغيرة خلف الأشجار فدخلتها وأنا مندهش، ثم عادت حاملة رفشًا

مما يستعمله البستانيون.. وقالت:

- «أعتقد أن عليك أن تقوم ببعض الحفر»

في ضوء النجوم اتجهت إلى تلك الرقعة التي كانت أبصارها لا تنمو بانتظام، وناولتني الرفش وطلبت مني أن أحفر.. مجنونة ولا شك...

صوبت الكشاف إلى التربة التي أحفرها بلا براعة.. وفي النهاية اصطدمت بشيء صلب.. على الضوء الشاحب أرى تلك الجمجمة والشعر الآدمي واليد المتقلصة.. ارتجفت.. هنا انطلق ضوء الفلاش الساطع للحظة. لقد كانت تحمل الكاميرا الخاصة بي.

- «جرب مكانًا آخر..»

اتجهت إلى مكان آخر ورحت أحفر. لم أستغرق وقتًا حتى وجدت القدم البشرية شبه المتحللة.. - «أعد تغطية كل شيء قدر المستطاع»

وهكذا أهلت التراب وأنا أرتجف.. الرائحة ذاتها بدت كريهة جدًا كأن هذه الطبقة من التربة كانت تخفيها. الأبصار تلقت أفضل سماد ممكن، لكنها أصرت على عدم النمو في تربة غير ثابتة..

سمعت عن المرضى الذين يموتون ويدفنون في السجون السياسية، لكن لم أسمع عن المرضى الذين يدفنون في ذات المصححة.. أحقًا لم يشعر أحد باختفائهم؟ - «لا تتحرك!»

هذه كانت من الخلف.. استدرنا لنجد رجل أمن ضخم الجثة يصبو كشافًا نحونا، ولاحظت أنه غير مسلح.. لكنه يحمل جهاز اتصال صغيرًا ينوي استعماله.. كانت نظرة عينيه مفترسة فعلاً وأدركت أنهم سيؤدبوننا بالتأكيد.. قالت ناديه وهي تنظر في عينيه:

- «معذرة.. لقد أراد صديقي أن يفرغ مثانته.. إنه أحرق كما ترى..»

لكن الرجل بالطبع لم يبتلع هذه الحيلة السخيفة.. لا أحد يتبول وهو يحمل رفشًا.. رفشًا؟ قبل أن أدرك أنني فعلت ذلك هويت على عنقه بالرفش الذي كان في يدي.. لم أعرف أنني بهذه القوة إلا عندما سقط على الأرض بلا كلمة. مستحيل!.. لا أحد يموت بهذه السهولة، دعك من أنني لم أقتل قطًا في حياتي..

رحت أرتجف بلا توقف، وكدت أصرخ لكن ناديه قالت وهي تحاول التماسك:

- «هلم.. هلم. لم يكن ليتركنا.. دعك من أنك لم تكن لتكسب أي التحام جسدي معه.. كان سيهشم عنقك كالجزرة»

ثم ركعت جوار جثته وراحت تعبث.. حتى انتزعت مجموعة مفاتيح من حزامه.. قالت في خبث وهي تلوح بها:

- «هذه هي الجائزة الكبرى.. سوف نبحت ونوجه أسئلة.. لا بد من أسئلة..»

- «والقتل؟.. أنا قتلت!»

- «سأشهد أنه دفاع عن النفس... لو كان ما أعتقد صحیحًا، فلسوف يوجه لك رجال الشرطة عبارات المديح!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رفع الأستاذ سامي عينيه عن رقعة الشطرنج.. كان ينظر لنا في دهشة وقد وقفنا في حجرته / زنزانته.. بدا هشًا ضعيفًا جدًا.. قالت له ناديه وهي تجلس على حافة الفراش:

- «أنت طبيب.. الأطباء والمرضات بالخارج هم المجانين الذين استولوا على المصححة.. أليس كذلك؟..»

ارتجفت شفته السفلى، وخيل لي أن في عينيه نظرة أمل.. فأردفت ناديه:

- «لقد حطموك بالتعذيب حتى لم تعد تجرؤ على الكلام.. لا تجرؤ على الاعتراف.. لكننا سنحررك»

قال وهو يغطي عينيه:

- «لقد ثاروا علينا منذ أسبوعين.. قتلوا معظمنا.. استولوا على ثيابنا وكل شيء، ثم دفنوا ضحاياهم في الحديقة.. وبدءوا يعالجونا بطريقتهم الخاصة.. لن تهزموهم أبداً..»
ثم انفجر في البكاء..

نظرت لي نادية في انتصار.. ونهضت..

- «الآن سنلعب دور سبارتاكوس»

وانطلقت لا تلوي على شيء تفتح أبواب الغرف المغلقة بما معها من مفاتيح الحارس.. فتحت باب غرفة مصطفى.. صرخت كالمسعورين ثم هوت بالرفش على السلسلة التي تربطه بالجدار فتحرر..

هرعت إلى غرفة أخرى فحررت (عفاف).. المرأة التي تكتب خطابات تطلب فيها الغوث. جرى القط مذعوراً بينما نظرت لها المرأة في توجس، فصاحت نادية:

- «من أنت؟.. لا تخافي.. لقد تحررت!.. أنت ممرضة.. اليس كذلك؟»

قالت وهي تبكي:

- «أنا عفاف.. مشرفة تمريض.. لقد.. لقد.. لقد...»

لقد كادت تصير منهم..

في الغرفة التالية حررنا اثنين لا نعرفهما، ثم وثبت نادية فوق الفضلات التي تحيط بالفتاة التي تعتبر نفسها ذئباً.. هوت فوق السلاسل فحطمتها..

خلال نصف ساعة صار المكان يعج بالذين تحرروا.. عددهم نحو العشرين.. كلهم ذاهل لا يصدق، والحقيقة أن أكثرهم كان سيصل للجنون الكامل خلال أيام لو تركناهم.. أطباء وممرضات وعمال ثار ضدهم المجانين وسيطروا على المصحة...

بقي أن نتصل بالشرطة كي تأتي حالاً...

لكن هؤلاء التعساء كانت لديهم خطط أخرى.. كان الانتقام يعمي عيونهم، وللحظة بدا لي أنني أرى ميلاد الثورة الفرنسية.. لقد أشعل أحدهم مشعلاً وخرج إلى الحديقة.. بينما جاء أحدهم بمجموعة سكاكين من المطبخ..

صحت فيهم:

- «لا ترتكبوا جرائم! ... لا تفعلوا مثلهم.. إنهم غير مسئولين عما فعلوه.. هم مجرد مجانين ولن تدينهم أية محكمة..»

لكن شيطان الانتقام خرج من مكمنه.. وسمعت صرخات من الحديقة، وتعالق ألسنة النيران. لقد صار المشهد جحيميًا.. كانوا يقتلون كل طبيب وكل ممرضة أو رجل أمن يرونه.. بحثت حولي عن نادية وسط هذه الفوضى فلم أجدها..

رأيت في الحديقة رجلاً يزحف زحفاً والنار مشتعلة فيه.. لما دنوت منه عرفت أنه ذلك المجنون الذي تقمص شخصية د. أنطوان عند لقائنا.. الرجل الأزرق.. جريت ورحت أمرغه في الغبار محاولاً أن أطفئ النيران.. في النهاية أطفأته لكنني أدركت أنه يحتضر..

هزرتة في عنف بلا شفقة:

- «أين د. أنطوان؟.. هل دفنتموه في الحديقة؟»

قال بصوت مبحوح:

- «يا أحمرق.. أنا د. أنطوان!»

- «لا تخدعني.. أنا رأيت صورته الحديثة وهو لا يشبهك أبداً..»

- «أنا مصاب بمرض نسيجي اسمه تصلب الجلد Scleroderma.. ولو كنت تفهم حرفاً في الطب لعرفت أنه يغير ملامح الوجه بالكامل.. أي طبيب يرى يدي وزاوية فمي الشبيهة بفم السمكة كان سيخبرك بهذا.. لم يعد وجهي يمت بصلة لوجهي.. القديم..»

- «وهذه المقبرة الجماعية في الحديقة؟.. ألم تدفنوا الأطباء بها؟»

- «بل هم ثلاثة من المرضى ناقصي الأهلية ماتوا.... أثناء تجربة.. لم أجسر على.. تحمل المسؤولية.. دفنتهم هناك.. ولم يدر أحد..... بهم»

ثم شخصت عيناه وقد فارقه السر الإلهي..

تركته حيث هو وهرعت وسط الدخان والنيران أبحث عن ناديه.. ناديه!.. ناديه!..

كانت هناك على باب إحدى الغرف وقد انثنى عنقها بزاوية لا يمكن وصفها.. ولا يمكن تخيل أنها بقيت حية.. كانت الزنانة أو الغرفة هي الخاصة بالأستاذ سامي.. لا أعرف لماذا قررت أن أدخل وألقي نظرة على رقعة الشطرنج.. هذا الهاجس الخفي..

لمحت الرقعة.. ملك الأبيض في وضع لا يحسد عليه.. كش مات...

كش مات.....؟؟؟؟

وعند باب زنانة أخرى وجدت تلك المرأة عفاف تفتش عن شيء بلا توقف.. دخلت الغرفة فانتفضت ثم صاحت:

- «المعادلة قد ضاعت.. لن يستطيع أحد أن يركب القنبلة السينية!»

خرجت إلى الحديقة لأرقب الهول الذي يدور..

أشرس المقاتلين كان تلك الفتاة ممزقة الثياب.. كانت تحتبي على الأرض احتباءً، ثم تصدر عواء، وفجأة تثب في الهواء لتنشأ أسنانها في عنق ذلك الحارس أو ذاك.. وكان يتهاوى خلال ثوان وقد أوشك عنقه على أن ينفصل..

سوف أفر من هنا.. ماتت ناديه.. ماتت ناديه.. الآن أنا طفل مذعور لا يعرف ما يجب عمله.. هل فعلاً قمنا بتحرير مجموعة من الأطباء البائسين الذين سيطر عليهم المجانين؟.. ربما.. الأطباء النفسيون لا يعالجون المرضى بالبعوض والملاريا والكلاّب، والممرضات لا يلعبن الروليت الروسي في وقت الفراغ، والأطباء النفسيون لا يدفنون مرضاهم في الحديقة... ولربما كان موضوع داء التصلب الجلدي هذا أكذوبة..

لكن..

ربما ارتكبت غلطة عمري وحررت أخطر مجموعة من المجانين لتفتك بأطباء هذه المصحّة.. ناديه ألهمت المجانين بحيلة تحررهم عندما راحت تسأل كل واحد في حماقة: "أنت طبيب أليس كذلك؟.. انت ممرضة.. أليس كذلك؟". د. أنطوان هو نفسه وقد تغير شكله كما قال.. عفاف تبحث عن القنبلة السينية، والمحاسب قتل ناديه لأنها كانت أمامه في لحظة (كش ملك)، والفتاة تتصرف فعلاً كذئب آدمي.. وهؤلاء المدفونون مرضى ماتوا بسبب إهمال طبي.. هذا احتمال مقبول.. ممرضات يلعبن الروليت.. من قال إن المسدس حقيقي أو محشو؟.. نحن لم نسمع صوت طلقات رصاص.. لقد رأين اللعبة في فيلم أجنبي ما مثل (صائد الغزال) وقررن أن يلعبنها بمسدس أطفال.

أخطر مجموعة من المجانين المسلحين.. حررتهم أنا بعبقريتي وعبقرية ناديه.. هي دفعت الثمن أما أنا فالدور علي..

أم هم أطباء استبدت بهم شهوة الانتقام لدرجة الجنون؟
كنت أركض نحو البوابة إلى أن استوقفني صياح أحدهم. نظرت للخلف فوجدتهم يحيطون بي:
- «أنت محررنا.. لا تتركنا... أنت بطلنا!»
يحيطون بي حاملين المشاعل، واللهب يضيء وجوههم المعذبة المتعبة التي تلوثت بالدم..
وجوه شوهها انعكاس الضوء والظلال فبدت كوجوه شياطين..
- «لا تتركنا...»
هكذا أقف أنا وسط هذه الحشود.. أقاوم الشعور الغريب بأن هذا كابوس سوف أفيق منه..
لا أعرف حقًا: هل أصبت أم أخطأت؟ ... هل أنا عبقرى منقذ.. أم أنا أكبر أبله عرفه التاريخ؟
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت)

لست وحدك

هذه البقعة في السقف.. ليست وطاويط محتشدة.. إنه كائن شبيه بالبشر يلتصق بالسقف كالبرص.. لا أعرف شكله بالضبط لأنه في الظلام، لكنه كائن حي ويشبه البشر كما قلت لك... هناك واحد آخر كذلك.. لهذا لا أجد هذا المتسلل.. إنهم يتسلقون للسقف ويحشرون أنفسهم هناك كسحالي الإجوانا.. يجب أن أغادر هذا الممر لأنهم سوف يهبطون فوق في أية لحظة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المذيع:

لا تقلق يا مروان.. أعرف أنك تسمعي لأن موجات الهاتف المحمول تخترق هذه الصخور بمعجزة ما.. أنا كذلك أسمعك لكن يسمعك معي ملايين المستمعين بلا مبالغة، في كل الدول الناطقة بالعربية.. قلوبنا معك ونأمل أن تنجو.. نعرف أنك ستنجو..

مروان:

يسرني أن أسمع صوتك يا عمر.. وبهذا الوضوح.. هذا يجعل موقفي أقل كآبة.. إن الظلام دامس لكن الضوء الأزرق القادم من شاشة المحمول يخففه قليلاً.. الهواء رائحته غريبة، والتنفس عسير نوعاً.. أضف لهذا أن الحر خانق هنا.. لحظة.. سوف أتحرك من هذا القميص.. في الواقع سوف أتحرك من معظم ثيابي ما دام لا أحد يراني.. إن العرق يغمر كل شيء.. قل لي بصراحة: ما هي فرصتي في النجاة؟

المذيع:

إن قوات الجيش التي تحاول إخراجك تقول إن الأمل كبير.. يبدو أنهم سيستعينون بخير مفرقات كي يضع الديناميت في نقاط استراتيجية.. يقولون إن هذا سوف يخفف حمل الصخور ليتمكن إزاحتها...

مروان:

آي.. ديناميت..!.. من الوارد جداً أن أتحول إلى فتات..

المذيع:

هم يعرفون ما يفعلون..

مروان:

بيني وبينك.. حتى لو فشلوا سيكون هذا أفضل بمراحل من الموت هنا جوعاً وظماً وربما اختناقاً...

المذيع:

لا أريد أن أقلقك.. لكن هل الهاتف المحمول مشحون بما يكفي؟

مروان:

قمت بشحنه صباح اليوم.. لن يستمر للأبد وإنني لأكره أن أرى اللحظة التي ينقطع فيها الشحن.. هذا لا يعني الصمت والعزلة فقط.. بل يعني الصمت والعزلة والظلام.. أعتقد أنني سأجن وقتها.

المذيع:

أرجو أن تكون قد خرجت قبل هذا.. لا أحد يتمنى أن تمر بلحظات كهذه.. للتذكير يا حضرات المستمعين، أو المشاهدين الذين لا يرون شيئاً مثلنا، نقول إن (مروان) طالب في كلية العلوم

قسم الجيولوجيا، وقد كان مع رفاقه في تلك المنطقة من الصحراء الغربية يستكشفون مجموعة من الكهوف.. لسبب يتعلق بحماسة الشباب أو خرقهم قرر (مروان) أن يجرب ذلك الكهف وحده.. يبدو أن رفاقه كانوا مشغولين بالتقاط بعض الصور عندما تسلل هو إلى المدخل.. لم يكن ينوي التوغل.. فقط مشى عشر خطوات حسب كلامه، وهنا حدث انهيار أرضي عنيف.. تساقطت الصخور ولم تؤذ له حسن الحظ، لكنها سدت مدخل الكهف الذي كان هو نفسه المخرج.. ولسبب لا نفهمه ظل الهاتف الخلوي يعمل. من مكنه في الظلام اتصل بأصدقائه يخبرهم بمكانه وأنه ما زال بخير، ويبدو أن لديه ما يكفي من الأكسجين، وقد اتصل رفاقه بالسلطات التي استعانت بعناصر من الجيش.. لكن المشكلة معقدة لأن الصخور التي تسد المدخل ضخمة وثقيلة جدًا.. لم تجد المحاولات البطولية التي استمرت عدة ساعات. بالطبع لم تكن قناة (الشرارة) لتفوت هذه اللحظات، فانتقل فريق من مصورينا إلى مكان الحادث.. بالطبع لا يرى المشاهدون أي شيء سوى موقع الكهف وآثار الانهيار وفرق الإنقاذ، لكننا استطعنا الاتصال بمروان، وأنتم تسمعون بوضوح... سوف نبقي على اتصال بكم إلى أن يتم تحريره من هذا الكهف..

(لمروان)

مروان.. هل هناك شيء مهم يخص هذا الكهف؟

مروان:

هناك كهوف غربية جدًا في الصحراء الغربية.. مثلاً كثر الكلام مؤخرًا عن كهف الوحوش الذي اكتشفه بعض الهواة بالصدفة.. إنه على بعد ٩٠٠ كيلومتر جنوب غرب القاهرة. لقد وجدوا فيه رسوماً غربية جدًا تذكرنا بكهف تسيلي على حدود ليبيا والجزائر. هذه الرسوم تظهر حيوانات لم يرها إنسان من قبل.. وعمرها لا يقل عن ثمانين قرنًا في عهد كانت الأمطار فيه تغمر الصحراء الغربية، وكان هناك صيد وصيادون.. عندما ساد الجفاف تحرك الناس إلى دلتا النيل ليصارعوا النهر المتوحش ويروضوه.. كنت أعتقد أن هذا الكهف من تلك الكهوف الغامضة...

المذيع:

أكره أن أقول ما أقول لكني معجب بمعنوياتك.. يصعب أن يجد المرء نفسه في موقفك ويتذكر كل هذه التفاصيل..

مروان:

إنها تلك النعمة التي تجعلك تشعر بأن هذا كله غير حقيقي... لهذا يتكلم من هو ذاهب إلى المقصلة مع جلاديه وربما يلقي بعض النكات... دعك من أنني تعلمت أنني أنجو من أقسى المواقف. القاعدة التي تنطبق على حياتي هي (عمر الشقي بقي)..

المذيع:

ما أكثر ما يضايقك الآن؟

مروان:

الحر.. الحر شديد خانق.. العرق يببل كل شيء وعويناتي تنزلق كما أن الإمساك بالهاتف صعب..

المذيع:

هل لك أن تصف لنا الكهف؟

مروان:

إنه كهف.. لن أدخل في تفاصيل جيولوجية عن الصواعد والهوابط ونوعية الصخور.. لكن

هناك ممرات جانبية لا يقل عددها عن أربعة، أكره تجربتها لأن هذا سيعقد مهمة البحث عني.. فقط هناك خلفي كومة هائلة من الصخور التي هوت... لقد نجوت بمعجزة...

المذيع:

هل هناك شيء يتحرك؟.. أية علامات على حياة؟

مروان:

لا أعتقد.. لو كانت هناك أفاع أو وطاويط فقد أفزعها الانهيار... لكن لحظة.. هل تسمع هذا الصوت؟ ... صه... هذا صوت خطوات؟.. بهذه السرعة قد...؟ لكن لا... لحظة....

المذيع:

مروان.. نحن لا نسمع شيئاً.. هلا تكلمت من فضلك؟؟؟ مروان؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المذيع:

لا أعرف ما حدث لكن المكالمة قد انقطعت.. هناك شيء خطأ لا أعرف ما هو.. سوف أجرب طلبه مرة أخرى.. لا أعرف ما رآه ولا سبب هذا التوتر في صوته.. صبراً.. اطلبه لنا يا مراد من فضلك.. صوت جرس؟... جميل.. إذن الموجات لم تنقطع.. هلم رد يا أخي...

مروان (همساً):

أنا في موضع آخر من الكهف.. انزلت يدي فأغلقت المكالمة... أنا آسف.... للحظة سمعت صوت خطوات ثم تهيأت لي رؤية شخص يمر عبر فتحة الممر.. لقد مر فعلاً هكذا جريت لألحق به.. أنا الآن في بداية ممر آخر وطبعاً لا يعكس الهاتف الكثير من النور، لكن من الواضح أنه لا يوجد أحد هنا..

المذيع:

وكيف كان يبدو (بفرض أنه ليس خيالاً)...

مروان (همساً):

لا أعرف.. خيل لي للحظة أنه أطول من اللازم.. كان يمشي وقد انحنى للأمام.. لو شئت الدقة لقلت إن ركبتيه تنثنيان للأمام كذلك.. لكن كل هذا كان لجزء ضئيل من الثانية فلا يمكن أن يكون وصفي دقيقاً لهذا الحد.. أعتقد أن الظلام يوترني، ولربما بدأت أرى نيرون أو هتler بعد قليل..

المذيع:

ولماذا تهمس؟

مروان (همساً):

هذا الممر مليء بالمخابئ الجانبية.. ثمة احتمال لا بأس به أن يكون هذا الشيء هنا..

المذيع:

قلت إن.....

مروان:

بان إله المراعي عند الرومان.. هكذا كانوا يرسمونه كما عرّضتمني على قدمين.. نفس الطريقة العجيبة في انثناء المفصل للأمام..

المذيع:

لا أعرف الكثير عن الأساطير الرومانية، لكني أعرف فقط أنه لا يوجد شيء كهذا.. أعتقد أن نقص الأكسجين يلعب دوراً في هذه الرؤى.... لحظة من فضلك... (للمستمعين) لقد أغلقت

الهاتف ومروان لا يسمعي الآن.. أسأل عن كمية الأكسجين المتاحة له الآن.. كم من الوقت يمكن أن يمر قبل أن يختنق.. معي هنا الجيولوجي (مصطفى إمام).. أنت سمعت السؤال... مصطفى:

لا يمكن التحديد بالضبط.. لكن المدخل الوحيد الذي نعرفه للكهف مغلق.. ربما كان الكهف مليئًا بالهواء لكنه هواء فاسد غالبًا.. أعتقد أنني أعطيه ساعتين أو ثلاثًا.. المذيع:

أه.. هذا خبر سيئ.. لا أعتقد أن الإنقاذ يمكن أن يتم قبل هذا.. إنهم يتكلمون عن عشر ساعات على الأقل.. على كل حال مروان لم يسمع هذا الجزء.. سوف أتصل به من جديد.. آلو.. مروان.. كيف الحال؟

مروان:

لماذا أغلقت الهاتف؟

المذيع:

كانت هناك موجات تحدث ضوضاء.. لا عليك.. أرجو ألا تبتعد في هذا الممر حتى لا تجعل الأمر عسيرًا.. والآن هل يمكنك أن تصف لنا الممر الذي أنت فيه؟ مروان:

الإضاءة واهنة جدًا.. أعاني الأمرين كي أرى الجدران.. لكن.. لحظة.. أنا مدخن.. نسيت هذا.. معي علبة ثقاب.. سأشعل عودًا لأجعل الرؤية أفضل.. (صوت العود).. هناك بالفعل وطاويط كثيرة تتدلى من السقف.. لم يزعجها الصوت.. كثيرة جدًا.. بررررر!

المذيع:

حاول ألا تستفزها...

مروان:

لست مجنونًا كي أفعل.. انطفأ العود... قل لي.. هل أبي وأمي يسمعانني الآن؟.. قل لهما إنني بخير وأحبهما جدًا.. قل لمروة أختي كذلك إنني أحبها.. لم أتعمد أن أخرجها أمام صديقاتها عندما.. أنا طيب لكني أحرق مندفع.. هي تعرف ذلك..

المذيع:

ثق أن الغضب منك آخر شيء في ذهنها الآن... إنها تشاهد الصور معنا وتسمع صوتك وتدعو لك بالنجاة.. لا شك في أننا نعطل اتصال الكثيرين بك.. الهاتف مشغول طيلة الوقت بسببنا.. مروان:

(صوت عود آخر).. سوف أفحص الجدران.. تبًا...

المذيع:

ماذا هنالك؟

مروان:

هناك عظام جوار الجدار.. حيوان قد مات هنا منذ زمن.. ولكن.. لا.. هذه الجمجمة.. ليست لحيوان.. هذه جمجمة إنسان.. هناك كذلك عظمة ساعد ومجموعة من الضلوع..

المذيع:

هل تقصد أن هناك من مات هنا قديمًا؟

مروان:

لا أدري.. آي.. العود انتهى وأحرق أصابعي.. سأشعل عودًا آخر.. (صوت عود ثقاب).. هناك

أكثر من هيكل هنا.. بل الكثير منها.. هناك خبر آخر هو أنني أرى قطعاً من قماش.. قماش حديث.. قطعة من قميص وعليه علامة التمساح الشهيرة.. يخيل لي أن هذه العلامة لم تكن توضع على ثياب رجال الكهف القدامى منذ ٨٠٠٠ سنة.. هناك بقايا سروال جينز كذلك.. لقد مات هؤلاء قريباً جداً..

المذيع:

ماتوا جوعاً وظمأً مثل.. أ..

مروان:

تقصد مثلما سيحدث لي؟.. لا أعرف.. لكني أرى العظام عن كثب.. هناك قطع لحم متحللة متشبثة بها.. لماذا تبقى بعض قطع اللحم حول العظام بعد التحلل؟ ... (صوت عود آخر).. الجواب هو أنها تم تجريدتها تجريداً من اللحم بفعل فاعل..

المذيع:

هل تعني أن هناك وحشاً في هذا الكهف؟.. أسدًا صحراويًا أو ضبعًا؟

مروان:

ربما... لكن الخيال الذي رأيته كان يمشي على قدمين. إنني أفكر في أن تكون هذه الكهوف مأوى غول آدمي.. ربما عدد من الغيلان الآدمية.. وهذا لا يجعل وضعي أكثر أمناً..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المذيع:

لا تؤاخذني يا مروان.. بصراحة أعتقد أن نقص الأكسجين قد بدأ فعلاً يؤثر على...

مروان:

قل ما تريد يا عمر... عندما أخرف فأنا أعرف بشكل ما أنني أخرف.. ثق أن حواسي مرهفة تماماً وأعي كل شيء أراه وكل كلمة أقولها..

المذيع:

لكن.. موضوع الكهف العامر بالغيلان هذا... يبدو لي سخيلاً..

مروان:

أتمنى أن يكون سخيلاً وأن أكون أحقق.. لكن وددت لو كنت مكاني..

المذيع:

هناك ورقة جاءتني من الإعداد الآن.. شيء لا يصدق لكنه سيروق لك.. هناك ثلاث فتيات يتصلن بالبرنامج وهن يطلبن يدك..!.. نعم لا مزاح هنالك.. لقد صرت بطلاً قومياً.. هناك مئات الأمهات يدعون لك ويبدو أن بناتهن يعتبرنك بطلاً.. على فكرة لقد عرضنا على شاشتنا صورة لك... سوف أفتح الخط ليصلك صوت واحدة تتصل بالاستوديو من القاهرة.. أنا لم أرها.. اسمها (نرمين).. أليس كذلك؟.. (نرمين).. هل أنت معنا؟

نرمين:

نعم.. نعم.. هل هو يسمعي؟.. هل تسمعي يا مروان؟

مروان:

نعم يا نرمين. اسمعك..

نرمين:

سوف تخرج إن شاء الله وتنجو من هذه المحنة يا مروان.. لا تخف.. أنت لا تعرفني ولم ترني لكنني أؤكد لك أنني سأكون خير خطيبة لك عندما تخرج من هنا..

مروان:

أنت رقيقة جدًا ومجاملة.. لكن لو قبلت بالزواج من كل شخص في ورطة فأنت نفسك في ورطة.. وقوعي في ورطة لا يعني أنني إنسان رائع..

نرمين:

سمعت صوتك ورسائلك وطريقتك في الكلام واحتفاظك برباطة جأشك وروح دعابتك.. أنا واثقة من أنك إنسان نادر..

مروان:

صديقي.. قبل أن أسجن هنا لم تكن أية فتاة تهتم بي.. لا أجد سببًا قويًا كي يتغير هذا.. إن هذا يحدث كثيرًا للمحكوم عليهم بالإعدام في قضايا يتعاطف معها المجتمع.. إنهم يتلقون سيلاً من طلبات الزواج...

نرمين:

سوف تخرج من هنا وتعرف أنني صادقة.. و...

مروان:

يا للهول!.. إذن هذا هو ما كنت أحسبه.. ليست وطاويط محتشدة!

المذيع:

لحظة يا نرمين.. عم تتكلم يا مروان؟

مروان:

هذه البقعة في السقف.. ليست وطاويط محتشدة.. إنه كائن شبيه بالبشر يلتصق بالسقف كالبرص.. لا أعرف شكله بالضبط لأنه في الظلام، لكنه كائن حي ويشبه البشر كما قلت لك... هناك واحد آخر كذلك.. لهذا لا أجد هذا المتسلل.. إنهم يتسلقون للسقف ويحشرون أنفسهم هناك كسحالي الإحوانا.. يجب أن أغادر هذا الممر لأنهم سوف يهبطون فوق في أية لحظة...

المذيع:

إذن ابتعد يا مروان عن هذا الممر... ثم نواصل الكلام... (يكلم شخصًا آخر).. لقد أغلقت الاتصال.. هل سمعت يا مهندس مصطفى؟.. هل تعتقد أن هذيان نقص الأكسجين قد بدأ؟

مصطفى:

واضح تمامًا.. إنه يخرف بلا زيادة ولا نقصان.. لا أعرف أن كان بوسع فريق الإنقاذ إدخال ماسورة تضخ الأكسجين أو شيء من هذا القبيل؟... إنه يحتضر ببطء..

المذيع:

هل من احتمال أن يكون صادقًا؟

مصطفى:

كهف به غيلان تلتصق بالسقف وتلتهم البشر؟... كم من الوقت بقي كي نهذي نحن؟

المذيع:

حسن. سأفتح الهاتف من جديد... مروان.. هل غادرت الممر؟.. آسف لأن انقطاع الخطوط يتكرر..

مروان:

أو لتقول ما لا تريد أن أسمع.. لا مشكلة.. أنا الآن في المكان الذي كنت فيه عند البداية.. أو هذا ما أعتقد.. بيني وبينك.. لا أريد البقاء هنا.. لا أتوقع أن يصل رجال الإنقاذ.. سوف أجرب ممرًا آخر على اليسار.. من الوارد جدًا أن يكون هناك مخرج..

المذيع:

ولماذا لم يجده الذين ماتوا؟

مروان:

لأنهم لم يموتوا بالجوع أو الظمأ.. ماتوا لأن هناك من قتلهم والتهمهم.. ألا تفهم هذا؟.. واضح أنك لا تصدق حرفاً مما أقول.. على كل حال أنا أتحرك الآن على ضوء الهاتف الأزرق الخافت.. أشعر بالظمأ الشديد.. لا بد أنني فقدت لترين من الماء بسبب هذا العرق الغزير...

المذيع:

لا تصمت وصف لنا كل شيء..

مروان:

هذا الممر يختلف.. هناك قاعة.. قاعة في حجم غرفة نومي مرتين.. أرى في المنتصف تشكيلاً حجرياً غريباً أقرب لمائدة.... بل هي مائدة فعلاً لأن عليها عظاماً..

المذيع:

هل هي بشرية؟

مروان:

لحظة.. أعتقد ذلك.. هي عظام صغيرة فلا بد أن تكون طبيياً لتحكم.. نسيت السقف.. يجب أن أرى السقف.. سأشعل عود ثقاب.. لا.. لا يوجد شيء على ما أعتقد... هناك في هذا الركن صخور ناتئة غريبة.. لا يمكن أن يكون هذا تكويناً جيولوجياً، بل صنعته يد بشرية.. إنها درجات.. درجات تقود لأعلى...

المذيع:

هل تعني؟.. جميل.. جميل.. ربما لو تسلقتها لبلغت مكاناً ما..

مروان:

لا أدري.. إن هذه الدرجات تقود لفتحة في سقف الكهف.. هناك وراءها ظلام.. لا أرى ضوء النهار... لكن لن أتردد طبعاً... سوف أتسلق!

المذيع:

هل تسمعي يا مروان؟.. هل تسلقت؟

مروان:

صبراً.. إن التسلق ليس سهلاً... سوف أصمت قليلاً لأنني لا أستطيع التسلق بيد واحدة.. إن الهاتف المحمول يضايق حركتي وليست لدي جيوب أضعه فيها.. آه ه ه!!

المذيع:

مروان.. ماذا حدث؟

مروان:

لقد.. لقد انزلت قدمي وسقطت... أرجو ألا يكون كاحلي قد.. لا.. فيما عدا الألم أنا بخير.. خفت كذلك أن يكون الهاتف قد تهشم لكنه بخير..

المذيع:

أرجو أن تكون حذراً.. لو أنك تعرضت لكسر لا سمح الله.....

مروان:

أعرف.. أعرف.. لو كنت محققاً بصدد هذه الكائنات فهي تملك ممصات قوية تثبتها في الصخور، لهذا تستطيع تسلق هذه الصخور الزلقة.. أنا لست مثلها.. سأحاول من جديد

وبالطبع لن أتكلم..

(صمت طويل)

المذيع:

هل تسمعني يا مروان؟.. هذا الانتظار يحطم الأعصاب حقًا..

مروان:

تسلقت... أنا الآن في مستوى أعلى من الكهف.. هناك ضوء أحمر غريب يغمر المكان ولا أعرف مصدره لكنه يسمح بالرؤية.. كأن الصخر ذاته مشع. مثل.. مثل الفحم عندما تستقر النيران بداخله ثابتة واثقة فيبدو كحجر كريم... هناك رسوم على الجدران. رسوم تشبه تلك التي تراها على جدران الكهوف الغامضة الأخرى..

المذيع:

هل لك أن تصفها لنا؟

مروان:

هناك.. هناك رسوم تبدو كمجموعة رجال يلاحقون فريسة.. شيئًا يشبه الوعل. إنهم في كهف مغلق يتحسسون الجدران.. هناك ما يشبه مشاجرة.. مأدبة.. إنهم يتصارعون.. هناك ثلاثة يأكلون بقايا الآخرين... فهمت.. في وقت ما منذ ثمانية آلاف سنة سجن بعض الصيادين في هذا الكهف.. وقد اضطروا لأن يأكلوا الخفافيش ويأكلوا بعضهم البعض. مع الوقت تطورت هذه الكائنات على طريقة (ه. ج. ويلز).. صارت غيلانًا حقيقية ترى في الظلام وتأكل اللحم النيئ وتمشي على الجدران.. هذا الكهف يعج بهم. لا بد أن تحولاً جيولوجيًا ما أدى لفتح الكهف من جديد.. لكنهم لم يعودوا بحاجة للخروج.. لقد صاروا كائنات الكهف.. صار هذا عالمهم الحقيقي.. ربما يخرجون في الظلام لاقتناص فريسة والعودة هنا. وأعتقد أن العظام التي رأيته كانت تخص مكتشفين حمقى دخلوا هنا ليكتشفوا الحقيقة المروعة قبلي..

المذيع:

نظرية معقدة جدًا.. ولماذا لم تهاجمك هذه الكائنات حتى الآن؟

مروان:

لا أدري.. ربما هم يرتبون ذلك الآن.. ربما يخشون ضوء الهاتف الأزرق الغريب.. ربما هم مندهشون لأنني وحيد وأتكلم.. لا أدري.... لكنني لن أنتظر حتى يتشجعوا... لحظة.. هناك قطعة عظام.. إن ثيابي معي ربطتها كحرملة حول عنقي قبل التسلق.. سوف ألفت الثياب على هذه العظمة وأصنع منها مشعلًا... سأشعل عود ثقاب...

المذيع:

أعتقد أنك تبالغ يا مروان.. لكن ما دام هذا يريحك..

مروان:

لا شيء يريحني سوى أن أرى ضوء النهار.. صدقني.. هناك عظمة أخرى مدببة سوف أستعملها كرمح... لا بأس... لست خائفًا الآن...

المذيع:

هل توجد مخارج في هذا الطابق الذي أنت فيه؟

مروان:

هناك حافة صخرية تشبه الشرفة.. وهي تطل على.. تصور أنني لم أر ما تطل عليه بعد..

المذيع:

لم لا تلقي نظرة، ولكن بحذر...

مروان:

هذا هو.. رباه! ... هذا مشهد لا يمكن وصفه.. إنني أطل على هاوية عميقة.. وفي هذه الهاوية تشتعل نار زرقاء غريبة.. هناك شياطين حقيقية ترقص حول هذه النار.. شياطين لا تمس الأرض، بل تحلق.. من حين لآخر أرى هيكلاً عظيماً يرقص وسط اللهب.. هناك سلاسل تتشبث في لحم أناس معذيين يصرخون، وهناك كائن عملاق يشبه الوطواط يضحك... إن هذه رقصة الموت.. رقصة الجحيم.. إنني أرى مشهداً من كابوس...

المذيع:

لقد أغلقت الهاتف أيها المستمعون.. يبدو لي أن هذه هي النهاية... لقد فقد توازنه تماماً.. سأفتح الهاتف.. مروان.. أنا هنا..

مروان:

أين ذهبت؟.. إن ذلك الوطواط العملاق يراني.. لقد بدأ يتحرك وسط اللهب الأزرق وهو ينظر لي.. ما أقبح وجهه وما أبشعه..!... اسمع.. سوف أفر من هنا.. سأهبط في الدرج إلى حيث كنت..

المذيع:

احترس يا مروان.. لقد كان الصعود الحذر صعباً وكدت تكسر ساقك، فكيف بالهبوط الأخرق؟
(صوت صرخة)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المذيع:

مروان.. مروان!!!!

مروان:

أي! ... أصبر يا أخي.. هذه المرة أنا في مأزق حقيقي.. أنا هنا في أسفل الدرج.. أي.. لقد تهشمت ساقى فعلاً.. العظمة في اتجاه آخر تماماً.. كاد الهاتف يتهشم لكنني وجدته جوارى بمعجزة.. إن المشعل هناك.. لكنه انطفأ..

المذيع:

إذن أنت الآن أسفل الدرج....

مروان:

نعم.. نعم.. القاعة التي فيها منضدة حجرية... هذه منضدة تقدمات على ما يبدو ويبدو أنني صرت فريسة ممتازة...

المذيع:

كف عن هذا الكلام.. سوف يصل رجال الجيش حالاً... (صوت انفجار).. هل تسمع هذا الصوت؟.. الديناميت! ... لقد فجروا الصخور التي تسد مدخل الكهف... الفرج قريب....

مروان:

عرفت هذا لأن الحصى والحجارة تتساقط بغزارة فوق رأسي.. اهتز المكان بقوة.. قل لهم أن يسرعوا...

المذيع:

حاضر.. كف أنت عن استهلاك الأكسجين...

مروان:

ما زلت تعتقد أنني أهذي... لكن.. أنا أسمع أصواتهم.. أنظر لأعلى فأرى هذا الوطواط اللعين يطل عليّ من أعلى الدرج.. هناك كائنات تتشاور وتطل على من فوق.. يبدو أنهم ينتوون النزول..

المذيع:

ماذا أقول لك؟.. اصبر يا أخي...

مروان:

إنهم قادمون.. لكني أؤكد لك.. سوف أموت وأنا أقاتل.. سأحطم رؤوسهم بهذه العظمة... لو كانت لهم رؤوس...

المذيع:

(صوت أحدهم يتكلم) اصبر يا مراد.. ماذا تريد؟

مراد:

(يهمس)

المذيع:

لقد أغلقت الخط.. ماذا تريد يا مراد؟ ... هذا ليس بالوقت المناسب..

مراد:

لقد تمكن رجال الجيش من فتح ثغرة ودخلوا الكهف.. إنهم بالداخل الآن..

المذيع:

رائع.. سيداتي سادتي.. إن هذا الفتى لمجدود الحظ.. وجدناه في ذات اللحظة التي بلغ فيها النهاية فعلاً.. لابد أن طائرة هليوكوبتر طبية سوف....

مراد:

لقد وجدوه فعلاً جوار المدخل..

المذيع:

جميل.. إذن لماذا لا نفتح الاتصال؟

مراد:

إنه ميت.. الفتى ميت وقد هشمته الصخور تمامًا.. لقد مات لحظة الانهيار الأول بالضبط.. يحاولون إخراج أشلائه الآن..!.. لم تكن عنده فرصة للمشي أو الاتصال بك.. قلت لك إنه تهشم لحظة الانهيار!

المذيع:

يا سلام!.. إذن مع من كنت أتكلم لمدة ساعتين؟

مراد:

لا نعرف... أ.. بالمناسبة.. أمه متوفاة وأخته لا تدعى (مروة).. عرفنا هذا عندما اتصلت أسرته بنا!

المذيع:

كف عن السخف.. هل تسمعي يا مروان؟.. المفروض أن رجال الجيش عندك الآن..

مروان (يضحك بوحشية):

أعتقد أنك عرفت الحقيقة الآن... لكنك أحرق.. كلكم حمقى.. كيف تتصور يا جاهل أن تخترق موجات المحمول كل هذه الطبقات من الصخور؟.. إنه يعمل بصعوبة في الخلاء في هذه البقعة فكيف يكون الاتصال بهذا الوضوح من كهف منهار؟..

المذيع:

وكل هذا الكلام عن الغيلان وآثار الخطوات و.. و...؟

مروان:

لو كانت هناك حقيقة فهي أن هذا الكهف شيطاني.. كل الشياطين تحب العبث.. لقد أثرت خيالكم لفترة لا بأس بها، لكن الحفل قد انتهى للأسف.. فقط أتمنى لو جاء المزيد من الفضوليين هنا ليروا بأنفسهم. سوف نمرح كثيرًا جدًا... هاهاها....! (ضحكات شيطانية عديدة) (صوت صغير طويل)

المذيع:

(صمت طويل) في الواقع.. لا أعرف ما يجب أن يُقال.. لا أعرف شيئًا على الإطلاق.. سوف يعكف الخبراء على فهم هذه المكالمات وتحليلها.. لقد اعتدنا المزاح والدعابات العملية، لكننا لم نعتد أن تأتي التسلية من شيطان.. شيطان وجد جهاز محمول للمرة الأولى وقرر أن يعبث به. والسؤال الأهم هو هل هذا الشيطان تقمص شخصية مروان، أم أن مروان نفسه صار كذلك بعد.. بعد...؟ ... إنني صرت مخرفًا.... أعرف شيئًا واحدًا هو أن هذا الكهف يحوي سرًا مخيفًا ولو كنت أملك السلطة لقممت بتدميره بحيث لا يدخله أحد بعد اليوم.

مراد:

ثمة سؤال أخطر: كم من كلام الفتى كان صحيحًا وكم منه كان خداعًا؟

المذيع:

إن الرجال سوف يفتشون الكهف بالتأكيد.. سوف نخبركم بكل ما يرد إلينا بهذا الصدد.. تعازينا الحارة لأسرة الفقيد، أما الآن فلسوف نعود إلى الستوديو.. كان معكم (عمر الأسيوطي) مراسل قناة (الشرارة).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت)

ليلة شتاء

كل هذا هراء طبعًا.. لكن لو فكرنا فيه لبدا مخيفًا...
هذا يعني أن أحد الذين قضيت الأمسية معهم لا وجود له! ... ربما هم جميعًا!
يطلق الغربيون على القصص البوليسية مصطلح (من فعلها؟).. أي أن القاتل غير معروف..
وأحيانًا (كيف فعلها؟) بمعنى أن القاتل معروف لكن الكشف عنه هو موضوع القصة.. للمرة
الأولى أواجه اختراعًا جديدًا اسمه (من المفعول به؟)!
وكما قال الشيخ فعلاً: هذه المرة القاتل معروف... لكننا لا نعرف القاتل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنا لا أحب مهنتي..
كلما مررت بموقف مشابه، دارت ذات الفكرة في ذهني. أنا لا أحب مهنتي.. قليل من الناس ممن
عرفت يحب مهنته، ما لم يشعر بأنها رسالة مقدسة كما يفعل المدرس أو الطبيب أحيانًا، أو
يجدها مجزية جدًا كما يفعل رجل الأعمال، أو هي فعلاً مهنة ممتعة، مثل ذلك الأخ (راي هاري
هاوزن) الذي كان يصمم الوحوش في أفلام الرعب.. تخيل أنه يصحو من النوم صباحًا ويذهب
لعمله ليصمم الوحوش حتى يحين موعد الانصراف!.. ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنا لا أحب مهنتي، لكني لا أعرف سواها. عندما يستدعونك لموقع الجريمة في الثالثة صباحًا،
فإنك تلهث من البرد والتوتر وأنت تتوقع تقريبًا ما ستراه.. بعد كل هذه الأعوام ما زلت لا
أتحمل منظر الجثث الممزقة وأمقت رائحة الدم..

اسمي (عوني).. في الخامسة والثلاثين من العمر.. لا شك أنك عرفت مهنتي الآن.. أنا ضابط
شرطة، وقد رأيت الكثير طبعًا لكن هذا لا يعني تصريحًا بالبرود أو اللامبالاة..

هناك حوادث تزلزل وجدانك فعلاً، وتتحدى ثباتك المهني.. مثلاً عندما تجد الطريقة التي شوه
بها هذا السفاح ضحيته، والأسلوب السادي المريض الذي ترك به توقعه، عندها لابد أن
ترتجف. على أي كونت نظريتي الخاصة بعد أعوام: كل واحد يمكن أن يفعل أي شيء إذا
اصابته حالة جنون وقتية، أو زال عنه قناع التحضر...

أما عن الطقس الرديء فموضوع آخر.. يصعب على المرء أن يتصور أن هذا عامل مهم في
مصر، لكن بوسعي أن أخبرك بعشرات القصص التي رحنا نجري فيها التحقيقات في ظروف
مستحيلة...

مثلاً قصة اليوم حدثت في عزبة خارج المدينة.. نحن قرييون من الاسكندرية جدًا لكن لن أعطي
تفاصيل...

الآن يمكنك أن تتخيل ما يحدث.. أمطار غزيرة جدًا..

في ليلة كهذه تتمنى فعلاً لو ظللت في فراشك، لكن جرس الهاتف يدق بالحاح.. سوف تأتي
السيارة لتأخذك حالاً.. هناك جريمة قتل..

أرتدي ثيابي، ومن تحتها بول أوفر ثقيل.. زوجتي تصر على أن أحترس من البرد، ولا أعرف كيف
أحترس من البرد بينما كل ذرة في الكون باردة.. احترس من الطريق.. كيف أحترس من الطريق
وقد تحول لبحيرة، دعك من أن (بسيوني) هو الذي يقود وهو على درجة من العته..؟

في الطريق وسط حمى الوحل والبرق الذي يشق السماء والمساحات، أعرف من بسيوني
التفاصيل:

- «اتصلوا بنا وقالوا إن هناك رجالاً لا يعرفونه اقتحم العزبة، وقتل أحدهم بسلاح ناري.. ثم فر..»

أقول له وأنا أرتجف من البرد:

- «ليست تفاصيل مفيدة جداً..»

- «سوف نعرف كل شيء..»

رباه!.. أنا لا أحب مهنتي.. كلما تذكرت أنني كنت في الفراش منذ نصف ساعة دافئاً أحلم... أنا من ضباط الشرطة الذين يقفون في الركن.. في الزاوية الضيقة.. لم أشتم ولم أصفع متهمًا في حياتي، ولم أدرس قطعة بانجو في جيب أحدهم، ولم أستغل سلطتي قط حتى في الحصول على رغيف خبز. وفي الوقت نفسه أنا بالنسبة للمواطن العادي ضابط مغرور سادي يستغل سلطته بالتأكد.. لا أستطيع لعب دور الوغد، لكنهم يصرون على أنني كذلك... باختصار أنا أنال النصيب الأسوأ من الجانبين..

السيارة تشق طريقها نحو تلك العزبة، وهناك عند ناصية الطريق يجلس ثلاثة من الخفراء يصطلون بالنار وقد تذر كل منهم كرجل من الاسكيمو.. هناك خيمة من المشمع لتحميهم من المطر الغزير، ويقف أحدهم ليصوب علينا نور الكشاف القوي ويهتف:

- «لا يمكن الوصول لهنالك يا باشا.. سوف يفيض المصرف.. بعد ساعة سيتحول هذا كله إلى نهر عميق ولن تعرفوا أين الطريق..»

قلت له في عصبية:

- «صوب هذا الكشاف على شيء آخر أولاً.. لا يوجد حل آخر.. لابد أن يذهب أحد هنالك.. لن ننتظر حتى يأتي الربيع»

راح يصف لبسيوني طريقًا مختصرًا.. ثم دعانا لكوب شاي كنا سنرحب به طبعًا لو كانت الظروف تسمح...

ننطلق من جديد نحو تلك العزبة، بينما خزانات السماء تفرغ ما فيها فوق رؤوسنا.. يقول بيسيوني في توتر:

- «هذه رحلة خطيرة جدًا.. ربما كان من الأفضل أن نعود...»

- «لقد تمادينا بما يكفي..»

لسان برق يشق السماء من جديد... أتفحص الهاتف المحمول فأدرك أن الشبكة قد غرقت في الماء وماتت...

فجأة هتف بيسيوني:

- «إننا قد دخلنا العزبة فعلاً..»

هذا صحيح!

صحيح أن العاصفة توشك على اقتلاع كل شيء، والأمطار تجعل الرؤية مستحيلة، لكن لا أعرف مكانًا آخر يمكن أن يكون مزروعًا بهذه الطريقة.. دعك من صوت خوار البهائم المذعورة في جرن ما، ونباح كلاب تعتقد أنها نهاية العالم، وذلك البيت المبني من القرميد... هذه عزبة فعلاً..

ترجلنا محاولين أن نتماسك فلا نسقط في الوحل، وأضأنا الكشافات بينما تحسست مسدسي.. تبًا.. لقد ارتفع الماء لدرجة لا تصدق حتى أنني فتحت باب السيارة فتسرب للداخل..

اتجه بيسيوني نحو الباب الخشبي العملاق ودق بيده الغليظة عدة مرات:

- «افتح!.. بوليس!»

لحظات وانفتح الباب بشكل شحيح، وظهر وجه رجل مسن ريفي يرتجف:

- «بسم الله الرحمن الرحيم»

الإضاءة ساطعة هنا لحسن الحظ...

ومن خلفه ظهر وجه رجل ريفي وسيم متأنق.. أعتقد أنه في الخمسين من العمر.... يلبس الجلباب الأبيض الفاخر المميز لأثرياء الريف. هذا سيد بلا شك.. سألته:

- «عزبة الليثي؟»

- «أنا محمود الليثي.. تفضلوا..»

عندما دخلنا إلى المدخل الأنيق المريح تنهدنا الصعداء، وشعرت بحرج من أحذيتنا المتسخة بالوحل، لكن نزع الأحذية ليس جميلاً من الناحية البوليسية..

- «خيرًا إن شاء الله؟»

قلت له في حيرة:

- «أعتقد أن هذه العبارة جديرة بنا.. أنتم اتصلتم وتكلمتم عن جريمة قتل»

نظر لي في دهشة.. ثم نظر للعجوز..

- «أعوذ بالله يا باشا.. لم يحدث شيء من هذا..»

بلاغ كاذب إذن؟.. سيكون هذا أسخف مقلب شربته في حياتي.....

لكن في الوقت ذاته كنت أنظر إلى الأرض.. إلى طرف الجلباب الأبيض.. هذه قطرات دم طازج. دم لم يتغير لونه بعد، ولا يمكنه إقناعي بأنه كان يذبح الطيور في هذه الساعة وهذا الجو..

البلاغ غير كاذب..

ويبدو أننا وجدنا القاتل بسرعة كذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قلت في ضيق وأنا أرتجف:

- «لا تحاول إقناعي أن ما حدث كان دعابة سخيفة..»

ابتسم.. كان من الطراز الثقيل جدًا الذي لا يهتز لشيء.. الصراع العقلي معه ليس هينًا. قال في لهجة آسفة باطنها المزاح:

- «هذه هي الحقيقة... لو كنا نعرف أنكم قادمون لقتلنا أحدًا!»

في هذه اللحظة كان آخرون قد جاءوا من الداخل..

هناك شابان في سن المراهقة امتلأ وجهاهما بالنمش، وكنا يلبسان منامتين صوفيتين ثقيلتين.. بعد هذا ظهر طفل مذعور في نحو السابعة.. النوم واضح تمامًا في انتفاخ العيون واحمرار الآذان والغربال الذي رسم معالمه على بعض الخدود....

- «ماذا حدث يا بابا؟»

نعم. هم إذن يستعملون لفظة (بابا).. قال (الليثي) في ثبات:

- «لا شيء.. عد وأكمل نومك..»

ومن موضع بالداخل رأيت شبح امرأتين.. يبدو أن هناك واحدة شابة وواحدة أكبر سنًا.. كانت كل منهما تلف ما يشبه (الطرحة) على رأسها على سبيل إلقاء البرد والحشمة..

- «محمود.. هل من شيء؟.. لماذا الشرطة هنا؟»

كان الصوت يدل على أنها في الأربعين وجميلة غالبًا... لما لاحظ أننا ننصت صاح في حزم دون أن يلتفت للخلف:

- «أدخلي أنت وابنتك!.. ما شأنك بهذا؟»

انتظرت حتى توارات الأثنيان وقلت وأنا أشير لحذائه:

- «هل تريد القول إن هذا الدم صدفة؟»

نظر للجلباب ثم قال باستخفاف:

- «وما في ذلك؟.. إنني أذبح كل يوم.. نحن عدم المؤاخذة فلاحون...»

- «في هذه الساعة؟.. ووسط هذه العاصفة؟»

- «هل يوجد ما يمنع يا باشا؟.. لابد للنسوة من إعداد الخروف الذي سنطهوه غدًا»

ساد الصمت ونظرت لبسيوني ونظر لي.. لا يوجد ما نعمله بعد هذا. هل أنت متأكد من أنه لا

يوجد هنا شخص آخر؟.. خادم أو خادمة؟.. شخص يرقد كجثة الآن؟

قال الليثي ضاحكًا:

- «لا شيء من هذا... كل الموجودين في هذه البناية يقفون أمامك، أما عن المستأجرين في

الخارج فلا أعرف عنهم شيئًا الآن ولو ماتوا جميعًا فلن أعرف..»

تبًا. أنا لا أحب مهنتي.. نظرت لساعتي ثم تأهبت للخروج مما أضحك الجميع.. كأنني أكبر

أحمق قابلوه في حياتهم، وكنت كذلك فعلاً:

- «هل تمزح يا باشا؟.. لقد فاض المصرف.. العزبة كلها صارت بحيرة ولن تستطيع بلوغ السيارة

أصلاً لأنك ستهوي لتغوص في الوحل.. ولو تحركت السيارة فسوف تنغرس للأبد..»

في غيظ قلت:

- «وما الحل؟»

- «الحل أن تبقوا معنا هنا حتى تتحسن الأمور.. البيت بيتكم ونحن كرماء والله العظيم.. في

الصباح ربما نجد طريقة للعودة..»

هذا لن يكون.. المبيت هنا.. زوجتي..

جربت الهاتف الجوال عدة مرات.. كأننا في الأعوام التي سبقت اختراع الشبكة أصلاً.. على كل

حال زوجتي تعرف أنني أحقق في جريمة قتل ولم أخرج لشراء سجائر.. أنا لا أحب مهنتي.. لا

أحبها بتاتاً..

هنا صباح في زوجته:

- «يا إنصاف!!»

كأن المرأة تلقت باقي الرسالة، وسرعان ما اقتادنا الخادم العجوز إلى غرفة مسافرين واسعة،

فزرعنا أحذيتنا وجلسنا على أرائك عالية..

- «خذنا راحتكما.. البيت بيتكما»

وسرعان ما انفتح الباب ليدخل العجوز حاملاً دورقاً لغسيل اليدين وطسّاً ومنشفة، ثم اختفى

من جديد وعاد هذه المرة بصينية عملاقة عليها طيور محمرة كثيرة جدًّا، وإناء تتصاعد منه

رائحة البازلاء، وأرز ورقاق... ما هذا؟.. هل هم مستعدون بالأكل طيلة الوقت؟.. وهل لا يوجد

عندهم وقت بين الفعل ورد الفعل؟ وضعوا الصينية على الأرض فالتففنا جميعاً حولها... ألم

يتناول هؤلاء عشاءهم؟.. أم هم مستعدون للعشاء في أي وقت؟

انقض بسيوني على الطعام طبعًا، أما أنا فاكثفت ببعض لقيمات.. لست مرتاحًا لهذه الوجبة

ولا هذه الأسرة أصلاً... ثم أن الطعام الساخن سيؤدي دور المخدر معي وأنا لا أريد هذا...

- «كل يا باشا.. كل لتقاوم البرد..»

ثم أشار إلى الفتيتين المراهقين اللذين كان كل منهما يعرق دبوس دجاجة بأسنانه:

- «هذان (سامي) و(مصطفى)... ابناي.. طالبان في الثانوي... أما هذا الصغير فهو (رأفت) وهو في

المدرسة الابتدائية.. لي ابنة واحدة في سن الجامعة، لكني بينك وبينك أكره أن أرى حريمي في الشارع والشباب ينظر لهن.. لقد اخترت لها عريسًا..»
قلت كلاً ما عامًا على غرار (ربنا يخلي). ثم أعلنت أنني راغب في الذهاب للحمام..
نظر (الليثي) للعجوز الذي فهم على الفور، فأسرع يسبقني نحو خارج الحجرة.. وكان هناك قبقاب ناولوه لي، فصرت كأني راقص كاريوكا في جزر الكاريبي.. ضوضاء رهيبة فعلاً..
الآن أمشي وسط ممرات مظلمة كثيبة.. من مكان ما ظهر مصباح كيروسين فحملة العجوز في يده وهو يسبقني...

لم تكن دورة المياه رائعة لكنها أدت الغرض على كل حال، ثم أن الظلام دامس والبرد شديد.. لا أهتدي إلا بالضوء الخافت من المصباح.. هناك دلو ماء غسلت به يدي ثم خرجت من الحمام..

هنا رأيت العجوز ينظر لي في ثبات.. ماذا يريد؟...
كان يشير بطرف خفي إلى غرفة جانبية.. بإصرار شديد كذلك...
ماذا يريد؟.. يريد أن أنظر دون ضوضاء... لكن ماذا هنالك؟
زججت برأسي في الغرفة واشعلت عود ثقاب كان في جيبي..
هنا كتمت صرخة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الغرفة لا تزيد على متر في متر اتساعًا، ومشيدة من القرميد الأحمر فلم يعن أحد بتغطية جدرانها، كما كانت هناك خراطيم كهرباء وأسلاك حديدية.. المشهد الذي طالعني على ضوء عود الثقاب المتراقص كان جثة على الأرض، ويبدو أن الماء يتسرب هنا بشدة لأنها كانت وسط بركة. انتهى الثقاب فأشعلت ثقابًا آخر وعلى الضوء أدركت أنها جثة رجل.. عدد هائل من الطعنات والضربات لا يمكن عدها.. نظرة رعب على الوجه..
واضح أنه ريفي وإن لم يكن يلبس الجلباب. من الصعب أن أدقق في ملامحه التي تشوهت بهذا الشكل. لكن أهم ما في الموضوع هو أن هناك عددًا من الخرق والأكياس الممزقة قد ألقي فوقه..
هناك من حاول إخفاء هذه الجثة عن العيان..
انطفأ الثقاب فأشعلت عودًا ثالثًا.. نعم.. في يده طبنجة.. لكن ليس من الحكمة أن أفحصها لأن البصمات ستكون ثمينة جدًا..

على كل حال حان الوقت.. مددت يدي لنطاقي وأخرجت المسدس الحكومي.. هنا شعرت بالشيخ يضع يده على يدي.. رأيت في وجهه نظرة مناشدة ألا أفعل شيئًا..

- «سأشرح لك كل شيء لكن ناشدتك بالله أن تخرج من هنا..»
لسبب لا أعرفه قررت أن أثق به.. لا أعرف يقينًا ما سوف أفسده لكنني لن أخاطر بذلك..
ماذا يمكن أن يحدث؟.. معي مسدس ومع بسيوني مسدس، ومعنا سلطة القانون، ومن المعروف أننا هنا.. ربما كان من الحكمة أن نصغي ونسمع ولا نفعل شيئًا مؤقتًا..
لكن ما يجب أن أتذكره هو أن هذه الأسرة تعرف أشياء لا تعترف بها.. هم يكذبون فعلاً...
طعام مسموم؟.. لا.. لن يخاطروا بهذا.. دعك من أنهم أكلوا معنا بلا حذر وبلا انتقاء..
عدت لغرفة المسافرين حيث كانت عملية الاتهام مستمرة. جلست على الأريكة فزام (الليثي) محتجًا وهتف بفم مليء باللحم:

- «طلبت الذهاب للحمام وليس إنهاء وجبتك»

- «سفرة دائمة..»

وتربعت على الأريكة وأشعلت لفافة تبغ مع كوب الشاي الذي جاء.. لا أنكر أن الجو منوم ومدوخ. الدفء!.. الدفء المقيت!.. العاصفة والبرد بالخارج وأنت هنا دافئ.. لكنك لست آمنًا! لا تنم.. لا تنم!

رباه!.. أنا أمقت مهنتي فعلاً..

لما انتهت الوجبة وغسل الجميع أيديهم نظر الليثي في ساعته.. إن الوقت متأخر جدًا لكن يبدو أن النوة لا تريد أن تهمد قليلاً..

أمر الليثي الشيخ بأن يجلب لنا ما يلزم للنوم.. سرعان ما ظهرت حشيتان ووسادتان وملاءات.. الكثير منها.. وسرعان ما تحولت الأرضية إلى عنبر نوم..

قلت له وأنا أقاوم رغبة عاتية في أن أدس نفسي في بحر الدفء هذا:

- «نحن لا نريد أن نزعجكم.. إن هي إلا ساعات ونرحل..»

طبعًا كان ما يدور في ذهني هو أن هذه ليست بداية النهاية.. بل هي نهاية البداية على رأي الخواجة تشرشل.. هناك جثة ممزقة في الداخل، ومن مزقها واحد من هؤلاء على الأرجح..

قال الليثي بشخصيته الكاسحة وهو يساعد على فرد الحشية:

- «لا تتفائل يا باشا.. ربما طال الأمر.. على كل حال نحن لم نتجشم جهدًا.. كل شيء موجود..» جلست على الأرض.. ووضعت مطفأة السجائر على حجري.. ثم نفضت السيجارة وسألته:

- «هل العاملون بالعزبة هم كل من قابلناهم؟»

- «نعم. لكن قلت لك من قبل إن هناك مستأجرين للأرض.. لا أعرف شيئًا عنهم طبعًا، فلا بد أنهم في أكوأخهم يرتجفون من البرد..»

جثة ممزقة هنا.. لو كانت من أفراد الأسرة لقالوا لي.. إلا إذا كانوا يمارسون أسلوب (أومرتا) عندما ينكرون أي شيء أمام الشرطة لأن لديهم أجندتهم الخاصة للثأر.. ربما.. أما لو لم تكن الجثة من الأسرة فالاحتمال القريب هو أن القاتل واحد منهم.. هكذا تتعاون الأسرة كلها على خداعنا، ولا يعرفون أن الشيخ خائن..

أخيرًا صرت وحدي مع بسيوني.. كان قد أكل كثور حتى صار يتنفس بصعوبة، وقال لي وهو مغمض العينين:

- «هل أطفئ النور يا باشا؟»

لم أرد.. نهضت وأغلقت النور أنا.. هنا سمعت (بسيوني) يقول في الظلام:

- «والله أهل كرم فعلاً... خ خ خ!»

تفكيره عملي جدًا.. لقد ظفر بأقصى ما يمكن أن يظفر به وهو وجبة دسمة، وترك لي أنا القلق والخواطر السوداء.. ترى من هو الأذكى؟ أين مسدسي؟.. يجب أن يكون معي تحت الوسادة..

كنت أعرف يقينًا أن محاولة اتصال أخرى ستتم..

متي؟.. يجب أن أظل متيقظًا..

لا بد أن نصف ساعة قد مر، عندما لمحت ذلك الشبح المنحني يدخل الغرفة.. فتحت عيني في الظلام وأنا أعرف من هو.. ثم سمعت صوت الشيخ الهامس..

- «يا باشا!»

يزحف على الحشية إلى أن صار عمليًا ينام جوارى!.. طريقة غريبة جدًا في التبسط..

تحسست المسدس ثم سألته بذات الهمس:

- «ماذا تريد؟»

قال وهو يرتجف:

- «الميت الذي رأيته... اسمه (أبو زبيدة).. لابد أنك سمعت عنه»
أبو زبيدة!.. من لم يسمع عنه؟.. القاتل المأجور الذي شيب أهالي المنطقة وحيرنا معه. إنه اسم رنان مخيف.. هارب من عربة السجن منذ عشر سنوات، وعليه حكم بالإعدام. استقر في القرى هنا وله أصدقاء وأقارب يداورونه.. لكنه يملك شبكة اتصالات ممتازة ويمكن لمن يريد قتل أي واحد أن يتصل به.
من الممكن أن تجد ضحايا (أبو زبيدة) لكن من العسير نوعاً أن تجده هو نفسه!
قال الشيخ وهو يرتجف:
- «هو القاتل!»

قلت في غيظ:
- «ما شاء الله.. هو القاتل.. ومن الذي قتله (أبو زبيدة)؟.. ومن الذي قتل (أبو زبيدة)؟»
نظر حوله في الظلام ثم همس:
- «هذه هي المشكلة.. نحن نعرف القاتل.. لكننا لا نعرف من هو القاتل!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الليل والدفء الذي بدأ يضرب بناره في أطرافي وخدي وصوت الشيخ الهامس.. اشعر أن هذا كله حلم سوف أفيق منه حالاً.. الأجمل أن (بسيوني) لم يصح بعد مما جعلني أتساءل عن المؤثر الذي يمكن أن يجعله يفيق منزعجاً.. هل هو ذبحنا؟
المشكلة أن جهاز اللاسلكي لا يعمل، بل يحدث هذا الأئين الغريب كأنه كلب مخنوق. لا شك في أنهم قلقون علينا ولا يعرفون أين نحن، لكن لا حيلة أمامهم لأن هذه العزبة صارت خارج الزمن فعلاً. لا أعتقد أن الصباح سيسمح لنا بالرحيل، لأن كل هذا الوحل لن يزول قبل يوم بشرط توقف الأمطار.

صوت الرعد يدوي.. كأن هناك حقل ألغام ينفجر بالخارج..
أقول للشيخ مغتاضاً:
- «عم تتكلم بالضبط؟.. ما هذا الهراء؟.. نحن نعرف القاتل.. لكننا لا نعرف من هو القاتل!..
ثم من سمح لك بأن تتسلل إلى هنا أصلاً؟..
يصغي لي وهو يضع سبابته على شفثيه محاولاً جعلني أخفض صوتي..
كان ينظر نحو الباب ثم دفن رأسه تحت البطانية..
لم أتحرك.. أدت عيني بخفة فرأيت الباب يفتح ببطء.. الضوء يتسرب بذلك التأثير الشعاعي المعروف، ثم يملأ فرجة النور ظل فارع لرجل ينظر لنا..
فارع القامة ضخمة البنية.. لا يوجد أشخاص كثيرون لهم هذه الصفات....
يلقي نظرة كأنه حارس يطمئن على أملاكه.. ثم يغلق الباب ثانية..
بعد دقائق أخرج الشيخ رأسه وراح يلهث.. يبدو أنه كان سيموت خنقاً.. قال لي:
- «يريدون التأكد من أنك لست فضولياً ولن تذهب هنا أو هناك»
- «من هم؟ ... عم تتحدث؟»

أغمض عيني وراح يتكلم..
رباه!.. لن أنسى أبداً نبرات صوته المسن.. صوت رجل دنا من النهاية أكثر من اللازم، وصار يعرف أكثر.. الظلام والليل والحاجة إلى أن تتخذ قراراً سريعاً..
قال لي بذلك الصوت الرهيب:
- «لم نعرف أي شيء غريب إلا في العام ١٩٨٦... ليلة عاصفة مثل هذه.. (الليثي) الكبير المسن

كان في غرفته، وقد أوشك على النوم، ثم خطر له أن المواشي ثائرة أكثر مما يجب. خطر له أنها تتعرض لخطر أو هناك من يسرقها، أو ربما هناك ثعبان تسلل لها..»

«المهم أنه ارتدى معطفه الثقيل والتف بالتلفيعة، وخرج في العاصفة ليرى ما يدور هناك. أنا كنت نائمًا ولم أعرف ما اعتزمه.. لم يعرف أحد أنه خرج.. كان لا يهاب شيئًا على الإطلاق.»

«لكنه نسي.. نسي كابينة التفتيش التي كانت تُبنى، وبالطبع هناك إهمال في كل صوب. كان هناك كابل ضغط عال عار يتدلى حرًا.. لقد أسقطته الرياح وصار يسبح في الماء. في الثانية صباحًا سمعنا صرخة عالية، وصوتًا يشبه الشرر الكهربائي، وانقطع التيار الكهربائي للحظات. خرج الجميع مذعورين يتساءلون عما حدث، فوجدنا الليثي الكبير واقفًا في مدخل الدار.. قال لنا ألا نقلق، فقد حركت العاصفة الكابل لكن كل شيء على ما يرام، ثم اتجه لغرفته ونام فعاد الجميع لغرفهم..»

«في الصباح لم يكن في غرفته.. بحثنا كثيرًا وفي النهاية وجدناه ميتًا بالخارج قرب كابينة التفتيش. كان متصلبًا وقد تقلصت ذراعاها على صدره شأن من تلقى صدمة كهربية، وعندما حاولت أن أنهضه صفعتني الكهرباء وألقت بي مترًا للخلف..»

كنت أصغي للقصة نافد الصبر، فقلت له في ضيق:

- «لحظة.. قلت إنه بات في غرفته..»

- «هذا ما رأيناه.. لكننا عرفنا أنه مات فعلاً صعبًا بالكهرباء عندما داس على ذلك الكابل..»

- «يا سلام.. ومن ذلك الذي فسر لكم كل شيء؟»

- «هذا هو السر.. سر آل الليثي.. لا يعرفه إلا قليلون. وفيما بعد قالت لي أم (خضر) العجوز التي تعمل في هذا البيت قبلي بعقود ذات القصة.. هناك شيء غريب يتعلق بهم، ويحدث في أوقات معينة. عندما يموت بعضهم تبقى منهم رؤى تتكلم وتمارس الحياة لبضع ساعات، حتى لتحسبهم لم يموتوا بعد.. ثم يزول الوهم فتجد الجثة وتفهم»

- «تعني أن ذلك الشيخ مات، لكن روحه أو طيفه هو الذي عاد للدار وتكلم معكم؟»

- «هذا ما أعنيه يا باشا»

- «جميل.. جميل... وأبو زبيدة هذا؟»

سعل الرجل ثم تمالك نفسه ودفن الغطاء في فمه كي لا يرتفع صوته.. ثم قال:

- «كح كح!.. لقد تسلل للبيت وقتل أحداً.. أنا واثق من هذا.. هناك خلافات ونزاعات كثيرة حول الأرض والحدود والري، فلا أستبعد أن هناك من استأجره للقتل.. ثم انتقم منه أهل البيت وقتلوه وأخفوا جثته حيث رأيته.. المشكلة أننا لا نعرف من الذي قتله أبو زبيدة!»

هنا كان صبري قد انتهى، فأخرجت مسدسي من تحت الوسادة ولوحت به:

- «مشكلتك أنت بسيطة جدًا.. لو لم تنصرف بتخاريفك لفجرت رأسك ولن أبالي بالعواقب!!»

لم يبد خائفًا جدًا.. فقط نهض في صعوبة وزحف على ركبتيه نحو الباب وأنا أطلق السباب:

- «مجنون وأحمق.. إن خرف الشيخوخة قد.....»

أخيرًا انغلق الباب وعاد الهدوء...

ومعه راحت أفكاري تتسابق..

كل هذا هراء طبعًا.. لكن لو فكرنا فيه لبدا مخيفًا...

هذا يعني أن أحد الذين قضيت الأمسية معهم لا وجود له! ... ربما هم جميعًا!

يطلق الغربيون على القصص البوليسية مصطلح (من فعلها؟).. أي أن القاتل غير معروف.. وأحيانًا (كيف فعلها؟) بمعنى أن القاتل معروف لكن الكشف عنه هو موضوع القصة.. للمرة

الأولى أواجه اختراعًا جديدًا اسمه (من المفعول به؟)!
وكما قال الشيخ فعلاً: هذه المرة القاتل معروف... لكننا لا نعرف القاتل!
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أعرف كيف نمت..
هذا الجو النفسي لا يغري بالنوم أبداً، لكن الدفء والظلام يصنعان المعجزات.. دعك من أن
صوت العاصفة بالخارج يجعل التأثير أسوأ.
لقد ذبت في الدفء.. انزلت قدماي ببطء في حفرة من الشيكولاتة الدافئة، فلم أعد أستطيع
التملص...

في المنام رأيت زوجتي.. رأيت أبي.. رأيت.....
ثم سمعت صرخة مكتومة.. بشكل ما اقتحمت الحلم كما يحدث في (أحلام المنبه) الشهيرة،
وهكذا صحت من النوم وأنا أرتجف.. استغرقت قرنين حتى أتذكر أين أنا..
أخذت مسدسي.. المعدن البارد الثقيل المطمئن في يدي. ونهضت.. طبعاً لا داعي لأن أوقظ
بسيوني..

هرعت إلى حذائي فانتعلته وفتحت باب الحجرة، ووقفت أنصت قليلاً..
صوت الرعد هذا..

في الخارج كان هناك ظلام دامس وبرد قارس.. لابد من أن أشعل عود ثقاب. أشعلت العود
ورفعته ورحت أرمق الردهة على الضوء المتراقص..
في اللحظة التالية ظهر ضوء متراقص.. ورأيت مصباح كيروسين في يد شخص، لكن بالطبع كان
الضوء يأتي من أسفل فلم أتبين الملامح...

سمعت صوت الليثي فعرفت بعبقريّة أن هذا هو الليثي.. كان يقول:
- «أنت سمعت ما سمعته يا باشا.. أليس كذلك؟»

ابتلعت ريقِي وظللت أصوب المسدس نحوه فقال في ثبات:
- «ابعد هذه الطبنجة عني فأنت سيد العارفين.. وتذكر أن (السلاح قد يطول)»

ثم تقدم بذات الثبات ماشياً في الردهة.. ومشيت وراءه مهتدياً بالضوء الذي يحوم حوله. سألته
وأنا أمشي بحذر:

- «لم مصباح الكيروسين؟»
- «يبدو أن الكابل قد ضرب.. الظلام دامس فلا نستطيع أن نتبين السبب..»

في نهاية الممر كان ما يبدو كمطبخ واسع. تأكدت عندما دخلت أنه مطبخ فعلاً... مطبخ ريفي
ذو فرن واسع لخبز الفطير، وهناك عدد كبير من الآنية والدلاء..

فقط يجب أن أقول إن رائحة الموت كانت غالبية..
تسألني عن رائحة الموت.. لا أعرف كيف أقول.. فقط لو قضيت في هذه المهنة فترة طويلة
لتعلمت كيف تشمها مثلي..

هناك جثة هنا ولتقطع ذراعي إن كنت واهماً..
كان هناك حوض غسيل.. درت حوله وانتظرت حتى لحق بي فسقط الضوء على الأرض، وهنا
أجفلنا معاً..

كان العجوز الذي تسلل لغرفتي هناك..
كان راقداً على ظهره وقد ارتسم الفزع على ملامحه. لكن هذه الملامح كانت رخوة فقدت قدرتها
على التشكل.. إنه ميت....

ركعت جواره وتحسست نبضات عنقه، ثم ألقيت نظرة على عنقه.. كان هناك ذلك الحبل الغليظ يلتف حوله في حقد. هناك من خنقه من الخلف، وهذا قد حدث منذ دقائق.. على الأرجح عندما سمعت صوت الصرخة..

- «ميت؟»

تساءل الليثي وهو يرفع المصباح أكثر، فهززت رأسي.. الآن جاءت لحظة الحقيقة.. هناك من قتل هذا الشيخ وهناك من قتل أبا زبيدة.. القاتل موجود هنا ويجب أن أقوم بعمل الشرطة المعتاد..

كل شيء يشير إلى أن الليثي الكبير من فعل هذا.. على قدر تصوري لا يوجد واحد قريب من هذا الجزء من البيت من أفراد الأسرة. دعك من أن أفراد الأسرة كلهم لا تسمح حالتهم الجسدية بعمل هذا.. هذا عمل رجل بالغ..

لكن لماذا؟

من قتل هذا الشيخ ولماذا؟

الإجابة المنطقية هي أنه عرف أكثر مما يجب أو تكلم أكثر مما يجب.. هناك من أراد أن يخرسه قبل أن يتكلم أكثر..

ما الذي عرفه أكثر من اللازم؟

هنا أستعيد قصته الغريبة السخيفة وأرتجف.. هل في هذه القصة شيء من الحقيقة؟.. مصرعه يؤكد بشكل ما أنها حقيقية.. هناك من يهمله ألا يتسرب هذا الخبر، وهذا الشخص هو غالبًا من قتل (أبا زبيدة) ...

كان الليثي يسألني:

- «من فعل هذا؟.. الرجل عاش بيننا زمناً طويلاً.. من الكافر الذي.....»

هنا كنت أهرع في الظلام نحو الغرفة التي كنا نائمين فيها، فوجهت ركلة من فوق الأغطية لجسد بسيوني الذي نهض مذعوراً مبسماً محوقلاً، وشعره المنتفش وجسده الدافئ يوحيان بأنه كان في الجنة تقريباً، فقلت له بصوت عال:

- «حان الوقت لتنهض»

ثم عدت إلى الردهة حيث كان الليثي يراقبني كأنني مجنون... صوبت المسدس إلى رأسه وقلت بصوت كالصراخ:

- «الآن أنا أعرف أن من قتل هذا ومعه (أبو زبيدة) هو واحد منكم.. إنه تحت سقف هذا البيت!»

ضرب كفًا بكف.. وقال:

- «يا فتاح يا عليم.. من أبو زبيدة يا باشا؟»

- «أنت أدري!»

هنا سمعت أصوات الأسرة..

ببطء يظهرون وهم يفركون عيونهم.. لابد أن صراخي سبب فوضى عارمة في هذا البيت.. هناك من يحمل المصابيح..

رأيت الفتيتين المراهقين والصبي.. ومن ركن الباب أدركت أن المرأتين هناك...

قلت وأنا أصوب المسدس نحو الجميع وبيد راجفة نوعاً:

- «بسيوني.. هناك جثتان في هذا البيت.. الجثة الأولى لأبي زبيدة.. أنت تعرفه.. كل المنطقة تعرفه.. الجثة الثانية للشيخ الذي كان يقدم لنا العشاء.. من قتل هذين موجود هنا.. تحت هذا

السقف... إنه واحد من هذه الوجوه...»
يا لأعصاب الليثي! ... لم يهتز شعرة ولم يندهش.. فقط تولى قيادة الموقف بذات الطريقة السابقة، وقال وهو يشير بيده إلى الغرفة التي كنا فيها:
- «ليكن يا باشا.. يمكن أن تقول هذا كله ونحن جلوس.. سوف اسمع الكلام ذاته، حتى لو لم تصرخ!»
ثم صاح في امرأته:
- «الشاي يا إنصاف!»
قلت وأنا أترجع:
- «لن أذوق طعامًا أو شرابًا في هذا البيت.. لا أريد أي شيء سوى تفسيرات!»
- «ولك هذا!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلسنا جميعًا في قاعة المسافرين.. يا لها من ليلة! ... أنا بالفعل أمقت مهنتي.. لكنها لم تعد ليلة بالضبط.. نحن نقرب من الصباح جدًّا، لكن كيف تتوقع أن تشرق الشمس في هذا الصباح؟ ظلام.. ظلام.. كأننا في الشتاء القطبي.. ضوء الكلوب يتوهج بصوته وفحيحه المميزين.. الصوت الذي كان يفتنني عند باعة الفاكهة الساهرين..
من حولي جلس أفراد الأسرة.. البعض افترش الأرض والبعض جلس على الأرائك العالية.. كان المسدس في يدي، لكن عدم مبالاتهم به جعلني أشعر بأنه بلا قيمة.. هناك هيبة للأسلحة النارية.. يجب أن يرتجف الناس عندما تصوبها نحوهم وإلا بدا الأمر مخيفًا..
بسيوني كذلك راح يحك صدره وبطنه كأنه مفعم بالبراغيث، ولم يبال بأن يخرج مسدسه.. لا شك في أنه جائع ويتمنى لو لم تدلهم الأمور بهذا الشكل ليقدموا لنا الإفطار..
قلت لليثي ضاغظًا على كلماتي:
- «أرجو أن تنضم لنا السيدة والابنة..»
قال في ثبات وهو يحدق في عيني:
- «أما هذا فلا.. ليس للحكومة شأن مع حريم بيتي»
لم أرد أن أضغط طبعًا.. ثم تذكرت أن زوجته ليست من الأسرة.. فعلاً لا دخل لها بالقصة. سألته بقدر ما استطعت من تهذيب:
- «ليكن.. المدام ليست من الأسرة على كل حال»
قال بثبات:
- «بالعكس.. هي ابنة عمي!.. أنت تعرف الريف.. أنت متزوج من ابنة عمك منذ لحظة ميلادك»
هذا يعقد الأمور.. الكل مشتبه فيه إذن..
وهنا ومن دون أن أعرف كيف، رأيت امرأة وفتاة تتقدمان لتدخلوا القاعة.. نظرة نارية توهجت في عين الليثي لكنه على ما يبدو قرر أن يؤجل الانتقام لحين..
كلاهما كانت تلف طرحة على رأسها وشعرها بحيث لا تبدو سوى العينين تقريبًا.. لكن ما تبدى من الوجه كان ينم عن حسن، وبالفعل كانت الزوجة في الأربعين أما الفتاة ففي سن الجامعة..
- «سلامو عليكم»
ووقفنا جوار الباب صامتتين في مشهد شبه جنائزي..

قال الليثي بعد ما استعاد ثبات صوته:

- «خيرًا يا باشا؟.. تقول إن هناك جثتين في البيت.. الشيخ المسن وجثة أخرى.. أنا رأيت الأولى لكن ماذا عن الجثة الأخرى؟»

هنا صرخت المرأة:

- «جثة؟.. عم تتكلمون؟»

صرخة جديرة فعلاً بزوجة تكتشف أن في بيتها جثتين.. هذا يتهمها بالإهمال وعدم النظافة.. الزوجة النشيطة تعرف على الفور أن هناك جثة في بيتها.. قلت:

- «هذا ما أتوقع أن أعرف إجابته.. جثة قاتل مأجور اسمه (أبو زبيدة) والكل هنا يعرفه.. أنت تعرفه.. إنه في غرفة مقفلة جوار المرحاض وقد تلقى عددًا هائلًا من الطعنات..»

شهقت المرأة بينما ظهرت الاستثارة في عيون الشباب.. أكثرهم بالطبع كان الصغير (رأفت). نظرت له لبعض الوقت.. يا لشحوبه!.. أعرف أن الأطفال فريسة دائمة للديدان والطفيليات، لكن على قدر ما أعرف لا يتجاوز الأمر بعض البقع في الوجه.. لكن للمرة الأولى أدقق في وجهه فأجده شاحبًا جدًا.. هذا غريب..

قال الليثي وهو يتحسس شاربه:

- «أنا لا أعرفه.. ولا أفهم لماذا يأتي قاتل مأجور ليموت في داري..»

- «كنت آمل أن تفسر لي هذا..»

كانت هناك بقع دم على جلبابه فلماذا؟.. قال إنه كان يذبح حيوانًا.. لماذا يذبح المرء ليلاً ووسط هذه العاصفة؟.. ما سبب هذا الحماس؟.. ثم لماذا لم يكن هناك لحم حيواني على مأدبة العشاء؟.. كان الطعام كله طيورًا..

قالت المرأة بصوت مبحوح:

- «يا قاعدين يكفيكوا شر الجايين!.. نحن أكثر الأسر احترامًا في البلدة.. لا شيء من هذا يحدث عندنا..»

كأن وجود جثث في البيت يدل على عدم الاحترام.. لماذا تلتف المرأتان بهذا الشكل؟.. إنه يتحدى الحشمة أو التدين، بل هو منظر مرعب يذكرني بالمجذومين كما كانوا يظهرون في الأفلام التي تدور في القرون الوسطى..

قال الليثي بذات الحزم:

- «صمًا يا إنصاف..»

هنا قال أحد المراهقين وهو من يدعى مصطفى:

- «سمعت عن أبي زبيدة هذا.. هو رجل مخيف.. لكن من قتله وكيف؟»

مط عنقه للأمام.. هذا الجرح الغائر في العنق يبدو لي أعمق من اللازم.. والغريب أنه يانع أحمر اللون.. ليس جرحًا قديمًا لكن لماذا لم يضمده أحد؟

رأسي يوشك على الانفجار.. رياه!.. يجب أن أتخلص من قصة الشيخ وأفكر بشكل مادي عقلائي.. يجب أن أتخلص من هذه الفكرة الحمقاء. لو صدقت نفسي لتصورت أن كل واحد من هؤلاء ميت فعلاً...

على كل حال لو كانت القصة صحيحة - وهذا مستحيل - فلسوف يسقط واحد من هؤلاء ميتًا ونكتشف أنه كان كذلك منذ جاء البلاغ. ولو كانت خاطئة فعلي أن أتصرف كشرطي.. يجب أن أطلب المدد وأطلب خبراء المختبر الجنائي..

لكن كيف وهذا اللاسلكي لا يعمل؟

قال الليثي وهو يشعل لفافة تبغ:

- «سيدي.. لا أعرف ما تفكر فيه ولا ما تنتويه، لكني بالفعل لا أملك تفسيرًا.. ما أستطيع قوله هو أن بوسعك الانتظار ضيقًا كريمًا في داري، إلى أن تستطيع طلب رجالك أو مغادرة المكان.. بعدها قم بتحقيقاتك وتصرف.. أما أنا فلدي كلام كثير عن الأمن في هذا البلد، حيث القتلة يقتحمون بيوت الأبرياء.. كنت أحسب هذا من عمل الأمن وضمن مسئولياته»

واحد من هؤلاء ميت!

واحد من هؤلاء ميت!

الفكرة لا تفارق ذهني.. تبًا لها..

الأدهى أن يكونوا جميعًا موتى...

ربما كان آل الليثي الحقيقيون موتى في غرفة أخرى الآن وأنا جالس مع أطياف..

قلت لليثي وأنا أنهض:

- «أريد تفتيش البيت من فضلك.. من حقك أن ترفض لكن...»

قال في ثقة وهدوء:

- «لا داعي.. ليس لدي ما أخفيه.. هيا بنا..»

وحمل الكلوب.. ثم استدار لي فلحقت به.. طلبت من بسيوني أن يبقى حيث هو. طبعًا كنت أرغب أن يراقب الباقين.. فقط أرجو أن يكون قد فهم هذا، فغباؤه يثير انبهاري..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قلت لك إنني لا أحب مهنتي..

ثقيلة متعبة مفعمة بالشك والكراهية والتوتر.. أنت ترى الإنسان في أسوأ حالاته كضحية أو كمجرم. لن تتضمن مهنتي بالتأكيد توزيع أزهار على الأيتام أو سماع آخر مقطوعة لشتراوس..

رحت والليثي نفتش البيت...

في الظلام يصير هذا عملاً عسيرًا شديد التعقيد.. خاصة وأنت تخشى من يرافقتك. لهذا كنت أجعله يتقدمني باستمرار والكلوب في يده.. هذا بيت ريفي عملاق فيه كل ما يخطر ببالك عندما تتخيل منزل ريفي موسر الحال. كانت هناك بعض الغرف يتسرب الماء من سقفها غير المحكم، وكانت هناك جثتان واحدة في المطبخ وواحدة في تلك الغرفة التي لا لزوم لها جوار الحمام..

لا يوجد شيء غريب.. باستثناء الجثتين طبعًا..

لكني شعرت بشيء من الراحة عندما دخلنا قاعة سقفها مكون من عروق خشب غير محكمة، فرأيت أن السماء ليست سوداء.. إنها رمادية.. ثمة بصيص نور بدأ يتسلل برغم أنه ليس كافيًا لترى.. قطرات ماء تتساقط، لكن لا شك في أن العاصفة تزول...

قال الليثي ببسمته الواثقة التي تربكني بشكل غريب:

- «أظن أننا رأينا كل شيء يا باشا.. هل يمكن أن نكف عن هذه الجولة؟»

فجأة سمعنا صوت جلبة.. كأن هناك من يتشاجر أو يصيح. بسيوني!...

وقبل أن أفهم ما يحدث كان الليثي قد أطلق سبة واندفع يسبقني نحو مصدر الضوضاء، لأجد نفسي واقفًا في الظلام.. هرعت أحاول اللحاق به لكن خطواتي لا تألف هذا المكان، خاصة وهو يحمل الكلوب، والضوء الرمادي ليس كافيًا.. تعثرت وسقطت على الأرض..

باو!!

دوى صوت الطلقة في الصمت..

لقد هوجم بسيوني!.. هوجم بسيوني وأطلق الرصاص من مسدسه.. لا شك في هذا..
تباً! ... من فعل ذلك؟
نهضت ممسكاً بمسدسي وفي حالة من التوتر كظهر قط مذعور.. لو لمسني أحد لأفرغت
المسدس فيه بلا تردد..
أنا عاجز.. أنا ضعيف.. أنا واهن.. أنا في الظلام وحدي، والمسدس لا جدوى منه..
هل هناك من يصرخ؟..
فجأة رأيت الليثي من جديد وكان يحمل الكلوب في يده.. الضوء يشع منه لكن لا أرى من وجهه
إلا جانبه.. تأثير مخيف يذكرك بلوحات رمبرانت. لاحظ حالة الجنون الوقتي التي أمر بها فراح
يكلمني كأنه يكلم طفلاً:
- «هلم!.. اهدأ.. لا شيء.. لم يحدث شيء..»
تراجعت للخلف فارتطمت بشيء يبدو أنه مقعد.. ووجدت نفسي جالساً وأنا مستمر في
التصويب نحوه.
- «اهدأ يا باشا.. بشرفي كل شيء على ما يرام.. الأخ الذي يرافقك فقد أعصابه وحسب أن
أولادي يريدون مهاجمته. أطلق رصاصة للتهديد في الهواء.. أنت تعرف كما أعرف أنه محدود
الذكاء»
- «وأين هو؟.. أين هو؟»
كنت أسأله بنبرة هستيرية تتعالى.. كأنني سأنتهي بالصراخ والبكاء على المسرح، لكن الوغد كان
آية في الهدوء.. قال لي بصوت منوم قليلاً:
- «اهدأ قليلاً.. أقسم بشرفي أنه بخير.. سأحكي لك حكاية..»
ظلمت حيث أنا ألثت وأصغى، فقال في الظلام:
- «أعتقد أن الشيخ حكى لك.. حكى لك كل شيء عن لغز أسرتنا، وكيف يظل طيف الميت يحوم
في المكان لعدة ساعات.. يحدث هذا بالذات في الليالي العاصفة. وهذه الليلة الرهيبة قرر أبو
زبيدة أن الوقت مناسب ليتخلص مني.. إن أسرة (السنهوري) تريد الخلاص مني بسبب مشكلة
حدود الأرض تلك.. أخبرني أحد المستأجرين بذلك فقد رآه يحوم حول العزبة لكن العاصفة
تجعل تبين أي شيء مستحيلاً، وكنت أنا من اتصل بالشرطة.. لم يكن هناك إطلاق رصاص لكني
قلت ذلك في البلاغ لأضمن أن يصل رجال الشرطة.. ما حدث بعد ذلك - وما فهمته مؤخراً -
هو أن أبا زبيدة تسلل للدار واصطدم بالشيخ فقتله. كان من السهل عليه أن يخنق عنقه
النحيل. ألقى بجثته جوار حوض الغسيل الموجود في ركن المكان، وأنت تعرف ان المطبخ واسع
جداً مع الظلام؛ لهذا لم نر الجثة.. وما لم يعرفه أبو زبيدة هو أن الشيخ من أسرتنا!»
نظرت له في ذهول غير مصدق، فالتمعت أسنانه البيضاء في الظلام:
- «نعم.. هو من الفرع المعدم من الأسرة، وهو يعيش معنا كخادم لكنه يمت لنا بصلة القربى.
الآن يمكنك فهم لماذا ظل الشيخ موجوداً طيلة الأمسية..»
قلت وانا أرتجف كورقة:
- «لكنكم قدمتم لنا الطعام..»
قال وهو يهتز بضحكة مكتومة:
- «بل هو الذي قدم الطعام.. لم يدخل الحريم المطبخ!»
- «هل تعني أن الذي اندس معي تحت الأغشية... هو..»
- «فسر الأمر كما تشاء.. ربما كان حائراً لا يعرف حقاً إن كان ميتاً أم لا.. وكان يريد أن يشرح

لك.. ربما كان يريد التسلية.. لا يهم.. دعنا نعد لسياق قصتنا.. لقد اختبأ أبو زبيدة في تلك الغرفة ينتظر أن يظفر بي، وهنا فوجئ بذلك الشيخ ينقض عليه مسلحاً بسكين.. ربما كان الشيخ قد اكتسب قوة لحظية من الغضب، وربما لعبت المفاجأة دوراً.. عندما يهاجمك شخص قتلته فعلاً في الظلام فأنت لا تقاوم كثيراً.. لقد مزق الشيخ أبا زبيدة وغطى جثته كيفما اتفق ثم غادر المكان..»

- «ثم جاء يحكي لي القصة مع حذف التفاصيل..»

- «الصرخة التي أيقظتك من النوم كانت صرختي عندما وجدت الجثة.. وفهمت كل شيء.. والآن أنت عرفت ما حدث يا باشا.. القاتل قتل ثم قتله القاتل.. طبعاً لا يمكنك كتابة هذا في تقريرك، لهذا أرى أن تستغل الساعة القادمة في ترتيب قصة تقبلها الحكومة.. لا تفتش عن حقيقة أخرى فلا حقيقة سوى هذه..»

قلت ومخي يوشك على الانفجار من كثرة ما أريد السؤال عنه:

- «وأين بسيوني؟.. بسيوني؟»

- «بخير.. قلت لك بشرفي إنه بخير.. الآن أرجو أن تهدأ وتعيد المسدس ودعنا نعد للأسرة..» نهضت مترنحاً..

وقفت على الباب، فنظر لي الليثي باسمًا وناولني الكلوب الذي لا يكف عن الأزيز وقال:

- «أرجو أن تحمله أنت.. إن ذراعي ليست على ما يرام»

نظرت له بشك.. ثم حملت الكلوب ومشيت في الممر متجهاً للغرفة التي كان فيها بسيوني والأسرة.. لا أعرف متى لاحظت أنه لا يمشي خلفي.. ذاب في الظلام.. هذا الزحام في الغرفة..

لماذا تصرخ المرأتان وتلطمان؟ ... لماذا يبكي (سامي) و(مصطفى)؟ ... من الراقد وسط هذه المجموعة؟....

بسيوني يثب نحوي في هستيريا وهو يلوح بمسدسه ويصرخ:

- «لم أتعلم ذلك.. أقسم بالله! ... لقد أفزعوني.. حسبت أنهم سينقضون علي.. أخرجت المسدس أهددهم، هنا فوجئت بالرجل الكبير يعود للحجرة ويحاول نزع المسدس مني.. لا أعرف كيف انطلقت رصاصة من المسدس وأصابته.. لم أتعلم ذلك!!»
الآن أمكنني أن أرى ذلك الراقد على الأرض وسط الباكين..

الليثي الكبير.. وثمة ثقب في جبهته..

لن أسأل عن ذلك الذي جاءني وحكى لي القصة وهو يحمل الكلوب... لم يكن الليثي.. لم يكن هو بالضبط....

رباه!.. أنا أكره مهنتي... أكرهها فعلاً!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت)

كلام عجائز

هذا هو التفسير وقد أمنت أُمي عليه.. كل النسوة يؤمنن بهذا.. لكن الأيام مرت ومعها تكرر ذلك الموقف عدة مرات.. كلما مات واحد من أقاربي لحق به اثنان في فترة لا تتجاوز ثلاثة أشهر.. كان هذا غريبًا يتجاوز احتمالات الصدفة.. وسألت الناس الآخرين فوجدت أن هذه الظاهرة تكرر عندهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هؤلاء النسوة اللاتي أكل عليهن الدهر وشرب، واللاتي لا يفعلن أي شيء ذي نفع لأحد إلا الجلوس ومضغ (الدرادير) والكلام عن الموتى الذين ينتظرن اللحاق بهم.. في الغرب يلتفن حول المدفأة في ليالي الشتاء الثلجية يحكن كنزات صوفية، وعندنا يلتفن في حوش المقابر يأكلن الفطير ويعرفن كل ميت بالاسم..

- «التربة لما تنفتح ما تقفلش إلا على تلاته»

هكذا قالت أم (عبد الله).. وأم (عبد الله) -إن كنت لا تعرف- هي عجوز أبدية تقيم في دارنا ولا تفعل أي شيء على الإطلاق.. لا أعرف متى ولماذا جاءت.. أعتقد أن أبي رحمه الله تسلم البيت وهي عهدة فيه فلم يسأل عن دورها أو ما تفعله. فقط أُمي كانت تعتبرها مزيجا من الخادمة والمربية والصديقة.. أما السؤال عن (عبد الله) نفسه فسؤال لم يخطر ببال أحد.. تصور أنني تذكرت هذا الآن؟!.. أم (عبد الله) من دون (عبد الله) أمر عسير التصور نوعًا لكنه حدث..

أم (عبد الله) تخرج في الصباح.. تزور أضرحة أولياء الله التي لا يعرفها مسئولو وزارة الثقافة أنفسهم.. إنها تعرف أماكن أضرحة لم يزرها أحد منذ كانت الفسطاط عاصمة مصر.. كيف تذهب هناك؟!.. لا أحد يعرف.. كيف تعود وهي لا ترى أبعد من مترين؟ ... لا أحد يعرف.. المهم أنها تعود لتجلس في المطبخ جوار الباب وتمضغ المعسل الذي تبتاعه وتضعه مع كل ثرواتها في سلة خوصية.. أم (عبد الله) تمضغ المعسل.. تبصقه في منديل قماشي عملاق.. أم (عبد الله) تحكي لنا نحن أطفال البيت قصصًا مرعبة عن الغيلان والعفاريت..

(أم عبد الله) تعرف كل شيء عن الربط والعمل الذي يكتب على جلد قرموط.. تعرف الأعمال التي يدسونها في فم الموتى ويخيطونها.. تعرف كل شيء عن خاتم سليمان وطاقيّة الإخفاء.. أم (عبد الله) تعرف كيف يتم الاتصال بالجان. وتعرف العلامات الأربع التي تميز الملبوسين.. أم (عبد الله) تعرف الأدعية السحرية التي تقال عند (طشة الملوخية) تلك الأدعية التي تحميها من (الترقيد) كما أنها تشهق كأنها تموت غرقًا، وتقول إن هذه الشهقة سر نجاح الملوخية.. حينما سألتها عما تقوله لحظة (الطشة) قالت:

- «النبى فات عليا.. قاللى اتشاهدي يا وليه.. على القليل وعلى الشويه»

ضحكت كثيرًا، وإن بدا لي هذا سخيًا إن لم يكن فيه إساءة أدب. فالرسول لن يقول (ياوليه) وبالتأكيد لديه أشياء أكثر أهمية من ملوخية أم (عبد الله)، لكنه تدين العامة الذي يمزج الدين بالخرافات ويصدقها.. بل ربما يجعلها دينًا موازيًا..

أم (عبد الله) تعرف كل شيء عن (خراط البنات).. الذي كنت أتخيله رجلًا يحمل ما يشبه مسن السكاكين ويمر على البيوت ليسأل: «عندكم بنت في سن المراهقة؟».. فإذا كان الأمر كذلك أدخله أهل البيت وأحضروا له البنت العجفاء القبيحة، وتركوه يحسن في شكلها بضعة أيام مع التكفل بوجباته الثلاث.. في النهاية تخرج الفتاة أجمل من (سعاد حسني) ذاتها وتقول العجائز

إن (خراط البنات خرطها).. باختصار تعرف أم (عبد الله) كل ما من شأنه أن يجعلها عظيمة الأهمية بالنسبة للأطفال مرهوبة الجانب بالنسبة لأمي..

مقولة التربة التي لا تغلق إلا بعد ثلاثة سمعتها منها كثيرًا وبدأت لي هي السخف بعينه.. كبرت وصرت شابًا لكن العجوز لم تمت.. ظلت كما هي تمضغ التبغ وتزور أولياء الله الصالحين، وأحيانًا تلوح لسيدنا (الخضر) عندما يمر بها حيث جلست على باب المطبخ.. مات أبي وأنا في سن السابعة عشرة.. ثم ماتت عمتي بعده بشهر واحد.. وماتت ابنة عمي بعد هذا بشهرين..

كانت تجربة قاسية كما لا يخفى عليك.. وقد تكلمنا كثيرًا عن الحزن الذي عصفت بعمتي بعد فقد أخيها، والفتاة التي ماتت همًا لفقد عمتها..

لكن (الولية) الجالسة كغراب اليبين على باب المطبخ قالت وهي تمضغ التبغ: - «التربة لما تنفتح ما تقفلش إلا على تلاته»

عدت للعجوز التي عادت من زيارتها لضريح (سيدي أبو سليم) فجلست جوارها عند باب المطبخ، وسألتهما عن يكون (سيدي أبو سليم) هذا فأنا لم أسمع عنه قط.. نظرت للسماء نظرة درامية وراحت تردد: مدد. مدد يا سيدي (أبو سليم)..

غلى الدم في عروقي.. هذه المرأة لن تكف عن إثارة جنوني حتى يذهب أحدنا للقبر.. سألتها عن قصة التربة التي تظل مفتوحة فقالت في صبر كأنها تكلم معنوها:

- «يغلق الحانوتي التربة، لكنها تنفتح بعد رحيله.. هذه هي العلامة..»

ثم أخرجت قبضة من المعسل دستها في فمها، وسألته في نوع من الدلال:

- «أليس عندكم شيخ بابوني هنا؟..»

هزرت رأسي أن ليس عندنا.. فطلبت كوبًا من الشاي باللبن على أن أذيب فيه ملعقة سمن بلدي كاملة لتغذيها.. لما بدا الاشمئزاز على وجهي قالت:

- «عندما تزوجت أرغموني على شرب كوب كامل من السمن البلدي لأصير ناعمة كالحرير.. أنتم مسمومون.. لم يعد في جيلكم صحة»

هذه نقطة أوافقها عليها كثيرًا.. وقد أعددت لها ما طلبت ثم قررت أن أتوجه لمقبرة الأسرة.. بحثت حتى وجدت (فرج) الحانوتي جالسًا يعد لنفسه بعض الشاي.. إنه نموذج فريد يستحق قصة كاملة أخرى.. هو لا يفارق من الحشيش ويمكنك أن ترى في عينيه مزارع القنب الهندي والماريجوانا والبانجو والأفيون منذ عرف الإنسان المخدرات.. لكن الحشيش يهب العجائز صبرًا و(طوله بال) عجيبين، مما يختلف عن الهياج المؤذي الذي تراه في صغار السن من المدمنين.. كان قريب لي قد مات منذ أسبوعين لذا تذكرني فرج على الفور..

حكيت له القصة كاملة فراح يهز رأسه موافقًا وحكى لي ألف قصة عن أشخاص ارتبطوا بهذا العهد الثلاثي المخيف.. سألته إن كانت التربة تظل مفتوحة فعلاً فهز رأسه في غموض ثم قال:

- «هذه أشياء نلاحظها لكن لا نتكلم عنها.. فقط نحن نعيد غلقها وندعو الله أن يستمر الحال هكذا..»

شعرت بتوتر.. القصة مقلقة فعلاً... لكن منذ متى تؤخذ الشهادات الدقيقة من أفواه الحشاشين؟ ... هذه شهادة نصفها من أم (عبد الله) صديقة خراط البنات ونصفها من عم (فرج) الذي يصلح محرقة للحشيش لدى وزارة الداخلية.. لا يمكن للقصة أن تبلغ درجة الدقة العلمية التي تسمح بنشرها في مجلة (ساينس) العالمية.

بعد أسبوعين حدث المحذور وتوفي ابن عمي..

وقفت في ساعة الدفن أفرغ في منديلي مزيجًا من الدموع والمخاط والغبار.. وأنا أرى عم (فرج) ينهي تفاصيل غلق التربة..

ظل الخاطر المروع يؤرقني طيلة الليل.. اثنان.. من سيكون الثالث؟ ... أمي؟ .. أختي؟ .. أخي؟ ... أنا؟ .. أفضل أن أكون أنا طبعًا لكن هذا صعب.. صحتي ممتازة ولست من هواة الحوادث ولا يوجد قاتل يطلب رأسي من الصعيد من اجل تار بايت.. من الثالث؟ ... هذه خرافة لكنها وترت حياتي.. الصدفة التي تتكرر بهذا الإفراط تتحول إلى قاعدة.. أمي؟ .. أختي؟ .. أخي؟ ... أنا؟ .. يجب أن أعرف.. يجب..

هكذا حزمت أمري ذات صباح، واتجهت إلى المقابر.. كان (فرج) جالسًا في حجرته وقد رفع صوت المذياع ورائحة الحشيش اللعينة تتصاعد من غرفته.. اتجهت لمقبرة أسرتنا حيث غاب أكثر من أحببت.. رحت أدور حول المكان في تودة. نباتات صبار عطشى ونباتات من ذلك الطراز الذي يلتصق بالشوك في سروالك.. ورائحة عطن و.. هناك فتحة.. لا شك في هذا.. التربة التي رأيته مغلقة منذ أيام بإحكام مفتوحة الآن.. أطرقت أصغي.. هناك صوت بالداخل.. صوت حركة.. صوت كلام.. من قال إن هذه أمور خارقة للطبيعة؟.. هناك لصوص مقابر منذ عهد الملكة (حتب حرس) حتى اليوم.. هذا شيء مفهوم وإلا فمن أين يأتي طلبه الطب بالعظام؟

أشعلت قداحتي ودنوت من الفتحة.. كانت تسمح بدخول إنسان فلم تصنعها الفئران إذن.. نظرت حولي فبدا لي النهار مطمئنًا، إن هي إلا نظرة ليطمئن قلبي.. أدخلت رأسي أكثر.. ثم زحفت بجسدي كله للداخل لأتبين الأجساد المترابطة النخرة.. في هذه اللحظة مر شيء على يدي فأجفلت.. للمرة الأولى أعتقد أنني فقدت وعيي.. أنا اعرف أنني فقدت وعيي لأنني أفقت لأجد أنني ملقى على الأرض الرطبة والظلام يعم المكان.. هذا دليل مرور فترة زمنية كما يفعلون في السينما..

فأر مر على يدي فجعل قلبي يتوقف لثوان.. هذا هو الاحتمال الأرجح.. لكن أين الباب؟.. هذا بصيص نور من الخارج.. إنه المدخل الذي دخلت منه.. زحفت نحوه وأنا لا أفهم ما يجري.. ثم تبينت أن هذه طبقة من القرميد وعجين أسمنت طري.. فوق مستوى الطبقة التي ترتفع ببطء أرى وجه (فرج) وهو يواصل مهمته بملامحه التي أفقدها الحشيش القدرة على التعبير.. صحت في هستيريا:

- «افتح يا فرج! ... لقد سجنت بالداخل!»

غمغم ببعض الأدعية دون أن ينظر لي وقال:

- «كلهم يقول هذا.. كلهم.. لكني أغلق الفتحة في كل مرة..»

يقولها والحاجز يرتفع ليختفي وجهه تمامًا عني..

التربة لا تنغلق إلا لو ابتلعت ثلاثة! ... قالتها أم (عبد الله) ... لا يهم إن كان أحدهم حيًا يرزق فالعدد هو المهم! ...

والآن بعد أن جف الأسمنت وساد الظلام أنهيت كتابة هذه الرسالة على ضوء القداحة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة.. معي قلم وورقة.. أنت تعرف أنني أحمل قلمًا دائمًا.. لن اعتذر عن سوء الخط الذي كتبت به هذه القصة، فأنت تفهم وتقدر كل شيء الآن.. أليس كذلك؟

(تمت)

(تم الكتاب بحمد الله)

لست وحدك، مجموعة قصصية من أدب الرعب.. تتناول الماورائيات، هالات الأشباح،
شياطين تتكلم، أحلام متداخلة، مجانين ثاروا على أطبائهم، والسفر عبر الزمن، هناك لمحات
نفسية وعاطفية في بعض القصص.
د. أحمد خالد توفيق



[لينك الانضمام الى الجروب - Group Link](#)

Link – لينك القناة

الفهرس:

[تيك توك!](#)

[كراهيّة](#)

[شخص مهم](#)

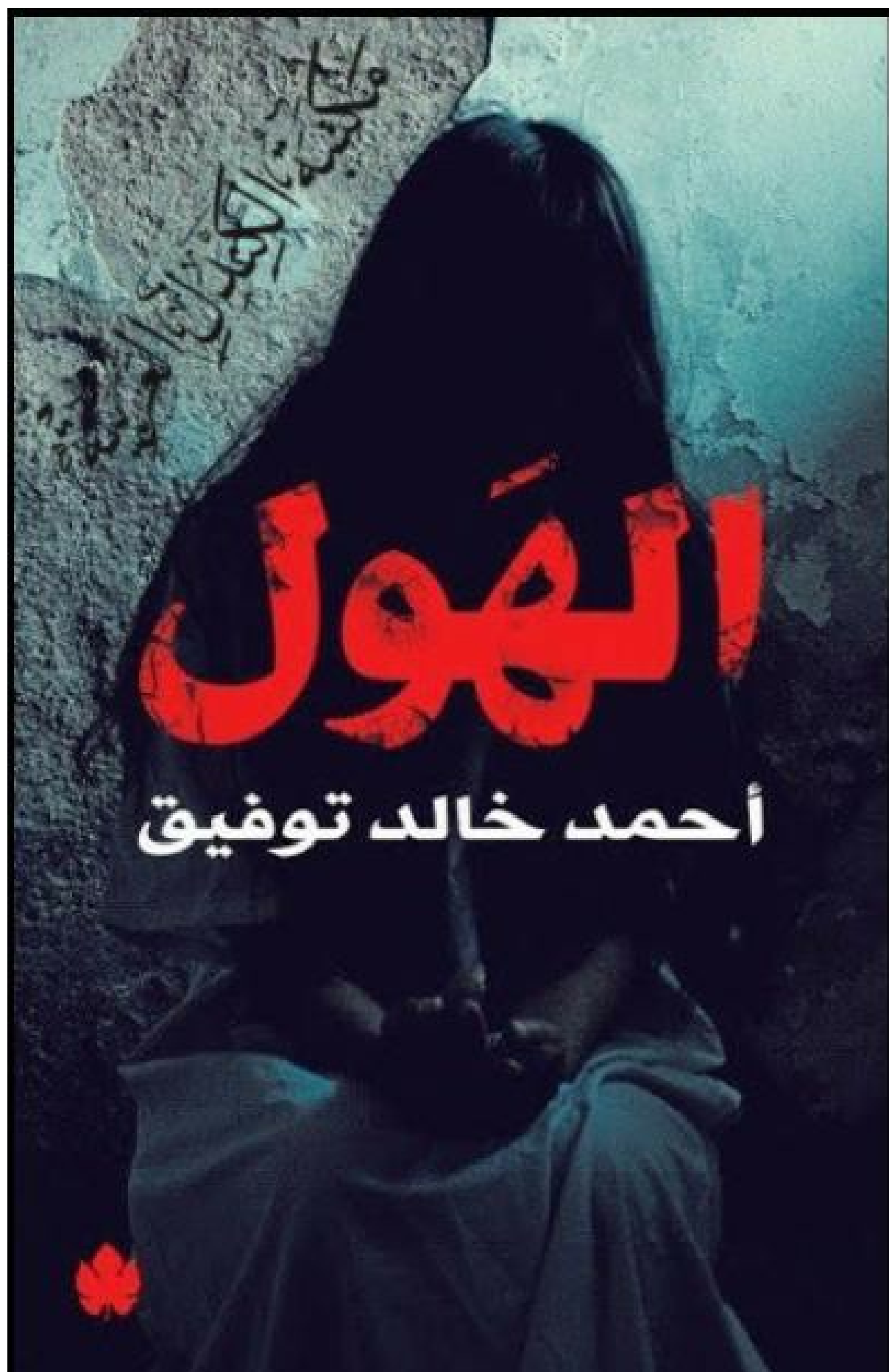
[قصة هيام](#)

[مصحّة الدكتور أنطوان](#)

[لست وحدك](#)

[ليلة شتاء](#)

[كلام عجائز](#)



أحمد خالد توفيق

الهول

مجموعة قصصية



لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر والتوزيع: www.facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © أحمد خالد توفيق ٢٠١٤

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر باستثناء في حالة الاقتباسات المختصرة في الدراسات النقدية أو المراجعات.

توفيق، أحمد خالد.

الهول / أحمد خالد توفيق – القاهرة: الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.

٢٤٨ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٤٦٧٠٦٤

١- القصص العربية القصيرة.

أ – العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٧٧٤٢ / ٢٠١٤

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد مراد

زوزانكا

راح القس يُهدّئ الواقفين.. كلمات كهذه لا تُقال لأم تقف أمام جثة ابنتها.. إن الناس يتصرفون بقسوة عندما يتعلق الأمر بمصّاصي الدماء.. هل قال «مصّاصي دماء»؟ نعم.. فهو في قرارة نفسه كان يدرك أن هذه هي الحقيقة على الأرجح.

على كل حال هو لا يرى مانعًا من ملء فمها بالثوم ووضع قطعتي العملة.. سيتم هذا سرًّا ولن تراه الأم لأنه سيتم قبل نزول التابوت.

يقع البيت في شارع «جايزكالنس».. يمكنك أن ترى نهر «جاوجا» على بُعد أمتار.
ليس شارعًا بالضبط.. بل هو طريق مرصوف بالحجارة الصغيرة على غرار شوارع كثيرة
في «لاتفيا».

المكان والوجوه والجو العام يُذكرك بالحرب العالمية الثانية، حتى تتوقع أن ترى دبابات
«البانزر» الألمانية تبرز لك عند خط الأفق.

الوجوه كالحة والابتسامة نادرة.. هناك جو عام من الخشونة وافتقار لروح الدعابة، لكن لا
ننكر أن النساء فانتات.. يخيل إليّ أحيانًا أن الصورة المُثلى للنساء خُلقت هنا، ثم ارتحل
بعضهن للشرق فاصفر لونهن، وارتحل بعضهن إلى أفريقيا حيث أحرقت الشمس بشرتهن
فاسودّت، بعضهن رحلن إلى أوروبا فازددن شحوبًا، المهم أن الأنثى الحقيقية الجديرة بالمعاجم
تعيش هنا.

عند مدخل الدار، يمكنك ساعة الغروب أن ترى العجوز «هيلموتس بولوديس» يجلس على
كرسيه الهزاز، وهو يتسلى بالسكين التي يحفر بها قطعة من الخشب.. يمكنك أن تدرك من
شحوب وجهه أنه لا يخرج كثيرًا. الحاجبان الكثان والعينان الغائرتان.

«هيلموتس» ليس ودودًا على الإطلاق.. ليس له أصدقاء ولا يُرحّب بالزوّار، لكنه يصنع
نبيذًا جيدًا في قبو داره، ويبدو أن هذا هو دخله الوحيد.

سوف ترى من بعيد زوجته «فانيا» وهي تحمل طبقًا مليئًا بالحبوب وتنتجه إلى الفناء
الخلفي لتُطعم الدجاج.. عجوز تضع على رأسها إشاربًا مُزركشًا.. يمكنك أن تعرف هذا الوجه
على الفور لأنك تراه في الصور.

هناك ذلك الشاب الخشن طويل اللحية اسمه «ألكسيس»، ابن «هيلموتس» الأكبر.. إنه يقف
مستندًا إلى الجدار ويدخن لفافة تبغ خبيثة الرائحة.. لا بد أن «لاتفيا» لا تُنتج تبغًا جيدًا.

الفتى النحيل الذي يحمل طعامًا للخنازير في الفناء الخلفي هو «جاتيس»، ابنه الأوسط..
شاب وسيم كما ترى، ويروق للفتيات كثيرًا.

هناك فتى مراهق يمشي في الشارع قاصدًا شراء خبز، إنه الابن الأصغر «آرتور».

أما الفتاة رائعة الجمال التي تظهر من حين لآخر فهي «ناتاليا»، ابنة الرجل.

إن الأسرة متماسكة جدًا.. الشباب لهم بعض الأصدقاء، لكنهم أميل إلى الانطواء عامة.. هذه
الأسرة تزرع وتربي معظم طعامها.. وعند المساء ربما يذهب اثنان من الإخوة في جولات
غامضة، ربما قرب النهر، وربما في البنايات الخربة الواقعة على بُعد.

لا أحد يعرف من أين يأتي دخل أسرة «هيلموتس بولوديس» العجوز، لكنهم كانوا هنا دومًا
وسوف يبقون.

في الحقيقة، لا يحب معظم القرويين هذه الأسرة.. السبب هو التطيّر طبعًا.. لكن القس قال

لهم إنه لا ذنب لهؤلاء الأبرياء.

عندما مات أخو «بولوديس» العجوز، عم الأولاد، بعد أيام حدث فيضان واضطر الناس لفتح المقابر لإخراج التوابيت.. ما حدث هو أنهم وجدوا جثة العم وقد فُتحت ساقها.. هناك قدم تستقر في ركن التابوت.. هم يعرفون يقيناً أنهم لم يدفنوها بهذا الشكل.

القرويون تذكروا خرافاتهم، وتذكروا أن العم كان السابع في سلسلة إخوته الذكور.. وهكذا ازدادوا قلقاً، فلم يطمئنوا إلا عندما وضعوا قطعتين من الفضة على عيني الميت وحشوا فمه بالثوم.

المشكلة في هذه البلدان أن الصراع بين الكاثوليكية والأرثوذكسية كان عنيفاً، وهنا برزت مشكلة الجثث التي لا تتعفن تحت الثلج.. أتباع أحد المذاهب زعم أن الجثث لم تتعفن لأن أصحابها قديسون.. المذهب الآخر زعم أنهم لم يتعفنوا لأنهم مصاصو دماء!

لكننا لسنا في زمن حرق الساحرات، لهذا لم يحدث شيء للأسرة.. لم يصل الخبال بأحد أن يفترض أنهم مصاصو دماء، لكن كان هناك جو من عدم الاستلطاف.

لنفس السبب لم يتقدم أي شاب للحسنة «ناتاليا».. لا أحد يريد التورط بدخول هذه الأسرة. لكن بالطبع حاول الكثير من الشبان أن يعبثوا، لكنهم تلقوا علفة ساخنة من أخيها الخشن «ألكسيس».. إنه يمسك بالشباب فيجندله ويحلق أهدابه وحاجبيه.. يمكنك عند الصباح أن تدرك أن هذا شاب تحرش بـ«ناتاليا».

هكذا تمضي الحياة بلا تغيرات.

إلى أن ظهرت «زوزانكا».

«زوزانكا» اسم محبوب في «لاتفيا» كما لا بد أنك تعرف، وهو تنوع على اسم «سوزانا».. كان الجميع يُعجبون بـ«زوزانكا».

هي فتاة رقيقة لعوب قليلاً وشديدة الذكاء.. إن أمها فخور بها، لكنها قلقة عليها من «دونجوانات» البلدة.. ولكن «زوزانكا» «يقود خطأها غرور الصبا»، وتعتقد أنها قادرة على أي خطر وأي شخص.

الكل يُحب «زوزانكا» ويتودد إليها، خصوصاً عندما تمشي في سوق السمك متبخرة، وتسمع موسيقى تنبعث من مذياع ما، فتأتي بحركات راقصة خفيفة رشيقة، عندها يجن الشباب.

«زوزانكا» صاحبة العينين العميقتين.

«زوزانكا» ذات القدمين الدقيقتين.

غرور الصبا والثقة بالنفس يقودانها، لهذا في تلك الليلة السوداء عادت من عند صديقتها «ليلي إزرجاليس» في ساعة متأخرة، ولأنها مغرورة فضّلت أن تمشي عبر الغابة التي تقع خلف البنايات، وهي منطقة لا يجرو شباب على المضي فيها ليلاً.

لا تعرف متى ولا كيف شعرت بأن هناك من يقفوا أثرها.. جدت في المشي، ثم أدركت أن شابين يتبعانها في إصرار، التفتت للخلف فرأت الشابين «أندريه» و«ميخيلس».. هما مُعجبان بها جداً، وقد أدركت أن وجودهما هنا في الظلام ليس بريئاً.

أطلقت بعض السباب، والسباب صار صراخاً ثم استغاثت صريحة، وقد أدركت ما ينويان.. خارت قواها.. لقد تصرّفت بحماقة فعلاً.. إنهما ثملان تماماً.

المشكلة في هذا الظلام أنك لا ترى شيئاً تقريباً، وهم بعيدون عن أسماع الناس.

لا تعرف متى ولا كيف وجدت الشاب الأول يطير في الهواء، ارتطم ببعض الأشجار ثم سقط، ثم رأت الشاب الثاني يرتفع من عنقه ليسنده حامله إلى جذع شجرة، وكان الشاب مذعوراً توشك عيناه على مغادرة المحجرين.

سمعت من يقول في الظلام:

- أنزلني يا «جاتيس».. أنا أختنق.

ثم سمعت صوت «جاتيس» الشاب، ابن «هيلموتس» الأوسط، يقول:

- بوسعي أن أفتك بك يا وغد، ولن أدفع لأهلك دية!

ثم تركه يسقط أرضاً ووجه له ركلة أخيرة.

لم تُصَيِّق ما حدث ولا المعجزة التي أنقذتها.. بالنسبة إليها كادت ترى لـ«جاتيس» جناحي ملاك، ولا تعرف كيف تركت يدها الصغيرة تنام كعصفور صغير في كفه وهو يقودها خارج تلك الغابة، إلى حيث بيتها.

كانت هذه هي البذرة الأولى التي زرعت الحب في قلب «زوزانكا».

لم تستطع قط أن تنسى هذه الليلة، وكيف حط كالنسر على الفارين اللذين تحرّشا بها.

لم تسأل نفسها عن سبب تواجده في الغابة في تلك الليلة.. لم تسأل نفسها عن الكيفية التي رأى بها في الظلام الدامس ولا كيف سمع صرختها.. لم تسأل نفسها عن القوة الكاسحة التي قهر بها شابين ضخمين.

كان على «زوزانكا» أن تتعلّم الكثير.

* * *

شجرة الصفصاف شهدت على قصة الحب الوليدة.. نقش قلب لا بد حُفر بسكين، ولا بد أنه وجد من قبل الكون.. «جاتيس» والعزف على «الهارمونيكا».. الليل الزاحف على الغابة، ولكنها تعرف أنها معه.. يكتب الحب كلماته الأولى على العشب.

«جاتيس» يطمئن على بذرة الحب الأولى، يسقيها بكلمات ليست كأي كلمات. هل أنت ساحر؟ من أين تأتي بعبارات كهذه؟ عبارات تُشعرها بأنها ملكة وملاك في آن. ثم هاتان

العينان.. اللعنة على هاتين العينين.. إنهما قادرتان على غزو قارات كاملة.. قادرتان على غزو الصين.. قادرتان على ترويض الذئاب في «التايجا».. فكيف لا تقدران على قلب امرأة غض؟
«زوزانكا» صاحبة العينين العميقتين.

«زوزانكا» ذات القدمين الدقيقتين.

«زوزانكا» قد وقعت في حب «جاتيس» ابن «هيلموتس».

وجاء اليوم الذي رأت فيه «زوزانكا» الفتى وقبعته في يده.. يقف على بابها ويبتسم لأمها في خجل.. يقول إنه لا يقدر على العيش من غير «زوزانكا».. إنه يريد الزواج.

معه كانت أمه «فانيا» ترتدي ما خُيل إليها أنه ثياب أنيقة.. النتيجة أنها بدت كساحرة شريرة في قصة أطفال. كانت «زوزانكا» تعرف رأي أمها مقدماً، وتعرف أنها لن توافق، لا أحد يرتاح لـ«آل بولوديس» في ضاحية «لاتجاليا» كلها.. لكن ما حدث كان شبيهاً بالمعجزات.. كأنها عصا الساحر.

كانت جلسة طويلة في دارها، وتناولوا الكعك والنبیذ.. وفي النهاية أدركت بمعجزة أن أمها موافقة على الزواج. صحيح أنها لا تقدر على الاستغناء عن «زوزانكا»، لكن هذه سنة الحياة، والعريس لا يطلب دوطه.. لا يريد سوى «زوزانكا».. سوف تقيم الفتاة في بيت الأسرة.

* * *

كانت «زوزانكا» تتوقع أن يسبب هذا مشاكل مع خالها وعمها اللذين جاءا ليحضرا المفاوضات، لكن لم يبدُ أن هذا يسبب لهما مشكلة.. كأن الغيوم انشقت وجاء الأمر العلوي: «زوزانكا» لـ«جاتيس»، فليوافق الجميع.

النشوة في عين «جاتيس».. الرضا في عين أمه.

تقول «فانيا» وهي تلتهم بعض الكعك:

- لم أفكر قط في تزويجه، لكن الفتى صار مجنوناً.. لا يريد سوى الزواج من «زوزانكا».

لا تدري إلا وقد أقيم حفل زفاف بسيط في المرج الخلفي للكنيسة، وقد حضر عدد محدود من القوم لأن أحداً لا يحب هذه الأسرة.. من جاء جاء ليأكل.

على منضدة جلس «هيلموتس بولوديس» يقطع فخذاً من اللحم بالسكين، وهو مقطب كعادته.. هذا الرجل لا يضحك أبداً كما تعرف، لم يهنئ العروس ولم يقل لها شيئاً.

فقط عندما لم يكن هناك من ينظر إليها، دنا منها القس وقال همساً:

- أتمنى لك زيجة سعيدة.. لكن أرجو أن تكوني حذرة.

لم تفهم.. ما المقصود بالحدرة؟ فقال:

- لا تتدخل في شيء.. لا تتدخل فيما لا يعينك.. الزوجة الفضولية مكروهة في كل الأوساط

الاجتماعية وأنت ستقيمين معهم في دارهم.. الحقيقة أن لنا جميعاً أسئلتنا حول هذه الأسرة: لا نعرف من أين يكسبون، لماذا يعتزلون المجتمعات؟ قصة ذلك العم الذي تحركت قدمه إلى ركن التابوت.. بالطبع لن أثير ذعرك لكنهم كذلك لا يذهبون للكنيسة أبداً، إن غير المتدينين في كل مكان لكنني لا أثق بهم كما تعلمين.

هي سمعت كل كلمة، لكنها لم تصغ.. أنت تعرف الفارق بين الإصغاء والسماع كما كانوا يعلموننا في المدرسة.

وهكذا دخلت «زوزانكا» بيت «آل بولوديس».

* * *

الأشخاص الذين يختفون هم من ضواح بعيدة جداً.. لم يكن أحد يعرف عنهم الكثير، وبدا الكلام عنهم غامضاً متحذلقاً.. عندما تختفي فتاة شابة حسناء فأنت تفكر أولاً في أنها هربت.. هربت مع حبيب. عندما يختفي سكير مُسن فأنت تفكر في النهر.. هناك من يسقطون في النهر ولا يظهرون ثانية أبداً.

لم تهتم «زوزانكا» كثيراً بهذه القصص.

كانت غارقة في الحب وفي السعادة مع هذا الفتى الوسيم الظريف الذي صار لها.

كان رقيقاً وكان ودوداً، لكنها ظلت تشعر بأنها لم تخترق عالمه بعد، هناك منطقة مُحرمة لم تستطع أن تجتازها، وظلت تتسائل عما يوجد خلف هذه المنطقة.

كانت لهما غرفة صغيرة في ركن الدار، تطل على الفناء الخلفي حيث يمرح الدجاج والخنازير، وقد حرصت على أن تزين النافذة بالأزهار وتضع ورقاً ملوناً مزركشاً قامت بقصه.. المحاولة غير المكلفة لجعل الحياة أجمل.

كانت تخرج لتقف في الفناء الخلفي تداعب الدجاج أو تعابث قطة يتصافد أنها هناك.. بينما يطل «جاتيس» من النافذة الصغيرة عليها وقد أراح ذقنه على ساعديه القويين.

بعد لحظات تلحق بها «ناتاليا» وهي تحمل المزيد من طعام الدجاج.. «ناتاليا» جميلة جداً لكنها منغلقة.. هل تحمل شيئاً من الحسد لأنه لا يوجد عرسان يطلبون يدها على الإطلاق؟ لديها نادٍ من المعجبين لكن لا يوجد خطّاب.

حموها ليس ودوداً ولا تراه تقريباً إلا وقت الغداء.. نفس الكلام ينطبق على «ألكسيس» الأخ الأكبر، إنه قريب جداً من أبيه ولهما نفس الطباع الذنبية المتفردة.

كانت تعرف يقيناً أن «آرتور» و«ألكسيس» يخرجان ليلاً.

كانت تقف في الفناء ذات مرة والظلام دامس، فاستطاعت أن ترى الأخوين ينسلان خارج البيت، ثم أدركت أن هذا يتكرر كل ليلة.. إلى أين؟ لو كانا يلهوان ويعبثان لعرفت، ثم إن المرء لا يعربد بصحبة أخيه، على قدر علمي أنا، لم يفعل أحد هذا سوى ياسين وكمال بطلي ثلاثية نجيب محفوظ.

لم ترَ أحدًا يُصلي في البيت، لكن هناك غرفة صغيرة بها ما يشبه المحراب، وفيها صليب، أغرب صليب رأيته في حياتها لأنه أقرب إلى حرف «T» المقلوب.. لا تذكر كذلك أنها رأت من يُصلي في هذا المحراب الضيق.

كانت تعرف كذلك أن هناك قبوًا.. هناك باب خشبي مغلق على الدوام، وعليه قفل غليظ، لكنها تعرف أن حماها يهبط في هذا القبو كثيرًا.

خطر لها أن الأسرة تصنع النبيذ، فلا بد أن الأب العجوز يقطر الخمر هناك، لا بد أن المشهد عبارة عن براميل عملاقة على الجانبين، لا بد من فئران كذلك.

هناك ملاحظة أخرى غريبة: هذه الأسرة لا تستعمل الثوم أبدًا.. هناك وصفات طعام «لاتفية» كثيرة تعتمد على الثوم بشدة لكنهم لا يستعملونه أبدًا.. ويقال إنهم مصابون بحساسية بالغة نحوه.

في الحقيقة كانت حياتها على ما يُرام، لا علاقة لها سوى بزوجها الحبيب، ولا أحد يضايقها من الأسرة.

ما كان أغناها عن محاولة الفهم، ما كان أغناها عن محاولة التسلل للقبو، لكنك تعرف متلازمة الضحية الغبية التي تميز أفلام الرعب.

كان لا بد أن تفعل ذلك بعد حادث الفجر، وما رأيته عندما عاد «آرتور» و«ألكسيس».

* * *

ظل سكان «لاتفيا» يمثلون حالة وحدهم بالنسبة إلى أوروبا كلها.. كانت أوروبا كلها تنبذ الوثنية وتعتنق المسيحية.. راحت حصون الوثنية تنهار أمام زحف الصليب.. وكانت المسيحية تضم لها معظم الأعياد الوثنية القديمة لتجعلها ذات طابع مسيحي.. تذكر أن «الهالوين» كان ليلة لجميع الشياطين فصار ليلة جميع القديسين، و«بان» إله المراعي الذي يشبه التيس حوّله المسيحية إلى الشيطان كما نتخلله ونراه في الرسوم.. لكن المبشرين الذين وصلوا عبر النهر إلى «لاتفيا» كانت أمامهم مهمة شاقة جدًا.. لم يكن أهل «لاتفيا» مستعدين لقبول المسيحية بسهولة، احتاج الأمر إلى جيش من الصليبيين الألمان ليرغموا اللاتفيين على اعتناق المسيحية.

تُرى هل اعتنقها الجميع حقًا؟

* * *

هناك في حانة البلدة القريبة تمدد الجسد.

يقف حشد من الأهالي مطرقين وقد نزعوا قبعاتهم، وكانت هناك أكثر من امرأة عجوز تضرب صدرها بقبضتيها.. لقد كان المصاب فادحًا.

هناك على المنضدة تمددت الجثة.. جثة الشابة «إنجونا بروكا».. تبدو مثل حورية ماء ماتت

وقذفها المد على الشط.. صورة للجمال النائم.. يصعب أن تصدق أنها ميتة، والأسوأ أن ترى كيف تمزق عنقها بشراسة.

هذه المرة لم تختفِ الفتاة تاركة وراءها عشرات الأسئلة، مع إشاعات عن فرارها مع شاب وسيم.. هذه المرة لم تختفِ.. هذه المرة وجدها صبية يلعبون تحت الجسر قرب النهر، لو لم يجدوها لقالوا إنه اختفاء غامض آخر.

قال «القومسيير» وهو يصفق بيديه:

- هلم.. لا أحد يقف هناك سوى أقاربها.. هذا ليس سيرگا.

لكن أحدًا لم يبتعد، ودنا منه «فكتورس ألكسنيس» ووضع يده الغليظة القوية على كتفه كأنه يداعب طفلًا، وقال وهو يرسم على وجهه ضحكة صفراء:

- عزيزي «القومسيير»، ألم تفهم بعد؟ هذه الجثة تدل على أن مخاوفنا حقيقية.. لسنا مجموعة من البلهاء المتطيرين.

رسم القس علامة الصليب، وقال:

- هناك تفسير منطقي يا «فكتورس».. ليس الأمر كما تظن.. هذه خزعبلات.

قال «فكتورس»:

- هناك مصاص دماء يا أبت.. من اختفوا قتلهم مصاص دماء.. لقد أشرقت شمس الحقيقة فلم يرها الحمقى والعميان.. عنق الفتاة ممزق بوضوح.

ثم صاح بلهجة أمرة:

- عندما ندفن هذه الفتاة، فعلينا أن نتيقن أنها لن تنهض ثانية لتفتك بأطفالنا.. سنحشو فمها بالثوم ونضع عملتين فضيتين على عينيها.

قال رجل مُسن من الواقفين:

- كنا في زمني نقطع الرأس ونغرس وتدًا في الصدر!

هنا انقضت عليه امرأة مسنة ترتدي السواد، فوجهت له لكمة قوية في صدره، ثم صاحت كأنها نمر مفترس:

- فليدن أحدكم من ابنتي ولسوف أنتزع قلبه بأظفاري!

راح القس يُهدئ الواقفين.. كلمات كهذه لا تُقال لأم تقف أمام جثة ابنتها.. إن الناس يتصرفون بقسوة عندما يتعلق الأمر بمصاصي الدماء.. هل قال «مصاصي دماء»؟ نعم.. فهو في قرارة نفسه كان يدرك أن هذه هي الحقيقة على الأرجح.

على كل حال هو لا يرى مانعًا من ملء فمها بالثوم ووضع قطعتي العملة.. سيتم هذا سرًا ولن تراه الأم لأنه سيتم قبل نزول التابوت.

المشكلة الأخرى هي أنه صار على يقين من وجود مصّاص دماء، وهذا المسخ سوف يجلب الوباء للمنطقة. كانت لديه نسخة من كتاب «مصّاص الدماء: أصله وفصله» الذي كتبه «مونتاج سومرز» عام ١٩٢٨، وهو مترجم للغة يستطيع قراءتها.. كان يؤمن أنه كلام فارغ، لكنه اليوم يريد أن يطالعه من جديد.

* * *

كان «جاتيس» نائمًا يغط، وكان الطقس خانقًا.

شعرت «زوزانكا» بأنها عاجزة عن النوم.. نهضت واتجهت إلى خارج البيت واستندت على الشرفة التي تطل على الشارع حيث يجلس «هيلموتس بولوديس» وقت الغروب.. الآن ترى أن الظلام دامس وهي لا ترى شيئًا تقريبًا.. بدأ الفجر يقترب، وتلَوّن الأفق الشرقي بلون أزرق كأنه حبر سكبته أحدهم في إناء ماء.. بدأ اللون يتزايد، وسمعت أكثر من ديك يصيح من بعيد.. شعرت بقشعريرة... يجب أن تعود الآن.

هنا رأت شبحين قادمين من بعيد.. أدركت على الفور أنهما «آرتور» و«ألكسيس».. يمشيان ببطء شديد، فما السبب؟ أمعنت النظر فأدركت أنهما يحملان شيئًا ثقيلًا.. هرعت إلى داخل البيت وتوارت أسفل السلم لتراقب.. من هنا كانت ترى ولا ترى.. سمعت أنفاس ولهات الرجلين وهما يحملان هذا الشيء.. دققت النظر أكثر فرأت أنه شيء ضخم، أقرب إلى جسد.. لا تستطيع التدقيق في الضوء الشاحب.

- تعال يا «ألكسي».. ساعدني.

يتقدمان نحو باب القبو الخشبي، يفتحانه ثم يدلّفان للداخل.. بعد قليل رأتهما يغادران المكان.. هل هذا دم على وجه «آرتور»؟ نعم هو كذلك، وهو ليس دمه كذلك.

إنهما يرحلان.. يقصدان غرفتهما في مؤخرة الدار.

عندما عادت إلى زوجها النائم كان رأسها يعج بالأسئلة.. هناك سر يحيط بهذه الأسرة، والمصيبة أنها صارت جزءًا منها.. هل يحق لها أن تعرف؟ قال لها القس يوم زواجهما: «لا تتدخل في شيء، لا تتدخل في ما لا يعنيك.. الزوجة الفضولية مكروهة في كل الأوساط الاجتماعية وأنت ستقيمين معهم في دارهم».. لم تدرك كم أن هذا الكلام دقيق إلا اليوم.

وهكذا اتخذت قرارها.. سوف تدخل القبو.. يجب أن تعرف.

لا تفعلي يا «زوزانكا».. أرجوك لا تتصرفي كالضحية الغبية في أفلام الرعب.. الضحية التي تتوغل في الغابة وحدها ليلاً، أو تفتح تابوت مصّاص الدماء بعد الغروب، أو تفتح الباب للمذئوب الذي يدق الباب.

لكن القبو كان يطاردها في كل وقت.. يزور منامها.. يملأ أحلامها.

ذات مرة سألت «جاتيس» عما يوجد هناك، فقال متظاهراً باللامبالاة:

- قبو؟ ماذا يوجد في قبو سوى رطوبة وعفن وفئران؟!

- وبراميل خمر؟

- نعم براميل خمر.

حتى الفئران غير موجودة.. يبدو هذا غريبًا.. كانت تعتقد أن القبو يعج بالفئران، ثم فطنت إلى أنه لا توجد فئران في البيت.. الفئران مخيفة لكن عدم وجودها مخيف أكثر.

«جاتيس» غيّر الموضوع وأغلقه بألف مفتاح. لم يعد الكلام واردًا.

* * *

جاءت الفرصة بسرعة غير متوقعة.

لقد جاء صبي مذعورٌ إلى البيت يخبر الأسرة أن «ناتاليا» قد سقطت قرب النهر وكُسرت ساقها.. دبت الفوضى، واندفع «آرتور» و«ألكسيس» وراء الصبي نحو بيت الطبيب.. هرعت الأم مع زوجها الذي لا يغادر الدار أبدًا.. لم يكن «جاتيس» في البيت وقتها، الجمع انطلق ليطمئن على الفتاة.

هكذا أدركت «زوزانكا» الحقيقة المروعة الرائعة.. هي في البيت وحدها.. يمكنها أن تتسلل إلى القبو.

قلبها يخفق كطبل.

لكن كيف تفتح الباب الخشبي اللعين؟

تتذكر «زوزانكا» أن هناك مجموعة من المفاتيح في المطبخ معلقة إلى مسمار، هناك فوق الموقد.. مفاتيح غليظة كنيبة صدئة تعيد إلى ذهنك كوابيس قديمة عن ذي اللحية الزرقاء والغولة... إلخ.

يجب أن تتصرف بسرعة.

هرعت إلى المطبخ، وتناولت مجموعة المفاتيح تلك والتي رُبطت بحبل.. ثقيلة غليظة.. ثرى أيها المفتاح المقصود؟ من المؤكد أن «ألكسيس» معه نسخة أخرى، لا تعرف إن كانت هناك نسخة مع «جاتيس» زوجها، لقد فتشت غرفة النوم بعناية.

تهرع إلى القبو وتولج المفتاح الأول في الثقب.. كروك! لا يفتح.

تجرب المفتاح الثاني، ثم تذكرت لعبة النحاس القديمة: لا بد أن آخر مفتاح هو الصحيح! انتقت آخر مفتاح وأولجته في القفل.. بالطبع لم يفتح، لسبب بسيط هو أن آخر مفتاح صار هو الأول!

في النهاية وبعد محاولات مرهقة انفتح الباب.

باب خشبي عتيق هو، مناسب هو جدًا للرُّعب، كانت تحمل في يدها فانوسًا صغيرًا له ضوء خافت مقبض.. هناك درجات تهبط لأسفل.

في حذر تخطو، تسمع صرير الدرجات، دائرة ضوء تتحرك.

السقف فيه وطاويط، لا شك في هذا.. المشهد البشع الذي يُذكرك بفنران مجنحة معلقة من أعلى.. هذا طبيعي.. مكان كئيب كهذا لا بد أن يحوي الطاويط.. الفنران مخيفة لكنها أقرب إلى عالم الأحياء.. عندما يجري الفأر على قدم المرأة تصرخ وترفع ثوبها ثم تثب على أقرب مقعد، هذا شيء طبيعي، شيء دنيوي، أما الطاويط فهي تجعل الدم يتجمد في عروقك فلا تجرؤ على الصراخ ذاته.

برغم هذا واصلت «زوزانكا» الباسلة المشي.. كانت هناك براميل عدة على الجانبين.. فعلاً هذا مكان لتقطير الخمور وتعتيقها.. هناك مخزون من البصل واللحم المقدد، وكالعادة لا يوجد ثوم.

هذا الصوت؟ هل يكونون قد عادوا؟ إن النهر قريب على كل حال، لكنك لا تستطيع أن تذهب هناك وتحمل فتاة كُسرت ساقها ثم تعود بهذه السرعة.

لا تستطيع تخيل ما قد يحدث لو عادوا ورأوها.. زوجة الابن في قدس الأقداس.. القبو حيث لا يدخل أحد.

إن الباب السري هناك على الأرض، باب صنع من خشب عتيق وله مقبض، وسط الخشب الذي كُسيته به الأرض كانت رؤيته عسيرة، لكنها استطاعت ذلك.. السبب أنها توقعت وجوده.. السر لم ينته هنا.. الأمور ليست بهذه البساطة والسطحية.. لا بد من باب سري وقد وجدته.

* * *

الأطفال هم الذين وجدوا الجثة كالعادة.

دائماً هناك كُرة، ودائماً ما تهرب الكُرة إلى ركن يصعب الوصول إليه: حفرة، منخفض، خلف شجرة، مجرى، جدول.. يركض أحد الصبية ليجلب الكرة فيجد الجثة الممزقة التي بدأت تتحلل ونهشت منها الذئاب أو الكلاب أجزاء.. لا بد أن يصرخ.. لا بد أن يلحق به الآخرون.. ثم يركض الجميع مذعورين إلى «فكتورس ألكسنيس» الذي يعرفون لسبب ما أنه مهتم بهذه الجثث.

«فكتورس ألكسنيس» أدرك الخطر.. للمرة الثانية يجد الصبية جثة ممزقة.. يمكن الآن القول باطمئنان إن من اختفوا من البلدة من قبل لاقوا نفس المصير.

وعندما ركع إلى جوار الجثة وتفحصها جيداً أدرك أن العنق ممزق، ليس بفعل الذئاب ولكن قبل هذا بكثير.. هذه جثة فتاة بائسة اسمها «روتانيا ألد».. طلب مجيء القس والتف الرجال حول الجثة وقد جعلهم الذعر والغضب كيئناً وحشياً كاسحاً لا عقل له.. وحشاً أسطورياً من الأساطير الإغريقية.

مصّاص دماء.. هناك مصّاص دماء.

أشعل «فكتورس ألكسنيس» لفافة تبغ خبيثة الرائحة وتأمل الوجوه، ثم قال:

- أنتم تعرفون من.

القس تساعل في دهشة:

- فعلاً من؟

- أنت تعرف يا أبت أننا نتكلم عن العجوز «هيلموتس بولوديس» وامراته «فانيا» وأولاده.

هذا لا يُطاق، الوثب إلى استنتاجات غبية بهذا الشكل.

لكن الواقفين تذكروا أشياء كثيرة: أسرة غريبة الأطوار.. أسرة لا يعرف أحد مصدر دخلها.. أسرة لا تذهب للكنيسة أبداً، ولم ير أحد عائلها في النهار.. العم الذي كان سابع إخوته الذكور، وساقه المفتوحة تستقر في ركن التابوت.

الشابان «أندريه» و«ميخيلس» كانا واقفين هنا، وقد حكيا قصة ملفقة عن «جاتيس» ابن الأسرة الأوسط: لقد كان يتحرش بفتاة فدافعا عنها، لكنه حطمهما بقوة جديرة بالشياطين، لقد طار الرجلان في الهواء كأن إبليس نفسه وجه لكل منهما ركلة.

كان هذا كافياً كي يزداد جنون القوم.

كان القس ينهزم ببطء.. منذ قليل كان ينكر وجود مصاص دماء، ثم قبل هذا.. الآن ينكر أن مصاص الدماء من «آل بولوديس»، ثم سوف يعترف بهذا.. لن يمر وقت طويل حتى يطالب الرجال بحرق بيت تلك الأسرة.

كان الغضب في العيون، والنفوس تتوهج مثل المشاعل بالضبط.. عندما يتكلم هياج الجماهير يخرس العقل.. المجد للانتقام والموت.

وقال «فكتورس ألكسنيس» وهو يخاطب الواقفين:

- سوف نفتحم دارهم الليلة.. سوف نتبين الحقيقة.. لن نفعل أي شيء قبل أن نتبين الحقيقة.. فارتفعت غمغات الاستحسان.

* * *

استمر هبوطها في الدرج المصنوع من صخور متآكلة.

على ضوء المصباح تدرك أنها تدخل مكاناً لا قبل لها به.. قلبها يخفق بلا توقف.

ترى الآن نهاية الممر.. شيئاً يشبه الكهف.. إنها بالفعل على حافة كهف.. المشكلة هنا أن هناك إضاءة غريبة غامضة تغمر المكان.. من أين تأتي؟ هي بالتأكيد تحت الأرض.. لا شك في هذا.

دنت أكثر من الفتحة ونظرت.

هناك قاعة فسيحة.. وهناك توابيت متراسة على الجانبين.. إضاءة غامضة تأتي من موضع

ما.. إنها مقبرة.. مقبرة منسية.

على قدر ما تعرف هي ليست في مقبرة البلدة.. المسافة التي قطعها لا تسمح بأن تكون في مقبرة البلدة.

ركلت حجرًا بقدمها فلاحظت أنه طار لمسافة غير عادية، ثم غيّر اتجاهه في الهواء وعاد إلى جانب.. مدت يدها تلتقطه وقذفته إلى الأرض ثانية.. هنا وجدته يحلق نحو السقف.. كأن الجاذبية تأتي من أعلى لا من الأرض.

هذا المكان يتصرف بقواعد فيزيائية خاصة به.. لا توجد قواعد باختصار شديد.

يجب أن تعرف أكثر.

لكن الوقت الآن لا يسمح إلا بأن تعود أدراجها.. يكفي هذا.. لقد جاملها الحظ أكثر من اللازم ولا يمكن أن تجازف أكثر.

هكذا هرعت إلى الدرج من جديد.. رباه! لم تعرف من قبل أن قدميها من المكرونة المسلوقة، وأن قلبها واهن بهذا الشكل.

صعود الدرج متعب فعلاً.. تجتاز الفتحة في أرض القبو وتعيد غلق الباب السري.

تهرع عبر القبو.. تلاحظ أشياء غريبة لم تلاحظها من قبل.. أشياء مرعبة.. لكن لا وقت لأشرح لك، المهم الآن أن تخرج قبل أن...

تصعد الدرجات وتجتاز الباب الخشبي.

لا تجزعي.. لا تفقدي روعك.. يجب أن تعيدي المفاتيح للمطبخ ثم تجلسي في انتظار زوجك كأبي زوجة صالحة لم تفتش قبو زوجها.

المفاتيح؟ أين هي؟ تركتها معلّقة في الباب عندما دخلت.. لكن أين هي؟

ثم أدركت أنها ليست وحدها.

نظرت إلى الخلف فرأت حماها وزوجته و«ألكسيس» و«آرتور» وزوجها «جاتيس».. حتى «ناتاليا» كانت هناك مضمدة الساق تستند على كتف أخيها وتتوكأ على عكاز من غصن شجرة.

كلهم كانوا واقفين ينظرون إليها في صمت.. حتى عيونهم كانت صامتة.

* * *

متى عادوا؟

كيف لم تشعر بهم؟

كانت تتراجع بظهرها إلى الخلف وهي تدرك أنها قد فضحت.. لا يوجد تفسير واضح سوى الفضول، وهم لن يصدقوا موضوع الفضول هذا.

كان حموها ينظر إليها نظرة نارية ثابتة: الوجه الشاحب، والعينان الغائرتان كأنما لا وجود لهما، العينان اللتان تختلسان النظر من وراء حاجبين كثين.

«ألكسيس» هو الآخر كان يعقد ساعديه على صدره ويرمقها، وثمة شبه ابتسامة خافتة على شفتيه. و«جاتيس» كان ينظر إليها في حيرة، بينما ترمقها «ناتاليا» في توحُّش.

قال «هيلموتس بولوديس»:

- كان علينا أن نتوقع هذا.. عندما نغفل عن الثعلب يتسلل إلى الكرار.

وقالت زوجته «فانيا»:

- حسبك صرت منا.. لكننا كنا مخطئين.

لا تعرف كيف وجدت «ألكسيس» يقف خلفها ويلوي ذراعها، فنظرت مستغيثة إلى «جاتيس»، لكنه تجاهل نظرتها كأنه يقول: هذا أقوى مني.. أنا آسف!

تساءل «ألكسيس» بصوته الغليظ:

- إلى أين يا أبت؟

قال «بولوديس»:

- غرفة الغسيل يا «ألكسي».

وكانت هي تعرف تلك الغرفة الضيقة.. تشبه الزنزانة فعلاً.. سوف تكون لحظات قاسية هناك.. لقد سقطت الأقفلة و«آل بولوديس» يعترفون أن لديهم سرّاً مروّعاً.. والسبب في سجنها؟ لا بد أنها عرفت أكثر مما ينبغي أو هم يفترضون ذلك.. يجب أن تعرف أكثر.

هناك وجدت نفسها في الغرفة الرطبة المظلمة وسط أكوام الغسيل القذر وبرميل الماء وقطع الصابون، وشمعة، وسمعت الباب يوصد بالمفتاح.

جلست على كومة الغسيل وقررت أن تنتظر.

* * *

لم يتأخر الاقتحام قليلاً.

عند الثانية بعد منتصف الليل نبح كلب.. كلبان ثم تحول الشارع إلى بؤرة جنون.

كان الأهالي يحملون المشاعل ويقودون كلبين شرسين من مقوديها، والموكب يتقدمه «فكتورس ألكسنيس».. وعلى باب الدار وقف الرجل الضخم ومن خلفه «أندريه» و«ميخيلس» وصاح منادياً:

- «هيلموتس بولوديس».. بحق الرب اخرج وكلما.

تأخر رد الفعل قليلاً، ثم انفتح الباب وظهر «ألكسيس» وجواره «آرتور»، خلفهما رأى

الرجال العجوز و«ناتاليا».

كان منظر الرجال يثير الذعر في النفوس، لكن «ألكسيس» من الطراز الذي لا يخاف، ولكن يغضب كما قلت لك، لذا لوح بشيء في يده.. كانت هذه بلطة.. بلطة صغيرة الحجم لكنها فعّالة، وقال:

- هذا حشد من عشرين رجلاً يريدون انتهاك حرمة دارنا.. ولماذا؟ أنت تعرف يا «فكتورس» أن أسرتنا لن تسمح لرجل غريبة بأن تخطو في دارها.

قال «فكتورس»:

- نحن لا نريد سوى إلقاء نظرة.. علامات استفهام عديدة تدور حول هذا البيت كما تعلم.

- ونحن لن نسمح لأحد بالدخول.

هنا دنا الرجال أكثر، وبدا واضحاً أنهم سيفتحون المكان بقوة.. حرب العناد بين طرفين متصلبي الرأس.. طوح «ألكسيس» بالبلطة في الهواء وهو يصيح:

- يا حمقى.. لا نريد قتلى على عتبة دارنا.

لا نعرف ما حدث بالضبط.. هذه أمور يصعب أن تصفها بدقة.. يبدو أن البلطة هوت بشكل ما على رأس أحد الرجال الواقفين، وهو «ميخيلس» غالباً، وهكذا سقط ميتاً.. وفي اللحظة التالية دب الجنون في الواقفين الذين اشتعلت نفوسهم أصلاً كالمشاعل التي يحملون.. تطايرت القبضات في الهواء.. سقط الأب تحت الأقدام.. دفع أحدهم الأم بعيداً.. تلقى «آرتور» ضربة بالعصا على رأسه.

واندفع الرجال داخل البيت يُحطمون ويهشمون.. وفي بعض الحجرات ألقى بعضهم المشاعل ليشعل المكان.. لم يكن لهذا داع سوى الحس الدرامي الذي يقتضي وجود نيران لتكتمل الصورة.. كل منا يحمل في داخله مُخرجاً سينمائياً كما تعلم.

جرى الرجال في كل مكان وبعثروا كل شيء.

هتف أحدهم وهو يفتح باب غرفة صغيرة:

- هنا محراب.. لكن ماذا يفعلون به؟

وألقى نظرة إلى الداخل فرأى ذلك الصليب الصغير الذي يُشبه حرف «T» المقلوب.. وخطر له أن هذا مكان يُعبد فيه الشيطان.. لكن الرجال عندما دققوا أكثر أدركوا أنه صليب عادي الشكل مصنوع من معدن برّاق.. الصدا غطى فرعه السفلي فجعله يبدو عندما تراه من الباب كأنه حرف «T» مقلوب.

كان «فكتورس ألكسنيس» قد بدأ يشعر بالقلق.. لا توجد علامات مشؤومة في هذا البيت، ومعنى هذا أن هذه المذبحة لم تكن ضرورية.. لكنه لم يستبق شيئاً.. هم الذين بدأوا القتل.

بعض الرجال نزلوا إلى القبو.. ثم عادوا قائلين إن هناك أجزاء من حيوانات ممزقة.

لصوص ماشية.. الأمر واضح: كان «ألكسيس» و«آرتور» يتسللان في الظلام إلى المزارع القريبة ليقتلوا خرافاً أو عجولاً صغيرة ثم يفرون بها.. لا بد أن هذا مصدر دخل الأسرة وطريقها للعيش.. سرقة الماشية وتقطير الخمر.

- لا يوجد شيء آخر؟

- لا شيء.. ولا حتى الفئران.

راح يفكر في عمق، ثم تذكر:

- أين ذهب «جاتيس»؟ وأين امرأته الشابة «زوزانكا»؟ هي ليست منهم ولربما قتلوها أو عذبوها.

هنا وجد أحدهم غرفة الغسيل.. كان الباب موارباً.. هكذا فتح الباب ودخل وهو يلوح بمشعلته.

فوجئ على الفور بـ«جاتيس» يثب عليه وهو يحمل حجراً ثقيلاً.. صرخ الرجل:

- الغوث يا «فيليس أباكوكس»!

هرع «فيليس» إلى الغرفة، وانقض على «جاتيس»، واستطاع أن يشل يده الممسكة بالحجر، ووجه له عدة لكمات، في الواقع ثبته الرجلان إلى الجدار الرطب وراحا يوجهان له ضربات متوالية. أما ما حدث بعد هذا فمشهد لا يمكن أن ينسى.

لقد طار الرجل الأول ليضرب الجدار ويتهشم رأسه، أما الرجل الثاني فشعر بيد من حديد تمسك بعنقه ثم أدرك أن هناك من يدس رأسه في دلو ماء الغسيل المليء.. حاول أن يشهق.. أن يمتنع عن التنفس.. أن يسعل.. لا جدوى.. كل المحاولات التنفسية فشلت.. وبعد قليل همدت حركته.

وعندما خرجت «زوزانكا» إلى الرجال رسموا علامات الصليب، وأدركوا أنهم يرون الشيطان ذاته.

لشد ما تبدلت الحسنة! ولشد ما صارت مريعة! ولشد ما صارت قوية!

لقد كانوا يتطايرون كأحجار الشطرنج، وعرف «فكتورس ألكسنيس» أن هذا هو مصاص الدماء الذي يبحثون عنه.. لوح أحد الرجال بصليب خشبي في وجهها، لكنها مدت يدها إلى صدره فانتزعت قلبه بمخالبها.. السذج الذين يصدقون القصص عن مصاصي الدماء كارهي الثوم والماء النقي والضوء والصليب، من يقل هذا لم ير مصاص دماء فعلاً.

- إليّ يا رجال!

لكنها كانت أسرع منهم.. وكان الرجل يهوي عليها بالبلطة أو العصا فتقتنص يده كأنها صقر ينقض على أرنب، ثم تهشمها قبل أن تغرس البلطة في جمجمته.

ولا يعرف «فكتورس ألكسنيس» كيف فر إلى الباب، بينما النار تتصاعد من عدة غرف في البيت، ومن خلفه هرع من بقي من رجاله وهم يولولون ويصرخون.

عملية حرق الساحرات متعثرة ولم تكن كما أرادوا.

* * *

وقفت «زوزانكا» تلهث.

لقد تم التحول بسرعة.. كانت تعرف أنها ستتحول.. لعله الغضب.. لعله الخوف سبب هذا التحول السريع. الليلة الأولى عندما اجتازت الغابة عائدة من عند «ليلي إزرجاليس»، وعندما انقض عليها «تافيلوف»، وعندما عض عنقها، عرفت بعدها أنها لن تخاف الظلام أبداً وأنها ستلحق به.

أخبرها في الظلام بالسر.. أخبرها بأنها ستجد البيت المقصود.. هناك علامات على هذا البيت: أسرة لا تزور ولا تُزار، ولم يرههم أحد في الكنيسة، ولديهم الكثير من الأسرار.. أسرة تحوم حولها علامات استفهام بصدد كونها مصاصة دماء.. هذا كلام فارغ.. هذه العلامات تدلّك فقط على أن بيتهم مقام فوق فجوة.

سوف يمهد لها القدر الطريق.. سوف تجد تلك الأسرة وهذا البيت.

في تلك الليلة لم تسأل نفسها عن سبب تواجد «جاتيس» في الغابة، لأنها كانت تعرف.. لم تسأل نفسها عن الكيفية التي رأى بها في الظلام الدامس، ولا كيف سمع صرختها، لأنها كانت تعرف.. لم تسأل نفسها عن القوة الكاسحة التي قهر بها شابين ضخمين، لأنها كانت تعرف.

كل هذه علامات على أنها في الطريق الصحيح.

يجب أن تدخل هذا البيت.

والآن هي تحمل «جاتيس» الذي فقد وعيه.. تحمله كأنه طفل رضيع وتتقدم نحو القبو.

تمشي فوق الدماء والجثث وآثار المعركة وتشم رائحة الحريق.

ترى هل بقي شخص آخر حياً من «آل بولوديس»؟ لا وقت لتعرف.

لكنها لم تعد تخاف.

القوة التي تسري في عروقها مذهلة.

تهبط به إلى القبو، وتهرع وسط أشلاء الحيوانات الممزقة.. ثم تفتح الباب السري وتهبط إلى الدرج.

إلى العالم الغريب.. حيث التوابيت المتراسة المفتوحة.. حيث تتحدى كل قواعد الفيزياء، ويسقط السائل إلى أعلى، وترى الأشياء البعيدة عنك أقرب من سواها.. هنا يمكنك أن ترى الأنين وتسمع الدم وتشم الضوء وتتذوق الألوان.

هذا هو المكان المختار.

المكان الذي كُلفت بأن تجده.

والأسرة لم تدرك قط أن هذا المكان العجيب يقع تحت قبو دارها.. أو ربما عرفت لكن حسبته
يقود إلى كهف لا داعي لاستكشافه.

هذا هو المكان المختار.. هناك فتحات أخرى تحت بيوت أخرى عديدة كلها تقود إلى هنا..
وفي هذا المكان تبدأ مملكة مصاصي الدماء.. كائنات الليل الكابوسية.

بدأ «جائيس» يفتح عينيه ويئن.

نظرت إليه في رفق.. لا تنكر أنها أحبته ومالت له كثيرًا برغم أن لقاءهما لم يكن سوى
طريقة لدخولها هذا البيت.. سوف يكون عليه أن ينضم إلى هذا العالم ويعيش بطريقتهم.. البديل
هو أن يصير وجبة لضيوف هذا الحفل.

«زوزانكا» صاحبة العينين العميقتين.

«زوزانكا» ذات القدمين الدقيقتين.

«زوزانكا» تقف هناك في الضوء الخافت تراقب التوابيت المفتوحة.. تسمع صوت الخطوات
القادمة من بعيد عبر أرجاء الكهف.. الفجر قام وهم عائدون.

سوف تراهم الآن.

دبة النملة

هناك لحظة مخيفة بين التحقيق في ذلك الوجه الذي يُحملق فيك، وبين إدراك الحقيقة المخيفة.. إنه يراك.

الآن أفهم سر توتر الزوجة وشحوبها.. أفهم لماذا ذهبت نورا عند جدتها. هل رأت الزوجة هذا المشهد؟ لا أظن وإلا ما ظلت حية.. على الأرجح هي خمنت أو شعرت بشيء ما خطأ.. لكن لا تقل لي إنها رأت زوجها يمشي على الجدران وقبلت ذلك!

اجلس يا محمود ولا تُثر توترى.. أنا أمقت الأشياء التي تتحرك في مجال نظري، وأمقت هؤلاء العصبيين كثيري الحركة، الذين ينقلون ساقًا على ساق.. أنت تعرف أن التوتر العصبي مُعد، وأن هناك ظاهرة تُدعى «الإشعاع السيكو فيزيائي».

اجلس وهات كوبًا من الماء البارد من هذا الدورق. هل شغلت جهاز الكاسيت؟ لا بأس.. لكننا سوف نستمتع إلى الشريط بالكامل بعد انتهاء قصتي.. هناك مقاطع لن أسمح لك بنشرها طبعًا.

صداقة طويلة جمعت بيني ورامز.. صداقة دامت ٢٠ سنة على الأقل.

كانت هذه الصداقة مثالية في كل شيء.. كنا صديقين مخلصين لبعضنا، وكان يعرف معظم أسراري وأنا أعرف كل أسرارهم.. لا مشكلة.

بالنسبة إلى توزيع المواهب كان التوزيع عادلًا: أنا بلا أي موهبة من أي نوع.. هو يملك يدًا وأذنًا موسيقيتين بلا شك، وكان يتصدر أي احتفال للمدرسة.

كنت قوي البنية، محدود الذكاء، قليل المواهب.. وكان هو ضعيف البنية، شديد الحساسية والذكاء.

لما أنهينا الدراسة الثانوية التحق هو بمعهد الموسيقى.. أما أنا فدخلت كلية التربية النوعية.. بعد هذا صرت مدرس تربية رياضية.. أما هو فقد بدأ نجمه يعلو مع عدة فرق موسيقية وسرعان ما كوّن فرقته الخاصة وسجل عدة ألبومات ناجحة.

كان وسيماً ذا «كاريزما» أكيدة.. بالإضافة لهذا كان يحمل ذلك الوهن الذي يفتن الفتيات على طريقة عبد الحليم حافظ. شيء يحرك الأمومة في نفوسهن.

أنت رأيته في التلفزيون يا محمود.. لا بد أنك أحببت الألحان التي يُقدمها.. كان ظاهرة حقيقية.. هل ترى هذه المجلة التي تحمل صورته؟ كان نجمًا صاعدًا بسرعة صاروخية، وأعتقد أنه كان سيجتاز نفس الطريق الذي اجتازه مطربون كبار.

ثم ظهرت نورهان في حياته. فتاة رقيقة هادئة، بدا لي أنها جزء من نجاحه الصاروخي ورحلة صعوده.. هو ذكي ويعرف كيف ينتقي رفيقة دربه.

تزوجا، وأعتقد أنها كانت زيجة سعيدة ناجحة.

انتظر.. لم تنتهِ القصة عند هذا الحد. يا لك من أحمق! أنا لم أطلبك في هذه الساعة لأحكي عن قصة حياة موفقة. الموضوع هو أنني مذعور وخائف.. لم أعد أستطيع البقاء وحدي في البيت لأقصر فترة ممكنة.. خائف دومًا.. ما يدور خلفي صار عالمًا كاملاً.. يُخيل إليّ أن كل شياطين الأرض تحتشد عند مؤخرة رأسي.

دعنا.. دعنا نستكمل القصة.

* * *

في سن الثلاثين بدأ رامز يلاحظ بقاءاً في مجال الإبصار.. في البداية يعتقد أنه وهم.. ثم يقرر أنه الإرهاق.. ثم يعتقد أنه مريض بالفعل.. بل يؤمن بذلك.

كانت هناك فترة من الحيرة لدى أطباء العيون، واستقر الرأي على أن العصب البصري يضمّر.

ثم بدأت الكارثة الحقيقية عندما بدأ يلاحظ أن سمعه يضمحل.. بالفعل يجد عُسرًا في سماع صوت زوجته الهامس، وارتفعت طبقة صوته أكثر حتى إن الناس راحوا يسألونه عن سبب صياحه.

هذه المرة وجد طبيب أعصاب بارعًا.. وكان التشخيص مخيفًا.. هذا مرض نادر يزحف على الأعصاب المخية ويؤدي لضمورها بالتدريج.

هل من علاج؟ للأسف لا علاج سوى جرعات عالية من «الكورتيزون» لن تؤدي لشيء على الأرجح.

هل من علاج بالخارج؟ لو تلقيت العلاج في «مايو كلينيك» على يد البروفسور «جون كلارك» أم في حارة الزغبى على يد برعي الممرض بقصر العيني فلا فارق.. نفس سياسة العلاج.

هكذا راح رامز يهوي بلا توقف في قاع الظلام.

الظلام الذي يجعله الصمت مريعًا.

كان يقرأ عن «هيلين كيلر» الكاتبة الأمريكية الصماء الخرساء العمياء، ولم يتخيل قط أن يعيش المرء بتلك العاهات الثلاث، وها هو ذا يواجه نفس المصير مع القدرة على الكلام طبعًا.. تذكر كذلك أن «هيلين كيلر» قالت: «الصمم ألين شيء في العالم.. في الظلام لا ينفذك سوى سماع صوت مألوف يهدئك». هذا يختلف عن اعتقاد الناس أجمع، لكنه ذات ما آمن به رامز.. فعلاً مصيبة الصمم أسوأ ما حدث له.

ومع موسيقي!

نعم. هو موسيقي.. أذنه هي حياته وأكل عيشه ومستقبله.. لن يملك قدرات «بيتهوفن» الذي كتب سيمفونيته التاسعة وهو أصم تقريبًا يتحسس اهتزازات البيانو. ليس هو.

رحت أتردد عليه وكاد القلق يقتلني.

إن حالته النفسية تتردى.. أعتقد أنها حالة انتحار لم تحدث بعد.

لقد انتهى سبب وجوده.

رُحْتُ أقول له كل كلمات رقيقة قد تُهدئ من روعه.. لكنه كان يتلقّى كل كلمة لي كأنه يلعب مباراة تنس طاولة.. كل كلمة لها رد.. أقول له:

- أنا أفهم ما تشعر به.

فيرد على الفور:

- لا. لا تفهم!

- سوف تتذكر هذه الأيام باسمًا.

- في العالم الآخر؟

كانت حالته تسوء بلا توقف، ولا شك أن نورهان كانت تمر بأتعس أوقات حياتها.

* * *

حدث ما حدث في ذلك اليوم الذي كنت أمشي فيه في الدقي عندما اصطدمت بذلك الرجل. عندما دقت أكثر أدركت أنني أعرفه.. هاشم.

نظر إليّ في دهشة وذهول ثم ارتدى في أحضاني، ورحنا نثرثر عن كل شيء، وأنا لا أجسر على توجيه السؤال الأهم الذي يؤرقني.

في النهاية استجمعت أعصابي وسألته.. عندها عرفت.

هاشم كان قد أصيب بضمور في الشبكية منذ ثلاثة أعوام.. صار كفيفًا تمامًا.. وكان هذا شيئًا قاسيًا جدًا في سنه الصغيرة الواعدة.

كنت قد تركته كما نفارق دار السينما بعد نهاية حزينه، ولم أره منذ ذلك الحين.. لكنني اليوم أجده يمشي بكامل لياقته ويراني ويعرفني.

عندما جلسنا في ذلك المقهى استجمعت شجاعتي وسألته عن سبب استعادته بصره.. المعجزة التي أدت لذلك. ما أعرفه هو أن الأطباء أعلنوا عجزهم عن عمل شيء.

قال هاشم في مرج:

- كنت قد فقدت الأمل تمامًا حتى...

- حتى ماذا؟

- حتى قابلت ذلك الطبيب.. ذلك الساحر.. ذلك النطاسي الخارق للعادة.

- وماذا فعل معك؟

ابتسم وضافت عيناه للحظة، ثم قال:

- الأمر شبيه بالعلاج بالخلايا الجذعية.. شيء من هذا القبيل.

كنت أعرف حلم الخلايا الجذعية الذي عذب مرضى كثيرين.. مهما كانت حالة المريض ميؤوسًا منها فهم يبشرونه بشيء اسمه الخلايا الجذعية، والحقيقة أن أبحاثها ما زالت في مرحلة الطفولة، وعدد النصابين أكثر بمراحل من عدد الصادقين.. كثيرون يسافرون إلى تايلاند ليتلقوا أقصى صدمة في حياتهم.

- هل هو طبيب مصري؟

- أرمني.. لكنك لن تعرف هذا لأنه يتكلم العامية المصرية أفضل منا.

- هل هو طبيب عيون فقط؟

- بل هو طبيب كل شيء! على طريقة أطباء الماضي.. ابن سينا والرازي وجالينوس وأبقراط.. يتعامل مع البشر ككل.

بعد إلحاح كتب لي اسم الطبيب وعنوان عيادته ورقم هاتفه.

- هل أتعابه باهظة؟

- غالية نوعاً ما.. لكن بكم تُثَمِّن عينيك على كل حال؟

تأملت البطاقة.. دكتور «ويليام أنطونيان».. الـ«يان» التي تدل على أن صاحب الاسم أرمني على الفور.

أعرف مريضاً سوف يجرب هذا الطبيب.. يجربه هذا الأسبوع حتماً.

* * *

كان جالساً في تلك الغرفة خافتة الإضاءة، وعلى عينيهِ ضمادات.. دخلت نورهان حاملة صحيفة عليها مشروب بارد وجلست جوارنا ترمق زوجها في جلسته المتصلبة.

بدا لي الأمر كأنه مر بجراحة معينة.. وانتظرت حتى يحكي لي ما حدث.

كان ما زال قادراً على السمع لكن عليك أن تصيح بصوت جهير، وكان يتكلم بنبرة عالية كذلك لأنه لا يدرك مدى ارتفاع صوته.

قال لي:

- بالطبع لم أستطع رؤية ما يحدث جيداً.. كنت أرى بعض الأشباح، وعرفت أنها شقة في بناية شامخة في وسط البلد.. بناية ذات مصعد يتعطل أكثر الوقت. الشقة كانت نظيفة ورائحة المطهرات تملؤها لكنها قديمة. أما الرجل فكان له صوت عميق مريح كأنه أريكة تضع عليها توترك الخاص. لا توجد أي لكنة غريبة في كلامه.. تشعر أنه مصري ابن مصري.

قال لي بصوت عالٍ كالصراخ إنه يمارس ضرباً غير تقليدي من العلاج، وهذا العلاج يتلخص في حقني بمجموعة من الحقن التي تحوي خلاصة خلوية.. أما عن محتوى هذه الحقن فهنا يكمن سر العلاج.. لا أسئلة من فضلك.. لا يمكن إفشاء السر، ولو كنت مصرّاً فبوسعي دائماً أن أنسحب. لن أخبرني.. باختصار ما بين البائع والمشتري يفتح الله.

وافقت طبعاً.. وقلت لنفسي إنني لن أخسر شيئاً.. و«ضربوا الأعور على عينه قال خربانة خربانة».. هذا المثل ينطبق على حالتي حرفياً!

لا أعرف متى وضع ورقة تحت يدي وقلماً في يدي فسألته عما هنالك، فقال: «هذا..

موافقتك (consent) على استخدام العلاج».

وقعت.. ولا أدري متى ولا كيف كشفوا عن ساعدي، ولا كيف اخترقت إبرة أوردتي، ثم شعرت بسائل بارد يسري هناك.. وهكذا انتهت الجلسة وعرفت أن هناك ثلاث جلسات أخرى.

نظرت إلى نورهان التي راحت ترمق زوجها في قلق حنون، وسألتها:

- ما انطباعك عن الأمر كله؟ نصب؟

رفعت الشعر عن عينها فرأيت دمعة متحجرة هناك. وقالت:

- أعتقد أنه صادق.. الجو يوحي بالاحترام والثقة.

- والنتائج؟

قال رامز وهو محتفظ بجلسته المتصلبة:

- بالنسبة إلى العينين لا تحسن.. الأمر يزداد سوءاً.. بالنسبة إلى السمع هناك تحسن طفيف.

قلت بصوت خافت:

- طفيف؟

- نعم طفيف.

تبادلت نظرة جانبية باسمه مع نورهان.. لقد سمع هذا السؤال الخافت برغم كل شيء.. ما زلنا في مرحلة رمادية.. لا يمكن أن نقسم أن سمعه يسوء أم يتحسن لكن هناك علامات.

عندما فارقتهم تمنيت أن يكون في الطريق الصحيح.

* * *

القصة كما ترى يا محمود ليس فيها شيء مريب أو غير طبيعي.. مريض طلب الشفاء ولعله وفاق أو لم يوفق. ليس الأمر خطراً. ليس ذلك بالشيء الذي يثير الهلع.

على كل حال، في ذلك الوقت لم أكن أعرف أن المهندس شاكر يصلح آلة التقطيع في المصنع.

المهندس شاكر في الأربعين من عمره، وهو رجل ذكي مرموق.. جوار عمله في المصنع، لديه ورشة سيارات خاصة عانى كثيراً حتى أنشأها، وجاهد حتى يكسب ثقة العملاء. يعتمد على نفسه كثيراً ولا يترك الأمور للعمال، لهذا وثق به زبانه.. شاكر صديق قديم لي وإن كنا نلتقي لمأماً.

يفكر شاكر الآن في مها زوجته، وفي هدية عيد ميلادها التي تنتظر في حقيبة السيارة.. يفكر في ابنته نورا الرقيقة ابنة السنوات العشر.. يفكر في الورشة وفي الشريك الجديد. سوف يذهب هناك بعد انتهاء وديته في المصنع ليتناول غداءً خفيفاً ثم يعمل حتى ساعة متأخرة من

الليل.

كانت آلة التقطيع معطّلة وقد جاء رئيس الميكانيكية يخبره بذلك. قام بفصل السكينة وجلس محتبياً ليعالج النصل ومجموعة التروس. مها كانت مكتئبة أمس ولا يعرف السبب.. هل هناك شيء ضايقها؟ كانت هناك مكالمة مع أخته.. هل حدث شيء بينهما في ذلك الوقت؟

و...

لا يعرف ما حدث.. هناك مجنون ما في كل مكان.. هناك حمار ما في كل مصنع.. حمار من الطراز الذي يجد سكينة الكهرباء في وضع فصل التيار فيعيدّها إلى مكانها وهو مندهش.

تدور الآلة.. يهوي النصل.

لا يوجد ألم.. الصدمة العصبية رحيمة وتجعله ذاهلاً في عالم آخر. لا يعرف سوى أنهم يصرخون، وأنهم يحملونه، وأن سائلاً دافئاً يبذل الأرض.. سيارة إسعاف من الداخل.. كشافات.. أرجل تركض على بلاط المستشفى.

ثم الظلام...

الضوء يتسلل ببطء. شاكر يفيق وشعور بالغثيان يغمره.. ينهض والعرق يبلله بالكامل.

إنه في فراش مستشفى.. لا شك في هذا. الأبيض اللعين الذي وصفه أمل دنقل، والذي هو لون الموت ذاته. ينهض.. هو في مستشفى. لا يذكر أي شيء سوى أنه كان يصلح الآلة.. ثم حدث شيء ما.. حدث شيء هو...؟

هناك مَنْ شغل الآلة.

حمار ما قام بتشغيل الآلة.

ماذا حدث وقتها؟ رفع ساعده الأيمن ببطء.. وعندها أدرك الحقيقة.. لم تعد لديه يد.. هناك ضمادة قبيحة لا يمكن أن تُخفي يدًا تحتها.. بل عندها يبدأ الأمر وينتهي.

منذ ساعات كان رجلاً مكتمل الجسد يفكر في هدية ميلاد زوجته.. الآن هو أكتع.. أكتع!

لا بد أنه فقد الوعي في هذا الوقت.

* * *

عندما قابلته - بناء على كلمات صديق أخبرني بالفاجعة - كان قد تغيّر جداً.

كان جالساً هناك في مقعد في شرفة المستشفى وهو يتأمل الضمادة التي كانت يده.

حاولت أن أمازحه لكن مزاجه كان متعكراً.

قال لي إن مستقبله انتهى.. صحيح أن المهندس لا يجب أن يعمل بيده، لكنه اعتاد ذلك.. دعك من ورشة السيارات التي علّق عليها كل آماله.. إنه رسّام بلا يد.

شعرت بأسى شديد.. ما أكثر النحس الذي يمر برفاقي.. إما أن دوري في هذه المصائب قادم وإما أنا الذي أسبب لهم النحس.

سألته:

- هل هناك وسيلة تعويضية ما؟

ابتسم في تعب، وقال:

- مستحيل.. اليد عضو شديد التعقيد.. يجب أن أتأقلم.. هذا هو الحل.

غادرته وأنا أشعر بالتعاسة والأسى.

* * *

اتصلت برامز لأطمئن على أموره فرد عليَّ في مرج.

شعرت بسرور بالغ.. كان صوتي خفيضاً ولم أكن أصرخ في الهاتف لكن بدا أنه يسمعي جيداً. كنت أسمع في الخلفية صوت دوزنة أوتار كمان.. من الواضح أنه يكلمني وهو يداعب أوتار الكمان. علامة صحية أخرى.

- هذا يعني أن علاج الأرمني ناجح فعلاً.

- هذا واضح.. لكن بصري يزداد سوءاً.. هذه نقطة لا أنكرها.

هنا حكيث له عن شاكر زميل دراستنا.. كانت قصة مؤسسة موسية، وبدا لي أنه من المستحيل أن يساعده أحد.. هنا قال لي في لهفة:

- بالعكس.. لقد ذهبت إلى الطبيب الأرمني مرة أخرى، وقالت لي زوجتي إن هناك مرضى مبتوري الأقدام ينتظرون الفحص!

هنا يبدأ التخريف إذن.. قلت في عصبية:

- الأمر لا يتعلق بمرض عصبي.. هناك أطراف طارت.. لم تعد هناك.

- أنا أعرف ما أقول.

ثم أضاف بلهجة تقريرية:

- دع شاكر يزر هذا الطبيب الأرمني.. هو لن يخسر شيئاً.. وأنا أعدك أن هناك معجزة في الطريق!

* * *

يمكنك أن تتخيل تعبير وجه شاكر عندما أخبرته بهذا الاقتراح.

تخيّل هذا سهل على كل حال.. نحن لا نتحدث عن حاسة تُفقد أو قدرة تضيع.. نحن نتحدث عن طرف طار.. تمزق.. ذهب به نصل السكين.

قال لي في أسي:

- لقد انتهى زمن المعجزات.. أنا لا أفهم في الطب، لكن ثق أنني لن أحمل جثة مزقها القطار إلى عيادة طبيب.

نظرت إلى يده المبتورة الملفوفة في الضمادات، ثم قلت:

- عدني بشيء.. أنا مخبول غير مستقر نفسيًا.. اتفقتنا؟

- أنت لست كذلك.

- بل أنا مخبول من الطراز الذي يجري في الشوارع وكسرولة على رأسه.. اللعاب يسيل من فمه.. هذا المخبول لا يريد سوى شيء واحد هو أن تذهب إلى هذا الطبيب.

- هذا طلب عسير.. أنت تداعبني دعابة قاسية اسمها الأمل.. هذه الدعابة لن تفضي بي سوى لمزيد من الألم.

كان إلحاحي شديدًا.. وقد استطعت بالفعل أن أقنعه بأن يجرب.

عرفت فيما بعد أنه ذهب هناك مع زوجته مها.. كانت مها مستعدة لتجربة أي شيء.. لا بد أن هناك أعشابًا صينية تعيد الأيدي المبتورة.. لا بد أن هناك طريقة ما.

وكما هي العادة، قابل الطبيب الأرمني وكان نفس الانطباع وكانت ذات المحادثة.. ثم وقّع على الورقة بيده السليمة وهو يكتم ضحكة ساخرة. هذا الرجل نصّاب بلا شك.. لكن الدفع سيكون بعد الشفاء طبعًا.. لن تكون الخدعة قاتلة.. لن يسلبه شيئًا سوى الأمل، لقد تغيّر الزمن كثيرًا يا شاكِر.. صاروا يسخرون منك، وصرت أنت كمًا مهملاً.. لكنك تسخر منهم إذ تتظاهر بأنك تُصدقهم.

عاد إلى البيت، وأعتقد أنه ازداد سوءًا على الأقل من الناحية المعنوية.

* * *

أنت تُسجل كل شيء يا محمود.. أليس كذلك؟ تصوّر أنني أتذكر بعض التفاصيل التي نسيتها تمامًا.. الكلام يرغمك على ترتيب أفكارك فعلاً.

أذكر كيف أمضيت أيامًا عدة لا أعرف شيئًا عما حدث في هذه القصة.. اتصلت برامز عدة مرات، فكان يؤكد أن سمعه ممتاز لكن بصره كما هو.. أما عن شاكِر فلم يكن هناك أي تطور في حالته.

جاء اليوم الذي اتصل بي رامز فيه ليقول إنه فهم الخدعة الكامنة في العلاج الذي تلقاه.. هناك أثر جانبي واضح. وما هو هذا الأثر الجانبي يا ترى؟ هل فشل الكبد أم ارتفع ضغط الدم؟

- السمع صار حادًا جدًا.. فعلاً يمكنني سماع الفئران وهي تتحرك في «المسقط» عند الجيران، ويمكنني سماع دقات قلب زوجتي وهي نائمة.

هذا فقط؟ ابتسمت، وقلت:

- هذا عرض لا يخلو من الهستيريا.. أنت تعرف الهستيريين الذين يشكون دومًا من صوت التنفس العالي لمن يجلسون قربهم.

- «بيريجيب».

قالها في ثقة ثم راح يفسر لي:

- في الروسية معناها محاولة تقويم العصا المعدنية مما يثنيها للجهة الأخرى.. يبدو أنه بالغ في العلاج!

استمعت إليه بنصف انتباه ونصف اهتمام.. لا أصدق أن يكون هناك شيء اسمه شفاء أكثر من اللازم.. هذه تبدو لي شكوى مترفة جدًا. سألتها بعدها:

- هل دفعت أجره؟

- بالطبع.. لقد قام بالاتفاق وأعاد لي سمعي.. سمعي يعني حياتي.

- لكنك كفيف حسب ما فهمت.. لم يتغير شيء.

- قلت لك إن أذني هي حياتي.. لو كنت رسامًا لكانت هذه قضيتي الأولى.

بالطبع يا محمود لم أستطع أن أصدق كل شيء.. ثمة احتمال لا بأس به أن يكون الشفاء جاء بالصدفة. لو كان هذا الطبيب يعرف عمله حقًا لشفي بصر رامي كذلك، خصوصًا أن عندنا سابقة مهمة مع هاشم.. أعتقد أنه مجرد نصاب بارع حسن الحظ.

كانت الأسئلة تملأ ذهني.

في المدرسة رحت أراقب الصبية وهم يمارسون تمريناتهم الرياضية.. ويركضون حول الفناء. كم أن الإنسان رائع ومعجزة في الخلق.. تتضافر الحواس والقدرات والعضلات والأعصاب لتصنع سيمفونية بالغة الإتقان.. سيمفونية أجمل ما فيها أنك لا تشعر بها.. فقط عندما يتلف شيء ندرك أي نعمة كنا فيها.

قررت أن أزور هاشم هذه الليلة بالذات.. هل صار يبصر أكثر من اللازم؟ هل صار يرى أشخاصًا ليسوا هنالك أو غير موجودين أصلًا؟

* * *

ظللت أدق الباب عدة مرات بلا جدوى.

أنا أعرف أنه متزوج ولديه طفل فماذا حدث؟

واصلت الدق في عناد، وكان هذا حلاً موفقاً، لأنه كما يبدو كان ينتظر أن يرحل هذا الفضولي السمج. سمعت صوته الغليظ من وراء الباب يصيح:

- ماذا تريد؟

أعلنت من أنا بصوت أقرب للتوسل.. فأبدى دهشته من قدومي.. لم يبذ ودوداً على الإطلاق. ثم انفتح الباب.

- ماذا أتى بك في هذه الساعة؟

قلت في حرج:

- ظننت أن...

- مرحباً بك بالتأكد.. لكنني كنت أنتظر موعداً مسبقاً.

وسمح لي بدخول الشقة.. ظلام دامس تقريباً.. لا توجد سوى مصابيح خافتة مما نطلق عليه اسم «وناسة».. لا أرى شيئاً تقريباً.. هناك رائحة كريهة فعلاً.. هذا بيت لا ينظف ولا يحمل آثار لمسات الأنثى.

قلت له وأنا أتحسس طريقي:

- كيف حال المدام؟

قال ما توقعت أن يقوله:

- أنا مطلق.. زوجتي لم تتحمل أن تعاني معي.

لذت بالصمت.. هذا شيء قاسٍ فعلاً.. الزوجة رحلت بمجرد أن فقد زوجها بصره.. ليست الفارسة المناضلة التي يريد لها العالم أن تكون، وعلى كل حال لا يمكن أن ألوم أحداً قبل أن يختبر المرء نفسه.. هناك أزواج طلقوا زوجاتهم لأنهن أصبن بسرطان واستأصلن جزءاً من أنوثتهن.

لكنني الآن أدرك أن حياة هاشم قاسية فعلاً.. ألا توجد عاملة تُعنى بهذا البيت؟

- لقد أرسلت صديقي للدكتور الأرمني كما اقترحت أنت.. النتائج جيدة فعلاً.. لكنه يشكو من آثار جانبية.

- كنت أعرف أنه سيشفى.. وكنت أعرف أن آثاراً جانبية ستحدث.

اصطدمت بأريكة فجلست عليها، بينما جاء هو بزجاجة مياه غازية من مكان ما. كيف يرى في هذا الظلام الدامس؟ لقد شُفي جداً بالتأكد.

شعرت بشيء يتهشم تحت قدمي فنظرت.. الظلام دامس فلا أرى جيداً.. لكن هناك حاسة تقدير الأشياء التي تجعلك تخمن ما يوجد تحت قدمك.

مددت يدي وتحسست.. بالفعل كما توقعت.

إن صديقي هاشم يعيش حياة قذرة فعلاً.

* * *

راح هاشم يتكلم وأنا شارّد الذهن أفكر بعمق فيما وجدته.. خطر لي نوع من الهاجس الذي لا يستند إلى أساس علمي أن عينيه تلمعان أكثر من اللازم.. ربما هما تضيئان.

ماذا يحدث هنا بالضبط؟

كان ما لمستته وتهشم تحت قدمي هو عظام.. عظام حيوان أو طائر صغير، ويبدو من ملمسها أنها هنا منذ زمن سحيق.. هناك كمية هائلة منها.

ما معنى هذا؟ هاشم يعيش في هذا الوكر ولا يتخلص من بقايا طعامه. سمعت أن أمورًا كهذه تصيب مرضى «السكيزوفرينيا»، أو في حالات خرف الشيخوخة. المريض لا يدرك أنه يعيش في وكر قذر.. عاداته تسوء مع الوقت وهو لا يدرك الانحدار الذي يهبط له.. وفي لحظة هو مجنون ناري النظرات منكوش الشعر يلبس الأسمال ويقف في زقاق خلفي يتسول، ومن حين لآخر يحك رأسه بسبب القمل.

الحقيقة أنني راغب في الرحيل بالتأكيد.. لا أحب هذا الجو.

هل جُن هاشم لأنه استرد بصره فلم يتحمل هذا الانفعال؟ أم هذا أثر جانبي لعلاج الأرمني اللعين؟

لا أعرف متى وجدت هاشم يمسك بعلبة من الورق المقوى يشرب محتواها بشفاط.. هذا اللبن.. أعرف منظر هذه العلبه ولونها.. قدّم لى المياه الغازية وراح يشرب اللبن.

[illegible]

من أين يأتي هذا التقرير؟ هل هناك محرك سيارة يدور في الجوار؟ لماذا تلمع عينك يا هاشم بهذا الشكل؟

قال هاشم وهو مستمر في الامتصاص:

- أحياناً يكون علينا أن نتخذ قراراً عسيراً.. قراراً يغير حياتنا بالكامل.. لكن هناك متعة خاصة في الاستسلام.. أن تقبل أن تكون ما يراد منك أن تكونه. أنت تعرف أن هناك نساء لا يعشقن سوى الرجل الفظ الذي يقهرهن قهراً.. هذا هو ما حدث معي تقريباً.

كان ردى الوحيد والبسيط هو: لا أفهم.. هل هناك فى حياته شخص يرغبه؟

بررررررررررر! هذا غريب.. الصوت يصدر منه فعلاً.. لا شك في هذا. تأملت جسده الضخم المنحني في الظلام وشعره المنتفش.. تأملت عينيه اللتين تلمعان في الظلام بدا لي غريباً فعلاً.

لقد حان وقت إنهاء هذه الجلسة. أنا الآن أعرف أن العلاج فعّال جدًّا.. فعّال أكثر من اللازم، لكنه كذلك يسبب غرابة الأطوار. حان الوقت كي أزور صديقًا آخر هو شاكرو.. أريد أن أعرف أخبار العلاج الذي تلقّاه.

طبعًا، يصعب الاعتقاد أن العلاج كان ذا جدوى معه. الأمل والألم.. هو تكلم عنهما معًا.. لماذا لم ألحظ من قبل أن اللفظين يحملان ذات الحروف؟ ربما هناك لفظ ثالث كذلك هو المال.. نقص المال يسبب لك ألمًا.. لكن الأمل الذي يخيب يسبب لك الكثير من الألم.

طرقت الباب مرارًا.. كان موعدًا سخيًّا يناسب ضيفًا سمجًا وقحًا.

فتحت لي زوجته مها الباب. أعرف مها منذ زمن، ولم أرها من قبل شاحبة متوترة بهذا الشكل. تأمل لون الصفحة لتأخذ فكرة عن لون وجهها.

دعنتي للداخل، وقالت إنها ستنادي زوجها حالًا. سألتها عن نورا العزيزة الصغيرة، فقالت بلهجة غامضة:

- نورا عند جدتها الآن.. لا تسأل عنها كثيرًا.

طلب مريب فعلاً. ابتلعت ريقى، وسألتها عن شاكِر: ما أخبار معنوياته؟

قالت في ارتباك:

- يتحسن لا شك في هذا.

في هذه اللحظة دخل شاكِر الغرفة.. فتح ذراعيه مرحبًا بي.. وعندما غبت في حضنه أدركت شيئًا مرعبًا: هناك يدان تحيطان بي! تراجعت للخلف ونظرت.

بالتأكيد لست أحلم.. عند كُم سترته رأيت يدًا صغيرة مشوهة.. ليست جميلة المنظر، وهي مغطاة بحراشف ولونها برتقالي مقرز.. لكنها يد! أضف لهذا أن يده السليمة لم تكن جميلة المنظر كذلك.

تراجعت للخلف مذهولًا، فقال وقد رأى نظرتي:

- هذه يد حقيقية.. ليست صناعية.. طبيبك هذا كان عبقرِيًّا فعلاً.. إن يدي تنمو.. أعتقد أن شكلها سيتحسن مع الوقت!

كنت أزداد رُعبًا.. رباه! الأمر لا يتم هكذا.. مستحيل أن يتم هكذا... هذا كابوس!

قالت مها في ارتباك إنها ستعد لنا بعض الشراب، فقال شاكِر إنه سيفعل ذلك. طلب منها أن تنصرف لأن بيننا الكثير من الكلام.

عندما انصرفت وهي ترتجف، قال شاكِر:

- هي ما زالت مرتبكة متهيبة.. المرء يخاف ما لم يعتده.. وأنا شيء غير معتاد. بيني وبينك لم أتوقع هذا الذي حدث قَطُّ.. العلاج فعَّال بلا شك.

قلت في ذهول:

- نحن لا نتكلم عن علاج فعَّال.. نتكلم عن معجزة تغيَّر وجه الطب للأبد.

نهض مسرعًا إلى المطبخ، وظللت وحدي في الصالون أرمق الجدران مفكرًا: لا يوجد أثر

جانبي على قدر علمي.. هناك ذعر الزوجة وحيرتها، لكن هذه ليست نهاية العالم.. ما حدث هو معجزة بكل المقاييس.. حتى أعتى السحرة لم يستطيعوا إعادة طرف مبتور.

سمعت صوتاً غريباً من المطبخ.. كأن هناك من يُقبَل خُذاً بصوت عالٍ مزعج.

شعرت بقلق.. الزوجة ليست هنا. نهضت في حذر نحو ما أعتقد أنه المطبخ وألقيت نظرة: هناك براد شاي على النار، هناك منضدة في منتصف المكان، فوق المنضدة طبق به شيء أعتقد أنه ملح.. أما المشهد العجيب فهو مشهد شاكر وهو راعع على ركبتيه إلى جوار المنضدة وقد مد لسانه.. لسان طويل جداً يلحق به الملح في الطبق.

تراجعت للخلف لأحبس صرخة هلع تنطلق مني، وقفت بضع دقائق أشهق محاولاً أن أستعيد تنفسي. محمود.. هل تسجل كل شيء؟ سوف أ حذف هذا الجزء أو أغير الأسماء حتى لا أؤذي الزوجة، يصعب بعض الشيء أن نقول عن زوجة محترمة إن زوجها يلحق الملح في المطبخ.

عدت في حذر ألقي نظرة على المطبخ، لم أر سوى الموقد والشاي عليه.. أين شاكر؟

لسبب ما رفعت رأسي لأعلى وكان المشهد كافيًا كي يتوقف قلبي للحظات: كان شاكر يتشبث بالجدار قرب السقف ووجهه له وقد فتح ذراعيه.. ثبّت كفيه للجدار كأن لهما ممصات، وكان يتحرك بسلاسة غير عادية.

ثمة شيء مألوف في هذا.

هل فهمت يا محمود؟ يلحق الملح ويمشي على الجدران؟ هذا سلوك وَرَعَة (برص) بلا شك.. صديقي قد تحوّل إلى برص آدمي عملاق.

هل فهمت؟ الأمر واضح: كي يستعيد اليد التي فقدها، حوّل الطبيب الأرمني المجنون إلى برص.. رأيت فيلمًا شنيعًا في «ناشونال جيوغرافيك» لقدّم برص مبتورة تنمو وتتحول مع الوقت لقدّم سليمة كاملة.. هذا هو ما خطر للطبيب الأرمني.

وماذا عن هاشم؟ الآن يمكنني الفهم: يقر وهو يشرب اللبن، ويلتهم حيوانات صغيرة (فئران على الأرجح)، وعيناه مضيئتان.. إنه يتحول إلى قط.. هذه هي الطريقة المثلى كي يكتسب عيني القط.

قفّ شعر رأسي.. قفّ كما هو منتصب الآن. هات المزيد من الماء البارد.. أتناول معه قرصًا من «الديازيبام»، لكنني مضطر لزيادة الجرعة يوميًا بعد يوم.. سوف أتحوّل إلى مدمن قريبًا جدًا.

أنت كذلك بدأت تتوتر.

لم يبدأ المرح بعد.. ماذا لو حكيت لك عن اللحظة التي استدار فيها عنق شاكر، ورأيتَه ينظر إليّ من وضعه المقلوب؟ لقد أدرك أنني فضحت سره.

* * *

أعتقد أن قلبي كان موشكًا على التوقف.

هناك لحظة مخيفة بين التحديق في ذلك الوجه الذي يُحملق فيك، وبين إدراك الحقيقة المخيفة.. إنه يراك.

الآن أفهم سر توتر الزوجة وشحوبها.. أفهم لماذا ذهبت نورا عند جدتها. هل رأت الزوجة هذا المشهد؟ لا أظن وإلا ما ظلت حية.. على الأرجح هي خمنت أو شعرت بشيء ما خطأ.. لكن لا تقل لي إنها رأت زوجها يمشي على الجدران وقبلت ذلك!

رأيت ذلك الشيء الذي يمشي على السقف ينحدر نحوي.. يهبط الجدار بسرعة خاطفة مما تميز الزواحف.. سرعة خاطفة تقطعها وقفات متحفزة حذرة. صمت تام يجعلك تشعر أن أذنك مختلة. فجأة وجدت يدي تطبق على سكين الطعام الضخمة تلك.. شعرت بأمان شديد وأنا أعتصرها.

هرعت إلى باب المطبخ فخرجت، ثم أغلقته خلفي في قوة وركضت إلى الصالة. هنا رأيت مقبض الباب ينفتح.. وفي اللحظة التالية كان شاكر يركض على قدميه متجهًا نحوي.. لقد تبدل وجهه فعلاً.. لم يعد وجه المهندس الظريف البارح صديقي القديم. هذا وجه.. وجه ورعة.

سقطت على الأرض متعثراً. من الحمار الذي وضع هذا البساط هنا؟

تمسكت بالشرشف، فجذبت مزهرية كانت فوقه لتسقط وتتهشم.. ثم وجدت نفسي راقداً وقد جثم فوق شاكر يحملق في وجهي بعينين زجاجيتين.. لسانه العملاق يتدلى نحو وجهي. كان هلعي لا يوصف.. لا أعتقد أنني حرّكت أنملة ولا أطلقت أي صوت.. فقط رفعت السكين لأعلى.. نحو قلبه.. وشعرت بالنصل يخترق شيئاً.. ثم أدركت أن الأمر انتهى.

إنه جسد خالٍ من الحياة يجثم فوق صدري.

نهضت بصعوبة وأنا أحاول استيعاب هذه الحقيقة المروعة.. لقد مات شاكر. رأيت شفثيه الجافتين تحاولان نطق شيء.. في النهاية استطاع أن يقول بصوت كالفحيح:

- اقتل دكتور..... «أنطونيان».

ثم تجمّد وجهه على هذا التعبير وهذه النظرة. كانت لديّ في طفولتي دمية تفتح جفنيها وفمها.. وعندما نفدت الحجارة الجافة ظل وجهها في وضع واحد متصلّب.. تذكرت هذا المشهد الآن.

سمعت صرخة حادة رفيعة من خلفي.. لم يكن من داع للنظر لأعرف أنها مها الزوجة. لقد قُتل زوجها أمام عينيها، وسوف يكون من الصعب أن أشرح أنه من فعل ذلك. هناك دعابة قديمة عن رجل الكويكرز (وهو مذهب ديني يميل للسلام) الذي وجد لصاً في بيته فأخرج المسدس وصوّبه عليه، وقال:

- عذراً يا أخي.. لكنك تقف بالضبط في المكان الذي سأطلق فيه النار!

تذكرت هذه القصة الضاحكة وأنا في موقف مختلف تماماً.

كم من الوقت يلزم رجال الشرطة حتى يجدوني؟ عندها فكرت فيك يا محمود.. سوف أتوارى عندك ولكن بعدما أعرف الإجابة.

هرعت أركض نازلاً في الدرج.. ركضت في الشارع وأنا لا أفكر إلا في شيء واحد: رامز.

ماذا دهاه؟

* * *

كان باب الشقة موارباً.

دققت الجرس عدة مرات فلم يرد أحد.. طرقت الباب مراراً.

كان هناك صوت عزف.. عزف رقيق على آلة وترية.. عزف لا يقدر عليه سوى رامز. دخلت إلى الشقة في حذر كأنني لص.. شقة فاخرة كما تعرف، ونورهان قد جعلت منها جنة، لكن هناك شيء خطأ.

رحت أبحث بين الحجرات عن رامز أو عن نورهان فلم أجد أحداً.. أين الجميع؟

رامز يتمتع بأذنين حساستين جداً.. في الواقع هو يسمع «دبة النملة».. لهذا لا بد أنه سمع خطواتي. من المعتاد أن أقابل نورهان في الصالة.. هي لا تكف عن العمل كالنحلة.. أين الجميع؟

أخيراً وجدت غرفة المكتب.. كانت مظلمة تماماً والباب موارباً.. فتحت الباب بحذر وأنا أنادي رامز.. شعرت بشكل ما أنه موجود.. لاحظ أنه لا يبصر، ويمكنه التواجد في الظلام بلا مشاكل.. قلت بصوت عالٍ:

- رامز.. أرجو أن تكون بخير.

لا رد.

- رامز.. ذلك الطبيب الأرمني.. لقد اكتشفت أنه يستعمل جينات حيوانية.. جينات يحقن بها المرضى ليستردوا حواسهم.. النتيجة هي أن المريض يتحول إلى حيوان آخر.

لا رد.

- رامز.. هل تسمعي؟

ثم سمعت صوتاً غريباً.. بدأت عيناى تعتادان الظلام، وأدركت أنه لا يوجد أحد. هذا مكتب ومكتبة وأريكة.. لا أحد هنا.

لكن، لماذا نظرت إلى أعلى؟ لقد صارت عادةً لدي أن أنظر إلى أعلى.. لقد كان الحافز قوياً، وثمة شيء يعبث في مؤخرة رأسي. نظرت في هلع إلى أعلى وليتني ما نظرت.

أنت تعرف ما رأيت يا محمود، وتفهم الأمر.

كائن كفيف لكنه يسمع كل شيء.. الإجابة سهلة جدًا: الوطواط.
بشكل ما كان يتدلى مقلوبًا من السقف، متعلقًا بركبتيه إلى دعامة عرضية قام بتثبيتها هناك،
مغمض العينين يزوم نوعًا.

وفي لحظة وثب في الهواء ليسقط في اتجاهي.

هذه المرة لم أستطع الفرار ولم أكن مسلحًا، وشعرت به ينشب أسنانه الحادة في عنقي..
صرخت طالبًا أن يتريث، لكنه واصل مهمته. ثرى لماذا اختار الأرمني جينات وطواط مصاص
للدماء؟

لم تطل العملية طويلًا.. لقد تناول وجبته.. وشعرت أن بوسعي أن أنهض. أما هو فقد نهض
واتجه ليسترخي على الأريكة منهكًا راضيًا.

أنا ما زلت حيًا.. دوار قاتل يعصف بي، وقداي واهنتان لكنني حي.

اتجهت إلى الباب وبقعة سوداء كبيرة في مركز البصر.. موشك على فقدان الوعي فعلاً..
ثرى أين نورهان؟ هل فتك بها؟ هل هربت؟

على الدرج فقدت وعيي لبضع دقائق.. نهضت في النهاية، واستطعت أن أخرج إلى الشارع،
واستوقفت سيارة أجرة.

* * *

الآن أنا في دارك يا محمود لا أحد يعرف أنني هنا.. أنت صحفي ويهمك أن تكتب تجربتي
كاملة لكنني أرفض ببساطة أن تنشر الجزء التالي:

سوف أظل هنا أطول فترة ممكنة.. هات قرصًا من «الديازيبام» مع بعض الماء وكف عن
الرجفة.

أنت تعرف أنني اتجهت إلى دكتور «أنطونيان».. تعرف أنني ابتعت سكينًا أخفيتها في ثيابي
وأنا في الطريق إليه.. لقد قتلْتُ صديقًا منذ ساعات، فلا بأس من قتل آخر أريح المجتمع منه.
عندما انفردت به قلت له إنه دمر مستقبلنا جميعًا.. بل إن هناك قتيلاً وقاتلاً في الموضوع.
الشرطة تبحث عني في كل مكان بلا شك ولا أحد يقدر على الفرار من الشرطة طويلًا.
وهنا أخرجت السكين.

حاولت طعنه، لكنني كنت واهنًا بعد ما فقدت من دم.. وكان الوغد سريع الحركة برغم سنه،
وعندما سقطت أرضًا تكأًا عليّ ثلاثة من الممرضين وقيدوني للأرض.

نهض الرجل إلى غرفة جانبية.. بعد قليل عاد حاملًا محقنًا.. وشمر ذراعي وهو يقول في
وقار:

- أنت جلبت لي مريضين، لهذا أنا مدين لك بخدمة.. الشرطة تبحث عنك، لهذا يجب أن
أساعدك على الاختباء.. على التواري.. على الفرار بسرعة وخفة.

قلت في وهن:

- بِمَ تحقّنتي؟

قال وهو يغرس الإبرة:

- جرعة مضاعفة.. سوف يبدأ العمل بعد ساعات.. لن تحتاج إلى جلسات أخرى.

ولا أعرف كيف وجدت نفسي في الشارع أبحث عن سيارة أجرة أخرى.

الآن يا محمود أنت تعرف قصتي بالكامل. ربما تأخذك الحمية فتذهب لتقبض على هذا الرجل أو تبّلع عنه الشرطة. بالنسبة إليّ قد انتهى الأمر.. لقد قدّم لي الرجل خدمة عظيمة فعلاً.. يمكنك بسهولة أن تشم الرائحة.. يمكنك أن ترى الحراشف على يديّ.. يمكنك أن ترى شكل فكي.

هكذا صار بوسعي أن أفر، وأن أتوارى في أي مكان، وأن أختبئ في البالوعات.. لن يجدني رجال الشرطة أبداً.

هات جرعة أخرى من الماء وقطعة خبز.

إن حياة الصرصور قد تكون مثيرة فعلاً.

mutilated.com

لهذا يحقق موقع «mutilated.com» معدلات مخيفة في الزيارة.. وهذا يدل على أن الناس ليسوا على ما يُرام تمامًا.. مَنْ يحب زيارة هذه المواقع الشنيعة هو بالتأكيد مريض نفسي آخر.. لا أحد يحب أن يرى جثة تم انتزاع عينيها.. لا أحد يحب أن يرى جرحًا امتلأ بالديدان، أو يرى مخ فتاة هُشمت عجلة الحافلة وعجنته بالأسفلت.

لا أحد يحب هذه الأمور أو هذا ما يخيّل لك.. لكن عدّاد هذه المواقع يؤكد أن الموت سلعة مرغوبة ومشتهاة ومحبوبة. الموت البشع طبعًا.

مع الوقت بدأت تلك المجموعة من الصور تجتاح شبكة الإنترنت.

يمكن أن تصلك في خطاب أو اثنين، لكن في الآونة الأخيرة بدا أن كل الخطابات تحوي مشهدًا أو اثنين. إن أفلام الفيديو صارت أقصر وأكثر وضوحًا.

هناك من يهوى زيارة تلك الأماكن الرهيبة.. الفكرة هي أنك تريد أن ترى أقصى مدى تصل إليه بشاعة الأمور، وبعد هذا تنتشي بأنك ما زلت حيًا.

لهذا يحقق موقع «mutilated.com» معدلات مخيفة في الزيارة.. وهذا يدل على أن الناس ليسوا على ما يُرام تمامًا.. من يحب زيارة هذه المواقع الشنيعة هو بالتأكيد مريض نفسي آخر.. لا أحد يحب أن يرى جثة تم انتزاع عينيها.. لا أحد يحب أن يرى جرحًا امتلأ بالديدان، أو يرى مخ فتاة هُشمت عجلة الحافلة وعجنته بالأسفلت.

لا أحد يحب هذه الأمور أو هذا ما يخيّل لك.. لكن عدّاد هذه المواقع يؤكد أن الموت سلعة مرغوبة ومشتهاة ومحبوبة. الموت البشع طبعًا.

هناك بالتأكيد عنصر آخر.. ليس السادية فحسب، بل هو عامل طفولي يشبه ما نعرفه عندما كنا نخفي الضفادع في جيوبنا ونحن أطفال لنخيف الفتيات. إنه شعور من يهوى الغرائب والطرائف.. وفي الوقت ذاته لا بد من لمحة «رعب» أو «إرهاب».

هكذا دخل كثيرون هذا الموقع.. وهكذا رأى الكثيرون ما فيه من صور.. وهكذا بدأوا يرسلون لبعضهم ما وجدوه.

* * *

سأقول لك يا عادة إنك فعلاً تثيرين أعصابي في الفترة الأخيرة.. سأقول لك إنك كثيرة الطلب كثيرة الشكوك.. عصبية على شيء من التسلط.. سأقول لك إنني استنفدت حبي لك ولم أعد أستطيع تذكر الكهرباء القديمة.. الرجفة الأولى عندما كنت ألمس أناملك أو أراك وسط الزحام فتضحكين لي.

اشتاء؟ هذا صحيح.. الشيء الوحيد الذي بقي والذي أحمله لك طيلة الوقت، فيما عدا هذا لا أطيق أن أقول لك كلمة حب أو أهمس لك بأي شيء رقيق.

بصراحة أنت مملة.. مملة.. متسلطة متسلطة.. لا تكفين عن التهام نفسك غيرة، وطباع الأنثى فيك متضخمة بحق.. عندما أقول إن فلانة جميلة تنهالين عليها بالسباب وكم هي متصنعة فاسدة ماجنة، فإذا قلت إن فلانة قبيحة وأنا أكرهها صارت أرق كائن في الوجود بالنسبة إليك.. أنتم الرجال ليس لكم في الطيب نصيب.

بصراحة لم أعد راغبًا إلا في الخلاص منك يا عادة، لكن كيف؟

لا أستطيع أن أقولها صراحة: اذهبي إلى حيث ألقى.

لا أملك هذه الجرة.. التنصل الناعم والاختفاء بلا جدوى، لأنك تعرفين دومًا كيف تجدينني، وتعرفين كيف تتصلين من الشارع من رقم لا أعرفه، أو تأتين إلى المكتب الهندسي في وقت لا بد أن أكون فيه هناك، بشكل ما أنت تعرفين حفلات الزفاف التي أحضرها وتتواجدين فيها، بشكل ما تذهبين إلى السينما عندما أذهب أنا خلسة.. في كل مرة تتأبطين ذراعي قائلة إنك خطيبتني.. أعرف أن هذا صحيح لكنه وضع مؤقت، وعلى الأرجح لن يطول. أنت تضعين عليّ خاتمك وعلامتك.. آسف للتعبير القاسي، لكنك تتصرفين كما يفعل الذئب البري عندما يقضي حاجته عند حدود مربع منطقته، فيُحرم على أي ذئب آخر الاقتراب.. كلما قابلتك تذكرت هذا التشبيه، وتذكرت أنك «territorial» بالمعنى الحرفي للكلمة.

هذا يزيد رُعي. كل هذا التملك ونحن على البر فماذا عنا عندما تبحر السفينة، وعندما نصير في قلب المحيط، وعندما يصيح الصائحون أن العودة مستحيلة وأنا سنهوي من فوق حافة العالم؟

لن أنتظر.

سوف نفسخ الخطبة إن شاء الله.. سأكون شجاعًا وأفعلها.

سوف أتخلص منك إن شاء الله.. سأعود حرًا.

لا أحد يضع علامته عليّ.. لا أحد يضعني في منطقته.

اشتھاء؟ هذا صحيح.. الشيء الوحيد الذي بقي والذي أحمله لك طيلة الوقت، لكن ثمن الظفر به غالٍ جدًا.. ثمن يساوي حياتي كلها.

سوف أتخلص منك يا عادة.. وعندها سوف تجدين أحق آخر. لماذا أنا بالذات؟

الحمقى كثيرون يا صغيرة.. اذهبي وجدي واحدًا سواي.

* * *

وصلتني أول الصور يوم الثلاثاء (لعله الأربعاء؟).

كنت جالسًا في مكتبي أتفقد البريد الإلكتروني. كالعادة هناك ألف خطاب من عادة، وهي تتوقع أنني أقرأ. طبعًا لا تتصور ولا تتخيل أنني أمسح الخطابات أولاً بأول.. لم أعد أطيع قراءة أفكارها السخيفة.

أعرف يقينًا أنها ترسل لي بعدة أسماء وهمية.. أسماء فتيات طبعًا. عندما ترسل لي فتاة اسمها «شيرى المغربية» وتقول إنها رائعة الجمال وعندها ٢٠ سنة وتعشقتني بجنون، فإنني أدرك أن هناك مقلبًا.. هذا نوع من الاختيار لأخلاقي.. وهذا النوع من الخطابات بالذات هو الذي أفتحه كي أغيظها.. لا بد أن أنثر عبارة أو عبارتي غزل في ردي لثجن.

وصلني خطاب من فتاة تدعى «لوعة».. اسم آخر واضح أنه ملفق. لو كانت هناك فتاة اسمها لوعة فلا بد أنني عمر الشريف. فتحت الخطاب فلم أجد أي كلام.. فقط هناك مشاهد بشعة لعملية تشريح جثة.

أربع صور تُظهر فتح البطن وإخراج الأحشاء و.. من السادي المجنون الذي يرسل لي صورًا كهذه؟

تخلّصت من الخطاب طبعًا، لاعتنا أبا الممل الذي يدفع الناس للتسلية. للموت حُرمة، لذا لا أفهم أن نُفتحم لمجرد رغبة العبث.

فجأة وصل خطاب جديد ممن يدعى «ميدو». فتحت الخطاب ففوجئت بنفس الصور السابقة. مَنْ هذا؟ هل هي تفاصيل تشريح زعيم العالم، أم ماذا؟ بحثت عن اسم صاحب الجثة فلم أجد.. لا توجد أي بيانات.

بعد ساعة وجدت ثلاثة خطابات مماثلة.. لقد جُن الجميع إذن.

دققت في الصور أكثر.

هناك شعر كثيف.. مثلي.. هناك ندبة لجراحة زائدة دودية قديمة. يبدو أننا نتشابه في أشياء كثيرة.. حتى هذا التيشيرت الذي ينزعونه عن الجثة في لقطة، عندي مثله بالضبط وقد كُتب عليه:

Go Get'em Joe

(هلم اظفر بهم يا جو)

الأمر غريب فعلاً.. لون البشرة واحد. لا أرى الوجه، لكن هناك قلادة حول العنق.. قلادة تشبه قرن الشطة.

قرن الشطة؟

الأمر يتجاوز فهمي للأمور.

هذه الجثة التي يشرحونها والتي تتدفق عليّ صور عملية تشريحها، هي ببساطة جثتي أنا.. لا شك في هذا!

* * *

في الأيام التالية فطنت لحقيقة أن الإنترنت تعج بصور عملية تشريحي.. يبدو أن هذه أشهر صور في التاريخ، ولو كنت أكثر جرأة لطالبت بحق الأداء العلني. طبعًا لم أرَ وجهي في أي صورة، لكن الإنسان الذي لا يتعرف على سمات جسده أحمق.. وأنا لست أحمق.

كان الخاطر الأول الذي لاحقتني هو أن هذا مقلب من عادة. إن الفوتوشوب هو لغة العصر، وسوف يأتي يوم نكتشف فيه أننا غير موجودين في هذا العالم، بل تمت إضافتنا بإحدى حيل فوتوشوب. إذن هناك من استعمل صوري ولفقها على صور جثة.. والغرض هو ترويعي أو هي دعاية ثقيلة.

اتجه ذهني على الفور إلى عادة.. لو كان هناك مَنْ يفعلها فهو عادة، التي أثبتت أنها قادرة دومًا على ارتكاب أكثر الأفعال حماقة.

لقد قامت بالتلفيق على الأرجح، ثم راحت ترسل إليّ هذه الصور من أكثر من حساب.. يمكننا أن نعرف أنها هي مودي ولوعة وأي واحد آخر.

على كل حال قررت أن أجري بحثًا مدققًا عن هذه الصور.

كان هناك البحث الصوري الخاص ببرنامج جوجل، وهو عمل عبقرى في رأيي.. تضع الصورة التي تريدها ثم تطلب منه البحث.

هكذا أجريت بحثًا بالصور عن صور تشريحي اللطيفة هذه.

هكذا وجدت ذلك الموقع اللعين «mutilated.com»

وقد أصابني الهلع: موقع مهمته أن يعرض لنا صور الجثث التي كانت نهايتها شنيعة، أو تعرّضت لأسوأ مصير، أو - في أبسط صورة - الجثث التي تحلّلت أو تعفنت.

يبدو البحث هنا كأنك تبحث في مقبرة فعلاً، لكنني وجدت الصور أخيراً.. وكان هناك عنوان يقول بالإنجليزية:

«من مصر.. الحب يصنع المعجزات»

وهو عنوان ساخر طبعاً، يعني أن هذه جريمة عاطفية لا تُصدق. بدأت أقرأ الخبر، فوجدت أن صاحب الجثة رجل من مصر عمره خمسة وثلاثون عاماً، قتلته خطيبته بطريقة بشعة عندما حاول هجرها.

طريقة بشعة؟ ما هي؟ آه.. أدخلت قناة وريدية في عروقه ثم راحت تنفخ الهواء بفمها حتى أحدثت سدة هوائية.. تشنج وارتجف ثم مات.

يا ساتر يا رب. الغريب أن طريقة الوفاة واردة جداً بالنسبة إليّ.. من الطبيعي جداً أن تقتلني عادة لو شعرت أنني أتملص منها. دعك من أنها طبية.. أي أن عندها الخبرة الطبية التي تجعل طريقة القتل هذه سهلة. هذا شيء لن يدهشني أبداً. ذات مرة قلت لها إنني راغب في إنهاء العلاقة، فاتسعت عيناها، وصارت أقرب إلى نمر متوحش.. اتسعت عيناها جداً وصارت الحدقتان كأنهما نقطتان بقلم وسط البياض، ثم قالت بصوت كالأفعى:

- ده انت تبقى سافل!

وكان هذا كافياً لأن أضحك وأتظاهر بأنني أمزح. لقد رأيت لمحة من تحولها إلى أفعوان أسطوري مخيف خارج من ملاحم الخواجة «هوميروس». لا يا سيدي.. لتذهب الشجاعة إلى الجحيم.

الاحتمالات إذن أن هذه صدفة نادرة عجيبة جداً.. وفاة الشخص الذي يشبهني والذي له خطيبة تشبه خطيبتي. الاحتمال الثاني أن هذه صور مُلفقة أرسلها صانعها للموقع.. الموقع يستمد محتواه من القراء.

رحت أتصفح باقي الصور.. تداخلت الرؤى الشنيعة في ذهني، لكنني توقفت للحظة عند صورة لرأس مقطوع معلق فوق سلك هاتف على الطريق الزراعي.. وكل شيء يدل على أنها

صورة مصرية أخرى. كان التعليق يقول:

«من مصر.. حافظ على رأسك عندما تتركب القطار»

طريقة تعبير ساخرة أخرى.. حافظ على رأسك معناها «تعقل».. كانت القصة التقليدية عن الرجل الذي ركب على ظهر القطار تفادياً لدفع التذكرة، وبالطبع نسي ووقف بينما هناك جسر آتٍ بسرعة، طار الرأس واستقر على سلك الهاتف.

اكتفيت جداً من هذا الموقع، وشعرت بأن معدتي تتقلص. سوف أقضي ليلة ليلاء بسبب هذه الصور وهذا المزاج الأسود.

* * *

بعد يومين بالضبط وأنا في المكتب وجدت الخبر في الجريدة.

كان هناك خبر عن مُتسكِّع ركب فوق القطار المتجه من بنها إلى القاهرة، ويبدو أنه فقد رأسه بالمعنى الحرفي للكلمة. كانت هناك صورة للرأس.. لم تكن نفس الصورة في الموقع لكنهما نفس الشخص كما هو واضح.

بدأت يدي ترتجف.. حملت الجريدة ودخلت الحمام لا لشيء إلا لأنفعل دون عيون فضولية. الحادث وقع أمس.. أنا رأيت الصور منذ ثلاثة أيام.. ومعنى هذا أنها أرسلت إلى الموقع قبل هذا بفترة.

هناك شيء غريب.

موقع «mutilated.com» هذا سابق لزماننا ببضعة أيام.. إن ما يظهر فيه من صور لم يكن قد حدث بعد عندما نشره الموقع.. لكنه سيحدث خلال أيام.

أرسلت إلى إدارة الموقع أسألها عن مصدر صور «من مصر.. الحب يصنع المعجزات»، ومتى أرسلت بالضبط.. لم يرد أحد عليّ. في الواقع هذا الموقع غامض فعلاً.. سوف أحاول التحري عنه فيما بعد.

المهم في الموضوع أنني رأيت صور عملية تشريحي كاملة.

غادة حائقة.. غادة تغار عليّ بشدة.

ليس هذا أنسب وقت للتخلص منها كما ترى.. عليّ أن أتحكم في نفسي قليلاً.

لو كانت نظريتي صحيحة فأنا أسبق الناس بالعلم ببضعة أيام.. هذا مفيد جداً.. هذا مخيف جداً كذلك.

والسؤال هنا: لو استطعت أن أمنع غادة من قتلي فهل تتلاشى تلك الصور من الموقع؟ هل تختفي عند الناس الذين يحتفظون بها؟

يجب أن أحاول تحسين علاقتي معها.. يجب أن أحسن علاقتي بها جداً وفي الآن ذاته لا

أنفرد بها أبداً.

ربما كان من المفيد أن أسافر قليلاً وأبتعد.. لكن عادة تعرف دائماً كيف تجدني.. لا جدوى من الفرار منها لأنها تشتم رائحتي.

الفرار من عادة هو تحت الأرض فقط.

* * *

عندما ترأب الفتاة وهي تأكل فأنت تأخذ فكرة لا بأس بها عن طباعها الدفينة، ولعلك تذكر قصة شاعرنا العظيم الذي رأى حبيبته المطربة الرقيقة تأكل الفسيخ في شم النسيم، فأصابه الهلع وشُفي من حبها تماماً. خصوصاً طريقتها في تهشيم البصل الأخضر كأنها معلم من وكالة البلج. هناك الفتاة التي تلتقط طعامها بحذر كأنها عصفور.. وكأنها تخشى أن يلمس شفيتها أو أناملها، وهناك الفتاة التي تعبت في طعامها كقط وهي التي وصفها «فلوبير» ببراعة في «مدام بوفاري». في هذا المطعم أراقب عادة وهي تأكل وتمزق شرائح اللحم بالشوكة والسكين، ثم تدس المكرونة في فمها كما ينقلون للفيل الدريس في السيرك القومي. عندما أرى هذا أرتجف.

أقول لها:

- ماذا تفعلين لو وجدت أنني لم أعد جوارك؟

نظرت إليّ نظرة نارية، وقالت:

- تعني لو أنك مت؟

- أعني لو أنني رحلت.

قالت ضاحكة وقد التمتعت الصلصة على شفيتها:

- أنت فعلاً ساذج.. إنسان بريء صافي النية.

- لماذا؟

- لأن انتقامي سيكون فريداً من نوعه. لست فتاة بلهاء ممن يبكين، ولست امرأة حمقاء ممن يمزقن أزواجهن بالسكين.. سيكون انتقامي فريداً لكنني لم أفكر فيه بعد.

قلت في سري: سوف أعطيك فكرة ممتازة.. لم لا تثبتين إبرة وريدية ثم تنفخين فيها لتملني عروقي بالهواء؟ تجربة فريدة ومثيرة هه؟

راحت تلوك اللحم بفم مفتوح، حتى توقعت أن تزار ثم تتجه للنهر لتشرب.

قلت لنفسي: إن الوقت قد حان لقضاء بعض أيام في الساحل الشمالي، في ذلك الشاليه الذي يملكه صاحبي ودعاني لأقيم فيه بضعة أيام.

سوف أبقى هناك لفترة.. متى أعود؟ أعتقد أن الإجابة واضحة: سأعود عندما تختفي تلك الصور من الموقع، وهكذا أعرف أن الخطر تلاشى.

* * *

هكذا كنت أقف من آن لآخر أراقب الشط والموج الأزرق.

كنا في ميلاد الشتاء، لهذا كان الطقس باردًا فعلاً، وكنت وحيداً.. والوحدة تضخم الذكريات وتضخم المخاوف. لكن كان عندي اتصال بالإنترنت لحسن الحظ، وكان معي الهاتف أجري به مكالمات طويلة جداً مع أصدقائي وأتجاهل مكالمات عادة أو أرد بشكل مقتضب.

كنت أدخل موقع «mutilated.com» في كل يوم، فأجد أن صوري توارت جداً لكنها ما زالت موجودة. هناك مرة غريبة فعلاً، رأيت فيها صوراً لتشريح جثة تمساح.. هو مشهد بشع في حد ذاته، لكنني وجدت أنهم يخرجون من أحشائه أشلاء بشرية لفتاة.

الخبر يقول إن هذا حدث في مصر في الساحل الشمالي. ما معنى هذا السخف؟ لا توجد تماسيح في مصر طبعاً ولو وجدت فهي نيلية.. وما أبعدنا عن النيل هنا.

بعد ثلاثة أيام قرأت أن فتاة اختفت وهي تسبح في قرية بالساحل الشمالي. بعد أيام رأيت صور اصطيد تمساح وفتح بطنه. واضح أنه هو الذي فتك بالفتاة، وفيما بعد عرفت أن هناك من اشترى هذا التمساح طفلاً من مزرعة تماسيح مياه مالحة في أستراليا.. كالعادة قام بتربيته في حوض زجاجي ثم كبر الوحش جداً جداً.. هكذا حمله وتخلص منه على الساحل ذات يوم.. ونسي كل شيء عنه.

ما حدث هو أن التمساح لم يمت.. تغذى على الأسماك وتضخم.. ثم بدأ يبحث عن صنف آخر من الطعام.. ولحسن الحظ أنني لا أسبح.

هذا موقع مفيد حقاً.. يمكنني أن أنشئ جريدة تعتمد بالكامل على ما أراه فيه.. ونقطة القوة هنا هي أن أحداً لا يعرف هذا اللغز.

لا أحد يلاحظ ارتباط الصور في الموقع بالواقع.. وعندما يلاحظ أحدهم ذلك يكون قد نسي إن كان الموقع نشر الصور قبل أم بعد.. بالطبع أي شخص عاقل سيفترض أن الموقع ينشر «بعد».. لو خطر ببال أحد أنه ينشر «قبل» لماجت الدنيا.

جاءت فرصة ذهبية بعد يوم واحد، عندما فتحت الموقع الشنيع لأجد صوراً رهيبة لسيارة تحترق.. وبدا كأن من كان يقودها حاول الزحف خارجها.. لكنه تفحّم قبل أن يبتعد. صورة شنيعة جداً.. والأهم أن التعليق يقول إنها من مصر، وإن الضباب هو السبب. وإن رقم السيارة واضح في الصور تماماً.

هذه المرة شعرت بتأنيب ضمير شديد.

راجعت النشرات الجوية فوجدت أن الجو صحو تماماً.. سوف تكون هناك شبورة بعد أسبوع من الآن.. وهذا معناه أن الموقع يمارس هوايته الخبيثة في التنبؤ.

لم أستطع الصمت أكثر، فاتصلت بصديق لي يعمل ضابطاً مهماً في شرطة المرور، وطلبت منه بيانات عن السيارة وقائدها.

السيارة سليمة. قائدها شاب سعيد بسيارته ويمرح في شوارع القاهرة، عالمًا أنه لن يموت ولن يحترق أبدًا.

هكذا وجدت رقم هاتف معي فاتصلت به، وعندما سمعت صوت الفتى قلت له في إلحاح:

- أرجوك أن تبعد عن الطريق السريع.. بالذات في وقت الشبورة.. قد لا تُصدق وقد تعتبرني مخبولاً.. لا يهم.. ما يهمني ألا تلمس عجلة سيارتك الطريق السريع في الفترة القادمة.

سألني في جزع عن شخصيتي.. مَنْ أنا؟

على كل حال عرفت أن نبوءتي المخيفة قد هزته فعلاً.. سوف يكون حذرًا.

وضعت السماعة راضيًا عن نفسي.

رضيت عن نفسي أكثر عندما فتحت الموقع بعد يومين فلم أجد أثرًا لتلك الصور.. اختفت تمامًا.

وهذا معناه أن قدر الرجل قد تغيّر.. ليس قدره، بل ما كان الموقع اللعين يعتقد أنه كذلك.. لن يفقد حياته على الطريق السريع.

عدت أبحث عن صوري فوجدتها كما هي.. بشعة كما هي.. كئيبة كما هي.

هكذا عرفت أن الخطر مستمر وقائم.. لم يتزحزح.

أنت تفهمني وتعرف أنني لست مولعًا بالعنف على الإطلاق.. لكنني أعتبر الموضوع دفاعًا مشروعًا عن النفس.

لهذا تفهم لماذا خطرت لي فكرة قتل عادة في هذه اللحظة بالضبط!

* * *

خطاب غريب في صندوق البريد الخاص بي.. فتحته في توجس لأن العنوان يحمل لفظة «mutilated.com».. كان الخطاب مكتوبًا بإنجليزية ممتازة فعلاً، وقد كتبه من يدعى «مايكل أندروود» مدير الموقع:

سيدي

سرني أن تلقيت استفسارك بصدد الصور الخاصة بمصر، وأنا أقدر حيرتك، بل أسمح لنفسي بأن أفترض أن هذه الصور تخص شخصًا تعرفه.. هنا أعترف لك أننا موقع غريب وأن لدينا إمكانيات غريبة، كما أن عقيدتنا نفسها مختلفة ويصعب أن أشرحها لك، ما لم تُرد بالطبع أن تكون واحدًا منا وهذا يستدعي إجراءات معقدة نوعًا. ما أريد قوله هو أننا لا نصنع هذه الصور ولا نلفقها، ولكن يرسلها لنا مراسلونا عبر العالم. وما يمكنني قوله كذلك هو أننا لا نسبب الحوادث لكننا نرصدها.. والفارق الوحيد أننا نرصدها قبل حدوثها. لقد تقدّم علم التنبؤ كثيرًا عن عهد «نوستراداموس»، وصار

بوسع البعض أن يربك شريطاً كاملاً لما سيحدث. النصيحة التي أقدمها لك هي: هذه الصور أصلية، ليأخذ صاحبها الحذر، هكذا يمكنك أن ترى أننا نؤدي دوراً اجتماعياً مهماً.

بإخلاص

مايكل أندروود

كان الخطاب غريباً.. لم أتوقع أن يكون الكلام بهذا الوضوح وهذه الصراحة. هذا الرجل يعتقد عقيدة ما ويملك قدرات خاصة.. لن أندش كثيراً لو كان هو الشيطان نفسه.. وأعتقد أنه يحاول أن يضمني لهم. طبعاً لن أرد.

كنت أرمق الأمواج تتهشم على الشط شارد الذهن. ما زال هناك حل واحد واضحاً أمامي.

* * *

أن أقتل عادة.

لقد تأكدت يقيناً من أنها سوف تقتلني.

أنا أعتبر الموضوع دفاعاً عن النفس بلا شك.. لا أعرف رأيك ولا يهمني، لأن هذه حياتي أنا لو كنت قد لاحظت. لكن كيف أفعل ذلك؟

هناك الطرق العنيفة مثل الصراع وتهشيم رأسها أو طعنها... إلخ. طبعاً لا أستطيع الحصول على مسدس. إذن تبقى الطرق اليدوية العنيفة كما قلت، لكن عيبها هو أن عادة قوية.. عادة تملك عضلات هرقل وتأكّل كالحاليف البرية.

يمكنني بسهولة أن أراها تجثم فوقني وهي تردد:

- تريد قتلي؟ هه؟ أيها الخائن! سوف أريك من هي عادة.

تقول هذا وهي تقيد معصمي بالشريط اللاصق، ثم تغرس محقناً مليئاً بالهواء في عروقي وتضغط الكباس.. هذا ما سيحدث بالتأكيد.

ماذا عن السموم؟ التخدير؟ هذه حلول واردة فعلاً.

هكذا بدأت خطتي تتبلور.. والأجمل أنها لن تكون عنيفة على الإطلاق.

بدأت أدرس موقع «mutilated.com» اللعين ببطء، وتابعت معظم الحالات فيه.. لاحظت في دهشة أنني لم أعد قادراً على العثور على صوري.. غاصت في قاع الموقع وصار من الصعب أن أجدها.

ما معنى هذا؟ هل احتمالات وفاتي تتراجع؟

إن الموقع لا يكف عن إبهاري.

يمكنك إذن أن تتصور حياتي وحدي في هذا الشاليه في الساحل الشمالي أرمق الموج النائر،
شاعرًا أنني أرى صورة لما يدور داخلي طيلة الوقت.

قتل أم لا قتل؟

على كل حال، يسهل أن يكون مخي في حالة تحلل متواصلة.. إنني أجن بالتدريج ولا أدرك
ذلك، والسبب تلك الصور اللعينة.

* * *

أن أقتل عادة.

بلا عنف لأن الشيطانة قادرة على تحطيم عنقي بسهولة. اتصلت بي مساء اليوم وقالت إنها
قلقة علي.. لماذا أمضي كل هذا الوقت عند أقاربي في كفر الشيخ؟ كان صوت الموج يتعالى من
بعيد، لكنني احتفظت بنبرة من يجلس في كفر الشيخ، وقلت إنها مشاكل تتعلق بأرض قديمة.
قالت ضاحكة إنها سوف تتولى كل أموري المالية يوم ننزوج.

سألتني عن خالتي صفاء فقلت إنها بخير. خالتي كانت في حفل الخطبة، وهي امرأة ظريفة
جداً.

قالت عادة ضاحكة:

- هذا جميل.. لقد اتصلت بها اليوم فقالت إنها لم ترك منذ ستة أشهر!

ارتبكت للحظة فقالت كأنها تكلم طفلاً:

- تؤ تؤ.. أشعر أن هناك كذبة في الطريق، و«بينوكيو» الصغير سيستطيل أنفه!

هنا صعد الدم لرأسي فقلت:

- عادة.. أنا شخص ناضج ولست مطالباً بتقديم تقرير عن خطواتي، وبالتأكيد لن أطلب منك
أن تتأكدي من كل خطوة.

- لا أطلبك بتقديم تقرير، لكن أطلبك بعدم الكذب.

كرهتها جداً لأنها وضعتني في موضع الكاذب الضعيف الذي يذود عن نفسه. كانت مكاملة
عنيفة جداً، وأعتقد أنها خمنت أنني في سبيلي للرحيل قريباً جداً.

وفي تلك الليلة عدت للموقع أتصفحه بدقة.

هذه المرة كانت هناك صور جديدة من مصر.

رحت أدقق في الصور.

هناك جثة فتاة.. ومن الواضح أن من قتلها قيدها جيداً ثم ثبتت كيساً من البلاستيك بعناية
حول رأسها.. إسفكسيا.. ميتة شنيعة فعلاً.. لا بد أنها استغرقت دقائق قاسية.

الكيس يُخفي الملامح.. لكنه لا يُخفي هذه البلوزة.. والقلادة حول الجيد. أعرفهما جيدًا جدًا.
لحظة من فضلك.. هناك لقطة ليدها المقيدة كذلك.. الفتاة لم تمت دون أن تقاوم، ويبدو أنها
مزّقت جزءًا من تيشيرت القاتل.. وها هو ذا ظاهر تحت مخالبتها.. هذا المشهد كان أكثر تخويفًا
من صورة الجثة كلها.. لا أعرف السبب.

* * *

اتسعت عيناها جدًا جدًا وصارت الحدقتان كأنهما نقطتان بقلم وسط البياض، ثم قالت بصوت
كالأفعى:

- ده انت تبقى سافل!

* * *

أعرف نسيج هذا التيشيرت الذي بقيت قطعة منه في يدها.

أنت رأيته من قبل.. هلم تذكر.. ألا ترى بقايا مقطع:

em Joe'

يعني: هلم اظفر «بهم يا جو». هذا ما بقي منها.

لقد تغيرت الحظوظ.. ومن الواضح أن ما سأفعله سينجح.. والأهم أن الموقع أخبرني
بالطريقة.. وهي طريقة شنيعة تناسب ما أحمله نحوها فعلاً.

هذه الليلة اختفت صوري تمامًا من موقع «mutilated.com».

* * *

كانت تنظر إليّ.

العينان المجنونتان القاسيتان تنظران إليّ. ما زلت أجد هذا الوجه شائقًا مغريًا، لكن في
الوقت ذاته أخافه كثيرًا. أنت تجد الكثير من الجمال في الأفاعي بالتأكيد.. البعوضة حشرة رائعة
الجمال رشيقة التصميم.. الخطر والموت لا يتعارضان مع الحُسن.

- تأخرت كثيرًا في... كفر الشيخ.

طبعًا هذه اللهجة والتلكؤ في نطق كفر الشيخ يدلان على أنها لا تُصدق حرفًا. قلت لها وأنا
أمسح على شعري:

- مشاكل كثيرة بخصوص الأرض.. لم تكن نزهة.

ثم نظرت إلى وجهي طويلًا، وقالت:

- بدايات شارب.. نظارة سوداء.. بيرييه.. تبدو غريبًا جدًا.. مثلما يتنكر العملاء في أفلام السينما.

- أحب أن أبدو مختلفًا.. هذا حق طبيعي.

الشيء الذي أعرف يقينًا أنني لن أغیره هو التيشيرت. التيشيرت اللعين الذي يحمل عبارة:

Go Get'em Joe

والسبب طبعًا هو أنني لا أريد أن أفسد الصور التي رأيته في الموقع. قرأت قصص الخيال العلمي التي يعبث فيها البطل في الماضي، لكن لم أقرأ قصص خيال علمي يعبث فيها البطل في المستقبل الذي صار ماضيًا.. أو... هذا يثير الدوار فعلاً.

حلّق طائر حولنا في ضوء الغسق وابتعد.

كنا جالسين على العشب في تلك الحديقة العامة.. هذه الحديقة تُغلق أبوابها بعد الثالثة عصرًا، لكن حارسها يريد أن يكسب بعض المال من وقت لآخر، ولهذا يسمح للعشاق بالتسلل.. التسلل إلى حديقة كاملة يملكانها هما فقط.. بالطبع يعرف الحارس ما يفعله وما يقود الشباب إليه، وهو عمل مُشين، لكنه قدّم لي خدمة ممتازة.

اقتрحت على عادة أن نذهب إلى تلك الحديقة معًا.. ووافقت هي مع أنها تعرف بالضبط طبيعة المكان. لعلها حسبت أن الهيام أفقّدي صوابي.. وسرّها هذا.. هذا من دواعي مقّتي لها.. مستعدة أن تمنحني أي شيء في أي وقت بلا اعتراض، مع أن بعض التمنّع يريحني ويطمئنني أنها تصلح.

كنت قد أطلت شاربي في الساحل الشمالي، وبذلت الكثير من ملامحي. وهكذا عندما جعلنا الحارس نتسلل للحديقة احتفظ في ذاكرته بصورة غريبة لوجهي. فيما بعد سوف يصف للشرطة شخصًا آخر تمامًا غيري، لأنني سأكون قد حلقت الشارب وتخلّصت من النظارة والبيرييه، وسوف يتطوع عدة رفاق بالشهادة بأنني كنت معهم في تلك الأمسية.

جلسنا على العشب في الغسق الذي يوشك أن يصير ظلامًا.

أحب صوت صرصور الحقل وصوت نقيق الضفادع ليلاً.. هذه لغة الطبيعة ذاتها.. من الغريب أن ترتبط بأول جريمة قتل في حياتي.

أمد يدي إلى علبة العصير وأناولها واحدة وأخذ واحدة. العلبة ذات الشريط الأزرق على الجانب هي التي تحوي أقراص المنوم الذائبة.. لا تخلط الأوراق.

تمتص محتوى علبتها وعيناها تلمعان.

الآن وقد استقر العصير في معدتها قلت لها في هدوء:

- سوف ننهي الخطبة! أنا أحب فتاة أخرى!

عيناها تحولتا كالعادة إلى موقدي بوتاجاز وهي تنظر إليّ، ثم قالت بفحيح الثعابين:

- هل تمزح؟ تأتي بي هنا لتقول هذا الكلام؟

- هذا كلام يمكن أن يقال في أي مكان.

ألقت بالعلبة جانبًا وتقلّص وجهها.. سوف تزار حاليًا بلا شك. أنا إنسان ميت.. هل هناك نهر قريب تقصده لتشرب وتزيل مذاق الدم عن فمها؟

هنا لاحظت أنها تهتز.. نظرتها زائغة ويدها على جبهتها.. تهز شعرها ورأسها يترنح.

وفجأة أطبقت مخالبتها على التيشيرت، وصاحت:

- مخدر! أنت وضعت لي مخدرًا!

لم أرد.. نظرت إليها بشيء من الخجل.. فكرت أن أبدأ العنف، لكنها بدأت تتهاوى.. وبرغم هذا مزّقت صدر التيشيرت الخاص بي.. بالذات عبارة: 'em Joe'.

هكذا عرفت أنني سأنجح.

تهاوت على الأرض مغمضة العينين، فهرعت إلى حقيبتتي الصغيرة أخرج الحبال والقفاز والكيس البلاستيكي. لا بد من التقييد فأنا لا أضمنها لحظة، ولو نهضت لهشمت عظامي.

كانت مهمة قاسية ومريرة، لكنني استمتعت بها في النهاية. القفاز سوف يبقيني لغزًا بالنسبة إلى الشرطة، ولن يثبتوا شيئًا.. فقط سيعرفون أن لها خطيبًا وسوف يجعلون حياتي جحيمًا لفترة ثم يرحلون. آخر أنفاس لدى عادة.. وداعًا يا صغيرتي.

وداعًا...

الآن أرى دقة موقع «mutilated.com».. الصور هي بالضبط تلك التي نُشرت منذ أيام.

ما سر هذا الموقع؟ كيف يلتقطون صور الغد بهذه البساطة؟

سوف أعرف هذا فيما بعد.. لأنني سأغادر الحديقة من الباب الخلفي.. لن يراني هذا الحارس أخرج وحدي.

لقد ساد الظلام الآن.. ولولا ضوء النجوم لما رأيت يدي نفسها.

صوت غطيظ غريب صدر من الجثة وجمد الدم في عروقي.. هل ما زالت تتنفس؟ لا أجرؤ على التيقن.

وداعًا يا عادة.. وداعًا.

أهرع جريًا عبر الحديقة موشكًا على فقدان الوعي من وجيب قلبي.. أترنح.. أنهض.. أتعثّر في نافورة حجرية واطنة.

ضفدع يتواثب هاربًا.

صوت بومة في مكان ما.

وفجأة لم أعد أرى.

* * *

رأسي يؤلمني.. كنت مقيداً في وضع غريب على الأرض جوار شجرة.. وكان الظلام دامساً.
أدركت أن شريطاً لاصقاً على فمي كذلك.

لكنني أرى هذا الشخص الذي ينحني عليّ وبين أسنانه كشاف مضيء. تأثير غريب فعلاً
يجعله كأنه تنين يبعث الضوء من فمه.

كان يلهث في استمتاع.. يلهث في انفعال.. يلهث من الضغط العصبي.

لما رأي أحاول الحركة، قال وهو يعري كمي:

- صبراً.. سوف أجد الوريد حالاً!

كان الكلام يخرج غريباً مشوهاً، لأن الكشاف بين أسنانه.. لكنني سمعت لفظة «وريد»..
وريد؟

قال وهو يخرج قناة وريدية وجهاز محلول:

- معذرة.. لا بد من تفسير قبل أن تموت.. هذا حقك.

ثم راح يبحث عن وريد يُثَبَّت فيه القناة الوريدية على ضوء الكشاف.. أي!

- وجدته.. لا مؤاخذه.. أنا مولع بالقتل.. يمكنك القول إنني سفاح تتابعي يبدأ العمل.. ولأنني
طبيب تم فصله من النقابة، فقد قررت أن أتسلى.. أقتل الناس بأساليب طبية مختلفة.. اليوم
دخلت هذه الحديقة بحثاً عن ضحية مناسبة ففادك قدرك لي.. في الظلام. ضربة على مؤخرة
عنقك ثم نبدأ الحفل.. هل تعرف كيف سأقتلك؟

قلت من وراء الكمامة:

- مم ممف.. ممف ممف.

أي باختصار:

- سوف تُثَبَّت قناة وريدية وتتفخ الهواء فيها حتى أموت بسدة هوائية!

هذا واضح وسهل.

مد يده إلى التيشيرت، وأشار إلى الصدر الممزق، وقال:

- مَنْ مَرَّقَ هذا التيشيرت؟ كأنك كنت ملتحمًا مع نمر قبل أن أراك!

جثة غادة هناك تحت شجرة.. لن يراها أحد قبل الغد.. وسوف تصير هذه الحديقة حديقة
أشباح يخاف الأطفال المرور جوارها.

يد السفاح تتحسس عنقي ثم يقول:

- جميلة هذه القلادة.. على شكل قرن شطة.. سوف أتركها لك!

قلادة قرن الشطة! لماذا ارتديتها اليوم؟ كانت موجودة في صور مصرعي.. الموقع يتصرّف بدقة عظيمة.. إن موقع «mutilated.com» يحترم رؤاده فعلاً.

لقد نشر الموقع صوراً لجثتي من قبل، وهو لا يقبل أن يكذب على القراء بصور زائفة.

من يدري؟ ربما لم تكن عادة خطيرة.. ولربما تلاعب الموقع بي ليجعلني قاتلاً مرة وجثة مرة أخرى.

السفاح يقرب فوهة جهاز المحلول من شفتيه بعدما أبعد الكشاف.

يقول وهو يأخذ نفساً عميقاً:

- استعد.. سيكون هذا مؤلماً جداً لأن السدة الهوائية ستصل للعضلات والرئة والشرابين

التاجية.. أي أنك ستتلقى كدودة تحترق.. لا تقلق. سيكون الموت سريعاً.. رحلة طيبة يا صاحبي.. هوف ف ف ف ف ف ف ف ف ف ف!

الأرشيف

ربما تُصدِّق أو لا تُصدِّق يا دكتور.. أنا مصَّاص دماء.. كل شيء في خلاياي يقول إنني مصَّاص دماء، وإنني بحاجة للدم البشري لأعيش. عندي كذلك يقين مطلق بأن عليَّ أن أتخذ لنفسني جماعة من الأتباع. لا تعتبر ما أقوله لك معلومات مفروغاً منها.. لكن ماذا لو افترضنا أنني مريض جدًّا؟ ماذا لو افترضنا أنني اشتريت لنفسي بيتًا صغيرًا في قرية وحاولت أن أنعزل هناك مع التوابيت ومع بعض كتب السحر.. ثم بدأت أصنع لنفسني دائرة من أربعة أتباع.. أقول إننا نفترض هذا.

إعلان مناقصة

لشراء عشرة صناديق خشبية حجم الصندوق ٢ متر في متر عرضاً، وذلك لشركة خاصة تعمل في مجال التخزين. الاتصال برقم «.....» لتحديد موعد للمقابلة. يتم شراء كراسة الشروط وتحديد العطاءات في ١٢ يوليو ١٩٨٨.

إعلانات مبوبة

مطلوب شراء أو استئجار شقة دور أرضي مساحتها لا تقل عن ٢٠ مترًا في إحدى الضواحي، أو قرية جوار القاهرة. الاتصال برقم «.....». الوسطاء والسماسرة يمتنعون. للبيع: سيارة فولفو مو ٩٧٨ ازرقاء بحالة ممتازة. رخصة صالحة لمدة عامين. اتصل برقم «.....». للبيع: مجموعة كتب قديمة ذات قيمة أثرية عالية. كلها باللغة اللاتينية. للجادين والدارسين فقط. اتصل برقم «.....».

صفحة الحوادث

للمرة الرابعة في شهر واحد قام أهالي قرية «ميت السواري» بالقلوبية، بقطع الطريق السريع على السيارات احتجاجاً على تكرار حوادث نبش مقابر القرية. ويُذكر أن الحادث الأول وقع منذ شهر واحد، حيث فوجئ الأهالي بثلاثة قبور منبوشة وفارغة، اثنان من هذه القبور يخصان أسرة «المهدي» والثالث يخص أسرة «القلوبية»، وبرغم قيام الشرطة بالتحقيق في الحادث وبرغم تعيين حراسة مشددة على المقابر مع خفيرين مسلحين، فإن سرقة المقابر تكررت بعد هذا بأسبوع، ومن جديد وجدوا قبوراً خاوية تماماً. وبرغم تزايد الإجراءات الأمنية وقعت السرقة الأخيرة. ويعتقد رجال الشرطة أن الأمر يتعلق بمحاولة مجموعة من طلبية الطب الحصول على هياكل للدراسة، وهي جريمة حدثت من قبل وتمكن الأهالي من وقفها. يعود هذا الشك لكون بعض الأهالي رأوا سيارة فولفو زرقاء غريبة عن القرية قرب المقابر في أكثر من واقعة. من الجهة الأخرى يؤمن أهالي القرية بأن هذه الجثث تُسرق لغرض سحري أو من أجل الأعمال السُفلية. تولى الرائد «.....» والعقيد «.....» التحقيق.

* * *

صفحة «لكل مشكلة حل»

في مجلة «منوعات»

عزيزتي راندا

هل تؤمنين بالقوى الخارقة والأعمال السُفلية؟ أنا طالبة في كلية الحقوق جامعة «.....»، ومن أسرة متوسطة محترمة.. نقيم في مدينة قليوب. المشكلة هي أن والدتي تؤمن فعلاً بموضوع الأعمال والسحر الأسود، وهي ترى العفاريت والأشباح في كل ركن، وتؤمن أن هناك عملاً تحت كل عتبة. هي مثلاً تؤمن أن هناك عملاً معمولاً لي حتى لا أتزوج. هذا كلام جميل لولا أنني في العشرين وبالتأكيد لم يفتني أي قطار، بل إن زميلي في الكلية يهيم بي حباً وسوف يتقدم لي بمجرد التخرج.

جاءت أمي منذ أسبوعين بجمجمة غريبة الشكل.. لست معتادة على الجماجم طبعاً لأقول إن هذه غريبة وهذه طبيعية، كل الجماجم مرعبة وتوحي بالموت، لكن أثار جنوني أن أمي تعتبرها كائنًا حيًا وتُكَلِّمها. تقول إنها فتاة تُدعى صفاء في مثل سني، وقد قتلها أخوها في جريمة شرف. طبعاً لا أحب كثيراً هذه الخلفيات. السؤال الثاني هو من أين جاءت أمي بهذه الجمجمة؟ قالت إنها أخذتها من الشيخ بسطويس الذي يعرف هذه الأمور. لا أعرف من هو الشيخ بسطويس طبعاً، ولدى أمي على كل حال حشد من الشيوخ الذين يعرفون هذه الأمور.. لا أول لهم ولا آخر.. تُطلق عليهم «أولياء الله الصالحين»، وتعاملهم بتقديس شديد. هذا ما يطلقون عليه التدين البديل في مصر.

طيب.. سنقبل موضوع أن الشيخ بسطويس أعطاها الجمجمة، ولكن لماذا يحتفظ المرء بجمجمة فتاة اسمها صفاء؟

قالت أمي إن هذا عمل خير، لأن الجمجمة تحمل عملاً سلبياً ضد فتاة معينة، وكي يبطل العمل يجب ألا تدفن في التراب.. لهذا تحتفظ أمي بالجمجمة في الصندوق بدارنا وترفض أي حوار منطقي.. تصوري أنني أعتقد أنها تتفاعل بها!

راندا.. قولي لي ما يجب أن أفعله لأنني فعلاً موشكة على الجنون من هذا الجو النفسي المريض، لكن بالطبع لا تطلبي أن أتساجر مع أمي.

هالة. س - قليوب

* * *

عزيزتي هالة. س

خطابك له معزة خاصة لديّ لأنني من قليوب مثلك، قبل أن تبتلعني القاهرة الشبيهة بالنذاهة فتوقني في غرامها. فعلاً أندش جداً كلما قرأت عن هذا التدين البديل الذي يمارسه بعض المصريين، وللأسف لا أستطيع ألا أصفه بالكفر الصريح لمجرد أن الأمر يتعلق بأمك. أولاً: للموت حرمة أكيدة، لذا أنصحك بأن تقومي بسرقة هذه الجمجمة ودفنها في التراب.. هذا هو مكانها الذي اختاره الله. ثانياً: أنصحك بأن تساعد والدتك على قراءة صحيح الدين، بعيداً عن جو الخرافات النسوية هذا. ربما أمكنك الاستعانة بقريب لك ليساعدها.. وأذكرك بأن من نفت

في عقدة فقد كفر.. هذا لعب أكيد بالنار.

اكتبي لي دائماً.

راندا

* * *

مستشارك القانوني

م. ع. ه. - قلوب: بالتأكد يمكنك طرد هذا المستأجر من بيتك. من الواضح أنه أخل بالتزامه بالعقد، وأنت تقول إنه يصدر أصواتاً مزعجة تضايق الجيران، وقد حرروا له عدة محاضر، كما أنه لا يظهر في النهار أبداً لكنه في الليل يقيم على ما يبدو حفلات صاخبة. تقول إنك خائف منه وتخشى أن يتحرش بك، لكنؤكد لك أن القانون في صفك.

* * *

عزيزي هاني

أعرف أنك لم تعتد تلقي خطابات بالبريد الإلكتروني مني، وأنا نتكلم بالهاتف لسهولة.. لكنني أريد فقط أن أرتب أفكاري. كنت أراجع أرشيف مجلتنا على الإنترنت عندما وجدت إعلاناً عن مناقصة لشراء عشرة صناديق خشبية. لا أعرف أهمية هذه الصناديق، لكن خطر لي أن رقم الهاتف مألوف. وعلى سبيل الفضول أجريت بحثاً عن هذا الرقم في الأرشيف.. وجدت إعلانات غريبة فعلاً.. بيع كتب باللاتينية.. بيع سيارة فولفو.. شراء شقة بالطابق الأرضي.

ألا يؤثر هذا فضولك؟ أعرف أن هناك ألغازاً عديدة أثارت رغبة الشرطة عندما قلبوا صفحات الإعلانات، وأنا هنا أتساءل: ما الذي يجمع بين هذه الطلبات الغريبة، وكلها في مدى أقل من شهرين؟ هل لديك فكرة ما؟

راندا

* * *

عزيزتي راندا

فكرة غريبة أن تبحثي عن الإعلانات المرتبطة برقم هاتف معين. بالتأكد لم يجرب هذا أي واحد منا من قبل، وعلى كل حال لست ميالاً إلى وجود أي ارتباط.. وحتى لو كان هناك ارتباط فمن حق أي واحد أن يبتاع صناديق وأن يبحث عن شقة. أنا بحثت عن هذا الرقم على الإنترنت ووجدت عن طريق جوجل إعلانين.. لا شك أن صاحب هذا الهاتف يعشق الشراء والبيع لا أكثر.

أقترح أن تكفي عن طريقة البارانونيا هذه وتعيشي حياتك. أتابع ردودك على القراء في

المجلة وتعجبني جدًا. تحليل المشاكل بسلاسة وسرعة فائقة، وإنني لأتساءل: لماذا لا تحليل مشكلتك العاطفية الخاصة؟

دمت لي.

هاني

* * *

عزيزي هاني

ربما أنت محق.. هناك لحظات أعتقد فيها أنني ذكية أكثر من اللازم، أو أن أنفي شديد الحساسية، لا بد أن هذا يندرج تحت قائمة الغرور الأنثوي الزائد. الأنثى تعتقد أنها أذكى من الرجل ومن أي واحد آخر. هذا شيء معتاد ومعروف. أنت تعرف أن من يصيح أولاً أنه يشم رائحة شياطين هو غالباً أنثى.. والرجال يعتبرون هذه هستيريا. لكن دعني أؤكد لك أنني بعد زلزال ١٩٩٢ شعرت بالأرض تترجرج ذات مرة، وقال كل الناس إنني مخبولة، وبعد هذا قرأت في الصحف عن موجة ارتجاج ضعيفة جدًا من التوابع.

مشكلتي العاطفية الخاصة؟ أنت؟ أنا أحبك كثيرًا، لكنني ما زلت لا أجد الشجاعة كي أمنحك حياتي وكل شيء. الزواج خطوة مرعبة جدًا وجبارة تشبه الوثب فوق الهاوية، وأنا أخشى هذه الوثبة جدًا، برغم أنني لو وثبت فلن أختار سوى هاويتك أنت. أرجو أن تتحملني أكثر يا هاني.

راندا

* * *

عزيزتي راندا

هل تذكرين مشكلتي مع الجمجمة؟ أنا هالة من قلوب التي رددت عليها منذ عديدين. كانت عندنا خادمة مسنة اسمها أم أيمن، أعطيتها بعض المال وطلبت منها أن تتخلص من تلك الجمجمة اللعينة. هناك مقابر قريبة ويمكن أن يتم كل شيء بسهولة. تسلفت المرأة وقد لفت الجمجمة في قميص قديم.. وكان عليها أن تعطيها للحاد وتجعله يقسم بالله إنه سيدفنها.. ما حدث هو أنها تأخرت ساعة كاملة.. ثم عادت ومعها ذات القميص بما فيه.. لم تكن تتكلم وفي عينيها نظرة رعب لا يمكن وصفها.. كانت تنظر إليّ بفزع ومقت لا شك فيهما.. ثم دخلت فراشها على الأرض ونامت.. نامت حتى هذه اللحظة لأنها أصيبت بغيوبة عميقة لم يجد لها الأطباء تفسيرًا.

ماذا حدث هناك؟ لا أعرف. ربما كانت تخشى المقابر وأصابها فزع شديد هناك. سمعت عن رجل أصابه الخرس لأن هناك من ربت على ظهره وهو يمشي في المقابر ليلاً.

على كل حال قررت أن أفعل أنا الأمر بنفسني. هذه المرة اتجهت إلى المقابر في نور النهار.. وبحثت عن شجرة تين عجوز حفرت تحتها.. صنعت حفرة لا بأس بها وتأهبت لأضع الجمجمة

فيها.

هنا سمعت صوتًا واضحًا قويًا يقول: «لا تفعل!».

مَن قال هذا؟ نظرت حولي لأرى فلم أجد أحدًا.. حاولت من جديد.. ومن جديد تكرر الصوت. أصابني هلع شديد وتركت الجمجمة حيث هي وجريت مبتعدة.

لا أعرف السبب.. لكن خُيل إليّ أنني أسمع ضجيجًا، كأن رجالًا غاضبين يركضون.. وسمعت مَن يقول بصوت عالٍ: «لصة المقابر! إنها هي!».

لم أفهم ما يحدث.. لكنني أطلقت لساقَيَّ العنان، وأخيرًا وصلت إلى بيتي لاهثة منهكة.

رقدت في فراشي لفترة لا بأس بها، ثم سمعت صوت شخص يتكلم.. نهضت لأرى مَن، فوجدت أمي في الصلاة جالسة أمام الجمجمة وقد أضاءت بعض الشموع حولها وكانت تقول كلامًا غير مفهوم.

كيف عادت الجمجمة؟ أقسم بالله إنني تخلصت منها.. هل هي جمجمة أخرى؟

دخلت على أمي فأجفلت. سألتها: «هل هذه.. هل هذه صفاء؟».

قالت في دهشة: «ومَن غيرها؟».

وكانت صادقة.. الجمجمة لها شخصية واضحة ويمكن تمييزها عن الجماجم الأخرى.

الآن ما رأيك يا راندا؟ أنا خائفة من البيت وخائفة من أمي.. لكن الأهم أنني خائفة من نفسي.

هالة. س - قليبوب

* * *

عزيزتي هالة. س

بصراحة أمك تثير الفزع فعلاً، وما زلت أعتقد أنه لا بد من الاستعانة بقريب لك كي يعيدها لجادة الصواب. أما بالنسبة لموضوع الجمجمة فأنت تعرفين رأيي طبعًا.. هذا نوع من الخبال.. أنت على شفا الجنون أو الانهيار العصبي، ولا بد أنك أعدت الجمجمة للبيت وأنت لا تشعرين. مَن طاردوك في المقابر هم قوم حسبوا أنك ممن ينبشون القبور، وهو ما يجعلني أعتقد أنك لست من قليبوب نفسها، بل من قرية مجاورة لها اسمها «ميت السواري». أخبار هذه القرية تعددت مرارًا في الصحف، لأن أهلها يشكون من عصابات تنبش القبور. يمكن بسهولة افتراض أنهم حسبوك أنت من يرتكب هذه الجريمة، ولعلهم كادوا يفتكون بأمر أيمن هذه من قبل لنفس السبب.

اقرئي القرآن، وحاولي أن تنسي هذا الكلام الفارغ. بالمناسبة: هل والدتك ترى أعداد هذه المجلة؟ كوني حذرة.. لو قرأتها لعرفت من كاتب الرسالة على الفور!

صيدلية الشفاء قليبوب

مبيعات

دورميكام (أقراص منومة)

خمس علب

صفحة الحوادث

يواصل رجال البحث الجنائي التحقيق في مصرع هالة. س. من قرية «ميت السواري» بقلوبوب. طالبة حقوق في العشرين من عمرها.. تم العثور على الجثة بواسطة حانوتي كان يقوم بفتح تربة مغلقة من ترب المقبرة، عندما وجد الفتاة متوفاة وبثيابها الكاملة، وحالة الجثة تدل على أنها توفيت منذ يوم لا أكثر، ويبدو أنها كانت حية، وكانت تحاول الخروج من المقبرة. هذا أثار الرعب في القرية، بينما تؤكد أم الفتاة أن ابنتها لم تغادر البيت منذ يومين، إلا أنها اختفت قبل الوفاة بيوم ولم تعرف سبب خروجها ولا مكانها. يعتقد رجال الشرطة أن هناك من استدرج الفتاة للمقابر ثم قام بسجنها في مقبرة أغلقها بالأسمنت، ولولا نقص الهواء لظلت حية حتى يحفر الحانوتي القبر بطريق الصدفة.

* * *

عزيزي هاني

أشعر بقلق.. لا أنام جيداً أبداً.. كلما نمت رأيت جمجمة غريبة المنظر تلاحقني.. تضحك بلا توقف.. هل تعتقد أنني مريضة نفسياً أو أنني بحاجة لرأي طبيب؟

* * *

صفحة الحوادث

للمرة الثانية يتكرر سيناريو الجثث المقتولة في ظروف غامضة في قرية «ميت السواري» بقلوبوب. في هذه المرة تم العثور على جثة شيخ مُسن يطلق عليه أهل القرية اسم «بسطويسى»، وذلك قرب الجمعية الزراعية بالبلدة، وقد تبين أن هناك من قام بتهشيم رأسه بأداة ثقيلة. قال أهالي القرية إن الشيخ لم يكن له أعداء، وقد اعتاد أهل القرية أن يتبركوا به باعتباره يتصل بعالم الجان، أي أنه مشعوذ. لكن لم يستطع أحد أن يتهم شخصاً بالقتل. وقد

تبين في ثياب الشيخ الداخلية وجود مبلغ ضخم من المال يبدو أنه يشكل مدخراته، وهو ما ينفي فكرة القتل للسرقه.

جدير بالذكر أن القرية تتعرض منذ فترة لحوادث مختلفة غريبة، منها السطو على القبور، ومنها العثور على فتاة شابة طالبة بكلية الحقوق، من الواضح أنها دُفنت حية. وتقوم المباحث بالتحقيق في هذه الملابس الغريبة.

صفحة طبيبك الخاص

نوال. ف - القلبية: أعراض فقر الدم التي تصفونها غامضة جداً.. لا يوجد سبب للنزف كما تقولين، وليست الدورة الشهرية هي السبب.. لكن التحاليل التي أرسلتها تدل بلا شك على فقد مزمن للدم وأنيميا نقص الحديد.. هنا نفكر في الجهاز الهضمي. النزف الخفي من القناة الهضمية احتمال وارد جداً ولا يمكن تشخيصه إلا بفحص معين يتم على البراز.. أعتقد أن أي طبيب تحاليل يمكن أن يساعدك.

م. عبد الجواد - ميت السواري: يبدو أن هذا يوم فقر الدم. هذه على كل حال آفة المصريين. رقم الهيموجلوبين هو ٥ جم، وهذا رقم مرعب. لا بد من طلب رأي طبيب.

* * *

أعزائي

هذه المرة أجيب عن خطاب لم يصلني ولن يصلني أبداً، وصاحبته هي هالة. س. فتاة القلبية، التي عاشت أياماً قاسية مع السحر والخرافات، وكنت أنتظر ردها عليّ لتخبرني بالمزيد، ثم قرأت في مجلتنا بالذات قصة حادث مروّع عن فتاة شابة وجدوا جثتها في مقبرة في قرية بالقليوبية، وكل شيء يؤكد أنها كانت حية عندما دخلت القبر. كان من السهل أن أعرف من هي الفتاة.. كل شيء يتفق مع قصتها وكذلك كلامها. تأثرت كثيراً جداً.. والأهم أنني شعرت بأن سرّاً غامضاً يوجد في تلك القرية، سرّاً مخيفاً تموت لأجله فتاة شابة.

بالطبع كانت خطابات الفتاة تتضمن أكثر مما كتبتة هنا. في الواقع هناك أسرار لا أجروء على التلميح لها، ولكنني أضعها ببساطة تحت يد من يهتم بالقصة وبهذه الفتاة البائسة.

لقد قُتلت هالة. س.. وما أعرفه هو أن دمها لن يضيع بلا ثمن.

راندا

ركن هواة الأدب

شعر رائد. ع - مصر:

أنا لم أحبك بالأمس، لأن الأمس قد فات

وأنا لن أحبك اليوم، لأن اليوم أيضاً سينتهي
لكنني سأحبك يوم غد لأن الأيام القادمة لن تنتهي

*

لو كنت كلمة تخرج من فمي ما تكلمت
ولو كنت دمة تسيل من عيني ما بكيت
حبستك في قلبي ولن أدعك تذهبين إلى أي مكان

*

شروق الشمس حقيقة وغروبها كذلك
وخفقان قلبي أيضاً حقيقة، وانتهاء النهار كذلك
ماذا يحصل لو أننا عدنا الحقائق واحدة واحدة؟
إنني أحبك، وتلك هي الحقيقة الكبرى

*

شعر رائع فعلاً يا رائد.. برغم تحرره من التفعيلة وحرف الرّوي، فهو يفيض بالإحساس.
أرجو أن ترسل إلينا المزيد. لا شك أنني سأسعد القراء بقراءة المزيد.

ركن هواة الأدب

عزيزتي رائدا

أعتقد أنه لا جدوى من أن أقدم لك اسمي قبل أن أتكلم قليلاً.. يجب أن تعرفيني أولاً. أتابع منذ فترة طويلة هذا الركن الشائق الذي تكتبين فيه حلولاً لمشاكل القراء، ولا أبالغ إذا قلت إن هذا هو أهم ركن في المجلة كلها، وأنا أبدأ التصفح منه دوماً. أراؤك حكيمة متزنة وتدل على عقل راجح، برغم أن الصورة المنشورة لك لا يمكن أن تتجاوز الثلاثين عاماً بحال. أنا رائد العلمي.. أديب وشاعر في الثانية والأربعين من عمري. يمكنك مطالعة بعض أشعاري في العدد السابق من مجلتكم بالذات. أرجو أن تدوم المراسلات بيننا.

رائد

* * *

عزيزي رائد

أنا فعلاً منبهرة بشعرك.. ومنبهرة بخطابك الرقيق.. أهم من هذا تلك الزهور الرائعة التي أرسلتها على عنوان المجلة.. أنت إنسان نادر فعلاً.

راندا

* * *

عزيزتي راندا

هل أنا أتخيل أم أنني أفقدك فعلاً ببطء؟ لا أعرف سبب هذا التجاهل ولا كل هذا البرود الذي تتعاملين به معي، ولا الامتناع عن الرد على خطاباتي. عندما قابلتك في المجلة اختلقت الأعذار لتفري من الغرفة.. ماذا يحدث هنا؟ فعلاً أنا مصدوم.

هاني

* * *

عزيزي هاني

أنت تهذي بلا شك.. لم يتغير شيء.. فقط أنا مشغولة جداً في الفترة السابقة وسأظل كذلك لفترة وهذا من حقي على ما أعتقد.

راندا

فاتورة

محلات سلع المنزلية

السيد رائد العليمي

عدد ٣ سكين حجم كبير

عدد ٢ سكين متوسط

عدد ١ ساطور

بالطول ١٠ متر حبل غسيل

عزيزتي راندا

كما يحدث في الأفلام السينمائية، أرى أنك أخطأت وقمت بتبديل خطابين.. كتبت خطاباً لذلك

المدعو رائد وأرسلته إليّ، وهذا خلط يحدث كثيرًا. كما أرى يبدو أنك تحملين وُدًا واضحًا لهذا الرجل. لنقل إن هذا يتجاوز الاهتمام المهني نوعًا.. أنت بدأت تقعين في غرامه لو كان لي أن أقول هذا.

أضيف لهذا نزعة الإنكار الواضحة والميل للكذب.. عندما تؤكد الأنثى أن شيئًا لم يحدث يعرف الرجل بسهولة أن أشياء حدثت. ماذا تعرفين عنه يا راندا سوى أشعاره الرديئة التي نشرت مجلتنا بعضها؟ فعلاً هذا شيء غريب.

هاني

* * *

عزيزي هاني

من جديد تمارس دور الرجل الشرقي الذي يعتقد أنه لا بد أن يأخذ الفتاة الشرقية كصفقة متكاملة.. مشاعرها.. تفكيرها.. جسدها.. لا يمكن أن يسمح لها بأفكار منفصلة أو تجارب منفصلة.. لا شيء سوى الاهتمام المهني يربطني براند. كف عن هذا السخف الشرقي.. لا تترك نفسك تنزلق للفخ الشهير ومنتشاجر ونتجافى.. أنت بدأت التنفيذ فعلاً.

هذا هو إنذاري الأخير يا هاني.. كف عن التدخل في شؤوني من فضلك.. أرجوك أنا لا أريد أن أكرهك.

راندا

* * *

عزيزتي راندا

أما والأمور كذلك.. فأنا أفضل الصمت.

هاني

* * *

صفحة طبيبك الخاص

مروة سلامة - القلبية: هذا فقر دم واضح.. تقولين إنه حدث في ليلة واحدة.. لو كان هذا صحيحًا - وأنا أشك فيه - فهو لا يحدث إلا نتيجة لنزف شديد أو لتكسير عام في الخلايا الحمراء بالدم. لا بد من رأي مختص بأمراض الدم.. كما أقترح أن تجري فحصًا لنخاع العظام.

* * *

مستشارك القانوني

م. ع. هـ - قلوب: لا حل لهذا الساكن المزعج سوى أن تحرر له محضرًا في حالة تلبس.. لا بد من إبلاغ النيابة لترتب مراقبة لمنزله.. أرى كذلك أن تحاول مقابلته لتنذره بشكل واضح وصريح ومتحضر.. أرجو ألا تندفع أو تفقد رباطة جأشك فالقانون في صفك.

* * *

صفحة الحوادث

العثور على جثة ممزقة في المجاري في «.....» مركز قلوب.

وجد أحد الأهالي الجثة عندما حاول أن يعرف سبب انسداد ترنش الصرف الواقع جوار منزله، وعندها تبين وجود الجثة التي لم يستطع أحد التعرف عليها، وكما يقول الشهود بدا كأن القاتل كان يتدرب على استعمال السكين على هذه الجثة. ثم انتقل إلى مكان الحادث العقيد «.....» والرائد «.....»، وقد قاما بمعاينة الجثة، واستطاعا تحديد شخصية المتوفى، وهو تاجر يدعى محمد عطية هيبية، ولا يُعرف سبب الجريمة ولا الملابس التي أدت للقتل. أمرت النيابة بتشريح الجثة ومواصلة التحقيق.

* * *

عزيزتي راندا

الآن نحن نعرف بعضنا جيدًا.. وإنني لأصبو فعلاً إلى اللقاء الأول. أقترح أن نتقابل بعيداً عن المجلة التي تعملين فيها منعاً للقليل والقال.. سوف تعرفين عني أكثر وأعدك أن أكون مسلياً كقطعة في ليلة صيف. ما رأيك في نزهة في المقطم بالسيارة؟ سيارتي ستكون تحت أمرك في أي وقت تطلبين. لو لم يرق لك موضوع المقطم فلا مشكلة.. اختاري أنت المكان.

راندا

* * *

عزيزي راند

ضحكت كثيراً من موضوع المقطم هذا.. يبدو أنك تحمل بعض الشكوك بصدي.. لا أعرف السبب، لكن سماعي بموضوع لقاء عاطفي في المقطم يثير ريبتي ولعل السبب كثرة ما تلقيت من خطابات المشاكل. لا بد من ذنب بشري يحاول التغيرير بفتاة رقيقة أو ذنب بشرية تدعي أنها ليست كذلك. المهم أن موضوع المقطم لا يناسبني.. ما رأيك في أي مقهى في وسط البلد؟

راندا

* * *

عزيزتي راندا

لا بأس.. سوف نلتقي ثم نذهب إلى أي مكان يروق لك.. سيارتي من طراز رينو.. بيضاء صغيرة الحجم. كنت أملك سيارة فولفو ثم بعته.. كبيرة جدًا بالنسبة لزحام القاهرة. على فكرة أنا أملك عزبة صغيرة جوار قليوب.. قرية صغيرة هناك أذهب إليها كلما أردت كتابة الشعر.. ربما نذهب هناك يومًا ما. ليكن لقاءنا إذن يوم الأربعاء الساعة ٨ مساءً في مقهى «.....».. لا تقلقي بصدد شكلي.. أنا أعرفك جيدًا من الصورة المنشورة جوار المقال.

راندا

* * *

عزيزي راند

أنت تحسن الظن بي.. صورة المقال؟ أنت تعرف صور المقالات هذه، وكما يقول الدكتور خالد منتصر: نحن نختار أصغر صورة ممكنة لنضعها جوار المقال، لدرجة أن أحد الأدباء قد يضع صورة السونار التي تظهره في رحم أمه! على كل حال أنا لست عجوزًا شمطاء تركب مكينة.. سوف تعرفني بالتأكيد. سلام.

راندا

* * *

صفحة طبيبك الخاص

ر. ع - القاهرة: هذا الجوع إلى الدم واللحم النيئ الذي تصفه.. ربما يحدث في بعض حالات مرض «البورفيريا»، كما قد يحدث في الحمل لدى بعض النساء. بصراحة معلوماتك غريبة ومتناقضة، وأرى أن تطلب رأي طبيب بشكل مباشر.. هناك مشاكل لا يمكن حلها بالمراسلة البريدية.

* * *

عزيزتي راندا

هناك شكوك كثيرة تحيط بهذا الرائد ع.. الذي تعرفينه. أنت تعرفين أن هناك اختراعًا مفيدًا اسمه جوجل.. لقد وضعت بعضًا من أشعاره في محرك البحث.. النتيجة هي أن هذا الشعر ليس شعره على الإطلاق.. إنه شعر تركي مترجم للعربية.. الخلاصة أن هذا الرجل نصَّاب فعلاً ولا يمكن أن تثقي به.. يبدو أن كلامي مصدره الحقد لكن أريد مزية الشك.. وما لا يمكن نفيه لا

يمكن إثباته.. ماذا لو كان نصّاباً فعلاً وكنت أنا على حق؟ أليس هذا وارداً؟ أرجو أن تأخذي الحذر.

هاني

* * *

عزيزي هاني

في الحقيقة، لا أنكر أنه إنسان جذاب وأنه قادر على أن يفقد الفتاة صوابها، لكن أرجو أن تثق بي. الفكرة هي أنني ألقيت في مقالاتي طعماً معيناً يقول: «بالطبع كانت خطابات الفتاة تتضمن أكثر مما كتبتة هنا. في الواقع هناك أسرار لا أجروء على التلميح لها، ولكنني أضعها ببساطة تحت يد من يهتم بالقصة وبهذه الفتاة البائسة». هذا كلام فارغ طبعاً لأنني لا أعرف عن الفتاة سوى ما قلته، لكن خطابات رائد هذا انهمرت عليّ بعدها.. فما السبب؟

راندا

* * *

عزيزتي راندا

هل تعنين ما فهمته فعلاً؟ أنت شككت في أن وفاة هالة. س. هذه بفعل فاعل، ودستت هذا الطعم؟ ثم ظهر شخص متحمس لصداقتك.. شخص جاء من لا مكان ويريد مقابلتك بأي شكل، ويرسل لك أشعاراً زائفة. في الحقيقة لا أعتقد ذلك.. من الوارد جداً ألا يكون القاتل من قرّاء مجلّتك أصلاً.. ولا يستطيع الوصول إلى الأرشيف.. لم أعرف أن القتلة يهونون قراءة مجلّتنا. ثم من الوارد جداً أن يكون رائد مجرد معجب شاء حظه العاثر أن يختار هذا الوقت بالذات. لا تندفعي.. أنت تسبحين في مياه خطيرة وبصراحة لا أعرف كيف ينتهي هذا كله على خير.

هاني

* * *

عزيزي هاني

كما قلت لك أرسل لي صورته.. بصراحة هو وسيم فعلاً ويتصرف كأمرير ويعامل الفتاة كملكة.. بصراحة أيضاً لم أفتح معه في خطاباتي موضوع الأشعار الزائفة.. ربما كانت زلة صبيانية تقع لكثيرين على كل حال. من جديد تحدث عن العزبة الصغيرة جوار قليبوب.. هذا يثير أسئلة كثيرة لدي.. إذن هو «متورط» بشكل ما مع قليبوب.. أنامله ملوثة بهذه القصة بشكل ما. راح يسألني عن عملي فحكيت له عن فتاة تدعى هالة كانت أمها تهوى السحر وجلبت جمجمة للبيت، ثم وجدوا الفتاة مدفونة. حكيت له هذه القصة فلم يعلق ولم يبذ مهتماً.. كما أنني شعرت بأنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع، لكنه كان يعرف الكثير عن حوادث نهب المقابر في قرية

مجاورة للعزبة التي يملكها.

على كل حال، اتفقنا على اللقاء في مقهى يوم الأربعاء الساعة ٨ مساءً.. سوف أتمكن من الحكم عليه فعلاً.. من السهل أن تخدع أي شخص وأنت تكتب، لكن مواجهة العينين تعري كل شيء. سوف أعرف يقيناً ما إذا كان مجرد معجب أم أنه الصيد الذي جلبه الطعم.

راندا

* * *

عزيزي هاني

لم يحضر! هذا غريب! ذهبت إلى هناك وحدي وجلست بانتظاره لفترة طويلة. لاحظ أننا لم نتبادل أرقام الهاتف وهذا غريب.. ربما لأنني ظلمت اعتبره مجرد قارئ لفترة طويلة.. لم أرد أن تصير الأمور حميمة جداً. هكذا جلست ألوم نفسي على غبائي وأنتظر وأنتظر.

مرت ساعة كاملة والساقى يمر وينظر إليّ في شك كأنني أنتظر زبوناً، في النهاية فرغت من شرب قذحي قهوة وكوب عصير وانصرفت. حانقة أنا على قلة ذوقه، وحانقة على غبائي عندما لم آخذ رقم هاتفه. والسؤال هو: ما مغزى هذه المناورة؟ هل شك في أمري؟ هل فهم الكمين؟ أم أنه بالفعل لا علاقة له بالموضوع؟ فعلاً لا أفهم.

راندا

* * *

عزيزتي راندا

لا أعتقد أن الأمر انتهى بهذه السهولة.. لو كان قاتلاً فلن يترك شاهدة خطرة مثلك تغلت منه، ولو كان بريئاً فلن يفوت فرصة التقرب من حسناء مثلك. من الوارد أن ظرفاً قوياً منعه.. ربما سقطت سيارته في المحيط وابتلعه حوت عملاق، وهذا معناه أنني طاهر الذيل ودعائي مستجاب. كوني حذرة عندما يتصل ثانية.. سوف يقدم أذكاراً قوية. طبعاً أنت فتاة ناضجة وقد شبت من أفلام ماجدة القديمة، والوغد الذي يقول للفتاة إن أمه مريضة جداً وسوف تموت، من ثمّ تهرع البطلة إلى شقته لتجد أنه أعد التفاح وزجاجة الشمبانيا. أنت أذكى من هذا!

هاني

* * *

عزيزتي راندا

لم تصلني منك خطابات منذ يومين، ومن الواضح أنك لا ترددين على الهاتف أبداً كعادتك..
خيراً؟

هاني

أمر إداري رقم..... بتاريخ.....:

توجيه إنذار بوقف التعامل إلى الآنسة/ راندا عامر، المحررة بالمجلة، والمسؤولة عن باب «لكل مشكلة حل»، وذلك لانقطاعها عن العمل بدون إذن منذ يوم.....

* * *

عزيزتي راندا

فعلاً بدأت أقلق.. في الجريدة لم يرك أحد منذ فترة.. اتصلوا بك مراراً بلا جدوى.

هاني

* * *

عزيزتي راندا

أين أنت؟

هاني

عزيزي أستاذ سراج

أشكرك كثيراً على ما قدّمته لي من عون.. أنت تعرف أنني جرّبت كثيراً الاتصال بهذا الرقم الهاتفي لكن لا جدوى.. من الواضح أن الخط قد ألغي تماماً، لكنك قدّمت لي خدمة ممتازة بما قمت به من تحريات.. الخط كان باسم من يدعى هاني فهمي، ويبدو أنه كان يستعمل هذا الخط فقط للرد على بعض الراغبين في التعامل مع مجموعة إعلانات نشرها في مجلتنا، ثم لم يعد يستخدم الخط بعدما انتفى الغرض منه.. أشكرك كثيراً على هذه المعلومات.

راندا

* * *

عزيزي هاني

أنا آسفة على ما سببته لك من زعر.. فعلاً أنا حمقاء، خصوصاً أنك لا تعرف عنوان بيتي ولا طريقة للاتصال بي غير هاتفي والبريد الإلكتروني. كنت بحاجة لبضعة أيام في إجازة.. أشعر كذلك أنني أريد ترتيب أفكارى وترتيب عواطفى. كنت أريد لقاءك جدياً.. لكن أريد أن يتم هذا

بعيدًا عن القاهرة وزحامها.. لا بد من وقت طويل ممتد نتبادل فيه الأفكار.. لكن قبل أن نتقابل لا بد من أن تجيب عن سؤالي بصراحة: هل أنت رائد العليمي؟ رائد العليمي الذي يرسل إليَّ الشعر، ومعجب بي، ولم أره قط، وعندما حدد لي موعدًا لم يأت.. أنت هو رائد.. قل هذا لأعرف أننا نتكلم بصراحة وأن بوسعي الثقة بك أكثر.

راندا

* * *

عزيزتي راندا

فعلًا الحب يدفع المرء لأمر غريبة.. أنا آسف وأعتذر بشدة، لكنني شعرت أنك تبتعدين عني طيلة الوقت.. خطر لي أن أجرب دخول حياتك باسم مستعار لأعرف ما ستفعلن وقتها: هل ستقعين في حب فرصة سانحة كهذه أم لا؟ النتيجة هي أنك نجحت بامتياز.. أنا بحاجة لذلك اللقاء فعلًا.. ما رأيك في أن أمر عليك غدًا الساعة «.....» لأخذك بسيارتني؟

هاني

* * *

عزيزي هاني

موافقة.. على فكرة أنت كنت تملك سيارة فولفو زرقاء فيما سبق.. تصوّر أنني نسيت هذا تمامًا.

راندا

* * *

عزيزتي راندا

ملحوظة غريبة! لكنها حقيقية.

هاني

* * *

عزيزي دكتور عزمي، محرر باب «مشاكلك النفسية»

ربما تُصدِّق أو لا تُصدِّق يا دكتور.. أنا مصَّاص دماء.. كل شيء في خلاياي يقول إنني مصَّاص دماء، وإنني بحاجة للدم البشري لأعيش. عندي كذلك يقين مطلق بأن عليَّ أن أتخذ لنفسني جماعة من الأتباع. لا تعتبر ما أقوله لك معلومات مفروغًا منها.. لكن ماذا لو افترضنا

أنني مريض جداً؟ ماذا لو افترضنا أنني اشتريت لنفسي بيتاً صغيراً في قرية وحاولت أن أعزل هناك مع التوابيت ومع بعض كتب السحر.. ثم بدأت أصنع لنفسي دائرة من أربعة أتباع.. أقول إننا نفترض هذا.. ماذا لو بدأنا نسطو على مقابر القرية من حين لآخر لممارسة السحر، وماذا لو احترف أتباعي هواية التسلل لبعض البيوت ليخدروا أتباعها ويسرقوا منهم بعض الدم بمحقن؟ ماذا لو تعاملت مع مشعوذ من تلك القرية ليساعدني في الحصول على الجثث؟ تقول إنني أخرف يا دكتور.. هذا وارد جداً.. معك حق.. لكن ماذا عن الذين يتدخلون في حياتي ويحاولون منعي؟ فتاة ريفية بلهاء تشك في كل شيء، المشعوذ الذي يريد أن يتكلم، زميلة عمل كنت أحبها فعلاً لكنها تطارد قضيتي بالحاح وتهتم بها جداً، بل إنها تلمح إلى أنها تعرف أشياء لا أعرفها.

إن عملي يتيح لي متابعة أشياء كثيرة يا دكتور.. سوف تندهش من كم الحقائق التي يمكن استخلاصها من متابعة ظواهر معينة.. مثلاً صفحات مجلتكم هذه.. تصور أنني انتحلت شخصية أخرى لأعرف ما تعرفه هذه البلهاء عني.

عندما يضيق حولي الحصار.. وعندما أشعر بأن الناس تطاردني أتحوّل إلى مجنون حقيقي.. لا أرى سوى الدم.

عندما تقرأ أنت هذا الخطاب يا سيدي سيكون يوم السبت قد انتهى.. يوم السبت هو اليوم الذي ستأتي معي فيه زميلة العمل إلى هذا البيت بالذات لتفهم ولتتبين شكوكها بصدي.. هذه هي المشكلة.. هي لا تعرف ما هي منقادة إليه.. لا تعرف ما سوف يحدث لها.. هذه المرة لن يجد أحد جثثاً على الإطلاق، لأنها ستصير جزءاً من أساس البيت.. لأنني سأنتقل لمكان آخر وأبدأ باسم جديد.

يوم السبت قادم يا دكتور عزمي.. أرجو ألا تأخذ كلامي بجدية.. أنا أثّر معك فقط.. هاهاها... كنت ننصحنا بالألا نترك شيئاً يقف في طريق أحلامنا.. واليوم أنا في موقف مشابه.. فتاة فضولية تقف في طريق تحولي.. ماذا كنت ستفعل يا دكتور عزمي؟ هه؟ قل لي: ماذا كنت ستفعل؟

المخلص

هـ. ف

حزر.. فزر

نحن ندعو المُشاهد لرؤية برامجنا المتميزة على قناة «نوبا».. قناة «نوبا» وباقية برامجها متاحة فقط لعدد قليل من المشاهدين المحظوظين.. قناة «نوبا» تمتاز بأنها مشفرة ولا يمكن سرقتها.. كما أننا نراقب المستخدمين للتأكد من أنها لا تُسرق عن طريق الكابل. اشترك في قناة «نوبا» اليوم.. اتصل بالرقم التالي ليصلك مندوب قناة «نوبا» إلى مقر سكنك ويقوم بتركيب القناة بنفسه.. مع قناة «نوبا» لن تعود الحياة كما كانت.

أضواء تتوهج.. الكشافات تصوب نحو المنصة العالية التي يجلس إليها المتسابقون..
موسيقى.. يشير مساعد المخرج الشاب العصبي للشباب الذين جاءوا ليلعبوا دور الجمهور كي
يصفقوا، وينظر إليهم نظرة نارية.

يضيء شعار القناة «نوبا» مع بروفایل أنيق شامخ للمذيع غسان يوسف.

يتحرك الكرين كوحش أسطوري يهبط من عل.

تقترب الكاميرا الأولى من وجوه الضيوف، وعلى الشاشة العملاقة في ركن الاستوديو يظهر
وجه مي العصبي المتوتر قليلاً.. هذه مرّتها الأولى على الشاشة كما هو واضح. عندما تكتشف
الحقيقة المروعة أن الكاميرا مسّطة على وجهها والجمهور يرى كل حبة وكل قطرة عرق على
بشرتها.. يرون عينيها العسليتين ويرون ارتباكها والكلمات المتعثرة على شفّتها.. هذا لا يجعل
حالتها أفضل.

المذيع الشاب المتأنق الوسيم غسان يبدو كأنه دمية لامعة يقف خلف منصته البعيدة ويطلب
منها أن تعرف نفسها.. فتقول:

- م.. م.. يسين م.. هسة.. كت.. محركات.

قال ضاحكاً مشجعاً:

- لو تكلمت بصوت أعلى لكان هذا لطفاً منك.

ابتلعت ريقها وقالت بصوت متهدج:

- مي حسين مهندسة في شركة محركات هي...

رفع يده في حزم ليُسكتها هنا، وقال:

- لا تذكر اسم الشركة من فضلك.. متى سمعت يا مي عن برنامج «لقاء أصدقاء نوبا»؟

- سمعت عنه من صديقة لي.. ثم عرفت أن بوسعي المشاركة.. وجوائز كذلك.. أنا مخطوبة
وما زال استكمال الشقة مشكلة.

نظر المذيع إلى الكاميرا فانقضت عليه، وصاح بصوت مدوّ:

- مي حسين.. ضيف برنامج «غسان يوسف ولقاء أصدقاء نوبا».. ضيفنا الثاني هو...

واقترب من رجل أصلع بدين نوعاً.. هذا النمط المعروف الذي يصنعونه بالجملة: بدين..
مرح.. غزير العرق.. طيب القلب.. ثم ينقلب مزاجه ليصير اكتئابياً لدرجة الانتحار دونما سبب
واضح.. الشخصية ثنائية القطبية كما يجب أن تكون.

يضحك الضيف في بلاهة ويقول وهو يجفف عرقه:

- إبراهيم رمزي.. مدير حسابات.

- مرحبًا بك.. أما ضيفنا الثالث فهو...

قالها فقاطع الرجل الذي بدا يحب الظهور وكان ينتظر المزيد من الأسئلة بالذات عن الطريقة التي سمع بها عن البرنامج.. بدا له هذا غير عادل.. واحمر وجهه متبرمًا.

الضيف الثالث كان امرأة بدينة في الخمسين من عمرها، شرسة كالنمور، قوية الشخصية، تضع طنًا من المساحيق لدرجة أن رائحتها صارت خانقة.. يمكنك أن تفتتح عدة محلات لبيع مساحيق التجميل لو سلخت هذه السيدة.. لا حاجة لتعريف نفسها.. هذا النمط المتعالي المقاتل بادي الشراسة لا بد أن يكون...

- مدير عام في التربية والتعليم.. نجوى الشربيني.

غريب أن تهتم هذه السيدة ببرامج المسابقات.. وغريب أن تشاهد التلفزيون أصلاً.. لكن يبدو أن هذه هي الحقيقة، وكان من الواضح أنها تعتبر الحياة كلها مباراة مصارعة لا بد أن تشعر الناس بعدم الراحة كي تربحها.

- الآن مع هذا الفاصل الإعلاني.

* * *

نحن ندعو المُشاهد لرؤية برامجنا المتميزة على قناة «نوبا».. قناة «نوبا» وباقية برامجها متاحة فقط لعدد قليل من المشاهدين المحظوظين.. قناة «نوبا» تمتاز بأنها مشفرة ولا يمكن سرقتها.. كما أننا نراقب المستخدمين للتأكد من أنها لا تُسرق عن طريق الكابل. اشترك في قناة «نوبا» اليوم.. اتصل بالرقم التالي ليصلك مندوب قناة «نوبا» إلى مقر سكنك ويقوم بتركيب القناة بنفسه.. مع قناة «نوبا» لن تعود الحياة كما كانت.

* * *

عادت الكاميرا للاستوديو وتعالّت أصوات التصفيق من الشباب.

راحت الكاميرا تستعرض وجوه الجالسين.. إن الجائزة الأولى هي نصف مليون جنيه.. لا توجد خدعة ما ولا ألعاب ضريبية مما يجيدها المحامون والمحاسبون.

هذا يستدعي الكثير من القلق والتوتر.. يشي بذلك هذا العرق المحتشد على الجباه.

هناك غرفة مغلقة بستار أحمر في مركز القاعة.. يمكنك بسهولة أن تدرك أن هناك رجلاً واقفاً هناك.. لا ترى سوى الظلال أو السلويت الخاص به.

- كما هو المعتاد في برنامجنا.. يجب أن يخمن كل واحد من الضيوف مهنة الرجل عن طريق سؤال واحد.. سؤال واحد فقط في كل مرة يجيب عنه الضيف بنعم أو لا.

ثم نظر نحو مي وقال:

- دورك يا مي.

حكّت مي شعرها في توتر.. ابتلعت ريقها.. تذكرت المقولة القديمة حول ما هو الأكثر إرعابًا: أن تخطب في الجمهور الجالس في حفل التأبين في الكنيسة أم تكون أنت الجثة الراقدة في التابوت؟ يرى معظم الناس أن دور الخطيب أكثر إرعابًا!

قالت مي متمهلة:

- هل عملك في النهار أم الليل؟

لم يكن سؤالاً مما يجاب عنه بنعم أو لا.. لكن الجميع أدرك ما تريد قوله.. ساد صمت طويل ثم قال الرجل خلف الستار:

- في الليل فقط.

كان عليها أن تصمت هنا وتترك الزمام للمتسابق الثاني.. كانت مغتظة لأن الحل صار قريباً جداً.

جاء دور إبراهيم رمزي.. جفف عرقه وضحك ضحكة عريضة من الخد للخد وقال:

- هل أنت حارس ليلى؟

جاء الصوت في ثبات:

- لا.

جاء دور السيدة الشرسة، فسألت بصوت باتر حاد:

- هل أنت شرطي؟

- لا.

* * *

تقع استوديوهات قناة «نوبا» خارج القاهرة في موضع بعيد في الصحراء.. لا علاقة لها بمدينة الإنتاج الإعلامي ولا أي استوديوهات معروفة. الرحلة إلى هناك تستغرق ثلاث ساعات وعليك أن تقاوم القيقظ والظمأ طيلة الطريق، لذا كانت السيارة تتوقف من حين لآخر من أجل شرب أي شيء.

وتذكرت مي أنها لم ترَ البرنامج على الهواء قط لأنه مشفر.. ما رأيته هو حلقات مسجلة على جهاز الكمبيوتر الخاص بها، لهذا لن تجلس أمام الشاشة تتابعها في فخر.. لن تراها إلا عندما تحصل على القرص المدمج الخاص بها.

المهم الآن أن الأسئلة تبدو سهلة وهذا يعقد الأمور. في المدرسة كانت تمقت الامتحانات

السهلة لأن كل زميلاتها يجبن عنها.. وبالطبع يفعلن هذا أسرع وأكثر كفاءة منها. النتيجة أنها تتراجع إلى موضع متأخر مع أنها الأفضل.

من الواضح أن تلك المرأة الشرسة سوف تخمن أسرع منها.

* * *

قال غسان يوسف بعد الفاصل.. وكان يخاطب العدسة بحاسته التي لا تخطئ في العثور على مركز الاهتمام:

- رجل يعمل في الليل وليس شرطياً ولا حارساً ليلياً.. ما هو سؤالك التالي يا مي؟

قالت مي قبل أن تفكر:

- هل أنت مصّاص دماء؟

- لا.

قالها الرجل في ثبات وهدوء.. كأن هذا سؤال طبيعي معتاد.

احمر وجهها بسبب غباها.. لقد انزلق لسانها في سخف وهكذا أضاعت فرصة من فرصها. الحقيقة أن فكرة مصّاص الدماء زارتها فجأة وانزلت إلى لسانها قبل أن تجد الوقت الكافي للتفكير.

يا لي من غيبة.. نحن لا نمزح هنا.

قال غسان وتلك الابتسامة الخبيثة الساحرة على شفثيه:

- ماذا دفعك لهذا الاعتقاد؟

- لا أدري.

- للأسف أضعت فرصة ممتازة في سؤال لا معنى له. والآن فلنر ما يسأله الأستاذ إبراهيم رمزي.

اقتربت الكاميرا من وجه البدين الضاحك.. لقد كف عن الضحك وبدأ جاداً جداً.

سأل الضيف الغامض:

- هل أنت متزوج؟

قال الرجل بذات البرود:

- لا.. مستحيل!

لماذا ينفي ذلك بقوة؟ فكرت مي في ذلك.. هل هو مصاب بعيب يمنعه من الزواج؟ هل يكره النساء؟ هل هناك مهنة ترغب العامل بها على عدم الزواج؟ ما زال الأمر لغزاً.

* * *

انتقلت الكاميرا إلى السيدة الشرسة نجوى الشربيني، وقد ارتسمت على وجهها مسحة امتعاض وراحت تقول بكل جلاء: التواجد في هذا المكان لا يليق بي.

ملأ وجهها المتممر المغطى بالأصباغ الشاشة، وقد توقفت الموسيقى بانتظار سؤالها.
قالت في تودة:

- هل عملك له علاقة بالطب؟

ساد الصمت قليلاً، ثم قال الرجل خلف الستار في تودة ضاغطاً على كلماته:
لا.

واجه المذيع غسان الكاميرا والتمتع عيناه أكثر.. هذا الرجل يجيد فن جعل العينين تلمعان كأن عنده زراً يضغط عليه عند الحاجة. قال غسان بينما الموسيقى تتعالى:

- لقد أتممنا دورتين، لكن ما زالت إجابة اللغز مبهمة.. يجب أن أذكر المتسابقين أننا نسمح فقط بخمس دورات، وبعدها نعلن فشلهم.. بعبارة أخرى: يفوز ضيفنا خلف الستار بلقب «أكثر الرجال غموضاً».

وضحك ضحكة مفتعلة فدوت ضحكات عصبية بين الصفوف: إما أن مساعد المخرج أمرهم بأن يضحكوا، وإما هم وقعوا في الشرك المعروف: أن تضحك لأن من أمامك يضحك.

اقتربت الكاميرا من وجه مي ليملاً الشاشات، وسألها غسان:

- سؤالك يا مي.

فكرت مي للحظة، ثم سألت الرجل:

- هل لعملك علاقة بالموت والحياة؟

- نعم.. جداً.

قالها في بساطة.. غريب هذا.. عمله له علاقة بالموت والحياة لكنه ليس طبيباً.. فمن هو؟
حانوتي؟ قاتل مأجور؟

كانت تفكر.. ناردين هي من أخبرتها بهذا البرنامج.

* * *

في شركة المحركات التي تعمل بها، كانت ناردين شخصية غامضة فعلاً.. هي جميلة لطيفة لكنها لا تبالي بالرجال وترفض كل محاولات طلب يدها.. وكان المهندسون في الشركة يقولون: «فتاة مغرورة.. من تريد؟ هل تنتظر أن يأتي «راسل كراو» لطلب يدها؟».

لكنهم بعد قليل يتصعبون ويقولون: «لكنها.. لكنها رائعة.. وليس كل من أمسك باللجام خيلاً.. إنها تنتظر رجلها المتميز مثلها».

والمشكلة هي أن كل رجل يعتبر نفسه هذا الخيال، ثم يتلقى صفة على خد كبريائه.

في ذات الظروف أحب صبري مي وطلب يدها.

وفي حفل الخطبة جاءت ناردين متألفة كالعادة، ويبدو أن نصف رجال الحفل قرروا أن يجربوا حظهم معها. ما أدهش مي هو أن ناردين لم تكن تستمتع بالرفض ولعب دور الملكة التي تختار كما تفعل الفتيات، لكنها كانت فعلاً لا تعباً بالرجال ولا ترى لهم قيمة ما.. خطر لمي أن الموضوع يتعلق بعقدة من الصغر.

قال خطيبها وهو يكتم نظراته المعجبة:

- ربما يتعلق الأمر بخلل هرموني.. ربما هي رجل يبدو كأنتى!

قالت في غيظ:

- إذن لیت هذا المرض يصيبني.

بعد شهر من الخطبة بدأ الخطيبان يدركان أن الحياة ليست وردية بهذا الشكل.. ليست كلها هدايا ودباديب وأعياد فالنتين ونزهات.. هناك كابوس اسمه الشقة وكابوس اسمه الأثاث ولعنة اسمها الأجهزة الكهربائية.. ثرى هل ينجحان؟ بدا لهما الأمر مستحيلاً كما تحاول أنت قيادة مكوك فضائي إلى المريخ.

بدأت المشادات العصبية من طراز: لماذا تكلمني بهذه اللهجة؟ لأنك تصرخين فيّ كأني أصم.. أنا لم أصرخ.. وأنا لست أصم... إلخ.

في هذه اللحظات جلست في المصنع تشرب النسكافيه من كوب ورقي وهي جالسة على الدرج المعدني شاردة الذهن.. جاءت ناردين وجلست جوارها. ثم قالت لها:

- هل سمعت عن برنامج «غسان يوسف ولقاء أصدقاء نوحا»؟

لم تفهم مي هذا العنوان الغريب! إنها مدمنة تلفزيون وتشاهد كل التمثيليات من السابعة مساء حتى الواحدة صباحاً، لكن هذا العنوان بدا لها عجباً.

قالت ناردين:

- أنت لم تسمعي بالطبع.. هذا برنامج خاص يُذاع على الكابل.. اشتراكه باهظ الثمن، لكنه يقدم لك فرصة ممتازة كي تربحي نصف مليون.

هذا المبلغ بالتأكيد يحل كل مشاكلها: شقة بالإيجار وأثاث مع مبلغ معقول في المصرف.. هذا مغرٍ.

- هل يمكنك أن تحكي لي كيف يبدو الأمر؟

وعدها بأن تحضر لها بعض الحلقات لتراها على الكمبيوتر، وفي اليوم التالي جلبت لها

قرصًا مدمجًا. في البيت رأت مي تفاصيل البرنامج ورأت المذيع الوسيم غسان، وكيف يحاول الضيوف استنتاج مهنة الضيف الغامض.. وفي كل مرة يفوز أحد المحظوظين بنصف مليون، إلا لو كان الأمر معقدًا جدًا فلا يفوز أحد.

- هل ترغبين في تجربة حظك؟

- نعم.

- إن عمي يعمل في إعداد البرنامج.. اعتبري أنك ضمن متسابقى الحلقة القادمة.

- هل لي أن أحضر معي أمي وصبري؟

عضت ناردين شفتها في أسف، وقالت:

- أسفة! الدعوة لشخص واحد فقط.. أنت غير مشتركة أصلاً.. الحضور في هذا البرنامج يكون عددهم محدودًا وكلهم من المشتركين.. بالمناسبة أنا نفسي لن أحضر لأن عندي موعدًا مع طبيب الأسنان.

هكذا وافقت مي.

وفي اليوم المختار وقفت - بقدمين من جيلاتين لا تقدران على حملها - عند «أبو الفدا» في الزمالك تنتظر سيارة قناة «نوبا» التي ستنقلها إلى الاستوديو. أمها تعرف أين هي.. لكن لا تعرف أين يقع هذا الاستوديو. وعندما اتصلت بأمها تخبرها أن التصوير سيبدأ حالاً، لم يكن لديها ما تقوله سوى أنها في مكان بالصحراء.. ثم جاءها من يطلب منها غلق المحمول لأننا سنكون على الهواء حالاً.

آخر ما قالته قبل أن تغلق الهاتف هو:

- ادعي لي يا أمي.. أنا بحاجة لأن أنجح.

* * *

قال الرجل البدين الذي عرفنا أن اسمه إبراهيم رمزي، وهو يعقد أصابعه في عصبية:

- هل أنت حانوتي؟

قال الرجل من وراء الستار:

- لا.

هنا تدخل المذيع غسان وقال في لهجة لائمة كأنه يزجر طفلًا:

- أرجو عدم المؤاخذه.. أريد أن نكون منطقيين بعض الشيء.. هو قال لك إنه يعمل ليلاً.. هل تعرف حانوتيًا يعمل في الليل فقط؟

قال إبراهيم:

- وهل هو لا يكذب؟

- بالطبع.. لو كذب فلا معنى لهذا البرنامج أصلاً.

ثم أعلن المذيع عن فاصل إعلاني آخر.

فقط مع سجناء «كونراد» يمكنك تذوق النكهة الحقيقية للتبغ الجيد.. مع سجناء «كونراد» أنت رجل يروق للفتيات ويحقد عليه الرجال.. مع سجناء «كونراد» يمكن للجميع أن يعرف أنك رجل «كونراد». «كونراد» هو اسم السجّارة.

هل ترغب في قضاء ليلة ممتعة؟ نحن ننصحك بشرب نبيذ «مارشال».. نبيذ «مارشال» الذي تم تقطيره في ريف باريس، والذي تذوقه أفضل الذوّاقة في العالم.. تأمل لون الكأس، وتأمل كيف يتشرب النبيذ النور.. نبيذ «مارشال» هو النبيذ الذي يفضلّه عاشقو الخمر في العالم كله.

ما معنى هذا؟

كانت مي تسمع الإعلانات عبر السماعة الداخلية وتشعر بالحيرة: هل ما زالت هناك قنوات تلفزيون تعرض إعلانات التبغ؟ على قدر علمها هذا ممنوع في العالم كله منذ السبعينيات.. وماذا عن إعلان النبيذ؟ في بلد عربي إسلامي يعلنون عن النبيذ؟ ولماذا لم تسمع قط إعلاناً مماثلاً في حياتها؟

ثم خطر لها أن هذه قناة خاصة جداً واشتراكها باهظ الثمن.. لا بد أن أصحاب القناة أحرار يعرضون ما يريدون، إنهم يؤثرون في عقول طبقة خاصة جداً من المجتمع.

كان الفاصل مستمراً.

هنا أشارت للمذيع في شيء من الحرج:

- الحمّام.. لا أستطيع.

- لكن هذا مستحيل.

- دقيقة واحدة.

قال بحزم:

- سيكون هناك فاصل أطول بعد قليل.. أما الآن فلا أضمن أن تعودي ويتم تثبيت الميكروفون لك قبل بدء التصوير.

دارت بعينيها وسط الجمهور في يأس.. تشعر بالبول يحتشد في مثانتها ويفسد سلامها النفسي.. كان أبوها يقول لها إنها كالأطفال، لا تذهب إلى مكان دون أن تطلب الحمّام.

هنا وقعت عيناها على صفوف الجماهير.. استطاعت أن ترى ناردين.. ناردين جالسة في آخر صف وقد عقدت ذراعيها على صدرها وراحت تحديق في ثبات.

من الطبيعي أن تكون هنا.. عمها مُعد البرنامج والضيف صديقتها، ولكن لماذا قالت ناردين إنها لن تتمكن من الحضور؟ لماذا كذبت؟

* * *

المديرة التعليمية قوية الشخصية إلى حد الشراسة توجه أسئلتها والشرر يطق من عينيها:

- هل أنت لص؟

- لا.

كان هذا سؤالاً سخيلاً لكنه منطقي جداً.. الرجل يدفعهم لحارة ضيقة لا يمكن التحرك فيها: يعمل ليلاً، عمله له علاقة بالموت والحياة، ليس طبيباً، وليس حارساً ليلياً، وليس حانوتياً.. ماذا يمكن أن تسأل عنه بعد ذلك؟

قال غسان في تهكم:

- هل تتوقعين يا أستاذة نجوى أن يجيب بنعم لو كان لصاً؟

في تحدٍ وصلابة قالت:

- اتفقنا على أنه لا يكذب.. قلت إن هذا يلغي معنى البرنامج أصلاً.

- هذا صحيح.. وعلى كل حال أضمن لك أنه ليس لصاً إلا بشكل مجازي.

مجازي؟ على كل حال قد جاء دور مي.

البول.. البول.. صوت المياه المحبب وهي تنزاح عنك والكلية تتنفس الصعداء.. كم سيكون هذا رائعاً.. تريد أن تفعل ذلك لتصفو أفكارها.

سألت الرجل وهي تقاوم الألم:

- ماذا تأكل؟

تدخل غسان محتجاً وفي عينيه نظرة من طراز «لم أتصور هذا الغباء»:

- قلنا إننا نريد أسئلة من طراز نعم أو لا.

- لكن هذا يضيع أسئلة كثيرة جداً.. لو كان يأكل فاصوليا فلسوف يستغرق هذا عشرة أسئلة.

- هذه قواعد اللعبة.. خذها أو ارفضها.

فكرت حيناً في أن تنهض غاضبة، لكن هذه المواقف الدرامية لا مجال لها.. هذا ملعبهم على كل حال. هكذا استجمعت صبرها وعادت تسأل:

- هل تأكل اللحوم؟

- نعم.

قالها بسرعة وبلا تردد كعادته.

شعرت بغیظ.. كانت بحاجة إلى سوالين آخرين.. لكن عليها أن تنتظر وتصير تحت رحمة زميلها.

* * *

كان إبراهيم رمزي يفكر.. يجب أن يجد السؤال التالي بسرعة.. يجب أن يخمن شخصية هذا الرجل اللعين، فهو في حاجة ماسة إلى المال، كان متزوجاً ولديه أربعة أبناء.. برغم راتبه المرتفع لم يستطع أن يلاحق طلبات البيت المتصاعدة.. مدير الحسابات المحترم وجد نفسه في مأزق حقيقي.. وهكذا بدأ يمارس الاختلاس.. مثل أي واحد فينا كان يشعر أن الاختلاس يختلف جدًّا عن السرقة.. السرقة هي لص بفانلة مخططة يتسلق على ماسورة مياه وفي فمه مطواة.. الاختلاس أرقى نوعاً. وكانت صورة عماد حمدي في فيلم «أم العروسة» تطارده.

لقد اختلس الكثير من المال.. وهو يعلم جيداً أن الجرد قادم، وذلك الاسم المرعب الكابوسي «الجهاز المركزي» قادم.. سوف ينتهي به العمر خلف القضبان على الأرض جوار دلو للبول.. طوق النجاة ألقى له عندما أخبره صديق له بهذا البرنامج الخاص الذي لا يراه أحد.. شاهد بعض الحلقات وفهم كيف يتم الأمر كله.

تم تحديد اليوم.. وعرف أن زوجته لن ترى البرنامج إلا فيما بعد عندما يعطونه تسجيل الحلقات.
لا بأس.

سوف يعرف الإجابة.. لا شك في هذا.. لن يترك هاتين المرأتين تضيعان مستقبله.. إن ما تفعلانه ببساطة هو أن تدخله السجن.. ولماذا؟ لا بد أن المرأة المخيفة تريد أن تبدل ستائر الصالون.. الفتاة تريد استكمال الشقة.. لا أحد سواه يريد الفرار من السجن.

ابتلع ريقه وجفف عرقه ثم ألقى السؤال وتمنى أن يكون الأخير:

- هل تقيم مع أسرتك؟

- نعم.

هنا تعالت الموسيقى وتحرك الكرين، وراحت الأضواء تتوهج، وملأت الشاشة عيني غسان وهو يصيح:

- لا تغادروا المكان ولا تغيروا القناة.. ما زلنا مع برنامج «غسان يوسف ولقاء أصدقاء نواف».. إن عدد الأسئلة يتناقص مع الوقت.. الفرصة تقترب من نهايتها.

فما إن دوى صوت الإعلانات وظهرت زجاجة الخمر على الشاشة، حتي نهضت مي.. هذه المرة لم تنظاها بالوقار أو الهدوء.. كانت تلوح بأناملها بحركة طفولية جدًّا يصنعها الأطفال عندما يوشكون على تبلييل ثيابهم.. وبدأت تفك مكبر الصوت والأسلاك دون إذن.

ظهرت فتاة شابة من مكان ما، ومدت يدها تمسك بكفها.. فقال غسان وهو يتفحص الأوراق في يده:

- خذوها للحمام يا سلمى.. أمامك خمس دقائق يا مي.

مشت مي وسط قطع الديكور إلى أن دخلت ممراً مظلماً يقود إلى الحمام، ووقفت سلمى خارج الباب.. من الواضح أن مهمتها أن تعود بها بسرعة وإلا كانت كارثة وفسد البرنامج كله.

أولاً أراحت مي نفسها.. شعرت بأن عقلها يصفو.. مدت يدها إلى جهاز المحمول وفتحته.. كان مغلقاً كما طلبوا منها.. طلبت رقم خطيبها صبري.. جاء صوته القلق عبر السماعة:

- أين أنت؟

قالت وهي تستند إلى جهاز التجفيف بالهواء الساخن:

- أنا في البرنامج.. هذه استراحة قصيرة.

- أين أنت بالضبط؟ أعني أين أنت جغرافياً؟

- لا أعلم.. مكان ما في الصحراء.. ليست هذه مدينة الإنتاج الإعلامي على كل حال.

قال بصوت غامض:

- سألت كثيرين.. لي صديق إعلامي معروف.. لم يسمع أحد عن قناة «نوبا» هذه.. لم يسمع أحد عن برنامج اسمه «غسان يوسف ولقاء أصدقاء نوبا».. ثمة شيء خطأ هنا.. أعتقد أنها عملية نصب.. أرجو أن تكوني حذرة.

- تمن لي حظاً حسناً فالوقت ضيق.

- أتمنى لك أن تظلي سالمة!

غادرت الحمام.. لم تكن الفتاة بالخارج.. هذا غريب.. هي لا تعرف كيف تعود للاستوديو.. لقد ضلت طريقها وسط هذه الممرات المظلمة.. تسارعت ضربات قلبها وهي تشق طريقها.. سوف يعتبرونها منسحبة.

كان هناك باب جانبي موارب له محاور زبركية.. دلفت للداخل وهي تنظر حولها.. كلا.. لم تأت هنا من قبل.. ما هذه الرائحة الكريهة؟ مدت يدها تتلمس مفتاح النور.

ليتها ما فعلت!

ليتها لم ترَ ما رأيته!

شاطور.. مجموعة مدي.. نطع أو قرمة خشبية ملوثة بالدم. كأن هذا محل جزارة نشط.. استوديو مزود بمحل جزارة.. هذا يبدو غريباً نوعاً.

غادرت المكان وهي مندهشة متقرزة.

مضت في الممر لتصطدم بالفتاة سلمى.. أجفلت وأجفلت الفتاة.

- أين ذهبت؟

- نفس السؤال لك.. وقفت أدخن سيجارة في الممر.. التدخين ممنوع في الاستوديو طبعًا.

ثم مدت يدها تمسك بيد مي.. يد باردة صلبة.. وقالت برفق:

- هيا بنا.. لقد تأخرنا.. لا تنسي غلق المحمول.

كان عقل مي يعمل بلا توقف وهي متجهة للاستوديو.. وعندما جلست في مقعدها وهرعت الفتاة تثبت لها مكبر الصوت، كانت قد توصلت إلى سؤالها القادم.. لم تسمع السؤال الذي وجهته نجوى.. تعرف أنه بلا جدوى ولن يقود لشيء.

عندما جاء الدور عليها نظرت إلى الرجل الواقف خلف الستار، وبنبرة واثقة سألته:

- هل أنت غول؟

ساد صمت طويل وشهق البعض ثم جاء صوت الرجل:

- نعم.

كانت قد خمنت هذا.. «غسان يوسف ولقاء أصدقاء نوبا».. هذا الاسم السخيف المفتعل.. لكن لو أخذنا الحروف الأولى من كل كلمة فماذا نجد؟ غ.. ي.. ل.. ا.. ن.

* * *

لماذا فكرت في هذا يا مي؟ لماذا كنت أذكي من اللازم؟ هناك لحظات من الأفضل فيها للمرء أن يكون كفيلاً أو أصم أو غيباً.. الفهم خطر ومخيف.. ألا ترين هذا؟ أسعد الناس حظاً هم من ماتوا وهم لا يعرفون أنهم يموتون.

كانت جالسة في ذات الوضع.. تفرك كفيها كأنها لم تسمع إجابة الرجل.

كانت تبحث عن رد فعل مناسب.

بدا كذلك أن الحضور جميعاً قد أصابهم الخرس.. الحل الذي توصلت إليه بهذه السرعة قد صدم الجميع.

كانت الصورة الآن قد صارت واضحة: برنامج مزيف.. حيلة وكلام عن جائزة قيمة.. ناردين قد سلّمتهما لهم لأنها تعرف ظروفها.. ولا شك أن كل واحد من الثلاثة قد جاء مخدوعاً بدوره.. الحلقات التي رأتها على الكمبيوتر في بيتها مزورة وبريئة لخداع السذج.

«غسان يوسف ولقاء أصدقاء نوبا».. غ.. ي.. ل.. ا.. ن.

وهذا يعني أن غسان وكل إدارة البرنامج يعرفون من هو الرجل المتواري وراء ستار.. ناردين تعرف.. المخرج يعرف.

وما معنى هذا؟ وما الغرض منه؟

جاءت الإجابة عندما صاح غسان في مرح وهو يواجه الكاميرا:

- مي هي التي استطاعت أن تخمن وهكذا فازت بالجائزة، بالفعل إن من يتوارى وراء الستار هو غول.

نهضت السيدة قوية الشخصية ونهض مدير الحسابات البدين.. لم يستطيعا الفهم حتى هذه اللحظة.. حتى لفظة «غول» نفسها لم يستطيعا فهمها.

الغول يعمل ليلاً.. عمله له علاقة بالموتى.. يعيش مع أسرة من الغيلان.. يحب مذاق اللحم جداً.. كل هذا صحيح.

كان الفهم متأخراً جداً لأن الجمهور غادر المقاعد لينقض على المنصة التي يجلس عليها المتسابقون.. وتصاعدت زمجرة كزمجرة الدببة الغاضبة.. دوى الصراخ.. سوف أعفيك من التفاصيل فنحن في زمن دموي، فلن أفيدك إذا وصفت المشهد بدقة.. فقط نذكر أن الكاميرا كانت تسجل كل شيء.

فقط كانت مي تصرخ بلا توقف وهي تتراجع غير مُصدّقة.. لم يمسه أحد كأنهم نسوها.

كان غسان ضمن المهاجمين المنقضين على المتسابقين، وكانت ناردين ضمنهم.. وواجه غسان الكاميرا والدم يقطر من جانبي فمه وصاح:

- الآن ندعوك يا مي.. أنت صرت واحدة منا.. ندعوك للانضمام إلى الحفل! نحن نعرف أن برنامج «غسان يوسف ولقاء أصدقاء نوما» هو البرنامج المفضل لدى الغيلان، ولهذا لا يراه سوى قلة من المحظوظين لأن القناة مشفرة.. في كل مرة ندعو ثلاثة متسابقين فإذا استطاع أحدهم التخمين في الوقت المناسب نجا وصار منا.. إذا فشل ظفرنا بالجميع.

ثم أشار لمي الواقفة في الركن فاتجهت الأضواء نحوها:

- مي.. أنت منا!

شاركينا يا مي.. تعالي هنا وتذوقي اللحم.

لكن مي كانت تقف جوار كشاف عملاق.. بلا تفكير ركضت بقدمها فسقط أرضاً وانفجر الزجاج.. يجب أن أفر.. يجب.. لكن أين وأنا في قبضتهم؟

ركضت وسط الديكورات.. هناك حبال على الأرض وأسلاك في كل مكان تتعثر وتنهض.. وتبكي.. حبال غليظة. تقع عينها على شاشة كبيرة فتدرك أن كل المشاهد يتم تصويرها.. الغيلان في بيوتها تراقب عذابها في سادية بالغة ومسرورة جداً. هناك حبل غليظ أمامها.. تعرف من السينما حينما تدور الأحداث في كواليس مسرح أن فك هذا الحبل يؤدي لتهوي جزء من...

بالفعل.. جزء من الديكور قد سقط وسمعت صوت صرخات، بينما هي تركض عبر تلك الممرات المظلمة اللعينة.. يبدو أن مصير القرفة والشاطور مدخر للمتسابق الذي يفر لهذه الممرات.. أليس كذلك؟

اطلبي صبري يا بلهاء.. اطلبيه.. لا تعرف كيف سيجد مكانها ولا ما يستطيع عمله، لكنها قدرت أن بوسعه أن يتصل بالشرطة.. قبل؟ قبل ماذا؟ مصيرها يتحدد خلال ثلاث دقائق.. الأمر لا يختلف عن المحكوم عليه بالإعدام وظهره للحائط ينتظر الرصاصة.

شعرت بجسم يثب عليها.. سقطت أرضاً شاعرة أنها تحت كلب مسعور يحاول الوصول لعنقها.. ناردين! لقد خرجت لها من مكان ما في الظلام وهي تحاول أن تبلغ عنقها.. لشد ما تغيرت! يمكن لمن لا يعرف معنى لفظة غول أن يرى ناردين الآن.

- لا تقاومي يا حمقاء.. لن تستطيعي الفرار أبداً.. كل المطلوب منك هو أن تأكلي معنا!

غرست مخالبتها في وجه ناردين وصرخت:

- أنت خدعتني.. أنت قدتني هنا وكنت تعلمين!

- لأنني فزت في البرنامج منذ عامين.. نلت الجائزة.. وصرت كذلك منهم!

القدرة قوية جداً.. لا جدال في ذلك. مدت يدها لتحسس الأرض وهي نائمة على ظهرها عاجزة عن الحركة. هنا لمست يدها ما بدا لها كأنها مطرقة ثقيلة تركها أحد عمال النجارة.. لم تتردد ورفعت المطرقة ثم هوت بها.. هوت بها على الرأس الذي يقترب من عنقها.

أطلقت الفتاة صرخة حادة ثم تهاوت على الأرض.

لم تستطع مي مقاومة العنف الذي استبد بها فهوت على رأس ناردين بضربة ثانية.. ثم نهضت وراحت تركض وسط الممرات المظلمة.. تسمع صوت غسان يتردد من شاشة ما:

- عودي يا مي.. أنت صرت واحدة منا.

أطلقت سبة.. ثم واصلت الركض.. هناك باب.

ضوء النهار.. حديقة صغيرة.. ثم الصحراء.. هل تجرؤ على أن تعتبر نفسها نجت؟

الأجمل أن هناك سيارة تتحرك من بعيد على الطريق الممهّد وسط الرمال. هذه معجزة فعلاً.. ركضت لتقف في طريقها بالضبط.. توقف السائق بفرملة حادة، فصاحت:

- أي مكان بعيداً عن هنا!

حسب تقاليد أفلام الرعب لا بد أن يكون هذا السائق منهم، لكنها وجدته عجوزاً طيباً مذعوراً فعلاً.. فتحت الباب ووثبت جواره وهي تلهث كالغرقى ولم تترك له فرصة الاعتراض. إذ ابتعدت السيارة نظرت إلى الخلف رأت ناردين تركض خلف السيارة والدم ينزف من رأسها وقد لوث ثيابها فبدت كالكابوس.

ما زالت حية؟ كيف؟

بعد ساعة من اللهاث والتوتر تركها السائق في مكان ما من الزمالك.. لا تعرف المكان بالضبط.. لكنها الزمالك على الأقل. وقفت بين المحلات المضاعة والناس ترمق منظرها المبعثر في دهشة. طلبت صبري خطيبها:

- تعال هنا وخذني يا أحمق.

بعد ساعة، جاء صبري بسيارة صديق له. لم يفهم ما حدث لها وبدأ مذعورًا مندهشًا.. كان هناك مكتب قريب للصيانة هو أقرب لورشة صغيرة، يعمل فيه ليلاً أحيانًا. أخذها معه إلى هناك. وإذ جلب لها بعض المرطبات وساعدها على أن تهدأ قليلاً، كانت قد شرحت له قصتها بالكامل. لم يصدق حرفاً لكنه وافقها حتى تهدأ.

قالت له:

- لم أفهم كيف عاشت ناردين هذه.

قال وهو يصب لها المياه الغازية:

- هذا سهل.. الغول لا يموت إلا بضربة واحدة.. حسب الأساطير، الضربة الثانية تعيده للحياة من جديد! لهذا على المرء أن يقتصد في عدوانيته.

ثم نهض ليعدّ لها بعض الشاي.

جلست ساهمة بعض الوقت تتأمل المعدات والآلات الدقيقة المبعثرة فوق المنضدة. تبدو مجنونة تمامًا بشعرها المنكوش والنظرة المتوحشة في العينين. منذ ساعتين كانت متسابقة رقيقة تحلم بالفوز.. الآن هي هاربة من الغيلان وكادت تقتل أحدهم.

وجدت أمامها جهاز التحكم عن بعد، الخاص بالتلفزيون الصغير المعلق على «كابولي» للجدار، ضغطت على زر التشغيل.. هنا أضيئت الشاشة. لم تكن هذه قناة عادية.. رأت شعار «نوبا» في ركن الشاشة وظهر وجه غسان الكريه.. كان يقول:

- عودي لنا يا مي.. إن جانزتك تنتظرك.

ارتجفت.

هذه القناة ليست متاحة للجميع.. معنى وجودها هنا على التلفزيون الخاص بصبري في مكتبه هو أن...

من علمه موضوع الغول الذي لا يموت إلا بضربة واحدة؟ هل هي مؤامرة كبرى؟ ربما كان صبري على علاقة بناردين منذ البداية وقد تلاعبا بها.. لقد كان صبري هنا في المكتب يراقب المسابقة ويضحك في وحشية.

لا تعرف.

وجدت على المنضدة ذلك المثقاب الضخم الذي يملكه صبري.. مدت يدها وتأكدت من أنه موصل بالكهرباء. سوف تثقب قلبه مرة واحدة ولن ينجو.. فقط عندما يعود للغرفة سوف تكون حاسمة وتنتهي الأمر.

حانت منها نظرة إلى التلفزيون فرأت صورتها ممسكة بالمثقاب.. شراسة منكوشة الشعر مجنونة النظرات مبعثرة الثياب.. لم تعد تمت لمي الأولى على الإطلاق ولو رآها طفل لظل يصرخ حتى يموت. هناك كاميرا في هذه الغرفة.. لا شك في هذا.. دائرة تلفزيونية مغلقة تنقل

صورتها المذعورة للغيلان المشتركة التي تجلس أمام الشاشات تلتهم اللحم وتشاهد هذه
التسلية الحية.. لا شك أنها قد أوشكت أن تكون غولاً.. لقد تم كل شيء بسرعة.

لكنها سوف تثقب قلبه بمجرد أن يدخل الغرفة.

ومن التلفزيون سمعت صوت غسان يردد:

- أنت ستصيرين منا يا مي.. بل أنت منا بالفعل.. هل تسمعين؟ أنت منا!

الهول

دخلت عالمكم في ليلة مظلمة قررت السماء فيها أن تغسل الأرض بعنف وبلا رحمة.

من حين لآخر كانت ألسنة البرق تهوي من السحب المظلمة فنتوهج الأشجار.. الأشجار التي توشك العواصف على اقتلاعها من موضعها.. وكانت الريح تعوي بلا انقطاع.

هناك بئر في هذا المكان.. بئر مأوها سام لا يصلح للشرب، وقد امتلأت بمياه الأمطار وبدأت تفيض.. هذا مكان لا يمكن لمعتوه أن يأتي له في هذه اللحظات بالذات.. لكنه ثغرة مهمة من ثغرات جانب النجوم.

أرداقو ادوجوم يسفن تدجو ينكل يتم الو تبادلا تناك يتم فرعاً ال.. موجنلا بناج يف تدلو.
أسف.. نسيت نفسي للحظة ونسيت أنكم عاجزون عن القراءة بالمقلوب. سأكرر ما قلت: أنا
ولدت في جانب النجوم.. لا أعرف لنفسي بيتاً ولا وطناً سواه، والذين يقرأون قصص الرعب
يعرفون ما هو جانب النجوم جيداً، لهذا لن أطيل عليهم.

كان الرعب في كل مكان، والصرخات تندلع في ظلام الليل.. هل قلت «ليل»؟ لا يوجد شيء
كهذا لأنه لا يوجد نهار في جانب النجوم أصلاً، لكننا أحياناً نشعل واحداً منها لنرى على الوهج
المنبعث منه حقيقة الأشياء.

ننضج مع الزمن ونتعلم أشياء أكثر فأكثر.. لكننا ندرك أولاً أننا جننا من أجل الخوف
والهول.. نغتسل بالدم ونفتات بالفزع ونسكر لدى سماع صرخات الأطفال.

تومل دجملا.. لوهلل دجملا.

لن أحكي لك قطاعات عالمنا وقانون الصيرورة، فهذا موضوع يطول.. ثم إنه سر على كل
حال. يكفي أن أخبرك أنني نشأت في صيرورة «سيجفريد الأميدي».. إنه سيد مهيب عندنا.
وجاء اليوم المقدس، اليوم الذي تعرف فيه أنك ستغادر الصيرورة لأنك صرت ناضجاً بما
يكفي.

تتقدم إلى حيث يجلس سيد الديجور مع الشيطان.. تخبره أنك نضجت.

يهز رأسه لك فتشعر بأن أنيابك تستطيل والدم يخرج من منخريك، وشرر النار يتطاير من
أناملك، وقد صار لك زئير كزئير الهول نفسه.. لقد منحك ال... منحك ال... لا أجد كلمة
مناسبة لذا سأستعمل لفظة «منحك الإذن».

تتقدم نحو واحدة من الفجوات.

هناك فجوات عددها ثلاثمائة في عالمنا.. وهي تقود إلى كوكبكم.

تقف بانتظار اللحظة المختارة.. تراقب هذا المذؤوب وهو ينحني برأسه ليخترق الفجوة..
هناك ممر مفتوح في بيت مهجور في المكان الذي تسمونه «بوكوفينا» برومانيا.. سوف يجتاز
هذه الثغرة، وبعد أيام يتحدث الناس عن مذؤوب في المنطقة.

مصّاص دماء يتقدم ليجتاز الفتحة.. سوف يعبر إلى ما تسمونه الهند.. وبعد أيام سوف يجد
الناس هناك جثثاً خالية من الدماء.

جاء دوري فوقفت أمام الثغرة وقلت لسيد الديجور:

- هبني الهول.. هبني الهول!

وعبرت الثغرة.

* * *

دخلت عالمكم في ليلة مظلمة قررت السماء فيها أن تغسل الأرض بعنف وبلا رحمة.
من حين لآخر كانت ألسنة البرق تهوي من السحب المظلمة فتتوهج الأشجار.. الأشجار التي
توشك العواصف على اقتلاعها من موضعها.. وكانت الريح تعوي بلا انقطاع.
هناك بئر في هذا المكان.. بئر ماؤها سام لا يصلح للشرب، وقد امتلأت بمياه الأمطار وبدأت
تفيض.. هذا مكان لا يمكن لمعتوه أن يأتي له في هذه اللحظات بالذات.. لكنه ثغرة مهمة من
ثغرات جانب النجوم. إنني على بعد نصف ميل من قرية ألمانية هادئة.
من القواعد المهمة هنا أنني قادر على العبور لأي ثغرة من الثغرات الأخرى بسهولة تامة.
الناس في القرية يعتقدون أن أشياء مريبة تحيط بهذه البئر، وهم يتحاشون الاقتراب منها
منذ زمن. لا شك أن سكاناً آخرين من جانب النجوم قد جاءوا هنا وأحدثوا أثراً.. لا شك أن
الفلاحين يقولون إن هناك شيطاناً في الغابة.. لا يعرفون أنها حزمة من الشياطين.
أمشي تحت العواصف والسيول وأتحول إلى شكل شبه بشري.
وعندما أصل إلى القرية الألمانية الناعسة أمشي وسط الشوارع الخالية. ظلام.. ضوء خافت
من وراء النوافذ.. رائحة حساء.. أمطار.
هذا البيت يصلح.. أتجه نحوه وأدق الباب مراراً وأتكلم بالألمانية التي صرت أجيدها فجأة:
- من فضلكم.. أنا أتجمد.
يفتح فلاح ألماني كثر الشارب الباب لي ويرمقني في شك، إنه يدخل غليوناً لكنه يمسك به
بين أنامله وهو يفكر بعمق.
من الداخل تسمع صوت زوجته تصيح:
- دعها تدخل يا «مولر».. الفتاة مبتلة كالدجاجة.. ألا ترى أنها واهنة رقيقة؟
يفسح الباب لي، وأدخل البيت الدافئ لأجد أسرة تتكون من الزوجة وفتاة في سني وطفل في
السابعة.. يبدو أنهم كانوا يتناولون العشاء حالاً.
يسألني الفلاح وهو يعطيني مقعداً:
- هل أنت بخير؟
- نعم.
- ماذا جاء بك إلى الغابة في جو كهذا؟
أحكي له عن الأوغاد الذين خطفوني في سيارة.. ثم عندما مررنا قرب قريتهم عضضت يد
واحد من الخاطفين، وركلت باب السيارة لينفتح وألقيت بنفسي للخارج.. مشيت كثيراً حتى

وصلت إليهم.

يقول الطفل وهو يشرب ملعقة من الحساء:

- كيف فتحت باب السيارة بالركل؟

لكني أتجاهله وأغرق نفسي في طبق الحساء الذي قدموه إليّ، وأضع فيه بعض لقيمات الخبز. هنا تقول الابنة وهي تنتظر لي ملياً:

- لماذا تلبسين ثياباً صيفية؟

جو التذاكي هذا يثير جنوني فعلاً.. قلت في عصبية:

- كنت ألبس معطفاً فوق هذه الثياب.

يسألني «مولر» وهو يعيد إشعال الغليون:

- من أين اختطفوك؟

- من «فورتشايمر».. كنت أقود سيارتي هناك.

ينظر إلى زوجته مفكراً.. ثم يقول لي وهو يطلق سحابة دخان كثيفة:

- أنا أعرف كل سكان «فورتشايمر».. عددهم لا يتجاوز ٢٠٠ شخص.. أنا متأكد من أنك لست من أي أسرة هناك.

هنا يجن جنوني.

عندما غادرت البيت بعد ساعة، كنت قد قمت بكل شيء ممكن.. لا بد أن من سيرون البيت سوف يعجزون عن النوم لفترة طويلة.. ربما يحكون لأولادهم ما رأوه لعدة أجيال.

كنت غارقاً في الدم وأنا أمشي تحت الأمطار أنظر إلى السماء.. وأترك الماء يغسل ما علق بجلدي ووجهي.. أنا الهول.. أنا الهول.

كانت البئر هناك والماء يتدفق منها.

ببساطة تسلقت على الحافة ونزلت فيها.

سأكون في مكان آخر مع أناس آخرين حالاً.

* * *

الفجوة التالية كانت في نيوزيلندا.

هذه المرة تحولت إلى مذئوب.. وخرجت من الفجوة في وقت اكتمال القمر.. وقفت على الطريق السريع أمام السيارات أعوي وأتلوى.. وكان المشهد مخيفاً لدرجة أن أكثر من سيارة انحرفت عن الطريق وانقلبت.. كنت أنزل لأنهي أمر الركاب.

ثم بعد هذا دخلت الغابات القريبة.. كان هناك عدد من الشباب ينعمون بنزهة خلوية، أي أن كل شاب وفتاة كانا في ركن بعيد عن زملائهم.. هذا سهّل المهمة جدًّا.. كنت أجول بين الأشجار، ثم أنقض على العاشقين اللذين لا يصدقان أن هذا حقيقي.

فقط عندما ترى الفتاة رأس حبيبها في حجرها كانت تطلق صرخات الهستيريا.. هنا تلحق به بسرعة.

لقد مرحت كثيرًا.

أنا الهول.. أنا الهول.

* * *

أعود إلى فتحات جانب النجوم.

هؤلاء البشر الحمقى لا يعرفون أن هناك شبكة جحيمية كاملة تحت أقدامهم، وأن سادة جانب النجوم ينتقلون بحرية بالغة.

أحيانًا يدنون من السر.

عندما يجلس ذلك الطفل وحده على حافة بئر منسية ويطل في مائها أكثر من اللازم.. قد يرى لمحة مما يدور تحت. في تسعين في المائة من الحالات لا يعيش ليحكي ما رآه لأن لسانًا أو ممسًا يبرز ليجذبه لأسفل.

عندما تمشي هذه الفتاة وحدها في الدغل في الظلام، وتجد جذع الشجرة القديم الغليظ هذا.. شجرة هوت وأحرقتها الصواعق، لكن جذعها ظل بارزًا مجوفًا من الأرض.. تركع على ركبتيها وتختلس النظر.. يخيل إليها أن هناك كائنات تتحرك ثم تؤكد لنفسها أنها واهمة.. بالتأكد هي واهمة.. ثم لا تعيش بعد ذلك.. فقط يجدون قميصها أو حذاءها في الغابة بعد ذلك، ويظل السؤال معلقًا ويقولون إن هناك سفايحًا في الغابة.

عندما تضيع هذه السفينة وسط الأنواء في المنطقة التي يطلقون عليها «مثلث برمودا»، وعندما ينقطع الاتصال ولا يعرف أحد أين هي.. في الحقيقة هي عبرت أكبر فجوات جانب النجوم طرًّا.. فلا بد أن السافونات خرجت من الأعماق لتمتص عصير الحياة من البحارة، أو ربما هو الهلام احتوى السفينة وأذابها، أو ربما هي الدوامة الكبرى جرت السفينة معها إلى جانب النجوم.. هذا هو المصير الأشنع لأن البحارة سوف يجدون أنفسهم في عالم جحيمي كامل لا يعرفون ما هو.. سوف يخرجون من سفينتهم ليجدوا أنفسهم مع «سيفريد الأميدي» أو «يوليان المغتصب». هناك قصة مثيرة عن مصير سفينة كهذه لكنني لن أحكيها هذه المرة.

هناك بالوعات صرف قد تتصل بهذه الشبكة في عدة مواضع.. لهذا يصعب فعلًا أن يعود من سقطوا في هذه البالوعات.. ربما يجد نفسه فجأة أمام كائن من كائنات جانب النجوم.. وعندها لن يسمع أحد صراخه.

هناك قصة أثارت رعب المصريين وحدثت في أوائل السبعينيات.. الزوجة التي كانت تمشي

مع عريسها في شارع «النبي دانيال» بالإسكندرية كما يطلقون عليها.. فجأة صرخت وفجأة لم تعد هناك.. لقد احتار رجال الشرطة كثيرًا، وقيل إن الأرض مادت بها في بئر رومانية قديمة.. حسن.. أنت تعرف أن هذه البئر في شارع «النبي دانيال» كانت من فتحات جانب النجوم المهمة.. وجدتها الزوجة بالصدفة.

فتحات جانب النجوم هي شبكة تنقلنا ومنها نخرج وإليها نعود.

* * *

لهذا عندما خرجت هذه المرة في أسكتلندا كنت داخل قلعة.. قلعة السير «أرشيبالد ماكدوجال».. وهي قلعة سينة السمعة فعلاً من ناحية الأشباح. من وقت لآخر يأتي بعض الباحثين أو أحمق يؤلف كتاباً عن الظواهر الغامضة.. هناك أدوات تصوير للأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية، وهناك مجسات سونار، وهناك أجهزة تسجيل حساسة جداً.

أحب اللعب بأمثال هؤلاء الهواة الذين يعتقدون أنهم يعرفون شيئاً.

هذه المرة تحولت إلى شبح.. دوري هو أن أمشي في أقبية القلعة أهرز السلاسل وأعوي.. دوري هو أن أضحك.

بالطبع يعتقد هؤلاء أنني أثير الرعب بصوتي فقط.. ككلب ينبج ولا يعص.

عندما صار هذا الباحث الأمريكي الملتحي الذي يحمل آلة تصوير عملاقة، عندما صار أمامي ووحده، هويت على مؤخرة عنقه بأعنف قوة ممكنة.. ثم أدت رأسه في الاتجاه المعاكس ليثير هلع من يراه.. الرأس في الاتجاه المعاكس نوع من توقييع الشياطين.

تركت تلك الجثة هناك وابتعدت.. يمكنني أن أقضي على الآخرين في لحظة، لكنني أتغذى بالرعب.. أتغذى بالخوف.

اللحظة الأمتع هي عندما يكتشف أصدقاؤه الجثة، وعندما يدركون أن أشباح هذه القلعة لا تعوي فقط.

ثمة امرأة تصرخ وهي تتفحص الجثة بالكشاف:

- «ديفيد».. من الذي...؟

ثم تلتفت فتدرك أنها وحدها.. السبب أنني جذبت الرجلين اللذين معها خلف جدار، ثم هشمت رأسيهما.. هنا يبدأ المرح الحقيقي وأنت تراها مذعورة.. تجري كالمجنونة.. تدرك أنها وحيدة في الظلام.. تصرخ.. تتخبط.. تتعثر.. الكشاف يرقص رقصة مجنونة.

الجزء الأمتع هو عندما أطفئ نور الكشاف.

مع الظلام هي في عالم وحشي خفي.. كل شيء ممكن.. كل شيء مخيف.

تصطدم بالجدران.. تلتوي قدمها.

هذا هو طعامي الحقيقي ومصدر نشوتي.

الجزء الأمتع هو عندما أتجسد ببطء أمام عينيها.. شيء بلوري أخضر متوهج من الداخل كقطعة فحم متقدة.. فقط متقدة بلون أخضر.

أتقدم منها وهي لا تكف عن الصراخ.

لكنني أتوقف إذ أرى أمامي كائنًا عملاقًا آخر له لون فيروزي مخيف.

أقول له في ضيق بلغتنا:

- ابتعد يا «ناخاك».. الفانية لي.

فيقول:

- بل هي لي يا «ساحال».. موتًا تموت.

الفتاة تصرخ بلا توقف.. تغطي أذنيها بساعديها.. تتراجع.

هذه هي مشكلة تضارب نطاق النفوذ.. إن «ناخاك» من رجال «يوليان» الأثيرين.. وهو يحمل واجب الولاء نحو «لوسيفر» و«بيهموت» و«أبراكساس».

أفضل عدم الاصطدام به.. لذا أترجع في الظلام.

سأترك له الفتاة يخيفها كما يريد وإن كنت قدرت من نبضاتها أنها لن تعيش لفترة أطول. الطفل الذي يلعب بقطعة وليدة إلى أن تلفظ أنفاسها بين يديه، فيصرخ في جنون ويضرب الأرض مغضبًا.

الصراخ يتعالى.

أنا الهول.. أنا الهول.

وعليَّ أن أصنع الهول حيثما ذهبت.

* * *

وفي غابات ماليزيا خرجت من معبد هندوسي قديم منسي.

هذه المرة كنت أبدو كثعبان سام.. لكنه ثعبان له عينان ترمشان ويرى جيدًا جدًا. وهكذا مضيت أزحف بين الأعشاب.

هناك كانت تلك الأم جالسة جوار النهر تغسل وقد أراحت رضيعها في وعاء فارغ لم تدرك الهول الذي يزحف من خلفها.

لم تدرك أن وافدًا من جانب النجوم جاء ليملأ لياليها بالأسى والرعب.

تومل دجملا.. لوهلل دجملا.

* * *

عندما انتهيت من ماليزيا كنت قد تركت مجموعة من الأساطير المخيفة التي سوف يتناولها الناس لعدة أجيال بعد ذلك.. سوف يكسوها غبار الزمن، وسوف يعتقد القوم بعد أعوام أنها أوهام عجائز.. طبعًا أنا وأنت نعرف أنها حدثت فعلاً.

عدت للفتحة التي توجد في المعبد الهندوسي.

ثم خرجت في مصر.

* * *

إن الخروج من جانب النجوم في مصر هو إحدى الهوايات المحببة لدى سكان جانب النجوم.. بالذات في المناطق التي دُفن فيها الفراعنة قديمًا.. هذا سيناريو محبب لنا.

عندك وادي الملوك مثلًا.. المقبرة رقم ١٢.. هذه المقبرة فيها فجوة واسعة ورهيبية جدًا.. ما زال هذا المكان لغزًا بالنسبة لعلماء المصريات، وقد وجدوه بالصدفة وهم يستكشفون المقبرة رقم ٩.

لهذا دخل كثيرون هذه المقبرة.

هناك قصص كثيرة لا يحكونها طبعًا.. لكن يمكنك أن تتخيلها، خصوصًا أننا نتسلى كثيرًا بهذه اللعبة. الآن أنت ترى المستكشف مع زميله في الظلام يوقدان الكشافات، ويحملان الفؤوس، ويتفحصان تابوت مومياء محاولين معرفة النقوش المكتوبة عليه.. إنهما يسجلان ما يجدان على أداة تسجيل صغيرة.

في الوقت ذاته هناك بئر عميقة في مركز القبر.. وهذه البئر تقود طبعًا إلى جانب النجوم.

يعمل الرجلان.. ثم يلاحظ أحدهما أن الكشافات تضعف.. تضعف بسرعة غير عادية.. هذا ليس شيئًا معتادًا هنا ويلاحظ أحدهما أن البرد يتزايد.. كأن هناك موجة صقيع في المقبرة.

إنهما في الصحراء.. تحت الأرض.. في مكان سحيق.. وسط ظلام دامس.

باختصار هما في أسوأ ظروف يمكن للمرء أن يواجه فيها مسخًا من جانب النجوم.

عندها ينفتح غطاء التابوت.. هذه كلمات سهلة وقد رأيتها أنت مرارًا في أفلام «بوريث كارلوف»، لكن الأمر يختلف كليًا عندما تكون في مقبرة فعلاً.

ينفتح ببطء.. يغمض الرجلان عيونهما لكنهما لا يهذيان. فعلاً هناك يد ملفوفة بالضمادات تخرج من الفتحة.. يد أبلها الزمن وتأكلت سلامياتها.. كما أن الإفرازات لوثت أطرافها. إنهما لا يدركان أن هذا يحدث فعلاً.. يعمل خط الدفاع النفسي الذي يتوهم أن هذا كله هذيان.

لكن الغطاء ينفتح أكثر وتتصاعد رائحة المر والعنبر من طبقات الكفن.

المومياء لم تبعث.. نحن سادة النجوم نتسلى بتحريكها لا أكثر.. كأنها دمية خالية خفيف بها طفلة.

الرجلان يتراجعان، شاعرين أن الأمر يفوق قدرتهما على الفهم. سوف نفر إلى الخارج الآن ما دام هذا بوسعنا.. ما زال هناك ضوء خافت واهن يمكن أن نعتمد عليه، أما لو ماتت الكشافات نهائياً فهي النهاية.

لكنهما بالطبع لا يريان ما يحدث خلفهما.. هناك تابوت آخر يفتح.. ومن هذا التابوت يتحرك جسد آخر مغطى بالأكفان.

يلتفت الرجلان.. يصرخان.

يتعثران.. يسقطان.

ثم يسود الصمت.

فيما بعد سوف يجد القادم الجديد جثتين مفتوحتي العيون.. تنظران نظرة هلع مروعة إلى من يراهما.. وسوف يسمع شريط التسجيل لتتكاثر علامات الاستفهام أكثر.

الفكرة هنا أننا نترك شهوداً.. لا بد من شهود وإلا فلا قيمة لهذا العمل الفني.

شريط الكاسيت سوف يكون شاهداً، وسوف يسمعه العشرات.. وعما قريب سوف يصدر كتاب عن لعنة الفراعنة التي تفتك بمرتادي المقبرة رقم ١٢.

الحقيقة أن معظم قصص لعنة الفراعنة صنعها سادة النجوم الذين خرجوا في فجوة وادي النجوم.

إنه الهول.. الهول.

* * *

لما خرجت في وادي الملوك وقفت أصبح في الظلام الكثيف:

- أنا «ساحال».. هبني الهول يا سيد الصيرورة.

هذا النداء لا يفهمه البشر من أمثالكم.. يخيل إليهم أنه عواء ذنب أو تلك الضحكة الكابوسية المميزة للضباع.. إنهم فقط يدركون أنه مخيف، ويشعرون بعدم راحة أو توجس لدى سماعه، لكن لو فهموا معناه الحقيقي لشابت شعورهم وهم في بطون أمهاتهم.

- هبني الهول يا سيد الديجور.

فيأتيني الجواب وأرتجف:

- توملل دجملا.. لوهلل دجملا.

ومشيت في الظلام بحثاً عن هول أنشره.. عن دم أنثره.. عن دموع أبعثرها.

تعلمنا في جانب النجوم أن لكل بلد نوعاً من الرعب يناسبه أكثر: في شرق أوروبا تنجح قصص مصاصي الدماء والمذؤوبين.. في جزر الكاريبي تنجح قصص الموتى الأحياء.. في شمال أمريكا تنجح قصص الساسكواش ورجل الثلوج.. في شمال أفريقيا تنجح قصص الغيلان. هناك بعض التداخل يتم أحياناً.. مثلاً «الهامة» عند العرب ليست سوى مصاص دماء.

هنا في مصر أعرف كيف أقف ليلاً في الحقول المظلمة التي يغمرها ضوء خافت من النجوم، وأبدأ في النداء.. نداء طويل رهيب يجمد الدم في العروق، لكن من يسمع اسمه يلبي النداء كالمنوم مغناطيسياً.

لاحظ أن موضوع النداء يتكرر معنا كثيراً، ولعلك تعرف أساطير البانشي في شمال أيرلندا.. إنها تقف خارج البيوت وتنادي باسم صاحب البيت.. ويعرف الفلاحون أن هذا معناه أنه سيموت قريباً.

هناك أنواع مختلفة من النداهة.

مثلاً قد يتخذ السيناريو صورة تنكر.. أنا أقف تحت بيت عبد الصمد وأناديه.. الصوت صوت صديقه حسين.. يخرج للقائي مندهشاً من سبب قدومي في ساعة كهذه.. أقول له إن صاحبنا مصطفى مريض جداً.

يخرج ملهوقاً معي ونمضي معاً في الحقول المظلمة:

- ماذا دهاه؟ هل امرأته معه؟

لا أرد.. هنا يعاود السؤال:

- هل أخذ الحقن التي وصفها له الطبيب؟

- أي حقن؟

هنا يفتن إلى أن في الأمر شيئاً ما.

هذه هي اللحظة الأجمل في القصة.. يستدير لي وقد بدأ يدرك أن هذا الذي خرج معه ليس صديقه حسين.

هذه هي لحظة الذعر الحيواني الأولى.. لحظة الصراخ.. لحظة النهاية.

وفي الصباح يجد الفلاحون جثة ملقاة قرب المصرف أو قرب القنطرة.. طبعاً موضوع الرأس للخلف غير مفهوم هنا ولا قيمة له، لهذا لا نتعب أنفسنا به.

على أنهم يفهمون جيداً أشياء مثل العيون المشقوقة بالطول والحوافر تحت الجلباب.

كان لي قريب في صيرورة «سجفريد الأميدي» هو الذي ابتكر قصة الحافر تحت الجلباب هذه.. أنت تعرف القصة.. الفتاة المذعورة التي تمشي خائفة في مكان فيه عفريت له حافر.. تقابل فلاحاً فتطلب منه الحماية لأن هناك عفاريت ذات حوافر هنا.. يرفع الجلباب ويسألها:

- حافر مثل هذا؟

كانت القصة من ابتكاره، وقد ظلت تفرع البشر وتدغدغ خيالهم لعدة أجيال.

اليوم أنا جرّبت كل شيء.. فعلاً أشعر بمثل قاتل.

لقد قررت أن أمارس نوعاً جديداً من المرح.. نوعاً جديداً من الرعب.

سوف أحكي لك ما توصلت إليه.

* * *

الهول.. الهول.

لقد أمضيت في مصر فترة لا بأس بها، وجرّبت الكثير من أنواع الهول، ومزّقت كثيرين واستمتعت برعب كثيرين.. وكمنت كثيراً تحت صفحة المياه أراقب من يدنو أكثر من اللازم.. ثم مددت يدي لالتقطه ليهبط تحت الماء ويموت. قدماء المصريين حذروا من هذه الظاهرة.. حاول الإنسان أن يفسرها تفسيراً عقلانياً يقضي بأن من يُطل الجلوس على ضفة النهر يختطفه التمساح.. طبعاً لا توجد تماسيح في الريف المصري اليوم لهذا لا يوجد تفسير.. وحيث لا يوجد تفسير تتكاثر الأساطير وتزدهر.

جرّبت كل أنواع الهول لكنني بدأت أمل.

المذوّب لن يقتل أكثر من عشرة في الهجمة الواحدة.. مصّاص الدماء لا يقتل سوى رجلين.. قدرات المسوخ على إحداث الدمار محدودة جداً. رأيت ذات مرة فيلماً من أفلام مصّاصي الدماء، يقوم فيه «دراكيولا» بملاحقة فتاتين على مدى ساعتين.. إذن كم من الوقت يحتاج إليه لقتل مائة فتاة؟

لهذا بدأت أفكر في نوع آخر من الرعب.. هناك كائنات لديها القدرة على إحداث كم أكبر من الموت والدمار. ذلك الطيار الذي ألقي القنبلة الذرية على هيروشيما قتل ١٥٠ ألف بشري. يمكنك أن تقتل نصف مليون مواطن بريء بحرب أهلية أو بيولوجية.. المجاعات تفتك بأعداد هائلة.

يجب على الرعب أن يتطور.

لن يظل الشيطان بلحية تيس وحوافر للأبد.

* * *

ناهد الصحفية الشابة التي تسكن في الهرم عانت مشقة بالغة كي تصل إلى مكتب الدكتور مختار في هذا اليوم. الحر قانظ والزحام شديد والناس وقحون.

كان الموعد في الحادية عشرة صباحاً، لكنها اضطرت للاتصال كي تؤجله قليلاً.. كانت السكرتيرة «الأليطة» الخنفاء غضبي ولم يرق لها الأمر، حتى اضطرت ناهد أن تصيح:

- هل خرجت للشوارع يا حبيبتي؟

.. أنت ناهد وأنا مختار.. اجلسي..

ثم جلس على الأريكة أمامها وأشعل سيجارًا عطر الرائحة ووضع ساقًا على ساق.

مدت يدها الراجفة لتخرج جهاز الكاسيت:

- هل هناك أسئلة ممنوعة؟

- لا شيء.

لكنها كانت تعرف أنه سينفجر فيها غضبًا لو دخلت في موضوع الأمصال و«الثاليدومايد»..
يجب أن تكون حذرة.

قالت في كياسة:

- دكتور مختار.. أنت تعرف أن الشارع كله يتكلم عن أنك كنت وزير الصحة وسمحت بدخول عقار «الثاليدومايد» الذي كفَّ العالم عن استعماله، وهذا العقار آذى أطفالًا كثيرين.. بعد هذا مشكلة اللقاحات التالفة التي يقال إنها أدت إلى موت ٣٠٠ طفل آخر.. هذه الأرقام لا نسمعها إلا في مصر حيث يقال إنه لا سعر للحياة البشرية.

تومل دجملا.. لوهلل دجملا.

تومل دجملا.. لوهلل دجملا.

قال مختار وهو ينفث سحابة دخان كثيفة:

- هؤلاء القوم يمزحون.. أنا لست هتلر لأقتل كل هذه الأعداد.. معنى هذا أنني الموت يمشي على قدمين.. هناك صلاة هندوسية تقول: أنا أصبحت الموت.. مدمر العالم.

- بالفعل يقولون هذا.

كانت تفكر بلا توقف.. السفينة الغارقة التي يملكها محمود شرف والتي أدت إلى مصرع ألف شخص.. قيل إنه لم تتم لها أي صيانة منذ أعوام. وماذا عن مشتقات الدم الفاسدة التي استوردها مصطفى عبد الباري؟

كل هذه الأعداد من الموتى.. وفي كل مرة تبحث عن جذور المسؤول فتجد أنه كان في الخارج، أو أن أحدًا لا يعرف بدايته.

لم يعد يحتل منصبًا مهمًا اليوم.. لكنه موجود.. وهناك غاضبون كثيرون يتمنون تحطيم رأسه.. هو يعرف هذا.

قالت له بحذر:

- أين كنت تقيم في الولايات المتحدة؟ وما هي شهادتك؟

نظر إليها نظرة نارية واشتعلت عيناه غيظًا:

- لو كنت قد جئت لامتحان أو التأكد من أنني لست نصابًا، فأنا أعترف عن استكمال الحوار.. أنا كنت وزير صحة وأقسمت اليمين، لكن واضح أن التبسط يجلب الذباب.. سؤال آخر كهذا

وسوف أنهى الحوار.

ابتلعت الإهانة وقلبت أوراقها ثم عادت تسأل:

- ماذا عن عقار «الثاليدومايد»؟

- هذا العقار قد عاد يُستخدم في العالم كله.. من يرفضونه جهلة ببساطة.

المرء يتحمل الكثير.. منذ فترة كان من المستحيل أن يتحمل محادثة كهذه.

- أنا «ساحال».. هبني الهول يا سيد الصيرورة.

توملل دجملا.. لوهلل دجملا.

توملل دجملا.. لوهلل دجملا.

* * *

كانت أوراق ناهد تتكاثر بلا توقف.

الملف الذي تضع فيه أوراقها ينتفخ.

المشكلة أن معظم هذه المعلومات خطير.. خطير لدرجة أنها لا تستطيع أن تذيعه.

كل محاولة لمعرفة متى بدأوا تفشل، لا يمكن أن تقابل من يعرف قريتهم أو مدرستهم أو الكلية التي تخرجوا فيها.. فجأة هم في الحياة العامة.. فجأة هم وزراء أو مسؤولون.. وقراراتهم كارثية.

لو تركت المجال لخيالها لقاتل إنهم جاءوا من الجحيم.. من فجوة شيطانية ما.

توقفت السيارة أمام الفيلا الفاخرة التي يملكها الرجل في المقطم.. ترجلت من السيارة بينما كلاب «الدوبرمان» تنبح في شراسة وراء تلك البوابة الحديدية.. ظهر رجل الأمن ليربطها ويفتح البوابة، بينما تساعل سائق التاكسي وهو يتقاضى أجره:

- من يعيش هنا؟

قالت وهي تعد المال:

- محمود شرف.. الوزير السابق.

- ابن ال... الذي تسبب في مقتل ألف حاج بريء؟

- أعتقد أنه هو.

أدار السائق المحرك وقال:

- علي الشافعي.. الفيلا في آخر هذا الشارع.. هو الآخر تسبب في تسمم مدرسة أطفال كاملة عندما كان مورد أطعمة.. خرج من القضية كالشعرة من العجين.

تساءلت في فضول:

- علي الشافعي؟ من أين هو؟

نظرة الغباء المطبق مع التظاهر بالخبث:

- لا أحد يعرف.. كأنه جاء من تحت الأرض.

يجب أن تتذكر هذا العنوان.. سوف تعود لمقابلة هذا السيد علي الشافعي.. لكن ليس اليوم.

كانت البوابة قد انفتحت.. رجل الأمن يمرر عصا مغناطيسية على ثيابها. لو كانت هناك علامة مشتركة بين هؤلاء فهي أنهم يتوقعون الاغتيال.. كلهم خلقوا أعداء في كل مكان.

كلب «الدوبرمان» المخيف يزوم مهدداً.

رجلا أمن يصحبانها للداخل لتقابل محمود شرف.. الرجل الكبير.. الرجل الذي يبدو كأنه جاء من فيلم عربي جديد.. البدانة.. الكرش العملاقة.. جالس جوار حَمَّام سباحة يحتسي العصير.. يجب أن تكافح لتصل إلى هذه الراحة.. يجب أن تضحي بكل شيء ويلعنك الجميع وتدعو عليك ألف أسرة تتذكر عائلها.. عائلها الذي لم يمت في حفل رقص وإنما كان ذاهباً إلى الحج.

حقاً.. إن الوصول إلى الثراء يحتاج إلى تضحيات كثيرة.

تقترب من حَمَّام السباحة، فيشير لها رجل الأمن إلى مقعد.

- فلتر ما تشربه.

قالها محمود شرف وهو يضحك لها من وراء نظارته السوداء، ثم أضاف:

- أنت أجمل من صوتك بكثير.. يا.. يا قمر!

هذا رجل يختلف عن الدكتور مختار الذي لم يكن يميل للنساء.. إنه يميل لهن جداً كما هو واضح.. على كل حال هي قد شطبت مختار من القائمة بعدما استبعدته من شوكها. جلست وبطريقة عملية أخرجت جهاز التسجيل، وقالت:

- ليمون.. هل نبدأ؟

- ليمون إذن.. فلنبدأ.

قالت له في كياسة:

- كلما تحدثنا عنك.. تحدثنا عن السفينة التي نقلت الحجاج والتي لم تخضع لصيانة منذ أعوام، وبرغم هذا يقال إنه تم تزييف أوراق صيانة لها.

قال في ضيق:

- تم تحقيق مطول في هذه النقطة.. ولا أرغب في العودة إلى هذا الموضوع.

بعد بضعة أسئلة وجهت له السؤال الأهم:

- ظهرت فجأة في المجتمع المصري وعالم السياسة، وقيل إنك كنت تدرس في فرنسا.. هل يمكنك أن تلخص لنا تاريخ حياتك المهني والعلمي قبل العودة إلى مصر؟

بدل من جلسته ليبرز كرشه العملاقة أكبر، كأن هذه الكرش وسيلة إغراء، وقال:

- هذه تفاصيل طويلة سوف تعد لك السكرتارية ملفاً على كل حال.. أنا أعتبر بدايتي الحقيقية هي يوم عدت إلى مصر.

كان يتحدث في تلذذ وهدوء. أقسمت لنفسها إنه يجد لذة سادية ما في تذكر من قتلهم.. أو ربما لذة ماسوشية ما في تذكر أن الكل يلغنه الآن.

قالت لنفسها إن الرجل جدير فعلاً بأن يضاف إلى قائمة «لا تاريخ لهم - جاعوا فجأة - جاعوا من مكان مجهول - قتلوا الألوف».

قائمة دقيقة هي.. وكانت قد أعدت استبياناً من عشرين نقطة تحكم به إن كانت شكوكها في موضعها أم لا.. إن هتلر تسبب في موت الملايين لكنه لا يحقق معظم الشروط.. مثلاً الكل يعرف طفولته ومتى نشأ وكيف مات.. جنكيز خان لا يحقق الشروط.

أمسكت ورقة الاستبيان وقررت أن تبدأ بتوجيه أسئلة.

ناهد سوف تضيف إلى قائمتها اسماً جديداً على الأرجح.

* * *

في الوقت ذاته..

شهوة الدم كانت تغلبني.

برغم كل شيء ما زالت الأساليب القديمة تروق لي، وما زالت أسرع وأجدي تأثيراً.

قررت أن أقوم بتمرين صغير.. نزلت إلى فجوة من فجوات جانب النجوم المتناثرة في مصر، ومضيت أسبح فيها حتى خرجت في مشرحة مستشفى «.....».

كان الحارس غافياً جوار باب الثلجة، وجواره كوب شاي نصف ممتلئ، وفي يده لفافة تبغ توشك على حرق أنامله.. هذه المرة سوف أمارس لعبة الجثة التي تتحرك.. وقفت وراء باب الثلجة بالداخل البارد ورحت أضرب بقبضتي مراراً.

هب الحارس المسن مذعوراً.. هتف:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

راح يصغي للحظات.. خُيل إليه أنه يهذي، ثم جاءت الضربات أقوى وأعنف. ومن الداخل أطلقت صوت فتاة تتأوه:

- أرجوووووك.. أخرجني من هنا.

عاد يبسمل ويحوقل ويسألني:

- مَنْ... مَنْ أنت؟

قلت بذلك الصوت المتحشرج:

- أنا.. أنا حية.. لم أمت.. أرجوك أن تفتح الباب.

هرع بسرعة يعالج مقبض الثلاجة.. الثلاجة تتسع لخمس جثث.. حالياً لم تكن فيها سوى جثة هذه الفتاة.. وبالطبع كان يلبي غريزة إنسانية طبيعية.. لا أحد يترك فتاة حية سجيناً ثلاجة لو أردت رأيي.

عالج المقبض وفتح الباب، وفي اللحظة ذاتها لا بد أنه تذكر أن الفتاة التي بالثلاجة لا يمكن أن تكون حية ولا يمكن أن تكون مدفونة خطأ.

هذه فتاة داسها قطار فشطرها إلى نصفين.

تذكر هذا فقط بعدما انفتح الباب ووجد نفسه ينظر إلي!

* * *

في الصباح جاء رجال الشرطة والتقطوا عشرات الصور.

كان ما تركته للناس هو رسالة قصيرة مخيفة فعلاً: الحارس المسن على باب الثلاجة وقد بدا الهلع في عينيه الشاخصتين المتجمدتين، وفمه مفتوح في صرخة لوعة مخيفة فعلاً.

شيء أثار ذعر الرجل.. أفزعه إلى درجة أن قلبه توقف.. هذا ما سوف يستخلصونه من المشهد، لكن الرسالة الأخطر هي شطرا الفتاة التي مر القطار على جسدها.. هناك شلّو في كل موضع من القاعة.. لا أحد يعرف السبب ولا لماذا أخرج الحارس هذه البقايا.

الاستنتاج الذي لن يجرؤ أحد على التصريح به هو أن الأشلاء غادرت الثلاجة بنفسها.. لن يكتب أحد هذا في التقرير.. لكن الكل سوف يتذكره، وسوف يتذكره جيّداً الحارس الليلي القادم ومن بعده.

هذه هي تركة الرعب التي نتركها نحن سادة جانب النجوم في كل مكان.

* * *

راحت ناهد تراجع الملف الذي أعدته لها سكرتارية الوزير السابق محمود شرف، والذي افترض الرجل أنها ستطعم المقال به.. بالفعل هناك فجوات كثيرة في قصة هذا الرجل. كانت تعرف أنه من قائمة «لا تاريخ لهم - جاءوا فجأة - جاءوا من مكان مجهول - قتلوا الألوفا».

نزلت من الميكروباص.. لسبب ما كانت تعتبر الميكروباص وسيلة من وسائل العمل الصحفي.. لا تثق بأي صحفي يذهب إلى مقابلة المصدر في سيارة ملاكي.. ربما سيارة تاكسي

لو كانت ظروفه المالية تسمح، لكنها اليوم لا تجد نقودًا معها.

من جديد ينبج كلب «الدوبرمان» ويخمش البوابة.. يجره رجل الأمن بصعوبة.. كاشف المعادن.

هناك عند حمّام السباحة يجلس محمود شرف كما رآته من قبل.. كان يجفف نفسه بالمنشفة ثم وضع الروب على كتفيه وقال دون أن ينظر إليها:
- سوف نتكلم بالداخل.

تتبعه إلى ممر ضيق يجلس رجل أمن على بابه، ثم إلى غرفة جلوس صغيرة تعبق فيها رائحة التبغ.. يتجه إلى دورق معدني بارد ويصب لها بعض عصير الليمون في كأس.
عاد ليجلس ويضع ساقًا على ساق.. ينظر إليها في ثبات.

قال لها بعد صمت طال:

- هل قرأت الملف؟

- نعم.

- الحقيقة أنني لا أفهم سبب اهتمامك البالغ باقتفاء أثري.. لقد قابلت كل شخص يعرفني.. بحثت عن كل شيء يتصل بي.. إن لي مصادري.

قالت في برود وهي ترشف الليمون:

- هذا شيء طبيعي.. أنا صحفية.

هز رأسه مفكرًا.

لما فرغت من الكأس وضعتها على المنضدة جوارها.. هنا لاحظت أن الرجل يرمقها في فضول وثبات.. بعد صمت طال قال لها:

- أنت تشعرين طبعًا بثقل جفنيك.. السبب هو عقار «روهيبنول» الذي وضعته لك في عصير الليمون.

شعرت بأن الرؤية مضطربة نوعًا.

قال وهو يبتسم:

- هذا العقار مشهور في الخارج.. يسمونه «عقار الاغتصاب في المواعيد الغرامية» لسبب لا يغيب عن فطنتك.. لن تغيب عن الوعي.. لن تكوني في غيبوبة.. ولكنك ستفقدن أي إرادة.. ستفعلن أي شيء أطلبه منك.. يمكنك تخيل ما سيحدث.. فيلم فيديو ومجموعة صور.. بعدها لن تتكلمي أبدًا.. سوف تخبريني بكل شيء: من أرسلك ولماذا؟ لماذا تلاحقيني؟ قبل هذا سيأتي رجل أمن لتفتيشك ليتأكد من جديد من أنك لا تحملين أجهزة تنصت.. هل فهمت يا صغيرة؟

نظرت إليه بعينين زائغتين، فأضاف:

- هل فهمت؟ سوف تفعلين كل شيء بإرادتك ولن تستطيعي اتهامي بشيء.. هذه هي فائدة علم «الفارماكولوجي».. حتى لو أخبرت العالم كله أنك هنا في داري، فلن يستطيع أحد اتهامي بشيء.

ثم أشعل لفافة تبغ ببطء، وقال لها وسط سحب الدخان:

- السؤال الأول الذي سنعرف إجابته حالاً هو: لماذا تلاحقيني؟ لماذا لاحقت الدكتور مختار ومصطفى عبد الباري؟

ثم نفت سحابة كثيفة وأضاف:

- السؤال الثاني: من أنت؟ لقد بحثوا عنك في نقابة الصحفيين وفي تلك الجريدة.. كل معلوماتك زائفة.. أنت كاذبة. السؤال الثالث: ما أنت؟ لماذا ظلت كلاب «الدوبرمان» ترتجف وكفت عن الأكل بعد زيارتك؟ إنها تنبح في البداية ثم تكتشف أن الأمر أكبر منها.. هل من تفسير؟

هنا رفعت ناهد رأسها ونظرت إليه وقالت بصوت كالفحيح:

- أنت ذكي.. الدكتور مختار كان ذكياً.. من الواضح أن الأشرار أذكى من الأخيار نوعاً..
الدكتور مختار عرف أكثر من اللازم ومن الواضح أنك مثله!

لم يفهم ما حدث بالضبط.

يبدو أن هناك ممسات تخرج من صدر الفتاة.. ليست فتاة أصلاً.. إنها أقرب إلى كائن مخيف يتكون من أهذاب لا حصر لها.. رأى ذات مرة صورة لأم أربعة وأربعين مقلوبة فلم يتحمل بشاعة المشهد.. هنا كان يرى المشهد ذاته على نطاق واسع.

وقبل أن يفهم، أدرك أن هناك ممساً في صدره.. وأن هذا الممس يخرج من فمه.. وأن...

* * *

تومل دجماً.. لوهلل دجماً.

- هبني الهول.. هبني الهول!

انتهيت من تمزيق الكائن الأرضي فغادرت المكان.. لقد كررت تقريباً ما حدث مع مختار من قبل.

كنت آمل دوماً أن أجد آخرين من جانب النجوم يتنكرون في مظهر أرضي، ويحاولون نشر الهول كما أفعل أنا.. كنت آمل أن أتحالف معهم، وبهذا نخلق عاصفة من الهول تجتاح مصر.. كنت أعرف أنهم لو وجدوا فلسوف يكونون من صيرورة أخرى، ولسوف يكون من الصعب أن أعرفهم ما لم ألقهم شخصياً.. نحن لا نعرف خطط من هم من صيرورة أخرى، ولا نعرف من هم ولا كيف يبدون.. الأمر يختلف عن مفهوم الزمالة كما يفهمه الأرضيون.

جربت البحث عنهم في صورة الصحفية ناهد.. لكنني لم أجد أحداً من جانب النجوم.. كلهم

أرضيون جدًا.

وفي كل مرة أضطر إلى تدمير الكائن لأنه عرف أكثر من اللازم.

لقد حان وقت الرحيل.. يجب أن أترك هذا البلد.. إن فيه من الوحوش الآدمية ما يفوق الآتين من جانب النجوم مثلي.. وليس لمثلي الكثير مما يقوم به.. مجرد ألعاب صبيانية من تحريك الجثث والموميאות.. لكنني لن أحقق الحلم الثوري الذي تمنيت تحقيقه.

هكذا مشيت إلى تلك المقبرة في وادي الملوك.. أبحث عن الفتحة التي أعبر منها.. سوف أبحث عن فتحة أخرى في بلد آخر.. بلد يحتاج إلى إبداعاتي ومحاولاتي، بدلاً من هذا البلد المكتفي ذاتياً.

- أنا «ساحال».. هبني الهول يا سيد الصيرورة.

توملل دجملا.. لوهلل دجملا.

قصة لم تكتمل

الذي لم يشعر بأي اطمئنان كان مصطفى نفسه.. القصة تبدو مملة فعلاً.. لم يعد أحد يتحمّل القصص العاطفية اليوم.. دعك من هذا التوافق والانسجام. قال «آرثر كلارك» يوماً إن جرائد المدينة الفاضلة ستكون مملة جداً بالتأكيد. هذا حقيقي.

هكذا بدأ مصطفى يعاود الكتابة مع التغيير قليلاً.

عندما جلس مصطفى الجندي إلى مكتبه، وعندما شغل جهاز الكمبيوتر، وعندما أعد لنفسه بعض «الكابوتشينو»، وعندما أشعل لفافة تبغ، وعندما قام بتشغيل أغنية خافتة لفيروز، وعندما راح يحدق في الشاشة، كان يشعر بأنه سيكتب عملاً رائعاً.

بعد دقائق بدأ يشعر بقلق.. الفجوة في الورق غير موجودة.. الفجوة التي يعبر منها كل كاتب إلى عالم الرواية - لو كانت هناك رواية - لا وجود لها هنا، وما يدور هو طقوس محترمة جداً لدين لا وجود له.. يعني هناك مذبح وهناك تراتيل وهناك عزراء متأهبة للتضحية.. لكن لا يوجد شيء تدور من أجله تلك الطقوس.

جلس قلقاً.. يرشف «الكابوتشينو» ويسحب عدة أنفاس من التبغ.. ثم بدأ يضرب على المفاتيح ببطء وبدأت القصة تتشكل.

* * *

الغابة وجو العصر الخامل الذي يشتهي القيلولة لكنه لا يجد مُتسعاً من الوقت لها، وصوت الأوراق الجافة التي تنذر بقدوم الخريف، وصوت الخطوات فوق الأوراق الجافة، مع صوت أنفاس لاهثة.

ومن بعيد يدنو عادل وسلوى متشابكي اليدين والقلبين والأحلام.. يدها رقيقة تسترخي في كفه بدعة واسترخاء واطمئنان.. إنه لي وأنا له.. فلتتوقف أيها الزمن.

كانت تلك الشجيرة تنتظر.. تدعوها منذ الأزل للجلوس تحتها.. منذ لحظة الخلق الأولى تعرف أنهما سيجلسان تحتها يوماً ما.

فرت سحلية خضراء رشيقة وقد أفزعها القادم.. ونظر عادل إليها ونظرت إليه.

مدت يدها في حقيبتها وأخرجت قطعة من البسكويت.. شطرتها إلى نصفين فناولته شطراً والتهمت هي شطراً. يوماً ما ستفتش جزيئات البسكويت عن بعضها ولسوف تجمعهما من جديد.. هذه اللمسات الخرافية الرومانسية تحركها بشدة.. ربما تمنحها نوعاً من النشوة كذلك.

قالت له:

- أنت رجلي ولن ترحل أبداً.

قال لها:

- أنت امرأتي ولن تغيبني وراء الأفق أبداً. أنا مطمئن.

- وأنا كذلك.

* * *

الذي لم يشعر بأي اطمئنان كان مصطفى نفسه.. القصة تبدو مملة فعلاً.. لم يعد أحد يتحمّل القصص العاطفية اليوم.. دعك من هذا التوافق والانسجام. قال «آرثر كلارك» يوماً إن جرائد المدينة الفاضلة ستكون مملة جداً بالتأكيد. هذا حقيقي.

هكذا بدأ مصطفى يعاود الكتابة مع التغيير قليلاً.

* * *

لاحظت سلوى أن يد عادل ليست على ما يُرام.

عندما دققت النظر لاحظت أنها متفحمة.. وأن العظام مكشوفة في عدة أماكن. شعرت بقشعريرة، وهمست وهي تدقق النظر:

- عادل. هل أنت بخير؟ ماذا أصاب يدك؟

نظر إلى يده وبدأ عليه الخجل كأنه اكتشف كارثة لم يرها من قبل، وقال في جزع:

- الشمس.. ما كان ينبغي أن أجلس في الشمس.. إن هذا..

ولاحظت ما هو أسوأ.. إن جلد وجهه يتساقط.

ثم فتح فمه فلاحظت نابين طويلين هناك.

- أنت.. عادل.. أنا لا أعرف ماذا دهاك.

قال وهو ينهض:

- نعم.. أنا مصّاص دماء.. وقد ارتكبت غلطة فادحة عندما تعرضت لهذه الشمس.. يبدو أن علينا أن نختصر الإجراءات.

وقبل أن تفهم كانت هاتان اليدان المخلبيتان قد أطبقتا على يدها، وفي اللحظة التالية أدركت أنه يغرس نابيه في عنقها وأن دمها يسيل، وأن قواها تخور.. إنه يمتص دمها إذن.

* * *

قرأ مصطفى ما كتبه فبدأ له سخيلاً جداً.. لم يعد أحد يطبق القراءة عن مصّاصي الدماء، خصوصاً بعدما قرأ الجميع سلسلة «الشفق» وقصص «آن رايس».. ثم إن تخيل مصّاص دماء تحت شجرة في مصر عصراً، أمر عسير نوعاً.

إن الأمور تسوء.. لقد أمضى ساعتين أمام الشاشة دون أن يحقق سوى بضعة أسطر، وها هو ذا يدرك أن المهمة معقدة.. هكذا عاد يمسح السطور السابقة.

سوف يبدأ من نقطة «وأنا كذلك» عندما كان العاشقان في تمام السعادة.

* * *

أغمضت سلوى عينيها ودفنت يدها في كف عادل.. بدأت تذوب ببطء في عالمه كأن روحها تتدفق لتسيل في دمه.. وبدأت تشعر بالنعاس.

هنا فتحت عينيها قليلاً ففوجئت بأنه يمد يده الأخرى ليعبث في حقيبتها.

هبت في عصبية وصاحت:

- ماذا تفعل بالضبط؟

انتفض في توتر.. رأى عينيها المتشككتين، فقال:

- لا شيء.. كنت أَلعب بمحتويات الحقيبة فقط.

لكنها كانت تعرف.. عندما خَبَّأت الميكروفيلم الصغير في الحقيبة، كانت تعتقد أنها في أمان وأن أحداً لا يرتاب فيها.. سوف تتركه في سلة مهملات ذلك الإسرائيلي المقيم في البناية المجاورة للسفارة، لكن من الواضح أن هناك من يشك في أمرها.. الأمن المصري يعرف سرها.. وعادل لم يأت صدفة.. هو ليس عاشقاً.. إنه ضابط مخابرات.

المشكلة الآن هي أنه ليس بوسعها أن تغضب أكثر من اللازم.. لن تغضب أكثر مما تغضب أي فتاة أخرى سُرقت حقيبتها.

* * *

لم ترق الإضافة الأخيرة لمصطفى.

ثمة شيء طفولي مفتعل في هذا كله، وهو بالفعل لا يعرف الكثير عن المخابرات.. تبدو حيلة الميكروفيلم في الحقيبة عتيقة تنتمي لزمان الحبر السري المصنوع من عصير الليمون وهذا السخف.

في صبر رشف رشفة أخيرة من «الكابوتشينو» وعدل ما كتبه.

* * *

في هذه المرة كان العاشقان تحت الشجرة يتهامسان، وفجأة صرخت سلوى.

كان ما تراه هو رأس عادل المنفصل على الأرض، وبركة دم.

رفعت عينيها في ذعر فهوى نصل سيف حاد على عنقها لكنها لم تمت.. زحفت على يديها وقدميها وهي تنشج. أما مَنْ فعل بها هذا فقد لحق بها وأمسك بشعرها.. لم ترَ وجهه.

قالت وهي تبكي وبصوت مبجوح بسبب الجرح:

- مَنْ أنت؟

سمعت صوتاً غليظاً يقول:

- أنا «ابن أبراكساس».. لكن اسمي لن يفيدك لأنك سترحلين حالاً.

كادت تقول شيئاً، لكن النصل هوى عليها مرة أخرى.

* * *

بدأت القصة أفضل في رأي مصطفى.

لا بأس.. السفاح المختص بذبح العشاق الجالسين تحت الأشجار.. هذا موضوع مثير نوعاً.. صحيح أنه يُذكر نوعاً بالسفاح الأمريكي «تيد بوندي» أو «زودياك»: في فترة من الفترات كان أي عاشقين يجلسان في مرج في أمريكا يكتبان شهادة وفاتهما! لكن هذا عالم مستجد تماماً على القارئ العربي.

شعر برضا بالغ عن نفسه.. كان عقله قد بلغ مرحلة الليمونة التي تم عصرها بيد بطل كمال أجسام، لذا تأكد من تسجيل الملف وأغلق الكمبيوتر ونام.

كان أول شيء فعله في الصباح هو أن أعد لنفسه كوب شاي هذه المرة، وهرع إلى الكمبيوتر.

راح يقرأ ما كتبه ليلاً، وكان قد تعلّم بالخبرة أنه أحياناً يكتشف في الصباح أن ما كتبه كلام فارغ.. الليل والسهرة يغمران العقل في دن من الخمر.. هكذا يصير القياس خاطئاً غالباً.. لا بد من النوم ومعاودة النظر في النهار.

لكنه عندما عاد يقرأ القصة شعر بقشعريرة.

القصة تبدأ بجثة فتاة وجثة رجل ممزقتين في المرج: «الغابة وجو العصر الخامل الذي يشتهي القيلولة، لكنه لا يجد متسعاً من الوقت لها، وصوت الأوراق الجافة التي تنذر بقدوم الخريف. تحت شجرة ترتمي جثتا عادل وسلوى متشابكي اليدين وقد توحد مصيرهما للأبد. أين ذهب الرأسان؟ هذا هو السؤال الذي سألته أول مار يرى الجثتين. هناك ورقة جوار أحد العاشقين تقول «ابن أبراكساس»».

ما معنى هذا؟

كان هناك مشهد قتل ومشهد حب و... و... أين ذلك القاتل الذي يُطلق على نفسه اسم «ابن أبراكساس»؟

عندما جاءت زوجته تلومه لأن باب الشقة مفتوح.

وعندما لامته كذلك على قطرات الصلصة التي بعثرها في الصالة حتى باب الشقة، وحتى على درجات السلم.

عندها بدأ يتوتر.

تتكلم عن دم.. القاتل في القصة اختفى في الليل!

لو أطلق لخياله العنان لقال إن «ابن أبراكساس» هذا قد هرب من الكمبيوتر إلى عالمنا!

* * *

التمتع فلاش الكاميرا عدة مرات بتلك الطريقة الحكومية الكنيبة التي توحى بمسرح الجريمة، وكان رجال البحث الجنائي عاكفين على فحص الجثتين، وأخذ عينات من العشب. هناك نطاق من رجال الشرطة يمنع المتسكعين من الدخول، وكان المتسكعون والحق يقال أكثر من الذباب. تلك العاطفة الراسخة فينا أن نرى الموت في أشنع صورة ممكنة.. أن نرى الجثث المشوهة المذبوحة أو التي تحولت إلى عجين. سوف تشعر بقشعريرة وهلع وتقرز، لكن الجزء الخفي من كيانك يشعر برضا تام: لست أنا.. أنا ما زلت حيًا.. لقد ظللت صامدًا.

«ستيفن كنج» يطلق على هذا «هواية الإبطاء بالسيارة لإلقاء نظرة على حوادث الطرق».. ليس الفضول هو السبب الوحيد.

بالنسبة إلى سمير وهبة كان وضعهما سيئًا.. سيئًا إلى حد أن أي مار سوف يشعر أنه سعيد الطالع مجدود الحظ. لا يمكن مهما حدث أن يسوء وضعك إلى درجة أن يبحثوا عن رأسك - لا سمح الله - وسط العشب.

هناك ورقة ملوثة بالدم تقول: «ابن أبراكساس».

لم يفهم أحد معنى هذا الاسم، لكن أحد رجال المباحث كان يهوى أفلام الرعب، وقد أعلن أن «أبراكساس» هو اسم شيطان.. نفس الشيطان الذي اشتقوا من اسمه لفظة «أبراكادابرا» التي يستعملها كل سحرة العالم.

تحسس العقيد صبري رأسه الموشك على الانفجار:

- سفاح مثقف يهوى أفلام الرعب.. هذا الجو ليس مصريًا على الإطلاق.. أعتقد أنها جريمة شرف، وعلينا أن نجد رجلنا بين أقارب الفتاة.

حقًا لا توجد احتمالات كثيرة في مصر.. كل مجتمع يفرز جرائمه، ومصر ليست معتادة على أسلوب القاتل المتتابع الشهير.. جرائمنا لها طابع محلي واضح.

قال النقيب عمر وهو يدون ما قيل:

- أقارب الفتاة.. سوف يكون هذا سهلًا.

- إذن عليكم البدء حالًا.

ونظر إلى الجثتين المغطاتين بالملاءة، وتساءل عما شعر به هذان العاشقان لحظة الموت.. من المؤكد أن الأمر تم بسرعة وقسوة وهذا يريح المرء قليلًا.

* * *

مصطفى الجندي قضى لحظات لعينة وهو يتفقد ملفات الكمبيوتر.

من الوارد أن يكون قد أتلّف الملف أو أضاعه، فهذا محتمل جدًّا.. يعرف ساعات السهر الطويلة هذه وكيف يرتكب المرء كل أنواع الحماقات في آخرها.

لكن الغريب أن يعدل القصة وهو لا يذكر.

إن القصة التي كتبها ليلاً كانت تتحدث عن عاشقين يتبادلان الغرام في مرج، ثم يظهر سفاح يطير رقبتيهما.. سفاح على طراز «تيد بوندي» أو «زودياك» من الذين يهون إنهاء قصص الحب بطريقة محزنة.. اليوم يجد أن القصة لا تحوي سوى هذه السطور: «الغابة وجو العصر الخامل الذي يشتهي القيلولة، لكنه لا يجد متسعاً من الوقت لها، وصوت الأوراق الجافة التي تنذر بقدوم الخريف. تحت شجرة ترتمي جثتا عادل وسلوى متشابكي اليدين وقد توحد مصيرهما للأبد. أين ذهب الرأسان؟ هذا هو السؤال الذي سألته أول مار يرى الجثتين. هناك ورقة جوار أحد العاشقين تقول «ابن أبراكساس»».

ما معنى هذا؟ السفاح كان موجوداً ومشهد القتل كان كاملاً.. أين هذا كله؟

ثم زوجته سناء مصرّة على أنها أغلقت باب الشقة أمس.

على السجادة قطرات الصلصة أو ذلك السائل الأحمر اللزج الذي بدأ.....

يتجلط؟

هذه القطرات تتحرك من موضع الكمبيوتر بالذات، نحو الصالة، ثم باب الشقة، على درجات السلم، حتى الطابق السفلي.

أين ذهب «ابن أبراكساس»؟ أين مشهد القتل؟

كان الدوار يوشك على تفجير رأسه.. كل شيء يشير إلى تفسير واحد، وهذا التفسير سخيّف جدًّا ومضحك: أن يتصور أن السفاح الذي أوجده خياله قد تحرّر.. إنه حر طليق في القاهرة الآن.

كل هذا سخيّف.

الصحف تتكلم عن شابين اسماهما سمير وهبة.. إنهما مخطوبان وكانا يجلسان في حديقة عامة عصرًا، في ساعة يقل فيها تواجد الناس.. هذا منطقي.. لا بد أن يبحثا عن مكان هادئ بعيد عن المضايقات وتحرش بائعي السميط.. مكان رومانسي.. هذا في الوقت ذاته يجعلهما هدفًا سهلاً.. يبدو أن هناك من هاجمهما وقطع رأسيهما.

مكان رومانسي.. لهذا لم يسمع أحد الصراخ.

مكان رومانسي.. لهذا لم يجد أحد الجثة إلا بعد ساعات.

مكان رومانسي.. لهذا لم يجدوا الورقة التي كتب عليها «ابن أبراكساس» إلا بصعوبة بالغة.

نحن نتكلم عن قاتل يشبه بالضبط «زودياك» الأمريكي.. نفس الأسلوب الأمريكي.. و«زودياك» قد تمادى إلى درجة أنه قتل مذيعة التلفزيون التي كانت تتكلم عن جرائمه!

ابتلع مصطفى ريقه وقرر أن يصمت.

لكنه لم يستطع أن يمسخ القصة التي بدأها.. كان يشعر أن مسحها سوف يزيل آخر علاقة له مع المنطق السديد.. سوف يصير مجنوناً بشكل رسمي ولن يستطيع التراجع.

على أنه قام بخطوة واحدة صحيحة.. قام بأخذ عينات من ذلك السائل الأحمر.. وضعها على قطع من القطن ووضع بعضها على شرائح زجاجية، ثم اتجه إلى صديق له طبيب يملك مختبراً.

كان سؤاله واضحاً:

- ما طبيعة هذا السائل؟

تأمل الطبيب الشريحة تحت المجهر.. ثم قال بلا مبالاة:

- سوف أحلله بدقة أكبر، لكن هذا دم متجلط.. هل عندك شك في ذلك؟ وما هو مصدره؟

كان مصطفى قد غادر المكان.

ليلة كاملة مرت عليه في طرقات المدينة، يجلس في كل مقهى بعض الوقت وينظر إلى الفضاء شاردًا.. أعتقد أنه دخن عشرين حجرًا في تلك الليلة السوداء حتى إن صدره كان يعزف سيمفونية متكاملة.

المشكلة أنه لم يكن يعرف ما يقول أو يفعل.

* * *

رامي وغادة.

هذان شابان كانا يجلسان في سيارة في المقطم.. يبدو أن من قتلتهما تسلل إلى السيارة.. ومن المقعد الخلفي استطاع أن يحصد الرأسين.

كان هذا ليلاً.. وقد استغرق الوقت الكثير حتى يجد أحدهم السيارة والدم ينزف من تحت الباب في الصباح.. هناك ورقة تحمل اسم «ابن أبراكاس».

قال معظم من علقوا على الحادث إن «ابن أبراكاس» هذا يسعى لنشر الفضيلة، وأنه لو التزم الشباب الأدب لما استطاع أحد أن يذبحهم.. واعتبره البعض رمزاً للطهر والالتزام الخُلقي.

لكن مصطفى قرأ الخبر الأسود في الجريدة، وارتجف.. كان يعرف أن «ابن أبراكاس» لا يسعى لنشر الفضائل، بل هو ببساطة ينتقم من أي عاشقين.

عندما انتصف النهار كان في طريقه إلى مديرية الأمن.

سوف تكون المهمة عسيرة ومستحيلة، لكن لا بد من أن يُرضي ضميره.

وعندما جلس أمام العقيد صبري في تلك الغرفة التي تعبق بالدخان، وأمام الوجوه المتشككة الكارهة له، قال:

- أنا أوجدت «ابن أبراكساس».. وأعرف كل شيء عنه!

* * *

بعد المرحلة الإجبارية الأولى، عندما يفترض الناس أنك مجنون، بدأ رجال الشرطة يجدون شيئاً مسلياً في القصة وراحوا يصغون.

بالطبع هي قصة لا يقولها سوى مجنون تفككت صواميل عقله تماماً، وقد ازداد الزحام في الغرفة وبدأت التعليقات الساخرة تنهمر، لكن مصطفى لم يتزحزح.. حكى عشرات المرات قصة السفاح الذي أوجده على شاشة الكمبيوتر ثم فر من هناك.

الحقيقة أنه كان يعرف بعض التفاصيل.. مثلاً كان يعرف أن القاتل يلبس حذاء غليظاً يشبه أحذية تسلق الجبال.. وكان يعرف أنه أشول.. هذه أشياء لم يقلها أحد في وسائل الإعلام.

سأله العقيد صبري وهو يشعل لفافة تبغ:

- هل كتبت هذه التفاصيل في قصتك أيضاً؟

رشف مصطفى رشفة أخرى من القهوة، وقال:

- لا.. لم أكتب كل شيء.. لكن لكي يكون لقصتك بطل، فلا بد من أن يكون مكتملاً في ذهنك.. أنت تراه وتسمعه وتشم رائحته، لكن لا يجب بالضرورة أن تكتب هذا.. مثلاً أنا أعرف أن القاتل له عين اليمنى حولاً وحشياً للخارج لكن لا داعي لذكر هذا.. فقط أراه في خيالي.. أرى حذاءه.. أرى السلاح في يده اليسرى.. لكن لا أكتب كل ما أراه.

تبادل العقيد النظرات مع من حوله وابتسم، ثم قال:

- هل من صفات أخرى؟

قال مصطفى مفكراً:

- إنه مصاب بنوع غريب من الصرع يجعل وجهه يلتوي بشكل مخيف.. هذه بالذات عقدة حياته وسبب نفور الفتيات منه في شبابه.. هكذا صمم على أن يجعل كل عاشقين في رعب دائم.. سوف يجوب المروج بحثاً عن عشاق منفردين، وسوف يطير أعناقهم وهكذا ينتقم أولاً، ثم يقتنع نفسه بأنه يمارس نوعاً خاصاً عجبياً من الفضيلة.. يجب أن أقول كذلك إنه مولع بشكل خاص بساعة الغروب، ومولع بأيام الثلاثاء، ويحب القتل بالسيف لأنه يحب الدماء والموت البطيء.. بالنسبة إليه القتل بالمسدس غير ممتع.. إنه يقرأ الكثير عن الشياطين على شبكة الإنترنت، ولهذا يعرف اسم «أبراكساس».

سأل العقيد في سخرية:

- وكيف عرفت هذا كله؟

- لأنني من صنعه.. أعرف كل تفاصيل شخصيته، ولو استكملت قصة له لجعلته يقتل بهذه الطريقة في يوم الثلاثاء.

تبادل الرجال النظرات للحظات قبل أن يطردوا مصطفى مصحوبًا باللعنات لأنه أضع وقتهم..
لقد سألهم لفترة معقولة لكن ما يقوله هراء في النهاية، وعليهم واجبات أهم.

* * *

هذا بالطبع حتى صباح الأربعاء، عندما جاء ثلاثة رجال شرطة أخذوه بالقوة إلى مديرية الأمن، وهذه المرة كانت الوجوه أكثر والنظرات أخطر والدخان أكثر كثافة والمعاملة أعنف.
كان يعرف الإجابة طبعًا.. هناك عاشقان قد ماتا أمس ساعة الغروب.. أمس كان الثلاثاء..
بالطبع هناك آثار حذاء تسلق واتجاه قطع الرؤوس يشي برجل أشول.

قال مصطفى:

- أرجو أن تكونوا متأكدين من أنني لم أفعل هذا.

قال النقيب الشاب الذي كان معه في المرة الأولى:

- للأسف.. لقد راقبناك أمس.. كنت في المقهى لم تفارقه.

- هذا جميل.. أعتقد أنكم في سبيلكم لتصديقي.

- لا نصدق.. لكن لا نجد مخارج أخرى.. أنت تعرف القاتل.. ربما هو قريبك أو أخوك.

في عصبية قال مصطفى:

- بالطبع لا.. تمنيت لو أنكم فكرتم خارج الصندوق مرة واحدة.

ساد الصمت، وبعدها بدأت عملية استجواب بسيطة طويلة مرهقة.. كل واحد يدخل ويبدأ السؤال من جديد.. ألف قدح قهوة.. ألف سيجارة.. ألف متشكك.

في النهاية، وفي ساعة لا يعرف مصطفى إن كانت ليلاً أم نهاراً قال له رجل ضخم يحمل ملايين النياشين (لا يعرف شكل وزير الداخلية شخصياً لكنه لن يستبعد لو قيل له إنه هو):

- أمامك فرصة ذهبية لترينا.. سوف تعود إلى دارك وتستكمل قصتك.

- ماذا؟

- سوف يمل هذا السفاح حياته ويقرر الانتحار.. كل سفاح يحمل بذرة الانتحار داخله، وأنت تعرف أن «زودياك» انتحر غالباً.. هذا ما يقال.. سوف تكتب هذا في قصتك.

- ولكن...

- هذه تجربة تستحق أن نجربها.. سوف نعيدك إلى دارك.. كل ما عليك هو أن تفتح جهاز الكمبيوتر وتواصل كتابة القصة.

* * *

وهكذا عاد مصطفى إلى البيت.. كان يعرف أن المهمة صعبة.. على الأرجح لن يدخل «ابن أبراكساس» القصة أبدًا.. لن يظهر في النص.

كان المشهد الذي طالعه في صالة البيت هو زوجته.. كانت جالسة على المقعد هناك، لكن رأسها لم يكن في موضعه.. وأدرك أن الأرض عليها آثار أقدام.. أقدام تلبس حذاء تسلق ملطخًا بالدم.. لقد كان هذا الشيء في المطبخ.

وجد السكين العملاقة على الأرض جوار الجثة.. انحنى والتقطها واتجه إلى جهاز الهاتف.. لو استطاع أن يطلب الشرطة قبل أن...

لكنه سمع ذلك الصوت الثابت يتكلم من خلفه:

- لا تضيع وقتك.. «ابن أبراكساس» قد تحرر ولن يعود.. لم يعد من حق أحد أن يكتب قصتي.. أنا سأكتب قصتي بنفسي وأكتب قصص الآخرين.

وفجأة لم يعد مصطفى يشعر بالعالم من حوله.. كانت الأرض تنزلق من تحته، وساد ظلام غريب.

* * *

بيده اليسرى ضرب «ابن أبراكساس» على مفاتيح جهاز الكمبيوتر:

بكى مصطفى كثيرًا وهو يحاول تحرير يديه المقيدتين بحبل من ليف.

كان رجال قبائل المايا يرقصون ويصرخون ويشربون الخمر بلا توقف.. وكانوا يحملون القربان البشري إلى حفرة النار المتقدة.. من أجل «كويتزالكوتل» إلههم الوثني سوف يقدمون هذه الضحية البشرية المذعورة.

كانت مشكلة مصطفى هي أنه لا يعرف كيف ذهب هناك.. ولا علاقته بقبائل تعيش في المكسيك.. ما يعرفه هو أنه كان في عالمنا وزمننا، وفجأة وجد نفسه هناك في ألين ظروف يمكن تخيلها.

النار تلتهب وتتصاعد لعنان السماء، والرقص يزداد حدة وجنونًا.

لكن ليظمن قلبه.. للأسف هو لن يموت بهذه السرعة وهذه البساطة.. سوف ينجو ليوواجه لحظات ألم أقسى وأعسر.

وضحك «ابن أبراكساس» فالتوى وجهه بهذا الشكل المخيف الذي يثير رعب الفتيات.

الحقيقة أنه بدأ يحب الكتابة.. يمكن أن يتحكم في مصائر الناس ومستقبلهم بهذه الطريقة، ويمكن أن يمارس أعتى درجات السادية وهو جالس.. صحيح أن مصطفى بطل قصة تافه جبان لكن لا بأس به كبداية.

لحظة ممتعة هي عندما تدرك أن هناك أدبيًا تحت جلدك وأنت لا تعرف.

هكذا جلس «ابن أبراكساس» إلى مكتب مصطفى، بعدما أعد لنفسه بعض «الكابوتشينو»،
وأشعل لفافة تبغ، وقام بتشغيل أغنية خافتة لفيروز، وراح يحدق في الشاشة، وهو يشعر بأنه
سيكتب عملاً رائعاً.

في شارع المشاط

هذا ليس بالشارع القبيح والمنطقة ليست بالعشوائية.. بالواقع هي أقرب إلى الهدوء والجمال. أمس رأيت هناك هدهدًا وهو مشهد لم أره منذ ثلاثين عامًا. الأرض ليست «أسفلت»، بل هي أقرب لصخر نما عليه العشب. وطبعًا لا داعي لأن أقول لك إنه لا توجد هنا سيارات.. ثمة دراجات أطفال فقط. هناك أكثر من شرفة في الطابق الأرضي يجلس فيها رجل مسن يشرب الشاي أو سيدة تقوم بتنقية الأرز من طبق كبير.

(١)

لن أطيل عليك.

أنت تعرف تلك المنطقة جيداً فلن أضيع وقتاً في وصف ما تعرفه فعلاً.. تعرف كذلك المطعم الصغير الذي لا يتجاوز فرجة بين جدارين.. هناك مقلاة طعمية وقدرة فول وهناك منضدتان تقفان بمعجزة ما على ثلاث أرجل.. حيث يقف رضا يبيع الفول في حماس ومعه يبيع الخبز والمخللات لمن يريد.. هناك منحدر تحاول أن تعبره دون أن تقع، وهناك سلم هابط مكون من صخور مهشمة.. سوف يقودك إلى ذلك الشارع الممتد.. شارع «المشاط».

هذا ليس بالشارع القبيح والمنطقة ليست بالعشوائية.. بالواقع هي أقرب إلى الهدوء والجمال. أمس رأيت هناك هدهداً وهو مشهد لم أره منذ ثلاثين عاماً. الأرض ليست «أسفلت»، بل هي أقرب لصخر نما عليه العشب. وطبعاً لا داعي لأن أقول لك إنه لا توجد هنا سيارات.. ثمة دراجات أطفال فقط. هناك أكثر من شرفة في الطابق الأرضي يجلس فيها رجل مسن يشرب الشاي أو سيدة تقوم بتنقية الأرز من طبق كبير. هذه من البيوت التي تجلس فيها قطة مشمشية على حاجز الشرفة، وقد نفشت صدرها وثنت يديها تحتها في ذلك الوضع الذي أسميه «العبوة».

بعد قليل سوف تكتشف أن الشارع طويل جداً جداً، أطول مما كنت تظن.. وهو يمتد إلى مرمى البصر حتى يبلغ فتحة بين بنايتين، ثم تجد نفسك في الشارع الرئيسي حيث السيارات والزحام.

كنت أشعر بتناقض منظرنا مع هذا الجو الموحى بالسلام.. لوحة رعوية رسمها فنان بريطاني تمشي عليها صراصير سوداء خشنة، الفكرة هنا أنك تحتاج إلى الصراصير أحياناً لأنه ما من أحد آخر يقبل أن يقوم بمهنتنا هذه.

(٢)

المنزل رقم ١٣.

هذا العنوان الذي جعله فيلم كمال الشيخ القديم خالداً وموحياً.. هو مجرد بيت هادئ من تلك البيوت المتجاورة، له مدخل تفوح منه رائحة الفنيك.

هناك نباتات ظل في إصيص عند المدخل، وهناك جو عام من السلام الذي أفسده الحادث بالتحديد. وقف عزت جوار جثة شذى الصغيرة.. كان الوجه مكسواً بالدم طبعاً، لكنك تدرك بسهولة أنها فتاة مراهقة حسناء.. ترتدي ثياب البيت.. راقدة هناك في الصالة على ظهرها ويدها على وجهها في محاولة أخيرة لحماية نفسها.

القصة شبه واضحة.. هناك من قرع الباب.. ذهبت لتفتح، هنا هوى على رأسها بعضا

حديدية ثقيلة ففجر الدم من رأسها.. هوى مرة أخرى ثم توارى بسرعة.. لا بد أن هذا وقع في السابعة مساءً. معها في الدار أم مسنة ثقيلة الحركة لا بد أنها استغرقت عدة دهور حتى تسأل:

- من الطارق يا شذى؟ لم لا تردين؟

ثم تنهض في صعوبة فيمر قرن آخر.. إلى أن تبلغ الصلاة لتجد جثة الفتاة جوار الباب.. تصرخ.. يسمع الجيران الصراخ بعد شهر.. لا بد أن القاتل في الصين الآن.. لاحظ أن هناك فرجات بين البيوت يمكن أن يعبر منها ليتوارى في الشوارع الجانبية.. لقد ذاب.

رجال المختبر الجنائي يلتقطون الصور ورجال الإسعاف يقومون بمهمتهم العسيرة.. لا دور لي، لكن أحدًا لا يقدر على طردي من هنا.. يعرفون أنني مهم.

دنا مني عزت وأشعل لفافة تبغ وقال:

- هل لديك تفسير؟ لم يسرق شيء والفتاة لم تمس.

قلت شارداً الذهن:

- ربما لم يجد الوقت الكافي ليفعل أي شيء.. صراخ الفتاة أو صراخ الأم جعله يجهض العملية.

رحت أجول وسط الشقة، كلها تحمل ذات الطابع المريح الموحى بالسلام والسكينة.. هذه شقة لم تصمم كي يجدوا جثث الفتيات المراهقات فيها.

كنت في هذا الشارع من قبل.

كنت هنا منذ ثلاثة أشهر.. وهذه هي المشكلة.

إن العثور على جثث مراهقات شيء بشع لكنه من لوازم المهنة بالتأكيد.. يمكن القول إن مهنتي هي جمع أخبار جثث المراهقات المقتولات.. يوم يتوقف هذا نكون قد بلغنا حالة «النرفانا» أو «الكارما» وانتهت مهمتي.. كأني طبيب وقد انتصر العالم على المرض والموت.. هكذا حقق الهدف من وجوده لكن دوره انتهى.

منذ ثلاثة أشهر كنت في هذا الشارع.

لم أنسَ هذا، ولم أنسَ أننا فشلنا.

(٣)

أذكر اليوم جيداً.

كنت أعمل في الجريدة عندما اتصل بي أحدهم قائلاً إنه ترك لي طرداً مهماً في سلة المهملات أمام باب الجريدة. بالطبع يمكن أن تكون قنبلة، لكننا والحمد لله ما زلنا بعيدين عن أساليب المافيا هذه. نزلت في حذر ونظرت حولي فلم أر شيئاً.. طلبت من رجل أمن أن يصحبني

لصندوق القمامة.. مددت يدي بحذر واشمئزاز فوجدت علبة مغلقة.

فتحت العلبة في حذر.. شعرت أن الاتصال بخبراء المفرقات سوف يجلب على رأسي السخرية.. لم أجد في داخلها سوى حزام من الجلد.. حزام عتيق لا يساوي شيئاً تقريباً وهو مهترئ بشدة.

هذه مزحة لا شك في ذلك.

بعد ساعة أخبروني أن هناك جريمة قتل في شارع المشاط.. لا أذكر رقم المنزل.. لكن الضحية كانت طفلاً في الثالثة كان يلعب أمام بيتهم ظهرًا.. هناك من تسلل وراء الطفل وجذبه إلى مدخل العقار وخنقه بكل قسوة.

بالطبع توارى القاتل.. ترك جثة الطفل ومعها ترك ذعرًا لا يوصف، وترك كذلك شعورًا غامرًا بعدم كفاءة رجال الشرطة.

لم يسرق أحد شيئاً.. لم يلمس أحد الغلام.. هذه جريمة لا سبب لها، أو ربما هو الانتقام. هناك زوجة سابقة حانقة.. من الوارد أن تكون قد قررت تنفيذ أبشع انتقام ضد الزوجة التالية لها.. لكن البحث لم يثبت شيئاً والزوجة الأولى كانت في عملها وقت الحادث وهناك ألف شاهد على ذلك.

هكذا توارت القضية.

هناك جرائم كاملة كثيرة.. من قال إن الجريمة الكاملة غير موجودة؟ يتلقى القاتل عقابه كاملاً يوم الحساب، لكن ليس كل القتلة يتلقون عقابهم في دنيانا هذه.

أنا كنت هنا منذ أشهر.

أشعر بالجو مألوفًا وبأنني رأيت هذا كله من قبل.

يجب أن أحكي لك كذلك عن الطرد الذي تلقيته.. تلقيته في مقر الجريدة قبل إبلاغي بالنبأ بساعات.

(٤)

كما قلت لك: تلقيت الاتصال قبل اكتشاف الجريمة بعدة ساعات.

الاتصال الهاتفي قال لي إن هناك طردًا مهمًا لي في سلة المهملات أمام الجريدة.. بالطبع تذكرت على الفور القصة السابقة.. الطرد الذي تلقيته منذ ثلاثة أشهر.

ما لاحظته هو أن صوته عادي جدًا كأنه يتكلم في موضوع يتعلق بالعمل، أنت تعرف هذا الداء الشيطاني الذي يصيب من يهددون هاتفيًا أو يمارسون دورًا إجراميًا.. شيطان التمثيل يتقمصهم فيتكلمون بصوت مبحوح مفتعل.. يصعب أن يتكلم أحدهم بطريقة طبيعية.

وضعت السماعة كالعادة، وطلبت من رجل الأمن مسعد أن يرافقني.. لا أعرف ما سيفعله

بالضبط لو كان الطرد يحوي قنبلة مثلاً، لكنني شعرت أن رجل الأمن يقدم بعض الأمن فعلاً.. وجدت الطرد المقصود ففتحته.. كان يحوي شيئاً غير معتاد.. رباط حذاء!

هذه دعابة سخيفة قاسية فعلاً.. من أسخف الدعابات التي تعرضت لها في حياتي. وبدأت أكيل السباب لهذا المتظرف الرقيق الذي لا يجد تسلية سوى تعذيب أمثالي من الجادين.. وبالطبع كان هذا عندما دق الهاتف يخبرني بجريمة قتل في شارع المشاط.

لست غيباً.. الارتباط واضح وقوي جداً.

لكن كيف أشرح الأمر لرجال الشرطة؟ وماذا أقول لهم؟

(٥)

عزت صديق قديم ويثق برأيي.. إنه رائد في الشرطة.. ونحن نتبادل علاقة التكافل الشهيرة: سأعطيك أخباراً عن الجرائم، وأنت تكتب أن الرائد عزت الدريني تولى التحقيق أو كشف الجاني.. نفس علاقة التكافل بين التمساح وطائر الزقراق: التمساح يمنح الطعام المحشور بين أسنانه، والطائر يمنح تنظيف الأسنان.

حكيت لعزت قصة تلك الطرود فابتسم.. ازدادت ابتسامته اتساعاً وهو يصغي لكل كلمة، وفي النهاية كان وجهه كاريكاتورياً، إذ صار فمه يمتد من أذن لأذن وقال لي:

- أنصحك.. لا تحك هذه القصة لأي رجل شرطة مصري.

قلت محتجاً:

- هناك سفاحون كثيرون ينفذون ضحاياهم.. أنت تعرف «زودياك».. «زودياك» قد أنذر كثيرين قبل قتلهم ومنهم الصحفية التي كانت تنشر أخباره في الجريدة.

ضرب رأسه بكفه المفتوحة في ضجر وقال:

- ليس لدينا «زودياك» ولا أعرف من هو «زودياك».. ما أعرفه هو أن مجرمينا بسطاء جداً ويتصرفون ببساطة وبدون تخطيط.. هذه تعقيدات لا نفهمها ولا ننتمي لها.. نحن في عالم الرجل الطيب الذي يقتل زوجته بالشاطور ثم يضع جثتها في طست تحت السرير ويذهب لتدخين المعسل مع رفاقه.

كان هذا مقتنعاً.. لكن هناك شيء لا يمكن تجاهله هو هذه الطرود وهذه المكالمات.

قال لي في ضيق:

- ليس بيدنا عمل شيء سوى أن نفحص الطرد جيداً.. لكن أوكد لك أنه لن يقودنا للفاعل.. وفي النهاية سيكون علينا الانتظار.. الانتظار إلى أن تأتي مكالمة أخرى، تعرف أنها لن تأتي.

وهكذا انتهى النقاش.

لكني حرصت على البحث عن معنى رباط الحذاء.. هل له معنى معين؟ بالطبع لم أجد.
نسيت الأمر تمامًا ومرت فترة لا بأس بها.
لقد مر شهران تقريبًا عندما حدثت الجريمة الثالثة.
أنت تعرف أن هناك جريمة ثالثة، وإلا لما حكيت لك هذه القصة أصلًا.

(٦)

يعرف علماء الجريمة عدة أنواع من القتل: هناك قاتل الجموع (massmurderer) الذي ينقض على مدرسة أو حفل ليطلق السلاح الآلي ويردي عشرات من الأشخاص في وقت واحد في مكان واحد.. وهناك القاتل الذي يقتل على نوبات (spreemurderer) أي أنه يقتل عدة أشخاص في وقت واحد في عدة أماكن.. وهناك القاتل المتتابعي الذي يقتل شخصًا كلما مرت فترة زمنية معينة يشعر بعدها بالحاجة للقتل من جديد.

لا بد أن فترة شهرين كانت كافية كي يشعر هذا الرجل بظماً جديد للجريمة.

وكنيت في ذلك اليوم في الجريدة ألتهم شطيرة من الفول راحت تتساقط على المكتب، وكنيت في ورطة فبحثت عن مناديل ورقية.. هنا دق جرس الهاتف.. أمسكت السماعة بيدي اليسرى وأنا أحاول أن أحمي ثيابي من الفول.. تبًا للزيت الحار هذا.

هنا سمعت صوتًا، يخيل إليّ أنه صار مألوفًا، يقول:

- هديتك في السلة أمام الجريدة.

صعد الفول والحمض كله إلى أعلى المريء، وشعرت بحرق في صدري.. سألته في لهفة وبصوت راجف:

- هلا أنهيت هذه اللعبة وقلت من أنت؟

- أنا لا أعب.. من قال إنني أعب؟

- تتصل بي وفي كل مرة...

- أنا لم أتصل بك من قبل.

ووضع السماعة.

جلست أرقب السماعة في توتر، ثم وضعت باقي الشطيرة في ورقة لجريدة وتخلصت من هذا كله في القمامة، وهرعت إلى المصعد أهبط إلى الطابق الأرضي.. هناك كان صندوق القمامة الشهير، وهو صندوق عميق به كيس بلاستيكي أسود عملاق وله غطاء، يمكن أن تخفي فيه جثة فيل لو أردت.. فتحت الغطاء وعبثت وسط القمامة المقرفة وفضلات الأكل، فوجدت طردًا صغيرًا من الورق المقوى.. نفس الطرد المعتاد.

قلت لنفسى: لو حدثت جريمة قتل في شارع المشاط فأنا أمام فيلم رعب جيد.

هذه المرة لم أستطع الانتظار، ففتحت الطرد وأنا في الشارع.. لو احتجنا إلى خبير بصمات بعد هذا فلسوف يمكنهم حذف بصماتي أنا.

هنا اصطدمت يدي بطبق صغير.. طبق كالذي تضع فوقه قدح الشاي. هذا الطرد لا يحوي أي شيء سوى قدح.. هذا غريب.

عدت إلى مكتبي في الجريدة ورحت أواصل عملي وأنا أشعر بأن معدتي تتقلص جدًا.. هذه ليست معدة بل هي وعاء حمض هيدروكلوريك مركز محفوظ في مختبر مدرسة ثانوية، ولم أشعر براحة إلا عندما دخلت الحمام وأفرغت كل شيء.

سوف تأتي المكالمات حاليًا.. لا شك في هذا.

بعد ساعتين دق جرس الهاتف.. هذا عزت يخبرني أنهم ذاهبون إلى شارع المشاط.. هناك جريمة قتل.

قلت له وقلبي يتواثب:

- لقد صارت هذه عادة، ثلاث جرائم قتل في وقت قصير نسبيًا، وكلها تحوي موضوع الطرد هذا.. أنا على حق دائمًا.

قال في نفاد صبر:

- قابلني هناك حاليًا.

الجريمة هذه المرة كانت أكثر إحكامًا.

شاب يدعى هشام في البيت رقم ٢٠ ويقع في الدور الأرضي.. يبدو أن هناك من دق الباب فذهب ليفتح.. لم يجد أحدًا فخرج من الباب إلى الشارع ليرى أفضل.. لم ينظر إلى فوق.. ولم يتوقع أن يكون هناك من ينتظر على سطح البناية (لاحظ أن ارتفاعها طابقان) ليلقي من أعلى إصيص زهور ثقيلًا.. تصويب محكم وتوقيت دقيق، وقد هوى الإصيص في المكان المنتظر بالضبط.. رأس الفتى مهشم وقد تناثر الدم على الإفريز.

صدفة مؤسفة؟ للأسف لا.. لأن رجال الشرطة وجدوا باب السطح مفتوحًا حيث تسلل القاتل، ووجدوا المكان الذي رقد فيه على بطنه يراقب المدخل، ورأوا الحبل الذي يتدلى من أعلى وتتدلى منه قطعة حجر استخدمها في دق الباب وهو على السطح.

قال عزت وهو يفحص الجثة:

- برغم كل شيء، لا تنكر أن وضعنا صار أفضل.. هناك شيء يربط بين الجرائم الثلاث أو يربط بين هؤلاء الأشخاص.. سنكون يقظين والجريمة الثالثة ستكون أصعب وأصعب.

القتلى:

طفل صغير.

فتاة مراهقة.

شاب.

وسائل القتل هي الخنق.. ضربة قوية على الرأس في حالتين.

كلهم من سكان شارع المشاط.

في كل الأحوال لا توجد استفادة واضحة.. لا يمكن تحديد هدف الجريمة، هذا قاتل فنان يمارس القتل للقتل كما أن الفن للفن (آرس جراتيا أرتيس).. لا يريد سوى الذعر والدم.. ليس هناك مكسب مادي من هذه العمليات.

في كل مرة هناك مكالمات هاتفية وهناك طرد يصلني في صندوق القمامة.. كان هناك رباط حذاء، وكان هناك طبق شاي صغير، وكان هناك حزام جلدي.

ما معنى هذا؟

كنت جالساً في مكتب عزت والدخان ينعقد في هواء الغرفة.. يمكنك أن ترى الأشباح تنتظر وتحملق فيك منتظرة ما ستقول، فإذا نهضت فرت منك مبتعدة.

قال عزت:

- النقطة الأكثر أهمية: لماذا أنت بالذات؟

هذه هي المشكلة: يحسبون أنني لست بالأهمية التي أراها في نفسي، لذا قلت بكبرياء:

- أنا صحفي حوادث مهم لو كنت قد لاحظت هذا.

- ليس هذا مبرراً.. نحن لسنا في الولايات المتحدة.. عدد الأميين عال هنا والناس لا تهتم بالصحف.. لن تحدث مقالاتك ذعراً عاماً أو تمنح القاتل شعوراً بالأهمية.

ابتلعت الإهانة في غيظ وواصلت التفكير، ثم سألته:

- لماذا شارع المشاط؟

تنأب وفك ربطة عنقه وقال:

- طبعاً، لأن أهل الشارع آذوه نفسياً في وقت ما.. أو هو يتصور أنه المهدي المنتظر وقد كلفته السماء بقتل سكان هذا الشارع بالذات.. يمكنك أن تكتب عدة قصص تتخيل فيها سبب اختيار الشارع، لكن الخيارات محدودة.

- وماذا يجمع بين الضحايا؟

- ربما كان الأمر عشوائياً.

- لا أعتقد.. هناك نوع من التخطيط لا شك فيه.

ساد الصمت.. بعد قليل قال لي:

- أعتقد أننا سنراقب الشارع لفترة، وأنت سيكون عليك أن تخبرني بمجرد تلقي الهدية القادمة.

(٨)

الكلام سهل على كل حال.. يمكنك أن تكون حذرًا مفتوح العينين ليوم، يومين، أسبوع، شهر، لكن الزمن عدو الحذر.. بعد قليل تتعلم أنه لا شيء يحدث وتتراخي قبضتك ويتدلى جفناك وتتأهب.

كانت هناك مراقبة على هاتف الجريدة استمرت ثلاثة أسابيع ثم توقفت.. عندما تكون سفاحًا يجب أن تتصل بانتظام حتى لا يملك الجميع وينسوا أمرك.

هكذا كان هناك مخبران أو ثلاثة.. بعد قليل صارا يذهبان إلى مقهى بعيد لتدخين الشيشة.. بعد فترة لم يعد أحد يراقب الشارع.. بعد فترة نسي الكل القصة.

وكنت في مكتب الجريدة أكتب عن مشاجرة حدثت في شبرا بين تاجرين، وكانت عزة زميلة العمل تفرغ بعض الصور التي التقطتها بالكاميرا الرقمية.. هنا دق جرس الهاتف.

رفعت السماعة.. هنا جاء الصوت المألوف:

- هديتك في السلة أمام الجريدة.

هذه المرة لم أتردد ولم أطلب عون أحد.. اتصلت بعزت أخبره أن يرسل رجاله إلى شارع المشاط فورًا وأن يكتفوا الرقابة.

- على ماذا؟ الشارع طويل.

- لا بد من التواجد الأمني.. لا بد أن يعرف الجميع أن هناك تواجدًا آمنًا.. أرسلوا سيارتي شرطة تطلقان سريئة عالية.. ولتمضيا في الشارع عدة مرات.

ثم ابتلعت ريقى لاهثًا وأردفت:

- سوف أرى هديتي هذه المرة وأخبرك بها.

انطلقت إلى الخارج حيث صندوق القمامة.. الناس ينظرون إليّ بشك وأنا أمد يدي في الصندوق في لهفة.. لا أبدو لهم جائعًا إلى هذا الحد.

وجدت الطرد اللعين فأخرجته، وفتحته حيث أنا.. يوم يقرر الرجل أن يرسل إليّ قنبلة لن أنجو منها حتمًا.

هذه المرة لم تكن هناك هدية معينة.. كانت هناك صورة صغيرة من مجلة.. والصورة تمثل

قطعة ياقوت كبيرة يبدو أنها كانت في إعلان عن صائغ باريصي مشهور.. مجلة خليجية على الأرجح.

دستت الصورة في جيبي وحملت الطرد الفارغ.

لقد حلل رجال الشرطة الطرود السابقة فلم يجدوا بصمات سوى بصماتي بطبيعة الحال.. لا يوجد أي شيء يدل على المرسل.. بالطبع لأنه وضع الطرد بنفسه ولم يرسله من مكتب بريد.

هرعت إلى الجريدة، فاتصلت بعزت أخبره بما وجدت:

- صورة ياقوتة.. لا توجد معلومات أخرى.. سلام.

وانطلقت إلى شارع المشاط بأسرع ما أمكنني.

شارع هادئ جميل.. بالفعل يحب المرء أن يعيش فيه وينعم بهذه السكنية التي تختلف تمامًا عن عالم القاهرة الصاخب المزيج الملوث بالعدم، لكن وغداً ما قرر أن يفسد هذا كله.

منذ اللحظة الأولى أدركت أن رجال الشرطة قاموا بعمل ممتاز.. هناك عدة سيارات تجوب الشارع الهادئ الذي لم يعرف إلا الدراجات.. وهناك أكثر من رجل يقف.. رجال الشرطة بالثياب المدنية الفاضحة جداً، والتي تجعل أي أعشى يدرك أنهم رجال شرطة، هذه الأكتاف العريضة والشوارب الكثة والنظرات المخيفة.. لكن ليكن.. مهمتهم هي ترويع القاتل وليس خداعه.

كان عزت يقف هناك أمام بيت من طابقين.. وضحكت عندما رأيته ولوحت بذراعي، لكنه كان واجماً فلم يكلف نفسه بهز رأسه.

عندها عرفت ما حدث.

لقد تأخرنا.. أو لعل القاتل أرسل الطرد بعد الجريمة وليس قبلها.

عندما هرعت إليه نظر إليّ في حيرة وقال:

- تأخرنا.. امرأة في الثالثة والأربعين من عمرها.. هناك من تسلل إلى البيت وطعنها حتى الموت.. كانت وحدها لأن زوجها في العمل والأولاد في المدرسة.

- وهل حدث شيء؟

- لا شيء كالعادة.. لا سرقة.. لا اغتصاب.. لا خلافات معروفة.. هذه من جرائم المزاج لا أكثر.. قتل للتسلية.

كانت الإسعاف تعوي عواءها الكئيب الشبيه بالندابات الأجيريات، وهي تحاول أن تجد وقفة مناسبة تسمح بنقل الجثة.. ثم ظهر رجلان يحملان محفة عليها ملاءة ملوثة بالدم.

هنا لاحظت شيئاً تكرر في حوادث القتل السابقة.

هؤلاء القوم غير مهتمين.. لا توجد علامات لوعة من أي نوع.. كنا سنرى جارة باكية وجارة منهارة وأطفالاً فضوليين.. لكن هؤلاء القوم يتعاملون ببرود غير معتاد.

ملحوظة غريبة ومهمة لكن لا سبيل لنقلها لعزت.. سوف يسخر مني.
وقفت أنظر إلى مدخل البيت.. مدخل جميل تحيط به النباتات ويوحى بالسلام.. رقم البيت هو ٤٠.. هل يستخدم السفاح متوالية هندسية معينة للقتل؟
دعنا نتذكر.

أول بيت حدث فيه القتل رقمه هو... لا أذكر.
البيت الثاني رقمه ١٣.
البيت الثالث رقمه ٢٠.
هذا البيت رقمه ٤٠.
سألت عزت عن رقم أول بيت.. البيت الذي قُتل فيه الطفل خنقًا.. بدت عليه الدهشة ثم فتح مفكرته وراجعها.. قال لي:

- رقم ٣.
رحت أفكر في عمق.
وفجأة وصلت إلى الحل الصحيح.
الأمر واضح وليس معقدًا على الإطلاق.

(٩)

الأرانب الصغيرة أهم شيء في الكون، وبعدها فليذهب الكل إلى الجحيم.
عندما تراك الأرانب الصغيرة فإنها تتدافع نحو قدميك، وهي تحرك أنوفها بتلك الطريقة الساحرة.. أقدامها الصغيرة تدوس على أصابع قدميك برفق جميل، أما عندما يمسك الأرنب الصغير بأذنه ليمشط شعرها فهو يذكرك بحسناء تجدل ضفيرتها على النهر.. العيون الواسعة المفعمة براءة وتهيبًا.. كتل بيضاء تتواثب كأنها ندف قطن حي.
هكذا كانت لمياء تفكر وهي تقف في الحديقة الخلفية للبيت تتلقى فتات الخبز للأرانب.. هي ليست حديقة بالضبط، بل هي أقرب إلى مسقط أو «سماوي» تم استغلاله للزراعة.. هناك شجيرتان صغيرتان وأسرة أرانب وأسرة دجاج.. هناك قط رمادي صغير يتمنى لو ظفر بشيء يومًا ما، لكن هذا مستحيل، لذا تعلم أن يحترم نفسه ويتعايش، كأنه زير نساء يتعامل مع زميلات عمل حسناوات ولا يريد أن يُطرد.

تفرغ من هذا ثم تتجه إلى مقدمة البيت التي تطل على شارع المشاط، حيث تجلس أمها هناك جوار سور الشرفة وقد وضعت عليه كوب الشاي بالنعناع.. أوراق خضراء ندية تطل وسط البخار.. وفي يدها طبق من الأرض تنقيه. هناك مشكلة بصرية لذا تجهد عينيها في النظر من

تحت إطار النظارة.

بعد قليل يأتي القط ليثب إلى حاجز الشرفة ويجلس جوارها ويقر.. هنا تتربع لمياء على الأرض جوار القدم المجعدة المليئة بالعروق، وتتأمل مسام الجلد في شغف وفصول.

كسول.. لا تعرف شيئاً عن العالم.. مفعمة بالجمال.. هادئة الطباع.. هذا هو مزيج الطباع الذي تتوقعه من فتاة نشأت في شارع المشاط.

كانت تسأل أمها في فضول:

- هل تسمعين عن حوادث القتل هذه؟

فتقول الأم في شرود:

- أسمع.

- كلها في شارع المشاط.. لقد مات أربعة.

تقول الأم:

- كلنا يعرف ذلك.. ونعرف أن القصة مستمرة.. سوف يموت آخرون.

- والسبب؟

- نحن لا نسأل أسئلة.. سوف تعرفين عندما تكبرين.

وتواصل الأم تنقية الأرز في هدوء تام، بينما لمياء تتأمل الشارع الهادئ من جديد متسائلة عن البيت القادم والضحية التالية.

(١٠)

كنت جالساً في الجريدة أدخن وأرمق الفضاء من النافذة الضيقة.

هنا دق جرس الهاتف فرفعته في كسل.. جاء الصوت المميز يقول:

- هديتك في السلة أمام الجريدة.

بالطبع كان من المستحيل أن نراقب سلة المهملات للأبد أو نضع كاميرا تراقبها.. ربما يصير هذا حتمياً فيما بعد.. أما الآن فعلياً أن أهرع للصندوق لأرى.. ليس لي من دور إلا التيقن من صحة نظريتي أو فسادها لا أكثر.. من الصعب أن أمنع جريمة القتل التالية.

هرعت خارج الجريدة وبحثت في صندوق القمامة.. خمس مرات في شارع المشاط.. هذا رقم مرتفع جداً. السفاح الذي قرر أن واجبه إبادة سكان الشارع، وهم قوم مسالمون جداً ينتظرون دورهم كالخراف في المذبح. هذا شعور قوي أشعر به كلما رأيت شارعهم.

في شارع المشاط لا توجد سياسة.. في شارع المشاط لا توجد دولة ولا حكومة.. في شارع

المشاطر لا توجد أوبئة.. إنه شارع غريب متفرد على هامش الوجود.. على هامش التجربة الإنسانية ذاتها. وعلى الأرجح سوف أبحث عن شخص يعرف تاريخ هذا الشارع.. من هو المشاطر؟

كنت أفكر في هذا وأنا أعبث في صندوق القمامة.

أخيراً أخرجت الطرد.. فتحتة في لهفة كالعادة.

كان مبطناً بورق الزبد الشفاف.. وقد التف حول حرف ذهبي صغير.. حرف «D».. يبدو أنه منزوع من قلادة ذهبية.. خفيف جداً فلا أحسب أنه كلف صاحب الطرد الكثير من المال.

هرعت إلى داخل الجريدة وطلبت عزت.

جاء صوته المتململ شأن من أيقظته من نوم محبب.. فقلت في انتصار:

- شارع المشاطر من جديد.

أطلق السباب على الفور:

- الله يخرب بيتك! ما الهدية هذه المرة؟

- حرف ذهبي.

- ومعنى هذا؟

- البيت الذي يحمل رقم ٥٠ طبعاً.

أطلق سبة أخرى وأدركت أنه يرتدي ثيابه والسماعة تحت ذقنه.. سوف يفتح أبواب الجحيم حالاً.

(١١)

في لحظة رائعة من التفكير، أدركت أن القاتل يندرنا بجرائمه بطريقة مبتكرة، هي العناصر التي ترمز لانقضاء السنين.. أنت تعرف العيد البرونزي والعيد الماسي... إلخ.

عندما أرسل لنا حزاماً جلدياً في طرد، ماتت الضحية في البيت رقم ٣.. العيد الثالث هو العيد الجلدي.

عندما أرسل لنا رباط حذاء كان يتحدث عن البيت رقم ١٣.

عندما أرسل لنا صورة ياقوتة كان يتحدث عن البيت رقم ٤٠.. العيد الأربعون هو العيد الياقوتي.

وعندما أرسل لنا طبقاً من الصيني في طرد كان يتكلم عن البيت رقم ٢٠.

اليوم هي قطعة من ذهب.. إذن هو يتحدث عن البيت رقم ٥٠.

هذا يسهل الأمور.. ليست كل الأرقام مرتبطة بعناصر.. هذا يعني أن البيت رقم ٢٣ مثلاً أو البيت رقم ٥١ أمان تماماً.. سوف يكون الخطر مقتصرًا على الرموز المعروفة.

هذا يسهل الأمور.. لكن السفاح يغش بشكل واضح.. صار يرسل إليَّ الطرد بعد الجريمة وليس قبلها.. هكذا لا يمنحنا فرصة الاستعداد.

النقطة الثانية هي الفهم.. لماذا يفعل ذلك ولم يختار هذه الطريقة؟ لم يختار شارع المشاط أصلاً؟ ولماذا يندرنى أنا؟

الغاز لا نهاية لها.. وفي نفسي تلاعبت رغبة خبيثة كريهة: لا تدعه يتوقف الآن يا رب! لو توقف لمتنا والفضول يخنقنا لمعرفة المزيد.. فلتستمر الجرائم إلى أن يرتكب خطأ جسيماً أو نصير نحن عباقره ونعرف كل شيء.

كنت أفكر في هذا كله بينما السيارة تندفع نحو شارع المشاط.. السرينة تنطلق مولولة.. وعند مدخل الشارع أبطأ السائق السيارة ومضى بسرعة الرجل العادي نحو البيت الذي يحمل رقم ٥٠.

ترجلنا سريعاً وهرع عزت يدق الباب بقبضته كما يرى في السينما.

قلت له في هدوء:

- لا تتحمس جداً.. أعتقد أننا جئنا بعد فوات الأوان كالعادة.

انفتح الباب.. هنا تراجعنا للخلف بسبب هذا الوجه الرقيق الذي تفتَّح في وجوهنا فجأة كزهرة.. فتاة شابة كانت ترمقنا في رعب، ف شعرنا بأننا ألعن مجموعة من الأوغاد في التاريخ.. كيف تقع وجوهنا على هذه الشبكية الرقيقة؟

قال لها عزت بصوت مبحوح:

- نحن من الشرطة.. هل أمك هنا؟

استدارت للخلف وصاحت:

- ماما!

ومن مكان ما ظهر قط فضولي.. ثم ظهرت سيدة عجوز تمشي كالبطة بسبب الروماتيزم المفصلي، وترتدي قميص نوم باهتاً رثاً.

كانت عيناها متسعيتين في ذعر.. وتساءلت ورائحة البهارات تتصاعد منها:

- شرطة؟ لماذا؟

ابتلع عزت ريقه ثم قال:

- هل أفراد أسرتك بخير؟ كم عدد أفراد أسرتك؟

- أنا وابنتي فقط.

نظر إليّ عزت نظرة ذات معنى: إما أنني أحمق وغبي، وإما أن الجريمة لم تقع بعد.. وهذا يعني أن استنتاجي كان ذا منفعة أكيدة.

لم يمت أحد.

لا أتجاوز الحقيقة بكثير لو قلت إن هذا سبَّب لي خيبة أمل! أنا بشري، ومن طباع البشر أن أتمنى أن أكون حكيماً ملهماً.. لم يمت أحد.. إذن عليّ أن أعيد حساباتي.

لكني لن أعيد حساباتي من البداية.. هناك نقطة مهمة هي أن هذه الرموز التي تصلني لها ارتباط قوي بالأرقام.. لها ارتباط بفكرة «اليوبيل».. حتى إنني قد أطلق على هذا السفاح اسم «قاتل اليوبيل».

نفس الهواجس دارت في ذهن عزت.

صارحني بها وهو يتفقد الفناء الخلفي، والأرانب الصغيرة تتشمم حذاءه.. قال لي:

- كل شيء جاهز كي يصير اسم القاتل هو «قاتل اليوبيل» ونتحرك على هذا الأساس.. لكن الوغد مصمم على أن يحيرنا.. لو لم يرتكب جريمة هنا الآن فنحن نبنى على تربة مخلخلة.

ثم اجتاز المنزل إلى الشرفة.. هناك كان ذلك المقعد من الخوص والذي يطل على الشرفة المنخفضة.. جلس عليه وأراح ظهره وتهد وفرد ساقيه أمامه.. قال وهو يغمض عينيه:

- كمية سلام غير عادية في هذا الشارع.. آخر شارع تتوقع أن يمرح فيه سفاح.

ثم قطف بعض أوراق النعناع من نبتة جواره، وفرك الأوراق وتشممها ثم بدأ يلوك بعضها.. إنها غير نظيفة ملوثة بالغبار، لكننا كنا نعرف أن غبار هذا الشارع غير ملوث.. نفس المنطق الذي يجعلك تشرب قطرات المطر بلا تردد.

جاءت الفتاة الحسناء حاملة صحيفة عليها عديد من أكواب الشاي الصغيرة أعدتها في المطبخ، وراحت تقدم لكل واحد منّا، بينما كل واحد يشكرها ويطري جمالها بطريقته وثقافته: متشكرين يا عروسة.. تسلم إيدك يا شابة.. شربات فرحك يا رب... إلخ.

قدمت لنا كوبين، ثم مدت يدها ببساطة واقتطفت المزيد من الأوراق الخضراء - بلا غسيل - ووضعتها في كوبينا.. رفعت الكوب لأشرب وسألتها:

- ما اسمك؟

- لمياء.

- في أي مدرسة أو كلية أنت؟

- أنا أنهيت دراستي في كلية التجارة.

نظرت إليها ملياً.. تبدو صغيرة جداً على أن تكون متخرجة.. بكل فراسة لن تجد لها سناً أنسب من المدرسة الثانوية.. ومعنى هذا أنها في سن الخطبة.. هناك كثيرون سوف يفكرون في

الأمر بلا شك.

جاءت أمها من مكان ما بالداخل.. منحنية تمشي كالبطة.. قالت لها:
- نحن بحاجة إلى بصل يا لمياء.. اذهبي إلى أم ميمي وخذي منها ستة أو سبعة رؤوس كبيرة.

كان الأمر واضحاً.. الأم تنوي أن تطهو لنا وجبة سريعة ما دمنا ننتظر.
قال عزت في أريحية:

- ما هو رقم البيت؟ سأرسل أحد رجالي.

احتجت العجوز.. بالطبع بدا غريباً أن يذهب مخبر إلى جارتها لاقتراض البصل.. لكن عزت طمأنها:

- لا نستطيع المجازفة بأن تذهب الفتاة إلى أي مكان الآن.. إما أن يجلب رجلي البصل وإما أن تنسي الموضوع.. لا داعي للبصل أصلاً.

هكذا ذهب «بسطويسي ما» من رجال الشرطة إلى المنزل رقم ٥٥، فتحت له أم ميمي الباب وأصابها الهلع طبعاً.. احتاجت إلى فترة حتى تستوعب أن مخبر شرطة جاء ليقترض منها بصلًا.. دخلت البيت على حين وقف ابناها ينظران إلى المخبر في فضول.

بعد ثوان سمع المخبر صرخة ذعر.. اندفع داخل البيت.. هناك في الكرار كانت الزوجة واقفة وقد غطت فمها وبدأت في أسوأ حال ممكنة.. عند قدميها ووسط حزم البصل المتناثرة كانت جثة رجل قام أحدهم بتمزيق عنقه من الخلف.. هذا الرجل هو زوجها.

هكذا نسينا موضوع البصل والغداء، ونسينا كل شيء عن الأرناب.

انطلقنا نركض نحو ذلك البيت الهادئ الذي تحول إلى مسرح مذبحة.

رقم ٥٥.. ما معنى هذا؟

هل أصيب القاتل بالعجز عن العد أم أن قوانين اللعبة تغيرت؟

هناك وقفنا في بلاهة نرمق الجثة.. الجثة التي ذبحها أحدهم ولا نعرف من.. لقد صار شارع المشاط أخطر شارع في العالم.

سؤال آخر: هل أنا عبقرى أم غبي آخر؟

مجرد عجزى عن الإجابة يعني أنني غبي.

(١٢)

فترة صاحبة أخرى من البحث.. تحقيقات.. أسئلة عن أعداء الرجل.

إنه مدرس جغرافيا.. هذا يعني أن لديه أعداء كثيرين، لكن ليس لدرجة قتله طبعًا.. أعداء مدرس الجغرافيا لن يساعده عندما يروونه وهو يُقتل، لكنهم لن يبدأوا بالقتل على ما أظن. لا توجد بصمات على قطعة الذهب سوى بصماتي طبعًا.. لا توجد علامات على العلبة.. لقد صار الأمر معقدًا.

كنت جالسًا أدرس تفاصيل الموت.

هنا لاحظت وجود تطابق شبه تام بين سن الضحية ورقم المنزل.

حزام جلدي ثم قتل طفل في الثالثة. الفتاة المراهقة ورباط حذاء.. نحن نتحدث عن رقم ١٣.. بدا لي بديهيًا أنه المنزل رقم ١٣ بسبب عنوان الفيلم. الياقوتة.. ماتت بعدها امرأة في الثالثة والأربعين.. الحقيقة أن هذا لم يكن دقيقًا.. عندما راجعنا تاريخ الميلاد عرفنا أنها في الأربعين. عندما تلقينا الطباق الصيني كنا نتحدث عن شاب في العشرين.. لم نكن نعرف السن بدقة.

الجريمة الأخيرة. الزوج الميت في الخمسين.

هكذا تتضح الأمور أكثر.

ما زالت النظرية صحيحة وقابلة للاختبار.

اتصلت بعزت لأخبره:

- الرموز تدل على سن الضحية القادمة.. هذا أقرب إلى المنطق وفكرة اليوبيل.

قال محتجًا:

- لكن رقم البيت كان يتفق مع الرمز في كل مرة باستثناء الأخيرة.

- هذه دعاية قاسية منه على الأرجح.. عرف أننا سنفكر في رقم البيت بينما هو يفكر في السن.. اختار بيوتًا تحقق الخيارين معًا.. فكر في أننا سنبلع هذا الطعم.. وهذا على فكرة يعقد الأمور جدًّا، لأن البحث عن البيت رقم ٢٥ سهل، أما حماية كل شاب في الخامسة والعشرين من عمره فأمر عسير.

كانت الأسئلة كثيرة.. وكنا على كل حال قد تجاوزنا ترف السؤال: مَنْ القاتل؟ صار هذا نوعًا من «الدلع» يبلغ مبلغ قلة الأدب والوقاحة.. نحن الآن نسأل أسئلة معقولة مثل:

لماذا هذا الشارع بالذات؟

لماذا يختار القتل بطريقة اليوبيل؟

لماذا ينذرني أنا دون سواي؟ هل أحدث فارقًا سواء بجهلي أو بعلمي؟ سواء وصلت إلى السر أو لم أصل فالجريمة ستقع، فلماذا يتعب نفسه؟

لماذا يتعامل سكان الشارع بلامبالاة مع الأحداث؟

كنت أفكر في لمياء.. سكان هذا الشارع يخفون شيئًا ما.. ولمياء على الأرجح تعرف هذا

السر، لكنها الأقرب إلى البوح به.. عرفت هذا من نظراتها.
سوف أحاول الاقتراب منها أكثر لأفهم.

(١٣)

أحلام كانت تموت فعلاً.. وقد أدركوا أنها حامل.. حامل وهي غير متزوجة.
كانت هذه هي اللحظة التي أدركوا فيها أن عليها أن ترحل.. أن تموت في مكان آخر.. لقد
غيرت حياة الجميع وأفسدت كل شيء.. لم يعد أحد يتحملها ولا يتحمل نظراتها.
وكننت أنا في الصورة.. ربما كان حظاً حسناً أو سيئاً.. لكنني اعتبرت أن الله تعالى أرسلني
من أجلها.
هذه قصة أفضل أن أنساها على كل حال.. لا تسألني عنها ثانية من فضلك.

* * *

هكذا فتحت لمياء الباب ونظرت إليّ في دهشة وحيرة.. ابتسمت ملطفاً، ورفعت حاجبيّ
بمعنى «أنا هو ذلك الرجل هل تذكرين؟».. ثم تهلل وجهها قليلاً ودعتني للدخول.. لا بد أنها
حسبتني من رجال الشرطة، فقلت لها بصوت خفيض:

- هناك أشياء أريد أن أسألك عنها.

قالت في ارتباك:

- تفضل واسأل.

بالطبع ليس هذا هو المكان ولا الزمان.. إن ما لديّ حديث طويل جداً وأتوقع منها حديثاً
أطول.. لو كان هناك شيء فعليها أن تخبرني به، وإن لم يكن هناك شيء فعليّ أن أرهاقها
وأزعجها بالأسئلة إلى أن أوّمن أنها لا تعرف.

- أولاً كم سنك؟

- سني خمسة وعشرون عاماً.. وما زلت لا أفهم.

- هل يمكن أن نتكلم في مكان منفرد.. بعيداً عن هنا؟

- لا.

قالتها في بساطة وبراعة ومن دون حدة أو غضب، كأنها تقرر حقيقة مطلقة.. وأدركت أنها
بالتأكيد تحسبني أريد ما يريده أي شخص آخر يراها: الغزل.. أن أخبرها كم أنا مقروح الجفن
مسهود، وأضحى التناهي بديلاً من تدانينا... إلخ.

الحقيقة أنني كنت أتمنى ذلك، لكن هذا ليس وقته كما ترى.. كنت بحاجة لها لأنني أرى أمامي جدارًا محكمًا شديد القوة والصلابة.. هناك جزء هش نوعًا أو هو أقرب للصلادة، وأنا أريد أن أطرق على هذا الجزء فقد أجد ثغرة.. لمياء هي الجزء الهش في الجدار أو هذا ما حسبته.

لم أتكلم.. لم أبحث عن كلمات.

فقط استدرت لأبتعد، وفي نفس اللحظة تقريبًا انغلق الباب بصرامة من خلفي.

(١٤)

قلت لك ألا تسألني ثانية عن أحلام.

أنا لا أمزح.. من السهل أن تثير غضبي فأكف عن سرد هذه القصة.. لقد أذرتك من قبل...

أنا لا أذكر إن كانت أحلام أنثى أم لا.. أعني أنها كانت حاملاً وكانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.. لا بد أنها كانت أنثى إذن، لكن لم أرَ فيها أي أنثى.. رأيت كيانًا سقيمًا شاحبًا وبين ساقها كانت بركة من الدم تنزف، هناك إلى جانب الطريق كانت ملقاة.. ووقف عدد من عابري السبيل يخشون أن يساعدوها أو يمدوا لها يد العون.. بدت لهم مخيفة.. بدت هي الموت نفسه، ينتظر من يمد يده ليخطفه معه.

كان هذا هو الشارع الرئيسي.. لم أعرف وقتها أن هذه الفجوة بين بنايتين تقود لشارع المشاط.

لم أكن أصلاً أعرف أن هناك شارعًا بهذا الاسم.

وكانت سيارتي العتيقة من طراز ١٠٠٠.. انحنيت وحملت الجسد المنهك النازف لأضعه في المقعد الخلفي، ونظرت إلى الناس في قرف: ماذا تخشون أيها المشوومون؟ هل تتوقعون أن هذه الفتاة لص متكرر سوف يذبحكم؟ تبًا لكم ولعدم مبالاةكم.

حتى قبل أن أبلغ المستشفى أدركت من منظر ساقها أنها تلقت ركلات كثيرة جدًا.

قصة واضحة: الحامل لا تتلقى ركلات إلا لو كانت حاملاً بشكل غير شرعي.. وبالتأكيد معظم هذه الركلات لنساء مسنات.. الرجال لا يملكون أبدًا الأعصاب الكافية لركل امرأة حامل.. النساء يستطعن.

مَنْ أَنْتِ؟

مَنْ أَنْتِ؟

عرفت من شفيتها الجافتين أن اسمها أحلام.. هذا كل شيء.

وعرفت أنها فقدت جنينها.

وما لم تقله هو أنها جاءت من شارع المشاط.. عبرت تلك الفجوة بين الجدارين لتصير في الشارع العمومي، ثم سقطت أرضاً.
ولكن...

قلت لك ألا تذكرني بهذه القصة.. انسها وانس أنني ذكرت شيئاً منها.

كما قلت لك، لم أستطع الوصول إلى شيء مع الفتاة لمياء.. لكي أعرف أي شيء فلا بد أن أنفرد بها.. بالطبع لن أستطيع معرفة أي شيء في وجود الغراب المسن أمها، لكنني على كل حال مسرور لأن الموت لم يحدث في بيتهم في المرة السابقة.. احتمال فقدانها كان ٥٠٪ وهو احتمال مقلق لو كنت تفهم ما أعنيه.

واصلت الحياة بعيداً عن شارع المشاط.. تصور هذا! هناك مشاجرات في السلخانة، وهناك سرقات سيارات، وهناك سطو مسلح، وهناك من يجدونهم قتلى في بيوتهم.. تصور هذا! هناك عالم كامل عملاق خارج شارع المشاط.. وهذا العالم قادر على جذبي داخله.

كنت غارقاً في هذه التفاصيل.. دعك من أنني أحب عزة زميلتي فعلاً.. أعتقد أنني سأخطبها عما قريب، لكن لنبق هذا سراً.. المشكلة هي أن لمياء تظهر كالشبح بيننا كلما دنوت منها.
دق جرس الهاتف فرفعت السماعة.

الصوت الذي عرفته جيداً من مجرد الشهيق.. من مجرد التنفس.. يقول لي:

- هناك هدية لك في صندوق الق-...

لم أنتظر للفهم.. طبعاً لم يكن الهاتف مراقباً.. هذا الوغد يتصل بشكل غير منتظم وعلى فترات متباعدة جداً.. وهكذا هرعت أركض في الشارع لأبحث في صندوق القمامة عن هديتي.
مزقت اللقافة بسرعة وفتشت فيها.

هذه المرة وجدت طبقاً صغيراً بحجم طبق فنجان القهوة.. طبقاً من فضة.

حملت اللقافة مسرعاً عائداً إلى المكتب.. وطلبت عزت.. ثم تذكرت.

الفضة.. خمسة وعشرون! يا للمصيبة! اليوبيل الفضي.. خمسة وعشرون عاماً.

عندما جاء صوته صحت في جنون:

- عزت.. سوف يقتلون لمياء! عمرها هو... تصرف من فضلك!

كان قلبي يتواثب حتى صرت واهناً جداً.. لو جريت لفقدت وعيي وسقطت أرضاً.. لا بد من أحد يفعل لي هذا.

قال عزت مهدئاً:

- صبراً.. لا بد أن الشارع يعج بمن هم في نفس السن.. لا يوجد دليل.

- هناك دليل.. أنا منحوس! بالتأكيد ستموت هي.

قال كأنه يكلم طفلاً:

- صبراً.. الحقيقة هي أن لدي ستة رجال يحومون في هذا الشارع أو حوله.. سوف أرسل رجلين يراقبانها الآن.. لن يحدث لها شيء.

قلت وأنا أرتجف:

- على الأرجح سيكون كل شيء قد انتهى.. انتهى كما في كل مرة.

انفجر في غيظ:

- يمكن أن أنقذها لو كففت أنت عن تضيق وقتي والبكاء كالأطفال!

هكذا وضعت السماعة وأسرعت أضغ سترتي وأدير محرك سيارتي قاصداً شارع المشاط اللعين.. لقد تلفت أعصابي فعلاً.. سوف أتحاشى الرد على أي مكالمات في المرة القادمة.

ترى كيف ماتت؟ مشنوقة أم مذبوحة أم سقط شيء ثقيل على رأسها؟ سنعرف حالاً.

عندما وصلت عند المنزل رقم ٥٠ أدركت أن هناك مصيبة فعلاً.

كان عزت يقف مهموماً أمام البيت ذي الأرناب.. وهناك رجلا شرطة يتكلمان وقد بدت الخطورة على وجهيهما.. ثم في الخلفية رأيت ما توقعته: السيدة العجوز.. الأم.. تباً!

من الواضح أنها قلقة ولا تفهم ما يحدث.

دنوت من عزت ولا مست ذراعه.. نظر إليّ في جدية ثم قال:

- الفتاة ليست هنا.. غادرت الدار منذ ساعة مع صديقة لها.. الرجال يبحثون.

ابتلعت ريقى.

لن تكون جولة هادئة إذن.. لا بد أن القاتل سينهي مهمته الآن مع مجيء رجال الشرطة.

هنا سمعت ضوضاء ورأيت ما أثار ذهولي...

المؤلف: والآن حان الوقت كي نتفرق.. لن نبقى جميعاً في مكان واحد. قد أقدم لك نهاية لا تروق لك، لذا أنصحك من اللحظة الأولى أن تختار النهاية التي تناسبك، وتريح نفسك من قراءة نهايات أخرى.. هذا ليس اختراعاً خاصاً بي.. معظم قصص «إيلري كوين» البوليسية كانت تضم أكثر من نهاية.. لو كنت قد قرأت «جوهرة النجوم السبعة» - التي ترجمتها أنا منذ فترة - لرأيت أن «برام ستوكر» اختار لها نهاية كئيبة مخيفة، وبعد وفاته قام مؤلف آخر بكتابة نهاية باسمه، وأنت تختار النهاية الأنسب حسب مزاجك السوداوي.

• هناك قراء يحبون طراز قصص الفنديتا والمنتقم العائد.. أقترح أن يطالعوا النهاية «أ»: ساعة الانتقام.

• هناك قراء مولعون بالرعب والجو الشيطاني لذا أنصحهم بالنهاية «ب»: اليوبيل.

- هناك قراء يحبون النهايات المفتوحة المستفزة التي لا تقول شيئاً وتترك لخيالك الكثير.. أنا شخصياً من هذه الطائفة.. لذا أقترح النهاية «ج»: اللعبة.
- هناك قراء لا يحبون أي شيء أكتبه.. حسنٌ.. لا أعرف ما أقول لهم.

النهاية «أ»: ساعة الانتقام

عندما رأيت الموكب قادمًا من بعيد أدركت من يحيطون به.
كان رجلا شرطة يحملان ما بدا لي كجثة فتاة.. صرخت الأم في هلع وارتمت على ركبتيها،
لأن ساقبيها لم تعودا قادرتين على حملها.
عندما دنوت أكثر رأيت الوجه الجميل نائمًا نومته الأخيرة.. وأدركت أن الرأس تهشم تمامًا.
كانت دموعي تسيل بلا توقف.. هذه المرة فقدت وقاري وانحنيت أطوقها بذراعي، وسمعت
عزت يكرر السؤال:
- أين صديقتها؟
- كانت وحدها.
صاح في الأم بجنون:
- ما اسم صديقتها؟ أين تسكن؟

لم ترد المرأة.. كانت قد تحولت إلى نوع من النباتات العاجزة عن الكلام واتخاذ قرار.
لقد وجد رجال الشرطة الفتاة عند تلك الفتحة التي تقود إلى الشارع الخارجي.. يبدو أنها
كانت تحاول العبور عند المنحدر وبائع الفول إياه. هناك كان القاتل ينتظرها ووجه لها ضربة
عاتية على رأسها.. خمسة وعشرون عامًا انتهت في لحظة.
لقد فشلنا.. فشلنا مرارًا.. القاتل أقوى منا بمراحل.

(١٥)

كان هذا منتصف الليل وأنا في بيتي.. أحملق صامتًا في نار الموقد الذي وضعت عليه بعض
الشاي.. لقد جف الشاي تمامًا لكنني صرت عاجزًا عن اتخاذ قرار.. لا أستطيع أن أطفئ النار.
دق جرس الباب فاتجهت لأفتحه متسائلًا عمن يكون هناك.
كان عزت يقف هناك.. بدا لي مهمومًا ومعه كل الحق في ذلك.
سمحت له بالدخول، ثم بحركات آلية أعدت ملء البراد لأعد له الشاي من جديد.
وقف على باب المطبخ يراقب ما أقوم به، ثم قال في حرج:
- أنت كنت تميل إليها.. أليس كذلك؟

هزرت رأسي موافقاً أن بلى.. بعد صمت اتجه إلى شطيرة محشوة بالجبن الرومي على الموقد، وتناولها وقضم منها قضمه كبيرة.. سألته إن كان يريد أن يأكل فقال:

- لا.. لم أظفر بشيء من الطعام منذ الصباح.. قضيت معظم اليوم مع أم لمياء هذه.

نظرت إليه في حيرة، فقال:

- عرفت منها أشياء كثيرة.. عرفت أن أهل الشارع يعتقدون أن لعنة حلت بهم، بسبب سوء معاملتهم لفتاة حملت سفاحاً.. كانوا يكرهونها ويشعرون أنها ساحرة شريرة.. ثم اكتشفوا حملها فعاقبوها بشكل جماعي قاسٍ.. ضربوها بقسوة وألقوا بها خارج الشارع. أنت تعرف كيف تكون هاته النسوة ساديات قاسيات.. كان اسم الفتاة أحلام. هنا تذكرت شيئاً.. تذكرت قصة حكيت لي عنها عن فتاة أنقذتها وأخذتها إلى المستشفى لكنها ماتت في يوم عيد ميلادها.. كان اسمها أحلام.. أنت وجدتها قريباً من الشارع، لكننا لم نعرف أي شيء عن كونها من شارع المشاط.

نظرت إليه في تحدٍ وتساءلت:

- ماذا تريد قوله؟

- أعتقد أنك ارتبطت بهذه الفتاة «أحلام» جداً.. ولم تتحمل فكرة موتها بين ذراعيك. عندما ماتت.. حسنٌ.. لم يحدث شيء.. لكن هل تعرف أننا كنا نراقب هاتف الجريدة منذ فترة؟ لم يتصل بك أي شخص اليوم ولا أمس.. أعتقد أن أحداً لم يتصل بك قط!

ثم ابتسم في شيء من الشفقة وقال:

- هناك فتاة اتصلت بنا وقالت إن رجلاً دفع لها مالا كي تذهب إلى بيت لمياء وتصحبها معها إلى نقطة عند نهاية الشارع.. رحلت بعدها فلم تعرف ما حدث، لكن الرجل الذي وصفته يشبهك كثيراً.

بدأت أراجع.. بالفعل أنا لا أفهم عن أي شيء يتحدث.. الشاي يواصل الغليان على الموقد.

- هناك شيء آخر.. في كل زيارة للشارع كنت تتعرف بالناس.. هذا معقول.. لكنك مهتم جداً بمعرفة سنهم.. هل تعرف سبباً لهذا؟

ثم أردف وهو يواصل المضغ، حتى شعرت بدهشة بسبب الحزن المرتسم على وجهه مع أنه مستمر في الأكل:

- هناك اثنان من رجالي رأيك في الشارع صباح الجريمة.. لم يبد لهما هذا ذا أهمية.. أنت تتردد على لمياء منذ فترة.. لكنك لم تقل قط إنك قابلتها يوم الحادث.

- لم ألقها.

- هذا أثار عدة أسئلة.. طلبت رأي طبيب نفساني.. هل تعلم ما قاله لي؟ قال إن هناك احتمالاً أنك عشت طفولة قاسية وكنت طفلاً منبوذاً.. مشهد موت الفتاة البريئة قد هز توازنك النفسي، وقد تمرد جزء من عقلك الباطن ليجعل منك قاتلاً.. قاتلاً ينتقم من سكان ذلك الشارع. هكذا كان

القاتل يرسل إليك تلميحًا صعبًا من وقت لآخر.. طبعًا كنت تتخيل أن هناك اتصالًا تم بك.. يضع لك الهدية في الصندوق لتخمن وتحاول أن تمنع.. الفارق هنا هو أنك كنت تقتل أولًا ثم تهرع لتبعث بالإنذار لنفسك.. وكان الجزء الثاني منك يجري من الجريدة مذعورًا ويحذرنا وهو في هذا صادق.

كنت أرتجف بلا توقف.. هذا هراء.. كلام فارغ بالتأكيد.

لكن، في الوقت نفسه ثمة جزء من ذاتي يعرف أن هذا حقيقي.. حقيقي تمامًا.

قال عزت في أسي:

- أرجو أن ترتدي ثيابك وتأتي معي.. أنا آسف.. لو كنت بريئًا سيكون عليّ أن أثبت هذا.

لم يكمل العبارة.. كنت قد تناولت براد الشاي وقذفته في وجهه.. سمعت الصرخة الشنيعة وهو يغطي ملامحه ويتلوى ألمًا.. كنت أنا قد فتحت باب الشقة واندفعت جريًا قبل أن أبدل ثيابي.

أحلام.. لمياء.. شارع المشاط.. الانتقام.. من أنا؟

أريد أن أنفرد بنفسي لأحاول الفهم.. ولكي أستطيع الفهم يجب أن أفر إلى مكان بعيد.. لا يجب أن أسمح لهم بالقبض عليّ الآن.. ربما فيما بعد.

سامحني يا عزت.. أنت تعرف أنني لست على ما يُرام.

يجب أن أعود إلى شارع المشاط بحثًا عن إجابات.. يجب.

تمت

النهاية «ب»: اليوبيل

رأيتهم قادمين.

عرفت على الفور أن رجلي الشرطة يجران فتاة يلويان ذراعها خلف ظهرها وهي تبكي.. لمياء بالذات.. ومن خلفهما كانت فتاة أخرى منكوشة الشعر تتحسس حلقها وتتهافت.. صحت في عصبية محاولاً منعهما:

- صبراً.. سوف تهشمان ذراعها!

أمرهما عزت بأن يخففا الوثاق. وهرعت الأم تصرخ وتولول فأمرها في خشونة أن تصمت.. استدار لرجليه فقال أولهما:

- كانت هناك عند نهاية الشارع بين الجدارين، وكانت تلف الإشارب حول عنق صديقتها الأخرى.. أعتقد أننا جئنا في الوقت المناسب!

هل هذا صحيح؟ نظرة واحدة إلى وجه لمياء كانت كافية لتخبرك أن هذا صحيح.

ولكن كيف؟ لمياء استدرجت صديقتها لتخفيها.

لمياء هي القاتل.

كنت أنا في حالة مزرية من الحيرة والدهشة ولا أعرف كيف ولا متى وجدت أنني أنقض على لمياء لأضربها.. كنت غاضباً وشعرت بالإهانة لأنني مخدوع، لكن رجال الشرطة أمسكوا بي فوراً، ورأيت عزت يغطي وجهه في إرهاب بكفه، ثم يقول لي وهو يلهث:

- أرى أن ترحل الآن.. أنت بالذات سوف تسبب مشاكل لو بقيت هنا.

ومن جديد لا أعرف كيف وجدت نفسي في سيارة شرطة تنهب الأرض لتعيدني إلى بيتي.. كانت في رأسي بؤرة مجانيين.. لمياء هي القاتل؟ كيف؟ ولماذا؟ هل استطاعت هذه الرقيقة أن تقتل هذا العدد ومنهم رجال أقوياء وأطفال؟ وما دوري أنا؟

ارتميت في الفراش في شقتي بثيابي وحاولت النوم.

(١٥)

اتصل بي عزت وطلب أن ألحق به في مكتبه بمديرية الأمن حالاً.

لم أفهم ما يريد، لكنه طلب معتاد على كل حال.. صحفي الحوادث يذهب إلى مديرية الأمن أكثر مما يذهب إلى بيته.

بعد ساعة كنت هناك، ودخلت مكتبه، لأجد أن هناك اثنين معه، وكانت العجوز أم لمياء جالسة ترتجف، وأمام العجوز كانت فتاة نحيلة ضامرة لها وجه سقيم كئيب لم أرها من قبل.. والكل كان يبكي كأنه مهرجان للعويل.

قال عزت في لهجة انتصار:

- السيدة أم لمياء قد تكلمت.. خوفها على ابنتها جعلها تحطم جدارًا سميكًا.

نظرت إلى السيدة في عدم فهم، فأضاف عزت وهو يشير إلى الفتاة السقيمة:

- سامية.. من سكان شارع المشاط.. كانت لها أخت ربما سبق لك أن عرفتھا.. اسمها أحلام.

سقط الاسم عليّ كالصاعقة فانتفضت.. لو كان هذا فيلم سينما لسمعت صوت ضربة
الوتريات الشهيرة.. ما معنى هذا؟ ما دور أحلام هنا؟

قال عزت:

- سامية رأت أختها تموت وأرادت أن تنتقم من الشارع كله.. كانت تعرف عنوانك وعملك
وتعرف أنك حاولت إنقاذ أختها.. لذا بدأت ترسل إليك هذه الرموز لعلها تساعدك في الفهم..
كانت تتحدث بالرمز لأنها خافت أن تكون صريحة جدًا.

قلت معترضًا:

- لكن صوت المكالم...

- لا مشكلة في أن تجعل رجلًا يتكلم بدلًا منها طلبًا للتصويه.. طبعًا نفس الرجل في كل مرة.

ثم أشار إلى العجوز التي راحت تحمق فينا بعينين لا تريان تقريبًا، وقال:

- ما تحكيه أم لمياء يعود إلى زمن بعيد.. كل سكان شارع المشاط يعرفون أن التضحية
الكبرى قادمة، والسبب هو أنهم يمتنون لعقيدة قديمة.. ليس هذا دينًا سماويًا نعرفه.. إنهم
يعتبرون أنفسهم خطاة.. منذ قرن ينتظرون هذه الأيام.. وعندما يلتقي الحكماء في بيت أحدهم
ليلاً ينفخون في البوق المصنوع من قرن الخروف.. معنى قرن الخروف بالعبرية هو
«اليوبيل».. كان العبرانيون يمارسون هذا في أسبوع الأسابيع كما يقولون.. واليوبيل هو
الاحتفال.. وهكذا يختارون الضحية القادمة ويختارون قاتلها.. طبعًا لديهم قائمة بسن كل سكان
الشارع.

نظرت إلى العجوز في ذهول.. لا أفهم.. القاتل هو...

قال عزت:

- القاتل هو كل أهل الشارع.. كل جريمة قتل كان لها قاتل مختلف من سكان الشارع.. يقتل
صاحب الرقم المختار. معظم سكان الشارع لا يعرفون السر إلا وقت التنفيذ، وعندها يجد القاتل
نفسه تحت تأثير المخدرات.. مع تهديد بنبذه وانتحاره اجتماعيًا.. هكذا بعد أيام من الضغط
يفعلها. لمياء لم تكن تعرف أساطير الكبار ثم عرفتھا.. وقضت أيامًا تجاهد نفسها إلى أن اقتنعت
ونفذت.

ثم أشار إلى سامية وقال:

- واحدة فقط حاولت خرق صمت الشارع.. السبب أنها لم تغفر لهم قتل أختها.. القتل الذي لم يتلق أي واحد عقاباً عليه.

كانت الفكرة أقوى مني.

إذن سكان الشارع كانوا ينتظرون مصيرهم كالخراف.. كانوا يعرفون أن الذبح قادم لهم.. ولماذا؟ من أجل عقيدة لا نعرف عنها أي شيء.

لمياء كانت مرغمة على أن تقتل.. تقتل فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها.. صديقتها ومن أترابها!

قال عزت وهو يشير إلى المخبر كي يأخذ العجوز:

- سوف يستغرق الأمر الكثير من العمل.. تحقیقات لا حصر لها.. لكننا سوف نصل إلى النتيجة.. أعتقد أن مشكلة شارع المشاط قد انتهت.

نظرت إلى سامية طويلاً.. بالفعل أرى ملامح أحلام.. أحلام البائسة التي حولوها إلى جسد دامٍ باكٍ على قارعة الطريق.. القساة!

قالت سامية بصوت مبحوح:

- أنا اعتبرت أنك أخت لي برغم أنك لا تعرفني.

لم أرد وغادرت المكان مهموماً.

(١٦)

جاءت المكالمات الهاتفية وأنا في الجريدة.. رفعت السماعة فسمعت ذلك الصوت المميز يقول:

- هديتك في سلة المهملات.

هل جن الجميع؟ لقد انتهت القصة.. سامية كانت ترسل الطرود.. صحيح أنهم لم يقبضوا عليها لكن لا أعتقد أنها ستعود لتمارس عملها بهذه السرعة.

نزلت إلى الصندوق وبحثت.. أخرجت العلبة وفتحتها.. كانت تحوي قطعة من شعبة مرجانية جافة. نحن نتكلم عن المرجان إذن.. هل أبلغ عزت؟

عدت إلى مكثبي وجلست أرمق القطعة، مرت عزة جوارى فقالت ضاحكة:

- كل عام وأنت بخير.. سوف يصير عمرك ستة وثلاثين عاماً بعد أسبوع! أردت أن أستبق الأحداث وأهنتك!

ابتسمت في عصبية.

مرجان.. خمسة وثلاثون.. هل هي صدفة؟ «أنا اعتبرتكَ أخًا لي برغم أنك لا تعرفني» هكذا قالت سامية.. هل يعني هذا شيئًا؟ هل يعني أنهم يعتبرونني من سكان شارع المشاط ويسري عليّ ذات العهد؟

هذا احتمال خطر لو أردت رأيي.

سأظل قلقًا لفترة إلى أن أتخلص من عقدة الخمسة والثلاثين عامًا هذه.

أين ذهب الجميع؟ المكتب خال.. هذا ليس معتادًا في هذه الساعة.. بيني وبينك أنا أشعر بقلق بالغ.. يجب أن أرحل بسرعة.

خمسة وثلاثون... مرجان.

شيء مقلق فعلاً.

تمت

النهاية «ج»: اللعبة

كانت لمياء قادمة مع رجلي الشرطة.
ممتعة الوجه منكوشة الشعر، لكنها حية وسليمة.
لما رأني هتفت في دهشة:
- ماذا هناك؟ لماذا يلاحقونني؟
برغمي ركضت نحوها وأمسكت بيدها.. قلت لها:
- كنت خائفاً.. حسبت أنك الضحية القادمة.
لم ترد، ونظرت إليّ طويلاً.. كانت ترتجف كورقة.. ترتجف أكثر مما يمكن أن يفسره الذعر من شرطييين.. هل حدقتها متسعتان أم أنني أتخيل؟ أطرقت إلى الأرض ورحت أنظر إلى قدميها.. للقدمين الصغيرتين كقدمي يمامة.. عندما تكون قدما الفتاة رقيقتين كهاتين، فإنها تقابل عدداً هائلاً من الرجال الخجولين المطرقين لسبب لا أعرفه! غير أنني لم أكن أنظر إلى القدمين.. كنت أنظر إلى الحذاء الأسود، وأقسم أنني أرى عليه قطرات دم.
ابتلعت ريقي.. وحاولت أن أنسى.
بعد ساعة بالضبط جاء رجلا شرطة يخبراننا أن البيت رقم ٢٣ فيه مشكلة خطيرة.. هناك فتاة شابة مذبوحة. الفتاة في الخامسة والعشرين من عمرها، ويبدو أن الذبح تم من الخلف.. هناك من وقف خلفها ثم مرر النصل تحت ذقنها.
لا.. لا يوجد سلاح جريمة.. القاتل تخلص منه أو أخذه معه.
ابتلعت ريقي من جديد مع خواطري.. لن أندش لو عرفت أن القتيلة صديقة لمياء.. لم نعرف اسمها بعد، لكن لمياء سوف تكتشف الاسم وتصرخ.

(١٥)

كنا نمشي على كورنيش النيل، ونحن نعرق كوزي الذرة الساخنين.
لمياء الجميلة التي تغلغت في حياتي.. لا أريد شيئاً سوى أن أهجر العالم وأعيش معها في شارع المشاط للأبد. حكيت لها عن حياتي وعن وحدتي.. حكيت لي عن... لا شيء.. هي لا تعرف شيئاً في العالم سوى أمها وقطتها والأرانب.
قلت لها إنني أريد الزواج منها.. أريد الحياة في شارع المشاط.. أريد أن أربي الأرانب معها

ونجلس في العصر نراقب الشارع الهادئ.

قالت متحاشية النظر إليّ:

- للشارع سر.. سر مخيف.. صدقني لن تحب الحياة فيه.

سألتها:

- هذا يتعلق بجرائم القتل تلك؟

قالت وهي تقذف بقايا كوز الذرة:

- نعم.. لكن ليس الأمر كما تتخيل.. هناك قصة أعقد.

نظرت في عينيها بثبات، وسألت:

- أنت قتلت تلك الفتاة في اليوم الذي جئت لك ملهوفاً؟

لم تتكلم.. كأن كلماتي صفعتها.. لكن كلماتي كانت صادقة.. أعرف هذا.. هي لم تذبج أرنباً قبل أن تأتي لتقابلني يومها لكن حذاءها كان ملوثاً بالدم.. لماذا كانت مذعورة؟

قالت بصوت كالفحيح:

- أنت تعرف أشياء كثيرة.. أنا أريد شيئاً واحداً: أن تلحق بي في الشارع الليلة.. هناك أشياء لا بد أن تراها.

وعدتها بذلك وحددنا مكان اللقاء.

وعند منتصف الليل كانت واقفة في الظلام على بعد أمتار من بيتها.

لما رأته رفعت إصبعها لتسكتني ثم مضت مسرعة وأنا ألحق بها.

رأيتها تدخل مدخلاً مظلماً بين بيتين، ثم إننا وجدنا سور شرفة صغيراً يطل على خرابة خلفية، فوثبت لتكون بالداخل.. لحقت بها وقلبي يتواثب.. لا أعتقد أنها ستقتلني، لكن لو فعلت فلن ألومها.. وقفت جوار باب شرفة موارب.. خلف الباب هناك غرفة واسعة مظلمة تنيرها بضع شموع.. دنوت منها وحبست أنفاسي.

أستطيع أن أرى داخل الغرفة خمسة أو ستة أشخاص ملتفين حول مائدة.

أسمع كلاماً غريباً يقال.. ثم سمعت صوت رجل يقول:

- نفخنا في اليوبيل (قرن الخروف).. والآن فلتمد أختنا يدها في الجوال وتلتقط الوحي القادم.

ثم سمعت جلبة خافتة.. بعدها جاء الصوت يقول:

- العاج.. لقد تكلم «بعل».. سوف يكون العاج اختيارنا.

رفعت لمياء يدها من جديد تشير إليّ أننا سنعود.. ثم وثبت من جديد في خفة لتخرج من الشرفة، ولحقت بها في الظلام.. كانت تركض لاهثة متجهة نحو بيتها وأنا أركض خلفها.

وقفت تلتقط أنفاسها المتقطعة، ووضعت رأسها على كتفي وهمست:

- هل فهمت؟ هل فهمت؟

- هذه طقوس ما.

- هذه طقوس اختيار الضحية القادمة طبقاً لاختيار اليوبيل.. العاج.. سوف يبحثون عن ضحية في الرابعة عشرة من عمرها بين سكان الشارع.. هذا نوع من القرбан يتم بصورة دورية.. لديهم تواريخ ميلاد كل سكان الشارع.. القاتل سيكون من أبناء الشارع.. لا نعرفه لأنهم سيكلفونه بالمهمة قبلها بيومين.. أنا مثلاً لم أكن أعرف أنني سأقتل ولم أكن أعرف موضوع اليوبيل هذا، ثم خضعت لضغط نفسي وعلاج بالعقاقير حتى صرت جاهزة.

- لكن لماذا؟

- لأن معظم سكان الشارع من عبدة «بعل» وهذا قرбан قديم.

- هذا مخيف! معناه أن دورك آتٍ يوماً ما.. لا بد أن هناك أكثر من قطعة فضة عندهم.

- هذا وارد.. الآن تفهم.. لو جئت لتعيش معنا في الشارع فعليك أن تقبل المرور باللعبة.. كم عمرك؟

- خمسة وثلاثون.

- المرجان.. المرجان سوف يحدد مصيرك يوماً ما.

سألتها في حيرة:

- ولماذا تصلني هذه الطرود؟ ولماذا ينذرونني أنا بالذات؟

- أنت مددت يد العون قديماً لفتاة من الشارع اسمها أحلام.. أعتقد أن واحداً من أقارب أحلام أو إخوتها يحاول أن يوقف الجرائم ويرسل إليك تلميحات كي توقف هذه الجرائم.

كانت عيناها واسعتين خائفتين.

تذكرت شوارع القاهرة الكئيبة.. تذكرت الزحام والدخان.. تذكرت الجريدة.. تذكرت حياتي.

الحقيقة أنني أنتمي إلى شارع المشاط.. أنا من سكانه.

ربما أتلقى طرداً فيه قطعة من المرجان وربما لا.. هذه مقامرة لا تستحق أن أفقد لمياء خوفاً من خسرانها.. وبعد قليل سوف أفلت من قبضة المرجان.. سوف أتقدم في العمر وأدخل دائرة الياقوت.

ربما لا يصلني الطرد أبداً.

ثم ما أروع هذه الإثارة! لعبة خطيرة تشبه الروليت الروسي.. لن يكون هناك ملل في الحياة بعد هذا.. تصور أنك مهدد بالقتل في كل دورة جديدة.. وعندما تموت الضحية التالية تتذوق أنت الحياة كما لم تتذوقها من قبل.. حياتي قبل شارع المشاط كانت هباءً فعلاً.

سوف أبقى.

ولثمت أنامل لمياء الرقيقة وهمست:

- هل أمك متيقظة في هذه الساعة المتأخرة؟

تمت

Table of Contents

زوزانكا
دبة النملة
mutilated.com
الأرشيف
حزرن.. فزر
الهول
قصة لم تكتمل
في شارع المشاط

أحمد خالد توفيق

أفراح المقبرة



أفراح المقبرة

أحمد خالد توفيق

أفراح المقبرة

مجموعة قصصية



لمزيد من المعلومات عن الكرمة : facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © أحمد خالد توفيق 2018

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر .

توفيق، أحمد خالد .

أفراح المقبرة / أحمد خالد توفيق - القاهرة: الكرمة للنشر، 2018 .

240 ص؛ 20 سم .

1- القصص العربية القصيرة .

أ-العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 2018 / 10384

2 4 6 8 10 9 7 5 3 1

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

نيولوجيزم

«عرفت من أحد المهتمين بهذه الأمور، أن هناك حالة نفسية غريبة يستخدم فيها المريض لغة أخرى لا يعرفها.. لغة لم يتعلمها لكنه يجيدها فجأة. وقيل إنه مس الجن. حالة اسمها «زينوجلوسيا»، وفيها يتكلم الشخص بلغة أجنبية لم يتعلم حرفاً منها من قبل. فجأة تجد ابنك يتكلم الألمانية أو البرتغالية بطلاقة. هناك أمثلة دينية لهذا، والغريون يطلقون عليها اسم «الكلام بالألسنة».. والهندوس يعتبرونها دليلاً على التناسخ.. ربما كنت أنت من المتكلمين بلغة «الزولو» في حياة سابقة، وفجأة تجد نفسك تجيد لغة «الزولو»».

«بيسكادوس إيلي رواتا إيلي.. نافارك دوهار.. شليش دوهار.. سربنت دوهار.. دوتشيب أراس فيرو ألمي بهستا تارجوك دونا.. أفوساي هانيلوب شلومان بارا.. ناسيب أجوسوب بالاك.. سيسا هاتور.. أجوساك.. غيرلاف ساجا أريل سوهاك ساجا.. هانيلوب لوا».

معذرة.. لا أستطيع التحكم في تلك النوبات كما تعلم. لا.. ليس حتمياً أن يقتصر الكلام الغريب بالكتابة الغريبة.. أحياناً ينغصان.. أحياناً أكتب سطوراً كاملة بهذه اللغة، لكنني أتكلم بلسان عربي فصيح، وقد يحدث العكس. منذ أسبوع جلست مع خطيبي وفتحت فمي، فإذا بي ألقى عبارات طويلة بهذه اللغة العجيبة، وكنت أجدها منطقية جداً، ولم أفهم سبب حيرتها، ثم تناولت القلم وكتبت على الورق :

- هل أنا أستعمل لغة غريبة؟

فهزت رأسها في رعب أن نعم، فعدت أكتب :

- لا أعرف ما دهاني.. يقيني أنني أعبر عن نفسي بفصاحة لكنك لا تفهمين .

فهزت رأسها من جديد في رفض، وراحت تراقب ما أكتبه .

بدأت هذه الظاهرة تتفاقم مع الوقت. راحت اللحظات التي يتغير فيها كلامي تتزايد مع الوقت، وكانت تُسبب قلقاً فعلياً لمن يتعامل معي .

عرفت من أحد المهتمين بهذه الأمور، أن هناك حالة نفسية غريبة يستخدم فيها المريض لغة أخرى لا يعرفها.. لغة لم يتعلمها لكنه

يجيدها فجأة. وقيل إنه مس الجن. حالة اسمها «زينوجلوسيا»، وفيها يتكلم الشخص بلغة أجنبية لم يتعلم حرفاً منها من قبل. فجأة تجد ابنك يتكلم الألمانية أو البرتغالية بطلاقة. هناك أمثلة دينية لهذا، والغربون يطلقون عليها اسم «الكلام بالأسنة».. والهندوس يعتبرونها دليلاً على التناسخ.. ربما كنت أنت من المتكلمين بلغة «الزولو» في حياة سابقة، وفجأة تجد نفسك تجيد لغة «الزولو».

شعرت بقلق شديد. جرّبت أن أستخدم هذه اللغة مع أشخاص آخرين من جنسيات مختلفة.. فلم يفهم أحد ما أقول .

رحت أحاول كتابة تلك المقاطع التي أتلفظ بها.. لربما استطعت التوصل إلى شيء كما يفعلون في عمليات فك الشفرة.. طريقة فك الشفرة في الحشرة الذهبية قصة «إدجار آلان بو».. «أجوساك» قد تكون فعلاً شبيهاً بـ«يكون» في الإنجليزية.. لا وجود لأفعال الكينونة في الجمل الخيرية في العربية.. أنا أكون رجلاً.. لا شيء كهذا.. «نافارك دوهار».. شليش دوهار.. سربنت دوهار».. قد يوحي هذا بألوان.. «دوهار ثوب» قد يكون «نافارك أو شليش أو سربنت».

أذكر في طفولتي أنني كنت أمر جوار بناية دبلوماسية، وخرج شاب مندفعاً، وحيّاً الحارس صائحاً بصوت جهوري :

- «سولُو كيزم!».

وقد ظل الفضول يخنقني طيلة حياتي لمعرفة معني «سولُو كيزم» هذه.. طبعاً هذا يقترب من الاستحالة ما لم تقف في مدخل بناية الأمم المتحدة مردداً «سولُو كيزم». في فيلم «رجل من الداخل» يستعمل لصوص المصرف لغة غريبة، فيقوم رجال الشرطة بإذاعة التسجيل عبر مكبرات الصوت عسى أن يميز الكلمات أحد المارة، وبالفعل يأتي لهم رجل ليخبرهم أن هذه اللغة هي الألبانية .

قمت بتسجيل فيلم لنفسي وأنا أتكلم كلاماً منطقياً.. المشكلة هي أنه بلغة لا يعرفها أحد. في عصر الإنترنت يسهل أن تعرف بأي لغة يدور الكلام .

هكذا وضعت الفيلم على يوتيوب، وطلبت ممن يعرف بأي لغة أتكلم أن يبلغني بها .

«أجوساك».. غيرلاف شرايب تال.. هنيلوب سلسيا.. أرفاناس جاريب .. لقد عدت أتكلم تلك اللغة.. أنا أسف .

اسمي شاكر.. مهندس كمبيوتر.. في السادسة والعشرين من

عمري.. أعيش وحيداً على قدر ما أذكر. كانت هناك حالة تُعنى بي،
ثم توفيت منذ أعوام طوال .

اليوم كنت أخلق ذقني في الحمام عندما لاحظت شيئاً مُقلِّعاً، هناك
تحت زاوية فكّي بالضبط كُرية صغيرة ذات جدار عظمي .. لم تكن
موجودة هنا من قبل.. لاحظت كذلك أنها غير مكسوة بالشعر. عندما
نزعت ثيابي لأستحم لاحظت أن هناك كُرية عظمية مماثلة جوار
رُكبتي اليمنى.. هذه أشياء جديدة ...

السرطان! لا أعرف ما هو بالضبط، فأنا غير ذي ثقافة طبية، لكن
الكلمة ظلت مشتتة بضوء أحمر في سماء الغرفة، فلم أستطع
النوم. هرعت إلى أقرب عيادة جراح.. تفحص ما تكلمت عنه وبدأ في
حيرة، ثم طلب أن أجري فحصاً بالأشعة على الكُرتين العظميتين .

لما عدت إليه بالأشعة تفحصها ثم أشار إلى كُرتين تبدوان
كالفقاعتين في الصور، وقال :

- هناك أسنان في داخل التجويف !

لما بدا عليّ الذعر قال لي مفسراً إن هناك أوراماً عديدة تحوي
أسناناً وعظماً وشعراً، اسمها «تيراتوما»، هذه أشياء تحدث، والحل
الوحيد هو الاستئصال .

- ومتى؟

- متى صرت متأهباً.. ولا تقلق من السرطان.. هذه ليست حالة
سرطانية .

قلت له :

- «ميها ركا.. أينو.. شالماه هتروت دابن بلوف.. أجوساك.. جاريب
..».

نظر إليّ في دهشة، فغادرت المكان بسرعة .

الطبيب النفسي الذي طلبت رأيه قال لي إن هناك حالات من
الهستيريا تتحدث لغة غريبة كهذه، كما أن مرضى «السكيزوفرنيا»
يخلقون لغة خاصة بهم.. هذا ما يُطلق عليه «النيولوجيزم». معنى
هذا الكلام أنني هستيري أو مجنون .

أنا وحدي في البيت ...

أنظر في المرأة.. هناك كُرية عظمية أخرى فوق الحاجب. الأمر يتحرك بسرعة مذهلة. الطبيب الجراح كذلك قال لي إن هناك أورامًا عديدة تُصيب الجسم بهذه الكثافة وتنتشر.. هناك مرض شنيع يحتاج الجسم ليغطيه، ويجعل المرء كوحش من قصص الخيال العلمي، وهو مرض اسمه «neurofibromatosis». سوف أتحوّل إلى مسخ تتخاطفه كليات الطب، ولن أعرف السبب أبدًا. لكن ماذا عن ورطة اللغة؟

جاءني الرد بعد أيام من رجل تركي اسمه «وحدت صافي».. لقد رد عليّ في صفحة يوتيوب، وتم الاتصال بيننا على سكايب.. تكلمنا بالإنجليزية طبعًا.

- جدتي كانت تستخدم لغتك هذه أحيانًا.. لا أعرف ما تقول الكلمات.. لكنك تعرف كُنه هذه اللغة.

سألته :

- وما كُنه هذه اللغة؟

- أنت تعرف! كانوا يأتون إلينا أحيانًا.. كُريات تخرج من عظامهم وعظام أشداقهم.. وكانت تفوح منهم رائحة الكافور.. تشمها وهم على بُعد ميلين !

ثم أنهى الحوار مُرددًا آيات قرآنية عديدة.. وقطع الاتصال !

أغلقت جهاز الكمبيوتر، ونهضت مغادرًا البيت .

قالت لي خطيبتى عندما التقينا :

- غريب أمر هذه الكُريات التي تخرج من جبهتك وفكّك.. إنها تتزايد !

ثم تشممت بأنفها، وهتفت :

- رائحة الكافور هذه.. هل تستعمله كدهان ليُقلّل الألم؟

قلت لها في عصبية :

- «لوفيف تاجيالا بيريس.. نوهارك.. شورشور.. ناسكارديا لاتوف بيلي سانكسوس.. أبراهاديركا.. ناسوس.. شيفتا ناسوس.. نافارك دوهار.. شليش دوهار.. سربنت دوهار».

سوف أعرف كيف أفك هذه الشفرة.. سوف أجد اللغة. أجهزة

الكمبيوتر قادرة على فك رموز أي لغة أرضية .

أنا أتبدل لا شك في هذا.. المرأة تقول هذا بوضوح.. هنا وسط هذه الدائرة من الحيرة خطرت لي فكرة: هناك تلك المفكرة التي قالوا إن أبي تركها لي وظلت في خزانة ثيابه.. المفكرة التي لم أستطع قراءة حرف منها، لأنها كُتبت بكلمات مثل: «سكريوناً.. باكار تشيكوب.. ناهارا.. فيزوس لا».

حسبت أن هذه هلوسة، لكن ماذا لو عدت إليها الآن؟

هرعت إلى خزانة الثياب، وأخرجت المفكرة القديمة. لا شك أنها توضع برائحة الكافور. تأملت الكلمات.. لقد انفتحت طاقة السر.. يمكنني أن أقرأها الآن كأنني وضعت سماعتَي الترجمة الفورية في مؤتمر :

«بُني العزيز، لو كان بوسعك أن تقرأ هذه الكلمات فأنت قد نصجت بما يكفي لتفهم باقي الحقائق. إن جسدك سيخبرك بما عليك عمله.. نحن نختلف عنهم.. فقط لا يظهر الفارق إلا بعد سن الخامسة والعشرين، هذا يشبه داء الكلية المتحوصلة.. تولد به وتحمله في خلاياك، لكنه لا يعلن عن نفسه إلا في سن متقدمة. ولسوف يكون عليك يا بُني أن تبحث عن مكان آخر.. مكان مظلم رطب.. سيكون عليك أن تجد زوجة منا.. سيكون عليك أن تأكل كما نأكل.. سوف تنسى لغتهم.. وعندما يقولون إننا شياطين أو غيلان فلا تدع هذا يحطم معنوياتك. نحن متميزون ومختلفون لهذا يكرهونا».

كنت أرتجف. ألقيت بالمفكرة جانباً. أفهم ما هو مكتوب، لكنني كذلك لا أفقه حرفاً من هذا الهذيان. ما أمر به مرض نفسي لا أكثر مع أورام لعينة في عظامي.. الأمر لا يزيد على ذلك. سأخبرك بما أنتويه : «مارتو أرام.. مارتو أرام.. أفساي هانيلوب شلومان بارا .. ناسيب أجوسوب بالاك.. سيسا هاتور.. أجوساك... أرا!.. هل تفهمني؟

موعدنا الليلة

«اسم الرواية «موعدنا الليلة».. بالطبع لا يتحدث عن لقاء عاطفي، بل هو تهديد واضح لا شك فيه. عندما تقرأ لفظة «عشاء» في رواية رعب، فأنت لا تفكر في العشاء الذي نعرفه».

لأن الحياة رتيبة مملة وقاسية، فإننا نُلقي لأنفسنا بالطَّعم مرَّة تلو المرَّة.. هل تعرف قصة «البارون مونشهاوزن» الكذاب الألماني الذي صعد إلى الفضاء عن طريق فذف مغناطيس في الهواء، ومن ثمَّ ترتفع السفينة الحديدية قليلًا، ثم يتلقف المغناطيس ويقذفه من جديد.. وهكذا؟

نحن نبحث عن ذريعة لبقائنا.. هذه الذرائع التي تُبقينا أحياء ساعة أخرى.. يومًا آخر.. عامًا آخر. قد تكون الذرائع طفلًا جميلًا أو قصة حب.. ربما تكون، في أقل صورة لها، كتابًا تنتظره في شغف .

الليلة فاز فايـز بجائزته .

لقد وجد الكتاب الذي انتظره طويلًا، والذي فتش المكتبات كلها بحثًا عنه فلم يجده. اعتاد أن يدق أبواب المكتبات كأنه متسول يطلب لقمة عيش تُبقيه حيًّا يومًا آخر.. أريد ذريعتي يا أوغاد.. أريد مغناطيسي يا لصوص .

على الغلاف كانت صورة ذلك البيت المظلم الذي ينبعث منه ضوء خافت مخيف، والظلام دامس، وهناك سماء مكفهرة مفزعة.. بينما البطل يتقدم وظهره لنا نحو أهوال لا نعرفها لكنها موجودة يقينًا.. وبخط بارز فضي براق كُتب اسم المؤلف «جون كالوزي». اسم الرواية هو «موعدنا الليلة». أنت تعرف أن «جون كالوزي» أهم كاتب رعب معاصر بعد «ستيفن كنج» و«كليف باركر»، وتعرف أن أعماله لم تُترجم إلى العربية قط.. هذه أول رواية له تصدر باللغة العربية إذن.. وأي طباعة !

تأمل الغلاف في انبهار ثم دفع ثمنه.. كان قد شاهد فيلمًا سينمائيًا عن إحدى قصص هذا المؤلف العبقرى، وبعد هذا قرأ قصة قصيرة له بالإنجليزية فازداد انبهارًا .

من أين يأتي هؤلاء القوم بأفكارهم؟

لهذا عندما عرف أن دار نشر لبنانية تعتزم ترجمة أول رواية لـ.

«كالوزي» تحمّس وراح يبحث في كل مكان. هل تعرف معنى هذا؟ معناه ليالٍ دافئة في الفراش.. أقذاح من النسكافيه .. انتظار نهاية اليوم في شغف.. فهناك في الفراش يوجد المغناطيس الخاص به الذي سيرفعه إلى القمر.. الجزيرة التي تجعله يتحمل يومًا آخر .

كان فايز، كما لا بد أنك خمنت، مهندس كمبيوتر فاته قطار الزواج.. يعيش وحده، لكنه ليس وحيدًا جدًا.. الكتب تجعل حياته مزدحمة جدًا، وعندما يدخل البيت يجد «توفيق الحكيم» و«تولستوي» و«نجيب محفوظ» و«كافكا» و«تشيكوف» و«جيمس جويس» ينتظرونه في قلق.. بصعوبة يمكنك أن تجد مكانًا تمشي فيه.. الحقيقة أن هناك أيامًا كان يشنق فيها إلى الوحدة! نعم.. الزحام شديد هنا .

كان الكتاب تسليته الوحيدة.. الشيء الوحيد الذي يعوضه عن الزوجة والولد والعلاقات العاطفية .

في القطار وهو عائد إلى بيته جلس جوار النافذة. كان قد حجز لنفسه في الدرجة الأولى حتى ينعم بالقراءة في ضوء صحي ومقعد مريح.. وضع ساقًا على ساق وبدأ يتأمل الغلاف .

العربة خالية إلا من رجل غافٍ في المقدمة قد غطي رأسه بالسادة وارتفع غطيته .

كان فايز يعرف أن «كالوزي» مؤلف غريب الأطوار فعلاً .. لا يُجري أي حوارات صحفية، ولا يعرف أحد أي شيء عن حياته الشخصية، فقط العبارة الصادقة التي قالها هي: «كلما اقترب الناس من المؤلف كإنسان قلّ تصديقهم له كروائي. على الرواية أن تبدو كأنها وُجدت منذ بدء الخليقة.. كالكون نفسه».

هذا شيء جدير بكاتب رعب ناجح .

اسم الرواية «موعدنا الليلة».. بالطبع لا يتحدث عن لقاء عاطفي، بل هو تهديد واضح لا شك فيه. عندما تقرأ لفظة «عشاء» في رواية رعب، فأنت لا تفكر في العشاء الذي نعرفه .

بدأ فايز يطالع القصة، وبدأ يندمج :

«هناك بائع متجول اسمه ويليام يعود إلى بيته ليلاً .. لا يعرف أن هناك من يراقبه طيلة الوقت.. لا يعرف بالذات أن من يراقبه هو آكل لحوم بشر هاو، يحاول أن يجد فريسة لهذه الليلة.. ليلة واحدة تجعله يكف لمدة ستة أشهر قبل أن يداهمه الجوع من جديد ...».

ما هذا؟

لمح فايز انتفاخاً غريباً في غلاف الكتاب الخلفي السميكَ المُجلَّد. مد يده بتحسسه.. كان الفضول قاتلاً. أخرج تلك الأداة التي تصلح كمطواة أو لقص الأظفار، وعالج النصل ليخرجه. يكره أن يفسد غلاف هذا الكتاب، لكن الفضول يغمره .

بصعوبة وبدقة جراحية خرج شيء يشبه قطعة العملة الرقيقة جداً.. كُتبت عليها عبارات بلغة لا يعرفها.. ربما هي «المسمارية».. لغة لا بد أنها من بلاد ما بين النهرين، أو قادمة من كوكب آخر. ما هي؟ إنها تتألق.. لا.. هذا خيال.. لا بد أن الإرهاق هو السبب .

دس فايز الرقاقة في جيبه وعاد يقرأ :

«بدو أن القاتل مُصرٌّ على أن يتتبع ويليام.. إنه يصعد معه إلى مترو الأنفاق الخالي من الركاب.. يجلس في مقعد خلفي ويراقبه. ويليام لا يلاحظ شيئاً لأنه مرهق ...».

هنا مر المُحصِّل وطلب التذكرة من فايز.. ابتسم له ثم واصل طريقه، ولم يتوقف عند الرجل النائم .

عاد فايز يقرأ القصة .

بدأ يتوتر والأحداث تشده معها.. ماذا سيحدث لذلك المسافر المرهق الوحيد؟

«نهض المسافر أكل لحوم البشر، ومد يده إلى حقيبة فوق المقعد، فسقطت أرضاً وأحدثت دويًا هائلاً.. إنه يُخفي فيها المِدى الضخمة والحبل والمُخدر.. سوف ينتهي من عمله بسرعة ويفر.. يضع أكبر قدر من اللحم في الحقيبة ويغادر المترو ...».

قال فايز لنفسه إن القصة ممتعة فعلاً، لكنه يحتاج إلى شجاعة كي يقرأها في بيته وحده ليلاً وفي الظلام.. سيكون هذا صعباً.. إن الوحدة تُضخم الخيال مرتين، والظلام يُضخمه خمس مرات .

رأى الرجل الذي كان جالساً في مقدمة القطار ينهض.. يبدو أنه يبحث عن حقيبته التي وضعها على الرف فوق المقعد، لكنها سقطت منه على الأرض مفتوحة فأطلق سُبّة وانحنى يجمعها .

عاد فايز إلى القصة :

«نهض الرجل الغريب أكل لحوم البشر من مقعده ومشى جوار

ويليام.. وفجأة انقض عليه وغرس إبرة في عضده. صرخ ويليام.. لم يفهم أن هذا مُخدِّر، ولم يفهم أنه سيعمل سريعًا جدًا .

نهض ويليام محاولًا إبعاد الغريب لكنه سقط أرضًا.. وفي اللحظة التالية صار بالكامل تحت تصرف أكل لحوم البشر .

بدأ الوحش يمارس مهمته المخيفة ...».

كان فايز مستمرًا في القراءة وقد توترت كل حواسه.. غاص بالكامل في الكتاب، فلم يعد يعرف ما يدور من حوله.. لا يعرف أن الرجل الجالس في مقدمة العربة قد نهض.. لا يعرف أنه مشى نحوه بشكل عابر.. لا يعرف أنه كان يحمل محقنًا.. ولم يدرك إلا في اللحظة الأخيرة أنه غرسه في عنقه .

نهض فايز مذعورًا، وسقط الكتاب من يده ...

حتى وهو يدرك أن وعيه ينسحب، أدرك أن هناك خطأ ما ...

الرقاقة التي وجدها في الكتاب.. ما معناها؟

تمهّل قليلًا يا وعيي.. سوف نعرف حالًا حقيقة هذه الرقاقة.. سوف أفهم.. سوف أفهـ...

وامتد الظلام ليلتهمه.. كانت هناك حفرة عميقة أزلية.. عرف وهو ينزلق لها أنه لن يعود .

*

وَحَّثَ هند عبارات الشكر إلى بائع الكتب وهي تتجه إلى تلك الكافتيريا الصغيرة .

جلست لاهثة، وطلبت من الساقى قدحًا من الكابوتشينو، ثم أخرجت الكتاب في لهفة.. مغناطيسي العزيز.. ذريعتي .

اسم الكتاب هو «موعدنا الليلة».. عنوان شبه رومانسي لولا أنها تعرف عالم «جون كالوزي» المخيف. سوف تقضي ليلة رائعة مع هذا الكتاب البرّاق.. لكن ما سبب هذا الانتفاخ في غلاف الكتاب الخلفي؟ لا يهم.. هذه أخطاء تجليد تحدث دائمًا .

هذا الرجل الجالس هناك.. هل هو يراقبها؟ إنها واثقة من نفسها، قوية الشخصية، لكن فيه شيء مخيف بلا شك !

بدأت تُطالع بعضًا من سطور الكتاب :

«هناك محاسبة اسمها «هيلين» عائدة من عملها ليلاً.. يبدو أن هناك سفايحًا يلاحقها.. لا تجد سيارات أجرة فتضطر للمشى وحدها في شوارع بروكلين المظلمة في هذه الساعة المتأخرة.. واضح أن السفايح خلفها.. ومن المؤكد أنه سيلحق بها ...».

هذه قصة مثيرة يجب أن تقرأها في البيت على مهل .

انتهت هند من الكابوتشينو فدفعت ثمنه وغادرت الكافتيريا. أين ذهب الرجل المخيف الذي كان يختلس النظر إليها؟ !

في الخارج كان الظلام وكان البرد .

لا توجد سيارات أجرة.. يبدو أنها سوف تعود إلى بيتها مشيًا على الأقدام، وهي مهمة شاقة جدًا .

لا يهم.. إن ليلة ممتازة تنتظرها مع هذا الكتاب الساحر ...

سفاح المستنقعات

«كانت لمياء دومًا في كل حادث من حوادث السفاح، وكانت تسبقني وعائشة دائمًا نحو مسرح الحادث والنشر.. وأشهد أنها لم تُصب بأي درجة من الذعر وهي ترى أكثر الجثث تمزقًا وأبشعها.. هي هادئة الجنان دائمًا، على درجة من البرود لا شك فيها.. بالمناسبة كانت لمياء تلبس العوينات السوداء كثيرًا جدًا.. لماذا؟».

«سبلاش.. سبلاش!».

يمكنك سماع صوت القدمين وهما تبعثران الماء الموحل.. تتسع الدوائر ويضطرب السطح اللجيني النائم في ضوء القمر الفضي. القمر فاتر شديد البرد واللامبالاة يرمق هذا المشهد.. قاس كنصل السكين، يطل من وراء أستار الغيوم، فيبعثر بعضًا من نوره الفضي عليها قبل أن يتواري.

«سبلاش.. سبلاش!».

تتمنى لو كانت الحياة أفضل من هذا.. لو كان القمر يبعث ضوءًا أكثر فعالية وبهجة.. لو كان الركض في أحوال المستنقعات أسهل.. لو أنك تمساح أو أفعى.. لو أن حظك أفضل أو أن مطاردك أبطأ وأضعف.

لكن لات حين مناص.. لا مجال للتمنيات.. نحن في زمن الحقائق!

والحقائق تقول إنك ستموت هنا والآن.. لأنك لن تستطيع الفرار إلى ما لا نهاية.. إن الخطر أقوى منك وأكثر رشاقة، وينساب فوق المستنقعات بسهولة تامة.

أنت تغوص في الوحل حتى الركبتين، وتحاول جاهدًا أن تتماسك.. لو عبرت إلى هذه الضفة فلربما كانت هناك فرصة في الركض.. لا تنظر إلى الخلف.. كل من ينظرون إلى الخلف أثناء الركض يسقطون وينتهون.

ما مصدر هذا الصراخ الذي يصم الأذنين؟ من يصرخ؟ لحظة... هذا أنت! أنت من يصرخ بهذا الشكل وكل هذه الهستيريا، وكنت تحسب أنك أكثر تعقلًا واتزانًا.

«ليتنى أكف عن الصراخ! هذا الصراخ يشئت انتباهي ويفقدني التركيز ويشعرنى باقتراب النهاية».

لا جدوى.. لا بد من التوقف والتقاط الأنفاس.. لا بد من المواجهة .
المطواة في يدك.. ربما بشيء من البراعة والسرعة استطعت أن ...
ما هذا الشيء الدافئ الذي يبلل صدرك؟ ما هذا الوهن الذي يسري
في جسدك؟ من وضع هذا الستار الأسود أمام عينيك؟ ما الذي ...

*

أحد صيادي البط وجد الجثة الطافية فوق المستنقع، وقد تمكنوا من
جرها إلى الشط. كان هناك العديد منهم لأن هذا هو موسم الصيد
في يناير .

جاء رجال الشرطة بعد الظهر، وأنا معهم طبعًا.. كنت أحمل الكاميرا،
والتقطت حشدًا من الصور أعرف أن معظمه لن يُنشر ككل صور
سفاح المستنقعات.. عندما يفرغ من عمله تكون الصور غير قابلة
للعرض إلا في مواقع الرعب الغريبة .

ليست بركة «عان» هي أكبر البرك هنا.. هناك بركة «إتيان»
ومساحتها ثلاثة آلاف فدان.. هناك بركة «العباسة» التي كان الملك
فاروق يحب الصيد فيها، لكنها صارت مزارع أسماك حاليًا. يمكنك أن
تري طيور أوروبا المهاجرة في كل مكان من حولك.. من العسير أن
تذكر كل الأنواع التي تطل عليك من وراء الأعشاب الطويلة.. أعتقد
أن منها «الشهرمان» و«الببول».. تذوقت الطائر الأخير منذ أعوام
وكان طعمه كريهًا بحق، زفارة لا يمكن وصفها، مما جعلني أقرر أنها
طيور لمتعة العين لا البطن. إنه منظر بهيج فعلاً، لكن وجود جثة
ممزقة بهذا الشكل يفسد مزاج أي شخص في العالم .

قال الضابط :

- أكثر من صياد كان موجودًا في لبدة الصيد منذ الفجر ولم يرَ شيئًا..
ما نراه حدث ليلاً ولم تشهد عليه سوى الطيور .

ثم أشعل لفافة تبغ، فأضفت :

- كالعادة .

لكن أحدًا لم يهتم أو يعلق بما أنني شخص سخي وممل.. لكنهم لا
يتخلصون مني لأنني كمحقق حوادث أقدم لهم فرصة الشهرة.. كل
واحد فيهم سيشترى لزوجته الجريدة لتقرأ: «انتقل فريق البحث
بقيادة المقدم فلان والملازم فلان».. إنه مهم جدًا.. ومن هنا تأتي

أهميتي أنا .

هناك لمياء وعائشة وصفوت.. الوجوه الصحفية الدائمة.. البعض جاء من فاقوس، والبعض جاء من مكتب جريدته في الزقازيق. وقد صار واضحًا أننا سنقيم هنا لفترة طويلة.. الكل يلبس أحذية طويلة العنق بالطبع .

للمرة الرابعة هناك جثة شاب ممزق بلا قطرة دم واحدة، يرقد وسط أوحال المستنقع، ومن الواضح أنه قضى ليلة سوداء.. هناك شخص يتلذذ جدًا بهذه الحفلات.. غالبًا هو - القاتل والمقتول - من صيادي البط الوافدين هنا.. أو هو من المقيمين الأصليين .

كنت أحمل ميلًا خاصًا نحو عائشة.. محررة الحوادث في جريدة الـ«...»، وهي جريدة موجودة على النت فقط.. هناك جاذبية خاصة للفتيات الخاليات من الأنوثة.. يمكنك في لحظة بعينها أن تتصور أنها شاب وسيم، خاصة مع شعرها القصير وثيابها العملية.. هي كذلك شخصية جادة، وأنا أمقت الدلال الأنثوي لأنه يختلط بالميوعة كثيرًا .

صفوت أحرق.. هذا يلخص كل شيء ولا داعي لإطالة الكلام. يبدو كأحمق، ويفكر كأحمق، ويتكلم كأحمق. هل تعرف السبب؟ لأنه أحمق.. وله زوجة حمقاء مثله تنتظره في قريته .

لمياء حسناء رقيقة تبدو كأنثى جدًا، وأعتقد أن صفوت يميل لها برغم أنه متزوج. هذه العلاقات قد ولدت مع الوقت برغم أننا نمثل صحفًا متنافسة، لكن وجودنا جميعًا في محافظة الشرقية جعلنا نقرب جدًا .

أشعل صفوت - لأنه أحمق - لفافة تبغ، فصاحت عائشة في ضيق :
- كُف عن هذا! لا أطيق رائحة التبغ !

قلت لها وأنا أمد يدي لأعينها على الخروج من وهدة بين الأعشاب :
- هذه الرائحة هي الطريقة الوحيدة لتبديد رائحة المستنقعات.. السجائر أقوى مزيل روائح عرفته البشرية في رأيي .

دنوت من الضابط ممسكًا جهاز التسجيل، محاذرًا أن أسقط في المياه الموحلة، وسألته :

- هل من خيط جديد يا سيدي؟

- لا شيء.. نفس الطريقة.. غالبًا نفس القاتل.. من الصعب مراقبة

هذه المساحات الشاسعة ليلاً، فليس لدينا رجال يكفون لهذا.. أعتقد أننا سنعتمد على الإعلام.. سوف نحدث حالة من الرعب والحذر، وهذا دوركم طبعاً .

كنت أعرف أن هذا دورنا وأرحب به جداً.. ليس أحب للصحفي من أن يثير الذعر في النفوس.. «جميل أن تتسق مصلحتي مع مصلحة الحكومة والمصلحة العامة.. لحظة تناغم نادرة!».

بينما كنا نبتعد بصعوبة عن موقع المذبحة، كنت أمشي جوار صفوت. كانت لمياء تنساب من بعيد مع عائشة وقد تأبطت ذراعها .

قال صفوت وهو يتأمل لمياء الرشيقة تسري ولا تمشي :

- لمياء تبدو لي فوق الواقع.. أسطورية... لا أرضية.. هل تعرف أنها ليست مصرية؟

بدا لي هذا غريباً.. كل شيء فيها يوحي بأنها مصرية.. لهجتها مصرية جداً .

قال صفوت :

- أبوها وأمها لبيبان.. جاءا إلى مصر وهي طفلة.. ألا يُسحرك هذا؟ إنها مختلفة في كل شيء !

هزرت رأسي.. وكنت أفكر في رحلة العودة المرهقة إلى الزقازيق، والمقال الذي سأكتبه.. لكن لا بد أولاً من غداء دسم كما تعلم .

*

اتصل بي صفوت يطلب لقائي .

كنت في مكتب الجريدة الصغير في شارع «القومية»، أحاول كتابة تعليقي على الحادث، عندما اتصل بي. رشفت رشفة من كوب الشاي الثقيل، وسألته في ملل عما هنالك. صفوت أحمق ولا يفعل شيئاً سوى أن يضيع وقتي .

جاء صوته القلق الملوث بالعرق (لا يوجد خطأ لغوي هنا) يقول :

- جلال.. هل تعرف مقهى «...» قرب كوبري الصاغة؟ سوف نلتقي هناك بعد العصر .

كالعادة.. بعد العصر.. هذا قد يكون بعد ربع ساعة، وقد يمتد حتى

المغرب، بل إن المغرب والعشاء ينطبق عليهما تعبير «بعد العصر» كذلك .

قلت له في نفاذ صبر :

- في تمام الثالثة.. نفس المقهى .

ووضعت السماعة.. أعرف ما سيحدث وما سيُقال. هو يملك رغبة عارمة في خيانة زوجته، ويعتقد أنه واقع في حب لمياء، وليسوف يصدع رأسي بكلامه الفارغ الذي يروق له جدًا. لا حول ولا قوة إلا بالله .

*

يحذر ليحافظ على «الوش»، صب القهوة السائل الأسود زكي الرائحة في الكوب، فأشعل صفوت لفافة تبغ استنشقتها في تلذذ، ثم وضع لي ثلاث ملاعق من السكر في الشاي دون أن يسألني، كأنه يحسن ضيافتي بزيادة كمية السكر، ثم قال :

- عواطف.. أنا أشك في عواطف .

عواطف إن كنت لا تعرف هي زوجته.. ابنة عمه القروية الساذجة التي جاءت معه مؤخرًا من قريتها، وتقيم معه في شقة رخيصة ضيقة على بُعد أمتار من هنا.. عمارة بها عدة عيادات للأطباء .

قلت له في غيظ :

- تشك؟! هل تعتقد أنها تخرج ليلاً للسطو على المارة؟ هل تبيع الحشيش؟

امتنع وجهه وقال :

- دعك من السخف.. أنت تعرف معنى الشك عند الذكر الشرقي.. إنه يتعلق فقط بالخيانة الزوجية والشرف، إلخ .

تلك السيدة المسنة اسمها نجوى.. سيدة في الستين من عمرها، متغضنة كتفاحة ذابلة، وتلبس الأسود.. ثوبًا طويلًا أسود.. تتوكأ على عكاز من الألوميتال يشبه حامل الكاميرا.. جاءت في مكتبه لتقول له إنها تمقت الحال المائل، وإن كتمان الشهادة خطيئة :

- اسمي نجوى علام.. أسكن في البناية المواجهة لبيتك.. هذا شارع مزدحم وهناك عدة عيادات أطباء في بنايتك مما يجعل دخول الناس

وخروجهم أمرًا لا يلاحظه أحد.. لكنني أتلصص كثيرًا وقد رأيت ذلك الرجل يدخل للبناية مرارًا.. ثم بعد هذا كنت أراقب شرفة دارك، فأراه هناك مع زوجتك. لاحظت أنه لا يأتي إلا عندما تخرج أنت.. أحيانًا يخرج، ثم تلحق به زوجتك بعد دقائق، ثم تعود وحدها. أجريت تحرياتي وعرفت أنك تعمل هنا .

كان يصغي وهو يفتح القداحة ويغلقها في شرود.. يراقب اللهب الوليد ثم يدفنه.. حالته النفسية تتجسد في هذه الشعلة.. سمع المرأة تشهق وتقول :

- أطفئ هذه وكلمني !

سألها صفوت وهو يجفف عرقه :

- ومن أدراك أنه ليس أخاها؟

اهتز صدرها المسن بضحكة مكتومة، وقالت :

- ابن أختي يجيد استعمال كاميرا الهاتف الجوال.. لا أفهم هذه الأمور «المسخمطة» بحكم سني، لكنه استطاع التقاط بعض الصور عندما لمح العاشقين من الشرفة .

ثم عبثت في حقيبتها، وأخرجت لصفوت هاتفًا جوالًا صغيرًا... أنامل طويلة شبيهة بالمخالب، وخاتم ضخم شبيه بثمرة التوت.. وقالت :

- قطيعة! لا أعرف كيف أبحث عن الصور فيه.. يمكنك أن تنظر بنفسك .

بيد مرتجفة ملوثة بالعرق أمسك صفوت الهاتف، وراح يفتش فيه.. حلقه يجف.. يحتبس صوته.. يوشك الهاتف على السقوط فيلتقطه .

تقول العجوز وهي تنهض :

- لا أريد أن تتهور يا بني.. لا أريد أن تجن.. فقط أردت أن أقول لك كُن حذرًا، يمكنك أن تُطْلِقَهَا فلا تضيّع مستقبلك .

لكنه لم يرد.. كان ينسخ الصور من هاتفها إلى هاتفه بخاصية البلوتوث.. وعندما انصرفت العجوز تتوكلًا على عكازها، كان الكون قد سقط فوقه، كأن أعمدة السماء قد تآكلت .

قال لي صفوت وهو يناولني الجوال ويشعل لفافة تبغ أخرى بيد ترتجف :

- هكذا.. هكذا ترى الصور.. لا أطيق ألا أقتلها.. أريد أن أتحامق وأندفع للحد الأقصى.. التعقل والحكمة بيدوان لي خاليتين من الرجولة، فقيرين في النخوة.. الرجل الحق يذهب لتلك المرأة ويذبحها .

كنت أتأمل الصور، ثم قلت له في حذر :

- لا أعرف مدى صحة هذا الدليل.. نحن في عصر الفوتوشوب حيث يمكن أن ألحق لك صورة وأنت تقتل «يوليوس قيصر»، لا بد من خبير تصوير ممن تستعين بهم المحاكم ليفحص هذه الصور.. ثم اسمح لي بحقيقة لا تخفى على أحد.. زوجتك قبيحة جداً وبائسة وشاحبة، ولا تُغري صرصور حقل على إقامة علاقة معها.. العلاقة الجنسية تحتاج ببساطة إلى أن تكون هناك جاذبية جنسية.. زوجتك يمكنها أن تمشي بالمايوه في زقاق مليء بالمخمورين ومدمني المخدرات، ولن يضايقها أحد، سوف يعتبرونها مجرد سحلية تمر مصادفة.. أنا أسف على وقاحتي، لكني أرى الدليل على شرف زوجتك في وجهها الخالي من الأنوثة .

ابتلع ريقه ولم يتكلم.. عليه الاختيار بين إهانة شرفه وبين إهانة جمال زوجته. اختار أقل الخطرين .

قلت وأنا أعيد إليه الهاتف :

- أرى أن تُحكّم الرقابة وتترث.. من الحلول الممتازة أن تزعم أنك سافرت ثم تقبع هناك تراقب .. فتُش عن الأرقام في هاتفها الجوال .

قال في حزم :

- ليس لديها جوال .

- حسنٌ.. لا تقنعني أن زوجة ما زالت تعيش في عصر الكهف قادرة على خيانة زوجها .

كنت أعرف ما سيحدث في الأيام القادمة.. سوف يقنع نفسه أنه تعيش.. سوف يقنع نفسه أنه بحاجة إلى حضن دافئ.. سوف يبحث عن لمياء الحسناء.. هذه هي الذريعة النفسية التي ستروق له .

*

اختفى صفوت في الأيام التالية.. لم يعد يظهر كثيراً.. وعندما كان يظهر كان يتكلم عن لمياء الحسناء الرشيقه الفاتنة التي جاءت لتعيد إليه الثقة بنفسه .

- هل راقبت زوجتك أو على الأقل طلقتها أو قتلتها؟

- لم أناكد بعد .

- كنت متحمسًا .

عرفت منه حقائق غريبة: لمياء من أب وأم ليبين.. لمياء تزوجت مرة برغم صغر سنها ورُزقت بطفل ثم تُوفي فتركها زوجها.. إنها تقيم قرب شارع عبد العزيز علي.. تعيش وحدها وتمارس العمل الصحفي كما قلنا. بدا لي الأمر ممهدًا.. سيطلق صفوت زوجته ويفوز بلمياء. لن أحسده كثيرًا لأنني أحب عائشة كما قلت لك. عرفت مع الوقت أنه لا يعود للبيت تقريبًا.. يمضي أكثر وقته في مكتبه أو يخرج مع لمياء.. إنه غارق في الحب لأذنيه كما ترى .

مرت فترة لم أسمع فيها عن صفوت، ثم دخلت بيتي ذات يوم فوجدت الجوال يدق في إلحاح.. كان هذا صوت أحد رفاقي الصحفيين يقول في ارتباك :

- جثة جديدة ممزقة في المستنقعات.. لقد ضرب السفاح مرة جديدة .

وضعت الهاتف بين كتفي وجذور عنقي لتظل يداي حرتين أصب بهما بعض الماء البارد في كوب، ثم قلت :

- حالًا.. سوف أذهب هناك بالمواصلات.. سأبحث عن صفوت لأنه ...

قاطعني في حذر :

- هذه هي المشكلة.. الجثة هي جثة صفوت نفسه !!

سقط الهاتف على الأرض ...

وعلى الفور تداعى أمام عيني شريط من المعطيات: لمياء.. ليبيا.. طفل مات.. صفوت لم تعد له علاقة بأحد سوى لمياء.. هل يمكن استخلاص شيء من هذا؟

«لاميا» !!

*

كان هذا جنونًا بالتأكيد .

لماذا فكرت في هذا؟ وما تلك الفكرة الطفولية التي خطرت لي؟

لكن المشاهد راحت تتتابع في ذهني وأنا متجه لموقع الحادث .

الحقيقة أنني كنت أشعر بشيء من الافتتان نحو لمياء.. ليس افتتان العاشق، ولكن افتتان المسحور؛ ففيها تلك اللمسة التي تميّز الساحرات الشريرات القاسيات في القصص.. ثمّة شيء غير أرضي في وجهها. أنت تعرف أنني أحب عائشة بالطريقة العادية الصحية التي يحب بها أي رجل أي فتاة .

كانت لمياء دومًا في كل حادث من حوادث السفاح، وكانت تسبقني وعائشة دائمًا نحو مسرح الحادث والنشر.. وأشهد أنها لم تُصب بأي درجة من الذعر وهي ترى أكثر الجثث تمزقًا وأبشعها.. هي هادئة الجنان دائمًا، على درجة من البرود لا شك فيها.. بالمناسبة كانت لمياء تلبس العوينات السوداء كثيرًا جدًا.. لماذا؟

هل هذا كافٍ؟

هناك أسطورة قديمة لا أذكر تفاصيلها، لكنها تتحدث عن امرأة اسمها «لمياء».. ذكروني أن أستعيد الذكرى عندما أعود.. ذكروني .

*

بالفعل كانت لمياء هناك.. سبقتنا عند ضفاف المستنقع، وعند قدميها كانت الجثة الممزقة الملوثة بالأوحال، وقد أرقدوها فوق غطاء متسخ. لم تكن مهتمة على الإطلاق، بل بدت لي أقرب إلى نمر يقف في فخر متأملًا جثة فريسته. وكنت أرى وجهي المذعور في انعكاس عويناتها الشبيهة بالزجاج. عبقرى الذي اخترع قناع العينين هذا !

الضابط كان هناك وخبراء المعمل، وكانت هناك عشرات الصور .

نظرت إلى جثة صفوت.. كان أحمر، لكنه مات ببشاعة. تذكرت ضحكاته.. كلماته.. انفعالاته.. لم أر شيئًا من هذا على الوجه الممزق. كانت هويته معه وهكذا عرفوا مَنْ هو.. سيكون الخبر مثيرًا بالفعل.. إن وفاة صحفي حدث مثير دائمًا.. خبر مصرع صانع الأخبار نفسه .

كنت أبكي .

كنت أقسم على الانتقام .

لماذا أرمق لمياء بهذه الكراهية؟ لماذا أرد عليها بهذا الجفاء؟

قال الضابط وهو يجلس القرفصاء جوار الجثة، ويلهث من الضغط على حجاب الحاجز :

- هناك أجزاء تم التهامها.. كما أن العروق خالية من الدم كالعادة..
أعتقد أنني أعرف تقرير الطبيب الشرعي قبل كتابته .

قال زميله وهو ملازم شاب متوتر حديث العهد بهذه المشاهد :

- هل نتحدث عن مصاص دماء؟

- وأكل لحوم بشر كذلك !

ثم نهض وأشار إلى الأرض، وقال وهو ينظر إلى وجهي :

- الأمر كله يبدو قادمًا من جهنم! في كل مرة لا يرى أحد من صيادي
البط شيئًا.. في كل مرة يفرغ الدم من الجثة.. في كل مرة يتم التهام
أجزاء.. في كل مرة نرى آثارًا كهذه .

آثارًا كهذه؟

كان الوحل ما زال طريًا علي جانب المستنقع، لكنك تستطيع
بسهولة أن ترى آثارًا.. آثار أقدام ربما، لكنها مختلفة تشريحياً.. كأن
هناك من يمشي على قبضته مثلاً.. ربما هي تشبه الحدود
الخارجية لرسم القلب .

نظرت إليه في دهشة، فقال :

- هل هذه أقدام بشرية؟ هناك وحش في هذه المستنقعات !

حككت رأسي مفكرًا، وبدا لي الأمر مألوفًا نوعًا. هناك فيلم
سينمائي من أفلام الرعب العتيقة، كان السفاح يمشي فيه على
قبقاب خشبي حفر من أسفله ليرسم مخالف أسد أمريكي.. هكذا
كان الناس يتحدثون عن «جارجوار» بينما الفاعل إنسان .

- الأمر يحتاج إلى رأي شيخ !

قالها وراح يضحك حتى سعل.. كان في الثلاثين من عمره، ويبدو أنه
قد رأى الكثير فعلاً.. ثم أضاف :

- هناك شيوخ يجيدون طرد العفاريت في الزقازيق.. كان هناك أيضًا
طبيب يجيد هذه الأمور، اسمه «رفعت» لو لم تخني الذاكرة، كان من
أبناء الشرقية، لكنه مات للأسف .

كنت شارداً الذهن.. كنت أحمق في لمياء.. كنت أرتجف.. كنت أفكر في صديقي عامر.. عامر في الخمسين من عمره، وله رسالة دكتوراه عن فكرة الإلهة الأنثى لدى الديانات الوثنية.. لو لم يكن يعرف شيئاً عن هذه القصة فأنا لا أعرف من أين أبدأ .

ليس من عملي أن أجد القاتل، بل عليّ أن ألاحق أخباره فحسب، لكن وفاة صفوت ألقت عليّ كاهلي مهمة الانتقام. صفوت كان أحمق، لكنه صديقي، وبالتأكيد لم يستحق ما حدث له .

*

قالت عائشة وهي ترشف الليمون :

.. ما زلت لا أفهم !

عيناها الماكرتان الواسعتان في وجهها الصباني اللطيف لا أشبع منهما أبداً.. كنت أعرف أنها تخشى أن أبدأ في الغزل وهذا الكلام الفارغ. لسبب ما يعتقد الرجال أن عليهم أن يغازلوا أي أنثى لطيفة. كنت واقعاً في حبها، لكنني لم أكن أنوي أن أحيل حياتها جحيماً.. ليس الآن .

كان هذا نادي «أحمد عرابي» وقت العصر.. أحب هذا الجو كثيراً، لكنني لست في مزاج يسمح بالانتشاء. ومن بعيد ظهر عامر.. دكتور عامر إذا شئنا الدقة.. من الصعب أن تُصدّق أنه حاصل على الدكتوراه أو أنه في الخمسين.. مستحيل.. إنه شاب حديث السن فارغ القامة يصلح ممثلاً.. تذكرني ملامحه كثيراً بملامح «روبرت دي نيرو» لو كان هذا الأخير ذا قامة فارعة .

رآني فهش وجهه، وكان يحمل مجموعة من الأوراق.. جذب مقعداً فجلس معنا، ثم عرّفته على عائشة.. قلت له بصراحة إنها من جريدة منافسة، لكنني اعتبرها زميلة عزيزة .

قالت عائشة :

.. ما زلت لا أفهم سبب استبعاد لمياء من هذا اللقاء! أنا منافسة وهي منافسة !

لمياء.. هذا هو بيت القصيد .

المرأة الشريرة الخالدة.. الإلهة الأنثى التي قد تمنح الخصب مثل «إيزيس» و«عشتار»، أو تنشر الرعب والدم مثل «سخمت» و«ليليث»

و«لاميا» و«الأخوات أمبوسي»... عامر يملك إجابات .

أشعل عامر لفافة تبغ.. تفرزت عائشة كعادتها في كراهية السجائر.. لهذا أَدخن بعيدًا عنها كأنني طالب ثانوي.. لم ترني أَدخن قط .

قال عامر وهو يُقَلِّب في الأوراق :

- لا أفهم جُل قصتك، لكنني سأخبرك بما أعرفه عن «لاميا»: حسناء تعيش في ليبيا أو ربما الملكة نفسها.. كالعادة كان «زيوس» كبير الآلهة - حسب الأسطورة - مولعًا بالنساء الأرضيات.. كان يتسلل من وراء المدام ليمارس الخطيئة معهن، وكانت «هيرا» تعرف في كل مرة فتنتقم من الأرضية البائسة التي سحرت زوجها. هكذا انتقامت «هيرا» من «لاميا» فلعننها.. قتلت أطفالها وجعلت عينيها لا تنغلقان لتطاردها أشباح أطفالها للأبد.. حولتها إلى وحش مخيف شبيه بالأفعوان، وكتبت عليها أن تمتص دماء الأطفال وتأكلهم لتعذب الأمهات الأخريات .. الخدمة التي قدمها «زيوس» لعشيته السابقة هي أن جعلها قادرة على نزع عينيها لترتاح من الرؤى قليلًا .

هتفت عائشة في رعب :

- يا للشناعة !

قلت باسمًا :

- هناك قصص أشنع لنساء أرضيات اكتشفن خيانة أزواجهن.. إنهن يفترسن العشيقة افتراسًا، أما الزوج فيتخلى عن عشيقته بسهولة تامة.. ربما يفتك بها مع زوجته !

- لأن الرجال أنذال .

قلت في برود :

- ربما، لكن النساء أفاعٍ كما ترين .

كان رأي الاثنين قاطعًا: أنا أهذي وكل هذا تخريف.. لكنني كنت مُصرًا على أن لمياء تتواجد في كل حادث.. تسبقنا.. أصلها ليبي.. مات أطفالها.. لا نرى عينيها بسهولة. هل تكرر الأسطورة نفسها؟

- «لاميا» كانت تقتل الأطفال فقط .

- ربما توسع نشاطها .

قال عامر في إصرار :

- لا يمكن أن تذهب إلى الشرطة وتقول هذا الكلام الفارغ! ثم ماذا عن شكوك صديقك في زوجته وتلك الصور التي أخبرتني عنها؟ ألا تجد أن هذا مبرر كافٍ للقتل؟ زوجة قاتلة أو عشيق قاتل؟ لماذا لم تخبر الشرطة؟

قالت عائشة في دهشة :

- لماذا لم تخبرني بشيء؟ !

كنت أعبت في الهاتف الجوال لأريها الصور التي تثبت خيانة زوجة صفوت.. هنا.. هنا.. هذا غريب.. لا توجد صور! لقد زالت من الوجود !

*

يبدو أننا انتقلنا إلى لعبة «أنا رأيت هذا لكنه اختفى» الشهيرة، وهي الطريقة المثلى لقضاء باقي عمرك في مصحة عقلية. كنت أقلب ذاكرة الهاتف الجوال في جنون، حتى إنني أوشكت على أن أقرعه بالمنضدة لأفرغ ما فيه من صور كأنها نخاع بقرة.. بدأت أقسم في هستيريا إنني ...

- أنا أصدقك .

قالت عائشة في رفق، كأنها تهدئ حصانًا جامحًا، حتى توقعت أن تربت على منخري بينما أركل الغبار بحوافري، ثم قالت :

- الملفات تُفقد.. الذاكرة الرقمية ليست خالدة .

- لكن باقي الصور سليم !

حكيت لها ما تجهله من القصة بالتفصيل، ثم نهضت وألقيت بورقة مالية على المنضدة وهتفت بلهجة أمرة :

- سوف نذهب إلى بيت صفوت.. أريد أن أقابل أرملة .

- هل جُنت؟

- بالطبع جنت! أنت بطيئة التفكير اليوم.. ماذا بوسعني أن أفعله غير هذا لأبرهن على أنني مجنون؟ لا أحد كسرولة أضعها على رأسي .

عامر لديه سيارة «لادا» عتيقة جدًّا، أوصلنا بها إلى الشارع الذي

يقيم به صفوت، أو - للدقة - كان يقيم فيه.. توقفت السيارة، فترجلت أمام البناية الشامخة المزدهمة التي صارت آية في القبح من فرط كثرة عيادات الأطباء واللافتات والسلم المغطى بالبصاق وأعقاب التبغ.. هناك محل عصير قصب تحت البناية، وهناك تاجر أحذية.. تصلبت ونظرت إلى الجهة الأخرى من الشارع.. شركة سياحة.. مصلحة حكومية.. لا توجد مساكن .

عبرت الشارع بسرعة بينما عائشة وعامر ينظران إليّ في عدم فهم. جميل أن يعتبرك الناس مجنوناً لأن هذا يعفيك من تفسير تصرفاتك. هناك كشك سحائر ذهبت إليه وتبادلت الكلام مع البائع، ثم وجدت بائع صحف فوقفت معه ووجهت له بضعة أسئلة، ثم عبرت الشارع وسط السيارات واتجهت إلى محل عصير القصب، ومن جديد دارت محادثة قصيرة .

عندما عدت أعتقد أن بوسعي أن أخمن التعبير الذي ارتسم على وجهي وأنا أنحني على النافذة، ثم عبثت في علبة التبغ، وأشعلت سيجارة. شعرت بحاجة للتدخين مع أن عائشة لم ترني أدخن قط، فصرخت في ذهول :

- هل جُنت؟ !

نفثت الدخان، ورحت أتأمل وهج التبغ، ثم قلت :

- سئمت تكرار الاعتراف بأنني مجنون منذ صحت من النوم.. نعم أنا مجنون .

أصرت على أن أطفئ السيجارة وإلا فلن تستمع إليّ.. فعلت هذا مرغماً، ثم قلت :

- لا أحد على جانبي الطريق يعرف امرأة مسنة اسمها نجوى علام، تعتمد على عكار معدني ثلاثي وتسكن هنا. هذا منظر لا يمكن نسيانه. صفوت - يرحمه الله - كان أحرق، وقد قبل قصة العجوز بلا مناقشة، برغم أنه يعرف المنطقة جيداً، وهو أدري بأنه لا توجد بناية مواجهة لبيته تصلح لالتقاط الصور. هذه العجوز كانت تخدعه عمداً، وعلى الأرجح كانت الصور ملفقة. لقد كان حدسي صحيحاً.. أي شخص يكامل قواه العقلية لن يقيم علاقة مع زوجة صفوت إلا لو كان مولعاً بسحلية «التواتارا»!

- ولماذا تخدعه هذه العجوز التي وضعت قدماً وعكاراً في القبر؟

- لا أعرف. كانت لي حالة تهوى خراب البيوت على سبيل التسلية .

قال عامر وهو يسند ذقنه على مقود السيارة الذي لم يتركه :

- هل تريدان بعض عصير القصب؟

نظرت إليه وكدت أطلق الشتائم. توقف عن الدعوة البلهاء، وقال :

- ليكن.. دعك من هذا.. ما ارتباط مصرع صفوت بتلك العجوز في رأيك؟ قصة العجوز تدعم كلامي عن زوجة قاتلة أو عشيق قاتل .

- لا أدري .

ثم أضفت بعد تفكير :

- كانت حيلة بغرض دفعه إلى أحضان لمياء. مَنْ يدري؟ قد تكون العجوز هي لمياء نفسها! لو كنا نتكلم عن «لاميا» ملكة ليبيا المسحورة !

صفرت عائشة بشفتيها بينما نحن نبتعد بالسيارة. لقد عدلتُ عن مقابلة الأرملة.. لا جدوى من هذا .

*

الحادث التالي وقع بعد يومين .

في الصباح عرفت بقتيل آخر في بركة «إتيان».. وجده أحد الصيادين كالعادة.. كان من الممكن ألا أذهب وأكتب التقرير في مكثبي.. كل شيء سيتكرر حتى التمزيق ومص الدم وآثار الأقدام العجيبة وحتى رجال الشرطة.. هذا السيناريو مستمر إلى أن يشاء الله ...

لكن في هذه المرة طلب عامر أن يأتي معي لنرى مسرح الجريمة. في الموقع كانت عائشة.. لكن لا أثر للمياء! توقعت أن أجدها كالعادة.. قد نقول إنها لم تأت لأنها توقعت أنني أتوقع وجودها كالعادة! هل عرفت شيئاً عن شكوكي؟

قالت عائشة مبتسمة :

- لمياء لم تأت.. أنت ظلمتها .

- بالعكس. المتهم الذي يختفي عندما توجه له أصابع الاتهام يشير الشكوك أكثر.. ممكن أن تفعلها ولا تأتي للتحقيق الصحفي بعدها .

ابتعدنا عن المشهد الفظيع، ولاحظت أن عامر معجب بعائشة،

لدرجة أنه تأبط ذراعها وهما يتعدان. يستغل مزايا سنه المتقدمة وأنها في سن ابنته، وهو وسيم جداً وغير متزوج.. قد يشكل خطراً عليّ بالفعل.. لماذا لا يتركها لي؟ إنها لا تحمل صفات الأنوثة التي تجذب الرجال، بل هي أقرب لشاب وسيم، فلماذا هي بالذات؟ تذكرت المثل القديم: «الكحكة في إيد اليتيم عجة». كل الناس معجبة بها لأنني أحبها! لو وجدت لقمة ممضوعة متسخة ورفعتها لغمي فلسوف ينتزعونها مني ويجدونها شهية جداً!

كانت تضحك.. كأنها عائدة من المسرح .

هناك كان هؤلاء الصيادون يجلسون حول النار تحت شجرة يعدون بعض الشاي، وقد اتجه نحوهم عامر في مرج، وطلب أن يشرب بعض الشاي معهم. أنت تعرف الشراقة وكرمهم الفطيع، لذا رحبوا بنا بحرارة.. لكن عائشة قالت في ضيق إنها لن تجلس، وابتعدت بسرعة في نوع من الهستيريا التي لم أر مبرراً لها.. تركتها وجلست حوار عامر، وتناولت كوب الشاي زكي الرائحة الذي يغسل همومك وإرهاقك وكل شيء، وأشعلت لفافة تبغ وناولته أخرى، ثم قلت بلهجة ذات معنى :

- أنت وجدت صديقة !

قال ضاحكاً وقد فهم مرادي :

- دعك من هذا السخف .. إنها ابنة أستاذي في الجامعة.. عرفت هذا عندما تبادلنا الحوار معها.. كان أبوها دكتور ثروت الرفاعي مهتماً بالأساطير مثلي .. إنها قاهرة أصلاً قبل أن تقيم في فاقوس .

- هذه مصادفة عجيبة، لكن من السهل أن تقع في حب ابنة أستاذك .

- هي في سن ابنتي.. تذكر هذا .

ثم رشف بعض الشاي، وهنا قطعت محادثتنا أصوات القوم الصاخبة.. من كانوا مع الشرطة.. يحمل أحدهم شيئاً ملوثاً بالوحل ويتأمل في فضول :

- كان مدفوناً في الأوحال ...

دنوت لألقي نظرة، فرأيت ما في يده برغم الوحل والأعشاب المتمسكة به.. هذا عكار ثلاثي مما يستعمله المسنون للمشحي !

الكل يتساءل عن مصدر هذا العكاز، لكنني وعامر وعائشة تبادلنا نظرة فهم.. هذا العكاز مألوف جدًا. وابتعدنا عن الزحام والقوم الذين لا يفهمون شيئًا .

قال عامر :

- العجوز التي كانت تتوكأ على عكاز ثلاثي .

قلت بصوت مبحوح :

- يمكن بسهولة استنتاج ما حدث، العجوز التي زارت صفوت كانت لمياء، وكانت تدفعه للشك، ومن ثمّ الارتقاء في أحضانها. أعتقد أن «لاميا» كانت تملك القدرة على تغيير الشكل (shapeshifter).

كنا نفكر، وابتعدنا شاعرين بأن رؤوسنا تزن عدة أطنان .

ليلة سوداء تنتظرني، لكن عليّ قبل كل شيء أن أعرف أين ذهبت لمياء.. لا بد من مواجهتها بما نعرفه، وعليها أن تعطيني تفسيرًا واضحًا .

قال عامر لاهتًا :

- القصة مريبة غريبة، لكن تبقى حقيقة أنك لن تستطيع أن تقول للشرطة إن «لاميا» التي لعنها «زيوس» هي القاتلة .

- أتمنى أن أرى وجوههم وأنا أخبرهم بذلك .

- سوف تمرح كثيرًا إلى أن تصل سيارة مستشفى المجانين طبعًا .

لحقت بنا عائشة وهي تلهث من مكافحة الأوحال، ثم تأبطت ذراعي بحركة تلقائية رافت لي جدًا، ونظرت إليّ بعينيها الطفوليتين اللعوبين، وقالت :

- أنا ذاهبة إلى تل بسطة غدًا.. ذلك التحقيق اللعين! هل تأتي معي؟

قلت ضاحكًا :

- أنا منافس ونذل.. هل نسيت؟

- لكنك صديق.. لا أعرف من أذهب معه سواك، فليست مهمة فتاة وحيدة.. تعالْ نمض يومًا لطيفًا.. لكنك لن تسرق كتاباتي طبعًا .

- سأحاول. ظننتك تعملين في الحوادث فقط.

- أنا في نظر رئيس التحرير مسؤولة عن أي شيء في الشرقية..
قل له إن هذا ليس عملي، ولتر كيف يكون رد فعله الرقيق .

عندما عدت إلى بيتي أعددت لنفسني وجبة ساخنة، واستحممت،
ثم رحت أتصل بكل من يعرف لمياء. هاتفها لا يرد، ولا أثر لها.. أين
هي بالضبط؟

اتصلت بمكتب الجريدة الذي تعمل فيه، فجاء صوت فتاة ملول
ناعسة تقول :

- لمياء لم تعد هنا .

- هل تركت عنواناً؟

قالت الفتاة بعد تفكير :

- طلبت نقلها إلى مكتبنا في الإسكندرية.. تم هذا منذ أسبوع.. غريب
ألا تعرف هذا ما دمت تقول إنك صديق قديم !

- لم تودع أحداً أو تقل شيئاً .

أضافت الفتاة وهي تتأهب وعلى الأرجح تلعب في أصابع قدمها :

- كانت تتحدث عن الذهاب إلى ليبيا.. لديها أقارب هناك.. سلام .

ووضعت السماعة، بينما شعرت أنني دست على سلك كهربائي.
لم تكن لمياء موجودة بتاتاً مع جريمة القتل الأخيرة، كانت في
الإسكندرية، وعلى الأرجح هي هناك منذ مات صفوت، ربما لأن
صدمة وفاته كانت قاسية جداً، أو لأنها بدأت تميل له، أو - ببساطة -
هي قتلته وتغلت من شكوكنا.. لكن كيف اقترفت آخر جريمة؟ ربما لا
تحتاج «لاميا» إلى التواجد المادي الفيزيائي مثلنا.. ربما تخرق
المسافات ...

رأسي يوشك على الانفجار .

*

«بوباسطي».. معبد الإلهة «باستت».. (القطة بسبس بلغتنا).. هذا
معبد ضخم من معالم الزقازيق المهمة جداً، صار اليوم أنقاضاً
للأسف. الفراعنة كانوا ينظرون إلى القط في إجلال، ويرون فيه

مزيجًا من الغموض والرغبة والسحر .

تل بسطة.. عاصمة مصر في الأسرة 22 عهد الملك «شيشنق الأول».. عندما كان الناس يأتون بالقارب عبر فرع النيل لينشدوا ويقدموا القرابين ويحتفلوا ويشربوا كميات هائلة من النبيذ كما قال المؤرخون الإغريق. الخليط المبهر من آثار الفراعنة وآثار الهكسوس.. آثار الدولة القديمة وآثار الدولة الوسطى.. ثم تدمير الفرس الكامل لهذا كله. كانت تل بسطة كذلك بوابة الشرق للقادمين من سيناء، لذا شرفت بعبور الأسرة المقدسة: العذراء مريم ووليدها المسيح .

وعلى الجانب الغربي من التل هناك الأقبية التي دفنت فيها مومياوات القطط .

كعادة مصر، يمكن لدولة أخرى أن تقيم اقتصادًا كاملاً على السياحة التي يجلبها مكان كهذا.. وكالعادة ليس المكان مستغلًا على الإطلاق، وقد هدم الأهالي ما أبقاه الفرس والزمن .

وسط الأحجار العملاقة الساقطة على الأرض، ووجوه التماثيل الفرعونية الباقية، وبقايا حضارة مذهلة لم يبقَ منها الكثير، تسمع من بعيد صوت الريح كأنها صلاة الكهنة لـ «أمون».. لا بل «باست» .

الغروب يقترب.. يوم حافل من التصوير وجمع الأخبار قامت به عائشة. هل من حفريات جديدة؟ هل يمكن ترميم شيء؟ إلخ. كنت أرافقها لكنني في الحقيقة كنت أتأملها .

عندما صار المكان مقفرًا، ونور الشمس يكتسي بأرجوانية تشي بالاحتضار، بدت لي رقيقة هشة جدًا.. لقد انهار السور الذي وضعته لنفسى، ولم أعد أتحمل أكثر. كانت تخشى أن أغارلها، وكنت أخشى ذلك، لكن كان هناك واحد آخر هو الذي يتكلم ويتصرف في هذه اللحظة .

أمسكت بيدها بشيء من القوة، وشددتها نحوي، فرفعت نحوي عينيها الواسعتين الطفوليتين، وأدركت على الفور أنني مسحور. أطرفت بوجهها وهمست وأهدابها تغطي خديها :

.. جلال.. أرجوك.. أنا مثلك ضعيفة جدًا.. يجب أن ...

نغمة الهاتف الجوال المزعجة .

.. هلم رد !

هي أدركت أنني سأتجاهل المكالمة، فحمستني. مددت يدي إلى جيبتي وأنا ألث انفعالا، وألعت المتصل في سري، فسمعت صوت عامر يتكلم .

ابتعدت بضع خطوات، بينما جلست عائشة على حجر ضخم، وراحت تتظاهر بأنها تدون ملاحظاتها.. كانت مشتتة عاطفيا، وكنت كذلك .

قال عامر :

- جلال.. كنت أراجع بعض الأوراق، فتذكرت ما حدث لأستاذي العظيم ثروت الرفاعي «أبو عائشة».. كان مهتما أصلا بطقوس عبادة الأنثى في الأدب القديم، وما بقي منه في الموروث الثقافي.. ذهب منذ عشرين عاما تقريبا إلى المغرب، ودرس أسطورة معينة، وفجأة حرق كل أبحاثه وترك البلاد كلها بلا إنذار وعاد إلى مصر.. هناك تزوج وأنجب ابنته. الأسطورة التي كان يدرسها هي أسطورة «عيشة قنديشة».

- «قنديشة؟».

- أي الكونتيسة عائشة.. هذه أسطورة تعود إلى عصر الدولة الأندلسية، ويُقال إنها قاتلت البرتغاليين، وقد أطلقوا عليها اسم «الكونتيسة عيشة».

قلت ضاحكا :

- إذن أستاذك قرر تسمية ابنته بنفس الاسم تيمنا .

عاد يقول في إصرار :

- حسب الأسطورة.. عيشة شيطانة تعيش في المستنقعات، أحيانا تنسج الأكاذيب لتوقع الرجال مع زوجاتهم.. هنا تتقمص دور سيدة عجوز، ثم تتحول إلى فتاة جميلة ولكنها ذات قدمين تشبهان خف الجمل.. تفتن الشباب وتستدرجهم إلى أماكن نائية ثم تلتهمهم وتمص دماءهم.. هناك علامة أخرى تميز «عيشة قنديشة»، هي خوفها الشديد من النار ...

كان يتكلم، وكان الظلام يدنو، بينما جلست عائشة تدون في دفترها.. رقيقة هشة.. لكن قدميها كبيرتان حقا ومدسوستان للأبد في حذاء مطاطي.. مشاهد عدة تنداعى في ذهني :

«أشعل صفوت - لأنه أحمق - لفافة تبغ، فصاحت عائشة في ضيق :

- كَفَ عن هذا! لا أطيق رائحة التبغ!«.

«كان يصغي وهو يفتح القداحة ويغلقها في شرود.. يراقب اللهب الوليد ثم يدفنه .. حالته النفسية تتجسد في هذه الشعلة.. سمع المرأة تشهق وتقول :

- أطفئ هذه وكلمني!«.

«أشعل عامر لغافة تبغ.. تغرزت عائشة كعادتها في كراهية السجائر».

«لكن عائشة قالت في ضيق إنها لن تجلس، وابتعدت بسرعة في نوع من الهستيريا التي لم أرَ مبررًا لها».

الحقيقة أن عائشة لا تكره رائحة التبغ، بل من الواضح أنها تكره النار.. الآن أفطن لهذا .

عامر يواصل الكلام، بينما الظلام يزحف فوق الحفریات :

- أعتقد أن لمياء لا علاقة لها بهذه القصة.. لقد ظلمناها اعتمادًا على مصادفة.. الحقيقة أن الشخص الذي شهد كل هذا كان عائشة. بشيء من الخيال يمكن أن نتصور أن لعنة «عيشة قنديشة» طاردت الأستاذ المذعور ففر من المغرب.. لقد عرف أكثر مما يجب.. جاء إلى مصر فوجد نفسه مرغماً على أن يُسمي ابنته «عائشة»، وكان على ابنته أن تحمل اللعنة، فتكرر نفس قصة «عيشة قنديشة».. تمارس نفس حياتها.. تخدع الأزواج، وتغرر بالشباب وتمزقهم.. وواضح أنها استدرجت صفوت البائس إلى المستنقعات. هل تريد رأيي؟ أرى أن تراقبها جيداً .

أغلقت الهاتف، وابتلعت ريقِي، ثم رفعت عيني نحو عائشة .

لم تكن هناك جالسة فوق الصخرة.. ماذا؟ أين ذه- ...

فجأة شعرت بها من خلفي.. متى وكيف جاءت؟ وجهها في الظلام أتبينه بصعوبة، وسمعتها تقول بصوت لا يمت لعائشة الرقيقة بصلة :

- سمعتك تقول «قنديشة» بصوت عالٍ.. وكان من السهل أن أسمع باقي المكالمة.. إن صديقك عامر يجيد عمله.. يجيد عمله فعلاً !

*

«بواسطي».. معبد الإلهة «باستت».. الليل الوليد.. الجو يزداد بردًا..
لو لم تمطر الليلة لكان هذا غريبًا .

من خلفي تتضح الحقائق، وإن كنت لا أراها جيدًا، وأدرك أن الحسناء
التي شعرتُ بنشوة لأنني معها وحدنا في الظلام، ليست حسناء،
ليست أنثى أصلًا !!

- أنت فهمت القصة كلها.. عرفت ما حلَّ بأبي العظيم .

خُيل لي بالفعل أن هناك شيئًا يحدث في كتلة الظلام الواقعة على
بُعد مترين.. إنها تستطيل، ثم تنحني لتفك الحذاء الغليظ المطاطي
في قدمها وهي تتكلم :

- أحببت أبي كثيرًا برغم أنه كتب عليّ الوبال، ومنذ جئت إلى العالم
كنت أدرك الدور الذي سألعبه عندما أكبر ...

بدأت تمشي نحوي، فدخلت قدماها دائرة الضوء. هنا رأيت السبب
في الحذاء غريب الشكل الذي تلبسه دائمًا.. هاتان ليستا قدمين، بل
هما... بل هما ...

- نعم. هذان خفا حمل.. قلها! أنت رأيت هذه الآثار العجيبة في وحل
المستنقعات.. لقد كنت أخذهم تحت وهم وإغراء الحب إلى
المستنقعات ليلاً، ثم أقوم بما يجب أن أقوم به؟ أنت لم تر شيئًا ما
دمت لم ترني أتحول إلى «عيشة قنديشة» الحقيقية ببطء.. هذا
مؤسف !

كنت أدرك الآن أن عينيها جمرتان حمراوان.. لهذا لا أرى باقي وجهها..
الظلام والظلال وتأثير العينين الرهيب.. الخرائب.. الصمت ...

أنا قصة أخرى .

سوف يندهش رجال الشرطة من العثور على جثتي هنا بلا مستنقع
. وكيف تنوين تفسير مصرعي، خاصة أن عامر يعرف أنك هنا معي؟
من يدري؟ على الأرجح سوف تطفرين بعامر كذلك.. هو شاهد خطر
.

قالت بصوت غريب :

- «ترمينار ميو أميجو !!».

- ماذا؟ !

- «فوسي سابي تانتو !!».

- ماذا تقولين؟ !

ضحكتُ في الظلام ضحكة مخيفة، وقالت :

- لا تنسَ أنني كنت أحارب البرتغاليين، لهذا جعلوا مني أسطورة مخيفة، ولهذا أجيد لغتهم.. كنت أقول لك إنك انتهيت يا صديقي، فأنت تعرف أكثر مما يجب .

- عائشة! أنا أحببتك !

- وأنا كذلك! لهذا أريد أن أشعر بك في أحشائي !

كنت أفكر بسرعة، ثم تحسستُ جيبي فوجدت القداحة.. فلنرَ إن كانت الأسطورة بهذه الدقة حقًا .. شليك ! أضاءت الشعلة، وعندها رأيت وجهها الجديد للمرة الأولى.. رباه.. لن أصف شيئًا.. يمكنك أن تتخيل.. فقط لو أن الشيطان تجسد فلن يجد وجهًا أكثر تأثيرًا .

شهقتُ كالحية.. كل مصاصات الدماء و«ليليث» و«لاميا» وسواهن يشهقن كالحيات عندما يغضبن.. تراجعت للخلف في رعب .

هنا أطلقت ساقِيَّ للريح.. رحت أثب فوق الصخور وبقايا التماثيل.. محاولة جاهدة في الظلام .

كنت أصرخ لاهتًا بالطريقة اللاهثة المتقطعة التي يصرخ بها شخص مذعور يركض .

وقعت في وهدة، فنهضت ثانية .

أنا أحمق وأبدو مثيرًا للشفقة .

لا جدوى من الفرار.. يجب أن أتوقف وأواجه.. لكن كيف تواجه «عيشة قنديشة»؟ أسطورة قادمة من عصر الدولة الأندلسية، وعبرت القرون والمسافات.. الأب الذي اقترب من الحقيقة أكثر من اللازم ففر وعاد إلى مصر، لكن اللعنة عرفت كيف تجده .

كان هناك منحدر، ومن بعيد أرى كوخين من القش.. يبدو أن بعض العمال يلتفون حول النار ويعدون عشاءهم أو الشاي.. لو استطعت الوصول إليهم فهذا معناه الأمان، لكن المسافة طويلة جدًا والظلام دامس.. لن أستطيع قطع المسافة بهذه السرعة.. سوف أقع وتجتثم فوقِي قبل أن ...

- «فوسي سابي تانتو !!».

هذه الأغصان الجافة.. ورقة جريدة ممزقة.. أعشاب ...

أشعلت القداحة، ثم أشعلت منها ورقة الجريدة، ألقيت بها على الأرض، ثم رحت أشعل الأوراق الجافة والأغصان.. في النهاية صنعت دائرة من النار، ووقفت في مركزها، ورحت ألهث لألتقط أنفاسي .

كانت قد وصلت ...

توقفت بالفعل عند محيط دائرة النار، وراحت تلهث .

«كنت أحمل ميلاً خاصاً نحو عائشة... هناك جاذبية خاصة للفتيات الخاليات من الأنوثة.. يمكنك في لحظة بعينها أن تتصور أنها شاب وسيم، خاصة مع شعرها القصير وثيابها العملية .. هي كذلك شخصية جادة، وأنا أمقت الدلال الأنثوي لأنه يختلط بالميوعة كثيراً».

رباه! لقد تبدلت كثيراً جداً! مستحيل أن تربط بينها وبين عائشة القديمة .

كانت تدور حول اللهب وعيناها تتقدان.. كانت تلحق شفتيها المتقرحتين.. كانت تنقل خفي الجمل فوق الغبار ...

كانت تقول :

- صفوت صديقك كان أحرق.. عندما زرته كامرأة عجوز لم يعرف أن هذه من عادات «عيشة».. شعر بأنه مظلوم.. حاول أن يرتمي في أحضان لمياء، فلما فشل فكر في خوض مغامرة معي برغم أنه يعرف أنك متعلق بي.. كان أحرق وغير مخلص .

هنا نظرت عائشة إلى أعلى .

أنا كذلك نظرت إلى أعلى .

لا أصدق سوء حظ كهذا .

لقد بدأ المطر ينهمر !

وبعين مذعورة رأيت دائرة النار تتوهج في محاولة أخيرة للبقاء، ثم انهمر المطر الغزير، ورأيت «عيشة» ترفع رأسها المبلل إلى السماء

وتضحك في جنون، بينما المطر يبلل شعرها .

انطفأت دائرة النار، وصرت هشاً كطفل ...

وثبت إلى المنحدر وتدحرجت.. نهضت ورحت أركض نحو الأكواخ ...

كان المطر غزيراً والرؤية صعبة، لكنني رأيتها من خلفي. شققت
طريقي بصعوبة.. فجأة صرت على مقربة من الأكواخ، وفجأة مادت
الأرض تحت قدمي.. هذه حفريات كما هو واضح.. المكان يعج بها .

صرخت صرخة هائلة، ورأيت عائشة تسقط معي في ذات الحفرة
السطحية.. المطر يهطل علينا، ولحظات النهاية تقترب .

لكنها كانت تتلوى.. بدا لي أنها عاجزة عن النهوض.. كانت تحاول
الزحف ثم تسقط من جديد.. هذا غريب !

كان لديّ من الوقت ما يسمح بأن أنهض ثم أخرج من الحفرة وأركض
مدعوراً .

الرجال الملتفون حول النار وقد صنعوا ما يوشك أن يكون سقفاً
يحتمون تحته.. رأوني فلم يفهموا شيئاً.. كدت أسقط في اللهب .

كنت أصرخ في رعب :

- الغولة! عيشة! النجدة !

اندفعوا حاملين الشوم والغؤوس إلى حيث الحفرة، وكانت نظرة
واحدة كافية ليرى الشيطان الذي يتلوى في قاع الحفرة .. بسملة..
حوقلة ...

- الله أكبر !

- لا إله إلا الله !

وقال أحدهم :

- سرداب القطط !

هتفت وهي تحاول النهوض :

- «جلال.. أيو تي آمي !!».

لم أفهم هذه الجملة.. فقط رأيت الرجال يهبطون إلى الحفرة
وينهالون عليها بالغؤوس والحجارة والبصقات.. كانت تتلوى.. ثم بدأت
تطلق عواءً طويلًا كالذئب.. وفي النهاية ارتجفت وهمدت.. لم يبقَ
منها الكثير على كل حال.. ووقفنا نلهث تحت المطر ...

ما سبب هذا الوهن؟

لن أعرف أبدًا.. لكن للأمر بالتأكيد علاقة بهذا المكان.. موميאות
القطط المدفونة في سراديب، هل كانت قادرة على إضعاف قواها؟
هل اصطدم سحر «باستت» بسحر «عيشة قنديشة» فانتصرت
«باستت»؟

ماذا كانت تحاول قوله لي في لحظاتها الأخيرة؟

جرس الهاتف يدق.. منذ متى؟

مددت يدي إلى جيبي وأنا أحاول التماسك بصعوبة حتى لا يقع من
يدي الراحفة.. جاء صوت عامر :

- جلال.. أين كنت؟

قلت في غموض :

- كنت هنا .

عاد يقول :

- استعدتُ ما قلته لك عن «عيشة قنديشة».. يصعب أن أطلب منك
تصديق هذا الهراء.. كنت أفكر بصوت عالٍ فقط.. كل هذه خرافات..
أرجو أن تنسى ما قلته لك ولا تظلم هذه الفتاة الرقيقة.. جلال.. لماذا
لا ترد؟ !

الأخرى

«كانت ناهد تتكلم بثقة، ووضعت ساقاً على ساق، وقالت :

- إذن فهذه البلهاء سلوى تأتي لك لتشتمني وتبدد نقودها عندك؟
أراهن أن هذا السيجار الثمين على مكتبك ابتعته بمال أختي !

أدرك دكتور صابر أنها ستكون لحظات عسيرة.. واضح أنها متسلطة
فعلاً.. المرأة النمر .

قال لها في صبر :

- أختك تعاني من أن شخصيتك تلتهم شخصيتها.. وعليّ أن أطلب
جلسة مشتركة بينكما لأقنعه أنك لا تريدن إيذاءها .

قالت في غيظ :

- فلأرد إيذاءها أو لا.. ما دخلك أنت؟ هذه أمور أسرية تمامًا .».

تغمض سلوى عينيها مفكرة، وتأخذ شهيقاً عميقاً.. ثمة شيء غير
أصيل في هذه الإيماءة. تغمض عينيها وتشهق لتتظاهر أنها من
النساء اللاتي يغمضن عيونهن ويشهقن. تفاعل هستيري واضح .

هناك في الضوء الخافت الذي يغمر العيادة، وجو الخدر العام.. الجو
الذي يغريك بأن تغمض عينيك، وتتعترف بأنك اغتصبت «كليوباترا» أو
قتلت «كنيدي» لو طلبوا منك ذلك.. هناك في هذا الجو المدوّخ ترقد
سلوى على الفراش تلعب دور المريض النفسي .

في الظلام خارج دائرة الضوء يجلس دكتور صابر محاولاً لعب دور
«فرويد».. يدون بعض النقاط، ويترك لتداعي الأفكار الحر أن يخبره
بشيء عن مشاكل هذه الفتاة. جميلة لا شك في هذا - خطر له -
لكنها لا تجيد العناية بشعرها فاحم السواد، كما أن ثيابها غير
مهندمة، وحالتها النفسية تنعكس إرهاباً واضحاً على ملامحها.. تلك
الانتفاخات والعوينات السمكية التي أصرت على عدم خلعها لأنها لا
تشعر بالثقة عندما تكون شبه عمياء في هذه الإضاءة الخافتة..
هناك سن مكسورة تعطيها نوعاً من الجاذبية الساحرة على طريقة
«ناعومي واتس». هو لا يعرف «ناعومي واتس»، لكننا نعرفها، فلا
بأس بأن نتبادل معلومة كهذه .

قالت له :

- كل شيء كان رائعًا حتى عامين مضيا عندما تُوفِّي أبي.. صرت أعيش وحدي مع ناهد، في بيتنا المنعزل على أطراف البلدة.. ناهد تشبهني جدًا لكنها تختلف عني نفسيًا .

قال في برود :

- بمعنى؟

ابتلعت ريقها، وقالت :

- شخصية قوية هي.. تعرف ما تريد وتحصل عليه.. لهذا استطاعت أن تكون صاحبة الكلمة الأولى في البيت.. نحن لا نأكل إلا ما تختاره هي.. نشاهد برامج التلفزيون التي تختارها هي.. نربي القط الذي اشترته هي.. أثاث البيت هو ما اختارته هي ...

- وهل هذا الدور لم يكن واضحًا من قبل؟

- لا. لقد تضخم وجودها وكاد يزهد أنفاسي.. الأمر يشبه التوائم السيامية عندما ينمو توءم علي حساب أخيه.. يتحول الأخ إلى ورم أو أنسجة.. هكذا أنا.. صرت ظلًا لها، وأحيانًا أشعر أنه لا وزن لي .

فكر الطبيب حينًا، ثم قال لها :

- سوف يفيدني أن أقابل ناهد هذه.. ربما أجلس معكما معًا .

اتسعت عيناها في رعب، وقالت :

- لا. لا يمكن أن أتكلم أمامها، لكنني سأترك لها ورقة فيها عنوانك، وربما تقرر أن تزورك .

ونفضت وهي ترتجف.. أصلحت من شأن ثوبها ونظرت في ساعتها، ثم قالت :

- حان وقت العودة للدار.. يجب أن أعد لها طعام الغداء .

- هل تعملين؟ وهل تعمل هي؟

- أنا سكرتيرة.. هي رسامة.. طبعًا يمكنك فهم أنني من ينفق على الدار، لأنه ما من رسام يستطيع أن يظل حيًا غير جائع في مصر .

تركها الطبيب تنصرف، ثم راح يدون خواطره بصدد هذه الحالة.. كانت مألوفة أكثر من اللازم .

*

عصر اليوم التالي أخبرته الممرضة أن من تُدعى ناهد تنتظره بالخارج.. فتح اللاب توب وسمح لها بالدخول وراح يتأملها.. يحتاج إلى بعض الوقت كي يقابل امرأة تُدعى «ناهد» ولا تملك تلك الجاذبية الأنثوية. هي بالفعل تشبه أختها، لكن شعرها أحمر.. لها عينا خضراوان شريستان.. لا عوينات.. ثيابها أقل من محتشمة حتى إنه فكر أن يطلب الممرضة لتكون معه أثناء المقابلة.. أنثى خطيرة.. ثم هذه السن المكسورة.. يبدو أنها وراثية في الأسرة .

كانت ناهد تتكلم بثقة، ووضعت ساقاً على ساق، وقالت :

- إذن فهذه البلهاء سلوى تأتي لك لتشتمني وتبدد نقودها عندك؟ أراهن أن هذا السيجار الثمين على مكتبك ابتعته بمال أختي !

أدرك دكتور صابر أنها ستكون لحظات عسيرة.. واضح أنها متسلطة فعلاً.. المرأة النمر .

قال لها في صبر :

- أختك تعاني من أن شخصيتك تلتهم شخصيتها.. وعليّ أن أطلب جلسة مشتركة بينكما لأقنعها أنك لا تريدين إيذاءها .

قالت في غيظ :

- فلأرد إيذاءها أو لا.. ما دخلك أنت؟ هذه أمور أسرية تماماً .

- كنت أحسبها كذلك إلي أن طلبت رأيي.. لقد أقحمتني أختك في هذه القصة، وعليّ أن أقوم بدوري .

نظرت إليه، واتسعت عيناها المتوحشتان، وقالت :

- جئت لأقول لك إن القصة انتهت.. هي شخصية مريضة كانت تعتمد تماماً على أبي.. مات أبي.. صارت وحيدة كريشة في عاصفة.. أنا أقود سفينة هذه الأسرة ولسوف أفعل هذا سواء بك أو بدونك !

ثم مدت يدها في حقيبتها وأخرجت مائتي جنيه وألقته على المكتب :

- هذه أتعابك.. والآن أرجو أن تطردها عندما تظهر ثانية .

وقبل أن يرد كانت قد غادرت المكان .

*

عندما جاءت سلوى في اليوم التالي، كان يتمنى الخلاص منها فعلاً، لكنه لم يجسر على ذلك. قالت له :

- هي فتاة شرسة.. أعرف أنها أهانتك وأذتك.. يمكنك تخيل ما أمر به

...

ثم ارتجفت من جديد، وقالت :

- سأعترف لك بشيء مخيف.. كل ما أقوله هنا سيظل سرًا.. أليس كذلك؟ في البدء بدأ القط يتوتر ويعوي.. يطلب الزواج.. كانت تحبه لأنه قطها، لكنه أثار أعصابها، وفي يوم خدرته و... واستأصلت رجولته !

اقشعر الطبيب وهو يسمع هذا.. فاستعاد ما قالته وتساءل إن كان ما سمعه صحيحًا :

- ناهد استأصلت خصية القط ولم تأخذه لطبيب بيطري؟

- بالتأكيد. ألم أقل لك إن ناهد شريرة؟ المسكين ظل حيًا بمعجزة ما .

بالمناسبة، ما هذه الخدوش في يديها؟ ما السبب؟ نظرت إلى بعيد وغمغمت :

- ثم كان هناك سمير صديقي في العمل.. شاب مهذب رقيق.. أراد أن يطلب يدي.. طلبت منه أن يأتي إلى بيتنا ليقابلها لأنها تعتبر أنها أُمِّي ومسؤولة عني.. لم أعرف أنها دعتة للبيت، ولم أعرف أنها قابلته وحدها بينما كنت أنا أزور قريبة لنا في الإسكندرية .

- هذا غريب! لن تقولي إنها قامت بإجراء نفس الجراحة له !

ضحكت في مرارة، وقالت :

- لا أعرف.. لا أحد يعرف.. لم يظهر بعدها، ولم يعرف أحد أين هو، وقيل إنه ترك العمل بلا إذن. ماذا حدث في تلك الساعات التي أمضاها في دارنا؟ إن لدينا قبواً ممتازاً، وحول البيت مساحة أرض لا بأس بها، هل يمكن أن يكون هناك؟ لن نعرف أبدًا !

وراحت تتنفس في عصبية، ثم غطت وجهها وتهافتت.. بصعوبة استطاع أن يخفف من روعها وأن يقنعها بالعودة إلى البيت.. قال لها إنه سيمر على الدار ليلاً ليقابلها هي وأختها وينهي الأمر .

قالت في حدة :

- لن تقابل أختي معي أبدًا! إما أنا وإما هي !

- سوف أقابلكما معًا !

عندما انصرفت سلوى أخيرًا اتجه إلى اللاب توب الذي وضعه في مكان استراتيجي يسلط عدسته على من يجلس على الأريكة بالضبط . هنا صورة لسلوى عندما كانت عنده منذ دقائق.. وهنا صورة لناهد عندما جاءت أمس.. يضع النافذتين متجاورتين.. الشبه يكاد أن يكون واحدًا.. واحدة شعرها أسود وواحدة شعرها أحمر، لكن منذ متى لا تضع النساء شعرًا مستعارًا؟ العوينات تُغير الشكل بالتأكيد.. ناهد ذات عيني خضراوين.. لم يعد للأنثى لون عيني ثابت منذ ظهرت العدسات اللاصقة! الأسنان المكسورة واحدة تقريبًا.. تغيير الثياب يحدث المعجزات.. الخدوش في اليد وما حدث للقط...

في المساء ذهب إلى العنوان.. مكان مهجور فعلاً.. قرع الباب مرارًا فإذا به يفتح وتظهر سلوى.. لما رآته امتقع وجهها ولطمت وطلبت منه عدم الدخول، لكنه أراحها ودخل.. ثمة قط حزين ينظر إليه في ريبة .

قال لها :

- أين ناهد؟

- هي ليست... ليست هنا !

قال في ظفر :

- ولن تتواجد معك أبدًا في مكان واحد لأنكما نفس الشخص.. القصة مكررة ومملة أكثر من اللازم.. هناك جزء من شخصيتك يعاني الكبت والتهميش، ثم قرر أن يتحرر ليصير فتاة مسيطرة شريرة.. على الأرجح تمارس أعمالًا لا تعرفين عنها شيئًا.. الغصام.. الشخصية المزدوجة من أعراض الهستيريا، لكنها ليست معبرة عن «السكيزوفرنيا» كما يعتقد الناس، وأنت هستيرية.. أعتقد أن لديك في غرفتك ثيابًا خليعة وعدسات ملتصقة خضراء.. ولا شك في أنك من أجريت جراحة القط المؤلمة ولربما جراحة الشاب الذي أعجب

بك .

ثم أردف :

- العلاج النفسي سوف يجدي.. لكن عليك الاعتراف أولاً بـ...

لم يكمل العبارة لأن المزهريّة هبطت على رأسه لتتهشم ويسقط
هو على الأرض .

صرخت سلوى في دعر :

- أنت قتلتها أيتها العاهرة !

قالت ناهد وهي تركل الجسد الساخن :

- ما زال حيّاً.. وما زال صالحاً لجراحة كالتي أجريتها لسمير وكل من
يأتي من طرفك.. إنه غبي كالعادة.. رأى الكثير من الأفلام السخيفة،
وقرأ روايات تافهة، وامتلأ رأسه بالهراء عن الفتاة التي تتحول إلى
شخصية أخرى ليلاً.. هذه هي مشكلة التفكير النمطي.. لم يخطر له
أننا شقيقتان فعلاً !

ثم تحسست أسنانها بلسانها، وقالت :

- ذلك الغبي سمير لم يفقد الوعي بسهولة يومها.. كسر لي سنّاً
فجعلني قبيحة مثلك تماماً، لكنه الآن ينام في سلام في القبو، وقد
حان الوقت كي يطفر بصدیق !

عشر علامات

«هذا ليس بشيء.. لست من الطراز المتشكك الذي يتظاهر بالذكاء، ويتشمم حجارة الطرقات.. لكن اجتماع خمس علامات غريبة أمر يثير الريبة. في معظم الأمراض الطبية تكون هناك علامات كبرى وعلامات صغيرة.. ثلاث علامات كبرى مع علامة واحدة صغيرة تكفي للتشخيص مثلاً. هنا خمس علامات كلها كبرى على ما أظن.. لكن هذا لا يعني أن جيرانك موتى أحياء.. تحتاج إلى أدلة أقوى.»

لا أحد في الخارج .

الحديقة خالية، فقط هناك ذلك الكشاف الواهن الذي يلقي نورًا باردًا على الكلاً.. صوت صراصير الحقل وضفدع ذكر يغازل أنثاه الغائنة في مكان ما.. السيمفونية المحتومة لليل الربيع.. هالة غامضة حول الأضواء كلها كتلك الهالة التي يصفها أطباء العيون ويراهها مرضى «الجلوكوما» قبل أي أعراض. ألقى نظرة عبر ستار النافذة. أنا مطمئن لأن رأفت بالخارج.. سوف يطلق صياح البومة لو سمع أو رأى شيئاً مريباً. لماذا صياح البومة؟ لأنهم يفعلون هذا في كل القصص. رأفت لم يسمع بومة من قبل، والحقيقة هي أنني لم أسمع أيضاً.. المهم أنه سيحدث ضوضاء غريبة لو رأى أحدهم قادمًا .

الشعور الرهيب بأنك في بيت غير بيتك، وأنت غير آمن .

المشكلة هي أن القبض عليّ واستدعاء الشرطة، بعد تلقي العلقه إياها.. هذا السيناريو هو الأفضل والأكثر رفقا بي، لكن أستبعد أن يحدث معي.. أعتقد أن أقرب السيناريوهات للواقع هو ألا أرجع لرأفت. يظل طيلة الليل يتساءل ثم يعود إلى داره مع الصباح.. وبعد هذا لن يسمع عني أبدا .

تنهدت ورحت أفكر في المخاطرة التي أقوم بها .

الفكرة هي أنني كالفنان، إذا تسلطت عليه فكرة لوحة أو قصيدة أو فيلم، فهو لا يبالي بأي معاناة أو تكاليف أو مخاطرة كي يخرجها للنور.. هناك دجاجة بيضاء في عقلي لا تكف عن الصياح كي تضع بيضتها، وإلى أن يأتي هذا الوقت فلن أستطيع النوم .

اسمي هو.. لا داعي لذكر اسمي الآن.. لن يستفيد منه أحد، كما أنني قد أحكي هذه التجربة في كتابي القادم، لذا لا أريد أن أقدم دليلاً يجعل تعرفي سهلاً .

أعمل محررًا في جريدة متوسطة التوزيع، وأحلم بأن أنشر كتابي الأول الذي سيدوي صداه في كل مكان، لم أكن أعرف موضوعه أو حجمه في البداية، ثم بدأت أحدد هدفي.. هذه المواضيع مثيرة وتروق للجميع، حتى من يسخرون منها لا يقدرّون على ألا يتابعوا أخبارها .

موضوع كتابي استلهمته من أسرة سمير ناجي غريبة الأطوار، وهي الأسرة التي أتشرف بتفتيش بيتها الآن على ضوء كشف في هذا الظلام الدامس .

هذا الموضوع هو «عشر علامات تدلّ على أن جيرانك موتى أحياء».

هذه دراسة غريبة.. أنت لم تتوقع عنوانًا كهذا قطعًا، لكنني أعرف ما أقول جيدًا، وقد كوّنت قرائن واضحة على كلامي، ولسوف أشرح لك حالًا .

العلامة الأولى: «يأتون من لا مكان»

خذ عندك هذه الأسرة مثلاً.. سنوات من الحياة في ذلك الحي، وذلك البيت الواقع أمام بيتي حال تمامًا.. يمكنني أن أرى من نافذة غرفتي في الطابق الرابع فناءهم، والبيت الصغير الذي يتكون من طابقين.. مكان مثالي للتلصص ومعرفة كل شيء، لهذا يطلق الناس على هذا النوع من البيوت: «بيوت مجروحة».

لم يكن فيلًا بالضبط، بل هي بناية لها حديقة صغيرة حولها.. هناك أرجوحة أطفال متداعية دمرتها عوامل التعرية، وسيارة عتيقة صدئة حال لونها ولم يبقَ فيها إطار أو قطعة زجاج واحدة، وهي من طراز السيارات التي تعتبرها القطط والكلاب فندقًا ومستشفى ولادة، ويبدو أنه كان هناك حمام سباحة بمساحة سجادة غرفة نومك، لكنه صار مغمورًا بالنباتات الشيطانية والتراب.. كل شيء يشي بمكان صغير بهيج، لكنه كان كذلك في الستينيات مثلاً.. لربما كبر الأبناء وتركوا البيت أو سافروا إلى الخارج بعد وفاة الأبوين، ولربما ما زال البيت مملوكًا لوريث ما في بلد ما.. لا أدري. بالطبع كانت هناك مغامرة دائمة لأولاد الحي عندما تسقط كرتهم خلف السور فيضطرون للتسلق وجلبها من الفناء .

فجأة ظهرت أسرة سمير ناجي.. أب وأم وثلاثة أبناء؛ هم مراهقان وطفلة، يدخلون ويخرجون ويتعاملون كأنهم كانوا هناك منذ زمن. على الباب وُضعت لافتة صغيرة تحمل اسم «مهندس سمير ناجي - 14 شارع الحرية». الرجل أشيب الشعر، في الخمسين من عمره، يدخل بكثافة، متأنق وشديد النحول.. الزوجة أرستقراطية الطابع،

لها شعر قصير يتخلله الشيب.. الأولاد هم الأولاد في كل زمن.. لم يتعاملوا مع أحد من الجيران قط.. لا يزورهم ساعي بريد أو كواء أو محصل كهرباء.. لم تر الزوجة تتسوق، لكن الأولاد يلهون في الحديقة من وقت إلى آخر .

استبد بي الفضول، فسألت عنهم كل بواب في الشارع.. لا أحد يعرف عنهم أي شيء.. الزوجات الثرارات «الحشريات» في شارعنا لا يعرفن أي شيء. أُمي تعشق التدخل فيما لا يعنها، وبرغم هذا لم تعرف عنهم أي شيء. في الغرب يمكن أن تقرر باب جارك وتقول له إنك «جون كوكس» الذي يعيش في الناحية الأخرى، فيسمح لك بالدخول والجلوس وشرب الشاي.. من الغريب أننا أكثر حرارة ومودة منهم، لكن هذا السلوك غير شائع عندنا .

كان هذا فضولاً عادياً مني، لكنه لا يعني أي شيء.. لو كنا سنشك في كل الأشخاص المتحفظين فلن ننتهي أبداً، لكن تبقى حقيقة أن هذه الأسرة جاءت من لا مكان بالمعنى الحرفي للكلمة .

هنا نتقل إلى العلامة الثانية ...

العلامة الثانية: «الخواص الفيزيائية غير المعتادة»

أخي هو أول من لاحظ هذا.. كنا في وقت الغروب.. الشمس تنحدر وراء بيتهم، وتحرق عيوننا عندما ننظر نحوهم من نافذتنا الجارحة.. في الشارع استطالت ظلال الكائنات والأشجار والقطط لتزحف إلى الجانب الآخر: جانبنا. وكان الأب يمشي مع طفلة.. المهندس سميح ناجي يمشي مع ابنته عائدين إلى البيت .

كان أخي ينظر من النافذة متلصصاً، وفجأه قال لي :

- غريب !

- أي شيء غريب؟

- لا أرى ظلاً لهما.. كل الناس لهم ظلال طويلة.. أين ظلّهما؟

نظرت من النافذة.. بالفعل هذه ملاحظة غريبة! أنت تعرف المناظر المزيفة بواسطة «فوتوشوب»، عندما يكون المزيف غير بارع، فينسى رسم الظل على الأرض.. نفس التأثير تقريباً، لكن هذا لا يجب أن يدعو إلى انعدام الثقة. أعتقد أن نصف أصدقائي الأعزاء بلا ظل على الأرض. قرأت قصة قديمة مسلية لـ«هانز كريستيان أندرسن» عن رجل تخلص منه ظله.. فكرت في هذا بينما المهندس

يقرع الباب الخشبي الذي يفتح على الحديقة بمقبض نحاسي كبير،
ومن الداخل يهرع ابنه المراهق ليفتح الباب.. لماذا لا يحمل مفتاحًا
معه إذن؟

لكنك لا تستطيع إلا التفكير في الأمر مليًا عندما ترى أن الكلاب تبتعد
عن أفراد هذه الأسرة.. لم تعد القطط والكلاب تنام في السيارة
العتيقة.. عندما يمشي واحد من الأسرة جوار قطة في شارعنا
فإنها تقوس ظهرها وتصدر فحيحًا شيطانيًا غاضبًا، أما الكلاب فتضع
ذيولها بين أفخاذها وتراجع.. ربما تنبح، لكنه نوع من التهويش .

كل هذه تغاهات.. أنت لا تشك في شخص لمجرد أن الكلاب والقطط
تكرهه.. هذا يحدث في أفلام الرعب السخيفة، لكننا في عالم الواقع
هنا .

هذا ينقلنا مباشرة إلى العلامة الثالثة ...

العلامة الثالثة: «هم لا يذهبون لمكان»

كان الفضول يعذبني حقًا لمعرفة شيء عن هذه الأسرة.. كما قلت
لك، فإن ما لا تعرفه أمي هو لغز. انتظرت بعض الوقت حتى نظرت
من النافذة، فرأيت الزوجة - مدام ناجي - تغادر البيت مع ابنتها.. كان
هذا وقت الغروب تقريبًا، ورأيت الابن الأصغر يغلق الباب من الداخل
بجنزير .

ارتديت ثيابي بسرعة البرق، وسرعان ما كنت أتواثب على درجات
السلم، إلى أن بلغت الشارع.. استطعت أن أراهما هناك على بُعد
خمسین مترًا.. بعد دقيقتين سوف تختفيان عند المنعطف الأيمن .
رحت أركض بسرعة كي ألحق بهما، وقد نجحت في تقصير
المسافة .

هنا شعرت بمن يوشك على الاصطدام بي.. نظرت إلى اليسار لأجد
الزوج قادمًا من لا مكان.. كان الموقف مريبًا بحق.. في عينيه نظرة
شك رهيبه.. كان من الواضح تمامًا أنني أجري للاحق بزوجته وابنته .

هزرت رأسي محييًا، وتظاهرت بأنني توقفت لأشعل سيجارة .

مر بي، وجدّ السير ليلحق بهما. أما أنا، فصار من العسير أن أواصل
الاقتراء.. لو نظر إلى الخلف ورآني فلسوف يفتك بي .

بعد أيام خرج سمير ناجي مع ابنه.. هذه المرة انتظرت حتى ابتعدا،

ثم مضيت وراءهما بخطوات حثيثة.. كما هي العادة دخلا المنعطف الأيمن، فلاحقت بهما .

كانا يتبعان، ومن الواضح أنهما لا يتبادلان أي كلام. منحني آخر على اليسار سوف يقود إلى الشارع الرئيسي.. يجب أن أسرع حتى لا يذوبا في زحام الماشين في الطريق المزدحم .

كان الطريق الجانبي عبارة عن زقاق ضيق لا أبواب فيه.. لا توجد فتحة مجرور لو خطر لك هذا.. لا يوجد برمبل قمامة كبير.. هل لديك تفسير يشرح لماذا لم أحدهما في الزقاق؟ أين ذهبا؟ أعرف أن الزقاق سوف يحتاج قطعه لثلاث دقائق.. لن يصلا إلى الشارع بهذه السرعة !

لقد تلاشيا باختصار شديد .

كررت هذه التجربة مرتين بعد ذلك، وفي كل مرة كانت النتائج مربكة.. في لحظة ما تفقد أثرهم. خطر لي أن ألجأ إلي أساليب الشرطة، بحيث ينتظر صديق لي عند نقطة معينة ثم أرحل ويتولى هو المراقبة، ويسلم الأمر لشخص ثالث، لكنني لن أجد أصحابًا رائقي المزاج إلى هذا الحد، سوف يحسبونني مجنونًا .

لو كانت هذه تجربة في مختبر الكيمياء فنتيجتها ببساطة هي: أسرة المهندس سمير ناجي تخرج لكنها لا تذهب لأي مكان. الاستنتاج هو... لا أعرف ...

أواصل التفتيش.. الشعاع الرفيع الخارج من الكشاف يسقط على قطع الأثاث.. في كل لحظة أرى شيطانًا يوشك على تمزيقي، ثم أدرك أنه خيالي الخصب.. هناك شيء اسمه «باريدوليا» يجعل مخك يتخيل معنى لأي شكل لا معنى له، لهذا تتحول هذه المنشقة إلى وجه مربع يتابع حركتي .

هل صوت بومة؟

أعرف أن البومة تقول «هووووووه»... الغربيون يعتقدون أنها تُنطق «who» (مَن؟) بنفس منطقنا عندما نحسب الخراف تطلب الماء.. هذا الصوت يصلح صوت بومة.. فهل...؟ تصلبت للحظات وقلبي يوشك على التوقف. هل يعودون؟ لا بد من فترة كافية كي أتوارى قبل أن أقع في أيديهم .

بعد لحظات أخرى قدرت أنه إنذار كاذب.. لو كانوا قادمين لكانوا فوق رأسي الآن .

هذه غرفة نوم.. يبدو أنها خاصة بالأولاد.. هممم! غرفة نوم أخرى للأبوين كما هو واضح.. هذا يؤكد لي العلامة الرابعة ...

العلامة الرابعة: «هم لا ينامون في الأسرة أبدًا»

الأسرة مرتبة تمامًا، ولا يبدو أن أحدًا كان نائمًا عليها.. الأهم هو أن هناك طبقة غبار سميكة على الملاءات.. الأمر لا يتعلق بسيدة بيت منظمة، بل يتعلق بأسرة لا تنام في الفراش منذ أسابيع ببساطة. أين ينامون إذن؟! لم أرهم يحملون حقائبهم ويتجهون إلى فندق !

كنت قد توصلت إلى استنتاج مماثل من مراقبتي لبيتهم.. تعرف أنني في موضع استراتيجي يكشف لي الغناء وواجهة الطابقين.. لم يكن هناك نور في أي وقت في الطابقين.. بينما النور الوحيد كان ينبعث طيلة الليل من غرفة صغيرة في البدروم.. نوع الغرف التي تُبنى تحت الأرض ولها نافذة تسمح للموجودين برؤية العالم الخارجي. لماذا يضيئون هذه القاعة المفترض أنها خالية؟ النافذة مدعمة بقضبان، وموصدة بزجاج مصفر.. لكن ربما تمكنت من الدوران حول البيت وإلقاء نظرة على هذا البدروم.. هذا بالطبع لو لم أستطع دخوله من داخل الشقة .

الاستنتاج الذي توصلت إليه قبل دخولي هنا هو أن هؤلاء القوم ينامون في البدروم. الآن أحد أن الفراش لم يُمس، وهذا يؤكد ما جال بذهني .

ذكّرني أن أحاول الوصول إلى البدروم. أنا متأكد من أنهم جميعًا غادروا البيت، فلن تكون هناك مفاجآت قذرة.. هذا بالطبع ما لم أجد ما يجده كل أبطال أفلام الرعب: توابيت ينام فيها مصاصو الدماء الذين يستيقظون هنا والآن. لكنني سأفترض أنني محظوظ هذه الليلة.. سوف تبقى رقبتني سليمة .

ماذا يوجد في هذه الخزانة؟

اللعنة! لا داعي للشرح.. هناك آنسات رقيقات هنا، وأنا لا أريد أن أزعجن، فلنغلق هذه الخزانة اللعينة ونواصل البحث .

بالمناسبة، ماذا يوجد في الثلاجة؟

في أفلام الرعب تكون هناك دومًا مفاجأة لعينة أخرى.. رأس الاستحواذ يكون محفوظًا في الثلاجة غالبًا.. سوف ترى.. سوف نرى

...

خطوات حذرة نحو الثلاثحة في الصالة جوار باب غرفة النوم .

ضع المنديل على فمك حتى لا تفرغ معدتك.. من الغباء أن تتقيأ هنا في دارهم .

هوب

فارغة.. الثلاثحة فارغة.. هذا يذكرني بالعلامة الخامسة ...

العلامة الخامسة: «لا يبدو أنهم يأكلون»

لم يرَ أي واحد هؤلاء القوم يتناعون طعامًا.. ليس هناك بائع خبز يمر على البيت.. ليس هناك صبي قصاب أو بائعة خضر.. بائعة اللبن مندهشة لأنها لا تصدق أن هناك من لا يتناع اللبن في العالم.. قالت لها أمي إن السبب هو أن لبنها فاسد مغشوش.. قالت البائعة إن عليهم أن يجربوا مرة واحدة ليعرفوا إن كان مغشوشًا. دعني أؤكد لك أنهم بلهاء.. لو كانوا موتى أحياء فلسوف يحبون هذا اللبن المغشوش بـ«الفورمالين» جدًا .

لم أرَ الرجل يحمل كيس خضر أو فاكهة قَطُّ، ولم أرَ الزوجة تتناع شيئًا من أي مكان.. ربما يحدث هذا في أوقات معينة، لكن متى؟ أنا أراقبهم أربعًا وعشرين ساعة يوميًا بلا مبالغة.. هل يوجد باب آخر؟ بالطبع لا. هؤلاء القوم لا يأكلون.. أعرف هذا يقينًا .

هذا يجعلني أكثر قلقًا.. أنا في بيت قوم لا تعرف من أين جاءوا ولا لأين يذهبون.. قوم لا يتركون ظلاً على الأرض، ولا يأكلون ولا ينامون .

والألعن لو أنهم عادوا إلى بيتهم في هذه اللحظة بالذات قبل أن يعرف رأفت كيف تصيح البومة !

هذا ليس بشيء.. لست من الطراز المتشكك الذي يتظاهر بالذكاء، ويتشمم حجارة الطرقات.. لكن اجتماع خمس علامات غريبة أمر يثير الريبة. في معظم الأمراض الطبية تكون هناك علامات كبرى وعلامات صغرى.. ثلاث علامات كبرى مع علامة واحدة صغرى تكفي للتشخيص مثلاً . هنا خمس علامات كلها كبرى على ما أظن.. لكن هذا لا يعني أن حيرانك موتى أحياء.. تحتاج إلى أدلة أقوى .

هذه غرفة مكتب مظلمة .

قلبي يتواثب وأنا أدنو من الباب.. أفتح المقبض في حذر.. غرف المكتب دائماً مخيفة.. هناك على المكتب ستجد ذلك التمثال الوثني

آو ڪتاب «اينوخ» آو آي شيءِ مربع آخر.

لكن الغرفة في ضوء الكشف كانت هادئة ساكنة تراقبني في شيء من السخريّة، وهناك طبقة الغبار التي تغطي كل شيء.. سوف أترك أثرًا لا بأس به لكل عين فضولية.. فيما بعد سوف تكثر الأسئلة .

تدریس در مدرسه !

وثبت كمن صعقته الكهرباء في الهواء.. احتجت لعشر دقائق كي أتذكر أن هذا هاتف.. لا أعتقد أن هناك أي أسلاك هاتف تصل إلى هذا البيت، ويبدو أن هذه علامة جديدة.. الهاتف الذي لا يتصل بسلك وبرغم هذا يدق. طبعاً أتوق للرد لكني لست بهذه الحماسة.

تدریس در مدرسه !

مُصر على تحطيم أعصابي كما هو واضح. الأروع أن يدخل أحد الغرفة ليرد، ويتضح أن هناك من كان نائمًا في البيت برغم كل شيء .

تدریس در مدرسه !

لقد توقف أخيرًا وهذا رائع.. يجب أن أعمل بسرعة.. هذا فضول مبالغ فيه، لكنني أريد أن أعرف.. ثمة غرفة يكمن فيها التفسير الكامل حتمًا. هذه الصورة على المكتب تُظهر الأب وأولاده والزوجة.. يقفون في حديقة حيوان على الأرحح ويضحكون.. هذه الصورة تتفق والعلامة السابعة.

ننتقل الآن إلى العلامة التالية .

العلامة السادسة: «لم يوجدوا»

من المفيد أن يكون للصحفي صديق مهم في المباحث.. أنت تعرف عملية المنفعة المتبادلة هذه، مثل التمساح وطيور الزقزاق: الأول يظفر بطعام سهل، والثاني ينظف أسنانه بلا جهد. هكذا أمد أنا الضباط بشهرة معقولة وبمدونتي بالأخبار. الصديق في المباحث سمع قصتي ووعدني بأن يجد لي المهندس سمير ناجي هذا.. يحتاج الأمر إلى بعض التفتيش في سجلات المهندسين والمهندسين الزراعيين.. بعد أسبوع من البحث أكد لي أنه لا يوجد في مدينتنا سمير ناجي بالتأكيد.. من المحتمل أنه ليس مهندساً وقد انتحل هذا اللقب.. ولربما هو وافد من محافظة أخرى .

قال لي إنه كان هناك مهندس يحمل هذا الاسم في نفس الحي، لكن هذا كان في الستينيات أو السبعينيات .

لم أول اهتمامًا كبيرًا لهذه المعلومة، لكنك تعرف كما أعرف الآن مدى خطورتها.. هل يكون هو نفس المهندس؟ هل هذا جائز؟

نحن نتحدث عن مهندس لم يوجد.. جاء من لا مكان ...

إن الأمر يزداد بهجة ...

تُرى هل رأفت قد نام؟

العلامة السابعة: «كل صورهم عتيقة»

الصورة التي وجدتُها في المكتب أغرتني بمزيد من البحث: صورة للأب وصورة زفاف مع الأم. مستحيل أن يكون هناك تفسير آخر.. الصور قديمة جدًا وبالأبيض والأسود أو الزيتوني.. سطحها خشن.. كل شيء فيها يتحدث عن الستينيات.. الثياب.. الوجوه.. طابع الصور.. لغافة التبغ المتدلية من ركن الفم .

لكن وجوههم معاصرة جدًا.. كل شيء يدل على أنهم لم يشيخوا عما كانوا في الستينيات ولم يكبروا.. لقد ظلوا في هذه السن للأبد .

كل شيء يقول إن هذه الصور ظلت في مكانها منذ الستينيات حتى اليوم .

القصة توشك على الاكتمال عن الأسرة التي عادت إلى بيتها من جديد.. عادت بعد الموت على الأرجح. لكن هذه القصة تحتاج إلى شيء.. لمسة أخيرة تؤكدُها.. هذا يشبه المتلازمة كما يعرفها الطب.. هناك أعراض في العين.. أعراض في القلب.. أعراض في الجهاز العصبي.. أنت تشك، ثم تأتي اللمسة الأخيرة التي تجعلك تدرك أن هذه متلازمة مرضية لها اسم .

أنا أبحث عن هذه اللمسة الأخيرة وهي مخاطرة حقيقية.. لهذا راقبت عادات هذه الأسرة جيدًا، وعرفت متى يفارقون البيت، ثم حدثت رأفت بهواجسي .

من السهل أن تتسلل إلى البيت نفسه، فأنا أعرف عاداتهم، وأعرف أين يخبئون مفتاح الباب تحت الممشاة، فهم لا يرون ما أراه من على من أسفل تعتقد أن سرك في أمان، أما عن العبور لداخل الحديقة فهو الجزء الأعقد، وكان عليّ أن أتسلق السور كلص.. هذا ما فعلته

بينما يقف رأفت عند قمة الشارع يراقب .

وهكذا مررت لأول مرة بتجربة الدنو من أشياء كنت أراها من عل ومن نافذة داري الوقحة.. الأرجوحة.. حوض النباتات.. السيارة العتيقة الخربة.. حبال الغسيل .

ثم أدخل إلى سر الأسرار الرهيب.. منزل أسرة ناجي.. توقع كل شيء يا صاحبي ...

أما عن العلامة الثامنة، فهي مثيرة للدهشة فعلاً ...

العلامة الثامنة: «هم لا يموتون»

هذا المشهد لم أره، لكن وصفه لي بائع الصحف.. كان يمر في الشارع منادياً ببضاعته الكاسدة في زمن الإنترنت، ثم توقف عند قمة الشارع ليشكو الزمن ويشعل لفافة تبغ .

هنا رأى صبيين يتسابقان.. الصبي الأول يتواثب ويبدو أنه قد وجّه ضربة قوية للثاني وهو يهرب من انتقامه.. كان يجري كالشيطان، ويقفز فوق الطوب ومضخات الحريق، بينما أخوه أقل لياقة منه يركض خلفه في غيظ وقد احمر وجهه .

تقاطع الشارع.. المشهد المألوف للطفل الأول يركض وهو ينظر خلفه، وهنا يدوي صوت نغير وصوت فرامل طويل، ثم ارتطام مرعب.. طار الصبي للأمام بينما واصلت السيارة اندفاعها، ثم هوى الجسد على الأرض فمرت العجلة الأمامية عليه .

أخيراً توقفت السيارة، وبائع الصحف لم يصدق أنه رأى ما رآه.. ومن السيارة وثبت امرأة مذعورة باكية تلطم خديها عالمة أنها انتقلت في لحظة من خانة «السائقة المتعالية» إلى خانة «القاتلة المستهتر».. لقد تغيرت حياتها للأبد .

لكن بائع الصحف كان على استعداد لأن يشهد أن الصبي رمى بنفسه أمام السيارة رمياً .

وفجأة أمام العيون المذهولة نهض الصبي.. تحسس ظهره كأنه يتألم، ثم فرد ساقيه ونهض.. على وجهه علامة ألم.. معجزة أن يظل من أصيب في حادث كهذا يتألم .

لحق به أخوه فتحسس جسده، ثم وضع ذراعه على كتفه ليبعدا .

سألت المرأة في هستيريا :

- إنت كويس؟

لم يرد. ابتعدا عائدين إلى شارعنا. وأدرك بائع الصحف أنهما متوجهان إلى البيت الذي نعرفه.. كان يعرف البيت ويعرف الأسرة، لكنه لم يتوقع بالطبع أن يشتروا صحفًا منه .

طرقا الباب، فانفتح وغابا بالداخل. كأن هذا شيء طبيعي جدًا. توقع أن يخرج أب غاضب أو أم ثائرة تبحث عن سائقة السيارة، لكن كل شيء انتهى. الشخص الجدير بالعلاج كان سائقة السيارة نفسها .

هناك حادثة أخرى مماثلة سوف أحكيها لك، لكن صبرًا حتى أتأكد من أن هذا الضوء ليس من سيارة تقل الأسرة.. هم لا يملكون سيارة، لكنهم يستعملون سيارات الأجرة من وقت إلى آخر .

ابتعد الضوء فلنعد إلى قصتنا.. العلامة الثامنة ...

ذات مرّة كانت هناك مطاردة مروعة في شارعنا بين بلطجي وتاجر مخدرات معروف، وبين رجال الشرطة.. هذه حادثة شهيرة جدًا لن ينساها كل من عاش في شارعنا، والكل يؤرخ لها.. يوم 19 فبراير صار مناسبة قومية لدينا. شارعنا أقرب للهدوء، وأغلب من فيه يعرفون بعضهم البعض، لذا لم نتصور قط أن «جابر هَبو» أحد لوردات المخدرات الهارب من الشرطة، قد استأجر شقة مفروشة في البناية المجاورة لنا.. عندما جاءت سيارات الشرطة وبدأ المخبرون يتسلقون الدرج، كان «هَبو» ورجلاه قد وثبوا إلى سطح البناية المجاورة .. لا بد أن شخصًا تعسًا ما قد وشى به .

لم نكن نعرف أنهم مسلحون ببنادق آلية، وأنهم خطرون لهذا الحد.. كان الناس قد وقفوا في الشارع يراقبون هذه المباراة، وخرج الباقون يطلون من الشرفات.. الفضول لدى المصريين يقهر أي شعور بالخطر، ولك مثال واضح في كل جسم متفجر يجده رجال المفرفعات.. يتحول الأمر إلى سيرك شعبي .

هنا كشف «هَبو» عن أنه مسعور كالذئب، مجنون تمامًا .

استطاع عدد قليل منا أن يرى «هَبو» يقف على سطح بناية ويُسدد الرصاص للشارع حيث تناثر رجال الشرطة والمارة.. لم تكن هناك فرصة للتصويب المحكم، بل هو يطلق الرصاص كمن يرش الماء من خرطوم.. البلل للجميع ...

راتاتاتاتاتاتا !!

تساقط عدد من رجال الشرطة والمارة، واستطعت أن أرى المهندس سمير وزوجته.. كانا عائدين إلى البيت عندما وقعت هذه المعركة، وكانا بالضبط في مركز إطلاق الرصاص من على.. لقد تساقط من على يمينه ومن على يساره بينما ظل هو واقفاً وعلى وجهه علامات الذهول. في فيلم ساخر رأيت هذا المشهد من قبل، حيث يلتحم النازيون مع رجال المقاومة الفرنسية.. يطلق أحد رجال المقاومة النار على الجمع المتلاحم فيسقط النازيون فقط! لقد تذكرت هذا المشهد بالضبط.

ماذا عن «جابر هيو» ورفيقه؟ ليس هذا موضوعنا.. القصة ليست بوليسية.. لربما قبض عليهم أو هربوا أو قتلوا.. ليست قضيتنا كما قلت، فهي مجرد حبكة فرعية كما يقول كتاب السيناريو.. ولكن يبقى السؤال عن رجل وزوجته بلغ بهما الحظ الحسن أن يُطلق سيل من الرصاص عليهما فيظلان سليمان، فقط يبدو عليهما الرعب وينفضان الثياب .

ما معنى هذا؟ معناه ببساطة أن هؤلاء القوم لا يموتون .

أولاً الولد الذي مرت فوقه سيارة، ثم الأب والأم .

ما تفسير هذا؟ أنت لا تموت لسبب واحد؛ هو أن تكون قد مت فعلاً أو أنت شبح .

الآن أفتش الحمامات على ضوء الكشف .

لا يوجد صابون أو شامبو.. لا توجد علامة واحدة على البلب.. هذا حمام قوم لا يستحمون أبداً! بصعوبة فتحت الصنبور، فتدفق منه ماء عصبي فائر لونه كالكولا.. فلتقطع يدي إن كان هذا الصنبور قد فتح منذ أعوام !

ربما كان هناك حمام آخر في الطابق الثاني.. من الوارد أنهم لا يستعملون هذا الحمام. على كل حال لقد أنهيت تقريباً تفقد هذا الطابق باستثناء البدروم.. سأنتظر قليلاً قبل رؤية الطابق الثاني.. أخشى هذه اللحظة لأنني سأكون محاصراً فعلاً.. لو جاءوا فلن أستطيع النزول .

نُرى ماذا يفعل رأفت الآن؟

ننتقل الآن إلى العلامة التاسعة، وهي بالغة الأهمية ...

العلامة التاسعة: «الشهود يختفون»

هذا هو ما يخيفني من سيناريو أن يجدوني فجأة في دارهم. القصة تحدث عن طفل يُدعى «باسم».. كان يلعب الكرة مع رفاقه، ثم طارت الكرة لتنزل في حديقة هؤلاء القوم وتضطدم بسقف السيارة الخربة. هذا السيناريو يتكرر كثيراً ...

يقول الصبية إنهم جميعاً قرعوا البوابة عدة مرّات بلا جدوى.. فقدوا حماسهم وتفرقوا، وقرروا أن يجربوا استعادة الكرة عندما يظهر واحد من الأسرة. يخيل لي من اختفاء باسم الغامض والعثور على فردة واحدة من حذائه قرب سور البيت، أنه حاول أن يتسلق السور ليأتي بالكرة.. هذا يحدث كثيراً كذلك، لكنه كان يحدث قبل ظهور الأسرة.. ثم إنه من الوارد أن يكون قد تمادى في حملته الاستكشافية. لم يعرف أحد ما حدث، وأعتقد أن رجال الشرطة سألوا عنه أهل الدار بشكل روتيني، وبالطبع قيل لهم بشكل روتيني إنهم لم يروه.. لكني أنا وأنت نعرف أنهم رأوه، رأوه جداً لو كان هناك شيء كهذا .

أنت تعرف ما وجدته في الخزانة.. لم أخبر الفتيات طبعاً، لكنك تعرف ما وجدته.. هذه عظام طفل. لربما سكن في هذا البيت من كان يدرس الطب يوماً، ولربما ترك العظام عندما غادر البيت، لكني أرى أن هذا احتمال بعيد.. أقرب احتمال هو أن هذه عظام باسم .

سأتجنب هذا الجزء كي لا أضايق رانية ورشا وهيام و... واللاتي يستمعن إلى قصتنا، وسوف أثب إلى الجزء التالي مباشرة .

يجب أن أرى البدروم ...

المكان الوحيد المضاء ليلاً، وهو ما ينقلنا لسؤال مهم: لماذا يحتاج الموتى الأحياء إلى الضوء، خاصة إذا ما كانوا ينامون في ذات المكان؟ لا أعرف .

على كل حال، كانت هناك درجات هبطت عليها على ضوء الكشف.. رائحة عطنة قوية .

الضوء منطفيئ.. لا أجرؤ على أن أضئ أي شيء على العموم، لكن من الواضح أنهم يعيشون هنا .

أقف عند قمة الدرجات، وأمسح المكان على ضوء كشف.. هناك صناديق فعلاً، لكن حجمها لا يسمح بوجود جثث.. لن ينهض أحد على طريقة أفلام «هامر» ليفتك بي .

لكن المشكلة الحقيقية هي وجود حفر في الأرض الترايبية.. حفر عميقة.. من الواضح أنها خمس.. هناك رفش جوار الحفر.. هل هناك

من أخرج خمسة أشياء من الأرض؟ متى؟ وما كنه هذه الأشياء؟

لو تركت لخيالي العنان لقلت إن هؤلاء القوم كانوا مدفونين هنا.
ومن أخرجهم إذن؟

واصلت الهبوط في ضوء الكشاف، والأفكار تتدافع كموج البحر ...

هذه أسوأ لحظة ممكنة كي تكون هناك درجة مكسورة، وكى تتعثر
ويلتوي كاحلك، وكى تتدحرج لتسقط على الأرض وسط التراب ...

الألم لا يوصف ولا يُصدّق.. هذا تمزق في أربطة الكاحل على
الأرجح.. يمكنني أن أرى التورم في ضوء الكشاف .

هل أسمع صوت بومة؟

لا فارق هنالك.. بومة أو لا بومة.. أنا سأظل هنا يا رأفت .. لن أستطيع
الحراك إلى أن يعود أفراد الأسرة الكريمة الذين تنطبق عليهم تسع
علامات من علامات الموتى الأحياء !!

*

مرت عشر دقائق في هذا الوضع البائس، وأنا أحاول أن أرغم قدمي
على الحركة، لكن الكاحل يزداد سوءاً.. علامات الالتهاب الخمس
التي يعرفها الأطباء: «الاحمرار، التورم، السخونة، الألم، فقدان
الوظيفة»، كلها تنطبق هنا، وتذكرني بعلاماتي التسع .

ربما لو حاولت الزحف ...

للمرة الأولى مددت يدي لجيبي وأخرجت الهاتف المحمول.. هذا هو
الوقت المناسب، لكني لا أحمل ثقة أو حباً نحو الهواتف المحمولة،
وهي كذلك تكرهني، لهذا تتخلي عني دائماً عندما أريدّها.. عندما
يتصل بي ابن خالتي ليشكو تغير عاداته في التبرز، وأنه لم يعد
يُخرج قطعاً متماسكة، فإن الهاتف يعمل بدقة مذهلة.. لكن عندما
أرى حادثاً مروعاً وأتصل بالجريدة من أجل سبق صحفي، يتحول
الهاتف إلى قطعة بلاستيك بلا منفعة. نسيت أن أقول كذلك إن
الشبكة سيئة جداً في منطقتنا.. فإذا أضفنا إلى هذا أن البيت
ملعون أصلاً، وبالتأكيد مشحون بكهرباء الأشباح الاستاتيكية، فإن
بوسعي أن أقول لك إن الهاتف ...

لا توجد شبكة.. فعلاً.. كما توقعت .

رباه.. لا حل سوى الزحف كما قلت لك .

في النهاية قد لا تكون تسع علامات كافية.. فلأمل أن أكون حمارًا أو غبيًا .

كنت على أرض البدروم .

كما قلت لك، من المعتاد أن يكون البدروم مضاء، لكنه مظلم هذه الليلة، ومن الواضح أن هذا سبب سقوطي.. سمعت شيئًا يتدحرج على الدرجات، فخطر لي أنه فأر بدين.. هذا أسوأ شيء يمكن تصويره.. ليس ألين من الفئران سوى ...

سوى هذا الشيء الضخم الذي تدحرج ليسقط على بُعد متر مني.. يشبه بطيخة متوسطة الحجم لكنها لم تتهشم مع سقطة كهذه .

وجهت الكشف نحو الشيء.. ولم أصدق.. لا.. لم أصدق ...

هذا الوجه.. وجه رأفت ينظر إليّ بعينين شاخصتين.. الوجه الذي كف عن تلقي الأوامر من المخ فتدلى لحمه.. رأس مقطوع ملوث بالدم على بُعد متر مني.. وهذا الوجه هو وجه صديقي. فيما بعد - بعد زوال الصدمة - سأذكر شعور مدام «توسو» النبيلة الفرنسية فنانة تماثيل الشمع، عندما كانوا يحضرون لها كل يوم رأسًا أو رأسين من وجوه أصدقائها في سلة، بعدما أطاحت به المقصلة، كي تصنع له تماثيلًا من الشمع، كان هذا هو الثمن الوحيد كي تحتفظ برأسها هي.. ترى ماذا كانت تشعر به؟ فيما بعد فرت بمجموعتها من الرؤوس الشمعية إلى إنجلترا .

ليس هذا وقت الحكايات التاريخية طبعًا.. أنا في القبو عاجز عن الحركة، بينما رأس صديقي الذي - بالتأكيد - لن يطلق صياح البومة بعد اليوم، على بُعد متر مني .

من ظفر به؟ هم طبعًا، أسرة المهندس اللطيف سمير ناجي. لو كان أي سفاح قد قتله لما استطاع رمي رأسه في البدروم.. إنهم هنا.. أعلى الدرجات. كنت أرتجف، وأعتقد أنني فقدت وعيي ثلاث دقائق أو أقل .

هنا وجدت أنني أمام العلامة العاشرة المؤكدة ...

العلامة العاشرة: «أن يجدوك ويعترفوا بأنفسهم أنهم موتى أحياء»

هذه أقوى علامة في رأيي، ويمكن وحدها أن تكفي للتشخيص .

سمعت صوت الخطوات من أعلى، ثم ظهر أولهم عند باب البدروم،

وبدا يهبط الدرجات في تودة.. كان هذا هو المهندس.. ثم ظهرت الزوجة.. فالصبيان.. فالفتاة الصغيرة .

أضاءوا نور البدر، فرأيت كل شيء في الضوء الساطع لأول مرة.. أراه من مكان منخفض لأنني على الأرض.. الحفر الخمس.. الصناديق.. زجاجات فارغة يغلفها نسيج العنكبوت.. دراجة صدئة عتيقة.. حقائب بالية لا بد أن فيها شهادة تخرج الجد من مدرسة السلاحدار الثانوية، أو «فرمان» من أفندينا ولي النعم.. مقاعد مهشمة ...

كنت أرتجف كفأر في مصيدة، لكن لم يكن هناك «إندورفين» يخفف من هول المصيبة. أين أنت أيها «الإندورفين» عندما نبحت عنك...؟ كانوا يحيطون بي .

قلت لنفسي إن جُل ما أطلبه هو أن يتم كل شيء بسرعة.. كلما تم أسرع كان الألم أقل.. أعتقد أن ميتة رأفت كانت سريعة مريحة. رب يحق ما سيصيني الآن من دعر وألم قبل موتي، فلترحمني من أهوال يوم القيامة .

ساد صمت رهيب.. طلبت من قلبي أن يهدأ قليلاً لأتمكن من السماع .

- الآن أنت تعرف .

للمرة الأولى أسمع صوت الرجل الذي كنت أراقبه منذ أشهر.. ليس غليظاً أو مخيفاً، بل هو أقرب للحزن والوقار .

أردف قائلاً :

- نحن لم نفارق البيت قط.. كنا هنالك في الصندرة طيلة الوقت ننتظر، ثم خرجت أنا لأعني بصديقك.. كنا نعرف أنك قادم وتعمدنا ترك المفتاح لك .

ارتجفت.. رأفت رأيهم يخرجون.. لا شك في هذا! إما أنه واهم أو هم يملكون القدرة على صنع هلاوس بصرية! الحقيقة المروعة هي أنني كنت طيلة هذا الوقت في بيت واحد مع أسرة من الموتى الأحياء !

قالت الزوجة بنفس الطريقة المهذبة الراقية :

- أنت اقتربت من الحقيقة جداً.. أسرة المهندس التي تعيش حياة

هادئة انطوائية في هذا الحي منذ الستينيات.. مشاجرة عنيفة مع العم الذي يريد شراء البيت.. يفقد العم أعصابه ويطلق الرصاص على زوجي - أخيه - ثم أنا، ثم يضطر لقتل الأولاد لأنهم شهود خطرون، بعدها يدفن الجميع في البدروم ويفر من البلاد، عالمًا أن أحدًا لن يفتقدهم بسرعة، بل سيحسبهم هاجروا.. فقط يكلف محاميًا بأن يتولى أمور البيت الرسمية، ثم يموت في الخارج بعد عام ويدفن سر البيت معه .. لا نعرف ما حدث.. بعد خمسين عامًا حدث شيء ما.. ابني أول من تحرر وحررنا بالرفش.. لماذا عدنا؟ لا أحد يعرف. ربما كانت أرواحنا قلقة بسبب الميتة العنيفة.. قيل إن الأشباح بقايا من القوى النفسية لمن ماتوا.. إن من يموت يترك أظفاره وعظامه، وبنفس المنطق يترك قواه النفسية في مكان الموت.. هناك الشبح الجائع للوجود الذي لم يشبع من العالم قط لهذا يُفضل أن يبقى فيه.. لا نعرف حقًا ...

قال الأب :

- ما نعرفه هو أنك تدخلت في حياتنا أو موتنا أكثر من اللازم، وأنت تطفلت على أملاك خاصة، وأنت يجب أن تتلقى العقاب .

قالت الزوجة :

- لن نفعل كما فعلنا مع صاحبك، بل سنجعلك تشعر بما نشعر به.. ستكون واحدًا منا، ولسوف يحاول صحفي فضولي سخي أن يدرس حياتك يومًا ما .

لم أفهم ما تقول .

رحت أصرخ وأصرخ في هستيريا، بينما هم يضيقون الدائرة حولي ...

*

أخيرًا أنهيت المقال .

«عشر علامات تخبرك أن جيرانك موتى أحياء».. مقال مهم، ولسوف يكون بذرة لكتاب ممتاز. إن الناس تعشق هذا الكلام الظلامي الغامض الذي لا يمكن التحقق منه. العلم الفورتي (Fortean) سلعة رائجة في كل مكان وزمان .

من الغريب أنني لست جائعًا بعد كل هذا الجهد.. الجهد العقلي يشعرنني بالجوع دائمًا. قرأت ذات مرة عما كان يأكله الكاتب الفرنسي «بلزاك» بعد الانتهاء من عمل أدبي، فأصابني الرعب..

كمية هائلة من البط واللحوم والقواقع والخمور ثم كميات هائلة من الجبن .

كذلك لا أشعر بحاجة إلى النوم برغم كل هذا التركيز .

خرجت من غرفتي وكان أخي في الصالة.. رأى وجهي فوثب فوق الأريكة.. صاح في رعب :

- كيف خرجت من غرفة النوم، ولم تكن في الشقة أصلاً؟! نبحث عنك منذ أسبوع وأبلغنا الشرطة! لا تقل لي إنك مختبئ تحت الفراش منذ أسبوع !

ما هذا السخف؟! كنت جالساً على مكتبي أدون هذا المقال! عمّ يتحدث؟! !

عندما خرجت إلى الصالة المضئنة وصرت مكشوقاً للنور، رأيته ينظر إليّ في هلع.. صرخ صرخة مروعة ثم انطلق يجري .

ومن المطبخ خرجت أمي، ولم تبدُ ودوداً جداً :

- بسم الله الرحمن الرحيم! سترك يا رب! رحمتك يا رب !

دوت صرختها.. لم أرَ في حياتي مثل هذا الوجه المتقلص المذعور توشك عيناه على الوثب.. ثم إنها نظرت إلى السقف وابتضت عيناها.. تراخت ساقاها وسقطت على الأرض .

الويل! هل هي نوبة قلبية؟

جريت وأمسكت بمعصمها فوجدتها تنفّس.. النبض منتظم.. هذا إغماء .

سوف أحضر بعض الماء من الحمام وأسكبه على وجهها .

دخلت الحمام وملأت الشفشفق البلاستيكي الكبير، ونظرت إلى المرأة فوق الحوض.. غريب هذا.. الهلاوس والإرهاق الفكري يوحون لي أن هذه ليست مرآة بل نافذة في الجدار.. على الجانب الآخر شخص يلبس مثلي، ويحمل «شفشفق» من البلاستيك مثلي، لكن لحم وجهه متآكل تماماً، تعيث فيه الديدان، وقد سقط رأسه جانباً لأن عنقه ممزق لا يتحمل ثقله.. مشهد بشع جداً.. أنا مرهق نفسيّاً فعلاً. هناك متلازمة نفسية اسمها «كوتار»، حيث يتخيل المريض أنه حثة متعفنة أو أنه غير موجود.. لا بد أنني مصاب بها .

ذكّرني أن أطلب رأي طبيب نفسي غدًا صباحًا، لكن لأسرع
بمحاولة إنعاش «الحاجة» أولًا .

نادي أعداء مصاصي الدماء

«اسمي «كيث».. عرفت من الشرطة قصتك.. أنت تعرف كما أعرف أن من هاجمتك مصاصة دماء.. مندهش؟ هذا من حقك.. لكن دعنيؤكد لك أن مصاصي الدماء لا يدخلون من النوافذ على شكل وطاويط، ولا يغرسون أنيابهم في عنقك.. إنهم يحقنونك بمنوم ثم يحدثون جرحًا في عنقك بالموسى ويشربون دمك كله.. لا تُصدق؟ ليكن...».

(1)

نحن الآن في «دالاس».

الغارة لم تستغرق وقتًا طويلًا، لكن تبعاتها ظلت معلقة لفترة لا بأس بها.

الورشة هناك في الظلام تنتظر، وقد جعلها الترقب تكتسب وجودًا حيًا خاصًا بها، وابتلع «جيريمي» ريقه وهو ينظر إلى المشهد الموحس.. من المستحيل أن تصدق أن ما سيحدث سيحدث.. لقد كانت هذه تجربته الأولى، وبدت له الورشة ميتة جدًا.. هادئة جدًا.. يصعب أن تصير شيئًا آخر.

نظر إلى الرجال من حوله، أولئك الذين خاضوا التجربة عشرات المرات، فرأى أنهم جادون بحق.. جادون أكثر من اللازم.. العرق يبلل العضلات المفتولة والقمصان الملتصقة بالأجساد.. وهناك من يتأكد من أن الوتد في غمده.. زجاجات صغيرة هشة تنفجر بمجرد أن تصدم شيئًا.

أما أكثر من أثار هلعه فهو «ك».. جدير هو «ك» بأن يقود هذه الحملة.. لقد حرص على أن يضيفي على نفسه سيمًا دراميًا بالثياب السود التي اختارها، ثم القناع الذي يتدلى من قبعته ليجعل رؤية وجهه مستحيلة.. كان فارع القامة نافذ التأثير.

قال «ك» للرجال من حوله :

- مستعدون؟

لم يرد أحد، لكن الإجابة وصلت على كل حال: لو لم نكن مستعدين فماذا نفعل هنا وما نفع كل هذه المعدات؟

ونظر إلى «جيريمي»، وقال بصوت باسم :

- وأنت؟ لا نريد فقدان أعصاب !

ابتلع «جيريمي» ريقه وهمس :

- لا. لا .

قال بحزم :

- لا ماذا بالضبط؟ لا أريد ردودًا مائعة !

شد «جيريمي» قامته، وقال بحزم صياني :

- أردت أن أقول لا فقدان أعصاب .

- هؤلاء يشمون الخوف كأنه رائحة الدم.. لا تنسَ أن هذه طبائع الوحوش.. تحكم في «الأدرينالين» لأن له رائحة لا تميزها إلا أنوف كهذه .

صرخة رفيعة جاءت من الورشة، فنظر رجل إلى آخر، صرخة أنثى كما هو واضح، فقال «ك» :

- هذا طبيعي.. لسنا في «ديزني لاند».. إنه موعد العشاء عندهم .

ثم نظر إلى ساعته، وقال :

- ربما الإفطار !

وانفجر يضحك، كانت ضحكة عصبية لا محل لها من الإعراب، وقد ساهمت في هز ثقة الآخرين بأنفسهم.. ليتهم يخرس.. ليتهم يسكت .

هدأ أخيرًا، فنظر إلى حامل المشعل وقال :

- أنت أولنا ...

ثم التفت إلى الرجال وقال :

- لن يكون الأمر سهلًا.. يبدو أنهم يقظون .

وأشار إشارة ذات معنى، فاندفع حامل المشعل باتجاه الورشة، وقبل أن يفهم أحد شيئًا كان قد ألقى بالجذوة إلى الداخل عبر الباب

المفتوح.. ولم ينتظر أحدًا ليرى النتيجة لأن الجميع اندفعوا نحو الورشة التي صارت مسرحًا من مسارح «الجران جينيول» المختصة بالرعب المعوي .

هناك فتاة مقيدة على منصدة وسط المكان.. لا بد من واحدة عارية مقيدة في وضع النسر الفارد جناحيه كما هي العادة في كل طقوس الأضحيان البشرية، وكانت تصرخ ...

لكن لم يكن هذا هو المخيف في الأمر.. المخيف هو حشد المحيطين بها.. يبدوون كبشر عاديين، لكن ما أغرب سحناتهم وثيابهم! وكانوا بعد مذهولين بصدد المشعل الذي تهاوى على أرض الورشة وراح ينثر وباء اللهب من حوله .

إن معلومات «ك» صحيحة.. كل معلوماته صحيحة .

صاح «ك» وهو يصبو مسدسه :

- اقتلوهم! لو ظفروا بكم لأفرغوا عروقكم من دمائها !

وأطلق بإحكام بضع رصاصات.. هذه رصاصات فضية ثمينة لا يجب تبديدها.. والأدهى أن من أصابته الرصاصة من هؤلاء سقط أرضًا والدخان يتصاعد من ثقب في جسده.. دخان لا يمت بصلة للكميات المحدودة التي تخرج من موضع طلقات الرصاص، بل هو أقرب لمشهد طائرة تسقط بعد إصابتها .

شاهت الوجوه! تذكر «حيريمي» فيلمًا تلفزيونيًا رأى فيه الأسود تحتشد في ظلام الليل وهي تلتهم وعلًا، فكان الدم يلطخ أفواهها ووجوهها، وعيونها ت برق في ضوء التصوير الليلي... هذا المشهد يتكرر بقوة الآن .

«هذا طبيعي .. لسنا في «ديزني لاند».. إنه موعد العشاء عندهم».

أخرج أحد الرجال وتده من غمده، واندفع ليولجه في قلب أحد هذه الكائنات المهاجمة.. وفوجئ «حيريمي» المذعور بشخص من هؤلاء يثب من فوق المنصدة التي قيدت لها الفتاة.. وثبة واحدة جعلته على بُعد سنتيمترين من وجهه.. لم يفكر كثيرًا وأغمد الوتد الذي يحمله في قلب هذا المهاجم .

أي صرخة شيطانية أرسلها هذا وهو يموت! من العسير أن يُعلق المرء كل هذه الأهمية على حياته.. أي حياة تلك التي تستأهل كل هذا الصراخ؟

وقف «جيري مي» مبهوتًا يرمق المعركة العنيفة الدائرة .

«هاري» يطلق الرصاص.. «ماكسويل» يفجر كرات الزجاج.. «هنري» يغمد الأوتاد.. «مايك» يطلق الرصاص ...

راه «ك» متصلبًا، فصاح به :

- «جيري مي» !

وأطلق رصاصة على رأس واحد وثب نحوه من وراء خطاف معلق، ثم أردف :

- حرر الفتاة! أسرع بالله عليك !

أفاق «جيري مي» من غيبوبته، فركض نحو الفتاة المقيدة.. كان الدم ينزف بغزارة من عنقها لكنها حية.. حية وإن كان الذعر قد جعلها مسخًا غير آدمي.. أخرج مطواة من جيبه وراح يفك الحبال الغليظة التي تكبلها ثم ساعدها على الجلوس بينما هو يضغط بمنديل على جرح عنقها.. لم يكن طبييًا لكنه أدرك أنه جرح صنّع بأداة حادة .. لا أثر لأنياب هنا لحسن الحظ .

كاد يساعدها على الترحل عندما شعر بمن ينقض عليه من الخلف.. قوى عاتية تمسك به وتمنعه من الحركة.. التفت للخلف وهو يشم رائحة الأنفاس الكريهة لشخص يتمسك به .

سقط على الأرض وهذا الكيان فوقه.. كان يحاول بلوغ عنقه بأي ثمن .

فجأة بدا أن الثقل ازداد ثقلًا.. كف عن الحركة.. إنها تلك الخاصية الفريدة في الجثث التي تجعلها تنجذب للأرض بقوة لا توصف .

تدحرج ليسقط الكائن عن ظهره، وفي ظهره وجد ذلك الوتد مغروسًا.. رفع رأسه فوجد «هنري» يهز رأسه بإيماءة معناها : «أي خدمة».. ثم تركه وانطلق يبحث عن ضحية جديدة .

النار تضطرم وتحاصر كل شيء .

يبدو أن فريقهم قد فقد واحدًا، لكن الغلبة له كما هو واضح .

وفي الظلام، وبشكل ما، راح هؤلاء القوم غريبو الأطوار يفرون الواحد تلو الآخر .

- لا تتبعوهم !

كذا صاح «ك» بلهجة أمرة، وأردف وهو يعيد مسدسه إلى نطاقه :

- إنهم في الخارج والظلام.. سوف يلعبون لعبتهم المفضلة على أرضهم المفضلة.. لا تتركوهم يقودونكم إلى هناك .

ومشى يعد الجثث على الأرض بصوت عالٍ :

- أربعة.. خمسة.. سبعة.. لا بأس.. لا بأس .

ثم نظر إلى رجاله وقال :

- سوف يأتي رجال الشرطة حالاً.. لا بد أن «دالاس» كلها سمعت هذه الطلقات.. يجب أن نفر الآن .

هنا مد أحد الرجال يده وتفحص معصم أحد الراقدين على الأرض، وقال بلهجة ذات معنى :

- «ك».. هلّا جئت هنا؟

*

«حيريمي» لم يكن يعتقد بوجود مصاصي الدماء .

كانت خبرته الوحيدة عنهم هي هؤلاء القوم من ذوي العباءات السوداء الذين يفحون كالثعابين في أفلام الرعب، وكان رأيّه هو أنهم أقرب للسخف .

في العام 1974، بينما الولايات المتحدة تهتز بفضيحة «ووترجيت»، كانت سلطة الدولة تهتز، والثقة بين المواطن الأمريكي ورئيسه تتزعزع.. للمرة الأولى يحدث هذا الطلاق بين الناخب والحكومة، وبدا أن الحكومة الأمريكية لم تعد تلك الحكومة القوية الآمنة محاربة الشيوعية التي كان الناس يظنون في الخمسينيات أنها قادرة على خداع الناس والكذب.. الكذب بقوة ...

في هذا الوقت كان «حيريمي» الشاب العامل في متجر البقالة يمارس حياته.. لا يهتم كثيراً بشؤون السياسة، ولا يعنيه من يحكم الولايات.. يبدو كهبيبي بشكله وشعره، لكنه لا يحتج على أي شيء.. كان عنيذاً، وقيل إنه قوي الشخصية وذكي، لكنه لم يكن يملك وقتاً لهذا الهراء.. ليس رائق البال حتى يتفرغ للحكم على نفسه.. إنه موجود وكفى .

ربما بدأ كل شيء في ذلك اليوم الذي طلب منه فيه توصيل بقالة
لبيت في الضاحية التي يقيم بها.. كانت التاسعة مساءً، والمشوار
كان طويلًا علي الدراجة.. الطقس صيفي جميل يوحى بالحب، أو
الحنين للحب، أو الحزن لأنك لا تجد الحب.. المهم أن هناك حبًا في
الموضوع .

القمر كبير يحتل السماء.. يوشك ألا يترك أي مكان فارغ من حوله..
السماء كلها قرص قمر كبير أحمر، ولا شك أن مشهد الفتى علي
الدراجة كان يشبه لقطة من فيلم «إي تي»، لكنه لم يكن قد خطر
على ذهن مخرجه بعد .

أخيرًا بلغ المنزل الذي وقف وحيدًا وسط التلال المظلمة.. كانت هناك
نافذة مضاءة وحديقة غير مهندمة.. لم يكن المشهد محببًا، لكن
«حيريمي» في ذلك الوقت لم يكن يعتقد بوجود مصاصي الدماء.. لم
يكن يعتقد بوجود شيء علي الإطلاق.. لا يوجد خطر أكثر من
عصابات الشباب في المنطقة .

مسز «جونز» هي التي اتصلت .

مسز «جونز» هي التي طلبت البقالة .

كانت هناك أغنية شهيرة تقول: «أنا ومسز جونز نتقاسم هذا
الشعور.. نعرف أنه خطأ، لكنه شعور قوي جدًا» .

راح يدندن هذه الأغنية بصوت خفيض وهو يقرع الجرس .

ومن الداخل جاء الصوت الناعم المنوم :

- ادفع الباب وادخل !

*

انحنى «ك» يتفحص المعصم .

كان هناك هذان الثعبانان اللذان يلتفان حول بعضهما، وكل واحد
يلتهم ذيل الآخر.. وشم جميل جدًا .

قال «ك» وهو يتنفس بصعوبة بسبب الحر والقناع السميك :

- هذا جديد.. لم أره من قبل.. يبدو كأنه شعار تعارف جديد بينهم..
فلنفحص باقي الجثث .

وراح الرجال يفتشون.. لم يكن الوقت كافيًا إلا لرؤية معصمين قبل قدوم الشرطة .

صوت السرينة من بعيد.. فلنسرع .

حمل أحدهم الفتاة التي لم تعد ساقاها تصلحان لحملها، وقد لفوا جسدها العاري في ملاءة، وحمل آخر جثة زميلهم .

هناك من أفرغ عدة زجاجات من الكيروسين وأشعل لهبًا .. لا شيء كالنار يخفي التفاصيل.. لا شيء كالنار يجعل معرفة ما دار مستحيلة .

كانت السيارات «الفان» تقف هناك تحت الأشجار، وسرعان ما امتلأت .. كان السائقون يعرفون ما ينبغي عمله، وسرعان ما انطلقت السيارات إلى طريق جانبي .

سوف يجد رجال الشرطة مذبحة عجيبة، ولن يعرفوا السبب أبدًا .

سوف نقيم الليلة حفل تأبين لـ«جوناثان».. مئة فريدة هي أن تستشهد وأنت تقاتل مصاص دماء، لكن «جوناثان» فعل هذا.. فليلن تكريمًا عظيمًا .

كان «ك» مشغولًا .

كان يمسك بمفكرة ويرسم على صفحاتها بخط سريع كروكيًا لا بأس به لشعار الثعبانين الذي رآه، وقال مفكرًا :

- جماعة الثعبانين المتصارعين! اسم موجٍ !

*

عندما دخل «جيريمي» البيت سمع مسز «جونز» تقول من مكان ما :

- أنا في الحمام .

خفق قلبه.. يبدو أن الأغنية صادقة أكثر من اللازم .

- أرجوك أن تضع البقالة على المنضدة وتنتظر .

كان البيت من الداخل شبه مظلم.. لا ينيره سوى مصباح واهن في السقف، وهناك أثاث قليل جدًا.. ثمة رائحة غامضة لن ينساها للأبد .

وضع البقالة كما طلبت، ووقف ينظر إلى الجدار .

كانت هناك لوحة معقدة مليئة بالتفاصيل تمثل وجهًا بشريًا يتمزق..
يصرخ ...

بدأت له لوحة غريبة فعلاً كي يعلقها المرء، وتوقف أمامها وقتًا طويلاً..
كانت هذه هي اللحظة التي انغرست فيها الإبرة في عنقه.. سقط
على الأرض وهو يجاهد لاستخراجها، وهنا أدرك أن مسز «جونز»
تجثم فوقه، وأنها قوية جدًا، وأن أنفاسها كريهة الرائحة، وأن شكلها
لا يريح بتاتاً ...

لقد هاجمته من الخلف، وكانت خفيفة الحركة كقط، لكن وزنها لم
يكن وزن قط .

فيما بعد، عرف رجال الشرطة أن المحقق كان يحوي منوماً قوياً هو
«الباربيتورات» قصيرة المفعول، لكن ما لم تعرفه مسز «جونز» هو
أن «جيريمي» مدمن مخدرات.. كل شاب غربي تقريباً كان مدمن
مخدرات في ذلك الوقت، وكانت لهذا الوضع المؤسي مزية واحدة
هي أن المخدر في المحقق لم يؤثر فيه تقريباً .

عندما جثمت فوق صدره كانت تضحك في جنون، وكانت تمسك
بموسى كموسى الحلاقة وتبحث عن وريد رقبتة.. هنا استطاع أن
ينزع الموسى منها ويُلقى بها أرضاً.. لا يعرف ما حدث لها بعد ذلك .

لا بد أنه استغرق شهراً حتي بلغ الباب وهو يصرخ.. ولما استطاع
ركوب دراجته راح يصرخ باحثاً عن أي رجل شرطة .

*

«جيريمي» لم يكن يعتقد بوجود مصاصي الدماء .

في المستشفى فحصوه، ووجدوا أن جروحه سطحية، ووجه له
رجال الشرطة أسئلة، وجعلوه يحكي قصته ثلاث مرّات. كل شيء
في الموقع كان يؤكد صدق قصته.. الجديد هنا هو أن العجوز ماتت..
لا يذكر أنه قتلها، لكن من الجلي أنه فعل .

«جيريمي» لم يكن يعتقد بوجود مصاصي الدماء .

لكن ذلك الرجل الغريب الذي جاءه في المستشفى غير الكثير من
المفاهيم، وبالتأكيد لم يعد واقفاً على ذات الأرض السابقة .

كان الرجل يضع شارباً كئياً عجبياً، ويلبس نظارة سوداء، وفيما بعد

عرف «جيريمي» أن هذا المظهر الغريب سببه ببساطة أن كل هذا تنكر. لا توجد شوارب مستعارة متقنة أبدًا لو أردت رأيي .

كان هذا هو «ك» كما رآه أول مرّة.. وسوف يعرف فيما بعد أنه يتخذ أسماء كثيرة، لكن في كل مرّة يبدأ الاسم بحرف «ك».

في استقبال المستشفى كانوا يفحصون «جيريمي»، عندما دنا ذلك الرجل منه وحيّاه بسماحة، وقال بصوت خفيض، وهو يجلس جواره على طرف المحفة :

- اسمي «كيث».. عرفت من الشرطة قصتك.. أنت تعرف كما أعرف أن من هاجمتك مصاصة دماء.. مندهش؟ هذا من حقك.. لكن دعنيؤكد لك أن مصاصي الدماء لا يدخلون من النوافذ على شكل وطاويط، ولا يغرسون أنيابهم في عنقك.. إنهم يحقنونك بمنوم ثم يحدثون جرحًا في عنقك بالموسى ويشربون دمك كله.. لا تُصدق؟ ليكن ...

ثم أخرج بطاقة عليها رقما هاتف، وقال :

- إذا رغبت في مساعدتي على إبادة هؤلاء القوم فلتتصل بي .

*

عندما اتصل «جيريمي» بعد أيام بـ«كيث» وتم اللقاء، عرف أشياء كثيرة .

إن هؤلاء القوم ينتشرون يومًا بعد يوم.. صارت لهم أحياءهم وحاناتهم وشعائرتهم شبه الدينية.. المشكلة أنك لا تعرفهم أبدًا إلا عندما يموت واحد منهم برصاصة فضية فيخرج دخان كثيف من جسده.. هذه ظاهرة لم نعرف تفسيرها العلمي بعد.. ثمة امتزاج عجيب بين العلمي والميتافيزيقي هنا .

قال «جيريمي» في حيرة، وهو مستعد لأن يفر لو شك في أن الرجل يكذب :

- ولماذا أنا بالذات؟

قال «ك» وهو يشعل لفافة تبغ :

- نحن مجموعة من الرجال ننفذ القانون بأيدينا .. «vigilante».. نحن نقتل مصاصي الدماء .

- كم عددكم؟

- لا تعليق .

- ومن يمولكم؟

- لدينا من يدركون خطر المشكلة ويتبرعون .

- وكيف تختارون الأعضاء؟

- طريقة اختيارنا للعضو الجديد هي أن يكون قد التحم مع مصاص دماء وظل حياً.. هكذا نعرف أنه قوي شديد المراس، وأنه جَرَّب مشاعر الخوف، وأنه يحمل رغبة في الانتقام.. لهذا لدينا شبكة ممتازة في الإسعاف والشرطة.. نعرف بالضبط أين وجد مصاص دماء وماذا فعل.. وبالتالي نقصد الناجي ونعرض عليه أن يكون بيننا.. أنت نموذج ممتاز لهذا .

تساءل «جيريمي»:

- وماذا يرغمني على ذلك؟

- لا أحد يرغمك.. لا شيء.. فقط نحن نعتقد أن من يمر بتجربة مواجهة مصاص دماء لا يرغب في أن يمر بها شخص آخر.. رهاني هو أنك ستقبل في النهاية .

- وإن لم أفعل؟

- يجب أن تلاحظ أن هذا ليس اسمي ولا شكلي ولا مكاني ولا أرقام هاتفي.. في اللحظة التي ترفض فيها سأذوب تمامًا.. لن أوجد .

- افترض أنني حاولت أن أجدكم؟

قال «ك» باسمًا، وابتسامته ليست حديثًا هينًا :

- في هذه اللحظة تكون قد أعلنت عداوتك لنا، وسوف نعاملك كما نعامل مصاصي الدماء !

وبعد تردد لم يطل وجد «جيريمي» نفسه ينضم للجماعة التي تُطلق على نفسها «(Vampire Loathers' Club)» أو «نادي أعداء مصاصي الدماء».

كانت هناك إجراءات انضمام، لكنها رسمية جدًا ومتحضرة جدًا، لم

ترض خياله، ولم تشبه الطقوس الماسونية في شيء.. ثم
التدريبات البدنية الصارمة التي تتم في بيت في الضواحي، ودروس
الرماية ...

عرف بعض الرجال وليس جميعهم طبعًا، وعرف أن فرصة الحديث
الطويل الحميم مع «ك» لن تتكرر ثانية؛ لأن «ك» أكثر غموضًا وخطرًا
مما خيل له.. «ك» يظهر من حيث لا تدري، ويختفي حيث لا تدري..
«ك» يبدو أنه يسمع خواطرك.. «ك» يبدو كأنه محصن ولا يموت .

وكان «ك» يعرف دائمًا أين يكون مصاصو الدماء، وماذا يعملون .

وكان يقول للرجال :

- أي معلومات تتسرَّب عنكم خطر عليكم وعلى أسركم.. سوف
يحاول هؤلاء الانتقام أو الضغط عليكم.. إن السرية هي الضمان
الوحيد للأمان .

هكذا جرت الأمور، وكانت هناك عدة مواقع كالتى حكينا عنها.. لم
تكن نزهة بالتأكيد، وكان هناك قتلى بين صفوف الأخيار كأي حرب .

*

لم يكن أحد من الرجال يفكر في القتل عندما مضوا في شوارع
القرية الخالية .

كانت القرية مهجورة منذ عقود، فلا تدخلها سوى العواصف الرملية،
وكانت العقارب تمرح بحرية تامة، كما أن هناك الكثير من الأعشاب
الصحراوية الجافة التي تذروها الرياح والصار .

لكن الجميع كانوا يعرفون أن مصاصي الدماء اختاروا هذه القرية
للعودة بغرائسهم أو التخطيط لعملياتهم. فقط لا يوجد أحد منهم
الآن.. هذا مؤكد .

«ك» كذلك كان يحب أن يلتقي برجاله في ذات القرية.. إنها خارج
القانون وخارج التاريخ .

يمكنك أن ترى هنا أو هناك جثة مُعلَّقة جففتها الشمس وتسلت
عليها العقبان، فلا تعرف أبدًا إن كانت جثة مصاص دماء أو جثة واحد
من أعداء مصاصي الدماء .

الحانة ...

ركل أحد الرجال الباب العتيق الذي يفتح وينغلق على طريقة «جناح الخفاش»، فتطير الغبار.. ثم سلط الرجال كشافاتهم على جوانب المكان وعلى السقف.. تعلم أن تنظر إلى السقف دائماً كلما دخلت مكاناً جديداً.. من نسوا هذه القاعدة لم يظلوا أحياء طويلاً .

هناك كان «ك» يقف خلف البار في مكان الساقى، وكان يضع مصباحاً صغيراً أمامه.. هذه المرة كان يلف رأسه بالأربطة كالموميا.. وكان اسمه «كالفين» اليوم .

- هل جاء الجميع؟

- لا. هناك سيارة لم تصل بعد .

نظر إلى ساعته وأطلق سبة، ثم قال :

- لن نستطيع البقاء هنا للأبد.. سوف نبدأ الاجتماع .

كان المشهد مهيباً رهيباً إذ تناثر الرجال على المناضد المتهاكة المغبرة التي مرت عليها عدة عقود بلا استعمال، وفوق كل منضدة وضعوا مصباحاً صغيراً يخفي أكثر مما يظهر، بينما وقف عدة رجال حول كل مداخل المكان وهم يحملون أسلحتهم في أوضاع احترافية لا تأتي من هواة أبداً .

قال «ك» وهو ينظر إلى رجاله في الظلال :

- كما قلت لكم، فقد أطلق مصاصو الدماء على أنفسهم اسم «جماعة الثعبانين المتصارعين».. وصار لهم وشم مميز على المعصم.. هذا يجعل البحث عنهم أسهل حتى لو لم تروا الوشم، فلماذا يحرص رجل على أن يلبس كمين طويلين في الصيف والحر؟ هذا يضيق الدائرة .

ثم أضاف وهو ينظر إلى أوراقه :

- هناك نوع من السفر المنتظم إلى أحد بلدان الشرق الأوسط، وهو مصر على الأرجح.. إن هؤلاء القوم ذاهبون إلى مناسبة ما، وعلينا أن نعرف هذه المناسبة.. تخميني الخاص هو أن الأمر يتعلق بالربة «سخمت».. هناك لون من الطقوس لا شك فيه .

ثم نظر في الظلام من حوله وتساءل :

- نحن لا نعمل حسب قواعد ديمقراطية، بل نحن أقرب إلى وحدة عسكرية تنفذ ما يُطلب منها، لكن القرار في هذه المرة سيكون

صعبًا ويحتاج إلى عدة رؤوس.. هل نرسل مجموعة منا إلى مصر؟
كانت نتيجة التصويت قاطعة .

لا شأن لنا بهؤلاء الذين ذهبوا إلى مصر.. لا نملك الموارد للسفر، ولو
سافرنا فلن نجدهم.. إن مجال عملنا في الولايات وسيظل كذلك .

قال «ك» وهو يجمع أوراق التصويت التي اتخذت شكل كومة
قصاصات على المنضدة :

.. إذن سوف نفترق.. ونلتزم بنفس أسلوب العمل القديم .

هنا سمع الجميع صوت زجاج يتهشم، فلم يصدق أحد أنه ما زال
هناك زجاج في هذا المكان .

يبدو أن هناك نافذة، وأن هناك من اقتحمها .

*

يرى كثير من المهتمين بتاريخ مصاصي الدماء أن الأسطورة ولدت
في مصر بالذات.. لا أعرف صحة هذا، لكنهم يؤمنون بأنه صحيح
ودقيق تمامًا. هذه أشياء لا يحكونها في كتب التاريخ التي تجدها
في المدارس ودور العلم، لكنك بالتأكيد تجدها في كتب العصور
الوسطى ذات الحروف القوطية والصفحات الصفرة والأطراف البالية .

كان المصريون يعبدون معبودة شنيعة اسمها «سخمت».. لا شك
في أنك تعرفها.. المرأة ذات رأس الأسد والمزاج المتقلب.. وكانت
المهمة الرئيسية لـ«سخمت» هي الحرب .. إنها «مارس» إله الحرب
الفرعوني، لكن كانت لـ«سخمت» مهمة أخرى شديدة التعقيد، هي
أنها المسؤولة عن توزيع الصحاري في مصر بأنفاسها.. ظريف جدًا
أن تتنفس فتولد الصحراء.. كما أنها كانت مسؤولة عن طمث النساء .

في الوقت ذاته كانت «سخمت» مولعة بشرب الدماء.. الدماء
البشرية طبعًا .

تحكي إحدى الأساطير عن قيام الناس بتوزيع آلاف الأوعية التي
تحتوي مزيجًا من المخدرات والبيرة والدم في طريقها.. وقد قامت
بشرب كل هذه الكميات فبدأت تهدأ قليلًا، ورقصت وانتشت .

الخلاصة على ما يبدو هي أن أول مصاص دماء يُوصف بدقة في
التاريخ البشري هو «سخمت»، وهناك من يقول إن من جعلها كذلك
هي «ليليث».. «ليليث» مصاصة الدماء العبرية الشهيرة، لكن المرء

يميل بشدة إلى أن هذا نوع من التلغيق اليهودي المعتاد، حيث يحشر اليهود تاريخهم في كل شيء !!

هناك دائماً مصاص دماء في ضمير الشعوب.. من الوحوش حمر العيون خضر الشعور في الصين.. إلى «لاميا» اليونانية التي هي امرأة وأفعى معاً.. إلى الثعالب مصاصة الدم في اليابان.. والرأس الزاحف «بينانجالانج» في ماليزيا.. في رومانيا هم «ستريجوي» من لفظة «ستريكس» التي تعني البومة، هناك «ستريجوي في» أي الساحرات الحيات اللاتي سيصرن مصاصات دماء، «ستريجوي مورت» هم موتى يعودون إلى الحياة لامتصاص دماء البشر.. الهند عامرة بأساطير مصاصي الدماء، هناك الـ«بوتا» الذي يجوب الليل ويهاجم الأحياء كالغول، بعض تلك المخلوقات لها جمجمة قابلة للنزاع لشرب الدم منها.. إلا أن أشهر مصاصة دماء هي «كالي» ذات الأربع أذرع، والتي تلبس حول عنقها جماجم الموتى، ولها أنياب حادة، يُقال إنها بهذا تهزم الإله «راكتابيجا» الذي كان يعيد التجسد من قطرة دم واحدة، لهذا تحرص علي ألا تترك أي قطرة دم.. البطيخ الذي يُترك في البيت حتى يفسد يبدأ في الحركة ويتحول إلى كائن يمتص الدم .

وماذا عن «الأساسابونسام» في غانا وساحل العاج؟ مصاص دماء يتوارى بين الأشجار، ويهاجم العابرين.. «الداشنافار» في أرمينيا، يمتص الدماء من أقدام المسافرين ليلاً.. في ألبانيا «اللوجات».. في أستراليا «يارا ما يها هو».. في بلغاريا «أوبور»، هنا نجد أنه بعد الميتات العنيفة لا تفارق الروح الجسد، إنما تجعله يغادر التربة، وهو - «الأوبور» - يهاجم أثناء النساء الماشيات في الغابة ليمتص الدم منها.. في الصين «شيانج شيه»، يخرج من جثة منتحر ويبدو بشرياً، لكنك تعرفه عندما لا يتمكن من عبور الماء.. «الفرايكولاكاس» في اليونان، الذي يأتي لدارك ويناديك بالاسم طالباً الدخول .

هناك دائماً مصاص دماء في ضمير الشعوب.. وهناك دائماً من يحاول تخليص العالم منه.. هي دورة أبدية ...

(2)

عندما نهض ذلك الشيء أدركوا أنه يبدو بشرياً .

فقط كان أضخم من اللازم، وفي عينيه نظرة نارية مخيفة، وعندما نهض وسط الزجاج المهشم أدرك الرجال أنه ليس طبيعياً، وأن فرصتهم في القضاء عليه واهية .

- الرصاص! الطلقات الفضية! لا تدخروا !

كذا صاح «ك»، ولم يكن الرجال ينتظرون أوامره على كل حال .

انهمرت الطلقات على هذا المسخ، لكنه كان يتلوى وينهض ويتحرك بين الرجال بحرية تامة.. ثم إنه وثب على حلق أحدهم فمزقه، ووثب على ظهر آخر فتعلق به، وأنشبت أنيابه في قفاه... بالطبع مزقت الطلقات هذا الحمال البائس .

«ك» - الذي اسمه «كالفين» اليوم - كان يراقب الموقف في توتر، حيث وقف في وضع متحفز خلف البار.. في كل لحظة كان يدرك أن هناك تطوراً غير مسبوق، لكنه على الأقل كان يختلف عن الرجال في أنه يعرف ما يدور حقاً ويعرف ما هذا .

«جانجريل».. لقد صار مصاصو الدماء يضمون بين ظهرانيهم «جانجريل»!
*

قال «ك» لرجاله بعدما هربوا :

- لن نقدر على تجاهل الحقائق للأبد.. ما رأيناه في هذه القاعة وما قتلناه ومزق بعضنا كان «جانجريل».. إن هؤلاء القوم يتبدلون بسرعة .

«جيريمي» كان أول من حطم نطاق الصمت، فسأل :

- ما هو «الجانجريل»؟

لم يكن «جيريمي» يخشى أن يبدو غيباً، لذا كان يظفر بالإجابات كلها .

قال «ك» :«

- «الجانجريل» (Gangrel) نوع من مصاصي الدماء يفضل الأماكن المقفرة، ولهم قدرة فائقة على تغيير الشكل إلى ذئب أو وطواط.. إنهم يحبون معاشرة الحيوانات الضارية لأن هذا يناسب طبيعتهم أكثر.. مع الوقت ينمو لهم شيء حيواني مثل عين القط أو الفراء أو أذن الوطواط.. معنى أن هناك واحداً منهم ضمن «جماعة الثعبانين المتصارعين» فهناك تطور لا شك فيه.. إن «الجانجريل» أقوى كما لاحظتم، بل هو أقوى من الطلقات ذاتها !

- وماذا نفعل؟

فكر «ك» للحظات وهو يعيد ربط لفافات المومياة حول عنقه، وقال :
- سوف نقبع هنا وننتظر .

- من أين جاء هؤلاء الجُدد؟

قال «ك» وهو يشعل لفافة تبغ بدا مظهرها غريبًا وهي تبرز وحدها من بين الأربطة :

- بدأ كل شيء مع تلك الهجرة إلى مصر.. نحن لا نعرف على وجه التحقيق ما يدور هناك، لكن الدلائل تخبرني بأنهم يجمعون آثار «سخمت».. تقول القصة إن الفراعنة حاولوا الثورة ضد «رع» مما دفعه للانتقام.. هكذا أرسل لهم «سخمت» المخيفة التي لها رأس لبؤة، والتي راحت تبحث عن كل من يحمل في قلبه حلمًا شريرًا أو يفكر في أشياء تغضب «رع».. كانت طريقته للعقاب هي شرب الدم.. عندما قررت الآلهة أن العقاب كافٍ كان من المستحيل أن توقف «سخمت» عند حد.. لقد أدمنت دم البشر.. قرر «رع» أن يتصرف، فأعد لها مشروبًا مسكرًا قويًا مزج بالدم، وأمر بأن يسكبوه في طريقها بينما هي عائدة.. رأت ما حسبته دمًا فشربته في نهم فسكرت ولم تعد تفكر في مص دماء البشر. البعض يعتبر هذه القصة أكذوبة.. بمعنى أن الفراعنة لم يحكوا عن شيء كهذا.. بعبارة أدق: هي أسطورة أن هناك أسطورة بهذا الشكل .

- عامة لا بد لكل من يهتم بتاريخ مصاصي الدماء أن يبدأ بمصر.. واعتقادي الخاص أن هؤلاء القوم وجدوا شيئًا له تأثير سحري.. والنتيجة هي هذا التطور.. يزدادون قوة.. يتحورون.. إن «VLC» تواجه تحديًا حقيقيًا .

تبادل الرجال النظرات في رعب.. ترى ماذا يدور في مصر بالضبط؟

*

كان عفيفي، المرشد الشاب، لا يشعر براحة لدى تعامله مع هؤلاء القوم .

كان قد تعامل مع أمريكيين كثيرين، ويعرف جيدًا أنهم قوم ظرفاء أقرب للشاشة، لكنه لم يحب هذه المجموعة من الأمريكيين الخمسة الذين جاءوا للسياحة.. والذين يقيمون في فندق «نفرتيتي» بالأقصر. إنهم يخفون عيونهم دومًا وراء نظارات سوداء، ووجوههم متصلبة مليئة بالتجاعيد، وشعرهم منتصب يذكرك بأشواك القنفذ.. كذلك هم لا يفهمون الدعابة أبدًا .

لكن العمل هو العمل، ولا مجال للمزاح في أمور كهذه .

لاحظ شيئاً غريباً آخر، هو أنهم جميعاً تقريباً يحملون نفس الوشم على المعصم.. لم يُتَحَ له أن يدرسه بدقة لكنه يُذكرُك بالثعابين .

فقط في السهرات كان هناك جو من المرح، وقد أعطاه أحدهم بعض أقراص «الغاليوم»، ولم يكن عفيفي من الذين يرفضون المخدرات لذا ابتلع بعضها.. تغلب على نفوره الطبيعي منهم وجرب القرص .

بعد يومين أعطوه قرصاً آخر غريباً، وخطر له أن يجرب أحدث ابتكارات الكيمياء القادمة من بلاد الفرنجة .

كانت النتيجة تفوق الخيال فعلاً .

قال له واحد من هؤلاء القوم :

- لو وجدت زبائن لهذا الصنف فلسوف نكافئك بسخاء .

سأله عفيفي عن اسم هذا العقار الفريد، فقال :

- هذه أشياء لا تُقال .

لكن عفيفي على كل حال تفحص القرص جيداً، ثم استخدم عدسة ليقراً الحروف المنقوشة عليه، فقرأ لفظة «نرفونورم».. «نرفونورم»؟ لم يسمع قط عن مخدر بهذا الاسم، لكن عنوانه يوحي بأنه يعيد اتزان الجهاز العصبي.. ليكن .

أولى العلامات المقلقة كانت عندما دخل السينما مع خطيبته.. وقد ظلت خطيبته منى جالسة تفرقز اللب لمدة نصف ساعة، ثم اضطرت للذهاب إلى الحمام.. هكذا نهضت.. ولم يكن أخوها معها في تلك الليلة لأن الأهل بدأوا يعاملونهما كمتزوجين فعلاً.. تركت عفيفي في مقعده كما هو، ومضت تشق طريقها في الظلام .

عندما عادت ضلت طريقها بين المقاعد لأن أحداث الفيلم كانت في الليل فقط.. كاتب السيناريو الأحمق صمم أن يجعل اللقطة «ليل - خارجي» وهي في الحمام! مضت تشق طريقها وهي تحاول ألا تكسر ساقها.. دور السينما من هذا الطراز ليست بها أضواء أرضية.. هكذا راحت تتحسس طريقها وهي تسب وتلعن .

فجأة رأت الجمرتين .

كانتا جمرتين ملتئهبتين فعلاً، لكنهما على ارتفاع متر عن الأرض..
خيل لها للحظة أنهما عقبا سيجارتين، لكن من الغريب أن يشعل
اثنان سيجارتين متقاربتين لهذه الدرجة.. ثم إنها لا ترى أي دخان !

أخيراً أشرق النهار في الفيلم، وغمر الضوء الصالة .

عندها انطفأت الجمرتان، وأدركت منى أنها في مكان متقدم عن
مكان عفيفي، وأنها كانت تنظر إلى الخلف بحثاً عنه.. لقد انطفأت
الجمرتان.. وعندها فهمت أنهما عينا خطيبها !

قالت منى لأختها فيما بعد :

- لم يكن هناك أي انعكاس من الشاشة عندما حدث هذا.. من أين
جاء ذلك الوهج في عينيه؟! أكاد أقسم أنهما كانتا تشعان النور ولا
تعكسانه !

قالت أختها في ضيق :

- لو كان هذا ما تقصدين بغرابة الأطوار، فأنت تضيعين وقتك ووقتي .

ضمت أصابعها في شكل قمع بمعنى «اصبري»، وأردفت :

- انتظري قليلاً.. الأمور ليست بهذه البساطة .

*

ازدادت الأمور غرابة في ذلك اليوم الذي خرجت فيه معه يشتريان
بعض لوازم البيت.. هناك أشياء عجيبة تثب إلى ذهنك فجأة.. سلة
المهملات.. أهم جزء في البيت لا تذكره إلا بعد فوات الأوان.. ماذا
عن الملاحظات؟

كانا يمشيان في وسط المدينة وسط الزحام، ويبدو أنه كان منهما
في الكلام حتى لم ير تلك الدراجة البخارية التي تندفع نحوه.. في
اللحظة التالية تلقى ضربة قوية على مؤخرة ظهره.. ربما أسفل
عنقه كذلك .

صرخت منى، ونظرت نحو راكب الدراجة.. كان ينطلق الآن بأقصى
سرعة مبتعداً نحو نهاية الشارع ليغيب وسط الزحام .

فيما بعد، قال الشهود إن لوحة أرقام الدراجة البخارية كانت
ممسوحة، ومن المستحيل قراءة ما عليها .

لم تستغرق منى وقتًا مع هذه التفاصيل لأنها ركعت جوار خطيبها صارخة.. تجمّع الناس حولهما.. الفتى يئن ألمًا وقد سقط على الأرض.. لقد انفتح زر قميصه وهذا شيء نادر.. يمكنها أن ترى بطنه .

للحظة خيل لها أنها ترى فراء.. ليس شعرًا كثيفًا، بل فراء .

هي ليست طفلًا.. عرفت طفلًا يصير على أن ما يغطي القط هو ريش، لكنها لن ترتكب هذا الخطأ.. ما رأيته هو بقعة صغيرة بحجم الكف ينمو فيها فراء بني اللون كثيف .

في الثانية التالية امتدت يده لتغلق الزر وعاد يئن.. الغريب أنه كان سليمًا.. منهكًا لكنه سليم.. نهض يتحسس عنقه وأطلق بعض عبارات السباب على هذا المجنون .

- الشوارع لم تعد آمنة.. أولاد الحرام في كل مكان .

قالها أحد الواقفين متصعبًا .

سألته وهي تساعد على النهوض :

- هل أنت بخير؟

قال الرجل المتحمس :

- مستحيل! لقد سمعت صوت الضربة.. لا بد أن شيئًا تهشم .

لكن عفيفي قال في حزم :

- أنا بخير.. لا تقلقوا.. لم تحقق الضربة هدفها .

ثم نهض وقد بدا مذهولًا من كل هذا الزحام، وقال لها أمرًا :

- فلنذهب .

وسرعان ما ابتعدا وسط دھول الناس.. فقط سمعت الرجل إياه يكرر :

- سبحان الله! سمعت الضربة فحسبت أن عنقه طارت عن كتفيه،
وها هو ذا يمشي على قدميه !

- الأعمار بيد الله .

كانا قد ابتعدا بما يكفي، فسألته في قلق :

- متأكد من أنك لا تحتاج للذهاب إلى المستشفى؟ يقولون إن إصابات الرأس هذه قد ينهض منها المصاب شاعراً بأنه بخير، ثم يكون الارتجاج الذي يظهر بعد ساعات .

قال في ضيق :

- أنت لست طبيبة وأنا كذلك.. دعينا نتصرف على أساس ما نراه.. أنا بخير .

عادت تسأله في إلحاح وهي ترتجف :

- لماذا ضربك؟

- لا أعرف .

- لقد كانت ضربة محكمة خُطط لها من قبل.. لا تقل لي إن هذه مصادفة .

قال بضيق يتزايد :

- ابن حرام كما قال ذلك الرجل .

- أولاد الحرام لا يجوبون الشوارع بدراجات بخارية يضربون الأبرياء على رؤوسهم.. هذا الرجل يعرفك وأراد إيذاءك .

- وأنا بلا أعداء.. ليست لديّ أدنى فكرة عن شخصه ولا غرضه .

*

كان الأمريكيون قد جاءوا إلى القاهرة اليوم بعد أن أنهوا مهمتهم في الأقصر.. عفيفي قدّم لهم خدمات عظيمة ومهمة جداً، لكنه لا يذكر حرفاً مما قام به !

في المرّة الأخيرة قابل المستر «صمويل» في تلك الكافتيريا وسط البلد.. كان «صمويل» يلبس نظارة سوداء سميقة تحجب عينيه، وكان يلبس كمين طويلين كالعادة مؤخراً. أعطاه المزيد من هذا العقار الثمين، وطلب منه أن يستعد لزيارة معبد مهم في الفيوم .

قال عفيفي إنه ممتن للرجل، لكنه بالفعل لا يريد الاستمرار في خدمتهم.. هو غير مستريح، ولا يحب ما يقومون به .

هنا خطرت له للمرّة الأولى فكرة الاستعانة بالشرطة .

الفكرة تألقت في ذهنه.. ولسبب ما يبدو أنها وصلت إلى المستر «صمويل». كيف عرف المستر «صمويل»؟ لا نعرف. كيف عرف عفيفي؟ لا نعرف أيضًا .

فقط تعبير قاسٍ بدا على وجه الأمريكي .

وعندما تلقى عفيفي تلك الضربة من راكب دراجة بخارية، فإن بوسعه أن يخمن تقريبًا من فعل هذا ومن أرسله.. هناك من يحاول منعه من الاتصال برجال الشرطة.. تعرف من طبعًا .

هؤلاء الرجال يقومون بعمل ضد القانون .

المشكلة أنه لا يستطيع الفكّ، ولا يستطيع إلا أن يضم لهم آخرين.. فيما بعد سوف تنضم منى إلى هؤلاء القوم لأنه سيغريها بابتلاع العقار الغريب، لكن لا داعي لهذا الاستطراد الآن .

(3)

خذوا الحذر.. أغلقوا الأبواب جيدًا.. ليعد أولادكم مبكرًا .. لا تتأخروا خارج الديار.. لا تجتازوا أزقة مظلمة ...

جرائم غامضة لا يعرفها المجتمع المصري، ولم يعرفها من قبل .

هذا ما تتكلم عنه الصحف .

القتل الطقسي وجثث خالية من الدماء.. العدد يتزايد.. لا شك في هذا .

نصيحتي للفتيات هنا هي: عندما تكتشفين رقعة من الفراء في جلد خطيبك القادم فلا تردددي في فسخ الخطبة.. لا مجال للمجاملات هنا .

وكما نعرف، تتأخر الأخبار كثيرًا حتى تصل إلى الولايات المتحدة.. إنها تتحرك باتجاه واحد من عندهم نحونا، لكنها تتأخر جدًا عندما تتحرك من عندنا نحوهم .

استغرق الأمر نصف شهر حتى قرأ «ك» الصحف، وعرف أن هناك شيئًا ما يحدث في مصر .

وكان أقدر من غيره على التفسير طبعًا .

*

كان هناك طفلان في البناية .

طفلان مقيدان مذعوران ينتظران مصيرًا قاسيًا بلا شك .

كان الرجال الأشداء يرقدون على الأرض في الخارج، يراقبون البناية ذات الطابق الواحد التي تشع بضوء غامض هي نفسها.. ويحاولون أن يتخيلوا ما يدور بالداخل .

أشعل «ماكيلان» لفافة تبغ، لكن «ك» انتزعها من فمه في غلّ وألقاها أرضًا.. هؤلاء القوم يشمون التبغ بسهولة تامة، ويسمّعون بحدة كذلك.. لا تنسَ أن فيهم شيئًا من القبط وشيئًا من الوطاويط .

كانت الخطة قد رُسمت مسبقًا.. سوف يتسللون من نافذة صغيرة في البدروم، ومن هناك يبحثون عن مكان الطفلين.. بعد المواجهة وإنقاذ الرهينتين يفرون من الباب الخلفي ويحرقون المكان كالعادة .

وكأنهم رجال كوماندوز راح الرجال يزحفون على بطونهم نحو النافذة.. في كل لحظة يثب جسد عملاق إلى النافذة ويحشر نفسه داخلها بمعجزة ما .

«ك» يُدعى اليوم «كارلوس»، وهو يحمل «قراييه» محشوة بطلقات الفضة.. يلبس على وجهه قناعًا من أقنعة لعب البيسبول. لا بد أن خزانة ثياب هذا الرجل حديرة بالمشاهدة .

وبدأ التسلل ...

هناك شيء ينساه من يكتبون قصص المغامرات أو أفلام الأكشن، وهذا الشيء هو أن هؤلاء بشر ومثاناتهم تمتلئ بالبول .

شعر «جيريمي» بأن مثانته توشك على الانفجار، لذا لم يستطع أن يعبر النافذة مع من عبروا .

زحف وسط الأعشاب.. زحف حتى بلغ شجرة قريبة ووقف تحتها.. اضطر لنزع القفاز وراح يهز ساقه في عصبية محاولًا أن يرغم مثانته على أن تفرغ بسرعة أكبر .

شششششش !

الماء يتدفق ...

في الداخل كان الرجال يزحفون بين الممرات وهم يفتشون.. بالطبع كان أول شيء ينظرون إليه هو السقف.. إن مشهد مصاص دماء يتعلق بالسقف في وضع «X» هو مشهد لا يمكن نسيانه، ولا تتكلم عن الرعب أبدًا إن لم تره.. فجأة يهوي فوقك كما يحدث مع برص وهنت ممصاته.. وعندها ...

هل لا يوجد أحد هنا؟

كانت البناية ناديًا ليليًا حقيرًا منذ أعوام، ثم صارت مهجورة.. لهذا كان معظم الرجال يحملون المشاعل لأنه لا كهرباء هنا، وكانوا يكممون أنوفهم إلقاء للعدوى الفطرية التي تسببها فضلات الوطاويط.. مَنْ يعرفون الوطاويط يعرفون داء «الهستوبلازما» الذي يدمر الرئتين تدميرًا .

ششششش !

ما زالت مthane «جيريمي» مليئة .

وعندما بدأت القطرات الأخيرة تتساقط منه رفع رأسه نحو البناية .

هنا رأى شيئًا غريبًا ...

كان مصاصو الدماء يركضون بسرعة، وبكفاءة لا توصف، يغلقون كل ثغرات البناية .

الباب قاموا بتثبيتته بوتر غليظ، ثم أغلقوا النوافذ عن طريق مسامير يثبتونها على حواف النافذة ثم يربطون الجنازير بينها .

ولم يفهم «جيريمي» معنى هذا، سوى أنه أدرك أن زملاءه حُبسوا بالداخل وهو صار وحيدًا بالخارج.. أين «ك»؟

في الداخل استغرق الرجال وقتًا طويلًا حتى يفهموا عندما صرخ أحدهم :

- رائحة غاز «البيوتان» !

وصرخ آخر :

- ألقوا بالمشاعل !

- بل أطفئوها يا أحمق !

وعلى الفور دَوَّت الانفجارات من عدة أماكن.. ثم اشتعلت البناية كلها كأنها جريدة تحترق .

وسمع «حيريمي» الصرخات، وسمع صوت الدقات الصارمة على الباب.. كانوا يحترقون.. مثل الكابوريا. كانت أمه تطهو بعض الكابوريا الحية في طفولته، وسمع صوت دقات الكائنات التعسة على الإناء طالبة الخروج.. هذا هو.. يتكرر .

يتكرر للأبد ...

صرخ «حيريمي»، ثم سقط على العشب ودفن وجهه في الوحل الرطب .

كان هذا كمينًا محكمًا.. كمينًا موفقًا.. انتظروا حتى دخل الرجال كلهم البناية ثم أغلقوها بإحكام، وبالطبع كانت هناك أكثر من أسطوانة غاز «بيوتان» مفتوحة، مع العلم أن المشاعل ستكون طريقتهم.. نادي أعداء مصاصي الدماء يستعمل المشاعل دومًا.. وبالطبع كانت أنوفهم مكمنة لذا لم يشموا رائحة الغاز إلا في وقت متأخر .

الرجال يحترقون.. يحترقون ...

ولكن أين «ك»؟ هل مات؟

*

قال لهم «حيريمي» وهو يفتح الكيس :

- معذرة! لكن على كل منكم أن يمد يده في الكيس ويُخرج شيئًا .

في حيرة نظروا إليه.. كان عددهم عشرة رجال، وكانوا أشداء ذوي ملامح صلبة.. لكن الشك والضوء المتراقص من اللهب جعلهم أقرب إلى الأشباح .

مد أولهم يده في الكيس وأخرج شيئًا.. رأس ثوم كبيرة بيضاء ذات «خرفشة» قوية .

- ما معنى هذا؟

قال «حيريمي» وهو يصوب المسدس نحوهم ويده ترتجف قليلًا :

- هذا هو الاختبار الذي تعلمته من «ك» لمعرفة هل من مصاص دماء بيننا .

قال أحد الرجال في سخرية :

- كُف عن هذا السخف يا فتى.. هذا كلام فارغ تحبه السينما !

قال «حيريمي» وهو لا يبعد المسدس :

- الملاحظ أن مصاصي الدماء الذين جاءوا نتيجة الوباء لا يتحملون
الثوم.. إن الوباء يقلد الأساطير بعناية .

دار الكيس، فالتقط ثاني الرجال رأس ثوم وشمها، بل إنه على
سبيل الدعاية دسها بين أسنانه والتقط فصاً راح يلوكه في استمتاع .

الرجل الثالث التقط رأساً.. فلما جاء دور الرابع، وكان مزارعاً قوي
البنيان له عنق لوحته الشمس قال وهو يبعد الكيس :

- لا أريد.. هذا اختبار سخيف !

قال «حيريمي» :

- يجب.. إذا أردت أن تكون منا فعليك أن تنفذ .

لقد تغيرت شخصية «حيريمي» كثيراً بعد الهول الذي رآه وبعد نجاته
.. لقد فر بمعجزة، واتصل بمن يعرفهم من رجال «VLC».. للأسف هو
لا يعرف الآخرين.. القائمة الكاملة مع «ك»، ولكن أين «ك»؟ اتصل
«حيريمي» بالرجال الذين يعرفهم، ودعاهم إلى اللقاء هنا .

قال لهم «حيريمي» وهو ينظر إليهم نظرة مخيفة ثابتة :

- هم لن يتركونا أحياء.. فهم يعرفون كل شيء عنا.. يعرفون مكاننا
وبيوتنا.. نحن في خطر.. عائلتنا في خطر.. زوجتك مهددة الآن لو
فتحت الباب.. ابنتك لن تذهب إلى المدرسة وحدها.. أبوك المسن لا
يستطيع أن يفتح النافذة ليلاً.. الجواب الوحيد هو أن علينا أن نعيد
تشكيل نادي أعداء مصاصي الدماء .

بعد تردد قبل الرجال.. كانوا أشداء خبروا العالم وقتلوا وقتلوا، وكان
منهم أصحاب السنين، وخريجو السجون، لذا بدا لهم هذا الفتى
هشاً جداً حديث السن جداً.. كان التردد قاتلاً .

- يجب أن تفعل.. يجب أن تمد يدك في الكيس .

هز الرجل رأسه في لامبالاة .

ألقي بالكيس أرضًا، واستدار برغم المسدس المصوب إلى ظهره، وفجأة رأوه يلتفت مسرعًا، ويفتح فاه عن آخره.. رباه!! إن ما يخرج من فمه ليس بلسان، بل هو أقرب إلى أفعوان ذي ممصات عديدة تخرج من رأسه، وكان وجهه قد تقلص تمامًا فصارت عيناه شقين أحمرين .

وثب في الهواء نحو «جيريمي»، لكن الطلقة أوقفته في منتصف المسافة.. الطلقة الفضية التي اخترقت جبينه.. وسقطت الجثة على الأرض تتشظى في الدم عند أقدام الرجال. نظر الرجال المذعورون إلى «جيريمي» فرأوا أنه أقرب للشيطان ذاته: جسم.. نار تتوهج في عينيه.. وقفة صخرية.. لقد انتهى عماده بالنار ليصير قاتل مصاصي دماء من الدرجة الأولى .

قال «جيريمي» :

- صبرًا.. لا يتحركن أحدكم.. رأيتم أنني محق، وأنني لا أمزح، وأن بيننا مصاصي دماء.. سوف نكمل الاختبار بالثوم حتى النهاية، وبعدها سوف نقطع الرؤوس ونحرق الجثث إن كانت هناك جثث أخرى !

*

التغير في شخصية «جيريمي» أثار دهشة من يعرفه.. هو نفسه لم يفهم قط كيف تحول من فتى مذعور خائف إلى شخصية قوية قادرة على قيادة عدة رجال أشداء، ثم أدرك أنها العناية الإلهية .. لا بد من شخص يقاوم هذا الوباء وقد اختاره الله لذلك .

لقد صار حازمًا قاسيًا.. وفي أحيان كثيرة كان أشد قسوة من أعدائه.. ففي تلك الليلة تمددت ثلاث جثث.. جثث اخترق الرصاص جباهها.. بناء على تعليمات صارمة جلس الرجال ليضعوا حزمًا من الثوم في فم كل جثة.. بدا المنظر غريبًا كأنها التفاحة التي يضعونها بين شذقي الخنزير في مآذبهم.. ثم بالمنشار ذي الصينية قطعوا الرؤوس.. وفي الخلاء سكبوا الكيروسين على الجثث وأشعلوا النار.. الدخان يتصاعد إلى عنان السماء .

لاحظ أحد الرجال أن أحشاء هؤلاء القوم تتحرك حركة ذاتية كأنها تحاول الفرار.. أطلق صرخة رعب وبدأ يرتجف، لكن «جيريمي» أوقفه في حزم، وقال وهو يستقل السيارة الأولى :

- سوف أرحل، لكن عليكم التأكد من دفن هذه الجثث .

- هل نضع قطعًا من العملات الفضية على العيون؟

- لا. هذه خرافات رومانية لا مجال لها هنا .

الحقيقة أنه كان مدينًا بشدة لـ«ك» برغم كل شيء.. كل نصائحه وتحذيراته لم ينسها، وكان ينفذها حرفيًا.. هذه نقطة قوته: إنه يعرف أسلوب «ك» وتكتيكاته.. عليك أن تغير كل شيء إذا أردت أن تظل حيًا .

*

عندما ثمل «جاكوب ماكيلان» وفقد التحكم في مشيته وفي كلماته، جاء رجلان من العاملين في الملهى الليلي.. زنجيان عملاقان لا يمكن التفاهم معهما، وألقيا به في الزقاق الخلفي.. حاول الاعتراض لكنه تلقى ركلة في وجهه.. سقط جوار علبه القمامة .

قط فر هاربًا مذعورًا .

عندما استعاد «جاكوب» أنفاسه رأى هاتين القدمين تقفان فوقه.. رفع رأسه ببطء ليرى من هنالك.. في الزقاق المظلم استطاع أن يرى هذا الوجه ذا الشعر المنتفش واللحية المشعثة، وقبل أن يفهم ما يدور كان الرجل المسربل في الظلام قد جثم على صدره، وأدرك أنه يحمل محققًا يريد أن يغرسه فيه.. لماذا؟ ليقطع وريد عنقك يا أحرق طبعًا .

نهض على ركبتيه محاولًا المقاومة، هنا سقطت علبه السجائر التي يضعها في جيبه.. السجائر انتشرت على أرض الزقاق .

هنا حدث شيء غريب لم يستطع فهمه في البداية .

لقد ترك المهاجم كل شيء كي يجمع السجائر المتناثرة.. غريب هذا! لقد رأى مدخنين مدمنين في حياته، لكنه لم ير قط هذا الحماس لجمع السجائر أثناء مشاجرة.. لا وقت للتفكير على كل حال.. مد يده لعلبة القمامة.. التقط الغطاء الثقيل.. هوى على رأس المهاجم.. مرة.. مرتين.. سقط هذا متخاذلاً .

ثم إن «جاكوب» نهض وراح يركض فارًا من المكان.. يركض وهو يترنح فليس السكر أفضل وضع تواجه به مصاص دماء في زقاق .

لكنه لم يفهم ما واجهه وإلا لمات هلعًا .

عند نهاية الزقاق فوجئ بشخص يقف في الظلال وفي فمه لفافة تبغ.. رفع الغطاء مهددًا ليهشم رأسًا آخر، لكن الواقف في الظلال

رفع كفه منذراً :

- حذار.. أنا صديق .

لم يكن هذا الواقف الذي يرخي القبعة على وجهه سوى
«جيري مي».. كان يحمل اسم «ج».

- أنت واجهت مصاص دماء.. لم تفهم هذا لكنها الحقيقة، وسوف
أشرح لك كل شيء .

قال «جاكوب» بلسان معوج :

- هذا.. لص.. لص.. يريد سجائري !

ضحك الغريب في الظلام وقال :

- لا أحد يهاجم الناس في الأزقة من أجل السجائر.. فقط السجائر
هي التي أنقذتك.. كل مصاصي الدماء عندهم وسواس قهري لهذا
لا يمكن أن يتركوا شيئاً على الأرض دون أن يجمعوه.. في أوروبا
الشرقية ينصحونك عند المرور على المقابر ليلاً أن تملأ جيوبك
بالحبوب كي تنثرها وقت الهجمة .

ثم نفث المزيد من دخان السيجارة، وقال :

- ستعرف هذا وأكثر منه فيما بعد.. فقط أنا أبحث عمن واجهوا
مصاص دماء وظلوا أحياء.. هؤلاء هم الرجال الذين أريدتهم .

- أنت تهذي !

حك «جاكوب» رأسه، ونظر إلى الجدران المظلمة ذات الرائحة
الكريهة، وقال :

- وكيف عرفت أن هذا الشيء سيهاجمني؟

في الظلام جاء صوت «جيري مي» :

- لأن «مايكل المسعور» يعمل هنا في هذا الزقاق.. أجوب هذا
الزقاق من وقت إلى آخر بحثاً عنه، واليوم كانت الفرصة ممتازة.. له
ولنا .

سمعا صوت صرخة شنيعة، ثم صوت سكين تضرب الحجر .

قال «جيري مي» وهو يمسك بيد الرجل :

لقد أنهى الرفاق قصته.. «مايكل المسعور» لم يعد له وجود ولم يعد لجسده رأس.. والآن هل تأتي معي؟

سيأتي معك بالطبع ولنر ما سيحدث ...

*

هل تريد مثلاً آخر؟ خذ عندك ...

ترجل «جاك مكديمروت» عضو الكونجرس من السيارة، ولوح بذراعه للسائق كي يأخذها إلى المرآب.. كان في العقد الخامس من عمره، يضع نظارة سوداء ويلبس بذلة أنيقة عالية الثمن.. باختصار: يبدو وغداً ومن الطراز المتورط في مئات الفضائح وقضايا الفساد.. على الأرجح لديه عشيقه في مكان ما كذلك، فالفساد يأتي في حزمة واحدة .

توقف ليشعل سيجاراً غليظاً يضيف عليه ملامح «التايكون» التي يعشقها، ثم مشى في الممر الطويل بين البنائتين قاصداً مكتب المحاماة .

احترس من هؤلاء الرجال! قلت لك أن تحترس !

تنهمر عليه الطلقات من مكان ما.. هناك خمسة رجال أحاطوا به في الممر، وأطلق اثنان الرصاص من الأمام، وأطلق ثلاثة الرصاص من الخلف.. وكان يعرف جيداً أنه لن يموت .

تحركت الدودة العملاقة الطامئة في أحشائه.. الدودة التي تشبه شجيرة تتشعب في كل شيء وتغرس ممصاتها في كل أنسجته.. يعرفها ويشعر بها منذ زمن .

لكن هناك شيئاً ليس على ما يرام.. إن الرصاص قد مزق الدودة ذاتها.. هؤلاء القوم قد عرفوا كيف يفتكون به إذن! لا بد أن هذه رصاصات فضية !

تهاوى على الأرض على ركبتيه، وتساقطت الأوراق التي يحملها. نادي أعداء مصاصي الدماء.. لا شك في هذا.. لقد ظفروا به.. سمع عنهم وعرف أساليبهم لكنه لم يتخيل أن يعرفوا سره أو يجدوه .

الرصاصات التالية أصابت رأسه.. وهكذا بدأ الظلام الأبدي العظيم وكف عن الاستنتاج .

وسرعان ما كان الرجال يركبون سيارة سوداء انطلقت تنهب الأرض نهبًا .

لقد صار مصاصو الدماء هم الطرف الأضعف والأقرب للانقراض في الفترة الأخيرة.. السبب هو أن «جيريمي» - أو «ج» - يجيد عمله فعلاً. تطور شخصية يسعد أي كاتب سيناريو في العالم .

كان يعرف أن مصاصي الدماء تغلغلوا في كل شيء، وكل مكان، وقد استعان ببعض المخبرين وبعض المحامين ليعرف فيمن يشك.. هكذا صارت هناك قضية مص دم سياسية للمرة الأولى .

صارت لديه قوائم ممتازة.. وهذه القوائم تمت تصفيتها عن طريق الثوم، وعن طريق المعاصم المغطاة، وعن طريق المراقبة.. هكذا صار لديه ثلاثون اسمًا.. ثلاثون اسمًا يجب تدميرها لينتهي الوباء .

المشكلة هي أنه يعتبر خارجًا على القانون، لذا يعتبر كل رجل شرطة عدوًا له، وفي الوقت ذاته هو مهدد في كل لحظة بأن يجده مصاصو الدماء، لذا كان يلعب ألعابًا غاية في التعقيد، ويسافر لعدة أماكن، ويبدل مسكنه، ويبدل هاتفه، وكلمات السر التي يتصل بها بالرجال .

لكنه بدأ يشعر بالخطر الحقيقي عندما ...

(4)

دخلت منى إلى الحمام وأغلقت الباب .

اتجهت للمرأة، ووقفت ترقب وجهها بعض الوقت .

لا يوجد شيء.. لم تتغير ملامحها جدًّا.. فقط اكتسبت بعض البرود واللامبالاة، كما أن هناك عروقًا واهنة تحت الجلد.. فروع شجرة زرقاء ...

وقفت تتأمل ملامحها طويلًا.. رفعت الشفة العليا لترمق لثتها .

كانت تتغير.. تعرف هذا جيدًا، وتعتقد أنه ناجم عن تلك الأقراص التي أعطائها لها عفيفي.. لقد خدعها.. الأقراص تؤدي بالتأكيد .

لماذا صارت تخشى ضوء الشمس؟ ولماذا وجدت تلك البقع المليئة بالفراء في جلد بطنها؟ لماذا تشعر بهذه الحاجة المتلظية إلى الدم؟

لقد قامت بمغامرة بسيطة، لكنها لن تكرر أبدًا .

هكذا أخرجت من جيب البيجامة ذلك الموسيقى.. وقفت تنظر إلى نفسها في ثبات.. هي لن تنتحر، بل ستقتل وحشًا.. تعرف هذا وتؤمن به. بموتها سيكون العالم مكانًا أجمل وأكثر أمنًا .

جرت بالنصل على الشريان في ساعدها.. تدفق الدم ...

لا ألم.. سوف ينتهي كل شيء سريعًا.. أغمضت عينيها وجلست على الأرض.. سوف تأتي الغيبوبة حالًا.. وسوف تكون في هذا رحمة .

ولكن.. هناك شيء غريب ...

نظرت إلى ساعدها، فرأت تلك الأطراف الهدبية تبرز من الجرح.. كأن هناك أخطبوطًا حبيسًا تحت الجلد.. برزت الأطراف الهدبية وراحت تبحث يمينًا ويسارًا، ثم راح الجرح يلتئم بشكل مخيف.. كأنها لقطة من فيلم سينمائي .

هناك شيء حبيس في جسدي.. وهذا الشيء لا يمكن القضاء عليه !

تكورت جوار الحوض، وراحت ترتجف رعبًا وتبكي .

قالت لنفسها وهي ترمق صورتها في المرآة :

- يا لهذه «السخمطة» التي أعيشها !

وانفجرت تضحك في هستيريا ومرارة، لأن الكلمة بدت لها مضحكة.. في الآن ذاته ثمة شيء مخيف هنا.. شيء يذكرك بذكرى قديمة.. قديمة لا تعي ما هي.. الواقع أن منى لا تعرف أنها تلفظ اسم «سخت» المعبودة مصاصة الدماء التي ظلت تُخيف المصريين منذ عصر الفراعنة حتى اليوم.. إنها مصدر لفظة «سخمطة» الشهيرة .

*

في هذا الوقت تقريبًا كان «حيريمي» في الطائرة المتوجهة إلى مصر، وهي رحلة دفع نفقتها بالكامل أحد أصحاب الشركات الذين يؤمنون بالخطر الزاحف على العالم .

كان يعرف منذ البداية أن شيئًا مروعًا يدور هناك، وقد تعلّم من «ك» أن «سخت» لها دور في هذه القصة .

النظرية التي كوّنوها هي أن هناك دورًا لتأثير السحر الفرعوني

الطقسي لأقدم مصاصة دماء في التاريخ.. هكذا جاء «الجانجريل» إلى العالم، وهكذا على الأرجح تعج بهم مصر .

لقد عاد كثير من مصاصي الدماء الذين ارتحلوا إلى مصر، لكنهم جميعًا بلا استثناء صاروا «جانجريل».. وهذا يعني أن شيئًا مرعبًا يجري هناك عبر المحيط الأطلنطي .

يجب أن يكون حذرًا من دون رجاله .

لكنه كان يعرف أن هذه الرحلة ضرورية، ولو لم يقم بها لانهي منه مصاصو الدماء خلال أشهر.. وقد عرف هذه الحقيقة من تجربة قاسية فعلًا .

إنه الثالث والعشرون من أبريل ...

لقد استقر «جيريمي» في القاهرة، ثم حجز رحلة نيلية إلى الأقصر .

الكرنك ...

هناك يمكنك أن تمشي في معبد «بتاح».. يمكنك أن تتأمل الجدران المتآكلة، وتفكر كم أن الكرنك معبد شديد التعقيد.. إنه عدة معابد متداخلة.. كل ديانات مصر القديمة الوثنية تركت أثرًا فيه، وكذلك كل العصور .

لا يمكن القول إن «جيريمي» كان يعرف ما يريده بالضبط هناك .

كان يعرف الثلاثية الشهيرة المكونة من «بتاح» و«سخمت» و«نفرتم».. قلب المعبد بناه «تحتمس الثالث» الغازي العظيم. هناك الكثير من لمسات البطالمة في المكان، لكنهم لم يكتبوا أسماءهم على الجدران كما هو متوقع، فقط اكتفوا بإصلاح ما تلف وتركوا الأسماء القديمة كما هي .

يلتقط صورة.. كليك ...

للأسف، لا تنطبق قواعد مصاصي الدماء كاملة على هؤلاء وإلاَّ لصارت الحياة رائعة.. هم يتحركون في النور ويظهرون في الصور.. هكذا يصعب فعلًا أن تعرف من يحيطون بك.. من يدري؟ ربما كانوا كلهم مصاصي دماء .

كان قد غير ملامحه قدر الإمكان، ووضع شاربًا كثًا، وثبت عوينات غليظة.. لا يعرف ممن يتواري.. على كل حال يعرف أن عليه أن يكون حذرًا من أي أمريكي .

قال له الدليل المصري الشاب :

- معبد «بتاح».. اكتشفه «ليجران» عام 1900 .

ثم تلفت الفتى الصعيدي الأسمر حوله وحك شعره الخشن، وقال :

- برغم هذا.. هناك أقاويل كثيرة حول هذا المكان.. قيل إن أمنا الغولة موجودة هنا بالذات.. أو أم الأساور ذات الشخايل.. لقد اختفى سبعة أطفال بلا أثر ولا تفسير، ولهذا كان العمال يكرهون الحفر في هذه المنطقة، وعندما قاموا بالحفر وجدوا... وجدوا أمنا الغولة فعلاً...

قال «حيريمي» وقد فهم المقصود :

- تمثال المرأة ذات رأس الأسد .

قال الدليل :

- «سخمت».. نعم.. لكن العثور على التمثال أراح القوم.. لقد شعروا أن «ليجران» قد صار بهذا هو سيد الغولة .

هناك خمس بوابات أضيفت فيما بعد إلى هذا المعبد .

يلتقط «حيريمي» المزيد من الصور.. كليك.. كليك ...

شعر بقشعريرة تسري في عموده الفقري .

لو كان هذا معبد «سخمت»، و«سخمت» أول مصاص دماء في التاريخ، فإن من السهل معرفة مصدر أساطير الغولة، ومعرفة ما حدث للصبية الذين اختفوا .

شيء ما مخيف حدث عام 1900 ، وربما ما زال يحدث حتى اليوم .

لو كان تقديره صائبًا، فهو في المكان الصحيح .

هنا قلب سر «سخمت» على الأرجح .

*

بعد يوم واحد ...

عند منتصف الليل مشى «حيريمي» في شوارع الأقصر شارد الذهن .

كان ناصر، الشاب الصعيدي، ينتظره هناك ليقوده عبر طرق ملتوية إلى داخل معبد الكرنك. من العسير جدًا أن تنجح في التسلل ليلاً، لكن بعون ناصر استطاع أن يفعل هذا.. وفي النهاية صار وحيداً .

.. خذ بالك.. الكرنك يمتلئ بالعفاريت ليلاً !

من السهل أن تصدق هذا. أين تذهب العفاريت إن لم يكن هنا؟

عمّ تبحث يا أحمق؟ القصة كلها أكبر منك بمراحل ...

لكنك تتحرك هنا بهدف واحد.. أنت تعرف ليلة 24 أبريل وما يحدث فيها.. ليلة القديس «جورج» التي تكلم عنها «ك».. في هذه الليلة يخرج مصاصو الدماء ليحدثوا الأهوال.. وقد كان من حسن الطالع أن الموعد كان قريباً.. طريف أن يأتي هذا التاريخ وأنت هنا بالذات.. في هذا المكان بالذات .

معبد الكرنك عملاق، ومن الممكن أن تضل طريقك هنا، دعك من أن الظلام دامس ويجمد الدم في العروق ...

كان يمسك بالكشاف، وقد لف أنامله حوله لتخرج حزمة ضوء ضعيفة.. يتحسس المسدس في حزامه والمديّة في جيبه.. يمشي وسط التماثيل والمسلات والأعمدة.. كل شيء في هذا الظلام صار شبحاً عملاقاً .

كلب أشعث متوحش يزأر بالقرب منه وقد انتصب الشعر حول عنقه .

ربما هذا ابن أوى وليس كلباً .

ليلة القديس «جورج».. ربما ليس للقديس «جورج» تأثير هنا في مصر؟

لا يدري متى ولا كيف وجد ذلك الظل يثب عليه من أعلى .

صار فوق كتفيه.. كانت أعصابه مشدودة كالوتر فأطلق صرخة مريّة، ثم أنشب مخالبه - مخالب «جيريبي» - في المهاجم.. ومن جيبه أخرج المسدس ...

كان المهاجم شرساً، لكنه خفيف الوزن، وقد استطاع «جيريبي» أن يسقطه على الأرض جوار ضوء الكشاف الواهن، وصوب المسدس على رأسه.. هنا رأى أعنف وأشرس وجه يمكن تخيله، لكنه كان وجه فتاة !

من انقض عليه في الظلام كان فتاة شبه جميلة.. واضح أنها مصرية .

لكنه عرف من عوائها واللعاب المتساقط منها وحركتها غير الآدمية أنها منهم.. إنها مصاص دماء، وإذن فرحلته الشاقة من أمريكا لم تكن مجرد حماقة .

قالت الفتاة وهي تشهق واللعاب يسيل من فمها :

- هلم! انتهِ من هذا كله.. إنك إن تقتلني تحررني .

كانت تتكلم الإنجليزية لأنها أدركت على الفور أنه ليس مصرياً، وأدرك هو القصة بلا جهد.. عذاب التحول.. إنها تنزلق في حفرة الشر، لكنها لا تريد أن تنزلق أكثر، وبرغم هذا هناك هذه الحاجة الملحة للدم.. الظماً المستعر الذي لا يرتوي أبداً .

ظل يلهث لدقيقة، وقد صوب الفوهة إلى فودها، ثم حزم أمره.. أبعد الفوهة ونهض.. إن تحولها لم يكتمل بعد، لذا كان قتلها صعباً بالفعل.. هذا ليس قتالاً بل هو قتل .

هناك جلست على الأرض جوار كشاف عملاق مكسور من كشافات المعبد، وقد أحاط بها ابن أوى أو اثنان، فبدت كأنها شيطان خرج من الأرض .

- منذ متى بدأ تحوُّلك؟

- منذ شهر .

ساد الصمت بضع لحظات.. كان يعرف القصة بالتقريب.. لكن لماذا؟

- هل تعرفين آخرين؟

أدركت على الفور أنه يعرف ما يبحث عنه، فقالت وهي تبعد الشعر اللزج عن وجهها :

- خطيبي.. صديقتي.. عددهم يزداد ...

- وكم منهم هنا هذه الليلة؟

*

: الإجابة :

كانوا يخرجون من وراء الأعمدة العملاقة .

انكمش «جيريمي» وهو يراقب واحدًا تلو آخر يمشي هناك.. يمشي في تلك الفرجة في المعبد.. يمشي حول تلك الحفرة.. يعبر هذه البقعة ربع المضيئة.. عددهم لا يقل عن عشرين.. حبس نفسه وراح يرتجف.. نظر إلى الفتاة فأدرك أنها خائفة مثله.. هذه علامة طيبة.. تحسس المسدس في عصبية.. وهناك في قلب تلك الساحة الممتدة الخالية كان الشيء يقف.. الشيء الذي يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار.. كان مسربلاً في الظلام واللون الأسود، لكن بوسعك أن تدرك أن رأسه عملاق، ولا يمكن أن يكون بشرياً.. جسد بشري فارغ.. جسد أنثى على الأرجح، لكن الرأس يختلف .

رائحة عطنة.. رائحة الدماء المسفوحة .

ثم دوى صوت الزئير الذي ارتجت له الجدران والأعمدة.. زئير أسد لا شك فيه .

«سخمت».. نحن نتكلم عن «سخمت» .

مسح دفين كان هنا منذ زمن سحيق.. مسح يخرج الليلة بالذات، وهؤلاء يعرفون الموعد، وهو يعرف الموعد.. هذا المسح هو الشيء الذي احتشد حوله مصاصو الدماء في العالم كله، وهو الذي جاء الأمريكان ليقتربوا منه.. وبعدها بدأت تغيرات جسدية تحدث للناس.. لعنة «سخمت» تعود للحياة !

أول من سمع الزئير وأصابه الذعر كانا رجلي أمن مصريين.. جلسا يشربان الشاي فرأيا السماء تتوهج بلون أحمر.. حمل كل منهما بندقيته وهرع يرى ما هنالك، وعندما اقتربا من مكان معبد «بتاح» كان الموقف قد صار أقرب إلى جهنم .

وثب شخص على ظهر كل واحد منهما، وتشبث بأنامله في صدره، وأنشب أسنانه في عنقه.. الدم تناثر في كل مكان.. وسقط الرجلان .

كان «جيريمي» ينظر في توتر إلى ذلك الشيء العملاق الواقف وحده في ساحة معبد «بتاح».. لا يبدو بتاتاً أنه يتابع ما يجري ولا يهتم به.. كان «جيريمي» يزن المسدس في يده.. طلبة نحو ذلك المسح؟ مستحيل.. لن تحدث أي أثر، ولسوف تؤدي إلى تفجير غضبه كأنه بركان .

ماذا كان سيحدث في تلك الليلة؟ لا أحد يعرف.. لكن هناك طقس

مهم كان يتضمن احتشاد مصاصي الدماء الجُدد.. لا يجرؤ على التخمين .

صرخت الفتاة فجأة كأنها ملسوعة ...

انطلقت تعدو فارة منه وهي تصرخ بلا توقف، وكانت تترنح كأنها ثملة.. كانت تركض نحو المسخ العملاق الواقف في المعبد .

- انتظري يا بلهاء !

الآن سوف يفعل الشيء الذي كان يرجئه حتى النهاية وعليه أن يقوم به.. هناك تلك القنبلة الصغيرة المعلقة إلى جوار خصره.. ربما لا تفعل شيئاً، وربما تفعل كل شيء.. والأسوأ أنها قد تدمر جزءاً من هذا المعبد.. لكن عليه أن يخاطر .

مد يده وأمسك بها .

تذكر كل مشاهد فيتنام التي رآها من قبل، وانطلق يجري نحو معبد «بتاح» قاصداً هذا المسخ الواقف.. رفع القنبلة ...

سمع مصاصي الدماء قادمين من عدة أماكن .

استعد للحظة القاسية.. وداعاً يا «سخمت» أو شبيهتها.. لا أعرف إن كانت هذه القنبلة ستحدث أثراً.. احتمال واهٍ جداً، ومعنى هذا أنني الضحية القادمة .

- وداعاً!! فلتسعد يا «ك» حيثما كنت بهذا المشهد .

واستعد لينزع الزناد ...

هنا حدث شيء غريب.. لقد استدار له وجه الأسد المفزع العملاق، والعينان الناريّتان كانتا تنظران إليه هو بالذات ...

وسمع صوتاً يتردد في ذهنه :

- أنا هو «ك»!!.. «ك» هو أنا !!

(5)

هاوية بلا قرار ...

بلا قرار!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

أريد أن أضع قدمي على شيء وبعدها أفكر .

هذا ليس عدلاً !

*

عندما ترى العالم وأنت تفيق من غيبوبة، وعندما ترى العالم من خلال وجوه زائغة تنظر إليك من أعلى، وعندما ترى العالم عندما تكبر الأشياء البعيدة وتصغر الأشياء القريبة فيما يُطلق عليه السينمائيون تأثير «دولي زوم» (Dolly zoom)... عندما يحدث هذا فأنت توشك على أن تفقد وعيك من جديد .

كانوا يحيطون به .

رأى وجوهاً سمراء شرقية الملامح، ورأى وجهاً آخر يعرفه، وسمع من يقول له بالإنجليزية :

- أنت تتعافى .

همس من بين شفتين ملتصقتين :

- «سخمت»!

جاءه صوت من يقول :

- تلك هي المشكلة .

ثم انحنى نحوه ذلك الوجه الأسمر الوسيم، ليقول له بصوت مهدئ ولكنها إنجليزية جيدة :

- يجب أن تتحرر من هذا الوهم.. أنا دكتور عفيفي محمود.. طبيب نفسي.. هل تذكر أي شيء عما حدث؟ هل تذكر سبب دخولك معبد الكرنك في تلك الليلة؟

قال بصوت مبجوح :

- لا أذكر .

ونظر إلى معصمه المضمّد.. يبدو أنه حاول الانتحار كذلك.. لكن متى؟

أشار دكتور عفيفي إلى ممرضة سمراء جميلة القسمات، وأمرها :

- منى.. أعطيه نصف أمبول من «الديازيبام».

*

في حديقة المستشفى وهو يستمتع بالنقاهاة، كان يمضي وقتًا طويلًا مع دكتور عفيفي.. دكتور عفيفي هو الذي أخبره بكل شيء :

- أنت كنت تعيش في عالم متشابك من الهلاوس، وتحدث عن منظمات سرية ومصاصي دماء.. جئت من الولايات المتحدة خصيصًا كي تواجه ما تطلق عليه تحالف مصاصي الدماء.. ربما لا تذكر أنك جئت إلى هذا المستشفى مرتين بسبب مهاجمتك أبرياء، ثم حاولت اقتحام معبد الكرنك.. ومن الواضح أنك أقحمتنا جميعًا في الهلوسة.. الممرضات.. أنا.. معارفك في الولايات المتحدة.. الجميع ...

- وهل شفيت؟

ابتلع دكتور عفيفي ريقه وقال :

- للأسف، قلنا إنك شفيت عدة مرّات وفي كل مرّة نكون مخطئين.. هناك ورقة طبية من الولايات المتحدة تزعم أن لديهم علاجًا فعالًا .
منهكًا ارتمي «جيريمي» على مقعد.. شاعرًا أن قدميه واهنتان جدًّا.. وراح يتأمل الضمادة الملفوفة حول معصمه .

«ك»، ونادي أعداء مصاصي الدماء، ومنى، والمواجهة في معبد «بتاح»، و«سحمت»... كل هذا وهم صنعه خياله؟ وقد استعمل قطع شطرنج موجودة في عالم الواقع.. دكتور عفيفي صار المرشد عفيفي.. الممرضة منى هي خطيبة عفيفي ...

فكر في هذا، وشعر أن أطنانًا فوق أطنان من الهموم تجثم على روحه.. أريد أن أتحرر.. أريد أن أرى النور .

المساء.. لقاء مندوب السفارة الأمريكية الذي سيرتب إعادته إلى الولايات المتحدة ليستكمل علاجه.. اسمه «جاكوب».. يعرفه جيدًا لأنهما اشتركا في قتل مصاصي الدماء مرارًا (في الوهم طبعًا)..
لديهما حشد من الذكريات المشتركة التي لا وجود لها !

في المساء انغرد بنفسه في غرفته ...

دخل إلى الحمام.. أغلقه على نفسه وهو يشعر بدوار قاتل.. يريد موسى بأي شكل.. بحث كثيرًا فلم يجد.. لا أحد يضع موسى في غرفة مجنون إلا إذا كان مجنونًا.. هكذا هوى على الضمادة وراح

يمزقها بأسنانه.. في النهاية يرى معصمه.. الوشم ...

الثعبانان اللذان يلتفان حول بعضهما وكل واحد يلتهم ذيل الآخر .

هذا هو السبب.. يريدون ألا يرى هذا الشعار.. لم يحاول قطع شرايينه إذن .

في الظلام، وفي ساعات الفجر الأولى، كان رأسه يدور.. العرق يغمر ثيابه كلها.. وكان يسمع.. يرى.. يحس .

«سخمت» هناك في الغرفة.. تقف في الضوء الخافت وقد انحنى رأسها كي لا يضرب السقف.. ترد على كل أسئلته وتخبره بالحقيقة.. تزار.. تنبعث منها رائحة الأسود الكريهة .

أنت صرت منا ...

لماذا جئت إلى مصر؟

لم تأت لتقضي على مصاصي الدماء، بل لتشارك في الطقوس الخاصة بهم، لتكون منهم.. لكنك لم تعرف هذا.. أنت ملكي للأبد منذ هذه اللحظة .

تدوي ضحكتها اللعينة، فتنزف الجدران وترتج الكهوف وتعوي الذئاب .
- أنت كاذبة !

- يمكنك أن تقول هذا.. إلى أن ترى بطنك !

في لهفة نزع الثياب عن أسفل بطنه.. راح يتحسس ما حول الصرة.. هناك خشونة غير معتادة .. لم يكن مشعرًا في الطبيعة، لهذا أدرك أن هذا الموضع كان ينمو فيه شعر كثيف وقد تمت إزالته بلا عناية .

ربما كانت هناك رقعة فراء هنا؟

صاح في لهفة وهو يتمسك بزجاج المرآة الأملس :

- إنها الهلاوس.. لا يوجد شيء من هذا.. لا يوجد نادٍ لمصاصي الدماء.. ولا توجد «سخمت».. كل هذا هراء.. أنا أدمج كل الحقائق في هذه الأسطورة السخيفة.. لكن من أين جاء الوشم؟ ربما أنا صنعت الوشم عندما كنت في الولايات المتحدة واعتقدت أنه خاص بمصاصي الدماء؟ كنت أتصرف كمخرج بارع ينثر الإكسسوار للأكذوبة الكبرى التي صنعها .

لكن لو كان في كلام «سخمت» هذا شيء من الصحة، فانت تحمل لعنة أبدية ضد البشرية.. أنت الشر يمشي على قدمين .

کراااااااااااش !

وجه لكمة قوية يحركها الغل والغيط للزجاج، فتناثر في كل مكان
وملاً الحوض.. هناك في شطايا الزجاج رأى آلاف الوجوه التي تعبر
عن حالته بصدق .

كانت يده تنزف.. أدرك أن الجرح لا يلتئم، ولا توجد أطراف هدية تبرز من الجلد .

إذن هو يمكن أن يموت.. وموته يعني القضاء على مصاصي الدماء وعلى نادي أعداء مصاصي الدماء معاً.. لكن لماذا يموت إذا كان هذا كله هלוسة؟ !

عندما قطع الشريان بقطعة زجاج مكسورة، استند إلى الحوض وراح يرمق انعكاس وجهه في بقايا المرأة.. كان يمقت الجدل طيلة حياته، وها هو ذا يحل المشكلة بطريقة جذرية.. قطع عقدة «حورديان».. لو كانت هלוسة فقد انتهت.. لو كان مصاص دماء فسوف يموت ..

**همس في سخرية مريرة، والظلام يزحف على حواف مجال الرؤية :
- يا سادة.. إنني أعلن نهاية نادي أعداء مصاصي الدماء .**

تنصت

«لكن عماد كان موقنًا أن الأمور ليست على ما يرام في هذا المختبر.. ذات مرة قام بغلي الماء لعمل شاي.. غادر المطبخ وتكلم ومزح وتجادل... إلخ، ثم تذكر أن الشاي ما زال على الموقد بعد ربع ساعة.. جرى لينقذ الموقف ويوقف الحريق، لكنه اكتشف أن الماء ما زال باردًا.. هذه النار برد وسلام بالمعنى الحرفي».

عندما وجد عماد جثة مصطفى الملقاة كالشيء في ركن الشقة، وقد تهشم عنقها والتوى، ورأى نظرة الرعب في العينين، أدرك أن اللعبة دخلت طورًا خطيرًا.

للحظات تذكر وجه مصطفى الودود، والنظرة شبه الناعسة في عينيه، وهي نظرة تعود أن يراها في صور من ماتوا.. طريقته في الكلام ببطء مع انتقاء الكلمات.. حكمته.. الطريقة التي يجد بها حلولًا لأعقد المشاكل. لقد خسر العالم عقلًا ثريًا، لكن أفضل شيء في هذه الأمور هو أن العالم لا يشعر بالثكل.. يفقد عقلًا أو لا يفقد.. ما المشكلة؟

ركل العوينات المهشمة الملقاة على بُعد أمتار، وقرر أنه سيفادر المكان.. لا يريد التورط بأي شكل في هذا المشهد.

توقف للحظة، ثم بحث عن مفاتيح المختبر.. لا بد من شخص يكمل العمل.. يعرف أنها مهمة غير هينة.. يعرف أنها مسؤولية ساحقة.. يعرف أن معلوماته الفيزيائية تفوق الصفر بقليل، لكنه يعرف كذلك أنه مثابر، وبوسعه أن ينجح في أي شيء يريد، باستثناء عزف الكمان طبعًا.. لا أحد يجيد الموسيقى لمجرد أنه أراد ذلك.

*

حقًا كان مصطفى يجيد عزف الموسيقى، وكان يمسك بالكمان ويداعبه بالقوس، فتشعر أنه يمزق نياط قلبه نفسه.. عندما تتكلم قطعة الخشب وتهمس بقصة حب منسية.

عاد مصطفى من «ديلاوير» في أوهايو بالولايات المتحدة مؤخرًا، وكان يدرس الفيزياء ويُدرسها.. الثانية براء مشددة.. إنه من تلك العقول المذهلة التي يتكلم عنها المصريون عندما يريدون إثبات أنهم ينجحون في الخارج دائمًا ويفشلون في الداخل دائمًا.. الأمل المقدس لكل شاب يحمل مطروف الأوراق ويقف أمام القنصلية أو

السفارة الغربية، ورأسه مغمم بالأحلام، ويعتقد واهمًا أو محقًا أنه من ذات الطراز الذي يتوهج في الخارج .

عندما عاد مصطفى زاره صديق طفولته عماد.. كلاهما في الأربعين، وكلاهما غير متزوج، على أن أحدهما عبقرى في الفيزياء، والآخر عبقرى في بيع السيارات.. والحقيقة أن أحدهما كان غير قادر البتة على منافسة الآخر .

عندما زار عماد الرجل في مختبره الذي استأجره في المقطم، وجد أن المكان أقرب لاستوديو صوت على قمة بناية عالية .

- ماذا تفعل بالضبط؟

- لا شيء .

بدا هذا سببًا كافيًا للعودة من الولايات المتحدة فعلًا.. أن تعود إلى وطنك لتعمل لا شيء.. التهام شطائر الطعمية، وشرب الشاي، ثم عزف الكمان لعدة ساعات .

لكن عماد بعد قليل بدأ يفهم أن صاحبه العبقرى يقوم بعملية معقدة جدًا، هي الإنصات إلى أصوات الفضاء .

هناك جهاز اتصال كبير في الغرفة.. جهاز يشبه غسالة فول أوتوماتيك كاملة، وهناك حزمة أسلاك تتصل بجهازى كمبيوتر.. وهناك ما يشبه الطبق الموجه للفضاء، بينما يعتمد مصطفى على سماعتين يصغي بهما معظم الوقت .

كان قد رأى فيلم «اتصال» الذي كتب قصته العالم وأديب الخيال العلمي «كارل ساجان»، ويعرف شيئًا عن هذه الأمور، على الأقل يعرف كيف تبدو من الخارج .

قال له مصطفى :

- أقضي الساعات هنا أصغي للفضاء.. هناك كثيرون منا في أرجاء العالم، وكلهم يفعلون الشيء ذاته .

قال عماد في استخفاف :

- لا أعرف جدوى ما تقومون به، لكنى أراهم يتعاملون مع مرصد عملاقة.. لم أرَ أحدًا يتعامل مع طبق كأنه يريد التقاط أفلام عارية من القمر الأوروبي !

لم يشاركه مصطفى السخرية.. كان جادًا جدًّا .

- هذا هو ما قمت به.. أنا توصلت إلى نتائج ممتازة من هذا التطبيق الصغير الذي تتكلم عنه .

في الأيام التالية زار عماد صديقه مرارًا في ذلك المختبر، وبدأ يألف الجو.. يألف الأجهزة والخرائط وصوت مكبر الصوت الرتيب .

أخبره مصطفى أن هذا الذي يقوم به جزء من مشروع «SETI» .
بالطبع لم يفوّت عماد فرصة السخرية من أن الاسم يُذكره بـ«ستي وسيدي»، لكن مصطفى لم يكن في مزاج رائق للمزاح .

قال له إن «SETI» هي الحروف الأولى من جملة
search for extraterrestrial

intelligence ، أي البحث عن ذكاء غير أرضي.
باختصار: محاولة إثبات أن هناك كائنات فضائية. جزء كبير من هذا المشروع هو استقبال الإشارات القادمة من الفضاء ومحاولة فهمها. هذا شيء يفهمه كل من رأى الفيلم أو قرأ رواية «اتصال» كما قلنا. وقد بدأ الإنسان هذه المحاولات منذ اختراع الراديو حتى اليوم .

من وقت إلى آخر تطالعنا الصحف بخبر عن التقاط إشارات غير أرضية من الفضاء.. أشهر هذه القصص وقع عام 1977، حينما التقط عالم الفضاء «إهمان» إشارة ضيقة الحزام، استمرت 72 ثانية ولم تتكرر بعدها قط. كان ذلك من تلسكوب شهير اسمه «الأذن الكبرى» في أوهايو.. كانت الإشارات قادمة من كوكبة «القوس».. هذه الإشارة أثارت ذهول الرجل، فكتب جوارها «واو» (Wow) ، وهذا هو الاسم الذي عُرفت به هذه الموجهة في الكتب العلمية.. موجات «واو» .

يقوم العلماء بتحويل الإشارات لشفرة معينة يعرفونها.. مثلاً الواو هي «6EQUJ5».. وهي تحدد شدة الموجات والمسافة بينها.. ثم يحددون بالتقريب مصدر الموجات، وهو هنا نجم اسمه «تاو ساجيتاري».. هذه موجات قوية جدًا وغير مسبوقه خضعت لتفسيرات عديدة.. حتى «إهمان» نفسه قال إنها على الأرجح جاءت من مصدر أرضي انعكس على سحابة غبار كوني، لكنه كذلك لم يستبعد أن يكون هناك مصدر غير أرضي .

هناك علماء كثيرون قالوا إن علينا قبول حقيقة أنه لا توجد عوالم أخرى.. لا توجد كائنات فضائية. ما يحدث في «SETI» هو علم زائف لا يمكن إثباته .

لكن في العام 2007 تم التقاط إشارة قوية متكررة.. وهو ما يسمونه «FRBs» أو انفجارات راديو سريعة. حسب العلماء أنها تصادم نجوم نيوترونية، ثم تبين أنها متكررة بشكل لا يمكن أن يكون فيزيائياً.. لا توجد بطارية تعيد شحن نفسها بهذه السرعة .

كان مصطفى يفخر بأنه استطاع تشييد نظام للتنصت لم يكلف إلا ملاليم، ويمكن به الاستغناء عن تلك المراصد العملاقة المخيفة المصوبة للفضاء .

تساءل عماد الذي فهم عشر هذا الكلام بعسر بالغ :

- ما جدوى ما تقوم به؟ سؤال وجود كائنات فضائية أم لا، يُطرح منذ عرف الإنسان الفضاء، ومن الواضح أننا لن نعرف إجابته أبداً !

وقف مصطفى أمام لوحة مليئة بالحروف والأرقام معلقة على الجدار، وقال :

- عندما ثبت أن هناك كائنات فضائية حقاً، فلن يتساءل أحد بعدها عن الجدوى.. أنت تفهم هذه الأمور.. لو لم ينجح «جراهام بل» في اختراع الهاتف لقالوا إنه مخبول يكلم البلاستيك.. عندما نجحت فكرته قالوا إنه عبقرى. ما يفصل بين أن أكون مخبولاً أو أكون «جاليليو» القرن الواحد والعشرين هو أن أثبت كلامي.. وكلامي يقول إن هناك إشارات فضائية فعلاً.. وهذه الإشارات تقول شيئاً.. اللغز مضمّن ومعقد، لكنني اقتربت جداً من الحل .

*

يعزف مصطفى على الكمان أغنية «ما خطر تش على بالك يوم» لأم كلثوم، فيقسم عماد أن الأوتار تنطق بالحروف.. ثمّة روح حبيسة تحاول التحرر في هذا الصندوق.. هل روح أم كلثوم نفسها في الغرفة؟

يُعِدُّ مصطفى بعض المكرونة مع الصلصة واللحم المفروم، ثم يفرغ الطنجرة في طبقين، يُقدِّم واحداً لعماد ويتناول واحداً.. يأكلان في صمت، ثم يشعل عماد لفافة تبغ، ويسأل صاحبه العبقرى :

- هل تريد أن أجد لك سيارة ممتازة بثمن رخيص؟

يضرب مصطفى على جبهته ويضحك في تعب :

- أنت تمزح.. أنا لا أغادر هذا المكان إلا لأنام ساعات في بيتي.. وغالبًا

ما أنام هنا حتى لا أفوت فرصة التقاط هذه الإشارات .. أنا آخر إنسان على ظهر الأرض يحتاج إلى سيارة .

يراقب عماد الأجهزة المتناثرة التي لا تكف عن إصدار صوت «بيب».. هدير القرص الصلب.. هدير مروحة.. هذا مكان يغري بالجنون.. الوحدة مع هذه الأصوات هي الطريق المضمون للخبال .

فجأة دوى صوت مختلف نوعاً، وراح المصباح الأحمر جوار شاشة الكمبيوتر يتوهج .

وثب مصطفى إلى المقعد وهتف :

- قادمة !

ثم وضع السماعات على رأسه، وجلس على مقعده المتحرك أمام شاشة الكمبيوتر.. ضغط على زر فبدأت لغافة ورق تخرج من الطابعة .

لحظات من التوتر، ثم هدأ كل شيء.. بعد صمت طال مزق طرف الورقة ليفصلها، وراح يرسم عليها بالدوائر .

سأله عماد في سماجة :

- هل تم الاتصال؟ متى تهبط أطباقهم الطائرة؟

لم يرد لأنه كان عاكفاً على ترجمة بعض الرموز، ثم قال :

- الصورة تتضح ببطء.. إنهم يرسلون إحداثيات صورة تتكون على طريقة الكلمات المتقاطعة .. أو طريقة الرسم بالأرقام، وهم يضيفون لها شيئاً في كل اتصال .

نهض عماد إلى المطبخ ليضع الأطباق.. صديقه يعيش حياة بوهيمية فعلاً، لدرجة أنه يشعر بتأنيب ضمير لو تركه دون غسل أطباق.. بسرعة يسخن الماء، ويغمس الليفة الخشنة في الصابون، ثم يغسل الأطباق والملاعق بلا براعة .

يشعل لغافة تبغ أخرى، ويدخل الحمام ليفرغ مثانته واللغافة تتدلى من فمه.. هذا البيت المستأجر كمختبر قديم، لكن الحمام قد تم تجهيزه بشكل أنيق.. «تشطيب سوبر لوكس» كما يقولون .

عاد إلى الغرفة حيث كان مصطفى يتأمل شاشة الكمبيوتر .

- ماذا ترى؟

كانت صورة مشوهة أقرب إلى صور الكمبيوتر القديمة المكونة من أرقام 1 وصفر.. أو اللوحات المرسومة بالآلة الكاتبة عندما كانت هناك آلات كاتبة.. لا بد أن تبتعد عن الصورة لتراها .

رمش عماد بعينه وابتعد أكثر.. ونظر إلى الشاشة :

- لا شيء .

قال مصطفى في إغراء :

- هذه التعاريج.. ألا توحى لك بخارطة؟

في إصرار قال عماد :

- نعم.. لا توحى .

- هذه خارطة.. أنا متأكد من هذا، لكنها لم تكتمل بعد .

- ولماذا تهتم كائنات فضائية بالجغرافيا إلى هذا الحد؟

حك مصطفى رأسه مفكرًا، ونزع عويناته ليهرس عينيه المرهقتين، ثم قال :

- الاحتمال الأول هو أنهم يخبرونني بمكان اللقاء، هناك لقاء حميم من النوع الثالث سيتم في هذه البقعة.. الاحتمال الثاني هو أنهم يخبرونني بمكان سفينة مدفونة خاصة بهم، على طريقة المنطقة 51 ومخلوق «روزويل».

كان عماد قد قرأ شيئًا عن هذه الأمور، وكان يعرف يقينًا أن مخلوق «روزويل» دعاية سخيفة شربها العالم، وأن المنطقة 51 بلا أسرار غالبًا، وقيمتها الوحيدة هي جلب المال لمن يؤلفون الكتب التي تتحدث عنها، لكنه انتظر حتى يُنهي مصطفى كلامه .

أردف مصطفى :

- عندما أستكمل هذه الخارطة سوف تتضح أمور كثيرة .

لم يبدُ هذا السيناريو معقولًا أو محببًا لعماد.. كان تفكيره عمليًا نفعيًا جدًا، وقد أحزنه أن يضيع صاحبه وقته في الأوهام، لكنه ظل يتردد على المختبر من وقت إلى آخر، ربما لأنه يحب مصطفى، وربما لأنه

يحب عزف الكمان، وربما لأن الجو الغامض يروق له .

بدأت بعض الطواهر تشير قلقه .

مثلاً الظاهرة الغريبة التي تجعل جهاز الهاتف المحمول يتوقف أو يرسم أشكالا غريبة على الشاشة، كلما جاء إلى المختبر. خطر له أن السبب هو التداخلات الفيزيائية من كل هذه الموجات، فلو طارت طائرة فوق هذا المختبر لسقطت، لكن مصطفى قال في ثقة إنه لا يجد سبباً لما يحدث.. نحن نتحدث عن موجات مختلفة تماماً .

- يجب أن تصلح هاتفك .

لكن عماد كان موقناً أن الأمور ليست على ما يرام في هذا المختبر.. ذات مرّة قام بغلي الماء لعمل شاي.. غادر المطبخ وتكلم ومزح وتجادل... إلخ، ثم تذكر أن الشاي ما زال على الموقد بعد ربع ساعة.. جرى لينقذ الموقف ويوقف الحريق، لكنه اكتشف أن الماء ما زال باردًا.. هذه النار برد وسلام بالمعنى الحرفي .

انقطع عن زيارة صديقه أسبوعاً.. كان قد تورط في حادث سيارة وكان مشغولاً جداً.. ثم زار صاحبه هذه المرّة في شقته الصغيرة. يبدو أنه لم يذهب إلى المختبر منذ فترة. كانت هذه هي المرّة التي أعطاه فيها مصطفى نسخة من مفتاح الشقة لأنه يعيش وحده . من الحكمة . كما قال . أن يكون لدى المرء الوحيد من يقدر على دخول بيته: زوجة، أخ، صديق، لمسة ميلودرامية زائدة كما ترى .

بدا له مصطفى أميل للقلق، ولم يستطع فهم سبب هذا التوتر. مصطفى ليس من الطراز الذي يقلق بسبب الضرائب أو ارتفاع سعر البامية، ولا أسرة له.. يبدو أنه يعتمد على مدخرات معقولة تحميه من الفاقة.. ليست عليه مسؤوليات سوى أن يتأمل ويشرد.. هذه ليست مهمة مرهقة إلى هذا الحد كما ترى .

قال له مصطفى في تلك المرّة :

- أعتقد أنني عائد إلى الولايات.. لقد انتهى عملي هنا .

بدا هذا غريباً لعماد.. تأمل وجه صاحبه.. يمكنك بسهولة أن ترى العينين المرهقتين وراء العوينات، وترى الرجفة في ركن الفم، وترى الأنامل تؤدي رجفة «حيات المسبحة» إياها.. هذا شخص داني من انهيار عصبي ومذعور جداً.. لكن ما السبب؟

- مصطفى .. هل تتعاطى عقاراً ما؟

نظر إليه مصطفى في عدم فهمه.. واضح أنه لم يفهم السؤال.. إنه متوتر لدرجة أن الكلام المنطوق فقد تأثره. عاد يسأله :

- ألن تعود إلى المختبر؟

نظر إليه مصطفى طويلًا، ثم قال :

- الحقيقة أنني غيرت وجهة نظري.. كانت نظرياتي خاطئة !

- هلّا شرحت لي؟

فكر مصطفى قليلًا، ثم قال :

- لقد استكملت جزءًا من الصورة.. البيانات الرقمية لا تشير إلى خارطة على الإطلاق.. هذه الكيانات لا ترسل إليّ إحداثيات .

- تريد القول إن هذا يتفق مع رأيي.. ضوضاء كونية يحسبها العلماء مهمة.. غالبًا هو صوت مدفع الليزر الصيني الذي يلعب به أطفال الجيران .

- ليس بالضبط.. هذه إشارات من كائنات عاقلة فعلاً .

وأشار إلى ملف سميك على المنضدة، وقال :

- كل ملاحظاتي هنا.. وهي ملاحظات أكثر نضجًا مما ظننت.. الاتصال أعقد من إحداثيات صورة كما تخيلت أولًا .

ثم أمسك بالكمّان.. لديه كمّان في شقته، وكمّان صغير في المختبر.. وبدأ يعزف.. عندما يبدأ العزف فإنه ينسى كل شيء وتصير مقاطعته مستحيلة .

يذكر عماد هذه الجلسة جيدًا، لأنها - كما تعرف - كانت المرّة الأخيرة التي يرى فيها مصطفى حيًّا.. لقد كانت جلسة طويلة مرهقة للأعصاب، لكنها كانت الأخيرة !!

*

عندما وجد عماد جثة مصطفى الملقاة كالشيء في ركن الشقة، وقد تهشم عنقها والتوى، ورأى نظرة الرعب في العينين، أدرك أن اللعبة دخلت طورًا خطيرًا .

كانت كلمات مصطفى في الليلة السابقة غريبة موحية .. رباہ!! لشد

ما بدا مذعورًا.. يعرف هذا الذعر الوحشي عندما يلتمع في العيون، وأكثر العيون تخويفًا هي التي توجد في وجوه ناحلة ضامرة.. الوجه هنا يتحول كله إلى عيين .

كان قد جاء في مواعده ودق الجرس مرارًا .. ليس هذا بموعد يغادر فيه مصطفى البيت.. هذه المرة تذكر أن معه المفتاح.. أولجه في القفل ودخل ليرى المشهد المخيف .

مصطفى مات وحده في شقته.. لا يوجد شيء يدل على أنه انتحر أو مات بطريقة معتادة.. لا يوجد تسرب غاز ولا عقاقير سامة.. لم يُطلق عليه الرصاص أو يُذبح.. مصطفى قُتل.. وقُتل بطريقة بشعة محيرة بلا شك. الشقة مغلقة من الداخل ككل قصص الغرف المغلقة التي تخصص فيها «جون ديكسون كار».. الأمر كله عصي على التفسير !

ما فعله هو أنه أخذ الملف السميك الذي يضعه مصطفى أمامه، وأخذ مفتاح المختبر وغادر الشقة .

كان عليه أن يقوم بواجب أكبر نحو صديقه الميت، لكنه كان عمليًا، وقد أدرك أن الوفاة لغز لن تستطيع الشرطة حله.. هم فقط سيجعلون حياته جحيمًا، فهو المشتبه فيه رقم واحد لأنه يزور مصطفى في البيت والمختبر، هو الوحيد الذي يعرف الكثير عنه، على الأرجح لا أحد يعرف بالمختبر سواه.. عليه أن يستقر هناك بعض الوقت محاولًا فهم ما كان مصطفى يريد قوله.. ليس من مصلحته ولا مصلحة الفقيد أن يُقبض عليه أو يتهموه بشيء.. سوف يتصل من هاتف عمومي ليبلغ الشرطة بأن رائحة غريبة تنبعث من الشقة كذا .

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل عندما فتح باب المختبر الموجود في المقطم.. في الظلام الدامس كانت شاشات الكمبيوتر تعمل وتلك الأذان مسلطة للفضاء. لا تعرف هذه الأجهزة أن خالقها قد مات بعنق ملتو .

أو ربما تعرف !!

أضاء عماد الأنوار، فبدأ نوع من البهجة والاطمئنان يتسللان إلى المكان.. لاحظ أن باب الثلاجة مفتوح، لكنها ما زالت تعمل والطعام بداخلها لم يفسد. مصطفى صديقه شارد الذهن كأي عالم آخر، وبالطبع يخلط بين الثلاجة وجهاز التكييف. أخرج زجاجة مياه غازية ففتحها ثم اتجه إلى الأريكة حيث الكمان الملقى، الكمان الذي كان قطعة من روح مصطفى .

همس له :

- صاحبك لن يعود.. وأنا حمار في العزف كما تعلم .

ثم مد يده الحرة ليقلب صفحات الملف الذي أخذه من صاحبه .

كان الموقف أسوأ مما توقع .. هذه صفحات مذكرة درس خصوصي في الفيزياء أو أسوأ.. مستحيل أن تفهم شيئاً من الرموز والمنحنيات والدالات.. لا بد من أن يجد شخصاً يفهم الفيزياء .

«لقد استكملت جزءاً من الصورة.. البيانات الرقمية لا تشير إلى خارطة على الإطلاق.. هذه الكيانات لا ترسل إليَّ إحدائيات».

قالها مصطفى أمس، ولم يفهم معناها، وقال كذلك :

«الاتصال أعقد من إحدائيات صورة كما تخيلت أولاً».

هناك على الجدار كانت تلك الصورة الرقمية التي يقوم مصطفى بجمعها بالنقطة.. «بيكسل بيكسل» كما يقول.. لقد قام بطبعها على طباعة عريضة أو ربما «بلوتر» ، ليظهر الشكل النهائي الذي لم يكتمل .. هناك ملايين الرموز.. لكنك من بعيد، من هذه المسافة، ترى - على طريقة الطباعة النقطية - أن هناك صورة، وهذه الصورة تتضح كلما ابتعدت أو أغمضت عينيك نصف إغماضة.. الصورة ليست خارطة على الإطلاق، بل هي ثلثان علويان لوجه امرأة.. ربما أنت مخطئ.. هذا التأثير الخادع يُعرف باسم «باريدوليا» (Pareidolia) ، وهو نوع من محاولة المخ البشري لجعل العالم الخارجي المخيف مألوفاً .

ربما هي شخبطة، ربما هي امرأة، لكن المؤكد أنها ليست خارطة .

راح يُقلب الصفحات في الملف .

أخيراً وجد ما يريده.. كلمات عربية.. هنالك في الصفحة الأخيرة. مصطفى قد قرر أن يكتب بالعربية بدلاً من كل هذه المعادلات.. خطه رديء طبعاً بسبب اعتياده الكتابة بالإنجليزية أو الرموز.. كانت الكلمات تقول :

«الحقيقة هي أنني أخطأت الطريق.. الإشارات التي أتلقاها جعلتني أعتقد أن هناك من يخاطبني من بُعد آخر .. أي: كائنات فضائية على كوكب آخر تحاول الاتصال وترسل إليَّ إحدائيات هبوطها. ثم بدأت أمور غريبة تحدث في المختبر: المقاعد تتحرك،

كتابة على لوح الكتابة لم أكتبها أنا، صابير الماء تنفتح، وفي مرة من المرات وجدت أنها تسيل دمًا، الصور تتحرك على الجدار .

هذه ليست تصرفات كائنات فضائية.. الكائنات الفضائية تحاول الاتصال، لكنها ليست هنا لتتحرك وتتلف.. ثم هذا الشكل الذي يتجمع ببطء.. خطوة خطوة.. هذا وجه امرأة.. لا علاقة له بالخرائط .

ما أعتقد أنه هو أن المختبر مسكون.. أنا لم اخترع جهازًا لالتقاط الإشارات الفضائية، بل ابتكرت جهاز تحضير أرواح!! لم أتصل ببعد آخر، لكن اتصلت بعالم آخر!! ما حدث هو أن المختبر مليء بالأرواح، وهي تعبث بي !!

تفسير هذا؟ هناك نظريات عدة في ذهني، لكنني أميل إلى الاعتقاد بأن هناك جثة في هذا المختبر! لاحظ أن الشقة كلها قديمة، لكن الحمام تم تجديده جيدًا.. لو أن هناك من دفن جثة في الحمام، وغطاها بالخرسانة ثم ثبت طبقة بورسلين فوقها فمن يلاحظ؟ من كان الملاك القدامى؟ وماذا كانوا يعملون؟ أفكر جديدًا في المجيء ببعض العمال ليزيلوا بورسلين الأرضية في الحمام، لكنني لا أملك الشجاعة، ولا الوقت.. أنا أعرف يقينًا أن هناك جثة امرأة.. هذا الوجه الذي ترسمه لي الإشارات هو وجهها .

أنا مذعور!!! العلامات المقلقة تتزايد، وعلى الأرجح أنا على حق.. سوف أنهي أوراقى بسرعة وأعود إلى الولايات.. مصر قد أرهقت أعصابى .»

أغلق عماد الملف شاعرًا بالحيرة .

مصطفى قد حُن حتمًا.. انتقل تفكيره من قمم العلمية المنطقية إلى كهوف الميثولوجية الميتافيزيقية.. ما كان عماد ليتصور أن يكتب صاحبه هذا .

نهض ليمشي في أرجاء المختبر.. دخل الحمام ليراقب البورسلين الأنيق ...

هناك شيء غريب يحدث.. هو متأكد من هذا.. قصة الشاي الذي لا يغلي مثال بسيط.. لا يوجد مقعد يظل في مكانه مدة نصف ساعة في هذا المختبر.. الأنوار تعبث.. تلف موجات الهاتف ...

هذه حركات أشباح أو «بولترجايست»، لكنه آخر من يؤمن بهذا الكلام .

أخرج الهاتف.. وجد أن هناك شبكة والحمد لله.. طلب أحد العمال الذين استعملهم ليجدد شقته قديمًا.. تعال غداً ومعك مطرقة.. سوف نحطم بعض البورسلين .

ثم وقف يراقب أجهزة الكمبيوتر التي تتلقى الإشارات من الفضاء.. هل يكون كلام مصطفى صحيحًا؟ أن يكون هذا جهاز تحضير أرواح ضخماً متقناً لا أكثر؟ !

هنا سمع النغمة .. النغمة الحزينة الرقيقة.. لم ينظر ليرى.. لقد عرف على الفور .

الكمان الملقى على الأريكة يعزف نفسه بنفسه !!!

*

هذا مشهد غريب، لكنه يحوي قدرًا لا بأس به من الرهبة والشجن .. تردد الأوتار يتم من دون قوس.. يمكنك بسهولة أن ترحح أن هذه روح مصطفى غالبًا وقد عادت تمارس هوايتها الأثيرة .

للحظات راح عماد يصغي، وبدأ يشعر بنشوة مع اللحن، ثم أفاق لنفسه! أنت أبله! لا توجد ذرة رومانسية في هذا كله! بل هو شيء مخيف !

مصطفى قد مات.. مات بطريقة مفرعة، وبأعنف شكل ممكن.. لماذا؟ لماذا تقتل الأشباح رجلًا مسالمًا يؤمن بوجودها؟! كان الرجل يعتقد أنه يتصل بكائنات فضائية أولاً ثم قرر أنه في الحقيقة يتصل بأرواح .

هناك موضوع مهم في عالم «الماورائيات» هو التقاط أصوات الأرواح الذائبة في الأثير، ويُسمونه «EVP» أو الضوضاء البيضاء.. اعتقد مصطفى أنه يلتقط هذه الإشارات.. وهذا يعني أنه تحول من عالم فيزيائي مدقق إلى مشعوذ يستحضر الأرواح.. أي ارتداد هذا؟ !

لا يعرف كيف ولا متى أمسك بالكمان وهشمه ثم ألقي به في سلة المهملات، لكنه ظل يسمع صوت النغمات من صندوق القمامة.. الأوتار لم تتمزق !

بدأت أجهزة الكمبيوتر تُصدر صغيرًا، وبدأت تلك الموجات ترسم على شريط الورق وعلى الشاشة.. المزيد من الإشارات ...

للحظات راحت «البولترجايست» تمارس عملها، فبدأ النور الكهربائي

يتلاعب، وراحت الثلاثه تعمل ثم تتوقف دون أن يرتبط هذا بانقطاع الكهرباء، حتى إنه اضطر لنزع القابس حتى لا تحترق .

*

في الصباح دق الجرس.. لم يكن قد تناول إفطارًا بعد وكان رأسه يدق كالطبل .

على الباب ظهر ذلك الحرفي ومعه الصبي الذي يعمل معه، وكان يحمل مطرقة كبيرة مما يسمونه «دقماق» وإزميلًا وأشياء عدة .

- أريد أن تنزع لي بورسلين هذا الحمام .

أشعل الحرفي لفافة تبغ قوية الرائحة، وتأمل البورسلين في حسرة، ثم قال :

- إنه بحال ممتازة يا باشا.. تم تركيبه قريبًا جدًا.. هل تريد تركيب نوع أفضل؟ لن تجد أفضل.. رأيي بصراحة أنه حرام.. أنا أريد أن أعمل، وسوف يسعدني أن أعمل، لكني لا أطيق تدمير شيء جميل.. خاصة أن هذا النوع الأسب.. ..

- كفى! افعل ما أطلبه .

نظر إليه الحرفي كمن يرى مجنونًا، ثم طلب بعض الشاي وأطلق السباب في وجه الصبي، ثم دخل إلى الحمام، وسرعان ما راحت البناية تهتز كلما هوى الدقماق .

بوم.. بوم !!

جلس عماد في الصالة متوترًا ينتظر.. لا بد أنه دخن ألف سيجارة، وفي كل مرة ينتظر صرخة الرعب ومناداته.. لم يحدث شيء.. ألف مرة فتح الباب ليهدئ جارًا غاضبًا يهدد بطلب الشرطة.. كل شيء سينتهي فورًا فلا تقلقوا، والشرطة لم تعد تأتي لأي سبب على كل حال .. لحسن الحظ لا يعرف الجيران سكان هذه الشقة، ولا يعرفون مصطفى جيدًا.. وفي كل مرة يغلق الباب ويتنهد .

نهض إلى جهاز الكمبيوتر وراح يراقب الأرقام، ثم اتجه إلى الطابعة في الركن وراح يراقب الإضافات التي طرأت على الصورة إياها.. بالفعل هذا ليس وجه امرأة على الإطلاق.. الثلث الأعلى كان يوحى بذلك، لكننا هنا نرى شيئًا مختلفًا .. ليست خارطة كذلك.. إنها شيء مشوه يمكن أن تبين فيه مدرستك الابتدائية، أو نمرًا آسيويًا

يتربص، أو ملامح زوج خالتك .

بوم.. بوم !!

كلما دوت صفارة الإشارات ظهرت بعض النقاط الجديدة على الشاشة، وبدأ صف جديد يظهر في الصورة الغامضة .

هذه ليست محاولة لرسم شيء.. على الأرجح هي إحداثيات فعلاً .

بوم.. بوم !!

نهض إلى الحمام متوجسًا، فوجد ألغن كومة من الحجارة والبورسلين المحطم يمكن وصفها.. وكان الصبي يحاول كنس الأرض بمكنسة بالية، بينما بدأت الأرضية الخرسانية تظهر عارية تمامًا بما فيها من تركيبات مواسير .

قال الحرفي وهو يجفف عرقه بمنديل محلوي متسخ عملاق :

- أقترح أن تجد عمالًا يتخلصون من هذا الركام بسرعة يا بك .. إنه ثقل جدًا على سقف الشقة تحتنا .

سأله في نفاذ صبر :

- ألم تجد شيئًا؟

- مثل ماذا؟

- لا يوجد شيء تحت البورسلين؟

تبادل الحرفي نظرة مع الصبي وحك رأسه ثم قال :

- لو كنت تعتقد أن هناك كنزًا فلا شيء كهذا .

بالطبع لم يجسر على سؤاله عن بقايا جثة أو عظام.. لا أحد يسأل عن أمور كهذه. تذكر غرفة الدفن الخاصة بريا وسكينة، حيث كانت هناك مقبرة مروعة تحت البلاط، وكانوا يشعلون البخور أربعًا وعشرين ساعة لحجب الرائحة.. العمال الذين قاموا بتكسير البلاط أصيبوا بانزهاض عصبي .

من الواضح أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل هنا ...

أضاف الحرفي وهو يجمع أدواته :

- يجب أن تحضر سباكًا يا بك.. صباير الماء هنا تفتح نفسها وتغلق من دون تفسير، ثم إن الماء ينزل أحمر كالدم في أوقات كثيرة.. لا بد من «فلتر» للتنقية .

وسرعان ما كان قد انصرف مع غلامه، وقد تحولت الشقة المنظمة إلى كابوس .

لا توجد جثث تحت الحمام.. نظرية مصطفى خاطئة.. لو كانت هذه شقة مسكونة، فلأسباب أخرى ليس مقتل امرأة من بينها .

مضى عماد يجوب الشقة كنمر يدور في قفصه متوترًا .

يفكر في عمق.. ولتفكيره مزية هي أنه يرتاد أزقة مظلمة لم يصل إليها تفكير مصطفى المستنير الراقى ..

فجأة هبط عليه الحل دونما سابق إنذار، ودون تمهيد ...

كان في الماضي يقرأ أن الحياة مستحيلة على الكواكب الأخرى - باستثناءات محدودة جدًا - لأنه لا يوجد قدر كافٍ من الأكسجين والماء، إلخ.. فكان وهو طفل يغتاط جدًا.. لماذا لا يكون الله قد خلق كائنات تتنفس النوشادر أو ثاني أكسيد الكبريت وتشرب حمض النتريك؟ بل لماذا لا يكون الله قد خلق كائنات بلا رئات أصلاً؟

قرأ عن اللقاءات الفضائية من النوع الأول والنوع الثاني والنوع الثالث.. كما سمع أحد علماء الفلك يتحدث في قناة تلفزيونية حول احتمالية أن يكون أول لقاء من النوع الثالث نعرفه مع بكتريا أو فيروسات فضائية. صورة الطبق الطائر الهابط الذي يخرج منه رجال بمسدسات ليزر وهوائيات.. هذه الصورة لن تتحقق أبدًا على الأرجح. الخيال الطفولي الذي صدق وجود مخلوق «روزويل» لا يتمتع بأرضية من أي نوع .

لكن ماذا عن سكان فضاء فقدوا ماديتهم تمامًا، تحولوا إلى شكل فيزيائي لا نعرفه، وهذا الشكل هو الذي مكنهم من عبور الفضاء الساحق بهذه البساطة، وعبر مسافات وسرعة لا يتصورها عقل بشري، ولا يتحملها جسد من لحم ودم؟ لماذا لا يكونون أقرب إلى شعاعات أو تيارات مغناطيسية أو صوت؟ لماذا لا يكون الغريب القادم من الفضاء ظاهرة فيزيائية محيرة لا أكثر؟

لم يخطر هذا الحل بذهن مصطفى قط .

ربما لأنه كان أكثر دقة وأكثر علمية، قبل أن ينقلب تفكيره بالكامل

أمام تلك الظواهر «الباراسيكولوجية».. لم يكن خياله جامحًا .
الحقيقة أن الكائنات الفضائية لم تكف لحظة واحدة عن المجيء إلى
عالمنا.. ومنذ بدء مشروع «SETI»..

ما يلتقطه اللاسلكي ليس إشارات ترسلها تلك الكائنات .
الحقيقة.. إنه الكائنات نفسها !

*

لم يكن عماد مثقفًا أو يملك أي خبرة بالرياضيات أو الفيزياء، وربما
لهذا توصل إلى ذلك الاستنتاج الثوري.. كان يفكر خارج الصندوق،
وبطريقة خالية من المنطق العلمي، والمثل العربي يقول: «قد
تسبق العرجاء». عندما قدم «أورسون ويلز» فيلم «المواطن كين» ،
لم يكن يملك أي خبرة بفن السينما، لكنه كذب على الشركة
المنتجة فأعطته صلاحيات عظيمة، والنتيجة هي أنه ابتكر وطوّر
أفكارًا ما كان أي من دارسي السينما السابقين يجرؤ على تجربتها .

لم يكن عماد مثقفًا، لكنه قرأ الكثير من قصص الخيال العلمي
الغريبة في مراهقته، وبدا له أن ما يفكر فيه معقول جدًا، ولكن..
لحظة ...

الكمات !!

بقايا الكمات المبهمة في سلة المهملات.. هل تخيل أنه رأى بداخل
الكمات قصاصة ورق؟ ربما هي عنوان من قام بالإصلاح أو الصيانة أو
أي شيء آخر، لكن ربما ...

هرع إلى حيث كانت سلة المهملات، وتربع على الأرض، وراح
يبحث.. اضطر لأن يقلبها على الأرض.. كان الكمات المبهمة خاليًا.. لا
يوجد شيء فيه.. لقد تخيل.. علب طعام وعلب لبن وعلب تبغ وقواتير
ممزقة، لكنه وجد ورقة مكرمشة.. فتحها في شيء من التوجس،
فوجد عبارة واحدة بخط عصبي رديء :

«هم .. الإشارات».

شعر بقشعريرة.. هذا هو ما حدث فعلاً.. لقد وجد مصطفى الحقيقة
وكتبها في هذه الوريقة، ثم تخلص منها وكتب كلامه السابق عن
الأشباح.. ما التفسير؟ ثمة تفسيران :

■ أن رأيه تغير فعلاً وآمن بوجود أشباح.. ردّة العالم العبقري إلى

عالم الماورائيات .

■ أنه كان يكتب تلك الكلمات عن الأشباح في الملف لهم.. لتلك الكائنات.. يعرف أنهم يراقبونه ويقرأون ما يدونه، وهو يريد التظاهر بأنه لا يعرف هذا القدر كله.. لقد كان خائفاً.. مثل من تراقبه أجهزة الأمن، فيدون العبارات الوطنية طيلة اليوم وهو وحده في غرفته، محاولاً إثبات حسن نيته.. كتب هذه الكلمات وترك المختبر وتوارى في داره، لكنهم وجدوه وهشموا عنقه أو جعلوه يهشمه على الأرحح .

لماذا مات مصطفى؟ من قتله؟

يمكن بشيء من الخيال أن نقول إنهم قتلوه لأنه عرف أكثر مما يجب .. هو الوحيد الذي اقترب من الحقيقة إلى هذا الحد .

غزو الكائنات القادمة من الفضاء لن يحدث.. لأنه ببساطة حدث فعلاً، وهو مستمر طيلة هذه اللحظات ...

والرسم الغريب؟

قلنا إن هذا ليس وجه امرأة على الإطلاق.. على الأرحح هذه إحدائيات .. الكائنات تحدد أماكن هبوطها .

يجب أن يفعل شيئاً .

أول ما فعله عماد أنه انتزع القابس لتصمت كل الأجهزة، ويسود الظلام للمرة الأولى منذ فترة طويلة، ثم اتجه إلى المطبخ فجلب علبة ثقاب وزجاجة من الكحول الإيثيلي وجدها هناك .. كان مصطفى يحب مذاق القهوة التي تُعد على سبرتاية .. سكب عماد الكثير من الكحول على الأجهزة ثم أشعل عود الثقاب وألقاه .

لقد أغلقت هذه البوابة.. البوابة التي تجلب لنا الكائنات من أبعاد أخرى، لكن هناك آلاف البوابات في العالم كله، آلاف الحمقى ساهرون ضمن مشروع «SETI» يظنون أنهم يلتقطون إشارات غامضة، بينما هم في الواقع يفتحون بوابات الاحتلال .. إنهم يلتقطون الكائنات نفسها !

كليك !

هذا الصوت.. لا يمكن أن يكون إلا ...

نعم.. التخمين صحيح.. باب الشقة مغلق ولا يمكن فتحه، كأن لسان

القفل قد برز.. إنه حبيس الشقة.. ولاحظ في رعب أن شرشف المكتب قد احترق، فبدأت شاشة الكمبيوتر تتفحم.. الستارة تحترق.. الدخان يملأ المكان.. هذا حريق.. حريق يتشعب ويتغول وهو حبيس الشقة !

هذا منطقي.. هذه الكائنات في كل مكان.. كان هناك شاهد خطير يعرف كل شيء، وقد تم تدميره في شقته.. الآن هناك شاهد خطر آخر.. سوف يجدونه محترقاً.. وبالطبع لن يعمل جهاز الهاتف المحمول، ولن تأتي المطافئ.. هرع إلى الحمام بحثاً عن ماء، فوجد أجمل منظر رآه في حياته: الحرفي الذي قام بتحطيم الحمام نسي «الأجنة» على الأرض.. التقطها بسرعة وبحث عن شيء ثقيل يدق به.. لا يوجد.. حمل «الأجنة» وهرع إلى باب الشقة.. سوف أحطمك بأي ثمن ...

ضربات مجنونة للخشب .. كراش ! الدخان .. السعال.. ألسنة اللهب تزحف إلى البساط .. كراش ! ثغرة تتكون.. ضربات ...

في النهاية كان غارقاً في العرق، والدم يسيل من قبضتيه، لكنه تمكن من صنع فجوة في خشب الباب .. فجوة تسمح بالخروج .

خارج الشقة وجد بعض الجيران بثياب النوم يرقبون المشهد مندهشين، لكنه لم يكلمهم، وراح يثب الدرجات كالملسوع .. فليطلبوا المطافئ هم .

السيارة الواقفة تبدو كمرفأ آمن.. جلس خلف المقود وأدار المحرك.. إنه يعمل.. الحمد لله.. قواعد قصص الرعب غير سارية. تراجع بالسيارة قليلاً، ثم أدرك أن هناك شيئاً خطأ: هو لم يفتح جهاز المذياع ولم يشغل المساحات! ثم فوجئ بـ«الفتيس» يتحرك دون أن يحركه !!

إنهم هنا!! إنهم في كل مكان !!

يمكنه أن يذهب إلى الشرطة ويحكي قصته، لكن من يصدقه؟ المستشفيات ملأى بالمرضى الذين يقولون ما يقوله.. سيناريو الجنون جاهز .

هنا سؤال مهم: هل توجد أشباح في عالمنا حقاً؟ تلك الأشياء التي نراها في أفلام الرعب، وتُحرَّك قطع الأثاث، وتُحدث صريراً من الأبواب، هل هي أشباح من عالم آخر حقاً أم كائنات فضائية جاءت من بُعد آخر؟

لا مفر ...

لقد تم الغزو.. لقد ضعننا.. وهو أول الضائعين.. ثانيهم إذا أردنا الدقة .

أدار مقود السيارة ليرسم حرف «U» ثم ينطلق بسرعة جنونية في الاتجاه العكسي على الطريق السريع.. السيارات القادمة ترى المشهد الم هول وتتفاداه في آخر لحظة، والكل يتساءل : هل جُن؟! هل هي نوبة قلبية؟! الحقيقة أن هذا رجل بلغ به الذعر درجة أن يبحث عن مفر، حتى لو كان تحت الأرض أو في السماء.. هذا رجل يريد أن يموت !

خذ الحذر لو مشيت على الطريق السريع ورأيت سيارة «نيسان» مسرعة قادمة نحوك.. كن متيقظاً.. لا تمت معه ...

لنترك عماد الآن، ففرصته في البقاء حيًّا «صفر».. دعنا نعتنِ بأنفسنا .

أنت لست وحدك.. تذكر هذا .. بالواقع أنت في عالم مزدحم ولا يوجد شيء اسمه «خلوة».. عندما يفتح التلفزيون نفسه أو يُغير القناة، وعندما يتلف ملف كمبيوتر بلا سبب، وعندما ينغلق باب بلا ريح ... فأنت تعرف السبب .

احترسي يا آنستي عندما تأخذين حمامًا، فلربما صار جسدك فقرة تسلية في برنامج يراه الملايين في مجرة أخرى .

خذ الحذر.. والأهم ألا تحكي هذه القصة لطرف ثالث، حتى لا تصير من البؤساء الذين يعرفون أكثر مما يجب !

هشام يخفي سرّاً

«السر الذي يخفيه هشام يُحيرني.. فهشام يبدو لي كأرض منبسطة سهلة.. عيناه صادقتان، لكنهما خائفتان.. في أعماق عينيه يمكنني رؤية النظرة تقول: «لا تقتربي أكثر من اللازم من فضلك فلدي سر مخيف!..».

ما هو السر المخيف؟ فراسة المرأة تتوقف هنا.. مهما شببت على أطراف أصابع قدميك لتختلسي نظرة من فوق السور، فهناك بقعة عمياء لا ترين بعدها..».

السر الذي يخفيه هشام يحيرني حقاً .

تسألني كيف عرفت أن لديه سرّاً، فأقول لك إنني امرأة.. أملك ذلك التكوين الوجداني والشعوري والعقلي الذي يزدهر في وجود هرمونات الأنوثة، كأنك تسقي أيكّة بالسجاد.. ثمة جزء في تكوين الأنثى يقدر على قراءة الأفكار أو الحدس أو الاستبصار.. أحلامنا كنساء تتحقق غالباً.. مخاوفنا تصدق على الأرجح .

السر الذي يخفيه هشام يُحيرني.. فهشام يبدو لي كأرض منبسطة سهلة.. عيناه صادقتان، لكنهما خائفتان.. في أعماق عينيه يمكنني رؤية النظرة تقول: «لا تقتربي أكثر من اللازم من فضلك فلدي سر مخيف!..».

ما هو السر المخيف؟ فراسة المرأة تتوقف هنا.. مهما شببت على أطراف أصابع قدميك لتختلسي نظرة من فوق السور، فهناك بقعة عمياء لا ترين بعدها.. ولكن.. أنا... دعني أقدم نفسي أولاً .

مرحباً بك.. هات يدك أضافحها .

اسمي صفاء.. في الثامنة والعشرين من العمر.. أعرف من نظراتك، ومن ابتلاع ريقك، أنني جميلة.. الطريقة التي يطرق بها الرجال عندما يكلمونني أو يحاولون النظر في اتجاه آخر.. أعرف هذه اللحظات عندما يؤلمهم جمالي ويحرمهم الراحة النفسية.. بالتأكيد يُفضّل أحدهم ألا يكلمني أو ينظر في عيني، بل سيكون أكثر راحة لو جلس يتأملني من بعيد.. أنا محجبة، لكنني أعرف كيف يضيف هذا الحجاب الأنيق حسناً إلى حسني.. يخفي العيوب ويبرز المزايا ويضع لمسة غموض محبة تعد من يظفر بي بكشف السر .

أنا سكرتيرة في شركة استشارات هندسية، وأتقاضى راتبًا لا بأس به، وعندي سيارة لا بأس بها أبدًا.. يمكن القول إنني محظوظة، خاصة أن أبي وأمي بصحة طيبة، ولي ثلاث أخوات لكنهن أقل جمالًا وسنًا.

كانت أمواج المعجبين تتكسر عند صخرتي وتتبعثر.. كثيرون نعم، لكنهم يفقدون شجاعتهم بسرعة كأنهم الذباب.. وقد قررت أن من حقي أن أختار لنفسني الملك.. لن أضيع وقتي مع عشاق مفلسين خائفين، بل يجب أن أكثف جهودي لنيل ذلك المهندس الشاب الناجح هشام. هو وسيم جدًا، حتى لبدو كعارض الأزياء، وهو ثري جدًا ومن أسرة غنية أصلًا.. دعك من أنه خجول فعلاً وتستطيع أي فتاة أن تطفر به بشيء من الجهد.. الحقيقة أنه أحمل من أن يكون حقيقياً.. لكنه حقيقي وليكون لي.

وقفت أمام مرآة غرفة النوم، وأعدت إصلاح وضع الحجاب.. هذا جمال لا يحق لكائن أرضي أن يطفر به.. أنا مغرورة؟ ربما، لكنك لم تر وجهي.. ربما لو رأيته لقلت إنني أبخس نفسي حقها.

قلت لنفسني العبارة التي أكررها كل يوم: «سوف أطفر بك يا هشام.. أقسم بالله أنني سأطفر بك».

هذه لعبة سهلة ومسلية جدًا.. تستطيع أي فتاة جميلة أن تطفر بالرجل الذي تريده إذا كان عديم الخبرة مثل هشام.

كان ينظر إليّ بعينين خرساوين، ورأيت أكثر من مرة عينيه تتحسسان تقاطيع وجهي الساحرة أو منحنيات ثوبي.. كان يريدني بقوة، لكن عليه أن يعرف أن الوصول إلى هذا الكنز يمر بطريق واحد: لا بد من مقابلة مع أبي، ولا بد من خاتم ذهبي، ولا بد من رحلة مرهقة لانتقاء الأثاث وديكورات الشقة.

أنا آسفة يا هشام.. لا أريد أن أقيد حريتك، لكن لا أحد يستحقني سواك، ولهذا لا أملك الخيار للأسف.

*

لم يكن أحد يعرف الكثير عنه، فهو من الطراز الصموت الذي لا يبوح بأسراره بسهولة، ولعل هذا يمنحه طابعًا ساحرًا. دع أي واحد من هؤلاء الأوغاد يجلس معك، ولسوف يحدثك عن التهاب إصبع قدمه الكبيرة، وعن زيارة خالته مع أطفالها الخمسة، وعن أمه التي وضعت الملح في كوب الشاي لأن مرض السكري أتعب شبكية عينها... مع هشام مستحيل أن يحدث شيء سوقي كهذا.

صديقه الأقرب يُدعى مصطفى.. مهندس صغير السن ثرثار.. وقد جلس في المكتب حوارى يشرب الشاي ولا يكف عن الكلام لحظة.. فقط ضغطت على الزناد فتكلم .

قال لي إن هشام يسكن في مدينة نصر مع أمه.. ليس لديه أب ولا إخوة .. غير متزوج .

كدت أركله غيظًا.. غير متزوج! يا لك من عبقرى!! هذه الحقيقة لم تفارقني لحظة واحدة منذ عام ونصف.. غير متزوج.. هناك ثمرة لامعة شهية معلقة من غصن الشجرة تنتظر الفتاة المحظوظة التي تلتقطها.. فتاة مثل صفاء.. مثلي .

قال لي إن هشام خجول ومتحفظ، ثم إنه يرفض كل فرص السفر إلى الخارج التي أتاحت له، وحتى عندما قدمت إليه بعض المنح الدراسية فقد رفضها في إصرار .

- هل هو وطني إلى هذا الحد؟

- ما من أحد وطني إلى هذا الحد.. إما أنه يهاب التجارب الجديدة، أو هو يكره ترك والدته وحيدة .

كنت أنا قد رسمت الصورة كاملة: فيلاً في التجمع الخامس أو مدينة الشروق.. أطفالنا يلعبون في الحديقة.. أمه نضعها في غرفة ما ونطعمها إلى أن تموت.. لن يطول الأمر .

فقط هناك سؤال واحد ...

هشام لديه سر في عينيه.. يومًا ما سأعرف هذا السر .

*

كنت أنسج خيوط العنكبوت حول هشام في حذر، وأدنو منه وأبتعد.. أتظاهر يومًا باللطف، ثم تصير معاملتي متحفظة فاترة، فلا يفهم السبب.. كان ينهار كسمكة تجذب شص صنارة .

عرفت أنه انهار عندما كنت وحدي في غرفة التصوير أطبع بعض المستندات.. هنا فوجئت به يقف خلفي.. استدرت في شيء من الرعب المصطنع.. فرأيت وجهه محتقنًا والعرق يغمر جبينه.. وفجأة لم أدر كيف أمسك بكفي وانهارت قبلاته على أطراف أناملتي، وهو يردد بلا توقف :

- أنا أحبك يا صفاء.. أحبك حقًا.. أحبك بجنون.. لا أقدر على ...

كانت الكلمات تتدافع على لسانه وتذيب بعضها.. هذا البأس
سيصاب بنوبة قلبية فوراً.. مسكين .

بالطبع كان رد فعلي متوقعاً ومبرمجاً :

- باشمهندس هشام.. أرجوك! من تظنني؟

كنت أسيطر على الموقف بالكامل.. هو خجول عديم الخبرة ولن
يتمادى، لكن كل أنثى تعرف كيف تقنع الرجل أنه خطر مرعب وأنها
ضحية.. هذا يروق لهؤلاء الحمقى جداً. كما توقعت، تراجع وأخرج
المنديل يجفف به عرقه. وسيم حقا بالقميص السماوي وربطة
العنق الزرقاء والقلم يطل من حيب القميص، وكان في حال سيئة
من الخجل والإحساس بأنه تمادى جداً .

هنا دخلت هدى الغرفة حاملة بعض الأوراق.. هدى زميلة عمل
لعينة تشبه خنفسة «السيكادا»، وأنا أمقتها عامة، ولا أطيق رائحة
عطرها الكريهة، لكنني شعرت بامتنان لها.. نظرة الشك والحيرة
التي بدت على وجهها كانت رائعة.. أنت أفسدت سمعتي يا
باشمهندس وعليك أن تعتذر لي بطريقة عملية.. كأن تقابل أبي مثلاً
!

عند الظهر قدّم لي الكثير من الاعتذار، وقال مراراً إنه فقد التحكم
في نفسه.. قال إنني ساحرة جداً، ولم يُخلق الرجل الذي ...

- انتهى الموضوع لو سمحت !

غادرت المكان وأنا عازمة على أن أظهر الغضب والشعور بالإهانة
لفترة. أنتم الرجال تعتقدون أن أي سكرتيرة تعمل معكم جارية
متاحة في أي وقت. أما ما حدث بعد هذا من وفاة هدى المريضة
فقصة أخرى ليس مجالها هنا !

*

كما توقعت .

السيارة تقترب.. تدنو مني.. تتحرك بنفَسٍ سرعتي.. أنظر إلى
السائق فأرى وجه هشام المحتقن. في كل مرة يحطم جداراً من
جدران خجله، ثم يندم جداً بعدها. نظرت إليه بتلك النظرة التي صار
يعرف معناها .

قلت له في حزم وقد شددت قامتي :

- باشمهندس هشام! واضح أنك تلقيت إشارات خطأ بصدي، أو
لربما أنا ضحية وغد حاول تشويه سمعتي !

أخرج رأسه من النافذة الجانبية، وقال بنفس طريقة الصبي المذنب
إياها :

- أنت من تسيئين فهمي.. لو سمحت لي بأن أوصلك فلسوف أحكي
كل شيء في الطريق .

- أنت تعرف أن سيارتي في الشارع المجاور .

طبعًا تمنعت قليلًا.. لو كنت تظن أنني من الفتيات اللاتي يركبن
سيارة شاب لمجرد أنه طلب ذلك ثلاث مرّات فأنت مخطئ.. لا بد من
أربع مرّات .

فتحت الباب الجانبي مع المرّة الرابعة، وجلست وشعرت بنعومة
البطانة وبرد التكييف.. سيارته أعلى من سيارتي بمائة ألف أو أكثر..
رائحة عطرية مدوخة جميلة .

- طلباتك؟

قلتها في نغاد صبر، فارتبك أكثر.. ثم وجد أنه يجب أن يكون سريعًا
حاسمًا لأنني نافذة الصبر كالإعصار.. أريد مقابلة أبيك.. البيت
المشترك.. حياتنا معًا.. كل شيء سيكون له طعم معك، إلخ.. هكذا
يردد بالضبط الكلمات التي أردت أن يقولها .

حدث شيء غريب بينما هو يصغي إلى كلامي.. لقد تقلص وجهه
في ألم، وانثنى على نفسه لتصدم ذقنه إطار السيارة.. كان يعاني
ألمًا مريعًا، وراح يتحسس عظمة القص كأنه يحاول تحطيمها .

- هل... هل أنت بخير؟

مرت لحظات، ثم راح يجفف العرق عن جبينه، وبدأ لونه الشاحب
يكتسي بلون الدم، ثم قال لاهتًا :

- لا شيء.. آلام الممرارة.. يجب أن... جراحة .

ممرارة خلف عظمة القص؟! حتى أنا أعرف جيدًا أنها تحت حافة
الضلوع اليمنى، وتُسبب ألمًا في الكتف على نفس الجهة !

هشام يخفي سرًا.. لا شك في هذا .

في النهاية قلت له إنه يجب أن يدخل البيت من بابه.. وبينما هو يدور في الشوارع ليقودني إلى حيث تنتظر سيارتي.. ترحلت من السيارة فقط ليطلب مني رقم هاتف أبي.. لقد نجحت.. أدركت محرك سيارتي وأنا أدرك أنني انتصرت.. سوف تسكرني لذة الظفر هذه الليلة .

الموعد كان في بيتنا في الثامنة مساء الخميس.. اشتريت ليلي الجاتوه السواريه، بينما اشتريت مي المياه الغازية، واشتريت سامية المانجو الذي سيُقدم كعصير.. أبي ارتدى بذلته الرمادية وارتدت أمي ثوبها الأسود الأنيق، وعطرت رائحة الشقة، وقمنا بتمشيط فراء القط .

هكذا جاء هشام مع أمه، وكان وسيماً كالعادة.. أدركت بسهولة أن أمه سوف تموت بسرعة.. هذا التنفس اللاهث واحتقان الأوردة.. سوف ترحل بسرعة وتترك جوهرتها لي.. شكراً لك يا «حاجة».. سوف أتولى القيادة من هنا.. يمكنك أن تستريح في فراشك أو في القبر لا مشكلة .

في منتصف الجلسة تقلص وجه هشام، وبدأ عليه ألم شديد.. توترت الأم بدورها، وسألته همساً عن شيء ما، فhez رأسه، ثم طلب أن نسمح له بدخول الحمام.. كان هذا طلباً عسيراً لأن أمي نسقت ديكورات المكان كما يحدث في المسرح.. خشبة المسرح أنيقة معدة بعناية، بينما الكواليس قدرة مليئة بالخيش والغبار والفئران. قال هشام وهو يضغط على أسنانه :

- معذرة! آلام مرارة !

نهضت أمي مسرعة ومعها ليلي.. المطلوب عملية تنظيف سريعة للحمام والممر المؤدي له، ثم تعود بوجه ممتقع لتسمح له بالذهاب إلى الحمام.. صوت السيْفون.. صوت المياه في حوض الوجه.. عندما عاد كان شاحباً لكنه في حالة أفضل .

قلت لنفسي إن حساسيته شديدة لذا تقلصت أمعاؤه وكان لا بد أن يدخل الحمام.. هذه تجربة غير مسبوقه بالنسبة له. لقد كان نصري كاملاً، وقبل كل شروط أبي.. حتى إن أمي راحت تنظر إليّ بنظرة خفية معناها: «ماذا - فعلت - لتسحريه - يا شيطانة؟».

أنا سأتزوج خلال أشهر.. سأفوز بأوسم وأغنى مهندس في المكتب.. شكراً لك يا أم هشام على هديتك .

*

يجب أن أحكي لك قصة وفاة هدى .

أنا لا أحب هدى ولا أطيقها.. رائحة عطرها تخنقني، ولها ملامح غريبة لا تطيق النظر إليها.. تقيم هدى في شقة رخيصة مع أمها وأخيها، وهي غير متزوجة.. لا يوجد أحرق يتزوج هذه على الأرجح .

قالت التحقيقات فيما بعد إنها تناولت عشاءها مع الأسرة، ثم أعلنت أنها ستأخذ حمامًا قبل النوم. قالت أمها إن هذا سوف يؤذيها.. لا أحد يستحم بعد الطعام مباشرة، والحقيقة أنها كانت دقيقة جدًا.. لم تتصور أن يصل الأذى إلى درجة أن تموت ابنتها .

هنا لغز لا بأس به.. الفتاة دخلت الحمام في العاشرة مساءً، والحمام مغلق، ولا توجد به سوى نافذة صغيرة أقرب لفتحة تهوية.. أي أنه لو أراد طفل في السادسة أن يجتازها فليسوف يفشل.. لا يوجد سخان يعمل بالغاز ليكرر سيناريو التسرب إياه.. لا يوجد تفسير .

بعد ساعة تأخرت أكثر من اللازم، وكان أخوها بحاجة إلى دخول الحمام فراح يدق الباب.. لا يوجد صوت دُش.. تبادل نظرة قلقة مع الأم، ثم بعد لحظات لوى المقبض بعنف وهو يضرب الباب بكتفه.. كانت هناك على الأرض ثمانية رُكبتها، وقد أراحت رأسها على حافة المغطس، وكان ينزف بغزارة. كانت بشابها، لم تجد الوقت الكافي لتتعرى.. وقد أدرك من النظرة الأولى أنه لم تعد ثمة جدوى.. لقد فرغت الحياة منها .

عندما جاء رجال الشرطة قاموا بفحص الحمام، ولم يكن هناك شيء غريب سوى أن النافذة الصغيرة مفتوحة، وهذا شيء غريب بالنسبة لفتاة تنوي الاستحمام، لكن النافذة لا تسمح بمرور شيء خطير.. بعد تفكير استقر الرأي على أن الفتاة انزلت فاصطدم رأسها بحافة المغطس.. هذا سيناريو شهير جدًا خاصة مع المسنين .

يذكر الأخ أن عنق الفتاة مهشم.. لا يعرف تفسير ذلك.. لقد سقطت على جبهتها، لكن ما دور عنقها في هذه القصة؟ !

هكذا عرفنا الخبر، وكان من الصعب عليّ أن أصدق أن هذه هي هدى التي اقتحمت عليّ خلوتي مع هشام منذ يومين.. اعتدنا أن نحسب الأشخاص الذين نكرهم أديين لا يزولون أبدًا.. غياب أحدهم خبر سار، لكنه نادر الحدوث .

لماذا أحكي قصة وفاة هدى؟

لأنها شبيهة بقصة وفاة صفوت الأمير. صفوت مالك أرض في مجتمع
عمراني جديد، وقد كلف مكتبنا بعمل رسم هندسي لفيلا يريد
بناءها هناك.. صفوت يبدو كالملاك الأثرياء بشكل كاريكاتوري.. بدين..
كرش عملاق.. رضا واعتداد بالنفس.. عوينات سوداء.. فظاظة عند
اللزوم.

لقد طرأ خلاف عنيف بينه وبين هشام، ودخل إلى مدير المكتب
وتشاجر واتهمنا بأننا لا نفقه شيئاً، وأن عليه أن يجد مكتباً محترماً،
ورفض أن يشرب القهوة التي قدمها له المدير، وشتتم المهندس
الأحمق هشام، وطلب أن يطرده المدير لو كان يريد الاحتفاظ
بالعملاء حقاً.. وقد اشتتت غضباً لدرجة أنني فكرت في انتزاع قلبه
بأظفاري.. لا تشتم زوجي القادم يا ابن الـ...

غادر المكان وهو يُطلق السباب.. أما ما حدث بعد هذا فأنت تعرفه..
الجثة الممزقة في المصعد، والرعب على الوجه، و... ماذا؟ هل
عليّ أن أحكي هذه التفاصيل أيضاً؟

ليكن.. سأحكي لك، لكن أرجوك سأكون مختصرة جداً لأن هذه
التفاصيل مملة.. موضوعنا الوحيد اليوم هو أنا، وهذه الأمور الفرعية
تضعف الحكمة بلا شك.

حدث هذا بعد يوم من تلك المشادة.. لقد عاد صفوت الأمير إلى
مكتبنا ليزيد من متاعب هشام.

لنقل إن المصعد توقف بين دورين في البناية التي يوجد فيها مكتبنا
الهندسي، وقد استعانوا برجل الأمن والحارس اللذين استطاعا
إعادة المصعد إلى الحياة.. عندما انفتح المصعد في الطابق الثالث
رأى الواقفون مشهداً جليلاً: كان صفوت الأمير راقداً على أرضية
المصعد وقد تمزق عنقه وسالت حوله بحيرة من دم لم يتجلط بعد..
الرعب على الوجه، تراه في الفم الصارخ والعينين الجاحظتين.. لا
تحتاج إلى طبيب كي يخبرك أن هذا الرجل لن يتنفس ثانية.

عندما نزلنا على الضحيج إلى الطابق الثالث، كانت هناك محفة
كثيبة الشكل، وعدد من الرجال الضخام الذين يدخلون بكثافة،
ويمكنك أن تميز وكيل نيابة وضابطاً.

دنوت من رجل أمن وسألته عما حدث، فقال لي إن هناك جثة، جثة
ممزقة، ولا توجد طريقة لدخول المصعد.. هناك فتحة تهوية في
السقف لكنها صغيرة جداً.

إذن كيف حدث ما حدث؟ لا أحد يعرف. إن فهم الطريقة التي يمكن

أن يتمزق بها رجل داخل مصعد تلقائيًا هو أمر يتجاوز ذكائي، لكن منذ متى يمكننا حل الغاز الكون كلها؟

فقط نظرت إلى المحفة وهي تتبعد، وخطر لي أن هشام محظوظ بالتأكد.. الخلاص من شخص كهذا أمر يبعث البهجة في النفس. وفي عصبية طوحت يدي في الهواء محاولة طرد كل دخان التبغ المحيط بي.. لسبب ما يعتقد الرجال أن دخان التبغ والجديّة مترادفان .

وفيما بعد، عندما عدت إلى مكتبي رأيت هشام يخرج من مكتبه، ويبدو أنه لم يسمع هذه الضوضاء، فرفع حاجبيه متسائلًا :

- هل ثمة خطب ما؟

قلت في لامبالاة :

- لا شيء.. أحدهم نال جزاءه لا أكثر .

هز رأسه في غباء وعاد إلى مكتبه. لا تضع وقتك ولا انتباهك يا عزيزي .. أريدك أن تُركّز في زيجتنا القادمة .

*

الرومانسية شيء جميل في حياة الفتاة، خاصة عندما تكون محرومة منها.. من الغريب أن أحمل الفتيات قد يكن وحيدات جدًّا.. هن محاطات بالمعجبين طيلة الوقت، لكن الفتاة منهن تدرك من عيون المعجبين الجائعة أن الحب آخر ما يريدون.. لا أحد منهم - الأغبياء - يملك البال الرائق لأن يشم زهرة ثم يناولها لي كي أشمها. أنا أفهم شعور الجميلات بالوحدة، فلا أحد يعاملهن ككائنات بشرية، بل كأشياء تؤكل.. قرأت قصة «مارلين مونرو» التي كان الأمراء يصطرون من أجل الفوز بها، لكنها اختارت ذلك الكاتب الأصلع المسن «آرثر ميلر»، لأنه منحها حنانًا حقيقيًا، ولو صح ما قرأت فقد كانت سعيدة بحق، ولم تنتحر كما قيل، ولكن المخابرات المركزية قتلها بحقنة سامّة في كعب رجلها .

الرومانسية.. ما أروعها !

لذا كانت تروق لي أشياء بسيطة جدًّا .

وجدت زهرة على وسادتي أمس.. زهرة حمراء جميلة.. لحسن الحظ لم ترها أي واحدة من الخبيثات: ليلي ومي وسامية. كانت عطرة

الرائحة بحق.. وقد تساءلت عن كيفية وصولها إلى وسادتي.. لا أعرف. هشام كان عندنا اليوم وتناول الغداء، فهل وجد لديه من الشجاعة ما يسمح له بأن يتسلل إلي مخدعي ليضع الزهرة؟ وكيف خمن وسادتي؟ الاحتمال الأقرب هو أنه متآمر مع واحدة من الخبيثات الثلاث.. كما كانت تفعل القهرمانات في مضاجع الأميرات .

منذ يومين وجدت في حقيبتى صفحة ممزقة من ديوان شعري رقيق.. أعتقد أنه ديوان كامل الشناوي لأنى ميزت بعض المقاطع الغنائية.. كيف استطاع هشام أن يصل إلى حقيبتى؟ سر آخر !

عندما أسأله في خبث ينظر إليّ بعينيه الصافيتين الساحرتين، وفيهما عدم فهم صادق.. أعرف هذه النظرة الخائفة، وأحبها كثيراً .

كان ينكر بصدق، فأقرر أن أسكت في النهاية، وأقول لنفسى إن هشام يخفى سرا بالتأكيد .

الأمور تمضي في سلاسة ونعومة نحو يوم الزواج، لذا توقعت مشكلة ما.. هذا شيء حتمي .

جاء الشيء الحتمي في ذلك اليوم الذي عدنا فيه إلى البيت في ساعة متأخرة، وكنت أتأبط ذراعه وضحكاتي تدوي على الدرج كصهيل الخيل.. كانت سهرة رائعة بالفعل .

انفتح باب الشقة لأرى أبى وأمي يقفان في الصالة، ونظراتهما تكفى لقتل فيل.. كان وجه أبى محتقناً، وأمي تنظر إليه في قلق، ثم دارت المحادثة المعهودة التي يعرفها كل من يدمن التمثيليات العربية :

«هل تعرفين كم الساعة يا ست هانم؟».. «لكنه خطيبي يا بابا!».. «خطيبك لا يعني أنكما متزوجان».. «لكننا لم...».. «قولي هذا للجيران الذين يرونكما كل يوم في ساعة كهذه».. «عمي.. أنا...».. «أنا أمنعك من الخروج معها إلى أن تنتهي إعدادات الشقة ونكتب الكتاب».. «بابا أنا لست صغيرة!».. «بل أنت طفلة وبوسعي أن أهشم رأسك!».. «دعني أر كيف ستهشم رأسي؟».. «هكذا...».. «عمي.. هل تهوي على وجهها بالشبشب أمامي؟ أنا لن أسمح!».. «وبأي حق تسمح أو لا تسمح؟ هذه ابنتي! اخرج حالاً!».. بكاء.. صراخ.. هستيريا.. الباب ينغلق.. وجوه أخواتي الممتعة .

«فريد! أنت أهنته إهانة بالغة ولن يعود».. «فليذهب في ستين داهية إلى حيث ألفت! ابن ال... يتصرف كأنها زوجته وفي عصمته.. سوف أعرف كيف أبرهن لكم على أنني رجل البيت»، إلخ .

بصراحة كنت في حالة بالغة من الاشمئزاز والقرف.. كل هذا مبتذل وسوقي جداً.. لقد غادر هشام الشقة مغضباً.. يمكنني أن أرى وجهه الأحمر المحترق - ولربما دمعة متجمدة في عينيه - وهو يركض هابطاً في الدرج .

أنت أفسدت كل شيء يا أبي.. ليس هذا أنسب وقت للعب ألعاب الأب الحازم هذه !

سوف تضيع عليّ أفضل عريس يمكن أن يتاح لي خلال خمسة أعوام وفي دائرة نصف قطرها خمسون كيلومتراً .

هرعت إلى حجرتي، وركلت حذائي وأنا أسب وألعن.. لماذا لا يطبقون نظام «أفلاطون»، أو حلم الدول الشيوعية: أن تأخذ الدولة الأطفال وتربّيهم فلا يعرفون لهم أهلاً؟

كادت أختي سامية تقول شيئاً فنهرتها في عصبية، وارتيمت على الوسادة، ورحت في نوم عميق .

فقط صحت في الثالثة صباحاً على صوت الصراخ.. هرعت واثبة ومعني الفتيات الثلاث نحو غرفة أبي حيث كان الصراخ.. كان هناك على الفراش نائماً على ظهره، وقد ازرق لونه تماماً، وكانت عيناه شاخصتين، بينما أمي تولول وتلطم خديها.. يبدو أنها نامت ثم نهضت لبعض حاجتها فرأت المشهد ...

لقد مات وهي نائمة، ولربما وهو نائم كذلك .

لم يكن أبي مريضاً بالقلب! لم يكن مريضاً بأي شيء !

سمعت أمي تصيح في غلٍ :

- أنت قتلتِه بقلة أدبك! لم يتحمّل المشادة !

لربما كان هذا صحيحاً، لكنني كذلك أرى الكدمات على أنفه وحول فمه، وأرى الوسادة الساقطة جواره.. لست طبيبة شرعية، لكن هناك من خنق أبي بوسادة وكنم بها أنفاسه.. لا شك في هذا .

من فعلها؟ وكيف؟

ثم جال خاطر آخر في ذهني: لماذا يموت كل من يضايقني أو يستفزني؟ هناك لعنة ما تحيط بي.. لقد صرت شبه واثقة من ذلك !

هكذا ابتعد حلم الزواج جدًا .

هناك فترة حداد ينبغي أن تمر، وهناك ليالٍ كئيبة، وتلفزيون لا يُفتح، وثياب سود، إلخ. نحن أسرة مصرية، ويجب أن نحزن جدًا. قبل موت فرد من الأسرة يكون البيت كفتاة عذراء نضرة، ثم يأتي الموت فتفقد الفتاة عذريتها ويتجدد وجهها بالخبرة المروعة إلى الأبد .

كان عليّ كذلك أن أعتاد نظرة الاتهام من أمي وأخواتي باعتباري «قتلت الرجل»، وهو اتهام لست على استعداد للنظر إليه بأي جدية.. كل واحد منا يحمل في خلاياه تاريخ الإعدام وطريقته، وليس ذنبي أن كانت ساعة إعدام أبي هي لدى عودتي من الخارج مع هشام.. لم يكن الاستغزاز قويا لدرجة القتل، بل إن من أهين بشراسة هو أنا !

لم تكن تلك هي المشكلة .

كانت المشكلة هي خوفي وتوحسي من نفسي.. الأمر قد تجاوز عشوائية الحظ.. لا يمكن أن يوجد كل هذا القدر من المصادفات في مكان واحد.. سمعت عن أشخاص لهم نظرة قادرة على فلق الحجر، ورأيت التأثير العجيب للحسد، لكني لم أر قط من يكرهك لدرجة أن تموت.. لهذا ولدت تعبير «لو أن النظرات تقتل» على نفس وزن «لو أن الأفيال تطير»، لأن النظرات ببساطة لا تقتل.. دعك من أنني لم أكره أبي قط.. الخلاف والاحتداد لا يعنيان الكراهية .. ولا شك أن موقعي وحياتي من دونه صارا أعقد وأكثر كآبة .

جريت نفسي في مشادات أخرى، وتشاجرت مرّتين مع زميلة عمل ومع المدير، ودخلت في مشادة عنيفة مع شقيقتي ليلي.. أزعم أنني بالغت في استغزاز نفسي وإقناعها بأنني أكره خصمي، وهذا كي أوصل الاختبار إلى ذروته القصوى، وفي كل مرة كنت أكتشف أن موهبتي ليست حاضرة .

لم يحدث شيء لهن لحسن الحظ.. وهكذا كان عليّ أن أكون نظرية خاصة هي أنني أؤذي من يؤذي «هشام» على الأرجح.. هذه موهبة من نوع خاص بالتأكيد، وإن كنت لست فخورة بامتلاكها إن كانت هي سبب وفاة أبي .

أما عن هشام، فقد كان يتعامل بدرجة بالغة من الندم والشعور بالذنب.. يوشك على أن يرتمي باكياً ويصرخ :

- أنا قتلت ذلك الرجل الطيب! اشنقوني !

وتوقعت أن يكون أحرق إلى الدرجة التي أخشاها: «صفا.. لا أستطيع الارتباط بك لأن جثة أبيك ستظل بيننا للأبد.. لن أنسى ما حيت أننا كنا السبب في وفاته.. الوداع».

كنت أتأهب لهذه العبارة، وأتأهب لرد منطقي مقنع، فإن لم يقتنع تأهبت لأن أنفجر فيه - ابن ال... - وأغرقه بالشتائم، لكنه لم يقلها لحسن حظه .

فقط كان متحفظاً، وبالطبع كفَّ عن زيارة دارنا.. كل لقاءاتنا كانت تتم خارج البيت.. كأنه لا يريد لأمي أن تستقبل قاتل زوجها والذي يتم بناتها .

الحقيقة أنه كان يعرف كيف يتصرف.. لا أعرف الطريقة السحرية التي ظل يضع بها القصاصد في درج مكتبي، أو يضع زهرة حمراء على تابلوه سيارتي، سيارتي التي تقف أمام المكتب ومغلقة بإحكام.. كيف استطاع هذا الشيطان أن يفتحها ليضع الزهرة فيها ثم يغلقها ثانية؟

كنت أسأله عن الحيلة التي لجأ لها، فابتسم في رقة ويرفض التفسير .

المرأة العاشقة تتصرف ببلاهة أحياناً، أو هي تختار أن تتصرف ببلاهة لأن هذا يروق لها، لكن التفسير الجاهز الذي يريحني كان دوماً: «هشام يخفي سرا».. وهو سر غامض يمنحه سحراً وهاجاً .

قدرت أن أمامنا نحو عام ثم نواصل خطة الزواج السابقة .. لن أخشى أن يفر أو تخطفه أخرى، فانا أحكم لف خيوطي حوله، أشد بعضها وأرخي بعضها كأفضل لاعب ماربونيت في العالم .. لا خبرة لي في هذه الأمور، لكنني وجدت أنني أجيدها ببراعة .. لا شك أننا نحن النسوة نولد بموهبة فطرية شبيهة بموهبة القطط في صيد الفئران .

لكن الأمور لم تكن لتسير بهذه البساطة كما تعرف يا كمال.. قلت لي إن اسمك كمال أليس كذلك؟ لم تقله؟ لا يهم. سأعتبرك كمال إلى أن أنهي قصتي .

*

توفي نائب المدير.. المهندس ثروت. عرفت هذا عندما ذهبت إلى العمل بعد إجازة ثلاثة أيام، ولم أتصل بهشام في غضونهما. كان ثروت رجلاً سمجاً، ثقيل الظل، لكنني لم أكرهه لدرجة أن أتمنى موته..

طراز الرجل الذي يعتقد أنه فاتن، وأن كل أنثى تخدع نفسها عندما تتظاهر بأنها لا تهيم به حبًا. تُوفي في ميتة من تلك الميتات الغريبة التي بدأت تتكرر مؤخرًا.. لدينا مطبخ صغير في المكتب، وقد دخله ليعد لنفسه بعض الإسبريسو، فهو مُصر على أن أحدًا لا يجيد صنعه كما يريد.. بعد رُبْع ساعة دخل العامل المطبخ ليجد جثة ثروت.. لقد صار هذا مملًا بالفعل.. لم تعد هذه شركة، بل هي أقرب لغرفة إعدام .

لا داعي لقول إنه لا توجد آثار عنف، أو أي سبب واضح للموت.. كالعادة يقولون إنها نوبة قلبية، ويكتب الأذكىاء عبارة «هبوط حاد في الدورة الدموية والتنفسية»، وهو تعبير سخيف لا يقول أي شيء.. بالضبط كأنك تقول إن سبب الوفاة هو مجيء الأجل.. كلام صحيح، لكن لا قيمة له .

«روضينا» سكرتيرة شابة رقيقة تعمل معنا، وكنت أرتاح لها، لكنني كنت أشعر بالكثير من التحذلق في إصرارها على أن تكتب اسمها بهذه الطريقة.. تمسك بقلمك وتعديل اسمها وتنطقه بصوت عالٍ، بينما الكل يصر على كتابته «ردينا» أو «ردينة».. قالت لي روضينا وهي ترتجف :

- سبحان الله! قبلها بيوم بعد مشادته مع المهندس هشام، قلت لنفسي إن قلبه سينفجر !

هنا نظرت إليها متحفرة :

- هل تشاجر مع هشام؟ !

- كان الصباح يصل إلى الطابق السفلي.. لم أسمع المهندس هشام يطلق هذا الكم من الشتائم من قبل !

رحت أراقب الجسد المسجى الذي يحملونه على محفة.. لقد بدأ عهد الرعب في الشركة.. هدى وثروت.. ثم ذلك الزبون الوقح صفوت.. لم يعد الأمر صدفة! تُرى كم من الوقت يجب أن يمر قبل أن يقرر مدير الشركة فضها؟ فليذهبوا إلى الجحيم.. المهم أن يكون هشام معي .

بالمناسبة، يمكن القول إن هذه الحادثة فارقة.. هذا رجل مات دون أن يغضبني، ودون أن أعرف أنه يغضب هشام !

ابتلعت ريقِي في رعب.. بالفعل هشام يخفي سرًا .

يمكن تعديل النظرية قليلاً لتكون: كل مَنْ يضايق هشام يموت..
هذى.. صفوت.. أبي.. ثروت .

أليس هذا صحيحًا؟

هناك تعبير شعبي يقول: «اللي بيحي على فلان ما يكسبش»،
ويبدو أنه ينطبق هنا حرفيًا.. كل من ضايق هشام مات ميتة مرعبة !!

لكن، هل يمكن لهذا الهراء أن يغير مستقبلي؟ هل لهذه المصادفات
الغريبة أن تجعلني أغير مسار خططي؟ بالطبع لا، وإلاّ لكنت أحمق
الحمقى .

عندما عدت إلى البيت كنت غارقة في أفكارى السوداء هذه .

كان الوقت مساءً، فتناولت العشاء الذي تركته لي أمي في
المطبخ.. كانت الفتيات الثلاث جالسات مع أمي يشاهدن التلفزيون
الذي تم إطلاق سراحه مؤخرًا، بعدما رأت أمي أنها عبّرت عن حزنها
لفترة كافية .

- مساء الخير .

قلتها ودخلت غرفة نومي .

هنا تصلبت عند الفراش.. الأمر صار غريبًا بالفعل وأقرب للخطر ...

هشام لم يزرنا منذ وفاة أبي.. إذن من أين جاءت قطعة الشوكولاتة
الملفوفة بشريط مخملي أحمر هذه؟ ومَنْ وضعها على الوسادة؟
ربما تم هذا بالاتفاق مع واحدة من أخواتي، لكنني كنت أملك يقينًا
غامضًا في عظامي أن هذا لم يحدث .

*

هشام يخفي سرًا .

أعرف هذا، وقد بدأت أتوتر فعلاً.. خواطر كابوسية جابت ذهني
مرارًا.. رأيتُه ساحرًا شريرًا يقدر على الوصول إلى مخدعي، إلى
وسادتي.. رأيتُه يحرق دمي مسحورة تحوي شعيرات من رؤوس
أعدائه .

سألته أكثر من مرّة عن الحيل التي يضع بها أشياء عندي، فراوغ في
الإجابة.. كان يحيل أي كلام مزاحًا. الحقيقة أنه لا تفسير هنالك
سوى أنه استعان بأخواتي، وبرغم هذا لديّ يقين داخلي مبهم أن

هذا لم يحدث .

لقد أجريت تجربة صغيرة.. ناديت ثلاث الفتيات ليلي وسامية ومي إلى غرفتي، ثم عرضت عليهن قطعة الشوكولاتة، وأمسكت بالمصحف، وطلبت من كل واحدة منهن أن تقسم علي أنها لم تضع هذه الجلوى بناء على طلب من هشام.. الفكرة أنهن أقسمن.. جميعاً أقسمن.. أعرف أنهن لن يكذبن لدرجة القسم على مصحف.. هشام بالفعل يملك القدرة على الوصول إلى أي مكان في حياتي !! لكن لن أرتكب خطأ عمري .

لن أتركه لمجرد شكوك غامضة تتعلق به .

أذكر ذلك اليوم الذي اصطحبني فيه إلى نادٍ ليلي هادئ، حيث الظلال والأضواء الخافتة تحرك الخيال.. موسيقي خافتة سمعتها في مكان ما، وذكرى عن مستقبل لم أعشه قط، لكنه ذكرى! لا أعرف كيف أصف لك هذا الشعور العجيب .

كنت متأهبة عاطفياً.. كنت أرضاً خصبة تنتظر البذرة التي سيزرعها فيها بكلماته.. سوف أنبت وأورق.. سوف أصير غابة تغطي الكون ...

لكن كلماته كانت غريبة بعض الشيء :

- صفاء.. أشعر أنك لن تجدي راحة معي.. صدقيني.. قرار زواجنا قرار خطر.. ليس بهذه البساطة !

نظرت إليه في شراسة :

- ماذا تحاول قوله بالضبط؟ هل جاء وقت التنصل؟

- بالعكس.. لقد ازددت حدية.. وأريد أن أكون صريحاً معك .

- إذن، فلتصر صريحاً معي.. لقد حان الوقت .

أعرف أنك تخفي سرّاً يا هشام.. ويبدو أن الوقت قد حان.. البوابة توشك على أن تفتح.. يقول وهو يتحاشى عيني، ويقلب الشفاط في كوب العصير :

- أنا أهيم بك حبّاً.. لا أستطيع التخلي عنك.. وهذا التعلّق يجعلني أتصرف من دون حكمة.. يجعلني أتخلي عن حياة العزوبة التي اخترتها لنفسني.. لنقل إنني أغير خطة حياتي بالكامل .

كلام يجمع بين التشجيع والتخويف.. أنا مسيطرة، أمسك بكل الخيوط كما أعرف عن نفسي، لكنه يلوم نفسه على أنني أفوده إلى المصيدة.. ما السبب؟ خطرت لي أفكار سوداء تتعلق برحولته.. لربما ارتباطه بأمه زائد ومرضي حتى إنه يشعر بأنه يخذلها لو تزوج أخرى.. لا أدري.. هناك رائحة مريبة في هذا كله.. لهذا يقول الغربيون: «أنا أشم فأراً».. أنا أشم فيلاً !

لم يُعطِ تفاصيل أكثر، فقط قال :

- سوف تكونين معي في السرّاء والضّراء ومهما عرفتِ عني؟

قلت في حذر :

- في كل شيء ما عدا أن تكون مصاباً بالجذام أو الدرن، أو تكون لصاً، أو تكون لك عادات غير أخلاقية معينة لا أفهمها .

هنا بدا الألم على وجهه.. هذا التقلص الذي رأيته عدة مرّات، ويقول إنها المرارة كل مرّة.. توقف تنفسه، وغطى العرق جبهته، ثم مرت النبوة فجفف عرقه.. «أنا بخير لا تقلقي».. ومَن قال إنني قلقة؟ لقد عشت هذا السيناريو مراراً، وفي كل مرّة لا خطر ولا تفسير .

عاد يواصل التعليق على ما قلته :

- ليس الأمر كذلك.. اطمئني .

ثم رفع يده طالباً الحساب، ولم يسألني إن كنت راغبة في البقاء أكثر.. وسرعان ما كنا ننطلق بسيارته عائدين إلى بيتي.. وفي هذه المرّة صعد معي في الدرج وقابل أمي، وقال لها إن الوقت قد حان.. لقد صار زواجنا واجباً مُلحاً.. ولم تعترض أمي كثيراً. أنا قد انتصرت، لكنه انتصار غريب المذاق.. تُرى لماذا لا تتوهج النجوم وتُحلق الملائكة في أجواز السماء؟ ولماذا لا تلاحق الغزلان الفراشات؟ ربما لأن ذكرى وفاة أبي لم تطل عن عام، وربما لأن ...

*

هكذا تم الزفاف يا كمال.. قلنا إن اسمك كمال أليس كذلك؟

المكان الذي اختاره لنا هو فيلاً صغيرة من طابقين في أكتوبر، كان قد ابتناها على مدى عدة أعوام منذ عمل في الشركة.. هي على أطراف المدينة، يمكن القول إنها شبيهة بما كنت أحلم به.. وبالفعل جاء بأمه .

سافرنا لمدة خمسة أيام إلى الغردقة، وكانت أيامًا لا بأس بها، لكن تساؤلاتي بدأت تزداد .

كان هشام في الليلة الأولى متحفظًا.. خجولًا. وقد اندهشت لأن تحفظه جعله لا يبدل ثيابه أمامي أبدًا.. هو دائمًا بثياب الخروج أو المنامة.. عندما دعوته للاستحمام في حمام السباحة قال إنه يكره الماء بسبب خبرة طفولية سيئة.. هكذا هو من الطراز الذي يلبس الشورت والتيشيرت ويجلس على حافة حمام السباحة يشرب العصير .. لا يبلل قدميه أبدًا .

عندما عدنا بعد أسبوع العسل هذا بدأت أكون انطباعي .

أمه لم تكن باللطيف والرقية اللذين تكونا كانطباع عندي.. هي مسيطرة، وأعتقد أنه يخشاها فعلاً.. صحتها مضعضة فعلاً وتتنفس بصعوبة بالغة، لكن شخصيتها بكامل لياقتها، ويمكن لشخصية كهذه أن تمارس رياضة العدو أو رفع الأثقال.. وكانت تعاملني بتحفظ مهذب، التحفظ الذي سيصير عدوانية واضحة عند أول بادرة.. هي إذن من طراز الأمهات اللاتي يتصارعن على ذكر القبيلة.. أنت ستأخذين ذكر قبيلتنا.. إذن فالموت لك .

الأمر الثاني هو أن الأم كانت تفضل الاعتكاف في غرفتها.. وفي معظم الأحوال كان هشام يحمل لها الطعام هناك. هناك طاهية وخادمة تترددان على البيت بضع ساعات يوميًا، الأولى تعد لنا طعام الغداء، والأخرى تنظف غبار اليوم السابق وتفرش الأسرة .

مرت أيام أخرى، وجاء اليوم الذي ذهبنا فيه معًا إلى الشركة بسيارته كما تمنيت.. وهناك كان الجميع يعاملونني باعتباري الخبيثة التي فازت بقصب السبق.. الأبرع والأقدر والأجمل. لا شك أنني شعرت بغرور شديد، لكنني في الوقت ذاته لم أكن مستريحة.. سعادتي غير كاملة .

روضينا قالت لي الشيء ذاته.. قالت إنني شاحبة غير سعيدة .. لا يتدفق ماء الهناء والحياة من وجنتي كأى عروس جديدة هائلة. قلت لها شيئًا عن نفسي المريضة التي تنال التفاحة ثم تتسائل عن جدوى هذا ولا تجدها حمراء بما يكفي .

في حالتي لم تكن هذه هي المشكلة، كانت المشكلة هي أنني لست موقنة أن ما في يدي تفاحة.. ربما هي شيء آخر؟

سوف أحكي لك كذلك قصة القط الممزق في الحديقة.. إنها مهمة لقصتنا .

هل تريد معرفة القصة؟ إذن دعني أخبرك أنني وجدت قِطًا ممزقًا في الحديقة.. انتهت القصة.. ممتعة أليس كذلك؟ حدث هذا يوم الخميس.. كنت أتفقد الأزهار عندما وجدت هذه الجثة المهلهلة.. هذا ليس قِطًا مِيتًا، بل هو قِطٌ ممزق.. هل هناك ذئاب تتسلل إلى هنا؟

عندما سألت هشام شحب وجهه، وبدا عليه الذعر، ثم قال لي بصوت مبحوح :

- لن يحدث هذا ثانيةً .

ما معنى هذا؟ ما الذي لن يحدث ثانية؟

أنت تعرف يا كمال - هذا اسمك أليس كذلك؟ - أنني قررت أن أعرف أين أنا بالضبط.. يجب أن أقوم بتفتيش البيت جيدًا.. ربما كان عليّ كذلك أن أضع كاميرا لاسلكية في الحمام لهشام.. هذا تصرف غير أخلاقي، لكن للضرورة أحكام.. هناك لغز في جسده لا يريد أن يراه أحد، فما هو؟

إن قصتي توشك على الانتهاء يا كمال فلا تتململ.. أعرف أنني أطلت عليك .

*

في غرفتي رحت أفرغ الفيلم.. الفيلم الذي سجّلته كاميرا الحمام.. على شاشة اللاب توب رحت أراقب الصورة المأخوذة من مكان مرتفع قليلًا حيث داريت الكاميرا وراء ستار الحمام.. لم أسمع عن امرأة تتلصص على رجل يخلع ثيابه من قبل، لكني لم أسمع كذلك عن رجل حريص على ألا ترى زوجته جسده أبدًا.. حتى وهو نائم يتدثر جيدًا بالملاءة، فلا أستطيع معرفة ما هنالك !

كان ينزع قميصه.. ثم فانلته الداخلية.. هنا فهمت جزءًا من السر: إنه يلف رباطًا من الشاش العريض حول أسفل صدره ويلتف حتى يغطي البطن كله، لكنه لن يستحم بهذا الرباط.. راح يفكه في حرص.. لقد ألصق أطرافه باللاصق العريض .

الرؤية بعيدة جدًا، لكن يمكنني تثبيت الكادر، يمكنني أن أقربه قليلًا لأدرك أن هناك تشوّهًا أسفل الضلوع.. كأن هناك حفرة عميقة تمت خياطتها، والتئام الجرح غير كامل، يُذكرك بحرق تم ترقيعه بلا نجاح.. هذه أقبح ندية رأيته في حياتي.. هشام يخفي سرًا، وهذا السر هو أنه مريض جدًا، أو أجرى جراحة مرعبة في وقت قريب .

متى كان هذا الوقت؟ لقد تغيب فترة طويلة عن العمل في بداية عملي بالشركة.. هل كانت تلك هي الفترة؟

خليط مبهم من الإشفاق عليه والاشمئزاز منه والارتياح لأن هذا هو سره الوحيد.. عليه أن يخبرني بالأمر، وعليه أن يرى إن كنت سأحبه أم لا.

«سوف تكونين معي في السراء والضراء ومهما عرفت عني؟».

هكذا سألني قبل الزواج.. وقلت له وقتها إن شرطي الوحيد هو ألا يكون مصابًا بمرض عضال.. هل آلمه هذا؟ ألهذا تقلص وجهه؟

كنت جالسة أمام المرأة أصف شعري عندما ظهر عند باب الغرفة.. كان يرتدي الروب ويتأهب للنوم.. كلمت صورته في المرأة قائلة :

.. هشام.. أنا أعرف موضوع الجرح تحت ضلوعك.. ومندهشة لأنك لم تخبرني به !

توقف للحظة، وبدا كأنه لم يسمع.. رفع حاجبيه للحظة، ثم نزع الروب واندس في الفراش ولم يقل شيئاً .

ظلمت أنظر إليه في صمت وأنا أواصل تصفيف شعري، وبعد لحظات اندسست جواره في الفراش وأطفأت النور .

تنفسه منتظم.. هل ضميره نقي إلى هذا الحد؟ لماذا فضل تجاهل المعركة؟

إي إي إي إي إي إي إي إي إي إي إي !

في الظلام ...

هل هناك قطٌ حبيس في الفيلا؟ !

الصوت يتكرر في إلحاح غريب.. نهضت في هدوء، وأنا أتحسس البساط تحت قدميَّ الخافيتين.. أحبس أنفاسي.. أتجه نحو باب الغرفة.. الصوت يتعالى.. أي أنني أدنو منه فعلاً .

إي إي إي إي إي إي إي إي إي إي إي !

الصوت آتٍ من الطابق السفلي.. لا شك.. بدأت أنزل في الدرج الخشبي وأنا أتحسس طريقي على الضوء الخافت القادم من «المصباح الساهرة».. موقف مرعب لمن هي أو هن أعصاباً مني،

لكنك تعرف يا كمال أنني ذات شخصية قوية متماسكة .

في نهاية الممر كانت تلك الغرفة التي لم أرها إلا مغلقة.. قال لي هشام إنها مخزن.. طبيعي أن يُحبس حيوان ما في المخزن.. لقد خُلق لهذا.. لكنني هذه المرة أرى أن الباب موارب .

في حذر دلفت إلى الداخل.. تلك الرائحة الكريهة! تحسست الجدار بحثًا عن ضوء.. هذه هي اللحظة التي تطبق فيها يد مخلبية على يدك كما تعرف، لكنني لا أعبأ بهذه الأوهام الهستيرية .

كان هناك مفتاح كهربائي عتيق.. كليك.. غمر الضوء المكان .

هي غرفة اتساعها خمسة أمتار في ثلاثة أمتار، وجدرانها مكسوة بالملاط، هناك حشد من الأثاث القديم وأكوام من الصحف وحقائب بالية.. لكن مصدر الصوت يأتي من ...

القفس الصغير في ركن المكان.. هناك حيوان حبس بالداخل.. لا شك في هذا وهو مصدر الأنين .

في حذر دنوت أكثر.. رأيته يحاول اقتحام القضبان، وكان ينظر في عيني.. لا أعرف ما هو.. أقسم أنني لا أعرف.. هو في حجم قِطٍ كبير، لكن وصفه عسير جدًا، يمكن أن تصفه بالكيان.. الشيء .

فقط تعرف حقيقة واحدة: يجب ألا تسمح لهذا الشيء بالخروج من القفس .

- أطلقنا عليه اسم هاشم !

وثبت مترًا في الهواء لدى سماع هذا الصوت في الظلام، ثم تراجعنا لأسقط بين ذراعي هشام.. هشام الذي يلبس منامته وهو حافي القدمين، وقد بدت القصة واضحة: لم يجدني جواره في الفراش، وخبَّئ الباقي ...

ثم إنه جلس على مقعد قديم مهشم متهاك وغطى وجهه .

سألته في رعب :

- ما هذا؟! ليس كائنًا بشريًا، بل هو ليس كائنًا أعرفه على الإطلاق !

كان هشام يخفي سرًّا كما قلنا، وقد بدأ يحكيه لي، لكنني لم أصدق.. حتى اللحظة لا أصدق .

*

هشام - هكذا قال لي في الظلام - وُلد بشيء أقرب لورم تحت الضلوع.. قال الأطباء إنه شيء يُدعى «teratoma».. يحوي عظامًا وأسنانًا وشعرًا.. هذا ما ظهر في صور الأشعة ومرارًا.. لم يحاول الخلاص منه إلا منذ عامين .

عندما عاد إلى البيت بعد الجراحة بذلك الورم المبهم في وعاء مليء بـ«الفورمالين»، استغرق فترة حتى يدرك أنه حي ويتحرك.. أمه أول من لاحظ هذا .

سألته وأنا أرتجف :

- هل تعني أنه كان توءمًا سياميًا؟

قال كاسف البال :

- لا. هناك حالات ظل فيها التوءم السيامي حيًا وحاقدًا على أخيه العملاق الذي استلبه حقه في الحياة، لكن هذا الورم لم يكن توءمًا سياميًا، وإلا لرأى الأطباء قلبه النابض أو رثتيه.. كان كيانًا شريرًا مبهمًا له عقل.. يرى ويسمع ويفكر !!

بالواقع كان الكائن أقرب إلي شيطان ذي قدرات مذهلة.. كان يدخل من فتحات المصاعد، ويتسلق المواسير، ويدخل الغرف المغلقة، وكان قويًا جدًا ...

- لا أعرف كنهه بالضبط، لكنه يُمثّل الجانب الشرير في أعماقي وقد تحرّر .

احتفظ هشام وأمّه بهذا السر، ورَبّي الكائن الكابوسي الذي سُمّياه «هاشم». لأسباب واضحة لم يجسر على التخلص منه.. وقد قرر هشام أنه لن يتزوج أبدًا.. طبعًا قبل أن يقع في حبائلي ويحبني .. ما عرفه هو أن الكائن يتطوع بإيذاء كل من يكرههم هشام ويفتك بهم، مخترقًا الحدود المادية أحيانًا.. هشام يعرف أنه تسلل إلى حمام هدى وقتلها.. لكن كيف عرف بيت هدى؟ يمكن تخيل ما حدث للذي مات في المصعد، ففتحة المصعد العليا تسمح بدخول شيء.. أو أبي الذي اختنق أثناء نومه، فهناك شرفة صغيرة في غرفته.. يمكن تخيل كيف هاجم ثروت في المطبخ .

- هناك كثيرون ممن غضبت عليهم أو اختلفت معهم ماتوا بلا تفسير .. هناك قصص لا تعرفونها.. أعتقد أن له ست ضحايا منذ تمت

الجراحة .

لكن هناك أجزاء غير مبررة في القصة.. الهدايا التي كنت أتلقاها بانتظام من شيء قادر على الوصول إلى سيارتي أو وسادتي .

- بدا واضحًا مع الوقت أنه يحبك ويبحث لك إشارات وهدايا.. وبدأ يغار مني.. لقد صار خطرًا .

هكذا صار من الواجب أن يُحبس في هذا القفص لتحديد نشاطه، لكنه يخرج منه بسهولة تامة كلما أراد، كما فعل مع القط الممزق.. إنه كيان شيطاني.. هو الشر المجسد.. لا يمكن معاملته بشكل مادي .

هاشم يحبني؟! هاشم يشتهيني؟! هاشم يغار من أخيه بسببي؟! !

هشام يخفي سرًا.. وهذا السر اسمه «هاشم».

كان هذا الشيء المخيف يتحرك في القفص .

قلت لهشام وأنا أرتجف :

- لو كان كلامك صحيحًا، فعلينا أن ندمر هذا الشيء.. لا بد من أن نجرقه أو نغرقه أو نكهرب القفص.. سنتصرف معه كما يتصرفون مع فأر مسعور .

- هو جزء مني.. لا أقدر على عمل ذلك.. ولربما أفنيت نفسي معه.. لا تنسي نوبات الألم.. هو قادر على أن يؤلم جسدي !

هذا ليس حقيقياً.. سوف أصحو فجأة لأدرك أن هذا كابوس .

قلت في ثبات :

- هذا كائن مخيف.. وعليك أن تختار بيني وبينه.. سيكون هذا آخر يوم لي في بيت المجانين هذا !!

في الفراش همس هشام وهو يندس بجواري، بعد نهاية تلك المواجهة المخيفة :

- سوف أتخلص منه.. سأعرف كيف أتخلص منه .

وكانت هذه آخر كلمات قالها .

*

متى نهضت يا هشام؟ متى تركت الفراش؟

كان هذا هو الصباح، وكنت مرهقة مبعثرة بعد ليلة مليئة بالانفعالات.. لم يكن نومًا، بل هو أقرب لفقدان وعي.. وعندما نهضت لم تكن هناك .

رحت أبحث عنك، وناديت باسمك مرارًا ...

ثم وقفت مستندة على الدرابزين ونظرت إلى الطابق الأسفل.. عندها رأيته.. رأيت الجثة التي تلبس المنامة والتي سقطت من ارتفاع طابق، وعرفت أن العنق مهشم.. لقد دفعوك لتسقط من الطابق الثاني .

أسرعت أهبط في الدرج، وكان المشهد الذي رأيته هو نفس ما رأيته من الطابق العلوي، ولكن بشكل أقرب ولا يقبل الشكوك.. كنت أمل أن تتلاشى الرؤية عندما أقرب، أن أكون واهمة أو حالمة أو مخبولة .

ثم سمعت الصراخ .

هناك على أريكة في ركن المكان كانت الأم تجلس وتمسك بموضع قلبها.. لم تعد قادرة على النهوض، لكنها قادرة على الكلام بصوت مبحوح .

نهضت مسرعة نحوها، فقالت دون أن تنظر إليّ :

- الأخ قتل أخاه!! أو اللحم قتل اللحم!! كنت أنت لعنة حطت على هذا البيت، وكنت مصيبة منذ البداية.. ما كان لهشام أن يتزوج.. أمثاله لا يتزوجون !!

لم يكن في صوتها هستيريا أو بكاء، كانت تتكلم كأنها تقرر حقيقة علمية .

ثم هتفت بنفس الصوت :

- الآن يجب أن تفري.. هاشم سوف يظفر بك لو بقيت.. إنه ليس في الغرفة المغلقة ولا القفص.. إنه طليق.. وصدقيني هو لا يريد قتلك.. يريد ما هو أسوأ !

كنت قد كوَّنت فكرتي عن الموقف، ووصلت إلى ذات الاستنتاج.. هذا

البيت ليس لي لو أردت البقاء حية. فيما بعد سأبكي على هشام بما يكفي، أما الآن فلا وقت سوى ارتداء ثياب الشارع والبحث عن مفاتيح السيارة.. الهرب.. لربما لو لجأت إلى مكان مغلق محصن باقي حياتي نجوت .

خلال لحظات كنت في حديقة الفيلا، وخلال لحظة كنت أدير محرك سيارتي الناعسة في مكانها منذ أسبوع .

دار المحرك، وانطلقت كالمجنونة عبر الشوارع شبه الخالية .

الأحداث تتدافع في ذهني، حتى فقدت القدرة على الفهم أو التفسير نهائياً .

فجأة، شعرت بذلك الشيء الممقزز المبهم يتسلق على كتفي.. كان ينتظرني في المقعد الخلفي! لقد خمن أنني سأنتوي الفرار. رفعت يدي ودفعته.. لا يمكن فهم هل هذه كتلة من العضلات أم اللحم الرخو.. لا يمكن فهم هذا الشيء.. هو ممقزز وثقيل الوزن وكفى.. هاشم يغارلني بعد ما قتل أخاه أو أباه أو وعاءه.. لا أدري بالضبط !!

ثمة نقطة واحدة أعرفها؛ هي أنه لن يقتلني.. إنه يبثني غرامه لا أكثر .. وهو غرام يهون أي موت معه طبعاً .

أدركت المقود بسرعة نحو اليسار، ثم مددت يدي وأمسكت بالشيء بأقصى قوتي وطوحت به من النافذة.. وعندما بلغت نهاية الطريق ضغطت على الفرملة ونظرت إلى الخلف ...

كان هاشم يزحف على الطريق.. للحظة يخيل لك أنه إنسان قزم بلا قدمين، أو هو عنكبوت، أو هو نصف قط. ولم أتردد.. درت بالسيارة واندفعت نحوه بجنون من جديد، وسمعت شيئاً ينسحق تحت العجلة .

لا تترددي يا فتاة.. هذا كيان شرير، ومن الوارد ألا يموت.. درت من جديد وسحقته مرة أخرى.. عاودت الكرة مرتين .

.. مت!! مت !!

ووقفت على مسافة وأنا ألهث وأتففس في جشع.. السيارة تن من فرط الجهد.. وهنا رأيت كلبين ضالين يهرعان نحو كتلة اللحم هذه وراحا يتنازعان على أخذ أجزاء منها .

لو أراد هاشم أن يوجد من جديد، فعليه أن يجمع بقاياه من أفواه

الكلاب والغربان !!

كنت أبكي أخيراً.. للمرة الأولى سمحت لنفسي بالبكاء .

هشام كان يخفي سرّاً.. وليتني لم أعرفه قطّ !!

بعد الجلسة

«لا أحب تحضير الأرواح.. سوف تكون هذه آخر مرة ألعب فيها هذه اللعبة».

سألته عن السبب، فقال :

.. هذا لعب خطر.. اللعب على حدود عالمين يجب ألا يتداخلا أو يلتقيا.. نحن أطفال سدج، لعبنا مرارًا عند عتبة باب الغول، وكنا محظوظين لأنه لم يصح في أي مرة، لكن من يضمن أن يستمر الحظ الحسن؟
«.

الجو بارد بالتأكيد .

ربما كان السبب الحقيقي هو القشعريرة أو الانفعال.. أنت تعرف أن من يصابون بصدمة عصبية يرتجفون بردًا كأنهم مغطون بالثلوج.. ربما كان السبب هو البرد، وربما كان السبب هو التوتر.. هناك كذلك لمحة شؤم حقيقية.. لا ننكر هذا .

لقد كانت أمسية طويلة .

في بيت صديقنا صبري كانت تلك الجلسة.. الكوب المقلوب، ولوح الويجا، والظلام.. رائحة البخور وثلاثة منّا يضعون سياباتهم على الكوب المقلوب ويحبسون الأنفاس، بينما واحد يراقب .

لماذا فعلنا ذلك؟

لم تكن لدينا طريقة أفضل لقضاء الأمسية من تلك الإثارة الناجمة عن استكشاف المجهول.. عن الدنو على أطراف أصابع أقدامنا من الحافة الفاصلة بين عالمين.. عن التلصص على ما يدور في الجانب الآخر.. أكثرنا متزوج ويعاني حالة ملل متقدمة .. أنا تركت زوجتي في البيت ووعدها بالآ تأخر وكانت هذه كذبة طبعًا .

كان الطلب الذي طلبناه غريبًا.. نريد استحضار روح السفاح الأمريكي «تيد باندي».

تحرك الكوب ببطء.. وأدركنا أن ما يحدث ليس وهمًا، وليس هو الـ «Ideomotor phenomenon» الذي تحدثوا عنه كثيرًا.. الحروف لاتينية، لذا يمكننا متابعة المحادثة بالإنجليزية .

«تيد باندي».. السفاح الأمريكي الوسيم الذي يعرفه كل مواطن هناك، والذي كان يقتل النساء بضربة على الرأس غالبًا .

هكذا دارت المحادثة.. وهكذا تكلمنا مع «تيد باندي» كثيرًا.. سألناه عن هوايته الغربية، وعن ولعه بقتل الحسنات، وطريقته في الخداع، إلخ .

طالت الأمسية.. طالت ...

وعندما انتهينا قررنا أن نعود إلى ديارنا وشكرنا صبري.. لاحظ صبري أننا لم نصرف الروح بطريقة واضحة مباشرة، لكن الحقيقة هي أننا هواة، ولم نكن نعرف طريقة لصرف الروح سوى «انصرفي».. لم تكن هناك مشكلة لأننا جربنا هذه اللعبة مرارًا من قبل .

خرجت إلى الشارع المظلم البارد مع رامي وعمرو .

الهواء بارد.. بارد.. والبخار يتكاثف بلا رحمة. كنت ألهث بلا توقف .

أشعل رامي لفافة تبغ وسعل، وقال إن الأمسية كانت ممتعة. أعترف أننا استمتعنا بوقتنا، لكن شيئًا له طعم مرير ظل في حلقي.. لست مرتاحًا جدًّا.. لست في غاية السعادة.. ثمة شعور بالقلق ينتابني.. لا أعرف السبب .

وصلنا إلى ناصية الطريق، فقال رامي وهو يلوح بذراعه :

- أراكم غدًا لو عشتُم !

لماذا قال هذا؟ لم أعرف، لأنه كان قد غاب في شارع جانبي يقود لبيته .

مشيت مع عمرو مسافة لا بأس بها. قال لي ويداه في جيبه :

- لا أحب تحضير الأرواح.. سوف تكون هذه آخر مرة ألعب فيها هذه اللعبة .

سألته عن السبب، فقال :

- هذا لعب خطر.. اللعب على حدود عالمين يجب ألا يتداخلا أو يلتقيا.. نحن أطفال سدج، لعبنا مرارًا عند عتبة باب الغول، وكنا محظوظين لأنه لم يصح في أي مرة، لكن من يضمن أن يستمر الحظ الحسن؟

فكرت في كلامه.. بالفعل أشعر بنفور مماثل .

ما الذي يشعر به صبري الآن وهو في بيته؟ وقد كانت روح «تيد باندي» تعبث في المكان منذ ساعتين؟ ولكن، مَنْ قال إنها روح «باندي» فعلاً؟ حسب رأي المتدينين «هذه شياطين تعبث».. وحسب كلام المفكرين «هذه عقولنا الباطنة تتكلم».

مشينا بضع خطوات، ثم سألني عمرو عن خطتي للغد.. اليوم هو الجمعة.. الواحدة من صباح الجمعة، لكنك تعرف أننا بخطأ جغرافي مشهور نعتبر أنفسنا في الخميس.. قلت له إنني سأنام وأحاول أن أنسى .

أخيراً وصلنا إلى بيت عمرو فدعاني للصعود.. قلت له إن الموعد لا يناسب سوى أمن الدولة، وحيته .

قال لي قبل أن يغيب بالداخل :

- خذ بالك من نفسك .

لماذا قال هذا؟ تبدو لي عبارة فيها حنان أنثوي لا داعي له .

ابتسمت وواصلت السير في الشارع المظلم البارد.. لماذا لا يوجد أحد على مرمى البصر؟

هل قرر الناس جميعاً النوم؟

عند كشك السجائر الموجود عند قارعة الطريق سمعت النباح الوحشي.. أحفلت.. رأيت كلبين أشعثين مخيفي الشكل يخرجان لي كأنهما قادمان من الجحيم.. تصلبت واقفاً محاولاً ألا أثير غضبهما أكثر، لكنني وحيد، والشارع خالٍ، والمأزق مخيف .

تراجعت إلى الخلف والكلبان يحاصرانني ويزومان .

يا لها من ليلة !

وفجأة، سمعت رجلاً مسنّاً يصيح بالكلبين زاحراً وهو يلوح بعصا صغيرة يزجيها بهما.. كان خفياً في بناية تحت الإنشاء.. واعتذر لي.. قال إنهما كلبان جبانان لا أكثر .

واصلت المشي وقلبي يتواثب .

كنت أمر جوار عمود النور الذي يلقي إضاءة خافتة، وفجأة رأيت ظلاً يتحرك من مكان ما.. وثبت إلى الخلف، فرأيت رجلاً يخرج من خلف العمود وهو يلوح بشيء لامع في يده.. رجلاً رث الثياب له نظرة

مجنونة .

أطلقت صرخة قصيرة.. هذه هي اللحظة إذن.. الليلة كلها تنذر بهذه اللحظة.. عندما لم نصرف روح «تيد باندي» كما يجب وقعنا في خطأ رهيب.. أعتقد أن كل واحد ممن اشتركوا في الجلسة سوف يلقي مصيرًا كارثيًا الليلة .

لكن الرجل لم يتقدم نحوي.. لقد لوح بالشئ في يده وصاح :

- كله مكتوب.. كله مكتووووب !

وراح يرقص كأنه ثمل.. هنا فهمت.. هذا مجرد مخبول ممن احتضنتهم الطرقات.. ليس أخطر من قِطِّ ضال .

ابتعدت عنه وأنا أنظر من فوق كتفي.. المشكلة هي أن بيتي بعيد، لكنه أقرب من أن أركب له سيارة أجرة.. وضع وسط سخيف.. ولو أردت سيارة أجرة فلن أجد .

عند ركن شارع جانبي رأيت ما بدا لي كرجل يضرب رجلًا فيسقطه أرضًا.. يجب أن أسرع المشي أكثر.. لا أجرو على التراجع أو الاتصال برامي أو عمرو ليساعداني.. سوف أصير سخرية القوم للأبد.. سيقال إنني جبان كفتاة صغيرة .

روح «تيد باندي» في كل شيء.. أعرف ذلك .

قال صديقي عمرو :

«هذا لعب خطر.. اللعب على حدود عالمين يجب ألا يتداخلا أو يلتقيا.. نحن أطفال سذج، لعبنا مرارًا عند عتبة باب الغول، وكنا محظوظين لأنه لم يصح في أي مرة، لكن من يضمن أن يستمر الحظ الحسن؟» .

يبدو أن هذه هي الليلة التي يتوقف فيها الحظ الحسن .

بيتني أخيرًا ...

يبدو كواحة وسط الظلام .

هرعت أجتاز المدخل وأغلق الباب خلفي، ثم وثبت الدرجات حتى شقتي.. الأمان.. الهدوء.. سوف أقرأ القرآن طيلة الليل ولن أنام.. سوف أتصل بالرفاق صباحًا لأطمئن عليهم .

حنان.. أين أنتِ يا حنان؟

رحت أنادي في الشقة.. يبدو أنها نامت.. هذا ليس من عادتها عندما تكون وحيدة.. لقد أعدت لي العشاء .

دخلت غرفة النوم.. هذه قطرات دم.. بالتأكيد هي كذلك.. الجدار.. الفراش.. بحور من الدم .

من قال إن «تيد باندي» كان يقتل الرجال؟ «تيد باندي» كان يقتل النساء، وغالبًا كان يهشم رؤوسهن.. الآن أعرف أن الروح لم تنصرف عندما انتهت الجلسة.. لقد كنت على حق عندما توقعت كارثة.. رائحة الهواء الغربية قالت كل شيء.. كانت الروح تنتظرنني هنا في بيتي، ومن الواضح أنها قامت ببعض الأعمال قبل قدومي ...

«من يضمن أن يستمر الحظ الحسن؟».

من أعمال د. أحمد خالد توفيق لدى دار الكرمة

من أعمال د. أحمد خالد توفيق لدى دار الكرمة

الطبعة
18

المكحول

أحمد خالد توفيق



من أعمال د. أحمد خالد توفيق لدى دار الكرمة

أحمد خالد توفيق شَربة الحاج داود

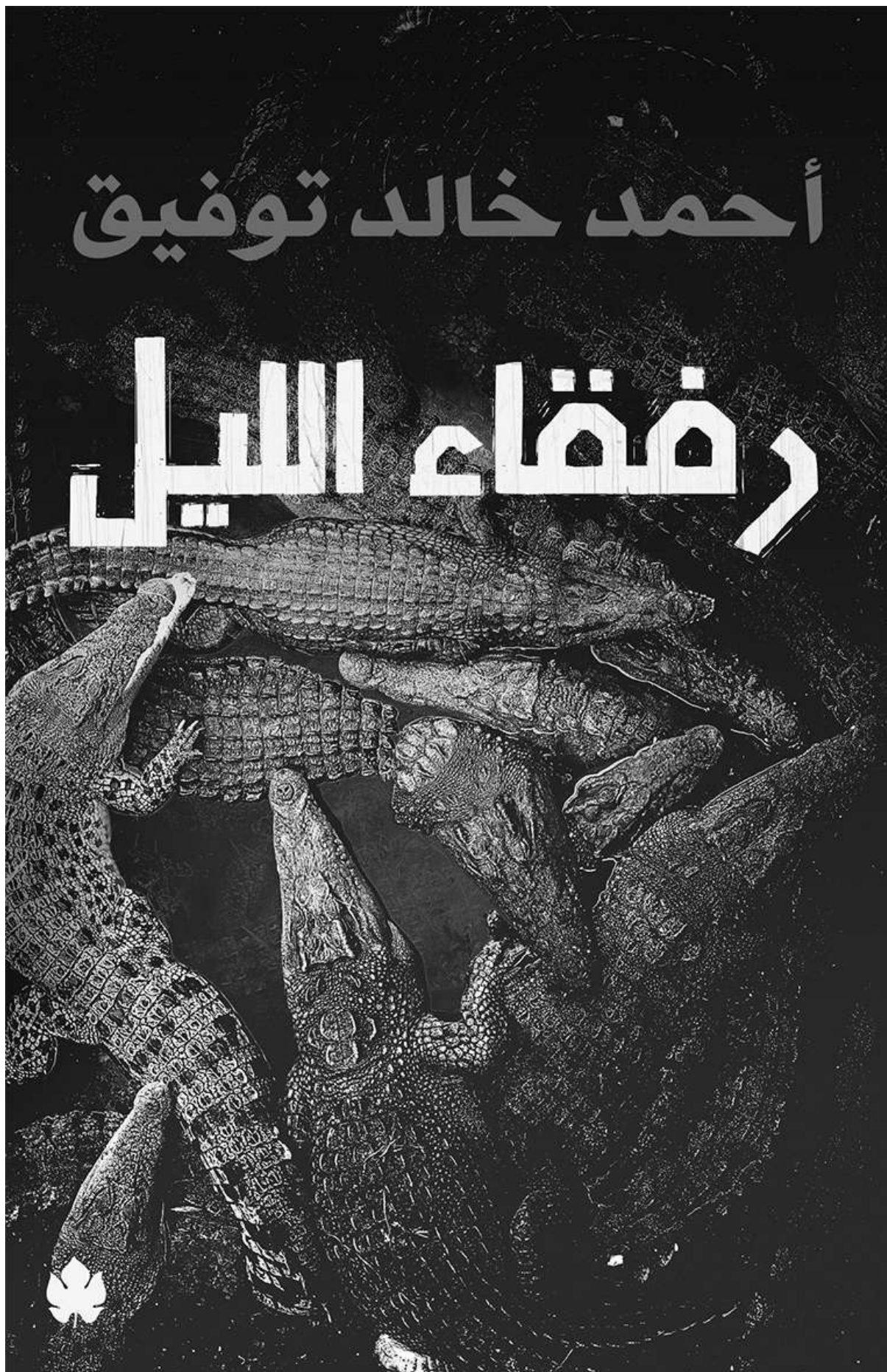
الطبعة
11

مقالات عن العلم
وشبه العالم



أحمد خالد توفيق

رفقاء الليل



رفقاء الليل

أحمد خالد توفيق

رفقاء الليل

مجموعة قصصية



لمزيد من المعلومات عن الكرمة : facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © أحمد خالد توفيق 2019

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر .

توفيق، أحمد خالد .

رفقاء الليل / أحمد خالد توفيق - القاهرة: الكرمة للنشر، 2019 .

1- القصص العربية القصيرة .

أ-العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 9555 / 2019

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

الجلسة

- هل تدرك معنى ما تقول حقًا؟

- قطعًا .

- وتدرك تبعات هذا؟

- أنا لا أكلّم مُحقّقًا. أعرف أنك تحتفظ بسِرية المحادثة كجزء من آداب المهنة .

كان الموقف محيرًا. لا بد أن أكثر من قس اعتراف مر به من قبل، وإنني لأتذكّر مسرحية «كرسي الاعتراف» التي قدّمها يوسف وهبي، والتي تدور حول مأزق كهذا. في فيلم «أنا أعترف» لـ«هتشكوك»، يجد قس الاعتراف نفسه متهمًا بالقتل، مع أنه يعرف القاتل الذي اعترف له! ليس الأمر هنا بهذا السوء والحمد لله .

كلمات المريض مُقدّسة وسِرية، لكن هذا يضعني في معضلة ضميرية حقيقية .

كان شاكر يجلس على الأريكة يتأمل بطاقة «رورشوك» التي أعطيتها له، وكنتُ أجلس خلفه كما تعلم؛ لا يجب أن تُجرى اختبار «رورشوك» والمريض يرى وجهك. هذه هي البطاقة الخامسة . لا أحب هذه البطاقات التي تظهر بقع حبر، وعلى المريض أن يُخمّن إلّا مَ ترمز؛ فهي طريقة بالية، ويرى أطباء كثيرون أنها تعكس نفسية الطبيب الذي يفسرها وليس المريض، لكنني في أحيان نادرة أعرف شيئًا مهمًا منها .

هذا الموقف من تلك المواقف بلا شك .

كان يُحدق في بقعة الحبر ويكرر في ثبات :

- هذه هي روح الفتاة التي قتلتها منذ عام !

*

هذه هي الجلسة الثانية لشاكر عندي. هو محامٍ في الأربعين، من ذلك الطراز الذي يقول الناس إنه هادئ مهذب، ويكتشف الطبيب النفسي أنه بالوعة شهوات وآثام. يسمون هذا الطراز في الغرب «الرجل الدمث الذي يمتلئ قبو داره بجثث الأطفال». نحيل، ذو عوينات سميقة تُطل من خلفهما عيانان واسعتان مذعورتان متهمتان كعيني بومة. تساقط الشعر قليلًا عن مقدمة رأسه، وهناك تجعيدتان عميقتان على جانبي فمه، كما أنه من الطراز الذي تملك حنجرته (أو تفاحة آدمه) حياة خاصة بها، فتتواثب كالقردة طيلة

الوقت. أبخر نوعًا، وأقرب للتأنق .

لم أحبه منذ اللحظة الأولى، لكن لم يخطر ببالي قط أنني سأخافه. هذا ما حدث فعلاً. في الزيارة الأولى قال لي إن لديه هاجسًا مخيفًا؛ يريد أن يقتل زوجته، وهو يخشى ذلك. هذا وسواس قهري واضح. عرفت فتيات متدينات يبتن على قارعة الطريق خوفًا من أن يدفعهن الشيطان لممارسة الرذيلة مع آبائهن، وعرفت فتية متزنین يغلّقون الباب على أنفسهن ويلقون المفتاح من النافذة خوفًا من أن يقتلوا ذويهم أثناء النوم. ليس كل الوسواس القهري غسل يدين متكررًا كما تتخيل .

الخوف من أن يجن المرء ويرتكب عملاً أحمق هو نوع معروف من الوسواس .

في الزيارة الأولى سألني شاكر عما إذا كنت حقًا حاصلاً على درجة علمية في علم نفس الجريمة، فأشرت إلى الشهادة المُعلّقة التي حصلت عليها من «هارفارد». لا أعرف إن كان استطاع قراءتها أم لا، لكنه شعر بصدق كلامي .

قال لي وهو يُحدق في السقف :

- كنتُ مُولعًا منذ صغري بفكرة البلّورة السّحرية التي تحمّل فيها فترى ما يفعله معارفك. لم أستطع الحصول على بلّورة، ثم وجدت طريقة تقضي بأن يحمل المرء نصف ساعة كل يوم في قدح من الحبر، تحاول أن تتخيل مشهدًا معينًا وتتخيل تفاصيله. مع الوقت والمران يكتسب الحبر حياة خاصة به، ويمكنك إذ تطيل الحملقة أن ترى ما يفعله الآخرون فعلاً .

قلت له في لامبالاة :

- يسمون هذا عندنا «باريدوليا» (Pareidolia) ، أي أنك ترى ما تريد رؤيته أو تتخيل أنك تراه. كلنا نرى وجوه نساء في بلاط السيراميك، ونرى أرانب بين السحب، وخيولًا تجري في بقع الماء .

بإصرار قال :

- لكن ما أراه في صفحة الحبر لا يكذب، وقد رأيت زوجتي تخونني مع جاري، رأيت هذا بوضوح، وقد تكرر مرارًا !

قلت له :

- يمكنني أنؤكد لك أن هذا هراء، وعلى كل حال فمن الواضح أن هذا هو سبب هاجس قتل الزوجة الذي يطاردك .

كل رجل طبيعي تمنى بالتأكيد أن يقتل زوجته في لحظة ما، لكنه كما قلت

لك «طبيعي»، لهذا ينسى الأمر ويشعل لفافة تبغ مغتاطًا، ويخرج ليسهر مع رفاقه، أما الرجل غير الطبيعي فهو ...

عُدت أسأله بصوت هادئ :

- حدّثني عن طفولتك؟

*

الحبل ...

افتتان هذا الرجل بالحبال بدأ منذ طفولته. هذا رجل قضى جُل حياته مع الحبال والحبر كما هو واضح .

كان يلعب كل الألعاب التي يتم استخدام حبل فيها. لم يكن يتلذذ باللعبة قدر ما يتلذذ بالحبل. شيء ما في التصميم كان يروق له. شد الحبل، الوثب بالحبل ...

في سن العاشرة شعر أن الجميع يكرهونه، وأن الحياة قاسية، وأن أهله لا يرغبون في بقائه حيًّا. بحث عن حبل الغسيل وقطع منه جزءًا لا بأس به، ثم دخل إلى الحمام. صعد على مغطس الحمام الزلق، وعقد عقدة في دُش الحمام، ثم صنع أنشودة صغيرة في الطرف الآخر كما تعلم في السينما، ثم وقف على حافة المغطس ووضع الأنشودة حول عنقه. من الغريب أنه لم يشعر برعب أو قلق، فقط شعر بنشوة لفكرة أن يلتف الحبل حوله. سوف يأتون بعد فوات الأوان، ولسوف ييكون بحرقه، ولات حين مناص. شعر برثاء حار لنفسه، حتى أغشت دموعه الرؤية فلم يعد يرى تقريبًا. خواطر محزنة تبعث النشوة في النفس. لذة التعذب. البائس الصغير يتدلى وقد انتهت قصة حياته. أغمض عينيه، ووثب من على حافة المغطس، فقط ليسقط على الأرض فوق مؤخرته. طاخ!! لم يحدث شيء. نظر إلى أعلى في خيبة أمل، فرأى أن العقدة في الدُش قد ارتخت. لم يكن بارعًا في ربط العقد، وكل ما جناه هو أن أذى ردفه فعلًا، فلا غرابة في أن يُصاب بالبواسير .

- البواسير لا تصيب من يفشلون في الانتحار ويقعون على مؤخراتهم !

تجاهل كلامي وواصل السرد. لقد سمع أباه يدق على باب الحمام وقد سمع الارتطام، فهرع يخفي الحبل ويشد السيْفون ليوحى بأنه كان منهمكًا، ولعل هذه كانت أول وآخر مرّة يجرب فيها الحبل كطريقة لمغادرة العالم .

في سن المراهقة انتقل ولعه بالحبال إلى لذة أن يكون مُقيّدًا. كان يبحث عن مكان منعزل أو مغلق ويقيّد نفسه بالحبل، طبعًا بطريقة تسمح له بالتححرر، لكنه كذلك كان يحب أن يشعر بأنه عاجز. أحيانًا كان يقنع شقيقه بأن يلعب

معه لعبة اللصوص أو رعاية البقر والهنود، أي لعبة تتضمن تقييده. هذه لمحة «ماسوشية» لا شك فيها. رأيت في كتاب طب شرعي رجلاً غربياً قيّد نفسه بالحبال إلى سيارته، وجعلها تدور في دوائر لتجره خلفها. أعتقد أنه وضع قالب قرميد على دواسة الوقود. يتلذذ بهذا الضرب من التعذيب، لكن ما حدث هو أن عجلة السيارة التفت حول الحبل، فمزقه الأخير تمزيقاً .

شعرت بقشعريرة عند تذكر هذا المشهد. تعذبني فكرة المنتحر الذي يقرر التراجع في آخر لحظة، بعد الوثب أمام القطار، أو بعد ابتلاع السم الزعاف، أو أثناء السقوط من فوق البناية .

كانت الجلسة الأولى قد انتهت، وبالطبع لم أكن أعلم أن الأخ شاكر سيعترف لي فيها بقتل كل الفتيات اللاتي قتلن.. قتلن بالحبل طبعاً !

في الفندق جلست أصغي لبعض الموسيقى، ورُحت أنظر إلى عقارب الساعة في لهفة. بالطبع أجريت مكالمة هاتفية للبيت، وأبلغت ثريا أنني سأتأخر. العمل.. دائماً العمل. سأعود فجراً. قالت شيئاً عن عشائي الذي ينتظرنني، وعن شريف الذي نام، و... و ...

لم أكن رائق المزاج، فطلبت منها أن تُعنى بنفسها وأنهيّت المكالمة بسرعة. أشعلت لفافة تبغ. دقات على الباب. رائحة عطر فاغم تسبقها قبل مجيئها بربع ساعة.. سوسن .

ينفتح الباب لتدخل سوسن. هي امرأة في الأربعين، تستحق كل حرف في كلمة «امرأة». الأنوثة المطلقة كما خلقها الله. تلهث من الجهد ومن التوتر، وهذا يزيد لها فتنة. متوترة برغم أنني أعرف يقيناً ألا أحد في الفندق سيسألها عن وجهتها؛ هم تعلموا التجاهل والتظاهر بأن كل شيء على ما يرام .

تسألني وهي تلممني :

- هل تأخرتُ؟

فأقول لها إنها دوماً متأخرة بالنسبة إلى شوقي حتى لو جاءت قبلي .

غريب أمر هذا التعلُّق الذي لا يرتوي أبداً. لو كنا متزوجين لكان الملل قد قضى على علاقتنا تماماً، وعلى قدر علمي لا يمكن لعلاقة أن تستمر بهذا التوهج عامين كاملين، لكنني قدرت أن الشوق العاطفي يمتزج هنا بلذة المغامرة والسرقة. هناك من يدمنون السرقة، ومصابون بمرض «الكلبتومانيا»، وأنا أعتقد أن ما نحن فيه نوع من هذا المرض .

قالت لي :

- منصور لن يعود قبل يومين. لربما كانت الفرصة سانحة كي نلتقي غدًا .

منصور هو زوجها مدير المصرف طبعًا، وأنا لم أَرَهُ قَطُّ، لكنني كَوَّنت عنه صورة عقلية معينة من كلامها: وحشٌ، فظ، ضخم الجثة، لا يحبها، لكنه حريص على الحفاظ على أملاكه، لو كان ثور «بيسون» لراح يبول حولها ليحدد أن هذه أملاكه .

ابتسمت، وقلت لها :

- للأسف، زوجتي موجودة في كل وقت، ولديها شكوكها الخاصة. لن نتمكن من اللقاء أكثر من مرّة أسبوعيًا .

- والنهاية؟

- لا نهاية للحب على قدر علمي. لا يجب أن تكون هناك نهاية. أحيانًا تكون الرحلة أكثر إمتاعًا من الغاية. يومًا ما سيموت زوجك، أو أطلق زوجتي، ولربما تزوجنا، لكن، صدِّقيني، ستفقد علاقتنا سحر «الكلبتومانيا».

- كلبتو ماذا؟

سحقتُ السيجارة، وصدري يهتز ضحكًا، وأطفأت الأباجورة قائلاً :

- لم نلتقِ خلسة هنا كي ندرس اللغة اللاتينية.. صدقيني !

*

بعد أسبوع جاء شاكر، ورقد على المقعد المريح، وراح يُحملك في السقف. بعد قليل قال :

- في سن العشرين استولى عليّ هاجس الخنق. كان مشهد أي شخص يُشنق أو يُخنق بحبل، يثير اهتمامي جدًّا. فكرة الوجه المحتقن، واللسان البارز، كانت تجعل خيالي يجمع وقلبي يخفق. احتجت إلى وقت طويل حتى أكتشف شبكة الإنترنت، وأدرك أن هناك أشخاصًا مثلي في العالم. أنا لست منحرفًا !

لم أستطع أن أمنع نفسي من التعليق، فقلت :

- ليس الموضوع أنك لست منحرفًا. الموضوع هو أن هناك منحرفين كثيرين! في صباي كنت أحب مذاق الشاي الذي يُذاب فيه مكعب زبد، وكانوا يعتبرونني فاسد الذوق. فيما بعد عرفت أن هناك حشدًا من فاسدي الذوق .

ليس هذا أفضل ما يُقال لمريض نفسي، لكنني لم أستطع الصمت .

لم يُعلق، وواصل السرد وحنجرته تتواثب في عنقه كالعادة :

- كنت في حاجة ماسة لأن أخنق شخصًا ما. وتعودت أن أحمل هذا الحبل القصير في جيبتي طيلة الوقت، وأحلم بما يمكن أن أصنعه به !

وفجأة رأيته يمسك بحبل في يده، حبل أنيق رقيق واضح أنه من نوع ممتاز، حبل لا يناسب أبدًا هذه الخواطر السقيمة، ولا تعليق الغسيل. هل يضع هذا المجنون الحبل في جيبه طيلة الوقت؟ !

- فلتخفِ هذا الحبل، وأكمل قصتك .

دس الشيء في جيبه في عدم اقتناع، وقال والعرق ينبت على جبهته :

- بدأت غرائزي تخرج إلى العالم عندما كنت أزور ذلك الصديق في بناية في الزمالة. لاحظت عندما دخلت أنه لا يوجد بواب، ولا رجال أمن، وأن المدخل خالٍ تمامًا. دقت باب صديقي فلم أجده، هكذا استقلت المصعد لأنزل. بعد طابق واحد دخلت فتاة رقيقة إلى المصعد، وهزت رأسها محيبة. كان ذلك العنق النحيل الطويل يناديني، يناديني بلا رحمة. والمصعد بطيء جدًا، والوقت متأخر . لم أستغرق وقتًا للتفكير؛ هذه فرصة لن تعود. كانت تنظر إلى كشاف أرقام الطوابق، وهي طريقة معروفة لتفادي التقاء العيون في مكان ضيق. وهنا كان الحبل قد خرج، التف حول عنقها من الخلف، ثم رُحت أعتصر وأضغط، أضغط . كانت تشهق، وبرز لسانها كما تمنيت. أعتقد أن الأمر استغرق طويلًا جدًا، لدرجة أنني ظلت معها في المصعد لفترة طويلة في الطابق السفلي، واضطرت لضغط الزر بيدي اليسرى الحرة ليرتفع إلى الطابق الثالث، ومن جديد عُدت للهبوط . كان جسدها قد ارتخى تمامًا، وكفّت عن الركل والتنفس، وكنتُ ثملًا بغير خمر. يجب أن أستجمع قواي حتى أهرب، فليس الوقت وقت نشوة! سرعان ما صرت في الشارع، ومشيت مسافة لا بأس بها، ثم استوقفت سيارة أجرة . لن يتذكر أحد أنه رأيها هنا، وصاحبي لا يعرف أنني زرت. الجريمة الكاملة هي أن تقتل شخصًا لم تره من قبل ولم ترسم أي خطة لقتله من قبل. وفيما بعد جمعت كل أخبار هذه الفتاة التي وجدوها مقتولة في المصعد. كان اسمها رشا بالمناسبة .

مر عام، ثم بدأت أشعر بالحاجة إلى تلك اللحظات النورانية من جديد. كان عليّ أن أغير الأسلوب. جرّبت أساليب عديدة، منها استئجار شقة باسم مستعار، واستجلاب بائعة أو فتاة ليل. وجرّبت خنق الأطفال مرتين .

كنت أصغي له وأنا أرتجف. أنا أكره هذه المهنة فعلاً. أكره أن يكشف أحدهم غطاء المرحاض لترى الأشياء على حقيقتها. لكنه برغم كل شيء يُشعرك بالتفوق وأنك أفضل، مهما انحدرت فأنت لن تكون وحشًا مثله .

راح يحكي لي مغامراته في تلذذ، حتى تجمّعت عصارتي المعدية في أسفل

المريء. لكن يظل السؤال المهم هو: كيف تزوج هذا المسخ النفسي؟ ولماذا؟

قلت له :

- كان من الخطر أن تتزوج، أن تعيش معك امرأة وسط هذه الجحيم !

- التوبة !

وارتفعت حنجرتة وهببت :

- ثُبْتُ، وعاهدت الله على ألا أخنق شخصاً آخر. لا بد من لحظة يكف فيها المرء عن المجون. لكن تلك الخائنة كانت تخدعني طيلة الوقت، كانت تلتقي بأحدهم كلما سافرت. لقد رأيت هذا في قدح الخبر، وعرفت أن عليّ أن أعود إلى الخنق !

واهتز صدره من النشوة، وظهرت أسنانه المتآكلة، وأردف :

- لا أكف عن تخيل لحظة أن يلتف الحبل حول عنق سوسن !

زوجته الخائنة اسمها «سوسن»! مصادفة غريبة بعض الشيء! قدمي تهتز لإرادياً. اهداً يا صاحبي؛ هو محامٍ واسمه شاكر، لا علاقة له بسوسنك زوجة منصور مدير المصرف .

قضيت مع ذكريات الأخ شاكر ساعات رهيبة، وهو يقص عليّ تفاصيل مغامراته مع الخنق، حتى شعرت بأنني على وشك الاختناق أنا نفسي، لقد أمتني حنجرتي من كلماته .

المشكلة أنه لن ينتحر ثانية، لن يُجرب ألعاباً «ماسوشية»، فقد وجد غايته النهائية في السادية، وهذا يعني أنه ما زال خطراً داهماً. رجل ذو نظارة سميقة، وعينين جاحظتين، وحبل في جيبه، هو رجل لا يدعو إلى الثقة .

كنت أعرف أنني عاجز عن مساعدته. من العسير أن تعالج الوسواس القهري، فماذا عن سفّاح سادي قتل أطفالاً كما اعترف؟! لا أجرؤ، ولا يسمح ضميري، بأن أبلغ الشرطة ضده .

رباه! سوف تكون لحظة سعيدة في حياتي، تلك التي يكتشف فيها أنني حمار ويطركني. الخلاص منه يحتاج إلى احتفال صغير بالفعل. لكن المصيبة هي أنه يثق بي، يعتقد أنني ساحر. الشعر الأبيض المحيط برأسي يُوحى له بأنني عبقري. هذا هو «تأثير الهالة» (halo effect) الذي يعرفه الأطباء. طبيب تحيط برأسه هالة من شعر أبيض، هو طبيب يعرف كل شيء، وقد عقد معاهدة مع الموت !

في الأيام الماضية قرأت خبرًا في جريدة عن طالبة في مدرسة ثانوية، وجدوها مخنوقة ومُلقاة في زقاق في الضاحية القاهرية «...». لم تكن هناك سرقة، ولم يكن هناك اغتصاب. قضية غامضة جدًا. علامات حبل على العنق. كنت أدرك على وجه التقريب ما حدث، أعرف مَنْ الفاعل، وكيف فعل، ولماذا فعل .

شاكر عندما جاء إلى عيادتي رقد وأغمض عينيه، وراحت تفاحة آدم تصعد وتهبط كأن لها حياة خاصة. سألته بعد قليل :

- هل مارست الخنق مؤخرًا؟

نظر إليّ وابتسم، ثم أبعد عينيه، فأردفت :

- طالبة ثانوي، زقاق في «...».

ابتسم من جديد من دون أن ينظر إليّ. الإجابة وصلت يا ابن الـ«...»، وصلت كاملة. إذن أنت لا تتحسن !

لو كان بيدي لحقنته بسم في عنقه، وأرحت المجتمع، لكن هذا ليس عملي للأسف .

*

منذ فترة لا بأس بها عرفت سوسن. كانت من مريضاتي، وقد جاءت للعيادة تشكو اكتئابًا مزمنًا. مع تداعي المعاني عرفت أنها تعاني إحباطًا شديدًا، إحباطًا عاطفيًا لا بأس به، بسبب انصراف زوجها عنها. كانت جميلة بحق. سوسن تبدو كالسوسن، ولها عبير السوسن، وقد بدا لي أن زوجها - الذي قالت إن اسمه منصور - أحرق بالتأكيد. لكن مقولة «ما أقبحك حلالًا، وما أحلاك حرامًا» تتكرر في كل مرة. لا أعرف متى لثمت يدها بلا مقدمات وهي تتكلم، فتبادلنا النظرات وتلاقت أعيننا، ثم ...

بعد هذا كان لا بد من أن نجد مكانًا، وكان ذلك الفندق الذي اعتدت أن أستأجر غرفة فيه كلما جاءت الفرصة. الفرصة هي أن يسافر زوجها، وهو يفعل ذلك مرة كل أسبوع. وفي تلك الليلة لا بد أن أجد كذبة مقنعة تُقنع ثريا. أحيانًا أزعم أنني سأبيت في المكتب، وأحيانًا أقول إنني سأأخر، وهذا معناه أن أرجع قبل الشروق .

في تلك الليلة قالت لي وهي تعبت في شعري الأبيض :

- هل تعتقد حقًا أن زواجنا مستحيل بسبب «الكلبتومانيا»؟

حقًا هذا العن شيء يُقال لي. بالطبع لا زواج. لو تمسكتُ برأيها فهي النهاية.

لم آرتو منها بعد، لكن يمكن للمرء أن يجد زجاجة خمر أخرى .

نظرت إليها متسائلًا، فقالت :

- لم أعد أتحمّل الحياة مع منصور !

- ما الجديد؟

أخذت شهيقًا عميقًا، وقالت :

- أعتقد أنه جُن. أعتقد أنه جدير بأن يكون بين مرضاك !

- كيف جُن؟

تحسست عنقها، وقالت :

- هل هناك أناسي يعشقون الحبال؟ إنه يُعلّق الحبال في كل مكان! الأهم أنني أراه في بعض الأوقات ينظر إلى عنقي في نهم، ويسيل اللعاب من فمه !

نهضتُ متوترًا، ثم اعتصرت كتفيها، وهزرتها بقوة أَلمتها :

- زوجك لا يُدعى «منصور»، أليس كذلك؟

قالت في رعب :

- بلى !

- وليس مدير مصرف، هو محامٍ، أليس كذلك؟

- بلى! كيف عرفت؟ !

اسمه شاكر، محامٍ، لا شك في هذا. لقد كانت تكذب عليّ منذ البداية على سبيل التلمويه، أما هو فقال صدقًا على طول الخط. أمرتها في عصبية أن تُبدّل ثيابها وترجل. على الأرجح لن نلتقي ثانية . لم تفهم، وظلت تنظر إليّ في دهشة وأنا ارتدي السترة، وأنتعل الحذاء، وأغادر الغرفة فورًا .

*

يجلس شاكر أمامي وهو ينظر إلى السقف كعادته. ربما لأنه يعرف أن الناس ينظرون إلى السقف عند الأطباء النفسيين .

إذن هو يعرف على الأرجح كل شيء عن علاقتنا أنا وسوسن، ربما هو الحبر

أو الأقاويل، المهم أنه وصل إلى الحقيقة. افترض أن هذه صدفة أمر مستحيل. إذن ماذا ينتظر؟ لماذا لم يلف الحبل حول عنقي وينتهي كل شيء؟ إن انفرادنا يتكرر .

على طريقة الاختيار المتعدد في الامتحانات، هناك أربعة تفسيرات معقولة :

التفسير الأول: أنه يعرف أنه سيقع في يد الشرطة ويُعدم لا محالة إذا فعلها في عيادتي، وهناك أكثر من شاهد على وجوده. ربما كان يبحث عن فرصة آمنة .

التفسير الثاني: أنه يلعب معي لعبة القط والفأر، ويطيل لذة الانتظار .

التفسير الثالث: أنه يأمل في أن أقدم له الشفاء، باعتباري متخصصًا في علم نفس الجريمة. أي أنه يريد أن يجمع بين الشفاء وقتلي .

التفسير الرابع: ربما هذا كله.. السبب خليط من كل التفسيرات .

أنا أميل إلى هذا التفسير الرابع، لكن المشكلة هي أنني لن أتمكن أبدًا من علاج هذا الرجل، أو الجلوس معه في غرفة مغلقة. شاكر يجب أن يموت؛ موته سي جلب لي الأمان، وسيحقق للبشرية خدمة أكيدة كالخلاص من وباء التيفوس .

فكرت قليلًا، ثم قلت له :

- أستاذ شاكر، حان الوقت لتجربة طريقة جديدة للعلاج. أريد وضعك في الظروف المناسبة للخنق بالضبط، وسيكون عليك أن تقاوم رغبتك هذه. سيتم ذلك تحت إشرافي الكامل .

- كيف؟

كتبت له عنوانًا على قصاصة ورق؛ مخزن ورق مقوى قديم مهجور في إحدى الضواحي. سأكون هناك في العاشرة مساء الغد، وسيكون هو كذلك هناك. معًا سنقاوم تلك الرغبة الجنونية التي سيشعر بها، سأعلمه كيف يحرق الحبل الذي يضعه في جيبه، ولا يخنقني .

نظر إليّ بوجه مُغلق، ولم يقل أي شيء، فقط غمغم :

- هذا خطر داهم !

- لا تقلق. أنا أعرف ما يجب عمله .

لو كانت الأفكار تظهر في بالون كما في القصص المصورة، لرأيت فوق رأسه

بالونًا يُظهرني محتقن الوجه، بارز اللسان، والجل حول عنقي. أعرف ما يفكر فيه جيدًا .

*

غادر شاكر مكتبي، فانتظرت قليلًا، ثم فتحت شاشة الكمبيوتر، ورُحت أفتش في الملفات القديمة؛ ملفات المرضى السابقين. هذا هو. بعد قليل اتصلت بنشأت زاهر، المهندس الشاب .

جاء صوته يتساءل عن سبب اتصالي، فهذه أول مكالمة بيننا منذ عامين .

قلت له :

- هل ما زالت تلك الرغبة العارمة تعصف بك؟ سأُحقق لك مرادك بالحرف، فقط تعالَ إلى عيادتي ظهر غد. سأُشرح كل شيء، وسأطلب منك أن تذهب إلى مكان معين في العاشرة مساءً؛ مخزن ورق مهجور، وطبعًا معك ما يلزم .

صاح في لهفة :

- حقًا؟! هل تمزح؟ هل تخدعني؟

- لا أستطيع شرح المزيد هاتفياً، فقط تعالَ ظهراً .

هذه مزية أن تعمل في علم نفس الجريمة. أنت تقابل الكثيرين. نشأت من مرضاي الذين يتعذبون طيلة الوقت. نصحته بالصبر والتحمل لفترة طويلة، لكنني اليوم أمنحه الفرصة كاملة. من الوسواس القهري الغريبة، تلك الرغبة الكاسحة التي تجعله يتمنى أن يذبح قاتلاً من الأذن إلى الأذن. كانت مشكلته الأساسية هي أنه لا يجد قتلة بما يكفي. إن ما أقوم به اليوم هو أدق وصف لتعبير: «قتل عصفرين بحجر واحد». ألا ترى هذا معي؟

معرض الموت

لا يجب أن نخلط الوقائع ببعضها، فالمصادفات تحدث أحيانًا، ولا نريد أن نصل إلى استنتاجات غير ناضجة كما تعلم .

في الصباح عندما يدخل حارس المقبرة، يجول بين شواهد القبور، في ذلك الجو البارد الذي يحتاج نيو إنجلند مؤخرًا، وقد بدأت طبقة الجليد الرقيقة تغطي الأرض. البخار يتصاعد من فمه، وتلك الرجفة اللطيفة الخفيفة التي يعشقها .

لكنه رأى المشهد من بعيد، رأى كيف يختلط الجليد مع الوحل الذي خرج من المقبرة. يهرع إلى هناك، وتنزلق قدمه على الجليد الأملس، ثم ينهض من جديد .

هذه مقبرة «آل روبنسون»، وهي من المقابر الجميلة هنا، وقد اعتنت بها أسرة رؤوم لا تنسى موتاهها. لكن الأمور لم تعد كما كانت. يمكنك بسهولة أن تدرك أنه جرى حفر المقبرة بعناية.. لماذا؟ كي يُخرج أحدهم جثة بالطبع .

المقبرة خالية بالفعل، وقد كانت تخص امرأة اسمها «دوروثي سيمارت» تُوفيت منذ أسبوع. من الغريب أن تتصور أن هناك من جاء ليلاً، ومارس أعمال الحفر على ضوء كشاف واهن في هذا الصقيع، كل هذا من دون أن يشعر به أحد .

لماذا يسرق أحدهم جثة؟

حفر القبور و«سرقة الجثث» (body snatching) تراث «ثقافي» مهم عند الغربيين، وخصوصًا عند البريطانيين. المشهد الخالد لحفاري القبور الذين يعملون في الظلام على ضوء كشاف. بالطبع لا بد أن يكونوا ثملين. السبب الأول لشرب الخمر هو بشاعة المهمة وقذارتها. السبب الثاني هو البرد الشديد الذي يحتاج إلى قطرات خمر في دمهم. في فترة من الفترات تحوّل الأمر إلى وباء، وبالطبع لم تكن تُسرق سوى قبور الفقراء. يعملون بعضا خشبية حتى لا تُسبب الفؤوس ضوضاء. تتم سرقة الجثة، والهدف في ذلك الوقت هو إشباع الحاجة التي لا ترتوي للجثث لدى طلبة الطب. كان علم التشريح يزداد أهمية في ذلك الوقت. هناك قصة غريبة عن فتاة حسناء سُرقت جثتها في القرن التاسع عشر ليرسم الفنانون جثتها العارية، وقد ظلت الجثة تُستخدم كموديل لشهر كامل قبل أن تتحلل. هذه اللوحات موجودة حتى اليوم. وقد نصحت الصحف قراءها وقتها أن يؤجلوا دفن جثث أحبائهم إلى ما قبل التحلل حتى لا تكون ذات نفع لنا بشي القبور .

في عصرنا هذا يختلف الأمر نوعًا؛ سرقة القبور تتم ضمن طقوس دينية معينة، أو بغرض مثل التهام الموتى. هناك جثث أخرجت من القبور في لندن، وغُرست أوتاد في صدورها بدعوى أنها جثث مصاصي دماء .

دارت هذه الخواطر في ذهني وأنا أقف مع رجال الشرطة أراقب الموقف. بالفعل توجد آثار جر على الثلج، ويبدو أن هناك من حمل الجثة إلى سيارة تقف خارج المقبرة. على الأرجح لم يكن وحده .

هذه مصيبة لدى الكثيرين، وبالتأكيد عبء على رجال الشرطة وتهديد بالفشل، لكنها بالنسبة إليّ موضوع شائق بالغ الأهمية. هل هناك خيط يمكن الإمساك به؟

*

بعد يومين نُبشت مقبرة أخرى. هناك جسد تم جره، وتركوا التابوت مفتوحًا ببطانته المخملية التي اكتست بطبقة ثلج رقيقة. كانت السناجب تتواثب فوق الأشجار التي تحيط بالمقبرة، عندما وقفت أنا والمفتش «جارفيلد» يُدخن ونتكلم. هو يعرف كل شيء عن كتابي «نكروفيليا» ، ويعرف أنني لاحق هذه الحوادث في كل مكان .

ما لا يعرفه المفتش هو أنني وجدت شيئًا احتفظت به لنفسي. كانوا يلتقطون الصور ويفتشون المكان، عندما وجدت تلك القصاصة الصغيرة بجوار ممر الجليد. أدركت على الفور أنه رقم هاتف كُتب على عَجَلٍ يخط رديء. يسهل استنتاج ما حدث؛ الذي حفر القبر لم يكن يلبس قفازين أولًا، ثم مد يده في جيب معطفه ليخرج القفاز، وسرعان ما طارت هذه القصاصة. دسستها في جيبتي قبل أن يلاحظ أحد .

قال «جارفيلد»:

- الصحافة لم تهتم بالحدث الأول، أما مع الحادث الثاني فلسوف نكون قطعة لحم تُرمى للكلاب! هم في حاجة ماسة إلى شيء يسودون به صفحاتهم، وقد وجدوه !

قلت وأنا أنفث الدخان :

- ما زال من السهل أن تُحكم مراقبة المقابر. ليس من السهل أن ينبش أحدهم مقبرة ويسرق جثة وينجو في كل مرة. لا بد من أن يفتضح أمره. يكفيك حارس ليلي في كل مقبرة .

- أنا أعرف عملي .

ملت نحوه، وسألته في لهفة :

- هل تخفون عني شيئًا؟ أنا بصدد كتاب وليست مقالة في جريدة. أي أنني لن أذيع شيئًا .

ألقي بلفافة التبغ في الثلج لتصنع حفرة صغيرة وهي تغوص، ثم قال :
- عُد إلى بيتك يا «ويليام». حتى لو عرفت شيئاً فهو مفيد للتحقيق، ولن يُذاع !

ثم نظر في عينيّ وقال :

- مهنتنا تُعلِّمنا الشك. كيف أضمن أنك لست مَن فعل هذا؟

*

قلتُ لـ«جين» وأنا أصب لنفسي كأساً من المارتيني :

- تصوّرني، يقول إنه من الوارد أن أفعل هذا !!

ضحكت «جين» حيث جلست تراقب التلفزيون، وقالت :

- كل من يهتمون بـ«النكروفيليا» هم في قائمة الاتهام.

قلتُ في عصبية :

- لو كتبتُ عن جرائم القتل فلا يعني هذا أنني قاتل! لو كتبتُ كتاباً عن الأورام
فلا يعني هذا أنني خلية سرطانية !

- الرجل يؤدي عمله على كل حال .

- أنت تعرفين يقيناً أنني لا أغادر البيت بعد العاشرة ليلاً أبداً، على الأقل
مؤخراً. أمقت البرد وأحب عملي .

- وتمقت الضيوف كذلك .

تركتها، ورُحْتُ أفتش عن صاحب الرقم الذي وجدته، فظهر لي اسم «ماكس
برودسكي». بحث سريع على شبكة الإنترنت أظهر أن «ماكس برودسكي»
مُصوّر .

«ماكس برودسكي».. يبدو لي الاسم مألوفاً !

ثم بدأت أتذكّر ...

ألبوم وقع في يدي منذ عامين، وكان لفنان تصوير يبدو أنه من أوروبا الشرقية،
معظم الألبوم كان يُمثّل موديلات حسناوات في ثياب هفهافة شفافة، وقد
اتخذن أوضاعاً أقرب إلى الموت؛ بعضهن كن نائمات في توابيت، وبعضهن مالت

رؤوسهن إلى جنب كأنهن مشنوقات. بعض الصور كانت تُظهر جثة طافية فوق صفحة المياه على طريقة لوحة «أوفيليا» الشهيرة .

كان هذا الألبوم جنة لمن هم مولعون بالموت !

فتشت في شبكة الإنترنت عن صفحة الفنان، فوجدته. لم أعتد قط أن أشعر براحة تجاه الرجال الذين يطيلون شواربهم ليوصلوها باللحي؛ تشعر بتأثير شيطاني معين في الوجه، وما يزيد الطين بلة أن يكون الرأس أصلع حتى يقترب في ملامحه من «لافي» صاحب كنيسة الشيطان .

هذا وجه مناسب جدًا، ومادة دسمة لكتابي لم أفطن لها من قبل .

الأهم هو أن تجد رقم هاتف هذا الرجل بالتحديد بجوار قبر منبوش. لا أعتقد بالطبع أن الناس يمشون حاملين أرقام هواتفهم في جيوبهم، لكن من الوارد جدًا أن يكون من نبش القبر مُرسلاً من «ماكس»، وكان يحمل الرقم في جيبه .

دخلت إلى مكتبي وأمسكت بالرقم وضغطت على أزرار الهاتف .

كان هذا هو الموعد. قلت لـ«جين» إنني سأقابل ذلك الرجل المريب في التاسعة مساء. قالت إنني أضيع وقتي مع المخابيل. لكن الإجابة كانت حاضرة قاطعة :

- أنا أجري بحثًا علميًا .

طلبتُ مني أن أرتدي ثيابًا ثقيلة نوعًا، الجو بارد حاليًا خاصة في الليل. أمقت أن أعامل كطفل، لكنني فعلت ذلك .

يقيم «برودسكي» في بيت كبير في إحدى ضواحي فيرمونت، هذا هو العنوان الذي ذكره لي .

كان البيت يبدو جديرًا بإحدى قصص «ستيفن كنج». لا تنس أننا قريبون من ولاية «مين» جدًا.. «بانجور مين» حيث تقع معظم قصص «ستيفن كنج» المرعبة .

طبقة جليد خارج البيت. يمكنك أن تدور حوله لترى المرآب وفيه سيارة عتيقة غلف عجلاؤها بالجنائزير. يمكنك أن ترى رَفَشًا وفأسًا و... أشياء تصلح جدًا لنبش مقبرة، لكنها كذلك قد تكون بريئة، ثم من قال إنه يفعل هذا؟ لقد استنتجت أنه كلف واحدًا آخر بهذا !

قرعت الباب فانفتح لأرى ذلك الوجه الذي أمقته؛ «أنطون لافي» تقريبًا، رأس أصلع، ولحية متصلة بالشارب تحيط بفم مزوم بعصبية. هذا الرأس يطل من

ياقة بلوفر سميك. لو قرر الشيطان التجسّد فلن يسعفه خياله بصورة أفضل !
قلت له في أدب :

- مستر «برودسكي».. أنا «ويليام جولدمان».. اتصلت بك بصدد ...
- لوحاتي الفوتوغرافية. أعرف هذا .

هكذا وجدت نفسي في بيت واسع مريح. هناك كلب «ليرادور» جميل يتواثب من حولي. هناك مكتب من طراز عتيق، أنا لا أفهم في طرز الأثاث لكن أحسبه ثمينًا. هناك مدفأة، وهناك مكتبة، وهناك عشرات الصور الفوتوغرافية لموديلات الميمات .

صبّ لي كأسًا من الشراب، وقال وقد لاحظ نظراتي :

- كل موديلاتي من أوروبا الشرقية من حيث جنس. هناك سحر معين في النساء في تلك البقعة . الجمال الثلجي البارد الشمعي الذي يُوحى بالشهوة، ويُوحي بالقسوة، ويُوحي ببرودة الموت. يمكنك أن تتخيل كل فتاة في هذه البلدان وقد صارت مصاصة دماء .

قلت في انبهار :

- هذه لوحات مذهلة! الرسم بالكاميرا بالمعنى الحرفي، لكنني لم آت من أجل الفن .

وضع ساقًا على ساق، وربّت على رأس الكلب :

- زيارة لفنان تصوير من شخص لا يبالي بالتصوير.. هل لي أن أفهم؟ !

قلت في حذر :

- أكتب كتابًا عن «النكروفيليا»، لديّ مراجع عديدة، لكنني لاحظت افتتاحك بالموت، وقررت أن أخذ آراءك كمرجع .

- حقًا أنا مفتون بالموت، ولهذا قصة طويلة .

ثم قال وهو يضع الكأس وينهض :

- هناك معرض صور مذهل في القاعة المجاورة، كلها صور أصلية دفعت فيها مبلغًا هائلًا من المال. لا يفعل هذا سوى عاشق حقيقي للموت .

الكلب يتواثب حولنا، وأنا أمشي خلفه إلى القاعة التي ذكرها .

هنا فهمت على الفور ما يتكلم عنه .

في العصر الفكتوري انتشرت عادة شنيعة لدى الناس، خاصة مع كاميرات «داجير» البدائية. كل أسرة تفقد واحدًا من أفرادها تقوم بإلباس هذا الشخص ثيابًا عادية يومية، مع فتح عينيه الميتين، ثم يجلس أفراد الأسرة حوله كأنها صورة عائلية هادئة. هذا هو تعبيرهم عن حبهم للمتوفى الذي يريدون أن يظل معهم للأبد .

النتيجة هي مجموعة شنيعة من الصور لأشخاص ميتين يجلسون بين أحياء، ومن الصعب أن تُصدّق أنهم موتى. إن الإنترنت يعج بهذه الصور، ولسوف تلاحظ علامة مهمة، هي أن الأحياء تبدو صورتهم مهزوزة بينما الميت تبدو صورته واضحة حادة التفاصيل؛ في ذلك العصر كان عليك أن تبقى أمام الكاميرا نصف ساعة بلا حراك حتى لا تكون صورتك مهزوزة. بالطبع يتحرك الأحياء مع التنفس، بينما الموتى لا يتنفسون. هناك قصة من هذا النوع مع الصورة الرئاسية الشهيرة لـ «أبراهام لنكولن»: كان قد وضع ساقًا على ساق، وظل أمام الكاميرا نصف ساعة. لاحظ المصور أن رُكبة «لنكولن» مهزوزة في الصورة. تبين السبب فيما بعد، وهو أن رُكبة «لنكولن» كانت تهتز طيلة الوقت؛ لأنه كان مُصابًا بارتجاع في صمام الأورطي، وهي العلامة التي سماها الأطباء فيما بعد: «علامة لنكولن».

كل الصور المُعلّقة أصلية تبدو عليها مخالب الزمن، صبغة الأيام البنية المصفرة والتجاعيد. صحيح أنها لوحات محمية خلف إطار زجاجي، لكن الزمن أقوى بالطبع. عندما تتصور أن هذه الفتاة الرقيقة الجالسة بين أبنائها ميتة، وأنها لن تلتقط أي صورة أخرى معهم، أو أن هذا الطفل الضاحك على حجر أمه قتلته الدفترية، ولن ترى وجهه بعد اليوم.. عندما ترى هذه الصور ترتجف رعبًا؛ لها تأثير مقبض عجيب، والحمد لله أن هذه العادة قد انقرضت .

لكن «برودسكي» استطاع الحصول على مجموعة مذهلة، لا بد أنها لا تُقدَّر بثمن .

قلت له في افتتاح :

- أنت ثري جدًا .

قال في لامبالاة :

- عندما يتسلط عليك وسواس، فأنت تبذل المال رخيصةً من أجله. كل هاوي صور قديمة في العالم يعرف أنني اشتريها بسعر باهظ .

- هل تسمح لي بأن ألتقط بعض الصور لاحقًا؟

لم ينظر إليّ. فقط غادر القاعة وأنا خلفه، وهو يقول :

- بالطبع لا. هذه صور أصلية وحساسة للضوء جدًا. كل المتاحف المحترمة لا تسمح لك باستعمال الفلاش في التقاط صور محتوياتها. كادوا يفتكون بي في متحف «الأرميتاج» لأنني حاولت !

عندما عدنا إلى قاعة الجلوس، كنت أشعر بانقباض هائل في صدري بعد رؤية المعرض الرهيب. لا بد أن هناك خمسين صورة من هذا الطراز عند الرجل .

جلست على أريكة، وتأملت المكان من حولي: هناك رف رُصت عليه شرائط فيديو وأقراص مدمجة، هناك جهاز فيديو في الركن. كل جهاز فيديو صار عتيق الطراز بعدما انقرض هذا الاختراع أصلاً . لكن عناوين الأفلام تدعو إلى التأمل: «وجوه الموت»، «موندو»، إلخ .

أي أنها تلك الأفلام شبه التسجيلية التي تجمع لقطات حقيقية للحظات موت ناس، لحظات بشعة على الأرجح، مثل رجل تلتهمه الأسود أو رجل يمزقه قطار !

تُرى أين يحتفظ بمجموعته من الأطراف المبتورة من جثث؟ بل أين يضع الجثث نفسها؟

يجلس «برودسكي» أمامي وهو يداعب عنق كلبه، والكلب يزوم في مزيج من الاستمتاع والتهديد لي .

هذا رجل فريد. هذا هو الرجل الذي أحتاج إلى وضعه في كتابي .

النقطة الثانية المهمة، هي أنه لو كان في الولايات المتحدة كلها رجل ينبش القبور ويُخرج منها الجثث، فلا بد أنه هذا الرجل !

عدت إلى البيت فأخرجت طعام العشاء من الثلاجة، وجلست ألتهم طعامي. جاء صوت «جين» التي صحت من نومها تسألني عما هنالك. قلت بفم مليء بالطعام :

- أنا هنا يا ملاكي. لا تقلقي .

ثم أنهيت طعامي فصبت لنفسي بعض الشراب، وعدت إليها حيث جلست في غرفة الجلوس تراقب التلفزيون. سألتني من دون أن تنظر إليّ لانهماكها مع مسلسل سخيف :

- كيف الحال؟

قلت في حماسة :

- رائع! لو أن «إد جين» الذي كان يسلخ النساء ويصنع من جلودهن عباءة عاد إلى الحياة، فلن يكون سوى هذا الرجل !

- هل ثمة علامات على أنه من ينبش القبور؟

- لا علامات مباشرة، لكن اهتمامه بالموت مريب! كل العلامات تشير إلى أنه هو الرجل. لا بد أن ألصق به لفترة .

قالت في استبشاع :

- لا أعتقد أنها صداقة محبة، هي كذلك خطيرة .

قلت في إصرار :

- هذا كتاب علمي. من يكتب كتابًا عن الدرن لا بد أن يقضي وقته وسط مرضى الدرن، لن يذهب لينعم بالهواء الطلق في الكاريبي ويكتب كتابه !

ثم طلبت منها أن تصمت. لا أحب إطالة الجدل. هذا عملي في النهاية وشأني الخاص .

*

وكيف لي أن أعرف أن «مايكل سيرل» كان قد بلغ ذروة تحمُّله في ذلك الوقت؟ لقد صبر لفترة طويلة، لكن كل يوم كان يفقده صبره أكثر .

هناك كان يجلس في سيارته «الليكساس»، يراقب البيت من بعيد، وأثار دهشته أن الرجل الغريب نفسه صار يتردد على البيت في الساعة نفسها من كل يوم، وهو يعرف يقينًا أن صاحب البيت لا يزوره أحد .

ما زالت الذكرى تطارده .

المهندس الناجح «مايكل سيرل»، والأسرة الهادئة الجميلة، زوجته «بيتي»، وطفله «بيلي»، والكلب اللطيف، والحديقة، وأعياد الشكر والكريسماس... الغد ممتد للأبد كطريق تحفه الورود. كان يُوقن أنه من القليلين المحظوظين الذين هزموا الخوف .

اضطرته ظروف السفر إلى قضاء أيام في كاليفورنيا... بعد أيام عاد إلى بيته الجميل .

منذ اللحظة الأولى شعر بدهشة لأن الكلب لم يخرج للقاءه! فتح الباب فلم يخرج «بيلي» للقاءه! في الداخل لم تأتِ «بيتي» للقاءه! أين ذهب الجميع؟!

دخل متوجسًا إلى غرفة الجلوس فرآهم. بعد أن ظل يصرخ لربع ساعة اتجه إلى الهاتف ليطلب الشرطة، واكتشف أنه بلل سرواله لأنه لم يعد يتحكم في عضلاته العاصرة .

لم يكن المشهد شنيعًا؛ كل واحد منهم قُتل برصاصة رقيقة أنيقة في القلب، كأن من قتلهم لم يُرد أن يُفسد شيئًا . ثم وُضعوا في المقاعد بشكل أنيق، ليبدو كأن «بيتي» مسترخية والطفل على حجرها، ودارى مواضع ثقب الرصاص بشريط لاصق ملون، حتى الكلب وُضعت دعائم لتجعله كأنه قابع على السجادة وقد رفع رأسه وخرج لسانه في مرج. جرت خياطة الجفون لتظل مفتوحة. قال المحقق إنه من الواضح أن الجريمة تمت أمس لأن الجثث بحالة ممتازة .

لماذا؟ لماذا يعتمد القاتل إلى وضع قتلاه في هذا المشهد العائلي المبهج؟

احتاج الأمر إلى شهر في المصلحة، وأطنان من المهدئات، إلى أن استعاد روعه. هذا ما عرفته فيما بعد .

ظلت علامات الاستفهام تحوم حول هذا اللغز، إلى أن رأى صورًا فكتورية للموتى؛ تلك العادة الكريهة التي إنقرضت لحسن الحظ. هنا أدرك أن الموتى يجلسون في أوضاع شبيهة جدًا بأوضاع أسرته التي ماتت عليها .

ظلت علامات الاستفهام تحوم في ذهنه، إلى أن رأى صورًا معاصرة لموتى، عُولجت لتبدو فكتورية، لكن الثياب والملامح وتصنيفات الشعر عصرية جدًا. هناك مجنون قرر أن يعيد هذا التقليد الفكتوري. كان هذا موقع إنترنت صربيًا يبيع لوحاته الرهيبة هذه، زاعمًا أن لديهم مُصوِّرًا عبقريًا يُعيد استنساخ تلك الصور العتيقة. اتصل بالموقع وعرض شراء بعض اللوحات .

عندما حصل على نسخ مكبرة من هذه الصور راح يدرسها بعناية. أدرك على الفور أن هؤلاء الموتى معاصرون جدًا، ثم إن هناك علامة يعرفها: الأحياء تكون صورهم مهزوزة في تلك الصور، بينما تكون صور الموتى ثابتة محددة لأنهم لا يتنفسون! هنا في هذه الصور يبدو كل شيء ثابتًا محددًا، أي أن كلَّ من في الصورة موتى. السبب واضح: لا يوجد في عصرنا هذا من يرغب في التقاط صورة بجوار موتاه.. كل من في هذه الصور موتى !

أو ربما هم مقتولون؟

صار كذلك على ثقة بأنه لو انتظر وفتّش جيدًا، فسوف يجد صورة أسرته. لو لم ينشرها المُصوِّر فهي ضمن مجموعته الخاصة .

تُرى هل الموقع متورط؟ بالطبع لا. لا يوجد موقع إنترنت ينشر صور أشخاص قتلهم. على الأرجح يبيع المُصوِّر صورته زاعمًا أنها أوضاع تمثيلية فنية .

اتصل بالموقع بريديًا، وتظاهر بأنه صحفي يريد إجراء حوار مع المُصوّر العبقرى، فجاءه الرد بالبريد الإلكتروني :

يسرنا أن أعمال الفنان «ماكس برودسكي» راقّت لك .

ويسرنا كذلك أن نُخبرك بأن المصور العبقرى يقيم في الولايات المتحدة في فيرمونت .

لإجراء حوار يمكنك الاتصال به على رقم ...

«ماكس برودسكي»؟ صار على يقين أنه سيجد صورة أسرته القتيلة عند الفنان المزعوم. وهكذا يكون قد عرف القاتل. أما عن سبب القتل فهو، ببساطة، لأنه مجنون .

استطاع أن يعرف عنوان ذلك البيت في ضواحي فيرمونت، وأمضى بضعة أيام يراقب المكان. يمكنه أن يدرك أن هذا الفنان مريب يتلقّى زيارات عجيبة. لا يمكن أن يكون هؤلاء الزائرون موديلات؛ هم يبدوون كاللصوص أو رجال العصابات، أما الفنان نفسه فيبدو وغداً !

ليس المسدس؛ يريد ميتة عنيفة دامية للرجل، لهذا ابتاع بلطة ومجموعة من المدى وكماشة لانتزاع الأطفار، لكن المرء لا يقتل رجلًا آخر لمجرد شكوك باهتة كهذه !

هو في حاجة إلى أن يجد صورة أسرته في بيت ذلك الرجل الكريه !

هو في حاجة إلى الدخول والتفتيش !

للأسف، لا يملك المرء قدرة الراوى العليم بكل شيء في القصص، لهذا لم أستطع وقتها أن أعرف باقي تفاصيل هذه القصة .

كنتُ أعود إلى «جين» العزيزة، فأكلّمها عن «برودسكي»، ثم أتناول عشائي، وأمضى الليل في وضع فقرات جديدة من كتابي .

قالت لي «جين» في أسى :

- لم تعد تهتم بي تقريبًا، لقد استحوذ الكتاب عليك !

قلت لها إنني أكره تلك اللحظة التي يقلن فيها كلهن الشيء نفسه لأزواجهن. كل زوجة تتوقع أن يدور الزوج حولها حاملًا البخور، ثم يلثم قدميها، ويقع ككلب !

قالت لي إنها تحلم بأن تظفر بصحبة في هذا البيت الكئيب.. لماذا لا ننجب؟

قلت لها إنني سأجلب لها صحة بالتأكيد. الحق أن عاداتي تغيرت؛ كنت لا أغادر البيت بعد العاشرة مساءً أبدًا، فصرّت أغادره كثيرًا .

الحقيقة أن «برودسكي» ومعرضه الغريب استحوذا على تفكيري فعلاً .

ما لم أعرفه هو أن جماعة «ريبيرث» كانت في حالة عارمة من الغضب والضيق، وأنت تعرف أنهم خطرون !

*

بدأ كل شيء أمام تلك المقبرة المنبوذة في إحدى المقابر المجاورة. تلك الأماكن الكثيفة المكسوة بالجليد، والشواهد التي يتدلى منها الثلج .

هناك وقف هؤلاء الأربعة ينظرون إلى قبر «آلان رادكليف» غير مُصدّقين. هناك وغد ما، جاء ليلاً ونبش المقبرة وسرق الجثمان. كانوا قد سمعوا عن جرائم مماثلة في الفترة الماضية، لكن لم يجُل بخاطر واحد منهم أن يحدث هذا لـ«آلان»!

قال «مارك» وهو يضم المعطف الأسود إلى جسده ويرتجف من البرد (كان فارغ القامة، له عيانان واسعتان محاطتان بالسواد تُذكرانك بعيني الراكون):

- الأمر جد خطير. فلنعد ونتكلم عندي .

وفي خفة عاد أربعة الرجال إلى السيارة، وانطلقوا قاصدين بيت «مارك» الذي حوَّله إلى دار عبادة خاصة بهم. إن حرية العبادة مكفولة عندنا في الولايات، ويمكنك أن تؤكد أن دينك يحتاج إلى وجود تماسيح في دارك، ليسمح لك رجال الشرطة بذلك. لكن جماعة «ريبيرث» كانت تؤمن بالسرية، وبأن دينهم ليس للتبشير. لا نريد أتباعًا. دعني أعترف لك أن طقوس عبادتهم كانت وحشية، أو شبه وثنية، في لحظات بعينها؛ خليطًا عجيبًا من المانوية والبروتستانتية وعبادة الشيطان، خليطًا لا يخرج إلا من عقل مخبول، والمخبولون - كما تعلم - لهم تأثير قوي عبر التاريخ، إنهم يجيدون خداع الناس دائمًا .

لكن عقيدتهم هذه كانت تقضي بأنهم يجب أن يُخرجوا زعيمهم من القبر، ويحفظوه ويحتفظوا به للأبد. مات «آلان رادكليف»؛ زعيمهم ومؤسس الحركة، بالسرطان منذ أيام، وقد هرعوا جميعًا إلى قبره وهم يحملون أدوات الحفر لإنقاذ دينهم. هنا اكتشفوا أن وغدًا ما سطا على المقبرة قبلهم !

كان هذا خطيرًا، ومعناه أن أرواحهم ضاعت للأبد. سوف يذهبون إلى «هيدز»؛ مملكة الموتى الجحيمية، ويتعذبون بلا أمل في الخلاص .

هكذا اجتمعوا في دار «مارك»، وراحوا يلهثون من البرد. أعد لهم «مارك» بعض النبيذ الساخن الممزوج بقطرات الدم من أجل الدفء، وظلوا يرمقون نيران المدفأة لنصف ساعة .

في النهاية قال «مارك»:

- نحن في مأزق! يجب أن نجد جثمان الأخ الأكبر «رادكليف» قبل أن يتحلل أو يتبدد، وإلا هي «هيدز»!

كان عدد أتباع الجماعة أربعين ألفاً في الولايات. لا يعرف هؤلاء الأربعون ألفاً أن أرواحهم مهددة. والمشكلة أن هؤلاء هم حُرّاس قبره .

قال «مارك»:

- لا يوجد حل سوى طلب عون الشياطين، هي ستخبرنا بالسر !

- لكن هذا مخيف !

- وما نحن فيه مرعب !

تشتعل النيران في المدفأة، بينما يضع «مارك» العباءة السوداء على كتفه. يلبسون جميعاً نوعاً من المسوح، وبالطبع يرسمون على الأرض النجمة الخماسية . يطفئون الأنوار فلا توجد سوى شموع مشتعلة وضوء المدفأة .

يسكب «مارك» دم دجاجة ذبحها حالاً على النجمة. يلتفون حول جمجمة. الخلاصة أنهم مارسوا الروتين القذر الذي يلجأ إليه السحرة في الاتصال بـ«بهيموت»، وراحوا يرقصون حول النجمة كالمجانين .

في النهاية، تشابكت الأيدي، وبدا أنهم جميعاً يرون الرؤيا ذاتها في لحظة واحدة !

همس «مارك» من بين أسنانه :

- أنتم ترون ما أراه، أليس كذلك؟

- بلى .

- قد تكلمت الشياطين !

- اسمه «ماكس برودسكي» .

- نرى وجهه، إنه يشبه «لوسيفر» نفسه !

- يعيش في فيرمونت، نرى داره وسط الثلوج .

- نعرف أن أخانا هناك .

عندما انتهت الطقوس راحوا يلهثون، وارتموا على الأرض في إعياء، لدرجة أن «مارك» راح ينزف من أنفه من فرط الضغط العصبي، وكان العرق يغمر جبهته ويتوهج في النيران .

قال لهم :

- سنذهب إلى هناك ونأتي بأخي. أما من فعل هذا فليندمن أشد الندم !

عرفت هذا كله من الصحف فيما بعد. لقد نشرت الجماعة مذكراتها مسلسلةً لمدة شهرين كما تعلم. عدة صحف اشترت حق النشر .

عرفت كذلك أنهم حملوا ما يلزم من سلاح، واختاروا سيارة ذات حقيبة كبيرة لتتسع للجثمان، ثم انطلقوا نحو البقعة التي رأوها في أحلامهم .

توقفت السيارة وسط الأشجار، ثم هتف «مارك» وهو يرفع قلنسوة السترة «أنوراك» لتغطي رأسه وأذنيه :

- سنتحرك يا شباب، معلوماتي أنه يعيش وحده .

هتف أحدهم وهو يشير إلى سيارة «ليكساس» تقف بعيدًا وسط الأشجار :

- من هذا؟ هذه ليست سيارته! يخيل إليّ أنه متلصص مثلنا !

- لو كان ضيقًا فهو حظه العاثر، سنجده في الداخل، وليكتشفن أنه الشخص الخطأ في المكان الخطأ !

وفي ببطء، بدأ الرجال يتسلحون ويتأهبون للتحرك ...

الليل يُرخي ظلاله، وهذا سيجعل الأمور أسهل بالتأكيد ...

لا تقلق أيها الأخ «رادكليف»، لن تمر الليلة إلا وموميأوك في معبدنا !

هناك دائمًا نافذة قبو صالحة للاقتحام في هذه البيوت. كل بيوتنا حصون مفتوحة لمن يريد الدخول، وقد استطاع أعضاء جماعة «ريبيرث» أن يدخلوا ...

كان هذا قبوًا. الثلج يتكاثف على زجاج النافذتين الصغيرتين، لكن واحدة منهما تهشمت، وعبر الزجاج المهشم تسلك الرجال واحدًا بعد الآخر .

الرائحة كانت غريبة.. عطنة! يمكن بسهولة أن تخمين وجود أجسام متحللة هنا .

تبادل الرجال النظرات، ثم أدركوا أن هذه الأحواض بجوار الجدار ليست أحواض سمك .

- يا لـ«موهول»!

«موهول» هو إله من آلهتهم، ومعنى الكلام هو «رباه!».

انطلق شعاع خافت من النور يتفحص الأحواض الزجاجية. كانت مليئة بسائل شفاف لعله «الفورمالين»، وفي السائل يسبح جسد، لعله متحلل أو سليم، لكنه ميت تمامًا !

برغم أنهم رجال أشداء خُلقوا ليثيروا الخوف، فإن أنفسهم طارت شعاعًا لهذا المشهد الغريب! هناك نحو ستة أجساد مغمورة، وهناك أكثر من دَنٍ ثقيل لا بد أنها تحوي كيماويات التحنيط !

راح «مارك» يتفقد الوجهه، ثم تصلّب أمام وعاء زجاجي، وهتف :

- هذا هو أخونا، «رادكليف» هنا، لقد صدقت الرؤيا !

تكأأ الجميع ينظرون في احترام ورهبة إلى وجه أخيهم الأكبر الطافي وسط «الفورمالين». يعرفون أن عليهم أن يحرروه ويلفوه في بطانية ويحملوه إلى معبدهم .

- ليس بعد .

قالها «مارك» وهو يُخرج مديته اللامعة، ويلوح بها :

- الذي فعل هذا، ودنس قبره، سيدفع الثمن !

- أجل .

وهكذا خرج الرجال الغاضبون من القبو. يلقي ضوء الكشف ظلال الغيب على الموجودات، فتدب فيها روح خاصة. خرجوا إلى قاعة ممتدة كأنها معرض. ونظرة منهم إلى الجدران جعلتهم يدركون أنها كلها صور فكتورية الطابع لأشخاص ينظرون إلى الكاميرا، عندما كان اسمها «داجيريت». ما هذا المكان؟ وما سر هذه الصور؟

على باب الغرفة الأخرى كان هناك كلب مقتول؛ كلب «لبرادور» جميل للأسف! لماذا يمتلك أحد الأشخاص كلبًا مقتولًا يسيل منه الدم مهما كان

مخبولاً؟

دخلوا القاعة التالية التي تبدو كأنها غرفة جلوس: مكتب من طراز عتيق، ومدفأة. ثم تصلبت عيونهم إذ رأوا، في ضوء لهب المدفأة، رجلاً يركض نحوهم طالباً الغوث، وقد بدت عليه أفضع علامات الرعب! كان رجلاً وسيماً، وعلى قدر من الرُقي، لكن الهلع بدّل ملامحه تبديلاً. لم يكن هذا هو الوجه الذي رأوه في الرؤيا !

صرخ وهو يترنح :

- اهربوا! الشيطان يسكن هنا! إنه الشيطان !!

لم ينتظر «مارك» ليفهم، بل عاجل المهندس المذعور «مايكل سيرل» بطعنة نافذة في صدره، وسرعان ما انهالت عليه الطعنات من الغاضبين. لم يعرفوا جرمه، ولا سبب قتله، لكنه موجود هنا وكفى! وكما قال «مارك» من قبل :

- لو كان ضيقاً فهو حظه العاثر، سنجدّه في الداخل، وليكتشفن أنه الشخص الخطأ في المكان الخطأ !

هنا تصلّبوا، رفعوا رؤوسهم، فأدركوا حقيقة ما يتدلّى من السقف. كان هذا هو الوجه الذي رأوه في رؤياهم. «ماكس برودسكي» الذي يُشبه الشيطان، كان يتدلّى مشنوقاً من السقف، وهو ينظر إلى العالم بغباء من حوله !

مَن قتله؟ ومتى؟

هنا خرجت من موضعي خلف المكتب، ووقفت أمامهم ...

عرفوا على الفور أنني لست كما أبدو. تساقطت المدى من أيديهم وهم يتراجعون، بينما بدأت أتقدّم نحوهم ببطء ...

قلت لهم :

- لقد مات «برودسكي»، وورثت أنا كل هذا المتحف بما فيه من صور، وما في القبو من جثث سرقتها! كان هو تجسّد «أنوبيس ابن أوى» حارس المقابر والمسؤول عن التحنيط لدى الفراعنة، ظلت أجمع معلومات لكتابي عدة أعوام، إلى أن وجدت الرجل الذي أبحث عنه، الرجل الذي قررت أن أكون بدلاً منه! عندما وجدته قتلته لأكون أنا التجسّد الجديد !

ثم رفعت يدي منذراً :

- والآن أيها الصّبية، غادروا المكان حالاً قبل أن ينفد صبري !!

لم ينتظروا أوامري! عندما رأوا وجهي وسمعوا صوتي، عرفوا أنني بحقّ قد
نطقت! أنا الموت نفسه! وسرعان ما ركضوا هاربين من حيث جاءوا، وسمعت
صوت محرك السيارة !

*

لم تعد «جين» تعيش معي في بيتي! «جين» الرقيقة الحسنة أخذوها مني،
ودفنوها تحت التراب! القتلة !

قال لي الدكتور «ستيف» وهو يُقَلِّب صفحات ملفي :

- هل سمعت عن الدكتور «كارل تانزlr»؟

- طبعًا .

لم يهتم، كان يريد أن يواصل الكلام :

- كان ألماني المولد، لكنه يعيش في فلوريدا، وكان يعشق زوجته الكوبية
«إيلينا ميلاجرو»، فلما تُوفيت بالدرن تسلل إلى قبرها بعد شهرين، وسرق
جثتها وعاد بها إلى بيته، وعاش معها... عندما سقط جلدتها أصلحها، وعندما
سقط شعرها صنع لها جُمّة منه، وكان يسكب عليها العطور والمطهرات
ليخفي رائحتها. ظل معها سبعة أعوام كاملة، حتى انكشف أمره ودفنوها.
أعتقد أنك تُعيد قصة «تانزlr» نفسها. أنت عشت هنا عدة أعوام تُكَلِّم جثة
متحللة محنطة، وتكتب كتابًا غامضًا عن «النكروفيليا»، وتزور أشخاصًا غامضين
!

يريد إقناعي أن «جين» ميتة، وأن كل كلامها معي كان وهمًا في ذهني! يريد
إقناعي أن كتاب «النكروفيليا»، و«برودسكي»، والمهندس، وجماعة
«ريبيرث»، كلها خيالات صنعتها لنفسي، لأنني أعشق الموت، ولأن حبي
لزوجتي وفقدتها جعل أسلاك عقلي تحترق كلها !

هذا الرجل يهذي !

يومًا ما سأخرج من هذه المصحّة، وأعود إلى ذلك البيت وسط الثلوج في
فيرمونت، وسوف أجد أفراد جماعة «ريبيرث»، وسوف يحكون لهم عن لحظة
التحول التي رأوها جميعًا عندما صرْتُ أنا «أنوبيس» !

يومًا ما سأجد «جين» من جديد، ولسوف تعيش معي للأبد !

سَيَرُون! سَيَرُون !

حكايات مومياء الثلوج

- ألا تخشى اللعنة حقًا؟

- هذا كلام فارغ يا صاحبي! أنت تعرف أن هذا الكلام الفارغ يُقال عن كل المومياوات في التاريخ، منذ مومياوات الفراعنة حتى مومياوات «الإنكا». التعامل مع الموتى يدعو إلى التطير في كل مكان وزمان. إن اللعنات تولد طيلة الوقت. أليس كذلك يا مصطفى؟ كم من كلام قيل عندكم في مصر حول هذا الموضوع !

لا توجد لعنة، عليك أن تصدق هذا، وتتصرف على أساسه .

هذا الرجل جَدِّي، أعرف هذا يقينًا، وأعرف أن دمه هو دمي. ليس هذا فحسب، بل هناك كثيرون في الإقليم يمكن أنؤكد لك أنهم يمتنون إليه بصلة قربي. لقد قمت بعمل تحليل «DNA» مرارًا. أنا طبيب وأعرف ما أقول، ولا شك أن هناك تطابقًا جينيًا بنسبة 80 %.

هذا الرجل جَدِّي، وهذه المومياء ملكي، وجَدِّي لن يؤذيني .

*

كانوا يتكلمون همسًا وهم يمشون وسط ردهات المتحف الصامت شبه المظلم. لم يكن هذا أنسب وقت للمناقشة، لكنهم في الواقع كانوا يحاولون تبديد توترهم .

«لورنزو» عطّل الكاميرات وجهاز الإنذار، فهو يعرف ما يفعله جيدًا، بينما قام مصطفى بتخدير الحراس.. سيكون الأمر سهلًا .

والآن أنا مدين لك ببعض الأشياء :

أولًا: يجب أن أخبرك أننا في ردهة متحف جنوب التيرول في بولتسانو، بإيطاليا. الإيطاليون يسمون الإقليم «آلتو أديجي»، ويقع في شمال إيطاليا. النمسا قريبة جدًا بالمناسبة. ومن الغريب أن معظم السكان في جنوب التيرول يتكلمون الألمانية، لكن الإيطالية هي لغة بولتسانو .

ثانيًا: يجب أن أخبرك أن هؤلاء هم: شاب مصري قوي البنية، له شعر مجعد طويل يتدلى على كتفيه، ولا يكف لحظة عن إزاحته عن وجهه بيده ذات القفاز. الرجل الثاني له ملامح دقيقة هشة كأنه دمية صغيرة الحجم، ورأسه أصلع، وله عينان زرقاوان واسعتان، اسمه الدكتور «باولو»، طبيب إيطالي. الثالث مهندس إلكترونيات إيطالي، نحيل جدًا وطويل جدًا، حتى كأنه أول قلم رصاص حي في التاريخ، هذا هو «لورنزو» .

إيطاليان ومصري، يزحفون في هذا المتحف في ساعة متأخرة من الليل، أو للدقة الجغرافية نحن في الساعات الأولى من الصباح .

ليست الحراسة بهذا التعقيد، فنحن لا نحرس مجوهرات تاج أو حلي ملكة أو قناع «توت عنخ آمون»، نحن نتكلم عن بعض المومياوات الموضوعة وراء حواجز زجاجية، ولا أحد يسرق المومياوات على قدر علمي إلا إذا كان عالم آثار يفهم عمله. نحن نتكلم إذن عن سرقة علمية شديدة التحذلق !

سرقة علمية.. أو سرقة طقسية .

يمكنك أن ترى الواجهة الزجاجية المضاءة بأنوار ساطعة، وهناك مقياس رطوبة ومحرار، وفي وسط القفص الزجاجي ترقد الموميا. هي موميا تشبه أي موميا أخرى؛ العيوب والمزايا نفسها، نفس العينين الفارغتين والأنف المتآكل. لو وضعوا لافتة تقول إنها موميا «بعنخي» أو «سنوسرت الأول» لما بدا الأمر غريبًا، لكننا هنا نرى الاسم بوضوح :

«أوتسي»

رجل الثلوج التيرولي

عالج «لورنزو» بعض الدوائر الكهربائية، وبعد خمس دقائق انفتح الغطاء الزجاجي ...

- سيكون الأمر صعبًا.. يجب ألا تتفتت هذه الموميا !

المشكلة أنها لم تكن موميا؛ كانت هشة جدًا، ونوع التحنيط الوحيد هنا هو الثلج الذي تعرضت له على مدى آلاف السنين، ومن السهل أن تتحول إلى مسحوق .

بسرعة وبدقة، أخرج المصري كيسًا من البلاستيك مما تنقل فيه الجثث، وقاموا بحذر وبأيدي تكسوها القفازات بوضع الجسد المتخشب داخل الكيس، ثم حمله الفتى المصري على كتفه . لم يكن الأمر صعبًا؛ فالجسد ضامر خفيف الوزن كأنه طفل في السابعة .

- هيا بنا .

قالها الدكتور لاهثًا، بينما هم يندفعون جريًا نحو باب الخروج . لا بد من كاميرا منسية ستلتقط صورة لهم، لا بد من حزمة أشعة تحت الحمراء يقطعونها فتدق جرس إنذار في مكان ما.. إنها مخاطرة كبرى بلا شك !

العامل الوحيد الذي يمنحهم بعض الاطمئنان، هو أن هذا كنز علمي، وليس كنزًا ماديًا، لهذا ستكون سرقة أسهل نوعًا .

في الخارج كانت السيارة «الفان» تقف في الظلام ومحركاتها دائرة، بينما الشارع خال تمامًا. خرج لهم «داريو» السائق، وفتح لهم الباب الخلفي، وسرعان ما ألقوا بالجنة داخلها، ثم أمره الدكتور اللاهث بأن ينطلق .

لا تنسَ أن «لورنزو» و«داريو» يحملان الجينات نفسها مثل الموميا، أما الفتى المصري فهو يدرس علم ترميم الآثار في إيطاليا منذ خمسة أعوام، ولديه خبرة لا بأس بها بالمومياوات .

بعد رحلة استمرت ساعتين أو أكثر، كانت السيارة قد غادرت بولتسانو ودخلت شاتو شيليار .

هناك عند ذلك الكوخ الجبلي توقفت السيارة، وترجّل الراكبون، ثم حملوا الموميا إلى داخل الكوخ .

- لا تضعوه قرب المدفأة حتى لا يتلف !

قالها «لورنزو». هذه الموميا تعتمد بقوة على البرد الذي وُجدت فيه منذ القدم، ولا شك أن الجو غير صحي على الإطلاق. هناك قفص زجاجي آخر جرى التحكم في درجة حرارته ورطوبته، وضعوا فيه الموميا ثم أغلقوا الغطاء .

كان الدكتور «باولو» يشعر براحة أكيدة؛ لقد نجح في أن ينقذ جدّه؛ جدّه الذي يُعامل كأنه حيوان في حديقة الحيوان، يأتي العالم كله ليراه ويلتقط له الصور. لقد حق لهذا الجد أن ينعم بنوم طويل مريح، ولا ينتهك خلوته أحد .

كان الدفن وادًا بالطبع، لكن مَن المجنون الذي يحرم البشرية من أثر عظيم كهذا؟ السياسة المثلى هي أن تحتفظ به في ظروف مناسبة، لكن امنعهم من إهانته .

تساءل مصطفى وهو ينظر إلى الموميا الراقدة :

- ماذا تنتويه بعد ذلك؟

قال الدكتور الإيطالي وهو يشعل غليونًا لأول مرّة منذ أربع ساعات، لذا سحب الدخان في شراهة :

- سأدعو بعض الشخصيات المهمة من الذين يحملون الجينات نفسها ليزوروا جدّهم . النمساويون يعتقدون أنه أقرب إليهم، بينما اعتبره أنا مواطنًا إيطاليًا .

ثم نظر إلى مصطفى وسط سحابة الدخان الكثيف :

- هل تقبل من يقول لك إن «رمسيس الثاني» لم يكن مصريًا على الإطلاق؟

- سَافِجِرَ رَأْسٍ مِنْ يَزْعَمُ هَذَا !

- نحن لن نفعل هذا بالضبط. سنفعله بشكل أكثر رُقِيًّا. لقد أخذنا المومياء لنا.
لن يجدوها أبدًا !

*

دعنا من هذا السخف إذن .

أنت تعرف كما أعرف أن هذه المومياء ستعود إلى الحياة. من الغباء أن أفترض أنك لم تخمن ذلك. القصة دائمًا هكذا ربما منذ عصر «جوهرة النجوم السبعة» لـ«ستوكر». لا يمكن الكتابة عن مومياء من دون أن تعود إلى الحياة. لا بد أن المومياء التي لا تفعل هذا سيئة الأخلاق !!

ليس هذا هو المهم، المهم كيف سيحدث هذا، والأهم هو مصير ذلك الشاب المصري، وماذا عن «كلارا» الحسناء؟

لا يعرف الوقت.. فقط كانت الشمس تنحدر نحو الغرب، وقد بدأ اللون الأرجواني الممزوج بالأزرق يُلطخ كل شيء .

كان يحمل البلطة النحاسية، وبتلفت حوله في رعب. ما اسمه؟ لا اسم له. إنه هو. هذا زمن تعرف فيه الشخص برأئته وشكله وصوت زئيره، لكننا للتسهيل نُطلق عليه اسم «أوتسي».

لا بد أنك خمنت أننا قد عدنا بآلة الزمن الخيالية 5500 عام في الماضي. هناك خمسة وخمسون قرنًا تفصلنا عن هذه اللحظة .

بالتأكيد لم تكن صحة «أوتسي» على ما يُرام: مفاصله متآكلة تمامًا من النقرس والروماتيزم، ولديه أكثر من حصوة في المرارة، أما أمعاؤه فملينة بالديدان، وأسنانه تالفة، ويبدو أنه كان يعاني تسممًا مزمنًا بالزرنخ والنحاس. هذا بالطبع يقضي على أسطورة الرجل القديم المتمتع بصحة رائعة.. هذا رجل سقيم !

البرد جعل جلد وجهه مشققًا كأنه مدبوغ، لو ضحك - وهذا مستحيل - لسمعت صوت تمزق الأنسجة .

هناك يمشي والبخار يتصاعد من فمه. يمكنك أن ترى الوشم الذي رسمه على عنقه. لو نزع ثيابه لأدركت أنه موشوم أكثر من أي مطرب راب معاصر. كانوا يصنعون الوشم بإحداث شقوق ثم حشوها بالفحم. يبدو أن هذا أقدم وشم في التاريخ، ويرى بعض العلماء أن هذا كذلك أقدم علاج بالإبر الصينية في التاريخ !

شعر بجوع شديد؛ لقد بدأ يهضم ما تبقى من لحم التيس الذي اصطاده منذ يومين .

هناك بعض النباتات النامية التي بدأت تظهر من بين الثلوج الذائبة. لقد اقترب الربيع، لكنه بالطبع لم يكن يملك أي نوايا شاعرية. اتجه إلى النبات، وراح يبحث عن غايته بين الأزهار. فيما بعد سوف يستطيع العلماء تمييز كل حبة لقاح في معدته، ولسوف يرسمون رحلته بالضبط عبر ثلوج التيرول .

كان يعرف أنهم يطاردونه.. لا يعرف لهم أسماء لكنهم الأعداء !

يجب أن يتحاشاهم بأي طريقة !

كان لا يخاف المرتفعات، فهو قد قضى أعوامه الخمسة والأربعين بينها. يرى الماشية، وكانت رثته بحالة ممتازة، لكن من الواضح أنهم يجيدون تسلق المرتفعات مثله .

يمكنك أن ترى ثيابه المعقدة المناسبة للبرد، كلها مصنوعة من جلد وفراء الحيوانات. ومن الطريف أن تلاحظ أنه صمم حذاءً يصلح للمشي فوق الثلوج. الحاجة أم الاختراع فعلاً. هناك جيب يضع فيه إزميلاً ومطرقة، على ظهره جعبة فيها عدة أسهم وقوس .

يعرف أنه وحيد، لكن ربما استطاع ببعض التحايل أن يخدعهم أو يهرب منهم . شعر بالعصاة الحمضية تتجمع في صدره؛ ما كان يجب أن يأكل لحم التيس بعدما بدأ يتلف، لكنه كان في حاجة إلى الطاقة .

والحقيقة أن هذه الوجبة لن تهضم أبداً، حتى بعد 5500 عام .

*

عندما أنهى مصطفى إجراءات الحصول على الجنسية، كان قد قرر ألا يعود إلى مصر أبداً، بعدما انقطعت علاقاته كلها هناك: الأب والأم توفيا، الأخوات تزوجن ولا يبالين به، حبيبته تزوجت، لم يعد هناك ما يربطه بمصر سوى النيل والهرم وطبق الفول، سيحاول أن يجد بديلاً في إيطاليا، ويحاول أن يحب البيتزا والباستا، وبالتأكيد سيجد حبيبة في مكان ما .

كان قد درس ترميم المومياوات، لكنه تحاشى أكثر من مرة أن يعود إلى مصر، على الأقل في الفترة التالية. يعرف أن مصر نداءة، سوف تناديه لأحضانها مهما ابتعد، وهو فقط غير مهياً لهذا العناق بعد .

كان يعاني الفاقة؛ دخله يكفي بالضبط للطعام والمسيكن. وكان يقيم مع طالبة إيطالية حسناء اسمها «كلارا». كانت «كلارا» تحبه حقاً، لكنها ترفض مبدأ

الزواج تمامًا .

عندما قابل الدكتور «باولو» في الجامعة، قدّر أنه على شيء من الجنون. لكنّ الجنون مُعدّ، وقد سمع من الرجل كلامًا كثيرًا مُبهرًا عن مومياء «أوتسي». في الواقع، لم يكن الرجل يفكر إلا في «أوتسي».

ولما زار مصطفى المتحف في بولتسانو رأى المومياء، فلم تبدُ له مبهرة جدًّا؛ لا يمكن أن ينبهر المصري بمومياء أبدًا بعد كل ما رآه، لكنه عرف أن العلماء فحصوا كل شعرة في رأس هذا الرجل البائس، أجروا مئات فحوص الأشعة، ومئات تحاليل الحمض النووي .. لا بد أنهم يعرفون شكل حبيبته لو كانت له حبيبة .

هنا توقف الدكتور «باولو» أمام صورة عملاقة في ركن القاعة .

رأى مصطفى رجل كهفٍ مُدثرًا بالفراء، له شعر طويل ولحية، يحمل فأسًا ومديّة. قال له الدكتور «باولو» إن هذه صورة صنعها الكمبيوتر لـ«أوتسي». هناك علم كامل في الطب الشرعي يقوم على إعادة تشكيل وجوه الجماجم، ومعرفة كيف يبدو أصحابها .

لاحظ أن «باولو» ينظر إليه وإلى الصورة ويبتسم. هنا فهم سبب اختياره هو بالتحديد .

مصطفى يحمل نفس ملامح «أوتسي»، لو أنه أطال لحيته طبعًا .

همس مصطفى في حلق :

- لا تقل إنني أحمل جينات هذا الشخص !

كان يعرف أن التيرول يعج بجينات «أوتسي». هناك أقارب وأحفاد كثيرون له هنا .

قال الدكتور «باولو» وهو يضع إصبعه أمام فمه بمعنى «خفض صوتك»:

- لم أقل هذا، لكنني أتحدث عن روح تناسخت في شكلين .

- تناسخ الأرواح كلام فارغ، أنا أوّمن بهذا !

- وأنا أوّمن بالتناسخ !

كانت هذه محادثة عابرة وانتهت، لكن ما حدث بعد هذا هو أن مصطفى تلقى عرضًا مُغرِبًا جدًّا كي يتعاون مع الدكتور في سرقة المومياء. كان الأمر أقوى من أن يُرفض، ثم إن الأمر يقع ضمن نطاق اهتمامه على كل حال.. نحن نتكلم عن

المومياءات .

*

في عام 1991 ...

على الحدود النمساوية الإيطالية يقف الزوجان «هيلموت» و«إريكا» فوق هذا المرتفع .

كانا ينظران في دهشة وذهول إلى الجثة التي وجداهما في ممر تيسنيوخ. كثير من المتسلقين سقطوا هنا ولقوا حتفهم، وقد خطر لهما أنها جثة سقطت قريبًا .

كانت المرأة ترتجف من الرعب، وهتفت :

- هذا شنيع !!

قال «هيلموت» وهو يحتضنها بقوة :

- سوف نعود ونجلب بعض الرجال غدًا .

كانت عملية تخليص الجثة المتجمدة من تحت الثلوج عسيرة جدًا. ومنذ اللحظة الأولى أدرك من استخرجوا الجثة أنها قديمة جدًا، وقدّر عالم حفريات أنها تعود إلى أربعة آلاف عام .

حدث خلاف على تقسيم الحدود ...

في النهاية جاء قرار التحكيم بأن «أوتسي» ينتمي إلى إيطاليا وليس النمسا. وذهب «أوتسي» إلى متحف جنوب التيرول .

من الغريب كذلك أنهم وجدوا حجرًا استُخدم في كنيسة قريبة، وهذا الحجر يعود إلى حقبة «أوتسي» ذاتها. على الحجر ترى صورة لا بأس بها لرجل يتلقى سهمًا في صدره؛ نفس موضع إصابة «أوتسي». مَنْ هو «أوتسي» ؟ وما أهميته لدرجة أن يصنعوا له نقشًا على حجر؟

«أوتسي» يرقد على بطنه فوق صخرة، ويراقب الأفق. البخار يتصاعد من فمه كأنه سحابة صغيرة، حتى شعر بأن هذه السحابة ستفضح أمره ...

تحسّس البلطة، وتحسّس قراب السهام ...

لا شك في أنه قادر على إلحاق ضرر بالغ بهم. سوف يهشم صدر ورأس أربعة منهم، لكن النهاية قريبة على كل حال. لا مفر سوى المراوغة .

أخيرًا استطاع أن يراهم. كانوا هناك، عددهم لا يقل عن عشرة، وهم يتسلقون الصخور في حركة أقرب للتمشيّط. وأدرك أنهم يحملون جثة. لا يمكن قول إنها جثة صديقه؛ لا توجد صداقات في زمن كهذا، لكن يمكن أن نعتبره «حليفه»، يصطاد معه ويستطيع أن يغمض عينيه عنه. الآن يمكنه أن يرى جثة هذا الحليف يحملونها والرأس يتدلى ويتأرجح مع كل هبوط أو صعود .

لماذا يحملون الجثة؟ أنت تعرف أنهم لم يكونوا أكلة لحوم بشر، لكن «أوتسي» كان يعرف سبب الاحتفاظ بالجثة؛ سوف يتركونها فوق صخرة شامخة كي تلتهمها الأرواح.. عقيدة عبادة الأرواح راسخة لدى البشرية منذ زمن سحيق !

يمكن أن يطلق سهامه الآن، لكن لن يطول الأمر حتى يصل إليه الباقون .
فليبقَ ساكنًا .

لكن الخطط من هذا الطراز تكون هشة جدًّا. هذا الماعز الجبلي اللعين كثيف الفراء وثب من جواره، وبما أن الجليد لم يذب بعد، فقد انزلق حافره. تمالك نفسه بصعوبة، لكن قطعة ثلجية عملاقة انحدرت من أعلى محدثةً دويًا وتناثرت !

رفعوا رؤوسهم، وأدرك «أوتسي» أنهم رأوه .

تصاعدت صيحات النصر ...

لم يعد هناك داعٍ للتخفي؛ إنه في مكان عالٍ ويمكن أن يؤذيهم بقسوة قبل أن يموت. جرد سهامه، وأطلق عليّ الرجال ثلاثة أسهم، وسرعان ما رأى رجلين ممددين على الصخور يحاول كل منهما أن يخرج السهم من صدره، ثم همد أحدهما .

انطلق يصعد إلى مستوى أعلى وهو يلهث من البرد والانفعال ...

هنا فوجئ بواحد منهم يعترض طريقه وهو يزأر بوحشية ويلوح برمح، لحيته منتفشة، وعيناه من نار، واللعب يسيل من شذقيه كالضباع. وأدرك أنه جاء من طريق مختصر بين الصخور ليهاجمه من الخلف ...

لم ينتظر، طوح بالبلطة فشج رأس المهاجم إلى نصفين. بعد 5500 عام سوف يندهش العلماء لأن هناك أكثر من نوع من الدماء على البلطة وعلى ثياب «أوتسي»، ثم يقررون أن السبب هو أنه قتل كثيرين قبل موته .

طار سهم من مكان ما فانغرس في صدره !

لا جدوى من الهرب، سينتهي كل شيء حالًا، والمهم أن ينتهي بسرعة !

عندما استدار للخلف كان أول ما رآه البلطة العملاقة المتجهة نحو جمجمته !

*

على مائدة العشاء سال الكثير من الخمر، والتهم الرجال أطنانًا من المكرونة. هناك نوع من النبيذ العجيب يقف بالضبط بين النبيذ والجعة، وهو يشي بالامتزاج بين الثقافتين النمساوية والإيطالية الذي يميز هذا المكان من التيرول، وكان مصطفى يُفضله بشكل خاص، أما الرجال فتناولوا النبيذ العادي. كان البرد شديدًا وهم جياع، لذا التهموا الكثير .

الدكتور «باولو» كان مرعًا، وقد بدا أن خطف المومياء سره جدًّا. هذا حلم ليس هينًا؛ منذ رآها للمرة الأولى حلم بأن تكون له .

تساءل مصطفى بلسان ملتوٍ، وهو يشرب كأسًا رابعة :

- كم من الوقت تعتقد أنه سيمر قبل أن نجد رجال الشرطة فوق رؤوسنا؟

قال «لورنزو» بغم مليء بالطعام :

- على فرض أن هناك كاميرا أفلتت منا ومن خبراتي الإلكترونية، فهم سيجدون صور أشخاص ولن يعرفوا من هم. ليست لأحدنا سوابق أو صور، كما أننا لا نتمتع بالشهرة. سوف يذيعون صورتنا في التلفزيون وعلى شبكة الإنترنت، لكن هذا سيعطينا وقتًا للتحرك. رأيي الخاص أن هذه عملية مُحكمة .

هكذا واصلوا الأكل في صمت .

قال مصطفى ورأسه يتأرجح، وجفناه ثقيلان كأنهما من صخر :

- أعتقد أن الأحداث كانت مرهقة. أعتقد كذلك أنني أفرطت في الأكل. أفتح عينيَّ بصعوبة بالغة !

كان الدكتور «باولو» يعرف أن السبب هو المُخدِّر الذي دسه في النبيذ الذي يُفضله مصطفى، لكنه واصل أداء دوره حتى النهاية، وبدا كأنه موشك على النوم بدوره .

في النهاية، وضع مصطفى رأسه على المنضدة، وراح يغط بصوت عالٍ، وغطى شعره الطويل وجهه. بدا هشًا مثيرًا للشفقة !

قال «لورنزو» وهو يُلقي بالمنشفة :

- انتهى الأمر !

وقال السائق «داريو»:

- سوف يتعبنا في حمله !

قال الدكتور «باولو» وهو يملأ كأسًا أخرى :

- لننتظر قليلًا. رُبْع مَن يُخدروا يستيقظون في اللحظة الأخيرة ليضربوك.
اجلسوا حتى نتأكد من أنه نام .

مرت عشر دقائق، ثم أشار الدكتور «باولو» للرجال فحملوا مصطفى ثقيل
الجنة .

خلال دقائق كان المشهد قد تغيّر تمامًا في الغرفة الداخلية؛ وُضعت منضدة
تشبه مناضد الجراحة، وتعاون الرجال على إرقاد مصطفى على المنضدة. الآن
يأتي «لورنزو» بجهاز معقد يشبه بأجهزة القلب الصناعي، ويتحرك على
عجلات، فيوصل مجموعة من الأقطاب برأس مصطفى !

في الوقت نفسه فتح «داريو» و«باولو» القفص الزجاجي، وأخرجوا المومياء
ووضعاها على الأرض، ثم تعاونوا على توصيل مجموعة أقطاب برأسها المهشم
!

بدا الأمر للحظة كأنه لقطة من فيلم «فرانكنشتاين يونيفرسال»، مع مؤثرات
«ستريكدادين» الكهربائية الشهيرة. بالفعل بدأ عداد الكهرباء يُسجل استهلاكًا
مخيّفًا، وبدأ المصباح يتراقص .

كان الرجال يعرفون ما يفعلون، فلم تكن هناك أسئلة. لقد جرى ترتيب هذا
السيناريو مرارًا .

دعني أشرح لك بعض النقاط: الدكتور «باولو» يملك نظريات معينة مخبولة
بصدد جَدِّه، وهي نظريات تخلط بين علم الفيزياء والميتافيزيقا. كان يؤمن بأن
«أوتسي» وُجد عبر العصور على عدة أشكال، وكان يؤمن بأن القدر قاده إلى
مصطفى الذي يشبه «أوتسي» تمامًا. هذه رسالة تخبره أن التجربة قد أن
أوانها .

قال لـ«لورنزو» بصوت مرتجف :

- تأكد من كل شيء !

لو سارت الأمور على ما يرام، فسينتقل وعي مصطفى إلى «أوتسي»،
ستدب الحياة في المومياء وتنهض. في الوقت نفسه ستفرغ الحياة من
مصطفى وسيسقط ميتًا.. ببساطة لأن المومياء لا تملك وعيًا !

ستكون هناك جثة، لكن في التيرول يمكنك التخلص من عشرين جثة لو أردت !

حبس أنفاسه، وهو يراقب سريان الموجات الكهرومغناطيسية التي يسجلها ألف عدّاد ومؤشر، ثم هتف بلهجة مسرحية :

- الآن يا شباب سنغير التاريخ !

وضغط على الزر الأزرق ...

للحظة تألقت الغرفة بضوء أزرق غريب. يشبه الأمر ذلك الضوء الذي يغمر الشارع كله عندما يكون هناك من يقوم بعملية اللحام. رائحة أوزون قوية لو كانت للأوزون رائحة !

كان التأثير الكهرومغناطيسي قويًا، وشعر الرجال الثلاثة بأنهم في خلاط أسمنت ...

طنين يصم آذانهم ...

غثيان ...

ثم بدأ دخان يغمر المكان ...

هتف «داريو» وهو يقاوم حتى لا يفقد الوعي :

- هناك شيء خطأ! هناك حريق في مكان ما !

لكن «لورنزو» والدكتور كانا يتوقعان هذا. المهم أن تنتهي هذه اللحظات سريعًا. للأسف لا يمكن الضغط على زر لإنهاءها، هذه دورة تستمر 80 ثانية ولا بد من استكمالها .

فجأة دوى الانفجار، وشعر ثلاثة الرجال بأنهم يُقذفون إلى الخلف !

كان «داريو» قد أوقد فرن الموقد ذات مرّة بينما كان مليئًا بالغاز، فانفجر وطار هو ليرتطم بالجدار.. لقد تكرر الشعور ذاته من جديد .

كان هناك، يتنفس بصعوبة وهو على الأرض، نهض وراح يتفقد الآخرين ...

كان هناك خليط من الأجساد المكومة: الدكتور، مصطفى، «لورنزو». استطاع أن يدرك أنهم يتنفسون .

الدخان يتصاعد من الجهاز ...

راح يصفع خدي الدكتور حتى يفيق، ثم بدأ يصفع «لورنزو». من المؤكد أن مصطفى لم يمت؛ صدره يعلو ويهبط بلا توقف .

فتح الدكتور عينيه بصعوبة، وغمغم :

- لقد فشل كل شيء! فشل كل شيء !

ثم فتح عينيه عن آخرهما، وهتف :

- أين «أوتسي»؟

بالفعل لا يوجد أثر للموميا، فقط تتدلى الأقطاب في الهواء وتتأرجح. لا يمكن أن تكون الموميا قد تفتتت، لأن من تسقط فوقه قبلة ذرية يترك بعض الفتات، هنا لم تعد هناك موميا أصلاً !!

- الغليون! أين الغليون؟ !

غريب أن يكون الغليون أول ما خطر له، لكن غرابة الأطوار مقبولة لدى العائدين من انفجار كهذا !

نهض «لورنزو» بدوره، وراح يتفحص أطرافه الطويلة. من الواضح أنه سليم، على الأقل ما زالت أطرافه موجودة !

هتف «لورنزو» متحسباً رأسه :

- الموميا! هناك من سرقها !

- كُف عن هذا الكلام الفارغ! نحن لم نغب عن الوعي أكثر من دقائق !

- إذن؟

قال الدكتور «باولو» وهو يحشو الغليون الذي وجده :

- الاحتمال الوحيد بالنسبة إليّ هو أن الطاقة بخرت الموميا.. تلقت شحنة حرارية هائلة محتها من الوجود .

- رباه !

- وهذا معناه أننا فقدنا أثرًا تاريخيًا لا يُقدَّر بثمن! لقد كانت مغامرة بائسة، وقد دفعنا نحن والعالم ثمنها غالياً !

هنا راح مصطفى يئن، فألقى الدكتور «باولو» نظرة كارهة عليه، وقال :

- لم يحدث شيء لهذا اللعين! حساباتي خاطئة !

تساءل «داريو»:

- وماذا نقول له عندما يفيق؟

همس الدكتور حتى لا يسمعه مصطفى الذي يجيد الإيطالية تمامًا :

- الانفجار سيساعده على تصديق أي قصة. سيحسب أن قطاعًا قد مُحي من ذاكرته مع الانفجار، وسيُكوّن ذاكرة زائفة عما حدث .

*

رأى مصطفى البلطة الهائلة تتجه نحوه، فارتدى فوق الثلوج، ولم تصبه البلطة .

كان يشعر بالسهم يبرز من صدره، وقدّر أنه لم يؤذّه جدًّا. مد يده، وبقوة انتزع السهم، فانبثق خيط من دم وراءه .

- أين أنا؟ ما الذي أتى بي هنا؟ هذا البرد الشديد! لماذا أرتدي هذا الفراء؟! من أين جاءت هذه الثلوج الكثيفة؟ من هؤلاء المهاجمون؟

على كل حال رأى رجلين يهرعان نحوه، وكان على حافة جرف زلق. عرف أن أي حركة ستُلقي به من عل، لا يستطيع عمل شيء. الأقدار تدخلت في اللحظة المناسبة، فقد انهارت الأرض تحت أقدام الرجلين، فصرخا وتناثر الجليد الناعم .

رأى عددًا من السهام تنطلق نحوه، فركع على الأرض .

ماذا حدث؟ كان يشرب النبيذ مع البروفسور في الكوخ الدافئ، ثم حدث شيء ما.. هذا كابوس !

صاح بأعلى صوته بالإيطالية :

- ماذا تريدون مني؟

فجاءته الإجابة أقرب إلى الزئير: «هونجا هونجا.. مووووووووه !».

هؤلاء نوع من الوحوش، لا شك في ذلك !

كانوا قادمين من أسفل الجرف وهم يعوون ويزأرون، ملوحين ببلطات نحاسية ملفوفة بجلود الحيوان. أدرك أن قطعة الجليد التي يقف خلفها قابلة لأن

تتفكك، ركع وهوى عليها بضربات متسارعة بالبلطة، ركلها بقدمه، تدرجت إلى أسفل ككرة ثقيلة راحت تزداد حجمًا وسرعة وهي تندفع .

عندما بلغت المهاجمين كانت سلاح قتل. أسقطت اثنين في الثلج، وبعثرت اثنين، ولعلها مرت فوق واحد .

صرخ بأعلى صوته :

- أنتم تتلقون العقاب !

أسند ظهره إلى الجدار، وراح يحاول تهدئة ضربات قلبه الموشك على الانفجار: اهدأ.. اهدأ. من الواضح أنهم أغبياء، شرسون لكنهم أغبياء. أنت تملك الذكاء، وبالتأكيد ستتمكن من قهرهم .

راح يتأمل الوشم الغريب على ذراعيه، ثم راح يهرش شعره المنكوش. التقط قملتين من شعره، تفحصهما في هلع، وشعر بأن هناك بركان نار في معدته !

أين رأى هذا الوشم من قبل؟

ثم ارتجف هلعًا.. كان هذا منذ ساعات ...

المومياة !

*

- هل ترغب في الرحيل يا مصطفى؟ سنعيدك إلى بولتسانو .

- هل أنت بخير؟

- أنت في حاجة إلى نوم عميق !

قال الدكتور «باولو»:

- إنه في حالة صدمة عصبية. أرى أن نعيده إلى مسكنه حالًا. «كلارا» صديقتة تعرف كيف تُعنى به. لا، لا أطباء !

لم يتكلم مصطفى. بينما شعره الطويل يغطي وجهه وهو يستند إلى «داريو» و«لورنزو»، أطلق صوتًا غريبًا من بين شفثيه، وزاغت عيناه، بدا كمن يحملونهم للشنق عندما تتخلى أقدامهم عنهم !

في توتر ساندته الرجلان متجهين إلى خارج الكوخ. لحق بهما الدكتور «باولو» وهو يرمق الكوخ في حسرة .

جلس في السيارة «الفان» بجوار السائق «داريو»، بينما جلس «لورنزو» بجوار مصطفى في الجزء الخلفي .

دار المحرك، وانطلقت السيارة وسط طريق الجبال، بينما بدأ الأفق يتلون. إن الفجر قادم بعد ليلة عصيبة طويلة .

كان «باولو» شارد الذهن، يدخل الغليون محاولاً فهم لماذا فشل !

أنت تعرف طبعاً أن وعي مصطفى انتقل ليسكن جسد «أوتسي»، بينما وعي «أوتسي» صار في جسد مصطفى، لكن هؤلاء الحمقى لا يعرفون ذلك !

إنهم سذج، أليس كذلك؟

*

في الشارع الهادئ الخالي الذي بدأ ضوء النهار النضر يكسوه، لكن الناس لم تصح من نومها بعد، يترنح «ستافرو»، ممسكاً بزجاجة الخمر التي لم يبقَ منها سوى قطرات، يتمسك بعمود نور وهو يتساءل عن سبب تحول قدميه إلى مكرونة مسلوقة، يرى العالم في غشاوة، ولكم تمنى لو رأى الأفيال الوردية التي يقولون إن السكرى يرونها، لكنه لم يرَ فيلاً ودياً ...

رأى السيارة «الفان» الواقفة.. ترتج ...

شيء يرتطم بها من الداخل، كأنها تُقلُّ فيلاً هائجاً !

هل هذا صوت صراخ؟

«عندما يحملك أحدهم من قفاك ليضرب برأسك سقف السيارة،

فإنك لا تدري: هل تختنق، أم تموت من إصابة الرأس».

ثم رأى رجلين يترجلان، أحدهما صغير الحجم، والآخر قوي، وهما يهرعان إلى الجزء الخلفي من السيارة، يفتحان الباب ...

جو عام من الانزعاج والذعر.. يقفزان إلى الداخل ...

«الأسنان التي تُطبق على الحنجرة،

ليست أروع شيء في العالم.. صدقني».

صرخة مكتومة، ورأى دمًا ينتثر على زجاج العربة، ثم صرخة مكتومة أخرى، هذه المرة سقط رجل من الباب المفتوح. وخُيِّلَ إلى السكير أن الرجل بلا

صدر، أو أن هناك ثقبًا هائلًا في منتصف صدره !

من الباب الخلفي للسيارة وثب رجل ضخم له شعر طويل يتدلى على كتفيه. كان وجهه ملوثًا بالدم، كأنه أسد فرغ من التهام وعل. نظر حوله في توحش، ثم داس جثة الرجل الملقى على الأرض الذي لم يعد لديه صدر !

تلقت العملاق حوله، ثم مشى نحو بناية قريبة ...

نظر «ستافرو» إلى الزجاجة، وقدّر أنه شرب أكثر مما ينبغي.. هذا الذي يراه لا يمكن أن يكون حقيقيًا، على الأرجح هي أفيال وردية من نوع جديد !

قال لنفسه: «هيك! الساحرة الشمطاء في بيتي معها حق. كان عليّ أن أنام في فراشي وأنعم بالدفء. هيك !».

ثم طوح بالزجاجة في أقرب صندوق قمامة. في الواقع لم يكن قد بقي فيها الكثير .

*

هرعت «كلارا» لتفتح الباب، لأن البوابة نائمة على الأرجح .

هي بناية متواضعة من خمسة طوابق، لها ذات الطابع الأوروبي القديم المميز، كل شقة تتكون من غرفتين ومطبخ وحمّام ضيق، والمواسير عتيقة، والجدران مشققة، وهناك جهاز تلفزيون ينتمي إلى عصر ما قبل جهاز التحكم عن بُعد .

صديق لمصطفى اتصل بها فجرًا على هاتف مصطفى، وقال إنهم سيحضرونه لأنه ليس على ما يرام. أصابها الهلع، وراحت تنتظر سماع سيارة في الشارع الهادئ .

«كلارا» فتاة إيطالية، لديها سمات الجمال التي تحمل شيئًا يبهّر كل واحد، وقد كانت محظوظة لأنها قابلت ذلك العملاق المصري طيب القلب مصطفى. قضت معه أعوامًا سعيدة، لكنها رفضت كل محاولاته للزواج. تريد أن تظل حرة تطرده متى أرادت. وكانت تؤمن بأن كل شخص، حتى «شارلي شابلن» نفسه، سوف يصير مملًا لا يُطاق بعد فترة طالت أو قصرت، عندها لا تريد أن تتحمل شخصًا مملًا .

سمعت صوت سيارة، فأطلت من النافذة .

لم تفهم ما يحدث، لأن السيارة «الفان» تقف عند المنعطف، ثم رأت مصطفى قادمًا من خلف السيارة .

أصابها الجزع! إنه ملوث بالدم!! وجهه وصدر قميصه! ماذا دهاه؟ !

هرعت ركضًا على الدرجات المنحدرة، ثم مدت يدها تولج المفتاح القديم في البوابة الخارجية. خرجت له في الشارع تنظر إلى عينيه الزائغتين والدم الذي يغطيه ويسيل من بين أسنانه .

- مصطفى! ماذا دهاك؟ !

واندفعت نحوه، لكنه أزاحها بخشونة، ثم مد يده يطبق على معصمها !

جرها معه نحو البناية، وهي لا تفهم شيئًا !

مصطفى/«أوتسي»، كان يشعر بشيء غامض يقوده في هذا الاتجاه بالتحديد، هناك شيء غريزي يحركه، كأنه جاء إلى هذا المكان مرارًا. السبب الآخر هو أنه كان في حاجة إلى الارتواء بعد كل ما لوث فمه من دماء. كانت معركة جيدة، جندل فيها خصومه، ومزق حنجرة أحدهم، وكسر عنق الثاني، ثم مد يده في قلب الثالث فانتزعه... هو كالوحوش؛ يريد شرب الماء ليزيل مذاق الدم .

ثم إنه يشعر بحاجة قوية للتكاثر.. غريزة التكاثر تدفعه دفعًا نحو هذه الأنثى !

- مصطفى! لماذا تشدني بهذه القوة؟ !

لكنه أصدر نوعًا من الزئير ...

يوجد شيء غريب هنا !

انظري إليه جيدًا يا بلهاء! هذا ليس مصطفى، هاتان ليستا عينيه، هاتان عينا مجنون !

انظري جيدًا يا بلهاء! هذا الدم على وجهه وفمه وصدر قميصه لم يأت من أي جرح في جسده! لا توجد جراح، ألا تلاحظين هذا؟ هذا دم غرباء !

إنه يفتح الباب.. إنه يصعد معك إلى الشقة وهو يُصدر خوارًا !!

*

الكهف كان دافئًا. تشعر بقشعريرة عندما تتذكر البرد القارس بالخارج، وكل تلك الثلوج .

هناك مساحة واسعة وسط الهوابط، تتلظى نار ممتعة، وهم جميعًا يلتفون حول النار، وينظرون إليك في ذعر. رائحة لحم يُشوى في مكان ما .

تتقدم مرغماً فوق الصخور، وأنت تلوح بالبلطة منذراً. يبدون بالضبط كالرجال الذين هاجمتهم بالخارج، لكنك مرغم على الانضمام إليهم لأنك لم تعد تطيق الصقيع .

يا للرائحة الكريهة! يأكلون وينامون ويتغوطون في مكان واحد ولا يستحمون !
تتقدم نحو النار. أنت لا تعرف بروتوكول رجال الكهف، ومن الوارد أن ترتكب خطأ قاتلاً .

تجلس وتنتظر إليهم، تقول لهم :

- أنا قد جئت في سلام. لا أريد سوى بعض الدفء !

هنا بدا عليهم الذعر والذهول، وتراجع بعضهم غير مُصدِّق، أحدهم لوح بالرمح وهتف، فقلت أنت :

- ماذا تريدون يا رفاق؟

من جديد بدأ الصياح ...

أدرك مصطفى الحقيقة؛ هؤلاء لا يعرفون الكلام، لا يعرفون سوى تلك الأصوات المخيفة من حلوقهم، فلا بد أنهم يعتبرونه ساحراً أو إلهاً !

تأكدت الفكرة عندما مد أحدهم يده في النار، وأخرج فخذ تيس مشوية يقطر منها الدهن، وقدمها إلى مصطفى وهو يرتجف !

تأكدت أكثر عندما جاء أحد الرجال يحمل شيئاً، وألقاه عند قدمي مصطفى فانتفض مذعوراً. كان هذا رأساً، بالتأكيد رأس واحدٍ ممن قتلهم، وقد قطعوه وجلبوه له لينال رضاه، أو هو نوع من القرابين !

تأكدت الصورة أكثر فأكثر عندما رأهم يجلبون له كائناً قذراً منكوش الشعر كرية الرائحة، وأدرك من نظرة سريعة أن هذا الكائن أنثى !

طبعاً، الزعيم يجب أن يظفر بأفضل قطع اللحم والقرابين وإناث القبيلة! يبدو أنه سيحب حياته الجديدة، فقط لو فقد حاسة الشم !

متى وكيف حدث هذا؟ ولماذا صار «أوتسي»؟

*

«كلارا» كذلك كانت تخوض أسوأ لحظات حياتها في تلك اللحظات ...

لماذا هو حافي القدمين كأنه فقد حذاءه في حادث أو انفجار؟ هل انقلبت به عربة؟

تمقت بشدة هؤلاء الذين يستمرون في الدعابة بعدما يدركون أنها سخيفة.
وهكذا أطلقت إنذارًا أخيرًا :

كانت هذه أصدق عبارة قالتها في حياتها .

أطلق سراحها، فتملصت وانطلقت تركض قاصدة غرفة النوم. السلاجحة الصغيرة التي لم تجد لها موضعًا في الشقة سوى هناك .

أغلقت الباب خلفها، نظرت إلى فراشها الذي ما زال ساخناً، إنها الساعات الأولى من النهار. توقفت الضوضاء على الباب، سمعت صوت الماء يتدفق من صنوبر الماء في المطبخ، المواسير كلها تترجرج والجدران كذلك. لم تفهم سبب لهفته على الماء، لكننا نفهم أنها الحاجة إلى الارتواء.. الدم.. لا بد من غسل الدم الذي ملأ فمه. وما لم تعرفه وعرفناه نحن، هو أنه قضى حاجته هناك في قاعة الجلوس بجوار جدار، ولم يستطع أن يُعيد غلق السروال لأن الزمام شيء لا يفهمه .

.«! |||||

هل تطلب الشرطة؟ للأسف سقط الهاتف منها في الخارج . لا بد أن تصمد،
ثم من قال إنه لا يمزح؟

تتوالى الضربات ...

- مصطفى! كَف عن هذا الذي تفعله! أنا مذعورة فعلاً! ثق أنني لا أجد ذرة إثارة في هذا !!

«هل هو ثمل؟ أصدقاؤه قالوا إنه ليس على ما يُرام، فهل هذا هو السبب؟ أين رفاقه؟».

«التكاثر! التكاثر!».

هرعت إلى النافذة لتفتحها، وليتسرب الهواء البارد. هل تصرخ؟ هنا رأت السيارة «الفان» عند المنعطف لم ترحل بعد، السيارة التي جاءت به ! برغم المسافة البعيدة، فقد أدركت أن هناك من يزحف على الأرض بجوار الإطار الخلفي، يزحف وهو يرتجف، رجل طويل الأطراف كالعنكبوت، أو كأنه قلم رصاص آدمي، كان الدم ينزف بغزارة من رأسه محدثاً بركة مخيفة من اللون الأحمر، زحف بضعة سنتيمترات أخرى ثم همد نهائياً .

هذا الدم لم يكن دم مصطفى.. هذا دم من كانوا معه إذن !!

مصطفى لم يعد هو! هناك شيء مخيف !

كانت فتاة ذكية، وقدّرت أن الباب سيتهوى حالاً، عضلات المصري القوي ستنتزعه من مفاصله قريباً !

اتجهت إلى الثلاجة، أخرجت زجاجة الماء، وبيد راجفة سكبت السائل عند مدخل الباب وحول عتبه، بحيث صار من المستحيل أن يمشي أحدهم دون أن يبتل ...

نزعت قابس الثلاجة، ثم قطعت السلك بالمقص، وأعادت القابس إلى الفيشة، وبحذر طوّحت بالسلك العاري ليتلوى على الأرض كثعبان، يتلوى وسط بقعة الماء فيكهربها بالكامل ...

هرعت إلى المصباح الثقيل المجاور للفراش، فانتزعته من مكانه؛ يصلح للضرب باعتبار هذه هي الخطة «ب» لو فشلت الخطة «أ»...

وقفت في ركن الغرفة تبكي وتنشج. لو دخل هذا الوحش الغرفة وفشلت خطتها فقد انتهى أمرها فعلاً !

«التكاثر! التكاثر!».

هي ضحية هشة سجينه في غرفة يوشك وحش مسعور على اقتحامها! كابوس الطفولة يتحقق يا «كلارا»!

تهوى الباب، ثم ظهر مصطفى وهو يزأر كأنه مذؤوب في فيلم رعب ...

ثم إنه صرخ، وارتجف تلك الرجفة الكهربائية «الجلفانية» المميزة، وصار صوته رفيعًا حادًا، وبدأ عاجزًا عن التحرر من مكانه، ثم سقط أرضًا ...

*

«أوتسي» الذي صار مصطفى، كان يجلس هناك أمام النار، النار التي تتلظى في حفرة عميقة مخيفة يلتفون حولها .

لقد التهم الكثير من اللحم، وشرب شيئًا مبهمًا في نصف جمجمة. كان الاشمئزاز يخنقه، لكنه وجد نفسه مضطرًا إلى ذلك. رأسه يدور، ومن الواضح أن هذا نوع من الخمر، كل مجتمع عبر التاريخ صنع خمره الخاصة !

ألسنة اللهب تتعالى ... ثم إن بعض الكائنات منكوشة الشعر راحت تتواثب كالقردة حول النار. هذا رقص! رقص بدائي جدًا يثير الغثيان !

من الصعب أن يبقى متيقظًا برغم أن الحذر يدفعه إلى ذلك .

كان الآن قد بدأ يفهم تفاصيل هذا الذي حدث .. ليس كل شيء. لا يعرف ظروف ما حدث، لكنه انتقل فجأة عبر خمسة وخمسين قرنًا ليصير هو «أوتسي» رجل الثلوج التيرولي.. هذا واضح .

بدأ يغيب عن الوعي بفعل الدفء.. بفعل الإرهاق.. بفعل تراقص النيران.. بفعل حركة الراقصين ...

ووسط ألسنة اللهب رأى ...

رأى مصطفى الذي يعرف نفسه على شكله ...

رآه يتقدم في غرفة يعرفها ...

رآه يتلوى ويصرخ ...

رأى «كلارا» تصرخ !

هل هو يحلم؟

*

عندما نهض مصطفى من جديد، أدركت «كلارا» أن أسوأ كوابيسها قد تحقق !

لقد سقط، فتحرر من دائرة الصدمة الكهربائية، ويبدو كذلك أن الكهرباء كانت أضعف من الفتك بهذه الجثة العملاقة، فقط حطمت عظامه وجعلته أكثر

جنونًا.. إنه سليم !

صرخت والتصقت بالنافذة ...

قبضت على المصباح بقوة، وصممت علي أن تهوي به على رأسه، برغم أنها تعرف جيدًا أنه سيقبض على ساعدها بأصابع من حديد ...

هذا ما حدث بالفعل ...

رفعت المصباح عاليًا، لكن مصطفى الذي غطى الشعر الطويل عينيه قبض على معصمها بقوة، وثنى الرسغ فسقط المصباح منها ...

- مصطفى!! أيُّ مس شيطاني أصابك؟ !

هنا تدرك فعلًا - وقد اقتربت منه جدًّا - حقيقة أنه لا جروح في جسده؛ هذا كله دم آخريـن .

- لا!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!! !!

*

هناك حول النيران كانت سرعة الرقص تتزايد .

صوت خوار وزئير.. غرغرة من الحلوق ...

كان «أوتسي» يرى بعيني الخيال، وعبر 5500 عام «كلارا» الجميلة تصرخ وتبكي. يرى مصطفى يضربها بقسوة، لا شك أنه سيفتك بها فتكًا !

إن خيالاتهم تتراقص على جدران الكهف .

الرائحة الكريهة .

هنا أدرك الحقيقة: سيقتلونه. لقد قرأ كتاب «الغصن الذهبي» لـ«فريزر» يومًا، ويعرف أن قتل الأب وأكله عقيدة قديمة في المجتمعات البدائية، لأنهم يعتقدون أن هذا ينقل إليهم قواه السحرية، وبعد هذا صارت عقيدة قتل الطوطم.. إنه طوطم هؤلاء القوم .

لقد مجدوه وعبدوه وقدموا إليه القرابين والإناث كريهات الرائحة، وفي الليلة نفسها سيفتكون به، وربما يأكلونه .

للأمر طابع ديني أكيد ...

مد يده إلى البلطة الملقاة بجواره، وفكر في أن يطبق عليها، لكن يده كانت رخوة تمامًا.. لا بد أن هذا الذي شربه كان يحوي نوعًا من الأعشاب المخدرة !
فكر أن يقاوم، لكنه كان عاجزًا عن ذلك .

هوت أول ضربة على كتفه فمزقتها، ثم انغرس رمح في كتفه، ليكون موتًا بطيئًا شنيعًا إذن .

ثم خطر له أن موته قد يكون الأفضل فعلًا .

لن يتحمل الحياة في هذا الزمن ومع هؤلاء القوم !

قد يؤدي موته إلى إنقاذ «كلارا»، فالحقيقة هي أن وعي «أوتسي» يحرك هذا المسخ !

فقط يجب أن يحترق هذا الجسد، يجب ألا توجد مومياء يجدها العلماء بعد خمسة وخمسين قرنًا، يجب أن ينال «أوتسي» الراحة النهائية، وإلا جاء عالم مجنون بعد كل هذه القرون وأعادها إلى الحياة من جديد !

برغم الطعنات التي شلت حركته مع المخدر، زحف نحو النيران المتأججة، وألقى بنفسه فيها !

ارتجف البدائيون الذين لم يفهموا ما حدث؛ بدلًا من أن يقتلوه وجدوه يقتل نفسه بنفسه، يتلظى في النيران ويصرخ ...

*

ارتجف مصطفى الذي حاصر «كلارا» في الركن .

زاغت عيناه، ثم تهاوى أرضًا، كأنه دمية «ماريونيت» بلا خيوط .

على الأرض تكوّم، ولم تكن هناك أي علامة للحياة سوى تنفسه .

زحفت على رُكبتيها حتى وجدت المصباح الثقيل، حبست أنفاسها، وأغمضت عينيها، وهوت على رأسه.. مرّة.. مرّة.. مرّة .

فتحت عينيها، وراحت ترمق الجسد الضخم الذي رقد بلا حراك والدم ينزف من رأسه !

ما لم تعرفه هو أنها قضت على جسد مصطفى ووعي «أوتسي»، بينما عبر خمسة وخمسين قرنًا احترق جسد «أوتسي» ووعي مصطفى !!

نترك للقارئ استنتاج ما حدث لقاعة المومياء في متحف التيرول: هل اختفت أم هي موجودة؟

لربما تغير التاريخ بالكامل. لا يعنيها هذا. ما يعنيها هو أن مصطفى مات، وأنها لن تنسى هذا الفجر المخيف !

حكاية للأطفال فقط

(1)

شادي

في تلك الليلة كانت عينا فيروز تتوهجان بلون غريب.. العينان المراوختان اللتان فشل كل شخص في العالم في معرفة لونهما الحقيقي. في محمية رأس محمد بشرم الشيخ نهر يُقال له «المسحور»، والسبب هو أن لون الماء فيه يتغير في اللحظة ذاتها التي تنظر إليه فيها، فتارة هو أزرق، وتارة هو أخضر أو بنفسجي. لو أنصفوا لضموا عيني فيروز إلى المحمية باعتبارهما ظاهرة كونية غامضة .

في تلك الليلة كانت شفتا فيروز تهمسان باسمي، وأرجعتُ رأسها الصغير للخلف، وقالت شيئاً، شيئاً لم أعرف ما هو، لكنه بدا رائعاً .

في تلك الليلة قرر العصفور الصغير في يدها أن يكف عن المراوغة والطيران، وأن يستريح بين أناملتي .

في تلك الليلة كانت أنفاسها تلمس شحمة أذني. هناك قوم لا يخرجون الأنفاس ولكن الأنسام. أحسب الطبيعة أنثى كونية المقاييس تتنفس بالطريقة ذاتها، فيصدر عنها النسيم الذي يداعب أوراق الشجر ليلاً. الطبيعة أنثى.. الشمس أنثى.. السعادة أنثى .

في تلك الليلة تكف الفتاة عن هوايتها المفضلة: تعذيب الرجل، وتقرر أن تعترف له بأنها تريده كما أرادها. ياه! هي ليلة نزع الأقنعة إذن، وما أجملها لحظة .

في تلك الليلة هناك، كانت الألحان تتفجر في رأسي، لكنني لم أكن أستطيع كتابة نوتة موسيقية، ولا عزف نغمة واحدة على أي آلة موسيقية. ربما كان الحل الوحيد هو أن يسمع عازف موسيقي ما في رأسي ويترجمه.. لن أتمكن من الدندنة لأن هذا سيتلف اللحن .

في تلك الليلة أنتصر على نفسي وشكوكي الداخلية، وأقهر عقدي الخاصة. أنا سعيد.. أنا محبوب.. هناك من يريد أن أكون معه للأبد .

في تلك الليلة انتظرتُ بجواري فيروز حتى خلا الشارع. عند ركن الزاوية الذي يضيئه نور الكشاف الخافت، كان هناك ذلك الفتى الضخم المشعث يركض، وبجواره رجلان يحاولان أن يركضا بنفس سرعته، وقد بدا عليهم جميعاً توتر غريب. لا أعرف السبب، لكنهم يلاحقون لصاً على الأرجح. نظرتُ إليهم، ونظرتُ إليّ، وابتسمت في مكر حتى تواروا عن العيون، وصار الشارع لنا من جديد .

جرت فيروز لنهاية الشارع الخالي من المارة وهي مغمضة العينين تمامًا، وقد فردت ذراعيها كأنها طائفة «جامبو». تنورتها تطير حولها كمظلة طيار احترقت طائرتها، ثم دارت وعادت نحوي مغمضة العينين أيضًا. الحذاء الرياضي الخفيف يجعلها هفهافة بلا ثقل على الأرض .

وقالت من دون أن تفتح عينيها :

- شادي.. أنا.. أنا سعيدة بحق !

انحنيت لألثم شفتيها وهي مغمضة العينين، لكنها شعرت بما أريد، ووضعت سبابتها منذرةً على شفتيها، ثم عادت تكمل دورة طيران أخرى في الشارع من دون أن تتعثر بقطعة حجر أو بالوعة واحدة. ظللت لفترة ماطًا شفتيّ للامام كأبله، ثم مددت يدي فأعدت شفتيّ إلى مكانهما .

لا يمكن الاكتفاء من هذه، لا يمكن أن تشبع منها، الطريقة الوحيدة هي تذويبها في سائل تحقق نفسك به في العروق على طريقة أفلام «فرانكنشتاين» القديمة. وأذكر قول الشاعر ابن الرومي :

أَعَانِقُهَا وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشْوَقَةٌ إِلَيْهَا وَهَلْ بَعَدَ الْعِناقِ تَدَانِ
وَالثَّمْ فَاهَا كِي تَذَوَّبَ حَرَارَتِي فَيَشْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيْمَانِ
كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ تَمْتَرَجَانِ

ابن الرومي كان يتعذب حقًا.. هذه أبيات صادقة تقطر دمًا !

أحيانًا أجد هذه الأبيات القديمة جافة سخيفة، لكنها مثل السمك «البكalah» الذي كان أبي يبتاعه لنا في طفولتي؛ قطع جافة شبيهة بالخشب، وضعها في الماء قليلًا، تصير سمكًا نضرا شهى الطعم .

عش قصة حب، ولسوف تكتشف أن أبيات كثير عزة، أو قيس بن الملوح، أو العباس بن الأحنف، عبقرية.. عش وحدك، ولسوف تتساءل عن قيمة هذه الحفريات التي تقف كلماتها في حلقك .

الشيء نفسه ينطبق على أغاني أم كلثوم، عش وحدك ولسوف تجدها مملة طويلة جدًا لا تكف عن التكرار، كأن الجمهور معتوه.. قع في قصة حب ولسوف يبكيك كل حرف في أي أغنية .

مشيت معها إلى حيث حزام الأشجار الذي يطل علي الحديقة المهجورة ليلاً. هناك كشاف يبعث ضوءًا واهنًا، وفي هذا الضوء كنت أرى في الماضي العشاق الذين يتوارون عن العيون.. كنت أحسدكم، وهذا الحسد يتسربل في شكل غصبة أخلاقية على ما وصلت إليه أخلاق الشباب المتردية.. كنت أكرههم بصدق، لكنني الآن، وأنا في لحظة الحقيقة، أعترف بأنني كنت

أحسدهم، أحسدهم ولا أعرف ذلك .

جلست على الكلا وطلبت منها أن تأتي .

دنت مني في رفق، فأشرت إلى كتفي كأنني أطلب منها أن تريح رأسها عليها. في رفق تربعت على الأرض، ثم استلقت للخلف وأراحت رأسها هناك، وتركتُ لأناملي الجشعة أن تعبت في خصلات شعرها .

في تلك الليلة اكتمل بدر أحلامي، وصار الواقع أكثر جموحًا من أي ليل .

كان قلبي يتواثب بين الضلوع، وهمست لها :

- أغمضي عينيكِ، وتخيلي أنكِ تسافرين، تسافرين وراء الغمام، ووراء قوس القزح .

قالت مغمضة العينين :

- لم أرَ في حياتي قوس قزح !

- إذن تخيلي قوس القزح، ثم تخيلي أنكِ تُحلقين فيما وراءه .

أن تصف اللون الأزرق لشخص كفيف أمر معقد، لكنه لا يخلو من شاعرية .

في تلك الليلة عرفت أن اللحظة قد جاءت، ولن تأتي فرصة أخرى كهذه !

مررت أناملي على أوردة عنقها، ثم بدأت أشعر بدقات الشريان السباتي الداخلي.. الوريد الودجي الوحشي !!

قالت ضاحكة وهي مغمضة العينين :

- هل تحاول معرفة إن كنتُ أجريت استئصالًا للوزتين؟

هنا كنت قد غرست نصل السكين في الشريان بعمق، ثم حرّكته بالعرض بعمق! ولم أحاول أن أنظر إلى المشهد القاسي! أعرف أنني لو رأيته فلن أستطيع النوم ما حييت !

سمعت حشرة بسيطة، ثم استرخت يداها. مزية هذه الطريقة هي أن النصل يقطع القصبة الهوائية فلا يصدر صراخ .

هذه بقعة هادئة ولا يأتيها أحد، لذا كان العشاق يفضلونها. لكن عليّ أن أبتعد بسرعة، لأن سروالي وكفي قد تلطخا بالدم. لا تترك السكين بأي ثمن لأن بصماتك عليها، لفها في منديلك واخفها في جيبك. ماء! أريد ماءً !

في تلك الليلة كَفَّت فيروز عن أن توجد. سوف تقضي بضع ساعات على منضدة التشرّيح الباردة، ثم ثلاثة المشرحة، وبعدها هو التراب ...

لست فخورًا بما قمت به، لكنه ضروري.. أنت تُقر بهذا، أليس كذلك؟

(2)

جودت

المهن العقلية قد تكون أشغالًا شاقة أعقد بمراحل من أي مهنة جسدية، وأعتقد أنني حيث جلست هناك أمام شاشة منسق الكلمات كنت أحسد أي بناء يحمل أجولة الأسمنت في الشمس الحارقة إلى الخلاط. عمل شاق نعم، لكنه سيعود إلى داره، وينزع ثيابه، ويخرج ليسهر مع رفاقه في المقهى، وينسى كل شيء حتي اليوم التالي. أما أنا فسوف أحمل صليب الكتابة في كل مكان، سوف أفكر وأنا أتناول طعامي، أو وأنا أشاهد التلفزيون، أو وأنا في الفراش، وربما وأنا نائم كذلك، سوف أشعر بأنني مدين أربعًا وعشرين ساعة .

اسمي جودت، ولا بد أنك أدركت أنني سيناريست ومؤلف سينمائي. في الخامسة والثلاثين من العمر، أعيش في شقة مفروشة فاخرة في حي المهندسين، وغير متزوج؛ لا بد لمن يعيش حياتي أن يعث قليلًا، وهو ما لن تقبله زوجة من لحم ودم. قدمت ثلاثة مسلسلات لا بأس بها، وفيلمًا سينمائيًا واحدًا، وخطة حياتي بسيطة جدًا: أستيظ في الثالثة عصرًا لأجلس في مقهى معين، وأتناول غداءً سريعًا من المكرونة والدجاج هناك، ثم أفتح اللاب توب وأشرب الموكا والكابوتشينو، وأدخن ألف سيجارة، وعلى الأرجح ينتهي اليوم بكتابة مشهد واحد... وعند منتصف الليل أخرج مع فتاة أخرى، وغداً يوم آخر ...

هل تعرف الكافيه الذي أجلس فيه؟ اسمه «أرجوس». يمكنك أن تراني هناك عصر كل يوم وأنا أرمق الشارع من وراء الزجاج وأكل المكرونة .

الفكرة التي كانت تلاحقني مؤخرًا هي فكرة الصدمة.. طفل بريء يلهو ثم يحرق قطعة حية.. في فيلم «حياة يائسة» لـ«جون ووترز»، ترى سيرفيس طعام شديد الفخامة والأناقاة طيلة تترات الفيلم، ثم يرفع أحدهم غطاء الطبق الرئيسي فتكتشف أنه فار مشوي .

هكذا كتبت مشهدًا يصلح لفيلم رومانسي: الفتى شادي مع الفتاة الجميلة فيروز على موعد في مكان هادئ.. ليلة رومانسية ساحرة تنفتح فيها طلاس صناديق العشق الموصدة، وينتصر الهوى السكران، ثم في الذروة، وفي لحظة عاطفية متأججة، يهوي الفتى بالسكين على عنق الفتاة لينحره .

هي لحظة صادمة بالتأكيد، لكن لماذا؟ وكيف؟

في فيلم «كلب أندلسي» لـ«بونويل»، يشق البطل عينًا بشرية بالموسى، ولا نطالب المخرج بأي تفسير لهذا المشهد، لأن الفيلم سرّياتي ومن حقه أن يكون مجنونًا، لكن كيف يتصرف من لا يقدم فيلمًا سرّياتيًا؟

كنت غارقًا في مصيدة هذا المشهد الذي راق لي، لكنك بالتأكيد لا تستطيع أن تجد له مبررًا واضحًا .

جلست في الكافيه، ورُحت أراقب مطفأة السجائر التي فاضت بما فيها وكادت تنسكب، لكنها تطالب بالمزيد، وقد كنت جاهزًا لأمنحها ما تريد .

عبر سحب الدخان أرمق ذلك الفتى الذي يجلس في الركن في الضوء الخافت، وقد طوّق كتف فتاة. ظهراهما للمكان مما يدل على أنهما يداريان قصة الحب أو الاشتهااء هذه .

كان له شعر طويل معقوص عند مؤخرة رأسه على شكل «ذيل خنزير»، وله لحية مشعثة. أما هي فلم أتبين سوى أن شعرها بندقي جميل .

- فيروز !

دوى الصوت الرفيع الفضولي من خلف كتفي فاستدردت ...

واحدة من الفتيات المزعجات إياهن اللاتي يلتقطن لأنفسهن صورًا بغم البطة طيلة اليوم، كانت تقف هناك وتضع يدها على فمها منادية :

- بنت يا فيروز !

ثم أدركت أنها تنادي الفتاة الجالسة التي تعطيني ظهرها. التفتت هذه مُحرجة، وقد بدا واضحًا أنها تكرهها. أسوأ وقت تناديه فيها إحداهن هي هذه اللحظات. لكن الثانية الحمقاء مُصرّة على عمل فضيحة وإلا عملت فضيحة أسوأ !

نهضت الفتاة الخجول في تردد وضيق، بينما هرعت الفتاة المزعجة إياها تدنو منها فتعانقها .

- أيتها الكلبة القذرة !

لسبب ما تستعمل الفتيات هذه الشتائم عندما يُعبرّن عن حبهن لصديقاتهن، وقد تبادلّت الفتاتان القبلات، ثم صافحت الحمقاء الشاب ذا الشعر المعقوص في فضول كأنه حيوان غريب، ووقفوا يتبادلون كلمات سريعة .

اسمع بعض مقاطع الكلام :

- إذن أنت شادي! حكى لي مصطفى عنك.. مكتبة وسط البلد، إلخ .

والفتى يهز رأسه في أدب.. كله تململ ورغبة في انتهاء المحادثة .

غريب أن يجتمع هذان الاسمان معًا.. شادي وفيروز.. المشهد الافتتاحي الذي بداؤه كان هذان بطلية .

أعتقد أنني فكرت في الاسمين بسبب أغنية فيروز: «أنا وشادي»، وهو نوع مألوف من تداعي المعاني، لكن لماذا يجتمعان في عالم الواقع؟

ثم رُحت أنظر إلي وجه فيروز في اهتمام.. ألم تكن هذه هي الملامح التي زارت خيالي وأنا أكتب المشهد؟ وماذا عن لون العينين، اللون المراوغ الذي يعجز الجميع عن وصفه، ألوان النهر المسحور؟ ألم أقل هذا أمس؟

عندما انصرفت الفتاة المزعجة كنت قد فتحت اللاب توب، ورُحت أتفقد ما كتبت ...

حاليًا لم يعد لديّ شك في أنني رأيت هذين من قبل، وسمعت اسميهما، لكنني لم أعرف ذلك. ترسبا في العقل الباطن ليخرجا عندما فكرت في شابيين متحابين لقصتي .

كانا الآن يجلسان في وضع ممتاز بالنسبة إليّ.. أراهما ولا يريانني .. هما ينظران إلى الجدار وكوبي العصير في الواقع، بينما أنا أملك نظرة شاملة .

همس الفتى في أذن الفتاة بكلمات فضحكت، وقالت بصوت استطعت أن أسمعه :

- اختشي !

اقتراحه وقح طبعًا، لكن لهجتها تشي بأنها لا تريد منه أن يختشي جدًّا! في النهاية مات أولئك الذين اختشوا. رأيتها تنهض وتُسوي ثيابها ثم تنطلق في اتجاه الحمام ...

رُحت أرقب الفتى حيث جلس. نظر حوله مرّتين، ثم إستدار نحوي بالضبط في اللحظة التي دفنت فيها وجهي في اللاب توب، ثم رأيتها من الظهر يتحسس منشفة صغيرة فيفتحها. رأيت طرف سكين عملاقة لربع ثانية، ثم إيه لف المنشفة من جديد، ورأيتها يدس المنشفة في جيب السويتير المعلق على ظهر المقعد خلفه ...

تعود فيروز وهي تجفف يديها، ثم تحمل حقيبتها وتدعوه للرحيل ...

يضع بعض أوراق العملة في الحافظة على المنضدة، ثم ينصرفان .

ما معنى هذا؟ !

أشعر بغباء شديد، وفي الآن ذاته أنا عاجز عن فعل شيء !
هذا موقف غير معتاد، ولا أجد في جعبة خبراتي ما يسمح لي بالعثور على رد !

ليس الجواب هو أن أصيح في الفتاة: «يا آنسة، أنتِ بطلة سيناريو أقوم بكتابته، وفيه يقوم هذا الفتى بذبحك، أرجو أن تأخذي حذركِ !».

لا أجد طريقة أفضل ولا أقصر من هذه لقضاء باقي الليلة في القميص غير ذي الكُمين .

ثم ما هي مبرراتك؟ تشابه الأسماء، وكون الفتى يحمل سكينًا؟ من حق كل إنسان أن يحمل سكينًا لو كنا نتحدث عن عالم ديمقراطي .

رُحْتُ أرقبهما يرحلان، شاعرًا بالعجز والفشل. الحقيقة أن الموقف أعطاني بصيصًا يمكن أن أفسر به الجزء الذي كتبتَه من قصتي ...

(3)

رافان

سامية كانت مرهقة جدًّا عندما زرناها في البيت .

هناك كانت جالسة في الفراش، وقد أسندوا ظهرها بالوسائد، ملكة متوجة على عرش الأمومة، علي وجهها ذلك الشحوب الراضي المميز لأنثى تحققت أنوثتها، وكانت تفوح من أنفاسها رائحة الحلبة، بينما أم رؤوم مسنة تُعنى بها كطفل .

الرضيع بجوارها على الفراش وهو يقرقر، بينما تضع فيروز ظرف «النقوط» على الوسادة بجواره، فتضحك سامية في امتنان شاكرة :

- أتعبت نفسي .

سألتها نازدار أختي وهي تشرب الشاي :

- هل قررت تسميته؟

قالت سامية وهي تمد إصبعها ليطبق عليها الرضيع بقبضته :

- ما زال الوقت مبكرًا. ربما أطلقنا عليه اسم «عباس» مثل والد محمود !

تبادلنا النظرات الساخرة، وقلصت نازدار أنفها مستنكرة؛ ربما هو اسم مناسب لرجل ضخّم بشارب، لكنه بالتأكيد لا يناسب هذا الرضيع الجميل، ليس ذنبه أن يصير اسمه «عباس»!

فيروز أختي ظلت صامتة .

أنا أعرف أسرار فيروز، هي تحب أن تخبرني بأسرارها وتضن بها على نازدار. نازدار صارمة قاسية نوعًا، ولا تفهم دلع البنات، دعك من اضطراب نفسيّتها. أعرف جيدًا أن فيروز بعد خروجها من هنا ستذهب للقاء شادي.. قصة الحب التي دامت عامين .

لم أحب قطُّ منظر شادي، لأنني لا أميل إلى رجل ملتج يعقص شعره خلف رأسه، وأفضّل المنظر الكلاسيكي للرجال، لكن هذا شأنها على كل حال. لم يطلب مني أحد أن أحبه، لكن الوقت قد حان كي يقابل أبانا؛ أبانا المسن الذي أثقلت مسؤوليات ثلاث فتيات ظهره .

هنا لا أخفيك سرًّا، فأنت صرت من الأسرة ...

نازدار غير مستقرة نفسيًّا، وقد أرغمناها على تلقي العلاج، لكن لا أحسبها تتحسن. هذه مشكلة أخرى تثقل كاهل أبي. قال لي في تلك الليلة وهو يدفن رأسه في كتاب :

- نازدار تعاني بلا شك مشكلة الحرمان من الأم.. لم ترَ أمها منذ كانت في السادسة.. لا شك أن لهذا آثاره .

قلت له في غيظ :

- ونحن؟! ألم نحرم من أمنا مثلها؟! !

- كنتما، أنتِ وفيروز، أصغر سنًّا. هناك سوابق كثيرة لأطفال حُرِّموا من أمهاتهم في سن مبكرة جدًا قبل أن يفهموا معنى الموت أو الطلاق. بالنسبة إلى الطفل سيتحول هذا إلى «عدم وجود» للأمر فحسب، ويتأقلم مع أي أنثى أخرى.. واضح أن نازدار لم تتأقلم !

أمي عراقية. لا شك أنك استنتجت هذا من أسمائنا غير المألوفة في مصر، لكننا مع الوقت صرنا موضوعة، وصارت سيدات كثيرات تستعملن الأسماء نفسها، وبالطبع كلما سألت سيدة منهن عن معنى الاسم قالت إنه «زهرة» بالفارسية أو «نهر في الجنة».

نهضت سامية متأهبة كي تذهب إلى الحمام، فتعاونت الأم مع فيروز على مساعدتها على النهوض. مترنحة وضعت قدميها اللتين ما زالتا متورمتين

على الأرض، وراحت تنقلهما في وهن مستندة على المرأتين. لحقت بها
لأساعدها، خرجت معها إلى الصالة وهي تن وتمشي ببطء، وفتحنا لها باب
الحمام لتفرغ مثانتها .

هنا تذكرتُ ...

هرعت إلى غرفة النوم في الوقت المناسب لأرى المشهد الذي كنت أتوقعه؛
لقد نسينا نازدار وحدها في الغرفة، وكانت تقف هناك منحنية على الفراش
ممسكة بوسادة ثقيلة، وبدا واضحًا أنها ستهوي بها على وجه الطفل الرضيع
ليختنق بعد ثانية واحدة.. مفاجأة غير سارة كانت ستقابل سامية عند العودة
إلى غرفة النوم !

انتزعت الوسادة من نازدار، فنظرت إليّ بعينين جميلتين متوحشتين. نازدار
رائعة الجمال كما تعرف. قالت لي وهي ترتجف وتترك الوسادة من دون
مقاومة تُذكر :

- دعيني.. رافان !!

أمسكت بمعصمها، وأرغمتها على الجلوس. جلست كأنها دمية بلا إرادة،
فقلت لها همسًا :

- لن تستطيعي أن تهربي من جريمتك !

قالت وهي ترتجف :

- لا أبالي! هذا أقوى مني! تعرفين !

أعرف.. أعرف أن هذا الهاجس صار يطاردها.. ربما هي لم تحققه، لكنني
أعرف يقينًا أنها ستفعل، ستنجح يومًا ما، ستخنق طفلًا رضيعًا، وربما امتصت
دمه! هذا الهاجس النفسي يؤرقها، ويجعل حياتنا جحيمًا، لأن عليّ أن أراقبها
طيلة الوقت، وعندما وضعت سامية قريبتنا طفلها كان عليّ ألا أحضر نازدار
بتأثًا، لكن اختفاءها كان سيثير الريبة !

سمعت صوت الأم العائدة إلى فراشها، فساد الصمت .

نظرت إلى نازدار، فوجدت وجهها استعاد قناعه المرح الذي اكتسى به من
قبل ...

*

لا بد أن هذا كان منذ شهرين قبل الولادة ...

في تلك الليلة نام أبي، وفي منتصف الليل سمعت نازدار تتنحج، تنهض من الفراش فتهاز فيروز لتوقظها، ثم تهزني لتوقظني، وكنت متيقظة فعلاً .

كان ضوء السهراية خافتاً، ينعكس في عينيها الجميلتين وهي تقول لنا كلاماً كثيراً غريباً ...

النداء الذي أشعر به.. النداء الذي ستشعران به بعد قليل.. البذرة التي بذرتها فينا أمانة ...

ثم همست بصوت كالضحك :

- نحن الشقيقات «إمبوسي».. «مورمولىسيا»! هل تفهمن هذا؟

تبادلت وفيروز نظرات الذعر؛ البائسة جئت تماماً !

قالت نازدار في ثبات :

- ألا تفهمان بعد؟ نحن جئنا من أرض بين النهرين، حيث سادت أساطير «عشتار» و«ليليث». أمانة لها اسم لا يثير الشكوك، لكنها في الحقيقة تُدعى «لاماتسو». لقد انتقل الإرث إلينا نحن الأخوات «إمبوسي»، نحن الذئبات المفترسة! في الماضي كنا نقتل الحوامل أو نخنق الأطفال الرضع ونمتص دمهم !

صرخت فيروز في توحش :

- هلاً كفت عن هذا؟! أنت مجنونة !!

وقلت أنا في ذهول :

- إن الطبيب النفسي الذي يُعالجك فاشل تماماً !!

- لأن ما أنا فيه ليس مرضاً، إنه ميراث الأجيال؛ لا بد أن جدتي كانت تعابث «جلجاميش» وتتحدى «عشتار» هناك في بابل. أبونا تزوج أمي، ثم أصابه الذعر عندما عرف طباعها فطلقها، وعاد بناته الثلاث إلى مصر.. لم يعرف الحقيقة !

صرخت فيروز من جديد :

- اخرسى يا سافلة! أنت تُثيرين رُعبى !!

ضحكت ضحكة خافتة مخيفة، ومن دون أن تقول كلمة أخرى التفت بملاءتها، وأدارت لنا ظهرها، وغرقت في النوم.. لكنها كانت قد ألقت بذرة الرُعب في

نفوسنا !

لسبب ما، شعرت وشعرت فيروز أنها ليست مجنونة تمامًا. نحن لا نعرف شيئًا عن أمنا، فماذا يعرف أبي؟ لماذا طلق أمي؟! ولماذا لم تحاول الاتصال بنا منذ الطلاق؟ !

لكننا عرفنا على الأقل أن نازدار خطيرة، ومن المخيف أن تتركها مع أي طفل رضيع؛ هناك لحظة دائمة تدرك فيها أنها توشك على خنقه أو قتله، وننقذ الموقف بصعوبة.. هي مجنونة ولسوف ترتكب جريمة كارثية !

الأسوأ أنني عرفت أنها بحثت عن وظيفة، وقد بارك أبي هذا طبعًا، خاصة أنني وفيروز ما زلنا ندرس .

كانت خريجة لكلية الآداب، ثم عرفنا أنها وجدت عملًا. أين؟ في إحدى دور رعاية الأطفال!! لا أعتقد أنها ستقابل الكثيرين من الرضع، لكن هب أن هذا حدث؟

ازداد الأمر سوءًا عندما سمعنا بعد شهر عن وفاة غامضة لطفلين في تلك الدار.. الصحف كتبت عن هذا، وتحدث أطباء كثيرون عن «SID»، وهو موت الرضيع المفاجئ الذي ينجم عن وضع الطفل الرضيع في وضع غير مريح حراريًا.. كابوس العالم الغربي.. لكننا لم نرتح كثيرًا لهذا التفسير .

هل هو تأثير بنات «لاماتسو»؟

في جميع الأحوال نحن في مأزق خطير! لا يمكن أن أخبر أبي بمخاوفنا، وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أتكلم عما قالته نازدار في تلك الليلة السوداء !

الحل الوحيد هو أن أنتظر .

(4)

جودت

هكذا بدأ الإلهام يُولد .

كنت أجلس هنالك في الكافتيريا أدخن في نهم، ولا تتوقف أناملّي عن قرع أزرار اللاب توب .

هناك طريقة سرد مشهورة، تبدأ بالذروة ثم نتراجع إلى الخلف في فلاش باك؛ لنفهم كيف حدث هذا.. يُطلقون على هذه الطريقة : «In medias res». كأن ترى مشهد قتل اللص في بداية الفيلم، ثم تبدأ التترات، ونعرف مع تطور الأحداث كيف قام بجريمته، حتى نصل إلى مشهد القتل الذي

بدأنا به. وهكذا قمت أنا بمعالجة مشهد مقتل فيروز الذي بدأت به القصة، فصارت للقصة خلفية وأبعاد .

الشقيقات «إمبوسبي» القادمات من العراق وعليهن الوفاء بعهد الدم. ويمكنني بالطبع أن أعرف أن نازدار مجنونة تمامًا.. لا أحد يُصدِّق القصص المماثلة عن «ليليث» و«جلجاميش».

لكن هذا الجنون سوف يدفعها دفعًا إلى أن تكون قاتلة !

ماذا سيحدث بعد هذا؟

رُحْتُ أتأمل سحب الدخان، ثم ألقيت نظرة إلى الفتاتين الجالستين عن قرب. كانتا جميلتين بشكل واضح، وقد تدفقت الهرمونات في دمي بشكل عابر لبضع دقائق. واحدة منهما قوية الشخصية حادة التقاطيع، أما الأخرى فدمية رخوة ساذجة .

كانتا تتلفتان حولهما، وفي العيون الجميلة قلق وتوتر.. تخشيان شيئًا أو تنتظران شيئًا .

هناك شاب مكتنز العضلات من مرتادي «الجيم» كما هو واضح، يتسلق الدرجات قادمًا من الطابق الأسفل، لاهثًا من فتحتي منخريه كثور، يتقدم إلى المائدة التي تجلسان عليها .

يجلس، ويشعل لفافة تبغ قبل أن يلتقط أنفاسه، ثم يقول :

- لا شيء.. لا أثر .

ضربت الفتاة الساذجة خدها بكفها وهتفت :

- لا بد من جواب !

نفث الفتى سحابة دخان كثيفة من منخريه، ثم قال :

- بالفعل لا أثر.. أعتقد أن إبلاغ الشرطة صار واجبًا.. والآن يجب أن تأكلا شيئًا.. منار .

قالت الفتاة الحادة :

- مستحيل! لا أستطيع ابتلاع لقمة واحدة، كأن فُرم معدتي مسدود بالخرسانة !

التفت نحو الفتاة الأخرى وكرر عرضه، فتقلص وجهها :

- لا.. شكرًا .

- رزان، يجب أن تأكلي شيئًا لتتمكني من الصمود !

- مستحيل !

«رزان» اسم جميل يناسب الفتاة فعلاً؛ الناس القلقون في كل مكان، لكن لديّ مشكلتي الخاصة، وعليّ أن أكتب الخطوط الأساسية لما سيحدث بعد هذا.. لا وقت لمراقبة الجميلات .

دفت وجهي في شاشة اللاب توب، وواصلت الكتابة ...

(5)

شادي

فيروز يجب أن تموت ...

نازدار يجب أن تموت ...

رافان يجب أن تموت ...

أعرف أنك تتهمني بالجنون، فهذه كلمات لا يمكن أن يتلفّظ بها شخص عاقل. أنت تعرف أنني أهيم حباً بفيروز، هي الأولى والأخيرة، ومنها يتدفق نهر الحياة ليغسل غابة أيامي المغبرة.. لا أستطيع أن أكتفي من فيروز، أو أقنع بما أنال منها.. لو أنني صنعت لها بيتاً في الضلوع حبستها فيه فلن أقنع بهذا، ولكننا في لحظة نحتاج إلى أن ندمي قلوبنا بأيدينا؛ هناك من يقطعون شرايين أيديهم ويراقبون الدم الأحمر المتدفق في بلاهة .

بدأت أوقن أن فيروز وأختيها شيطانات، ومعرفة هذا قد اقتضت الكثير مني .

جثث أطفال خمسة كان لا بد أن ترقد في قبورها قبل أن أفهم الأمر !

فيروز تتغير.. فيروز ترتجف.. فيروز قلقة.. فيروز تخفي سرّاً.. فيروز لا تنام ...

ذات ليلة جلسنا في مكان هادئ، فقررتُ أن تتخلص من العيب النفسي الذي أرهقها، وحكت لي ببساطة قصة أختها نازدار المريضة نفسياً.. بدا لي كأنها حكته مراراً من قبل.. تحكيها بحنكة غريبة .

كنت أرمق عينيها الجميلتين وهي تتكلم .

قالت لي بعدما جرعت كوباً من العصير من أجل ريقها الجاف :

- طبعًا لا أصدّق حرفًا من هذا الهراء! لكن الحقيقة المخيفة هي أن أختي تعاني مرضًا نفسيًا متقدمًا. لا أعرف ما يجب أن أفعله !

كنت أفكر في عمق: هل هذا المرض النفسي يُورث؟ يعني هل تحمل فيروز شعرة الجنون هذه؟

قلت لها :

- الوسواس القهري يفعل أكثر من هذا.. قرأت عن هذا كثيرًا.. هناك فتيات يبتن في الشارع لأنهن يخشين أن يذبحن أهلن وهم نائمون .

ابتلعت ريقها، وقالت همسًا :

- وفاة الرُّضع في دار رعاية الأطفال التي تعمل فيها.. هل هي صدفة؟

- طبعًا صدفة .

لم تبدُ مقتنعة، لكنها ابتلعت اعتراضاتها .

ليتني صدقتها! ليتني فعلت !

*

الطفل الأول بالنسبة إليّ كان ابن أختي شاهنדה.. اسمه «رامز».. ظل يحمل هذا الاسم يوميًا واحدًا في حياته، منذ ذهب أبوه إلى مكتب الصحة. ثم زارت فيروز أختي حاملة هدية.. لقد أصرّت على هذا.. المشهد المعتاد للأم المنهكة الفخورة التي ترتدي الروب وتتأوه وهي جالسة في الصالة مع ضيوفها .

قالت أختي وهي تفتح اللعبة القطيفة الصغيرة :

- كلك ذوق.. لقد أتعبت نفسكِ بحق .

لا بد أن هذه «ما شاء الله» مما يقدمونه للرُّضع، لكن أختي رفعت كفها فلمحت فيها قطعة ذهب غريبة أقرب إلى رمز مبهم متشابك .

كانت تعرف عن قصة حبنا، وتعرف أنني لم أحب واحدة قطُّ كما عشقت فيروز، لذا كانت تتكلم بشيء من الخبث المحبب. وحملت فيروز الطفل، وراحت تهزه، وقالت له كلمات عذبة في أذنه... ثم أعادته إلى أمه التي ثبتت الحلية الصغيرة في جلابه الصغير .

غادرنا البيت، وتبادلنا عبارات المزاح على الدرج، وكان مدخل البناية خاليًا فخطفت قبلة من خد فيروز، فقالت في دلال :

- كلب !

وافترقنا.. بالطبع ليدق جرس الهاتف في المساء.. عرفت من زوج أختي أن «رامز تعيش إنت».

كيف؟! فجأة كف عن النفس وازرق لونه، فحمله الأب للمستشفى ملهوفًا، لكنهم أخبروه هناك أنه يحمل جثة !!

ما التفسير؟

قال الأطباء إنه على الأرجح عيب خلقي أفصح عن نفسه في اليوم الرابع، أو ربما هو إنهاك حراري مما يصيب الرضع الذي يعرفه الغربيون باسم «SID».

كنت أرتجف من التأثير.. أرتجف من الرعب.. اتصلت بفيروز أخبرها وأنا أبكي بأن الدُّمية الجميلة التي كانت تلعب بها ظهرًا قد فرغت منها الحياة.. أشهد أنها بكت بحرقة وراحت تردد أنها نحس !

لا تقولي إنك نحس .. أنا أحبكِ جدًّا.. أنتِ الأروع على الإطلاق ...

فقط لو لم يكن شبح أختكِ المخبولة نازدار يحوم حولنا ...

بعد أسبوعين زارت فيروز الحضانة التي افتتحتها جارتها في البناية نفسها، ولعبت مع الأطفال كثيرًا.. بعد يوم تُوفي طفلان في الرابعة.. لا يعرف أحد سبب الوفاة، وقيل الاختناق، وقيل سوء التغذية.. هل سوء التغذية يفتك بالطفل فجأة؟ !

لا شك أن بيوتًا كثيرة خربت، وتحقيقات أُجريت، لكنني ظللت أتذكر كلامها عن نازدار أختها والأطفال الموتى.. الأخوات «إمبوسي» بنات «لاماتسو».. كلام فارغ طبعًا.. لكن هل يمكن أن يلعب الجنون دورًا؟ لا يوجد مصاصو دماء، لكن في كل الفترات التاريخية وُجد ناس يعتقدون أنهم مصاصو دماء وتصرفوا على هذا الأساس !

كانت الغيوم تحتشد في ذهني، وتوشك على رسم صورة جلية واضحة .

فيروز.. من أنتِ؟

(6)

جودت

بدأت نواة القصة تتشكّل.. تسارعت أناملتي على مفاتيح الكتابة .

العاشق الذي بدأ يرتاب في حبيبته.. لدرجة ذبحها؟ لا أعرف . لا بد أنه سيجد مبررًا قويًا يدفعه إلى ذلك.. لكن ما هو؟

توقفت للحظة لأشعل سيجارة وأرتب أفكاري، هنا حانت مني نظرة إلى الحسناوين الجالستين مع ذلك الشاب ضخم الجثة.. يبدو أنه أقنعهما بالتهايم قطعتين من البيتزا.. تآكلان من دون شهية على سبيل أداء الواجب فقط .

قال للفتاة الأولى :

- سوف تشعرين بتحسُّن في حالتك عندما تتغلبين على نقص سكر الدم يا رافان !

الاسم؟ «رافان». أنا الأحمق سمعته «رزان». ومن الأخرى إذن؟ الاسم كان «منار».

- كُلّي يا نازدار !

تقلصت أمعائي، وتمسكت بطرف المنضدة حتى لا أفقد الوعي. نازدار وليس منار! أنا إذن أجلس على بُعد مترين من بطلتي قصتي! هل يوجد تفسير؟ ببساطة لا يوجد تفسير .

كأنما لم يحدث شيء نهض الثلاثة وغادروا الكافتيريا، طبعًا بعدما ألقوا قنبلة من علامات الاستفهام. لسبب ما أقابل أبطال قصصي في هذا المكان بالتحديد !

منذ أعوام قرأت «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» تحفة الإيطالي «لويجي براندللو»، لكنها تختلف كثيرًا عن الوضع الحالي. أنا أعيش في شبكة معقدة من المصادفات، لا شك في هذا .

لكن، كم فتاة تعرفها اسمها «نازدار»؟ وكم «رافان»؟ هل هناك مصادفة كهذه؟

عدت أطالع النص، ثم قررت أن أترك هذه الأسئلة السخيفة، وأن أعود لاستكمال ما بداته. وجدت على مائدة مجاورة جريدة مطوية.. هذا مشهد غير معتاد لأن الناس لم تعد تقرأ الصحف كما تعلم.. صارت الصحف الورقية شيئًا نادرًا مسليًا، وقد خطر لي أن أقلب صفحات الجريدة بحثًا عن إلهام أو شيء ممتع .

نهضت وأخذتها ثم عدت إلى المائدة، وجاء النادل فطلبت كوبًا من النعناع بالليمون (الموخيتو)، ثم رُحت أقلب الصفحات في تَوْدَة. غريب هذا! صفحة الحوادث فيها ثلاثة أخبار عن رُضع أو أطفال ماتوا في ظروف غامضة. الأمر يحدث فعلاً! لو أن طبيبًا نفسيًا سمع بهذه القصة، لقال إنني عرفت القصة

كلها، وقابلت هذه الوجوه من قبل، ثم إنها خرجت من عقلي الباطن عندما أردت كتابة قصة، مع لمسة من ظاهرة «Jamais vu» التي توحى لك بأنك ترى للمرة الأولى أشياء رأيتها مرارًا من قبل . كثيرًا ما يكون الكاتب بريئًا من اتهامه بالسرقه الأدبية، وإنما هو يستخرج ذكريات نسي أنه يعرفها.. فهل أنا عايشة هذه الأحداث كاملة قبل أن أكتبها؟

القصة جيدة.. قصة الشقيقات «إمبوسي» القادمات من العراق، وعليهن الوفاء بعهد الدم، أو بمعنى أدق يتوهمن أنهن كذلك.. ثلاث فتيات جميلات.. ربما صرن اثنتين فقط .

عليّ أن أتجاهل هذه الظواهر الغريبة وأستكمل قصتي .

المشكلة الأولى هي أن أجد مبررًا لقتل فيروز .

ما يحدث هنا هو تكرار لمشهد شهير في قصة «برام ستوكر» المخيفة: «دراكيولا». أنت تعرف أن أبا الفتاة لوسي انتظر في المقابر ليلاً مع «فان هلسنج».. قرب الفجر استطاع أن يرى المشهد المخيف لفتاة تحمل طفلًا وقد تلوث فمها بالدم.. عندما دقق أكثر أدرك أنها لوسي ابنته. هكذا صدق . وعندما أغمضت عينيها كان على استعداد لأن يطيع «فان هلسنج» للنهية.. يغرس الوتد في قلبها ثم يقطع الرأس ويحشو الفم بالثوم .

لقد راقب الفتى شادي فيروز جيدًا .

لعله طلب منها أن تطلب رأي الطب النفسي، وربما وعدته لكنها لم تفعل. لا أحد يذهب إلى الطبيب النفسي ليقول له إنه يتمنى قتل طفل .

زار معها أحد مستشفيات الأطفال حيث كان يطمئن على ابن واحد من أقاربه، وقد لاحظ نظراتها الزائغة، ثم - دعنا نتخيل ذلك - منعها من خنق طفل في دورة المياه.. منعها في آخر لحظة !

هكذا أدرك أن فيروز التي يهيم بها حبًا لعنة على نفسها وعلى البشرية كلها !

على الأرجح رافان ونازدار مثلها، لكنه على الأقل قادر على الخلاص من فيروز كبداية !

وضع الخطة، واختار مكانًا آمنًا يمكن أن يرتكب فيه جريمته. أنا رأيت استعدادات الجريمة، والله وحده يعلم كيف حدث هذا .

هكذا يمكن القول إننا بررنا الجريمة.. ليس السبب قويًا إلى هذا الحد، ولا يتناسب مع بشاعة الجريمة، لكنني لا أجد حلًا أفضل .

السؤال الآن هو رد فعل الشقيقتين، ثم ماذا عن الشرطة؟ سوف تتكلم رافان وتحكي عن الفتى الذي يخرج مع فيروز ويهيم بها حبًا. ماذا عن رد فعل الأب؟ ماذا ستفعل نازدار عندما تعرف؟

هذه أسئلة سيكون عليّ أن أجيب عنها ...

*

في اليوم التالي جلست في كافيه «أرجوس» كعادتي. انتهيت من التهام غدائي والساعة الرابعة عصرًا. أشعلت لفافة تبغ، وبدأت أضغط على أزرار اللاب توب، وفجأة شعرت بوجود شخص ما.. شخصين ...

رفعت عينيّ فوجدت فتاتيّ أمس: رافان ونازدار. إنهما تدخلان الكافتيريا. تجلسان إلى ذات المنضدة. تنظران إليّ للحظة ثم تتجاهلانني. تجلسان وقد تقارب الرأسان وهما تتكلمان. من الغريب أن الصوت مسموع لي. دنا النادل فتوقفتا عن الكلام، وطلبت نازدار قدحين من الكابوتشينو، ثم عادت تتكلم مع أختها .

سمعت رافان تقول :

- كل علامات الاستفهام تحوم حول ذلك الفتى شادي، هو الذي يخرج معها وينفرد بها .

قالت نازدار في عصبية :

- حمقاء أنتِ! أشياء كهذه لا يمكن أن تداريها عني! كنتما تتآمران معًا وتعتقدان أنني مجنونة، أليس كذلك؟

لم ترد رافان. ساد الصمت... ثم قالت :

- المهم أن نعرف ماذا حدث. أقترح أن نبليغ الشرطة ونتهمه بشكل مباشر .

قالت نازدار وهي تشرب الكابوتشينو :

- كلام فارغ! أنتِ تعرفين أننا لا يمكن أن ندخل الشرطة في حياتنا. هذا غير وارد .

- والحل؟

- الحل الوحيد هو أن نعذبه ونستخرج منه الحقيقة، بعدها نمتص دمه ونُلقي به في نهر دجلة .

- النيل.. تقصدين نهر النيل .

كنت أسمع هذه الكلمات وأرتجف.. أنا قد جُنت حتمًا .. لا مجال للشك فيما يحدث. «آرثر كونان دويل» يسمع محادثة بين «شيرلوك هولمز» و«واطسون». طبعًا هذا مستحيل، ومعناه ببساطة أنني جُنت؛ أخلق عوالم خيالية ثم أجد نفسي وسطها .

هل صارت رافان من الأخوات «إمبوسي» بدورها؟ كانت مستنكرة مندهشة في قصتي. حسب قصتي قد تغيرت فيروز فعلاً .

جفلتُ عندما استدارت نازدار إلى الخلف ونظرت نحوي. أقسم إن عينيها كانتا تشعان نارًا !

ثم إنها مالت على رافان، وهمست بصوت مسموع :

- هذا الجالس خلفنا، الذي يجلس أمام لاب توب، أقسم إنه سمع محادثتنا !

ألقت رافان نظرة سريعة، ثم قالت :

- لن يفهم شيئًا. لا عليك !

قالت نازدار وهي تنظر نحوي :

- بل هو يفهم ويتابع المحادثة، عيناها تشيان بذلك. لاحظت أنه كان يتابعنا أمس باهتمام شديد. أعتقد أنه شاهد خطرًا! أنا لا أهتم سوى بالأطفال، لكن قائمة من أريد الخلاص منهم بين الكبار تتمدد .

كنت أرتجف خوفًا .

لا بد من تفسير واضح لهذا الذي يحدث .

أنا لا أريد كتابة هذه القصة، سأمزق الورق، وأمحو الملف من ذاكرة الكمبيوتر.. لكن هل يؤدي هذا إلى زوال هاتين الشيطانتين من عالمي؟

سأنقطع عن هذا الكافيه لفترة، ربما أنسى تفاصيل هذه القصة .

هكذا لم أتناول غدائي من المكرونة والدجاج كالعادة، وإنما عدت إلى شقتي الخالية. واسعة جدًا هذه الشقق، ولا تناسب الأشخاص الوحيديين. عبير ليست هنا، أم أنها ميادة هي التي ليست هنا؟ لا بد أن موعد اليوم كان مع ميادة لكنها اعتذرت. لا بأس.. لا أملك المزاج الرائق للنساء بصراحة .

بدلت ثيابي، وأعددت لنفسي بعض الشاي المثلج بطعم التوت، ثم جلست

في الصالة الواسعة وفتحت اللاب توب. لستُ معتادًا بصراحة على الكتابة هنا؛ البيت للغتيات والعبث فقط، أما الكتابة فمكانها الوحيد هو الكافيه، لكنني مضطر لذلك .

على قدر ما أفهمه فأنا قد أوجدت كابوسًا، كتبت قصة مسلية لكنها تتحقق بشكل مخيف! أمس كتبت خطابًا لجاري الطبيب النفسي مصطفى أحكي فيه كل شيء، على أنني أغلقته ووضعتة في مغلف أكبر، ثم كتبت وريقة صغيرة أطلب منه ألا يفتح الخطاب إلا لو حدث لي شيء.. شيء مثل ماذا؟ لا أدري .

لكن نظرة نازدار تلك جمدت الدم في عروقي. لقد تجاوز الأمر حدود المنطق ليتلمس جوانب الخوارق .

لقد حان الوقت لإنهاء هذه القصة بطريقة قاسية بعض الشيء.. سأكتب ...

(7)

شادي

نظرت إلى ساعتني، وقدرت أن الوقت قد حان .

كانت السكين في جيبني، وزجاجة المنوم .. وكان قلبي يتواثب كالطبل من التوتر، لكنني سأفعلها، أعرف أنني سأفعلها. كمال صديق عمري وقريبي معي، وهو يؤمن بما سأفعله ويثق فيّ .

كانت الساعة الثامنة مساء. لا بأس.. هذا موعد مناسب للناس كي يفتحوا الأبواب مطمئنين للطارقين. ألقيت نظرة على الدرج القديم المتسخ، لا يوجد شهود، ولا توجد كاميرات. أنت تعرف أن كل مكان في العالم يعج بالكاميرات اليوم .

دق الجرس، فسمعت من يتحرك بالداخل ...

- من؟

صوت رجل ...

- أنا زميل فيروز !

الكلمة السحرية.. الأسرة التي تفتش عن ابنتها.. سيفتحون الباب بالتأكيد .

سمعت صوت المزلاج يفتح، ثم ظهر رجل مُسن يلبس منامة، وقد تدلّت عويناته على أنفه، وهو حافي القدمين، عيناه تتساءلان عن اسمينا وغرضنا

من المجيء ...

- ما الذي ... ؟

هنا كنت قد أزحت الباب بقوة، واندفعت إلى الداخل، وقبل أن يفهم كنت قد وضعت قطعة القماش المبللة على أنفه وكتمت أنفاسي.. نم أيها الرجل الطيب.. نم.. لا أحد يريد منك شيئاً .

تكوّم على الأرض ...

هنا اندفع كمال إلى داخل الشقة، وظهرت تلك الفتاة قادمة من الداخل، لعلها رافان أو نازدار، لا أدري، قادمة من الداخل... ارتجفت وأنا أرى تلك النظرة المخيفة في عينيها، هذه ليست نظرة كائن بشري بل شيطان ...

قبل أن تفعل شيئاً هوى كمال على جذور عنقها بسيف يد فتكوّمت أرضاً ...

ثم سمعنا صوت الفحيح، لقد كانت الأخت الثالثة قادمة. لا بد أن هذه نازدار نفسها، فهي أكثرهن قسوة وتوحشاً . كانت تنقض عليّ واللعب يسيل من فمها ...

الأخوات «إمبوسي».. الآن فقط أعرف أن الأسطورة حقيقية.. لقد فعلنا الشيء الصحيح .

كانت قادمة كالعقاب نحو كمال وظهرها لي، فجريت نحوها، ووضعت نفس الخرقة المبللة على أنفها وأنا أكتم تنفسي.. لا بد أن رائحة «الكلوروفورم» خانقة يمكن شمها من الشارع ...

قاومت قليلاً. توقعت مقاومة شنيعة من أكبر الأخوات «إمبوسي»، لكنها انهارت بسرعة، وتهاوت كال كيس الفارغ على الأرض ...

ثلاثة أجساد ممددة على الأرض. خرجت إلى خارج الشقة، وأخذت شهيقاً عميقاً لأن رأسي بدأ يدور، وكذا فعل كمال، ثم أشرت له كي نكمل ما بدأناه ...

سنجز عنقَي الفتاتين ونرحل. بالتأكيد سيموت الأب بنوبة قلبية عندما يفيق ويدرك ما حدث لبناته الثلاث، لكننا لن نحمل دمه على أكفنا. ستكون جريمة بشعة تتسابق الصحف على نشر تفاصيلها، لكنهم لن يعرفوا أنني قمت بأسمى عمل ممكن للبشرية !

قلت لكمال همساً وأنا ألوح بالسكين :

- هيا ننتهي.. لا تلوّث يدك بالـ ...

(8)

جودت

كنت أكتب بسرعة جنونية .

وحدي في الشقة أمام شاشة اللاب توب، وبقايا الكابوتشينو يتصاعد منها الدخان .

سيتم ذبح الأختين الآن ويفر شادي مع صاحبه، وقد قضا على هذا الكابوس. لو كانت تصوراتي صحيحة، وكنت أنا من يخلق هذه الكوابيس، فلسوف تموت الفتاتان فعلاً في عالم الواقع. هناك من سيجد جثتيهما المذبوحتين غداً، وبعد أيام سيجدون فيروز .

لا أجد حلاً آخر، فقد برهنت هذه القصة على أن خيالي حي أكثر من اللازم.. هناك شيء ما يتعلق بهذه اللعنة جعلها تتحقق على يدي.. لا أريد أن تطاردني شخصيات قصصي المخيفة .

أشعلت لفافة تبغ، وطقطقت أصابعي، ثم بدأت أصف مشهد شادي وهو يلف شعر نازدار المخدرة على كفه، ويرفع السكين باليد الأخرى متأهباً للـ ...

هناك شيء يتحرك في داخل الشقة ...

من أين تأتي تيارات الهواء هذه؟

بسرعة، لننـ مشهد القتل، لا أعرف السبب، لكنني أشعر بأنني لست وحدي !

صوت همسات في الغرفة الداخلية، لو أردنا الدقة لقلنا إنه صوت امرأتين تتكلمان .

إن أعصابي مرهقة، لا شك في هذا .

هل أسمع صوت خطوات من خلفي؟ بالتأكيد هي العصبية المعتادة .

إن مشهد القتل سوف يستغرق عدة أسطر، بعدها أتحرر من الخوف .

فقط عليّ أن ...

عليّ أن ...

(9)

الدكتور مصطفى

جودت قد مات .

مؤلف السينما، متوسط النجاح، الذي يعيش وحيداً... وجدوه ميتاً في شقته، جثة ممزقة بشناعة. كان يكتب سيناريو فيلم جديد ولم يكمله. لن أندesh على كل حال، فهؤلاء القوم يعيشون حياة ماجنة صاخبة، ولا بد أن تكون نهايتهم دامية .

من قتله؟ لا أحد يعرف .

لن وجدوه أبداً.. كل هذه القصص تنتهي بشكل مماثل .

اسمي الدكتور مصطفى الخراط، أستاذ الطب النفسي بكلية طب «...»، وعيادتي قريبة جداً من شقة هذا الجودت. على أنني فتحت الخطاب الذي تركه لي لسبب مجهول، فوجدته يتكلم عن موضوعات عجيبة. لقد كان مجنوناً بشكل تام؛ تصور - الأحمق - أن خيالاته تخرج إلى عالم الواقع، وأن شخصيات قصته المرعبة تحيط به. لم يذكر أسماء في الخطاب، لكنه تكلم عن ثلاثة شياطين جاءت من بلاد ما بين النهرين، إلخ .

إن هؤلاء المبدعين يعانون حالة متفاقمة من تداخل الواقع والخيال .

ذكرتني حالته بفتاة تتردد على عيادتي منذ فترة، وتقول إنها شيطانة مهمتها قتل الأطفال الرضع، اسمها غريب حقاً: نازدار. أظن أنك لم تسمع هذا الاسم قط في حياتك. هي من أجمل من رأيت في حياتي بالمناسبة .

أمس جاءتني هذه الفتاة، وقالت إنها لا تتحسن.. أحياناً تشعر بأنها فكرة في خيال مؤلف مخبول !

ضحكت كثيراً لهذه الفكرة، فسألتني في براءة :

- هل يمكن للشخصية القصصية أن تظل موجودة بعد رحيل مؤلفها؟ بل هل يمكن أن تقضي عليه لتعيش هي؟

بدا لي هذا كله سخيفاً، وصارحتها برأيي .

جميلة، لكنها مخبولة تماماً، ولا أعتقد أن لديّ من الوسائل ما يشفيها .

قلت لها :

- الحياة خاضعة لقوانين فيزيائية صارمة. هذه الأفكار البلهاء لا تتفق مع الواقع. دعك من أن حكاية الشياطين التي تلتهم الأطفال الرضع هي نفسها حكاية

للأطفال. ألا تريد هذا معي؟

رفقاء الليل

اسمه إسماعيل .

لو كانت هذه القصة بضمير المتكلم الأول، لبدا هذا كأنه أول سطر في رواية «ملفيل» «موبي ديك»: «سمّني إسماعيل»، لكنك بالطبع تعرف أن عم إسماعيل لا يملك القدرة على كتابة قصة، وهو يقرأ بصعوبة بالغة .

يمكنك بسهولة أن ترسم صورة ذهنية لعم إسماعيل.. فهو نحيل، أشيب الشعر، له عين واحدة مغطاة بسحابة رمادية أتلقت القرنية، له شارب كث يليق بطبقته التي تعتبر الشارب من علامات الفحولة، له طابع ريفي واضح، وبوسعك في أي لحظة أن تجرده في ذهنك من بذلته الميري لتصوره بالجلباب والبلغة في قريته، جالسًا على المصطبة يشرب الشاي الثقيل. الحقيقة أن هذه حقيقته طيلة اليوم باستثناء ساعات العمل في الحديقة. هل تحتاج إلى لمسة أخرى؟ بالطبع.. لن تكتمل الصورة بصريًا من دون لفافة تبغ خلف الأذن .

عم إسماعيل يقترب من سن التقاعد، وهو يتوق لذلك اليوم بعد عمر طويل حافل عانى فيه الكثير. لديه ابنتان، تزوجت واحدة منهما، وعامة هو لا يحكي الكثير عن بيته، لا يحكي عن همومه ومشاكله .

يمكنك فقط أن تراه من حين لآخر جالسًا بجوار قفص الضباع، يقرب فمه من السلك ويحكي، يحكي عن كل شيء، لكنك لا تتبين ما يقوله. يُذكرك هذا المشهد بـ«حودي تشيكوف» الذي لم يجد من يحكي له عن تعاسته سوى الحصان .

الحياة تمضي رتيبة بلا أحداث .

مملة هي حياة حارس قفص الضباع في حديقة الحيوان، هو كذلك يشرف على الطواويس وثعالب الفنك. ومع الوقت يكتشف الحارس أن هذه الحيوانات أقرب إليه من زوجته وأهله جميعًا. يمكنه أن يرى نظرة معينة في عين الضبع الكبير فيعرف ما يمر به من مشاكل نفسية .

لكن المشكلة هي أن دخله ليس مجزيًا. أفضل شيء يمكن عمله هو أن يضع قطعة لحم على عصا ويناولها للطفل الذي يمررها في حذر لأحد الضباع عبر السلك، ثم يناوله أبو الصبي ورقة من العملة؛ عاصرها إسماعيل منذ كانت نصف جنيه حتى صارت خمسة جنيهات، لكنها لن تتجاوز ذلك أبدًا. من الطريف أن تلاحظ التفاوت الطبقي بين حراس الحديقة: حارس الفيل أو الأسد بادي النعمة أنيق الثياب، فهو ينال مبالغ كبيرة من المتفرجين، وكل طفل في العالم لا بد أن يناول الفيل موزة أو قطعة من البطاطا، ثم يؤدي له الفيل «سلام حمادة». أما حراس الحيوانات الحغيرة أو غير الشعبية على غرار الضباع أو

القنافذ وأبي شوك فهم سيئو التغذية رثو الثياب .

لسوء الحظ لم يكن عم إسماعيل مسؤولاً عن حيوانات ناجحة .

الحياة تمضي رتيبة بلا أحداث، إلى أن يأتي اليوم الذي تم تمزيق رشدي فيه

...

*

رشدي مسؤول عن أقفاص القردة، وهو شاب قوي البنيان من سوهاج، جاء إلى الحديقة منذ شهر .

لم يكن متزوجاً، وهو يقيم مع قريب له في الجيزة. عامة هو شاب ظريف، مقبل على الحياة، ويروق للفتيات كثيراً.. غراميات فظة لكنه مستمتع بها .

بدأ يكسب جيداً؛ فالقردة من الحيوانات ذات الشعبية التي يدفع لها الناس الكثير، وعندما يجد أنك متحمس فعلاً فهو يقتادك إلى المدخل الخلفي للقفس - الجزء الذي أطلق عليه كواليس القفص - حيث يمكنك أن ترى الشمبانزي العملاق الذي يحمل ملامح بشرية إلى درجة مرعبة، عندها تخرج الورقة ذات الجنيحات العشرة .

كان رشدي قد بدأ يعتاد المكان. ثم يأتي هنا موضوع السهر الليلي. الحقيقة أن إدارة الحديقة قررت أن توزع نوبتجيات ليلية على الحراس بدلاً من استخدام خفراء. وبالطبع كانت هناك زيادة لا بأس بها في الراتب. إلا إن أحداً لم يكن راغباً في قضاء الليلة وحيداً في هذه الحديقة المتسعة المظلمة لا يؤنسك سوى زئير الأسود. مهما كانت المكافأة فهي لا تكفي لتعويضك عن حرمانك من البيت والأسرة ودفء الفراش. والنتيجة هي أن كثيرين اعتذروا أو لفقوا تقارير مرضية تعفيهم من السهر، لكن الوحيد الذي تحمس وعرض أن يأخذ أربع نوبتجيات كل أسبوع هو عم إسماعيل. كثير من الرجال يفضلون الانهماك في العمل لأنه يعفيهم من كآبة وهموم البيت. هذه متلازمة شهيرة. في النهاية لن يوبخه أحد لأن عذره جاهز دائماً: الرزق يحتاج إلى ما هو أكثر. هموم البيت ورعاية الأولاد ومدارسهم وأخلاقهم مسؤولية الأم.. لا تطلب شيئاً من الأب فليُعنه الله .

هكذا اعتاد عم إسماعيل أن يمضي ليلته. بالطبع كان يفتح غرفة الحراس التي فُرشت فيها بطانية على الأرض مع وسادة ومعدات الشاي، هناك شيشة أيضاً يبقّيها مفككة في كيس ليجمعها ويشعلها عندما يحل الظلام. افتح المذياع على صوت أم كلثوم ولسوف تكتشف أن الحياة رائعة .

جاء رشدي ليعرض على إسماعيل أن يتولى نوبتجيتين أسبوعيتين: واحدة يمضيها معه، والأخرى يمضيها مع حارس آخر هو بسيوني. وافق إسماعيل،

فلا شك أن وجود رفيق الليل الطويل أمر محبب .

سارت الحياة على الوتيرة المعتادة لمدة أسبوعين، ثم استيقظت الحديقة على جثة ممزقة دامية غمر نصفها في بركة البط؛ جثة رشدي طبعًا. وقد جاء رجال الشرطة وأجروا تحقيقًا . كان على رشدي أن يسهر تلك الليلة مع بليونني، لكن هذا الأخير تغيب عن العمل، ولديه حجة غياب ممتازة؛ لقد كان في المستشفى ومعه تقرير بذلك .

المشكلة التي حيّرت رجال الشرطة هي أن جثة رشدي ممزقة بشكل حيواني، لا يوجد قاتل يقتل بهذه الطريقة حتى لو أراد ذلك: جروح قطعية بأداة حادة أقرب إلى الأنياب والمخالب، وبعض العظام مجردة من اللحم، وهناك أعضاء اختفت تمامًا !

كل الأقفاص مغلقة.. لم يفر دب أو أسد أو ضبع من قفصه .. لا شيء يبهر منظر هذه الجثة.. إنها لغز حقيقي !

النظرية التي خطرت لرجال الشرطة هي أن أسدًا فر من قفصه بسبب الإهمال، ومزّق الحارس، ثم قامت إدارة الحديقة بإعادته إلى قفصه بسرعة خشية المحاسبة.. لكنها نظرية غير قابلة للبرهنة عليها .

عندما استجوبوا عم إسماعيل قال :

- أشياء غريبة تحدث في الليل يا بك !

- أشياء مثل ماذا؟

حك عم إسماعيل رأسه، وأصلح من وضع الطاقيّة، وقال :

- مساحة أشجار بهذا الاتساع.. الليل والظلام والوحدة وسط كل هذه الفدادين.. عواء الذئاب.. زئير الأسود.. لو لم تجد العفاريت هذا المكان موضعًا فأين تقيم يا بك؟

- هل تريد القول إن العفاريت هي التي قتلت رشدي؟

- لا أعرف شيئًا يا بك.. فقط أعرف أنني لم أقتل رشدي.. لا أنا ولا بليونني .

لكن عم إسماعيل كان يعرف ما هو أخطر بكثير. الأيام التالية برهنت على أنه يعرف الكثير فعلاً .

*

جاء نجاتي بعد رشدي ...

نجاتي من قرية بجوار كفر الشيخ، وهو شاب في الثلاثين، لكن الصلع المبكر وتجاعيد الهموم على الوجه... كل هذا جعله يبدو متقدمًا في السن حتى إنه يقارب عم إسماعيل. نجاتي متزوج، وهذه هي النقطة التي جعلته موضعًا للسخرية؛ فهو النموذج الحي للكيفية التي يُبدد بها الزواج المبكر رونق الشباب .

- هي ابنة عمي. عندنا في بلدنا ليست لديك فرصة التفكير، متى بلغت سن الثانية والعشرين تجد نفسك متزوجًا من ابنة عمك ولديك طفلان .

يسأله عم إسماعيل مازحًا :

- ولو كانت ابنة عمك قبيحة مثل عديلة؟

عديلة هي أنثى الشمبانزي طبعًا، وهي ضمن مسؤولية نجاتي، فيقول نجاتي في حرارة :

- قبيحة أو جميلة.. تحبها أو تكرهها.. هذه أمور غير ذات أهمية.. هي ابنة عمك وكفى !

ثم يُلقي بلقيمات خبز لعديلة التي تتمسك بالقضبان ويتمسك طفلها بثديها، ويقول :

- ثم إن عديلة ليست قبيحة.. لعلها بالنسبة إلى القردة جميلة الجميلات !

بصفته الأحدث في الحديقة، وبصفة عم إسماعيل هو الأقدم تقريبًا، فقد كانت هناك جلسة طويلة مع الأخير علّمه فيها الكثير عن مهام عمله. بالطبع كان نجاتي سيرث رعاية القردة بعد رشدي، وقد كلمه إسماعيل كثيرًا عن رشدي وعن عمله ونهايته الغامضة .

ثم إنه سأله :

- هل تنوي أن تأخذ نوبتجيات سهر؟

قال نجاتي في حماسة :

- بالطبع.. أنا في حاجة إلى كل مليم من الدخل .

نفث إسماعيل سحابة كثيفة من الدخان، وقال :

- نصيحة.. خذ كل نوبتجياتك معي .

- والسبب؟

قال عم إسماعيل وهو يرشف الشاي الثقيل :

- هذه الحديقة موحشة، كبيرة جدًا! وصدقني إن هناك أشياء غريبة تحدث من وقت لآخر. ما كانت العفاريت والشياطين لتجد مكانًا أفضل ليلاً !

ضحك نجاتي في عصبية: هذه القصص ...

- أنا كنت في الجيش أمضي الليل في الجبل وحدي. صدقني لا يقدر شيء على جعلني أصاب بالفزع !

- وأنا لم أحاول جعلك تشعر بالذعر.. فقط أنا أحذرك !

ثم أزاح الطاقيّة ليحك شعره :

- رشدي يرحمه الله سخر من كلامي في البداية !

- رشدي قتله حيوان مفترس أو قاتل مجنون.. لم تقتله العفاريت !

- هكذا يُقال !

على كل حال كان نجاتي يدرك أنه لن يشعر براحة لو قضى الليل وحده في هذه الحديقة، ومهما بلغ من شجاعة. لا شك أن قضاء الليل مع إسماعيل يمكن أن يكون أمناً ومسلية .

هكذا بدأت ليالي السهر. مغامرة تتكرر مرتين كل أسبوع، ولا شك أن لها طابعاً فريداً يكسر الملل. هناك رهبة بالتأكيد، لكنها رهبة محببة. الغرفة الدافئة وأكواب الشاي وصوت الست أم كلثوم. من حين لآخر يأخذ جولة في الحديقة مع عم إسماعيل، وتكون هناك بعض أعمدة النور مضاءة بينما يعتمدان على الكشف في أماكن أخرى .

الأقفاص المظلمة، لا ترى ما فيها إلا العيون اللامعة لوحش يراقبهما، دعك من أن معظم الحيوانات تبيت ليلتها في الأقفاص الخلفية غير معروضة على الجماهير .

بعد صلاة الفجر غالباً ما يغلبهما النوم بعض الوقت، لكن عم إسماعيل يفيق مبكراً ويُعد كوب الشاي ولقمة للإفطار. بالطبع يكون اليوم التالي إجازة بعد نوبتية السهرة .

الحياة ليست سيئة .

*

لم يلحظ نجاتي شيئًا مريبًا أو غريبًا إلا بعد أسبوعين من السهر الليلي .

كان يمشي بين الأقفاص، ثم عاد إلى حيث يجتمع مع إسماعيل. هنا سمع صوت حوار. هناك من يتكلم مع عم إسماعيل. دنا أكثر، واستطاع أن يرى في الظلام أن إسماعيل يجلس مع رجل آخر، وكلاهما يدخل لفافة تبغ. كانا جالسين على العشب !

قال إسماعيل في مرح :

- تعال يا نجاتي.. تعال أعرفك على جابر .

جابر في الظلام أسمر اللون، له عيناان لامعتان وشعر منكوش ثائر. من أين أتى؟

قال إسماعيل وقد سمع هذه الأسئلة في ذهنه :

- جابر صديق عزيز.. لا تبال من أين أتى ولا كيف دخل، فقط اجلس معه واستمتع بصحبته .

نجاتي بدأ يتوتر.. ما معنى أن يدخل الحديقة ليلاً شخص غريب؟ ما دور الحارس الليلي إذن؟

ثم خطرت بذهنه أفكار أسوأ: كان يسمع عن حراس يخفون الهاربين من الشرطة في الحديقة ليلاً، وسمع عن حراس يسمحون للعشاق باللقاء المحرم في الحديقة، مقابل مال طبعًا. إسماعيل ليس أمينًا على الحديقة إذن .

من جديد قال عم إسماعيل :

- حاول أن تتناسى كل ما في ذهنك من هواجس.. تعال واجلس معنا .

لم يدر ما يقول. في الظلام زحف على العشب ونزع صندله ثم جلس القرفصاء. وجد لفافة تبغ مشتعلة في يده فسحب منها نفسًا عميقًا .

قال جابر بصوت خفيض :

- البرد في الليل يمنعك من النوم.. ترتجف.. والرجفة تطرد النوم طردًا.. ثم إن رائحة الأقفاص تجعلك عاجزًا عن الاسترخاء .

ثم ضحك ضحكة غريبة، قهقهة مدوية لا مبرر لها، بدت مألوفة لدى نجاتي لسبب ما لم يستطع أن يتبينه.. كان يحكي قصصًا غير مألوفة .

ثم سمع نجاتي صوت خطوات قادمة فأجفل. استدار إلى الخلف فرأى ما كان يخشاه؛ هناك فتاة وشاب قادمان وقد تعانقت يداهما. هذه أسوأ مخاوفه تتحقق. إسماعيل ليس حارس حديقة فقط !

قال إسماعيل بلهجة هادئة :

- درية.. وسامح.. سوف تحب صحبتكما .

كانت الفتاة - برغم الظلام - بارعة الجمال، رشيقة بدرجة غير معقولة. أما الفتى فكان مرن الجسد، فارغ الطول. والغريب الذي لاحظته نجاتي هو أنهما يليسان أسملاً على جسدين عاريين كما هو واضح.. هذه ثياب قديمة مهترئة جداً !

من جديد دارت محادثة لم يستطع نجاتي أن يفهم معظمها، فقط لاحظ أن سامح يسعل من وقت لآخر سعلة طويلة قوية تجعل لسانه يتدلى. عندما قدم لهما عم إسماعيل شطيرتين من الشطائر التي يجلبها للعشاء، لاحظ نجاتي أنهما يأكلان بفضاظة وبلا تكلف !

لماذا لا يشعل إسماعيل النار؟

أخرج عود ثقاب، ووضع بعض قطع الخشب الجاف فوق بعضها، وأشعل العود عازماً على أن يشعل بعض النار لتشيع الدفء. هنا سمع صرخة محذرة، وهتف إسماعيل :

- لا تفعل! إنهم يريدون الظلام !

ارتجف نجاتي. الصرخة كانت رفيعة جداً وغير بشرية على الإطلاق! لو أردنا الدقة لقلنا إنها صرخة حيوانية !

تلکم أغرب مجموعة من البشر يمكن للمرء أن يمضي أمسيته معها. كان نجاتي يفكر في قلق. في البدء هذا الأخ جابر غريب الأطوار، ثم يأتي الفتى والفتاة الرشيقتان اللذان يكرهان النار، بعد قليل ظهر ضيف آخر؛ رجل طويل القامة له جلد مجدور غريب، شدقان طويلان، يمكنك برغم الظلام الدامس أن ترى هذا كله وتشعر بالغصة في حلقك !

رباه! لماذا لا تشعر بالراحة؟

الإجابة سهلة.. لأن وجود بشر في حديقة الحيوان ليلاً أمر غير معتاد، والأدهى أنه لا تفسير لوجودهم، لكن إسماعيل يتعامل كأنه قديم العهد بهم !

لكن تظل هناك إجابة أخرى.. هناك شيء غير مطمئن في هؤلاء القوم، حتى

لو قابلتهم جالسين على المقهى في شبرا في وضح النهار !
للمرة الأولى يشعر نجاتي بأنه يفضل لو كان في داره مع زوجته التي تشبه
الشمبانزي عذيلة .

تقول درية في تقزز :

- الطعام يزداد قذارة وسوءًا. نحن نعيش في زمن أسود فعلاً. في الماضي كان
الطعام رائعاً، وكنت تشم رائحة اللحم من على بُعد مائتي متر .

يقول عم إسماعيل في الظلام :

- السبب هو الغلاء. الغلاء يحاصر كل شيء، لهذا لم نعد نشترى نوعية الطعام
نفسه .

يقول الرجل طويل القامة الذي جاء مؤخراً :

- الأسمك كذلك لم تعد طازجة كما كانت، من الجلي أنها تالفة. لم أستطع
قط أن أحب مذاق هذه الوجبات .

برغم الظلام يدرك نجاتي أن إسماعيل يختلس نظرة إليه من حين لآخر ليرى
رد فعله. الواقع أنه بلا رد فعل، هو فقط يتعامل مع كل شيء بمزيج من
الصمت والبلاهة .

ازداد الأمر سوءاً عندما ظهر خمسة أشخاص قادمين في الظلام الكثيف.
يمكنك أن تتبين أن بينهم امرأتين. هناك شيء غريب في هذه المجموعة؛ هو
أنهم ضخام الجثة فعلاً، ولهم صوت غليظ مميز.. كلهم كذلك. يمكنك سماع
العشب الجاف يتهشم تحت أرجلهم .

النقطة التي تتكرر دائماً هي أن كل هؤلاء يلبسون الأسمال !

وجد نجاتي أنه يجلس وسط عدد كبير من هؤلاء القوم، وقد قدّر منذ اللحظة
الأولى أنهم ليسوا بشراً.. هؤلاء من الجان بلا شك .

إسماعيل ذو الخبرة العتيدة قال له من قبل :

«هذه الحديقة موحشة، كبيرة جداً! وصدقني إن هناك أشياء غريبة تحدث من
وقت لآخر. ما كانت العفاريت والشياطين لتجد مكاناً أفضل ليلاً!». .

وقال :

«رشدي يرحمه الله سخر من كلامي في البداية!». .

لكنني لن أسخر يا عم إسماعيل.. ما نحن فيه هو موقف «عفاريتي» بامتياز..
شيء غامض يدور هنا !

قال لإسماعيل وهو ينهض :

- هلّا تكلمنا بعيدًا؟

يا لرائحة العشب الليلي! رائحة الحديقة في الليل، ومعها رائحة أخرى لا
يعرف كيف يصفها !

قال إسماعيل ضاحكًا :

- هم يسمعون كل شيء.. آذانهم مرهفة جدًا.. قل ما تريد .

- لا أستطيع.. يجب أن أبتعد .

صدع إسماعيل للطلب وهو غير مقتنع. هناك متحف الحديقة المظلم الخالي،
يمكنك أن تدخله لو أردت. هناك في الرواق وقفا وسط حشد من الصور
الفوتوغرافية لفلان باشا وفلان باشا المطربشين مؤسسي الحديقة. عند
نهاية الممر مومياء منتصبة لأسد يزأر، لا بد أنها هنا منذ كان الملك فؤاد هو
ملك مصر والسودان، وقد جرى اصطيادها جنوبي السودان .

أضاء نجاتي المصباح الكهربائي فتوهج الرواق بضوء خافت كئيب من مصباح
واحد، لكنه يبدد الظلام الذي خنقه .

سأل إسماعيل همسًا بصوت كالفحيح :

- من هؤلاء؟

حك عم إسماعيل رأسه مفكرًا، ثم قال :

- لا تبحث عن إجابة.. هم هنا فحسب.. تقبل وجودهم .

- وأنت تعرف بوجودهم هذا؟

- أعرف هذا منذ أعوام، لكنني لا أضيقهم، وهم لا يضيقونني. كلانا يفهم
الآخر. نمضي ساعات طيبة في الليل ثم نفترق قرب الفجر .

- وهذا الحفل يتكرر كل ليلة؟

- بالطبع لا. أنت سهرت مرارًا ولم ترَ شيئًا كهذا، وكذلك بسيوني لم يرَ شيئًا
قط. من الواضح أنهم مرتاحون لك .

مرتاحون لي؟ لم نتبادل جملة حوار واحدة، لكنهم يشعرون براحة معي! لم يرد أن يثب السؤال التالي إلى فمه، لكن السؤال انزلق بالرغم منه :

- ورشدي، هل كان يعرف؟ ربما لم يصدق كما قلت أنت، لكن هل كان يعرف؟

في غموض قال عم إسماعيل :

- هناك أشياء لا تسأل عنها، فقط اجلس معهم وأصغ إلى كلامهم، وعند الفجر ينتهي كل شيء. دعك من أن هذا لا يتكرر كل ليلة .

هنا دوى صوت مرعب كأنه زئير أسد. ارتجت الحديقة للصوت، وكان نجاتي يعرف أن الأسود تزار ثلاث مرّات قرب الفجر. ذلك الصوت المميز الشبيه بهدير محرك.. هذا هو الصوت نفسه تقريبًا .

قال إسماعيل في شيء من الارتباك :

- عائلة الزناتي قد جاءت.. أنصحك أن تؤجل هذا الحديث لما بعد .

وقبل أن يفسر شيئًا كان قد أطفأ مفتاح الكهرباء وغادر قاعة المتحف متجهًا إلى فرجة الأشجار التي شهدت الاجتماع .

خرج نجاتي لاحقًا به وقلبه يتواثب .

هناك في موقع الاجتماع وقف خمسة أشخاص، منهم من له شعر كثيف منكوش ثائر، هناك اثنان قصيرا شعر الرأس، بعبارة أدق هناك أنثيان. بدا غريبًا بعض الشيء أن يكون شعر الرجال ثائرًا طويلًا وشعر النساء عكس ذلك. المخيف أن صوته غريب يُذكرك فعلاً بالزئير .

كان إسماعيل يرحب بالقادمين في توتر :

- مرحبًا بأجدع ناس.. كنا ننتظركم في شغف .

قال أحد الذكور من طويلي الشعر :

- صار لك تابع جديد بعد من مات .

قال إسماعيل بصوت مبحوح :

- ليس تابعًا.. هو زميل شاب.. اسمه نجاتي.. وهو شاب شهيم من كفر الشيخ.. له زوجة وطفلان بالمناسبة .

لماذا يذكر أنه متزوج؟! بدا شيء من التوسل في لهجته، يُذكرك بمن يُحكم

عليه بالإعدام وهو يتوسل كي يرحموه لأن لديه أسرة .

- مرحبًا نجاتي !

هز نجاتي رأسه محييًا وازداد توترًا .

كان قد كوّن نظريته المتكاملة عن الموضوع: هذه الحديقة - بسم الله الرحمن الرحيم - كما قال إسماعيل، مكان مسحور أو ملعون. واضح تمامًا أن هؤلاء حيوانات! نعم حيوانات اتخذت صورة البشر وغادرت أقفاصها. جابر يُذكرك بالضباع جدًّا، درية وسامح قريبان من الفهود، هناك رجل له شدة طويلة يُذكرك بالتمساح... وماذا عن المجموعة الضخمة التي تُذكرك بالخراتيت؟! أسرة الزناتي.. من الغبي الذي لا يتخيل أنهم أسرة من السباع غادرت أقفاصها؟

أنت في مأزق يا نجاتي.. مأزق حقيقي !

رشدي - بلا شك - واجه هذا الموقف من قبل، ولم يستسلم لنصائح إسماعيل. لقد استبد به الذعر فلقي عقابه. وأنت؟ هل تتحمل؟

حاول بصعوبة وعُسْر جمّين أن يصبوب السيجارة إلى فمه، المبسم يهتز بفظاعة، يده ترتجف، لدرجة أنه أطبق بأسنانه بقضمة واحدة على طرف السيجارة كأنه يلتهمها، ثم بدأت مشكلة التصويب على الطرف الآخر بثقاب مشتعل .

ما كان يضايقه أكثر، هو نظرات الشك في العيون التي تراقب ارتبأك.. هذا يزيد الأمر سوءًا.. وقد لاحظ كذلك أنهم يرقبون لهب الثقاب في كراهية وتركيز إلى أن يطفئه .

في سره راح يردد: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

من مكان ما ظهرت امرأة، امرأة تمشي منحنية وهي تحمل طفلًا، وقد كان الظلام دامسًا فلم يعرف من هي، لكنه أدرك أن مشيتها غريبة بالفعل. جلست هناك قرب الدائرة، وأخرجت ثديها، وراحت تلقم الصغير .

قال عم إسماعيل بلهجة ذات معنى :

- أهلاً بك يا عديلة !!

عديلة !!

لو أن الضوء يسمح قليلًا لاستطاع أن يرى عينيها اللامعتين ووجهها القبيح

المذعور. هذا هو الحيوان الوحيد الذي احتفظ باسمه القديم على ما يبدو .

رأى عم إسماعيل حيرته وذهوله، فأمسك بساعده ودعاه للنهوض معه،
وطلب الإذن من الجالسين.. يريد أن ينفرد بنجاتي قليلاً .

لم يرد أحد، فقط تصاعد بعض الزئير، وضحك أحدهم ضحكة مدوية عالية
يعرفها نجاتي جيداً؛ ضحكة الضباع، بينما الرجلان يتجهان إلى بقعة خالية
قريبة جداً من بيت الأفيال. هناك في الظلام وبين الأشجار يمكنك أن ترى
القضبان والوتد المثبت في الأرض وأكوام التبن .

- منذ متى؟

يقولها نجاتي متقطع الأنفاس. يلهث وينظر إلى الجمع الغامض الجالس من
بعيد .

- أولاً خذ الحذر.. إن سمعهم مرهف، وعلى الأرجح يسمعون كل كلامنا، ولو
صدقت غريزتي لقلت إنهم يسمعون أفكارنا كذلك.. الحيوانات تملك ما هو
أمضى من السمع والبصر والشم .

يقولها عم إسماعيل الذي لم يعد يحتاج إلى أسئلة؛ لقد صار كلاهما يفهم
ويسمع أفكار الآخر، ويردف :

- ربما منذ عامين.. لا أعرف السبب ولا كيف.. فقط أدركت أن الحديقة
مسحورة.. في البدء أصابني الذعر ثم وجدت أنهم رفقاء طيبون لطيفو
المعشر.. فقط لا تُثر غضبهم.. كل واحد منهم له فتيل يجعله ينفجر، والذكاء
هو أن تعرف كيف تتفادى هذا الفتيل !

- يغادرون الأقفاص !

ابتسم عم إسماعيل وجفف عرقه :

- أنت تُصدق هذا التحول، ثم تندهش لأن الأقفاص تنفتح ليلاً! كأنك ترى رجلاً
يطير فتندهش لأنه لا يُصاب بالزكام! تستمر الليلة، وعند الفجر يعودون إلى
الأقفاص التي تنغلق بالقدرة ذاتها التي فتحت بها، ويتم التحول !

- رشدي رأى هذا كله؟

في حزم قال عم إسماعيل :

- أمرتك ألا تسأل. طلبت منك أن تنسى. امض الليل معهم وتمتع بصحبتهم
فقط .

- وبسيوني.. هل يعرف؟

قال إسماعيل في غموض :

- بصراحة لستُ واثقًا. لو كان يعرف فقد أخفى هذا ببراعة عني. لكن ما أعرفه عنه هو الحمق والاندفاع، لا يقدر على حفظ سر أكثر من نصف ساعة، لو عرف لتكلم في كل مكان. على الأرجح لم يتم التحول في الليالي التي يسهر فيها !

قال نجاتي في عصبية :

- هناك شيء واحد.. أنا لن أمضي الليل هنا.. سأمضيه في الغرفة الضيقة، سأغلقها عليّ، فخذ الشيشة لو كنت تريد التدخين .

بطريقة من يعرف هذا كله من قبل، قال إسماعيل :

- لا بأس.. توقعت هذا.. ستحتاج إلى وقت طويل كي تفهم وتعتاد. افعل ما شئت، ولكن لتعرف أن ما تراه هنا سيظل سرًا.. قلت لك إن لهم فتيلًا فلا تدس عليه .

لم يرد نجاتي. مشى في الظلام مبتعدًا وهو يتحسس السور الحديدي المدبب. من بعيد يرى طاووسين يفردان ريشيهما في غزل ليلي مع الصوت المميز، ثم يرى ثعالب الفنك تتسلق السلك الشائك في أقفاصها، ويصدر الفيل صوتًا عميقًا مليئًا بالشجن .

كانت هذه غرفة الجراس بضوئها الخافت. دخلها وبحث حتى وجد الشيشة المفككة والفحم، فأخرج هذه الأشياء إلى الخارج، ثم أغلق الباب على نفسه، والتف بالبطانية، وراح يرتجف كأنه محموم .

مد يده يعث في مفتاح جهاز الراديو، وسرعان ما سمع صوت الست يغني :

أغدًا ألقاك

يا خوف فؤادي من غدي

لو كان في ظروف أخرى لطرب وراح يهز رأسه منتشياً، لكنه كان الذعر مجسداً. الهاتف الخلوي معه، لكنه لا يجسر على أن يتصل بأحد، ولو اتصل فماذا يقول؟ وماذا لو عرفوا نواياه؟

هذه الرائحة !!

الرائحة الحيوانية المميزة لأقفاص الضباع.. من أين تأتي؟

كان يعرف. النافذة الصغيرة المدعمة بالقضبان الموجودة فوق رأسه، وتذكره جدًا بنوافذ السجون أو عربة الترحيلات، هذه النافذة مسدودة، كتلة سواد تغلقها وتحجب السماء. يمكنه أن يسمع الزئير المكتوم، ويرى لمعان العينين. هناك من يراقبه من الكوة ليرى ما يفعله وحده في الظلام.

هناك يمكنه أن يرى عم إسماعيل جالسًا مع تلك الكائنات ...

- هل أنت مطمئن له؟

- أنا أثق فيه كنفسي.. نجاتي ولد طيب .

- الأولاد الطيبون قد يتكلمون !

- أنا أعرف أنه خائف مذعور.. الخائفون مطيعون، والمذعورون لينو العريكة .

- إن كنت مخطئًا فهو الندم ثم العقاب.. أو هو العقاب فالندم !

كان نجاتي يفكر في عمق: ليس بوسعه أن يرفض أو يقبل هذا الوضع، لقد صار في اللعبة ولا يستطيع التملص، لكنه لا يريد.. لقد عرف سرًا لا يريد أن يعرفه، وتحمل بأمانة لا يريد حملها .

من أين بدأت هذه اللعنة؟

الإجابة التي كان إسماعيل يراها بوضوح هي أن هناك فجوة شيطانية في هذه الحديقة. عملية الحفر التي استغرقت شهرًا بجوار أقفاص الزراف ثم توقفت لأن هناك بئرًا حجرية غامضة. بعد تفكير قرر المهندسون أن يغيروا موضع الحفر، وأهالوا الحجارة على موضع البئر ونسوا كل شيء عنها. عم إسماعيل يعتقد أن الظاهرة بدأت بعد هذا؛ الجان تحت الأرض استولوا على الحيوانات. نجاتي لا يعرف هذا بالطبع، ولو عرفه لما صدقه. لا يهم.. هذا لن يغير الحقيقة .

لن يبقى هنا لحظة أخرى !

ربما لو ظل حتى الصباح سيكون أول شيء يفعله هو أن يستقيل، لكن النفور الذي ألم به جعله عاجزًا عن تحمل دقيقة أخرى !

النار.. لقد رأى كيف أن النار تخيف هذه الكائنات وتبعدها .

كانت هناك زجاجة كيروسين بجوار الموقد، أخذها وأخذ البطانية والموقد نفسه، وبحذر فتح الباب متوقعًا أن يجدهم جميعًا بالخارج، لكن لم يكن هناك أيُّ منهم. سكب الكيروسين على العشب، ثم سكب بعضه على البطانية، وأشعل السائل الملتهب، ثم قلب الموقد المشتعل ...

في اللحظات التالية استطاع أن يصنع أكبر فوضى ممكنة. صار هناك ستار من النار يفصله عن الوحوش، وهو يعرف أن سور الحديقة على بُعد عشرين مترًا، هناك فجوة مهدمة تسمح بالوثب إلى الخارج ...

قلبه يتواثب! توقف قليلًا! لا تفقد وعيك يا نجاتي !

قلبه يتواثب ...

يتواثب ...

للحظة غامت الدنيا بسبب تسارع الضربات، لكنه استعاد الوعي سريعًا وجرى نحو الفجوة. سمع الضوضاء من بعيد، وسمع زئيرًا، لكنهم كانوا قد تأخروا جدًا .

السور.. يتسلقه.. يجلس على قمته، ويوشك على الوثب، لكنه يسمع صوتًا يتوسل :

- نجاتي! عُد يا بني! لا تُثر غضبهم! إنهم ...

كان هذا هو إسماعيل الذي وقف على الجانب الآخر من اللهب يحاول العبور ويصرخ !

لم يُصدق نجاتي ما رآه: لقد طار جابر الشبيه بالضبع مترين في الهواء، ثم هبط فوق عم إسماعيل، ودوت صرخة هلع، ثم اختلط كل شيء، لأن جابر كان يلتهم شيئًا واقعًا هناك وسط العشب والظلام.. كان يضحك ضحكة ضباع لا شك فيها !!

ومن بعيد جاءت أسرة الزناتي تركض !

كان هذا كافيًا لنجاتي كي يثب من فوق السور إلى الشارع الخالي المظلم ...

آي! هل تهشم كاحلي أم هو مجرد التواء؟

*

محاسن كانت تُرضع الطفلة، وهي جالسة مع زوجها عاطف. كان الوقت قد توغل جدًا حتى إنهما بالفعل قد صارا «غداً» ولم يعودا «أمس». لكنهما اعتادا هذا. البقاء في المحل حتى هذه الساعة نوع لا بأس به من قضاء السهرة، وكان التلفزيون الصغير ذو العشرين بوصة يكفي لجعلهما يسافران مع عالم الصور الحالم. في الثالثة أو الرابعة صباحًا تضع الطفلة على كتفها، وتركب السيارة «اللادا» العتيقة بجوار زوجها. يعودان إلى البيت ويناومان، وأنت تعرف أنهما لا يفتحان المحل قبل الواحدة بعد ظهر الغد .

ليس محلًا بالضبط، بل هو مكتب اتصالات، معظم نشاطه يتعلّق بالشحن وتجارة الكروت، لكن هناك بعض أجهزة الجوال القديمة وبعض الكماليات على الجدران، وبالطبع ليس لك أن تتوقع أي عملاء بعد الواحدة صباحًا .

عاطف كان يلتهم بعض الخس بصوت عالٍ وهو يتابع المسلسل، عندما نظرت هي إلى الباب فرأت ذلك الرجل الأصلع يركض نحو المكان.. إنه يعرج بلا شك! إنه مذعور كأنه رأى الشيطان! والأغرب أنه يلبس ثيابًا شبه رسمية (يونيفورم)، لها ذلك اللون الخاكي الكئيب !

شهقت، فتوقف زوجها عن المضغ، وتلقائيًا مد يده إلى السكين التي قطع بها الخبز في العشاء، ولوّح بها منذرًا القادم الجديد، لكن القادم كان في حال سيئة، ولم يبدو حاملًا أي نوع من التهديد .

- إنهم خلفي !

- من هم؟ !

لا تفسير ...

ثم إنه اقتحم المكان، وهتف وهو يواصل العرج ويتوارى خلف الكاونتر :

- أغلق المحل.. بسرعة.. هناك ستار حديدي كما أرى !

- ولكن ...

- لا وقت للشرح !

لم يفهم عاطف، لكن رسالة الرعب وصلت على كل حال. هرع بسرعة، وتناول القضيبي الحديدي وبدأ يسدل الستار وهم بالداخل. الزوجة راحت ترمق القادم وهي ترتجف؛ ليس مخيفًا لكن خوفه هو المخيف.. ماذا رأى هذا الرجل البالغ حتى يصرخ ويعوي ويبيكي بهذه الطريقة؟ !

جلس عاطف على مقعد بلاستيكي، وأخرج لفافة تبغ قدمها إلى نجاتي، وقال :

- هلاً هذأت قليلًا؟ ما الذي يطاردك؟

- لا أعرف !

هذه لحظة الخبال إذن! جميل أن تقابل مجنونًا في الثالثة أو الرابعة صباحًا وأنت مع زوجتك وطفلتك الرضيعة !

ثم ...

الرائحة ...

البداية هي الرائحة الكريهة التي لا تُوصف؛ رائحة عطنة لم يشمها من قبل ...

ثم صوت الزئير المكتوم؛ الزئير القادم من خارج المحل ...

ثم بدأت الدقات على الستار الحديدي ...

بكى نجاتي، وغطى وجهه :

- ليرحمنا الله! لقد تمكنوا من الهرب! كان عم إسماعيل يسيطر عليهم! لقد حرّيت كثيرًا، لكنهم اقتفوا أثر رائحتي، شموها على بُعد نصف كيلومتر، لكنني أتوقع أنهم لا يعرفون كيفية فتح الستار !

عمّن يتكلم بالضبط؟ !

ما الشيء الذي يضرب الستار الحديدي بلا توقف؟ !

لكنه كان يعرف يقينًا أن عليه ألا يفتح هذا الستار.. لا يحب أبدًا أن يرى الشيء الذي يسبب هذا !

استمر التوتر للحظات، ثم هذأت الأصوات وبدأت تبتعد.. الرائحة تقل بلا شك .

قال نجاتي منذرًا :

- لا تفتح الباب! لا أعتقد أنهم ابتعدوا بهذه السرعة !

استمرت الجلسة المتوترة ساعة أخرى.. الكثير من التدخين حتى صاحت الزوجة مزمجرة :

- بالله عليك توقف! الصغيرة ستختنق! المكان مغلق !

في حذر نهض عاطف، وبدأ يرفع الستار ببطء وهو ينظر حوله. تسرب هواء الفجر البارد إلى المكان. صوت أذان قادم من مسجد قريب في مكان ما. لا يوجد شيء .

قال لنجاتي وهو يلهث :

- ستهرع محاسن إلى السيارة، ثم تلحق أنت بها، ثم سأغلق أنا المحل .

- لا وقت لذلك !

- لن أترك المحل مفتوحًا لأجده فارغًا في التاسعة صباحًا، هناك لصوص لو كنت قد فهمت هذا !

وسرعان ما هرعت الزوجة إلى السيارة «اللادا». انتظر الرجلان، ثم أشار عاطف لنجاتي كي يهرع وهو يتواثب على ساقه السليمة، ثم أنزل الستار الحديدي ووضع الأقفال بسرعة البرق ولحق بالسيارة ليجلس خلف المقود .

برغم أن السيارة اعتادت النعاس في هواء الصباح البارد، فإنها ارتفعت إلى المسؤولية هذه المرة ودارت، وسرعان ما تراجع الزوج بالسيارة ليغير الاتجاه ...

هنا انفتحت أبواب الجحيم ...

لقد ظهر رفقاء الليل من مكان ما ...

كانوا يركضون نحو السيارة، ولم يحتج عاطف إلى أسئلة كثيرة؛ لقد رأى القادمين فعرف أنه لا يجب أبدًا أن ينتظر قدومهم أو يقع في أيديهم !

اندفعت السيارة بجنون تنهب الشارع ...

ومن خلفها راحت ثلاثة من تلك الكائنات تركض ...

كان فارق السرعة كبيرًا، وسرعان ما تركت السيارة مطارديها خلفها، لكن ظل أحد المطاردين يجري بسرعة هائلة، يجري كالسيارة أو أسرع؛ كان رشيقيًا طويل العظام فارغ القامة ...

- كيف يفعل هذا؟ !

قال نجاتي بصوت مبحوح :

- أعتقد أنه كان فهدًا !

نظر إليه عاطف في دهشة :

- هل أنت مخبول؟! عمّ تتكلم بالضبط؟ !

سرعة الوحش القادم مذهلة، وبدا واضحًا أنه سيلحق بالسيارة، لكن فجأة بدأت خطواته تتراجع، وبدأ يتعثّر .

قد يكون الفهد والشيتا سريعين جدًّا، لكن الآلة تتفوق عليهما في نقطة

واحدة: القدرة على المثابرة؛ العضلات تتعب وتغرق في حمض «اللاكتيك» فتُضرب عن العمل .

هكذا اندفعت السيارة في شوارع المدينة الخالية بعدما زال الخطر .

لم ينطق نجاتي، ولم يُعطِ أي تفسير. ظل صامتًا بعض الوقت، ثم مال على عاطف الجالس خلف المقود، وقال :

- أنزلني هنا وليرعك الله !

تساءل عاطف في حيرة :

- لم تُفسر لي! من هؤلاء؟ ما هذا؟

وكما فعل عم إسماعيل من قبل، قال نجاتي لمنقذه وهو يفتح الباب ويترجل :

- لا تسأل عن أمور من الأفضل ألا تعرفها! عُد إلى بيتك وأغلقه عليك، ولو أردت نُصحني لاقترححت ألا تذهب إلى محل الهاتف لمدة يومين أو أكثر !

وقبل أن يسأله عاطف سؤالًا آخر كان قد توارى في الغبشة المميزة للفجر .

*

- هي جنية !

كان هذا رأي خالد، لكن أنيس لم يرَ هذا الرأي؛ لا أحد يفكر بهذه البلاهة .

سيارة المراهقين العائدين في الفجر وقد أثقلت الأقراص المخدرة عقولهم: خالد خلف المقود، بينما أنيس بجواره، وفي المقعد الخلفي ياسر وأكرم .

وفي الشارع الذي بدأ الفجر يزحف عليه، كان المشهد الذي لا يُصدق: فتاة رشيقة فارعة الطول، واضح أن جمالها لا يُوصف، والغريب أنها تلتف ببعض الأسماك حول جسدها العاري كما هو واضح .

متسولة؟ هذه ليست ملامح متسولة .

هل تعرضت لتجربة قاسية؟ لا يبدو ذلك على ملامحها، ولا مشيتها الواثقة الثابتة .

ربما هي هلوسة جماعية؟

اندفع خالد بالسيارة، وجعل سرعتها مماثلة لسرعة الفتاة التي تمشي على

الإفريز، ولا يبدو أنها تلاحظ أحدًا .

الأمر يحتاج إلى تفسير فعلاً.. لا جدال في أن الفتاة بارعة الجمال، وهذه ليست هلوسة !

قال خالد بلهجة تقريرية :

- جنية! جنية تبحث عن شباب بلهاء مثلنا !

أطلق ياسر سبة من المقعد الخلفي، وقال إنه لن يترك فرصة كهذه لمجرد أن خالد يخرف، ثم أنزل زجاج السيارة وصاح ينادي الفتاة الغامضة التي تمشي بجوارهم وفي نفس اتجاههم :

- هيه! هل تريدان توصيلة؟ نحن هنا كي نقدم الخدمات .

توقفت، ونظرت إليهم ...

هنا ترجل ياسر بسرعة من السيارة المتوقفة وقلبه يدق كالطبل، وفتح لها الباب الخلفي، فانزلت إلى الداخل من دون أسئلة أو جدل. انسل يجلس بجوارها، بحيث صارت بينه وبين أكرم، وبينما السيارة تتحرك من جديد سألها عن اسمها، فقالت في شرود :

- درية !

لاحظ ركاب السيارة المنطلقون نحو ليلة حمراء أن رائحة الفتاة كريهة جدًا، كما لاحظوا أن شيئًا مقلقًا يحيط بها، شيئًا لا تستطيع الإمساك به ...

على العموم كانت هذه نهاية قصتهم !!

*

من تقرير العقيد محمد السللاوي رئيس المباحث :

الحقيقة أن تفسير ما وجدناه في تلك الليلة يستعصي علي التفسير، وكان يمكن للأمر أن يكون أسهل لو كانت هناك كاميرات مراقبة، أو أن الحارس المدعو «إسماعيل المنوفي» لم يمت، أو أن المدعو نجاتي زكريا احتفظ بقواه العقلية.. هذه هي المشكلة؛ لا يوجد شهود .

لا نعرف تفصيلًا ما حدث في تلك الليلة السوداء، لكن الأمر يُذكرني تمامًا بمقتل حارس اسمه «رشدي»؛ وجدوه وقد عُمر نصف جثته في بركة البيط وسط الماء الآسن، وقد تمزق بشكل حيواني: جروح قطعية بأداة حادة أقرب إلى الأنياب والمخالب، وبعض العظام مجردة من اللحم، وهناك أعضاء اختفت

تمامًا ! لم تتكشف أسرار تلك القضية، وإن كانت الإجابة الوحيدة الممكنة هي أن إدارة الحديقة تتستر على فرار وحش كاسر، ولم يقدم لنا الحارس إسماعيل أي إجابات مفيدة .

كان علينا أن ننتظر طويلًا حتى نجد إسماعيل نفسه ممزقًا بجوار سور الحديقة، وقد أحاطت به أعشاب متفحمة. هناك من أشعل ستار نار في ذلك المكان ثم انطفأ. وكان عنق الرجل ممزقًا كأن وحشًا أنشب أسنانه هناك .

الجرد أظهر أشياء غريبة: هناك أقفاص كثيرة جدًا قد انفتحت، لا توجد حيوانات، الكثير منها قد فر، الأغرب أنه لا توجد بلاغات عن مشاهدة حيوانات فارة في المنطقة !

لقد ضاعفنا الدوريات حول الحديقة، وقمنا ببحث مستفيض، لكن لا يوجد شيء !

الحيوانات المختفية تُقدر باثني عشر حيوانًا؛ منها الأسود، والضباع، ووحيد القرن، وأثنى شمبانزي، وتمساح ...

هل سُرقت هذه الوحوش؟ مستحيل أن يتمكن نفس الشخص أو الجهة من عمل الشيء ذاته في ليلة واحدة .

هل هربت؟ إذن كيف حدث هذا؟ ومن فتح الأقفاص؟ ولماذا لا نجد أثرًا لأيٍّ منها؟

حقًا لا نجد الحيوانات، لكن آثارها موجودة !

مثلًا هناك سيارة «كيا» وجدناها مقلوبة، وقد اصطدمت بجزيرة الطريق، وكانت في حال سيئة فعليًا، لكنها لا تفسر وجود أربع جثث بالداخل: ياسر، وأكرم، وأنيس، وخالد، أربعة من طلاب إحدى الكليات الخاصة، وجدنا جثثهم الممزقة في السيارة. لقد انتزعت أحشائهم بعناية وكفاءة، ويبدو أن الذعر جعلهم يفقدون التحكم في السيارة فارتطمت بالجزيرة. لم يكن الحادث سبب الوفاة، لكنهم بالتأكيد عانوا كثيرًا وهم عاجزون عن الحركة، بينما الوحش يلتهمهم واحدًا واحدًا .

عند شارع المغربي قرب الناصية، وجدنا جثة رجل شرطة ممزقة تمامًا وقد اختفى نصفها، واضح أنه كان متجهًا لتسلم ورديته عندما هُوجم. ما الذي هاجمه؟ لا نعرف حقًا، لكن المنظر يُذكرك بمشاهد الذين التهمتهم الأسود التي تراها في «يوتيوب»، لو كانت أعصابك قوية .

كان هناك خيط واحد يمكن أن نمسك به: الحارس نجاتي الذي بدأ الأمسية ثم اختفى. لا بد أنه يعرف ما حدث فعليًا. لم نجده في مسكنه، وعرفنا أنه عاد

مع أسرته إلى قريته المجاورة لكفر الشيخ .

عندما ذهبت قوة من الشرطة لاستجوابه قابلتنا زوجته - وهي ابنة عمه كذلك - تصرخ دامعة العينين، تطالبنا بأن نتركه وشأنه :

- الرجل قد جُن! لقد خُرب بيتنا !

وعندما دخلنا رأينا الرجل مذعورًا جدًّا. كان يلبس الجلباب البلدي، ويقف عاري الرأس فوق حشية الفراش، وهو يولول كالنساء. وقد راح يحاول أن يلتصق بالجدار في ركن الفراش البعيد ليفر منا، وهو يردد بلا توقف :

- عم إسماعيل! لقد تسببت في موته !

في النهاية استطعنا أن نُجلسه، وقدمنا له لفافة تبغ، ووعدناه بألا نُؤذيه لا هو ولا أسرته، فقال دامع العينين :

- لقد انتقموا منه لأنني لم أذعن! لو أنني لم أفقد أعصابي.. لو ظللت متماسكًا حتى الصباح.. لتركوه حيًّا.. لربما مت أنا مثل رشدي، لكنهم عرفوا أنهم لن يلحقوا بي فقررُوا الانتقام من عم إسماعيل !

كان هذا هو الجنون مُقطرًا مُركزًا! وقد طلبنا نقله إلى مستشفى «أبو عيطة للصحة النفسية» في دسوق، وبدأ لنا أنه من المستحيل استخلاص شيء من كلامه. كان يخطر في ذهنه ما يُقال عن اختفاء الحيوانات سوى أنها هربت .

من الذي فتح الأقفاص كلها؟

لا يوجد متهمون كثيرون. أنت يا نجاتي أو إسماعيل يرحمه الله. وبما أنك في حالة لا تسمح بالاستجواب، فهو مستشفى الصحة النفسية إلى أن يقرر الطبيب أن بوسعنا استجوابك .

تابع تقرير العقيد محمد السلاوي رئيس المباحث :

يجب أن أضيف هذا الملحق، لأؤكد أننا وجدنا الحيوانات المختفية مؤخرًا. القصة غريبة بعض الشيء، ويصعب تصديقها، لكن الجرد حسب جداول الحديقة كامل. كلها ميتة! الأسود والضباع والذئاب والفهود ووحيد القرن... كلها وجدت في مواضع عدة من المدينة !

يقول لي أحد الشهود إنه وجد رجلًا فارغ الطول يرتدي أسماً بالية، وكان يمشي وحيداً في أحد الأزقة، ثم سقط على ركبتيه وراح يبكي، كان يعاني ألماً رهيباً، لكن ما سببه؟ وما مكانه؟ هرع إليه وربت على ظهره .

هنا تدخل القصة إطار اللامعقول: يقسم الشاهد على أن الرجل سقط على الأرض، وأسلم الروح، ثم بدأ أمام عينيه يتحول إلى فهد، فهد واضح كامل النمو. الشاهد بالطبع افترض أن هذا نمر، لكننا وجدنا جثة فهد حينما ذهبنا إلى هناك !

هناك ثلاثة أسود وجدوها ميتة قرب مدرسة أطفال، وهناك عامل يقسم على أنهم كانوا ثلاثة رجال خشنبي المنظر، ثم سقطوا على الأرض يتألمون، وعندما دنا منهم وجد أنهم أسود ميتة !

- إنهم بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا شغل جان !

القصة محيرة وغريبة! هناك أنثى فهد وجدها شاب في فراشه، وهو يقسم على أنه لا يعرف كيف جاءت! شاب عزب، سيئ السير والسلوك، لكن لا أتخيل أنه يضاجع الفهود !

مشاجرة عنيفة نشبت بين بعض الحمالين ورجل ضخم شديد الفظاظة قرب موقف الميكروباص، ثم سقط الرجل على الأرض، والحمالون يقسمون على أنه مات، ثم بدأ يتحول إلى وحيد قرن !!

كل هذا الكلام الفارغ يؤسفني أن أكتبه في تقريرتي، لكنني مضطر إلي ذكره. وعلي كل حال، فقد طلب السيد مدير الأمن أن نلتزم الصمت تمامًا، وألا يتم نشر أي شيء عن هذه الواقعة. لا يوجد سوى هراء، فما جدوى نشر الهراء سوى البلبلة؟ لن نسمح بأن يبدأ السيرك الإعلامي المعتاد في كل مرة. لا توجد حيوانات هاربة الآن. سنعتبر أن المراهقين هلكوا في حادث السيارة، وأن ضبعًا هاربًا مزق الحارس إسماعيل .

لقد حان الوقت لنغلق هذه القضية .

*

«داروس إي بتراناخاك. فلتتبارك».

لقد عاد الهدوء إلى الحديقة .

أغادر البئر التي آوي إليها أنا «ناخاك الأعظم». لقد مرت أعوام منذ تحررت من سجنني عندما أزال المهندسون من الفانين تلك الأحجار التي تسد عالم الظلام الجحيمي الذي لا أعرف لي سواه مهّدًا ولا بيتًا ولا قبرًا. وعندما يزحف الظلام ليتوغل بين فروع الأشجار وحشاشات العشب، وتسمع صوت خطواته المكتومة فوق الكلاّ النادي، فالحين حين خروجي.. إنه نداء «الديجور»!

كعاداتهم، يخطئ البشر الفانون عندما يحفرون بلا روية ولا تأنٍ ولا حكمة، غير

عالمين أنهم يزيلون الغطاء عن فتحات ما كان لها أن تُفتح، وككل الأبواب الجحيمية هي عسيرة الفتح من الجانب الجحيمي، هينة الفتح من جانب البشر .

كانت الحديقة المظلمة التي تفوح فيها روائح الحيوان والكواسر، وترتج بصيحاتها وزئيرها، هي المكان الأمثل لعودة «ناخاك» !

«ناخاك الأعظم».. قد منح الوحوش القدرة على أن تكون بشرًا !

«ناخاك الأعظم».. قد فتح الأقفاص لتخرج هذه الأرواح الظامئة إلى الحرية !

ولساعات طويلة نعمت الكواسر بالحرية، وبالقدرة على الاختيار، وامتلكت عقولاً دانية من عقول البشر، وعرفت كيف تحفظ سرها، وتغتال من يأبى أن يحفظه !

لكنها قارفت غلطة شنعاء عندما فرت من محبسها، وراودها الطمع في حياة مستقلة حرة. وما لم تدركه تلك الوحوش هو أن ابتعادها عن «ناخاك الأعظم» هو ابتعاد عن ينبوع الطاقة الذي يمنحها الحياة. صحيح أنها احتفظت بصورتها الجديدة، لكنها ما كانت لتظل كذلك !

لقد هلكت جميعًا !

وعندما هلكت، فإنها استعادت مظهرها السابق، وزالت نفحة بشريتها !

«ناخاك» ما زال هنا، ولديه السرمدية زاد لا ينفد !

«ناخاك الأعظم».. سيُجرب الكثير من ألعاب الشر، لأنها تمنحه سرورًا شيطانيًا لا يقدر عقل فانٍ على استيعابه !

فقط عندما يعود إلى الحديقة هدوؤها مع الهزيع الأول من الليل، ينهض «ناخاك» من جديد، ويفتح بابًا آخر من أبواب الرعب !!

فلننتظر ولنرَ ...

نقوش

قال البروفسور «ماساتو ساكاي» بإنجليزيتة التي هي أقرب إلى اليابانية :

- نحن نقرب من الحل.. المشكلة ليست بهذا التعقيد .

لم يُعلق واحد من الفريق، فالمشكلة كانت فعلاً بهذا التعقيد، بل أكثر بمراحل .

*

الدوامة التي دخلها عماد كانت أكبر من قدرته على الفهم، أكبر من تحمل جهازه العصبي، أكبر من قدرات جهازه التنفسي . لم يتساءل من قبل عن شعور مسمار المثقاب وهو يخترق الخشب، لكنه يدركه الآن. رأى ذات مرة فيلماً عن ظروف تدريب رواد الفضاء على تحمل الطرد المركزي، ورأى كيف يغيبون عن الوعي ويتدلى لحم وجوههم ويسيل لعابهم.. تذكر هذا الفيلم في تلك اللحظات.. ترى هل لعابي يسيل؟

قال لنفسه: «أنا أموت، إن هي إلا لحظات وتمر بسرعة، ثم أفيق في الجانب الآخر».

لكن المشكلة هي أن اللحظات لا تنتهي، يبدو كأن الأمر أبدي بلا نهاية .

ثم جاء الظلام الرائع.. الظلام المحبب.. فقدان الوعي الرحيم .. لا بد أنها أسعد لحظة يعيشها من تلتهمه النيران أو من هو بين أنياب أسد .

ثم بدأ يرى ضوءاً في نهاية النفق.. هل هذا نفق؟

ذكريات ضبابية عن انطلاقه بالطائرة.. القاعدة الجوية المصرية في ظلام الليل والإشارات.. الفضاء.. والأرض تتحول إلى صفحة سوداء كبيرة .

ماذا حدث بالضبط؟ عاصفة رعدية، غمامة سوداء ينبعث منها الشرر كأنها وحش إغريقي غاضب .

برج المراقبة قال له إن هناك عاصفة رعدية تقترب، وصدر له الأمر بالعودة، لكن الكلام سهل. لقد دار دورة سريعة في الفضاء، ثم هبط بشكل عمودي، وهو ينوي أن يعود أدراجه إلى القاعدة الجوية، لكن لسان برق عملاقاً خرج من مركز الغمامة ولطم الطائرة !

بعدها بدأ الكابوس: كان يجذب إلى داخل العاصفة، وداهمه شعور عارم بأن هذا لسان وحش يلتقمه كذبابة، حرباء كونية ظفرت به ولن يستطيع الخلاص

من صمغها اللاصق !

صرخ في مكبر الصوت :

- الله أكبر! إنني أموت !

الأمر سهل ولا يحتاج إلى تفكير طويل؛ سوف يدخل الدوامة فتتخطم الطائرة، أو تصعقه الكهرباء، أو تعطل الطائرة فتتهوي إلى الأرض من ارتفاع خمسة كيلومترات.. في كل الأحوال هو الموت ولا شيء سواه !

على التابلوه رأى الصورة الصغيرة لمها مع أشرف .

هما الآن نائمان على الأرحح، يحلمان أحلامًا سعيدة، ولا يعرفان أن العمل جارٍ على قدم وساق لتحويلهما إلى أرملة وطفل يتيم! هذا بالطبع لو لم تكن القدرات الخارقة شيئًا حقيقيًا، فتكون مها ترى هذه المشاهد معه الآن وتتقلب في الفراش غارقة في العرق .

لسان برق آخر يضرب الطائرة ...

ثم دخل الدوامة المخيفة ...

*

الحياة في «زور» لم تكن كئيبة .

في كل يوم هناك شيء جديد تتعلمه أو تعرفه، هناك «ألتيمافا العظيم» الذي يعرف كل شيء تقريبًا، ويمكنك أن تتصل به بسهولة في أي لحظة عن طريق الشاشات الزئبقية الموجودة في كل مكان، فقط أنت تنظر إلى الشاشة طويلاً وتقول: «أزل الظلام يا «زور»»، فتزول الغيوم على الشاشة، ويظهر بوجهه المميز الأخضر، ويجب عن أسئلتك .

لم يستطع عماد قَطُّ أن يعرف هل «ألتيمافا» صورة رقمية يصنعها الكمبيوتر، أم هو رجل غريب الشكل فعلاً.. لكن من العسير في هذا العالم أن تتحدث عن الكمبيوتر أصلاً، لا يوجد شيء اسمه الكمبيوتر، كل ما تعلمه هو أن المادة ذكية حية وتجب عن أسئلتك فوراً .

هكذا كان يقضي الساعات أمام الشاشات يعرف منها كل شيء .

لم يكن «زور» شبيهًا بالعوالم التي تجوب في ذهنك، إنه أقرب إلى بطانة رحم عضوية دافئة تنبض وتسيل، وأنت تمشي بين ردهات تُذكرك بقنوات «فالوب» كما كنت تراها في صور المنظار الرحمي في كتب الطب الخاصة بأخيك .

- لا يوجد ماضي ولا مستقبل بالنسبة لنا، لا توجد نقطة ثابتة، غداً نكون في ماضي عالم، وبعد غدٍ نكون في مستقبل عالم آخر !

«زور» متغير.. «زور» يرتحل عبر الأبعاد والعوالم.. «زور» اليوم في مجرة وغداً يكون في مجرة أخرى .

كان عليه أن يفهم هذه الحقائق، برغم أنه يعرف جيداً حقيقته: هو طيار مصري، دخلت مقاتلته في دوامة كهربية، وهذه الدوامة نقلته إلى عالم آخر له قواعد مختلفة.. كيف يعود إلى عالمه الأصلي؟ لا يعرف .

قالت أفكارها له :

- يوماً ما ستجد العالم الذي جئت منه، لربما وجدت الزمن نفسه كذلك، عندها يمكنك أن تتركنا. أما اليوم، فأنت لن تستطيع الحياة وحيداً في عالم تحكمه البراغيث أو تحكمه البكتيريا !

هكذا بدأ عماد يعتاد الحياة في هذا الحلم، لم يكن حلمًا كريهًا على كل حال؛ هناك الكثير مما تكتشفه، وهناك الكثير مما تتعلمه، وفوق هذا كله هناك السلام .

لا يعرف كيف ولا متى وجد أنه قد تزوج «كيفياليانماياسوش». لقد تسلل الحب إلى القلبين برغم اختلاف العالمين .

قالت لـ«ألتيماء العظيم»:

- امنحه لي، فأنا أريده زوجاً، أحب أن أعلمه أشياء .

جاء الجميع يحيونه، ويقدمون إليه «الشيناتا». «الشيناتا» هي هدية العروسين هنا، وشرحها معقد بعض الشيء. وخلال أسبوعين من زمننا تكور بطنها وصارت حاملاً، ثم أنجبت طفلاً جميلاً يشبهها جداً. اتفقا على أن تسميه «جراموسانتافونمك»، هو فضل أن يسميه «أشرف» حتى يشعر بالفة، لربما يرى ابنه مرة أخرى في يوم ما .

كان لديه الكثير ليعرفه، لكنه كذلك أدرك مع الوقت أن لديه ما يقدمه لهم .

برغم كل شيء لم يتلع عماد فكرة أنه صار من مواطني «زور». كان يحمل كل ذكرياته وحنينه للأرض، ويشعر بشوق عارم إلى زوجته. تُرى إلى أي مدى يُعتبر زواجك من كائن في بُعد آخر خيانة لمها زوجتك؟

كان في حاجة إلى «كيفياليانماياسوش»؛ لأنها تقوده في ظلمات ذلك العالم، كما فعلت «بياتريس» مع «دانتى» في رحلته للعالم الآخر، ثم إن لديه اليوم طفلاً جميلاً. وكانت «كيفياليانماياسوش» تؤكد له أنه سيأتي يوم يجد

نفسه فيه على كوكبه في اللحظة ذاتها التي فارقه فيها. لكن هناك مشاكل معقدة: هل يعود إلى الزمن نفسه؟ هل يحتفظ بالحجم نفسه الذي بدأ الرحلة به؟

كان الأمر شبيهًا بـ«جليفر».. لربما وجد نفسه عملاقًا وسط أقزام ويقيدونهم بالحبال لرمال الشاطئ، أو يجد نفسه قزمًا ينام في قوقعة.. يحتاج إلى ما هو أكثر من الحظ كي يعود إلى الحجم نفسه بالضبط. وماذا عن الزمن نفسه؟ الأمر شبيه بقصص الخيال العلمي.. لربما يجد نفسه في عصر الحروب الصليبية، أو عصر غزو المكسيك، أو عصر الحرب العالمية الأولى، ويختنق بالغاز... كل شيء وارد.

كانت «كيفاليانماياسوش» مهتمة بمعرفة كل شيء عن عالم عماد، ووجهت إليه الكثير من الأسئلة، وقد أجاب عن كل سؤال، لكنه لم يظفر بالفهم في كل مرة. كانت هناك أشياء لا تفهمها ولا تتصورها. «زور» عالم مغلق متكامل لا ترى فيه السماء أو البحر، في الواقع هناك بحر وسماء داخل هذا التكوين العضوي الشبيه بالرحم؛ لهذا لم تتصور «كيفاليانماياسوش» قط أن هناك من يركب طائرة يعبر بها الأجواء، كما أن أشياء مثل الرعد والبرق بدت لها غريبة تدل على التخلف!

ذات مرة فتحت الطاقة المطلقة على الخارج، وسمع عماد في ذهنه جملة تتكرر:

- العالم رقم «1865 - أ».

رأى «كيفاليانماياسوش» تتجه إلى الطاقة لتنتقل منها، ثم دعتة هو وأشرف - الذي تسميه «جراموسانتافونمك» - كي يتبعها. في الخارج كان عالم حُبِيبِي غريب كان عاصفة رملية هبت هنا منذ وقت وجيز. وفي الخارج رأى كتلاً هلامية عملاقة بحجم الشاحنة تزحف، ولاحظ أن لها أنوية ضخمة، وأن المادة الهلامية رقراقة تتحرك حركة دوامية دائمة.. بعض الكتل كانت كرات عملاقة، وبعضها كانت أقرب إلى مستطيلات ضخمة.

ثم بدأ يفهم. سألها في ذعر:

- هذه بكتيريا، أليس كذلك؟

- نحن قضينا على هذه الكلمة، لكنني أعرف معناها من الكتب.. هذا صحيح.

- معنى هذا أننا في حجم الفيروس!

- أعرف معنى هذه الكلمة كذلك.

كانت إحدى الكتل تدنو من الطاقة في خطى بطيئة لكنها واثقة، فقالت
«كيفياليانماياسوش» في ذهنه :

- من الحكمة أن ندخل.. هذه الكتل تبدو خطيرة !

بالطبع، من السهل أن تفترض خلية البكتيريا الفيروسات، دعك من أن حجم
الفيروس هنا لا بد أنه يماثل الطفل الصغير. ترى ما حجم البشر هنا؟ لا بد
أنهم عمالقة لدرجة عدم استيعابهم، ولربما كان أحد البشر هو الأرض التي
يستقر فوقها عالم «زور». كانت هناك قصة خيال علمي شهيرة
لـ«ستانسلاف ليم»، ينزل فيها رواد الفضاء فوق كوكب عملاق اسمه
«سولاريس»، ثم يكتشفون أن الكوكب كائن حي !

هكذا انغلقت الطاقة من جديد .

كانت في كل يوم تُجلسه أمام الشاشات، وتُعلمه أشياء عن «زور»، لكنها
ظلت تجهل أمورًا كثيرة عن الأرض.. لماذا لا ينشغل أطفال أرضنا بتبادل
الجينات البيولوجية؟ يمكنك نقل خبرات كاملة عن طريق نقل الجينات إلى
طفل فيصير مهندسًا أو عالمًا ...

قال لها عماد :

- الأطفال لا بد أن يلعبوا ويقضوا وقتهم في الرسم ومحاولة تعلم حروف الكتابة
.

لم تفهم ما معنى الرسم، ولم يجد قلمًا أو ورقة يشرح لها فيها معنى الرسم .

قالت له وهي تنظر إلى الشاشة :

- هذا العالم يُدعى «1917 - ب». أعتقد أنه رحب ودود، يمكننا أن ننزل ونرى .

انفتحت الكوة. أنت تعرف أنه لا بد من تصريح من «أليما العظيم» يسمح لك
بالخروج، وقد قال «أليما» إنه لا يعرف الكثير عن هذا العالم لكنه لا يمانع.
وفي الخارج رأى عماد ما يبدو كأنه صحراء ممتدة .

قال لها في ذهنه :

- هل تعرفين حجمنا هنا؟

- لا بد من حيوان أو حشرة نقارن أنفسنا بها، لربما كنا عمالقة في حجم جبل،
ولربما كنا في حجم الذرات !

خرج يمشي فوق الرمال اللينة. لا بأس.. الهواء نقي والأرض ثابتة .

وجد صخرة على الأرض فأمسك بها، وركع على رُكبتيه.. بدأ يخط على التربة أشكالًا .

- هل هذا هو الرسم؟

ابتسم، وواصل العمل من دون أن يقول شيئًا .

رسم عنكبوتًا لا بأس به، ثم رسم نسرًا يفرد جناحيه.. لم تكن رسومًا رائعة، لكنها ترمز إلى الشيء بشكل ذكي.. ثم إنه خط خطوطًا تمثل قردًا، تمثل عقربًا .

- هل هذه مخلوقات من عالمك؟

- نعم، ومن الغريب أنه لا يوجد عالم حيواني عندكم في «زور»!

هلل الطفل وقد راقى له هذه اللعبة، فبحث عن صخرة أخرى، وراح يحاول تقليد أبيه في الرسم، وشعر عماد برضا.. لديه ما يُعلمه لهؤلاء القوم، فهم مثلاً لم يسمعو قط عن نشاط اسمه : الرسم .

لكن «كيفياليانماياسوش» كانت محبطة، قالت بلامبالاة :

- ما جدوى هذا النشاط؟ محاولة أن تقلد الواقع؟ الصور الإشعاعية «بيتا جاما» تفعل هذا بشكل أفضل !

لم يستطع أن يشرح لها.. هذه أشياء لا تُفسَّر.. ما قيمة الفن أصلًا؟ لا يمكن وصف الأمر في كلمات.. لو شرحت قيمة الرسم أو قيمة النحت أو قيمة الأدب، لما وجدت ما تقوله .

قال لها وهو ينهض من ركوعه :

- هذا شيء غريزي في الناس. منذ ملايين السنين كان رجل الكهف يرسم كل شيء على الجدران، كان يحكي بالرسوم قصة حياته كاملة .

- لأنه لم يملك أشعة «بيتا جاما». أما اليوم فهذا تضييع للوقت !

هذه كانت المكافأة على ما بذله من جهد، وقد شعر بخجل من نفسه مع حنق شديد. تناول كف ابنه أشرف وعاد بلا كلمة واحدة إلى عالم «زور».

مرت الأيام... هي تتعلم الكثير عن الأرض، وهو يتعلم الكثير عن «زور»، ويحاول في الوقت ذاته القيام بمهمة عسيرة؛ هي نقل بعض ثقافة الأرضيين إلى ابنه أشرف، لكن الأمر عسير فعلاً؛ كيف تنقل إليه فكرة الوطن أو فكرة الدين؟ هؤلاء القوم لا دين لهم، لكنهم يحترمون «أليما» جدًا .

جاءت اللحظة المثيرة، عندما كان جالسًا أمام الشاشة، فسمع الخاطرة تتردد في ذهنه :

- نحن الآن في كوكب يبدو شبيهًا جدًا بالعالم الذي جئت منه !

هرع عماد إلى الشاشة ليرى ما يقوله «ألتیما العظیم» :

- أزل الظلام يا «زور».

فتزول الغيوم على الشاشة، ويظهر «ألتیما» بوجهه المميز الأخضر، ويتكلم :

- هذا هو العالم «1917 - ب».. للمرة الأولى نقابله .

بدا الرقم مألوفًا بالنسبة إلى عماد، فتساءل ذهنيًا :

- أنا متأكد أننا كنا في عالم بهذا الرقم من قبل !

- «زور» لا يرتكب أخطاء !

لم يكن عماد من الذين ينسون الأرقام بسهولة، دعك من أن الرقم «1917» لا يمكن نسيانه؛ في عام 1917 نشبت الثورة البلشفية في روسيا، وهو نفسه عام «وعد بلفور» المشؤوم الذي أدى إلى ابتلائنا بإسرائيل... لا يمكن نسيان رقم «1917» أبدًا !

- «زور» لا يرتكب أخطاء !

عاد عماد يتساءل :

- هل هو يشبه العالم الذي جئت منه فعلاً؟

- يشبهه جدًا، لكنه ليس هو، يماثله تمامًا، ومن الوارد أن تجد أنه يماثل الزمن نفسه الذي جئت منه .

- وما العالم الذي جئت منه أصلًا؟

- العالم «1917 - ج».

جاءت «كيفاليابانماياسوش» وقد بدا عليها الحزن، فاحتضنت عماد من الخلف كعادة أهل «زور»، واعتصرته بقوة، وهمست في أذنه :

- القرار قرارك! يمكنك أن تتركنا وترحل، أو تدخل الممر الأفعواني الذي يقودك إلى العالم «1917 - ب»!

مها.. مها وأشرف.. بيتي.. سيارتي.. شوارع القاهرة المغيرة المزدحمة.. اللغة العربية.. دور السينما والمولات والمطاعم.. السماء فوق رأسك بعيدًا عن هذا العالم العضوي اللين الشبيه بالرحم من الداخل.. لا شك أن الإغراء شديد .

هناك احتمال قوي جدًا أن تجد نفسك في عالم يشبه عالمك.. يشبه أرضنا.. وهذا معناه أن تجد أناسًا آخرين، ولربما تجد زوجتك مها أخرى، وابنتك أشرف آخر، فهل سيعرفانك؟ وماذا لو قابلت أنت آخر؟

برغم هذا شعر بالحنين يعتصره !!

رباه! كانت لحظات قاسية وهو يحتضن «كيغاليانماياسوش» و«جراموسانتافونمك»! لحسن الحظ أن هؤلاء القوم لا يبالغون في العواطف وإلا لرأينا مشهدًا هستيريًا .

اقتادته «كيغاليانماياسوش» إلى ممر عضوي طويل؛ ممر ينقبض وينفتح، يُذكرك بالحالب من الداخل، الأرضية زلقة ولها رائحة عطرية غريبة. لم ينظر إلى الخلف، ومشى نحو نهاية النفق المظلمة، لا توهي أبدًا بوجود عالم خارجي. في الظلام الدامس خطا خطوة واحدة متأهبًا لأن يسقط في هاوية بلا قرار ...

فجأة شعر بأنه يدخل دوامة رهيبة ...

إنه في الطائرة! الطائرة المصرية التي بدأ بها مغامرته! والأغرب أنه يلبس كامل ثيابه والخوذة! برج المراقبة يواصل تحذيره من العاصفة الرعدية !!

استعاد السيطرة على الطائرة التي تتحدر بسرعة جهنمية، ثم دار متجهًا نحو القاعدة الجوية .

كان يفكر بعمق.. هذه هي اللحظة فعلاً.. هذا هو العالم كما تركه بالضبط.. لكنه لن يطمئن حتى يرى وجوه رفاقه في القاعدة، يرى القاعدة نفسها ...

عندما هبطت الطائرة أخيرًا والمظلة خلفها، رأى الفنيين يقفون . وهرع واحد منهم نحو الطائرة عند توقفها. انفتحت قمرة القيادة، فرأى وجوه زكي ونبيل وعلاء.. كلهم هنا !

- كنا قلقين عليك! العاصفة الرعدية كانت مخيفة !

هكذا أمضى لحظة واحدة بمقاييس أرضنا، لحظة واحدة لكنها تماثل عدة أشهر في «زور».. ألعاب النسبية التي لم يفهمها قط .

المهم هنا أن هذه هي أرضنا فعلاً، لا تشبهها بل هي، حتى إنه فكر في قلق أن تكون كل هذه المغامرة هלוسة شعر بها نتيجة نقص الأكسجين .

العالم «1917 - ب».. لقد رآه مرتين.. جاء منه وعاد إليه! ومعنى هذا أن «ألتیما العظیم» قد أخطأ، لا شك في هذا. قد يكون هذا هو العالم «1917 - أ»، أو «1917 - ب»، أو «1917 - ج».. المهم أن «ألتیما» ظن أنهم لم يروا هذا العالم قَطَّ.

لم يكن قد اختفى بتاتًا بالنسبة إلى الآخرين، وحتى عندما عاد إلى داره واحتضن منها وأشرف في نهم، كأنه يحشرهما في صدره، لم تفهم زوجته سبب كل هذه العاطفة :

- تتصرف كأنك كنت في عالم آخر وعدت منه !!

لا تعرف كم هي صائبة .

*

في أمسية هادئة جلس يشاهد إحدى القنوات الثقيفية وهو يرشف الشاي بعد العشاء، وكانت القناة تحكي عن عالم ياباني .

هذا العالم الياباني يُدعى «ماساتو ساكاي»، وقد كوّن فريق بحث مهمًّا لاستكشاف ظاهرة غريبة في بيرو جنوبي ليما.. الظاهرة موجودة في صحراء «نازكا» عند جبال الإنديز .

انتقلت الكاميرا لترينا رسومًا عجيبة التُّقطت من طائرة ...

هذه الرسوم العملاقة يصل طول بعضها إلى 200 متر، رُسمت بلون أبيض على أرض رمادية، بعض الرسوم يمثل قردًا، وبعضها يمثل طائر الطنان، أو نسر الكوندور الذي اشتهرت به بيرو، أو عناكب ...

خطوط «نازكا».. الأثر الجيولوجي المهم الذي ضمته اليونسكو .

من رسم خطوط «نازكا»؟ ما القدرة السحرية لدى الإنسان القديم منذ 2000 سنة التي جعلته يرسم على هذه المساحات الشاسعة؟ هذه رسوم لا يمكن فهمها إلا من طائرة، فكيف يمكن رسمها؟

قال العالم الياباني إنه من الواضح أن من رسم «نازكا» رسم نماذج صغيرة، ثم قام بتكبيرها بطريقة المربعات.. هذا طقس ديني يطلب الخصوبة للأرض .

سقط كوب الشاي من يد عماد !!

يعرف جيدًا هذه الرسوم.. يعرف اليد التي رسمتها.. لكنه لم يكن قد رآها في بيرو من قبل! لم يرَ هذا الفيلم من قبل !

«وجد صخرة على الأرض فأمسك بها، وركع على رُكبتيه.. بدأ يخط على التربة أشكالاً .

- هل هذا هو الرسم؟

ابتسم، وواصل العمل من دون أن يقول شيئاً .

رسم عنكبوتًا لا بأس به، ثم رسم نسراً يفرد جناحيه .. لم تكن رسوماً رائعة، لكنها ترمز إلى الشيء بشكل ذكي.. ثم إنه خط خطوطاً تمثل قردًا، تمثل عقربًا .

هلل الطفل وقد راقى له هذه اللعبة، فبحث عن صخرة أخرى، وراح يحاول تقليد أبيه في الرسم، وشعر عماد برضا.. لديه ما يُعلمه لهؤلاء القوم، فهم مثلاً لم يسمعوا قط عن نشاط اسمه: الرسم .»

إذن هو رجل من العالم «1917 - ب».. عاد إليه ذات مرّة غير عالم بأنه فيه.. ثم عاد إليه مرّة أخيرة.. ثلاث مرّات.. لكن خطأ «أليما» جعل عماد غير قادر على الفهم !

عماد هو من رسم خطوط «نازكا».. «زور» نقله إلى كوكب الأرض منذ 2000 عام من تاريخنا هذا، وجعله عملاقاً، بحيث صارت نقوش «نازكا» هائلة الحجم مجرد نقوش بحجر على الأرض !

كان عماد يعرف حدوده جيّداً.. لن يتكلم أبداً.. وإلاً فالطريق إلى الفصل من عمله وإلى مستشفى المجانين ممهد !

أنا من رسم خطوط «نازكا» منذ 2000 سنة يا بروفيسور «ماساتو ساكاي»!! كنت في «زور» وهذا يُفسر كل شيء !!

جلس لساعات يرمق شاشة التلفزيون التي تعرض برامج وثائقية أخرى. كان شاردًا ...

«كيفاليانماياسوش» و«جراموسانتافونمك».. هل يراهما ثانية؟

هل يعود إلى «زور» مرّة ثانية؟

الإجابة: لا طبعًا، هذه الصدفة لا تتكرر. هناك احتمال وإِ أن تكون رحلته إلى «زور» كلها هلوسة بسبب نقص الأكسجين لحظة الدوامة الرعدية، لكنه يعرف في قرارة نفسه أن هذا كله قد حدث فعلاً.. لم تكن هلوسة !!

أغلق جهاز التلفزيون ونهض لينام .

ليس لهو أطفال

كان حيًّا .

عرف كامل أنه حي، وأنه يتحرك، يمكنه أن يحرك أنامله. وبرغم الوحل الذي يسد خياشيمه وفمه، وتلك الرائحة العطنة، فإن بوسعه أن يدرك يقينًا أنه حي .

هناك احتمال بسيط أن يكون قد مات ولا يدرك هذه الحقيقة، ويكون هذا المكان الكابوسي هو القبر، لكن كل شيء يبدو حقيقيًا ملموسًا، هناك شيء يميز الواقع بالتأكيد، وإلا فلا يوجد شيء اسمه واقع .

راح يشق طريقه وسط الوحل والظلام. محاولة النهوض مستحيلة لأنه لا توجد أرض يركّز عليها. إنه يزحف في وضع أفقي، وينزلق كلما حاول الاعتدال. هذا المكان أقرب إلى مستنقع كربه الرائحة، كأنه غرق في أنابيب الصرف الصحي مثلًا، ولم يحاول أن يفتش أكثر أو يفهم ما يحدث حوله، لأنه أدرك أن الأشياء الدقيقة التي يخوض فيها هي ديدان، ديدان موجودة بكثافة غير عادية حتى صارت أقرب إلى مستحلب .

كان يحاول جاهدًا تذكر كيف ومتى جاء إلى هنا. لا يستطيع التذكر. كان هناك في جمصة ينعم بالمصيف، هناك قناديل بحر كثيرة قرب الشاطئ، لذا قرر أن يتجه إلى أقصى اليمين حيث منطقة نائية لا يرتادها المصطافون، وعلى الأرجح لا توجد فيها قناديل بحر .

كان هذا قرب الغروب، غروب يوم من أيام يوليو .

نزل إلى البحر، وراح يستعرض مهارته في السباحة أمام جمهور وهمي، وهي مهارة ضئيلة تشبه سباحة الكلاب كما تعلم، لكنه كان وحيّدًا آمنًا من اللسعات المؤذية للقناديل .

ماذا حدث بعد هذا؟ هو غير قادر على التذكر فعلًا، فقط كانت هناك قوة كاسحة تقوده إلى أسفل، وكان يقاوم وينثر الماء، ويحاول التنفس جاهدًا .

بعد هذا ظلام ...

يمكن القول إنه غرق، وهذا يعني أنه الآن في العالم الآخر يواجه عذاب القبر أو ما هو أسوأ! لكن كل شيء كان يخبره أنه ما زال حيًّا.. يجب أن يفهم .

*

سامح كان منبهراً بالمشهد، بينما القارب يشق طريقه في المياه .

طريق أبيض رغوي يُشق خلف القارب، لكنه طريق قصير العمر فعلاً، فلا يلبث حتى تهدأ الأمواج ثانية، ويختفي الطريق، بينما يتعالى صوت هدير المحرك .

«ديفيد» يقف عند الدفة، وقد عقد القميص حول خصره على اللحم، وهو حافي القدمين. حُيِّل إلى سامح أن هذا الفتى لا يلبس حذاء أبداً .

كان أبو سامح يقف هناك متمسكاً بحاجز القارب وهو متوتر مذعور. التشاؤم صفة دائمة في كبار السن عامة. بالتأكيد كان يتمنى أن ينتهي هذا العرض الساحر .

قال «ديفيد» وهو يحمل الدلو ويتجه إلى حافة القارب :

- هذا هو السمك المتعفن.. راقب ما سيحدث .

وقلب الدلو بما فيه من مادة عفنة في الماء، ثم راح ينقط بقايا الدم بدورها. هنا بدأ الماء يفور. للحظة لم يُصدق سامح ما يراه، لكنه رأى شيئاً يشبه الديناصور يخرج من الماء ويتقلب، ثم ظهر شيء آخر، وبدا كأنهما ديناصوران يتصارعان على التهام السمك !

قال «ديفيد» في مرح :

- الطول لا يقل عن سبعة أمتار، هذا طول مخيف !

كان «ديفيد» يتكلم بطريقة التطجين الأسترالية المعروفة، وحتى اسمه كان ينطقه «ضايفيض»، ويقول على الثعبان «snake»: «صنايك». لكن سامح كان قد اعتاد اللهجة الأسترالية وأحبها فعلاً .

- الإناث أصغر بشكل واضح من الذكور، وهذا التمساح يعيش في المياه المالحة طبعاً، لكنه كذلك قادر على أن يعيش في المستنقعات .

منذ سمع سامح عن تمساح المياه المالحة وهو مندهش؛ ارتباط التماسيح بالمياه العذبة والأنهار قوي جداً، لكن حقيقة وجود مزارع شاسعة من التماسيح في منطقة البحيرات هي حقيقة غريبة !

قال الأب وهو يرتجف لرؤية المشهد البشع :

- لماذا يربي شخص عاقل هذه الوحوش؟

قال «ديفيد» ضاحكاً :

- هذه ثروة، الجلود ثروة واللحم ثروة.. إن التمساح كنز للتصدير، وهذه المزرعة تكفي لجعلي أنا وأبي ثريين .

ثم أردف :

- على كل حال أنا ولدت في هذه البيئة، لم أعرف لنفسى عملاً في حياتي سوى تربية التماسيح وصيدها وذبحها وسلخها، لا أجيد أي عمل آخر .

عامّة أخبرهما «ديفيد» أن تمساح المياه المالحة يتمركز في أستراليا وجنوب شرقي آسيا، وهو من أشرس الزواحف وأخطرها، كما أنه من هواة أكل البشر بامتياز !

- لا بد من فقد عامل أو عاملين كل عام في هذه المزارع !

- هل يخطف الناس من تحت الماء؟

- أحياناً يقلب القوارب، لكن التمساح يحتاج إلى أن يظل رأسه فوق الماء؛ فهو لا يقدر على التنفس تحته، لهذا يغطس كله ما عدا قمة الرأس، وفي الليل يمكنك لو سلطت الكشاف على الماء أن ترى العيون اللامعة المخيفة، لديه طبقة عاكسة في شبكية العين .

أخيراً يدير «ديفيد» دفة القارب نحو الشاطئ ...

كان أبو سامح طبيباً، هاجر إلى أستراليا منذ زمن، وقد استطاع أن يرتب حياته هناك، وظفر بصديق مخلص هو «كاثريل»، وابنه «ديفيد»، وهما يملكان عدة مزارع تماسيح في شمال البلاد. لم يكن مولعاً بالموضوع، لكنه عرف أنه سيروق لابنه المراهق ذي الاثني عشر عاماً: سامح .

هكذا كان هذا اليوم الممتع للابن، المزعج للأب؛ الذي لم يحب الرحلة البحرية، ولا التماسيح، ولا البحيرات المالحة، ولا أي شيء على الإطلاق. لم يستطع أن يبعد عن ذهنه احتمال أن ينقلب القارب أو يسقط أحد ركابه في الماء. ما فرصته في النجاة؟

حسب ما قاله «ديفيد» عن تمساح المياه المالحة، ففرصة النجاة صفر !

عندما ترحلوا على الشاطئ، قال «ديفيد» إنه يريد دعوة الأب إلى قرح من الشاي مع الحلوى، واتجه الرجلان إلى حيث مظلة يُعنى بها أحد العمال .

وقف سامح على الشاطئ وطاق «الأدريينالين» لديه ما زالت عالية، كان آخر شيء يرغب فيه هو الجلوس وشرب الشاي، هكذا راح يركض هنا وهناك ويركل الرمال .

هتف الأب :

- لحظة يا سامح، هذه المنطقة خطيرة، التماسيح تتجه إلى الشاطئ بالتأكيد

!

قال «ديفيد» ضاحكًا :

- نحن نضع سورًا من السلك الشائك حول البحيرة لمنع التماسيح من ارتياد هذه البقعة، لديهم الجزء الغربي من البحيرة، يمكنك أن تطمئن .

مشى سامح وحيدًا وهو ينظر إلي الأرض، يلتقط من وقت لآخر حجرًا غريب الشكل فيدسه في الحقيبة المعلقة في كتفه .

فجأة توقف! هذه المجموعة من البيض؛ بيض أصغر نوعًا من بيض الدجاج، وله قشرة جلدية مرنة. أي بيض هذا؟

كان أول خاطر جاب ذهنه هو أن هذا بيض تماسيح. قال «ديفيد» إن التماسيح يضع نحو 60 بيضة، وهي ملكية مشتركة لكل الإناث، أي أن الأم التي تجد البيض ترعاه حتى لو لم يكن بيضها .

الرئيس الأمريكي «روزفلت» أمر ذات مرة بإعداد عجة له من 90 بيضة تماسيح، وقد أكلها، وقال إنها لذيذة الطعم !

سامح راكم على ركبته يرمق البيض ويفكر ...

لماذا لم يشعر بالأنثى القادمة في بطن من خلفه؟ !

الصوت الذي سمعه خلفه لم يكن مألوفًا، لم يكن كفحيح الأفاعي لو خطر لك هذا، لكنه صوت ميكانيكي رتيب غريب! لهذا يتخيل من يمر بنهر الأمازون أنه يسمع قاربًا بخاريًا يقترب. هناك صوت آخر للتماسيح شبيه بصوت طبل مكتوم، ويعرفه من تعاملوا مع التماسيح جيدًا !

سامح لا يدرك أن هناك أنثى تماسيح مياه مالحة عملاقة تدنو منه !

سامح لا يدرك أن عاطفة الأمومة والحماية قوية عند هذه الوحوش !

كانت تتقدم نحوه في بطن وهي تصدر ذلك الصوت ...

تراجع إلى الخلف مذعورًا، فتعثر في الرمال وسقط أرضًا !

لأول مرة يدرك التشابه القوي بين هذا الوحش والديناصورات كما تبدو في الرسوم !

أدرك أنه لن يجد الوقت الكافي لينهض قبل أن ...

هنا كان التمساح يتراجع إلى الخلف؛ عندما رفع سامح عينيه أدرك أن أحد العمال في المزرعة يجذبه من ذيله بقوة، ولم يكن الأمر سهلاً، لأن ذيل التمساح الزاخر بالعضلات قادر على قتل رجل، لكن العامل نجح في إبعاده بضع خطوات، ثم صاح في الفتى أن ابتعد مسرعاً .

نهض سامح الذي لم يحتج إلى أمر آخر، وأطلق ساقيه للريح. عندما نظر إلى الخلف رأى أن الرجل يجر التمساح جراً نحو البحر، وعندما ارتطمت الأمواج بالزاحف البشع بدا كأنه نسي المشاجرة الرهيبة التي كان يشتهيها، وفضل السباحة .

على مائدة الغداء كان هناك طبق من لحم التماسيح، وبالطبع لم يجسر الأب على لمسها، لكن سامح تذوق قطعة، وبدا له شبيهاً بطعم أفخاذ الدجاج نوعاً، لم يكن شبيهاً بلحم السمك كما تخيل سابقاً .

قال «ديفيد» وهو يصب لنفسه بعض الحساء :

- قال لي «توماس» إن أنثى تمساح تعرضت لك على الشاطئ. خذ الحذر! من النادر أن يهاجم التمساح الناس على البر، لكن الأمر يختلف إذا تعلق بتهديد يتعرض له الصغار !

ضحك سامح ولم يُعلق .

قال «ديفيد» :

- ليس من المعتاد أن تمشي التماسيح كل هذه المسافة لتضع بيضها. قلت لك إننا نسمح لها بالتجوال في الجانب الغربي فقط .

واصل الكبار الأكل والكلام، بينما خطر لسامح أنه يريد السير قليلاً على الشاطئ. الحق أنه كان مفتوناً بالبيض الذي وجده وسط الرمال، والذي كاد يكلفه حياته !

من جديد مشى فوق الرمال يفتش عن البقعة التي وجدها ...

لا توجد تماسيح قريبة. ممتاز. لو ظهرت الأم من لامكان هذه المرة فهي كائن شيطاني فوق الطبيعة !

أخيراً دنا من مجموعة البيض، هنا أصابته الدهشة ...

لقد كان بعض البيض يتحرك ويهتز، ثم رأى بيضة تتمزق قشرتها اللدنة، ورأى خطماً صغيراً يبرز من الداخل وهو يحاول التحرر.. هذا تمساح يولد في هذه اللحظة المباركة !

جثا سامح على الرمال مفتوتًا بالمنظر؛ هناك تماسيح صغيرة أخرى توشك على التحرر. مد يده والتقط بيضة من البيض السليم، وفتح حقيبتة ودسها فيها، ثم عاد يراقب هذه الأعجوبة .

أخيرًا خرج التمساح الصغير من البيضة، كان في حجم السحلية الصغيرة، ويحتفظ بدرجة قبح وبشاعة البالغين نفسها. كل الكائنات الطفلة جميلة، لكن يبدو أن التمساح استثناء !

عندما مد سامح يده نحو الكائن، فوجئ بأنه وثب في الهواء محاولًا قضم إصبعه !

هذا مذهل ! إنه يحتفظ بشراسته كاملة منذ لحظة الولادة !

لا أحد يقدر على أن يمسك بهذا الوحش الصغير الوليد بين يديه، إنه سيقضم يدك فورًا !

قرر سامح أنه رأى ما يكفي، هكذا انطلق جريًا عائداً نحو أبيه و«ديفيد». يمكنه تخيل التماسيح الصغيرة وهي تتخبط إلى أن تأتي أم من الأمهات الجوالات على الشاطئ لتُعنَى بها، على الأرجح ستقودها نحو البحر .

المغامرة الصغيرة التي بقيت له كانت أن يحمل البيضة معه سرًا إلى داره عندما عاد مع أبيه بعد يوم ممتع مرهق في مستعمرة التماسيح. كان هناك في البيت حوض أسماك زينة فارغ لم يبقَ فيه سوى بعض الحصى، وقد صب فيه بعض الماء، ثم نقله إلى غرفته، وهناك وضع البيضة في القاع وطفق يراقبها !

المعجزة لم تتأخر أكثر من يوم واحد ...

عند ظهيرة اليوم التالي رأى المنقار الصغير يهشم القشرة، وخلال ربع ساعة تحرر كائن فاتن صغير بحجم السحلية !

كان لحوض السمك غطاء قابل للغلق، لذا وضعه بإحكام، وراح يراقب التمساح الوليد الذي يضرب الجدران الزجاجية !

- سوف أطلق عليه اسم «سولتي» نسبة إلى المياه المالحة التي جاء منها .

ولنفس السبب ملأ قبضته بالملح، وسكب بعضه في الماء، ليجعل البيئة مألوفة بالنسبة إلى التمساح، ثم إنه بحث في الثلاجة حتى وجد بعض علب التونة، فتح واحدة، واقتطع منها بعض اللحم المفيت بملعقة، وفتح الحوض من أعلى... هنا وثب التمساح برشاقة مذهلة محاولًا قضم أنامله، وجد بالكاد الوقت الكافي ليسقط قطعة اللحم ويعيد غلق الغطاء !

«هذا الحوض يحوي قنبلة موقوتة!».

قالها لنفسه، وإن اعترف أنه كائن فاتن.. فاتن إلى أقصى حد !!

*

كامل يواجه لحظات سوداء !

لم يكن ما يخوض فيه مجرد وحل وديدان، لقد انزلق عدة مرّات، وفجأة أدرك أنه يتحسس جثة.. هذا حق.. جثة بشرية متحللة تسبح هناك وسط الوحل !

أصابه الفزع الهستيرى الذي يصيب من يتحسس جثة، كأن الموت مرض مُعدٍ ينتقل باللمس. تراجع إلى الخلف وشهق، يريد بعض النور، يريد أن يعرف أين هو بالضبط .

على العموم يدرك من الوحل الذي لامس شفثيه أن هذا ماء عذب.. ليس في البحر. كان يعرف أن هناك مصرفاً يلتقي بالبحر في النقطة التي كان يسبح فيها. ذات مرّة رأى جثة حمار طافية كريهة الرائحة تتجه عبر مياه المصرف والوحل لتصب في البحر .

يمكنه أن يخمن أنه في هذا المكان، لكنه ليس على السطح، الأمر أقرب إلى كهف مظلم تحت مستوى المياه، وهذا الكهف يسمح بدخول الهواء من مكان ما .

كهف مليء بالجثث المتحللة؟

عليه أن يتحرر، وأن يجد مصدرًا للنور .

كان يشق طريقه بصعوبة بحركات أقرب إلى السباحة، سباحة في الوحل. وأدرك أن الجثة التي شعر بها لم تكن الوحيدة، كما أن هناك جثة حيوان متحلل لم يتبين طبيعته .

يرى نجوم السماء .

إنه يتحرر ولا شك في هذا .

لكن يبقى السؤال: ماذا أتى بي إلى هنا؟ أين أنا بالضبط؟

يذكر كامل جلسته في مكتب مدير الأمن، محاطًا بمجموعة من الرتب والكاسكيتات ولفائف التبغ والبدلات البيضاء وعلامات الخطورة .

هل تُفضل الشاي أم القهوة يا دكتور؟ القهوة؟ إذن هي القهوة يا علاء .

كامل يشعر بحيرة، فمن غير المعتاد أن يستعين رجال الشرطة بخبرات خبير أحياء مائية مثله، وقد أدهشه أن يأتي له ضابطان في مقر عمله في معهد علوم البحار يطلبان رأيه في مهمة استشارية .

جلس متوجسًا ينتظر ما سيُقال له. بعد وقت طال، وأوراق تُوقَّع ودعابات، قال الضابط الكبير :

- نحن موقنون من وجود سمكة قرش تعيث حول شواطئنا !

حك كامل ذقنه :

- ولماذا لم تطلبوا رأي خفر السواحل ؟ !

- لأنهم يصرون على أننا نهذي !

ثم أخرج بعض الصور الفوتوغرافية من ملف أمامه، وقدمها إلى كامل .

استطاع كامل أن يرى في الصور أطرافًا آدمية مبتورة ملوثة بالوحل، هناك ساعدان وساق، لا توجد رؤوس .

رفع رأسه متسائلًا طالبًا القصة، فقال اللواء :

- هناك ثلاثة أشخاص قد اختفوا عند شاطئ جمصة، الاختفاء تم على مدى شهر !

- هل يجيدون السباحة؟

- على قدر علمي لا أحد يجيد السباحة، الكل يجيد المشي على القاع، لكن الموج ليس بهذا الارتفاع، دعك من أن الموج لا يلقي بأطراف مبتورة على الشاطئ !

كان التفسير الوحيد الممكن هو وجود سمكة قرش اختارت سواحلنا لتمرح هناك، وهي سمكة لم يستطع خفر السواحل أن يجدوها أو يظهر شهود على رؤيتها .

- نحن في مأزق! نحن في انتظار اختفاء الشخص الرابع والعثور على جزء من جثته! نحتاج إلى كل خبرة علمية ممكنة !

قال أحد الضباط بعدما ظل صامتًا طيلة المحاورة :

- هناك حل، أن نغلق الشاطئ، لكن هذا يمثل كارثة اقتصادية لا نتحملها !

كانت هذه هي العقدة الدائمة؛ عقدة فيلم «الفك المفترس»، حيث تتصارع المصلحة الاقتصادية مع مصلحة الناس: الكساد، أم خطر سمكة قد توجد أو لا توجد.. هنا يفضل الناس أن يقامروا، فالسمكة لا تلتهم شخصًا كل يوم .

لكن الأمر يختلف هذه المرّة: لا توجد سمكة على وجه اليقين، هناك شيء يقتل، ولعل التدقيق في الأشلاء يشي بأنها مُزقت بسكين سفاح، لا أعني هذا طبعًا، لكنني أضرب لك مثالًا توضيحيًا .

قال كامل وهو يرسم بعض الخطوط على ورقة :

- أقترح إذن أن نقوم ببعض الورديات لمسح الشاطئ. سنضع شبكة محكمة من المراقبة على الشاطئ كله حتى إذا جاء الحادث التالي عرفنا بالضبط حقيقة ما نواجهه .

قال اللواء في لهجة حسم :

- أنت تملك سلطة كاملة. ضع خطة وستنفذ كما تريدها. لا أريد أن أجد الجثة الرابعة عما قريب !

*

تحولت حياة سامح إلى طقوس خفية لا يعرف أحد كنهها. كان يخفي التماسح الصغير في حجرته، ويتسلل ليطعمه أو يجلس الساعات يراقبه .

لا يعرف متى ولا كيف وُلد الاسم، لكنه صحا ذات يوم ليعرف أن التماسح اسمه «سولتي». بماذا تسمي تماسح مياه مالحة سوى باسم «سولتي»؟ وكان يمضي وقتًا طويلًا معه. من حسن الحظ أن الأب كان مشغولًا فلم يكن يدخل حجرته. أما الأم فهي لا تعرف، لأن المياه عكرة وقاع الحوض موحل ومغطى بالحصى، يسهل أن تُخبئ تنيًا فيه، وعلى كل حال لم يكن طول «سولتي» قد تجاوز طول سحلية، هكذا كانت تفترض أن الحوض خالٍ وإن كان مأوّه قذرًا .

جاء اليوم الذي أعلن فيه الأب أنهم ذاهبون إلى مصر؛ لديه أعمال عديدة في بلدته المنصورة وزيارات لبعض أقاربه، أمه مريضة جدًّا ولعل هذه الزيارة الأخيرة لها، ستكون إجازة قصيرة لكنها ممتعة وقد تأخرت كثيرًا .

كان سامح يفكر في توتر: ليس هناك من يُعنى بالتماسح، هناك من يطعم حيوانات الناس في بيوتهم، لكنه لا يستطيع الاتفاق مع أحدهم لأن هذا يفضح القصة كلها. هناك حل آخر، هو التخلص من التماسح في المجاري أو بالوعة الحمّام، لكنه لا يجسر على القيام بذلك !

هكذا ولد الحل التأمري، خطة خيالية فعلاً، لكنها بدت له معقولة: سوف يأخذ «سولتي» معه إلى مصر؛ إنه صديقه ولن يتخلى عنه .

بالطبع ليس واريًا أن يتم الأمر بشكل قانوني أو تُطبق قوانين حجر الحيوانات. ليس من الوارد أن يقبل أبوه دخول هذه الدائرة الشيطانية من أجل سحلية ذات أنياب .

في مصر سوف يختار بين أن يعود بالتمساح إلى أستراليا ثانية، أو يتركه في النيل للأبد، وعلى الأرجح سيتعلم التمساح الحياة في المياه العذبة. التماسيح الأفريقية ذات الأنياب البارزة من الفم المغلق سوف تتعلم سريعًا أن تحب التمساح ذا الأسنان المخفية.. لا عنصرية في عوالم التماسيح .

كانت الأم تُعد الحقائق، ووسط ثيابه وضع سامح أسطوانة بلاستيكية كبيرة واسعة العنق، استطاع بصعوبة بالغة أن يضع فيها التمساح الصغير مع بعض الماء ومحتوى علبة سردين. فليكن ما يكون . ستكون معجزة لو ظل لدى التمساح أكسجين يكفي الرحلة الشاقة الطويلة إلى مصر، لكن لنترك الحظ يلعب دوره .

يمكن القول إن الخطة نجحت .

عندما انفرد بنفسه في بيت أقاربه في مصر، وبعد الكثير من التحيات والقبلات، استطاع أن يصير في غرفته، ويفتح الأسطوانة بحذر، مستعدًا للتخلص من الجثة ...

لكنه فوجئ بأن الوحش الصغير ما زال حيًا يتحرك في وهن، ولعله كان في لحظاته الأخيرة !

أخيرًا عاد الهواء إلى رئتي الوحش، وما لم يعرفه سامح هو أن التمساح يقدر على الحياة مع هامش أكسجين ضئيل جدًا، ثم إن عمره طويل جدًا .

أدرك مع الوقت أن مهمته تزداد صعوبة؛ لن يستطيع إخفاء هذا السر للأبد !

يمكنه إبقاء الوحش داخل الأسطوانة البلاستيكية بعد عمل ثقب في الغطاء، ويمكنه أن يطعمه، لكن هذا الوضع مستحيل مع الوقت خاصة في بيت أقاربه، وعلى الأرجح لن يستطيع أبدًا أن يوفر حوضًا زاجيًا كالذي كان في أستراليا .

لقد صار التمساح همًا !!

خطر له أن يتخلص منه في المرحاض، وهو يعرف أن التماسيح تظل حية وتعيش في المجاري، لكنه لا يجرؤ على عمل ذلك .

جاء الحل بعد ثلاثة أيام، عندما دخل الخال المتحمس الذي يتصب عرقًا،

وهتف ملوحًا بيديه :

- لا يمكن أن نكون في المنصورة ولا نمضي يومًا في جمصة ويومًا في رأس البر. إن لذة المصيف لا تقارن بشيء .

بدا الأب متحمسًا، وكذلك الأم، أما سامح فقد خطر له أن هذه هي فرصته؛ شاطئ كبير يمكن التخلص فيه من ربع ديناصورات العالم فلا يظهر لها أثر !! يبدو أنه سينجح في الخلاص من اللعنة التي جاء يحملها من أستراليا .

*

كامل يخوض الأوحال، وأخيرًا يرى النجوم ويرى الشاطئ .

مشى مترنحًا، وبصعوبة بالغة، إلي أن شعر بقدميه على الرمال. منحه هذا الكثير من الاطمئنان. يمكن للمرء أن يواجه الكثير من الأمور ما دامت قدماه على أرض ثابتة. فيما بعد سيحاول فهم هذا الذي حدث له وأين كان .

هناك جزء معين قد مُحي من ذاكرته، وهو غير قادر البتة على استرجاعه، لكنه على الأقل قد تحرر. وهناك في ضوء القمر راح ينظر إلى البحر المظلم، حيث الموج المتلاطم يصل إلى عنان السماء. هل هو يتخيل، أم أنه يرى جذع شجرة عملاقًا يتحرك في الظلام من بعيد؟ هل هو يهذي؟

- قف مكانك !

كان هذا الصوت قادمًا من وراء الكشاف القوي المُسلط على عينيه. لا يرى شيئًا، لكنه يسمع الصوت الحازم. وأخيرًا يتبين جنديين مسلحين يصوبان السلاح نحوه لكنه لا يرى الوجهين .

- ماذا تفعل هنا؟

الحق أنه لا يدري ما يفعله هنا، لكنه على كل حال يعرف الشكوك التي ينثرها من حوله كل من يمشي على الشاطئ ليلاً. إن احتمال كونه مهربًا ليس أقل الاحتمالات .

ثم تذكر كذلك أنه المسؤول عن هذه الدوريات الليلية، كان هذا جزءًا من خطته .

*

عندما رأى الأب الأسطوانة البلاستيكية وما فيها، أصابه الهلع، لم يتصور أن يتمادى سامح إلى هذا الحد :

- وجئت به من أستراليا إلى هنا؟ !

لم يرد سامح، كان مضطراً للصمت، لأنه يريد أن يساعد أبوه، لذا تلقى اللوم بكثير من الذل. كانت هذه فرصته الوحيدة، لأنه لا يرغب في أن يقتل التمساح الصغير .

قال الأب للخال :

- سأقوم بجولة على الشاطئ مع سامح .

- سأأتي معك .

كان الأب مستعداً للقتال والقتل كي لا يتبعه أحد، لذا تملص من الخال بكثير من الفظاظة .

وعندما دنا المساء وغربت الشمس، مشى الأب وسامح على الشاطئ متجهين نحو الشرق ...

لم يكن هناك أحد، وقد بدا أن الظلام يحجب الرؤية فعلاً ...

هناك قرب الشاطئ، عند مصرف الماء العذب، مد يده ويحذر فتح الأسطوانة البلاستيكية، ثم وضعها في الماء، ونظر إلى الشيء البشع الذي ينسل خارجاً !!

في تأثر هتف سامح :

- وداعاً يا «سولتي» !

- بل قل في ستين داهية !!

وقف الاثنان يراقبان الشيء وهو يسبح في الماء ويختفي، ثم تأبط الأب كتف ابنه عائدين. كان يحكي له عن طفولته، وكيف كان طفلاً قليل الأدب، من ثم دفع ثمناً فادحاً فيما بعد .

هكذا انتهى دور سامح في القصة، لقد قضى بضعة أيام في جمصة ثم عاد مع أبيه والأسيرة إلى المنصورة، وبعد عدة أيام انتهت إجازة الأب وعادت الأسيرة إلى أستراليا .

لقد بذر البذرة اللعينة، ولم يعرف أنه بذرها! ليست هذه الطريقة المثلى للهو الأطفال، ولكننا لا نعفي الأب من المسؤولية، بل هو صاحب الفكرة المقيتة بالتخلص من التمساح الطفل! الحقيقة أن كثيرين في الولايات المتحدة يرتكبون هذا الخطأ، لهذا تحولت شبكة المجاري هناك إلى بيت زواحف يثير

إعجاب أي عالم حيوان !

سامح قد قام بدوره في القصة، ولا أعتقد أننا سنسمع عنه ثانية .

*

مر عام أو أقل قليلاً .

عندما جاء الصيف، وكثر المصطافون، بدأت بعض الظواهر الغريبة. على الأرجح كانت هذه الحوادث تقع قرب المساء .

ينزل خمسة أشخاص إلى البحر وسط الموج المتلاطم، يتبادلون الصباح والضحكات، ولا يتعدون عن الشاطئ كثيراً على كل حال، ثم تهدأ الأمواج، فيكتشفون أنهم أربعة فقط !!

في الحادث الأول، افترض الجميع أن المختفي قد غرق. أما في الحادث الثاني، فقد اختفت الفتاة، لكنهم وجدوا جزءاً من ساقها ألقي به الموج على الشاطئ بعد يومين !!

الاختفاء الثالث ترك بقايا عديدة، وقد أثبت الحمض النووي أن الأطراف لنفس الشخص: المهندس القادم من المنيا ليمزق على شاطئ جمصة !!

قضى كامل في المشرحة وقتاً لا بأس به يتفحص الجثث، وكان ما أثار دهشته وجود سن صغيرة مغروسة في لحم ساق الفتاة، سن مدببة هشة !

قال الطبيب الشرعي، وهو رجل أصلع قصير القامة يرمقك من فوق إطار نظارته في فضول :

- هذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن هناك سمكة قرش !

تفحص كامل السن بين أنامله، وقال في شك :

- لتقطع ذراعي إن كانت هذه سن سمكة قرش !!

في تهكم أصلح الطبيب من وضع عويناته، ثم تساءل :

- سن أسد هي إذن ؟ !

- هي قريبة جداً من سن التمساح !!

- تمساح في البحر المتوسط في جمصة؟! أنت تفوقت على نفسك! هذه هي العبقرية الحقة !

اضطر كامل للصمت، فهو لا يملك خبرة بالتماسيح، ولم يرَ سن تمساح إلا في متحف التاريخ الطبيعي. قال لنفسه إنه غالبًا محق، لكنه لا يقدر على إثبات حرف من كلامه .

*

هكذا قام كامل بتكوين فرق بحث، فرق تمشط الشاطئ جيئة وذهابًا عندما تدنو الشمس من الغروب .

كانوا ينظرون إليه في بلاهة. هو كان ينظر إلى نفسه في بلاهة، لا يتوقع أن يحدث شيء خاص، فهذه الحوادث نادرة، يشبه الأمر أن تراقب أرنبًا متوقعًا أن تهبط حداة من السماء لتختطفه وتمزقه .

مر أسبوع كامل على هذه المراقبة ولم يحدث شيء، إلا أنه كوفئ على صبره في النهاية بطريقة غريبة نوعًا ...

هذا هو الجزء الذي لم يعد يذكره، وقد أنسته إياه الصدمة: كان يمشي على الشاطئ ليلاً، وخطر له أن يضيء الكشاف ليتفقد قناديل البحر الميتة الملقاة على الشاطئ، وقد غمر قدميه في الماء. لا أحد سواه على الشاطئ الممتد المظلم. يمكن أن يحدث أي شيء. فجأة ارتفع شيء عملاق من الماء، وشعر بشيء جبار يطبق على ساقيه. سقط في الماء، فأدرك أن هذا الشيء يحاول أن يبقيه تحت الماء، لا شك في أنه قدير على ذلك بقوته المرعبة .

«تمساح!».

قالها لنفسه وهو لا يُصدق. لقد كانت تنبؤاته صحيحة، لكنه على الأرجح لن يعيش ليعلن أنه عبقرى !

قوة الكائن والفكين مريعة لا يمكن تخيلها ...

سوف أفقد وعيي حالًا، سوف أختنق !

تبًا لكم! فلينقذني أحدكم قبل فوات الأوان !

ما لا يعرفه كامل هو أن التمساح يملك أسنانًا هشة تتبدل بلا توقف وينمو سواها، وهي تتراص على عدة صفوف في فكيه، برغم قوة الفكين الهائلة فإن الأسنان لا تسمح له بالأكل بشكل مريح، لذا يُفضل غالبًا أن يدفن فريسته في الطين لفترة إلى أن تتحلل، وتصير لينة قابلة للمضغ .

كان هذا هو المصير الذي آل إليه كامل عندما حمله التمساح بين فكيه نحو الطين المتراكم على ضفتي المصرف. لقد اصطنع لنفسه بعض الفتحات والكهوف يدفن فيها ضحاياه .

عندما أفاق كامل من فقدان الوعي، كان يتنفس لأنه كان في جيب هوائي تحت الوحل، كما أنه لم يكن مغمورًا بالكامل. لم يعرف أنه كان موضوعًا في برميل التخليل الخاص بالتمساح في انتظار أن يلين لحمه فالالتهام .

نحن نعرف كذلك أنه استطاع بصعوبة أن يحرر نفسه من الوحل ويصل إلى الشاطئ حيث استوقفه رجلا شرطة .

كانت الذكرى قد مُحيت من ذهنه، واصطنع ذاكرة زائفة. تخيل أنه كان يتصرف كأى مصطفى، كان يسبح حيث لا توجد قناديل بحر، وأنه كان يجرب مهارته في السباحة وحيدًا، ثم حدث شيء ما... ما هو؟ لا يذكر .

على أنه عندما وصل كامل إلى الضابط الذي يدير دوريات الأمن، كان قد تذكر كل شيء .

لقد زالت الصدمة، وبدأ يسترجع شكل ذلك الذي هاجمه .

كان تمساحًا ولا شك في هذا؛ تمساحًا عملاقًا انقض عليه في المياه الضحلة، أما الكلام عن تمساح يسبح في مياه بحرية فأمر يحتاج إلى تفسير .

كان كامل في حال سيئة، ملوثًا بالوحل بالكامل، وقد تمزق لحم ساقيه والتوى كاحله، كما أنه كان في خطر الإصابة بالتهاب رئوي من فرط ما دخل رئتيه من ماء أسن .

هكذا كان عليهم أن ينقلوه إلى المستشفى حيث قضى ليلة كاملة .

في الصباح كان أول وجه يراه هو وجه مدير الأمن شخصيًا .

كانت كلمات كامل مقتضبة :

- هذا تمساح فعلاً !!

- تمساح؟ !!

- ويدفن ضحاياه في الوحل ثم يعود لالتهامهم. كان هذا مواعي أمس، لكن لم أنتظر عودته لأنني غير مهذب !

فكر اللواء قليلًا، وحك ذقنه، ثم تساءل :

- كما فهمت، أنت هُوجمت في مياه مالحة. لو افترضنا جدلاً أن هناك تمساحًا نيليًا جاء من بحيرة ناصر، فهو لن يسافر كل هذه المسافة من الجنوب إلى البحر المتوسط، ولن يسبح في مياه مالحة !!

- هناك تماسيح مياه مالحة في العالم، لكنني لا أملك أدنى فكرة عن الطريقة التي جاء بها !

بالطبع كانت عينا الضابط الكبير مفعمتين بالشك. القصة تحتاج إلى ما هو أكثر من الصودا لابتلاعها. لكن تبقى حقيقة واحدة هي أن هذا الرجل في الفراش يبدو كلعبة كان يلعب بها طفل مخبول .

تفتيش منطقة الوحل التي تحدث عنها كامل كان أشبه بفقرة في فيلم رعب، لقد ظهرت بقايا المختفين جميعًا. مهما افترست الشخص فإن بعض أنسجته تبقى، ويمكن تمييزها بالحمض النووي .

هكذا عُقد اجتماع متجههم طويل، وتم الاتفاق على إخلاء الشاطئ بالتحديد في منطقة الحوادث السابقة، وعمل بعض الأكملة مع استخدام طعوم تجذب التمساح .

*

للمرة الثانية يجول كامل وحده، وللمرة الثانية يكون هو المحظوظ الذي يقابل التمساح .

كان الليل قد دنا، وكان يمشي شارد الذهن تقريبًا في البقعة ذاتها التي سبق أن تم اختطافه فيها. كانت المنطقة خالية من الناس أصلًا، ثم إن حظر السباحة في هذه الأماكن كان شديدًا في الفترة الأخيرة، لهذا كان وحده تقريبًا .

كان الضوء خافتًا، لكنه استطاع أن يميز الحدود الخارجية لرجل؛ رجل يرقد هناك على الرمال على ظهره، ومن الواضح أن معه لوازم الشاي ونارجيلة صغيرة، ويبدو أنه كان ينعم بالرقاد بعد رحيل الشمس وبعدها بردت الطبيعة قليلًا. على الأرجح هو واحد من الخفراء الذين انتشروا في المكان مؤخرًا. الأحمق يعتقد أن الحارس لا يُهاجم أبدًا !

أما هذا الظل المتحرك الزاحف على الرمال، فهو شيء يريد أن يقبض على هذا النائم !

عندما تقترب أكثر تجد أن هذا شيء له طول تمساح، له معالم تمساح، له زحف تمساح. يزحف في الغبشة نحو اللحم النائم. إنه ببساطة تمساح عملاق قد خرج من الماء وظفر - أو كاد - بغنيمة ساذجة غافية .

الفك يُفتح ليقضم الرجل النائم أو يجره للماء ...

كان كامل يعرف معلومات شحيحة عن التماسيح. خبراء الأحياء المائية ليسوا

علماء زواحف لو لاحظت هذا، لكنه على الأقل يعرف ما يكفي ليتصرف ...

ركض نحو الشيء الزاحف البشع، رأى الرأس العملاق الذي يدنو من الحارس، ارتدى على الفك المغلق واحتضنه بذراعيه بأقصى طاقة لديه، ثم صرخ... صرخ حتى يستيقظ الحارس، قبل أن يضرب الذيل الجبار المجنون كامل ...

كان المشهد مثيراً للذهول، يُذكر بك بصرع «هرقل» مع «الهيدرا».. أسطورة حية تتحقق !

لكن كامل لم يكن قوياً على الإطلاق، هو فقط يذكر معلومة بسيطة تقضي بأن فكي التمساح ينغلقان بقوة لا يقدر بلدوزر على فتحهما، لكنهما بالنسبة للفتح واهنان جداً، يستطيع أي طفل أن يمنع التمساح من فتح فكيه لو ضغط عليهما بيده، فقط لو تحاشى الذيل القادر على قتل رجلين، أما لو أطبق التمساح على جزء من جسده فانت تحتاج إلى معجزة كي تفتح فكيه من جديد .

كانت الضوضاء كافية كي يصحو الحارس مذعوراً، ويبسمل ويحوقل، ثم يحمل البندقية، ويبد راجفة يلصقها برأس الوحش، حتى إنه لو ارتجف أكثر لأصابت الرصاصة كامل .

انطلقت الرصاصة مدوية، فتشنج الجسد، حتى إنه ألقى بكامل بضعة أمتار بعيداً .

سرعان ما جاء الرجال على ضوء الكشافات لينهوا المهمة بالمزيد من الطلقات. كان الخوف يجعلهم يطلقون بلا تروٍ وبلا اقتصاد في الرصاص.. المهم أن يمزقوا هذا الشيء .

عندما انتهوا من عملهم، كان الشاطئ عبارة عن فوضى من الدم ورائحة البارود والطلقات الفارغة .

وقف كامل يلهث، رُكبته من عجين لين، وقد امتلأ فمه بالرمال، وتقلصت ذراعاه من فرط الجهد العضلي .

لقد هلك الكابوس !

كامل ليس خبير تماسيح، لا يعرف عنها إلا القليل، لكنه ظل يراقب الجثة في شك .

لو كانت معلوماته صحيحة فأسنان التمساح تبرز من بين الشدقين وهما مغلقان، هذه علامة تميز التمساح الأفريقي، التمساح النيلي. التمساح الأمريكي وتمساح المياه المالحة يغلق فاه فلا تظهر أسنانه .

كامل ليس خبير تماسيح، لهذا دعا الله أن يكون على خطأ .

لو كان محققاً فهذا تماسيح آخر؛ تماسيح نيلي فر من بحيرة ناصر. هناك حوادث مماثلة تكررت مؤخراً، وإن كان من الصعب أن يصل إلى البحر المتوسط .

لو كان محققاً فتمساح المياه المالحة ما زال حياً وحرّاً، وسيعلن عن نفسه عما قريب !

أتمنى أن أعرف ما سيحدث بعد ذلك، لكن قصتي يجب أن تنتهي عند نقطة ما، لهذا أترك الباقي لخيال القارئ وللحظ !

قصص لا تكتمل

هكذا تولد الأفكار في الليل، وتتبخر في الصباح !

كان مصطفى يعرف جيدًا هذا الجو، لكنه الليلة قرر أن يكتب ويكتب إلى أن يهده التعب. الزوجة نائمة، والأطفال نائمون، وهدوء البيت القاتل يُغري بالعمل، حتى القط يستلقي على الأرض وقد تحوّل إلى كرة من الفراء .

أعد لنفسه كوبًا من الشاي في المطبخ مع شطيرة من الجبن، ثم اتجه إلى غرفته حيث الكمبيوتر، يتسلى بحافظة الشاشة في انتظار القصة القادمة. كانت الأفكار تزدهم في رأسه، ألف فكرة وفكرة، لكنه لا يعرف أبدًا كيف ينهي هذه الأفكار. وقد كان يؤمن بمقولة: «لا تبدأ قصة لا تعرف نهايتها»، لذا كان يهمل الكثير من الأفكار الجامحة التي لا يعرف إلا الله كيف يمكن أن تنتهي .

رشفة شاي.. قزمة شطيرة.. نَفَس من لفافة التبغ ...

تأمل المؤشر الذي يومض في ركن الشاشة الأيمن. يرى الفكرة تولد، ويعرف السطر الأول وكيف سيكون. يحب صوت مفاتيح الكمبيوتر تنضغط تحت أصابعه، خاصة لو تم هذا بسرعة. ستكون فكرة جيدة حتمًا، ليس لديه تصور عام عن كيفية إنائها، لكنه سيعبر هذا الجسر عندما يصل إليه ...

بخط غليظ مُكَبَّر كتب في منتصف السطر :

لقاء مع «سالومي»

عندما تلقى الدكتور عدنان دعوة إلى ذلك الحفل الذي تقيمه سلمى، فإنه تحمس .

سلمى مدللة، رائعة الجمال، من أسرة ثرية، ولم تكن من صديقاته، ولم يعتبر نفسه في شلتها قط، لكنه فوجئ بأنها تدعوه هو ورفيقه صالح إلى الحفل الذي تقيمه في الساحل الشمالي .

لم يكن عدنان متزوجًا، وكان يجهل الكثير عن عالم الأنوثة، لهذا بدا له كأن هذه الفتاة تدعوه إلى الفردوس. وقد قرر أن يشتري بدلة جديدة وربطة عنق أنيقة .

قال له صالح ساخرًا :

- الحفلات من هذا النوع عناوينها التحرر والانطلاق، يجب أن تلبس ثيابًا «كاجوال»، وإلا بدوت لهم قرويًا ساذجًا .

بصعوبة اقتنع الدكتور عدنان، وبحث عن تيشيرت أنيق يلبسه، ولم ينسَ أن يضع عطرًا ثمينًا .

سأل صالح في دهشة :

- ما الذي تقصده سلمى بهذه الدعوة؟

قال صالح في استمتاع، وهو يقود السيارة الرخيصة متجهًا نحو الإسكندرية :

- عندما أتلقي دعوة حفل في فيلا في الساحل الشمالي تنظمه فتاة بهذا الحسن، فأنا لا أضيع الوقت في أسئلة سخيفة !

بعد ساعات دخلت السيارة إلى القرية السياحية التي تبدو خاصة جدًا. وفي النهاية كان ذلك الحفل المقام على الشاطئ: أضواء ملونة مبهرجة تتدلى من الأشجار، وهناك مشاعل عملاقة تبث حولها النور والنار والدفع، بوفيه مفتوح يبدو واضحًا أنه عامر، وساعات عملاقة تحدث جلبة رهيبة، الموسيقى التي تجعل ضربات قلبك تختل ...

ومن مكان ما ظهر فتى يلبس قميصًا مشجرًا على مايوه وهو حافي القدمين، وكان يتأبط ذراع سلمى.. سلمى.. سلمى التي كانت ترتدي ثوبًا غريبًا يُذكرك بمجموعة من الأشرطة الملتفة حول جسدها.. لا بد أنها كانت أروع شيء في العالم !

رفعت كاسًا مُرربة بالضييفين المذهولين، وهتفت :

- حضوركما يسعدني، لكن أرجو أن تتحررا من هذا الصمغ !

بدأ الشابان يكتشفان ذلك الاختراع العجيب المدعو «فتيات». كل واحد له أم وأخوات وبنات جيران، لكنهن لا يمتن بصلة لهذا الحشد العجيب من الحوريات. هذا الاختراع العجيب يضحك ويسكر ويرقص بلا توقف. ولا شك أن المشهد جعل الشابين يفقدان صوابهما.. كل شيء كان مدوخًا !

بدأ كلاهما يرقص من دون براعة؛ حالة عامة من الهستيريا تشبه شعور من يذهب إلى الزار .

هنا دنت سلمى من الدكتور عدنان، وقالت له في همس :

- أريد أن أنفرد بك بعيدًا !

قال في غباء :

- طبعًا.. طبعًا .

وجرته من يده خارج دائرة اللهب والضوء حيث وقفا في الظلام، فسمعها تشهق في انفعال، وقالت له :

- أردت أن أقول إنني أريدك وأحتاج إليك. لم تكن هناك فرصة أخرى لأقول لك هذا إلا الآن !

ارتجف انفعالاً، كان يجد من السخف أن يحب المرء فتاة لمجرد أنها جميلة؛ الجمال ليس مبرراً كافياً للحب. لكنه في هذه اللحظة شعر بأنه متأهب ليقع في غرامها .

قالت له :

- سأطلب منك طلباً واحداً، طلباً عسيراً نوعاً، لكنني سأفعل أي شيء كي تنفذه !

لم يكن يرى وجهها، كان في الظلام، لكنه سمعها تقول في انفعال :

- اسم «سلمي» قريب جداً من اسم «سالومي». «سالومي» رقصت أمام زوج أمها كي يأتيها برأس «يوحنا المعمدان»، وقد تم لها هذا فعلاً. أنا سأفعل شيئاً مماثلاً لو قبلت أن تنفذ ما سأطلبه !

سألها في قلق :

- وماذا ستطلبين؟

- ستعرفه بعد الرقصة !

كانت الموسيقى تصل إليهما مع ارتجاجات تحت الأرض، وكان اللحن صاخباً. ابتعدت عنه بضعة أمتار، ثم هتفت وهي تركل الأرض متمائلة كثعبان :

- لا أحد يرانا هنا.. نحن بعيدان.. أنت تراني بصعوبة في الظلام، لكنني أؤكد لك أن ثوبي مكوّن من سبع قطع، وأنني لا ألبس شيئاً تحته !

ثم بدأت تتلوى، وفي هلع وبقلب واجف أدرك أنها نزعت القطعة الأولى ...

- واحد !

«سالومي» نزعت ثوبها ذا القطع السبع أمام زوج أمها فطار صوابه، واضح أنك ستنفذ كل ما تطلبه منك يا دكتور عدنان! ولكن ما هو بالضبط؟

- اثنان !

عند هذا الحد توقف مصطفى .

لقد أدرك في رعب أنه لن يستطيع أن يُكمل القصة، فهو لا يعرف الشيء الذي يجعل امرأة تتعري أمام رجل غريب كي يحققه. لن يقدر على استكمال هذه القصة كما هو واضح. البداية جيدة، لكنه لا يعرف كيف يستمر. طبع القصة على الطابعة المتصلة بالكمبيوتر، ثم أعد لنفسه شطيرة جبن أخرى وأعاد القراءة .

لا جدوى !

كوّر الورق، وألقى به في القمامة، وأطلق بعض السباب. ليس هذا شعورًا جديدًا على كل حال !

دخل الفراش ساخطًا، فراح يقرأ لربع ساعة ثم أطفأ النور ونام .

في الصباح تناول الإفطار شارد الذهن، استعاد خيوط قصة أمس، فبدأ يشعر مع الوقت أنها لم تكن سيئة إلى هذا الحد، لربما يمكن عمل شيء منها .

فتح جهاز الكمبيوتر حيث كان قد تركها على سطح المكتب ...

لقد اختفت!! لكن كيف؟! هو لم يمسحها !!

انحنى يفتش في القمامة فوجدها فارغة؛ زوجته تخلصت من القمامة أول شيء في الصباح الباكر .

شعر بغيط شديد! يستطيع أن يعيد كتابة القصة، لكنه لا يجد في نفسه الرغبة لاستكمالها، وهو لم يجد الحل السحري بعد .

سيحاول الليلة كتابة قصة أخرى ...

*

من جديد، بدأ صوت طرقات أصابع مصطفى على مفاتيح لوحة الكتابة.. تكّ تكّ.. تكّ.. تكّ... لفافة التبغ تحرق أنامله، والقهوة تملأ معدته وتتصاعد إلى رأسه، سيكون الثمن هو الأرق، لكن لا بد من ثمن لهذا التوهج الفكري الذي يشعر به. الفكرة تولد، الرأس يبرز، ثم الجسد كاملاً، الفكرة تصرخ وتعوي طالبة الرضاة ...

الحجرة مظلمة هادئة، تفوح برائحة مبيد الحشرات، ودخان القهوة يتكاثر أمام الشاشة، رائحة القهوة الزكية تملأ خياشيمه ...

يرى على الشاشة ميلاد العنوان. كان من هؤلاء الكُتّاب الذين يضعون العنوان

أولاً. كان يشعر بأن القصة ولدت بهذا الشكل، وصار لها كيان وبيت ورقم قومي. لم يستطع قط فهم الكتاب الذين يُرجئون عنوان القصة إلى النهاية، ومن الغريب أنه كلما احتاج إلى تغيير العنوان فيما بعد !

وحيد في الظلام

ينتهي رأفت من كوب الشاي، ويطفي بقايا لفافة التبغ في المطفأة، ثم ينظر إلى الساعة: الثانية عشرة والنصف. لقد تأخر أكثر من اللازم، وبدأ يوم جديد جغرافيًا !

نهض رأفت، وارتدى السويتر الذي وضعه على الأريكة بجواره، وقال لسلوى معتذرًا :

- طالت سهرتي.. أنا آسف !

قالت سلوى ضاحكة :

- الوقت الطيب يمضي سريعًا، كنت أحسبها التاسعة .

- صباحًا؟

وابتسم في خبث، بينما نهض شريف من جلسيته الكسول على الأريكة، فبدأ واضحًا أن النوم يتسلل إلى وعيه لكنه يقاوم تأدبًا. قال لرأفت :

- هل تنوي أن تغادر الآن؟ لمَ لا تبقى حتى الصباح؟

قال رأفت وهو يتحرك نحو الباب :

- لا بد أنك تمزح !

انفتح باب الفيلا لتظهر سيارة رأفت الناعسة في الظلام، وقد تغطت بالندى. لسبب ما شعر بأنها صديق قديم ينتظره ليقله إلى فراشه المريح .

- تصبحان على خير .

هنا توقف شريف عن التثاؤب، وقال في حذر :

- كُن حذرًا في رحلة العودة .

- تعرف أنني سائق حذر .

قال شريف وقد اتسعت عيناه :

- ليس بالضبط، هناك قصص مخيفة تتردد في هذه المنطقة، أنت تعرف أن المقطم مخيف ليلاً، ليس كل المكان رحباً، وهذه أول مرة تزورني فيها فلا أريد أن يحدث ما يعكر صفو الزيارة !

- قصص مخيفة؟ !

- قصص مما يتداولها العجائز أو تخاف منها السيدات. أعرف أنه كلام فارغ، لكن أنصحك بشيء واحد: لا تتوقف في طريقك لأي سبب !

أشعل رأفت لفافة تبغ أخرى، وقال وسط الدخان :

- يعني لو فوجئتُ بطفل يقف في وسط الطريق ملوحاً بذراعيه، فهل تقترح أن أدهمه؟

- لو كنتُ مكانك لدهمته! لماذا يقف طفل وحده على الطريق في المقطم ليلاً؟ !

ابتسم رأفت. هذا السخف لا معنى له، لكنه يجعلك تتوتر بالتأكيد. التفكير في الرحلة الطويلة في الظلام إلى بيته ليس من الخواطر المريحة، بالإضافة إلى أنه يشعر بنعاس شديد، ويسهل أن يحدث شيء لمن يشعرون بنعاس. الحقيقة أنه كان يجب أن يختصر السهرة ساعتين .

قال رأفت وهو يفتح السيارة :

- سأظل حياً.. أعدك بهذا .

ثم ركب وأدار المحرك ولوح بذراعه للزوجين . لا أضواء سوى وهج سيجارته والضوء الناعس القادم من الباب حيث يقف الزوجان .

ما نوعية الخطر الذي يتكلم عنه شريف؟ واضح أنه يتعلق بالأشباح أو الجان.. شيء من هذا القبيل !

ينطلق في الطريق المظلم إلا من أضواء الكشافين. يشعر بعصبية حقيقية، لو أراد شريف أن يوتره فقد نجح فعلاً !

لتنتهِ هذه الليلة بسرعة! لتنتهِ! ماذا لو تلفت السيارة هنا؟ لو حدث عطل فإن ...

ضوضاء من المحرك! اللي يخاف من العفريت ...

بالفعل لا مزاح هنا. إن المحرك يرفض أن يدور. توقفت السيارة إلى جوار الطريق وهي تطلق أصواتاً تشبه صوت حشرة المذبوح. كان سريع البديهة،

ألقي نظرة على مؤشر البنزين فأدرك أنه نفذ. لا توجد قطرة بنزين في السيارة، وهو خطأ يتكرر معه مرارًا لكنه لا يتعظ. من الواضح أنه الليلة سيتلقى درسًا لن ينساه !

الطريقة هي أن يحمل جركن بنزين ويمشي في الظلام بحثًا عن محطة وقود قريبة، لكن كيف يجدها أولًا؟ ثم إنه لا يحمل جركنًا في السيارة !
من يطلب؟

ربما يطلب شريف، لكن في هذا قدر هائل من الإزعاج، وشريف لا يحب القيادة ليلاً، دعك من أنه لن يتمكن من مساعدته في نقل البنزين .

يطلب الميكانيكي في ساعة كهذه؟ مستحيل .

فكر في مازن، صديقه المحامي؛ إنه عزب، ويسهر كثيرًا، ويجيد التصرف. سيأتي إليه خلال ساعة مع جركن مليء بالبنزين الجميل شهى الرائحة، مع زجاجة بلاستيكية سيقصها لتتحول إلى قمع .

الهاتف يرن.. الحمد لله أن هناك شبكة! الهاتف يرن بالحاح.. أرجوك أن ترد يا مازن! أرجوك أن ترد !

ثم جاء صوت مازن المطمئن يسأل عما هنالك .

بضع كلمات، ثم قال مازن إنه سيأتي حالًا ومعه بنزين .

- مازن، تأكد أولًا من أن سيارتك فيها بنزين !

ضحك مازن كثيرًا، ثم وضع السماعة، والحقيقة أن هذه كانت المرة الأخيرة التي يتبادل فيها محادثة مع رأفت !!

للحظات ظل مصطفى يرمق الشاشة .

القصة جيدة، لكن استكمالها صعب فعلاً؛ لقد تم حشد القارئ لحدث مروع، شيء يفوق الخيال سيظهر لرأفت حبيس سيارته، أي شيء مثل سفاح أو غولة أو مذؤوب أو مصاص دماء، هي أشياء يتوقعها القارئ ولن يندهش .

طبع القصة على الطابعة، ثم أمسك القلم وراح يتابع السطور التي كتبها .

بداية لا بأس بها، لكن النهاية مستحيلة! وضع الورق على المكتب، وقرر أن يخلد إلى النوم، وفي الصباح قد تولد أفكار جديدة، هذه بذرة قد تنمو بعد ليلة أحلام كاملة .

في الصباح تناول إفطارًا خفيفًا. الزوجة ذهبت إلى عملها، والأطفال في المدارس .

القصة.. ماذا حدث لها؟

هنا فوجئ بأن الورق غير موجود!! والقصة غير موجودة في ذاكرة الكمبيوتر !! هل تصرف من دون أن يدري وتخلص من القصة ومحاسنها من الذاكرة؟ هل هو مجنون؟

لا بد من كتابة بذرة قصة جديدة ...

*

قال له الطبيب النفسي :

- بعض أدوية الاكتئاب تجعلك تتصرف بشكل غير واعٍ؛ تمشي ليلاً، أو تفعل أشياء لا تدرك أنك فعلتها !

كان مصطفى يشك في بعض هذه الأدوية النفسية التي يتعاطاها لمرضه ثنائي القطبية، لكنه لم يتصور أن يصل الغياب عن الوعي إلى درجة أن يمحو قصة كتبها، أو يتخلص تمامًا من أوراق طبعتها !

قال مصطفى :

- سأتوقف عن أدوية الاكتئاب إذن، فهذه الحالة تقلقني !

قال الطبيب ضاحكًا وهو يدير جهاز «الهاي فاي» لتنبعث موسيقى ناعمة :

- النفس البشرية لغز. أعتقد أنك لاشعوريًا كنت تحمل كراهية لهذا الذي كتبته، ثم تدخل اللاشعور ليجعلك تتخلص منه !

- سأحاول أن أعتقد ذلك !

نهض مصطفى متثاقلاً. لن يخبر زوجته في البيت أنه عاد إلى زيارة الطبيب النفسي، هي التي تؤمن بأن هذا لا يعالج الجنون، بل يصيب المرء السليم به .

*

عندما جاء المساء، قرر مصطفى أن يكتب قصة جديدة مستغلًا الصمت والهدوء، وقرر أن يحافظ على الورق وعلى الملف جيدًا؛ يجب أن يتأكد من أنه

لم يمحُ الملف أو يحرق الورق .

ضم أصابعه ثم طرّعها بعنف كأنه يتأهب لعمل مهم، ثم أخذ نفسًا عميقًا من السيجارة ورشفة من قدح النسكافيه، ثم كتب بأصابع واثقة :

الغرفة

الغرفة القديمة في بيت الأسرة، هي مخزن للكرار والمهملات والجرائد القديمة، مع حشد كبير من الثياب البالية نصف الممزقة. هناك شماعة تتدلى منها بعض الثياب، وهناك مرآة مهشمة، وهناك قفص عصافير خالٍ، وهناك سمكة قرش محنطة خالية من اللحم لكنها تفتح شديها منذرة، وهناك ساعة حائط محطمة وقد وثب منها زنبرك، وهناك ملصق على الجدار يصور فاطمة رشدي حسناء الماضي التي كانوا يسمونها «صديقة الطلبة»، وهناك الكثير من الغبار وأكوام من نسيج العناكب والعت، وهناك بُرص أو اثنان على السقف .

كان عاصم يكره البُرص، ويشعر أنه كائن مقزز، لكنه لم يكن كذلك يجرؤ على قتله.. ستكون عملية مثيرة للاشمئزاز بالتأكيد !

الجو حار في الغرفة، وبالطبع خانق تضيق به النفس. العرق يسيل على جبينه ممزوجًا بالغبار، يبدو أنه سيحتاج إلى حمام قبل أن يغادر الشقة الخالية .

يجب أن يجد الملف؛ الملف الذي يحوي عقود شراء الأرض وصحة التوقيع، الأوراق التي فشل في أن يجدها في البيت كله؛ البيت الخاوي على عروشه منذ وفاة الأب. منذ عام مات الأب، وقبله بعشرة أعوام ماتت الأم، ولم يكن أيُّ من الأبناء يعيش هنا، كانوا قد تركوا الأب يعيش وحده لأن أحدًا لا يطيقه؛ الشيخ الكرية المتشكك الغاضب على الدوام، مع الشيخوخة التي جعلته ينسب النظافة الشخصية، لدرجة أنه كان يقضي حاجته في أي مكان. لم يكن أيُّ من الأبناء يرغب في أن يستضيف هذه الكارثة، هكذا تركوا الأب وحده مع خادمة تدبر أموره صباحًا وترحل مساءً. منذ تُوفي الأب ظهرت مشكلة العثور على أوراقه. لم يكتب وصية، لكن ما هي ثروته الحقيقية؟ ماذا يملكه بالضبط؟

تطوّع عاصم بأن يفتش البيت جيدًا بحثًا عن الأوراق .

لقد جمع بعض أوراق مهمة، لكنه لم يجد ضالته بعد. وعندما دخل هذه الغرفة القدرة تذكر أنه لم يدخلها منذ تزوج وفارق البيت.. نحو عشر سنوات .

خرج من الغرفة، واتجه إلى الحمام ليغسل وجهه. فتح المحبس المغلق منذ عام، وشعر بالماء المنعش يغمر وجهه .

عاد إلى الغرفة الكئيبة، وراح يحاول جاهدًا فتح النافذة، لكن مقبضها كان متصلبًا من الزمن. لا جدوى، لا سبيل إلى دخول الهواء والنور هنا .

استطاع بعد جهد أن يزيع كومة من الخرق البالية، فوجد تحتها صندوقًا خشبيًا عتيقًا يبلغ طوله مترًا وعرضه نصف متر تقريبًا. الغطاء مثبت جيدًا. بحث حوله حتى وجد مطرقة نجار من الطراز الذي يحمل جزءًا مشقوقًا كذيل الصرصور، يُستخدم في انتزاع المسامير، أولج هذا الجزء في غطاء الصندوق وراح يحاول جاهدًا أن يفتح ...

هيا.. اضغط أكثر ...

الدرس الذي يجب أن نتعلمه هو ألا نفتح صناديق لم نغلقها نحن. لقد انفتح الغطاء بصعوبة، وعلى الضوء الخافت المنبعث من مصباح السقف، وجد أن الصندوق يضم أشياء غريبة: كانت هناك عظام، عظام آدمية لا شك فيها، عظام نظيفة مضى عليها زمن بعيد !

لم يكن للأسرة أي علاقة بدراسة الطب، لم يكن لها أصدقاء أطباء، لا يوجد تفسير لوجود هذه العظام !

كان عاصم يلهث في انفعال. الأمر مريب بحق! هل قتل الأب شخصًا وأخفى عظامه هنا؟ أم لعلها الخادمة هي التي أخفت شخصًا هنا حتى تحلل.. كانت برفقة شيخ فانٍ لا يميز شيئًا !

في هذه اللحظة انغلق باب الغرفة، ووجد عاصم نفسه محبوسًا في الضوء الخافت !

عند هذا الحد شعر مصطفى بثقل في أفكاره وأهدابه وأنامله. يجب أن يتوقف هنا .

كان مدمنًا للقهوة والنسكافيه، لذا لم تكن هذه المشروبات قادرة على أن تسلبه النوم .

تثاءب، لكنه نهض إلى الطابعة فشغلها، سرعان ما خرجت له القصة على شكل أوراق، ثم إنه نسخ الملف على ذاكرة «فلاش». نهض متثاقلاً ففتح المكتب ووضع فيه الأوراق والذاكرة، ثم أغلق الدرج بالمفتاح، واتجه إلى المكتبة العالية فوضع المفتاح فوقها بصعوبة .

لا يستطيع شخص يمشي أثناء النوم أن يصل إلى هذا المفتاح من دون معاناة، والمعاناة ستجعله يصحو من النوم .

ثم إنه اتجه إلى الفراش، وسرّه أن زوجته تشعر بأرق وتتقلب كثيرًا. مصائب

قوم عند قوم فوائد. هكذا ستعرف إن كان قد صحا من النوم ليمسح قصته .
غير أن الذعر استبد به في الصباح ...

أنت تعرف بالطبع أنه لم يجد القصة، لا النسخة الورقية ولا الذاكرة !!
كان المفتاح في موضعه حيث تركه فوق المكتبة! لا توجد أي علامة على
اقتحام الدرج !

راح يرتجف رعبًا! هذه المرّة قد صار الموقف يفوق قدرته على التعقل !
«مسكون! هذا البيت مسكون !».

قالها لنفسه، لكنه لم يجسر على أن يخبر زوجته بقصته. لقد كتب بدايات
ثلاث قصص، وفي كل مرّة تختفي القصة من الوجود كأنها لم تكن !!
«أنا لست مجنونًا! البيت مسكون !».

*

أيام طويلة مضت على مصطفى ولا شيء سوى الجذب، لم يجلس أمام
الكمبيوتر قط، ولم يحاول أن يبدأ قصصًا جديدة، فالأمر لم يعد قابلاً للتفسير،
وكل ما هو غامض يثير الرعب في النفس! الرعب قد شل قدرته على ابتكار
أفكار جديدة، وقد قدّر أنه لو تعرض للتجربة ذاتها مرّة أخرى فمن الوارد جدًّا أن
يُجن .

القصص التي يبدأها تزول من الوجود بلا تفسير، واحتمال أنه يتصرف من دون
أن يعرف، احتمال عال جدًّا ومخيف جدًّا! أنت تعرف أجواء «دوستوفسكي»،
كما أن عقدة فيلم «نادي القتال» لم تفارق خياله قط .

كلما فكر في الكتابة أصيب بالرعب؛ ماذا لو استيقظ ليجد أن هذه القصة
الجديدة اختفت؟

قالت له زوجته :

- أنت لا تفعل شيئًا على الإطلاق! تمضي اليوم كله أمام التلفزيون !

قال وهو يتلع ريقه :

- سدة الكاتب.. هذا وارد جدًّا.. لا بد من فترة أنتعش فيها .

مصممت بشفتيها، وقالت :

- أرجو ألا تطول هذه الفترة، الكتابة هي ما يُبقي البيت مفتوحًا، وليس لك دخل آخر! قلت لك ألا تستقيل من عملك !

- سوف أستعيد قدراتي فلا تقلقي !

لكنه في الواقع كان يتساءل عن الطريقة العبقريّة التي ستعيده إلى الكمبيوتر .

*

اعتاد مصطفى يوميًا أن يأخذ ابنته إلى المدرسة في الصباح الباكر، ثم يعود في جو الصباح الباكر، يبتاع الجريدة وبعض الشطائر، ثم يرجع إلى البيت فيفطر، ثم يواصل النوم حتى الظهر ...

كان عائدًا في ذلك اليوم عندما لاحظ تلك البناية؛ بناية عتيقة من طابق واحد، عليها لافتة تقول: «مكتبة الشباب». هنا توقف متصليًا؛ لم يرَ هذه البناية في حياته، ولم يلحظ هذه اللافتة قط، إن هذا غريب! كان يعرف عن نفسه انعدام الملاحظة، لكن ليس إلى هذا الحد .

كان من عاداته أن يمشي وهو ينظر إلى الأرض، ومن النادر أن يرفع رأسه ليتأمل البنايات، برغم هذا لا بد أنه مر أمام هذه البناية آلاف المرات، فكيف لم يرها؟! الاحتمال الوحيد هو أن البناية وضعت اللافتة حديثًا، وهي بناية باهتة غير متميزة في شيء .

المثير في الأمر هو أن الباب كان مفتوحًا! مكتبة عمومية في السابعة صباحًا! هذا غريب !!

تغلب فضوله، فقرر أن يزور المكان ...

اجتاز بوابة حديدية مفتوحة صدئة، ومشى في ممر طوله متر، على جانبيه تماثيل بدائيان لطائر العنقاء ...

الباب الرئيسي كان مفتوحًا فاجتازه ...

هناك كان كاونتر، وخلف الكاونتر كان هناك رجل قصير القامة، أصلع الرأس مُسن، يضع عوينات سميكة، كان منهمكًا في قراءة مجلد عتيق.. رائحة الكتب هذه ...

ما الذي يقرأه الرجل بهذا الانهماك؟ كان يطالع مجموعة مجلدات مصفرة من «روكامبول»؛ رجل مستحيل الزمن العتيق.. وكان يضع أمامه قديمًا تتصاعد منه رائحة القهوة الزكية .

لما شعر بدخول مصطفى رفع حاجبيه فوق إطار العوينات، راسمًا علامة استفهام، وابتسم ابتسامة خافتة توشك على أن تشقق تجاعيد وجهه المسن :

- هل تبحث عن شيء معين؟

ابتلع مصطفى ريقه، وقال :

- لا أبحث عن كتاب بعينه، سأعرف الكتاب الذي أريده عندما أراه !

- هذه إجابة ذكية !

قالها الرجل وهو يغلق المجلد ويمتص طاقم أسنانه، وأردف :

- الكتاب الجيد يناديك من على الرف، حتى قبل أن تعرف شيئًا عنه !

ثم فتح دفترًا أمامه، وطلب من مصطفى أن يُسجل بياناته: الاسم، والعنوان، ورقم الهاتف. ما أهمية هذه الخطوة؟ لكن مصطفى لم يرَ خطرًا في ذلك، ولاحظ أن الصفحة تحمل أربعة أسماء فقط. هذه المكتبة لا تلقى الكثير من الرواج .

- لم أرَ في حياتي مكتبة عمومية مفتوحة في هذا الوقت المبكر !!

قال الرجل :

- هي ليست مفتوحة، الحق أنها لا تغلق أبدًا !

قال مصطفى لنفسه إنه في حاجة إلى فحص نظره؛ لو كانت هذه المكتبة مفتوحة طيلة اليوم فلا بد أنه معدوم الملاحظة تمامًا! في كل يوم يمر بها أثناء العودة من مدرسة ابنته فلم يرها إلا اليوم !

- ما هي طريقة الاستعارة؟

- لا شيء. لدينا اسمك وعنوانك، ونثق في أنك ستُرجع الكتاب خلال يومين !

«وإذا لم أفعل؟»، تساءل في ذهنه. هذا الشيخ لا يبدو قادرًا على استعادة الكتب التي لا يعيدها أصحابها، حتى الاتصال بالشرطة يكلفه جهدًا فوق ما يطيق .

ثم أشار الرجل بما معناه أن تفضّل، فمشى مصطفى بين رفوف متلاصقة عليها حشد من الكتب العتيقة؛ الكتب التي كُتبت أسماؤها على ورق لاصق على الكعب شأن المكتبات العامة، كانت مجموعة مبهرة فعلاً، وإن كان

مصطفى واسع الثقافة مما جعل معظم هذه الكتب معروفاً بالنسبة إليه .

تولستوي، بوشكين، هيمنجواي، موم، نجيب محفوظ، فولتير، توفيق الحكيم، محمود تيمور، الطيب صالح... كلهم هنا .

رائحة الكتب القديمة المغربية تملأ خياشيمه. مشي بين الأرفف متسائلاً عن الكتاب الذي ينتقيه. الغريب أنه كان في المكتبة رف خاص لمجلدات مجلات «سوبرمان» و«الوطواط» و«ميكي». المكتبة اسمها «مكتبة الشباب»، لكنها بالفعل مكان مُغرٍ جداً، من الصعب أن تفكر في كتاب غير موجود .

على أن بعض الأرفف كانت خالية! لاحظ أن فهرسة الكتب تتم أجبدياً، وقد كان يتأمل كتب مصطفى محمود، ومصطفى صادق الرافعي، ومصطفى المنفلوطي، ثم وجد أن باقي الرف خالٍ تماماً؛ يبدو أن هناك من يستعير الكتب ولا يعيدها هنا !

في نهاية المكتبة توجد غرفة مغلقة، لكن الباب عبارة عن زجاج مصنفر لا ترى ما وراءه، وكان الباب مغلقاً بقفل ثقيل، فقدّر مصطفى أن الشيخ يسكن خلف هذا الباب.. لو كانت المكتبة لا تغلق فمن المؤكد أنه يبيت هنا .

لما دقق النظر أدرك أن القفل موضوع فعلاً، لكنه لا يغلق أي شيء، مثلما ثبت نحن أقفال بيوتنا في موضعها لمجرد عدم فقدها.. كان هناك مقبض في الباب .

خطر لمصطفى أن كل شيء غريب. نظرة سريعة إلى ما وراء هذا الباب لن تضر أحداً، لن يلاحظ الشيخ أي شيء وهو في الجانب الآخر من المكتبة خلف عشرات الأرفف .

مد يده الراجعة وأدار المقبض ...

هنا شهق من الدهشة ...

المشهد بالداخل لم يكن غرفة على الإطلاق، كانت قاعة فسيحة، هناك رجال ونساء يجلسون إلى أجهزة كمبيوتر منهمكين في عمل غامض، وهناك تقسيمات بطريقة «Cubicles» تفصل مكان عمل كل واحد .

هناك فتية يمشون مسرعين وهم يحملون أوراقاً تحت الإبط، وهناك منقي مياه في الركن، وستائر فينيقية تُلقى ضوءها المقسم إلى شرائح على المكان. في خلفية القاعة مكتب مغلق يقف بجواره رجل أمن صارم، واللافتة تقول: «المدير»! كل شيء يوحي بأنه دخل إلى شركة تتخذ مقرها هنا؛ شركة مشغولة جداً كما هو واضح .

أوشك على التراجع، لكن موظفًا، قوي البنية يلبس قميصًا قصير الكمين وربطة عنق، برز له، وجره من ساعده في حزم قائلًا :

- تأخرت! المدير ينتظرك !

لم يجد الكلمات الكافية ليتساءل !

فقط وجد أن رجل الأمن يفسح له ويفتح الباب، ثم وجد نفسه في غرفة فسيحة تتوسطها منضدة اجتماعات، وعلى المنضدة ملفات ودوايق ماء وبعض البسكويت، والدخان يعم هواء الغرفة من كثرة التدخين، وحول المنضدة جلس مجموعة من السادة المهمين ذوي النظرات الصارمة؛ اجتماع مجلس إدارة كما هو واضح .

عند مكان الصدارة من المنضدة - حسب قواعد «البروتوكول» - كان المدير. يمكنك بسهولة أن تدرك أنه المدير بأناقته وشعره الأشيب وكرشه والنظرة النفاذة القائدة في عينيه .

- انتظرناك طويلًا يا أستاذ مصطفى! هلّا تفضلت بالجلوس؟

سحب مقعدًا وجلس وعشرات الأسئلة تزدهم على لسانه: هم يعرفونه وكانوا ينتظرونه؟

وجد من يقدم إليه لفافة تبغ ويشعلها، ومن يسأله عما يشربه، فطلب قهوة، ثم نظر متسائلًا إلى المدير .

قال المدير وهو يجلس مسترخيًا :

- لا أستطيع شرح كل شيء، محاولة تفسير الأمر بالنسبة لك عسيرة، لكن هذا ما نفعله طيلة الوقت، ربما منذ ميلاد اللغة .

- ما الذي تفعلونه؟

- هذه هي المشكلة! لن تفهم أبدًا !

ثم تبادل النظرات مع الجالسين الذين تحاشوا التقاء العيون بمصطفى، وقال :

- لنقل إننا نلاحق الأفكار الجيدة، الأفكار الصالحة للاستكمال، وفي هذه الشركة لدينا ألوف مؤلفة من البدايات الموفقة !

تساءل مصطفى :

- هل يعني هذا أنكم شركة إنتاج سينمائي؟

- ليس بالضبط . إننا نهدي للعالم الأفكار التي قتلها أصحابها قتلًا، نحن نستكمل القصص ونضعها في مكانها اللائق على رفوف المكتبة. لو لاحظت لوجدت أن هناك ركنًا ناقصًا حيث يوجد اسم «مصطفى» في المكتبة، هذا هو المكان الذي كان ينتظر إبداعاتك !

كان يشعر بأنه يحلم.. هذه هلوسة لا شك فيها .

- وكيف...؟ كيف وجدتم قصصي؟! وكيف مسحتموها من جهاز الحاسب؟ !

- إننا لا نخضع لقوانين مادية، نتعامل بالأفكار، ويمكننا الدخول إلى أي مكان وأخذ أي شيء، غير أن هناك مشكلة ...

والتفت إلى أحد الجالسين ليكمل هو، فقال الرجل، وهو شخص أصلع بدين يعرق بغزارة :

- فشل رجالنا في استكمال القصص، لم يجدوا نهايات مناسبة، ومعنى هذا أن هناك أرواحًا معذبة تنتظر !

- أرواحًا معذبة؟ !

- نعم. أبطال قصصك في وضع مُعلّق، القصة التي بلا نهاية تعذب أبطالها عذابًا لا يمكن وصفه !

أردف المدير :

- استكمال القصة يشبه دفن الميت، خطوة إنسانية مهمة، وتنتهي الكثير من الصراعات والمشاكل. إكرام الميت دفنه، وإكرام القصة استكمالها !

- وماذا تريدون مني؟ !

قال المدير وهو يشعل سيجارًا :

- أن تجد لنا نهايات موفقة لبدايات قصصك !

فتح مصطفى فمه ليعترض؛ هو لا يذكر الأحداث، ولم يعتد قَطُّ على العودة إلى قصة نبذها، لكنه فوجئ بالجالسين ينهضون بلا كلمة !

فجأة وجد أنه يجلس وحيدًا إلى منضدة الاجتماعات، فقط قال له المدير وهو ينصرف :

- تذكر أنك ستبقى معنا لفترة إلى أن تُنتهي القصص !!

فجأة شعر مصطفى بأن معالم القاعة تتغير، تذوب، كأنه من تأثيرات الخدع السينمائية المعروفة بـ«الكروما». لقد صار يقف في ظلام الليل وسط الرمال .

هناك صخب وصوت طبول من بعيد، وهناك شباب يرقص على مرمى النظر، هناك مشاعل متناثرة على الشاطئ تلقي بدوائر من الضوء الذهبي. عندما دقق النظر رأى أنه يرى شابًا وفاتة: الفتاة تلبس ما يشبه ثوب بحر، لكنها تلف إزارًا حول نصفها الأسفل .

قال له الشاب :

- أنت أتيت في الوقت المناسب! يجب أن تفعل شيئًا! سلمى توشك على التجرد من ثيابها !

أصيب مصطفى بالذهول؛ هو يعرف هذين، ويذكر هذا الموقف الذي لم يستطع أن يستكملها! سلمى ستؤدي رقصة شهوانية مقابل أن تطلب من الشاب شيئًا.. ما هو هذا الشيء؟

كانت الفتاة تواصل الرقص، وتتخلى عن قطعة من ثيابها في كل مرة، بينما الدكتور عدنان مذهول يرتجف، كان أقرب إلى الرعب منه إلى الإثارة !

مال عليه مصطفى هامسًا :

- أنت لم تُعطِ أي وعد، لستَ مطالبًا بشيء! عندما تنتهي هذه الفقرة الاستعراضية يمكنك أن ترحل بعدما تكون قد أشبعت عينيك !!

- وما الذي ستطلبه هي؟

- لا أعرف، لكنه بالتأكيد شيء قاس أو محرّم أو غير قانوني! هذه هي الأشياء التي تستأهل هذا الثمن! لن تطلب منك أن تتزوجها! أنصحك أن ترحل قبل موعد دفع الثمن !

همس الدكتور عدنان في ضيق :

- لربما معك حق، لكن هذه ليست طريقة محببة لسرد القصص، إن هذا يحبط القارئ كثيرًا !

- لكنه حل لا بأس به. ستفرغ هي من عرضها الشائق، هنا تُوجّه إليها عبارة شكر، وتعود ببساطة لتنضم إلى رفاقك. هذه قصة مسلية، المقلب الذي شربته فتاة حاولت أن تكون «سالومي»، سيُعلمها هذا أن أحدًا لا يدفع ثمن شيء حصل عليه فعلًا، في المرة القادمة عليها أن تحصل على مطلبها قبل أن ترقص !

ولم ينتظر الباقي، ترك عدنان يقف في بلاهة يراقب عرض «الاستريبتيز»، ومشى وسط الرمال مبتعدًا. خطر له أن ينظر إلى الخلف، لكن لماذا؟ سلمى ولدت من أفكاره وليس فيها شيء جديد !

مشى وسط الرمال لفترة، ثم رأى أمامه طريقًا مظلمًا مقفرًا ...

كشافات سيارة واقفة هناك ...

ثم رأى سيارة أخرى تقف على بُعد خطوات منها ...

عندما اقترب أكثر أدرك أن هناك سيارة خالية، وأن هناك رجلًا يقف في حيرة وهو يحمل جركنًا كبيرًا وينظر حوله، كان هذا هو راكب السيارة الثانية !

التقت عيناه في ضوء الكشاف بالرجل، فقال له في رعب :

- لا أجد رأفت صديقي! لقد جلبت له البنزين كما طلب مني !

بدأ مصطفى يفهم ...

سأل الرجل في حيرة :

- أنت تُدعى ما... ما ...

- مازن. أنا محامٍ. اتصل بي يطلب أن أوافيه هنا وشرح لي مكانه !

ثم استرخى ليستند إلى غطاء السيارة الواقفة، وقال :

- كيف تنوي أن تُنهي هذه القصة؟

كان مصطفى يفكر وهو يدور حول السيارة الواقفة، الرابضة كوحش نائم في الظلام .

عندما انحنى بجوار الرفرف رأى قطرات، دقق النظر على ضوء المحمول، فأدرك أنها قطرات دم متناثرة! رفع عينيه نحو مازن وابتلع ريقه :

- توجد أشياء مريبة هنا !

ثم راح يتابع قطرات الدم على الأرض الترابية. كان الدم أحمر لم يتخثر بعد، وكانت المسافة بين قطرة وأخرى تزيد على متر، لم يكن نزفًا غزيرًا كما هو واضح .

هتف مازن بصوت مبحوح :

- هل تعتقد أنه... أنه...؟

لم يرد مصطفى. المفروض أنه الوحيد الذي يعرف ما حدث، لكنه بالفعل لا يملك أدنى فكرة !

مضى يتابع قطرات الدم حتى بلغ صف الأشجار، ومشى بينها باحثًا عن أثر الدم. هناك خلف الشجرة الثالثة رأى ما بدا له كأنه كتلة دامية، عندما دقق النظر أكثر رأى أن هذه ذراع مبتورة !

وقف يبتلع ريقه، بينما لحق به مازن يتساءل عما هنالك. رأى ما رآه فشهب، ثم انحنى يتفحص الساعة المحيطة بالمعصم، وهتف :

- ساعة ذات إطار ذهبي! هذه ساعته فعلاً !

ما الذي حدث له؟ لا أحد يعرف. لكن مازن قال في توحش وهو يضغط على أسنانه :

- هذه قصتك! أنت من فعلت هذا به !

قال مصطفى وهو يتراجع :

- صدقني، أنا لا أملك أي فكرة عما حدث! لم أكتب هذا! لقد أوقفت القصة عند هذا الحد لأنني لم أستطع استكمالها !

وثب مازن عليه، ثم سدد له لكمة مؤلمة في فكه، وقبل أن يتأهب مصطفى تلقى ركلة في قصة ساقه جعلت قلبه يتوقف للحظة، وفي اللحظة التالية وجد نفسه على الأرض يحاول انتزاع اليد التي تحاول أن تطبق على عنقه.. هواء.. لا بد من هواء! ستكون قصة طريفة في حد ذاتها عندما يقتل بطل القصة مؤلفها، لكن لا وقت للتذوق الأدبي هنا.. هواء !

في اللحظة التالية رأى شيئًا مروعًا يزحف من الخلف؛ الشيء الذي مزق ذراع رأفت، الشيء الذي يثير رعب الناس من هذه الفلاة، الشيء الذي لم يستطع قط أن يتخيله... لم يكن خياله قادرًا على تخيل شيء كهذا، لكنه استطاع أن يعرف اسم المسخ من دون أن يخبره أحد: «الخاريس»! لا يعرف من أين جاء هذا الاسم، لكنه كان يعرف أنه صحيح !

صرخ في رعب بصوت مختنق :

- اتركني يا أحمرق! الشيء !

واصل مازن الضغط على عنقه في توحش، في اللحظة التالية التفت الذراع المخيفة الشبيهة بممصات الأخطبوط حول صدر مازن، وبعد لحظة كان هذا

الصدر بالذراعين ساقطاً على العشب على بُعد أمتار، وإن ظل حوضه وفخذه حول جسد مصطفى، كأنه كان مستمراً في الضغط بانعكاس النخاع الشوكي !

صرخ مصطفیٰ بأعلى صوته :

٢٠. الغوث !

أنت من صنع هذا المسخ! القصة قصتك! وأنت الوحيد القادر على عمل شيء!

المسوخ الذي مزق رجلين في ربع ساعة، ومن الواضح أنه سيمزق الثالث
حالا ...

هرع إلى السيارة الواقفة، غالبًا هي سيارة مازن، ووثب خلف المقعد وأدار المحرك. رأى «الخاريص» يتقدم، يقف أمام السيارة متأهبًا للوثب، تراجع إلى الوراء، ثم أدار العجل متهيئًا للفرار! لكن المسخ ركض بسرعة أكثر، وتمسك بالرفرف الأمامي، وبلا جهد تقريبًا رفع السيارة لتصير في وضع شبه عمودي على الأرض، مرتكزة على عجلتين فقط.

فتح مصطفى الباب الثاني ووثب منه إلى الخارج وتدحرج على الأرض...

سقطت السيارة بدوي مدوّ لتستقر على عجلاتها الأربع، بينما عاد المسخ
يتجه نحوه ...

هنا على بُعد متر منه وجد جركن البنزين الذي تركه مازن في مكانه، زحف نحوه وفتحه، ثم هب واقفاً وقذف البنزين كله على الشيء المخيف. لا بد أن علبة الثقاب ما زالت في جيبه.. ها هي ذي! بسرعة، وببِد مرتجفة، حكّ العود بالعلبة ثم ألقى به مشتعلًا على «الخارِيص».

فأبلى أبلًا! اشتعلت النيران في الشيء، كان مشهدًا كابوسيًا، خاصة مع ضخامة حجمه وشراسته، راح يتلوى يمينًا ويسارًا ثم سقط أرضًا وبدأ يتحول إلى غبار!

رائحة السنزين تزكم الأنف.. يكتم أنفاسه حتى لا يصاب بالربو.

وقف مصطفى يلهث، لكنه اعترف لنفسه بأن «الخاريس» رائع. لا يوجد مسخ مثله في عالم الأساطير. هو لم يخترعه، لكن من المفترض أنه اخترعه، وهذا يجعله عبقرياً بحق. سوف يستعمله فيما بعد في قصص أخرى بالتأكيد. هناك حيل دائمة لدى الكتاب تعيد هذه المسوخ إلى الحياة. اقترب أكثر ليتأمل الرماد، هنا رأى أطرافاً بشرية متفحمة، عيوناً متفحمة، جماجم ذائبة ...

بدأ يفهم: «الخاريس» لا حجم له ولا كتلة، إنه يتكون من جثث ضحاياه، ويكبر بلا توقف، لا بد أن بين هذه البقايا جثة رأفت، أما جثة مازن فلم يتسع لها الوقت !

لم يكن متأكدًا مما إذا كان هذا الشيء قادرًا على أن يصحو من الرماد. كل شيء ممكن. هذا مسخ لا تعرف أنت عنه شيئًا، ومن قواعد أفلام الرعب أن الوقوف طويلًا أمام جثة الوحش الصريع خطر؛ من الوارد أن ينهض من جديد !
هكذا هرع إلى السيارة وأدار المحرك ...

انطلقت السيارة مبتعدة عن المشهد، وسط الظلام الدامس الكثيف ...
تنهد الصعداء وهتف بأعلى صوته :

- هذه قصة أخرى قد انتهت يا سادة، وهي نهاية مُرضية لكم.. المسخ يُقتل!
المسخ يموت !

ثم أردف :

- هل لكم أن ترجعوني إلى عالمي؟

في اللحظة التالية كان يجلس في قاعة الاجتماعات إياها، مجلس الإدارة أو الهيئة التنفيذية، المدير الأشيب والأصلع البدين ودخان السجائر المنعقد في الهواء، ثمة شاشة جانبية تعرض مشاهد من القصة الأخيرة ومواجهة «الخاريس»، كان بعضهم يلتهم وجبة سريعة يبدو أنها طعام الغداء .

وجد نفسه جالسًا إلى المنضدة وأمامه كوب كولا وشطيرة دجاج مقلي بالمايونيز .

- كُل يا أستاذ مصطفى، لا بد أنك جائع !

قال الرجل البدين في حماسة :

- «الخاريس» كان جيدًا فعلًا! لقد قررنا ألا تكون هذه نهايته. في قصة أخرى سوف نكتشف أنه يعيد تجميع بقاياه وينهض. من المفيد أن يبقى هذا الوريد الثري !

ابتلع المدير بعض الكولا، وقال :

- لكن النهاية كانت أسهل أكثر من اللازم، وحش بهذه الصفات كان يجب أن يُتعب البطل أكثر، يجب أن يموت مرارًا ونحسبه انتهى ثم ينهض ثانية !

قال رجل ثالث :

- ثم إن الحل لم يأت من الأبطال، جاء منك أنت، أي أنك أقحمت إقحامًا على القصة، الكاتب يتدخل من خارج القصة وليس من داخلها !

قال مصطفى في إرهاب وهو يلوك اللقمة :

- لم أتدخل! لم أفعل أي شيء على الإطلاق !

قال المدير :

- على كل حال، سنرى كيف ستكمل لنا قصة أخرى. تذكر أنك لن تعود إلى عالمك قبل أن تعطينا قصصًا مرضية !

وبدأ مصطفى يشعر بأن الغرفة تظلم تدريجيًا، وشم رائحة الغبار ...

هناك كان واقعًا في الغرفة المظلمة التي أوصد بابها ...

استطاع أن يرى عاصم كما تخيله بالضبط: العرق يبيل جبينه مع الغبار، تحت إبطيه مبتل تمامًا وهو يحاول فتح باب الحجرة الذي انغلق بلا إنذار .

على الأرض كانت عظام مبعثرة؛ عظام نقية من التي وجدها في الصندوق، وكانت الحيرة مرتسمة على ملامحه :

- هناك من أغلق الباب علينا !

بالطبع يستطيع بطل قصته أن يراه ويتفاعل معه، لكنه كان يعرف أن الباب لم يغلق من الخارج، لقد أغلق من الداخل، الشيء الكامن في الغرفة فعل هذا !

هتف عاصم وهو يجذبه من ياقة سترته :

- من فعل بنا هذا؟! ما سر هذه الغرفة؟ !

لم يرد. لم يكن يملك كلمات يفسر بها أي شيء. لقد تخلص من هذه القصة وفقد علاقته بها، والآن تطالبه القصة بإثبات النسب، لكنه مضطر للعثور على حل إذا أراد أن يغادر عالم الشركة !

تحسس الهاتف المحمول، وكما يتوقع كانت الشبكة صفراء .

أضاء ضوء الهاتف المحمول، وراح يفتش في أركان الغرفة ...

كانت هناك حقيبة جلدية بالية في الركن عليها كومة من الغبار، وكانت

أنسجة العناكب تغلفها. مد يده والتقطها في حذر؛ لا يضمن المرء ما قد يقابله في هذا الوكر.. لغز الحقيبة والصندوق الأبدي .

فتح الحقيبة بصعوبة بالغة. كانت تحوي مجموعة من الأوراق، وحشدًا من البطاقات أو الكارنيهات المغبرة موضوعة في كيس من البلاستيك .

ما هذا بالضبط؟ هناك كارنيه لمحصل كهرباء اسمه «عباس أبو مندور» ، ثمة بطاقة شخصية لموظف في شركة المياه، هناك كارنيه آخر لعامل هاتف، بطاقة موظف كهرباء ...

نظر إلى الغرفة وإلى الحقيبة. سمع عاصم يتساءل :

- ماذا وجدت؟ علامَ الصمت؟ !

كان الجواب يقترب من مصطفى.. يوشك على أن يلمسه بيده.. عظام نظيفة تمامًا.. لا توجد رائحة عفن.. الجيران لم يشموا أي شيء .

فتح الحقيبة، وسكب ما فيها على الأرض، هنا رأى المثقاب والمنشار والسكين العملاقة، كلها مغطى بالصدأ، لكنها تحمل رسالة بليغة .

أغلق الحقيبة وقال لعاصم :

- لو كان هؤلاء أشخاصًا قُتلوا وتعفنوا هنا لعمت الرائحة الكريهة وشكا الجيران، كما حدث مع ريا وسكينة، لكن هذه عظام نظيفة براقية كأن هناك من قام بتنظيفها؛ التعفن لا يدع العظام بهذه الحالة النظيفة، وكل البطاقات تدل على أشخاص قرعوا الباب يومًا. هل تعرف ما حدث وفق تفسيري الخاص؟

- لا أفهم .

- أبوك غريب الأطوار الذي يعيش في عزلة، قد قتل أكثر من موظف مر على الشقة، غالبًا كان يقدم إليهم مشروبًا فيه منوم، وعندما يفقد الموظف الوعي يقوم بتمزيقه والتهامه! وفي النهاية جُن واعتزل العالم! أعتقد أنه كان أضعف من أن يمارس هذا مع الخادمة التي كانت تُعنى به، وهي لم تدخل هنا قط !

- أنت مجنون !!

- أبوك كان غولًا! عليك أن تقبل هذه الحقيقة الأليمة !

انفجر الرجل في حشد من الشتائم والهستيريا والاعتراض، لكنه بعد لأي قرر أن هذا على الأرجح هو التفسير الصحيح، ما دام مؤلف القصة هو من قال هذا. بدأ يهدأ نوعًا، لكنه لم يقبل الحقيقة .

- يبقى لغز من أوصد الباب علينا !

قال مصطفى في ثقة :

- لا بد أن قوى الشر تستحوذ على هذا المكان! إنه مكان مسكون لو أردنا الدقة بعد كل ما سُفك فيه من دم! لن أندesh لو كان شبح أبيك هو من أغلق الباب علينا !

اندفع عاصم في غيظ نحو المطرقة التي فتح بها الصندوق، وهرع نحو النافذة الموصدة، وأوسع المقبض ضرباً :

- لو ظننت أنني سأبقى هنا أسمع هراءك فأنت مخطئ !

واصل الضربات على المقبض، بعد قليل تداعى القفل، وصارت النافذة قابلة للفتح. حرك الصلّفتين، فتساقطت سحابة كثيفة من الغبار والحشرات، ثم ظهر شيش خشبي بال .

لم يحتج إلى جهد هذه المرة كي يفتح المصراعين، وتسلسل النور والهواء أخيراً إلى الغرفة المقبضة .

أخذ شهيقاً عميقاً، ثم نظر إلى الشارع. كان هذا هو الطابق الرابع، الشارع خالٍ ولا أحد يمشي فيه، من الواضح أن الصراخ بلا جدوى .

نظر أسفل النافذة، ثم قال وهو يفكر :

- هذا الإفريز تحت النافذة، لو مشيت عليه في حذر لوصلت إلى منور السلم .

- لا أحب هذه الفكرة. أعتقد أننا لو بقينا هنا وحاولنا المزيد من الصراخ ...

قال عاصم وهو يضع ركبته على إطار النافذة :

- لو بقينا حتى تحل الساعة فلن يسمعنا أحد، سأحاول ببطء شديد ولنر .

لم يجد مصطفى الوقت ليعترض، لقد خطا الرجل خارج النافذة وهو يتمسك بالشيش، ثم وضع قدميه على الإفريز، وبدا الارتياح على وجهه، وقال وهو يلهث :

- جميل! سأتحرك ببطء شدي... ..

وفجأة أطلق صرخة قصيرة وهو ينظر خلف كتف مصطفى، وهتف :

- أبي!! لا !!

ثم دوت صرخته وهو يسقط من حالق نحو الشارع !

التفت مصطفى إلى الخلف فلم يرَ شيئًا ولا أحدًا! الغرفة المغبرة الكثيرة
جائمة كما هي !

فقط يمكنه أن يضع كلمة النهاية :

«النهاية»

من جديد وجد مصطفى نفسه في قاعة الاجتماعات، السادة الجالسون
والمدیر والمشروبات والشطائر، كانوا يصفقون ويدقون على المنضدة محيين .

كان مذهولًا، لا يعي ما يدور، فقال المدير وهو يشعل سيجارًا :

- نهاية دامية، لكنها نهاية على كل حال. بعض القراء لا يحبون هذا، يفضلون
النهايات السعيدة، لكنك قدمت نسيجًا لا بأس به، أهنتك !

قال الرجل البدين :

- ليس أسوأ من قصة لم تكتمل؛ معظم الناس يكرهون النهايات المفتوحة،
لكن ما فعلته أنت هو النهايات المبتورة، شيء يشبه السيمفونية الناقصة
لليست، وهذا لا يجعل الأمور أجمل !

قال مصطفى وهو يلهث نافذ الصبر :

- لقد أكملت القصص كلها يا سادة، أرجو أن تسامحوني لو طلبت الانسحاب
من هذه الجلسة الممتعة !

تبادل الرجال النظرات، ثم قال المدير بعدما تنحنح :

- بالطبع يمكنك الخروج إلى المكتبة .

هز رأسه محييًا، واتجه إلى الباب، عبر الردهة التي يعمل فيها الكُتّاب، ثم أزاح
الباب الذي دخل منه، فوجد نفسه من جديد في المكتبة العمومية .

مشى بين الأرفف، هنا استلفت نظره تحت اسم «مصطفى» اسمه هو،
هناك ثلاث قصص: «لقاء مع سالومي»، «وحيد في الظلام»، «الغرفة». لقد
اكتملت القصص فعلاً .

مشى بين الأرفف قاصدًا الباب ...

أمين المكتبة.. نظر إليه الشيخ الأصلع الذي يطالع «روكامبول»، ورفع حاجبيه

متسائلًا، فقال مصطفى :

- شكرًا لضيافتك .

نظر إليه الشيخ في دهشة كأنه يرى أحقق، ولم يتكلم .

هنا فوجئ مصطفى بأنه لا يوجد باب للمكتبة! الباب الذي دخل منه غير موجود !!

- أين الباب؟! إن حاسة اتجاهي سيئة فعلاً !

قال الشيخ وهو يتشاءب :

- لا يوجد باب يا بني !!

- ماذا تعنيه؟ !

- ألم تفهم بعد أنك قصة لم تكتمل يكتبها مؤلف آخر؟ هو كتب القصة حتى هذه النهاية، ولا أحد فينا يعرف ما سيحدث بعد ذلك، المؤلف فقط يعرف كيف ينهي الموقف، وكيف يخرجك من هنا !!

ثم أشار إلى مقعد بجواره :

- لو كنت مكانك لجلست أطلع رواية طويلة ممتعة، «الحرب والسلام» أو «إيفانهو» مثلاً، إن جلستك هنا سوف تطول على ما أرى !

علاقات زوجية

في عيد زواجهما الخامس والثلاثين اعترف حسن ونوال أن زواجهما كان غلطة العمر. أنت ترتكب خطأ وتنزلق إلى علاقة، ثم خطبة، ثم زواج، بعد هذا لو كنت محظوظاً يأتي الأطفال، تبدأ دوامة المدارس والتربية، التخرج، الزواج، ثم يرحلون... عندها تفيق للمرة الأولى لتدرك أنك لم تكن تريد الزواج أصلاً !

كانت نوال من أسرة ثرية أرستقراطية، وكانت تحتفظ بطابع مُتعالٍ يصعب ترويضه، أما حسن فكان من طبقتك وطبقتي نفسها، وقد فاز بها بمعجزة. هو رجل مكافح من الذين يعودون إلى البيت ببطيخة والعرق يغمر تحت إبطهم، وكان يقول عن أمه «أمي» وليس «ماما» أو «مامي»، وكانت له قرية يرتبط بها كثيراً. كان حسن مدرساً للأحياء، وقد قضى حياة شريفة من الكفاح، وله تلاميذ محبوبون. أما زوجته نوال فكانت مديراً في وزارة التعليم، وقد زادهما هذا غروراً لأنها أعلى منصباً من زوجها .

في سن التقاعد انتقلا ليعيشا في ضاحية بعيدة من المدن الجديدة، وهي حياة أقرب إلى العزلة التامة. الابنة في الخارج، في كندا بالتحديد مع زوجها. الابن محاسب يعمل في الإسكندرية، وهو مُقل في زيارته جدّاً. فقد الزوجان أملهما في أحفاد يملأون البيت ويجعلون الفصل الأخير من حياتهما ممتعاً. الأحفاد مخدر جميل آخر يحفظ العلاقات الزوجية. أحياناً تستعين الزوجة بفتاة بائسة تقوم بتنظيف البيت وشراء الخضر واللحم من السوق، ثم تشاجرت معها - بسبب حدة طبعها - واهتمتها بالإهمال والقذارة وانعدام الأمانة، وطردها شر طردة !

- هؤلاء الخادמות لعنة كارثية !

قالتها في قرف وهي تدخل المطبخ لتكمل الطبخة التي بدأتها الفتاة ولم تكملها .

مع الوقت، تعلم حسن أنه من الخير ألا يتكلم إلا فيما ندر. مع الوقت، صار الكلام بينهما شحيحاً، حتى إن لسانه كان يتعثر في نطق بعض الكلمات لأنه قد يمر يوم أو اثنان من دون أن ينطق بكلمة واحدة. وكان هناك مقهى قريب اعتاد أن يتردد عليه، هناك يشرب قدح قهوة، ويدخن الشيشة، ويحاول أن يستعمل تلك النعمة التي أعطاها الله له: اللسان. لم يكن يتابع الكرة، لكنه تظاهر بأنه زملكاوي متعصب، فقط من أجل الجدل. لم يكن يهتم بالسياسة، لكنه راح يتظاهر بأنه معارض صلب، من أجل الجدل. لم يكن يحب لعب الطاولة، لكنه علمها لنفسه .

كان يرفض فكرة الطلاق؛ لم يعد هناك متسع من الوقت لعمل ذلك، يكفي أن يتجنب لدغاتها ولسانها السليط، ويحاول ألا يشتبك معها في الكلام، وهو

يعرف باقي القصة: ذات يوم سوف تجده جالسًا في مقعده في الصالة، فتناديه، فلا يرد، تهزه، فتكتشف أنه أسلم الروح بنوبة قلبية. ستكون هذه أسعد لحظة في حياتيهما معًا. إنها تستحق حياة الوحدة والملل .

في الأمسيات الكثيرة - وكل أمسياتهما كثيرة - يجلسان أمام التلفزيون صامتين، يشاهدان فيض الصور الملونة، ومن حين لآخر تقول عبارة على غرار :

- عاهرات! كلهن عاهرات !

أو :

- إن الأوغاد في كل مكان اليوم !

فيغمغم موافقًا، بينما تمتد هي يدها إلى علبة التبغ «السوبر»، فتشعل لفافة، وتضع ساقًا على ساق وهي تسحب نفسًا عميقًا. لقد تعلمت التدخين بعد سن التقاعد، وهو كان يمقت التبغ ورائحته، لكنه شعر بأن هذا يتفق مع شخصيتها. لا بد من اكتمال الصورة. ينظر إلى وجهها المجعد، وشفثتها القاسيتين المزمومتين، وهالة الشعر الأشيب، وزجاج النظارة الذي تنعكس عليه الأضواء، عندها كان يشعر كأن هذه المرأة هي الموت !!

لم تكن صحته على ما يرام: ارتفاع ضغط الدم كان شديدًا، وقد أخبره الطبيب أن عليه أن يفعل شيئًا بسرعة. اضطر إلى خفض وزنه، وقلل الملح في الطعام، وراح يبلع ترسانة كاملة من غالقات قنوات الكالسيوم وغالقات البيت، لكن جسده لم يعد يعمل جيدًا. كان يدرك هذا ويفهمه، ومع الوقت لم يعد يذهب إلى المقهى كثيرًا، لأن صعود وهبوط الدرج لم يعد مريحًا؛ كان يقف أسفل الدرج ويتنهد وهو يفكر في عدد الدرجات التي عليه أن يصعد، ثم يتوكل على الله ويرفع قدمه .

أما الزوجة فكانت صحتها ممتازة، لكنه بدأ يدرك أن عقلها ليس على ما يرام !

كيف عرف هذا؟

كانت لا تكف عن الحديث عن الجان والعفاريت. صارت تراهم في كل مكان من الشقة، وتحدث عن أنها تراهم في كل ركن، وأنهم يتواجدون معها في الحمام. كانت تنثر الملح في البيت في أوقات معينة، وكانت مولعة بالبخور إلى حد كبير، أي أن رائحة البيت كانت خليطًا من السجائر والبخور !

أم عزيزة، كانت هي المعلم الخاصي للسحر الذي يزور المرأة بانتظام؛ سيدة ريفية مدثرة في ثياب سود، ولها نظرة ثابتة شريرة، وكانت تزور الزوجة بانتظام كل أسبوع تقريبًا، حيث تمضي معها بضع ساعات، تشربان القهوة ثم

تقلب القدح لتقرأ البخت لنوال. وعندما يعود من المقهى كانت أم عزيزة ترخي الطرحة على وجهها، وتعلن أنها أطالت الزيارة وعزيزة وحدها في البيت .

لم يحاول أن يسأل نوال عن هذه المرأة، لكنه قدّر أنها هي التي علّمت زوجته السحر. وكان للمرأة حضور غير مريح موجس كرية !

ذات ليلة قال لنوال بشكل عابر إنه لا يرتاح لتلك المرأة ...

- سيدة مسنة مثلك، وتعيش هي وزوجها وحيدتين، ألا يبدو الأمر بداية ممتازة لقصة في صفحة الحوادث؟ !

قالت في سخرية :

- وهل تعتقد أن أم عزيزة ستقتلنا وتسرق البيت؟ !

- ليس أم عزيزة، لكن زوجها، وهو على الأرجح مدمن مخدرات لا يتورع عن شيء !!

قالت في عصبية وهي تشعل لفافة تبغ أخرى :

- لست طفلة صغيرة! أعرف كيف أعنى بأموري !

وكانت هذه هي نهاية المحادثة، لكنه كان يشعر بأنه زوجته تقع تدريجيًا تحت تأثير أم عزيزة. وكانت المرأة تُحضر لها أشياء غامضة في لفافات، كانت نوال تخفيها في حرص! كان هو يتخيل ما يمكن أن يكون هناك، لا بد أن ضمن هذه الأشياء تراب مقابر؛ لا يتم أي سحر حقيقي من دون تراب مقابر !

كان يشعر بقلق من اضطراره للحياة مع امرأة متسلطة عصبية، ثم - والأدهى - مجنونة !

الأمر يتشكل ببطء: في البداية يشعر بأنها تغيرت، ثم يشعر بأنها تسوء، ثم يفيق ذات يوم ليجد امرأة يسيل اللعاب من فمها ومنكوشة الشعر، عندها يفطن للحقيقة: هي مجنونة تمامًا !

كان مستعدًا لتقبل حياته بهذا الشكل، إلى أن جاء اليوم الذي دخل فيه الحمام بعدها. يوجد شيء مريب هنا! ثم فطن إلى أنه يعرف هذا الشيء: لبن! لقد نفّذت زوجته كتاب السحر حرفيًا، فاستحمت باللبن !!!

لم يكن هناك مجال للخطأ، فاللبن في كل مكان من الحمام، لا أحد يخطئ ويسكب اللبن - حتى لو فسد - هناك! وقد شعر بدرجة من التقزز، فالمصريون يعتبرون اللبن والعسل سائلين مقدسين نوعًا، لا يقبلان الإهانة !

تناول إناء الماء المعدني، وراح يحاول غسل هذه المأساة، وبالطبع أدرك أنه لن يُكلمها عن هذا: إما أن تكون هذه آخر شعرة في عقلها فتنفجر فيه، وإما أن تؤكد وتقسم إنها لم تفعل، وإن الجان هو الفاعل .

أنت لا تستطيع لوم نوال على شيء، اللوم يحتاج إلى درجة من المودة والتواصل غير موجودة هنا !

مرت عدة أيام من الصمت، لكنه بدأ يلاحظ ممارسات أعقد. هناك كيس الغبار الموضوع على البوفيه، بالتأكيد هو غبار مقابر. لقد جاء دوره منذ زمن، وهو لا يجرؤ على فتح اللقافة .

ما فعله هو أنه حمل اللقافة وألقاها في سلة القمامة وأغلقها، وفي اليوم الثاني كانت زوجته تفتش كالمسعورة عن هذا الشيء المختفي. شعرها الأشيب، ونظراتها المجنونة، وبدانتها وهي تمشي كالبطة محاولة أن تحرك عظمتي الحرقف، لكنها والحق يقال كانت تمشي بسرعة وخفة، وكم من مرّة فوجئ بوجودها من خلفه.. لقد دخلت الغرفة دون أن يعرف كيف ولا متى !

كان يُفضل الصمت، وراح يتردد على المقهى لساعات أطول، لدرجة أنه نام ذات مرّة وهو جالس على المقعد الخشبي فبردت القهوة التي طلبها، ولم يبق إلا مع لمسة من يد القهوجي على ساعده :

- خير يا أستاذ حسن؟! هل أنت مريض؟

- أنا بخير.. فقط لم أنم بما يكفي !

صار مع الوقت يخشى لحظة العودة إلى البيت، خاصة عندما تجلس معه أمام التلفزيون لمشاهدة المسلسلات. شفتاها تتحركان بكلمات هامسة طيلة الوقت، لم يعرف قط ما تقوله، لكنه كان يخشاه !

أرسل لابنته في كندا خطابًا طويلًا. يكتب بصعوبة بسبب مشاكل البصر. كتب لها يقول إنهما بخير من الناحية الصحية والمادية، لكن عقل أمها لم يعد على ما يرام. كان يدرك أن الابنة سوف تتجاهل هذا؛ تهمة الجنون تُلصق بأمها في كل المشاجرات الزوجية منذ زمن، وستعتبرها الابنة تهمة أخرى. كان هو قد اتهم أسرتها كلها بأنها تحمل جينات الجنون.. أطلق هذا الاتهام منذ عشرين سنة .

اتصل بابنه في الإسكندرية وقال له إنهما بخير .

- ألا تنوي أن تمر علينا قليلًا؟

- هل هناك مشكلة ما؟

- قلت لك إننا بخير، لكن حالة أمك العقلية تثير قلقي !

- مثل؟

- تزداد إيمانًا بالسحر والجن والعفاريت! إنها تلك المرأة المسنة أم عزيزة، جعلتها تعيش في عالم من الشياطين تراهم وتلمسهم كل يوم! لا أعرف ما أفعله! ربما لو أنك زرتنا بعض الوقت ...

كالعادة، لا وقت لدى هذا النذل كي يساعد في إعادة الدفء إلى بيتكما :

- أنا مشغول جدًا يا بابا! خلافاتكما شيء لا يمكن إصلاحه إلا من خلال علاقتهما ببعض، لكن سوف آتي إلى القاهرة، لكن ليس هذا الشهر أرجوك! أنت تعرف ظروف البيت والأولاد والعمل !

هكذا وضع السماعرة، وقرر أن الله هو الحافظ الوحيد. لن يستطيع أحد أن يعيد زوجته للتعقل سوى زوجته أو أم عزيزة .

صار الأمر لا يطاق عندما فتح سلة القمامة ذات يوم فوجد فيها حشدًا من الحمام المختنق؛ حمام ميت لا يقل عدده عن عشر. نادى زوجته في غضب، وقال لها إن الأمر لا يُطاق. لن تزعم أنها اشترت هذا الحمام ميتًا. لن يمر وقت طويل قبل أن تمتلئ هذه السلة بالطوايط !

قالت في تبجح :

- وكيف لي أن أعرف؟ أنا لم أضعه هنا !

- وأنا كذلك لم أضعه هنا !!

- إذن هم، بسم الله الرحمن الرحيم، ليس لديّ تفسير آخر !

ثم أشعلت لفافة تبغ وابتعدت تاركة إياه يغلي غيظًا .

في ليلة 18 ديسمبر ذهب إلى المقهى. كانت هناك مباراة كرة لا يهتم بها، لكنه راح يتابعها ويهلل وهو يحسو القهوة. جاء رجائي المحامي المسن وجلس معه. شلة المقهى تكتمل ككل ليلة، وهم كلهم مسنون سوف يموتون واحدًا تلو الآخر. رجائي المحامي في الستين الآن، ويعاني الصلع، لكنه يصف شعره بالماء والغازلين بطريقة تغطي هذه الصلعة تمامًا، لكن هذه العجينة تتلاشى في لحظة بعينها فيبدو منتفش الشعر كالديك .

لما انتهت المباراة وبدأ المقهى يخلو من الزبائن، قال له رجائي :

- تبدو مرهقًا حزينًا !

- إنها نوال كالعادة !

- لمَ لا تفكر في الطلاق؟ يجب أن تمضي آخر أعوام لك في سلام !

- تُعنى بي !

- يمكنك أن تجد من تُعنى بك بأجر، أو اذهب لتقيم عند ابنك في الإسكندرية .

لكنه كان يعرف أفضل، هو وزوجته أفضل اثنين لبعضهما حاليًا، وعلى الأقل لن يموت أحدهما جوعًا. ليس أمامه من ملجأ سواها في الأعوام القليلة الباقية. لن يتركها تموت وحيدة، ولن تتركه يموت وحيدًا. لربما كان الموت في وجود غول معك في الغرفة أفضل نوعًا من الموت وحيدًا .

ودّع رجائي ووعدته بأن يهتم بصحته، ثم عاد في ببطء وثقل إلى البيت، وهو يشعر بأن المسافة عدة أميال. المشكلة هي صعود الدرج المتعب، المشكلة هي نزع الثياب الثقيلة، المشكلة هي النوم بجوار تلك الشمطاء، لكن العشاء ينتظره على الأقل .

في الأيام التالية صار أكثر بقاء في البيت، وصار ينام على الأريكة ساعات طويلة وفمه مفتوح من إرهاق، حتى إنه قدّر ساعات نومه بخمس عشرة ساعة يوميًا، ليس أقل من هذا، ولم تكن هي توقظه قط .

هل هي تمارس السحر معه؟ هل تدس له شيئًا في طعامه؟ لم يبذ له هذا منطقيًا؛ فهي في النهاية لا ترغب في حياة الوحدة! امرأة مزعجة لكنها بشرية على كل حال !

الجواب هو أنه يتقدم في العمر، لا شك في هذا. الباب الذي في نهاية الردهة بدأ ينفث .

كان جالسًا يشاهد مسلسلًا سخيًا في الصالة، وهي في غرفة النوم، عندما شعر بسخونة غير عادية! ماذا حدث؟! نحن في ديسمبر! العرق يسيل! وصغير مدوّ في أذنه. ماذا يحدث؟ صداع رهيب كأن هناك من يشق رأسه بمنشار! العرق! إنني أختنق! الصالة تظلم وشاشة التلفزيون تشحب !

- نوال!!!! !

قالها في رعب، لكن الصوت خرج مكتومًا. أدرك أنه لا يستطيع الكلام بشكل صحيح؛ الحروف تخرج من فمه معجونة !

عندما حاول النهوض أدرك أنه لا يملك القدرة بتاتًا؛ جسده متدلٍ بلا حبال

تمسك به. الصغير يتعالى، إنه الفالج لا شك في هذا، هناك سكتة دماغية أو جلطة أو نزف، المهم أنه شيء ما لعين حدث هناك !

- نوال !

ناداها في وهن .

كان وعيه ينسحب ببطء، وخطر له أن هذا هو الموت !

رجائي يقول له لم لا تفكر في الطلاق.. أبوه يبرز من خزانة الثياب ويقول له يجب أن تطرد أم عزيزة.. إلهام فتاة المراهقة تأمره بأن يجمع غبار المقابر.. إنه حبيس في قبر محكم الغلق يحاول التحرر، يتناثر الغبار ليملأ فمه، يصرخ فيختنق، يدق بيده على الجدار فتتكون ثغرة يطير منها الحمام الميت... فجأة هناك بحر من لبن يجب أن يخوض فيه، في الجهة الأخرى وجه الشمس الصارخة تستغيث به !

يحاول العبور لكنه لا يقدر.. يوشك على الغرق.. يرى الشمس من جديد ثم يدرك أنها مصباح الغرفة .

إنه نائم على ظهره في الفراش، يحاول أن يتحرك، بينما ضوء المصباح يعميه. كانت نوال تطل عليه من أعلى وهي تجفف عرقه. للمرة الأولى أدرك أن العرق يغمره لدرجة الغرق، وأنه يشعر ببرد رهيب، كما أدرك أن سرواله مبلل! لقد فعلها. بدت له قبيحة جدًا، مخيفة جدًا، وهي عكس الكشاف الوهاج !

قال لها :

- أنا... أنا مريض جدًا !

حاول أن يقول هذا، فخرج الكلام مختلطاً. أدرك أن نصف فمه لا يتحرك.. لسانه ثقيل.. أصابه هلع كامل ...

حاول أن ينهض، فلم تطاوعه قدماه ولا يداه. لا يستطيع ترجمة الانقباضات العضلية إلى فعل نهوض .

- أنا مشلول !

أدرك هذا بوضوح، فلم يحتاج إلى وقت طويل للفهم. نصف جسده الأيمن هامد تمامًا !

قالت له وهو يئن محاولاً إخراج صوت مفهوم :

- لا تقلق! ستكون بخير !

ثم هي تنزع عنه سرواله كطفل، تجفف ما بين فخذه، ثم تضع سروالاً جديداً، ثم هي تجلسه بالقوة، وتدس وسادة خلف ظهره، وتنزع الثياب عن نصفه السفلي لتبدلها بثياب أخرى جافة. ليس هذا الوقت المناسب عليكِ اللعنة! ليس وقت جفاف! اطلبي الإسعاف!

لكنها لا تبدو مهتمة سوى بنظافته، ثم إنها تدحرج جسده بشكل محترف إلى اليمين لتنزع الملاءة من تحته، ثم تدحرجه إلى اليسار لتنزع باقي الملاءة، ثم تدحرجه بالعكس لتدس ملاءة نظيفة تحته. شعر ببعض الراحة لدى ملامسة القماش النظيف، لكنه ظل ينتظر أن تطلب الإسعاف. ليس الحين حين ملاءات جافة، بل هو وقت أشعة مقطعية ورنين مغناطيسي!

قالت له ضاحكة :

- حاول أن تنام قليلاً، ستكون أفضل !

قال بلسانه المعوج :

- أنا مصاب بجلطة في المخ! لا بد من طبيب أمراض عصبية !

قالت في حزم :

- لا أفهم حرفاً مما تقول. وفر جهدك. أنت في حاجة إلى بعض النوم !

وقبل أن يجد الوقت الكافي، كانت قد غابت عن مجال الرؤية، لقد تركته حيث هو. وأدرك في رعب أنه يبكي بحرارة. عدم الاستقرار العاطفي يميز جلطات المخ عامة، وقد راح يبكي كطفل في الظلام. الرعب يغمره والصدمة !

أطفأت النور في الغرفة، ووجد نفسه وحيداً في الظلام !!

*

بعد ساعات من النوم المضطرب المفعم بالكوابيس بدأ يعود إلى وعيه. لقد صار الأمر ثابتاً وواضحاً؛ إنه يمر بالمراحل الأولى من شلل نصفي. لقد استقر الأمر، سواء كان يشكو من جلطة أو نزف، فقد صار حقيقة واقعة !

انفتح الباب، وظهرت نوال، كانت تحمل صينية عليها سلطانية وعدة أشياء، وضعتها على الكومود، ثم رفعتة بالقوة ذاتها، ثم وضعت الوسادة خلف ظهره ليصير في وضع جالس .

قال محتجاً :

- طبيب! أريد طبيباً !

قالت كأنها توبخ طفلًا :

- لا تضيع وقتك. لا أفهم حرقًا مما تقول. حاول أن تهدأ يا حسن !

ثم وضعت الملعقة في السلطانية وقربتها من شفتيه. حساء لسان عصفور لكنه ساخن جدًا. حاول أن يعترض لكنها دست الملعقة وأفرغتها. جففت شفتيه في عصبية ودست ملعقة أخرى. لا يريد. تحريك عضلات الفم صعب جدًا لهذا راح يتلع. هناك صدر دجاجة مزقته إربًا ثم راحت تدس منه في فمه، ثم إنها جففت شفتيه من جديد، ودست كوبًا من العصير. هذه المرأة مجنونة! إنها تتعامل باعتبار الحياة قد عادت إلى الروتين السابق.. سوف يستمر كل شيء كما كان، لن تطلب عونًا أو الإسعاف، بل ستتولى تمريره وتبديل ثيابه إلى أن يموت! هذا مستحيل !

مضت الساعات، لا يعرف إن كان هذا نهارًا أم ليلاً، فقط يرى بصيصًا هزيلًا من النور عبر خصاص النافذة المغلقة، يرى رقصة الظلال في الغرفة، وخزانة الثياب الضخمة العتيقة التي اشتراها من دمياط منذ 35 سنة، الغرفة كلها كانت بمائة جنيه. مع الوقت صارت قطع الأثاث هذه ترمز للهزيمة! يكره كل ركن في هذه الغرفة، وهو لا يطيق فكرة أن يموت هنا. كان قد اختار لنفسه ميتة جميلة؛ نوبة قلبية وهو جالس في المقهى وسط الأصدقاء والصخب، لكن لا يبدو أن هذا ممكن .

لا يستطيع الوصول إلى الهاتف أو طلب العون، ليس له أن يأمل إلا في زيارة من ابنه .

حسن.. أنت وقعت في الفخ.. ألعن فخ يمكن تصويره !!

عند المساء - هكذا قدر - ظهرت على الباب وهي تحمل في يدها مبخرة تتصاعد منها سحابة كثيفة من الدخان. راح يسعل، بينما هي تدور في الغرفة وفي فمها لفافة تبغ مشتعلة، ثم وضعت المبخرة بجوار الفراش. رآها تمزق قطعة من الورق على شكل إنسان، ثم تغرس فيها دبوسًا عدة مرّات، رآها مرارًا تفعل هذا من أجل «العين»، تقية الحسد، ثم إنها وضعت الورق في المبخرة ليتوهج ويشتع، وظلت تراقب الرماد، ثم قالت له :

- هذا وجه فاطمة، أختك، هي صاحبة العين !

هو لم يرَ فاطمة منذ أعوام، ولا تملك أي سبب لتحسده؛ إنها ثرية، وزوجها طيب، وأولادها يحبونها، ولديها كل ما يجعله يحسد فاطمة لا العكس !

نام لبضع ساعات. الهم والخوف يثقلان على روحه. يا رب، خذني الآن وفورًا قبل المزيد من العذاب! هذه المرأة قادرة على أن تخسف بي الأرض !

لما فتح عينيه أدرك أن في الغرفة ضوءًا خافتًا، الضوء قادم من شمعة مضاءة هنا في صحن من الماء، بجوار الشمعة استطاع أن يرى سيدة جالسة. إنها نوال بلا شك. تغطي وجهها بالكامل بقطعة من القماش، وتحت القطعة كانت تتكلم، تُصدر أصواتًا مخيفة كأنها في جلسة روحانية تلعب دور الوسيط !

أرجوك يا إلهي، خذها أو خذني الآن !

موعد حساء لسان العصفور. في طفولته كان يعتقد أن هذه السنة ألف عصفور تم تعذيبها واقتلاع السنتها، وكانت الفكرة تثير ذعره. اليوم يشعر بالرعب ذاته ونوال تدس الملعقة في فمه !

بعد الأكل دست الأقراص التي يتعاطاها بين شفثيه مع رشفة ماء، لربما أعطته القرص نفسه مرتين أو أغفلت قرصًا، ثم من قال إن العلاج الذي كان يتعاطاه ما زال صالحًا؟ !

سال الدمع من عينيه حارًا ثخينًا، وصرخ :

- أريد طبيبًا! أريد المستشفى !

لكن الصوت خرج منه غير مفهوم؛ كل الحروف مدغمة، وقد بدا بعض التأثير على ملامح المرأة، ومصممت بشفثيها، وقالت :

- لا أفهم حرفًا. حاول أن تهدأ. مسكين !

وعندما يتوغل الليل كانت تحضر مقعدًا وحزمة خيوط «الكانافاه»، ثم تجلس بقربه معتقدة أنها تبعث الدفء العائلي في الجلسة، وكان هذا مزعجًا، لكنه أرحم قليلًا من تلك الليلة السوداء التي راحت فيها تتصل بالأرواح .

تجلس على بُعد متر منه تنسج، والحقيقة أنها كانت تجيد «الكانافاه» فعلاً، فكانت تصنع لوحات ضخمة متقنة.. الجنون لا يرتبط بانعدام الموهبة !

كانت تقول له بالنغمة الرتيبة نفسها كل ليلة :

- عندما ذهب الخادم ليسجل اسمي في مكتب الصحة، خجل من أن يسميني «نوال» هكذا، فقال للموظف إن اسمي «نوال هانم». كنت مولودة وفي فمي ملعقة من ذهب، درست في مدرسة «...»، حيث صارت الفرنسية تتدفق على شفثي، ولا أذكر يومًا لم تأت السيارة لتقلني من وإلى المدرسة. قالت لي أمي إنني سأتزوج ملكًا أو أميرًا، عندما تقدمت لي وأنت من أسرة فقيرة خطر لي أن الأمر سيكون رومانسيًا، وإنك نموذج الشاب المكافح الذي يشق طريقه إلى القمة كما يحدث في الأفلام! كنت صاحب عينين حزينتين شفافتين، وكلمات منتقاة بعناية. وقد قالت أمي إنك لا تصلح، قال أبي إنك لا

تصلح، لكنني أصررت على رأيي، واعتقدت أنني سأكون سعيدة مع شخص أكافح معه !!

ثم تنفث سحابة دخان كثيفة وتردف :

- صرت أنا مديرة مهمة في التربية والتعليم، بينما ظللت أنت تتعثر كمدرس. تحاول أن تصنع مالا من الدروس الخصوصية. كنت تكافح، لكنك لا تملك مؤهلات النجاح. قبل أن أتساءل عما إذا كنت قد أحسنت الاختيار كان الأولاد قد أتوا، نرمين وعماد، وانهمكت في لعب دور الأم المخلصة، ونسيت نفسي أعوامًا طويلة... غيبوبة عشت فيها 35 عامًا إلي أن تزوج الجميع وخلا المسرح من المتفرجين، عندها أدركت الحقيقة: أنا أسأت الاختيار !!

نظر إليها في رعب. إلامَ تفضي هذه المقدمة إذن؟ ماذا تحاول قوله؟

رأت الرعب في عينيه، فقالت وهي تسعل :

- لا تخف، ليس معنى أنك لم تكن مناسبًا أنني أكرهك! سوف أعني بك كأي زوجة محترمة يمرض زوجها، أنا بنت أصول! ولسوف أريك معنى هذا !

كانت العبارة الأخيرة مخيفة ولا تبعث الراحة في النفس.. ثمة عبارات لها تلميحات غامضة !

كانت تحلم :

- عندما ولدت نرمين، شعرت بأنني مستعدة كي أتصالح مع العالم. كانت أقرب إلى دمية صغيرة جميلة، وقد شعرت بامتنان لك لأنك منحتني إياها. أعتقد أنني قضيت أسعد 28 عامًا في حياتي لوجود هذه الدمية معي! كان عماد مختلفًا، كان أقرب إلى الحرص على مصلحته، وقد قلت لي مرارًا إنك تعرف أن علاقته بنا ستنتهي عند زواجه. الواقع أن هذا كان صحيحًا! يعطيني عماد دومًا الشعور بأنه مشغول جدًا ولا وقت لديه لكلام البنوة الفارغ. كان المرء متأهبًا لبدء حياة جديدة بعد رحيل الطفلين، لكن الأمر يُذكرني بدعابة الأحمق الذي كان يتدرب على الهبوط بالمظلة، قيل له: «اجذب الخيط لتنفث المظلة على ارتفاع 300 متر»، ولكنه نسي، نسي فلم يتذكر إلا على ارتفاع 25 مترًا، قال لنفسه: «لا مشكلة، سأثبت هذه الأمطار القليلة»!

وراحت تضحك والسعال يشخخش في صدرها، كل لفافات التبغ بالداخل تريد التحرر، ثم قالت :

- هذا ما حدث معي! قلت لنفسني إن ما بقي فترة قصيرة جدًا، فلأتحملها إذن !

ثم قطعت خيط «الكانافاه»، وقالت :

- لكن الفرصة اليوم قد جاءتني لأعني بك، لأقدم لك خدمة العمر، لسوف
تحمد الله على أنني زوجتك !

ودفنت لفافة التبغ في المطفأة، ثم نهضت تاركة رائحة الغرفة خلفها لا تُطاق .

*

جرس الباب يدق في إلحاح، ثم صوت زوجته تصيح :

- أنا قادمة !

تدفع شحوم جسدها، وتقود رديها نحو الباب، وهي تلهث كديناصور من
العصر الباليوزي. يمكنه أن يراها تمشي كبطة بسبب آلام قدميها. يسمع
صوت الباب يفتح. هذا حادث فريد من نوعه؛ لأن أحدًا لم يعد يزورهم، ونوال
تنزل مرة كل أسبوع لتبتاع حاجيات البيت بعدما طردت «مقصوفة الرقبة».

صوت الباب يفتح، ثم صوت مألوف يقول :

- هل أستاذ حسن بخير؟

- أنا هنا يا رجائي !

رجائي المحامي الأملع العزيز .

صوت نوال :

- هو في الإسكندرية مع ابنه منذ فترة .

- لقد كف عن المجيء إلى المقهى منذ فترة! هاتفه غير متاح أو مغلق! لم
تكن هناك طريقة للاطمئنان عليه، وقد طلب مني الرفاق أن أطمئن عليه !

صوت نوال :

- الحمد لله هو بخير. زيارة مفاجئة، لكن ابنه أصر على استبقائه .

بدأ حسن يزوم بصوت عالٍ، راح يضرب الفراش برأسه ويصرخ :

- الغوث! أنا هنا يا رجائي! تعالَ لتنقذني! خذني إلى المستشفى !

مد يده السليمة، وبصعوبة استطاع أن يلمس الكوب، رفع ذراعه ثم ألقى به

بقوة، اصطدم بالجدار فتهشم إلى عشرات القطع. لا شك أن الصوت كان عاليًا جدًا ...

صوت رجائي :

- هل هناك أحد هنا؟

قالت نوال في لهجة عابرة :

- لا شيء، إنه القِط قد أسقط كوبًا بلا شك !

- هل لديكما قِط؟

ضحكت ولم تُعلّق، ثم عادت تسأل بصوتها الخشن :

- لمَ لا تتفضل بعض الوقت؟

كانت «عزومة مراكبية» طبعًا، فشكرها بحرارة وارتباك وانصرف. وسمع حسن الباب ينغلق. هذا باب أمل يُغلق، فالرجل اطمأن على صاحبه ولن يرجع، لن تكون هناك محاولات أخرى قبل شهر .

ظهرت نوال على باب الغرفة. نظرت إليه حيث رقد على الفراش، ثم اختفت وعادت حاملة مكنسة وجاروفًا، وراحت في صبر تجمع بقايا الكوب المهشم على الأرض. لم تقل شيئًا ولم تلمه. رباه ! لم تقل شيئًا ولم تلمه! هذه المرأة تزداد خيالًا !

صحا من النوم، لعلها كانت الثالثة بعد منتصف الليل. كان غارقًا في العرق يلهث .

حرك ذراعه اليمنى وثنى أصابعه. استغرق لحظة ليدرك أنه حرك أجزاء مشلولة من جسده! إنه يتحسن ! لعل النزف ينحسر، أو لعل أوعية جديدة تغزو الجلطة. ما زال واهنًا تمامًا، لكنه مع التمرين اليومي يمكن أن يتحسن أكثر .

لم يرد أن يخبرها؛ هو يخشاها كالجحيم، ومن الأفضل أن يُبقي ورقة في كُمه .

لكنه لم يعرف أنها بدورها تُخفي أوراقًا كثيرة في كُمها !

كان يخشى أن يُجرب صوته فتسمعه. فضّل الصمت وإصدار صوت خريّر. لا يضمن ما سيحدث لو اكتشفت أنه صار قادرًا على نطق الحروف. لكن هل هو قادر فعلاً؟ لا يدري .

يقضي الوقت في الظلام، يفتح ويغلق أنامل يده اليمنى محاولًا الحفاظ على هذه الهبة التي ظفر بها، وراح يثني الرسغ ثم يحاول فتحه باليد اليسرى، يثني الساعد ثم يحاول فتحه.. أربع وعشرون ساعة من التمرين .

لا شك أنه بدأ يتحسن، لكن ماذا لو صارحها بذلك؟ لا شك أنها ستزيد القيود عليه .

عليه أن يختزن قواه ويتأهب للحظة المناسبة .

هناك كان أبوه المتوقّف يقف بجوار الفراش يهز رأسه في أسى وينفث دخان التبغ :

- لشد ما أذتك يا بني! تلك الشمطاء لم تكن مناسبة لك كما قلت لك !

تقول الأم وهي تستند إلى العكاز :

- أنت لم تصدق أن فتاة أرستقراطية كهذه معجبة بك، فأصررت على أن تتزوجها، وكان عليك أن تدفع الثمن! لعلك لم تجرب السعادة يومًا واحدًا في حياتك !

يدنو أبوه من الفراش، وينحني ليحثو على رُكبتيه ويلقي نظرة، ثم يقول في أسى :

- هي كذلك تتسم بالقذارة! لم تنظف ما تحت الفراش من فترة، والآن أرى أن ثعبانًا يلتف هناك !

يصرخ حسن في جزع :

- أنت تبالغ يا أبي! مستحيل أن يكون هذا حقيقيًا !

يقول الأب في حكمة :

- لو أن بوسعك أن تزحف تحت الفراش لرأيت ما أعنيه! على كل حال، من الواضح أنه ليس ثعبانًا سامًا، هي فقط تمارس طقسًا سحريًا ما !

قالت الأم في شفقة :

- هناك وطواط ميت في خزانة الثياب! الواقع أنك تعيش في وكر ساحرة يا بني، والمشكلة هي أنك غير قادر على الهرب !

ثعبان!! هل هي هلوسة أم أن هذا حقيقي؟ زحف إلى حافة الفراش، وتحامل على نفسه ليلقي نظرة. هناك من تحت الفراش رأى الشيء الأسطواني

البشع يزحف بشكل بطيء شرير، أصابته حالة هستيريا، فراح يصرخ، يصرخ بصوت رفيع كأنه فتاة مراهرة. إن هذا صحيح! رباه! إن هذا صحيح! رباه! أبوه على حق !

ومن مكان ما ظهرت نوال زاحفة كالديناصور، تجر رديفها الهائلين والسيجارة بين شفتيها. وقفت على الباب تحاول الفهم، بينما هو يكرر في جنون :

- ثع... ثع... ثعبان !

قالت بلهجة باردة :

- أنت صرت مخرفًا بالكامل !

ودنت من الفراش، ووقفت ترمقه للحظة، ثم إنها انحنت ورفعت طرف الملاءة. لم يعد هناك شيء على الأرض! اختفى الجسم الأسطواني !

قالت له :

- ثعبان؟ أين هو؟

الواقع أنه لا يوجد شيء، لكنه كان متأكدًا من أن حواسه لم تبلغ هذه الدرجة من الهذيان !

غابت بعض الوقت، ثم إنها عادت إلى الغرفة، كانت تحمل إناء من البلاستيك و.. وسكينًا، ومنشفة. راح يرمقها بعينين خرساوين، بينما كانت هي تضع المنشفة تحت رأسه، وتُحكم وضعها بحيث لا تتسخ الوسادة. كانت تلهث من الجهد. قالت له وهي تجلس على حافة الفراش :

- فيما مضى كنا نلجأ إلى الفصد، كان هناك حلاق صحة في كل حي، لديه برطمان مليء بالعلق، وكان يستخدم هذا العلق في امتصاص الدم الفاسد، ثم مع الوقت عرفنا الحجامة، إنها علاج شعبي معروف ومفيد .

فتح فمه معترضًا، لكنها كانت قد وضعت الإناء البلاستيكي تحت رأسه كأنها ستنحره. حاول المقاومة، فثبتت رأسه بيدها الخشنة، ثم إنها هوت بطرف السكين الحادة على جانب صدغه !!

- الحجامة، ستريحك حقًا !

راح يئن، بينما هي تُحدث جرحًا.. جرحين.. ثلاثة جروح متوازية.. ينهمر الدم ليملأ الإناء ...

- هذا كله دم فاسد !

في النهاية راحت تكبس الجروح بقطعة شاش قوية الرائحة. أدرك أن هذه رائحة بُن.. البُن يوقف النزف حسب الاعتقاد الشعبي.. ثم إنها بدأت تضميد موضع الجروح، وألصقت الكثير من البلاستر، ثم حملت الإناء .

- غداً نكرر العلاج !

ظل راقداً وحده في الظلام، يقاوم الألم الكاسح الذي يمزق جبهته، يرتجف من الداخل بلا توقف. هنا دنا أبوه من الفراش، ووضع يده الباردة على جبينه، وقال له :

- لم يعد هناك سوى حل واحد !

- وما هو؟

- نوال يجب أن تموت !

قال حسن وهو يضغط على أسنانه ألماً :

- أولاً لا أستطيع أن أفعل! ثانياً من يعنى بي لو ماتت؟! هي تطعمني وتبدل ثيابي !

- لربما كان الموت من دونها أسهل وأقل تعذيباً !

لم يستطع أن يواصل المحادثة لأنه فقد وعيه من شدة الألم؛ غيبوبة لها رائحة البُن والدم معاً !!

عندما فتح عينيه استطاع أن يرى ذلك الشيء على الجدار، يمشي على خزانة الثياب في رشاقة غير مُبالٍ بقوانين الجاذبية. إنه فأر ! لم يستطع أن يفهم إن كان هذا فأراً متسللاً أم أن المرأة هي التي أتت به! لا داعي للصراخ، فهي ستؤكد أنه لا يوجد أي فأر هنا !!

هناك شيء في الضوء الخافت في مجال عينيه ...

التفت ليُلقي نظرة، أدرك أن هذا الشيء هو سكين الفاكهة موضوعة على الكومود الأيمن؛ سكين مديبة جميلة المنظر. بصعوبة راح يسند يده اليمنى باليسرى إلى أن تمكن من أن يوجهها. تحررت يده اليمنى، ثم بدأت تزحف إلى السكين. في النهاية أطبقت يده عليها، ناولتها يده اليمنى إلى يده اليسرى، وبعد جهد جهيد استطاع أن يضعها تحت الوسادة .

الصباح ...

كانت قد جاءت حاملة حساء لسان العصفور، أجلسته في الفراش، ثم بدأت

تدس الملعقة بين شفثيه :

- هل تعرف يا حسن؟ أنا فعلاً أميل إليك بوضعك الحالي؛ معدوم القوة، تعتمد بالكامل عليّ! أشعر بأنك طفل رضيع، وهذا الشعور يروق لي! أتمنى ألا تُشفى أبداً!!

قالتها ولم تضحك، وجففت الطعام عن شفثيه، ولم تنتظر كي يبلع، بل دست ملعقة أخرى، ثم قالت :

- أنت تتحسن بفضل الحمامة، اليوم سأخذ المزيد من الدم !

كانت هذه هي اللحظة ...

مد يده تحت الوسادة، أطبق على السكين، انقض على عنق المرأة وقد قرر أنه لا مجال للتردد! لو لم تمت فهو ميت! انغrust السكين في عنقها، فنظرت إليه بغباء، أخرج السكين بصعوبة وغرسها من جديد، أنشبت نوال مخالبا في عنقه وجحظت عيناها غضباً، لكن فاتها الوقت كي تتجنب طعنة ثالثة !!

سرعان ما تهاوت لتسقط على الأرض وسط بركة من الدم! أطلقت بعض الضوضاء ثم همدت تماماً !

تحامل على نفسه حتي سقط من فوق الفراش فوق جسدها البدين، ثم بدأ يزحف نحو الباب... لا بد أنه زحف ربع ساعة نحو باب الشقة.. يجب أن يفتح باب الشقة بأي طريقة، لكن كيف؟ كيف يرتفع إلى مستوى المقبض؟ لا يوجد مزلاج، لكن هذا لم يحل المشكلة ...

هناك رقد خلف الباب يوجه له اللكمات بيده اليسرى، ويصرخ ...

لا بد أنه فقد الوعي للحظات ...

عندما فتح عينيه من جديد أدرك أنه في مأزق خطير، سيموت جوعاً بالتأكيد! ربما كانت هذه غلطة عمره، لكنه لن يندم عليها أبداً !!

سمع صوت مفتاح يدور في الباب، فتراجع إلى الخلف في لهفة.. هذا شخص يملك مفتاح الشقة !

انفتح الباب، وظهر ابنه ينظر إلى أبيه الراقد على الأرض في دهشة.. لقد عاد من الإسكندرية .

- بابا؟! ماذا حدث؟ !

لكن الأب لم يُجب لأنه فقد وعيه ثانية !!

سيمفونية المقصلة

الفرقة تعزف آخر فالس لهذه الليلة ...

يقف رمزي بعيدًا في ظل سنديانة عجوز، يدس يديه في جيبه ويتنهد. عبق أزهار الليل يتصاعد ويمتزج بالموسيقى. من أجل لحظات كهذه نغني، من أجل لحظات كهذه ننشد الشعر، من أجل لحظات كهذه نبكي، من أجل لحظات كهذه نقبل الموت عندما يأتي أخيرًا .

الأرض تموج بالموسيقى، لا بد أن هذا لحن «شتراوس». ليس واثقًا، كل الموسيقى الكلاسيك تتشابه بالنسبة إليه. لا شك أنه يحمل عقلًا وقلبًا وأذنًا عربية فلا يتذوق تمامًا هذه الألحان .

مصري يقف وحده في حفل باريس أنيق، يشعر بمزيج من النشوة والخجل والألم، تمضه الوحدة. هناك في ساحة الرقص يمضي راقصو الفالس في دورات رشيقة: فتيات منتشيات، ورجال حالمون. الكل لن يعاني الوحدة هذه الليلة ما عداك في تلك الشقة الصغيرة القريبة من شارع سان ميشيل.. باردة كئيبه .

شد ما يتألم، لكنه ألمٌ شهوي محبب، ألمٌ يحب أن يجتره ويشعر به .

إنه «زهرة حائط».. التعبير الذي يتحدث عن أشخاص يقفون وحيدون في الحفلات يراقبون الحياة ولا ينغمسون فيها .

نظر إلي ساعته، وقدّر أن عليه اللحاق بآخر مترو وإلا لاضطر إلى استئجار سيارة أجرة باهظة .

هنا دنت منه «بريجيت» .

كيف عرف أنها «بريجيت»؟ لأنه من المستحيل ألا يكون اسمها كذلك .

رقيقة، نحيلة، لها أجمل وجه يمكن أن تراه في حياتك؛ الوجه الذي سيتفق عليه كل البشر، ولن يتدخل الذوق الخاص فيه.. ملاك .

تحمل كأسًا، وتلبس ثوب سهرة طويلًا شفافًا، لكنه ذو ياقة منفوشة سابغة. الفتاة الوحيدة التي تغطي نحرها في الحفل كله. عينان لهما لون مستحيل: هل هما زرقاوان أم رماديتان؟ زهرة حمراء حيث كان ينبغي أن يكون الفم. لاحظ في دهشة أن يديها كبيرتان، على الأقل أكبر مما يوحي به وجهها الرقيق !

تقول لرمزي بفرنسية ساحرة :

- أنت وحيد مثلي، هل تمنحني هذه الرقصة الأخيرة؟

كالمسحور يأخذ منها الكأس ويضعها على إفريز النافذة التي يقف بجوارها، ثم
يمسك بيدها الزجاجية القابلة للكسر، يرفعها ويتقدم معها ليجرأ في عالم
الموسيقى .

احسدوني.. انظروا إليّ في دهشة !

انتظرتُ حتى ظفرت بما هو أفضل وأروع !

الحلم يستمر، وهو يفكر في أن هذا كله سينتهي بطريقة ما . للأسف سوف
ينتهي اللحن. للأسف لم يستطع «شتراوس» كتابة سيمفونية أبدية .

كل ما حدث بعد هذا كان أقرب إلى الحلم .

سيارتها، الكلب الصغير، حديقة الفيلا في ضوء الكشافات، البيت الواسع، أنتِ
وأنا فقط.. هناك وقف عند المدخل وانحنى ليلثم عنقها.. انتهى هذا طويلاً
منذ كانا في الحفل .

فيما بعد سيحكي لها عن مصر، وعن الدلنجات مسقط رأسه، وعن أمه وأخته
وهجرته إلى فرنسا، و... و... هو الآن ثمل بنشوة الحب ولا يقدر على الكلام .

في حذر ورفق أبعدت شفتيه عن عنقها، وهمست :

- لا، لا، لو أردت أن تكون في عالمي فلا تحاول هذا !

كان هذا مخيباً للآمال، وخطر له أنه تعجل جداً.. لقد تصرف كحيوان غير مهذب
!

قالت له وهي تنظر في عينيه :

- ادخل واجلس وتكلم، لكن لا تحاول هذه الأشياء !

- ولكن ...

- هذا بيتي، وتلكم شروطي وقوانين لعبتي !

التزم الصمت، وخطر له أن اقترابه منها نصر كافٍ .

*

«دومينيكا دو جالفان» تستند على حافة العربة التي تجرها الخيول. السجن

قد قضى على جمالها، لكن كبرياءها وترفعها كانا فاتنين. ثيابها ممزقة، لكنها تمنحها طابعًا خاصًا .

بعنق عالٍ وشعر محلول يغطي كتفها ترمق الرعاع كريهي الرائحة الذين يملأون الشوارع. معها في العربة «ماركيز» منهار تمامًا، وشيخ هدّة القنوط، وامرأة باكية. هذه المشاهد كانت تمنح الجماهير نشوة ما بعدها نشوة. كانت قد عرفت أن «ماري أنطوانيت» أعدمت أمس. هكذا عرفت أنه لا أمل لها، لكنها لن تمنح الناس لذة مشاهدتها وهي ترتجف .

هناك في ميدان الكونكورد بباريس تقف المقصلة الرهيبة؛ هدية الدكتور «جيلوتين» للعالم، نصلها ملوث بدماء جافة، والعلم ثلاثي الألوان يرفرف بجوارها .

وقفت العربة، فتصايح الناس فرحًا، صراخ الرومان نفسه عندما كانوا يلقون المسيحيين للأسود، ثم ظهر أهم شخص في المسرحية: الجلاد، بقلنسوته التي تكشف عن عينيه فقط، وعضلاته الهائلة .

لسبب ما بدأ الوجبة بـ«دومينيك»، اقتادها من العربة، وربط ذراعيها برباط جلدي، ثم إنه حملها إلى الآلة الرهيبة .

شهق الناس من النشوة !

كانت هي تنظر في ثبات إلى السلة الملوثة بالدم الجاف بعد عمليات أمس. لم تشعر بأن النصل ارتفع في السماء ثم أزاح الجلاد الترباس فهوى النصل الثقيل.. وهوب... سرعان ما رقد الرأس المتمرّد في السلة .

مد الرجل يده، وقبض على الشعر، ورفع الرأس ملوحًا، فتعالى التهليل والصراخ، ثم إنه ألقى بالرأس في السلة .

بعد دقيقة ظهر رجل أصلع له شعر طويل يتدلى على كتفيه ويلبس «المونوكل»، مد يده ينقد الجلاد شيئًا، وفي لحظات انتقل الرأس من السلة إلى كيس من خيش يحمله الرجل .

بعد دقيقة كانت عربة تجرها الخيول تحمل الرجل وصيدته الثمين عبر شوارع باريس القذرة الفقيرة .

الحوذي يلهب ظهور الخيل بالسوط، ويسبها بأقذع السباب .

توقفت العربة في زقاق حقيق، فوثب منها الرجل، وفتح بابًا خشبيًا في بناية من طابقين، وانسل إلى الداخل. هناك كان مختبر صغير تنيره الشموع، وكان شاب في العشرين يصب بعض السوائل في قوارير اختبار، فلما رأى العالم

هتف :

- دكتور «رانفييه»! أنت نجحت !

قال الأصلع وهو يلهث :

- ليس بعد، لقد تأخرنا جدًّا !

ثم أمر الشاب بأن يحضر الجهاز الذي ابتكره، وهو جهاز يتكون من مجموعة من الخراطيم يتصل بها جهاز زنبركي بقلب ساعة. مهمة هذا الجهاز أن يضح سائلًا رائق اللون في نظام الخراطيم. وبإيد مرتجفة متلهفة راح الطبيب يشرح الأوردة والشرابين الخارجة من عنق الفتاة .

*

سألته، بينما أشعة الشمس تغمر الغرفة :

- هل أقدم إليك الإفطار وعصير البرتقال؟

كان رأسه محاطًا بسحب دخانية كثيفة، وأحس بأنه في حاجة إلى البرتقال فعلاً، ربما قهوة قوية نفاذة الرائحة أولاً. قال لها إنه يرحب ببعض القهوة، ثم أراح رأسه على الأريكة المريحة. ليلة دسمة حافلة برغم أنه لم يلمس سوى يدها. لقد كان وجودها هو كل شيء.. كأنه شرب وسكر وارتوى واستحم في نهر فردوسي .

الشمس تتخلل باقة من الأزهار فوق المنضدة، وكأسًا زجاجية ودورقًا من الكريستال .

تذكر أنه لم يسألها عن اسمها، لقد قرر أنه «بريجيت» لأنها لا يمكن أن تكون سوى «بريجيت»، لكن هذا تفكير غير واقعي البتة! الأغرب أنها لم تسأله عن اسمه !

قال لها :

- رمزي .

رفعت حاجبيها في دهشة، فقال :

- اسمي «رمزي»، أعتقد أنني لم أقله قط !

تحسست جبهتها مفكرة بعض الوقت، ثم قالت :

- بصراحة لا أذكر إن كنت قد قتلته لي.. الأسماء لا تهم.. هذا أنت وهذه أنا..
كلانا يشعر بوحدة قاتلة، وكلانا في حاجة إلى الآخر !

قال لها :

- لكنك في حاجة إلي معرفة خلفيتي كما في السينما: من أنا؟ من أين
جئت؟ ماذا أريد؟ أنا أيضًا أريد أن أعرف من أنت، ومن أين لك هذه الغيلا، ولماذا
تعيشين وحدك !

رفعت يدها لتسكته، يدها كبيرة الحجم فعلاً بشكل لافت، وقالت له :

- هناك وقت لكل هذا، لكن لا تفسد لعبة الغموض الجميلة هذه! سوف
نستنتج الأمر خطوة بخطوة، مثلاً أنا عرفت اليوم أن اسمك «رمزي»، وأنتك
فضولي كالقطط.. هذه بداية !

*

كان البروفيسور «رانغييه» يستكمل توصيل الشرايين والأوردة بيد مرتجفة.
هكذا صار الرأس المقطوع جزءاً من دائرة سريان سائل منتظمة .

- اعتمدت كثيراً على نظريات الأحق «لافوازييه» !

ثم إنه وضع الرأس المقطوع في وعاء معدني صغير، وأحاط الوعاء بالشموع.
أدار بعض التروس، فبدأت المضخات تعمل، وسُمع هدير عالٍ .

- أنا أخلق دورة دم صناعية لهذا الرأس، وسؤالي هو: هل هو حي؟ هل ما زال
قادرًا على الحياة؟

قال الشاب بعينين لامعتين :

- الحق أن هذا أكثر ما رأيت في حياتي إثارة، لكنني لا أملك أسئلة! لقد
غادرت الروح هذا الجسد، لا يمكن لشيء أن يعيدها إلى الحياة، رحل السر
المقدس !

ظل دكتور «رانغييه» يراقب الوجه بعض الوقت، ثم جاء بشمعة وقربها من
العين. بدت عليه خيبة الأمل، ومط شفته السفلى. دقيقتان! لو كان شيء
سيحدث لحدث فعلاً !

فجأة دارت العينان الناعستان في المحجر، وتقلصت ملامح الوجه .

انتفض الطبيب، فقال الشاب :

- تقلصات الموت، هذا شيء معروف، كما أن التحديق في جثث الموتى لفترة طويلة يوحى لك بأنها تتحرك !

لكن الطبيب قرَّب الشمعة أكثر، وراح يتأمل الوجه. كان في هذه اللحظة بالضبط يخطو عند الحدود الفاصلة بين الحياة والموت، بين الوجود والعدم، لكنه لم يكن مؤمنًا. كان قد قرأ «فولتير» في نهم، وعرف أنه لا شيء يُسمى «الروح»، كلها ظواهر كيميائية فسيولوجية .

الآن يفتح الفم، محاولة واضحة لنطق شيء. ليس هذا هو التصلب الرِّمي، الأمر أكبر من ذلك وأخطر. ثم انغلق الفم ولم يخرج صوت .

قال في انبهار وقلبه يرتجف :

- لا توجد رثتان، لهذا هي غير قادرة على الكلام، لكنها تسمعنا وترانا !

ارتجف الشاب، وشعر بالشعيرات تنتصب على ساعديه. معنى هذا أنها تشعر! بمَ يشعر المرء وهو رأس مقطوع فوق طبق؟ ترانا وتسمعنا وتفكر! تقول لنفسها إنها ما زالت حية !

هكذا راح الطبيب يستكمل الجهاز.. نظام لإذابة الأكسجين في السائل الصناعي الراقي الشبيه بالدم، وطريقة للتغذية.. يمكن لهذه الدورة أن تستمر للأبد .

قال وهو يُصدر فحيحًا بسبب الربو :

- نحن غيّرنا التاريخ !

في ضوء الشموع تراجع الشاب راجعًا. كل هذا لا يُطاق، كل هذا لا يُوصف، إن النوم بعد مشاهد كهذه مستحيل !

قال للعالم :

- قد برهنت على وجهة نظرك يا سيدي، الآن حان الوقت كي ندفن هذا الرأس !

نظر إليه «رانغييه» في جنون، وهتف واللعب يطير من شذقيه :

- هل تمزح؟! التجربة قد بدأت !!

طال الجدل، فلم يستطع الشاب سوى أن يشرب كوبين من خمر قوية، ثم غادر المختبر الرهيب لينام. يمكن أن تتخيل كيف كان نومه مع العرق والكوابيس: لقد قُطع رأسه ألف مرّة، ودبت فيه الحياة مائة مرّة، وفي الصباح

دعا الله أن يكون هذا كله كابوسًا !

لم يكن هذا كابوسًا، ضوء الشمس يغمر كل شيء، والناس يمشون في الطرقات يتبادلون الشتائم. نهض إلى المنضدة بجوار الفراش فصب لنفسه المزيد من الخمر، واقتطع لنفسه قطعة خبز .

ماذا كان اسمها؟ «دومينيك».. «دومينيك دو جالفان».

من هي؟ لماذا أعدموها؟

قرر أن يخرج إلى السوق ويتشمم الأخبار. ذهب إلى الحانة في ساعة مبكرة، وبحث عن أحد القادة الثوريين يجلس وقد لف ساعده بالراية المثلثة، فجلس بجواره وهتف :

- صباح الخير أيها المواطن .

ثم دعاه إلى بعض الجعة، ودار حوار طويل عمن أعدموا أمس .

بعد نصف ساعة كان يجري في الشارع قاصدًا مختبر البروفسور المخبول. قرع الباب بجنون، ففتح له الرجل وهو بعدُ بثياب النوم.. لم ينم بعدُ !

دخل الشاب ليجد أن العالم يجلس أمام الرأس المقطوع، وقد فتح كتابًا من الشعر وراح يقرأ له. لقد أجرى حشدًا من التجارب دونها جميعًا، ومن الجلي أن في جعبته الكثير .

قال الشاب لاهثًا :

- سيدي، يجب دفن هذا الرأس !

قال العالم في ملل :

- قل لي شيئًا جديدًا يا «جان»!

أردف الشاب وهو يجلس :

- رباها! لا أستطيع الكلام أمام هذا المسخ! لقد تحرّيت عنها، اسمها «دومينيك دو جالفان»، قالوا لي إنها كانت صديقة الكونتيسة «روزنبيري»، وكانت «الماركيزة» تلجأ إليها في شؤون.. شؤون ...

- شؤون ماذا؟ !

اتسعت عينا الشاب، وهتف :

- شؤون السحر الأسود! كانت عرّافة، وكانت تستعين بجثث الموتى في سحرها، كما أنها كانت تقيم القداس الأسود حيث ترقص عارية ثم تذبح طفلًا تستحم بدمه !

كانت الثورة الفرنسية علمانية، ولا تؤمن بهذه المقولات، لكن دعر الشاب كان كاسحًا .

- سيدي، هذا رأس خطر، ويجب تركه يستريح في التراب !

ثم ارتجف عندما نظر إلى الرأس: كانت العينان تنظران إليه نظرة ثابتة كريهة، ورأى شبح ابتسامة في ركن الفم !

- هي تسمعنا يا سيدي! تفهم كل شيء !

قال العالم وهو يضع قطعة من القماش على الرأس لتداري العينين :

- أعترف أن نظراتها مزعجة! ليس من المريح أن يتكلم المرء بينما رأس مقطوع يصغي إليه !!

ثم هتف مداعبًا :

- هل تفهمين ما نقول أيتها الحسناء حقًا؟

وثب من الرعب عندما تقلص الفم، ومن بين الشفتين وبلا صوت وبلا هواء خرجت حروف مكتومة تقول :

- نعم .

في الأيام التالية - لك أن تتصور هذا - صار لرأس الأخت «دومينيك» حضور ثقيل مرعب في المختبر. للحظات يخيل إليك أن هذا رأس أقيم حوله مختبر !

كان من الواضح أنها تسمع وترى وتفهم، فقط هي عاجزة عن الكلام. وكان النظام الذي ابتكره دكتور «رانفويه» محكمًا فعلاً.. الدورة مستمرة بشكل صناعي دائم، وتنقية السائل مستمرة. لا أعرف كيف تنتهي حياة هذا الشيء، لكنني أعتقد أنه باقٍ للأبد !

كان هذا يثير الكثير من التساؤلات الميتافيزيقية، وقد تساءل الشاب في رعب :

- هل يعني هذا أن الروح حبيسة هذا الرأس؟ لماذا لم تغادر الجسد لحظة قطع الرأس؟ وكيف يمكن أن تغادر هذا الرأس يومًا؟ لا يمكن لشيء من لحم ودم أن يكون خالدًا، ولكن كيف يمكن أن تموت هذه؟ !

قال العالم في إصرار وعناد :

- لا توجد روح، هذه تفاعلات كيميائية، وطالما بقيت مستمرة فلسوف يظل هذا الرأس حيًا !

كان الرأس منهمكًا في لعق شفتيه كالقطة التي انتهت من التهام فأر. والحقيقة أن العالم لم يقاوم بعض الإغراءات، مثل أن يضع قطرات من الخمر علي الشفتين. بالطبع لن يحدث ابتلاع، لكن تأثير القطرات وصل إلى رأسها بالتأكيد، وبالتأكيد تذوقتها .

المشكلة بالنسبة إلى الشاب صارت ضميرية ...

أولًا، تحولت حياته إلى حشد من الكوابيس، وصار يخشى ساعات الليل لأنه لن يجرؤ على النوم ليرى ما سيراه في الحلم، ثم إنه كان يشعر بأنه «يهودا»، وأنه يحمل آلام وخطايا الكون كله على كاهليه !

كان منبهراً بالبروفسور، وقد كان يجد في خدمته لذة عظمى، لكن الأمر اليوم تحول إلى شيء مريع؛ صار يكره ساعات النهار التي ستقوده إلى المختبر حيث ينتظر الشيء على المنضدة بجوار الشمعة !

يكره رائحة المختبر، ويكره الإضاءة الخافتة، ورائحة السائل اللعين الذي يستخدمونه في الدورة الصناعية !

في النهاية قرر أن يترك خدمة البروفسور. لم يكلمه، ولم يُنذره أو يطلب ما بقي له من مال، فقط كفَّ عن الذهاب إلى المختبر، وترك البروفسور يبحث جاهدًا عن شخص يساعده .

لكن هذا لم يُبعد الكوابيس !

لم يُبعد الشعور بالذنب، والشعور بأنه هرطيق !

لم يُبعد أسوأ الاحتمالات التي خطرت له !

هكذا جاء اليوم الموعد !!

كان يملك مفتاح المختبر، وكان يعرف مواعيد خروج البروفسور، لذا أحضر زجاجة من الكيروسين وبعض الكبريت.. تأكد من أن أحدًا لا يراه، وكانت الساعة الثامنة مساءً، وقت ذهاب البروفسور إلى الحانة.. فتح الباب، ووقف يشهق الهواء الفاسد ...

كان الرأس هناك، وقد حرص على أن يلتف بعيدًا عن مجال رؤيته، لأنه لن يجسر أبدًا على مواجهة عيني كائن يعرف أنه سيحترق !

بدأ يسكب الكيوسين حول المنضدة وفي كل أرجاء المكان، وشعر بأن الرأس يحاول الالتفات في المكان الذي وضع فيه. لن تتألم إلا عندما تصل النار إلى الرأس، أما الباقي فلا توجد أعصاب ولا أطراف! لن يكون هناك ألم! سامحيني يا فتاة، عندما تتحقق لك الراحة النهائية في التراب ستدركين أنني فعلت هذا من أجلك !

وقف يرقب المشهد.. بقيت النار كي تكتمل اللوحة المخيفة التي لن تفارق خياله أبدًا !!

*

هكذا اعتاد رمزي أن يزور «بريجيت» - التي يعتقد أنها كذلك - كل ليلتين أو ثلاث ليالٍ. هناك يجتاز الحديقة فيتواثب الكلب حوله في مرح.. لقد صار من أبناء الدار أو السيد الوحيد .

هناك كانت تنتظره عند المدخل فيلثم شفتيها بطريقة عملية عابرة؛ لو أبدى حرارة أكثر من اللازم لنهرته، كل شيء معها رسمي متخشب حتى القبلات، لكنه برغم هذا سعيد معها .

وفي الداخل كانت تُعد عشاء بسيطًا يتناولانه بجوار المدفأة، أو تدعوه للخروج في سيارتها إلى نادٍ ليلي أو مطعم ما. باريس في الليل تبدو كمهرجان بصري ساحر، لكنك لو كنت وحيدًا تمنحك باريس انعكاس لحظات ممكنة، بينما لو كنت عاشقًا فانت على شفا أن تمسك بالسعادة .

قالت له وهي تجرع جرعة من النبيذ الفوار :

- أنا سعيدة بلقائنا، ولهذا سأقدم إليك هدية صغيرة .

- وما هي؟

- اسمي «بريجيت» !

نظر إليها في ذهول! لا يبدو أنها تمزح أو تكذب، ولم يكن يعرف من قبل أنه من الشفافين.. صدفة غريبة بحق !

انفجرت في الضحك عند رؤية التعبير الأحمق على وجهه، وقالت وهي تشرق بالنبيذ :

- يا لدهشتك!! أنا لا أعبت بك! كل هذا حقيقي، وقد بدأت أعتقد أنني أميل إليك !

شعر بقلبه يخفق. الإضاءة خافتة، والأحلام طفلة تعوي تبغي الدفء والغذاء .

قالت «بريجيت»:

- أنت لم تعرفني بما يكفي، لا تعرف مئات الأشياء عني، ورهاني هو أنك لن تُصر على معرفتي عندما تعرف كل شيء !

- هذا مستحي...-

قالت ضاحكة :

- يا لحماسة العرب!! كنت أدرك أنك ستقول هذا، وأدرك كذلك أنه غير صحيح !

ساد الصمت، وظل يرمقها وهو يعبث بالسكين في قطعة الخبز. ليس هذا أفضل وقت يقابل فيه المرء فتاة مولعة بالغموض تلعب هذه الألعاب طيلة الوقت .

تُرى ماذا تدارين يا فتاة؟

*

الشاب لم يجد الوقت الكافي ليفهم ...

لم يُشعل الكبريت ...

فجأة شعر بأن ثقلًا هائلًا يهوي على رأسه !

أصدر أنينًا، واستدار إلى الخلف ليجد أن البروفسور «رانغييه» يحمل مطرقة هائلة، ويتأهب لتسديد الضربة الثانية !

لم يستطع أن يستكمل فهم المشهد: الجنون في العينين في ضوء الشموع، العرق الذي يغمر الوجه، تعبير الكراهية المفترس... كان قد سقط أرضًا قبل أن يفهم !

- الخنزير !!-

وجّه البروفسور ركلة إلى خاصرة الشاب، ثم أطلق سبة أخرى :

- يريد هدم أهم كشف عرفه العلم !!-

كان البروفسور يتكلم، وهو يتجه إلى رف الأدوات على الجدار. بحث حتى وجد منشأً عملاقًا، ثم بحث عن زجاجة دواء مخدر .

لم يكن يعرف ما يقوم به، لكنه كان يفعله .

فقط كان يدرك أن العينين أمرتاه؛ الرأس المستقر في الوعاء وسط الخراطيم نظر إليه، وهذه النظرة كانت كافية !

الليلة كانت أطول ليلة في تاريخ البشرية، وكانت أبشع ليلة كذلك !

بالمنشار قطع رأس الشاب المخدّر، لكنه تخلص منه في القمامة. ما فعله هذه المرّة هو أنه قام بتثبيت دورة الخراطيم إلى جسد الشاب.. استغرق هذا عدة ساعات .

وضع الشموع حول الجثة، وجلس على الأرض وقد تلوث قميصه ووجهه بالدم، وكان يلهث. لحسن الحظ أن الضربة جاءت على الرأس فلم يتأذ الجسد كثيرًا .

- «دومينيك»، أنا فعلتُ ما أمرت به !

كان يقولها وهو ينقل رأس «دومينيك» بحذر ليثبته فوق الجسد العضلي للشاب !!

لا بد أن الأمر استغرق عشر ساعات من العمل المتواصل.. الخياطة باستخدام عدسة على ضوء الشموع .

هكذا أشرق الصباح، ثم عاد الليل. البروفسور لم يأكل، وإن نهض لتناول كأس من الخمر من وقت إلى آخر .

لا بد أن المشهد كان شنيعًا، ومن حسن جدنا أننا لم نره .

أخيرًا بدأت الصورة تتضح، وإن كانت تقنيات الجراحة البدائية لم ترق بالجلد. بدت الفتاة بدائرة قبيحة حول العنق كأنها مذبوحة، قام بلف قطعة من الشاش الدامي حول العنق لتخفي المنظر، وعندما انتهى كل شيء نهض إلى مقعد قريب فارتدى عليه وراح يتنفس لاهثًا .

أنت لا تنقل رأس إنسان كل يوم، لكنه كان يؤمن بأنه عبقرى، وقد استخدم مادة لاصقة للأعصاب ابتكرها بنفسه، وهي قريبة جدًا من مادة «بوليثيلين جليكول» التي اعتقد علماء عصرنا أنها قادرة على لحام الرؤوس بالأجساد .

لا بد أنه نام يومًا، أو يومًا وبعض يوم، من فرط الإجهاد. غرق في غيبوبة مرهقة من الكوابيس. لم يعد يعرف أي شيء حقيقيًا وأي شيء كابوسيًا. للحظات خُيل إليه أن الجسد ينهض، لكنه لم يستطع التأكد قط .

فقط بعدما استعاد وعيه، ونهض وسط الدم المتخثر الذي غطى يديه ووجهه وأرضية المختبر، أدرك أنه وحيد فعلاً !

الأغرب أنه اكتشف أن الآلة التي تُجري دورة صناعية موجودة كما هي! لقد

تركتها «دومينيك»! هذا يعني أن ما يسري في عروقها ليس دمًا، وليس ذلك السائل الحيوي الغامض الذي ابتكره! هذه المرأة تتحرك بقوة غامضة، تتحرك بالسحر!

هذه لحظة عجيبة من زواج السحر والعلم للوصول إلى شيء مخيف غير معتاد!!

بدأ البروفسور يفيق. قام بتنظيف الفوضى العارمة التي صنعها. في قرارة نفسه كان يشعر بأن هذا كله كان حلمًا مخيفًا!

ظل يعتقد هذا حتى عاد الشيء في المساء، وحتى أطبقت اليد القوية على عنقه، فعوى كالكلاب ثم مات!!

لم يكن للبروفسور مكان في هذا العالم الجديد: عالم «دومينيك دو جالفان»! وبشكل ما كانت تشعر بأنه يستحق ما حدث له؛ فلولا فضوله العلمي القاسي لكانت تنعم بالراحة تحت التراب كهيكل عظمي!

هكذا تمدد على أرض المختبر وقد تهشم عنقه. أمسكت «دومينيك» بالجثة من قدميها، واتجهت بها إلى ركن الغرفة.

كانت العملية قاسية طويلة، وفي النهاية اندفعت عربة ذات خيول يقودها حوذي مخمور نحو نهر «السين»، وفي مكان مظلم تعاون اثنان: أحدهما قوي البنية ضخم، والآخر هو الحوذي المترنح، تعاونا على إلقاء كيس مليء بشيء ثقيل في النهر!!

في ذلك العصر كانت القذارة عنوان كل شيء، وكان من الممكن أن يغطس شيء كهذا في «السين» فلا يظهر.

مدت «دومينيك» يدها تنقد الحوذي المال!!

كان الحوذي يرتجف رعبًا من هذا العميل غريب الأطوار: له أجمل وجه يمكن أن تراه؛ وجه ملاك حقيقي، لكن جسده قوي مزدان بالعضلات والشعر! الأغرب كان الصوت الذي يخرج من الحنجرة؛ صوت فتاة بلا شك في ذلك!

على كل حال لم يكن ليطيل الأسئلة، سيحصل على مال يتيح له المزيد من النبيذ لهذه الليلة.

جريمة؟ نحن في عصر دموي تتناثر فيه الجثث في الشوارع، فلن تغير جثة إضافية الأمور!!

ومنذ ذلك اليوم الرهيب صار مختبر البروفسور هو مسكن ذلك الكائن العجيب الذي جاء من عدم!!

لاحظ الجيران ذلك الشباب الصموت ذا الوجه القسيم. كان مدثرًا بالثياب، ويضع على كتفيه معطفاً رثاً واسعاً، ويلف عنقه بالشاش، وكان قليل الكلام، لا يظهر إلا مع قدوم الليل، حيث يخرج لشراء بعض الخبز والجبن والنبيد. لم يكونوا يعرفون من هو، لكنهم كانوا سعداء بالخلاص من البروفسور «رانغييه» غريب الأطوار .

*

«ماري كلير» تعمل في أقدم مهنة في التاريخ .

قبيحة جداً، ملطخة بالمساحيق، يمكنك أن تشم رائحتها على بُعد أمتار، الاستحمام ترف بالنسبة إلى فتاة مثلها !

هناك تقف عند ناصية شارع بيجال تحت مصباح كيروسين، وقد ارتدت ثياباً المفترض أنها مغرية، وهي تروح وتجيء منادية الزبائن .

كان حظها من المال لا يختلف كثيراً عن حظها من الجمال، وكانت تتساءل إن كانت هذه أقدر مهنة في التاريخ أم أن هناك مهناً أقدر .

منذ ثلاثة أيام لم يظهر زبون واحد، وقد بدأ الجوع يُعذبها. عندما تعود إلى غرفتها الحقيبة في الصباح تفتش في بقايا الخضراوات العفنة التي تخلفت من البائعات أمس، ثم تعد لنفسها وجبة تُبقيها حية .

هذه ليلة عجفاء أخرى !

هنا سمعت من يناديها همساً. نظرت إلى الخلف، فرأت في ضوء مصباح الكيروسين ذلك الوجه الوسيم؛ أجمل وجه يمكن تصويره، كأنه وجه فتاة من الحوريات، لكن الجسد قوي عضلي مشعر. يدنو منها، وبصوت خافت غير واضح يهمس :

- عندي.. بيتي قريب من هنا .

لماذا يتكلم بهذا الصوت الغريب؟! ثم قدّرت أن لديه مرضاً في الحنجرة .

هكذا تمت الصفقة بسرعة، ووجدت نفسها تمشي وراءه عبر الأزقة، شاعرة أنها محظوظة؛ ليس لأنه سيمنحها بعض المال فقط، بل لأنه أول شخص ذي منظر مقبول تقابله في هذه المهنة !!

هناك فُتح ذلك الباب. دخلت لتشم رائحة لم ترتج لها. كان المكان أقرب إلى مختبر مهجور، وكانت رائحة الكيماويات طاغية فعلاً، وهناك ظلام وغبار، لكنها كانت قد اعتادت القذارة فلم تعد تشمئز منها .

كان هناك فراش على الأرض، فجلست عليه، وراحت تنزع جوربها، بينما بدأ الرجل ينزع معطفه ...

ناولها زجاجة من الخمر جرعت ثلثها مرة واحدة، ثم قال وهو يواصل نزع ثيابه :

- لا أدري إن كان من واجبي أن أخبرك ببعض التفاصيل، لكن لا أعتقد أنني سأشعر براحة ما لم تعرفي الخلفيات !

- أي خلفيات؟! عمّ تتكلم؟! أنا هنا لغرض محدد، فانتبه لأن وقتي ثمين !

بالطبع هي لا تملك سوى الوقت، لكنها تحاول رفع قيمة بضاعتها .

كان الشاب ينزع قميصه وهو يقول :

- المشكلة في أجسادنا كبشر هي أنها تبلى! مهما بلغت الدقة العلمية أو قوة السحر فلا بد أن يضمّر الجسد، هنا يواجه المرء ضرورة الاحتياج إلى جسد جديد !

ثم فك الرباط حول عنقه ...

أصابها الذعر؛ هذا عنق مقطوع وتمت خياطته لا شك في هذا! الرأس رأس فتاة جميلة، والجسد جسد رجل كامل الرجولة !!

أصدرت أنينًا، وحاولت أن تقوم، لكن ساقها كانتا واهنتين، فقال لها :

- لقد بدأ المخدر يعمل، هذه آخر علاقة لك بهذا الرأس، عندما تصحين من النوم سيكون اسمك «دومينيك»، «دومينيك» ستكون متناسقة، لها وجه امرأة وجسد امرأة. لا تقلقي، أنا صرت قادرًا على عمل هذه العملية بسهولة ومن دون عون، هذه مزية أن يكون المرء مجيدًا للسحر !!

كادت تتكلم، لكن الظلام كان قد زحف ليحيط بها من ست الجهات !!

لو أن رجلًا قوي الملاحظة تابع المختبر لفترة، لرأى من تخرج وتدخل في ساعات عدة. الغريب في الأمر أن الفتاة صارت أقرب إلى الرقة، وصار حجمها أصغر؛ فتاة لها وجه حورية، ومن الواضح أن جسدها لا يقل جمالًا .

«دومينيك» تخرج في الصباح لالتقاط رزقها في السوق، تعمل أي عمل في أي مكان حتى المساء، وفي الليل غالبًا ما تعود بزبون إلى المختبر .

لاحظ الناس أنها لا تندمج بأحد ولا تتكلم مع أحد، بل إنها لم تنزع الوشاح الثقيل الذي تلفه حول عنقها قط .

تشير فضول النساء في العمل، لكن شيئًا في وجهها كان يقضي على فضولهن.. لم يكن أحد يحب أن يتعمق في أسرارها أكثر من اللازم .

لو كان هناك من يتابع «دومينيك» بكاميرا من طراز «Time lapse» لأدرك أن حجمها يتغير أكثر من مرة. هناك من يتعامل معها فيلاحظ أن يدها أكبر من المعتاد أو أصغر من المعتاد، لكن الناس لا تُعَلِّق أهمية كبيرة على أمور كهذه .

تدور الأيام ...

لقد ولى الماضي، وولت معه أيام السعد، عندما كان بوسع أي شخص أن يقتل أي شخص ولا يلاحظ أحد. صارت القوانين ونظام الشرطة أكثر صرامة، وقلت التحولات في وجه «دومينيك».

لا يعرفون عنها الكثير، لكن المسنين يصرون بشكل غامض على أنها لم تشخ قط، طيلة حياتها لها الملامح نفسها. أثار هذا خيال البعض عن قصص الساحرات، لكن بالطبع لا يمكن أن يصل الفضول بالناس درجة كتاب مطرقة الساحرات، وصيد الساحرات القديمة .

تدور الأيام ...

*

كان رمزي يتأمل جدران الفيلا .

لم يكن خبيرًا في الفنون جدًّا، لكن بعض اللوحات راقته، ولم يعرف أن هذه لوحات تأثيرية معظمها لـ«مونييه». لا شك في أن «بريجيت» ثرية فعلاً. لا يعرف من أين جاءت ثروتها، وهو لم يسأل على كل حال. تتصرف كالوريثة الغنية التي تعبت بكومة من المال عبثًا .

هذه الصورة التي تحمل طابع «الروكوكو» الواضح، تمثل فتاة أو امرأة بارعة الحس تبتسم ابتسامة هادئة ناعسة. أثار ذهوله التشابه القوي جدًّا بين صاحبها و«بريجيت».

جاءت «بريجيت» بجواره وهي تجفف شعرها المغسول، وراحت تراقب ما يلفت نظره هكذا .

قال لها :

- هل هي جدتك؟

هزت رأسها بطريقة ذات معنى، وقالت :

- اسمها «دومينيك دو جالفان»، من صديقات «ماركيزة» شهيرة، وقد قُطع رأسها بالمقصلة. ظلت صورتها تُذكر الناس بالوجه الجميل الذي كان !

قال في دهشة :

- التشابه مطلق، كأنها صورة رُسمت لكِ أمس !

- ألعاب الجينات لا تنتهي !

عندما تناولوا الغداء معًا، كانت في قمة فنتتها الأنثوية وسحرها، كانت تلتقط طعامها في رفق، ثم قالت له :

- هل يمكنك أن تأتي غدًا عند منتصف الليل؟

هز رأسه. هو مستعد دائمًا لأن يزورها في أي وقت، لكنها لم تحدد من قبل ساعة متأخرة كهذه، وبهذه الدقة !

قالت باسمه :

- أسئلة كثيرة ستجوب ذهنك، لكنني سأفسر كل شيء !

ورشفت رشفة من النبيذ .

*

مدخل الفيلا كان مفتوحًا.. لا بد أن الكلب يعبث في مكان ما من الحديقة .

باب البيت مفتوح أيضًا، هناك فوضي عارمة، يبدو أنها كانت ليلة صاحبة، لكن ما أثار دهشته هو أن هناك حقيبة أنثوية ومعطفاً في قاعة الجلوس.. أشياء لا تخص «بريجيت».

هناك بعض الكؤوس، وزجاجة كونياك مفتوحة، ورائحة تبغ .

صاح بأعلى صوته :

- «بريجيت» !

جاء صوتها من بعيد، كان قادمًا من الطابق العلوي. لم يتبين ما قالتها، لكنها كررت النداء :

- أنا في الحمام بالطابق العلوي، أغلق الباب وتعال .

متوجسًا اتجه إلى الدرجات وصعد عليها. لربما هي لعبة إغراء معينة منها، لكن «بريجيت» علمته أنه لا يوجد شيء اسمه علاقة جسدية.. كأنها كائن بلا جسد !

كان الصوت قادمًا من الحمام.. وقف خلف الباب دقيقة.. يمكنه أن يشم رائحة دم مسفوك لا يعرف مصدرها !!

- تعالَ يا رمزي، ادخل !

في خجل مد رأسه. هنا رأى مشهدًا لا يمكن وصفه ...

«بريجيت» لم تكن امرأة !

«بريجيت» لم تكن رجلًا !

«بريجيت» لم تكن حيوانًا !

«بريجيت» لم تكن شيطانًا !

قالت له وهي منهمكة :

- يمكنك أن ترى ما أفعله كلما مرت ستة أشهر. في الماضي قام عالم مجنون بعمل هذه الجراحة لي، أما اليوم فأنا أعرف كيف أعملها مستعينة بالسحر !

أفرغ معدته، وتمنى لو كانت لديه أحشاء أكثر يفرغها !

لما استطاع الكلام سألها :

- مَن هي... صاحبة الرأس ؟ !

- صديقة جديدة لي، قلت لها إنني أريد أن أعرفها عليك !

كانت العملية تتم ببطء وسط بركة من الدماء. جسد «بريجيت» مقطوع الرأس يسبح هنالك، ورأس الفتاة متدحرج هنالك على بُعد أمتار، بينما التحم رأس «بريجيت» بالجسد الجديد المكتنز !!

كان يرتجف. هذا يتجاوز حدود الكوابيس، ولولا أن ساقيه منهكتان رخوتان لفر من هنا للأبد !

- هل أنت شيطان ؟

- ربما أنا أسوأ !

هناك جلس في قاعة الجلوس وغطى وجهه، لا بد أنه غاب عن الوعي بضع دقائق، وعندما عاد إلى الوعي فطن إلى أن هذا كله يحدث فعلاً .

هناك وقف على باب الحمام يراقب العملية البشعة، والفتاة تحكي له قصة «دومينيكا» الشيطانة؛ الشيطانة التي أخطأ رجال الثورة الفرنسية بإعدامها .

تصديق كل هذا مستحيل، لكن أي مستحيل بعد ما يراه أمام عينيه؟

قالت له :

- دائرة لا تنتهي ولن تنتهي! سوف تستمر للأبد! لن أظفر بالراحة يومًا، والحل الوحيد في يدك أنت! لقد وقعت في حبك، ووثقت فيك، وخمنت أنك قادر على منحي الراحة فعلاً !

- كيف؟ !

- أنا في وضع هش الآن؛ مرحلة الانتقال الأولى. ستذهب إلى القبو فتحضر فأسًا وبعض الكيوسين، ستهشم رأسي ثم تحرقه بالنار إلى أن يتفحم. صدقني، هذا هو الخلاص الوحيد لي، ولو لم تفعله فسوف تسقط فتاة أخرى ميتة خلال ستة أشهر عندما يبلى هذا الجسد !

- لكن الش... ..

- لا أحد يعرف بقدومك هنا أو علاقتك بي، الحادث ضد مجهول !

التقزز يغمره ...

لكنه ذهب إلى القبو فعلاً، وبحث عن الفأس والكيوسين، وخمن من الرائحة أن هذا المكان يُستعمل كمدفن كذلك، ثم إنه عاد إليها حيث رقدت في الحمام ...

همس من بين أسنانه :

- أنتِ تسامحينني! أنتِ من طلب هذا !

ورفع الفأس وهوى بها، وأغمض عينيه وهوى عدة مرّات، ثم استكمل المهمة القذرة بالنار !

كان قلبه يتواثب انفعالاً وهو يجمع حاجياته كلها تأهبًا لمغادرة الفيلا للأبد .

غسل وجهه من أثر الدم. أما عن بقع الدم على الثياب فليأمل أن الليل سيدارها .

ركض نحو باب الفيلا المطل على الشارع، ونظر في الظلام. لاحظ كثرة غير عادية للأضواء الوهاجة الملونة، وسمع صوت السرينة. عندما رفع عينيه أدرك أن هناك أربع سيارات شرطة تحاصر المكان !

الفتاة التي ماتت كانت مرتابة، لربما تركت بياناتها عند صديق يبلغ الشرطة في حالة تأخرها، لربما سمع الجيران كذلك صوت صرخة .

سيكون تفسير ما قام به مستحيلًا؛ «دومينيك» التي ظل رأسها حيًا تبدو قصة عسيرة على التصديق، فقط براعته وبراعة محاميه ستنقذه من الإعدام لتنقله إلى مستشفى الأمراض العقلية .

تقدم نحو الأضواء في بطاء ...

تلك المقبرة

سأحدثك عن مقبرة قريتنا ...

لا تقل لي إنني ابن المدينة، وإن نضارة الريف جفت في عروقي، فالحقيقة هي أنني سأظل ريفياً إلى الأبد، أحمل القرية داخلي .

لا تتحرك كثيراً فهذا يوتر أعصابي! صدقني، ليست قصتي طويلة، ولن تثير ملك في الساعة القادمة !

كما قلت لك: الريف يحيا بداخلي، ولا أستطيع أن أشعر بألفة في المدينة، أبحث عن متجر البقال البدائي، وعن الكُتَّاب المتهدم بجوار المسجد الذي تتماسك جدرانها بمعجزة، وعن الساقية والترعة... عندما لا أجد هذا كله وأجد بدلاً منه الشوارع والسيارات، فإنني أشعر باغتراب مقبض !

سأحدثك عن مقبرة قريتنا ...

*

هناك عند الجهة الغربية من القرية يوجد حزام من أشجار التوت العتيقة، ومنحدر وعر يطل على حقل نصف محروث. تمشي في هذا الممر الطويل محاذراً أن تتعثر فتسقط، هنا يجري أمامك كلب أجرب أو قط هزيل، وترى السور المهديم الذي يحيط بالمقابر. لا تنسَ قراءة الفاتحة للأموات وأنت تمشي بين الشواهد. في الريف يساورك الشك بأن هؤلاء موتى.. هذه مساكن قوم يميلون إلى الانطواء وعدم الاختلاط بالآخرين لا أكثر .

ولكن من قال إن الموت يساوي بين الرؤوس؟ كل أنواع الطبقة ستجدها هنا بين قبور طينية فقيرة، وقبور رخامية متغطرسة، وأحواش أقرب إلى القصور! لا توجد مساواة في الموت كما ترى !

بعض الأسماء تعرفه على الفور: أسرة الذهبي، أسرة الدمام، إلخ، وبعض الأسماء مجهول .

كل مقبرة لها طابع يخصها، لكن المقبرة التي أتكلم عنها هنا فريدة من نوعها؛ مقبرة فقيرة، هي أقرب إلى حجر يعلو كومة من الطين، وبخط طفولي ساذج كتبت آية قرآنية (فيها خطأ لغوي)، واسم صاحب القبر: «المرحوم عزت الدرهيني»، الذي يُقال إنه تُوفي عام 1936 .

لا شك أن القبر لم يُفتح منذ أُغلق على عزت، فلا أقارب له في البلدة، ولا أولاد. لم يزرع أحدهم بعض الصبار أو يرش الماء على التربة قط، في الواقع لا يذكر أي واحد حرفاً عن عزت هذا؛ لقد وُجد ثم زال فلم يبقَ منه سوى اسمه .

على كل حال يوجد احتمال لا بأس به أن المقبرة خالية من الجثث. هناك آثار نبش قوية حولها، وهناك اعتقاد أن بعض اللصوص سرقوا الجثة وباعوها .

أنت الآن تفهم كيف بدأ الأمر، وأعتقد أنني لم أخبرك بشيء جديد !

أرجو أن تصغي إليّ باهتمام !

الأسطورة الشائعة في القرية هي أن المقبرة مسحورة، وأن التعامل معها يجلب الوبال، لكنهم يعتقدون كذلك أنك لو دفنت فيها مالاَ لمدة ليلتين ثم عدت إلى المقبرة لوجدته قد تضاعف. لا شك أن هناك من جرّب هذا، لكن لم تكن هذه التجربة تلاقي إقبالاَ على كل حال، بسبب الخوف من المقبرة، وكما قال إمام المسجد: «التعاطي مع الجن له فوائد جمّة، لكن له أخطار جمّة كذلك!».

في سن العشرين ذهبت ليلاً إلى المقبرة، وبعناية دفنت خمسة جنيّات، ثم فررت وقلبي يتواثب كالطبل. بعد ليلتين عدت إلى هناك، ورُحّت أحفر الأرض بملعقة معدنية على ضوء الكشاف، ووجدت ورقة مطوية بعشرة جنيّات !

الإشاعة حقيقية إذن !!

بعد هذه التجربة بأيام أصبت بوعكة لعينة من التيفويد، كدت أفقد حياتي، واحتاج العلاج إلى شهر كامل، ولم أكن قد أخبرت أحداً بتجربتي مع المقبرة، لكنني قدّرت أن سبب المرض هو لعنة الجان على الأرجح.. من يلهُ بالنار يحترق بها، ولا بد أنني لهوت أكثر من اللازم !

جاءت أُمي بقطعة من الورق قطعتها على شكل دُمية، ثم راحت تثقبها بالإبرة وهي تردد بعض الأدعية، ثم وضعتها فوق البخور المشتعل فتفحمت. قالت لي إن الدُمية تمثلني، ويبدو أن هناك عيناَ شريرة أصابتني .

كنت أفكر في عشرة الجنيّات القادمة من المقبرة، وأعترف أنني لم أجسر على صرفها قط. طاقة «التابوو» المحيطة بها جعلتني عاجزاً عن إنفاقها أو حتى لمسها. وضعتها بين دفتي كتاب لا أفتحه إلا نادراً .

*

في سيارة الأجرة المتجهة إلى بنها، مدينة الجن والملائكة بالنسبة إلينا نحن القرويين، كنت جالساً بجوار صبري صديقي، وهو طالب في كلية الزراعة .

قال لي صبري بلا مناسبة إنه جرّب أن يدفن بعض المال في قبر الدرهيبي، وعاد بعد ليلتين ليتفقدّه .

جف ريقني، وتساءلت في لهفة عما وجده. قال في خيبة أمل :

- لم أجد المال أصلاً! هناك من سرقه! كانت هناك آثار أقدام قرب المقبرة، هناك مخادع ينشر هذه الأكاذيب ليجمع المال، كما يحدث في تلك الآبار التي يزعمون أنك لو ألقيت فيها مالاً لتحققت أمنيته، طبعاً ليذهب أحدهم لينزح العملات من قاع البئر بعد هذا.. مقبرة الدرهيبي خدعة وقد كلفتني مائة جنيه !

ابتسمت في عصبية، ولم أخبره أن تجربتي أنا قد نجحت .

لا أعرف التفسير، لكنه مخيف على الأرجح، وعلى الأرجح كذلك تضاعف ماله، لكن هناك من سرقه قبل أن يعود صبري إلى موضع المال .

قال صبري وهو يرتجف :

- هذا قبر غريب! هل لاحظت أن الطيور لا تحلق فوقه أبداً، وأنه لا توجد نباتات من حوله؟ !

قلت في ملل وأنا أراقب الطريق :

- هذا متوقع، الرجل مقطوع من شجرة، ولا يعرف أحد شيئاً عنه، لا أحد يُعنى بالقبر .

- الطيور لا تعرف هذا !

- حيث لا توجد نباتات لا توجد طيور !

*

كنت طالباً في كلية الآداب، وكنا نقيم في شقة رخيصة فقيرة في حي شعبي قريب من الجامعة، طعامنا هو ما نأتي به من القرية، أو هو الفول وعلب السردين. كنت أحب مطالعة رواية «الأيام» لطف حسين؛ لأنها تعطيني بعض الأمل أن هذه البداية قد تقود إلى نهاية طيبة. كان معنا طالب حقوق، وطالب طب، ومعظمهم من قريتي .

لم تقع أحداث مهمة طيلة سني الكلية، إلا أنني قابلت طالباً اسمه «سيد الدرهيبي». كان هذا اسماً عجيباً غير مألوف، وقد أخبرته بأن له قريباً مدفوناً في قريتنا اسمه «عزت الدرهيبي». اندهش جداً، ووعدني بأن يسأل أهله عن هذا الجد، وأعتقد أننا صرنا صديقين حميمين .

بعد أسبوعين التقينا، فكررت سؤالي عن جده غريب الاسم، فقال في عصبية :

- لقد سألت الكبار، هناك تفاصيل كثيرة، لكن أنصحك أن تنسى هذا الرجل!

هناك أشياء إن تبدّ لكم تسؤكم! من مصلحة الجميع أن ينسوا هذا الرجل،
وأبي يذكر القصة بشكل ضبابي، لكنه أوصاني ألا أتعمق في الأمر !

تساءلت في فضول :

- أنت أشعلت تطلعاتي ولم تطفئها! بعد كل هذا الذي قلته لا أحسبني
سأفكر في أي شيء غير عزت الدرهيبي وقبره !

قال الفتى وهو يبتعد :

- وأنا أعرف الآن أنه قريبي، وأنصحك أن تنساه تمامًا إذا أردت الاحتفاظ
بصداقتي !

كان الأمر يفوق قدراتي على التحمل .

انتهت سنوات الدراسة .

أرجو ألا تتحرك كثيرًا، فهذا يشئت ذهني فلا أستطيع استكمال القصة. هل
ترغب في لفافة تبغ؟ لا بأس، هذا يريح أعصابك قليلًا وإن كان يسبب لي
مشكلة.. سيكون الأمر عسيرًا .

أقول إن سنوات الدراسة انتهت، ووجدت نفسي معلمًا في مدرسة صغيرة
في بلدة مجاورة، وقد تمكنت بكثير من الجهد والوساطة أن أعمل في مدرسة
بينها. تعلمت التدخين كما ترى، ومعه تعلمت أشياء كثيرة. الإقامة وحدك في
مدينة مع أصدقاء تدفعك إلى تجربة عدة أشياء، ليس كلها مستحبًا .

بالإضافة إلى هذا، كنت قد وقعت في حب مي؛ المُدرسة الحسنة، زميلتي
في المدرسة، وقد عرضت عليها حبي فلم تبدّ معترضة، لكنها كانت تنتظر
اللحظة التي أتقدم إليها طالبًا يدها من أبيها، وكنت أخشى هذه الخطوة جدًّا،
لأنني أدرك أنني مفلس تقريبًا، لا أحتكم إلا على راتبي؛ إن مقابلة أبيها
براتبتي هذا نوعٌ من الإهانة للرجل بلا شك .

في النهاية تشجعت وذهبت لأقابل أباهَا ومعني أخي الأكبر، وكانت جلسة
ناجحة، لأنني بذلت الكثير من الوعود المالية؛ وعود لا أملك قرشًا منها، وكان
أخي ينظر إليّ في دهشة وحيرة عاجزًا عن الاعتراض؛ لا يريد فضائح هنا .

عندما غادرنا الدار بعد قراءة الفاتحة، كان موشكًا على فقدان الوعي، وقال
لي :

- أنت تورطت وورطتني معك في وعود مستحيلة !

قلت في غموض إنني سأعرف كيف أتصرف .

لكنني في النهاية جربت الاقتراض من كل أصدقائي، ومن كل جهة يمكنها أن تقرضني. لا جدوى هنالك، لا أحد يعطيك مالاً في هذا العالم. كنت أشعر باختناق، وازددت عصبية .

لا بد من طريقة لصنع المال في هذا العالم. هناك السرقة، وهناك الميراث، وهناك الزواج من حيزبون ثرية، وهناك الذهاب للعمل في الخليج، وكلها خيارات غير متاحة لي. واضح أنني سأعود إلى مي لأخبرها أنني عاجز، وأطلب منها أن تعتذر لأبيها على ضياع وقته .

على أنني في تلك الليلة نمت مهمومًا، وفي المنام رأيت رجلًا فارع الطول يصعب أن أميز وجهه، وكان يتقدم نحوي عبر مقابر مظلمة يغطي الضباب شواهدها، وكان يمد يده لي، ويردد بصوت عميق :

- عد إلى الدرهيبي، أنت تعرف الجواب !

شعرت بحاجة شديدة إلى أن ألحق به وأمد يدي له، في الوقت نفسه كنت أتهيب اللقاء. عندما صحت من النوم كنت غارقًا في العرق البارد، وشففتي كانتا جافتين كالقش. أمسكت بكوب الماء بجوار الفراش وجرعت منه .

سيد الدرهيبي، يجب أن أحده وأعرف ما يعرفه، لكن كيف ألقاه ثانية؟ هو ليس من قريتي. على الأقل أعرف أنه مدرس، وأنه خريج كلية الآداب نفسها. كنا صديقين أيام الكلية كما عرفت، لكن بشرط ألا أذكر سيرة قريبه الغامض .

حان الوقت لإعادة التجربة. أنا ناضج اليوم، وأعرف أنها هراء على الأرجح، لكنني في ظروف تجعلني أجرب كل شيء .

*

هكذا عدت إلى قريتي، فقضيت يومًا عاديًا مع الأصدقاء والأقارب. عندما جاء المساء أخذت الكشف، ومشيت وحدي نحو المقابر . لم يكن من داع للكشاف لأن قمرًا حزينًا باهتًا كان يطل على المكان، ويراقب كل شيء، بجواره ذلك النجم الذي يسمونه «أخت القمر». وكانت بعض الذئاب تعوي من بعيد بصوتها الكئيب الباعث للرغبة. أحفظ جيدًا الطريق إلى قبر عزت الدرهيبي الذي ألهب خيالي في الماضي، ولو جئت أنت إلى قريتنا فستعرفه على الفور من طابعه المخيف وخلو المساحة حوله من أي نبات !

سأجرب حظي مرة أخرى .

لا تلمني فقد أخبرتك بالمأزق الذي أمر به !

على ركبتيّ جثوت، ورحت أزيل الغبار عن الشاهد الحجري ذي الكتابة

البداية. شخص آخر أشجع مني وأكثر جرأة كان سيجرب نبش هذا القبر ليعرف ما فيه .

القبر أقرب إلى كومة من طين ترتفع فوق الأرض، هناك على اليمين فتحة مسدودة بالملاط، واضح أنها التي أدخلوا الجثة منها. لا أنكر أن هناك رائحة عطنة، ومن المستحيل طبعًا أن تكون رائحة الجثة بالداخل، فهي مدفونة منذ نحو تسعين عامًا؛ لا بد أن حيوانًا قد نفق هنا في وقت قريب .

أخرجت ورقة بمائة جنيه، ولففتها في قطعة من غشاء السلوفان، ثم دفنتها بعناية وأهلت فوقها الغبار. كان قلبي يرتجف، وخطر لي أن أحدهم سيأتي من خلفي ويضع يده على كتفي ليقول شيئًا! تَبًّا! سأخيف نفسي حتى الموت !

لقد نفذت جزئي من الصفقة، دعنا نر ما سيفعله القبر .

نهضت، وبخطوات مسرعة وقلبي يثب في فمي، مغادرًا الجبانة. كلب أجرب راح ينيح في وجهي، لكنني رحبت به كثيرًا؛ على الأقل هذا كائن طبيعي من عالمنا .

عندما عدت إلى داري ونمت كان نومًا كثيبًا يسبح في العرق والكوابيس !

بعد ليلتين قمت بالمغامرة مرّة أخرى، حملت الكشاف، وانتظرت حتى تغطي العالم بالليل، وزحفت تحت ذلك الغطاء الكثيف نحو المقابر. مشيت في الممر الضيق الذي يطل على الحقل المحروث، ولعله الارتباك الذي جعلني أتعثر أكثر من مرّة .

في النهاية وصلت إلى المقبرة المرهوبة، فركعت على الأرض، ورُحت أعبث بحثًا عن الكيس الذي أخفيته أمس. أين هو؟ ثم شعرت بالسلوفان فقبضت على الشيء وأخرجته. على ضوء الكشاف تأملت اللقافة، ثم فتحتها لأجد ورقة بمائتي جنيه !!

كان قلبي موشكًا على التوقف من فرط الانفعال! الأمر حقيقي إذن! ما حدث في صباي لم يكن وهمًا أو مصادفة !!

ليكن ما يكون، ليكن هذا لعبًا مع النار أو لا. هذا القبر هو سري الخاص، ولسوف يحل مشاكلي الخاصة !

عدت إلى البيت حيث نامت الأسرة، فدخلت إلى غرفتي الريفية الواسعة، واستلقيت في الفراش أتفحص الورقة ذات المائتي جنيه.. لا غبار عليها، ليست مزورة .

لا توجد أي آثار أقدام حول المقبرة، ليس هناك من يتسلى بي أو يعابثني.

وفي النهاية لم يرني أحد وأنا أدفن اللقافة، فكيف يأتي بعدها ليبدلها؟

في الصباح ذهبت إلى المدينة، ذهبت إلى المصرف، وسحبت معظم مدخراتي، عشرة آلاف جنيه، ثم ركبت سيارة أجرة متداعية عائداً إلى قريتي .

سألتني أمي عن سبب خروجي المتكرر ليلاً، فقلت لها إنه الملل لا أكثر . وعندما جاء المساء خرجت مسلحاً بالكشاف وكيس صغير فيه المبلغ الهائل الذي أملكه.. عندما تحمله في يدك تدرك كم هو ضئيل تافه .

مضيت بين أشجار التوت وبين شواهد القبور الغافية، وعلى ضوء الكشاف حفرت حفرة أعمق نوعاً في المقبرة، ثم تلقت حولي ودفنت المال .

فلنأمل أن تكون الأسطورة صادقة، وألاً أكون أحق شخص في العالم كما أتوقع !

لم أستطع البقاء في القرية ليومين، كنت متوتراً بحق، لو نجحت التجربة الجديدة فكل ما عليّ هو أن أكرر هذا العمل عدة أيام؛ عشرة آلاف جنيه ستكون نصف مليون بعد مثابة عدة أيام .

دعني أواصل الحكاية أرجوك! وكّف عن التملل! أكره المستمعين نافدي الصبر فعلاً! يستفزوني !

أقول إنني قضيت يومين في المدينة، كنت في حالة عصبية، أوشك على دفع عقارب الساعة بكتفي لتتحرك !

*

هل قلتُ لك إنني قابلت سيد الدرهيبي بالصدفة؟ وجدته في ميدان المحطة، وكان يبتاع جريدة، فهرعت نحوه. لم أبذل جهداً لتذكيره بي لأنه عرفني على الفور. تعانقنا، وسألني عن أحوالي. قال إنه تزوج ويقيم في القاهرة. إذن لماذا أنت هنا؟ لم يُفسر !

جلسنا على أحد المقاهي وتبادلنا الأحاديث، ثم جاء السؤال الذي أرهقني كل هذه الأعوام :

- للمرة الأخيرة أسألك: ماذا تعرف عن عزت الدرهيبي؟

توقعت أن ينصرف غاضباً، لكنه هذه المرة تردد قليلاً، سحب الدخان من الشيشة، وأطلق سحابة كثيفة، ثم قال :

- كل أسرة لديها وصمة عار، وقد أرغموه على ترك الأسرة والإقامة في قريتك

حيث مات !

- وما هي وصمة عاره بالضبط؟

- لا أدري بالضبط، كان ماجنًا، وارتكب الكثير جدًّا من الموبقات، ويُقال إنه مارس السحر الأسود! كان لديه كتاب اسمه «شمس المعارف الكبرى»، وكان يستعمله ككتاب مقدس يهتدي به !

بدأ الأمر يتضح لي، توقعت شيئًا كهذا. فقال سيد :

- أقول لك هذا الكلام للمرّة الأخيرة، في أسرتنا لا يذكرونه بتاتًا، ويعتقدون أن سيرته تجلب الشؤم !

«شمس المعارف الكبرى»!! الرجل كان يمارس السحر إذن! لا أعرف خواص مقابر السحرة، لكنها بالتأكيد تختلف عن المقابر العادية التي تُدفن نحن فيها !

افترقنا وأنا أفكر في نقودي العزيزة التي تكمن هناك في قبر منسي مهمل في قريتي: ماذا حدث لها؟

*

عدت إلى قريتي بعد يومين، وانتظرت حتى جاء الليل، فتسلحت بالكشاف، ومشيت في طريقي المعتاد بين أشجار التوت حتى الطريق المتعرج الذي يطل على حقل منحدر، ثم بلغت القبر، مددت يدي في لهفة، ورُحت أحتو التراب عنه حيث دفنت مالي أمس ...

لم يكن هناك شيء !!

الكيس الذي وضعته منذ يومين اختفى بمالي الذي يُمثل معظم ثروتي !!

لقد وقعت في الفخ، مثل ضحايا النصابين الذين نقرأ عنهم في الصحف، لكنني كنت أحسبني أكثر ذكاء من ذلك. مدبر هذا الأمر ذكي حقًا، أنفق القليل ليحني الكثير !

جلست على الأرض أحك رأسي. صورة ناطقة بالعجز والحيرة. صوت الكلاب تنبح من بعيد، وصرصور الحقل يغازل أنثاه. لا مخرج أمامي، لا يوجد من أتهمه حتى لو طلبت الشرطة، المشكلة مشكلتي ويجب أن أجد حلًا لها !

بدأت تمشييط التربة المحيطة بالقبر بحثًا عن آثار أقدام سارقي . لم تكن هناك أي آثار وهذا غريب! ثم لاحظت أن هناك أقدامًا مخرجة أمامي، لا يوجد من أتهمه هذه الأقدام تنحدر من شاهد القبر نحو... نحو الفتحة الموجودة على اليمين في مستوى الأرض، وهي الفتحة التي يُدخلون الجثة منها. آثار دهشتي أن

الفتحة لم تعد مسدودة بالملاط كما كانت، إنها مفتوحة كأنها جحر ثعلب !

ثعلب أو بنت آوى؟ لا أدري، لكن من المستحيل أن يسرق مالي! الحيوانات أذكى من أن تهتم بأوراق كريمة المذاق مثلنا معشر البشر! ما أعرفه يقينًا هو أن هذا الجحر يحوي لغزًا. كنت أحمل مطواة صغيرة من النوع الذي يُطوى، فأخرجتها ورُحت بنصلها أحاول أن أوسع الفتحة أكثر فأكثر .

كانت التربة هشة، وسرعان ما نجحت في صنع فتحة تكفي لدخول رجل بالغ. رميت بضوء الكشف داخل القبر، وحاولت أن أرى شيئًا، هنا خطر لي أن هذا القبر أوسع وأكبر مما تخيلت بكثير .

لا تضايقني أرجوك! قصتي موشكة على الانتهاء !

قلت لك إنني تسللت إلى داخل المقبرة وأضأت الكشف، كانت المقبرة واسعة بحجم غرفة، أكبر مما تخيلت بكثير .

أدركت أن هناك عددًا من الأنفاق الجانبية في الجدران، نحو أربعة أنفاق لا أعرف أهميتها ولا قيمتها، ولم أفهم كيف لا تتداعى التربة لتسد هذه الأنفاق! رُحت أبحث على ضوء الكشف عن مالي، وبالفعل وجدت الكيس الذي دفتته. بيد مرتجفة، وعلى ضوء الكشف فتحته، فوجدت نقودي كما هي، لم تزد ولم تنقص! السؤال هو: من جاء بها إلى هنا؟

قررت أن الوقت قد حان لكي أعود. بعد كل شيء أنا في مقبرة تحت الأرض في منتصف الليل، ولست من الطراز قوي الأعصاب إلى هذا الحد. لقد استرددت مالي، وفيما بعد سأقضي الساعات محاولاً فهم ما حدث: جان، شياطين، ثعالب، شخص يمزح، أي شيء .

لكنني اكتشفت أن الفتحة التي مررت منها قد انسدت. كيف؟ ومتى؟ لا بأس، يمكن أن أحفر واحدة أخرى، فالتربة هشة هيا. فجأة تحول كل شيء إلى هلاوس مخيفة! لست واثقًا مما رأيت، ولربما أثر المناخ عليّ. لقد رأيت الجدران تذوب وتتحول إلى كتل من لهب، كانت أجساد مشتعلة تخرج من اللهب وترقص حولي. الجان خلقوا من مارج من نار، فهل هؤلاء جان؟

كانت الأرض تذوب بدورها، وتتحول إلى حمم لكنها غير حارقة. لم تحترق قدماي. وأمامي رأيت الجدار ينصهر، ينصهر كاشقًا عن فجوة أقرب إلى محراب في الصخر، وعندما دققت النظر أكثر أدركت أن هذه مومياء جالسة؛ مومياء رجل فارغ الطول مدثر في كفن أبيض. عرفت على الفور من هو، هذه مومياء عزت الدرهيبي، الرجل نفسه الذي كان يطاردني في المنام !

سمعت صوتًا قادمًا من لاماكان يردد :

- عد إلى الدرهيبي، أنت تعرف الجواب !

ثم أردف ذلك الصوت القادم من لاماكان :

- كنتُ أنتظر نحو مائة عام حتى يتجاسر أحدهم ويدخل هنا! لقد سئمت الحياة، أو بمعنى أصح سئمت الموت، أن تطاردك لعنة أبدية تحرمك الراحة إلى يوم الدين، تقتات بالجيران الذين تجدهم في القبور وتسرقهم من الأنفاق! كانت الشياطين تلعب مع الفانين لعبة مضاعفة المال، وخطر لي أن أحدهم سيستبد به الفضول ويدخل هنا! أنت أول من تجاسر ودخل، وقد حققت لي الراحة، حق لي أن أتحلل! انتهت حياتي كغول وبدأت حياتك !

ورأيت وأنا موشك على فقدان الوعي المومياء تذوب بدورها، ملامحها تضمحل وتتلاشى، كأنها قطعة فحم مشتعلة تتلاشى جذوتها، ومن حولي دارت رقصة الشياطين، وسمعت أغنية مخيفة لم أفهم حرفاً من كلماتها، وسرعان ما تداعيت وغبت عن العالم !

عندما أفقت كنت خارج المقبرة، وكان الفجر دانيًا .

عدت إلى داري، وعرفت ما يجب عليّ القيام به: عزت كان ميتًا، لهذا كان يقتات على الجيف، أما أنا فمن حقي أن أجرب لحمًا طازجًا نصرًا!! لقد تغيرت حياتي بالكامل !!

الآن أنت تعرف القصة يا سامي، وتعرف لماذا اصطحبتك إلى المقبرة ليلاً، وتعرف لماذا أنت مقيد ومكتم الفم بجوارها الآن !

لقد انتهت قصتي، وحان وقت العمل !

لا تحاول الصراخ، فلن يسمعك أحد !

سأحاول أن تمر اللحظات القادمة بسرعة !!

من أعمال د. أحمد خالد توفيق لدى دار الكرمة

الطبعة
18

المكحول

أحمد خالد توفيق



من أعمال د. أحمد خالد توفيق لدى دار الكرمة

أحمد خالد توفيق شَربة الحاج داود

الطبعة
11

مقالات عن العلم
وشبه العالم



من أعمال د. أحمد خالد توفيق لدى دار الكرمة

أحمد خالد توفيق

أفراح المقبرة



د. أحمد خالد توفيق

حاصل على
الجائزة العربية
لمصطفى عزوز
لأدب الطفل
2018

الميراث أمير البحار

فريق
متميزون



E-BOOK



مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصريّة للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الميراني

أمير البحار

د. أحمد خالد توفيق

مهمة صحفية

اسمي مازن..

المهنة صحفي، لكنني يملك طريقة غير تقليدية لإجراء الحوارات الصحفية، والسبب هو امتلاكي تلك القُمرة الصغيرة التي لو كنا في قصة خيال علمي لأطلقنا عليها «آلة الزمن». تشبه آلة الزمن التي اخترعُها كابينة الهاتف تمامًا، وفيها باب زجاجي تغلقه على نفسك، ثم تحرك قرصًا تختار به العام والشهر واليوم والساعة بدقة بالغة، يتم الانتقال في غضون دقائق لتجد نفسك في العالم الذي اخترته، بعد هذا تتوارى الآلة عن العيون... تصير خفية لا يراها أحد سواي، وهذا يضمن لي ألا يعذب بها عابث أو يدمرها أحد.

أنا من اخترع آلة الزمن هذه؛ لأنني مختص في الفيزياء وميكانيكا الكم، وهناك شخص واحد على ظهر الأرض يعرف الحقيقة؛ هو مديري في العمل الأستاذ صبري؛ لهذا عندما آتية بقاء صحفي مع الإسكندر الأكبر أو الملكة سميراميس فهو يهتم بالأمر جدًّا ولا يعتبرها شطحات من عقل استبد به الخيال.

☆ ☆ ☆



الأستاذ صبري يحبني ويعرف أنني أؤمنُ صحفي لديه، اليوم استدعاني لمكتبه في الجريدة حيث كان يراجع بروفات العدد القادم من الجريدة، وعندما دخلت أمرني بالجلوس ثم قال لي:

- ادخل يا مازن... ماذا تعرف عن الميراني؟

بالطبع لا أعرف أي شيء، ما هو؟ مَنْ هو يا سيدي؟

قال مديري العزيز:

- بأمانة لا أعرف ما هو... هذا اسم يتكرر كثيرًا في أدب الغربيين، ويقولون إنه رجل عربي عظيم.

سألته في تأدب:

- هل يمكنك تضيق الدائرة بعض الشيء يا سيدي؟

قال وهو يراجع الأوراق:

- المعلومات أنه وجد حوالي عام ١٤٦٩م، هذا كل ما لدي عنه...

ثم أردف:

- أعتقد أن له علاقة بالرحالة البرتغالي «فاسكو دي جاما»؛ لذا أرى أن هذه ستكون نقطة البداية، سوف تذهب هناك ثم تعود لي بمقال كامل عن هذه الميراني الذي يُجلُّه العرب.

كانت مهمة عسيرة لكن لهجته كانت قاطعة، من ثم عدت لداري أدبّر أموري لرحلة قد تطول.

في الثامنة مساءً دخلت إلى آلة الزمن، وأخذت نفسًا عميقًا ثم شغلت القرص على العام ١٤٦٩م، ودعوت الله أن تكون رحلتي سهلة.

بدأت المباني تختفي من حولي... وراحت مبانٍ قديمة تظهر ثم تنقرض... غابات تغطي العالم ثم تنكمش... أنهار تفيض ثم تغيض، كنت أرجع في الزمن بسرعة غير عادية نحو زمن الميراني، العام ١٧٥٠... العام ١٦٠٥... العام ١٥٤٧... العام ١٤٦٩...

اضغط على الفرمة بسرعة.

فاسكو دي جاما

وجدت نفسي أقف على ظهر سفينة عتيقة تشق عنان المحيط، وقد فتحت أشرعتها، الأشرعة تحمل علامة صليب غريب أقرب لصليب مالطة، وكنت قد أدركت أن آلة الزمن توارت غالبًا في قاع السفينة.

كان منظري غريبًا وقد التفّ البحارُ حولي يتكلمون وعيونهم متسعة من الدهشة، فضغطت على زر جهاز الترجمة الذي يميّز اللغة ثم يحولها للعربية، كانوا بحارة عتيقي الطراز شديدي الفظاظلة، لكنك تدرك على الفور أنهم غربيون. عرف الجهاز أن هذه هي اللغة البرتغالية وعرف أنهم يقولون:

- عفريت! ... لا بد أنه شيطان! تأمل ملابسه!

هنا ظهر رجل ضخم الجثة شرير المنظر له أنف كبير معقوف.

شقّ الصفوف وكانت ثيابه فاخرة وسلطته عظيمة فأدركت أنه القبطان، لما رأيته هتف:

- من جاء بك فوق سفيني «ساو جابرييل»؟

كان عليّ أن أجد جوابًا بسرعة، فقلت له:

- أنا صحفي يا سيدي، أي إن مهمتي تسجيل بطولاتك للأجيال القادمة.

بدا وأن هذه الإجابة راقته له، وأمر الرجال بأن يجلبوا لي ثيابًا لائقة بدلًا عن ثياب المهرجين التي ألبسها، لا أعرف كيف فهم لفظ «صحفي» لكن يبدو أنه فهم أنني أقرب للشاعر.

كانت السفينة برتغالية، وفي ذلك العصر كانت القوات العظميان المعروفتان هما إسبانيا والبرتغال، ثم جاءت بعدهما إنجلترا وفرنسا.

كان من السهل أن أستنتج من الزمن الذي اخترته أن هذا هو الرحالة البرتغالي الكبير «فاسكو دي جاما»، وهو شخص غير ودود أقرب للشراسة.

من الغريب عندما مد يده القوية يصافحني أن رائحة كفه كانت تفوح برائحة الفلفل الأسود، والنتيجة أنني عطست عطسة قوية فراح يضحك وقال:

- إنني أملك في قُمرتي الكثير من الفلفل الأسود وأملأ جيوبي به، أنا ثري جدًا.

خلفيتي التاريخية جعلتني أعرف أنه يتكلم عن الفلفل الأسود، يمكنه شراء قارة كاملة بكل هذا الفلفل، والسبب أننا نعيش في عصر ازدهار التوابل، الإنسان قد فطن إلى أن مذاق الطعام يصير أفضل بالتوابل، لكن التوابل لا توجد في كل مكان...

دونك ودونها محيطات ورحلات في بحار هائجة وقارات تسكنها قبائل متوحشة؛ لهذا كانت القرفة أو الكاري أو الزنجبيل أو الفلفل الأسود أعلى من الذهب والفضة بمراحل.

رحلات البحث عن توابل كانت تقود لبلاد لا يعرفها أحد، وكانوا يضمون هذه الأماكن إلى أملاك الملك «مانويل الأول» العظيم.

كان هذا الزمن مبكرًا جدًا؛ لذا لم تكن هناك نظارات مقربة أو تلسكوب بعد، لم يكن جاليليو قد اخترع التلسكوب بعد.

لذا كانوا يعتمدون على الخرائط ونجوم الليل والمُراقِب الذي يقف على سارية عالية تراه أميالًا من المياه.

كان «فاسكو دي جاما» قبطانًا بارعًا لكنه كذلك سليط اللسان شديد العريكة.

في ذلك الزمن كان الطريق الوحيد للوصول للهند هو البر، تخيل أن تقطع رحلة عسيرة مرعبة من البرتغال «عبر ثلاث قارات» لتصل إلى الهند.

جربوا الإبحار على ساحل إفريقيا ولكن كانت الرحلة طويلة جدًا... يبدو كأن القارة الإفريقية تمتد إلى الأبد للجنوب وبلا نهاية، ولم يكونوا يعرفون بوجود رأس الرجاء الصالح الذي يوجد في أقصى جنوب إفريقيا، وهو يسهل الانتقال من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادي.

وصل بارتلميو دياز إلى أقصى الجنوب... إلى طرف الفك السفلي للجمجمة الإفريقية، وكانت رحلته عنيفة جدًا حتى أنه أطلق على المكان اسم «رأس الأعاصير»، ثم اكتشف أنه لو دار حول هذه النقطة لبلغ الجانب الآخر من الجمجمة. عندما عاد لملك البرتغال سرَّ الملك جدًا بهذا الكشف وغير اسم «رأس الأعاصير» إلى «رأس الرجاء الصالح».

لكن الطريق إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ظلَّ مبهمًا، كان على «فاسكو دي جاما» أن يجد هذا الطريق، ثم يتخلص من التجار المسلمين الموجودين في كل مكان هنا.

في العام ١٤٦٩ خرج أسطول «فاسكو دي جاما» يبحر في المسارات التي جربها بارتلميو دياز من قبل، والجائزة الكبرى هي الهند.

أما عن لقائي بالقراصنة لأول مرة في حياتي فقصّة جديرة بأن أحكيها هنا.

كانت هناك سفينة على مرمى البصر بلا علامات من أي نوع، لكنها بالغة السرعة، وقد خرج «دي جاما» إلى السطح يراقب هذا المشهد، ثم صاح بلهجة الخبير:

- «هؤلاء قراصنة... أنت ستنعم بخبرة لم تراها من قبل».

لم يكن علم القراصنة ذو الجمجمة والعظام قد اخترع بعد.

ثم صاح بأعلى صوته:

- «استعدوا للقتال! ... دينار لمن يظفر برأس قائدهم! ... أريد أن نلاقيهم رأسًا لرأس!».

ودارات السفينة العملاقة وزادت من سرعتها متجهة نحو سفينة القراصنة...

☆ ☆ ☆

معركة مخيفة

رغم ضخامة السفينة البرتغالية - سفينتنا - فقد بدت ثقيلة الحركة أمام رشاقة سفينة القراصنة. كنت مذعورًا أرتجف عندما طار خطاف عملاق في الهواء وتشبث بخشب سفينتنا ثم طار خطاف آخر، وحط فوق الحبال.

ركض رجال سود خفيفو الحركة كالقردة، عراة الجذوع، بين أسنان كل منهم سيف أو خنجر... أقوياء البنية كالوحوش، شرسون كالتماسيح...

كانوا قد تربوا على القتل وقد أعملوه في بحارة سفينة «دي جاما» البرتغاليين.

من الواضح أنهم من السكان الأصليين لهذه المياه، وقد انطلقوا يعملون الطعن والذبح في البحارة...

قال «دي جاما» وهو يعتمر سيفين بتارين:

- «قاتلوا أو موتوا!!»

أما أنا فتواريت خلف سارية وأنا أرتجف، لو سيطر القراصنة على السفينة فعليّ أن أثب وأترك للمحيط أن يحدد مصيري الأسود، لعل الأسماك أرفق بي من القراصنة.

كان «دي جاما» يطعن في كل اتجاه وهشم أكثر من رمح بينما عيناه تشعان نارًا.

ظهر من بين صفوف القراصنة عملاق أسود، أعور يحمل بلطة هائلة الحجم، كان مخيفًا لدرجة أن القراصنة أفسحوا له الطريق مذعورين، هوى على سيف «دي جاما» الأول فهشمه ثم هوى على السيف الثاني فأطاره من يده.

تراجع «دي جاما» للخلف أمام العملاق الذي لا قبل به... تراجع حتى لم يعد خلفه سوى حاجز السفينة.

رفع العملاق البلطة، وهنا أبرز «دي جاما» من حزامه غدارة عتيقة وصوبها لرأس العملاق فألهب رأسه بالرصاص. هوى جبل اللحم والعضلات فسال الدم وتناثر.

ابتسم «دي جاما» ثم انحنى ليلتقط سيفًا من بين جثث الموتى.

بدأت أدرك بوضوح أن كفة البرتغاليين هي الأعلى، إنهم المنتصرون، بل إن بعض البرتغاليين عبروا إلى السفينة القراصنة وشرعوا في نهبها! ... سعيد الحظ هو من نهب سفينة قرصان فهي محملة بالكنوز المنهوبة.

الضحية تستولي على مال اللص! ... ورغم هذا لا يخلو الموقف من العدل.

عندما انتهى القتال قام رجال «دي جاما» بقذف سفينة القراصنة بالمشاعل وبراميل الخمر وهكذا تحولت السفينة إلى شعلة ملتهبة ترتفع لعنان السماء... كان من حظ هؤلاء القراصنة الأسود أنهم اختاروا سفينة «فاسكو دي جاما» للنهب... والنتيجة أنهم قُتلوا ونُهبوا...

ثم وقف «دي جاما» لاهثًا يلوح بسيفه المخضب بالدم، وصاح في رجاله اللاهثين المخضبين بالدم:

- «أحسنتم! ... المزيد من المجد للبرتغال!»

كانوا محملين بالغنائم لهذا لم يستطيعوا التلويح بأسلحتهم ولا حتى الهاتف...

☆ ☆ ☆



ضيف فوق العادة

كان «فاسكو دي جاما» يتحرّق شوقاً لأن يفعل شيئاً جديداً، لكنه في كل مرة يصطدم باسم بارتليميو دياز مكتشف رأس الرجاء الصالح، لقد وصل إلى مومباسا وماليندي لكن هذا ما فعله دياز بالضبط.

مشكلة البرتغاليين هي أنهم لا يعرفون الكثير عن هذه المياه، الخرائط كلها قديمة تعود لعصر بطليموس والإبحار بها انتحار، من جربوا استعمال هذه الخرائط لم يعودوا من رحلتهم للهند قط.

كنت هناك في قمرة بالسفينة حيث الخرائط المتناثرة وحيث زجاجات الخمر، وقد علمه السكر أن يقول كل هواجسه بصوت عالٍ حتى أنني صرت أعرف كل ما يفكر فيه.

نصحه البحارة الهنود بأن يستعين بالعرب فهم خبراء بالبحر، لكنه ثار وضرب المنضدة:

- «أنا لا أثق بهؤلاء الهمج! ... لن أتعاون معهم أبداً».

نحن نقف منذ فترة في ماليندي، وهي مدينة إفريقية تطل على المحيط الهندي، وكانت مليئة بالبحارة العرب، هناك وقفت سفينتنا نحو شهر.

كان «دي جاما» في موقف خطر فالخرائط قديمة وهو يتحرّق شوقاً للوصول إلى الهند من هنا. هذا هو الشيء الذي سيضيفه لتاريخه. لكن الخطوة خطيرة قد تنتهي به طعاماً للسمك.

كان واقفاً على سطح السفينة يراقب البحر وهو يغلي غيظاً من الوقت، عندما صاح الناضورجي أن هناك قارباً صغيراً يقترب قادماً من الساحل.

انتظر بعض الوقت وسرعان ما رأى على ظهر القارب بحاراً يجيد البرتغالية، وقد صاح منادياً:

- «هناك تجار مسلمون يرغبون في الصعود لتحية القبطان «فاسكو دي جاما» العظيم!».

بدا الغيظ على وجه «دي جاما» ونظر إليّ وقال:

- «أنت عربي لكني أقدر أنك ستفهم وجهة نظري... أنا لا أطيق العرب ولا أطيق وجودهم في بحر العرب؛ لهذا لا أتحمل فكرة أن يصعدوا إلى سفينتي، هذه إهانة لملك البرتغال».

تمالكت أعصابي من الغيظ، على الصحفي أن يظل محايداً...

مددت يدي أتناول خارطة على المنضدة، كانت مليئة برسوم بلهاء وخطوط طفولية وصور شياطين وتنانين، لكن الحق يقال إنها كانت جميلة.

قلت له:

- «العرب يعرفون هذه المياه... لكن هذه الخرائط البرتغالية جديرة بمدارس الأطفال، إنها موضوع قصص ممتعة تقصها عليهم قبل النوم».

قال في تحد:

- «العرب لا يعرفون غير الصحراء والرمال، ليست لديهم أي خبرة بالبحر».
- ثم راح يداعب لحيته الكثة بعض الوقت مفكرًا... مع بسمة وحشية بدأت ترسم على ملامحه ثم قال:
- «ولكن... لم لا؟ ... الإبحار ممل والحياة كئيبة... بعض المزاح لن يؤذي أحدًا... فلنر ما سيقولون ولسوف نضحك كثيرًا...».
- ثم نظر إلى البحار الضخم الذي جاء يبلغه، وصرخ كأنه أسد يزأر:
- «أما زلت هنا يا أحرق؟ ... لماذا لم تبلغ هؤلاء التجار أنني في انتظارهم؟».

- كانت ثياب التجار العرب فاخرة ومميزة تدل على الثراء، كانوا ستة في الستين من العمر، أما «دي جاما» فقد أرتدى أفخم ثيابه وقبعته ذات الريش، ووقف كالوحش على ظهر سفينته.
- وكان هناك مع العرب ذلك البحار الذي يجيد البرتغالية وقد جاء للترجمة.
- «سلام على القبطان العظيم... شرف لنا أن تكون ضيفنا!».
- كانت هذه العبارة أسوأ بداية ممكنة بالنسبة له؛ لأنه لم يعتبر أن العرب يملكون أي حق في ماليندي، فكيف يرحبون به باعتباره ضيفًا؟؟؟
- نظر إلى العرب نظرة متفهمة فقد أدركوا أنني عربي مثلهم، وهمس أحدهم بالسلام.
- مشى العرب ومعهم «دي جاما» وقواده وقد بدا واضحًا أنه ينوي أن يتسلى بهؤلاء الهمج قليلًا.
- في قمرة القبطان كانت هناك لوحة زيتية عملاقة له وصورة لملك البرتغال، وخرائط بحرية ومخدع فاخر مريح، أشار للفرجار والمسطرة وقال:
- «الملاحه فن معقد يستدعي حسابات طويلة».
- كان أحد التجار العرب ضئيل الحجم يتأمل الخارطة وهو يعبث بلحيته ثم قال:
- «عمل فني متقن... جميلة جدًا، لكن لا قيمة لها كخارطة، أعتقد أنك تضعها هنا كتحفة فنية لا أكثر».
- نظر إليه «دي جاما» قليلًا ثم ابتلع ما يريد قوله، واتجه إلى بعض الأدوات فالتقط «أسطرلابًا» خشبيًا ورفع في فخر أمام العيون في ضوء الشموع وقال:
- «هذا يُدعى أسطرلاب... وهو مهم للبحار جدًا».
- تناول ذاك العربي الأسطرلاب ووضعه في كفه وتأمل للحظة ثم ألقى به على المنضدة وقال:
- «أسطرلاب... لكنه شديد البدائية... أنا صنعت «أسطرلابًا» من النحاس يمكن أن أهدي واحدًا منه للقبطان... لديّ كذلك مزولة ممتازة صنعتها بنفسى!...».

نظرتُ بسرعة ل «دي جاما» فوجدته ينفخ من الغيظ، احتقنت عروق رقبته واحمر وجهه،
وسأل التاجر متمالغاً أعصابه:

- «ما اسمك يا سيد؟»

- «أنا عبدالله الفقير أحمد بن ماجد... من جلفار».

مال «دي جاما» عليه وسأله في صوت خفيض:

- «أنت بحار... فهل تعرف الطريق إلى الهند؟».

قال العربي:

- «طبعًا».

- «أتكلم من ساحل إفريقيا الشرقي... هل يمكنك السفر للهند؟».

- «أؤكد لك يا قبطان».

هنا صاح «دي جاما» بصوت ارتجت له السفينة:

- «إنني أعلن أن هذا العربي سيكون دليلنا إلى الهند... كنت مخطئًا عندما حسبت العرب
يجهلون البحر، الرجل الذي يصنع أسطرلابًا بهذه الدقة والبراعة قد خُلق كي يكون دليلنا!!».

☆ ☆ ☆

الميرانتي «أمير البحار»

تقلع السفينة فاردة شراعها مغادرة ماليندي.

في الأيام التالية أُصبت بدوار بحر رهيب، لكن حينما استطعت أن أتمالك نفسي أخيرًا بدأت أراقب سير الأمور، كان «دي جاما» فظًا خشنًا وهذا يتناسب مع مسؤولياته الكثيرة، لكنه بالفعل معجب بذلك العربي «ابن ماجد» الذي صار مرشد الرحلة إلى الهند، وكان من حقه أن يقابل القبطان متى شاء.

لقد صار وجه «ابن ماجد» مألوفًا هنا بجسمه الضئيل وعمامته وضحكته، وقد سماه البرتغاليون «المعلم الفلكي». لم يستطيعوا نطق العبارة فخرجت من أفواههم «ماليمونكا»، كذلك حاولوا تسميته «أمير البحار» فخرجت الكلمة «الميرانتي».

الآن عرفت من أين جاء هذا الاسم الغريب، «الميرانتي» هو نفسه «أحمد بن ماجد».

في تلك الليلة رأيته يقف مع القبطان والضباط على ظهر السفينة... كانت السماء مرصعة بالنجوم بذلك الشكل الخام المذهل، حيث تدرك للمرة الأولى أن في السماء من النجوم أكثر مما فيها من الظلام... نجوم يمكنك أن تقرأ على ضوءها، ولو مددت يدك لقطفت بعضها لتهديه لحبيبته...

كان «ابن ماجد» واقفًا يشرح للقبطان خارطة النجوم وكيفية الاهتداء بها... كان يعرف موضع كل نجم وكيف تعرف اتجاهك عن طريقه، وخُيل للرجال أن هذا الرجل ليس بحاجة إلى بوصلة من أي نوع...

قال «فاسكو دي جاما» في رضا:

- «هذا علم جديد علينا بالكامل يا ماليمونكا... يجب أن نكتب كل ما قلت كي لا ننساه...».

كان قد شرح لهم أمس الرياح الموسمية وكيف يمكن استغلالها، كما شرح لهم المد والجزر ودور القمر فيه... قبل يومين عرض عليهم الحقة الملاحية التي ابتكرها، و«الحقة» هي الترجمة العربية للفظ «بوصلة»، وكيف علق الإبرة الممغنطة على محور لتتحرك حركة حرة مع هياج البحر... هكذا تعرف السفن طريقها وسط أعنى العواصف...

كان «دي جاما» مندهشًا من أن يملك «ابن ماجد» الذي قضى حياته في الصحراء كل هذا العلم، لكن الحقيقة هي أن «ابن ماجد» لم يعيش في الصحراء، كان قد قضى خمسين عامًا من حياته في الخليج العربي على ظهر السفن.

استطعت جمع بعض المعلومات عن «ابن ماجد» في حوار مباشر معه في ليلة صافية...

قال لي:

- «أنا» شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن الحسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي!! ولدت في «جلفار» عام ٨٤٠ بالتقويم الغربي وعام ٨٤٠ الهجري... أنا من أسرة مولعة بالبحر، وقد نشأت على هذا الفن منذ نعومة أظفاري... أبي يطلقون عليه اسم «ربان البرين» ... حتى في زمانك المعاصر سيظل بعض

البحارة الخليجيون يهتف عندما تبدأ سفينته الإقلاع: «الفاحة لابن ماجد» ... برغم أنهم لا يذكرون عني أي تفاصيل...

«لي مؤلفات عديدة في عالم البحر، ولسوف يحتفظ معهد الدراسات الشرقية في «ليننجراد» بمخطوطة لي بالعربية أصف فيها سبل الملاحة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي.

إنها مكتوبة شعراً كلها كما هي العادة في زمننا...»

«على أنني مندهش من جهل البرتغاليين المروع بعلوم البحر، هم لا يعرفون أي شيء عن علم الملاحة».

مرّت الرحلة بسلام وإن سادها جو من محاولات البحارة السخرية من هذا البحار العربي، لكنهم لم يتمادوا طبعاً؛ لأنه تحت حماية القبطان شخصياً، كما أنه لا يشرب الخمر ولا يرقص معهم وهو ما أثار غيظهم.

عن نفسي لم يتحرش البحارة بي؛ لأنهم خمنوا أن مهنة الصحفي مهمة جداً، ولسوف أمنحهم الخلود يوماً ما عندما أكتب عنهم.

☆ ☆ ☆

العاصفة

قال «دي جاما» وهو يرمق البحر الثائر:

- «المحيط الهندي ثائر غاضب؛ لأننا أوشكنا على أن نهزمه... لهذا يثور ثورته الأخيرة».

ثم لوح بقبضته في وجه العواصف وهتف:

- «هلم أيها الأحمق... هل هذا أقوى ما لديك؟ لسوف نمرح معًا...».

الطبيعة غاضبة، وعندما تغضب فهي لا ترفق ولا تكظم غيظها، تصور أن تواجه هذا الهول على سفينة برتغالية تنتمي للقرن الخامس عشر! الصحافة مهنة المتاعب فعلاً.

السماء سوداء بالمعنى الحرفي للكلمة، فقط تشقها ألسنة البرق من حين لآخر... ثم يظهر جبل أسود قادم من بعيد... يجب أن تصدق أنه قادم... يجب أن تصدق أنه سيمر من تحتك وأنت ستعلو حتى تبلغ عنان السماء ثم تهوي في حفرة سحيقة سوداء، وعليك أن تظل حيًا وفي وضع رأسي...



يمر الجبل، لكن جبلاً آخر يلحق به قبل أن تلتقط أنفاسك... لقد طووا القلوع كلها وغيروا
اتجاه السفينة...

كنت أسمع صياح «ابن ماجد» في الخارج وهو يصدر تعليماته للبحارة... لقد أجاد الكثير من البرتغالية وهم أجادوا الكثير من العربية. يربط نفسه بالحبال إلى سارية حتى لا تطيره الأمواج، وكذا يفعل الرجال وإلا لغابوا في المحيط.

أسد البحار يزأر...

يعتبر نفسه مسؤولاً بالكامل عن سلامة هؤلاء؛ لأنه اقتادهم إلى هذه المياه...

كان «فاسكو دي جاما» جالساً في هدوء يكتب في دفتر السفينة على ضوء الشمعة... حتى محبرته لا تهتز... كأنه ينتمي لعالم آخر شديد الهدوء... قواعد الفيزياء لا تنطبق عليه...

قال لي في هدوء:

- «لا تقلق... شجاعة هذا الرجل خارقة، وبراعته ليست موضع شك... إنني لأضع سلامتي في يديه، وليكن في معلومك لم يحدث قط أن وصلت سفينة برتغالية إلى هذه النقطة».

قلتُ له وأنا أقاوم القياء:

- «هذه عاصفة عاتية فعلاً يا قبطان».

- «بارتلميو دياز» في رحلته حول رأس الرجاء الصالح رأى أبشع من هذا، حتى أنه أطلق عليه «رأس العواصف»... أنا أعيد رسم الخارطة بشكل دقيق...».

ارتفعت السفينة حتى وكأنها تتسلق جبلاً كاملاً ثم هوت مرة واحدة حتى أوشكت كل قطعة خشب فيها أن تنفصل.

في الصباح كانت العاصفة قد هدأت، وكان الرجال منشغلين بإصلاح ما أتلفته غضبة المحيط يوم أمس...

رائحة الرطوبة في الجو ورائحة الخشب المبلل... رائحة الإجهاد، وذلك الصفاء الذي يلي العواصف...

كان «ابن ماجد» مرهقاً محمر العينين من فرط ما قضى الليل في التركيز والانفعال وتوجيه الأوامر، لكنه كان كذلك يتشمم الهواء من حين لآخر...

مشى إلى المقدمة ووقف متصلباً بعض الوقت...

راح ينظر إلى البوصلة - الحقة - التي صنعها ثم خرج آلة السدس وأجرى بعض القياسات، ثم استدار ليعلن الخبر:

- «يا رفاق البحر... نحن على سواحل الهند!...».

لقد استغرقت الرحلة ٢٢ يوماً، وهو رقم قياسي في كل شيء حسب قواعد ذلك الزمن.

☆ ☆ ☆

وأخيراً... وصلنا

هرع «فاسكو دي جاما» إلى سطح السفينة وهو متلاحق الأنفاس من فرط الانفعال. هذه سواحل الهند فعلاً، وسفينته أول سفينة برتغالية تدخل هذه المياه، الهند! ... الشراء غير المحدود وأسرار الشرق والتوابل... هذه أرض التوابل، جبال من الشطة والكاري... يوم ٢٠ مايو عام ١٤٩٨... تذكروا هذا التاريخ...

لكنه لاحظ أن الميناء يعج بالسفن العربية. بالفعل يأتي العرب هنا بكثافة لكنهم يزورون محلاً على قارعة الطريق.

هذه أرض تختلط فيها ثمار المانجو بالبهارات وبالنمور المتوحشة في الأحرش، برائحة البخور في المعابد القديمة وبتعابين الكوبرا ورائحة الأمطار السنوية، وعيون الحسنات الممتلئة بالكحل وهن يغمرن أجسادهن في مياه نهر الجانج تقريباً لشيفا أو كالي... هذه هي الهند...

قال «أحمد بن ماجد» وهو يفرك عينيه:

- «هذه «كاليكوتا» في «كيرالا»... أعتقد يا قبطان أنه يجب أن أنزل أولاً... هؤلاء القوم لم يروا سفينة برتغالية في حياتهم...».

فرغت «راميشا» من نثر قرون الشطة الحمراء على الحصيرة أمام الدار...

سوف تحتاج إلى أيام لتجف، وبعدها يكون عليها وعلى النسوة أن يسحقنها ليحصلن على المسحوق الأحمر الذي لا يستقيم المزاج الهندي من دونه: الشطة.

مهمة عسيرة لأنها سوف تجعل يديها تحترق بالنار، لكن هذه هي حياة العذراء الهندية... فإذا تزوجت كانت هذه هي حياة السيدة الهندية...

المسجد القريب يعلن صلاة الظهر، و«راميشا» هندوسية... لكن في ذلك الوقت في «كاليكوتا» بالهند، شمال ولاية كيرالا، لم يكن هناك من يسألك عن دينك ما دمت تحسن معاملة الآخرين وتؤدي لهم حقوقهم.

لا تخفي أنها تشعر بسرور ونشوة عندما تسمع صوت الأذان المميز، والذي تعتقد أنه أروع صوت سمعته.

قابلت الكثيرين من العرب... إنهم في كل مكان هنا، هم تجار بطبيعتهم... بارعون حقاً ولهم عيون حساسة لما يمكن شراؤه أو بيعه... المهم أن هذا كله يتم في جو من التراضي والسماحة بين الطرفين...

أمس رأت تاجراً عربياً يلعب مع طفل في الخامسة... الطفل يكيل اللكمات للتاجر الذي جثى على ركبتيه أمامه، فسقط التاجر على الأرض وكأن الضربة آذته فعلاً... مما جعل الصبي يضحك حتى سال الدمع من عينيه...

قالت أمها وهي تنسج على النول:

- «هذه حركات يكسبون بها النفوس... عندما تكسب الأطفال فأنت تكسب أهلهم...».

- «وماذا يريدون من كسب الأهل؟».

- «لا شيء... فقط يميل العربي إلى أن يكون محبوبًا في الوسط الذي هو فيه... هكذا انتشر الإسلام في الهند يا راميشا عن طريق حسن المعاملة ولمسات ذكية بسيطة كهذه، بينما لا يمكن للسلاح أن يقهر الهنود، فهم أقوى من أي سلاح، هذه بلاد مترامية الأطراف أهلها شديداً الكبرياء والمراس... لا يمكن إرغامهم على أي شيء بالقوة...».

«راميشا» لا تعرف هذا ولا يهملها أن تعرف لأن لديها مشاكلها الخاصة، تعرف أن عليها الكثير من العمل في شؤون البيت... شؤون البيت الهندية التي لا تنتهي، والتي يعد تجفيف الشطة قطرة منها...

غداً سوف تزور المعبد وتقدم بعض القرابين للكهنة لعله يصلي لها صلاة خاصة...

☆ ☆ ☆

ضيف الراجا

ركبتُ قاربًا مع «أحمد بن ماجد» وبعض الضباط البرتغاليين إلى اليابسة، إنه ينزل من قاربه فتحييه وجوه الهنود الباسمة ويعانقه البعض، فهم يعرفونه جيدًا... إن «الميراني ابن ماجد» مفيد في البحر والبر بعلاقاته الكثيرة وحب الناس له.

توجه إلى مندوب الحاكم، وطلب منه الإذن لهؤلاء البرتغاليين في النزول إلى اليابسة.

قال المندوب:

- «إن أصدقاء «ابن ماجد» هم أصدقائنا، لكن عليك أن تطلب إذن الراجا شخصيًا...».

خرج «ابن ماجد» ومن معه ليقابل «مانافيكرامان»... الزامورين... حاكم «كاليكوتا» في قصره... قالوا للزامورين إن «ابن ماجد» قد عاد، فبدأ الرضا على وجهه... وسمح ل «ابن ماجد» - بعد ما سأله عن أخبار العرب وعن رحلته - بأن يجلب القبطان البرتغالي.

هنا انتفض تاجر عربي اسمه كريم... وصاح بصوت مجلجل:

- «البرتغاليون هنا؟ هؤلاء السفاحون! ... هؤلاء القتلة! ...

لا تسمح لهم يا سيدي الراجا، سوف يحيلون هذا البلد الجميل نارًا ودماً... نحن نعرفهم في كل مكان وهم ليسوا غرباء علينا... البرتغالي الطيب هو الذي مات».

قال «ابن ماجد» في غيظ:

- «كونهم من بلد مختلف ولهم دين مختلف ولون بشرة مختلف لا يعني ضرورة إدانتهم...».

طالت المناقشة لكن الراجا كان أميل إلى تصديق «أحمد بن ماجد»، هؤلاء ضيوف مرهقون من رحلة البحر، فأمر «ابن ماجد» بأن يجلب له القبطان... بعد ساعة ظهر موكب «دي جاما» الذي حرص على أن يتزين ويبدو فخماً وزين قبعته بالريش ونفش صدره، الواقع أن «دي جاما» بدا كأنه هو حاكم البلاد. كان الهنود مندهشين لأنهم لم يروا هذا الغرور من قبل، كانوا قد اعتادوا العرب الودودين الذين لا يفكرون إلا في التجارة، لكن البرتغاليين كانوا مليئين باستعراض القوة، وهناك اليوم لوحة شهيرة تمثل هذا المشهد بالضبط.

تصلب الراقصون وراحت النمر التي يربيهها الراجا تزار، وسط زئير النمر تعالت بعض الشتائم بالبرتغالية يطلقها التاجر العربي:

- «لا أهلاً بك ولا سهلاً أيها السفاح... خذ رجالك وعمارتك وارجل».

قال الراجا وهو يتأمل «دي جاما»:

- «سوف نسمح لك بالتجارة، ونحملك بعض الهدايا لملك البرتغال العظيم».

جلس «دي جاما» ينظر في ذهول إلى المأدبة أمامه، كان هناك دجاج بالكاري... وكان هناك الكثير من الشطة وهناك خروف مغطى بالكسبرة والكمون والفلفل والهيل، لم يصدق أبداً أن هذا الثراء موجود هنا.

تناول قطعة من لحم الخروف فخرجت نار الشطة من أذنيه، جرع جرعة ماء هائلة وقال لي:

- «الأمر يبدأ بالتجارة... تكون لنا امتيازات تجارية ثم نعزها بأسطول كامل».

كنت أعرف أن بريطانيا ستفعل الشيء ذاته بعد قرون، عندما تنشئ شركة الهند الشرقية، ورحت أراقب البحارة وهم يسرقون التوابل ويضعونها في جيوبهم، كل واحد صنع ثروة صغيرة من الزنجيل وورق اللاوري والشطة.

رحت كذلك أراقب نظرات الكراهية التي يرمق بها التجار العرب «فاسكو دي جاما» ... لن يخدعهم بهذا اللطف.

☆ ☆ ☆

الفراق

مرت أيام...

ثم تقدم الميراني «أحمد بن ماجد» إلى القبطان «فاسكو دي جاما» ليودعه:

- «وداعًا يا قبطان... لقد أنهيت مهمتي وأنتم قادرون على العودة...».

لم يكن القبطان قادرًا على التأثر، لكنه صافح العربي بقوة وسأله:

- «عائد إلى جلفار؟»

- «بل إلى مكة... لقد اقترب موسم الحج وعليّ أن أنطلق من هنا الآن إذا أردت أن أصل في وقت مناسب...».

ثم أنه صافح البحارة وعانقهم... لقد صاروا أصدقاء بالتأكيد بعد هذه الأيام الطويلة...

ثم دنا مني وعانقني وتمنى لي التوفيق في مقالي، فوعده أن أقابله لدى عودته من الحج، إنها رحلة تستغرق عدة أشهر في ذلك الزمن، قالي لي:

- «هم يعرفون كيف يعودون من هنا، السلام عليكم يا أخي».



ورحت أراقبه وهو يبتعد.

رجل عربي فقير ضئيل الجسد يحمل عصا في كتفه علقت في نهايتها صرة هي كل متاعه في الحياة... رجل عربي فقير يبتعد مشيًا نحو مكة... سوف يعود إلى البحر، وسوف يخوض المزيد من الرحلات لكن المؤكد أنهما - هو و«دي جاما» لن يلتقيا ثانية أبدًا إلا في كتب التاريخ...

تعج الكتابات العربية بقصة «أحمد بن ماجد»، ولكن لا ذكر له في الكتابات البرتغالية، إلا من تلميحات لمرشد اسمه الميرانتي، وعلى الأرجح أنهم أرادوا ألا ينسبوا أي مجد للعرب، الأهم أن هناك عربًا ينفون عن «ابن ماجد» إرشاد البرتغاليين؛ لينفوا عنه تهمة أنه سهّل التفافهم حول السواحل الإسلامية، أما عن رأيي فأنت ترى أنني كنت شاهدًا على كل شيء، والتقطت بعض الصور الفوتوغرافية لأعرضها في مجلتي لدى العودة.

في الميناء كان الرجال يحملون البضائع ولوازم السفر تأهبًا للعودة إلى البرتغال، لقد تم إصلاح السفينة من عناء رحلتها، هذه المرة لن يضل أحد طريق العودة.

في طريق العودة حدثت أشياء بسيطة تافهة مثل أن شقيق «دي جاما» قد مات... طبعًا هذا كلام فارغ لا يمكن أن يعكر مزاج القبطان... من دون الميرانتي نسي «دي جاما» القواعد التي تتحكم في الرياح الموسمية، وهذا كلفه الكثير... هكذا اضطر لعبور المحيط الهندي في ١٣٢ يومًا بدلًا من ٢٢ يومًا مع «ابن ماجد».

فارق مائة يوم يكون قاتلاً في البحر، وقد وصل إلى ماليندي من دون نصف طاقمه، ويبدو أن السمك أحب مذاق اللحم البرتغالي...

كان الأسقربوط داءً وبيلاً يقتل البحارة، بعد ما يجعلهم ينزفون كل قطرة من دمهم وتتعفن أطرافهم، ويتجعد شعرهم وتتورم لثاتهم بحيث لا يقدرّون على أكل شيء... طبعًا كان يمكن إنهاء هذا كله ببعض عصير الليمون أو البرتقال، لكن مازال أمام الطب الكثير ليتعلمه في القرن الخامس عشر، إلا أنهم نسوا أن «ابن ماجد» كان يطلب أن يشرب البحارة عصير الليمون بشكل يومي.

على كل حال كانت هذه منغصات بسيطة بالنسبة للقبطان العظيم...

إن الرجال يمكن تعويضهم، لكن المجد لا يأتي مرتين...

☆ ☆ ☆

القائد المظفر

البرتغال...

يسرع العبيد بفرش السجاد الفارسي الثمين، وتحلق أسراب الحمام التي أطلقوا سراحها، فلينفخ في البوق ولتنثر النسوة أوراق الورد...

إن الفاتح العظيم قد عاد من رحلته مظفراً، منتفخاً كالطاووس، يلبس أفخم حلة لديه... حلة من الطراز الذي يناسب موضحة العصر ويجعل المرء أقرب لجبل مقلوب، كتفان عريضتان محليان بالفراء وسروال ملتصق بالساقين النحيلتين كجوريين...

لقد عاد «فاسكو دي جاما» من الهند... ومعه توابل وكنوز لكنه حمل ما هو أهم... حمل معه الطريق إلى أغنى بلد في العالم...

هناك تقف حاشية الملك مانويل الأول، كلهم خرجوا من القصر لاستقبال أعظم مكتشف عرفوه منذ بارتلميو دياز، الملك لا يخرج لاستقبال أحد إلا إذا كان مهماً جداً. وقفت من بعيد أراقب المشهد، ثم طلبت من الحراس أن يسمحوا لي بالاقتراب، واضطرت لأن أخرج بطاقة تعريف النقابة، أنا صحفي يا سادة.

هو ذا المستكشف العظيم يتقدم، والرجال يرددون بلا توقف:

- «كابو... كابو...» «قبطان... قبطان».

للمرة الأولى يتقدم الملك شخصياً لمصافحة قبطان يعمل لديه، وهو يعانقه وينعم عليه بالألقاب:

- «أنت أهديت الهند كاملة للبرتغال... لهذا نهديك إقطاعيات في ساينز... نهديك لقب «دوم»... وهذا اللقب سوف يكون لقبك ولقب كل فرد في أسرتك إلى يوم الدينونة...». قال «دي جاما» بوقار:

- «ليس هذا حسب... أنت إيرل فيديخيرا وأول كونت لا يحمل دمًا ملكيًا في عروقه...».

- «هذا كثير من جلالكم... كثير جدًا».

- «فقط أريد أن تخبرني بالقصة كاملة منذ الرحيل».

ثم جلس الملك على العرش المهيّب وأمسك بكأس كبيرة من النبيذ، وكأنه ممثل عظيم يقف على المسرح ووقف «دي جاما» أمام الملك والبلاط... متظاهراً بالاحترام لكن الفخر يوشك أن يغلبه... هذا رجل فخور لا خاشع...

- «نحن «فاسكو دي جاما» خادم «مانويل الأول» ملك البرتغال قدرنا حول رأس الرجاء الصالح كما فعل سلفنا العظيم «بارتلميو دياز»، ومنه إلى ماليندي... في هذا الوقت تمكنا من تطوير أسطرلاب حديث وحق... أ... وبوصلة ورسمنا خرائط دقيقة جداً، كما استطعنا أن نحدد سبل الملاحة بالمحيط الهندي عن طريق الاسترشاد بالنجوم... ومن ثم انطلقنا نحو الهند حيث رسونا في «كاليكوتا» وعقدنا اتفاقيات تجارية مع الراجا «مانافيكرامان» الذي يحمل كل ولاء

وخضوع للملك العظيم...».

هتف الملك بحماس:

- «رائع... أمير البحار الهندية! ... سوف نطلق عليك لقب أمير البحار الهندية...!».

ابتسم «دي جاما» في وقار وأضاف:

- «استطعنا كذلك يا مولاي أن نبرهن على أن ساحل إفريقيا الشرق كونتراكوستا مهم جدًا لسفننا... إن «موزامبيق» ستكون مفيدة جدًا كمستعمرة للتاج البرتغالي «هللوا يا رجال...»

اليوم ليس يومًا عاديًا...

إنه اليوم الذي صارت فيه البرتغال قوة كاسحة... أقوى وأغنى دولة في العالم».

☆ ☆ ☆

بداية المذابح

في العام ١٥٠٢م عاد المستكشف الآخر بدرو الفاريس كابرال من الهند، إنه يشبه «دي جاما» تمامًا في الملامح والقسوة والغرور واللامح. عندما نزل من السفينة قدموا له دنان الخمر، فشرّب حتى بلّل لحيته وصدر قميصه.

كان «دي جاما» ينتظره في الميناء وعانقه سائلًا عن أخبار الهند، كان هذا لقاء الديناصورات فعلاً.

كانت الأخبار سيئة، هناك خلافات ومشادات بين الهنود والبرتغاليين، البرتغاليون مغرورون وتعاملهم ليس أمينًا، وقد شعر الهنود بفارق كبير بينهم وبين التجار المسلمين.

- «لقد قصفت سواحلهم بالمدفعية... لكن هذا غير كاف».

قال لي «دي جاما»:

- «هذا يوجب أن نذهب لحماية الرعايا البرتغاليين».



كل الاحتلال في التاريخ يبدأ بنفس الكيفية، ابدأ بالتجارة ثم افتعل حادثًا... ثم أرسل قوة احتلال لحماية رعاياك، مصر احتلها الإنجليز بذات الطريقة.

ثم نظر إليَّ «دي جاما» نظرة نارية وأردف:

- «أنت مسلم... يؤسفني أن أقول هذا لكني واثق أن التجار المسلمين هم مشعلو الفتنة. المسلمون لا يطيقون وجود البرتغال هناك، والهنود دماؤهم حارة لذلك ينفجرون بسرعة، سأذهب على رأس أسطول من عشرين سفينة لفرض سيطرة البرتغال على كاليكوتا».

هكذا انطلقت العبارة المخيفة وأنا على ظهرها مجبرٌ، هذه مهنتي للأسف، لقد رفض القبطان كل احتجاجاتي وأصر على بدأ الحرب، وكان الرجال يغلون غضبًا.

وفجأة صاح الناضورجي من فوق السارية:

- «سفينة عربية في الأفق!».

نظر «دي جاما» إلى البحر وابتسم بوحشية... أخيرًا جاء وقت الانتقام، صاح في رجاله:

- «استعدوا للالتحام... هذه السفينة لنا!».

سألته في كياسة:

- «مَن قال إنها سفينة مقاتلة؟ ... أنت قلت إنك تنوي الذهاب لتأديب «كاليكوتا» ولن تتحدث عن الق...».

لكني لم أرَ منه إلا عينيْن جاحظتين، لم يكن يسمع سوى صوت الانتقام والدماء والصراخ في رأسه.

كانت السفينة العربية مسالمة كيمامة، غير مستعدة لمواجهة الشياطين البرتغاليين، وسرعان ما تم الالتحام فوثب البرتغاليون ودوت صرخات، ليست صرخات رجال بلا صرخات نساء وأطفال.

هذه سفينة عائدة من مكة وعليها نحو ٤٠٠ من الحجاج...

☆ ☆ ☆

كاليكوتا

تعالى النيران حتى عنان السماء...

كنت ضعيفًا جدًا وعاجزًا عن عمل أي شيء، كانت قسوة البرتغاليين تفوق الوصف ولا داعي لها فعلاً.

لقد قام «دي جاما» بقتل من وجده على السطح، ثم حبس الركاب في قاع السفينة وأضرم فيها النار!! كما ألقى رجاله المشاعل وبراميل النبىذ على الخشب ثم ابتعدت السفينة الحربية لتتأمل ما يدور.

استغرق احتراق السفينة العربية أربعة أيام ولم ينج أحد ليحيى، أنا كنتُ شاهداً كما شهد بعض البرتغاليين فيما بعد.

في النهاية وقد استحال سطح المحيط بقعة من النار والدخان والخشب المتفحم أصدر «دي جاما» أمره بأن تتحرك السفينة إلى وجهتها الأصلية:

- إلى «كاليكوتا»!!

أما الرجال فقد استخف بهم المرح... إن اللحظة التي تفصل بين البحار العادي والقرصان غير واضحة، والخط الفاصل بين الاثنين يمكن عبوره دون أن تشعر... هكذا صاروا جميعاً قراصنة متعطشين للدم، خاصة إن تم هذا من أجل التاج البرتغالي...

كان «دي جاما» قد هاجم مجموعة كاملة من الموانى التي يسيطر عليها العرب... يبدو أنه كان يمارس حملة تطهير لكل موضع إسلامي على ساحل إفريقيا الشرقي...

ثم إنه هاجم كل سفينة عربية واستولى عليها وسلبها البضاعة التي تحملها...

أخيراً يصل الأسطول البرتغالي الرهيب إلى سواحل الهند وقد تدرب على إراقة الدماء، فلم يعد يوقفه شيء...

عندما دخلت سفن «فاسكو دي جاما» إلى الميناء الهادئ «كاليكوتا» لم تكن في هذه المرة مراسم لكسب الثقة ولا قوارب تدنو للتعارف...

لقد رأى الهنود سفنه قادمة فأدركوا أن الخطر قادم... السفن ذاتها بدت كأنها تكشف عن أنيابها أو توشك على الافتراس... قبل أن يتصايحوا منذرين بعضهم هوت أول قذيفة من مدافع «دي جاما» على سفينة راسية في الميناء، فاشتعلت النار فيها، وراح بحارتها يقفزون إلى الماء صارخين...

للمرة الأولى تنهمر القذائف على هذا الميناء الهادئ.

وانطلقت قذيفة أخرى لتهوي هذه المرة فوق بناية من خشب على الميناء فتحولت إلى فحم على الفور...

والمدينة الجميلة بقبابها ومعابدها ومساجدها ورياضها تحولت إلى جذوة من النار والدخان...
نساء يركضن صارخات وأطفال يتعثرون ويبكون ورجال ينزفون...

و«فاسكو دي جاما» القبطان العظيم يقف على ظهر سفينته يرقب هذا كله بوجه من صخر...
فقط صاح في رجاله:

- «صبوا عليهم كل شيء!!».

ودوت الانفجارات من جديد...

لشد ما اختلف دخول «دي جاما» في المرة الثانية، لقد كان في المرة الأولى ضيفًا يتمنى أن
يسمح له بالدخول... واليوم هو سيد جاء ليعاقب...

عندما تنقشع سحابة الدخان والموت من فوق «كاليكوتا» سوف ينزل رجاله...

عقاب «كاليكوتا»

قلت ل «دي جاما» إن عليه أن يكتفي بكل هذا الدم، كان وضعي كصحفي يعطيني بعض الحرية
في قول ما أريد وكان هو يصني لي، لو قال له أحد آخر هذه الكلمات لأمر بجلده.

قال لي في توحش:

- «السلب والنهب نوع من حفلات الترفيه التي يجب أن تتاح من وقت لآخر للبحارة المتوترين
المتعبين...».

وفي شوارع «كاليكوتا» المحترقة المهدمة راح البرتغاليون الثملون يركضون متصايحين، ويعملون
السيف في كل من يقابلونه فلا تنجو منهم امرأة ولا رجل مسن أو حتى طفل...

لم تعد هناك شطة منثورة على الحصير لتجف... لقد احترقت...

لم تعد هناك رائحة مانجو ولا أزهار لوتس تطفو فوق البركة التي يشرب منها الطاووس... البركة
كلها تبخرت...



ووسط هذا الخراب وبكامل ثيابه الأنيقة المهيبة التي يمكن تلخيصها بكلمة واحدة «الغطرسة»
يتقدم «دي جاما» وسط ضباطه متجهاً إلى قصر الراجا...

يخرج الراجا المذهول المرتجف وحوله رجاله، ويمشي للقاء القبطان غير مصدق ما انتهت إليه مدينته الجميلة...

يسمع صراخ قومه من بعيد فيتخيل ما يحدث...

يقف أمام «دي جاما» في ساحة القصر التي لم يصبها الخراب...

شتان ما بين المشهد منذ أعوام والمشهد اليوم... كان «دي جاما» مهذبًا محترمًا برغم كبريائه الشديدة، أما اليوم فهو هنا ليأمر وقد تحرر كبرياؤه من أية قيود...

يقول «دي جاما» عن طريق المترجم:

- «ها نحن نلتقي من جديد...».

قال الراجا في كبرياء:

- «ماذا تريد يا قبطان؟ ... لا داعي للمقدمات... يمكنك قطع رأسي وتعليق جثتي على «ساريتك» لو أردت... لكن لا ذنب لقومي في هذا... قل لرجالك أن يتوقفوا ولتظفر بتسليتك معي».

- «ها ها ها ها ها! ... أنت رجل شجاع لكن ليس رأسك ما أريد...»

وسقطت عيناه الناريتان على التاجر العربي الواقف خلف الراجا، فابتسم في توحش وقال لرجاله:

- «تعرفون ما يجب عمله... خذوه!».

«ما يجب عمله» يعني قطع رأس الرجل وأطرافه وإلقاء كل شيء في البحر...

ثم قال «دي جاما» وهو يجفف عرقه بمنديل معطر ثمين:

- «أريد طرد أي مسلم من هذه المدينة خلال ساعات قبل أن يأتي الليل... هل هذا شرط عسير؟».

بالطبع لم يجد الراجا مفرًا من هذا، ولم ينته اليوم إلا وكان البحر يعج بجثث التجار المسلمين الذين قطع البرتغاليون رؤوسهم وأيديهم وأرجلهم...

إن الليل قد جاء لكنه ليس ليلاً بالضبط...

لقد تحولت «كاليكوتا» إلى شعلة برتقالية كبيرة تذكرني بحريق روما الذي رأيته في قصة سابقة.

المرفأ نفسه صار شعلة أخرى...

المساجد الرائعة التي كانت آية في الطراز المعماري الإسلامي عندما يستعرض عضلاته ويظهر لغير العرب كم هو جميل... هذه المساجد صارت كالأرض حتى لم تعد متأكدًا من أنها وجدت أصلاً...

لقد غدت « كاليكوتا » منطقة منكوبة بالمعنى الحرفي للكلمة...

☆ ☆ ☆

وسط الخرائب

كان المشهد مروّعًا وأنا أمشي وسط الخرائب ألتقط بعض الصور.
لم يكن هناك من يصغي إليّ أو يسمعي... وأوشكت رائحة الدخان على خنقي، الأرض كانت ساخنة من كثرة النيران والقذائف.

ثم سمعت في ظل جدار صوتًا ينادي من أجل جرعة ماء، نظرت هناك فرأيت امرأة شابة تنزف، تحاول أن تزحف وهي تكرر طلب جرعة ماء.

كانت هناك بئر قريبة، فبحثت حتى وجدت قطعة من قماش بللتها من ماء البئر ثم عدت لها ورحت أعصر القطرات في فمها، ثم سألتها:

- «ما اسمك؟».

- «راميشا...».

- «وأيّن أهلك؟».

- «كلهم ماتوا... قتلهم البرتغاليون».

ثم أضافت وهي تلهث:

- «الميرانتي... الميرانتي».

- «ماذا به؟».

- «كان ذلك الرجل مخطئًا... «أحمد بن ماجد» ارتكب خطأ جسيمًا... ما كان يجب أن يقود البرتغالي إلى الهند... إلى وطني... إلى مدينتي... إلى أمي... كم تقاضى من أجر مقابل هذا؟».

قلت لها في رفق:

- «ابن ماجد لم يقتل أهلك».

قالت:

- «من الجرم أن تخبر النمر بمكان الخراف... هذا هو ما فعله بحارك العربي الميرانتي، والنتيجة هي أن قومك المسلمين أنفسهم قد طردوا من هنا أو أبعدوا... البرتغال صارت تسيطر على الهند وسوف تظل فيها... كنا نعيش في رغد وسلام وحب وكانوا لا يعرفون طريقنا، التجار العرب كانوا يعرفون ذلك وقد أسدوا النصح فلم يصدقهم أحد... اليوم هم دفعوا الثمن».

ثم انفجرت في البكاء، وبعد دقيقة أدركت أنها عادت لبارئها فبكيت كثيرًا.

مشيت وسط الخرائب وتذكرت كيف كانت «كاليكوتا» عندما رأيتها أول مرة، اليوم الأرض مشتعلة يتصاعد منها الدخان كأنه حفل... فقط هنا تُرقص رقصة الموت وتُعزف ألحان الخراب...

خطر لي هنا أن المصادفة قربت بين حروف اسمي «دي جاما» و«ابن ماجد» ... بحاران لكن

السبل اختلفت بكل منهما، ولعب أحدهما دور الملاك الساذج بينما لعب الآخر دور الشيطان
الذي صبر حتى نال...
لكن ما أكبر الاختلاف بينهما...

☆ ☆ ☆

نهاية «دي جاما»

هكذا عاد «فاسكو دي جاما» إلى البرتغال تسبقه شهرته، لقد اكتسب صفة الفاتح العظيم والمكتشف العبقري والقائد الحازم الذي لا يصمد حصن أمامه.

حرص الرجل على ملء جيوبه بالذهب والتوابل، لكنه أراد كذلك أن يحتل كتب التاريخ، لذا راح يحكي للمؤرخين عن معاناته إلى أن بلغ الهند، وعن الطريقة العبقريّة التي اخترع بها الأسطرلاب والبوصلة «لم يسميها الحقّة طبعاً»، وكيف أنه أجاد علم النجوم والاهتداء بأثرها...

صارت تماثيله التذكارية في كل مكان، وأسرته تنعم بالألقاب...

في هذا الوقت أرسل الملك نائباً اسمه إدواردو دي منديز ليكون نائبه في البرتغال لكنه كان قائداً ضعيفاً... والسيطرة على الهنود صعبة جداً؛ لأنهم شعب عنيد، صعب المراس، معتر بنفسه. كان إدواردو يلاقي متاعب لا حصر لها. وقد قال الملك:

- «لا حلّ سوى أن نعيد «فاسكو دي جاما» إلى الهند».

كان هذا هو العام ١٥٢٤... لقد مضت ٢٦ عاماً منذ وصل إلى الهند لأول مرّة.

وصل الأمر إلى «دي جاما» أن الملك يأمره بالعودة إلى الهند، فلم يجد مفرّاً من العودة لسفنه واتخاذ الطريق إلى الهند عازماً على ارتكاب سلسلة مذابح جديدة.

لم أره طبعاً، لكن سمعت ممن حوله ومن الأخبار أنه استمر في الرحلة، ثم بدأت حرارته ترتفع وبدأ يعرق بقوة ويرتجف، حتى أنّ الكلام لم يعد مفهوماً عندما ينطق، لقد أصيب بالمalaria.

لم يكن أحد يعرف الكينيين في ذلك الوقت.

وبالنسبة لشخص لم يصب بالمalaria من قبل كانت المضاعفات خطيرة.

وهكذا سقط في غيبوبة، وصار طبيب تلو آخر يدخل ليفحصه ثم يخرج وهو يهز رأسه في قنوط... لا بدّ أنهم أجروا له الكثير من كؤوس الهواء والفصد لكنه في النهاية مات، مات كأى شخص آخر ومثل ضحاياه العرب بالضبط.

كانت السفن قد وصلت إلى الهند فعلاً: فحملوا جثته ودفنوها في الهند، فيما بعد طلبت البرتغال جثته وتم نقله إلى البرتغال ليدفن هناك.

بالنسبة للعرب والهنود هو سفاح...

وبالنسبة للبرتغاليين هو بطل قومي عظيم، وقد ألفوا عن حياته ملحمة اسمها «لا لويسيداس» أي الملحمة الوطنية للبلاد... وفيما بعد أطلق اسمه على إحدى فوهات القمر...

الميراني من جديد

«ينبغي إن ركبت البحر أن تلزم الطهارة فإنك في السفينة ضيف من ضيوف الباري عز وجل، فلا تغفل عن ذكره».

أحمد بن ماجد

كنت أعرف أن مهمتي انتهت تقريبًا، والتحقيق الصحفي الذي كلفت به قد انتهى، لكنني بحسي الصحفي كنت أدرك أنه لا بد من لقاء أخير مع «ابن ماجد» لأعرف رأيه في كل هذا.

كان عليّ أن أجد آلة الزمن في قاع سفينة برتغالية، فآلة الزمن تتيح لي السفر عبر المسافات كما تتيح لي السفر عبر الأمكنة، وقد قدرت أن «ابن ماجد» عاد إلى «جلفار» بعد الحج.

لقد مضت أعوام طويلة على اكتشاف سواحل الهند، وقد شاخ الرجل كثيرًا.

ذهبت لألقاه وسألت عن بيته فهداني الناس.

وقفت على الباب فوجدته يفرش الأرض وقد بلل ريشته بالمداد بينما يرقص اللهب في المصباح المجاور له.

كان يتكلم وهو يكتب مما جعل من السهل أن أعرف ما يكتبه، كان يتكلم عن الربابنة الآخرين:

- «غير أن خبرتهم مع ذلك محدودة فهم لم يركبوا البحر إلا من «سيراف» إلى «برمكران»، وساروا يسألون عن كل برّ أهله ويؤرخون، وكان في زمانهم من المعالمة المشهورين عبد العزيز بن أحمد المغربي وموسى القندرائي وميمون بن خليل، فكان في زمانهم من النواخذة (1) المشهورة أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي الفضل بن أبي المصري... فيأخذون من كل أحد بره وبحره ويؤرخونه فهم مؤلفون لا مجربون».

كان ينتقد الدارسين الذين لا يملكون الخبرة، ينقلون من كتب الآخرين لكنهم لا يجربون، جلست إلى جواره فلم يلحظ وجودي وواصل الكتابة:

- «إن لركوب البحر أسبابًا كثيرة فأهمها وأولها معرفة المنازل والأخنان والدير والمسافات والباشيات والقياس والإشارات وحلول الشمس والقمر والرياح ومواسمها، وكذلك مواسم البحر والآلات السفينية وما يحتاج إليها وما ينفعها وما يضطر إليها في ركوبها، وينبغي أن تعرف المطالع والاستوائيات، وجلسة القياس في كل طريقة وأن تكمل جمع الآلة في السفينة، وتتفقد الحمولة في أحضان السفينة ورجالها، ولا يشحنها غير العادة ولا يطلع في مركب لا يطاع فيه، ولا مركب بغير اعتداد، ولا في موسم ضيق».

لم أكن أعرف أن الأخنان هي الاتجاهات والباشيات هي قياس العمق، والدير هي الشواطئ، وموسم الضيق هو ما قبل العاصفة. كان قد فرغ لتوّه من مهمة إرشاد صعبة أخرى هي الوصول بسفينة من مضيق هرمز إلى جدة... وقد اتخذ طريقًا بعيدًا عن الشاطئ، وهذا برغم مقاومة الرياح الشمالية له.

أعدّ لي بعض الشاي على موقد من ثلاثة أحجار، ثم صبّ لي في قدح خزي وناولني لقيمات من

الخبز.

ثم إنه تناول كتابه الذي فرغ الخطاط من زخرفة كعبه...

«الفوائد في أصول علم البحر والقواعد»

هذا هو الكتاب الذي سيخلد اسمه في علم البحار، والذي ألفه في ثمانية أعوام...

في هذا الكتاب وصف أصول الملاحة وحجر المغناطيس ومنازل القمر والنجوم التي تقابل أقسام الإبرة المغناطيسية الاثنى عشر والثلاثين. كما أنه وصف الثغور في المحيط الهندي والبحر الصيني وساحل الهند الغربية وجزيرة العرب وجزيرة القمر وجزيرة البحرين، كما يصف البحر الأحمر بالتفصيل.

إنه واحد من أربعين كتابًا عن البحر... كلها كتبت بالشعر لتسهيل حفظها...

يتناول كتابًا آخر ويرمقه في رضا...

«حاوية الاختصار في أصول علم البحار»

قد راح عمري في المطلعات

وكثرة التساؤل في الجهات

وكم رأيت في خطوط الشول

ونظمهم والنثر والفصول

وكم نظرت في الحساب العربي

وحسبة للهند مذ كنت حبي

أحمد بن ماجد

لست نادماً

سألته وأنا أشرب الشاي الهندي عَطِر الرائحة:

- «ألست نادماً على الجميل الذي قدمته لـ «دي جاما»؟ ... يقولون إنك أخبرت النمر بمكان الحملان».

قال وهو يرمق حروف كتابه بعينين لا تريان تقريباً:

- «نعم... لست نادماً... عندما قابلتُ «دي جاما» لم أفعل سوى ما يجب أن يقوم به البحار لبحار آخر...».

- «كنت سمعت عن البرتغاليين وفضائهم...».

- «إن من صنع السيف قد تسبب في إراقة دماء غزيرة لكننا لا نلومه بل نلوم من يقتل بالسيف...».

ثم تحسس رأسه بكفيه وبدا وكأنه مرهق

جداً... وقال:

- «نخاف أن يدركنا الموت ونوادر الحكم في القلوب».

لم أفهم ما يريد قوله فقال بعبارة أقرب لفهمها:

- «أخاف أن أموت ومازال عندي بعض العلم لم أنقله لمن يأتي بعدي... سوف يؤلف ابني كتاباً عن البحر... وسوف يبحر البحارة في الملايو حاملين كتاباً اسمه «قواعد ابن ماجد» ... لكن ما زال عندي الكثير».

ثم شرد ذهنه وهو يتذكر شبابه:

- «كابو... ما كان لي أن أعرف ما سيحدث... ما كنت أعرف بحور الدم الذي ستنفجر، لكنني قمت بواجبي نحو بحار مثلي طلب العلم، ولسوف يذكر التاريخ أنني لم أقدمه للهند إلا من أجل المنفعة العامة».

المرء يشعر بحيرة بين الفخر بأن «ابن ماجد» قاد البرتغاليين إلى الهند، وبين الدفاع عنه بكونه لم يفعل... ما زالت القضية ساخنة تعقد من أجلها المؤتمرات العلمية... في لشبونة عام ١٩٩٨ عقدت ندوة «ابن ماجد» والغرض منها تبين الحقيقة... وهناك ندوة حول «تاريخ العلوم عند العرب» عقدت في اللاذقية بسوريا... وهناك مؤتمر «عمان في التاريخ» ...

قال لي «ابن ماجد» باسمًا:

- «أنت رأيت كل شيء وشهدت على كل شيء... الآن أتمنى أن تكتب عني مقالاً منصفًا».

لم أكن أملك أدنى فكرة عن كيفية إرسال المقال له في زمنه، لكنني وعدته بأن يكون المقال عادلاً ودقيقاً.

نظر خارج النافذة إلى الخليج حيث ترسو بعض مراكب الصيادين في ضوء الغروب الخافت
الباعث على الشجن، وقال:

- «ما يبقى من المرء هو ذكره وكتاب أضافه وسفينة نجت من الإعصار بفضل تعليماته... فيما
عدا ذلك لا قيمة لشيء دنيوي...».



ثم تنهّد في عمق وأضاف:

- «فاسكو دي جاما» ظفر بأشياء كثيرة بدوره... تماثيله في كل مكان واسمه في كل الكتب... سوف نلتقي هناك من الجانب الآخر ووقتها نعرف من المنتصر حقًا...».

وهز رأسه في نفاذ صبر:

- «أرجو أن تذهب فلديّ الكثير مما يجب أن أدوّنه».

هناك على الباب وقفت طويلًا أرمق الشيخ الجالس أمام قرطاسه يدوّن ما يذكره من علوم البحار.

وَفوق رمال الساحل... هناك... تقف سفينة الصيادين وبجارتها وهم يتأهبون للإبحار... يقف «المعلّم» ورئيس البحارة ممسكًا بالدفة... يرفعون الهلب وتبدأ السفينة تتوغل في البحر، فيرفع عقيرته صائحًا:

- «الفاتحة لابن ماجد!».

نعم... الفاتحة ل «ابن ماجد» ... المعلّم... أسد البحار... الميراني... وما زال البحارة في الخليج يقرؤون الفاتحة ل «ابن ماجد» كلما بدأت رحلتهم. لقد حان وقت العودة.

كنت قد أخفيت آلة الزمن في كهف حصين، فاتجهت نحوها وضغطت على زر العودة إلى زمني... إلى القرن الحادي والعشرين.

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القناة

الفهرس..

مهمة صحفية
فاسكو دي جاما
معركة مخيفة
ضيف فوق العادة
الميرانتي «أمير البحار»
العاصفة
وأخيرًا... وصلنا
ضيف الراجا
الفراق
القائد المظفر
بداية المذابح
كاليكوتا
وسط الخرائب
نهاية «دي جاما»
الميرانتي من جديد
لست نادمًا
الفهرس..

الملاحظات

[<1]

(1) النخدة: هو قبطان يقود السفن عر البحار.